التفسير التوحيدي

التفسير التوحيدي

الجزء الثاني

من سورة يونس إلى سورة العنكبوت

حسن الترابي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-9953-87-906-2



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp. com. lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www. asp. com. lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

مقدمة في منهج التفسير التوحيدي[1]

الاجـــتهاد في تفسير القرآن لا فكاك له من منهج التوحيد. ذلك لأن الدين كله يتأســـس على الإيمان بوحدانية الله عقيدةً يبلُغها الإنسان من تعرّف الآيات في ظواهر الكـــون المتفرّقة المشهودة وفى مغازي حادثات الحياة المضطربة ببلاءاتها، تذكّره الآيات البيـــنات المنـــــزلة وتهديه ليجعل حياته عبادة خالصة لله رباً واحداً لا يشوبها بإشراك أربـــاب أو تعلقـــات دونــــه. وذلك أيضاً لأن القرآن وحياً منه تعالى يخاطب الإنسان بأســـلوب ونهج متسقين موحّدين لا يعتريهما اختلاف، لتقوم حياته موحدة وفاقاً لما حـــوله من أقدار الله الطبيعية المحيطة به على سبيل قاصد إلى الله الصمد لا تصرفه عنه ضـــلالة. ومن ثمّ ينبغى أن يتخذ المؤمن فى تفسيره القرآن بنهج البيان التوحيدي لذلك الهدي المستقيم.

التفسير التوحيدى ولغة القرآن:

القرآن كتاب عربـــي مبين يُقرأ صوته بلسان عربـــي ويبين معناه باللغة العربية. وقـــد تنـــزلت بعض حروف العربية فى فواتح سور: الم، كهيعص، حم، عسق، وغير تلـــك الحروف، شهادةً بأنه كلام مؤلف من عناصر اللغة العربية لفظاً ومعنى، وتوثيقاً لـــصدوره مـــن الله وحده لأنه تحدّى وأعجز أهل العربية أن يأتوا بمثله، وتأكيداً بأنه بينّات يعرفها العرب أمة الخطاب الأولى، وقد حفظ نص القرآن العربـــي لم يُضيّع من

(١) هي ذات المقدمة التي قُدِّم بها الجزء الأوّل من التفسير التوحيدي.

أصـــله شـــئ و لم تـــبدّله النقولات عبر الزمان، و لم يعوِّل على ترجمانه عبر اللغات إلا الجاهلون بالعربية.

والعـــربية يكـــاد يبين اليوم – بتطور مقارنة اللغات والعلوم اللسانية - أنها أوسع لغـــات البشر أمّ لكثير منها عمّت غالب الأرض دهراً، ولا عجب أن تستقر فى عالم الغـــيب المستقبل لغة لكل الإنسان فى الجنة. وحروف لفظها يشير كلٌ منها إلى معنى وتتـــصل تركيباً وتصريفاً لتبين معاني الكلمات. وهى لغة من جذر واحد لم ترتّق من أصول شتىّ تولّد فيها تبايناً. فلكي يُفسر كلم القرآن بلوغاً إلى معانية لا بدّ من تعرّف جـــذور الكلمـــات لتبيـــّن أَصول المعاني، وتفقه تصريفها تركيباً لتُقاس على دلالات التـــصريف بحركاتها وحروفها، وتجويد نطقها وتقدير مكانها نحواً وإعراباً ووقعها معنىً وبلاغةً فى سياق الجُمل لتنضبط دلالتها بياناً وتتسق بداعتها جمالاً.

والقـــرآن لغةُ اصطلاحه واحدة. فالكلمة فى كل مواقعها فيه بتصريفاتها المختلفة ترجع إلى معنى واحد أصله قد يكون مدىً واسعاً المعنى يتحرك فيه الوقع المعيّن حيثما انـــدرج فى الـــسياق. وكلمـــا تبينّت كلمة مصّوبة نحو الحقيقية بمدلولها لا مجازها أو تحـــركت بالسياق إلى كناية أو استعارة تيسر تفقّه معناها بياناً ومصطلحاً قرآنياً وجلا بهـــا تفسير القرآن حيثما وردت فى سطوره. وذلك تفسير القرآن بلغة القرآن، فالقرآن جملة قول منظوم.

وينبغـــي تجويد النطق بحرف القرآن والتوحيد لأصواته بنسقها ومعانيها، فإن له وقعـــاً ونظماً ونغماً خاصاً فى أسلوبه على الأصل العربـــي. وقد نشأ فى العربية الشعر الموزون بالنغم الموقع وبالقوافي. لكن نظم القرآن ما هو بشعر برغم ما يُسمع ويحسّ فى آيـــه مـــن وقع متناسق وفى غالب فواصلها من تواتر. فالآي لا تلتزم نغماً على ميزان الـــشعر ببحر منظوم وفاصلة لازمة. وما فيه من الإيقاع ونسق الحروف والفواصل لا يغلب على المعاني كما يعهد لدى الشعراء الذين تحملهم زينة النظم وحسُه ليهيموا فى كل وادٍ من المعاني. لكن لغة القرآن لا تقتصر على أداء المعنى باستعمال الكلم المنـــثور المخلّـــط اللفظ أو القول المقطّع المسجّع الذى عرفته الخطابة العربية القديمة. وإنما يحّرك القرآن كل طاقات اللغة لإيقاع المعنى مفهوماً منظوماً بتعبير بليغ جميل. وهكذا يوحّد

الـــصوت المؤثـــر المفهوم المنغوم خير ما فى الشعر وما فى النـــثر بحرف عربـــي مبين رزين وكلام فيه علم وحكمة وحلاوة وطلاوة وذلك يعين المفسر أن يأخذ من القرآن مـــا يُعلـــم العقول معاني الكلم ويوقع فى النفوس أثرها بأحكم مما يُلقى جاري كلام البـــشر وأبلغ دفعاً، فالقرآن بيان وميزان للحكمة الهادية بأحسن القول الميسّر للتلاوة. ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾[1].

وكانـــت أمّة الخطاب تتلقى القرآن فتتفهّمه ويقع فى نفوسها موقعاً بليغاً. كان المؤمـــنون يسمعونه منصتين يخشعون لمعناه وتقشعرّ له جلودهم و تفيض أعينهم من الدمـــع يتلونه قولاً ففقهاً فيرتبون على ذلك تلاوته فعلاً ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِـــتَابًا مُتَـــشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِـــنْ هَـــادٍ**﴾[2]. وكان الكافرون ينهون عنه وينأون صدوداً وخشية أن تنصدع له الـــنفوس وأحياناً يردونه إلى الشعر لنغمه ووقعه ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُـــتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا**﴾[3]. وكان القرآن أفصح من معروف الكلام ويسلك أحـــياناً ببعض الكلمات نحو معنى لها غير معهود فى مفهومات الجاهلية لكنه يبـــيّن مغـــزاها بالإيـــضاح أو بالسياق. وكانت فيه مقولات محكمات وأُخر متشابهات لا يتبـــيّن معـــناها حتى تؤول إلى المحكمات أو إلى واقع تال يتضح به حقّها ومغزاها. وكـــان المخاطـــبون يسألون النبى ﷺ ويتساءلون فيما بينهم لتفسير ما لم يعرفوا من معـــتاد لغتهم أو من التأويل. وإذ دخل بَعداً غير العرب أفواجاً فى الإسلام وأصبحوا السواد الأعظم للأمّة وانتشرت للغة العربية علوم ليتعلّمها قادمون من أصول عجم، انـــصبَّ المفـــسرون الأُول علـــى مشكلات اللغة فى بيان كلم القرآن بجذر المعاني والتصاريف والنحو أو كشف صور التعبير البلاغي وإشارات التأويل البعيد أو إظهار وجوه الإعجاز البياني فى القرآن.

---

(١) الآيات ١٧، ٢٢، ٤٠ سورة القمر.
(٢) الآية ٢٣ سورة الزُّمر.
(٣) الآية ٩٧ سورة مريم.

ولكلـــم اللغة فى كل زمان ومكان مدلولات وفق ظلال تُلقيها على المعاني البيئة الاجتماعـــية والطبيعية والمصطلح المعروف لخصوص الثقافة اللغوية. واللغات لا تجمد، فهـــى تحـــيا بنهضة الحياة والحضارة وتتطور اتساعاً ودقة أو تموت وفاقاً لموات الحياة فتضيق وتنسطح. وبعض الكلمات الواردة فى القرآن قد جرى ويجري تطور دلالاها فى سياق الزمان المتعاقب فتتبدل معانيها وإيحاءاها. وقد تتسع الكلمة التى كانت مخصوصة الاصـــطلاح وتنبهل القطعية المعنى أو تخبث الكلمة وقد كانت طيبة أو يعتريها سوى ذلـــك من التبدلات. وقد نشأت مختلف العلوم الإسلامية واتخذت لنفسها كلمات لغة مـــصطلحاً مـــا كـــان معهوداً فى لغة القرآن. فكلمات أصول فى القرآن مثل: الدين، الإيمـــان، الإسلام، الشريعة، الفقه، العبادة، الكفر، الظلم، القضاء والقدر...إلخ، ألقى علـــيها فقهـــاء الأحكام أو علماء الكلام أو أئمة الصوفية معاني أخص بكل أصحاب علـــم. وكان الكُتّاب والشعراء عموماً قد يلوون الكلمات مع تطور نهضة الإسلام أو تدهورها واختلاف صبغتها عما عهدته بيئة نـــزول القرآن.

وينبغـــي للتفسير الصادق للقرآن أن يوحّد لغة القرآن فى جملته وفيما بينها وبين أمّـــة الخطاب عهد التنـــزيل دلالة لا تفارقها، ليضبط التفسير معاني القرآن حقاً مهماً يمـــضى بعـــد فيخاطب عصره بلغة عربية يفهمها الخلف لكنها تترجم تلك المعاني بما يصدِّق وقعها الأصيل.

لقـــد نـــــزل القرآن مرتلاً مترتباً تنـــزّله لإسماع الحق وإيقاع الهدي المناسب لأطـــوار وقائع حياة المخاطبين وأسبابها الجارية المتواترة. ثم اجتمع القرآن قبيل الختام بجملـــة منظومة مدرّجة آيه فى سورها مرتبة سورة لا تتوالى بمواقيت نـــزولها بل بما رســـم وحياً جبريل الذى كان يذاكر حفظه فى مراجعة وافت المختتم وقاربت وفاة الرســـول ﷺ خـــاتم الرسالات، وقد يبدو ظاهراً أن فى نظم المصحف ترتيباً للسور عموماً حسب طولها وتتقدم أحياناً سورة أو تتأخر حسب اتصال معانيها بما يليها أو ترتيب ميقاها، لكن السور كلها انتظمت في الكتاب موصولة المعاني تباعاً. والقرآن كلـــه متّحد المعاني للمتدبّر تتّسق آياته ترتيلاً وتتوافق إجمالاً، وذلك شاهد على أنه صادر عن الله الواحد ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ**

اخْـــتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[1]، فأيّما بشر يتحدث أو يكتب بضعاً وعشرين سنة لا يسلم أن يقع منه فى آخر كلامه ما لا يوافق أوّله، ينسى أو يزداد علماً فيتبدّل كلمهُ ليحتوى نقائض بيّنة أحياناً.

كـــذلك ينبغي أن يُردّ القرآن بعضه إلى بعض. أن تراجع كلّ كلمة إلى مواردها لينضبط معناها أو مداها، وتوصل كل كلمة بما يجاورها لتبين فى السياق وتتألف جُمل الكلم فى الآي، وتُوصل الآي فى السورة ليبدو نظمها وتتوافق معانيها متعاقبة عبر الآي و يـــــبين نغمها ووقعُها بفواصل الآي ويخرج جمع معانيها من دون اختلاف، ثم تتتام السّور من بدأة القرآن إلى ختمته مفصولة بأسوار موصولة بالمعاني يضيء نَسبها ترتيب نــــــزولها مما يوضّح تدرّج أحكام التكاليف إلى التمام أو وقوع حجج القرآن حسب تطور ظروف التنــــزيل أو ترتيب كتابها في المصحف بما يوحّده خطاباً مُنيراً في مختلف شــعاب الحياة متتالياً لا ينقطع شعاعه الهادي بأدنى ظلمة عارضة خالداً للناس كافة فى سيرهم الحياة إلى يوم القيامة.

كـــان المفسّرون قديماً كثيراً ما يصلون كلمة القرآن فى الموضع بمواردها الأخرى لبيان معناها مرجعين القارئ لاحقاً إلى تفسير الكلمة السابقة. وأحسن بعضهم تفسير القـــرآن فجمعـــوا فى المعاجم كلم القرآن ومعانيها حقيقة ومجازها، أو ناسبوا الآيات ووصـــلوها معـــاني بترتيب بعضها من بعض. ووقع القرآن المنغوم المتّسق ينفع الحفاظ الذين قد يتلون الآيات دفعات صوت متوالية كما انطبعت فى الذكرى فإن لم يستعينوا بسير الفهم تباعاً عبر وَشج المعانى تتعثر عليهم أحياناً التلاوة وقوفاً حتى يُذكّروا. ولكن كـــثيراً مـــن المفـــسرين المتأخّـــرين أخذوا يعزلون كلمات القرآن عن شتّى مواردها ويقطعـــونها مجـــردة حـــتى عند السياق، ويغفلون عن جملة المعنى المتداعي فى الآي لا يربطون الجُمل إن لم يصلها شرط أو عطف، فترد مثلاً صفات الله فى خواتيم الآي فلا يـــصلونها بدواعـــي المعنى فى السورة ليدركوا وقعها الدقيق المناسب. وقد كان ذلك ملحـــوظاً فى كـــل الثقافة الفقهية للدين، إذ ضعُف إعمال الرأى وزهد الناس فى فهم المعـــاني العمـــيقة الواصلة المحيطة بالنصوص يؤثرون حفظها وتردادها وحسب. وكان

---

(١) الآية ٨٢ سورة النساء.

لغـــزو مـــذهب فكري إغريقي هيليني أثر على تلك الثقافة فكان منهجه التركيز على خـــصوص أعيان الأشياء وأوصافها المتعددة فى الوجود الظاهر عفواً عن عموم السنن والمغـــازي فى الطبيعة، فأصبحت الأحكام تورد فرعيّة مفصّلة لا تذكر مبادئها الجامعة وحكمها الكلّية، فالصلاة مثلاً في منقول الفقه التقليدي تذكر بتعداد أركانها المفروضة ونواقـــضها ومندوباتها ومكروهاتها من دون رؤية عميقة لشعاب الإيمان التي تعبّر عنها أقوالها وأفعالها أو ممتدّة لوقعها فى تزكية الدّين وأثرها على الحياة. كذلك أصبح التفسير للقـــرآن ينـــصبّ على الكلمة أو العبارة أو الآية ثم يذرها كأنها معزولة عن سياقها فى نظم المعاني، ولا تردّ الكلمات إلى مواردها وإذا بدت المعاني مختلفة تقارن متناسخة لا متّـــسقة درجاً مترامياً فى التكليف أو نسباً للأحوال والأسباب. والحقّ أن التناسخ هو عـــبر بعض آي الرّسالات المتعاقبة وظاهر الأحكام المشروعة فيها، والحكمة فيها حق مستمر دائم(١).

التفسير التوحيدى ووحدة الهدي للإنسان:

إن القـــرآن تـــتوالى آيه وتتوارد وتتضاعف معانيها وتتأيّد تُوحّد هدي الإنسان لحقائـــق عالم الغيب ليرسخ يقينه بها فى حياته فى عالم الدنيا المشهود وليسعى إلى عين الـــيقين فى الأزل والحياة الأخرى. فالقرآن يذكر كثيراً مركوز الفطرة الإنسانية خيار عقـــد إيمـــان بـــالله الواحد وميثاق عبادة له وراء الغيب. ويذكّر كذلك ظواهر العالم المـــشهود، الناظـــر فيها ببصيرة قد يُعزز ما تلهمه الفطرة إيماناً يتزكى بخواطر التفكّر والتدبّـــر النافذ إلى الخالق المعبود، والرائي صورها قد ينفتن بعجائبها وينقطع عن ربّه. ويـــرد فى القرآن تعلّق المشركين بالنجوم أو سائر المظاهر الكونية يوقّرونها لا مخلوقات لله بـــل معـــبودات قد يتـــزلّفون بها إلى الله أو يجسّدونها فيما هو أقرب إليهم أصناماً مقدســـة. ويذكر القرآن كذلك أن الله أنـــزل الهدى يُعلم الحكمة ليطمئن فى النفوس الإيمـــان بوحدانـــية الله لا تسترها فى الغيب المتفرقات المشهودة ولا تحجبها فتن الحياة المتكاثـــرة، ويُبيّن أن الهدى إلى الحق فى الحياة من الله وأن من دونه الضلال، والله يزيد

(١) راجع التفسير التوحيدي – الآية ١٠٦ سورة البقرة.

المهـــتدي هدى ويؤتيه تقوى على صراط مستقيم ويُضل من عميت بصيرته ويُيسر له العـــسرى إلى ســـوء الـــسبيل. وحيثما يذكر القرآن أقدار الله أو أسمائه الحسنى يصل معانيها بآيات الله فى الكون وبابتلاءات الإنسان وتكاليفه وكسوبه فى الحياة أو شعب الإيمان فى قلبه.

ويذكـــر القرآن كذلك ملكوت الله الأعلى ومخلوقات العالم المستجنّ موصولاً بأمـــر الإنسان، والملائكة التى تكرم الإنسان وتوحي إليه الهدى وتؤيد مسعاه الصالح وتزفّه إلى الجنة أو تسوقه إلى النار ظالماً، والشيطان وذريته الذى يحقر الإنسان ويسعى إلى إضـــلاله ليلزم موالاته في النار، والجنّ منهم القاسطون ومنهم الصالحون يسمعون القرآن مع المؤمنين. ويذكر القرآن نعيم الجنة لمن آمن وأصلح والرّحمة والرضوان والنار ومـــا فيها واللعنة والغضب من الله كلها مصائر وفاق كسب الإنسان إسلاماً وطاعة لـــشرع ربّـــه مصائر إلى صحبةٍ لسائر أشياء الكون الطائعة بقدره تعالى يسعد بها أو يـــشقى إذا شاققها فى دنياه. ويهدي القرآن الإنسان المؤمن حتى لا يُطلق تأملاته بلا علـــم ولا هـــدى ولا كـــتاب منير فيتعبد الملائكة أو الشياطين أو يجنح إلى الخرافات والـــسحر والأوهام حول الكون المخفّي، يُبلغه حقائق مسموعات الغيب حتى تعزز فى نفسه الإيمان بوحدانية الله وأقدار ملكوته ومخلوقاته غيباً ومشهوداً لئلا يُفلت من عقائد التوحـــيد فيُفـــسد حياته فتضطرب بل ليطمئن مؤمناً بالله له الخلق والأمر جميعاً يعبده ويـــستعين بـــه وحده ليرجع إليه فى سلام من صحبة مخلوقاته. فالقرآن كله دعوة إلى توحـــيد الله بما يُرى من آياته فى مشهودات الكون سماوات وأرضاً ونجوماً وماء ونباتاً وحـــيواناً ورياحـــاً يعرف بها الإنسان ربّه خالقاً ناظماً متصرّفاً قديراً، وبما يُبصر من حركة بعضها فى نظام بآجال وتقلب بعضها بين الموت الحياة فيدرك الإنسان أن له هو مسير حياة إلى أجل مسمى فبعثٌ يسوّي بعده الله عدالة أحكامه ويفصل بين الناس ما كانوا فيه يختلفون فى الدنيا. ويصل القرآن ويوحّد ذكر تلك الآيات المطبوعة فى الكون المشهود باياته المنـــزلة وحياً فى القرآن وبالإنسان وكسبه ومصيره.

لكن تفاسير القرآن القديمة تمرّ عرضاً بذكر آيات الكون المشهود لا تُبين ما فيها مـــن سنن وأقدار هادية واعظة ولا تشير إلى حكمة وصلها سياقاً بذكر آيات الوحى

وبحــياة الإنسان. وهى تذكر لماماً الوارد من مسموعات الغيب ولكنها لا تبيّن أقدار صـــلاتها بالإنسان ومواقفه منها. وقد كانت تلك التفاسير لا تُبين إلا قليلاً من غيبيّات تـــراث الجاهلية الضالّة عن حق الغيب، على غزارة ذكر القرآن لها وخطابه صرفاً عنها فى ســـبيل الهـــُـــدى، وكانـــت تذكُر ولا تفصّل بيان ضلال اليهود إشراكاً وكهانة وسحراً لتفسير هدي القرآن فى ذلك. ولئن كان كسب أولئك المفسرين الأوائل زهيداً فى العلـــوم الطبيعية فقد كانوا على علم بخبر ضلالات الجاهلية، ولعلّهم لم يفيضوا فى بـــيانه تفـــسيراً للقـــرآن لأن الجاهليين كافّة وحّدوا الله وأسلموا وتطهروا من ضلال العقائد. و لم يذكروا فى تراث الكتابيين تمام بيان ضلالهم لأنهم ما نقّبوا فى ذلك التراث وإنمـــا اســـتعانوا بالذين أسلموا منهم على فيض من الإسرائيليات لبيان معاني قصص القرآن عنهم.

ولقـــد نهـــضت علـــوم الطبيعة قديماً لدى المسلمين، ولكن علماءهم لم يصلوها بتفـــسير القـــرآن ليبينوا كيف يخشى الله من عباده العلماء المتفكّرون فى ألوان الكون وكـــيف تسخر قوى الطبيعة بين المؤمنين ليزدادوا إيماناً وحمداً وترقياً بحياتهم عبادة لله كمـــا يقـــول القرآن حيثما يذكر تلك المطبوعات القدرية. وتزوّد بعض المسلمين في العـــصر الحاضر بعلوم الطبيعة من مدد النهضة فى غربـــي العالم الهاجرة للدين بعلمها. وأقـــام بعض مفسري القرآن شهادة من ذلك العلم على حق القرآن الذى يعجز عنه البـــشر لأنـــه جاء فى أوصاف الكونيات بما لم يعرفه و لم يدرك تماماً معناه الواضح فى القـــرآن المخاطبون به قديماً. وأفرط بعض المفسرين فى بيان الحقائق العلمية حيثما ورد ذكـــر لها فى القرآن. والوحي و لم يتنـــزل ليعلّم الناس أقدار الطبيعة اللازم قضاؤها بل ليبـــيّن لهم ما هم فيه يختلفون من عقائد الحياة الغيبية التى لا يبلغهم الحق فيها إلا وحياً ومـــن معـــاملات الحياة الدنيوية التى يختلف الناس عليها برؤاهم القاصرة عن العواقب وأهـــوائهم المصطرعة تنافساً على المحدود بقوى العلاقات وأسبابها، إذا لم يرجعوا إلى كـــتاب حـــق وميـــزان عدل من الله يهدي مذاهبهم من الضلال وشهواتهم من فتن الـــضرار. أمـــا الطبيعيات فهى محكومة طائعة لقدر الله منضبطة لو أعمل البشر فيها سمعهم وبصرهم وجربّوا وقدروا وتفكّروا بلغوا حقائقها وحسموا الخلاف نظراً فيها.

وإنمـــا الإبـــتلاء من بعدُ كيف يتصرّف الإنسان ويسخّر تلك القوى الطبيعية عادلاً لا ظالمـــاً وشـــاكراً لا كافراً نعماه يزداد عبادة وتقوى لله الحكيم القادر لا ينفتن بأسرار الكون وقوانينه وينقطع عن الذي وضعها. وذلك هو هدي القرآن البيّن فى كلماته لمن يفسرها ويوضحها للمؤمنين.

ومـــن المفسرين القدامى من انشغل بثغور فى جدليات الإيمان بالغيب إذ غشيت المـــسلمين غـــزوات من مسائل نشأت من الفكر الهيليني وثارت فى العقيدة النصرانية والإســـلامية مجـــادلات حول ذات الله وصفاته بين التجريد المطلق له تعالى والتجسيد الفاعـــل ودلائـــل وجوده وعدالة سنن مشيئته وحول الحديث أم القديم وصفاً لكلامه وفعلـــه وحول الإنسان وتسييره وتخييره ومدى إيمانه. وغلبت في بيان بعض المفسرين للقرآن مقولاتهم فى قضايا الكلام والمنطق، وكانوا يقصدون مجادلة عين الباطل ودعوة الحق، لكن البيان انصرف عن سائر ذكر القرآن حول مشاعر الإيمان الصادق أو الكفر بالغيـــبات وعن التعبير عنها بمختلف أعمال الناس وكسوبهم من الصلاح والفساد وما يُحيط بهم من أقدار البلاء وقوى الغيب وما يحقّ من عاقبة الجزاء فى الآخرة.

ويـــوحّد القرآن هدى الإنسان فى واقع الدنيا ويدعوه لإصلاح سيرته فيها على أســـاس الإيمان بالغيب الحق، يذكرّه بأصول الإيمان الفطرية وبخواطر التفكّر فى مشاهد الكون المخلوق والتدبّر فى بلاءات الحياة وآيات الهدى الموحاة، وذلك ليمارس خياره الإيمـــاني الحر، ويقدم عمله مؤدياً تكاليف ميثاق العبادة متقياً فتن الإشراك بالله والغفلة عـــن مصائر المسئولية الآجلة واتباع هوى النفس، ويوحّد أمر حياته ويجمع شعابها لا تنـــتقض بـــين فـــذّ وفي جماعة وبين ظاهر وباطن وبين عاجل وآجل وبين زاعم نظراً وفاعل صدقاً فى الواقع.

ويوصـــي القرآن الفرد بأن يتزكّى ويجتهد ويكسب ويحمل عاقبة الحساب فرداً ولكـــن يوحده إلى الجماعة لا يعتزلها معتكفاً دون خيرها أو شاحّاً عن سهم معها فى عوان بل يصلها مسترشداً مستعيناً متدافعاً متضابطاً بها لقوام الحياة مبارّاً معاملاً مسالماً مشاوراً لا مضاراً مشاقاً مصارعاً للآخرين، وذلك ليتبارك إيمان المرء ويتضاعف صالح كـــسبه وتطيب عاقبته للآخرة، يتّحد بقُرباه وينفتح بمداه موصولاً بمن يليه من الأسرة

إلى الأهـــل فالقـــوم ثم الإنسانية كافّة ومن الجيرة إلى الوطن ثم الأرض قاطبة. ويذكّر القرآن الإنسان المؤمن بأن ينظم حياته يتصادق ظاهرها وباطنها لا ينافق مَنْ حوله ولا يـــرهب السلطان دون الله. بل كل ما فى ضمير وجدانه من بواعث وعقول وما حوله فى المجـــتمع مـــن حوافـــز وروادع وما فى السلطان فوقه من أوامر ونواه كافّة تتحد وتتناصـــر دوافع وضوابط لحياة راشدة. ولا يشذّ السلطان بطغواه بل يتّحد مع الرعية تناصحاً واختياراً وشورى وإجماعاً ليتكامل بهم جميعاً الحكم ويُبلغ الإحسان. ولا يقطع المـــؤمن رابطة وجوده بل يصل أول عمره فى الدنيا بآخره، إن قدّم غفلة أو خطيئة أو قصوراً أدركها بالتذكّر وإحياء الإيمان والتقوى والمتاب وبالحسنات تترقى بعبادته سعياً إلى درج حياة حسنى عاقبة فى أزل الآخرة، والقرآن كله مثاني ذكر موصول للمؤمنين العاملين الصالحات والكافرين الظالمين المفسدين بين المصائر الحميدة والحسيرة.

و لم ينــــزل القرآن ألواحاً كألواح موسى جملة واحدة وإن تساءل الذين كفروا لـــولا أُنـــزل ذلك، وجاء الجواب لـــمَ نـــزل مرتلاً ترتيلاً ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآَنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾[1]، ما كان نـــزلة وحي واحدة كل محصول التعاليم والمواعظ لتؤخذ بقوّة ثم لتطبّق من بعد توالياً في سيرة الحياة، وإنما اتحد متنـــزله المتـــرتّل وواقـــع الحـــياة الجاري بضعة عشر عاماً يهدى سيرة الخُطى ويقوِّم رشدها ويحاســـب خطأها ويُبشّر ويُنذر ويشهد على حَسَنها وسيّئها متجاوباً معالجاً متعاقب القضايا والابتلاءات فاصلاً بالحق فى مختلف المقولات والمواقف. وتتوارد آيات ذكر الله في القـــرآن ليـــتخلل التذكّـــر كل شعاب الحياة طوال مداها، ولتتعزّز مشاعر الإيمان وتـــتكامل شعائره التعبّدية وتتكثّف تعبيراته فى الحياة الواقعة كلّها، وليتزكّى المؤمنون عبر ما يُبتلون به من علاقات الحياة يتفصّل ويتم بالهدى المتنـــزل رشدها أخلاقاً تطيب ولا تسوء وزواجاً يقوّم ويصلح المعروف ومعاملات مال تطهّر الظلم وتثبّت البرّ والخير والعدل سياسة ونظماً للسلطان بأحكام ورُسم وتقوى. وهكذا يتنـــزل القرآن لا متن نـــص مرسوم وبيان مجرّد لمقولات العقيدة المفروضة وأوصاف الحياة المشروعة ليُحفظ

(١) الآيتان ٣٢، ٣٣ سورة الفرقان.

ويُـــروى، بـــل جاء القرآن مرتّلاً نـــزوله موصولاً بأسباب الواقع. وقليلاً ما تقتصر السور على العقائد الغيبية تخاطب بها النفوس من دون بيان ما تخاطبه من ضلال أو ما يصدقها من مقول ومفعول حتى بعض السور المكيّة القَصيرة حين كان غالب الشأن فى الهـــدي إرساء الأصول وكان الجدل حولها، ولكن منذ مكة كان يتنـــزّل فى الآيات والسور هدي حق لباطن الوجدان ورشد لأعمال الحياة الظاهرة وتكاملت السور هدياً وافـــراً للظاهر لمّا تيسر وقع التكليف فى المدينة حيث تمكّن الإسلام حرّاً كاملاً. فعموم نهـــج القـــرآن توحيدٌ للهدى تبين فيه الأحكام ويُصاحب بيانها ذكر النيات الصادقة وأكناف الحكم الفرض بمندوباته ومكروهاته وعواقبه للطائع والعاصى. وقصص لا ترد حكاوى لسوابق سير وإنما تتصل بها العبر والمواعظ الهادية للمخاطبين. و توحّد السّور هـــوادي الحـــياة لا تـــبُوب فواصل محتوياتها بصنوف التعاليم والتكاليف بل قد تجمع الـــسورة الـــواحدة إيمانيات وأذكاراً وشعائر تعبد خالص وإرشادات تزاوج وتعامل ومـــوالاة ومجاهدة في الحياة، وتصلها جميعاً كيف يصدر الإيمان طاعات صادقة وكيف تزكّي الشعائر التقوى والاستقامة والوحدة واحتمال الصبر والجهاد وكيف تهيئ تربية الأسرة وأخلاقها للتكافل فى الحياة إنفاقاً والعدل فيها والوفاء تعاهداً وكيف يتصل كل ذلـــك بتآخي المسلمين وموالاتهم وشوراهم في الحكم ومهاجرتهم للكفر ومسالمتهم أو مجاهدتهم للكافرين وكيف تُستمد كل شعاب الحياة القويمة من توحيد الله وتذكر فيها مراقبته ومجازاته.

كانـــت تفاسير القرآن الأولى تجمع هدايات القرآن كما تتوالى آياته وقد لا تصل بعـــضها ببعض لتبيّن كيف تتساوق فى الحياة كسياقها فى الذكر. ولكن بعض مناهج التفـــسير أخذ يبعُد بأكثر من ذلك عن مسلك البيان التوحيدى للقرآن. ومنها ما فرط في توحـــيد عمـــوم مدلـــول القرآن وخصوصه يذهب ماسحاً سطح المعاني الكلية لا ينـــــزل بيانها إلى وجوه الحياة وحقائقها التي يجلبها موقع التنـــزيل والخطاب أو يجنح إلى بـــيان فروع المعاني يفصّل لأحكام القرآن مقتضيات متشعّبة يشرعها اجتهاد نظر متـــنطّع يكاد يغيّب أصولها العامّة ويحشد لحقائقه دقائق يوغل في عفو نقلها من مأثور الثقافة ويكاد يطمس معالم الحق والموعظة فيها، ومن تلك المناهج في التفسير ما احتلّ

فــيه ميزان الوحدة الأضبط بين مفهوم كلم القرآن وواقعه، وقد يضلّ التفسير بأسباب النـــزول وبأحاديــث السنّة المبيّنة لكنه لا يبسط السياق ليوقع المعاني في سيرة الحياة الـسنّية وظروفها العامّة أو لا يطلق عموم المدلول وخلوده وراء ذلك الخصوص عند متنـــزله وقــد يفصل القرآن المنــزل من سنّة الواقع ويمضي إلى ما انتهى بكثير من متأخــرة الفقهاء للاستغناء بالحديث في تقرير بعض المعاني والأحكام وعزل السنّة عن أصولها القرآنية. ومن تلك المناهج للتفسير أيضاً ما نــزع إلى الظاهري في هذه المعاني فارطاً من وحدة خطابها للإنسان بكل مدى وجوده ما يبطن وما يظهر، ولئن استدرك ذلك مفسّرون للقرآن من المتصوّفة ورأوا قصور فقهه الظاهري عن توحيد وقع معانيه فصوّبوا همّهم إلى هديه لباطن الوجدان وخصوص النصّ إيماناً وإخلاصاً وصدقاً وتقوى وتــوكلاً وصبراً ورجاءاً وخوفاً مشاعر تعبّد لله، فلقد استغرقت بعضهم أعماق التديّن الــوجداني وبالغــوا في تقديــر الظاهر وصرفه حتى أهملوا فى تفسير القرآن ما يصدّق مضمر الإيمان من تعابير الأحوال والأعمال ومواقعها فى سياق أحداث الحياة وعلاقاتها العامة.

والتفاسير بقدر ما تقصُر المعاني بوقعها على أسباب نــزول معينة للآي أو مضت تفرّع شعاب المعاني فرطاً أو تفرغ عكوفاً على أصول الهدى فى النفوس، أخذت تفارق وحــدة القرآن ذكراً وهدياً للحياة كافّة، إذ غفلت عن خطابه غطاءً كاملاً لواقعات الحــياة وهدياً شاملاً لمواضع الصلاح أو الضلال الخاص أو العام فيها. لأن فقه الدّين كذلك كان قد انحصر غالبه في شعاب الحياة الخاصة من علة أصابت المسلمين فى أصل عقيدة التوحيد وكادت تُغشى البصر عن القرآن هدياً محيطاً بكلّ الحياة للحياة الواقعة وســنة الرسول ﷺ المهدية بالقرآن سيرة جامعة لشئون الحياة طابعة للإسلام بحادثات انــتظمت الحــياة كافّــة. وفى الفقه أو التفسير الصحيح تبين أبعاد وسع الدين الحق وأعــراض اعــتلال تديُّن المسلمين. فأصول العقيدة يذكرها القرآن هداية لواقع سنة المــسلمين، حــيث يزيد الإيمان وينقص ويتردّد وينقص ويتردد لأنها حال انتقال من الجاهلــية بإبتلاءات مصابرة ومجاهدة، وغاشيات من النفاق الفاشي فى المدينة وحولها لآخــر عهــد القــرآن، وتتوارد تعاليم الشريعة لترشيد أخلاق المسلمين ومعاملاتهم

وعلاقــاهم الــتى تضطرب بها الأحوال عموماً فى سبيل نهضة إصلاح حية، فأسباب نـــــزول الآي وأحكامهـــا الواقعة تتصل كلّها معالم سيرة عامة يتساوق هديها. وما أصـــاب المسلمين الخلف من فتنة سياسية ضلت بهم عن الدين الرشيد الصادق ارتدت آثـــاره على الفقه والتفسير، إذ هُجر التدين فى الحياة العامة حيث تغلبت القوة والفتنة وانحـــسر ضوء آيات القرآن فى نظام السلطان والشورى وفى شأن العهود والسلام مع الآخرين وفى أمر المال العام، وأصبح حافظ القرآن وقارئ تفسيره قد لا يتطهّر به واقع حياته العامّة وقد يضيّع بعض الكتاب ويضل على سنّة سيئة لأهل الكتاب السابق التي ذكـــرها القـــرآن كثيراً ليعتبر بها ويحذر المؤمنين ألا يطول بهم العهد وتقسو قلوبهم وتقع عليهم الفتن فيؤمهم الربانيون والأحبار إلى عزل أطراف من هدى الوحي في واقع الحياة.

التفسير التوحيدى وحاضر الوحدة مع القرآن :

إن جمهور المسلمين فى عزلة من القرآن ذكراً متدبراً مصدَّقاً بالحياة. غالبهم إن قـــارب القرآن يحفظه محجوباً فى غلافه ليبارك له المكان من الشيطان وليمسه أحياناً تـــبرّكاً وينظر إليه قرباناً لله، وإن تلاه باللسان ولو جوّد النطق فقد يكون أعجمياً لا يدرك إلا الصوت أو عربياً لا يتدبّره تلاوة بالجنان. وأقل المسلمين من يتلوه مستمعاً مـــتفقهاً متبعاً صادقاً موقعاً معانيه فى حادثات حياته جميعاً، إذا استمع أنصت لتبلغه رسائل يتدبرها العقل وينفعل بها القلب لا تأتي مفهومات باردة بل تحيا إماماً للحياة وميـــزاناً. وقـــد أصبح لازماً بين المسلمين ألاّ يُحفظ القرآن وينشر وحسب بل أن يفـــسّر ويُبيّن معناه ليقع أثره فى حياة كل مسلم عالماً كان أو أميّاً من العوام، فهكذا كـــان خطابه الأول للناس جميعاً، وما أشبه خالفة المسلمين بعاقبة اليهود مع كتابهم **﴿مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحمَارِ يَحْملُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآيَات اللَّه وَاللَّهُ لاَ يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالمين﴾**[1].

وانمـــا انعزل القرآن لأن الدين انعزلت أصوله عن بعض الحياة، وأصبح الإسلام هـــوية وانتساباً أفلت منه غالب الحياة وانتشر الرياء والنفاق فى التدين وغاب كثير من

(١) الآية ٥ سورة الجمعة.

ذكـــر الغيب بل يذكر الله لغواً فى غالب تخاطب المسلمين ولا تذكر الآخرة وصلاً مع وقائـــع الحـــياة إلا قليلاً. فينبغى تفسير القرآن بما يعرضه هدياً لجملة الحياة لا يُسلك بعـــضها بخصوص تقديس وسائرها راتباً دنيوياً بل تسير كلّها عبادة يغمرها ويطهرها ويهديها ذكر من معاني آي القرآن. واللغة العربية التى هى مفتاح القرآن اغتربت حتى عند عرب المسلمين، إذ نقص الوعى والفكر الدينى الذى تحمله رسالة فنقصت وأصبح الخطـــاب الجاري بذخيرة منها محدودة وموسوعة بائسة، وأصبح كثير من لفظ القرآن غـــير مفهوم إذ تطور وتباعد منه بعض المصطلح الدينى بين المسلمين وغشيهم الغزو الثقافى ومـــا أدخل بدفع الترجمة مما يحرّف معاني كلمات القرآن عن مواضعها ومواقعها في الحياة ويـــبدّل مراميها ومصطلحاها. وإذ تعسّر كذلك فهم القرآن للسامع والقارئ العام فلا بد مـــن إحياء اللغة العربية عموماً وتأصيلها واستنبات جذورها الغنية الكثيفة، وذلك بالطبع وقف على اتساع حياة المسلمين عزة وحضارة تتداعى مع بيان متجدد لكلمات القرآن.

ينبغـــى علـــى المسلمين أخذ القرآن بقوة وبيانه واضحاً ليغالب الثقافة اللادينية المعاصـــرة الـــتى أثقلت على الدين بدهرياها ومشهوداها القاصرة وعقلانياها الباردة وغمـــرت ذكر أخرويات الغيب ومسموعاته وإيمانياته. ولا بد من القرب من القرآن وتفقهـــه وإحـــيائه وقعاً فى النفوس لتستجيب لإيحاءات الفطرة المؤمنة وخواطر العقل المتفكّر فى آيات الله فى الكون والحياة والتنـــزيل، حتى تتفجر الرؤى والمشاعر لتفسير الكـــتاب استمداداً من كل المناهج التفسيرية السابقة اللغوية والأثرية والفقهية والعقلية والباطنـــية وإتماماً عليها. ولابد من توحيد القرآن كلماً وآيات وسوراً لينشرح بعضه بـــبعض ويتعـــزّز وقعـــه الموصول لتبلغ القارئ وتسري فيه معاني وحدانية الله المطلقة وحـــضوره المحـــيط بالوجود ووحدة كلماته وآية ورسالته التامّة بكل هديها المتجدد لتوحيد حياته بشراً مع الكون حوله فرداً فى جماعة على طريق واحد مستقيم عبر كل صروف الزمان والمكان وابتلاءات الدنيا المشهودة مندفعاً برجاءات الغيب والمرجع إلى الله، معبّراً عن مشاعر الإيمان فى كل حركة وسكون من سيرة الحياة.

لابـــد مـــن حشد كل طاقة العلم بالمحسوس ليتوحّد مع علم القرآن المنـــزل، لا لاكتـــشاف حقائـــق الطبـــيعة بتفسير القرآن فذلك ميسور بالنظر والتجربة متروك

للإنسان، ولكن لبيان آيات الله فى الطبيعة المذكورة فى القرآن دعوة إلى النفاذ منها إلى الله إســـلاماً له وخشوعاً كما تخشع الأشياء لأقداره وتسخيراً لها للرقي فى الأرض نحو الحياة فى الملأ الأعلى لا انفتاناً لاهياً بالطبيعة أو استغلالاً لقواها ظلماً إلى سوء مصير. وإذا كانـــت الحـــياة الإنسانية تتطوّر وتتضاعف هموماً فلا بد أن يُفسر القرآن ليوحّد هـــداها. ولـــئن تكثّفت بحوث التاريخ ونشطت دراسات المستقبل فهي زاد متجدّد لتفـــسير القـــرآن هاديـــاً بالعبر والعظات من قصص الأمس لا تنسى وبالنظر الصابر المـــتوكل نحو الغد مستقبلاً وأزلاً وعده يُرجى، ليتّحد سلف الإنسان وحاضره وخلفه وصحبه موصولاً إلى الآخرة كما يهدي القرآن. وكل حياة الإنسان لا بد أن ينـــزل إلـــيها القرآن هادياً لباطن النفوس وما يعرف بعلوم اليوم من أحوالها وأمراضها النفسية شافياً لها بطمأنينة الإيمان والتقوى والمشاعر الصالحة، هادياً لظاهرها كله بتفسير صادق لا يفـــصل المـــواعظ عن الوقائع ولا الأخلاق عن الأحكام القانونية ولا الحياة الخاصة اعتكافاً دون السياسة والاقتصاد ولا يُسرها عن عسرها، موحداً لوجهتها وقواها كلها تتآصـــر وتتحد لا تتشاقق فتضطرب وترتبك وتتناسخ وتتساقط. وتفاسير التراث التى عالجـــت قضايا الحياة وابتلاءاتها لعهودها الماضية لا بد أن تُتم عبرتها بهدي القرآن فى كل قضايا الحياة المعاصرة، فالقران خطاب خالد.

يلـــزم العود بالتفسير الى القرآن خطاباً موحداً لكلّ الناس أيضاً، ولاسيما أن قد تـــوثقت أوصال العالم وتكثّفت سبل اتصاله. القرآن خطاب للمسلمين لعهد نـــزوله وللمـــسلمين الـــوارثين لـــه اليوم بتراكم عهودٍ وتجارب ما عرفها ذلك السلف أيام التنـــزيل الحادث، فخطاب اليوم لأمة الإسلام أنْ يتذكروا بعد غفلة ويحيوا بعد موات ويرشدوا بعد ضلال وينفعلوا بخيار توبة بعد انتساب كاذب وقد انفعل السلف الأول بخـــيار انتقال من جاهلية تامّة أو ملة أخرى. والقرآن خطاب لأهل الكتاب اليوم وهم أبعـــد ضـــلالاً عن دينهم وافتتاناً بمتاع الدنيا وإدباراً عن الغيب وأكثر علماً بمباحث ســـيرتهم القديمة التى يستشهد بها عليهم القرآن. و لابد أن يُفسر القرآن خطاباً لسائر البـــشر فى الأرض أممـــاً غـــير ذات كتاب ولا من ملة إبراهيم بل غلبت عليها المادية والدهـــرية. هكـــذا كان القرآن الخالد خطاباً للذين آمنوا وللناس كافة وسيبقى دعوة

لكـــلِّ أقوام الأرض فى شتىّ ثقافاتهم. واليوم قد يعجم لسان بعض المسلمين أو يعرب ولكـــن تـــرجمة التفاسير القديمة أو إعادة نشرها لا تكفيهم وصلاً بكل معاني القرآن وهـــواديه خطاباً حاضراً. كما أن سائر العالم اليوم مهموم بالإسلام بمختلف الرؤى له خطـــراً ذا شأن أو وعداً منبعثاً، ولا بد من تبليغ معاني القرآن بما يعقله العالم ويهديه مبطلاً أوهاماً كثيرة تُستصحب عن الإسلام والقرآن.

إن بـــشائر النهـــضة المعاصـــرة للوعى بالإسلام تُبدي تذكراً وتوبة بعد غواشى الـــتخلّف والنسيان التقليدية، واستقلالاً بعد حجب الغزو الثقافى والسياسى الغريب، وصـــحوة بـــسبب صـــدمات أخذت تلازم المسلمين ظلماً وحرباً عليهم فى كثير من ديـــارهم، ومـــوعظة من سوء فساد مجتمع وتعالي سلطان ومهاجرة للدين. وقد شغل ذلك بعض المفسرين المعاصرين فاجتهدوا يوافون الحاجة مرجعاً إلى أصول الدين الحق. ومـــنهم مـــن رأى فى المسلمين ارتداداً إلى الجاهلية ومن ركز علم التفسير على أزمة الحاكمـــية لله أم للطاغوت، وكثير أصبح يعالج بتفسيره قضايا الحياة المعاصرة لا يجمد عند نقل التراث محرراً دون خطاب القرآن الخالد، وآخرون ضلوا بثقافتهم وحاجاتهم الجديدة مبُشرين بالوضعية الدهرية العقلانية الغربية يخوضون بها فى تفسير القران يلوون معانيه ويتأولونه أو يطعنونه صراحاً فى حقه المطلق الخالد.

لا بـــدّ مـــن تفسير توحيدي بكل وجوه المعاني السابقة الذكر، يجمع خير كل المـــناهج مـــن حيثما اقتربت من بيان القرآن ويُباركها بكل مناهج المعرفة بعد تطوّر العلـــوم والحـــياة، تفسيراً لا يجمِّد تفسير القرآن بكلمة بيان حاسمة بل يتصوّب للوفاء بمقتضى تجدّد العلم والبلاء لتلاوة التجلّي القرآني عبر الزمان السائر. وذلك لبعث دورة أُخرى من بسط القرآن والإسلام ضوءاً منتشراً فى الأرض لكلّ بني الإنسان، المسلمين هـــوية وهم جهال بأصول الإسلام والمهتدين الذين يريدون استزاده من هدي القرآن، والكافـــرين الذين ارتدوا وصدّوا عن كل الدين أو الذين فيهم بقية من دين أو الذين يحملون على الإسلام يحقرون أهله أو يحذرون منهم.

وهـــذا اجـــتهاد تفسير توحيدى فى كلام قليل، مخاطبة لكلِّ قارئ مسلماً وغير مسلم لينظر فى القرآن بوسع وعيه ومعروف بيئته، لعلّه يكسب جديداً زهيداً من هدي

القــرآن وليسعى مزدلفاً إلى كمال فقه حقّه المطلق باسطاً ما تنبعث لديه من رؤى وما يــستثار مــن اجــتهاد فى كل حين أو كيف أو أمد من حياته، ثم ليفيض هو بتفسير للقــرآن ينشره للناس ترقّياً مداوماً إلى الأنسب والأوفق والأتمّ فى سيرة التفسير والحياة القرآنية.

سورة يونس

خلاصة هدي السورة:

ســـورة تـــرتيبها في الكتاب بعد الطوال المئين تتقدم جملة من سور سميت بأسماء الأنبـــياء، وترتيبها في نـــزول القرآن بعد الإسراء، وعهدها في مكة رسالة وحي تهدي إلى أصـــول الدين المتجدد – دعوةً لأمة الخطاب الجاهلية، وبياناً لمقولات الجدال بين دعاة الحق والإيمان وأهل ذلك الباطل المعهود وميزاً بينهم في مسالك الحياة والمصائر.

وسُـــمّيت الـــسّورة باسم الرّسول يونس عليه السلام لأنه – في سياق الخطاب المكّي لجاهلـــيين ضُـــلاّل إلا زمرة من المؤمنين فيهم وتذكيرهم بسير الأقوام الظالمين الأولين أمـــثالهم وقلـــة العادلين فيهم – كان قوم يونس هم البارزون استجابة بجماعتهم كلهاً أخيراً لدعوة الإيمان وفوزاً من ثمّ بمتاع الدنيا إلى حين.

في الـــسّورة تقديم للكتاب الموحى رسالة من الغيب إلى أول المخاطبين بالقران – العـــرب في مكـــة وحولها، جاء يتلوه عليهم بياناً بلسانهم رجل منهم، أسلوبه ومعانيه حجة أنه من غيب متعال عنهم، يعلّمهم أصول حقائق الوجود، أولها الله الرب الأعلى خالـــق الإنـــسان والكائـــنات الغائبة والمشهودة ومدير أمرها، ويذكرهم بآياته البينة المـــسخّرة لهم في طبيعة الأشياء حولهم، ويهديهم بآياته المنـــزلة لحياة عابدة في الدنيا راجعة إليه في الآخرة. ذلك الكتاب كان خطاباً لقوم لم يعهدوا من قبله رسالة غيب، فكانـــوا يجادلـــون في صدقة ويحسبونه سحراً أو افتراء من تلقاء الذي يتلوه ويتطلّبون تـــبديل عجـــيب ما يدعو إليه أو تعزيزه بآية مادية محسوسة معجزة. وتلك الرّسالة في

الكتاب – كما يأتي في السّورة – هي دعوة لإخلاص العبادة لله والإتباع لهديه، وتقيم علـــى المخاطـــبين ســـلطاناً من حجج الحق. وهى – في مكة – تُخاطب قوماً ارتهنوا بتقالـــيدهم لمعبودات أصنام مشهودة من ورائها أرواح مخيلة منهم بغير علم منهم حق بـــرهانه ولا وحـــي منها صدق وقعه، لكن حسبوها في شركة مع الله في تدبير مسير حياتهم ومصيرها تقربهم إليه إذ عرفوه خالقاً لكن ظنوه بعيداً في الغيب لا ينفذون إليه بآياتـــه الظاهرة. وهى للإنسان هداية عامة أن الحياة الدنيا دار ابتلاء له ومجال لكسبه يرصـــد الله بيان حسناً أو سيئاً ليجزيه حسنى أو سوءى عاجلاً في دنياه أو آجلاً يوم الـــبعث لحـــياةٍ أخرى. لكن أمّة الخطاب كانت تكفر بالبعث، لا يرون دليلاً له من الآجال المرسومة في معالم الطبيعة المشهودة، ولا يؤمنون بوعده في القرآن، إذ يرضون بعاجل الحياة الدنيا وحاضرها المشهود دون الغيب إلا أن يفزعوا إلى الله في أزمة عسر عارضة ينقلبون بعدها غافلين، لا يعرفون تقلّب السّراء والضرّاء بلاء من الله ولا يبالون بنُذْر الرسالة – سوء العاقبة لمن تمتّع مطمئناً لدنياه ماكراً فيها غير حامد شاكر لربه ولا راجٍ للقائـــه. ثم الـــسورة خطـــاب للرســـول ﷺ وصايا له داعياً ومجادلاً بالحق، وله وللمؤمنين أن يستقيموا ويصبروا مهما يبتلوا من الكافرين المشركين. وفيها كذلك عِبَر تقـــصّ بعض سيرة المرسلين السابقين وأقوامهم دعوةً ثم سيرة وعاقبة منجاة للمؤمنين ومتاعاً فهلاكاً للكافرين.

والـــسّورة تتجلّـــى معانـــيها على نهج سور القرآن المتشابه، إذ تتوارد في السور الطوال المذكورات من الأمور مترتبة غير متفاصلة، كل موضوع يُستوفى ذكره جملةً في ســـياق ومكان واحد ثم ينتقل الذكر إلى ما يليه وهكذا اضطراداً حتى تتم السورة، بل تتواصل معاني الموضوعات ووجوهها في سياقات شتى وتخرج في تناسب واتساق عام يوحِّد السورة إذ يتوارد عَبرها كل وجه أو معنى من موضوع منسوقاً بوجه من المعاني الأخـــرى. وذلـــك كله تعبير عن وحدة كلام الله الذي لا يضطرب ولا يختلف ولا يـــنقطع بل يجرى مثاني ويتكامل هدياً منظوماً للدين المتوحد إيماناً بحق الوجود المتحد وســـعياً بالحـــياة في مجرى الدين والأزل الواحد شرعاً من الله الواحد الصمد في كتابه الذي لا يُجعل أوزاعاً عضين يُؤمن ببعضها ويكفر ببعض. فلذلك ذكر القران السابق

في صدر السّورة يتوارد عبر سائر آياتها في سياقات تصله بآيات الله الكونية المطبوعة، أو آياتـــه الموحاة للأولين التي يصدقها القرآن، أو ببيان شتى مواقف المستمعين إليه، أو بذكـــر هديـــه المنبسط فضلاً من الله ورحمة للمؤمنين وشفاء لما في صدور الناس من الظـــنون والمفتريات، وعموماً يرد موصولاً بذكر الله الهادي لعباده. وكذلك ذكر الله المعـــبود يـــتوارد موصـــولاً بأبعاد الكون الذي خلقه ودبّره، أو بحياة الإنسان وسيرته ومـــتاعه ومـــوته، أو بالإشـــراك به شفعاء من دونه، أو بصفاته الحسنى هادياً ومبتلياً وشهيداً على الناس ثم حافظاً وقاهراً بأقداره ثم متوفياً لهم فحاشراً فجازياً، بل يرد ذكر الله في كـــل سياقات السورة ومعانيها. وكذلك ذكر المرجع إلى الله في الآخرة يتصل بـــشواهده المـــشهودة في الطبيعة من حركة المسخّرات للإنسان وآجالها، أو بمشاهد المساءلة وصنوف الجزاء يوم المرجع، أو بمواقف الكافرين به اطمئناناً بالدنيا لا يخشون العقاب عاجلاً أو آجلاً ومذاهب المؤمنين، أو بذكر علم الله بغيب أجل الساعة وعدله وقـــضائه عندها. وكذلك تخاطب آي السورة الرسول ﷺ في كثير من سياقاتها، ليتلو ويقـــول كلمات الحق مذكراً ومجادلاً أو ليستقيم هو مؤمناً عابداً مطمئناً متوكلاً، أو ليعتبر ومن معه من المؤمنين بذكر سالف الأنبياء وأقوامهم حيث تتوالى دعوة الإسلام ذكراً لآيات الله وصبراً على التكذيب والبلاء – سبيل الحق الذي تتحد به الرسالات.

كـــل ذلك الاتحاد الوثيق والاتساق المنتسج في معاني السورة ووجوه المذكورات فـــيها ســـيبين مـــداه إذ يأتي رسمه الدقيق في صميم التفسير الذي يجاري آي السورة ويـــشرح معانـــيها ويصلها ترتيلاً وعموماً. لكن في التالي من هذه المقدمة إنما تُسرد الموضوعات متمايزة مرئية برؤية تمهيد لبيان مجمل هدى السورة.

أول السورة إشهاد بحروف ثلاثة من اللِّسانِ العربيِّ على حقِّ آيات الكتاب بيِّناً لمـــن يُخاطـــب مـــن الناس مُحكماً بناؤه وهديه، يبلغه رجلٌ منهم نذارة لهم وبشارة للمؤمـــنين بـــه مـــن بينهم. لكن الذين كفروا حسبوا أنه سحر ظاهر من روع وقعه علـــيهم. ثمّ – إذا تُتلـــى عليهم آياته تعلّمهم أن ربّهم الحق هو الله الخالق المدبر للكون والـــذي إلـــيه المـــرجع يقـــضى بين عباده الجزاء وتنفى لهم ما يتخذون من دونه من شـــفعاء – أخذوا يتطلبون من تاليه الرّسول به أن يأتيهم بقرآن غير هذا أو يبدله بما لا

ينكرون. لكنه أُوصي أن يجاوبهم أن ليس له بحقّ أن يفعل ذلك، بل هو يتلو ما يوحى إليه حقاً ويتلوه خوفاً إن عصى تكليف تلك الأمانة في البلاغ أن يقع عليه عذاب يوم عظـــيم يؤمن به، وأن يذكّرهم لو يعقلون بما عهدوا فيه هو عمراً من قبل بينهم، ولو شاء الله ما جاءه هو ما تلاه عليهم وما دروا هم به علماً، وبأن من أظلم الجرم في حق الله وممـــا لا فلاح فيه أن يفترى غيره عليه أو يكذّب بآياته، وكيف يُفترى الكتاب أو يُكذب والحق بيّن فيه تصادقاً مع ما قبله من كتاب وتفصيلاً للهدى بلا ريب من رب العالمين؟ وإلا فليأتوا بسورة مثله ليجربوا مضارعة أسلوبه وهو بلسانهم ويستهدوا بمثله حكمـــة ولـــيدعوا من استطاعوا شهداء لو صدقوا. ولو آمن به بعضهم فبعضهم غير مـــؤمن يكذّبـــونه لأن علمـــه فيه غيب يجهلونه ونبأه لّما تأتيهم أيلولته إلى حق واقع، يسمعون تلاوته صُماً ولا يعقلون معناه وينظرون بغير بصيرة إلى مَن يتلوه. وليخاطبهْم الرسول ﷺ به أنه شفاء لما في صدورهم من ضلال معهود وأنه هدى ورحمة للمؤمنين به وأنه لو يشكرون فضل ورحمة خيراً مما يجمعون هم في ثقافتهم وكسبهم، فليفرحوا به وليهتدوا به لا يشرّعون دونه بأهوائهم لاسيما في أحكام رزق الله عليهم من الحرث والأنعام يفترون بها الكذب عليه. ومهما تتمايز مواقف المخاطبين ويبدوا للرّسول المبلِّغ تكذيبهُ، فليُذّكر بقوم كذّبوا قبلاً بآيات الله البيّنات عظة بعاقبة ذلك التكذيب عليهم، وليذكُر ما جاء به نوح ﵇ والمرسلون بعده وموسى وهارون ﵇ من بيّنات الحقّ وكذّب به سادة أقوامهم وسوادهم، وليعلم أن الله يحيط بسعيه بلاغاً للقرآن وعملاً به هـــو والمؤمنون، يوالون الله فيبشّرهم في الدنيا والآخرة. ومهما يراوده من شكّ لشدّة حملـــة المكـــذّبين فإنـــه يزكّيه الرّجوع إلى قراءة الكتب السابقة المتصادقة مع القرآن والاعتـــبار بالـــذين آمنوا قبلاً مثل قوم يونس. وليعتزل المرتابين الخاسرين لا يُكرههم حرصـــاً عليهم أو ضيقاً بهم، فأمر الإيمان خيار بمشيئة الله، وإنما عليه بلاغ الحق إليهم من ربهم، من اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها لكلٍّ عمله، ما هو عليهم بوكيل.

وذكـــر آيات القرآن يصاحبه ويعزّر تعاليمه في حقّ وحدانية الله المعبود ومنتهى الدنـــيا بمرجع إليه موعود ذكرٌ متواتر في السّورة لآيات ودلالات في خلق السماوات والأرض وفى الظواهـــر المحيطة منها بحياة الناس – في كور الليل والنهار وجعلها سكناً

ومعاشـــاَ، وفى دورة بعـــض المخلوقات كالنباتات يبدأ الله خلقها وتموت ثم يعيدها، وكالكـــواكب يقـــضي الله بطلـــوعها ثم غيابها بسنن وآجال أحياناً محسوبة، وفى أمر الإنسان يخلقه الله ويتم حواسه حيّاً ويسخر له ما حوله ثم إذا مات هان عليه بعثه، وفى ســـيرة الأقوام يقومون ويأتيهم الهدى فتدور عليهم عاقبة هلاك أو متاع وفاقاً للضلال أو الهـــدى. هكـــذا تـــتوحّد وتتناصر آيات الله الموحاة المتلوّة للتدبّر وآياته المخلوقة المشهودة للتفكر وآياته في تاريخ سيرة الإنسان المسموعة للاعتبار.

وعَـــبر كل السورة إثبات وتذكير بشأن الله الإله الأعظم الواحد المعروف خالقاً لكلّ شيء في الكون متمكناً من تدبيره والواحد رباً للإنسان ميسراً لكلّ شئون حياته مقدراً لموته المحتوم، مبتلياً له بالخير والشر هادياً إلى صراط مستقيم، وشاهداً عليه يذر له الخيار لا يُكرهه إلا مدّاً فيما يتمادى فيه من سوء أو أيداً في سيرته الحسنة، وقاضياً يـــوم القيامة أو دونها بمصير جزاء وفاق لما كسب. ووحدانيته ﷻ المحيطة بالمخلوقات وبحـــياة الإنـــسان كافـــة تتجلّى في شتّ أقداره، ولذلك في السورة – كما في سائر القـــرآن – كـــثير ما تُنسب أفعال الله إليه بصيغة الجمع لأنها تتجلى بقضاء جامع من أقداره تلك فلا تنسب له تعالى بصفة المفرد في اللغة. ويأتي ذكره سبحانه بكلمة 'الله' حيـــثما تناســـب الإشارة للإله المعهود عموماً العظيم جلالاً الربّ ذي الأسماء الحسنى كافّـــة. ويرد ذكر الله ببعض من صفاته الحسنى عيناً كيفما يناسب ذلك سياق ذكره المخـــصوص. وفى السّورة – مقارنة بغيرها – إنما ورد في ذكر الله ما يُقرر وحدانيته – الشأن الغالب في خطاب سورة كهذه مكية. وأمّة الخطاب بنـــزع من فطرة الإنسان كانـــت قـــوماً يعرفون الله فاطرا للسماوات والأرض ولهم فيها يهبهم الحياة ومدارك الإحـــساس، ويـــرونه يـــصرّف فيما حولهم من حيوان ونبات إخراج الحيّ من الميت والميّت من الحي، لكنهم وإن عرفوا الله كذلك يعبدون من دونه شفعاء ويتوهّمون لهم معـــه شركاً وأنّهم يبلّغونهم إليه زلفى. ذلك مذهبهم بينما لا يملك أولئك الشركاء لهم خلقـــاً ولا تـــدبيراً ولا ضراً ولا نفعاً، فهو خرص بغير سلطان بظنون غيبية، وكأنَما يُعلّمـــون الله مـــا لا يعلم من خلقه الذي يشاركه وأولئك الأولياء الذين يزعمون لا يهـــدونهم في الحياة لأنهم جماد يسيّرونه هم أنفسهم، وإنما يبتغونهم لما ينسبون لهم من

قـوّة موهُـومة ومـا يفتـرون باسمهم تشريعاً. وفى كل ذلك - وبئس حكمهم - يتجاوزون حق وحدانية الله وحد توحيد العبادة له، يفسقون في حياتهم ولا يتقونه ﷻ عمّـا يـشركون. وقالوا اتخذ الله ولداً من الملائكة رمياً في المغيّبات بالكذب على الله الغـنى عن الولد الذي له المُلك كله وحده وليس بعد حق الإيمان إلا باطل كفر عاقبته بعد متاع الدنيا عذاب شديد، ولولا سبقت كلمة الله أن يذر الخيار للإنسان إلى أجل مـسمى لقضى بينهم فوراً. إنهم لا يصدّقون بآيات الله الموحاة الهادية ولا ينظرون إلى آياتـه في السماوات والأرض، ولا يبالون بالمصير كأنهم ينتظرون مثل أيام الخالين من قـبل، وقـد حقّت عليهم كلمة الله أن تنطبع قلوبهم على الكفر لا يؤمنون. إنهم لا يـصدّقون وعد الله بالبعث والمحشر يوم لقائه للسؤال والجزاء، ولا ينظرون إلى آيات الحـياة والمـوت شاهدة على قدرة البعث ولا إلى آجال حركة الأفلاك حساب زمان يـسير إلى منتهـى في الأزل. ويـستعجلون مقدم ذلك اليوم لأنهم بنـزعة الإنسان يـستعجلون قادم الأمور لاسيما الخير، ولو يعجل الله الشر كذلك لقضى عليهم لكنه يـذرهم في طغيانهم يعمهون. وهم يسائلون الرسول ﷺ عن عين أجل اليوم الموعود، لكـنه لا يعلم الغيب. وإذا جاء الأجل لا يستأخرونه ساعةً مهرباً من وقوعه، وهم لا يستقدمونه زعمة تحدٍّ منهم إن كان صادقاً حضوره، ولربّما يقدُم إليهم من الله في الدنيا عاجلة جزاءً وعذاب. إنهم اطمأنوا بالدنيا وتناسوا لقاء الله، ولكنهم سائرون إلى موت فـبعث فمحشر وما هم بمعجزيه ﷻ، ويومئذ يُبلون بما أسلفوا من عمل فلا يفلحون، ولا فديـة لهم ولو بكل ما في الأرض لتعدلَ الجزاء المقضيِّ عليهم، يُجزون ويذوقون العذاب الأليم والشراب من حميم، ولا يجديهم استدراك اليقين بعد وقوع الأمر، وليس لهـم من الله عاصم، ويُزيّل ما بينهم وبين شركائهم الذين يصدّون عنهم ويتبرأون عن شـركهم بالله وعبادتهم التي كانوا هم عنها غافلين، وهم يلقون السوأى جزاء سيئاتهم ويـرهقهم قتر وذلة ظاهرة على وجوههم ويُسرون الندامة، وهم كذلك لم يُظلموا بل قد سبق إليهم النذير فظلموا أنفسهم ليخلدوا في جنهم.

إن الإنسان مبتلى بهذه الحياة الموقوتة في هذه الأرض، وهو عرضة للفتنة بالمشهود دون الغـيب حـتى أن يشرك بالله ما دونه من متعلقات مشهودة خلقها، وهو مفتون

بالحاضر فإذا أذاقته أقدار الله رحمة أو يسرة لاسيما بعد ضراء مسّته فرح وانقلب يمكر في آيــات الله غافلاً عن حمده، وإن أزمت عليه مخاطر محذورة فزع إلى الله ربّه وذكره في شــتّ أحــواله ودعاه النجاة واعداً بالشكر، فإذا أنجته أقدار الله مرّ ناسياً وبغى في متاع الدنيا. والدنيا عرض زائل، مثلها كماء أنــزله الله فاختلط به ونما النبات المأكول وأزيّــنت الأرض زخرفاً، وسخر الله لأهلها كل ذلك فاغترّوا بطاقتهم وظنوا أنهم هم قــادرون علــيها، ثم أتى أمر من الله باغت فجعلها حصيداً كأن لم تغن أمس، والمثال ســار في الأرض، ولكن الناس لو تفكّروا لاعتبروا. والناس كذلك خلائف في الأرض لــو سمعوا سيرة من سلفهم لاتعظوا من مسالك الحياة المفتونة. الدنيا هكذا ابتلاء، وما كــان أهلــها في أوّل أمرهم إلا أمّة واحدة، لكن نــزل عليهم البلاء ففتنوا بعاجلها وحاضــرها مــن زينتها ومتاعها المحدود فاختلفوا تنافساً وتظالماً فيه، و لم يعاجلهم الله بقضائه الحاكم بل أرسل إليهم الرّسل مُذكّرين بالعدل ومنذرين بعواقب الظلم والناس لا يُكرهون وإنما يُخيّرون، فمنهم حتى بعد التذكير والنذير مَن يكسب سوءاً مشركين بالله ما دونه أو كافرين غامرين في نفوسهم الإيمان وغافلين عنه فظالمين عدلاً عن الحقّ أو فاســقين خــارجين عن حده، أو مُجرمين باغين مسرفين في الحياة طغياناً. ومنهم الذين آمنوا بالغيب وبالله وباليوم الآخر والرسالة، يتقون الله يسلكون هداه على صراط مستقيم ويعملون الصالحات ويُحسنون. والله شهيد على أعمال الناس وكيل بجزائهم، فكلٌ يهتدي لنفسه أو يضل عليها، ذلك حتى يوم الجزاء إذ يمايزهم الله فهم يتفرقون. ولــئن تقدّم بيان مصير الكافرين، فإن المؤمنين هم أولياء الله، لهم قدم صدق عند ربّهم ولهــم البشرى ولا خوف عليهم ولا ذلة ولا هم يحزنون وهم جزاءً بالقسط أصحاب الجــنة هــم فيها خالدون، لهم وفاق عملهم الحسنى وزيادة، يسبحون ربهم هناك مع الملائكة وينعمون بالأنهار من تحتهم، وتحية الله لهم سلام فيحمدونه ربّ العالمين.

والــسورة تذكر شأن الرسول ﷺ، وهو رجل من أمّة خطابه ليس بغريب يُنكَر، وبــشر مثلهم لا يعلم الغيب ليدرأ عن نفسه الضرّ أو يجلب النّفع إلا أن يشاء الله ولا يعلم أجل الساعة حتى يجلّيها هو تعالى، وما هو بساحر بل يبلغهم بلغات بيّنات رسالة الحــق تــلاوة للكتاب لا يغيّره ولا يفترى فيه ويقوم به فيهم مبشراً ومنذراً وشاهداً

عليهم بما يحق الحق، فلا يُظلمون لو عوقبوا على الباطل عاجلاً أو آجلاً وإنما يظلمون أنفسهم بعد البلاغ والنذير. وهو يحرص على هدايتهم، لكنه مسئول عما يعمل هو وما هو عليهم بوكيل، بل يدعو للحق ويذر كل نفس تهتدي أو تضل لذاتها. وهو لا يرتاب من مغالطات الذين يجادلونه، بل يعلن على الناس أنه يعبد الله وما هو لما يعبد المشركون بعابد، وهو مع المؤمنين صفاً وليس مع الظالمين، فالله معه في كل شأن يكتب مساعيه، وإنما عليه أن يكون مثالاً وقدوة للمهتدين - ألا يضل بوجهة دعائه إلى ما لا ينفع ولا يضر بل يتوكّل على الله ويتبع ثابتاً ما يوحى إليه ويصبر في سبيل الله.

وفى السورة أمر للرسول ﷺ أن يتلو على أمّة خطابه بعض أنباء الأولين، فإن الله قد بعث لكل أمة رسولاً لّما اختلفوا هادياً لهم وشاهداً عليهم، وسبق القول من الله أن يقدّم النذير ولا يأخذ الناس جهالاً. فممّا يتلى نبأ نوح عليه السلام الذي قام في قومه يذكر بآيات الله متوكلاً عليه، ولا يبالي أن يكبر ذلك عليهم بل يخليهم ليجمعوا إن شاءوا أمرهم وشركاءهم المعبودين فيكشفوا غمة أمرهم فيقضوا عليه بأقدارهم الغيبية المزعومة لا يُنظرونه، ويعلنهم أنه إن تولوا لا يسألهم أجراً إنما يبلغ رسالته ويأجره الله وأنه أُمر أن يعتزلهم ويكون من المسلمين. والنبأ أنهم كذبوه فنجّاه الله بأقداره ومن معه من المؤمنين وجعلهم خلائف في الأرض بعد أن أغرق المكذبين، وجعلها آية للناظرين في عاقبة المنذرين. ويمضى الذكر في السّورة لمن بُعث من رسل إلى قومهم فجاءوهم بالبيّنات فما كانوا ليؤمنوا لما غشيهم قبلاً من كفر بعد طول أمد تراث الهدى الصادق. ثم الذكر من بعد لرسالة موسى وهارون بآيات الله إلى فرعون وملئه فاستكبروا عنها ومضوا مجرمين. لقد رموه بالسّحر فنفاه ليحق الحق. ومن حب سلطانهم الموروث اتهموه بأنه جاء ليفتنهم عن تقاليد آبائهم ويسلبهم الكبرياء في الأرض، فأبوا لذلك الإيمان معه. وأرادوا أن يضارعوا آية موسى في عصاه التي تتحرك كالحية، فحشد فرعون سحرته الخبراء، ولكن موسى غلبهم بعصاه وبقولة من الحق في سحرهم الباطل. لكن فتنة الترهيب والتعالي المسرف لفرعون لم تُبق لموسى مؤمناً إلا ذرية من قومه على خوف. فأوصاهم موسى بالتوكل على الله مسلمين، فاستجابوا

وألحّــوا الــدعاء له سبحانه، فهيأ لهم وجهة مسكن وبشرى مهجر. ودعا موسى ربّه علــى آل فــرعون ليطمس على أموالهم في الدنيا التي ضلوا بها ويشد على قلوبهم ألا يؤمــنوا حــتى يروا العذاب. فاستجاب له الله على أن يستقيم المؤمنون وينحنفوا عن ســبيل الجاهلين، وجاوز الله بأقداره ببني إسرائيل البحر بآية انفلاق فيه، فأتبعهم فيه فــرعون بجــنوده بغياً، حتى إذا ارتدّ فيض البحر وأدركه الغرق راح يصيح بإيمانه بإله إســرائيل مُسلماً معهم، ولكن قدر الله جاوبه أن قد فات الأوان بعد النذير والإمهال ولن ينجوا منه إلا جسد غريب آية للناس باقية لولا يغفلوا عنها. ثم بوّأ الله بني إسرائيل لــصدقهم الأرض المــباركة فلسطين ورزقهم الطيبات، ولكن فُتنوا واختلفوا، ولذلك جاءهم علم الإسلام دين الحق المتجدد، والقضاء بينهم فيما اختلفوا فيه لله يوم القيامة.

ولقــد ســبق في السورة ذكر عام لقصص الأولين وهلاك الأقوام الذين كذّبوا بآيــات الله وظلموا أنفسهم فحقّت عليهم كلمة الله أن يذهبوا خاسرين، ذلك بينما يــبرز هنا في آخر الذكر نبأ قرية يونس التي آمنت فنفعها إيمانها وكشف الله عن أهلها عذاب الخزي العاجل ومتعهم إلى حين الموت المسنون. وتلك السير عظة لأمة الخطاب وعــبرة للرسول ومن معه، قد يريه الله في قومه المخاطبين المعرضين الأيلولة إلى عذاب عاجــل مثل ما وقع للأولين وقد يتوفاه الله وفاة عارضة دون ذلك. ومهما يكن فإن كلمــة الحق أن الله ينجى رسله والمؤمنين، حقاً عليه وفق سننه في تصريف المصائر في الدنــيا وإليه سبحانه المرجع في الآخرة. وتنختم السورة بأمر الثبات على هدى الوحي والصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ترتيل المعاني (الآيات ١ – ٢٠):

﴿الــر تلْــكَ آيَاتُ الْكتَاب الْحَكيم * أَكَانَ للنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صدْقٍ عندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحرٌ مُّبينٌ﴾ (٢، ١)

بينات هذا الكلام من هذه الحروف العربية ومثلها دلالات بيّنة على صدوره من الغــيب الأعلى كلاماً يُتلى نظمه في هذا الكتاب الحكيم الذي أُحكم بناء ألفاظه من

أصـــواتها كلمـــات فصيحة وتركيبه منها جملاً بليغة وآيات منسوقة وأحكمت معانيه هدايات ضابطة لسيرة حياة الإنسان[١]. وبعد هذه المحكمات حق أن يُسأل كيف وقع مـــا كـــان للـــناس المخاطبين بالقرآن من العجب والاستغراب من وحي الله بوسائله القدرية في إبلاغ كلامه من الغيب إلى عالم بني الإنسان خطاباً إليهم - أن كان الوحي يجيء به رجل بشراً لا ملكاً أنثى كما كانوا يحسبون الملائكة إناثاً منسوبات بنات إلى الله، وكان ذلك الرجل منهم ليس غريباً منكراً، وقد جاءه في الوحي تكليف رسالة أن ينذر من حوله من الناس مما هم في حاضر حياتهم الدنيا وعاجلها من ابتلاء محيط دون الغـــيب، وممـــا هـــم صائرون إليه من عاقبة حيث يحاسبون على ما قدموا في دنياهم ويكـــتب عليهم جزاء السوأى إن فتنوا وأساءوا، ويكلّف كذلك أن يبشر الذين آمنوا مـــنهم بالغيب بالله والأيلولة له في آخرة الجزاء - فاتخذوا إلى الحياة هدى هذا الكتاب الحكـــيم صراطاً مستقيماً - يبشرهم بحسن المصير، أن لهم قدم صدق عند ربهم مقدُمة زلفـــى إلـــيه من حيث صدّقوا إيمانهم بحياة مهدية بكتاب الله و لم يُدبروا عنه يكذبونه ويعجبون منه.

قـــال الكافـــرون - الغامـــرون في أنفسهم فطرة الإيمان الطامسون رؤية الغيب والآخـــرة: إن هـــذا الذي جاء به الرسول لسحر[٢] وذلك على ما ألفوا في مذاهب الظنون الغيبية رؤىً كانت لا تتجاوز المشهودات إلا ضاربة إلى السحر ومكائده حيلاً تُدار بها قوى الغيب ضراً أو نفعاً في حاضر الدنيا المشهودة. قالوا إنه سحر مبين لأنهم لم يعهـــدوا من قبله كتاباً مُنـــزلاً يعرفون به الصلة بالله وحياً بل آمنوا به تعالى خالقاً أعلـــى قائمـــةٌ أمامهم دونه بينونةٌ من الغيب فلا ينفذ بهم إليه إلا فعل خارق لمعهود

---

(١) راجـــع وانظـــر الآيتين في قائمة السورتين: لقمان، يس، وآيات في سور كثيرة فيها وصف الكتاب وآياته حكمةً أو تنـــزيلاً من الله العزيز الحكيم.

(٢) راجع وانظر آيات في سور كثيرة فيها رمى القرآن أو الرسول بالسحر من المخاطبين بالدين والغيب، أو ذكر ذلك قولاً منظوراً منهم لو جئ له أو رؤيت منه آية غيبية أو إذا ذكر البعث، أو الـــسّحر خيالاً موهوماً قد يراودهم إذ تشاهد النار يوم القيامة. وفي عدة سور ذكر الظن بـــصالح وشـــعيب أنهما من المسحرين، أو بموسى وعيسى لما رؤيت عنهما الآيات المعجزة، وكـــذلك عموماً لسائر المرسلين. وإذ توارد ذلك في بضع وعشرين سورة فإنه تذكير بما قد يتعرّض له الدعاة من شتى ظنون التكذيب حيثما ذكروا أمر الغيب.

الطبيعة أو سر غيبـــي عماده الأوثان المنصوبة التي تمثل الملائكة والجن الشفعاء لهم عند الله. وقد بان لهم في الكتاب من العجب الرائع ما نسبوه للسحر لأنه أعجز لسانهم أن يــضارعوه بقـــول مثله ولأنه أتاهم بغرائب مقولات. وعرف أُولئك العرب قليلاً من ثقافـــة أهل الكتاب حولهم لكن من هؤلاء مَن أصبحوا أهل آثار موروثة نسوا هدى الكتاب وصدق العمل به وأخذوا في عرض الدنيا وممارسة السحر في الغيبيات.

﴿إِنَّ رَبَّكُـــمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَـــرْشِ يُدَبِّـــرُ الأَمْـــرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (٣)

تأتـــي هذه الآية بياناً تالياً لذكر دعوة رسالة الكتاب التي قد يترتب عنها الكفر فالنذارة أو الإيمان فالبشارة. فتؤكد الآية خطاباً للذين تصوّبت إليهم أن ربهم حقاً هو الإلـــه الأعظم الذي يوحي هذا الكتاب، والذي يتعالى عما يختلقون من باطل الأرباب المنـــصوبة عـــندهم أصناماً والآلهة التي يتخذونها مقدسات غيبية زيفاً وخرصاً، إذ هو الـــذي خلق السماوات والأرض، وذلك ما يتعرفون به من قدره، وتمّ ذلك الخلق في ســـتة أيام من أحقاب الغيب التي لا يعرفون مداها كما يعيشون أيام عالمهم المحدود ثم استوى على العرش تمكناً في مقام الملك المتصرف في مسيرة الكون المخلوق وفيه حياة الإنـــسان، وكـــان الاستواء وأيلولة تدبير الأمر إليه في يوم تال كما يرمزون إلى ذلك الـــتمام بدورة الأسبوع من أيامهم، ويتعالى وحده مدبراً، ما من شفيع لهم لديه إلا من بعـــد إذنـــه تعـــالى في سياق أقدار تصريفه لأمور عباده لا تشفع لهم شركاؤهم من الجمـــادات والمخيّلات الغيبية وراءها التي يظنون أنها ترعاهم زُلفى إلى الله إذ يحسبون أنهـــم لا يـــنفذون هم إليه ليصلوه عباداً ومسئولين بل بشفعاء يثنونهم لديه. والملائكة والـــصالحون مـــن عباد الله لا بقوة فيهم بل بإذنه تعالى قد يشفعون لسائر عباده لكن للـــذين آمنوا منهم[1]. وتمضي الآية أن ذلك الحق – خطاباً لهم – هو الله ربهم لا رب ســـواه فليعـــبدوه ليقـــيموا حياتهم عبادة لوجهه، ألا يغفلوا أو يلحدوا عند عبادته أو

---

(١) راجع وانظر آيات في سور كثيرة تنفي الشفاعة لدى الله إلا باذنه تعالى.

يتـــزلّفوا إليه بعبادة شركاء دونه، أفلا يذكّرون: التساؤل يعزّز أمر العبادة الخالصة، ما دام الله هـــو الخالق المدبر لكل الأمر بما يشمل حياتهم ومصيرهم ألا يرتّبون على ذلك التذكر بأنه الأحد الصمد المقصود بالعبادة[1].

﴿إِلَــيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَــنُواْ وَعَمِلُــواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ (٤)

يمـــضى البـــيان لتمام التذكير بحقائق الغيب. إن هبوط الإنسان إلى حياة الأرض وعالم الشهادة وانحجابه غيباً عن الله ليس تماماً وختاماً لكل مسيرة وجوده بل كما بدأ الأصـــل من خلق آدم ومن خطى حياته لديه تعالى في الغيب فإن مرجع المخاطبين من بني آدم إلى الله جميعاً. كان النـــزول إلى مشهود الوجود في هذه الأرض قدراً لابتلاء وتكلـــيف فالمرجع إلى غيب الله وعد جزاء على ذلك حق. وهو ﷻ كما تذكر الآية يـــبدأ الخلق ثم يعيده سنةً طبيعة يراها المخاطبون حولهم في الأرض دورة حياة للحيوان والنـــبات فموت وحطام أو حصاد ثم الحياة في سلالة مولودة أو مخضرة لذلك. وبعث أعـــين بني آدم بعد الموت أهون على الله من نشأتهم الأولى، يقومون بعد دار الدنيا في الدار الآخرة، والحياة الدنيا فيها نقص أو ظلم، لا تستوي فيها حظوظ الناس. ولذلك كتب الله لهم العود لحياة أخرى ليجزى الذين آمنوا وأقروا في نفوسهم حقائق الوجود شـــهادة وغيباً وعملوا الصالحات تصديقاً لإيمانهم وتعبداً بمقتضاه، يجزيهم الله بالقسط يكافـــئ عدلاً كسبهم أجراً وفضلاً عظيماً. والذين كفروا – غطّوا فطرة ميثاق الإيمان بالخالـــق بدءاً وعوداً لديه، فانقطع فيهم دفع العمل الصالح فظلموا – لهم في المرجع وفاق ذلـــك، كـــان متاعهم الظالم في حياتهم الأولى ابتغاء شرب وذوق وطعم طيب هوى شهوة لا يطيعون الله ولا يحمدونه، ولهم في الآخرة شراب من حميم وعذاب أليم.

---

(١) ذُكر في القرآن أمر عبادة الله وحده لربوبيته خالقاً للسماوات والأرض في ستة أيام ومستوياً علـــى العرش لتدبير الأمر والتفرد بشأن الإنسان في يوم وعهد تال. راجع الآيات ٥٤-٥٦ ســـورة الأعـــراف، وانظـــر الآية ٧ سورة هود، والآيات ٣٠-٣٥ سورة الأنبياء، والآيات ٥٩-٦٢ ســـورة الفـــرقان، والآيات ٤-٦ سورة السجدة، والآيات ٩-١٢ سورة فصلت، والآيات ٣٨-٤٠ سورة ق، والآية ٤ سورة الحديد.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥)

والله الذي سبق ذكر خلقه للسماوات والأرض وأن إليه بعد حياة الناس في الدنيا مـرجعهم هو الذي تبدوا لهم آياته تباشرهم تذكرةً للمخاطبين منهم. فهو الذي جعل الـشمس ضـياءً للأرض التي يقومون فيها ضوءاً في النهار يحمل طاقة ويهدي البصر، والقمر نوراً بالليل يعكس ما يهدي البصر، وقدّر الله القمر منازل بيّن الحركة مشهورة مـنازله ومـن أجل ذلك سُمّيت دورته شهراً، إذ يهل هلالاً فينمو فيتم بدراً ثم يمحّق محاقـاً ليطلع من جديد. وجعل الله الشمس والقمر دائرين، كلٌ يجرى في فلك ليعلم الـناس عـدد السنين والحساب - ليحسبوا اليوم من الشمس ليلاً ونهاراً والشهر من مـنازل القمر والسنة الشمسية دورةً بين مشارقها ومغاربها ميلاً شمالاً وجنوباً، والسنة القمرية اثني عشر شهراً أجلاً لا ينقص عن السنة الشمسية إلا أياماً - قَدراً حكمته أن تدور أمورهم الموقوتة بها في كل مواسم الشمس صيفاً وشتاءً وربيعاً عَبر بضع وثلاثين سـنة. وذلك كله ليوحى إليهم الله أن للآخرة أجلاً هو دور تحوّل للعالم المشهود بعد انقـضاء زمان الدنيا لأجله، وفيها انبعاث الإنسان بعد غيبه الموت بعد حياته الأولى. وتـتعاقب دورة الأيـام لـيلاً ونهاراً خلقةً وتتعاقب السّنون أحقاباً ويحصي حسابها المتـضايف ليوحـي أن مـسيرة الدهر تتطاول وتتوالى حتى غايته عند منتهى الزمان الدهري والعالم الحادث مآلاً في الأزل الغيبـي عند الله.

وما خلق الله ذلك كله إلا بالحق، وأجل مسمى، يفصل الآيات - يرتب حركة مخلـوقاته في الفلك فصولاً مؤجلة هكذا لقوم يعلمون - لمن يقوم من بني الإنسان لا بعلم الظواهر ليبقوا دنيويين دهريين بل بإحسان دلالات الحساب وإيحاءاته ليبلغوا علماً بأقدار الخالق الغيبية يتذكروها كل حين في الزمان أن الدنيا موقوتة ماضية وأن لله فيها آجالاً يسميها وتدبيراته لحياة الإنسان بدءاً وعوداً، وبذلك يتم لهم علم معرفة آيات الله وغيبه في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ فِـي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (٦)

الآية تُذكّر المخاطبين بما ترتب عن ذلك الخلق والمسير الدّوار للشمس والقمر وما يـبديان من اختلاف الليل والنهار يتعاقبان غشية ظلامٍ لباساً وسكناً لهم وتجلى ضوء بـصيرة ونـشاطاً ليبتغوا مقاصد الحياة – دورة حركةً بعد راحة، وبما في خلق الله في الـسماوات والأرض من مسخرات للإنسان – إن في ذلك المشهود لآيات – حقاً – لإدراك مـا في الغيب من أمر الله القّيوم والآخرة القادمةَ – آياتٍ لقوم يقومون يتقون الله الخالـق إيماناً بهديه ونذيره وإيثاراً لعبادته ورجائه ولا تلهيهم حركة الدهر الموقوتة بـل بتربصون الآجال، لا تبغتهم وهم في غفلة قاصرون ولا ينسون نعم الله المتضاعفة حولهم بل يشكرونه ولا يبدلونها كفراً ويتقون الانفتان بالدنيا والارتهان لمتاعها وزينتها غروراً ويتذكرون فيخشون يوم الحساب والجزاء[1].

﴿إِنَّ الَّذينَ لاَ يَرْجُونَ لقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاة الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذينَ هُمْ عَنْ آيَاتنَا غَافلُونَ * أُوْلَئكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (٧، ٨)

الآيـة تـؤكد من ثمّ أن الذين يغفلون عن الآية البينة في آجال الوجود لدور الأجل القـادم وقعـه وعن وعد الله الذي لا يخلفه والآتي تأويله، ولذلك لا يرجون لقاءه ﷻ في ظُلـل من غمام الآخرة ومشاهد الحشر والعرض فيها وجنتها ونارها وإذ تتنـزّل الملائكة فـيها شـهوداً في الحساب وجنوداً لنفاذ الجزاء، والذين من ثمّ رضوا بالحياة الدنيا لهواً عن خـشية الله ذلك اليوم وانفتنوا بمتاعها على نقص موازينها واضطراب عدلها وكذبوا بيوم الـدين يوم يتمّها الله الحكيم بميزان القسط في الآخرة العليا واطمأنوا بها ركوناً إلى الغفلة ولـوغاً في ورطـة الـشهوات فضلّ بهم فيها المسير دون انتظار أجل ولا مخافة حساب تدعـوهم للـتقوى التي سبق ذكرها – أولئك الذين برزوا وتميزوا بهذا المذهب والمنهاج المنكر بعد البيان والتذكير والنذير هم الذين استحقوا جزاء أن يكون مأواهم النار جزاءً بما كانوا يكسبون في حياهم الدنيا من سيئات الظن في النظر والعمل في واقع الحياة.

---

(١) ورد كـثيراً في القرآن ذكر آيات الله البينة في الشمس والقمر ونعمة علم حساب حركتهما ودورة الليل والنهار. انظر الآية ٢ سورة الرعد، والآية ٣٣ سورة إبراهيم، والآية ١٢ سورة النحل، والآية ١٢ سورة الإسراء، والآية ٣٣ سورة الأنبياء، والآية ٢٩ سورة لقمان، والآية ١٣ سـورة فاطـر، والآيات ٣٧-٤٠ سورة يس، والآية ٥ سورة الزمر، والآية ٣٧ سورة فصلت، والآية ٥ سورة الرحمن.

﴿إِنَّ الَّــذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٩)

وهــذه الآية مثنى تأكيد إذ تقابل الماضية: إن الذين آمنوا إقراراً بحقائق الغيب في الــوجدان الحــيّ وعملــوا الصالحات تصديقاً لتمام ذلك الإيمان بما يبلغ شتى وجوه الحــياة - أولئك يهديهم ربهم بإيمانهم، يستجيب لهم بأن يجعل ثمرة إيمانهم مباركة منه تعــالى في هدايــتهم إلى ما هو أكثر طمأنينة في قلوبهم وأصلح كسباً في حسناتهم وفى ســوقهم إلى مــا يكافئ ذلك من المأوى المرضيّ والمتاع الصالح في الآخرة، تجرى من تحــتهم الأنهار تسقيهم هناك كما سقوا حياتهم بالإيمان، في جنات النعيم حدائق الدعة والسعادة المتضاعفة درجاتها طبقات حسب ما قدموا في الدنيا.

﴿دَعْــوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠)

يغمــر نفــوس المؤمــنين روح ذلــك الملتقى الذي رجوه في حياتهم وعملوا له واطمأنــوا ســعداً بالجنات مأوىً ونعيماً، لذلك أول دعواهم فيها ذكرهم لربهم بأن 'ســبحانك اللهم' يسبحونه مع الملائكة تعالياً عما تعلق به في الدنيا عباده المشركون مــن معبودات دونه ومن مرجوّات في شهوات الدنيا دون لقائه وعما كان يريبهم عن الإيمــان بحــق هداه وصدق عدله، وقد حقت الآن كلمته التامة. وتحيتهم فيها سلام اســتجابة مــن رب رؤوف رحيم ثم تلقياً لهم من الملائكة جنود الطاعة الذين أشفقوا قــديماً من خليفة يجعله الله في الأرض قد يفسد فيها وجاءهم اليوم من خلائف عباده الــصالحون الطائعــون مثلهم، فهم يريدون إكرامهم كما سجدوا لأبيهم آدم وآخر دعــواهم - أولئك المؤمنون الصالحون - أن الحمد لله رب العالمين - الذي هداهم إلى الــصراط المستقيم إلى الحسنى وصدّق عليهم وعده وأنعمهم فضلاً بالجزاء، وقد عبدوه في الدنــيا شكراً لجميل نعمائه التي سيقت خلقاً لهم ورعاية واليوم يعود عليهم محموداً بما آتاهم من فضل عظيم وحسن عاقبة.

﴿وَلَــوْ يُعَجِّــلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١)

هـــذا الآجـــل للآخرة مسمّى عند الله يعلمه وحده ويؤخّره ليوم معدود. ولكن الحياة الدنيا ابتلاء لبني آدم كافة. منهم المؤمن يسعى إلى الآخرة مؤمناً راجياً خائفاً لقاء ربـــه ويكـــل قدره المحسوب مد العمر والأجل في الدنيا، قد يدركه الموت ووراءه فترة بـــرزخ حتى يبعث لذلك اليوم الآخر، أو يكون من الذين يشهدون النفخة التي تقع بها الـــواقعة الأزلـــية الغاشية صعقاً لكل المخلوقات ثم تقوم القيامة. ومنهم الكافر بتلك الساعة الحاقّة ينكرها ويستأخرها أو يغفل عنها لأنه مأخوذ بفتنة الدنيا الحاضرة. وفى خلـــق الإنـــسان نـــزعة عجل، فالناس يريدون الخير فيما يقبل عليهم ولكن يريدونه عـــاجلاً وإلا قنطوا. ولو كان الله يؤاخذهم بمثلها. ويعالجهم بالجزاء لعجّل لهم كذلك قـــضاء أجلـــهم ووقوع الشر الذي استحقوه بشرّ ما كسبوا، ولكنه تعالى يمهل عباده العصاة مهما تمادوا لعلهم يتوبون ويصلحون ويحسنون فتحسن عاقبتهم أو يأخذهم الله أو يذرهم أو يُخلِفون صالحين محسنين. والله يدعو المؤمنين ليصابروا مهما يبتلوا ويبطّئ علـــيهم ما يبشرهم به ليتضاعف كسبهم وأجرهم، فالله بأقداره في كتابة الآجال والمدّ الصبور للمسيئين والأيد الرؤوف للصالحين يذر الذين لا يرجون لقاءه يوم الجزاء لأنهم كفـــروا به غيباً أو استعجلوه فتأخر بحسابهم - يذرهم في طغيانهم، في فيض أهوائهم العاديَـــة على ضوابط التقوى - يعمهون ضاربين في الحياة عُمياً عن آيات الله وآجاله ومعالم هديه وطريقه المستقيم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (١٢)

وكـــذلك مـــن بـــلاء الدنيا أن الإنسان عرضة لأن يتزلزل مع تقلب ظروفها إن لم يعـــصمه الهـــدى الـــثابت بل صرّفه الهوى القُلّب يُخلى نفسه كل حين للضواغط حيثما نـــزعتها. فإذا مس الإنسان المفتون بالدنيا غير المتزكّى المطمئن بالإيمان مستقيماً في سيرته صـــابراً مهما تمتحنه البلاءات، إذا مسه ضرّ ما ولو مساً عارضاً من تصاريف البلاء فآذاه ولم يجـــد حـــوله في الأسباب المشهودة ما يحتسبه مصرفاً انبعثت فطرة الإيمان بالغيب التي كـــان يدسّها في نفسه فتذكر الله وفزع إليه بدعوة حيثما أصابته أزمة الضر لجنبه أو قاعداً إن ألقـــاه أو أعجزه الضر أو قائماً يبحث عن مبتغى حاجته يرجو أن تتداركه الرحمة. فلمّا

كشف الله عنه ورفع غاشية ضرّه والغمّة التي أختصّته بها أقدار البلاء انطلق بعدها في الحياة نشطاً فمرّ صحيحاً معافى مدبراً عن حبل الصلة بالله الذي مده فأسعفه عند حاجة كشف ضرّه وطوى تجربة التذكير بالله التي باشرته ونسى العظة ومضى كأن لم يدع الله مسترحماً أقداره لأيّما ضر مسه قبلاً، وبدا له ذلك المرور المتاح أطيب مسالك المتاع المبتغى في الدنيا. كذلك زُيّن بسنن البلاء للمسرفين من الأقوام السالفين، يتمتعون بالمسير حيثما انبسطت لهم عاقبة الحياة وفتنتهم فأسرفوا في المتاع واستغنوا عن ذكر الله وانصرفوا عن هدايته وتقواه يعربدون بالعَمَه المتمادي ويطغون في الضلال[1].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ من قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٣)

كذلك تجري سنن الله في ابتلاء الأقوام المفتونين بالمرجوّات العاجلة المتقلبين حسب ظروف الدنيا الحاضرة الله يعمهون في طغيانهم بلا بصيرة تذكّرٍ ولا استقامة حتى يأتيهم أجل القضاء، وكذلك يُزين للمسرفين أن ينهزوا فرص السلامة متى لاحت ناسين الله كاشف الضر فيما سبق حتى تأخذهم أقدار الله. ولقد أهلك الله بغضبه وانتقامه وقدر قوى كونه الفاعلة – أهلك وأباد القرون البارزة عبر شتّ معالم التاريخ المتقارنة فيما سلف من قبل أمة الخطاب الخاتم هذه، هلكوا لمّا ظلموا وتجاوزوا حد الاستقامة والعدل المفطور في نفوسهم، أسعفهم الله إذ اجتبى لهم من أنفسهم رسلاً جاءوهم ببيّنات من واضح التذكير والهدى والنذير. وما كانوا ليؤمنوا بها لأنهم عمهوا في الغفلة وأسرفوا في الغوية ومرّوا في كفرهم المتمادي لا يؤمنون بالنُّذر الهادية، ولذلك استحقوا وقوع العقاب بعد النذير. كذلك يجزى الله بسننه وأقداره: نذارة وهداية ومداً للضلال عنها فهلاكاً للقوم المجرمين قائمين بالحياة يجرمون أسباب الإيمان فيقطعون ما أمر الله به أن يوصل من التذكر والهدى والتوكل على الله.

---

(١) في ذكر تقلّب الإنسان داعياً ربه عند الضر ماراً في غفلة بعده ماكراً في آيات الله إذا ذاق رحمة الله بعد الضر، انظر الآيتين ٢٢ و٢٣ ذات السورة، وراجع الآيتين ٩٤ و٩٥ سورة الأعراف، وانظر الآيات ٩-١١ سورة هود، والآيتين ٥٣ و٥٤ سورة النحل، والآية ٦٧ سورة الإسراء، والآية ٣٣ سورة الروم، والآيتين ٤٩ و٥٠ سورة فصلت.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤)

ثم مـــن بعد تلك الجواري من حادثات الدهور الماضية – ظواهر فتن ورسالات مذكّرة منذرة وضلالات أقوام مستمرة ومهالك وعواقب عبرة – يخاطب الله في الآية أمّـــة الخطـــاب أن قد جعلهم بأقداره خلائف عقبوا في بعض الزمان تمكناً في الأرض القريبة لما يسمعون ويرون من أخبار وآثار لتلك القرى والأقوام الهالكة يخاطبهم الله أنه مـــن بعد بأقداره استخلفهم في الأرض لينظر بعد عظة الأولين ما يجري لهم، الرسول يـــشهد علـــيهم أن قد بلّغ هو الرسالة والملائكة يشهدون ويكتبون ماذا كسبوا بعد النذارة والهداية، والله – سبحانه – قبل ذلك المشهود الواقع يعلم في غيب الأزل كيفية حدوثـــه وأيلـــولة المصير المنظور لهم وإنما قضى أن تقع واقعته ذكرى وعظة، ويُبتلى المـــستخلفون المخاطـــبون إذا جاءهم الرسالة الخاتمة تذكرة وإيماناً بالله في سياق فتن الجاهلية الحاضرة وهدى شريعة في الحياة الدنيا إعداداً للآخرة – لينظر الله واقعاً كيف يعملـــون هـــل تجديهم الذكرى والعظة فتهديهم متقين أم يسيرون على سنة الظالمين الـــسابقين مفتونين فيقعون في مثلهم من مهالك المصير العاجل في الدنيا قبل الآجل في الآخرة[١].

﴿وَإِذَا تُتْلَـــى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْت بِقُرْآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَـــافُ إِنْ عَـــصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (١٥، ١٦)

أمّة الخطاب العربيّة التي كانت لا ترجو لقاء الله في غيبه لم تكن تعتبر بنبأ السلف حولها فتسمع إذا تليت عليهم رسالة القرآن المتجددة المنـــزلة من الوحي، بل كانوا إذا تليت آياته منظوماتِ قول فيها دلالات على عالم الغيب يقولون للرّسول التالي عليهم مـــا بلّغـــه منها: ائت بقرآن غير هذا أو بدّله، جئنا بمقروء آخر غير هذا أو بدله بمتلوٍ تـــتقوّله مـــن عندك، يريدون ذلك مما هو أنسب لما يعهدون من مذاهب ظنٍ ونظر في

(١) في سنة الله يقضي بعد إهلاك الظالمين المكذبين استخلاف المخاطبين من بعدهم ابتلاء واعتباراً، راجع الآية ١٢٩ سورة الأعراف، والآية ١١ سورة الأنبياء.

الوجـــود والحياة. ويلتفت الخطاب إلى الرسول أن يجاوبهم معقباً على ما يأمرون إنه ما يكون له بحقٍ أن يبدّل من تلقاء نفسه افتراء على الله، وإنه لا يتّبع في تلاوته قراءة قول وسيرة فعل إلا ما يوحى الله إليه لا ما يتلقاه من مصدر آخر، ويؤكد – إن عصى ربه في التكلـــيف بأمانة البلاغ – مخافتة من عذاب يوم عظيم – ذلك الذي وعدهُ من الله صـــادق ولو لم يرجوه هم، وأن يقول إنه لو شاء الله الذي يوحى إليه القرآن لانقطع الوحـــي أو نهـــاه هو عن بلاغه فما تلاه عليهم ولا أدراهم هو تعالى به بوجه آخر بل تركهم في جهالتهم الموروثة، وأن يعزّز ذلك ذاكراً أن قد كان هو فيهم عمراً من قبل أن يأتـــيهم برســـالة القرآن، أربعين سنة، لعلهم يذكّرون ما ألِفوا فيه من مدى أمانة القـــول و لم يعهـــدوا مـــن قبل أن يأتيه قُرّاء يلقّنونه أو أن تصدر منه مدّعيات غيبية، ويـــسائلهم: ألا تعقلـــون؟ ألا تبنوا على ما جاءكم من الله من بيّنات الكتاب الحكيم وعلـــى الأمانـــة المعهودة بيننا ما هو أرشد لتضبطوا عصبية أهواءكم وظنونكم وتأتوا للاستماع الواثق والاستجابة العاقلة للحق المبين.

﴿فَمَـــنْ أَظْلَـــمُ مِمَّـــنِ افْتَـــرَى عَلَـــى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧)

وإنما يترتب على ما حق في شأن القرآن التساؤل الحق أنه مَن أبلغ ظلماً في البشر ممن افترى وخرق على الله كذباً من تلقائه أو كذب بآياته لمّا تليت عليه صدقاً. كذلك إجرام يقطع من الحق فينتهي إلى الخسران، إنه لا يفلح المجرمون.

﴿وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨)

الـــذين يلقـــون تلك المقولات إذا تليت عليهم آيات القرآن تذكرهم من صدر هذه السورة بأن الله هو ربهم الخالق إليه مرجعهم فرادى لا شفيع إلا بإذنه وتأمرهم أن يعبدوه، أولئك إنما خوطبوا بحق فهم إضافة لقولهم السابق ذكره يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا يـــنفعهم – ما لا يصرّف فيهم الأحوال ولا يجلب عليهم ضراً ولا لهم نفعاً، معبودات مفتـــراة مـــن أصنام معبودات وأوثان جامدة ومن ملائكة وجنّ مخيلة. ويقولون إن هؤلاء

شـــفعاؤنا عند الله الخالق كأنه يتباعد في عليائه الغيبية وهؤلاء إما حاضرون مشهودون أو طائفون عليهم غيباً من قريب، وفيهم قداسة من الله شركة فإذا تعبّدوهم قرّبوهم إليه زلفى وإذا اســـتخاروهم يسّروا لهم طريق النفع وسدّوا طريق الضر، وهم شفعاؤهم لديه لمرضاته ممـــا لا يبلغونه هم. والخطاب للرسول أن يجاوبهم مسائلاً لهم وما أنـــزل الله عليهم بذلك مـــن نـــبأ: أتنبـــئون الله بما لا يعلم في السماوات والأرض، أيشهدون بالزعم الباطل وهو السميع البصير بالحق؟ أيخبرونه بهذا الشأن الخطير كأنهم يعلمون وهو لا يعلم أن له شريكاً أو شـــفيعاً مـــستقلاً في إطـــار كونه الذي هو خلقه ويحيط بأمره ويعلم مشهوده وغيبه؟ سبحانه سبوحاً منـــزها وتعالى تعالياً وتجرداً عمّا يشركون به وما بعبدون من دونه.

﴿وَمَـــا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩)

ومـــا كـــان الناس، لاسيما المخاطبون وهم من ذرية إبراهيم – وتراثه كان من ملّة التوحـــيد – مـــا كانوا إلا أمّة واحدة ذات مقصد واحد في الحياة هو وجه الله ولقاؤه في الآخرة – يؤمونه بالعبادة. لكن طوائف من بعد جنحوا عن الغيب الحق لما طال عليهم أمد الهـــدى المـــوروث وانفتنوا دونه بمشهودات في الدنيا تمثل مظنونات غيبية فاتخذوا لعبادتهم أوثانـــاً وجـــنّاً مـــن ورائها، واختلفوا بين حنيف عن نـــزع الجاهلية ومشرك. والخطاب للرّســـول أنـــه لولا كلمة سبقت من ربّه موضوعة قدراً وسنة في مسئولية الإنسان – أن يـــؤجل حكم القضاء فيما يحق عاقبته لكسب الإنسان حتى يأتيه النذير والهدى ثم من بعد يقضى فيه الله بعاجله أو يذره إلى يوم الدين – لولا تلك الكلمة لوضع الله موازين القسط بـــين الـــناس قضاء فوراً فيما اختلفوا فيه ولأخذ الذين ظلموا وما ترك على ظهر الأرض مـــنهم أحداً ولأظهر الحق ونصر الذين ثبتوا عليه، ولكن يرسل الله فرقان الحق المتجدّد في شأن الخلاف ليحقّ من بعدُ حكمه عاجلاً أو آجلاً يوم الدين[1].

---

(١) في ذكر الناس أمة قبل أن يبتلوا فيختلفوا وذلك رغم توالي رسالات الهدى، راجع الآية ٢١٣ سورة البقرة. وفي تأخير القضاء بين أهل الكتاب المختلفين بعد الأصول الواحدة التي أوتوها، الكلمة سبقت من قدر الله بأجل الحساب في الآخرة – انظر الآية ٤٥ سورة فصلت، والآيتين ١٣ و١٤سورة الشورى.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ (٢٠)

ويقول أولئك الخرّاصون في شرك الله في شأن الرسول الذي يتلو عليهم آيات القرآن فأعرضوا عن تصديقه - يقولون: لولا أنزل عليه آية من ربّه واقعة تجري بقدر نازل عليه من الغيب الذي يدعى الوصل به، تقع على غير المعهود من طبائع الأشياء حتى يبهت أهل خطابه فيخبتوا لمتلوّاته غير المعهودة في مذاهبهم المورثة الرّاسخة. ويخاطب الرسول أن يقول لهم إن الغيب علمه وتصريفه لله لا يملك هو منه شيئاً، ومن عجزه أن يجتبي لهم آية من خوارق الطبيعة يقول لهم مريباً على مرجاهم: 'فانتظروا إني معكم من المنتظرين'، كأنه يذكر لهم أن الله إن شاء لهم قد يوقع بهم أو لهم أو يحدث بين أيديهم ما هو آية تعجز البشر دلالةً بالغة وتعزيزاً شاهداً على تنزّل الوحي عليه من الغيب فينقلبون إلى الإيمان بالحق، ولكن لو أعرضوا عندئذ قد لا يمهلهم الله فقد أخذ عندئذ الذين من قبلهم. هكذا يتركهم لينتظروا الآية لعلهم أثناء ذلك يتعقلون تدبّر الآيات المنزلة من الوحي متلواتٍ ذكرٍ فيه الحق المبين[١].

عموم المعاني: (الآيات ١ - ٢٠):

سورة يونس تتصدرها حروف في بنية لغة القرآن العربي البيان شهادة بوقع أسلوبه البليغ ومعناه الحكيم لأمة الخطاب العربية على أنه متنزّل من الوحي آياتٍ من الله لا من دونه. ويعود في السورة ذكر القرآن متوالياً منسوباً إلى المسائل التي تتوارد في مثاني السورة. والسورة كسائر السّور المكية التي كانت تتنزل في صدر رسالة الإسلام والتي ورد في منفتح كثير منها حروف، ذلك لأن حقّ القرآن وحياً من

(١) في ذكر طلب آية معجزة لتعزيز صدق رسالة الغيب من محمد ﷺ، وإيكال الآيات كلها لله، وذكر بعض المخاطبين لا يؤمنون ولو جاءهم آية كذلك - انظر الآيتين ٩٦ و٩٧ ذات السورة وراجع الآية ١٨ سورة البقرة، والآيتين ٣٧ و١٠٩ سورة الأنعام، والآية ٢٠٣ سورة الأعراف، وانظر الآيتين ٧ و٢٧ سورة الرعد، والآية ١٣٣ سورة طه، والآية ٥ سورة الأنبياء. وفي ايئاس الرسول من تنزل آية راجع الآية ٣٥ سورة الأنعام، وانظر الآية ٥٩ سورة الإسراء.

الله كان في صدر القضايا التي يدور حولها محور الجدال، إذ جاء كتاباً متلواً ظاهراً على أمّة جاهلة ما تنزّل عليها من قبله كتاب وحي مقروء وكانت غافلة عن دراسة كتب الآخرين السابقة، وكان بيانه عجباً لأولئك غير معهود في مقولات كلامهم، وكان هديه غريباً ودعوته ثورة على أصول ثقافتهم وأعرافهم. ذلك بينما سور المدينة لم ترد فيها مقدّمة الحروف إلا في أولويها الزهراويين، انتقالاً حيث قام مجتمع الدين الجديد وكانت تدور المسائل حول وقائع سيرته وتفاصيل هديه أكثر ممّا في مصدر هديه وحياً من الله، ولا من تلقاء بني إسرائيل. ومتى تجدّدت بعد ذلك الخطاب الأوّل دعوة الإسلام يظهر القرآن أصلاً للتذكير المتجدد، وربما يثار جدل حول حق مصدره وحياً إذ يغلب أن تكون الغفلة عنه قد غشيت المسلمين فأصبح يُتلى أصواتاً مهجوراً تدبّرُ بيانه أو غمره التراث الكثيف الذي أُصّل عليه متراكماً فيضاً من منقولات السلف الحاكمة تقليداً، فتأخرت مسائل تحليل بيانه من أصول حروفه وغفلت الرؤية لأسلوبه العربي آية معجزة. وكذلك حيثما دخلت دعوة الإسلام لأول مرة في أمّة لم تعهده من قبل يكون القرآن أو مسألة حقه وحياً هادياً من الله في مقدمة قضايا الدعوة الداخلة، وينبغي أن ينشط الرجوع إلى أصول بيانه العربي شهادة أنه من الله لا من تراث الإنسان ثم دعوة لمعاينة في أصول الدين وحقائق العلم بيّنة لتعزيز ذلك.

وتتقدم ذكر الكتاب هنا حروف ثلاثة من اللسان العربي أولاً أول حروف الهجاء وحروف اللين الأعم وتالياه حرفان متقاربان في النطق من أشيع حروف الكلام، وهى تتناصر شهادة على أن القرآن عربي بيّن لأمة الخطاب. واللغة العربية من أحسن اللغات نطقاً وأفصحها بياناً، وذلك لبديع أصوات حروفها وأصول إشاراتها إلى أطراف المعاني، ولبلاغة بنية كلماتها منظومة من نسق تلك الحروف منطوقاً ومن وقعها معنى بصروف شتى ولو من جذر واحد ثم لنظم الكلمات فيها بخيارات صيغ ترتيب ومناحي إعراب لوجوه من التعبير وإدراج أدوات لوصلها وتكاملها جمل كلام مفيدة تجمع لتمام تأليف المقولات موصولة بأدوات أو متوالية سرداً لتقوية وقعها في الأفهام والمشاعر. ولئن كان ذلك كذلك في اللغة العربية عموماً فإن في أسلوب القرآن الذي اختارها الله له لغةً واختار أهلها أمة خطاب له أولى – فيه

مـــا هـــو أبلغ بياناً وأبدع نطقاً في تحرير المعاني متوالية وإحكام وقعها منسوقة منغومة وســـوق مقولات منها في سور كلٌّ منها منظومة موحدة. وكان أسلوبه مما لم يعهده العرب الفصحاء لا تضاهيه أقوالهم قرآناً، وهم أصلاً أمة أميّة لا تألف كتاباً بخطٍ مثله. وكان بيانه الأكمل الأوقع ليس من الشعر الموزون المقفّى نظمه ولا من النثر المعهود في خطـــبهم. وكـــان السامع منهم ولو كان لّما يؤمن به يجد عجباً أخّاذاً في بديع طلاوته وبـــيّن بلاغـــته وتمـــام حكمته، وكان التالي المؤمن بأنه وحي يتلقاه بإخبات لمنطوقه وخشوع لمعناه الحكيم.

ولما سمعت أمّة الخطاب العربية القرآن فراعهم وقع لسانه وبيانه وأعجزهم تقليده قال الكافرون منهم إنه لسحر مبين. والبشر منذ هبوط أبيهم آدم في الأرض وانحجابهم عـــن الغيب كانوا على عهد من الله أن يبلغهم وحى منه يعلمهم حقائق الغيب ليؤمنوا ويهـــديهم كيف يصلحون حياتهم في العالم المشهود ليصلوها بأرواح الغيب ومآلاته. لكنهم دون ذلك الوحي كانوا بفطرتهم الموصولة بالغيب يتخذون مشهوداتٍ رموزاً لما لا يـــرون من الغيب ووسائط إلى الله يفترون عليه الأقاويل باستيحاء منهاٍ ويتعلّقونها بطقـــوس تعبّد وقرابين وأدعية. ولكن ظهر فيهم من سخّر لهواه هذا المذهب المحفوف بالجهالـــة فنـــشأت إلى جانب الأعراف المفتراة ظواهر السِّحر خرصاً في الغيب وحيل مخايلـــة مخادعة لعامة الناس مكراً لاسترهابهم واسترضائهم لحصول السّاحر منهم على مايبتغـــي من غرض ولذلك لمّاً سمع العرب القرآن قالوا إنه سحر ممّن يرويه عن الوحي كمـــا كانـــت تقول أمم الخطاب لكل المرسلين الأولين في المنطقة كلّما أتوا يبلغونهم رسالةً من وحي قولها غريب على معهودهم شديد الوقع عليهم لاسيما حين يستجاب لطلبهم حسب ثقافتهم الماديّة بآيات معجزة تعزز صدق الرسالة من الغيب بغرابتها عن معتاد السنن.

والبـــشر حيـــثما كـــان فيهم كتاب وحى يشفي تطلعهم إلى الغيب بالنبأ الحق والهدايـــة الرشـــيدة إذا طـــال علـــيهم العهد وغامت ذكرى الحق أو اندثرت أصوله الصحيحة يرتدّ بعضهم دون الغيب بعاطفة تقديس للمشهودات أو يطرأ عليهم السحر خوضاً بكيد الأهواء في أمر الغيب. وقد فعلها اليهود في سيرتهم لاسيما عندما هُجّروا

وقُطعت أصول تراثهم الحق وغشيتهم ثقافة السحر البابلي. وكذلك يفعل بعض المسلمين اليوم يقدسون مشهودات رموزاً منسوبة للغيب، وينتشر السحر في أوساطهم حتى يصل بعضهم القرآن ذاته بالسحر يحتالون بحروفه وكلماته مجردة من المعاني ويلمسون القرآن كالوثن لا يفتحونه تدبّراً بل يتخذونه أداة افتراء بالغيب لمبتغيات أهوائهم في متاع الدنيا. وما زال في العالم بعض ذوي ثقافة وثنية لو سمعوا القرآن يذكّرهم بالغيب ربما نسبوه للسحر لاسيما إذا راعهم بيانه أو معناه. وكثير من أهل العالم الحديث تأخّر فيهم السحر وانحسر الغيب وتقدم بهم علم السنن الطبيعية لكن ينشغلون بظاهرها لا يرون فيها آيات لله وإنما يقتصرون على الإحاطة عليه بما يرون وتسخيره للمتاع، وإذا سمعوا بالقرآن ووقعه فالذي يكفر منهم بحقه وحياً لايرميه بالسحر ولكن – من كسبٍ لهم تغلب عليه الظنون في علم النفس – قد يزعمونه ثمرة من حالات نفسية اعترت الرسول فأخذ ينسب إلى الغيب ما يصدر من خاطر أحوال ولغو أقوال، وتلك فريةٌ الذين يلقون بها تحملهم العداوة للإسلام لأنهم لا يقرأون ويتدبرون حقاً ذلك القرآن.

وقد كانت الحروف العربية وما انبنى عليها من شهادتها بالقرآن وآيه وحياً من الله ذات وقع على المسلمين حتى بعد أمة الخطاب الأولى، إذ انتشر مدّ الإسلام وتضاعف بذلك عدّ عرب اللسان، وبأثر القرآن نشأت فيهم واتسعت علوم اللغة العربية بنائها ونحوها وصرفها ورسمها وأدبها فازداد المتبصّرون بلغة القران روعة جمال ودقّة بيان وبمعانية تفسيراً وتشريحاً لوقعه وبوقعه معجزاً لمتكلمة البشر. ولكن اليوم، نقصت أرض الإسلام من أطرافها وتدهورت ثقافة المسلمين وحضارتهم وذبلت اللغة العربية. وكثير من العرب المسلمين بهوية تراثهم يتلون القرآن يجوّد كثير منهم منطق حروفه ولكنهم لا يجدون وقعه الأوّل حتّ على غير المؤمنين من آبائهم العرب. ولذلك الآية الأولى من السّورة ومن مثلها تُذكّر بضرورة إحياء اللغة العربية عاملاً هاماً في تفقّه القرآن والخشوع لوقعه ومن ثم إحياء التديّن عموماً في نفوس الناس وازدهار ثقافتهم الإسلامية. وذلك يعود فيبعث نهضة جديدة في علوم اللغة العربية – اللغة التي هي أهل للاتساع لتحمل كل علوم الإنسان وثقافته اليوم كما وسعتها قديماً مؤصلة

على القرآن. وغالب العالم اليوم حتى مسلميه ليسوا عرباً فلا يقرأون القرآن إلا مترجماً بألسنتهم ترجمة قد تبلّغهم معاني هداية من القرآن لكنها لا تبلُغ ما يبلغ النص العربي لمن يفهم وقع حروفه وكلماته وأبنيته ويتلقّى أصواته مما لا يتيسر نقله كله إلى لغة أخرى. ولذلك يلزم دفع تعليم الحرف العربي – الألف واللام والراء وسائره– لنشر اللغة العربية ولنشر القرآن من ثم بذات نصه وبتمام فقهه ووقعه في نفوس العالمين.

جاء في صدر السورة ذكر الكتاب الحكيم رسالة تذكير يحملها رجل من أمة الخطاب الأولى ليقوم فيهم نذيراً وبشيراً بعواقب الحياة الدنيا وبالهدى الذي يتقى سوءاها ويتقصّد حسناها، ذلك أن المرء منهم بغير تذكير من الغيب يسير سادراً في هذه الحياة غافلاً عن مصيرها إلى غيب لا يعرف أصولها ولا يبصر غاياتها ولا يعرف لها هوادي من علم محيط بالوجود كله. والناس إزاء تلك الرسالة يتمايزون فرقتين. فالمؤمنون بالغيب تأتيهم البشرى منه أنه لهم قوم صدق عند ربهم والكافرون يتلقون النذارة.

وأول أصول الدين وحقائق الغيب في هدى السورة التذكير للناس بأن ربّهم هو الله. وللإنسان أصل من ذلك في فطرته ولكنه مبتلى بما قد يغمر إيمان الفطرة ممّا يحيط به من مشهودات مباشرة يتعلّقها بظنون ربوبية فيها فيتعبدها دون الله. فالسّورة في صدرها تذكرة بذلك الحق وبالإشارة إلى تلك المشهودات المطبوعات كلها آيات له بيّنة: أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام من أحقاب أزل الغيب لا ممّا يعهد أهل الدنيا من أيام ويعدّون ثم استوى في سابعٍ على أمر ذلك الكون وأمر الإنسان يدبره بأقدار مشيئته. وكثير من البشر تقصر بصيرتهم عمّا وراء تلك المخلوقات المشهودة فيصوّبون إلى مقاصد فيها بالتوقير والتقديس والعبادة، يرون الله بعيداً لا يبلُغونه إلا أن يشفعهم إليه هؤلاء وسطاء بمدّهم الروحي فيزدلفون بهم إليه. وتلك ظواهر سادت البشر كثيراً من أنحاء الأرض. فكان العرب في جاهليتهم يتخذون الأصنام رموزاً للملائكة بنات الله من الجن الذين هم شفعاؤهم فيما يخرصون من ظن غيب. وكذلك كثير من الشعوب الدنيّة في الجهالة يتخذون من بعض أشياء الطبيعة – البارزة عليهم نجوماً أو أشجاراً أو حيوانات، رموزاً لعالم الغيب يجعلون فوقها إله أو آلهة أعلى تتوه

عـــندها ظـــنوهم. وبعضهم من خلف الدين المتقادم يرجعون إلى ذكرى الأنبياء الذين جـــاءوا يبلغوهم الحق من وحى الغيب فيجعلوهم وسطاء يبلغوهم ذات الله. وقد وقع ذلـــك في تراث اليهود وفى مذهب النصارى كما هو معروف، بل بعضهم نـــزل في ذلـــك الـــدرك إلى اتخاذ الرّبانين والأحبار آلهة من دون الله يبرّكوهم بقدسية موهومة ويـــشرعون لهم الهوى افتراء على الغيب. وقد لحق بهم بعض المسلمين، أصابتهم تلك العلة التي تتعرض لها سيرة الديانات بعد فتور قِدم، إذ راودت ذلك الخلف دواعيها من فتـــنة المحيطات المشهودة مهما يذكرهم القرآن المحفوظ بحروفه البينات. فقد ظهر بين المؤمنين أهل باطن ينـــزع بهم شططٌ وراء الظاهر حتى في بيان القرآن يحرّفون حروفه وكلماته عن ظاهر معناها البيّن لتؤول بظنوهم إلى تخرّصات في الغيب. فالرسول مثلاً يـــصلونه بـــالله كأنـــه التجلّي لروحه تعالى ونوره خالداً في الحياة لا يموت بل هو في حـــضرة مع أتباعه الذاكرين معصوماً لا يخطئ وأمره مفعول يشفع للمسلمين عند الله تلقاءً، بل يتدنّى بعض المسلمين نحو تقديس الصالحين بينهم أولياء من أهل الله يضفون علـــيهم صفاتٍ إلهية وكرامات بقوة تدبير أقدار في عالم الغيب فيتعبدوهم دعاء وبركة ويتخذوهم شفعاءً عند الله.

وكل حين في تاريخ الديانات وفى تاريخ الإسلام تقوم نهضات تذكُّر تحمل على ذلك الفسوق من الغيب الحق إلى المشهود وتجتهد في الدعوة لتنفذ ببصائر المؤمنين إلى حـــق الغيب– إلى الله الواحد في إخلاص. ذلك وفى المجتمعات البشرية التي تعهد هدىً مـــن الوحـــي ما صعدت من عين مقدسات بارزة في الطبيعة إلى بسط القداسة على أشيائها جميعاً – مذهب شرك شمولي ينـــزل دون الغيب إلى المشهودات كلها لا يراها آيـــات لخلق الله وقدره وأمره تدلهم عليه ﷻ، بل يرى الله متجلياً فيها بذات وجوده متمـــثلةً فيها كل صفاته الحسنى، ذلك حتى في الإنسان. وهذا التدني بالربوبيّة إلى كل مـــشهود أصاب بعض المسلمين في مذهب وحدة الوجود، إذ كان الذاهبون إليه يرون الله في كـــل ظاهـــر الأشياء، وحروف العربية البيّنة التي يستشهد بها القرآن على حق آيـــات الله البيّـــنات أصبحت هي لدينهم رموزاً وكلمات القرآن إشارات قد يُقال في الحـــديث إلى أهـــل الظاهر ما تحمله من معانٍ معروفة، ولكن أهل الباطن فيما بينهم

يفيـــضون بهـــا في آفاق تؤول إليها المعاني مطلقة من حروف البيان وحدود التعبير في اللـــسان العربـــــي الـــذي يذكـــره القرآن، فالله عندهم في كل الزمان والمكان وفى السماوات والأرض لكنهم لا يعرفونه سبّوحاً متعالياً عمّا خلق، مخلوقاته لا تستقل عنه فتحد وجوده المطلق بل هي من مشيئته قامت وتبقى وتفنى بأمره.

وأصـــل ثانٍ في حقِّ الغيب مذكور في صدر هذه السّورة هو - من وحدانية الله الـــتي ســـبق ذكرها- توحيد مسير الوجود المخلوق، فلزمان الدهر أجل يؤول عنده راجعـــاً إلى أزل الغيب ولمدى حياة الإنسان الدنيا أجل فانطلاقه بها في العالم المشهود هـــو ابـــتلاء يمتد إلى الموت ويؤول به أمرها إلى حياة أخرى مرجعاً إلى الله لا غيباً بل قائمـــاً منظوراً بقدرة رؤية عند المؤمنين غيرِها في الدنيا والإنسان ثمة محاسب مسئول مجـــازى عمـــا كسب في الأولى. فالحياة الآخرة تجل لوحدة وجود للإنسان مع حياته الدنيا تكملها. ولترسيخ الإيمان بذلك النبأ من مآل الغيب تبين بعض آيات الله في خلق الكـــون تذكرة، نعماً من الله تتباين لكنها تتعاقب وتتكامل بآجال. فالله خلق الشمس والقمـــر نعمة تتعاقب على الإنسان وتجريان بآجال، والشمس ضوء طاقة والقمر نور مـــنها ويتبايين ظهورهما في اللّيل والنهار خلقة ونعمة متحدة تتعاقب سكوناً ونشاطاً للإنـــسان، ومن دورة الحركة والآجال في ذلك يتهيأ حساب الأيام والشهور والسنين التي هي نعمة مواقيت للناس ليفوا بالعهود بينهم الآجلة. وتلك تذكرة بأن أيام أعمار حـــياتهم ذلك تتناقص ودنياهم تمضي إلى فناء عند أجل الموت الذي لا حياة بعده إلا عند لقاء الله. وكثير من مخلوقات الله الحيّة المشهودة مسخرة نعماً ألواناً متباينة وأزواجاً مـــتكاملة وكـــلٌ يحيا لأجل، لكن وجودها موصول يتوالى كتوالي حياة عالم الشهادة وحياة الغيب الآجل.

والناس في حياتهم فريقان، فريق منهم دهريّ يعرف الزمان ولا يؤمن بالأزل ولا بـــرجاء موعد غيب فيه، أو دنيويين يرضون بالحياة الدنيا ويطمئنون لها كأنها لهم كل الوجـــود والحـــياة وهـــم غافلون عن آيات وحدة حركة الوجود المخلوق وآجاله، فكـــسبهم في الدنـــيا ليس وفاق جزائه يوم يأتي أجل الآخرة إلا أن يسوقهم إلى النار، وآخرون يؤمنون بالغيب والمرجع إلى الله يستعدّون بزاد العمل الصالح في سبيل لقائه في

الآخــــرة، أولـــئك يهديهم الله بإيمانهم إلى وحدة نعمائه في الدنيا والآخرة، وهى خير وأبقـــى في الآخــــرة حيث يرون ربّهم الواحد أول كلّ الوجود إليه منتهى كل الآجال يـــسبحونه مـــثل الملائكة في الغيب ويجاوبهم بتحية سلام منه ومن ملائكته فيحمدونه علـــى نعمه الموصولة إلى الخلود. إن من فتنة الإنسان ألا يصبر على مرّ الزمان في الدنيا فهو في عجل يسارع إلى الخير المرجو، وفى ذلك قد يطغى سعياً لابتدار الكسب والله لا يجاوب هؤلاء بان يجيب لهم الجزاء وإلا لقضى أجلهم بشر المصير بعد شر طغيانهم، وإنما بذرهم يعملون حتى يحين أجل حياتهم. والذين لا يفتنون صابرين على بلاء الزمن يـــسعون في الحياة ومهما يتأخّر عنهم الخير فهم متوكلون راجون، أولئك الله يجاوبهم فيكـــتب لهـــم حسن العاقبة في العاجلة أو في الآجلة. إن من فتنة الإنسان أنه في الدنيا الحاضرة المشهودة لا يذكر الله ولو آمن به إلا إذا ألجأه إليه، فعندئذ يوالى ذكره في كلّ أحواله يدعو، فإذا كشف الله عنه الضر نسي رحمته ومضى. فلولا وحّد الإنسان حياته ماضيها وحاضرها وآجلها وشرها وخيرها ليوالي ذكر الله في كل الأحوال داعياً صابراً أو حامداً شاكراً حتى يلقاه الأجل الذي يموت فيه لينبعث بعده يلقى ربّه. هكذا ينبغي ألا يكون مرّ الزمان فتنة تُنسي الإنسان ما مضى من رحمة الله حين ذكره فكشف عنه ضرّه، فليذكر ما كان يصيبه من وقع الضرّ لولا ذكر الله فاستجاب له فكشفه. وينبغي أن يكون ماضي سير السالفين عظةً للخالفين، كيف أهلكت أقدار الله أقواماً لّما ظلموا وجـــاءتهم الرّسل تذكّرهم بآيات الله ولقائه وما كانوا ليؤمنوا ويذكروا لما فتنوا بالدنيا فأصـــابهم الهلاك سنة الله لمصائر المجرمين العاجلة. وكذلك جعل الله أمّة الخطاب خلفاً وتـــوالى الخلـــف كله من أمم بعدها لينظر الله كيف يعملون: هل يذكرون السابقين فيعتـــبرون أم يفتـــنهم حاضرهم وينسون كل عبر الماضي من نعماء الله عليهم مؤمنين فـــيظلمون فيُدبرون عن ذلك الحق والخير السالف ويستعجلون مستقبل خير لكنهم لا يبـــصرون نـــذر الله وآجاله – أنه قد يمدّ لعباده مدّاً وحيناً ولو في ظلمهم وظنهم حتى يسرفوا فيأتيهم أجلُ مصيرٍ بائس.

إن تـــلاوة القـــرآن للإنسان المخاطب تذكير موصول يصوّب رؤيته في الوجود والحـــياة إلى وجـــه الله العظيم، تحريراً من أيّما تعلقات في العالم المشهود يتوهم فيها

الإنسان بنـــزعة تديّن ضالة ربوبيّة أو قداسة، ويقوّم وجهته استواءً من الانكباب على الدنـــيا، فما هي إلا فترة ابتلاء مهما تكن شهواتها فاتنة ومتاعها آسر ينبغي ألا يبتغى فيها إلا زاداً للآخرة ولقاء الله. وذلك تحول عظيم في الحياة الدنيوية للإنسان. فلذلك عـــندما تليت آيات القرآن على أمة الخطاب الأولى القاصدة على دنياها الكافرة بلقاء الله طلـــبت تجنيبها ما يزلزل رؤاها ويبدّل أعرافها ويقلّب معهوداتها ويحرمها من مبتغى مـــتاعها المأثـــور، ذلـــك أرادوا، ولو جيء بقرآن غيره أو بدلت المعاني الواردة فيه. وكـــذلك بَعـــداً حتى اليوم في عالم الإنسان مجتمعات لها في المشهودات مقدسات وفي نفوســـها ظنون راسخة للوقوف القاصر والقيام عليها دون الغيب وفي أعرافها طقوس معهـــودة لعبادتها، بما يوقع في قلوبهم صدّاً شديداً إذا سمعوا القرآن يدعو لإبطال ذلك جملةً واحدة. وفي العالم أيضاً مجتمعات لهم في الدنيا مبتغى متاعٍ لا يرون إلا مرّ زمانها يـــسابقونه ينشدون الخير أعجل ما يتيسّر وهمهم كله يكبُّ عاكفاً على الحاضر إلا إذا اشـــتدت عليهم ضغوط أزمةٍ قد يذكرون الله إن عجزت الأسباب المادية والمقدسات التقليدية عن صرفها، فإذا تعافوا منها نسوا الله وولغوا في المتاع الحاضر لا يحمدون الله ولا يذكـــرونه لالـــتماس الهدى في مستأنف الحياة. والناس غافلون عن نعم الله مهما يـــشاهدون الشمس والقمر والليل والنهار، وعن آيات الموت والحياة وآجالها يدرسون ظاهـــر سنن الطبيعة ولا يرون فيها من التعاقب والتزاوج والتكامل حول حياتهم نعمة مـــن الله ولا تذكيراً بسنة في الآجال ولا يحسبونه في حساب حركة زمان الدنيا وسير المخلوقات مجرىً معدودة خطاه موقوتة إلى أجل المنتهى في الوجود المشهود. ولئن كان مـــنهم مِثل الأوائل من يرعون إكراماً للمسلمين تركهم يقدسون القرآن صحيفةً قديمةً لهـــم يقـــرأونها عليهم، فإنهم يريدون منهم قرآناً غير هذا، أو أن يبدلوه بما يستغنى عن الغـــيب بالحقائـــق الظاهرة، وبما يقضي للناس في الدنيا حاجاتهم ويشفي همومهم ولا يقـــذف بهـــم إلى عالم الله والآخرة والغيب البعيد، ولو كان ذلك والنّص القديم قائم بتحـــريف الكلـــم عـــن مواضـــعه وتأويله إلى مقاصد دون الغيب أو غير الحق البيّن بالحروف العربية التي جاء بها القرآن، ولو كان ذلك بترك الله ثابتاً بجعله متجلياً في كلِّ أشـــياء الكـــون الطبيعي المشهود وحسب، أو وجوداً معلقاً في أفق الخيال الغيبـــي لا

يديـــر أمر الحياة المشهودة ولا يقضي مصائرها، ولو كان ذلك والإيمان بالآخرة مقرر، لـــتكون هـــي مقصد مثال للإنسان تكفيه عن انتظار غيبها وتقرّبه إليها مبالغ التقدم العلمـــي في الطبـــيعة والرقيّ المعاشيّ في الحياة الحاضرة، هؤلاء يسعون في الحياة هدفاً لمـــزيد سعة متاعٍ وثروة لا يحمدون الذي قدّرها غيباً وسخّرها لهم ولا يسيرون توجهاً إلى آجالٍ غيبية وراء أجل الموت الطبيعي الذي يرونه نهاية الوجود لعين الإنسان الميت الذي يكفيه أن يخطط لآخر عمره أو لخلفه ليُذكر ويُشكر لذريته.

ولكـــن موقف الرسول ﷺ الذي تلا القرآن أمس هو موقف الداعية اليوم الذي يقـــتدي بـــسنته: ألا يبدّل القرآن من تلقاء نفسه، فما هو بالذي صنعه وألّفه، بل هو وحـــي من الغيب رسالة من الله بالهدى الحق، وأنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه لا تجتاحه ظنون المذاهب الشائعة حوله ولا مسالك الحياة السائدة، وأنه يخاف من ربّه لو مال إلى افتراء ما يهوى هو أو الناس عذاباً عظيماً يؤمن بيومه الموعود. ذلك لأن القرآن وحيٌ من الله لو شاء تعالى لحجبه عن الإنسان وما خصّ به ذلك الرسول، ولكن وعده ﷻ مـــنذ مهبط آدم أن يتولّى عباده بهدى الغيب ليؤمنوا فيأمنوا المصير الراجع إلى الله. وما كان لذلك الرسول قبل تلاوة القرآن سابقة معروفة عنه من تخاريف في غيبيات الخيال أو أكاذيبِ أقوالٍ منسوبة إلى الله. وقد يُلقي تلك المفتريات بعض الذين يتّخذون الدين مهنة لمبتغيات متاعهم الدنيوي، أو السحرة مكراً مراوغاً في سبيل أغراضهم، ولم يعهد عـــنه ﷺ المرض بعلّة عقلية أو نفسية. والحق أن أظلم الناس في تجاوز الحق من يؤسس مذهـــباً علـــى الافتراء على الله كذباً، أو من يكذّب بآياته البيّنات وحياً، إذ لا يفلح أولئك المجرمون.

لكن الملأ من أمة الخطاب الأولى مع الرسول ﷺ ظلوا مرهونين لتقاليدهم يعبدون مـــن دون الله مـــا لا ينفعهم ولا يضرّهم، وقد يخشون الله ولكنهم يتخذون من دونه شـــفعاء يحـــسبون أنهـــم يصرفون غضبه ويسترضونه لهم، وهم لا يؤمنون بالآخرة، ويخرصـــون في الغيب كأنّما درسوا علم الكون كله فألفَوا فيه إلهاً آخر ينبئون به الله يعلّمـــونه ما لا يعلم، وهو خالق الكون المدبّر لأمره المحيط بعلمه ولم يأت بكتابٍ منه فـــيه شيء من هذا سبحانه نـــزاهةً وتعالى عظمةً عمّا يشركون. وكثير من المجتمعات

الحاضـــرة لبني الإنسان يتعبّدون أشياء في الطبيعة المشهودة جامدةً لا أثر لها أو يختلقون تمثـــيلها لآلهـــة غيبية أخرى كملائكة العرب، يشفون نـــز ع فطرهم الدينية بالباطل ويفرّقون بذلك دينهم شيعاً كما تتفرّق الأرباب والمقدسات التي اختلقتها التخرصات الطالقة توهاً في الغيب، ذلك ولو كان في سابقهم رسولٌ هداهم رسالة الغيب إلى الله المعـــبود الواحد وإلى صراط الحياة الحق الواحد، لأنهم ينسون بعد طول العهد وتلاشي ذكرى علم الغيب الحق في نفوسهم ليفتنها ما يشخص في المشهود. لذلك كان الناس علـــى ملـــة إبـــرهيم عليه السلام الذي كان حنيفاً و لم يكن من المشركين، ولكن ذريته من أمة الخطـــاب العربية – إلا قليلا من الحنفاء – ضلوا من بعده في متاهات الشرك حتى جاءهم رســـالة الحنيفية والحق المتجددة. ولولا أن قد مضت سنة الله وكلمته القدرية أنه تعالى لا يـــؤاخذ الناس بعاجل ما كسبوا في الدنيا لقضي على هؤلاء بعاجلة قيام الساعة أو الهلاك الباغت الذي يسوق إليها حيث يؤخذ المؤمنون بالعذاب ويجزى المؤمنون بالقسط.

إن أمـــة خطـــاب القرآن الأولى وغيرها حتى اليوم ممن على نهجها المادي الذي يقتـــصر علـــى الظاهر المشهود رغباً ورهباً يقولون: لولا أنـــزلت من مبلّغ القرآن آية شـــاهدة يصدقونها واقعة مشهودة تشذ عن سنن الطبيعة بما يعجز عنه الإنسان فيقتنع بـــأن قـــوةً غيبية مع الذين يحملون هذا القرآن، ويخبت لها حجة مادية تشفع دعوى الوحـــي وتعزز صدق البلاغ. لكن الغيب لا يملكه إلا الله فلم يملكه الرسول أمس ولا المـــسلمون الـــيوم لـــيجادلوا به من يطلب المعجزات. ذلك وإن كانت تراود بعض المـــسلمين أحـــياناً ترجّيات الآيات المعجزة المشهودة تجري على أيديهم ليغلب أمرُهم ويقـــيموا حجّـــتهم صالحين موصولين بالغيب وقواه، ولكن أقدار الله وسننه الطبيعية يـــسايرها ويصابرها المؤمنون حتى يصرّفها ربهم القدير كما يشاء في عاقبة أمر عاجل للمؤمـــنين فـــتحاً أو على غيرهم خسراناً كما وقع لكثير من أقوام المكذبين بدعوات المرســـلين. ولينتظـــر العـــالم اليوم مصير مستقبل الإسلام بعد أن ظهر القرآن واشتهر ونهـــضت بـــه شرائح من المؤمنين، لينتظروا فإن هؤلاء أيضاً منتظرون والله الوكيل. ورســـالة الإسلام الخاتمة هي لعموم البشر وخلود الزمان، لا تصاحبها معجزات مادّية تبهر الحاضرين وإنما تحملها آيٌ قرآنها تعززها آيات الطبيعة والتاريخ.

ترتيل المعاني (الآيات: ٢١ – ٣٠):

(وإذا أذقـــنا الـــناسَ رحمةً من بعدِ ضرّاءَ مسّتهم إذا لهم مكرٌ في آياتِنا قُلِ اللهُ أسرعُ مَكْراً إن رُسُلَنا يكتبون ما تمكرونَ) (٢١)

مهما يكن تطلّب آية فإن من خلق بني الإنسان إذا مضوا مفتونين بمتاع الدنيا أن أذاقهم الله بأقداره رحمة تسعفهم حيناً ما من بعد ضرّاء مستهم، وكانت بوقعها الفارق آيـــة من نعم الله ينبغي أن تُضفي عليهم فيضة ودفعة من إيمان بالله المحمود – إذا ابتلوا بـــرحمة هكذا لا تحدث لهم إلا وقع فرحة تغمر فقه آية الله فيها بغاشية من مكر النفس النـــسيّة الخوّانة ويمضي مكرهم بسائر آيات الله الهادية في الحياة. وعلى الرسول المذكر أن يحذرهم أن الله أسرع مكراً قد يبادرهم بمدّ آية رحمة فيردونها مكراً فيجاوبهم بمكره الأســـرع – ألا يتعقّـــبهم بالعذاب فوراً جزاء كفر النعمة بل يُعدّه لهم ويخفي تأويل وقـــوعه لأجـــل، وأن رسل الله بأقدار غيبه من الملائكة يحيطون بهم يكتبون ويحفظون شهادة ورصيداً ما يمكرون لتحقّ البيّنة عليهم بين يدي أحكم الحاكمين يوم الدين.

﴿هُـــوَ الَّـــذي يُسَيِّرُكُمْ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إذَا كُنتُمْ في الْفُلْك وَجَرَيْنَ بهم بـــرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ من كُلِّ مَكَان وَظَنُّواْ أَنَّهُـــمْ أُحِـــيطَ بهِـــمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلصينَ لَهُ الدِّينَ لَئنْ أَنْجَيْتَنَا منْ هَذه لَنَكُونَنِّ منَ الـــشَّاكرِينَ * فَلَمَّـــا أَنجَاهُمْ إذَا هُمْ يَبْغُونَ في الأَرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢ – ٢٣)

في الآيات ذكر لرحمة الله الواسعة ومثال لما سبق ذكره من مبادرة قدر الله أن يمدّ بـــني الإنـــسان بآيات رحمته ولغفلة الإنسان فرحاً لا شكراً ثم مكراً لا تذكّراً ومجاوبة ذلـــك بمكر الله الذي يعد له العاقبة. والتذكير للمخاطبين عامة من الناس: هو – تعالى الـــذي يـــسيّرهم في الـــبرّ بقدر قوة الأرض الجاذبة التي تثبت أقدامهم ماشية وأقدام المـــركوبات تحملهم فوق ظهورها ويمهّد لكم في الأرض السبل ومعالم الطريق والبحر مـــسبحهم فيه ومركبهم يطفون فوق الماء لا يغرقون ومن بسط رحمة الفلك – وهي فضلاً على محمل الناس على الأنعام – المركب الأظهر رؤية لنعمة الحمل طافية جارية

وهـــي الأحمـــلُ أثقالاً والأبلغ مدىً وهي الأخطر مخافةً من الموج المضطرب تحتها من البحـــر الذي سخّر لها. ذكرت النعمة والرحمة العامة ثم بني عليها ضرب المثال خطاباً للـــناس المتمتعين بها عموماً بواقعة معينة. كذلك يسيّرهم الله حتى إذا كانوا في الفلك. والتفت الكلام في الآية من ذلك الخطاب إلى صيغة الغائب لتمام رواية المثال في ركب كانـــوا في تلك الفلك وجرين بهم جملة من الفلك يجرين معاً تواتيها ريح طيبة يطمئن باعـــتدالها الراكبون وتدار الشراعات للتوجه بدفعها مما يملأ كل الركب بمشاهد فيها سكينة وأمن وغبطة إذ يتواكبون في تواز أو تنافس يرضيهم، وفرحوا جميعاً بتلك الريح الطيـــبة وســـرّهم ذوق الـــنعمة. لكن تساوقت بهم وقائع الأمر إذ تغيّر إلى طور ريحٍ عاصـــف جـــاءت تهب بقوة جائحة وجاءهم الموج يضطرب بالريح وأهاجته فأخذ يضربهم من كلّ مكان - يقذفهم ذات اليمين وذات الشمال وينحطّ هاوياً بهم ويعلو فائـــضاً عليهم، وظنوا تقديراً مؤقتاً أنهم أُحيط بهم إذ حفّتهم المخاطر وانحسرت فرص الـــنجاة، فاشـــتدت بهـــم وطأة الخوف والقنوط من الأسباب حتى بعثت في نفوسهم خاطـــرة الإيمـــان التي كانت مغمورة في الفطرة بالغفلة، فدعوا الله وكانوا بضواغط الـــضرورة لا يـــرجون خلاصـــاً وافياً مما يحيط بهم إلا بقدرة الغالب على كل شيء، فلـــذلك دعـــوه مخلصين الدين والخضوع لأمره وعاهدوه إن أنجاهم من هذه المهلكة المخـــوفة أن يكونـــوا - عهداً مؤكداً - من الشاكرين على جميله ما يكافئ في تلك المعـــسرة، الـــراجين فضله في سائر مصائر الحياة الذاكرين الموفين بما يكافئ ذلك من عـــبادة خالـــصة. فلما أنجاهم الله من ذلك المحذور المحيط، وبلّغهم سالمين برّ الأرض وقُـــضي الأمـــر إذا هـــم يكفرون بنعمة الفرج، فما لبثوا أن مكروا وسعوا يبغون في الأرض يحيطون الناس بالظلم العادي على حدّ الحق ويطّففون في موازين العدالة بينهم وبين الناس. والخطاب يتجدّد ملتفتاً إلى من خاطبهم صدر الآية منادياً منبهاً الناس: إنما بغـــيهم - مكراً بعد رحمة الله - وعلى أنفسهم تعود عواقبه وإن بدا أوّله مسلكاً لمتاع الحياة الدنيا وفضلاً على الضعفاء، ثم مرجعهم به إلى أقدار الله الجزائية بكل قواه الأزلية في آخـــرة تقع فيها تحولات في الكون ويقوم الناس مبعوثين يحيط بهم كتاب وحساب لكسبهم ونتاج جزاء، فينبئكم الله بكل أقداره في كتاب أعمالكم وبينة الشهادة عليهم

مـــا كانوا يعملون ليلقوا الجزاء وفاء ما كسبوا من المكر بآيات الله الراحمة والبغي في الأرض ويعرفوا مكر الله الأشد.

﴿إِنَّمَــا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنــزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَــادِرُونَ عَلَــيْهَآ أَتَاهَــا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٤)

إنمـــا مثل الحياة الدنيا - بما زُيّن للناس فيها من فتنة عاجلاتها وعارضاتها بلاءً مقدّراً ليبيّن واقع ما يعملون فيها - هو كماء أنـــزلته أقدار الله الطبيعية الراحمة من الـــسماء التي تبخّر وتباعد إليها الماء من أرض الناس فلمّا عاد بفضل سنن الله اختلط به نبات الأرض الذي لا تنشأ بنيته ولا تنمو إلا مستقياً به. أنبت ذلك السقي نبات الأرض ممـــا يأكل الناس والأنعام المسخَّرة لمتاعهم، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيـــنت خضرةً وازدهاراً بأوراق النبات ونوّاره ونتاجه فاكهة وحبّاً صوراً وألواناً حـــسنى - وظـــن أهلها رؤية راسخة أنهم بوسائل الزرع والري والرعاية والحصد عـــندهم قـــادرون بقوّتهم على تسخير خارجات الأرض والتمتع بمحاسنها وحدهم بسبب تدابيرهم الأفعل لا بما شاء الله القوي الأحكم من سننه - حتى إذا بلغ أمرها ذلـــك أتاهـــا أمـــر أقدارٍ من الله غازية ليلاً أو نهاراً فجعلتها حصيداً إذ أحاطت بها فحـــوّلت الزّخرف والزينة والمأكل الموعود إلى حطام وحصيد وهباء منثور، كأن لم تغـــن تلك الأرض بالأمس ثريّة بالزينة والمتاع منظراً جميلاً ومرتجىً مأمولاً: كذلك يـــضرب الله الأمثال ممّا يصرّف بأقداره الصانعة المبدّلة المحيطة بالإنسان آيات هادية إلـــيه راحماً مُبتلياً ومصرِّفاً للأحوال العارضة في الدنيا الفانية، يتفكّرون فيها متدبّرين فتطمئن فيهم قوى الإيمان النافذة فيتّقون فتن الدنيا العارضة ويتهيأون للمرجع إلى الله في دار الخلود[1].

(١) في ذكرٍ مثلِ الدنيا نباتاً يزدهر يسقيه الله ماءً ثم يجعله حصيداً بعد حين، وذكرها زينةً وزهرة وعرضاً ولعباً ولهواً ومتاعاً قليلاً وغروراً انظر مثلاً الآية ٤٥ سورة الكهف والآية ٢٠ سورة الحديد.

﴿وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢٥)

الله الذي يعرّف أقداره في الدنيا آيات لعباده من الناس تُوجّههم غيباً إلى الآخرة، يدعــوهم بآيــاتٍ موحاة متلوّة عليهم من رسول أن يسلكوا الطريق الهادي إلى دار الــسلام – ألا يــصرفوا دواعــي الرّجاء إلى لقاء الله إلا إلى الإسلام لوجهته وابتغاء مرضاته، ألاّ يرضوا بدار البلاء المحذور ولا يركنوا لفتنة عاجلاتها وعارضاتها الفانية التي يطــرأ عليها التحول والزوال والمغريّة بالقوة المغرورة الماكرة الخائنة التي تحيط بها قوى الله الغالبة، أن يسلكوا المنهج القويم الذي لا يؤدي بهم إلى آخرة دار حزن وخوف بل إليها دار سلام ومراضاة مع الله ومحاياة مع الملائكة والرفاق ومواءمة لأشياء الكون التي كانــت في الدنــيا مطــوّعة لأقدار الله الطبيعية وهم وافقوها بطاعة أوامره الشرعية المخاطبة لهم. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. الاهتداء يبدأ بمشيئة عباده الحرة كمــا فطــرها الله ثم هــو تعالى بمشيئته يفتح لهم أبواب المسلك وييسرهم لليسرى ويتولاّهم بهدى من آيات التنــزيل وأيدٍ يُوحي إلى الملائكة وكل القوى المخلوقة حتى يولّوا وجوههم قبلة الهدى وتستقر مسيرتهم مصوّبة على صراط مستقيم إلى دار السلام مصيرهم الأخير.

﴿لِّلَّــذِينَ أَحْــسَنُواْ الْحُــسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦)

للــذين أَحــسنوا في الدنيا – ظنّاً حسناً بالغيب حقاً وإيماناً ورجاءً حسناً لآجاله وصــلاحاً في الأعمال وإحساناً – لهم الحسنى من درجات دار السلام، أفضلها حسناً بقدر ما نافسوا فبلغوا في مكاسب حياتهم الدنيا من مراتب الإحسان، ولهم زيادةٌ لأن الله الكريم يضاعف الجزاء ويبارك ثمرة الكسب ثواباً بما هو أحسن، ولا يرهق أو يضني وجــوههم قتــرٌ مــن اكتــئاب أو ذلة ممن حولهم من ملائكة دار السلام ومن سائر الصالحين رفيقاً حسناً، وأكثر من ذلك يجعل لهم الرحمن ودّاً. أولئك المحسنون أصحاب الجــنة يــصاحبونها ملازمــة وهم فيها بعضهم لبعض في صحبة وأخوة طيبة هم فيها خالدون. ذلك خلافاً لما كانوا يلقونه في الدنيا من سوء في ابتلاءاتها وعلاقاتها وأحوال السوء والحُسن المتقلّبة فيها.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧)

ذلـــك هـــو المصير لأولئك. والذين كسبوا السيئات في الدنيا حاصلين فيها على ســـيئ ظنون بالغيب وأعمال - هؤلاء الحكم الحق العدل عليهم أن جزاء سيئة بمثلها، حياة سيئة تكافئها عاقبة واقع مصير سيئ، وترهقهم وتعييهم ذلة من نـــزل غضب الله علـــيهم، وممـــا تحمل عليهم الملائكة الغلاظ الشداد، وعداوة الذين كانوا أخلاّءهم في الدنيا، وما تقع عليهم من أشياء البيئة من حولهم مشرباً ومأكلاً لا يطيب، وهم كأنما أغـــشيت وجـــوههم قطعاً من الليل مظلماً إذ تسودّ وجوههم من غاشيات الحزن ممّا ضيّعوا ومن حال اليأس من تباشير الرجاء والهمّ من ملازمات الخوف. أولئك أصحاب الـــنار هم أهلها يلازمونها خالدين لا كضرٍّ عارض مما عهدوا قبلاً في الدنيا وتصاريف أحوالها وبلاءاتها.

﴿وَيَـــوْمَ نَحْـــشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (٢٨-٢٩)

في تلك الآخرة حيث يميز الله المصير بين المحسنين والمسيئين بهذا البون الشاسع لن يجـــدي المشركين أن يستغيثوا بشركائهم ليسترضوا بهم الله الربّ الأعلى وليدركوهم قـــبل أن يقـــع علـــيهم العـــذاب، كما كانوا يتوهمون في الدنيا يعصمونهم من الضرّ ويقربونهم إلى الله. ويوم يحشرهم الله بأقدار قيام الآخرة جميعاً هؤلاء وأولئك - ثم يقع القول على الذين أشركوا أن يلزموا مكانهم لا مناص لهم هم وشركاؤهم كذلك الذين لا يملكـــون من الله شيئا، فزيّل الله بينهم بأقداره التي يفرّق بها مواقع الحساب ويزاوج المـــسئولين في مواقـــف الحـــشر ويضع موازينه. وقال شركاؤهم - يلقون إلى أولئك المـــشركين الـــبراء - إنهم ما كانوا إيّاهم يعبدون، يصرفون عن أنفسهم وقع السؤال والإدانة عن الموالاة في الشرك ويدرأون. إحالة المسئولية إليهم معبودين ينأون عنها فيما يليهم بل ينكرون العلم بها وكفى بالله العليم المحيط وحسبه بما جرى من أعمال خلقه

شـــهيداً بينهم أنهم كانوا حقاً أكيداً عن عبادة أولئك المشركين لهم غافلين لا يدرون ذلك الذي ما كان ينبغي أن يجري[1].

﴿هُـــنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (٣٠)

هنالك في معرض المساءلة والشهادة والحساب والجزاء يوم القيامة تبلو كل نفس مـــن بـــني الإنسان ما أسلفت، يُؤدى إليها ومنها بيان ما قدمت في سابق دنياها خيار مذهب وكسب أعمال في الحياة فتلقى جزاءه وفاقاً، وردّوا – بنو الإنسان الذين كانوا مـــنذ هـــبوط أبيهم آدم عليه السلام وانطلاقهم أحراراً في الأرض وعالم الشهادة – إلى الله مـــولاهم الحـــقّ، الـــذي يملك أمرهم ويتولاّه حقاً – خلقاً وبلاءً وتكليفاً وإعادةً إليه وجـــزاءً. وضلّ عنهم وضاع في معارض الحق وبيّناته المشهودة يومئذٍ ما كانوا يفترون في الدنـــيا وراء الغـــيب أنهم موتى هلكى دهر لا يُقبلون على بعث وحساب وأن لهم شـــركاء يـــتّخذونهم أولياء ويتولّونهم شفعاء عند الله، زهق كلّ ذلك باطلاً وتلاشى عنهم.

عموم المعاني (الآيات: ٢١ – ٣٠):

بـــنو الإنـــسان قـــد ينسيهم مرُّ السنين من بعد هدايتهم برسالة غيب إلى سواء السبيل، يضلّون ويختلفون ويصطرعون بعد أن كانوا أمة واحدة آمنة، مذهبهم توحيد الله وتـــسبيحه عن أي شريك ونهج حياتهم توحيدها لعبادة الله تعالى ولاستقامتها قربى ومرضـــاة لـــه في الآخرة. لكن الناس قد يبتلون بعارضة دون تقادم ذكرى الحق، فما يـــذيقهم الله رحمـــةً مـــن بعد ضرّاءَ مستهم إلا نسوا فضله لا يحمدونه لتتبارك بذلك عـــبادتهم لـــه، بل يذهبون فيمكرون في آيات الله تقسوا قلوبهم فلا تُخبت لها، يرونها رحمـــةَ رزقٍ تغـــشاهم في الطبيعة بعد بؤس لكنهم لا يتذكرون نعمة الله المسخّرة، بل

---

(١) في ذكر التزايل بين الشركاء والمشركين يوم القيامة وتبرّؤ الشركاء عن عبّادهم – راجع الآية ٢٢ سورة الأنعام، والآيتين٢٧ و٨٦ سورة النحل، وانظر الآية ٥٢ سورة الكهف، والآيات ١٧ و١٩ سورة الفرقان، والآية ٦٤ سورة القصص، والآيتين ٤٠و٤١ سورة سبأ.

يمـــضون في غفلةٍ ويأخذونها بسوء استغلال، ويسمعون هدى الله ورحمته بآيات وحيه فلا يتذكرونها ويستجيبون لها بل يلوون معناها المحكم ابتغاء الفتنة بتأويل الكلام، كل ذلك في سبيل أهوائهم. لكن لا بد أن يذّكر الذين لا يذكرون الرحمة في آيات الله بل يعرضـــون ويعقبونها مكراً أن الله أسرع مكراً مهما يمد لهم في الدنيا ولا يأخذهم فور مكرهم فيها، بل يأتيهم يومٌ يكافأُ فيه مكرهم بعقابه ويرون أمره بعد تماديهم في الدنيا كأنـــه عاجلـــة ســـاعة بعد مكرهم، ذلك ولله رسلٌ من الملائكة رفقة غيب للإنسان يكتبون ما يمكر أولئك، فلا سبيل لهم لإنكاره عند المساءلة والمحاسبة والمعاقبة.

والله كذلك مع بني الإنسان يبتليهم بتسخير أسباب الحياة كما أهدى إليهم نعم التـــسيير الميسر محمولين في البر والبحر، لو يذكرون تلك النعمة في سنن الله حامدين ســـائرين علـــى نهج العبادة الذي يحملهم إليه، ولكنهم أحياناً لا يذكرون الله إلا إذا عرضـــت علـــيهم وطـــأة أزمة في الأسباب، كأن – مثلاً – يسيروا في وسائل النقل البحري يركبون فُلكاً، والريحُ والبحرُ مدٌّ طيب فيُحملون مطمئنين فرحين لا يذكرون الله فيـــشكرونه، فـــإذا جاءتهم ريحٌ عاصفٌ وهاجت الأمواج محيطةً بهم انبعثت فيهم ذكـــرى الله التي دسّوها، فدعوه مخلصين خشوعاً لأقداره المرجوّة لنجاتهم وعاهدوا الله بالذكـــرى والشكر بعدها، فلمّا نجّاهم الله لا ينسونه وحسب، بل يذهبون يبغون في الأرض مسرفين في المتاع ظالمين. كذلك يُعد الله لأمثال هؤلاء أن يلاقوا البغي متاعهم في الدنـــيا مرتداً على أنفسهم في الآخرة، إذ يرجعون إلى الله ثم يُؤتوا كتابهم يُنبئهم بما كانوا يعملون بيّنة تأْخُذُهم إلى العذاب.

هكذا الحياة الدنيا قد تغمر الناس وتحملهم فتنتها فيقلبون مقتضى الحمد لله على نعمة إلى مكرٍ بآياته، ووعد الإخلاص في الذكر والشكر بعد منجاة إلى بغي، لأنهم لا يـــرون الحـــياة الدنيا إلا مدّاً منبسطاً من المتاع، حتى إذا اعترضتهم ضرّاء أو أزمة إن تجاوزوهـــا يمضون يمكرون في الدين ويعدلون عن حقه باغين. والحق أن الحياة تنتهي بعـــد الغفلةِ عن مآلها إلى الموت القريب الذي يؤدي إلى الآخرة والحساب، وأن الدنيا مـــسيرة ابـــتلاء محـــدودة وإن كانت تغرّ بمتاعها وزينتها، مثلها كالغيث ينـــزله الله فيستبشر به الناس لأنه يخرج نبات الأرض ثمرات طعامٍ للحياة، وألوان زخرف مشاهد

لـــزينتها. هكذا تتبارك نعم الله لكن المبتلين بها قد لا يستجيبون إلا ظناً أنهم هم الذين ســـخّروا طبيعة الأرض لحياتهم يفهمون أقدارها ويدبّرون أمورها ويحسبون غروراً أنهم قـــادرون علـــيها ليزدادوا سعداً دون رحمة الله، وقد يأتي طارئٌ يباغتهم فيحيل الزرع حـــصاداً وذلك عليهم بعد المثال سنة مثل الطوارئ التي قد تجتاح ما يغرّهم من متاع بكارثـــةِ مـــناخٍ أو مـــرضٍ أو حربٍ بينهم مدمّرة، بعدها يضيعُ غنى الأمسِ وغروره ويهلك الناس ليذهبوا نحو يوم الدين والحساب.

وكل الحياةِ آياتٌ لله لو يتفكّر فيها الناس فيعبدوه ويتّقوه في هذه الدنيا وابتلاءاتها الـــتي فتـــنت الناس قديماً وحاضراً إذ غشيتهم في مذاهب حياتهم الروح المادية وغدوا عجلة إلى المكاسب قلّباً حسب الظروف – إن الفريضة أن تقوم فيهم دعوة الدين تتلو علـــيهم آيـــات الله في القرآن تدعوهم في هذه الدنيا وابتلاءاتها التي قضت الناس قديماً وحاضراً وتذكرهم برسالة الله يدعوهم عبر دار دنياهم المضطربة بالبلاء إلى دار السلام السالمة من المضرّات والأزمات والمهالك، حيث العلاقات فيها سلامٌ من الله سلامٌ قولاً مـــن ربٍّ رحيم، ومن الملائكة تحية سلام ومع رفقة المؤمنين وأسباب المتاع أمرهم في ســـلام. والله ﷻ لا يتـــرك الناس في جهالة بعلم الغيب وسبله ومآلاته، بل يهدي من يشاء – وهم الذين يختارون الهدى – إلى صراطٍ مستقيم غايته لقاء الله والجزاء الوفاق لمـــا قـــدم الناس: الذين أحسنوا في الدنيا سالكين ذلك الصراط المستقيم فلهم الحسنى وزيـــادة لا يصيبهم رهقُ جسد ولا ذلّ نفس في جنة الخلود، والذين كسبوا السيئات لهم السوأى ترهقهم ذلةٌ ولا يعصمهم من الله عاصم، وتسوَدُّ وجوههم مما يرون لأنهم أصحاب الجحيم فيها خالدين.

وبعـــض الناس في عالم اليوم لهم بقيةُ تديّن بظنون تسيرُ في الحياةِ خبطَ عشواء، ويخرصـــون في الغـــيب بلا هداية من وحي، يتخذون في عالم الشهادة شركاء لله في الغـــيب يشفعون لهم عنده. ولكن يوم الدين يحشر هؤلاء المتوالون جميعاً ويُزايل بينهم حـــيث لا يعـــصم ولاء، ويُساءل أولاً مَن فتن بهم الناس من الأنبياء المرسلين أو كبار زعمـــاء الـــتديّن، فيتبرّأ هؤلاء من أوليائهم، ويقولون إنهم كانوا في غفلةٍ عن عبادتهم، ويُـــشهدون الله على ذلك. هنالك تُلاقي كل نفسٍ ما أسلفت في الدنيا، ويودّ هؤلاء

بعـــد انطلاقة البلاء الحرِّ في الدنيا إلى الله مولاهم الحق، ويضلّ عنهم ما كانوا يفترون على الغيب تديناً بشركاء لله أو على الحق من مذهب غرور واستغناء بالحياة الدنيا.

ترتيل المعاني (الآيات ٣١ – ٤٣):

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ (٣١)

مـــنهج الجـــدال الواجب لداعية الحق الرسول ﷺ أن يسائل أمّة خطابه تلك من المشركين عمّن هو الذي يسيّر لهم الحياة ويسوقهم إلى خير مقاصدها يسألهم أولاً: من هو الذي يرزقهم من السماء نفساً وغيثاً وضوءاً لحياهم، والأرض منبتاً ومرعىً ومرفقاً للعـــيش ولمتاع؟ وليتوجه بهم السؤال حيثما تتمّ به وجوه حياهم وما تدلّهم عليه: من يملك القدر فيجعل لهم السمع والأبصار مَدْرَكَي إحساس هما من كمال وظائف الحياة فـــيهم؟ ومن يدير أقداره فيهم وحولهم في الحيوان والنبات حياةً وموتاً يخرج الحيّ من المـــيّت ويخرج الميّت من الحي طوراً، الحي النامي الولد من الحيوان والنبات يخرج من نطفة أو بذرة من مادة ميتة وينتهي إلى ممات جسداً أو حصاداً أو حطاماً وبقايا ميتة؟ ومـــن يدبّر الأمر حولهم يصرّف أوضاع الحياة وظروفها ومساقاها وأفعالها؟ فسيقولون هم: إنه هو الله. والأمر للرسول عندئذ أن يعقب على اعترافهم بالحق: لم إذاً لا يثبّتون على ذلك الإقرار والشهادة توقير الله ومخافته: أفلا يتّقون؟ ولَمَ يقدرون له تعالى الخلق والحـــياة والأمر ثم لا يرعونه فيما ترك لهم من خيار يعبدونه ورعاً ويلتزمون حدّ أمره ويجتنـــبون رهبة تجاوز هداه إلى ما يفيضون فيه من معهود إشراكهم بالظنون وضلال حياهم بالأهواء.

﴿فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (٣٢)

فذلك المسئول عنه إذاً – والخطاب لهم هم – هو الإله المعروف المعهود الأعظم، رهـــم الحـــق المتعالي على الأرباب التي لا تملك شيئاً من مدد رزق أو قوّة إدراك، ولا تـــصرّف الحياة أو الموت أو تدبر الأمور، وعلى ذلك ماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ماذا

بعـــدما تثـــبت حجة الحق البيّنة المحيطة بهم إلا التّوه في الظنون بغير يقين؟ فأنّى، إذاً – والخطـــاب لهم: يُصرفون؟ أي وجه من ظنون الباطل يُلفتون به عن وجهة الحق حيث يلزم الثبات المستقيم؟

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣)

كـــذلك – والخطاب للرسول ﷺ – حقّت كلمة من ربّه، بمثل ذلك من سلطان الحجة البالغة وقع الحق في كلمة من قدر ربه هو الداعي الذي يجادل هؤلاء ويسائلهم في سبيل الحق ولو لم تُجْدِ فيهم الدعوة. حقت الكلمة عليهم الذين يقرّون بأن أصول الوجـــود وتصاريف أمره كلها حقاً لله ثم يفسقون منحرفين عن مقتضى ذلك الحق، حـــقّ عليهم أنهم لا يؤمنون – لا تطمئن نفوسهم بقبول ذلك الحق مهما يروه، حقت ســـنة الله أن الذين يقرّون قولاً أن الله له الخلق والأمر محيطاً بهم وبما حولهم ثم يزوغون عن سبيله لا يهديهم الله ليتوبوا إلى الحق بل تزيغ قلوبهم إلى الضلال.

﴿قُـــلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٣٤)

والأمـــر – أيضاً – للرسول الدّاعي أن يمضي في مجادلتهم في سبيل طَرق كل مسالك الحق فيسائلهم: هل من شركائكم الذين تتخذون آلهة من دون الله من يبدأ الخلق ثم يعيده كمـــا يرون في مظاهر الحياة والموت والأسباب المتجددة؟ وأن يقول لهم مذكراً إن الله هو يـــبدأ الخلـــق ثم يعـــيده كما يرون في مجالات الطبيعة الحية المتجددة. ذلك في الدنيا بيّن، وكذلك بعد موت الإنسان يعيد الله خلقه بعثاً في الآخرة ليوافي جزاءه وحسابه عن دنياه. فأنّـــى – يخاطـــبون بناءً على ذلك بأي وجه – يؤفكون؟ كيف يُدعون لأن يقلبوا حكم العقـــل الداعـــي الرشـــيد بعد أن تأسست فيه حقائق الوجود بتوحيد الله معبوداً في الدنيا وبلقائه ملكاً يوم الدين، فيخلقوا له شركاء ويكفروا بالبعث؟

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٥)

ولإتمـــام مجادلـــتهم – أولـــئك المشركين – في سبيل إحقاق الحقّ واتّباع هديه ليمـــضينّ الرّسول ﷺ يسألهم: هل من شركائهم من يهدي إلى الحق في مقاصد الحياة

ومناســكها أم هــي جمادات؟ إذاً دعوها يستوحونها لعونهم أو يستخيرونها فيما هم قادمــون علــيه من عمل لا تسمعهم ولا تستجيب لمطلبهم لترشدهم إلى الحق. وليتمّ الرّســول حجة المقال، بأنّ الله يهدي للحقّ مباشرة – يأخذ عباده إن شاءوا إلى خير المقــصد والمنهاج في الحياة كافة. وليبيّن لهم على الرّسول أن يمضي فيسألهم بعد ذلك: أفمن يهدي حتّى يبلّغ عباده عين الحق الذي كانوا يجهلون أحقُّ وأولى أن يُتّبع أمره أم مــن لا يهــتدي لنفسه هو أدنى الاهتداء إلا أن يُهدى من عبّاده ودعاته الضالّين بأن يــؤخذ أخذاً إلى مقاصد السعي في الحياة وهو كلٌّ عليهم هم لا مولى هداية يتوكلون عليه؟ فما لهم – يخاطبهم: كيف يحكمون؟ إذ يقضون على أنفسهم بالتعبّد لما يزعمون مــن آلهــتهم الــتي تضلّهم وتفرقهم في سبل الحياة ويعلمون أن الله الكبير المتعالي هو الهادي للحقّ المبين.

﴿وَمَــا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)

وليطمــئن الرســول الداعية إن لم يُغنِ فيهم الجدال بالحجة البيّنة، فهم يعرفون أصول الحق ولا يتّبعونه وما يتّبع أكثرهم إلا ظناً رؤيةً ورثوها من تقاليد آبائهم لا تبلغ يقــين الحــق في الغــيب قاصرةً على الموقرات المشهودة الشاخصة أمامهم أوثاناً أو مقدسات الجن الغيبية الموهومة المرهوبة بضلال الظنون. والحق أن الظن بغير علمٍ بالغٍ ولا هــدى وحــي ولا كتاب من الغيب لا يُغني الإنسان من الحقّ شيئاً، بل ينبغي أن يسمع هو الوحي تُتلى عليه آياته ويجتهد تفكراً حتى يبلغ اليقين الحق إيماناً بالله الواحد ســبحانه وبالــيوم الآخر، وخشوعاً لطاعة هداه المشروع. إن الله عليم بما يفعلون من مظــنونات ومقولات ومعمولات، يترك لهم الخيار في الحياة ويُعدّ لهم الحساب والجزاء يوم لا ينفعهم ما اتّخذوا في الدنيا من شركاء أولياء في حياتهم شفعاء في الغيب.

﴿وَمَــا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى من دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧)

إن الله هــو الهادي للحق بما يوحي إلى عباده رسالةً من الغيب، أحقُّ أن تتبع ولا تتبع الظنون عن جهالة. وقد سبق منذ صدر السورة تذكير المخاطبين أنه تعالى يهديهم

برســالة من آيات هذا الكتاب الحكيم، وبالدعوة فيه للإيمان بتوحيد عبادته والإعداد للمــرجع إليه لتلقّي الجزاء على ما يعملون. وما كان هذا القرآن بكل حكمة هديه أن يُفترى وتقتطع نصوصه وآياته من دون الله بتأليف بشر، ولكن إنما هو تنــزيلٌ من الله تــصديقَ الــذي بين يديه من الكتاب الموحى من الله، يشهد لسابق التوراة والإنجيل والصحف الأخرى أنها كانت تنــزيلاً حقاً، وتتصادق تنــزيلات كل الكتب شهادة علــى البيّنات في القرآن. وذلك الكتاب الحكيم هو أيضاً تفصيل هدى أم الكتاب في نـــزلته هــذه، هــذا الكتاب جاء من أصول علم الله وكتابه الأم مفصّلاً في سياق البلاءات المتجددة ولختام الرّسالات، لا ريب فيه من حيث المورد الصدق والمعنى الحق وحــياً وحكمة من رب العالمين الذي يربــي تزكيتهم أجمعين. وقد كان مزعمهم أنه ســحرٌ مبين، والسحرُ مكرٌ يختلقه الساحر لقضاء غرض حاضر محدود، فأنّى يُظنُّ في هذا الكتاب الحكيم الريب والسحر وهو من أم الغيب للهدى الخالد؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨)

أم هم – أولئك المشركون الضلاّل – يصرّون ويقولون أن ذلك القرآن افتراء ممّن يتلوه عليهم فيتطلّبون منه تبديله ليوافق أهواءهم الإشراكية الجاهلية إذ هو يهديهم أن يحــنفوا عنها إلى الحق؟ فعلى الرسول ﷺ الذي بلّغ القرآن أن يعقب على مزعمهم أنه ما من صنعة أحد منهم بشراً، طالباً منهم تحدياً أن يأتوا بسورة من مثل منظومات آيه الــتي يــتوالى نـــزولها سوراً، وليدعوا استعانةً في ذلك من استطاعوا ليشهد أن في تقليدهم بيّنة أنه من افتراء بشر شهادة من دون الله الذي أنــزله وشهد بينة حقه وحياً مــن غيبه، ليفعلوا ذلك إن كانوا صادقين في مزعمهم أنه من مقولات البشر العرب، وإن من أفضح الشهادة حجة على باطل زعمهم أنهم أمّة عرب ينطقون بلسان من مثل حروفه كالألف واللام والراء ويعجزون عن تقليده[1].

---

(١) في الــتحدي لمــن يظــن القــرآن مفترى من دون الله أن يأتي بمثله راجع الآية ٢٣ سورة البقــرة، وانظــر الآية ١٣ سورة هود، والآية ٨٨ سورة الإسراء، والآيتين ٣٤ و٤٣ سورة الطور.

﴿بَـــلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩)

إنهـــم يعجزهم تقليد القرآن ما يستطيعون أن يؤلفوا مثله ولا شاهد لهم في ذلك، وإنما دعاواهم الباطلة في شأنه يقذفونها لا صدقاً في التعبير عن ظنهم بل لأنهم كذبوا بما لم يحـــيطوا بعلمــــه ولمّـــا يأتهم تأويله – كذبوا بما صدر فيه من تعاليم الغيب التي لا يدركون وأنبائه التي جهلوا سالفها ويكرهون مستقبلها، ولم يأتهم بعدُ في مآلات الحياة وتطورات واقعهم ما يؤكد لهم ويشهد بالحق فيه هدايةً ونذيراً. كذلك كانت تتنـــزل الكـــتب على أقوامٍ ممن قبلهم، وكذلك كذّبوا أو لجّوا في المزاعم عن الرسل المبلّغين. فلينظـــر المرء المخاطب في تلك السّير كيف كانت عاقبة الظالمين الذين عدلوا عن الحق وجاءهم تأويله لاحقاً هلاكاً واقعاً يصدق الكلمة التي جاء بها النذير، لينظُر ولينذر.

﴿وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٠)

ومـــنهم – أولئك المخاطبين – من يؤمن به – القرآن المنـــزل بالحق، يفتح سمعه وعقلـــه بـــه فيشرح الله صدره للهدى واليقين، ومنهم من لا يؤمن به إذ لا يريد أن يـــستقر حقه في سمعه وقلبه آمناً من الرّيب. ويخاطب الرسول الداعية منبهاً أن ربه – مهما يلفى من مذهب المخاطبين حوله وسيرهم – أعلم بالمفسدين الذين لا يُصلحون حـــياتهم أخـــذاً بالحق بل يفسدونها باتّباع الظنون والأهواء، ربّه أعلم وأوسع إحاطة بمذاهبهم وحياتهم وبما في نفوسهم وبأعيانهم عدّاً ورصداً.

﴿وَإِن كَذَّبُـــوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١)

فـــإن كذّبوه – والخطاب ينبه الرسول لذلك إن كذبه أولئك المفسدون الذين لا يـــصدقون دعوته للإيمان والإصلاح، ليقُل لهم أن يعملوا كما يشاءون، له هو كسب عملـــه يؤجر عن إيمانه ويبتغي الصلاح، وهم لهم عملهم مكذبين دعوة الحق يحسبون بمذهـــبهم أن عملهم صالح. وليبيّن لهم حق المسئولية أنهم هم بريئون مما يعمل هو دون مـــلام أو مـــؤاخذة وهو برئ مما يعملون إذ لا تزرُ وازرةٌ وزر أخرى، وإنما يبتغي هو الوفاق على الحق المستقيم عن خيار من المشيئات والسِّير الحرّة في الحياة.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (٤٢)

ومـــنهم – أولئك – من يستمعون إلى الرسول المخاطب ﷺ (القاعدة العامة بعد كلمـــة 'مَـــن' إفـــراد الفعل ولو منسوباً لجمع سوى أن الإشارة هنا توسطت تواتر الجمـــع)، وإنما هو استماعٌ مصطنع لا يلقونه إنصاتاً ليقع الحق في القلوب إخباتاً، بل ترصّـــداً وإمـــلاءً لمن يتلو عليهم ليتهيأوا بأباطيل الجدال. والخطاب المطمئن للرسول يـــسائله: أفهـــو يسمع الصمّ ولو كانوا لا يعقلون؟ إن تلاوته ودعوته الحق قد تطرق طبول آذانهم بصوتها لكنها لا تبلغ وجدانهم فهم لا يستمعون نصتاً بإخلاص ليتلقوا في قلـــوبهم معـــاني مقـــولات الحـــق فتنطبع فيها حيّة، كيف يستمعون كذلك وهم إذ يستمعون كانوا لا يعقلون ضبطاً لأهوائهم وظنونهم التي أوقرت آذانهم منفذاً إلى الحق وختمت على قلوبهم مبلغاً لوقعه.

﴿وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ (٤٣)

والخطـــاب يستمر للرسول ﷺ عنهم: أن منهم أيضاً من ينظر إليه، لكن الدهشة والنكرة تغمر عنهم سمات الصدق وسننه في وجه الداعي ومقامه، وعيونهم فيها غشاوة ممّـــا طغى على قلوبهم، ومهما يقم فيهم هو ماثلاً أفهو يهدي العمي بوجه سمْح وقيام قدوة مما يهدي إلى ما يدعو إليه ولو كانوا لا يبصرون؟ تقع الصورة في أعينهم ولكنها لا تنطبع حيّة في قلوبهم لتعقل الهوى وتتلقى الهدى من وقع مثال الداعية.

عموم المعاني (الآيات: ٣١ – ٤٣):

إن الحـــق في الغـــيب يتجادل فيه الناس ويُحكم حجج المجادلة المناطقة وعلماء الكلام: أن الله أول الأسباب المتداعية البيّنة في سنن الكون الناتجة منه تعالى وذلك حتى لا تتسلسل الأسباب والنتائج أبداً بغير نهاية، وأن الكمال المطلق مبلغه هو الله سبحانه، فكمال كل الصفات يترقى درجات إليه حتى لا يتيه الدرج أبداً. ولكن حجج المناطقة مهما تبلغ من القوة ينبري لها آخرون يجادلون لدحضها ردّاً. والناسُ وإن ردّدوا كثيراً محـــادلات الكلام هي لا تحدث فيهم يقين إيمان راسخ لا يخطر في نظر العقل وحسب بل ينفعل به القلب وينبض به حيّاً. وإنما يعلّم القرآن عباد الله أن له تعالى الحجة البالغة

لـــو شـــاء لهـــداهم بقدره أجمعين ولألجأ وجدانهم جبراً إلى الإيمان والطاعة كالأشياء الطبيعـــية الـــساجدة لأحكام الله. وإنما الحق أنه ﷻ خلق الإنسان منذئذ في الأرض وفـــسح له – فيما سوى جسده الطبيعي – مجالاً من الطبيعة الحرة الخيار كيفما ذهب في الغيب إيماناً أو كفراً بالله، وذلك كله في إطارِ مشيئةٍ كبرى لله من ترتيب نظم قدر الخـــيار للإنسان ثم الابتلاء والتكليف وبيان الهدى ثم الحساب في الآخرة. والله فطر في الإنسان ميثاق الإيمان ولكنه تركه يزكّي فطرة الإيمان فيتبارك أو يدسّها فينغلق قلبه عن ذلك الميثاق. وإنما سبيل القرآن في الجدال مخاطبة الناس عامة لا بما ينعزلون به في خلوة النظـــر أو جدال المنطق، بل بما يرون حولهم جميعاً من آياتٍ للغيب ظاهرة مشهودة، وذلك أيضاً لا يخرج بهم من إطار مشيئة الله لهم في الخيار، من شاء ذكّرته تلك الآيات بما في باطن فطرته ثم زكّته ومن شاء افتتن بمشاهد الطبيعة وربما صمّ أو عمي عن سماع حـــق آيـــات الله وأخبار الإنسان ورؤية آثاره في التاريخ. والإنسان – يخبر الله عنه في القـــرآن وبالمعروف عنه من تاريخ ثقافته – هو غالباً مؤمنٌ بإله أعلى، لكنه قد يتسع بـــساحة الـــتقديس والـــربوبية فتتعدد في إيمانه الآلهة رغم أن ذلك تناقضٌ في مفهوم الألوهية المطلقة، وقد يمد التقديس فيبسطه في كل الطبيعة شاملاً لكلِّ شيء، وقد يرى الله في خاطـــر نفسه ولكنه يذره خيالاً ويحيا دونه بالدنيا والطبيعة وأسبابها وشهواتها، يقدّس الموقرات منها المشهودة قربى إلى الإله الأعلى البعيد، أو لا يتعبّد شيئاً إلا المتاع يـــسخر له الأشياء فمتعلّقه وإلهه هواه. ولذلك غالب هدي القرآن في حق الغيب هو الفـــرقان بـــين وحدانية الله ومن ثم توحيد الحياة كلها عبادةً له والشرك إيماناً بآلهةٍ أو أولياء أو شفعاء من دون الله.

والـــتذكير بحـــق الغـــيب في هذه الآيات من السورة يطرق كل مناحي الحياة للإنـــسان، ذلك لأن ما حوله يحيط به فإما فتنه وقطعه عن الغيب بحب شهوات المتاع الطـــيب وجمـــال الزينة، أو دلّه على الحق وتداعت عليه كل تلك المشهودات المحيطة آيات تتناصر لتقوية تذكيره وإيمانه بالحق حيثما تلفّت فيها.

وأول المقـــولات الهادية في هذه الآي من السورة هي ما يسوق إلى توحيد الله. والخطاب لبالغي الرشد من الناس يذكُر أكبر هموم حياتهم وهو ما يحاصرهم من الرزق

والمــتاع المطلــوب. ولــذلك المبتدأ من ذلك المنحى أن يسائلهم الداعي للحق: من يــرزقكم من السماء ضوءاً وهدياً ونفساً وريحاً وغيثاً وظلاً وزينة، ومن الأرض منبتاً للطعــام ومرعى للأنعام وركازاً وملحاً وبحاراً وأنهاراً وجبالاً وطرقاً. وإذا سئل الناس كــذلك قالوا أن الرزق كله من الله حيثما ورد. والمنحى الثاني لمعرفة الله أن يسائلهم المذكر لهم في أمر أنفسهم الشاخصة: من يملك ويهب لكم أهم أسباب الإدراك منافذ ومــوارد العلم الظاهر وهوادي المسعى في الحياة: السمع يتلقى الصوت والأبصارُ ترى الأشــياء وألوانها؟ ومَن يُخرج الحي من الميت جنين حيوانٍ من نطفة ومادة جسدٍ من تراب، ونبات خضرةٍ من بذرةٍ وتراب وماء، والميت من الحيِّ فضلةً أو ميت جسدٍ في الحيوان أو ثمرةً مأكولةً من نباتٍ؟ والسنن الطبيعية بينة أنها كلها لله. والمنحى الثالث أن يُــسألوا: مــن يدبر الأمر؟ من يرسم حولهم إطار الظروف أسباباً لا يضعونها هم بل تلــوح لهم وتتطور تتيسر لهم أو تتعسر أو تصادف مبتغياتهم أو تغيرها قدراً؟ وجوابهم طــبعاً أن كــل ذلك من الله. والتعقيب المترتب إذاً: أفلا يتّقونه؟ ألاّ تفتنهم مبتغيات الــرزق بل يشكرون الله عليه ويلتزمون حدود هداه في طلبه؟، وألا يتخذوا من قوى إدراكهم وسيلةً لفعل الشر بل لكلّ خيرٍ مندوب، وألاّ ينسوا أصول كل الحياة والموت فــلا يتفاخــرون بأعراقهم الخاصة ولا يغترون بطويل أعمارهم مثلاً، وألاّ تلوي بهم الظروف عن الحق بل يسعون فيها متقين لله. إن مدلول كل ذلك الخطاب أن ذلك لهم هــو الله ربهم الحق وحده فماذا بعد الحق والسبيل إليه الواحد إلا الضلال – متاهة بين آلهة متعددة كلٌ يذهب بما خلق ويتعالى بعضها على بعض فيتحيّر عبادها وتتفرق بهم بعــدّها وتمــوت في ثقافــة الناس وتولدُ مع مدّ العهود فتضطرب بهم. فأنّى يُصرف المــشركون عن عين الحق إلى هذه المتاهة المنسابة؟ القول الذي يسكن به قلب الداعية المــسائل للناس تذكيراً أنه كذلك حقّت كلمة ربّه الحقّ على الذين فسقوا مُرُوقاً من حدود الحق والهدى أنهم لا يؤمنون تذكرهم كل ظاهرة حولهم بل ينتابهم الشرك، كل ذلك فتنة محيطة.

وتأتي مقولات في حقّ الغيب هو أمر البعث، والتذكير بأنه يخاطب الكافرون به: هل من شركائهم الذين يُألّهون من يبدأ الخلق ثم يعيده كما يبدو في الطبيعة؟ يُذكّرون

أن الله هـــو يبدأ الخلق ثم يعيده، والاستجابة الطبيعية أنّ ذلك بيّن حقاً، والتعقيب هو: أنّى يؤفك المشركون وينقلب نظرهم إلى الشركاء وهم ما خلقوهم ولا يعيدوهم بعد المـــوت، والحـــق أن الله الذي بدأ الخلق قادرٌ على البعث نشأةً أخرى وهو أهون عليه وإليه يومئذٍ المرجع ومنه كان المبتدأ.

وثالثُ المقولات أن الهدى كله هدى الله، يُسأل المخاطبون الذين يلتمسون رشد الـــتديّن في آلهة أخرى كأنهم شركاء لله: هل من شركائهم من يهدي إلى الحق؟ أم أن آلهـــتهم أصنامٌ جامدةٌ لا تعقل ولا تنطق أو أرواحٌ مخيلةٌ في الغيب لا تحدثهم أو أهواء دنـــيا تأســـرهم بشهوات متاعها. والحق أن الله هو يهدي للحق، يصل الناس مباشرة بالحـــقّ لأنــــه هو الحق ﷻ، والسؤال المطروح عندئذٍ حقاً عمّن يهدي إلى الحق من رســـولٍ أو كـــتابٍ يحمل رسالة منه تعالى تسوق إلى مبلغ الهدى: أحقٌّ أن يتّبع هو أم الصنم الذي لا يَهديَ إلا أن يُهدى إذ لا يدل على الخير إلا أن يأخذه عابده ويتجه به حيثما رأى الخير، أم آلهة ظنون وأهواء تكتب باسمها المفتريات من أهلها وهي لا تقوم مصدراً يعلّمُ هدي الحياة وأصلاً للمذاهب الحقّ فيها. والتعقيب على ضلالات الإشراك آلهةً أو هوى هو كيف يحكم هؤلاء المشركون؟ أمفتريات أهوائهم وصور آلهتهم الميتة أولى حقـــاً أن تتّـــبع من وحي الله إلى رسولٍ مبلّغ؟ وما يتبع أكثر الناس إن أشركوا وهجـــروا القرآن وعصوا الرسولَ إلا ظناً - رؤىً تخطر لهم فيتعلّقونها مستمسكين بها ولـــو لم تعززها لهم بيّنة، والظنّ لا يغني من الحق شيئاً، والحق هو الرؤية التي تصدقها آيـــات الله في الطبيعة علماً منضبطاً وتفكراً وآياته في الوحي بيّنات تلاوةً وتذكراً بها يرسّـــخ يقـــين الإيمان. ومهما يكن أمر المشركين بالله موقرات الدنيا المعهودة فإن الله عليمٌ بما يفعلونه في حياتهم من كل تعبير عن ظنونهم يؤاخذهم عليه يوم المرجع إليه إذ توضع الموازين القسط فلا تُظلم نفسٌ شيئاً وإن كان مثقال حبةٍ من خردل يأتي بها الله وكفى بالله حسيباً.

إن القـــرآن الذي كان يتلى هداية لمن يؤمن من أمة الخطاب الأولى بقي محفوظاً خالـــداً ليُخاطب به الناس من حولهم ومن بعدهم أبداً: أنه حقاً وحيٌ من الله وصدقاً بلاغٌ من رسوله. وما كان هذا القرآن ليُفترى من دون الله يصطنعه الرّسول من تلقاء

نفـــسه أو يعلّمه إيّاه بشرٌ من علماء الكتاب السابق، ولكنه تصديق الذي بين يديه من الـــتوراة والإنجيل التي كانت مأثورات سارية في الأرض من التنـــزيل شهادةً بأن الله يوحـــي للأنبياء كتباً، وتلاها هذا رسالةً خاتمة تصوّب ما اعتراه التغيير منها وتجوّد ما تغيّرت بعده الابتلاءات، ولكن الكتب كلها تصادقت شهادةً واحدةً في الأصول تذكر حقائق الغيب وتعاليم الهدى في حياة كل خَلَف حتى أتمّها الختام الخالد. والله يحيط في علـــيائه بعلمٍ مطلق وحكمة بالغة هدىً للإنسان الذي خلق، وذلك في أُمّ كتاب عليٍ حكـــيم، وهذا القرآن كان تنـــزيلاً منذ ذلك الأصل تفصيلاً لخطى الحياة المهديّة في ضوء ظروف وابتلاءات مستجدة على أساس من وجهة الحق على صراط مستقيم. ولا ريـــب فيه أَنه من رب العالمين أنـــزله من لدنه جبريلُ ملكٌ مكينٌ أمين وتلقّاهُ رسولٌ صادقٌ أمين كما عهده أهله وكلمةً من حروف لسان المخاطبين لكنه فوق ما يعهدون ويقدرون بشراً بياناً وحكمة.

أتقوم بذلك حجة بالغة على حق القرآن؟ أم يصر الذين يتلى عليهم قديماً وحديثاً أنه مفترى من الرّسول أو من ورائه، عندئذٍ والتحدّي لهم ما يزال قائماً يلُقى إليهم أن يأتوا بسورةٍ مثله بياناً وحكمة، ولِتفلح منهم المحاولة فليدعوا من استطاعوا ليستشهدوا بهم على سواء المماثلة إن كانوا صادقين. والحق أن التكذيب بالقرآن من جهالةٍ بحقائق الغـــيب علمـــاً لا يحيط به البشر، ولكن بعضهم يُعوّلون على تخرّصات وظنونٍ تغشى عقـــولهم، ومـــا للبـــشرِ من نبإٍ يقين بما وراء المشهود، وهُم من قصور علمٍ فيهم لا يدركـــون مـــثل معـــالم هدي القرآن في الحياة الدنيا، بل يضربون فيها مذاهب خبط عـــشواء بوحـــي الـــشيطان والأهواء. والتكذيب كذلك لأنه لمّا يأت تأويل مقولات القرآن كلها في غيب المستقبل واقعاتٍ تُصدّق لهم ما فيه من الهدى السابق. فالناس في العالم لم يستكملوا في تجارب سيرهم وعبرها مثل حق القرآن في قيم الهدى ولّما يبلغوا إلا قلـــيلاً مـــن المـــبادئ التي ألِفَوها حقاً مثله بعد طول معاناة من ضلالات التاريخ وســـوابقه المعانـــية، والتي تُبيّن الرؤى الحكيمة وتمكّن الإصلاحات القويمة. ولما يأتهم كذلك إحقاق كل وعيد من سنن الله في العواقب العاجلة التي تأتي في مرّ الزمان أيلولة لمخـــتلف مـــسالك الحياة ومذاهبها الحاضرة هدىً أو ضلالاً، ولّما يقع عليهم في مدى

الدهــــر المــــتطاول أجل الأزل فوعد المرجع إلى الله آخر الحياة الدنيا. وكذلك كذّبت أقــــوامٌ من قبل رسلاً وكتباً تهديهم وتنذرهم وكانوا يستعجلون وقع نذيرها ويستفتحون للآجال المرجوّة تمنياً، ولينظر المعتبر المتّعظ بسيرِ بني الإنسان كيف كانت عواقب الظالمين العادين على حق الدين وعدله في عاجل دنياهم قبل أن يقع عليهم أجل الأزل.

والذين يخاطبهم الدّعاة بالقرآن منهم مَن قد يستجيب فيؤمن ومنهم من لا يؤمن. وذلك قدر الله الذي ترك لبني الإنسان تخيير المشيئة – لكلٍ وجهةٌ هو مولّيها كافراً أو مؤمناً. وقد يتشاقّ الفريقان، فإذا دُعي الضالّون إلى الهدى في الحياة وإلى الإصلاح بعد الفــــساد في الأرض ادّعوا أنهم هم المصلحون. ومهما يكن فإن الحرية الدينية – مذهباً ومقـــالاً وعـــبادةً – هي حكم مشيئة الله التي لا تتبدل، وكذلك إقامة المسئولية وفق الخيار الذي سار عليه في حياته الإنسان. وينبغي أن يعدل القائمون بدعوة الإسلام في إطـــلاق خيار المواقف ليعمل كلٌ على شاكلته وفي رعاية تمايز المسئولية ليكسب كلٌ لنفسه بريئاً عمّا يعمل الآخر لا يكفله فيزر وزره ولا يسلبه ليحتاز حقه، ليكون ذلك في الـــسلطان على الناس في الدنيا مثل ما في قضاء الله وملكه الحق فيها. وهذه الحرية الـــتي قدّرها الله وفرض رعايتها هي ضمان أن يدخل الإيمانُ النفوس عن سكينة رضىً وإخـــلاص وألاّ يبديه المرء عن نفاق بفتنة الإكراه خشية نُذرٍ من غير الله العليم وحده بمـــا في الصدور والذي يذر الناس طلقاء إلى يوم القيامة، فلا خير لأن يُهدى القائمون بالـــدين إلى الله تعالى ألسنةً مسبحةً عن صدورٍ مريضة بالنفاق غير خالصة. واليوم في عـــالم الـــناس أصبحت حرية الدين مقبولة وموضوعة حكماً في كثيرٍ من نظم الحياة العامـــة، لكنهم إنما أمضَوا ذلك بعد تجارب طويلة مريرة ازدهدوا فيها الدين إذ فسد دعاته وزعماؤه وزهق باطلهم ورأى رعاياهم ما وعظهم من فعل العصبية المتنطعة عند هـــؤلاء مـــن إيقاع شتّى جيوب الجبروت والفتنة على الذين لا يوافقونهم في الدين، تعذيـــبهم أو تقتيلهم أو نفيهم أو حرمانهم من رخصة ممارسة العبادة وإقامة أماكنها. ولكـــن ما تزال في نفوس بعض غير المسلمين وبلادهم بقيةٌ من ذلك الجبروت الديني، إذا شهدوا رسالة القرآن يظهر غالباً على دينهم في مجال الحرية وتراهم ينتكسون عليها بنـــزعاتٍ من تلك العصبية الهوجاء.

والـــذين لا يؤمـــنون برسالة القرآن منهم المتنطعون الذين يحذرون خطرها. فإذا سمعـــوا كلمـــات تلك الرسالة وأصوات دعاتها يتلقّونها صُمّاً لا يعقلون ولا يضبطون أهـــواءهم التي تلقى وقاراً في آذانهم ولا يشرحون قلوبهم لتبلغها كلمة الحق التي تطرق طـــبول آذانهم لتنفذ في مستقر إيمانٍ مطمئن. ومن أولئك أيضاً من إذا راقب ناظراً إلى نمط مسلك أهل الإسلام ونَظْم حياتهم حيث يتبيّن من خلقهم وسنتهم مثالٌ للدين في الواقـــع المـــشهود لا يتخذه قدوة يهتدى بها. فبعض المراقبين إما استشهدوا بما لا يمثل الإسلام أو إذا شهدوا ما صدق مثلاً ينظرون عمياً لئلا يروا حسناً يشهر الحق ويشهد لـــه، إذ تغـــشى عيونهم وعقولهم عصبيةُ كره لأهل الإسلام فلا يبصرون تجليات الحق ليتبيّنوه ويتّبعوه بل يمضون في ضلالهم عامهين.

ترتيل المعاني (الآيات: ٤٤ – ٦٠):

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤)

إن الله لا يظلم الناسَ شيئاً، أنشأ لهم قوة الإدراك سمعاً وأبصاراً لييسر لهم الحياة، وليـــتلقوا آيـــات الله المـــتلوّة والمعروضة طبيعةً، وليحتملوا أمانة التكليف والسؤال، وأنـــــزل عليهم القرآن تذكيراً وتفصيلاً للهدى، فهو تعالى لا يأخذهم وهم لم يبلغوا الأهلـــية للأمانة والسؤال، ولا يؤاخذهم وهم في جهالة لّما يأتهم العلم والنذير بكتاب منـــزل يحمله رسول. ولكن الناس أنفسهم يظلمون لا يعملون قوى إدراكهم ليسمعوا أو يبـــصروا آيـــات الله حقاً، بل يعطلونها صمماً وعمى لا يؤمنون بالآيات وبالكتاب والنذير.

﴿وَيَـــوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥)

ولـــئن كانـــت الدنيا يوم وحين تتوارد فيه مزاعم المخاطَبين بدعوة القرآن رمياً للرســـول بالافتراء واستماعهم إليه لا يبلغ العقل ونظرهم إليه لا يبصر حق المثال، فإن بعد بلاغ الرسالة يومُ ابتلاء يمدّه الله لعباده حتى الموت وحتى يجئ أجله الحاسم – يوم يحـــشرهم الله بأقداره بعثاً وسوقاً إلى معارض بيان لكتاب أعمالهم وملام حساب على

أعمـــالهم بين يدي مواقع الجزاء - يومئذ ذكراهم لحياتهم الدنيا التي فتنتهم بالانبساط الفسيح الذي يمدّه الله وهم في التمادي باطلاً يعمهون غافلين عن الموت- ذكراهم لها كـــأن لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار إذ تنفتح عيونهم وعقولهم التي كانت مغشيّة البصيرة مـــسارعة بمرِّ الساعات والأيام وبنقص العمر إلى حين الموت المكنون. وهم يتعارفون بينهم يومئذٍ إذ كانوا يتمايزون في الدنيا مؤمنين وكافرين ويتفاضلون بموازين قيم باطلة لـــسعة المـــتاع، ويقع عليهم القول أن يتمايزوا اليوم بين فلاح وخسران - يومئذٍ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله هذا وما كانوا مهتدين للصراط المستقيم إليه مصدقين وعد الصدق بمنتهاه عند الله ليسعوا ويُعدوا للفلاح.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦)

واقعـــات الغد وآجالها غيب يقدّرها ولا يضبط علمها إلا الله لأنها غيب كأجل يـــوم الآخرة، لاسيما إذا امتدّ المستقبل بين يدي الناظر، وقعُ علم حادثاته وقدرها عند الله. والخطـــاب للرسول ﷺ أنما عليه في شأن مستقبل دعوته وهمّه وأمله بوقعها على المخاطبين - عليه البلاغ والصبر. وإما يريه الله بأقداره بعض الذي وعده بها من أيلولة الهـــلاك للمكـــذبين بعد النذير كما خلت بذلك السنن والنذر في الأولين، أو يتوفاه بأقـــدار المـــوت المسنون وقد أدّى الرسالة وبلّغ الأمانة وهو لأجله ميت وهم ميتون، وكلٌّ مسئول عن كسبه بريءٌ عما يعمل غيره، فإلى ملأ الله الأعلى مرجعهم يوم البعث والحـــشر والحساب، ولا مجال للنكير، فالله الحي الذي لا يموت وهو معهم أينما كانوا رقيباً - فالله شهيد عليهم بينما الرسول فيهم أو هم خلفه، شهيداً على ما يفعلون ولو ذرّة من قول أو عمل[1].

﴿وَلِكُـــلِّ أُمَّـــةٍ رَّسُـــولٌ فَـــإِذَا جَـــاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧)

(١) في بيان مرجع المخاطبين بالرسالة إلى الله والشهادة له على ما يفعلون، وقد يرى الرسول ﷺ في الدنـــيا بعـــض مـــا يُنذرون به أو يتوفاه الله دون ذلك - انظر الآية ٤٠ سورة الرّعد، والآية ٧٧ سورة غافر.

ويــوم ذاك الحشر والحساب ينــزع الله من كلٍّ أمة من خلائف الأرض شهيداً ليقــيم عليها بيّنة البلاغ والنذير، لكل أمّة رسول يجيء ليحق عليهم سبق بلاغ الهداية ونذير وقوع وعيد الله على المكذبين عذاباً عاجلاً في الدنيا أو أن توفّاهم دون ذلك – آجلاً يوم القيامة. فهو يومئذ يقوم شاهداً أن قد أدّى أمانته في تبليغ الرسالة والتحذير مــن العاقبة، وقد تكون أمّته المخاطبة قد حملت من بعده الرسالة، ولكنه هو شاهد بما ترك فيهم وعلى ما حضر. فإذا كان قد حقّ عليهم عذاب آجل شهده يذكّرهم أن قد نصح لهم ولكن وقع عليهم ما أنذر من عاقبة ولا متاب بعد فوات الأوان. كذلك يوم الحــشر المذكــور في سياق هذه الآيات يُجاء بالرسول فإذا شهد على أمّة خطابه في معــرض مساءلتهم حقّ عليهم الأمر بتلك البيّنة وقُضي بينهم بالقسط فيما اختلفوا فيه معــه وهــم لا يُظلمون، وإنما ظلموا أنفسهم بالضلال عمّا سمعوا من الهداية إلى الحق غفلةً عنه وإعراضاً عن النذارة التي سبق بلاغها.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨)

أولئك الظالمون قبل أن يأتي تأويل النذير لا يؤمنون بأن مرجعهم إلى الله وأن يوماً موعوداً قد يحملهم إليه الموت المسنون فرادى أو الهلاك العاجل بعقاب جامع مهما يمدّ الله لهم في الدنيا، وقد يأتيهم ذلك اليوم بغتة وهم شاهدون لا يؤمنون إذ لم يتفكّروا في ســنة أقدار الآجال في كل المخلوقات المشهودة تحيا عمرها أو تجري دورتها إلى أجل، ولم يــصدقوا بلاغ الرسول يتلو عليهم القرآن نذيراً بذلك اليوم الموعود. بل بعد كل ذلــك يــسائلون عــنه بنــزعة من فتن الدنيا عجلة في تأويل الآجال وتصويباً على الحاضــر، أو نظراً لسالفين مضوا وصاروا رفاتاً لن تعود إلى الحياة ظناً أنه فناء منحسم يقولون: متى هذا الوعد إن كنتم أيها الدعاة المنذرون صادقين رسلاً من الغيب؟

﴿قُــل لاَّ أَمْلِــكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٤٩)

على الرسول الداعي المنذر أن يجاوب تساؤلهم عن بيان أجل الوعد المعدود دون أن يــرتابوا بــه من الصادقين: أنه بشر لا يعلم آجال الوقائع التي يؤول إليها مصيره ومصيرهم ولا يعرف مآلات الأمور كما يهوى، لا يملك لنفسه دفع ضر أو جلب نفع

قادم لأجل معلوم عند الله، وإنما يسعى في الأسباب ولا يملك بعدُ إلا ما يشاء الله عالم الغيب مصرّف الأقدار يسأله هو خير المآل الذي يقضيه لأجله كذلك لكل أمة – مثل المخاطبين – إذا جاء أجلهم فرادى بسنة انقضاء العمر وحلول الموت أو بقدر الهلاك والموت جملة بعقاب حقّ عليهم قضاؤه، فذلك مبلّغ إلى اليوم الموعود، ليس بينهم وبينه مدة لحظة من حياة في الدنيا فإنهم منظورون في غيبة برزخ، ثم هم قيامٌ ينظرون إلى المبعث في ذلك اليوم. والله أعلم فقد يقع وهم والرسول باقون. أو يخلفونه أحياء – أن تبغتهم أقدار قيام الساعة يشهدونها فإذا هم خامدون، حتى تعقب ذلك قومة المبعث لكل العباد، ولساعة ذلك اليوم الموعود أجل يعلمه الله ويسميه محدوداً، لكن إذا ساق إليه أجلٌ دونه موتاً فهم منظورون أو بنفخة الخمود عنده فهو واقعٌ لحينه، فإذا وقع على أمّة أجلها عبر الموت أو النفخة فلا يستأخرونه يلتمسون مدّاً للحياة ومهلة لمراجعة كسبهم إذ لم يكن صلاحاً زاداً لذلك المَقدم لأنهم ما آمنوا بحقه واقعاً موعوداً بعد الموت أو فجأة، ولا يستقدمونه دون حينه وإن استعجلوه أو ضربوا في المهالك المحذورة غير مبالين بالنذير فهو لأجله المحدود عند الله، والله يمد الدنيا والناس منها خلفةً حتى يأتي الحد للدنيا كلها[1].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠)

ولو آمن أولئك المخاطبون بحق المرجع إلى الله وآجاله الموعودة لأعدّوا أمرهم إيماناً وزاد عمل صالح كأنهم شارفوا أجلهم يموتون أو تبغتهم الساعة غداً، ولكن كفروا بنذر الغيب ووعيده حباً للدنيا المشهودة وظناً أن تتوالى أيامها لهم مبسوطة كأنهم يعيشون أبداً. وليذكرهم الرسول ﷺ وهم مفتونون بالدنيا متمادون في ضلالهم ممترون بنذر العذاب عقاباً عاجلاً أو آجلاً بعد البعث، ليسألهم: أرأوا إن أتاهم تأويل وعيد الله وأخذهم بذنوبهم مثل سنة القرى الظالم أقوامها الأولون، بأن جرى عليهم

---

(١) في بيان هذه الآيات رسالة نذير قسطاً وقصور علم الرسول عن جواب السؤال عن ميقات وعد يوم الحساب في الآخرة وأنه غيب يعلمه الله وأجل محتوم ينبغي ألا يُستعجل – راجع الآيتين ١٨٧ و١٨٨ سورة الأعراف، وانظر الآية ١٠٩ سورة الأنبياء، والآيتين ٦٥ و٦٦ سورة النمل، والآية ٦٣ سورة الأحزاب، والآيتين ٢٥ و٢٦ سورة الجن، والآيات ٤٣، ٤٦ سورة النازعات.

وقوع عذابه تعالى بياتاً، وهم مطمئنون نوماً وسكناً أو نهاراً جهاراً وهم ضاربون سعياً في متاع المعاش لاهون، ماذا عندئذ وقد وقعت الواقعة يستعجل منه المجرمون، ماذا ينتظر على عجل - والخطاب يستمر لهم أولئك المجرمون الواقعون كذلك في جرائم الكفر والظلم - من تأويل نذر القرآن أن تباكرهم عاقبة نازلة؟ ماذا حتى يصدقوها؟.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥١)

أثمّ - إذا مُدّ لهم أجل في الدنيا لهواً وعيشاً ولعباً ووقع ذلك العذاب وجاءهم أجل الهلاك ثم آمنوا به وتيقّن لهم علم صدق تأويل النذير وقد كانوا به يستعجلون، الآن يؤمنون به ويفزعون إلى الله يرجون إمهالاً ليتوبوا عما أسلفوا ولتستقيم سيرتهم إلى صلاح بعد الفساد؟ ولات حين متقبّل للتوبة وقد انفسحت لهم مجالات من قبل للتوبة والإيمان والعمل الصالح قبل مجيء أجلهم ولكنهم كانوا لا يؤمنون به آجلاً ويستعجلونه لو صدق.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥٢)

ثم بعد حلول ذلك الأجل والهلاك وصلكم القدر عبر غيبة وراء حياتكم الدنيا إلى اليوم المقدور، وعندئذ وقد وقعت الساعة قيل للذين ظلموا - إذ لا مرجع إلى الدنيا ولا محيص ولا توسّل لأوليائهم الذين اتخذوهم شركاء لله شفعاء عنده ليذوقوا عذاب الخلد، وقد سبقت لهم مقولات الرسالة أن يتّقوا الله وليتزوّدوا للقائه قبل أن تمضي الحياة الفانية، هكذا رُدّ على نكيرهم للبعث والآخرة، واليوم لا يجدي التعذر والإنكار فهل يجزون إلا ما كانوا يكسبون مكافأة لظلمهم ولا يُظلمون؟

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٣)

والخطاب للرسول أنهم فضلاً عن ارتيابهم يستنبئونه عن وعد البعث والحساب المحذور - يسألونه عن ذلك الشأن الخطير: أحقٌ هو؟ كأنهم في ريب متماد مما ينذرهم به من القدر المكتوب بينما هو لا يعلم أجل قضائه الحاسم. أحقٌ هو؟ يسألون وهم لا يرون بعد الموت والصيرورة إلى رفات كما جرى لآبائهم أنهم مخرجون أحياء من جديد، فذلك في رؤيتهم أعسر من أن يعقل. سيُوصى الرسول المنذر عندئذٍ أن يجيبهم

إيجاباً مؤكداً بالأيمان المعظّم عنده أن إي وربّه إنه لحقٌ، وأن يثني الكلام بما يصرف ريبهم في بعثهم نافياً تعسّره على الله مضيفاً لهم مؤكداً أن ما هم بمعجزين الله بعثاً وحشراً، وذلك أهون عليه تعالى فقد خلقهم أول مرة وجمعهم وسيّرهم في الأرض.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤)

وليحذر أولئك الظالمون من وقع ذلك اليوم الموعود ومن العذاب الحقيق عليهم لا فوت منه: ولو أن لكل نفسٍ منهم ومن غيرهم ما في الأرض جميعاً من متاع كانت تجمعه وتحبّه لاستغنت عنه من عِظَمِ ما حقّ عليها ولافتدت به. ولكن لا مساومة بعدل ولا فدية تؤخذ، فالله غنيٌ له ملك السماوات والأرض يتولى الفصل ولا يقبل إلا ما قدمت كل نفس في دنياها، وعندئذ - وقد تعسّر أن يفدوا أنفسهم وتعسر النطق بما يدفع عنهم من إنكار واعتذار - أسَرَّ أولئك الظالمون الندامة لّما رأوا العذاب الذي لا متاب منه ولا استعتاب حتى ينفعهم فيه إعلان الندامة، وقُضي بينهم بالقسط وهم الظّالمون لأنفسهم أمس وقد سبق إليهم الهدى والنذير ويحق عليهم اليوم الجزاء الوفاق بما كسبوا لا يظلمون[1].

﴿أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥)

في ختام بيان النذير بنبأ اليوم الموعود، المبتدأ في الآية بهمزة مساءلة وأداة نفي تعبيراً عما يخطر في نفوس الناس المخاطبين أهل الدنيا من فتنة قد تنفي الحق في توحيد أمر الله، ويتلو تأكيد للإنسان: أن الله له ما في السماوات والأرض هو الملك القدير على كل شيء فيها أمراً وتصريفاً وهو الغني بذلك عمّا يفتن الناس من المشهود مما يتعلّقون به دون الغيب فيتخذون آلهة من دون الله لا تملك ولا تقدر على شيء بل هي كلّ عليهم لا تستغني. ثم يعود ابتداء بأداة المساءلة والنفي عمّا يخطر في النفوس بفتنة

---

(١) في ذكر الحق أنه لا غناء في الفداء اتّقاء لعذاب الآخرة ولو ملكت نفس كل ما في الأرض - راجع الآية ٩١ سورة آل عمران، والآية ٣٦ سورة المائدة، وانظر الآية ١٨ سورة الرعد، والآية ٤٧ سورة الزمر.

الدنـــيا الحاضرة العاجلة قصراً على مرجواها، والتأكيد: أن وعد الله للآخرة حق لأنه سبحانه عدلٌ حكيم يخلق الناس ويبتليهم لأجل ثم واعد قادر على أن يبعثهم ويجزيهم، فعّـــال لمـــا يـــريد. تلك قواعد إيمان واجبة في قيام حقّ الوجود، ولكن أكثر هؤلاء المخاطـــبين ممّـــن رؤيتهم في ظلام وحياهم في ظلم لا يعلمون ولا يشرحون صدورهم لتلقي العلم تفكّراً في الوجود أو استماعاً لذكر الآخرة من علم الله المنـــزل.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦)

الله هو الذي تبدو آيات قدرته في المخاطبين بآياته وفي الحيوان والنبات حولهم – فـــيها المولـــود الـــنابت يحييه الله، وفيها الهالك والحطام يميته الله. وإليه من ثمّ يرجع المخاطـــبون، يميتهم في الدنيا ثم يحييهم ليقوموا يوم القيامة وهو القادر على ذلك كما أنشأهم أول مرّة وأحياهم.

﴿يَـــا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)

المبـــتدأ كذلك نداء وتنبيه: يا أيها الناس – نداء لأي منادىً منهم أن هاهم أولاء يحـــيط بهم محدود من العالم المشهود يفتنهم عن أبعاد الوجود الحق غيباً ومعاينة. كل هـــذه المعاني السابقة أتتهم في كتاب حكيم بلساهم المبين. وقد تقدم في صدر السورة ذكر ذلك الكتاب رسالةً بنذارة وبشارة وذكر أصول بياها ذكراً لربّهم الأعلى والمرجع إلـــيه (الآيات ١–٤). ينبه المنادون المخاطبون أن قد جاءهم وأتتهم بذلك موعظة من ربهـــم وشـــفاء لمـــا في الصدور من جهالة وغفلة عللاً في القلوب قد تميتها فلا تنشط لمقتـــضى مغـــازي الوجود الحق وأقدار مصائره الفعّالة. وجاءهم بذلك الكتاب أيضاً هـــدىً لمـــن يـــؤمن منهم فيلتمس طريق الاستقامة لوجه الله والبشرى للقائه، ورحمة رضوان ونعمة من الله على المؤمنين.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨)

والوصـــية للرسول ﷺ المبلّغ التالي على الناس الكتاب أن يذكّرهم أن بفضل الله وبرحمته جاءهم القرآن عطاءً عفواً ولطفاً، فبذلك فليفرحوا ولتنشرح صدورهم بوقعه الطـــيب في الحـــياة أولاها وأُخراها. وهم يفرحون لكل متاعٍ زهيدٍ يعرض عليهم في

الدنيا ولكن ذلك الهدى القرآني هو فضل ورحمة خيرٌ مما يجمعون في كل حياتهم الدنيا، من كل ما يهوون ويلمّون فيها.

﴿قُــلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنــزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩)

ولـيمض الرسول ﷺ مذكِّراً بأن الهدى كله من الله، مخاطباً لهم سائلاً: أرأوا ما أنــزل الله لهم من رزق في مكاسب الدنيا لغذاء حياتهم؟ أصل ذلك المتاع كلّه من الله مهمـا سعوا هم في الأسباب، ولذلك مدّ المتاع حلالاً وحدّه حراماً يكتبه الله تعالى. لكنهم رأوا ذلك فاستجابوا لما مَنّ الله به عليهم بأن جعلوا منه حراماً وحلالاً احتكاماً لإيحـاءات يخرصونها وأعراف يتّبعونها. ليسألهم الرّسول: آللّه المعطي أَذِن لهم في ذلك التـشريع بوحـيٍ جعل لهم سلطاناً ليتواضعوا على دينهم كذلك؟ أم على الله يفترون ويختـلقون الأحكـام نـسبةً إليه و لم يُوحِ إليهم بذلك من شيء؟ أم شرع لهم ذلك شـركاؤهم المزعومون؟ وما هم بمنـزلي الرزق عليهم ولا الهدى من دون الله، فكيف يتّبعونهم من دون إذن الله[1]؟

﴿وَمَـا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ (٦٠)

وأصـحابُ الافتراءات الكاذبة غير المسنودة إلا إلى أعراف ظن وتراث شرك، ما ظنهم وهم يفترون هكذا على الله الكذب العاقبة يوم القيامة إذ المساءلة حاقّة فالتمايز بـيّنٌ بين الذين يتّبعون ما أنـزل الله هدىً مُوحى وبيّنات متلوّة عليهم صدقاً هؤلاء الـذين ينـسبون إلى الله كذباً ما يظنون مما لم ينـزل ويروّجونه عرفاً في شأن الرزق الـذي أنـزله لهم الله و لم يتلقّوه من مرجو آلهة شركهم؟ إن الله لذو فضل عظيم على الـناس إذ أخرج لهم مما في السماء والأرض رزقاً جعله حلالاً بسعته إلا قليلاً مما حرّم فيما أنـزل من كتاب ليهديهم إلى ذكر الله عليه وتقواه، لا يأكلون رجساً غير طاهر

(١) في النهـي عن التحريم والتحليل تشريعاً مفترى بغير إذن الله – راجع الآيتين ٢ و٨٧ سورة المائـدة، والآيات ١٣٨ – ١٣٩ و١٤٨– ١٥٠ سورة الأنعام، والآية ٣٢ سورة الأعراف، والآية ٣٧ سورة التوبة، وانظر الآية ١١٦ سورة النحل، والآية ١ سورة التحريم.

مـــن لحم الخنـــزير ولا دماً مسفوحاً يعتادون سفكه فيهم، ولا ميتاً لم تُتذكر فيه نعمة الله، ولا مذبـــوحاً قـــرباناً ذكر عليه اسم غير الله. وليعلموا أن الله الذي وهب الحياة وأرزاقها هو الذي يرسم فيها السبيل إليه. ولكن أكثر الناس لا يشكرونه على أفضاله في الرزق المنـــزل بل يغفلون عن ذكره ويشركون به ولا يتّقونه بهدى الفضل المنـــزل بل يحرّمون ويحللون منه بظنون شركهم وأهوائهم التي تصرفهم عن الله الرازق الهادي المحمود.

عموم المعاني (الآيات: ٤٤ – ٦٠):

مهما يُرمَ القرآن بريبٍ وظنون أو يُعرض عن سماعٍ دعوته أو رؤية مثاله في حياة المؤمـــنين، فـــإن الله يرســـلُ رسلاً يبلّغون كتباً منـــزلة للإنسان المحجوب عن الغيب وحقائقـــه وأيلـــولة آجالـــه ليهدوهم وليبشروهم وينذروهم بعاقبة نهج الحياة الذي يـــتخيرون، ولـــيقوموا فيهم أئمةً وأسوة على نهج الهدى القويم الذي تحق له البشرى. ذلك أن الله منذ هبوط آدم من الغيب وعد خَلَفه أن سيتعهدهم بإنـــزال العلم والهدى مـــن الغيب إليهم وأن من آمن واتّبع أفلح ومن كذّب خسر. فالله سبحانه لا يعاقب عباده لضلالهم وفسادهم حتى يبعث فيهم رسولاً هادياً ومبشراً ونذيراً، لكن كثيراً من الناس ظلموا أنفسهم إذ كفوا مداركهم سمعاً وبصيرة عن تلقي كلمة الحق الداعية إلى اتـــباع ســـنته الهادية، وبدّلوا نعمة الله تلك كفراً ومضوا عمياً صماً عن صوت رسالة الحـــق ومثاله، فسلكوا بحياتهم السبل التي تؤدي إلى سوءى العواقب رغم ما أُوتوا من بيانٍ لسبيل البشرى بالحسنى ونذر العاجلة للمعرضين التي تشهد بها آيات الله في تاريخ ســـلفٍ مثلِهم لو يتذكرون، ودون مبالاة بسنة الآجال في خلق الله المشهود التي تشهد علـــيها آيـــات الله أفلاكـــاً في الطبيعة، وظواهر فيها لدورة الحياة والموت في النبات والحـــيوان بآجال. فما لهم من إيمان بآيات الله في الوحي المتنـــزّل عليهم التي تذكرهم بأجـــل يـــوم الحشر والسؤال والجزاء والوعد إنه لآتٍ يقترب حقاً. ويوم يحشرهم الله تـــبدو لهـــم عدة دنياهم التي أملاها لهم الله وكانوا يتمادون فيها في ضلال عمياً صماً تغـــرّهم بوهمٍ دوامها كأنه إلى الخلود – تبدو لهم تلك المرحلة الدنيوية من وجودهم

كأنها ساعة من نهار. ويُزاول بين الناس من وقع المسائلة ويساقون زمراً شتىّ نحو مواطنهم المستحقة ولكن يتعارفون بينهم جميعاً، الخاسرون يرون كيف يفوز المؤمنون بالخير كله وكانوا أمس يظنونهم من الأشرار ويشهدون مأواهم امتيازاً عما يهوون هم إليه. هنالك حقّ نذير العاقبة واقعاً إذ خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين إلى الصراط المستقيم إلى الفلاح. إن السواد الأعظم لبني الإنسان اليوم مضوا على ذات المذهب الدنيوي القديم، بل ازدادوا فتنةً بالدنيا الممتدة في وهمٍ أبداً لأنهم ازدادوا متاعاً يأخذونه شهوةً كالحيوان لا يحمدون الله، وازدادوا علماً بعلوم الطبيعة والدنيا لا يرون فيها آيات الله، ولكن فزع يوم القيامة يذهب بذكرى الدنيا الكثيفة هذه وتبدوا ساعةً عارضة ويتعارف فيها الناس بوقعٍ آخر أبلغ من تعارفهم بوسائل اتصال أهل الدنيا المتكاثرة اليوم.

إن على دعاة الدين أن يمضوا في دعوتهم على سنة الرسول ﷺ كما نصحه ربّه – صابرين متوكّلين على الله فيما يستقبلون، فقد يريهم الله واقعاً من سنة وعيده ونذيره بالعاجل خُسراناً على المعرضين، ويمرّون عنده هم ناجين من خزي الدنيا غير آسين على الخاسرين الذين يلونهم من أقوامهم وبني وطنهم إذ قدموا لهم النصيحة والدعوة والتحذير. وفي ذلك اعتبارٌ لما جرى في قصص الأنبياء. وقد يتوفّاهم الله لأجله المكتوب دون أن يبلغوا هم بدعوة الإسلام مبلغ التمكين أو أن يروا في المعرضين عاجلة مصاب واعظ، فليكِلوا الأمر إلى الله فهو يأتي بالفتح لأجلٍ يقدّره بعد ابتلاء الصابرين وعلم كسبهم الواقع ويؤجل العذاب على الذين استحقوه، ولو كان يعاجل فيقضي على من اكتسب السوء ما ترك على الأرض من دابّة، بل الله يذر الظالمين ويُملي لهم حتى حين وإليه المرجع وهو شهيدٌ على ما يفعلونه أمام الدعاة أو خَلَفاً لهم تمادوا في الظلم أو استغفروا وتابوا وأصلحوا.

كلما خوطب الناس بنذير القرآن بآجلة الغيب وأن الله لا يظلمهم بما يُعدّ لهم فيها وإنما هم لأنفسهم يظلمون إذ يُعرضون عمّا يُنزل إليهم من الله العليم الحكيم هدايةً لحياتهم الدنيا إلى طريق العاقبة الحسنى وتحذيراً من خوضها إلى السوأى – كثيرٌ منهم لا يبالون بمرّ أيامهم إلى الموت ونذير قيام الساعة – يعمهون في لهوٍ ومتاعٍ في

عـــالم الدنـــيا الحاضر المشهود، وهؤلاء كلما خوطبوا تذكيراً يسألون: متى هذا الوعد بـــيوم البعث والدين؟ إذ يرتابون إن كان الذين يحملون رسالةَ القرآن ونذيره في ذلك صـــادقين. هكـــذا يتـــساءلون لأنّهم هم لا يعهدون إلا هذا الدهر الذي تتعاقب أيامه بحـــساب ويـــريدون عين أجل ذلك اليوم الموعود ليتمتعوا مطمئنين دونه حتى يوشك فتحملهم الشفقة منه إلى إعداد العدة لواقعه القادم المقترب، أو ليشهدوا ذلك اليوم إذ غدا المنذرون به حقاً على صدق، وهم يستعجلونه ليروا وقائعه عياناً وهم أحياء إذ لا يؤمـــنون أنهم إذا ماتوا يبعثون خارجين من الأرض. وجواب الداعية الحق في أمر ذلك الغـــيب كجواب الرّسول كلما ألحّ عليه السؤال من أهل خطابه: أنه هو لا يعلم عين أجل الغيب القادم، بل هو في الدنيا لا يملك أن يحتسب حين ضرٍّ آت لنفسه فيتّقيه ولا أن يتهـــيأ لساعة نفعٍ مرجو ليتلقّاه، وإنما يسعى في حياته داعياً ربّه واكلاً وقائع عاقبة أمره في الغيب المستقبل إلى عليمٍ في مشيئته وقدره المفعول، وليُذكر المخاطبون أن لكلّ أمّة قوماً أو جيلاً من الناس أجلُهم المكتوب أن يشهدوا الساعة تقع عليهم حاضرة بغتة أو يلقـــون مـــوتاً كالمعتاد، لكنه يسوقهم إلى بعثٍ يحيون فيه كما هم في حاضر الحياة ليلقوا ربّهم وحسابه. فإذا جاء أجلهم بأمر الله بأيٍ وجه فهم لا يستأخرونه ساعةً فراراً مـــنه أو رجـــاء المكث في الدنيا مدةً دونه لاستدراك الإعداد اللازم للآخرة، وهم لا يـــستقدمونه مهما يستعجلون مقدمه يكذّبون فيتحدّون صدق النذير. وإنما الرشد أن يـــستعد الناس لذلك اليوم ولو لم يعلموا ساعةَ أجله أتمّ استعداد كأنهم يموتون أو كأنه يقـــع غداً، لكن غالبهم يؤثر أن يتمادى في متاعه طوال الأيام غافلاً أنه ينتظر أجلاً أو أن يـــستعجل حيـــنه إذا ذُكّر به. فإذا وقع بغتة وأتاهم فيه عذابه – لأنهم لم يتزوّدوا لخيره – وفاجأهم عبر الموت أو بواقعة الساعة وهم في طمأنينة من سكون الليل وراحة المـــنام أو في شغل من همّ النهار ولهوه رأوا فيه ماذا يستعجل منه الذين كانوا يسعون إلـــيه مجرمين. هل بعد وقوعه فعلاً يباشرونه بإلقاء المقولة المستسلمة أن قد آمنوا الآن بـــين يـــدي مـــشهده؟ أيبتغون بعده مهلة؟ إنما يحق عليهم عندئذ أن يُسألوا ما غناء مقولاتهم تلك الآن وقد كانوا به يستعجلون غير مؤمنين ولا سالكين خير السبل اتقاء نذيـــره؟ عـــندئذٍ لا يبقـــى للذين ظلموا وعدلوا عن سواء طريق هدى الحياة الأولى

معرضين فيها عن أمر العبادة لله بخيار طوعي إلا أن يؤمروا منه تعالى لدى تلك الآخرة بالطاعـــة جـــبراً لحكم قضائه النافذ ليذوقوا عذاب الخلد الذي ليس كبلاءات الدنيا الأرفق العارضة وأنّى لهم التظلّم من ذلك، فهل جزاؤهم إلا كفاءَ ما كانوا يعملون؟

إن الذين يرهنهم حب الدنيا الحاضرة ومتاعها في الأرض المشهودة – وهم سواد سكانها اليوم – إذا توالى فيهم تذكير داعية الحقّ بيوم الآخرة لا ينفكّون يُريبهم نذيره وقـــد يفـــزعون إليه يستنبئونه ليستوثقوا أحقاً هو ذلك الموعود. وإنما على الداعية أن يصبر على ارتيابهم عن جهالة بالغيب ويجيبهم موقناً أنه آت حقاً مقسماً بربه نافياً لهم أن يُعجـــزوا الله بعـــثاً جديداً ولو ماتوا وكانوا رفاتاً، مذكّراً أيضاً الأغنياء منهم بألاّ يغرّهم ما كسبوا في الدنيا من أموال، فلو أن لكلّ نفس ظلمت في دنياها ما في الأرض كله لافتدت به في آخرها تشتري السلامة من ذلك العذاب المشهود، لكنه لا فدية ولا اســتعتاب يومئذٍ ولا مشتكى، وموقفهم لمّا يروا العذاب أن يُسرّوا الندامة على سابق جـــرمهم في حقِّ الهدى المبين ويتمّ القضاء بينهم بالقسط لتلقى كل نفس كفاء نصيبها جزاء بما اكتسبت. وهم لا يُظلمون في ذلك فقد سبق إليهم النذير. فالحق أولاً وآخراً أن لله مـــا في الـــسماوات والأرض يملـــك الكون الذي خلق ويحيط بعلمه بما فيه من الإنـــسان وكسبه، وأنه تعالى يصرّف كما يشاء ما فيه من أقدار مصائر الإنسان، ومن ثَـــم وعـــدُه له بيوم الدين حقٌ لازم. ولكن أكثر عباد الله لا يعلمون ما ينفع حياتهم ومـــصيرها من الإيمان بربهم وبالمدى المطلق لملكه وعلمه وقدره، وبالحق الصادق لهديه ونذيـــره، ولا يـــرون قدرته في ظاهرة الإحياء لهم والإماتة في الدنيا ليدركوا مثلها أن يبعثهم بَعداً رجعاً إليه.

إن كـــلّ شـــأن في عاجل الحياة الدنيا وأجل الآخرة يقتضي الرجوع إلى هدى القرآن. ولابدّ أن يخاطب حملتُه ودعاته كل الناس أن قد جاءتهم به موعظة عمّا هم فيه من ظلمات الجهالة بعلم الغيب والضلالة من ثَم في حياتهم المشهودة عمّا يرجع بهم إلى عاقـــبة الغـــيب الأحـــسن، وذلك بما في القرآن من أنباء بحقائق الغيب وبيان لمشاهد الحساب والقضاء يوم القيامة، وجاءهم القرآن شفاء لما في صدورهم من ظنون الأوهام وشـــهوات المتاع وهموم العاجلة تزكيةً لهم بحق اليقين وبالتقوى والمجاهدة والرجاء في

الدنـــيا في ســـبيل الآخرة، فالمؤمنون منهم جاءهم بذلك هدىً ونور في مسيرة حياقم أولِهـــا ومنتهاها ورحمةً من الله الرؤوف من أن يترك عباده يضلون في سوء جهالة إلى بـــئس مـــصير. وذلك فضل من الله على العباد لأنهم لو ردوا له جميل الخلق والرزق والحـــياة بـــأن عبدوه لاستوفى منهم حقه العدل، ولكن فضلاً عن ذلك يعدهم على العبادة مدّاً وسعداً في متاعٍ في الآخرة خيراً وأبقى. وتلك رحمة من أن تنتهي بهم الحياة الدنـــيا على ما فيها من تظالم فساد ومعاناة مصابرة ومن قصور متاع وإدراك وعلم – إلى عدم وفناء، بل هي تستوي بآخرة عليا تقوم بميزان عدل وجزاء قسط. وما يكذّب الإنسان بالدين يوم وفاء ديون الحياة الدنيا والله أحكم الحاكمين؟ فبذلك ليفرح الذين نـــزل عليهم قديماً وبلغهم من بعد هذا القرآن، هو خيرٌ مما يجمعون في الدنيا من متاع مهما يكثر ويطيب لا يبلغ بهم أبلغ المبتغى ولا الدوام، لأنه كتاب يبشرهم بما هو خير وأبقـــى. ولْيذكروا لتمام شعاب الإيمان بالقرآن مصدرِ الهدى أن الله ذا الفضل العظيم والـــرحمة الـــبالغة قـــد أنـــزل إليهم في الدنيا رزقاً لقوام الحياة ابتلاءً في اهتدائهم فيه بالقـــرآن. ولكـــن كثيراً من المخاطبين به حين تنـــزُّله قد نسوا الله المنعم الهادي و لم يـــرجعوا إليه بالشكر وإلى كتابه بالهدى في بيان الحلال من رزقهم ليأخذوه حامدين شاكرين، والحرام فيما هو ابتلاء لهم فيجتنبوه. وكان لأمّة الخطاب الأولى تلك كسب ضـــلال جاهلي في ذلك إذ حرّموا بعضاً مما أُحلّ من الأنعام لأنهم وهبوها لأصنامهم مـــسوّمة لا تُمس، أو ذبحوها قرباناً لا ذكراً لله ليأكلوها بركةً، وحلّلوا بعضاً مما حرّم الله في كتابه كالميتة واستأثروا بما في البطون رجالاً وحرّموه على نسائهم – كل ذلك تشريعاً وعرفاً مستوحىً من معبوداتهم مفترى على الله الأعلى. وكذلك أقوامٌ كثيرة في العالم اليوم يتخذون في الرزق مذاهب تحريم وتحليل افتراءً من إيحاءات دينية موروثة، أو تواضـــعاً علـــى أعراف تقليدية تحرّم أكل بعض الحيوان كالبقر أو اللحوم كافّة وتحلل القـــرابين للمعـــبودات من دون الله وتشرّع في النبات رزقاً حسناً وسكراً. والحق أن يُـــسأل هؤلاء: أشرّعوا في أمور رزقهم بإذن الله في كتاب أم على الله يفترون؟ وحقَّ النـــصح في أمر هؤلاء بذكر الآخرة والحساب، ماذا يظنون سيؤدي بهم ما يفترون إليه بـــين يـــدي الله يـــوم الحساب إذ يُشهد عليهم ببلاغ القرآن كتاب الهدى والتشريع

والتقديـــر؟ وإن الله لـــذو فـــضلٍ على الناس ولكن أكثرهم يكفرون جميل نعمه فلا يذكرونه ولا يشكرونه ويستوحون من مذاهب شركهم وظنونهم وأهوائهم تشريعات في أحكـــام أخذ تلك النعم بما لا يجدون في كتاب الله المنعم الهادي، وإنه لذو فضلٍ إذ يملي لهم في الحياة إلى حين لعلهم يسمعون بيان بلاغ آياته البيّنات فيهتدون.

ترتيل المعاني (الآيات: ٦١ – ٧٠):

﴿وَمَـــا تَكُـــونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَـــيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٦١)

مهمـــا يكن أمر هؤلاء المشركين وشأنهم فيما يظنون ويجادلون وما يعملون من باطـــل كافرين بوحدانية الله ربهم الحق وبالمرجع إليه وبالآخرة وبهدى كتابه، فليطمئن الرســـول ﷺ ومن تبعه مؤمناً لأمرهم هم مع الله، فلكلٍ عمله وجزاؤه وبينهم البراء. ولذلك يُخاطب الله الرسول في الآية: أنه في سياق رسالته ما يكون في شأن من حياته داعـــياً بين الناس أو هادياً في أمر وما يتلو منه تعالى من قرآن يدعو هو إليه، ولا يعمل كـــل المخاطـــبين به من عمل – إلا كان الله وأقدار علمه المحيطة بهم جميعاً شهوداً إذ يخوضـــون في تفاصيل تلك الأمور من الدعوة والاستجابة. وليتم الخطاب مصوّباً إلى الرسول: أنه ما يعزب فالتاً من رقابة ربّه من مثقال ذرّة وزناً في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ما ذلك إلا في كتابٍ مبين مرصودٌ فيه بيّنةُ كلٍ بحساب الـــوفاء بتكاليف الإيمان والعمل الصالح والدعوة التي عنها يُسألون في سياق ابتلاءات الحياة والعالم حولهم ليوافيهم الله حق الجزاء القسط في اليوم الموعود.

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِـــيَاء اللّـــهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٢، ٦٣، ٦٤)

ألا ابـــتداء تأكيد وهل يحسبنّ أحد غير ذلك؟ إن أولياء الله الذين يوالونه بالمعرفة الحقّـــة وبالعبادة الخالصة ويعمدون إليه بولائهم وحياتهم لوجهه خالقاً رازقاً هادياً بما

يـــشرع مـــن الدين، باعثاً جازياً على ما يعمل العباد. أولئك لا أدنى خوف عليهم مما يـــستقبلون مـــن عاجل وآجل ماداموا سالكين طريق الولاء لله ولا هم يحزنون على ضياع كسب لهم ما داموا قدّموه صدقاً وعلى هدىً من الله.

أولئك الأولياء هم الذين آمنوا بالغيب بالله واليوم الآخر والكتاب وكانوا من ثمّ يتّقون الله- واحداً معبوداً لا يشركون به شيئاً في شعائر العبادة ومقاصد الحياة، ورازقاً محمـــوداً في الحـــياة لا يجمعون كسبها بالهوى، وهادياً لا يكِلون الهدى في متاع الحياة ومسلكها لغيره ولا يتعدون حدود شرعه.

أولئك لهم بما آمنوا واتّقوا البشرى، نبأ الخير القادم، لا يَرد عليهم مستقبل من أمر إلا كـــان خيراً، في الحياة الدنيا يندرئ عنهم الضرّ والأذى برعاية الله وليّهم، ويُعقبهم الله في الآخـــرة العز والصلاح ويصرف عنهم السوءى ويكتب لهم الحسنى. لا تبديل لكلمـــات الله، بـــشائر حقٍ من الله للإنسان – أقداراً وأقضيةً لا تتبدل ولا يتغيّر منها شيء من غير الله ولا منه تعالى إن لم يغيّر الإنسان ما في نفسه من موالاة لله. ذلك من مقتـــضى عاقبة الأولياء هو الفوز العظيم بعد البلاء على سائر الناس الذين يفترون في حق الله لا يشكرونه ولا يتّقونه.

﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥)

والوصـــية للرسول ﷺ – ومن معه – في شأن أولئك الظالمين أن يصبر لا يحزنه قـــولهم – يـــرمونه إذا تـــلا القـــرآن بالسحر والافتراء على الله، ويسألونه أن يبدِّل، ويتطلّـــبون مـــنه آية معجزة وينسبون الخلق والأمر لله لكن ينشدون الهدى ممّن سواه، ويـــسائلونه عن البعث هزؤاً: أحقٌ هو، ومتى؟ يستعجلون أجله غير المسمى لهم – لا يحزنه ذلك، إن العزة لله جميعاً إن استذلوا المؤمنين وابتغوا العزة عليهم بجلال شركائهم وأولـــيائهم وقوة أعرافهم وتراثهم وما يُوحى إليهم من الشيطان وعلوهم غنىً وبأساً، فليبـــتغ العزة كلها في جانب الله وكلمه التام الذي لا مبدّل له، هو سبحانه يدافع عن أوليائه محيط السمع بالغ العلم بما يقولون ويريدون.

﴿أَلا إِنَّ لِلّـــه مَـــن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦)

ألا – ابتداءً – أينكرون الحق المبين –؟ بل: إن لله من في السماوات والأرض من مخلوقات هي آيات كأنها تنطق حيّة إنساً أو جنة أو حيواناً أو شيئاً بأنه له تعالى الملك والـــتدبير، وما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء له حقاً، إن يتّبعون بهم إلا الظن بلا علم حق ولا هدى بيّن ولا كتاب، ما لهم إلا أصنامهم يخرصون وراءها في الغيب عـــن جهالة، فما لله من شريك، فهو العظيم سبحانه وتعالى عن ذلك، وهو الغني ما اتخذ من ولد ولا كافأه شريك ممن يدعون ويتوهمون بأنهم يتّبعون.

﴿هُـــوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧)

وكفـــى مـــا هو أقرب إلى حياة المخاطبين من بني الإنسان من آية شاهدة على ربوبـــية الله وعزته ونعمته المحيطة بهم، إذ يخلق ويصرف ويسخّر لهم ما حولهم مباشرةً مـــن ظـــرف ظلام وضياء دوّار في الفَلَكُ يذكّر بتواليه حساب الزمان وييسر مواقيت حـــركة الحياة المتعاقبة. ينبغي باختلافه أن يعرف الناس ربّهم فيحمدوه ولا يتّبعوا إلا إيـــاه – والخطاب لهم – هو الذي جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً – دورة ظلام ساتر وراحة سكون ثم ضوء هاد ودفعة نشاط لابتغاء المعاش. إن في ذلك لآيات دلائـــل كافـــيات لقومٍ يسمعون ذكرها فيصفوا صوتها في سكن الحياة بالليل ويتجلّى وقعها حياً فتبلغ باطن النفوس وتخشع لها القلوب إيماناً بالله البادية وحدانيته في وحدة خلق الوجـــود المتناظم ليلاً ونهاراً في ظروف الزمان ووحدة نعمة الحياة المتلازمة سكوناً ونشاطاً لأحـــول الإنـــسان. ويسمعون رواية ذكرى الأيام التي تتعاقب أحقاباً وتَسعْ تاريخ سيَر الإنسان عبرةً بما يصيب الصالحين من رحمة الله، وعظة بعواقب الكافرين الأولين[1].

﴿قَالُـــواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

(١) في ذكر آيات الله نعمة على عباده الليل سكناً والنهار مبصراً فضلاً عن التوالج بها حسباناً – راجـــع الآيـــتين ٦٠ و٩٦ سورة الأنعام، وانظر الآية ١٢ سورة الإسراء، والآية ٤٧ سورة الفرقان، والآية ٨٦ سورة النمل، والآيات ٧١–٧٣ سورة القصص، والآية ٢٣ سورة الروم، والآية ٦١ سورة غافر، والآيتين ١٠–١١ سورة النبأ.

مهمـــا تكن تلك آية كبرى تلي حياة الناس نعمةً تهيئ السكون في الليل ليتيسّر الـــسعي بعـــده في النهار، ذروة حياةٍ يتذاكرون برؤيتها مغزى خلق الله وأمره حولهم ويهـــتدون بوقعها إلى سواء السبيل فيها، ويتسامعون بتعاقبها منقولات العبر والعظات مـــن ســـيرة تجاربهم الممتدّة ومهما تقم تلك الآية دليلاً على أن لله الملك والأمر كله يُجـــري الشمس ويدوِّر الأرض والقمر فإن المشركين المخاطبين- من ظنونهم وغفلتهم عن نعمة الله عليهم وقدرته حولهم - قد اختلقوا فرية كبرى، قالوا: اتّخذ الله ولدًا من الجـــنّ بـــناتٍ هي الملائكة، يتعبّدون لها اللاّت والعزّى ومناة إذ يجعلون من أصنامهم رمـــوزاً لهـــا ويتزلفون بها إلى الله البعيد في وهمهم. سبحانه هو الغني أن يكون له ولد يـــتمجّد بـــه أو يستعين كما يفعل الناس بالولد. وتلتفت إليهم الآية تخاطبهم بسلطان الحـــق مباشرة ليتلوها عليهم الرسول ﷺ قرآناً: أنه ما عندهم من سلطان بهذا، ما لهم مـــن حجـــة بالغـــة بهذا القول المنكر، ويُساءلون: كيف يقولون على الله من صفات الـــوالدية مما لا يعلمون من الغيب؟ ما عندهم إلا باطل قولٍ يجرءون به كذباً على الله، وشهادة زورٌ عنه يُسألون عنها[1].

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩)

والأمـــر للرّســـول ﷺ في ضوء كلمة الحقّ التي زهق بها باطل مقولة الشرك: أن يلقـــي إليهم كلمة النصح الحق: إن الذين يقولون على الله الكذب لا يفلحون، لا في الدنيا بوقع الباطل السيّئ على مسلك حياتهم ولا يوم المساءلة والحكم من الله بالحق في الآخرة.

﴿مَـــتَاعٌ فِـــي الدُّنْـــيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠)

والنصح يستمر: متاع في الدنيا - هو غاية همهم العاجل - يبسطه الله لهم ابتلاءً إلى حين، لا يبلغون به منها فلاحاً، ثم إلى ملأ الله الأعلى مرجعهم وأقداره الكثيفة يوم

---

(١) في نفي الشرك بالله ولداً يرد في أكثر من عشرين آية خطاباً للعرب المشركين وإبطالاً خاصاً لوصـــفهم الملائكـــة بـــنات لله وخطاباً لأهل الكتاب لاسيما الذين يتّخذون عيسى ابناً لله، وخطاباً عموماً في إخلاص التوحيد لله.

الحــق الــصادق وعده، ثم – من بعد المرجع وقيامهم محضرين تفزعهم مشاهد الحشر والــوزْع والسؤال والحساب – يذيقهم الله بأقداره العذاب الشديد بما كانوا يكفرون بوحدانــية الله الغــني وبعاقــبة المرجع إليه بعد كل التذكير والنذير بلاغاً للرسالات المنــزلة.

عموم المعاني (الآيات ٦١ – ٧٠):

لــيعلم الداعي إلى الدين الحق إزاء بلاءات الدعوة إذ يجادله المنكرون لها وينأون عــنه أن الله حيــثما يكون يناجيه ملقياً في نفسه ما تطمئن به – أنه تعالى محيطٌ بعلم مجاهداتــه يُحــصيها ويتقبّلها منه جميعاً. ذلك كما أُوحى إلى رسول الإسلام داعيته الأول ﷺ أنــه ما يكون في شأن من سيرة علاقاته وحركة دعوته في أمّة خطابه، وما يتلو في ذلك الشأن من قرآن يعالج الضلالات والجهالات في ثقافتهم المعهودة ويجاوب التساؤلات منهم ويذكر الغفلات ويبيّن الهدايات في شتّى مثاني حياتهم، وما يعمل في صف المهتدين معه مما يقيمون به مثالاً للتدين الحق وسنة وقدوة في الواقع أو ما يقابلهم بــه الآخرون العاملون على شرعتهم ومنهاجهم – ما يقع ذلك إلا كان الله وجنوده شهوداً على عباده يرقبون أمرهم إذ يفيضون فيه. وليعلم الداعي أن ربّه في ملئه الأعلى مــا كــان يفلت منه العلم بأي من وقائع الوجود أينما كان في الأرض أو في السّماء ومهمــا يــصغر أو يكــبر، ما يكون من ذلك إلا أُحصي في كتابٍ مبين يعرض يوم الحــساب إذ توضــع المــوازين ليوفى الجزاء القسط. وكما كان اللهُ مع دعاة الحق في ســبيله – عالمــاً بأمرهم شاهداً ويؤيدهم بجنوده – إن أولياء الله – مثلهم – الذين لا يوالــون غــيره شريكاً في الغيب ولا في العالم المشهود بل يخلصون له الولاء ليجاوبهم مولى لهم لا خوفٌ عليهم رهبةً من محذورٍ قادم ولا هم يحزنون ندماً على فارط فائت في حــياتهم. وأولــئك الأولــياء هم الذين آمنوا بالله إذ أيقنوا فعلاً به تعالى رباً أحداً للعــالمين ولــياً للناس هادياً كافياً لهم الحياة الأولى قاضياً بينهم وافياً في الآخرة، وإذا كانوا خُلقاً في الحياة يتقونه مخلصين لا يشركون ولا يراءون ويعبدونه لا يعصون هديه ويبــتغون مرضــاته حــذرين من لقاءه لا يخشون إلا إياه. وأولئك لهم البشرى بمَقدم

الخيرات عليهم إذ وعظهم النذير فاتقوا سبل الضلال واتبعوا الصراط المستقيم المرجوّة فيه عاقبة الحياة الطيبة في الدنيا وآخرة الحسنى بَعداً. وذلك لهم هو الفوز العظيم الذي يميزهم درجات فوق سائر الذين يوالون غير الله أو لا يتقونه – ينافسون في متاع الدنيا طمعاً ليفضّلوا على الناس وإذا أسرفوا يدّعون أن لو قامت القيامة لحفظ الله ما آثرهم به في الدنيا درج فضلٍ إليه في الآخرة، وإنما هو بلاءٌ لا يقربهم إلى الله لو يعلمون.

ولا يحزنن الدعاة إلى الله – اهتداء بنصح القرآن للرسول – مقولاتُ الظالمين المعرضين عن الإسلام ودعاواهم – سواء رموهم فيها – إذا رأوا لهم قبولاً ووقعاً بين المخاطبين – بالسحر والافتراء، أو أنكروا بها وعد يوم الدين وقدرة الله على بعث الحياة من جديد مستمرة لتمام عدل الأولى، أو ينشدون بها ظنون شركٍ بالله في الغيب باطلة، أو يذهبون بها مذاهب مادية مشركين بالله فيها هوى متاع الدنيا. والحق ألا يَحزن الدعاة مهما تكن من حملات أولئك على الحق وأهله أو إصرارهم على الإعراض، وإن اجتهد الدعاة خطاباً وحرصاً على هدايتهم ونجاتهم من مآلات النذير في الدنيا والآخرة. وليتذكر الدعاة أن العزة لله جميعاً وليبتغوا عنده وحده العزة لهم لأنه يتولاّهم مهما يصبهم من ضرّ القول المخشيّ أن يؤدي إلى ضر المذلة، ومهما يكونوا لأول عهدهم في قلة وبؤس وضنك ويتكاثر المعرضون وينبسطون في الأرض متمكنين بقوة، ومهما ترُج دعايات الباطل وتعلوا دولتها وتبدوا إزاءها دعوة الحق كأنها في بوار وحصار. ذلك لأن الله يعز أولياءه، فكما سبق ذكره يُلقي إليهم البشرى في الدنيا والآخرة يُبتلون ليبين جهادهم وصبرهم فيحق لهم وفاء أجرهم بغير حساب، وهو السميع بمقولات الظالمين ودعوة المتقين، العليم بما في النفوس ومرادها من النيّات وما في واقع الحياة من آثارها.

إن حق وحدانية الله خالق الكون ورب العالمين وعالم الغيب والشهادة، وتوحيد الحياة للإنسان كلها عبادة لله تعالى ومنهجاً إلى لقائه – ذلك هو المذهب الحق لدعوة الدين أساسُ الحياة كلها، وهو جماع هدى الآيات في هذه السورة أو مغزاها. ولا يرتابنّ أحد أن الله له مَن في السماوات ومَن في الأرض، فله – سوى مختلف الأشياء – له الأحياء الذين يتخذهم بعض الناس أولياء لهم شركاء من دون الله. ومن ذلك

الملائكـــة بـــنات الله بزعم جاهلية العرب المخاطبين الأوائل بالقرآن، والآلهة المتعددة الموهـــومة التي تختلق لها القداسة في كثير من المجتمعات – أنبياء ذهبوا صادقين فرفعهم خَلَـــفٌ إلى مقام القداسة الإلهية أو زعماء وكبار تلبسوا بالقدسية هم أو نُسبت إليهم زوراً لمكانـــتهم عند الجهلاء – ما هؤلاء الذين يُقدسون ويتّبعون ويدعون من دون الله شركاء لله حقاً، بل هو باطل، فما يتّبع الذين يتعلقون بهم إلا الظن والوهم وما هم إلا يخرصـــون بخيال مريض في أمر الغيب. وتكفي أقرب الآيات لبني الإنسان في الطبيعة الفلكية المشهودة شاهدة على وحدانية الله رباً للكون منعماً بها عليهم مسخَّرة لظروف حـــياتهم وملقية في بصيرتهم أن الآجال في دورة حركتها ومرّ الزمان المحسوب بها آية للأجل الأجمع غيباً في اليوم الموعود حيث تتوحد الحياة أولها وآخرها والزمان والأزل. وتلك الآيات الشاهدة المبصرة الأقرب لكل المخاطبين من الناس بالقرآن هي أن الله هو الذي جعل لهم الليل ليسكنوا فيه راحةً وسكينة لئلا تفتر طاقة الإنسان وليخلو لبعض شأنه الخاص، وجعل النهار مبصراً بضوئه الهادي مساعي الناس في ابتغاء العلم والمعاش وإعمـــار علاقـــاتهم العامّة. إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون ذكر القرآن الذي أوحى أوّل تنـــــزيله في ليلة مباركة والذي إذا تُلي ليلاً خشع له السامع بلا لاهٍ أو صارفٍ يذكـــره ليتفكّر في تلك الآيات المشهودة، وإذا تُلي نهاراً أنفذه إلى قلب السّامع تفاعلَ وقعه الحي مع حدثان حياة المعاش والمنشط والمنتشر، ولكن بعد كل تلك الآيات على وحدانـــية الله في تعالـــيه وصفاته الحسنى وأقداره المطلقة – قالت العرب أمّة الخطاب القـــرآني الأولى فـــيما يخرصـــون أن قد اتخذ الله ولداً من الملائكة بنات الله من الجن، ويقـــول النصارى أن المسيح ابن الله، وغشي ثقافة اليهود أن عزير ابن الله، والديانات البشرية المؤسسة على الظنون الموروثة فيها كثير من الشركاء لله تحته بالبنوّة سوى من هـــم ســـواءً له تعدّدا. سبحان الله الذي يتعالى على الملائكة عبّاده طوعاً عبادة دائمة، وعلـــى البشر الذين ما خلقهم جميعاً إلا ابتلاءً ليعبدوه وإن حجبهم عنه الغيب وليتقوا عاقـــبة الاستكبار والطغيان، وما أعلاه سبحانه أن يكون له كفء، وما أغناه وبيده ما في الـــسماوات والأرض مالكاً ومدبراً لأمره أن يصطفي منه ولداً، فهو لا يحتاج لعون كما يحرص الناس على الولد المعين ولا لمجدٍ أو مد فضلاً عن ملكه العظيم كما يحرص

الـــناس على الولد فخراً واستمراراً لذاتهم. وما للذين ينسبون إلى الله الولد حجة ذات ســـلطان تنـــزّلت عليهم وحياً أو أدركوها علماً بالملأ الأعلى في الغيب، بل كل ذلك قولٌ بلا علم. وليعلم الذين يجرأون على افتراء ذلك الكذب على الله أنهم لا يفلحون، لا بشرى لهم في الدنيا ولا الآخرة إلا بلاء المتاع القليل الفاني في الأولى ثم مرجعهم في الأخـــرى إلى الله في ملئه الأعلى حيث يذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون دساً لفطرة الإيمان بوجداهم وإغشاءً على سمعهم وأبصارهم من سماع آيات ذكر الله المتلوة عليهم قرآناً وشهود آياته البيّنات المشهودة طبيعة من حولهم.

ترتيل المعاني (الآيات: ٧١ – ٩٣):

﴿وَاتْــلُ عَلَــيْهِمْ نَــبَأَ نُــوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَــذْكِيرِي بِآيَــاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ (٧١)

لقد سبق في متلوّ كلم السّورة نبأ القرون الظالمة من قبل[١] وأن في عاقبة الظالمين لعظـــة للـــذين كذّبـــوا رسالة الغيب ولّما يأهم تأويل نذرها[٢]. والأمر في هذه الآية للرســـول ﷺ أن يـــضيف إلى تذكير أمة خطابه ما يتلو فيما يلي من نبأ نوح[٣] خبره العظـــيم، لا عن شأن حياته الخاصة ولكن عن شأنه داعياً لدين الله، إذ حين قال لأمة خطابـــه هو يناديهم قوماً، أناساً قائمين، ومنسوبين إليه: إن كان كبر عليهم وعظمت وطـــأة وقـــع مقامه وتذكيره بآيات الله، فهو ما قعد فيهم لاهياً بل نهض مذكراً لهم بـــدلائل ربوبـــية الله ومعالم هدايته الموحاة إليه رسولاً فهو على الله توكّل، هو تعالى المـــستعان مهما ينكرون هم ويحملون عليه، فليجمعوا أمرهم إجماعاً للرأي والصف، وكذلك ليجمعوا شركاءهم استعانة بهم كما يزعمون، ثم – بعد ذلك كله – لا يكن

---

(١) راجع الآية ١٣.

(٢) راجع الآية ٣٩.

(٣) ذكـــر اسم نوح عليه السلام سلفاً من النبيين في مواضع بضعة عشرة من القرآن، ووردت سيرته رسولاً وعبرتها مبسوطة أو موجزة في نحو تسعٍ من السور المكية، ونـــزلت باسمه سورة نوح.

أمـــرهم عليهم غمة - ألاّ يتركوا أنفسهم ينالهم ما يجعل أمرهم همّاً بالغاً، من وقع ما يدعو إليه هو غيرَ وانٍ ولا مبال، ثم ليقضوا عندئذٍ إليه بحكم كيدهم المجمع عليه وكيد شركائهم، وليمضوا في ذلك فوراً ولا ينظروه.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٢)

ومضى يخاطبهم: إن تولّوا وأعرضوا مدبرين عنه وعمّا يدعو إليه فما هو يسألهم مـــن أجـــر حـــتى يظنوا به الظنون أو يكلّفوا أنفسهم بأداء أجره علّه يسكت عمّا لا يرضـــيهم أو يـــرجوا أن يكف دعوته من قبض اليد عنه، إن أجره إلا على الله يدعوا لوجهه، وهو تعالى الذي يجزيه أجر المؤدي رسالته المستحق سنة وعده في الوفاء، وهو رسولاً أُمر أن يكون أول المسلمين - يسلم وجهه لله قدوة تمثل فعلاً دعوته إليه تعالى قولاً من إسلام الحياة لله من الناس جميعاً، ليدخل معه من استجاب في صف الإسلام.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ (٧٣)

فكذّبـــوه - كـــذّب نـــوحاً قـــومُه رغم صدقه الذي ينبئ عنه توكله على ربّه ومـــراغمته لكـــيدهم ولشركائهم من دون الله ونفيه ابتغاء الأجر، كذّبوا فما كانوا ليؤمـــنوا بَعداً، وكان نهجه يشهد لإخلاصه لربّه فاستجاب له الله إذ نجّاه بأقداره حوله وتكلـــيفاته التي رفعته إلى تنجية لا إنجاءً ميسوراً، وشملت رحمة الله من معه من المؤمنين في الفلك التي صنعها وسلكهم فيها بوحيٍ من الله إليه بادره قبل أمر غيبٍ قادمٍ طوفاناً طاغـــياً، وجعلهم الله بأقداره بعد النجاة خلائف في الأرض - ذريتهم كانت لها عاقبة الـــدار منتـــشرين في الأرض عبر القرون. وكذلك بأقدار الله في الطوفان أُغرق الذين كذّبـــوا بآيـــات هديه وأمره ونذيره، والتنبيه والخطاب الآن لرسول الإسلام الخاتم أن ينظـــر هـــو، وينظر معه المؤمنون الصابرون الرّاجون حسن العاقبة، وكذلك الذين لا يؤمنون من أمّة خطابه - لينظروا موعظةً كيف كانت عاقبة المنذرين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤)

ثم بعث الله بأقدار الإخراج والاصطفاء والوحي بعد حينٍ من الفترة بعد نوح من تحت ظلمات غشيت ذرياته من الناس، بعث رسلاً صوّبهم ﷺ إلى قومهم خاصة، فجاءوهم بآياته المنزلة، فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل، ما ترتب على رسالاتهم وإن بان حقها أن تنشرح صدورهم فيؤمنوا بالحق المتجدد وقد ورثوا باقياته من قبل وغمروها بالغفلة والسكون من تطاول الأمر فكذبوا بالجديد أيضاً. كذلك يطبع الله بأقداره المسنونة في خُلُق العباد المعتدين على حدود حق الدين وهديه أن يرتسم في قلوبهم ما اعتادوا وتمادوا فيه كثيراً من تجاوز الحق فتتصلّب بذلك فيهم عصبية في وجهه متى تجدد.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٧٥)

ثم من بعدهم فترةً بعد خَلَف أولئكَ المرسلين بعث الله بأقدار الرسالة موسى وأخاه هارون رسالةً واحدة يتكاملُ جهدهما فيها، إلى فرعون وملئه – النخبة الذين امتلأوا منه حظوظاً في قوة السلطة وثروة الأموال– يبلّغان آيات الله وأمره وهداه[١]، فاستكبرت العصبة المخاطَبة أن يسلموا أمرهم لله خاشعين، وما كانوا يركنون إلى باطلهم المعهود وحسب بل كانوا قوماً مجرمين يقومون بالجناية على الحق العدل بين رعيتهم وفي الحياة الدنيا.

﴿فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٦)

فلما جاءهم دعوة الحق من عند الله وغيبه وذكر هديه وحكمه في عباده على لسان موسى، وبينة معجزة على يده شهادة على الحق، قالوا إن هذا لسحرٌ مبين. وقد كانوا تطلّبوا هم الآية البيّنة فوافاهم بها موسى في عصاه تحيا وتسعى في الأرض كأنها ثعبان، ويده على سمرة بشرته تخرج من جيبه بيضاء، فصدقوا ذلك عن الشهادة بالحق الذي حمل إليهم ونسبوه لممارسة السحر مع الغيبيات مما كان فاشياً فيهم، تدابير يوهم ظاهرها بفعلة معجزة وما هي إلا مخيلات يمكر بها الساحر لغرض يلتمسه.

---

(١) راجع تواتر ذكر قصة موسى عليه السلام في القرآن – في حاشية لتفسير الآية ١٧١ سورة الأعراف (الجزء الأول).

﴿قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (٧٧)

قال لهم موسى – تعقيباً على رميه بالسحر فيما جاءهم به متسائلاً: أيقولون للحق لّما جاءهم هكذا، أسحرٌ هذا وما هو بخيال موهم أو احتيال ولا يبتغي مكراً؟ ولا يفلح السّاحرون فما هو على نهجهم الخاسر وإنما ينشد لهم الهداية والفلاح.

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨)

– قالوا – وما انفكوا يظنون بموسى ابتغاء غرضه بسحره – يسألونه: أجاءهم ليبلّغهم ويصرفهم عمّا وجدوا عليه آباءهم ليحوّلهم من أوضاع السلطان وموالاة فرعون ومطاوعة أمره، ومن تقاليد تنظم لهم كذلك الحياة العامة، وتكون له هو وأخيه الكبرياء والسلطان في الأرض يسلبان ذلك ممن له حكر الملك، وقرروا أنهم ما هم له بمؤمنين إذاً مهما يحاولا ذلك.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (٧٩)

وأمر فرعون الذي أثار الأمر غيرته على طاغوته – أمر ملأه أن يأتوه بكل ساحرٍ عليم، كذلك يطلب جمع كبار علماء السحر، تشهد فعالهم رعيته المحشودة.

﴿فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ (٨٠)

فلما جاء السحرة وقام عرض المباراة ليبين بها الحق بادرهم موسى أن يلقوا ما هم ملقون، ليفرغوا كل حيلتهم ويبدوا وقع فعلتهم ومن ثمّ يأتيهم هو بالحقّ ظاهراً.

﴿فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١)

فلّما ألقوا عصيّهم وحبالهم كأنها تسعى بأفاعيل الإيهام واسترهاب الناظرين غشيت موسى زلزلة ثم ثبته الله فتوكل ثم أقبل عليهم مقرراً أنما جاءوا به هو السحر (أو مسائلاً عنه: أهو السحر – قراءة أخرى) وبعد تبينه طبيعة فعلهم مضى يعبّر عن الوحي الذي اطمأن به قائلاً: إن الله سيبطل سحرهم بما تفعله عصاه حقاً – آيةً لا وهماً وسحراً، مؤكداً أن الله لا يُصلح عمل المفسدين لأنّ السِّحر تدابير لا يكتب الله لها صلاحاً أو نجاحاً إذ هي مكر المفسدين.

﴿وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢)

ويـــضيف موسى مقولة الحقّ الغالب: أنه يحقّ الله الحقَّ بكلماته وأوامره القاضية الـــتي تـــصرّف هذه الوقائع صدقاً ولو كره نتاج ذلك المجرمون من قوم فرعون الجناة البغاة المستكبرين على الناس.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣)

ومهما يكن من بيّنة المباراة بين تظاهرة السحر التي انمحقت وآية الحق من موسى الـــتي ظهرت عليها، فإن رعية فرعون كان يستخفهم طاغوته، يميلون ويذهبون حيثما فتـــنهم، فما آمن لموسى تصديقاً لدعوته إلى الحق إلا ذرية من بني قومه بني إسرائيل، مـــنهم الـــسّحرة، شهدوا الحق المبين إذ تجدّدت في قلوبهم أصول تراث الإيمان والدين المعهود فيهم سلفاً. ولكن كانوا على خوفٍ من فرعون وملئهم الممتلئين حظوظاً قرب فـــرعون. ذلـــك وإن كـــان سائر الحضور قد آثروا السلامة من غضب الجبّار وقومه فأعرضوا عن الحق، وإن جدّ ظهوره فإنهم خافوا فرعون أن يصيبهم ويبتليهم بضغوط أغلـــظ مما كانوا يلقون من العذاب الذي سامهم فيه بسلطانه قتلاً وأذىً، وإن فرعون لعـــالٍ في الأرض يستذل الرعية تحت وطأته ويستكبر عليهم وإنه لمن المسرفين في بسط الجبروت البالغ.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (٨٤)

وقال موسى لقومه منادياً فيهم قوماً له يخاطبهم بعاطفة الانتساب إليهم لطفاً ليقوموا إلى مـــا ينبغـــي، قـــام يذكّرهم إن كانوا آمنوا حقاً بالله – وهو الكبير المتعالي فوق هيبة فـــرعون، الغالب على أمره مهما يكن كيد فرعون ومكره، وهو المستجيب لحاجة عباده المؤمنين – فعليه فليتوكلوا إن كانوا مسلمين له تعالى أمرهم واكلين إليه عونهم على ما أزِم عليهم راجين في الغيب خيراً، ذلك ومهما يحط بهم حذر غضبة فرعون وشرّ حملته.

﴿فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥)

فاستجابوا لدعوة الإيمان وقد تجذّر فيهم الإيمان وحيَ فيهم بوقعه المتجدّد الظاهر على ثقافة قوم فرعون الطاغوتية السحرية وتزكّى بتذكرة النصح من موسى – قائلين

إنهـــم على الله توكلوا، قدموا ذكر الله في أساس شهادة التوكل ليؤكدوه، ودعوه بأنه ربهّـــم: ألا يجعلـــهم فتنة – عرضة لضغوط الإكراه فريسة لوقعها من القوم الظالمين – عـــصابة فـــرعون القائمة الذين يفعلون بهم ما يشفي غيظهم ويواتي دوافع ظلمهم في الحياة حيث يعدلون عن الحق العدل صفةً لهم لازمة.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٦)

ومـــضوا يدعـــون ربّهم أن ينجيهم برحمته وأقدارها التي تغلب على كل ضرّاء تتهددهم، يرجونه أن يسلّمهم جزاء مهما تتضاعف تراتيب الخلاص اللازمة من القوم الكافرين بحق عبادته وباتّباع هديه، الحاملين عليهم هم مؤمنين.

﴿وَأَوْحَيْـــنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧)

وأوحى الله – بأقدار ملهمات الوصايا عنده – إلى موسى وأخيه هارون أن يبوّءا مـــتخذين لقومهما بمصر بيوتاً خاصة في حيّز خاص من سائر المدينة، وليجعلوا بيوتهم قـــبلةً بـــارزةً إلى ذات المـــشرق الذي فيه أصول وجهتهم المقدسة وأرضهم المباركة، وليقـــيموا الصلاة استعانة بها على الثبات والصبر وتزكية لنفوسهم المتوكلة التي تسلم لـــوجه الله بـــشعائر الخشوع الخالصة المقدسة مناجاةً وذكراً واصلاً بالله، وبُلّغ هو أن يبشر المؤمنين بمنجاة تسرحهم من دار الفتنة والعذاب إلى دار الهجرة والفتح المبارك.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُـــضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (٨٨)

وأراد موســـى أن تتبارك البشارة المنجية بشفاء غيظ المظلمة وتجلّي عاقبة السّوء الدائـــرة علـــى الظالمين. فناجى موسى مخاطباً ربّه أنه تعالى ربّهم المؤمنين، وأنه بقدر ابتلاءاته في الدنيا آتى فرعون وملأه زينةً مُسرّة وأموالاً مبسوطةً في الحياة الدنيا، وعاد موسى يخاطب ربهم هو والمؤمنين ذاكراً أن فرعون وملأه لم يعرفوا فضله ﷻ ليحمدوه ويـــسلموا له ما مكّنهم فيه من متاع بل اتخذوه ليضلوا به عن سبيله الذي أثبته هداه. ولـــذلك دعـــا هـــو ذلك الربّ أن يطمس على أموال آل فرعون حتى تنمحي على

تكاثـــرها، ويشدد على قلوبهم لتقسوا وتتصلب في وجه دعوة الهدى فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي لا محيص لهم منه ولا يغني عنه ما كسبوا من قوة ولا تفديهم أموالهم بل يلاقونه كفاء ما أوقعوا بالمستضعفين.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

فاســـتجاب له ربّه أنه قد أجيبت دعوته وأخيه وتحققت موافاتها للقبول دفعاً نحو النفاذ، وأمرهما لذلك أن يستقيما ثبات قدم على طريق البشرى القويم الذي يسلكانه، ألا يـــركنا لضغوط الفتنة إلى الذين ظلموا من قوم فرعون، وألا يتبعا – نهياً مؤكداً – ســـبيل أولئك الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من زينة الحياة الدنيا لا علم الحق الذي يؤتيه الله، وفرضوا أنفسهم أئمة طريق حياة لمن تبعهم واتخذهم أولياء.

﴿وَجَاوَزْنَـــا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَـــهُ الْغَـــرَقُ قَـــالَ آمَـــنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠)

وجـــاوز الله – بأقـــدار تصريفه لسير عباده في الأرض – ببني إسرائيل البحر – ذراع البحـــر الأحمـــر وراء ســـيناء، فأتبعهم ولحق بهم فرعون بجنوده الذين حشدهم لإدراك الشرذمة التي أغاظته، بغياً عليهم بسطوته وعدواً عليهم بعزته. حتى إذا أدركه الغرق وقد ارتدّ عليه مدٌّ فيض من البحر بعد أن ورط في فرق انجزر عنه الماء وعبر منه بـــنو إسرائيل وكان قد انفلق بضربة عصا من موسى أوحى بها الله إليه رحمةً أسعفتهم قبل أن يدركهم العدو – حتى حضر فرعون الموت الزؤام قدراً أعظم من طغيانه صاح شاهداً أنه آمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل، ما تعرّف الله حقاً لِيُسلم مخلصاً لكنه ذاق غاشـــية ذلة انكسار إزاء بني إسرائيل الناجين، وأراد أن يتّبعهم لا عدواً بل استسلاماً لأيّمـــا معـــبود عزّوا به ونجوا، وقال أنه من المسلمين – كلمة ذعرة عارضة أو صيحة استغاثة رجاء النجاة.

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١)

وأحـــاط بفرعون قضاء الله ساعةً لا تقبل عندها توبة استنقاذ للنفس بعد فوات الأوان، وتنـــــزّلت عليه كلمة حكم الله وأمره النافذ: آلآن يُسلم وقد عصى قبلُ عن

تكبّر وكان من المفسدين الباغين على دعوة نهج الصلاح في الأرض وعلى العباد المستضعفين.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (٩٢)

فتمّت كلمة الله بذلك كأنها تخاطبه أن اليوم ينجيه الله بأقداره – ينجيه ببدنه ويُخرج منه جسداً لغريقٍ فارق الحياة. وذلك ليكون لمن خلفه في الدهر أثر آية من آيات الله الواعظة للمستكبرين المتعالين على أمره ﷻ الباغين على عباده المسلمين حقاً، وآية لهؤلاء ألا يستيئسوا مهما يستبدّ بهم الطغاة فإنهم إلى سقوط. وإن كثيراً من الناس يرون آثار قصص التاريخ تحمل مضامينها من العظات والعبر لكنهم حقاً عن آيات الله وأقداره التي تصرف الوقائع والسير السالفة غافلون لا يتبينون ولا يذكّرون ليهتدوا فيما يليهم من ابتلاء.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٣)

لقد بوّأ الله بأقداره لبني إسرائيل مبوّأ صدق، وطّنهم وطناً في الأرض المباركة، لأنهم سعوا إليها بالهجرة في سبيله تعالى، وبلغوها صادقين صابرين على الفتنة ثم مجاهدين بعد أن اضطرب حالهم وتزلزل في الطريق، كذلك يسّر الله بأقداره لهم فيها رزقاً من الطيبات إذ عمرت بهم عماراً ليتمتعوا في الثروة الوافية فضلاً عن هدى المجتمع والسلطان الذي حملوه إليها من الطريق حيث تنزّلت عليهم شريعة التوراة. فما اختلفوا حتى فتن فيما بينهم بالعلو والفساد في الأرض وفرقتهم الأهواء شيعاً وضيّعوا وحدة الحق الموروثة، وما اختلفوا كذلك حتى جاءهم العلم في القرآن بالحقّ المبين لتسوية اختلافاتهم مرجعاً إلى أصول الحق الواحد. ولكن غلبت عليهم أهواء البغي بينهم وأُورث الذين من بعدهم تقاليد الخلاف والتشيع والشقاق. وإذا لم يهتدوا كلهم للإسلام ليتوبوا جميعاً به إلى مذهب حقٍ وصفٍّ واحدٍ جديد ولا تصدّهم العصبية أو يعمهوا في أمرهم المختلف، فالخطاب للنبيّ الخاتم ﷺ أن ربّه الذي هداه ومن معه إلى الحقّ الذي لا ريب فيه يقضي بينهم –

بـــني إســـرائيل- فيما كانوا فيه يختلفون، فصلاً للحق وفرقان عاقبة بين الخاطئين والمهتدين[1].

عموم المعاني (الآيات: ٧١ – ٩٣):

إن على الدعاة لرسالة القرآن – إذ تصدّ عنهم أمة خطابهم بالإعراض المتصلّب – أن يـــتلوا عليهم من هدى القرآن كما كان يتلو الرسول ﷺ أنباء سيرة الأولين أمثالهم الـــواعظة دروسها للخالفين، ففي ذكرها أيضاً بشرى لهم ومن معهم مؤمنين صابرين. وقـــد جـــاءت الأنـــباء في هذه الآيات من السورة ووردت في غيرها من كتاب الله، فخلـــدت بـــه مـــتلوّة وعظاً وذكراً وتباركت إذ قامت مثالاً يهدي إلى السَّبر والنظر والـــرواية من الدعاة لسائر سابقات التاريخ لا تُسرد بوقائع قصصاً بل يُتدبّر فيها سنناً واعظـــة معتبرة في تجارب الإنسان، لاسيما حركات دعوته لإقامة الدين الحقّ متجدّدة تدافع وتغالب قوى تقليدية سائدة في أوساط مجتمعات نهضت فيها تلك الدعوة ونمت درجـــاً في أطـــوار غربتها وضعفها لأوّل عهدها إلى تعرّضها لفتنة تقاومها هي بالصبر والـــتوكّل على الله ثم تسوق الأقدار إلى انهيار قوة الباطل إلا أثراً وإلى ظهور الحق في الزمان وخلافة أهله في الأرض.

وأوّل تلـــك القصص هنا وفي القرآن عامة تلاوة نبأ نوح عليه السلام. إذ كان قومه في قوة من حضارة ضلال في العراق، فدعاهم عهداً طويلاً إلى رسالة الدين الحق الحنيف توحـــيداً لله وهم يتمادون في إعراضهم حتى استيأس منهم بعد طول المناظرة والجدل فرمى لهم كلمة التحدي لما يعهدون من قوةٍ دينية لهم يظنونها غالبة: أنه إن كبر عليهم مقامـــه وتذكيره بآيات الله فليعقدوا أمرهم إجماعاً ولسيتنصروا بآلهتهم التي أشركوا بها الله وأنـــه هو على الله متوكّل وما هو بخائف مَن دونه فليكيدوا إليه بكل قوى ظنونهم الغيبـــية ولا يُنظـــروه، وإنهم إن تولّوا عنه وحسبوا أن يتركوه مضيعاً مهجوراً فما هو بـــسائلهم أجـــراً عن دعوته فما أجره إلا على الله، وأنه معتزلهم إذ أُمر أن يكون من

---

(١) أنظر الآيات ٧٦- ٧٨ سورة النمل، ١٦ – ١٨ سورة الجاثية.

المسلمين لله. لكنهم مضوا مكذبين له ساحرين. وقد سبقت له البشرى فنجّاه الله من قدر طوفان طاغ قادم، ومعه مؤمنون أعدوا وركبوا الفلك التي حملتهم حتى رست بهم ليُستخلفوا في شمالي أرضهم سالمين، ولتعمر ذرياتهم أمماً خَلَفاً في بني الإنسان. ذلك بينما أُغرق الذين كذّبوه وغمرهم التاريخ وبقيت آثار السفينة آية لعاقبة هلاك المنذرين ولمن يكتب الله له البقاء. ولقد بعث الله بعد نوح في كل نواحي الجزيرة العربية جنوباً وشمالاً رسلاً إلى قومهم خاصّة لا للناس كافة، أمثلة لظاهرة دعوة الحق محدودةً في الأرض والناس والزمان، لكن فيها عبراً تسع هدى رسالة الإسلام العالمية الخالدة التي جاء بها القرآن والرسول الخاتم. وقد جاء أولئك الرسل بالبيّنات وكذّبهم أقوامهم الذين رهنتهم تقاليد أورثوها في التكذيب بحق الغيب الدّاعي توحيداً لله دون أعراف الشرك وإخلاصاً في الحياة الدنيا لعبادته وتجاوزاً لمتاعها في سبيل لقائه في غيب الآخرة، وكان أمرهم درساً لمن ينظر متفقهاً في سنة الله كيف تنطبع العصبية في المعتدين في نظم الحياة لا يتّقون فيها الله إعداداً للآخرة. وبانت تلك السنّة في حدود أمّة خطاب القرآن عهد تنزيله.

وآخر القصص المتلوّة في السّورة هي عن آخر الرّسالات بعدما سلف ذكره، وهي التي بقي لوقعها أثر في الناس بين يدي عهد الخطاب القرآني، وكانت تحمل نفساً من تراث إبراهيم عليه السلام وتحفظ ذكرى موسى وكتابه ومن لحق به حتى عيسى بن مريم المصدِّق لما بين يديه المبشِّر بما خلفه، وكانوا جميعاً من بني إسرائيل – يعقوب ابن إسحق ابن إبراهيم – لكن تراثهم امتد في الأرض إذ تقطّعوا فيها أمماً وإذ انفتحت الدعوة المصدقة المجددة بالإنجيل للناس كافّة. ويذكر القرآن قصة موسى بوجوه شتّى في سوره، ولكن دعاة الإسلام ينبغي أن تهيئهم تلك الذكرى لدراسة سيرة بني إسرائيل ليتبينوا تفاصيلها وعبرها بكل وجوهها وتطوراتها وينظروا أثرها في دين بني الإنسان وفي سائر حياتهم الخارجة على حق الدين. بُعث موسى وأخوه هارون بآيات الله يحملانها إلى فرعون وملأه في مصر، ولكن هؤلاء سلكوا في وجه الحق سنة المستكبرين المجرمين، ومجادلاتهم بالباطل ومساءلاتهم لم تضارع الحق، فارتدوا على موسى يرمونه – في آيته المعجزة الشاهدة التي دعوه هم إليها – بالسّحر كيداً منه ليلفتهم عن

عهـــدهم القديم الراسخ وليستوفي غرضه هو الكبرياء والسلطان في الأرض – المقصد الذي كان هو الأعلى في الثقافة الفرعونية وفي أمثالها في ثقافات العالم الطاغوتية. ولئن جـــاء القـــرآن مـــن بعدُ دعوة هادفة للعالمين أبداً تعم وتخلد آيةً بيان وحكمة معجزة خالـــدة، فقد كانت رسالة موسى أيضاً من الغيب من ربّ العالمين مصوّبة إلى فرعون وقـــومه لمبـــتدئها تخاطبهم بعد أن جدلتهم حجج الحق مغالبة بالمعجزات المنسوبة إلى الغيب المعروفة في ثقافتهم سحراً، الآتية حقاً من الله دفعاً للإيمان لا للمخادعة والمكر. وجمـــع فرعون ساحريه وحشد رعيّته ليباري فعلات موسى التي ما شهدها إلا أثارت حـــذره علـــى ملكـــه. ولمّا جاء السحرة قام موسى متوكلاً على الله إزاء ما رموا من عـــصيهم وما أحدثوا من ظواهر تبدو مُرهبة، وجاهرهم بأنها مخايلة سحر والله بما آتاه من آية صدق سيُبطل كيدهم الفاسد ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون الذين تقوم رهبـــتهم وعـــزتهم وراء معرض السحر دفاعاً عن كبريائهم. ووقع الحق لكن فرعون وتعاليه المسرف في الأرض وجنوحه لفتنة الرعية لم يذر مؤمناً لموسى الذي بان صدقه إلا ذريـــة مـــن صـــغار قومه إذ ظل العوام والكبار مثل قارون رهناً لخوف فرعون. وانحـــصرت رسالة موسى من بعد في هدى قومه وفي همّ إنقاذهم، إذ لم يأذن فرعون لهـــم بالخـــروج، فأصـــبح موسى يدعوهم أن يتوكّلوا على الله إن كانوا حقاً مؤمنين مسلّمين بقدره، فاستجابوا هم لدعوة التوكّل داعين الله ألا يجعلهم فريسة فتنة للظالمين وأن ينجيهم من القوم الكافرين بالله وغيبه ونعمه. هكذا ذهبوا مثالاً للحركات المؤمنة المـــضطهدة، وأُوحـــي إلى موسى في سياق تزكية تلك المصابرة وإتمامها أن يجمع فئة المؤمنين صفّاً مرصوصاً ويبوّئهم بيوتاً حيّزاً خاصاً في شرقي مصر قبلةً نحو بلد أصولهم الدينـــية الأولى وإلى وجهة المهجر، وأن يوصيهم بإقامة الصلاة يستعينوا بها ويبشرهم بـــنجاة موعودة من ربّهم. وانقلب موسى قانطاً من شأن فرعون المتكبِّر الجبار وناجى ربـــه عمـــا آتى فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ابتلاءً ففتنوا بها واتّخذوها ليضلّوا بها عن سبيل الله، ودعاه أن يطمس على أموالهم فلا تغني عنهم شيئاً ويشدّ على قلـــوبهم مطـــبوعة على ضلالها فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم دون رجعة مهلة. وأُوحـــي إلى موسى أن قد استُجيب الدعاء ولكن ينبغي أن يقوم هو وأخوه قدوةً لمن

معهمـــا ثابتين على الحق مهما تشتد وطأة الضغوط وأن يستقيما ولا يتّبعا سبيل الذين لا يعلمون. وحقاً خرج بنو إسرائيل وسعوا حتى جاوز الله بهم البحر الأحمر بأقداره إذ ضـــرب موســـى البحـــر فانفلق فعبروا جميعاً. لكن فرعون مغيظاً عازماً على البطش أدركهم بجنوده بغياً وعدواً واتّبعهم في البحر فارتدّ عليه مدُّه فاضطرب حتى إذا أدركه الغـــرق قال صائحاً إنه آمن أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وإنه من المسلمين معهم – مقولة كان يعاجل بها حضور الموت رغبة في السلامة كما سلم عدوه أمامه. وكذلك كل الطغاة المفسدين لا تلوح لهم التوبة للعدل والإصلاح والأوبة لدعوة الحق الـــتي اضـــطهدوها إلا رهـــبة بين يدي وقوع عاقبة لهم محذورة وفوات أجل الابتلاء والإملاء والنذير الذي امتدّ بهم حيناً وحضور ساعة العذاب والهلاك الذي حقّ عليهم. وتم وقـــع الاستجابة لدعوة موسى السابقة ونـــزلت كلمة الحقّ كأنها تخاطب فرعون؛ آلآن الـــتوبة لمن آمن به بنو إسرائيل وقد عصاه قبلُ وكان من المفسدين؟ فاليوم تُتوفى روحه ولا ينجو إلا بدنه ليبقى أثراً للخالفين من العالمين آيةً وذكرى، وإن كثيراً منهم يـــراها تحفة رائعة في معارض تشفي التطلّع المحض لمعرفة وقائع التاريخ غافلين عن أنها آية لله بقيت لتحفظ ذكر الاتعاظ بأمر فرعون ومصير الطغاة المصرين على كفرٍ أمثاله والاعتـــبار بأمر نجاة أهل الحق المستضعفين مهما تحاصرهم قوة غلاّبة. ويسوق التاريخ وقائع تشاهد أو تحكي لكنه قد يمضي مطوية عبرته وعظته. أمّا بنوا إسرائيل فقد أورثوا عاقبة كانت آية لله وعبرة لمصير أهل الدين الذين يُحصرون ويُهجّرون في الأرض: أن ســـيجعل الله لهـــم فـــيها مراغماً وسعة. وذلك مما وجده بنوا إسرائيل، إذ تبوّأوا في فلسطين وطناً يوافي صدق صبرهم وتمتعوا رزقاً من ثمرات الأرض المباركة. ولكن السّنة كذلك في شأن أهل الدين أنهم عندئذ عرضة لفتنة تمكن في السلطان وبسط في المتاع. فـــإن ظهرت فيهم دعوة تذكير وتزكيةٍ متجددة قاموا في وجهها حباً للتراث المطبوع فيهم وقعه ولعرض الدنيا المعهود في حاضرهم. هكذا قام عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إســـرائيل ليخرجهم بدعوة الحقّ من ظلمات العرف المتقادم إلى نور الحق المتجدّد ومن حمية القوم إلى أخوّة الإيمان ومن الافتتان بسلطان الدنيا ومتاعها إلى عبادة لله الخالصة في سبيل الآخرة، لكنهم اختلفوا عليه بيّن مصدِّقٍ ناصره ومكذبٍ كائده، وتقسّمتهم

عصبة الطائفيّة يهوداً ونصارى وظلوا في ارتيابٍ وشقاقٍ وجهالة. ذلك حتى تداركهم العلـم الحـقّ في القرآن حمله إليهم نبيٌ عربـي، ويبقى الهدى يحمله الدعاة للإسلام يدعون أهل الكتاب للحقّ المبين الذي ينـزع ما بينهم من غلٍّ ويوحِّد كل أهل الدين أمّـة واحـدة يهديها كتاب الله المتواتر المتصادق أوّله وآخره، ولكن الخطاب القرآني يذكِّـر الدّاعـي أن ربّه تركهم هم أولئك مفرقين دينهم شيعاً وهو يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. وكذلك الدنيا دارُ ابتلاء وساحة مخلاّة لاختلاف الناس عن رؤى اجتهادٍ متباينة أو متاع أهواء متنافسة لاسيما على الثروة والسلطة أو عصبية إرث متـتابعة ابـتلاء وظواهر فتنة لطول عهد أصول الحق المتقادم تجري لأهل الدين السابق والخاتم كالمسلمين، فالله يذرهم حتى يحكم بينهم يوم القيامة.

ترتيل المعاني (الآيات: ٩٤ – ١٠٣):

﴿إِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنـزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤)

إن سابقة سيرة بني إسرائيل وكتابهم كانت مهاداً في سبيل تكامل بناء الحق وبناء نهجـه الأتم في الحـياة بتوالي الرّسالات المتصادقة المتكاملة، فالخطاب من ثمّ للنبـي الخـاتم ﷺ أنـه إن كان في شكٍّ مما أنـزل الله بأقدار اصطفائه للرّسل ووحيه، وإن راوده ريـبٌ في القرآن الذي نـزل روحاً من الله، وذلك بضغوط حملات ممن حوله مـن المـشركين على ذلك التنـزيل – فليرجع الشهادة في ذلك المهاد السابق للحقّ ويسأل الذين يقرأون الكتاب من قبله فإنه يتحقّق ويطمئن، لقد جاءه الحقّ من ربّه الله العظـيم لا من أرباب يقدّسها المشركون، فلا يكوننّ من أولئك الممترين الذين نشروا دعوة المماراة والارتياب بالقرآن وبتعاليمه وبصدق رسالة الغيب فيه.

﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٥)

وتمـضي الوصـيّة مؤكّدة بأن يعتزلهم وإن كانوا من قومه، فقد أرسل بلسانهم ليـصلهم بالهدى ويبلغهم من قريب، ألاّ يكوننّ من الذين كذبوا بآيات الله التي يتلوها لـئلا يزاوجهم على سنّتهم فيتلوهم إلى مثل عاقبتهم فيكون من الخاسرين، وليكُن من

المـــصدّقين بالحـــق يجادل أولئك به ويصابر على باطل إغوائهم فيكون من الصالحين المفلحين.

﴿إِنَّ الَّـــذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (٩٦-٩٧)

الخطاب للنبيّ المبلّغ الرّاجي هداية مَن يدعو: إن الذين حقّت عليهم كلمة ربّه - إذ اخـــتاروا الضلال والكفر وأطبقوا على أنفسهم بهوى الارتياب والتكذيب إصراراً علـــى عـــصبية عمياءِ وغيرةً على متاع يبتغون حفظه بأهوائهم وأعرافهم الضالّة وهي الكلمة التي يقدّرها في خُلُق العباد إذ ينطبع في قلوبهم منهاج الكفر المتمادي ويغشاهم ســـد من الهوى، حقّ عليهم بها أنهم بعدُ لا يؤمنون بالحق ولو بانت حجته أو جاءتهم كلّ آية. سنة القدر تمضي أن طبع الكفر تنختم به قلوبهم ويغلب عليهم لو جاءتهم كل آية من القرآن حجة على الحق ونوراً من الهدى وذكرى لآيات الله في السّير السالفة أو كلٍ الآيات التي يتطلبونها هم ظواهر حادثة تتبدّل بها سنن الطبيعة المعروفة شهادةً على الحـــق بإعجازهـــا كما وقع للمرسلين من قبل. لو تناصرت كل الآي - تجليات بيان بآيـــات وحي نازلة وآيات حدث بأفعالٍ معجزة - لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، يروا رؤية العين مجيء حق اليقين ووقعه مشاهد هلاك عاجل يسوقهم موتاً إلى الآخرة لـــيقوموا عـــند ساعة جزاء لا مردّ لهم بعد رؤية اليقين المشهود ورهبته. هم يؤمنون عندئذ يودّون مرجعاً إلى الحياة فسحة لتوبة إلى الحق والعمل الصالح، وأنّى لهم.

﴿فَلَـــوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (٩٨)

ســـبق الذكـــر في الآي الماضـــية أن قد أُطبقت سنة الله الماضية على كل القرى بأقـــوامها إذ كفـــروا وأصروا فحقّ عليهم قدر الله أن طبع عليهم الكفر فتمادوا فيه وأصـــابتهم عاقبة السوء والعذاب الأليم. وجاءت هذه الآية مبتدئة بكلمة ترجٍّ: لولا كانـــت مـــنها قـــرية مّا، هي آمنت بحق الدين الغيبـــي وهديه في الدنيا فنفعها إيمانها وســـلمت مـــن ســـريان تلك السُّنن التي تحتويها تلك العواقب. لكن عمّ ذلك الطبع والمـــسير والمصير سواد الأقوام الأولين إلا قوم يونس: امتازوا وجرى الاستثناء لهم لمّا

آمـــنوا بحقّ الدين الذي عاد به إليهم رسولهم يونس بعد منصرفه السابق عنهم فدعاهم إلى الإيمــان فاســتجابوا تائــبين فسلموا من الخسران والهلاك، إذ كشف الله بأقداره المــسنونة في شــئون مآل البشر كفّ عنهم في الحياة الدنيا الخزي والخسر الذي كان يلحــق بالآخرين الكافرين، ومتّعهم كذلك بأقداره في بسط نعم الحياة إلى حين، إلى أجل قضاء الموت المسنون منتهى الحياة الدنيا[(١)].

﴿وَلَــوْ شَــاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩)

إن قـــدر الله للإنسان في الأرض - بعد الهبوط من الغيب - أن يُدعى إلى اتباع هـــدى ينـــزله الله تعالى تذكيراً ليؤمن بالغيب ويعمل صالحاً، ويتاح له طبع الخيار بلا جـــبر، يمتحنه الله أن يؤمن أو يكفر ثم يردّه راجعاً إليه ليحاسبه ويجازيه وفق ما اختار. والخطـــاب للنبـــــي ﷺ الحريص على هداية مخاطبيه أن لو شاء ربه الذي هو رؤوف يـــرعاه بـــرحمته في تيـــسير دعوته لكان قدره أن يبدّل طبع الإنسان وإذاً لآمن من في الأرض كلـــهم جمـــيعاً بدعوته، فعليه هو أن يلح في الدعوة إلى الإيمان على ألاّ يحاول إفساد الخيار الحرّ فيحمل على الناس جبّاراً، فالله القادر على كل شيء لم يكره عباده، فهو العبد الرسول أيكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟[(٢)].

﴿وَمَــا كَــانَ لِــنَفْسٍ أَن تُــؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٠)

مـــا ينبغي ذلك وما يكون، فسنّة الخيار القدرية جاريةٌ في البشر، وما كان لنفسٍ أن تـــؤمن إلا بإذن الله الذي يفتح لها بمشيئة قدره مسالك الإيمان وسبيله لأنها اختارت

---

(١) ذكر اسم النبـــي يونس - أو ذو النون أو صاحب الحوت - بين أنبياء في موضعين وذكرت قصته رسولاً في بضع سور من القرآن - راجع الآية ١٦٣ سورة النساء والآية ٨٦ سورة الأنعام، ثم انظـــر الآيـــات: ٨٧ و٨٨ سورة الأنبياء، و١٣٩ - ١٤٨ سورة الصافات، و٤٨ - ٥٠ سورة القلم.

(٢) الأصـــل ألا إكـــراه في الدين فالله بمشيئته يخير من في الأرض، وهكذا ينبغي أن تكفّ إدارة المؤمنين عن الجبروت والسيطرة في الدين - راجع الآية ٢٥٦ سورة البقرة، وانظر الآية ٤٥ سورة ق، والآية ٢٢ سورة الغاشية.

الـــتوجه إلـــيه. أما الذين لا يعقلون فتنة ظواهر المشهود فيضبطونها في نفوسهم، ولا يـــرونها آيات لله ولذلك لا يؤمنون، فأولئك يحقّ عليهم أن يجعل الله عليهم الرجس – يمـــضون كافـــرين في الدنـــيا تنطبع قلوبهم ولا تتطهر من رجس فتن العالم المشهود، ويساقون إلى رجز عاقبة العذاب.

﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١)

علـــى الرّسول الحريص على إيمان أمّة خطابه أن يوجههم إلى آيات الله المتجلّية قـــائلاً في دعوته لهم أن ينظروا ماذا في السماوات والأرض من آيات الله خالقاً ناظماً للكـــون المشهود ومنعماً عليهم هم بتسخير ما حولهم من ذلك لهم، لعل ذلك يهيئهم لتلقـــي آيات التنـــزيل في الكتاب تذكرهم به وتدعوهم للإيمان وتعلمهم الهدى، فإن سكن الإيمان في نفوسهم اهتدت حياتهم إلى سواء السبيل. وما تغني الآيات والنذر عن قومٍ لا يؤمنون بآيات الكون تبصّرهم وآيات الكتاب تذكّرهم وتنذرهم بعواقب سيرة الحـــياة، ما تجديهم شيئاً ولا تنفعهم قوماً لا يؤمنون ويصرون على كفرهم ويسيرون على غفلتهم فيذهبون إلى عاقبتهم المحذورة.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ (١٠٢)

وقد مضى أولئك لا تُغني عنهم الآيات سادرين فيما أملى لهم الله من بوح خيار ومـــدّ حـــياة غير مؤمنين ولا مبالين بالنذير، فهل تنتظرون أن يحقّ عليهم في الدهر إلا مـــثل أيـــام الـــذين خلوا من قبل، ممّن يرون آثارهم ويسمعون أنباءهم – عهود كفر مـــستبد لم تنفعه الذكرى وغشيته سنن التمادي فالانطباع فأودى ذلك بأهله إلى سوء العاقـــبة. والخطاب للرسول ﷺ أن يصابرهم ويياريهم قائلاً لهم: فلينتظروا، إنه معهم من المنتظرين موقناً بوقع سنن الله الجارية وكلماته القدرية التي لا مبدل لها.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

تمـــضي ســـنن الله وتجري العواقب الخاسرة التي لا ينتظر المخاطبون بالقرآن إلا مثلها، لكن كان يقع ذلك للظالمين ثم ينجي الله بأقداره المتضاعفة وأوامره الفعّالة رسله

بالهدى والنذير الذين استجابوا وآمنوا معهم، سنةً تتم بها كلمته العادلة لهؤلاء وأولئك، كــذلك حقاً على الله بموازين علمه الواجبة وأحكام قضائه الحاقّة- مهما تنطبق وقائع الهلاك على الظالمين وتحيط بهم- ينجي بأقداره تنجية تامّة زمرة المؤمنين.

عموم المعاني (الآيات: ٩٤ - ١٠٣):

إن الدعاة للدين الحق توحيداً لله خالقاً ومدبراً وهادياً للكون وإخلاصاً في العبادة لــه دون إشراكٍ لإله أو لهوى الدنيا وتزوّداً للقائه بالصلاح في الحياة الدنيا رجاء جزاء النعــيم والرضــوان في الآخرة وباتقاء الكفر والفساد خوف الجحيم والغضب - إن الــدعاة إلى ذلك قد يلاقون من أمّة خطابهم الصدود وقد تحيط بهم منهم حملات ظن بهــم ســحرة ومفترين، ومقولات طعن في حق أصول الدين وريب في صدق ما يتلى علــيهم من مواعظ نبأ الأوّلين، ومجادلات بدعاوى وعقائد باطلة في الغيب، ومذاهب مادية مطمئنة بالحياة الدنيا مفارقة لصراط حياة المؤمنين الهادف للآخرة. وذلك كلّه قد يُوقــع في الــدعاة شكّاً وارتياباً فيما يدعون إليه فلا يلقون خطاباً ينفذ إلى القلوب. عــندئذ علــيهم - بهدى من كتاب ربّهم وسنة رسولهم - أن يسألوا الذين يقرأون كــتابَ الوحــي المنــزل سابقاً للقرآن، فإن كتب دين الله الموحاة تتصادق في تعليم أصول حق الغيب والمصائر إليه وفي دعوة المجاهدة في سبيلها لمذهب الديانات الوضعية، وتــتوارد فــيها متشابهةً قصص الأولين عظة للخالفين في مصائر مواقفهم من الدين. ولِيطمئن الدعاة - بعد أسئلة في حقّ ذلك يرجعون بها إلى أهل الكتاب وأجوبة مرجوّة تلقى إليهم سكينة - ينبغي أن يتولّوا هم ما يتيسّر من اطلاعات لمقارنة الأديان الكتابية ليتــبين لهم مدى تصادقها ووفاقها ويتأكد عندهم حقّ الكتاب الخاتم. وينبغي عليهم بعــد ذلك ألا يكونوا من المرتابين أبداً بحق دعوتهم، فقد جاءهم الحق من الله في وحي القرآن واستيقنوا ذلك من بيّنة الرّسالات الأولى. والحق أن يستقيموا جميعاً مؤمنين لا يركنون إلى الذين كذّبوا بآيات الله من أمّة خطابهم ولا يندرجون في صفّهم ولو كانوا قــومهم يحرصون هم على هدايتهم، ذلك لئلا يكونوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة فإنما بُشرى الفلاح هي لأولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتّقون.

ولعلّ الدّعاة إلى رسالة القرآن يجاهدون رجاء هداية قوم إلى آيات الله، ولكن أولئك قد يعرضون عنها ويعمهون عاكفين على ضلالهم القديم يستهويهم خيار الكفر بعد أن بان لهم حق الإيمان وتحق عليهم كلمة الله وتمضي سنته أن يطبع أرادتهم تلك في قلوبهم فيذهبوا عمياً صماً إلى مصيرهم المكتوب. أولئك هم الذين لا يؤمنون وإن جاءتهم الآيات تتنزل قرآناً لأنهم لا يتلقّون كلمها مستمعين، ولا يؤمنون أيضاً ولو استجيب لهم فوقعت عليهم آية مشهودة معجزة، لا يُسلمون لها بل يقولون إنما سُكّرت أبصارهم وأُخذوا مسحورين. ولو كانت قرية ما من السالفين في الأرض القربى لأمّة الخطاب الأولى آمن قومها بآيات الله فنفعهم إيمانهم لسبقت مثالاً وآية لحق الدين وعاقبة ولاقتدى بها الخلائف، ولكن أقوام تلك القرى ضلّوا فحقّت عليهم كلمات طبع المسير وحسم المصير. ذلك إلا قوم يونس عليه السلام لمّا آمنوا كشفت عنهم أقدار الله عذاب الخزي الذي أصاب الآخرين في الحياة الدنيا ونفعهم إيمانهم وتباركت ثمراته فمتعهم الله بأقداره إلى حين.

وقد تراود نفوس الدعاة إلى الحق – إذا استيقنوه بيّناً فضاقوا من إعراض المخاطبين – أن يُكرهوهم ضرورة إلزامهم حتى يكونوا مؤمنين، ولكن تلك نزعة مفارقة لهدى التخلّق بأخلاق الله ورعاية سننه في أمر البشر وهو القادر القهّار فوق عباده الحكيم الخبير، ومشيئته قدراً أن يذرهم لحياتهم الدنيا في خيار ليؤمنوا مخلصين أو يكفروا، ولو شاء سبحانه وتعالى لبدّل قدر الابتلاء والتخيير في الدنيا بين الاهتداء بأمره المشروع أو عصيانه ولأكره مَن في الأرض من جن وإنس على الطاعة، وعندئذ يكونون قد آمنوا كلهم جميعاً كما آمنت الأشياء وأطاعت طبعاً أوامر الله المقدرة، ولكن الله خيّر الإنسان ولم يجبره فما للدعاة إليه إلا أن يدعوا باسطين للمخاطبين الحرية والخيار. وكلّ ذلك التدبير للكون في إطار مشيئة الله، وما كان لنفسٍ من البشر أن تؤمن إلا أن يشاء الله ييسّر لها بوح الخيار ويتم لها التوفيق بينما يجعل الرّجس غير الطيّب لمن خبُث خياره وطبعه فساء مصيره، أولئك هم الذين لا يعقلون أهواءهم ضبطاً ولا يعقلون آيات الله تدبّراً يسمعونها عن إنصات وخشوع ويرونها عن بصيرة وذكرى فيؤمنون.

ويستعين الدعاة إلى رسالة القرآن – إن لم تتذكر فتستجب في أمة خطابهم بذرة الفطـــرة المؤمـــنة – يستعينون عليهم بدعوة النظر المتفكر ماذا في السماوات والأرض لينفذوا بالبصيرة عبر آيات الطبيعة إلى الغيب لمعرفة بالله وحده خالقاً مدبراً هادياً كل شـــيء ليقوم وفق سننه المقدرة المشهورة ومسيّراً مخلوقاته في الأرض إلى آجالٍ يسمّيها في الحياة والموت وفي الأفلاك يديرها بآجال معلومة يعلم عباده منها الزمان والحساب. تلك الآيات الظاهرة المباشرة للناس البيّنة دعوتها للغيب بوحدانية الله وبالمصير إلى أجل مكـــتوب ممّا كان يَغفل عنه كثير من أمّة الخِطاب الأولى، وكذلك تغفل أمم الخطاب من بعدهم عن دلالات علم الطبيعة لا يعلمون إلا ظاهره، ولا يدركون العظات والعبر مـــن قـــصص التاريخ التي تُتلى عليهم من الوحي أو يتبينونها بالرّواية ونظر الآثار فهم يـــردّون وقائعها إلى أسباب ظاهرة عادية وحسب، أو يصرفون مآلات الأقوام الهالكة إلى ســـوء حظهـــم من وقع أسباب الدهر وظروفه غير المرجوّة. وآيات الله ونذره في كتابه الموحى لا تغني في قوم فتنتهم المادة المشهودة فهم لا يؤمنون بأيّما آية شاهدة في طبـــيعة كتابه الكوني أو حتى واقعة شاذّة عنها مستشهداً بها آية لتحمل على الإيمان. وإذا كانـــت القرى السالفة لمتنـــزّل القرآن في منطقة الرّسالات الكتابية كانت ظالمة أقـــوامها محـــادّة لآيات الله ودينه فحقّ عليها الرجس وسوء المصير، ماذا كان ينتظر الخلف المخاطبون العرب في غفلتهم عن الدين الحق إلا مثل أيام أولئك الذين خلوا من قبلهم.

ولْيجـــتهد الدعاة إلى رسالة القرآن في عرض تاريخ تلك السير مدروساً مبحوثةً تفاصـــيله، وليمضوا في عرض سائر التاريخ البشري تذكيراً للمخاطبين من أمّة الحاضر الـــذين يغفلـــون في قـــراءته عن عظاته وعبره ليستهدوا بها أو ليُساءلوا ماذا ينتظرون لمـــستقبلهم إلا تـــرجّيات التّمنيّ أو العوارض الطارئة صُدَفاً عندهم لينساقوا بذلك إلى مهالـــك مـــثل السّابقات أوقع الناس فيها خروج حياتهم عن حق الدّين وحدّه. وليقم الـــدعاة بـــين أولئك الغافلين – كما قام الرّسول بوصية الكتاب – شاهدين بالإيمان معلنين أنهم يسعون في الحياة معتبرين بالماضي ثم ينتظرون متوكّلين على الله إذ استهدوا بهديـــه ونـــذره فـــيما يستقبلون من تصاريف العواقب لمسير الحياة. وليستيقن أولئك

المستقيمون المتوكّلون أن الله مصدّقٌ لبشراه الموعودة في تصريفه مصائر الدنيا والآخرة، إن تمـــادي قومهم المكذبون بالغيب والدين فيما يودي بهم ويعقبهم الكوارث الشاملة يطمئن أولئك الدعاة أن الله يتولى الصابرين، ومهما تمتحنهم أقداره حيناً ليبين صدقهم فسنته المكتوبة حقاً أن ينجي فئة المؤمنين من مصير المهالك الذي ينتظره قومهم الذين لا يؤمنون.

ترتيل المعاني (الآيات: ١٠٤ – ١٠٩):

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤)

تـــأتي آيات خواتيم السّورة نتاج منحى هديها التوحيديّ لله الصارم حقّه. فالأمر للرسول الداعي إلى ذلك الهدى أن يقوم منبّهاً لكلّ الناس من أمّة خطابه بشتّى موارد ثقافـــتها الجاهلية قائلاً لهم: إنه إن كانوا هم في شكٍّ من دينه، يجادلون فيه جانحين عن هديـــه الحقِّ بظنون الإشراك ومزاعم الموت هلاكاً من الدهر أبداً، فهو لا يعبد الذين يعـــبدون من دون الله، حنفه عنهم فرقانُ حقٍ مازه عن معبودهم فلا يعبده ولكنه يعبد الله، الإلـــه الفرد الأعظم الذي يتوفاهم قابضاً أرواحهم ليرجعوا إليه بعثاً يوم الحساب وليلقوه فرادى ويدينوا له ملكاً ليوم الدين، وليتلقوا تبرّؤ أولياء الشرك منهم، ولا تحق لهـــم شفاعة فيذوقوا العذاب. وليشهد فيهم أنه أُمر هو أن يكون أول المؤمنين مهما، يشق الخروج الأول على تقاليد أولئك السائدة، فإنه يبادر منكراً لها ويقوم قدوة هادية لتظهر منه راية الحق ودعوته ومثاله ويستجاب له فيكون رائد صفّ المؤمنين ويحتمل ما يواجهه من تلقاء مخاطبيه المشركين.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٥–١٠٦)

والوصية هنا تتم للرسول ﷺ فضلاً عن إعلانه الشهادة بحق الدعوة وإقامته لحقها خارجاً على معبوداتهم الجاهليّة المشركة بالله تعالى خالصاً له تعالى معبوداً وأول صفّ المؤمنين: أن يُقيم وجهه للدين حنيفاً مستقيماً على سبيل الحقّ عادلاً عن ضلال الشرك

وفئته، وألاّ يكون أبداً من المشركين. وتعبيراً خالصاً عن توحيد الله ومثالاً صادقاً لسائر المؤمنين ألاّ يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضرّه كسنة المشركين وثقافة شعائرهم السائدة حيث يدعون آلهتهم ترجياً موهوماً وهي عاجزة لا تجلب لهم نفعاً ولا تدرأ عنهم ضراً، فإن فعلها مثلهم فإنه يصبح من الظالمين الذين تجاوزوا عدل الوجهة الحق إلى ما دونها.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٧)

والخطاب للنبيّ يستمرّ أنه وإن يمسسه الله بضر، كما هي سنته تعالى يقلب الخير والشر على عباده ابتلاء ليحقّ مذهبهم الصابر الشاكر بكلّ الوجوه، فليعلم أنه لا كاشف للضرّ إلا هو ربّه المبتلي عباده، فلذلك ليقصر الرجاء والدعاء عليه سبحانه، وإن يرده الله بخير فلا رادّ لفضله، فهو المنعم وحده لا يرد فضله كائنٌ دونه، ولذلك يصوّب النبيّ الحمد إليه تعالى، فهو يصيب بفضله من يشاء من عباده من الصالحين استجابة لسؤالهم بعد البلاء ورحمة من عنده، وكذلك من غير الصالحين، لأنّه يبتلي ويُملي ورحمته تُبعد غضبه وهو الغفور الرّحيم مهما تخطر لعباده خواطر الرّيب وتقع منهم الآثام لعلّهم يذّكرون فيتوبون ويستغفرون.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨)

وليقم الرسولُ منبهاً على أمّة الخطاب من الناس كافّة معلناً لهم أن قد جاءهم الحقّ من ربّهم، فمن اهتدى مستجيباً لدعوته ﷺ فإنما يهتدي لنفسه هو، تنفعه هدايته في الدنيا ويفلح بها في الآخرة، ومن ضلّ فإنما يضل عليها إذ لم يطمئن إلى حق سبيلها وذهب ضارباً لوجهات الحياة حائراً، فما ضلّ إلا على حساب نفسه خسراناً في الدنيا وفي الآخرة. كل نفس بما كسبت رهينة، ذلك حقٌّ أصله في حرية الإنسان ومسئوليته، وليتل الرّسول بناء على ذلك أنه ما هو عليهم بوكيل، أمرهم لله وخيارهم موكول لمشيئة الله كيفما يفعل بهم يسيّر لهم الحسنى إذا أحسنوا أو العسرى إن هم أساءوا ويوفّى لهم الجزاء.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩)

والأمر ختاماً بعد ذلك البلاغ للرسول ﷺ أن يتّبع ما يوحى إليه ليستقيم، لا يرتاب ولا يدبر ولا يركن إلى الباطل مهما تشتد وطأة الحملة عليه، وأن يصبر ثابتاً مهما يعاسره الإعراض من أمّة الخطاب ويلقى منهم الاستهزاء والرمي بالسحر والافتراء والاستفتاح بما هو عاجل من النذر والمماطلة يجادلون في الحقّ بالباطل ويتطلبون الآية المعجزة، ومهما يتهدده أخطر ما لقي الأنبياء قبله من الأذى، ومهما يمضي سواد أهله كفّاراً رغم مودة قرباه وحرصه على هدايتهم، ومهما يسلكون سنة أقوام من قبل كذبوا واستكبروا وهلكوا. ليصبر حتى يحكم الله بينه وبين المخاطبين ويقضي مصيرهم الذي يحق عليهم أو يستغفرون فيهديهم الله إلى عاقبة الفلاح. وهو الله الإله الأعظم الأحق بوكالة الأمر إليه، وهو خير الحاكمين فيما يختلف فيه البشر قضاءً عاجلاً في الدنيا أو آجلاً في الآخرة[1].

عموم المعاني: (الآيات ١٠٤ - ١٠٩):

إن على الداعي للإسلام - إهتداءً بالقرآن واقتداءً بالرسول ﷺ - أن يذهب في الحياة بين الناس إماماً ومثالاً للمؤمنين بوحدانية الله، له يخلص العبادة وإليه يصوّب الدعاء، وإلى صف المؤمنين ينحاز شاهداً بدين الحقّ مهما غلبت في أوساط الناس أمة خطابه ثقافة دينية يسودها التعبّد والدعاء لما دون الله من مشهودات مؤلّهة أو أهواء دنيوية فاتنة. وأن عليه أن يقوم فيهم عازماً على استقامته للحق، صبّاراً على ظنونهم به، إن كانوا في شك من دينه التوحيدي يطعنون في حقّ أصوله ويرتابون في صدق من يبلّغ دعوته، فإنه هو لا يعبد الذين يعبدون من دون الله ولكن يعبد الله الذي يتوفّى أيضاً أنفسهم هم بعد موتها ثم يرجعون إليه في يومٍ يقوم فيه بيّناً الملك له وحده يبعثهم ويحشرهم ليُسألوا فيجزوا عمّا كانوا به يشركون. ثم ينبغي على الدّاعي أن يعلن لهم

---

(١) إتباع هدى الوحي والصبر حتى يحكم الله تكليف ورد ذكره في آيات منها: الآية ٥٧ سورة الأنعام، والآية ٨٧ سورة الأعراف، والآية ١١٢ سورة الأنبياء، والآية ٤٨ سورة الطور، والآية ٤٨ سورة القلم.

جهـــاراً أنـــه مأمور فريضة من ربّه ألا يوالي الكافرين مهما تسد بينهم الموالاة وروح عصبية الجماعة والمسير بدفع أعرافها، بل أن يكون مع المؤمنين. وأما شأنه هو في نفسه فليلزم أمر ربّه أن يقيم وجهه لله قبلةً في مسير حياته يلتزم هديه ويولي وجهته لا يلتفت لـــصارفٍ أو لاه، بـــل يسلك طريقاً حنيفاً مسلماً حياته لله منصرفاً عمّا سواه هاجراً مذهب الشّرك وجماعته طوعاً لوصية ربه ألا يكون من المشركين أبداً. وإن كان ذلك هـــو مـــسعاه في الحياة عابداً لله فإنه يستعين به تعالى على أموره وحاجاته مخلصاً، لا يدعوا من دون الله ما لا يضرّه ولا ينفعه كما يعهد المشركون، فإنه إن فعل يصبح من أولـــئك الظالمين الذين يعدلون عن توحيد الرجاء إلى الله حافظاً نافعاً إذ تحملهم أوهام ظنونهم على نسبة الأقدار والأسباب إلى غير الله مما لا يُغني عنهم شيئاً. فهو حقاً يتذكّر أقـــدار الله وأوامره الغلاّبة يدبّر بها شأن عباده وحده مقلّباً عليهم وجوه الابتلاء، فإن يمســـسه الله بضرٍ يعلم ألاّ كاشف له إلا هو تعالى مهما يكن مسعاه في الأسباب يكل إلى ربـــه رحمة السلامة مما أصابه، والله هو وهّاب النعماء إن يرده بخير رحمتُه نافذة فلا رادّ لفـــضله مهمـــا يكن وقوع الخير له يسوء آخر كارهاً حاسداً يسعى للكيد له أو يستعين على ذلك بما يتوهّمه جالباً للشرور من قوى الوجود. فإن الله يصيب بالخير من يـــشاء من عباده ابتلاء بعاجلة جزاء لمن أصلح أو غاشية عفوٍ عمّن أساء، وهو الغفور الرّحيم يصفح عن كثير مما يكسب عباده ويحق عليهم به صائبة الضر أو صارفة الخير.

ولـــيقم داعية الحق – إتباعاً للمثال الأول – ينادي في أمة خطابه بدعوته: أن قد جاءهم الحق يبلغهم إيّاه ولا يفتريه، جاء صادراً من ربهّم الهادي الأحقّ أن يستجاب له في ســـبيل الرشـــاد. وهـــو ﷻ جعل مشيئة الإنسان حرّة ليجعله مسئولاً عنها، فمن اهـــتدى منهم فإنما يهتدي لنفسه يلقى هو ثمرة هداه الطيبة في الدنيا وعاقبته الحسنى في الآخرة، ومن ضلّ عن سبيل الله فإنما يضل على نفسه يجزى السوأى، والمهتدون برءاء مما يفعل الضالّون ما بلّغوا هم رسالة الهدى الحق.

وليؤكد الداعي لله – ما أوصى به الرسول الداعي الأول القدوة ذو الصلة بالغيب وحـــياً – أنه ما هو على الناس بوكيل يتولّى بإرادته إحداث هدايتهم أو ضلالهم، فإن الأمر لله من يهديه بتيسير مسلكه وتوفيق إرادته للهدى فلا مُضل له، ومن يضلله مدّاً

لمشيئته التي اختار بها الضلال فلا هادي له. تلك قولة الحق يأتمر بها الرسول وما يكون لداعـــية أو فقيه أو إمام دين أن يقوم في الناس كأن الله فوّضه وكيلاً وعماداً لمشيئتهم. وكمـــا أمر الله الرسول، من اتّبع سنته داعياً فعليه أن يتّبع ما كان يُوحى إليه من ربّه، فقـــد اســـتقام هو مثل الرّسل من قبله وإن ضاغطتهم من المخاطبين فتنٌ شديدة، وأن يـــصبر فإنـــه عرضة لها ابتلاءً من الله ليبين صدقه مهما يمد للظالمين حوله مدى الحملة عليه ليردّوه عن هدى الله بالكيد والأذى. وليُرابط على الصبر معتصماً حتى يحكم الله الفرج وفتح للمؤمنين وأخذ للظالمين، فإن الله قد يقضي بين الناس عاجلاً حتى يأتي يوم الفـــصل اليقين في الآخرة. وهو ﷻ خير الحاكمين لأن الحاكمين سواه في المظالم بشر قاصرون عن الإحاطة ببيّنة ما بين الخصوم وعن إقامة ميزان العدل قسطاً لا يعتريه ميل الهوى وخطأ الرأي وعن نفاذ قضائهم وافياً، والله هو العليم الخبير العدل الحكيم الحق القهّار علمه عن بيّنة وحكمه الحق وأمره مفعول.

سورة هود

خلاصة هدي السورة:

سورة 'هود' من القرآن الذي أُنزل في مكّة حيث كان ترتيب نزول وحيها بين السّورتين في ترتيب كتابها - 'يونس' و'يوسف' - وذلك في أواسط العهد المكي. ولّما انتظم القرآن كتاباً في أواخر وحيه ليُتلى بترتيب غالبه على حسب طول السّور كانت هذه السّورة هي الحادية عشر وجاءت في وسط بضعة سور حملت في أسمائها ذكر الرسل وقصّت قصصهم عِبراً للقائم بالدعوة ومواعظ لأمّة الخطاب في سياق تلك المرحلة المكّية ومثلها، وسميت 'سورة هود' إذ ورد فيها أطول ذكر لقصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وقد ورد نبأه أيضاً في سور أخرى، فضلاً عن ذكر اسمه مع سائر النبيين في مواضع كثيرة من القرآن. وتفصيل وجوه قصة هود - وغيرها - قد تتباين في مختلف السّور، ويأتي في كل منها بما يناسب عهد النزول وسائر سياق هدي السورة. وسيأتي بيان ذلك في هدي السورة.

وجاء مفتتح السّورة - كما هو الأكثر في سور مكيّة هي التي تعرّف بحق القرآن الوحي المنزل جديداً لتقويم أصول الدين - يشهد أنه وحي حقّ من الحروف 'الألف واللام والراء' التي تُبنى منها ومن سائر الحروف العربية بنية كلمات القرآن ليقع بيّن المعنى متجلّي الحكمة بلسان من يخاطب من العرب أمّة الخطاب الأولى وليظهر منظوماً من الحرف العربي أسلوبه الرائع المعجز التقليد منهم آيةً أنّه من الله العليّ الحكيم. والسورة ذكرت أنباء هود وأنبياء آخرين - مثل سور أخرى، ليكون بيانهم مثالاً

يقـــتدي بـــه كلّ داعية للدّين لاسيما لأول عهده، وليتعظ كل مخاطب بما جرى على أقوامهم.

ويـــتوارد ذكـــر القرآن عبر السّورة. فمن بعد الحروف المقدَّمة التي يتم منها بناء خطابـــه يأتي ذكره كتاباً أُحكمت آياته لا تضطرب معاني هديها ولا تنبهم أصوله ثم فُـــصّلت لتنـــزل على مفاصل الحياة وثناياها، وذلك من رب حكيم بتنـــزيل وجوه الهـــدى في الحياة خبيرٍ بسياقات وقعها، هو الله. ويعود ذكر القرآن – بعد ذكر أصول الإيمـــان فيه – أن المؤمن به يميزه عن الذي لا يستجيب أنه يقوم به في حياته على بيّنة مـــن وحـــي ربّه واضح معناه ثابت حقّه، وأن الذي يتلوه عليه أول البلاغ شاهدٌ منه تعـــالى – رسولاً ما افتراه هو ولا لُقِّنه من غير الله، بل أُرسل به منه تعالى ليبلّغ رسالته ويـــتلو آياته شاهداً بحقّه وببلاغه، وأن قد سبقه كتاب موسى شاهداً على حقّ الوحي والتنـــزيل وعلى رسالة الغيب الهادية. وتمضي الآيات بَعداً فتُثبت حقّ القرآن في وجه الذين يظنّون أنه مفترى من الرسول، إذ يدعوهم الرّسول بلاغاً من الله أن يأتوا بعشر ســـور من مثله مفتريات، وإذ أعجزهم التحدّي وهم عرب اللسان، فذلك شاهدٌ آخر علـــى مـــصدره الأعلى الأعظم. وفي سياق أنباء الرّسل ترد الإشارة إلى أنها أنباء حق تشهد أن الكتاب الذي يرويها ليس مفترىً من رجل ما كان يدري هو ولا قومُهُ علم ذلك، بل هو علمٌ يوحى من الله هدى للرسول وعبرة يستعين به على مصابرة قومه في ســـبيل عاقبته الموعودة. ثم يأتي عند ختام السورة أن الله يقصُّ تلك القصص بالحقّ في هذا القرآن تثبيتاً للرسول وللمؤمنين.

والـــسورة علـــى نهج القرآن المكي في غالب السور ذات الآيات المئين – تحيط بأصول هدي الإيمان بالدين لأوّل وقعه المتجدّد في الحياة. وأول تلك الأصول في صدر الـــسّورة ذكر الله الذي ينبغي ألا يُعبد إلاّ هو، بل أن يتوب إليه المخاطبون تقوى يوم كبير هو المرجع إليه الموعود. ثم يأتي ذكر كبرى معالم العالم المشهود آيات دلائل على حـــقّ الغيب، على الله الخالق الرازق فيه الإنسان ليبتليه ثم القاضي عليه موتاً فبعثاً في العـــالم الآخر للجزاء. وتذكر السورة – فيما يتلو ذلك – الإنسان المبتلى بحياته الدنيا ونـــزعته للافتتان بها يتقلب مع ظروفها وابتلاءاتها الحاضرة. وفي السورة هدي وصايا

للرسول داعية للدّين الحقّ وذاكراً لله وصابراً. وفيها بيان لمذاهب الكافرين المعرضين عن حق القرآن ولمقولاتهم. ويأتي فيها ذكر قليل للمؤمنين الذين قلّوا في ذلك الحين من دفع الحق الأول في مكة. ثم يأتي ذكر نبأ المرسلين من أولهم قِدماً: نوح الرسول إلى قومه أبي الأمم في منطقة الوحي المتنزّل في وسط العالم، ثم يتلوه ذكر هود رسولاً إلى عاد جنوبيها، ثم صالح في ثمود في وسط شمالها الشّرقي، ثم لوط وإمامه ذي قرباه إبراهيم في شمالها، ثم شُعيب في مَدْيَن دون الشمال، ثم يرد ذكر عارض لموسى رسولاً إلى فرعون بمصر لتمام القصص بما فصلته سور أخرى من ذكره مبلّغاً للدين الباقي الأثر في بني إسرائيل والنصارى والكتاب الذي يحملون. ثم تنختم السّورة بذكر الله الذي ما ظلم أقوام أولئك الرّسل بل هم ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي عبدوها دون الله، ثم بذكر يوم الآخرة المشهود ومصائر العباد فيه بين شقيٍ وسعيد، ثم بالوصية الفصل للرّسول ألا يرتاب بأثر التراث الجاهلي أو الخلاف في تراث الخلف لموسى، وأن يستقيم ويصلّي لربّه ويتعزّى من أنه لم يبق لقديم الهدى من كثير أثر بأن الله خلق الناس أحراراً ولو اختلفوا في سير ابتلائهم وساء مصيرهم، وأن يتثبت ويصابر معتبراً بالمرسلين، وأن يردّ الغيب لله إليه المرجع، فليعبده متوكلاً عليه فما هو بغافل عما يعمل عباده.

والسّورة كسائر القرآن يتوالى ذكر الله كثيراً في كل ثناياها وكل سياقات الخلق والحياة والهدى. تذكره السورة ﷻ أول حقائق الوجود في الغيب، ويذكر كثيراً باسمه 'الله' – العبارة الأعم: الإله المعروف الفرد الأعظم، ويأتي ذكر مخصوص لسائر أسماء له حسنى وصفات عليا وفق سياق المعاني الواردة فيها في السورة. فعند ذكره تعالى مصدراً للكتاب وحياً لا ريب فيه هو حكيمٌ خبير، ومع ذكر الحياة والأرض يُذكر أنه يرزق كل دابّة ويعلم مستقرها ومستودعها ثم هو آخذ بناصيتها محيطها بأقداره، وهو من حول ذلك وقبله خلق السماوات والأرض ثم استوى على عرش تدبير أمر خلقه منذ أن كانت الحياة في ماء، ليخلق منها البشر لينشئه في الأرض ويستعمره ويبتليه بصروف البلاء حوله، وهو تعالى على كل شيء حفيظ. ومع ذكر عاقبة الحياة في الآخرة والبعث والحشر والحساب والجزاء يُذكر الله على كل شيء قديراً. وعلمه تعالى

محـــيط بكـــل كسب الناس في الدنيا ليحق عليه الحكم في الجزاء، ويُذكر الله في ذلك علـــيماً بما في صدور العباد وخبيراً وبصيراً بما يعملون لا يغفل عنهم شيئاً. وفي دنياهم يُذكر حميداً مجيداً يغشى عبده ببشريات الرّحمة ويمنح عباده متاعاً حسناً ويؤتي كلّ ذي فضلٍ فضله في الدنيا وهو لا يضيع أعمال المحسنين بل يوافيها إليهم أجراً، وهو للتائبين إلـــيه رحـــيمٌ ودودٌ وللمستغفرينَ قريبٌ مجيب. ويُذكر الله إذا أزمت العلاقة بين دعاة الحـــق ورعاته، المستضعفين والمعرضين عنه الذين يغالبونهم، أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قويٌ عزيز ينجّي بأقداره الصابرين وهو في العدل فيهم أحكم الحاكمين، ولكنه قد يأخذ المسيئين أخذاً شـــديداً في الدنيا أمراً إذا جاء غير مردود بعذابٍ أليمٍ قد يبلغ إهلاكاً، وهو في الآخرة فعّـــال بكل عباده لما يريد، ينـــزل عليهم مؤمنين المغفرة والسلام سعداء في الجنة، أو يدخلـــهم كافرين أشقياء في النار. والسّورة مكّية، ولكن لا يفصّل فيها ذكر الإشراك كـــثيراً ظـــنونَ مـــذهب ومقولات تردُّ عليها حجج الحقّ في وحدانية الله، مثل سور أخرى. وإنما يُذكر أنه سبحانه لا يوحد الناس كرهاً أمة واحدة مؤمنة، وإنما يذر الناس أحراراً مختلفين ولو ملأ جهنم منهم ومن الجن مصيراً للمجرمين، وهو يعدل، لا يظلم وإنمـــا ينذر وإنما يظلم الناسُ من بعدُ أنفسَهم، وهو من وراء الدعاة لحق الدين ينـــزل علـــيهم آياتـــه المتلوّة والمشهودة، وهم لا يملكون على الناس شيئاً وعلى الله أجرهم ونصرهم وتولّيهم وهو على كل شيء وكيل.

وتذكـــر السّورة من حقائق الغيب الكبرى الحياة الآخرة مرجعاً إلى الله ومنتهى للحـــياة الدنيا، حقاً مهما ينفتن الإنسان بحاضر متاع الدنيا وزينتها، وتذكر يوماً كبيراً بعثاً للناس لا يُعجز الله بعد أمدٍ من الزمان معدود، مصيراً متمايزاً للكافرين يحق عليهم العذاب المتضاعف المحيط ويقوم عليهم الأشهاد ويضل عنهم ما كانوا يفترون في الدنيا مـــن أولياء ويشقون في النار لهم فيها زفيرٌ وشهيق، وللمؤمنين مغفرةٌ وأجرٌ كبير وهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

والـــسورة تذكر قدر الإنسان يتعاقب في الأرض لا يُسيّر في الدين أمة واحدة بل يخـــتلف بخـــياره ولكنه مبتلى في الحياة ليعرف الله نافذاً إلى الغيب من آياته المشهودة فيحيا عابداً له تعالى في سبيل المرجع إليه في الغيب والحياة الآخرة. وخياره سواء، فهو

قـــد يحـــيا غـــافلاً عن الله مفتوناً بالشهود يتعلق دون الغيب بنـــزعة الهوى إلى المتاع العاجـــل الحاضر دون الآجل، إن فارقته رحمة متاع يئس وكفر، وإن ذاق نعماء بعد ضـــرّاء فرح وفخر. أو قد يجتاز كل الابتلاء المتقلب فيكون من المؤمنين بالله الصابرين الـــشاكرين. وإن كـــان الله ينـــزل هدى كتاب الوحي فإنه يذر من كان يريد الحياة الدنـــيا وزينتها لتوفّى إليهم أعمالهم فيها بأسبابها غير مبخوسين، لكنه كسبٌ في حبط وبطـــلان في الآخـــرة، ومـــن كان يسلم لله ويخبت طاعةً لأمره تعالى فهو لاقٍ أجرهً الموعـــود. والفـــريقان للمتذكر لا يستويان، كالأعمى والأصم والبصير والسميع. إن هدى الحياة للإنسان المبتلى – في هذه السورة المكية – هي أصول حق: أن يعرف المرء ربه الواحد ويعبده مسلماً لا يتّخذ من دونه ولياً مما يظن الناس ويقدسون، يتطهر من ذلك ولو رسخ مذهباً منذ الآباء. إن ذلك الهدى يخاطب الإنسان ليصله بربه وليخرجه مـــن ظلمـــات المشهودات ألاّ تحجبه عن ربّه ولقائه في الغيب – يدعوه لينظر ببصيرة ليرى آيات الغيب فينفذ ويتذكّر مؤمناً بربه مهتدياً بوحيه ولذلك يستغفر مما كان فيه ويـــتوب إلى الله ليذوق متاعاً حسناً إلى حين في الدنيا فيحمد ويزداد إيماناً وكسباً نحو عاقـــبة حسنى عند ربه إذ يرجع إليه مسلماً ليلقى سلاماً، فإن كفر عرّض نفسه عقاباً لعذاب عاجل ليلقى عذاب يوم كبير في الآخرة.

إن الـــسورة تذكر وقع رسالة الهدى على المخاطبين. وأكثر من تعرض لهم بينهم هـــم الكافـــرون، إذ كانوا في واقع عهد نـــزول السورة بمكة الغالب سوادهم السائد مذهـــبهم. كانـــوا يثـــنون صدورهم ليستخْفوا من الإقبال على القرآن يتلى عليهم ويستغـــشون ثيابهم على آذانهم لئلا يسمعوا كلماته ويسرّون في صدورهم ويعلنون في مقـــولاتهم كـــل معـــاني الصدود عن دعوة الإسلام. إذا سمعوا ذكر البعث العظيم في الآخـــرة رمـــوا ذلك بأنه عرض سحر مبين. وإذا لم يعاجلهم الله بعاقبة عذاب كما يـــبلُغهم في الـــنُّذر لم يصدّقوا النذير واستعجلوا أجله لا ينحبس إن كان حقاً. ذلك وكانـــوا في الحياة الدنيا يصدّون عن سبيل الله يبغونها طريقاً عوجاً لا يستقيم صوب الآخـــرة لأنهـــم بهـــا كافرون. وهم في مرية مما يتلى عليهم من غريب تذكرةِ القرآن يحسبونه افتراء على الله من الرسول. وإذ كانوا لا يؤمنون بآيات الوحي من الغيب و لم

يعهدوها قبلاً يتطلبون نـــزول كنـــز على الرسول أو ملك رفيق بينة مادية مشهودة، لا يــــرجونها وما كانوا ليؤمنوا بها ولكن يذكرونها إعجازاً للرسول شهادةً عليه. هم لا يؤمـــنون بالآخرة ليرهبوا نذرها، ما يعقلون أنهم لا يعجزون الله بعثاً وقد خلقهم أول مـــرّة. وهـــم ثمة يضاعف لهم العذاب لأنهم ثنوا ظهورهم إدباراً عمداً، وغطّوا آذانهم بغاشـــية ثـــوبهم لئلا يستطيعوا سماع آيات الحق ولا رؤيتها ظاهرة، بينما يفترون هم الكـــذب علـــى الله اســـتيحاءً من ظنونهم بآلهتهم الموهومة، يضلّون بذلك ويُضلّون جُهّـــالهم. والحـــق أنهم آتيهم يومٌ موعود هم الأخسرون فيه مهما يتفاضلون في الدنيا على الناس، وعندئذٍ يدبر عنهم أولياؤهم المفترون شفعاء عند الله. إنهم يستمسكون بما كـــان يعـــبد آباؤهم فلا يخلصون لله العبادة، ولو أنهم نظروا في الماضي وهم يعقلون لاتعظوا بسير أقوام القرى من حولهم جاءهم الرسل مذكّرين منذرين فعمدوا مذهباً إلى ما أودى بهم هلاكاً.

وفي الـــسورة يـــأتي في خواتيمها ذكر عارض لاختلاف بني إسرائيل خلفاً بعد موســـى وارتابـــوا بعلم الكتاب الذي أورثوه، والله لم يقض عليهم لكلمة سبقت أن يؤخـــرهم ممـــزقين في الأرض إلى أن يوفـــوا أعمالهم يوم القيامة. ولم يطل في السورة ذكـــرهم لأنهم لم يكونوا ظاهرين بين المخاطبين في مكة منـــزل السورة، وقد فصّلت ذكـــرهم الأعراف، وإنما ينبسط القول عنهم في سور القرآن الأخرى لاسيما في أول المدينة حيث عمُر عدّهم وازدهرت ثقافتهم. أما المؤمنون بهدى خطاب السورة ومثلها آمنوا وعملوا الصالحات وصبروا على بلاءات الدنيا وهم في ذلة وأخبتوا إلى ربهم طاعة فلـــهم منه مغفرة وأجر كبير ووعدهم الجنة هم فيها خالدون، وإذ قلّوا عندئذ لم يكثر ذكـــرهم كثيراً. ولكن الله في السورة يقارن مثال الفريقين في المخاطبين: طلاّب الدنيا الـــصادّين عن سبيل الله البيّن، والمؤمنين بآيات الله البصائر – مثلهم كالأعمى والأصم والبصير والسميع – لا يستويان مثلاً لو تذكّر المخاطب فآمن.

وفي هـــدى السورة وصايا للرسول الذي يحمل أمانة الرسالة لأمة خطابه، تذكّره أن يقـــوم تالياً كتاب الدعوة شاهداً بالبلاغ معتصماً بالحق من ربّه لا يغشاه ريب وإن كـــان أكثـــر الناس لا يؤمنون، وأن يدعو لعبادة الله الذي أرسله بشيراً ونذيراً بمصائر

مـــسالك الحياة هادياً قومه ليستغفروا من قديمهم معهود الجاهلية في الإشراك ويؤمنوا لـــيلقوا في الدنـــيا مـــتاعاً حسناً خاشين إن تولوا عذاب يومٍ عظيم. وفي وجه طلبهم تنـــزيل واقعة تشذ عن المطبوع في الأشياء آيةً تعزز صدق رواية الرسول للقرآن كأن ينـــــزّل علـــيه كنـــــز أو ملك والملائكة عندهم موقرة بنات الله – إن أعجزه هو الاســـتجابة لـــذلك فالوصية له ألا يضيق صدره ولا يترك بعض ما يُوحَى إليه مما لا يرضـــون، وليذكّـــرهم أنه بشرٌ مثلهم دون ذلك ينذرهم بالوحي والله على كل شيئ وكـــيل. لقـــد مـــسّه منهم الاستهزاء ورموه بالسحر وبالافتراء على الله دون وحي، فليبلّغهم تحدي القرآن لهم إن كان زعمهم صدقاً أن يأتوا هم بسورٍ مثله وهو بلسانهم، فـــإن عجـــزوا و لم يستجيبوا تصديقاً لعلم الله المنـــزل فليتعظوا أنهم مفتونون بالدنيا وزينـــتها يوفّـــون فـــيها نتاج أعمالهم وليس لهم في الآخرة إلا النار حبطاً بصنعهم في الدنـــيا. وليصابر الرسول على أقوالهم وصدودهم ويتوكل على ربه، فإليه المرجع وهو الخبير البصير بأعمال عباده. وينبغي أن يستقيم ومن تاب معه من الجاهلية ليقوموا مثالاً للإسلام، وليعتدلوا في الحياة تقوى لله لا يطغون في مسالك فتنها ولا يركنوا إلى الذين ظلمـــوا وطغوا، فلا استنصار بأولئك أولياء من دون الله، وأن يقوم هو طوال يومه في صلاته ذاكراً لربه طرفي النهار وزلفاً من الليل، وليطمئن أن الله لا يضيع أجر المحسنين ولـــو لم يبدُ لسعيهم ثمر عاجل في مدى وقع الدعوة. وهو يتلقى وحي السورة وتأتيه فـــيها أنباء نوح والمرسلين تثبّت فؤاده أنّ رحمة الله الحافظ منه قريب وتُلقي في نفوس المؤمـــنين الذين يفارقون الكافرين موعظةً وذكرى. وليحتمل ضلالة الذين لا يؤمنون، فالناس بقدر مشيئة الله أحرار، كلٌ يعمل على مكانته، فالله لم يجعلهم أمة واحدة كرهاً بـــل تـــركهم ولو ذهب كثيرٌ منهم إلى مِلء جهنم إلاّ من رحم ربُّك، فليذر الذين لا يؤمـــنون يعملوا كما يشاءون وينتظروا المصائر. وقد كانت قصص الرسل ومجادلات أقـــوامهم وملاومتهم لهم وإيذاءهم وتهديدهم بمحذور انتقامهم، ذلك حتى يأتيهم أمر الله بـــالهلاك الماحق ويخرج المرسلين برحمة الله ناجين معهم أمة مؤمنة ولو قليلة – كان ذلـــك يهمّ الرسول لأنه كان يحرص على أن يهتدي قومه ثم يرى سائر الناس يقبلون علـــى ديـــن الله أفـــواجاً، فشيّبته – وهو في عمر كهولة لا شيخوخة – سورةُ هود

وإخـــواتها مـــن سور الأنبياء المتوالية نـــزولاً وكتاباً التي تحكي أيام الذين خلوا قبلاً كذلك المسير والمصير.

ووســـطاً نحو ختامها تروي السورة قصص المرسلين في منطقة الوحي من الغيب المـــتوالي بهـــدي الـــدين حـــتى التنـــزيل الخالد في القرآن. وكان يحمل رسالة الهدى المرسلون الذين جاءت قصصهم: نوح ولوط وإبراهيم وهود وصالح وشعيب، وكذلك جاءت إشارة إلى موسى رسولاً إلى فرعون. وسيأتي بيان القصص كما رويت تباعاً في ترتيل تفسير المعاني مع الآيات بَعداً، ولكن يمكن في إطار هذه المقدمة أن يُجمل عموم معـــالم هـــدي القصص. فرسالة المرسلين واحدة بلاغاً بأصل حق الغيب وقواماً بنهج الحـــياة، وذلك دعوة الناس إلى عبادة الله الواحد – دعوة عامة يتجلى هديها في كل هـــدي الحـــياة دون تفصيل. والحق الأصل في الدعوة كذلك من كل نبـــي مرسل، ولكـــن بعض مجتمعات الخطاب دعا شأنها إلى تصويب ذلك الهدي أيضاً خصوصاً إلى إصـــلاح فـــساد فاشٍ في أمة الخطاب. كلوط ينكر على قومه إتيان الرجال فاحشة ما ســـبقهم بها من أحدٍ من العالمين، وهود يهدي قومه إن أسلموا لله عبّاداً ألا يستكبروا بقـــوتهم وألا يتّـــبعوا أمـــر جبّارهم، وشعيب لأهل مدين ألا يفتنهم البغي على الناس فيطفّفوا مكيال التجارة وميزانها ويعثوا في الأرض مفسدين. وكان يؤكد كل المرسلين لأقـــوامهم أنهم لا يبغون منهم أجراً على أداء أمانة الرسالة، فأجرهم عند الله موعود، ذلـــك لئلا تحسب أقوامهم المفتونون بالدنيا أنها دعوة جديدة سعياً في سبيل مبتغيات الحياة بما يكافئ عمل الدعاة، أو أن دعاتها عرضة إن أُعطوا أن يسكتوا. وكلّ المرسلين كـــذلك مهمـــا عهـــدت مجتمعاتهم تمايز طبقات متفاضلة متساخرة بالمعاش والجاه، يذكّـــروهم أنهـــم بميزان الدين القسط لا يتولّون عن المستضعفين تصدياً للمستكبرين الـــذين يزدروهم، فالناس في دين الله سواء. وهم كذلك مهما كان المجتمع يطغى على أفـــراده بالتراث والعرف يردّون الناس كافّة بالحق إلى أصول المشيئة الحرّة، لا يلزمون أحداً على الاستجابة إلى دعوتهم بل يرجون الجدال بالحسنى والمتاركة سماحة ومصابرة في سبيل الإجماع المرضي على حق الإيمان أو المسير إلى سوء العاقبة. والرسل كلها تبلّغ قومها نذير الآخرة عظة لكل العباد لاسيما من يشرك منهم بالله آلهةً مظنونة أو أهواء

مفتونة بالحاضر، وكذلك نذير العاجلة عذاباً يأخذ الناس بفتنة كسنة الأولين إن تمادوا في كفرهم يصدّون عن آيات الله ويؤذون الدعاة والمستضعفين من المؤمنين.

تلك هي معالم الرسالة الواحدة للمرسلين جميعاً، ولكن أمم الخطاب قد يحاول بعضها مراضاة رسولها لتصدّه عما يخالف معهود آبائهم، يراوده أنه كان مرجواً فيهم قبلاً، أو ينكرون عليه دعوى الرسالة وهو بشرٌ مثلهم ما كان ينبغي أن يشذّ عنهم بجديد غريب، أو يُرهبونه بأن قد يُرجم أو يؤذى أو يُخرج ما استمسك بمذهبه، أو يأخذون عليه أنه ما اجتذب منهم إلا الأرذلين، أو يحيطونه هو بالسخرية أو يخزونه في ضيفه ولو من الملائكة، أو يجادلونه ما شأن صلواته ذكراً لله وما هم فيه من تراث وأموال يتصرّفون فيها كما يشاءون، فدينه لخويصة نفسه لا للحياة العامة، وإذا بلّغهم نذيراً بقريب عقاب لا يصدّقونه، لا يبالون به بل يستعجلونه. يجحدون بآيات الله، ويبغون أحياناً بأمر جبّارٍ فيهم.

أما منهج الرسل وخلقهم فهو بلاغ آيات الله إلى قومهم وتذكيرهم بنعمه عليهم رازقاً مباركاً، وأحياناً يأتونهم بمعجزة كصالح، لكنهم يبسطون للمخاطبين الخيار لا يلزمونهم، كلٌ يعمل بمشيئته لعل صدورهم تنشرح للهدى عن رضاً وإخلاص. وكل الرسل كانوا يصابرون ويقاومون ضغوط قومهم ويستقيمون هم على بيّنة الهدى من ربهم وتوفيقه لا يخالفون ما يدعون إليه ويتوكلون على الله لا يخافون كيد أهل خطابهم المستنصرين بآلهتهم، وينذرونهم نذير الحياة الآخرة أو العقاب العاجل أن اقترب لولا يكفّون عن ضلالهم. وكان منهم إبراهيم الحليم الأواه الذي كان يخاف على لوط وأهله، ما شغلته بشرى الملائكة له هو بالولد وعندما نبّأوه استهدافهم لقوم لوط بهلاكٍ مضى يجادلهم في ذلك الشأن.

أما وقوع العواقب العاجلة على تلك الأقوام بعد نذير سابق بقدوم محذورها فقد كان يتنزل بأقدار من الله نافذة، ينجي الله أولاً برحمته الرسل والمؤمنين ولو كانوا قلة، وذلك بأداة إنجاءٍ كالفلك يصنعها نوح، أو بنذير لهم خاصة يدعوهم للخروج قبل الواقعة. لكن النجاة تقتصر على المؤمنين و لم تشمل ولداً لنوح أو امرأةً للوط لأن معيار قضاء الله هو الكسب في الدين المنجي لا القربى أو النسب ولو كان للرسول في هالكٍ مودّةٌ. أما

الآخـــرون فيأخذهم أمر الله الشديد غرقاً أو عاصفة كارثة أو زلزالاً، واقعاً مباغتاً كأنهم لم يغـــنوا قبلاً يصبحون غرقى أو في ديارهم جاثمين هلكى، ذلك عاجلهم وينتظرون آجلهم عـــند المرجع إلى الله، ولا يأسى الرسل على أقوامهم الذاهبين بل يمضون مع المؤمنين سلاماً وبعضهم استخلفهم الله في الأرض وبسط لهم متاعاً وبركاتٍ إلى حين.

والـــسورة للعـــبرة في سياق القصص تشير إلى الآثار التي بقيت شاخصة تذكيراً كـــسفينة نوح المتروكة وأطلالٍ من القرى قائمة غير الحصيد، وتنبه إلى أن بعض تلك الآثـــار ليست من المخاطَبين الظالمين المكذبين ببعيد موقعاً، أو هي في طريق رحلات تجارهم. والعظة أنه لم يظهر أهل تلك القرى أولي بقية من دين الحق ينهون عن الفساد في الأرض إلا قلـــيلاً مـــن الناجين، بل ذهب الغالب منهم مترفين مجرمين هلكى، وما كـــان الله يظلمهـــم بذلك الهلاكَ يأخذهم وهم مصلحون أو بغير بلاغٍ بالحق ونذير، وإنمـــا ظلمـــوا أنفسهم. وكذلك من بعدهم العظة أن قد يغنى المترفون لكن يجرمون ويـــسوقون الـــسواد الأعظم يُردُونه معهم عواقب المهالك العاجلة. وقد أتى في سياق بعـــض القـــصص خطاب مباشر للرسول الخاتم أو تذكير له بربه، ثم كان في قصص الأنبـــياء كلـــها حقٌ يُثبّت وموعظة وذكرى للمؤمنين معه، وإن لم يعتبر بها الكافرون فليعملوا على مكانتهم يوازيهم المؤمنون عاملين، ولله الغيب القادم وإليه المرجع وما هو بغافل عمّا يعمل عباده، ليقضي بينهم فصل القضاء.

ترتيل المعاني: (الآيات ١ – ٢٥)

﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١)

مفتتح السورة استشهاد بالحروف العربية كما هو أكثره في السّور المكية، والألف والـــلام والـــراء تـــوالت في مقدمة السور التي تتابعت تحت اسم أحد الرسل أو قريته وقصـــصهم، وتوسطتها سورة الرعد وازدادت ميماً. ومنها تبنى مثلاً كلمة الرسول، ولكـــنها تمثل سائر الحروف العربية التي بُني بها كلم القرآن بلسان أمة الخطاب الأولى العـــربية – بيّنة معانيه المحكمة المفصلة بالغاً في الحكمة فصل الخطاب معجزاً تقليده – شهادة جامعة بأنه من الرب الأعلى الله الحكيم الخبير. فالكلمات ببناء حروفها صوتٌ

مــنطوق قرآنها، وبتمام خطها على ورق مسطور كتابٌ مفروض نازل على الإنسان الــذي علّمه الله النطق والبيان والقلم والكتابة ليتلقى سميعاً بصيراً منه تعالى هدى فيما تركه له بخلقه بوحاً طوعاً غير مطبوع كرهاً. وآيات القرآن والكتاب منظومات كلم، كلاً يميزها بروز مبتدئها ووقع فاصلها وتأتي منسوقةً معنى مع سائر إخواتها في السورة مــنظومةً مــع صوت الفواصل. وتلك الآيات أُحكمت منضبطة في وقع معناها دون انــبهام أو اضــطراب، ثم من بعد رسم وجهة الهدى في الحياة ومعالمه فُصّلت الخطى المهديّة في فروع سياقات الحياة بمختلف ابتلاءاتها بشتى ظروفها حتى لا يضل المسير ولو من زلة تحرفه أو فسقة تفلت منه أو فعلة تفسد من صلاحه أو خبثة تغشى طيبه.

وذلك الكتاب الذي بلغ ذلك البيان المعجز والإحكام المفصّل من لدن – من عند حكــيم بالغ الحكمة في إيقاع هوادي الحياة الحقّة، خبير – دقيق العلم في فصول ثنايا الحياة. وما ذلك بهذه الصفة العليا إلا الله.

﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (٢)

المكــتوب على الناس المخاطبين بالقرآن أن يسلموا حياتهم لوجه الله خالصة، ألا يعــبدوا ربّاً إلا الله الإله المعروف الأحد الأعظم. وذلك خطاب لواقع حياة المخاطبين الــتي ضلّت دون الغيب إلى تعلقات في المشهود، فهم وإن عرفوا الله خالقاً اتخذوا من دونــه مقدسات تقرّبهم إليه زلفى بشركة في غيبه وجلاله أو أشركوا بابتغاء وجه الله اتــباع أهوائهم في مبتغيات الحياة الحاضرة المشهودة. والرسول الذي يتلوا عليهم هذه الآيات خطاباً يعرّفهم أنه – فضلاً عما عهدوه فيه هو من قبل – قد تنــزّل عليه هذا الكــتاب وحــياً، فهو حقاً رسول من الله نذيراً لهم يحذرهم عما ينتظرهم في مستقبل الغــيب إن ضلّت حياتهم عن هدى الكتاب، وبشيراً ينــزل عليهم السكينة بما ينبئهم من خير لهم منتظر في الغيب إن اهتدوا بالكتاب الذي يحمل هو رسالته.

﴿وَأَنِ اسْــتَغْفِرُواْ رَبَّكُــمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (٣)

ويــتم لهــم الرسول البلاغ تذكيراً بواجب الاستجابة لأمر الكتاب: أن يبادروا بالاســتغفار طالــبين مــن الله أن يغمر برحمته سيئات ما كانوا فيه من سيرة ضلال

جاهلـــي، ثم أن يترقّوا في درج الاستجابة فيتوبوا إلى الله إيجاباً بتقديم كل حياهم إليه ابـــتغاء رضوانه. والبشرى الأولى المترتبة على ذلك الاستغفار والمتاب أن سيمتعهم الله رضـــاً عنهم في الحياة متاعاً حسناً، والمتاع كان هو الذي تفتنهم شهوته ويلهيهم عن الغـــيب، فـــوعد الله المنعم الذي يصدق وعده ويقع أمره مفعولاً أن يطيب لهم المتاع حـــسناً، لأهم كانوا قبلاً لا يُحسنون الحياة لله ليتجاوب لهم فيُحسن متاعهم فيها بل يسيئوها فيسوء المتاع قاصراً أو فاتناً، ولأهم لّما يتبينوا كيف يجتهدون سعياً في أسباب المـــتاع الأحـــسن بغير الوحي هدىً في الحياة حكيماً مفصلاً. وذلك المتاع إلى أجل مـــسمى، ينبغـــي ألاّ يُكبوا عليه تورطاً في شهوات مذاقه ونسياناً أنه من عطاء الدنيا المجذوذ التي فيها العمر محسوب لذلك الأجل بقضاء الموت وإن بعده أجل مسمى للقاء الله باستئناف الحياة بعثاً في نشأةٍ أخرى ومصير وفاق ما قدّموا في الأولى ابتغاء رضوان الله وعلى هداه.

كـــذلك بالمـــتاب والهدى بالكتاب يُؤتي الله كل ذي فضلٍ قدر كسبه – إذا ربا منـــسوباً إلى الآخرين بإطلاق إدراكه وتصويب مشاعره متبصّراً بعلمٍ هادفاً بإخلاص مجـــتهداً بنـــشاط ساعياً في العمل ليحرز به سبقاً وزيادةً في سبيل الله – يؤتيه ﷻ في الآخرة فضل جزاء أعلى لا يُسوّيه مع أدنى العالمين أكسلِ المجاهدين وأقلّهم استقامةً إلى الله بالحـــياة. والنذير من الرسول أهم إن تولّوا إدباراً عن وجهة الهدى وأمرِ الله عكوفاً أو ردّة إلى ما رهنهم من هوى أو معهودٍ قديم، فإنه يخاف عليهم عذاب يومٍ عظيم ما هو بعناء ميسور محدود الأمد كبلايا الدنيا بل يمضي هم إلى خلود.

﴿إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤)

يتصل الخطاب وذكر البشارة والنذارة ليومٍ عظيم، إنه – حقاً يؤكده تقديم ذكر الغايـــة – إلى الله تعالى مرجعُ المخاطبين كافّة يوم القيامة الذي لا مصرف عنه. وأمة الخطـــاب تلك كانت ترى الموت فناءً، مما يخطر لهم من ذكر آباءهم الذين ماتوا لعهد طويل دفنوا فانغمرت أجسادهم في التراب، ومن ظنهم أنه يتعسّر ردّ الإنسان حياً من جديـــد بعد أن أصبح كذلك رفات. ولذلك تتم لهم في الآية التذكرة أن الله على كل شـــيء قدير، خلقهم أول مرّة ويخلق كل حين أمامهم حياً مما يرون ميتاً نطفةً أو تراباً

مــن الحــيوان والنبات، فهو ﷻ بالغ القدرة على بعثهم بعد الموت لحياةٍ أخرى يوم المرجع العظيم.[1]

﴿أَلا إِنَّهُــمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٥)

ألا، بعــد ذكر الأمر للمخاطبين بإخلاص العبادة لله توبةً إليه والبشارة والنذارة بالمــرجو والمخوف من عاقبة الاستجابة أو الإعراض يوم المرجع، يبدأ القول باستفهام ينكــر نفياً لإثبات ما يلي من ذكر موقف أولئك المخاطبين: ألا إنهم يثنون صدورهم مدبرين عن الإقبال بوجوههم بادي استماع لحق النذير، هم يستخفون بذلك من تلقي النصيحة وتلبيتها حقاً. ويعود الابتداء بذات الصيغة لإثبات أنهم حين يستغشون ثيابهم ملــتفين بها لِيُعرضــوا عن حضور تلاوة الذكر والاستماع لقول الله – يعلم الله ما يسرون في قلوبهم من صدود وما يعلنون معبرين عنه بألسنتهم أو فعالهم. إنه تعالى بالغ العلم بما يخطر في النفوس فتنبض به في الصدور القلوب.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٦)

ولــتمام بــيان أقدار الله المحيطة، ما من دابة، أيما حيٍ يتحرك ساعياً في الأرض إنــساناً أو حــيواناً، إلا على الله مكتوبٌ أن يرحمها بأسباب الرزق ليحفظ حياتها ويهبها طاقة تدب بها، ويعلم مستقرها – أينما قرّت مسلكاً في حركتها ومستودعها أينما سكنت محفوظة مصونة، كل ذلك من أقدار الرزق ونظام الحركة لكل موجود حــي يــدب في الأرض – في كــتاب أقدار منظومة مبين مثبت بعلم محيط واضح عند الله.[2]

---

(١) دعــوة العبادة لله الواحد والنذارة المقضية للاستغفار والتوبة عن سالف الضلال خوف عاقبة العذاب والبشارة بالمتاع الحسن والفضل عند المرجع إلى الله: هذا نهج دعوة الرسالات – انظر مــثلاً ذكــر رسالة هود وصالح وشعيب في الآيات ٥٢ و٦١ و٩ من ذات السورة، وانظر الآيات ١-١٢ سورة نوح.

(٢) كــل دواب الأرض علــى الله رزقها ولديه العلم بها في كتاب مبين – انظر الآية ٣٨ سورة الأنعام، والآية ٦٠ سورة العنكبوت.

﴿وَهُــوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧)

وهو سبحانه – مهاداً خلق تلك الأحياء والتهيئة حولها لأسباب رزقها ومواقع مستقرها ومستودعها – الذي خلق السماوات والأرض، أتمّ خلقها في ست حقب مـــن الأزل خلق فيها الأرض وجعل فيها الماء التي أخرج منها الحياة وخلق البشر. وذلـــك الإطار كلّه الذي يحيط بالمخاطبين رتّبه الله مجالاً لابتلاء الإنسان وفطر فيه نـــــزعة شهوة للرزق وللسعي في الأرض علواً في سياق حدود المتاع المتاح وعدِّ أســباب المــساعي في الأرض وحـــصرِ ظروفها ومقتضيات ذلك ابتلاء في نظم العلاقات بين الناس. تلك مخلوقات وأقدار ليمتحن الله المخاطبين أيهم أحسن عملاً يــسعى إلى الــتي هـــي أحـــسن، لا يجنح في حياته وكسبه إلى الإساءة لنفسه أو للآخرين.

والخطـــاب للرســـول أنه كلما أتم تالياً القرآن للمخاطبين بيان المدى كله لمسير حـــياتهم في الوجـــود ابتلاء، فذكر لهم أنهم بعد الحياة في الدنيا مبعوثون لحياةٍ أخرى لتـــسوية ما أحسنوا أو أساءوا، قطعاً يقول الذين كفروا بحقائق الوجود وبمغزى هذه الحياة الدنيا أن ليس هذا الكلام منه إلا تعبيراً عن مكائد سحرٍ مبينٍ واضح.[١]

﴿وَلَـــئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ (٨)

وهـــم بطـــبع الإنـــسان العجلِ في هذه الحياة الدنيا المحدودة مجالاً الفائتة زماناً يريدون أن يقع ذلك البعث لفورهم، يستعجلونه إن صدق وعده. ولئن أخرت أقدار الله في تـــسمية الآجـــال وترتيبها للزمان والأزل ذلك الواقع إلى أُمة – مدة من مرّ الزمان محدودة، يتساءل مؤكداً أولئك الذين كفروا: ما يحبسه؟يرتابون أنه ليس بآتٍ

(١) في ذكر خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام ثم تمكنه على العرش لتدبير يوم بلاء الإنسان في الدنـــيا بـــين يدي البعث في الآخرة – راجع الآيتين ٣ و٤ سورة يونس، والآيتين ٤ و٥ سورة السجدة، والآيتين ٤ و٥ سورة الحديد.

مـــا دام قد انحجز وقتاً قبل أن يحق ويحل أجله. والحق الثابت ابتداءً باستفهام إنكارٍ لنفـــيه: ألا يوم يأتيهم ذلك البعث واقعاً حاضراً ليس مصروفاً عنهم، لا يلقون من دونـــه ما يجنّبهم حدوثه بوقائعه المحذورة، ويكون قد حاق - أحاط بهم ما كانوا في الدنـــيا بـــه يـــستهزئون، ما كانوا يتّخذونه هزؤاً من نذير العذاب المخوف لأجل معلوم.[(١)]

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ (٩)

أولـــئك مفتونون بالحاضر العاجل في الدنيا دون الغيب الآجل، فذلك من نـــزع في فطرة الإنسان يؤثّر على كسبه في ابتلاءاته بالدنيا دون الآخرة، إنه حقاً إن أذاقه الله بأقـــداره رحمةً ثم نُزعت ابتلاء له، فهو يقنط من كلّ رحمة عائدة ولا يحفظ حمدَ تلك، فهـــو بعدها يئوس شديد اليأس من عود الرّحمة كفور بحمدها، إذ هو مفتون بالحاضر يستعجل الخير ويرتد إن تأجّل.

﴿وَلَـــئِنْ أَذَقْـــنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (١٠)

وكذلك كسب الإنسان المبتلى، إذا أذاقته الأقدار الربانية نعماء - نعمة مبسوطة، بعد ضرّاء - ضراً ممتداً، لا يدرك أنه يُمتحن ليحمد الله على ما أصابه من حال طيب لا حظاً عفواً بل بقدر منه تعالى، سيقول قطعاً أن قد ذهب السيئات عنه بزوال الضّر، وإنـــه لفرحٌ فخورٌ في غروره الغافل عن تقلّبات الابتلاء المحيط به من الله، وعمّا يترتب عنه من كسب عاجل وحساب آجل فجزاء عادل في اليوم الموعود.[(٢)]

---

(١) في ذكـــر يـــوم البعث أو العذاب العاجل الموعود، إذ لا ينحبس ولا ينصرف ولا يتأخّر وقع النذيـــر إذا جـــاء أجلـــه - أنظر الآيات ١٠٣ - ١٠٥ من ذات السورة، وراجع الآية ٣٤ ســـورة الأعراف، والآية ٤٩ سورة يونس، وانظر الآية ٦١ سورة النحل، والآية ٤٣ سورة المؤمنون.

(٢) في ذكـــر الانـــسان إذا تقلّب عليه ابتلاء الرحمة والنعماء ثم السيئة والضرّاء ينفتن بين الفرح والفخر واليأس أو الكفر، أو بين التذكّر فالإيمان أو الغفلة فالكفر، إلا من آمن وصبر - راجع الآيـــتين ١٢ و٢١ ســـورة يونس، وانظر الآية ٦٧ سورة الإسراء، والآيتين ٣٣ و٣٦ سورة الرّوم، والآية ٨ سورة الزمر، والآيتين ٤٩ و٥٠ سورة فصّلت، والآية ٤٨ سورة الشورى.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَات أُوْلَئِكَ لَهُ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١)

الإنــسان كلّــه عرضة لهذه الفتن حيثما يتقلّب عليه ابتلاء نـــزع الرّحمة وذوق الــنّعماء، إلا الذين صبروا على فقد الرّحمة العارض، فإنها من الله يمدّ أصلها ويصرّف أجلــها وإليه مرجعها، فهي محمودة ولو لم تدم، واجتياز فقدها ابتلاء وفرصة عبادة لله صــبراً، وصبروا على النعماء لا يلهيهم الترف بها أن ينسوا الله واهبها المحمود. أولئك الــذين صبروا وعملوا الصالحات، لم يجرّهم القنوط إلى جرم، ولا الترف إلى بغي، بل عملــوا الصالحات صابرين شاكرين، أولئك – يشار إليهم لأنهم امتازوا – لهم مغفرة عــن بعض ما يغشاهم من زلّة عارضة من ضغوط مقاومة البلاء المتقلّب، وأجر كريم متبارك من جود الله وكرَمه جزاء صبرهم وصلاحهم.

﴿فَلَعَلَّــكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنــزِلَ عَلَيْهِ كَنــزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢)

الخطــاب للرسول ﷺ أنه من فرط الحرص على هدى أمة خطابه ربما هو ساعٍ لــيؤلف قلــوبهم تاركاً بعض ما يوحى إليه غيرَ متذكر أنه مكلف بأداء أمانة البلاغ للرســالة كلها وأن فيها أنه ليس عليه إلا البلاغ وأنه لا يملك أن يهدي من أحب من أمة خطابه وأنه ينبغي أن يجاهدهم بحق القرآن ولو كرهوه واستفزّهم صدوداً ونفوراً، فإنمــا الهُدى والحساب والحق لله. ولعله ضائقٌ صدره يجعل له حرجاً أن يلحوا طالبين تعزيز صدقه في أمر الغيب بما يعهدون من مشهود الدنيا ومشهورها، بواقعة ما فيها من أســباب معتادة إلا قوة الغيب – أن يقولوا ترجّي شهادة له: لولا أُنــزل عليه كنــز! ومــا هو بعظيمٍ ذي كسبٍ من مال وإنما يتمنون أن يريهم نازلاً عليه من الغيب الذي يدعي صلةً به كنــزاً من المال غريباً جديداً. أو أن يقولوا لولا جاء معه رفيقاً ملك – روحــاً من الغيب من بنات الله تجئ إليه مشهودة! فما هو إلا بشر أنّى له أن يتفضّل علــيهم بأمــر كــذلك غيبــي. وهنا أُلقي عليه الخطاب: إنما هو نذير وحسب، لا يصرّف الآيات المعجزة استجابة للمنذرين ولا يملك هداهم، ينبغي أن يمضي في بلاغه الأمين وألا يمسّه مما يتطلبون ما يعتري الطمأنينة في قلبه، إنما عليه البلاغ والله على كل شــيئ وكــيل – إليه ﷻ يوكل تصريف الآيات بأسبابه الطبيعية المسنونة أو بأقداره

الغريبة المعجزة، وهو الذي يُيسر الهدى ويفتحه لمن شاء وسعى لطرق بابه، وهو الذي عليه بعد البلاغ الحساب.[1]

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣)

الخطـــاب يتصل للرسول ﷺ: أيحرجه ما سبق ذكره أم يطأه ضغط من أنه منهم مـــتهوم يقولـــون افترى واصطنع هذا القرآن من تلقاء نفسه وادّعى أنه وحيٌ إليه من الله؟فليقل لهم أن ائتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات، مادام ذلك ميسوراً له مثلهم، وليدعوا مـــن استطاعوا من شهداء يثبتون لهم تمام ذلك التقليد حجة لهم إن كانوا صادقين. أما هو فكثيراً ما يُشهد الله على ما يبلّغه عنه، وهم لا يرمونه بالافتراء إلا تعللاً من كفرهم بالكتاب صدوداً عن هديه.[2]

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنــزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (١٤)

والخطـــاب من ثمّ يتوجه إلى المؤمنين بالكتاب – إذا رأوا أن أولئك لا يستجيبون لدعوقم لهم تصديق الكتاب وحياً من الله رغم سقوط الشبهات التي يلقونها وعجزهم تقليده، فليؤمنوا هم مستجيبين للدعوة الحق في آياته، وليعلموا أن ما أنـــزل إليهم هو بعلـــم الله من الغيب لا ريب فيه، بل تعززت له شهادات الحق وبطل الطّعن فيه محض مهـــرب من الحق وتستر للكفر. وليعلموا حقاً ويشهدوا به أنه لا إله إلا الله، فمذاهب اعـــتقاد المشركين دونه فاسدة واستيحائهم من أوليائهم أقوالاً كذب على الله وافتراء، فهـــل المخاطبون هم مسلمون، عازمين على الإسلام حقّاً لا تغشاهم غاشية شرك بالله ولا ريبة في الكتاب.

---

(١) في ذكـــر المخاطبين المفتونين بالظواهر المادّية المتطلبين آية معجزة شاهدة للرسول كنـــزاً يقع لديـــه بغير أسباب كسب أو ملكاً من الغيب يشخص مشهوداً عنده – راجع الآية ٨ سورة الأنعام، وانظر الآيتين ٧ و٨ سورة الفرقان.

(٢) في ذكر التحدي بإتيان مثل القرآن – راجع الآية ٢٣ سورة البقرة، والآية ٣٨ سورة يونس، وانظـــر الآية ٨٨ سورة الإسراء، والآيتين ٣٣ و٣٤ سورة الطور. وفي ادّعاء المخاطبين مماثلة القرآن – راجع الآية ٩٣ سورة الأنعام، والآية ٣١ سورة الأنفال.

﴿مَـــن كَـــانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ (١٥)

من كان من الناس يريد الحياة الدنيا قاصراً على عاجلها وحاضرها ويريد زينتها مفـــتوناً بها لا ينفذ ببصيرته عَبرها آيات لربه في الغيب، فإن الله ترك لهم بوح المشيئة وأســـباب الدنيا العادية يوفي لهم ثمرات أعمالهم فيها كما هو مسنون في أقدار الله في السبب والنتاج، وهم في الدنيا لا يُبخسون نقصاً لحصول كسبهم منها متاعاً.

﴿أُوْلَـــئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

ولكـــن أولـــئك هم الذين ليس لهم في الآخرة نصيب متاع لأنهم لم يهدفوا إليها بمقاصـــد أعمـــالهم، لا حاصل لهم فيها إلا النار عقاباً على كفرهم بالغيب، وحبط – ساقطاً خائباً – ما صنعوا في الدنيا من تدابير جوّدوها بهوى متاعها، وباطل – لم يثمر حقـــاً لهـــم بمـــوازين الآخرة الحق – ما كانوا يعملون (تأكد بطلانه لتقديم ذكره في التعبير).[(١)]

﴿أَفَمَـــن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧)

فتـــرتيباً على ذكر مَن كان على ذلك المذهب الدنيوي من الناس، أهم على الحق أم مَن كان على بينة من ربه كتاباً منـــزلاً واضحةً آياته محكمة ومفصّلة مشهوداً على حقها، متلوّةً معزةً بآيات له تعالى مشهودة في خلق الكون وبآية له في عجز البشر أن يفتـــروا ويقلدوا مثل سوره، ثم يتلوا الكتاب البينة من الله شاهدٌ منه رسولاً لا يفتري من تلقاء نفسه كما يكذب المشركون على الله وشاهد على المخاطبين والمشركين يوم الحـــساب أن قـــد بلّغهـــم، ثم من قبل ذلك الكتاب شهادة له من تنـــزيلات الوحي المتـــصادقة كـــتابُ موسى إماماً سبيلاً هادياً للحياة، ورحمة منه تعالى من الغيب علماً

---

(١) في ذكـــر مـــن يريد الدنيا وحسب بأعماله إذ يوفى إليه فيها ويحبط في الآخرة – راجع الآية ١٤٣ سورة النساء، وانظر الآية ١٨ سورة الإسراء، والآية ٢٠ سورة الشورى.

دونه البشر في جهالة يحصرهم ظاهر المشهود حولهم في الدنيا فلا يهتدون إلى الحق أزلاً وغيـــباً؟ أولـــئك مَن كانوا على هذه البينة الواضحة المشهود لها المكتوب هديها هم يؤمنون بالكتاب، ومَن يكفر بذلك الكتاب منكراً بيّنة ربه ضالاً عنها من الأحزاب – قـــوى الكفر المنظومة عربية مشركة أو خالفة لموسى اختلفت وارتابت في كتابه أيضاً وما رضيت بهذا الرسول والكتاب العربـــي المجدّد لأصول الحق في الكتاب السابق – مَن يكفر من هؤلاء فالنار موعده يوم المرجع الموعود للناس كافة.

والخطاب يلتفت من ثم للرسول ﷺ تذكيراً: ألاّ يكون في مرية من الكتاب البينة، أدنى مجادلـــة في حقـــه، إنه الحق من ربّه مهما يكفر به ويماري هؤلاء. ليؤمنْ هو ومَن معه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ضلالاً وعصبية جاهلية أو كتابية.

﴿وَمَـــنْ أَظْلَـــمُ ممَّن افْتَرَى عَلَى اللّه كَذبًا أُوْلَئكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّه عَلَى الظَّالمينَ * الَّذينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّه وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٨، ١٩)

ومن أظلم وأبلغ تجاوزاً للحق بين الناس ممن افترى على الله كذباً؟ ما هو كذلك الرســـول، فمـــا هو بمفترٍ كما سبق ذكره، وإنما هم كذلك بعض أمّة الخطاب الذين يقذفـــون في ظـــنونهم الغيبية وتشريعاتهم بمقولات دينية يدّعونها مستوحاة من الغيب بواســـطة شركائهم لله المعبودين دونه منسوبةٌ إليه سبحانه تعالى عمّا يفترون. أولئك أظلـــم المفترين لأنهم يضلّون الناس بأقوالهم. ولئن كان الرسل الصادقون يُسألون يوم القيامة عن إبلاغهم رسالة الوحي صدقاً، فأولئك يُعرضون على ربّهم ويقول الأشهاد مـــن الرســـل الـــذين يشهدون بالبلاغ ومن الملائكة الذين يرافقون العباد يكتبون ما يعملون، يشهدون أنّ هؤلاء هم الذين كذبوا على ربّهم.

إلا – ابـــتداء باســـتفهام يستنكر نفياً لإثبات الحق التّالي: لعنة الله على الظالمين أمراً بإبعـــادهم وصـــدّهم من رحمته، إذ هم الذين يصدّون عن سبيل الله صدوداً وإعراضاً من أنفـــسهم وصدّاً وإضلالاً لمن يأخذ بمفترياتهم، يبغون السبيل في الحياة عوجاً لا يستقيم إلى الله، وهـــم – عيناً لتقدم ذكرهم – بالآخرة هم – تأكيداً للنسبة إليهم – كافرون، إذ لا يؤمنون بيوم البعث ولذلك لا يبالون بفعل السيئات – مطمئنين سلامةً من أي عقاب عائد.

﴿أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ (٢٠)

أولـئك لم يكونـوا في الدنـيا معجزين في الأرض، مدّ الله لهم يكفرون بكتابه ويفترون عليه شركاً ويصدّون عن سبيله، ما تركهم بعجز، ﷻ بل هي كلمته أن يذر النـاس يذهبون ويعملون على مشيئتهم ليُسألوا يوم القيامة ويجزوا وفاقاً، وإلاّ ما ترك علـى الأرض منهم من دابّة. وما كان لهم من أولياء في الدنيا شركاء لله حقاً، بل هي أوهـام ورثوها وارتهنت لها حياتهم وتعبّدوها وظنّوها وساطة مقرّبة إلى الله، والحق أنه لا مولى لهم، فالله هو الولي الأحد مولى المؤمنين. يضاعف لهم هم العذاب لأنهم ضلّوا وأضلّوا كثيراً بنشر مذاهبهم شركاً وافتراء ليتقبّلها الجاهلون، ولذلك يحملون أوزارهم وأوزار أولـئك. ما كانوا يستطيعون السّمع ولا هم يبصرون لأنهم عطّلوا عمداً قدرة إدراك جعلها الله لهم، إذ كانوا يثنون ظهورهم إدباراً عن رؤية الحق ويستغشون ثيابهم حجباً لآذانهم عن سماعه.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (٢١)

أولئك الذين خسروا أنفسهم إذ ذهبوا بها إلى سوأى الخسران يوم الدين، وكانوا يظـنّون أن قـد أفلحوا لأنفسهم بابتغاء الدنيا وكسب متاعها، ولكن مضت دنياهم وأعقبـتها حـياة إلى الخلود خاسرة بما كسب أصحابها الظالمون بعد البلاغ والنذير. وضلّ عنهم ما كانوا يفترون من أولياء حسبوهم حصانة من الضرّ والأذى ومزدلفاً إلى الله، إذ يُـسأل هؤلاء في معارض الحساب فيُنكرون حق ولايةٍ لهم دون الله أو يقولون أنهم كانوا عن عبادة أولئك لهم غافلين.

﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ (٢٢)

أولئك لا جرم – حقاً غير منقوص – أنهم في الآخرة هم الأخسرون. وكانوا في ظن واهم أن الآخرة لو قامت سيمتد فيها عليهم فضل الله في الدنيا كثرة أموال وأولاد وعلوّ مقام وسيسري على المفضولين آجلاً خسرانهم البادي بأقداره في الدنيا الحاضرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٣)

والحـــق المـــؤكد هو مصير الذين آمنوا في الدنيا بالغيب، بالله والآخرة والرسول والكـــتاب، وعملوا الصالحات كما هداهم الله تصديقاً لإيمانهم بواقع حياتهم، وأخبتوا إلى ربهم خضوعاً وطاعة لأمره حتّى لو شقّت عليهم التكاليف. أولئك أصحاب الجنة المحفـــوفة بالأشجار مأوى طيب الرزق والشراب والأنس والسلام، هم فيها خالدون سعداً خيراً وأبقى من عرض الدنيا.

﴿مَـــثَلُ الْفَـــرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤)

مثل الفريقين – الذين ما آمنوا بالله وكتابه حقاً بل كذبوا عليه وصدّوا عن سبيله وكفـــروا بالآخـــرة، والـــذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى الله تقويماً طوعاً لحـــياتهم – مثلهم كالأعمى والأصم – ذلك مثال الذين كفروا وعطّلوا نعمة الإدراك لـــئلا يـــتلقوا الهدى، والبصير والسميع – ذلك مثال الذين آمنوا وتبصّروا آيات الله المشهودة فتدبروا مغزاها واستمعوا آياته المتلوّة فتلقّوها منصتين خاشعين. هل يستوي الفـــريقان مـــثلاً؟ والجواب الحق بيّن: لا يستويان في الدنيا كسباً ولا في الآخرة جزاءً وفاقاً.(١)

عموم المعاني: (الآيات ١ – ٢٤):

الألـــف والـــلام والرّاء مفتتح للسّورة حرفاً عربياً بُني منه ومن مثله القرآن كتاباً مُبيـــناً لـــدى أمة الخطاب الأُولى العربيّة، شاهداً أنه من الرّب الأعلى لوقعه عليها ببليغ البيان بديع الأسلوب حكيم المعاني معجزاً عن التقليد من بشر. ومتى ما تجدّدت دعوة الإســـلام يلزم تقديم نصّ القرآن بحرفه العربـــي وحياً من الله أنـــزله من الغيب هادياً لحـــياة الإنسان المشهودة. وسواء ذلك أكانت دعوة لخشوع القلوب العربيّة ذات الملّة

(١) لا يـــستوي الكافرون الصادّون عن سبيل الله والمؤمنون العاملون الصالحات كما لا يستوي الأعمى والأصم والبصير والسميع – في ذلك راجع الآيات ٤٨ – ٥٠ سورة الأنعام، وانظر الآية ١٦ سورة الرعد، والآيتين ١٩ و٢٠ سورة الرعد، والآية ٥٨ سورة غافر. ولا يستوي السميع والأصم الذي لا يسمع دعوة الحق – راجع الآية ٤٢ سورة يونس، وانظر الآية ٤٥ سورة الأنبياء، والآية ٨٠ سورة النمل، والآية ٥٢ سورة الروم، والآية ٤٠ سورة الزخرف.

المـــسلمة الــــتي تطاول عليها الأمد فقست وغفلت، فإن القرآن العربيّ هو تذكرة لها وروح حـــياة كالعهـــد الأوّل، أم كانـــت دعوة لأمة غير عربيّة ورثت الإسلام لكن غـــشيتها الجهالـــة به وارتدّت عليها ثقافة عُرفية، فإنها ينبغي أن تتوب إلى حق دينها لـــتأخذ أصـــوله مـــن القرآن بحرفه العربـــي صلة مباشرة تحيي فيها دفع الإيمان وفقه الإســـلام كما وقع لأمم سالفة دخلت الإسلام فعمرت حياته وكفته بكسب أوفى، أم كانـــت دعـــوة تخاطب أمة غير عربية ولا مسلمة لأن القرآن بحرفه ونصّه عام لجميع الـــناس خالـــد لكـــلّ الأزمنة قد يؤمن به هؤلاء مستعينين بخواص فطرية وكسبية في ثقافـــتهم مـــتخلّفة كانـــت أو غنيّة بالعلوم يتزوّدون بها لتفهّم وجوه من بيان القرآن وحكمته تخرج من نبعه الفيّاض هدىً أصيلاً متجدداً.

وأول الدعـــوة في القرآن تذكيراً بالحق وهدياً من الغيب هو الحثّ على التطهّر، لأن أيّاً ما تخاطب من إنسان هو على شيء ما من باطل معهود. فالإنسان منذ خروجه مـــن الغيب حمل في فطرته صلة تعبّد بربّه الأعلى وهبط إلى عالم الشهادة تحيط به فتنة أشياء حوله منها ما قد يتعلّقها ويتعبّد لها إذ يتخذها رموزاً للإله في الغيب، أو بشرٍ ذو شـــأن قد يوقرهم ويقدّسهم قربى بواسطتهم إلى الإله البعيد المتعالي، أو مبتغيات متاع الحـــياة يرتهن لها فيتّخذ إلهه هواه فيها – فتن مشهودة قد لا تغمر في الإنسان خواطر الغيب بل يلهو عنها مبهمة، فهو في غالب أمره يخرص في الغيب بظنون وراء ما يشدّه مـــن العالم المباشر. فرسالة التذكير المنـــزلة في القرآن هي أولاً إبطال تلك المعبودات الأدنى مـــن الله المـــتعالي، دعوة للتفكر في آيات الله في الكون المشهود ومعالمه الجليلة وتعاقب ظواهر الحياة والموت فيه وآجال الحركة الدوّارة فيه، دليلاً ينفذ به المتفكّر إلى الغيب وإلى الخالق المدبّر وإلى عالم أزله ودورة حياة أخرى فيه، ودعوة كذلك للتذكّر والاهتداء استماعاً لآيات الله الموحاة تتلى نوراً لأولي الألباب. فالحق في رسالة القرآن أن يسلك طريق الهدى المتصوّب بالعبادة الخالصة إلى الله، وأول الطريق الاستغفار من التعلق بالمعبود المعهود ثم التقدّم رقيّاً إلى مقام المتاب إلى الله. وكذلك هدي الدين كلّه: كلمـــة الشهادة بالإيمان تبدأ بنفي أيّما إله ثم تستثني لتقرّ الألوهية الحق لله وحده – لا إلـــه إلا الله، وشـــعائر العبادة لله تبدأ بطهارة الوضوء قبل الاستقبال والتكبير والذكر

والـــصلة بـــالله وحده، وبالإحرام تطهراً من كل ما يتلبّس المتوجّه إلى شعائر الحج – وحـــدة العابـــدين الطائفين حول مركز ورمز لاستشعار وحدانية الله المقصود وجهه وتكبيره على كل شيء.

ودفـــع الـــنفس للاهـــتداء الذي يقدّم القرآن ذكره ليبدأ به الداعية لحقّ الدّين هو الـــنذارة ممـــا هو محذور مرهوب في غاية مسيرة الضّلال قبلاً لينتهي عن مسلكها المدعوُّ ويتطهّـــر ويتوب إلى سواء السبيل. ثم يأتي ذكر البشارة بما هو مرجو ومرغوب ليستقيم ســـعي المهتدي نحو غاية السبيل. والبشارة والنذارة تحقّ نحو كل مستقبل الوجود لحياة الإنـــسان وتوحّده ترهيباً وترغيباً له بعاجلة في أولى حياته زماناً وبآجلة في أخراها أزلاً. وذلـــك المرجع إلى الله لحياة بعد الموت حقٌ ينبغي أن يستقرّ في رؤى الإنسان ومشاعره ليـــنعقد به الإيمان بالبعث للحياة بعد الموت، بكلمة الله القدير على كلّ شيء – نشاءة خلـــقٍ أول في الدنيا أو متجدّدٍ في الآخرة. وبين الخلق الأول والموت انتظاراً للبعث تقوم الحـــياة الدنـــيا مـــدى الابتلاء للإنسان، دابّةً في الأرض كسائر الدّواب الحيّة يرزقه الله لـــيحفظ حـــياته ويدير سيرته مستقراً ومستودعاً، ومن حوله خلق السماوات والأرض موارد للحياة والفكر والرزق متاعاً وزينة – كل تلك الحياة والإطار من حولها الذي أتمّه الله في ســـتة أحقـــاب من مدّ أزله هو المنطلق في مدٍّ سابع للإنسان المبتلى بحياة دنيا ثم المبعوث لحياة أخرى دار جزاء آبد. ولكن الإنسان محاط مفتون بالمادة المخلوقة المشهودة في الدنـــيا حوله، فهو ماديّ النـــزعة يرى في بيئة سنن تدبير الله فيها طبعاً تولّداً وحياةً ومـــوتاً بكتاب مسنون وحركة تدور بآجال راتبة، لكنّه قد لا يفقه نافذاً من الظاهر إلى خالقـــه في الغيب ومن الدّبيب فيه بآجال إلى أجل في الغيب دورةَ حياة بعد الموت وأزل بعـــد زمان الدهر. ولذلك تنـــزّل القرآن من الغيب يُذكّره بالمرجع إلى الله حياً لا يموت في غـــيب الأزل. ولكـــن فتنة الدنيا بمشهوداتها المُلهية وشهواتها الملحّة قد تعتقل وجدانه وترهنه فلا تتزكّى فيه دفعة فطرة نحو الغيب ولا بصيرة رؤية لآياته المشهودة، ولا تذكرة وحـــي في كـــتاب الله. فهو ينكر الغيب وحقائقه التي يذكّره بها ليعلّمه ويهديه القرآن: قيّوميّة الله ووحدانيته حقاً معبوداً، وبعث الإنسان ليوم حقاً معدوداً موعوداً. فالمعرضون عـــن تذكـــرة القـــرآن قد يخلطون بين حقها وبعض ما يعهدون من مقولات وفعلات

ســـحرية مخيّلات ماكرة بدعوى تقليب الأمور بقوى غيبية مرهوبة. والسّحرُ باطلٌ لكنه قــد يكتــنف التديُّن الحق، أحياناً يسبقه ضربةً في الغيب خَرصاً من وراء الطبيعة الماديّة المــسنونة حتى يتنــزّل هدي الدين بالحق ليتقوّم ذلك الخَرص، وأحياناً يخلق التديّن هويّاً إلى السّحريات بدعاً تشوب حقائق الإيمان وسنن العبادة الحق - كما جرى لبني إسرائيل في بابل ولكثير من المجتمعات النصرانية والإسلامية. والمعرضون كذلك قد يضيق ذرعهم بانــتظار أجل قيامة الإنسان في حياة أخرى فيها مرغوب ومرهوب عظيم كما يعلّمهم القــرآن، فهــم مــن ثمّ يلحّون سائلين: ما يحبس ذلك الأجل الموعود أن يحل لفورهم ليــشهدوه واقعاً. وهم كذلك قد يذهبون مستهزئين بحقائق الغيب في دعوة القرآن كأنه وهــمٌ عــارض أو لهو عابث. ولأن الوحي وصلٌ غيبــي، المعرضون قد تغلب عليهم النــــزعة الماديّـــة المفــتونة بالمشهودات المطبوعة التي تنشأ حيّة وتنمو وتذبُل وتموت كالــدوابّ والنباتات، أو التي تبدو وتجري وتغيب كالكائنات الفلكية، أو التي هي قائمة جامــدة راسية لا يبدو ما يعتريها كالجبال - كلٌ على سنن مكتوبة بيّنة، بأطوار حركة بآجــال أو جموداً بقوّة، وبينها علاقات أسباب وظواهر تفاعلات راتبة، ووَقعُ النــزعة المادية في الإنسان تلازمه لو كان بدائي النظر ساذج الصّلة بالطبيعة أو تكثّفت منظوراته وعلــومه فيها وتسخيراته لأشيائها. هؤلاء قد يطلبون تعزيز آيات الوحي المسموعة عن حقائــق في الغيب ونُذُره بآيات طبيعية مرئية تشهد بحقه، يُحدثها الذي يبلّغ الوحي لهم ويدعــو لحقــه بإيقاع واقعة شاذّة عن معتاد الأشياء دالّة على أنه تمدّه قوى غيبيّة. ذلك كما تطلّب المعرضون في أمة الخطاب الأولى - مثل سالفهم من الأمم - أن ينــزل على النبــــي الداعي للقرآن فجاءةً من مصدر وحيه الذي يدّعيه كنــزٌ مرغوب بغير أسباب كسب، أو رفيق من غيب السماء ملكاً روحاً بغير طبيعة بشرية. ومن المعرضين مثل أمة الخطــاب الأولى مَن يحملهم استبعادُ وحي الغيب وعسر تصديقه أن يرموا مبلّغه الدّاعي لحقّه بافتراء كل مقولاته من تلقاء نفسه، لاسيما نذيره بحياة في يوم آخر موعود، يعدّونه كذباً على الله يندرج في كذب الرواية بين الناس لنيل كسب.

والحق أن القرآن ما هو بسحر مهما تقع متلوّاته عجباً على السّامعين لأول بلاغ. فمــا كــان للرســول ﷺ وراءه غرض دنيوي يتّخذ السحر غرضاً لقضائه، بل جاء

يُذكــرهم مــن القرآن بالله ربّاً أعلى خلقهم ويرزقهم ويصرّف الأقدار حولهم جميعاً، وبــيوم آتٍ لأجل مسمّى عنده تعالى لا يعلمه البشر المخاطبون به، وإذا حقّ وحلّ لا يستأخره أحدٌ منهم ولا يستقدمونه باستعجاله، وبأن أمر الابتلاء وعاقبته ذلك اليوم ما هــو بهزؤ، بل جدّ نبأ عظيم وحق مصير خطير لتمام حياة الإنسان الأولى وعدلها، وما هــو إذ يــأتي بمصروفٍ وقعُه عن الذين كفروا به في الدنيا، بل يحق بهم ما كانوا به يستهزئون. والحقّ أن الإنسان غير المتذكّر السادر على سجيّته الغافلة عن آفاق الوجود الغيبــــي إنما فيه قصور همٍّ وبلاء فتنة بالحاضر وبالعاجل. إذا رحمه الله رحمة عاجلة انشرح لها صدره ثم نــزعها منه يئس وكفر، وإذا أذاقه نعماء بعد ضرّاء فرح وفخر، لا يتبــيّن عــبر الظاهرات والحاضرات أن الله يقلّب عليه البلاء ضرّاء أو نعماء ليصبر ويــشكر مؤمــناً صــالحاً ذاكراً لله أبداً. وكذلك كل الدنيا ينبغي أن توصل بالآخرة الآجلــة الغائــبة الآن. وإن الداعية للدين مكلف بالنذارة عما يستقبل المخاطبون من أحوال في الدنيا أو مآلات في الآخرة يعلمها الله وما هو بشراً بعالمِ غيبٍ ولا مصرّف الأقــدار طبعاً ولا قلباً لها بسنن غير المطبوعة الراتبة. ثم إن الرسول الذي بلّغ القرآن لم يفتــرِهْ وأنّى لبشرٍ مثله أن يتقوّل مثله، وإلا فليجرّب المخاطبون أنفسهم وليأتوا بعشر ســور مثله يفترونها، لاسيما الذين هو بلسانهم، والحق أنهم عاجزون لا يقدرون على ذلك ولن يشهد لهم أحد بمضاهاة القرآن.

إن مواقــف الناس إزاء حق رسالة القرآن التي تُوحى من الغيب وتُتلى مسموعة عليهم بشراً قاصرين دون تذكير وهدى من الله – هي بينهم: إما مؤمن وهو على بيّنة من ربّه بشهادة من حروف القرآن لبديع بنائه وبيّن دلالته بما لا يبلغ كلام البشر ومن رفــيع معــاني آياته المحكمة المفصّلة تنــزل عموم الحكمة على الحياة وفروعها، ومن تعزيــز مسموع حقّها بآياته المشهودة في الكون المطبوع بقدره، بل بشهادة من سابقة وحــي كتاب مثله أنــزل على موسى إماماً لهدى الناس ورحمة. والذين آمنوا كذلك واســتقر في نفوســهم الــيقين فعبّروا عنه وقعاً في الحياة بعمل الصّالحات الصّادقات بمقاصــدها عــبادةً لله وإخــباتاً لطاعته – هؤلاء فريق انماز بيّناً مذهبه في الحياة. وإما كافرين بحقائق الغيب بالله ربّاً واحداً لا يُتخذ من دونه وليٌّ يُعبد، وبالحياة الآخرة إتماماً

للحـــياة الدنيا بعدل ظلمها وتسوية خلافها، هؤلاء وهم ينسون أمر الله الذي خلقهم أول مرّة لم يُعجزوه في الأرض إذ صدّوا عن هديه، بل سنّته أن يمدّ لهم في الحياة ابتلاء لـــيحق علـــيهم الجـــزاء، ولن يعجزوه أن يبعثهم لأخرى. والذين حظُّهم من الوصل بالغـــيب الخرص كذباً على الله، ونهجهم في الحياة الصدّ عن سبيله تعالى يَضلّون عنه ويَعُوجـــون كمـــا تنـــزعهم أهواء الدنيا، ويُضلّون فيحملون أوزار غيرهم لتضاعف علـــيهم حملة المسئولية، ويُعرضون عن رؤية الآيات المشهودة البصائر وعن سماع آيات القرآن المذكّرة – هم فريق بينهم وبين أولئك المؤمنون فرقان، مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصـــمّ والبـــصير والـــسميع، لا يستويان مثلاً. لو أن هؤلاء الذين كفروا يذّكرون فيستغفرون ويتوبون إلى الله العزيز الحكيم!

ترتيل المعاني: (الآيات ٢٥ – ٤٩):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٥)

الواو إضافة مثلة سابقة لرسالة القرآن والنبـــي الخاتم، أرسل الله بأقدار اجتبائه وهـــداه ورحمـــته نـــوحاً ليبلّغ الهدى إلى قومه خاصة في العراق – إن كان الرسول الخاتم ﷺ قد أُرسل بعداً لقومه ثم للناس كافة في الأرض. وكانت كلمة الشهادة منه عليهم أنه لهم نذير مبين، وهو كسائر الرسل يُنذِرون أولاً ليطهروا أقوامهم مما كانوا فيه قبل أن يبشروهم بعداً ليتقدّموا إلى رقى الإيمان والصلاح في سبيل عاقبة الفلاح. فنوحٌ بعد أن أشهدهم أنه نذير بيَّن لهم داعياً للخروج من معهود الجهالة والضلالة في الـــدين والفساد في الحياة، نذارة بيّنة أنهم إن تولّوا عن دعوته مستمسكين بما عهدوا مـــن قـــبل إنمـــا يستقبلون سوء عاقبته في الدنيا والآخرة – خاطبهم برسالته التالي ذكرها:[1]

(١) يُذكـــر الرســـول نوح في كثير من المواقع لاسيما في رأس الأنبياء، أما في بسط سيرة دعوته ومـــصير قـــومه فراجع الآيات ٥٩ – ٦٤، والآيات ٧١- ٧٣ سورة يونس، وانظر الآيات ٢٣-٣٠ ســـورة المؤمنون، والآيات ١٠٥- ١٢٢ سورة سورة الشعراء، والآيات ٧٥-٨٢ سورة الصافات، والآيات ٩-١٦ سورة القمر، وسورة نوح كلها.

﴿أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٦)

خاطبهم أن ذلك المنهي عنه والمحذور عاقبته هو ما كان في تقاليد عبادتهم الدينية، ودعـاهم إلى الهـدى ألا يعـبدوا إلا الله وأن يهجـروا لذلك ما أشركوا به الله من مقدسـات مشهودة اتخذوها واسطة قربى إلى الغيب والله الغني المتنـزه عن الشركاء، وحـذرهم أنه إن تمادوا هم في معهودهم القديم يخاف عليهم عذاب يوم أليم – وعيد جـزاء في الآخـرة. هكذا كان ذات النهي عن العبادة لغير الله وذات النذير تخوفاً من سوء العاقبة إن لم تخلص العبادة لله، هو ما دعا إليه وعبّر عنه النبـي الخاتم ﷺ.

﴿فَقَـالَ الْمَـلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ من قِوْمِه مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّـذِينَ هُـمْ أَرَاذِلُـنَا بَـادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٢٧)

تـرتب على ظهور كلمات الدعوة من نوح لتجديد منهاج الحياة ونظامها بالحق أن انبرى له الملأ من قومه الذين امتلأوا مالاً وجاهاً بفضل النهج القديم، فقالوا له أولاً أنهـم ما يرونه إلا بشراً مثلهم، مستنكرين أن يتفضّل عليهم ليحدثهم بغريب حديث عن الغيب وما هو بملَك نازل من غيب السماء، وثانياً إنهم ما يرونه اتّبعه إلا الذين هم أراذلهم بادي الرأي – كما وصفوهم. وقد اتّبعه حقاً الذين لم تصدّهم رهبة معبود أو تفتـنهم هـوى مكتـسب في القديم، لكن قومه رأوهم بموازين تفاضلهم في الكسب الدنيوي الأراذل بينهم اتبعوه بادي الرأي لأول النظر فيما دعاهم إليه سذّجاً بسطاء لا يتدبّرون الرأي والتقدير لأمر جديد. وذكروا له ثالثاً أنهم لا يرون له ولمؤمنيه الجدد من فضل عليهم، فما يبدوا لهم سبق خير هجراً لما هم فيه من معهود قديم، كأنهم يعدّونها مكيدة سبقوا بها كذباً وزعموها دعوة حق صادق.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَة مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (٢٨)

فجـاوبهم نوح بمودّة يناديهم قومه: أنه إن كان على بيّنة من ربّه حقّت بالوحي وقامـت الشهادة على حقّها، وإن آتاه الله الرّحمة من عنده هدياً عُلّمه ليبلّغه لم يُلهمه لـيقوله و لم يتقوّله من تلقاء نفسه، فعميت عليهم هم البيّنة ما أبصروا الحق البيّن فيها،

أيلزمهم بها المؤمنون؟الله ينــزل حقّ الدين رسالة تُعرض على الناس ليتقبّلوها عن رضاً وطــوع وخــيار مشيئة، فكيف يجبر المؤمنون به من يخاطبون مثلهم ليتلقّوها وهم لها كارهون، إنّما يجادلونهم بالحسنى لعلهم يؤمنون.

﴿وَيَــا قَــوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٩)

ومــضى نوح ينادي قومه ويجاوب ظنونهم وأقوالهم، أولاً أنه لا يسألهم على ما يدعو إليه مالاً، ذلك لئلا يحسبوه مثلهم ما يأتي بجديد إلا ابتغاء كسب منه، بل هو لا يبيع ولا يشتري لنفسه، وما أجره إلا من الله إذ الدعوة إليه خالصة، وثانياً: يخالفهم في استحقار بعض المستضعفين منهم وإنكار دخولهم في صف المؤمنين بدعوته، إنهم آمنوا وسيلقون ربّهم ليتقبّلهم مرضيا عنهم مجزيين خير الجزاء، وما هو بطاردهم من حوله، اســتنكافاً عــن صحبتهم في ذلك المبلَغ، ولكنه يرى قومه كما يخاطبهم قوماً يجهلون مــوازين الفضل عند الله، إنما هي بدرجات الإيمان والتقوى لا بالتفاخر نسباً والتكاثر مالاً.

﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠)

واســتمر ينادي قومه يسألهم من ينصره من الله إن طرد هؤلاء من هدى رسالته التي جاءت بلاغاً ونذيراً لكل الناس، إن الله ربّه يسائله ويحاسبه ويجازيه ويغضب عليه إن عــصي تكليفه و لم يوف أداء الرسالة وتبليغها أميناً عدلاً بين كل الناس، ويسائلهم هم: أفلا يذّكرون أن البلا غ لكل عباد الله أن يتطهروا عن عبادة ما سواه ويخلصوا له والنذير لهم جميعاً؟

﴿وَلاَ أَقُــولُ لَكُمْ عندي خَزَآئِنُ اللَّه وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُــولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣١)

ويجــاوب نوح على استنكار قومه بشريّته لدعوة يلزم عندهم أن تكون من ذات مقدسة غيباً، فينفي هو ذلك كله قائلاً إنه لا يدّعي لهم أن عنده خزائن الله يفيض على العباد بعطاء لا ينفد، وإنه – كذلك – لا يعلم الغيب، فذلك علم الله يوحيه لمن يشاء

مـــن عباده، ولا يقول إنه ملك من غيب السماء قريب فيها من الله، وإنما هو بشر لا يتفاضـــل علـــيهم ولا حتى على المستضعفين الذين تزدري أعين قومه المخاطبين، ولا يقول لهم إن الله لن يؤتيهم خيراً لدنيّة مقامهم بينهم أو مقاصدهم من اتّباعه، الله أعلم بمـــا في أنفسهم من إيمان بصدق وإخلاص أم بمحض كلمة ظاهر يخالفون بها ملأ القوم مكايـــدة ومغايظـــة لاســـتكبارهم عليهم، إنه إذاً لمن الظالمين، إذ يحاكم الناس بما في نفوسهم وما هو على بيّنة به بل يأخذهم بظاهرهم.

﴿قَالُــواْ يــنُوحُ قَــدْ جَادَلْتَــنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٢)

غلبت على قوم نوح قوة حججه جدلاً ودفوعه لمآخذهم، فقالوا له ينادونه باسمه كـــأنهم يـــشيرون لبروزه خارجاً عليهم: إنه قد جادلهم فأكثر جدالهم، وإن كانوا هم الـــذين أثـــاروا كثير مسائل الجدال. لكنهم ذهبوا يعبرون عن ضيق ذرعهم بمجادلته، فاستعجلوه أن يأتيهم بما يعدهم نذارة إن كان من الصادقين يريهم وقعه حاقّاً ناجزاً.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ (٣٣)

لكـــنه جـــاوبهم أنه ليس عليهم بوكيل، فهو لا يلزمهم وهم كارهون، وهو لا يـــصرّف علـــيهم وقائع العواقب وآجالها، وقال لهم: إنما يأتيهم بذلك الله إن شاء أن يعاجلهم به في الدنيا ولو لفورهم، فما هم بمعجزين الله القادر القهّار إن حقّت عليهم كلمة الله وجاء أمره المفعول.

﴿وَلاَ يَــنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣٤)

ويخاطـــبهم: إنمـــا ذلك كذلك ولا ينفعهم نصحه هو إن أراد أن ينصحهم مهما يجـــتهد، إن كـــان الله يريد أن يغويهم، لأنهم عمدوا سعياً إلى الغواية، بل ييسرها لهم فيذهـــبون عمين عن رؤية الهداية، هو ربّهم الذي يصرّف حياتهم ويجري عليهم سننه ويحـــق كلماته، وإليه – غاية حقاً – يرجعون ليسألهم ويحاسبهم ويقضي فيهم بالمصير الأخير.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ﴾ (٣٥)

وهـــنا – في مفـــصل مـــن سير قصة نوح وقومه – يتوجه الخطاب إلى الرسول الخاتم ﷺ مدخلَ تذكير له وهو يتلقى القرآن ويتلو نبأ نوح رسولاً إلى قومه قد سلف بسنّته عبرةً له وموعظة لقومه المخاطبين الذين ينهجون كالأولين. أيسمعون ويتدبرون أم يقولون افترى رسولهم القرآن وما يرويه من القصص ليناسب أمره معهم. الوصية له أن يجاوبهم بفصل الخطاب وعدله: أنه إن افتراه فعليه هو إجرامه كذباً على ربّه، ولكنه براء مما يجرمون هم إذ يكذّبون بآيات الله ويكذبون هم عليه عن جهالة – دون وحي نـــازل عليهم أو كتاب سالف علموه – فيما يظنون بالغيب ويشرِّعون ويقصّون نسبةً إليه.

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)

وأُنـــــزل الوحي على نوح – في ذلك المَبلغ من سياق جدله مع قومه – أنه لن يـــؤمن من قومه إلا من قد آمن، وذلك نبأ غيب وعلم قطع من الله العليم بمذهبهم في الهدايـــة، بلغـــه وحياً وهو دائب في دعوتهم إلى الإيمان راجياً أن يهدي منهم بعضاً أو كـــثيراً. ولذلك تمّ له الوحي بما ينـــزل عليه سكينة: ألا يبتئس حزناً وحسرة بما كانوا يفعلون مما سبق ذكره صدوداً وازدراءً لمن آمن واستخفافاً بالنذير.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (٣٧)

ويخاطـــبه الله خاصـــة: أن يصنع الفلك والله يرعاه بأعينه ويهديه بوحي أقداره وإلهاماته وألا يخاطبه هو في الذين ظلموا ولو كانوا قومه له فيهم مودة قربى، إذ حقّت علـــيهم بعـــد انخـــتام ضلالهم كلمةُ الله أنهم مُغرقون بفيض ماء يأخذهم بحق الوحي الموعود.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨)

ومـــضى يـــصنع الفلـــك دائباً، وكلّما مرّ عليه ملأ من كبار قومه عقّب على تعليقاتهم السّاخرة منه وما يصنع: أنهم إن يسخروا منهم فإنه هو وفئته المؤمنة يسخرون منهم كذلك من غفلتهم وجهلهم بما لا يرون من مقصده.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٩)

ويـــتم تعقيباته عليهم بنذير: أنه بعد حين سوف يعلمون مَن يأتيه يخزيه بالغاً به أسفل الذّل ويحلّ عليهم عذاب مقيم واقعاً يلازمهم أبداً.

﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (٤٠)

كذلك مضت الصناعة للفلك وتبودل التساخر والقول حولها حتى إذا جاء الأمر إذ حقّ وحان وقوع قضاء أقدار الله وفار بالماء التنّور - مخبزاً يفور بالنار عادةً لا بالماء، جـــاء هـــوداً القولُ من ربّه بأقدار رعايته ووحيه: أن يحمل في الفلك من كلّ زوجين اثـــنين مـــن الأنعـــام التي ألفوا العيش بها، وأهله إلا من سبق عليه القول أن كان من الظّالمين، ومَن آمن، وما آمن معه إلا قليل في فتنة الملأ الطغاة.

﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٤١)

وقال نوح لتلك الرّفقة أن يركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها، يستعين على الأمر باسم ربّه قادراً حافظاً وبكل اسم يخاطب رحمته تعالى ورعايته من سائر وجوه اسمه العظيم، أن يسري آمناً مجرى السفينة ويقع سالماً مرساها إذا قُضي أمر الفيضان. وأثـــنى الـــدعاء بالذكر: إن ربّه لغفور واسع المغفرة لعباده ذنوباً قد يحق أن تصيبهم بهـــا مـــصيبة، رحـــيم بالـــغ الرحمة بعباده قد يرعاهم وينجيهم من بالغ المخوفات والمهالك.

﴿وَهِــيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢)

وهي السفينة تجري بهم في موج كالجبال يتضاعف فيضه وترتفع دفوعات موجه الفـــوّارة كالجبال، لكنها تجري بهم في أمن وسكينة. ونادى نوح ابنه وكان في معزل مـــنأى مـــنهم، إذ أدرك نـــوح وقد ركب المؤمنون أن ابنه الذي كان يفارقه ديناً قد أعـــرض عـــن سفينتهم وآثر معزلاً، فأشفق عليه وناداه راجياً: أن يركب معهم وألا يكـــون مـــع الكافرين. ذلك أن نوحاً يدرك بما أوحي إليه أن أولئك صائرون إلى أن يُصاعد حولهم الفيضان فيغمرهم جميعاً غرقى، وكان في ساعة أزمة في شأن ابنه يترجى

أن يهجـــر الكفّـــار إلى المؤمنين منعطفاً إلى منجاة من الهلاك. ولكن ابنه سبقت عليه كلمـــة مـــن الله أن كان من الذين لا يؤمنون ولا يدخلون ركب الإيمان الناجي مهما تكن دواعي أبيه.

﴿قَـــالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٤٣)

قال ابن نوح إنه سيأوي إلى جبل ليعصمه من الماء، إذ هو المحيص العاصم المعتاد حـــين الفيضان. ولكن نوحاً وهو يعلم بالمصير ألح عليه ألاّ عاصم اليوم من أمر الله إلا مـــن رحم بالركوب مع المؤمنين. وحال بينهما الموج الطاغي، وانحسم الفرقان الغالب بين الإيمان والكفر فكان الولد من الكافرين المغرقين.

﴿وَقِـــيلَ يَـــا أَرْضُ ابْلَعِـــي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤)

وقيل بأمر الله: يا أرض ابلعي ماءك، بقدر الله في طبيعة التراب يمتص الماء يرتوي بـــه ويخـــزنه، ويا سماء أقلعي، بقدر إمساك المطر المتدفق فيضاً، وغيض الماء إذ غاص وانحـــسر، وقُضي الأمر، إذ تمّ نفاذ التدبير المفعول كلّه. واستوت السفينة راسية على جـــبل الجودي، وقيل بحكم الله النّافذ: بُعداً للقوم الظّالمين الذين صدق عليهم وعد الله في شأنهم، نأوا عن رحمته مغرقين وذهب بهم الطوفان.

﴿وَنَـــادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥)

ونـــادى نـــوح ربّه – إذ غشيه في ساعة الفرحة بتمام نجاة المؤمنين العجيبة بقية حـــسرة من افتقاد ابنه العزيز، فقال لربه: إن ابنه من أهله الذين أوحى إليه أن يحملهم وإن وعده ﷻ الحق وهو أحكم الحاكمين في فصل الأمور بعين الحق. كأن في عاطفة الأبـــوّة وحـــسرة البنوّة المفقودة ما أنساه أن الله استثنى من أهله مَن سبق عليه القول وأمره ألاّ يخاطبه في الظالمين.

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤٦)

قال الله بوحي يخاطب نوحاً، عاجَله ردّاً مباشراً له: إن ولده ليس من أهله في الانتماء لنسبة الإيمان، إنه عمل غير صالح حتى بلغ اعتزال أبيه بيّنة شاهدة على ما بنفســه مــن الكفر. وأُردف ذلك بأمر مترتب من الله لنوح: ألاّ يسأله تعالى عمّا تجلّــى مــن غيب مصير ليس له به علم من الله الذي يهديه فيما كان سيحق منه بحكــم كسب الناجين من الإيمان وخسران الظالمين، وأنه تعالى يعظه أن يكون من الجــاهلين بموازين الحق الفاصلة الذين يغلب عليهم الميل في الأحكام بعاطفة الأبوّة والقربى.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤٧)

فاســتجاب نــوح – وقد أدركته التّوبة الرّاضية بحكم ربّه، فناجاه: أنه يعوذ به مــستجيراً من خطأ الهوى أن يسأله ما ليس له به علم من حيث تجلّي قضائه – نادماً علــى نــــزعة الجهالــة التي غشيته لأبوّته فمالت به عن مقتضى الإيمان المطمئن، ثم اســتغاث ربه أنه إن لم يغفر له الذنب بهوى حبّه للولد ويرحمه بما يبدِّل سيّئته حسنة واعظــة في خالف أمره، إن لم يستجب له ﷻ سيكون هو من الخاسرين، وهو يبتغي ويسعى أن يكون لدى ربّه من المفلحين.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨)

جــاءت نوحاً من ربه ساعة ذلك المتاب مقولة بشرى تناديه باسمه: أن يهبط من الــسفينة الراسية إلى الأرض بسلامٍ من أقدار الله أمناً لم يصبهم من الطوفان ما أصاب الظــالمين، وبركاتٍ منه تعالى تُضاعف حُسن المتبوّأ المطمئن الطيب تنــزل عليه وعلى الــذين معه يستخلفون في تلك الأرض ذرياتٍ وأمماً، وأمم منهم سيمتعهم الله بأقدار عطائــه ونعمائه ثم يمسّهم من أقدار عقابه عذابٌ أليم، إذ لا يحمدونه على المتاع ولا يتّقونه، بل ينفتنون بما يحق به عليهم العذاب.

﴿تِلْــكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩)

وتنختم قصة نوح بمدخل خطاب للرسول الخاتم ﷺ أن تلك الأنباء التي يرويها القرآن من علم الغيب يوحيها إليه الله بأقدار تعليمه وهديه، ما كان يعلمها هو ولا قومه قبلاً - لأنهم أمّة أميّة ما سمعت بأنباء الأنبياء الأولين حتى جاء علمها ليتلقوا العبرة والعظة من سنة المرسلين وأقوامهم، فليصبر هو على ما يعانيه من قومه مُلاحّة جدالٍ باطل ورهبة مكرٍ ظالم، إن العاقبة كما وقعت في سيرة نوح للمتقين الله مستقيمين ملتزمين بحد هداه مهما يأخذ أقوامهم الغرور يضاغطونهم فيتعسّر عليهم الحاضر.

عموم المعاني: (الآيات ٢٥ - ٤٩):

بعهد من الله بأقداره المنظومة تتنزل رسالات من الغيب إلى الإنسان في الأرض عامّة. لكن أُولى الرّسالات التي بدت لها آثار محفوظة وامتدت لها ذيول في رسالات تخلُفها متصادقة إنما تنزلت في أوسط الأرض إلى نوح قبل قرون. وقد اقتصرت تلك الرسالة على قومه ولعهده خاصّة، لأن الكُرة الأرضيّة الواسعة لّما يتيسر عندئذ تواصلُها كافة، وفي أحقاب تاريخها لّما يتعلّم سواد الناس الكتابة ليتوارثوا العلم محفوظاً منقولاً عبرها. وبدأ نوح بما ينبغي في أوّل الهداية لطريق الدّين الحقّ: أن يتطهّر قومه من معهودهم الباطل الذي كان مُودياً بهم إلى سوء عاقبة في الدنيا والآخرة. فقام فيهم نذيراً واعظاً قبل أن يستقيموا على الطريق يبشرهم بأيلولتهم إلى خير. ودعا قومه ألاّ يعبدوا إلا الله. وذلك هو المعهود في الإنسان أن يبقى مفتوناً بعالم الشهادة يعبّر عن فطرته الدينية بمقدسات يراها مباشرة له قبل أن يأتيه الهدى من الغيب فيتذكّر ربه ويرى آياته ويسمعها فينفذ إليه بالعبادة الخالصة. قال نوح لقومه إنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم، لأن عبادة الآلهة المتفرقة في الأرض المشهودة تدعو عبادها إلى اختلاف مناهج وسوء علاقات في حياتهم ممّا يجرّهم إلى مضالّ ومظالم وعاقبة بئيس جزاءً يوم الدين. وكان ردّ قوم نوح مثل سائر الأمم المخاطبة من بني الإنسان: ما يأتيهم نبي برسالة غيب إلا ردّوه بأنهم ما يرونه روحاً غيبياً بل بشراً مثلهم، وكان غيظ القوم من مدّ دعوته البادي مثل سائر المجتمعات التي يحرص سادتها المملوءة أيديهم بحظوظ الغنى

علـــى حفظ حاضر فضلهم، المستضعفون يستقبلون ويتقبّلون بِبِشرٍ دعوة التجديد التي تـــرجع بكـــل الناس سواء إلى الله، بينما أولئك المستكبرون يخشون أن يجتمع الضّعفاء علـــى تلك الدعوة فتُوقع بهم بأساً إذا تعاظم مدّها. وكذلك بدا أتباع نوح عند قومه هـــم أراذلهم بادي الرأي رِجرِجة من السذّج البؤساء، لا الأفاضل منهم الأمثل رشداً. وصارح نوحاً قومه أنهم ما يرون له ولمؤمنيه عليهم من فضلٍ سبقٍ في دعوة واستجابة لحـــق، بـــل يظنونهم كاذبين في دعواهم لهم فيها مقاصد أخرى. فأخذ نوح يجادلهم بالحـــقّ: أولاً – أنه بخيار مشيئته مؤمن على بيّنة من ربّه تتواتر لها شهادات الحق، وأنها رحمـــة مـــنه تعالى لا من تلقاء نفسه هو، فإن كان ذلك كذلك وعميت عليهم معالم حقها وشواهده فلم يؤمنوا أفيخشون أن يتكاثر فيتظاهر عليهم المؤمنون فيلزموهم بها وهم لها كارهون؟كلاّ فالإيمان خيار مشيئة حر خالص. وثانياً – ليطمئنوا، إنه لا يبتغي مالاً وكسباً منهم على دعوته فما أجره إلا على الله واهب الرّحمة. وثالثاً – إنه لا يمايز الـــناس طبقات فهم سواء إزاء حقّ الوحي من الله وأكرمهم أتقاهم له تعالى، وما هو بطارد الذين آمنوا لأنهم في مسكنة، لأنهم ملاقوا ربّهم ليستوفوا حقهم عدلاً وعلى من ظلمهـــم عـــزلاً، ولكنه يرى قومه – كما يخاطبهم – في جهالة بموازين المساواة الحق وحكـــم الغـــيب بالقسط. ورابعاً يذكر لهم أنه لا يدّعى نفسه إلا بشراً مثلهم ليس له خزائن الله ليفيض ثروة بغير أسباب كسب عاديّة، ولا يعلم الغيب لينبئهم بما هو قادم علـــيهم أو عليه ليتّقيه أو يتقصّده إلا أن يوحي إليه الله، ولا يتمثل في شكله البشري روح ملَـــك من السماء، ولا يعلم ما في صدور الناس فيقول للذين تزدري أعين قومه لـــن يؤتـــيهم الله خيراً ولو آمنوا لسوء نياتهم كما يظن القوم بهم، وإنما يأخذهم هو بظاهـــرهم مؤمنين ويرجو أن يرجعوا إلى ربهم مأجورين خيراً، وإلا فهو من الظالمين. وتلك المبادئ والمواعظ التي خاطب بها نوح قومه ينبغي أن تكون مثالاً يتّخذها الدعاة الخالفـــون منهجاً لأول الخطاب مهاداً لدفع الدعوة وصدّاً لما يعترض وقعها الأول من وجوه ارتداد وارتياب.

وتكـــثفت على قوم نوح الحججُ البالغة وتطاول عهد دعوته فيهم فبلغوا ما تبلغ كـــثيرٌ مـــن المجتمعات الظالمة التي تقوم فيها دعوة حديثة لا يرضون أثرها على كسب

أهـــوائهم المعهود ويروهٰا مع مر الزمان تنتشر وتنذر بمحذور. كذلك استعجل نوحاً قومه أنه قد أكثر جدالهم فإما رجموه أو يأتيهم بما يتوعّدهم به من نذير قدر يقع عليهم إن كان من الصادقين. فقال لهم إنه بشر رسول يبلّغ الهدى لا يصرّف آجال العقوبات الـــنازلة عليهم قضاءً من الله، فإن كان هو تعالى يمدّ لهم غاوين فإن نصحه رسولاً لن يـــنفعهم، فـــالله هـــو ربّهم وإليه يرجعون في الأولى فالآخرة. ومواقف الإعراض عن الدعـــوات وإنكار مقولاتها وردود الدعاة بالحق تتماثل في سنن التاريخ. وكذلك ظنّ أهـــل الخطاب الأول للرسول الخاتم ﷺ أنه قد افترى على الله كل هذا النبأ عن نوح وقومه يختلق مثالاً سالفاً شاهداً له عليهم. وردّ الرسول كما أوصاه القرآن – وهو ردُّ الـــدعاة المـــندوب أبداً – أن الكذب لاسيما على الله إجرام لا يأتيه هو فيحتمل كبر وزره، ولكن الإعراض عن وحي الله إجرام هم يحتملون وزره.

وأوحى إلى نوح رسالة – فدعوته قد بلغت ما تبلغ الدعوات بعد حين إذ تتصلب القلـــوب عـــنها وتتجمد المواقف فلا يؤمن أحد أبداً ولا رجاء له في خطاب القوم، بل علـــى الداعي أن يتهيأ لمهاجرهم منجاةً وإنقاذاً للمؤمنين ونذيراً لسائر قومه ليذهبوا إلى المـــصير الـــذي غدا لازماً. وفي حال نوح بان له ذلك وحياً وأُمر بالإعداد لا لمهجر بل لفلـــك يتقي بها طوفان مياه تتفجّر تجتاح العراق، وما كان له ولا لقومه من دراية عندئذ بنذيـــر تلـــك الظاهرة التي يعرف الله طبعها ويعلم آجالها. والدعاة في مثل تلك المراحلٍ والأحـــوال مـــن مـــبلغ أمر الدعوة عليهم محاولة قراءة سنن التاريخ كيف تتطور سيرته وأحداثه قادمة ليُعدّوا للواقعات أمرهم تهيؤاً أبصر من الآخرين مستعينين بالإلهام والتوفيق مـــن الله. كان قوم نوح يسخرون ممّا يُعدّ نوح من فُلكٍ في البرّ، وإذ قنط هو منهم بعلمٍ بلغه وحياً كان يساخرهم منذراً بعذاب قادم حقاً لا أليمٍ وحسب بل أليمٌ مُقيمٌ مُهلكٌ. وفـــارت المياه الفائضة فأُوحى إلى نوح أن يركب سفينته ومن معه من المؤمنين وإن قلّوا غير مبالٍ بغير المؤمنين من سائر قومه، فدعاهم للركوب باسم الله متوكلاً عليه في سلامة مجراها ومرساها أخيراً إنه غفور للذنوب الداعية للعقاب بالغ الرحمة لأمان العباد. ولكن الابـــتلاء يُكتب على الدعاة ليرشدوا عند المفاصلة للآخرين لاسيما إذا كانوا بين يدي قـــادم سوء على مجتمعهم، فتلك مجاهدة لعسر القطيعة لما يصلهم فيه من علاقات الأبوة

والنــسب. والقربى نــزعة فطر الله عليها نفوس البشر ليتبارّوا مراعاة لذات البين، لكن يبتلــيهم الله ليــتّقوا في أمر الدين – ألاّ، يغلب عليه ولاء القربى لأنه منوط بخيار المشيئة والمــسئولية خاصّة لكلّ أحد، وموالاة المهتدين ومسالكهم الممتازة عن مذاهب الآخرين حــتّ حــتى في ســاعة تأزّمِ قربى الدّم الجامعة. لكن نوحاً وإن أُمر أن يقتصر ركبه في الــسفينة المنجية على المؤمنين ما ملك إلا أن ينادي ابنه المعتزل أن يركب معهم الفلك لعلّــه يــنجو ويدخل معهم في الدين، ولكن ابنه إذ كان خياره كفراً آثر الاعتصام بجبلٍ مفــتوناً بقوّة الظاهر في أمرٍ عَلم أبوه أنه لا عاصم منه إلا مَن رحم الله، فحال الموجُ بين موقــع الأب الحقّ والواقعة على ابنه غرقاً مع سائر الظالمين. ثم انقشع الفيض واستوت السفينة ونــزل المؤمنون، ولكن نوحاً راجع ربّه مستغيثاً حكمه تعالى على ابنه من أهله، فذكّــره الله بأنــه كاســب عمل غير صالح غير تائب – ليس من أهله في نسب الدين ومــوالاة الحــق، وحــذّره من السؤال عن قضاء لا يعلم حيث هو وعَظَهُ من الجهل، فاســتغفر نــوحٌ واسترحم ربّه لئلا يكون من الخاسرين. ومثال ذلك البلاء جرت سنّته علــى المؤمنين الأوائل وهم ما زالوا عند منــزل هذه السورة في مكّة، لكن عِبر القرآن تهديهم لما هو قادم بعد ضيق الفتنة نجاةً بالهجرة وهم في قلة ومخرجاً تتوتّر به علاقات مع ذوي قــرباهم، وكان البلاء مشتدّةً وطأته على المؤمنين حتى بعد المهجر، بل حتى أواخر عهد المدينة كما يُذكر في سورة التوبة، إذ تتوالى الوقائع قتالاً بينهم وبين المشركين الذين هاجروهم وقد يُقبل الآباء في حزبهم بينما الأبناء في صف المؤمنين. ففي قصة نوح تمكين للإيمــان في القلــوب ألا تكون العصبية العرقية للأهل غالبة على الموالاة في الدين، وألا يــبالوا إذا وقعت الواقعة الحاقّة فرقاناً يحي الله فيه ويهلك من شاء ولو أصيب الأقربون، وألا يــستغفروا لموتاهم مشركين. وفي قصة نوح شفاء من مرض اعترى حتّى المسلمين يحسبون أن الدين يورّث نسباً وأن أبناء الأنبياء والأفاضل وذريّاتهم شرفاء صالحون تلقاء النــسب. وتلك ضلالةٌ يكذّبها أن الدين خيار مشيئة ومسئولية لكلّ فرد لا يُشفع له ولا يوزر وزره، ويقوّمها كثير من هدي القرآن، وهي علّة تُضلُّ الناس وتضعف جهد التديّن والصّلاح تعويلاً على النّسب السّالف. وآخر نبأ قصة نوح في ذلك عظة، إذ هبط ومعه المؤمــنون علــى البرِّ بسلام وإن أدركتهم بركات متاع، وأمم من ذريّاتهم بعضهم فتنته

نعمة المأوى والمتاع والمكنة فرحاً وفخراً وبغياً ليمسّهم العذاب الأليم الذي أنذر منه نوح أوّل الأمـــر قـــومه. والعظة أن البلاء دوّار والإنسان المفتون قلّب والتقي توّاب أوّاب. وكـــان النبـــي الخاتم وقومه يجهلون نبأ تلك القصّة ولكن بلغتهم وحياً، إن لم يتّعظ بها المخاطـــبون هي للنبـــي ﷺ ومن معه عبرة: أن العاقبة للمتقين. كذلك ليتعلّم الدعاة من ســـير التاريخ وسننها أن الدعوة لإصلاح الحياة بالدين الحقّ قد تستدعي مجادلة متطاولة لمـــن يناهـــضها وقد تقتضي مقاومة ومصابرة لحين، لكن العاقبة تحقّ للمتقين – أمرَ الله الـــذي يهـــدي إلى خـــير المـــصائر شرعاً وينـــزلها قدراً غاضباً على المعرضين وراحماً للمؤمـــنين – ينجون أمناً بعد خوف ويُستخلفون في الأرض ولو من حيث لا يحتسبون ويُمتّعون فيها بلاءً إلى حين.

ترتيل المعاني: (الآيات ٥٠ – ٩٩):

﴿وَإِلَـــى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ (٥٠)

وتنـــضاف قـــصّة أخرى من الرسالات المتوالية، عاد: أرسل الله إلى عاد من أنفسهم أخـــاهم هوداً. قال لهم – منادياً فيهم بنسبتهم إليه قوماً: أن اعبدوا الله – مصوّبين العبادة إلـــيه وحده – ما لهم من ولي من دونه، إذ كانوا على سنة الإشراك يتّخذون مقدَّسين في الدنـــيا يـــتولّونهم، قبل أن تأتيهم الهداية إلى حق الغيب وتوحيد الله. وصارحهم أن ما هم بذلك إلا مفترون – مثلما تفتري سائر الأمم التي تضل عن النفاذ إلى الله في الغيب وتختلق من دونه آلهة مشهودة معبودة ينقطعون بها دون الله ويتوسطون بها إليه.[١]

﴿يقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (٥١)

ولـــئلا تغشى عاداً ريبة في مقاصد داعٍ إلى جديد، يناديهم هود قومَه – نافياً أنه يسألهم على أمره أجراً، ما أجره إلا على الله الذي فطره وما يبتغي أجراً من دونه، فهو

(١) لذكـــر مبسوط للرسول هودعليه السلام في قومه عاد – راجع الآيات ٦٥-٧٢ سورة الأعراف، وانظـــر الآيات ١٢٣-١٤٠ سورة الشعراء، والآيات ٣١ – ٤١ سورة المؤمنون، والآيات ١٨-٢١ سورة القمر.

الـــذي أنشأه لأصل حياته هو، وإنما هو يسعى داعياً لتطهير المفتونين دونه تعالى لعلهم يـــتوبون إليه. وأتم خطابهم يسائلهم: أفلا يعقلون؟، ويعقدون في وجدانهم اليقين بالله معـــبوداً وحده الأجر في الحياة كله يُبتغى لديه بإسلامها عبادةً لوجهه تتصوّب لتلقى الجزاء عنده.

﴿وَيَـــا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ (٥٢)

وظلّ يناديهم قومَه موصياً أن يتطهروا لله ربّهم ويستغفروا عن ضلالهم المعهود ثم يـــرقوا توبة إليه خالصة وتوحيداً للحياة في سبيله، راجياً أن يبارك الله من ثَمّ وبفضله حـــياتهم، ومضى يفصل المتاع المرجو لهم عاقبة من الله: أن يرسل السماء عليهم غيثاً مـــدراراً يتوالى بغير جفاف هو المعهود، ويزيدهم قوةً إلى قوّتهم. وقد كانوا في جنوب الجزيرة 'العربية' يبتغون الماء الموصول، وكانوا في قوة يصنعون بها لأنفسهم أبنية فخراً ويبطـــشون بهـــا علـــى غيرهم. ولعله رجا إن عبدوا الله شاكرين على نعمة القوة أن يباركها لهم خيراً لئلا يغفلوا عن مُنعمها وتقواه فتفتنهم شرّاً، وأتمّ وعظه لهم ألاّ يتولّوا مدبرين عن الإخلاص لتقوى الله فيذهبوا في الأرض مجرمين جانين فيها بغاة.

﴿قَالُـــواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣)

انـــبرى قوم هود له مرتدين عليه يقولون إنه ما جاءهم ببيّنة شهادةً حجة يوقنون بهـــا أنـــه على حق، وما هم بتاركي آلهتهم التي عهدوها بتراثهم عن قوله الناهي عن عبادتها، وما هم له بمؤمنين - بل يذروه يشذ بدعوته ألاّ يعبد إلا الله وأن ينقلب على معروفهم جميعاً.

﴿إِن نَّقُـــولُ إِلاَّ اعْتَـــرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَـــرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾ (٥٥، ٥٤)

ولـــذلك صـــارحوه بشذوذ مذهبه فيهم أنهم يرون وما يقولون فيه إلا أنه اعتراه بعض آلهتهم بسوء أصابه من إنكاره لها - أخذه بعضُها بالعقاب السوء أن ينطلق يقول

مقـــولاته عجباً. فارتد عليهم عزيزاً متحدياً لهم وآلهتهم قائلاً إنه يشهد الله الذي هو يـــؤمن بـــه رقيباً وليشهدوا هم الذين يسمعونه جهاراً أنه برئ مما يشركون من دونه تعالى معبوداً، وما دام ذلك قد أغضبهم وآلهتهم فليجمعوا أمرهم وليكيدوه كيدهم ثم لا يُنظروه أدنى مهلة.

﴿إِنِّـــي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٥٦)

وأتم شهادة مذهبه أنه متوكل على الله ربه وربهم سواء أخلصوا له أو أشركوا به، ما من دابة من حيٍ في الأرض إلا هو تعالى آخذ بناصيتها متمكن على رقاهٖا يوقع بها مـــن قـــدره ما يشاء، إن ربّه على صراط مستقيم، وهو رسوله يدعو من يهتدي إليه ليسلكه مخلصاً ليبلّغه قرباه سبحانه ورضاه لينال منه الحفظ والخير في كل سيرة الحياة، ومن عاج طريقه عنه فإنه تعالى يدفعه إلى مصير الغضب والضر.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (٥٧)

وألقـــى إلـــيهم كلمة الختام لخطاب دعوته مطمئناً أنه لا خوف عليه بعدها لا خيـــبة حيثما يذهبون هم ويكيدون، فإنهم إن تولّوا عن حقها وأدبروا فلا ضير عليه هـــو مكلفـــاً برسالة، فقد أبلغهم ما أرسل به إليهم. ويذكر لهم كذلك أن ربّه غني عـــنهم، يأخـــذهم ويستخلف قوماً غيرهم يحملون أمانة الحق ويخلصون له العبادة، وأنهم لا يضرّونه بإدبارهم شيئاً بل يضرّون أنفسهم. إن ربّهم على كل شيء حفيظ. متى أراد ببعض خلقه خيراً فلا رادّ لفضله ولا شريك له حافظاً مما يتوهمون رهبةً من آلهتهم.

﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٨)

ولّمـــا جاء أمر الله بأقداره قاهراً جبّاراً يأخذ عاداً بفعالهم نجّى هوداً والذين آمنوا معه برحمة من أقداره هو تعالى راعياً لطيفاً بعباده، وكانت تنجية لهم من عذاب غليظ أطبق بثقله وكثافته على قومهم.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٥٩)

وتلك عاد – مشاراً إليها إذ برزت قصّتها وبقيت آثار ديارها – جحدوا بآيات ربّهـــم كفـــراً عمداً بها وقد عرفوا حقّها، وعصوا رسله، إذ رسولهم في أصول دعوته الـــصادقة جـــاءهم برسالة توالى عليها الرسل كافّة من قبل ومن بعد، واتّبعوا أمر كل جبّار في أرضهم عنيد، ساروا السبيل المأمور به من كل طاغية فيهم يعاند هدى الدين بقوة، يتعاقبون عليهم ويتجبّرون كلٌ ينهاهم عن هدى الرسول لأنه هو لا يقبل شريكاً لسلطانه الذي يراه قد جعل عاداً قوّة تبني العماد مظاهرة وتبطش بطش الجبابرة.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (٦٠)

وعـــادٌ أُتبعوا في هذه الدنيا لعنة – إذ لازمت ذكراهم لعنة الله تلاحقهم وتجعل الخلف ينأون عن مثالهم وينبذوهم نمطاً في السوء المرجوم. ويوم القيامة ألا– استفهاماً يستنكر نفياً ليثبت حقاً – إن عاداً كفروا ربهم وما آمنوا به ولا عبدوه ولا اتقوه قربى بل غمروا ذكره، ألا – كذلك إثبات ما حقّ – بعداً لعادٍ قوم هود – قوم رسول لكن أبعدهم ربهم من رحمته إذ نـــزع منهم بالهلاك متاع الدنيا الذي كان يبشرهم رسولهم ببركته إن تابوا إلى الله، وحرّم عليهم أيضاً نعيم الآخرة.

﴿وَإِلَـــى ثَمُـــودَ أَخَـــاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُـــوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (٦١)

تـــتوالى في الـــسورة روايـــة أنباء الرسالات المتواترة برسالة الحق الواحدة، وهنا ينـــضاف النّبأ أن أقدار الله في الاجتباء وتحميل الأمانة والإرسال قد أرسلت إلى ثمود أخاهم صالحاً. وهو كذلك قام منادياً قومه قائلاً لهم أن يعبدوا الله ما لهم من إله غيره، ومـــضى مذكراً لهم بنعماء الله على قراهم العامرة في بيئة الرمل والصخور، هو تعالى أنشأهم منها واستعمرهم فيها، وأتمّ مرتباً في خطابه ما ينبغي منهم لوجهه تعالى – أن يستغفروا الله تطهّراً من قديمهم الذي صرفهم عن عالم الغيب ورهنهم إلى ما يشركون بـــالله مـــن معبوداتهم المشهودة، ثم أن يتمّوا رجاء غمر ذنوبهم من الله بالتوبة إليه ممّا

عهدوا مخلصين. ورجّاهم الخير عند ربه مؤكداً له تعالى صفةً حسنى - قريباً ممن يسعى إليه يسارعه مجيباً دعوته موفياً رغائبه.(١)

﴿قَالُــواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٦٢)

لكنّهم ردّوا عليه قوله مصوّبين عليه هو، نادوه باسمه تودّداً قائلين له أن قد كان هــو فيهم مرجوّاً قبل هذا - فكيف بعدما كانت نفوسهم منشرحة بالبشرى إذ كان وعــداً أن ينمو فيهم رشداً ويكسب لهم خيراً، آلآن ما يُلقي عليهم إلا هذا ينهاهم أن يعــبدوا ما يعبد آباؤهم تقليداً راسخاً، ثم قالوا له عن أمره إنهم لفي شكٍّ مما يدعوهم إليه مريب، يشيرون له عن ارتيابهم أن يكون به شيء من غربة دعوته.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (٦٣)

فجــاوبهم رقــيقَ الخطاب منادياً لهم قومَه: هل يرون إن كان على بيّنة من ربّه مــستوثق مستبين أمره من تلقاء ربّه الله وآتاه منه تعالى رحمة أن خصّه بالوحي وأنعمه بالهــدى ليطمئن قلبه ويفيض داعياً إن رأوا ذلك، فمن ينصره من الله إن عصاه بَعداً؟، فهــو ماله من ولي مما يعهدون يستعين به على مخالفة أمر ربّه بغير خوف. فهم - كما صــارحهم - إنهم لا يزيدونه بنهجهم هذا غير تخسير، إذ يضيّع مَرتدّاً إلى رجائهم فيه على نهج تقليدهم - فلاحَه المعهود عند ربّه.

﴿وَيَـا قَــوْمِ هَذِه نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (٦٤)

ثم ناداهم: قومَه، يبشرهم ببيّنة تُزيل ارتيابهم - أن هذه ناقة الله آية لهم منه تعالى دلالــةً حــيّة مشهودة على حقّ هذه الدعوة الخالصة بالعبادة لوجهه، فليذروها تأكل

---

(١) لذكر مبسوط للرسول صالح في قومه ثمود - راجع الآيات ٧٣-٧٩ سورة الأعراف، وانظر الآيــات ١٤١- ١٥٩ ســورة الشعراء، والآيات ٤٥-٥٣ سورة النمل، والآيات ٤٣-٤٥ سورة الذاريات، والآيات ٢٣-٣٢ سورة القمر، والآيات ٥-٨ سورة الحاقّة، والآيات ١١-١٥ سورة الشمس.

ســـائمة في أرض الله الـــتي بسطها، ويُحذّرهم بأمر الله ألاّ يمسوها بسوء، ينذرهم ألاّ يظـــنوا مـــشهدها على الملأ محصونةً مما يسوء لمعهوداتهم من التدين القديمة التي كانت ســـنتها أن توفّـــر المشهود مقدّساً، يُبلّغهم ألاّ تحدّثهم من ثَمّ أنفسهم بسوء فيصوبوها عصياناً لأمر الله إذ سترتدّ عليهم عندئذ عاقبةُ سوء فيأخذهم الله بعذاب قريب.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْد غَيْرُ مَكْذُوب ﴾(٦٥)

لكـــنهم عـــتوا عن أمر الله وما بالوا بالنذير فعقروا الناقة، إذ رأوا في النّيل منها إعزازاً لمعبوداتهم المعهودة. فقال لهم صالح أن يمضوا كما استباحوا متمتعين في ديارهم الطيـــبة تلـــك ثلاثة أيام وحسب يعقبها وقعُ النّذير ناجزاً، وإن ذلك وعدٌ صادق غير مكذوب.

﴿فَلَمَّـــا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (٦٦)

فلما جاء أمر الله الموعود بالنذارة نجّت أقدار تدبير لطف الله صالحاً والذين آمنوا بـــرحمة مـــن قضائه تعالى رحمةً بالمؤمنين، سلموا بالتنجية من خزي يومئذ وقد كان عظيماً. وهنا يلفت الخطاب إلى الرسول الخاتم ﷺ – وهو يتلو هذه الآيات – إن ربّه هـــو القوي العزيز تذكرة تثبت قلبه أن قوّته تعالى وعزته تدرك المستضعفين المستذلين ساعة العسرة سنّةً ماضية.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٦٧)

وأخـــذ أولـــئك الذين ظلموا من عاد العذابُ الموعود الذي تجلّى صيحةً زلزلة صـــعقتهم فأصـــبحوا في ديـــارهم جاثمين هلكى، وبقيت آثار تلك الديار آية وعظة للناظرين خلفاً للمتدبرين.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ (٦٨)

فغـــدوا – وقد جاءتهم العاقبة المدمدمة عليهم في ديارهم – كأن لم يغنوا وتعمر حـــياتهم فيها قبلاً. ألا – استفهام استنكار لنفي الثابت الحق – إن ثموداً كفروا ربّهم، غمروا ذكره بذكر معبوداتهم وقد سعى بينهم رسول داع إلى الله وقامت فيهم منه آية بيّـــنة مشهودة. ألا – كذلك حقٌ يتأكد ثبوته – قد وقع الأمر بعداً لثمود كارثةً تنأى

بهـــم عـــن كل قرار في أرضهم المستعمرة متاعاً، وسابقةً تصدّ عنهم أيما ذكرى خير وطرداً من رحمة الله في الآخرة.

﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (٦٩)

وإبـــراهيم لا يـــرد ذكره في هذا السياق رسولاً إلى قومه في العراق فقد هجرهم من قـــبل هادياً إلى ملة الحانفين لله منذراً بعواقب المشركين، وإنما ينضاف ذكره للرسل لتأتيه بـــشرى خلافة رسولية في شأنه الخاص وليُبلَّغ وقع النذير على قوم ذي قرباه لوط. فلوط تتـــسق قـــصته وعظة سيرة قومه مع سالف المذكورين رسلاً وقوماً. وقد جاءت الملائكة رســـلُ الله بأقداره الغيبية إلى البشر يصلوهم بوحيه وإلى المؤمنين منهم جنوداً ورحمةً وأيداً وعلـــى الكافرين أخذاً. جاءوا إبراهيم بالبشرى ودخلوا عليه ضيوفاً بالتحية قالوا سلاماً، فـــردّ بخـــير مـــنها: قال سلامٌ (رفعاً يردُّ نصباً في نحو العربية)، ودخل بيته ليؤدي واجب الضيافة، فما لبث هناك أن جاء بعجل حنيذ مشوي يقطر دهناً إكراماً لزوّاره.[1]

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٠)

الـــسنّة عـــندئذ تلقاءً أن يُعرض الطعام ويدعي إليه الضيوف، والآية تعبرُ ذلك وتـــروي الأوقع ممّا ترتّب: أن لّما رأى إبراهيم أيدي ضيوفه لا تصل إلى الطعام انكباباً كمـــا يأكـــل البشر، نَكرِهم ضيفاً يكُفون أيديهم على غير المعروف ربما كانوا عدواً يريدون به أذى وأوجس في نفسه منهم خيفة ونكراً، فلحظوا ذلك وقالوا: لا تخف إنا أُرســـلنا إلى قوم لوط، فتعرّفهم ملائكة جنوداً من غيب الله شداداً على أولئك، وتبيّن أنها رسالة أخذ لقوم لوط بقاضية عقاب من الله.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧١)

وإمـــرأة إبراهيم قائمة كأنها كانت تتهيّأ لخدمة الضيوف، فلمّا سمعت ذكر قوم لوط ضحكت لأنهم شُهروا بسمعة الفاحشة فأثار في نفسها مشهد الضيوف وحسنهم

---

(١) في ذكـــر تحية إبراهيم وتبشيره وإنبائه بأمر قوم لوط – انظر الآيات ٥١-٦٠ سورة الحجر، والآيات ٢٤-٣٧ سورة الذاريات.

ذكـــوراً ومـــا ينتظـــرهم في نظرها حين بلوغهم هناك شيئاً من حرج عظيم – أثار الضحك تعبيراً عمّا تستحي أن تقوله. فأقبل عليها الملائكة يبشّرونها عن ربّهم بإسحق ولداً ويثنون البشرى بيعقوب من وراء إسحق حفيداً.

﴿قَالَـــتْ يَـــا وَيْلَتَـــى أَأَلِـــدُ وَأَنَـــاْ عَجُـــوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢)

كانت تلك البشرى ذات وقع أكبر لمثلها من كلّ نبأ بمرجو، قالت – كأنها واقعة علـــيها – يـــا ويلتي! وتساءلت وهي مندهشة: أتلد وهي عجوز – إذ تجاوزت سن الخـــصوبة للحمل ببعيد، وهذا بعلها شيخاً بلغ سن اليأس من الأبوّة وزهد راتب إتيان الزوجة. وختمت قولها: إن هذا حقاً شيء عجيب فوق المنظور المعتاد.

﴿قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (٧٣)

قالـــت لها الملائكة متسائلين: أتعجب من أمر الله وأمر الله مفعول وقضاؤه نافذ ســـنّةً جاريـــة لا عجباً غير معهود؟واكتنفوا لها البشرى بأنها رحمة من الله رأفة ولطفاً بمزيد بركاته رحمةً وخيراً فضلاً عليهم أهل بيت إبراهيم، إنه تعالى حميد بليغ الرحمات والبركات المحمودة مجيدٌ قدره متعال أمره.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤)

فلما ذهب عن إبراهيم الروع من فجاءة دخول منكَرين مخوفين وجاءته البشرى بالولـــيد والحفـــيد، ما شغلته البشرى المتباركة عن وقع النبأ الأول الذي بلّغه زوارُه الملائكـــة: أنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط، فأخذ يجادل الملائكة وما حملوا من رسالة الملأ الأعلى في ذلك الشأن.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ (٧٥)

إن إبراهيم بخلقه كان حقاً حليماً لا يأخذه غضب يثير طلب الانتقام من الله على قـــوم مفـــسدين مثل قوم لوط، أوّاهاً كثير المآب إلى ربّه والمتاب في كل أمرٍ يُلم به، يؤوب إليه يسترجع الرحمة ليرفع الإصر، منيباً لا يقنط من رحمة ربه، بل نوبةً بعد نوبة يظل يذكره ويفزع إليه مسئولاً مرجواً.

﴿يَـــا إِبْـــرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (٧٦)

وجاوبـــه الوحـــي من الله يناديه: يا إبراهيم، يوصيه أن يُعرض عن هذا الجدل المسترحِم، إنه قد جاء أمر ربّه في ذلك الشأن، وإن قوم لوط آتيهم عذاب غير مردود، لأن أمر الله مفعول لا يُرد.

﴿وَلَمَّـــا جَـــاءتْ رُسُـــلُنَا لُـــوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧)

ولمّـــا جاءت لوطاً رسلُ الله جنود ملئه الأعلى لإنفاذ أوامره الغيبية سيئ هو بهم وضـــاق بهـــم زرعـــاً، لا يسوءه مقدم ضيوف ولا تضيق رحبته الواسعة لاستقبالهم وإكـــرامهم، ولكنه يدري خُبث قومه المفتونين بالفاحشة ويعلم ما سيؤدي به مشهد ضيف طيبة صورهم من حرج حين يأتيهم قومه بهائج الشّهوة المعهودة في فسقهم، من ثَـــمّ أصـــابه من أمر ضيوفه ما أصابه وقال: هذا يوم عصيب، يخشى من مآل شديد الحرج.(١)

﴿وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَات قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِـــي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (٧٨)

وجـــاءه قـــومه يهـــرعون إليه مسارعين وقد بلغهم مقدمُ ضيفٍ ذكورٍ حسنَة وجـــوههم، فأثـــار ذلك فيهم النفير إلى موقع قضاء الشهوة في بيت لوط، وقد كانوا يقطعـــون بفعـــالهم تلك السبيل ويأتون سيئاتها حتى في ناديهم بغير حياء. فقال فيهم متـــشفعاً بما لم يملك غيره: إن هؤلاء بناته هن أطهر لهم لأنهن إناث، والأهون عليه أن يباشروهنّ بوحاً مبسوطاً من فورهم كأنّ زواجاً قد ترتب، وذكّرهم واجب تقوى الله وســـاءلهم: أليس منهم رجل رشيد يصدّهم عن معصية الله التي يهمّون بها وإحاطتهم بحرمِ بيته ليخزوه في ضيفه بفاضحة؟.

(١) في ذكـــر الرســـول لوط وقومه - راجع الآيات ٨٠- ٨٤ سورة الأعراف، وانظر الآيات ١٧٦-١٩٠ سورة الشعراء، والآيات ٣٦-٣٧ سورة العنكبوت.

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (٧٩)

قالـــوا له – وخُلق الفاحشة لم يترك فيهم بقيّة حياء أو مجاملة – إنه حقاً قد عَلم ما لهم في بناته من حق، فهن لَسْنَ زوجاتهم وما هم براغبين في نكاحهن ولو تجاوز لهم معروف تمام الزواج، وإنه ليعلم ما يريدون من إتيان رجال عنده غرباء قادمين لا إناث في بيته معروفات.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠)

قـــال لـــوط – يـــرفع صيحة التشكّي العاجز والتمنّي القانط: لو أنّ له بهم قوّة تـــضارعهم وتفعل بهم ما ينبغي لوقاية حرم البيت وحصانة الضيف أو مأوىً يلجأ إليه ذا سند قوي مانع دخولهم بيته.

﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْـــتَفِتْ مِـــنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١)

أســـعفته الملائكـــة تناديه باسمه تُدركه في حرجه البالغ تقول له إنهم رسلُ ربّه أولـــئك القوم لن يصلوا إليه، فهم الملائكة ركنٌ شديد ذووا قوةٍ من روح الله غالبة تقيه، ذلك ليذر أمر أولئك ويتلقّى رسالتهم هم له أن يسري بأهله بقطعٍ من جوف اللـــيل لينطلقوا مسارعين متوكلين لا يلتفت منهم أحد ولو سمع وقعاً من ورائه على الخالفين، يسري بأهله صحبة، إلا امرأته، وما كانت من أهله في قربى الدين والتقوى لأنها خانته في عهد دينه لا تبالي بقومها ينتهكون حرمة البيت. وأنبأته الملائكة أنها – تلك المرأة – منهم مصيبها ما يكون أصابهم هم بكفرهم ومعصيتهم التي بلغت فحشاً دون حـــياء تماديـــاً لا يـــبالي بنذارة رسولهم بعقاب موعود. بذلك حق عليهم أن مـــوعدهم الـــصبح لوقع النذير، وبشّروا لوطاً: أليس الصبح بقريب عاجل؟ وذلك مرضاة له وقد استيأس من قبل والأزمة قبل فراقهم كانت أدعى لأن يستقبل هلاكهم ببِشر.

﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٢–٨٣)

فلما جاء الأمر بقوى الله الآمرة الفاعلة من الغيب في واقع القوى التي طبعها الله في العالم المشهود، وقع النذير على قوم لوط وجعل الله أعالي القرى أسافلَها إذ زلزلت الجبال حولها فانقلبت مؤتفكةً على أهل الأرض قومِ لوط، وأمطرت أقدار الله عليهم حجارة تفجّرت مهشمة من الجبال بقوة الزلزال هاوية وهي من سجّيل طين متصلّب حجري منضود منظوم الوقع المتوالي المرصوص مسوّمة بقدرٍ عند مَن توجه الخطاب للنبي الخاتم يذكّره أنه ربّه، مواقعها انتظمت قوم لوط هلكى لم يفلت منهم أحد. وما هي تلك القرى المؤتفكة – من موطن الظالمين المخاطَبين برسالة القرآن التي يبلغها النبيّ الخاتم – ببعيد، إذ يمرّون عليها كل حين شمالاً في طريق رحلة الشتاء والصيف. وفيها تذكير للرسول ليطمئن على سنّة الله في تصريف المصائر وموعظة للذين تتلى عليهم الأنباء في القرآن ليتذكّروا آثارها وتتعزّز فيهم الرّهبة من عاقبة عصيان الله والغفلة عن نذيره.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (٨٤)

وكانت مَدْيَن من منازل رسالة الله الواحد المتواترة من علياء الغيب إلى الأرض، تتوالى متعاقبة بين قرون الأقوام وتمتد منبسطة بين القرى مهاداً لعمومها الخالد للناس كافة في الرسالة الختام. أرسل الله من ملئه الأعلى إلى مدين أخاهم شعيباً. قام فيهم من أنفسهم منادياً فيهم قومه: داعياً لهم أن يعبدوا الله ما لهم من إله غيره يهديهم على ما يصلهم بالغيب ويخلصهم لله الإله الواحد الأعظم، ويطهرهم في سبيل ذلك مما يعبدون من مشهودات الأرض التي تعلّقوها وقصروا عليها التقديس دون خالقها – على سنة الإنسان المفتون ديناً ومتاعاً بما حوله لا يتبصّره آيات للخالق المتعالي ما لم يتنزّل عليه منه هدى يذكّره بأصل حق الدين المفطور فيه المغشيّ بعارضات الحياة الدنيا الفاتنة. ودعاهم – لئلا تكون عبادة الله نظراً نافذاً وراء ما يعبدون وحسب – أن يصدّقوها بتقواه تعالى أفعالاً تجري عدلاً بضبط معاملات عباده أجمعين لأنه هو وحده الحكم الأعلى يضع عليهم الميزان الحق فيما بينهم. وذلك ألا ينقصوا المكيال والميزان دون مراعاة الوفاء السواء بينهم، ألا ينقصوها لغيرهم ويستوفوها لأنفسهم بهوى الطمع

يبـــتغون احتياز المتاع خصماً على الآخرين في مداولات التجارة التي كانت عامرة في حـــياتهم. وليحفزهم على التزام الميزان العدل ترغيباً ذكّرهم شعيب أنه يراهم بخيرٍ من انبـــساط الغنى بالمتاع، فينبغي أن يحمدوا الله المنعم بذلك ويتّقوه ليباركه وألا يعصوه فـــيمحقه. وليحملهم على ذلك ترهيباً صارحهم أنه أخاهم يعلم نذر العواقب لمعاصي الله ويخاف عليهم عذاب يوم محيط بهم جميعاً لو أفسدوا وأخسروا الميزان.

﴿وَيَـــا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥)

وناداهم: قومَه أيضاً، يُتمّ لهم النصح: أن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم فينقصوا عليهم أقدار المعاملة السوية المعروفة ليربوا عليهم تفاضلاً وليسبقوهم إلى الخـــير ظلمـــاً، وألاّ يعثوا معربدين بضوابط التقوى بدوافع من الطغوى في الأرض مفسدين صلاح معاملات الناس النافعة تبادلاً وتكاملاً ونمواً في الغنى.

﴿بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (٨٦)

وذكّـــرهم أنهم إن فاتهم سانح كسب يأكلونه ظلماً في المعايير فإن بقيّة الله خير لهم، فما يأكلونه يفنى ورضوان الله بصالحات أعمالهم يبقى لهم زاداً ينفعهم بركات في الدنيا وأجوراً في الآخرة، ذلك إن كانوا مؤمنين بالغيب بالله واليوم الآخر يصوّبون إليه مقاصد الأعمال ويراعون في ضوابطها وموازينها تقوى الله الرقيب بما يرضيه.

وخـــتم لهم القول إنه ما هو عليهم بحفيظ، لا يراقبهم حيثما كانوا ليحفظ العدل بينهم في الدنيا ولا يملك حتى إن رضي عنهم أن يُعدّ لهم الجزاء الباقي في الآخرة، وإنما الله هو الذي يحفظ أعمالهم ولا تضيع عنده حسناتهم ولا يغفل عن سيئاتهم.

﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧)

فقامـــوا إليه ينادونه مسمّى لأنه برز بمقولاته شاذّاً عن معهودهم في المعاملات، يقولـــون لـــه سائلين مستنكرين: أصلواته – وهي أذكار وشعائر خاصّة يعبد بها ربّه هـــو – تأمـــره أن يتركوا هم ما يعبد آباؤهم، ما شأن ما يليه في خويصة نفسه بما في معـــروف الـــناس العام من الوفاء الراسخ في قلوبهم لعبادة المعبود من الآباء؟أو تأمره

عــــباداته تلك أن يدعوهم لتضبطهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون، ما شأن الشعائر الخاصـــــة بالحياة المالية العامّة بينهم وهي قائمة على التراضي والتعاقد والتعامل المقبول ولو اعتراه التطفيف الممتع للكاسب، الجائر شيئاً ما على الخاسر. ويخاطبونه هزؤاً به أنه إذاً الحلـــيم الرشيد، كأنهم عنده جميعاً في سفاهة وغفلة فيما يتعبدون له ويتعاملون به وارتـــضته سيرتهم الموروثة ومعروف تجارتهم الجّاري، وهو الذي في مبلغ الحلم تعقلاً والرشد قواماً.

﴿قَـــالَ يَـــا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨)

فعقّـــب شُـــعيب على مقولتهم هذه منادياً قومَه، يسألهم: أرأوا إن كان هو فيما يدعو إليه على بيّنة حجة وهدياً واضحاً مشهوداً عنده بحقه بَلَغه من ربّه و لم يبتدعه هو من تلقاء نفسه، وإن كان كذلك رزقه الله رزقاً حسناً مثل أحدهم، فهل يغلب هوى الكـــسب عليه فيروغ عن التزام بيّنة الأمر والعدل التي نـــزلت عليه من ربّه الرّازق؟ وثنّـــى على تلك المقولة بأنه ما يريد أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه فيطفّف حبّاً لشهوة المـــتاع لنفـــسه، بل ما له من دافع لدعوته إلا إرادة الإصلاح لنفسه ولهم جميعاً عدلاً ومساواة في المعاملة مجتهداً في الدعوة مراعياً حدود هداها مبلغ ما استطاع، وما توفيقه إلا بالله أن يصلح الفساد في الأرض بعد العثوّ فيها فساداً، على الله يتوكل فهو الرازق الهـــادي إلى العبادة والتقوى الأرشد في الكسب والرزق، وذلك كله بيده، يرزق من يشاء ويبارك له، وإليه ينيب هو آيباً إلى ذكره وتقواه كل نوبة ومرّة حيث ما عَرضت عليه تكاد تنـــزعه وتلهيه فتنة كسب ظالم للآخرين، أو دفعه ليصرفه عن حقّ دعوته معارض.

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩)

ومـــضى يناديهم قومه ويرجوهم: ألا يجرمنّهم فينال منهم شقاقُه منازعة في الحق يستمسكون بمعهود مذهبهم في الحياة فيأخذهم إلى بؤس المصير يصيبهم مثل ما أصاب

قـــوم نـــوح أو قوم هود أو قوم صالح، وما قوم لوط منهم ببعيد، بل يباشروهم ذات الـــشرق - كـــل تلك الأقوام بعث الله فيهم إخوة منهم رسلاً فأعرضوا عن دعوهم وتمـــادوا في معتاد شركهم بالله عبادةً لمشهودات في الدنيا دون الغيب ومن ثم ارهنوا لـــشهوات الحـــياة الدنيا الحاضرة تعالياً بغنى أو بغياً بقوّة أو فساداً في الأرض أو سوء خلق فاحش، وناهضوا أنبياءهم شقاقاً وترهيباً.

﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٩٠)

وأوصـــى شـــعيب قومه إن استجابوا واتّعظوا بمن سلف أن يبدأوا الاستقامة بأن يـــستغفروا ربّهـــم عما هو سالف من عبادهم الضالّة ومعاملاهم الظالمة، ثم أن يتمّوا الاســـتجابة فيتوبوا إليه تعالى قربى إليه عبادة خالصة وطاعة وتقوى. وذكّرهم أن ربّه رحيم بالغ الرحمة لَمن يتهيّأ لها ويسألها من عباده، ودود يجاوب ودّ الناس له وحبّهم بما يهديهم إليه بودٍّ بالغٍ محيط.

﴿قَالُـــواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (٩١)

قالـــوا له وقد ضاقوا بتذكيراته ينادونه باسمه ويصارحونه - إنهم لا يفقهون كثيراً ممـــا يقول - إذ ما يبلغون أي مغازٍ أو حِكمٍ في كثير من مقولاته ووصاياه - وإنهم لا يـــرونه فـــيهم إلا ضعيفا ينبغي ألا يجرؤ عليهم هكذا، ولولا رهطه الذي يليه أهلاً - معرفةً لمكان قدرهم في الناس - لرجموه قذفاً وطرداً، وإنه ما هو عليهم بعزيز يزعم أن يدعوهم إلى ربّه الأكبر وهديه الأرشد ولا يرهب أو يوقر لهم مشهوداً.

﴿قَـــالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٩٢)

جـــاوهم - مـــنادياً لهم قوماً له: أرهطه ومواليه بينهم أعزّ عليهم من الله العزيز الـــذي اهتدى هو بهديه وتوكّل عليه واستنصر به، وهو بظنّه ناصره الأعزّ الأغلب ربّاً يتعالى عمّا يُقدّمون من مكانة الأهل، وكان ينبغي أن يتعبّدوا لوجهه خشوعاً ولكنهم يتّخذونه وراءهم ظهريّاً يدبرون عن التولّي شطر وجهه عبادةً وطاعة ولا يقبلون على ما أرسله ليدعوهم إليه. وشهد لهم أن ربّه عزيز متعال يحيط بهم يأخذهم أنّى شاء.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (٩٣)

وأعلن شعيب بينه وبين قومه بلوغ التمايز والفرقان، وقام فيهم منادياً لهم قومَه، لكن شاهراً فيهم كلمة فصل: أن يعملوا على مكانتهم كما يشاءون مذهباً ومسلكاً، إنه هو عامل متوكل على هدى ربّه وحقّ سبيله داعياً إليه. وأنذرهم أن سوف يعلمون من يأتيه عذاب عاجل يُخزيه رجساً ويحلّ عليه يوماً آجلاً عذاب مقيم دوماً وقد سبق منه النذير أنه يخاف عليهم في العاجلة والآجلة، وسيعلمون من هو كاذب بعد بيان يوم الحساب وليرتقبوا وينتظروا إنه معهم رقيب شاهد راصد ناظر ذلك المآل.

﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٩٤)

وحقاً كما أنذر شعيب حقّ وقع الوعيد ولما جاء بقضاء الله العزيز وقدره الفعّال أمره النافذ، نجّى الله بأقدار لطفه المحيطة شعيباً والذين آمنوا معه بتوحيد الله معبوداً وبهدى السبيل الأقوم في معاملات الحياة عدلاً وصلاحاً. وذلك برحمة منه تعالى أدركتهم إذ تهيأوا لها، وفي تلك الواقعة أخذت الذين ظلموا عادين على حق العبادة لله وحدّ المعاملات العدل بين الناس - أخذتهم صيحة بكارثة أظلّتهم من عاصفات السماء ورعودها المرجفة الصّاعقة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين هلكى.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (٩٥)

هكذا أصبحوا في ديارهم أجساداً جاثمة كأن لم يحيوا ويغنوا قبلاً فيها بأموالهم التي ابتلاهم الله بها مبسوطة فتظالموا بها وعثوا في الأرض مفسدين وسقطوا بها صرعى في فتنة متاع الدنيا. ألا - استفهاماً نكارة لنفي فإثباتاً لما هو حق: بُعداً لمدين من رحمة الله في الدنيا ومتاعها ومن خير الآخرة كما بعدت ثمود قبلهم وقريباً منهم موقعاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٦)

وينضاف ذكر رسالة موسى لذكر أسلافه المرسلين، لكنها رسالة بلغت في مهاد الرسالات قبل الختام أن حملت كتاباً كثير منه محفوظ، ومن بعد فرعون كانت هدىً لبني إسرائيل أن يكونوا أئمة لسائر الناس. والسورة فيها بيان لقصص الأنبياء التي

تــضاهي عهــد الرسالة الخاتمة في مرحلة تنـــزيل السور بمكّة - دعوة ونذارة ورجاء منجى للمؤمنين ومهلك للكافرين وحسب، ولذلك فصّلت القصص تفصيلاً. أما قصّة موسى فهي قد تجاوزت ذلك ممتدة إلى المهجر ورسالة الشريعة التي تجددت هدياً لحياة بـــني إســـرائيل بـــين يدي التجدّد الموصول بخالف أنبياء ثم مرسلين تمكنوا في خلافة الأرض، وقـــد قـــصّتها سور أخرى، ولذلك وردت هنا مجملة في ثلاث آيات. ولقد أرسل الله بأقداره الغيبية علماً لاجتباء رسول ولهدى العبادة ولمدى رسالات خالفة - أرســـل موســـى بآيات الله المتجلّية الهادية المسموعة التي يتلوها الرسول وسلطانٍ مبين فعلاً يخرق طبائع الأشياء معجزاً ذا وقعٍ سلطة وحجة على النفوس التي ترتاب بمسموع التنـــزيل من الغيب.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (٩٧)

وأول الخطـــاب للرسالة كان لفرعون طاغوت مصر وملئه الذين امتلأوا في ظلّه بالمـــال والجّاه فاتّبعوا أمر فرعون الذي انبسط جبروته ونفوذه عليهم يسوقهم إلى كفر برســـالة الغـــيب، ومـــا أمـــر فـــرعون - مهما تمكّنت له الدعاية بأنه الرب الأعلى والأرشـــد - برشـــيد، بل عن انفراد واستبداد بالرأي الذي يفسده ذلك فيسفه دون الرشد دون أوسط الناس.(١)

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (٩٨)

كمـــا يقـــدُم فرعون قومه في الدنيا إماماً إلى الضلال ويسوقهم إلى التمادي فيه بأمـــره، الآخـــرةُ جزاءٌ وفاق، كذلك يقدُم قومه يوم القيامة حظّه حظّهم في حساب مـــوازين الأعمال، ولأنه كان يحملهم على الأمر مستكبراً متجبّراً عليهم يضاعف عليه الوزر ويسبق قومه إلى مواقع الجزاء الحاقّ عليهم، فأوردهم النار وهي دار أشد العذاب المحيط وفاق الكفر الألحّ بالله في الدنيا والمشاكسة للأشياء المحيطة بهم الطائعة لسنن الله في الطبـــيعة، وبـــئس النار ورداً ومقصداً لا يرجى، فواردوها لا يجدون فيها خيراً ولا مصدر لهم عنها فهم فيها خالدون.

---

(١) في ذكر رسالة موسى إلى فرعون وبني إسرائيل والمصائر المترتبة - راجع الحاشية ٢٣ على الآية ١٧١ سورة الأعراف صفحة ٧٥٧ من الجزء الأول.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِه لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٩)

وأُتبعوا – فرعونُ وملؤه وقومه – في هذه الدنيا لعنة – ظلّت ذكراهم موصولة تلاحقهم ألاّ يكونوا مثالاً للخير مرضياً للبشر، بل للشر منبوذاً، ويوم القيامة كذلك اللعنة لهم بُعداً من رحمة الله ومن نعيم الجنة والنظر إلى الله وكلامه ورضوانه طرداً إلى أشـــدّ العـــذاب والغضب، وبئس الرفد المرفود – يا لسوئهم – دفعاً مدفوعين إلى جهنم.

عموم المعاني: (الآيات ٥٠ – ٩٩):

كمـــا ســـبق في قصة نوح ﷺ ذكر سنّة الرّسالة الهادية، أُرسل هود ﷺ إلى قـــومه عاد داعياً ليطهّرهم من معهود ما يفترون من آلهة دون الله، كمعتاد فتنة البشر بمادة الأرض المشهودة دون روح الغيب. وقام فيهم يتبرّأ من ظنّهم أنه يبتغي في دعوته أجـــراً مـــن دون الله مثل حُبّهم للكسب العاجل من كلِّ فعل، وينصحهم أن يبادروا بالاســـتغفار من قديمهم ليتقدّموا درجاً موجباً توبةً إلى الله، لعلّه تعالى يجاوبهم فيرزقهم غيـــثاً مـــدراراً في أرضهم التي يغشاها جفاف الصحراء، ويزيدهم في قوتهم الإعمارية والجندية يباركها ألا يتّخذوها مجرمين. كذلك – على سنّة الأقوام المخاطبين الراجعين إلى معهودهم القديم – جادلوه أن ما رأوا بيّنةً لحق دعوته، وفاصلوه أن ما هم بتاركي آلهـــتهم إيماناً بمقولاته، بل يظنّون أن به ما اعترته بعض آلهتهم من سوء. ولكن مضى يـــصارحهم – صـــراحة الداعـــي إلى الحق المتوكل على ربه الواثق من سنن عواقب المسير – مُشهداً ربّه ومشهدهم براءته ممّا يُشركون، واستنفرهم أن يكيدوه بآلهتهم ولا يُنظـــروه، مـــتوكلاً على الله مصرّف أحوال كل الأحياء في الأرض الهادي إلى صراط مستقيم، وألقى إليهم كلمة وداع إذ قد بلّغهم رسالته أن يتولّوا أنّى شاءوا ليستخلف ربّـــه غيرهم ولا يضرّونه تعالى شيئاً فهو الحفيظ على كل شيء. فجاءت الصّيحة على القومِ عذاباً غليظاً، ولكن رحمة الله نجّته ومن معه. أمّا عاد الجاحدة لآيات الله العاصية لرســـله إيـــثاراً لاتّباع جبابرتهم فقد لاحقتهم لعنة الله طرداً من رحمته في الدنيا ويوم القـــيامة. هكـــذا مـــضى مثال الأقوام السالفة في عاد، هم سيرتُهم بعد خطاب الحق

مـــشركة كافرة، وعاقبتهم هالكة، والفئة الدّاعية للحقّ ناجية، مثالاً لمن خصّتهم القوّة الدنيوية بقوة في الأرضِ باطشة وقوّة جبابرتهم سلطاناً فأُتبعوا لعنة الله أبداً.

كـــذلك – على غرار سنّة دعوات الدّين الحقّ السّالفة والخالفة – صالحٌ في ثمود، كـــان يـــنهاهم عن ذات علّة الشرك، ويدعوهم إلى ذات التوحيد ربوبيةً لله الذي هو أنعـــم عليهم واستعمرهم في الأرض وله ينبغي أن تُخلص العبادة، ويهديهم إلى ذات مسلك الهدى استغفاراً عمّا هم فيه ثم تزكيّاً ومتاباً إلى الله القريب المجيب. لكن صدود قـــومه كان ألطف قولاً – سنة الدهاة المَكَرة من المعرضين مخادعة وملاطفة لعلها تصدُّ الدعاة للتحول الجديد لأولِ الأمر، إذ حدّثوه أنه كان مرجواً فيهم قبلاً وعاتبوه كيف يدعوهم لترك ما كان يعبد آباؤهم، وناصحوه إنهم لفي شكٍّ في دعوته مريب. وكان تعقيـــبه عـــن يقين: أن أمره على بينة من هدى الله، ورحمته من عنده تعالى، وهو إن عـــصاه تعالى لا ناصر له دونه، نصحُهم لا يزيده إلا تخسيراً. ثم جاءهم بناقة عزّز الله لهم بها حقّ دعوته ليذروها تأكل سائمة في الأرض عندهم ولا يمسّوها بسوء فيأخذهم عـــذاب قـــريب. ثقافـــتهم مادية وتلك آية لهم لكنهم رهبوا أن تمضي مقدسة تطيح بمعهوداتهم فركبوا الكفر وعقروها، فعيّن لهم رسولهم أجل النّذير الحاقّ عليهم بأمر الله لـــثلاثة أيـــام وعـــداً غـــير مكذوب. فلما جاء الأمر جرت المصائر على نمط السّنن السالفة – نجا صالح ومن آمن معه برحمة الله وأصاب الخزي الصّاعق عاداً فأصبحوا في ديارهم جاثمين هلكى كأن لم يغنوا فيها أمس، وكان حظّهم بُعداً من رحمة الله.

أمـــا رسول الله لوط، فقد كان إبراهيم عليه السلام ذا قرباه ورائد الهجرة معه من قوم العـــراق وإمام الدعوة التي آمن بها لوط – مِلّةً مؤمنة بأصول الدين حانفة من الإشراك تائـــبة إلـــيه تعالى توحيداً له وإسلاماً للحياة عبادة صالحة لوجهه. وقد مضى لوطُ في دعـــوة يُـــتم مقتـــضى تلك الحنيفية المسلمة إيماناً وعملاً صالحاً، فنهى قومه عن إتيان الذكـــور دون الإناث فاحشةً فيهم بغير سابقة في العالمين. وقد كان من قومه ما رواه القرآن من ارتداد عليه همّاً بإخراجه هو وآله لتنطعهم تطهراً ودعوة، تحدياً له أن يأتيهم بمـــا يعـــدهم مـــن نذير، وهذا نهج الدعوة للدين إذا تمهّد عموم أساسها من المبادئ الأصول أن تمضي فتُنـــزل هدى الحق على شعاب حياة المجتمع لاسيّما إن فشت فيهم

مـــثل تلك الجناية الفاحشة على أمانة الأسرة وحرمتها، فهي قوام المزاوجة والموادّة بين الذكـــور والإناث والمنشأ والمتربّى للأطفال والولدان وإطار المَبارّة لذوي القربى ولبنة منشأ المجتمع كله. وكذلك شأن أيّما خلل بيّن في شرعية بُنى المجتمع أو قصور بالغ في علاقـــات تعاونه، أو سيئة بادية في خلقه العام أو مظلمة باغية في حرماته وحقوقه أو تـــراخٍ مفرط في نموّ مكتسبه – يلزم دعاة الدّين أن يجعلوا منه جُلّ همّهم تأسيساً على الأصـــول ليـــسدّوا ثغور الفساد ويزكّوا مسالك الصّلاح ويرقوا بالأعمال إحساناً في الحـــياة. أما نبأ قوم لوط فإنّه لّما استيأس أمرهم وحقّ قدوم وقعِ النّذير بين يدي مجيء قـــضاء الله الموعود مرّ الملائكة بإبراهيم ضيفاً، وبعد تبادل تحية السلام وإعداد القِرى وتقديمه نكِرهم إبراهيم، لكنه تعرّفهم بعدُ ملائكةً نـــزلوا عليه ليبلّغوه نذير قوم لوط، وكـــان مـــن لطـــف الله في وقع النّبأ عليه أن استعجلوا مع ذلك البشرى له ولزوجه بإسحق ولداً ثم يعقوب من ورائه. وعجبت هي للبشرى بعد الشيخوخة، لكن الملائكة جاوبـــوها أنّـــه أمر الله المفعول وبركته عليهم آل البيت إنه حميد مجيد. ولئن سكّنت إبراهيم شيئاً من البشرى والطمأنينة على نجاة لوط وأهله في القادم المحذور، فقد مضى يجـــادل في القوم وهو الحليم الأوّاه المنيب، حتى صدّه أن أمر الله قد انحسم. وهكذا لا تُغـــني الشفاعة حتى من نبـــي كإبراهيم أن يردَّ وقوع كلمة الله الحاقّة على الظالمين، فإنمـــا الشفاعة بإذنه تعالى استغفاراً لمن آمن. أما لوط فقد قنط من قومه وقلاهم يرجو لهم واقعة النذير ويدعو ربّه النجاة له ولأهله. بل أصابه من قومه حرج عصيب لقدوم ضيوف حسنة وجوههم لَحَظَهُم القوم ذووا النّزعة الفاسقة، فقد هُرعوا إلى بيته وحاول صرفهم ولو بردّهم إلى بناته لئلا يُخزى في ضيفه، وما أجداه السعي فعاد يتمنّى لو أنّ له قوة تصدّهم أو مأوى إلى ركن شديد. فبلّغته ضيوفه أنهم ملائكة رسلاً من ربّه وأنّ حرمه بهم معصوم من أولئك، والوصية له أن يخرج بأهله سارياً بالليل مولّياً إلا امرأته، منجـــيً من الواقع عليها وعليهم كافّة صُبحاً. ووقع الأمر زلزالاً قلّب عليهم حجارة الجـــبال صرعتهم وغبرتهم لم تغادر منهم أحداً. وموقع الواقعة قريب من أمّة الخطاب بالقـــرآن العربيّ على طريق تجارتهم نحو الشام، ولكنهم كانوا يمرّون عليها جاهدين في سفرهم لا يتدبّرون فيها آية وعظة.

وخـــتاماً للرسالات التي انتظمت المنطقة إلى أقوامها خاصّة، جاء شعيب مرسلاً إلى مدين. وهو على سنة صالح الأسلاف من النبيين، دعاهم إلى أصل الدين ومنهاجه أن يتحـــرّروا مـــن معـــبودهم المعهود ويبدأوا الاستقامة بالاستغفار لربّهم الأعلى ثم يُـــتمّوها بالتوبة إليه وإخلاص العبادة. ثم دعاهم إذا رست فيهم أصول التدين الحق أن يتطهروا من عُرف التطفيف في المكيال والميزان غشّاً في التجارة التي كانت لهم المبتلى ومـــوطن الفتنة، إذ كانت منشط حياقم فهم على طريق يصل تجارة أمم الأرض من قـــبل ومن بعد شرقاً وغرباً، وكانوا مأوى قوافلها من الجنوب نحو الشمال. وأنذرهم أنـــه يراهم في خيرٍ زاهر لكنّه يخافُ عليهم عذابَ يومٍ محيط لو مضوا فيما عهدوا إلاّ أن يـــتوبوا ويعاملـــوا الـــناس بالقـــسط ولا يبخسوهم حقوقهم ولا يعثوا في الأرض مفـــسدين، ودعـــاهم ألاّ يفتنهم الكسب العاجل الفاني في الدنيا، فإن ما عند الله هو الخـــير الباقـــي المتـــبارك إن كانوا مؤمنين متّقين، والله هو الوكيل عليهم وما هو – شـــعيب – عليهم بحفيظ، بل رسول يبلّغ الهدى منه تعالى. وحاجّه قومه كيف تأمره صـــلواته الخاصّـــة تعـــبداً لربه أن يتركوا هم معبودات آبائهم. وإنما كانت تعلّقاهم وتعـــبّداهم لآلهة مشهودة تشبع فيهم فطرة التديّن لاسيما أنها لا تمس فرط هواهم في المـــتاع الفاســـق، وكان توقيرهم للتقاليد بفطرة وفاء للسّلف، لكنها ما حالت دون الكـــسب بالتطفـــيف لأنفـــسهم المفتونة، فكيف توحي إليه صلواته هو أن يفعلوا في أموالهم ما شاءوا. وذلك المذهب الضالّ الفاجر المفتون بالمتاع هو الذي غشي كل بني آدم مـــنذ القدم، وأصبح في عالم اليوم صريحاً بيّناً فاشياً متّسعاً، إذ طغت عبادة الهوى في مـــتاع الدنـــيا علـــى حق الغيب وانحصرت بقيّة ظواهر التديّن في خويصة النفوس وطقوس المتعبّدات الخالصة، وعمّت الظنون بأن الدّين ولو وحياً من الله لا يهدي ولا يعـــني شـــأن المـــال وعلاقاته. ذلك أنّ الإشراك المتاعي رَبا مدُّه بتعاظم الفتنة الماديّة والمالـــية، إذ انبـــسط على الناس الرزق الوافر وتهيّأ لهم تسخير أشياء الطبيعة وأسبابها لإنـــتاج المـــتاع المتكاثر ومهّدت لهم أسباب التبادل والتجارة التي تعمر بها المكاسب. والعـــود إلى ذكر شعيب يُرى كيف كان يجاهد تلك الفتنة في قومه، مضى يؤكد لهم أنـــه على بيّنة من ربّه في ذلك الهدى الذي يدعو إليه، وأنه لو رزقه ربه رزقاً حسناً لا

يذهب فيه بعرفهم مخالفاً ما ينهاهم عنه، فما هو بداعية إلى رشد نظر أو قول متظاهر بـــل إلى إيمان يصدّقه العمل، وإنما يريد الإصلاح ما استطاع وما توفيقه إلا بالله عليه الـــتوكّل وإليه الإنابة. وأوصاهم – وهم يذكرون آباءهم وتلهيهم سالفة أعرافهم أن يذّكـــروا سير الأقوام التي أصابتها الوقائع الواعظة عاقبةً لصدودها عن إخلاص العبادة لله وتقواه، ورجاهم الشروع في هداية متجددة استغفاراً فتوبةً إلى الله الرّحيم الودود. ولكنهم ركبوا رؤوسهم وغضِبوا عليه يوئسونه من تقبّل مقولاته التي لا يفقهون كثيراً مـــنها كمـــا يقولـــون، لا يدركون مغزاها لصالح تجارتهم نفسها ثم لصالح أُخراهم، ويـــتهدّدونه بالرّجم لولا الرّعاية لرهطه لا لعزّته هو عليهم وحريّته في الدّعوة والمقال. فألقى عليهِم آخر القول – على سنّة سلفه من الأنبياء – أنه يراهم يُعزّون رهطه على ربّـــه الـــذي اتّخـــذوه وراءهم ظهرياً، وأنّه يفاصلهم على بوحٍ من الخيار لكليهما، ليذهـــبوا هم على مكانتهم عاملين إنه هو عامل، ولينتظروا جميعاً على من تقع عاقبة الكـــاذب وليرقـــبوا الآجـــال. وعلى سنة الله في إمازة المصائر لمن آمن ولمن كفر، نجا شـــعيب ومن معه برحمة الله وأخذت الآخرين كارثة صاعقة من مناخ السماء أصبحوا في ديـــارهم من بعدها جاثمين هلكى كأن لم يغنوا فيها قبلاً، وكتب الله عليهم أن تمرّ ذكراهم في التاريخ بُعداً لهم من الخير مثل ثمود.

إن شهوة المتاع التي لا تضبطها تقوى والتي تغمر ذكر حمد الله على الأرزاق قد ساء وقعها وباعدت بين معاش الناس والدين في الحياة العامرة، والسواد الأعظم للـــناس مشغول بالمعاش وهموم مقاصده المتعالية وأسبابه المتكثّفة، ونقص ذلك دين الناس أكثر مما نقصته السياسة التي طغت فيها أهواء السلطة الباغية ومنافساتها على الـــدين حـــتى سادت اللادينية في السياسة والسلطان وغفل الناس عن الله حكماً وأهملوا حدود أحكام شرعه، لكن المشغولين بالسياسة شرائح عليا أو طامحة، بينما يشغل همُّ المعاش غالب الراشدين من البشر. ولذلك دعوة الدين اليوم أسوةً بدعوة شعيب ينبغي – إذا مهدت ببلاغ أصول الدين إيماناً بالله معبوداً واحداً بغير شريك وبالآخـــرة ملتقـــى لـــه وجزاء بميزان حسابه وحكم قضائه على كسب البلاء في الدنيا – أن تمضي تنـــزل في شعاب الحياة المعاشيّة بدعوة الإيمان بأن الله هو واهب

المتاع والخير في الأرض وأن عبادته الخالصة ألاّ يتّبع الهوى فيما يُبتلي به الناس من حيث المعاش، ألا تفتنهم شهوات الكسب غفلة عن حمد الله على فضله وتقواه في تصريفه للبلاءات واحتكاماً لشرعه في معاملاتهم. لا بدّ أن يستغفر الناس من فتن الأموال تظالماً في المكاييل والموازين بغير قسط سواء، أو تداولاً في أصناف البضاعة كيداً دون بيّنة لسيئها من حسنها، أو تعاقداً في الخدمة ثم زيفاً في الأداء، أو تَرَابياً في الدّين بكسب رأس المال العاطل فائدة زائدة مقضيّة وقد يخسر العامل به، أو غير ذلك من أكل المال بالباطل والتعامل فيه بغير القسط. ويلزم الدعاة للمتاب بالمعاش كله إلى الدين الحق وأخذ المتاع بالحمد لله وطاعته وتقواه أن يضربوا هم – مثل شعيب – المثال في التعامل عطاءً وأخذاً عدلاً وتعاقداً واستيفاءً سوياً أفراداً وشركات، لأن التوفيق من الله لمن عمل بالحسنى والأسوة في الإصلاح هي تعزيز الدعوة. والدعاة عرضة للكيد كما هو نصيب الأنبياء في البلاء حيثما مسّت دعوتُهم المترفين والظلمة، وينبغي المصابرة والتذكير بما يعظ من سوء سيرة الاقتصاد حيث المتاعي الشهواني الغافل عن الله المتظالم العادي على حدود تقواه حُكماً بيناً وهداية خُلق.

وقد ورد أخيراً في السورة ذكر موسى عليه السلام ورسالته إلى فرعون بهدى آيات الله وسلطان آيات معجزة شاهدة بذلك الحق. ودعوته – من بعد رسالات الأقوام خاصة – خاطبت فرعون أن يرفع طاغوته، ثم بني إسرائيل أن يُنزلوا الشريعة في حياتهم، ثم انفتحت من بعد للعالمين، وبقيت تعاليمها عبر الزمان لأنها محفوظة بكتاب ولو اعتراه تحريف وتوالت بخلف بعد الأنبياء. والذكر في السورة عارض منسوباً إلى ذكر الرسالات الأسبق لأن سوراً أخرى قد فصّلت قصة موسى وقومه تفصيلاً، ولأنها رسالة من نهج جديد مستمر كما سبق القول. لكن قوم فرعون – مثل عاد – اتّبعوا أمر فرعون الذي كان يدّعي الرشد فيما يرى ويأمر، وما هو برشيد بل هو جبّار عنيد، قام بقيادة قومه إذا استخفّهم في الدنيا ويقدُمهم يوم القيامة إذ هو أَولاهم بمورد العذاب، ولاحقته اللّعنة في الدنيا ذكرى سوء وفي الآخرة طرداً من رحمة الله وروداً إلى النار بئس الورد المورود.

ترتيل المعاني: (الآيات ١٠٠ – ١٢٢):

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٠٠)

ذلـــك الـــذي ســـبق بيانه في السورة مما تتجلّى فيه العبر والعظات هو أنباء القرى وأخبارها مما يقصّه الله بأقدار علمه المحيط ووحيه الهادي. وهنا يتوجّه الخطاب إلى الرسول الخـــاتم تُـــروى عليه تنـــزيلاً يتلوه على أمّة خطابه أنباء القرى، منها قائم بآثاره مذكور ومرئي من المخاطبين، ومنها حصيد حصده أمر الله فاندثر وزال أثره على الأرض.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (١٠١)

ومـــا ظلمهـــم الله بتلك الأقدار فإنه يعدل بها على الناس إذ يبعث إليهم رسلاً بالهـــدى ويوحي نُذُراً تبلّغ إليهم، فإن جُوزوا على إعراضهم فقد سبقت عليهم حجة البلاغ والنذير، ما ظلمهم الله لكن ظلموا أنفسهم إذ سمعوا آيات الله وحياً يُتلى عليهم ورأوهـــا آيات مشهودة في السماوات والأرض حولهم فثنوا ظهورهم واستغشوا ثيابهم وعمـــوا وصـــمّوا مكبّين على شهوات الدنيا العاجلة والحاضرة، فظلموا أنفسهم إذ دانـــوها عـــند الله القيوم على عباده يوم الدين وحرموها من ذلك المتاع الخير الأبقى، واتخذوا من المشهودات في الدنيا آلهة دون الغيب يدعونها دون الله فما أغنت عنهم يوم القـــيامة كما كانوا يتوهمون حصناً من كل نازلة، وما شفعت لهم عند الله كما كانوا يظـــنون، بـــل هم شركاء ما زادوهم غير تتبيب وخسار، إذ ما كان لهم في الدنيا من ســـلطان إلا ضلال ظنونهم هم، ويوم القيامة ينكرونهم وينأون عنهم ويشهدون عليهم أنهم كانوا غافلين عن عبادتهم، ويلعن بعضهم بعضا.[1]

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢)

وكـــذلك أخـــذُ الله المخاطَب به النبيّ هنا، ربّه – إذا أخذ القرى وهي ظالمة – يرســـل إليها الرسل ليدعوا أقوامها إلى الحق العدل من وحدانية الله معبوداً ومن رشد

(١) في ذكر الحق أن الله ما ظلم القرى السالفة التي أهلكها الله إذا ما كانت صالحة بل كانوا هم أنفـــسهم ظـــالمين بعد النذير – انظر الآية ١١٧ من ذات السورة، وراجع الآية ١٣٠ سورة الأنعام، والآية ٧٠ سورة التوبة، وانظر الآية ٢٣ سورة النحل، والآية ٩ سورة الروم.

الحياة في سبيله، وليقدموا لهم ذكر النُّذُر بما قد يعاجلهم ربّهم به أو يُعدّ لهم آجلاً من عقـــاب إنـــه تعالى قادر أن يأخذ بأمره المفعول ووعيده غير المكذوب وإن أخذه أليم شديد الوقع مهالك غرق أو صيحة صاعقة أو زلزال، لا نــزع رحمة خضراء عارض كراتب بلايا الدّنيا.

﴿إِنَّ فِـي ذَلِـكَ لآيَـةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ (١٠٣، ١٠٤)

إن في ذلـــك لآية شاهدة ودلالة بيّنة من وقائع أليمة في الدنيا على واقعة آلم وأوقع في الغيب، آية لمن خاف عذاب الآخرة، مدركاً أن العذاب بإذنه تعالى وأمره يأخـــذ الناس في العالم المشهود حاقّاً بوعيده فكيف هو في عالم الغيب يوم الدين الموعـــود والعـــذاب الأشدّ رهبةً الخالد أبداً. ذلك اليوم الموعود مجموعٌ له الناس وذلك يوم مشهود، لا يفلت منه أحد بل كلهم مبعوثون تحشرهم جنود الله لا مفرّ مـــنه ولا محيص ولا يظل غيباً قد يُرتاب به بل هو مرئي المشاهد عين اليقين، وما تؤخـــره أقـــدار الله إلا لأجل معدود. ولئن استعجله بعض الناس بطبع المسارعة العجلة إلى أي قادم مرجوّ في الدنيا والمشفقة منه محذوراً، فإن الله بأقداره في خلق الإنـــسان وابتلائه وهدايته والبشارة له والنذارة يمدّ له في الحياة الدنيا، ولو عاجل كـــلاً بالعقاب ما ترك على الأرض من دابة، ولكنه يؤخر يوم الدين لأجل ممدود معدود مسمى عنده.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (١٠٥)

يـــوم يـــأتي ذلـــك اليوم حاضراً لا تكلّم نفس إلا بإذنه تعالى، لا تنطق الأنفس البـــشرية كما عُلّموا المنطق والبيان في الدنيا، وبعضهم عبد ربه ذكراً وقولاً للتي هي أحـــسن بين الناس وبعضهم بمنطقه جادل في آيات الله وكذب عليه وآذى وظلم. أمّا يـــوم القـــيامة فـــلا ينطقون وإن حاجَهم لذلك أن ينكروا كتاب أعمالهم أو يتعذروا بالأســـباب، وإنمـــا تـــشهد عليهم جوارحهم ناطقة، ولا تنطق ألسنتهم إلا بإذن الله. فأولـــئك مثل ما مازهم فرقان في الدنيا بين كافر ومؤمن يتمايزون وفاقاً، فمنهم حقاً بذلك الكسب مكتوباً عليهم – شقي وسعيد.

﴿فَأَمَّـــا الَّذينَ شَقُواْ فَفي النَّارِ لَهُمْ فيهَا زَفيرٌ وَشَهيقٌ * خَالدينَ فيهَا مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُريدُ﴾ (١٠٦، ١٠٧)

فأمـــا الذين شقوا فشقاءهم – لكفرهم ومشاقّتهم لمطبوعات الأشياء حولهم في الدنيا المسخّرة لهم طائعة لسنن الله – في النار لهم فيها زفير وشهيق، صوت دفع شديد لـــنفس داخل وخارج من الصدر ومن وقع ما يحسّون من الأشياء حولهم تُشاقّهم ناراً حارقـــة لجلـــودهم وطعاماً زقوماً وشراباً غسليناً، وما يشعرون من ندم وما بينهم من اختـــصام. وهـــم في ذلك خالدون ما دامت السماوات والأرض التي تبدّل تبديلاً في طبعها وظرفها بقضاء الله أزلاً لا مجال فيه للمكان والزمان المعهود في الدنيا، وذلك لا يخـــرج من أقدار الله وملكه وما هو بباق في الوجود دائماً إلا ما شاء الله المذكور هنا للرسول المخاطب أنه ربُّه، لأن الرسول يبلغ عنه تعالى هذا النذير. إن الله فعّال لما يريد بعباده الظالمين، فهو عزيز قاهراً حكيم قاضياً عليهم.

﴿وَأَمَّا الَّذينَ سُعدُواْ فَفي الْجَنَّة خَالدينَ فيهَا مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (١٠٨)

أمـــا الـــذين سعدوا كفاء إيمانهم وصلاحهم في الدنيا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء الله المذكور هنا للرسول المخاطب أنه ربّه، عطاء ممـــدوداً غير مجذوذ، ليس كعطاء السماوات والأرض الحادث في خلق الدنيا الذي قد يـــنفد إذ ينـــزل الله خزائنه بقدر، أما ذلك العطاء الأزلي فهو لا يخرج من مشيئة الله لكنّه عطاء غير منقطع أبداً.

﴿فَلاَ تَكُ في مرْيَة مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ (١٠٩)

الخطـــاب في آيات السورة السابقة تشير للنبـــي إلى ربّه، وفي هذه الآية يُباشره الخطـــاب. وأول التديّن التطهّر ثم العبادة لله أو النفي للآلهة الدنيا ثم الشهادة له تعالى بألوهيـــته العظمى، الله. فالآية تنهى النبـــي ألا يكون ولو بأدنى درجة (بصيغة النهي النافي الحاذفة للنون: 'فلا تكُ') في مرية ممّا يعبد باطلاً هؤلاء العرب الذين يخاطبهم، ما يعـــبدون إلا كمـــا يعبد آباؤهم من قبل مذهباً رسخ في قلوبهم إذ أُورثوه تقليداً، فلا

يراوده بدفع ذلك التراث ارتياب بأنها آلهة من دون الله، فذلك بغير حقّ إذ ليس لهم به من آية أو سلطان وحي أو كتاب من غيب، إن الله بأقدار رقابته ومدّه لهم وجزائه لموفيهم نصيبهم غير منقوص من كفاء ذلك الكسب الباطل.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١١٠)

وكذلك، الله المتكلم للنبي لقد أتى بأقدار وحيه موسى الكتاب هدى لبني إسرائيل بعدما سبق ذكره من آيات وسلطان مبين أراه الله فرعون الذي كذّب وأبى. وكان ذلك الكتاب هدياً ممتداً لخلف موسى مهاداً لما يأتي بعده، ولكن الخلف اختلفوا في الكتاب أوّلوه وبدّلوه وحرّفوه، ولولا كلمة سبقت قدراً من ربّ النبي المخاطب هنا ألا يعاجل بالقضاء والحساب وأن يأتي برسالة دين وكتاب متجدد يصدّق الحق ويهيمن وينسخ الباطل فيما اختلفوا فيه لقُضي بينهم بحكمٍ وقعه ناجز في الدنيا. وإنهم لفي من كتابهم مريب بظنون في حفظ نصه ولابتلاءات وقعت عليهم وتأويلات لمتشابهه ابتغاء الفتنة وتحريفات بأهوائهم للكلم عن مواضعه. وكتاب الوحي ينبغي أن يكون الوحي المبين المحفوظ لدين الهدى الحق المستقر.

﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١١)

إن كُلاً لّما – حقاً كلاً من خلف موسى، جميع الفرق والشيع بمذاهبها المختلفة المرتابة ليوفينّهم الله أعمالهم – والله يُذكر هنا للنبي المخاطب ربَّه، إنه بما يعملون خبير، يقضي بينهم يوم القيامة قضاء تأخّر نفاذه لكنه يحقّ عن بيّنة من كتاب علمه تعالى المحيط بأعمالهم وكتابة ملائكته رصداً لها ويؤتيهم من خزائن رحمته وأوامر عذابه ما يوفي كل عامل منهم كفاء عمله.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٢)

الخطاب في الآية يتعزز مباشرةً بكامله للرسول الخاتم ﷺ – بعد ذكر سيرة المرسلين وقراهم عبرة وعظة وذكر ما انتهى إليه خلف موسى من زلزلة في نفوسهم واختلاف في وقع كتابهم المبين. الخطاب أمر له هو أن يستقيم ثابتاً على صراط الهدى كما أُمر به ومعه كذلك من تاب حانفاً إلى الله من معهوده ومعبوده القديم – والأمر

مـــن ثَمّ ألا يطغوا على حدود المنهاج الخالص لعبادة الله ولزوم هديه المبين كما طغى الآخـــرون إعراضـــاً عن جاهلية أو أهواء خلاف على كتابهم. إنه تعالى كما هو خبير بخَلَـــف موســـى مهاد هذه الرسالة الخاتمة بصير بمن يتولون بلاغ أمانة الختام ويتّبعون هديها المستقيم.

﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ (١١٣)

وليـــتم الخطـــاب إلى المؤمـــنين جميعاً، الأمر ألاّ يركنوا إلى الذين ظلموا من أمّة الخطـــاب الجاهلـــيّة السائدة حولهم ظنون ثقافتها الدينية وأعرافها شرعاً في الحياة، ألاّ يلتمـــسوا لديهم – وهم قومهم – القوّةَ ولا في موالاتهم العزّة فتمسهم النار بالعدوى الـــتي تـــبلغهم من ظلم أولئك، وما للمخاطبين المؤمنين من أولياء مؤلّهين من دون الله كمـــا يتّخذ الجاهليّون ثم هم لا يُنصرون بتلك الموالاة الباطلة في مجاهدات الحياة كما يتوهم المشركون.

﴿وَأَقِـــمِ الـــصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١١٤)

ويُبلّغ الرسول الأمر في خويصة أمره أن يقوم عابداً يصلّي لربّه متوجهاً لوجهه خاضـــعاً خاشـــعاً بكل ذكر وحركة قانتة له، يستمدُّ منه الهدى المستقيم والأيد الناصر، يقيم الصلاة طوال يومه طرفيَ النهار، أوله فجراً بشرى وذكرى ليوم جديد وآخـــره ظهـــراً وعـــصراً استغفاراً واسترحاماً ليوم ماض، وزلفاً من الليل مجالاً واسع المراحل للصلاة مفروضها ومندوبها. إن الحسنات المتوالية كذلك تتخلل كل حـــياته في الـــيوم تُـــذهب السيّئات لأنها قربى رحمة ووقاية من السيّئات موصولة وتذكـــرة نوّابة للاستغفار منها والمتاب وتبديل لها بزاد عظة لما يليها. ذلك ذكرى للذاكـــرين، سدّاً ممتداً لثغور الغفلة من ملهيات الدنيا وشواغلها وفتنتها التي تلازم المرء كذلك، للذاكرين بها وعياً بذكر الله فيها موصولاً لا يؤدونها أصواتاً وصوراً هي غافلة.[١]

---

(١) في توقيت الصلاة عبر اليوم – انظر الآية ٧٨ سورة الإسراء.

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥)

وفي مجاهدات دعوته لأهل خطابه الأَمرُ للرسول مخاطباً أن يصبر على حسرة صدودهم المتمادي ووطأة أذاهم المتطاول وجدلهم المستمر ولّما تنفتح قلوبهم أجمعين أو أبواب الفتح بينه وبينهم من الله العزيز. ليصبر مواصلاً مستعيناً بالصلاة المتوالية، لأن الله الـــذي يـــصله لا يقطعـــه ولا يـــضيع أجر المحسنين - بمبلغ الصبر أحسن الأعمال - بل يُعدّ لهم حسن العاقبة لأجل قريب في الدنيا ولأجل مسمى عنده في الآخرة.(١)

﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦)

إن الاســـتقامة هي لله ربّاً والإخلاص له مولىً والصلاة الراتبة لذكره والصبر في سبيله، ذلك منهاج المؤمنين الدّاعين للصلاح في الأرض. ومن ثم الترجّي الحق أن لو لم يكـــن ذلك إلا مرعياً من الناس كافّة في سالف الأقوام. فلولا كان من القرون - الأقوام المتقارنة تعاقباً قبل المخاطبين بالقرآن - أولو بقية ثابتة من ذلك المنهاج، لولا كانوا هم الصابرون الباقون على الدين مؤمنين يدعون إلى الإيمان ينهون عن الفساد في الأرض. ولكـــن ذلك الخُلق ما صدق في تلك الأقوام إلا قليلاً منهم: رسلاً وقلة آمـــنت معهم حملت أمانة الدعوة والإصلاح، وهؤلاء فقط هم الذين نجوا من غاشية الهلاك للأكثرين الذين ظلموا عادلين عن أصول الحق واتّبعوا أهواء الدنيا ففتنهم ما أتـــرفوا فـــيه مـــن متاعها وكانوا مجرمين جانين في الأرض وذهبوا لا صالحين ولا مصلحين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧)

والخطـــاب للرســـول أنه كذلك حقّ ما وقع عليهم، وما كان ربّه ليقضي أمره المفعـــول ويُهلك تلك القرى بظلم منه سبحانه وهو الحكم العدل بين عباده، ما أخذ تلك القرى وأهلها مصلحون، بل هم ظلموا أنفسهم وكانوا مجرمين في الأرض.

---

(١) في الاســـتعانة بالـــصلاة والصبر على بلاءات الحياة - راجع الآيتين ٤٥-١٥٣سورة البقرة، وانظر الآية ٢٢ سورة الرعد، والآيات ١٣٠-١٣٢ سورة طه، والآية ١٧ سورة لقمان.

﴿وَلَــوْ شَــاء رَبُّــكَ لَجَعَــلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِــمَ رَبُّــكَ وَلِــذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٨)

ويمضي الخطاب أن قد سلف ذلك بالحق، ولو شاء ربّه في تدبيره لأمر الإنسان لجعل الناس كلهم أمة واحدة بأن يطبعهم جبراً على الأيمان كأشياء الكون المطبوعة، ولكـــن فطـــرهم على بوح المشيئة في سياق قدره فيهم استخلافاً في الأرض وابتلاءً بالهـــبوط فيها من الغيب إلى فتن الحياة الدنيا وتذكيراً فيها بالحق بسطاً لآيات فيها مـــشهودة ووحـــياً لآيات هدىً منه متلوّة، ولكن كلٌ ذهب على خياره ولا يزالون مختلفين لا يستقيمون على عبادة الله وتقواه أمةً واحدة، إلا من رحم الله – المخاطب بـــه الرّســـول ربُّه –وهداهم إلى الإيمان والصلاح والموالاة جماعة تؤم إلى الحق معاً. ولـــذلك الابتلاء ليتمايزوا وليختلفوا في الدنيا كسباً حراً خلقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعبده منهم مـــن اخـــتار مخلـــصاً بمشيئته ولو أعرض الأكثرون، وتمت كلمة الله – المخاطب به الرسول ربّه – إذ كان يعلم ذلك سلفاً في الأزل، لكن خلقهم ومدّ لهم الحياة الدنيا ليـــبين واقعاً حظ كسب الناس من تكليف العبادة بطلاقة المشيئة، وهو أن أكثرهم كافـــر ذاهب بغير إيمان ولا صلاح، فحقّ فيهم وعيد الله في نفسه ليملأن جهنم من الجـــنة والناس أجمعين إذ المعرضون منهم كثير، وإنما كانت الحياة الدنيا إيقاعاً لذلك المـــسير والمصير ليعلمه الله واقعاً بعد الغيب وليحقّ الحقّ حتّى في علم الناس شهادة علـــيهم من حاصل كسبهم تنطق به جوارحهم وتقوم به الأشهاد بما يصدّق علم الله الأوّل.

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٩)

والخطـــاب يستمر للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن كلّ نبأ يقصّه عليه الله بأقدار علمه ووحيه من أنـــباء الرســـل، كُلاًّ هو ما يثبّت به الله في ملئه الأعلى فؤاده ألا يتزلزل من ابتلاءات الدعـــوة مجـــادلات ومجاهدات للمعرضين، وبعد الوصية بالاستقامة وبالصّلاة والصّبر، وأن قد جاءه في هذه الأنباء الحقّ الصّادق من واقعات سلفت فعلاً مثالاً له خالفاً على

نهج الرسالة، وموعظة وذكرى للمؤمنين من اتّقاء خلق الأولين من الأقوام إلا الاعتبار بالبقية المؤمنة الصالحة الناهية عن الفساد في الأرض.[1]

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ (١٢٠)

وكذلك الوصية للرسول ﷺ أن يَمضي في دعوته قائلاً للذين لا يؤمنون – مهما تعظهم ذكرى سالفة الأقوام – إن الخيار لمشيئتهم، فليعملوا على مكانتهم التي اختاروها في طرائق الحياة، وليعلموا من المؤمنين أنهم هم عاملون على مكانتهم أيضاً لا يركنون إليهم، بل يخلصون العبادة لله صابرين.[2]

﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ (١٢١)

وليُتم الرسول لهم خطاب الدعوة إذا عملوا على مكانتهم أولئك الذين لا يؤمنون: لينتظروا، ولو اطمأنوا لدنياهم وغرّهم مدّ المتاع وظنوا أنهم آمنون، وليعلموا من المؤمنين أنهم هم ينتظرون تأويل وعد ربّهم لهم يصدّقونه في عاجل الدنيا نصيباً من رحمته وبركةً ونصراً، وفي آجل الآخرة حظاً خيراً وأبقى.

﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢)

وتنختم السورة بتمام الخطاب للرسول حقائق مضافة: ولله غيب السماوات والأرض، يعلم حق القائم وقدر المصير كله في شأن تلك المخلوقات وما بينها ممّا لّما يأت تأويله مشهوداً، وإليه ﷻ وحده يرجع الأمر كلّه: تصريف مصير الهدى أو الضلال والنجاة أو الهلاك يعود إلى قدره وعلمه في الدنيا، وإلى لقائه في الآخرة يرجع أمر الناس جميعاً – منه أمر الأجل لنفحة موت ثم عاقبة مبعث ومحشر شامل، وإليه مآل

(١) في الناس أمة واحدة يختلفون بأهوائهم إلا من رحم الله بالهدى – راجع الآية ٢١٣ سورة البقرة، والآية ٤٨ سورة المائدة، والآية ١٩ سورة يونس، وانظر الآية ٩٣ سورة النحل. ولو شاء الله لجعل الناس أمّة واحدة قدراً ولكن يخيّرهم ليبتليهم – انظر الآية ٨ سورة الشورى، والآيات ٣٣-٣٥سورة الزخرف. والمهتدون العابدون المتّقون الله هم برحمته أمة واحدة – انظر الآية ٩٢ سورة الأنبياء، والآية ٥٢ سورة المؤمنون.

(٢) في قصص الرسالات الأولى ذكرى وتثبيتاً للحق في النفوس وموعظة للمخاطبين – راجع الآية ٤٩ من ذات السورة، والآية ٣٤ سورة الأنعام، وانظر الآية ١١١ سورة يوسف.

الحـــساب والقضاء وعنده مأوى الجّزاء. ولذلك ليعبدْه النبيّ المخاطب مستقيماً ذاكراً صـــابراً كما أُمر أو كما يدعو الناس ألا يعبدوا إلا إيّاه. وليتوكل عليه ﷻ بحق اليقين وكما توالت عليه العبرة والتذكرة بسلف الصالحين، وما الذي يُخاطب به ربّاً له بغافل عمّـــا يعملون - أولئك المُعرضون الذين لا يؤمنون حوله، أو ما تعملون (قراءةً بالتاء) الـــتفاتاً إلى المخاطـــبين بالوحي جميعاً من آمن ومن كفر، إنه رقيب حسيب يصرّف سيرهم ويوفي لكل أعمالهم.[1]

عموم المعاني: (الآيات ١٠٠ - ١٢٢):

كان الرسول الذي تلقّى القرآن ليتلوه على أمة الخطاب يتخلل في سياق قصص الأنبياء تذكيرُه مباشرة، يخاطب حيناً بذكر الله رباً له أو يلتفت إليه الخطاب كله حيناً يهديــه لما يناسب المساق. وفي ختام السورة تمام ذكرها، ولذلك يتوجّه كل الخطاب إلـــيه ليتدبّـــر كل ما سلف ذكره من أنباء القرى الهالكة التي بعضها منه أثرٌ قائم يُرى وبعضها أصبحت حصيداً مندثراً. وكذلك السورة الخالدة تخاطب خَلَفه من الدعاة أو رواد البعث أو النهضة للإسلام المتجدد. وذلك المصير المسنون وقعاً على القرى لم يبق مـــنها بعده حيّ خالف إلا من آمن فخرج ونجا أمر قضته أقدار الله، وما ظلم أقوامها فقـــد أُنـــزل عليهم الهدى وبلغهم النذير، وإنما ظلموا أنفسهم إذ أعرضوا عن الهدى وغفلـــوا عـــن النذيـــر أو كذّبوه، وكانوا يكلون تسيير أقدار حياتهم على آلهتهم التي يدّعـــون من دون الله، فلما جاء أمر الله ذاك ما أغنت عنهم آلهتهم تلك من شيء، بل زادتهم تتبيراً بما جرّ عليهم الشرك بها من جرائر يحق عليهم بها مزيد. وكذلك سنة الله إذا أخـــذ القـــرى وهي ظالمة، إن أخذه شديد الأذى أليم الوقع. ولئن بيّن القرآن أمر تلـــك القـــرى التي كانت منتشرة في منطقة رسالات الوحي المتنـــزّل الموصول ذكرُه

(١) في حكـــم الله أن يعمل كل من الناس على شاكلته وينتظر العاقبة التي تليه - راجع الآية ٩٣ مـــن ذات الـــسورة، والآية ١٣٩ سورة البقرة، والآية ١٣٥ سورة الأنعام، وانظر الآية ٨٤ ســـورة الإســـراء، والآيـــة ٥٥ سورة القصص، والآية ٣٩ سورة الزمر، والآية ١٥ سورة الشورى.

المتواصـــل هديـــه حتى ختام الرسالات، فإنها سنة، على كل حامل لأمانة الدين عالماً وعـــارض لهديـــه داعياً أن يتحرّى فضلاً عما في القرآن وقياساً على نهجه سائر تاريخ مجـــتمعات الأرض وحضاراتها من الآثار الباقية ومن روايات منقولة سمعاً وكتابة ليرى ســـير الأقـــوام والقرون من حيث هدى الدين عبرةً بالمواقف وعظةً بالمصائر للمهتدين والضالّين. ذلك أن الدين قد لازم الإنسان منذ هبوط آدم من الغيب والجنّة، وينبغي أن يلازم سيرته الناظرون سماعاً وبصيرة.

وفي بـــيان تلك المصائر الرهيبة العاجلة في الدنيا آية لمن آمن وخاف يوم الآخرة، وقـــد ســـبق بـــه النذير فهو يوم الدين الآجل وعذابه هو الأشد والأخلد. فذلك يوم مجمـــوع له الناس لا محيص عنه مشهود كلهم محضرون، ومهما يستعجله بعض الناس ارتياباً من وعده لا يؤخره الله إلا لأجل معدود يسمّيه. ويوم يأتي ذلك اليوم يشتد فيه الحساب وتُعرض كتب الأعمال ويُجاء بالشهود لا تكلّم نفس مسئولة لتنكّر أو تعتذر ولا نفـــس لتـــشفع لأخرى إلا بإذن الله. والناس يأتون فرادى لكنهم جماعةً يتمايزون يومـــئذٍ فريقين كما تمايزوا في الدنيا ظالماً هالكاً ومؤمناً ناجياً كلٌ في جماعته وفريقه. الـــناس يومـــئذٍ وفـــاق سابقتهم في الدنيا منهم شقيٌ وسعيد. فالأشقياء الذين قدّموا مقولات كفرهم ادّعاءات ومجادلات وافتراءات باطلة هم في النار لهم فيها جزاءً كفاءً زفـــيرٌ وشـــهيق خالـــدين فيها ما دامت السماوات والأرض. وهذه مخلوقات ثوابت يتخذها المخاطَب مثلاً للخلود، ولكن ذلك إلا أن يشاء الله فهي في الآخرة بمشيئة الله وقـــدره تتبدّل إذ يكون الزمان أزلاً والمكان عرضاً بوجوه مطلقة غير معلومة للإنسان وإدراكاتـــه المحدودة نسبةً لها في الدنيا. والله في الآخرة عزيز حكيم فعّال لما يريد يفعل بعـــباده الظـــالمين أمر قضاء في إطار مشيئته المحيطة المطلقة. وأما السعداء فهم في الجنة نعـــيماً حسناً ومأوى طيباً للسلام والأنس كالجنان في الأرض لكن خيراً وأبقى إذ هم خالدون فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء الله عطاء غير مجذوذ كما ينقطع عطـــاء جـــنّات الدنـــيا. ولأن مفهوم الغيب غشيته غفلة في هذا العالم المعاصر الذي تكـــثّفت فيه المادة المشهودة وكثرت التعلّقات والمبتغيات الشاغلة، واتسع علم ظاهر الطبـــيعة اللاّهـــي عنه آيةً لما وراءه – أصبح ذكر الآخرة لا يخطر حتى لوعي كثير من

المـــسلمين إلا لمامـــاً وقـــد يرد كلمة ملفوظة. وغالب الناس سواهم بين غافل وكافر بالآخرة. لكن دوافع الجزاء فيها وحوافزه رغائب وضوابطه ونُذُره رهائب بالغة الوقع لأنها تستصحب رقابة الله المحيطة وحسابه الدقيق لموازين كسب الناس ذرّات أعمال أو كبائر فهي تثمر من صالح العمل والكسب أضعاف التعويل على حوافز المادة المباشرة في الدنـــيا على الصالحات ومصادّها للسيئات، وعلى ضوابط الأحكام والأعراف بين الـــناس وعقـــوباتها ومكافآتها الحاضرة، ولذلك إن دعاة الدين وأهله ينبغي أن يكثفوا التذكّـــر والتذكير بالآخرة دار الجزاء ومشاهدها ومواقعها ليحدث ذلك أثراً فعالاً في هدى الدين إيماناً بالغيب وتزوداً برصيد وافٍ من كتاب الحسنات دون تفريط وتقوى السيئات دون إفراط.

والخطـــاب في الـــسورة يتصوّب هنا إلى الرسول ﷺ وهو بين أصحاب الجاهلية وأهـــل الكـــتاب. أما الجاهليون فالحق ألا يكون في ريب من أمرهم، فهو بيّن إذ لم يتفكروا فيما حولهم من مشهودات الكون آيات، ولم يبلغهم علم من كتاب منـــزل، بـــل رهنـــتهم التقالـــيد العمـــياء، لا يترقّون بالعبادة خالصة إلى الله ربهم الأعلى ولا يـــوحّدونه، بـــل يعبدون كما كان يعبد آباؤهم رجعاً مقلداً ولا يمدّون نظرهم ماضياً متدبّـــراً ليعتبروا، ولا يبسطونه حاضراً عالماً ليعمروا حياتهم استقامةً وصلاحاً مستقبلاً حـــتى منتهـــى الدهر ليعدوا لهم خطةً وزاداً رجاءً وخوفاً. والله بأقدار حسابهم على كسب حياتهم الجامدة الضالّة القاهرة يوفيهم نصيبهم من الجزاء غير منقوص. أمّا أهل الكتاب فقد أوتي موسى الكتاب ولكن خَلَفه – كما كان حاضراً في عهد النبوة ومن بعد – اختلفوا في نصّه نسياناً أو تحريفاً أو تأويلاً، واختلفوا في ممارسة هديه في حياتهم فمـــثلوه فكراً بمذاهب شتّى واقعاً بوجوه متباينة وملّة بطوائف متخالفة، ولولا كلمة ســـبقت مـــن الله أن الحـــساب منظور إلى يوم القيامة لقُضي بينهم وبان موقع الحق والـــباطل، وهـــم من في شك مريب بوقع المشاكسة في كتاب لهم لم يُحفظ قولاً ولا فعـــلاً. وإن كـــل شيعة أو طائفة منهم كافّة ليوفينّهم الله يوم القيامة أعمالهم حسب صـــدق اجـــتهادهم في الرأي أو ضلالهم بنـــزع الهوى، وحسب كسبهم في تطبيق الكـــتاب في الحياة إتّباعاً أو زيفاً، والله حقاً خبير بظاهرهم وما بالنفوس. وذلك هدى

للداعي إلى القرآن اليوم، فلينظر في أحوال بعض المجتمعات التي لم تتقدّم حُسناً أو سوءاً بــل هي مرهونة بالتقاليد والأعراف الناشئة من جهالة بالدين ركاماً من عبادات الآلهة المتفرقة أو المبسوطة في كل الأشياء المشهودة أو تعبّدات للمتاع الدنيوي، ألاّ يكون في مرية منهم أنهم على باطل لا يقدّمهم في الدنيا ومبتغياتها الحاضرة، وأنهم يوم وفّاهم الله نصيبهم من الجزاء كفاء عملهم هم الأخسرون. وكذلك مع أهل الكتاب، لاسيما إذا مــضى العــالم المــؤمن يدرس اختلافهم وارتيابهم في الكتاب المقدّس عندهم وكيف تــشقّقوا من ثم شيعاً وطوائف متفرقة جمدت وغمرت بأهوائها وحدة الحق الأصل في كتابهم. والعظة أن ذلك – وأمراض الدين الكتابــي متماثلة – مما تعرّض له المسلمون حملة الكتاب الخاتم المهيمن الحقّ المحفوظ. ما غدوا أمة واحدة فقد اختلفوا فيه مذاهب تفــسير وتأويــل كان ينبغي لو كانت مسالك اجتهاد أن يتكامل هديها، وأهل باطن يــتأوّلون المعــاني حــتى تتوه وتفارق الحروف والكلم البيّنة في الكتاب، وأهل ظاهر يتنطعون يجرّدون الكلم من سياقها في النص وفي وقع تنــزيلها، وكان ينبغي أن يعتدل بيــنهم الميزان في فقه الكتاب، ولا عجب إن اختلفوا شيعاً كلٌ يدّعي سنده أصلاً في القرآن، وربما يرمي الآخر أنه ليس على شيء، وقد بلغ الأمر ببعض ورثة الأمة المسلمة أن ارتابــوا بالقرآن جملة وطعنوا في حقه أو حفظه أو بدّلوه تبديلاً. ذلك همّ ينبغي أن يُعنى به الدعاة أمّا حسابه آجلاً فيوفّيه الله.

فالهــدى للرسول الإمام القدوة أن يستقيم بحياته مهدياً بأمر الكتاب الذي أُوحي إلــيه لا بالعرف الآمر من سلفه ولا برعاية أهل كتاب، وأن يستقيم معه أو مثله بَعداً كل من ثاب من ضلال مهتدياً بالقرآن ولسنة الرسول التي مثّلت القرآن واقعاً. الإمام ومــن معه جماعة متّحدة مستقيمة لا مختلفة مضطربة الرؤى متشاكسة السير، وعليهم ألاّ يــركنوا إلى الــذين ظلمــوا قوىً جاهلية المذهب أو كتابية قديمة أو مسلمة ظالمة فتمــسّهم النار إذا زاغوا مع الظالمين وراء حدود الهدى وتنازعوا السّبل فتفرقت بهم، وما لهم من دون الله أولياء ناصرين آلهةً موهومة في أصنام أو مقدسات في قبور وآثار، ولا قــيادة متــزعّمة أمر الدين مفترية تفيقهاً أو ترهبناً منسوبة روحاً لله أولياء يُزلقون عامــة المؤمــنين إلــيه دعوى. والهدى للرسول الإمام وكذلك كل خَلَف تابع لسنّته

وقدوته أن يقيم الصلاة متوالية عبر حياته طرفي النهار وزلفاً من الليل فرضاً ونفلاً صلة بالله إذ يتوجّه المُصلي إلى القبلة رمزاً للاستقامة المتصوّبة لوجه الله لا يلتفت إلى صارفات ولواه من الدنيا، وصلة بالقرآن إذ يتلو ما يتيسّر من آياته البيّنات أو يسمعها في سكون وإنصات، وصلةً بالرسول إن كان المصلي ممن معه أو من الخَلَف لأن سنته مثالُ الصلاة المقتدى به، وصلةً بالمؤمنين لأنهم يستقيمون صفّاً مرصوصاً منظوم الإمامة والاتّباع، وكل شعور فيها ذكر لله ولهذه الصلات، تعبر عنه وتزكّيه كل حركة أو كلمة: استقامة أو صفاً أو ركوعاً أو سجوداً أو قياماً أو جلوساً أو تسبيحاً أو تكبيراً أو دعاءً أو تحيةً أو سلاماً. ذلك ذكرى للذاكرين الذين يقيمون الصلاة – لا صور حركات غافلة ولا كلمات ذكر لاغية راتبة ولا باطناً فارغاً من وعي – بل ذكراً داعياً لله وخشوعاً وتزوّداً بلقائه في الصلاة لذكره والتزام سنن هديه في سائر الحياة إذا قضيت الصلاة ثم للقائه في الآخرة. والصلاة تزكية للإيمان الذي هو عماد الصبر المتوكل. والأمر بالصبر للداعية الأول الرسول ولمن هو داعية على سنته ثبات في وجه ابتلاءات المجاهدات والإعراض والأذى لاسيما أول طريق الدعوة المتجددة، هو خُلق لازم للاطمئنان مهما تطاولت المصابرة وتأخر في احتساب المؤمن مبلغ المقصد المنشود، لأن الله لا يضيع أجر المحسنين، يوفيهم خيراً في الدنيا من حيث لا يحتسبون لأجل خير مما يظنون ويحفظ لهم في الآخرة ما هو أفضل وأبقى، فالصبر إحسان لا يضيع عند الله.

لقد تقارنت أقوام في حينها وتعاقِبها قصّ القرآن قصصها في شأن الدين الحق. والترجّي في مساعي هذا الدين أن يكون من تلك القرون السالفة أولو بقية من الدين وحظ ثابت صابر على كل المجاهدات لينهوا عن الفساد في الأرض في سبيل الإصلاح المتصل الأثر خلفاً، لكن النبأ الحق أن تلك الأقوام ذهبت وهلكت بغير ضئيل أثر خالف من الدين إلا بقيّة ممّن آمن وجاهد وصبر فنجّته أقدار رحمة الله، واتّبع الذين ظلموا من ملئهم ما أترفوا فيه من متاع الحياة وكانوا مجرمين يطغون على السواد الأعظم وفي الحياة. وما كان ربّ المؤمنين الخالفين لتلك التجارب الواعظة ليُهلك تلك القرى وأهلها مصلحون، بل كانوا يعيثون في الأرض فساداً، ولو شاء الله لجعل الناس

أمة واحدة مجبرة على الإيمان والطاعة كأشياء الطبيعة السّاجدة معاً لأحكام الله، ولكن شـــاء تعالى أن يكرم الإنسان ويذر له مدىً من أمره، إن شاء اختار الهدى الحق وأمر بالإصلاح ليُجزي خيراً، وإن شاء ذهب في بلاء الدنيا ضلالاً وإفساداً، ولا يزال الناس مخـــتلفين أكثرُهم غاوون كلٌ على هواه نازعاً ومبتغاه منافساً في الدنيا إلا من رحم الله من المهتدين إلى الله تعالى مرجعاً لكل أمرهم، المسلمين حياتهم جميعاً لوجهه ملّةً واحدة يـــردّون كـــل نـــزع خلاف إلى كتابه وشرعه وحده يتوالون متعاونين صفاً واحداً. ولـــذلك خلـــق الله الناس يبتليهم ويأمرهم بالعبادة ويكلّفهم بالإصلاح ليتبيّن العابد الـــصالح من العاصي المفسد، ولئن تكاثر المجرمون وحق عليهم العذاب تكون قد تمّت كلمـــة الله السابقة منذ الأزل ليملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين – كان الله يعلم حـــق ذلـــك غيباً ولكن أخّر إحقاقه حتى يقع منهم ما يُحقّه ليعلمه هو واقعاً، وليقوم ذلـــك شـــهادة عليهم هم أنهم ظلموا إذ عدلوا عن الحق ما استقاموا عليه وأترفوا ما اقتصدوا وما ظُلموا لأن الله بلّغهم من قبلُ الهدى والنذير.

وكـــل واحد من نبأ رسول إنما قصه القرآن رسالة للرسول الخاتم متلقيه وحامله هـــدى للحـــياة والقدوة لمن يتلقّى منه ويهتدي خلفاً، وكان ذلك لتَبلغ ذلك الرسول مُثلات وأسوات وعبر من نهج الرسل السّالفين ومن تبعهم استقامةً وصلاةً وصبراً حتى يطمـــئن فؤاده هو الداعية القدوة الإمام الأول ويتثبّت بالإيمان محصوناً من كل ما قد يغـــشاه من معاناة المجاهدة وريب المعرضين وتطاول المصابرة، وجاءته الأنباء في القرآن حقـــاً لا يُـــريبه مـــا يظنّه المعرضون من افتراء، بل يخرج به على الناس يحكي الحقائق والعِظات، أما سائر المؤمنين بحق القرآن، فتلك الأنباء موعظة لهم بسير القُدى السالفين وبمصائر الضالّين وأيامهم – ذكرى لهم حتى لا يغفلوا عن سنن الله ولا يسلكوا طريق الهدى بلا مثال مذكور.

إن الله بسط الخيار لمشيئة عباده بني الإنسان في الدين ثم في التعبير عنه منهج عمل في الحـــياة، ذلك وإن اختلف الناس كلٌ ذاهب أنّى شاء عامل على شاكلته، فالداعية المـــبلّغ مـــن هدى القرآن أن العبد المؤمن ما يكون له من خير إلا أن يعبد الله ويطيع تكالـــيف شـــرعه المنـــزل ينبغي أن يحفظ بينه وبين سائر الناس من ذات الهدى حقَّ

الخـــيار الحرّ الذي جعله لهم الله. ذلك مهما يحمى الجدال ويشتدّ التسابق على انتشار الحـــق فيكثر الذين يقبلون وينتمون إلى صفّه المتوالي ويظهر بهم على المذاهب كافة أو يقلّـــون ويـــبدوا أنه ما انفكّ غريباً لما ترح دعوته. فالحرية أصل في الإيمان ليقع طوعاً خالـــصاً صـــادقاً ويتجلّى عملاً صالحاً، وهي أصل المسئولية بعد الابتلاء لئلا يسقط للمؤمـــنين كـــسبٌ مخلص من تلقاء أنفسهم لا يستحق أجراً لأنه جرى بأيديهم طبعاً وجـــبراً، ولا تقوم للكافرين حجّة لأنهم أُكرهوا طبعاً لا يحقّ عليهم عن الكفر عقاب. ولـــذلك لا بدّ أن يرفع الدعاة قول القرآن للذين لا يؤمنون أن اذهبوا أحراراً فاعملوا علـــى مكانتكم التي اخترتموها في مناهج الحياة البوح، وليرعوا هم أن المؤمنين كذلك يذهـــبون ويعملون كما يشاءون، لا يُكره ولا يفتن أحد إلا جدالاً بالتي هي أحسن، فمـــن عصا حدّ الله في ذلك فاستبدّ وجار على الحرية وظلم فعندئذ للمؤمنين المجاهدة خـــياراً أو فرضاً لئلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله لا لأحدٍ مستكبر دونه. ولكلٍ رؤيته في مستقبل المسير المتوازي: من يزهقُ مذهبه الذي اختار باطلاً؟ومن يظهرُ خياره حقـــاً غالباً؟ ولينظرْ كلٌ إلى المصائر: كيف تتجلّى؟ويراقبْ التطورات نحوها شاهدة له أو علـــيه. وفي إطار مجال الخيار يظلّ المؤمنون يذكّرون غيرهم بنُذُر الغيب التي يحملها وعـــد الله الصادق في الآخرة وبعظات سابق السير في الدنيا التي يرويها القرآن شاهدةً لحـــسن عاقبة المؤمنين منذرةً لغيرهم بسوء العواقب، فإن مضى غير المؤمنين مطمئنين راضـــين بسعيهم في الحياة سادرين، فالمؤمنون ينتظرون النُّذُر على أولئك والبشائر لهم بكلمـــة الله النافذة متى حقّت، ولو صابروا هم مدىً طويلاً متوكلين على الله مصرّف الأقـــدار ومـــسمّى الآجـــال. والناس في الأرض يختلفون، وقد كان الغالب قديماً أن الانـــتماء لـــدين فـــيه غيب ليس خياراً عن تفكّر في آيات الغيب، بل يُؤخذ معروفاً مـــوروثاً، الخالفـــون يتّـــبعونه تلقاءً ولو كارهين، ولذلك غلبت روح العصبية الدّينية ودعت لكثير من الاضطهاد والفتن والحروب همّاً أن يُسحق المخالفون بشاذ أو جديد أو يُدرجـــوا إن استسلموا في منظوم الدين السائد. لكن تلك التجارب المريرة هدت كـــثيراً من الناس في العالم إلى بسط الحرية الدينية وإباحة الخلاف مجادلة في لطف بغير عـــنف مُكـــرِه. والقرآن قد هدى إلى ذلك قديماً وما يزال هديه أفعل وقعاً في الحياة،

لاسيما إذا أَزِم الخلاف، لأنه يترك الحرية مطلقة لا يعوقها بحكم السلطان ضبط قضاء أو أمـــر نافـــذ، ويرعاها كذلك خُلُقاً أن يتراضى مختلف الناس تعايشاً بسماحة وخلق مبارّة وتعامل عدل وسواء وتحاكم قسط وحواراً بالحسنى تجتهد فيه الدعوة المؤمنة ألا ينغلق غيرُ المؤمنين ويجمدوا في معهودهم القديم.

إن تـــدبير مـــسير الكون وتصريف مصائر الإنسان وتقدير آجال وقوع المحذور والمرجو والذي لم يكن في الحسبان - كلّه غيب وعلّمه لله، له تعالى غيب السماوات والأرض: إلامَ يذرها قائمةً منظومة كما هو مشهود وما وراءه؟ والإنسان كيف تحيط بـــه ظروف البلاء المكتوب بينما يحي حراً في خياره؟وله تعالى غيباً متى شاء أن يبدّل الكـــون المشهود تبديلاً ويبعث موتى الإنسان من جديد ويصبح الزمان أزلاً والمكان عرضـــاً مطلقـــاً في محـــيطٍ آخر حياةً أخرى للإنسان. فإليه تعالى مرجع الأمر كلّه في الدنـــيا - حفظ السماوات والأرض والإنسان وإطار بلائه وبسط هداه ثم إليه المرجع عـــند التبدّل وبعث الإنسان وحياته الأخرى لأجل مسمى. وإنما على الدعاة المؤمنين بـــذلك الغيب كله أن يستقيموا بحياتهم يعبدون الله العليم الحكيم ويتوكلوا عليه هادياً للـــتي هـــي أقوم ويتّقوه ويبتغوا منه التوفيق في مسعى خيارهم المستقيم ما لزموا سبيل الحقّ الذي به أمر. ومهما يضطّرب بعض الناس غيرَ مؤمنين، فما ربّ أولئك المهتدين بغافـــلٍ عمّا يعمل هؤلاء، يتمادون في الضّلال أم يتوبون ويَفتنون المؤمنين الصابرين أم يـــسكنون، فالله يدفع المؤمنين أيداً ويدافع عنهم نصراً ويحيط بالذين لا يؤمنون يكتب أعمالهم ويعاجلهم فيأخذهم بما يشاء أو يُملي لهم ويذرهم إلى الآخرة حيث يُقضي بين الناس بالحقّ ويساقون إلى مأوى الخلود الحاقّ عليهم شقاءً أو سعداً.

سورة يوسف

خلاصة هدي السورة:

ســـورة 'يوسف' سورة نـــزلت في واقعات الحياة في أواخر العهد المكّي لرسالة الإسلام، وكانت في ترتيب تنـــزل القرآن بعد سورة هود وقبل سورة الحجر – أرض صالح، ووضعت في ترتيب سور الكتاب الثانية عشر في وسط سور طوال عن الرّسل. وجـــاء اسمهـــا منسوباً لاسم الرسول يوسف عليه السلام لأن تسعة أعشار آياتها حول قصة ســـيرته، اقتصرت عليها إلا ذكراً عارضاً لسائر الرسل، وكذلك اقتصر ذكر سيرته في القـــرآن عليها إلا ذكراً عارضاً له من بين ذرّية نوح في سورة الأنعام وفي آية خطاب إلى قـــوم فـــرعون لعهد موسى في سورة غافر. وما خلصت سورة من ذوات الآيات المـــئين لقـــصّة رســـول واحد بل كان الرسل تُذكر قصصهم تباعاً في سور أو تعود قصصهم بوجوه منها أو بأوزاع منها في سُور مختلفة، ولكن قصّة يوسف اجتمعت في هذه السّورة وحدها. ذلك أن سيرة سائر الرسل كانت أنماطاً وقدىً من سيرة الدعوة لـــدين التوحيد أو لمقتضاه في عموم الحياة، وكانت الدعوة تخاطب مَن حول الرسول من قومه كافّة، وكانت الابتلاءات تغشى الرسول وتضم بوقعها مَن حوله من المؤمنين ولـــو في قلّـــة، وكانت حملات المجادلة والفتنة أو المقاتلة تستهدف الرسول ومَن اتّبعه جمـــيعاً ليصابروا فينجوا من هلاك قومهم الكافرين أو ليهاجروا ثم يجاهدوا معارضة ثم خلافـــة لهم متمكنين في الأرض مؤمنين، وكانت مقولات الجدال تثير أصول مسائل الغـــيب – إيماناً بوحدانية الله معبوداً أو بما يُشرك به من دونه وبالآخرة أو إنكارها، أو

تمـــسّ قـــضايا في محور مترتب على ذلك من المسلك والخلق العام لحياة الناس من قوم الخطـــاب. أما في سورة يوسف فقد كانت القصة رواية اعتبار من سيرة شخص ذلك الرســـول، مبـــتدؤها ومآلهـــا في رؤية رآها أن الأفلاك تسجد له هو، وهو على ملّة التوحـــيد لكن دعوته إليها كانت حيث حضرته خلوة السجن مع صاحبين له ثم بين أهلـــه، لا علـــى قوم مصر عامّة وإن كان مقتضى هديها يتجلّى في كل خلفه حيثما كـــان. والابتلاءات انصبّت عليه هو وصدرت ممن حوله إخواناً أو أهل بيت آواه أو سجناً في شأن يعنيه، وقد صابر على البلاءات دون جهاد أو قتال. ولئن تمكّن يوسف في ولايـــة ســـلطان فما كان ذلك له ولجماعة المؤمنين معه في أرضٍ تمكّن منها كافّة، وإنمـــا تبوّأ فيها كذلك بنفسه وفي واحدة من وظائف السلطان بنهجٍ منه مهدي بأمانة الدين يباشر فيها تكليف خدمة لأمر عام بهمٍّ ديني هو تخطيط زرع غذاء الناس وحفظ إحـــصانه واقتـــصاد أكله وماعون منه لمن أصابهم الضّر، أما سائر مجال سلطان الملك وحكمه فكان في شأن آخر، ليس بسطاً لشرع الله في الحياة العامة كلّها. وكان حسن الخاتمـــة لمصابرات يوسف وأبيه توبة من إخوانه جامعة لصف الأسرة وهجرة إلى مصر آوَت أهلـــه ولربّما كانت ليوسف رسالة دعوة للدّين بالبيّنات من بعد في مصر ولكنه مات دون أن تنتشر أو تُحدث فتنة عامّة.

فالـــسورة تركيز على سيرة يوسف الخاصّة مثالاً للمؤمن الصالح الصابر الداعي المحـــسن، ووسعت كل سيرته إلا قليلاً من آخرها و لم تقتصر كسور أخرى على بعض مـــراحل ســـيرة رسول. فيوسف ابتُلي في بيتِ أبيه صغيراً إذ خصّه أبوه برعاية بينما أحاطـــه إخـــوته بمكـــر غيّبه عن أهله، وكانت خاتمة ذلك البلاء تعافياً بينهم وتآخياً وملتقى في أرض واحدة. وابتُلي يوسف في بيت عزيز في مصر آواه، إذ همّت به امرأة العزيـــز ثم تـــداعت عليه معها نساء. ولكن ذلك البلاء بعد حرج وكيد وسجن ظالم انتهـــى إلى بـــراءة له مشهودة منهن جميعاً توبةً إلى الصدق. ولئن ابتُلي بذلك السجن بضع سنين وآيات طهره بادية فقد خرج أخيراً لا إلى براءة وفرج وحسب بل إلى عز وولاية. وابتُلي في تلك الولاية بالمال والمحصول العام، ولكنه حفظه بعلم وبسطه بأمانة وكـــرم وحـــبّ خير لذوي الحاجة، وكانت العاقبة إيواء أهله أجمعين في مهجر سعة

ومــتاع. ومنذ متربّاه صغيراً كان بيته متزكّى له موحّداً لربّه مخلصاً حتى انتهى أمره في خواتيم السورة غير مفتون بديوان سلطة بل حامداً لربّه مولاه الأعلى سائلاً أن يتوفّاه مسلماً ويلحقه بالصالحين.

والــسورة تذكــر من أنباء الغيب بعضاً من قصة يوسف عليه السلام وإخوته قصصاً حــسناً تبين به معالم سيرة مهديّة بالصبر على البلاء والأمانة والإحسان وتتجلّى العبر للخــالفين. ولم تفــرط الــسيرة في سرد قصة ممتد يحكي كل صور وقائعها المتتابعة ويسلسل أسبابها المفصّلة ويروي الأقوال إفاضة بكل عفو مداولاتها وفروع مجاريها، لا كمــا تُحكــي وتــروي كذلك غالب قصص البشر للتاريخ ولا كما قصّت التوراة بــرواياتها المنقولة حول يوسف، لأن ذلك سرد بشري للمشهودات قاصر عن إدراك بواطن الظواهر لاسيما مشاعر الوجدان التي تدفع أفعال المذكورين في القصص وتخفى وراء أقــوالهم والتي بها ينسلك حقاً مجرى الحياة الذي يوصف، ولأنه وُسع قصّ البشر لــسيرة تاريخ دون بالغ علم ولا كثير همّ بأقدار الله المحيطة المنظومة التي سيّرتها وقعاً لحركة تديّن تدبر مجراها وظروفها تلك القوى الغيبية لتسوقها إلى عواقب من أمر الله، وكــثيراً مــا يأتي معتاد القصص بين الناس خوضاً في ماضٍ دون كثير تذكير بالمغازي الباقــية لأنها لا تُروى كقصص القرآن أحسن القصص الذي يوحى تذكرةً بآيات الله وموعظةً وعبرةً خالدة لأُولي الألباب الخالفين.

وأول السّورة حروف من بنية كلام القرآن الكتاب العربــي، تخرجه بلسان أمّة الخطاب العربية، لكن ذلك القرآن يخاطبهم بأسلوب يتبيّن لهم أنه ليس من كلام بشر إذ يعجــزون عن تقليده، بينما يتبيّنون من أصول كلماته مدلولات آياته خطاباً مبيناً. ذلــك كلــه لعلّهم يعقلون فيجمعون معانيه الهوادي في وجدانهم فتستقر فيه شعاب الإيمــان الــتي تعقل فتضبط الأهواء. ثم تنفتح بعد ذكر الكتاب السورة تقصّ أحسن القــصص الذي يجئ به القرآن وحياً من عند الله – الذي يذكر بصيغة الجمع لعظمته بأقــداره الجلــيلة – يخاطب الرسول ﷺ ويذكّره بأنه كان قبلاً من الغافلين عن تلك الأنــباء يتلقّاها بأوّل وحي إليه ليبلّغها إلى سائر أمّته الغافلة عنها وإلى العالمين بما تدلّ إلــيه عــبرها من هدى الله. وتمضي السّورة نحو ختامها أيضاً تذكر القرآن الذي قصّ

القــصص، أنــه بذلك من أنباء الغيب يُوحى إلى الرسول الخاتم المخاطب، ولئن كان الرســول غــافلاً لا يتبيّن حتى أصول معالم القصّة فإنه أيضاً ما كان واقفاً على طوايا أسرارها فما كان لدى إخوة يوسف إذ تناجوا ليجمعوا على مكرهم به، وهو رسول يــبلّغ الكتاب حريصاً أن يؤمن به الناس لا يسألهم هم عليه أجراً يتكلّفونه لأنه ما هو إلا ذكر للعالمين وإنما كفاء بلاغه أجر له عند ربهم أجمعين. وتنختم السورة بآية تذكر القــرآن يقصّ قصّة يوسف عليه السلام وقصص سائر الأنبياء عبرة لأولي الألباب، وما كان حديثاً يفترى من تلقاء رسول البلاغ بل هو وحي منــزل مثل الكتب السّابقة يصدقها ويفــصّل كــل شيء ممّا لا يحيط به علماً وحكمة إلا الله – هدىً في كل الحياة على سبيله ورحمة كتبها على نفسه للذين يتلقوها مؤمنين.

وكل السّورة يتخلّلها ذكر الله لأنها هدى منه تعالى وإليه، وقد يرد باسم 'الله' – الإلــه الأوحد الأعظم المعهود، وقد يرد بصيغة الجمع فيما يقضي أو ينــزل بجمع من أقــداره العظــيمة المحيطة بالمخلوقات وبالإنسان. ويأتي في السورة ذكر دعوة التوحيد الــراجعة الأصول أيضاً إلى ملّة إبراهيم عليه السلام الحنيف لله على غير دين المشركين. تأتي كلمات وحدانية الله وتذكره في أقوال يعقوب – مجتبياً لرسله معلّماً متمّاً لنعمته عليهم وإليه المتاب والاستغفار. وكذلك في كلمات يوسف يأتي ذكر الله مستعاناً به ومدعوّاً ليــصرف الــسّوء، ويذكره إذ يدعو إليه في السّجن هداية إلى الدين القيم لصاحبــي الــسّجن يــبلّغهما تركه لملّة الكفر بالله والآخرة واتّباعه لملّة آبائه التي توحّد الله دون شــريك ويدعوهما إلى اختيار العبادة له وحده لا لأرباب متفرقين أسماء باطلة موروثة. ويذكــر يوســف ربّه الذي يرحم النفس لتقواها من نــزعتها الأمّارة بالسوء والذي يهــبها براءة التطهّر، ثم يذكره تعالى مستغفراً لإخوته وشاكراً نعمة تحقق رؤياه الأولى وإخــراجه من السّجن ولطفه به بعد أن نــزغ الشّيطان بينه وبين إخوته وإيتائه الملك وتعليمه العلم والحكمة، ويدعوه فاطراً للسماوات والأرض كلها أن يتوفاه هو مسلماً ويلحقــه بالــصالحين. وذكرُ الله يتوالى عبر كل سياقات السّورة وثنايا آياته بأسماءٍ له حــسنى. فهــو العلــيم الحكيم حيثما يُعلم عباده الرؤى ويحقّ تأويلها، وهو الواحد القهــار سبحانه وتعالى عــن وصفه عند المشركين، وهو السميع العليم المستجيب للدعاء، وهو

الغفــور الرحيم أرحم الراحمين حيثما يُدعى لغفر الذنوب والسوء ولحفظ عباده، وما الحكــم إلاّ له هو الغالب على أمره يمكّن لعباده الصالحين في الأرض ويصيب برحمته ويرفع درجاتٍ منهم من يشاء، وهو في مجاهداتهم الناجي الناصر لمن يشاء والمُلقي بأسه علــى المجــرمين، وهو تعالى الصّارف السّوء عن عباده المخلصين الواقي لهم من الكيد والجــازي بنعمــته للمتصدّقين وللمحسنين لا يضيع أجرهم. وهو تعالى الذي يتجلّى بآياتــه حول الإنسان – آياته في الكتاب ذكرٌ للعالمين، وفي السماوات والأرض إلا أن يعرض عنها المشركون، وفي أقدار تاريخ الإنسان من قصص المرسلين والأقوام. والحقّ هو وحدانيته وتوحيد الحياة عبادة له والباطل هو الإشراك من دونه يحيط بأكثر الناس والأقوام ويغشى شائبةً حياة كثير من عباده المؤمنين.

إن الإيمــان بالآخرة من حقائق الإيمان بالغيب – بالله الذي خلق الإنسان ليحيا محاطاً بمخلوقات الكون وأقداره وليبتلى متّبعاً هدى منه تعالى أو مفتوناً بالدنيا، وليعيد الله خلقه مبعوثاً بعد الموت راجعاً إلى ربّه يوم الحسابِ والجزاءِ ومعادلةِ الدنيا بالآخرة. وذكــرُ الآخــرة لا يتوالى في هذه السّورة على نهج السّور المكيّة الطوال. وذلك لأن الــسّورة كــان يصوّب غالب الذكر فيها نحو قصة سيرة يوسف وتصاريف بلاءاتها وعواقــبها في حــياته الدّنيا. ولكن ذكر يوسف الآخرة في دعوته الحنيفية لصاحبــي الــسّجن أنــه هــو قد هجر دين الذين هم بالآخرة هم كافرون. ولمّا ذكر تمكين الله ليوسف في الأرض ليُري عباده كيف يصيب بعاجل رحمته المحسنين جاء ذكر الآخرة: أن أجــرها خير للذين آمنوا وكانوا يتّقون لئلا ينفتن في الدنيا عبد انبسطت عليه نعمة العــزّة في الأرض بعــد محــنة مذلّة. ثم ذكرها يوسف حين دعا ربّه أن يتوفاه مسلماً ويلحقــه فيها بالصالحين فهو وليّه في الدنيا والآخرة. والآيات الأواخر في السورة التي تنــــزّلت تخاطــب أمة الدعوة الكافرة تدعوهم أن يسيروا في الأرض لينظروا كيف كانــت العــواقب شراً على الأقوام الكافرة ورحمة للفئات المؤمنة وليتذكروا أن دار الآخرة خير للذين اتّقوا لو كانوا يعقلون، ففي الآخرة الآجلة عذاب عظيم تتكثّف به الــنّذر في الدعــوة لأول خطــى الهداية زجراً وترهيباً لمن كانوا في ظلمات الشرك والجاهلية – أن يخرجوا إلى نور الحقّ وبشارته. ولكن النّذارة لا بدّ أن تُذكّر المخاطبين

أيضاً أن الله قد يعاجلهم بغاشية عذاب في الدنيا كأمم أشركت وضلّت من قبلهم، فضلاً عن التحذير والتّذكير الدائم من قيام الساعة الموعود – أن قد تأتيهم بغتةً وهم لا يشعرون ذاهبين في الحياة الدنيا غافلين سادرين.

والسورة في أولها تخاطب الرّسول الخاتم ﷺ في أمة دعوته بالوحي المتنزّل عليهم بأحسن القصص التي كانوا عنها غافلين ليتذكّروا ويساءلوا عن آيات قصّة يوسف وإخوته. والسّورة من بعد تلقي العبر على الرسول والعظات عليهم طوال الاقتصاص لسيرة يوسف ؏، فيوسف فيها رأى رؤية أفلاك تسجد له وهو في كنف أبيه يعقوب بن إسحق بن إبرهيم ؏، فأبوه الذي كان يرعاه ويتوسّم فيه الخير الواعد عبّر له الرؤيا لا تعبيراً بيّناً لكن بشرى باجتباء الله له وتعليمه الرؤى وتأويلها وإتمام النّعمة عليه بالنبوّة مثل آبائه، وأوصاه أن يُسرّ رؤيته عن إخوانه لئلا يكيدوا له كيداً. وقد كانت الرؤى للنبيّ الخاتم مهاداً قبل نزول الوحي تهيّأ بها بصائر في الغيب حتى تمّت عليه النّعمة نبوّة ووحياً، وكان يعلم شيئاً ما عن تراث آبائه إسماعيل وإبراهيم، ولكن حجبته عن تذكّر هديهم حجب الثقافة الجّاهلية التي تراكمت في قومها عهوداً غمرت تلك الحنيفية بالظّنون والأعراف الإشراكية الجاهلية. وكان إسرار الرسول بأمره رؤىً وإيحاءاتٍ في غار حراء قد تجاوزه الأمر مع بوادر وحي القرآن الذي دفعه أن يصدع بالرسالة ويفيض بذكر الغيب، وإن أسرّ ومن معه من المؤمنين بعض أمرهم حذراً من أهلهم الذين اشتدّ صدودهم وأثاروا عليهم فتنة أخرجتهم إلى الحبشة قبل الهجرة العامّة مع الرسول. وتقدّمت في السّورة – بعد ذكر الرّؤية– قصّة إخوان يوسف وحسدهم له من إتيان أبيه له رعايةً ورجاء، وكان ذلك باعث كيد عليه دعاهم بعد خاطر قتله أو نفيه في مهلكة إلى مساع تخدع وتصرف عنه أباه ليُلقوه في جبّ يذهب بأمره ويغيّبه. وكان النبيّ الخاتم يلاقي قبل نزول السّورة وحتى بعدها ظواهر ارتيابٍ في أهله به داعيةً لأمر وحي غريب وحسدٍ له من الظنّ به ساعياً لإمارة أو فضل على كبارهم وإعراضٍ عن دعوته العامّة إلى توحيد الله التي تتقصّد كلّ معبوداتهم وأعرافهم تزهق معهودها. وأتمروا أخيراً لكيد إثباتٍ له أو إخراج أو قتل له ولضعاف المؤمنين. وكان أولئك الكائدون منهم ذوو قربى، ذلك

حــــتى دفعته ومن معه الفتنة محبوسين جوعى في شعب أبــــي طالب بمكّة، وصدّته هو قـــرية الطّائف مأذيّاً، وابتُلي بفقد زوجته وعمّه وجدّه حتّى أجاره أحد من المشركين. والـــصور تكاد تقارب ما جرى ليوسف إلا عموم البلاء للمؤمنين حتى اضطّر الرّسول إلى الهجـــرة العامّة نحو المدينة ناجياً من رصد قريش الملاحق له بالتخفّي في غار ثور. ولـــئن أُخرج يوسف بكيد آخر وأُلقي في جبّ حتى التقطته سيّارة عابرة باعته زاهدة فـــيه رقيقاً في مصر ولكن انفتح له من بعد بسطٌ من مأوى كريم فتحاً في بيت عزيز، فـــإن الهجرة للمدينة فتحت للرسولِ الخاتم مأوى عزيزاً أميراً لكلّ الدّيار وكل جماعة المؤمـــنين في وفاق مع اليهود، يبسط كل هدى الدين في المجتمع إماماً وفي الحياة العامّة سلطاناً، ثم حوصرت المدينة تجارةً وأمناً حتّى دعا الأمرُ الرسول – بوصايا القرآن – أن يخرج قائداً لصف المؤمنين مدافعةً وجهاداً. ذلك بينما يوسف لم يكن في جماعة يحملها دفـــعٌ دفعـــه هو ولم يتمكّن في ولاية الأمر العام ليجاهد عن حمى سلطانه ولم يلاحقه إخوانه غزواً ليصدّهم. وإنما لقي يوسف البلاء في المجتمع في بيت العزيز حيث همّت به لتفتـــنه امـــرأته وفي أوساط المدينة حيث تداعت عليه معها مكراً نساء. وكانت محنته المجاهـــدة لدواعي السّوء والفاحشة في مجتمع يسود عليه، فجاهد مستعيذاً بربّه داعياً له أن يـــصرف عنه ذلك السوء، وأحيط به وإن تبرّأ هو وتطهّر وبدت الآيات على زكاة خُلقـــه، فـــأودع في السّجن بضع سنين حتى خرج بريئاً عزيزاً. أما في مدينة الرّسول الخـــاتم فلم يكن المجتمع سائداً بخلق سيئ أو بكيد نساء فيه أو بحملة على المتطهرين، وإن عهـــد بعض المسلمين ابتلاءات في شتات أسرهم أو وقع للرّسول نفسه حيناً بلاء في شأن زوجته عائشة بشائعة إفك حولها برأها القرآن من وقعها وأخذ على المسلمين تـــناول الألسنة فيضاً في بهتان عظيم. ولئن كان سجن يوسف دون المحاصرة والخلوة العامّـــة الـــتي أحيط بها المسلمون حيناً في مكة، فقد تيسّر له مجال للدعوة الخاصّة مع صـــاحبـــي سجنه، بينما تيسّر في مكة مجال للدعوة في وسط الفئة المؤمنة وما حولها. ولـــئن عـــرف الرّســـول محمّـــد رؤية إسراء إلى المسجد الأقصى مبشّرة لكن كذّبها المعرضـــون، فقـــد كان خروج يوسف من السجن مترتباً على تعبيره لرؤية الملك وما صـــاحب ذلك من تبرئته وتوبة للنساء اللاتي بهتنه إلى الصدق وعزته لدى الملك مكانة

خاصّـــة مأمـــونة. وبفضل ما في الرؤيا وما هدى الله إليه يوسف في تأويلها تولّى هو ولاية حفظ محصولات أرض مصر بعد الدّأب في الزراعة سنين والتصرّف في المخزون باقتـــصاد ومدّ مَن مسّتهم بأساء القحط في مصر وحولها. كان ذلك بالطبع طرفٌ من تولّى السلطان في مصر لأداء خير للناس. لكن سلطان المدينة كلها آل إلى يد الرّسول محمـــد المهاجـــر ﷺ وأهل شوراه وكان من همّهم سوى الدفاع التّعليم وإحصاء أهل المديـــنة ورعايـــة نـــتاجها وتجارتهـــا، ومن هدى القرآن عمّ بينهم مدّ العون للفقراء والمهاجرين في المدينة وما حولها.

وكان أمر يوسف عليه السلام مع إخوته الذين ساقتهم إليه الضرّاء وابتغاء وارد الطّعام أن يتعـــرّفهم إن أنكـــروه، لا ليؤاخذهم أو يأخذهم بقوته انتقاماً لكيدهم، بل كان يُنـــــزلهم إكراماً ويوفيهم الكيل تجارة ثم يَنـــزل عن العوض. ولقد اتّخذ بسط الكيل حيلة يضاغطهم بها للمجيء بأخيه الشّقيق الذي كان أيضاً هدف غيرة منهم، يريد هو في نفـــسه أن يـــؤويه ليجمع إليه أيضاً أباه وسائر الأسرة. أما الرّسول الخاتم والياً أمر المديـــنة فقـــد اضطّره الدّفاع لمقاتلة أهله قريش العادين على المدينة، لكنه اتّخذ صلح الحديبية محاولة مع أداء العمرة لتسوية الخصام معهم. وقد أدّى أخذُ يوسف أخاه بحيلة أبدتـــه ســـارقاً إلى إهاجة الأسى عند يعقوب، وتجدّد ذكره ليوسف الذي لازمه منذ فقـــده، وكان يصابر على كيد الإخوة لأخويهم ولكن اشتدّت عليه بهذه الواقعة وطأة الحـــزن ودعـــاهم إلى العود ليتحسّسوا عن يوسف وأخيه. ولّما رجعوا إلى يوسف في حاجـــة ضرٍ وفي تضرّع مسألة أن يتصدّق في شأن أخيهم، تعرّف لهم يوسف وفجأهم ذلـــك في مقامـــه العزيـــز تذكّراً لآخر عهدهم به واعترفوا بالخطأ وسلّموا بأنهّ مأثور علـــيهم، فاســـتغفر لهم وعادوا بقميصه إلى أبيهم ليشتمّه ويعود بصيراً بعد أن ابيضّت عيـــناه من تطاول الغمّ والبكاء، وصحبة الإخوة وعشرات من أهلهم استجابة لدعوة يوســـف لـــيدخلوا مصر سلاماً ومأوى طيباً امتدّ في ذراريهم لحين حتى عهد فرعون الجـــبّار وموسى عليه السلام. أما الأمر المقابل في سيرة الرّسول الخاتم بعد مجاهدات حروب تـــداول فيها الانتصار والانهزام مع أهله وبعد عهود خانوها دخل عليهم الرّسول مكّة بقـــوّة فاستقبلوه يكفّون أيديهم يُلقون إليه السّلم والمودّة، وفُتحت مكّة لكن ما أخذ

الرســـول أهلها بسابقات ضُرّهم للمسلمين قتلاً وسلباً وطرداً من ديارهم، بل عفاهم ليذهــبوا طلقاء ودفعتهم هذه السّماحة ليدخلوا الإسلام جميعاً. وأصبحت المدينة بعداً عاصمة الأرض الواحدة للمسلمين تؤتي فقراءهم الزّكوات وتمدّ أفواج الوفود بالعطايا، وألّـــف الله القلوب بعد العداء بين أهل مكّة والمهاجرين كما تألّفت قلوب أهل المدينة مـــن قبل بالإسلام. أما في شأن يوسف فقد تألّفت قلوب بني يعقوب وأهلهم خاصة وهاجـــروا إلى مصر. وحنيفية الرّسول الخاتم مثل دعوته إلى الإيمان بالغيب بالله معبوداً وحـــده وبالـــبعث والآخرة بدءاً بالتطهر من الشّرك كانت هي مثل ما عند يوسف، كلاهما من ملّة إبراهيم لكن دعوة يوسف كانت مقصورة في سجنه وفي أهله من بعد وكـــان مقتـــضاها متمثلاً في خلقه هو، فما هو برسول دعوة عامّة تصدّها فتنة عامّة وتليها مصابرات ومجاهدات عامّة.

إن عمـــوم الآيـــات في سياق قصّة يوسف عليه السلام وبعدها هي أن الله يعطي من يجتبـــــي للنبوة العلم والحكمة، وأنه من صبر على محنة وأحسن يمكّنه سبحانه وتعالى في الأرض ويُـــصيبه برحمته ويُعد له أجر الآخرة. إن تلك هي سنّة الله في المرسلين - كانوا يأتون بالبيّنات الموحاة من الله ويتعرّضون للفتنة ثم يأتيهم النّصر بعد مصابرة بلغت اليأس من تصديق الدّعوة وانتشارها. وقد كان النّصر ليوسف المصابر على المكائد والسّجن بعد تمكّـــنٍ وتبوّءٍ في الأرض والسلطان. وكانت تلك عاقبة سيرة الرّسول الخاتم صلى الله عليه وسلم لكن اتـــسعت دعـــوته ومصابرته مع من معه وكان تمكّنه محيطاً. أما عاقبة الأقوام السّالفين عمـــوماً فقد وقعت على قريش الجاهلية لكن لطّف الله فيهم المهلكة فأصبحت مهزمة دعـــت إلى متاب جامع. وأما عهد المدينة فقد تلا نـــزول سورة قصة يوسف وامتدّ الإسلام وراءَ عِبَرها في مدى الابتلاءات والمجاهدات وبسط الهدى الدّيني في الحياة كلّها واتـــساع عواقب الخير للمؤمنين. ولذلك إن في قصة يوسف وإخوته لآياتٍ وعِبرٍ في خصوص ابتلاء الرّسول في أهله ومتبوأه - كما سبق ذكر ذلك.

وكـــان في ســـائر قصص المرسلين المذكورة في السّورة والمفصّلة في سور أخرى أمـــثلةٌ وعبر وعظات عامّة للرسول الخاتم من حيث أن رسالته ودعوته للناس كافّة لا يـــسأل علـــيها أجـــراً ممّن يخاطب، وأن شهادته سبيل مستقيم إلى الله ببصيرة هدى

وبموكب جماعة مؤمنة بوحدانية الله المعبود، ومن حيث أنها لا تلقى إلا الصّدود من أقوام معرضين عن الدّعوة لله مشركين به، صادّين عن آيات كتابه كفراً بالغيب والوحي، وغافلين عن آياته في السّماوات والأرض يمرّون عليها عمياً عن شهادة الله ودلالتها على الغيب - وحدانية الله والمرجع إليه في آخرة ومكذبين بالنّذير دون الآخرة من غاشية عذاب أعجل في الدنيا إلا أن تباغتهم ساعة القيامة، ومنكرين آياته الواعظة في مُثل سيرة أقوام المرسلين السّالفين الكافرين والمبشّرة في عاقبة المؤمنين فيهم نصراً بعد تطاول الصبر الموئس. وقد ورد ذكر خواتم المصائر عند ختام السّورة بآيات من الدّين الحقّ عامّة، إذ طويت قصّة يوسف الخاصّة، ثم عاد ذكر القرآن وصلاً لآخر السّورة بأولها وبياناً لهدى الكتاب قصصاً وتصديقاً لسابق الكتب الموحاة وهدى ورحمة للحياة حاضرها في الدنيا ومنتهاها في الآخرة، لقوم - لا من أهل أو قوم لرسول خاصة بل من الناس كافّة - يؤمنون بخاتمة رسالات الغيب.

ترتيل المعاني (الآيات ١-٢٠):

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١)

الألف، واللام، والراء، من حروف المنطق والخط العربي، صوتها قراءة ورسمها كتابة. هذه ومثلها قد ترد في مفتتح السّور تتوالى لا بأسمائها هكذا بل بأصواتها نكرة ساكنة مقطعة لا توصل بأدوات وصل، ممدودة بأصوات الحركة واللين فيها أو موصولة بإدغام فيما يليها أحياناً في قراءة، فتؤلّف الكلمات العربية مفردات ومنها يتركب الكلام جملاً فيعبر عن المعاني لِيُسمع فتقع منه مفهومات في النفوس. ومن ثمّ تقوم الحروف شهادة على عروبة هذا الكلام قرآناً أو كتاباً ودلالة على بيانه للمخاطب العربي السّامع وقسماً على صدوره من عليم بلسان ذلك الإنسان. تلك آيات الكتاب المبين. 'تلك' إشارة لبارزة عالية المبلغ من صفتها آيات - جملاً من الكلام تتواتر دالاّت على ما وراء ظاهرها مما تصدر منه وما تؤول إليه من مفهومات معانيها، آيات منظومة مرسومة بحروفها وكلماتها فهي من الكتاب المبين. والكتاب هو المعهود ذكره المعروف أمره عند من خاطبهم إذ جاءهم من الغيب وحياً من الله ووقع

عليهم مفروضاً مكتوباً مرسوماً متلواً قرآناً من رسول يبلّغه رسالة إليهم. وبعضه وكله كـتاب وقـرآن. وهو المبين لأن بيانه بالحرف العربـي لأولئك المخاطبين الناطقين بالعـربية ولأنـه مبين للمعاني الواردة فيه لا يعتريه إبهام ولا اضطرب، لاسيما أنه في السّورة بيان قصص الأنباء للوقائع وهو في سور أخرى حكيم ينـزل المعاني الحق.

﴿إِنَّا أَنـزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢)

إنّا أنـزلناه – الله الواحد يتكلّم إلى المخاطبين بصيغة ذكره جمعاً، إذ يقوم عليهم بأقـداره العظـيمة خالقاً لهم محيياً لأجل، وقيّوماً على تدبير أمرهم يبتليهم بمخلوقات وصـروف حولهم، وعليماً محيطاً بأحوالهم وأعمالهم، وهادياً لهم برسله ملائكةً وبشراً وبكتـبه آيـات بيّنات، وباعثاً لهم بعد الموت في الحياة الدنيا مرجعاً إليه يوماً هو فيه الملـك الحسيب الجازي لهم على ما قدّموا، وباقياً مهيمناً عليهم في خلود. فإنه تعالى عظيماً بتلك الأقدار الغيبية الدفع أنـزل ذلك الكتاب – قرآناً عربياً – إذا تُليت على المخاطـبين العـرب آياتـه يُسمع قرآناً عربياً – كما تشهد حروفه، يُنـزل مقروءاً ومكـتوباً علـى المخاطبين سمعاً وطاعة لا كتاباً يطبعهم جبراً على هديه بل يدعوهم لعلـهم – ترجّـي خيرٍ لهم – يعقلون، يعقلون في وجدانهم ضبطاً ما كان مطلقاً فيها ظـنوناً وتقاليد موروثة وأهواء ويعقلون ما في الكتاب من معاني الهدى تفكراً وتذكراً واختياراً للإيمان والاعتصام بها.[١]

﴿نَحْـنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٣)

تقديم ضمير المتكلّم بصيغة الجمع إشارة لأقدار علمه الجليلة بالغيب، به يبتدر الله العظـيم ﷻ الخطاب الخاص لرسوله ﷺ الذي يحمل القرآن ليتلوه مبلغاً أمّة الخطاب العـام، يقـصّ علـيه أحسن القصص – أحق الرواية صدق أنباء وأجودها بناء من معروض ظاهر الأفعال ومذكور باطن المشاعر تتابعاً متماسكاً وأبينها للعبر والعظات.

---

(١) أنظـر حـيث تفتـتح السور بالحروف المقطعة، وتذكر تالياً ولاحقاً القرآن عربيّ البيان بيّناً للمخاطبين: الآية ١١٣ سورة طه، والآية ٣ و٤٤ سورة فُصّلت، والآية ٧ سورة الشورى، والآيـة ٣ سـورة الزخرف. أو يذكر القرآن عربياً بغير لسان ما يصدّق من الكتب الأولى: الآية ٣٧ سورة الرّعد، والآية ١٩٥ سورة الشعراء، والآية ١٢ سورة الأحقاف.

ذلــك بما يوحى إليه الله بأقدار وحيه هذا القرآن – نعمة هدى ورحمة، وإن كان من قبل لمن الغافلين، ما كان قبل تلقّي الوحي إلا من أمته الأميّة الغافلة المحجوبة عن تاريخ رسالات الدّين لا تتوجه لأنبائه لفهم سننه وعبره إذ لم يسبق إليها علم ولا وحي هدى ولا كتاب، إلا قديماً منذ أبيهم إبراهيم فإسماعيل تراثاً نسوه. فالرسول والمخاطبون الآن بوحي القرآن منبأون مذكّرون بقصص الأنبياء والأقوام السّالفين.[1]

﴿إِذْ قَــالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤)

إذ – أوّل القــصص قصة يوسف عليه السلام حين – قال لأبيه يعقوب عليه السلام، يناديه عالــياً عنه بالأبوّة له بأثر الوقع عليه هو من الأمر الذي يهمّ ببلاغه، – مؤكداً – أنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر – نجوماً فيها المنيران خاصة – وهي عالية في الــسماء كان الناس في غير بيئته المؤمنة بالله يتعلّقونها أحياناً بالعبادة رمزاً لإله الغيب، رآهم – كالعقلاء من البشر– جملةً له هو ساجدين. والسجود شعيرة خضوع لمن هو أعلى، لكنه هو أدنى منها على الأرض، وما هي بمسخّرة إلا لكل عباد الله ضوءاً ونوراً وحساباً واهتداء.

﴿قَــالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٥)

جاوبــه أبوه يعقوب عليه السلام يناديه بُنيّه – نداء تصغير وتحبيب من أب رحيم يربّيه ويــزكّيه، نهاه أن يقصّ رؤيته على إخوته فيكيدوا له كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين. فهو كما يبدو كان مراقباً رعيّته من الأبناء يعلم فيهم شيئاً من غيرة على يوسف وأخيه الشقيق – الأخوين اللذين يتولاّهما برعاية أخص، يرجو في يوسف خيراً ويخشى أن تــصبح الغــيرة حــسداً فكيداً عليه إن قصّ لهم الرؤيا التي تومئ لرفع شأنه – أن يــضمروا ويدبروا له أمراً ذا وقع. والأب يعلم – من علم بالدين والغيب أوتيه – أن الــشيطان الشاطن المبعد من الله متسلط على الإنسان عداوة مبينة ظاهرة منذ حسده لكــرامة الأب آدم عليه من الأمر بالسّجود له، ما يجد من ثغرةٍ في هوى نفس الإنسان

(١) أنظر الآية ١١١ من ذات السورة.

نـــــزعة نحو شر إلا نفذ منها يحرّضه ويغريه منها بكسب وفرح لاسيّما فتنةً في ذات بين الأقربين.

﴿وَكَــذَلكَ يَجْتَبيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ من تَأْوِيلِ الأَحَاديث وَيُتمُّ نعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦)

ويمضي الأب مذكراً ابنه يوسف أنه كذلك، بإلهامّة هذه الرؤيا الصادقة صوباً نحو تحققهـــا في الغيب المستقبل يجتبيه ربّه يصطفيه إستخلاصاً من بين إخوته ويعلّمه تأويل الأحاديث – إذ يُريه المصداق الذي يقع مستقبلاً للرؤى في المنام – الرؤى التي يتحدّث بهـــا عـــادة الناس بعجبهم من أحدوثة تروي منظورات ومشاعر منامية ضرباً في غيب المـــشاعر الباطـــنة – يُعلمه كيف يؤوّلها ويروي ما تتمثل فيه وتؤول إليه من أمر قادم واقـــع، لأن الرؤيا رمية من الغيب شيئاً من نبوءة الأنبياء كما يقول الرسول الخاتم ﷺ وكمـــا ســـبقت لـــه قبل الوحي. ويرجو ليوسف أبوه فيما يخاطبه به أن يتمّ ربّه – كـــذلك – نعمـــته عليه بالنبوة، ولاسيّما أنه نشأ وتزكّى في سلالة طيبة نبوية – كما أتمّهـــا على أبويه من قبل: إبراهيم ﵇ الذي جاهد وهاجر في سبيل ربّه ملّة حنيفية توحّد الله وتنفي الشرك فأتمّ الله له أن ولاّه النبوّة والرسالة والإمامة، وإسحق ﵇ إذ كان على ملة أبيه إبراهيم فأصبح نبياً من الصالحين المحسنين الذين حفظوا سنّة العبادة بالقـــدس. ويعقوب الحفيد الذي أتمّ الله له الهدى والنبوّة لم يزكّ نفسه فعفا عن ذكرها إذ يخاطب ابنه، لكنه يتم خطابه لابنه أن ربّه عليمٌ يحيط بعلم الغيب يعلّم منه بقدر من يـــشاء رؤيا أو وحياً، وبحق المشهود يوحيه لمن يشاء، حكيمٌ بالغ الحكمة ينبسط علمه إذ ينـــــزل قدره على مآلات الحياة ووقائعها بخير الوجوه. كذلك كان يعقوب يرى في يوسف وعد النبوة وعلاماتها على صغر سنّه، ويعقوب ذو علم وبصيرة نافذة.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَته آيَاتٌ لِّلسَّائلينَ﴾ (٧)

تمضي السّورة على نهج القرآن في قصص الأنبياء – تتقدّم آيات فيها وجه إجمال لـــوقائعها ومغـــزاها ثم تـــتوالى الآيات من جديد بوجوه تفصيلها. والآية تتلو الآيات الثلاث السّابقة لتَختم بمغزى القصة: لقد كان في يوسف ﵇ وإخوته – شأنهم وهو محـــور القصّة – آياتٌ – دلائل بيّنة – كاشفةٌ وعظات بالغة في سيرتها – للسائلين –

مَن يسأل عن نبأ الماضين من الأنبياء والأقوام وهم في ذلة وفتنة ليتلقوا درساً في الحياة مرشداً لمسير البلاء والصبر عليه ولا يمضون من الغافلين عن تجارب الرسالات لا يعلمون ولا يسألون فيغمرون الذكرى رشداً للسيرة، أو السّائلين من غيرهم في أمّة الدعوة يلتمس نبأ مثُلاتها السّالفة تحرياً لقصص من الغيب إن صدق الدّاعي[1].

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ (٨)

إذ – حين قال إخوة يوسف في شأنه – إن يوسف حقاً وأخوه بنيامين – لما لاحظوه من رعاية من أبيهم أعنى بهم، ولعلّهم سمعوا قصة رؤيا يوسف فلتة منه ورجاء أبيهم منها فاحتدّت غيرتهم أنهما أحبّ إلى أبيهم منهم وهم عصبة – أشقاء تشدّ ذات بينهم رابطة متعاضدة. هكذا رأوا أن أباهم آثر اثنين على جماعة، ولذا قالوا: إن أباهم لفي ضلال توهاً عمّا هو أوفق وأرشد في ميل حبه، وضلاله مبين وضح لهم.

﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (٩)

مضى الإخوة يأتمرون – والحسد شعور غيرة يحتدّ على من يُهدف إليه ثم قد يمتدّ أذى مفعولاً عليه يشفي ذلك الشعور – يقولون أن عليهم أن يقتلوا يوسف ليغيب موتاً أو أن يطرحوه أرضاً – يرموه في أرض منكرة مجهولة يضلّ ولا يُعثر عليه فيهلك، إن فعلوا ذلك يخلُ لهم وجه أبيهم – ينصرف عن شغل الرّجاء فيه وإيثاره حبّاً وتوجّهاً فيفرغ من رعايته ليقبل عليهم هم، ويكونوا – كما يأملون – من بعده قوماً صالحين توبةً منهم تصرفهم من همّه ويكب عليهم أبوهم بتزكيته وينحصر بذلك وفي وجهة الصلاح فيهم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٠)

قال قائلٌ منهم – وتبدوا من ذلك بقيّة فيهم من تزكية الأب حتى لا يذهب الحسد بهم جميعاً فرطاً – ألاّ يقتلوا يوسف بأيديهم أو بطرحه في مهلكة وأن يلقوه في

(١) من ذرية إبراهيم في الآية ٨٤ سورة الأنعام، وذكره مرسلاً من قبل بالبيّنات لفرعون ومقومه في الآية ٣٤ سورة غافر. عليه السلام راجع ذكر يوسف.

غـــيابة الجبّ – جرف البئر غير المطوي في باطنه مغاور غائبة عن المارّين مشهداً بعيدة عـــن سمعهم استغاثةً، كذلك لا يدركه مغيث من قريب يعرفه، يلتقطه بعض السيّارة الـــذين يوالون السير في دروب النـــزح والتجارة في الصحراء يلتمسون في الجبّ الماء فيعثـــرون عليه لقيطاً مجهولاً فيذهبون به ليضيع أبداً. ويواصيهم القائل بذلك إن كانوا فاعلين بيوسف شيئاً.

﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ (١١)

قالـــوا لأبيهم – لتدبير فعلة مكرهم – ينادونه أباهم تلطّفاً: ماله لا يأمنهم على يوســـف – فهو كان يستشعر غيرهم عليه ولذلك يلازمه برعايته ويراقبهم ألا يخلوا به حـــذراً فـــلا أمن من أن يغريهم الشيطان به كيداً. وليطمئن أبوهم وتسكن نفسه من حـــذر الشرّ أكدوا له: ما باله هكذا وهم ليوسف ناصحون – ادّعوا أهم إذا صحبوه في خلوة فهم قوّامون عليه نصحاً وإخلاصاً مأموناً.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١٢)

وطلبوا من أبيهم راجين أن يرسل يوسف معهم للغد ليرتعوا ويلعبوا جميعاً أو هو خاصّة (قراءه) يُرجى له أن يسري طلقاً وهو يافع ليلقى فرحاً في منشط مرتع وملعب. وأكدوا لأبيهم – حذراً من أن يراوده الخوف عليه – إنهم له لحافظون رعاة لسلامته.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (١٣)

فردّ عليهم الأب يعقوب عليه السلام كأنه يستر مخاوفه الباطنة من كيد منهم منظور إذ يـــصرف عـــذر حرصـــه على حفظ ابنه ذكراً لمحذور آخر – قال إنه يحزنه – حزناً مـــؤكداً – أن يذهـــبوا به بعيداً عن البيت إلى الخلاء وهو صغير فيأكله هناك الذئب السّائم وحشاً، وأن يقع ذلك وهم عنه غافلون لاهون لا يحرسونه ليقوه من الذئاب.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ (١٤)

قالـــوا ردّاً على أبيهم ليطفئوا فيه المخاوف ويليّنوه بجد فيهم: لئن أكله الذئب وهـــم عـــصبة – قادرة أن تحيط به حراسة ورقابة وأن تصدّ عنه أيّما ذئب عاد – لـــئن وقع ذلك في غفلة منهم إنهم إذاً لخاسرون – ما هم بمصلحين في شيء أبداً إن ضيّعوا أخاهم.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (١٥)

فلمّا ذهب إخوان يوسف به – وقد أمرّوا المخادعة على أبيهم، وأخذوه نجيّاً إلى الخلاء، وأجمعوا – إذ اتّفق رأيهم وعزموا على نفاذ المكيدة – أن يجعلوه في غيابة الجبّ إنـزالاً، وأوحى الله إليه بأقداره العظيمة المحيطة لطفاً بما هو واقع وقضاءً وعلماً بما هو آجل – وكان الوحي إلهاماً ألقي عليه ملازماً مضافاً لوقوع فعلتهم حتى لا يبتلى يوسف خوفاً في ظلمة البئر مما قد يجري عليه وحسرة في يأس من فرقة إخوانه وأبيه. جاءه الوحي: لينبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون، يتأكد له ليطمئنّ أنه لن يهلك بل يحيا ويمضي في صروف الحياة حتى يظفر بهم هكذا جميعاً بين يديه ويذكّرهم بأمرهم هذا الذي فعلوا كيداً عليه، يقع ذلك وهم في ظرف لا يشعرون احتمال وقوعه عليهم فيه – وحقّ ذلك فيما يلي في السّورة إذ كانوا عند إنبائهم بذلك من يوسف لمّا يتعرّفوه وما كانوا أصلاً يخشون أحداً يعلم بفعلتهم وطال عهدها وما كانت مناسبات الظرف سياقاً لذكر نبأ يذكّرهم بها ولا حيثاً يفجأهم فيه تعرف يوسف بعدَ أن بلغ واستوى.

﴿وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ * قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (١٦ – ١٧)

وجاءوا – أولئك الإخوة – أباهم عطفاً على فعلتهم ورحلة كيدهم – جاءوا عشاءً يبكون، الليل أسترُ لبكائهم بين اصطناع وندم، وقالوا ينادونه أباهم – تعزياً وتعذّراً إنهم ذهبوا يستبقون وتركوا يوسف عند متاعهم، خلوة وديعة مع المتاع لأنه أصغر من جهد المسابقة معهم، فأكله الذئب إذ عقبهم عليه وهو في عزلة. وتبيّنوا ارتياب أبيهم في أمرهم وقد عهدوا أنه لا يأمنهم على يوسف فقالوا له مستبقين تشكياً: إنهم يروون الواقعة وما هو بمؤمن مصدّق لهم وإن كانوا صادقين فيها.

﴿وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١٨)

وجاءوا أباهم على قميص ابنه يوسف بدم كذب التمسوه من ذبيحة، ليتوهّم أن الذئب قضى عليه ولم يبق منه فريسة إلا القميص ملطخاً بالدم بأعراض بيّنة أنه

مكـــذوب. قال لهم أبوهم مضرباً عن زعمهم وقد حقّ ظنه فيما كان يحذر منهم: بل ســـوّلت لهـــم أنفسهم أمراً، طوّعت وسهّلت وزيّنت لهم أمراً آخر. واستجاب مبدياً عـــزمه: فـــصبرٌ جمـــيل (بالرفع عزماً لا بالنّصب) يلتزمه في سكينة لا يبدي سوءاً من التـــشكّي والحـــزن على غياب ولده، والله المستعان على ما كانوا يصفون ممّا جرى، يرجو عونه تعالى بما يُحق كذبهم ويسلّم ابنه.

﴿وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩)

وجـــاءت ســـيّارة مـــن قوافل التجارة دائبة السّير في دروب الصّحراء، فأرسلوا واردهـــم إلى البئر الذي أُلقي يوسف في غيابته فأدلى دلوه يطلب الماء وتعلّق به يوسف فلمّـــا رفعه قال يا بشراه هذا غلام – يستحضر ما يبشّره بالنداء إذ فرح من حظ أغنى وأعجب من غرفة ماء، وأسرّه أهل السيّارة بضاعة متاع تجارة يخفونه لئلا يتبعهم أهل له ينشدون قصّاً لأثره. والله عليم بما يفعلون، بالغ العلم بفعلهم مسخراً له في سبيل ما يقدّر ليوسف من خير مآل.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٢٠)

وشروه – باعوا يوسف – عفواً بثمن بخس رخيص ومبلغ قليل محدود دراهم – لا دنـــانير – معدودة، إذ هان لهم الغلام بضاعةً لم يعرفوا له شأناً إلا لقيطة ساقط في جب لا يعلوا له به قدر ولا ينفعهم في سيرهم الدّائب، وكانوا فيه من ثمّ من الزاهدين المنصرفين عنه عفواً.

عموم المعاني: (الآيات ١ – ٢٠):

لقـــد ســـبق ذكـــر الحروف المقطّعة في المفتتح من سورتي 'هود' و'يونس' وما قبلهما: أن تلك الحروف مثال لسائر الحروف تقوم قسماً واستشهاداً بالبناء العربـــي للكـــلام في القـــرآن، ما هو بمنقولات صادرة من كتابـــي أعجمي، وما هو من بشر كأَن يفتريه الذي يتلوه على الناس فذوو اللسان العربـــي يعجزون عن تقليده، وما هو بمـــبهم المعـــاني بل أمة الدعوة العربـــي يحق عليها خطاباً بيّن المعاني تعرفها من أصول

مبانيه وجذوره الحرفية ويبلغ لديها وقعاً رائعاً بأصوات حروف معروفة لكنها تجري في جمال عجيب إذ تتألّف منها كلمات القرآن تتّسق فيها بشتّ مخارجها منطوقة متمايزة أو مدغمـــة ساكنة وأحياناً بخفية وغنة أو متحركة أو باختلاس مرققة أو مفخّمة ليّنة يقـــصر مـــدّها أو يطول وإذ تتواصل الكلمات من بعد جملاً وآيات موزونة منغومة ليست كمعهود الشعر ولا النثر الرّتيب ولا السّجع المصطنع. وقد سبق القول بأن علم اللغة العربية لازم لتفقّه القرآن وللخشوع لوقعه ومن ثمّ لازم تعلّمها وانتشارها وتبصّر بـــناءها وحـــرفها ونحوها وبديع أسلوبها وبلاغته وبيانه – بين المسلمين أمّة الاستجابة وبين غير المسلمين أمّة الدّعوة.

والكتاب المُبين هدى مكتوب على الناس ليحملوا أمانته ويُنفذوا تكاليفه ويكتبوه خطّـــاً على الورق ثابتاً موثقاً حتى لا يعول حفظه بنصّه على الرّواية الشفويّة وحدها. والقرآن العربـــي منطوق مقروء على الناس ليرووه بلاغاً متلوّاً وليستقرئوا ثنايا معانيه ويـــتلقوا جـــرس أصواته فيحفظوه ذاكرةً وليدخل في وجدانهم وقعه ويحفظوه لخلفهم منقولاً باللسان لئلاّ يقع خطأ في مرسومه كتاباً. وسواء هو كتاباً وقرآناً ينبغي أن يتبيّنه المؤمـــنون به يعزون معانيه ويوقّرونها ويتفقّهونها في فكر عقولهم ويستشعرونها بعاطفة وجـــدانهم ويقيمونها متجلّية في حياتهم متمثلة في كل شعاب واقعها المشهود، لا يُتّخذ صحفاً مرسومة مقدسة تمس بركة وقسماً فقط ولا أصواتاً منغومة تجري سدراً وترتيلاً على الألسن دون وعي.

وذكـــر الله يأتي في مفتتح السورة وعبرها وفي ثنايا سائر القرآن بصيغة الجمع ضميراً للمـــتكلم – لا تعبيراً عن عظمة الذّات وحسب كمعهود التعبير العربـــي ولكن تعبيراً عن الله العظـــيم بجليل أقداره المحيطة وقاهر أوامره الفاعلة متجلّية في شأن الإنسان وما حوله، وإشـــارة لعين الأقدار والأوامر التي تناسب معنى الآية التي يرد فيها ذكر الله. كما يأتي اسمه الأعلـــى 'الله' الإلـــه الأكبر الواحد المعهود، ويأتي ذكره بأسماء له حسنى وصفات عليا في سياق الآي مصوّبة منسوبة إلى ثنايا معانيها الواردة أو في ختامها فاصلة جامعة.

والله العظيم بأقدار علمه وهديه في الكتاب القرآن يقصّ أحسن القصص. وذلك كمـــا جـــاء في المقدّمـــة ليس كالمرويّات البشرية المنقولة قد يعتريها النسيان والخطأ

والافتـــراء والـــسرد المتطاول الشامل لكل وقائع الأحداث التي جرت وحكاية تتابعها تسلـــسلاً بالأسباب والترتيبات الظاهرة زماناً. بل القرآن يقصّ رسماً ثابتاً صادقاً لأنباء الأحـــداث مُـــبرزاً معالمهـــا واقعاً ومُجلّياً تناسقها سيرة لمحور القصة، ورواية للأفعال والأقـــوال الـــتي هي مفاصل في بنائها ذات شأن ووقع حيّ لتطوراتها تبادراً وتفاعلاً وخطابـــاً وتحاوراً، ووصف لصروف الظروف حولها التي هي الوصائل ذات الخطر في فهـــم وقع الأمور وتقديره، وإحكام البناء العام للقصة ليبدوا وقعها للناظرين الخالفين طيّاً لبعض ما جرى من دقائق صور حركة الحياة وفيوض الأقوال فيها وتجاوزاً لفقرات عابرة في تفرّعاتها ليحسن تجاوز ما يُلهي الناظر عن هيئة الواقع وسيرته العامّة. ثم إن في قـــصص القـــرآن تكامل ظواهر الأمور ببواطنها مشاعر مضمورة وأسراراً مخبوءة لأن ذلـــك لا يعلمـــه حقاً ليبلغه لخالف البشر إلا الله المحيط بما في الصدور والعالم بالسرّ والـــنّجوى. وقصص القرآن نظم لمعارض الأمور المشهودة في إطار الأقدار الغيبية التي تـــسيرها بأمـــر الله إلى مآلات وغايات لا تتبيّن كلّها للفاعلين أو الشاهدين في أوائل الأحداث السّارية. ثم في ثنايا القصص أو في الخواتم يذكر القرآن تقويمها بهدى الدين. ففيها بداية لمغازي الابتلاء المتقلّب فيها الذي يتكثّف حيناً فلا يتبيّنه المبتلون ويمدّه لهم الله فـــيغفلون. وفـــيها شهادة من الله على المذاهب والمواقف في سيرة الأمور من بني الإنسان – مواقف تذكّر لله وإيمان ثابت واع غير غافل وصبر في سبيله تعالى لا يتزلزل بـــضغوط الفتن وتوكل عليه إقداماً ورجاءً لعونه، أو مواقف غفلة أو كفر بالغيب كله أو بعـــضه وانفتان بالدنيا واستجابة لنـــزعات شهوة أو حسد أو متاع مبتغى حاضراً عـــاجلاً فعجز أو قصور عن الخير أو دفعة إلى الشرّ يعبّر عنها عدوان أو مكر أو ضرّ. وفـــيها تجلٍّ للعواقب التي آلت إليها الأمور بأسباب مشهودة تصاريفها ودفوعها غيبية قـــدراً وقـــضاء برضـــى الله وتوفيقه وأجره أو غضبه ومحقه وعقابه، والله الذي يقدر العـــواقب تقديـــرها ويحـــيط بمدى الأيلولة إليها عبر الزمان في الدنيا يذكر في سياق القصص العواقب لأجل الآخرة في الأزل يُعدّه الله ويعلمه غيباً للإنسان العَجِل القاصر. وكـــذلك في قصص القرآن آيات يتبيّنها الناظر المتفكّر والسائل المتذكّر وفي إحسانها تذكرة بمثال أسوة وبشرى للخالفين الصالحين أو عظة بمثلة ونذارة للفاسدين.

وينبغـــي على المؤمنين أن يقرأوا القرآن وما فيه من قصص حسن وآيات. كذلك ينبغـــي أن يقتدوا به ويهتدوا لما يدعوهم إليه من الرّجوع لا يغفلون عنه بل يتابعونه: يستمعون للمنقولات المرويّة من أخبار السّير السّالفة ويسيرون في الأرض لينظروا آثار الماضـــي وآياته، ويقصّون الأحداث والسّير نظماً لوقائعها وأسبابها حسب علمهم بها واهـــتدائهم بالسنن وتقديراً للبواطن والمخفيات حسب ظنهم بها والقياس على نفوس البـــشر ثم ســـوقاً لجملـــة سيرها لتبين المغازي في حياة الإنسان والعبر والعظات فيها للخـــالفين زماناً. ذلك ألاّ تروى القصص لإرواء شوق الحكايات وحبّ الاستطلاع للقديم والغريب فقط، بل لإحياء الوعي بالمغازي والتذكرة بالعبر والعظات الباقية فيها مـــثلاً يستهدون بها في الحياة القابلة. وذلك مثل تزكية الإنسان المعروفة بتذكر تجاربه المـــتكاثفة لأوائل عمره لاستثمارها رشداً له وحكمة في أواخره. وذلك هو القصص الحسن - والقرآن أحسنه - ليترقّى الإنسان بذكرى التاريخ عبر مضيه، لا يجمد على الماضي تعلقاً به وجموداً بغير نظر متبصّر منتقد معتبر ولا تتدهور سيرته غفلةً أو غنى بما مـــضى ليقع في ذات سيئ العواقب أو يفوته اتقاؤها ونشدان أحسنها غفلة عن دروس التاريخ بسالفاته المشهودة، أو جهلاً بما يعلّمه هدى القرآن من سنن في مصائر الإنسان العاجلة والآجلة.

وفي صـــدر الـــسّورة رؤيـــا يوسف. والرؤى قد تغشى مدارك الإنسان النائمة أحلامـــاً، أضـــغاثاً من الخواطر تمثيلاً لذكريات مختزنة أو خيبات وحرمات مكتومة أو تمنّـــيات مرجوة. ولكنها قد تجيء لمحات من علم الغيب القادم مهاداً فيما سلف للنبوة منـــــزلات وحي في رؤية يوسف ورؤى للنبـــي الخاتم قبل نبوته ووَحيه، وقد تجيء بعـــد النبوات ودونها بصائر من ذلك العلم لصالحين رؤىً صادقة إذا أحسن الرائي أو غيره تعبيرها وتقدير أيلولتها واقعاً في المستقبل. وقد كان ليعقوب عليه السلام شيء ممّا علّمه الله إذ رأى في رؤيا يوسف بشائر وأخذ يروي له رجاءاتها. وتلك سنّة حسنة، فالأب عمـــوماً هو الأكبر يذكّر ابنه بتراث الخير في سلفه وهو المُعلّم يعلّمه تأويل الرؤى وهو المزكي يزكّيه ليرقى إلى ما يُرجى له أو منه وهو الداعي له خيراً من الله، ولا يقتصر هم الأب الـــبار علـــى تربية ابنه لينموا جسداً أو إعداد رصيد له من مال مكسوب ليرفعه

ورثـــة. والأبوّة كذلك أمانة حفظ لما يجري خصوصاً بين الأب وابنه لا يتركه ليشيع بـــين الـــناس ولا حتى في إطار الإخوة إن كان في سرّ النجوى ما قد يفتح للشرِّ باباً. والأســـرة إطـــار ابتلاء لكلّ طرف فيها، قد يُحسن فهي عمار خير يتكامل ويتناصر ويتبارك وقد يسيء فتكون مجال شر كثيف وكيد قريب لاسيّما بين الإخوة الكبار إذ هـــم يد على الصغار – كما كانت عظة إخوان يوسف. الأب نفسه يلزمه إن مايز في رعايـــته بين بنيه – كما فعل يعقوب مع يوسف لرجاء فيه وبشرى – أن يراعي وقع ذلك الإيثار على سائر الإخوة وقد يفتنهم عدلاً عن المساواة التي يرونها أحقّ. وقد يقع مـــثل ذلك بين الرجل ونسائه مهما يحرص لن يعدل بينهما حبّاً ولكن ينبغي أن يعدل في ظاهـــر المعاملة فيساوي ولا يبدي ميلاً مبيناً. والأولاد كذلك ينبغي أن يقبلوا على الـــوالدين ببر وإحسان وإن أخذوا على أبيهم شيئاً لا يحملون عليه انتهاراً أو قولاً غير معروف ولا يخادعونه كذباً يفسد ذات البين ولا يباشرونه بتدابير تخلّ بتضامن الأسرة الأوثق. وذلك اتعاظاً بفعل إخوة يوسف.

والبـــيوت مهمـــا تكـــن أرضها جذوراً وبذوراً طيبة يُرجى أن يطيب نبتها ليست مـــنظومة قدر ناسخة لما سنّه الله في شأن الإنسان إذ جعله حرّ المشيئة والأقدار لربّه الذي خلقه لا يجبره على أن يدين له حقاً، ولذلك لا ينطبع الإنسان تلقاءً كالحيوان والنبات بين المنـــشأ أو القربى. أيّما أسرة قد ينشأ فيها طيب عن خياره وإرادة مذهبه وقد ينشأ في ذات الأســـرة خبيث. والناس – حتى كثير بين المسلمين – يحسبون أن ابن النبيّ والصالح مهما يتـــباعد ذريةً هو شريف صالح مطهّر من المقربين إلى الله ويزعمون أن ابن النكاح الحرام لا يـــدخل الجـــنة بـــتاتاً ولـــو ذرّية لسلالة من عشر. ذلك كله باطل يبيّنه القرآن في قصة نوح عليه السلام وابنه الذي عاشره طويلاً ثم عازله وفارقه كافراً مغرقاً وفي إبراهيم عليه السلام خليل الله الذي خرج على أبيه وأهله المشركين ولمّا دعته بقية بر ليستغفر له رجع عنها لمّا تبيّن له أنـــه عـــدوّ الله بغير متاب. وهكذا يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام من ذريتهم محسن وظـــالم لنفـــسه مبين، ومن بيت يعقوب يوسف وإخوته العشرة. والقرابة الجامعة في كل صلات الحياة ابتلاء قد تزرع المودة وتنتج مبارّة وتعاوناً على الخير وقد تثمر غيرة ثم تتطور إلى حـــسد لا يقنع بالمضاهاة بل يتمنّى ضرّاً بالمحسود ثم قد يتعاظم إلى كيد ضرّ قد يوقعه

الحاسد على المحسود إيقاعاً شفاء للغيظ. وقد كان كسب إخوة يوسف - دون شقيقه - كــذلك، فقــد ذهب بهم الحسد إلى خواطر من نيّة القتل المباشر أو النفي ليموت هلاكاً. فالعظــة أن كــل علاقة ولو كانت بين أباعد قربى أو رفقة أو صحبة بالجنب في وشائج الحــياة ينبغــي أن يتذكّر أطرافها أنها ابتلاء: تحية فمودّة فخيراً متبادلاً أو تحاسداً قد يحتدّ ويحــدث كيداً. وتلطيف أحد إخوة يوسف في سياق المشاورة بين إخوانه لعزم الكيد إلى إبقــاء في الجب يغيّب يوسف حياً هو عبرة لخير الشورى في عزيمة الأمور - وصية من الله بــين المؤمــنين فيها منافع. ففي أيّما حلقة أو جماعة لقربى أو تجارة أو علم أو لعب أو همّ مــشترك تلــزم الــشورى بين يدي قرار العمل لاسيما في الأمر العام وسياسته للمجتمع المــتواطن بسلطان في أرض. فالشورى تنفع لأنها تورد الآراء الكثيرة خيارات لاتخاذ قرار أوفــق وأحكــم، بل تنفع خاصّة ليتعادل التنطع بدفع الأهواء والتطرف نحو شر بالغ لدى الفــرد أو البعض ممّن تجمعهم الشورى يكفّه رأيٌ مناظر عن رشد يصرفه إلى ما هو حكيم أو يلطّفــه إلى شــر أخــف. ذلك كما فعل أحد إخوة يوسف لنــزع إخوته نحو موت يوســف إلى نفيه! ويعقوب قد كان إيثاره ليوسف داعياً إخوته إلى مكر، وإذ أفرط حياءً مــنهم وما كان يأمنهم على يوسف صرف تخوّفه عليه إلى عَدوة من ذئب والإخوة الذين قاربــوا بــه فعــل ذلك المخوف المزعوم التقطوا ذكره من أبيهم وتعلّقوه ذريعة كاذبة لّما رجعوا إلى أبيهم عشاء. مهما يكن ذلك فقد كان يعقوب أباً براً طيباً بأبنائه لم يُثره عليهم فرطاً فقدُ يوسف العزيز ولو لم تجز عليه مخادعتهم بل صارحهم أنه أمر سوّلته لهم أنفسهم و لم يمض غاضباً جَزِعاً يتحرّى عما جرى لابنه بل استعان بالله وإن انغلقت أبواب الرجاء الظاهــرة وتسامح مع بنيه وصبر الصّبر الجّميل على حزن كان يتخوّفه فوقع عليه ولازمه ســنين حــتى استنكره مَن حوله. وتلك عبرة أن يُوفق الأب ذات بين أبنائه وأن يأخذهم بقــول سمــح ولو أفرطوا خطأً، وعاقبة الأمر كله - كما تبيّن لاحقاً - شهادةٌ على علم يعقوب وصبره ورجائه في رحمة الله وإن شقّ عليه وقع المصاب، وآيةٌ أن لطف الأبوة خيرٌ عاجل وآجل ولو غشيته في عاجلته عُسرة صبرٍ ورجاءٍ بعيد.

لقــد أوحى الله إلى يوسف بينما قام إليه إخوته يُلقونه في الجب أن سينبئهم يوماً بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. أدركته رحمة الله تُسابق كيدهم و لم تذره جزعاً لحين لا

يدري في ظلمات قعر الجب هالك هو أم ناج، جاءته البشرى لا تقتصر على نجاته بل أن سيلقى إخوته الذين فارقوه هم مكائدين أخذوه في غفلة منه وغرّة من أبيه ولينقلبن الأمـــر علـــيهم يُذكّرهم هو بفعلتهم تلك وهم في غفلة. هكذا قد تدرك الرّحمة من أحاطت به أزمة يَسلم ويعلو على من أذله ظلماً. والسيارة العابرة التي مرّت على الجُبّ عفـــواً واستبشر واردها إلى الماء بغلام لقيطة في دلوه عفواً، ينكرونه فيُسرّونه بضاعة ويبـــيعونه زهداً ليُسلموه إلى مشتر عزيز في دار بعيدة مصر - تلك عبرة أن النّجاة من ضـــيق وضياع قد تأتي من حيث لا يحتسب المرء تُسخّر له الأسباب عفواً وتسوقه إلى ســـلامة ومـــأوى كريم، فلا يستيئسن أحد أن تدركه رحمة الله غيرَ منظورة. وكذلك المـــرء قد يزدهد أمراً لقيه عفواً لا يدري له شأناً وقد يجعل الله فيه خيراً كثيراً، لو أنه حفظـــه وقدّره رجاءً لفازَ به فوزاً عظيماً. وذلك كله بيان وقائع الحياة قد تقع عبَرها بالأسباب عفواً لكنها منظومة بأقدار الله قد تسوق إلى خير عظيم، وقد يُلهم به سبقاً صـــالحٌ أو يحتـــسبه رجاءً حكيمٌ ويخطّط له سعياً إلى منظور، أو يرى لائحة البشرى جاهـــل يهملها حتى يباغته الخير، أو تمر الوقائع يقعد عن معالجتها ومآلاتها يعمى عن عبرتها الغافلون.

ترتيل المعاني (الآيات ٢١ - ٥٧):

﴿وَقَـــالَ الَّذي اشْتَرَاهُ من مِّصْرَ لامْرَأَته أَكْرمي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخذَهُ وَلَـــدًا وَكَذَلكَ مَكَّنِّا ليُوسُفَ في الأَرْضِ وَلنُعَلِّمَهُ من تَأْوِيلِ الأَحَاديث وَاللّهُ غَالبٌ عَلَى أَمْرِه وَلَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٢١)

وقـــال الذي اشترى يوسف من مصر - وكان من أهل مصرَ يتولّى إمارة جهته ولقـــبه 'العزيز' - قال لامرأته تكرم مثواه ومتبوّأه في بيتهم عسى - مرجوّاً بما يتوسّم فـــيه - أن يـــنفعهم في خدمة البيت أو يتّخذوه ولداً إذ لم يكن له ولد يغني. وكذلك بنظم تلك الظواهر من كل هذه الوقائع والأسباب التي توالت على يوسف ابتلاءاتها - كـــيداً من عزيز إخوته وغياباً من حبيب أبيه وإلقاءً في جب والتقاطاً من سيّارة عابرة وبـــيعاً بثمن زهيد ومثوى لحاجة أهل بيت وكذلك نعمها - نجاةً من إخوته وخروجاً

ميسّراً من الجبّ وبيعاً سهلاً وبلوغاً إلى مصر نفسها وإكراماً في بيت عزيز فيها – بذلك مكّن الله العظيم بأقداره ليوسف في الأرض وبسط له نِعْم المثوى ليتزكّى ناشئاً وليعلمه تأويل الأحاديث، كما بدا التهيّؤ فيه فطرة برؤيته المبشّرة لدى أوّل الأمر وكما رجا أبوه يعقوب أن يتكامل علمه بالتأويل للرؤى ترجيعاً إلى مآلها الحق. والله غالب على أمره مهما تكن دفوع فعلات عباده الذين يتصرّفون في الأسباب الظاهرة يحسبون أنها نافذة إلى ما يبتغون. ولكن أكثر الناس – من هؤلاء العامّة المخاطبين – لا يعلمون، إذ يحكمون بحاضر الواقعات وعاجل وقعها لا بعلم أيلولتها غيباً بأمر الله الغالب، قد تبدو لهم قاصرة القصد وربما ينوون بها شراً أو زهداً أو تمتعاً ثم يجعل الله فيها آجلاً خيراً كثيراً بالغ الوقع واسع المدى.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

ولّما بلغ يوسف أشدّه – إذ تربّى في البيت حتى بلغ القوة والنّضج فتىً والرشد صبيّاً، آتاه الله العظيم بأقدار اجتبائه وإمداده بالنعم وإعداده لابتلاءات ومجاهدات تستقبله في الحياة، آتاه حُكماً – في إيقاع أقوم الأحكام في مواقع الأمور ضبطاً في الحقّ وتقوى من الهدى، وعلماً – بصراً واسعاً وإحاطة بحيث الوقع ورشد الهدى اجتهاداً بكسبه وتلقّياً من موارد العلم. وكذلك يجزي الله بكل تلك الأقدار العظيمة المحسنين، يستجيب لهم إذ آمنوا وعملوا الصالحات ثم ترقوا إلى مدارج الإحسان منهجاً عريقاً في حياتهم فأصبحوا من المحسنين. يجزيهم كذلك عاجلاً حكماً وعلماً قبل الجزاء الآجل أجراً حسناً.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣)

وراودته التي هو – يوسف عليه السلام– في بيتها عن نفسه، عالجته وداورته بتلطّف الأنوثة وإغرائها وبدفع لزوم التجاوب معها صاحبة بيت هو مثواه لتنال من نفسه ما تبتغي من معاشرة مناكحة، وغلّقت الأبواب كلها – لوقاية الأمر بالستر اللازم والأمن المطمئن ولاكتنافه بشيء من الحبس ألا يزوغ عنها، وقالت تدعوه متهيّئة أن يأتيها هيت له، أن هلمّ هي والأمر له ليُقبل عليها. قال معاذ الله – يعوذ به تعالى ويلوذ ليقيه

دفـــع الهوى والشيطان، ذاكراً ربّه ﷻ قائلاً إنه أحسن مثواه بأن يسّر له بيتهم الكريم بعـــد سوء ضياع، إنه لا يفلح الظالمون الذين يعدلون عن الحقّ يعدّون على حدود الله وتقواه وعلى عهود الناس خيانة لأمانتهم في حرمة بيوتهم.

﴿وَلَقَــدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤)

ولقـــد وقـــع همّهـــا وعـــزمها أن تُلـــم به ويتصوّب إلى مبتغاها فيه، وهمّ بها يوســـف عليه السلام لولا أن رأى برهان ربّه - لاح داع أغراه الهمّ بها وإنه لمضى إلى ذلك فعـــلاً نافـــذاً لولا أن رأى بياناً برهان ربّه، حجّةَ هدى ربّه نـــزلت في نفسه ذكّرته بتقوى الله من الفاحشة ومن الخيانة لحرمة البيت المعهودة. لولا لائحة الإيمان والتقوى الغالـــبة لمـــا استعاذ الله وتذكّر الأمانة واستنكف لاستجاب للائحة الهمّ بها العارضة الفاتـــنة. وكـــذلك أدركته من الله العظيم بأقدار اجتبائه وإيتائه حكمة وعلماً رحمةٌ تذكّره ببرهان هدى وتقوى، ليُصرف عنه السوءَ والفحشاء التي كانت تحيط به المزالق إليها، ذلك أن يوسف من عباد الله العظيم المخلصين المتطهّرين صفاءً من كلّ همّ سوء طارئ يُبتلون به يجاهدونه فيُصرف ويُكتب ذلك حسنة لهم (البخاري).

﴿وَاسْـــتَبَقَا الْـــبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥)

واستبقا الباب - يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، هو يبتغي مهرباً لأنه لا يملك عليها ســـلطة أمر مرشد ولا أذى صارف وهي لأنها تلاحقه حيث ما ولّى لا تستنكف عن حاجتها فيه، حاولت أن تدركه فأمسكت بقميصه فانقدّ طرفه من المشادّة. وكان قدر الله المنجي لعبده المخلص أن يلفيا عند الباب إذ اقتحماه فتحاً لغلقه ومنفذاً أو إمساكاً وردّاً أن يجـــدا ربّها واقفاً لديه يحاول دخول مغلق. أما هي فلم تنبهت خجلاً لتجمد صـــامتة أو تُولّي بل بادرت بمقولة كاذبة تَستر كيدها وتَشهر مقامها وتلقى الملام على يوســـف، قالـــت لبعلها تُبدي الغيرة على حصانتها وتُهيج سيّدها حمية لأهله لتُعاقب العدوان عليها - أن ما جزاء من أراد بأهله سوءاً كهذا إلا أن يسجن أو يعذب ضرباً مؤلماً أليماً، حقيق هو بذلك لا أن يكرم مثواه كما تعهدوه.

﴿قَـــالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُـــبُلٍ فَـــصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ﴾ (٢٦ – ٢٧)

فَعَقّب عليها الطَيْكِلاَ بكلمة الحق دفعاً عن نفسه: أنها هي التي راودته عن نفسه، لم يـــبادر هو و لم يتجاوز. وشهد شاهد من أهلها – قدّر الله أن يحضر ليشهد بالبيّنة التي تفصل بالحق وأن يكون من أهلها فإن كان في شهادته شبهة ميل فإليها، قال: إن كـــان قميصه قُدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين – بدأ بالنظر في البيّنة التي قد تـــشهد لها هي أن يكون قد اقتحمها ليباشرها بغتة فقاومته أو نـــزع هو من ثوبه أو عثر فيه اندفاعاً لا مراودة، وإن كان قميصه قُدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين – بيّنة إدبار منه ومجاذبة منها بالقميص لتردّه إليها.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٢٨)

فلمّا رأى الشاهد قميص يوسف الطَيْكِلاَ قُدّ من دُبر بانت له الواقعة بالحيث الذي ادّعـــاه يوسف شهادة عليها بحقّ الدّليل. وما شهد الشّاهد كلمة الحكم والملام عليها مفاصلة، بل كناية ملاطفة، قال إن الأمر من كيد يخاطبُ به النساء عموماً يُنسب إلى إن كيدهن عظيم – يشير إلى دفع شهوتهنّ في مراودة أحد لنيل المبتغى منه ثم تستّرهن ودرءهنّ للملام عليه كيداً عظيماً.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢٩)

ثمّ أقبل الشاهد على يوسف يناديه باسمه ليستدرك له براءته وكرامته وينصحه أن يُعـــرض عـــن هذا – ألا يذكره لأحد ولا يبدي غضباً أو يرتب فعلاً يؤاخذها به أو يعتـــزل بيتها، ثمّ انقلب عليها آخراً أن تستغفر عن ذنبها وذكّرها أنها كانت هي من الخاطئين في هذا الأمر بلا ريب.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٠)

وقـــال نـــسوة في المديـــنة: امـــرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه – ذلك كشأن الشّائعات التي تسري في أوساط مجتمع المدينة لاسيما بين النساء في شأن يعني الفاحشة

فـــشا لمـــشهد انكشافه على ملأ من الشهادة والبيّنة والملام في بيت العزيز نفسه على امـــرأته ذاتهـــا بمقامها، وعجبن أنها تراود فتاها وهو من العبرانيين الغرباء خدم البيت المهـــين دون من قد يكون أولى بذلك سواءً، ومهما يكن لم يبدر الأمر منه هو، فرأين أن قد دخل شغاف قلبها فأُلبس حباً واشتهاء لها، وإنهن ليرينها في ضلال مبين – ميلاً عما يليق بها من خلق مفضوحاً أمره.

﴿فَلَمَّــا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١)

فلمّـــا سمعـــت امـــرأة العزيـــز بمكرهنّ – والشائعات تدور فتعود إلى مصادر انطلاقهـــا، وهـــي قـــدّرت الأمر منهن غيرةً وتعييباً ومكراً كشأن الزيغ في أوساط النـــساء، أرســـلت إليهن – وهنّ مجيبات لدعوة مثلها، واعتدت لهن متكأ – هيأت فرشـــاً ونمـــارق ووسائد يتّكئن عليها وطعاماً وفاكهة معروضة، وآتت كلّ واحدة مـــنهن ســـكيناً لقطع ما بين أيديهنّ من لحم وفاكهة، وقالت ليوسف أمراً أن يخرج علـــيهنّ، فلمّـــا رأينه راعهنّ بجماله وفُتنّ فعرفن ما كنّ يذكرن من فتى خادم مهين وعظّمن جماله البالغ وقطّعن أيديهنّ بالسّكاكين التي كانت فيها لهواً وتحرّقاً إليه وقلن حاشا لله أن يجعل الله من مثلَ هذا ما كنّ يذكرن قبلاً، ما هذا بشراً ممّا ظننّا كسائر الرّجال الذكور ولو حسُن مشهدهم، إن هذا إلا ملك كريم – من السّماء يحبوه الله بجمال فوق البشر.

﴿قَالَــتْ فَــذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٣٢)

قالت امرأة العزيز – منشرحاً صدرها الآن لأمرهنّ: فذلكنّ – هذا البعيد الامتياز جمالاً هو الذي لامتّها فيه عن جهل بمرآه لأنها قد راودته عن نفسه وهمّت به وغلّقت الأبـــواب ولاحقته فاستعصم بصدوده وأبى، وأشهدتهنّ أنها متمادية في مبتغى شهوتها مـــنه وإن لم يفعل متجاوباً لها عن أمر لا مراودة وحسب ليسجننّ عزماً وليكونن حقاً مـــن الصاغرين المذلّين بعد إكرام في بيتها الكريم – كلمات قالتها لا تنكر فعلتها كما

ادّعـــت التطهّر من عاديته لأوّل انفضاحها ورمته بها لتحقّ عليه السّجن والصّغار وإنما ترهيباً له بذلك إلا أن يتخلّى عن اعتصامه بتطهّره منها.

﴿قَـــالَ رَبِّ الـــسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ممَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْه وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْـــبُ إِلَـــيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٣ – ٣٤)

نـــادى يوسف عليه السلام ربّه – إذ اشتدّت عليه وطأة أمر المرأة ترهبه بالسّجن إن لم يطاوعهـــا وحضرته مراودات على نهجها من أولئك النساء – قائلاً إن السّجن أحبّ إلـــيه ممّـــا يدعـــونه إليه – مهما يرى السجن كريهاً قيداً على طلاقة صلاته بالملأ من جمهـــور الناس وحريّة انتشاره في الأرض، فهوَ موئلاً عاصماً أَحبّ إليه ممّا يدعوه إليه مـــلأُ النساء من قرب الفواحش ومجاهداته لعسر الفتنة، واستغاث ربّه تعالى أنه إن لم يصرف عنه كيد أولئك النساء صدّاً لهنّ عنه وتثبيتاً لتقواه واستعصامه المصابر ويصبُ مـــيلاً إليهنّ ويكن من الجاهلين – الذين تذهب نوازع الشهوة بحلمهم السّوي رشداً. فاســـتجاب له ربّه – كما آتاه من قبل حكمةً وعلماً وأعاذه ثمّ برّأه من كيد المرأة – فصرف عنه كيدهنّ، لم تتزلزل به استقامته وتقواه. إنه تعالى هو السّميعُ – بالغ السّمع لـــنداء المبـــتلين، العلـــيمُ – محيط العلم ببلاء الكيد عليهم ووقعه على نفوسهم التقيّة الصابرة.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْد مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (٣٥)

ثم توالت ضواغط المرأة والنساء على يوسف عليه السلام، وبدا للعزيز وملئه – بعدما رأوا الآيـــات بيّـــنات شاهدة على تواتر مكايداتهنّ لا تنكفّ لتنال منه مبتغى منه – ليسجُنُنّه هو – ينبغي ذلك تحوطاً حتى حين تسكن من حوله ثائرات ذلك الكيد العادي وشائعاته.

﴿وَدَخَـــلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّـــي أَرَانِـــي أَحْمِـــلُ فَـــوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِه إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦)

وإذ أودع يوسف عليه السلام السّجن بإجماع الملأ – دخل معه السجن فتيان من موالي ذوي السلطان في مثل عمره في رفقة نجوى يتعزّى بها السّجناء من العزلة يلتمسون فيها

علـــى نحوٍ مسنون أُنساً يقصّون فيه القصص ويروون الرؤى لاسيما التي تبشّر بالفرج. قـــال أحدهما – أنه يرى نفسه يعصر خمراً – كأنه ممّا عهد من عصر الخدام والصنّاع خمـــراً لمن يليهم، وقال الآخر إنه يرى نفسه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه – كأنـــه إذ عهد حمل الخبز على رأسه لا يحفظه من الطير. وكانا من صحبة يوسف في السجن عرفاه يؤوِّل الأحاديث، فرجوه أن يعبّر لهم رؤاهم وذكروا له أنهما يريانه من المحـــسنين الذين يطيبون لرفاقهم في السّجن ويجودون بما لديهم من علم وخير على من يليهم إحساناً.

﴿قَـــالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانه إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيله قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلكُمَا ممَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ ملَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّه وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧)

قـــال يوسف عليه السلام لهما لا يأتيهما طعام يرزقانه في رؤى المنام – كما رزقا خمراً يُعـــصر وخبزاً يُحمل إلا نبّأهما بتأويله قبل أن يأتيهما متأوله ومحضراً مشهوداً لهما في الـــسّجن أو واقعاً مستقبلاً. وبيّن لهما أن ذلك العلم الغريب عنده ممّا علّمه ربّه بعض الغـــيب من تأويل الرؤى لأول نشأته وتالياً. ثم انتهز مناسبة ذكر العلم الذي تلقّاه من الله وافترص يسر الخطاب لهما في خلوة السّجن ليلقي عليهما كلمات هداية إلى الدين الحـــقّ التي مبتدأها أولاً التطهّر من سالف الظنون والعبادات قبل الهدى، فقال إنه ترك ملّـــة قـــوم ذوي ثقافـــة لا يؤمنون فيها بالله الأعلى غيباً إذ لا ينفذون إليه عبر آياته المشهودة ويقصرون دينهم على مقدّسات دونه تباشرهم يشبعون بعبادتها حاجة الفطرة النّازعة للإيمان، وهم كذلك في فتنة ممّا يليهم من متاع الحياة الحاضر لا يرون في آيات الطبـــيعة مـــن دورة المـــوت والحياة والغياب والطّلوع ومن توازن الكون المنظوم ما يدعوهم للإيمان بالآخرة لأجل يبعث فيه الناس لحياة أخرى تعدل الأولى، ولذلك هم بالآخرة هم حقاً كافرون مغمور حقَّها في قلوبهم.

﴿وَاتَّـــبَعْتُ ملَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّه من شَيْءٍ ذَلكَ من فَضْلِ اللّه عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ (٣٨)

ومـــضى يوسف عليه السلام يحدّث الفتيين أنه اتّبع ملة آبائه إبراهيم عليه السلام – إمام الملّة الحنيفـــية الموحّدة لله معبوداً، وإسحق ويعقوب عليهما السلام من ذرّيته اللذين خلفاه

علـــى ذات العهد والسنّة، وأهم ما كان لهم ولا استقام أن يشركوا بالله من شيء إذ عـــرفوه وحده متعالياً غنيّاً كافياً والياً في الوجود وإن ذلك من فضل الله عليهم عطاءً مـــباركاً إذ ألهمهم الحقّ وزكّى إيمانهم وهدى حياتهم بالوحي المتنـــزل، وذلك فضل يبـــسطه الله على الناس كافة لعلّهم يتناولون نعمته، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله محموداً على فضل الخلق والهدى من الغيب ولا يصدّقون ردّ الجميل باتّباع سبيله حياة عابـــدة مستقيمة على صراط مستقيم بل يشركون به تعالى شكر الأرباب والأسباب المشهودة.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩)

وناداهمـــا صاحبين له في السجن يؤلّف قلبيهما إليه ليتدبرا مراحل الاهتداء مثله تطهّـــراً مـــن الإشـــراك بـــالله إلى الاعتصام بتوحيده، وساءلهما عن ذلك: أأرباب متفـــرقون - كمـــا يـــتّخذ الذين يقصرون العبادة على ما يتعلّقون من طبيعة الأشياء المـــشهودة حولهم وما يرهنهم من أعراف آبائهم المترسخة عهداً فيهم، فيتّخذ كل قوم ربـــاً يفـــرق حياتهم إذ يتعلّقونه فيها بوجه ويشركون أرباباً آخرين بسائر وجوهها أو يتفرقون شيعاً بشتّى الأرباب - أذلك خير أم الله الواحد القهّار - الإله الواحد المعهود للخلق كافّة لا يضاهيه ولا يضارعه إله مظنون ولا يشاركه في سلطانه ربّ لأنه قهّار بقدره للكون المخلوق كله يصرفه من كل وجه؟

﴿مَـــا تَعْبُدُونَ من دُونه إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنـــزَلَ اللّهُ بهَا مـــن سُلْطَان إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٠)

وذكّر يوسف عليه السلام صاحبيه بما يعهدا هما من مذهب التديّن لعموم قوم مصر ولّما يـــأتهم الهدى لله الواحد القهّار وذكّرهما أنهما في أولئك القوم ما يعبدون من دونه سبحانه وتعالى إلا أسماء ما هي بذوات آلهة في الوجود ولكن سموها كذلك ظناً وتعلّقاً بها هم وآباءهم ومـــثلوها معـــبودات وتـــوالت بهـــا الأيام معهودة، ما أنـــزل الله بها من الغيب من ســـلطان - حجة ذات سلطة من الوحي يخشع الناس لها بحقّ. ومضى يقرر لهما الحقّ: إن الحكـــمُ إلا لله - فصلُ الأمر كله في الوجود يحكمه الله القهّار، قضاؤه يسري على

كـــل أحـــوال الناس نفعاً وضرّاً، وقدره يصرّف كل ما حولهم من المخلوق المشهود، وتكلـــيفه فرض حق بسلطانه يخاطب كل عباده الخلق، أمر هو تعالى ألا يعبدوا هم في مـــصر ولا سواهم إلا إياه عبادة تتصوب إليه خالصة. وختم يوسف تذكرته لهما أن ذلـــك الدين القيم متوجهاً إليه تعالى بالعبادة على صراط لا يعوج، غير دين الذين لا يـــستقيمون لمقصد في الحياة تتنازعهم تعلّقات الأرباب المتفرقة وتضطرب بهم الظنون القاصرة دون الغيب، ولكن أكثر الناس من جمهور خلقه البشر لا يعلمون برهان الدين الحقّ، لا يوقنون بالله غيباً وراء آياته المشهودة ولا يؤمنون بهداه المنـــزل علماً وحكمة في الحياة.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (٤١)

أمـــا وقد بلّغ كلمات في دعوته إلى تراث الدّين القيم ولا يريد أن يثقل عليهما بعدئـــذ بمـــزيد مـــن وصـــايا الحـــق وهما ينتظران تأويله لرؤيتين سألاه عنهما، عاد يوسف عليه السلام يخاطبهما صاحبـــي سجن له أليفين يُفتيهما: أما أحدهما – وهو العاصر خمراً – فيسقي ربّه ومولاه خمراً يتمثّل في رؤيته العَود لما عهد من خدمته عصراً وسقيا قـــبل ما جرّه إلى السجن، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه – لعلّ في رؤيته كانـــت تتمثل عاقبة ما سُجن لأجله حاملاً وزر ما عَمد إليه من أخذ نفس بغير الحق، جـــزاؤه كفاءً أن يؤخذ هو فيصلب، ويترك حتى تأكل الطير من رأسه مثال أخذ من نفسه عدلاً لما حمل هو فوق رأسه متاعاً لها من أخرى مظلومة. وأبلغهما يوسف نهاية فـــتواه الـــتي ألقاهـــا بجـــدّ وإن تمايزت فيها بشارة ونذارة: أنه قُضي الأمر الذي فيه يستفتيان، كأنه يرمز إلى أن تأويله بما علّمه الله يحق مقضياً فيه صدقاً فيما يستقبلان.

﴿وَقَـــالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢)

الظـــن رأي يقر في الوجدان عمّا هو متوقّع في غيب الحاضر أو المستقبل احتمالاً أو جزماً. وقال يوسف عليه السلام – بعد فتواه في تأويل الرؤيا – للذي ظنّ موقناً بعلمه أنه ناج من صاحبـــي سجنه – فرجاً مرجوّاً وقربى من الملك – قال له اذكرني عند ربّك

مستـــشفعاً لفرجـــي بمـــا تعلم عني، وربّه مولاه هو الملك ذو السلطان لأمر السّجن والفـــرج. وحقّ التّعبير للرؤيا إذا فُرّج عن صاحب يوسف لكن أنساه الشيطان – إذ غمرته فرحة الفرج وهموم خدمة مجالس سقيا الخمر أن يذكر أمر يوسف لربّه مترجّياً تـــسريحه. فلـــبث يوسف ساكناً راجياً في السّجن بضع سنين – سنوات دون التسع. ولعـــلّ الله قـــضاها علـــيه غيباً لتزكّيه الخلوة بذكر الله الخالص من كل شاغل أو لاهٍ وتـــزيده إيمانـــاً وقـــوة صبر لمجاهدة ما يستقبل من بلاءات الحياة وقوة السلطان وليتم اجتباؤه من الله بالنبوّة.

﴿وَقَـــالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَات سِمَان يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَت خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَات يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣)

وقـــال ملـــك مصر – يروي لملئه رؤيا في منامه: إنه يرى – كأن حضرته بعد الـــيقظة إذ يـــرويها– سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف هزال – والبقر موصول بالزرع عندهم لكنه بطبعه المشهود لا يأكل بعضه بعضاً، ويرى كذلك سبع سنبلات خـــضر وأخـــر يابـــسات – والسنبل مخرج حبّ الخضر المزروع مطلعه وعد وقدر للمحصول المرجوّ وأول أكله وإذا طلع واعداً ثم جفّ السماء الذي يسقي الزرع ذبل حـــبّه ويـــبس وخاب حاصله. وخاطب الملك من حوله يناديهم منبهاً لهم هم الملأ أن يفتوه في أمره إن كانوا للرؤيا يعبرون. فالناس تعجبهم الرؤى ويجعلونها أحاديث تُروى ولكن الذين يعبرون بعلم تأويلها إلى واقعها قليل.

﴿قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ﴾ (٤٤)

وإذ لم يـــبدُ للملأ في رؤيا الملك وجهُ تأويل قالوا له: أضغاث أحلام، يصرفونها أخـــلاط خواطر واهية – كأنها قبضات حشيش – من أحلام الباطل التي تغشى النوّم. ولكـــن – اســـتدراكاً وتـــوقيراً للملك الذي لا تُحمل رؤياه على ذلك هوناً بقول صريح – أضافوا لذلك أن ما هم بتأويل الأحلام بعالمين.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّة أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥)

وقـــال طليق السجن من صاحبـــي يوسف عليه السلام الذي نسي وصيته وادّكر بعد أمّـــة – تذكّر بعد جملة من مدّ الزمان إذ ذكّرته مناسبة تأويل رؤية الملك بعلم يوسف

وتبـــشيره الصادق بالتأويل – قال بعدئذٍ إنه هو يُنبئهم بتأويل ذلك الحلم فليرسلوه إلى السّجن ليستعين بصاحبه القديم.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦)

وهـــنالك خاطـــب ذلك النّاجي يوسف سمّاه منادياً له بصفة الصدّيق بليغ الصّدق في مقـــولاته ورجاه أن يُفتيهم في سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، وذكر له أن لعلّه يسمع منه التعبير الصّادق فيرجع إلى الناس لعلهم يعلمون.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُـــمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (٤٧ – ٤٨ – ٤٩)

لم يكتم يوسف عليه السلام علمه في التأويل ولو على سجّانيه بل لعلّه همّه في الأمر ما رأى فـــيه من ضرورة التهيّؤ لبأساء قادمة تصيب الناس عامّة لعلّهم يُعدّون ما يدفعها بـــتوفير حاجاتهم سبقاً لها ثم باقتصاد وتدبير حتى يبلغوا نعماء الفرج منها. قال لهم أن يـــزرعوا – أمراً بمقتضى الرؤيا – سبع سنين دأباً لا يفتروا ولا يكفّوا في سنة ليفيض محـــصول وافـــر، فما حصدوا من حب ينبغي أن يذروه في سنابله محفوظاً لئلا يفسده السّوس، إلا قليلاً ممّا يأكلون اقتصاداً. ثم يأتي مرتداً عليهم من دورات المناخ والمحصول المعهودة سبعٌ شداد من سنيّ القحط إذ يقلّ الغيث ويقصر فيض النيل – سنوات بؤس يـــأكلنَ ما قدموا لهنّ من المخزون إلا قليلاً ممّا يحصنون بقيّةً محرزة في خزائنهم، ثم يأتي مـــن بعد ذلك حولُ الوُسع – عامٌ عاقبٌ لسنيّ البأساء فيه يُغاث الناس – بماء السّماء غيـــثاً وفـــيض بحرِ النيل غوثاً، فينعم ويغنى زرعُهم تخرج حبوبهم فيأكلون بل تزدهر أعنابهم فيعصرون شرابهم منها.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (٥٠)

وقـــال الملـــك – لمّـــا سمع التأويل وعجب من حسن تعبيره لرؤياه بما يماثل مشاهدها – أن يأتوه بيوسف يريد أن يسمع منه وربما يكرمه ويسرّحه. فلمّا جاء

يوســـف الْعَلَيْهِ رسولُ الملك ما تداعى به الفرح خارجاً من السّجن ومُقدماً على لقـــاء الملـــك بل قال له أن يرجع إلى ربّه الملك - فليسأله ليتحرى ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ تحرقاً إليه لدى امرأة العزيز، ثمّ ما خطبهنّ أن ظللن يكدن له ويــــراودنه حتى أدى به الأمر إلى السّجن، وطوى ذكر امرأة العزيز حياءً وإكراماً لسيّدها، وذكر أن ربّه الله بكيدهنّ عليم بالغ العلم ولكن يلزمه ألا يرى الملك وما انفـــكّ هـــو مظنوناً به - إلاّ أن يبين الحق البيّن الذي شهد به هو قديماً فما أغناه قوله.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُـــوءٍ قَالَـــتِ امْـــرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥١)

وإذ حـــضر النـــساء تلقاء الدّعوة قال لهنّ رّسول الملك أن ما خطبهنّ إن راودن يوسف عن نفسه منذ تلك الواقعة في بيت العزيز؟ قلنَ - تائبات إلى الحق - أن حاشا لله مـــا علمن عليه من سوء، يحاشينه حقاً لله أن يحقّ عليه ظنّهن متهوماً بسوء يعلمنه، مهما يكن ما جرى منهنّ عليه. ومهما طوى يوسفُ ذكرها انبرت امرأة العزيز الأولى معنيّةً بالأمر، قالت وقد أحاطت بها الشهادات من النساء وراجعتها ذكرى قول الحقّ في ســـياق جديـــد ليوسف بين يدي الملك: الآن حصحص الحقّ ودقّت بينته فاصلة، واعتـــرفت أنها هي راودته عن نفسه، وقالت إنه لمن الصّادقين إذ تبرّأ ممّا رمته به كذباً وردّ عليها صدقاً.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٢)

وإذ بلـــغ يوسفَ الْعَلَيْهِ تجلّي البيّنات بالحق وصلها سياق الآية بما خرج منه من كلمات مطمئنة أن ذلك كذلك ليعلم العزيزُ أنه لم يخنه في حرم بيته بالغيب، وأنّ الله لا يهـــدي كيد الخائنين إلى خير لأنفسهم يتمنّونه بل يضلّ كيدهم حتّى يصير لأجل إلى خـــسران - كأنه وقد بان الحقّ يشير هنا إلى أن الله هداه هو إلى خير الآن أميناً حافظـــاً للغـــيب بينما ضلّ وخسر كيدُ الخائن بين المختصمين في ذلك الأمر القديم الذي عناه.

﴿وَمَـــا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥٣)

وأتمّها يوسف ﷺ بكلمات متواضعة أنه ما يبرّئ نفسه تزكية مطلقة لها، برّأها أمـــس علـــى المـــلأ ممّا رُمى به ولكنه لا يبرئها معصومة أبداً من غاشيات الهوى، إن النفس – للإنسان – لأمّارة بالسوء إذ هي عرضة للهوى الدفّاع والشيطان الغرور، إلا مـــا رحـــم ربّه من حيثٍ في سلوكها يزكّي الله تقواها ويعيذها من الشيطان ويوفّق اعتـــصامها بـــه إن ربّه غفور رحيم واسع المغفرة دقيق الرّحمة، حتى إذا حملت النّفس صاحبها إلى زلّة ما، إن آب إلى ربّه مستغفراً مسترحماً، إن ربّه هو التوّاب للمتطهرين.

﴿وَقَـــالَ الْمَلِـــكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤)

وانـــضاف تلقـــاءً بعد كل تلك الشهادات ليوسف ﷺ والمقولات منه أن قال الملـــك آمراً ملأه أن يأتوه به – لا كما سبق أمر حضور وحسب ليتبيّن تأويل رؤياه، ولا لشيء من تكرمة، بل ليرتب على حضوره أن يستخلصه لنفسه، يتولاّه هو لأموره الخاصـــة. فلمّـــا جيء به وكلّمه ترحيباً به قال له اليوم – لم يعد سجيناً – بل هو من العاملين لدى ديوان الملك وملئه ذو مكانة عالية وأمين موضع أمانة.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٥)

ورأى يوسف ﷺ وقد وُلِّي مرتبة وثيقة دون أن يتطلّب الولاية أن يتخيّر ما يناسبه ومـــا يفي بحاجات الرّعيّة كما رآها في رؤية الملك بتأويله. قال للملك أن يجعله على خـــزائن الأرض والياً على شأن محصولاتها الغذائية يخزّنها في حصون السلطان ويصرف مـــنها بـــسطاً وعـــدلاً للمحتاجين في حالة البأساء واقتصاداً لرعاية الاحتياط لتقلّب السنين. وذكر لنفسه صيغةً لا يزكّي بها نفسه ولكن يظنّها بيان ما هو أهل له ويناسبه مـــن حفظ الأشياء لاسيما المخزون من غذاء الرّعيّة وما لديه من علم بتقدير الحاجات والمصارف وحساب بقيّة المخزون ومرجو الوارد من محصول الانتاج كل عام وما يفي بالخطط الراتبة لأجل معدود، فهو حفيظ عليم من حيث مقتضيات تأويل تلك الرؤيا، لم يسأل الإمارة بل أُعطيها فبيّن الأخصّ منها المناسب ما يقدر عليه ضبطاً وعلماً.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)

وكـــذلك – كما ذكر من توالي الأقدار المنظومة تلاه أن مكّن الله بعظيم أقداره ليوسف عليه السلام في الأرض ولاية في سلطان مصر يتبوّأ منها موطناً ومسعى في أي موقع منها حيثما يشاء الله إنه بأقدار التوفيق والتيسير المحيطة يصيب برحمته من يشاء – يُعيِّن مـــن هـــو أهـــل لرحمة التبوّء والتمكن فيناله بها، ولا يضيع أجر المحسنين الذين وفّوا بمقتضى الإيمان والصلاح حتى بلغوا انتهاج الإحسان في حياتهم ممّا أولاهم عند الله حقّاً ألا يضيع جزاؤه، يعاجل الله بأجرهم في الدنيا خلافة في الأرض أو متاعاً ويؤجّل أجر الآخرة الموعود. وتلك تذكرة في سياق عبرة القصّة للرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ولمن اتّبعه وهم في مكّة أول الطريق، لمن بلغ الإحسان إيماناً وصبراً على البلايا وينتظر أجر الله القريب في عاقبة دنياه.

﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ (٥٧)

والحـــقّ الأكيد: أجر الآخرة خيرٌ من أجر الدنيا، أعظم قدراً وأخلد مدى، وهو مرهون لمن كسبه بحقه عند الله، للذين آمنوا بالغيب وكانوا في سيرة حياتهم يتّقون أن تفتـــنهم الدنيا بمشهوداتها فتحجبهم من تذكّر الغيب أو تغريهم بمبتغياتها عن التزام حدّ الهـــدى وطريقه المشروع. وتلك أيضاً تذكرة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين في مكّة أن يمـــدّوا سيرهم صوب ابتغاء الأجر ورجائه بثبات الإيمان والتقوى مهما يتطاول البلاء ولو حقّت لهم تلك العاقبة وراء الموت في الآجلة.

عموم المعاني (الآيات ٢١ – ٥٧):

كـــان يوســـف عليه السلام صبياً إذ أخذه كيد أخوته في غرّة، ولكنه من بعد تعرّض لابـــتلاءات محـــيطة متقلّبة فتجاوزها بمجاهدات ومصابرات مستعينا مخلصاً لربّه الذي أعقبه رحمة مصائر رقت به عزة في الدنيا وأجراً عند ربّه محسناً.

كان أول البلاء أن تمكن في الأرض بقدر الله الغالب، اشتراه عزيز من مصر وآواه في بيـــته وأوصـــى به امرأته لتكرمه مرجواً أن ينفعهم أو يتّخذوه ولداً، وبلغ ثمة أشُدّه

فآتاه الله حكمة وعلماً. لكنه كان فتىً حسن الوجه وألفته المرأة في خلوة بيتها فأوقعها الشيطان في حبه مشتهى وبادرته عن نفسه وهمّت به وغلّقت الأبواب ودعته ملحّة ألا يدبـــر عنها، فاستعاذ بالله من خيانة حرمة ذلك البيت واستعصم ببرهان الحق من ربّه واستعان به مخلصاً أن يصرف عنه السوء والفحشاء. ولم يكن المحيص عنها إلا أن ألفيا ســـيدها لدى الباب الذي اقتحماه فراراً وجذباً، فانقلبت هي عليه ترميه بذلك السوء وتـــتطلّب عقابـــه. وما أجداه أن يرد الأمر إلى مراودها هي له عن نفسه، وإنما أسعفه شـــاهد من أهلها ليرى كيف قُدّ قميصه، فلمّا رآه من دُبر صدّقه وصرفه ليعرض عن الأمر الذي رآه هو معتاد كيد النساء. وأحاقت بها الشائعة في المدينة من نساء فدعتهن وفرشـــت لهن وعرضت طعاماً وسكاكين لتناوله، فلما أخرجت يوسف عليهن أكبرنه وقطّعـــن أيـــديهن تحـــرقاً وقلنَ ما هذا بشراً إن هو إلا ملك كريم، وتداعى من بعدُ مكرهنّ عليه. ولكنه كان يؤثر التأبّي المنصرّف عنهنّ معتصماً ولو أدى به إلى السّجن. أما ربّه ﷻ فاستجاب وعصمه، وأما الملأ فأغمضوا عن آيات طهره وأودعوه السّجن لحين. هذه الفتنة ليوسف التي تكثفّت حوله واشتدّت وطأتها بأبلغ من وُسع فتى مولى مثله جاهدها هو بالمصابرة والملجأ إلى ربّه الذي استجاب لعبد مخلص. فمثاله حقيق أن يقـــصّه الله في القـــرآن على سائر عباده ليريهم مواقع الفتنة في خلوة البيوت المسكونة ودواعـــيها حتى بمبادرات امرأة عزيزة على فتى خادم لا تكفّها قائلات النساء عنها بل قـــد يـــتداعين بعدُ معها. إن الاستعانة بالله عاصماً ممّا يغالب به المؤمن أشدَّ ضروب الفتنة، وإن فعلة السوء إذا انفضحت قد يُرمى بها الأبرياء، وأن دفاع البريء عن نفسه قد لا يُجدي إلا أن يصادف شاهداً موثوق البيّنة – مهما يكن ميله يشهد لجانبه، وأنه قد لا يلقى البريء من بعد حقاً إلا أن يُصرف ليمضي ولا يلقى المذنب إلا عتباً وتذكيراً، وأن يـــسنده حـــقّ البيّنات بريئاً لكن يقضي عليه في نظام سلطان جائر ليودع سجناً لأجل غير مسمى لا عقوبة لفعلة منه بل يعتقل تحفظاً مما قد يثار حوله من فتنة شائعة!

والسجن بلاء قاس لكن فيه خلوة يفرغ فيها الإنسان لإخلاص عبادة وتذكّر لله الـــواحد القهّـــار، والسجن عزلةٌ ولكن قد تكتب فيه رفقة إكراه وتتاح معها أحيانُ نجـــوى قد يفترصها السّجين الذي تعلم ويزداد علماً ليفيض على أصحابه. وأصحاب

السّجن يتعزّون بالمؤانسة إذ يخوضون في الأحاديث تعارفاً بماضيهم ومذاهبهم في الحياة وكـثيراً مـا يرون عند المنام رؤى يروون في الصباح أحدوثاتها يترجّون أن يتأولها من حـولهم لعلها بشرى نجاة من السّجن. ويوسف جرى به الأمر كذلك، فروى القرآن قصّته مثالاً حسناً: ما اعتزل صحبه في السجن فتيان مثله بل كان محسناً، ولما استفتياه في رؤيـتين لهمـا اجتذب انتباههما إليه بأنه عالم تأويل، واغتنم ساعة استماعهما له لـيقدّم لهما دعوة دين ناصحة - عرّفهما فيها بنفسه وسلفه مذهب تطهّر من الكفر بالغـيب وملّـة توحيد لله معبوداً، وداولها تذكراً بأن الله الواحد القهّار خير ممّا عهد قـومهما مـن أرباب متفرّقة تديناً بأسماء مؤلهات موروثة باطلة لا حجة لها جهلاً بأن حكم الحياة والأمر كله لله وضلالاً عن ذلك الدين القيّم، ثم أقبل يقضي أمر رؤيتيهما يعـبرها كما علّمه الله صدق التأويل يبشّر أحدهما بما رأى وينذر الآخر. ولئن أوصى الـذي ظنّه ناجياً أن يذكره عند ربّه - الملك الجبّار الذي يسجن ويسرّح كما يشاء، فقـد نجـا ذلك الفتى حقاً ولكنه نسي التذكرة إذ صرفته مشاغل الحياة وهموم خدمة الملـك. وهـذه عظة للذين يُسجنون ظلماً ألا يحسبوا أن المخرجين قد يشفعون لهم بوسـاطة تـذكير، لأن هؤلاء إذا انطلقوا من أبواب السجن يطلّقون كل ما عهدوه وراءهـم. ولْـيعلم المسجونون أن بضع سنين ليست ضياعاً لمدى عزيز من الحياة التي تـبدوا حيّة عامرة خارج السّجن ميتة داخله، ولكنها قد تكون حين تذكير لأصحاب أو إعـداد زاد من العلم والتذكر غنى كاف لما يعقبه بعد الفرج يعمر متوافراً خيراً من كسب الأحرار غير المسجونين. ومهما يكن فمدى السّجن - لاسيّما إذا دبّره ساسة سـلطان جـبروت ونساؤهم - قد لا تدري نفس متى يأتي أجل منتهاه إلا أن يسأل السّجين ربّه عاجلَ المخرج وأحسنَه.

هكـذا قدّر الله ليوسف عليه السلام أن يلبث بضع سنين حتّى رأى الملك - السجّان الأكبر - رؤية أعجز ملأه تعبيرُها حسبوها أضغاث أحلام ملكيّة لكنهم أعرضوا عنها بـأنهم مـا هـم بعالمي تأويل. ولكن ذلك الذي نجا تذكّر فعاد إلى يوسف في سجنه لیـستفتيه التأويل. وما أعرض يوسف غاضباً من غبن الظلم، فقد رأى في تأويله الرؤيا نذير بأساء تباشر جمهور الرعيّة واستنبط منها هدى لمصابرتها دون هلاك والنفاذ منها

إلى عاقبة متاع طيب، فآثر أن يؤتي الناس ما آتاه الله من ثمرة علم صدقةً مفروضة عليه يُرضى بها ربّه الذي علّمه ولو أغضبه هو سلطانُ القوم. وتلك عبرة للمظلومين المتّقين الــذين إذا ما غضبوا هم يغفرون. أوّلَ يوسف مشهد البقرات السّبع السّمان والسّنابل الخــضر في الرؤيا أنه عهد عمار في الزراعة وبركة في المحصول، والعجاف واليابسات السّبع دورة مناخية لسنين من الجفاف وانحسار النيل بأساء قحط موصولة إلا مأكولاً بقــي من الأولى، وأفتى بمقتضى ذلك من سياسة الزراعة والتخزين واقتصاد التموين. ويوســف – وإن قاسى من السجن – ما استجاب لأمر الملك أن يؤتى به بعد أن بلغه الــتأويل فرحاً بفور الإفراج، بل طالب رسول الملك إليه أن يرجع ليستجوب أولئك النــساء عن فعلهن ومكرهن. وبعد مرّ السّنين هداهن الله فبرّأنه من كل سوء ولحقت بهــنّ امرأة العزيز مُقرّة أن قد حصحص الحقّ عندئذ معترفة بالفِعلة على نفسها. وحق ليوســف بعــد أن يــشهد الملأ عن بيّنة أنه ما كانٍ بخائن للعزيز في بيته وغيبته، لكنه اســتدرك أنــه لا يمضي يزكّي نفسه ببراءة وطهر مطلق من الذنوب وأن النفس أمّارة بالــسوء إلا مــا رحم ربّه إنه غفور رحيم. وأمرُ يوسف ذلك كله سابقة مثال قصّها القرآن للاعتبار – ألا يحسب الخالفون النساء يفسدن بالشهوات طبعاً مختوماً بل الأوبة إلى الــتوبة والصدق يوم قد يختلجنه كما جرى من أولئك النساء – والله أعلم بهنّ إن كــنّ تــبن حقــاً أم رجعــن بضغوط التحدي من الملك. وإعلان يوسف بعد تواتر الــشهادات لجانبه قدوةٌ ألا يفاخر المرء بطهارته مزكياً نفسه، والحق أن النفس أمّارة بالــسوء إلا ما رحم الله وغفر فإنها توّابة أوّابة للطهر والخير. وقد حسب بعض قارئي القــرآن تلك الكلمات الحق في القصة صادرة من إمرأة العزيز لا لأنهم عدوها بلغت ذلــك من التقوى وإنما جعلوا ليوسف عصمة أن تأمره نفسه هو بالسوء أبداً – وتلك عصمة ينسبونها دائماً للأنبياء. وذلك قول عجيب، فالناس كافة منذ آدم عليه السلام مبتلون لــيجاهدوا فــتن الدنــيا قد يهتدون ويصلحون أو يعصون ويغوون يغرّهم الشيطان. وبعض الأنبياء يذكر لهم القرآن ذنوباً ليست لمماً غفرها الله وجعل لهم بعدها زلفى إليه وحــسن مآب، وقصّ نبأهم ذاك للخالفين ليقوموا هم أمثلة وقدى للذين يتبعونهم من المؤمــنين بــشراً مثلهم قد يعتريهم السّوء بلاء يتوالى لكن يجاهدون كل حين توّابين

متطهرين ألاّ تحيط بهم الذنوب. وإنما الأنبياء أعلى مقاماً من عامّة المؤمنين لأنهم كانوا أكثر عُرضة من أوسط الناس للامتحان الأشدّ وكانوا أزكى تقوى وأقوى صبراً وأخلص اعتصاماً بالله ومتاباً إليه بعد الزّلل، وما هم بمعصومين طبعاً لأنهم عندئذ لا يؤجرون، بل كانوا بالغين الإحسانَ بكسبهم مجاهدةً وصبراً وكانوا بفضلهم درجات مثالاً عالياً للتّابعين، والمرتقى في درجهم متاح لسائر المقتدين تأسّياً بهم المجتهدين نحو مبالغهم الطامعين في رفقتهم في الآخرة وحسُن أولئك رفيقاً.

وبعدما سمع الملك من تزكية ليوسف ﷺ ومن تواضعه هو إلا رجاءً لرحمة العصمة من ربّه، قال أن يأتوه به لا مُحضراً لسماع بل مجتبى نفسه، فلمّا كلّمه قال له إنه اليوم لديهم مكين أمين. وما ترك له يوسف أن يضعه حيثما يصرّف ولايات الدّيوان ولو بلغ به فيها وسعاً، بل طلب منه أن يجعله على خزائن الأرض إنه حفيظ عليها عليم. ذلك أنه يريد أن يستعمل من علمه بتأويل الرؤية هدياً في اتّخاذ الخطّة التي رآها لازمة لتأمين معاش الرعية – دأب إنتاجٍ زراعي موصولاً سبع سنين ثم صرف استهلاك مقتصد وإحصان احتياط حتى تُجاوز سنيّ أزمة القحط إلى السّعة. وكان يوسف مثالاً للناس في الحياة العامّة – آثر أولاً السّجن على الحرية إن كانت قد تجرّه إلى فتنة، ثم آثر ألا يخرج عجلاً إلى الحرّيّة بل يمكث حتّى يخرج سالماً من مكائد الفتنة مبرّءاً من تهومها الكاذبة، وما طلب من الملك الولاية عوضاً عمّا جرى له ظلماً ولا شهوة في السلطة استغلالاً لمقام المكنة المأمونة قوة طاغية على الناس ولا جلباً لمال مفروض عليهم له فيه يد السلطان، وإنما حُمّل الولاية لدى الملك عموماً وأراد هو أن يخصّها بما هو به عليم ممّا علّمه الله عبر تأويل الرؤية من انبساط المتاع ثم أزمته حتى الفرج والتدبير لكل ذلك، وهو حفيظ بما حفظه الله وزكّى عصمته منذ بيت العزيز من الشهوات، لم يخُن في حرمة مال أو امرأة. وذلك أيضاً مثال حسن – ألا يطلب المؤمن التقي ولاية السلطان فإنه إن أُعطيها عن مسألة أوكلت إليه فأصبح عرضة أن تفتنه وتجرّ عليه وبال حساب في الدنيا والآخرة، وإن أعطيها من غير مسألة أعين عليها من صحبة في الدنيا وولاية من الله المستعان (صحيح مسلم). الحق الناصح ألا يقتحم المؤمن ولاية السلطان حرصاً منه لأنها فتنة تبسط يد الطغيان على الرعية وعلى أكل

أمـــوالها الحـــرام بالـــباطل، وألا يتقبّلها موكولة إليه إلا أن يرى نفسه متهيأً لها كفاية لتكالـــيفها ومجاهدة لفتنها، وأن يلتمس الإعانة عليها بمراقبة ومحاسبة وضبط من قريب خـــشية أن يـــرجع أمره إلى الله الحسيب الرقيب الذي لا مرجع من لقائه ولا مصرف لحكـــم جزائه. ويوسف أنبأه تأويلُ الرؤيا بدورة أعوام نتاج ويسر وسني قحط وعسر حـــتى تـــبلغ المنتهى، فأتمّ التأويل بمدد من نعمة حكمة وعلم أُوتيها من الله منذ بلوغه أشدّه، فرأى أن خير الاعتبار للرؤيا العمل بمقتضاها دورة طيبة يدأب الناس فيها زرعاً لحـــبوب الغذاء وبعد استهلاك مقتصد يذرون وافر محصولها في السنابل حتى لا يفسده السّوس ثم يعبُرون دورة القحطِ العاقبة يأكلون مخزونهم إلا حصن احتياط حتى يحلّ عام الغيث وتأتي الكفاية الغنية أكلاً وعصراً. وذلك علم من يوسف بتخطيطٍ التدابير لقادم الأحوال المنظورة تهيئة للإعداد وأمناً للرصيد لها. وتلك عبرة باقية لمن وُلّي أمر المؤمنين العام لاسيما في شأن معاشهم ومعاش العالم حولهم والحيوان معهم – أن يقدّروا رؤية الـــسنين القابلة بعلومهم وتجاربهم – إن لم توافهم الرؤى مناماً – وأن يكثّفوا الإنتاج دأبـــاً في الزراعة وإصلاحاً للأرض وتسميداً واتّخاذ أداة آلية لزرعها طالما تيسر، وألا يـــبذروا في الاستهلاك تبذيراً، وألا يقبضوا بل يراعوا مدّ الرعية بتموين حاجة المعاش طـــوال ضـــائقة تطرأ غاشية ولا يجعلوا يد السلطان مغلولة عن ضروراتهم حتى تُسوى الأمـــور باعـــتدال الأعوام، وأن يحسنوا التخزين والتحصين للمحصول ويراقبوا أمانة الحفـــظ وألا يفـــرطوا في التخـــزين للاحتكار والاغلاء، وأن يحسنوا وسائل النقل. والتخطـــيط علـــم أَولى بـــه المؤمنون لأنهم يعدّون طوال حياتهم للآخرة يسعون دأباً ليتـــزودوا حـــسنات ويأخذوا نصيبهم الباقي من الدنيا جزاء بعد الممات، ولا يدرون عمـــوماً أجـــل الوفاة فهم يجتهدون كأنهم يُتوفّون لغدهم، فحريٌّ بهم مؤمنين بالغيب الآجـــل أن تغـــزّر عندهم علوم التخطيط وتتكثف مساعي الإعداد والاحتياط في كل شـــئون حياتهم اقتصاداً ومجتمعاً وسياسة وثقافة وسوى ذلك – خيراً مما عند الذين لا يؤمـــنون بالآخرة يقصر نظرهم وتخطيطهم للقريب في الدنيا. ولكن قصر النظر وبؤس التخطـــيط والإعداد أصبح اليوم أوسع مدى عند المسلمين الغافلين عن مستقبل الدنيا القائلين بأنهم يؤمنون بما وراءها وما هم بمعدّي كثير زاد لأجله.

﴿وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (٥٨)

وكـــان أن تولّى يوسف الكَلِيْلاَ مكانة أمينة لمدّ رعية السلطان من مخازن أرضها حين البأســاء بل لمدّ الرعايا من جيرتها كبلاد يعقوب وإسحق وإبراهيم. وإنما مذكور القصة في هــذا المجــال مــن سيرة يوسف هو ما انضاف إليها معلَماً ومفصلاً ذي شأن في تطوّرها وتجلّــي عبرها البالغة، وهو ما يلي: أن جاء إخوة يوسف فدخلوا عليه متولّياً مخازن الغذاء يبــتغون مــنه ويلتمسون مدداً وقد ضربتهم البأساء في بلادهم ويعاوضون بما عندهم من بــضاعة. وكان والياً سمحاً مع الرّعيّة يفتح أبوابه لهم، ولذلك دخلوا عليه فعرفهم – إذ ما كــان ذلك عسيراً عليه وقد لازمته ذكرى أبيه وإخوانه أولئك وما وقع منهم كيداً له وإذ تبيّــنهم ركب طلاب للتّموين آت من موطنه الأوّل في فلسطين. ذلك وهم له منكرون، لأن ذكــراه نسيت وصورة وجهه انغمرت في نفوسهم مذ ألقوه في الجُبّ لتلتقطه سيّارة عابرة واطمأنوا أنهم قد ارتاحوا بغيابه من مأثور عندَ أبيه فرغ منه لهم.

﴿وَلَمَّــا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنــزِلِينَ﴾ (٥٩)

ولّمــا أمــدّهم يوسف الكَلِيْلاَ وجهّزهم بجهازهم من شحن الحبوب على عيرهم للمغــادرة أوبةً إلى بلادهم، قال لهم أن يأتوه المرّة التالية بأخ لهم من أبيهم. وهو يعرفه مــن قــبل إذ كان صنوه في رعاية الأب الخاصة وفي غيرة الإخوة منهما قديماً ولعلّه اســتنطقهم فأنبأوه بأخ لهم من أبيهم لعدّ المحتاجين لمدد الكيل من التّموين. وعزّز لهم طلــبه مذكراً لهم: ألا يَرون أنه يوفي الكيل لكل قادم بجهازه وأنه خير المنــزلين تحطّ عنده وفود التجارة برحالهم ومنــزلهم عنده في بالغ تكريم.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ (٦٠)

وجعل يوسف الكَلِيْلاَ الاستجابة لطلبه شرطاً لأيّما مدد تال لهم، إن لم يأتوه بأخ فــلا كيل لهم عنده – ولا تتوافر مخازن الحبوب الغذائية سوى لديه لأن الناس في حال شــدّة، وحذرهم إن لم يفوا بجلب أخيهم ألا يقربوه إيئاساً لهم من أي تعذّر عن ذلك أو ترجّ لمرّة أخرى.

﴿قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١)

قال الإخوة ليوسف ﷺ: أنهم سيراودون عن أخيهم المطلوب قدومه أباه – إذ علمـــوا خـــصوص رعايـــة ذلك الأب لابنه وعظة تجربته معهم إذ أطلق يوسف في صحبتهم، وليطمئن والي المخازن والإمداد يوسف قالوا له ذلك وإنهم لفاعلون ما يريد من اصطحابه المرّة التالية.

﴿وَقَـــالَ لِفِتْـــيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٢)

وقال يوسف ﷺ لفتيته – مواليه الخادمين ديوان التخزين والتموين: أن يجعلوا لإخـــوانه بضاعتهم التي أدوها معاوضة عن كسبهم من المدد في رحالهم العائدة لعلّهم يعرفوها بعينها تفضَل إكرامٍ لهم إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون إلى مصر بأخيهم استجابة لطلب الوالي وردّاً لفضله وإحسانه.

﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦٣)

وترتب على ما رجا يوسف ﷺ أنهم لّما رجعوا إلى أبيهم عاجلوه بالأمر ونادوه متـــرجّين أباهم، قائلين إنه مُنع منهم الكيل مرّة أخرى إن لم يأتوا بأخ لهم من أبيهم، فليرســـل معهم أخاهم فيكتالوا إذاً جميعاً وعداً من والي مصدرِ المدد موفي الكيل خير المنـــــزلين، ثم أكـــدوا له إنهم لأخيهم لحافظون – ذلك لئلا تعاوده ذكرى أخذهم يوسف وعداً بحفظه ما كانوا وفوه.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٦٤)

لكـــن يعقوب ﷺ ما نسي سابقة أمر ابنه يوسف إن نسوه هم وأنكروه عند رؤيـــاه، قـــال لهـــم هل يأمنهم على أخيهم إلا كما أمنهم على أخيه من قبل؟ كأنه يـــصارحهم واعظاً أنه ما كان يأمنهم على يوسف ولكنه ردّ تحفّظه إلى خوف الذئب مجاملـــة لهـــم، ورتّب على شأن ذلك التفريط أنه إنما يأمن الله فالله خير حفظاً فحافظاً (قـــراءة) لابنه عنده ممّا ادّعوا هم لأنفسهم إن أخذوه، وهو – تعالى – أرحم الراحمين بوالد كبير يرعى ابنه لا يريد أن يُفجع فيه وقد فقد أخاه قبلاً.

﴿وَلَمَّـــا فَـــتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (٦٥)

ولّمـــا فتحوا – أبناء يعقوب– متاعهم بعدَ إنـــزال جهازهم لأخذ التموين الذي جلـــبوه وجدوا بضاعتهم التي قدّموها عوضاً رُدّت إليهم، قالوا ينادون أباهم فرحاً: ما يـــبغون أكثـــر من والي التموين ولو طلب صحبة أخيهم، هذه بضاعتهم ردّت إليهم شهادة على كرمه الفيّاض، وبالعودة إليه بأخيهم لا يصدّهم كما حذّر ويميرون أهلهم بجلـــب الميرة من الغذاء ويحفظون أخاهم الذي طلبه ثم يردونه إلى أبيه آمناً، ويزدادون كـــيلَ بعـــير له لأن كل متزوّد يكال له حمله، هكذا راضوا أباهم ثم ذكروه أن ذلك المرجو كله كيل يسير لا يكلّفهم إلا صحبة أخيهم في عيرهم.

﴿قَـــالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٦٦)

قال لهم يعقوب عليه السلام – وقد ضاغطته الحاجة للميرة واطمأنّ بالأمن المرجو لابنه مـــن وال كـــريم – إنه لن يرسل أخاهم معهم حتى يؤتوه عهداً مؤكداً موثقاً من الله، يقدمـــوا له عهداً يجعلون الله عليه كفيلاً، ليأتونه به عزماً يُرجعه إلا أن يحاط بهم بنحو كـــيد غالب من سلطان أو بغاة في الأرض طارئ غير منظور. فلمّا آتوه موثقهم ذكر الله كفيلاً ووكيلاً وقال: الله على ما يقولون جميعاً وكيل. وهي كلمة تمام عقد يُشهَد اللهُ مقولتَه ويُرعى نفاذُه.

﴿وَقَـــالَ يَـــا بَنِـــيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِـــي عَـــنكُم مِّـــنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٧)

وإذ تكاثـــر وفـــد أبنائه وأشفق عليهم من عواقب ذلك، قال لهم يعقوب عليه السلام يـــناديهم بنيه – ألاّ يدخلوا من باب واحد في المدينة هكذا دفعة متباركة وليدخلوا من أبواب متفرقة حتى لا يلحظ عدَّهم ناظر. وإنما شُهر في خبر مصر السِّحرُ فيها فخاف يعقـــوب أن تُلقَـــى على أبنائه عين ساحرة ممّن يروعه عدّهم إخوة فيكيد لهم. ولكنه استدرك أن إلى الله ترجع الأمور وقال لهم إنه لا يغني عنهم من الله شيئاً فأقداره نافذة

لا يكفي عنها ولا يردها سبب يحتاط به عبد فقير. واستأنف قول الحق: إن الحكم إلا لله، هو الذي يقضي بأمر فاصل مفعول، وشهد أنه عليه تعالى توكّل واكلاً إليه حفظ أبـــنائه من السّوء، وأتمّ أنه على الله فليوكل المتوكلون، وإن اتّخذوا الأسباب ليفوّضوا إليه أمرهم ثابتين يكلون إليه التوفيق راجين خير الوقائع فإن أمره تعالى غالب.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّه من شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَـــةً فِـــي نَفْـــسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

ولّمـــا دخلـــوا على يوسف عليه السلام من حيث أمرهم أبوهم عبر أبواب متفرّقة ما حفظهم تدبيره وإنما حفظهم الله وما كان هو يغني عنهم من الله شيئاً كما عرف حقاً وشـــهد، ذلك إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها – أن يقيهم من تصوّب عين ساحرة بتفـــرّقهم مدخلاً، وقد قُضيت حاجته. وإنه لذو علم كما يَشهد الله في الآية لما علّمه ســـبحانه بأقدار اجتبائه وتعليمه بعض أسباب الغيب – ومنها السّحر – التي يعلّم الله عـــباده المجتبين، فالعين حقّ (أحاديث صحيحة) ولكن – كما يشهد الله – أكثر الناس لا يعلمـــون حقـــاً من ذلك إلا ما يتخذون من مخيلات السحر وترهيباته صوراً لكيد يبغونه فتنةً أو احتيالاً.

﴿وَلَمَّـــا دَخَلُـــواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩)

ولّمـــا دخـــل الإخوة على يوسف عليه السلام آوى إليه أخاه الذي جاءوا به في زاوية نجـــوى خاصّـــة بينهما، قال له إنه هو أخوه يوسف المفقود لسنين بوّأته أقدار الله هذا المكـــان، وذكّـــره بكيد إخوانه ذلك عليه ودعاه إلا يبتئس بما كانوا يعملون من ذلك ومن الغيرة عليهما معاً.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (٧٠)

ولّمـــا جهّـــزهم يوسف عليه السلام بجهازهم هذه المرّة تم تدبيرٌ سبقهم قبل أن يهموا بالفـــصل منقلـــبين، إذ جعل بأيدي فتيته السّقاية في رحل أخيه الذي ناجاه، وهم لا

يـــشعرون، ثم قبل أن يفارقوا أذّن مؤذن بصوت رفيع من موالي ديوان يوسف يناديهم منبهاً هذه العير منهم يُعلنهم إنهم سارقون حقاً.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ (٧١)

قـــال الإخـــوة لمـــوالي الديوان وأقبلوا عليهم بعد أن أدبروا للقيام رحيلاً: ماذا يفقدون، حتّى يرموهم هم بالسرقة؟

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧٢)

قـــال مـــوالي الدّيوان إنهم يفقدون صواع الملك – إناء الشراب الملكي الخاص. والحـــقّ أن التي وضعت في رحل أخيهم إنما هي سقاية يصب فيها الماء للسقاية العامّة ولكـــن سمّوها هم صواع الملك ترهيباً لهم وهم لا يعرفون ما يميز السّقاية عن أدوات الكـــيل المعـــروفة في سلطان الملك. وأعلن عليهم أمير الموالي أن لمن جاء به يردّه بعد الفقد حمل بعير مكافأة، وقال لهم إنه هو بذلك زعيم ضامن يكفل عطاءه.

﴿قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٣)

قـــال الإخـــوة مجمعـــين يخاطبون الموالي مقسمين: تالله لقد علموا ما جاءوا هم ليفسدوا في الأرض عصابة بغي، وشهدوا هم أنهم ما كانوا سارقين لما فقد ولا لما عُهد فيهم قبلاً.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ الآية (٧٤)

قـــال لهم ولاة الأمر: إذاً ما جزاؤه ذلك الصواع المفقود إن اكتشف عندهم بعد التحرّي، إن كانوا كاذبين في دعوى البراءة من السرقة؟

﴿قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥)

قـــال الإخـــوة جزاء سرقته فيما يرون من وجد في رحله بينهم، فهو جزاؤه أن يؤخذ هو بنفسه مولىً وفاقَ سرقته، وذكروا أنهم كذلك يجزون السّارقين في معروفهم ومعهودهم من أحكام السّرقة والظلم في أرضهم.

﴿فَـــبَدَأَ بِأَوْعِيَـــتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٦)

فأخذ يوسف عليه السلام آمراً البحث عن السّقاية بادئاً بأوعيتهم التي تضمّها الأحمال قـــبل أن يبلغ وعاء أخيه الذي وضعها فيه سرّاً – وإنما رتّب البحث هكذا لئلا يتجلّى المبحث لأوّله مصوباً إلى أخيه الذي وصلته به قربى حميمة قديمة فيدرك إخوته أن الأمر دبّر تدبيراً ليأخذ يوسف أخاه. ثم – وقد دار البحث عليهم تأنياً فألفوا مشاعر البراءة المطمئـــنة – اســـتخرجها يوسف من وعاء أخيه فانصبّ غيظهم على ذلك الأصغر. كذلك الإخراج لترتيب التدابير والجواز بها إلى الهدف انتظمت أقدار الله العظيمة كيداً مفلحاً ليوسف ليمضي على إخوته مستوراً ويحقّ له أخذ أخيه. ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك – نظام الأحكام الذي يدان له في مؤاخذة السّرقة بالتولّي على السارق حقاً للمظلــوم، مـــا كان ذلك إلا أن يشاء الله أن يكون هو المعروف في أرض يعقوب أن يُــتّخذ حكمـــاً سارياً في القضية عن قول الإخوة أنفسهم. يرفع الله بأقداره المنظومة العظيمة درجات من يشاء طبقات علو ومستويات فضل على سائر كسب عباده، مثل بلوغ يوسف مقصده جوازاً على إخوته بمكر ماضٍ عليهم وحكم بمعروفهم هم. وفوق كـــل ذي علم عليم – جعل الله عباده يتفاضلون بالعلم الذي يكسبون، مهما يبلغ ذو علم درجة يعلو عليه عليم أبلغ علماً، هكذا تتعالى الدرجات حتى يبلغ الأمر إلى مدى علم الله العليم الأعلى المطلق المحيط غيباً وشهادةً وهدى وحكمة.

﴿قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧)

قـــال الإخـــوة مـــن غيظهم على أخيهم الذي كانوا أصلاً في غيرة وحسد عليه والـــذي ألفوه الآن سارقاً فاعلاً ما كذّب دعواهم جميعاً البراءة من الفساد والسرقة – قالـــوا: إن يـــسرق فقد سرق أخ له من قبل، يقصدون يوسف – لعلّها في معاملات البـــيت وأحاديـــث الأولاد فيما بينهم أن رُمي يوسف يوماً ما بأخذ متاع بين الأمتعة المـــتداولة في البـــيت وقـــد كان صغيراً لم يبلغ سن التكليف حتى أخرجوه من البيت بكيدهم. فأسرّها يوسف في نفسه ولم يُبد إجابته لهم – غاشية في نفسه بما استفزّه من قـــولهم ومقـــولة في باطنه وهو يعنيهم يخاطبهم: أنهم هم شرٌ مكاناً من أخويهم الذين جمعـــوهما في هدف الغيرة وفي مرمى التهمة بالسّرقة وما صدقت قديماً ولا الآن حقاً.

ومـــضى في ذلـــك الخطاب المنكتم: الله أعلم بما يصفون زوراً من سرقة يوسف قبلاً وأخيه.

﴿قَالُـــواْ يَـــا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨)

وهـــم إن مرّت فيهم عاطفة الانفعال الأول فقد تذكّروا عهدهم لأبيهم في شأن أخيهم المأخوذ فمضوا يخاطبون يوسف ينادونه العزيز لأنه عزّ ألآن والياً آمراً، قالوا أن لأخـــيهم إن له أباً شيخاً كبيراً، يسترحمون يوسف فليأخذ أحدهم مكانه، لئلا يرجعوا إلى أبـــيهم دونـــه بل ناقصين واحداً الملام فيه على فعله ذلك الأخ الذي حرص الأب علـــى إعادته بميثاق. وقالوا ليوسف ترجّياً: إنهم يرونه من المحسنين، كما تفضَل عليهم منـــزلاً وكيلاً وردّ العوض المستحق عليهم من البضاعة.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ (٧٩)

قـــال يوسف (عليه السلام) – وقد فاز بثمره كيده الذي رمى به لا لشر بل لمخرج خير جامـــع لعلّـــه يـــبلُغ به إيواء أخيه وتوبة إخوانه والتعافي معهم ونعمة تضمّ عليه أباه وإخوانه – قال لهم: معاذ الله – يستعيذ به معاذاً – أن يأخذوا بحق الإمارة والعدالة من بيـــنهم إلا من وجدوا متاعهم عنده – لم يذكره سارقاً ولكنه كذلك عن بيّنة وأخذاً بمقتـــضى الحكـــم المشروع بعلمهم، فإنهم أهل ديوان الولاية إن تجاوزوا ذلك وأخذوا بديلاً لا يزر وزر الجاني – إنهم إذاً لظالمون عادلون عن الحق العادل في دين الملك وفي معروف أرض الإخوة أنفسهم كنعان.

﴿فَلَمَّـــا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَـــيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٠)

فلمّـــا اســـتيأس الإخوة من يوسف (عليه السلام) وقد أقام عليهم حجة بيّنة أخذاً لأخيه ولازمه حقٌ عدلاً لا ظلماً، خلصوا منه خارجين بغير وجه مرجع تال إليه عاكفين على الـــنجوى بينهم. قال لهم كبيرهم: ألم يعلموا ما قدّموا أن أباهم قد أخذ عليهم موثقاً من الله أن يأتوه بابنه عائداً إلا أن يُحاط بهم، ومن قبل كان تفريطهم في يوسف كما

رأى أبوهم وما زال في نفسه ذكر منه، ولعلّ الكبير الذي يصف تلك السّابقة تفريطاً هو الذي لطّف مكرها الأول قتلاً أو طرحاً ليكون إلقاءً في الجبّ. ولذلك رتّب الكبير أمــره أنــه لن يبرح الأرض باقياً قريباً من أخيه المأخوذ حتى يأذن له أبوه - بأن يعلم الأمــر بــرمّته فيسمح له بالعودة، أو يحكم الله له قدراً يردّ إليه أخاه فيصحبه عائداً، ويذكر ربّه: وهو خير الحاكمين، يقضي في الأمور بحق أعدل وأرحم.

﴿ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١)

وأوصى إخوانه إذ يفارقونه: فليرجعوا إلى أبيهم وإن اشتدّ عليهم الحرج وليقولوا لــه إن ابنك قد سرق فأُخذ، ما كادوا هم عليه ولا فرطوا فيه بل سعوا ليخلفوه منهم بــبديل، وليذكــروا له أنهم ما شهدوا بما جرى بين أيديهم رواية للواقعة إلا بما علموا حقــاً، وما كانوا للغيب حافظين، ليدركوا أن السرقة ستقع منه فيمنعوه أو أنه فعلها فيردوا المسروق قبل أن يفتشوا وتسلموا بمكافأة حمل بعير، أو ليعلموا أن الأمر فيه أمر مدبّر، ولذلك ما أخذوا الميثاق معه ليحفظوا ابنه إلا بصدق كانوا سيوفون به.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٨٢)

وليطمــئنّ أبوهم أنها رواية الحق، رجوه أن يسأل القرية التي كانوا فيها في مصر ليُرسل من يتحرّى له فيها عمّا جرى وشهدوا هم به، وليسأل العير التي أقبلوا فيها التي تــسامع أهلها بالأمر، وأكدوا له إنهم لصادقون بالوقائع من نبأ السّرقة ومحاولة حجب الأخذ عن أخيهم بأحدهم مكانه.

﴿قَــالَ بَــلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣)

قــال لهــم أبــوهم يعقــوب عليه السلام - ولعلّه وصل الواقعة بذكر ما سبق مثلها ليوسف عليه السلام فما ظنّ بهم صدقاً - خاطبهم أن بل سوّت لهم أنفسهم أمراً - طوّعت لهم أمراً لا يعرف هو حيثه. ثمّ رتّب الوقع عليه مثل ما سبق فأعلن العزيمة: فصبرٌ جميل مــستور لا يبدي فيما يقول أو يفعل ما يشتفي به منهم جزعاً، ورجاءُ مصابر: عسى الله الــذي إلــيه يرجع ما أخذ وما أعطى وله الأمر كله والرحمة المرجوّة أن يأتيه بهم

جميعاً – يوسف وأخيهم وأخوهم الأكبر، إنه هو تعالى العليم الحكيم – بالغُ العلم بأي حيث وحال هم فيه الآن راشد بالغ الحكم قد يقضي بأن يأتي بهم جميعاً بخير الوجوه.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤)

وتولّى يعقوب عليه السلام عنهم مدبراً عن الوجوه التي باشرته قبلاً واليوم بما يؤسيه، وقال متحسراً: يا أسفه على يوسف – يداعي أشدّ الحزن وخصّ يوسف بالذكر مأسوفاً ومحزوناً عليه لأنه كان مبتدأ الأمر وقع بلاء موصول وربما يكون سبباً في رجاء مأمول، وابيضّت عيناه من وطأة الحزن والاستعبار في كبر العمر، فهو كظيم – لا يوافيه فتح يذهب بكربه وبما امتلأت به نفسه من أسى مكتوم.

﴿قَالُواْ تَاالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (٨٥)

قال الإخوة لأبيهم – وقد حرقهم وأذاهم ذكر يوسف عليه السلام وهمّهم حال أبيهم – مقسمين: تالله إنه لا يكفّ عمّا أفرط في تذكّره، ما يفتأ ماضياً يذكر يوسف ذكراً متوالياً كلّ حين، وحذّروه أنه يمضي حتى يكون حرضاً بالياً من المرض المفسد أو يكون من الهالكين الموتى من علّة الحزن.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)

قال لهم أبوهم يعقوب عليه السلام – وهو لا يعبّر عن أسفه شكاية لأحد: إنما يشكوا بثّه، أسفه الذي لا ينكظم فينتشر، وحزنه الذي غمّه فهو يستعبر، إلى الله لعلّه يكفّ مبثوث أسفه ويشفي حزنه، وإنه معتصماً بالله يعلم منه ما لا يعلمون هم من تصريف الأقدار محنة متواصلة ثم رحمة وافية تفريجاً عن المكروب وشرحاً لصدر المغموم المحزون.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧)

وقال لهم يعقوب عليه السلام يناديهم بنيه – يلقي عليهم وصيّة: ليذهبوا – عائدين إلى آخر موطن للبلاء، فليتحسّسوا من يوسف الذي فقدوه قديماً وأخيه الذي أسلموه أو ضيّعوه بعداً، ولا ييأسوا من روح الله – أن يرُدّ إليهم أخويهم ولو نفحة قدر غيبي من حيث لا يحتسبون وتحيط بهم دواعي اليأس المشهودة، إنه لا ييأس من روح الله ولو

تطاول الصّبر وتعسّر الرّجاء إلا القوم الكافرون بأقدار الغيب الغالبة ويظنون الأسباب الظاهرة هي الحكم المطلق.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٨)

فلما دخلوا على يوسف عليه السلام هذه المرّة – متأسّين مترجّين – نادوه: هو العزيز، وبثّوا شكاواهم أنه مسّهم وأهلهم بما يحسون الضرُّ من بأساء العيش ومن وقع ما جرى لأخيهم وجاءوه عجلى ببضاعة مزجاة تافهة تعطي عفواً ما كان لهم أن ينتظروا حتى يجمعوا منها شيئاً يفي بتمام العوض عن الكيل منه لهم، فرجوه ليوفي لهم الكيل شفقةً على ضرّهم لا يحاسبهم بما وقع بينهم المرّة الماضية فهو خير الموفين والمحسنين، ليتصدّق عليهم بالعفو عن أخيهم فقد تصدّق قبلاً متفضلاً ببضاعتهم مردودة وبالكرم منزلاً، وبشّروه بالحقّ إن الله يجزي المتصدّقين المؤمنين بالعطاء الحسن دون أجر أو عوض عاجل.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٩)

قال لهم يوسف عليه السلام – وقد بلغ منهم بُلغته متسائلاً: هل علموا ما فعلوا بيوسف قديماً وأخيه بعداً، إذ دفعتهم الغيرة عليه حتى ذلك الكيد البليغ، وعلى أخيه الذي جافوه ونزعوه من أبيه الذي كان يلازمه من أجل كيل بينما أبوه يتحفّظ ويستوثق له وقالوا فيه شماتة لّما أُخذ إنه إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل – ذكّرهم أنهم إنما فعلوا ذلك إذ هم جاهلون – في حال حنق وحمق، كأنه هو يترجّى منهم توبة تتجاوزها الآن تلك الحالة الأولى.

﴿قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠)

قال الإخوة ليوسف عليه السلام وقد بدأ الأمر يتجلى لهم وذكرى يوسف وملامحه تلوح أئنه لهو يوسف قالوا له أئنه هو يوسف، فجاوبهم قائلاً إنه هو يوسف – الذي أنكروه قبلاً، وهذا أخوه بنيامين الذي خلّوه إليه، ولينظروا كيف قد منّ الله عليهما – هيّأ له هو تمكيناً في الأرض وولايةً وعزّاً ويداً على الناس في البأساء وأخوه في مأوى

كريم وأمين، ولينظروا سنة الله: إنه من يتّق السيّئات لاسيّما ظن السوء والحسد والمكر والضرّ بالآخرين غضباً وانتقاماً ويصبر على الابتلاءات - ولو في أهله وفي بيت مأواه وفي السّجن الظالم لا تفتنه فيهوى ظالماً - فإن الله لا يضيع أجر المحسنين تقوى وصبراً بل يوافيهم أجرهم عاجلاً خيراً ممّا يحتسبون هم ولا سواهم ويعدّ لهم أجر الآخرة خيراً وأبقى(١).

﴿قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (٩١)

قال إخوة يوسف الطَّيْلاً وقد وقع عليهم الأمر بهتة مقسمين بالله يخاطبون أخاهم: إنــه حقاً قد آثره الله عليهم - كانوا لا يرضون حتى إيثار أبيه له ولأخيه عليهم رعاية ولكن يرون الله آثره فأين مقامه اليوم من مقامهم - واعترفوا أنهم كانوا خاطئين اتبعوا أهواءهم فأودت بهم الرسوخ في الخطايا.

﴿قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٢)

قال لهم يوسف الطَّيْلاً في سماحة ما طمعوا في مبلغها بعد أن غشيتهم ذلّة ورهبة: أن لا تثـريب علـيهم ملاماً ينـزع الستر لبيان الذنوب بل عفو منه على الخطأ عليه على أخيه وأبيه، ودعا أن يغفر الله ذو الكمال لهم وهو أرحم الراحمين ينال برحمته ما لا ينال أبلغُ راحمٍ من البشر.

﴿اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٣)

وسـارع يوسـف الطَّيْلاً ليتم تسوية الأمر ويضم أباه وأهله، فأوصاهم: ليذهبوا بقميـصه الذي قدم إليهم عيناً وليلقوه على وجه أبيه - فهو يعلم أن أباه كان يعتنقه ويـضمّه كثيراً وأنه ذاكر صبور لا ينسى حتّى ريح قميصه واطمأنّ أن أباه إذا اشتمّ القمـيص يـستردّ عافيته فقال لهم ليباشروا به وجهه لينتشق ريحه ويقوى هو ويصح ويـأت بصيراً، وليأتوه بأهله أجمعين، لييسر لهم ما جعل الله له في مصر متبوّاً ومتاعاً. وكـان ذلـك إلى حين أيام فرعون الذي أخذ يعذبهم يُقتل أبناءهم وإذ قيّض الله لهم موسى الطَّيْلاً رسولاً ومنجياً لهم بفضل الله هجرة عائدة إلى وطن الأسلاف.

(١) راجع الآية ٥٦ من ذات السورة، والآية ١١٥ سورة هود.

﴿وَلَمَّا فَصَلَت الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ * قَالُواْ تَاللّه إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾ (٩٤ – ٩٥)

ولمّـــا فصلت العير بالإخوة خرجت بهم من المدينة ضاربة شرقاً قفولاً إلى المرجع، قـــال أبـــوهم يعقوب عليه السلام تلقاء هناك حيث يقيم في المرجع: إنه ليجد ريح يوسف يتنسّمها ويشتمها لولا أن يفنّده من حوله يُضعّف رأيه يحسبه هرماً، لعله غشيته نفحة مـــن ريح جسد يوسف بشرى بمقدمه وباح بها كما ذكر لولا أن يفنّده أهله ويردوا مقولـــته تلك، إذ لم يروا يوسف قادماً و لم يسمعوا له نبأً يسبقه، بل قالوا له مقسمين: تـــالله إنه لفي ضلاله القديم – مازالت تلازمه ذكرى يوسف على تقادم العهد تضل به توهاً في التمنّي غير المعتدل في خيال الرجاء لا يهتدي بها إلى مرجوّ معلوم.

﴿فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّه مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)

فلمّا أن جاء البشير – أتى واقع مجيء الذي تولّى المبادرة من بين الإخوة وألقى قميص يوسف على وجه أبيه يعقوب (عليهما السلام)، لم تحسُن بذلك عافيته درجاً بل ارتدّ منقلباً بصيراً مباشرةً للبشرى. ولعلّه تلا ذلك تداول النبأ المفصّل ولكن مختمه الأولى ذكراً في الآية أن قـــال لهـــم أبـــوهم: ألم يقل لهم من قبل حين بعثهم ليتحسسوا من يوسف وأخيه غير مستيئسين إنه يعلم من الله ما لا يعلمون من أي حيث يصدُق رجاء الله فيحق وقعه.

﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٧ – ٩٨)

وقـــد عقب لقاءُ الإخوة ذاك أباهم لقاءَ يوسف قبلاً واستعتابهم لديه بعد تعرّفه، فـــرجوه أيـــضاً – مناديه: أباهم – أن يستغفر لهم ذنوبهم إنهم كانوا خاطئين – ذات القـــولة التي ألقوها إلى يوسف فتلتها استجابته ودعوته لهم، كانوا يريدون أيضاً عفواً ودعاءً من أبيهم. قال لهم أبيهم 'سوف' يستغفر لهم ربه، لعلّه كان ينتظر حتى يتكامل انـــشراح صـــدره برواية كل النبأ ومشاهدة يوسف فيستغفر لهم بدفع ألحّ وأخلص في ســـاعة نجوى لربّه، وطمأنهم أن الذي ربّاه وزكّاه والذي سوف يدعوه لهم هو واسع المغفرة تضمّ كل مستغفر دقيق الرّحمة تصيب كلّ مسترحم في عين حاجته.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ﴾ (٩٩)

هم جميعاً بتمام الأسرة والأهل عشرات رحلّوا إلى مصر استجابة لدعوة يوسف (عليه السلام). وإنما الأولى بالذكر في الآية مدخلهم إليه ساعة المنتهى لمدّ الابتلاءات المتعاقبة وسير المجاهدات والمصابرات المتوالية والمبلغ لموئل وقع المرجوات المتمادية – سنين عددا. فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه في الملتقى والموقع الذي أعدّه لهم خصوصاً ورحّب بهم جميعاً داعياً لهم أن يدخلوا مصر كلها إن شاء الله آمنين في حرم ملك مصون منظوم ما عهدوا مثله في عفو البادية الشاميّة ومحاذرها.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١٠٠)

ورفع يوسف (عليه السلام) أبويه على العرش كرسي الديوان الرّفيع الذي كان يستوي عليه والياً لإمارة التخزين والتموين، وكل الأسرة عندها خرّوا له وانحطّوا ساجدين تحته من وقع رهبة السلطان عليهم قادمين من بيئة البدو الذين لا يعرفون نظاماً ولا يوقّرون سلطاناً مهيباً. ولاح ليوسف من مشهد ذلك السّجود تذكّرُ رؤياه في كنف الوالد قديماً، وقال منادياً له أباه: إن هذا المشهد تأويل رؤياه من قبل قد جعلها ربّه حقاً، إذ ماثل والداه الشمس والقمر وإخوته الكواكب الأحد عشر، وإن عجب قديماً من سجود الأفلاك العالية له وهي في حطة دونها ببعيد، فذلك اليوم تجلّى مآل الرؤية واقعاً إذ رفعه الله من قديم عهده وأتى له بأهله ساجدين لمقامه. وذكر ربّه وهو مخاطباً أهله: أن قد أحسن (سبحانه وتعالى) إليه إذ أخرجه من السجن – وقد قضى سنيّ بلاء بلا جرم و لم توافه شفاعة ولا تذكرة تنجيه حتى قدّر له الله مخرجاً مبرّأً عزيزاً، وأن قد جاء (سبحانه وتعالى) بهم من البدو موطنهم في أرض كنعان إلى مصر التي لم يكونوا يبلغونها إلا ممترين من مخازنها الوافرة لدى سلطانها واليوم يدخلونها مدخلاً كريماً، وأن قد كان ذلك كله من بعد أن نزغ الشيطان دفعة شر بينه وبين إخوته تدافعت بعدها أقدار الله وأفضاله

المــنظومة عليه إذ اجتمعوا هم لديه جميعاً بعد أن فرّقتهم تلك القاطعة لذات البين، و لم يذكر يوسف نجاته من الجبّ ومن فتنة بيت العزيز طيّاً لدواعي الحرج في ذلك، فالحمد لله أن بلغــوا الــيوم ملتقىً كريماً مقاماً علياً، وشهدَ لربّه جاهراً بينهم: إنه لطيف لما يــشاء – دقــيق اللّطف برحمته يفتح منها لما يشاء من روح بعد اشتداد البلايا ويفرج الغوامض من الأزمات، إنه هو العليم الحكيم – كما عرّفه أبوه يعبر الرؤيا قديماً ويبشّر بــتمام الــنّعمة إنه تعالى محيط العلم بأحوال عباده بالغ الحكمة في إنــزال لطفه على عسر حالهم بقضائه الحقّ.

﴿رَبِّ قَــدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْك وَعَلَّمْتَنِي من تَأْوِيلِ الأَحَادِيث فَاطِرَ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَة تَوَفَّنِي مُسْلمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١)

وقام يوسف عليه السلام يُشهد الله الحمد له، مناجياً ربّه يخاطبه: أن قد آتاه الملك، وما كــان هو بقريب منه أو بساعٍ إليه درجاً بالأسباب المنظور مبلغها ولكنه تعالى مالك الملك يؤتيه من يشاء وينــزعه عمّن يشاء إنه تعالى على كل شيء قدير، وأن قد علّمه مــن تأويــل الأحاديث، وكان من رحمة ذلك العلم فاتحة مخرجه من السّجن إلى مقام الــسّلطان بتأويل رؤيا الملك وما كان بقي له إلا مآل رؤياه الأولى بلّغها أباه فأوصاه بحفظ سرّها فآلت اليوم إلى واقع معلوم حقيقتها، ومضى في خطابه لربّه ذاكراً له فاطر الــسماوات والأرض – خلقها من غير شيء وهي ملكوت عظيم وكذلك يؤتي الملك من كان ذليلاً ويعلّم من كان جاهلاً، داعياً لربّه يخاطبه: أنه هو تعالى وليّه في الدنيا – لعله يتذكّر كيف علّمه سبحانه وتعالى وأمده بالبشريات منذ إلقائه في الجبّ وسلّمه فقدّر إيواءه الكــريم ثم عصمه من الشيطان في بيت العزيز وكان معه في السجن حتى برّأه وتولاه الــيوم في الــسلطان وجمع أهله إليه ويظلُّ هو عبر دنياه يوحّده مولى ويرجو إحسانه بولايــته، وتعــالى وليّه في الآخرة أيضاً يرجوه مولىً يرضى عنه ويجزيه حسناً ويقرّبه زلفــى. وسأله سبحانه وتعالى أن يتوفّاه حين يقبض روحه مسلماً وجهه خالصاً إليه على صراط مستقيم لا يضلّ عن الخضوع لهداه ليتم له في الآخرة نعمة هدايته إلى دار السلام، وأن يُلحقه بالصّالحين من عباده تعالى لاسيّما الذي عُهدوا في سلفه مجتازين ابتلاءات الدنيا متوفين صالحين.

﴿ذَلِـكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠٢)

عند ختام قصة يوسف (عليه السلام) بدعائه مختتم حياته على الإسلام ليلحق بالصالحين – الخطاب يلتفت إلى الرّسول الخاتم (صلى الله عليه وآله) الذي أوحيت إليه هذه السّورة: أن ذلك – الذي يمتاز مبلغ وقعه والذي سبق ذكره من القصص عن يوسف وإخوته – من أنباء الغيب يوحيه إليه الله العظيم بأقدار اصطفائه وبعثه وتعليمه وتبليغه، وما كان هو بل الله (سبحانه وتعالى) لدى أولئك الإخوة حتّى في نجواهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون به ويتّخذون صرفاً لمقترح قتله وطرحه في أرض مهلكة قرار إلقائه في الجبّ ليوقعوا أوّل دفع لسيرته ابتلاءات متوالية يرقى بها إلى انتصاره المبين عبرة وعظة يُتلى ذكرها قرآناً للخالفين. والخطاب في السورة للرسول الخاتم بدأ أول القصّة أنه يقُصّ عليه ذلك وهو من الغافلين، وأن في قصة يوسف آيات للسائلين، ويأتي في آخرها ليذكّره بقصور علمه بالقصة لاسيما بأول خفاياها، فهذه الآية تذكر أن ذلك مما مضى بعض أنباء قصّة يوسف وإخوته فيها المعالم الفاصلة والعبر البالغة قصصاً لا يحسنه كذلك إلا الله، وأنها أنباء غيب تُوحى إلى الرسول الذي ما كان يدريها – شهادةً بأن هذا صادر من الله تعالى قرآناً عربياً لقوم يعقلون.

عموم المعاني: (الآيات ٥٨ – ١٠٢):

كان يوسف (عليه السلام) مثال الوالي السمح على الرعية مفتّحةً لهم أبوابه من غير كثير حجاب. لمّا دخل عليه إخوانه تعرّفهم لكن ما فتنته السلطة ولا انبعثت فيه من رؤية وجوههم روح الانتقام لذلك الكيد القديم وهو اليوم ذو يد وسلطان، بل انشرح صدره أن أنعشوا فيه ذكرى أبيه وأهله فاتّخذ ما تمكّن منه من أسباب لينزلهم خير منزل ويوفيهم الكيل الوافي من المخزونات تحت ولايته ويجهزهم بجهازهم. وكان ذلك مدداً لهم وقد مسّتهم البأساء في وطنهم من نقص الحبوب الغذائية التي وفرت في مصر. وقد كان حكّام مصر الهكسوس هم أصلاً دفعتهم هجرةً إليها أزماتُ المعاش من ذات الوجهة شرقاً. ولمّا ودّع يوسف إخوته لمنتهى صفقة الحبوب قال لهم وقد

تبـــيّن منهم أنّ لهم أخاً لأبيهم – وقد عرفه هو سلفاً: أن يأتوه به المرّة التالية عائدين لجلـــب تموينهم ليتبيّن عدّهم محتاجين للمدد وليأخذ أخوهم كيله من الأقدار المحدودة المعـــدودة بضوابط الخطة المقتصدة. شرط لهم إحضاره وإلاّ فما يكون لهم أن يقربوه يبـــتغون كيلاً، وما كان لهم من غير مصر مورد. فوعدوه أنهم مراودون بذلك أباهم ليطمـــئن هو أنهم مؤتونه به فعلاً، وكان قد أتمّ ما يريده حقّاً من تطييب نفوسهم بأن ردّ عليهم بضاعتهم التي أدوها عوضاً بتدبير خفي إلى متاعهم. ورجعوا فحدّثوا أباهم الـــذي أباح لهم مباشرة أنه لن يأمنهم على أخيهم وعظته سابقتهم مع يوسف، وشهد أن الله هو خير حافظاً. ولكنهم شدّوا وطأة إلحاحهم الاستجابة لطلب الوالي في مصر إذ وجـــدوا بضاعتهم رُدّت إليهم بفضل كرمه ليضمنوا مدّ أهلهم ويزدادوا كيل بعير بأخـــيهم وما ذلك بيسير في زمن تلك البأساء. فنـــزل أبوهم عن تحفظه ولكنه شرط علـــيهم أن يؤتـــوه ميثاقهم أن يرجعوا بأخيهم إلا أن يحيط بهم قاهر. وأخذ ميثاقهم مـــتوكلاً على الله – سنة باقية لضمان العهود أن يُجعل الله عليها وكيلاً بميثاق تؤكده الأيمـــان. ثم ليعزز اطمئنانه على سلامة أبنائه وحفظ الذي صحبهم أخيراً أوصاهم ألا يدخلـــوا المدينة جملة من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة – خشية أن تصيبهم عـــين سحر. وما كانت مخافته من أن يستفزوا برؤيه عدّهم كله كيداً من معتاد تدبير كيد الحاسدين، وإنما هو بعلم مما علّمه الله من الغيبيات نبياً، ويحتاط لهم بذلك السبب ومـــا هو بحافظ بل مؤمن أنه ما يُغني عنهم من الله من شيء فهو تعالى الحاكم وحده وعليه التوكل، ولما رجعوا استجابوا لوصيّة أبيهم ليكون قد قضى حاجته حرصاً عليهم بما علّمه الله. ويعقوب هو الأب البرّ الذي لا يفرط في محاجّة أبنائه وهو الذي يعلمهم أداء مواثـــيق الـــولاء للعهود كما يتّخذ لنفسه ذات العهد مع الله والذي ينتهج تدبير الأسباب مؤمناً بالغيب يعلم أنه لا يغني من الله شيئاً فالأمر كلّه مشهوداً وغيباً لله.

عـــند المـــرجع إلى يوسف عليه السلام خلا بأخيه الذي صحب الكبار وباح له بنفسه وذكّـــره ألا يـــيأس ممّا يعمل إخوانه. ثم اختطّ يوسف حيلة تماماً لإلحاح دعوته الأولى لحـــضوره لـــيحفظه بهـــا لديه وإن أصابت إخوته بما يحقّ عليهم من حرج مع أبيهم بـــانفلات أخيهم منهم كما فرّطوا قبلاً فيه هو يوسف. ومثل تلك الحيلة السياسية لم

تكـــن مكـــراً وكيداً خبيثاً يتقصّد إخوانه بضر بل مقصدها وإن خفي عنهم أوّلها أن يأخذ أخاه ويؤمن مثواه عنده ثم يقوم فيأتي بأبيه ثم بدعوة سائر الإخوة والأهل ليبسط لهـــم أيـــضاً المتبوّأ المتمكن هو منه في الأرض. ومكر السياسة التي تدفع ضروراتُها إلى كـــتمان ســـر مقاصده الطيبة لا بأس به ما دامت الوسائل المتّخذة لا تأخذ أحداً ولا تؤذي بغير الحقّ. فيوسف لمّا جهّز إخوته بجهازهم جعل السقاية سراً في رحل أخيه ثم أذّن فـــيهم منذر بوقوع سرقة منهم لصواع الملك نفسه، وأخّر تفتيش متاع أخيه حتى وجـــدها عنده فأخذه بناء على قولهم هم إن السّارق في معروفهم يُؤخذ هو بجريرته. وذلك حكم في شأن الغرباء بالمعروف في بلادهم من الأحكام، وهو مقبول في معهود العـــالم الـــيوم (يـــسمّى بالقانـــون الدولي الخاص). ولّما بُهت الإخوة بما جرى، وما أجـــداهم – بعد مقولة سوء بأخيهم ألحقوه فيها بأخيه السّابق – أن يستجدوا يوسف اســـتبداله بأحدهم حسباناً لشيخوخة الأب، تناجوا كيف يرجعون؟ فتأخّر كبيرهم إذ راودته خواطر ملام للنفس كانت تعتمل فيه منذ التّفريط في يوسف وذكرهم بالميثاق مـــع أبيهم، وتعهّد هو بألا يبرح الأرض قرب أخيه المأخوذ حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله له بيسر، وأوصاهم أن يبلّغوا أباهم الحقّ ويعتذروا عن مجراه ويستشهدوا لصدقهم بأهـــل القـــرية والعـــير التي كانوا فيها. ولكن أباه ما آمن ولا اطمأنّ لقولهم وعدّها كالـــسابقة، جدّدت له الذكرى وضاعفت الحزن حتى ابيضّت عيناه من الغمّ والكظم وأدبـــر عـــنهم، ولّما آخذوه ذكّرهم أنه يتشكّى لا إليهم بل إلى الله ليعلم منه ما يجعله معتـــصماً بالـــصبر حبلاً للرجاء، فالحزن المتضاعف على نبـــي صابر إنما يضاعف فيه الـــرجاء لا القـــنوط، ورجـــاهم الأب أن يعودوا فيتحسّسوا من يوسف وأخيه ولا يستيأسوا من روح الله كالقوم الكافرين.

وعـــادوا إلى يوســـف عليه السلام هذه المرّة وقد انحطّت بهم الحال متضرعين له أن قد مـــسّهم الـــضرّ واشتدّت حاجتهم وبخست بضاعتهم وحاق بهم الهمّ من أمر أخيهم المأخـــوذ يبتغون الكيل ثم الصدقة بالعفو عنه ليردّوه إلى أبيه. وعندها فاجأهم يوسف متعرفاً من حيث لا يشعرون – هم في هوان وهو في عزّة يتولّى منـــزلتهم والكيل لهم ويـــؤوي أخاه مأموناً. لقد انقلبت عليهم الأمور إذ كان آخر عهدهم مع يوسف أن

كانوا هم عصبة واقفة به على رأس جب تلقيه في غيابته معزولاً مجهول المصير. وتلك الصّدمة من انقلاب الغابر بالحاضر قلبت في أنفسهم الموقف من يوسف، شهدوا له أن الله – لا أبوه وحده – آثره عليهم واعتذروا أنهم كانوا خاطئين. ويوسف – أسوة البرّ والسماحة أخاً ووالياً – ما سلّط عليهم مؤاخذة ولا أدار معهم ساعة ملاومة كما كانوا يخشون، وإنما عفا ألا تثريب عليهم واستغفر لهم ربه ومضى معهم يتم مجرى خطته التي جلا مجراها: أن يرجعوا إلى أبيهم بقميصه ليأت بصيراً وليأتوا بأهلهم أجمعين. وأبوهم هناك – بما فيه من روح نبوءة – ما فصل هؤلاء من المدينة قافلين إليه إلا تنسّم ريح يوسف تلقاءً حتى أنكر عليه ذلك من حوله وحتّى جاءه البشير منهم وألقى عليه القميص فارتدّ بصيراً. كانت عاقبة صبره الجّميل أن تعاجله نسمة ثم بشرى لقائه ابنه بعد فقد موئس وأن يتعافى بعد علّة البث والحزن. وكان أباً مثالاً سمحاً مع أبنائه ذكّرهم بما كان يعلم من رجاء ثم وعدهم أن يستغفر لهم ساعة استجابة. وقاموا جميعاً مهاجرين بدعوة يوسف وسنة الهجرات السّالفة متوجهين تلقاء مصر التي كانت مورد الطعام الوافر للناس في كل الديار ومهجرهم إذا ضاقوا بأرضهم. وتلك سنة دين حسنة: أن تُفسح المهجرة للناس في الأرض لا تحجر دونهم أقطار وطن أو أرض غنية. واستقبلهم يوسف – مثال الوالي الواسع السمح الذي ما عرف الترهيب والتعالي بطاغوت السلطان كما عرفت العهود التالية من الفراعنة – رحّب بهم أن يدخلوا مصر إن شاء الله آمنين، ثم رفع أبويه على العرش فسجدوا له والدين وإخوة جميعاً – تحية الأعزة والملوك المعهودة، لكنه ما اغترّ بها كأنه معبود ربّاً أعلى كما ادّعت خالفة الفراعنة، بل شاهد فيها تأويل رؤياه الأولى أن تسجد له الشمس والقمر والأفلاك، وردّ ذلك الإحسان به إلى رحمة ربّه وحمده متذكراً كلّ ما توالى عليه من سابق النّعم اللطيفة إخراجاً من السّجن ومجيئاً بأهله من البدو إلفةً بعد نزغ الشيطان بينه وبين إخوته ومن حاضر النعم من إيتائه الملك وتعليمه تأويل الأحاديث، ثم دعا ربّه فاطر السموات والأرض مسلمة لسننه طبعاً أن يتوفّاه هو مسلماً لهديه طوعاً ويلحقه بالصّالحين.

كان كل ذلك من أنباء الغيب أوحيت إلى الرسول الخاتم ﷺ الذي كان من الغافلين عن موضوعاتها قصصاً فضلاً عن دقائق خفاياها كنجوى الإخوان يمكرون

بيوسف - تلك الواقعة التي كانت بادرة الابتلاء والهوان الأولى ليوسف وكانت الأساس لكل ما توالى من أقدار الله المتصاعدة به مقاماً بمختلف الأسباب حتى أتمّت عليه النعمة المحمودة كما رجاها له ولآل يعقوب أبوه في تأويل رؤياه الأولى من الله العليم الحكيم. وكل ثنايا القصة عبر وعظات لأولي الألباب، وهي تذكرة العامّة للرسول الخاتم في مكّة ولمن معه من المؤمنين ولخلفهم إذا كتب عليهم ابتلاء كعهد مكّة أن يعتبروا بها لا معالم أحداث سدى بل سيرة ابتلاء متوال وصبر موصول تجري الأقدار بالمرء فيها من ملقىً في جب إلى مولىً في بيت فتنة إلى ذليل في سجن إلى عزيز سلطان ووالي عدل وإيلاف أهل - محامد لله المنعم. وكانت العبرة العامّة للمؤمنين حملة أمانة القرآن المتنزل عندئذ في مكة إشارة لبشرى هجرة مثل هجرة آل يعقوب لهم إن ضاق بهم هم ذلك الموطنُ فتنة بين قطيعة وضيق معاش وعسر عبادة إلى المدينة التي ستسعهم بأهلها وولاية أمرها حرية ونصرة ومتاعاً وتتم لهم ديناً حسناً.

ترتيل المعاني. (الآيات ١٠٣ - ١١١):

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

يتحوّل خطاب الرسول ﷺ إلى شأنه الحاضر في دعوته للناس حوله من قومه. فقد تولاّهم يتلو عليهم القرآن وقصصه وعبره وسائر تعاليم الهدى فيه، ولكن القرآن يذكره أنه يبلّغ ذكر القرآن ورسالته وما أكثر الناس من أمّة دعوته - ولو حرص على هدايتهم أداء أمانة ومودة قربى لهم قومه - ما هم بمؤمنين بالوحي وهديه، أمة استجابة[1].

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤)

هم يصدّون، والخطاب للرسول ﷺ - أنه ما يسألهم من أجر على دعوته ليتكلّفوا غير الاستجابة أو ليرتابوا بمقاصده وصدقه فيها أو يقولوا لولا أُلقي إليه من ربّه كنز يغنيه عن هذا أو يكون له آية، إن القرآن الذي يُبلّغ إليهم ويُتلى ما هو إلا

---

(١) قد لا يقع الإيمان ولو حرص الرسول على هدى من يدعو: أنظر الآية ٣٧ سورة النحل.

ذكــر للعــالمين للجماعات المخلوقة المعلومة كافّة إنساً وجناً، لأنه حق مطلق لا يباع بأجــر حاضر عاجل بل يبلغه – من يستغني بأجر من ربّه لا يحزن ولا يقتصر على ما بينه وبين قومه من سؤال أجر أو صدود[1].

﴿وَكَــأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥)

ويستمر ذكرهم إن أعرضوا عن آيات تُتلى عليهم بيّنات فهم أيضاً: كأيّن (مثالاً وتــنكيراً للإبهام والعموم)، كم من آية مشهودة في السماوات وما فيها والأرض وما علــيها تهــدي المتفكّرين إلى خالق الكون وناظم آفاقه ومعالمه ومدبّر سيرها وآجالها، يمــرّون علــيها كل حين وينظرون إليها حولهم صوراً وهم معرضون، إذ يدبرون عن التبــصّر في آياتها الُموصية بحقّ الغيب، قلوبهم غافلة لا تنبض بوقعها إذ لا تبلغ صورها وجدانهم علم إيمان، لا يسمعون آيات القرآن سَمعاً متقبّلاً مؤمناً.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (١٠٦)

وهــم – أولــئك المعرضون – ما يؤمن أكثرهم بالله تمام إيمان بل ما يؤمنون به معــرفة له خالقاً رازقاً إلا ظنّوه في سمائه بعيداً يذكرونه عرضاً وهم به يشركون أرباباً مشهودة في الأرض أو آلهة مخيّلة في الغيب دونه يتعبّدون لها، ما يؤمنون بالله تمام إيمان توحــيد للحياة عبادة له بل تبعيضاً، يتخذون له راتب أذكار وشعائر خاصّة ويتعبّدون لأهوائهم في سائر حياتهم العامّة حباً لمتاع الدنيا الحاضر المشهود. لا يُسلّمون أنفسهم خالصة لله دون شائبة بل ما يؤمنون به شيئاً ما إلا وهم مشركون أيضاً شركاً جلياً أو خفياً في وجوه من حياتهم أو فيما يباشرهم منها دون الغيب.

---

(١) لا يــسأل الرســول الخاتم الأجر بل يريد بلاغ الذكر: راجع الآية ٩٠ سورة الأنعام، وانظر الآيــة ٥٧ ســورة الفرقان، والآية ٧٢ سورة المؤمنون، والآية ٢٣ سورة الشورى، والآية ٤٠ ســورة الطــور، والآية ٤٦ سورة القلم. وكذلك سائر الأنبياء: في شأن نوح الآية ٧٢ سورة يــونس، والآية ٤٩ سورة هود، وانظر الآية ١٠٩ سورة الشعراء، والآية ٨٦ سورة ص، وفي شــأن هــود راجــع الآية ٥١ سورة هود، والآية ١٢٧ سورة الشعراء، وفي شأن صالح انظر الآيــة ١٤٥ سورة الشعراء، وفي شأن لوط انظر الآية ١٦٤ سورة الشعراء، وفي شأن شعيب انظر الآية ١٨٠ سورة الشعراء، وفي شأن رسل أصحاب القرية المثل انظر الآية ٢١ سورة يس.

﴿أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (١٠٧)

أتراهم اطمأنوا بالحياة الدنيا شركاً ومتاعاً حاضراً عاجلاً و لم تُجدهم الدعوة والنذارة تخرجهم من ظلمات الجاهلية أول خطى نور الحق والإيمان والإحسان. ألا يرهبون الله؟ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله عاجلة تحيط بهم أو تستأصلهم هلاكاً عاقبةً على ضلالهم كالسّالفين من الأقوام، أو تأتيهم السّاعة بغتة تفاجئهم وهم لا يشعرون أدنى علم بحلول أجلها يكفرون بها أو يسألون عن حينها أو يستعجلونها أو يغفلون عنها غير مكترثين، وقد تباغتهم تقطع دابر حياتهم الدنيا كلها دون مرجع بدفعة واحدة من أمر الله النافذ المفعول، ويُحشرون لا نصيب لهم من سابق دنياهم إلا أوزارهم المحمولة ولا زاد لحساب الآخرة ولا مفر من جزاء الله ملك يوم الدين؟[١]

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨)

ليعلن الرسول ﷺ فيهم ما داموا معرضين غافلين عن بيان دعوته وسنّته، ليقل لهم: هذه سبيله مرئية بيّنة يدعو إلى الله على بصيرة، عن معرفة بينة ووعي بالغ بآيات الكون والكتاب، لا عمي وصماً عن السبيل بحجب التقاليد. هو ومن اتّبعه من المؤمنين جماعةً متوالية وموكباً متّحداً على ذلك الصراط المستقيم. وسبحان الله، هو يسبحه وينزهّه عن أيّما أولياء أو أرباب مضاهين تتفرق بهم السّبل، وما هو من المشركين بأيّما شريك أو أدنى شرك بل يميز طريقه في سبيله في الحياة وجماعته عنهم ولو كانوا قومه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (١٠٩)

---

(١) في نذير عذاب عاجل أو الساعة بغتة راجع الآية ٤٠ سورة الأنعام، وانظر الآية ٧٥ سورة مريم، والآية ٥٥ سورة الحج، والآيتين ٤٥ و٤٦ سورة القمر.

والخطـــاب للرســـول ﷺ لدّاعي المذكّر أنه ما أرسل الله العظيم بأقدار اصطفائه وبعـــثه وهديه من قبله هو إلا رجالاً يوحي إليهم من أهل القرى - ما كانوا ملائكة إناثـــاً كما يظن المخاطبون وكما طلبوا مثل بعض أقوام القرى بل من بين أنفس تلك الأقوام، وإن يعرض أهل خطاب الرسول أفلم يسيروا في الأرض ليتدبروا فيها بقية آثار وأطلال للغابرين فينظروا كيف كان آخر أمر الذين كفروا واتّبعوا التقاليد والأهواء من قـــبلهم عاقـــبة إهلاك لكثيرهم ونجاة لقليل وعبرة وعظة مع المرسلين للخالفين؟ وإن كانـــت عـــبر السيَر وعظاها أنه لا نجاة إلا لقليل من المؤمنين، فذلك في الدنيا، ولدار الآخرة خير - متاعاً وخلوداً للذين اتّقوا الشرك والضلال والافتتان بالدنيا. أفلا يتدبّر هؤلاء فيعقلون - عقلاً وضبطاً لأهوائهم ومشهوداهم في الدنيا ألا تفتنهم تعلقاً وشركاً بالله، وعقلاً وتذكّراً لآيات السير لتعظهم ولبراهين الإيمان وخواطر التقوى وشعاها في الـــوجدان ليـــستقيموا تعـــبيراً عـــن ذلـــك على سبيل هدى الحياة في اتّباع موكب المرسلين[1].

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١٠)

ولئن كانت العواقب نجاةً وخيراً للمتقين في الدنيا فإن الله قد يؤخرها أمداً يبتليهم بتراخـــي مجيء النّصر ألا يقنطوا نفاد صبر ولا يرتدوا خيبةً وعجلاً. جرت تلك سنة علـــى الرّســـل وأتـــباعهم المتّقين وكانت تجري مع الرّسول الخاتم ﷺ وأتباعه بما يغر المعرضـــين أن الدولـــة الآجلة عليهم قاضية من بؤس حالهم، وحقاً كانوا في قلة وذلّة ولكن كذلك كان السّالفون حتى إذا استيأس الرّسل من استجابة المخاطبين وإن كثّروا التّذكير وكثّفوه ومن النّصر الموعود وإن صبروا هم وصابروا وانتظروا مرابطين كثيراً، وظنّوا أهم قد كذبوا لن يؤمن لهم أحد ولن تأتيهم هم العاقبة الحسنى الموعودة بالفتح لعلّهـــم ما صدقوا في الابتلاء ليستجاب لهم من الله بل كذّبوا، جاءهم نصر الله العظيم

(١) في ذكر سير السابقين ولو الأشدّ قوة من الظالمين والمكذبين والمجرمين من الكافرين والمشركين عظة للعاقبين راجع الآية ١٣٧ سورة آل عمران، والآية ١١ سورة الأنعام، وانظر الآية ٣٦ ســـورة الـــنحل، والآيتين ٤٥ و٤٦ سورة الحج، والآية ٦٩ سورة النمل، والآيتين ٩ و٤٢ سورة الروم، والآية ٤٤ سورة فاطر، والآيتين ٢١ و٨٢ سورة غافر، والآية ١٠ سورة محمد.

بكـــل أقـــدار الغـــيب الغالبة نجاةً لقلوب كثير من الناس انتصاراً على دفوع الأهواء والشيطان ظنوناً ومذاهب ونجاةً لهم من فتنة الظالمين وفتحاً بعد عدوانهم بغياً. ولا مردّ لبأس الله الحاقّ الواقع بأقداره ﷻ العظيمة القاهرة على المجرمين الذين قطعوا ما أمر الله بـــه أن يوصـــل من عهده ومن وشائج الخير بين عباده، ولا يُردّ بأس الله لأن نذير الله صادق وأمره مفعول.

﴿لَقَـــدْ كَـــانَ فـــي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١)

لقـــد كـــان في قصص المرسلين عبرةٌ لأولي الألباب والقلوب هدايةً من مثال سابق يـــنقلها إليهم عبوراً ويقصّها القرآن – كقصّة يوسف ﷺ إذ توالت عليه الابتلاءات في أهلـــه وفي بيت العزيز وفي السّجن حتى أتاه نصر التمكين والولاية العزيز، وكسائر قصص المرســـلين وأنباءهم في القرآن. وما كان القرآن حديث حكايات يُفترى يتقوّله الرّسول من تلقـــاء نفسه أو يتلقّاه من ذي علم وكتاب سابق، ولكن وحياً منـــزلاً من الله الذي يعلم أنـــباء الغيب ماضياً ومستقبلاً ويوحي بها في الكتب الهادية. ما كان القرآن مفتريات ولكن كـــان تـــصديق الذي بين يديه من الكتب التي تتواتر فيها القصص تصادُقاً وتتوالى معاني العـــبر والعظات وسائر شعاب هدي الحياة الحق تذاكراً والتي صدّقها القرآن الكتاب الخاتم تـــذكيراً وتجويداً، وهو تفصيل لكل شيء من علم الغيب بالله وملئه الأعلى وكتبه ورسله ومن حقائق الحياة الدنيا بلاءً والآخرة وقوعاً وجزاءً، وهو رشد بيان في سبيل الحياة المهدية تبـــشيراً بمـــا ينتظر الإيمان والصلاح من خير عاقب ونذيراً ممّا يسوق إليه الضّلال من سوء عاقبته، وهو رحمة عطاء من الله لقوم يؤمنون – إيماناً حاضراً أو مرجوّاً[١].

عموم المعاني الآيات (١٠٣ – ١١١):

إن عهـــد مكّة في سيرة رسالة الإسلام عند متنـــزل هذه السورة كانت مرحلة الخـــروج الحـــرج لأمّة الدعوة عندئذٍ من ضلال ليل الجاهلية الدّاجر إلى صبح الهدى

---

(١) في ذكـــر القرن ما هو حديث يفترى بل تصديق لما بين يديه من كتاب وتفصيل للهدى من ربّ العالمين راجع الآية ٣٧ سورة يونس.

الـــسافر والانتقال العسير من ظلمات الباطل الراسخ ظنوناً في النفوس ووطأة الأعراف التقلـــيدية رهناً للمجتمع إلى نور الحقّ الحرّ وفسحة الدّين القيّم. وما كان لعبور تلك المـــرحلة ليتم باستجابة تقفز بالمخاطبين فوراً إلى حقّ الإيمان يصدّقونه مباشرة في واقع الحـــياة كافّـــة. فالرّسول ﷺ والمؤمنون عندئذ صحابة له وتابعين والدّعاة بعدئذ خلفاً مقـــتدياً، حيثما شرعوا نذيراً من القديم المعهود وبشيراً بملّة الإسلام في أمّة خطاب لّما تـــسلم أصـــلاً، أو قاموا إحياءً للإيمان في قرن من المسلمين موتى ومرتدّين إلى ضلال وتجديـــداً لتفقّه الدّين بينهم جهلةً وغافلين عن الاجتهاد وبعثاً لحاضر مقتضى الدّين في حـــياتهم الجامـــدة على كسب الأسلاف - أولئك ما عليهم إلا أن يسعوا دائبين في دعـــوتهم حريـــصين علـــى هداية المخاطبين وإن استبطأوا تغيّرهم إلى الحق والخير من معهود نفوسهم وحياتهم، ما هم بمؤمنين إلا بعد مجاهدات. فالقرآن يوصي بالصبر على بـــلاء الانـــتقال مهما يحرص الدعاة على مسارعة إنقاذ مخاطبيهم من الضلال فالهلاك مـــأوى إلى النار والهجرة بهم في سبيل الحقّ هدى إلى دار السّلام. والدعاة لا يسألون المخاطـــبين أجـــراً على هدايتهم فأجرهم عند الله لهم فضلاً عن كسبهم الخاص بمثل حـــسنات الذين يهدونهم دون أن ينقص ذلك من هؤلاء شيئاً في الآخرة، فالدعوة أبلغ مـــن الاســـتجابة، والسابقون الأولون من الصالحين المجاهدين لعهد العسر الناهض لا يسألون التابعين عن العهد الموطأ الميسور عوضاً إن الله لا يضيع أجر المحسنين بل يؤتي كـــلاً كفاء كسبه، والقرآن ذكر للعالمين - الذين حضروا تنـــزّل وحيه فتلقوا رسالته والـــذين شـــهدوا أولئك الدّعاة وسمعوهم والذين كانوا بعيداً وصلهم البلاغ بالرواية والكتاب والذين جاءوا خلفاً ورثوا الهدى الذي هو لكلّ العالمين، حتى عالم الجن الذين قـــد يـــستمعون كلمة داعية لا يراهم هو من حيث يرون قدوته حاضرين فيرجعون مؤمنين مبلّغين أو قاسطين.

الـــدّعاة يحرصون على هداية المخاطبين لا يكلّفونهم أجراً بل يتلون عليهم عفواً آيـــات الله في القـــرآن، فمنهم من يسمع منصتاً لصوتهم خاشعاً لمعاني الآيات متدبراً لحكمتها - متلقين ما يشفي ما في صدورهم ويهديهم إلى صلاح ففلاح، ومنهم صمٌّ لا تـــبلغ كلمة القرآن المتلوّة وجداهم ولا يزيدهم وقعها إلا نأياً وإعراضاً وكيداً مرتدّاً

فخسراناً عليهم. وهم كذلك بين يدي آيات الله المطبوعة في الكون، كم من آية في السموات والأرض يرونها تقوم شاهدة على الغيب دالة على الله الخالق الناظم المدبر للكون وإلى المرجع إليه دورة للحياة الأولى إلى آخرة ومن الموت إلى بعث جديد، وينظرون إليها نعماً من الله مبثوثة مسخّرة لهم. ولكن من العالمين مَن ليست لهم بصائر ينفذون بها عبر تلك المشهودات إلى الغيب بل هم مفتونون بها عارضة ويعرضون عنها آيات هادية ونعماً مسخّرة لهم محمودة يبدلونها كفراً.

والدّعاة لصدر مرحلة الخطاب يوالونه حرصاً وعفواً وصبراً منذرين لعلّهم يطهّرون المخاطبين من الشرك والضلال ويقوهم العاقبة السوءى ويبلغون بهم مبلغ الهجرة إلى الإيمان الخالص والصلاح في سبيل العاقبة الحسنى. لكن الناس في رحلة الانتقال لا يتغيّرون جميعاً جملة واحدة من رجس الشرك والفساد إلى التطهّر فالتوحيد والصلاح والإحسان. بل منهم الكسِل الوحل ومنهم من يتحرّك، وهؤلاء يتنافسون ويتسابقون كسنّة مساعي البشر في الحياة كلها. فالقائمون السابقون هم الذين يتمّون الاستجابة أعجل ما تيسّر ويجتهدون درجاً إلى عليا مبالغ الدّين القيم. وبعض المخاطبين بالدعوة ورطون في الشرك صماً عمياً لا يسمعون آية تتلى شرعاً ولا يرون آية تسخر طبعاً تهديهم إلى الأمام، فهم تحيق بهم حبائل الشرك المطلق. وكثير من الذين يتقدّمون لا يبلغون إلا خطى على طريق الإيمان والتوحيد، يؤمنون شيئاً ما بالله خالقاً وهم مشركون في سائر الأمور. بعضهم يقعد جامداً عندها وبعضهم ينهض لكن بعد حين يتقدّم خطوات أخرى ترجح بإيمانه على شوائب الشرك الباقية في نفسه. فليس الدّين خاصة في مراحل الانتقال - كله كفر مطلق أو إيمان كامل، بل يزيد الإيمان عند بعض الناس ثم قد يضطرب وينقص ومنهم من هو أقرب إلى الإيمان ومنهم من هو أشد كفراً من أئمة الكفر. ويعتري مرحلة الانتقال والتغيير اضطراب كثير سواء كان ذلك في عهد تنزل القرآن وحياً على قوم لأول عهدهم بكتاب أو في عهده تنزيله ذكراً متجدّداً على قوم غفلوا بعد إيمان كأنهم لم يعهدوه قبلاً. الناس قد لا يرحلون مهاجرين إلى ساحة الدين القيم جملة واحدة، وكذلك الإنسان قد لا يتحوّل في نفسه إلى التوحيد الخالص دفعة واحدة وتوبة محيطة. فنفس الإنسان في مذهبها شعاب

شـــتّى – تفكّـــراً فتذكّراً فإيماناً وشعوراً وخشوعاً وتقوى وتصديقاً للباطن في الحياة الظاهرة تعبيراً كاملاً. ذلك يحقّ منه مؤمناً مسلماً في كل مناحي الحياة – إقامةً لشعائر العـــبادة واستقامة في خلق المجتمع وسعياً للمتاع في مجاهدة لفتنة وتمكناً من قوة الموالاة والـــسلطان بـــتقوى لفتن التخاصم والتظالم والتباغي. ذلك هو المثال. ولكن كسب الإنـــسان قد لا يبلغ ذلك الإيمان والإسلام المتكامل في كل شعاب الحياة في أي حين، وخاصـــة في مراحل الانتقال إلى ملة الإسلام. فقد يتفاوت تصوّب الدين ووقعه دون التمام في النفس الواحدة وفي مختلف الناس. فامرؤ مؤمن توحيداً لله في شأن من حياته قد يكون مثقلاً لحين ما بمعهوده القديم من الشرك في شأن آخر – بقيّة توقير لآلهة من دون الله أو نوازع فتنة بالمتاع إلهه بها هواه، فهو مؤمن موحّد درجاً في مجال دون مبلغ ذلك دركاً في آخر. والناس كذلك قد يسبق بعضهم بعضاً فضلاً في عموم المذهب بين الإيمـــان الخالص الكامل والشوب بالشرك، أو تفاضلاً يسبق أحدهم في شأن ويستأخر في آخر دون مستوى أوسط المؤمنين.

هكـــذا الناس عموماً لأول عهد الانتقال كمكّة الأولى، لا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهـــم مشركون، يؤمنون بالله خالقاً ورباً أعلى أو يذكرونه أكبر من ذلك لكن فيهم بقـــيّة مـــن توقير معهودات الشرك واحترام أعراف الجاهلية وتعزيز كبار أئمة المجتمع التقليدي، يقولوا أسلمنا ولا يزال يراودهم الشرك بالله معبوداً عبادة أخرى لم يخلصوا مـــنها. وذلك الخلط للمقبلين بين إيمان أو كفر أو شرك قد يعتري ردّة المسلمين عن هوية ملّة موروثة – إذ قد يتقادم فيهم عهد أصول التديّن فتفتر الحياة في دوافعه توكلاً وضـــوابطه تقوى وتغشاه شركة من أهواء لاسيما إن تضاءل الفقه والهدى المعروف، حياتهم مشوبة يؤمنون ببعض الكتاب – كهدى الذكر وشعائر العبادة طاعات مسنونة في ســـوادهم الأعظم – ويكفرون ببعضه شركاً في ملأ منهم وجمهور اتباعاً للهوى في المعاش أو السياسة، هكذا تختلف بهم شعاب الحياة، مؤمنين وكافرين شركاً. والمؤمنون هم جماعة أصل وحدتها من الإيمان بوحدانية الله وبتوحيد الحياة كلها عبادة في سبيله، لا تتفرق بهم الأرباب والسبل طوائف وشيعاً شتّى، وهم مفردون المسئولية والصلة بالله لا تزر وازرة وزر أخرى ولا تسلب كسبها ولا تحول لكتابها النيّات العابرة. وذلك قد

يـــرتبك لا بمـــا يـــشوب نفوس بعضهم من شرك في منحى من الحياة وحسب بل في المـــوالاة في الله وحـــده أفـــراداً مخلصين، يتّخذ بعضهم بعضاً أولياء في العالم المشهود يتبرّكون بهم دون الغيب ويزدلفون بهم إلى الله شفعاء ووسطاء – بعض هؤلاء من أئمة الدين الذين مضوا مخلصين تقاة فقهاء صالحين ثم قدّسهم ضلالاً الخالفون، وبعضهم قام متفيقهاً متصولحاً دجالاً يسترغب العوام من الناس ببركته إن رضي عنهم، ويسترهبهم بغاراتـــه الغيبيّة عليهم إن غضب. تلك علّة تلازم أعراضها كسب مجتمع الناس ولكنها أحدّ وأبرز والشّرك فيها أبين في مرحلة الانتقال بتدافع الاستجابة للدعوة والإعراض في نفوس الذين كانوا مشركين أو ظاهرة الثبات والارتداد بين الذين أسلموا من قديم.

إن آيـــة في خـــواتم سورة يوسف يرجع الضمير فيها لذكر أهل المرحلة الأولى مـــشركين في انـــتقال نحو التوحيد تصدُق على أهل حال الارتداد. وبعض المفسرين يصرفونها تعبير لغة عمن يجمع بين الإيمان التوحيدي والشرك الباقي، يقولون إن البينونة شـــرعاً حكـــم حاسم: الإيمان والتوحيد لدى البعض خالص والكفر والشرك محض. وذلك ضرب بالمنطق الصوري المتنطّع وصفاً وحكماً على الناس لا النسبـــي الأصدق في وصـــف الإنسان. والتوحيد والشرك تصوراً نظراً ومثالاً مطلقاً بينهما فرقان بيّن، ولكن السالكين في تلك المساعي المذهبية من بني الإنسان يوصفون في القرآن هنا وفي مواضع أخرى كثيرة أنهم على أبعاد شتى مقروناً بعضهم إلى بعض.

ومـــن محـــاذر الاستمساك بالقديم المعهود في مرحلة الدعوة الأولى والانتقال إلى الإيمـــان بالغـــيب، أن المخاطبين لا يجعلون للآخرة وحسابها وعذابها وأجرها وقعاً في نفوســـهم مذكـــوراً لنذيـــرهم من عواقب الشرك والكفر وتبشيرهم بما يدفع للإيمان والـــسعي إلى الإصـــلاح ثم الترقّي إلى الإحسان. وذلك المبتدأ في الاهتداء – سنة نهج حكـــيم كمـــا ســـبق القول لكل الأنبياء – هو التطهّر من الشرك والضلال المعهود. ولـــذلك يكثر فيه النذير بعواقب العذاب ترهيباً زاجراً من الحرام قبل أن يتحرر الناس فتُذكـــر لهم حوافز البشرى ترغيباً في الواجب. ورهبة الآخرة الناس أغفل عنها وأكفر بهـــا لأنهـــم مفتونون بالحاضر ويستعجلون الأمور فهم يستعجلون أجل الغيب القادم ويجهلون ساعة قدومه فيرتابون به حقّاً. هكذا كان يظن الغالب من المشركين في مكة

والأقـــوام الكافرة قبلها، بل هو من مألوف تقادم الدين يغشى الخلف من غالب أهل الكـــتب الأولى أو الخاتم. والمشركون لذلك كانوا يُنذرون بالعذاب العاجل في الدنيا دون الآخـــرة، لكنهم أحياناً يتحدّون قدر ذلك الغيب القريب يستفتحون أن تأتيهم الوقائـــع ويطلبون واقعة السوء إن صدق النّذير. ومهما يكن فإن على الدّعاة في العالم المفـــتون لاســـيما الـــيوم - بالمشهود ومتاعه الكثيف العاجل الحاضر وعلومه الأغزر لارتقاب التطورات - عليهم أن يُكثروا التذكير بالآخرة نذيراً لما سبق القول ثم بشيراً. وكـــان المـــشركون كما وصفتهم آية من خواتم سورة يوسف يتمادون في شركهم آمـــنين، وساءلت عنهم: أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله العاجل في الدنيا أم أن تأتـــيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون مطمئنين بالحياة الدنيا القائمة. والمؤمنون الأرشد هـــم مـــن يتقون غضب الله ألا يظلموا ويفسدوا بعد إيمان، يخشون أن تأتيهم غاشية عاجلة وكل منهم يخشى الآخرة ولو مُدّ له في العمر والمتاع لأنه لا يدري متى قدومها فيرتقـــب كأنها تقع لغده، وذلك لا يصرفه عن حاضر الدنيا فيزدهدها مطلقاً فإنما هي مجـــال الإعداد لزاد الآخرة هو يستكثر منها زاداً للآخرة ليموت موتاً مسنوناً فينقطع عملـــه وكـــسبه حتى يُبعث أو لتقع السّاعة مباغتة فيذهب إلى الموت فالبعث بكتاب حسنات ثقيل الموازين.

كـــان على الداعية الأوّل الرّسول الخاتم ﷺ، أن على الدعاة الخالفين على سنّته الحـــاملين كـــتاب رســـالته الخالد الذين يبيّنون لأمة دعوتهم الهدى في سياق الخطاب والسؤال فالجواب والحوار فالتّذكير في سبيل الانتقال ممّا حاق بها من الظلمات خروجاً إلى الـــنور - أن يـــروا ذلك المثال لسنة الهدى قائماً في واقع حياتهم هم بياناً شاهداً وإســـوة هادية، وأن يُشهدوا الناس أن هذا سبيلهم منهاجاً يدعون الناس إليه يسلكونه هـــم علـــى بصيرة وعي خيار وعلم بيّنة لا على عصبية تقليد عن صمم وعمى يعطّل المدارك ويلقي على القلوب والعقول غشاوة ويرين عليها حجاباً عن الحقّ المبين - أنهم هـــم علـــى ذلك ومن اتّبعهم من المؤمنين الموحّدين لله ربّاً القائمين بشرعه هدياً مثالُ جماعـــة متوالية في الله متناصحة بحقّه متناصرة في سبيله متمايزة بذلك، فما هم أمة أو جماعـــة من طوائف المشركين بآلهتهم المتفرقة وأهوائهم المتشاكسة وحياتهم المضطّربة

ضــلالاً عــن الــسّبيل القويم. والله يُذكّر أولئك الدّعاة إلى سبيل البصيرة بما ذكّر به الرســول الدّاعية القدوة ﷺ – أنه ﷻ ما أرسل بأقدار اجتبائه وهديه ووحيه من قبل إلا رجــالاً يوحى إليهم من أهل القرى، ما كانوا من خلائق الغيب الملائكة بل بشراً يباشــرون الناس ببلاغ ما يوحى إليهم يتلونه صدقاً لا يفترون من تلقاء أنفسهم، وهم من وسط أهل تلك القرى لم يكونوا غرباء منكرين ولا طغاة عليهم مستكبرين. وسنن هــدي أولــئك المرسلين إن لم تكن كلها محفوظة بكتاب فالسير في الأرض ومشاهدة آثــارهم بــيان كيف كانت عواقب المواقف من ذلك الهدى – زلزالاً خلّى آثار قرى مــؤتفكة أو صاعقة تركت دياراً خاوية أو بحراً لم ينج من مدّه إلا بدن فرعون الغريق أو طــوفاناً لم يتــرك مــن القوم إلا بقايا سفينة نجاة لقلة من المؤمنين. إن سيرَ أولئك الأنبــياء الرســل في أولهــا مثل ما كان يجري في شأن الرسول الخاتم بمكة – الرسل وتابعــوهم في قلّة وذلّة حالاً كانت تغرُّ الكافرين كما اغترّ بها المشركون في مكّة أنها مودية بهم إلى انمحاق، وتدعوا الرسل أنفسهم أن يستيأسوا ويظنّوا أنهم قد كُذّبوا، وما نذيــر الهلاك وبشير النّجاة بآتٍ وقعه إذ لعلّهم لم يصدُقوا حقاً ليستجيب لهم الله، ثم جــاءهم نــصر الله الذي ينجز وعده الصادق للصابرين لينجوا ويستخلفوا في الأرض متمــتّعين لحين حتى يلاقوا ربّهم بالفوز الأعظم، وجاء المنذَرين المجرمين بأسُ الله الذي صدق وعيده في العاجلة هلاكاً لا يُرد حتّى يبعثوا ويتم لهم الهلاك الأشدّ. وقد كانت تلــك القصص لأمّة الدّعوة الأولى عظة لمشركهم عبرة لمؤمنهم، وهي كذلك خطاب لخــالفهم من الأمم – هدياً بما جاء منها في القرآن وما هو أيسر اليوم من التبيّن بعلوم التاريخ والآثار لتفصيل بيانها والاطلاع على مثلها. وكان الخطاب الأوّل لأمّة جاهلية تقــادم عندها وانغمر تراث الهدى من أبيهم إبراهيم فقست قلوبهم وغفلت عن الغيب ونــسيت أصول الحنفية بل أشركت وظهر في حياتها الفساد. والخطاب يسري كذلك في الأمــم اللاحقة المنتسبة إلى الكتاب الأول ثم الخاتم إذ جرت عليها غواش مثل تلك الجاهلية. والهدى الحق أن ينظروا ليذّكروا وليتدبروا ما في سير التاريخ من آيات لله في تــصريف شأن مساير الإنسان ومصائره، مثل آيات الله المشهودة في الطّبيعة – كلها تعزّز آياته المسموعة في القرآن.

لقــد كانــت قــصص الرّسل في القرآن عبرة لأولي الألباب من الخالفين الذين خلصت ألبابهم وصفيت من كدر الشّرك والهوى وغدوا يعقلون ضابطين أهواءِ النفس وضــغوط التقاليد الجاهلية ويعقلون متلقّين دواعي الهدى ومراشده في نفوسهم ليعبّروا عــنها في مــنهاج حياتهم صدقاً. ما كان القرآن في ذلك حديثاً مفترى – كما تؤفك القــصص كذباً ولهواً معتاداً. وليس هو بكتاب وحي غريب لا شاهد له فهو تصديق للــذي من بين يديه من الكتب فيها القصص والعبر والهدى – بذلك تتصادق يؤكّد لاحقُهــا سابقَها ويبشّر سابقها بالتالي حتّى كتاب القرآن الخاتم. وقد كان القرآن في ذلــك تفصيلاً لكل شيء لا سرداً كمعتاد القصص لظاهر الأحداث لغواً متطاولاً، بل تفــصيلاً للواعظ المعتبَر من الواقعات الظاهرة والمشاعر الباطنة وظروف الحياة الملابسة وأقدار الله المحيطة. وكان القرآن بذلك هدى للناس في مذاهبهم رأياً ومسالكهم حياة، ورحمــةً لهم لأنهم بشر قاصرون بحجب عالم الشهادة والفتنة لا يعلمون ولا يهتدون لو لم يــرحمهم الله ليعرفوا حقائق الغيب ومآلاته وتعاليم الرّشد وعِبر الأولين، فالمكذّبون بالقرآن في ضلال فخسران والقائمون إيماناً به في هدى ففلاح.

سورة الرّعد

خلاصة هدي السّورة:

سورة 'الرّعد' ترتيبها في الكتاب الرابعة والأربعون في وسط سورٍ لذكر الأنبياء، ومتنــــزلها فيه خلاف، تُحسب عند الأكثرين مدنية، لكن التدبّر فيها يجعلها أقرب إلى أن تكــون مكيّة - نـــزول معانيها أقرب وقوعاً على سياقات عهد مكّة من الرّسالة وابـــتلاءاتها. وذكـــر الحروف شهادةٌ لآيات الكتاب بياناً وذكر رسالته حقاً ممّا يكثر وروده في منفتح سور مكة حيث كان مبتدأ وقعه وحياً على أمّة الخطاب الأولى فكان محـــوَر جـــدال فـــيهم إذ لم يعـــرفوا الوحي والكتاب. وكذلك الآيات المشهودة في المخلوقات الكونيّة دلالاتٍ عجيبة على قيّومية الله الواحد وصفاته العليا وعلى المرجع إليه عند لقياه في الآخرة - تصدّر ذكرها السورة كثيراً مما هو أشبه بالسّور المكية، وإن كـــان مـــثل ذلك الذكر قد ورد في سياقات من السّور المدنية. وكذلك ذكر الرسول وموقـــف أمّة المعرضين الساخرة به وذكر سنة الرسالات إلى أممٍ من قبله وما ألحّ عليه المـــشركون المفـــتونون بظاهر الدنيا من طلب آية معجزة منه - كان ذلك معهوداً في مكّـــة وقـــرآنها كثيراً ما يصرف عن ذلك إلى آي القرآن تذكيراً وهدىً ونذيراً. ثم في السّورة ذكر دين أولئك المخاطبين في مكّة، المعهود واتّخاذهم أولياء شركاء من دون الله وكفرهم بكلمة 'الرّحمن' صفة عليا لله باسطاً فيوض الرّحمة على العباد متعالياً عن شـــركاء لا يملكون ولا يهبون منها شيئاً، وكان ذلك مذهباً ومصطلحاً هو من أصل علّـــة الـــتديّن لأهـــل مكة وما حولها. وفي السّورة نذيرٌ للكافرين بالغيب المرهونين

لعـــاجلات الدنـــيا بمصير عقاب عاجل كما أصاب أقواماً من قبل، ممّا يرد في السّور المكـــيّة. ثم إن الـــسّورة تذكُـــر المؤمنين وصفاتهم عموماً وفاءً بعهد الله ووصلاً بأمره وصـــلاةً وزكـــاةً وتذكر خاصة درءهم السيّئة بالحسنة وصبرهم أن لم يهدِ الله الناس جمـــيعاً، وتذكُـــر الكافرين وصفاتهم العامّة نقضَ عهد مع الله وقطع صلات وفساداً وفرحاً بالدنيا فتنةً برزق الله المبسوط، وهذه الصفات للطائفتين أقرب لمنهج القرآن في ذكـــرهم بمكّة حيث بانت الأصول ولّما تتفصّل مسالك المؤمنين والكافرين كما جرى في المدينة. وفي السّورة ذكر لمن أُوتوا الكتاب وعندهم علِمه شهداء على صدق الوحي قـــد يفـــرحون بالقرآن إلا أحزابهم المختلفة، وذلك ممّا يرد عنهم في سور مكيّة، بينما ذكرهم في السّور المدنيّة في شأن آخر. تلك دواعٍ لعدّ السّورة مكيّة، لاسيّما أن السّور المدنية – وإن كان فيها ذكر الغيب ذكراً لله وآياته والآخرة وذكر المؤمنين والكافرين وعاقبة مصيرهم وذلك ذكر معهود في القرآن عموماً – قد يُذكر فيها أمر السلطان – هجـــرةً إلى أرض للمـــسلمين يتوالون فيها ويطيعون إمارة الرسول، أو عهوداً مع غير المـــسلمين أو قتالاً فنصراً عليهم أو تصالحاً أو دولةً لهم أو فتحاً مبيناً، وقد تُذكر فيها الأحكـــام الـــشرعيّة المفصّلة للشعائر صلاةً وصياماً وحجاً، وللمعاملات المالية زكاةً وصـــدقات وتجـــارةً ورِباً ودَيناً، وقد تُبيّن فيها أحكام نظم الأسرة حرماتها وعقدها وطلاقهـــا ومعاشراتها وأموالها، وقد تذكر أخلاق المؤمنين بعد التمكّن في مجتمع المدينة تآخياً وتساوياً وتعاوناً أو بعض ما يعتريهم من بلاءات المجتمع الكثيفة وما يلزمهم من مجاهـــداتها ومصابراتها لا مثل الصّبر على الفتن في مكّة، وقد يُذكر النّفاق وأهله ذكراً كـــثيراً لأنـــه ظاهرة مدنيّة بينما كانت مكّة بيئة فرقان بين مؤمن وكافر لحدة الفتنة والبيـــنونة. أما الذكر لأهل الكتاب في السّور المدنية فقد يكون لانعطاف بعضهم إلى الكـــتاب الحقّ المتجدّد، لكن غالبه مجادلة وتذكرة لهم في أمر كتبهم وحفظها وأصول ديـــنهم وشـــرعهم والزّيغ عنها، وفي كفرهم بالقرآن وسيرتهم مع المسلمين مبارّة أو مـــنافقة أو مناكرة ومخاونة. كل ذلك من موضوعات القرآن المدني لم يَرد في السّورة. وهـــي بعدّة آيها القليلة إن تأخّرت نـــزولاً مدنياً لَما تقدّمت في الكتاب على كثير ممّا يليها – والله أعلم بترتيب متنـــزل القرآن ضبطاً ثم بنظم الكتاب حكمة.

والسّورة لدى فاتحتها حروفٌ عربيّة أربعة تتقدم شهادةً على أن الكتاب آياته بيّنة المعاني خطاباً لأمّة عربية هي أول المخاطبين لتتلوه وتبلّغه وتفقهه وتقيم هداه، ثم إثباتٌ أن الذي أُنزل هو الحقّ لكن أكثر الناس لا يؤمنون. وإنما أُرسل الرّسول - كما خلت مـــن قبله رسل - ليتلو عليهم هذا القرآن الذي أوحي إليه ويقيمه مثالاً في الحياة. ولو أن قـــرآناً أنـــزل قوة قاهرة لطبائع الخلق بدّلت به الأشياء فسيّرت الجبال أو قطعت الأرض أو كُلّـــم الموتـــى وجبابرة كذلك للناس لهدى الله به الناس جميعاً - لا يكفر أكثرهم هكذا. والله قادرٌ له الأمر جميعاً، ولكن الرّسول إنّما يحمل القرآن ليبلّغه منذراً هادياً للناس، الله يخلّيهم على مشيئتهم يُملي للذين كفروا في الحياة ويزيّن لهم مكرهم بفتنها، ومن يفتح الله له خيار الضّلال فيضلّ ما له من هاد. ولئن ارتاب الذين كفروا المخاطـــبون بهذا القرآن بالرّسول مرسلاً به من ربّه فليُعقب على ارتيابهم أن كفى بالله شهيداً بينه وبينهم، فهو يتبع ما أوحى الله فيه يخاف ربّه إن عصاه، وليُشهد كذلك من عنده علم الكتاب يعهد الوحي قبلاً ويرى الحق متصادقاً في كتب الله القديم والمتجدد.

في صـــدر الـــسّورة يتوالى التذكير بآيات الله مشهودات محيطة بالإنسان عجيبة الوقع دلائل على الغيب. ذلك أن سماع الآيات الموحاة من الغيب المتلوّة وقراءة كتابها بما يبلّغ العقول معانيها فتخشع لها القلوب إنما يتيسّر التهيّؤ له في النفس بتصويب النظر إلى الآيات في الكون المخلوق بتفكّر ينفذ إلى الغيب فتقع موحياتها في الوجدان فتحيي فـــيه أصول فطرة الإيمان وتزكيها، وبذلك يتعزّز في النفس المهاد وتنفتح المدارك فيها والمـــشاعر لتلقّـــي القرآن نبأً وهدياً من الغيب. لينظر الناس فوقهم إلى السّماوات التي رفعهـــا الله بقوىً من أقداره ليروها قائمة على غير عماد كمعهود سند العالي عليهم، والـــشمس والقمـــر آيات مسخّرة لهم ضوءاً وطاقةً ونوراً وهداية تجري لأجل مسمّى لـــيعلموا حـــساب الزمن وليتبينوا كيف يدبّر الله أمر الكون بعد الخلق تسييراً ويفصّل آياته تقديراً حول خلقه من الناس، لعلّهم يعرفون خالق ذلك ومدبره: الله الإله الواحد العظيم الأعلى، ولعلهم من أقداره في الأجل يوقنون بأن حياتهم الدنيا بحسابها زمناً إنما تجـــري لأجل مسمى من الله وتدور إلى تمامها في حياة أخرى عند لقائه. وليسيروا في الأرض فينظـــروا أن الله مدّها لهم بساطاً وهيّأ الأوضاع فيها مزاوجة تتكامل لهم فيها

خيراً مسخّراً. إذ جعل فيها رواسي ثابتة لقرارها ولمعالم الهدى فيها وأنهاراً بالماء جارية سقيا لهم ومحملاً ومتاعاً، وإذ جعل زوجين اثنين من كل الثمرات لتتوالد وتتبارك مدداً لغــذاء الإنسان المتوالد مثلها، وإذ يغشى الليل النهار يتزاوجان تداولاً لراحة الإنسان وســكنه ثم نشاطه ومتبصّره - كل تلك آيات لقوم يتفكّرون كيف جعل الإنسان في ســياقها زوجين اثنين يتكامل ويتوالد وينسلك فيها بيئة مطوّعة له طبعاً لعلّه وهو في خــيار أن يطيع الله موافقاً ما حوله في دنياه لتكون معه في حياة وئام وسلام أخرى. ولينظــر الناس في الأرض الخضراء فيها قطع متجاورات تنبت فيها جنات من أعناب وزرع ونخــيل تسقى بماء واحد ولكن أقدار الله في إخراجها تفضّل بعضها على بعض مــأكلاً لهم لعلّهم يقوّمون بتعقّل نعم الله من الأطعمة المتفاضلة لشتى أذواقهم، ولعلّهم يــرون كــيف جُعل الله الواحد مخلوقات شتّى وجعل من وحدة الأرض والماء زوجيّة أخــرج منها متاعاً متفاضلاً مثل الذريّة للإنسان التي تخرج من توحّد الزوجية وتخرج متفاضلة خلقاً وخُلُقاً ليتعارفوا في الحياة ويتوالوا عليها.

ولــئن كانــت الآيات المشهودة شواهد بيّنة هادية إلى الغيب، فإن الذين كفروا وغمــروا بصيرتهم مرهونون لنظام الأسباب الظاهرة المسنونة في الدنيا لا ترى أعينهم فــيها بصائر ولا تصدق آذانهم أنباء عن أسباب غيبية وراءها. فهم لذلك يطلبون من الرّسول بأن يُنــزل عليه بقوى من غيبه المدّعى ما يبدّل الأسباب المطبوعة المعهودة، ما يحدث واقعة مرئية ملموسة تخرق السّنن الجارية بوجه يعجز عنه البشر لتقوم بيّنة قاهرة تحملهم على الإيمان بما يُوحى إليه من ذلك الغيب صادراً بدفع أقدار غيبية وراء أسباب الدنــيا وفــوقها. وإنما الرّسول بشر ينتظر مجريات السّنن المشهودة لا خوارق طبع بل وقائــع تصدق النذير المعاجل عقاب المكذّبين برسالته. ولئن كانت المشهودات كذلك آيات دواعي عجيبة لليقين بلقاء الله، فإن الذين كفروا بالغيب وفتنوا بالمشهود الحاضر العاجــل لهــم قولٌ عجيب: كيف يُذكّرون ببعثٍ وخلقٍ جديد إذا ماتوا وكانوا تراباً كمــا جرى لآبائهم الموتى لزمان. هم يُعرضون عن آياتِ الآجال في الطبيعة المشهودة وعــن النذيــر المــسموع من بلاغ الرّسالة لأنهم يحبّون إن ماتوا أن يتركوا سُدىً لا يحُــضرون إلى يوم حساب. لكنهم صائرون إليه ولاقون في الحساب والجزاء خسراناً،

تحصرهم الأغلال في أعناقهم وهم أصحاب النار في شقائها خالدون لا في فناءِ التراب غابرون، لأنهم ما أطاعوا الله في سياق الأشياء الطبيعية الطائعة ليوائموها ويسالموها دنيا وأخـــرى. لئن استبطأوا ساعة القيامة فإن النّذير لهم أن الله لا يذرهم حتى في دنياهم سدىً، بل قد يعاجلهم بعاقبة سوءٍ على فعالهم عدلاً ناجزاً. إنهم يمضون في كفرهم غير مـــبالين لا يصدّقون النّذر بسوء المآل ولا يترجّون من الله حسنة، وقد خلت من قبلهم المـــثلات أقـــواماً أتـــاهم وقـــع نذير الهلاك الموعود. لكن مهما يتمادى الذين كفروا ويسخروا من النّذر فإن الله ذو مغفرة للناس على ظلمهم يمدّ لهم ويُملي لعلّهم يتوبون، وهـــو شديد العقاب قد يأتيهم بعذاب متى أخذهم بوقع أمره المفعول، وإنّما الرّسول منذر وحسب كسائر الرّسل الذين خلوا لكل قومٍ هاد، وإما تُريه أقدار الله بعض الذي يُـــنذرهم وعيد دنيا أو تتوفاه دونه فإنما عليه البلاغ وعلى الله الحساب في الآخرة. إنّ الله عهـــد في نفوس الناس فطرة إيمان لعلهم يزكّونها، وأقام حولهم آيات طبيعيّة لعلهم يتفكّرون فيها فيتذكّرون، وينـــزل عليهم آيات وحي لعلّهم يسمعونها فيتّبعون هديها، ثم إذ هـــبطوا إلى الأرض جعل لهم في الحياة الدنيا ابتلاء خيار، إما انفتنوا بها متاعاً في غفلـــة ومـــشهوداً يحجبهم دون الغيب أو آمنوا بالله وهديه وأعدّوا فيها زاداً لحساب الآخـــرة. والله يعلـــم كسبهم - مذاهب في نفوسهم وظنوناً أو مسالك في الحياة أنّى كانوا. هو يعلم دقائق المخفيّ الغائب - ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام من قرء أو تزداد من جنين - كل شيءٍ من ذلك عنده معلوم مسنون بمقدار. وهو يعلم الغيب حقائقه الموجودة ومآلاته التي لا يدركها عباده، ويعلم وقائع الشّهادة التي يطلعون على مـــا يلـــيهم منها، هم قاصرون وهو يحيط بمداركه كل شيءٍ صغُر أم كبُر لأنه الكبير المـــتعالي. أمـــا أقـــوالهم فسواءٌ منهم من أسر القول ومن جهر به يسمعه الله السّميع، وســـواءٌ مـــنهم في فعالهم مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار المتجلي يراه أينما كان الله البصير. والله العليم بعباده هو الحافظ لهم الذي يعرف أحوالهم، لكل منهم معقبات من الملائكـــة بين يديه ومن خلفه حفظة وكتبة لرصيد كسبه أرواحاً من أمر الله الذي لا يغيّـــر أحوال عباده الجارية إلا بما يغيّروا من أنفسهم، وإذا أراد بقومٍ سوءاً بما كسبت أيـــديهم فـــلا مردّ له وما لهم من دونه من والٍ، فهو الحفيظ المولى الكافي. وهو الذي

يحـــيط عباده بظواهر الترهيب والترغيب والنذارة والبشارة في حياهم خوفاً وطمعاً – يـــريهم الـــبرق خـــوفاً من صواعقه الواقعة ورجاءً في بشريات غيثه العاقب، وينشئ الـــسّحاب الـــثقال بالمـــاء وبالدفـــوع المتضاغطة التي تفجر طاقاها البرق يرونه خلباً للأبـــصار، والتي تطلق الرّعد يسمعون هديره قد لا يفقهه الناس لكنه تسبيح لله كأنه يـــنطق فيهم بقوة أقداره المتعالية عظيماً على كلِّ شيء يحمده بشرى ببركاته النازلة. وإن رهـــبة الله الجلـــيلة تحيط بعالم الغيب مثل الشّهادة، فأرواح السماء الملائكة التي يعـــبدها بعـــض الناس من حول عرش الله يسبّحونه من خيفته سنةً جاريةً لا يفتُرون. وهو سبحانه يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء من عباده كما جرى لأقوام سلفت، كمـــا يرسل الله ملائكته جنوداً يأخذ بها من يشاء. لكن الذين كفروا يجادلون في الله، في حقّ آياته وصفاته العليا لا يرهبون قواه المحيطة بهم، وهو ﷻ القوي الغلاّب شديد المِحـــال، يماحلهم ويجادلهم فيجدلهم عذاباً أو هلاكاً. وله تعالى دعوة الحقّ لمن يرغبون في اســـتجابة الدّعاء بقدرته، والآلهة التي يدعوها المُشركون من دونه لا تستجيبُ لهم بشيء إلا مثل باسط كفّيه إلى الماء يشهده من بعيد ويرجو أن يبلغ فاهُ وما هو ببالغه، إن ذلـــك إلا دعاء في ضلال. والله تعالى يسجد خاضعاً لقدرته ومشيئته خاشياً لرهبته ورغبته مَن في السماوات والأرض من مخلوق طوعاً – إن بسط الله له حرية المشيئة – لأنـــه ما يشاء إلا في إطار مشيئة الله، وكرهاً إن كتب عليه قدراً مطبوعاً لأنه لا يحمل أمانـــة الخيار، وظلالهم كذلك – طبعاً ترونه في أشخاصكم وحولكم – تنقص وتزيد في الغدو والآصال بدليل الشمس من قدر الله وسنّته التي تخضع لها الأشياء.

إن مواقـــف عـــباد الله المبتلين في الدنيا خياراً تتمايز. فمنهم من لا يرى مغزى الآيات المشهودة تُبصر بداهة أن الله ربّ السّماوات والأرض، ثم هم يتّخذون من دونه أصـــناماً أولياء لا يدبّرون لهم أمراً ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً. إنهم إزاء تلك الآيـــات والمؤمـــنين ذوي البصيرة والهدى كالأعمى والبصير أو الظلمات والنور. هم يعلمـــون أن أولئك لم يكونوا شركاء لله خلقوا كخلقه فتشابه الأمر، وإنما الحقّ أن الله هـــو الواحد ربّاً القاهر إلهاً سبحانه أن يشاركه أو يضارعه شريك. إنهم والمؤمنين إزاء الآيات المنـــزلة المذكّرة كمثل ماء – هو كالهُدى، أنزله الله من السّماء فسالت أودية

بقـــدرها – هـــي كالقلـــوب تتسع للهدى أو تضيق بوسعها، فاحتمل السّيل المتدفقة أمواجه زبداً رابياً يحمل أوساخ الوادي – ذلك كبلاءات الدنيا الجارية المتقلبة المضطّربة الـــتي تجاهـــدها بعض القلوب وقد تعلوها شوائب فوق الإيمان، أو كمثل معادن يُوقد علـــيها في النار ابتغاء حلية أو متاع أداة فيعلوها من نير تصفيتها زبد – هي كالقلوب إذا حمي عليها البلاء ليجلّيها صفاءً أم كدراً. كذلك يضرب الله مثل الحقّ والباطل في ابـــتلاءات الدنـــيا. أما الزّبد – وهو باطل الذين كفروا – فقد يعلو في بلاء ثم يذهب جفـــاءً زاهقاً، وأما ما ينفع الناس – وهو حق المؤمنين وخيرهم – فيمكثُ في الأرض ثابتاً. كذلك يضرب الله للفريقين الأمثال – المؤمنون المبتلون الخالصون الذين استجابوا لهـــدى الله لهم الحُسنى في العاقبة عنده، والذين كفروا المستكبرون كالزّبد لهم في الدنيا أعـــراض مـــتاع قد تتوافر لكنها لا تنفعهم فديةً يوم الحساب إذ لهم سوءى المصير في جهنّم. كيف يستويان، والذين كفروا في عمىً، والمؤمنون ذوو علمٍ ببصائر التنـــزيل، هـــم يوفـــون بعهد الله لا ينقضون ميثاقه ويصلون ما أمر الله به أن يوصل لا يقطعونه خـــشية قطعهـــم مـــن رحمة الله عند الحساب، وهم في معاملة الذين كفروا يدرءون بالحسنة السيئة التي يُلقيها أولئك عليهم، وهم تطمئن قلوبهم بذكر الله فيصدّقون إيمانها الثّابت بالعمل الصّالح، فطوبى لهم عقبى الدار جنّات تجري من تحتها الأنهار أُكُلها دائمٌ وظلـــها، يدخلـــونها في رفقتهم الصالحون من ذوي قرباهم في الأرض وهم في ضيافة ملائكة السماء يدخلون عليهم من كلِّ باب بالسلام والتحيّة بما صبروا فلنعمَ الدار. أما الذين كفروا فأولئك الذين جعلوا لله وهو القيّوم على كلِّ نفسٍ شركاء، كأنهم ينبئونه بما لا يعلم أو بقولٍ عن أمرٍ ظاهرٍ بطلانه مكراً زُيّن لهم وصدّوا عن السّبيل القويم، إنهم ينقـــضون عهد اللهِّ في فطرتهم وإن ذُكّروا به تذكيراً، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، ولئن كان قد غرّهم متاع الدنيا المبسوط من الله فإنه في الآخرة الخالدة متاعٌ فان. أولئك لهم ثمّة اللعنة طرداً من رحمة الله ولهم سوء الدار.

إن أمانة الرسالة أن يبلّغها الرّسول ويتلو الكتاب ويقوم في نفسه بالهدى الحقّ موحّداً لله مهما يشرك به المخاطبون ولا يعرفونه حقاً شاهداً لا إله إلا هو له العبادة والدعاء وعليه الـــتوكل وإلـــيه المتاب والمآب، ومهما تكن أهواء أولئك أن يتّبع حكم الله المنـــزل قرآناً

عــربياً، ما له دونه من وليٍ ولا واق، وليعتبر بالمرسلين قبله رجالاً لهم أزواج وذريّة مثله ما هم بملائكة و لم يأتوا بآيات معجزة إلا بإذن الله، ولكلِّ رسول كتابه وآيته لأجله والكتاب الأم الحــق واحد غيباً عند الله. وعليه أن يتَّبع الهُدى متوكلاً على الله ولو سخر منه الذين كفــروا وأن يــصبر هــو والمؤمنون على إعراضهم وإن لّما يهدهم الله جميعاً ولّما يأخذهم بعذاب. إن الله لم ينــزل القرآن بوقعٍ قاهرٍ للطّباع في الأشياء وكلّ الناس، بل هدى ليتبع طــوعاً، هو تعالى يملي للذين اختاروا الكفر لكن سننه عليهم الباقية أن تصيبهم القوارع أو تقــاربهم وأن يأتي سبحانه وتعالى أرضهم ينقصها من أطرافها بحكمه السّريع الحاسم كما يــرون في الأقــوام الــسّالفة التي مكرت مثل مكرهم فأتاهم مكرُ الله الغالب الذي يعلمُ كسبهم، وسيعلم أولئك الكفار لمن تكون عاقبة الدار.

ترتيل المعاني (الآيات ١ – ١٥):

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِل إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (١)

فاتحــة السّورة بالحروف على نهجٍ غالبه في سورٍ نــزلت في مكّة لأن أول وقع الوحــي كــان فــيها غريباً على أمّة خطاب كان لسان كلامها من منطق مثل تلك الحــروف العــربية. والسّورة تتوسط في الكتاب سوراً سميت بذكر الرسل تبدأ بذات الحــروف: الألف واللام والراء وتزداد هي توسطاً بالميم – كأن تلك الحروف من بنية كلمــة 'رسالة' وكأن هذه الميم – من أول منطوقات الإنسان طفلاً وفيها بنيةً للكلم إشــارة للأصل والأم والجمع – تشير بين حروف 'الرسالة' لأصولها الجامعة[1]. وقد سبق ذكر تقديم الحروف شهادة على عروبة القرآن المبنيّة وعلى روعة أسلوبه العربــي المعجــز، وهدايــة لمقتضى إحسان علوم اللغة العربية بناءً وحرفاً ونحواً وبديع أسلوبها وبلاغــته وبــيانه، وتعلّمهــا ونشرها لتعلّم القرآن ونشره بنصّه مباشرةً، لئلا ينقص بالترجمة إلى لسان آخر بيانه ووقعه، إلا ما كان لضرورة البلاغ.

(١) من بين السور المفتتحة بحروف مقطعة يتلوها ذكر الكتاب راجع سورة يونس وهود ويوسف وانظر سورتي إبراهيم والحجر.

تلــك آيات الكتاب المبين – إشارة لعالي مكانة الدلائل العجيبة على الغيب في الكــتاب الموضوع أمانةً وتكليفاً على من أتزل إليهم والمسطور في ورق لحفظة بينهم، المبين لأنه موضّح لمعانيه مجلٍّ لمقتضياته اتباعاً وإقامةً في الحياة. والذي أتزل إلى الرّسول المخاطب من ربّه بالحق – أُتزل وحياً لم يتقوّله الرسول مفترى، ومن الله لا من تلقين كتابـــي أعجمـــي أو وحي شيطان أو مخيلات سحر، وهو بمعناه الحقّ ليس كظنون الجاهلية بل يحق كل ما فيه ذكراً لحقائق غيب أو تعبيراً عن هواد حكيمة في الحياة.

﴿اللّــهُ الَّذي رَفَعَ السَّمَاوَات بغَيْر عَمَد تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش وَسَخَّرَ الــشَّمْسَ وَالْقَمَــرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بلقَاء رَبِّكُمْ تُوقنُونَ﴾ (٢)

الله – المبتدأ الإله الواحد الأعظم المعرّف المقدّم وجوده وذكره، هو – الذي رفع الــسماوات، أول المذكـــورات من آيات الله المخلوقة في الكون المطبوع لأنها الآفاق المباشـــرة فـــوق نظـــر المخاطـــبين جميعاً. رفعها بغير عمد – أعمدة مراكز – يروها لأرحابهـــا العظـــام المتعالية، بل تسندها قوى تُرى بأقدار الله الجليلة. ثم علواً بعد إتمام خلـــق الأرض في أربعة أيام ورفع السماوات في يومين – استوى الله على العرش، لا يـــدري الإنـــسان كيف الوجود له في الغيب والأزل، ولكنه سبحانه بذلك انتصب متمكـــناً على مرتبة السلطان ومركز التدبير لملكوته من السماوات والأرض. وسخّر الـــشمس والقمر للناس المخاطبين – ذكراً لأظهر مشهودات السماوات وأنفعها لهم، ولم تُذكـــر شمـــوس وأقمار أخرى، كل منها يجري – الشمس تجري عبر اليوم بظاهر الـــرؤية من الأرض المتكوّرة هي نحوها طلوعاً وغروباً وعبر الحلول فصولاً ميلاً كذلك شمـــالاً وجـــنوباً، وتجـــري لمحور آخر غير مشهود لبادي الرؤية، والقمر يجري حول الأرض مـــنازل حـــول الـــشمس يبدو هلالاً فبدراً ومحاقاً، يجريان لأجلٍ مسمىً يوماً وشهراً وسنةً برؤية الظاهر المحسوبة. هكذا بعد الخلق يدبر الله مستوياً على العرش أمْرَ المـــرفوعات المـــسخرات وأمـــر الـــذين سخّرت لهم بترتيب أسبابها وعواقبها بحكم التـــسخير، يفصّل الله بذلك الآيات ليميز بياناً كلاً منها ولتتناصر مجملةً دلالة مؤكدة على وحدانيته أصلاً لإبداعها ومبلغ قوته وحكمته في تدبير أمرها وأمر الإنسان الذي

يحـــيا تحت ظلها ونفعها. ذلك كله لعلّ المخاطبين يَرجى منهم أنهم بإنعام الرؤية تبصراً لتلك الآيات – بلقاء ربهم يوقنون – إيماناً ثابتاً من غير ريبة أنهم ملاقوه لأجل هو من ســـنّة الآجـــال المسنونة المشهودة في سير ملكوته، وأن بعثهم ميسور له وقد خلق التي هي أشدّ منهم فوقهم سماء مبنية.

﴿وَهُـــوَ الَّذي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فيهَا رَوَاسيَ وَأَنْهَارًا وَمن كُلِّ الثَّمَرَات جَعَلَ فيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلكَ لآيَات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣)

وهـــو – إضافة لخلقه وتدبيره – الذي مَدّ الأرض كُرةً لكنها مبسوطة فجاجاً للقـــرار والـــسير فيها، وجعل فيها رواسي الجبال الصّلبة الثوابت قراراً لها ولطاقات جـــوفها وركازاً لمتاع الناس تحتها وهوادي لمعالم السير فيها، وأنهاراً يجري فيها الماء الـــسائل، تتـــزاوج مـــع الجبال منبعاً فيها ومجرىً بينها، ومن كل الثمرات جعل في الأرض زوجـــين اثـــنين لتتلاقح أصولها متباشرة أو متراسلة بالريح فتتوالد وتتكاثر وتتـــبارك متاعاً للناس، يُغشى الليل النهار – حالاً دائماً لكل ما سبق – يلفّ الليل والـــنهار يتـــزاوجان متداولين يؤثران بالحرارة والبرودة على الناس والجبال والأنهار والنبات. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون – دلالات عجيبة لمن يقوم بالتبصّر فيها نفـــاذاً لقدر الله وبالتفكر كيف فصّلها الله بخصوصها وتزاوجها ودبّر تسخير آثارها لعباده[1].

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَاب وَزَرْعٌ وَنَخيلٌ صنْوَانٌ وَغَيْرُ صـــنْوَان يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقلُونَ﴾ (٤)

وفي الأرض – الـــتي يعـــيش عليها مباشرة الناس – قطع متجاورات من تقاطع ســـاحتها لكـــنها تنـــبت جنات شتى من أعناب وزرع من مختلف المزروعات ونخيل

(١) الـــتذكير بالتفكر في آيات الكون المشهودة التي يفصلها الله منـــزاوجة متنوعة يرد كثيراً في القـــرآن: راجع لآية ١٩١ سورة آل عمران، والآيات والآيات ١١ و٦٨ و٦٩ سورة النحل والآيات ٦ – سورة الروم، والآيتين ١٢ و١٣ سورة الجاثية، فضلاً عن دعوة التفكّر في بيان آيـــات الله وأحكامه وأمثال ذكره الموحاة، أو في رسالته ورسوله وفي أقدار خلقه في الإنسان وسيرة حياته – في آيات أخرى.

صـــنوان – متفرق الأصل سيقاناً متلاصقة – وغير صنوان بسوق مفردة، تسقى كلها بماء واحد، يزاوج الأرض لينبت الجنان ويرويها، وتُفضل أقدار الله بعضها على بعض أكـــلاً، تـــتخالف الثمار حبوباً وفواكه وخضراً من المأكول بأشكال وألوان وأطعمة ومنافع، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون – آيات لربٍّ واحد يتنوّع إبداعه، ومنه أرض واحـــدة ومـــاء واحد يختلف نبته ويتفاضل أكله، لقوم يعقلون رؤاهم لكل مبتغياتهم طعامـــاً ليـــتلقوا مـــنها دلالة على الله الواحد الذي تتبارك نعمه ويخلق من كلِّ نعمةٍ نعماً[1].

﴿وَإِن تَعْجَـــبْ فَعَجَـــبٌ قَـــوْلُهُمْ أَئِـــذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّـــذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾ (٥)

ولذلك ينضاف أن الذين لا يؤمنون بحق نبأ التنـــزيل غيباً ولا يتفكرون في كل هذه الآيات إيقاناً بالمرجع إلى الله – إن يعجب المرء المخاطب بهذا الذكر من القـــرآن فعجـــبٌ منهم عظيم الوقع قولهم يتساءلون: أئذا كانوا تراباً – المقابر غمـــرتهم وأجسادهم انحلّت في ترابها، هل هم يبعثون في خلق جديد؟ والله كما ســـبق ذكره خلق أكبر منهم سماوات وأرضاً وشمساً وقمراً ويخلق حياً من ميت حيثما يرون من حبٍّ ونوى يُخرج منه خضراً حياً. أولئك – الأباعد من الحق – الـــذين كفـــروا بربهم – غمروا كل آياته إذ لم يتفكروا ويعقلوا فيها لتبين لهم ربوبيـــته العليا خالقاً ومدبراً، أولئك الأغلال حدائد قيد في أعناقهم يوم القيامة يـــنقادون بهـــا كرهاً إلى النار لأنهم ما أرادوا قبلاً الانقياد طوعاً حراً لأمر الله، وأولئك أصحاب النار هم – خاصة – فيها خالدون دواماً، إذ قدموا في حياتهم الدنـــيا كفـــراً ببغيهم زينة ومتاع وأكل طيب فأصبح جزاؤهم وفاقاً في الآخرة

(١) دعوة العقل نظراً لآيات الله الكونية المشهودة المتجاورة والمتفاضلة ترد كثيراً في القرآن: انظر الآيتين ١٢ و٦٧ سورة النحل، والآيات ٧٨ – ٨٠ سورة المؤمنون، والآية ٢٤ سورة الروم، والآيـــة ٥ سورة الجاثية، فضلاً عن العقل تبيّناً لآيات الله الموحاة، أو اعتباراً بأقداره تعالى في سيرة الحياة الأولى والآخرة، في آيات أُخر.

عذاب الحريق لأنفسهم والحرقة من كل منظور فيها وكل محسوس من طعامها[1].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسَّيِّئَة قَبْلَ الْحَسَنَة وَقَدْ خَلَتْ من قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٦)

أولـــئك يستعجلون الرسول المخاطب - تكذيباً واستهزاءً أن يأتي قبل الحين الموعود للعاقـــبة السيئة التي ينذرهم منها قبل الحسنة التي يبشرهم بها إن تابوا وآمنوا وأصلحوا. هم في ذلـــك المقـــال والحـــال وقـــد خلت من قبلهم المثلات - سيئ العواقب الماثلة لسيئ الأعمـــال - حقّـــت ووقعت على أقوامٍ قبلهم. مهما يقولون من ذلك، إن رب الرسول المخاطـــب الـــذي قد يتلقى منهم ذلك القول في حسرةٍ عليهم، إن ربّه ذو مغفرة عظيمة للـــناس علـــى ظلمهم، وإن تجاوزوا وأوقعوا الحياة في غير مسلكها الحق، لا يؤاخذهم بما كسبوا فوراً بل يمهل لهم ويمدّ لعلهم يستغفرون ليستجيب لهم بالغفران، وإن ربّه- أيضاً - لشديد العقاب متى جاء أجل الوعد إذ حقّ عليهم بعد تمادي الظلم البالغ[2].

---

(١) كـــان العرب في الجاهلية كسائر الدهريين ينكرون الأزل وراء الزمان والبعث والخروج بعد المـــوت والقبر وصيرورة الجسد إلى تراب ميت وعظام رفات، انظر الآية ٣٨ سورة النحل، والآيـــات ٤٩ - ٥١ والآيتين ٩٨ و٩٩ سورة الإسراء، والآيات ٣٥ - ٣٧ واآيتين ٨١ و ٨٢ سورة المؤمنون، والآيتين ٦٧ و٦٨ سورة النمل، والآيات ١٥ - ١٩ و٥٢ - ٥٣ سورة الصافات، والآيات ٣٤ - ٣٦ سورة الدخان، والآيات ٢٤ - ٢٦ سوة الجاثية، والآيات ٢- ٤ سورة ق، والآيات ٤٧ - ٥٠ سورة الواقعة، والآيتين ٣و٤ سورة القيامة، والآيات ١٠ - ١٤ ســـورة النازعات. وراجع وانظر في آيات آخر ذكر قدرة الله وسنته في دورة الآجال في الحياة والموت ثم البعث والإخراج والنشور.

(٢) اســـتعجال العذاب ارتياباً بصدق وعيد رسالة الغيب من خُلقٍ بعض المخاطبين من الرسول نذيراً بآجلـــة سوء العاقبة إن أعرضوا عن دعوة الحق: انظر مثلاً الآيات ٤٧-٤٩ سورة الحج، والآيات ٢٠٠ - ٢٠٩ ســـورة الـــشعراء، والآيـــات ١٧١ - ١٧٧ سورة الصافّات، والآية ٢٤ سورة الأحقـــاف. وراجـــع وانظـــر بعض الآيات توصي النبـــي الداعية النذير ألا يعجل بسوء العاقبة لمخاطبيه مهما يتمادون في الإعراض ويُملي لهم الله، وأن يصابرهم حتى عذابهم العاجل أو الساعة: الآيـــتين ٥٧ و٥٨ سورة الأنعام، والآيات ٧٥ و٨٤ - ٨٧ سورة مريم. ذلك مهما يبطئ عليهم في ظنهم عاجل وقع النذير أو يتساءلون: متى أجل يوم الدين والحساب الموعود: راجع الآيات ٤٨ - ٥٢ سورة يونس وانظر الآية ١٠٩ سورة لأنبياء، والآيتين ٧١ و٧٢ سورة النمل، ٥٣ و٥٤ ســـورة العنكبوت والآيتين ١٧ و١٨ سورة الشورى، والآية ٢٥ سورة الجن، وإنما تأتي الساعة بغـــتة لا تـــتخلّف: راجع مثلاً الآية ١٨٧ سورة الأعراف، والآية ٦١ سورة النحل، والآية ٥٥ سورة الحج، والآية ٦٣ سورة الأحزاب، والآيات ٤٢ - ٤٦ سورة النازعات.

﴿وَيَقُــولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧)

ويقــول الذين كفروا - مقولة مستمرة من ريبهم: لولا، هلا أُنزل على الرسول من ذلك الغيب حدوث واقعة محسوسة معجزة تخرق معتاد السّنن الطبيعية آيةً تحملهم على ما يــبلّغه الرّسول عن الغيب، ما يذكرون البيّنة في المطبوع المسنون من الكون حولهم. ولئلا يترجّــى الرســول حرصاً على إيمانهم آية كتلك ليذكّرْ أنما هو منذرٌ أمره قاصر على ذلك وليس عليه ولا له إلا أن يوصل إليهم الهُدى من الضلال ليتّقوا الهلاك، ولكل قوم خلوا من قبل رسول هاد نذير أمانتُه أن يهديهم إلى المراشد وينهاهم عن مسالك النذر[1].

﴿اللّــهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨)

اللّٰه - الإلــه الأعظم الواحد الذي سبق ذكر مشاهد قدرته المحيطة خلقاً وتدبيراً وآياتــه لا ينكــرها من يعقل ويتفكّر، هو - على سنة محيطة من العلم بأمر عباده في الأرض، هــو بأصغره وأكبره في كتاب عنده مبين. يعلم ما تحمل كل أنثى في رحمها ومــا تغــيض الأرحام نقصاً من دم حيض بعد قرء وما تزداد بمني وبويضة يتزاوجان ويتّحدان فيولّدا جنيناً محمولاً في الرحم. وكل شيء من ذلك - لأنه من صنع قدره - معلوم عنده بمقدار كيفاً وكمّاً.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (٩)

وتــتوالى في هذه الآية صفات علمه الأعلى سبحانه: هو عالِم الغيب الذي يغيب عــن إدراك البــشر في وجــود الأزل المحجوب، وعالِم الشهادة، العَالَم الذي يليهم

---

(١) في تطلــب المخاطبين المفتونين بالمشهود آيةً مادية معجزة لا من آيات الطبيعة المعهودة تعزيزًا لدعوة الرسول إن صدقت عن وحي رباني غيبــي، وميل الرسول أحياناً لرجاء الاستجابة من ربه لذلك الطلب وتذكيره إنما عليه البلاغ: انظر الآيتين ٢٧ و٣٨ من ذات السّورة، وراجع الآيــة ١١٨ سورة البقرة، والآيات ٣٥ - ٣٧ و١٠٩ سورة الأعراف، والآيتين ٢٠ و٩٧ سورة يونس، والآية ٥ سورة الأنبياء، والآيتين ٣ و٤ سورة الشعراء. وفي ذكر ذلك مع سابق الرســل انظر الآية ٥٩ سورة الإسراء، والآيات ٤٦ - ٤٨ سورة الزخرف، وفي ذكر صالح انظر الآيتين ١٥٤ و١٥٥ سورة الشعراء، وفي ذكر شعيب انظر الآيات ١٨٥ - ١٨٩ سورة الشعراء.

ويشهدونه هم أو الذي في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم الذي يجهلون، وهو الكبير المتعالي في علمه المطلق - علماً لا يدانيه سعة وإحاطة ولا يقارب أوج علوّه عالِم سواه.

﴿سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (١٠)

ولا تتفاوت عنده تعالى جهات العلم، فعلمه مطلق يحيط بكل كسب عباده المخاطبين، سواء منهم عموماً المبتلون المحاسبون بكسبهم، من أسر القول في نفسه أو في نجوى ومن جهر به على الملأ، ومن هو بالوجود والفعل مستخفٍ يتقصّد الكمون بالليل في ظلامه ومن هو ساربٌ ساعٍ في الأرض بالنهار ظاهراً.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (١١)

سواءٌ في علم ربِّهما أيهما من عباده، له معقّبات قوى من ربِّه تتناوب متعاقبة عليه من بين يديه قدّامه ومن خلفه وراءه، ملائكة يحفظونه من نزع الشيطان ومن قصور يمدّونه بأيد حق ومن كل شرٍّ لم يقدّره الله ويحفظون كسبه يكتبونه بيّنة يؤتاها يوم الدّين بينَ يدي ربّه، لا يملكون هم شيئاً ممّا يفعلون به بل هم حفظة بوحي وقدر من أمر الله. إن الله المدبّر لأمر الإنسان الحافظ لا يغير ما بقوم من حالهم المعتادة المحفوظة حتى يغيروا هم ما بأنفسهم، أن يظلموا عائجين عن الاستقامة، يذوقون نعماء فلا يحمدون الله عليها وتصيبهم ضرّاء فلا يصبرون، ذلك يعلمه الله منهم فيقضي به، وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً - لأنهم غيروا ما بأنفسهم وحقّ عليهم ذلك بما كسبت أيديهم - فلا مردّ لذلك السّوء من سواه تعالى ومالهم من دونه - كما يعبدون شركاً - من والٍ يتولاّهم ملجأً ونصراً، بل يسلّط الله عليهم ذات الملائكة جنوده يتوفوهم أو يأخذوهم بما أراد الله.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (١٢)

ويمضي بيان صفات الله بعد ذكر الخلق والتدبير لمسخّرات الكون لعباده، وبعد ذكر العلم المحيط بهم والقدر المترتب عليهم، هو تعالى الذي يبتليهم بما يستفزّ فيهم

الخــوف أو يــبعث الرجاء من ظواهر خلقه فوقهم – آيات لعلهم يذكرونه فيؤمنون بوحدانيته تعالياً له العلو ومنه الرّهبة وإليه الرّغبة كلّها، هو وحده الذي يُرى المخاطبين عمــوماً مــن عــباده البرق المشهود لمعه يخيفهم به خوفاً من خطر صواعقه المهلكة ويطمعهــم به طمعاً في رجاء رحمة الغيب. وينشئ السّحاب الثقال، يكونها من الهواء الــرطب ويجعلــها كثيفاً من الغيم منسحباً في السّماء يظلهم مشهوداً جَليلاً من آياته حــاملاً أوقاراً من الرّطوبة جارية به الريح فيبسطه الله حتى يصرفه فيتلاشى للقانطين المبلسين، أو يجعله ركاماً يخرج من وقده الماء نازلاً للمستبشرين برحمة الله الشاكرين.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (١٣)

ويــستمر البــيان للظواهــر طَبعاً فوق العباد آيات لتعالي الله وجلال وقع أمره. ويــسبّح الرعد بأمره، ينطق صوتاً بقوّة تُطبق أصداؤها على الآفاق وتقرع آذان العباد مــن عــلٍ تُلقي في نفوسهم خشوعاً لأقدار الله التي يفزع من وقعها من في الأرض. والــرّعد لا يــنطق بلسان يلفظ لكن صوته بأصدائه يُلقي معنى أن الله بأقداره يتنــزه متعالــياً على كل ما يصف به بعض العباد آلهة في الأرض لا تهبط عليهم بوقع صوت مــنها مبشّرة ومنذرة بمفعول مطلق. وتسبيح الرعد كذلك موصول بحمده تعالى ثناء على جليل البشرى المسموعة بقدوم رحمته المرجوّة من السّماء.

ورهبة التعالي لله والتعبير عنها ذكراً بلسان الرّاهب أمر يحيق بمن في الغيب مثل ما في الــشهادة. ففــي غيب السماوات العُلى كانت أمة الخطاب الأولى للقرآن تعرف الملائكــة أرواحــاً في الملأ الأعلى تحسبها من ولد الله بنات، وكذلك ضلّ النصارى بجبريل الملك ظنوه من ذات الإله بالتثليث. والآية تصل ذكر السماء المشهودة ورعدها المــسبح بما يذكّر بالحق عما وراءها في الغيب من الملائكة – خلقاً يشفقون من خشية الله ويسبحون من خيفته الليل والنهار لا يفترون عباداً لا يستكبرون كما يستكبر عن آيات الله وأمره بشر يتعبدون لهم.

وآيــة أخرى مشهودة في السماء تذكّر بقوة الرّهبة الصادرة من الله والتي هي في الغــيب ملائكةً يرسلهم الله نازلة على عباده وحياً وأيداً أو لتتوفاهم بعذاب غليظ –

ذلـــك أنـــه تعالى يرسل الصواعق المحرقة شواظاً من طاقة البرق مدفوعة بيد الله وسننه فيـــصيب بها من يشاء نازلة عليهم بهلاك قد يأخذ قوماً كأقوامٍ كذّبوا الرسل وظلموا فهلكوا بها قبلاً.

ورغـــم الذكر في القرآن بعلم الله وقوة قدره الذي لا يُرد والآيات المشهودة في الـــسماء الـــتي تـــصوّب دواعي الرغبوت والرهبوت إليه - ذلك كله وهم - الذين كفـــروا - يجادلـــون في الله في صفاته العليا وأقداره الجليلة وعلمه المحيط بهم وأخذهم بسوء إن أراد الله ونذارته لهم بمآل رهيب ليدعوه وبشارته برحمة ليرجوه ويسجدوا له. هم يجادلون وهو - حقاً لو يعلمون- شديد المحال على الناس أن يجادلهم فيجدلهم بقوة ويماحلهم فيحمل عليهم فيأخذهم بالعقاب البالغ والهلاك.

﴿لَـــهُ دَعْـــوَةُ الْحَـــقِّ وَالَّـــذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِـــطِ كَفَّـــيْهِ إِلَـــى الْمَـــاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ (١٤)

ولله الـــرّغباء كلها ومنه الرّهباء، ومن ثمّ له دعوة الحقّ، فالدّعوة من عباده دعوة حـــق إذ تتوجه إليه تعالى المرجوّ المستجيب مباشراً من قريب يصرف السّوء وينـــزل الـــرّحمة ممّا يُدعى به. والذين يدعون - أولئك الذين كفروا - من دونه آلهة سفلى لا يستجيبون لهم ولا يوافقون دعوتهم في شيء لأنهم لا يسمعون ولا يملكون. فما دعوتهم لهم إلا مثل الباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، والماء جماد لا يجاوب إشارة منجذباً لوجهة الـــدعاء، ما هو ببالغه. وما دعاء الكافرين - الذين رسخوا في الكفر بالدعاء والتّوقير البالغ لجمادات مخلوقة المادة لا تخلق شيئاً لا تسمع دعاءً ولا تتحرك مستجيبة ولا تملك شيئاً لتنفعهم أو تضرهم - ما دعاؤهم إلا في ضلال.

﴿وَلِلّـــهِ يَـــسْجُدُ مَـــن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (١٥)

ولله يـــسجد خـــضوعاً وتـــذللاً وســـخرياً لأمره بشتى صور التعبير - مَن في الـــسماوات والأرض، من المخلوقات العاقلة المؤمنة التي تسجد طوعاً إنساً أو جناً أو ملائكـــة، والأشـــياء التي تُذكر بين العاقلين السّاجدين لأن كلمات الله الطبيعيّة نافذة

علـــيها تخـــضع هي لها كرهاً إذ أبت حمل أمانة الخيار[1]. والكافر من الإنس الذي لا يـــسجد لله طوعاً يسجد له كرهاً بوجه آخر – بدنه مطبوع ساجد لسنن الله كسائر الأشـــياء المطـــبوعة، ومشيئته أنّى توجهت ففي إطار مشيئة الله المحيطة ساجدة لقدر التخيير من الله الذي له الأمر كله إن شاء كالأشياء أو الحيوان، ولكن ترك له بوحاً إن شاء آمن فسجد طوعاً.

وظلال المذكورين ساجدة كرهاً لأقدار الله مسخّرة للإنسان، لا تخرج على سنن الله في الضوء والظلام الجارية على كل شخص حاجب للشمس أو نور القمر أو غيره، والـــشمس جارية – بتكوّر الأرض حولها مائلة بين الشروق والغروب، فالظّلال منها تظهـــر ممتدة بالغدو– بكرة النهار – وتفيء ناقصة بالآصال بين العصر والمغرب حين يعم ظل الظلام.

عموم المعاني (الآيات: ١ – ١٥):

الله ربّ الكـــون كلـــه، وإله الناس جميعاً – الذين عرفوه فوحّدوه معبوداً هادياً مبتلياً محموداً جازياً والذين ضلّوا دون مبلغ عليائه في الغيب فاتخذوا وسائط مقدّسة في عالم الشّهادة والمخلوقات. الله أنزل الكتاب الختام لرسالات وحيه عبر القرون بالحرف العربـــــي على أمّة عربيّة اللسان مقدمةَ خطاب لبلاغ الناس كافة حقاً يوحيه الله من الغيب. ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. ذلك أن الإنسان منذ أن فارق الغيب هابطاً إلى مـــشهود الأرض وما حولها إنما يحيا في إطار خلق وأقدار مكان محدود لأجل بعد زمان معـــدود. وأصـــبح مبتلـــى أن يوحّد الوجود المخلوق كله غيباً وشهادة وأزلاً وزماناً بوحدانية الله ومشيئته وعلمه وقدره المحيط، وألا ينفتن بعالم الشهادة ولا يغمر في نفسه فطـــرة الإيمان بالغيب، وأن يعقل آيات الله في طبيعة الكون المشهود تدله على أصول حقائـــق الغـــيب: ويعلم أن الخلق والأمر كله لله، وأن نظم حركة المخلوقات ودورة آجالهـــا تنتهي عند مرجعٍ إليه تعالى في الأزل، وأنها بطبيعتها المسخّرة لحاجاته نعمٌ من

---

(١) في سنة السجود لله كرهاً من المخلوقات المشهودة الحية والجامدة خضوعاً لأقدار طبعه تعالى: انظر الآية ٤٩ سورة النحل، والآية ١٨ سورة الحج والآية ٦ سورة الرحمن.

الله تذكّـــره أن الحمـــد له والرغباء إليه، وبوقع قوتها التي تغشاه أحياناً تخيفه وتذكّره بـــرهبة ربـــه الـــذي يدفعها بأقداره وينظمها طوعاً لأقدار الله المسنونة تدعوه – هو الإنـــسان – ليعبده ﷻ في سياق بيئتها المحيطة به هو طوعاً. لكن تلك المشهودات فتنة قـــد ينعم بها الإنسان ويتّقي محذورها ويرى زينتها ويأخذ منافعه منها فيتعلقها بنظراته القاصـــرة عليها وشهواته المصوّبة إليها وينقطع بها عن الغيب، وإن راودته فطرته بإيمان بالغيب ارتهن للمشهودات واسطة لازمة وتعبّد لأشياء فيها توهّم منها مجهول الأسباب للنفع والضر والهداية لنظم الحياة أو أطلق الظنون وراءها لعالم أرواح خفيّ ملائكةً أو جناً أو سحراً أو اتّخذ إلهه هواه في متاع الدنيا.

ولـــذلك تعهّـــد الله عبده الإنسان بآيات وحي تتنـــزل عليه مقروءة ثم مكتوبة ليزكـــي فطـــرته المؤمنة، ويتذكر الأشياء المطبوعة حوله آيات لخالقها وصفاته وملئه الأعلـــى وأزلـــه المحـــيط، ولتعلّمه آيات التنـــزيل تفصيل حقائق الغيب لا يعلَمها إلا مـــسموعات حق وهوادي للحياة وضوابط إذ يكتنفه الشيطان يُضلّه وتشدّه في نفسه أهواء الشهوة إلى مبتغيات يطلبها بغير ضابط ولا عدل للآخرين وإذا لقيها تمتع بها بغير حمـــد لواهـــبها الأعلـــى بل غروراً بأسباب كسبه وانحصاراً بمتاعه في حاضر حياته وعاجلها. ولذلك أكثر الناس لا يؤمنون بالكتاب المُوحى من الغيب ولو جاءهم بلسان مبين لهم يعجزهم بشراً أن يأتوا بمثله. وإذا ذكّرهم بآيات الله في الكون المطبوع حولهم استغنوا بعلم ظاهره وقصروا على العجب بزينته واتّباع التطلّع إلى سن تكوينه وحركته وعلاقاتـــه والتمـــتع بإدراك وقائعه. فالسماء فوقهم بغير عمد يروها والشمس والقمر تجـــري لآجال راتبة – كلها قد يبلغ فيها الناس مبلغاً من العلوم الفلكية عن الكواكب المتـــركبة مـــادة وطاقة المتجاذبة محاور المتكاثرة السيّارة، ويزدادون بتواتر دفوع العلم وتـــناقله علماً بها ظواهر، فيزدادون تعلقاً واستغلال انتفاع بها وفق كثافة علمهم. وقد يـــرون في آفاق تراصّها ومدى جريانها التي لا تتناهى موحياً بالغيب وفي آجال دوراتها المتعاظمة ما يجعل الزمان ظرفاً نسبياً لمكان السماء والأرض الذي يباشرهم وراءه أزل مطلـــق، ويظلون ينشدون نور بصيرة في ظلماتها المغيبة، لكنهم لا يبلغون الإيمان بالله وقـــدره المطلـــق. أما المؤمنون منهم لأول دفع الفطرة فهم يزدادون إيماناً كلما تكثّف

علمهم ونفعهم من ذلك. كلما تضاعفت دقائق تلك العلوم ألقت في نفوسهم دلالات متـــباركة على الغيب وزكّت إيمانهم بالله الخالق للأشياء الناظم لأسبابها المفصّل لوقعها آيـــات علـــى الـــناس، وبالمرجع إلى أزل الغيب لأجلٍ تجري إليه مخلوقات العالم بخطا دورات صغرى لحياة الإنسان وموته لأجل، ولحركة الفلك المشهود ولدورات أخرى متـــسعة المدى مجهولة. وكذلك يرى المؤمنون آيات لله في الأرض المبسوطة بمنحنياتها جبالاً وأنهاراً ونباتِها المتزاوج المتلاقح والضوءِ المرسل إليها من لآفاق نهاراً يتكوّر عليه ظلام الليل، ويشاهدون الزروع وتباين أنواعها واختلاف أُكلها طبعاً، وكلما ازدادوا في علوم الزرع وتعرفوا سننها اجتهدوا لتزيد تنوعاً وتفاضلاً، وازدادت معرفتهم تفكراً لمدى أقدار الله في التسخير للإنسان ما حوله فازدادوا حمداً. وينظرون عقلاً في مزروع الأرض وتقلّـــبه أرضاً ميتة فحيّة بحبٍ ونوى وتراب فشجر يتنامى وزهر وثمر، فيزرع ذلك فيهم مزيد اليقين بأن الحياة يعقبها الموت لكل نفس سيراً إلى نبات وحياة أخرى، ويتأملون سباحة الكواكب في الأفلاك دورات محدودة وواسعة سيراً بالكون كلّه ليدور إلى أجـــل مرســـوم. ذلـــك وقد تتطور عند آخرين من الناس علوم الفلك والأرض ومنحنـــياتها والصخور والمياه والضوء والزرع والنبات ولكنهم لا يزدادون إلا انكباباً علـــى تلـــك المخلوقات وسننها لا يبلغون بالتفكر النفاذ إلى الرّب الأصل في خلقها ونظمهـــا وتـــدبيرها، وانشغالاً بمضاعفة الانتفاع منها لا يعرفونها بيانات نعم ليتكاثر حمـــدهم لمـــن سخّرها لهم، وقد يتقون خطر القوى المحذورة فيها ولا يتذكرون أصل دفعهـــا بقـــوى ربٍّ أعظـــم يرهبونه ويدعونه، ويتسع علمهم وينعم فكرهم بسننها ودورات حـــركتها لكـــنه لا يلقي في نفوسهم يقيناً بالله الخالق المدبّر المسيّر لها ولحياة الإنسان إلى تمامها في مدى آخر يتجاوز المكان والزمان المعهود إلى وسع وأزل مطلق.

وإنما أتزل الله الإنسان ليبتليه في حياته الدنيا بعد تجربة آدم في حال حياة عليا في الغـــيب خلقـــاً فإكراماً فتكليفاً فخطأً فتوبة، لعلّ بني آدم محجوبين عن الغيب محاطين بعـــالم الشهادة معدّنين بهدىً متنـــزل من الله وحياً يوالي تذكيرهم بربّهم وهديه لهم فيطـــيعونه معبوداً لا يعصونه. ولكن أكثر الناس مفتون بالمادة المشهودة المحسوسة دون الغـــيب لا يكـــاد يعرف الله إلا عرضاً بعيداً، لا يؤمن بالبعث لأنه يرى الناس يموتون

ويخلفـــون ولا يعودون. وحتى حين تطوّرت بالناس العلوم هم يحرصون على مد العمر في الدنـــيا ومعالجـــة العلل وإعانة طاقات الجسد التي تهي بكل ما يتيسر استغلاله، ولا يـــؤمن أكثـــرهم بالبعث بعد أن يدركه الموت. حتى الذين جاءهم كتاب وحي سابق يُنبئهم ويذكّرهم وينذرهم ويبشرهم بمآل بعث فحساب وجزاء وفاق كسبهم في الدنيا لـــيقدّموا بـــين يديه كتاب طاعات دون المعاصي الفاتنة، هم يؤثرون العاقبة ويذرون الآخـــرة، وحتى في مواعظهم الدينية لا تكاد تُذكر الآخرة. وحتى الذين يوصون بحفظ أبـــدانهم بعد موتهم لعلّهم إذا تطوّر علم الطب يُنعشون فيحيون كما تحيا الأعضاء إذا تعطّلـــت أحـــياناً، هم وكثير غيرهم نسو أن البدن مادّة تتبدّل بالغذاء طوال الحياة ثم يتـــبادلها المتعاقبون عبر التراب فالنبات فالحيوان، وإنما روح النفس المسئولة عن كسبها هـــي الباقية، تنبعث بعد الموت خلقاً ونشأة بدنية أخرى من المادة المتوافرة لتُسأل عمّا قدّمت. ولا يزال الناس يرون لحياتهم الدنيا بعض مدٍّ في الذرية والذكرى والأثر، ولكن أكثـــرهم يقـــف ظنهم دون مبعث متجدد في حياة تالية تعدل العوج والظلم في هذه الأولى وتسوي وجود الإنسان كما تستوي سائر سنن الله المطبوعة. وكيفما كان الهمّ المحـــدود في العدالة والقضاء الدنيوي لا يبلغ ذلك إلا قليلاً من مدى عدل الله المطلق. والحـــق أن الكفر بالبعث والآخرة فيه نـــزعة اتّقاء لمرجع مسئولية حسباناً أن الموت إطـــلاق من تبعات فعل المرء دون سوء عقبى. ولا يعلم أكثر الناس أنهم حقاً مسئولون محاســـبون يلقون الجزاء الوفاق لكل ذرّة كسبٍ منهم أو عليهم. ذلك مما تذكّرهم به كـــتب الوحي لو كانوا يؤمنون. لكن منهم من إذا أُنذروا دفعهم طبع حب العجلة في الإنسان إلى استعجال وقع النذير الموعود مهما يكن سيئةً عليهم، ولا يعجلون مقبلين علـــى ربهـــم بفعل الخيرات حباً لقرب وقع البشير لمن يرجع إلى ربه صالحاً. ومن سنّة الآجـــال عند الله أن يمدّ للناس ولو ضلّوا وأفسدوا ليغفر لهم إن أدركوا أمرهم وتابوا، أما إذا تمادوا حتى يحقّ عليهم الأجل فقد يأتيهم وقع العقاب عاجلاً في الدنيا أو يأتيهم المـــوت أو يباغـــتهم قيام السّاعة، وعندئذ فإن الله شديد العقاب. وقصور الناس عن توحـــيد الأولى والآخرة والشّهادة والغيب تجعل منهم مَن إذا جاءهم آيات الوحي من الغـــيب بكـــتاب مـــن الله يحمله رسول كذّبوه وتطلبوا آية لا مسموعة ببلاغ هدى

ليتدبـــروا حكمـــته ونذير وبشير ليدركوا حقّه بل يريدون آية مرئية محسوسة خارقة لمعهـــودهم مـــن الطبـــيعة المشهودة شهادة على أن قُوى من الغيب مع ذلك الرسول وكـــتابه. وإنمـــا على الرسول أو الداعية على سنته البلاغ والنذير لمثل هؤلاء، وهو لا يملك قلب مسنونات الطبيعة مهما يحرص على أن يصدّق الناس دعوة الغيب. ولا يزال الناس لا تتعزز ثقتهم بأمر الدين إلا بآيات ماديّة بادية الوجه الغيبـــي، فالصالحون عند هؤلاء إنما يتحقق صلاحهم إذاً بالآيات الغريبة شهادة لفضلهم - كراماتٍ معجزاتٍ. وذلـــك عـــند المسلمين وعند أهل الكتاب الأسبق، جمهور منهم يلتمسون ويعرضون دعايات لآيات خوارق من متصولح أو متزعِّم باسم الدين.

إن علـــم الله الـــذي يبتلي عباده يعلم كسب كل نفس ما ظهر وما بطن، فهو يعلـــم ما تحمل الأرحام من أجنة بكل مقاديرها، ومهما يبلغ العلم بذلك لدى البشر فإن علم الله فوق كلِّ ذي علم. ويغفل كثير من الناس حتى المؤمنين عن أن الله يعلم مـــا يسرّون وما يعلنون وما يخفون في ظلمة وما يشهرون على الملأ، فالله على كلِّ شـــيء رقيب وبه سميع وبصير. ولئن قصر علم الناس بينهم تعارفاً وإحاطة لبعضهم بأفعال بعض ونياتهم ليتحامدوا بها ويتلاوموا أو ليتقاضوا بالبيّنة فإنه بالغ القصور لا يـــدرك غالب الأسرار والخفايا والله هو المحيط الحسيب. والله حافظ يحفظ الإنسان يحيطه بمعقبات من أرواح الغيب يحفظونه بأمر الله، وهو منتقم جبار لأن الإنسان من تلك الأرواح له رقباء يرصدون عمله فإن لم يحفظ هو قوام حياته على الهدى بل غيّر مسلكه إلى سوء فإن الله يدركه بعلمه وقدرته يغيّر ما كان به محفوظاً في سلامة ولا ولي لـــه يقـــيه من دون الله. ومهما يجتهد البشر في الرقابة والحماية وتدابير الحفظ والحـــصانة والشرطة لأمن المجتمع والجنود لحراسة السلطان لن يبلغوا قدر الله الحفيظ علـــيهم لـــو حفظـــوا هم هديه، ولن يسلموا منه أن يأخذهم إن ظلموا، فللّه رقابة وحـــصانة مطلقة وله إذا أخذ قضاء وأمر غير مردود. وكثير من الناس يتوكلون في حفـــظ أحوالهم على أولياء من البشر يتعبدّون لهم ويتبركون بهم في الحياة، وبعضهم يعوّلـــون على أصنام تصونهم، وبعضهم يحتاطون بأنفسهم لتدبير سلامتهم ليستمتعوا بالـــسّعي الطلق في الحياة ولو إفساداً، ولكن الله هو الوكيل وحده وهو المحيط بكل

شيء. وكذلك تحيط بالناس مظاهر يبتلون فيها لوصل الظاهر بالغيب وتوحيد الكون المخلـــوق وأقدار تدبيره بيد الله. فالبرق والسّحاب الثقال والرّعد كلها ظواهر فيها دواعـــي بشارة غيث وفرح ينبغي أن تذكّر بالله وبحمده مقدراً لها، وفيها أحياناً ما يخـــيف من أصوات وأعراض ينبغي أن تذكّر برهبة قوة الله العظمى التي تمدها بسنن وتـــصرفها بمشيئة. والعلم المتبصّر بتلك السنن والظواهر ينبغي أن يذكّر الإنسان أن الـــرّعد يـــسبّح لله لا بكلمات لسانٍ ولكن بكل صوتها وطاقتها وفعلها كما يسبّح المـــصلّي والذاكر الخاشع لله بكل كلماته وجوارحه ونياته وسائر مسلكه الذي يُعلي الله فـــوقه وينـــــزهه عـــن كـــل مسلك قصور يعتري مؤلهات المشركين ويبين في المـــستكبرين الـــذين يتعالون على الناس بالجاه والقوة. وأنّى يُجادل الإنسان في الله وعلمـــه وقدرتـــه وحوله ورهبته، فالله شديد المحال بقواه العظمى الغالبة. ومن دعا مـــستعيناً بحول وقوة حوله دون الله فهو في ضلال، إلا أسباباً يتّخذها ويكل التوفيق إلى الله. والحق أن يسجد كل عبد لله الذي تسجد له السماوات والأرض ويسجد له الناس أشخاصاً كما تسجد الظلال. ذلك أن المخلوقات كلها مطبوعة بسنن من الله هـــي في وجـــودها وحركتها تخضع لها ساجدة لا تخرج من ذلك أشياء الطبيعة التي تسجد وتخضع كرهاً وطبعاً، وأشخاص البشر حياتهم وأجسادهم تخضع طبعاً وكرهاً لسنن الأحياء التي يقدرها الله وظلالهم لسنن الضوء وميل الشمس بطبع من الله. أما ما ترك الله للإنسان من بوح المشيئة الحرة فهو يسجد في ذلك المجال لله طوعاً مؤمناً بالخـــضوع لأحكام تكليفه وسنن هديه المنـــزل، أو يشذ عن سجود الخلق كافراً لا يـــسجد، لكن مسجده لله كرهاً يوم القيامة في شقاق مع الناس والملائكة والأشياء وشـــقاء في النار بينما ينعم المؤمن السّاجد لله برفقة وبيئة كانت في الدنيا وهي ذلك اليوم معه في وئام وسلام، والله يسبغ عليه رضوانه الأكبر.

ترتيل المعاني (الآيات: ١٦ – ٢٩):

﴿قُـــلْ مَـــن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُـــونَ لأَنفُـــسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي

الظُّلُمَـــاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ للّه شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقه فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾

يُخاطـــب الرســـول ﷺ أن يمـــضي في دعوه لوحدانية الله في وجه المجادلين فيه، ليـــسألهم: مـــن ربُّ السماوات والأرض؟ وليجاوب بما يقرون هم: أنه الله، ثم لينكر عليهم من ثم الإشراك الذي لا يتحاشونه ولا يزعهم عنه إقرارهم بربوبيته تعالى الخالق المدبّـــر لجلائل موجودات الكون المشهود، وليسألهم أرتّبوا على إقرارهم ما ينقضه، أن اتّخـــذوا من دونه أولياء يعبدونهم ليتولوا أمرهم وهم لا يملكون حتى لأنفسهم أيما نفع أو ضـــرر، وليقل عندئذٍ متسائلاً عن هذا التناقض في الرؤى المنعقدة ديناً عندهم: هل يستوي الأعمى عن بدائه الحق مثلهم والبصير[1]؟ أم هل تستوي الظلمات التي ورطوا فيها لا يرون الحق والنور؟ وليتساءل عنهم: أم جعلوا للإله الفرد الأعظم - شركاء في الخلـــق خلقوا كخلقه سماواتٍ وأرضاً وظواهر فلكية مضاهية لخلق الله المشهود فتشابه الخلـــق علـــيهم والتبس باستواءٍ تشاكله حق الوحدانية لله؟ وليعرض عنهم قائلاً كلمة الحق الفصل: الله خالق كل شيء، منفرد بقدرة الخلق المحيطة بكل مخلوق موجود، وهو الـــواحد الذي ما له من مثيل في صفاته العليا ولا مضاهٍ من ولد وما يجانبه معبود ولا يـــشاركه وليّ دونـــه القهّار الذي يسجد له خاضعاً كلّ شيء، لا يضارعه كفء ولا يستقل عنه رب آخر.

﴿أَنــزَلَ منَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْديَةٌ بقَدَرهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابيًا وَممَّا يُـــوقدُونَ عَلَـــيْه في النَّار ابْتغَاء حلْيَة أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلكَ يَضْربُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْـــبَاطلَ فَأَمَّـــا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾ (١٧)

الآيـــة تـــضرب مثلاً للحق الذي أنزل الله من الغيب ولمجاهدات حملَته ذوي البصيرة الـــذين عـــرفوا آيات الله وصفاته والعميِ الذين فتنوا دونه تعالى بالظواهر. أنزل ﷻ من

(١) لا يستوي الفريق الموحد لله رباً والموالي من دونه شريكاً، مثلهما كالأعمى والبصير: راجع الآيات ٢٠ - ٢٤ ســـورة هود، والآيات ١٣ - ٢٣ سورة فاطر. وآيات القرآن كثيرة في ممايزة البصير إيماناً وبصيرة وعلماً وصلاحاً والأعمى إعراضاً عن آيات الله وجهلاً وضلالاً وسوء عمل.

السماء ماءً فسالت به بين عوالي الصخور والرمال الجافة أودية بقدرها كلٌ بوسعه الرحب بحراً والضيق نهراً، فاحتمل السيل الجاري بسرعة أمواجه المضطربة والغاشية أكناف الوادي زبداً رابياً علا على الماء وانتفخ رغوة طافية غشاوتها غثاء من الأوضار والأقذار لا خير فيه لسقى الحياة. ومما يوقد المخاطبون عليه في النار لتذويبه وتصفيته ابتغاء حلية من الذهب أو الفضة الخالصة أو طلب متاع من الحديد أو المعدن يصلى ناراً تلظّى ليذوب ويُصطفى من الأوشـــاب وتُـــسبك مـــنه الأدوات والآلات. كذلك يضرب الله الحق والباطل، كذلك يصطرعان في مجاري الحياة، أنزل الله من الملأ الأعلى وحياً هو الحق الأصل في عين مغزى الحياة واليقين الذي يهديها عبر عالم الشهادة والدنيا ثم الغيب والآخرة، يسقي القلوب بعد موات كالماء يُحي فيها شعاب الحياة ليثمر مسالك تزكية في الحياة حافزة للصلاح وتقوى ضابطة للفساد ويعمر كل قلب بوسعه وعافيته ليفيض بركة في الحياة. والباطل هو الظنون المحـــدودة بالمـــشهود الظاهر والأهواء المفتونة بالمتاع الحاضر. والحق والباطل في نهر الحياة الدنـــيا في مجادلـــة ومجاهدة يظهر الباطل لأول العهد ويعلو بضواغطه وفتنه على الحق لأنه المعهـــود، ولكـــنه غثاء مهما انتفخ وربا بالدعاية والمال والاستكبار وأحاط بالناس قبل أن يـــشرق ضوء الحق ليقشع ظلماته ويطهر الناس منه ويزكيهم عبر نهضة مسير في الحياة أو قـــبل أن يتجدد ظهور الحق وينبع من الذكرى بين غافلين فتنهم وغمرهم غثاء الباطل. أما الـــزبد فـــيذهب بدفـــع المياه وغلو النار جفاءً مطروحاً في حواشي الوادي أو مقذوفاً من جوهـــر المعدن، وأما ما ينفع الناس فيخلص من الأوشاب ماءً نقياً أو معدناً صافياً ليمكث في الأرض في باطن الماء المتطهر في جوف الوادي أو في جوف الوادي أو في قاع مستودع المعـــدن فوق مرقده. كذلك يضرب الله الأمثال. ينمحق الباطل الذي كان طافياً تفضحه تجليات الحق في ابتلاءات الدنيا، ويظهر الحق الذي كان في غمرة من فتن الباطل لا يزلزله تقلـــب الحـــياة ولا حمية فتنها بل يسري بين الناس وينتشر إذ يزيده البلاء جلاءً في مادته ومضاءً في دفعته وبقاءً في سيرته في الحياة.

﴿لِلَّـــذِينَ اسْـــتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِـــيعًا وَمِـــثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٨)

للذين استجابوا لربهم - استمعوا دعوة الحق النازلة منه وحياً وجاهدت أنفسهم تنـــشد الإجابة فاستجابوا قبولاً خالصاً في القلوب أتموه وصدّقوه بالطاعة لمراشد هدى الله في الحـــياة، بلغوا بذلك أحسن الدرجات، لهم كفاءً الحسنى - في متاع ونصر في الدنـــيا ممـــا لا يفتنهم فيفسد أُخراهم حيث لهم خير الجنان وأطيب النعيم والرضوان الأكـــبر. والذين لم يستجيبوا - لا استمعوا خطاب الهدى ليتلقوا النذير فيتقوا الباطل والبشير ليحسنوا اتباعاً لتكاليف الحق. أولئك لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافـــتدوا به - مهما يمدّ الله لهم المتاع على كفرهم لأنهم صوبوا همهم وسعيهم لكسبه ومهما يغرهم ذلك فضلاً على كسب المؤمنين، إنهم يوم القيامة حين تعدل الموازين بين الـــناس ويـــروا المصائر لو وسع كسبهم ما في الأرض جميعاً وتضاعف لهم لافتدوا به ليسلموا من العاقبة، ولا غناء إذ هو يوم حساب لا تقبل فيه فدية من الله العدل الغني. أولـــئك لهم سوء الحساب، ما جمعوا حسنات بل ازدهدوها وجمعوا السيئات في سبيل المتاع، ومأواهم ومهادهم - لا كما عهدوا في الدنيا - بل جهنم وبئس القرار[1].

﴿أَفَمَـــن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ (١٩)

وإذ تباين مصير المستجيب وغير المستجيب يمضي البيان لسيرهم نحو ذلك المصير بـــسؤال يمايزهم ويقدم الأفضلين: أفمن يعلم - عن بصيرة وخشوع أن الذي أنزل إلى الرسول المخاطب ما هو إلا الحق، يطمئن علمه ويعمق حيثما دعي فيه للتذكر بالآيات المـــشهودة وتتركز بيّنات علمه وتتزكى شعابه حيثما فصّل له التنـــزيل مراشد الهدى ومآلاته، أذلك العالم البصير كمن هو أعمى قد يعرف الله خالقاً لكنه يعمى عن سائر الغـــيب ويـــرى الآيات المشهودة لكنه لا يبصر فيها وحدانية ربه تعالى وصفاته وحق المرجع إلى لقائه ويسمع ذكر الهدى متلواً لكنه لا يرى نوره ببصيرة ليهتدي ويخرج من ظلماتـــه؟ إنمـــا - تأكـــيداً بحصر - يتذكر بسماع آيات الحق ورؤيتها ويتقي الغفلة

---

(١) الافتداء ولو بملك الأرض كله أمنية لا تجدي ولا تقبل يوم الحساب: راجع الآية ٩١ سورة آل عمـــران، والآيـــة ٣٦ سورة المائدة، والآية ٥٤ سورة يونس والآية ٤٧ سورة الزمر. ولا تقبل يومئذٍ أيما فدية: انظر الآية ١٥ سورة الحديد، ولو بذوي القربى: الآية ١١ سورة المعارج.

والعمـــى أولو الألباب – صميم عقول واعية بالحق صافية من شبهات الباطل وقلوب حية الإيمان خالصة من الملهيات.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (٢٠)

ويـــتوالى ذكر صفاقم التي تعبر عن استجابتهم وتذكرهم ولبّهم الخالص: الذين يوفون بعهد الله المنعقد في فطرقم المتأكد بتفكرهم في آياته، ولا ينقضون الميثاق رباط التذكّـــر الـــذي يُحكم العهد بكلمة الشهادة للإيمان بما أتزل الله والإسلام له – عهداً علـــى أنفـــسهم أن يؤمنوا بالله ويطيعوا هداه المنـــزل ويقضوا كل مقتضياته في الدنيا إعـــداداً للمرجع إليه في الآخرة، يعادله عهد الله أن يوفيهم جزاءً وفاقاً مباركاً – فضلاً من الله إذ سبقت منه نعمة الحياة والمتاع، ومهما يكن الإسلام لأمره تاماً لا يوفي بعدل ذلك الجميل.

﴿وَالَّـــذِينَ يَـــصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ (٢١)

وهـــم أيضاً الذين يَصلون – مسلكاً مستمراً – ما أمر الله به أن يوصل، يصلون الله بذكـــرٍ مـــتوالٍ في شعيرة أو كلمة أو نيّة وراء كل فعل، يصلون ذوي القربى براً والجار إحساناً والصاحب في الدين أخوة وموالاة، ويصلون حبل المعاملة للناس بالحق وبـــالتي هي أحسن، ويصلون بالوفاء المتعاقد والمتعاهد معهم – في كل الحياة يصلون الاســـتقامة على الصراط المستقيم التي لا ترتد طوال أيام عمرهم إلى آخرها وعبر كل مقاصـــد دنـــياهم ابتغاء آخرقم. وذلك نهج موصول لأن في نفوسهم شعور مستقر، يخـــشون ربّهـــم إن قطعوا ما أمر بوصله أن يقطعهم من صلة رحمته في الدنيا ويخافون ســـوء الحـــساب يوم الدين إذ تخف موازين وفائهم في الدنيا بالصلات وتثقل عليهم ذنوب القطيعة.

﴿وَالَّـــذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٢)

وهـــم أيضاً – الذين صبروا في الحياة لا عن تبلد وإبلاس ولا عن تظاهر بالثبات فخـــراً بل ابتغاء وجه ربهم عبر كل مجاهدات الدنيا، لا يصيبهم قنوط فردّة من ضرّاء

نقص أو ذلة أو سيئة مستهم أو استبطاء نعمة أو رحمة خاصّة أو فوات عز أو نصر لهم على أعداء الله ولا انفتان فانفلات لوطأة إكراه ضاغطتهم من الناس إذ فارقوا الضلال المعهـــود أو مـــن مستكبرين إذ قدّموا الطاعة الناصحة لله على طاغوتهم. وهم أقاموا الـــصلاة ذكراً موصولاً عبر أيامهم بغير صوارف تطهراً ثم توجهاً إلى الله قبلة بغير لواه وذكـــراً بالقـــول والنية وخضوعاً بكل حركة، وجماعة توحد وتناظم وتذاكر بينهم أجمعين – أقاموها إقامة لا يعوج توجهها ذكراً ولا يختل قوامها صورةً. وهم أنفقوا مما رزقـــناهم ســـراً وعلانـــية – صدقة يصدقون بها إيمانهم أن الرزق بأقدار الله ورحمته المتـــباركة عليهم وعطاء منه بوسعهم تذكراً أنه كله لله وإليه راجع لا تفضلاً ولا مناً علـــى مـــن يعطون ورجاء أن يتقبّله الله ويجزي عنه مضاعفاً كما وعد، ينفقون سراً لإثبات خلوص النية لله لا للفخر وللإحسان للمعطى إليه بغير أذىً أو حرج، وينفقون علـــناً ليتحاضّ الناس بما يفعلون ويتذاكرون ويتدافعون اقتداءً. وهم يدرءون بالحسنة الـــسيئة (بصيغة الفعل المضارع فعلاً يقع كلما حضرت دواعيه لا فعلاً ماضياً موصولاً كالـــصبر والـــصلاة والإنفـــاق) حيثما تطرأ عليهم سيئة يلتزمون فيها خلقاً مستمراً، سيئات تصيبهم من الذين كفروا في مجادلات الدعوة ومجاهدات التعايش في خلاف إذ يطغـــون أحياناً ويعمدون بسيئة غيظاً من المؤمنون أو فتنةً لهم، يقع ذلك منهم أو من غيرهم في معاملات الناس في الحياة. هم يدرءون تلك المبادرة السيئة بالحسنة قولاً طيباً أو فعـــلاً جمـــيلاً أو عفواً بأي وجه لا ردّ فعل سوء بسوء انفعالاً بنـــزغ الشيطان أو تجـــاوزاً بحمية استواء الحق والعزة والكرامة، يدرءون بالحسنة احتساباً لله ولعلها تعزز التراحم والتلاطف وتيسر التهادي إلى حق الدين.

أولئك العالون بسننهم في الحياة خلقاً بينهم وذكراً لله لهم عقبى الدار لهم في آخرة الحياة وآجلة الحساب والجزاء الدار حيث محلة الإقامة المتمكنة.

﴿جَـنَّاتُ عَـدْنٍ يَدْخُلُـونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٣ – ٢٤)

والـــدار هي: جناتُ عدنٍ ساحةٌ تكتنفها الأشجار ومقام معدن وقرار يدخلونها ويـــسعدون باســـتئناف منهج القربى المتواصلة إذ يدخل معهم – لا من انتسب إليهم

وحسب بل – من صلح واستقامت حياته الدنيا وكسبه المستحق الجنّة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، ويزداد السعد برفقة من أرواح الغيب الملائكة – الذين كرموا الإنسان من سجودهم لأبيه آدم – يدخلون عليهم من كل باب – يحيطهم حسن الضيافة وتكثر أبواب الجنة لأن المسالك إليها من طرق صلاح كثيرة حسب مطالب الصالحين – يلقي إليهم الملائكة التحيّة: سلامٌ عليكم بما صبرتم يذكرونهم بعماد صلاحهم الصبر أبلغ الكسب في ابتلاءات الحياة لاسيما في مجاهدات الفتنة على المؤمنين كما جرى في عهد مكة حيث تنزلت هذه السورة فنعم ويا لطيب المنتهى الذي بلغه الصابرون عقبى مقاماً مستقراً.

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ من بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٢٥)

وأما الذين لم يستجيبوا لدعوة الله فبيان نهجهم في الدنيا الذي يميزهم يتلو ما سبق: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه عهد الفطرة يُخلّون به بعد ميثاقه برباط التذكير المنزل، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل إعراضاً عن صلة الذكر بالله وقطيعة لذات القربى وإفساداً لذات البين مع الناس ولو وثّقت بالعهود والوعود وقطعاً لحبل الله في الحياة الدنيا المتصلة إلى الآخرة، ويفسدون في الأرض تخريباً وفتنةً وبغياً بعد صلاح نظام الحياة فيها. أولئك – الذين يشار إليهم إذا امتازوا بعداً عن القوامة – لهم اللعنة طرداً من رحمة الله، ولهم سوء الدار يقيمون فيها وتحيط بهم وليس فيها إلا ما يسوءهم(١).

﴿اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ (٢٦)

ولئن كان المستجيبون الواصلون ما أمر الله به أن يوصل براً وصدقة إذا كسبوا بحمد الله رزقاً ينفقون كما تقدم ذكرهم، هؤلاء لا ينفقون مهما تنبسط لهم الأرزاق. والآية تذكير من أين يأتي الرزق وكيف يُبتلى به الناس. الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر – ابتلاء بمد وافر بالرزق أو بحد على الحاجة. لئن انبسط الرزق لهؤلاء – كما

---

(١) في نقض العهد وقطع الوصل والإفساد في الأرض: راجع الآية ٢٦ سورة البقرة.

يـــبدو مـــن أحوالهم – ما عرفوا الابتلاء، ما حمدوا الله، ولا علموا أنه يوم القيامة ولو تـــضاعف لا ينفعهم فدية من العذاب. هم بغير ذلك فرحوا بالحياة الدنيا التي أشبعت شـــهواتهم بمبتغياتها الحاضرة العاجلة، وما الحياة الدنيا المنقطعة لحاضرها في الآخرة إلا متاع منكر فان ما لم يكن تزوداً للآخرة[1].

﴿وَيَقُـــولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ (٢٧)

كما كان كذلك خُلق الذين كفروا ألا يستجيبوا لآيات التنـــزيل من الغيب ولا يـــنفذوا عـــبر آيـــات الله المشهودة إلى مدلولاتها الغيبية، كان نهجهم في المجادلة دون الاســـتجابة للوحـــي أن يطلـــبوا آية من نمط آخر يوافق مذهبهم المفتون بظاهر المادة المـــشهودة. يقولـــون – مـــثالاً مستمراً: لولا أُنزل على شخص الرسول من ربّه آية يتـــرجونها واقعـــة خارقـــة للمطبوع المسنون معجزة تحملهم على الشهادة أنه رسول موصـــول بالغيب وقدراته ورسالاته إليهم. وإنما الرسول هادٍ منذر فليذكرهم قائلاً إن الله الـــذي بسط خيار المشيئة لعباده ثم ابتلاهم يُذكرهم بالهدى آيات مسموعة ومرئية ويـــذرهم بـــل ييسر لهم ما يشاءون، فهو يضل من يشاء – من آثر من عباده الضلالة ييـــسر لـــه ويمدّه ليحتمل السؤال يوم الدين وذلك وفق مشيئته تعالى المبسوطة حريةً ومـــسئولية للـــناس، ويهدي الله إليه من أناب، من آثر أن يكون عوّاداً إلى التذكّر مع توالي الآيات تُتلى عليه أو يشهدها فإن الله يجاوبه ييسر له الإنابة ويتم له هدايته.

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨)

الـــذين أنابوا فهداهم الله هم الذين آثروا الإيمان في خيارهم فأوقعوه في قلوبهم، وتطمـــئن قلـــوبهم – حالاً موصولاً متباركاً – بذكر الله، حضوراً حياً في النفس بغير غفلة لربوبيته وألوهيته وقيوميته على العباد. ألا – استفهام استنكار نفي لإثبات حق:

---

(١) الله يبـــسط الـــرزق ويقدره ويذيق الرحمة ويصيب بسيئة من يشاء، ولكنه ابتلاء آيةً للمؤمن الشكور الصبور وفتنة لمن لا يعلم فهو فرح فخور يبسط المتاع العاجل ويئوس قنوط إن ساء أمره العارض: راجع الآيتين ٩ و١٠ سورة هود، والآيتين ٧٦ و٧٧ سورة القصص، والآيتين ٣٦ و٣٧ ورة الرّوم، والآيات ٣٦ – ٣٩ سورة سبأ والآية ٥٢ سورة الزّمر، والآيتين ١٢ و ٤٨ سورة الشورى، والآيتين ١٥ و١٦ سورة الفجر.

بذكــر الله تسكن وتطمئن القلوب من أي نــزعة هوى أو نــزغة شيطان، فإذا كان الذكــر موصــولاً كــثيراً اتصلت وازدادت حال الطمأنينة ورسخ سكون الإيمان في القلوب.

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ (٢٩)

الــذين آمــنوا - دخلــوا في خيار إقرار الإيمان في القلوب واندرجوا في عداد المؤمــنين، وعملوا الصالحات في حياتهم الظاهرة تعبيراً وتصديقاً لباطنهم وفوا بأطيب الكــسب وأحسنه وأحقه بوفاء جزائه وفاقاً طوبى لهم - أطيب المصائر وحسن مآب ومرجع إلى الله بوعده الصادق.

عموم المعاني (الآيات ١٦ - ٢٩):

إن أصــل الــدين الحــق هو الإيمان بالغيب، بتوحيد الله ربّاً والتطهّر من التعلّق بالأربــاب المظنونة في المشهود. ولكن البشر كثيراً ما يصغر مدى رؤاهم مقتصراً على مــا يــشهدون منحــصراً تعــبّدهم في إله يليهم محدود، وإن لم ينكروا الله رباً أعلى للــسماوات والأرض بكــل ملكوته العظيم فإنهم يتّخذون من دونه ولياً أو أولياء لهم خاصــة لا ربوبــية فيهم من قدر مطلق إذ لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ولا لأنفسهم، فهــي جمــادات وتماثيل وصور عاطلة. وذلك عمىً منهم دون بصيرة تتسع بالرؤى لــتدرك مــدى الأقدار المطلقة النافذة، وانغلاق في واقعهم مكبين عليه دون نور آفاق الوجود العريض. وهم كذلك قد لا ينكرون خلق كل شيء لله لا تشتبه عليهم أقدار الخلــق دونه، فهو من ثم الواحد القهّار لا يضارعه أحد. ذلك الحق، وما يترتب عليه من هدى الحياة يتنــزل به الوحي للحياة لتتلقاه القلوب للناس كل بوسعه، فهو كالماء ينــــزله الله مــن السماء ليجري في وديان الأرض ليسيل في كل بقدره. وفي مجاري الحــياة بلاءات، وتقع مدافعات الحق والباطل كمدافعات الماء الجاري فيما حوله. وفي ذلــك يظهــر الباطل المعهود على الحق كالزبد طافياً على الماء رغواً يحمل الأوشاب. والحــقُّ كذلك كالمعدن الأصيل توقد عليه النار في أسباب اتخاذه زينة أو متاع أداة في الحــياة لتخــرج منه الأوساخ المتلبسة به زبداً. فالحق قد تحمى عليه البلاءات ليخلص

صـــفاؤه فيغـــشاه مد من الباطل طاغٍ عليه. أما الزبد فيذهب جفاء مطروحاً، وأما ما يـــنفع الناس من الماء والمعدن الصافي فيمكث في قاعدة مواقع المدافعة، وكذلك الباطل الطاغـــي يزهق متلاشياً بعد انتفاخه وعلوّه والحق الصالح للناس يبقى في أصول الحياة. وكاختلاف أهل الحق والباطل في مسير الحياة المتدافع بالبلاء يبين الاختلاف في المصير. الـــذين اســـتجابوا لدعوة الله المنـــزل ويكسبون به مجرى حياة حسنى لهم عند ربّهم حـــسنى العاقـــبة، والذين لم يستجيبوا ولا كسبوا في حياهم متاعاً بالتهائهم بالهوى لا يغنـــيهم عـــن ذلـــك فدية عند الله ولو ملأ الأرض وتضاعف، مأواهم جهنم سوءى العاقـــبة. إن التمايز ينجلي كذلك في الصفات: الذين يعلمون أن المنـــزل من السماء حـــق وهم ذوو ألباب صافية فيها تذكرة لا يستوون خلقاً والذين يغشاهم الهوى عن صـــول الحـــق وهديه. وفي مثل عهد مكة حيثما يبدأ ظهور الدين الحق أو تجدده في مجـــتمع، صـــفات المؤمنين فيه هي أصول خلق لجماعة قائمة على الحق لأول مدخلها وثـــباها على الإسلام، وعليها تتأصّل وفيها تتجلى صفات المؤمنين عبر الابتلاءات التي تلـــي في مـــثل عهـــد المدينة حيث يتسع ها المدى في مجتمع أوسع وأرض تمكنوا فيها وتوالـــوا وأقاموا فيها سلطاناً. فأول صفات الإيمان أن يكون المؤمنون يوفون بالعهد لله معـــبوداً، وهـــو المفطـــور في نفوسهم إيماناً المتعزز بالآيات المشهودة المتوثّق بالآيات المسموعة يصدّقوها فلا ينقضون الميثاق. وذلك العهد هو أساس المجتمع لعباد الله عليه تـــبنى العهـــود والوعـــود في علاقاهم كافة. وهم الذين يخشون ربّهم ويخافون سوء الحـــساب، فالنذر من العاقبة هي التي تزجرهم لتطهرهم مما عهدوا من ضلال عن عهد الله وهم يخرجون من ظلماته إلى نور الإيمان والوفاء بعهد الله وليتقدموا سعياً للصلاح فالإحـــسان في الحـــياة إذ تحفـــزهم البـــشرى ورجاء رحمة الله وأجره. وهم كذلك يعتصمون بحبل الله فيصلون ما أمر الله به أن يوصل رعاية لذات البين في أخوة الإيمان الـــتي تعزز القربى والجوار والصحبة لأن توصل مبارّة وتشاوراً وتكافلاً ولا تقطع لئلا تنبت شعاب بنية المجتمع المؤمن بشتى أصعدها وأركاها. وهم في خوضٍ من مجاهدات الحـــياة التي تستلزم الصبر لاسيما أهم لأول عهدهم يدفعهم الإيمان بالحق ليستقيموا في مجـــاري الحياة في وجه غلبة الباطل المعهود الظاهر قولاً وسلوكاً معروفاً، وحين تحمى

المدافعة لضغوط الباطل الطاغي عليهم بفتنه ليكرههم عن الحق الغريب ثم حين تستعر المدافعـــة قتالاً بين أهل الحق وأحزاب الباطل حيث تشق المصائب ويتقوّى حقّ الالتزام بالـــصبر الجمـــيل. وهم الذين أقاموا الصلاة صفاً للمؤمنين مرصوصاً منظوم الحركة مـــتوجهاً إلى قبلة واحدة يواتر التكبير والذكر لوجه الله ويستقيم بكل هيئته في طاعة خاشـــعة علـــى سنة أقوال وأفعال بهدى القرآن وبيان الرسول وبذلك تتوحد وجهة القلـــوب ودوافعهـــا نحو الله وتتوحد الجماعة، وتقع عليهم الصلاة تزكية لكل حياتهم عمـــاداً لتدين المجتمع المؤمن. وكذلك هم مما رزقهم الله – إذ يعرفون مأتاه فيحمدون الله – يـــنفقون منه طاعة لمالكه الذي استخلفهم فيه، وتكافلاً بالإيمان والحياة – سراً وعلـــناً – تجرداً للإخلاص أو تحاضاً على النفقات تجاوزاً لفتنة المال التي قد تدعو لشح الـــنفس وحكر المال والغرور بفضله والغفلة عن الله الرازق المبتلي به. والجماعة المؤمنة بمـــداها المحدود في مثل مكة ثم من بعد في مداها الأوسع من أرض الله – وهي أفراداً كـــذلك – قد تلقي عليهم من الآخرين سيئة الأقوال والأعمال من قوم لا يتّقون الله. والخلـــق الأبكـــر تجلّياً عند المؤمن أو جماعة المؤمنين ليس برد الفعل سيئة بسيئة إلا إذا كـــان ذلك من مقتضيات ضرورة الوجود خشية وقع عدوان السيئة، فهم يؤثرون أن يـــبادروا حيـــثما طرأ عليهم ذلك بدرء السيئة بالحسنة منهم لعلها تطفئ حمية التغايظ والعصبية، وتؤلّف القلوب لدى الآخرين وتشرحها لتقبل مدّ الإسلام الحق.

أمـــا الـــذين لا يستجيبون لداعية الحق عمىً عن نوره فصفتهم الأشدّ تعبيراً عن رســـوخ الـــباطل في قلوبهم أنهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه – دسًا لفطرة الإيمان بـــالله وغفلـــة عـــن الآيات المشهودة ثم إعراضاً وكفراً بالمتلوّة عليهم ليذكروا أصله ويوثّقـــوه. وهم لذلك يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، يؤذون ذوي القربى ويقطعون ذوي الأرحـــام ليفتنوهم عن خيار الدين الحق ولا يوقرون حرمة جار ولا صحبة ولا يرعون حبلها الموصول. وهم يفسدون في الأرض يخربون ما انصلح ويعدون على من سكن ويبغون على ما كان محفوظاً لأنهم لا يعرفون تقوى ولا حدّ شريعة مما يدرأ عن الإفساد بل يطلقون أهواءهم ليعيثوا في الأرض بغير ضابط يقي قوام صلاحها. والتمايز بين أهل الحق وأهل الباطل ما هو بموازين كسب المال في الحياة كما يظن الذين فتنهم

حب العاجل الحاضر من الدنيا، فقد يكثر المال عند الكافرين يبسط الله لهم بلاء وهم لا يرون فيه إلا شبعاً لشهوة وبغية ولا يرون حاجة لفقير يُنفق منه عليه. وقد يقدر الله الرزق على المؤمنين الذين لا تفتنهم الحاجة ولا يرهنهم المال لكسبه وكنــزه بخلاً عن الناس والصلاح. والكافرون يفرحون بالحياة الدنيا وما كسبوا فيها، وإذاً لا ينفقونه في سبيل الله لا يجدونه لدى لقائه تعالى إلا متاعاً فَنِيَ لا يغنيهم فدية ولا يبقى له أثر ومتاع الآخــرة خير وأبقى. والتمايز بين أهل الحق وأهل الباطل بيّن كذلك بأن أهل الباطل الذين لا يوحدون الله فلا يوحدون الوجود وسيره شهادةً وغيباً ولا ظروف مداه زماناً وأزلاً، ولا يعــرفون ذلــك كلــه من خلق الله وأقداره وموصول حياة الإنسان دنيا وأخــرى. فهم لذلك لا يطمئن لهم ظن قلوبهم إيماناً إلا إذا جاءهم آية من الغيب – لا رســالة ذكــر منــزل وحياً بل واقعة من مادة المشهود تأتي خارقة لمطبوعه العهود، شــاهدة أن رســالة الغــيب التي جاء بها رسول وراءها قوى غيبية فاعلة في المشهود فيصدقونها. هكذا قد يتعرّض هدى الدين كلما تجددت قومته في بيئة ثقافة ماديّة لمجتمع الخطــاب لا يعــرفون الحقّ إلا ما تحققه التجربة المشهودة التي تنبئ عن قوة غيبية غير الأســباب العاديــة. وعلــى دعــاة الحــق أن يمضوا في دعوتهم كما أُوصى إمامهم الرســول ﷺ فهم لا يملكون من قوة الله القاهرة التي قد يبسطها لتغلب الأسباب التي ســنّها طبعاً، وليصبروا حتى يحق على أمة الخطاب وعيد الله العاجل أو يأتيهم الموت، وليــشهدوا عليهم أن المفتون بالمادة المشهودة ضلالاً عن وحي الغيب يمدّ له الله فيضلّه بحكــم مشيئته أن يذر للناس خيار المشيئة وأن ييسر لكلٍ نهجه المختار ضلالاً أو هدى حــتى ينتهــي إلى مصيره، وإنما يهدي وييسر الاستقامة إليه من أناب ميالاً رجاعاً إلى الحق منيباً إلى الهدى. أولئك الذين آمنوا بالغيب مهما تراودهم ظِنة فاتنة من الشيطان أو الهــوى تغشاهم لاهية صارفة من واقعات المشهود أو تلوح لهم شهوة تعلّقٍ بمبتغياته جاهــدوا لــيحفظوا إيمــانهم بالغيب وهداهم المستقيم ويعززون أنفسهم بذكر الله لا يغفلون عنه ولا يقطعونه بل يوالونه في شعائر العبادة وبعدها بما تزكيهم عبر كل ثنايا الحــياة ليمدهم الله بما يطمئن به ويتبارك إيمانهم فيخرج منهم تعبيراً في أطيب الأقوال والأعمال وأحسنها، أولئك لهم وفاقاً طوبى عند الله وحسن مآب.

ترتيل المعاني (الآيات ٣٠ – ٤٣):

﴿كَــذَلكَ أَرْسَلْنَاكَ في أُمَّة قَدْ خَلَتْ من قَبْلهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْه مَتَاب﴾ (٣٠)

كذلك – الخطاب يتوجه إلى الرسول كما ذكر أن لكل قوم هاد وأن المخاطبين بالهـدى شـأنهم وقـد أوتوا الخيار بالمشيئة أن يكون منهم الأعمى والبصير والمُنكر والمـستجيب والـذين كفـروا والذين آمنوا – كذلك – بأقدار الاجتباء والإرسال والهدايـة والنذارة والبشارة أرسله الله في أمة عربية قد خلت من قبلها أمم أخرى ليتلو علـيهم الذي أُوحي إليه بتلك الأقدار – ثم لتتوالى عنهم التلاوة في الذين من بعدهم. وهـم في مذهبهم ومقالهم الدائم يكفرون 'بالرحمن' لا يسمّون الله بهذه الصفة العليا الـتي ينفرد بها راحماً بالغاً (بتمام الألف والنون) ويتساءلون كثيراً: ما الرحمن؟ والأمر للرسول أن يشهد فيهم أن ذلك الرحمن هو ربّه لا إله إلا هو لا يشاركه أحد في تلك الـرحمة الحـسنى العظمى، وأنه – مقدماً في الذكر الضمير الراجع إليه تعالى والحاصر الإشارة إليه – عليه توكّل وإليه متابه، لعلهم هم يتوبون إلى الرحمن موحّدين[1].

﴿وَلَـوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ به الْجبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ به الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ به الْمَوْتَى بَل لِّلّـه الأَمْـرُ جَميعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَميعًا وَلاَ يَـزَالُ الَّـذينَ كَفَرُواْ تُصيبُهُم بمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّه إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلفُ الْميعَادَ﴾ (٣١)

ولـو أن قـرآناً – ذكراً مقروءاً عظيماً لم ينـزل كهذا القرآن آيات تتلى لعلّ المخاطبين يسمعون فيهتدون بل أُنزل كالآيات المبدّلة للطبيعة المشهودة التي يتطلبونها، وذلـك أن سـيّرت به الجبال مسيلة في الأرض أو قطعت به الأرض مشققة لا مهاداً محدوداً أو كلم به الموتى نفاذاً إليهم وما هم بأحياء الأجساد يسمعون أو يحملون أمانة تكلـيف، لـو كان ذلك لسُيّر الناس بهداه جبراً ولشققت قلوبهم المتحجرة من العناد

---

(١) في إنكار الجاهليين اسم الله 'الرحمن': انظر الآية ٦٥ سورة مريم موصولة بما سبقها من ذكر الـرحمن في الـسورة ما له من مسمى، والآية ٣٦ سورة الأنبياء، والآيتين ٥٩ و٦٠ سورة الفرقان.

ولأسمعــوا ولو نأوا معرضين فآمنوا جميعاً كرهاً. بل لله الأمر جميعاً لو شاء جعله قرآناً مطــبوعاً طبعاً في قلوب الناس لا يتلى عليهم ليؤمنوا عن مشيئة ويكفر بعضهم. لكن الله ســبحانه وتعالى قدر لهم خيار المشيئة، من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وذلك أمره المقدر لمسير الإنسان وترتيب مصيره وفاقاً[1].

ذلــك البيان للحق لا يتوجه إلى الرسول وحده الحريص على الهدى بالقرآن بل معــه إلى سائر المؤمنين الذين هم يخشعون للقرآن مسلمين ولكن تضيق صدورهم بما يعايــنون ويعانون من إعراض كثير من الناس لأمر نازل من الله مصرّف الحياة والهدى الــواحد القهــار. ويترتب على بيان ذلك السؤالُ: أفلم ييأس الذين آمنوا من أن يقع الإيمــان علــى الذين كفروا طبعاً محيطاً بعلمهم أن لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعاً أمة واحــدة أمراً مفعولاً. ذلك ما ينبغي أن يقر في وجدان الذين آمنوا أن ذلك هو القدر الحــق. ومــا تطمئن به قلوبهم الجزعة من تمادي الذين كفروا عفواً هو تذكّر سنة الله الماضية في ذلك كل الزمان: ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا من تكلّفِ كفرٍ بالحق وتمسّكٍ بمعهودهم الباطل وكيد بالذين آمنوا قارعةٌ تقرعهم حالّةً بهم أو بقريبٍ مــن ديــارهم يبلُغهم عنها نبأٌ وشهادةً وعظةً نذير لمثالهم، وليصبر الذين آمنوا وينتظر الــذين كفروا حتى يأتي وعد الله لأمة الخطاب الحاضرة وليقع عليهم ما أُنذروا به إن تمادوا كفراً، إن الله لا يخلف الميعاد بل يوقعه بأمره النافذ لمكانه ولأجله.

﴿وَلَقَــدِ اسْــتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣٢)

والخطــاب يستمر للرسول ﷺ على ذات وجهة الوصية بالصبر: ولقد استهزئ برسلٍ من قبله خُلقاً معهوداً للذين كفروا يجادلون بالباطل فإن هوت حجتهم آخذون يلقون الهزء والسخرية على الرسل، فأملى الله لهم – والفعل وما يليه منسوبٌ إليه تعالى بــصيغة المتكلّم الفرد ذي السنّة المقضيّة والأمر الغالب – أمهلهم ومدّ لهم الحياة وهم

---

(١) لو شاء الله لأنــزل القرآن وقعاً تستجيب له كل الأشياء حتى صلبها وميتها فجبراً يهدي كلِ الــناسِ، وإنمــا هو خطاب علم وتكليف ونذارة وبشارة للإنسان ليستجيب له إيماناً وطوعاً وخياراً: انظر الآية ٢١ سورة الحشر.

ســـادرون حتى استوفوا فسحة البوح المقدّر وحقّ عليهم العقاب، ثم أخذهم أخذ قاهر منتقم، فكيف كان عقابه، يا لشدة وقعه كما تصف الأنباء[1].

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّه شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـــئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٣)

وفي سياق شرك المخاطبين ومقولاته ومذاهبه يترتب ذكرُ حق وحدانية الله مبتدأً بالـــسؤال: أفمن هو – سبحانه وتعالى – قائم على كل نفس بما كسبت، قيوم يتولى أمـــر كـــل مـــن عباده عيناً يبتليه وإن استجاب لدعوة الحق هداه حتى يجزيه وإن لم يستجب مدّ له ضلاله حتى يأخذه، أفمن هو قيوم كذلك ليس له كفاء يشرك به الذين كفروا أولياء؟ وجعلوا لله شركاء لا يهدوهم ولا يملكون ضراً ولا نفعاً لنفس ولا نصراً حتى لأنفسهم. فالرسول ﷺ مبلغُ هدى التوحيد يوصَى أن يصدعهم بما يمحق باطلهم ذاك قـــائلاً لهـــم أن يسموهم أولئك الشركاء كأن قد وجدوا شركاء لم يعرفهم الله فيـــسموهم له كما يذكّر أحدهم بآخر ينكره بأن يُسمي له اسمه المعروف، والله يعلم أنهم يسموهم على الملائكة تسمية الإناث كاللات والعزى ومناة بنات له ﷻ وهم لا يحبّون الإناث ولداً. أم هم ينبئونه تعالى بما لا يعلم في الأرض، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض خالقهـــا ومدبـــر مـــا فيها كلٌ في كتاب علمه المبين؟ أم ينبئونه لا بحق يطمئـــنون هم أنفسهم إليه بل بظاهر القول والله عليمٌ بما في صدورهم وراء ما يجري علـــى ألسنتهم محض مقولات عرفية وأذكار لأوليائهم راتبة في شعائر عبادتهم لهم؟ بل الحـــق أن زُيـــن للـــذين كفـــروا – بغرور الشيطان وحديث أهواء العصبية والمنافع المعهـــودة – مكرُهم: إظهار قول وإجراء عرف بشرك يتولاهم قربى إلى الله، ويعلمون في باطـــنهم بطلان ذلك لو تفكّروا وتطهروا من الأهواء، وترتب على مخادعة مكرهم أن صُـــدوا عن السبيل – الذي هو سبيل الحق المستقيم – وصدّوا غيرهم من أتباعهم،

---

(١) ســـنة استهزاء المخاطبين الكافرين بالرسل ورسالتهم لغربة دعوة الوحي عليهم وإنكار وقعها على ما يهوون – يرد ذكرها في عشرات من الآي. منها هزؤا بالرسول عيناً راجع الآية ١٠ سورة الأنعام والآيات ١٠ – ١٣ سورة الحجر، والآيتين ٣٦ و٤١ سورة الأنبياء، والآية ٣٠ سورة يس، والآية ٧ سورة الزخرف.

ومـــن يضلل الله – لأنه أثر الكفر والشرك والمكر فمدّ الله له في مسلك ضلاله فما له مـــن هاد يصرفه عن تماديه فيه – سنة الله في بسط المشيئة والإملاء حتى يحق حملُ أمانة المسئولية ولقاء المصير.

﴿لَّهُـــمْ عَـــذَابٌ فِـــي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ﴾ (٣٤)

مـــن ذلك المصير للذين كفروا الذي حقّ عاجلاً: لهم عذاب يستقر به عليهم الألم في الحـــياة الدنـــيا، بمثل السنة التي سبق ذكرها إصابة بقوارع واقعة عليهم أو مقاربة، ولهم آجلاً عذاب، ولعذاب الآخرة حقاً أشقّ مما يعهدون في الدنيا، وما لهم مـــن واقٍ يومئذٍ مما يزعمون من أولياء وشفعاء يزدلفون بهم إلى الله فله الملك وحده يوم الدين.

﴿مَّـــثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥)

ويقـــارن ذكـــر ذلك المصير والعذاب للذين أشركوا بذكر وصف الذين آمنوا ووحـــدوا الله: مثلُ الجنة التي وُعد المتقون – وصف ما وعدوا (بصيغة المبني للمجهول فهـــو معروف فاعله) لأنهم يتّقون معهودات الشرك ومقولاته إيماناً وتقوى لله ونذره، جنة تكتنفها الأشجار تجري من تحتها الأنهار فهي دائمة الخضرة والحياة فيها لا تموت بجفـــاف، أُكلها من الثمرات دائم متوافر لا ينحصر في موسم، وظلها الطيب كذلك مخـــيم دائـــم لا تصرفه شمس تباشرهم. تلك عقبى الذين آمنوا: آخرة تسعدهم بالنعيم الموصول الخالد، وعقبى الكافرين النار تصليهم بالعذاب الأشق.

﴿وَالَّـــذِينَ آتَيْـــنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ (٣٦)

والـــذين آتاهم الله بأقدار اصطفائه لهم وإيحائه عبر مرسلين لهم – الكتاب السابق يفـــرحون بما أنزل إلى الرسول الخاتم ﷺ مخاطباً لتأييد مجاهدته لحملة المشركين عليه – هـــم فـــرحون بما أُنزل من ملأ الله الأعلى إليه لأنهم عهدوا الوحي بما أنزل إليهم هم وكانـــوا مؤمنين سرهم ما رأوا فيه البشارة لما في كتابهم من تجدد الرسالة والتصديق لما

جـــاء في كتابهم[1]. ومن الأحزاب بينهم الذين اختلفوا في كتابهم شيعاً من يُنكر بعض الكتاب المتجدد به الحق لاسيما ما بدّلوا من حقائق توحيد الألوهية. وعلى الرسول أن يقـــول فـــيهم جميعاً أنه إنما أُمر أن يعبد الله ولا يشرك به – ولداً أو أماً لولد أو ملكاً يوحـــى إلـــيه كما اختلف وبدل التثليث، فهو يعبده وحده إليه يدعو – وما يكون له وقد آتاه الله النبوة والحكمة والكتاب أن يقول للناس أن يعبدوه هو من دون الله، وإليه تعالى مآبه يسأله عما بلغ الناس واتّبع فيما أمر به.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزلنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ﴾ (٣٧)

وكـــذلك – تـــصديقاً لمـــا بين يديه من الكتاب وتقويماً للخلاف فيه إلى الحق وتطهـــيراً من الشرك بالله ملائكة أو أولياء، أنزله – ذلك الكتاب الخاتم – اللهُ بأقدار اصـــطفائه للرســـالة وترتيب أجلها عاقبة خاتمة، حُكماً عربياً فصلاً بما هو موقع الحق والهدى ومقتضى الحكمة ومنحسم الخلافات، عربياً حرفه وكلمه بلاغاً باللسان المبين المعهود لأمة الخطاب التي تحتمل أمانته الأولى ليبلغ أيضاً أمة الخطاب السّابق. والخطاب للرسول حامل الكتاب ومبلغه أن لئن اتّبع أهواءهم – مذاهب ميول ظنونهم وطباعهم وشهواتهم وعصبيات خلافاتهم التي حملت عليه بضغوط دعاياتهم المعارضة، لئن جرى ذلـــك بعدما جاءه عموم الهدى الذي جاءه من العلم بحقائق الغيب والشهادة ومراشد الهـــدى في الحياة ومآلاتها وحياً من الله الإله الأعلى المحيط بعلم الوجود، إذاً ما له من دون الله الإلـــه العظـــيم الأعلـــى مما يرجع إليه المعارضون شركاً من ولي يواليه هدىً ونصراً في الحياة ولا واق يقيه الضلال ومآله في العاقبة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٣٨)

---

(١) إطمئنان الرسول بصدق الموحى إليه كتاباً واستشهاده على ذلك بمراجعة أهل الكتاب السابق يرد في الآية المكية: راجع الآية ١١٤ سورة الأنعام، والآية ٩٤ سورة يونس، والآيات ٤٨ – ٥٥ سورة القصص، والآية ٤٧ سورة العنكبوت، والآية ٣١ سورة المدثر. ذلك وإن قام كثير من أهل الكتاب كافرين بحق القرآن حسداً بعد ما قام به المجتمع والسلطان في المدينة كما جاء في آيات كثيرة أنـــزلت في المدينة.

وإضـــافة إلى ذلك فقد أرسل الله بأقداره – اجتباء وهدى وتحميل أمانة – رسلاً مـــن قـــبل – بشراً ما كانوا أرواحاً ملائكية أو إلهية من السماء – وجعل الله بأقداره كذلك لهم أزواجاً وذرّيّة ليكملوا بلاغ الدعوة بإقامة القدوة التامة لسائر الناس مثلهم، مـــا جعلـــهم ملائكة ولا رهابنة يشذون عن مسالك الحياة المسنونة للبشر وابتلاءاتها. وثالثاً في نمط الرسالات قبلاً، ما كان لرسول أن يأتي بآية مقترحة من أمة خطابه الذين لا يؤمـــنون بالغـــيب ويـــريدون أن يروا بأم أعينهم ما يعجزهم شهادةً تعزز الوحي وتـــصدّق الرســـالة، مـــا كـــان ذلك أن يقع إلا بإذن الله – الذي يعلم اقتصار تلك الرســـالات دعوةً على حاضريها والحدود المعهودة من ثقافتهم فيقدر لهم آية توافقهم ليهـــتدوا. لكل أجل – في تعاقب أمم بني الإنسان – كتابُ رسالة يُؤتى من هدى الله ما يناسب حاجات المخاطبين خاصة وبلاءاتها ووسع مبلغهم من الحق وما يعزز آيات الهدى المتلو من آيات معجزة تناسبهم أيضاً.

﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣٩)

يمحـــو الله الإله الأعظم العليم في كتاب أنزله تالياً لكتاب سابق ما يشاء نسخاً لأحكـــام تبدّلت المقاصد والوسائل في الحياة التي نـــزلت فيها أو رُفعت أصر اقتضتها علـــى الذين نـــزلت عليهم، ويثبت ما يشاء عبر كل الكتب المتتالية تصديقاً وإمضاءً لـــبلاغ الحق الذي لا يتبدّل في شأن الوجود أو الهدى الذي لا تتغيّر مراشده. وعنده تعـــالى أم الكـــتاب اللوح المحفوظ أصل العلم والكتاب المبين الذي تنـــزل منه كتب الرسالات متصادقة في الأصول متناسخة لتبدّل العهود حتى يأتي الكتاب المهيمن الخاتم لأنه منـــزل بمقتضى الحق والحكم الخالد[1].

﴿وَإِن مَّـــا نُـــرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٠)

وإذ أنـــزل الكـــتاب العاقـــب الخالد إذ تم الأجل لإحقاق حقه بعد توالي آجال الرســـالات الأولى، الخطاب للنبـــي الخاتم ﷺ الذي أُرسل به أن ذلك كذلك – وإما

(١) تتناســـخ الكـــتب وتتـــصادق منـــــزلة على الرسل لآجالها المتعاقبة من أم الكتاب: انظر الآيتين ١٠٥ و١٠٦ سورة البقرة.

يـــريه الله بأقـــداره قضاءً وأمراً مفعولاً في حياته بعض الذي توعّد المخاطبين نذيراً إن أعرضـــوا فيصيبهم ما أصاب من قبلهم الأمم وينجو الرسول كما نجت الرسل من قبل برحمة الله، أو يتوفّاه الله بأقداره قبل أن يقع على المخاطبين ذلك القضاء ولأن الكتاب الخـــاتم خالـــد يتجاوز عهد الرسول الذي يحمل أمانة البلاغ الأولى وعهد قومه الذين يُخاطب. ومهما يكن فإنما على الرسول المخاطب البلاغ وحسب وفاءً بأمانة التكليف إيصالاً للرسالة إلى أمة الخطاب بلاغاً وبشيراً ونذيراً ذكراً بالوحي الذي يتلو أو قدوة بالـــسنة الـــتي يتـــبعها هو بياناً له لا اتباعاً لأهواء وأعراف كانت معهودة، وعلى الله وأقداره في كتابة كسوب عباده وإقامته ميزان أعمالهم الحسابُ يوم الدين ثم ما يترتب عليه من الجزاء بالأجر أو العقاب[1].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤١)

وحقّ على أولئك المخاطبين المنذرين أن يضاف تذكيرهم بواقعاتٍ على المعرضين قـــبلهم عن النذر ويُسألوا: أو لم يروا بالسير في الأرض لاسيما أرض العرب وما حولها من الآثار ما يقصّ عليهم من الأنباء أن الله بأقداره المحيطة الغالبة سنته أن يأتي الأرض الـــتي تـــتوطن فيها أمم معرضة عن بلاغ الحق ونذره ينقصها من أطرافها إذ تنحسر جوانـــبها بمغلوبين طرفاً طرفاً ليدرك المشاهدون المثلات والعظات قبل أن يدركهم هم أن يحـــق النذيـــر ويقع النقص عليهم. والله مصرّف الأقدار الفرد المتعالي الغالب يحكم على عباده عدلاً بما يكسبون لا معقب عليه مما يزعمون من شركاء وأولياء لهم يردون حكم لله وأمره المقضي بأن الدين الحق يغلب ويظهر وأن الباطل مهما علا حيناً يزهق للآجـــال التي يشاء الله. وهو تعالى سريع الحساب لا يفوته رصد كسب الظالمين ولا يبطئ لديه ميزان المثاقيل ولا يتأخر بعد حسم الكتاب وقع الجزاء، يسارع على الظالمين إذ حـــقّ أجلهم وحسابهم العاجل في الدنيا ولا يعاجلهم بل يمدّ لهم حتى يحقّ الأجل،

---

(١) الوصـــية للرســـول الداعية النذير أن يصابر المخاطبين فستأتيهم واقعة النذير إما يحضر ويرى بعض وعيدهم وإما يتوفاه الله دون ذلك، فمهما تمادوا وأملى لهم الله فالمرجع إليه يوم القضاء بالقسط حقاً واقعاً: راجع الآية ٦ (الحاشية ٥) من ذات السورة.

وهـــم في عهد الإملاء والمدّ قد يتوهمون أنهم في قوة من وقع معروفهم السائد ومالهم الأكثر فيحسبون أنهم غالبون أملاً خلباً حبطاً[1].

﴿وَقَـــدْ مَكَـــرَ الَّذينَ من قَبْلِهِمْ فَلِلّه الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٤٢)

وقـــد مكـــر الذين من قبلهم أقواماً، ومهما يبلغ كيدهم على رسلهم يحيطونهم بمـــنافقات إظهاراً لباطلٍ يعلمونه باطناً ومكائد مستورة لحق يعرفونه ليأتوا على حامليه المرسلين إثباتاً أو أخراجاً أو قتلاً، فإن الله الأعظم له كل قدر المكر المحيط المطلق بوقعه بكل حولِه ﷻ وهو شديد المحال ولو جاءهم مَكره بغتة وهم لا يشعرون تُعميهم الفتنة بمـــا عـــندهم والغرور بما يرجون. وهو تعالى يعلم ما تكسب كل نفس سواء مكرت خفـــية أو ظاهرت بكيد يعقبها كفاءٌ بمكره الغالب ويمضيه عليها بقضائه العادل وأمره الـــنافذ. وسيعلم الكافر – ولله يعلم ويقوم على كل نفس بما كسبت – سيعلم نفساً آثـــرت الكفـــر وغمرت الإيمان والهدى مذهباً ومنهجاً في الحياة، سيعلم عيناً – ومثله جملة الكافرين بلا فالتٍ بينهم من الإحاطة يوم الدين والحساب والقضاءَ لَمن مآل الدار المبتغاة لتمكين الإقامة المَرجوّة: من هو الخاسر إلى عذاب جهنّم والمفلح إلى نعيم الجنّة.

﴿وَيَقُـــولُ الَّذينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣)

ويقـــول الذين كفروا – أوقعوا الكفر في نفوسهم وأقوالهم ومواقفهم في الحياة – يقولـــون – مقـــولةً ينتهجونها خطاباً للرسول الحق ﷺ: لستَ مرسلاً، ينفون صدقه مرســـلاً مـــن الغيب إذ لم يكن ملكاً من السماء ولا هو آت بآية معجزة، بل ساءهم دعوته بنفي مقولاتهم وإبطال معهودهم الذي يستمسكون به أهواءَ عزّة ومتاع. وليقل لهـــم الرســـول – كما يخاطبهم القرآن – كفى بالله شهيداً بينه وبينهم فهو تعالى بالغ العلـــم بما في نفس رسوله من صدق تبليغ لا افتراء وبما في أنفسهم من دواعي إعراض مخفـــية، يكفـــيه مـــا أوحى إليه الله من آيات القرآن شاهدات حق حجة عليهم كما

---

(١) العظـــة في رؤية وقع حكم الله الغالب قدراً في مدى أرض التمكين لعباده المخاطبين منظرين فمشركين أو كافرين: انظر الآيات ٤٣ – ٤٦ سورة الأنبياء.

شـــهدت آيـــات لله معجزة لرسل قبله ذهبت أقوامهم بعدها- ماضين- في التكذيب والـــضلال. ومَن عنده علم الكتاب من عهده بالكتاب السّابق وفرحه بما أُنزل في هذا الكـــتاب شهادة بالوحي الصادق المتواتر حقه، هؤلاء يكفون - بعد الله - شهيداً بينه وبين المخاطبين الذين كان حظهم في سابق العهود الجهالة إذ لم يعرفوا كتاباً ولا وحياً ليبلغهم علمٌ يضاهون أو يضارعون به علم القرآن الذي أرسل به.

عموم المعاني (الآيات ٣٠ - ٤٣):

إن الـــسنن التي تواترت لوقع الرسالات على الأمم قبلاً حتى رسالة الختام هي - كما سبق ذكره في السورة - أن ينماز نهج الحياة وكيفها وصوبها بائناً بين المستجيبين لهـــا المذّكّرين والذين لا يستجيبون، وإن أم القضايا هي تحرير هؤلاء من الشرك الذي قـــصرهم العمـــى عن بصيرة النفاذ عبر آيات الله في الآفاق إلى الغيب فارتهنت ظنونهم الغيبية حول أرباب تليهم متفرقة مشهودة يتّخذونهم شفعاء زلفى إلى الله الرب الأعلى الـــذي عندهم في الغيب البعيد، ورسخت أعرافهم فيهم ثقافة شرك، فهم لا يقصرون دون توحيد الله ومعرفة صفاته الحسنى وأقداره العليا بل لا يعهد مصطلحهم الديني - عرباً وغير عرب - تسمية الله 'الرحمن' - الراحم الذي تسع رحمته كل شيء وتعظم أســـبابها وتتعالى أقدارها على كل أحد ذي رحمة يتّخذ لها الأسباب الطبيعية في الدنيا. ولكـــن على الرسول الإمام ﷺ ثم على الدعاة على سنته أن يصلحوا مصطلحات أمة الخطـــاب وثقافـــتها لتعبّر عمّا يطهرونها به وما يدعونها إليه من التوحيد لله وتسبيحه وتعالـــيه ومـــن التوكل عليه في دفع كل ضر أو جلب نفع فوق منظورات الأسباب العادية وأن إليه المتاب من كل عارض ولو من أدنى شرك لأن الإنسان مبتلى في حياته أبـــداً بدبيب شرك بما يفتنه ويحصره من العالم المشهود إلا إذا كان متطهراً مخلصاً تواباً عبر كلَّ مسير حياته.

وفي خطـــاب الدعـــوة إلى دين التوحيد لله فلخلقه المنظوم في الشهادة والغيب وقـــدره الموصول في الدنيا والآخرة إنما الدليل الشاهد بالحق دائماً هو القرآن. ولكن القـــرآن كسائر الكتب السابقة لأول متنـــزله ومن بعد قد يُتلى على الناس - بعضهم

يـــسمع له ويخشع ويتحوّل من جهالة وضلالة إلى علم وهدى برحمة الله، ومن ضآلة وعلّــة في إيمانــه إلى شفاء لما في الصدور وتذكّرٍ يزكي إيمانه، ولكن بعضهم إذا يُتلى عليهم يعرضون كأن لم يسمعوا آياته وينكرونه وينكصون على أعقابهم فلا يزيدهم إلا تعــصباً وخساراً. وقد يتحسّر المؤمنون لاسيما الدعاة فيهم من إعراض هؤلاء وترتابهم لائحـــة شك في حق وقع القرآن وحياً من الله على البشر: كيف لا يبهرهم نوره ولا يطــوّع قلــوبهم هداه. ولو كان الله ينـــزل وحياً قرآناً كما ينـــزل أقدار الطبع على الأشـــياء الطائعـــة لأمـــر سنته كرهاً لسُيِّرت به الجبال متصدعة ولقُطِّعت به الأرض متشققة ولكُلِّم به الموتى، بل الأمر جميعاً لله. لكنه ينـــزل وحيه في سياق مشيئته سنة الهـــدى التي تعهّد بها الإنسان في الأرض يبتليه بأن يجعل له هو مشيئته طلقاً يكل إليها خـــياره الحـــر إذ تتنازعه فتنة العالم المشهود حوله وتذكرة الهدى المنـــزل من الغيب وحـــياً، إمـــا أن يختار التطهر والتحرر عن التعلق الأدنى والإيمان بالله وحده معبوداً أو يُـــسلم نفـــسه للهوى ويركن إلى الشرك والكفر بالغيب الحق. وبذلك ليقنع المؤمنون ولييأســـوا من أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً طبعاً، ولكنه إنما شاء إنـــزال القرآن هـــدى طوع ومشيئة لا كره وطبع. وينبغي ألا ييتئس المؤمنون من طلاقة الكفار فإن لله ﷻ ســـنناً في مصائر أمثالهم، وذلك قدر منظور قد يتسارع وقعه، ولا يزال الذين كفـــروا من الأقوام تصيبهم بما صنعوا من فسق ومكر في الحياة قارعة أو تحل قريباً من دارهـــم تبلُغهم منها موعظة النذير بالمصير، وقد يبدو ذلك متباطئاً لأن الله يمدّ للذين كفروا فسحة في الحياة للمتاب، وقد يؤجله الله في الدنيا حتى يأتي وعد الله بالمرجع إليه ولـــن يخلف الله الميعاد. وينبغي أن يصابر المؤمنون الذين كفروا لا في تطاول إعراضهم وحـــسب، بـــل في فجـــورهم خصاماً للمؤمنين إلى أن يتّخذوهم سخرياً كما فُعل بالرسول الإمام والرسل من قبله، والله لم يأخذ تلك الأقوام على عجل ليُذهب كيدهم بل أملى لهم لحين ثم أخذهم بعذاب عجيب.

إن الله الحـــي القـــيوم قائمٌ على كل نفس بما كسبت في مذهب دينها ومنهاج حـــياتها يـــذرها في فـــسحة ابـــتلاء الدنيا ثم يحاسبها ويجزيها يوم الدين. العجب أن المـــشركين في ضلالتهم في العالم جعلوا لله شركاء مالهم من قيومية على مسير الإنسان

ومصيره. ولا حجة حقٍ لهم، فالعرب المشركون قديماً سموهم رمز تمثيل لإناث الملائكة وهـــم أنفـــسهم لا يحبون الإناث. ولم يكن لأمة مشركة سلطان وحي من الله أن له شـــركاء، كأنهم بمزاعم شركهم ينبئونه وهو في غيب السماء بما لا يعلم مما لديهم في الأرض مـــن علوم لاهوتية عرفوا بها مشهوداً مؤلهاً أو يخبرونه بظاهر من القول يجري علـــى ألسنتهم لغواً إذ هم في باطن وجدانهم لا يؤمنون به وإنما ينافقون ثقافة الشرك الـــرائجة. والحـــق إنما زُين لهم ذلك الزيف ليروق في طقوس تعبّدهم وصور تدينهم وصدّوا عن سبيل الحق المبين، ومَن يضلل الله كذلك بأن يدعه سادراً في مشيئة ضلال ماله من هاد من إيحاءات شركهم ولا من دعوة المؤمنين وإن حرصوا عليهم. وليمض المؤمـــنون يدعـــون إلى الحق على كل حال وليذروهم أحراراً في مسيرهم الباطل حتى يعقـــبه المصير الحق من عذاب لهم عاجل في الدنيا أو العذاب الأشق الأحق يوم القيامة حـــين لا يغـــني عنهم أولياؤهم شفاعة وتضل عنهم أوهامهم اللاهوتية الموضوعة ظناً وهـــوىً وتقلـــيداً. وليطمـــئن المؤمنون على مصيرهم هم بعد الدنيا الفانية جنة دائمة خضرتها حية بماء يجري وأُكلها غير مقطوع وظلها ممدود لا شقاء فيها ولا خوف ولا جوع ولا حرور، تلك عقباهم في النعيم وعقبى الكافرين النار.

إن الكـــتب المتوالـــية وحياً نازلاً على الرسل المتعاقبين قديماً كانت تتصادق في أصول الحق ويناسب كلٌ بعض خصوص ابتلاء الأحوال للأمة المخاطبة – وسعهم من الهـــدى وحظهم من التكليف الميسور. وهي كذلك كانت تقيم شهادة متواترة على صدقها وحقها، السابقُ يبشر بالتالي الذي يعقبه تصديقاً وتأكيداً وتجديداً لتراث القيم الأصول حتى لا تضيع وحتى تنجلي وفاقاً للظروف المتطورة. ولذلك كان الذين أوتوا الكـــتاب الـــسابق – التوراة والإنجيل – إذا سمعوا القرآن تعرّفوا صدقه حقاً من ربهم. وفـــرحوا به ودخلوا في غمار المؤمنين به، وكان غالب أهل الكتاب كذلك في ساحة العالم المتوسط. ولكن كانوا هم من قبل شيعاً وأحزاباً طائفيةً اختلفوا في كتابهم وبدّلوا حقـــه بإلهيات فيها شرك وبتحريفات للكلم وتغيير في عموم الدعوة للناس وفي بعض هـــديها وشرعها، ولذلك أنكرت بعض تلك الأحزاب بعض القرآن الذي جاء مصدقاً لمـــا بين يديه من حق الكتاب مقوّماً لما اعتراه من نسيان وتحريف، والكتابيون قريبون

مـــن القرآن لاسيما النصارى، إذ قُدِّم إليهم القرآن و لم يُغنوا عنه بالنظر إلى أهل كتابه مـــن المسلمين لئلا يحكموا على دين الإسلام بقصورهم ويرموه وكتابه بغير حق. ولو عـــرفوا أصول الدين الحق من القرآن لا يزال كثير منهم ينشرح صدره وقد يؤمن وإن أنكـــر آخـــرون خالص توحيده وبعض تعاليمه التي ترد بيّنة حق على ما بدّلوه ميراثاً لعهدٍ طويل. وعلى الدعاة أن يمضوا في خطاهم بالقرآن ولو بلساهم ففي أنفسهم مهاد مـــن مفهومات الكتاب الأول قد تنشرح به لحق الكتاب الخاتم. وليقم الدعاة – كما أُوصـــى الرسول الإمام – شهداء بينهم بتوحيد الله دون شائبة شرك من ولد أو ملك، وبالـــتوكل على أقدره واستجابته دون شرك كدعاء الربابنة والأحبار وآباء اللاهوت، وبالمـــتاب إليه وهديه خلوصاً من كل زيغ أو انحراف. كذلك أنزل الله القرآن حُكماً ينـــــزل بحـــق هدى حكيماً على واقع الحياة، وبيّنه عربـــي اللسان لينتشر من وسط العـــالم إلى آفاقه جميعاً هداية لمن كانوا في ثقافة جاهلية أو وثنية أو كتابية ضلّت بعض الشيء. وليستقم الدعاة مثالاً مستقلاً بالحق ولا يتبعوا أهواء أولئك أو يوالوهم مذهباً لقـــوهم الظاهـــرة، كمـــا يغفل كثير من المسلمين فيُضلّون ويَضلّون بذلك عن هدى القرآن، وما لهم إن فعلوا ذلك من دون الله من ولي ولا واق لأهم حُمّلوا يحملون أمانة البلاغ دعوةً وقدوة ويُسألون عنها كما يسأل الرسول يوم القيامة. وليقم الدعاة حملة القرآن مثالاً بين الناس منهم ما فيهم خصوص قدسية، فسنة الله أيام الرسالات كانت أن أرسل رسلاً بشراً لا أرواحاً غيبية، وجعل لهم أزواجاً وذريّة ليكونوا كأوسط الناس يتقدموهم قدوة وحسب في شئون يُبتلون بها جميعاً، وليتعبّد الدعاة بسنة أولئك الرسل وإن لم يكونـــوا هـــم مرسلين محظوظين بالوحي مثلهم. وما كان لرسول أن يأتي بآية معجـــزة خارقة للطبيعة حجة لصدقه الغيبـــي إلا بإذن الله. ولئن أذن الله بتلك الآيات قديماً لأمم فقد صوّبت الدعوة لحاضرها الشاهد لتلك الآيات وخوطبت بها ثقافتها التي عـــرفت الـــسحر والمعجزات خلطاً في كل الدين. ولكن لكل أجل من القرون كتاب يخاطب ويناسب أمة الخطاب، أما الكتاب الخاتم القرآن فهو للناس والقرون كافّة سواء حاضـــرين أو خالفين، و لم يصاحبه تعزيز بآية معجزة محدودة الوقع على من شاهد بل آيـــتهُ نصه وحقه المبين، فهو اليوم دون اكتناف بآيات خوارق خطابُ الدعاة للناس

كافـــة. والله يمحـــو ما يشاء في تعاليم الكتب الأسبق وشرعها لأن فيها أحكام أصر رُفعـــت لذهاب مقتضاها أو نُسخت لتبدّل سياقها الخاص قديماً، ويثبت الله عبر كل الكتب الأصول من حقائق الغيب وأصول الهدى التي لا تتبدّل، وعنده تعالى أم الكتاب أصل كل الكتب، ومنه أتزل القرآن المصدّق لما بين يديه المهيمن بما نسخ الخاتم الحاسم بالحق الخالد من الوحي. والدعوة القرآنية الباقية الخالدة ينبغي أن تمضي مصابرة كيفما قـــدر الله مصائر العواقب ميزة بين المصدقين والمكذبين، سواء عجل الله بجازة وعيده علـــى المعرضـــين بحـــرج أو عقاب يحضره الدعاة ويكون شاهداً لحق الدعوة ومآل وقعهـــا – مثل ما ذُكّر بذلك الرسول الإمام ﷺ – أو توفوا وامتدّ مدى الأجل الذي يتجلّى عنده وقع العواقب المصدّقة لنذير القرآن وبشيره. فإنما على الدعاة البلاغ وعلى الله الحـــساب. ولـــو تدبّر المكذبون تاريخ الأقوام والحضارات المكذّبة بالوحي لرأوا موعظة كيف أتى الله عليها في أطراف الأرض، والله حيث يقع حكمه النافذ المحيط لا معقّب له من ولي قوي وهو سريع الحساب لا يبطئ أمره لأثقال المحاسبة ولكن بمشيئة الإمهـــال فسحة متاب لحين. وقد مكرت تلك الأقوام والحضارات المعرضة عن الدين بفنون في صناعة حياتهم، ولكن بان الحقُّ أن لله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس واحـــدة أو جماعة قوم أو حضارة، وسيعلم مستقبلاً الكافر الفرد ومجتمع الكافرين لمن عقـــبى الـــدار في الدنيا. ولئن كُذّبت رسالة القرآن في وجه الرسول الخاتم من بعض العرب، ولئن كان الدعاة على سنته عرضة كذلك، فليتخذوا أمام المخاطبين الله شهيداً بينهم وبين المكذبين سائلاً ومحاسباً وليسألوا أهل الذكر والعلم الديني الغيبـــي من أهل الكتاب الأول ففيهم شهداء صدق لحق القرآن وإن ارتاب بعضهم لما هم فيه أصلاً من خلاف.

سورة إبراهيم

السورة وخلاصة هديها:

سورة 'إبراهيم' مكية النزول ترتيبها فيه بين سورتي 'نوح والأنبياء' وترتيبها في الكتاب الرابعة عشر في وسط سور غالبها مسمى بذكر المرسلين أو لأصولهم. وإبراهيم عليه السلام كان من شيعة نوح عليه السلام على سنته في الدين الحق وذرية ممن حمل الله معه، وكان هو أول سلالة من أنبياء ورسل إذ دعا ربه ذريةً ثم دعا أن يكون منهم أئمة دين للناس كما جعله الله، وحقت الاستجابة في التاريخ. وكان أول سائح بدعوة الدين في الأرض الوسطى شمالاً من شرقها هجرة إلى غربها ثم نزوحاً إلى جنوبها. وكان ذلك المدى الوسيع الذي ضم أرض الرسالات من بعده أوزاعاً أو تعاقباً للرسل قد يخرج الرسول من دياره كرهاً ومكراً من قومه أو يخرجه الله بوحي ينجيه من هلاك الباقين ليقيم في ديار أخرى منها. وإبراهيم ساح تلك الأرض وأسس فيها مركزين للدين بيتاً لله مقدساً في يوروسلِم بفلسطين وبيتاً حراماً في مكة بالحجاز، وترك فيهما ولديه لإمامة الدعوة وإقامة الصلاة للمقبلين. وقد أخرجه كيد أهله مهاجراً من بلده أور في العراق لشدة وقع دعوته وحملته على أصنامهم وخرج معه ابن أخيه لوط عليه السلام إلى فلسطين، وثمة استخلف ولده إسحق عليه السلام ومن ورائه يعقوب عليه السلام. وساقته الهجرة في الله نحو مصر وخرج منها ناجياً ليعقبه فيها بقدر الله بعد حين يوسف عليه السلام الذي أتى بأبيه يعقوب وأهله من كنعان ليستمر نبض الدين في مصر حتى موسى عليه السلام . وقيّض الله له مكان بيت عبادة في مكة التي صحب إليها زوجه هاجر وابنها

إسماعـــيل. فإبراهيم كان سالف إمامة للناس كافة في تلك الساحة الوسطى من العالم الـــتي كانت تتناثر فيها رسالات أنبياء من قبل كل يقوم في قومه خاصة، فكانت تلك الهجـــرة الموصولة مداً نحو العالمية في مدى دعوة دين الله خالق الكون وهادي الإنسان كلـــه. لكـــن الدعـــوة لم يتحقق كمالها رسوخاً وانبساطاً في أرض العالم كافة إلا في الرسالة الخاتمة التي بُعث بها محمد من ذرية إبراهيم رسولاً للناس في قومه مهاجراً بينهم ثم للناس كافة. ولئن كانت رسالات سائر المرسلين على أصل من حق الغيب وتوحيد الله معـــبوداً فقـــد كانـــت تتنـــزل هدياً خاصاً في ابتلاءات القوم المخاطبين. فرسالة إبراهيم كانت صوباً على مذهب الإشراك المنتشر لاتّباع الملة الحانفة إلى توحيد الله رباً وتوحـــيد الحـــياة عـــبادة له في سبيل توحيد أولاها بأخراها على هداه تعالى وابتغاء مرضاته. ذلك أن الله ابتلى إبراهيم في سبيل تلك الدعوة بلاءات، فأتم المجاهدة صادقاً صابراً فجعله الله إماماً فيها حتى غدت الحنيفية التوحيدية أساساً من بعد لدعوة محمد: القائمـــة علـــى التطهر من الإشراك وإخلاص الإيمان غيباً بالله الواحد المعبود في سبيل لقائه في الآخرة، والشاملة لتجليات ذلك التوحيد في كل ابتلاءات الحياة الدنيا – نيات مؤمـــنة في النفوس حيثما تصوّبت مقاصدها وهمومها ومسالك فعل مهدي حيثما وقع في شـــعابها – سواء شعائر التعبد أو خلق المجتمع أو نهج المعاش والسلطان غير المفتون، والجامعـــة لكل مدى الحياة عاجل زمانها وحاضرها المشهود دنيا إلى تمام أخراها وفاقاً لكسبها وعدلاً لجزائها. فسورة إبراهيم تحمل تلك المعاني التوحيدية. تذكُر حق الإيمان بالكـــتاب إذ الهدى في الحياة هو هدى الله وحده، وتذكر الكفر فتنة بالحياة المشهودة، ثم تذكـــر رسالة الحق الواحد التي توحد عليها متعاقبين الرسل الذين خلوا ترسم سنة وقعها ومواقف الكافرين بها مجادلةً لبينات الحق والغيب بباطل معبودات معهودة وأذى للمرســـلين ومـــصيراً إلى واقعـــات تصدّق نذير الحق في الدنيا ومآلاً إلى آخرة تنال المستكبرين والضعاف منهم. وتذكر المؤمنين ومصيرهم لكلمهم الطيب وفعلهم العابد ومذهـــبهم المتذكـــر الشاكر لآيات الله ونعمائه. ثم يجيء فيها ذكر إبراهيم وإسكانه لذريـــته بمكة ووضع الأساس فيها لبيت حرام لشعائر العبادة ودعوة التوحيد الخالص ورفعـــه الدعـــوات إلى الله المحمود المستجيب في سبيل الهدى والمغفرة له مداً إلى ذريته

والمؤمـــنين خلفـــه إلى يوم الحساب. ثم ترد في السورة آيات الختام بذكر مشاهد عالم ختام الحياة للظالمين في أولها، ثم آية الختام إشارة لهذا الكتاب رسالة الوحي الخاتمة.

السورة تقدم ذكر الكتاب، فهو واسطة الوحي من الله في ملأ الغيب وفاءً بعهده تعـــالى رســـالات لهدى الإنسان في العالم المشهود، وهو آخر تلك الرسالات وأعمها لخطـــاب الناس كافةً بشتى أنفسهم وأقوامهم وقرونهم المتوالية إلى يوم الدين. وقد تخير الله إنـــزال تلك الرسالة الخاتمة العامة في وسط الأرض بأوسط اللغات وأوسعها للتعبير عـــن بـــيان ذلك الهدى الرباني المحكم المفصل وأغناها كفاية لحاجة الانتشار والتطور والبقاء لخطاب هدي عام خالد. ففي مفتتح السورة تُذكر بضعة حروف تمثيلاً لسائرها شـــهادة لبـــناء الكـــتاب العربـــي المبين معنى البليغ عجباً المعجز صدوراً إلا من الله، منـــــزلاً علـــى سنة الكتب السابقة إذ ما أرسل من رسول بأقدار الله الهادية للإنسان المـــتعاقب في الأرض إلا بلـــسان قـــومه، كلهم يأتون أقوامهم ببيّنات القول. وتمضي الـــسورة تبسط هديها حتى تنتهي لتصل آخرها بأولها ذكراً لهذا الكتاب بلاغاً من الله للناس ونذيراً، وتعليماً لهم وحدانيةَ الله أصل الحق لكل الوجود والحياة، وتذكيراً بينهم لأولي الألباب.

وإنمـــا الكتاب تنـــزيل من الغيب بأقدار الله هدياً حقاً إلى صراطه المستقيم وهو العزيـــز الحميد. فذكر الله ينتظم السورة من أولها إلى آخرها عبر كل آيها، لأن ذكره كذلك ينتظم حياة المؤمن بكل مداها باطناً وظاهراً وكل وقعها في شعاب بلائها وكل مـــدّها أولاهـــا وأخـــراها. فالحـــق في شأن الله هو وحدانيته لا إله إلا هو له ما في السماوات وما في الأرض وله الأقدار العليا فالأسماء الحسنى، يقدّم المهتدي هدى بإذنه على الصراط المستقيم إليه، ويستدرج الضال ويملي له في الضلال، وهو العزيز الحكيم. وهـــو الذي خلق السماوات والأرض، وأنـــزل من السماء ماء فأخرج به من ثمرات الـــرزق وأجـــرى به الفلك بحراً والوديان أنهاراً، وسخر الشمس والقمر دائبين والليل والـــنهار، وبسط النعماء. ولكن الإنسان المفتون لا يرى تلك الآيات إلا مشاهد ظاهر وتلـــك الـــنعم إلا متاع دنيا، فهو ظلوم كفار يبدل نعمة الله كفراً. والله أمضى على الـــناس أيامـــاً في مـــر التاريخ ليعتبروا ويميزوا سننه الاجتماعية – نعمة على المؤمنين

المـــتوكلين عليه نجاة وللشاكرين مزيداً، ومغفرة للكافرين إن تابوا وهلاكاً إن تمادوا أو تـــأخيراً لعذابهم إلى يوم هو فيه سريع الحساب شديد العقاب. وهو الذي يخص المؤمن العابـــد المتـــضرع إليه - كإبراهيم - حرم أمنٍ لذرية وثمرة رزق وعمران متعبّد وإن احاطـــت بهم ظروف الخطر والبؤس والعزلة، ويهبه الذرية وإن تعسرت، ذلك ليكون شـــكوراً يبتغـــي الصلة بالله والغفران منه يوم الحساب. وهو الذي ينـــزل رسالات الهدى مهما يتعرض حاملوها والمؤمنون بها للبلاء، فعليه يتوكل المبتَلون بالأذى وبفضله يُـــستخلف المؤمنون في الأرض، وَمن يكفر بعد فإن الله غني حميد وتحق نذره بالظالمين الـــذين يمكرون ليفعل بهم ما يشاء بقوة إهلاك إذا صُوبت على الجبال لأزالتها فيخيب مـــنهم كل جبار عنيد. ويوم القيامة تتبدل السماوات والأرض بكلمته ويبعث بقدره الـــناس خلقاً جديداً وما ذلك عليه بعزيز، ليحق وعده لرسله وليبرز بين يديه الظالمون والـــشيطان في خـــصام ليصيروا إلى عذاب أليم. ذلك الله الواحد القهار حقاً في الدنيا والآخـــرة، ولكـــن كثيراً من الناس ضلوا عن سبيله فعبدوا الأصنام واتخذول له أنداداً ليتمتعوا مصيراً إلى النار.

وسور القرآن قد تذكر قصص الرسل تباعاً لكن هذه السورة تذكر سيرتهم جملة في ســـنة الدعوة والجدال بالحق والصبر والتوكل حتى تحق البشارة والنذارة. وإنما تخص الـــسورة بالذكر أولاً موسى رسولاً إلى بني إسرائيل الذين أتموا الدين هداية بالكتاب والتراث الباقي أصله، ولا تُفضَّل قصته بل يذكر مجيئه بالبينات ليخرج الناس هجرة في النفس والأرض من الظلمات إلى النور وليذكرهم من بعد بأيام الله حفظاً لهم ونجاة من بـــلاء آل فـــرعون لعلهم يشكرون فيزيدهم الله فتحاً ولا يكفرون مرتدين إلى عذاب شـــديد، وليتعظوا بذكرى الأنبياء من قبلهم أن المصائر رهينة فوق الأرض وفي الآخرة بالإيمـــان والـــصبر والـــتوكل أو بالظلم والتجبر والاستكبار. ويأتي ذكر سنة الرسل والأقـــوام - قـــوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، تروي السورة أن جاء الرسل بالبينات فكفرت الأقوام وذكّرهم الرسل بالله وآياته ورجائهم له إن تابوا أن يغفر لهم ويمدهم متاعاً إلى حين، فكرهتهم الأقوام بشراً يصدونهم عما كان يعبد أباؤهم إلا أن يأتـــوا بـــسلطان آيـــة مادية ذات وقع معجز لتصديق الرسالة الغيبية، فاعترف الرسل

ببـــشريتهم لا فضل لهم إلا ما منّ الله به من أمانة الرسالة ولا يملكون الإتيان بسلطان آيـــة إلا بإذنه تعالى وشهدوا بالتوكل عليه هادياً والصبر على الأذى. وذهب من بعد الأقوام لإنذارهم بالإخراج من الأرض إن لم يعودوا إلى الملة الموروثة، وثبّت الله الرسل بالوعد وحياً أن يُهلك الظالمين ويسكنهم من بعدهم أرض الله الواسعة، وعندئذ خاب كل جبار عنيد من كبار الأقوام لينتظر من ورائه العذاب الغليظ في جهنم وضاعت يوم القـــيامة أعمـــال الـــذين كفروا كالرماد تعصفه الريح إذ برزوا لله جميعاً يتخاصمون مـــستكبرين وضعفاء وانقلب عليهم الشيطان قرينهم في النار الذي أغراهم ومناهم في الدنـــيا وغدا يؤاخذهم على اتّباعه بغير سلطان له عليهم وبشركهم بالله ويوئسهم إلا مـــن عذاب أليم. فأما الذين آمنوا واستخلفوا في الأرض في الدنيا فإنهم يومئذ أُدخلوا الجـــنة ونعيمها وتحيتهم فيها سلام. ثم جاء من بعد في السورة ذكر إبراهيم إمام الدين الحـــق وناشره في الأرض الوسطى قديماً. وقصته هنا ليست مع أبيه وقومه الذين آذوه فهاجـــرهم، بل في سياق تأسيسه مهاداً من ذريةٍ وبلد وهدى لعاقبة من حملة الرسالة الخاتمـــة ووطنها ودعوتها لأول عهدها. إذ أسكن إبراهيم ابنه اسماعيل في مكة ودعا له الله الأمـــن فـــيها والـــوقاية من ضلال الأصنام وعونه على إقامة الصلاة في بيت محرم ودعـــوة الـــناس إلـــيه ورزقه بالثمرات لعله ومن معه يكونون من الشاكرين. ثم حمد إبـــراهيم ربـــه شاكراً نعمة الذرية ودعاه ربُّه أن يمضي هو مقيماً للصلاة وتمضي بعده الذريـــة خلفـــاً كذلك يرحمهم الله وسائر المؤمنين معهم بالمغفرة يوم يقوم الحساب. والـــسورة رسمـــت مثال الرسل سنة ماضية وذكرت إبراهيم سلف الرسول الخاتم ﷺ إمامـــاً في الدعـــوة الحنيفية التوحيدية وأباً لذلك الرسول وقومه الذين سكنوا في تلك الأرض واســـتجاب الله لـــدعاء أبيهم في أمن حرمها ومدد رزقها، ومن حولهم أقوام عـــصوا رســـلهم ومضوا ظالمين، وساروا هم أيضاً غير متعظين بمصائرهم على نهجهم ظلمـــاً بل بدّلوا نعمة الله استجابة لأبيهم كفراً، وضيعوا أصول ملته التوحيدية ونسوا دعاءه لهم بالغفران مؤمنين.

إن الخطـــاب في الـــسورة إنما يتوجه بالهدى والكتاب لأول الأمر إلى الأمة التي كانـــت حاضـــرة تسمع تلاوته لتبلغه إلى من يليها فمن يعقبها من الناس كافة. ذلك

ليخرجوا هم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام خشية لله ونُذْراً بما للكافرين من ويل عـــذاب شديد، فهم يستحبون الحياة الدنيا لأنها مشهودة عاجلة المتاع فيؤثرونها على الآخـــرة لا ســـيما أنهم يكفرون بالبعث ويستأخرون أجل النذير، ولا يؤمنون بآيات الكـــتاب الهادية إلى سبيل الله المستقيم فيضلون ويبغون سبيلاً عوجاً تستهدف مقاصد دنـــياهم بأهوائهم، ولذلك يضربون طريقاً للحياة في ضلال بعيد. وإن لهم لموعظة في ذكـــرى أنـــباء المرسلين السالفين وأقوامهم، وكيف كان مذهب الأقوام مثلهم كفراً برســـالة والغـــيب وإنكاراً لرسول بشر يصدهم عن معهود الآباء وطلباً لآية مشهودة لتـــصديق آيات الغيب الموحاة، وكيف ضاقوا أيضاً بصدق الرسل وصبرهم وتوكلهم فآذوهم وأنذروهم بالإخراج أن شذوا عن ملتهم وكيف بوعيد النذير خاب كل جبار عنيد. وكذلك توعظ أمة الخطاب الأولى لرسالة القرآن، ويُذكّرون وهم ينكرون البعث بـــأن الله خالق السماوات والأرض أكبر منهم فليس عليه بعزيز أن يبعثهم ويأتي بخلق جديـــد. وتوصـــف مقولات جدالهم بالباطل بأنها كلمات خبيثة مثلها كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وفعالهم كذلك عاقبتها كرماد اشتدت به الريح العاصـــفة. ويذكّـــرون بآيـــات الله البادية في الكون المسخّرة لنعمائهم: السماوات والأرض، والماء من السماء تخرج به الثمرات وتجري عليه الفلك في البحر وبه الوديان أنهاراً، والشمس والقمر والليل والنهار، وسائر نعم الله التي يطلبون والتي لا يعلمون ولا يحصون، لكنهم ما آمنوا بالآي ولا شكروا النعم إذ غلبت عليهم فتنة الإنسان الظلوم الكفار. ويتوالى ذكر النذير ومشاهد وقعه حين يحق أجله. كيف ضرب الله لهم الأمثال من فعل عقابه العاجل لقوم ظالمين كانوا في مساكن أرضهم ومكروا مكراً سحقه الله بقوة إن سلطها على الجبال أزالتها والمخاطبون يُقسمون ما لهم من زوال. وكيف يقع العذاب الآجل الغليظ في جهنم بالجبابرة، شراب حرورها من صديد ومحاذر الموت فيها محـــيطة ولكن يستمر العذاب الغليظ، والضعفاء لا ينفعهم التوسل للمستكبرين الذين كانوا لهم تبعاً ولا يُغنون عنهم فكلهم في العذاب سواء، والشيطان يلاوم ولاته ويتبرأ مـــنهم وكلّهم في عذاب أليم، ويُحشرون مهطعين أبصارُهم خاشعة وهم في ذل وقتر وأفئدتهم هواء، ولا مرجع إلى الدنيا مهما يكن التضرع ولو لأجل قريب وعهد إيمان.

أمـــا الذين آمنوا بالكتاب فمثالهم كسلف المؤمنين مع موسى ومع المرسلين، الله ينجي المؤمنين بهجرة من بلاء الكفر وطاغوته ويزيدهم بعد هجرهم خيراً، ويُستخلفون في أرض الله. وكلمـــات الـــشهادة بالإيمان والقول منهم كلمات طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي كل حين أُكلها بإذن الله – ذلك لعلهم يذكرون. والله يثبّـــتهم بذلك القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. والوصية لهم أن يقيموا الـــصلاة ويؤتـــوا مما رزقهم الله سراً وعلانية وأن يتفكروا في آيات الله في السماوات والأرض والمـــاء وفي سائر النعم حولهم ليكونوا مستقيمين شاكرين. وإن قدوتهم لفي إبـــراهيم الداعية الذي يستجيب الله له ما سعى في الأرض ينشر دين الحق ويبني على أصـــوله للمؤمـــنين ســـكناً ورزقاً ومتعبداً ليجعل الله له خَلَفاً حسناً. وإن عاقبتهم في الآخـــرة جزاءً لصالحات أعمالهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم وتحيتهم فيها سلام وفاق طيبات كلمهم.

ترتيل المعاني (للآيات ١ – ٢٥):

﴿الَـــر كِتَابٌ أَنـــزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١)

ا ل ر: مـــثل الـــسور التي سميت بذكر الرسل السابقات واللاحقة، تتقدم سورةَ إبـــراهيم الطَيْلا أبـــي الأنبياء والمرسلين ذاتُ الحروف، مثالاً لسائر الأحرف العربية، قـــسماً شـــاهداً على حق خطاب الوحي المنـــزل على الرسول الخاتم بلسانه ليحفظه ويـــتلوه بـــلاغَ رســـالةٍ من ربه إلى قومه بلسانهم العربـــي، فلا ينفرون من غربة ولا يـــضلون مـــن بُهمة في لغة الخطاب. وإنما هو حديث عربـــي منسّق الأسلوب متشابه المعـــاني لا اضـــطراب فيه، تُتلى عليهم آياته قرآناً يسمعونه ببدائع منطقه ويتلقون من روائـــع وقعه ما يعجز عن الإتيان بمثله بشرٌ، وتُخط حروفه وكلماته وآيه وسوره في المـــصحف كتاباً. فهو كتاب – لا نكرة مجهولة وإنما كتاب عزيز ذو خطر كُتب على الـــناس هديه فرضاً من ربهم الأعلى وذو جلال لأنه مكتوب أزلاً في أم الكتاب هادياً. وقـــد أنـــزله الله في أمّة أمية جاهلة ما كانت تقرأ ولا تكتب إلا قليلاً ولا عهدوا أو

درسوا كتاب وحي قبله فألْفوا فيه ما يخاطبهم عيناً أول الخطاب ويخاطب من يعقبهم مـــن الخالفين القارئين الكاتبين بفضلٍ منه ﷻ إذ دفعهم وبارك كسبهم ليبلغوا مقاماً علياً من العلم والهدى في أمم العالمين.

كتاب أنـــزله الله من ملأه الأعلى قضاءً بمنظومة من أقداره تعهداً ليبلّغ الإنسان رســـالات مـــن الغـــيب ليتعلم وهو القاصر بحدود إدراكه عن حقائق الغيب ومآلاته وليهتدي في الحياة وهو عرضة لأن تُضله فتنة مبتغيات عالم الشهادة المحيط به، واجتباءً للرسل وأمم الخطاب في كل حين، وتكليفاً لرسل من جنوده في الغيب الملائكة ليبلّغوا الوحي إلى أصفيائه البشر ويحفظوا سيرتهم على الهدى والإيمان ويؤيدوها بروح من الله في مجاهدة عوامل الضلال في الدنيا. ورسالة الغيب التي أُنـــزل بها الكتاب أمانةٌ يحملها الرسول ليبلّغها ويبيّنها ليُخرج بها الناس من قومه الذين يلونه ثم من بني الإنسان كافة، ثم ليقوم قدوة لخلفه من حملة الرسالة المقتدين بسنته ليُخرجوا الذين يلونهم من الأقوام والناس. والإخراج إنما هو من الظلمات المعهودة في الإنسان تحيط به إذا تُرك سدى في عالم الشهادة الذي يُظلم عليه محجوباً عن علم عالم الغيب ويحُده بظلمات جهل وغفلة عن حقائق الكون المشهود إن لم يُذكّر بما فيها من آيات للغيب مفصلةً وعن سِيَر سلفه مـــن الإنـــسان منذ الأب الأول آدم إلى المرسلين الذين خلوا إن لم تقص عليه الأنباء، ويغشاه ظلام الضلال عن هوادي طريق الحياة الدنيا المستقيم إلى حياة أخرى هي خير لـــه وأبقى وعن ضوابط التقوى من نوازع الهوى الصارفة له عن قوام الطريق المنقطعة عن منتهاه الأتمّ في الآخرة. والإنسان في حياة دنيا غفلٍ من الهداية والتذكير من الغيب إنما يضرب في ظلمات إذ لا تتزكى فطرة التدين فيه بل تنقطع بها لدى آلهة متفرقة في عـــالم الشهادة يتعلق بها الناس متفرقين ذوي أرباب في أنحاء الأرض وهموم وأهواء في مـــتاع الحياة وشهواته العاجلة الحاضرة، وإذ تنبسط للشيطان في نفسه ثغور للوسواس يُـــزين للإنسان ويغريه ويوقعه في سوء ثم ينقلب عليه ويَنكل ويضطرب بمسير حياته، وإذ يخوض المرء في مصطرع سائر الناس الذين يتنافسون بشهوات لا تشبع على متاع في الدنـــيا محـــدود ويـــتجادلون بالظـــنون مذاهب شتى إذ يغمّ عليهم الحق الفاصل ويتخاصمون في مظالم لا يقوم بينهم حَكم مرضي بإجماعهم. رسالة الرسول أن يخرج

الـــناس مـــن تلك الظلمات المتطابقة المتكاثفة إلى النور. من لاح له ببصيرته النافذه في آيـــات الكون بصيص نور فإنما يحقه ويعززه نور الهدى من الله الفرد الذي يُشرق على الإنسان كأنه من مصباح واحد في مشكاة واحدة يصوّب له بصائر الهدى إلى صراط مستقيم دون البروق العارضة اللائحة من معبودات متفرقة وأهواء مضطربة ووساويس شيطان، فيوحد له وجهة الحياة بكل مقاصدها ويضم له في السبيل القويم كل وسائلها ويقيه من كل الصوارف والفتن الجانحة به ابتلاءً في قبلة الحياة.

والهـــدى الذي يُخرج الناس من الظلمات إلى النور ليس من تلقاء نفس الرسول البشر ولا للرسول سلطان ليوقعه في نفوسهم، وإنما ذلك كله من الله، الهدى هو هداه والإخـــراج به إلى النور بإذنه تعالى. لا يبعث الله من رسول مفوض للرسالة إلا بإذنه وهداه ولا توحيه إليه الملائكة إلا متنـــزلةً بإذن الله بروح من أمره ولا يتوفق عباد الله إلى الهدى إلا بإذن ربهم وقدره الذي وهب لهم قدرةَ تبيّنِ نوره ومشيئة اختياره بصيرةً في مـــسلك الحياة تضيء لهم الظلمات كلما غشيتهم بلاءات الحياة الدنيا وتهديهم إلى الصراط الذي رسمه الله بعلمه وحكمته ليستقيم بعباده إلى ابتغاء وجهه ورضوانه. وهو ســـبحانه العزيـــز – بالغ العلم والحكمة والهداية كلها نبط من عزته البالغة، الحميد – المحامـــد كلـــها ثناء في صفاته الحسنى والنعم على عباده المحمودة كلها منه، فهو أكبر سبحانه بحمده، وما سواه من هاد للإنسان.

﴿اللّـــهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٣)

ذلك هو: الله – الإله الأعظم المعبود فرداً – الذي له ما في السماوات العليا وما في الأرض المبـــسوطة مـــن مخلـــوقات – أشـــياء شاخصة وأحياء دابة، وما يكتنف المخلـــوقات مـــن أقدار الظروف والأسباب وما يجري بينها من وقائع. وما من خالق مدبر أكبر من ذلك يسبح له الإنسان ويعبده ولا أجل نعماً مسخرة ليحمده ولا أوقع قـــدراً ليُرجـــى أو يخـــشى بأثر ظواهر خلقه. والنذير ويلٌ – هلاك مجهول محذور – للكافرين، لا الذين كفروا إذ مستهم غاشية الظلمات ولمّا يروا النور فإن تجليات النور وأبـــواب التوبة قريبة منهم، بل الكافرون الذين رسخوا في الكفر وسكنوا في ظلماته،

لهـــم عـــذاب شديد قد يعاجلهم به الله في الحياة الدنيا أزمة أو مهلكة تُفسد أو تقطع سعدهم وفرحهم أو ينتظرهم في الآخرة عذاب الله الأشد والأبقى.

﴿الَّذينَ يَسْتَحبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ (٣)

أولـــئك الكافرون يستحبون الحياة الدنيا، لا يحبونها وحسب بل يبالغون في حب شهواتها وزينتها بنـــزع الهوى وإغراء الشيطان لأنها محسوسة حاضرة عاجلة ويؤثرونها علـــى الآخرة – الحياة التي تجلت آياتها في آجال الكون وجاءهم نذيرها وبشير المتاب مـــن الكفـــر في الكتاب، لا يتخذون الدنيا عبور تزودٍ للآخرة الأحب متاعاً الأسعد الخالـــدة واتقاءٍ لشقائها وعذابها العظيم. والكافرون – من ثَم – يصدون عن سبيل الله الـــتي هيأها ليسلكها عباده مستقيمة وجاء بيان هديها وبشارة منتهاها ونذارة من ضل عنها في كتابه، يصدون أنفسهم ويصدون غيرهم عنها ائتماراً وتعاوناً واتّباعاً للتقاليد، ويـــبغونها ســـبيلاً عوجاً حيثما حملهم الصدود والتواصي بالمعهود من الشرك وكيفما فتنـــتهم أهـــواء الدنيا وزينت لهم ظلمات الجهل وأباطيل الظنون ووساوس الشيطان. أولـــئك في ضـــلال بعيد متوغل في النأي عن الهدى غير ضلال بجهل غاش أو نـــزع هوى عارض قريب من التوبة إلى العلم والرشاد.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤)

ومـــا أرســـل الله – تقـــويماً لنـــزع الكفر المعوج بسبيل الحياة، بأقداره الحليمة اصـــطفاء للرسل وبياناً لهدى الرسالات – وما أرسل من رسول ممن خلوا إلا بلسان قـــومه الذين كُلف ببلاغ الرسالة إليهم ليبين لهم حق علم الوجود وهدى الحياة. ذلك مثل ما أُرسل الرسول الخاتم يحمل رسالة هذا القرآن العربـــي بلسان قومه أمة الخطاب الأولى لـــيحملوا أمانـــة تبليغها إلى الأقوام بلسانها ثم إلى العالم بسائر ألسنته. وإذا تبيّن كذلك للمخاطبين كلمُ الهدى والإيمان حقّ عليهم التكليفُ باتباعه وسبق لديهم النذير والبـــشير للـــتوبة من المعصية والاستجابة بالطاعة. وإن تحير المؤمنون أو تحسروا أنه لا يؤمن الناس جميعاً بهدى من الله العظيم شأنُه فإنما يرتب الله بمشيئته أمر استجابة الناس

بعد البلاغ والنذير فيُضل من يشاء إذ يذر له مشيئة الخيار فيختار بنزع العصبية للمعهود أو بهوى النفس للمتاع المشهود التمادي في ظلمات ضلاله ويُزين له الشيطان ذلك أو قد يرى نور الهدى ثم تعتريه غاشية ضلالة من جديد. أولئك يمد الله لهم إضلالاً إملاء لهم فيما تخيروا فاحتملوا وزر السؤال عنه والحساب. ويهدي الله من يشاء لا يحمله على الهدى طبعاً وكرهاً كأشياء الطبيعة وإنما يُيسر له ويوفقه إلى حيث شاء. كل ذلك يجري بمشيئة الإنسان فبه يحق له الأجر أو عليه العقاب حسبما يختار، وكله لا يخرج استقلالاً عن مشيئة الله في شأن الإنسان أن يبتليه ويذره حراً وأن يُيسر له مسلكه حيثما توجه ثم يُعقبه السؤال والجزاء وفاقاً. وهو سبحانه وتعالى العزيز – ذو المشيئة العزيزة تنبسط على عباده خلقاً وابتلاء وهدى وبوحاً لمشيئتهم ومداً في ضلالهم أو هواهم فجزاء قاضياً عليهم عدلاً أعلى، الحكيم الذي أنزل في حيثها الحقِ الرسالات اصطفاء للرسل وأمم الخطاب ثم فصّل الهدى ليناسب مواقع المخاطبين بلسانهم يُطهرهم من ضلالهم ويبين لهم المسلك الأوفق في حالهم حتى رسالة الختام التي تنزلت حيث الناس كافة وحين الزمان من بعد كله عزةً وحكمة من الله خالدة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٥)

وإضافةً إلى ذكر الرسل الذين أُرسلوا إلى أقوامهم بألسنتهم يأتي ذكر من أُرسل بكتاب ما طمسه النسيان كصحف سابقة وانبسط به هدى أوقع ما تلاشى بل بقي منه المهاد لما تلاه وأتّمه به الله. لقد أرسل الله بأقدار الاجتباء والهدى موسى وجاء بآيات من غيب الله الأعلى شهادات على حق دعوته وبيانات لهداها. وكانت أمانة رسالته وتكليفه – أيضاً – أن يُخرج قومه من الظلمات إلى النور. فقد كانوا قديماً على بقية نور عند مهجرهم إلى مصر بإمامة يعقوب عليه السلام وتجديد الهدى من يوسف عليه السلام، لكن من بعد طال بهم المدى ظنوا أن لن يرسل الله من بعد يوسف رسولاً فارتدوا إلى ظلمات سائدة في مصر شركاً وسحراً وإلى رهن في فتنة المال وطاغوت السلطان عليهم. كانت رسالة موسى أن يخرجهم من ذل ذلك إلى نور الهدى – يخرجوا أنفسهم هجراً للظلمات وأهلها ولو دعاهم ذلك إلى مهاجرة أرضهم إلى مقام نور.

وأوصى الله موسى أن يذكّر قومه بأيام الله – عهود إنعامه على السالفين من الأقوام بعد بلاءات وعهود بلائهم هم بطغاة الفراعنة، كيف بدّلها الله عهود نعمة إذ حفظهم إلا قليلاً ووفى بتعهده لهم أن يتجدد الهدى فيهم ولو كان أبناؤهم يقتلون. إن في ذلك لآيات لقدرة الله ورحمته لكل صبارٍ – كلما غشيته الفتن متوالية قاومها صبراً بعد صبر لا يفتر ولا يحول جزعاً، شكورٍ – كلما اتسعت به رحمة الله وامتدت نعمه بسط شكره وعظّمه ليحمد الله عليها جميعاً لا ينسى منها شيئاً[1].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٦)

ذكّرهم موسى عليه السلام إضافة إلى أيام الله التي حفظت لذرية بني إسرائيل رغم البلاء كيانهم وأصل هديهم الذي تقادم، قال موسى لقومه – يخصهم بالخطاب – أن يذكروا ولا ينسوا من ماضي نعم الله عليهم ومقتضاها حمداً وعظتها وعبرتها، إذ، حين أنجاهم من آل فرعون مهجراً شرقاً وعبوراً بآية انجزار للبحر الذي أحاط بآل فرعون ومد فأغرقهم، وبذلك أخرجهم الله من حال كانوا فيها يسومونهم أخذاً بالتكاليف والذل كالأنعام سوءَ العذاب استعباداً وتسخيراً ويذبحون أبناءهم خشيةَ أن يولد وينشأ فيهم داعية استقلال ويستحيون نساءهم لاستغلالهن سخرة ومتعة، وذكّرهم أن في ذلك لهم بلاء من ربهم عظيم يمتحن صبرهم ويعد لهم نعمة الفرج والهدى.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧)

وإضافة للتذكير وعظاً نبأهم موسى عليه السلام إذ، حين تأذن ربهم – آذنهم إيذاناً بليغاً تعهداً منه بكلمة – تخاطبهم – لئن شكروا على تلك النعمة العظيمة بعد البلاء المبين ليزيدنّهم هو بذاته تعالى نِعَم أمنٍ وتمكين ومتاع، ولئن كفروا إن عذابه شديد حقاً، إذ حق عليهم حجب الإنعام وإيقاع العقاب.

---

(١) في دعوة موسى وسيرته في قومه خاصة: راجع الآيات ٤٩ – ٧٤ سورة البقرة، والآيات ٢٠ – ٢٦ سورة المائدة والآيات ١٣٧ – ١٧١ سورة الأعراف، وانظر الآيات ٨٠ – ٩٨ سورة طه.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٨)

وقال موسى عليه السلام - يخاطب قومه، و لم يذكّروا لأنها كلمة حق يسري الخطاب بها على غيرهم كمن جاء يخاطبهم القرآن، قال لهم إن يكفروا هم ومن في الأرض جميعاً - يجحدوا بنعم الله ويبدلونها كفراً - فإن الله غنيٌ حقاً عن عباده أحياهم وهداهم ولا يفوته نفع ولا يمسه ضر إن لم يعبدوه، حميدٌ بليغ الاستحقاق للثناء والشكر ولو لم يذكره هم وأمثالهم كما ينبغي من المؤمنين العابدين الحامدين.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ من بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٩)

الآية تمضي في خطاب التذكير من موسى عليه السلام لقومه لكن ذكرُهم فيها وما يليها يُطوى لأنه تذكير أصبح سارياً خطاباً مباشراً لمن يتذكر بالقرآن. ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم، ذلك الخبر ذو الخطر للسالفين قومِ نوح الأوائل في الشمال وقوم هود في الجنوب وثمود قوم صالح بينهما، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله - بعضهم ذكر الله شأنهم في القرآن كقوم شعيب وقوم لوط وآخرين لم يُذكروا لأنهم في مواقع أخرى من الأرض لم تتصل للخالفين رواية عن نبأهم أو رؤية لمشهد أثرهم لينبني على ذلك تذكير[1]. وإنما الذكرى العامة للسنة الجارية في أولئك جميعاً ذاتِ العبر والعظات الباقية، أن جاءتهم رسلهم بالبيّنات، رسل منهم لا غرباء مُنكَرين برسالة واضحة شواهد حقها وهوادي الحياة فيها، لكنهم إظهاراً لصدودهم ردوا أيديهم في أفواههم ليصيحوا في وجه الرسل بما هو أجهر وأبلغ إعراضاً: أنهم كفروا بما أُرسلوا به وهم حقاً في شك مما يدعونهم إليه بالغ الريب والظنون.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٠)

---

(١) بعض الأقوام والرّسل لم يقصص الله نبأهم في القرآن: راجع الآية ١٤٦ سورة النساء، وانظر الآية ٧٨ سورة غافر.

قالت رسلهم تسائلهم عن ارتيابهم بما هو الحق بداهة: أفي الله شك أن يُوحَّد معبوداً، فاطر السماوات والأرض، بدأ كل ذلك الخلق الكبير الواسع من لا شيء وأنّى لأحد أن يشرك به رباً أو إلهاً. وذكروهم أنه تعالى يدعوهم إلى الاستقامة اتّباعاً لرسالة الهدى ليغفر لهم من ذنوبهم الكثيفة التي وقعوا فيها عهد غفلتهم الماضية، ويؤخرهم إلى أجل مسمى لا يعاجلهم بالعقاب لخطاياهم بل يمد لهم الحياة إلى آجال العمر المسنونة في المعتاد. لكن القوم خاطبوا رسلهم قائلين: إنْ هم إلا بشر مثلهم ليسوا ملائكة من السماء ليأتوهم بالغيب منها، وإنهم يريدون بذلك التفضل عليهم والدعوة أن يصدوهم عما كان يعبد أبأؤهم متجرئين على التقاليد الراسخة، وطلبوا منهم أن يأتوهم بسلطان بيّن آيةً محسوسة مرئية لحجة تُلجئهم لتصديق رسالة غيب تُخالف موراثهم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١)

قالت لهم رسلهم – بعد ذكر الله في شأن يعني المحاورة في شأنهم هم: بلى إن هُم إلا بشر مثلهم لا يتفضلون عليهم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده فيخصه بصلة النبوة وأمانة التكليف بالرسالة، ومضوا في القول بياناً أنهم لا يتجاوزون قُدرة البشر، ما كان لهم أن يأتوهم بسلطان من مثل ما يطلبون إلا بإذن الله الذي يُصرّف المقادير المسنونة أو يبدّلها، وعلى الله القادر العليّ وحده فليتوكل المؤمنون يُلقي البينات لرسالته حجةً من القول أو من حادثات الوقائع ومجريات الأمور.

﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢)

وأتم الرسل بيان توكلهم: أن مالهم لا يتوكلون عليه تعالى في تعزيز وقع الرسالة وقد هداهم هم سُبَلهم ليُفلحوا وليجعل من سيرتهم المهدية بياناً لمثال مقتضيات الدعوة للحق. ثم أعلنوا عن عزيمة خطاباً لقومهم أنهم عباد الله ورسله صابرون حقاً على ما آذوهم هم ليصدوهم عن دعوتهم إلى مثل تلك السبل، وشهدوا أنه على الله وحده – ويقدم ذكره لذلك – ينحصر إيكال الأمر الحق ألا يتوكل إلا عليه المتوكلون.

﴿وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُواْ لرُسُلهمْ لَنُخرجَنَّكُم مِّنْ أَرْضنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ في ملَّتنَا فَأَوْحَى إلَــيْهمْ رَبُّهُــمْ لَنُهْلكَنَّ الظَّالمينَ * وَلَنُسْكنَنَّكُمُ الأَرْضَ من بَعْدهمْ ذَلكَ لمَنْ خَافَ مَقَامي وَخَافَ وَعيد﴾ (١٣ – ١٤)

وقـــال الذين كفروا لرسلهم – بعد المحاجة كفراً وطلباً لآية واستنكارهم بشراً مثلهم يـــصدون عـــن تراث الآباء وبعد إيقاع الأذى أضافة النذير المؤكد يخاطبونهم – قالوا إنهم ليخـــرجونهم قطعاً من أرض الأقوام، أو ليوفوا هم المنذَرون شرطاً دون ذلك بالعودة البينة إلى ملـــة الأقوام الموروثة. فترتب على ذلك النذير للرسل رحمةً من ربهم الذي يرعاهم أن يـــسعفهم ببشرى خاطبهم بها الوحي تعهداً منه بأقداره العليا أن ليهلكن هو قطعاً الظالمين الـــذين هددوهم بالإخراج وأن سيُسكن وعداً حقاً منه للرسل والمؤمنين معهم الأرض من بعـــد أولـــئك عمـــوماً حيثما بوأهم. ومضى خطاب الله للرسل أن ذلك الأمر البارز من البـــشرى بالاستخلاف في الأرض بعد حذر الإخراج هو لَمن خاف مقامه تعالى ووعيده. والمقـــام هو وقع حضوره قدوماً على أمر عباده ﷻ، والخوف منه الرهبة والتقوى– أن قد يأخـــذ الظالم الله بأقدار عقابه وعدله، والوعيد النذير أن مَن ظلم قد يعجل الله له العقاب فـــيهلكه ليرث الدار المظلومُ. وذلك أيضاً عظةٌ للمستخلفين في الأرض مؤمنين آلت إليهم بـــذلك المـــصير للظـــالمين الكافرين قبلَهم أن يخافوا أن تمكين الله في الأرض أمانة وابتلاء ليحذروا نذر العقاب لمن خان الأمانة بالظلم[1].

﴿وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنيد * مِّن وَرَآئه جَهَنَّمُ وَيُسْقَى من مَّاء صَديد * يَتَجَــرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسيغُهُ وَيَأْتيه الْمَوْتُ من كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بمَيِّتٍ وَمن وَرَآئه عَذَابٌ غَليظٌ﴾ (١٥ – ١٦ – ١٧)

واستفتحوا – استفتح الله أولئك الرسل والذين آمنوا معهم الذين أوذوا وانذروا بالإخـــراج مـــن ديارهم، سائلين الله أن يعجل لهم موعود وحيه ويفتح بينهم وبين

---

(١) ســـنة المخاطبين برسالات الغيب والوحي طعناً في الرسل لبشريتهم ولمخالفة دعوتهم لتقاليد الآباء وتكذيباً لهم إلا أن يأتوا بآية معجزة وإنذاراً لهم بالأذى والإخراج، وسنة الرسل صبراً وتوكلاً على الله – مما يتواتر ذكره في القرآن كثيراً، سوابق وقع لأول العهد الرسالة عموماً أو الدعوة لأعيان من المرسلين.

قـــومهم بالحـــق فتحاً لهم مبيناً. وخاب كل جبار عنيد - من كان من أولئك القوم الجبابـــرة تعالياً على المستضعفين العنيدين تمنعاً وتعززاً عن اتباع الحق البّين، كل من أولـــئك و لم يلق في مستقبل سيرته ما اغتر به رجاءً أن يُخرج الذين آمنوا أو يعيدهم إلى ملـــة الآباء. بل كتب عليه من ورائه جهنم فهو صائر إليها وهي متبوأه إن ضاق بحـــرورها يُـــسقى فيها من ماء صديد غسالة احتراق الأحياء المعذبين معه، يتجرعه تكلفـــاً من العطش ومن سوء المذاق ولا يكاد يسيغه إمراراً في حلقه، ويأتيه الموت بأسبابه المحذورة بادية من كل مكان، يحيط به الفزع منه وما هو بميت ليرتاح بل حي بـــاق ومن ورائه عذاب غليظ تتضاعف عليه أقداره وتتوالى أطواره مستمرة. وجاء ذكـــر الخيـــبة لكـــل جبار عنيد عاماً ليسري سنةً وعظة للجبابرة المعاندين وعبرةً للصابرين الصالحين.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨)

عند ذلك المصير في آجل العاقبة - مَثَلُ الذين كفروا بربهم، لم يقصدوا وجهه في حـــياتهم بـــل غمروا ذكره وعاجوا نشطين عملاً في الدنيا استحباباً لها وابتغاء متاعها، مثلهم يتجلى يومئذ بمصير ما قدموا، أعمالهم في الدنيا - التي ابتنوا عليها مـــبلغاً مـــن دعوى فضل المقام الحاضر والرقيّ المرجوّ - هي كرماد، غدت مثل مـــسحوق مـــا احترق، اشتدت به الريح في يوم عاصف، فنيت قيمة كسبها يوم القـــيامة الواقعة فأصبح كالهباء نثرته الريح الشديدة. أولئك لا يقدون مما كسبوا علـــى شـــيء، يعجـــزون أن ينالوا بفضل كسب أعمالهم شيئاً من ثمرة مرجوة. ذلـــك المـــسير في الحياة هو الضلال البعيد الذي لا يُستدرك من قريب بالتوبة إلى الإيمان.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٩ - ٢٠)

خطابـــاً لمـــن يسمع القرآن أو يقرأ كتابه: ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحـــق. يَـــبين أنه تعالى ما خلق ذلك الخلق الكبير الواسع عبثاً بل بالحق وجعله إطاراً

عظـــيماً لابتلاء الإنسان إن كان يرى فيه آيات لله ونعماً مسخرة فيحمد الله ويرى في آجـــال حـــركتها آيات لأجل الآخرة فيتخذها أسباباً لعبادة الله قبلة وتوقيتاً وتطهراً ومقامـــاً لـــشعائر عـــبادته وحياة بمددها صالحة وتعاملاً طيباً بأسبابها وسيراً مهدياً في صـــروفها في ســـبيله تعالى. إن يشأ الله يُذهب المخاطبين من الناس كافة ويأت بخلق جديـــد إهلاكـــاً عاجلاً لخطاياهم المسرفة الظالمة واستخلافاً لغيرهم أو إماتة بالآجال المـــسنونة ثم بعـــثاً نـــشأة في خلق جديد مقطوع قضاؤه. وما ذلك على الله بعزيز – يستحيل عليه أو يتعسر، بل هو تعالى العزيز القدير على كل شيء، بدأ الخلق للإنسان أول مرة والإتيان بخلق جديد في الآخرة أهون عليه[1].

﴿وَبَـــرَزُواْ للّه جَميعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء للّذينَ اسْتَكْبَرُواْ إنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا منْ عَذَاب اللّه من شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا من مَّحِيصٍ﴾ (٢١)

في ذلـــك اليوم يقع الحق منحسماً ماضياً إذ بُعث الناس في خلق جديد، وبرزوا لله جمـــيعاً معروضين لا يخفى منهم أحد فرادى لا يتقدم أحد أحداً ولياً له أو شفيعاً وبـــين أيديهم مشاهد موازين الحساب ومساقات العذاب، فترتب التخاصم والتلاوم بين المتوالين في الدنيا على باطل، فقال الضعفاء للذين استكبروا واستتبعوهم في الدنيا لكـــن حالت العلاقة بينهم ذلك اليوم من ولاء إلى عداء – قالوا لهم إنهم كانوا لهم تـــبعاً فهل هم الذين كانوا كبارهم وزعماءهم مغنون عنهم من عذاب الله من شئ، وفـــاءً لموالاتهم لهم وأجراً عما استغلوا فيهم استضعافاً وسخرية وأمراً، هلا يدفعون عـــنهم ولو قليلاً؟ أولئك المستكبرون أمس قالوا أن لو هداهم الله في الدنيا لهدوهم معهـــم، هكـــذا يـــتعذرون أن ضلالهم كان من الله، وإنما يُضل الله من هو مسرف مُرتاب يُيسّر له عسراه، هم ضلوا وأضلوا ولا يجُدي الأتباع أن استُخفّوا ضلالاً فالله أعطـــى كـــل نفس خيارها فمن ضل إنما يضل عليها. ومضى المستكبرون قائلين أن

---

(١) يتواتـــر في القـــرآن ذكر الرجعى إلى الله يوم القيامة بعثاً للإنسان ولو فني بعد الممات وضلّ جسده في الأرض، فعود خلق الإنسان نشأة أخرى كما بدأه الله أول مرّة هو أمر أهون لا يعزّ عليه تعالى، كيف وقد خلق هو السماوات والأرض الأكبر قدراً من الإنسان.

ســـواء عليهم – الأمر جميعاً سواء – أفزعوا أم صبروا ما لهم من محيص يحيدون إليه، وذلك يوم فزع ما لهم فيه من صبر[1].

﴿وَقَـــالَ الـــشَّيْطَانُ لَمَّـــا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْـــتُكُمْ وَمَـــا كَـــانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِـــي وَلُومُـــواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢)

وقـــال الشيطان رأس من يغرّ الناس ويواليهم ويستتبعهم ضلالاً، لما قضي الأمر وتـــبوأ مع ضحايا مكره ذات المتبوأ – قال يخاطبهم: إن الله وعدهم وعد الحق بلاغاً صـــادقاً من رسل بآيات بينات من الهدى والبشارة والنذارة واليوم نجاز الموعود، وإنه هو وعدهم ليُزين لهم الباطل تلويحاً برجاءات كاذبة وأخلفهم كما هو اليوم بيّن، وإنه مـــا كـــان له عليهم من سلطان لا يملكون مجاهدته ليحفظوا مشيئتهم حرة فإن الله لم يـــسلطه عليهم قدراً ولا أذن حتى للرسل أن يكونوا عليهم مسيطرين كرهاً ولا بسط هو ذاته ﷻ سلطان قدره القاهر ليطمس للناس مشيئتهم التي قدّرها بمشيئته. يقول لهم الشيطان إن ذلك ما كان له إلا أن دعاهم واكتنف دعوته بإغوائهم غروراً وإنهم لذلك استجابوا له وأعرضوا عن دعوة ربهم التي عززها الآيات وتنـــزلت بسلطان مبين منها واستصحبت بشائر ونذراً. ولذلك يأخذ عليهم ألا يلوموه هو وأن يلوموا أنفسهم عما اخـــتاروا وكـــسبوا بأيديهم، ويوئسهم بعداً منه فما هو بمُصرخهم – يقيهم دواعي صراخ الاستغاثة هو معهم هالك، وما هم بمُصرخيه إذ تعطلت كل الأسباب بينهم إلا أمر الله وقضاءه النافذ. ويشهد فيهم أن قد بلغ عين الحق الذي كان يُنكره عمداً فهم اليوم كافر بما اتخذوه به شريكاً من دون الله من قبلُ وأن قد أيقن عين اليقين ما تعامى عنه قبلاً أن الظالمين لهم عذاب أليم أمراً مقضياً[2].

---

(١) في الخـــصام في متبوّأ العذاب في الآخرة بين المستكبرين في الدنيا وأتباعهم المستضعفين: أنظر الآيات ٣١ – ٣٣ سورة سبأ، والآيتين ١٦ و١٧ سورة غافر.

(٢) في الخصام بين أولياء الشيطان في الدنيا وبينه خذولاً في متبوّأ العذاب في الآخرة: انظر الآيات ٣٦ – ٣٩ سورة الزخرف، والآيات ٢٣-٣٠ سورة ق، والآيتين ١٦ و١٧ سورة الحشر.

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾ (٢٣)

وأُدخل الذين آمنوا - كان مدخلهم ميسوراً لم يؤخره إجراء مجادلة وملاومة وألفوا الأبواب مفتّحة، فهم كانوا آمنوا وصدقوا إيمانهم تعبيراً بأن عملوا الصالحات وحق لهم المدخل إلى جنات تجري من تحتها الأنهار فهي مروية أبداً لا تجف فتسقط منها ورقة ظل ولا ثمرة أكل، وهم كذلك ظلوا خالدين فيها لا يزعجهم انتظار أجل إخراج مخوف. وكان ذلك بإذن الله لأن الخلود بمشيئته فإن خرجوا هم من قيد الزمان للتكليف والبلاء من دهر الدنيا فهم في الأزل والجزاء المنبسط مداه أبداً في ملك الله المطلق. تحيتهم في الجنة- المشاعر المتبادلة نيات إعمار للحياة والتعبير عنها- سلام بينهم إخواناً بلا غل في الجنة، وسلام من الملائكة تدخل عليهم استقبالاً وإكراماً من كل باب، وأكبر من ذلك رضوان من الله هو سلامٌ عافيةً وأمناً وبقاءً سلاماً في دار السلام.

عموم المعاني: (الآيات ١ – ٢٣):

سبق أن فُصّل القول في بيان مفتتح سور من القرآن بالحروف العربية وحكمته شهادة على كتاب الهدى المبين. ومقتضى ذلك لمن يأخذ القرآن لا تبركاً بمسّه ولا تغنياً بصوته وحسب بل تدبراً لهديه أن يتفقه كل أصول مبناه لينفذ إلى معناه، فيحسن تبين مدلول الحروف العربية ووقعها ليؤلف منها في فهمه حق معنى الكلمات التي تتركب منها فالجمل فالآيات. ولذلك ينبغي لكل مسلم يريد أن يتلو القرآن حقاً - تلاوة لمنطق ألفاظه بلسانه مقروءاً أو بأذنه مسموعاً، فتلاوة لمجرى معانيه بعقله تفهماً فتفقهاً، فتلاوة لكل وقعه بقلبه تقبلاً فخشوعاً، ليتلوه من بعد بكل جوارحه وحياته هدياً - ينبغي ما تيسر له أن يتعرف اللغة العربية جيداً إن لم يكن عربي اللسان، أن يطلع على علومها معاجم وفقه لغة ونحو وصرف وبلاغة. وإن كان عربي اللسان عالماً باللغة عليه أن يجود نطقها ويحسن فهمها لينشرها أيضاً ويحمل بها رسالة القرآن. واللغات كلها تتبدل مع مر الزمان وتطور الثقافة ترقياً إذ تتضاعف وجوه الحياة

وصروف علاقاتها فيتسع التعبير وتعمر المعلومات والمفهومات سعةً ودقة فيتعقد التعبير أو تدنياً نحو ما هو أبسط وأقل، فالكلمات قد تعمّ معانيها ثم ذاتها تختص لمصطلحات وفـــروع، وقـــد تخفو وتهمل فلا يُعهد لها وقع مألوف ولو وجد المعنى، وقد تنتقل من كـــنايات وظلال إلى حقائق أو تكتسب ملابسات غواش جديدة، أو يقع في الكلمات أو تـــراكيب التعـــبيرات نحـــو ذلك لا سيما في اللغة العربية الواسعة الجذور الدقيقة التصريف والخصبة الغنية في التعبير وغير المحدودة في الموسوعة نظراً. وقد جرى بتطور حضارة المسلمين نهضةً ثم وهدة كثيرٌ من تغييرٍ في المعاني للكلمات في القرآن. وهو أمر لا بـــد مـــن استدراكه حتى لا تتبدل الحروف والكلمات عن مدلولاتها لا سيما ذات الدرج والنسب في الوقع مثل صيغ التاكيد وأحكام التكاليف وبيان الأوصاف، وذات الدلالة حقيقة أو مجازاً وصيغ التصاريف المتشابهة، وأدوات ربط المعاني بوجوه متقاربة، ونحو ذلك، ليظل المسلمون يتبينون ما عنته الكلمات ضبطاً أو قدراً أو نحواً أو إيحاء في ســـياق الواقع الذي تنـــزلت فيه خطاباً، ليحفظوا بذلك مقتضى خلود القرآن بمعناه الحـــق المستقر الذي قد يتسع ويعمق لكنه لا ينحرف مع طول العهد لا سيما إذا أُريد تفسيره أو ترجمته إلى لغة أخرى بصدق ودقة.

ولقـــد تعدد الرسل الماضين تزامناً وتعاقباً، لكن جاء كل رسول يبلغ آيات ربه وهـــداه بلـــسان قـــومه. وقد تخير الله اللسان العربـــي وأمة الخطاب الأولى من ذرية إبـــراهيم لأن أرضها كانت وسطى في العالم جمعت تراثاً من الرسالات فإذا وافتها رسالة الحق الختام يتيسر نشرها حولاً، ولأن اللغة العربية تتسع لبيان الهدى وتصلح للانتشار وللـــبقاء مـــع خلود القرآن بها. لكن القرآن بذكر الألسنة لمختلف المرسلين والأقوام يهدي المؤمنين به أن يبعثوا في كل أرض أو قوم رسالته باللسان المعروف ثمة أو يكلفوا في كـــل جهة يقصدونها لنشر القرآن مؤمناً صالحاً من أهلها، لتكون كل لغات العالم واسطة لعبادة الله وهديه الحق. ولذلك ينبغي أن تنبسط في العالم وتنشط تراجم القرآن وعلـــومه بـــشتى اللغـــات ليتيسر مخرج عامة الناس من الظلمات ومدخلهم على نور الإسلام. وذلك بالطبع لا يغني عن تعليم العربية وانتشارها ما استطاع الناس بينهم بعد دخولهم في الملة ليبلّغوا نص القرآن العربـــي فيأخذوا من نبع الهدى الصافي الأصيل.

إن أول همّ لدعوة الدين الحق هو إخراج المخاطبين من الظلمات إلى النور والهدى. كذلك كان أول خطاب بالقرآن كما كان أول خطاب لموسى في قومه، وكذلك هو همّ يتجدد كلما لزم تجدد الدين - إن طال العهد واعتل المتدينون وهجروا القرآن أو حفظوا صوته دون معناه كأدوات التسجيل تحمل أسفاراً، هجروا تلاوة التدبر فهجروا هديه بواقعهم المتدني دون نوره الضارب في ظلمات الجهل والهوى وفتنة الدنيا، ولذلك لا بد من نزعهم من تلك الظلمات لأنها معهودات إن طال أمدها يتعسّر الخروج منها ولأنها منسوبة إلى الدين تُرهق الناس بعصبية وتقليد روحي وتتعلق بها لهم أهواء ومنافع تظالماً بينهم ويغريهم الشيطان بالاستمساك بها. وخطاب القرآن للخروج هو دعوة لهجرة بالنفوس من رهق الباطل مجاهدة نفسية قد تستتبع مجاهدة وهجرة من أرض سادت فيها تلك الأهواء والظلمات حماتها جبابرة مستكبرون يفتنون دعوة النور والحق والعدل. فالمؤمنون إن طال بهم العهد وغشيتهم ظلمات إذ دب فيهم الجهل والنسيان وقست القلوب وخَفَت فيهم نور الحق يلزم فيهم بعد كل غاشية كتلك خرجةٌ أخرى إلى النور، لا كالخروج الأصل من الكفر المطلق إلى الإيمان بل كل حين من الدهر تطهّراً من الغواشي حتى لا تتراكم وتودي إلى ردة وكفر بيّن. وأول الخروج من الكفر يقتضي زواجر ونذر من البقاء على القديم، والرسل كانوا منذرين أول الطريق لأن الترهيب من تبدل عاقبة الدار في الدنيا ومن سوء الآخرة هو ما يردّ الناس عما كانوا مستمسكين به هاجرين وبعد ذلك يترقّون في درج الهدى ويزدوج التحريض ترغيباً وبشرى حفزاً نحو الصلاح والإحسان والترهيب والنذير تزكيةً لتقوى الله ألاّ يعصى المؤمن وتتوالى عليه المعاصي وعدواها حتى يرتد بكل نفسه إلى الضلال. والظلمات هي معهود البشر المسنون بضواغط طبيعة الحياة الدنيا، فربّهم الذي هبط بهم إلى الأرض يعلَمهم عرضةً لفتن العالم المشهود. وقد يرى الإنسان المخلوقات الكونية ونظمها فلا ينفذ ببصيرته إلى معرفة خالقها ولا إلى دلائل أجل الآخرة في دورة حركتها وآجالها بل يراها مشاهد ظاهر إن أمعن فيها علماً ألهته دقائقها وسننها عن دلالاتها آيات للغيب وإن أعجبته تعلّق بها زينةً ولا يؤمن بما وراء ذلك. وقد يُجرِّب الإنسان الحياة في إطارها فيجدها مصادر متاع وأسباب نفع بوجوه

تتضاعف ولا تُحصى كسباً فيُفتن بحُبِّ شهواتها وتصبح هي له غايةً لا يعرف فيها نعماً مـــن الله الـــذي سخرها له ودواعي لإكثار حمده وزيادة إيمانه. ولذلك الإنسان ظلوم كفـــار. ويرسخ فيه ذلك الخُلق إذا تمادى فيه معهوداً يغلب عليه عادةً ويرهنه تقليداً، ولذلك حين يُذكّر بآيات الله ونعمائه ويُدعى للإيمان بالغيب والهدى يُنكره مذهباً غير مالوف لا سيما إذا كان الهدى عدلاً يقوّم بين الناس علاقات المصالح المكسوبة الظالمة ومساواةً تزلزلُ أوضاع الطبقات المستكبرة، حتى المستضعفون والمظلومون قد يُعرضون عن دعوة الهدى لأنهم سكنوا لأمرهم الواقع ورضوا به قدراً. ولذلك الظالمون يصدون عـــن ســـبيل الله ويبغون الحياة ضلالاً عفواً سُبُلاً عُوجاً إلى مقاصد أهوائهم. ولذلك كله – بلاء ماضياً على الإنسان – تعهد ربه بتنـــزيل رسالات عليه من الغيب تُذكّره وتهديـــه توالياً في دهور سيرته حتى يبلغ به الرسالة الخاتمة الخالدة. وحتى إذا آمن الناس بالهـــدى وانغلـــب الـــباطل المعهود وانقشعت الظلمات من المؤمنين الخارجين منها المهاجـــرين إلى ســـبيل النور المستقيم، لا ينبت عنهم قدر بلاء الدنيا الموصول مجاهدة ومهاجـــرة متوالية متجددة – كما سبق القول. فالدين لا بد من حفظ أصوله لتُذكَر عـــبر ســـيرته في الـــتاريخ أيام الله في نهضته الأولى، لأن الذكرى تنفع أهله عبرةً في مجاهـــدات الحياة وتوقيراً للأصول السالفة شرعاً إذ بُنِيَ عليها الحاضر كله. فينبغي ألا تُنـــسى نعمـــة النهضة الأولى وعبرتها وهديتها عسى بذلك – إن غشيت أهل الدين وهدات – أن تكون النهضات التالية أهون وأقوم.

فقـــوم موســـى خرجوا من الظلمات في أرض فرعون غلى نور الهدى في ساحة صحراء أطهر ولكنهم ألفوا هنالك قوماً يعكفون على أصنام لهم فأرادوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً مثلها، ومن بعد ذلك ما غاب موسى أسابيع حتى عادوا إلى عبادة العجل صـــنعوه ممـــا كانـــوا يحملون من مصر حلياً وبما حملوا من معهودات شرك في صورة عجـــل، فهـــم لمّا يتطهروا بعدُ بخالص القلوب، وكان لا بد من دفعة خروج أخرى. وكـــذلك غاشيات بقية الظلمات المعهودة أو العادية من بلاء جديد قد تُعاود المؤمنين لغيـــبة الـــدعاة المذكّـــرين الأشد عزماً. وإن سنن الرسالات التي سبقت موسى كلها متـــشابهة، وفـــيها عبر هدي لرسالة الإسلام المعاصرة اليوم حيثما تجددت فضلاً عن

اهـــتدائها بـــسنن الرسالات التالية والخاتمة خاصة. كان الرسل يأتون ببيّنات من قول الحق وحجته يرفعون بها شهادة الكلمة المؤمنة ويصدعون بالدعوة جهاراً. ولكن أهل القـــديم المعهـــود لا يـــستمعون بل يصرخون في وجوههم بكلمات الباطل المُعرِض. والرســـل كانوا يُذكِّرون أمم خطابهم بآيات الله في الكون المشهود المفطور منه تعالى ويدعـــونهم للخـــروج من الظلمات ليغفر الله لهم ما كانوا عليه ويطهرهم ويزكيهم لينهـــضوا نحـــو مراقي الدين وينذرونهم من التمادي في المعهود. ولكن كان المُعرضون ينكـــرون على بشر كالرسل رسالة غيب تبدُّل الأعراف الموروثة، ومن فتنتهم بالمادة المـــشهودة يطلـــبون مـــنهم آيات محسوسة غريبة خوارقَ للطبيعة معجزةً تعزز القول الغريب عندهم بالغيب. والدعاة مثل الأنبياء لا بد أن يُذكِّروا الناس أنهم بشر دعوتهم لدين الإيمان بالغيب لا تُحيلهم أرواحاً غيبية، وأنهم لا يملكون حيلة لتبديل سنن الطبيعة المقـــدرة مـــن الله كرامات غريبة من أجل التصديق بحق الدين الذي عاد غريباً حين تجـــدده، بل يحملون ويبلغونهم آيات الذكر بينات للحق كافية، وأن يكونوا – كذلك تأسّـــياً بالأنبياء – مثالاً للثبات والطمأنينة والصبر والتوكل على رغم الفتنة لأنهم على حـــق. ونموذج السلوك القويم المتين البيّن قد يدعو لتصديق حقه بعضَ الذين يكذبون كلمـــة اللسان بذلك الحق. لكن قد يُدرك المعرضون لذلك خطره ويرونه شراً عليهم تمـــتدُّ عـــدواه فـــيلجأون للسعي لإخراج مَن يُمثله من أرضهم وتغييبهم لئلا يراهم ويسمعهم الجمهور فتسري دعوتهم ويُتبعون. وفي هذا المفصل من سيرة دعاة الحق يرد مثال أمر الرسل، إذ كان ينـــزل عليهم عندئذ وعد الله الذي يعطي الصابرين أجرهم خير عاقبة بغير حساب – يعجّله بهلاك الذين ظلموا واستخلافهم هم ومن آمن معهم في الأرض، فإذا شكروا وازدادوا إيماناً زادهم الله فتحاً، وإن نسوا بعداً نعمة الله ووهن إيمانهم وفتنتهم الحياة الجديدة متاعاً وملكاً فأخذوا يرتدون نحو الظلمات فإن الله يرتب علـــيهم العقـــاب – كمـــا جرى خاصة لبني إسرائيل. وفي ذات المفصل يحق الوعيد للظـــالمين العـــادلين عـــن سبيل الله، يعاجلهم الله فيهلكهم أو ينهار ملكهم العزيز أو تـــضمحل ثقافتهم الغالبة، أو يأخذهم وعيد الآخرة، إذ القوّة الماكرة فيهم لا تغني، بل يخـــيب كل جبار عنيد منهم وكل أعمالهم تحول إلى رماد، ويحشرون بارزين لا مرجع

لهـــم إلى فرصـــة مـــتاع وهدى آخر في الدنيا، ويستوي المستكبرون والضعفاء الذين استُخفوا فهم في العذاب يتخاصمون، ويحق عليهم وعلى الشيطان ذلك القضاء فيأخذ يلاومهـــم أن قد اتبعوا هم إغراءه وصدقوا وعده الكاذب فهو ينكص عنهم متبرئاً من شـــركهم الماضـــي مُحُـــضَراً معهـــم في عذاب أليم. ذلك بينما المؤمنون الذين عملوا الصالحات في الآجلة في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم إخواناً لا تدور بينهم خصومات ولا ملاومات بل تحيتهم سلام.

ترتيل المعاني: (**الآيات ٢٤ – ٤١**):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابتٌ وَفَرْعُهَا فِـــي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (**٢٤–٢٥**)

الخطـــاب – سؤال تعجّب عن نفي ما بان ثبوته – لسامع القرآن متلواً أو قارئه كتاباً: أما يرى كيف يضرب الله مثلاً: كلمةً طيبة من كَلِم التعبير عن الإيمان والهدى– شهادة بحق الدين، أو ذكراً في شعيرة عبادة، أو تحيةَ سلام، أو نصيحةً خاصة أو عامة أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، أو إنباءً بخبر أو رواية لعلم، أو مقاولةً في ذات البين أو مداولة للبر والإحسان أو للتعامل بالخير والعدل أو الجدال بالحسنى، أو خطابَ شورى في أمر عام، أو نحو ذلك. تلك الكلمة الطيبة كشجرة طيبة يُنبتها الناس ويرعونها إيثاراً لخيراتهـــا أو يلتمسونها ليأووا إليها لنفعٍ انتقاءً بين الشجر أصلُها ثابت جذورها راسخة تـــستمد غذاءها وماءها من الأرض ولا تنـــزعها الرياح وكذلك الكلمة الطيبة ثابتةٌ مؤصلة على علم الدين وهديه وحسن النية لا يعتريها فساد ولا اضطراب بفتن الحياة. والشجرة الطيبة فرعها في السماء يخرج بورقه ليأخذ من الغيث والضوء ولا يقصر بل يعلـــو بارزاً لا يغمره الاشتجار من حوله. كذلك الكلمة الطيبة تخرج بنية غير مبهمة ولا خفـــية، ممتدةَ الخطاب لا تُهمل، تُستمد من طيب التفاعل وتوافي حسن التجاوب مـــع سائر الكلام المتداول. والشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين، فاكهتها المرجوة لا تقطعها المواسم. كذلك الكلمة الطيبة تؤتي ثمرها: من الذكر تبارك الإيمان ومن التحية

تــزيد المودة ومن التناصح تزكّي الخلق وفي العلاقات تعمرها وتدرأ دخيلة الشر وفي التشاور تولد الاجماع الموفق وتهدي للصالح العام، وهي توافي دواعيها حيثما لاحت لا تحجــبها القطيعة في صلة القربى والخلة والصحبة والتحايا ولا الغفلة عن ذكر الله ولا كــتمان الحــق والشهادة عند السؤال من الجاهل ليعلم أو المتبين ليقضي أو المستهدي ليــتعظ أو المستفتي ليشاور. وذلك العطاء من الشجرة المباركة بإذن الله، فهي إنما تحيا وتــؤتي أكلــها بما سخر الله من حولها من تراب وماء وهواء وبما يجري فيها من سنن أقــدار الله انــبذاراً ونباتاً وإزهاراً وإثماراً. كذلك الكلمة الطيبة تستهدي بهدى الله، بذورها نيات من شعب الإيمان وتعبيراتها يزكيها معروف الخلق الديني الحسن وتضبطها تقــوى الله وكلــها تخطر وتخرج بإلهام وتوفيق من الله جاريةً على لسان المؤمن العابد التقيّ طيبةً حسنى. ويضرب الله الأمثال للناس لتقريب بيان الهدى للحق يُماثله ويصور معانــيه بمــا هو من معهودات المخاطبين المرئية، لعلهم يتذكرون الحق كيف يتأصل ويثــبت في الــنفوس المؤمنة وكيف ينمو ويثمر قولاً حسناً بين عباد الله وكيف يدوم عطاء خيره ليعمر حياتهم بالكسب الطيب.

وإنمــا تلت الآية ذكر المؤمنين في العاقبة إذ يتم لهم حسن الماوى بكلمة طيبة تحية ســلام بعــد ذكر الكافرين كيف دارت بينهم مستكبرين ومستضعفين وبينهم وبين الشيطان كلمات ملاومة ومخاصمة خبيثة لا تغني شيئاً إلا أن تتم سوء الشقاء واللقاء، وإنما ذلك كله وفاق الجزاء للكسب من الكلم - كالفعل - في دار البلاء.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (٢٦)

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة. والكلمة الخبيثة قد تكون كلمة كفرٍ في مجادلة المؤمنين أو إيذائهم، أو كلمةَ نفاقٍ أو مكر محتال قاصد سوء، أو كلمة لغو أو مراء من الــباطل، أو كلمةَ تناكرٍ تفسد ذات البين أو تساببٍ أو أذى عند اللقاء، أو كلمةَ غيبةٍ ونجــوى بالــسوء أو إذاعــة لبهتان أو إشاعة لفحش مستور، أو كلمةَ غدرٍ أمانة في صلات المخالفين بالعهد، أو كلمةَ غشٍ أو كذب في معاملة، أو كلمةً بهوى عصبية أو شــح وطمع ظالم في أمر عام أو كيدٍ وضر بالناس بنــزغة الشيطان، أو نحو ذلك من خبــيث القول. وهي كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار - شجرة

صـــنفها معلـــول أو ليس لها جذور ثابتة بل يابسة قد تسقط على عروشها إن دفعتها الـــريح، أو لأنها مجتثة الأصل والجذر ليس لها من مواد تغذيها فهي لا تهيء مأوى آمناً لمستظل ولا تؤتي فاكهة لآكل. كذلك الكلمة الخبيثة ليس لها أصلاً من صدق وهدى، بـــل أصلها من ظنون وغفلة وعصبة لمعهود من كفر، أو من أفواه أصحابها عن نفاق تفضحها تالياتها، أو من أهواء مضطربة متقلبة مع صروف الحياة وفتن ابتلاءتها، أو من نـــزغات شيطان بين ذوي إيمان يغري بها ثم ينكص. والكلمة الخبيثة الأصول حتى لو خـــرجت في صورة طيبة غيرُ مقبولة عند الله لا تُؤتى أجراً حتى لو مضت على الناس، ولـــو خـــرجت ســـيئة اللفـــظ والوقع لخبثها فإنها تجرُّ إلى قطع ذات البين أو إحماء الخـــصومات وزرع ســـوء الظن ونـــزع الثقة بين الناس وتحريش الخلاف والنـــزاعِ والتفرق.

﴿يُثَـــبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، بالقول الثابت - كلمات طيبة ثابت أصلها كالـــشجرة الطيبة الثابتة. الذين آمنوا وأصّلوا قولهم كله على ابتغاءً وجهً الله يستجيب لهـــم الله يثـــبّت قلوبهم ويزكيها أصولاً للطيبات من النيات ويثبّت مقولاتهم كلمات صـــدق وخير ويثبّت ما يصدر عن قلوبهم ويتلو كلماتهم أعمالاً قائمة على قواعد من الخـــيرات تثمـــر الأثار الصالحة، وكذلك يثبّت كل حياتهم كالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين. ذلك في الدنيا هو عواقب صلاح وخير مستقر وفي الآخرة ثمرات من مستقر أمين ورزق كريم ثابتة لهم أبداً. ويُضل الله الظالمين ذوي النيّة والكلمة والفعلى الخبيثة المحادّة لمقتضى الإيمان والتقوى العاديَة على حدود الشرع والهدى. ذلك بأن الله يمدّ لهم ويستدرجهم في ضلالهم المتمادي الذي لا يثبت على صراط الهدى المستقيم في الحـــياة الدنـــيا ولا يجـــد أهلُه قراراً في الآخرة إلا النار دار الشقاق والشقاء والتعذب والاحتـــراق[1]. ويفعـــل الله ما يشاء. ولا حجة للظالمين يوم القيامة أن يقولوا أن لو

(١) قارن مثال هذا البلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربه والبلد الخبيث لا يخرج إلا نكدا آية يصرفها الله لقوم يشكرون: راجع الآية ٥٨ سورة الأعراف.

هـــداهم الله و لم يـــضلهم لاستقامت حياتهم في الدنيا والآخرة. والحق أن لو يشاء الله لهـــدى الـــناس أجمعـــين طبعاً وكرهاً ولكن مشيئته المحيطة بأمر الإنسان أن يذره حراً مبتلـــى- فتنُ الدنيا حوله والهدى بين يديه ليحقّ عليه السؤال والجزاء حسب خياره. وهكذا يفعل الله ما يشاء من هذا القدر العدل الحكيم.

﴿أَلَـــمْ تَـــرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ (٢٨ – ٢٩)

ويعـــود ذكـــر الكافرين – لا إمازة المؤمنين عنهم بالكلمة الطيبة دون الخبيثة بل علـــى مذهبهم في الحياة كافة ظناً وقولاً وفعلاً. والخطاب – سؤال تعجّب عن نفي ما بـــان ثبوته – لمن يتلو القرآن متبصراً في هديه ووقعه: الم ير إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفـــراً؟ نعمـــةَ الحياة والرزق ثم نعمة الهدى المُنـــزل التي تقتضي إيماناً وحمداً وشكراً وعـــبادة لله، بدلوها بأنفسهم كفراً وأحلوا قومهم باستخفافهم وإضلالهم عاقبة الجزاء دار البوار والهلاك الزائد – جهنم يصلونها يباشرونها فبئس القرار الذي يثبتون فيه أبداً.

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (٣٠)

وانضاف إلى تبديلهم نعمة الله المحيطة كفراً لا شكراً أن أدى بهم ذلك إلى الشرك به: أن جعلوا لله الواحد الخالق المنعم أنداداً يوازونه ربوبية ومعبودية ليضلوا عن سبيله تعالى اتباعاً للظن فيما افتروا من أنداد لا يهودنهم سبيلاً إلا سبيل الغيّ في الدنيا أو في الغـــيب الذي لا يعلمه حتى عُبّادهم. وعلى النبـــي الداعية أن يخاطبهم بقوله يذكّرهم أن الله يذرهم يتمتعون في الدنيا كما يتمتع الحيوان لا يأخذهم فوراً بل يستدرجهم إلى حـــيث يحـــق عليهم المصير، وأن ينذرهم أن مصيرهم المترتب عن استباحتهم التمتع بالشرك هو إلى النار.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ﴾ (٣١)

ذلك بينما على النبـــي مبلّغ رسالة الهدى أن يبلّغ رشدها إلى الذين آمنوا – والله يدعـــوهم عباده إمازةً لهم عن الكافرين. ووصية الرشد لهم أن يقيموا الصلاة تطهراً لله واســـتقبالاً لوجهه وحده وذكراً بالقلوب وقنوتاً بالأقوال وخشوعاً بحركة الصلاة وفي

جماعـــة، وينفقوا مما رزقهم الله بأقدار نعمه ومسخّراته لهم بأن يجعلوا نصيباً منها عفو حاجـــتهم رداً للجمـــيل إلا الله واهبه وعوناً لذوي الحاجة من عباده سراً لإبطان النية الخالـــصة فيما لا يشهده غلا الله وعلانية ليتحاضّوا جميعاً بقدوة الأفعال على الخيرات والصدقات. ذلك قبل أن يأتي يوم – أي يوم هو من عظم وقعه! لا بيع فيه بمال يؤخذ فديـــة إلا مالاً أُنفق لوجه الله مقدماً، ولا خلال إذ تنقطع المخالات والمودات وتنقلب عـــداوات فهي لا تجدي شفاعة إلا ما كان من خلة تعاون على البر والتقوى يستغفر الأخلاء الأتقياء بعضهم لبعض لتتبارك رفقتهم ذلك اليوم.

﴿اللّـــهُ الَّـــذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنـــزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِـــنَ الثَّمَـــرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ (٣٢)

الله الإلـــه العظيم الواحد يُذكر هنا مبتدأً القول لأنه ذو النعماء المبسوطة يَضل بها الـــبعض ويـــبدلونها كفـــراً ويعـــرفها عباد الله وينفقون من رزقها، فهو الذي خلق السماوات والأرض أفقاً ومهاداً وضوءاً وزينة وآيات هداية في الطريق المشهود إلى الله وأصـــولاً للحياة كلها ومسخرات، وهو الذي أنـــزل من السماء التي تظل عباده ماء مبـــسوطاً وقعه فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم – مخاطبين، وسخر لهم – كذلك – الفلـــك لتجـــري في البحر – مجتمع الماء النازل الذي يعلو عليه الفلك بسنّة من أمره وتجـــري بالـــرياح لتحمل العباد، وسخر لهم – مخاطبين كذلك– الأنهار تجري بالماء لتسقيهم حيثما بلغت.

﴿وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٣٣)

وسخر الله – أيضاً من نعمائه لعباده مخاطبين – الشمس والقمر دائبين، الشمس تبدو دائرة دأباً راتباً مسنوناً منسوبة إلى تكور الأرض إزاءها والقمر يدور دائباً حول الأرض، وســـخر لهـــم –كـــذلك– الليل والنهار دورة راتبة حيثما تكورت وجهة الأرض مدبـــرة عن ضوء الشمس فيغشاها ظلام الليل إلاّ القمر حيثما يظهر عاكساً ضـــوء الـــشمس مـــن عالـــيه ثم تُقبل وجهة الأرض المتكورة ليتجلى عليها ضوء الشمس والنهار.

﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤)

ويستمر الخطاب لعباد الله بالنعماء المتضايفة بلا حد: أن آتاهم الله من كل ما سألوه من متاع في تصريف ظروف الدنيا وزمانها وفي تقلب أحوالهم وعلاقاتهم، ومن هدى في سياقات الحياة – لا مطلق كل مسئول عنه ولكن حسب قدره تعالى لحاجاتهم التي يسألون عنها ابتغاء خير في دنياهم وأخراهم. وإن يعدّوا نعمة الله – أولئك المخاطبين- لا يحصوها، إذ لا يحيطون إدراكاً أو عداً بجالبات النفع أو دارئات الضر الجارية من تلك النعمة الربّانية – حياة ورزقاً وعافية وأمناً ومتاعاً وعلماً ونظماً في المجتمع. إن الإنسان لظلوم كفار، مهما تسع حوله آيات الحق ودلائل الغيب وتنبسط عليه النعم لا يحيطها إحصاء، هو حقاً بالغ الظلم واسعه يتجاوز كل حد عدل لعقل متفكر أو قلب متذكر أو طريق مهتد لعدل الوفاء شكراً لمدى نعمة ربّه عليه في الحياة وهو شديد الكفر متواليه كلما وحيثما توالت عليه النعمة الشاملة لا يعرف ربه الواهب ولا يحمده بل يكفر بذلك الجميل أصلاً ومدى. ذلك لأنه مبتلى بالدنيا قاصر بنظره عن المشهود دون الغيب ومفتون بحب الشهوات للمبتغيات حوله ينحصر تديناً في التعبد أو التعلق بمشهودات ومتاعاً في الحاضر والآجل هلوعاً يجزع من الشر ويمنع الخير ويطمع المزيد مطلقاً. ذلك إلا أن تزكو فطرة الإيمان فيه وتنفذ بصيرته إلى مدلولات الآيات حوله ويستمع لآيات الوحي فيتذكر ويتدارك نفسه بالاستغفار والمتاب إلى الله ثم الاستقامة في سبيله والحمد. والذين كفروا المتقدم ذكرهم ظلومون يسرفون لياً وإعراضاً ومحادة لعدل الحق والهدى وكفار يبدلون نعمة الله في الحياة كفراً[1].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣٥ – ٣٦)

---

(١) الإنسان المبتلى إن لم يؤمن ويصلح ظلوم يضل عن حدود الأمانة الربّانية في الحياة: انظر الآية ٧٢ سورة الأحزاب، كفار بنعم الحياة والتسخير والنجاة: انظر الآية ٦٧ سورة الإسراء، والآية ٦٦ سورة الحج، والآية ٤٨ سورة الشورى، والآية ١٥ سورة الزخرف والآية ١٧ سورة عبس.

سابق القول منذ مبتدأ السورة بذكر حروف اللسان العربـــي للكتاب الذي أُنـــزل علـــى الرســـول الخاتم ﷺ ليُخرج به الناس من الظلمات إلى نور الهدى وينذر الكافرين الذين استحبوا الدنيا على الآخرة، ثم ذكر سنة المرسلين وأقوامهم الكافرين ومصائرهم في الدنـــيا والآخرة، وذكر مثال القول الطيب والخبيث للمؤمنين والظالمين ومذهب الذين بدلوا نعمة الله كفراً فشركاً ومسلك عباد الله الذين آمنوا، وذكر الله الأحد الخالق الذي بـــسط نعمـــاء الكـــون مـــن حـــول الإنسان الظلوم الكفار – يليه الآن مضافاً ذكر إبـــراهيم الطَّيْكُلاَ أب الأنبياء المرسلين والذي خصه الله بأن هداه إلى بلد متنـــزل القرآن داعـــياً ربه أن يجعله بلداً آمناً وأن يجنبه عبادة الأصنام وضلالها الذي ساد عندئذ في ذلك الـــبلد وأن يحفظ ذريته التي أسكنها فيه في موطن مطمئن آمن ويقيهم من أعراف الشرك ليُخلصوا العبادة لله وحده عند بيت حرام. ذلك تذكيراً بأصول حق وتوحيد وعبادة لله ضلت عنها ذرية إبراهيم الخالفة التي أصبحت عربية اللسان وانتشرت في ذلك البلد الحرام وغدت لا تعرف فيه إلا بقية آثار دين حق بل ارتدت عابدة للأصنام حتى جاءهم منهم من ذرية إبراهيم رسول يجدد أصول الهدى القديم بذكر توحيد الله والإيمان بالآخرة يحمل لهم رسالة القرآن وكانوا هم أمة الخطاب المعرضة لأول العهد[1].

فالذكـــرى في الآيـــة للأمر الأول لإبراهيم في منـــزل القرآن بَعداً وقد حل فيه مـــضطربة حـــوله أحوال أمن الناس سائدة فيهم ضلالات الشرك والأصنام – إذ أقام وقال داعياً ربه أن يجعل هذا البلد آمناً وأن يجنبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام، وخاطب ربه ذاكـــراً عمـــوم أهـــل تلك البلاد أن الأصنام أضلت كثيراً من الناس، وإذ شرع نشر الدعـــوة فـــيهم بدين الإيمان بوحدانية الله وأشهد ربه أن من تبعه فإنه منه ملةً وسنة مهديـــة ومن عصاه ومضى على معهوده فإن ربه – كما يخاطبه – غفور رحيم، كأنه بحلمه يترجى من ربه لهم مغفرة العصيان ورحمة الهداية ولو بعد حين.

(١) حـــول ملة إبراهيم الحنيفية وتراثه ودعائه لذريته: راجع الآيات ١٢٤ – ١٤١ سورة البقرة، والآيتين ٦٧ و٦٨ سورة آل عمران، والآيات ٧٤ – ٨٦ سورة الأنعام، وانظر الآيات ٤١ – ٥٠ ســـورة مـــريم، والآيات ٥١ – ٧٣ سورة الأنبياء، والآيات ٦٩ –٨٩ سورة الشعراء، والآيتين ١٦ و١٧ سورة العنكبوت، والآيات ٨٣ – ١١٣ سورة الصافّات، والآيات ٢٦ – ٢٨ سورة الزخرف، والآيات ٤ – ٦ سورة الممتحنة.

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ من ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣٧)

مضى إبراهيم عليه السلام في عزلة المهجر النازح به وأهله - زوجه هاجر وابنه إسماعيل - إلى الجنوب، يخاطب ربه أنه أسكن ذريته بواد غير ذي زرع، وقد كان حيثما ذهب في سياحة مهجره من قومه الأُوَل يضع قواعد لمتعبد لله فساقه قدر الله إليه وبوأ له مكاناً في واد من جبال الحجاز، وإذ عهد هو أراضيَ ذات زرع في الشمال وما كان يتحرى بذريته أرضاً عامرة مثلها بل مأوى لهم في هجرتهم وموطن عبادة - خاطب ربه وأهله أنه أسكن ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت حرام مرفوع لله ورجع مذاكراً ربه أنه يتركهم هناك ليقيموا الصلاة في ذلك البيت لا ليشغلهم همٌّ زرع أو ضرع متاعَ حياة، وحتى لا تفتنهم العزلة سأل ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، تسارع نازلة إليهم في واديهم لزيارة ذلك المتعبد والبيت الحرام وللتطوّف معهم فيه لا غارة على أمنه وحرمته، وأن يرزقهم من الثمرات ترد إليهم من حيثما شاء تعالى لعلهم يشكرونه على نعماء تأتيهم من حيث لا يحتسبون مزيد حمد وتعبد وإيمان.

وكانت هذه بذرة من ظاهرة سنة الله أن يسكن الذين آمنوا في الأرض خلافة بعد هلاك الظالمين، فقد هوت المصائر بأقوام في أرض الله الوسطى في الكون وبرزت المصائر بذرية إبراهيم المنتشرة هناك على ملته الحنيفية.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴾ (٣٨)

ومضى إبراهيم عليه السلام ينادي ربه هو وأهله متضرعاً: أنه سبحانه وتعالى يعلم ما يخفون من مخاوف غاشية ضلال شرك أو خطر على الأمن وما يعلنون من حاجة للهداية والطمأنينة والرزق، وما يخفى عليه سبحانه وتعالى من شيء في الأرض ولا في السماء من مثل ما يبدو من أمر زوجه وولده حيث يتركهم في خلاء وعزلة وغربة من أهلهم وفي حاجة لحرمة مأمن ورعاية هداية وأسباب ماء ومعاش.

﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء﴾ (٣٩)

وإذا دعا إبراهيم عليه السلام لنعمة مرجوة تذكّر سابق نعمائه سبحانه وتعالى عليه تعالى فشكر أن الحمد لله الذي وهب له على الكبر – بعد بشرى من الوحي – إسماعيل الذي يودعه في بيت حرام بمكة ومن بعده إسحق الذي يُسكنه شمالاً في أرض مباركة، وعرف ذلك الفضل فذكر أنّ ربه سميع الدعاء حقاً كل حين.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء﴾ (٤٠)

ونادى إبراهيم سبحانه وتعالى ربه لنفسه هو أن يجعله مقيم الصلاة يُحسنها شعيرة عبادة ويواليها لا ينساها غافلاً حتى توثّق صلته بربه خشوعاً وقربى وأن تقام الصلاة مسنونة أيضاً من ذريته المحسنة وإن كان منهم ظالم لنفسه مبين. وعاد ينادي ربهم – هو وذريته – أن يتقبل دعاءه كما تقبله مستجيباً له قبلاً بوهبه الولد.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١)

وليكونوا متطهرين أهلاً لتلقي رحمة ربهم خاطب إبراهيم عليه السلام ربهم داعياً أن يغفر له هو الذنوب ولوالديه اللذين ذكرهما براً ووفاءً لمواعدة استغفار سبقت لأبيه قبل أن يبلُغه بعداً أنه مات عدواً لله فتبرأ منه[1]. ثم درج ذكر سائر المؤمنين في دعائه، أن يُدخلهم الله كافة في غفرانه يوم يقوم الحساب وينقطع مجال المتاب فلا ملجأ إلا لرضوان الله وغفرانه.

عموم المعاني: (الآيات ٢٤ – ٤١):

إن بيّنة الخروج من ظلمات الضلال والدخول في هداية نور الحق، من معهود الكفر إلى مستقبل الإسلام لله – هي النطق بالشهادة كلمةً طيبة تعبر عن استقرار الإيمان بالغيب – بالله رباً واحداً لا يُعبد سواه وبالرسالة بلاغاً صادقاً للوحي وهدى

---

(١) في دعاء إبراهيم لأبيه لميعاد منه سابق بذلك ثم تبرّؤ منه لاحق، وترتب ذلك الذكر كذلك حسب ترتب نزول سور الكتاب: انظر الآية ٤٧ سورة مريم، فالآية ٨٦ سورة الشعراء، فالآية ٤ سورة الممتحنة، ثم راجع الآية ١١٤ سورة التوبة.

حقــاً للحـــياة وبلقاء الله يوم القيامة خشية ورجاء لمصائر الجزاء، ثم تترتب الكلمات الطيـــبة - أذكاراً في شعائر العبادة وتعابير بر في صلة ذوي القربى وخلة تقية في ذات الـــبين وأُخوةً في الدين وتداولَ صدق وعهد للموافاة بالحق والعدل في المعاملات بين الـــناس وشهادات حق في الشورى ونحو ذلك من القول الحق. وما ذلك بظاهر قولٍ مـــداراةً أو نفاقـــاً بل هو في طيبته صدقاً كشجرة طيبة أصلها ثابت في قلوب المؤمنين بهـــدى الدين وفرعها في السماء تُورق وتُزهر وتُظل الناس وتُؤتي أكلها خيراً كل حين بـــإذن ربها. وإن الكلمة الخبيثة مقولةً بنيّة لكفر أو ضلال أو شر من أذى أو ظلم أو خداع للناس- وتلك كالشجرة الخبيثة اجتُثّت من فوق الأرض ما لها من قرار فلا تؤتي أكلها خيراً أصلاً. وإن تمايُز الناس بشهاداتهم وعهودهم وكلماتهم الظاهرة إنما هو تعبيرٌ عن تمايزهم بمذاهبهم في الباطن. إما مذهب ذوي باطل مجتث الأصول ما له من قرار، ومـــثال ذلك ذرية إبراهيم أمة الخطاب الأولى لخطاب القرآن كانت ترجع إلى أصول إيمـــان بالله وشكر لما أنعم به استجابة لدعاء إبراهيم أمناً وحرماً للعبادة ورزقاً وإيلافاً للعابـــدين، لكن جرمت تلك الذرية أصولها وبدلت نعم الله كفراً وأحلوا قومهم دار الـــبوار. وكـــان إبراهيم قد رسّخ فيهم الملة الحنيفية التوحيدية فغمروها جهلاً وغفلة وجعلوا لله أنداداً ليتمتعوا في ضلالتهم الجاهلية المشركة ويصيروا إلى النار. وإما مذهب ذوي الإيمـــان الحـــق الدافـــع لصالحات العمل - الحافظين الموالين لإقامة الصلاة صلةً بالغيب صادقة لا يُلهي عنها العالم المشهود وشعيرة خالصة خاشعة لله نية وكلمة وفعلاً تُؤدّى في جماعة إمامة ونظاماً، والمنفقين مما رزقهم الله معرفة وحمداً لأصل استخلافهم في الرزق رحمة منٍّ من الله لا كسباً دونه من عندهم وشكراً على جميله تعالى وتضامناً بين المؤمنين في سبيله، كل ذلك تزوداً منهم ليوم لا ينفع فيه مال بيعاً إلا سابقة إنفاق مأجـــورة ولا خـــلال إلا خلة المتقين الباقية من جماعة الصلاة وتكافل الإنفاق وأخوة الإيمان.

إن الله يبتلـــي بني الإنسان في العالم المشهود دون الغيب بسماوات وأرض وأقدار فـــيها يـــرونها حولهم، هي آيات لله في الغيب لو نفذوا ببصيرتهم عبرها لعرفوه تعالى وآمـــنوا به خالقاً وناظماً ومدبراً ولعرفوا من دورة حركة الطبيعة وآجالها أجل مغيب

الحـــياة الدنـــيا والمرجع إليه تعالى في غيب الآخرة ثم لتبيّنوا من حياهم في إطارها أنها مـــسخّرات من الله نعمةً عليهم محمودة ولشكروه تعالى واتخذوها سبباً ومادة لعبادته. إن الله خلـــق الـــسماوات والأرض ظـــلاً للإنسان وقراراً ومدداً لحياته، وأنـــزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً له وأجرى فوقها الفلك بحراً لانتقاله والوديان أنهـــاراً لسقيه، ليتمتع الناس من فضل الله ويزيدهم من كل ما يسألونه وتنبسط عليهم مـــنه نعمة لا تحصى. ولكن الإنسان مفتون بالدنيا، فهو ظلوم يعدل عن وجهة آيات ربـــه ويقف عند ظاهرها غير مؤمن بالغيب، كفار لنعمة ربه يبدِّلها كفراً متاعاً لهواه. ذلـــك إلا الذين يسمعون هدى الله المنـــزل فيذكّرون ويتفكرون إيماناً وشكوراً. ولئن كانـــت أمـــة الخطـــاب العربية الأولى – قبل أن يتجدد إيمانها بالرسالة الخاتمة – ذرية لإبراهيم – كما سبق القول – بدلت الجاهلية بدينها السالف الحانف المؤمن بآيات الله واحداً معبوداً وبدلت كفراً بحمد نعمه تعالى التي بسطها عليهم استجابة لدعاء إبيهم، فـــإن إبراهيم عليه السلام كان هو أسوة حسنة خالدة لكل إنسان متذكر مؤمن حامد – إذ ابـــتلاه الله برؤية الأفلاك وبكلمات فأتمّهن إيماناً بالحق بعد كل البلاء من قومه فجعله الله إمامـــاً للعـــالمين في الدين وسائحاً في الأرض ينشر الملة التوحيدية ويؤسس مراكز العـــبادة داعياً بالخير والغفران لذريته وخلفه من المؤمنين. إنه لما هاجر جنوباً بوأ الله له واديـــاً في الجـــبال غير ذي زرع الناس حوله يعبدون الأصنام، ولكنه أسكن فيه ذريته ســـائلاً ربهم لهم الأمن بانياً لهم حرم متعبد لله الواحد داعياً ربه أن يجلب لهم الثمرات ويهوي إليهم الناس مقبلين ثم أن يستقيم هو وهم وخلفه من المؤمنين على إقامة الصلاة ويـــنالوا الغفران يوم يقوم الحساب. فسيرة إبراهيم – إن نُسي هديه حيناً بعده – هي ســـنة ومثال لحياة المهتدين الدعاة في كل حين. إن الهجرة من الأرض الأم هي مخرج عـــند كثير من المؤمنين المبتلين بالفتنة من أهلها الضائقين بهم دعاة إلى الحق والعدل من جديـــد، فهي ملجأ لسلامة النفوس. ولكن كانت بالنسبة إلى إبراهيم سعياً في الأرض في ســـبيل الله نشراً لدعوته – مثل الهجرة من ابنه محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ليتم فيها الدين وينشره بعد ما هاجر بعضُ أصحابه قبلاً إلى الحبشة للسلامة. وكذلك ينبغي للدعاة أن تكـــون هجرتهم في الأرض في سبيل الله وبلاغ رسالته. وما دخل إبراهيم ذلك المتبوأ

وطـــناً مـــوائماً لثقافة الناس فيه ليألفوا ذريته بل تبيّن ما فيه من فشوّ ضلال الأصنام فـــدخل مستقلاً عزيزاً بربه ليجعل مدخله مشروعاً لتطهير الشرك بدين التوحيد. وما نــــــزل إبراهيم ذلك الوادي يبتغي أو ينشد فيه منافع متاع دنيوي لرعاية معاش ذريته ومـــا أســـس مشروع زراعة بل زرع سنة عبادة في بيت حرام جعله قبلة للناس لا يأتـــونه لمعـــاملات التجارة وحسب - كما بدلت الذرية العربية بعداً النعمة كفراً وأقامت حول مكة الأسواق وعلقت في الحرم قصائد الشعر ونصبت فيه الأصنام - بل كـــان إبراهيم يسأل ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته حجاً للبيت وإعماراً للعبادة.

كـــذلك مـــوطن المجتمع المتجدد بالإسلام ينبغي أن يكون مزاراً ومشهداً جاذباً للناس لا جئين إليه بدينهم حرماً أو طالبين لحرية التعبد بالشعائر الكثيفة واللقاء الجامع بـــين المؤمنين. وكان الأمن والرزق المجلوب هو عند إبراهيم تمام شروط المقام والوطن لذريـــته ليقيموا الصلاة ويعمروا البيت الحرام. وما دعا لذريته أو خلفه درجاً يتعالى في المال والجاه والسلطان كما يرجو الناس لأبنائهم، وإنما دعا الله الثبات على سنة الصلاة والمغفـــرة لهـــم ولسائر المؤمنين - خطة خير عز ومتاع عارض ناتج في الدنيا ومذهبٍ بـــزاد إلى يوم الحساب. فاستمرار حفظ الدين ومده في الخلَف من الناس ومن ثم توالي رحمة الغفران إلى الآخرة هو الهدف الأبلغ لحياة المؤمنين. ولذلك كانت ذكرى إبراهيم ومـــثاله باقية بين المسلمين يصلون عليه كلما صلوا على ابنه نبيهم الخاتم ويحجون إلى البـــيت الحرام الذي تركه ويحيون ذكرى طاعته حتى إذا بلغ التكليفُ العزمَ على ذبح الابـــن عـــيد أضحية. وكذلك حُفظت ذكراه أباً ليعقوبَ إسرائيل - أباً لبنيه اليهود وتـــراث دينه عموماً عند أهل الكتاب. فالبقاء الموصول في مد زمان الأرض هو للدين محفوظ الأصول لا لسابقة كسب عظيم من مال أو سلطان أو متاع حضارة. وكذلك البقاء في الجنة خلوداً في الآخرة إنما هو لحفظ بقية من هداية الدين وكلماته الطيبة حتى الموت. فحفظ المؤمنين لذكرى الأصول الدينية ومدهم لها، وذكرهم لنعم الله في أيامه الماضيات التي رعا فيها وبارك نهضة الدين، ذلك حمد لله وشكر يستجيب له بزيادة من فـــضله الموصول. ثم إن في ذلك عِبَر التجارب بعلم أسباب دوافع النهضات وضوابط

اســتقامتها وعظات إن اعقبتها وهدات – مثل ما طرأ على ذرية إبراهيم العرب وبني إســرائيل – لتــبين العلــل الــتي أوهت التدين وأفسدته حتى غلبت عليه الابتلاءات بغاشــيات أهــواء وضلال أو عاديات قوى غازية من الخارج. لعل في سيرة إبراهيم وســيرة نهضة الدين عموماً نفعاً بتوحيد كل تاريخه سابقاً وحاضراً ولاحقاً بل توحيد الحياة في دهور الدنيا وآفاق أزل الآخرة.

ترتيل المعاني: (الآيات ٤٢ – ٥٢):

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّــهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء﴾ (٤٢ – ٤٣)

بعد آي ذكر عباد الله المؤمنين ووصاتهم بزاد من الصلاة والزكاة والشكر ليوم لا بــيع فــيه ولا خــلال، ثم ذكر إمامهم إبراهيم الذي بسط رحلة التوحيد لله والإيمان بالآخــرة ووضع بيتاً للعبادة ورفع لله الدعاء للغفران للمؤمنين يوم يقوم الحساب، تتلو الآي في خواتيم السورة لتؤكد وتفصل وقع النذير للظالمين المشركين الذين قسوا على المؤمــنين المــوحدين أذىً وتحذيرَ إخراج حتى جاءهم النذير بمصير الهلاك في العاجلة والعــذاب في الآجلــة حــيث يتخاصم الضعفاء والذين استكبروا ويتبرأ عنهم وليهم الــشيطان ليذهبوا إلى عذاب أليم. ولئن بقي بعض الظالمين من الأقوام في الأرض فلا يحــسبن داعيةٌ إلى الله تحفزه في الدنيا بشائر الاستخلاف في أرض وذهاب الظالمين قبل أن تــتحقق بشارة الآخرة ونذارتها، لا يحسبن أن في الأمر رَيب بل ينبغي أن يمضي في دعوته مستبشراً منتظراً.

ولا يحــسبن – خطاباً للرسول ﷺ الداعية في أمة جاهلة مشركة ظالمة متمكنة في الأرض حــول البــيت الحرام تراث إبراهيم وهم من ذرية ولده إسماعيل لكنهم نسوا هــدى التوحيد وارتدوا مشركين بالأصنام لعهد طويل، لا يحسبن اللهَ– العليم العظيم وحــده – غافلاً عما يعمل الظالمون الراسخون في الظلم مفرّطاً في أخذهم، إنما مد لهم في الحــياة مــداً ليحق عليهم الأخذ بعد حين، أو ليكون فيهم من تتجدد له التذكرة فيستغفر الله ويتوب من جديد. ليؤخر الله الظالمين الذين يموتون مستمسكين بضلالهم

بعد التذكير والنذير للحساب الأتم والعذاب الأشق ليوم تشخص فيه الأبصار[1]، يوم القيامة إذ تفزع مشاهده الظالمين تشخص أبصارهم موقوفة الصوب لا تلتفت ولا تنخفض عنها يُساقون إلى مآلهم فيذهبون مهطعين مسارعين لا يدبرون مقنعي رؤوسهم ناصبيها عليهم قناع من ذل وخشوع لا يرتد إليهم طرفهم لا يطرف ولا يغمض بل يسكن كالمنشّل وأفئدتهم هواء فراغ لا مجال فيها لخاطر رجاء محيص أو مصرف من الرهق.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ (٤٤)

ولذلك الخطاب للرسول ﷺ أن ينذر الناس. والنذير أول دفع لهم ليخرجوا من الظلمات ويزدجروا من الظلم والشرك فيتطهروا ويتحرروا من الأصنام قبل أن يرقوا إلى بشير الصلاح. ويعود ذلك لذكر النذير بالويل للكافرين في صدر السورة. لينذر الرسول الناس يوم يأتيهم العذاب وكانوا لا يؤمنون به بعثاً وجزاءً في الغيب ويستبطئون أجل وقع وعيده، وليبيّن لهم بلاغاً ما يترتب من مواقف ذلك اليوم، فيقول الظالمون متضرعين منادين ربهم أن يؤخرهم دون تمام الحساب إلى أجل قريب، يريدون رجعةً إلى الدنيا ولو فرصة ابتلاء أخرى قصيرة، ويعدون أن يفوا بشرطها فيجيبوا دعوته تعالى ويتبعوا الرسل اتباعاً- لا تباعة وحسب- هذه المرة وغير الإعراض والعصيان الذي سلف منهم[2]. ويأتيهم الجواب خطاباً لهم وسؤالاً: أو لم يكونوا أقسموا سفهاً وأشراً من قبل ما لهم من زوال؟ إذ لم يصدقوا ما أُنذروا به إن تمادوا في ظلمهم من زوال بهلاك أو انهيار لبُنى منهجهم ونظامهم في الحياة وأيلولة للأرض لمستخلَفين غيرهم.

---

(١) في تذكير الرسول بالصبر على تمادي المكذبين الظالمين وإنظارهم إلى يوم الدين فالله إنما يؤخر لأجله الجزاء وما هو بغافل عما يعلمون: راجع الآيات ١٢١ - ١٢٣ سورة هود، وانظر الآيتين ٩٢ و٩٣ سورة النمل.

(٢) قد يطلب من يأتيه أجل العذاب أن يؤخر عنه أو يرجع هو: انظر الآيتين ٩٩ و١٠٠ سورة المؤمنون، والآيات ٤ - ١١ سورة المنافقون، والآيات تتواتر أن أجل الله إن جاء لا يستأخر.

﴿وَسَــكَنتُمْ فِــي مَــسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ (٤٥)

ويمــضي خطابهم المجاوب لهم الفاحم: أنهم – وقد ذهبوا بذلك الغرور مطمئنين بقــسم – ســكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم من أقوام كانت تعيش في ذات المــناطق من الأرض ترحالاً وسكناً، وتبين لهم من رؤية لبعض آثارهم وسماع أنبائهم كــيف فعــل الله بهــم بأقدار إهلاكهم في ديارهم، وضرب الله لهم بأقداره في تلك الواقعات الأمثال الواعظة لِمثلهم نهج تكذيب واستكبار واستمساك بمعهود شركهم ثم سنة مصير هلاك.

﴿وَقَــدْ مَكَــرُواْ مَكْــرَهُمْ وَعِــندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦)

وقــد مكــر أولئك الأقوام السالفون مكرهم فأفرغوا كل جهدهم حيلاً لإمرار مذهــبهم شركاً لتثبيت طريقهم في الحياة وإبطال دعوة الحق فيهم، وعند الله مكرهم يحــيط بــه علمــاً وأمره بيده قدرةً يجاوب مكرهم بمكر وتدبير أشد نفاذاً. وإن كان مكرهم – هم – لتزول منه الجبال، ما كان تدبيرهم ذا وقع يدفع عنهم الهلاك فما لهم مــن زوال كما ادّعوا ولا ذا قوة تزيل الجبال بدفعها، مثل فعل مكر الله بقوته الفاعلة الــتي تزول منها الجبال – فتغدوا سراباً – كما شاهد المخاطبون الظالمون الذين خلفوا ظلماً إذا مروا بوقائع يوم القيامة القارعة بقوة الله للجبال صيّرتها كالعهن المنفوش وهم مبعوثون محشورون كالفراش البثوث.

﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٤٧)

والخطاب للنبــي ﷺ الداعية المنذر ترتيباً على ما سبق من تذكير: فلا يحسبنّ الله مخلف وعده المتوالي رسله أنه تعالى مُعزّ للمؤمنين مستخلف لهم في الأرض هاد لهم إلى دار الــسلام مُذلّ للكافرين الظالمين مَهْلكاً عاجلاً أو مؤخّراً لهم لهذا اليوم العظيم. إن الله عزيــز تتعالى قوته وقدرته لا يتعزز عليه أحد بل يُعزّ أولياءه ذو انتقام لا يغفل عن العــصاة الظــالمين ولا يذرهم سدى بل ينقم عليهم وإن مدّ لهم وأخّر الآجل فوعيد انتقامه صادق نافذ الوقع.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨)

ذلك يوم تبدّل الأرضُ غير الأرض تندك صورتها في عالم الشهادة والسماوات تنفطـــر وتهي بعد تماسك أفلاكها المتين ويزول في ذلك ظرف المكان والزمان المنظوم الـــذي عهده الإنسان من قرار تلك المخلوقات وحركتها، وإذا وقع ذلك لخَلقٍ من الله مـــثلها قوة وعِظماً فكيف يقع ذلك اليوم على بشر لا سيما الظالمين. وبرزوا – أولـــئك الظالمـــون – عَرْضـــاً لا يحجبهم دونه مثلُ عالم الشهادة عن الغيب أو مثل حُجُـــب استكبارهم فيه، وذلك مباشرة لله الواحد الذي لا يُضارعه كفءٌ من بشر أو أولـــياء لهـــم شركاً القهارِ الغالب أبداً لا يدفع عن إنفاذ أمره ذو قهر معهود في خلق الدنيا[1].

﴿وَتَـــرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ﴾ (٤٩ – ٥٠)

ويـــرى – كـــل امرء سامع أوتال للقرآن الذي يخاطبه – المجرمين الذين أجرموا وقطعـــوا بظلمهم كل ما أمر الله به أن يوصل من عهدهم معه والعهود بينهم، يراهم يومـــئذ مقـــرّنين في الأصـــفاد – موثقين أزواجاً متماثلين في الإجرام في قيود تكبلهم ليـــساقوا إلى مأواهم الحق وقد كانوا في الدنيا يقرّنون الناس في أصفاد الذل، سرابيلهم من قطران، سابغات قمصانهم من تلك المادة السوداء الأشد التهاباً وقد كانوا في ألوان مـــن زينة أزياء الفَخار، وتغشى وجوههم النار، تعلوها فتبدو مسودة كالحة مخزية وقد كانت رمز الكرامة بياضها آية الفرح.

﴿لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٥١)

---

(١) ذكر قوة الله القاهرة القاضية يوم القيامة إذ تتبدل السماوات والأرض والجبال ويُحضر الناس للحساب والفصل، هو معنى يتواتر وروده لاسيما في السور المكية حيث ينكر الجاهليون يوماً تتغيّـــر فـــيه ثوابت الطبيعة المشهودة ويبعث فيه الإنسان بعد الموت للحساب: انظر الآيات ٤٧ – ٤٩ ســـورة الكهـــف، والآيات ١٠٥ – ١٠٨ سورة طه، والآية ٨٨ سورة النمل، والآيـــات ٩ – ١١ سورة الطور، والآيات ٤– ٧ سورة الواقعة، والآيات ٨ – ١٠ سورة المعـــارج، والآيات ١١ – ١٤ سورة المزمل، والآيات ٧ – ١٥ سورة المرسلات، والآيات ٨ – ١١ سورة النبأ، والآيات ١١ – ١٤ سورة التكوير، والآيات ١ – ٥ سورة القارعة.

تلك المشاهد التي سبق النذير من وقعها إنما هي ليجزي الله كل نفس ما كسبت جــزاء وفاقــاً لكــل طائع أو عاصٍ، يشمل كل عين كفاء لما قدمت. إن الله سريع الحــساب، يحُــصي حسابهم جميعاً - كل ذرة من عمل من كل نفس بكتاب وبميزان لجزاء عدل نافذ.

﴿هَــذَا بَــلاَغٌ لِّلــنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ (٥٢)

هذا - الكتاب الذي بدأت بذكره السورة وبه تنختم - بلاغ يوصل الهدى بعلم حقائــق الوجود شهادة وغيباً وبمعالم حياة الإنسان المبتلى في الدنيا خيارات ومذاهب ومكاســب في الدنيا ومصائره وفاقاً في الآخرة. وهو بلاغ للناس كافة، ولينذروا به - أولاً المخاطبون من الناس الذي وافاهم نــزوله فيهم وقد كانوا قبله في معهودات من جهالة بالغيب وفتنة بالدنيا ومعروفات أولياء شرك وأهواء متاع لعلهم يتطهرون حذراً مــن مآلها في الآجلة وليرقوا بعداً إلى درج الإيمان والصلاح والإحسان بحوافز البشرى أيــضاً. ولــيعلموا أنمــا هو إله واحد، أولئك الذين يتعلقون في عالم الدنيا بمعبودات مشهودة وبأهواء مؤلهة مثل أمة الخطاب الأولى العربية يأتيهم بلاغ الكتاب ليعلموا أن الحــق الأصــل هو أن الإله الحق ليس إلا الله الواحد ذو الأسماء الحسنى، وعلى أساس الإيمــان بواحدنيــته فطاعة هداه لا غيره وحصر الرجاء والخشية نحو لقائه في الآخرة ينبغــي أن تنــبني الحياة. وليذكّر أولو الألباب - ليذكر من علم الكتاب أولو الألباب الصافية من قشور فتنة الدنيا لا يغشاهم كفر ولا حتى غفلة لأنهم مذكّرون بآيات الله المــسموعة المقروءة في الكتاب تذكرةً تحيي فطرتهم المؤمنة وتريهم آيات الله وغيبه في كل الوجود المشهود.

عموم المعاني: (الآيات ٤٢ - ٥٢):

مهما يكن أكثر الناس في كل حين وفي عالم اليوم خاصة مغلوبين تعلقاً بالمشهود دون الغــيب مفــتونين بالمادة والمتاع والدهر الحاضر، ومهما يتأخر في حسابه أجل الآخرة بعد مدّ حاضر الدنيا، ينبغي ألا يعتري المؤمن ريب في حق الآخرة وألا يحسب

ظـــناً أنها غفلة من الله عما يتمادى فيه الظالمون من واقع فعالهم، تعالى الله عن ذلك، وألا يـــستبطيء الأجـــل مهمـــا تتأزم عنده ملحّةً دواعي العدالة الناجزة لكف الظلم المستمر. إن وعد الله لصادق وإن يوم الدين لآت. ويومئذ تنقلب مظاهر عزة الظالمين مـــشاهد ذلة لهم، تشخص أبصارهم نحوها لا يطرفون من دهشة البغتة، ويأتون إليها مهطعـــين عليهم قناع هون بعد الإباء للحق والاستكبار في الدنيا، وأفئدتهم هواء بعد الامتلاء بالغرور. ويوئذ يُقضى الأمر المفعول ويلتمس الذين كانوا يكفرون بالآخرة أو يـــستأخرون أجلها تمادياً عامداً في الغفلة عنها أو يستعجلون قيام الساعة فوراً تكذيباً لأن تحق أصلاً – يلتمسون أن يؤخرهم الله رجعة لفرصة تجريب لهم في مدّ دنياهم ولو لأجـــل قريب وعداً أن يجيبوا دعوته ويتبعوا رسله هذه المرة. وهم كانوا سكارى بمدّ الحياة لهم مطمئنين بظنون الخلود لا يزول لهم متاع شهوات مستمرة ولا مجد حضارة مـــستقرة ينسون الموت ودورة الأحوال. ما كانوا يؤمنون بأجل قادم للآخرة، فهم ما كانـــوا يبسطون مدى بصيرة حول الحاضر المفتونين هم به. حتى الذين سلفوا وسكنوا أرضـــهم مـــن الظالمين وتبيّن لهم كيف فعل الله بهم وضرب منهم الأمثال الواعظة، لا يـــستمدون من مآل سيرهم موعظة وتقوى، حتى إذا رأوا ما بلغت حيل قوتهم الماكرة المستعـــصمة بالقـــرار وكـــيف كانت إحاطة الله بمكرهم غالبة لا يدركون أن قوته العظمـــى ﷻ لو سلطت على الجبال لأزالتها. إن حقائق الآخرة في أزل الغيب الذي يجمع الزمان ماضيه ومستقبله هي أمر واقع، فلا يحسبن مؤمن أن الله مخلف وعده رسله ومـــن سار على سنتهم في الدعوة والمجاهدة والمصابرة، فهو ناجز من الله العزيز الذي يسوّي القُوى حقاً ذو الانتقام الذي يعدل موازين السابق من عصيانه والتالي من الجزاء عـــدلاً. فـــيوم الـــدين يبدل الله الأرض غير الأرض والسماوات كذلك – كل هذه الكائنات الكبرى يبدّل الله قوام أوضاعها الحاضرة ويصرّف كل الظروف السائدة بها مـــن المكان والأجل والوقت، ويبرُز الظالمون، فكيف هم في ضعف وهوان بين يدي قـــدر الله الـــواحد الذي لا يكافئه ذو قدرة القهار لكل قوة تُظن كبيرة قاهرة. وترى المجـــرمين الـــذين جـــرموا وقطعوا عهد الله وأمانة استخلافهم في المثال والمتاع يومئذ مقرنين في الأصفاد يُحشرون أزواجاً في قيد كما اعتصموا في الدنيا طبقات بحبل الظلم

المـــتعالي، سرابيلهم من قطران ملتهب وتغشى وجوههم النار جزاء ما كانوا يلبسون الثـــياب زينة خيلاءٍ وفخار ويبدون وجوههم رموز كرامة معروضة. فليطمئن الدعاة الـــصابرون رجاء الآخرة، فذلك كله واقع بإذن الله ليجزي كل نفس ما كسبت إنه ســـريع الحـــساب لكـــل خاطرة نيّة أو ذرة فعل ليحق وسعها قدرها من الجزاء وفاقاً منحـــسماً ناجزاً لا تمتد دونه إجراءاتٍ القضاء كما امتد للظالمين المدى وأملى لهم في الدنيا.

خـــتاماً إن هذا القرآن كتاب بلاغ للناس بتلك العواقب في الآخرة حقائق غيب فيها النذارة للظالمين وفيها العلم اليقين إنما هو سبحانه وتعالى إله واحد تقدست أسماؤه وتعاظمـــت أقـــداره وحقت عبادته الخالصة منه مصدر العلم والوحي للكتاب أصل مـــذهب الهـــدى في الحياة، ليصرف بذلك الموقنون الحق والعلم ظنون شرك الأصنام والمـــؤلهات المـــشهودة والأهـــواء المطاعة في الدنيا، وليذكّر أولو الألباب بآيات الله المـــسموعة الـــتي تذكـــرهم بآياتـــه ونعمائه المرئية في الكون وبعهد الإيمان الموثق في فطـــرهم - تذكرة تتكامل وتتصادق ليرسخ الإيمان ويستقيم الهدى إلى يوم لقائه ﷻ لنيل نعيمه الخالد ورضوانه الأكبر.

سورةُ الحِجْر

خلاصة هدي السورة:

ســـورة 'الحجر' مكّية النّزول ترتيبها فيه الرابعة والخمسون، أما في الكتاب فهي الخامـــسة عشر، في آخر سياق سور للرّسل تخلّلتها سورة الرّعد، ولذلك مفتتحها مثل ســـابقاها ومـــثل تالية بذات الحروف العربية: ألف ولام وراء، شهادةً لبيان مسموع مفهوم لحقّ القرآن وهداه لأمّة الخطاب ذات اللسان العربـــي، وتمثيلاً لسائر الحروف التي بُني من منطوقها كلام القرآن قولاً بليغاً بيّنة أنه من الله لا يقدر على مضاهاته بشر وهـــو ببراعة مبانيه وحكمة معانيه غني عن تعزيزه بآية من المشهودات لتصديقه وحياً من الغيب.

ومجمل السورة أنها تذكرة أولاً بالقرآن وحرفه بياناً ومعانيه مثانيَ متوائمة منـــزل من الله في ملئه الأعلى محفوظ في تلك العلياء من تسمُّع الشيطان، ويصدع به الرسول بلاغاً تاماً ولو جعله الكافرون به عضين. والسورة كذلك تذكرة بالله الواحد دون ما يجعـــل دونه المشركون من إله، وبملائكته رسل وحي وبشرى إلى بني الإنسان وجنود قـــدر لله نافـــذ فـــيهم عقاباً. والسورة تذكرة بالآيات المشهودة في كون السماوات والأرض وما بينهما، تباشر الإنسان بجلال أثر الله خلقاً وإحاطته حفظاً وتدبيراً، بسنن آجالـــه دلـــيلاً علـــى دورة حياة الإنسان وموته حتى البعث والحشر في الآخرة لأجل مـــسمى، وبمبـــسوط نعمه تعالى على الإنسان زينة وضوءاً في السماء ومداً في الأرض مبـــسوطاً ورواسي استقراراً وما فيها من معايش ونبات موزون وما يتنـــزل عليها من

خــزائن رحمــة الله بقــدر وما يهب من رياح لواقح تسوق الماء النازل ليسقي وهو محفوظ. والسورة تذكرة بأصول حياة الإنسان خلقاً وسيرة في الغيب وفي المشهود، إذ خلقــه الله وأمر الملائكة بالسجود له فأطاعت، وإبليس فأبى عمداً وسخرية من البشر بــل بعد أن ضمن من الله الإنظار تعهّد بإغوائهم جميعاً، ثم انطلق الإنسان في الأرض بــين فــتن العالم المشهود وإغراءات إبليس الخفي وهدى الله المنــزل حتى يحشر يوم القــيامة إمــا غاوياً مع إبليس إلى جهنم أو مخلصاً إلى الجنة. والسورة تذكرة بالرسل وشيع الأقوام الذين كانوا ينذرونهم وسنة الإعراض والكفر بالرسالات افتتاناً بشهوات الدنــيا وآمالهــا، وبسنن الله في عاجلات العقاب هلاكاً بزلزال أو صيحة وما سيعلم الكافرون في آجلة الغيب إذ يُسألون وتنقلب أمانيهم الزائفة في الدنيا إلى أماني لو كانوا فــيها مــسلمين. والــسّورة ختاماً تذكرة للرسول مبلّغ القرآن أن يعتبر بسنة سلفه الصابرين وأن يَغنى بالقرآن نعمة عظيمة ويُعرض عن الكافرين ومتاعهم نعمة فتنوا بها ويــرفق برّاً بالمؤمنين ويظل صادعاً بالبيان صابراً على الإعراض والأذى مستعيناً بذكر الله تسبيحاً وحمداً واستقامة على عبادة ربّه حتى يوم اليقين.

مطلــع الــسّورة تقديم ما تمثّلت فيه رسالة وحي من الله للإنسان المخاطب عهد التنــــزيل، حــروف تؤلّف ذكراً من لسانه العربــي آياتِ كتاب تجمع حقائق علم الوجود ومعالم الهدى المبين يسمعه قرآناً مبيناً للمعاني. ولئن ظَنّ بعض المخاطبين إذ لم يعهــدوا قبله وحياً من الغيب أنه مما يلقي الشيطان في البشر كما يعهدون فإن الذكر مــن الله محفوظ من أوّل مصدره في الملأ الأعلى لئلاّ يتسمّعه الجن فيبدله ويوسوس إلى الإنــسان. والقرآن العظيم نعمة جليلة منــزلة للهدى لا يضارعها ما ينــزل الله على الــناس مــن مبسوطات رزق للمتاع. والمتدبر فيه يلقى حديث مثاني متوالية متكاملة تخــشع لهــا القلوب ثم تلين، ويجد في سورته الفاتحة سبع مثاني ذكراً لله له الحمد في ألوهيته التي تُرهب وترجى ثم ربوبيته التي تربّي وتزكي الناس، وله الرحمة رحماناً بجلائل الــنعم ثم رحــيماً بدقائقها وخاصها على الناس، وله تعالى الملك يوم الدين إذ للعباد عندئذ الدينونة لحسابه وجزائه، وله من عباده المؤمنين إقرار الإخلاص معبوداً واحداً ثم مستعاناً به على حسن العبادة، وله منهم الدعاء أن يهديهم إلى صراط مستقيم في سبيل

وجهـــه طوال الحياة دنيا وأخرى مع سائر الذين أنعم عليهم بالهدى غير الذين غضب علـــيهم ولا الـــضالين. ولئن كان القرآن مثاني متواترة موحدة فإن الذين لا يفقهونه يجعلونه عضين ويتقسمونه مقولات يرضونها لأنها تأمر بالمعروف وأخرى ينكرونها لأنها رســـالة تطهير لهم من معهود الشرك والظلم والافتتان بالدنيا، وإنما على الرسول الذي بعـــث بـــه أن يصدع ببلاغه ويعرض عن الذين كفروا به ذكراً من الله حقاً وبه هو استهزاءً به رسولاً.

والسورة تُذكّر المخاطبين بآيات الله ونعمائه في الكون، تذكرهم بأنه تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما آيات بالحق دليلاً عليه ودبّر آجال حركتها ودورة الحياة والمـــوت فيها دليلاً على قيام الساعة لدورة حياة أخرى حيث المسئولية للإنسان عن كسبه من الإيمان أو الكفر. فهو سبحانه الخلاّق للأشياء وأطوارها وللإنسان خلقاً أول ثم بعـــثاً ومحشراً في الآخرة، وهو العليم بما كسب في حياته الدنيا. وهو الغفور الرحيم لـــذوي الذنوب ماداموا على مسيرهم في نهج الهدى وذو العقاب الأليم للذين يجعلون مـــع الله إلهـــاً آخر فلا يلتمسون لديه الهدى ولا يتوبون إليه ليتجاوب معهم إلا بعاقبة العذاب.

والـــسورة تذكُر الملائكة الذين يصلون الإنسان الذي سجدوا له في الغيب لأول عهـــده ليُنـــزلوا إليه من الغيب بعداً وحي هدى من الله إن اصطفاه نبياً أو أيداً أو نبأ بشرى بركة لصلاحه، ويَنـــزلون جنوداً لله لهلاك قوم كافرين هم إذا جاء ذلك عليهم لا يُنظرون.

وفي الـــسورة بيان لأصل حياة الإنسان وتأسيس سننها وما يكتنفها. إذ خلق الله آدم فأمـــر الملائكـــة الطائعين أن يسجدوا له ليمضوا يمدّونه بأمر الله إن آمن وحقّ له ذلك، وأمر إبليس بذلك ولكن كان مخيراً فأبى وآثر أن يفاخر بأصل خلقه هو ويسخر من مادّة خلق البشر، ولّما علم أن الله مُخرجه لذلك العصيان من ملئه الأعلى مرجوماً دعاه أن يُنظره من العقاب الساحق حتى يوم يُبعث الإنسان المخير مثله الممدود لسلالته في الحياة الدنيا إلى يوم الدين إذ الحساب والجزاء الحاسم، ولّما استجاب له الله أعلن أنه ملازم لبني الإنسان أجمعين في الأرض يزين لهم ما فيها ويغويهم ليفتنهم فلا يروا آيات

الله ونعمه فيؤمنوا ويطيعوا هداه إلا من جاهده وغالبه وأخلص لله من شائبات الغواية. فأبـــان الله له الحق: أنه لا سلطان له شيطاناً على العباد فهم أحرار في خيار، أما الذين طاوعوه في الغاوين فهم إلى جهنم يدخلونها بأبواب أزواجاً يُوزَعون إلى أوجُه العذاب فـــيها وأطباقه، وأما المخلصون المتقون إغواءَ إبليس المتبعون حدود هدى الله فيدخلون الجـــنة إخواناً مطهرين من الغل الذي انـــزرع فيهم قبلاً بإغواءات الفتن بينهم ويسلمون من جهد الدنيا ونصبها وابتلاءاتها ومن فناء متاعها فهم لا يخرجون من الجنة أبداً.

وفي الـــسورة تثبيـــتاً للرسول تذكرةٌ له بسلفه من رسل في شيع الأولين تعرضوا للـــتكذيب والاستهزاء مثله. فمن ذلك قصة الملائكة إذ مروا بإبراهيم عليه السلام يبشرونه بغـــلام بعد كبره فوقاه الهدى أن يقنط من رحمة الله ذريةً، ثم ينبئونه بما أُرسلوا به من أخـــذ قوم لوط إلا النبـــي عليه السلام وأهله حتى لا يحزن عليهم ويجادل. ثم توجه الملائكة إلى بـــيت لـــوط يثبّتونه بالحق الذي يمتري به قومه، ولئن استثار مَقدمُهم رجالاً ضيفاً علـــى لوط شهوةَ قومه الذين هرعوا إليهم يبتغون الفاحشة عمهين كما عهدوا، فإن الملائكـــة وهم في طمأنينة عصمة أوصوه أن يسري بأهله ليلاً ابتغاء النجاة إلا امرأته وبشّروه بقرب هلاك قومه الغابرين مشرقين، وحقّ عندئذ ذلك واقعاً زلزالاً تساقطت به عليهم حجارة قاضية. ثم تذكر السورة أصحاب الأيكةً الموقِع الباقي لقوم من مدين مـــضوا لأنهـــم كذبـــوا شعيباً وظلموا فانتقم الله منهم بصيحة هلاك. ويقع موقعهم وآثـــارهم قرب قوم لوط المؤتفكة قراهم على طريق بيّن مأموم من أمة الخطاب العربية في رحـــلات تجارتهـــا شمالاً. وذكرت السورة كذلك المكان العاقب خلفاً لأصحاب الحجر – ثمود قوم صالح – الذين أُوتوا آيات الله فأعرضوا عنها وحسبوا أن قد أغناهم متاعاً وأمناً اتخاذُ الجبال بيوتاً، ولكن عقبت عليهم صيحة صعقتهم جميعاً بما كسبوا.

وفي السورة خطاب للرسول ﷺ واسع أولها وآخرها ليطمئن قلبه وليستقيم كما أُمـــر. فأمـــة خطابه إن كانوا يستهزئون به رمياً بالجن فإن الله كافيه منهم وهي سنة ماضية في سيرة الرسل السالفين. ولئن التمسوا لتصديق رسالته الموحاة من الغيب مما لم يعهـــدوا آيـــة محسوسة تنـــزيلاً من ثمّ للملائكة الذين يعرفون ويتمنون رؤيتهم، فإن الملائكة – الذين لو مشوا فيهم شاخصين لظنوهم مثل قوم لوط رجالاً – جنود لله إذا

تنـــــزلوا عليهم يأخذونهم وما هم بعد بمنظرين. وقوم الرسول كانوا في عناد كفر لا تجديهم الآيات المحسوسة، ولو فتحت أقدار الله لهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لأجابـــوا كفـــراً: أن قد سكرت أبصارهم بل هم مسحورون. ولئن كفروا بنعم الله المبـــسوطة عليهم من السماوات والأرض في الدنيا فأكلوا وتمتعوا وألهاهم الأمل لمدى المشهود، فليصبر الرسول عليهم حتى يلقوا حظهم يوم قيام الساعة، ويغنيه هو في الدنيا أن قد أنعم الله عليه بالقرآن حديث المثاني المتواترة المتصادقة وليصرف نظره عن متاع أصـــناف الكافرين، وليخفض جناحه للمؤمنين الذين هم في قلة وذلة. وليبلغ الرسول دعـــوته في الناس أنه هو النذير المبين من الضلال عنها ارتهاناً للمعهود. ومهما يجادل الكافـــرون أن يباعـــضوا ويناقضوا في آي القرآن فليصدع هو به قولاً متواتراً عظيماً مأمـــوراً هـــو ببلاغه وليُعرض عن المشركين فإنهم آتيهم يومٌ ربما تمنوا فيه لو كانوا في الدنـــيا مسلمين. ويُوصَى الرسول أن يستعين على مصابرتهم بذكر الله تسبيحاً له عما يقولون ويشركون، وحمداً له على نعمة القرآن وعموم نعمة الله على العباد في الأرض، ولـــيكن من الساجدين الذين صلاتهم الخاشعة لله زلفى إليه في الملأ الأعلى مثل قرب الملائكة الساجدة لأمره أبداً، وليعبد ربّه ليرى عين ما تحق له به البشرى في جنب الله.

ترتيل المعاني: (الآيات ١ – ٥٠):

﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ (١)

ألـــفٌ، لام، راء – ذات الحـــروف الواردة في مفتتح السور من هذا السياق في الكتاب[1]، وهي سور مسماة بأسماء الرسل الماضين إلا هذه السورة فمسماة بدار قوم رســـول هـــو صـــالح عليه السلام، أصبحت آثارها مدن صالح شمال شرقي المدينة المنورة. والحـــروف – كمـــا سبق القول كثيراً – رمز لسائر حروف اللسان العربـــي تتقدم

(١) راجع مفتتح سورة يونس، وهود، ويوسف، حيث ترد الحروف يتلوها ذكر الكتاب ثم فيها ذكر بيان لأمر الرسول المسمّى. وذلك مثل سورة إبراهيم التالية. وراجع سورة الرّعد المتخللة لـــتلك الـــسور مفتتحة بذات الحروف تتوسطها ميم يتلوها ذكر الكتاب، ثم فيها ذكر عام للرسل من قبل دون تسمية.

السور شهادةً بأن الكتاب بيّن القول إذ الكلام فيه على مثل تلك الحروف، ولئن كان فهمه ميسوراً لأمة الخطاب الأولى لرسالة الإسلام – العرب، فإن أسلوبه يعجز البشر منهم أن يأتي بمثله – بديع إنشاء وبليغ تعبير معان وإحداث وقع على من يتلوه أو يسمعه. وبشهادة تلك الحروف يُشار إلى بارز مقام تلك الآيات المبنية منها: مثاني من منظومات البيان تتوالى لبناء السور في الكتاب: ذلك الكلام المجموع وضعاً ووقعاً على الناس المرسوم على الصحف بياناً وحفظاً، وهي آيات قرآن: قول منظوم من تتالي كلمات منطوقة تلاوة وإسماعاً. وهو قرآن مبين، ما هو بمكتوب من رسوم عفو الدلالة ولا بمتلو من ألفاظ مبهمة المعنى، كبعض المرسومات أشكالاً والمنطوقات أصواتاً التي يتخذها بعض البشر مقدسات دينية. بل هو ذكر مبين للمعاني تؤلف تراكيبُ أشكال الحروف فيه وأصواتها كلمات تتصل جملاً مفيدة لبيان معان من حقائق علم الوجود غيباً ومشهوداً ومن حق تكليف لهدى الحياة، يبلّغها الكتاب القرآني لبني الإنسان. وليس في بيانه ريب في حقيقة أو اضطراب في حق، بل ينظم أصولاً محكمة واضحة وفصولاً منها بيّنة من معاني العلم والهدى الحق للمخاطبين.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ (٢)

من الأمر المحتمل الوقوع فيما يُستقبل أن يتمنى الذين كفروا اليوم بحق الكتاب المبين لو كانوا حين نزوله مسلمين أمرهم كله لله وهدى وحيه. و'رُب' للقليل الجائز، ولكن التعبير بها هنا تحذير يقتضي الاحتياط من يوم يأتي يدرك فيه الذين كفروا أن لو كانوا مسلمين لاتقوا سوءى العواقب، ويودون لو كانوا كذلك أمس[1]. وإنما الأمر يومئذٍ لا يستدرك بالتمنّيات الراجعة، ومن الأوعظ أن يحتاط أولئك لمثل ذلك المآل فيسارعوا إلى تقديم كسب من الإسلام يوافي حسنى العواقب.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٣)

والوصية للرسول الداعي الذي يتلو عليهم القرآن أن يصبر عليهم إن أهملوا بعد البلاغ والنذير اغتنام فسحة المجال لاتقاء الآجال المحذورة قبل حلولها، وأن يذرهم

---

(١) في تعبيرهم عن ذلك التمني قولاً بكلمة 'ليت': أنظر الآيات ٢٦ – ٢٩ سورة الفرقان، والآية ٦٦ سورة الأحزاب، والآيتين ٤٣ و٤٤ سورة الفجر.

ويـــدعهم في حالة مشغولة مفتونة بحب الدنيا يأكلون طاعمين من مشتهياها ويتمتعون متلذّذين بمبتغياها ويلهيهم الأمل مرتخياً عندهم حبلُ الرجاء المطلق لطول العمر والموت منـــسيّ وبقـــاء المـــتاع وصروف الوقائع التي تزدجرهم بها نُذر الوحي مغفول عنها، فـــسوف يعلمون لأجل مستقبل قد لا يعاجلهم به الله ولكنه آت أمره يتبيّن لهم عنده علم ما تجاهلوا من فسحة البلاء وأن لا غناء من كلمات التمني النادم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٤)

وهـــذه تذكرة لهم ببلاغ نذير من الله، أنه ما أهلك بأقدار رسالة هداية ونذارة سابقة وقـــضاء إهـــلاك عاقب، مما رأى المخاطبون من آثار وجاءهم به الأنباء في الكتاب لتلك القرى المكذبة الظالمة – ما وقع ذلك منه تعالى إلا ولكل قرية كتاب معلوم الوقوع مقضيّ به لأن أجله مضروب لكلمة القدر النافذة على القرية في كتاب علم الله.

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (٥)

الـــسنة الجارية في ذلك أنه ما تسبق من أمّة – من أمم الخطاب المجتمعة في تلك القـــرى – أجلها المكتوب للهلاك والفناء مهما يستعجله المستهزئون منهم بنُذر الهلاك أو الرســـول المـــستيئس منهم الداعي عليهم بعاجل العقاب. ذلك أن لله سنة قدر في تـــأخير الآجـــال لمدّ فسحة البلاء التي يحق بها الجزاء أو ليدرك بعض الناس فيها فرصة التوبة. وما يستأخرون، مهما يطالعهم وقع النذير الحق لا مجال لتلك الأمم أن تستأخر أجلـــه تمنـــياً لكرّة من إرجاءٍ وإمهال أخرى، لأن سنة الله كذلك أن تنفذ كلمة أمره المفعـــول عند حلول الأجل مهما يتمنى استئخاره الذين يشاهدونه عين اليقين وتنقشع عنهم مُلهيات الغفلة والمتاع والأمل الباطل[1].

﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦ – ٧)

إضـــافة لكفرهم بالقرآن وغفلتهم من نذيره، الذين كفروا خاطبوا الرسول الذي باشـــرهم بتلاوة القرآن بكلمة تنبيه له من حيث هو الذي نـــزل عليه الذكر متوالياً،

---

(١) في وقع الآجال المكتوبة لا يستقدم ولا يستأخر: راجع الآية ٣٤ سورة الأعراف، والآية ٤٩ سورة يونس، وانظر الآية ٦١ سورة النحل، والآيتين ٤٢ و٤٣ سورة المؤمنون.

أنـــــزل علـــيه هو فقط ذكر من غيب مجهول، خاطبوه أنه هو لمجنون، كأهم يرمونه بتلقـــي ذلـــك الذكر الغريب من جن مثل ما يعهدون من لغو المُصاب بمسّه بينهم[1]. وعـــززوا ظنهم بأهم طلبوا لوما يأتيهم بالملائكة إن كان من الصادقين. فالملائكة قُوى مـــن أرواح الغيب التي يعرفوها في ثقافتهم أها موصولة بالله بنات من الجن، كأهم إن رأوهـــم شاخصين عنده من مقامهم الأعلى استجابة لطلبهم هم صدّقوا دعواه بتلقي وحي غيبـــي من ملك عن الله إذ جاءهم بآية محسوسة لا تُضارع.

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ (٨)

والبـــيان الحـــق في أمر الملائكة – صلة الله بالعباد – أهم إنما ينـــزلهم الله كما يخاطب بعظيم أقداره في تصريف عالم الأرواح تنـــزيلاً مرئياً بالحق، يُنـــزّلون بالوحي لـــنبي خاصة وما يتنـــزلون مشهودين على قوم كافرين إلا جنوداً لله لإيقاع أمره بهم إهلاكـــاً وتوفـــياً حـــقّ عليهم بالنذير السابق[2]، وإذا رأوهم – كما رأى قوم لوط الملائكـــة – مـــا كانوا إذاً مُنظرين – رجاء فسحة أخرى من الإمهال، إذ يكون قد جاءهم أمر الله المفعول بصور من أقدار الهلاك أو من قدر رسوّ الساعة بغتة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩)

والبـــيان الحق كذلك في أمر الذكر الذي يباشرهم أن الله – كما يخاطب العباد بأقـــداره العظيمة اجتباء لرسول وإنـــزالاً لهدى ووحياً – إنما هو الذي أنـــزل ذلك الذكر، وأنه ﷻ بأقدار عليا له حافظ، فهو محفوظ لدى مصدره الأول إذ يودَع أمانة رسالةٍ إلى ملك وحي أمينٍ لا يستمع إليه الجن ليوحوا إلى الناس في الأرض تخاليط من

---

(١) رمـــي الرســـول الخاتم ﷺ بالجنون من مقولات المخاطبين المعرضين عن رسالة الغيب: أنظر الآيـــة ٣٦ ســـورة الصافات، والآية ١٤ سورة الدخان، والآية ٥١ سورة القلم. وهي ظنة ليـــست بحق: راجع الآية ١٨٤ سورة الأعراف، وانظر الآية ٧٠ سورة المؤمنون، والآية ٤٦ سورة سبأ، والآية ٢٩ سورة الطور، والآية، والآية ٢ سورة القلم، والآية ٢٢ سورة التكوير. لكـــنها تهمة لقيها سابق المرسلين عليهم السلام: انظر الآية ٢٥ سورة المؤمنون، والآية ٢٧ سورة الشعراء، والآية ٣٩ و٥٢ سورة الذاريات، والآية ٩ سورة القمر.

(٢) إذا تنـــــزّل الملائكة فهي الواقعة لا يُنظر الكافرون بالغيب الذين تطلبوا قبلاً إتيانهم شهادةً عليه: راجع الآية ٨ سورة الأنعام، وانظر الآية ٣٣ سورة النحل، والآيات ٢١– ٢٣ سورة الفرقان.

حقــه ومن باطلهم فهم يُرجمون مدحورين[١]، ومحفوظ بلاغاً إلى الرّسول البشر يُتلى عليه ويجمع ويراجع لئلا يضيع منه شيء أو يتلوه منرسلاً فيختلط به كلام مدخل من تلقــاء نفــسه أو إلقاء الرواة[٢]، ومحفوظ بعداً بتقييض عباد قرّاء متعاقبين يروونه عبر التاريخ ويسجلون أصواته دون تحريف كلم أو تأويل أو تبديل هدى ويرسمون حروفه في الصحف ويضبطونها ثم يطبعونها صحيحة للنشر، وكذلك تُقيّض له أمة تحفظه نصاً ومعــنى وعمــلاً أبد الدهر تتلو صوت حرفه بلسانها وتتلو هدى معانيه بفقهها وتتلو مقتضاه بحياتها.

﴿وَلَقَــدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ (١٠ – ١١)

ويــضاف خطابــاً من الله إلى الرسول الذي كان عرضة لاستهزاء الذين كفروا ولــتحدّيهم بطلب آية محسوسة أن ذلك يقع منهم على نهج سلف لهم، إذ أرسل الله بأقــداره العظــيمة من قبل الرسول المخاطب رسلاً في شيع الأولين، جماعات الماضي الذين تشايعوا أقواماً أو قرى أو أمماً كلهم كانوا هدف خطاب يبلغهم ذكر الله لينتشر فيهم. ويمضي النبأ بسنة نــزول الذكر وحياً ووقعه في المخاطبين إذ يُضاف أنه ما يأتي تلــك الــشيع المخاطبة من رسول إلا كانوا به يستهزئون[٣]. وذلك لغربة الوحي من

(١) في حفظ وحي القرآن من السماء ألا يتسمعه أو يخلطه الجن: أنظر الآيتين ١٧ و١٨ من ذات الــسورة، والآيــات ٢١٠ – ٢١٢ ســورة الشعراء، والآيات ٦ – ١٠ سورة الصافّات، والآية ١٢ سورة فُصّلت، والآيتين ٨ و٩ سورة الجن، والآية ٢٢ سورة البروج.

(٢) في حفظ تلاوة آيات الوحي تمنياً منذ الرسل من الاضطراب: انظر الآيات ٤٢ – ٥٢ سورة الحج.

(٣) في خُلــق الهزء بالرسول الخاتم ﷺ وبالمؤمنين: راجع الآية ٤١ سورة البقرة، وانظر الآية ٣٦ ســورة الأنبــياء، والآية ٤١ سورة الفرقان. وفي ذلك الاستهزاء بالرسل عليهم السلام سنة خالــية: راجع الآية ١٠ سورة الأنعام، والآية ٣٢ سورة الرعد، وانظر الآية ٣٠ سورة يس، والآيــة ٧ سورة الزخرف. وفي الاستهزاء بالرسالة والآيات: راجع الآيات ٦٤ و٦٥ سورة الــتوبة، وانظر الآية ١٠ سورة الروم. وفي الاستهزاء بالنذير حتى يحق عليهم: راجع الآية ٥ ســورة الأنعــام، وانظر الآية ٣٤ سورة النحل والآيات ٥٦ و١٠٥ و١٠٦ سورة الكهف، والآية ٤١ سورة الأنبياء، والآية ٦ سورة الشعراء، والآية ٤٨ سورة الزمر، والآية ٨٣ سورة غافــر، والآيــة ٩٣ ســورة الجاثية، والآية ٢٦ سورة الأحقاف. وفي الهزء بالدين والعبادة والأحكام: راجع الآية ٢٣٢ سورة البقرة، والآيتين ٥٧ و٥٨ سورة المائدة.

الغـــيب ممـــا لم يعهدوا ولغربة هديه توحيداً لله ونهياً عما ألفوا من معبودات وطقوس تقديس لها وعما نهجوا من حياة عرفية ترسمها الأهواء وتسود فيها المظالم الموروثة. فهم ينكرون الغيب وإذ يأتيهم رسول برسالة حق موحاة يستهزئون بدعواه التفضل عليهم بخـــصوص الوحـــي له من الله في الملأ الأعلى فوق الآلهة المعهودة وما ينسب إليها من مفتريات.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ (١٢ – ١٣)

كذلك – يقول الله – أنها سنة أن يسلك بأقدار طبعه العظيمة في قلوب المجرمين الـــذين أجرموا وقطعوا كل ما أمر الله به أن يوصل من عهد معه تعالى، يسلك مدخلاً في ضـــيّق قلـــوبهم حال الكفر بالذكر، لا يؤمنون به إذ لا تنشرح له صدورهم، وقد خلـــت فـــيما مضى سنة الأولين على ذات الطريقة التي سلكها هؤلاء مجرمين. وهذا الـــسلك القدري ابتداءً سببه الأول هو خيار منهم تعلقاً بمادية متاع مشهود وبظنون عبادة أرضية معهودة أمضى عليه الله الحرَج في صدورهم من الإيمان بالذكر من الغيب كما يمدّ الضال في ضلاله بينما يزيد المهتدي هدى.

﴿وَلَـــوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (١٤ – ١٥)

وإجابة على طلب الآية المشهودة يذكر الله أن لو فتح بأقدار تصريفه لنظم الكون قـــدراً خارقاً للمسنون من انجذابهم استقراراً على الأرض – فتح عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، يندفعون صعوداً، لقالوا سُكّرت أبصارنا، سُدت رؤيتها العادية فما يُتـــصور لهم حادثاً ليس بحقيقة بل – كما قالوا – هم مسحورون، سُلطت عليهم قوة خفـــية تـــوهمهم بالعروج. وسنة الكافرين أن يطلبوا الآيات المشهودة لأنهم مرهونون بـــإدراكهم وظـــنهم للمشهود، فإذا وقعت فعلاً – كما جرى لكثير من الأنبياء من قبل – لم يؤمن الذين كفروا وحرفوها بمثل تلك الظنون والتأويلات بل يزداد بعضهم كفراً نسبة لرسالة الوحي إلى السحر الخفي الماكر.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦)

ذلــك والحق أن الآيات المشهودة المحسوسة لكل الخلق - لا القاصرة على حاضرين يــشاهدون معجزة من نبــي - هي التي يتجلى بها عظيم قدرة خلق الكون حول الإنسان وحكمــة تــدبير السنن الكونية المطبوعة، لعلّ المشاهدين يتفكرون في مشهدها فينفذون بدلالــتها إلى الله تعالى فيؤمنون به خالقاً لأصلها حكيماً في نظمها وحركتها وبها نعمةً منه تعــالى على عباده مسخرة لهم تسخيراً عفواً موصولاً فيشكرون. ولذلك لفتت الآية وما يــتلوها أولئك الذين يطلبون الآيات المعجزة ولا يؤمنون بها لو جاءهم، ونبهت غيرهم من عباد الله المخاطبين، إلى الآيات المبسوطة الكونية حولهم إعجازاً أكبر وأجل في أقدار لله: أن الله - الذي أرسل آياته المسموعة وحياً على المرسلين لتبليغ سائر عباده - قد جعل - كما يقــول، حقاً مؤكداً مصنوعاً بكل أقداره العظمى - في السماء التي ينظر إليها الناس جميعاً بــروجاً كيانات عالية ظاهرة من النجوم والكواكب، وزيّنتها أقدار الله للناظرين - نجوماً مــضيئة متناظمة ومنثورة تبدو ثابتة إلا دورة اليوم وكواكب تبدو دائرة في فلك، وشمساً وقمــراً تدور حركتها وضياؤها مع ليل الإنسان ونهاره وترسم حساب أوقاته ومواسمه - كلــها بــروج في الــسماء منظومة بنسق يَزين للناظر لاسيما ليلاً دون شهود ارتباك أو اضطراب إلا شهباً تندرئ لائحة في الأفق - تلك آيات خلق ونظم وجمال من الله تعالى.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ (١٧ - ١٨)

وحفــظ الله - كمــا يقول - بأقداره العظمى لدى الملأ الأعلى السماء من كل شــيطان - شطن وبعُد عن الخير، رجيم - حق أن يُرمى بمقذوف عليه كلمة أو شيئاً. وذلك لأن السماء الدنيا - دون الوجود الأعلى المطلق - هي مجال اتصال الوحي لئلا يــسمعوا منه شيئاً ويتخذوا صلاقم الروحية ببعض البشر سبباً للتخليط على القرآن. ذلــك إلا من استرق السمع يحاول خطفةً من الوحي فأتبعه ولحق به شهاب - عمود من طاقة حارقة - مُبين يراه الناس بترامي الآفاق.

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (١٩)

والأرض كــذلك وكمــا يقول الله مدّها بأقداره العظمى خلقاً وتدبير وظائف وطبعاً لسنن منظومة وتسخيراً لحياة الإنسان، وجعلها بساطاً ليسلك الناس من قشرها

الممـــتدة علـــيها الباردة من جوفها المتلظي مساكن ومن سهولها سبلاً فجاجاً، وألقى كـــذلك بأقداره العظيمة فيها رواسي ثوابت معالم لهدى حركة الناس في آفاق مساحة الأرض وثـــوابت للطاقـــة المخزونة في الأرض ومنافذ لها إذا تفجرت زلزالاً. وكذلك بأقدار الحياة أنبت الله فيها من كل شيء موزون – مدُّه وظله ليستوي جنات وغابات وخضرتُه وزهره ليتسق زينة وثمره وحبُّه لينتظم مأكولاً.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ (٢٠)

وكذلك يذكر الله أنه بأقداره العظمى في تسخير الأرض لبني الإنسان المخاطبين جعـــل لهم في الأرض معايش من أكل الحب والخضر والفاكهة فضلاً عن نفس الهواء حـــولها والملابس والمرافئ من مادها ونباها، وجعل فيها أحياء، من ليس المخاطبون له بـــرازقين يمـــدوها قـــوتاً لكنه ساواهم عقلاء مذكورين بأنه مثلهم يحيا ويرزق لينمو ويتوالد ليتم لهم النعمة بشراً، وتلك هي الحيوانات دابّة وطائرة وحشرة وسمكاً – كلها على الله رزقها مسخرة للإنسان لمأكله وملبسه وزينته ومركبه وأداته.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٢١)

ومـــا من شيء في بيئة الأرض المسخرة للإنسان إلا عند الله وأقدار علمه وأمره العظـــيمة المحيطة بالإنسان – كما يقول – خزائنه بأقدار مبسوطة بمشيئة الله بلا حد، وما ينـــزّله الله بأقداره حول الإنسان إلا بقدر معلوم، يقدر الله مدى وجوده بين يدي عباده قدراً لا يُفرط انبساطاً فيختل به قيام الحياة الموزونة ولا ينقص، يعلمه الله منسوباً إلى طبيعة الأرض المسخرة وحاجة الإنسان وابتلائه في حياته(١).

﴿وَأَرْسَـــلْنَا الـــرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنـــزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (٢٢)

وكذلك بأقدار الطبع العظمى أرسل الله – كما يذكر – الرياح تهب عبر جهات في الأرض حسب ضغوط الحرارة والدورة فيها، لواقح تلقح إلحاقاً بين ذرات الرطوبة والهواء لينشأ السحاب ويثقل فيخرج منه الودق حيثما زجّته وساقته الرياح، فأنـــزل الله بأقداره ماء حيثما أصاب الغيث جهة، فأسقى الله به بأقداره عباده المخاطبين، وما

(١) أنظر الآية ٢٧ سورة الشورى.

هــم لــه بخازنين، ولو حفظوا قليلاً لحاجتهم وحسب وسعهم فإن فائضه يصرّف الله مخازنــه علــى سطح الأرض ليتبخر ويعود إلى السماء أو ليفيض أو يغور في الأرض ويخرج ينابيع أو يُطلب آباراً أو تجتمع أقداره فتفيض جاريةً بحاراً وأنهاراً.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٣)

وإن الله – لهو المتكلم ذكراً بأقداره العظمى ونعمه المذكورة معاشاً وماءً – يُحي الأحــياء نباتاً أو دابّة أو بشراً يخرجون من مواد ميتة الأصل، ويُميت بأسبابه المسنونة حطامــاً أو مــواتاً. والله وقدره وقضاؤه هو – كما يقول – الوارث الباقي الذي لا يموت إذا فني الأحياء ليصرّف ما تركوا من آثار.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ (٢٤)

ولقــد علم الله كما يذكر عن نفسه بأقدار علمه وقوته الحافظة المتوفية لبني آدم المخاطــبين، علم كسباً سابقاً في الأزل، المستقدمين منهم الذين عاشوا أوائل القرون والأيام ووافاهم الموت قدامى. ولقد عَلِم أيضاً المستأخرين منهم الذين كتبت لهم آجال الحــياة والمــنون أُخرياً حاضراً ومستقبلاً، لكل نفس من المخاطبين أجل حياة وموت مسمى علمه الله سلفاً وينفذه القدر المفعول.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥)

والخطــاب الآن يتوجه إلى الرسول: أن ربه – فضلاً عما سبق – هو يحشرهم، وذكروا بصيغة الغائب لأن منهم موتى قبلاً ولأن الأمة من الأحياء الذين كان يخاطبهم الرســول كانــت تنكر البعث والحشر لا تدركه من آية قدر الحياة والموت المشهودة. يجمعهم الله أفواجاً يحشدون في ساحات موازين الحساب والمساقات إلى مواطن الجزاء العادلة. إنه تعالى حكيم – ضابط بأقداره الموزونة آجال الناس في الدنيا ثم أجل البعث الــشامل وأوضاع الحساب والجزاء المتنــزلة عليهم حاقة، عليم بكل عدّ عباده وكل كــسبهم ليعرضــوا لحساب واف بكتابه وبيّناته ولجزاء وفاق لهم أفراداً إلا أن يساقوا أزواجاً تَشاكل كسبُهم وحظّهم أو أن يلحق بهم الصالحون من أهلهم ويرفقوا بالمتقين أخلاء وأنبياء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٢٦)

إن حشر الإنسان بعد الموت هو في سياق الخلق المتجدد نشأة أخرى لدار الجزاء، وتلـــك النشأة هي الكرة الثانية من النشأة الأولى لبدء سياق الخلق لدار البلاء. ولذلك جـــاءت الآية تُضيف عود الذكر لسيرة الإنسان - إحياء وإماتة وحشراً - إلى مبتدئها مـــنذ أول خلـــق أصل الإنسان، كيف هيأ الله له خلقاً وتجربة حياة في عالم الغيب في كـــنف خلق غيبـــي آخر أُمر أن يكون مسخراً له فاختلف وكيف استُخلف بعداً في دنيا الابتلاء تحيط به تلك القوى التي له والتي عليه حتى ينساق إلى الآخرة.

ولقد خلق الله كما يقول بعظيم أقدار علمه وخلقه وتدبيره الإنسان يحيا ذاتاً فرداً ويتوالد ويأنس بعضه إلى بعض جماعة من الناس، خلق أصله من مادة صلصال يابس - جافـــاً كالفخار يشكل عظامه ومصفى ناعماً يكون الجسد، من حمأ طين أسود أصله المـــاء والتراب، مسنون ما هو بأخلاط مضطربة بل أمشاج مصوّبة مهيأة للتسوية لتتم أحـــسن المخلوقات. هكذا كل أصول خلقه مخلوقات لله وكل أطواره من قدره تعالى الذي يعدّه ليحيا في الأرض وهو منها مبتلى بمادتها مبتغياتٍ ومسخرات محدودة.

﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧)

والجـــان - وهـــو المخلوق روحاً - يجنّه ويخفيه ذلك الطبع من نظر البشر لأن الـــضوء لا يـــنعكس لديه وما هو بمحسوس بل من خلق كالملائكة سوى أنها أرواح مطـــوعة لله أبـــداً وكسائر الجن غير المبلسين كإبليس وذريته لأنهم يستمعون الهدى ويتميزون كالبشر منهم المؤمنون ومنهم القاسطون. خلق الله بأقداره ذلك الجان - بين ســـائر خلـــق الغيب - من قبل خلق الإنسان. وكان أصله من نار السموم، من طاقة حـــارة شديدة الوقع وهيأه طبعه حين ابتُلي بأمر الله أن يكون محترق الخلق صائراً إلى النار..

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٨ - ٢٩)

وتمـــضي قـــصة الخلق الأول إذ قال الله للملائكة - الأرواح الطائعة المهيأة لأن تكـــون رسل الله إلى البشر وحياً أو خدمة أيدٍ - أنه تعالى خالق - بعد حين - بشراً تباشـــره الـــرؤية الـــضوئية لا مثلهم، ووصف لهم خلقه المقدر، من صلصال من حمأ

مـــسنون. ثم مضى الخطاب: فإذا سواه ﷻ بأن تمّ خلقه المسنون القويم ونفخ فيه من روحـــه – ألا يحـــيا كالنبات والحيوان بل روحاً من أمر الله، وهي كينونة منها المَلَك المخلوق ومنها الوحي المأمور يتهيأ بها الإنسان للقربى من الله وللتلقّي من هديه وللقائه يـــوم الدين، ولكنها مسنونة بخيار في المشيئة وبعلم يمكن أن ينفذ به الإنسان إلى الغيب عبر الأسماء للأشياء، سماتها آيات دالة وراء عالم الشهادة إلى الغيب – إذا تم ذلك فأمر الله للملائكة أن يقعوا للإنسان ساجدين لتكون من طاعتهم المسنونة لأمر الله إلقاء إلى الأنبياء منه بالوحي وحفظاً له وأيداً واستقبالاً بالتحية في الجنة إن ذهب مؤمناً أو إيقاع أمـــر عقوبة عليه إن عصى أمر الله. والبشر من مادة أرضية غير خلقة الملائكة الروحية المحـــضة، فالسجود له لا لأصله وإنما بأمر الله ويمضي نهجاً في خدمته إذا مضى هو في طاعة الله مثلهم.

﴿فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠)

فـــسجد الملائكـــة كلهم أجمعون. والملائكة ذوو طبع طوع لله لا يعصون الله ما أمـــرهم ويفعلون ما يؤمرون سنةً للتعامل مع آدم وذريته أبداً، وإن كانوا لا يدركون كيف يستخلف الله في الأرض من يكون فيها فاسداً لا صالحاً مثلهم.

﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣١)

شذّ عن طاعة أمر الله بالسجود لآدم إبليس. وقد كان من الجن لكنه غير مطوع أبداً كالملائكـــة وإنما هو مخير، فاختار أن يأبى أن يكون من الساجدين لآدم. تلك مشيئته منذ الأزل عصياناً لأمر الله المباشر فمازه ذلك لا عن الملائكة وحسب بل عن آدم المخير مثله، إذ قـــد وقع منه أن طاوع إغواءه فعصى أمراً لله. لكنه تاب ورجع مع الساجدين لأمر الله في صـــحبة الملائكة في الدنيا مؤمناً وفي الآخرة. أما إبليس فقد كان من المبلسين، عمداً في المعصية والانصراف عن المتاب فيأساً من مسلك أمر الله ومن وقع رحمته.

﴿قَـــالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لأَِّسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٣٢ – ٣٣)

قـــال الله تعـــالى عندئذ – وهو العليم بفعل خلقه ولكنه يسأل إبليس ليُحق عليه المـــسئولية بشهادته هو إذ خاطبه: ما له، ماذا به من الأعذار ألا يكون من الساجدين

لآدم مع الملائكة طاعة لأمر ربه؟ قال إبليس إنه لم يكن ليسجد لبشر - خلقه شاخص البشرة ليس غيبي الكيان مثله - خَلْقه الرب المخاطب من صلصال من حمأ مسنون - مادة أرضية دونه هو من نار، فهو لا يأتمر بأمر الله سجوداً لآدم، لا يرى فيه ولو خلقه الله وسواه ونفخ فيه من روحه إلا صورة الخلق ومادته الطينية المفضولة من مكونات خلقه هو. وبذلك الهوى يتمرد إبليس عن أمر الله المباشر ويشرع نهج المفاضلة بين المخلوقات بمادةِ أصلها وعرقها لا بكسبها طاعة لله بميزانه تعالى العادل بين تفاضل الكسوب.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣٤ - ٣٥)

قال الله تعالى يخاطب إبليس من ثَم بحكم أمر مفعول: فليخرج منها، من دار القدس الغيبية والقربى من الله مثل الملائكة الطائعين المسبحين حول العرش، وليهبط إلى العالم المحجوب عنه تعالى، فإنه رجيم مقذوف عليه بكل قَدَر يدفعه مدبراً عن الله. وأنذره كذلك إن عليه اللعنة - كلمة الطرد من رحمة الله وقرباه - ماضيةً إلى يوم الدين إذ يترتب عليه فيه الحساب والجزاء الأفعل.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٣٦ - ٣٧ - ٣٨)

قال إبليس منادياً منتسباً إلى ربه رغم تلك المعصية الكبرى راجياً منه تعالى أن يُنظره ويؤخر عقابه ما دام ملعوناً إلى يوم الدين حين يحق العقاب على البشر أيضاً. جاوبه ربه مخاطباً أنه من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم - الأجل المسمى المعلوم ضبطاً عند الله لقيام يوم الدين، كذلك لئلا يحسب أن يترك سدى إلى الأبد.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣٩ - ٤٠)

قال إبليس منادياً ربه أيضاً أنه بما أغواه الرب المخاطب بأن بسط له مشيئة الغواية لا كالملائكة المطبوعين على الطاعة من الملأ الأعلى فغوى فمدّ ربُّه له وأغواه في مسير مشيئته وبما جرّه إلى الغواية من امتحان بأمر السجود من أجل البشر، ليزيننّ - وعداً مؤكداً - لهم في الأرض المستخلفين فيها من زينة تفتنهم ليلهوا عن ذكر ربهم أو

ينـــصرفوا بشهوهما عن طاعته وليُغوينّهم إضلالاً بكل الحيل أجمعين ما تيسر له ذلك، لأنهم مثله مشيئته عفواً أن يفعلوا ما يشاءون فهم من صنفه لا مثل الملائكة ولذلك هو الغـــاوي منذ الأزل والعالم المباشر لله كفيل بهم هم المحجوبين بعالم الشهادة. ذلك – كمـــا يقـــول أيـــضاً مخاطباً ربه ومستدركاً – إلا عباده تعالى المخلصين إذ يعلم أنهم مؤثِرون بمشيئتهم وذكراهم لحق العبادة لله الإخلاصَ له إيماناً وعبادة وطاعة مستعيذون ربِّهـــم من إغوائه هو ولا يملك عليهم هم سلطانَ قوة إغواء غالب مثل سائر بقية عباد الله الذين تلين مشيئتهم لمطاعة إغوائه.

﴿قَـــالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤١ – ٤٢)

قـــال الله تعـــالى في وجه إبليس إن هذا صراط مستقيم عليه، هذا بيان لصراط قدره المـــستقيم الذي كتبه على نفسه بمشيئته الكبرى، أن يبسط لعباده البشر المشيئة طوعاً ويمد لهـــم في الحـــياة الدنيا بلاء ويخلّي بينهم وبين الهدى المنـــزل عليهم منه وحياً أن يؤمنوا أو يكفـــروا بـــه، وبينهم وبين إبليس مجاهدة أو مطاوعة، وبينهم وبين الملائكة مقاربة وأيداً ومدداً أو مجانبة، ثم يوم الدين يقوم حسابهم كل مسئول بكسبه مكتوباً بعلم الله ومشهوداً بالبيـــنات لـــيحق الجزاء، فالذي يقول إبليس من وعيد الإغواء فيهم ليس بجديد على الله ليـــبدل بـــه قدره في أمر الإنسان بل الله يعلمه سلفاً ويدعه يجري ليحق على إبليس عقابُه وعلـــى مـــن اتبعه عقابه معه. ومعنى خطاب الله ﷻ لإبليس أن عباده ليس له هو إبليس علـــيهم ســـلطان، فمـــا له بقدر الله يد قوة قاهرة تُكرههم على مطاوعته في طريق البغي والعـــصيان إلا من سوّلت له مشيئته، لأن لهم خيرة حرة حتى تلقاء أمر الله وبها تحق عليهم المسئولية. فالخطاب ينفي لإبليس سلطاناً عليهم إلا من شاء أن يتّبع ضلاله ليكون معه من الغاوين لا من شاء أن يجاهده ويخلص لهدى الله ليكون من المخلصين.

﴿وَإِنَّ جَهَـــنَّمَ لَمَـــوْعِدُهُمْ أَجْمَعِـــينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (٤٣ – ٤٤)

ومضى خطاب بيان المصير بعد حرية المسير: أن جهنم – موقع العذاب الذي يتجهّم لمشَاهده – لموعدُهم أجمعين أولئك الغاوين تابعاً ومتبوعاً يوم الدين لا يفلت منهم أحد بل

يوافـــون وقع وعيد النذير السابق وفاق ما كسبت أنفسهم من الغواية[١]. وجهنم لها سبعة أبـــواب. ذلـــك أن مداخل إبليس الشيطان بمفاتن الهوى عند بني الإنسان شتى. و'السبع' لـــيس هـــو دائماً في التعبير العربـــي برقم الحساب المحدود، بل هو أحياناً دلالة السعة في الكثـــرة مثل التعبير 'السبعين'. فحيثما أغرى إبليس أو ذريته عبداً من عباد الله أتبعهم في معـــصية يـــورثه ذلك العذابَ في النار بقدر عظم المعصية نوعاً ووقعاً ووُسع المعاصي في احـــتمال التكلـــيف والمـــسئولية، فحيثما حق ذلك دخل العصاة من باب هم له جزؤه المقسوم، والأبواب مُعدّة لضروب عذاب تُكافئ عين المعاصي أو أطباق شدة عذاب توافق مبلغها. وفي القرآن يشار للنار بأسماء شتى: جهنم ولظى والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاويـــة، وتلك أوصاف لمقادير العذاب فيها وضروبه، وفي القرآن ذكر لضروب العذاب في الـــنار ولدركها الأسفل الأمثل لمن استحقه بكفر نفاق وللعرض عليها غدواً وعشياً قبل يوم القيامة حين دخولها بأشد عذابها كمصير آل فرعون. وذلك كله ذكر أبواب تفتح لمن حقـــت عليه عيناً، ليدرك الناس من أيّ حيث يحق عليهم العذاب بوجهه ووقعه يتلاومون فيه ويتخاصمون ويرجو اللهَ مضاعفتَه بعضُهم لبعض إذ تقسمتهم الأبواب المتكاثرة بقسمة الكسوب العاصية ضروباً وأقداراً وبميزان الحساب والجزاء المختلف بينهم[٢].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٥)

الآيـــة تقـــرر – لا خطاباً لإبليس في مجادلته بل خطابَ بُشرى لعباد الله الذين يبـــتغون الـــسّعد واتقاء الشقاء في الآخرة: إن المتقين الذين أخلصوا لله إيماناً تُتقى فيه الشوائب فعكفوا على طاعاته واجتنبوا قرب حدود المناهي خشية ما يغضب ربهم ويجر عليهم عذابه – إنهم في جنّات – روضات محفوفة بالشجر طيّبة الظل والمتاع – وعيون تروي الجنات وتحفظ زينة خضرتها وزهرتها ودوام ثمرتها.

(١) في أمـــر خلـــق الإنـــسان الأول وســـجود الملائكة له وإباء إبليس وعداوته أبداً للإنسان: راجـــع الآيات ٣٤ – ٣٩ سورة البقرة، والآيات ١١ – ٢٤ سورة الأعراف، وانظر الآيات ٦١ – ٦٥ ســـورة الإسراء، والآية ٥٠ سورة الكهف، والآيات ١١٥ – ١٢٤ سورة طه، والآيات ٧١ – ٨٥ سورة ص.

(٢) في ذكر أبواب لجهنّم: أنظر الآية ٢٩ سورة النحل، والآية ٧٦ سورة غافر. وفي ذكر أبواب الجنة راجع الآية ٢٣ سورة الرعد وانظر الآية ٥٠ سورة ص، والآية ٧٢ سورة الزمر.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ﴾ (٤٦)

يُـــزف أولئك التقاة إلى الجنات بدعوة إكرام أن يدخلوها حاقّة لهم، بسلام تحية تتلقاهم بها الملائكة من كل الأبواب وسلام تحية أكبر من رب رحيم، آمنين لا خوف علـــيهم أبداً من غواشي قتر أو ذلة أو كدر للنعيم من مثل ما يرون من مشاهد عذاب وخصام لآخرين في النار.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧)

وثمّـــة في الجنة يكون قد نـــزع الله بأقداره التي تطبع نفوس المتقين جزاءً مثل ما جاهـــدوا من أجله في كسب الدنيا، تطهّر صدورهم من طوايا الغل والحقد التي ظلت في الدنيا تراودهم بها فتن علاقات ذات البين بالهوى ونـــزغ الشيطان. فحالهم غدا أن يتـــصافوا إخواناً عامرة صدورهم بالإخاء الذي سعوا إليه في الدنيا مودةً بين المؤمنين، فهم على سرر مصفوفة متقابلون ليتمتعوا بالراحة والرفقة الحسنى.

﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (٤٨)

والمتقون في الجنة كذلك لا يمسهم فيها نَصَب – لا يقاربهم أيّ مساس من إعياء جهـــد لنيل نعيم المتاع ورضوان الله مثل ما كانوا ينصبون في الدنيا اجتهاداً في سبيل ذلك. وما هم منها بمخرجين لأجل معدود فهم خالدون فيها أبداً[(١)].

﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩)

نبأٌ يكلفَ اللّهُ رسولَه البشير ﷺ أن يبلغه لعباده. وذلك في سياق شأنهم مع إبليس الـــذي أنكر كرامتهم وفضلهم عليه منذ الخلق الأول وتوعّد بإغرائهم إلى يوم الدين، بينما تعهّد الله لهم بالهداية يُبلّغها لهم ويؤيدها فيهم الملائكة والوقاية من سلطان إبليس حـــتى يـــصيروا وفق خيارهم وكسبهم في الدنيا إلى ما مضى بيانه. النبأ المأمور ببلاغه الرّســـولُ أنـــه هـــو تعالى – حقاً لصفة ذاته – الغفور الرحيم. حتى إذا لم يبلغ العباد بالـــتقوى أبلـــغَ مقام ووقع منهم القصور عن درج الإحسان بلمم وذنوب، وحتى إذا راودهـــم الـــشيطان بإغرائه كما فعل بأبيهم آدم لكن جاهدوه تائبين، إن الله الغفور

---

(١) في حال مصير المؤمنين في الخلود ونـــزع الغل من صدورهم: راجع الآيتين ٤٢ و٤٣ سورة الأعراف.

واسع المغفرة لشتى ذنوب المستغفرين، الرّحيم الذي يلقى صوباً من رحمته البالغة على من هو أهل لها من عباده لاحقاً منه بل لطفاً من ربه.

﴿وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ﴾ (٥٠)

وتمام النبأ الذي يُبلغه الرسول النذير من الله عبادَه: أن عذابه هو العذاب الأليم للذين لا يستغفرون بل يصرون على المعاصي كفراً أو فسوقاً مستسلمين لإغواء الشيطان مفتونين بالدنيا أكلاً ومتاعاً حاضراً لاهين أملاً زائفاً. وبالآية والتي سبقتها تتكامل في العباد حوافز الطاعة من البشرى وزواجر المعصية من النذير وتعدل فيهم ميزان الرجاء والخوف تلقاء الله لئلا تدعوهم فتن البلاءات في الدنيا إلى الإعراض والهزؤ برسالة كتاب العلم والهدى الموحى من الغيب من عند الله، كما بدا من كسب الذين كفروا منذ أوائل السورة هوى منهم واستجابة لوعيد الشيطان منذ الأزل أن ينالهم بإغوائه.

عموم المعاني (الآيات ١ – ٥٠):

كثير من المسلمين اليوم كسائر ذوي المذاهب الدينية يحسبون بنية دينهم في هوية موروثة بها يتسمّون وإليها ينتمون مَيزاً عن الآخرين. وإنما الحقّ أن القرآن هو بيان هوية الدين للمسلم، هو له أصل هداه، وأساس الحياة الذي يميزه بحقٍ كل ما سواه باطل، لأنه الرسالة الخاتمة والأمر الفصل لله إلى عباده آخر الوفاء من الله بعهده لهم منذ مهبط آدم ليحتجب وذريته دون الملأ الأعلى في عالم الأرض والشهادة والدهر وحياة الابتلاء الدنيا التي تهيؤه للمرجع إلى الله في أخرى الجزاء. والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فقد كانت الخاتمة التي حملها القرآن مصوبة إلى الأرض والناس كافة، واصطفى الله لأول خطابها العرب أمّة وسطى في الأرض ليتجلى فيها أثر هدى الله نهضة من درك الجاهلية المحيط إلى مرافئ الإسلام. واجتبى منهم محمداً ﷺ ليكون النبي الرسول الخاتم بادياً في مثال التزكّي بالدين من أمّي إلى رسول أمين صادق البيان دعوة وقدوة بكل حياته التي اتسعت سعة هدي القرآن لباطن اليقين والقصد المؤمن وظاهر تعبيره شِرعة أقوال طيبة وأفعال صالحة في شعائر الذكر والعبادة الخالصة

هيئةً ونية ومعاملات المجتمع بالحسنى بين ذوي القربى والعامة ومكاسب العلم والمعاش والزينة بالمعروف ومبادلات التجارة والخدمة بالقسط وإقامة السلطان بالتقوى وتسيير العلاقات جهاداً أو تعاوناً أو سلاماً مع سائر الأقوام ذوي الملك والسلطان في الأرض. واتخذ الله لذلك اللسان العربي لينقل الرسالة بنصها القرآني المباشر إلى الناس جميعاً إلا من لزم له البيان بلسانه، ولأن حرفه خير تعبير عن هدى القرآن، إذ اللغة العربية أغنى اللغات اتساعاً لتكثيف هدى الدين الشامل وخصوبة للتطور والاتساع أبداً ويسراً للانتشار بين الناس.

مفتتح السورة حروف مثل مفتتح السور التي قبلها فيها نبأ المرسلين، ثلاثة تمثل سائر الحرف العربي بياناً لأمة الخطاب الأولى التي تنزّل فيها القرآن واضحاً متجلياً بأسلوب بديع ومعاني من علم حقٍ وحكمة عظيمة ممّا يعجز البشر الإتيان بمثله ويشهد أنه كتاب عزيز تنزيل من اللهِ الحكيم الحميد. فمن تلك الحروف وأمثالها تتركب الكلمات فتتألف الآيات فصائل موزونة لجملة سور النص القرآني. وهي آيات الكتاب المعروف إذ لم يكن قبله من كتاب وحي عند العرب معهود مسطوراً بالخط في طرس ليُحفظ موثقاً باقياً منشوراً بالعرض على القرّاء أجمعين، وهي آيات قرآن تلاوة لجمع منطوق حروفه ليُحفظ بالرواية عبر القرون وينشر بالإسماع للمخاطبين كافة. وذلك الكتاب قرآن مبين لهداية الحياة كافة للناس أجمعين منذ تنزّله إلى يوم الدين.

ولأول تنزّل ذكرِه بعد جهالة به وكلما تلا تجدد ذكرِه بعد هجر ونسيان له من بلى التدين، قد يستفز وقعه كفراً مطلقاً كأول عهده أو غاشية كفر ببعضه فيما يلي. ذلك أن البشر حيثما غاب عنهم ذكر الله وأزل الغيب يتعلقّون بالمشهودات في الأرض تفتنهم مادتها أكلاً وتمتعاً ويُلهيهم الأمل لأمد الدهر المشهود فينكرون رسالة الغيب ويوم الآخرة أو يغفلون عن ذلك، لا يتذكرون أنه سيأتي يوم تفنى فيه الدنيا وينقطع أملها وينقلب أمنية لهم لو كانوا فيها مسلمين لهدى الغيب الذي حق عليهم، بل ينسون أن قروناً ماضية من الناس كانوا في متاع وفتنة فكفروا برسالات الله من الغيب فكانت عاقبتهم الهلاك بقدر الله العاجل المكتوب الذي يقع لأجله لا يسبق ولا يستأخر، قبل أن يحل أجل عذاب الآخرة. ولأن القرآن كتاب وحي من الغيب بهدى

جديـد نـزل غريباً منكراً على معهود الفتنة بالعالم المشهود وعلى مذهب الظنون المـوروثة ومنهج المعروف الراهن. فالسواد الأعظم للمخاطبين أول العهد أعرضوا عنه ورمـوا الرسـول الـذي جاء به بالجن وهو مما يعرفون ويألفون من باطل الغيبيات. وكـذلك يمكـن أن تذهب الحملة على تجديد التذكير بحق القرآن الذي ضيّعه ورثته، فغـريب القول يمكن أن يُظنّ أنه من لغو الكلام بإيحاءات نفسية من الجن. ولكن الله حفـظ القـرآن لأول مصدر وحيه في الملأ الأعلى من الجن ألا يتسمعه شيطان منهم فيـنقله تخاليط إلى البشر في الأرض. وكذلك حفظه الله وأحكم آياته مكتوباً مقروءاً بصورة حروفه ومنطوقها متلوّاً من الرسول ليبلغه، إذ قد يلقي الشيطان جناً في مقروءه مـا يـربك السامعين أو إنساً بما يتقصّد حق القرآن يحرّف كلمه أو يزيد بمقولاته أو بكـتابة يـده ما يفتريه منسوباً إلى الله. فلولا أن قيّض الله للقرآن بعد أن أحكم آياته للرسـول من جمعوه ضبطاً وأحاطوه بعلوم قراءةٍ وكتابة وقراءة ورواية وطريقة لجرى علـيه ما جرى لسابق الكتب لاسيما أنها مكتوبةٌ بخط مضطرب في ورق واه قبل أن تحـسن الطـباعة ويتطور التسجيل الحافظ للقرآن ولما بقي من الكتب الأولى. ولأن الغـيب غـير مـشهود فإن المرهونين لعالم الشهادة كانوا لأول عهد القرآن وسائر رسـالات الوحـي قبله يطلبون تعزيز دعوى الوحي بآية من واقعة معجزة محسوسة تـصدّق أن لمن يتلو منـزلات وحي صلةٌ بالقوى الغيبية وراء مسنون طبيعة الأشياء. لذلك العرب الذين عرفوا الملائكة بما كانوا يفترون عنهم أنهم بنات الله من الجن طلبوا نـزولها إلى الرسول. وكذلك قد يطلب بعض الناس من قارئ القرآن الداعية لهديه أن يحدث معجزة إكرامٍ له من الله وإلجاء لهم مشاهدين أن يصدقوه. ولئن تنـزلت آيات معجـزة قديما لأنبياء لأن الأقوام كانت ثقافاتها من فرط الجهل والسذاجة لا تعهد من الغيبـيات سوى أوهام الظنون نظراً أو السحر المشهود فعلاً، فكانت الآيات المشهودة تُطلب لكن قد تقع فتنسب للسحر المعهود ويصرف التصديق بالحق لأجلها. وفي عهد الرسـول الخاتم برسالة لكل الناس في التاريخ لا في حاضره بمستوى جهله لم تُنـزل علـيه آية معجزة برغم إلحاح الطلب. فلو فتح الله بأقداره لأمّة الخطاب تلك باباً من الـسماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إن ذلك تمويه للنظر وسحر للنفوس. وكذلك اليوم

يـــضل كثير من رجال الدين الإسلامي والكتابـــي فيتخذون إيقاع ظواهر المعجزات منهم أداةً فاعلة للتبشير، ولكن لو صدّقهم عوامٌ عرضاً كذّبهم سواد أهل الثقافة العلمية الطبيعية التي تتمسك اليوم بالمسنون في قانون الطبيعة وقد تُفرط في ذلك.

إن الله الـــذي كـــان يُنـــزل قبل القرآن أحياناً آيات معجزة تقع بإذنه لتصديق الأنبـــياء، قـــد بسط حول الإنسان لكل الزمان مخلوقات من السماوات والأرض وما بينهما أقداراً معجزة لغيره تعالى لم يجرؤ المشركون أن ينسبوها للآلهة التي يتخذونها من دونـــه. وكـــونها موزونة منظومة لا تضطرب ولا تختل يجعلها آيات بينة مشهودة لله الخالـــق المدبـــر الواحد. ولئن غفل عما في تلك المشهودات من آياتٍ الأولون بينما يدركون ظاهرها ويعيشون فيها، فإن تلك فتنتها قد يقف الإنسان عندها فلا ينفذ إلى دلالـــتها على من خَلَق وجودها ونظم حركتها ودبّر حركتها المسنونة. ولئن انبسطت الآن العلـــوم الطبيعـــية في شأن الأفلاك والأرض والنبات والماء وغيرها فإن كثيراً من العلمـــاء بهـــا لا يعلمـــون مغزاها دلالة على الخالق وأقداره، يعلمون ظاهراً من الدنيا وكلمـــا كثّفوا تدقيقهم في شعاب حقائقها وسننها ألْهتهم عن الأصل الأزلي لوجودها القـــيوم على تدبير سيرها بسنن مطبوعة وعن وضع الإنسان الذي انماز فيها بمدى من حـــرية المشيئة يشذ عن نظام الخلق لو انطلق فيه وتركه ربّه سدى بغير هِدية وشرعة مـــسنونة تهدي وتضبط ظنّه العفو وخُلق تصرّفه البوح. وهم كذلك كلما تمكنوا من السيطرة على الأشياء والقوى الطبيعية لمنفعة الإنسان غرّتهم قدرته وغفلوا عن ذلك آية لله الـــذي سخرها نِعَماً للإنسان، وكان ينبغي كلما تعلّم الإنسان أن يزداد إيماناً بالله وقدرتـــه وحكمته وصفاته العليا المتجلّية ويزداد شكراً وحمداً لنعمه المتضاعفة ويجتاز الابـــتلاء ألا يفتنه الظاهر وحب المتاع في الدنيا عن يقين الإيمان والحمد والشكر لربه الأعلـــى. فإن الله خلق السماء وجعل فيها ضياء وزينة للإنسان وخلق الأرض وجعل فـــيها مداً منبسطاً ورواسي مستقرة وأنبت فيها من كل شيء موزون، وأنـــزل على الإنـــسان فيها من خزائن رحمة رزقه بقدر لو فاض لفتنه بغياً ولو قصر قنوطاً، وأرسل الـــرياح لتلقّح السّحاب وتسوقه لينـــزل الماء ساقياً ومحفوظ المصادر والموارد. إن الله كذلك جعل آيةً مشهودة في سنة دورة الحياة والموت للنبات والحيوان والإنسان نفسه

ليتبيّن أنها إشارة له وشهادة لقدرة الله الحي الوارث ميّت خلقِه لأنه هو لا يموت ولا يُعجزه أن يبعث ميّت الإنسان لحياة أخرى بسنن طبع لا موت فيه وبحشر وحسابٍ وجزاء لطبع مصيره الخالد، إنه تعالى حكيمٌ في جعل الإنسان سلالة متعاقبة في دهر الدنيا كل قرن يُبْتلى بما يليه، عليمٌ بما مضى من سلف الإنسان وما هو ماضٍ من خلفه حتى منتهى أجل الدنيا ووضع الموازين للحساب في الآخرة لتقرير المصير ببيّنة من علم الله لُمختلِف رصيد كسوب عباده التي يحقّ وفاقها الجزاءُ.

وقد قدّر الله لأول دورة الوجود الإنساني – قبل سريان سنّة التعاقب موتاً وحياة – تجربةً في الملأ الأعلى لآدم أبي البشر معبراً إلى بلاء الدنيا الممتد زمانها حتى يرجع كل الإنسان إلى ربه في أزل الغيب. ويُنبئه الله بوحي الكتاب بذلك العهد الأول ليعلم أصل خلقه وتكريمه بقُدرة علمٍ كسبي ومشيئةٍ اختيار واكتنافه بقوى غيبية مختلفة يتوازى موقفها منه قبل هبوطه إلى الدنيا ثم تلازمه فيها بقدر موزون يستوي ما له وما عليه منها حسب ما يشاء هو حتى يلقاها أبداً في الآخرة حيثما يسوقه فيها مسعاه في الدنيا. فهو إنساناً خُلق من أصل أرضي من صلصال حمئها المسنون إذ هُيئ ليستخلف فيها مسخرة له ابتلاء ليُفتن وحلاً فيها أو ليتخذها زاداً نحو لقاء ربه إذا انقضى أجله فيها. أما الجن فقد خُلق قبله من نار السموم، وكذلك خلقت الملائكة من روح الله وأمرت لتسجد لآدم الذي نُفخ فيه من روح الله فأطاعت وإن لم تفقه مغازي حكمة الله في بسط حريته. أما إبليس الجان الذي أمر كذلك فأبى واستكبر إذ كان في خيرة بمشيئته، فاتّخذ من مادة أصل الخلق معياراً لفضله هو والسخرية من البشر. فعاقبه الله لعصيانه بالطرد من قرباه. لكنه دعا ربه لإنظاره من الموت حتى يوم البعث والدين، فلما استجاب له الله تعهّد بملازمة الإنسان الذي كُرّم عليه أبداً ليزيد له ما في الأرض فتنة ويُغويه حتى لا يفضل عليه في الحياة وعند المصير قربى إلى الله إلا مَن جاهده فخلص منه وأخلص لربه. وثمة أصول المواعظ من ذلك العهد الأول للإنسان: أن المشيئة الحرة له امتحان مثلما كانت للشيطان فأن يجتنب مثاله ظناً وفعلاً ويتقي إغراءه وإضلاله. ولكن كثيراً من البشر طاوعوا فتنته وقدوته فأصبحوا يتساخرون بالنسب والعرق مثل ما ظنّ وفعل بهم إبليس ونسوا أن الفضل عند الله بالكسب الصالح، أو استغلوا حريتهم لعصيان

الذي خلقهم وهداهم بأمره وأصروا على التمادي فتعرضوا للطرد من رحمة الله. والأَولى بالإنسان أن يطيع الله كالملائكة وإن كان ذلك بخياره لا يساخر ولا يتفضّل على أحد إلا بالتقوى، وأن يسجد لله طاعة كالملائكة السّاجدين ونِعْم أولئك رفقةً له في الطاعة، فسيلقاهم في دنياه يؤيدونه ويمدّونه بالخير ويصلّون عليه وفي آخرته رفيقَ تحيةٍ وسلام، وإن غشيته من الشيطان طائفة غواية فأصابته ذلّةُ عصيان عارضة فليتب إلى ربه لا يستكبر بل يذل ويستغفر كأبيه آدم فإن الله توّاب. والله في إطار مشيئته القدرية الكبرى لمسير الإنسان ومصيره رفع عنه إصر الجبر منه تعالى وتركه في خيرة فما جعل للشيطان عليه من سلطان، فإن شاء في سير حياته آمن بربه فاهتدى وأطاعه وإن شاء طاوع إغواء الشيطان فضلّ وعصى ومن ثمّ المصير: الغاوون مع إبليس في جهنم والمتقون المخلصون لله إلى الجنة. والغواية دركات، منها أن يبلُغ إبليس بعباد الله الكفر يغرز فيهم فتنة الهوى والمتاع في سياق المشهود. ولكن الكفر طبقات في غمر الوفاء بعهد الله والعلم الموقن بحقائق الوجود وحق الهدى. فالقرآن يذكُر أحياناً ما هو أقرب إليه من الإيمان، وما هو كفر أئمةٍ فيه عليهم أثقال ما على عوام الكافرين، وما هو ببعض فرائض الإيمان بالله واليوم الآخر ورسله وكتبه وما هو بها جميعاً، وما هو كفر صريح مجاهر وما هو في نفاق. ولكن المسلمين أحياناً ينحصرون بين مطلق الكفر ومطلق الإيمان، فبعضهم لا يحكم بالكفر إلا على صريحه بأصول الدين ويتقي الحكم به على من في الملة ذاهباً لتأوّل مقولاته وأعماله المنكرة إلا إن شهد هو بكلمة الكفر البينة، وبعضهم يتنطع فيُكفّر بسعة. والحق أن الأمر نسبيّ والله اعلم بقدر دَركه. والمعاصي كذلك لاسيما إن لم تترتب على كفر الملة الصريح لتُثقل حمله بل عرضت للذي آمن بأيٍ من درجات الإيمان ضعفاً أو زيادة، فهي نفسها لا يستوي درجها في مبلغها من درك الحرمات الأخطر كحرمة النفس وحصانة الزوجية وبرّ الوالدية أو ما دون ذلك كالظلم في العرض أو المال، ولا يستوي مدى وقعها المسئول عنه بعدّ المظلومين فساداً في الأرض أو طغياناً وتجبراً في السلطان أو تأسيس نظام عام للربا أو لدعوات المنكرات. تلك معاصٍ أوزارها كثيرة ولو استوى العصاة ولكنها تتفاوت حسب مدى مبلغها. والعصاة لكلٍّ سؤاله فجزاؤه وفق وسعه هو في محمل أمانة التكليف وحسب اللطف أو الشدّة في البلاء.

وذلـــك البـــيان كله لفقه تعبير القرآن أن لجهنم ذكر لها بعدةِ أسماءٍ وسبعة أبواب، وهو تعـــبير عربـــــي عن كثرة الصفات والأبواب مأوى ومداخلَ لوجوه من العذاب وفاق الكـــسب أو إطباقٍ منه عدل مبلغه غواية. فلكلٍّ ممّن سبق ذكره - والله أعلم - مدخله ولكل باب من أبوابٍ جهنم منهم جزء مقسوم. أما المتقون فهم كذلك درجات وللجنة أبـــواب وأسمـــاء، كـــذلك يدخلونها بسلام آمنين، ومن بعد لا يَنـــزغ الشيطان بينهم كالدنـــيا، بل يُنـــزع ما في صدورهم من غلٍ إخواناً متقابلين، ولا يلقون ما عهدوا في الدنـــيا لكـــسب المعاش والمتاع من جهد ليرزقون ويتمتعون بلا نَصَب، ولا خوف من المـــوت كمـــا سبق بل لا يخرجون منها خالدين. ونبأ الغيب الحق بشارة ونذارة من الله لعـــباده: لمن آمن و لم يتّبع الشيطان واتقى ربه وإن طاف عليه غاش من الشيطان استغفر وتـــاب - لـــيعلم أن الله واسع المغفرة بالغ الرحمة، ولمن لم يحذر اتّباع الشيطان فأخرجه على أمر به متمادياً في المعصية ليعلم أن عذاب الله عذاب أليم.

ترتيل المعاني (الآيات ٥١ - ٨٤):

﴿وَنَبِّـــئْهُمْ عَـــن ضَـــيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ (٥١ - ٥٢)

أمـــرُ الله رســـوله المبلّغ القرآن إنباء العباد بربهم غفوراً رحيماً وبه ذا عذاب أليم ليميـــزوا حظوظ مصائر المخلصين تقوى لله من الغاوين اتباعاً للشيطان، يتلوه في هذه الآيـــة تكليف إنباءٍ بما يُصدّق ذلك ويُتمه واقعاً فيما سلف. وذلك هو إخبار عباد الله الذين يخاطبهم عن عظيم ما جرى عن ضيف إبراهيم عليه السلام. وهو الأب لأمّة الخطاب الأولى العـــرب، وهو ما تبيّن أن الذين نـــزلوا عليه ملائكة أدرك بعداً أنهم ما تنـــزّلوا إلا بالحق إنفاذاً لما حقّ على ظالمين بعد سبق النذير، ذلك ليتبع المخاطبون تمام قصة ما جـــرى للضيف عند لوط وليتعظوا أن تنـــزل الملائكة الذي يلتمسونه من الرسول آيةَ تـــصديقٍ للوحي الذي يدعيه إنما يقع إنفاذاً لحق نذيره، وليعلموا فيما حق به تنـــزّلُهم على قومٍ لوط أن إبليس يبلُغ بإغراء البشر كما توعّد مدى بليغاً من كبريات المعاصي فحشاً كما جاهر هو بمعصية ربه عمداً وإصراراً بين يديه.

مـــا نــــزل الملائكـــة على إبراهيم بوحي في صحفه كما عهد من الملائكة بل نــــزلوا ضيفاً، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً تحية طيبة وأمنا. ولئن كان ردّ التحية أولى وقـــد ذكر وروده من إبراهيم في سياق رواية في القرآن أخرى للأمر، فإن الذي يبدو من هذا السياق أنه مضى وصرح لهم مباشرة بوقع مشهدهم، بأنه وأهله منهم وجلون تـــضطرب نفوســـهم ممـــا يـــتوقعون من محذور قادم كما عرف هو من سنن الله في تنـــزيلهم.

﴿قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ (٥٣)

قال الجماعة الضيف لإبراهيم عليه السلام ألا يوجل، إنهم ملائكة نـــزلوا أولاً عليه هو خاصـــة يبشرونه بغلام عليم، فهم خَلقٌ ما نـــزلوا من الغيب إلا أتوا بوحي أو مدد أو بشرى خير لنبـــي أو للمؤمنين. والغلام الذكر كان حاجة إبراهيم ودعوته، لاسيما أن بُـــشّر أن سيكون عليماً لن تغلب عليه الجاهلية الفاشية في الناس حوله إذ لم يبق لأبيه كثير عمر ليزكيه ناشئاً، فتلك بشرى متباركة.

﴿قَـــالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾ (٥٤ – ٥٥ – ٥٦)

قـــال إبراهيم عليه السلام لضيفه الملائكة: أبشّروه على أن مسه الكبر وسألهم فبمَ إذاً يبـــشرونه؟ يرتجـــي بـــياناً شافياً يوقع طمأنينة ويشفي قلة الرجاء في تلك الحالة من الـــشيخوخة للـــوالدين. قالـــوا له جواباً أن بشروه بالحق المقطوع به واقعاً الصادق موعـــوداً، فأوصـــوه لذلك ألا يكون أبداً من القانطين من رجاء عطاء الله. واستدرك إبـــراهيم بعـــدما غـــشيته مـــن نـــزعة الاستيئاس، قال: ومَن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون – الذين لا يهتدون للإيمان بقدرة الله في بسط رحمته ورزقه مهما يُبتلى العباد بإلحاح الحاجة وطول عهد الانتظار لقضائها.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٧)

لكن إبراهيم عليه السلام بعدما هدأ روعه من تنـــزّلِ الملائكة عليه وجاءته البشرى عبّر عما ظلّ ينتظر منهم من نبأ عن أمر آخر ذي خطر تنـــزّلوا بشأنه، فقال سائلاً أن ما خطبهم؟ موجهاً النداء والتنبيه إليهم ليتلقى البيان منهم مرسلين لإنفاذ ذلك الأمر.

﴿قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٥٨ – ٥٩ – ٦٠)

قال الملائكة جواباً لإبراهيم عليه السلام أنهم أرسلوا – كما ظنّ هو من أول الأمر جنوداً لله – لقوم مجرمين قاطعين عهد الله جانين على حدوده. إبراهيم كان يلم بالفساد الفاحش للقوم الذين كان لوط رسولاً فيهم يكابد في دعوة التطهر والإصلاح ويجاهد مصابرة ويلقي عليهم بالنذارة مما يفعلون. فعلم إبراهيم أنها رسالة إهلاك ناجز فأشفق من عموم الوقع وجادل لولا أن الملائكة وأمرهم ماض استثنوا له آل لوط ابن أخيه فطمأنوه أنهم منجوهم بتدبير خاص أجمعين، لكنهم أتموا البلاغ فاستثنوا امرأة لوط من التنجية إذ قالوا إنهم قدروا – حكم مباينةٍ عليها بأمرٍ أصلُه في الملأ الأعلى – إنها لمن الغابرين الذين يبقون وراء سرية النجاة لتمضي مع الهالكين[1].

﴿فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ (٦١ – ٦٢)

وذهب الملائكةُ – بعد تبشير إبراهيم عليه السلام بغلام وإنبائه بوقع ذلك النذير – مقبلين على شأنهم. فلما جاء آل لوط المرسلون نازلين بيته لم يتعرفهم ورأى في مقدمهم محذوراً مما يعهد في قومه على ذكور أبناء سبيل لن يخلّوهم دون محاولة نيل مبتغى الفاحشة فيهم. ولذلك قال لهم: إنكم قومٌ منكرون – يصارحهم أنه لا يتعرفهم وجلاً من محذور يخشاه.

﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٦٣ – ٦٤)

قالوا يثبّتون لوطاً من وجله ويبشّرونه بما يطمئن إليه إنهم ما جاءوا عفواً بل جاءوا بما كان يمتري قومه الذين خشي نكر استقبالهم لهم إذ كانوا يمارون لوطاً جدلاً بالغاً في نذيره بسوء عاقبة عذاب عاجلة إن لم يطيعوا دعوة الله في التطهر من الفاحشة. وأبانوا له كذلك أنهم جاءوه بالحق – لا بكلمة تُصدق استقبال ذلك النذير

(١) في نزول الملائكة ضيفاً لإبراهيم سلاماً وبشرى بغلام وإنباءً عن إرسالهم إلى قوم لوط: راجع الآيات ٦٩ – ٧٦ سورة هود، وانظر الآيتين ٣١ و٣٢ سورة العنكبوت، وانظر الآيتين ٣١ و٣٢ سورة العنكبوت، والآيات ٢٤ و٣٤ سورة الذاريات.

بـــل نبأ وقعه حاقاً على المنذرين لفورهم وأكدوا له إنهم له لصادقون في إبلاغه بما هو واقع غير منظور لمد آجل.

﴿فَأَسْــرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٥)

ومن ثم بلّغوه رسالة نجاة من محذور مرتقب - أن يسري بأهله خاصة دون سائر القـــوم بقطع من طرف الليل، وألا يقدُمهم سارياً أمامهم بل يتبع أدبارهم ليحوطهم منظومين في موكب النجاة آمنين من دواعي المرجع إلى الوراء، وألاّ يلتفت منهم أحد ولـــو تركوا أهلاً أعزة ما داموا مجرمين وإن سمعوا أصداء وقوع واقعة بهم، وأن يمضوا حيث يؤمرون تهديهم إليه الملائكة بأمر الله.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (٦٦)

وفي هـــذه الآية تمت من الله الكلمة الفاصلة يقول أنه تعالى قضى بأقداره المحيطة التي لا تُرد قضاءً يُبلّغ للوط نفاذاً لذلك الأمر الجلل أن دابر أولئك مقطوع مصبحين، أنهم مستأصلون إلى آخرهم هلاكاً عند الصبح القادم القريب.

﴿وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧)

كـــان يجري ذلك الأمر ذو الخطر العظيم إذ نـــزل الضيف من الملائكة في بيت لـــوط يبيّنون له إتيانهم لحسم المراء بالحق الصادق ويصفون له سبيل التنجية له وأهله ويـــبلّغونه بدنوّ الواقعة المقضيّة على الآخرين، بينما كان قومه في مدينة سدوم في همٍّ آخـــر، إذ سمعـــوا بمقـــدم ضـــيف من الذكور في بيت لوط الطَّيِّلاً. وجاء أهل المدينة يستبشرون، يلوح عليهم السرور لقدوم ذكور حسان الوجوه بُشرى لمباشرة الفاحشة فيهم، فهم لا يأتونها في حَرَم البيوت على ضيفٍ وحسب بل في النادي العام ويقطعون لهـــا الـــسبيل من غلوّ دفع الشهوة الشاذة فيهم وبإغراء الشيطان المغرور بوعيده منذ الأزل.

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ﴾ (٦٨ - ٦٩)

قـــال لوط الطَّيِّلاً يستجدي في قومه توقيره واحترام ضيفه وإكرامهم: إن هؤلاء ضيفه، يرجوهم من ثمّ ألا يفضحوه بما يتعرض له الضيف فتنتشر منهم الشائعة حوله،

ويذكّـــرهم أن يتقوا الله فلا يعصوه بوجه عاد مجاهر وألا يُخزوه هو في انتهاك سُمعة عِرضه وحرم بيته.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٠)

قال القوم للوط الطَّيْكِلاِ يعززون اندفاعهم العاجل إلى ما يبتغونه ويلقون عليه الملام إذ سألوه – أو لم ينهوه عن العالمين؟ نصحاً ألا يجير أحداً من الناس من أن يبسطوا هم عليه عاديتهم الفاحشة بحجة دعوته إلى التطهر.

﴿قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٧١)

قـــال لوط الطَّيْكِلاِ– محاولاً تذكيرهم بحق دعوته إن مجال الحلال إنما هو واسع تجاه الإنـــاث، فاضطراراً لصرفهم عن ذكور قال لهم إن أولئك بناته هو، يقصد أن التوجه إليهنّ أهون فحشاً، لا يغريهم بهنّ أو يستبيحهن لهم بغير زواج، ولذلك ليستدرك أنها كلمـــة ضرورة ما كان له مفر منها معلّقةً على حرصهم إن كانوا فاعلين شيئاً، كأنه يتمنى أن يُدبروا عن ارتكاب الحرمات لاسيما الأفحش.

﴿لَعَمْـــرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (٧٢ – ٧٣ – ٧٤)

نبأ قصة ضيف إبراهيم الطَّيْكِلاِ كُلّف الرسول بإبلاغه لأمة خطابه تذكيراً بالملائكة وتنـــــزُّلهم وبالشيطان وفحش إغراءاته. والآن في ختام القصة يُبيّن للرسول حقٌّ تمام النبأ قسماً مؤكداً بحياته أو عمره (كما يشير التعبير العربـــي) أنهم – قوم لوط – لفي ســـكرتهم، مغمـــورين بدوافـــع الشهوة البالغة. وبغاشيات غرور الشيطان، يعمهون ضـــاربين في مـــساعيهم الفاســـدة لا يبصرون رشداً حقاً ولا يتقون سُبل الرهب من غضب الله، وترتّب بالحق وقوعُ العاقبة فأخذت الصيحةُ قوم لوط وفق بلاغ الملائكة. والـــصيحة تعبير عن صرخة الفزع والاستغاثة الصادرة من فعل، رمزاً لكل حيث وقعة الهـــلاك المـــتداركة عليه. وكان ذلك عند حلول الأجل الموعود مشرقين عند شروق الـــشمس. فجعـــل الله بقوى أقداره الفعالة في زلزلة الجبال وتفجرها ونسفها – جعل عـــالي مدينة سدوم وما جاورها سافلها إذ تساقطت على مساكنها في الوادي الحجارة وأمطـــر الله (إمطـــاراً للشر النازل لا يعبر به القرآن عن غيث السماء ونـــزول الخير)

علـــى القوم حجارة سجيل مرصوص منظوم الوقع ليسحق كل مقضيّ عليه في القرى المؤتفكات.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥)

إن بيّنات مجريات ذلك الأمر لآيات للمتوسمين، ذات دلالة على سنن الله في وقع قــضائه تــصديقاً لنذيره. ذلك للناظرين في سمات تلك الوقائع، آثارها قرائن لصدق الأنباء القاضية بعواقب السوء الحاقّة على الفاسدين، الواعظة من ثمّ للخالفين.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ (٧٦)

وإنهــا - تلــك الآثار والوسوم للمؤتفكات من قرى قوم لوط وأمها سدوم، لبــسبيل، علــى طــريق عام يراه العابرون خاصة من أمة الخطاب الأولى العربية في رحلاتهــا الــتجارية بين اليمن والشام وما وراءهما، سبيل ثابت لم يتحرك مساره منذ قرون.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ﴾ (٧٧)

إن في ذلــك الأمــر كلــه أيــضاً لآية ذات دلالة اعتبار عامة بإدراك رحمة الله للــصالحين، إسعافَ نجاة من واقعة عامة ساحته عقوبة للمجرمين، ذلك عبرة للمؤمنين أن الله ولــيّهم الحافظ الوكيل، إن استقاموا مسلكاً وصدقوا دعوة وصبروا عزماً فإنه تعالى يفتح بينهم وبين الظالمين، يستخلفهم بعد هلاكهم[1].

﴿وَإِن كَــانَ أَصْــحَابُ الأَيْكَــةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٨ - ٧٩)

جــاءت هاتان الآيتان - تاليتين للآيات في قوم لوط المبينة لجرمهم ومصيرهم العاجل - ليُروى أمر أصحاب الأيكة - الشجرة التي تقع تلو قرى قوم لوط جنوباً أقــرب إلى أمــة الخطاب الأولى العربية. وإن كان أصحابها - كانوا حقاً ظالمين، فانتقم الله بقدر عقابه العاجل وقضائه الفعّال. والآيتان تُجملان القول فيما فصّلته

---

(١) في ذكــر رســالة الملائكة إلى لوط عليه السلام نذيراً لقومه وحرجه من إهراع قومه إليهم ضيفاً وصيحة الزلزال عليهم: راجع الآيات ٧٧ - ٨٣ سورة هود، وانظر الآيتين ٣٣ و٣٤ سورة العنكبوت، وفي ذكر الرسالة دون الملائكة والحرج: راجع الآيات ٨٠ - ٨٤ سورة الأعراف، وانظر الآيات ١٦٠ - ١٧٤ سورة الشعراء.

آيـــات في ســـور أخرى من ابتلائهم بنعم التجارة وكفرهم وظلمهم في معاييرها وفـــسادهم بكسبها واستكبارهم على دعوة شعيب وحملتهم عليه فارتدت عليهم أقدار الإنعام انتقاماً لمذهبهم ظالمين. وإنهما – الأيكة ودار قوم لوط – لبإمام مبين طريق هاد تؤمه الأقوام في التجارة وتبادل الثقافة واضح المعالم والمسالك للناظرين المعتبرين[1].

﴿وَلَقَــدْ كَــذَّبَ أَصْــحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٨٠ – ٨١)

تــضاف كذلك عظة أخرى في ذكر قوم أرض قريبة ذات الشرق أصولهم مثل أصــحاب الأيكة أقرب أرضاً ولساناً إلى أمة الخطاب الأولى العربية. وهم أصحاب الحجــر – موقع جبال يتخذون أبنية فيها وحجارها حُجَراً لحدود المساكن. والآية تُجمــل ذكــرهم أن قــد كذبوا قطعاً المرسلين- كذبوا كل الحق الداعي للتوحيد والــصلاح في الحياة الذي توالت به الرسالات متصادقة وتعاقب على دعوته الرسل والــذي اجتهد تذكيراً به فيهم نبيهم صالح. وآتاهم الله بأقداره آياته التي تنــزّلت إلــيهم وحــياً ليتلى مسموعاً والتي ظهرت فيهم أيضاً معجزة كآية الناقة. ولكنهم كانــوا عــنها معرضــين في فساد واستكبار بل تقاسموا على المكر بالنبـــي وأهله تبييتاً.

﴿وَكَانُــواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢ – ٨٣ – ٨٤)

وكانوا – ثمود أصحاب الحجر قوم صالح – ينحتون من الجبال بيوتاً يحسبون أنهم بهــا آمــنون اتقاءً لقائظة الحر وقاسية البرد وحفظاً من التعدي والتصدع للبُنى. وتلك نعمــة كفروا بها أيضاً وبدلوها كفراً وكذبوا النذارة من عاقبة ضلالهم عن الهدى بل عقــروا الناقة الآية السائمة. فأخذتهم لأجل ذلك الصيحة – واقعة صاعقة أصبحوا بها

(١) في ذكر أبين لرسالة شعيب عليه السلام إلى مدين أصحاب الأيكة: راجع الآيات ٨٥ – ٩٣ سورة الأعــراف، والآيــات ٨٤ – ٩٥ سورة هود، وانظر الآيات ١٧٦ – ١٩١ سورة الشعراء، والآيتين ٣٦ و٣٧ سورة العنكبوت.

جــاثمين هلكـــى في ديـــارهم التي بقيت خاوية ذكرى واعظة. فما أغنى عنهم عندما جاءهم أمر الله النافذ ما كانوا يكسبون من تمتع وحجر[1].

عموم المعاني (الآيات ٥١ – ٨٤):

إن دعـــوة الـــدين الحق ينبغي أن تبسط مدى نظر بني الإنسان في آفاق الوجود – أولاً تذكـــرةً ليتفكـــروا فـــيما حولهم مباشرة من السماوات والأرض وما بينهما علّهم يتبـــصّروا فيها آيات للغيب – لله وأقداره ودورة الدهر بظروف المشهود وأطواره حتى الأزل. وكـــذلك ينبغي والبشر مفتونون بالحاضر والعاجل من الدنيا أن يذكروا سالف شأن الإنسان من تجارب في زمان الأولين، لعلّهم يفقهون فيها آيات الله وسنته في سيرة الإنسان. وقد مدّت آيات القرآن نظر المخاطبين الأُول العرب – فضلاً إلى ما فوقهم من الكـــون المطـــبوع – إلى معالم من سيرة أبيهم إبراهيم عليه السلام وما خلفه من سيرة الأقوام الـــذين يمرون على آثارهم ومواقعهم في طرق تجارتهم الواضحة – قوم لوط وأصحاب الأيكـــة قـــوم شعيب وأصحاب الحجر قوم صالح عليهم السلام. وكذلك لا بدّ لدعاة الدين إن قوّموا ذلك أن يقيسوا عليه تذكير أمم خطابهم المعنيين بتاريخهم فالبشر يتعلّقون بالأصول انتماء وميراثاً للثقافة والأعراف، وأن يتسع تذكيرهم بأنحاء الأرض مِن حولهم وتاريخهـــا لاسيما التي على طرق حركة بني الإنسان المعهودة في الأرض وصوب الآثار الباقـــية المـــشهودة، والـــتاريخ لرواية السابقات والسياحة في الأرض لرؤية الآثار ليس بحكـــاوي تُـــشبع حب الاستطلاع ومناظر تمتع المشاهدين بل سعي لإثراء تجربة حاضر الإنـــسان إحاطة بماضيه. فينبغي تبصّر العبر والعظات في سير الأولين وتوسّم وقائع السير وســـنن المـــصائر في مجتمعات البشر دروساً تُغني المجتمع الحاضر تزوّداً لمستقبله في الدنيا وآجلته في الوجود – رشداً لئلا يقع في سالف الخطايا التي أودت بأصحابها وليعتبر بهدى الرأي والعمل الذي خصّ الصالحين بالسلامة والخير مصيراً. وتلك آيات للمؤمنين.

---

(١) في ذكـــر رســـالة صـــالح عليه السلام إلى قومه أصحاب الحجر: راجع الآيات ٧٣ – ٧٩ سورة الأعـــراف، والآيـــات ٦١ – ٦٨ سورة هود وانظر الآيات ١٤١ – ١٥٩ سورة الشعراء، والآيات ٤٥ – ٥٣ سورة النمل.

ومن ذلك ضيف إبراهيم الطَيْنِ الملائكة. وهم منذ سجودهم لآدم في الملأ الأعلى أيـــدٌ لذريته من الإنسان القريب من ربه وأمره تعالى وضدٌ للإنسان العاصي كإبليس جنوداً لله لإيقاع عقابه. فهم حيّوا إبراهيم عند مدخلهم سلاماً، وسكّنوا وجله بإلقاء البـــشرى بغلام يولد له عليم، وناصحوه ألا يقنط لكبر سن الوالدين، ثم أنبأوه بما هم ماضـــون إليه لأخذ قوم لوط الطَيْنِ ذي قرباه لكن طمأنوه بنجاة لوط وآله إلا امرأته. وكذلك كانوا مع لوط لأنه نبـــي صاح في قوم فاسدين - بشروه أنهم آتوه بالحق وبما كـــان يمتري فيه قومه من نذير ورسموا له خطة السرى ليلاً بأهله للنجاة. أما الظالمون فقد كان مجيء الملائكة لإهلاكهم. وسنة الرسل قدوة الصالحين خُلقاً أن يكونوا منيبين لله مستجيبين لأمره. فإبراهيم لم يقنط من رحمة الله برزق ولد غير مرجو عادة لأنه لم يكـــن مـــن الضالين. ولوط دافع عن حرمة ضيفه ثم استجاب لأمر الله منهم و لم يبال بترك امرأته وسائر أهله ما نجا بالمؤمنين. والمؤمنون كانوا يذوقون رحمة الله تدركهم في ســـاعة العـــسر، يـــنجون من الهلاك وإذ هجروا معهود قومهم يهاجرون أرضهم في ســـبيل الله. وبان أن رحمة الله إنما تحق للمؤمنين بكسب إيمانهم لا بقربهم نسباً للأنبياء، فامرأة لوط عُزلت من سرية النجاة وكان قدرها مع الغابرين، ذلك ليتعظ المؤمنون أبداً أن النـــسب لا يـــورث شرفاً ولا فضلاً عند الله ولو كان وثيقاً بزوجية، وإنما الفضل منوط بالإيمان والتقوى. أما طوائف التكذيب والإعراض عن رسالة هدى الله والفساد في الأرض فالسورة تروي ثلاثة أنماط من التقوى عن الإيمان ومنهاج الصلاح في الحياة ومـــن ثم مظاهر الفساد فيها وتُرى كيف يحق بذلك الهلاك العاجل إن شاء الله. وأول الأمـــر في مَـــن يلي إبراهيم قربى قومِ لوط وما بلغوا من انحطاط الخلق بكفرهم بالله وبـــتقواه، فقد سرت فيهم الفاحشة حتى أصبح منكرُها عرفاً يظاهرون به ويتعدون به علـــى حـــرمة البيوت ولو بيت نبـــي فيهم ينبغي توقيره بل لا تجدي توسلاتُه لديهم ومحاولـــةُ صـــرفهم عن ضيفه الملائكة المشخصين ذكوراً يبتغيهم القوم إلى ما هو أدنى منكراً في بناته. فقد ظلوا في سكرتهم يعمهون حتى أخذهم الله بصيحة زلزال تساقطت بـــه علـــيهم حجارة الجبال الثوابت وغدوا بما تعالوا به مجرمين أسفلين تحت سجيل. والـــشأن الثاني كان لأصحاب الأيكة الذين فتنتهم كسوب التجارة وعمارة المعاملات

فــيها فلم يبسطوا فيها بالإيمان والتقوى عدلاً بل أفسدوها بالظلم فقدر الله أن يعدل فــيهم انتقاماً ليصبح موقع الأيكة معلم عظة على ذات الطريق التي أصبحت فيه قرى قــوم لوط المؤتفكة يشهد موعظة للعابرين من الخالفين. أما الأمر الثالث فهو أصحاب الحِجْــر الــذي سميت به السورة. وهم قوم صالح انبسطت عليهم آلاء الله فاستعمروا الأرض ونحــتوا الجبال بيوتاً، ولكنهم بزعامة مستكبريهم أعرضوا عن آيات الله حتى الــناقة التي طلبوها معجزة فكفروا بجديد هدى الدين وعثوا فساداً حتى أخذهم صيحة ما أمِنوا منها في تلك البيوت وما أغناهم ما كانوا يكسبون.

هكذا كانت العظات التي ذكرها السورة. فإذا كان الدعاة لحق الدين يتلون ذلك القــرآن على الناس موعظة، ينبغي أن يمضوا على هديه فيدرسوا تاريخ الحضارات التي عمرت وتعززت في أرض مباركة كقوم لوط أو في محور تبادل وتجارة كقوم شعيب أو في موطن تطور وتدبير لاستعمار الأرض والجبال كقوم صالح، أو نحو ذلك، ولينظروا كيف سرت في أرض الحضارات المفاسد خلقاً أو تعامل ظلم في المال أو غرور كسب واســتكبار بالموروث أمراضاً أصلها في الكفر بالغيب وبتقوى الله في الحياة وباستقامة صــلاحها، لــيروا بعــد تحليل الوقائع والعلل كيف انهارت الحضارات بمهالك فيها وحــروب أو بانهيار شامل في بنْية كسوبها ووقع وجودها - آية لمغزى الإيمان والكفر في واقع الحياة وعظات نذير وعِبر بشير لسيرة بني الإنسان الكافرين منهم والمؤمنين.

ترتيل المعاني (الآيات ٨٥ - ٩٩):

﴿وَمَــا خَلَقْــنَا الــسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥)

الــذي ســبق من ذكر مصائر أقوام بوقع أقدار عقاب من الله عاجل آيةٌ لحُكمه تعالى الذي يسوّي الوجود المخلوق ليستقيم بالحق الموزون، لئلا يمضي الظلم في الحياة الدنــيا لبني الإنسان سدى - تجاوزاً لآيات الله الطبيعية بلا وقع ضرّاء ضبطاً عدلاً ولا كفــراً بآيــات نعمه المبسوطة بلا تغيير إلى سوءى كفاء سواء، ولا إعراضاً عن آيات هديــه المنــــزل لخير الإنسان مسيراً ومصيراً بلا إحقاق الحق بالمآل جزاء سواء. وما

خلق الله بأقدار الخليقة آياته المشهودة من السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق – طبـــيعة منظوم كيانها كله متوازنة سننها، وكل ما فيها من شيء موزون بقدر منـــزلاً مـــسخراً للإنـــسان لئلا يضيع بين تلك القوى المحيطة به بل يتمكن فيها، وكل شيء وظرف ابتلاء له ليتبين أن حياته فيها مجال لمشيئته ليتعرف بنفسه الحق ويرشد في المتاع بها فلا يفتنه، فلا يظلم كفراً بما بسط الله من نعم وطغياناً على حقوق الآخرين وإسرافاً واســـتكباراً، ولا يظلـــم نفسه تفريطاً فيما هُيئ له فيها من مدى حرية وفعل فيمضي مستـــضعفاً مستخفاً محروماً أو إفراطاً في غفلة الأكل والتمتع كالحيوان، ولا يفسد في الأرض بعدما تيسر له فيها من صلاح لئلا يعوق تبارك الخير والنعيم فيها أو ينشر الشر والشقاء. وإحاطة الله الإنسان بآيات السماوات والأرض المشهودة هداية له إلى الغيب وإلى الخالـــق الناظم المدبر الموحّد للطبيعة قاطبة وإلى أجل الرجوع إليه تعالى في الأزل مـــن تدبر دورات الحياة وحساب الزمان وآجال حركة المخلوقات. ثم يعزز الله تلك الآيـــات بآيـــات التذكير التي تُوحى وتتلى على الإنسان. ذلك لئلا يقضي الحياة لهواً ومـــتاعاً غـــافلاً عـــن الآيات المطبوعة ومدبراً عن المسموعة بل ليتفكّر واعياً ويتذكّر مهتدياً وداعياً أن ذلك الخلق المنظوم إنما هو إطار ابتلاء له لا يتعلقه وينفتن به بل يتدبّر ويشكر ويهتدي به. ذلك ليقوم الحق في سير الإنسان مزكياً لفطرة الإيمان المركوزة في نفسه متذكراً بالوحي المنـــزل.

وإن الـــساعة لآتـــية، فلئن سويت بعض وجوه الظلم ومجانبة ذلك الحق البيّن في الوجود والموحى بأقدار العقاب العاجل من الله للأقوام السالفة – كقوم لوط وشعيب وصالح، فإن الحياة الدنيا في عموم أمد الوجود المنظوم بالحق – ما هي إلا فسحة زمان ابـــتلاء تُـــتمها الحـــياة الأخرى عاقبةَ جزاءٍ في الأزل. فإن مدّ الله في الحياة الدنيا غير مستوية عن علم ومشيئة فإنه تعالى يمهل ولا يهمل الظلم إن لم يُعجّل فهو يؤجّل الجزاء الكفـــاء السواء لئلا تضيع الحسنات التي لم تعدلها في الدنيا ثمرةُ عاقبة حسنى ولا يسود الباطل ويطغى على حدود الله وحرمات الآخرين دون سوء مقابل آجل. وقد لا تُغني في الدنيا الآيات المرئية تذكيراً بالساعة ولا الآيات المسموعة تعليماً بأنها حق ولا الأنباء عـــن المـــصائر الماضية وعظاً للظالمين الخالفين، ولذلك الساعة آتية حقاً واقعاً تبدلاً في

معـــالم الوجـــود المـــشهود إطاراً لدنيا البلاء وبعثاً بعد الموت لاستيفاء عدل الجزاء – تعويضاً لمن مات مظلوماً لم يستوف حقه أو صالحاً لم يلق عائد ثمره في الدنيا، وانتقاماً ممّـــن مـــات فيها ظالماً طاغياً بمتاعه. وإقامة العدل في الغيب آتية بما هو أبلغ وقعاً على الإنـــسان خـــيراً أكثـــر وأخلد أو سوءاً أشدّ وأبقى وصلة بالملأ الأعلى أقرب إلى الله وأرضى أو أشد غضباً وبعداً.

ولـــذلك أُوصي الرسول الداعية والقدوة للمؤمنين ﷺ أن يصفح الصفح الجميل عـــن المعرضين عن دعوة الحق المبين في آيات خلق الله وفي وعده الصادق بالآخرة، أن يبـــسط لهم صفحة سماحة لغاشيات الضرّ عليه منهم وأن يدفع سيئتهم بالحسنة ويرد إعراضـــهم وأذاهم الكريه بالحلم الجميل صبراً على الدنيا وإيكالاً للأمور إلى الله الذي يعدل فيها انتقاماً عن المظلومين، إما عاجلاً كما سلفت مثلات أو في الآخرة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٦)

الخطاب يستمر للرسول ﷺ ليثبّت له أصلاً لما سبق: إن ربه هو الخلاق خلقاً بعد خلق، المخلوقات التي تنعقد بها هيئة الكون المشهود حوله كلها أحسنها وسواها آيات مـــنظومة شاهدة على وحدانيته، وعند الساعة هو القادر على تبديل سنن المخلوقات الطبيعية التي تبدو ثابتة فضلاً عن بعث موتى بني الإنسان وبسط قوى الحشر والحساب ومتبوّأ الجزاء جنة وناراً. وهو العليم لا يخفى عليه ما كسب عباده في دنياهم، ما يفعل الظالمـــون أو الـــصالحون وما وقع من الرسول من إيمان بالغيب وبلاغ للرسالة وعمل حـــسن على هديها وجهاد رجاء الآخرة وما وقع عليه من فتنة وأذى وظلم في حياته. فقـــدرة الله المطلقة التي بسط بها أوضاع الدنيا وصرّف ظروفها وبلاءاتها على الإنسان هي قدرته التي تُبدل الوجود المخلوق وتُسوي كسوب الإنسان عدلاً وحقاً وسواء بين سابقه المعلوم في الدنيا وحاضره المتحقق في الآخرة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧)

ويمـــضي الخطـــاب للتعبئة والطمأنينة للرسول الداعية والإسوة ﷺ أن الله الذي عاجـــل الظالمين أحياناً وأخّر تمام الحق عليهم إلى الآجلة، قد يؤخر له خيراً أرضى في تلـــك الآجلة ولكنه عاجله بعطاء خير عظيم. ففضلاً وإضافةً على ما يؤخر له قد آتاه

الله حقاً بأقدار اجتباءه والوحي له والعون له حافظاً لآيات الوحي تالياً لها ذكراً وتالياً لهديها قدوةً وصدقاً – آتاه سبعاً من المثاني في فاتحة الذكر فيها البيان الحق بالله محموداً ربـــاً للعالمين رحماناً رحيماً عليهم بالهداية في دنيا الابتلاء وملكاً متمكناً عليهم حساباً وجـــزاءً يوم الدين، والبيان الحقّ لأمر العباد الذين يخلصون له من ثَم العبادة ويصوّبون إليه الاستعانة ودعاء الهدى في حياهم على الصراط المستقيم، والبيان الحق للذين تلقوا بيان ذلك الصراط نعمة الله آيات تذكير وهدى من الغيب وتوفيق تبصرة واستجابة لها غـــير المغـــضوب عليهم لأهم عرفوا الحق وجاوزوا حده ظلماً بالهوى وغواية إبليس، والـــضالين العامهين في غفلة لا يهتدون. وكل معاني الفاتحة مثان تتوالى وكيان لوحدة تجليات الحق المحكم ومفاصل لا تختلف ولا تضطرب بل تتسق وتتتام إجمالاً. وآتاه الله كـــذلك القـــرآن العظـــيم حديثاً كله مثان(١) تعليماً بحقائق الوجود الغيب والمشهود وتـــزكية لحـــياته لتستقيم بكتاب لما ينبغي عليه أمراً وهياً وحكمة لاجتياز بلايا الدنيا يـــسراً وعـــسراً. هكذا النبـــي ما ودعه ربه في دنياه، وما خلاه مع الظالمين وضغوط إعراضهم وأذاهم بل أعطاه كوثراً من الرحمة والنعمة والهدى والذكر بالوحي المتنـــزل ليحدّث به أيضاً رسالةً للناس، والآخرة خير له وأبقى من الأولى.

﴿لاَ تَمُـــدَّنَّ عَيْنَـــيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨)

الوصـــية للرسول ﷺ من ثَم – بعد عظم النعمة التي أوتيها، ألا يمدّ أبداً عينيه إلى مـــا متّع الله بأقدار عطائه وبلائه الذين كفروا أزواجاً منهم شاكلتهم الجامعة – الكفرُ والتمتع والأكل في الدنيا كما تأكل الأنعام ويلهيهم الأمل في مداها، وألا يحزن عليهم أســـىً ممـــا هم فيه عامهين أو عامدين فإن الله بسط لهم المشيئة ليختاروا طريقهم في الوجـــود دنيا وأخرى ولا يُغني الحزن إن لم يستو خيارهم على صراط واحد مستقيم إليه تعالى بل صرفوا طريقهم في الدنيا إلى الضلال، ولا يجدي إن استوى بهم في الآخرة الجـــزاء الكفاء فصُرفوا عن جنة الرضوان إلى عذاب الغضب، والوصية كذلك للنبـــي أن يخفـــض جـــناحه للمؤمنين، يتواضع لهم رفيقاً رؤوفاً ليهديهم في سياق ابتلاء غربة

(١) أنظر الآية ٢٣ سورة الزمر.

مذهـــبهم الحق بين السائد من الظنون والأعراف الجاهلية وإذ هم نسبةً إلى مَن حولهم في ذلة في شأنهم وقلة في أموالهم واستضعاف في الجاه والسلطان وبلاء بدواعي الأذى بالأقوال والأفعال التي تتسلط عليهم من المعرضين الكافرين[1].

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩)

وخـــتام الوصايا له ﷺ أن يصدع في الناس قائلاً إنه هو النذير المبين مما يحذّر منه مـــسلكاً ضالاً فعاقبة سوء حاقّة لولا إن عبدوا الله وحده الخالق المدبر الهادي واجتنبوا طاغوت الشرك به آلهة مخلوقة لا تخلق شيئاً ولا تضر ولا تنفع ولا تهدي إلى أيما صوب وإن كانت طقوس عبادتها معهودة من الآباء، وإن آمنوا بالكتاب المنـــزل هدى لهم في الحـــياة ورشاداً واتقوا الضلال بأهوائهم المفتونة بالمتاع والاتّباع للظالمين المستكبرين، وإن أصـــلحوا دنياهم تزوّداً لآخرة حسنة و لم يلههم حاضر الدنيا وعاجلها أو يحملهم الكفـــر بالغيب إلى إنكار البعث والحساب فيجرهم ذلك إلى ظلم فتنوا به غير مبالين فيأتيهم عذاب عاجل يعقبه عذاب الآجلة.

﴿كَمَا أَنــزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩٠ – ٩١)

خلق الله السماوات والأرض بالحق منظوماً موحداً ما فيه من فطور في السماء أو تـــشقق في الأرض ولا تفلّت بينهما بل هواء وماء مدداً موصولاً لحياة الإنسان وضوء وظـــلام دورة بحـــسبان لزمانه وما في الأرض كل شيء موزون. المخلوقات الطبيعية توحدها الطاعة لسنن الله الواحد لذلك تتسق وتنتظم ولا تنقسم. وأنـــزل الله القرآن الـــذي تتوارد آياته مثاني تتواصل ولا تتفاصل وتتّحد ولا تتباين ليتلوه الإنسان ويطيع هديـــه فينسلك وفاقاً مع أشياء الطبيعة بخياره المؤمن لا يشذ ولا يخرج على حكم الله المـــسنون ولا علـــى إطار الحق الواحد المسنون لكل الخلق بل يسجد لله كما تسجد الأشـــياء يوافقها في سبيل آخرة وئام وسلام في بيئة الجنة ورضوان مع الله. فآيات الله التي خلقها فعلاً مطبوعاً وآياتها التي أنـــزلها قولاً مسموعاً مطاعاً كلها للمؤمن منظومة

---

(١) في الوصية للرسول ﷺ ألا يمدنّ عينيه إلى متاع الكافرين ولا يحزن عليهم وأن يخفض جناحه للمؤمـــنين: أنظـــر الآية ١٢٧ سورة النحل، والآيتين ١٣١ و١٣٢ سورة طه، والآية ٢١٥ سورة الشعراء والآية ٧٠ سورة النمل.

وجـــود مـــوحدة بحياة موحدة في الزمان والأزل. وذلك ما يُذكّر به ويقوم الرسول واعظاً بمغزاه ونذيراً مبيناً بعاقبة المصائر للضلال.

كـــذلك أنـــزل الله هدياً بيناً ونذارة بالغة القرآنَ على الذين كفروا به واقتسموا قـــسماً وعهـــداً بينهم ليحفظوا معهود ظنونهم بكل الوجود والحياة ألا يُسلموا لرب واحـــد بـــل يتخذوا شركاء وأرباباً متفرقين ولا يوحدون وجود الغيب والشهادة أو يـــصلون الدنـــيا بالآخرة بل يقسمون الزمان أو الدهر والأزل ويؤثرون العاجلة على الآجلـــة وأن تكون حياتهم الدنيا طقوسَ عبادةٍ وأقوالٍ مرسومة معهودة يتبعونها عمى وأهـــواءَ معاش وسلطان يتجادلون فيها ويختلفون مختصمين متظالمين. وكذلك اقتسموا للحمل على حق القرآن جعلوه عضين عضة يتقبلونها لأنها بعضه الذي يوافق معروفهم ويرضـــونه. وعـــضة تذكير بالتطهر من الشرك يكفرون بها لأنها تبطل آلهتهم المقدسة المعهـــودة ويعدونها افتراء من الرسول. وعضة نذير ينكرونها لأنها تضبط أهواء دنياهم بـــوعد بعـــث في الآخرة ووعيد حساب وجزاء كتاب ميزان ليقوم الناس بالقـــسط، وهم لا يعقلون بل يطلقون أهواءهم ظلماً ورياءً وتقلباً، إذا غالبتهم الحجة وراعهـــم بيانها قالوا مقولات استرهاب بالسحر. وعضة من نبأ الأولين الذين كذبوا رســـالة الغيب مثلهم فرمَوها بأنها أساطير الأولين. والقرآن ليس بأقطاع أو أوزاع ولا عـــضين أو عزين بل كله مثاني هدى متواتر منظوم يوحد باطن الحياة وظاهرها إيماناً وإســـلاماً لله الرقيب على كل شيء خفي أو علن، ويوحد أولها وآخرها على صراط مـــستقيم إلى الله وحسابه وجزائه، ويوحد كذلك ممارسات الشعائر خالصة لوجه الله ومعـــاملات الخَلـــق معروفاً غير منكر ومبادلات المال صدقاً وقسطاً بلا باطل غش أو ظلم ومشاورات السياسة حرية ومساواة بغير جبروت - لأنها كلها وجوه دين وعبادة لله وحده تتناصر وتتكامل، وفوق كل ذلك ذكرُ الله الواحد الذي يوقن به المؤمن غيباً ويعي ذكره ويعبر عنه بكل قوله في حياته ليرى وجهه تعالى في آخرته راضياً مرضياً[1].

---

(١) في تبعيض القرآن من أحزاب الكافرين والذين في قلوبهم مرض: أنظر الآية ٣٦ سورة الرعد، والآيات ٢٠ - ٢٦ سورة محمد. وفي تبعيض بني إسرائيل الكتاب إيماناً ببعضه وكفراً ببعضه: راجع الآية ٨٥ سورة البقرة.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٢ – ٩٣)

الآيــة ترتب على ما سبق خطاباً للرسول ﷺ رداً على ما اقتسم عليه الضالون، قــسماً بــربه الواحد خالق المخلوقات المنظومة منــزل آيات القرآن المتلائمة الهادي للحــياة المنــسوقة أولهــا وآخرها، قولاً منه تعالى بأقدار علمه وعدله العظيمة المحيطة ليــسألنّ أولــئك الذين كفروا المتوالين بينهم تبعيضاً للقرآن بل لكل الوجود والحياة، سؤال محاسبة يوم القيامة أجمعين عما كانوا يعملون في أيام دنياهم.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤)

ولذلك يوصى الرسول ﷺ أن يصدع داعياً جهاراً وفارقاً بين الحق والباطل مبلغاً بمــا يؤمــر بــه من تلاوة القرآن الفرقان عليهم بكل هدايته ونذارته لكفرهم المعهود وبــشارته للــتائب مــنهم المؤمن بالهدى المتجدّد والصلاح المتدرّج. وأن يُعرض عن المــشركين لا يخلّــيهم من الدعوة لكن لا يبالي بإصرارهم على ضلالهم فإنه لا يملك هــداهم وإن أحــب لهم الهدى وحرص، ولا بأذاهم فإن الحق لا يتجلى في الحياة إلا مضارعة للباطل ومجاهدة فتنه ليخرج صادقاً خالصاً.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ (٩٥ – ٩٦)

إن الله بأقــداره الجليلة المحيطة بكل شيء يخاطب الرسول ﷺ ترتيباً على ما سبق أن يمضي فإنه تعالى كفاه المستهزئين الذين رموه بالجنون فما أفلحوا في صدّ الناس عنه بــل شهروه وأظهروا كلمة دعوته بالحق الغريب على الباطل المعهود. أولئك الذين لا يكتفون بأذى الرسول، استهزاءً بل يجعلون مع الله بذاته المتعالية خالقاً للكون والإنسان ومدبراً لمسير المخلوقات وهادياً للعباد يجعلون معه إلهاً آخر مخلوقاً لا يخلق ولا يضر ولا ينفع ولا يهدي إلى شيء أو جهة. فسوف يعلمون عاقبة ذلك الشرك والكفر في الدنيا والآخــرة، ولــو مــدّ الله لهم حيناً ليستوفوا مجال الابتلاء ويحق عليهم الجزاء العاجل فالآجل.

﴿وَلَقَــدْ نَعْلَــمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٧ – ٩٨)

ينبـــئ الله الرســـول ﷺ أنـــه ﷻ بأقدار علمه المحيط بما في الصدور يعلم أنه – بشراً – يضيق صدره حالاً متجددة بما يقولون كل حين شركاً بالله أو هزؤاً به رسولاً أو كفـــراً بالـــبعث والآخرة أو تكذيباً وإعضاء للقرآن، وإذ ينشأ لديه في وجه جملة مقولاتهم حرج بالغ فالوصية له بأن يذكر ربه مسبحاً منـــزّهاً له وهو العليم العزيز عن الغفلـــة أو العجـــز عنهم مهما يُطل لهم الإملاء وعن تخلية وليّه فهو الحفيظ الوكيل له مهمـــا يؤذونه ويمتد صبره، ليسبحه فيُعليه محموداً بما آتاه من قرآن وهدى وما أعدّ له مـــن جـــزاء، وأن يكون مع الساجدين. يداوم الصلاة استعانةً بربه كلما حَزبه أمر أو غشيه حرج في جملة المؤمنين الساجدين المتوالين في الله.

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩)

وآية الختام تمام الوصية أن يعبد النبـــي ﷺ ربه ما دام حياً – تتبارك عبادته كلما طال بلاؤه ولازمه الصبر، وذلك حتى يأتيه اليقين بعد الموت إذ تقوم الساعة يراها عين الـــيقين وينشرح صدره بالتسوية الحق لكل الوجود في الحياة نعيماً ومرضاةً للمؤمنين وعـــذاباً وغضباً على الكافرين الذين اقتسموا القرآن والحياة سعدوا شيئاً ما في الدنيا الفانية وشقوا في الآخرة الخالدة.

والآيـــات الماضية لمختتم السورة موصولة بمفتتحها إذ تذكر الاستهزاء بالرسول والوصـــية لـــه، وتذكر القرآن الذكر المحفوظ، وتذكر أن الكافرين سوف يعلمون في العاجلة أو الآجلة[1].

عموم المعاني (الآيات ٨٥ – ٩٩):

خواتيم سورة 'الحِجْر' آيات مخاطبة للرسول ﷺ من ربه ﷻ كما خاطبته آيات في صدرها، نصائح ليستقيم مذهباً عبر محنته بأمة خطابه التي ألهاها التكاثر والغنى بمتاع

---

(١) في نـــصح النبـــــي ﷺ ألا يحزن مهما يضق صدره بأقوال المعرضين وأن يصابر تسبيحاً لله وعـــبادة وتـــوكلاً حتى يأتيه اليقين: راجع الآية ١٧٦ سورة آل عمران، والآيتين ٣٣ و٣٤ ســـورة الأنعـــام، والآية ٦٥ سورة يونس، وانظر الآية ١٣٠ سورة طه، والآيتين ٥٩ و٦٠ ســـورة الفـــرقان، والآية ٢٣ سورة لقمان، والآية ٧٦ سورة يس، والآية ٥٥ سورة غافر، والآية ٣٩ سورة ق، والآيات ٤٥ – ٤٩ سورة الطور.

الدنـــيا ونشروا الدعاوى لمناقضة رسالة القرآن. وهي تذكرة له ثم لكل داعية خَلَف في نشر أصول الدين أو إحياءِ الإيمان بها مجدداً لاسيما إذا وافت دعوته غربة وأثارت لدى أمة الخطاب أعراض تولٍ عن هدى الدعوة وتتحامل على أصولها نهج تلك الأمة الأولى فـــدعت للاقتداء بما انتصح به الرسول الإمام برشد من القرآن في ابتلائه. وأول الحق والعقد عهداً في أصل الإيمان المدعو إليه أن الله ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق إطاراً لابتلاء الإنسان تفتنه أو يهتدي بها آيات لعلياء ربه ومحامد نعمائه على عـــباده وأن الـــساعة آتية ليحق عندها في مصيرهم جزاء ذلك البلاء فيعدل الله ميزان وجـــودهم في الحـــياة زماناً لحرية الكسب في الدنيا وأزلاً لاحتمال وزر المسئولية في الآخـــرة. وما دام ذلك الحق الأصل ثابتاً ماضياً فينبغي ألاّ يضيق صدر الداعية إليه – الرسول أو خَلَفه – بمقولات المعرضين عن رسالتهم وفعالهم وليصفح الصفح الجميل، إن ربـــه هو الخلاق الذي هو مبدّل السماوات والأرض ليوم الآخرة كما خلقها لأول عهدها المشهود في الدنيا وباعث الإنسان خلقاً جديداً كما أنشأه أول مرّة، وهو العليم بمـــا جرى من مكاسب العباد أجمعين في عهد ابتلائهم ليبسط بيّنة في موازين حسابهم وعدالـــة حاقّـــة في جزائهم. إن الله الذي تعهّد منذ مهبط آدم بهداية الإنسان في عالم الـــشهادة قد اصطفى بأقداره الرسول وخصه برسالة الهداية الخاتمة فآتاه بالوحي سبعاً من مثاني الحديث المتزاوجة المتكاملة فاتحةً لكتاب مثان من القرآن العظيم. وتلك نعمة هـــدى لا يضارعها ما يكاثر به المعرضون المفتونون بمتاع الدنيا غفلة عن حق الوجود والحياة والذين يأكلون ويتمتعون في نعم الدنيا الفانية ويلهيهم الأمل في دهرها المحدود. فالرســـول ينبغي ألا يمد عينيه إلى ما متّع الله به أزواجاً منهم يضربون في الدنيا حسب صنوف مبتغياتها التي زُيّنت لهم ففتنتهم، فما ذلك بفضل نعمة وحسب بل امتحان لهم إن تذكّروا به الله الرازق المحمود أو ضلوا حتى بعد تذكير رسالة القرآن في عمهِ الهوى وحـــب الشهوات كالحيوان وأضلّ سبيلاً. وينبغي ألا يحزن عليهم الرسول وهم قومه الـــذين يلـــونه وسعى فيهم حريصاً على هدايتهم إن زاغت الفتنة بمسيرهم على سواء صـــراط الهدى المستقيم فزاغوا بمصيرهم إلى سوء العاقبة فإنما هو خيارهم، ما عليه إلا بلاغ الهدى والتذكير وعلى الله الحساب.

إن القرآن العظيم الذي أوتي الرسول ﷺ إنما هو خطاب هدى ونذير مبين، ذلك وإن اقتسم المخاطبون قسمَ عهد بينهم مقاطعة عهد الله المركوز في فطرهم بميثاق المأمور من الله بالتذكير الموحى أن يوصل، وموالاةً بينهم في الحملة على الرسول وعلى القرآن الذي يدعو إليه رسالة من الله الواحد. إذ هم الذين جعلوا القرآن عضين – بعّضوه عضةً يتقبلونها لأنها وافقت معروفاً عندهم وعضات ينكرونها لأنها بيان لحقائق الغيب التي لم يعهدوا فظنوها افتراء من الجن الخفي أو لأنها واعظات من سير الأولين مثلهم وسوء عواقبهم فحسبوها أساطير الأولين أو مذكرات بليغة الوقع على السامعين أوّلوها سحر كهانة إذ أنكروا ما تدعو إليه من التطهر من معهود شركهم ومفتون متاعهم ومن التزوّد للآخرة التي يكفرون بالبعث لها ويستأخرون أجل ساعتها. وكذلك العالم اليوم إذا تُلي عليه القرآن مثاني تتواصل لتشمل هدى الحياة كافة عبادة لله الواحد قد يجعلونه عضين – يجيزون قولاً في حقائق الغيب عقائد إيمان للناس نظراً لا يترتب عليه هَدي واقع الحياة أو ذكراً في تعاليم شعائر عبادة قاصرة على خويصة حياة المؤمنين. أما ما وراء ذلك من هدى الكتاب الجامع فمذهب النفعية الدهرية والمادية المتاعية الذي انتشر قد ينكر أهله شرعة القرآن في هَدي حياة المال والمتاع وهديته في ابتغاء الآخرة بها. وكذلك عضة الرشد القرآني لرشد تولي السلطان وطاعة اللهَ في حكمه وتقواه في سطوته قد ينكرها دعاة المذهب السائد بعَلمانية السياسة وطلاقة عربدها حسب الأهواء. وكذلك قد يغالب مذهبُ الإباحية لشهوة الفاحشة مفصلَ القرآن وحدوده في ضبطها ورشد الزوجية. مهما يكن ما تقاسم عليه أولاً أو تواضع حديثاً الذين يناقضون القرآن عضين بشتى الدعاوى فإن كلمة الله التي تنزلت ليطمئن بها قلب الرسول – وكل داعٍ على سنته – هي قسم بربه أنه ﷻ إن تركهم في الدنيا على ما يشاءون ليسألنهم بأقدار العرض والحساب يوم الدين عما كانوا يعملون في دنياهم، فليصدع هو بما أُمر به من تكاليف بلاغ رسالة القرآن تلاوة ذكر وتزكية عمل بما فيه من علم الحق وهدى الحكمة في الحياة، وليُعرض عن المشركين فالله بأقدار حفظه له وللكتاب الذي يحمله رسالة إلى الناس قد كفاه المستهزئين به بمقولة جن أو سحر، فهم أصلاً مشركون يجعلون مع الله إلهاً آخر شيئاً أو هوى متعلقاً

بــه معبوداً دون الله فلا يوحدون الهدى كله في الحياة من وحيه، فسوف يعلمون إن أُملي لهم اليوم ومُدّ لهم في الضلال، سوف يرون عيناً يوم الدين حق ذلك الهدى وقعاً علــيهم سؤالاً وجزاء. وإن الله – إذ يخاطب الرسول ومن يقتدي به خلفاً – ليعلم أنه تحــت وطــأة الإعراض ليضيق صدره بما يقول المعرضون مقولات شرك بالله وتعضية للقــرآن وسخرية بالرسول الداعية إليه، فليستعن هو بذكر ربه وليسبحه تنــزيهاً عمّا يصف المشركون موصولاً بحمده تعالى عما ينعم به من بسط مسخرات الدنيا ومتاعها ومــن إنــزال القرآن موعظة وشفاء من الضلال وهدى ورحمة للمؤمنين. وليكن من الساجدين الذين أنعم الله عليهم بالهدى فأطاعوا وسجدوا لأمره كما سجدت الملائكة ويسجد كل شيء مخلوق، وليعبد ربه مخلصاً حتى يوافيه يوم القيامة إذ يأتيه اليقين بحق الــذي بُعــث به داعياً وأُمر به عابداً وإذ يمد الله إليه نعماً خيراً وأبقى وينــزل عليه رضــوانه الأكــبر ويلقى منه تعالى السلام ومن الملائكة والوئام من سائر الأشياء التي كانت معه ساجدة.

كــان نهج الرسول الإمام ﷺ مستقيماً على هدى ذلك النصح القرآني من ربه في واقــع ذلك الابتلاء الذي عهده وكانت سنته بياناً. ولذلك أصبح يقتدي به المسلمون لاسيما ذوو الذكر والتزكية الروحية الصوفية عكوفاً على الأذكار والسجود والصلاة ذكــراً زهــداً في متاع الدنيا لكن دون الصدع الواجب بالهدى والنذير، إذ أُحيطوا بابــتلاءات مــن جبابرة من ملة الإسلام أو طغاة من غيرها كان همّهم تبعيض القرآن وصــرف عــضات مــنه تعاليم تهدي للحق العدل المشروع في أمر الحياة العامة من الــسلطان سماحــة في اخــتلاف الرأي وشورى في الولاية والقرار وإباحة وتحريضاً للنصيحة العامة مهما تشتد على تسلطات ولاة الأمر ومظالم ذوي المال. وإنما تنــزلت هــذه النصائح القرآنية والرسول والمؤمنون معه في فتنة من ضغوط طاغوت مستكبرةِ الجاهلــية وأئمتها، فالحق أن يُتبع الرسول المبيّن للقرآن في كل سنته وأن يُتدبّر القرآن في كــل هديته ونصيحته لدعاة الحق أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر حيثما يحق ذلك وأن يصبروا ويستعينوا بذكر الله إذا حَزبَتهم بلاءات الحياة.

سورة النّحل

خلاصة هدي السورة:

سورة 'النحل' مكية النزول، تلت نزولاً سورة 'الكهف' وهي في الكتاب السورة السادسة عشر. وهي خطاب للأمّة ذات الثقافة المشركة في مذهبها ومقولاته وأعرافه إذ كانوا يعرفون الله خالقاً ولا يذكرونه إلا لماماً، لا يوحّدونه معبوداً بل يصوبون الدعاء والعبادة على أصنامهم شركاً. وكانت المخلوقات الطبيعية بادية حولهم السماء وأبراجها والأرض ومعالمها والأنعام والشجر والنبات والنحل وهي مما يباشرون في حياتهم سكناً وترحالاً ومتاعاً ولكنهم لا يرونها آيات لله ولا يعرفونها نعماً له محمودة. وكانوا لا يذكرون سنن خلق الإنسان وحياته وأقدار رزقه من الله الواحد. وكانوا ينكرون بعث الإنسان فيكفرون بيوم القيامة وبنُذُر معرض السؤال والحساب للعباد ومصير مثواهم في الآخرة جنة وناراً. فضلاً عن غفلتهم عن نُذُر العاجلات من عواقب الدنيا وعظاتها في الذين من قبلهم. وكانوا لا يؤمنون برسالة الوحي والكتاب إذ لم يعهدوها، فيكذبون الرسول ويطعنون في حق القرآن. أما المؤمنون فيهم فكانوا قلة عرضة للفتنة والردة أو الهجرة، وكانوا يتلون في الكتاب هدايات الحياة وبشراها وينصحون بمنهاج الدعوة للحق سماحة وصبراً وتوكلاً.

سورة النحل تذكر القرآن لمفتتحها كما تذكره كثير من السور. وإنما تذكره بأنه قد أتى مبتدأ أمرِ الله الذي فَرَقه من ملئه الأعلى ليتنزل متوالياً على عباده. وكذلك ينزل الله الملائكة بالروح من أمره على مَن يصطفي من رسول بشر لينذر أمة خطابه

ممـــا هـــم فيه من ضلال شرك معهود بعبادة المشهودات دون الغيب وليبلّغهم رسالة التوحـــيد لله. فهـــو ذكر أُنـــزل ليبيّن للناس فصلاً بالحق فيما هم فيه مختلفون، وهو للمؤمنين منهم تثبيتٌ لقلوبهم الخاشعة لله وحده، وللمسلمين أمرَ حياتهم لله تبيانٌ لكل شـــيء من الحق علماً وهدى لمسلكهم في الحياة ورحمةٌ تباركهم وتزكيهم وبشرى لهم بعاقـــبة طيـــبة. والقرآن آية من آيات الله المتنـــزلة رسائل وحي تعهّد بها بني آدم في الأرض، وهـــي آيـــة بدّلها الله مكان آية كتاب سابق، وهو تعالى أعلم بما يُنـــزل من كتاب يصدق ما بين يديه من حق ويجدد العلم والهدى ذكراً محفوظاً. وتذكر السورة مطـــاعن الكفـــار في حق القرآن. إذ قالوا للرسول عن جهل: إنما هو مفتر فيما يتلو علـــيهم، والحـــق إنما أنـــزله روح القدس من ربه بالحق. وقالوا: إنما هو من أساطير الأولين وإن الذي يعلمه الرسول بشر - يقصدون أهل الكتاب الأعاجم، وهذا القرآن لـــسان عربـــــي مبين. وهو الهدى من الله لعباده وما لهم من دونه من هاد. فالذين لا يؤمنون بآياته لا سبيل لهم إلا إلى عذاب أليم، وهم الذين يفترون الكذب على الغيب فيما يستوحون من آلهتهم التي يُشركونها بالله ظناً وخرصاً. والكتاب المنـــزل هو هدى حـــياة المسلمين أمراً ونهياً ووصاة بالعمل الصالح رجاءَ خير العاقبة. وعلى الرسول إمام تلاوة القرآن عليهم إذا قرأه أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ليطمئن الذكرُ حقاً في نفسه بلا ريب وليُصرف عنه الشيطان، تالياً للذكر يتدبّره وتالياً لهديه يتّبعه.

والـــسورة مكـــية - نـــزلت عهد دعوة التطهر من الشرك والإيمان بتوحيد الله أصلاً لوجهة الحياة الحق وهديتها. ولذلك يتوارد ذكرُ الله في كل سياقاتها ويتوالى منه ما يُثبت أصولاً من الإيمان بآياته خالقاً للإنسان مسخّراً لسائر مخلوقاته المشهودة إنعاماً علـــيه وابتلاء - ذكراً لقدرة الله المطلقة وعلمه المحيط وصفات له حُسنى. ذلك فضلاً عن ذكر وحدانيته تعالى نفياً لمذهب المشركين وذكره هادياً مبتلياً وسائلاً جازياً لعباده يـــوم الدين. فالله سبحانه يتعالى عما يشرك به الجاهلون، لا إله إلا هو، ما من شركة في الألوهـــية بـــين اثنين: إله في السماء والغيب وإله في الأرض والمشهود كما يتخذ المـــشركون، بـــل الأمر الحق على عباده أن يعبدوه تعالى وحده ويجتنبوا الطاغوت من دونـــه وأن يكـــون دينهم واصباً له تطهُّراً من الشرك والتزاماً بالتوحيد توجهاً، وأن

يكونـــوا خالصة رهبتهم وتقواهم لله. سبحانه عما يدعونه من دونه المشركون، فهو القادر المدبّر خالقاً للكون المشهود ثم للإنسان، وهو الذي جعل له في المخلوقات آيات لهـــداه ومسخرات لمتاعه ليمتحن إيمانه بآياته وشكره لنعمائه وليجزيه عاقبةً في عاجل الدنـــيا أو يؤخـــرها إلى أجل الآخرة. وهو القادر على أن تقوم الساعة يوم الدين بعثاً وســـؤالاً وحـــساباً وجزاء، وما أمرُها عنده إلا كلمح البصر أو هو أقرب لا تستعسر عليه كما يتوهم المفتونون بالدنيا، فالله إذا توجهت إرادته إلى شيء قدّره إنما يقول له كـــن فـــيكون، إن الله علـــى كـــل شيء قدير. والله هو العليم بالغيب والشهادة في السماوات والأرض ويحيط بما يفعل الناس سرهم وعلنهم. وصفاته حُسنى مطلقة، فهو العلـــيم القدير خلق الإنسان وهيّأ له مدّ عمر حياته، وهو الرؤوف الرحيم ينعم على عباده بما يرفع عنهم آصار الحياة ويأخذهم على تخوّف لطفاً أحياناً بوقع عاقبة عاجلة. وهـــو الغفور الرحيم لعباده إن لم يحصوا عدّ نعمه وللمؤمن إذا عرضت له فتنة. وهو العزيـــز الحكيم له المثل الأعلى في الملك والتصرّف والحكم العدل. وينبغي على عباده الـــذين حدّهم علم الشهود ألا يضربوا لله الأمثال مما يعهدون من مشهودات مؤلّهات، بـــل هو العليم يضرب لهم الأمثال بما يعهدون ليقرّب لهم معرفة صفات ذاته المتعالية. ومن ذلك يضرب لهم مَثل العبد العاجز عندهم ومن بسط الله له الرزق فهو ينفق منه سراً وجهراً، لا يستوي ذلك لديهم، ولذلك لا تستوي أصنام يصرّفنها هم لا تعطيهم شـــيئاً مـــن رزق والله المالك الأعلى الرازق الأكرم، ومَثل رجل أخرس لا يقدر على شـــيء وهـــو كَلٌّ على مولاه، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل فائضاً على من يواليه علماً وحكمة وهو على صراط مستقيم داعٍ للهدى إليه؟ فالله هو العدل الحكم المقسط وهـــو النور الهادي الرشيد. والعباد يتفاضلون في الرزق بنعمة الله لا يُسوّون في الرزق بـــين أنفـــسهم ومـــا ملكت أيمانهم في الرزق الذي اختصوا بكسبه، ولكن المشركين يسوّون بين الله المالك الرازق كل شيء والمتفضل على عباده والصنم المملوك – وذلك في الأنـــصبة والقـــرابين بل يؤثرون شركاءهم، وهم يستأثرون بالطيّب من الرزق ولا يؤتون في سبيل الله إلا الخبيث، فبنعمة الله يجحدون. وما على الرسل إلا البلاغ تذكيراً بالله وآياته ونعمائه وتعليماً بهداه المنـــزل. أما الهداية والضلالة في الناس فأمر في إطار

مشيئة الله الكبرى. لو شاء لجعلهم أمة واحدة، ولكن بسط لهم خيرة المشيئة بين يدي بـــلاغ فريضة الدين. فمن شاء ضل وكفر والله يعلمه ويُضله إذ يمدّ له وييسر ضلالته، لا يهديـــه أحد سوى الله إلا بدعوة التذكير ورجاء الهدى لا بالجبر والطبع. ومن شاء أن يـــسلك طريق الهدى هداه الله يبيّنه له ويثبّته ويوفقه ويزيده هدى. وعلى الله قصد الـــسبيل ومـــنها جائر، لو شاء الله لهدى الناس أجمعين ولكن يذرهم يختلفون ليأتيهم رسولٌ منه يفصّل لهم الحق، والله عندئذٍ مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وقد يأخذ الـــذين كفـــروا بعاجلة عقاب، ولكنه لو يؤاخذ الظالمين كافة بما كسبوا ما ترك على الأرض مـــن نفس دابة، بل يؤخر عباده جميعاً ليلقاهم يوم القيامة وهو العليم بكسبهم فـــيما ابتلاهم يجئ عليهم بالشهداء الذين بلّغوهم الحق ويجعل البيّنات قائمة ليبيّن لهم القضاء فيما كانوا فيه مختلفين ولتقع عليهم حقاً عاقبة الجزاء.

والسّورة تذكر وجوه ابتلاء الله لعباده بالآيات والنعم. فهو المنعم عليهم بما خلق حـــولهم من السموات والأرض إطاراً مسخراً لحياتهم. ألقى في الأرض رواسي للقرار وأنهـــاراً وسُـــبلاً وعلامـــات لـــوجهة الهدايـــة، وسخّر فيها البحر ليأكلوا منه لحماً ويـــستخرجوا حلية ويبتغوا فضله معاشاً على الفلك المواخر فيه. وفي السماء سخّر لهم الـــشمس والقمر ليتكوّر لهم الليل والنهار، والنجومَ زينة وهداية. وفي هذا الإطار من المسخّرات خلقهم هم إنساناً ولد من نطفة ويتوفاهم وقد تطول بهم الحياة حتى يردّوا إلى أرذل العمر وإلى نسيان العلم. وقد أخرجهم لأول أمرهم من بطون أمهاتهم وجعل لهـــم حواس الإدراك ومستودع العلم. وهو الذي جعل لهم من أنفسهم أزواجاً ومنهن بـــنين وحفـــدة ورزقهم من الطيبات وجعل لهم من البيوت سكناً. وهو الذي جعل الظلال وأكنان الجبال وقايةً من الحر، وجعل لهم سرابيل تقيهم الحر والبأس أيضاً. وهو الـــذي جعـــل لهـــم في الأنعام عبرة – منافع ودفئاً وجمالاً ومركباً ناقلاً لهم ولأثقالهم لمـــسافات تـــشق عليهم دونه، وأخرج من بطون الأنعام لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، وجعـــل من جلودها بيوتاً مستخفة للحركة وجعل من أوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حـــين. وخلق لهم الخيل والبغال والحمير وغيرها ليركبوها وزينة. والله أنـــزل من الـــسماء مـــاء لعباده منه سوّى الأنهار والبحار، منه شراب ويحي به الأرض بعد موتها

فمـــنه شجر يسيمون فيه أنعامهم ومنه ما يتخذون من زرع ونخيل وأعناب من ثمراتها ســـكر ورزق حـــسن. والله ذرأ لهم في الأرض بساطاً من النبات مختلفاً ألوانه. وفوق الأرض يـــرون الطير يُمسكها الله بسننه سابحة في جو السماء، والنحل يوحي إليها الله أن تتخذ بيوتها وتأكل الثمرات وتسلك سنن حياتها ذللاً ليخرج من بطونها شراب من العـــسل مختلف ألوانه فيه شفاء للناس. كل تلك وسواها آيات لله ونعم منه لعباده إن يعـــدّوها لا يحصوها لعلهم يذّكرون منها بأدنى رؤية ماسحة أو يعقلون بنظر جامع أو يتفكرون بتدبر عميق لينفذوا من مشاهدها آيات هادية، ليؤمنوا بربهم وصفاته الحسنى خالقـــاً صـــانعاً قديراً، وليعرفوا فيها إنعام الله المحيط المسخّر لهم عفواً فيشكرون الله ويعـــبدونه ساجدين له، كما يرون أنه حتى الظلال تسجد لسننه داخرة وكل دابة في الأرض أو ملـــك في السماء سجوداً لقدره ولأمره. ولكن كثيراً من العباد يجادلون في آيـــات الله جدالاً به ينقلب الإنسان على ربه وقد أحسن خلقه من نطفة فقام خصيماً مبيـــناً، ويجحدون بنعم الله ينكرونها ويكفرون بجميلها. ولا يبقى فيهم إلا ذكر عارض لله، إذا مـــسهم ضر إليه يجأرون مخلصين، فإذا انكشف الضرّ عنهم وتبدّل نعمةً إذا هم مـــشركون. والله يُـــتم الإنعام على عباده بإنـــزال النعمة الكبرى بعد الحياة – رسالة الهدى بكتاب يوحى إليهم ثم يُتلى لعلهم يسلمون حياتهم لله. ذلك كله ابتلاء من الله لعـــباده، فإن كفروا بالله ونعمته فسوف يعلمون. والله لا يؤاخذهم معاجلةً في الدنيا كافة ولكن بعد النعم المبسوطة المشهودة ونعمة الهدى المسموعة يمدّ لهم الحياة لآجالهم ولأجل مسمى هو يوم الدين الذي لا يستأخر ولا يستقدم.

ومـــن ذِكر الغيب تُذكَر في صدر السورة الملائكة ينـــزلون بالروح من أمر ربهم وحـــياً ثم يُذكرون – وهم جنود الله – قد يوقعون بأمره العذاب على الظالمين. وهم عبّاد سجّاد لله لا يستكبرون كما يستكبر بعض العباد البشر. بل هم طوّع يفعلون ما يؤمـــرون كيفما كان بالإنسان وحياً أو أخذاً أو توفياً عند الموت للظالم لنفسه أو لمن يتوفونه طيباً – ثم يتلقونهم بتحية السلام ويسوقونهم مدخلاً إلى الجنة. ومن ذِكر الغيب الـــشيطانُ يُـــستعاذ بالله منه رجيماً لتكون صلة العبد بربه إذا قرأ القرآن خالصة من وسوسته ونـــزغه، ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وإنما سلطانه

على الذين يتولونه وهم به مشركون. وأخطر ذكر أنباء الغيب في السورة الساعة يُنكر الكافـــرون بها بعث الإنسان، والله يحي ويميت والساعة أجل مسمى ووعد حق وأمر مفعـــول كلمح البصر. والآخرة عندها دار الجزاء يبين للناس فيها القضاء الفصل فيما كانـــوا فيه يختلفون ويعلم الكفّار أنهم كانوا كافرين بما يرونه فيها عين اليقين. وتأتي يومـــئذ كـــل نفـــسٍ تُجادل عن نفسها محاسَبَةً وتوفى عملها مجازاة وهم لا يظلمون. ويُذكر أجر الآخرة وعذابها في كل سياق في السورة لعاقبة الهدى أو الضلال.

وكمـــا ســـنّ الله أن ينـــزل ملائكته بالوحي أتم ذلك بأن يصطفي من يشاء من عـــباده لينقلونه رسلاً إلى أمم خطابهم من العباد البشر. والسورة تذكرهم متوالين على الرســـالة قـــبل الرسول الخاتم المخاطب بالقرآن. وكانوا رجالاً مثله لا ملائكة يباشرون البشر. وهم الشهداء على أممهم يوم القيامة أن قد أدوا أمانة البلاغ والنذير والبشير فيحقّ بتلك البيّنة ميزان الحساب وحظ الجزاء. وإذ كانت السورة هدى توحيد لله وتطهر من الـــشرك المنتشر فقد جاء ذكر إبراهيم رسولاً مسمّى، تذكيراً به أصلَ سلَفٍ للمخاطبين العـــرب وأهـــل الكـــتاب مـــن بني إسرائيل. فقد كان أمة قانتاً لله حنيفاً وما كان من المـــشركين. وكان قدوة في شكر أنعمِ الله عليه اجتباءً وهدى إلى صراط مستقيم وأيداً عـــبر دعوته وهجرته وحملته على الشرك وإقامته للملة الحنيفية. وإذ أتمّ كلمات الابتلاء آتـــاه الله في الدنيا حسنة مجزياً وهو في الآخرة من الصالحين مأجوراً. وإذ هو إمام الدين فقـــد أُوصـــي الرسول الخاتم – ذرية له – اتباعَ ملته حنيفاً معتزلاً للمشركين. والرسالة الحـــق الخالد التي تصادق عليها الرسل متعاقبين هي النذارة من جاهلية الشرك ومن الفتنة بالعالم المشهود، وهي العبادة لله وحده واجتناب الطواغيت، وهي التذكير لمن يليهم من الناس بآيات الله ونعمه، والتلاوة لآيات الهدى في الحياة. وما عليهم إلا البلاغ، ولله أمرُ مـــن ضلّ ومن اهتدى. أما الرسول الخاتم للناس كافة فقد جاء مستقيماً على ملة إبراهيم حانفـــاً من الشرك حوله وأُرسل بالكتاب ليبيّنه للناس، وإنما عليه البلاغ لا يهدي هو – وإن حـــرص – إلا مـــن يهدي الله. وهو على أُمّة خطابه جميعاً شهيدٌ يوم القيامة ببلاغ الهـــدى والنذارة والبشارة. وهو إمام الدعوة للهدى، عليه مهما يشق الخلاف ويحتدم أن يدعـــو بالحكمـــة والمـــوعظة الحسنة ويجادل بالتي هي أحسن. وإن اضطر من آمن معه

مدافعـــة أن يعاقـــبوا من آذاهم ليفتنهم من الكافرين فليأخذوهم بما فعلوا وحسب، وإن صـــبروا لهو خير للصابرين. وعلى الرسول أن يكون قدوتهم في مسلك الصبر فإنما صبره بـــالله مـــستعين، وألا يحزن على إعراض الذين يخاطبهم فهداهم على الله، ولا يكون في ضَيقٍ مما يمكرون به وبمن معه فالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وكـــان مذهب الإشراك للذين خاطبتهم هذه السورة وسائر السور في القرآن أن آلهـــتهم أصـــنام من جماد لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون لا يحسّون بعبّادهم الأحياء وما يشعرون أيان في الغيب يبعثون بينما توهّم المشركون أن لهم مدى من إحاطة بالغيب. ولأهم مرهونون لأمر واقع وتقليد موروث من عقائد التديّن يزعم المشركون أن الله لو شـــاء مـــا عبدوا من دونه من شيء هم ولا آباؤهم ولا حرّموا من الأنعام أو الحرث شـــيئاً، يكلـــون أمـــرهم إلى فرية قدرية طبعاً وجبراً من الله. وكانوا – رغم ذلك – يـــساوونه ﷻ بـــشركائهم يجعلون لهم نصيباً مما رزقهم الله افتراء هم عنه مسئولون، ويـــشركون به الملائكة ينسبونها بنات إليه تعالى، بينما هم يؤثرون لأنفسهم من الولد الذكور، إذا بُشّر أحدهم بالأنثى مولوداً ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى خجلاً ويتحيّـــر أيمـــسكها على هون أم يدسها وأداً في التراب، ويجعلون لله ما يكرهون من أنصبة الرزق ويكذبون أن لهم هم الحسنى. وكانوا يكفرون بنعم الله لا يعرفونها آياتٍ لتوحـــيده وشكره وعبادته، وإذا بلغهم هدى الكتاب يعظهم ويذكّرهم يكذبونه، فقد قالـــوا فـــيه أنه أساطير الأولين أو هو مفترى من الرسول يُملى عليه من أعجمي. ولا يـــبالون بالنذيـــر في الذكر بل يتمادون لا يصدقون أن يقع بهم المحذور من العواقب. كـــأهم ينتظـــرون حـــتى تأتيهم الملائكة أو يقع عليهم أمر من الله عاقبة عاجلة حاقة عليهم. وكانوا يمكرون السيئات مطمئنين لسيرة حياتهم كأهم أمِنوا أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتـــيهم العـــذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم الله في تقلّبهم في الحياة والأرض فمـــا هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوّف دركاً حتى يفنوا. والله ضرب لهم الأمـــثال ليميـــزوا أصنامهم المملوكة العاجزة والخرساء التي لا تهتدي ولا تهدي دون الله ﷻ المالك الرازق العدل الهادي إلى صراط مستقيم. وذكّرهم عبرة بتفاضلهم على ما ملكت أيمانهم في الرزق لئلا يساووا الله ذا الملك والرزق العظيم وأصنامهم. وضرب

لهــــم مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقهــــا الله لباس الجوع والخوف لعلهم يذّكرون، ولقد جاءهم رسولٌ منهم فكذبوه فأخـــذهم العذاب وهم ظالمون. وإن لهم لعظات فيمن خلا من الأقوام. مثلَهم قد مكر الـــذين مـــن قبلهم فأتى الله بُنياهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العـــذاب من حيث لا يشعرون. وكما كانوا يمارون في مقدم واقع النذر، كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم بما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وكان من قبلهم كـــذلك مـــن استمسك بشركه ظناً قدرياً أنه من مشيئة الله، وجاءتهم الرسل بالهدى والبلاغ فكذّبوهم، فليسيروا في الأرض ولينظروا كيف كانت عاقبتهم. وهم مفتونون بالدنيا العاجلة الحاضرة المشهودة ويُقسمون بالله جهد أيمانهم أنه لا يبعث من يموت فلا يؤمـــنون بالآخـــرة وعداً حقاً لأجله. أولئك إذا توفتهم الملائكة ظالمي أنفسهم ألقوا الـــسَّلَم في معرض الحشر والسؤال يتعذرون أنهم ما كانوا يعملون من سوء. والله عليم بما كانوا يعملون يعلم سرهم وعلنهم. وهو يومئذ ملك يوم الدين يسألهم أين شركاؤه الذين كانوا يشاقّون فيهم، فبُهتوا ولا يتكلم إلا الذين أوتوا العلم والإيمان يقولون: إن الخـــزي اليوم والسوء على الكافرين. أولئك يدخلون أبواب جهنم هم فيها خالدون فلبئس مثوى المتكبرين. وكان الشيطان قد زيّن لهم سوء أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم. ورسلهم يشهدون عليهم بلاغ الهدى والنذير فتحق عليهم عواقب الجزاء. إن الكافـــرين لا يُؤذن لهم منصرفاً من جهنم بالتعذّر ولا يُستعتبون. أما الظالمون الذين كفروا وعدوا طاغين في حياتهم فلا يُخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون. وأما المشركون فيرون شركاءهم فيقولون: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك، وهؤلاء يُلقون إليهم القـــول إنهـــم لكاذبون، فيلقون هم إلى الله السّلم إذ ضلّ عنهم ما كانوا يفترون. والذين كفـــروا وصـــدّوا عن سبيل الله غيرَهم مستكبرين عليهم فهم يحملون أوزارهم هم كاملة ومـــن أوزار الـــذين يضلّونهم بغير علم، ازدادوا عذاباً فوق عذابهم بما كانوا يفسدون في الأرض.

أما المؤمنون بالغيب المذَّكرون العاقلون المتفكرون في آيات الله اهتداءً إلى توحيده الشاكرون لنعمائه والمؤمنون بملائكته تعالى ورسله وكتبه واليوم الآخر فأولئك إذا قيل

لهـــم: ماذا أنـــزل الله؟ يقولون هو خير، فهم به متقون الله مهتدون بهديه مستبشرون بـــوعده. وفي ذلـــك الهدى المنـــزل يأمرهم الله بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظهم لعلهم يذكّرون فتستقيم علاقات مجتمعهم في الحياة ويُوصون لإرساء صدق التواعد أساساً للتعامل في الحياة – أن يوفوا بعهد الله وألا ينقـــضوا الأيمـــان بعد توكيدها وقد جعلوا الله عليهم كفيلاً، فإنه تعالى يعلم ما يفعلـــون. يُنهون ألا يتخذوا الأيمان – وهو شهادة الصدق التي تصلهم – دَخَلاً بينهم ونكثاً لغزل الثقة الذي يعصم ذات بينهم من أجل أن يكون طرف هو أربى من طرف بكـــسب مَغنمٍ بالباطل، فالعهد ابتلاء لهم في حساب المعروف وفي حساب الله الذي يـــذيقهم السوء إن اتخذوا الأيمان دَخَلاً بينهم وزلّت قدم صدقهم بعد ثبوتها بما صدوا عـــن سبيله ولهم عذاب عظيم. فينبغي ألا يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ينفد بفناء الدنيا فمـــا عـــند الله خير وباق ويجزي الذين صبروا واتقوا فتنة الغنم بنقض العهود أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون. والذكر يهدي عموماً للعمل الصالح فمن يعمله من ذَكَرٍ أو أنثى وهو متخذٌ منهجاً ومنطوٍ على نية من الإيمان فليحيينهم الله حياة طيبة في عاجلهم وليجـــزينهم أجـــرهم آجلاً بأحسن ما كانوا يعملون. ويوصي الله عباده المؤمنين في أعراف طعامهم ماداموا يعرفون نعمة الله أن يأكلوا مما رزقهم الله حلالاً طيباً شاكرين لـــه عابـــدين، ولئن رعوا اتقاء المحرمات المنصوص عليها بشرع الله فلا يمضوا يتبعون أعـــراف الجاهلية يُحلون ويُحرمون افتراءً، فذلك متاع قليل دون فلاح يجر إلى عاقبة عـــذاب أليم. والذين أوتوا الكتاب من بني إسرائيل ما حرّم الله عليهم مما قصّ القرآن إلا أمراً خاصاً جُعل عليهم لا ظلماً بل بما كانوا أنفسهم يظلمون. ومن هؤلاء وأولئك بعـــد عمل السوء بجهالة وُضعت بينهم محرمات عرفية أو جرت عليهم بظلمهم أصر تحريم، من تاب إلى هدى الإسلام من بعد ذلك وأصلح فإن الله غفور رحيم.

إن المؤمـــنين عرضـــة للفتـــنة من الذين كفروا واستكبروا وحملوا عليهم عصبيةً لشركهم هم، فمن اضطر فجاملهم بكلمة كفر وقلب مطمئن بالإيمان فالله غافر، ومن ارتـــدّ وشرح بالكفر صدراً مؤثِراً الدنيا وما تقتضيه عليه فإن الله لا يحب الكافرين بل يطـــبع لمن ارتدّ قلبه وسمعه وبصره ليمضي في غفلة وهو من الخاسرين حقاً في الآخرة.

أمـــا الـــذين هاجروا بعدما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا وعلى ربهم توكلوا فإن الله غفور رحيم وليُبَوِّئنهم في الدنيا حسنة أمنٍ ومتاع، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. إن كل الذين يتقون الله ويؤمنون بأن ما أنـــزله هو الخير لهم ذلك من حسن الدنيا وخير الـــدار الآخـــرة، فإذا توفتهم الملائكة طيبين يتلقوهم بتحية السلام إلى مدخل الجنة بما كانوا يعملون، تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون.

إن الرســـول لإمامُ المؤمنين على ملة إبراهيم دون تبديلها إشراكاً أو اختلافاً بعده بـــين طوائـــف أهل الكتاب، وعلى سبيل الله بهدى التنـــزيل، وهو قدوتهم في منهاج الدعوة إليه بالحسنى وفي تقوى المعاقبة لمن آذاهم بالمثل وفي إيثار الصبر توكلاً على معية الله.

ترتيل المعاني: (الآيات ١ – ٢١):

﴿أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١)

أتـــى أمـــر الله، تنـــزّل من الغيب على واقع الدنيا قضاء نجز مفعوله دفعةً لمجرى أقدار منظومة لإبطال الباطل وإحقاق الحق من الله تتجلى واقعاته بآجال مكتوبة، فقد حـــقّ مطلع أمر الله العظيم أن جاءت رسالة الهدى التي تعهد الله بها بني آدم متنـــزّلة خـــتاماً للرســـالات اصطفى الله لها رسولاً ليبلغها، وهو تعالى هادٍ بها المؤمنين ممدٌّ في ضـــلالهم عنها المعرضين، عليم بما بينهم من مجادلات ومجاهدات حتى يُتم دينه فيظهره علـــى الـــباطل ويعز المؤمنين به ويقضي بما يشاء على الكافرين، ليقيم هديه خالداً في مـــستقبل ســـيرة الدنيا محفوظاً أصله الحق تتداول عليه عهود يتعاقب فيها بلى التدين وتجـــدده حتى يأتي يوم الدين. أمرُ الله الذي أتى هو أن قد بدر جريان الأقدار المنظومة أمراً مقضياً ليمضي تجلياً متوالياً كما يشاء الله. والخطاب للذين تنـــزّلت عليهم بادرة أمـــر الله ألا يستعجلوا إتمام ظهور واقعاته ليستوثقوا برؤية العين من حقه، ألا يكذب الكافرون وعد آجاله يعاجلون الرسول مجيئها إن صدق، وألا يستبطئها المؤمنون يكلّ صـــبرهم قـــبل أن يحـــق على الكافرين عاجل الوعيد ويأتي فتح ظهور الحق وزهوق الـــباطل. إن لله قدره في الابتلاء المدّ للكافرين والتثبيت للمؤمنين حتى ينفذ تمام أمره.

ســبحان الله تنــــزّهاً وتعالى وصفاً عما يظن المشركون من أمة الخطاب التي عهدت معبودات شركٍ لله بالأصنام وعرفت مناهج حياة بهوى المتاع. إن الأمر كله بيده تعالى لــه كتاب معلوم لا يستأخره قصورُ تقديرٍ لأجله، وإن مضى قضاؤه النافذ لا يعجزه شيء، لا حول لآلهة المشركين تمنعهم ألا يمحق الله باطلهم أو تنصرهم من وقع عذاب منه عاجل.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ﴾ (٢)

لأجل مكتوب وسنة ماضية لأمر الله ينــزّل الملائكة – قبل تنــزّلهم بعقاب من أمــره – بالروح من أمره وحياً برسالة الهدى تحيي إيمان عباده في الأرض إذ هم موتى روح من كثافة انحجابهم عن عالم الغيب وانفتاهم بالعالم المشهود. يُنــزّل الله الملائكة بالوحي على من يشاء من العباد نبياً فرسولاً فيهم، وهو يصطفي حيث يجعل رسالاته، لا لعظماء يسترهبون الناس ولأشباح شاخصة فيهم مباشرة من الملائكة، بل لبشر من عامتهم ليحمل إليهم رسالةً يأمرهم بها الله أن ينذروهم أنه لا إله إلا هو، وليبلّغوا من ثم للعــباد أن يــتقوه. ذلك أن المخاطبين على عهد شركٍ يلزم التطهّرُ منه وتوحيد الله انتقالاً بزاجر نذير وآمر تقوى لسطوة عقاب الله، فهو لا يغفر أن يشرك به فإن تجاوز الناس معهودهم ذاك متقين موحدين الله فإنه يغفر لهم ويبشرهم.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣)

أول رســالة أمر الله الذي أتى نذارة من الشرك به وتقوى لعذابه هو التذكير به خالقــاً لأمــر الوجود. خلق السماوات والأرض إطاراً لحياة الإنسان – آيات للغيب ونعمــاً له، هو مبتلى بها فمسئول، خلق الله ذلك كله بالحق لا عبثاً. سبحانه بقدرته وحكمته عما يتعلق به دونه المشركون من معبودات جامدة لا تخلق شيئاً، وهو المتعالي بذلك الخلق الكبير لذلك الشأن العظيم.

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٤)

في سياق ذلك الخلق المحيط من الكون أتمّ الله نظام خلقه المشهود المقدر. خلق الإنسان من نطفة – سنةً لنشأته مخلوقاً حياً سلالة يتعاقب بها الوالد والمولود وتدور

فـــيها الحياة والموت. ولعل الإنسان من خلقه من مادة ذات قدْرٍ مهين يُدرك آية الله الذي خلق الكون الكبير مطبوعاً بالخضوع لقَدَره المسنون، فيخشع هو ويؤمن رهبةً لله ولا يفتـــنه الغرور بنفسه وهواه، ولا يغفل عن معرفة الله وحمده على ما سخّر له من كل تلك المخلوقات، ولا يُنكر أن الذي خلقه وما حوله قادرٌ على ما أهون عليه من بعثه من جديد بعد الموت في عالم غيبِ أزلٍ ليلقى ربه الذي يسأله ويجزيه تسوية لدنـــيا حياته، ويتذكّر أيضاً من طبع تلك المخلوقات أن الله قد خصّه هو بأمانةٍ ما احتملتها السماوات والأرض العظام، إذ زوده ﷻ بقدرةٍ من العلم النافذ إلى الغيب بآيات الطبيعة المشهودة وأسمائها سماتها، وترك له خيار المشيئة ليحتمل أمانة التكليف ومـــسئولية الأداء بعـــداً، وفطـــره على ميثاق الإيمان ثم وافاه بآياته الموحاة تذكرةً وهدى. ذلك هو مذهب الحق الأولى بالعباد، ولكن من استوى وبلغ الرشد من أصل نطفة قد يشاء فيكفر فإذا هو خصيمٌ يخاصم الحق ويجادل في آيات الله مبينٌ منطيق لا يـــؤمن بوحدانية الله الذي آتاه نعمة العلم والبيان واكتنفه بالآيات المرئية والمسموعة الهادية.

﴿وَالأَنْعَـــامَ خَلَقَهَـــا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِـــينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥ – ٦ – ٧)

ويبـــيّن الله خطابـــاً لمن تنـــزلت عليه رسالة الوحي بمخلوقات بين السماوات والأرض آياتٍ لمعرفته تعالى ونعماً لحمده. أولها – دابة حية أقرب للإنسان – الأنعام، الحيوانات الأليفة خلقها الله وسخّرها للمخاطبين جميعاً، فيها دفء – لاسيما في البيئة الـــباردة – دثـــاراً وسكناً بجلودها وصوفها، ومنافع شتى إلفة وحرثاً ومشرباً وسعياً للحرث، ومنها يأكلون اللحوم. ولهم فيها جمال تمتعاً بمشهدها حين يريحون قادمة من المراعـــي بالعـــشي وحـــين يسرحون بالغداة مراحاً إليها. وهي تحمل أثقالهم أنفسَهم وأمتعـــتَهم – إلى بلدٍ لم يكونوا بالغيه دونها إلا بشق الأنفس جهد مشي وحمل مسافة طـــويلة. ويُذكـــرهم الخطاب إن ربهم في ذلك لواسع الرأفة يحيطهم برفق بالغ الرحمة يكتنفهم بإحسان.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨ – ٩)

ومما خلق وسخّر الله أيضاً الخيل والبغال والحمير – تصهل وتحمل وتنهق حولهم ليركــبوها ويحملوا عليها وزينةً لاسيما الخيل. ويخلق ما لا يعلمون من جنس الحيوان المــسخّر الذي لم يألف المخاطبون الأُول خاصة أو التي وجوه تسخيرها دقيقة لا تبدو إلا للعالِم.

وفي الانــتقال رحــيلاً في الأرض بتلك المسخرات وحملاً الأثقال يلتمس الناس الطــرق، وتلك تذكرةٌ – فضلاً عن نعم الله المسخّرة على السبيل تلك – أن على الله نعمــة بيان قصد السبيل للحياة وسوائه وعدله مستقيماً هدياً إليه، ومن السبل التي قد يــسلكها الإنسان في الحياة جائر ضال بهواه عن الصوب إلى المبلغ الحق. ولو شاء الله لهــدى المخاطــبين أجمعين أمة واحدة تؤمّ منهاج الحياة المستقيم سبيلاً إلى الله، لكن الإنسان ليس كالحيوان والنحل مجبولاً على مسالك سبل الصواب في بيئة الطبيعة، بل هو في حياته الكريمة وهدى مسلكها موكول إلى فطرة عقل يتعلم ومشيئة حرة تتخير، إن شاء اهتدى بهدى الله وإن شاء أعرض فضلّ السبيل.[(١)]

﴿هُوَ الَّذِي أَنــزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (١٠)

ويمــضي البــيان في عدّ نعم الله إلى ما وراء الأنعام التي تباشر المخاطبين. هو – تعالى – الذي أنــزل من السماء ماء لهم منه شراب طاهر يسقيهم من العطش وحاجة الجــسم ويسقي أنعامهم التي تسقيهم لبناً، ومنه شجر قائم ينبُت بريه الذي يحييه، فيه يُسيمون ويرعون بهائمهم.

---

(١) ذكــر ابتلاء الإنسان بالأنعام ركوبة وحاملة للأثقال إلى غاية السّفر، موصولاً بأن على الله هداية قصد السبيل ومنها جائر حسب مشيئة الناس – مثلُ ذكر إرسال الرياح المختلفة ابتلاء وإرســال الرسل نذارة وبشارة: انظر مثلاً الآيات ٤٦–٥١ سورة الرّوم، ومثلُ ذكر إحياء مــوات الأرض بإنــزال الماء من السماء موصولاً بذكر إنــزال الكتاب وحياً لإحياء موات الــنفوس: انظر مثلاً الآية ٦٤ من ذات السورة، والآيات ٤٨–٥٢ سورة الفرقان. ذلك من مــنهاج القــرآن الذي يتواتر فيه ذكر آيات الله المنــزلة في مشهود الطبيعة ابتلاء في الحياة موصولاً بذكر آياته المنــزلة وحياً ابتلاء فيها بهدى الشريعة.

﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١)

يُنبت الله بذلك الماء أيضاً – رحمةً للمخاطبين من العباد وإحياء لما يحرثون ويبذرون – الزرعَ حبوباً والزيتون بزيته الطيب والنخيل وما فيه من تمر والأعناب بألوانها ثمراً من الكرم، ومن كل الثمرات حباً وبقلاً وفاكهة. إن في ذلك حقاً آية لقوم تجذبهم فيقومون مفكرين فيها معرفةً لله الخالق الحكيم فيؤمنون به ويعبدونه وتقديراً لرحمته المبسوطة نتاجاً وثمراً فيحمدونه ورؤيةً لسنته في الإحياء والإماتة فيتذكرون بعثهم بعد الموت فيتقون يومه.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢)

وسخّر الله لهم – أولئك المخاطبين – من خلقه في الآفاق فوقهم وتسييره – تعاقب الليل سكناً والنهار ضياءً لابتغاء مساعي المعاش، وسخّر وراء ذلك الشمس والقمر يتداوران كما يبدو ضوءاً بالنهار ونوراً بالليل ويتواليان حساباً للأيام. وكذلك النجوم مسخّرات بأمره تعالى لمتاع زينة السماء لعباده الناظرين ولتعرّف الأنواء والمواسم وصوب الجهات في المسير. إن في ذلك المختلف لآيات عدّة لقوم يعقلون، فهي بيناتٌ لأدنى مشاهد يقوم فيعقل مغازيها في نظره إطاراً لابتلاءاته، ودلائل مذكّرة بوحدانية ربه الخالق وحكمة نظام تدبيره، ودواع لحمده، وإشارات من الهدى له في جهات مسيرته في الأرض وإلى وجهة الهدى له من خالقها الواحد – قصد السبيل الحق في مسير الحياة.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣)

ويُذكر من توالي نعم الله الواسعة لعباده المخاطبين أيضاً: ما ذرأ لهم في الأرض وبثّ من مشهود عشب ونبت طبيعي مختلف ألوانه وأعراضه يتمايز زينة ومنافع للإنسان الساعي الراعي قي أوساطها. إن في ذلك لآية جامعة لقوم يقومون يشهدون آلاء الله إذ تحيط بهم تجلّياتٌ من قدرة الله ونعمائه وتلفتهم ألوانها وتشاكيلها لا تفتنهم بل يحضرهم بها الوعي المتذكّر لله وصفاته العليا ومغازي ابتلائه لهم بمشاهد ومنافع في الحياة.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٤)

وإذ بدأ عدّ آيات الله ونعمه بخلق محيط الإنسان ثم بخلقه ذاته ناطقاً بعد نطفة تبدو ميتة، ثم اتسع التذكير إشارة إلى الأنعام حوله ومنافعها للمهتدي بمغزى ركوبها على السبل، ثم إلى الماء والنبات للمتفكر في تجليات قدرة الله المحيي ونعمه، ثم إلى الآفاق فوقه ووقع ضوئها وهديها في وجه حياته وحسابها، ثم إلى سائر النبات المنتشر في الأرض للمتذكّر وحدانية الله وسننه وراء ألوان مخلوقاته – إذ تمّ ذلك بلغ الذكر البحر العميق الجاري، فهو تعالى الذي سخّره للمخاطبين ليأكلوا من باطنه لحماً طرياً ويستخرجوا منه حلية يلبسونها لؤلؤاً ومرجاناً وما سوى ذلك ودونه من الصدف، والمخاطب يرى الفلك مواخر في موجه تشقّه بصوت جارية لحمل المخاطبين من العباد ومتاعهم ليبتغوا من فضله تعالى عبر الانتقال وتداول الأموال. ويضاف من وراء ذل كله أن البحر تذكرةٌ للعباد لعلهم يشكرون الله هذه النعم المتعددة المصالح فيه فيؤمنون به تعالى ويعبدونه.

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥)

وإذا كانت البحار سائلة ماؤها جارية فإن من مُضاف ذكرِ نعم الله الجامدات. وألقى الله في الأرض رواسي وضعاً متنـزلاً على طبقاتها من الجبال، تستقر بها الأرض ألا تميد كما يبدو للمخاطبين منها أوتاداً وكما لا يعلمون من استقرار بشرة الأرض ألا تتمايد بدفوع جوفها المتلظي الذي ينفذ أحياناً من الجبال منافذ لطاقاته المتفجرة ألا يضطرب كل بساط الأرض. وجعل الله بين الجبال ودياناً لتجري فيها المياه الفائضة من نزل السماء والنابعة من نبع الأرض أنهاراً تبلغ بالعباد مناحي نفعهم، وجعل في مسالك الأرض سبلاً كثيرة يتيسر فيها وينتشر مسعاهم لعلهم يهتدون إلى شتى مقاصدهم في حركة الحياة على الأرض.

﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦)

وألقى الله في الأرض لعباده علامات للمسير والجهات وتعرّفِ المعابر والمقاصد من رسم الجبال ومشاهد أصعدة الأرض وشجرها والمسالك المعهودة الممهدة، وبالنجم

هـــم كـــذلك يهتدون في وجهات ترحالهم وتعرف مناحي الرياح وآثارها ومواسمها بتعرف مواقع النجوم الثابتة من رؤية الأرض فيما يعهدون.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧)

والـــسؤال الحق للمخاطبين مترتباً عن عدّ كل هذه المخلوقات آيات لله ونعماً منه للإنسان: أفمن يخلق كل ذلك كمن لا يخلق شيئاً مما يتخذ المشركون معبوداً من جمـــاد الأصنام أو من أشياء مخلوقة حيواناً أو شجراً أو جبلاً أو نجماً يقدسونها وهي مـــسخّرة لهم لا تقوم عليهم خالقة أو ناظمة لمصادر حياتهم وأطرها؟ والجواب بيّن نفـــياً قطعاً. والسؤال يمضي ويخاطبهم من ثمّ: أفلا يذكرون بشتى تلك الدواعي إن غفلـــوا حيـــناً عن وقع الآيات والنعم أو التهوا دون ذلك بمتعلّق معبود مشهود غير خالـــق ولا منعم مخلوق مسخّر؟ والجواب الحق أن يراجعهم الوعي فيدركوا الحق في الإيمـــان بالله وحده إلهاً معبوداً لأنه أصل وجود المخلوقات المسخّرة نعماً، الإنسان مبتلى بها والله هو الهادي.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨)

وحاصـــل جملة البيان للمخاطبين بعد عدّ تلك النعم أنهم إن يعدّوا نعم الله فضلاً عما ذكر منها لا يحصوها ضبطاً لعدّها. ومهما يعرض العباد عن تبصّرها آيات ومحامد لله أو يتعـــسّر عليهم تذكّرها وإحصاؤها كافة ليوفوا قدرها من شكر الله المتضاعف، فـــإن الله واسع النعماء تلك هو أيضاً واسع المغفرة عن الغافلين والجاهلين بالغ الرحمة للقاصـــرين عن الوفاء الوفاق لحقه تسبيحاً وحمداً وعبادة، فهو يمدّ لهم في الحياة ابتلاء لعلهم يذكرون فيتوبون إلى الله.

﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (١٩)

والله خطابـــاً لعباده لا يواتر إحسانه ببسط النعم المتوافرة وإسباغ مغفرته ورحمته لعباده الذين لا يذكّرون لأنه لا يدري غفلتهم أو كفرهم بالنعمة والرحمة، بل هو يعلم مـــا يـــسرون أقـــوالاً أو فعالاً في خلوة أو خواطر في صدورهم وما يعلنون من حمد وتوحيد عبادة لله أو من تبديل نعمته كفراً وإعراض دونه لمعبودات أخر.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠)

والخطـــاب يباشر أولئك المشركين مع الله الخالق المنعم أصناماً: أن الله عليم بهم، والـــذين يدعون هم من دونه تعالى لا يَخلقون شيئاً ليحمدوا به أو يُرجوا من أجله بل يُخلقون بأمر الله من مادة أو قيام في الوجود المشهود.

﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢١)

بـــل هي أصنام أموات غير أحياء أصلاً بحيلة حركة ليفعلوا شيئاً استجابة لدعاء عـــبّادهم المـــشركين أو إحاطة بحياتهم ما يسرون فيها وما يعلنون، وما يشعرون أدنى شـــعور أيان – أيّ حين عبّادهم يبعثون ليُظنّ أن يدركوهم عند الله فيشفعوا لهم لديه. هـــم أصـــلاً جماد بلا روح ولا شعور فمن ثمَّ لا قدرة لهم أو علم أو شعور بما حولهم مسيراً أو ما وراءه مصيراً. أما ما يُرمز إليه بالأصنام أحياناً من جن أو ملائكة فأولئك أرواح تعلـــم حق البعث لا حينه ويوم البعث يُنكرون ولايتهم لهؤلاء، بل إن كبراءهم وسادتهم الذين يتبعوهم هم عبّاداً لهم دون الله يتبرأون منهم لتخف عنهم أثقال الوزر، كما جاء كل ذلك متواتراً في القرآن.

عموم المعاني: الآيات (١ – ٢١):

أتـــى أمر الله إلى الأرض بنـــزول القرآن إذ فَرَقه ﷻ من الملأ الأعلى روحاً من أمره رسالة إلى عباده، ما نـــزلت جملة واحدة بل أخذت تتنـــزّل وتترتل ترتيلاً على مكـــث نجّـــم الله عبره تجلّيات الآيات مثاني متواترة حتى تمّ القرآن وواقعاتها في الحياة تـــتوالى حتى كمل مثال الدين وبدت بذلك حكمة الله في نسق آجال التنـــزيل ونظم الترقـــي بهديه متماداً مع تطورات الابتلاء والكسب. إذ أُلقي أولاً على المخاطبين من الناس غريبُ وحي فأنكروه فيما يعهدون وجديدُ علم وهدى فأعرضوا عنه وخاصموه فـــيما يهـــوون، بينما بدا فيهم تقبل فاطمئنان فإيمان من طائفة من السابقين تقدّمت صـــابرة علـــى مجاهدة السواد الذي كان أعظم منها فاعتزلت معهود شركه وهجرت أعـــراف تقالـــيده مستمسكة بالذي أوحي قائمة به في سبيل تمكينه في الواقع. وكان الرســـول الذي يُوحى إليه يستعجل أحياناً توالي مزيد من الوحي إن طالت عليه فترته يخـــشى أن يفارقه ربه ويستعجل أحياناً القراءة من قبل أن يقضى إليه وحي من القرآن

لــيحفظه. وكـــان من المؤمنين من يستعجل أجل ظهور جد حق القرآن على معهود الـــباطل الذي لازم الناس في جاهلية ممتدة. سبحانه وتعالى عما كانوا يشركون، فهو البـــصير بصروف البلاء في سيرة المخرج من ظلمات الإشراك إلى نور التوحيد العليم بالمـــنهاج الأقـــوم للدعوة المتنـــزل لدفع ذلك قُدماً. وهو تعالى الصبور على الإملاء للمُعرضـــين مـــداً ومجـــالاً لعلهم يغالبون نـــزعة التقليد السائد فينخلعون من رهنها ويـــتوالون بفطرة الإيمان إلى ربهم مسلمين أو يصرون فتحق عليهم العاقبة. وهو جلّت أقداره الحكيم في إنظار رجاء المؤمنين ليصبروا حتى يبلغوا أشدهم ويقضي الله أمراً كان مفعولاً من إتمام تنـــزّل الهدى وكمال مثاله في واقع الحياة. وتلك سنة في رسالات الله مـــن الغيب إلى عباده: تتنـــزّل الملائكة بروح من أمره، وما كان له أن يكلّم بشراً إلا وحـــياً أو مـــن وراء حجـــاب أو يرسل رسولاً من الملائكة – الوصل بين أمره وبني الإنـــسان مـــنذ الـــسجود لآدم – يحملون روحاً من الوحي بلسان أمة الخطاب، ولا يظهـــرون فـــيهم شخوصاً لئلا يلتبس أمرهم وهم خلق مطوّعون لله لا يقومون قدوة مناسبة للبشر المتخيّر وإنما يوحون إلى رسل بشر ليبلّغوا مَن حولهم مثلهم وليقوموا أئمة ومـــثالاً للهـــدى. ولا يـــصطفي الله رسولاً بمعايير التفاضل الظالمة بل بمشيئته وعلمه بمقتضى حمل أمانة البلاغ والتزكي مصابرة وصلاحاً نحو قدوة الإحسان.

والسنة في أول عهد الدعوة إلى الحق المتنـــزل أن يقوم الإنذار حتى يتحرر الناس لله أحداً لا إله إلا هو، فهم عند ذلك يلزمهم الترهيب الزاجر لأنهم في طوق فتنة عالم مـــشهود فيه آلهة من أصنام أو نجوم عليا أو أرواح غيبية بظنون أو فيه رؤية للاهوت مـــتجل في كل الأشياء المنبثة في طبيعة الكون المشهود أو فيه اتخاذ إله في هوى المتاع يُتعـــبّد انفتاناً بالشهوات وقصور البصائر. والوصية الأولى لتلك الدعوة إلى الدين الحق هـــي التـــزام التقوى توبة وتطهراً من المعهود لتصويب كل الخشية لله ورعاية حدود الإيمـــان بـــه توحيداً والهدى به منه حرماً محصوناً – هداية مع المتقين. وكما قام دين الإســـلام لصدره الأول في بيئة جاهلية مرتدة من ملّة إبراهيم الحنيفية القويمة أو كتابية زلت وانحرفت عن شريعة موسى التي تطاول أمدها، كذلك كلما تقادم أمر الدين غير حي مترق أبداً في درج الإحسان بل متدنياً إلى حال غفلة ونسيان للأصول واتساع في

خـــرق الدين وفسق أبعاد من الحياة العامة عنه وبقية أعراض من طقوس عبادة خاصة مسنونة قد لا يعمرها إخلاص أو قنوت، وكلما استشرت غاشيات الفساد في الأرض وانـــتكس مثال الدين في ثقافات الناس ومناهج حياتهم – قيض الله انبعاثاً فيهم لدفعة إحياء بعد الموات وتجديد بعد البلى، مثل رسالات الوحي المتجددة المتعاقبة التي اختتمت بالقرآن. وحركة الدين الناهضة كذلك عُرضة في كل دورة لمثلِ الأَعراض التي غشيت أول عهـــد الـــدين مـــع المرسلين – غربةٍ وإعراض وفتنة قد يستعجل فيها السابقون المـــتجددون مـــن حرص مسارعتهم لإخراج الناس متاباً من مدارك الباطل إلى مدارج الـــصلاح فالإحسان الكامل. ولكن سنة الله ماضية قدراً، والمؤمنون ينبغي أن يفقهوا حكمـــتها ويهـــتدوا بها في خطة مساعيهم لقومة الدين لا مبطئين ولا متعجلين وإن سارعوا إلى غفران الله عن الحاضر ومباركته لجهد الترقي نحو بلوغ المثال.

إن سنة الله كذلك في تعزز دواعي الهداية إلى الدين حية متجددة أبداً هي التذكير بآياته تعالى التي تباشر الإنسان لو يدركها ويتلقاها تتثانى عليه آيات مطبوعة في الكون حـــوله مرئية وآيات موحاة من الغيب تُتلى عليه مسموعة. ففي الكون المشهود تبسط آيـــات في وجود مخلوقات لو نفذ عَبرها الإنسان المتفكر في خلقها وتدبيرها لَعَرف الله وصفاته الحسنى ولو تأمل في نظمها الموزون وآجال حركتها والحياة فيها الدوّارة لأَيقن بـــدوران الوجود والدهر المشهود إلى الغيب والأزل وبمرجع حياة الإنسان إلى لقاء ربه منبعثاً في حياة أخرى، ولو تدبّر وقعها عليه لوجد أنها مسخّرة له نعمة من الله وفضلاً لـــيس فيه إلا قليل من أسباب كسبه، غالبها يقضي له حاجات منفعةٍ ومتاع أو يُرضيه مـــشهدها بـــزينة ومسرة. ثم من ذلك الغيب الذي تدل عليه آياتٌ الطبيعة المشهودة تتنـــزل وحياً آيات ذات وقعٍ داعٍ للسامع قرآنها، والقارئ كتابها تعصمه حقائق غيب لا يستطيع إدراكها بنفسه وتهديه في الحياة بما يصل كسب أولها الحاضر إلى آجلها في الغـــيب. وهي تحيي في نفسه فطرة الميثاق الذي يربطه بربه والذي يحس به كل البشر دينونة نحو الغيب في خواطر النفوس. وهي تذكرة بالآيات المشهودة لينظر فيها متبصراً فيؤمن بربه وشاهداً بنعمه فيشكره لأنه بغير تذكرة ينفتن بظاهر الطبيعة غافلاً مغازيها آيـــات للغـــيب وللخالـــق المدبر ويستغل منافعها غروراً وهوى متاعٍ لاهياً عن شكر

الـــرازق المنعم. فالله خلق السماوات والأرض لا سدىً وعبثاً بل قدّرها إطاراً لابتلاء الإنـــسان الحـــيّ فيها تُحيطه آيات مشهودة ونعم مبسوطة، سبحانه وتعالى عما يعبد المشركون من دونه من صغائر محتويات ذلك الخلق الجليل، يتخذونها أدوات محسوسة للتعـــبير عمهاً عن فطرة التدين الغيبـــي. وخلق الله الإنسان من مادّة مهينة وأتم خلقه وأحسن تقويمه وأطلقه في بوح عفو من مدى المشيئة فإذا هو خصيم مبين يتعزّز مغروراً بذاته. والله خلق الأنعام حيواناً حولَ الإنسان، جعل فيها متاعاً له كساءً دافئاً بجلودها وصـــوفها ومـــنافع ومشارب ومأكل ورضىً له جمالاً غادية رائحة وتحمله وأثقاله إلى مـــسافات تشقّ عليه دونها. كل ذلك رأفةً من الله ورحمة لو شكر ربه وتذكرة كذلك بحـــياته مسافراً إلى دار أخرى في حاجة لما يحمل من هدى من الله وعلى قصد السبيل، ذلـــك ولكـــن له أن يسلك السبيل الجائر إن شاء. والله أنـــزل من السماء ماءً غائثاً وأنبت به بأسباب حرث من الإنسان قليلٍ زرعاً وشجر فاكهة ومن كل الثمرات، لعل الـــناس يتفكرون عمقاً وراء ذلك النبات غيباً إلى خالق ومدبر فيؤمنون ونظراً في آثار نتاجه لهم فيحمدون المُنعم. والله سخّر الأفق الذي اكتنف الإنسان بتكوّر الليل والنهار ووراء ذلك الشمس المضيئة نهاراً والقمر المشهود ليلاً وبالنجوم فوقه، لعلّ الإنسان لا تلهـــيه رتابـــة كرّ الليل والنهار ولا تبهره البروج بل يعقل مغازيها آياتٍ إلى خالقها وناظمها ونعماً عليه فيؤمن بالله حامداً. والله ذرأ للإنسان في الأرض غطاءً من الشجر والعشب مختلفاً ألوانه لا يُلهيه اختلافه بل يذكّره بالذي ذرأه له متاعاً وزينة كما ذرأه هو ذرية منتشرة أيضاً في الأرض تختلف ألوانها. والله سخّر البحر ليأكل عباده منه لحماً طـــرياً ويـــستخرجوا حلية ويروا الفلك ماخرة تنقلهم حيثما يبتغون، لعلهم يبصرون آيات البحر ويشكرون أفضال الله فيه. والله خلق في الأرض رواسي قرارٍ وأنهاراً تفيض بالمـــاء وتُرســـله، كما جعل فيها سبلاً وعلامات ونجوماً هادية للجهات، لعلّ عباده يؤمنون ويشكرون ويتذكرون أمر الله الذي ينصب كذلك بآيات الكتاب هوادي إلى وجهة لقائه راضياً مرضياً.

وجملة مغزى تلك المذكورات أنها مخلوقات لله فكيف يستوي سبحانه وتعالى عند المشركين ومن لا يخلق لهم شيئاً من شتى آلهتهم، وأنها مظاهر وموارد نعم لله مبسوطة

متـــضاعفة لا تُحصى لو حاول العباد عدّها فكيف لا يصوبون الشكر إليه وحده وإنما يبتلـــي الله الإنسان بتلك المخلوقات والنعم، وهو غفور رحيم يخلّي الإنسان حياً يراها ويـــنعم بها غير مؤمن ولا شاكر، والله يؤجل حسابه ويعلم ما يسر وما يعلن من ظنه وفعلـــه ليجـــزيه به يوم الحساب. وذلك الله الخالق المحمود الغفور الرحيم فكيف يعبد المشركون آلهة من صنم أو حيوان أو نجم أو من الأشياء التي يهوون متاعها ويزين لهم جمالها، وكلها مخلوقات موهوبة من الله للإنسان لا يخلقون شيئاً ولا يهبون نعمة، وهي أموات لا أحياء، دون الإنسان، لا يعلمون حياته سراً أو جهراً فضلاً عن أن يعلموا في الغـــيب عاقـــبة حياة البشر المبتلين بالدنيا حيث لا يشعرون أيان يبعثون. والذكر في القرآن لكل تلك الآيات والنعم دعوةً للتفكر فيها والتذكر لا يخاطب الأعراب ومن في الـــبادية حـــيث ينظرون إليها مشاهد مباشرة أبداً لا يلهيهم عنها في المعاش والمجتمع منظور كثير، بل هو خطاب للناس كافة لهم ولأهل القرى التي انصبّ خطاب لأُمها. وكـــان أهل القرى أبصر تفكراً وتذكراً بالآيات المطبوعة وأفقه بتعاليم الآيات المتلوة يعيـــنهم بيـــنهم كثرة التفاكر والتذاكر. لكن سائر الناس وإن لم يباشروا رؤية تلك المخلـــوقات يُلقى عليهم علمها وتعرض صورها ويأتيهم مدد النعم منها حيثما كانوا. فالتذكـــرة بها عامة الوقع على العالمين الذين تمسهم آثار تلك المخلوقات أبداً ويبلغهم علم صفاتها المسنونة التي لا تتبدل، ومن ثم ترد في القرآن المخاطِب للناس كافة المحفوظ أبـــداً. ولـــئن كان العالم اليوم أكثر حضراً مشغولاً بالشاغلات والصوارف بين يدي الـــناس لا ينظـــرون إلى آفاق السماء والأرض ولا إلى الأنعام والنبات ومعالم الأرض كـــثيراً، فإن علوم الطبيعة قد تكثفت صوراً بأصواتها معروضة ودقائق صفات لطبائعها مبيّنة ودراسات للمنافع فيها للإنسان بليغة فضلاً عن استغلال لها أيسر وأفعل من ذي قبل. والعلم بظاهر الطبيعة ابتلاءٌ بقدر اتساعه، قد يصرف الإنسان عن الإيمان بالغيب وإدراك آياتـــه ويرهنه النظر في تشاعيب علوم الطبيعة والعكوف عليها والتفنّن لتطوير الانـــتفاع بهـــا أو قد يضاعف ذلك في بصيرته إدراك الآيات المشهودة الشاهدة ليزداد إيمانـــاً ويتعرف الله وصفاته معرفة أتم ويتذكر وسع تسخيره للأشياء ودقة نعمه بوجه أبلـــغ فيحـــسن شكره لله. وكان السواد الأعظم من أمة خطاب القرآن الأُولى يرون

آيات الله على الطبيعة ويمرون عليها لا يحجبهم كثير حضر إن لم يرق ويدق علمهم أو تتضاعف تسخيراتهم لنعمها ولكنها كانت تفتنهم بظاهرها غفلة عما وراءها من غيب فيصوبون روح التدين الفطرية على أصنام فيها من حجر أو أوثان من مقدسات مظاهر الطبيعة، وإن ذهبوا بالظنون نحو الغيب افتروا أرواحاً من الملائكة – بقيةً سمعية منذ ملة إبراهيم – بنات لله رمزوا لها بالأصنام بتسمية الأنثى. وخطاب القرآن المذكّر بآيات الله ونعمه دعوةً للإيمان بالله الواحد وحمده يخلد ويمضي هادياً من كل وجوه الإشراك تعبداً لمشهودات الطبيعة في ذاتها لا اتخاذها آيات ونعماً معبراً إلى الله ﷻ. وذلك حتى لو كان المشرك هو الذي يقدّس الوجود الطبيعي كله كأنه تجلٍّ لله، أو الذي يتعلّق بالمتاع شهوة في نفسه أو بالجمال حباً لذاته. فتلك كلها وجوه شرك لا تنفذ بالإنسان من عالم الشهادة إلى عالم الغيب – آيات ومحامد لله، ولا تعبر بحياته الدنيا زاداً مَجازاً إلى الآخرة ومتاعها ونعيمها الخالد، بل تقصر بالمشركين على متاع الدنيا القليل الفاني ليرجعوا إلى دار شقاء ولعنة تُبعد من الله والنظر إليه وتَلقّي رضوانه كما قطعوا نظرهم دون آياته وكسبهم دون عبادته وحمده في دنياهم.

ترتيل المعاني: الآيات (٢٢ – ٤٤):

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢)

الخطاب يتوجه إلى الذين تنزّل فيهم القرآن، بعد عدّ آي الله ونعمه، يثبت الحقّ ﷻ أنه لا يشاركه فيها ممّا يشركون به أحد، تخلُص له صفاته العليا خالقاً منعماً، فلا تشابه ولا تكافؤ له تعالى في تلك الصفات الحق، ولا مضارعة من خصيم في عزته وقوته ولا مقاسمة ولا قصور ولا حاجة في الخلق والتدبير والعلم والرحمة لنصيب شريك: إلههم الذي تحق له الألوهية إله واحد هو الإله – الله الفرد العظيم المنزّه القوي الغني القادر العزيز الرحمن. وكل مخلوق عابد ساجد له في كل المكان والزمان والأزل، والإنسان في مدى حياته في الأرض التي شاء الله أن يذره فيها بمشيئة حرة ينبغي أن يسجد له ويعبده حتى يلقاه في الغيب الأزل. فالذين لا يؤمنون بالآخرة دار

الجـــزاء حيث تحق ألوهيته تعالى ملكاً يقضي عدلاً في كسب عباده فيما كان لهم فيه بوح الخيار وكانوا فيها الأولى دار البلاء – الذين لا يؤمنون بها من بني الإنسان توحيداً للحـــياة أُولاها وأُخراها لله قلوبهُم منكرة كفراً بآياته وجحوداً لنعمه، وهم مستكبرون يتـــرفّعون في الدنيا على الخالق المنعم ولا يضبطون أهواءهم تقوى للولي العلي واتباعاً لهداه.

﴿لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٣)

لا جـــرم ولا ظن يأخذ من الحق أن الله يعلم أمر أولئك المستكبرين، ما يُسرون نجوى وخصوص حياة وما يُعلنون من مقال وفعال ويمدّ لهم ماداموا في مجال دار البلاء. إنـــه ﷻ الـــذي لا يرضى أن يشرك به لا يحب المستكبرين الذين يتعالون على تكبير أسمائه الحسنى وعلى تقواه ورهبته وهدايته والرغبة في فضله ورضاه، وإنما يحب العابدين الذين يعرفونه إلهاً أعلى محيطاً بالخلق مُنعماً محموداً فيخشعون له.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنــزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (٢٤)

ولـــذلك إذا قيل لأولئك المستكبرين ماذا أنـــزل ربهم من وحي يُعلّمهم حقائق الوجـــود الغيب والشهادة الذي لا يحيطون به ويزكيهم في مجال ابتلائهم في الحياة بما يهـــديهم إلى صراط مستقيم بهم إلى خير فيها وفي الآخرة، قالوا: هو أساطير الأولين، لأنهم لم يعهدوا من الله وحي خطاب أو كتاب في مدى ذكراهم بل تسامعوا بنَذر من علم كتب الأولين المتقادمة التي جاء الكتاب مصدقاً للحق فيها فظنّوه استمداداً منها، وهم لم يؤمنوا بها بل بدت لهم مسطورات مفتراة.

﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ (٢٥)

وبذلك ضل أولئك وكفروا بحق الوحي والهدى في الحياة وأضلوا غيرهم بما رموه بـــه وكفـــروا بالآخرة التي هو شاهد عليهم فيها أن قد تلقّوا الهدى وسمعوا النذير و لم يتّـــبعوه. فكـــان مـــنهم ذلك الطعن في القرآن لا ليتمتعوا تبصراً وتفضلاً على الناس باستكبارهم بل ليحملوا أوزارهم التي يوم القيامة تقع عليهم كاملة بعلم الله المحيط بها وليحملوا أيضاً من مثل أوزار الذين يُضلون بغير علم بما جروا الآخرين إليه فتضاعفت

عليهم الأوزار، والضالون المتّبعون لا تُرفع عنهم أوزارهم لأهم قد بسط الله لهم الرشد والخـيار ليـتحملوا أمانة المسئولية. ألا - استفهامُ إنكارٍ لنفيٍ فإثباتٌ بالغ - ساء ما يزرون أولئك المستكبرون.[1]

﴿قَـدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦)

كما مكر هؤلاء كيداً خفياً على المستضعفين المستغَلّين، قد مكر الذين من قبلهم من مستكبرة أقوام قرى مشهورة يمر هؤلاء في رحلاهم عليها ويسمعون بأنبائهم، فأتى الله ببأسـه وعقابـه وانـتقامه ببنياهم من القواعد التي أُسس عليها فخرّ داوياً عليهم الـسقف من فوقهم فهلكوا تحت وطأته وقُطع دابر استكبارهم بالباطل الذي أَسسوه مذهـباً وعمـروه. وأتاهم العذاب هكذا من علٍ لمّا استعلوا على غيرهم إضلالاً، من حيث لا يشعرون أدنى إحساس بالمحذور إذ غرّهم بنياهم قوة وأمناً فانقلب عليهم لأهم كفروا مثل هؤلاء بالهدى والنذير من الرسالات المنـزلة عليهم وحياً.

﴿ثُـمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٢٧)

ثم - مـن بعـدُ فـضلاً عن عذاب الله العاجل - يوم القيامة الحق - آتياً مهما يـستبعدونه كفـراً -يخزيهم الله إذلالاً مفضوحاً لهم جزاءَ استكبارهم وضلالهم الذي كسبوا ماضياً، ويقول لهم ﷻ يومئذ مساءلةً وحساباً: أين شركاؤه من آلهتهم المفتراة الـذين كانوا هم يشاقّون فيهم يُكابرون الحق المُنـزل من الله الأكبر ويُنازعون أولياء الله المؤمـنين، مـالهم لا يحـضرون ليدفعوا عن عبّادهم؟ وذلك سؤال توبيخ يُخرس الخائبين الذين كانوا في جهالة استكبار يجاهرون بدعاء شركائهم والمفاخرة بهم، لكنه أعـزَّ وأنطـق الذين أُوتوا فتلقّوا العلم الذي أنـزل الله إليهم في الدنيا بحقائق الوجود رشـداً وأنباءِ السالفين وعظاً وتعاليم الاستقامة بالحياة هدى إلى خير المآل، قالوا: إن

(١) انظر الآيتين ١٢ و١٣ سورة العنكبوت وفي دعاء الضالّين مضاعفة العذاب على من أضلّهم: انظـر الآيـة ٣٨ سورة الأعراف، والآيتين ٦٧ و٦٨ سورة الأحزاب، والآيات ٥٩ - ٦١ سورة ص، والآية ٢٩ سورة فصّلت.

الخزي والذل وسوء المصير المشهود اليوم – يوم الفصل الحق بعد أن ابتُلوا هم بفتنة من المستكبرين – واقعٌ على الكافرين الغامرين الحق كله في قلوبهم بأغشية الباطل.

﴿الَّـــذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨)

أولـــئك الكافـــرون هم الذين تتوفاهم – أخذاً لأجل موهم – الملائكة الموكّلون بذلك ظالمي أنفسهم ما تابوا بعد التذكير والنذير وحادوا عن الحق استكباراً على أمر الله أعقـــبهم خزياً على أنفسهم، تُوفوا كذلك فألقوا السلم ذلاً وخضوعاً يوم القيامة بعـــد إعلاء التكبّر قبلاً، وحاولوا الإفلات من العقاب الماثل بإنكار ما حقّ عليهم قولاً كـــذباً: إنهـــم مـــا كانوا يعملون من سوء، فتلقّوا الجواب عن بيّنة: بلى، إنهم كانوا كذلك – مذكّرين بأن الله عليم بالغ العلم محيطه بما كانوا يكسبون.

﴿فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٩)

وترتب على كلمة الحكم الفصل الأمرُ لهم أن يدخلوا أبواب جهنم – من حيث يوافـــق جـــزاء سيئ كسبهم متقلّباً ومثوى في حياة استكبار ويوافي قدرةً من دركاها وطـــبقاها، خالدين فيها، وحقّت كلمةُ صفةِ مصيرهم المترتب على مسيرهم في الدنيا: فلبئس مثوى المتكبرين مقاماً.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنـــزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣٠)

ولئن كان المستكبرون منصرفين عن الوحي إذا قيل لهم: ماذا أنـــزل رهم؟ ردوا بقولـــتهم المنكـــرة: أنه أساطير الأولين، الدعاة المؤمنون برسالة الوحي المنـــزل الذين اتقـــوا رهـــم خروجاً من معهود الشرك سُئلوا كثيراً قيل لهم: ماذا أنـــزل رهم؟ قالوا قـــولة الحق الحُسنى: إنه تعالى أنـــزل خيراً من العلم والهدى. أولئك حقّت لهم من الله كلمة الفصل: للذين أحسنوا في هذه الدنيا دار البلاءِ إيماناً فدعوةً للحق وإحساناً قدوة في العمـــل بهديـــه، لهـــم عاجلةُ عاقبة حسنة من حياة طيبة في دنياهم، وتأكد أن دار الآخـــرة خيرٌ آجلة عاقبة لهم، ولنعم دار المتقين أطيبَ وأبقى نعيماً ومثوى تُقابل دار المستكبرين البئيسة.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣١)

ومفصل البيان لدار الخير الآخرة للمتقين أنها: جنات عدن، حدائق إقامة مستقرة بلا ارتحال يدخلونها جزاءً، تجري من تحتها الأنهار لتروى وتحفظ متاعها الدائم، لهم فيها ما يشاءون بوسع مبتغاهم – لا كالدنيا المحدودة. كذلك يجزي الله المتقين لأنهم اتبعوا في الدنيا خيراً واتقوا أن يفتنهم متاعها ابتغاءَ الشهوات فرطاً وعلواً في الأرض.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٢)

هم – أولئك المتقون – الذين تتوفاهم الملائكة تقبض أرواحهم مستوفيةً آجالها طيبين مسلكاً في الدنيا لم يخبثوا ظالمي أنفسهم كالمستكبرين، فإذ تتلقّاهم الملائكة في الآخرة يقولون لهم تحيةً أن سلام عليهم، يُدعون مخاطبين أن يدخلوا الجنة آمنين جزاء بما كانوا يعملون سُنّةً في حياتهم الدنيا.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٣)

تلك المصائر الحق فما بال المستكبرين الذين ينخذلون عن تصديق التنزيل ويتمادون مستبطئين ومستبعدين أجل عاقبة النذير غير مصدقين الوعيد ولا مبالين؟ هل ينظرون راجين إلا أن تأتيهم الملائكة التي كانوا لا يصدقون نزولها وحياً وقد يطلبونه آية تعزيز لصدقه محسوسة، هل ينظرون حتى تأتيهم بأمر ناجز يصدق النذير أو يأتي أمر الله؟ والخطاب يتوجه هنا إلى الرسول تثبيتاً له أنه قد يأتي أمر ربه الفاصل يأخذهم بقدر غير واسطة ملائكته. كذلك فعل الذين من قبلهم ممن حولهم من الأقوام السالفة ظلّوا في استكبارهم وهزئهم بالنذير حتى أخذتهم أقدار الله بواقعات الهلاك، وما ظلمهم الله بأقداره فقد سبق إليهم إنزال الهدى والنذير وأُملي لهم لعلهم يعدلون عن منهجهم الذي لا يستقيم، لكنهم كانوا لأنفسهم ظالمين بأن كفروا واستكبروا استكباراً فأودوا بأنفسهم إلى غير عدل المسير وخير المصير.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ (٣٤)

فأصـــابهم – أولـــئك الأقوام – سيئاتُ ما عملوا بسيئات عاقبة وفاقاً وحاق بهم محيطاً بمد وقعه ما كانوا به يستهزئون من نذير العذاب، إذ جاءهم الملائكة أمراً من الله بقارعة، وتلك عظة للذين يمارون من أمة الخطاب المشركة التي تماري وتستخف هزؤاً بنذارة البلاغ من عاجل العذاب المحذور.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَـــرَّمْنَا مِـــن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣٥)

وقال الذين أشركوا – حجةً لحاضرهم ولسالف التاريخ المذكور مثاله، يعلون بهـــا مقولاتهم وفعالهم المشركة بالله المستكبرة على اتباع تنـــزيله – قالوا احتجاجاً قـــدرياً: أن لو شاء الله ما عَبدوا من دونه من شيء هم ولا آباؤهم الذين أورثوهم ذلـــك معهوداً، ولا حرّموا من دون أمر الله – كما يقال لهم – من شيء من الأنعام والحرث التي مضت في التقاليد المقبولة. وإنما الحجة البالغة هي لهم إن وافقوا أمر الله وأحـــسنوا، فإنما مشيئته وإرادته السارية في الإنسان أن يذره حراً في خيرة من ظنّه وفعلـــه: يعـــبد الله ويطيع أمر حدوده أو يشرك ويحرّم من ثم ويُحل ما يشاء ليحمل أمانـــة التكلـــيف والمسئولية ويحق عليه الجزاء فلا يلقى عذراً من سيئات كسبه ولا تـــضيع له حسناته لكونه حُمِل على ذلك الكسب كرهاً، فما لهم هم إن ابتغوا خير الدنـــيا والآخـــرة من خيرة إلا أن يكونوا طوعاً من المتقين. كذلك فعل الذين من قـــبلهم، ضلوا وتمادوا واعترضوا على الرسالة وتكاليف هديها وكذبوا نذرَها قدريةً وكلـــوها إلى الله زوراً أنـــه شاء عيْن ما فعلوا وآباؤهم قبلاً، استغنوا عن التصديق والطاعة ومضوا في سيئ الكسب إلى سيئ المصير. فهل على الرسل – الحاضر منهم والماضين – إلا البلاغُ المبين ليحقّ السؤال والجزاء، إذ لا يملكون سلطان هداية لأمم خطابهم والله هو الأعلم بضلالهم أو هداهم وهو الذي ابتلاهم وخيّرهم وهو الكفيل بالحساب.[1]

(١) انظر الآيتين ١٤٨ و١٤٩ سورة الأنعام.

﴿وَلَقَــدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَــدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٦)

ولقد بعث الله بأقدار اصطفائه وعلمه وهداه في كل أمة من قبل رسولاً – مضت تلــك سنةً تعهد الله بها عباده إذ خصّ كل أمة من الأمم التي كانت متفاصلة متعازلة قــديماً برســول ورسالة تناسب ابتلاءاتهم. ولكن أصل الرسالة الحق كان واحداً أبداً: الأمــرُ لهم أن يعبدوا الله خالصاً وأن يجتنبوا الطاغوت الذي كان معهوداً أن يُعبد ويطاع طاغــياً علــى أمر الله وحقه في عباده. فمنهم من هدى الله إذ اختاروا أن يستجيبوا للهدى الُمنــزل فزادهم الله هدى طمأنينة وتثبيتاً وفقهاً وأيداً وزيادة. ومنهم من حقّت علــيه الضلالة لأنه ركبها بمشيئةٍ فحق عليه من الله أن يمدّ له فيها مزيد ضلال. فليَسِر المخاطبون بهذا التنــزيل في الأرض لاسيما حولهم ليتوسموا آثار سالف الأقوام فلْينظروا كــيف كان عاقبة المكذبين، تنــزلت إليهم الملائكة وحياً وحمل الرسل روحاً من أمر الله وأُملي لهم فلما تمادوا ظلماً عاجلهم الله بأمره واقعات عذاب وهلاك.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (٣٧)

الخطــاب للرســول ﷺ، وهو قد أُنبئ عن بعثة الرسل في أمم خطابهم من قبل، فيخــشى على قومه المسير على نهج الضلالة القديم إلى ذات المصير: إنه إن يحرص على هــداهم فإنمــا عليه البلاغ، ولا يملك تصريف قلوبهم عن هواهم، فإن الله لا يُهدى (قراءة) من يُضل – إن أضل أحداً بالمد له في مشيئة ضلاله ويسّر له العسرى لن يهديه أحــدٌ، فمشيئة الله الكبرى ألا إكراه في الدين ولا جبر لمشيئة عبادَه، ليترتب عنها حقاً الــسؤال والجزاء، وذلك لهم هم في اختيار الضلال ما لهم من هاد جبراً أو طبعاً. وما لهــم كذلك من ناصرين على أمر الله، فإن الله هو الغالب يأخذ الضالين متى حقّ أمره علــيهم ويجعــل اليسر والنصر لأوليائه المهتدين أو يؤخره متى ما تنــزلت إرادته أمراً مفعــولاً، وآلهــة المشركين لا يملكون ولا يستطيعون نصراً لأوليائهم بل لا ينصرون أنفسهم.[1]

(١) راجع الآية ١٠٣ سورة يوسف، والآية ٥٦ سورة القصص.

﴿وَأَقْسَمُواْ باللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨)

وأولـئك الـضالون المستكبرون على طاعة هدى الله المنـزل أضافوا لمحاجّتهم الباطلة أن أقسموا بالله جهد أيمانهم – على عرف ذكرهم لله قسماً لكن في ضلال عن أمـره، فهم ببالغ اليمين يدّعون أن الله لا يبعث من يموت، يغفلون عما يرون من سنن الحياة والموت والبعث للنبات من حولهم وسنن الإحياء الأول للإنسان وهو الأشقّ لأنه مـن لا شـيء ثم من نطفة. والحق رداً عليهم: أن بلى ليبعثنّ الله موتى البشر أجمعين، وعداً عليه حقاً يبلّغه إياهم نذارة وبشارة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقائق الغيب ولا يتقبلون العلم بها من ذكر الله لها ووعده بما هو آت منها في التنـزيل من الغيب.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ﴾ (٣٩)

وذلك الوعد الحق هو لِيُبيّن الله لعباده الذين يختلفون فيه فصلاً للحق في مجادلاتهم في حق الغيب وفي أقوم الهدى في الحياة وحكماً مخاصماتهم حول دعوى المظالم بينهم، ولـيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين صفةً لازمة في أَيمانهم التي أنكرت حق البعث الموعود وفي سائر تكذيبهم للمرسلين وهدى الرسالة.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (٤٠)

إنمـا – الحق الذي لا يثبت خلافه – قول الله بأقداره وقضائه لشيء إذا تصوبت إلـيه مـشيئته فتعلقت بوجوده إرادته أن يقول له بكل تلك الأقدار العظيمة أمراً: أن يكـون فـيكون هو تلقاءً لا دَخَل في سنن تلك الكينونة المقدرة المرادة معه تعالى ولا خلـل في آجـال تجلّيها. فكيف يُقسمون ألا يقع بعث من الله كأنهم ينسبون إلى الله البادئ بخلق الإنسان عجزاً أن يعيده.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

إن الكفـار يرون في حال المؤمنين بالله الذين استضعفوهم ونفوهم في الأرض ما يـشهد لارتيابهم في غلبة أمره وصدق وعده في العواقب وفي عزة المصدقين بتنـزيله ويزيدهم غروراً استكبارهم هم في الدنيا التي يحسبون ألاّ مبعث من وراءها، لكن الحق

أن قـدر الله نافـذٌ وأمره غالب عاقبةً في الدنيا ثم بعثاً في الآخرة. والذين هاجروا – هجـراً لمعهودات أهلهم ثم لبلادهم خروجاً إلى أرض آمنة في الحبشة وكانت هجرتهم في الله وسـبيله لأنهـا من بعد ما ظلموا من الكافرين فتنةً لاستجابتهم لدعوة الله التي أنكرها هؤلاء ولأنهم يبتغون بالهجرة الأمن لعبادتهم لا يطلبون تجارة ولا متاعاً، أولئك ليبوئـنهم الله حقـاً بأقداره الفعالة في الدنيا حسنة – متبوءاً ومهجراً حسناً موعوداً، بـشرى بالهجـرة إلى المدينة مرجع تمكين الدين كله. ولأجر الآخرة أكبر مما أُعطوا وسـيُعطون في الدنيا، لو كانوا يعلمون إن أولئك مؤمنون بالغيب لكن لا يعلمون كلّ حيـثه ومداه، وإن أجر الآخرة الموعود الذي يتضاعف قدره ويخلد وقعه هو حقاً أكبر مما يعهدون في حسن الدنيا، لو كانوا يعلمونه.

﴿الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤٢)

أولـئك المهاجرون هم الذين صبروا على دينهم رغم اشتداد الفتنة وما نالهم من مكارههـا واضطرارهم لهجر ديارهم، وعلى ربهم يتوكلون – واكلي أمرهم كله لله يعتـصمون برجاء دفعه عنهم ويرضون بآجال قدره ويطمئنون لمباركته سيرة حياتهم المؤمنة.(١)

﴿وَمَـا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣)

ولـئن كانت مطاعن الكافرين المستكبرين في الرسالة طعناً في بشرية الرسول وأقواله وكـتابه الـذي يحمله أمانةً من الله، فتلك سنة الله الماضية في المرسلين، فليطمئن الرسول بذكـراها. ويخاطبه ربه أن ما أرسل بأقدار الرسالة اصطفاءً وتكليفاً وتصريفاً من قبله إلا رجـالاً – لا ملائكـة – يُوحـى إليهم – لا يفترون شيئاً. ويتجه الخطاب إلى المكذبين الطاعنين في الرسول والرسالة أن يرتبوا على عبرة سالف المرسلين سؤال أهل الذكر – أهل الكتاب الأول يهوداً ونصارى – إن كانوا لا يعلمون عن ذلك كثيراً في أميتهم الجاهلية.(٢)

---

(١) في ذكر المهاجرين الصابرين: انظر الآية ١١٠ من ذات السورة.

(٢) في تعزيـز حق الوحي بسؤال أهل الذكر السابق: راجع الآية ٩٤ سورة يونس، والآية ٤٣ سورة الرّعد وانظر الآية ٧ سورة الأنبياء، والآية ٤٥ سورة الزخرف.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤)

وقد أُرسل أولئك الرسل بالبينات والزبر - البينات من الآيات الشاهدة بالحق من الله والزبر كتاباً لإثبات الحق المنزل بيّناً وحفظه. ذلك استمر خطاباً للمكذبين فما بالهم يكذبون الرسول لا يصدقون بالآيات ولا يؤمنون بالكتاب في رسالته. ويرجع الخطاب إلى الرسول ﷺ أن قد أنزل الله بأقدار الإنزال للوحي العظيمة إليه الذكر في آيات القرآن والكتاب ليبين للناس كافة ما نُزّل إليهم من هدى توحيد العبادة لله ومن النذير والبشير للعواقب في الحياة أولها وآخرها، بياناً من الرسول بمزيد حيث تأكيد لحقه وبإيضاح لبيانه لمن يسمع - بالتلاوة المتوالية التي تزيد التذكير به وتُفسر مشتبهً آياته بمحكمها وبحديثه هو شرحاً لمجمله بمفصل مقتضاه وفروع هداياته في الحياة، ولمن يرى - بعرض وقعه في سنن مسلكه هو مثالاً وقدوة. ولعلهم يتفكرون بعد ذلك البيان فتزهق في نفوسهم رواسب الشرك وتنقشع الظنون والرّيب فيؤمنون ويتزكى إيمانهم بمزيد تلاوة وتدبر فيبلغون هديه ونذره وبشائره.

عموم المعاني: (الآيات ٢٢ - ٤٤):

إن أصل الاعتقاد الحق إن إله بني الإنسان وسائر الخلق هو الله، والذين لا يؤمنون به إنما اعتلت نفوسهم واندست فطرة الإيمان فيهم ما زكّوها فقلوبهم منكرة ويأخذهم الاستكبار غروراً بالذات وعلواً على الآخرين في الأرض. ولئن اتخذوا آلهة مشهودة من دون الله فإنما ذلك - فضلاً عن الإشباع في عَمَه لروح التدين المفطورة فيهم واتباع التقاليد الموروثة مداً لهوية الذات - ترسيخ للأعراف التي بُني عليها المجتمع ليركن بها عامة الناس ديناً للمستكبرين. ولا ريب أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون من أهواء وضلال. وهو ﷻ لا يحب المستكبرين، فالخلق كله ساجد لله وعباده البشر ينبغي أن يسيروا فيه طوعاً لأمر الله وهم جميعاً كما خلقهم سواء لا يتفاضلون إلا بتقواه. وكان المستكبرون لعهد التنزيل إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم وحياً أعرضوا وصرفوه لأنه يضبط أهواءهم وقالوا هذا أساطير الأولين. فهم يرجعون إلى الآباء فخراً امتداداً

لـــذواتهم المـــستكبرة، لكـــنهم لا يـــرجعون إلى الهدى المتنـــزّل عليهم إذ لا يعرفون الرسالات السابقة المتوالية المتصادقة إلا نذراً من مسموعات درجوها في سياق روايات الأســـاطير في ثقافتهم الجاهلية فحسبوا القرآن روايات منها. والإنسان في كل عهد لا يـــأمن فتـــنة الغرور بالذات والاستكبار. وفي الحاضر ينتشر مذهب الإنسانوية اتخاذاً للإنسان وحده فوق كل الوجود، أما الغيب فلئن كان في النفوس منه بقية بأثر التراث فكـــثير من الذين أخذتهم العزة المطلقة للإنسان يظنون دين الغيب كلّه أساطير راجت عندما كان الإنسان متخلفاً قاعداً عن معرفة نفسه وتسلطه على العالم المشهود.

إن الله هو العدل في الوجود، وبأقداره يكفل فيه الحق والميزان - يذر المستكبرين في الدنيا ليعقبها في الآخرة أن يحملوا أوزارهم كاملة، وإذ كانوا مستكبرين يستخفّون كثيراً من الناس ويمكرون عليهم بخفي التدابير وذكيّ الدعايات فهم يحملون أيضاً مثل أوزارهـــم لأنهـــم ســـبب في تلبسهم بها، فيتضاعف عليهم الحمل ويسوء ما يزرون. والمـــسئولية في ابتلاء الحياة وتكاليف هدى الدين حاقّة على كل فرد لا تُرفع الأوزار عن المستضعفين إن وقع مثل أثقالها على المستكبرين عليهم. فقد أوتي الناس جميعاً أمانة الخـــيار هـــدى أو ضلالاً وخير لكلٍ ألاّ يفرط ويظلم نفسه وأن يتحرر من كل متكبر جبار تجرداً لله الأكبر.

وقـــد يترتب على أولئك المستكبرين عاقبة جزاء عاجل في الدنيا. والتاريخ كان من قبل أمة الخطاب الأولى شاهد بيّنةٍ في ذلك لهم. فقد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بقـــضائه العدل بناءهم الذي أسسوه على مذهبهم الباطل الماكر، أتاه من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون إذ كانوا متمادين غفلة وغـــروراً بما زان لهم من أوضاع الأمور. وفي العالم كله عظات من تاريخ الحضارات والمجتمعات التي بُنيت على كيانات باطل سادها مستكبرون تعزّزت فيها أوضاعهم ثم أتى عليها قدر الله فانهارت وتلاشى الأقوام من تحتها. وسواء أخذ الله المستكبرين عقاباً في العاجلـــة أو أجّلهم ومدّ لهم فإن حساب الآجلة آت حقاً، يُردّ المستكبرون فيه إلى خـــزي وسوء ليستوي عدل أولاهم بأخراهم. ويُسألونَ - إذ كانوا قد اغتروا بآلهتهم ملجـــأ في مـــدى الغيبـــيات - عـــن آلهتهم تلك التي كانوا يشاقّون فيهم أمة الهدى

والتوحيد. وأولئك الشركاء إما كانوا أصناماً جامدةً لم تخلقهم ولا تدري حياتهم وما كانـــت تشعر بمبعثهم يوم الجزاء، أو بشراً أو جناً يتبرأون منهم لئلا يحملوا أوزارهم. ذلك حظهم في ذلك اليوم، بينما الذين أوتوا العلم من كتاب الله فاهتدوا به لم يضلوا ولا أضـــلوا بل هدوا كثيراً، هم فرحون بمصير أولئك المستكبرين الذين كانوا يُذلونهم يقولـــون إن الخـــزي اليوم والسوء على الكافرين. إن المستكبرين إن مضوا في حياتهم الدنـــيا في ضلالهم وظلمهم المنقلب على أنفسهم تتوفاهم الملائكة عند الموت ليعرضوا للـــسؤال. ولن يجديهم الإنكار: أنهم ما كانوا يعملون من سوء، بل الله – كما سبق القـــول – علـــيم بما كانوا يفعلون سراً وجهراً يُجزون كفاءه خزياً وسوءاً، وتسوقهم جـــنود الله الملائكـــة لـــيدخلوا أبواب جهنم وفق درك كسبهم وضروبه من الشرك والظلم. فلبئس مثوى المتكبرين الذين كانوا يستعلون مثوىً في الدنيا. أما المتقون الذين خـــشوا ربهم الواحد واجتنبوا لذلك شرك الطاغوت من دونه فإنهم دعاة إلى التنـــزيل يـــسألون عـــنه فيقولون أنه خير الهدى في الحياة، ويصدقون كلمة الإيمان فيصلحون عملـــهم بمقتـــضاه حـــتى يبلغوا إحسانها. وأولئك الله يعاجل بالجزاء لهم وفاق حسن كسبهم حسنةً في عاقبة دنياهم، ولهم البشرى بوعد الآخرة، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون، وأولئك تتوفاهم الملائكة عند الموت فتتلقّاهم منها تحية السلام وتزفهم إلى الجنة.

إن الانفـــتان بالمـــشهود دون الغـــيب الحق كما فعل بأمة الخطاب الأولى لأول عهـــدهم بدعـــوة الإســـلام يجرّ الناس في الدنيا إلى شرك بالله الأعز الأكبر ويورثهم استكباراً، ويدعوهم أيضاً إلى الكفر بمصائر الغيب المستقبلة مهما يُنذرون بأجل عقاب عاجـــل أو آجـــل. فهم مرهونون للحاضر لا يصدّقون النُّذر حتى تأتي وقائعها عياناً يـــشهدونها ويحسونها، ويؤثرون أن يسيروا سادرين مع سير الدهر ما يهلكهم إلا مرُّه علـــى ســـنة الموت المسنون. فهم يكذبون بالنُّذر الموعودة كأنهم ينتظرون حتى تأتيهم الملائكـــة لا بالوحي الذي لا يصدّقون بل بإيقاع عذاب يستحقونه أو يأتي أمر الله لا روحـــاً مـــن الكتاب الذي يكذّبون بل بقدر عقاب حاق بهم عاجل. وكذلك فعلت أقوام أمة الخطاب الأولى وتفعل أخرى بعدها فهي من سنن قد تصيب البشر. وما ظلم

الله تلك الأقوام التي أعقبها هلاكاً ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم وفاق سيئات عملـــهم وأحاط بهم مالا يؤمنون به من العواقب وينتظرونه هزؤاً. وتلك عظة بعاجل مصائر البشر ما أساءوا مهما يستكبروا في سيرتهم غير مبالين بالمواعظ والنُّذر من وقع العواقب.

إن كان عالم الشهادة ابتلاءً قد يفتن الإنسان بأن يصوّب على حاضره ويغفل عن المآل ولو ذكرته النّذر بالهدى المنـــزل، فهو أيضاً قد يأسره بوقعه بحسبه قدراً جبراً هو مسيّر على ما هو عليه. فالمشركون يزعمون أنه ما دام الله هو الخالق المدبر الأمور فلو شـــاء مـــا عـــبدوا هـــم من دونه من شيء، وكذلك يُجيزون واقع آبائهم المشركين ويُمضون حكم الأعراف عليهم بتحريم طعام في المعاش. كذلك كان يقول المشركون عند التنـــزيل، والحجة القدرية داء يغشى كثيراً من بني الإنسان، مَن أشرك أيما مذهب في الإشراك أو كفر أو آمن. قد يتمادى سواد الناس فيما هم فيه ويدّعون في وجه كل دعوة دينية لتقويم أو إصلاح أنهم على حالهم بقدر الله، وهم بذلك يحاولون الفرار من أمانـــة الخيار فالتكليف فالسؤال ومن مجاهدة الخروج من المعروف والمعهود لا يعنيهم حقّـــه أو بطلانه. وتلك حجة داحضة لأن الله بمشيئته خيّر عباده وآباءهم، إن شاءوا اهـــتدوا إلى وحدانية الله وعبادته وفارقوا الضلال المعهود وإن شاءوا كفروا وأشركوا. وإنما على الرسل البلاغ المبين يتلون عليهم ذكر الله الموحى ويبلّغونهم هديه ويذكّرونهم بـــأنهم مبتلون في الدنيا وهم في خيار كيفما نهجوا فيها ليحقّ عليهم السؤال والجزاء. وكـــذلك كانـــت الرســـالات: إن من أمة إلا خلا فيها هادٍ – أن يعبدوا الله وحده ويجتنـــبوا الطاغوت، منهم من هدى الله إذ رضي هو بالإيمان بالهدى المنـــزل من الله فـــزاده الله هـــدى واســـتقام على الصراط المستقيم إليه تعالى. ومنهم من حقّت عليه الـــضلالة إذا أعـــرض هو عن الهداية. وإن في تحري تاريخ الرسالات ووقعها بين أمم خطابها لمثال لها دعوةَ تغيّر نحو التي هي أقوم لا تجمد بالناس على معهودهم معززاً بظن قدريـــة جـــبرية مـــن الله بل مخاطبة ومجادلة لتحيا المشيئة وتندفع الإرادة للخروج من الطاغـــوت إلى التوحيد، والعبرة أن الناس يفترقون ويختصمون بين استجابة وإعراض، والعظـــة في مـــصائر المكـــذبين فثمة آية قدر الله الواقع بعد مدّ البلاء وسوء المذهب.

وكذلك كان أمر الرسالة الخاتمة، وإن حَرص الرسول ﷺ على أمة خطابه لأنه اجتهد مسعى في دعوتهم للهدى ولأنهم كانوا لأول عهده قومه يريد أن يقيهم مهالك الضلال بعـــد نـــزول الهدى والنذير ثم المصير إلى النار بهدايتهم إلى رشاد وخير وحسنى عاجلة وآجلة، فإن هو مصرّف مسالك الهدى والضلال، الله لا يهدي أحد من يَضلّ فيمدّ له الله مـــداً وتيسيراً في مذهب مشيئته، ولا يُسمع القرآنَ مَن يعرض عنه فيزيده الله كناناً على قلبه أو وقراً في أذنيه أو غشاوة على عينية.

والكافرون بالغيب تداعياً مع فتنتهم بالمشهود الحاضر وارتهانهم للواقع الذي يرونه قدراً جبراً – يذهبون للقول أن لن يبعث الله أحداً، يظنون أنهم لاحقون بآبائهم الموتى صيرورة إلى عظام لن تُبعث فيها الحياة بَعداً لمدى آخر. لكن الحق أن البعث وما يعقبه مـــن معـــالم الحياة الآخرة وعدُ صدق من الله مهما يكن الناس لا يعلمون في سنن الله المـــشهودة مظاهر حياة وموت دوّارة وحركة مخلوقات في الفلك سيّارة بآجالها ما في ذلـــك من آية شاهدة على أجل البعث والإحياء الجديد بعد منتهى سيرة لحياة الدنيا. والـــبعث حـــقٌ لأنه مقتضى العدل اللازم في قضاء الله، ليبين الله للعباد ما كانوا فيه يخـــتلفون فيفصل الحق في مذاهبهم المختلقة ويقسط في القضاء في مخاصماتهم ومظالمهم ويـــشهد عـــين اليقين الذين كفروا ليعلموا أنهم كانوا في ضلال كافرين بحق السؤال والجـــزاء بعـــد الخـــيار والجزاء. والبعث أمر ميسور لله القدير لأن كلمته نافذة وأمره مفعـــول، إنمـــا قوله لشيء إذا أراده أن يقول له: كن فيكون لا يعجزه، وهو الخالق الكـــون والإنسان من دخان أو نطفة قادر أن يبدل الكون الموقوت لأقدار الأزل وأن يبعث الإنسان ليخلد في مثواه المستحق.

وإن من عباد الله من لم يرضوا بالمعهود الحاضر الواقع في حياتهم الدنيا ومن دبّروا أمـــرها ابـــتغاء الآخـــرة فلما تعرضوا للظلم في أول عهد دعوة الحق الذي أوقع فيه المـــستكبرون بهم فتنةً محيقة هاجروا إلى الحبشة أرضاً يرجون أن يكون فيها دينهم حراً لله وإن فارقوا الديار والأهل. وكان وعد الله لهم أن يبشرهم بما سيقضى لهم في الدنيا من متبوأٍ حسن في الحبشة ثم المدينة دار آمن ومتمكن للدين كله، ويبشّرهم بما يعدّ لهم يعـــدّ لهـــم في الآخرة من أجر أكبر من ذلك كلّه حسناً لو كانوا يعلمون ذلك بأنهم

صـــبروا وعلى رهم وغيب رجائه يتوكلون ويُوفى الصابرون أجرهم عند الله يسراً بعد عـــسر وعاقبة في دار الدنيا وخيراً في الدّار الآخرة. وكذلك سنة وعد الله للمهاجرين مـــن الفتـــنة والظلـــم كلما تجدد الدين وقامت عليه قيامة المستكبرين الكافرين طغاة الأرض، أن يهيـــئ الله عاقبة مراغم في الأرض وسعة وأن ينتظروا في الآخرة أجراً خيراً من الأولى داراً ونعيماً خالداً. وإن من سلف المرسلين لمثال للرسول الخاتم. كانوا مثله رجـــالاً لا ملائكة ولا عظاماً من الكبراء. وكان على المعرضين عن ذلك الرسول أن يـــسألوا أهـــل الذكر السابق إن كانوا لا يعلمون عن الرسل والكتب الأولى لأنهم أمة أمـــية. وما ذلك بتذكير لهم وحسب بل هداية لتذكير كل المعرضين عن الدين المتجدد أن ينظـــروا تعاقـــب المرسلين وكتبهم المتصادقة. ذلك إلا أن تغشى أهل الذكر القديم عـــصبية غـــيرة على ما ورثوا أو كسبوا وحسداً على أهل التجديد أشدَّ من نـــزعة الإعـــراض عـــند عامـــة المخاطبين ارتهاناً للمعهود. وقد جاء المرسلون بينات الهداية والمواعظ والنُّذر وبزبر الكتب التي تحتويها وجاء الرسول الخاتم بالكتاب الأخير المهيمن ليبيّن للناس ما نـــزل إليهم - تلاوة عليهم لعلهم يستمعون ويتلقون ذكره، أو شرحاً بحديثه ما يذكّرهم ويفصل لهم مجمله ولعلهم بعد بيان الرسول لهم يتفكرون مدخلاً إلى الإيمـــان وطـــريق الهدى والتقوى ومذهب الملة أو استقامة من بعد الدخول في مدى الهـــدى والإســـلام. هكذا أصول علم الدين لكل الناس - مخاطباً للإسلام أو مؤمناً: المـــرجع إلى القرآن ثم إلى سنة الرسول ثم التفكر بسنن دواعي الخروج من الضلال إلى هـــدى الـــدين ثم مقتـــضى الهدى في كلّ شعاب الحياة به المتجددة. وبعض المسلمين قـــصّروا في بيان الهدى المفصّل والتذكير المتشعّب بفروع الاستمساك بأصول الدين. فالدخول في الملة هويةً والاستقامة عليها عموماً يحسبونها صفة موروثة كأنما المسلمون والكافـــرون حيث هم بقدر جابر مثل ظن المشركين الذي سبق ذكره. وبين المسلمين مـــن يحصر مصادر الهدى والتقوى على الكتاب والسنة المبيِّنة سداً لباب التفكر. ذلك إن لم يحـــيلوا القرآن إلى محفوظات مباركة لا تفكُّر فيها والسنة إلى إشارات أمر ونهي وتـــرغيب وترهيب لا تفقُّه فيها، أو لم يقصروا دون تلك الأصول إلى مواعظ سلف، وسياق التفكُّر هنا في نُذر العواقب العاجلة والآجلة - منافع مرجوّة أو مضارّ مخوفة في

الدنـــيا وأجراً أو عقاباً في الآخرة مما يحث الناس لفعل الحسنات بكثافة ويزجرهم عن مكـــر السيئات نسبةً لها قدريةً إلى مشيئة الله أو كفراً بالعواقب في بعيد مستقبل الدنيا وآجل غيب الآخرة. فقد ذكرت الآيات السابقة كيف يأتي أمر الله على بنيان الماكرين وكـــيف تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم لتسوقهم إلى جهنم وكيف في الأرض كانت عاقـــبة المكذبين بنذير رسل التوحيد وكيف يُبعث الذين يكفرون بالبعث ليعلموا أنهم كانوا كاذبين.

ترتيل المعاني: الآيات (٤٥ – ٦٤):

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥)

مقدمـــة السؤال فيما سبق ذكره: لو تفكر الذين حقت عليهم كالذين من قبلهم الـــضلالة عـــن توحيد عبادة الله و لم يجتنبوا الطاغوت، والذين أقسموا جهد أيمانهم ألا يـــبعث الله أحـــداً و لم يـــروا صـــدق وعد الله بالعواقب العاجلة والآجلة نذيراً كالـــسابقين المكذبين وبشرى للمؤمنين الصابرين – لو تفكروا فيما نـــزل إليهم من الـــنذر هل يأمنون العواقب؟ أفأمن الذين مكروا السيئات يمضونها بتدبيرات خفية على الذين يُضلونهم أن يأتيهم مكر الله العليم بما يسرون ويعلنون، أن يعاجلهم يخسف بهم الأرض بأقدار القوى لكنها تزلزلهم وقعاً أو يأتيهم العذاب المحيط بغتة وهم لا يشعرون بطلائع نذره كما وقع للذين مكروا من قبلهم الذين أنقاضّ عليهم بنيانهم بأمر الله؟

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ (٤٦)

أفـــأمن أولـــئك ذلك أو يأخذهم قدر العذاب فجاءة في تقلبهم سعياً في الأرض بالحـــياة من حيث مجريات مأمونها المعتاد؟ فما هم بمعجزين الله حيثما كانوا في مناحي تقلّبهم ومثواهم أن تقع عليه مصيبة الموت والهلاك.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٤٧)

أفأمنوا أياً من ذلك أو يأخذهم الله على تخوّف؟ لا يستأصلهم بوقع محيط بل يصيبهم بقدره تداركاً مطّرداً نقصاً في حواس النفس وطاقتها بتطاول العمر أو في الأنفس والأرزاق

وتدهـــوراً في الأحـــوال لهم قوماً. ويخاطبهم تذكيرٌ أن قد يكون ذلك حظّهم من الأخذ بالعقـــاب الوئـــيد فإن ربهم حقاً رؤوف واسع اللطف بعباده رحيم بالغ الرحمة يخفّف ما ينـــزل بهم درجاً من حاقّة الموت أو العقاب الحاسم خسفاً أو فجاءةً أنفساً أو قوماً.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٤٨)

أو لم ير أولئك الذين أمروا أن يعبدوا الله وحده ويجتنبوا الطاغوت ولكنهم مكروا الـــسيّئات، إن كان أخذهم تخوّفاً فتداركاً، ألم يروا في مشهود الأرض أن الله يُنـــزل أقداره إن شاء درجاً وأطواراً نظراً – خاصة في بيئتهم أمة خطاب أُولى – إلى ما خلق الله مـــن شـــيء شاخص في الأرض تحت الشمس تتفيأ ظلاله، تتراجع من مدّها أول الـــنهار غـــرباً حتى تنحسر عند الشيء لترجع شرقاً. ذلك يُرى كيفما دوّر المرء ينظر إلـــيها عن اليمين لتفئ ظهراً أو تنقلب إلى الشمائل بعد ليرُى تفيؤها كذلك مداً حتى يغـــشاها الظلام (وفي التعابير المتقابلة يذكر اليمين بالفرد والشمائل جمعاً لأن معروف عبارة اليمين وتصريفاتها الثبات على أمر واحد مستقر آمن ميمون، واليمين يداً كناية عـــن أمر واحد لا ريب فيه فالأيمان قسماً تُؤدّى باليد اليمين، وهي تتّخذ أداة للأكل والتحـــية، ذلك منسوباً إلى الشمال وهي كنايةً ويداً كثرة اضطراب وتردد ووقع غير ثابـــت، ووجهة هي مختلف مظان تخوف وشؤم في زجر الطير عند العرب). والظلال تقـــوم وتـــشير ساجدة لسنّة أمر الله ممتدّة أو راجعة بزوايا لغشيان الظلام على الضوء وراء كـــل شـــيء شـــاخص، مطبوعة بوقع من حركة الشمس منسوبةً إلى الأرض. وذكرت الظلال سجّداً لله وهم داخرون خاضعون لأمره طبعاً سواء في صيغة الضمير كالبشر العقلاء الساجدين إيماناً وطوعاً لأوامر حكم الله وهديه.

﴿وَلِلّـــهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩)

ولله – كـــذلك – يـــسجد ما في السماوات والأرض من دابة تماماً فيهما دون استثناء – حيواناً مطبوعاً بأمره تعالى أو إنساناً في طبيعة خَلْقه يخضع لسنن الله كسائر الـــدواب وفي سنة خُلُقه إن آمن وسجد طوعاً لأمر الله تكليفاً. كذلك الملائكة – وإن

ظـــن العرب أمة الخطاب الأولى أنها بنات لله من الجن لهن معه شراكة في الملأ الأعلى وولايـــة علـــى البشر بسلطان، وهم حقاً لا يستكبرون عند الله كما يفعل بشر مثل المعرضين عن أمر الله الموحى والمكذبين به.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٥٠)

والملائكـــة عُبّاداً سجاداً داخرين لله لا يغفلون عنه تعالى ولا يعصونه غير مبالين كما يفعل المعرضون العصاة بل يخافون ربهم المتعالي من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون به، لاســـيما ســـجوداً للإنـــسان لأول أمره أو وحياً لرسلٍ منه أو أيداً واستغفاراً وتنجية للمؤمـــنين أو حفظاً ورقابة ثم توفياً لكل أحد أو أخذاً بالعذاب عقاباً للكافرين – كله بأمر الله وإذن قدره.

﴿وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٥١)

كـــذلك حق الوجود المخلوق أنه يدين بالطاعة والرهبة كلها لله لا يأمن عبدٌ من غـــضبه وأخذه حيثما كان إن عصاه وله تسجد الظلال داخرة والملائكة خائفة طائعة. وقال الله لعباده – يخاطبهم: ألاّ يتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد، ما من إله ثان لله مما يليهم من المخلوقات المشهودة تعلقاً به كالصنم أو المظنونات الغيبية فرضاً كمَلَك، ولـــو كانـــوا يؤمنون بالله ثم بإله ثانٍ من هؤلاء تزلفاً لله، وملزوم ذلك ألاّ يعدد الناسُ الآلهـــة إشـــراكاً بـــالله متفرقة حسبَ تعلقاتهم وأعرافهم المحلية والموروثة، وألاّ يؤمنوا بالألوهـــية فائضة في كل أشياء الكون المشهود. هو واحد لا سواه دونه من واسطة أو ولد فهو الغني ولا إلى جانبه شريك فهو الفرد الصمد. ولذلك يرتب الله خطاب عباده أن إياه فليرهبوا ولا يخافوا غيره روحاً في السماء ولا كبيراً في الأرض.

﴿وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ﴾ (٥٢)

ولـــه ﷻ لـــه ما في السموات والأرض، وإن كان هو غيباً عن عباده فهو الملك المطلق لمخلوقاته وهي تحت يد تدبيره. وله الدين والخضوع دينونة طبعٍ من الأشياء أو طـــوعٍ واجـــب من الإنسان في مجال مشيئته الحرة، ديناً واصباً ثابتاً دائماً. ويسأل الله عـــباده من ثَمّ مخاطباً: أفغير الله يتقون، يجتنبون ما نهى عنه غيرُه خوف غضبه؟ أم هي التقوى الحق كلها لله وحده تعبيراً عن رهبته.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (٥٣)

ويـــتكامل الخطـــاب للعـــباد: وما بهم من رحمة نعمةٍ ما فمن الله، فكل الإنعام والرغباء له تعالى. ويمضي الخطاب عن ابتلاءه تعالى لهم أن قد يغفلون عن الله منعماً ما تمتعوا ثم إذا مسّهم ولو عرضاً الضر وتبدلت النعمة فإليه وحده يجأرون رافعين أصوات الاستغاثة والدعاء للسلامة من الضر.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٥٤)

ويـــتم الخطاب: أن من بعد أن دفعتهم إلى الله ملجئةُ ضرورةِ وقعِ الضر أو مسِّه إذا كـــشف الله الضرّ عنهم إذا فريق منهم بربهم يشركون، إذ تنسيهم بعد شدة الحال وذكـــر الله بسطتُها ومتعتُها ويمضون يؤدون لشركائهم شعائر التعبد والتوقير في حفل متاع، يدعونهم بالخير ويستدفعونهم الشر عنهم ويستهدونهم في خطى تقلبهم في الحياة استخارةً وتبرّكاً.[1]

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٥٥)

ومـــشيئة الله أن يذر عباده فيما يشاءون، فإن جحدوا فضْل كشفِ الضرّ عنهم وتولّـــوا بَعـــداً إلى شركاء ليكفروا بما آتاهم الله بأقدار رحمته من نعمة ويغمروا حقَّ شـــكرِها، الخطـــاب لهـــم: أن يتمتعوا إذاً فسوف يعلمون سوء المنقلب إذا تولوا عن مرضات الله وشكره وما وليهم منه إلا الغضب والأخذ بضر العقاب.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٦)

والكافـــرون الجاحـــدون نعمة الله يجعلون بأوهام من باطل ظنون وأعراف شرك يتّبعونها - يجعلون لما لا يعلمون من المعبودات الصنميّة التي لا تقوم على شيء يُعلم عن بيّنة نصيباً مما رزقهم الله بأقداره. يقول الله، ويخاطبهم قسماً باسمه العظيم: تالله ليُسألن يـــوم القـــيامة - فيحاســـبون ويجزون - عما كانوا يفترون من صناعة الأكذوبات والمفتريات الغيبية.

---

(١) في الجـــأر إلى الله عند الضرّ ثم الردّة بعد النجاة: راجع الآيات ١٢ و٢١-٢٣ سورة يونس، وانظـــر الآيـــة ٦٧ ســـورة الإسراء، والآية ٦٥ سورة العنكبوت، والآية ٣٣ سورة الروم، والآية ٣٢ سورة لقمان، والآيتين ٨ و٤٩ سورة الزمر.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧)

وأولـــئك المشركون من أمة الخطاب العرب يجعلون لله المطلق الكمال بذاته الغني القادر الواحد البنات من الملائكة نسباً مع الجن، سبحانه أن يكون له ولد يمتّعه بمد من جزئه أو يُعينه على حاجة يعجز عنها: وله كل ما في السماوات والأرض يملكه ويدير أمـــر تصريفه. وكيف يجعلون لله ما هو أدنى في حسابهم ولهم هم في البنوة ما يؤثرون لأنهـــم يـــشتهون من البنين الذكور - كما عهدوا أمة خطاب جاهلية سمّت أصنامها المعبودة تسمية مؤنثة رموزاً للملائكة الأرواح الإناث ويكرهون المولودات البنات ولا ينتسبون كناية إلاّ إلى الأولاد الذكور.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨)

وأولـــئك إذا بُشّر أحدهم بالأنثى مولودة - هي مرجوة للنسل ومدعاة للسرور والفـــرح بـــارّة للوالدين - ظلّ وجهُه بعد بادرة النبأ من وقعه مسودّاً من الغمّ وهو كظيم يمتلأ غيظاً من حظه أو زوجه التي ولدت له أنثى من البنات اللاتي لا تروج بهن المفاخـــرة والمكاثرة ولسن يداً في المناصرة لغارات الحروب المعهودة التي يُعدّ لها بل هي مـــن وراء مخافـــة الإمـــلاق قد تضرّ عرضاً بفاحشة. تلك أعراف ظلمات جاهليتهم ولكنهم يصدون البنات إلى الله نسباً في الملائكة.

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٥٩)

أولـــئك يتوارى من القوم الرجال خجلاً من سوء ما بُشّر به أحدُهم من حدث ولادة بنت له - يعدُّها سوءاً بميزان عرفهم الظالم، ويتحير من الغم أيمسك ذلك السوء علـــى هون أم يدسّه في التراب دفعاً وأْداً في حفيرة من غير ذنب - طفلةً وقد فطر الله حتى في الحيوان أن يرقّ قلبه لصغيرته حتى يربيها ويرعاها لتبلغ أشُدّها قوة على الحياة. ســـاء ومـــا صـــلح ما يحكمون بميزان أعراف جاهلية يفسد فيها التقويم ويختل حكم القسط السوي بين الأنفس وتُنتهك حرمة النفس وكرامتها.

﴿لِلَّـــذِينَ لاَ يُؤْمِـــنُونَ بِالآخِـــرَةِ مَـــثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٠)

للذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يخشون حساباً فيظلمون ولا يعرفون عدلاً لأنثى أو حرمة النفس الموءودة مما يُسأل عنه يوم القيامة بشهادتها ويوفّى جزاءه كفاء، لهم مَثَلُ السوء، هم مقدار سوء في مقياس الإنسان بالحكم السوي. ولله المثل الأعلى في كل مقادير الغنى عن الولد لاسيما ما يجعلون له هؤلاء من المولود الأدنى بنات، وهو المتعالي عن الكفء والشريك، العدلُ في هدى عباده، المتمتعُ بصفات كماله المطلق المثلى. وهو العزيزُ القويُّ على كل شيء، الحكيمُ في تدبيره وقضائه لكل بميزان عدل سواء.[(١)]

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٦١)

ولو يؤاخذ الله الناس كاتباً عقابه لينفذ فوراً عاجلاً عليهم بظلمهم وعظائمه التي تقع أحياناً في الذرية، في هذه الأرض المبسوطة لهم يسعون فيها ببوح مشيئة وكسب متاع – لو يفعل ذلك ما ترك إذاً عليها من دابة – نفساً تدبُّ عليها ظالمة، ولكن الله بمشيئته وقدرها يمدّ للظالمين ويؤخرهم إلى أجل مسمى سماه هو في الأزل، لعلهم في مدّ الحياة يعدلون عن الظلم متاباً أو حتى يستوفوا أثقال كسبهم من الظلم والتعاون والتحريض عليه ليحقّ قدره في موازين الجزاء. فإذا جاء أجلهم حسبما يقضي الله كفّاً لظلمهم ومنتهى لحياتهم الدنيا يأخذهم توفياً بالموت المسنون أو إهلاكاً قدّره الله لظلم بالغ بعقاب عاجل أو مباغتة بقيام ساعة وقوع واقعة القيامة، وهم لا يستأخرون أجلهم ساعةً ولا يستقدمونه، ولو استعجل المظلومون وقائع الهلاك المُنذَر بها لشفاء صدورهم أو الظالمون تحدياً وتكذيباً، أو جاء الأجل المسمى فدعوا ربهم أن يؤخرهم إلى أجل قريب.[(٢)]

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ الْنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ (٦٢)

---

(١) في اعتقاد العرب في الملائكة بنات لله وهم لا يحبّون البنات لأنفسهم: راجع الآية ١١٧ سورة النساء، وانظر الآية ٤٠ سورة الإسراء، والآيات ١٤٩ – ١٥٤ سورة الصّافات، والآيات ١٦– ٢٠ سورة الزخرف، والآية ٣٩ سورة الطور، والآيات ٢١–٢٧ سورة النجم.

(٢) انظر الآية ٤٥ سورة فاطر.

وأولئك المشركون يجعلون لله ما يكرهون – ينسبون له من الولد البنات ملائكةً ويؤثرون الأولاد وأنصبة في الحرث والنسل يفرزوها من أخبث ما كسبوا ويُهدون إلى شـــركائهم الأطيب طعاماً أو حيواناً سائماً في حَصان، ويؤثرون هم لأنفسهم احتكار الفخـــر فـــضلاً ويجعلون لله شركاء، بل يجعلون كل ما يليه في الدنيا مما يكرهون إذ يـــستخفون برســـالته ويهزأون برسوله ويستذلون عباده المؤمنين به. وتصف ألسنتهم الكذب وصفاً في قولهم أن لهم الحسنى عنده إذ بسط لهم سعة الرزق والولد إيثاراً لهم، ولا يؤمنون بالمرجع إليه ولكنهم يقولون أَن لو وقع ذلك لاختصهم الله بفضل على من يُدعون مؤمنين كما هو بيّن في حظهم من رزقه المحدود. لا جرم يقطع الحق بأدنى ريبة أن لهم النار وأنهم مُفرَطون متروكون فيها فواتاً لا مصرف عنها حالاً سوءى.

﴿تَاللّـــه لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣)

ذلـــك كـــذب، ورداً عليه يقسم الله باسمه العظيم: تالله لقد أرسل بذات أقدار رسالته إلى أمم من قبل الرسول الخاتم ﷺ الذي يخاطبه بهذا القسمِ والقولِ العبرة، فزيّن لهـــم الـــشيطان أعمالهم، كرهوا تقوى الله لأنها ضبطت أهواءهم بل كانوا يرون ما يهوون حسناً إذ زيّنته لهم الشهوة وإغراء الشيطان، فالله يذرهم اليوم يوم الدين ليلقوا عاقبة الضلال كما هجروا هم هديه في الدنيا، والشيطان هو وليهم يلونه في النار ولهم عذاب أليم.

﴿وَمَـــا أَنـــزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٤)

والخطاب يستمر للرسول ﷺ أنه إضافةٌ عاقبة لتلك الرسالات ما أنـــزل الله بأقداره علـــيه الكـــتاب إلا ليبيّن لأمة خطابه الذي اختلفوا فيه من ظنون الغيب بغير علم أو وحي ومن مفتريات الشرك بغير هدى واحد ومن تنازع مسالك الأهواء في الحياة بغير نهـــج عدل مستقيم، يبيّن لهم حق الغيب وبطلان الشرك كله وميزان القسط في الحياة، وذات الكتاب أُنـــزل هدى لسبيل الحياة المستقيم إلى الحسنى دنيا وأخرى ورحمةً منه تعالى فضلاً من علمه وحكمته لقوم من بين أولئك يقومون بكتاب الله مؤمنين.

عموم المعاني: الآيات (٤٥ – ٦٤):

إن الذين مذهبهم في الحياة كفرٌ بالبينات ومكر بالسيئات لو تفكروا فيما أنـــزل الله مـــن كتاب وبيّنه لهم الرسول الخاتم لرشدوا هدى استقامةً بمسير الحياة وتقوى من ســـوء عاقبة – فكيف يسدرون في ضلالهم لاهين في دار البلاء لا يخشون غضب الله وأخـــذه لهـــم بعاقبة سوء عاجلة كما جرى لمن فعلوا مثلهم من قبل، ومن ورائها هو باعثهم يوم الدين والعذاب الأكبر. وإذ جاءهم في الذكر نبأ الذين مكروا قبلاً فأتى الله بنـــيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم كيف يأمنون أن يأخذهم هم الله بعاجلة تخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أو أن يأخذهم الله في تقلبهم في الحياة والأرض بواقعة تصيبهم فما هم بمعجزين له تعالى حيثما كانوا، أو يأخـــذهم على تخوّف يغالبهم نقصٌ في الحواس والطاقة عبر مدّ العمر أو تكاثر لتوفي الأنفـــس فالله غفور رحيم يذر عباده أحياناً يغشاهم الموت عللاً وأوبئة منتشرة دون صيحة هالكة شاملة. والله يأخذ الأشياء بأقداره درجاً وئيداً كالظلال تفيء إلى الزوال دركاً وهي في مدّها وانحسارها مطبوعة ساجدة لسنن الله، والظلال هم بذلك داخرون كالعقلاء من الناس الساجدين طوعاً. ولله يسجد ما في السماوات والأرض من دابة أو نفس طائعة لله طبعاً وفيها الإنسان فيما خُيِّر فيه إن آمن يسجد لله. حتى الملائكة الذين كانت تتعبدهم أمة الخطاب هم يسجدون لله ولا يستكبرون كما يستكبر الملأ من قوم تلـــك الأمة ويخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون لا يسيرون كمَن في الأرض مـــن عُبّادهم غافلين أمر الله كأنهم آمنون من أن يأخذهم الله. وقول الله الحق ألا يتخذ عباده إلهين اثنين: يعرفون الله خالقاً في الغيب ويتخذون من دونه في الأرض مَن يقربهم إليه زلفى من الآلهة، إنما هو إله واحد فالعبادة والرهبة والرغبة كلها ينبغي أن تتصوّب إلـــيه، والملك كله له والدينونة خالصة له. ولكن المخاطبين كانوا لا يتوجهون إلى الله الواحد الخالق المنعم في كل حال، فهم إذا مسّهم ضر وتلاشت النعم جأروا إليه، ثم إذا كشف عنهم الضرّ إذا فريق منهم عادوا عاكفين على أصنامهم مشركين كفراً برحمته وتمـــتعاً، وسوف يعلم هؤلاء سوء منقلب المصائر. بل كان هؤلاء الجامحون إلى الشرك يجعلون في مذاهبهم نصيباً مما رزقهم الله من أنعام أو حرث لشركائهم الجامدين أصناماً

الذين لا يعلمون لهم خلقاً ولا عطاءً ولا هدىً ولا بعثاً، وهم حقّاً سائرون إلى المساءلة حساباً على ذلك الافتراء. وإن جعلوا لله شيئاً من كسب فإنما ينسبون له الملائكة بنات وهم يشتهون من نصيب الولد الذكورَ عزةً وكبراً، وإذا بُشّر أحدهم بالأُنثى كره نعمة ربه عليه واسودّ وجهه كظيماً وتوارى خجلاً من الناس وتحيّر حكماً بالسوء بين مسك الهون أو وأده في التراب. والحق أن الذين لا يؤمنون بالآخرة والحساب مَثلُهم مثلُ السوء ضعفاً وذلة ولله المثل الأعلى وهو العزيز غنيً وقوة الحكيمُ حكماً بين البشر، ولو يؤاخذ الناس بما ظلموا في الدنيا ما ترك بأمره العزيز الغالب على الأرض من دابة ولكن يؤخرهم بحكمته إلى أجل مسمى ليوم الحساب إذا حقّ حلولاً لا يُستأخر ولا يستقدم. وأولئك المشركون المفتونون بمادّة الدنيا يجعلون لله ما يكرهون من أنصبة الولد والحرث ويظنون أن لهم هم الحسنى في متعة الدنيا أو أيّما آخرة ينذرون بها، والحق أن لهم من أنصبة المصير النار. هكذا كان في الأمم السالفة ضلال وشرك وقد أرسل الله لهم من قبل الرسالة الخاتمة رسلاً هداة إلى توحيد الله طاعة وموالاة له خالصة رجاءً وخوفاً ليوم الحساب، فزين لهم الشيطان معهود أعمالهم شركاً وفساداً بفتنة الدنيا، فالشيطان يومئذ وليهم ولهم عذاب أليم. وأعقب سالف المرسلين الرسولُ الخاتم بكتاب ليُبيّن لأمة خطابه ما اختلفوا فيه من ظنون شركهم يتقلبون يدعون الله عند الضرّ وينسونه عند النعماء ويعرفونه خالقاً ويتخذون من دونه آلهة معبودة يحسبونها تقربهم إليه ويتفرقون شيعاً تتعدد بهم الآلهة والأرباب والأعراف المفتراة باسمها. وذلك الكتاب هدى يوحّد الحياة عبادة لله على صراط مستقيم واحد، وهو رحمة لقوم يؤمنون يورثهم سعداً في الدنيا والآخرة.

وكل علل الكفر التي يُبيّنها الله وصفاً لمثال سوءٍ من واقع أمة الخطاب الأولى المعهود فيها قبل الأيمان بالتنزيل، علل سارية في مجتمعات بني الإنسان قديمها وحديثها ما داموا مفتونين بمشهودات الدنيا مرهونين لحاضرها وعاجلها لا يتفكرون في آجال مصائر الوجود المخلوق الغيبية، فيركنون للحياة الدنيا آمنين غافلين حتى لو ذُكّروا بالنذر أو رأوا الموت ظاهرة تأخذ البشر كارثة جائحة أو أو واقعة أو موتاً مسنوناً، وإن تديّنوا يجعلون من دون الله في أبعاد الغيب معبودات أرضية أخرى مختلفة

تقـــرباً إلـــيه واســـطة. وهـــو ﷻ الملك المطلق القريب من كل عباده الأَولى بخوفهم ورجـــائهم كلـــه، لاسيما أنهم يسيرون في وسط بيئة الكون المخلوق المشهود العابدة الخاضـــعة لأمـــر الله طبعاً بينما يُدبرون هم عن السجود لله في مدى خيارهم شذوذاً وعـــصياناً لفتـــنة تعلقاتهم بالأدنى آلهةً عاطلة ومتاعاً قليلاً فانياً، ويستبعدون في وعيهم حضور ذكر الله في سياقات حياتهم الدنيا دون السماء إلا أن تمسّ الأنفس أزمات ضر فإلـــيه يجـــأرون بالدعاء، فإذا انكشفت الأزمة وسكن حالهم الطيب عادوا لشركهم المباشـــر، ولله عندهم الأنصبة الأدنى في كسب الدنيا لأن الفتنة المحيطة بهم تنـــزعهم لأخذ ما يشتهون لأنفسهم بخلاً وشحّاً، ولو أنفقوا في سبيل الله يلقون إليه الخبيث من فضلاتهم، ولو أوكلوا أمراً ما لله معبوداً غيباً يولون أمورهم الأهمّ والأخصّ لما يعبدون حـــولهم ممـــن يصرّف ظاهر الأسباب والأرزاق أو في أنفسهم من الهوى والإثرة. ولو كـــان الله يؤاخذ عباده - الناس بظلمهم البالغ في الحياة جوراً عن حق توحيده وحمده لأخـــذهم فـــوراً ومـــا ترك على ظهر الأرض من دابّة. ولكنه كتب في الدنيا البلاء والإمهـــال إلى يوم الدين والحساب الآخذ. وعَبر سِير الأمم تعاقب المرسلون السابقون وعَبر تجدد دعوة الرسول الخاتم يتوالى قيام الحق في الذكر المتنـــزّل فصلاً لما اختلف فيه الـــناس من تعلقات بمختلف آلهتهم المعهودة وأعرافهم الموضوعة في كل محل في الأرض بـــين كـــل طائفة ضلالاً عن وحدانية الله، وشفاء من علة إغراءات الشيطان، وهدىً مـــستقيماً بالحـــياة المـــوحدة مسالكها ومقاصدها عبادة لله ورحمة جامعة للمؤمنين، وبشرى خير في مصائر الدنيا والآخرة.

ترتيل المعاني: الآيات (٦٥ – ٨٨):

﴿وَاللّـــهُ أَنـــزَلَ مِنَ الْسَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٥)

والله – كمـــا أنـــزل بأقدار الرسالة والوحي والكتاب هدى ورحمة ليحي موتى عـــباده بالإيمـــان – هـــو كذلك ينـــزل رحماته ويبسط نعمه على عباده لو يؤمنون. أنـــزل من السماء بقدرٍ فأحيا به الأرض بعد موتها جدباً وأخرج كل نبت حي رحمة

رزق لعـــباده وآية مثال للإحياء بعد الموت بما يبعث مداً لعيش عباده ومتاعهم وعبرة للـــبعث المتجدد بعد الموت في الآخرة. إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون، تذكرة تتلى علـــيهم فتحيـــي وجداهم مؤمناً مما تلقّاه آذاهم من ذكر الله الحق المذكّر برحمته تعالى عليهم وقدرته يحي ويميت.

﴿وَإِنَّ لَكُـــمْ فِـــي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (٦٦)

ثم يتوالى ذكر آيات الله ونعمه التي تتنـــزل حول عباده، وهم مخاطبين – وإن لهم في الأنعـــام التي يألفوها لعبرة تذكرةٍ تعبُر بهم من الغفلة إلى العلم والإيمان، يسقيهم الله بأقدار صنعه ما يُعدّ لهم من شراب، مما في بطونه (الأنعام اسم جمع يمكن أن يُرجع إليه بالـــضمير الفـــرد المذكر) من بين فرث – هو ثقل الغذاء في الكرش– ودم ينقل ذلك الغذاء إلى حيث تستنبطه الضروع وتدرّه لبناً خالصاً لا لبس فيه من تخاليط مكوناته بل مصفّى، سائغاً سهلاً في الحلق للشاربين ومتاعاً لمن يتخذه بوجه آخر.

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٦٧)

ويُـــسقى لمخاطبون أيضاً من ثمرات النخيل والأعناب بألواها – مشهورات الثمر المعـــصور معـــصوراً في بيئة المخاطبين، يتخذون منه بصناعة العصر سَكراً يسد مجاري العقـــل ليغمر الوعي، ورزقاً حسناً عصيراً لا ينشأ منه ضر عقل ولا جسد فهو حسن طـــيب. إن في ذلـــك لآية لقوم يعقلون، يجمعون في عقولهم الواعية غير السكرى أو الغافلـــة وجوه حيث تلك الآية، فيتعرفون قدرةَ الله وحكمته فيؤمنون ونعمتَه ورحمته فيحمدون.

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُـــمَّ كُلِـــي مِـــن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦٨ – ٦٩)

أضـــافت الآيتان ذكر آية الله ونعمته في النحل، وهو أقل شيوعاً في بيئة العرب المخاطـــبين مما سبق ذكره، فيخاطب الرسول ﷺ لأنه أمر علم وتفكّر: أن أوحى ربه

إلى الـــنحل إلهامـــاً أن تـــتخذ من الجبال بيوتاً تعلقها عليها بصناعتها المنظومة خلايا مـــسدسة بدقة الإلهام، ومن الشجر معلقات كذلك ومما يعرشون - ما يرفع الناس من عـــرائش وسقوف. ثم يوحي إليها أن تأكل من كل الثمرات المبسوطة في البيئة حولها، فتسلك إلى ذلك سبل ربها - كما يخاطبها الوحي الإلهام - ذُللاً موطأة دورات ذهاب وجيـــئة للأكـــل والشراب. يخرج نتاجاً لذلك من بطونها شراب، عسل مختلف ألوانه حسب مأكولاتها، فيه شفاء ما للناس تطهيراً لبعض الأسقام في البطون والأجساد. إن في ذلـــك لآية لقوم يتفكرون نظراً وتدبراً في بالغ الدقة من سنن حياة النحل وإخراج العسل وما فيه، بيّنة لإتقان صنع الله وإنعامه على العباد.

﴿وَاللّــــهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧٠)

ثم انـــضاف ذكر آي الله ونعمه في شأن ذات الإنسان، فخوطب العباد عامة أن الله خلقهـــم ثم يتوفاهم بسنن الموت المعتادة، ومنهم من يحيا ويكبر حتى يُرد إلى أرذل العمـــر هـــرماً وخرفاً لكي لا يعلم من بعد علم ورشد شيئاً. إن الله بليغ العلم بسنن إحسان خلق الإنسان قدير على إنفاذها فيه.

﴿وَاللّــــهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١)

ويستمر الخطاب لعباده أن الله أيضاً فضل بعضهم على بعض، جعلهم طبقات في الوُسع من الرزق بعضه مزيد من اجتهاد كسب موفق منه تعالى وبعضه حظ من محض نـــصيب نعمة. وذلك ابتلاء لهم. والذي يترتب على التفاضل أن الذين فُضّلوا ما هم برادّي رزقهم الذي اختصوا بكسبه على ما ملكت أيمانهم رقاً حتى يبلغ أن يكونوا هم معـــاً في الـــرزق سواء، بل يحطّون الرقّ مرتبةً ونصيباً عند مالكيهم فكيف يؤتون الله المالـــك الـــرازق كل شيء الخبيث من الرزق صدقة ويؤثرون أنفسهم بأطيبه متاعاً، وكـــيف يحرصون على أن يحفظوا درجة فضلهم مالكين على عبادهم وينسوا نعمة الله مالكهم ومالك ما حولهم الفائض عليهم جميعاً عباداً له برزقه. أفبنعمة الله يجحدون لا يحفظون فضله عليهم فيحمدونه. بل أنهم جحداً أيضاً يجعلون له مما يملك من مخلوقات

شركاء ينسبون إليها الرزق ويردون إليها من الأنعام والحرث قرباناً نصيباً سواء وأفضل مما يؤتون في سبيل الله، وما ملكت أيمانهم هم ليس لهم من الرزق إلا دون المالكين.

﴿وَاللّـــهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢)

ويخاطب الله عباده الذين يتلى عليهم القرآن أنه تعالى فضلاً عن خلقهم جعل لهم مـــن أنفـــسهم ذات البنية البشرية المتداخلة توالداً – أزواجاً إناثاً وذكوراً يتزاوجون ويتناكحون، وجعل لهم من أزواجهم بنين – من بنية الوالدين وحفدة من أبناء الذرية بأصهارها وأختانها يحفدون ويخدمون كبارهم، ورزقهم من الطيبات لكفاية حاجة كل العائلـــة من المعاش وإصلاح مبتغاها من الطيبات. ثم يسألهم استنكاراً لما يترتب منهم على ذلك: أفبالباطل يؤمنون بالأصنام التي تعطى قرابين وتُحمد وتوقّر وهي لا تعطيهم زوجةً ولا ذريةً ولا رزقاً، وبنعمة الله الجليلة الواسعة في تزويج أنفسهم وإيتائهم بشراً مولـــوداً رزقاً هم يكفرون؟ لا يوحدونه منعماً فيحمدونه بل يتمتعون بنعمته ويجعلون بعـــضها منسوبة لأصنامهم ويعطونها بعض كسبهم قرباناً ولداً خادماً وأنعاماً وسائماً وطعاماً معروضاً.

﴿وَيَعْــبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣)

ويُذكـــر إضـــافة لضلال أولئك الكافرين بالنعمة أنهم يعبدون من دون الله من الأصـــنام مـــا لا يملك لهم رزقاً من مصادر السماوات والأرض التي هي مخلوقات الله وخـــزائنه، لا يملكـــون من رزقه شيئاً – أدنى نصيب منه، وهم جماد من خلق الله لا يستطيعون أن يخلقوا موارد رزق فيعطوا عُبّادهم.

﴿فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤)

إثـــباتاً لوحدانـــية الله وتعاليه عن كفء أو شبيه، وترتيباً على ذكر النعم البالغة الـــصنع المتكاثرة العطاء التي تميزه ﷻ عن أي معبود شركاً له لا يملك ولا يعطي ولا يستطيع، وصرفاً لما يتوهم المشركون أن الآلهة التي تواضعوا هم عليها أمثال لله يمدوهم بعطايا وهِداية مباركة حظاً مظنوناً لا عين مكسوب ويقومون مقدسين وجهاً للعبادة،

يخاطـــبهم الله مـــن ثَم أن ينتهوا عن ذلك فلا يضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وهم لا يعلمون، ألا يضعوا له مقارنات التماثل في رؤاهم الإشراكية ومقايساتهم له بما يعهدون مـــن آلهة فهو العالم بالغيب والشهادة يضرب الأمثال الحق لعباده ليقرّب أفهامهم إلى الغـــيب الـــذي هـــم في حاجة لتفهّمه، إذ لا يدركوا ذلك إلا ببيانات عالم الشهادة ومقاييسه ومثالاته مما يعرفون ويعهدون. ويذكر الله الأمثال دعوة لعباده المحجوبين عن الغـــيب والعلم بذات الله المطلقة ليتعلموا من كل مثل صفة منه تعالى عن الأشباه ملكاً أو قدرة أو علماً أو غير ذلك من صفاته العليا.

﴿ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

يـــأتي بـــيان من الأمثال. ضرب الله مثلاً عبداً لا لإله بل مملوكاً لبشر من المخاطبين لـــيس حـــراً، وهو عاجز لا يقدر على شيء من إرادة نفسه ولا بأمر سيده، ومن هو حر رزقـــه الله بأقداره الغنية رزقاً حسناً واسعاً طيباً فهو ينفق منه إنفاقاً موصولاً سراً وجهراً. هـــل يستوون؟ هل يستوي هذان الضربان من العبيد العاجزين والأحرار الأغنياء العطّائين. وإنمـــا المثل الأخير مثلٌ لله ذي المشيئة والإرادة المطلقة لا يتعالى عليه ولا يكافئه أحد، وذي الخزائن التي وسعت السماوات والأرض من الرزق يُنفق منه على عباده رحمة ونعماً متوالية ســـراً وخـــصوصاً لكل نفس وجهراً من البركات المتنـــزلة المشهورة كما ذكرتهم آيات القـــرآن الماضية وأحصت لهم منها عداً، بينما القياس الأول كالأصنام حجارة جامدة مواتاً كمـــا يـــضعها عُبّادها ويصرّفون أمرها لا حول لها لا تملك شيئاً ولا تعطي من نفسها أو بدعاء. فكيف يساوي المشركون بين الله ﷻ والأصنام، بل يحجبونه برؤاهم القاصرة بعيداً في الغـــيب ويباشـــرون آلهتم يقبلون عليها بالعبادة والدعاء. الحمد لله المحمود غاية الحمد لكمـــال إرادتـــه المطلقة ومُلكه غنى محيطاً وإنعامه صائباً كل نفس وواسعاً مشكوراً. تلك حقيقة بيّنة ولكن أكثرهم – أولئك الذين يساوون بين الله وشركائهم – لا يعلمون.

﴿وَضَـــرَبَ اللّـــهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦)

وبـــيان مـــثال ثان، وضرب الله مثلاً رجلين، أحدهما أبكم لا يقدر على شيء إدراكـــاً، أعجـــزه خـــرس لا يتلقّى كلاماً يسمعه ليفهمه ولا يُلقى كلاماً ليبلغ معنى لآخـــرين، ولا يقدر على شيء فعلاً فهو عاجز حركة كَلٌّ على مولاه لا يستقل بفعل بـــل هـــو ثقل موكول على الذي يلي أمره لا يستجيب مهتدياً إلى خير، أينما يوجهه مـــولاه لا يأتي بخير. هل يستوي هو ومن يدرك الهدى والعدل وينصح هادياً آمراً به وهو نفسه على صراط مستقيم عدل دون ظلم واضح، لا يتقلب ولا يضل طريقه عن الهـــدى كما هو مثال الله العدل الهادي لهم هدياً مضطرداً مستقيماً عَبر عالم الشهادة والغيب، وذلك مثال الأصنام التي لا تخاطبهم بمفهوم والتي هي جامدة يصرّفون وضعها هم لا تأتيهم بعائد نفعاً ولا ضراً ولا هدى.

﴿وَلِلّـــه غَـــيْبُ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧)

ولله المـــثل الأعلـــى. ما للإنسان إلا علم بمدى من المشهود وقدرة على ميسور محـــدود، وقـــد يـــتخذ آلهة لا تعلم ولا تقدر على أدنى شيء. ولله غيب السماوات والأرض فهو واسع الإدراك مطلق القدرة علمه محيط وأمره يحيق بكل الكون المخلوق وكل آفاق الغيب فهو من ثم يعلم الحق كله في الوجود ويعلم الهدى في الحياة للإنسان ويـــصرّف مـــشهودات أُولاها وغيوب آخرها. وما أمر الساعة عليه ﷻ بعسير كما يحـــسب الكافـــرون، ما هي عنده إلا كلمح البصر فهو مطلق القدرة على إجراء كل تحـــولات العـــالم المخلـــوق الحادث والحياة الدنيا إلى حياة الأزل والموتة العامة للبشر والبعث ووضع الموازين القسط للحساب وموائل الجزاء جنة وناراً، لا يعجزه شيء من ذلك بل يقول له: كن! فيكون كرجع الطرف سرعة إنفاذ لإيقاع الأمور. إن الله على كل شيء في الوجود مهما يدق أو يجل قدير يحيط به علماً ويبلُغه فعلاً كما يشاء.

﴿وَاللّـــهُ أَخْـــرَجَكُم مِّـــن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨)

أيـــن الإنـــسان مـــن مثال الله مطلق العلم والإرادة والقدرة لو يُدرك المشركون والكافـــرون؟ والله الإلـــه العظـــيم العالم القادر يخاطب عباده أنه أخرجهم من بطون

أمهـــاتهم جنيـــناً عاجزاً لكن لا يبلُغه بشر بصناعة تقويم يضاهيه، وهم حينئذ أجنة لا يعلمـــون شيئاً ولكن الله جعل لهم حواس السمع والأبصار (بصيغة الجمع لأنها واسعة مـــتفاوتة) لكسب علم بحقائق الأشياء، وجعل الحواس مداخل الإدراك الحر المنفعل من الأفـــئدة لـــبلوغ مدى من الحق، لعلهم يشكرونه تعالى أن مدّ لهم إمكان كسب علم بالأشـــياء والهدى ليؤمنوا بصفاته العليا التي تفيض عليهم بنعمه فيحمدوه ويعبدوه في الحياة، وليتلقّوا منه ﷻ بالوحي تمام العلم بحقائق الغيب وهداه الحق، وليؤمنوا بأن الله قادر على إعادة خلقهم بعثاً عند الساعة.

﴿أَلَــمْ يَــرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩)

ويتـــبدل الذكر عنهم بصفة الغياب (قراءة) بسؤال: ألم يروا – عباد الله البشر – بمـــا جعل الله لهم من أبصار وأفئدة – إلى الطير مسخّرات مسيّرات بسنن الطيران في جو السماء وهواء أفقها الطلق لا تجذبهم الأرض هوياً، ما يمسكهن من الوقوع إلا قدر الله المطـــبوع عليه طيرهن، ومسخرات للإنسان الذي ينالها أكلاً للحمها أو لبيضها أو استعمالاً لريشها. إن في ذلك لآيات للناظرين في السنن الطبيعية التي قدّرها الله في الجو توازناً بين تدافع قوى من الثقل النازع هوياً إلى الأرض وقوى سابحة في السماء وقوى حـــركة دافعة سالكة إلى وجهتها، ومن ثم دلالات لقوم يدركون قدرة الله المتجلية في كل الوجود الموزون تدافعه وقواه وهديه تعالى للسالكين فيه حركة حياة في سياق من النعم المسخّرة وتوجهاً إلى نحو معلوم.

﴿وَاللّـــهُ جَعَـــلَ لَكُـــم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ (٨٠)

واتسعت وجهة إشارة الخطاب لعباد الله منهم جنيناً ساكناً ونامياً في البطون ومن الطـــير مستقراً سالكاً في الجو إلى ذكر البيوت في الأرض سكناً لحركة الإنسان وراحة لازمـــة لتجديد طاقاته. والله – كما يخاطب عباده – جعل لهم من بيوتهم سكناً وذكّر أمـــة الخطاب الأولى بخاصة بيوت لها كذلك من جلود الأنعام – أن قد جعل لهم من

جلــود الأنعــام بيوتاً يستخفّوها يوم ظعنهم المعتاد محمولة على الجمال ويوم إقامتهم مــشدودة علــى أوتاد، ومن أصواف الأنعام ضأناً وأوبارها إبلاً وأشعارها معزاً أثاثاً مثبــتاً من الفرش ومتاعاً من الكاسيات والحاويات والملبوسات ونحو ذلك - متاعاً إلى حــين يمتد صلاحه وتمتد حاجتهم وحياتهم فهي من متاع الدنيا محدود المدى لا ينتقل مع صاحبه إلى الآخرة وإنما ينتقل كسب أجر الأعمال.

﴿وَاللّــهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَــرَابِيلَ تَقِــيكُمُ الْحَــرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (٨١)

والله كــذلك يخاطب أمة الخطاب الأُولى في بيئتها الخاصة ويقاس عليها ما يشابه تلــك الــنعم المذكورة في أقدار الله - الله جعل لهم مما خلق وقدّر ظلالاً - مما خلق أشــجاراً أو جــبالاً أو شاخصات أخرى، وجعل لهم من الجبال أكناناً يسكنون فيها ويــستترون من الحر والبرد والمحذور كهوفاً وبيوتاً منحوتة، وجعل لهم سرابيل أقمصة وأرديةً شاملة تقيهم الحر كالزيّ المذكور قبلاً الواقي في البرد من الأصواف، وسرابيل مــن الــدروع تقيهم بأسهم عند المطاعنة في الحرب. كذلك يتم الله نعمته عليهم في الدنيا - بعد الميلاد من البطون والسكن والملبس والمتاع - بميلاد الهدى الذي يخرجهم مــن الظلمات إلى النور مستقرَّ منهاج لحياتهم في شتّى ظروف ابتلاءاتها وتقيةً لهم من الضلال ومرضىً منه لهم بالإسلام ديناً، لعلهم يُسلمون له تعالى نفوسهم عبادةً واتباعاً لهديه حمداً على نعمه المتنامة في الحياة والهداية.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ (٨٢)

وبعد تمام النعم خطاباً للمتمتعين بها يلتفت الخطاب إلى النبــي ﷺ الداعي إياهم لحمــد الله علــى النعمة والإسلام له، أنهم إن ترتب على ذلك أن تولوا مدبرين عن الإقــبال على تعرف النعم والإسلام لله حمداً لأقداره وفضائله وشكراً لإسباغها عليهم فمــا علــيه هو إلا البلاغ المبين، فهو ليس بعد التذكير كفيلاً بالهداية تصريفاً لقلوبهم لتؤمن أو حاملاً عليهم كرهاً وإنما على لله مدّ هداهم أو ضلالهم ثم الحساب.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣)

أولـــئك الـــذين خاطبهم الله في القرآن بالتذكير بنعمه وعدّ منها بيّنات مشهودة وبلغهم الرسول بذلك بلاغاً مبيناً ثم تولوا هم يعرفون نعمة الله المعروضة على أبصارهم والـــتي يتمـــتعون بها ثم ينكرونها نسبة إليه ليذكروه رباً متعالياً محموداً ببسط مخلوقاته وتـــدبير أقـــداره الحكـــيمة ويقدّروا إحسانه فضلاً ينبغي شكره، وأكثرهم الكافرون العامدون مذهباً في رؤيتهم ومنهجاً في الحياة لغمر آيات الله البينة ونعمه المعروفة. ولا بدّ أن يحق العدل ويسوى ميزان الحق في الوجود فلا يمضي إنكارهم نعم الله وكفرهم سدى بغير عاقب.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤)

أكثـــر المـــتولّين عن بلاغ رسالة الله المنكرين نعمه تعالى هم الكافرين في الدنيا، ينضاف عليهم كذلك بلاغ التذكير بمآل الآخرة يوم يبعث الله بأقداره من كل أمة – جماعـــة من بني الإنسان مؤتمة منهجاً واحداً أسبغ الله عليهم نعمة وأرسل إليهم بلاغ التذكير ليحمدوه ويعبدوه – يبعث الله بأقداره محيياً لهم بعد الموت محيطاً علماً بما فعلوا تـــنعماً فإنكاراً وكفراً – يبعث منهم شهيداً – هو الرسول الذي بلّغهم وما كان عليه إلا الـــبلاغ ليـــشهد عليهم أنه كان مذكّراً، قائماً فيهم بحق الهدى نذيراً بشيراً بعاقبة المـــصير، حاضراً ما كان منهم قبل أن يتوفاه الله من الإعراض والتولّي. ثم – إذا ثبت الحق عليهم بالشهادة بعد بينات علم الله الرقيب – لا يُؤذن للذين كفروا، لا يفتح لهم بـــاب الاعتذار أو المرجع إلى مهلة من حياة شاكرة عابدة فقد كسبوا نصيبهم في دار البلاء الدنيا وهم في دار الجزاء في الغيب وساعة الحساب والقضاء الحاسم ولات حين مـــرجع ومتاب، ولا هم يُستعتبون ليسترضوا ربهم ويزيلوا عنه العتب والموجدة عليهم الجالبة غضباً فانتقاماً عدلاً لآياته ونعمه المكفور بها طوال الحياة الدنيا.[1]

﴿وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٨٥)

(١) يـــرد كـــثيراً في القرآن ذكر وظيفة الأنبياء وسائر المهتدين شهداء على بلاغ الرسالة: راجع الآيـــة ١٤٣ ســـورة البقرة، والآيتين ٤١ و١٥٩ سورة النساء، والآية ١١٧ سورة المائدة، والآيـــة ١٨ ســـورة هـــود، وانظر الآية ٧٥ سورة القصص، والآية ٤٥ سورة الأحزاب، والآية ٦٩ سورة الزمر، والآية ٨ سورة الفتح، والآية ١٥ سورة المزمّل.

ويومئذٍ إذا رأى الذين ظلموا – فما عادلوا نعم الله بشكر وعبادة بل عدلوا عن ذلك بمعاصٍ وعدوان على حدود شرع الله الهادي – إذ رأوا العذاب الحاقّ عليهم بعد قيام الشهادة والبينة، فلا يُخفف عنهم بل يوفون مثقال كل ذرّة من ظلم بعقابه، ولا هم يُنظرون رجعة إلى أجل وفرصة أخرى فإنه يوم وقع الحق الفصل.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٦)

وكذلك يومئذٍ – وقد مضى في الدنيا بلاغهم بحق توحيد الله المنعم المحمود وباطل الشرك وحق عليهم بالشهادة والبينة أهم أعرضوا وماتوا مشركين، إذا رأى الذين أشركوا شركاءهم من أرواح الملائكة أو الشيطان أو من زعماء الدين أو كبار الطواغيت المتّبعين، دعوا الله ربّهم – وقد عرفوه ذلك اليوم حقاً، قالوا معترفين: إن هؤلاء شركاؤهم الذين كانوا يدعوهم من دونه تزلفاً إليه. لكن الشركاء تبرأوا من حمل وزر إضلالهم، فألقوا إليهم القول إنهم لكاذبون، وإنهم ما حقّ لهم من المشركين دعاء ولا عبادة ولا كانوا موالي لهم – ولا كان لهم عليهم من سلطان وكانوا عن عبادتهم غافلين.[1]

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (٨٧)

وألقى المشركون إلى الله يومئذٍ السّلم استسلاماً لمؤاخذة حسابه، وضلَ عنهم ما كانوا يفترون أن لهم من شركائهم حماة ناصرين من المكروه أو أن لهم بهم شفاعة عند الله وزلفى.

﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ (٨٨)

الذين كفروا غمراً لحق آيات الله معبوداً وحق نعمه مشكورة، وصدوا عن سبيل الله رداً لأنفسهم وإضلالاً لغيرهم عن سلوك صراط الله المستقيم – أولئك زادهم

---

(١) في تعذّر المشركين بإيكال شركهم إلى شركائهم وهم يكذّبونهم: راجع الآيات ٢٨ – ٣٠ سورة يونس، والآية ٢٢ سورة إبراهيم، وانظر الآية ٥٢ سورة الكهف، والآيات ١٧ – ١٩ سورة الفرقان، والآيات ٦٢ – ٦٤ سورة القصص، والآية ١٤ سورة فاطر.

الله بأقـــدار حسابه وقضائه وأمره عذاباً فوق العذاب الذي استحقوه بكسبهم هم، إذ حملوا من أثقال الذين صدوهم، بما كانوا يفسدون في الأرض إفساداً يعمّ آخرين.

عموم المعاني: الآيات (٦٥ – ٨٨):

يصل القرآن كثيراً إرسال الرسل المبشرين ببركات الهدى بإرسال الرياح المبشرة بـــبركة الغيث وإنـــزال الكتاب من سماء الغيب لإحياء موات النفوس بإنـــزال الغيث مـــن الـــسماء لإحياء موات الأرض. وآيات الله المُنـــزلة مطبوعةً في صفحات الكون المـــشهود أو محفوظةً في صفحات الكتاب المقروء تتحد وتتصادق دلالات على الغيب وتـــتكامل وتتناصـــر بوقعها على المؤمن المتفكر المتذكر. والله أنـــزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها. وإنّ في ذلك لمن يسمع تلاوة هذه الآية تذكرة بالله المميت المحيي للإنسان الذي خلقة من ماء وتراب، وبالهداية النازلة منه تعالى كذلك، وبنعمته علـــيه ألاّ يموت إن أقلعت السماء وماتت الأرض فجفّت موارد شرابه وماتت مصادر غذائه، ولذلك يحمد الله حمداً كثيراً. وفي الحياة تمضي الآيات هدى للمخاطبين ليُنعموا النظـــر في خـــزائن رحمة الله المتنـــزّلة عليهم ليروا نعمة وراء كل نعمة، تدعوهم إلى تـــصويب النظر وتكثيف كسب العلوم الطبيعية في نعم الله حولهم ليروا شعاباً لنعم الله وطوايا دقيقة لكل مَعلم منها ونتاجاً مترتباً منها بثمرات وذيول منافع متضاعفة منتشرة متكاثـــرة – ذكرى للشاكرين. فالآيات في السورة سابقاً ذكرت الأنعام وما فيها من عـــبرة وذكرت وجوه النعمة في ذاتها، ولكنها لم تذكر ما يخرج منها شراباً، فهنا يتم تـــذكير العباد بدقة صنع اللبن خالصاً في بطونها وخروجه منها سائغاً للشاربين أسلس وأيـــسر تناولاً من معالجات الأنعام لسائر منافعها. ثم قد ذُكرت قبلاً الثمرات والنخيل والأعـــناب، وهنا تُستكمل التذكرة بما يُستخلص منها سكراً ورزقاً حسناً. فالسكر – والسورة مكية النـــزول – يُعزل عن الرزق الحسن، مهاداً للقرآن المدني الذي يذهب درجاً في تحريمه. وذلك هو هدى القرآن المكي في كثير مهاداً يهيئ المؤمنين لما هو آت في المدينة درجاً في مبلغ تحريم أو إيجاب. وفي هذا المتاع آيةٌ لقوم يعقلون – لا يغمرونَ عقولهم سكراً بل يعقلون في ذلك شعاب حيثِ النعماء من الله ومقتضى شكره. ومن

بعـــد هنا يُذكر النحل لأنها ليست مألوفة في بيئة المخاطبين كثيراً، يُذكر متسع مواقع أوكارهـــا ومختلف مآكلها وذلل مسالكها وحياً لها من الله آية لمن ينظرون، ثم تُذكر النعمة التي تخرج من بطونها عسلاً مختلفاً ألونه فيه شفاء للناس آية لقوم يتفكرون.

وقـــد ذُكر سابقاً أصل خلق الإنسان، والآية هنا تمضي فتذكر الوفاة أو مدّ العمر قـــبلها حـــتى الهرم ونسيان العلم، تذكرة بالله العليم بأطوار الحياة إلى الموت القدير على تـــصريفها. ثم تذكر الآية في رزق الناس أن جعل بعضهم فوق بعض طبقات متفاضلة، وتهديهم إلى الاعتبار بفضلهم على ما ملكت أيمانهم لا يردّون إليهم سواءً رزق الله الذي يكتـــسبونه هم، عظةَ مثال ألا يساووا الله ﷻ المالك الرازق كل شيء بآلهة لهم مملوكة يـــصرّفها عُـــبّادها يقدمونَ لها أنصبة من رزقهم ولا ترزقهم شيئاً، فلا يجحدوا نعمة الله العلـــي العظيم. ثم تذهب آية إلى ذكر الله أن جعل لهم أزواجاً من أنفسهم ومنها الأولاد فالأحفـــاد – نعمـــة بعد نعمة، ورزقهم من الطيبات لإعالة كل الأسرة، فكيف يؤمنون بالباطل ويكذّبون بنعمة الله الممتدة. وتنختم آيات النعم الناتجة من نعم أو المتوالية حولها، تهدي إلى حق وحدانية الله محموداً معبوداً إنكاراً لمذهب الذين يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم شيئاً من رزق من السماوات والأرض ولا يستطيعون أن يملكوا أو يعطوا شيئاً مـــن ذلك – الأصنام. فهم لا يعلمون مبلغ ما يتعالى به الله على معبودهم، وليس لهم أن يـــضربوا لله الأمثال تشبيهاً بما يشركون. وإنما الله هو الذي يضرب مثلين ليمايز بين عبد عاجـــز – كالـــصنم – والمالـــك الذي يرزق سراً وجهراً، قياساً على ملك الله وعطائه الواســـع، وبين رجل أبكم لا يهتدي ولا يأتي بخير أينما وجه الناس رجاءه ومن يفيض علمـــاً بالحق بل يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم يدعو من يهتدي باتّباعه – مثلاً لعلم الله وعدله وهديه الذي لا يساويه مثيل. ذلك فضلاً عن أن الله له غيب السماوات والأرض علمـــاً وتصريفاً، ولذلك أمرُ الساعة الذي يستعسره الذين يقيسون أمر الله على أمـــثال شـــركائهم ليس إيقاعه عنده تعالى إلا كلمح البصر أو هو أقرب، لا يُعجزه ولا يكلفه طويل معالجة، بل أمر الله نافذ مفعول يبدّل الكون ويبعث الإنسان ويهيئ أوضاع الحـــساب والجزاء، فهو على كل شيء قدير. وكيف يعسر عليه تعالى البعث وهو الذي أخرج الناس من بطون أمهاتهم غُفلاً من العلم فجعل لهم حواس الإدراك ومستودع العلم

إتمامـــاً لخلقهـــم، لعلهم يشكرون الله نعمة خلقهم أحسن خلق من أصل مهين ويؤمنون بنـــشرهم بقدره يوم تقوم الساعة. وفي السماء يرى المخاطبون الطير سابحاً في السماء لا يهـــوي مسخراً لهم منه متاع – آيات لمعرفة أقدار الله المسنونة ونعمائه. ثم ذهبت الآي تذكر النعم المتوالية على الإنسان المخلوق، فذكرت البيوت سكناً والبيوت المستخَفّة من جلود الأنعام والأثاث والأمتعة من جزازها، ثم الظلال والأكنان في الجبال وقاية من الحر والـــسرابيل وقاية من الحر والبأس أيضاً. كذلك يُتم لله نعمته على عباده – بسط نعمة محيطة بحياتهم، ثم أنعم عليهم – تماماً على ذلك – بالهدى المنـــزل، لعلهم يسلمون لوجه الله أمـــرهم معرفة لآياته وحمداً له وشكراً وحياةً بهديه. وذلك تكليف واجب مطلوب مـــنهم عن خيرة في مشيئتهم، فإن تولوا فما على الرسول – أو الداعية من خلفه – إلا الـــبلاغ المبين يذكّرهم ويذرهم أحراراً على مذهب مشيئتهم ولو كانوا يعرفون نعمة الله المحـــيطة ثم ينكروها آيات لله وأكثرهم كافرون بها محمدةً لله وشكراً. ويأتيهم يوم الدين إذ تُبعث كل أمة ويبعث منها شهيد هو الذي ذكّرهم وبلغهم ودعاهم وأنذرهم، فيحق عليهم أن كفروا بالله ونعمه ولقائه رغم رسالة البلاغ ويُقضي عليهم حقاً عدلاً بالجزاء. أولئك الذين كفروا بالله وبالنعم لا يؤذن لهم يومئذٍ منصرفاً ومرجعاً إلى الدنيا ولا تعذراً ولا اســـتعتاباً. والـــذين ظلموا وعدوا على حرماتٍ الحق فحملوا أثقالاً من ظلمهم فلا تخفـــيف لهـــم من العذاب ولا إنظار. وأما الذين أشركوا مهما يحاولون إيكال المسئولية علـــى، فأولئك الذين يتبرأون منهم فهم يستسلمون لله إذ يضل عنهم ما كانوا يفترون. وأما الذين كفروا وصدوا غيرهم عن سبيل الله فهم يُزادون عذاباً فوق العذاب ويحملون أثقالهم وأثقال أولئك إذ عاثوا في الأرض فساداً.

ترتيل المعاني: (الآيات ٨٩ – ١١١):

﴿وَيَـــوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّة شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩)

ويعود التذكير بمآل يوم الآخرة لكل أمة خاطبها رسولٌ شاهداً عليهم، وهنا عيناً للرســـول الذي عليه البلاغ نذيراً وشهيداً في أمة الخطاب برسالة القرآن. يومئذٍ يبعث

الله بأقـــدار عدله في كل أمة لإقامة بيّنة حساها شهيداً قائماً عليهم من أنفسهم يُلقي عليهم القول أنه كان رسولاً منهم مبلغاً وشاهداً ومبشراً ونذيراً. والمرسلون السابقون أحـــق بالشهادة على أمم خطاهم التي حضروها وباشروها بالبلاغ والنذير - على كلّ أمـــة شـــهيد عليهم من أنفسهم خاصة. والخطاب الآن ينضاف للرسول الخاتم قياساً عليهم أن جاء به لله بأقداره يومئذ شهيداً على هؤلاء الذين هم أمة خطابه، أدى فيهم أمانـــة الرسالة وقام فيهم شاهداً ومبَشراً ونذيراً. ونـــزل الله بأقداره - وحياً مرتلاً منجّماً عبر عهد تنـــزيله على الرسول الخاتم المخاطب - الكتاب المجموع فيه الهدى المفروض بلاغـــاً لأمـــته ولكل الناس، تبياناً لكل شيء من حقائق الوجود الواجب أن يتعرفها الإنـــسان ومن مسالك الحق اللازمة في كل النازلات من الوقائع على المخاطبين ومن الخاطـــرات على نفوسهم والواردات على ألسنتهم من الأسئلة في الحياة، وهدى للذين آمنوا ليستقيموا على صراط مستقيم إلى مقصود الخير في الغيب عبر الحياة اتقاءً للعوج الـــذي تنـــــزع إليه فتن الدنيا، ورحمةُ إكرام الله لعباده لطفاً ألاّ يضلوا عن رضوانه ونعيمه فيشقوا دنيا وأخرى، وبشرى لهم بحياة في الدنيا طيبة وأخرى هي خير وأحسن تأويلاً، والكتاب للمسلمين بكل ذلك الفضل من الله تبياناً وهدى ورحمة وبشرى.

﴿إِنَّ اللّـــهَ يَأْمُـــرُ بِالْعَـــدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠)

مـــن ذلك البيان والهدى والرحمة تعاليم أمر وهي في ذات بينهم تخاطبهم ها الوصايا مـــن الله ليرعـــوها تقوى له تعالى وتضابطاً فيما بينهم مجتمعاً للمؤمنين وإن كانوا في مكة لأول عهـــدهم لّما يقم ها عليهم سلطان - وهي تعاليم جامعة للهدى من أخص أمورهم إلى أبلغها مدى من العموم. إن الله يأمر بالعدل - تأسيساً على قيام الله بالعدل الموزون في خلـــق الوجـــود وأمـــره بالقسط في الهدى بين الدنيا والآخرة، ورعاية من ثَم للإنصاف والمساواة والقسط بين الناس فيها لهم أو عليهم. ويأمر بالإحسان تحاملاً على النفس وصبراً وفـــضلاً بعد العدل ورقياً في درج الصلاح في الحياة، وإيتاء ذي القربى فيضاً بالإحسان براً بـــصلات الـــرحم بلا قطيعة لتتزكى النفس بدءاً بما هو أقرب بلاء وأولى لعلّها ترقى إلى عمـــوم الإيتاء. وينهى الله عن الفحشاء الخطيئة التي تقع ناقضة لبر صلات المعاشرة وتقواها

فتظهر سوءى تفحش شائعة مفضوحة، وعن المنكر مما لا يزين أو يحسن وفق المعروف بل يظهـــر منكـــراً في عمـــوم خلق الناس، وعن البغي الذي يمتد لا عدلاً بل ظلماً عادياً في الأرض. والخطـــاب لمن يتلقى هدى الله أنه سبحانه وبتلك الوصايا يعظهم لعلّهم يذكروها في وعيهم دون غفلة حيةً حوافزها للزوم الأوامر وزواجرها ليتقوا المناهي.

﴿وَأَوْفُـــواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١)

وتـــأتي أعم الوصايا قواماً لذات بين مجتمع المؤمنين بالكتاب المخاطبين: أن يفوا بعهـــد الله إذا عاهدوا. وعهد الله هو أصل الحياة تعاقداً بين العباد وربّهم، بين العبادة والطاعـــة لله في الدنيا وجزائه ورضوانه في الآخرة، وعليه يؤصّل كل تعاقد المؤمنين في ذات بيـــنهم أن يقـــضوا كل ما يكافئ التزام بعضهم لبعض وعداً بالعهد، وعليهم ألا ينقـــضوا الأيمان التي يثبّتون بها بإشهاد الله حقَّ مقولات تعاهدهم جزماً بحقها وحصانة مـــن الكذب في وعدها. والأيمان لزوم مغلّظ بعد توكيدها جداً، وهي عفو إن جرت عرضاً في القول. ذلك أن المؤمنين بتعاهدهم الموثق بالأيمان قد جعلوا الله عليهم كفيلاً شاهداً رقيباً يحمل معهم صدق الالتزام وثقله بعظمته العليا. إن الله يعلم ما يفعلون لأنه بالغ العلم رقيب محيط بفعالهم في حياتهم.(١)

﴿وَلاَ تَكُونُـــواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٢)

وتأكيداً لذلك ينبغي على المؤمنين ألا يكون كالغازلة التي جهدت فغزلت خيوطاً ثم نقضت غزلها فأصبحت الخيوط بعد قوة استوفتها أنكاثاً منفوشة. عليهم ألا ينكثوا كذلك رباط الصدق في مقاولاتهم ويفسدوا الصلاح بها متخذين بذلك أيمانهم التي هي

---

(١) في أمر العباد بالوفاء بتكاليف التعاهد بينهم: راجع الآية ١٧٧ سورة البقرة، الآية ٧٦ سورة آل عمران، الآية ١٥٢ سورة الأنعام، والآية ٤ سورة التوبة، وانظر الآية ٣٤ سورة الإسراء، والآية ٨ سورة المؤمنون، والآية ٣٢ سورة المعارج. ذلك فضلاً عن آيات كثيرة في أمر الوفاء بعهد الله أساس العهود بين عباده.

للتوثـــيق دَخَلاً بينكم وخللاً في علاقاتكم في سبيل مكسب خدّاع: أن تكون أمة هي أربى مـــن أمـــة، ينقض التزام العهد ويغدر أحد طرفيه ليربوا حاصل كسبه منه على كـــسب أخيه، والعهود حقها أن تُوفى بسواء لتتعادل فيها الكسوب الموعودة. والغدر للعهـــد قـــد يحصّل في ظاهر الدنيا فيضاً وربواً في كسب، لاسيما إذا غاب في مجتمع المؤمـــنين – وهـــم في عهد مكة الذي نـــزلت فيه الآية سلطانٌ يقضي بالعدل ويردّ المـــراباة ظلمـــاً إلى المعادلـــة بين المتعاهدين. إنما يبلوا الله المخاطبين المؤمنين ويختبرهم بالعهود بإشهاده أيماناً لعلهم يلتزموها وتتكافأ فيها الذمم وفاء ولا يقع منهم الانخلاع مـــنها استغلالاً لفرصة كسب باغٍ أربى من مغدورٍ به. ولئن جاز ذلك في ظاهر مجتمع الدنـــيا فالله كفيل شهيد بحق العهد لن يجيز فيها ظلماً، وهو مُبيّن قطعاً للمخاطبين يوم القـــيامة بفـــصل حـــسابه وقضائه ما كانوا فيه يختلفون ليتجلى فضل الوفاء بالقسط والسواء ووزر النقض في سبيل ربو ظالم وليستوفى المظلوم بميزان الحساب حقه خصماً مـــن الظـــالم. فليحذر المؤمنون ألا يراودهم هوى الكسب وتزيين الشيطان لغدر في العقود لاختلاف بينهم لئلا تحقّ عليهم عند الله البينة والجزاء.

﴿وَلَـــوْ شَـــاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)

ويُخاطـــب العباد المبتلون بعلاقات التعاهد بين دفع الصدق ونـــزع الغدر. ولو شـــاء الله لجعلـــهم أمّـــة واحدة مطبوعة على عدل من التعاهد الوافي تؤمه وفاقاً بلا خـــلاف. ولكن الله يُضل من يشاء بأن يمدّ لهم في نـــزع مشيئته نحو الضلال ليحتمل أمانة السؤال ويحق عليه الجزاء، ويهدي من يشاء بأن يثبّته على منهج الهدى والصدق في عهـــد الله وســـائر عهود الحياة التي هي فرع منه. ويتأكد على المخاطبين حقٌّ ما ينتظرهم في الآخرة أن يُسألوا عما كانوا يعملون في الدنيا.

﴿وَلاَ تَـــتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤)

والوصية لهم – للمسلمين – ألا يتخذوا أيمانهم – وهي عرف تواثق لتمتين ذات الـــبين – دَخَـــلاً بينهم تسري بها خلالهم المخادعة والغدر في العهود والوعود، فتذل

بـــذلك قـــدم قوم بعد ثبوتها سقطة تهوي بها عن مقام الأمانة والصدق وتتضاءل الثقة وتـــزداد مظان الفساد في مجتمعهم المؤمن الذي ينبغي أن يعلو عن ذلك معتصماً بحبل حـــق العهد مع الله، ويذوق المخاطبون السوء يوم الدين عاقبة بما صدوا بأنفسهم عن سبيل الله الذي هداهم إلى ما هو أطيب وأحسن مذاقاً في العاقبة، ولهم عذاب عظيم لا ينفك عنهم لأنهم انفكوا عن ميثاق الوفاء بالعهود.

﴿وَلاَ تَـــشْتَرُواْ بِعَهْـــدِ اللّـــهِ ثَمَـــنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥)

وتمـــام حـــيث النهى للمؤمنين بهدى الكتاب المخاطبين ألا يشتروا بعهد الله ثمنا قليلاً، ألا يبيعوا بوفاء عهد الله كسباً عاجلاً بخساً من حطام الدنيا مهما يربوا ظاهراً في أموال الآخرين بنقض العهد معهم، ذلك مظنة حساب رابح هو خاسر لمدى آجل، إن مـــا عند الله هو خير لهم إن كانوا يعلمون، لو وفوا عهدكم وجاهدوا فتنة مغنمة من نقضة لاستوفوا عند الله خيراً يقيهم الخسران منها ويؤتيهم أجراً رابحاً بالوفاء.

﴿مَـــا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦)

يتبين ذات الخطاب أن ما عندهم من مكاسب ينفد بفناء الدنيا فلا ينتفعوا به وما عند الله بخلود الآخرة باق فابتغاؤه أفلح وأربح. وليجزين الله الذين صبروا على الوفاء بالعهـــد وإن بدت لهم مكسبة عارضة من فرصة النقض، وليجزينهم أجرهم في مجاهدة فتنة الكسب الأربى منه بأحسن ما كانوا يعملون، إن الوفاء بالعهد عمل صالح كسائر صالحات الأعمال ولكن الثبات عليه مصابرةً يبلّغه درجاً أحسن، وبه بقدره يجزي الله قطعاً.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧)

وذلـــك عهـــد مـــن الله يوفيه عباده أنه من عمل صالحاً منهم – ذكراً أو أنثى ســـواء – وهو مؤمن بالهدى المشروع صلحت نيته وسعيه مبتغياً أجر الله وفق صراطه المـــستقيم، فعهـــد الله المترتب جزاءً على ذلك أن يحييه بأقدار رحمته حياة طيبة – إما

مــباركة عــند اليسر يتمتع بالطيبات هنيئاً أو عند العسر يرحم بالطمأنينة فيها قانعاً رضياً، وليجزينهم كذلك أجرهم حياة أخرى بمبلغ أحسن ما كانوا يعملون.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨)

هكــذا مــضى هدى القرآن تبياناً وهدى وصيةً بصالح الأعمال وأحسنها التي يــزكيها الإيمان ويصرف عنها غوائل هوى الفحشاء والمنكر والبغي واغتنام الحرام في العهــود وحبائل إغواء الشيطان لإفساد ذات البين التقيّة، ورحمةً مما بشر به الصالحين مــن حياة طيبة وجزاء. والشيطان قد يتقصد أصل ذلك الصلاح بوليجة وساوسه بين العبد والهدى الذي يلتمسه في تلاوة القرآن. فالنصح يخاطب الرسول ﷺ مبلغاً المؤمنين القــرآن وإمامــاً لهم وقدوة أن يحتاط من الشيطان دون تلاوة القرآن. فإذا قرأ القرآن فليــستعذ - بكلمــة ذكر أو حاضرة في القلب تسأل الله العوذ والحصن من الشيطان البعــيد ضــلالاً مــن نور الله في القرآن المطرود من رحمته، تحصُّناً بالله من أن يحول الشيطان دون تدبُّر القرآن وتفقهه وهديه.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٩٩)

والحق إن الشيطان ليس له سلطان قاهر على الذين آمنوا بلا ثغرة ارتياب وعلى رهم وحده بإخلاص يتوكلون لهداية سيرة حياقم وعوهم ذكراً له تعالى وتلاوة لكتابه وعبادة له بشتى شعاب الحياة وثباتاً لأصل ذلك من الإيمان.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٠)

إنما سلطان الشيطان المتمكن على الذين يتولونه بضلال مشيئتهم يتخذونه ناصحاً وداعياً يُزيّن لهم في الحياة، والذين هم به مشركون استجابة لما يُمنّي به غيباً ومطاوعة لإغــوائه بما يبلغ التعبد له شركاً مع الله الذي يخلص له المؤمنون ويوحدونه مطاعاً ولياً هادياً وفياً بوعد الجزاء.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١)

وفي الخطــاب للرسول ﷺ حامل رسالة القرآن لأمة خطابه يذكّره الله أن الذين يــتولون الــشيطان الذي يصرفهم بسلطانه عن القرآن يوسوس لهم بالريبة فيه هم به

مـــشركون – إذا بدل الله بأقدار وحيه المتعاقب هدياً على عباده آية كتاباً منـــزلاً هو هـــذا القرآن مكان آية هو الكتاب الذي أنـــزل بين يديه وهو يصدّقه، والله أعلم بما ينـــــزل كـــيف تـــتوالى وتتصادق رسالة الحق في كتبه الموحاة وتتناسخ فيها بعض الأحكام لاختلاف ظروف البلاء – إذا وقع ذلك قالوا خطاباً للرسول: إنما هو مفتر. وذلـــك مطعـــن أمة الخطاب الجاهلية الذين لم يعهدوا الكتاب الأول إذ سمعوا به و لم يدرسوه أو يؤمنوا به فلما جاءهم الكتاب المتجدد أنكروه لأنه يُبطل ظنونهم وأعرافهم شركاً فقالوا: هو مفتري، مثل ما يفترون هم ما ينسبون إلى شركائهم. بل أكثرُهم لا يعلمـــون هديَ آي الله المتعاقبة كتباً متصادقة في أصول الحق متناسخة في بعض أحكام بل أمة أمية أكثرهم لا يعلمون إن سمعوا بنبأ الصحف الأُولى شيئاً من هديها.

﴿قُـــلْ نَـــزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٢)

يتـــصل الخطـــاب للرسول ﷺ أن يدفع عن الكتاب أباطيل طعن أولئك ويقدّمه كـــتاب حـــق وهدى، أن يقول في شأنه نـــزّله متواترة رسالاتُ وحيه روحُ القدس جـــبريلُ الملك الروح البالغ الطهر رسولاً أميناً من ربه بالحق لا مدخل فيه لافتراء ممن أُوحـــي إلـــيه ولا لإلقـــاء عليه من الشيطان، وهو – ذلك الكتاب الموحى – يتوالى نـــــزولاً ليثـــبّت الذين آمنوا بالغيب، بالله وملائكته ووحيه كتاباً سابقاً وخاتماً ويوم لقائـــه في الحياة الأخرى. وهو هدى يبيّن لهم الصراط المستقيم في الحياة الدنيا لا تلويه فـــتنُ الهـــوى والـــشيطان، وبشرى للمسلمين أمرهم كله لوجه الله ولهديه بحياة طيبة وأخرى أطيب وأبقى عند الله.

﴿وَلَقَـــدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٠٣)

ويثـــبّت اله الرسول ﷺ إمام أولئك المؤمنين أنه سبحانه كذلك لقد يعلم بأقدار علمه المحيطة أن أولئك المكذبين بالكتاب الذين ينسبونه أحياناً إلى الافتراء من الرسول الـــذي يتلوه عليهم – أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر من أهل الكتب الأُولى يُملى عليه مـــثل مـــا فيها. والحق أن يُذكر هؤلاء بما هو حق: لسان الذي يُلحدون إليه ميلاً عن

قــول الصدق في مصدر القرآن – لسانه أعجمي ما دام من أهل الكتاب العجم، وهذا القــرآن لسان عربــي مُبين بلغة بالغة الفصاحة والبيان جاءت بحروفها لتصرفهم عن ذلــك الظــن الباطل ولتعجزهم هم – أهل اللسان العربــي – عن مضاهاة الكتاب، لعلهم يؤمنون أنه من الغيب من وحي الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤)

الحق إن الذين لا يؤمنون بآيات الله التي تتنــزّل وحياً كلاماً بيّناً حقٌّ أصله ويدل علــى الهدى المبين لا يهديهم الله إلى حق العلم والهدى كرهاً ولا بواسطة غير سنته في إنــــزال الكتاب الهادي واصطفاء الرسول الأمين ليبلّغه، ولهم بمشيئة تكذيبهم الآيات البيّنات في الكتاب وضلالهم عن هداها في الحياة الدنيا عاقبة عذاب أليم في الآخرة.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٠٥)

والحــق كذلك: إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله، يُلقون بإيحاءات ولــيهم الــشيطان مفتريات كاذبة منسوبة إلى آلهتهم ويُلقون القول الكاذب طعناً في القــرآن بمخــتلف المطــاعن لأن لهم هوى ومتاعاً بما يفترون من دونه. وأولئك هم الكاذبون حقاً مذهب سيرتهم في الحياة مفترى كله بالكذب في أمر الغيب.

﴿مَــن كَفَــرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦)

ذلــك أمر الذين لا يؤمنون بآيات الله، تذكر هذه الآية أمر آخرين بين أمة الخطاب صــدّقوا وآمنوا بالقرآن العربــي الحق. مَن كفر بالله بعد إيمانه – من بين الذين استجابوا لدعــوة آيــات الله وصدقوا الكتاب وآمنوا بهديه لكن تكثّفت عليهم ضغوط الباطل من ســواد المخاطبين الأعظم، مَن ارتدّ ورجع عن خياره، إلا من أكره بفتنة سُلّطت عليه من الأذى وخطر الهلاك ضرورةً ألجأته إلى أن يتقيها بكلمة كفر من لسانه خارجة كرهاً لعلّها تدفــع عــنه المحذور وقلبهُ مطمئن بالإيمان الحق باطناً دون ذلك الظاهر راجياً ربه الغفور الــرحيم، مَــن شرح بالكفر صدراً بأن فتح صدره لريب الكفر وظنونه حتى تمكنت منه: فعلــيهم غــضب من الله ولهم عذاب عظيم لأنهم بلغوا بعد الهدى حيرة من زلزلة الضلال حتى ارتدوا على أدبارهم ورسخوا في مذهب الكفر عقداً في قلوبهم ومنهاجاً للحياة.

﴿ذَلِـــكَ بِـــأَنَّهُمُ اسْـــتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠٧)

ذلـــك الارتداد بأنهم استحبوا الحياة الدنيا حباً تقلّبوا لإلقائه في مشاعر قلوبهم بما فتـــنهم علـــيه مـــلأُ الكفـــر من أمة الخطاب يسترهبونهم ويغرونهم ومن ورائهم دفع الشيطان، استحبوا أمنهم ومتاعهم في الدنيا إيثاراً على الآخرة در السلام والنعيم الأوفى للمؤمـــنين الصابرين. وهو كذلك أن الله إنما يثبّت المهتدين ويزيدهم هدى، أما القوم الـــذين يقومـــون كافـــرين بخيار مشيئتهم المُحبة لما هم عليه في الدنيا العاجلة فالله لا يهديهم بل يمدّ لهم في مسلك كفرهم حتى يودى بهم.

﴿أُولَـــئِكَ الَّـــذِينَ طَـــبَعَ اللّـــهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٠٨)

أولئك – هم – الذين طبع الله على قلوبهم بسننه تعالى في الهدى والضلال وختم عليها بحب الدنيا وهواها تعلقاً بمشهودها دون حق الغيب. وسمعهم وأبصارهم كذلك، لا تـــبلغ أصـــوات تلاوة الحق ولا صور الآيات المكتوبة والمسنونة في الطبيعة ولا مثل الـــصلاح المـــرئية وراء آذانهم وعيونهم وقعاً في القلوب، سمعاً وبصيرة بوعي حي دافع وقعه ي الحياة. (والسمع للصوت واحد عموماً والأبصار تدور وتختلف تركيزاً بما هو أقرب لصيغة الجمع). وأولئك هم الغافلون تمام الغفلة يسيرون في الحياة سامدين قلوبهم مطبوعة لشهواتها ومشاعر إدراكهم مفتونة مرهونة لمقولاتها ومشاهدها الحاضرة.

﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ﴾ (١٠٩)

لا جـــرم – بأدنى ريب نقصاً في الحق – أن أولئك في الآخرة هم الخاسرون، لو ربحوا من ردتهم في الحياة الدنيا متاعاً عرضاً فإن منتهاها إلى عاقبة هم الخاسرون متاعها وخيرها إلى غضب من الله وعذاب.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٠)

والخطـــاب موصـــول للرسول ﷺ في مذاهب أمة خطابه بالقرآن سوى الكفر والـــردة. إن لربه – بعد العذاب الأليم والعظيم لأولئك لفضلاً عالياً على المؤمنين، إن

ربـــه للذين هاجروا – إلى الحبشة – من بعد ما فتنوا شيئاً ما بما اشتدّ عليهم من وطأة الـــذل والـــتهديد، ثم جاهدوا بلاءات الاستقامة واعتزال الأهل وغربة الدار لا يبتغون كـــسب مـــتاع وصبروا على ذلك في سبيل الله، إن ربه من بعدها – تأكيداً مثنى – لواســـع المغفـــرة دقيق الرحمة يغفر عن كل زلزلة عارضة تغشاهم عبر تلك المجاهدة، ويسبغ رحمته عليهم خيراً مرجواً في الدنيا وفلاحاً في الآخرة.

﴿يَـــوْمَ تَأْتِــي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (١١١)

يـــصدُق ذلـــك الفضل من الله عليهم ميزةً على الآخرين: يوم تأتي كل نفس – كافرة بتكذيب موصول لآيات الله أو مرتدة بعد إيمان قولاً عرضاً أو منشرحاً صدرها بـــه أو مؤمنة صابرة – كلٌ تجادل عن نفسها في السؤال والحساب تتعذر عن الكفر أو الـــردة ولات ساعة متاب أو تترجى مؤمنة الغفران وفيض الرحمة من الله، وتُوفّى كل نفـــس مـــا عملـــت نصيباً لأعينهم أفراداً صلاحاً ففلاحاً أو كفراً فخسراناً. وهم لا يظلمون بل جزاؤهم بالقسط وفاق ما عملوا بالقسط.

عموم المعاني: الآيات (٨٩ – ١١١):

إن الرســـول الخـــاتم ﷺ – كمـــا هو تكليف سائر المرسلين – شهيد على أمة خطابه، يشهد فيهم أن ما يؤديه هو أمانة بيان الرسالة، ويشهد عليهم يوم القيامة عند إقامـــة بيّنات الحساب أن قد تم منه البلاغ المبين وسبق التبشير والإنذار. وكذلك كل الـــذين يقومـــون بالدعوة خلفاً في أمة شهداء يدعونهم يُلقون عليهم مشروع الحق ثم يقومـــون علـــيه بالبينة يوم الدين. والكتاب الذي حمله الرسول – أو خلفه من دعاة المؤمـــنين – شاهداً ومبشراً ونذيراً جاء تبياناً لكل شيء للمخاطبين من حقائق الوجود الحـــق ومن تمام حق العالم المشهود آيات لله تدل على صفات أقدار الله وتذكّر بنعمه علـــى العباد وتعلمهم هوادي الحياة وتقصّ عليهم عِبراً من سوابق سير الماضين وتلقي علـــيهم مـــن نبأ الآخرة ومن تذكرة البصائر قبلها ولأجلها، وهو لمن يُسلم وجهه لله مـــسلماً ليـــصلح في الحـــياة ويحسن نعمة هدى إلى الشرعة القاصدة إلى الله إخلاصاً

والمنهاج السالك عبادة في سبيل مرضاته في الدنيا والآخرة وتقوى من الضلال والكفر حـــذر غضبه، وهو رحمة من الله أدركت عباده لولاه ما اهتدى من في العالم المشهود دون الغـــيب وصـــاحبتهم عظة بالمتاب إليه تعالى ولولا رأفته وحلمه لأخذهم عاجل العقـــاب على الذنوب والقصور والظلم الذي لا ينفكّون عنه بفتنة الدنيا المطلقة. وهو بشرى بحسن العاقبة حافزاً على الاستقامة على الطريق مهما يكن الابتلاء لا يلوون عن المقصد الحق ولا يحيدون عن الطريق القويم.

ولقـــد كان القرآن المكي بغالبه شرعاً لأصول الدين علماً حقاً بالغيب والشهادة وهدى في الحياة، ودعوةً تطهر لأمة الخطاب من سياق حياة جاهلية نازعة إلى الإشراك ظـــنوناً راســـخة في باطن النفوس وجارية على أعراف موروثة مسالكها ضالّة أوامر ومناهـــي في ظاهـــر الحياة، وتمامَ رسالة للمتطهرين التائبين المؤمنين خروجاً من تلك الظلمـــات إلى النور ورقياً بعد اتقاء النذر بابتغاء البشائر درجاً لصلاح الحياة. فورد في القـــرآن المكـــي سوى سمعياتِ تعليمِ حقائق الغيب وجدلياتِ خطابٍ لإبطال الباطل المعهـــود دعواتُ تذكير لإثبات الإيمان بالحق هوادي خلقٍ لتزكية حياة المؤمنين. فهذه الـــسورة نـــزلت في مكة بياناً لما يأمر به الله وينهى عنه في علاقات مجتمع الذين آمنوا ولّمـــا يثبت العلم ويخلص التطهر ويطمئن الإيمان في كل النفوس لأن الخلق الطيب عودٌ علـــيها بترســـيخ اليقين، وما صفا للمسلمين مجتمع قائم بذاته قوةً تتذاكر بهدى الدين وتتحاضّ بالإصلاح وتتضابط بتقوى لله فلزم إحسان بِنْيته من الأفراد المؤمنين، وما قام علـــيهم سلطان يعزز بأمره الدعوة إلى أقوم المسالك العامة ويقضي بينهم بما هو أعدل ألاّ يـــتظالموا ويكتب عليهم ما هو أوقع رداً لنـــز ع العدوان على حرمات الحق العام ففـــي مكة يتولّى أمرهم المسلمون بهدى مستقل وإن كانوا تحت وطأة مجتمع وسلطان فـــيها جاهـــل ظـــالم. أما في السور المدنية – حيث تأسست قواعد الإيمان والإسلام وتكامـــل بناء مجتمع المسلمين وقام عليه السلطان الرشيد – فتمضي الهدايات الخُلقية المكيّة تتحقق في سياق أوفق وتتكامل بإتمام المهاد وتفصيل المجمل من الأحكام. فالهداية الإيمانـــية والخلقـــية في هـــذه السورة ومثلها مكياً ومدنياً هي رشاد للمؤمن ولجماعة المؤمـــنين حيثما كانوا، ولو طرأ عليهم مثل ما جرى فعلاً في غالب سيرة مجتمعهم أن

اختلط بالداخلين إليه الناقص دينهم أو ضلّ سلطانهم عن الرشاد أو اغترب فيهم الدين الخــالص وغشيته عقائد دنيوية، أو جرى ما وقع لأمم مسلمة خالفة غلب عليها لعهد طويل سلطان غير مسلم شرع عليها أحكامه ونشر فيهم إعلامه دعاية تضليل. ولذلك تقوم تلك الهداية خالدة تلازم النفوس المسلمة ما حُفظ القرآن وما ظلوا يتوكلون على أصــول الإيمان بالله والغيب والكتاب وإن لم يعزز هديهم ناصح من مجتمع تام ناصح ولا أمر من سلطان راشد.

فالسورة بعد بيان أصول رسالة الإيمان والتوحيد والتذكير بالآيات لله في الطبيعة حول الناس وبنعمه المبسوطة عليهم وبذكر الآخرة مما ينذر الكافرين المشركين ويبشر المؤمــنين – بعــد ذلك وقبل آيات ختام السورة يأتي البيان للقواعد الخلقية المشروعة لقوام المجتمع المؤمن مبادئَ في علاقاته العامة آمرة وناهية. وأول ما يأمر به الله المسلمين هــو مــا يُصلح عموم علاقاتهم ويحسن ثم يبلغ فضلاً في خصوصها. يأمر بالعدل وهو القــسط بينهم لا يتظالمون ولا يتواضعون على نظم عامة تجور على بعضهم حرمة أو معاشــاً أو فرصاً متساوية لكسب مبتغيات الحياة. ويأمر بالإحسان علاوةً على النصفة في العلاقــات وزيادةً عفواً تعطى بينهم إذا تفاضل الناس في الكسب وسبقاً إلى ما هو خير بعد الاقتصاد والعمل الصالح. ثم يأمر بإيتاء ذي القربى حقاً على الغني أن يؤتى من يليه ما يقضي حاجته وما يبسط البر والتكافل في علاقات القربى. وعدلاً لتلك الأوامر وتمامــاً لــصلاح الحــياة حصانةً ألا يفسد خصوصها أو يعمها الفساد ينهى الله عن الفحــشاء، وهــي الجنايات على حدود قوام المعاشرات التي إن وقعت تشيع فاحشة مفضوحة كالزنا وما يبلغ مثل سوئه. وينهى الله عن المنكر وهو ما خالف المشهور من مــشروعات هدى الدين والمعروف بين المسلمين أنه مقتضى ذلك الهدى في علاقاتهم فينكرون الفسوق عنه. وينهى عن البغي وهو التعدي على حقوق الناس السوية وعلى الحــرمات المرعية بينهم طغياناً من قوي أو مسرف أو مستبد مستكبر. وتلك موعظة ليتذكر المسلمون أوامر الله ونواهيه طاعة وتقوى في كل حين وحال.

ثم تــأتي آيــات متتالــيات في تمتين شرعية العهد، وهو الوشيجة الأساسية في معــاملات الــناس على أصلٍ من عهد الله ميثاقِ الفطرة بين العباد وربهم ومن تذكرة

الوحـــي الذي يتواتر فيه ذكر عهد الله الذي يشترى من عباده جهد الطاعة حتى بذل الـــنفس وإنفاق المال ليعيضهم بعدله حياة طيبة وآخرة نعيمٍ منه ورضوان. وعلى أصل الإيمان بذلك تنبني كل العهود في معاملاتهم ما انعقدت مرعيةً بالمعروف المتواضع عليه وبالمـــتواعد عليه بالقول أو بمدلول الفعل البيّن لاسيما ما كان موثّقاً بالكتابة والشهود أو بالأَيمان قسماً بالله على الالتزام بالوفاء. فأمر الله ألاّ ينقض العهد لاسيما إذا أكدته الأَيمـــان، فهـــي إقرار صريح باتخاذ الله كفيلاً يحمل مع المتعاهدين شأنهم، وهو عليهم كفـــيل في كـــل حال شهيد يعلم ما يفعلون يبارك من وفاقهم ما كان حقاً ويمحق ما كان على باطل ويمدهم بأيد وتوفيق للوفاء إن خلُصت نياتهم ويقوم عليهم شهيداً عند القـــضاء والفصل لكل نـــزاع يوم الحساب. وتتصوّب تذكرة خاصة لفتنة قد تغشى الـــناس في تعاقدهم فتوقعهم في جريرة النقض. ذلك أن تكون الأَيمان لا شهادة توثيق ولا تعزيز بل تتبدل دَخَلاً بينهم إذ تسنح فرصة لمتعاقد تُفتح له ثغرةٌ منصرَفٍ عن عقد الالتـــزام بالـــوفاء ليربوا كسبه على الطرف الآخر ويرجح له الميزان المتعادل بالمعاقدة، تلـــوح لـــه بيعة أربح أو معاملة أخرى أربى له عائداً من التي كتبها العقد. والعهد أمر ابـــتلاء بـــين نـــــزع الهوى وإغراء الشيطان ومقتضى الصدق والإيمان، والمتعاهِد قد يُمـــتحن فيُفتن إذ تتغير الظروف فيتغير عهده – ينكث عن حلول أجل الوفاء أو يبدل القـــدر الكِفـــاء الموعـــود يبتغي المتاع الحاضر العاجل وينكث غزل نسيجة الثقة بين المـــسلمين ويطيح بميزان القسط والعدل بينهم ولا يحفظ عهد الله بالصدق ولا ينتظر خـــيره في العاقبة إذا وفّى. ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ولقدّر عليهم جبراً أن يفـــوا تلقـــاءً بالعقود لتستقيم حياتهم موصولةَ الحبال، ولكن الدنيا عند الله دار ابتلاء والإنـــسان في خـــيرة مـــشيئة وأمر تكليف وهدى، والله يُضل من يشاء ويهدي من يشاء – يمدّ لمن يشاء ضلاله ويزيد المهتدي هدى، ولا يزال الناس مختلفين إلا من رحم الله، فالوصية للمسلمين ألا يتخذوا الأيمان دَخَلاً بينهم فتزلّ قدم الإيمان بعد ثبوتها على الـــصراط المـــستقيم إلى خير المآل ويذوقوا السوء عاقبة ولهم عذاب أليم. والوصية ألا يـــشتروا بعهد الله – أجره الموعود – للوفاء ثمناً قليلاً من مغنم النقض، فإن ما عند الله خير رابياً متضاعفاً وكسب الدنيا نافد وما عند الله خير باق بخلود السعد في الآخرة –

خيراً للذين جاهدوا الفتن في العهود وثبتوا على صدقهم حتى إن خسروا قدراً كان غير منظور ساعة التعاهد، والله يجزيهم بأبلغ الإحسان في أعمالهم حين يتعرضون لبلاء فتنة المغــانم الــسانحة التي تستدعى منهم إحساناً فوق معتاد الصلاح في الوفاء. والمؤمنون المؤتمــرون بأمــر الله المنتهون عن مناهيه الموفون بعهوده يبشرهم الله إن قدموا عموم العمــل الصالح، الذكر والأنثى منهم إن استوى كسبهم صالحاً فبشراهم سواء. ما دام العامل الصالحات مؤمناً نياته قاصدة لوجه الله، فإن الله يعقب الصالحين الخالصين حياة طيبة في الدنيا وجزاء في الآخرة بأحسن ما كانوا يعملون.

ذلــك هــو القــرآن الهــادي لأوامر الله في الحياة والتقوى في اجتناب المناهي ولــصالحات الأعمال وأحسنها، يداوم المؤمن قراءته مستهدياً مذّكراً. وينبغي لقارئ القــرآن - كما أُوصى الرسول - أن يستعيذ عند قراءته من نــزغ الشيطان الرجيم ليــصرفه الله عــنه فيخلص في تلاوة القرآن تدبراً وفقها واتباعاً لهديه، ومهما يتعهد الشيطان محاولة إغواء عباد الله بالمعاصي فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وأخلصوا توكلاً على ربهم الآمر الناهي الكفيل في عهودهم الجازي على الصالحات، إنما سلطانه على الذين يتولونه ناصحاً بالضلال وهم به مشركون يطاوعونه دون أمر الله. والقرآن حقٌّ آيةً من الله منــزله، بدّلها الله مكان آية من كتابه السابق، والله أعلم بما يُنــزل - يعلــم تعاقب تنــزيل كتبه تبديلاً لتقويم ما حُرّف وللتذكير بما نُسي ولنسخ ما تبدلت الابــتلاءات الداعية إليه، وهو محيط بنص كتابه وبما دعا إليه ويحفظه من متنــزَّله في الملأ الأعلى من الشيطان إلى أن يبلغ الناس عَبر الرسول. لكن الكافرون إذا رأوا من الله آيــةً كتاباً جديداً بعد قديم الكتاب قالوا للرسول إنما أنت مفتر، والحق أن أكثرهم لا يعلمون سنة الله الحفيظ في تنــزيل كتب الوحي ولا يقرأون القرآن أو يسمعونه كله ليــزعموا فيه افتراء وإنما هي ضلالة يلقيها فيهم الشيطان. ولْيرد عليهم الرسول وأيّما داعــية يبلّغ القرآن بعده ليدحض الطعن فيه جهلاً بما يعلم الطاعنين الحق في تنــزيله ومــا فــيه: أنه نــزّله روح القدس جبريل ما كان ليُفترى من دون ذلك وأنه تنــزّل ليُثــبّت الــذين آمــنوا على أصول إيمانهم بالغيب وأنه هدى لهم على صراط مستقيم وبــشرى أن لهــم علــى ذلك السبيل خير في الدنيا والآخرة. والله يعلم قول أولئك

الكافـــرين: إنما يعلّم الرسول بشر، يزعمونه كتابياً أعجمياً أصوله من سالف الكتب الدينية والقرآن عربـــي مبين. إن الذين لا يؤمنون بآيات الله في الكتاب لا يهديهم الله بظنوهم، فالكتاب هو هدى الله كله ولهم عذاب أليم عاقبة كفرهم، وإنما يفترون هم الكذب يهيمون عن الغيب عمهاً بلا كتاب من الله وأكثرهم الكاذبون الذين ينشرون مفتـــريات الـــشرك ينبسطون فتنة على المؤمنين بآيات الله في الكتاب. ومَن كفر من ضغوط تلك الحملة – لا بكلمة لسان ألجأته إليها ضرورة الخوف من الهلاك بل شرح صدره بالكفر – فعليهم غضب من الله وعذاب أليم إذ استحبوا الحياة الدنيا وأهواءها علـــى الغـــيب وهديه وآخرته. والله لا يحب الكافرين بل يمدّ لهم بطبع قلوبهم وسمعهم وأبصارهم على ضلالهم فهم غافلون ولا ريب أنهم في الآخرة هم الخاسرون. أما الذين فُتـــنوا لكـــنهم لم يُسلموا أنفسهم للكفر بل هاجروا ديار موطنهم من بعد وجاهدوا وصـــبروا في ظروف الغربة بالمهجر في أرض أمان أخرى فإن الله غفور رحيم لما عَرض لهم. والفصل الحق والجزاء الأوفى بين الناس جميعاً يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وكسبها في معرض السؤال والحساب وتُوفّى كل نفس ما عملت عن بينة وقضاء بجزاء كِفاء، وهم لا يظلمون في يوم الدين إذ الملك لله العدل أحكم الحاكمين.

ترتيل المعاني: (**الآيات ١١٢ – ١٢٨**):

﴿وَضَـــرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (١١٢)

لـــئن كان مذهب أمة الخطاب الجاهلية لأول عهدها كفراً بالقرآن رمياً للرسول بافتـــرائه إعراضاً عن الإيمان بآياته وفتنة لمن آمن ليحملوهم على الكفر مقولة مكره أو ردة خالـــصة أو ليـــضطروهم إلى الهجرة من الوطن والصبر في سبيل الآخرة فإن الله يومئذٍ يوفّي كل نفس عملها. وضرب مذكّراً بالعظة والنذير في الدنيا مَثلاً قرية – مثل قـــرية مكة موطن المخاطبين – من القرى الماضية كانت آمنة مطمئنة، لا حذر غارات على أهلها ولا همّ نجع وارتحال، يأتيها رزقها رغداً واسعاً من كل مكان. وحقّ المثال في مكة استجابة لدعوة إبراهيم لذريته فيها حرماً ومتاعاً. فكفرت القرية المضروب بها

المـــثال بـــأنعُم الله فأذاقها الله وشملها بإحاطة من لباس الجوع بعد الرزق والخوف بعد الأمن. وقد سبق النذير لإبراهيم أن الله يرزق من كفر به متاعاً إلى حين. أصابهم ذلك بما كانوا يصنعون نكوصاً جاهداً من الإيمان والشكر لأنعم الله إلى الكفر. ويمضي تمام المثال...[1]

﴿وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١١٣)

ويمـــضي تمام المثال: ولقد جاءهم رسول منهم مذكّراً بالله المنعم وشكره واتباع هديه فكذبوه، فأخذهم العذاب وهم ظالمون، ورطون في تجاوز الحق. ذلك مثال يذكّر أهـــل مكـــة بما يسمعون من أنباء القرى السالفة حولهم ويصف سيرةً لها مثل سيرتهم المـــرتدّة الكافرة بالنعمة ليعتبروا، لاسيما أن الرسول فيهم لو أنهم يتعظون ويصدقون ويتذكرون فضل الله عليهم فيؤمنون ويعدلون قبل وقوع مصاب.

﴿فَكُلُـــواْ ممَّـــا رَزَقَكُـــمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤)

وتـــرتيباً علـــى موعظة المثل وإنفاذ نذيره، يوجه الخطاب لأمته وللمؤمنين منهم خاصة بالهدى المعتبر: أن يأكلوا مما رزقهم الله حلالا طيباً، يعرفوا فضل الله بتوافره ولا يجعلون للأصنام نصيباً فيه بعرف الجاهلية، ويلتمسوا الحلال الطيب الواسع مداه بهدى الله الرزاق ولا يضيّقوه بأعراف تحريمهم الموضوعة، وأن يشكروا نعمة الله غير كافرين إن كانوا إياه يعبدون إخلاصاً لا يشركون.

﴿إِنَّمَـــا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنـــزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٥)

---

(١) تتوارد في القرآن كثيراً الموعظة بأمثلة قرى تبتئس أو تهلك لظلمها من بعد رسالة الحق والنذير: انظـــر مثلاً الآية ١٦ سورة الإسراء، والآيات ٥٥ – ٥٩ سورة الكهف، والآيات ١١ – ١٥ ســـورة الأنبـــياء، والآيتين ٢٠٨ و٢٠٩ سورة الشعراء، والآية ٥٨ سورة القصص، والآيات ١٣ – ٢٩ سورة يس، والآيات ٢٣ – ٢٥ سورة الزخرف، والآيات ٨ – ١٠ سورة الطلاق. أما الموعظة في قصص الأقوام والقرى للأنبياء المسمين: موسى مع قوم فرعون، ونوح في قومه، وصـــالح في ثمود ولوط في قومه، وشعيب في مدين، وهود في عاد، وقد وردت تباعاً القصص مفصّلة في سور الأعراف وهود والشعراء ومجملة في سورة العنكبوت وعرضاً في غيرها.

إنما - قصر الله التحريم عليهم في رزقهم على أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به من قرابين شركائهم الأصنام. فإن وقع على الأكل حال اضطرار ألجأته إلى أكل ذلك المحرّم غير باغ بدوافع الضرورة للطعام على ملك الآخرين ولا متجاوزاً عادياً على قدر قضاء الأود اللازم فإن الله غفور رحيم، واسع المغفرة بالغ الرحمة عليه أن دفعته الضرورة وراء مدى الحلال من نعمته تعالى.

﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ (١١٦)

ونهياً عن اتباع مذهب الجاهلية وعرفها الذي يفتري التحليل والتحريم للرجال أو للنساء، على المخاطبين بهدى الله ألا يقولوا للذي تصفه ألسنتهم قولاً هو عين الكذب: إن هذا حلال وهذا حرام. إن الذين يفترون مقتطعين من أنفسهم كذباً عمداً منسوباً إلى الله العظيم الرازق الشارع لعباده الحلال والحرام - إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون في الدنيا إذ يضلّون في طعامهم ثم يمتد بهم ضلال الافتراء إلى سائر الحياة فيؤدي بهم إلى عاقبة خسران لا فلاح.[1]

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١٧)

متاع قليل منكر زهيد ما يمدّ الله لهم في الدنيا بما يكذّبونه فيه ويفترون التشريع، ولهم في عاقبة الجزاء بعد فساد الدنيا ومتاعها عذابٌ بالغ الألم.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٨)

وتتمة لبيان ضيق تحريمات الجاهلية في الطعام تُضيف الآية خطاباً للرسول ﷺ الذي يعلم الكتاب السابق وأهله ويعنيه ما يصدقه من القرآن أن الله ما حرّم تضييقاً على الذين هادوا من بني إسرائيل حقاً مصدِّقاً باقياً بل لأمر خاص بهم. إذ عليهم حرّم الله بأقداره منعماً بالرزق هادياً في متاعه بوسع الشكر له في الحياة - حرّم ما قصّه

(١) في حرمة المطعومات المحصورة ينبغي ألا تتسع افتراء على الله: راجع الآيتين ١٧٢ و١٧٣ سورة البقرة، والآية ٨٧ سورة المائدة، والآيات ١١٩ و١٣٨ و١٣٩ و١٤٣ و١٤٥ سورة الأنعام.

ســبحانه بأقــدار وحيه وبيانه الواعظ على الرسول المخاطب من قبل في القرآن، وما ظلمهم الله بأقداره العظيمة الحكيمة العادلة ولكن كانوا أنفسهم ظالمين، إذ عاقبهم الله بإصـــر تضييق فيما كان لهم حلالاً واسعاً بما استخفوا من هديه وحفظ حدوده فجنوا على أنفسهم بظلمهم المتجاوز للحق. وتلك تذكرة للمؤمنين ألا يتبعوا ما شُرع لأهل الكــتاب خاصة من المحرمات وأن يرعوا حدود هدى الله دون معصية تحريم أو تحليل دونها حتى لا يأصرهم بعقاب.[1]

﴿ثُــمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٩)

الخطــاب للرسول ﷺ من الله فتّاح باب التوبة بعد حمل الآصار على العصاة: ثم إن ربــه للذين عملوا السوء من الذين هادوا أو بجهالة من افتراءات الجاهلية التي كانوا في رهــنها أو مـــن تقليد التعاليم الآصرة في تشريعات الطعام لأهل الكتاب، تعرضوا بعملــهم لذلك السوء بعد الوحي الهادي ثم تابوا من ذلك مرجعاً إلى أصول دين الله وأصلحوا سيرة حياتهم على هدىً من شرعة الحق، إن ربه من بعدها - كما هو لكل التائــبين المــصلحين بعــد ضلالة أو زلة، لغفور واسع المغفرة رحيم بالغ الرحمة ستراً وإحساناً لهم خاصة.

﴿إِنَّ إِبْــرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَــبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الــصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠ - ١٢١، ١٢٢ - ١٢٣)

يتــصل الــسياق بذكر إبراهيم أبــي العرب أمة الخطاب الأولى واليهود الذين خوطــبوا بكتاب مصدّق ومجدد لما معهم، والذي كان إمام سنة ملّتهم السابقة جميعاً. إن إبــراهيم كــان أمة، قدوةً تُؤم، قانتاً لله حنيفاً ميالاً بإخلاص إلى هدى الله مهما تتــنازعه وتضاغطه قوى الضلال في الأقوام حوله، ولم يك (بحذف النون إثباتاً لأبلغ النفي) من المشركين في بيئة أهله الأولى في العراق ولا في البيئات التي هاجر إليها غرباً

(١) راجع الآية ١٤٦ سورة الأنعام.

ثم جـــنوباً في سبيل الله وترك آثاره من الذرية والهداية التي انحنفت تائبة إلى الله قانتة. ســـار علـــى ســـبيل الله شـــاكراً لأنعُـــم ربه إذ بسط له - بعد أن ضيّق عليه أهله وأخرجوه - واسعاً من الأرض وذرية بعد الكبر انتشرت في كل مكان، اجتباه الله نبياً لأنـــه جاهـــد الفتنة ليخلص لربه وهاجر في سبيله فهداه بالوحي والتزكية إلى صراط مـــستقيم. وآتـــاه الله - بأقدار فضله العظيمة وبما أتمّ هو كلمات الابتلاء - في الدنيا حسنة نجاة من كيد الناس وإمامة وبسطاً وأمناً ورزقاً لذريته وذكراً باقياً في الآخرين، وإنـــه في الآخـــرة لمن الصالحين، ذوي المقام والموئل الأصلح. ثم من بعد ذلك الفضل حفـــظ الله بأقداره تراث هديه ومده وجوده، فأوحى بأقدار الاصطفاء والهدى والنبوة إلى ســـلف لـــه من ذريته هو النبـــي الخاتم، أوحى إليه كما يخاطبه الله: أن يتبع ملة إبـــراهيم حنـــيفاً وما كان من المشركين، تلك الملة التي ينبغي إحياؤها بعد أن خلف إبراهيم في ذريته من اسماعيل إشراك بالغ مرتد على الحنيفية التي كانت منصرفة إلى الله وحده، وظلت تنتمي إليه ذريةٌ من إسحق لكنها تنسب إليه محدثات ابتداع باطل.[1]

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤)

الحـــق - مهمـــا يدّعـــي اليهود أن مناهجهم وأعرافهم كلها مأثورة عن أبيهم إبـــراهيم - أنـــه مـــا كان يهودياً ولا نصرانياً، فالسبت الذي جعل توقيره لعبادة الله الخالـــصة يحرم فيه العمل إنما جُعل على الذين اختلفوا فيه يهوداً ونصارى. والخطاب للرسول الخاتم إضافة لهذا الحق في أمر السبت المختلف عليه: إن ربه ليحكم قطعاً بينهم يـــوم القـــيامة فيما كانوا فيه يختلفون وفرّقوا دينهم من حيثه تشيّعاً وعصبية متناكرة امتدت إلى خلاف أوسع.[2]

﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥)

---

(١) تـــتوارد عـــدة آيات في القرآن تذكر إبراهيم حنيفاً عن الشرك أو توصي النبـــي الخاتم أو المؤمنين أن يكونوا كذلك حنفاء مخلصين غير مشركين.

(٢) في كـــتابة رعايـــة يوم السبت على أهل الكتاب والاختلاف فيه والاعتداء: راجع الآية ٦٥ سورة البقرة، والآيتين ٤٧ و١٥٤ سورة النساء، والآية ١٦٣ سورة الأعراف.

وخـــتام السورة في سياق ذكرٍ لأمر الجاهلية وأهل الكتاب تبدلاً بعد ملة إبراهيم القـــويمة، الخطـــاب إلى الرســـول الخـــاتم ﷺ: أن يدعو إلى سبيل ربه الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، هداية تنـــزل الحق الفصل على منازله من الوقائع والمسائل العارضة لأمـــة خطابـــه وموعظة ترغيب وترهيب زاجرة عن الضلال حافزة إلى الهدى حسنة الوقـــع لـــيس فـــيه مشاكسة خصام ولا مكارهة صدام، ولْيجادل أمّة خطابه بإفحام حججهـــم الباطلة وإلزامهم بالحق المبين مهما يفرطوا في حدة أقوالهم وعناد محاجّاتهم ويفيـــضوا في مغالطاتهم، فهو يوص ألا ينصرفَ عنهم غضباً فهو مكلف بالدعوة، وإن أعـــرض عـــن الغـــضب غافراً سمحاً أن يمضيَ مجادلاً بالحق بالتي هي أحسن، يتوفّى الخطـــاب الـــذي لا يعنّف بل يلطّف عن سكينة وصفح عن قولات السوء منهم، لا تـــستفزه السيئة لردّها بسيئة غيورة للحق ثائرة على الضلال ولا توئسه منهم المكابرة والمغالظـــة إصـــراراً وحرصاً على باطلهم. ويُؤكد له الخطاب تذكيراً: إن ربه – فوقه هـــو – هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله مشيئة على ضلالة، وهو أعلم بالمهتدين توبة إلى الهـــدى، فـــالله يُيـــسر لكلٍ مساره ليحقّ عليه السؤال والحساب والقضاء، وإنما على الرسول البلاغ المبين.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ﴾ (١٢٦)

وقـــد تعرّض المؤمنون لأنهم فارقوا الجاهلية – وإن التزموا نهج الحسنى في المجادلة وصبروا على المحن والبلاء ألا يرتدوا أو يكفوا عن الدعوة للحق – لمبادرات من الأذى كانـــت من أمة الخطاب المُعرضة اضطرتهم أحياناً لرد الفعل دفعاً عن أنفسهم وأمرهم، ولذا جاءتهم كلمة هداية رخصة وعزيمة: أنهم إن عزموا وعاقبوا – ردّوا الأذى والفعل الظـــالم عليهم برجعٍ مثله، فليعاقبوا بمثل ما عوقبوا به هم رداً على دعوتهم وخرجتهم مـــن أعراف الجاهلية، وألا يبغوا عادين برد فعلٍ أهوج وأبلغ أذى. وإنهم إن أحسنوا درجـــاً فوق العدل في مقابلة فعال الكافرين، لئن صبروا عزيمةً عفوّةً وتجاوزاً سمحاً لهو خيرٌ مسلكاً وعاقبةَ خير للصابرين.

﴿وَاصْـــبِرْ وَمَـــا صَـــبْرُكَ إِلاَّ بِاللّـــهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧)

وخـــوطب الرســـول ﷺ الإمام القدوة أن يقيم المثال في ذلك، فأُوصي أن يصبر متذكراً أن صبره ما هو إلا بالله تذكّراً له واستعانة بذكره والصلاة له، وألا يحزن على أمـــة خطابه إن حرص واجتهد في مسعاه لهدايتهم وهم يتمادون في الإعراض سائرين إلى عواقب النذر المؤسية، وألا يكُ - أبداً، بصيغة حذف النون - في ضيق وحرج مما يمكرون مدبرين خفية لفعل ضر أبلغ به وبالمؤمنين.(١)

﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (١٢٨)

إن الله بجلالـــه وعظمته وعزته مع الذين اتقوا - الذين سلكوا بعد التوحيد منهج الهدى واجتنبوا سابق المعهود من الشرك والضلال الجاهلي، والذين هم محسنون يرتقون توالياً ولا ينـــزلون عن درج الإحسان في قوة إيمانهم ومبلغ فعلهم في سبيله. ومعيّة الله هـــي مدّ من الله وتوفيق وأيد مبارك بوسع قدره المطلق ونصره ورضوانه الأكبر، وقد أتـــى أمـــر الله - كما ذكر في أول السورة - أخذ يتجلّى دفعه منذ نـــزول الملائكة بالـــروح مـــن أمره نذارة وتقوى له تعالى بهدى ذلك الكتابِ الروحِ من أمر الله، فلا يـــستعجلنّ أحدٌ أجل ظهور الحق ضيقاً بما يجري من إعراض وكيد، فإنه ماضٍ صعداً حتى يبلغ الله به من التمكن والسعة والعلو في الأرض بين العباد ما يشاء.(٢)

عموم المعاني: الآيات (١١٢ - ١٢٨):

ضرب الله مثلاً قرية ما - وكانت عظةً لأم القرى مكة التي ما آمن غالبها بآيات الكـــتاب لأول أمـــره بل فَتنوا الذين آمنوا فمنهم من اضطُر لمطاوعتهم بكلمة لسان

---

(١) في هـــدى الدعوة بالحسنى والمعاقبة للعادين سيئةً بالمثل وإيثار المصابرة والدفع بالحسنة: راجع الآيـــة ١٩٤ سورة البقرة والآية ٦٠ سورة الحجر، وانظر الآيات ٩٦-٩٨ سورة المؤمنون، والآية ٤٦ سورة العنكبوت، والآيات ٣٤ - ٣٦ سورة فصّلت.

(٢) يـــرد كثراً في القرآن ذكر معية الله وحبه وولايته للمتّقين. ذلك فضلاً عن كثير ذكر للتقوى والمـــتّقين، وما يجدون في كتاب الله من هدى وموعظة وتذكرة، وما يميزهم من استجابة لله بفعل الخير والصالحات، وما يحقّ عليهم من برّ وصدق عهد في ذات البين ومن رعاية لحدود شعائر الله وشريعته ومن اجتناب لفتن الدنيا ومن المجاهدة المنضبطة في سبيل الله. وكذلك ذكر البـــشرى للمتقين بما ينتظرهم في الآخرة من نعيم وجنات وحسن مآب ومفاز ورضوان عند ربهم العليم.

وقلــب مطمئن بالإيمان، ومنهم من ارتدّ شارحاً صدره بالكفر إيثاراً للحياة الدنيا وما اقتضت عليه، ومنهم من هاجر بعد أن فُتن ثم جاهد وصبر. ذلك بينما يعود أصلها إلى إبراهيم الذي أسكن فيها ذريته ودعا لهم ربه بالأمن والمتاع فاستُجيب له عهداً طويلاً وترك لهم سنة الملة الحنيفية وبيتاً متعبداً لله فاستقاموا حتى حين ثم ارتدوا على أدبارهم شــركاً وكفــراً بأنعُم الله عليهم و لم يستبقوا إلا البيت ولكن حرمته تمددها أصحاب الفــيل وطهره لوثوه بالأصنام والأوثان وبدلوا شعائر الحج إليه المسنونة وهدي الأنعام فيها بابتداع مفتريات. ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعُم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذب وهم ظالمون. وكانت تلك إشارة اعتبار بالــنذر والمــصير المحذور إن كذب محمد ﷺ. وذلك المثال جرى سنة في قرى خالية ويقــوم عظة باقية لأيّما بلاد أو حضارة كيفما تمكنت مستقرة في الأرض بالغة الأمان وافرة المعاش واصطنعت ثقافة عامرة بشعائر التدين إن طال عهدها بأصول الدين الحق فوهــى إيمانهــا وفُتــنت بــنعم الله فجحدتها محمودة و لم تستبقِ من تراث التدين إلا الــشعارات والآثــار وغشيتها الغفلة عن الغيب والشهوة للدنيا، فقد تصيبها أزمات معــاش وأمان تذكرةً عارضة، فإن تمادت في مذهبها وصدّت دعوات التجديد للدين الحق فقد يأخذها عذاب أبلغ ينهار به بنيانها كله.

ولــذلك كان الهدى للمؤمنين أن يأكلوا مما رزقهم الله حلالاً طيباً عارفين آيات الله ونعمــه حــولهم شــاكرين إن كانــوا لله عابدين يقصرون محرمات الطعام على المذكــورات في آياتــه المعــدودة الموقوف تحريمها في حال الضرورة، لا تسري فيهم مفتريات التحريم الكاذبة مثل ما راج عند مشركة العرب: هذا في الطعام حلال وهذا حــرام. إن الكــذب لا يهدي إلى الفلاح وإن امتدّ معه المتاع قليلاً في الدنيا فالعاقبة عــذاب أليم. ذلك أن الافتراء إذا غشي الناس في شأن الطعام المدّ الراتب لحياتهم فإنه يستــشري في شــعابها كافة يفسدها كلها بالظنون والأعراف الباطلة مذهباً. وليذكّر المؤمــنون وجهاً من سيرة بني إسرائيل – إذ أصابهم من تقادم الدين فسق فحرّم به الله علــيهم ما قصّ القرآن إصراً حُمّل عليهم بما فعلوا هم خاصة لا شرعاً للمؤمنين كافة.

فمهما يعتل تديّن المسلمين بخالف الممنوعات المبتدعة الباطلة – كحال مُشركة العرب وخالفـــة أهـــل الكتاب – فإن البشرى التي تحفز للتوبة إلى الحق أن أبواب رحمة الله مفـــتوحة للتائـــبين بعد كل ضلال. إن الله للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلـــك وأصـــلحوا، إن الله من بعدها لغفور رحيم. والحق ألا يستيئس دعاة الحق من رسوخ الباطل وتمادي ممارسته، بل أن يمضوا يعالجونه بالتذكير توكلاً على الله التواب الرحيم.

كانـــت سنة الحق التي اعتراها التبديل عائدة أصولها إلى ملة إبراهيم أبـــي العرب وبـــني إسرائيل. فقد كان هو أمة وقدوة برزت في بيئة الشرك التي سادت في أرض الله الوســطى الـــتي كـــان فيها مهاجراً سائحاً. وكان شاكراً لأنعم الله لا كمثال القرية الكافرة الذي تمثّل في ذريته خلفاً: فقد كان في بلاء فهاجر وصبر إذ أنجاه الله من النار الـــتي أعدها له قومه الأُوَل، وكان كبير العمر في عزلته فدعا ربه فآتاه ولداً وحفيداً، وكـــان في ديـــنه غـــريباً فبسط هديه في بلاد. هكذا آتاه الله في الدنيا حسنةً وهو في الآخـــرة مـــن الصالحين، لأن سنة الله أن يجعل عاقبة الذين صبروا وأحسنوا في الدنيا حـــسنة مهما يتعسّر أمرهم ويضؤل رجاؤهم وفي الآخرة خيراً وأصلح. وقد جعل الله إبـــراهيم إمامـــاً للـــناس في ملة الحق، ودعا هو لذريته الخلافة ولكن عهد الله لا ينال الظـــالمين. فـــإن ضيعت ذريته من العرب ملته الحنيفية فقد بعث الله فيهم – استجابة لدعـــوته هـــو – الرســـولَ الخاتم ﷺ وأوصاه أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المـــشركين كما صار إليه بعض خلفه في أم القرى وحولها. أما ذريته من يعقوب فقد تعاقب عليهم الأنبياء منهم يجددون التذكير بالحق لكن كانت تغلب فيهم أحياناً الفتنة في الـــدين يفسقون فيجعل الله عليهم توقير يوم السبت إصر عقاب ويختلفون ويفرقون دينهم شيعاً حمية قديمة ضد كل تجديد حق إذ جاءهم منهم عيسى يدفع الآصار المحرمة ويُحـــق الـــدين المـــصدِّق لأصوله الماضية ويُبشر ببقائه في رسالة خاتمة خالدة. ولكن الخـــلاف ثـــار واستمر حول يوم السبت، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يخـــتلفون. وسابقة وحدة المؤمنين بالدين الحق قد تليها خالفة تفرق واختلاف. وتلك علـــة يُبتلـــى بها سير ملل الدين جميعاً – أن قد تحمى عصبية الطوائف ويشتد الخلاف

بيـــنها حمـــية وفتناً وحروباً، مما يستعصي على أن يدركه تجديد التذكير بأصول الحق الواحدة التي تتوالى البلاءات عليها وتسري محفوظة متواصلة.

إن الدعوة للدين الحق المتجدد مهما تحيط بها ظروف بلاء ينبغي أن يثبت قدمها وتـــسكن طمأنينـــتها لا تستفزها شدة إعراض أهل القديم الذي ضل بل تحفظ المنهج الأقـــوم في خطابها. فالوصية للرسول الخاتم ﷺ – وكذلك هي للدعاة على سنته متى خلفـــوا وحيثما كانوا – أن يجاوب وطأة الفتنة من أمة الخطاب بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة التي تنـــزّل أصول الحق والهدى بالحيث الأنسب لواقع البلاء والكيف الأوفق لإرشـــاد الضالين، وبالموعظة الحسنة في منهج البلاغ مهما يبلغ إلحاح الحاجة للتذكير والإصـــلاح وبالكلمة الحسنة نذارة وبشارة بما يؤلف القلوب. ولا مجال للدعوة مهما يقم في وجهها إعراض وحجاج إلا أن تلتزم الجدال بالتي هي أحسن ولو عنُفت مقالة المعرضـــين مـــن رؤيـــة حظر على سائر أهوائهم في الدنيا ومعهود عصبياتهم من وقع الدعـــوة. إن الله مهمـــا يخـــتلف المخاطـــبون بالحق بين الضلال المتمادي والاهتداء المـــستجيب هـــو أعلـــم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين، يخلّي الضالين على مـــشيئتهم ليحقّ عليهم السؤال ويثبّت المهتدين. وليصبر الدعاة فإن الدين المنتشر على بـــساط خـــيرة مشيئة العباد في حكمة ولطف يُثمر مؤمنين راشدين خالصين ولو بعد حـــين. وإن طرأت على المؤمنين الدعاة بالحسنى دواعي اضطرهم أن يدافعوا فيعاقبوا الأذى عليهم من قوى الإعراض فليعاقبوا بمثل ما عوقبوا به رد فعل على دعوقم الغريبة الـــتي تثير إنكاراً وحمية للمعهود قد تذهب فرطاً. ولئن صبر الدعاة وعفوا عن الأذى كذلك خير للصابرين إن لم يبدُ لأول نهضة الدين المتجدد فهو واعد. وذلك هدى عام لمنهج الدعوة للإسلام إن تعرضت لبلاء فتنة وحالات تدعو ملحة للمدافعة: إن الصبر خير وأثمر وينبغي ألا يُفتن المهتدون أبداً عن التقوى تجاوزاً لحد التعامل بالمثل، والوصية للرســـول ولخلفـــه الـــدعاة على سنته جميعاً أن يؤثروا التي هي خير، وما صبرهم إلا الاســـتعانة بالله وكيلاً يتولاهم عصمةً من أن تبلغ بهم الفتنة استئصالاً، ومداً لدعوتهم بمباركة آثارها وصدقاً لبشراه تعالى بعاقبة الدار وأجر الصابرين بغير حساب. وعليهم ألا يحزنوا على أمة خطابهم ولو كانوا قوماً لهم يحرصون على اهتدائهم نجاةً من مصائر

سوء العواقب، وألا يمس المهتدين ضيق بالغ ولو بدت لهم نذر مكر الحملة على الدين ومخاوف تطورها حتى تبلغ دركاً من الظلم، فالحق الذي ينبغي ألا تغمره مخاوف الكيد أن الله مـــع الذين اتقوا الجهالة الكافرة وخرجوا من ظلماتها إلى هدى نوره والذين هم محـــسنون مرتقون في سيرهم على الهدى إلى مدارج الإحسان والزلفى إليه تعالى والياً وناصراً.

سورة الإسراء

السورة وخلاصة هديها:

سورة 'الإسراء' هي السابعة عشرة في الكتاب، وهي مكية النـــزول بعد سورة 'القـــصص' في أواخـــر العهد المكي حين امتدت ظاهرة الإسلام فاشتدت وطأة الفتنة علـــى المـــسلمين من المشركين وتطاولت مناهِزةً اثنتي عشرة سنة، هاجر بعضهم إلى الحبـــشة وبقي سائرهم صابرين فجاءت رؤيا الإسراء تثبّت الرسول وإياهم تذكرهم بمـــثال مـــا جرى لبني إسرائيل المؤمنين إذ أدركتهم رحمة الله بهجرة في الأرض تحوّل بعـــدها بلاؤهـــم من الاستضعاف بجبروت فرعون وقومه إلى العزة والمتاع في الأرض المـــباركة. فكانـــت السورة بشرى بهجرة قادمة إلى أرض تمكُّنٍ وباكورة عظة بما وقع لخلف بني إسرائيل من ضراء بدواعي فتنة السلطان. ولذلك سميت السورة أيضاً بسورة بـــني إسرائيل، إذ شُهرت بالفتنة التي أثارها في مكة ما تصدرها ذكره من رؤيا الإسراء بالرسول إلى أرض بني إسرائيل. وقد أصبح النبـــي يحكي للناس ما رأى من الآيات في رؤيـــاه – كمـــا هو معهود في فعل الناس لاسيما إن جرت لهم رؤى ذات واقع من مخـــيلات المـــشاهد وراء مكانهم وزمانهم ومن مغازي تعبير للرؤيا مبشرة. ولم يرض الـــسواد الأعظـــم غير المؤمن من أهل مكة أمة خطاب النبـــي التي كانت تنكر له نبأ الوحـــي المتنـــــزل إليه وتظنه افتراء أو إلقاء جن – لم يرضوا الرؤيا التي تُعزز صلته بالغـــيب وتمده بالبشريات. ولم تكن الرؤيا آية معجزة ذهاباً بشخص الرسول في ليل واحد إلى ذلك المكان البعيد، ولا استجابة لطلب المخاطبين المتوالي بواقعة مادية معجزة

تـــصدّق تلقي الرسول من الغيب مداً من قوة الله الذي يصرّف الأقدار، ففي السورة بـــيان صــــريح أن الله بــــدّل في الرسالة الخاتمة تلك السُنة التي جرت في سير الأنبياء الـــسالفين، وفي سائر القرآن تأكيد لصرف تلك الآيات التي لم تكن مُغنية إلا أن تُحق عاقـــبة هلاك ناجز. وإنما كانت رؤيا منام. ورؤى الذين اصطفاهم الله كانت أمراً منه تعـــالى يتأهلون بها لتلقي وحي الغيب وأصبحوا تأتيهم بعد النبوة وهي أصدق بشرى تأويل من سائر الرؤى التي تقع للناس وقد تكون لبعضهم أضغاثاً من مخيلات الأحلام تصاوير لتمنيات النفوس أو مخاوفها. فمن الرؤى الصادقة رؤيا إبراهيم عليه السلام بعد هجـــرت وعـــزلته فقد صدّقها هو وابنه وأسلما لمقتضاها طاعة بالغة أشد المعسرة أن يـــذبح ابنه لولا أن تداركهما الله بفدي بعد أن جازوا البلاء العظيم، وأصبحت عيداً لخلَفـــه في ملـــة الإسلام يجددون بها كل عام سنة الطاعة لوجه الله ولو عظم وقعها. ومـــنها رؤيا يوسف التي صدَق تأويلُها نبوة له فاضلة ورقياً في حياته من بلاءات كيد متوالـــية من ذات المأمن إلى عزة وملك وخير لإسرائيل هجرةً إلى مصر. فرؤيا الإسراء كتلك الرؤى - كلها تتصادق بشرى هجرة وذكر في الآخرين.

لكن الأحاديث التي يرويها جمهور من المسلمين تحكي الرؤيا التي يذكرها القرآن كـــذلك نصاً كأنها إسراء لشخص الرسول ورؤية عين من الآيات حول بيت المقدس. وهـــم يغمرون الرواية الحق للرؤيا حتى من زوجة الرسول - التي لم تشهد عهد الأمر كمـــا لم يشهده رواة آخرون لكنها أقرب لأن تسمع من الرسول قصة الحق كلما تلا الـــسورة وجـــاء ذكرها. والبيّن من صور الروايات أنها رؤيا، فالحيوان المذكور يشبه المعهود من المركوبات لكنه يُتصور في الرؤيا كأنه يطوي المكان، وصلاة النبـــي إماماً للمرســـلين جمـــيعاً هو ما لا يقع حدثاً لأنهم ماتوا و لم يبعثوا أجلاً قبل الساعة ليلقاهم أحياء وإنما هي مخيلة مغزاها أن رسالته تصديق وتمام لهديهم جميعاً بها يخلُد الدين إمامة للعـــالمين. والمعهـــود في الرؤى أنها تطوي المكان مباشرة والزمان لقاءً لمن ماتوا. ولعل المسلمين يريدون للنبـــي ﷺ آية أشد خرقاً لمطبوع الأسباب مما سبق من آيات معجزة في سيَر النبيين، وذلك نـــزعاً في حب النبـــي وغيرة له لأنه يليهم وهم في خلاف مع أهـــل الكتاب يودون أن يُعلوه على العالمين، وليجعلوا للنبـــي قربى أدنى إلى الله منهم

جميعاً حتى موسى الذي كلمه الله أضافوا للإسراء ما يسمونه معراجاً لله في السماوات العلى. والقرآن ذكر تكليم الله موسى لأكثر من مرة و لم يذكر معراجاً للرسول الخاتم إلـــيه تعـــالى أمـــراً أخطر من تكليم موسى في الطور. وإنما اختص موسى بذلك وما تيـــسرت له رؤية عين الله إن رجاها لأن الله سبحانه أن يكون ذاتاً مادياً ينعكس منها ضوء الشمس لتقع في أعين البشر، إلا بعد البعث إذ تتبدل السماوات والأرض ويتبدل إدراك الإنسان ويرجع إلى مثل ما كان أبوه آدم في الأزل بمثل طبع الملائكة. والغريب أن المـــسلمين يذكرون عن المعراج رؤية الله عياناً من الرسول، ويجعلون للرسول توقيراً أن يُـــراجع الله مـــرات ذاهباً آيباً ليخفف عد الصلاة على لمؤمنين. ويستعين المفترون بـــصدر ســـورة الـــنجم الذي ما هو إلا تأكيد للقاء جبريل عياناً متوالياً وتلقي وحي القرآن منه صدقاً لا افتراء عن هوى من النبـــي ولا من جن. أما الصلاة فهي ذكر الله مكتوب من قبل الإسراء ومن قبل هذه السورة التي ذُكرت فيها لها مواقيت ثلاثة مثل غيرهـــا والتي ذكرت أركانها في سائر القرآن، وإنما بيّن الرسول بسنته تفصيل الأوقات لـــتُؤدى عبرها الصلاة خمس شعائر، وتكاملت الصلاة المقامة بكل مسنوناتها بالقرآن الكريم وبالسنة عبر مكث من العهد، وبقيت الصلاة المقامة شعيرة متكاملة بل قربى لله ذكراً ودعاء سنةً عبر كل حياة المؤمنين. والصلاة كانت وصية لازمت كل الأنبياء منذ أول عهـــدهم لا بعـــد عشرة أعوام من بعثتهم. وقد مضى المسلمون برواية أحاديث ليحيطوا النبـــي بنواح كثيرة بآيات إعجاز ترفع قدره وتدّعي له قوى غيبية، وهو بأمر القـــرآن المتواتر ينفي لنفسه علماً أو قوى غيبية. والمعجزات المدّعاة سوى أنها تخالف هدي القرآن وتفرط أحياناً به في الغيب صعداً، لا مغزى لها في حق دعوته ولا في قدر فـــضل مـــثاله قدوة للمؤمنين ووقعِ جهاده في أرض العالم حيث تبدلت سِيَر الأقوام وأحـــوالهم لا بأمـــره بل بهدي الله وقدره. وتفاضل الأنبياء والمرسلين إنما هو في درج مقامهم عند الله خاصة فالله أعلم بذلك، والمؤمنون لا يفرقون كثيراً بين الرسل ووصية النبـــي ألا نطريه ولا نفضّله على بعضهم كما يفعل بعض أتباعهم، وإنما التفاضل فيما يتمايـــزون بـــه لدواعي إيقاع الحق في سياق خطابهم. فدعوة الرسول الخاتم ﷺ أبلغ توحـــيداً للحياة على نهج الهدى والعبادة، ولذلك كانت سيرته تعبيراً عن القرآن بكل

هديـــه في شتى شعاب الحياة مصوبة لوجه الله، وكانت أسوة لكل مؤمن أن يقارب ما بلـــغ هو من درج الإحسان ويتعرض لما اعتراه بشراً من خطأ فمتاب لله وكانت آياته فـــيما حمل من القرآن الخالد خطاباً للحاضرين والخالفين لا أفعال مشهودة منه معجزة ولا في أقـــوال غيب سوى القرآن، مما وقع من بعض سالف الرسل وكان صوباً على الحاضرين وحسب وقد لا يُغني داعياً لإيمانهم.

السورة في عموم هديها تسبيح لله وإحقاق لتوحيده معبوداً محموداً وهادياً وجازياً وإبطال للإشراك به من دونه وكيلاً. وفيها ذكر رسائل الوحي التي أنـــزلها على عباده زبوراً لداود وكتاباً لموسى وقرآناً جاء هدى ورحمة للمؤمنين، ونذيراً لا يزيد المكذبين بـــه إلا خساراً، وتذكرة لأهل الكتاب يعرفونه حقاً وله يسجدون. وفي السورة ذكر لبني إسرائيل إذ أُنذروا بكتابهم من الفساد والعلو فوالوا السيئة مرتين فوالاهم العقاب، ومضت بذلك العظة في سيرة الحياة الدنيا والآخرة. وذكر لفرعون الذي كذّب الآيات وظن موسى مسحوراً واستفز بني إسرائيل ليخرجهم من الأرض فأغرقه الله وأسكنهم أرضـــاً. وكان ذلك الذكر عبرة للرسول الخاتم الذي كان المشركون يرمونه بالسحر وغـــيره حيناً ويوادّونه ليركن إليهم حيناً ويستفزونه لإخراجه حيناً. والله يثبّته ويبشره ويوصـــيه بمجادلتهم بالحسنى ومواصلة الصلاة والذكر لله استعانة وتزكياً. وفي السورة ذكـــر لتكـــريم بني آدم إذ سجدت الملائكة لأبيهم، ولما أبى الشيطان وتعهد إضلالهم آتـــاهم الله حـــصانة من سلطانه لمن شاء. وفي السورة طبع الإنسان في الدنيا – إن لم يؤمن ينفتن بعاجلها ويغفل عن نعم الله المبسوطة فيها إلا إذا أصابه خطر الهلاك. وفيها أن الله يـــذر عباده يعمل كلٌ على شاكلته وهو أعلم بهم يتولى جزاءهم. وفي السورة الحـــق في مساءلة الإنسان: لكلٍ كسبه معلوم مكتوب وعلى كلٍ وزره وحده ولا يحق عليه عذاب إلا إذا سبق النذير. وفي السورة ذكر لآيات الله المشهودة الدوارة في الكون نعمة على الإنسان، وذكر للآيات المعجزة التي نـــزلها الله قديماً تعزيزاً لتصديق الرسل وبلاغهـــم من الغيب لكن كذّب بها الأولون فحق عليهم الهلاك. وفيها أنه مهما تكفر أمة الخطاب للرسول الخاتم بالغيب- توحيد الله أو إيماناً بالبعث والآخرة أو تطلب من الرســـول وقائـــع خارقات للطبيعة وظاهرات من الغيب فإن خطابهم ليس إلا بآيات

القـــرآن – فيها حجة الحق وفيها الفوز لكنهم يعرضون. وفي القرآن تفصيل هدايات لتوحيد الله ولخير الخلق في علاقات حياة المؤمنين إذ يبتغون الآخرة ويسعون لها مؤمنين بـــدرجات فـــضلهم فيها. وفي السورة ختاماً الوصية بدعاء الله الرحمن بأسمائه الحسنى وحمـــده وتوحيده. وفي السورة وفاق اسمها ذكر عارض مرتين لرؤيا الإسراء بالرسول إلى المسجد الأقصى.

مفتـــتح الـــسورة: سبحان الذي أسرى، نـــزاهة عن أن يُماثل معهودات الشرك القاصـــرة، تتجلى آيات تسبيحه فيما أقيم عليه المسجد الحرام المشهود لعبده الرسول الـــذي أسرى به رؤيا ليلاً ليُريه أيضاً الآيات التي أسس عليها المسجد الأقصى، بتلك الآيات المشهودة والمرئية يُعزز الله هدي آيات التوحيد الموحاة في القرآن ليثبته وهو في حالـــة الابـــتلاء خصاماً وأذى من المشركين، إنه سبحانه هو السميع البصير بها. وقد كانـــت الرؤيا فتنة للناس الذين لا يصدقون الرسول في الوحي الذي يتلوه عليهم من الغيب ولا في صلواته في المسجد الحرام شاهداً على أمانة بلاغه فأنّى يصدقونه في رؤيا يـــسمعونها منه مزاراً له ومصلى في مسجد بعيد. سبحان الله الذي لا يعجزه أن يحفظ بـــيوتاً عمّـــرها لعبادته وحده المؤمنون المتعاقبون. وإن المشركين الذين ورثوا المسجد الحـــرام قـــد ضـــيعّوا ذكرى التوحيد فيه و لم يتبق فيهم من علم الغيب الحق إلا ذكر الملائكـــة جعلوها لله شركاء أولياء لهم من دونه، وهم لا يملكون درء الضر عنهم ولا تحـــويل حـــالهم إلى صـــلاح. ويرمزون للملائكة بأصنام يسمونها تسمية الأنثى لأنهم يحسبون الملائكة بنات الله في السماء – أفيكةً عظيمة لقوم يصطفون هم لأنفسهم من الـــولد الذكـــور. والله غنيٌ له ما في السماوات والأرض ومن فيها، ولو كان في تلك الكائـــنات آلهـــةٌ إلاّ الله لابتغوا إليه سبيلاً يضارعون كماله المطلق ويشاركون ملكه المحـــيط. بـــل كل تلك المخلوقات تنطق بحالها أو لسانها مسبحة شاهدة بوحدانية الله ولكن المشركين لا يرون الآيات ولا يفقهون التسبيح. سبحانه وتعالى عما يقولون من مفتريات ظنون الشرك، لكنه كان حليماً غفوراً لعباده، ماضياً فيهم قَدَرهُ أن يمد لهم في الحـــياة الدنيا مهما يشاءون فيها من مذهب. إن الحق ألا يعبد بنو الإنسان إلا الله فلا صـــلاح لهـــم ولا هدى في مسير حياتهم من دونه بل هم في مضلّة مذمة وخذلان ولا

مــصير لهــم في آخــرتهم إلا اللوم والدحور. فهو الذي كرّمهم وجعل لهم في إطار الــسماوات والأرض دورة اللــيل والنهار لابتغاء فضله معاشاً وليعلموا عدد السنين والحساب المتناهي فيتزودوا دون الموت لأجل الآخرة، وهو الذي رزقهم من الطيبات يبــسط لهــم ويقدّر خبيراً بصيراً بكسبهم في تقلب ذلك البلاء. وهو الذي جعل لهم البحــر وسخر فيه الفلك لابتغاء فضله وينجيهم من مخاطر البحر. لكنهم يَغشاهم طبع الإنسان الغافلِ عن النعم المبسوطة المعتادة لا يذكر فيها الله حامداً الحريصِ على حياته المذّكّر الله إن مسه الضر في البحر المُعرِض المرتد إلى غفلته بعد النجاة. ولو أنهم تذكروا أن أقدار الله تحيط بهم حيثما كانوا وتأخذهم ولو كانوا في مأمن، خسفاً في بر الأرض بعد السلامة من البحر أو عاصفاً فيه حاصباً لا حافظ لهم من مهلكته، أو – إن ردهم الحاجــة إلى البحر – قاصفاً يغرقهم بما كفروا بنعماء الله الموصولة ثم لا يجدون من يردّ لهــم من الله حقاً. والله هو الذي يوحي إلى عباده الهدى من الغيب في مسالك الحياة، يُنــــزل علــيهم الكتاب الذي لا يأتي بمثله أحدٌ رحمة منه وفضلاً كبيراً على رسوله وهــدى للمؤمــنين كما أوحى إلى المرسلين من قبل. وهو الذي يفصّل لهم الهدى في ذلك الكتاب تفصيلاً، يُوحي إليهم الحكمة وبيان المناهي والتقوى في علاقات حياتهم مع الوالدين والأقربين وذوي الحاجة وفي حرمة النفس وزوجية الذكر والأنثى ورعاية اليتامى بأمانة وحفظ العهود والموازين والتبيّن والوقار في مسعاهم وطهورهم في الحياة. وهو الأعلم بما في نفوسهم إن اختلفوا بين مهتدين وضالين يمدهم في خيارهم ثم يحكم بيــنهم بعــد الابتلاء يرحم مَن يُصلح ويؤاخذ مَن يُفسد ويمد لهم في الدنيا وعطائها للعجــولين المفــتونين وفي الآخرة لمن ابتغاها بسعيه مؤمناً. وهو الذي يتولى حسابهم وجــزاءهم في الدنــيا والآخرة، معاجلاً أو مؤجّلاً، لا يُعذّب إلاّ بعد نذير وكلٌ يلقى كتابه يوم القيامة ويحمل تبعة كسبه فرداً. فينبغي للمؤمنين أن يداوموا ذكر الله بموالاة إقامة الصلاة عبر أوقات يومهم وإلقاء الدعاء بكل أسمائه الحسنى وكلمات الحق الغالب وتحايا الحمد والتوحيد لله تعالى وتذكُّرِه واحداً غنياً ما له من ولد ملكاً قيوماً ما له من شريك علياً عزيزاً ما له من شريك فوقه وتكبيره من كل حيث تعبّدٍ أو طاعة أو رجاء أو خشية تكبيراً على كل ما يكبر في النفوس سواه.

أن الله يـــتعهد عـــباده برسالات الهدى الموحاة من الغيب يُنبئهم بالحق في أمور الغـــيب لـــيعلموا أن قد خلقهم وكرمهم منذ أبيهم آدم في الأزل، إذ أمر الملائكة أن يسجدوا له فأطاعوا، وما الملائكة إلا خلق الله يزدلفون إليه بالعبادة أيهم أقرب يرجون رحمته ويخافون عذابه المحذور. ومن طاعتهم لله في شأن الإنسان هم يُنـــزلون رسالات الوحي إلى الأنبياء البشر وأوامرَ قدره في أيد المؤمنين أو أخذ الظالمين أو رقابة العباد أو توفّيهم، فهم جند الله ما هم بآلهة. وشذ إبليس عن طاعة الله في السجود للإنسان بل أبى مستكبراً أن يكون مولى لمخلوق من طين، ولما أخّر الله جزاءه إلى يوم الدين أبدى عـــداءه للإنسان وعزمه أن يحيط به إغواءً وغروراً، والله –الذي بسط بقضائه له بوح المـــشيئة والـــبلاء حتى يأتي يوم العقاب كما قضى للإنسان – تركه يأتي بني الإنسان بوساوســـه ويحمـــل عليهم بضواغطه ويشاركهم في فتنة هوى الأموال والأولاد وأن يعدهم غروراً، بيد أنه لا سلطان له على مَن شاء منهم أن يجاهده متعبداً ومتوكلاً على ربـــه. ومن أنباء الغيب التي يتنـــزل بها الوحي على العباد حقٌّ قيام الساعة أجلاً ليوم الـــدين لا ريب فيه. والمشركون المفتونون بالمشهود يتخذون بالظنون آلهةً دون الله في الغيب، ويكفرون كذلك بالحياة الآخرة لأنهم يستحيلون البعث بعد الموتِ والصيرورةِ عظاماً ورفاتاً في التراب. ولكن الله مخرجهم من الأرض ولو تحولت أجسادهم حجارةً أو حديـــداً. ذلك أنه فطرهم أول مرة من تراب فعودُ خلقهم أهون عليه بل أنه فطر الخلـــق الأكبر –السماوات والأرض، فهو قادر على أن يخلق مثلهم. فهم يوم الساعة مـــستجيبون لدعـــوته تعـــالى منبعثين يعرفون عندئذ حمد الله وقدرته وصدق وعده. ويستحيل الكافرون بالغيب أجل الساعة ويسألون: متى هو؟ وما يعلم أمدَ الدنيا وأجل الآخـــرة إلا الله، فالجواب الحق لهم: أن عسى أن يكون قريباً، وينبغي للمرء أن يجتهد مكاثـــراً تـــزوده وإعداده للآخرة دون تسويف ومطل قبل أن يأتيه الموت المسنون أو تباغته الساعة. وذلك هو يوم الحساب إذ يُدعى كل أناس بكتابهم من حيث كانوا أمة يـــتماثل كـــسبهم فحـــشروا معاً فمن أُوتي كتابه باليمين فلا يظلمون فتيلاً في الجزاء بأحـــسن أعمـــالهم ولـــو لم يوفَّ إليهم قبلاً إذ كانوا يبتغون الآخرة في حياتهم الدنيا ويسعون لها مؤمنين، فلهم فيها درجات فضل كبير. وأما من كان في الدنيا أعمى عن

الهدى فمهما يمد الله لهم من عطاء الدنيا العاجل الذي يبغون، هم في الآخرة يسحبون على وجوههم عمين وأضل سبيلاً عن المأوى الحسن، مثواهم جهنم التي جعل الله للظالمين وللذين كذبوا بآياته حصيراً كلما خبت نارها زادهم الله سعيراً، وكذلك مصير الذين أشركوا بعبادة الله يُلقون فيها ملومين مدحورين كما كانت حياتهم الدنيا مذمومين مخذولين بغير صلاح ولا هدى.

إن الله الذي ابتلى عباده بالحياة الأولى التي يفتنهم فيها المشهودُ محجوبين عن الغيب ليجزيهم وفاق كسبهم فيها بعد البعث في الآخرة، يتعهّدهم بالوحي رسالةً لهم من الغيب يتلقاها رسل منهم ليبيّنوا هداها دعوة وسنة وليبلّغوا دوافع الإيمان بها بشارةً للمؤمنين ونذارة للكافرين. وقد كان منهم نوح عليه السلام الذي كان عبداً لله شكورا لاسيما في عاقب حياته إذ أنجاه الله والذين آمنوا في الفلك من كيد الظالمين والطوفان الذي أغرقهم. ومن الرسل موسى عليه السلام الذي آتاه الله الكتاب هدى لبني إسرائيل ألا يتخذوا من دونه تعالى وكيلاً. وقد أنذرهم الله فيه أنهم ما هم بشاكرين لله الذي نجاهم من البلاء ومكّنهم في الأرض بل هم مفسدون في الأرض ومتعالون علواً كبيراً مرتين. فلْيتذكّر خلفهم كيف كانت العاقبة النافذة لأولى فعلتهم تلك أن بعث الله عليهم عباداً له أولي بأس شديد جاسوا خلال ديارهم. ثم كيف ردّ الكرة لهم أموالاً وبنين ونفيراً لكنهم ارتدوا مفسدين متعالين مرة أخرى فأخذهم مَن دخل عليهم مسجدهم الحرام وتبر ما علا تتبيراً. كانت تلك السيرة عبرةً لهم عسى الله أن يواليهم برحمته لكن إن عادوا عاد عليهم العقاب الآجل قبل جزاء جهنم في الآخرة. وكان الله لذلك الخلَف بعد موسى قد بعث فيهم داود رسولاً بنى المسجد وآتاه الله زبوراً وعظاً لهم دون فتنة المتاع والسلطان التي سبق بها النذير. وبعث الله خاتم المرسلين ﷺ وآتاه الله هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم بشيراً للمؤمنين ونذيراً من العذاب للذين لا يؤمنون بالآخرة مفتونين عجولين يأخذون الأمورَ ببادي الرأي والحياةَ الدنيا بحاضرها فيدعون بالشر يحسبونه خيراً لا يحتسبون دبره وعاقبته شراً ويتمتعون بزمان الحياة لا يقدّرون حسبان مروره أنهم يبتلون به ماضياً بهم إلى أجل الأزل والآخرة. والقرآن يفصّل الحق والهدى تفصيلاً. يبين لهم الحق في موازين سؤال الله أو حسابه وجزائه

العادل في عاجل الدنيا ويوم الدين في الدار الآخرة ويعلّمهم الهدى فيما قضي لهم أصلاً لــسيرة الحــياة ألاّ يعبدوا إلا الله ثم تقوى فيها أن يحسنوا للوالدين لاسيما إذا أصابهم الكــبر ونــالهم منهما حرج فلا يُلقون عليهم تعبير غضب بل يذلون لها ويدعون لهما بالــرحمة جزاءَ تربيتِهم صغاراً ويؤولون إلى البر بهما مهما تغشاهم دواعي إعراض في النفوس فالله العليم بذلك غفورٌ للأوابين. وعلى العبد المؤمن بوصايا القرآن المفصّلة أن يــؤتي ذا القربى حقه من الإنفاق والمسكين وابن السبيل ولا يصرف فضل ماله تبذيراً لنفــسه وترفاً فتلك نــزعة شيطان كفور برحمة الله، وعليه إن أعرض عن ذي الحاجة ينتظــر رحمة فضل رزق لّما تنبسط له أن يقول له قولاً معروفاً. وألا يقبض يده شحاً وبخــلاً ولا يبــسط الــصرف بإيغال لئلا ينتهي ملوماً محسوراً، فإن الله يبسط الرزق ويقــدِره ابــتلاء لعباده خبيراً بما يفعلون بصيراً. وعلى المؤمنين ألا يقتلوا الولد خشية إملاقٍ فذلك خطأ كبير فالله رازق أولادهم وإياهم جميعاً، وألاّ يقربوا الزنا فيقعوا فيه إنــه فاحــشة ســاءت سبيلاً وإنما السبيل القويم بين الذكور والإناث الزواج المشهر المــشروع، وألاّ يقــتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق نفساً بنفس، ومن قُتل مظلوماً فلولــيه ســلطان نصرٍ في قصاص أو ديّة أو عفو فلا يمضي مسرفاً في القتل ثأراً، وألاّ يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشُدّه وأن يفوا بالعهد ولا ينكثوا فذلك مسئول عنه، وألا يطففوا المكيال والميزان بل يوفوا القسطاس المستقيم فهو خير تأويلاً لمعــاملاتهم وآخرتهم. وعلى المرء ألاّ يتبع ما ليس له به علم بل يتبيّن مسيره بما آتاه الله مــن حواس الإدراك والعلم سمعاً وبصراً وفؤاداً فكل ذلك هو مسئول عنه، وألاّ يمشي في الأرض مرحاً فلن يبلغ ما يبتغي تعززاً وتطاولاً. كل تلك سيئات مكروهة عند الله الذي يوحي الحكمة في شأنها إلى رسوله ليبلّغها سائر العباد. وعليهم إن لم يقبلوا على مسلك في الحياة بإشراك الله ألا يفرغوا منه بإشراك.

والقــرآن صــرّف كــثيراً من الآيات هدى لمن يؤمن بالغيب ولكن كثيراً من المخاطبين المشركين يأبون إلا نفوراً منها لا يتلقونها ولا يفقهونها، حجاباً جعله لهم الله لإعراضــهم غير مؤمنين بالغيب وبحياة أخرى، وكلما ذكر فيها التوحيد ولّوا نفوراً. وهم لا يستمعون لشيء من القرآن ولا يتناجون حوله إلا أن يقولوا للذين يُقبلون عليه

إنهـــم لا يتبعون إلا رجلاً مسحوراً، بل يضربون له الأمثال مرمياً بكل بهتان في صدق بلاغه القرآن. وهم لا يسمعون ذكر الساعة إلا ذهبوا يُنكرون البعث لاستحالته ليتلقوا جواب الحق الفاحم. ومهما تكن المجادلات فلْيوصِ الرسول عباد الله أن يقولوا التي هي أحسن، ألاّ يذهبوا يرمي بعضهم بعضاً بسيئ الظنون فذلك الشيطان ينـــزغ في ذات بينهم. والرسول الداعي ينبغي أن يذرهم، ربهم هو أعلم بهم إن يشأ يرحمهم وإن يشأ يعـــذبهم، ومـــا أُرسل هو عليهم وكيلاً، فربه أعلم بمن في السماوات والأرض جميعاً وحـــتى النبيين فضّل بعضهم على بعض علماً بما تقتضيه بلاءات أمة الخطاب ليُعدّ لهم نبيّاً رسولاً، فقد فضل داود على كثير من أنبياء بني إسرائيل وآتاه الله زبور وعظٍ لازم.

إن في القـــرآن دعوة هدى وبلاغ نذيرٍ للذين أشركوا من عاجل العواقب وآجلها، عظـــةً بنـــبأ الذين من قبلهم من قرى وقع عليها الهلاك قبل يوم القيامة أو العذاب الشديد المقـــدر عليهم إذ كذبوا الدعوة والبلاغ وطلبوا آياتٍ معجزة وقائع مادية مصدّقة للوحي لكفـــرهم بالغـــيب واستُجيب لهم منذَرين أن لو تمادوا في الكفر فإن العقاب حاقٌّ عليهم. ومنها ثمود الذين أوتوا آية الناقة مبصرةً وحُذروا ألاّ يمسوها ولكنهم عقروها وعتوا عن أمر ربهم غير مبالين فهلكوا. ولقد أوتي موسى تسع آيات بصائر وقائع على غير الطبع المعهود فعلاً من موسى أو مصائب على قوم فرعون. فما آمن فرعون بها بل ظن موسى مسحوراً فأنـــذره موســـى أنه ليظنّه مثبوراً فأراد أن يستفز بني إسرائيل من الأرض فيؤمّن سلطانه فأغـــرقه الله في البحر الذي فَرَقه ليهاجر عَبره بنو إسرائيل إلى أرض مباركة رجاءَ الآخرة الـــتي تجمع كلاً لفيفاً. وكذلك بان للخالفين ممن يُخاطبون بدعوة الحق أن الآيات المعجزة وقائـــع مادية تخرق ما يعهدون من طبع الأشياء دليلاً على قوة غيبية وراء رسالة الوحي لا تغـــني فـــيهم إذ لا يستجيبون بإيقاع تلك الآيات بل يتمادون فيما كانوا فيه ويحق عليهم العقاب الناجز. ولذلك قُصر الترهيب لأمة الخطاب بالرسالة الخاتمة بآيات القرآن، فيها ما يـــصدّهم عن الكيد للرسول إذ تقول له آيات إن ربه أحاط بالناس ليعصمه منهم وإذ يريه رؤيـــا الإسراء الصادقة في وصف المسجد الأقصى ابتلاءً للناس أن يصدّقوه ويعزروه، وفيها مـــا ينبـــئهم بالشجرة الملعونة في أصل الجحيم جزاءً للظالمين، ولكنهم كانوا يعرفون تلك الآيات ولا يزيدهم الصد والتخويف إلا طغياناً كبيراً بما يغويهم الشيطان.

إن المشركين لا يؤمنون بالغيب ولا بتوحيد الله ولا بالآخرة بل يجادلون في آيات القرآن، وإنهم لا يكفّون عن رمي الرسول الذي يبلّغ القرآن بالظنون. ثم ذهبوا يحاولون حتى قاربوا فتنة الرسول عن الذي أُوحي إليه ليفتري على الله ما يُرضيهم وإذاً لاتخذوه خليلاً. ولكن الله يُذّكره بأنه مثبّتهُ ألا يركن إليهم وأن لو جرى ذلك لأذاقه ضِعف العذاب العاجل والآجل لأنه رسولُ بلاغٍ تلزمه الأمانة البالغة وإمامُ هدى ينبغي أن يُقيم مثال الهدى. وإذ لم تغن الموادة والمداهنة لفتنة الرسول كادوا أن يستفزّوه ليخرجوه من أرض مكة. وجاءه البشير أنهم عندئذ لا يلبثون خلفه إلا قليلاً. إن الله منزل القرآن شفاءً من معهودات الظنون والأعراف ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً إذ لا يعرفون نعمة الله في هدي القرآن وسبق لهم فيها النذير. فهم يعرضون عن القرآن ويسألون عن الروح أمراً لا يعلمونه يَذكُره القرآن. وإنما الروح هي من أمر الله في دفع هدى القرآن ودفع المَلَك الذي يوحيه، ذلك علم غيب و لم يُؤتَوا هم من الغيب إلا قليلاً. ولولا إنعام الله على عباده بالهدى لذهب بالذي أوحى به إلى الرسول لا يجد دونه وكيلاً يأتيه بهدي مستقل، ولكنها رحمة من ربه وفضل كبير وهدى للمؤمنين. وإن أعرض أولئك وساءلوا في غريب قول القرآن فليعلموا أنه بيان شاهد على وحيه حقاً من الله، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون به ولو تظاهروا على ذلك لسانَ تعبيرٍ وبعض علم غيبيات. ولقد صرّف الله تذكيراً في آيات من كل مثل لإعجاز القرآن فأبى أكثر الناس إلا كفوراً. ما أغنت فيهم آية الحق في معاني القرآن وفي حروف كلمةَ ولا وعظتهم سوابق طلب الآيات المادية المعجزة التي كُذّبت بعد الاستجابة بإيقاعها وحق أن يعقب العذاب العاجل. فقالوا للرسول إنهم لن يؤمنوا بالقرآن إلا أن يأتيهم بآيات مشهودة تحملهم على تصديقه صادراً من قوة غيبية. طلبوا شرطاً لإيمانهم أن يُفجّر لهم من أرضهم القاحلة ينبوعاً أو يكون له فيها جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو يُسقط السماء عليهم كسفاً كما زعم ترهيباً لهم بالنذر أو يأتي منها بالله والملائكة قبيلاً كما أنذرهم بمشاهد قيام الساعة أو يكون له بيت من زخرف ليعظُم قدره بينهم بغير مجهود كسب أو يرقى في السماء مثلما يقولون عن الملائكة، ولن يؤمنوا لرقيّه حتى ينزل

إليهم كتاباً يقرأونه قرآناً. ولو كان من قَدَر الله المسنون أن يمشي الملائكة مطمئنين في الأرض لنـــزّل عليهم ملكاً رسولاً بالقرآن. وإنما على الرسول أن يجاوبهم أنه ليس إلا مكلـــف بالـــبلاغ وأداء الأمانة مما يحقّ به عليهم السؤال والجزاء، وأن كفى بالله بينه وبينهم شهيداً، مَن يُهدي بوحيه المنـــزل فذلك هو المهتدي حقاً ومن يضل فلا هداية لـــه مـــن الأولياء الذين يتخذهم المشركون من دون الله. إن الله أنـــزل القرآن فضل هـــدى كـــبير رحمة للرسول وللمؤمنين ويمدُّ للذين يكفرون بآياته رحمةً لهم وإن شاء عذبهم، ولو كانوا هم يملكون خزائن رحمة الله إذاً لأمسكوا خشية الإنفاق وما رحموا عاصياً، وكان الإنسان قتوراً والله هو العزيز الوهاب.

إن الله بأقـــدار رحمته بالحق أنـــزل القرآن علمَ غيبٍ وشهادة لعباده وهدى في حـــياتهم الأولى والآخرة، وبالحق نـــزل القرآنُ محفوظاً وحيهً وتلاوته ووقعه في الحياة. ومـــا أرسل الله الرسول إلا مبشراً ونذيراً يبلّغ بدوافع الإيمان بالحق رجاء وخشية وما هـــو وكيل عليه استجابةُ المخاطبين. وقرآناً - لا كسائر مقروءات البشر - فرّقه الله أوزاعـــاً من آيات وسور ليقرأه الرسول على الناس على مُكث من الأمد يبلغ عداً من ألأعـــوام ليتدرّج وقعُ أمانة هديه وحملُ مقتضاها لا يثقل عليهم جملة واحدة، ونـــزّله في سياق البلاءات والوقائع الدائبة والظروف والأسباب المتقلبة وصرّفه تنـــزيلاً منجّماً يحكـــم بالحـــق في كـــل حيثٍ وحين. وإنما على الرسول - ومن يخلفه حاملاً رسالة القـــرآن - أن يدعـــو المخاطبينَ أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا، فالله يذر الناس أنىّ تسوقهم مشيئتهم في مذاهب الحياة يعرفون نعمة الهدى من الله أو يُعرضون عنها كلٌّ يعمل على شـــاكلته والله أعلـــم بمـــن هو أهدى سبيلاً. وليستبشرْ هو ويذكّر من لم يعهدوا إلا الجاهلية أن الذين أوتوا العلم بوراثة الكتاب السابق يؤمنون بالقرآن شهداء على حقه، إذا تُلـــي عليهم مصدّقاً بما لديهم تضاعفت فيهم دواعي الإيمان به فيخرون سجداً لما قضى الله فيه من هدى ويقولون: سبحان ربهم الذي لا تضيع رسالة الحق منه ولو طال عهـــدها إنه كان وعده مفعولاً أن يجدد الرسالة يصدقها ويتمها برسالة خاتمة، وكلما سمعوا القرآن يخرون سجداً باكين ويزيدهم خشوعاً. والرسول- مبلغاً للقرآن ومجاهداً بـــه المـــشركين جهاداً كبيراً ومصابراً على مكرهم وكيدهم واستفزازهم- وإنما عونه

التزكّي بدوام الصلة بالله مقيماً لشعيرة الصلاة المتكاملة يُواظب عليها عبر اليوم لدلوك الـــشمس حـــتى جنوحها ولغروبها حتى غسق الظلام وراءها ولفجرها قبل شروقها إذ تتكـــشف قـــراءة القرآن في الصلاة. وعليه أن يوالي الدعاء لله أن يدخله مدخل صدق ويخـــرجه مخرج صدق حيثما تقلبت به البلاءات مقبلة ومنصرفة، وأن يجعل له من لدنه تعالى سلطاناً نصيراً على الهوى والشيطان ومكائد الظالمين، وأن يصدع بالشهادة على ظهـــور الإسلام أن جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً. وعليه داعياً وإماماً للـــناس أن يُذكّـــرهم بدعاءِ الله ربهم الأعلى والرحمن رحمتُه وسعت كل شيء ونداِئه بأسمائـــه الحسنى من حيثما يرجون أن يفيض عليهم بأقداره. وعليه هو أن يناجي اللهَ بالـــصلاة ذكـــراً موصـــلاً يتوسط فيه دون المجاهرة به على الناس وإخفائه دون ذكر اللسان. ولتكن مقولته الراتبة الشهادة بكلمات الحق في أمر الله: أن الحمد كله له تعالى لم يتخذ ولداً فهو الغني المتنـــزه بذاته عما يخلق و لم يكن له شريك في الملك فهو المحيط المدبـــر لكل شيء و لم يكن له وليّ من الذل سبحانه وتعالى عن ذلك، وليكبّره تكبيراً على كل ما يكبُر ويعظم في مشهودات الوجود.

ترتيل المعاني (الآيات ١ – ٢١):

﴿سُـــبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (١)

ســـبحان، مطلـــع السورة ذكر الله تسبيحاً لجلال شأنه تنـــزّهاً فوق ما يصفه المـــشركون نسبة إلى معبوداتهم وتعالياً بصفاته الحسنى المطلقة. سبحان الذي أسرى، ذهـــب خفية في رؤيا منام[1] بعبده الرسول الخاتم ليلاً من المسجد الحرام بالبلد الذي اتخـــذه إبراهيم سكناً لإسماعيل فذريته وبنى فيه المسجد معه بيتاً لعبادة الله ملة حنيفية لتوحيده هو وقبلة للحجاج. أُسرى بالرسول من ذلك الحرم في مكة الذي كان يعهد فـــيه مـــشاهدة مـــا يذكر بآيات الله ومن مبيت له حيث كان في بيت أم هانئ، إلى المـــسجد الأقـــصى بيت المقدس الذي بدأ مكانه داود بعد هزم جالوت وفتح الأرض

(١) في ذكر تلك الرؤيا: أنظر الآية ٦٠ من ذات السورة.

وعمّره سليمان بناءً على سنة ملة إبراهيم فإسحق فيعقوب الذي آواه يوسف إلى مصر وأهلَــه ثم عاد بهم دفع موسى من بعد حين بعد متاه الصحراء. ذلك المسجد الأقصى مـــن مسجد مكة متنـــزل القرآن كانت حوله الأرض التي بارك الله فيها زرعاً ونتاجاً طيباً. وكان ذلك الإسراء بالرسول ليريه الله أقداره العظيمة كيف تتجلى وتتجدد عبر العهود آياتٌ لله وفيها ذكرى اجتباء رسل وأنبياء متعاقبين على ملة إبراهيم من ذريته، إيـــتائهِم هدى الله وحياً وصُحُفاً وتمكينِ المؤمنين معهم لبناء المسجد الحرام مركزاً لبناء مجـــتمع مؤمن عابد من بني إسرائيل، ومباركةِ سيرتهم ببسط الدين وإقامة السلطان في تلـــك الأرض، وآياتٌ فيها آثار للغفلة عن الله وضعف التدين عند الخلف وما اعترى بُـــنى ألأصـــول كلـــها من وهي أو خراب كتاباً موروثاً ونظماً للمجتمع والسلطان ومـــسجداً وعمارة، وما جرى للمؤمنين الأولين من شتات. أسرى ذو الأقدار الربّانية الجلـــيلة بعـــبده الذي ما كان إلاّ بشراً قاصراً لديه عابداً له وما كانت له وحده القوة الـــروحية التي تحمله عبر ذلك الإسراء إلا بعون ربّه(١)، ذلك ليرى العبد الرسول آيات ذكـــرى ديـــن الحق القديم وليرى آيات واقع قريب لَمن كانت له من بعدُ عاقبة الدار، حـــيث قامـــت قـــومة دين النصارى تحت ظل سلطان الروم. تلك آيات تثبّت للعبد الرســـول الـــذي رآهـــا إيمانَه: إن كان هو رائد دعوة ذات الدين الحق المتجدد وهو والمؤمنون في قلة وذلة بمكة ففي تلك الآيات ما يُعزز بشارةَ الله – كما بدت شواهدها في أمـــر الدين وسيرته حول بيت المقدس– أنها صادقة وأن سيكون للمؤمنين معه شأن مـــن كثرة وعزة وتمكين ثابت ما ثبت إيمانهم. وفيها رأى الرسول العبرة والموعظة مما ينبغـــي أن يحُمـــل زاداً لمـــستقبل البلاء، فهو إمام سيرة المؤمنين على الهدى والرحمة والبشرى من الله الذي يُعزُّ أولياءه إن اعتصموا به صبراً وتوكلاً وصدقوا بقوة في سبيله

---

(١) حيـــثما ذكـــرت في القرآن رحمة آية غيبية على رسولٍ أو صالح يذكر هو منسوباً بالعبودية البشرية القاصرة لله عالم الغيب الرب الراحم، أنظر مثلاً ذكر نوح محمولاً في الفلك: الآية ٣ من ذات السورة، والعبد العالم الذي علّم موسى: الآية ٦٥ من ذات السورة، وزكريا داعياً ذريـــة: الآية ٢ سورة مريم، وعيسى متلقياً الكتاب والنبوّة: الآية ٣٠ سورة مريم، وزمرةٍ من رسل الله يتلقون رحمات من اللهِ في الآيات ١٧–٤٥ سورة ص، والرسول الخاتم منـــزلاً عليه الكتاب في آيات كثيرة منها مثلاً: الآية ١ سورة الكهف.

غـــزّرهم وأيدهم بنصره وسلطان وبسط لهم ملكاً في الأرض والذي إن خذلوه خذلهم فهـــان أمـــر ديـــنهم ودالت عليهم الأيام كما دالت على الخلَف لموسى وداود حول المسجد الحرام.

إنه ﷻ هو السميع البصير بالغ السمع والرؤية لما يفعل العباد في مكة، بين مهتد إلى الحـــق ذاكر لله تال لكتابه لكنه في فتنة وحاجة لتذكرة بسنن الله بشارةً له، وضالٍ علـــى جاهليته مشرك بالله مُعرض عن رسالة الكتاب المُنـــزل لو تنفعه تذكرة واعظة، سبحانه الذي يبشر عبده ومن معه بتلك الرؤيا الصادقة التي أسرت به ليرى آيات الله وسننه في الواقعات الماضيات، وتعالى عما تشرك به أمة الخطاب من آلهة لا تدرك شيئاً ولا تهـــتدي إلى وجهة ولا تشعر ببشارة قادمة أو نذارة وتوقر التقاليد الموروثة وما لها من ذكرى حق هداها وكسب فضلها للعبّاد الأولين.

﴿وَآتَيْـــنَا مُوسَـــى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ (٢)

في ســـياق تلـــك الآيات المشهودة في رؤية المسجد الأقصى عند الإسراء ينضاف نبأ موســـى السلف لبني إسرائيل الذين عادوا واستقروا هناك بعد النجاة من فرعون وأرضه. آتاه الله بأقدار الاجتباء والهدى والابتلاء والفتنة فالنجاة والهجرة والوعد – آتاه الله الكتاب وجعله بأقدار علمه بما جرى لبني إسرائيل في المهجر من زلة رغبةٍ تقليدٍ لقوم يعكفون على أصـــنام لهم ثم من اتخاذ عجل معبود لغيبة موسى– جعله هدى لبني إسرائيل – خطاباً لهم: ألا يـــتخذوا مـــن دونه ﷻ وكيلاً، فهو الذي أنعم عليهم بالنجاة والظل والرزق والماء في الصحراء والهدي الحق في ملة الدين فليستقيموا خالصين لوجهه حمداً وعبادة وطاعة لشرع كتابه ولا يزوغوا فيضلهم الله ويبتليهم بضراء ومذلة عائدة[1].

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (٣)

كـــان موسى وقومه ذرية من حمل الله بأقداره العظيمة مع نوح – إعراضاً وفتنة من قومه إلا قليلاً من المؤمنين فصناعة الفلك بعين الله وتنجية بآية من الطوفان وإغراقاً

(١) في مجمـــل ســـيرة موسى رسولاً وبني إسرائيل خلافةً له: انظر الآيات ١٠١-١٠٤ من ذات السورة، وفي سائر السيرة راجع الحاشية ٢٣ الآية ١٧٠ سورة الأعراف.

لفـــرعون وقـــومه الفاسقين، فاستخلافاً في الأرض للمؤمنين الناجين ذريةً ومتاعاً. إن نـــوحاً كـــان عبداً شكوراً لنعمة الله هدى ونجاة يعبر عن كثير شكره بصبر وإحسان وعـــبادة وذكر لربه، والله يزيد الشاكرين لنعمه فيضاً من الخير - نبوة وكتاباً في ذريته وذكر له في الآخرين، بينما يأخذ الكافرين بنعم الله بفيضان هلاك.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤)

وقضى الله بأقدار بلائه وعلمه وحكمه - إلى بني إسرائيل نذيراً مما هم فاعلون لا مـــن حـــسنة شكر له تعالى ففضل مزيد منه بل من سيئة كفر وتبديل لنعمة التمكين وضـــلّة عن هداه يحق بها عليهم العقاب. ويبيّن الله لهم النذير، فيخاطبهم أنهم ليفسدن قطعاً فيما يستغلون به الأرض المقدسة التي كُتبت لهم بعد الملك فيها والصلاح. وذلك مـــرتين: زلـــة يعقبها خسران ثم يتوبون وتعود عليهم عافية لكنها لا تبقى في أنفسهم ذكـــرى واعظـــة بل يعودون إلى زلة أخرى. وإنهم ليعلُن علواً كبيراً، فإن من دواعي فـــسادهم المتمكن في الأرض ومن نتاجه العلوّ على الناس بالسلطان وقعاً عليهم بالأمر الغلـــيظ المتجـــبر الظالم قدراً كبيراً غفلة عن تَذكّر رقابة الله ومكراً يغمر معرفة الناس لفسادهم ليقوموا عليهم وكيداً يحجر النصح الذي يقوّمهم فيتمادون طغياناً ويزدادون فـــساداً. وذلـــك مما يغريهم به ويدعوهم إليه شيطان المتاع والسلطة من بسط الفساد وشد وطأة الجبروت في الأرض.

﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ (٥)

وقـــد خاطبهم الله في الكتاب بما ينتظرون. فإذا جاء وعد أولى المرتين وحلّ أجل النذيـــر بالعقـــاب الموعـــود على سيئة الفساد والتعالي - ينبئهم الله أن يكون قد حق العقاب وبعث الله بأقدار بلائه وجزائه وأمره المفعول عليهم عِباداً له بأقداره العظيمة في تـــصريف البـــشر، هم نكرة عباد لله ليسوا على خير خالص من عبادته بل أداة قضاء لقدر عاجل منه تعالى ولو دفعتهم هم أهواءهم لبسط قوتهم في الأرض، وهم أولو بأس شـــديد، قوة حرب شديدة الوقع، فجاءوا بقضاء الله ودفوعهم فجاسوا خلال الديار

لبني إسرائيل يطلبونهم ليستقصوهم، وكان وعداً مفعولاً أن نفذوا إليهم حيثما كانوا، وكـــان وعيداً من النذير ناجز الفعل واقع الأثر. وأولئك في روايات التاريخ هم طغاة العـــراق بقيادة بختنصر الذين غزوا أرض بني إسرائيل وأخذوا رؤوس السلطان والدين إلا قليلاً وسادوا عليهم في ديارهم.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ (٦)

ثم رد الله الكرة بأقدار تقديره للبلاء وعلمه وحكمته وتوبته على بني إسرائيل – والخطـــاب لهـــم حاضـــراً عظة بعد خطاب سلفهم المُبتلى بتلك الأقدار وعبرة مثال للمؤمـــنين التالين القرآن. رُدت الكرة أو الدورة الراجعة على طغاة العراق بعد بختنصر إذ غلـــبهم فـــرس نـــــزلوا على بني إسرائيل بسلام وأعمروا لهم ما خرب من الديار والمـــسجد. وأمد الله بأقدار نعمائه المبسوطة بني إسرائيل بأموال وبنين وجعلهم أكثر نفيراً، حشداً يستنفر للأمر العام أغزر من ذي قبل.

﴿إِنْ أَحْـــسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ (٧)

وكانـــت نعمـــة المتاب تلك معقبة بلاء من جديد لعلهم اتعظوا بالمرة الماضية. وكانت على شرط سنته تعالى، والخطاب لهم: إن أحسنوا اتعاظاً وشكراً لله فرقباً في صـــالح الأعمـــال أحـــسنوا لأنفسهم فإن الله الشكور يزيد الشاكر توالياً متى توالى شـــكره، وإن أســـاءوا فلهم السيئة عاقبة تنقلب عليهم بالسوء، فإذا جاء وعد المرّة الآخـــرة التي أُنذروا بها قبلاً وما رعوا النذير بل انقلبوا إلى فسادهم وعلوهم، فالغزاة ســـيقعون عليهم ليسوءوا وجههم مزيد ذلة، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة لا يـــرعون له حرمة ولا تقديساً وليتبرّوا ما علوا وسيطروا وسيطرت أقدامهم عليه، أشـــد تخـــريب. وأولئك فيما يروي التاريخ كانوا الروم بقيادة طيطوس، ومن بعده تفـــرق بـــنو إسرائيل في الأرض. وبعد حين في الإمبراطورية الرومانية مع قسطنطين أخـــذت النصرانية تسترد الحرية بعد الفتنة وتصاعد أمرها وظهر حتى أصبحت ديناً رسمياً.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (٨)

والخطاب لبني إسرائيل عبر خلفهم بعد تلك العظات، خطاب بشرى أن عسى ربهم أن يـــرحمهم مـــتاباً عليهم وإسباغاً لأفضال الأمن والمتاع أوبةَ حالٍ طيب، والنذير لهم إن عـــادوا لفـــسادهم وطغيانهم عادت عليهم معاجلة أقدار الله المعاقبةً. والكلمة الحق سواء عاجـــل الله بمـــؤاخذة الظالمين في الدنيا أو أخرهم أن قد جعل بأقدار بعثه للعباد وقيامهم لآخرة الحساب والجزاء العدل وفق كسبهم في دار البلاء – جعل جهنم للكافرين – الذين كفروا بآيات الله هدى وبنعمته إذ بدلوها وغمروا في أنفسهم خوف الآخرة – جعلها لهم حصيراً مهاداً يحصرهم كما حصرتهم أرض مباركة أفسدوا فيها وتعالوا[1].

﴿إِنَّ هَـــذَا الْقُـــرْآنَ يِهْـــدِي لِلَّتِـــي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩)

علـــى أثر الكتاب الذي تنـــزل على موسى هدى لبني إسرائيل، وفي ضوء العبر والعظـــات لتبدله واقع ضلال يرتد في كسبهم وتداول الأيام عليهم عاقبة موازية – إن هـــذا القـــرآن يهدي للتي هي أقوم في مقصد الحياة ومنهجها، لا عوج لمن اهتدى به اتخـــاذاً لغير الله وكيلاً بل هو على توحيد خالص ولا فساداً في الأرض واستكباراً بل صـــلاح وإحسان سجوداً وخشوعاً لله مع الراكعين. وهو يبشّر المؤمنين – صفة إيمان رســـخت فـــيهم إذ أصبحت في نفوسهم ساكنة معرفة الله حقاً والتصديق بغيبه كله والـــوفاء بعهده بإخلاص، وعملوا الصالحات تعبيراً عن ذلك الإيمان في كل قول وفعل ذاكـــرين الله المبتغى رضاه لازمين هداه الحق جادين جهداً لأصلح ما يقع منهم عملاً، بُشراهم أن لهم أجراً كبيراً في الآخرة إذ يتضاعف عدله لما يكسبون.

﴿وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٠)

ويضاف نذارة لتمام بشارة المؤمنين وعدلها أن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتد الله بأقداره لهم فيها وحضّر عذاباً أليماً وفاق ما عربدت به أهواهم من كفر وفساد عمل

(١) تـــرد كثيراً في القرآن العظة بذكر أقدار العقوبة العاجلة واقعةً على الذين مكنهم الله بقوة في الـــسلطان والرزق فظلموا وفسقوا فساداً وعلواً: انظر مثلاً ذكر قرى من بعد نوح في الآيتين ١٦و١٧ مـــن ذات الـــسورة، وذكر عاد في الآيات ٥٠-٦٠ سورة هود، والآيات ١٢٣-١٤٠ ســـورة الشعراء، والآيتين١٥ و١٦ سورة فصّلت، والآيات ٧-١٤ سورة النازعات، وذكر سبأ في الآيات ١٢-١٥ سورة سبأ.

بلا زاجر في النفوس من خشية العقاب يصدهم عن سوء العمل أو يزهدهم فيه خوف فوات النعيم في الجنة.

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ (١١)

الـــذين لا يؤمـــنون بالآخرة ولا يحتسبون ما يُعد لهم فيها إنما يصدرون عن طبع الإنسان وخلقه أن يدعو بالشر دعاءه بالخير، لا يعلم مآلات الأمور وما يُجليها غيبُ المـــستقبل مـــن نتاج وذيل وعاقبة تمام لها، فهو يدعو بما هو شر ويحسبه خيراً فيحبه ويتـــرجاه حتى يأتي تأويله الحق، وقد يكره شيئاً يحسبه شراً يدعو أن يُوقى منه بسلامة ثم يـــبين فـــيه خـــير كثير عند تمام وقعه. وذلك أن الإنسان بطبعه عجول يحكم على الأشياء بحاضر رؤيتها وعاجلها تفتنه الدنيا المشهودة عن تالي تتمة الحساب في الآخرة الموعودة بل عن تدبر العواقب الأقرب في الدنيا. ولذلك قد لا يبالي بنذر عاقبة منظورة حتى لو كانت لمستقبل الدنيا العاجل فضلاً عن الواقعة في حساب الختام والتمام العدل الحـــسام لـــلأولى في الآخـــرة، ولا ببشرى عاجل أو آجل. ذلك إلاّ الذين آمنوا و لم يغمـــرهم حب العجل ووصلوا تقدير أول الأمور بمستقبلها المنظور مرجواً أو محذوراً وأُولى حـــياتهم كلها بآخرتها يوم الدين. أولئك يصلون العاجل بالآجل في الدنيا ومر السنين والزمان فيها بالأزل في الآخرة فيحسبون شر الأمور وخيرها بذلك المدى(١).

﴿وَجَعَلْـــنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (١٢)

وجعـــل الله بـــسننه المتداومة آيات تتجلى شواهد على قدرته وحكمته ورحمته ودواعـــي تـــذكير للإنسان بحسبان بآجال مضي الحياة الدنيا وزمانها. جعل الله للعباد ظروف مسخرة تُكوّر عليهم ابتلاء متوالياً بمدود الحياة الدنيا الموصول: الليل والنهار، فمحـــا الله آيـــة الليل بأن يُغشى الأرض الظلام – أصل الوجود فراغاً قبل المخلوقات المضيئة – إذ يسكن الخلق الحي ويستتروا يتوفّاهم الله نوماً، وجعل آية النهار مبصرة إذ

---

(١) حـــبّ الإنـــسان العاجلة ودعوته بما يرى خيراً في الحاضرة وغفلته عن مآل الأمور في الغيب ومـــصيرها في الآخـــرة: انظر الآيتين ١٨ و١٩ من ذات السورة، والآية ١١ سورة يونس، الآية ٢٠ سورة القيامة، الآية ٢٧ سورة الإنسان.

ينتـــشر الضوء ويتراءى الأحياء والأشياء لينبعث العباد المخاطبون ويبتغوا بمسعاهم في نهارهم البصر- بعد سكون الليل وراحته - فضلاً من ربهم ومتاعاً، وليعلموا في تعاقب كرّة الليل والنهار - أياماً متضاعفة - عد السنين والحساب للوقت، إذ يسير بهم الدهر حاضـــراً بعد سالف يُنتظر ليُشهد ويمر خصماً على عمر الحياة المعدود قربى من أجل الموت الموعود. فبحساب الزمان الراشدون لا ينقطعون عند العاجلة بل يقدّرون حكم العاجـــل بآجلته، وهم يحاسبون أنفسهم ألا يفلت منهم وقت فرصةً يعمرونها بالعمل الـــصالح زاداً رابحاً للمستقبل إلى الآخرة وألا ينقضي لهم وقت واقعة فيه منهم سيئة لا تـــضيف إلا خـــسراناً في محصول كسبهم في الحياة إلاّ أن يستدركوها بتوبة حسنة في وقـــت محـــسوب آخر قد تتبدل فيه واعظة نافعة. ذلك كله لغير الغافلين حساب يوم الـــبعث والـــدين إذ يُعرض كتاب الحساب الأوفى ويتم القضاء الفصل حسب ميزانه حكماً لا مرجع بعده إلى الدنيا لتسوية الحساب عن ندم على مغرم أو لضياع مغنم.

وكمـــا بـــسط الله مد الحياة وأتاح ظرفها مكاناً محسوباً ابتلاء لمن يعمره ويملأه صـــلاحاً في سبيل الفلاح، كلَّ شيء فصّله الله في القرآن تفصيلاً هدى الناس، فذلك الكـــتاب يهدي للتي هي أقوم بياناً للحق من الله ويقضي للإنسان بحكم ذلك الحق في كـــل فاصـــلة مـــن كل شيء يُبتلى به فيعنيه، كسائر هدى كتاب الله المفصل لعباده الماضـــين ومثال الهدى المفصّل لما يرد ذكره بعد بضع آيات. وما على العبد المؤمن إلا أن يغـــنم كل لائحة من دقائق الزمن المحسوب في حياته المقدّر مدها فأجلها ليُنـــزل فـــيها كـــل مـــا يجاوب عين الابتلاء الذي قدره الله فيها ويحقّق أحسن الصلاح وفق شعاب الهدي المفصلة في القرآن التي توافق حيثَ حياته وتناسب حيث حاجته ليخطوا خطـــوة على الصراط المستقيم. ذلك لا استثماراً لعاجل كسوب خير عاقبةً في الدنيا وحسب بل تزوداً لآجلة كسوب أجر من ثمراتها في الآخرة -خيراً وأبقى[(١)].

(١) الـــتوفي بالمنام ليلاً والبعث بالنهار لابتغاء المعاش تذكرةٌ بالتوفّي موتاً والبعث مآلاً في الآخرة، وتلك من سنن الله الموصولة: راجع الآيتين ١٩٠ و... من سورة آل عمران، والآية ٦٠ سورة الأنعام، والآيات ٤-٦ سورة يونس، وانظر الآيات ٨٢-٨٧ سورة النمل، والآيات ٩-١٨ سورة النبأ.

﴿وَكُـلَّ إِنسَانٍ أَلْـزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣)

وذلـك القـدر لابتلاء الإنسان بإطار ظرف من الزمان مرتب محسوب مع دليل الهدى في الكتاب المفصل تفصيلاً – يلي من أن الله بأقدار سؤله لعباده ألزم كل إنسان طائـره في عـنقه، حظـه في ذمته كما درج التعبير العربـي، ويُخرج له الله بأقدار الحـساب والعلـم المحيط كتاباً يلقاه منشوراً فيه بيان أعدّه حفيظ رقيب من الملائكة الـذين يأتون – من صحبة الإنسان في الحياة أبداً– بشهادة مكتوبة لكسبه، لكل ذرة من عمله خيراً أو شراً في كل محطة من مدّ حياته الذي كان قد قُدّر له مدىً من البلاء والكسب، ويُؤتى المسئولُ كتابه بيمينه أو شماله وراء ظهره حسب حاصل الحساب له بركةً أو عليه بؤساً خزياً.

﴿اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤)

يؤمر عندئذ الإنسان – مخاطباً – أن يقرأ كتابه الخاص به، كفى بنفسه اليوم عليه حسيباً يذكّره بيانُ الكتاب بما كان يُسرّ ويُعلن من نية وقول وفعل طوال حياته مقوّماً خيراً أو شراً بقدره بمعيار ما كان يؤمن به يقيناً أو ما يؤمن به اليوم عين اليقين من حق حكم الهدى وبنيّة الكسب وميزان الحساب للجزاء، وكفى بنفسه شاهداً لها أو عليها يومئذ، وكان الأولى أن يراقب هو ما قُدر له من بلاء وما بلغه من تفصيل الهدى أثناء مـا حيي من مد حساب الأيام والدهور ليحسب حسابه ويعرف كتابه فيحمد الله إن أحسن ويزداد ويستغفره إن أساء ويتزكى، كان الأَولى ذلك قبل عرض الكتب ووضع الميزان الأخير.

﴿مَّـنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِه وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (١٥)

والمقتضى الحق في ذلك الحساب البيّن فالجزاء العدل أن من اهتدى ببيان التي هي أقـوم في القرآن مؤمناً مخلصاً مستقيماً لوجه الله فإنما يهتدي لنفسه كسباً رابحاً ففلاحاً مـن النعيم الخالد في تلك العاقبة، ومن ضل عن ذلك الهدى– هجراً للكتاب المنـزل وخـبطاً بالعـشواء من نـزع الهوى وإغراء الشيطان، ارتهاناً للشهوات الفاتنة بالمتاع

العاجـــل وغفلة عن نفاذ المتاع ومجاله بمر حساب الزمان وقدوم الموت، وكفراً بآجلة الحساب والأجر والعذاب - فإنما يضل على نفسه.

والحـــق العدل أيضاً في ميزان الكسوب لاسيما ما كانت أوزاراً على النفس يحق علـــيها العقاب أنه: لا تزر وازرة وزر أخرى، لا تحمل نفس حاملةً - إذ كانت أهلاً لأمانـــة التكلـــيف - أثقالَ الوزر التي حقّت بميزان الحساب عليها هي - أثقال نفس وازرة أخـــرى، لا فـــدى ولا شفاعة لها ولا مشاركة لم تسبق في الذنب بل مكافلة لتخفيف وقع المسئولية فالحساب فالعذاب. بل كل قربى وكل خلة وكل صلة في الدنيا يـــوم القـــيامة يفـــرّ الإنسان منها لئلا يقع عليه ثقل وزرها بتبعة التحريض والإغواء والـــشركة، بـــل الشيطان والمضلّون المستكبرون يتبرأون ذعراً من حمل الأوزار مهما يدعـــوهم أولـــياؤهم المتبعون لهم ليحملوا عنهم ما جروهم إليه في الدنيا فألقوا عليهم وقع جزائه في الآخرة[١].

والحـــق كـــذلك في وقع التكليف الذي تترتب عنه المسئولية - فضلاً عن شرط احـــتمال أمانـــته بـــبلوغ الرشـــد عمراً فعقلاً - أن الله بأقدار حسابه وجزائه لعباده العظـــيمة - ما كان - حقاً ممضياً - مُعذِّباً عباده حتى يبعث إليهم رسولاً يوحي إليه فيـــبلّغهم الهداية والنذارة من العذاب عقاباً إن عصوا، ليحق عليهم القضاء إن اختاروا الضلال بعد بيان الهدى المفصل والنذير الصادق، ففي كل أمة خلا رسول نذير. فمن لم تـــبلغه الدعوة البيّنة للهدى والنذير لا يُعذّب. ويقدّر الله بميزان علمه وقضائه حكماً عـــدلاً مـــدى مـــبلغِ رسالة ذلك الهدى والنذير وانتشارِها وتعاقب نقلها عبر التاريخ المتطاول وتمام بيانها مفهوماً رغم اختلاف الألسنة وسعة وقعها بالخطاب أو الكتاب أو بالمثال القدوة. فالله علمه محيط بليغ بكل خلقه وأسباب الاتصال بينهم وأثرها في بلاغ الرسالة لتصل من هو مسئول بين يدي العقاب.

---

(١) أن المسئولية فردية تلزم كل امرءٍ طائره وكتابه ووزره ذكرٌ يتوارد كثراً في القرآن: راجع مثلاً الآيـــة ١٦٤ سورة الأنعام، والآية ١٨ سورة فاطر، والآية ٧ سورة الزمر، والآية ٣٨ سورة الـــنجم، ذلـــك حتى بين ذوي القربى، انظر الآية ٣٣ سورة لقمان والآيات ١٠-١٥ سورة المعارج، والآيات ٣٣-٣٧ سورة عبس.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦)

وإذ يحيط علم الله الأزلي بكل حادث حالٍ لقرية ومذهبٍ لأهلها في حياتهم وكل ما تــرتب ذلك عنه من بلاغ سابق بالهدى والنذير فضلالٍ وعصيان لاحق يحقّ به العذاب، إذا توجهت إرادته ﷻ إلى ذلك أمراً بالهلاك لها عقاباً فإن الله – لسنة قضائه العــدل ألا يتم نجازه إلا بعد ثبوت بيّنات الحادث واقعاً وعلم المقضيّ عليه بما فعل مما يحُــقّ عقابه شاهداً على نفسه – يكون في الوجود المشهود قد بعث هادياً نذيراً يبلّغ رســالة للمتــرفين في القــرية الكاسبين الظلم الداعين إليه لتأمين تمتعهم بما زينت لهم أهــواءهم مما كسبوا في الدنيا التي فتنتهم، بلّغهم بأمر الله بالقسط والكف عن الظلم والطاعة والصلاح اتقاء للمعاصي والفساد، ولكن بعد البلاغ فسقوا تعدياً على حدود الهــدي ضــد الله غــير مبالين بالنذير واستخفوا السواد الأعظم من أهلها فأتّبعوهم، ويكــون قد جرى في الحادثات أن أصبح علم الله الأزلي الحق متجلياً في واقع بيّنة – فــسوقاً بعد البلاغ – يعلمه أولئك المترفون ومن أطاعهم ثابتاً في كتاب كسبهم هم يشهدون به أيضاً، وحقَّ عليهم به القول الفصل والحكم الذي ترتب عدلاً، وتصوّبت إرادة الله مــن قــدر إلى أمرٍ مفعولٍ فدمّر تلك القرية بإرادة الإهلاك العظيمة المقضيّة تــدميراً حاقاً بها وفاق ذلك الفسوقَ البالغ بعد نذير الرسول. ذلك هو الحق فيما سبق من القرى أو الأقوام فيها سنةً ماضية نفذت واقعاتها آيات مشهودة.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧)

وكــم أهلــك الله بأقداره العظيمة تلك – من مخاطبة بأمر الهدى ونذير عصيانه بلاغاً من رسول ومن فسوق بيّن من بعد ذلك فإحقاق لحكم العذاب فإجراء الهلاك – كثيراً ما أهلك من أقوام القرى المتوالي المتصادق مثالها المتعززة عظتها عبر سير الأولين من بعد نوح الذي سبق ذكره والذي كان سلفاً عهدُه سابقةٌ واعظة في الهدي والنذير فالفــسوق فالهلاك، وتوالت منذئذ الوقائع بتلك السنّة في ذريته وخلفه الذين انبثّوا في الأرض والقرى أقواماً متقاربة عهودهم متوالية قروناً يقص القرآن من أنبائها.

والخطاب للرسول – عبرة – ألا يحرص على أهل خطابه رأفةً من أن يعاجلهم الله بعـــذاب بعد النذير وألا يبلُغ به الضيق بهم ومكرهم استعجال وقوعه تصديقاً للنذير. كفـــى بربه بذنوب عباده خبيراً يعلمها ويعلم دواعيها وتواليها أو مرجوّ التطهُّرِ منها، بصيراً بما هو أحكم قضاءً فيهم معاجلة بالعذاب أو مداً لمجال المتاب أو تضاعف ثبات حـــق الحساب في الآخرة. فالرسالة الخاتمة ليست كسائر الرسالات السابقة: لقوم في بـــلاء مخصوص ليهتدوا أو يفسقوا فيهلكوا فتعقبهم رسالة لآخرين أو خالفين، بل هي رســـالة للناس كافة في الأرض جميعاً خاتمة باقية إلى يوم القيامة. والله لا يؤاخذ الناس جمـــيعاً بمـــا ظلموا لأنه إذاً ما يترك على ظهر الأرض من دابة، وإنما يُنـــزّل تصاريف قـــضائه وقـــدره علماً وحكمة مؤاخذةً مُعاجلة لأحد أو فئة في جهة، أو مداً في الحياة للناس إلى يوم يبعثون.

﴿مَّـــن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ (١٨)

ذلـــك مـــدى المحاسبة والعاقبة عند الله ممتداً في قرون الزمان إلى أحقاب الأزل بحكمـــته من العاجل إلى الآجل في الآخرة. ومن كان من العباد يريد العاجلة، ينـــزعُ بطبع الإنسان العجول فيعجَلُ كافراً أو لاهياً عن الآخرة وحسابها فمسيئاً في الدنيا في ســـبيل عاجـــل مـــتاعه وهـــواه الظالم، عجّل الله له بأقدار نظمه لتصريف الأسباب والأحداث ما يشاء من قدر الاستجابة له خاصّة إن أراد الله – من مبتغياته العاجلة التي يسعى لها ويدعو بها يحسبها خيراً وهي شر. ثم جعل له بأقدار حسابه وقضائه العظيمة جهنم يصلاها محروقاً بها مذموماً بعد أن تمتع في الدنيا دون ذم أو ملام على سمعة سيء عمله، مدحوراً مدفوعاً مصروفاً عن حسن المبتغى بعدما وافى شهواته في الدنيا.

﴿وَمَـــنْ أَرَادَ الآخِـــرَةَ وَسَـــعَى لَهَـــا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (١٩)

ومن أراد الآخرة – فيما كان من مذهب إرادته، وسعى لها سعيها صادقاً في نيّة الـــتوجه إليها بعمله جاهداً أن يعبّر عن أبلغ ما تيسر له من الصلاح، وهو مؤمن بالله وهديـــه أصلاً لقصده وعزمه لمرضاة الله وإنفاذاً لعمله مهتدياً بشرعه وراضياً بوقعه في

ســـبيله تعالى غير مفتون به مكاثراً أو مفاخراً بهوى الحاضر – فأولئك – الذين علت وانمـــازت رتبتهم – كان سعيهم – حقاً ممضياً – مشكوراً عند الله، مجزياً عليه بعاجلة خير عاقب أو مؤخراً ثوابه وأجره المضاعف الأتم إلى الأجل الموعود في الآخرة.

﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠)

كـــلاً – مـــن طالـــب الدنيا وراجي الآخرة – يمده الله بأقدار تصريفه لإيقاع العـــواقب وآجالهـــا بالنصيب الأوفق له أي الفريقين كان بين هؤلاء وهؤلاء المتوازي ذكرهم، من عطاء الله المقضيّ له. إن عجّل لمفتون العاجلة ما يريد فهو مدّ له في البلاء لـــيحقّ عليه تمام العقاب في الآخرة وإن عاجله بعقاب أو حرمان بمشيئته تعالى فذلك محـــسوب فيما عليه في الآخرة يوم الحساب الأوفى، وإن ضيّق الله في الدنيا على المؤمن الـــساعي ابتغاء الآخرة فمزيدُ بلاء فمجالٌ لمزيد صلاح خيراً يُستحق في كتاب فضل شكرٍ له عاقب من الله، وإن وسّع له خيراً عاجلاً بعد سعيه القاصد الآخرة فذلك جزاءٌ وابتلاء إن أخذه بما هو أقوم ازداد خيراً ورجاء آخرة خير وأبقى.

﴿انظُـــرْ كَـــيْفَ فَـــضَّلْنَا بَعْـــضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (٢١)

والخطـــاب للمُذكّـــر المعتـــبر، فلينظر كيف فضل الله – بأقدار تصريفه العادلة العظـــيمة لعاقبات المساعي نحو الدنيا والآخرة – بعض المذكورين على بعض. أن قد فـــضّل راغب الدنيا فيما فيها بما يستجيب له الله إن شاء فيمده من مبتغاه لينال حظاً أربى من الزاهد في الدنيا مبتغي الآخرة، وفضل الساعي للآخرة فيها بعطاء شكر سعيه مـــن نعـــيم مضاعف خيرٍ حظاً من مفتون الدنيا صلياً بجهنم. ولَلآخرة أكبر من الدنيا درجـــات بـــين نعمة الجنّة وتصلية جهنم، وأكبر تفضيلاً في درجات الفوز ودركات الخسران.

عموم المعاني (الآيات ١ – ٢١):

ســـبحان الله وتعالى عما يُشرَك به من دونه. فهو الموجود المطلق القيّوم على كل شـــيء في عالم الغيب وفي عالم الشهادة خلقاً وتدبيراً. وما دونه مما يتعلّق به المشركون

كله محدود الوجود دون الغيب. مشهود ينقطع عنده الناس معبوداً ولو لتقريبهم إلى ما لا يـــبلغون من الغيب. سبحانه هو الحي السميع البصير، بالغ العلم بما يجري من ظرف ومـــا يقـــع من شيء في الكون المخلوق وفي حياة عباده البشر. والمعبودات التي تُتخذ شـــركاء من دونه ميتةً أو محدودة الإدراك سواء كانت مُقدسات مشهودة من جماد أو بـــشر أو مظنونات من الجن، كل عُبّادها يعلمون عطل الحواس فيها أو قصورها عن آفـــاق ســـائر الوجود. سبحانه وتعالى فهو ذو القدرة المحيطة التي تتجلى آياتها في كل وجـــه مـــن أقـــداره التي قد يجد وقعها الإنسان نافذة إليه من الغيب على غير الطبع المـــسنون، ولو لم يتبصر الآيات الطبيعية في الكون المخلوق. فالله سبحانه أسرى بعبده الفقـــير إليه الرسول الخاتم مناماً ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه آيات في آثـــار وصور مخيلة في الرؤيا هي كما كانت في ذلك المركز للرسالات الكبرى التي ســـبقت. ذلك ليتثبت من رؤياه ويتهيأ لتلقي ما يأتيه من الغيب وحياً، وليذكر سلفه النبـــــي موسى الذي لقيه ربه بآية خصّه بها، هو لا يراه ولكن يأتيه كلامه من وراء حجـــاب وأُوتي كتاباً من الهدى رسالة لقومه. وليذكّر أيضاً أنه وموسى وقومهما من ذريـــة إبراهيم فنوح الذي أخرجه الله آية، يوحي إليه أن يصنع فلكاً في البر ليحمله في المـــاء هـــو ومَـــن معه لمّا تفجر الفيضان المهلك. سبحانه وتعالى عما يُشرك به عباده المفتونون بالعالم المشهود حولهم والذين يعبّرون عن روح التدين المفطورة فيهم بالتعبد لأشياء تتمثل لهم فيها الألوهية أو عن إسلام لنـــزع الهوى حباً للمتاع في الدنيا. فقد كـــان الإســـراء بالرسول من المسجد الحرام إلى الأقصى تذكرةً له حافزة إلى قبلة ملة التوحيد الحنيفية التي كانت تطهراً من الإشراك السائد في الأرض - تطهراً بسطه فيها إبـــراهيم وأسس له مركز عبادة توحيد هو المسجد الحرام ونشر ذريته التي انـــزعت أيـــضاً بؤرة للملّة في الشمال وأسست فيه من بعده المسجد الأقصى. وكانت ذكرى موسى وآياته في الرؤيا عبرة بذكر الله الذي آتاه الكتاب هدى لبني إسرائيل ألا يتخذوا من دونه وكيلاً، تحريراً لهم من رواسب بيئة فرعون التي خرجوا منها وكانت مشركة بـــه رباً أعلى دون الله فرأوهم معه غرقى وراءهم، ومن نـــزعة إشراك غشيتهم تقليداً لقـــوم مروا بهم عاكفين على أصنام ومن ردة أصابتهم في اتخاذ العجل من زينة حملوها

مـــن مصر عبدوه حيناً لأنه من صور الأصنام والأوثان في مصر المشركة. وسبحان الله الـــذي يهدي سيرة حياة عباده بعلمه المحيط بمرجوات الغيب غير المنظورة منهم تقديراً ولا تـــدركها معـــبودات الإشراك من دونه. ففي تأويل رؤيا الرسول الخاتم إسراء من مكـــة شمـــالاً إلى موطن دين من الوحي - فيه بشرى أن قد يخرجه الله ومن معه إذا اســـتفزهم الفتـــنة وأخرجتهم من ديارهم إلى ذلك النحو وأن قد يبلغ المؤمنون أرض المسجد الأقصى. وفي الرؤيا كذلك عبرة من سابقة لأنها تذكرة بهجرة بني إسرائيل نجاة مـــن جبروت فرعون وجنوده الذين أُغرقوا وخلوهم متوجهين إلى أرض بارك الله فيها وكتـــبها لهم. وهو وقومه وأولئك ذرية عبر إبراهيم لنوح الذي نجاه الله ومن آمن معه بآياته شمالاً أغرق سائر قومهم ومتّعهم هم آمنين إلى حين.

ســـبحانه وتعـــالى الذي يهدي برسائل من الغيب عباده إلى هدى التوحيد عبادة وطاعة له وحده، ويهدي سيرة الطائفة المؤمنة الأولى منهم هجرة في سبيل التمكن في أرض توحـــيد وهدى مطهرة عما هجروه من إشراك ونجوا منه من فتنة. سبحانه، هو عـــالم الغـــيب الذي يمتد بهم هداه وابتلاؤه مدى لا يبلغه نظر البشر المفتون بالحاضر والعاجل المشهود ولا تعلم بل لا تشعر آلهتهم مشركين في آجال الغيب أيان يبعثون مما يعلـــم الله ويقدره لأجل مسمى. كانت رؤيا الإسراء خروجاً من مكة تهيئة وتثبيتاً في نفـــس النبـــــي ومن معه من المؤمنين ما يعدهم لابتلاء بالهجرة وما بعد الهجرة من التمكن والمتاع ثباتاً على هدى التوحيد موصولاً أو فتنة تالية. وفي الرؤيا تذكرة بموسى وهجرته وما جرى لخَلَفه من ابتلاء بنعم التمكن في الأرض المباركة وما بنوا فيها سوى المـــسجد الحـــرام من عمائر وزروع وقوائم سلطان. وفيها ذكرى الأب النبـــي نوح وذريـــته التي تمتعت بعد النجاة وانتشرت في الأرض بعد الهبوط من الفُلك وقد هلك الكافرون فأصبحت منبثة وتناسلت حتى جاء منها إبراهيم الذي نشر ذريته أيضاً. كل ذلـــك مـــن مد علم الله وقدره - وراء ما تبلغ رؤية البشر وما قد يُشركون بالله من معـــبود - ابتلاء لبني إسرائيل ليشكروا نعم الله مثل نوح الذي أبتُلي بنعمة هبوطه من الفُلـــك بـــسلام ومتاع فكان عبداً شكوراً، وفي الآيات حول المسجد الأقصى آيات لـــسيرة الخالفين في أرض التمكن والبركة الذين لم يكونوا شاكرين، وتلك عظةٌ زاداً

لحملـــة هـــدي الرسالة الخاتمة حين يغشاهم مثل ذلك الابتلاء في شكرهم أو كفرهم لنعمة التمكين في الأرض.

ســـبحان الله الـــذي جعل لرسله المصطَفين من المرسلين قبلاً آيات غيبية رؤى وكلامـــاً ونجـــاة – آيات خارقة للمسنون، والذي جعلها عبرة للمؤمنين من بعدُ وفي حاضـــر الزمان بشارةً لما يستقبلون وقد يستعجلون في سيرة الإسلام الناهضة المتقدمة. وكمـــا كـــان الخـــروج والهجـــرة من الإشراك والتوبة والاعتصام بهدي التوحيد لله والإخـــلاص هو أصل الدعوة المتوالية من المرسلين المتعاقبين فإنه يبقى للآن هو صميم الأساس لرسالة الدين وهدي الإسلام لله المتجدد. وكما رحم الله سالف المؤمنين وهم في قلـــة ذلـــة وهـــو السميع بتضرعاتهم البصير بأحوالهم فانجاهم هجرة إلى مأوى من الأرض طاهر براء من الشرك آمنٍ سالم من جبروت طغاته، فإن سنة الله ماضية يُيسرها لكـــل من يهجُر الظالمين صدقاً. ثم يلي ذلك الابتلاءُ بالتمكن والسلطان لعل المؤمنين يكونـــون من الشاكرين لنعمة الله يعبدونه في سياق بلائهم المترتب عنها المتجدد، كل طـــور في تتعاقب ابتلاءات الحياة ليلقوا ربّهم إذا تركوا الدنيا على هذه الأرض راضين مرضيين على الأرض المبدلة نعيماً يوم القيامة.

إن الله إذ مكـــن بني إسرائيل في الأرض المباركة قضى لهم نذيراً في الكتاب أنهم بعد أن أخرجهم الله من حال الاستضعاف وبغي السلطان في مصر هم واقعون في فتنة انبساط المتاع والسلطة فمفسدون في الأرض مرتين وعالون علواً كبيراً على الناس وأنه حـــاقٌّ عليهم بذلك العقاب. فإذا وقع ذلك منهم فإن الله يعاقبهم بعد أن سبق النذير وفـــاقَ طغـــيانهم بمثله فهو باعثٌ لهم عباداً له يبسطون عليهم أيديهم يجوسون خلال ديـــارهم صـــدقاً لَوقع النذير. ولعل ذلك يعظهم فإن الله يرد عليهم بعداً الكرةَ على أولـــئك الغالبين ويزيدهم أموالاً وأولاداً ونفيراً، فإن أحسنوا يعود ذلك على أنفسهم عاقـــبةً حـــسنة وإن أساءوا فعليها. فإذا جاء وعد الآخرة فعليهم تعقُب المساءةُ الأبلغ ينـــتهكون علـــيهم حرمة المسجد ويتبرون ما علوا تتبيراً. لكن يبشرهم الله التوّاب أن عـــسى أن يـــتوب عليهم إن تابوا محسنين، أما إن عادوا للإساءة فيعود عليهم السوء بأقـــدار الله. وراء كـــل ذلك العقاب العاجل جهنم جعلها الله للكافرين بنعمه وهديه

حـــصيراً. كـــان ذلك أمر بني إسرائيل – الهدى والنذير والابتلاء بالتمكين والسلطان فالعاقـــبة الـــوفاق لهم بما فتنوا. وكان ذلك الذكر في القرآن موعظةً للمسلمين الذين بـــشّرهم الله بـــرؤية الإسراء بانبساط أمرهم بعد انقباضه في مكة متمكناً في الأرض، ونـــذرهم بالمثال السالف ما قد يعرض عليهم من فتن الفساد والتسلط وما قد يغشاهم من الأهواء فيُعقب الله عليهم أن ترتدّ الدولةُ عليهم كرّة استضعاف آخر من قوة غازية مقيّضة عليهم بقدر من الله. وقد حقت للمسلمين البشرى فتمكنوا حتى بلغوا المسجد الأقـــصى ومـــا وراءه استخلافاً في الأرض، ولكنهم ورطوا في فتنة الفساد والتسلط وخطاياهـــا فسلط الله عليهم عباداً له من تلقاء الشرق مثل ما فعل ببني إسرائيل ومن ذات الـــوجهة دونها، بابل. ثم رد الله الكرة للمسلمين بما هو أمكن في الأرض وأكثر نفـــيراً ولكن ما تذكروا ولا وعظتهم التجربة الأولى البالغة الوقع فعادوا مفتونين للبغي في الأرض، وعاد عليهم العقاب بغزوة أبلغ وأشد وقعاً من تلقاء الغرب الصليبـــي. ثم استجاب الله للدعاء والرجاء من المسلمين برحمته ووفّق قومتهم بعد أن تضاعف عليهم الـــوعظ. لكـــن عادوا فعادت عليهم غزوة الطغيان الغربـــي وعمّت أرض المسلمين حـــيث كانوا في متاع وعز في الشرق، الهند، وفي الغرب، الأندلس، وفي مواقع كثيرة شملت على كل أمة الإسلام. وآيات القرآن في صدر سورة الإسراء التي صدّق تأويلَها أيـــضاً تاريخُ المسلمين عظةٌ باقية لكل جماعة من المسلمين تُبتلى بناحية في الأرض: ما تنـــشط فيهم تذكرة فدعوة متاب وتنهض لهم قومة يظهر أمرها إلا امتحنهم الله بعهد مـــن الاستـــضعاف والذل من يد المستكبرين في الأرض، وما يصابرون ويجاهدون إلا كتب الله لهم جولة عزة واستخلاف في الأرض هم بها مبتلون ومفتنون فإن ارتدوا إلى فساد وبغي فإن قدر الله منتكسٌ بأمرهم يردهم بعقاب مستحَق إلى نـــزع رحمة النعمة الـــتي كفروا بها. وتلك موعظة خاصة بفتنة انبساط قوة المال والسلطان التي كانت في تجـــارب المسلمين – مثل غيرهم – الأشد إيقاعاً لهم في الفساد والطغيان الأبلغ ارتداداً بهـــم إلى خسران، وكذلك قضاء الله العدل في تداول الأيام بين العباد– تدول حسب حسن كسبهم وسوئه وتأتي بقدر ذلك وقائع العواقب بأطيب الجزاء أو أغلظ العقاب أو وقعاً وسطاً.

وكذلك القرآن يهدي للتي هي أقوم ركازاً لأصول الإيمان والتقوى وتطهراً للنفوس من فتن الدنيا بابتغاء غيب الآخرة وتزكية لها وإعداداً لكل ضروب البلاء المتقلبة، أصاب المؤمن ضر أو نعمة فهو صابر وشاكر وكذلك المؤمنون سواء استضعفوا وذلوا فصبروا وتوكلوا على الله أو عزوا واستخلفوا في الأرض شكروا الله واتقوه. ويتزود المؤمنون بواعظ التذكر يستقيم سيرهم في الحياة، وإن عرض منهم له عوج ما تمادوا فيه ضلالاً، بل تابوا وردوا سيء المسير إلى أقومه وفاض عليهم المتاب بما يبدل السيئة حسنة إذ زكاهم الاتعاظ بسابق العمل فازدادوا صلاحاً في سبيل الإحسان، واتقوا عاجلات عواقب جزاء السوء في الدنيا بل وصلوا كل دنياهم بآخرتهم صراطاً مستقيماً قاصداً إلى حيث السعد لا الشقاء الأبلغ والأبقى في وجود الإنسان في الأزل خيراً خالداً وفاق خير كسبه في الدنيا الزائلة. فهدي القرآن للتي هي أقوم في مسلك الحياة حوافزه في البشارة للإيمان والعمل الصالح بأجر كريم في العاقبة الآخرة وضوابطه في النذارة بعذاب الذين لا يؤمنون. وإن لم يهتد الإنسان بالإيمان بالغيب ولم ينظر إلى آجلات العواقب فإنه بطبعه مفتون بعاجل الدنيا وحاضرها يدعو بالشر دعاءَه بالخير لأنه يبتغي ما يبدو له خير متاع في ظاهر عاجله البادي ولا يتدبر الأمر بعاقبته لينظر ما يتجلى عنه الأجل مصيراً شراً أم خيراً. والله جعل دورة الليل والنهار ليبتغ العباد في نهارهم ونشاطهم فضلاً من ربهم ثم ليسكنوا في الليل إعداداً لعافية الغد وطاقته وليعلموا عدد السنين والحساب للآجال فينظروا في الأمور نظراً ممتداً لا يقصر عن المرجوّ منا فلا ينقطع بالعاجل عن آجل الزمان حتى الأزل في الغيب، وليُعدوا أول كل أمر وعهد لآخره. وكل الهدى قد فصّله الله في القرآن لاستقامة حياة المؤمن صلاحاً في الدنيا فلاحاً في الآخرة.

والإنسان مسئول عن أداء تكاليف الهدى أول حياته عبر بلاءاتها ليلقى يوم القيامة كتاب الأعمال التي قدمها، ويعينه ويكفيه حسابها لنفسه. والمساءلة عند الله – ليقع منها الجزاء على الكسب في البلاء – أمانة يحملها الإنسان بما زوده به ربه من مشيئة ومن علم وهدي تذكير، يهتدي لنفسه ويضل عليها، ولا يتكلف وازرٌ حمل ما حق على موزور آخر، إلا أن يحمل معه أثقال ما حرّضه عليه من ضلال. والمساءلة –

ليترتب عنها القضاء والجزاء – إنما تحق عند الله بعد إبلاغ الهدى والنذير، ولذلك يبعث الله الرسل قبل أن يوقع عقاباً في قرية مهما يترف أهلها ظلماً ويحق عليهم العقاب نظراً، بل يُمسكه الله حتى يبعث الرسول هادياً ومنذراً، فإن تمادوا فاسقين عن الهدى غير مبالين بالنذير حقَّ عليهم إيقاع العقاب ودمر الله القرية تدميراً. وكذلك كانت سِيَر القرى ومصائرها منذ نوح وكفى بالله خبيراً وبصيراً بما حق من ذنوب تجر إلى العقاب. ومن ابتلاء الله لعباده أن يمد لهم في الدنيا العاجلة ويؤخر العذاب الآجل، فمَن فُتن منهم بالأولى ساعياً عجلاً في مقاصده ومبتغياته عجّل الله له بوفاء الأسباب المسنونة كسبَ مبتغاه ثم يبلغ الآخرة مُفلساً من زاد لخيرها فلا يجد إلا سوءاها –جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً، وقد كان يعمل ويدعو لأمر تأويلُه شرٌ وهو مفتون بنزغ الشيطان وهوى التعجل يحسبه خيراً بينما يعرض عن الخير الآجل. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها الزاهد في الدنيا الصبور على بلاءها فهو مشكور بالجزاء وفاء لما قدّم. والله يسوّي بين الناس في خَيرة المشيئة بلا جبر لتحقّ عليهم سواءً المساءلة عما يشاءون فيفعلون، ويسوّي في الدنيا فيمد للعجول عطاءَه غير المحظور في الوفاء بمبتغاه، وكما يفاضل بين الناس ابتلاء في ظاهر الدنيا يفاضل بين مصائرهم جزاء في الآخرة درجاتٍ أكثر.

ذلك حكم الله وميزان قضائه في مساءلة عباده. والحق أن يَذكّر المسلمون حق تلك الأصول لئلا يبدّلوه أباطيل ظنون في حساب الدين. والواقع في مذهب غالب المسلمين الظنُّ أن حظ المرء عند الله يوم الدين ليس وقفاً على حساب كسب نفسه بل هو موصول بنسب إلى آخرين، بسلالة بنوة من أبوة قُدرت عليه طبعاً ما كسب فيها طوعاً درجاً فاضلاً ولا دركاً سافلاً. بل قليلاً ما يفاضلون بفضل مواعين التربية والتزكية عند الأولياء من ذوي القربى، بل عموم التفاضل في موازين السمعة الدينية العامة بنسب الدم وحسب، تحسب كل ذرية النبي من الشرفاء الأفاضل، ويلحق أبناءُ المشهورين بالصلاح بآبائهم في أحكام الصلاح، وابن الحرام لا يدخل الجنة مهما يؤمن ويصلح بل ولا يدخلها من هو من سلالته درجات! ومن ظنون عامة المسلمين أن النبي وقد خلا من شغل المساءلة ووقعها لأنه معصوم من الذنوب لا يهمّه أمر

نفـــسه بل يفرغ للشفاعة العامة للمسمين، وكذلك كل صالح لمن يليه أو يسأله تأمين عفـــو الله له. وقارب المسلمون النصارى الذين يتخذون للغفران من دون الله وكيلا. والحق أن الفضل يوم الدين بالكسب من الصلاح والتقوى لا من النَسب، وقد ضرب الله في القـــرآن لبيان ذلك في ولد الأنبياء ونسائهم أمثالاً. وقد ذكر في القرآن مساءلة المرســـلين ومـــضاعفة الجزاء لهم أو عليهم لأنهم مثال البيان للهدى وقدوته. ونفى الله كذلك الشفاعة إلا بإذنه من الملائكة – الذين تعبّد لهم العرب زلفى وشفعاء عند الله، ومـــن كـــل صالح، فإن سئل النبيون والصالحون فنجوا وفازوا فإنهم يستغفرون لسائر المؤمـــنين كمـــا يـــستغفر لهم الملائكة، ولا يلحق أحد بآخر إلا أن يكون قد اتبعهم بإحسان. ويفر كل ممن يليه في السؤال وكلٌ آتي الله فرداً بلا وليّ ولا قريب، ولا يزر وازر وزر آخـــر، ولا يُحمل المسئولون إلا إن كانوا أزواجاً وزمراً متماثلين في الصلاح أو الفـــساد بميزان حساب كسوبهم. وكذلك لا يحقّ العقاب إلا على مَن بلغه الهدى والنذير ففسق. وجمهور المسلمين يحسبون أن البلاغ المحيط بالناس كافة قد كفى ساعة صدع الرسول بالحق، عبر الأرض كلها والأحقاب الخالفة، ولا يجعلون حساباً لقصور تبلـــيغ الدعوة من المسلمين بياناً في خطابهم أو مثالاً في حياتهم ولبيّنات غياب العلم بها في أبعـــاد مـــن الأرض. والحـــق أن الناس مسئولون – سواء كانوا من ملة الإسلام بخـــيارهم أو بموروثهم أو من غيرها – بقدر ما بلَغهم من الهدى والنذير ما لم يُعرضوا عمـــداً أو تغـــافلاً. ومن بعد السؤال بقدر ما في فطرة الإنسان من معرفة بدائه الحق والباطل وموازين الظلم والعدل أو في المعروف بين الناس في ذلك، فلكل حظّة خاصة من الحساب بقدر وسعه في علم الهدى وفي إنفاذ مقتضاه عملاً وبحسب ظروف البلاء الـــتي تحـــيط بـــه عيناً يسراً أو عسراً، وذلك حساب يعلم ويحسب دقائقه الله. وهذه المـــبادئ الحق في المسئولية ينبغي أن تكون مرعية في تطبيق شريعة الأحكام التي يقيمها المسلمون عرفاً أو قضاء بالسلطان: ألا يؤاخذوا أحداً إلا إذا كان هو لا قريبه موزوراً بالفعـــل الملوم ولا يؤتوا فضلاً في الجزاء إلا لمن كسبه، وألا يضايفوا الأوزار بين الناس موكـــولاً حمـــل بعـــضهم لبعض في الجنايات أو الضرر ألا ما يكون من غُرم الأموال المتـــرتب على المساءلة فالناس في رزقهم بشريعة الدين متكافلون متضامنون يتحاملون

حـــتى في وقع الغرم. ولكن العقوبة في الأحكام بالسجن التي لا تلزم لكف يد محذور الأذى للآخـــرين هي عقوبة ممتدة إلى من يعول الجاني ليزروا وزراً ما حقّ عليهم هم. وينبغي أن يُشترط في الأحكام العقابية البلاغ بالحرام والنذير بالعقاب. والاستصحاب في الناس عامة أنهم يعلمون الأحكام، فهي علم منشور على الملأ ويتعسر لزوم البيّنة في بلـــوغه لمـــسئول بعينه، وتفتح شرعيةُ التعذر بالجهل أبواباً وحيلاً لا تنسد. ولكن إذا تـــبين جهـــل متهوم بالضر أو العدوان ينبغي استيفاء حق المظلوم والتحامل بين الناس كافـــة الـــوزرَ يتولون الوفاء لاسيما أنهم لم يبسطوا لكل أحد كفايةً لواجب يعمهم. هكـــذا ينبغـــي أن تُراعى مبادئ المسئولية الحقة التي بيّنها الله في القرآن للمؤمنين منذ هـــذه السورة المكية وغيرها ليثبّت علماً في نفوسهم في أمر حساب الآخرة وعدةً لهم إذا تمكـــنوا في الأرض مرعية في أعراف مجتمعهم وقضاء سلطانهم استهداء بعدل قضاء الله. والله في الدنـــيا يفاضل الناس أفراداً وطبقات في العلم والمال والسلطان وغيره من الكـــسب ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً يتعاونون كلٌ بما تيسر له بعضهم يعلّم بعضاً أو يُفتـــيه، أو يـــشارك بعضاً أو ينفق عليه، أو يخدمه في ابتغاء الرزق أو يدير نظام عمله ويمـــده، وبعـــضهم يـــصنع الأحكام عن هدى وشورى ويتخيرون بعضاً ولاة وأمراء وقـــضاة لإقامتها. وهم مبتلون بهذا التفاضل أيتخذونه هكذا تعاوناً أم يتخاصمون في معادلـــته أو يتظالمون ويتعادون بفتنته، الفقير يسرق ويسلب أم يصبر ويسعى، والغني يتـــرف ويطغى أم يمد يد الشركة والصدقة، والجاهل يقفو ما ليس له به علم أم يسأل ويـــتعلّم، والعالم يكتم ما آتاه الله إثماً أم يؤتيه، ومَن في الرعية يشير وينصح ويطيع أم يـــستخف أو يتمرد، والوالي يلتزم بعهد الولاية وأمر الشورى ويتقي الله في الحق العام أم يطغـــى ويفجر. إن الله يوم القيامة يفاضل بين عباده لا وفق درجات تفاضلهم في كـــسب الدنـــيا بل بالقسط وفق كسبهم في ابتلائهم، فالجهال والمساكين والرعايا قد يدخلـــون الجـــنة لأنهم اتقوا الله بوسعهم وصبروا كثيراً، والأغنياء والولاة والعلماء قد يذهـــبون بالأجور لأنهم اجتهدوا اتقوا الله وأعطوا، والأولون قد يُؤاخذون يوم القيامة لأنهـــم فتنوا واستُخفوا والآخرون لأنهم استكبروا وأضلوا كثيراً. ودرجات يوم القيامة أكثر تفضيلاً بذلك الحساب.

ترتيل المعاني (الآيات ٢٢ – ٣٩):

﴿لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّه إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ (٢٢)

الآيـــات السابقة تذكر القرآن هادياً للتي هي أقوم مبشراً ومنذراً، ثم تبدأ الهداية بتذكـــرة للإنـــسان العجول ليعبُر زمان حياته المحسوب ابتغاء الآخرة، ثم بتقرير لأمانة المسئولية والمحاسبة الفردية عن الهدى أو الضلال وبرفع العقاب إلا بعد النذير وبمفاضلة عطـــاء الله درجات في الدنيا لراغبها وفي الآخرة لمبتغيها. وسبق في تلك الآيات ذكر أســـاس الهدى كله وما يعقبه من السؤال والجزاء على الإيمان بتوحيد الله الذي أوصى بـــنو إسرائيل ألا يتخذوا من دونه وكيلاً. وإذ تُفصّل الآيات التالية فروع الهدى يبدأ الخطـــاب في هذه الأولى بذلك الأساس: ألا يجعل المخاطب مع الله إلهاً آخر – سواء اتخذ صنماً للعبادة أو هوى لمتاع – أن يبتغي في حياته الدنيا وجه الله وحده لأن ذلك فيها هو هداه والسؤال والعقاب عنها من لدنه رباً للعالمين ملكاً يوم الدين، وألا يشرك بـــه إلهاً فيقعد مذموماً في الدنيا الضلال أعجزه عن الصلاح مخذولاً في الآخرة من أن يـــبلغ فلاحاً بشفاعة أو نصر من وليّ أو شريك عَبَده وأطاعه في الدنيا دون الله أو من الشيطان الذي أضله ومنّاه.

﴿وَقَـــضَى رَبُّـــكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ (٢٣)

كمـــا قضى الله بأقداره إلى بني إسرائيل في الكتاب أنهم بعد التمكن في الأرض بالهـــدى والتوحـــيد لله مفـــسدون فيها متعالون فمأخوذون جزاءً ببأس شديد، قضى للمـــؤمن بـــربه في القـــرآن – كمـــا يخاطب والمؤمنين جماعة في مكة ما تمكنت بعد فالخطـــاب لهـــم جميعاً: ألا يعبدوا إلا إياه اجتناباً لما يحيط بهم من تقاليد مجتمع الشرك وأعـــرافه الـــسائدة. ثم – كما هو نهج القرآن – تلواً لذكر توحيد الله خالق الإنسان بأصـــل وجـــوده – يخاطب الإنسان التالي للقرآن فرداً في شأن الوالدين أصل خروجه الظاهـــر في الحياة، قضى الله لهم منه إحساناً في بر المعاملة لا في إتباع مذهبهم إلا على الهـــدى الحـــق. وذلك وفاء بعد ولادته لجميل التربية حتى ينمو والتزكية حتى يرشد مـــؤهلاً بـــتجاربه وكـــسبه في الأسرة المحدودة لمجاهدة بلاءات المجتمع الواسع. فهو

يلازمهما بالإحسان، وإما يبلغنّ عنده – في رعايته – الكبر أحدهما أو كلاهما لا كفيل إلا هو، ألا يقول لهما أف ضجراً مهما يبلغ بهما الكبر أو الهرم من غاشية قول أو فعل فيها لـه جرح، ولا ينهرهما زجراً مغلظاً صداً عن مقولة أو مطلبة فيها عسر وإلحاح كبير، وأن يقول لهما قولاً كريماً مهما يكلفه الأمر يرضيهما ويكرمهما قولاً فلا يقرب العقوق ولو بأدنى تعبير.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤)

ولـيخفض الابن – مخاطباً – لوالديه جناح الذل مرخياً جانبه من الرحمة تواضعاً ورفقاً تجاوباً مع الرحمة التي تلقاها منهما عند طفولته وصباه، وليدع لهما سائلاً ربه من رحمـته الأتم ورفقـه الأبلغ أن يرحمهما جزاء لهما كما ربياه صغيراً عن حب وعطف دون ابتغاء عائد منه مكافئ.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (٢٥)

والخطـاب يـستمر لمخـتلف الأبناء في سياق رعاية الوالدين: ربهم أعلم بما في نفوسـهم من عاطفة المبارّة الخالصة للوالدين والمصابرة لتكاليف رعايتهما أو ما دون ذلـك من مشاعر العقوق، الله أعلم بهم ممن حولهم لا يراقبون إلا ما يبدو. إن يكونوا صـالحين في عمـوم طوية الإحسان للوالدين فإنه تعالى للأوّابين – الرجّاعين بعد كل عارضة جماح من النفس بإجماع الأمر على مرحمة لهما – كان غفوراً، واسع الستر لما وقع من التقصير عرضاً[1].

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (٢٦)

ثم الخطـاب للمهـتدي بالقرآن – بعد شأن أبويه – أن يؤتي ذا القربى حقه من الكفالة لحاجته إن عجز عن قضائها، ومن ورائه للمسكين الذي سكّنه ضعف القدرة وبـؤس البلاء عن كسب كفايته. ثم أن يبلغ الإيتاء ابن السبيل الغريب المسافر المنقطع

---

(١) في حسن معاملة الوالدين: راجع الآية ٣٦ سورة النساء، والآية ١٥١ سورة الأنعام، والآيتين ١٤و٣٢ سـورة مريم، والآية ٨ سورة النساء، والآية ١٤ سورة لقمان، والآيات ١٥-١٨ سورة الأحقاف.

عن المال اللازم لحاجته. وعليه ألا يبذر تبذيراً، ألا يفرّط في عطاء تلك النفقات مفرطاً في الإنفاق لهوى نفسه هو مسرفاً سرفاً شديداً في وجوه ترف المتاع.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧)

في الغيب حق ينبغي تذكّره. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، في طبع صحبة ومـــوالاة ملازمة للشياطين الذين يوسوسون لهم يَزّينون في الأرض ترفاً وخيلاء متاع. وكـــان الشيطان لربه كفوراً، هو شيطان بالغ النأي عن ربه والجحد لرحمته تعالى من الـــرزق حجباً عمداً – ألا يُعرف ولا يُرد جميلها شكراً بالإنفاق اقتصاداً في تقوى له تعالى أو على ذي الحاجة في سبيله.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا﴾ (٢٨)

والخطـــاب يتصل لمن يلقى ذوي الحاجة سائلين أو متعففين بادين بسيماهم إنه أيضاً إما يعرضن عنهم – إعراض حياء ولطف لا إدبار وانتهار – ابتغاء رحمة من ربه يـــرجوها حـــتى تواتيه رزقاً من الله فيُقبل عليهم ويؤتيهم من العفو، إما يحدث ذلك فـــيقول لهـــم قولاً ميسوراً، ذا يسر يشرح الصدر. فالمعطي المحسن لا يمنّ ولا يؤذي، والمسئول العاجز عن الإحسان لا ينهر السائل بل يرده بقول معروف تعذراً أو دعاءً أن يرزقه الله وإياه.

﴿وَلاَ تَجْعَـــلْ يَـــدَكَ مَغْلُـــولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩)

ويـــستمر الخطاب نصحاً في الاقتصاد في تصريف الأموال: فلا يجعل يده مغلولة إلى عـــنقه، لا يقبـــضها شحاً وقتراً كأنها مشدودة إلى رقبته. ولا يبسطها كل البسط تبذيـــراً، فيقعد في العاقبة ملوماً على ما فوّت من قضاء حاجة بخلاً أو أتلف مالاً طيشاً إذ كان يُعدّه لحاجات أولى وأرشد، محسوراً انحسرت عنه فرصة إنفاق رشيدة أو فاتته كفاية حاجات حكيمة كما بدا له تالياً فأصابته الحسرة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣٠)

ويُذكّر المخاطب أن ربه يبسط الرزق لمن يشاء فيضاً ويقدّر ضيقاً في السعة، ابـــتلاء لعباده يقلّبه عليهم بمختلف الوجوه. إنه كان – متمكناً من الإحاطة بعباده

خـــبيراً بالـــغ العلم بخبر تصرفاتهم بصيراً بالغ البصر بوجوه الابتلاء ورشد الهدي لهم[١].

﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾ (٣١)

ويتـــرتب خطـــاب عام لدواعي أزمة الفقر التي كانت ابتلاء يدفع بعض العرب في الجاهلية لسنّة سيئة من قتل الأولاد لاسيما البنات كرهاً لتكلفتهن من خيبة لاكتساب من جهـــدهن وخوفاً على العرض عاراً من تلقائهن. والأمر للمخاطبين ألا يقتلوا أولادهم – فالمولـــود مد للسلالة ذكراً أو أنثى وعون وبر للوالدين لاسيما عند الكبر. ألاّ يفعلوا ذلك خـــشية إملاق، فقر مدقع من حاجتهم للإنفاق الزائد، فالله يشهد أنه يتعهد رزق الأولاد والآبـــاء المأمـــورين بالنصح، ويثبت بذلك الحق: إن قتلهم كان خِطأً – خَطأً آثماً – كبيراً لأنه قتل نعمة بغير ذنب في طفولة يُسأل الكبار عن تربيتها ورعايتها وحفظها[٢].

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ (٣٢)

ويمـــضي الخطاب بالنهي المضاف أيضاً في شأن حرمة عقد الزوجية وأمن الأسرة وحفـــظ دواعي قيامها. ألاّ يقربوا الزنا، فإن مقدماته تزلق إليه إذ تغلب الشهوة فتجر إلى لا مكفكفـــة بضوابط التقوى داعية لبناء زوجية وأسرة مشروعة لنتاج ذرية صالحة بل متعدية لحدود الله مفسدة لبيئة الحب والمودة والطهر والثقة حيث يتزكى خلق الآباء والأولاد أو منبتاً لنفس قد تضيع دون رعاية في مهاد معروف. والحق الزاجر عن الزنا: إنـــه كان فاحشة – سيئة غليظة الوقع عظيمة القبح إذا فشي الأمر وشاع، وساء الزنا سبيلاً لقضاء حاجات الشهوة التي شُرع لها الزواج والنكاح المعروف سبيلاً حسناً[٣].

---

(١) في ذكر ابتلاء بسط الرزق من الله وقدره ووصل ذلك بوصية الإنفاق: انظر الآيتين ٣٧و٣٨ سورة الروم، والآيات ٣٦-٣٩ سورة سبأ.

(٢) في ذكـــر الـــسنّة الإشراكية الجاهلية وأداً للبنات: راجع الآيات ١٣٧-١٤٠و١٥١ سورة الأنعام، والآيتين ٨و٩ سورة التكوير.

(٣) في ذكـــر فاحـــشة الزنا وعقوبتها: راجع الآيات ١٥و١٦و٢٥ سورة النساء، والآيات ٢-٥ و١٩ سورة النور، والآية ٦٨ سورة الفرقان، والآية ١٢ سورة الممتحنة. وفي ذكر الفاحشة إتياناً للذكور: راجع الآيتين ٨٠و٨١ سورة الأعراف، والآية ٥٠ سورة النمل، والآية ٢٨ سورة العنكبوت.

﴿وَلاَ تَقْـتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣)

والخطــاب يستمر واصلاً بذكر الزنا الذي قد ينتج نفساً تضيع أو يثير غيرة تدعو لإهلاك نفس بالقتل الذي يُميت نفساً أنشأها الله عاملة في الأرض: ألا يقتلوا الـــنفس الـــتي حرم الله إلا بالحق. لم يأذن الله بانتهاك حرمة حياة الأنفس إلا عند القتال المشروع معاقبة ومدافعة للعدوان على أنفس المقاتلين، ولا قتل لنفس واحدة إلا كفـــاء لقتلها نفساً مظلومة قصاصاً منها قد يستدركه عفو الولي أو الدية. ولا حق في قتل نفس لارتدادها عن دين الإسلام فلا إكراه في الدين إلا أن ترتد نفس فــتفارق الجماعـــة وتلقاها مقاتلة في صف العدو فلا ينفعها إسلامها السابق، ولا لجناية عن إحصان لأن القرآن نسخ تلك العقوبة المشروعة في التوراة بالأذى جلداً معدوداً.

ومن قُتل مظلوماً فقد جعل الله بأقدار عدله وحكمه لوليه سلطاناً – سلطةً بالغة أن يطلـــب القصاص بعد ثبوت البيّنة أو يعفو أو إن شاء يأخذ الدية. فلا يسرف الوليّ في القتل بدافعة الثأر التي تنفجر غضباً وقد تبلغ أنفساً عدّة تسوية مزعومة لعزة القتيلة، إنـــه كان منصوراً بذلك الحكم أخذاً ليد القاتل وقتله قصاصاً يكافئ بين نفس ونفس ويطفـــئ غـــيظ أولـــياء القتيل وشائعة الغضب المعروف، والمظلوم منصور في الآخرة بتسوية الحقوق أخذاً على الظالم[1].

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ (٣٤)

وفي هدي الأسرة والأولياء يستمر الخطاب لمجتمع المؤمنين في ظاهرة اليتم ورعاية الأيـــتام مـــن أوليائهم، فيضاف ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن – لا يؤكل حوباً ولا يؤخذ منه أجر رعاية إلا إن لزم للفقير الوليّ بالمعروف ولا يُتاجر فيه بتصرف تثمير إلاّ لنفع اليتيم ألا ينتظره ماله جامداً وبحسن أمانة وحساب محفوظ. وذلك النأي

(١) في تحـــريم قتل النفس وجزائه: راجع الآيتين ٩٢و٩٣ سورة النساء، والآيتين ٣٢ و٤٥ سورة المائدة، والآية ١٥١ سورة الأنعام، وانظر الآية ٦٨ سورة الفرقان.

مـــن مال اليتيم يقتضي ألاّ يُقرب فيفتن بل يُراعى حتى يبلغ اليتيم أشُدّه بلوغاً واستواء رشد إذ يُؤدى إليه حقه بحساب مشهود[1].

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (٣٥)

وفي معاملات المال سِلَعاً يستمر الخطاب للمؤمنين ويضاف عليهم أن يفوا بالكيل إذا كالوا لأنفسهم لا يطففونه ليمتازوا شيئاً بباطل المكر، وأن يزنوا كذلك بالقسطاس العـــدل المستقيم بلا حيف ولا ميل بين الطرفين المتعاملين. ذلك الخُلق الوفيّ المستقيم خـــير وأحسن تأويلاً، في الدنيا يلقى كلٌ كسبه الحق وتعمر العلاقات وتتبارك الثروة بتيـــسر الثقة والمساواة، وفي الآخرة يُتقى ويل المطففين ويتضاعف الأجر لالتزام العدل في كسب الدنيا[2].

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (٣٦)

والخطـــاب للمؤمن التقيّ ألا يقفو متبعاً باجتهاد ما ليس له به علم، لا يبني على تهمة وظن بالآخرين فقد يكون بعض الظن بهتاناً ما لم يثبت بالبينة، ولا يضرب بسعيه في الشبهات مغامرةً لكسب قد يتجلى خسراناً مشهوداً ما دام دون تبيّن وتحرٍ للأرشد وحـــذرٍ من المخاطر. إن السمع والبصر – منافذ الإدراك –والفؤاد مستودع الانفعال الحـــيّ بـــالإدراك، لا عارض صوت أو لمحة أو صورة أو خاطر في العقل أو حديث في النفس بل النية الواعية والعزيمة المنعقدة سعياً نحو ما أحيط بعلمه عن بينة سمع وبصر – كـــل أولئك كان عنه مسئولاً، أن يتخذها المؤمن سبباً ليُقبل على الحق وينصرف عن الباطل ليحتمل المسئولية من الله الشاهد على المدركات العليم بما في الصدور.

---

(١) في رعاية اليتامى: راجع الآيات ٨٣و١٧٧و٢١٥و٢٢٠ سورة البقرة، والآيات ٢-١٠ و٣٦ و١٢٧ ســـورة النساء، والآية ١٥٢ سورة الأنعام، والآية ٤١ سورة الأنفال، وانظر الآية ٧ ســـورة الحشر، والآية ٨ سورة الإنسان، والآية ١٧ سورة الفجر، والآيتين ١٤و١٥ سورة البلد، والآية ٩ سورة الضحى، والآية ٢ سورة الماعون.

(٢) في وفـــاء الكـــيل بالقـــسطاس: انظر الآية ١٥٢ سورة الأنعام، والآية ٨٥ سورة الأعراف، والآيـــتين ٨٤و٨٥ سورة هود، وانظر الآيات ١٨١-١٨٣ سورة الشعراء، والآية ٢ سورة المطففين.

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (٣٧)

وتــضيف الوصية للمخاطب ألا يمشي في الأرض مرحاً - تعبيراً عن شدة فرح بطيش الهوى أو شهوة الخيلاء، إنه لن يخرق الأرض - من مكانه ليبلغ أطرافها، ولن يــبلغ الجبال طولاً من سطح الأرض ليسموا إلى أعلاها، ما يكون للمؤمن أن يبدو في مــساعيه في الأرض الغرور النافذ أو الطمع الباغي أو التطاول المفاخر للآخرين، بــل يمــشي هــوناً بــين الناس متواضعاً يبتغي فضل الله الكبير المتعالي، بالمشروع والمعروف[1].

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨)

كــل ذلك المنهي عنه مما سبق ذكره كان فعل سيئة، إنه كان عند رب المخاطب بالنهــي مكــروهاً، والمؤمن يحرص أن تكون فعاله لمرضاة الله لا لغضبه، فضلاً عن أن ذلك منكر بمعروف عباد الله، فهو بئيس العواقب في الدنيا والآخرة.

﴿ذَلِــكَ ممَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٣٩)

وخــتام الوصــايا للمخاطب بالمناهي: ذلك مما أوحى إليه ربه بواسطة بلاغ رسوله من الحكمة - أن يجعل حياته أقوالاً وأفعالاً على المسلك الأوفق الذي يهدي إليه القرآن ويطمئن إليه القلب الرشيد ويرضاه معروف المؤمنين. ولا يجعل مع الله إلهــاً آخر، وذلك رجعاً إلى الأمر في آية سابقة تذكيراً وتأكيداً في بدء كل الأمور ودوافعها أن يطيب صلاحاً وإخلاصاً لله وحده وفي خواتيمها وعِبرها وعظاها أن تطيب سنّة في سبيل الله أو توبة، وفي بدء الحياة عَبرها إلى آخر يوم الدين والحساب فالله هو الهادي لمسك الحياة الأولى والجازي في العاقبة معاجلاً في الدنيا أو مؤجلاً للآخــرة. فــإن أشرك المرء بالله إلهاً آخر صنماً أو هوى فإنه يفعل ذلك ليُلقى في ختام وجوده في جهنم ملوماً يُلقى عليه لوم أشد من الذم مدحوراً يُطرد من مجال رحمة الله بأتم وقع من الخذلان من أوليائه - مما سبق ذكره عاقبةً للشرك بالله الهادي الواحد.

---

(١) انظر الآيتين ١٨و١٩ سورة لقمان.

عموم المعاني: (الآيات ٢٢ - ٣٩):

أول ما قضى الله لعباده المؤمنين أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به سواه. وذلك أصل لكل هدي الحياة في الخلق الحسن الذي يبسط التراضي والحمد ويصل حبال المودة بين المؤمنين في الحياة، دون خُلقٍ أصله الإشراك يقعد بصاحبه مذموماً مخذولاً. فالله الواحد الصمد إذا توجه الناس بحياتهم كلها لعبادته توحدوا بذلك الصوب الخالص لوجهه و لم يتفرقوا وراء الآلهة والأرباب المعهودة في شتى أعرافهم ومحالهم، ولا اضطربت ولا ارتبكت ولا تناقضت مقاصد مسالكهم. بل أنهم بتوحيد الله الذي له ما في الغيب والشهادة يستقيم سير حياتهم الدنيا في سبيله موصولاً بمده مرجعاً إليه في الغيب لا يزدهدون بل يعمرون الأولى ولا يغفلون ويخسرون الآخرة. والمؤمنون بالله الحكم العدل يتخذونه وحده هادياً مطاعاً مهما اختلفت بهم مسائل الحياة وقضاياها يرجعون إلى هديه ليعتصموا به وفاقاً ولا يتفرقوا بما تنـزع إليه الرؤى والأهواء المتباينة في بلاءات الدنيا، وليتآخوا وليتوالوا أمة واحدة وإن مايزتهم القرون ومواقع الأرض يقومون مجتمعاً متكافلاً متعاوناً متضامناً سلفه وخلفه وبعيده وقريبه وإن تفاضل وُسعهم وكسبهم في العلم والسعي درجاً وابتُلوا بتفاوت فرص الحياة وعرض المتاع المحدد لا يفتنهم التنافس ونـزغ الشيطان فيودي بهم إلى صراع أفراداً وطبقات. إن المجتمعات التي وهي فيها الإيمان بالله الواحد إشراكاً بآلهة شتى أو كلٌ يتخذ إلهه هواه متعبِّداً بشهوته لمبتغى المتاع، فإنهم لا يتحدون على أصل هاد ضابط للأخلاق الحسنى بل يلتمسون الأخلاق بينهم في ثقافتهم السائدة إجماعاً على رؤى في منهج علاقات الحياة أو على أعراف في المسلك فيها يرسّخها التقليد للمعهود والموروث وتعززها حوافز المجتمع الفعال وزواجره حمداً أو ذمّاً. ولكن الثقافة تتطور وتتقلب وكذلك الأعراف تتبدل وتتقلب في تمييز ما هو زين وما هو شين خُلقاً، والمجتمع عصاماً للفرد قد تبلى وشائجه المعهودة فينطلق الفرد معربداً خارجاً من الضوابط والحوافز الفعالة لإرساء الأخلاق. ذلك إلا ما تستدرك الأحكام الأميرية والقضائية من السلطان في ظاهر السلوك وعموم الأفعال مجردة من سائر ما يكتنفها من خصائص الحياة ودقائقها، أو ما تحفظه صلات تتجدد في المجتمع بين ذوي الوظائف أو

الــصحبة الــواحدة حيث يتوافقون ويتضابطون في مدى السلوك الذي يعني أمرهم فقط.

والقرآن يصل الإحسان إلى الوالدين بعبادة الله لأن أسرة الوالدين هي أول الأطر في الحــياة بعد الخلق والحياة، وهي أخلصها وأحوطها بالصغير تتعهده بالتربية والتزكية وتــزرع فيه قيم السلوك الطيب وموازينه المقبولة. وهي النواة الأساسية في بنية المجتمع أوثقُ حلقات تراكبية تقوم واسطة لنقل دواعي خُلقه ونواهيه إلى مَن فيها وترسّخ فيه كــل علــم المجتمع ومذهبه وعرفه من أصول الأخلاق. وما تزال الأسرة المباشرة عند المسلمين بخير وَسَط في هديها من الدين ولكن ضعف دينهم في شعاب حياتهم الباطنة والظاهــرة الأخرى قد يودي بهم أحياناً إلى فتنة تغلب عاطفتها على الفرد لأن الإيمان بالحق منكبت فيه شيئاً ما فهو لا يستقيم في موازين تقويماته وأحكامه عدلاً بل ينعطف لاويــاً متحيزاً إلى الوالدين أو الولد. ذلك ولو صلح دينه وزكى إيمانه لاعتدل بميزانه يحفــظ المبارّة والإحسان للوالدين أو الولد ولكن حق العدل يعلو فوق تلك الوشيجة فــلا يمالــئ ولا يطاوع إلا بالحق، كما يعلو كذلك فوق حب النفس فلا ينطوى عن القيام بالقسط والشهادة لله في الحياة ولو على النفس والوالدين والأقربين.

وذوو القربى يلون الأبوين لا نسباً وحسب بل تكافلاً بالأموال، المؤمن يُؤتي ذا القــربى، بعــض ذلك فرض لازم وبعضه فرض مندوب. والقربى إطار حول الأسرة يغذيــه التكافل كما يغذي الأسرة الإعالة، لتحفظ مجال الموالاة فيها مجالاً لخصوص التناصح وللتشاطر في الأحزان والأفراح والتضامن في سائر ابتلاءات الحياة وللقيام بما يلــيها بِنْيةً في هيكل بناء المجتمع المتوالي المتناصر المتعاون لترقية العلم والمعاش كسائر البنى الفرعية الأخرى التي تقيمها الصحبة أو الرفقة في العمل أو الجيرة أو الموالاة في الرأي والمصلحة الخاصة أو نحو ذلك. ولكن القربى قد تكون فتنة والعصبية لها عشيرة ثم قبــيلة داعياً لأن يتساخر الناس ويتفاخروا أو لأن يضلوا غواية مع الأهل ويظلموا انحــيازاً لهــا. ولكن الدين وعدله الحق يحفظ وشيجة القربى مهما تكثفت الوشائج الأخــرى ولكن لا يعتبر التفاضل بالنسب ولا التفاضل في الحقوق بالقربى بل ذلك بالتقوى والحق القسط.

والله يوحـــي بـــرعاية ذوي الحاجة كالمسكين الذي سكّنته وأعجزته القدرة أو صروف البلاء عن كسب كفايته وابن السبيل الذي حبسته ظروف الغُربة عن ماله أو عـــن الاستعانة بذوي القربى. والالتزام الطوع بالنفقة لذوي الحاجة استدراكاً لتفاضل الكـــسوب وطوارئ الحاجات والضرورات وقايةٌ من أن يتباين الناس بمستوى المعاش المـــشهود لدرجـــة فاحشة وتثور فيهم غبائن المقارنة بين الأحوال ويتولد فيهم الشح والحسد وتحمى الصراعات لاسيما بين الطبقات المتناحرة القوى. وإذا وهت في بعض المجتمعات روح التدين والتآخي ورؤية المال مِلكاً لله يُستخلف فيه الإنسان ليرتزق منه ويـــرد عفوه في سبيله تعالى بعائد عليه مضاعف من الأجر، وإذ تضاءل من ثَم الإنفاق الطوعـــي وأزِمـــت أحوال بعض ذوي الحاجة واحتدت المفارقة المشهودة، وإذ أصبح حب المتاع والترف من مادة الدنيا والشح وبسط الأيدي لجمع المال ولو بالباطل حباً لـــشهوته واحتكاره قبضا عن حاجات الآخرين الملحة إلا ما تتشارك في المصالح المادية بحـــساب – عندئذ تعمد بعض المجتمعات للتعويل على المذاهب الاشتراكية في سياسة الـــسلطان وأمـــره، يأخذ من ذوي الأموال بالضرائب على كل فيض فيها لينفق على الحاجـــات والخدمات الاجتماعية للفقراء. ولكن ذلك ذهب بالمجتمعات إلى تحيز بين الخـــيرِ الـــلازم فرضـــه وبسطه لدرء التباين الفاحش الظالم وانتشار النوازع للإجرام والـــصراع، والـــتعويل على تلقّي العطاء بغير كسب الذي يقعد بكثيرين دون السعي والاجتهاد في سياق المجتمع لترقية الكسب العام في نماء المعاش، لاسيما أن الذين سعوا وبلغـــوا درجـــاً عالياً في ذلك يزجرهم في مسعاهم تصاعد الضرائب إلا بحيل الزور. والمجـــتمعات المؤمـــنة ببسط العطاء والتكافل بين الأفراد في سبيل الله مكافحة لظاهرة الفقر والتباين بفتنة تفاضل الكسب بين الناس إنما تتخذ أمر السلطان لاستدراك قصور الخُلـــق عـــن الوفاء بحد أدنى من حاجات الناس، ثم تشهد غالب واقع التكافل مرعياً بدوافع العطاء المأجور في الآخرة عند الله الذي قد يُعقبه أيضاً مباركة بكسب عاجل، وتـــشهده مكتنفاً بروح إخاء إذ يجري عن طيب خلق وكلمة حسنة دون منّ أو أذى ويُـــستجاب لـــه بشكر ومعروف جميل، وذلك توثيق لعلاقات المجتمع وتمتينها بالخُلق فضلاً عن الموالاة فيه في إطار من المواطنة أو مدى من السلطان الواحد.

إن كرامة النفس البشرية وحرمتها أساس يعتمده هدي القرآن أصلاً لكل منظومة وجــود الإنــسان: الخلق والابتلاء والهدى والجزاء. ولذلك تلزم خاصة رعاية النفس الأضــعف التي لا تملك قوة المدافعة عن حياتها. ذلك أن قد كانت من فعال العرب في الــولد لاســيما الأنثى الوأد في الطفولة أو عند المولد خشية من تكاليف الإنفاق أن تتعسر، وقد قضى فيهم القرآن بحرمة هذه الفعلة والسؤال عنها يوم القيامة. والحمد لله أن قــد قضى على الظاهرة. والآن انتشرت سُنّة دونها قليلاً هي إجهاض الجنين الحي ليهلك قبل ميلاده. وهي فعلة تنازع المعهود قبلاً والمشروع ديناً لتصبح عرفاً فيه اتقاء تكالــيف رعاية مولود وطفل وتيسير لاتساع إباحة الزنا لقضاء شهوة المناكحة دون تــبعات متــرتبة. وذلــك الوأد اللاحق والسابق للولادة حرام في الدين رعاية للنفس البشرية إلا إذا كان الإجهاض اجتناباً لجنين شائه الخلق لأول نشأته أو لضرورة الخيار بــين مــوت نفس قادمة وعاقبة حملها المخوفة على الأم- هلاك نفس قائمة. وكذلك حرم القرآن الزنا لئلا يُثمر مولوداً لا تتوافر له كرامة النفس تربية وتزكية ورعاية حتى يبلغ أشُدّه، ولئلا تدفع الشهوة التي زرعها الله في طبيعة الذكور والإناث حافزاً للتزاوج والــتوالد والتناســل وحفظ تعاقب وجود الإنسان – إلى تجاوز الزواج وإشباعها قبله وحــوله دون مبالاة وذلك حذراً من ضياع كنف الأبوة لمولود أو – إذا مُنع الحمل – من الزهد في قيام الأسرة المشروعة أو من تهور عمادها بغضب الغيرة والريبة في الموالاة والمــوادة فيها والبدو للمشاقّة أو المفارقة التي يخسر منها الأطفال والكبار ويضعف بها روح الــوفاء بعهــود سائر الحياة، تضعف جدوى الأسرة ويتضاءل وفاؤها لوظائفها كافــة. أما النفس الحية فحرّم قتلها الدين إلا بالحق، حرّمها قتلاً إجراماً عن غيرة من اختصام أو عدوان غضبه واشتجار أو بُغية نيل من وجودها منافساً أو سلب لما عندها بَغــياً. وهدي القرآن- إن قُتلت نفس بغير حق- أن جُعل لوليها سلطاناً من قصاص نفــساً بنفس ومجالاً للعفو استجابة لمساعيه أو استعاضة بديّة عن نفس كانت كاسبة. وذلك الميزان العدل يشفي الغيظ لئلا يحمل رد الفعل ثأراً على الإسراف في الانتقام أو يحمــل فرط حب المكافأة على قتل من قتل نفساً دفعاً عن نفسه بحق، وهو يحق العدالة ويفتح باب التعافي بين المؤمنين. والقصاص حقه زاجر من الإقدام على القتل أو المضي

فـــيه عـــادة مسنونة والديّة غرم يكف شهوة العدوان على نفس أخرى بغياً أو مغنماً، والعفو يفتح مجالاً للتوبة بالصيام والتحصّن دون عذاب الله العظيم في الآخرة. والنفس لا تُقـــتل بحـــق إلا مقاصّـــة عن بيّنة وحكم قاض بها، أو في ساحة معترك قتال دفاع مشروع بين طائفة باغية وأخرى تدفع عن نفسها وكذلك في سياق الدفاع عن النفس في وجـــه مـــن عدا عليها بمحذور الهلاك. أما ما اشتهر قوله من الرجم في الزنا فتلك شـــرعة في الـــتوراة فعلها الرسول المصدِّق لما بين يديه حتى نسخها القرآن في سورة أنـــزلها الله وفرضها آيات بيّنات لعل المؤمنين يتذكرون. وأما ما يُروي من قتل المرتد فصريح آي القرآن المتواتر لا يبيح إكراهاً في الدين لأنه من مشيئة الله الكبرى أن يذر الـــناس إن شاءوا آمنوا وإن شاءوا كفروا حتى يحاسبهم الله يوم القيامة، وإنما رُوي في الأمـــر حديث بغير سياق لعلّه في المرتد الذي يفارق الجماعة وينقلب عليها مقاتلاً في صـــف كفر عاد وقد كان معهودَ الإيمان فذُكر أنه عدا بردّته وعاديته فلا أمان له إن وقـــع قتله في القتال. وبعض المجتمعات التي هجرت شرائع الدين وأعلت الإنسان على كل الوجود أخذت ترى لنفسه حرمةً لا تجيز العدوان عليها من سلطان رشيد حتى لو جنت قاتلةً أنفساً. فهم يؤثرون السجن المتطاول الذي هو إزالة للنفس من ساحة الحياة الـــراتبة ودون حكم القرآن الذي يفتح باباً دون القصاص للعفو فالتسريح للمعفو عنه الـــتائب. والقصاص وخيار تركه لدية أو عفو محض أفعل ردعاً للنفوس التي تهمّ بجناية قـــتل وحفظـــاً من أن تتداعى المَقاتل سنّة تنـــزلق إليها نفوس كثيرة أو الثأر المسرف لنفس ماتت لم يرض أولياؤها بالحق العدل. وذلك درك بالغ دون حفظ حُرمة النفوس حتى تُتوفى لأَجَلها بأسباب أخرى.

أمـــا خُلق معاملات المال فقد بدأت وصايا القرآن بما هو أولى تقيّة من الظلم في شـــأن يقوم فيه طرف قوي قد يُفتن بفرص سانحة لإشباع شهوة الهوى وطاعة نـــزغ الشيطان لاغتنامها إيقاعاً للظلم على الضعيف. وتلك هي حال اليتيم الذي يرعاه وليّ لـــه يتولى تصريف ماله الذي حقّ له بالميراث ولم يرشد هو بعدُ ليتولاه. فوصية القرآن ألاّ يُقـــرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشُدّه فيُدفع إليه. والمجتمعات التي ضـــعفت فـــيها التقوى من أكل أموال اليتامى قد تكل رعايتها إلى ولاية عامة، لكن

عاطفـــة القـــربى من الأولياء وضوابط الرقابة في المجتمع وتقوى الله الرقيب أجدى في رعايـــة مال اليتيم ألاّ يُقرب إلاّ للاتجار الأمين فيه لنمائه أو الإنفاق منه عليه أو الأجر بالمعـــروف للولي إن لزمه ذلك. والوصية القرآنية للراشدين المعزَّزة بتذكير المسائلة عند الله هـــي الوفاء بالعهود حفظاً للمعادلة المرْضيّة التي انعقدت بين طرفين في عهد. فقد يغـــري الشيطان إذا لاحت فرصة لاحقة لعقد العهد أن يَنقض طرف فيه ما يحقّ عليه وفـــاؤه ليكسب مغنمة تجعله أربى كسباً من الطرف الآخر الذي يرهنه العهد. والتعاقد علـــى العهود – وعوداً ومعاوضات بعفو القول أو مدلول الفعل أو التفاوض فالوفاق جداً مكتوباً ومشهوداً وموثقاً – هو نهج المعاملات الحافظ لميزان علاقات المجتمع، إذا شـــاع خُلـــق نكـــثه وغدا غير مأمون قد تتعطل بذلك طمأنينة الحياة ورقيٌّ كسبها بالـــتعاون إلا مبادلات حاضرة لتجارة أو أداءً وقبضاً لأجر عاجل في خدمة. ذلك أن الآجـــال الموعودة مجالٌ لسعة المعاملات بين الناس وُعوداً لتسليم سلع أو دين أو أداء عمـــل أو أجـــر تعمر بها حركة الحياة ونماؤها. والسلطان في مجتمع الإنسان قد يرعى لـــزوم الـــوفاء بالعقود والعهود الموضوعة على الراعي والرعية، ولكن بنياتها ونظمها ومقتـــضياتها لا تتحقّق وتمام الوفاء لا يتيسر إلا بمُثل خُلق الوفاء بصدق وضبط تقيّ، والكتابة تحريراً والشهادة بيّنة والمرجع إلى القضاء المنظور تحاكماً واردات تكون تعزيزاً وتـــذكيراً. والـــوفاء بالعهـــود خلق أصيل من مدد أساس الحياة كلها: عهد التوحيد والعـــبادة الـــصادقة لله الذي يكافئه وعد جزاءٍ حقٍ عن رقابة وبيّنة وعدالة تامة يوم القـــيامة. وآخر الوصايا في المعاملات النهي عن التطفيف في الكيل والميزان ممن يتولاه طمعاً في مغنمة وإيقاعاً لمظلمة بغير الحق. ووجوه التطفيف العاديَة على ميزان العدل في المعاملـــة المرضـــية شتى، حيثما أخل طرف بمعياره الحق قبضاً أو بسطاً ظالماً في أقدار الـــوفاء وكيفية المرسوم والمعروف أو تعجيلاً وتأخيراً في الأداء أو تثاقلاً فيه دون التمام والإتقان الموعود ليختل العدل الموزون لمغنمة بغير الحق.

ومن المناهي في هدي السورة ألاّ يذهب المرء ضارباً في مساعي الحياة على غير بيّنة يقفو الأشياء المبتغاة بغير علم لمحض لائحة من هوى أو نـــزعة من شهوة أو خاطرة عفو مـــن التبيّن والتدبر الأوفق. فالمؤمن التقيّ ينبغي في معاملة الناس والحكم عليهم ألا يتّبع

الظـــنون، إن بعـــض الظن إثم، ولا يأخذ بالنبأ الشائع عفواً غير مشهود عليه فقد يكون لغـــواً أو فـــسقاً لإيقـــاع فتنة يلزم فيه التثبتُ لعلم حقيقة الأمر. وهو كذلك في ابتغاء المقاصد، ينبغي ألا يغامر المؤمن بأمنية عارضة يتعرض بها للخسران لاسيما في مشروعات العمـــل العام الذي تقتضي عواقبه الواسعة الوقع علماً ونظراً ما وسع المجال. فالحياة الدنيا كلـــها ينبغـــي أن يهديها علم بالهدى للتي هي أقوم معنى وبحقائق الواقع التي زود الله لها الإنـــسان بوســـائط الإدراك سمعاً وبصراً وباستيعاب المدركات المعلومة لا نظراً بل عن انفعـــال إيمـــان يتبـــصر به الفؤاد دفعاً صادقاً عن حقّ الأمر رشداً واقعاً وهدى صلاحٍ وتقوى. والمؤمن مسئول عن بناء تقويماته لما يليه وتصرفاته فيه على بيّنة العلم، واستقامة الحـــياة كلها على التحري والتبين والاستهداء بالحق في الأمور وتأويلاتها. ولذلك ينبغي لقـــوام الحياة الأرشد والأهدى لكسب علوم طبائع الإنسان والمجتمع والظروف والأشياء الطبيعـــية جمعاً مع علوم الهدى وفقه الدين، وذلك فرض كفاية لعموم حياة المؤمنين تُبنى علـــيه مساعيها لإصابة الأيسر والأهدى ولاغتنام مسخّرات الكَون ونِعمه المبسوطة من الله واتقاء المضارِّ التي يُبتلى الإنسان بها في إطار حياته، كلاً بهدى من الدين. وبغير العلم التوحـــيدي لأقـــدار الله وُسننه المشهودة في الوجود المخلوق المدبَّر طبعاً من الله ولمراشد هـــداه المنـــزّلة وحياً، لا يتقدم المؤمنون بكسب دنياهم فآخرتهم بل يقعد بهم العجز أن تتّسع مجالات جلبهم للمنافع واتقاء المضار في أسباب الحياة وترقَى مسالكهم في الصلاح والإحسان بميزان الهدى. وقد كان الدين الحيّ عند المسلمين دافعاً لاتساع كسب العلم بطـــبائع الأشياء، ولكن ضعُف الدين فأصبح الهدى يُنقل علمه دون نفعه، رواية وأقوالاً دون غـــرس في الـــوجدان وصدق في العمل، ولذلك تعطلت علوم العقل والطبيعة بل اندفـــنت في غفلـــة ونسيان. وحتى الذين تجددت فيهم نهضةٌ يبتغون كسب متاع الدنيا انحصروا في طلب مادته دون وصله بمقاصد الغيب إذ التمسوا العلم الطبيعي من مجتمعات وثقافات هجرت الدين زهّدها فيه أهله الذين فاصلوا علم الطبيعة وصدّوا عنه بمواعظهم الدينـــية. فالمـــسلمون علـــى غرارهم يتقدمون في علوم أقدار الله الطبيعية صُعداً ولكن أخلاقهـــم بمعايير هدايات الله لا تتطور إلا دناية، إذ فاصلوا الدين عن خلق الحياة العامة فضلاً عن حياة المعاش الدنيوي التي حسبوها غير موصولة بالآخرة مساءلة فمجازاة. بل

كـــسبُهم ضئيل في الدنيا وعلوم طبيعتها لأنه لا يقوى بدافع الدين وتوحيد العلم والحياة حـــتى تعمر بتكثيف المسخّرات من موادها وأسبابها لا بتكثيف الشر بل بإكثار الخير في الدنيا سبيلاً إلى فضل منه في الآخرة.

ثم إن مـــن المناهـــي في السورة ألاّ يذهب المرء في الأرض – وإن لم يكن عن جهالة بهـــا – مـــرحاً فيها وطمعاً بالغاً لإرواء نـــزع الهوى والشهوة ولمنافسة الآخرين مفاخرة ومكاثـــرة وتعالـــياً. إن المرء مهما يبلغ جامح الغرور فيه بقدرة له نافذة لن يخرق الأرض كلـــها ومهمـــا تكـــن طموحاته عالية الدرج لن يبلغ الجبال طولاً. بل ينبغي للمؤمن أن يتواضـــع لـــسائر الناس ويذل لإخوانه ويقتصد في المبتغى ويتقي الله في المنافسة ولو كان أوســـع علماً وأغنى مالاً وأعز سلطاناً، ذلك للمؤمن الفرد وللجماعة المؤمنة بين العالمين، لا يدفعها الاجتهاد في الكسب إلا عن علم ورشد وتقوى ولمدى ما هو مشروع دون مظلمة لأحد ولا عدوان على الآخرين ولا جنوح عن حدود الحق وإن بلغ القصد درجاً مهدياً.

تلـــك المسالك السابقة المناهي عنها والأوامر بمراعاة تقوى الحد فيها والكف عن قُـــربه ممـــا فصّلته السورة في معاملات الناس، كل ذلك كان سيئةً عند الله مكروهاً، والمجـــتمع المؤمن يجعلها بهديه وعرفه سيئات مكروهة يُؤاخذ عليها ويرد عنها قبل أن تحقَّ المحاسبة الأتم عبر بيّنة محيطة بفعالها ما كان سراً أو جهاراً وتقعَ المجازاة الأوفى التي لا يفلـــت منها أحد بعزة ولا ولاية نصير. والمناهي عن الحرمات تردع عن إتيانها نُذُر العقـــوبات عند الله، ولكن الحيد عنها واتقاءها هو إيثار لحسنات تقابلها في كل بلاء وإتيان تلك الحسنات تحفز إليه الأجور الموعودة المضاعفة، وكذلك يتعزز الزجر بالحفز دون كـــل منهي في كل سياق من معاملات الحياة التي يُبتلى بها المرء. وموعظة الهدى المفـــصّلة في تلـــك المناهي هي من الله لا تبلُغها كل رؤية فكر الإنسان ولا تجربته في مجتمع بأسره يتعارف على مناهيه، بل ما يتواضع عليه البشر ولو خيراً فإن الأحكم منه هـــو الذي يوصي به الله العليمُ بفتن البلاء لعباده في سيرة حياتهم والسميعُ البصير بوقع أعمالهم وعواقبها نفعاً لهم أو ضراً والهادي لعلمهم القاصر وقصدهم ألا يروغ به الهوى والـــشيطان. فلذلك حكمة الله هي البيان الحق للمسالك الأقوم في كل الحياة والطريق الخير المآل في الدنيا المشهودة وفي الآخرة المرجوّة المخوفة.

وتنختم وصايا المناهي بتأكيد صرف الإنسان عن الشرك بالله واستقامة توحيده له تعالى معبوداً. ذلك إيمان يلزم أن يسري في النفوس مقدماً ومدخلاً إلى مسالك الحياة حُسن نية وهِدية وتقوى وابتغاء للخير في الدنيا والآخرة وخوفاً من لله الرقيب الحسيب على كل أمر. ثم بعد كل قضاه المرء لا بد أن يتذكر ربه وحده عند تقدير جملة حساب العاقبة. ذلك أن الأعمال تتعاقب عَبر سيرة الإنسان وتصبح خُلقاً للسالك مسنوناً، فينبغي أن يتذكر ألا تتوالى السيئات المنهية بل تتواتر الحسنات. فسيئة إتيان منهيٍّ عنه مرصودة في كتاب حسابه حيث يخسر أو يربح في مثاقيل ميزان كسبه ولو بذرّة. فالله يعلم مآل تراكم السيئات إذ يتفاقم بها سوء الحياة تمادياً وتداعياً فيتعاظم خسران المرء في الآخرة وتخف موازين فلاحه. وهكذا يعظه تذكُّر ربه الذي ينهاه عن السيئة ليلقاه عند المرجع إليه محاسِباً مجُازِياً، فيبعثه ذلك على التوبة من قريب لإصلاح ما فسد من حياته وإحسان كسبها ليبارك الله التوّاب مجاهداته لبلوغ درجة أعلى وأزكى. ولا حقّ ولا جدوى من اتخاذ إله آخر لا يعلم باطناً للإنسان ولا يرقب ظاهراً ولا آجلاً ولو كان بشراً أو جنّاً ولا يشعر بشيء من ذلك إن كان جماداً، فلا خير فيه قواماً لهدى من الأخلاق الحسنة غير السيئة في الحياة. والمؤمن بعد تذكُّر مآل الأمور يقرأ كتابه ليراجع أمره قبل أن ينتهي البلاء كله ويُعرض الكتاب في الآخرة، وإن نجا في الدنيا يلقى إن أساء جهنم يصلاها ملوماً على ما مضى مدحوراً من الرحمة المرجوة وفاق متاعه بسوء الخلق ومقاصده المفتونة القاصرة على الدنيا. فذكرُ الله – أولاً واحداً معبوداً هادياً للصالحات مبتلياً رقيباً، وذكرُه في أدبار العمل مرجعاً للناس بعد الدنيا محاسباً جازياً غاضباً فمعذباً أو راضياً فمنعماً– ذلك هو ضمان الأخلاق الحسنى وحصانة ضابطها من السوء وفلاح جملة كسبها بصادرها عملاً صالحاً وواردها خيراً في العاقبة.

ترتيل المعاني (الآيات ٤٠ – ٧٢):

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ (٤٠)

لقد سبق تسبيح الله في مفتتح السورة وذُكر الهدى لبني إسرائيل ألا يتخذوا من دونه وكيلاً وسيقت تفاصيل الهدى في الحياة الذي قضاه الله أوامر ونواهي فذُكر قبلها

ودُبرها النهي عن الشرك بالله إلهاً آخر. وكانت أمة الخطاب العربية في جاهليتها تتخذ من الملائكة أرواحاً غيبية في السماء يقدسونها ويؤلهونها بنات لله يتزلفون بها إليه تعالى. وتـــرتب في هـــذه الآية عِظم ذلك الأمر عند الله، إذ يتوجه إليهم الخطاب باستفهام إنكـــاري: أفأصفاهم ربهم بالبنين - الذين يصطفونهم ويؤثرونهم ذكوراً، واتخذ هو من الملائكـــة إناثاً مفضولات في حسابهم و لم يتخذ ما يفضلون من ولد ذكر شريكاً؟ إنهم ليقولون قولاً عظيماً -كما يخاطبون -أن ينسبوا لله ولداً يُعينه شريكاً وهو رب ما في الـــسماوات والأرض، وأن يجعلوا له من الولد ما لا يرضون لأنفسهم بل يئدونه أحياناً خـــشية الفقر والعار. إنه لاجتراء افتراء عظيم على الله وعلى الملائكة الذين هم عُبّاد خـــشّع طوّع جنود لله في إيقاع أمره ببأس شديد مما يرجو المخاطبون من الولد الذّكر الأقوى عندهم نصراً لأبيه[1].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ (٤١)

ويذكـــر الله أنه - بأقدار علمه بافتتان البشر تعلقاً بمشهود أو مظنون شركاً لله وإرادتـــه الهدي لهم بالوحي إلى توحيد الله إلهاً معبوداً - قد صرّف في هذا القرآن - لعلهم يذّكرون، وطَرَق كل طُرُق التعبير والبلاغ لحقِّ توحيد الله - من الذكر له تعالى واحـــداً غنـــياً قوياً قيوماً وتأكيده، ومن الأمر الداعي إلى توحيده تعالى بحافز البشرى والنهـــي عـــن الإشراك بزاجر النذير، ومن بيان التوحيد بضرب الأمثال وإقرار يقينه بتعزيـــز الحجـــج، ومـــن الإشـــارة للآيات المشهودة في طبيعة الكون الشاهدة على وحدانيـــته، وغـــير ذلك - كلها تصاريف تذكير لتثبيت توحيده تعالى إيماناً في نفوس المـــشركين وتوحيد حياهم عبادة خالصة وفق هديه في الحياة. وما يزيدهم سماع ذلك البـــيان المصرّف المتواتر إلا نفوراً ونأياً عن سماع القرآن وإعراضاً عن التذكر للحق. ، لأنهـــم عهـــدوا الشرك وتمادوا عليه دهوراً تلقّوه عن آبائهم ورسخ في نفوسهم ظنون وساء في حياهم أعرافاً.

---

(١) في اتخاذ الملائكة عند الجاهليين إناثاً بنات لله: انظر الآيتين ٥٦و٥٧ من ذات السورة، وراجع الآيـــة ٩٤ ســـورة الأنعام، والآية ١٨ سورة يونس، والآيتين ١٠٩و١١١ سورة طه، وانظر الآيـــات ٢٦-٢٩ ســـورة الأنبياء، والآية ١٣ سورة الروم، والآيتين ٢٢و٢٣ سورة سبأ، والآية ٨٦ سورة الزخرف، والآيات ٢٦-٢٨ سورة النجم.

﴿قُــل لَّــوْ كَــانَ مَعَــهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ (٤٢)

والأمــر للرسول ﷺ – مهما يكن ذلك – أن يمضي مبلّغاً مذكراً: أن يقول لهم: لــو كــان مــع الله آلهة كما يقولون من ولد أو ملائكة أو جن مما ترمز له الأصنام والأوثــان إذاً لذهب كلهم يتطلبون سبيلاً حولاً وقوةً لبلوغ ألوهية ذي العرش والملك المحــيط العظــيم الله ووصول مقام الغاية التي هو فيها من المحامد العليا والقدرة المطلقة هيمــنة على الوجود، ولغالبوا الله لصرفه عن حيّز من المخلوقات ليبسطوا فيها سلطاناً من الربوبية ولينالوا شركاً من الألوهية على الإنسان عبادةً منه لهم وولاية منهم عليه. ســبحان الله متنــــزّهاً عن نقص أو شرك لا يليق بالربوبية والألوهية الكاملة المطلقة وتعالى علواً كبيراً عما يقولون من شركاء له أولياء لهم ولو دونه يتخذونهم تزلّفاً إليه، فالــشرك نقص وهو غني بكماله المطلق والولاية على البشر سلطان مطلق لا يغالبه فيه أحــد، وذلــك الكمال لعظمه مجردٌ من أدنى شائبة نقص أو مضاهاة، والتفرد بالولاية متعالية لا تقاربها أدنى شركة أو وكالة.

﴿سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَــى عَمَّــا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٣ – ٤٤)

تــسبح لله السماوات السبع التي لا يدري أحد كيفها إلا أن يستشعر بعدها مداً مطلقاً في الغيب وراء المشهود، وإنما تُشهد منها السماء الأولى فيها مواقع النجوم مهما تتــباعد عــن الأرض. وهي مخلوقات في وجودها وفي المشهود من نظمها آية، تسبح لخالقها ومسوّيها بلسان حالها، شهادة دلالة بينة على كمال الله وقدره المطلق المنــزه عــن أيمــا نقص إذ لا يُرى فيها من فطور أو اضطراب. ومَن في السماوات والأرض يسبح كذلك. فالجن الأرواح التي لا تحصرها الأرض بل تبلغ السماوات والإنس الذين في الأرض، يسبح كلٌ بلسانه – تعبيراً روحياً مخلصاً عن سبّوحية الله وتعاليه كما تفعل الملائكــة أبــداً أو خاطرة شعورية أو كلمة منطوقة مسموعة أو صورة حركية مرئية كالإنــسان يــسبح لله. وإن مــن شيء موجود مخلوق إلاّ يسبح لله تسبيحاً موصولاً

بحمده، فهو آية على تجرّد ذات الله من أدنى منقصة دون كمال الألوهية المطلقة، وعلى حمده متعالياً بكل الوجوه على كل محمود(١).

والخطــاب للمــشركين أن تلك المخلوقات سماوات وأرضاً وأشياء هكذا تسبح كلــها لله، ولكــن هــم لا يفقهون تسبيحهم، التسبيح المُبيّن بياناً يُرجع نسبته إليهم مضمرة بصيغة المسبحين العاقلين، لا يدركون ذلك التسبيح لو كان آية حالٍ ليفهموا دلالــتها، ولا يبلغون مغزى صوت التسبيح من كلمة ذكر لبشر مؤمن. إنه – سبحانه وتعــالى – كــان – بصفة وجوده الأزلي – حليماً لا يعاجل عباده بالغضب من بؤس فقههــم لتــسبيحه ولــو كان إعراضاً عمداً بل يمدّ لهم في ابتلاء الحياة لعلهم يعلمون فــيفقهون ويؤمــنون، غفوراً واسع المغفرة لعباده لا يؤاخذهم وإن مدّ لهم فتمادوا في الغفلة لعلهم يتوبون ويتذكرون فيؤمنون فيغفر لهم ما سلف كله مهما يعظم ذنبهم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْــنَا عَلَــى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٤٥ – ٤٦)

والخطــاب للرســول ﷺ المبلغ رسالة التذكير بالقرآن: إنهم إضافة إلى كونهم لا يفقهــون آيــات التسبيح المشهودة إذا قرأ هو القرآن لتذكيرهم بآياته المسموعة بالله وصــفاته العليا وأقداره غيباً أن يبتليهم بالدنيا ويبسط لهم الهدي ثم يعيدهم مرجعاً إليه للجــزاء –إذا قــرأ جعل الله – بسننه العظيمة في وظيفة الإدراك للإنسان – بينه وبين الــذين لا يؤمــنون بالآخرة حجاباً مستوراً. ذلك أنهم لا يؤمنون بالغيب فبسنن الله تكــثف ذلك الكفر حائلاً بينهم وبين تفقه القرآن، حجاباً لا يقوم مانعاً مشهوداً دون الرسول وهو يتلو عليهم بل غاشياً مستوراً في نفوسهم يصرفهم عن تلقّي تلاوته فقهاً لهــا. وجعل الله – بأقداره من تلك السنن في وظيفة الإدراك لديهم – في قلوبهم أكنة أغطــية مــن أن تنفعل بمغزى القرآن وتنبض حيّة تحرّك الدم لإنشاط التفكّر في أطوار تدبــره وتفقهه ولدفع الجوارح في إنفاذ مقتضى هديه ذكراً فعلاً. وجعل الله في آذانهم

(١) يتواتــر أيــضاً في آي القــرآن كثيراً تسبيح ما في السماوات والأرض لله، وكل شيء من مخلوقاته.

وقــراً، لــيس ثقلاً كاتماً لطبلة الأذن بل هازماً لمشاعر الإدراك في وجدانهم يحول دون بلوغ الصوت مستودعات العقل بقوة يتجاوب معها القلب حياً.

ويُذكّــر الرسول أن إذا ذَكر ربه في القرآن وحده - تالياً آية تذكير بحق التوحيد الخــالص أو الدواعي المبشرة إليه أو باطل الإشراك أو النذر الزاجرة منه - مسّ ذلك مــساً محسوساً ما انغلقت عليه قلوبهم من اعتقاد معهود فيها فما ظلوا في مجلس تلاوته يــسمعون ولو بغير تلق واع حي بل قاموا وانصرفوا منقلبين عنه، ولّوا على أدبارهم نفوراً.

﴿نَّحْــنُ أَعْلَــمُ بِمَــا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ (٤٧)

يخاطــب الله الرسول ﷺ بلاغاً منه تعالى أنه بأقدار علمه المحيط العظيمة يعلم ما يــستمعون به إذ يستمعون إليه رسولاً تالياً - يرصد ﷻ ما يبدون من الإصغاء له وما يجري في باطنهم من إعراض ينــزع إلى التعبير الظاهر، ويعلم إذ هم نجوى ما يتبادلون بمعزل منه -الرسول- من أسرار تواص عليه إذ يقول بينهم أولئك الظالمون: إن يتبعون بالاستماع إلى قوله إلا رجلاً مسحوراً أصابه السحر فهو يلغو[1].

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً﴾ (٤٨)

يــستمر الخطاب للرسول ﷺ عنهم أن ينظر عجباً كيف ضربوا له الأمثال - من مثل ساحر أو مثل شاعر أو مجنون أحياناً - يحاولون جاهدين رميه بشتى الوجوه أنه لا ينطق بجد قول راشد، فضلّوا في كيدهم الجاهل فلا يستطيعون سبيلاً يبلغ النيل منه بما يقضي همّهم في صرف الناس عنه.

﴿وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩)

ومن حملتهم على القرآن - فضلاً عما يرمون به الرسول الذي يتلوه مبلغاً -إلقاء الريب في حق ذكر القرآن للغيب والآخرة. فهم قالوا، في استفهام مستنكر: أئذا كانوا

---

(١) الرمي بالسحر من المعرضين عن رسالات الغيب في وجه الأنبياء السالفين، ورد في حق صالح وشــعيب وعيسى وكثيراً في حق موسى وأكثر في حق الرسول الخاتم، انظر مثالاً لذلك ظن فرعون بموسى في الآية ١٠١ من ذات السورة، وعموماً الآية ٥٢ سورة الذاريات.

عظاماً ورفاتاً، بلغوا بعد الموت أن أكلتهم الأرض فصاروا عظاماً وحطاماً مفتتاً – كما يـــرون في مقابر آبائهم، أهم من بعدُ مبعوثون أحياءً خلقاً جديداً في آخرة كما يقول القرآن[1]؟

﴿قُــل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَــن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (٥٠ – ٥١)

فليجاوبهم الرسول ﷺ وليقل لهم أن يبلغوا في صيرورتهم التي يَذكرونها ويَعهدونها بعد الموت أشد من ذلك يبساً وتصلباً بعداً من رخاوة جسد يظنون أن تبعث فيه نفسه الحـــياة مـــن جديد، ليكونوا –كما قد يقع منهم في التراب – حجارة أو حديداً، أو ليذهـــبوا حيـــثما شاءوا كائنين خلقاً يكبر في وجدان صدورهم ويعظُم بعداً من قبول الانبعاث جسماً حياً. وسيردون عليه قائلين: مَن يعيدهم إذاً أحياء كما هم في طبيعتهم الحاضرة بعد ذلك النأي عنها؟ وليعقب عل ذلك الرسول مذكّراً وليقل: الذي فطرهم أول مـــرة، بدأ خلقهم من لاشيء نشأةً لهذه الحياة، فالعود أهون عليه أنً يبعثهم نشأة أخـــرى في جسد ولو بلغ جسدهم الأول ما قالوا. وذُكّر الرسول باستجابتهم عندئذ تـــريّباً علـــى قوله الدامغ: سينغضون إليه رؤوسهم، هزاً لها رفعاً وخفضاً من العجب المـــستنكر، ثم يـــنحون بالمجادلة هزؤاً ملاحقاً ويقولون سائلين: متى هو ذلك البعث؟ فليـــصرف الرسول ظنهم أنه أمر مزعوم، بل وعد صادق لحقٍّ آت قائلاً لهم: عسى أن يكـــون – واقعاً حادثاً – قريباً، يجيبهم غير جازم بأجل يعلمه ولكن ينذرهم للإعداد احتساباً لاحتمال قُرب أجله.

---

(١) في ذكر البعث مهما يظن الجاهليون عسره بعد الموت وحيلولة الجسد إلى عظام ورفات: انظر الآيـــتين ٩٨و٩٩ من دات السورة، وراجع الآيتين ٢٩و٣٠ سورة الأنعام، والآية ٣٨ سورة الـــنحل، وانظـــر الآية ٥ سورة الحج، والآيتين ٣٥ و٨٢ سورة المؤمنون، والآيتين ١٦و٥٣ سورة الصافات، والآية ٣٥ سورة الدخان، والآية ٤٧ سورة الواقعة، والآية ٧ سورة التغابن، والآيتين ٣و٤ سورة القيامة، والآية ١١ سورة النازعات، وفي عبرة الخلق الأول وحق النشأة الآخـــرة: انظر الآيتين ٦٦و٦٧ سورة مريم، والآية ٢٠ سورة العنكبوت، والآية ٣٢ سورة الاحقاف، والآيات ٤٤-٤٨ سورة النجم، والآيات ٦٠-٦٢ سورة الواقعة.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (٥٢)

ليمض الرسول ﷺ واعظاً مخاطباً لهم عن ذلك الأجل: يوم يدعوهم – الله الذي فطرهم ويبعثهم – دعوة من الأرض فإذا هم يخرجون منبعثين يستجيبون بحمده عارفين عندئذ صفاته المحمودة قدرة على محياهم وصدقاً في وعد مرجعهم إليه، ويومئذ يظنون – وإن تطاول عهدهم في برزخٍ موتى قبل المبعث ومن هول وقوع حقائقه ومشاهده وما يجري بعده – يظنون إن لبثوا موتى إلا قليلاً من الوقت، ذلك بينما كانوا في مد الحياة يستبطئون أجل الساعة ويستعجلونه تحدياً وكفراً[1].

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (٥٣)

ويُخاطَب الرسول ﷺ من ربه ﷻ في سياق مواعظ تذكر البعث ويوم الحساب أن يقول للعباد الذين يخاطبهم الرسول أمة بلاغ منسوبين إليه تعالى بكلمة حق ووعظ رفيق، ينصحهم: أن يقولوا التي هي أحسن، لطفاً في المجادلة والمقولات بينهم وبينه في شأن الدعوة واتقاءً لمثل الأمثال التي يفترونها له رسولاً يرمونه بكلم غير طيب. تلك نصيحة حق، إن الشيطان ينزغ بينهم رمياً بأرواق فتنته لإفساد ذات البين في التخاطب لتشتد بينهم المناكرة وحمية الخلاف ولئلا يتلقوا التذكير بحقائق الغيب وبهدي مسير الحياة لفلاح مصيرها، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً، تعهّد العداوة له منذ أبيه آدم والفتنة في مجتمعه وتطبّع عليها لتبلُغ واضح الوقع في حياته ومصيره[2].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ (٥٤)

---

(١) في قيام الساعة بغتة وظن المكذبين بها أن لم يلبثوا قبلها في زمان الدنيا إلا قليلاً: راجع الآية ٤٥ سورة يونس، وانظر الآية ١٠٢-١٠٤ سورة طه، والآيات ١١٢-١١٤ سورة المؤمنون، والآيتين ٥٥و٥٦ سورة الروم، والآيات ٤٢-٤٦ سورة النازعات.

(٢) في الوصية بقول الحسنى بين عباد الله وخطاباً للناس كافة: راجع الآية ٨٣ سورة البقرة، وفي حسن التحية والدعوة في الناس وحسن الخطاب، لاسيما من النبي الداعية القدوة: راجع الآية ١٥٦ سورة آل عمران، والآية ٨٦ سورة النساء، والآيتين ٤٥ و٨٨ سورة الحجر، والآية ١٢٥ سورة النحل، والآية ٤٥ سورة ق.

والخطـــاب يستمر متوجهاً للعباد أن ربهم أعلم بهم، من اهتدى ومن هو آيل إلى هـــدى ومن ضل وهو ماض في ضلاله، إن يشأ سبحانه وتعالى يرحمهم وتسبق رحمته غـــضبه حـــتى الذين ضلوا يمد لهم رؤوفاً صبوراً بهم ولا يعاجلهم بمؤاخذة، وإن يشأ يعـــذبهم مـــتى علم أنهم متمادون في ضلال فقضى حكماً أنه حق وجاء أجل العقاب. كذلك يخاطبهم الله بالتي هي أحسن حفزاً بالرجاء ودفعاً بالنذير لعلهم يهتدون جميعاً. وينضاف الخطاب للرسول ﷺ من ربه أنه تعالى – بأقدار علمه ورسالته وهدايته – ما أرسله هو على أولئك العباد وكيلاً يُوكل إليه تولّي إنفاذ هدايتهم بل عليه البلاغ ومعه المؤمنون يحسنون خطاب الدعوة في سبيل الهداية للناس أجمعين.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (٥٥)

ويـــستمر الخطاب للرسول ﷺ إضافة أن ربه الذي اختصه ببلاغ الرسالة مهما يظن به المعرضون هو أعلم بمَن في السماوات والأرض من أرواح الجن والملائكة ومن عـــباده البشر يصطفي من يشاء منهم بهديه وحياً ويكلّفه فضلاً عن ذلك بتبليغ رسالة الهدى إلى من يليه من أمة خطاب. ولقد فضّل الله بأقدار علمه واصطفائه بعض النبيين علـــى بعـــض، بعضهم نبـــي وحسب يوحي إليه نبأ الغيب لينبئ به مذكراً بهدي لله معهود قبلاً، وبعضهم رسول يبلغ الهدي لقوم في عهد محدود، وخاتمهم وقع عليه فضل أمانـــة رســـالة مـــتجددة تصدّق أصول الحق في سابق الرسالات وتبلّغ هدياً جديداً، ويفاضل الله بين الأنبياء والرسل لاختلاف وسعهم حملاً لقدر من أمانة الوحي نبوّة أو رســـالة أيضاً ولاختلاف الابتلاء حولهم كلاً يُعد الله بفضلٍ خاص في نبوته أو رسالته يناســـب أمانته في سياق البلاء الذي يليه ليخاطبه أو درج شدته ليصابره أو بوسعٍ في رســـالته لا يخاطب قوماً لعهد بل الناس كافة إلى يوم الدين. وآتى الله – بتلك الأقدار العظـــيمة مـــن إحاطة العلم وتصريف الهدي – داود زبوراً، كتاب وحي غنياً بمواعظ الحياة الحسنة الخطاب والتذكير اللطيف بالبعث للمؤمنين ولسائر المخاطبين ليتقوا هوى المـــتاع وليجتبوا فتنة السلطان في الأرض، وذلك بعد الكتاب الذي أوتي موسى هداية توحـــيد بعد شرك وشريعة أحكام ووعظاً شديداً لأمة خرجت من حكم فرعون. وإذ

كانـــت الـــرؤيا بالإسراء تثبيتاً وبشرى بعهد المدينة القادم كان ذكر داود من آيات المـــسجد الأقصى وذكرى الأنبياء فيه إشارة إلى الزبور إعداداً للمؤمنين بمواعظ الخلق لاتقاء فتنة التمكن والسلطان.

﴿قُـــلِ ادْعُـــواْ الَّـــذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ (٥٦)

وفي ضـــوء أقـــدار الله التي تفاضل بين خلقه في السماوات والأرض وبين الذين يـــتلقون الوحي من الله نبوة، يُخاطب الرسول ﷺ أن يقول للمشركين الذين يفضّلون الملائكـــة فيتخذوها أرواحاً مقدسة مؤلهة منسوبة إلى الله بنات ويتخذون الجن كذلك أرواحـــاً غيبيـــة تقربهم إلى الله ويرمزون لذلك بالأصنام - يقول لهم أن يمضوا فيدعوا الـــذين زعمـــوا آلهـــة من دونه تعالى يعبدوهم ويدعوهم زلفى إليه، فلا يملك أولئك كشف الضر عنهم لرفع بؤسه الواقع ولا تحويلاً من حال إلى حال أفضل كما يترجّون منهم من صرف المكروه وتبليغ النصر والحال الأرضى.

﴿أُولَـــئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (٥٧)

أولـــئك الذين يؤلهونهم يحسبونهم ذوي قدرة روحية غيبية يدعونهم صرفاً ونصراً، هـــم أنفسهم قاصرون حولاً وقوة يبتغون تطلباً ملحّاً إلى ربهم الوسيلةَ - منـــزلة نحو القـــربى إليه إجازة لعبادتهم له توسطاً وتزلفاً، ويتنافسون في مبلغ تلك الفضيلة: أيهم أقرب إلى الله مقاماً؟ يتسابقون اجتهاداً لأحسن عبادة ليكون تقبّلُها من الله أبلغ بهم إلى قـــرباه، ويـــرجون رحمته تعالى رغبة في عطاء من فضلِ عونهِ وبركة رضاه، ويخافون عذابه خوفاً من غضبه فإيقاع عقابه. والخطاب من بعد للرسول نفسه: إن عذاب ربه كـــان محذوراً: الجن أرواح لكنها ترجو منه المغفرة والإجارة من عذابه والملائكة حول عرشـــه لكـــنهم من خشيته مشفقون، والأنبياء مقربون بالوحي والهداية الأتمّ ولكنهم يخشون حساب الله.

﴿وَإِن مَّـــن قَـــرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨)

ولـــيحذر العباد الظالمون خاصة عذاب الله الذي يخشاه مَن هو خير منهم، فسُنة الله في عـــذاب الظالمين ماضية. والله يشهد بتعهده حساب الكافرين، فيقول إنه ما من قـــرية ورد ذكر نبأها إلا هو بأقدار عذابه وأوامره المقضية مهلكها استئصالاً لأهلها لما هم فيه من الظلم هلاكاً واقعاً قبل يوم القيامة مهما يتطاول المد لها ترجياً لتوبة منهم، أو هو كذلك معذبها عذاباً شديداً لعلهم يتعظون فيرهبون أن بالغ الظلم عقابه الهلاك. وكـــان ذلـــك في الكـــتاب مـــسطورا، أقداراً حاقة في علم الله تقع أقضيةً بالأوامر المفعولة(١).

﴿وَمَـــا مَنَعَـــنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ (٥٩)

ويمضي البيان للنذُر والأقضية بالعذاب من الله بأقداره المنظومة العظيمة، أنه تعالى بدل سُنة الآيات المعجزة الخارقة لمطبوع الأشياء خطاباً لعباده، ما منعه أن يُنـــزل تلك الآيـــات معـــزِّزة للرسالة التي تخاطب الحاضرين وإن تطلّبوها كثيراً إلا أن كذّب بها الأولون. ما منع عجزٌ ولا عوق لقدرته المطلقة أبداً، وإنما هو أن قد تبين الأمر لخالف المخاطبين بشهادة الوقائع الماضية أن المكذّبين بالرسالة المعرضين عنها لو استُجيب لهم وأُتـــوا بآيـــة ما هم بمؤمنين بل هم ماضون في إصرارهم على كفرهم صارفون تلك الآيـــات بالمـــزاعم كما فعل سلف مثلهم إلى السحر أو نحوه وعندئذ يحقّ عليهم أن يعاجلهم الله بالعقاب. وقد تبين للرسول الخالف كذلك مهما يُلحّ عليه رجاء تصديق دعـــوته ولو بآية أنها لا تُجزي شيئاً في قوم انختمت قلوبهم على الضلال كما شهدت السابقات.

ويمضي البيان أن قد استجاب الله قبلاً لمقترح ثمود أن يُؤتوا آية فآتاهم الله بأقداره ناقـــة أُخرجت لهم من الحجر ليذروها سائمة مشهودة مبصرة آية أن الله الذي يخرج حـــياً من حجر هو الذي يبعث الموتى بعد أن يفنوا فيه كما يرى أصحاب الحِجْر في بيئـــتهم، فظلموا بأمرها وعقروها وقالوا لرسولهم أن يخلّيهم منها آية ويأتيهم بالعذاب

(١) يتواتر في القرآن كثيراً ذكر العظة من تاريخ القرون والقرى الظالمة وما يصيبها من العذاب أو الهلاك العام عقاباً قبل الجزاء يوم القيامة لأهلها.

الموعـــود إن صدق، وقد كان، وهو قريب من المخاطبين وجاءهم نبأه. والله يذكر أنه مـــا يرســـل بأقـــداره العظيمة بالآيات إلا تخويفاً للناس لعلّ الرهبة تدعوهم للتذكر والهـــدى، فحـــسبُهم آياته المتلوة عليهم تنذرهم بعواقب مخوفة من عاجلات عواقب الضلال ومن آجلته الأشد رهبة في الآخرة[1].

﴿وَإِذْ قُلْـنَا لَـكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (٦٠)

والخطـــاب للرسول ﷺ يثبت له أن الذين حقت عليهم كلمة الله لا يؤمنون ولو جاءهم كل آية خارقة للطبيعة رهيبة، ذلك ليصرفه من ثَم عن ترجّيها لعلها تُجدي في تـــرهيبهم ودفع هدايتهم. يخاطبه الله مذكراً بآيات الترهيب المتلوة ووقعها عليهم، إذ قـــال لـــه في الذكـــر بأقدار حولِه وقوتِه وعزته أن ربه أحاط بالناس فهو عاصمه من كيدهم وكائد بهم ولكن قومه ذهبوا يؤذونه ويحاولون الكيد به لا يخيفهم ذكر عصمته مـــنهم. وما جعل الله بأقدار توفيه في المنام لعله بتلك الرؤيا التي أراه إياه بتلك الأقدار إسراءً إلى المسجد الأقصى إلا فتنة للناس، إذ سمعوها وظنوها إفكاً وساءلوا الرسول عن وصف المسجد الأقصى فرواه لهم الرسول صحيحاً ثم لم يؤمنوا به مصدقاً. وما كانت هـــي آية مستجيبة لمقترحهم وطلبهم للمعجزات بل كانت رؤية تثبيت للرسول ومن آمن معه ولكنها بعد السماع وإن بان حق صدقها رؤيا، انفتنوا جدلاً وإعراضاً شهادة بأن ما كذّب به الأولون من الآيات لن يصدّقه الخالفون، أمر علمه الله أزلاً ولكن أخّر وقـــف الآيـــات حـــتى تبين الشهادة للخالفين واقعاً. وجعل الله كذلك ذكر الشجرة الملعونة في القرآن نذيراً مسموعاً لعلهم يخشون، فوصف لهم شجرة بئس طعامُها زقوم

---

(١) في التطلّب الملح للآيات المشهودة المعجزة لتصديق رسالة الغيب: انظر الآيات ٩٠-٩٥ من ذات الـــسورة، وفي آيـــات كثيرة، راجع مثلاً الآيات ٥و٧و٣٨ سورة الرعد، وقد يرجوها الرسولﷺ لتعزيز دعوته: راجع الآيات ٣٥-٣٧ سورة الأنعام، والله قادر عليها ولكنها قد لا تغـــني داعـــية للإيمان: انظر مثلاً عن رسالة موسى الآية ١٠١ من ذات السورة، والآيات ٤٦-٤٨ ســـورة الزخرف، وعن عيسى بعد ميلاده ومعجزاته راجع الآيات ٤٩-٥٢ سورة آل عمران، وفي كفر ثمود بالآية المعجزة راجع الآيتين ٧٣و٧٧ سورة الأعراف، وانظر الآيتين ١٥٤و١٥٧ سورة الشعراء، وفي وجه سائر المرسلين: الآيتين ٥و٦ سورة الأنبياء.

وطلعهـــا كـــرؤوس الشياطين فما رهبوا النذير بل ذهبوا يعجبون من شجرة تنبت في أصل الجحيم وهم يعهدون الشجر في الدنيا خضراً ينبت في تربة مبتلّة لا يحتمل النار. فالله يخوفهم بذكر مسموع عن حفظ الرسول وبإلهام له في رؤيا صادقة وبآيات النذير مـــن شجرة الزقوم في الجحيم فما يزيدهم ذلك إلا طغياناً كبيراً، تجاوزاً بالغاً كفيوض التكذيب والكفر للأولين بالآيات أقداراً معجزة واقعة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (٦١)

ونـــــزعة الافتتان بالمشهود دون الغيب والطغيان تكذيباً للرسول ولرسالة الهدى ولو جاءت تعززها آيات واقعات معجزة أو تصدقها آيات ذكر من الغيب في حصانة الداعـــي لها وفي صدقه تؤكده رؤياه الصادقة وفي بيان نذير عقاب معلوم في الآخرة – إنما نـــزعة من الهوى يدفعها نـــزغ الإضلال والغرور الذي يُلقيه الشيطان فيمن شرح له قلبه ووالاه و لم يجاهده معتصماً بربه. فليذكر عباد الله ما أنبأهم به ربهم أن إبليس – وذريـــته – ألقـــى العداوة على آدم وذريته حسداً على تكريمه عليه لأوّل خلقه بأمر الـــسجود فـــتعهد بالإغراء والإضلال لهم في حياتهم لئلا يفضلوا عليه آخر مصيرها. ويذكـــر الله ذلك لعباده إذ قال – بأقدار علمه بخلق الإنسان وتكريمه بالعلم والمشيئة وابـــتلائه ثم جزائه – للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا – ونظموا بذلك طاعتهم لأمر الله في سائر شأن الإنسان: الوحي للرسل من البشر وأيد المؤمنين منهم وأخذ الظالمين وحفظهـــم جمـــيعاً ورصـــد كتاب عملهم وتلقّيهم يوم القيامة. إلا إبليس قال متأبياً مستكبراً مخاطباً ربه: أيسجد لمن خلق الله طيناً؟ يفاخر بأنه خير منه عنصراً من نار.

﴿قَـــالَ أَرَأَيْـــتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً﴾ (٦٢)

واجترأ إبليس وأشهد الله على تعهده الإنسان بما يسوّي ذلك التكريم عليه الذي حـــسده وقال مخاطباً لربه مباشراً في صيغة كلمه: أرأى هو تعالى آدمَ هذا الذي كرّمه علـــيه بغـــير حق في ظنه، لئن أخره ربه إلى يوم القيامة ليحتنكنّ هو ذرية آدم مستولياً عليهم استيلاء الآكل على ما يأخذ في حنكه محيطاً بهم إغواءً وغروراً بما يصرِفهم عن

طاعة الله تعالى فلا يفضلون عليه يوم القيامة إذ يذهبون في العصاة المُعذَّبين، إلا قليلاً – كما اعترف إبليس – من الذين يتحررون منه فما له عليهم من سلطان ملازم ويُخلصون ولاية وطاعة لهدي الله.

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (٦٣ – ٦٤)

فأجاب الله إبليسَ – وكان الأمر أزلاً من قدر الله المسنون لابتلاء آدم – قال له ليذهبْ فمن تبعه من ذرية آدم فإن جهنم جزاؤه وإياهم جزاء موفوراً، يَسعُهم وافياً بهم. وليجرِّب فيهم كل وجوه الحملة عليهم إغراءً وإضلالاً، ليستفز مستخفّاً من استطاع بصوته – وهو كائن روحي غيبي صوته ليس ذبذبة مادية تطرق الآذان بل دفع ينقذف في وجدان الذي يتلقاه نزغاً ووسوسة وتخليطاً لإيحاءاته في أحاديث النفس وميول الهوى، وليجلبْ عليهم بخيله ورجله حاشداً قوى ضغطه كالجيش راكب خيوله ودافع مشاته على الإنسان يدفعه رهبة وزجراً إلى الباطل، وليشاركْهم في الأموال والأولاد مهيجاً شهوة المال والولد الفاتنة لهم حتى يفسقوا لمبتغىً بها عن تقوى الله، وليعدْهم مواعيد التمنيات الزائفة يُرجّيهم بأمل العمر ليسوّف منهم التوبة ويغرّهم برجاءات الدنيا ليغمر في نفوسهم رجاء الآخرة ويفترى لهم ظنون فدي وشفاعة ما من حساب الله وعقابه وأجره في العاجلة والآخرة، وهكذا بكل دوافع التزيين الخادع والترغيب والترهيب الوهم وتعبئة الشهوات وتزجية المواعيد والبشريات الزائفة صرفاً لوعد الرجاء المنشود والجزاء المرهوب من الله حقاً هداية مسير حياة عباده. والحق الذي يذكّر به الله هو أن الشيطان ما يعد عباده إلا غروراً يُزين عليهم الأوهام ليضلوا فتحق عليهم خيبة الرجاء ووقع الجزاء الحق حسداً ألا يلقوا فوقه تكريماً يوم القيامة.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ (٦٥)

وألقى الله في وجه إبليس كلمة الحق: إن عباده تعالى ليس له عليهم سلطان، فهم في خيرة مشيئة لا إكراه لهم من ربهم وربّه هو فلا يملك هو عليهم سلطة تسيير، وأن كفى بربه وكيلاً على عباده مهما يبتليهم به غروراً وتزييناً وتمنية لا يطيعه منهم إلا من

لَــوَتْه نحو ذلك مشيئته وفتنة هواه وهو حافظ كفيل بمن جاهده بإرادته إذ يُذكّره ربه بالوحــي المــتلو عليه وينــزل عليه الملائكة روح أيد له ويمده برحمة من تعزيز هداه وتيسير تقواه ومباركة لتوقيه من الشيطان إن استعاذ به ﷻ متوكلاً عليه مؤمناً[1].

﴿رَّبُّكُــمُ الَّــذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٦٦)

الخطــاب يلــتفت إلى عباد الله بعد ذكر انفتاهم بمشهود المعبودات دون الغيب وإدبارهم عن النذر تعلقاً بحاضر الدنيا وتطوعهم للشيطان مع غرور وعده وعزتهم على ســلطانه وكفاية الله لهم إن اتخذوه وكيلاً حقاً. يُذكّرون بربهم الذي يزجي لهم الفلك في البحر مسوقة بسنته تعالى جارية ماخرة على الماء تنقلهم حيثما ابتغوا من فضل الله مــنافع يتعــسر عليهم بلوغها بغير تلك الرحمة. إن ربهم كان بهم رحيماً قدره أبداً أن يحــيطهم بمــسخراته وأفضاله، منه وحده تتيسر لطف النعمة وصوبه وحده ينبغي أن تخلص العبادة الشاكرة المطهّرة من نــزع الهوى ونــزغ الشيطان.

﴿وَإِذَا مَــسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧)

ويستمر الخطاب للعباد تذكيراً بفتنتهم بأمان حياتهم الحاضرة دون الآجلة وميلهم للغفلــة عــن فضل الله المبسوط لا يذكرونه إلا إذا ضاغطتهم مخوفة على حياتهم. وإذ مسهم الضر في البحر بأن قصفت الرياح وهاجت الأمواج وبدت مخاطر هلاك محذور ذكــروا الله وضــل من يدعون إلا إياه، ألجأتهم أزمة خطر المهلكة إلى تذكر ربهم في الغيب أقوى مستعان لنجاة الحياة وتلاشت تعلقاتهم بالمعبودات المشهودة المدعوة منهم في عــاديّ مطمــئن الحياة. فلما نجاهم – المخاطبين – الله إلى البر سالمين ارتدوا إلى الاطمئــنان بمعتاد غفلتهم عن الغيب وتعلّقاتهم الدينية المعهودة، أعرضوا عن ذكر الله

(١) نبأ الغيب في إبليس مستكبراً على السجود لآدم ومتعهداً ليحتنكن ذريته الإنسانية فتنة إلى يوم القــيامة إلا مــن وكل أمره إلى ربه الله ذي السلطان المحيط – بينته مثاني آي القرآن: راجع الآيات ٣٤-٣٦ سورة البقرة، والآيات ١١-٢٧ سورة الأعراف، والآيات ٢٨-٤٣ سورة الحجر، وانظر الآيات ١١٦-١٢٤ سورة طه، والآية ٥٠ سورة الكهف، والآيات ٧١-٨٥ سورة ص.

ونعمته مزجياً لهم الفلك بقدره ليبلغوا نفعاً هو أيضاً من فضل نعمته وكاشفاً لهم الضر الذي حاق بهم ومضوا سادرين في مسلك الإنسان الذي ينــزع للتقلب مع الظروف الــتي يصرّفها الله ليبتليه – يذكر الله سائلاً النعمة إن أزمت الحاجة فإذا انبسطت نعم الحــال كمعــتادها مضى متمتعاً واسع الكفر من ثَم بالنعمة المتوالية، لا يشكرها ولا يذكر واهبها برحمته بل يلتهي بالمتاع غافلاً كافراً.

﴿أَفَأَمِنــتُمْ أَن يَخْــسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً﴾ (٦٨)

ويخاطب الله أولئك العباد الذين غشيهم أمان النجاة فغمر في نفوسهم ذكر ربهم وشغلهم بالمتاع المحدود: أفأمنوا – خارج البحر على بر السلامة من الغرق والاستقرار على الأرض – أن يخسفَ الله – بأقداره التي يعرفون سنتها الطبيعية – بهم جانب البر بزلزال مهلك لا غرقاً بل دفناً، أو إن أمنوا من عاصفات الريح في البحر أن يرسل الله لهــم في البرّ حاصباً من الريح ترميهم بالحصباء كاسحة مهلكة، ثم لا يجدوا لهم وكيلاً يكلــون إليه النجاة من الخسف والنسف غير الله الذي حق قيامه وكيلاً كافلاً لهم في كل الحياة وابتلاءاتها.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ (٦٩)

ويــستمر الخطاب المذكّر: أم أمَنوا – أولئك العباد المخاطبون– أن يعيدهم الله بأقدار تــصريفه لطــروء حاجاتهم ابتغاء فضله في منافعهم المتكاثرة المتقلبة دواعيها في حياتهم – يعــيدهم إلى البحــر تارة، مرة أخرى فيرسلَ عليهم بسُننه الطبيعية بليّة مما يسمعون به من شدائد البحر قاصفاً كاسراً من الريح فيغرقهم بأقدار أجل الموت ذاهبين بما كفروا نعمة الله في الحــياة المطمئنة – ورحمته في كشف الضراء كل حين، ثم لا يجدوا لهم على الله وأقداره التي فعلت بهم ذلك تبيعاً يطلب إثرهم مطلباً من الله بحق حياتهم التي توفاها[1].

---

(١) الفلــك الحاملة في البحر نعمة ابتلاء يعتري راكبها اضطراب من الريح يلجئه خوفه إلى الله يدعــو النجاة ثم إذا بلغ البر مضى معرضاً: راجع الآيتين ٦٣ و٦٤ سورة الأنعام، والآية ٣٢ سورة يونس، وانظر الآية ٦٥ سورة العنكبوت، والآيتين ٦٣و٦٤ سورة لقمان.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (٧٠)

ونعم الله التي قد يكفر بها الإنسان شاملة إذ يُذكّر عباده بصيغة المتكلم: ولقد كرم بأقداره المحيطة بني آدم بعد الخلق –حسنَ تقويمٍ لهم شخصاً على سائر الحيوان النامي المتوالد، وفطرةَ علمٍ بأسباب إدراك تجعل الإنسان خيراً من الحيوان عاقلاً متفكراً وُسعاً وعمقاً متفقهاً لظاهر المشهودات ينفذ إلى عموم سننها وإلى دلائلها في الغيب، ووجدانَ إيمان وميثاق معرفة الله، ونطقاً لبيان باطن المعاني في نفسه، ومدىً من حرية المشيئة تحكمه سنن الله الطبيعية لكنه مخير في طاعة الله والإيمان به يتبادل بها جماعته العلم وتتضامن في مجتمع أوثق من الحيوان وتعرف خلقاً وعرفاً أطيب، وتكليفاً للملائكة التي سجدت لخلق آدم أن تؤدي بأمر الله أمانة رسالات الوحي وأن تبسط للإنسان المؤمن أيداً وحفظاً وترعاه في الدنيا والآخرة، ومصيراً يمد الحياة الأولى بآخره في الأزل وفاق ما قدم من كسب خيراً فنعيماً أو شراً فشقاءً. وحملهم الله بأقدار سننه في طبيعة الأشياء في البر بمركوبات مسخرة تبلغهم مسافات تشق عليهم دونها وفي البحر عبر شدائده بالفلك، ورزقهم بأقداره في الأنعام والزرع والماء والنماء والإثمار –رزقاً من الطيبات يستلذها قوتاً مأكولاً ومشروباً ويتمتع بها زينة ثمرات منبتة مختلفاً أُكلها وألوانها وزرعاً وفاكهة يتيسر إنماؤها وحصدها. وفضّلهم بأقداره العظيمة على كثير ممن خلق تفضيلاً – إيتاءً له خيار المشيئة وتأهيلاً لعلم أسماء الأشياء بصيرة بمغزاها آيات للغيب وحياةً في الدنيا وابتلاء بمشهوداتها ومتاعها وهدى منزلاً لبيان حق الغيب وبيان الصراط المستقيم ثم مرجعاً إلى الله ونعيماً مستمراً خيراً وأبقى في الآخرة لو أعدوا لها، ذلك بينما الملائكة عابدون مطوعين لا مخيرين والجن فيهم مثل بني آدم ابتلاء فخياراً للإيمان والطاعة لله أو للعصيان وفيهم من طبع ذاته بمعصيته في الأزل على ما يشطن به من الله ملعوناً مطروداً من رحمته في الدنيا والآخرة.

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ (٧١)

ولئن كان تكريم بني آدم سنة ماضية في الدنيا فقد يستمر التكريم في ختام وجود الإنسان في الحياة الآخرة، لمن غنم بهدي من الله فرصة البلاء في الدنيا مؤمناً مصلحاً فحق له كريم الجزاء. يوم يدعو الله - بأقداره بعثاً لبني آدم فحشراً وعرضاً لبيّنة كسبهم الذي ماتوا عليه - كل أناس جمعهم إطار ابتلاء مخصوص وكانت تليهم شهادة بلاغ بالهدى ونذارة وكان كسبهم في ذلك على شاكلة واحدة وبشارة واحدة، يُدعون بإمامهم - الكتاب الإمام الدليل الذي يقوم شاهداً على كسبهم المرصود في الدنيا ليحق عليهم به الحساب ويُؤتى كتاب مفصل لِعَيْن ما يلي كل أحد منهم من مرصود عمله كما تشهد به رقابة الملائكة من حوله. فمن أُوتي كتابه بيمينه فأولئك البارزة رتبتهم يقرأون كتابهم راضين بالإطلاع على ما فيه يعرضونه على غيرهم ولا يُظلمون فتيلاً، يوفون أجور أعمالهم المكتوبة لا يُبخسون أدنى ذرة كالفتيل في النواة.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (٧٢)

أولئك من فازوا بالفلاح، ومن كان في هذه - الحياة الدنيا - أعمى ممن سواه يخبط العشواء ضلالاً في الحياة بغير هدى ولا ابتغاء لمقصد الآخرة، فهو في الآخرة أعمى يصرفه الخزي واليأس أن يقرأ كتاب كسبه وقد عمي قبلاً عن قراءة كتاب حياته ليرشد تائباً مصلحاً، وهو أضل سبيلاً مهما يستبق إلى صراط الجنة لا يُبصره ولا يهتدي إليه لأنه ضل عن أول ذلك الصراط المستقيم، بل يقع ملقياً في غور النار[1].

عموم المعاني (الآيات ٤٠ - ٧٢):

إن الإنسان في العالم المشهود المحدود قاصر من النفاذ ببصيرته إلى الغيب الحق، إلا أن يصله علم وهدى من الله فمهما تعتمل في فطرته نزعة إلى الإيمان باله أعلى في الغيب تفتنه المشهودات الحاجبة ويبدو له ذلك الإله بعيداً في عليائه فيتوسط إليه بمظنونات غيب أو بمشهودات يتألهها ويعبدها زلفى إليه. وكان العرب في الجاهلية

(١) في قدر العمى في الآخرة لمن عمي عن كتاب رسالة الغيب في دنياه: انظر الآية ٩٧ من ذات السورة، والآيات ١٢٤-١٢٦ سورة طه.

يــتخذون الملائكة أرواحاً بنات لله من الجن في السماء، ثم ينــزلزن عنها إلى الأرض يرمــزون لهــا بأصنام يسموها تسمية الأنثى. ولعلهم إنما ورثوا شيئاً من ذكر الملائكة حــول الله الــتي تنــزّل إلى الناس في الأرض بآيات علم أو هدى منه أو لإنفاذ قدره وأمره – تراثاً من ملة إبراهيم التي نسوا وضيعوا أصول الحق في علم الغيب فيها فضلوا عــن نهجهــا الحانف التوحيدي واختلقوا من بواقي مذكوراتها ظنون شرك بالله من الملائكة والجن ومشهودات النجوم والأصنام. وقد رسخت تلك الظنون وانعقدت في نفــوس العرب لعهد طويل. وما من أمة تواضعوا على تعبير عن دينهم من بني الإنسان إلا كــان لهــم عِدة من معبودات مادية موصولة بروحيات ظنون دون الإله الأكبر. ولكــن القرآن في خطابه العرب صرّف كثيراً من الذكر حججاً بأن الله غني عن الولد والشريك له ما في السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير وإبطالاً لفريتهم التي لا توقــر الله حتى بمعاييرهم إذ استأثروا بحب الولد الذّكر وكانوا لا يستبشرون بالبنت منذ ولادتها ولكنهم أضافوا الإناث ولداً لله، ولو كانوا جعلوا لله ولداً لتصوب إليه كل التألــيه والتعبد دون أبيه مثل النصرانية، فهو عندهم المصطفى. وقد تطهر العرب من ثقافــة الــشرك إذ دخلوا الإسلام و لم تبق فيهم رواسب تعود ظاهرة في حالة ضعف الدين التالية. وثبت في القرآن التذكير بوحدانية الله وتوحيد الحياة كلها عبادة لله وألا يُــتخذ مــن دونه معبود ولو في خصوص من مناحي الحياة. فالألوهية والربوبية غاية وعلــوية في الكمال المطلق فالتعبد الخالص. ولو تعددت الآلهة لما كان من معنى للعلو والقدْر المطلق والصفات الحسنى ولتعالى بعضهم على بعض كلٌ يبتغي النيل من كمال الإلــه الأكــبر ومــن ملكوته أو لذهب كل إله مستقلاً يبتغي حيّزاً من الخلق والملك ونــصيباً من شأن الإنسان وذلك كله يبطل الألوهية المطلقة بظنون معايير مقيسة على تنافس البشر وحبهم للتفاضل. فالله سبحانه له كل الملك منــزّه عن نقص يُتمه شريك ولو دونه قدراً وهو الغني لا يتخذ ولداً أو وكيلاً عوناً ومداً كالبشر. والله يتعالى على كــل شــيء علــواً كبيراً، عزيز ليس فوقه وليّ أكبر بل له الكمالات والقوى المطلقة والأسمــاء الحــسنى. وهــو الأحد لا كفء له ولا مثيل، والصمد يباشر الربوبية على الإنسان الذي ما له من وليّ معبود تقرباً وزلفى إلى الله.

إن السماوات السبع التي بلغ الإنسان علمها من الله وهو لا يدرك بنظره منها إلا الدنــيا، وإن الأرض، وبيــنهما الإطار لوجود الإنسان – تلك الكائنات الجليلة هي بطبيعــتها تعبّر عن تسبيح الله، وحدانيتِه وتعظيمه وتعاليه، وذلك بحمده العلى خالقاً وناظماً ومدبراً. فما كان العرب ولا غيرهم من المشركين إن سئلوا عمّن خلقها ونظم معالمهــا ودبر سيرها إلا ذكروا الله رب الخلق الأعلى، ولكنهم لا يبلغون بتلك المعرفة مقتــضاها تسبيحاً لله عن شِركة. وإنْ من في السماوات والأرض من الأحياء أرواحاً مــن الجن الذي لا يُرى أو من الإنس أو من الحيوان والنبات – كل ذلك يسبح الله، آيــات تعبر عن إيكال الروح والحياة المتجددة إليه وحده بحمده بارئاً مصوراً. وإن من شيء من جمادات الكون المخلوقة وظروف سيره المقدرة إلا يسبح الله تنــزيهاً له عما سواه قادراً باسطاً أمره وقضاءه وحده وناظماً ما من عامل اضطراب فيما يخلق ويجعل ويدبــر ممــا يشاء. كل تلك الكائنات تسبح لله بحمده تعبيراً بحالها عن وحدانيته مَلِكاً محيطاً عليماً مطلقاً قيوماً حفيظاً قديراً على كل شيء وله سائر الصفات العليا المحمودة، والــناطقة مــنها تــسبح الله هو وحده الذي يعلّمها بأبعاد الوجود المشهودة والغيب ويهدي مسيرتها في الحياة موصولة بأقدار الغيب وممتدة من أولها الأدنى إلى الآخرة. وإن كــان الذين يخاطبهم الله من بني الإنسان في العالم المشهود المحجوب عن الغيب الذين يقصرون دون تبصر آياته في الكون المخلوق ليذكرهم برسالته من الغيب علماً وهدى، إن كانــوا لا يــستجيبون لدعوته كافة، فإنه ربهم يتولاهم عباداً له مهما يشركون لا يفقهــون تسبيح الكون حولهم ولا يتذكرون. ذلك أنه بقدره الأزلي أطلق الإنسان في الدنــيا ليحــيا على مشيئته مبتلى فيها حتى يرجع إليه تعالى فهو صبور عليهم في دار الــبلاء: حليم عن غفلتهم وضلالتهم عن تسبيحه وحمده، غفور عن فعالهم من ثَمَ في الحياة لا يعاجلهم بالمؤاخذة بل يمد لهم لعلهم يتوبون ويهتدون حتى المرجع إليه.

والرسول ﷺ، ومثله الدعاة الذين يخلفونه، هو يحمل أمانة رسالة القرآن يقرأه على المشركين بالله ما دونه الذين فُتنوا بالمشهود والحاضر وكفروا بالغيب وتمام الحياة الدنيا بأخرى وحاجة الهداية برسالة من الله للاستقامة على الحق والخير الموصولة بينهما، فإذا قُــرئ عليهم القرآن ارتدت عليه مشيئتهم مُعرضة، فجعل الله لهم – بقدره الذي يُيسر

للإنسان مدّ خياره - حجاباً بينهم وبين القرآن الذي لا يرضيهم فيه ذكرُ الآخرة ونذر حسابها وعذابها وضلالُ أوليائهم دون الله درء ذلك عنهم، فقلوبهم مغشية لا تفقه ذلك العلم ولا تخشع خشية من تلك النذر وآذانهم موقورة لا تتلقى كلمات الترهيب المتلوّة. وكــذلك إذا عَرض في قراءة القرآن عليهم ذكرُ توحيد الله يولّون نفوراً مما يبطل من معهودات شركهم وعزيز تعلقاتهم الموروثة. وقد كان شرك العرب تعبداً لأصنام رامزة لأرواح هي مقربة إلى الله، ومثلهم في ذلك الشرك الذي يكثف الوسائط دون الله البعيد في غيــبه كــثير في العالم. ولكن كثيراً في سالف الناس وحاضرهم إنما يتخذون المتاع وهــواهم لهــم إلهاً دون الله، هو عندهم غاية عليا يخُلصون الحياة في سبيله ولا يرون وراءه - مــتاعاً عاجلاً - آجلاً ومصيراً ولا يرضون بما يذكر بحياة أخرى وبإخلاص الحياة لوجه الله وابتغاء مرضاته فيها ولا يؤمنون بأن المتاع رحمةٌ منه وبلاءٌ يبتغي شكراً وطاعة له وزاداً للمرجع إليه. والحق أن المشركين بالأصنام والأوثان أنفسهم إنما يُضل كبارُهم العوامَ لأن في رعاية الشعائر المعهودة دواعي لحفظ المذهب المعهود لحياة تسود فيها أهواءهم هم في متاع الدنيا إثرة في المال والجاه والسلطان يقيها اكتنافها بروح من الحــرمات والمقدســات سكينة تُرضي العوام وتغرهم بطيب الحال. والمشركون بكل مذاهبهم إذا سمعوا القرآن ودعوة التوحيد والتقوى فيه ينأون عنه إلا أن يلتمسوا فيه ما يتــناجون به من اصطناع مطاعن في الرسول - أو القارئ الخالف - الذي يتلوه بأنه يلغو بغيبيات مسحوراً أو مجنوناً أو هو يفتري لحاجة في نفسه أو يروي أساطير الأولين المــتقادمة، أو يــرمونه فرية بأي مثال حيثما يضل بهم السبيل إعراضاً عن الحق. وقد يذهبون في نقد القرآن نفسه ويستنكرون ذكره لبعث عند الساعة ويستحيلونه من بعد أن يتحول جسد الإنسان الميت إلى رفات في التراب. ذلك ولو ذُكّروا بقدرة الله الذي خلقهــم أول مرة من ذلك التراب على إعادة نشأتهم بعد انحلال الأجسام ولو تحولت حجــراً أو حديــداً، فمادة الجسد تتبدل توالياً أثناء الحياة وهي في النشأة الأخرى من التراب من جديد تحمل الروح المسئولة عما قدمت مشيئية وإرادة فعله في الدنيا.

إن المفــتونين بعاجــل الدنيا وحاضرها يلهيهم الأمل فيها ولا يتذكرون الموت، وإنهــم لَمن يُنذرهم بقيام الساعة في ريبة من أجل الغيب المنظور يستعجلونه ويسألون:

متى هو؟ والوصية للرسول - والمذكّر للساعة من بعده - وهو لا يعلم أجلها أن يقول لهـــم: أن عـــسى أن تكـــون قريباً، أن يُذكرهم بالتهيؤ للآخرة حذراً كأنّ المخاطبين يموتون غداً، وأن السنة الصالحة للمؤمنين أن يستعدوا للآخرة كأنّ أجلها قد حان وألاّ يـــتمادوا في الغفلة وإرجاء المتاب وأن يمضوا في الصلاح حتى لا يفوّتوا من العمر مدة ولا يأخذهم الموت أو قيام الساعة بغتة، وأن يُذكّرهم أنه إذا جاء يوم يدعوهم الله من الأرض موتى يستجيبون منبعثين متبيّنين حمد الله الصادق الوعد القادر على كل شيء، ويتذكـــرون الدنـــيا وقد انطوى زمانها الذي كانوا يستطيلونه أملاً ويستبطئون أجل الساعة، فيظنون من حضور هول الآخرة أن لم يلبثوا في الأولى إلا قليلاً.

ونهـــج الدين الأوفق في الدعوة من المؤمنين هو مجادلة المخاطبين بالتي هي أحسن ولو كانت المجانبة بينهم إيمان وشرك. ففي القرآن تتوالى توصية المؤمنين بالقول الطيب السواء للمخاطبين: أن الله أعلم بالمهتدي والضال بين المتجادلين. فالوصية للرسول ﷺ - وللمؤمـــنين- أن ينصح عباد الله جميعاً أن يقولوا التي هي أحسن في مجادلاتهم وألا يحمـــل بعضهم على بعض كما حمل المشركون على الرسول بظنون ما نسبوا إليه من السحر والجن والافتراء ونحو ذلك، وأن يذكروا أن الشيطان ينـــزغ ويفتن بينهم وهو للإنـــسان كله عدو مبين. وكذلك ينبغي أن يقال لعباد الله مهما يختلفون ألا يتقاذفوا بأحكـــام الـــضلال ومـــا يحق من عقاب، ربهم أعلم بهم يمايزهم بالحق ويحكم بينهم ويقـــضي، وإن شاء يرحمهم ولو ضلوا أو يعذبهم بأمر جزائه وآجاله. والله يذكّر حتى الرسول أنه هو ما أرسل على المخاطبين بالدعوة وكيلاً يصرّف قلوبهم هداية أو يرجع إلـــيه قضاء جزائهم وإنما عليه البلاغ وعلى الله الحساب. وليتذكر الرسول - والدعاة خلفـــه - أن الله أعلـــم بمن في السماوات والأرض يصطفي الأنبياء والرسل- ويتقبل فـــيوفق الدعاة إليه - من حيث وُسعهم في حمل أمانة الدعوة وخطاب الأمة التي تليهم والإمامـــة لمـــسيرة الهـــدى في سياق الابتلاءات الواقعة. وضرب الله مثلاً باصطفائه داود عليه السلام وإيـــتائه زبـــوراً لـــيعظ المؤمنين بالمراشد الخلقية بعد أن تمكنوا في الأرض وانبـــسط لهم المتاع المبارك وتولّوا السلطان، وكان ذلك في سياق رؤية الرسول الخاتم للآيـــات عند المسجد الأقصى التي تُبشره وتُزكيه والمؤمنين مهاداً لعهد المدينة بما يقيهم

فتـــنة المتاع والسلطان ويحفظ تقواهم، بمثل المواعظ الخلقية التي كُلّف بها داود في عهد ملكه في أرض ذلك المسجد.

وليذكّر المشركون مهما يُحسن لهم القول ألا يتخذوا من دون الله آلهة كالملائكة موالي من دون الله يتعبدونهم ويدعونهم يحسبون أنهم يحفظونهم في بلاءات الحياة، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويل حالهم إلى ما هو خير. بل هم أنفسهم عباد له تعـــالى يبتغون إلى ربهم الوسيلة لقرباه فيوالون تسبيحه وطاعته يرجون رحمته ويخافون عذابـــه المحـــذور. وقَدَرُ عذاب الله المخوف مسطور في كتابه، فما من قرية مما جاءت أنباؤها إلا أهلك الله أهلها قبل يوم القيامة أو عذبهم عذاباً شديداً بأقداره عاقبة عاجلة في الدنيا فما نفعهم أولياء شركهم بالله بل حقّ عليهم عذاب الله فوقع عليهم. وذلك أن تطلّـــبوا مـــن رسلهم آيات خارقة لطبائع الأشياء المسنونة ليُصدقوا، ولكن جاءهم الآيـــات فكذّبوا وعاجلهم العقاب. وإن الله ليكف عن إنـــزال الآيات المعجزة تعزيزاً للرســـالة الخاتمـــة، إذ تبين للمخاطبين الخالفين الأُول أن قد كذّب بها أولئك و لم يُغن فـــيهم التـــرهيب عندئذ أن قد حقّ وحان عليهم العقاب فاستمسكوا بضلالهم حتى هلكـــوا أو عذبوا. وإن من السوابق الشاهدة أن الآيات الخارقة ونذرها لا تغني سابقةُ قـــوم ثمود الأقرب والبيّنة آثارهم لأمة خطاب الرسالة الخاتمة، طلبوا آيات فجاءتهم آية الناقة مُبصرة فعقروها وعتوا ظلماً فأصابتهم الصيحة هلاكاً. وفي الرسالة الخاتمة جعل الله النذيـــر والترهيب الرادع بغير الآيات المعجزة بل بآيات القرآن تصد المعرضين أن الرســـول معصوم منهم إذ أحاط بهم ربهم وإذ أَسرى به ليلاً إلى المسجد الأقصى ليريه من آياته عبرة فسألوه ليصفه فبانت رؤياه صادقة، ولكنهم ظلوا لا يخشون سعي الكيد له ولو مكايدة لعهد الله الحافظ ويكذّبونه في بلاغ القرآن وأنباء الغيب فيه ولو صدقت رؤيـــاه في أمـــر غيب لم يشهِده رؤية. وجاءهم من نبأ النذير البالغ في القرآن أن قد أُعدت للمكذبين الشجرة الملعونة في النار طلعها كرؤوس الشياطين وأُكلها من زقوم، ولكـــن التخويف والنذير ما زادهم إلا طغياناً كبيراً. ولذلك آيات النذارة من الله ولو عـــزّزها حادثـــة خارقة للمعهود أو واقعة عذابٍ لسالفين كذّبوا أو صرّف ذكرُها في ذكـــر مـــن الوحـــي لا تُغني فيمن انعقدت قلوبهم على الباطل وطُبعت فهم متمادون

ويـــزدادون طغياناً في الكفر وتكذيب الحق المبين. ذلك أن بني الإنسان من وراء الهوى فـــيهم تعهدهم الشيطان بالإغواء والإضلال. فبينما سجد الملائكة لأبيهم آدم ومضت طاعتهم لأمر الله أن يوالوهم بمدٍّ من الوحي والأيد في مسيرة الهدى، فإن إبليس شطن عن أمر الله واستكبر أن يُكرم عليه مخلوق من طين، وإذ أنظره الله إلى يوم القيامة شهد لله أن يـــتعهد ذريته بالإغواء، ومشيئة الله الكبرى التي قضت أن يُنـــزِل الإنسان حراً على مشيئته أطلقت للشيطان بوحاً أن يستفزّه بصوت وساوسه وقعاً في نفسه وبوطأة ضـــغوطه تـــرهيباً له وبمشاركته في شهوة الأموال والأولاد وبوعده وتمنيته ترغيباً في غـــرور. ولكـــن الله بيّن الحق أن ليس للشيطان على عباد الله من سلطان وكفى بربه وربهم وكيلاً لم يسلط عليهم قَدَرَ جبر بل تركهم لكن يحفظهم من الشيطان إن كانوا مؤمـــنين خالـــصين وإنه ليحيطهم برحمته مذكراً بنعمته تفيض عليهم لشكره والصبر رجـــاء للنعمة إن ابتُلوا بنـــزعها. ولكن من العباد من يُزجي لهم الله الفلك في البحر ليبتغوا من فضله فيحمدوه، ولكنه يغفل فإذا مسه الضر في البحر وأحاطت به مخاوف الهلاك تذكّر ربه ولجأ إليه وتجاوز ما كان يُشرك من دونه، فلما نجاه الله إلى البر أعرض وارتد إلى غفلته عن الله. فالإنسان مفتون بتقلّب طوارئ البلاء ومحاط بنـــزغ الشيطان فهـــو كفـــور بنعم الله يعتاد ذلك في حياته ولا يذكُره تعالى ما دام آمناً فيها من حذر الهـــلاك المحدق وينسى أن الله حاضر معه حيثما كان وفي كل أحواله وأقداره محيطة به قـــد تُنـــزل عليه قضاء ولو ساعة مأمنة. فلو نجا من ضرائر البحر إلى البر فإن الله قد يخسف به جانب البر أو يرسل عليه حاصباً من الريح المهلكة ولا يجد مما يشرك به من دون الله وكـــيلاً يحفظـــه، وقد يعيده الله إلى البحر تارة أخرى بتقلب حاجات ابتغاء ركـــوبه فيُرسل عليه قاصفاً من الريح ولا يستجيب لاستغاثته ذكراً له تعالى مضطراً، فيغرقُه بما كفر حين انبسطت له النعم الآمنة، ثم لا يجد له من أولياء شركه تبيعاً بذلك يـــرد علـــى الله قضاءَه وأمرَه المفعول. إن الله بأقداره قد كرّم بني آدم وسخّر لهم ما حـــولهم حمـــلاً في البر والبحر ورزقاً من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق، آتاهم علم السمات والآيات ولو حجبهم المشهود عن الغيب، وطلاقة المشيئة في الحياة يؤمن ويطـــيع أمر الله من شاء أو يكفر ويعصى بينما المخلوقات منها طائع بطبعه لا مجال في

مـــشيئة لعـــصيان ومنها عاصٍ مرق بمشيئته عن المتاب إلى الطاعة. وتعهدهم الله -بني الإنـــسان- بالهـــدى والنذارة والبشارة رسالة من الغيب تُذكّرهم في بلاءِ الدنيا لعلهم يـــستجيبون فيرجعون إلى الله تعالى ليصيروا إلى النعيم منه والرضوان الخالد. ذلك يوم يُدعـــى كل الناس ويُبعث فيهم رسولهم – أو من خلفه مبلغاً رسالة الغيب – ليشهد عليهم فيحق عليهم السؤال. ذلك يوم الدين والجزاء المحتوم وفق كسب الابتلاء الذي يعلمـــه الله وترصـــده رقابة الملائكة وكتابتهم. فمن أُوتي كتابه بيمينه بشارةً فأولئك يقـــرأون كتابهم الذي يرضونه شهادة في ساعة عسرة ولا يظلمون فتيلاً، إذ اهتدوا في الدنيا وأصلحوا وصبروا ولو تأخر فيها الجزاء. ومن كان في الدنيا أعمى في ضلال عن آيات هدى رسالة الله فهو في الآخرة أعمى عن مثوى النعيم وأضل سبيلاً.

ترتيل المعاني (الآيات ٧٣ – ١٠٠):

﴿وَإِن كَـــادُواْ لَيَفْتِـــنُونَكَ عَـــنِ الَّـــذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ (٧٣)

ســـبق ذكـــر عن المشركين الذين يكفرون بالغيب فتنة بالمشهود وعرضة لغرور الـــشيطان، والـــذين لا يذكـــرون نعم الله المبسوطة في حياهم المطمئنة إلا استغاثة به عارضـــة لنجاة من خطر هلاك محيق حباً للحياة. تعقبها الغفلة السادرة فيها حتى عن أقداره تعالى التي قد تصيبهم من حيث مأمنها، والذين يحيون في الدنيا في ضلال عمي عـــن ما كرم الله به الإنسان ليرجعوا إلى الآخرة عمين وأضل سبيلاً. ويضاف في هذه الآيـــة إلى فعـــالهم سعيهم لاستمالة الرسول ﷺ إليهم صرفاً له عن رسالة الهدى من الغـــيب، وإلا فالكـــيد لإخراجه من الأرض. والخطاب للرسول أنهم كادوا، مقاربين بمـــسعاهم الملـــحّ أن يفتنوه عن الذي أوحي إليه الله بأقدار علمه وهديه من إخلاص العـــبادة لله وابـــتغاء الآخـــرة. ذلك ليفتري مقتطعاً من تلقاء نفسه مقولات تناسب مذهـــبهم ولـــو منسوبة إلى الله لكن غير وحيه الذي يتلو عليهم. وإذاً، لو بلغوا به أن يتحيـــز نحو ما يريدون لاتخذوه خليلاً، موالياً موادّة ومراضاة على مذهب الحياة الذي يعهدون في الارتهان المشهود للدنيا ومتاعها.

﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ (٧٤)

ويستمر خطاب النذير للرسول ﷺ من ربه أن ذلك يجري حوله ولولا أن ثبّته هو سبحانه بأقدار هداه تذكيراً من الوحي متوالياً ليصابر على الحق ويجاهد باطلهم ورحمة استجابة من الله لدعائه ومباركة لإيمانه ليطمئن به قلبه – لولا ذلك لقد كاد هو وقارب أن يركن لاوياً إليهم شيئاً قليلاً حرصاً منه أن ينعطفوا هم إلى دعوته ويقاربوا التوبة إلى حق الهدى.

﴿إِذاً لأَّذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥)

فالخطاب للرسول ﷺ يستمر واعظاً من ربه: إذاً، لو وقع ذلك منه مداهنة لهم ومساومة في الاستقامة على حق الدين دون ميل أو عوج – لأذاقه تعالى بأقدار حكمه وقضائه العدل ضِعف الحياة الدنيا مما يحق فيها على الجانحين عن الحق من العقاب، وضعف العذاب بعد الممات ففي الآخرة، ذلك أضعافاً بقدر مدى ركونه إليهم وبما سيميزه دون سائر الراكنين لأنه أثقل تكليفاً بأمانة بلاغ الحق رسولاً وأبلغ أثراً على سائر المؤمنين لو افتتن إذ هو إمامهم وقدوتهم المثلى. لو فعل ذلك تضاعفت عليه التبعة ثم لا يجد له صداً حاملاً على حكم ربه وأقدار عقابه نصيراً منهم وإن كانوا والوه خليلاً[1].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (٧٦)

الخطاب للرسول ﷺ يذهب إلى أن سعي المشركين الخائب لإمالته إليهم اشتد لإبعاده جملة عن ساحتهم. وإن كادوا – مقاربين – ليستفزوه ويستخفّوه دفعاً له من البقاء في الأرض التي هم فيها ليخرجوه منها منفياً من وقع الأذى وحذر المكر. والبشرى له أن إذا تم لهم أن يخرجوه فعلاً، إذاً لا يلبثون مقيمين في ديارهم خلفه، من وراء خروجه مطمئنين بما عهدوا من مذهب جهالة إلا قليلاً من الزمان يعقبه ما يُزلّهم عن الاستقرار في الأرض مشركين.

---

(١) في نذير الرسول بالعقاب الأبلغ إذا افتتن: انظر نذراً لداود – الآيات ٢٠-٢٦ سورة ص.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ (٧٧)

الخطاب للرسول ﷺ تثبيت تلك البشرى، أن لو وقع ذلك منهم لَتمضينّ عليهم عاقبة الزوال عن أرضهم سُنة معهودة في سيرة من أرسل الله بأقدار العصمة والنصر من رسل قبله، ولْيطمئن هو أنه ظاهر عليهم وأنهم مأخوذون عن التمكن في أرضهم ولو حملوه ودفعوه إلى هجرة عنها، ولْيصبر ويزددْ اطمئناناً فهو لا يجد في مستقبل سير الأمور لسنة الله وأقداره في تصريف الاستخلاف في الأرض تحويلاً إلى مجرى آخر بدفع من أي قوة تغالب قضاء المصائر بقدر الله[1].

﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨)

ولْيضفْ الرسول ﷺ إلى ذلك الثبات والصبر والرجاء المطمئن أن يزكيه بأن يقيم الصلاة ليستعين بها استقبالاً وتوجهاً خالصاً لله في شعيرة تعبّد له بل نيّة خاشعة وكلمة ذاكرة وحركة خاضعة، تُتنزل عليه سكينة وطمأنينة بأن الله قريب يذكُره ويصله بالهدي والأيد كما يذكُره هو ويصله قربى إليه. وليوال الصلاة كل حياته فكل يومه، يؤديها لدلوك الشمس ميلاً وزوالاً من نصف السماء والنهار ظهراً نحو العصر، ثم بعد المغرب إلى غسق الليل إذ يتنزل غاشياً ظلام الليل عشاءً. وأن يصحو بعد المنام ليقيم قرآن الفجر المتكاثر شهوداً المجهور تلاوة في شعيرة الصلاة، وإذ تتهيأ الرؤى والعزائم للنهار القادم حيث السعي لابتغاء فضل الله في سياق بلاءات الحياة، وإذ يقع ذكر الله في وقت صاف من مشاغل الحركة وتشويش الخطاب وهموم التعامل في ذات البين فيصفو الخشوع ويخلص الذكر بما يُحق التجاوب له شهادة من الغيب من الملائكة الذاكرين المسبحين ومن فوقهم رب العالمين القريب المجيب.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩)

---

(١) في سنة الله أن الذين يؤذون الرسل ليخرجوهم لا يلبثون بعدُ في الأرض إلا قليلاً: راجع في شأن موسى وقوم فرعون الآيات ١٢٨-١٣٧ سورة الأعراف، وفي من قبلُ من الرسل الآيتين ١٣و١٤ سورة إبراهيم.

وتـــستمر الوصية للرسول ﷺ يذكّره الله أن يتخذ إليه من الليل مجالاً بعد استيفاء الـــسكون والنوم فيتهجد لا هجود نوم بل يبدله بتلاوة القرآن وإقامة الصلاة نافلة له فضلاً زائداً بعد أداء الفرائض من الصلاة. عسى رجاءً مؤكَداً أن يبعثه ربه يوم القيامة ويجعـــل لـــه مقاماً محموداً، فذلك يوم يتمايز فيه بالحساب كسب العباد ويتعالى درج التفاضـــل في حـــظ الجـــزاء، فـــيحق له الفوز بمقام عال يشهده الصالحون والمقربون فيحمدونه ويتسع من همّ نفسه للاستغفار والشفاعة بإذن الله للمؤمنين[1].

﴿وَقُـــل رَّبِّ أَدْخِلْنِـــي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (٨٠)

والخطاب للرسول ﷺ بعد أن يجتهد في الدعاء منادياً ربه أن يُدخله مدخل صدق حيثما عرض له في ابتلاءات الحياة المتوالية ظرف ابتلاء – أن يقبل عليه صادق النية في ســـبيل الله ويقـــوم فيه عليه متوكلاً، وأن يخرجه مُخرج صدق حيث فرغ من أمر أو قـــضية – أن يَخرج صادق الكسب والهدي والرجاء في حسن الجزاء صدقاً مع إيمانه، وأن يدعـــو ربـــه أن يجعـــل له من لدن قَدَره سلطاناً من عزة الحق وقوته نصيراً له في ابتلاءات الحياة ودعوة أمة الخطاب مجاهدة لشركها، داعياً في كل مدخل أو مخرج من موقـــف معهـــا بـــالتي هي أحسن دون مداهنة أو مساومة في الحق صابراً وإن أساءوا مستعيناً بالله عن خالص إيمانه.

﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١)

وعلى الرسول ﷺ أن يتم ذكر الله الطيب بكلمة في الحق يعليها بأنه ظاهر، ليقل إنـــه جـــاء الحق الذي أوحى إليه وبلغ قلوب المؤمنين إيماناً به جعل ظواهره في الحياة مقـــولات مسموعة وواقعات مشهودة لها الوقع الأعلى. وإنه زهق الباطل وقد كانت قائمـــة فـــورتُه معهـــودة غلبته صداً للحق، ولكن الحق رجح وظهر إحقاقه والباطل اضمحل وانغمر وتم إبطاله. وليعلمْ أمرَ الله: إن الباطل كان زهوقاً، أمراً قضاه سبحانه

(١) في مواقـــيت الصلاة المفروضة: راجع الآية ١١٤ سورة هود، وفي بضع آيات يُذكر التهجد نفلاً تلاوةً وتسبيحاً وذكراً وسجوداً وقياماً قانتاً: انظر منها الآية ٢٠ سورة المزمل، والآية ٢٦ سورة الإنسان.

وتعـــالى منذ الأزل وسُنة كلما قامت رسالات الهدي الحق التي دحضت باطل معهود الـــضلال، وهـــي بائنة في سير الحياة المتقدم في عهد دعوة الرسول للناظرين المعتبرين المستبشرين.

﴿وَنُنَــزِّلُ مِــنَ الْقُــرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ (٨٢)

ويقول الله أنه ينـــزل بأقدار وحيه وهداه لعباده ذلك الحق وهو القرآن، يُنـــزل منه ما هو شفاء لما في نفوس أمة الخطاب من علل الباطل التي أصابتها من معهود ظنون الجاهلية عن الغيب من فرط جهلٍ وأعراف حياة فتنة بالمشهود دون الآخرة ومن ارتهان للـــشرك دون الله. وهو رحمة من العلم بحقائق الغيب فضلاً من الله لا يدركه الإنسان المحدود بالعالم المشهود وبهدايات الحق التي تَفصل فيما يختلف عليه الناس ويصطرعون أيّ الـــرؤى هـــي الأرشد والأحكم وأيّ المسالك هي الأقوم في دنياهم صلاحاً ونحو آخـــرتهم فلاحاً. ذلك خير القرآن للمؤمنين بالغيب، بالله وكتبه ورسله وباليوم الآخر. ولكـــن القـــرآن لا يزيد الظالمين إلا خساراً لأنهم ضل مذهبهم عن الحق وعملهم عن مقتضياته في واقع حياتهم، ولأنهم حيثما ابتُلوا بخلافات الناس في الدنيا جاوزوا الحدود العادلـــة وعدَوا على حرمات الآخرين. أولئك رأوا القرآن يصدهم عن باطل ضلالهم وظلمهـــم ويـــردهم إلى الحق العدل، ويضبط أهواءهم ويحد دفع شهواتهم ومبتغياتهم المحـــبوبة فيذهبون إلى تعزيز مذهبهم إصراراً على ما هو خاسر في دنياهم، لا مُضياً في جهلهم وغفلتهم وحسب بل تعمداً واستكباراً وتعامياً وتمادياً وحميّة مدافعة عما كانوا فيه تزداد كلما بان بطلانه وتراءى زهوقه في وجه الحق الظاهر والقرآن المنتشر. وذلك لا يزيدهم في آخرتهم إلا خسراناً، يأتونها بكسب أسوأ ويكون قد حق عليهم العذاب إذ سبق بلاغ النذير فيلقون سوءى الجزاء.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا﴾ (٨٣)

لـــئن لم يزد القرآن الظالمين إلا خساراً، فتلك علة الإنسان إلا القليل منه الشاكر الصابر، فمن ذِكر الله أنه إذا أنعم على الإنسان هو تعالى بأقدار عطائه وابتلائه أعرض

ولم يُقبل على النعمة الموهوبة شاكراً لله حامداً، ونأى بجانبه إعراضاً متباعداً مدبراً عن تذكّرها وتدبر ابتلائه بها بل انفتن لاهياً في هواه ولم يتخذ سبباً لمزيد عبادة لربه، وإذا مسه الشر كان يؤوساً قنوطاً لا يتعظ ويسعى في سبيل الخير إلا إذا اشتد عليه فإنه يلجأ إلى ربه متذكراً مستغيثاً بدعاء عريض. ذلك كمن يذكُر الله دعوةً للنجاة إذا مسه الضر في البحر فإذا أنعم الله عليه بالنجاة مرّ وأدبر عن ذكره تعالى كأن لم يدعُه قبلاً. كذلك الظالمون مع القرآن، هو نعمة من الله شفاء لما كان بهم ثم هدى ورحمة لحاضر حياتهم وبشرى لما هو آت لكنهم يعرضون عنه ويثنون صدورهم عن تلاوته وينأون جانباً وينهون عنه الآخرين، يفرّطون في نعمته هدى نحو الفلاح ويمضون مكبين نحو الخسران.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ (٨٤)

الخطاب للرسول ﷺ أن يقول لهم: كلٌّ يعمل على شاكلته: المؤمنون الشاكرون الصابرون، والظالمون، كلٌّ يسير في حياته بما انعقدت عليه أصول مشيئته وعبّر عنها بخُلقه إقبالاً على القرآن أو إدباراً. والخطاب لهؤلاء جميعاً أن ربهم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً. يدعو بينهم إلى الحق مَن يؤمن به ويتلو القرآن بذلك ويذر الآخرين في أمرهم على نهجهم وهم يذروه، ربهم أعلم بالذي هو أهدى خياراً ولا يزكي أحد نفسه، وليقولوا بينهم فيما اختلفوا فيه التي هي أحسن فالله أعلم بمن هو مهتد يزيده ومَن هو ضال يمده[1].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (٨٥)

والخطاب يمضي في شأن وحي القرآن الذي لم تعهد أمة الخطاب العربية فيها له سابقة فمضوا على نهجهم إعراضاً وتساؤلاً وجدالاً فيه. ويسألون الرسول عن الروح التي

---

(١) حرية العمل لكلٍ على شاكلته ومكانه والعاقبة لكلٍ عند الله: راجع الآية ١٣٥ سورة الأنعام، والآيات ٩٣و١٢٢و١٢٣ سورة هود، وانظر الآية ٣٩ سورة الزمر. كلٌّ بريء مما يعمل غيره ولا تزر وازرة وزر أخرى بل يوفّى كل جزاءه درجات على عمل الصالحات أو السيئات: راجع الآية ١٥ وحاشية تفسيرها من ذات السورة، والآية ٤١ سورة يونس، وانظر الآيتين ٢٥و٢٦ سورة سبأ.

يذكـــرها هـــو تالياً القرآن والروح من شأن ما يصل الله من ملأه في الغيب الأعلى بعباده البـــشر، فالقـــرآن بلاغ فيه 'روح' من أمر الله تعليماً وهداية يُنـــزله على 'الروح' الأمين مَلَكـــاً يـــوكل إليه الوحي بالقرآن، والله ينفخ 'روحاً' في الإنسان بعد تسويته لأول خلقه جسداً حياً يتبقى إن شاء علم القرآن وهديه، وقد يصرّف الله الموجودات والوقائع 'بروح' غير منظورة الكيف والأسباب لا ينكرها وييأس منها إلا الكافرون. وليقل لهم الرسول ﷺ مجاوبـــاً أن الروح من أمر ربه لا من سواه، قوة علم وفعل غيبية نافذة من الغيب إلى واقع الـــناس المسموع المشهود، غير المخلوقات التي ينشئها الله بصور وأسباب وأطوار مسنونة مشهودة والمجعولات التي يصرّفها الله فيها وبينها بذات السنن. وليقل الرسول لأمة خطابه كذلك أنه، من قبل أن تُنـــزل إليهم روح القرآن وما فيها من علم الغيب ما أُتوا من العلم إلا قلـــيلاً مما هو مشهود. فلمدى علم الله المحيط أبعادٌ مطلقة لا يدرك البشر منها إلا قليلاً مما أنعم الله على أبيهم آدم من الأسماء ومما أوحي إلى سلف الأنبياء ثم تنـــزل لهم علم بهذا القـــرآن المُوحـــى إلـــيهم ليكفيهم في حياتهم الدنيا إدراكاً لحقائق الغيب الموجودة التي لا يـــشهدون وللحـــق الذي يجيء وجودها لأَجَله هدى عاجلاً للتي هي أقوم في هذه الدنيا وليتزودوا للتي هي خير فيما يحق لهم بعد الموت والبعث في الآخرة.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ (٨٦)

ويـــتوجه الخطاب للرسول ﷺ خاصة من ربه ليتبين جلال نعمة الله بتنـــزّل القرآن العظـــيم عليه هو مصطفىً من عباده. إنه – إضافة لما ينبغي أن يبلّغه ويتلوه من أمر الروح ومـــدى العلـــم المنـــزل، لو شاء الله تعالى بأقداره العظيمة وقضائه النافذ وأمره المفعول – لـــيذهبنّ – حقـــا – بالذي أُوحى إليه كذلك من القرآن، فلا يأتيه ما فيه من علم وشفاء وهـــدى وتزكية ورحمة، ولو جرى وقع ذلك القدر لا يجد هو لنفسه إنعاماً وعطاءً ورحمة بهذا القرآن على خلاف من قطعه عنه بأمر الله وأقداره، لا يجد وكيلاً يوكل إليه الإتيان به دون الله، فالقرآن إنعام عظيم روحاً من الله وعلماً من لدنه مما يجهله العباد في الأرض.

﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (٨٧)

يُخاطـــب الرسول ﷺ أن ذلك كذلك إلا أن قد تداركه ربه بنعمة ذلك الوحي رحمـــةً مـــنه، إن فضله تعالى كان عليه كبيراً – أن اصطفاه ليتلقى وحي هذا القرآن

فيقـــرأه ويتزكى هو به ثم يحمله ليبلّغه الناس تالياً عليهم آياته يعلمهم الكتاب والحكمة ومـــزكياً لهـــم ببيان ذكره دعوة بقوله وقدوة بسنته المهتدية به، وبذلك تتضاعف له الأجـــور بفعله الصالحات وبمثل فعال من اهتدى بدعوته وإمامته ممن لا يحصى لاسيما في الخالفين.

﴿قُـــل لَّـــئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨)

إن علـــى الرسول ﷺ أن يخاطب المرتابين بالقرآن بما يشهد أنه نعمة من عند الله تنـــزلت عليه ليبلّغها إياهم، ليست بافتراء من عنده ولا من بشر يعلمه، ولذلك ليقل لهـــم أن لإن اجـــتمعت الإنس بما أُوتوا من البيان بليغ التعبير والعلم القليل بالمشهود والجـــن ومـــا أوتوا من مدى علم الغيبيات، لو اجتمعوا كلهم على أن يأتوا بمثل هذا القـــرآن، بما يضارعه بلاغة مبيّنة وحكمة محيطة لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً يتساندون ويتعاونون، وهم عادة مبتلون بالخلاف على كل أمر جليل[1].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ (٨٩)

ذلـــك هو مبلغ الحجة على حق القرآن في مصدره روحاً من الله. وكذلك مبلغ مضمونه المبين، ولقد صرّف الله بأقدار فيضه بالعلم الأعلى وقدرته على التعبير بالبيان الأحـــسن – صـــرّف في القرآن من كل مثل، نمط هو الأعلى من بليغ البيان وحكيم المعاني لعل المخاطبين يتلقونه سماعاً لوقعه وخشوعاً لهديه فيزدادون بكل مثل من الهدى يصرّفه الله في القرآن عبر ما يوالون من تلاوته. أحكم الله القرآن وفصّله كذلك، فأبى أكثـــر الناس من المخاطبين بتنـــزيله وبلاغه إلا كفوراً غمراً في نفوسهم لمسالك بيّنته ودواعي الإيمان به.

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِـــيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا

---

(١) في عجـــز البـــشر أن يضاهوا القرآن: راجع الآيتين ٢٣و٢٤ سورة البقرة، والآية ٣٧ سورة يونس، والآية ١٣ سورة هود وانظر الآيتين ٣٣و٣٤ سورة الطور، بل لا يفتريه الرسول ولا يبدّله، من تلقاء نفسه: راجع الآيتين ١٥ و١٦ سورة يونس.

كـــسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّه وَالْمَلآئِكَة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (٩٠ – ٩١، ٩٢ – ٩٣)

أبى أولئك إلا كفوراً بالقرآن وبسطوا لتخريج كفرهم شروطاً شتى للإيمان به، وقالــوا – والخطــاب في بيان مقولاتهم للرسول: لن يؤمنوا له حتى يفجّر – دفعاً يخــرج مـــن الأرض – ينبوعاً، عيناً نابعة جارية من الماء ولعموم الناس منهم، أو تكـــون له – كرامة خاصة له تتجلى فُجاءة بغير أسباب صنع – جنة، حديقة من نخـــيل تمر وعنب مثمر، فيفجر نبعاً من تشقق الأرض الأنهار الجارية الراوية خلالها تفجـــيراً منتشراً. أو يسقط السماء – بفعلة معجزة كما زعم منذراً بمنظور مثلات عقاب لكفرهم – يقع عليهم من الله غضباً – كسفاً، قطعاً من شواظ يصفعهم أو يهـــدم بهم ديارهم، أو يأتي من السماء بالله ذاته جهرة مرئياً والملائكة معه قبيلاً، يقابلونهم بمشهد تَنــزُّلهم عياناً – تعزيزاً لزعمه تنـــزّل وحيٍ من ربه بملك ونذارته بـــذلك المـــشهد قـــياماً للساعة. أو يكون له بغتة دون كسب منه معتاد بيت من زخرف، ذهب بديع الزينة، لعل ذلك يعظهم بتوقيرهم له رجلاً عظيماً ذا مال، أو يرقى صاعداً في السماء درجاً ظاهراً – ليبلغ حيث يأتيه الوحي، وحتى لو فعل – يقولون له – لن يؤمنوا لرُقيّه المشهود حتى ينـــزّل عليهم كتاباً في قرطاس يأخذونه بأيديهم يقرأونه قرآناً.

فلـــيقل لهم الرسول كما يوصيه الله، رداً على تلك المخارج لكفرهم بالقرآن التي اســـتوحوها من ظواهر الحاجة المبتغاة أو المخوفة في بيئتهم ومجتمعهم أو من ظنهم بعد الله في الغـــيب يتخذون آلهة من دونه ويرقون بها أحياناً إلى الملائكة بنات لله ويتمنون مشاهدة الغيب كما يفتنهم المشهود طبعاً، ورداً على كفرهم المتبلد بالغيب ولو نازعه وقـــع آيات مصدقة واقعات تشذ على كل مشهود مثل كفر الذين من قبلهم – ليقلْ لهم أن سبحان ربه، فهو الذي خلق وطبع المشهود آيات تفكر لسُننٍ قدره ولا يُعجزه شيء إن شاء أن يصرّف آيات بواقعات متبدّلة أمراً مفعولاً محسوساً لهم، وليتساءل عن تطلّـــبهم كل ذلك منه: هل كان إلا بشراً قاصر الطاقة أن يبدّل سنن الله المطبوعة في

الكـــون والوجود، رسولاً وحسب يبلّغهم كتاباً أُنـــزل عليه روحاً موحاة من الغيب رسالة إليهم[1].

﴿وَمَــا مَــنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (٩٤)

الـــسُنّة في مذاهب الناس مع رسالات الأنبياء ماضية، ما كان النبـــي الخاتم إلا رسولاً وما منع الناس كافة أن يؤمنوا بحق الرسالة إذ جاءهم الهدى منـــزلاً من الغيب إلا الإنكـــار حـــسداً أن يـــصطفي الله أحـــداً منهم بشراً يبعثه رسولاً، يرون الأحقّ والأصدق أن يأتي بأرواح من الملائكة يبعثها من الغيب لتباشرهم في الأرض. ذلك هو مذهب الناس على نهج ما ذهبت إليه أمة الخطاب الأولى، ولذلك كثفت تطلّبات الآي المعجـــزة بيّنة على غيبية الرسالة أو رؤية الله أو تنـــزل الملائكة عليهم عياناً. والعجب أنهم كانوا يمثلون الملائكة رمزاً بحجارة أصنام يسمونها إناثاً إذ الملائكة بنات الله عندهم ويـــتخذونها مـــؤلهة قربى إلى الله يعبدونها ويدعونها ويستهدون بها في سير حياتهم، ثم ينكرون الرسول البشر الحيّ أن يبلغ الهدي الحق من الغيب.

﴿قُــل لَّــوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً﴾ (٩٥)

ويذكّر الرسول ﷺ أن يجاوبهم في تطلبهم ما يتجاوزه بشراً، مبلّغاً عن ربه، قائلاً: لـــو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين في سُنن خلقه تعالى – لا الإنس وحدهم أشخاصـــاً يدبـــون على الأرض التي من حيثها خلقوا ويستمدون غذاء الحياة، ولو ما كان الملائكة خلقاً لا يحتويه المكان المشهود في الأرض ولا يتشكلون أجساداً من مادتها بـــل أرواح مخلوقة لكنها تخرج من إطار زمن الإنس ومكانهم ورؤيتهم إلا أن يقدر الله ظهـــورهم في أمـــر مخـــصوص– لو كان ذلك لبعث الله لهم ملكاً رسولاً مُنـــزلاً من الـــسماء بالكـــتاب. وإنما أنـــزل ملكاً روحاً يبلّغ التنـــزيل روحاً من أمر الله يوحيه كلامـــاً إلى رســـول بشر بلسان قومه ليبلّغهم هو الوحي ويقرأه عليهم قرآناً وليقوم فـــيهم – لا خَلقاً غريب الطبع والوسع – بل مثالاً للبشر المؤمن تالياً للذكر داعياً إليه

(١) راجع الآية ٥٩ وحاشية تفسيرها من ذات السورة.

بلـــسانه متخلقاً صدقاً بمقتضاه في حياته لعل أمة خطابه البشر يأنسونه ويماثلونه إذ هو مـــنهم طبعاً ووسعاً بشرياً يتيسر لهم أن يتلوا الذكر منه رواية مثله ويحققوا الهدي في وقائع حياهم إقتداء بسنته التي هي في مدى وُسعهم أيضاً[1].

﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩٦)

وليقـــنع الرسول ﷺ – ولو مضوا في تكذيبهم لبلاغة القرآن وفي تعنتهم مجادلةً محـــضاً بإلقاء شرائط لتصديقه مما يعجزه من آيات يأتي بها واقعات مشهودة تشذ عن مـــسنون طبع الأشياء – ليقنع وليقل لهم: كفى بالله شهيداً بينه وبينهم، حسبه تعالى وإن قـــصرت دعـــوته أن تأخـــذهم إلى مبلغ التصديق بالقرآن حقاً وهديهم للإيمان بالرسالة التي يحملها إليهم – يعلم شاهداً أنه هو قد أدى الأمانة وبلّغ الرسالة وما عليه محاســـبة إلا ذلك، ويشهدُ أنهم قد تمادوا في معهود ضلالهم وشركهم وكفرهم من بعد أن بلَغـــتهم بيـــنات الهدى والنذير، فإن الله سبحانه وتعالى كفى شهيداً عليهم يتولى الحكـــم والقضاء بينهم، إنه كان بعباده خبيراً بفعالهم ومآل سيرهم في الحياة في سبيل الحق أو الباطل، وبصيراً بما هو أَولى لهم حكماً مداً في سبيله أو في الدنيا بما يحقّ لهم أو عليهم عند الحساب.

﴿وَمَـــن يَهْـــدِ اللّـــهُ فَهُـــوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧)

ويـــأتي الرسولَ نبأ القول الفصل في أمرهم، والله الشاهد على عباده هو الأعلم بمذهب مشيئتهم وواقع سيرهم وهو الحكيم فيهم بسُنة أمره وقضائه. مَن يهد الله فهو المهـــتدي لأنه اختار الهدى الآتي من الله والتمسه في كتابه فيسّر الله له الهدى وزاده، فهو المهتدي بهداية الله ومشيئته العليا. ومن يُضلل الله – إذا اختار هو الضلال وأعرض عـــن هدى الله فيذره ﷻ في ضلاله ويمد له ويملي، فلن يجد الرسول لهم أولياء أنصاراً

---

(١) في تطلّـــب تنـــزل الملائكة بالوحي مشهودين: راجع الآية ٩٢ من ذات السورة والآية ٨و٩ ســـورة الأنعـــام والآيتين ٧و٨ سورة الحجر، وانظر الآيات ٧و٢١و٢٢ سورة الفرقان، وفي ســـياق مجادلـــة نوح وقومه: انظر الآية ٢٤ سورة المؤمنون، وفي مقولات عاد وثمود: انظر الآية ١٤ سورة فصّلت، وفي قول فرعون عن موسى: انظر الآية ٥٣ سورة الزخرف.

مـــن دون الله يـــبدلون لهم قدر الله وسنته أو يتولون هدايتهم إلى صراط مستقيم لخير حـــياتهم أُولاها وأخراها، وإن التمسوا ذلك من معبوداتهم المعهودة شركاً. وحكم الله فـــيهم مـــآلاً أن يحشرهم هو بأقداره دعوةً من الأرض وبعثاً يوم القيامة يُساقون إلى معـــارض الحـــساب ومثاوي الجزاء يُسحبون إهانة على وجوههم التي لم يسجدوا بها خـــشوعاً طوعاً لله في الدنيا ليتقوا عقابه، عمياً وبكماً وصماً وفاق ما كانوا في الدنيا: عمين عن بينات الهدى والصراط المستقيم لا يتحرون إلا مسالك الزيغ والهوى، بكماً لا يشهدون بكلمات الحق البين بل - يجحدونه كتماً ولا يُلقون إلا أباطيل قولِ خصامِ الشركِ الباطل، وحتماً لا يستمعون ليتلقوا آيات الهدى سمعاً وطاعة بل يُعرضون عنها يجعلـــون أصابعهم في آذانهم إلا أن يلتمسوا فيها ذريعة مطعن في الرسول ومغالطة لحق الرســـالة. أولـــئك مأواهم ومقرهم جهنم ناراً يتجدد أبداً وقعها عليهم كلما خبت وكادت يفتر حرّها من حرقهم زادهم الله بأقداره سعيراً توقداً لها.

﴿ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٩٨)

ذلك هو جزاؤهم، حقّ عليهم بما قدموا، بأنهم كفروا بآيات الله وبأقدار وحيه في كتابه وبما تدعوهم إليه من توحيد العبادة لله والتطهر من الشرك به وما تنذرهم به من عاقبة الشرك عند لقائه في يوم الحساب، كفروا بذلك وقالوا: أئذا كانوا عظاماً ورفاتاً أئـــنهم لمبعوثون خلقاً جديداً؟ ذلك قول يُلقونه كلما سمعوا نذر القرآن، إذ لم يعتبروا بأن الله أخرجهم أول مرة من موات ويحيي به الأرض الميتة سُنة مشهودة ولم يصدّقوا وعد البعث وأجَل المرجع إلى الله الذي يذكّرهم به القرآن.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُورًا﴾ (٩٩)

أو لم يـــروا - بعيونهم لو كانت في رؤيتها بصيرة - آيات الله المشهودة إن لم يؤمنوا بـــوعد المرجع إليه في الكتاب، أن الله الذي خلق السماوات والأرض، أبدع خلقها وأتقن صنعها، وهي أكبر منهم كثيراً، قادر على أن يخلق مثلَهم بعثاً وعَوداً كما خلقهم بدءاً ومد لهـــم حـــياةً دنـــيا وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه يُوفي وعد مبعثهم إذا جاء بتذكرة في آياته

المـــوحاة وبـــشهادة سُنة الآجال في مخلوقاته الدوّارة في الكون بحسبان وفي خلقه الحيوان والإنسان الذي ينتهي عمره بميقات. تظاهرت آيات الله المسموعة والمرئية فأبى الظالمون إلا كفوراً، أبى الباغون على حد الحق وميزانه إلا جحوداً للبينات وغمراً لدلائل المشهودات.

﴿قُـــل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَّمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا﴾ (١٠٠)

ويُخاطـــب الرسول ﷺ مبلّغ الحق أن يقول مخاطباً للمشركين المعرضين الغائبين عـــن القرآن رحمة الله التي أنعم بها على عباده: لو هم يملكون خزائن رحمة ربـــي على ســـعتها المطلقة إذاً لأمسكوا خشية الإنفاق. إن الله هو الذي يملك من أبعاد الرحمة ما وســـعت كل شيء فهو الذي أنعم على عباده بهدى من الغيب تعهداً منذ مهبط آدم، والـــذي أنعـــم الآن بالقرآن رسالة الختام للعالمين كافة شفاء وهدى ورحمة للمؤمنين، وأنـــــزله عليه هو روحاً من أمره ورحمة وفضلاً كبيراً ليبلّغه إياهم فيضاً من نعمة الله بذلك الوقع والقدر، ورحم المعرضين الضالين أن مدلهم ولو شاء عذبهم. ولا يملك علم الغيب الأبلغ وحق الهدي الأقوم وصفة الرحمة الأوسع إلا الله. ولو أنهم ملكوا ما يملك الله لأمـــسكوا وما نـــزّلوا الرحمة على العباد خشية أن ينقص المملوك الذي يحوزون. وإن الإنـــسان كان مفتوناً بمتاع الدنيا المحدود، إذا كسب منه خيراً كان قتوراً منوعاً، إلا المـــتقين الذين لا يمسكون ما أنعم الله به عليهم مالاً أو هدى بل يُعطونه ويبلّغونه بـــسطاً كما يبسط لهم الله. والله رؤوف رحيم عزيز وهاب لعباده: خزائن رحمته من الهـــدى مفتوحة غشيت الإنسان متوالية لو تلقاها، وكلماتُ علمه لا تنفد ولو خُطّت كُتبها بأقلام شجر الأرض كلها وتمدها البحار، ومدود رزقه لا تنقطع ولو أعطى كل مخلـــوق سُـــؤله، وإن من شيء إلا عنده خزائنه ينـــزّله ويمسكه بقدرٍ لطفاً وحكمة بعباده، فمُلكه مطلق وعطاؤه واسع كريم، ومِن أجلّه هدى الكتاب ورحمته.

عموم المعاني (الآيات ٧٣ – ١٠٠):

إن المعرضين عن دعوة الدين الحق خشية أن تُبطل معهودات دينهم فتحول دون مقـــصودات أهـــوائهم في متاع الدنيا تتراوح تدابيرهم لصدّها ترغيباً أو ترهيباً. فقد

يحاولـــون اجتذاب الداعي تلطّفاً ليقترف من لدنه تبديلاً لدعوته يحرّف حقها ويصرِف عـــنهم مـــا لا يرضـــونه مـــنها ليتلقّى منهم خلة. فإن لم يُغن فيه اللين يحملون عليه يستخفّون مقرّه المطمئن بينهم ليُخرجوه معزولاً منفياً. ولكن داعي الدين إنما يوالي الله ويخالـــف في سبيله ويتقي حدود الحق لا يخرج منها ولا يبالي أن يكلّفه ذلك عزلاً أو إخـــراجاً من أرضه. والآية في سياق ذلك البلاء جاءت تُنذر النبـــي عن التجاوب مع الـــذين كفروا الذين قاربوا مكراً أن يفتنوه عما أُوحي إليه ليفتري لهم غيره فيتخذونه خلـــيلاً، فإنـــه إن ركـــن إليهم ليذيقنّه الله ضعف الحياة وبعد الموت عذاباً. ذلك أنه اصـــطفاه الله ووالاه وحمّلـــه الأمانة الحق فإن عاج عن منهاجها المستقيم أضلّ أتباعه، فخـــسر ربه وحُمل أثقالاً من الضلال والإضلال ولن يجد له من دون الله نصيراً يحفظه ويؤمّـــنه من قدر الله. والآية تنبئه أن قد قاربوا أن يستخفّوه ليخرجوه من أرض مكة وإذاً لا يلبثون خلفه إلا قليلاً، فليصبر غير مبال بما يهدفون إليه فالأرض لله يورثها من يـــشاء من عباده، وتلك سنة الله في رسله قبلاً أخرجتهم أقوامهم فما أَمِن لهم من بعدُ قـــرار، ولن يجد لسنة الله تحويلاً مهما يبدو للمشركين من تمكن وحول وقوة في مكة. وفي وجـــه تلـــك الابتلاءات المتقلبة التي يتعرض لها – ترغيبه بالخِلة مفترياً أو ترهيبه بالنفـــي صادقاً– فليوال الداعي للدين – ومثاله الرسول – على تمتين صلته بالله يُحبِبه ويجعـــل له عاقبة الدار. وذلك بأن يوالي إقامة الصلاة – شعيرة خشوع لله في الوجدان وذكـــر باللـــسان وطاعة بجوارح الإنسان طوال اليوم بصروف أوقاته المتعاقبة. ليصلّ ركعـــات لله لدلوك الشمس ظهراً فعصراً وهو في جهد ناصب ابتغاء الرزق ومعاشرة للـــناس، وركعات مغرباً وعشاءً إذا غسق الليل ليراجع حساب منشطه في النهار ذكراً لحـــساب الآخرة، وقرآن الفجر في صلاة كثيرة التلاوة تشهدها أرواح الغيب للتزكّى بالقرآن موصولاً باستقبال الله وتوحيده والركوع والسجود له خضوعاً وليتزود بتطهر وتـــوكل عـــزماً علـــى ما يستقبل من بلاءات الصباح والضحى. وموالاة الصلاة تمد الداعـــي بموالاة الذكر لله، دعاءً له عَبر كل مفاصل سَير الحياة، ما يُقبل على أمر من مواقف البلاء إلا دعا ربه أن يُدخله مدخل صدق، أن يزكّي قلبه فتنعقد فيه نيّة صادق الإيمـــان، وأن يوفّق فعله فيتخذ مسلكاً صادقاً على الهدى، وما يفرغ من شأن خارجاً

لمنـــصرف إلى مـــا يلـــيه إلا دعا الله أن يُخرجه مخرج صدق، إن أساء أن يغفر سيئته ويجعلـــها لـــه زاداً لعظة المتاب، وإن أحسن عملاً أن يتقبل منه ويؤجره ويجعله عبرة لـــصالحات الأعمال المتوالية، ويسأله تعالى كل حين وحال أن يجعل له من لدنه نصيراً عـــوذاً وهـــو يقاوم الهوى والشيطان وأيداً وهو يجاهد عسر الحياة وفتنة المعرضين عن الهدى. وليحفظ داعي الدين كلمة شهادة الحق مقولةً يصدع بها تعبيراً على لسانه عما اطمـــأن في قلـــبه يقيناً وبان في الحياة متباركاً: أن جاء الحق متجدداً متنـــزلاً من الله بالوحـــي واقعـــاً في الحياة خالصاً صاعداً لوجه الله، وزهق الباطل متزلزلاً متلاشياً في نفوسٍ وحياة كان فيها معهوداً، إن الباطل كان زهوقاً حيثما دحضه الحق الظاهر.

والله بأقـــدار الحـــق المحـــيطة بعباده إنما أنـــزل الكتاب يشفي الناس من أمراض الجهالـــة والـــضلالة شِركاً وكفراً التي كانت فاشية فيهم من قبلُ بفتنة العالم المشهود، وهـــو للمؤمـــنين الذين يتعافون من ذلك الباطل مستجيبين للحق رحمة هداية إلى خير المـــسير والمـــصير طوال صراط الحياة. ذلك مهما يكن الظالمون الجانحون شِرعةَ نظر ومـــنهاج عمل تجاوزاً للحق العدل لا يزيدهم القرآن إلا خساراً وبعداً من الفلاح لأنه يـــستثير فيهم دواعي الهوى والشيطان تعنتاً وإصراراً واجتهاداً في تعزيز باطلهم خشية زهـــوقه بحق الكتاب الغالب. ذلك أن من معتاد مرض الإنسان أنه إذا أنعم الله عليه – ســـواء بكـــتاب هدى من الغيب يعلّمه ويهديه ليصل حياته الدنيا خيراً إلى آخرها أو بـــسائر نعم الله المبسوطة حوله في الحياة- يغفل عن الله غير حامد ولا شاكر فيُعرض عـــن القـــرآن وينأى بجانبه. ولكن كذلك من طبعه إذا مسّه الشر يئوس لا يصابر بل يلجأ إلى الله بضواغط الضرورة بدعاء عريض ولكن الله يمد في خيار الإيمان ولا يُكرهه بعاجـــل عذاب إلا أن يحقّ فلا مرجع منه ولا متاب. وقد يتقلب على الكافرين البلاء المسنون فتضاغطهم فتنة من حال الضعف والذل التي يصابرها المؤمنون ولكن هم تهي ركائـــز الـــباطل في قلوبهم وتنشرح للإيمان بالقرآن. وإن الداعية للحق – كما مضى نُـــصحُ القرآن للرسول – عليه أن يمضي في بلاغ رسالة القرآن ويقول فيما بينه وبين المُعرضـــين الدّبرين عن نعمة الهدى والكتاب: أن يذر بعضُهم بعضاً، كل يعمل على شـــاكلته، لا يحكم بعضهم على بعض فربهم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً، يؤيد ذا الهدى

الحق فيزيده ويمد لذي الباطل ويعاجله أو يؤخر له العذاب كما يشاء. وما دام الله قد تـــرك عباده ليذهب كلٌ على مشيئته وهو الأعلم بكسبهم من الهدى أو الضلال فليس للداعية عليهم سلطان سيطرة ليتحكم فيهم ويُكرههم على قبول حق القرآن.

والذين يكفرون بالغيب في شأن القرآن يسألون عن الروح، وإنما هي صفة المَلَك المُرســـل بالقرآن من الله وصفة الوحي المتنـــزل منه الذي يتبين كلاماً بلسان الرسول الموحـــى إليه وأمته، وهي من أمر الله الذي يكون به أيضاً ما يخلق من المادة المحسوسة بـــشراً حياً وما يجعل لهم من قوة إدراك وما حولهم من ظروف مكان وزمان وأحوال، ومـــا يخلق من ذوات غير محسوسة تحيا في الغيب منها الملائكة التي تتلقى من الله وحياً إلى من يصطفي من عباده، وذلك علم غيب لا يعلمه الإنسان المحدود بعالم الشهادة إلا أن يـــؤتاه من الله و لم يؤت إلا قليلاً. والله الذي أوحى إلى رسوله روحاً من أمره لئن شاء لذهب به بقدره وأمره ثم لا يجد الرسول وكيلاً يأتي به على خلاف مشيئته تعالى، فمـــا ذلـــك الوحي إلا رحمة من الله وفضل كبير. وينبغي أن يشهد قارئ القرآن على الناس أنه آية من روح الله وأمره وما هم بمستطيعين أن يأتوا بمثله ولو اجتمعت كذلك الجـــن الـــتي هي أرواح غيب والإنس الذين لهم لسان الكلام، وقد كان ذلك هو رد القـــرآن المتواتر على المخاطبين كلما رموا الرسول بافتراء الكتاب من تلقاء نفسه. بيد أن أمة الخطاب الأولى ما كانت تؤمن بروح الغيب إذ تفتنها المادة المشهودة – كسائر الـــناس، وكانـــوا يتطلبون أن تتعزز دعوى صدق القرآن وحياً بإيقاع حادث مادي مشهود خارق للسنن المعتادة بقوة من تلك الروح التي يتلقاها الرسول في زعمه. كأن يفجر لهم الأرض ينبوعاً وأرضهم صحراء، أو تكون له فيها بغتة جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها لريّها تفجيراً، أو يأتيهم بالنذر التي يخوفهم بمثلها في أنباء السالفين فيُـــسقط الـــسماء عليهم كسفاً أو يرد ارتيابهم في الغيب برؤية العين فيأتي بالله جهاراً والملائكة قبلاً، أو يفضُل عليهم فجأة بغنىً فيكون له بيت من زخرف، أو بمعجزة فعل فيرقـــى في الـــسماء صعداً ولا يكفي رقيّه بل يأتيهم بكتاب يقرأونه ليصدقوا قرآنه. وذلـــك مثال لمذهب الذين لا يؤمنون بغيب الوحي ولمقولاتهم تحدياً للمؤمنين. والرد الحق هو ما أوصى به الرسول أن سبحان الله القدير الذي كان أمره هو مسنون الطبيعة

في الكـــون والوجـــود والذي لا يملك تبديله بغير أسبابه إلا هو تعالى، وإنما هو بشر رســـول يـــبلّغهم لعلهم يؤمنون. وما كان مانع الإيمان برسالة الغيب عند السالفين إلا اســـتنكارهم أن يـــبعث الله إليهم بشراً رسولاً من الأرض مثلهم. ولو كانت سُنة الله القدريـــة أن يجعل الملائكة أشباحاً شاخصين يمشون في الناس يكلمونهم ويؤمّنوهم بحق الهـــدى ومثاله لبعث الله مَلَكاً، وإنما قدره أن يصطفى بشراً يتهيأ لتلقي الوحي روحاً تأتـــيه قـــرآناً بلسانه ليبلّغه لسائر الناس حوله ويقوم فيهم به عاملاً لعلهم يتبعونه لأنه مثلهم بشر. ولقد عرف الرسول الخاتم حد بشريته وحق الوحي حتى حين راوده ابتغاء الاستجابة من الله لطلب أمة الخطاب آيةً معجزة لعلهم يصدّقونه، وقد ذكّره الله كثيراً في القـــرآن أنـــه داع مبلغ وما عليه الهدى ولا الحساب، وأنه ما من آية تأتيه إلا آية القـــرآن. وإن سبقت لبعض سلفه من الأنبياء آيات معجزة، فقد أخذ بعض المسلمين يظـــنون أن تلك درجة فضل ينبغي ألاّ يقصِّر عنها بل يتجاوزها الرسول الخاتم. وإنما ذلـــك التفـــضيل الـــذي ذكره الله للنبيين بعضهم على بعض دون ذكر فضل جامع لأحـــدهم علـــيهم جميعاً: أن قدر الله في اصطفائه للنبيين أن لكل فضلاً خاصاً تقتضيه حاجـــة دعـــوة الحق في سياق الابتلاء المعيّن الذي يخاطب فيه الناس بالرسالة. ولكن المـــسلمين جعلوا للنبـــي آيات معجزة كثيرة، فأضافوا لرؤيا الإسراء التي نص عليها القرآن رؤية عين وإسراء جسد حي ثم زادوا فوق ذلك معراجاً إلى الله وكلاماً بأقرب ممـــا كلـــم الله موسى وأخروا موسى مذكراً للرسول ليراجع ربه مفاوضاً في تخفيف تكالـــيف الـــصلاة، وكثّرت وشهرت الأحاديث الموضوعة يفترى فيها بيان معجزات شتى. بل أصبح معيار فضل التدين كله مقيساً بالآيات الخارقة لمطبوع الأشياء كرامات للصالحين أولياء الله، وظنوها داعي الخطاب اللازمة لنشر الهداية بين الناس. وكل ذلك باطل من مذهب الافتتان بالماديات المشهودة. وإنما القرآن روح من الغيب آياته مفتاح الهدايـــة لمـــن شـــرح صدره خطاباً لكل العالمين الحاضرين عهده والخالفين بابتلاءاتهم المخـــتلفة. أما الثقافات التي غلبت فيها المادية الحاسمة لمدخل إيمان بالغيب إلى النفوس، فغالـــب المجـــتمعات التي تحملها تحصر دينها بقصص آياته المعجزات في ظرف عهده القديم وفي نحوٍ من ظنونهم تستبقي الدين بغيبياته وأساطيره لإشباع فطرة التدين حول

شـــعائر وأحـــيان في حاضر حياتهم التي تغمرها الغفلة المطبقة عن الله والغيب ويلهيها هوى المتاع بعارض الدنيا وحسب.

متى حالت المعاندة المتصلبة للمفتونين بالمادة الدنيوية المشركين بينهم وبين الإيمان بكـــل حقائق الغيب فعلى المؤمنين الداعين إلى حق الوحي والكتاب المنـــزل أن يعلنوا فيهم – ما أُوصى به الرسول – أن كفى بالله شهيداً بينهم عنه بعباده خبير بصير يحيط بهدايتهم أو ضلالتهم بعلمه وقدره، وما ذلك لدى أولياء الشرك الذين يستوحي منهم أهـــل الديانـــة الوضـــعية الظنية الهدى وينسبون إليهم الأقدار الغيبية، وأن يكلوا أمر المـــشركين لله فهو حاشرهم يوم القيامة حيث يضلّ عنهم شركاؤهم ويُسحبون على وجـــوههم أذلة إلى جهنم عمياً وبكماً وصماً عن سواء السبيل وقول الحمد لله وتلقي تحـــية الـــسلام التي تخاطب المؤمنين. ذلك جزاؤهم بما كانوا موتى في حياتهم الدنيا لا يدركـــون بيّنات الحق وبما كفروا بآيات الله المنـــزلة من الغيب وبالبعث من الموت إذ يسائلون عن جواز حدوثه وتخيب دعاواهم أنهم إن انحلوا موتى في التراب رفاتاً ما هم بمـــبعوثين أحياء. كأنهم لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض خلقاً أكبر منهم هـــو القـــادر على أن يعيدهم خلقاً من جديد كما بدأهم أول مرة، وأن قد جعل لهم لـــذلك المـــرجع أجلاً آتياً لا ريب فيه، ولكن الظالمين بطبع الكفر بالغيب أبوا بتلك الآيـــات الكونـــية وذلـــك الوعد إلا كفوراً. إن وحي العلم والهدى من الغيب قرآن تنـــــزّل رحمـــة من الله جليلة وفضلاً كبيراً لبيان نهج الخير للناس في الدنيا والآخرة، ولْيُذكّـــر أولئك الظالمون الكافرون بالغيب أن لو ملكوا هم خزائن رحمة الله لأمسكوا خـــشية الإنفـــاق مـــن عظم تلك الرحمة المهداة، إن الله كان بعباده كريماً بينما كان الإنـــسان قـــتوراً، وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، فالقرآن رحمة وهدى وبشرى للمؤمنين وإن كان الكافرون بآياته لا يزيدهم إلا خساراً.

ترتيل المعاني (الآيات ١٠١ – ١١٠):

﴿وَلَقَـــدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَات بَيِّنَات فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ (١٠١)

وكمــا ذُكر في صدر السورة أن الرسول ﷺ برؤية الإسراء إلى المسجد الأقصى أُري آيــات الله وذُكِّر فيها بأمة مؤمنة من بني إسرائيل تَجدد هداهم برسالة من موسى وكــتابه وعقبه داود وسليمان والأنبياء هدى لقومهم ونذيراً بعاقبة العلو فوق التواضع والفــساد دون الــصلاح في الأمر العام -يُذكّر الآن في خواتيم السورة - بعد ذكر مقترحات أمة خطاب الرسول الخاتم بالآيات الخارقة لكل عادي مطبوع - يُذكِّر الله بالرسالة السالفة المشهودة آياتها في المسجد الأقصى - رسالة موسى، التي كانت معززة بآيــات خارقــة للمطــبوع ليعتبر الرسول والمؤمنون بالقرآن كيف كذب بها أولئك الأولون وبان لكل الناظرين المعتبِرين بؤس وقعها فقضى الله ألاّ يرسلها بعداً. يُذكِّر الله أن قــد آتــى حقاً هو بأقداره التي تصرّف الأشياء بقدر مطبوع أو بأمر تبدّل مفعول تــسع آيات بيّنات، هي العصا واليد - الآيتان الأُوليان اللتان عُدّتا سحر دَعيّ لمغالبة الــسحرة فآمــنوا بها وكفر فرعون وملأه، ثم الآيتان بأخذ آل فرعون بالسنين ضرائر تَكاثــر فــيها الموت في الصغار والبهائم ونقص من الثمرات بالأعاصير الحارقة للزرع سموماً والمميتة برداً، ولكن آل فرعون قالوا لموسى أنه مهما يأتهم بآية ليسحرهم بها فما هم له بمؤمنين، ثم آيات الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وترجّى المستكبرون موســى أن يدعو ربه ليكشف الرجز واعدين إطلاق سراح بني إسرائيل، فلما كشف الله الرجز نكثوا. يوصي الرسول أن يسأل بني إسرائيل إذ جاءهم موسى برسالة هدى وإنقــاذ وعَرض دعوة الحق على فرعون ليؤمن ويرسل معه بني إسرائيل وأراه الآيات المتعاقــبة فقال له فرعون منادياً له: إنه ليظنه مسحوراً، مدعياً له أن ما يقع منه للناس كله إيهام يسترهب الناس برؤى فعله أو بمصادفة قدر المصائب لنُذُر وأدعية يزعمها من نفسه سبباً يفتريه. وذلك الذكر كله عظة لأمّة خطاب القرآن التي طلبت من الرسول المبلّغ نحو تسع آيات هي الينبوع المتفجر، والجنة القائمة فُجاءة، وتفجر الأنهار خلالها، وإحقاق النذير بإسقاط كسف من السماء، والإتيان من السماء بالله جهاراً، وتنــزيل الملائكــة منها قبيلاً، والرقي منه في السماء، والنــزول منها بكتاب مقروء. ولكن الله مــا استجاب لمقترحاتهم، فما كانت الاستجابة مُغنية فيهم إيماناً بل هم جاعلوها من فعــال الرسول الرجل المسحور، ذلك مثل ما جرى من وقع لآيات موسى وما قيل له

فيها. فضلاً عن أن القرآن آية للناس كافة لا تعزّزه آيات محدودة يشاهدها الحاضرون بل هو آية حق كافية خالدة وعامة للعالمين.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا﴾ (١٠٢)

قال موسى عليه السلام يخاطب فرعون يُلقي قولةَ الحق في وجهه: إنه لقد علم أن هذه الآيات ما صدرت عن قوة غيبية لموسى، وما أنزل هؤلاء الآيات (التي بلغت من الوقع على العقول ما يبدل الإشارة إليها بكلمة الإشارة للعاقلات لا لظاهر الأشياء مثلها) ما أنزلها إلا رب السماوات والأرض خالق آيات أجلّ وأكبر القادر على إيقاع تلك الآيات الواقعات ليجعلها بصائر بينات لذوي البصائر لا للعمين، ولذلك أنذر موسى فرعون إنه ليظنه – منادياً له بلقبه 'فرعون'– مثبوراً يُصوَّب إليه الظن بالمنظور من مهلكة.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ (١٠٣)

فأراد فرعون أن يستفزهم، إذ اشتدت أذيته لموسى وقومه وأخذ يتوعدهم بالكيد والقهر ليستخفهم فيدفعهم للخروج من أرض سلطانه، ولما هاجروا شرقاً لاحقهم حتى اجتازوا البحر بآية فأتبعهم فيه بجنوده فأغرقه الله بأقدار مد البحر الذي انجزر لموسى ومن معه. هكذا حقت على فرعون وآله الذين تمادوا في الظلم بعد الآيات المشهودة والذين سعوا لقهر الفئة المؤمنة وإبادتها – حقت عاقبة الهلاك، وهي عظة لأمة خطاب الرسول التي تتطلب الآيات وما هي بمؤمنة لو جاءتها والتي كادت أن تستفز المؤمنين لتخرجهم من ديارهم ثم لتلاحقهم بعداً، فتلك العظة نذارة لهم بما قد يحق عليهم من منظور عاقبته.

﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ (١٠٤)

يَذكر الله ما أوحى به إلى بني إسرائيل الذين اطمأنوا أن هاجروا تاركين ديارهم في مصر ومغادرين وراءهم فرعون وجنوده غرقى، قال سبحانه وتعالى لهم بأقدار وحيه وهداه أمراً وبشرى أن يسكنوا الأرض المباركة التي كتبها لهم شرقاً، ولئلا يفتنهم

الـــتمكن والانطـــلاق في الأرض متاعاً ذكّرهم الله بما يترتب بعد الحياة فيها، فإذ جاء وعـــد الحياة الآخرة جاء هو سبحانه بأقدار البعث والحشر بهم من الأرض كلها لفيفاً حـــيث الحساب والجزاء بعد البلاء لهم أن كيف استقاموا على هدايتهم وشكروا نعمة الله علـــيهم ولقـــوم فرعون كذلك للجزاء الأخزى. وفي تلك التذكرة عبرة وبشرى للمسلمين لو استُفزوا إلى أرض أخرى وعظةٌ لأمة الخطاب المشركة التي تحيطهم بفتنة وعظةٌ بحق الحساب والجزاء المنظور لهم يوم الحشر ألفافاً.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنــزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٠٥)

ويعود الذكر للقرآن، آية الله العظمى التي أغنت عن تعزيز حقها بآيات مشهودة خوارق لمطبوع آيات الله، وكفت المؤمنين دواعي إيمان وهوادي علم وحياة. فقال الله أنـــه هـــو بأقدار هداه لعباده وترتيب تنـــزيلاته من الغيب المتوالية حتى الختام بالحق أنـــــزله ليُـــصدّق الحق من موروث الكتب السابقة ويُبين الحق تذكيراً بالله وصفاته وإعلامـــاً بحقائـــق الغـــيب وأنباء سالف سِيَرٍ في عالم الشهادة ويهدي للحق في حياة الإنسان فرقاناً عن الباطل ويُبشر وينذر بالحق من غيب الآخرة والآجل. وبالحق نـــزل مـــا لابسه ما يُلقي الشيطان المتسمع للملأ العلى ولا خالطه افتراء ولا سحر بل نـــزّله الـــروح الأمـــين إلى رسول أمين مبلغ حافظ ويظل يتنـــزّل على رواية الخالفين حقاً محفـــوظاً، وبالحق كذلك نـــزل على الحياة واقعاً مهدياً من سُنّة القارئين التالين لهديه عمـــلاً يصدق الإيمان به، والخطاب يتوجه إلى الرسول ﷺ من ربه أنه ما أرسله بأقدار الاصطفاء والبعث على الناس وإيتاء الكتاب إلاّ مبشراً بآجل الخير في الدنيا والآخرة مما يتلوه ذكراً واهتداءً ونذيراً بعاقبة الإعراض والتعذيب في العاجلة والآجلة، ما هو على المخاطـــبين بوكيل ولا مسيطر يحملهم على الحق المتنـــزّل به القرآن ولا بباخعٍ نفسه على آثارهم إن لم يؤمنوا فإنما عليه البلاغ.

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْث وَنَزَّلْنَاهُ تَنــزِيلاً﴾ (١٠٦)

ويـــستمر الخطاب للرسول ﷺ عن القرآن الذي يبلّغه، أنه أُنـــزل بالحق وقرآناً كلمـــات حـــق منظومة عظيمة غير معهودة – فَرَقه الله بأقداره الحكيمة في تصريف تنـــزيله، فرقه من الملأ الأعلى آيات وسور متفرقة يتوالى بها الوحي إلى الأرض منجّماً

عبر سنوات (لم ينختم بعدُ مدها كله، فالسورة في مكة) ليقرأه هو الرسول على الناس كـــذلك، على مُكث من مر الأيام وتؤدة في التبليغ لا كألواح موسى التي أُوتيها جملة واحـــدة. كان ذلك التنـــزيل من الله بأقداره تنـــزيلاً مرتلاً لا دفعة واحدة بل متواتراً بعـــضه في إثـــر بعض يُفتي في الابتلاءات المتعاقبة حسب الوقائع ليكون مدّ ثبات بعد ثـــبات لطمأنينة الرسول والمؤمنين في بلاء فتنة غربته حقاً في بيئة باطل مناوئة، وسياقُ هـــدايات تُنـــــزّل الحق في كل حيث وحين من بلاء الحياة، وميسورُ حفظٍ في نصه تذكّراً عن ظهر قلب، وسهل تلاوة وخطاب رسلاً بعد رسل ليتلقاه الناس تدّرجاً إلى تمامـــه ولتـــصبح بمقتضاه أعمالهم تترقي في تكليفها وواقعها موصولة لبناء سيرة مجتمع مؤمن يتزكى هو ويحسُن نظمُه ويمتن ويتزايد تمكّنُه قوةً في الأرض[1].

﴿قُـــلْ آمـــنُواْ بـــه أَوْ لاَ تُؤْمنُواْ إنَّ الَّذينَ أُوتُواْ الْعلْمَ من قَبْله إذَا يُتْلَى عَلَيْهمْ يَخـــرُّونَ للأَذْقَـــان سُـــجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخرُّونَ للأَذْقَان يَبْكُونَ وَيَزيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (١٠٧ – ١٠٨ – ١٠٩)

والخطـــاب للرسول ﷺ، فلْيخاطب أمة دعوته وقد بلّغ الحق والبشارة والنذارة ووالى علـــيهم قراءة القرآن وليقلْ لهم أن يؤمنوا به أو لا يؤمنوا، فإنما هو مبلّغ ولا إكـــراه في الـــدين بـــل الله يذر عباده على خيرة من مشيئتهم ليُحق عليهم المساءلة والمجـــازاة. وطمأنيـــنة له بشهادة التصديق من أهل الكتاب، وتذكيراً لأمة الخطاب الجاهلة وليعتبروا مقارنةً لموقفهم وموقف الذين عهدوا الوحي- فإن خطاب الرسول يـــتم بأيد الذين أوتوا العلم بكتاب سابق من قبل القرآن، بني إسرائيل، إنهم إذا يُتلى علـــيهم القرآن يهبط عليهم ذكره سكينةً بما يصدق ما عندهم قبلاً فيُسلمون لوقعه ويخـــرون أرضـــاً إلى الأذقان سجداً لذكر الله وأمره فيه، ويقولون: سبحان ربهم مَا يَغـــشى رســـله منـــزلاً منه إلا الحقُّ والصدق المطلق أبداً، وإن كان وعد ربهم حقاً لمفعـــولاً -إذ بـــشّر في الكتاب والرسالات السابقة مضيّاً في تعهده الهدايةَ لعباده أن يجُـــدد الدين الحق نصاً برسالة الكتاب مصدِّق هو يتجلى في هذا القرآن. ويبلُغ بهم

(١) في رجـــاء الـــذين كفـــروا تنـــــزيل القـــرآن جملة واحدة: انظر الآيتين ٣٢و٣٣ سورة الفرقان.

ذلـــك مـــبلغاً من القنوت الأبلغ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم كلما تُلي القرآن خشوعاً وإخباتاً[1].

﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ (١١٠)

وفي ختام سورة هديها تسبيح الله وتوحيده وإيمان بالغيب، يوصى الرسول ﷺ أن يُذكّر أمة الخطاب المؤمنة قائلاً لهم أن يقوموا داعين لله - الإله الأعظم الأوحد الجامع لكل صفات الألوهية العليا المعرَّف وحده المُنكر كل مؤله سواه ظناً شركاً، أو ليدعوا الـــرحمن باسمـــه الواهب الأعظم للرحمة التي يستغرق بهدي من وحيه كل الحياة لمؤمن وعمـــوم الحـــياة لمجتمع المؤمنين وتحيط كل عباده من الناس نعماً في الكون مبسوطة مسخرة وحياة ممتدة ميسرة، رحمة تسبق غضبه ولو كانوا غير مؤمنين، أو ليدعوه بأي أسم فله الأسماء الحسنى يأتي ذكرها في كتابه أو يتخذها بإلهام منه عابد له موحد، تعبّر عن صفاته العليا يُدعى بأيّها حيثما ناسب ما يدعو إليه الداعي: ما يصل حاجة دعائه يقـــدر الله الذي يُوفي بها كما يعني أسمه المذكور، أو ما يخص وقع ألوهية الله العظيمة ورحمانيته المطلقة على عين مسألة الداعي لنفسه سلامة وحفظاً أو بسطاً ولطفاً أو رزقاً ونفعاً أو فرجاً وفتحاً أو مغفرة وتوبة أو نوراً وهدى، أو <كره لصفات ربّه فيما بينه وبـــين الآخرين حُكماً وعدلاً وقوة وعزة أو لتعالي ذاته خالقاً قادراً، أو علياً كبيراً، أو حكـــيماً علـــيماً، أو غنياً قوياً أو سميعاً بصيراً أو ملكاً قدوساً، أو باقياً وارثاً، أو براً صـــمداً - أو نحـــو ذلك من سائر أسمائه الحسنى من حيث جلاله على عباده ورحمته عليهم[2].

وأُوصى الرسول في صلاته دعاءً لربه - وهو قدوة المؤمنين - ألا يجهر بها صياحاً كأنه يظاهر بها الناس فإنما يناجي ربه، ولا يخافت بها سراً في باطنه، بل يحرك بها لسانه

---

(١) في تهـــيؤ الـــذين أوتوا العلم والكتاب والذكر قبلاً أن يتقبلوا القرآن: راجع الآيات ٧و١٩٩ سورة آل عمران، والآية ١٦٢ سورة النساء، والآيتين ٤٣و٤٤ سورة النحل، وانظر الآية ٧ ســـورة الأنبياء، والآية ٥٤ سورة الحج، والآيات ٥٢-٥٥ سورة القصص، والآية ٦ سورة سبأ.

(٢) في دعوة الله بأسمائه الحسنى حيثما يناسب الإسم الدعاء: راجع الآية ١٨٠ سورة الأعراف.

ليدفعها مداً من قلبه وحركة من فمه وليسمعها هو فيحيط به معناها منطوقاً مسموعاً، وليبتغ بين المجاهرة الصائحة والمسارّة الباطنة سبيلاً - تضرعاً وخفية لا تعدياً بين ذلك.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للّه الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ (١١١)

وفي ختام السورة الوصية لختام كل ذكر وكل موقف في الحياة ليقل الرسول ﷺ إماماً وقدوة: الحمد لله، له كل المحامد في صفاته الحسنى وأقداره الحكيمة والشكر في نعمه المبسوطة وتدبيراته لأمر عباده، يستغرق الحمدَ المطلق الكامل لا يضاهيه محمودٌ دونه، هو الذي لم يتخذ ولداً بل هو قائم بذاته له ما في السماوات والأرض وما بينهما ملكاً غنياً قيوماً بأمره قريب مجيباً لكل مَن سعى إليه قربى، لم يكن له شريك في الملك لا يماثله أو يقاسمه أحد ممن سواه، ولا يشاركه أحدٌ عن وكالة فهو الولي الصمد المهيمن على أمر الخلق بكل رحمة أو أمر، ولم يكن له وليٌّ من الذل ما فوقه ولا جنبه أحدٌ يمده أو يتولاه فهو الولي الجامع والقوي المتين والعلي العزيز الذي يُعز ويذل من يشاء. وحيثما ذُكر الله أو ذكر من خلقه أو بدا مستكبرٌ على العباد أو تضاهت كبراً قوى في الوجود للنظر، فالوصية للرسول أن يكبّره سبحانه تعالى تكبيراً إذ حق وحدَه المتكبرُ الجبار القهار الأكمل الأبلغ الأكبر في كل صفة، فكلمة الحق التي ينبغي أن تعلو دائماً هي أن الله أكبرُ كبيراً.

عموم المعاني (الآيات ١٠١ - ١١٠):

كانت رسالة موسى - قبل رسالة الختام - أمَّ الرسالات لتخرج بني إسرائيل من وطأة فرعون إلى أرض مباركة فيها مثالُ التمكين للدين. وقد توالت أقدار الله يؤتى موسى تسع آيات بينات من خوارق معتاد الأشياء المعجزات إذ كان من المستضعفين عليه تباعةٌ في نفس قتلها بينما كان فرعون الذي أرسل إليه جباراً عنيداً. وقد أبان موسى له الحق في عظموت الله ولكنه كان يدّعي هو ربوبية عليا لا يتعاظم عليه من في الغيب، فقال لموسى إنه ليظنه مسحوراً، ولما رأى منه آيةً جمع له السحرة، فغُلبوا هم وآمنوا ولكن اشتد طغياناً. وذكّره موسى أن قد تبين له مشهداً أن تلك الآيات الناطقة

بالحـــق مـــا أنـــزلت إلا من رب العالمين وإنه ليظنه مثبوراً. وتوالت واقعات المصائب آيـــات على قوم فرعون وكانوا يتضرعون لموسى ويَعِدونه ولكنهم إذا انكشف الضر عـــنهم ينكـــثون. وأراد فرعون أن يستفز بني إسرائيل في الأرض خشية أن ينالوا من ســـلطانه فـــيها. ولما خرجوا مهاجرين اتبعهم بجنوده حتى إذا نجوا بآية انفلق لهم فيها البحـــر غرق من ورائهم هو ومن معه جميعاً. وكانت العاقبة أن وعد الله البشرى لبني إســـرائيل أن يسكنوا الأرض المباركة، وجاءهم ذكر وعد الآخرة لهم وللعباد كافة إذ يـــأتي بهـــم الله بأقدار البعث والحشر لفيفاً ليجزي المؤمنين ويتم العقاب على الظالمين. وكانت آيات ذلك النبأ عبرةً للرسول الخاتم ومن معه أن لا غناء في الآيات المعجزة مع الظـــالمين وبـــشرى أن تكون لهم هم عاقبة الدار إن أُخرجوا من الأرض، وعظةً لأمة الخطـــاب بسيرة من كان أعز منهم دافعاً بطغيانه إلى الهلاك، ودرساً خالداً أن الفرقان بـــين الحق والباطل ما هو بالوقائع المعجزة وإنما هو بآيات القرآن وأن الدولة للمؤمنين والدبرة للظالمين.

وبالحـــق أَنـــزل الله القرآن، مداً من أقدار علمه وهداه للعباد في الحياة، وبالحق نَـــزَل محفـــوظاً بلاغه، وما اصطفى له الله رسولاً ألا مبشراً ونذيراً لا يملك للناس آية معجـــزة ولا علم غيب إلا رسالة القرآن. وكان الوحي قرآناً فَرَقه الله أشواطاً متواترة ليقرأه الرسول على الناس على مُكث يتكامل أثناءه مثال الهدى وتتامّ به سيرته ونـــزّله تنـــــزيلاً مـــرتلاً مـــنجّماً وفق أطوار البلاء أسباب النـــزول. ولتكن دعوة الرسول للمخاطـــبين أن ربهم مد لهم الخيار فليؤمنوا بالقرآن إن شاءوا أو لا يؤمنوا، وليذكروا بأن الشهادة على حق القرآن أن الذين أوتوا بعض علم الغيب من قبله إذ ورثوا كتاب الهدى وسنة الأنبياء منذ موسى، أولئك إذا يُتلى عليهم القرآن عرفوا فيه الحق المتصادق ومـــا يعلمون وحياً من الله الذي يخشونه وَجِلَةً قلوبهم ويخرون للأذقان سجداً لمقتضى هداه، ويقولون أن سبحان ربهم المتنـــزّه عن أن يضيع هداه عبر القرون إنه كان وعده لمفعولاً أن يتجدد الحق برسالة التذكير العاقبة. وكلما توالت عليهم التلاوة ذات الوقع البالغ يسجدون باكين ولا يزيدهم ذلك إلا خشوعاً. ذلك بينما يُتلى القرآن على أمة الخطاب من العرب فتنغلق قلوبهم وتنسد آذانهم أن يتلقوا الحق فيه ولا يظنونه إلا لغواً

من قارئ مسحور ولا يزيدهم متلواً إلا خساراً. وكلما تجدد الدين قيّض الله من حملة تراث الحق القديم مَن ينبعث فيه الحق ويزكو تماماً على بقيةٍ في نفسه فيعظُم فيها تعزز وقع الإيمان، بينما يصدّ عنه مَن انطبعت قلوبهم على معهودٍ جهالة ويحملون على دعاة رسالة الحق الجديدة.

ولــتمض الدعــوة للدين على أصل من كلمة الحق الحسام على مذاهب الباطل كافــة، كلمــة وحدانــية الله ودعوة إخلاص التوجه والدعاء إليه وحده، أن يدعو المخاطــبون الله من حيث أنه الإله الواحد العظيم المحيط علماً وقدرة على كل شيء في حــياتهم، أو يدعو الرحمن، وهو الله من حيث رحمته التي وسعت كل شيء وتنــزلت علــى عــباده هــدى من الغيب بكتاب ونعماً من المسخرات والميسرات في الوجود المخلوق حولهم، وأياً ما يدعون فله الأسماء الحسنى فليدعوه من حيث كل صفة له عليا يــرجون وقعهــا عليهم كما تواردت بها سياقات الهدى في القرآن. وليكن الرسول، وكــل مؤمن يتّبعه، مراعياً في دعائه ألا يجهر به، فهو ذكر وصلاة لله والله قريب من الــذين يــناجونه ولا يحب المعتدين كأنهم يُسمعون مَن حولهم مِن غيره، وألا يخافت طاوياً الدعاء في نفسه، بل ليدعُ حيّةً معاني الدعاء فيها خارجة إلى الحياة بتعبير لسان، وليبتغِ بين ذلك سبيلاً مما يناسب دعاء خلوة ونجوى ودعاء جماعة متذاكرة. وفي صلاة الــدعاء والذكــر ليذكُر الداعي توحيد الله مكتنفاً دعاءه مهاداً وختاماً: أن الحمد لله الذي يستغرق كل صفات الثناء العليا إلهاً ورباً وكل موجبات الشكر من عباده –النعم الهدى والحياة، وأنه هو الذي لم يتخذ ولداً مما يظن مختلف المشركين مَلَكاً أو بشراً فهو الغــني له ملك السماوات والأرض وما بينهما وهو الكافي للعباد، وأنه لم يكن له وليّ من الذل، تعالى أن يضارعه أو يعلو عليه أحدٌ في عزته وقوته المطلقة، وليكبره المؤمنون الموحدون على كل ذي قدر من حظوظ الحياة يكبُر أو ذي قوة يستكبر فيفتن عباد الله عــن تذكر ربهم الذي هو أكبر وأعظم وأعلى من كل كائن، لا كفء له ولا مثيل، ليكــبروا الله تكــبيراً يجيش وقعه في النفوس كلما لاح ابتلاء بمشهود أو مقصود يكبر فيها.

سورة الكهف

مقدمة السورة وخلاصة هديها:

السورة تنزلت في أواخر العهد المكي، وهي التاسعة والستون في ترتيب التنزيل والثامنة عشر في رسم الكتاب حول منتصف نصّه تحزيباً. وفي السورة ذكرٌ يجاوب مجادلات المخاطبين في شأن أهل الكهف، وكما كان أولئك فتيةً مؤمنين مختفين فيه حتى بعثهم الله وعثر عليهم الخلف ليتخذوا عليهم مسجداً متجدداً بذكراهم الدين، فإن القرآن أصله علمٌ في أم الكتاب غيباً لا يطلع عليه الإنسان المحجوب في عالم الشهادة حتى تنزّل وحياً وكتاباً يبلّغه رسول مبعوث في بني الإنسان كافة ليظهر فيهم ذكراً لله وديناً بالحق والإيمان، وقد كان تجديداً لملّة إبراهيم الحنيفية إسلاماً تلاشى في خلفه من العرب إلا قليلاً من آثاره حول المسجد الحرام. ولذلك سارت تسمية السورة إشارة لذلك الكهف ومغازي عبرته الباقية.

وذلك الكتاب المنزل عمومُ ذكر لآيات من الغيب هداية لحياة الإنسان ليستقيم سبيلها على الإيمان والصلاح سعياً نحو الآخرة. فمفتتح السورة حمد لله على إنزاله على عبده الرسول ﷺ ذلك الكتاب القويم بلا عوج نذيراً ببأس من لدنه تعالى شديد وأجر منه كذلك حسن دائم موعود للمؤمنين العاملين الصالحات. وفي صدرها ذكر لما في الأرض زينة يبتلي الله بها عباده أيّهم أحسن عملاً، لو يروا كيف تحول الزينة صعيداً جرزاً في عاجلة الدنيا آية تهديهم إلى فنائها في الآخرة. ثم فيها وصية للرسول- إذ يماريه المخاطبون بالقرآن في أمر أهل الكهف- أن يتلو عليهم ذلك الكتاب الموحى إليه

مـــن عـــلاّم الغـــيوب الماضية والقادمة لا مبدّل لكلماته ولا ملتحد دونه لبيّنة الحق. ويُضرب في السورة مثل من تكوير الأقدار المتجلّية في أحوال مجتمع الإنسان المبتلى فيه مَن بُسط له من الله الرزق وهو مفتون به ومن قُدر عليه فهو متوكل على ربه، ويُذكر مصير تلك النعمة المبسوطة فيها إلى خواء وعاقبة خسران ومآل التوكّل إلى خير. ومثلٌ مـــن صـــورة الحياة الدنيا كلها كماء من السماء يختلط بنبات الأرض فيحيا وينمو ثم يمـــوت هـــشيماً تذروه الرياح، فالحياة إلى موت تعقبها الآخرة حيث يلقى الصالحون أعمـــالهم في الأولى باقية خيراً ثواباً وأملاً والمجرمون يعرضون على ربهم يشهد عليهم كتاب أعمالهم لا يجدون ولاية شافعة من أولياء يتخذونهم شركاء لله من الجن يدعونهم ولا مـــن الـــنار منصرفاً. ومن ثم يُذكر القرآن أن قد صرف الله فيه من كل مثلٍ لبيان الحـــق، ومـــا صدّ المخاطبين عن الضلال والشرك ومنعهم من الاستجابة لدعوة الهدى والمـــتاب إلى الله إلا أنهـــم لا يـــبالون بالنذير أن تأتيهم سنة الأولين من آيات عقاب ومهلكة مشهودة أو أن يأتيهم العذاب قبلاً يشهدونه فوراً إلا ليوم موعود في الآخرة، ومـــا أغنى فيهم المرسلون مبشرين ومنذرين بكلمات الوحي، بل يجادل الكافرون في الحق ليدحضوه بالباطل ويهزأون بالرسول الذي يتلوه، ومن أظلم ممن يُذكّر بآيات الله فيُعـــرض ويغفل عن أنه مبتلى في الدنيا، أولئك مغشيّةٌ قلوبهم أن يفقهوا آيات الذكر موقـــورة آذانهـــم أن يسمعوا دعوة رسالة هداه فلا يهتدون أبداً. والله غفور يمدّ لهم برحمته مجالاً في الدنيا لا يعاجلهم بالعذاب بل يذرهم إلى موعد لا موئل دونه، وهم لا تعظهـــم سالفة القرى الظالمة التي جاءها النذير بموعد الهلاك العاجل. ويأتي في السّورة ذكـــر ذي القرنين وما كان يهديه من قول الله عادلاً مصلحاً مذكّراً بالآخرة وكيف كـــان يتخذ المصانع مستعيناً بالله مؤمناً بأنها تندكّ إذا جاء وعد الله بقدر الساعة التي تـــندك فـــيها رواســـخ الأرض، وتمضي الآيات تذكر وصف ذلك اليوم الفرقان بين الكافرين بآيات ربهم الأخسرين في نـــزل جهنم والمؤمنين في نـــزل جنات الفردوس، ثم توصـــي الرسول بأن يُذكر كلمات ربه أقداراً للكائنات وأوامر للعباد جزلة المدى متوالـــية الوقع الحق، وأن أساس الكلم الموحى إليه هو دعوة المخاطبين توحيد الله بلا شـــريك ورجـــاءُ لقائه بزاد من صالح العمل. والسورة يتخللها التذكير بالعهد مع الله

والمـــرجع إلـــيه، والإيمـــان بالله وحده وبالانقلاب إليه بعد الموت خاطرةً تخالج فطرة الإنـــسان ولمحـــة مبـــصرة في رؤيته الطبيعة في الأرض والكون، ولكنه محجوباً بالعالم المشهود مفتوناً بتعلقاته بغير تذكير من علم وهدى موحى قد يرى الله بعيداً متعالياً في الغـــيب. فالـــناس كـــذلك يفترون على الله أنه اتخذ ولياً يُباشرهم في الأرض بوجود محـــسوس لهم يتعبّدونه ليقرّبهم إلى الله في الغيب زُلفى. والناس في حبّ شهوات الدنيا العاجلة الحاضرة قد يلتهون بها ويغفلون عن الآخرة مهما يرون بين أيديهم دورة حياة النـــبات ومـــوته شـــاهدة على انبعاث الإنسان بعد الموت، وهم مهما يرون دورات حـــركات الكائنات في الفلك بُدوّاً وخفواً لآجال قد ينسون أن وجود الإنسان حياة فموت لأجل سنة معروفة، فحياة أخرى لأجل مجهول. وفي السورة تذكير متوال بغيب الآخرة عهد الوعد المفعول إذ تُسوّي أقدار الله القاهرة أوضاع الأرض وصنائع الإنسان وإذ تـــصرّف أحوال البشر مبعوثين بعد الموت المطبق محشورين جمعاً لا يُفلت منه أحد في ســـوح الحـــساب والقضاء ببيّنة الكتاب وإيقاع الجزاء مأوى إلى مواقع مستحقّة وتـــسوية عادلة لكسوب الدنيا، فإن رأى المجرمون أعمالهم وكسوبهم فاضلة في الدنيا فإنها تخف وزناً في الآخرة وتحبط وتهوي بهم إلى جهنم، وإن رأى المؤمنون أعمالهم في الدنـــيا صـــالحة لكنها لم تكسب حظاً ونجاحاً مستحقاً فإنها يثقل ميزانها في حساب الآخرة فترفعهم إلى الجنات العالية.

وذلـــك الذكـــر كلـــه- وصفاً لأحوال الدنيا وحظوظها العارضة ولأحوال الآخرة وكـــسوبها الحاقة الدائمة- إنما كان تذكرة للرسول ﷺ وللمؤمنين في مكة حين تنـــزلت الـــسورة، إذ كانوا في غربة لبادئ عهد دينهم مبتلين بالعسر والاستضعاف تحيط بهم ثقافة الـــشرك والكفر بالبعث الجاهلية وكان ذلك يستدعى أن تطمئن سكينة إيمانهم بالغيب بالله والآخـــرة وتتعـــزّز عزائم صبرهم رابطين على قلوبهم متوكلين على الله مقدّر منظورات الغـــيوب صادق وعد العواقب للمؤمنين في الدنيا والآخرة حتى يتجاوزوا مرحلة الفتن إلى ثبات الدين وزكاته وعزّ أهله ثم إلى حسن المصير والأمل وخير الثواب في الآخرة.

وتقصّ آيات السورة قصة أهل الكهف فتية آمنوا ففُتنوا لأول عهدهم من قومهم المـــشركين، لكـــنهم قاموا ثابتين على هدى دين التوحيد ثم اعتزلوا آوين إلى الكهف

حـيث هُيأ لهم برحمة الله مرفق أمن وحفظ من الشمس وحيث غشيهم نوم متطاول حـتى آل أمـرهم إلى انبعاث لهم عارض وذهب أحدهم حذِراً يبتغي لهم طعاماً، فعثر عليهم الخلف الذي تجدد فيه بذلك سالف الدين الحق واتخذوا عليهم مسجداً وتبين لهم مـن ذلك الانبعاث ظهور الحق أن الساعة آتية لا ريب فيها يوم تحق الحاقة العظمى.
وكانـت القصة تذكرة للمسلمين تالي القرآن يومئذ – وهو لخلفهم أبداً– لا لتبيّن عدّ أهل الكهف وعين محلهم وأمرهم، بل ليعتبر المسلمون بمجاهدتهم للشرك ثباتاً ومصابرة وإن اشـتدت وطـأة الفتنة، ثم بالهجرة إلى مأوى آمن قد يبدو معزولاً ثم بالانبعاث والـتجدد للـدين الحـق ولو بعد حين. لذلك تلا ذكر القصة في آي السورة وصية للرسول ﷺ الداعية الأول– ولمن اقتدى به من الدعاة أبداً– في عهد تلك المحنة وقد آل إلى دعـوته جماعة سوادها الأعظم من البؤساء الخالصين لابتغاء وجه الله – أن يصبر نفسه معهم ولا تعدو عيناه عنهم نحو من حازوا حظوظ الدنيا مالاً وقوة وألهتهم زينتها عن ذكر الله واتبعوا أهواءهم فرطاً. الوصية له ولكل داعٍ خالف على سنته أن يصدع في قوم خطابه بكلمة الحق كما صدع أولئك الفتية، وأن يذرهم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لكل الخيار أن يمضي على شاكلة حياته في الدنيا، فإنما الفصل الحق بينهم في الآخرة، الظالمون تحوطهم النار ولا يُغيثهم إلا ماء شاوٍ كالمهل، والمؤمنون العاملون الـصالحات لا يضيع الله أجرهم حسناً لهم نعيم الثواب جنة مروية وحلية وحُلّة ناعمة وصـحبة في مجلـس رواح وخير مرتفق. وكما تجدد الدين وظهر لأهل الكهف بعد اعتزال ومهاجرة واحتباس لحين فإن المسلمين الأوائل اصطبروا على الأزمة واعتبروا أن قد تكتب لهم الهجرة والاعتزال، كما وقع من بعد حقاً إلى المدينة التي حوصرت لحين حين ظهر أمر الدين فيها من بعدُ على ما حولها. وكذلك العبرة لخالف المسلمين جميعاً حيثما اغترب دينهم وقلّوا وذلوا وفُتنوا أو أُخرجوا من ديارهم، أن يجاهدوا مصابرة أو مهاجرة فإن التوكل على الله علام الغيوب هو يتولاهم ولآجال مسماة عنده يهيئ لهم مأوى ومرفقاً ويكتب لدينهم تجدداً وعزاً.

ويرد في السورة ذكر مثال ذي عبرٍ لرجلين أحدهما محظوظ بعمران جنتين يحفهما نخـل ويتوسطهما زرع ويتخللهما نهر، ذواتى ثمر موفور، فُتن بهما فكاثر صاحبه مالاً

وفاخـــره نفـــراً وغشيه الغرور بهما فظن متاع ثمره خالداً وأنكر حتى أن يتحول ذلك بأقـــدار الساعة، كافراً بنبأ القيامة ونذيرها المسموع في تراث دينه المعهود، بل اطمأن أنها لـــو قامـــت فإن منقلبه فيها إلى خير لأنه حظه الأوفر قدر راتب خالد متبارك. وأعـــرض عما أنذره به صاحبه الأدنى متاعاً الأقرب ذكراً أن الخلق للإنسان والنصيب مـــن الـــنعمة والقوة من قدر مشيئة الله، وأن حظوظ الدنيا ونوائب الدهر أقدار بلاء بـــالخير والشر متطورة. ووقعت واقعة أحاطت بثمر المفتون وشجره فحسر عليه وندم أن قـــد اتخـــذ هـــوى المتاع إلهاً يتعلقه ويشركه بالله المعطي المانع وأن قد أعقبه ذلك خـــسراناً بـــلا نـــصير. وكان ذلك المآل للابتلاء في عاجل الدنيا بفضل نعيم إلى ضر وندامـــة عـــبرةً أن الولاية لله الحق فيما يُعقب من ثواب، وتذكرة للمؤمنين بالله الذي يبتلـــي فيبـــسط لعباده الرزق ويقدره ويقلّب الخير والشر في عاجل الأحوال وآجلها بأقـــدار الغيوب، وعظة لهم بأن حاضر النعيم إن فاض كسبه فتنة قد يودي بالمرء إلى طغيان وكفر بالله منعماً ومصرّفاً للعاقبة ولو ضراً وفقراً وندماً.

وتأتي في السورة قصة لموسى ذات عبر، مسيرةً له مع عبدٍ لله تلقى برحمة الله علم أبعاد من الغيب، تجربةَ تعليم لموسى لتزكّيه لاحتمال النبوة والرِّسالة وتكاليفها صلةً بين وحـــي الغـــيب والواقع المشهود. وفي رحلة سفر تجاوزت مجمع البحرين ارتد موسى وفتاه ليبلغا ملتقى بالعبد الصالح اهتداء بآية من الحوت الذي أخرجاه صيداً من البحر ثم أفلـــت راجعـــاً إلى بيئته عجباً. واتفق موسى والعالم على صحبة طريق بعد تلاح وتعاهـــد أن يطـــيع موسى صابراً على ما لم يحط به خبراً من فعال معلّمه. وكان أول ابـــتلاء لموسى أن خرق العالم سفينة ركباها فتبرّم موسى من خطر تلك الفعلة فتذاكرا وعـــد المصابرة واستأنفا المسير، فإذا بالعالم يقتل غلاماً لقياه عفواً، فأنكر موسى قتل نفـــس زاكـــية بغير نفس، وتذاكرا مرة ثانية عهد المصابرة وتقبّل موسى نذير الفراق، فانطلقـــا حتى استطعما أهل قرية أبوا لهم الضيافة لكن العالم أقام فيها حائطاً كاد أن ينقضّ فألقى موسى النصيحة له أن الأوفق اتخاذ أجر من أولئك القوم لكفاية حاجتهما مـــن الطعـــام. وكانت تلك الكلمة المخالفة هي الفاصلة للصحبة، وأخذ العالم يبيّن لموسى حيثيات الغيب التي غلبه الصبر على جهلها – أن وراء السفينة كان ملك يأخذ

كل سفينة غصباً فإعابتها ستجعله يُخلّي سبيلها، وأن الغلام كان مخشياً أن يرهق أبويه المؤمنين طغياناً وكفراً والرجاء أن يبدّلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين كنز لهما تحته أبوهما الصالح تركة يُرجي أن يستخرجاها عند بلوغ أشدّهما رحمة من الله الآمر لا بأمر من العالِم الفاعل. وإنما التذكرة لمن تلا القرآن الرسول وصحبه والعبرة لمن يخلف من المؤمنين هدايةُ الصبر على تكاليف الدين ولو بدت لأول وهلة منكرة حتى تتجلى الغيوب التي تكتنفها وتعقبها. ففي حالة أولئك المسلمين في مكة كان تنزّل آي السورة تهيئة لهم لهجرة قادمة قد تبدو انفضاضاً لجماعة ومفارقة للوطن ولكنها كانت مكتوبة درءاً من أن يقضي عليهم المشركون الطغاة لو بقوا حتى يتعزز خطرهم على سلطان الجاهلية، وإعداداً للنفوس لعهد تال من مقاتلة المشركين العادين عليهم مهما يكونون أعزة وأحبة آباء وأبناء، لأن المجتمع لا يتطهّر والدين لا يتحرر كله لله مادام أئمة الشرك من أهلهم يحملون عليه طغياناً وكفراً وعسى أن يخلفهم من ذريتهم خير منهم زكاةً وبرّاً، ثم تهيئة ليوم موعود بأقدار الله يتمكّن فيه المسلمون من دخول مكة متذكرين أنها فتنتهم وهجرتهم قبلاً والأقرب للتقوى أن يعفوا عن أهلها ويصلحوا العوج الوثني والخلقي فيها فسيكون من أهلها مَن تتجدّد فيهم تركة ملة أبيهم الصالح إبراهيم ويقوى عودهم صلاحاً وجهاداً.

لم تكن في منظورات المسلمين لمستقبلهم- وهم في بادئ عهد الإسلام بمكةَ أقدارُ الله التي تستخلفهم في الأرض وتوليهم في المدينة أمرها وما وراءها حيث التكاليف الأكثف الأبلغ للهدى وإذ يتطور إتمام الدين كله لله وإنفاذ حكمه المتكامل وتنزّل شرعه المفصّل. واقتضى ذلك الغيب أن يتلو المسلمون ما يزكّي نفوسهم ويُعدّها لتلك المآلات من الوقائع والابتلاءات ليتقوا فتنة الفساد والتعالي التي قد تغشى أولياء السلطان ولترسخ في نفوسهم هدايات وعِبر من قدوة سالفة في حرص الحكمِ العدل بين الرعايا كما يقتضي ميزان الهدى المنزل وعلاجِ النقص في ظاهر أحوالهم مجتمعاً ووفاء حاجة أمنهم العام في حمى من الوطن بما يقتضي من تأسيس بُنىً قوية تدفع عنه المحذورات في الأراضي المجاورة، لاسيما أن جزيرة العرب كانت عرضة للعدوان

الغازي من القوى التي تجاورها. وفي الآيات ما يذكّرهم عندئذٍ أن حصون السلطان ما هـــي بكـــسب خالد بل موقوت بتقلبات الدنيا دار البلاء وزائل عند قيام الساعة يوم الـــدين في دار الجزاء إذ تتبدل كل أوضاع الأرض وأحوال حياة الناس الدنيا. وكانت تلك التذكرة المزكّية لنهضة المسلمين تهيؤهم نحو ما يستقبلهم من ابتلاء، والعبرة لسائر مـــا يخلـــف من نهضات المسلمين دورة من قلة واستضعاف في الأرض إلى كثرة وعزة واستخلاف في سلطانها وجولة من ابتلاء في خيار الدنيا إلى محاسبة في حصار الآخرة. وذكر القرآن في السورة نـــزل يجاوب السائلين عن أمر ذي القرنين. فقد بسط الله له في عهد سالف كل أسباب السلطان الممتد. وانتهت به تلك الأسباب ضرباً في الأرض إلى مغـــرب الـــشمس على بحيرة وجد عندها قوماً خيّره الله في تصريف شأنهم – أن يعـــذب فيهم أو يتخذ حسناً، فعدل فيهم آخذاً مَن ظلم بحاضر العذاب واكلاً أنكره لآجلـــته عند المرد إلى الله مكافئاً من آمن وأصلح عملاً بحسنى المعاملة ويسر المخاطبة. وانقلب شرقاً حتى طلعت عليه الشمس في أفق من الماء المحيط لقي دونه قوماً بلا ستر تحـــتها مـــن لباس أو مسكن، وكانت سياسته فيهم كذلك حسناً ويسراً أحاط به الله الـــرقيب. وســـلك أسباب الترحال حتى بلغ بين سدين بين جبال في الصين وجد من دونهمـــا قـــوماً ذاتُ بينهم في اضطراب خالع وتخاطب هالع لا يكادون يفقهون قولاً فـــزعاً من آخرين هم ياجوج وماجوج الذين كانوا يغيرون عليهم من تلقاء الشمال، فسألوا ذا القرنين أن يبني لهما ما يسد ثغرة الجبال ولو بخرجٍ منهم هم أجراً، فقال إنه إنما يستأجر الله ويستعين بما مكّنه من قدرات خير مما يعهدون، وهو بعون من أيديهم العاملـــة بقـــوة جاعل لهم ردماً حاصناً، وأقامه بأن صفّ ما آتوه من زبر الحديد حتى ساوى بين الصدفين للجبال ونفخ ناراً حتى حمي الحديد وأفرغ عليه قطراً لاحماً وردمه حائطاً سادّاً لم يظهره الغزاة ولا استطاعوا نقبه، وعزا كل ذلك المشروع الناجز لرحمة الله، وذكّـــرهم مهما يكن اطمئنانهم على صلابته المأمونة أن كسوب الدنيا وصنائعها كلها مهما تدم فيها هي وقف على أجل موعود تندك فيه بأقدار الله كل تلك الثوابت مـــثل الرواسخ في الأرض أيضاً. ويمضي الذكر في القرآن أن الله بأقداره تلك القاهرة يحشر ويجمع كل الناس في سوح الحساب حيث تعرض جهنم للذين كانوا عمين صماً

عـــن ذكـــر الله موالين لشركاء من دون الله ثم يدخلونها نـــزلاً والذين آمنوا وعملوا الصالحات تكون لهم جنة الفردوس نـــزلاً.

وكانت سنّةُ ذي القرنين خير قدوة وذكرُها خير هداية لأداء أمانة السلطان الذي يؤتـــيه الله ويمده لمن شاء وينـــزعه متى شاء إلى يوم موعود تنقطع فيه أسباب السلطان ومددها قوة في الأرض وتتحول آثار كسبه خزياً وندماً أو أجراً وكرماً من الله.

وعـــند مفتـــتح السورة وعند ختامها يأتي ذكر ويعود لكتاب الله المنـــزل وحياً وآياته المرسلة هدياً ولعرض الحياة الدنيا وكورها زينةً وبسطاً ولابتلاء العباد وكسبهم فـــيها جهـــلاً وشركاً وظلماً وشركاً أو علماً وهداية وإيماناً وصلاحاً حتى يقع عليهم القول في مشاهد الآخرة ومواقعها حشراً وحساباً وناراً وجنة.

ترتيل المعاني (الآيات ١ – ٢٦):

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (١)

الحمد والثناء ووصف الكمال كله إنما يحق لله، الإله الفرد العظيم، الذي أنـــزل الكـــتاب وحـــياً من علياء الغيب على عبده، كتاباً لأنه جمع الحق علماً وهدى، على الرســـول الخاتم الذي تلقّى ذلك الكتاب من ربه عبداً خالصاً، لم يفتَرِه من تلقاء نفسه ولم يـــستوحه من جن أو يتعلمه من بشر. والحمد لله أن لم يجعل للكتاب عوجاً، إذ لا يلـــوي عن صوب الحق فيما يعلّم أو عن الصراط المستقيم فيما يهدي إليه، ولا يعتريه اضطراب أو اختلال، بل هو متشابه المعنى مضطرد البيان.

﴿قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ (٢ – ٣)

ولذلك جاء الكتاب هدى فيما يستوي بمعتقدات الناس وبسيرتهم بعدما كانوا في ضـــلال من ظنونهم المفتونة بالعالم المشهود والقاصرة على علمه المحدود، وفي باطل من موروثات أديانهم وأعرافهم، ويستقيم بالحياة ببيان مصائر مسالكها، فينذر المخاطبين به بأســـاً شديداً، وقعاً بالغاً من العذاب عاجلاً أو آجلاً من لدنه تعالى المنتقم القهار، وإن طوى ذكر المنذرين فإنما هم الذين حق عليهم ذلك النذير تحذيراً من التمادي في حالهم

المعهـــود قـــبل تلقي خطاب الكتاب صدوداً عن تقويم سيرتهم إلى الهدى الحق. وكما يَصرف الكتاب عن سوء سير الحياة المعهود ترهيباً بنذير يحفز إلى حسنه المتجدد ترغيباً ببشير، فهو يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات، المصدقين بالكتاب تصديقاً آمناً من الارتياب ظاهراً تعبيره في عمل الصالحات من أفعال الحياة، يبشرهم ويسرهم رجاءً أن لهـــم أجراً مستحقاً على ما قدّموا حسناً وقعه إذ هو واف مضاعف طيب ناعم يتلقونه ماكثين فيه أبداً لا ينحسر مدّ عهده الخالد.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٤)

وهـــدى الكـــتاب المبـــشر ينذر إنذاراً مخصوصاً مَن تنـــزّل يخاطبهم لأول عهد دعوته من مشركة العرب الذين كان في أصول مذهبهم في الغيبيات ديناً أن قالوا اتخذ الله ولـــداً من الملائكة، الخلق الروحي الغيبـــي الذين بقي في موروث العرب من دين أبـــيهم إبراهيم ذكر لهم موصولين بالبشر من عند الله فابتدعوا الظن أنهم بنات لله من نـــسب الجن، واتخذوها رموزاً غيبية أقاموا لها الأصنام المشهودة ومعبودات تقربهم إلى الله زلفـــى وتـــشفع لهـــم لديه تعالى، مثل ما يقوم به ولد البشر للأب، لاسيما أنهم استبعدوا بلوغ الله في ملئه الأعلى المغيب بعبادة مباشرة.

﴿مَـــا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ (٥)

مـــا لأولئك المشركين بالله ولداً بذلك الزعم الباطل من علم تبيّنوه بكسبهم أو أوحـــي إليهم من الغيب، ولا لآبائهم الذين أورثوهم ذلك الاعتقاد الذي ترسّخ فيهم معهـــوداً وتقادم عصبية اعتقاد. وإنما هو ظن وافتراء في الغيب. كبرت تلك الدعوى وعظمت المقالة كلمة باطل في حق الله تخرج من أفواههم، يجترئون بها لفظاً وما لها من بـــرهان علـــم حق. ما يقولون إلا كذباً ينافي حقيقة الوجود ويفسق عن صدق كلمة الإيمان بوحدانية الله.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيث أَسَفًا﴾ (٦)

فالخطـــاب المترتب عن ذلك للرسول ﷺ الذي يبلّغ كتاب الهدى الحق، أن لعله يمضي باخعاً نفسه يكاد يهلكها سعياً وراءهم في مسلكهم الموغل في الشرك ليدركهم

بالهدايـــة إلى الحق وأسفاً على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث المنـــزل عليهم هدى، أســـفاً وحـــزناً شديداً عليهم إذ يمضون كذلك إلى مصير من البأس الشديد الذي بينه نذير الكتاب[1].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (٧)

ويتكامل سياق الخطاب أن الله بأقداره في شأن بني الإنسان جعل ما على الأرض زينة لها وذلك بحسن مشاهد معالمها وآفاقها وألوان نبتها وجميل أنعامها وزهرة متاعها، وذلك ابتلاء لبني الإنسان الذين انبسطت مزاين الأرض حولهم: أيهم يعرفون فيها أنعم الله وآياتـــه ويـــنفذون إلى جليل أقداره فيقرّ فيهم الإيمان بالله وتلقّي الهدى من لدنه ويتمـــتعون بحـــياتهم في الأرض شاكرين أحسن أعمالاً من الذين يفتنون بما زُيّن لهم ويتعلقون به شهوة وينقطعون بذلك الهوى عن ربهم.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨)

وإن الله بـــذات الأقدار لأجل حتم قادم لجاعل ما على الأرض من مزاين ابتلاء صـــعيداً، وجهـــاً من ظاهر الأرض تراباً يابساً لا ماء فيه ولا حياة إذ تغدو الأرض جافـــة مجدبة محروزة النبات ولا يبقى عليها حيوان. وذلك بوقع قدر يوم القارعة إذ تتلاشى مظاهر الزينة المبسوطة في الأرض لعباد الله وتفنى دار الفتنة والبلاء وتُقبل دار الـــرهبة والجـــزاء والمصير إلى ما هو أبلغ وأخلد زينة ونعيماً أو ما هو شين المشاهد وبئس القرار.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٩)

تلـــك آية لله الذي يحي ويميت، كما تتجلى مشاهد أقداره تلك في ظواهر الحياة علـــى الأرض يحـــيا مـــا عليها ويزين بالماء ثم تموت وتجدب سنناً متعاقبة بين الموت والبعث. أتذكّر تلك الآية أم حسب الرسول ﷺ المخاطب بالقرآن أو مَن يليه ممن سمع مـــثله بنـــبأ أهل الكهف والرقيم، المغارة في الجبل التي أوى إليها فتية مؤمنون وتوفوا طـــويلاً حتى انبعثوا وانكشف أمرهم وماتوا فيها بعداً والتي خطّ فيها خلَفُهم رقوماً، أحـــسب أن قـــصتهم كانت عجباً من آيات الله ذات وقع غريب منكر، بل هي من

---

(١) أنه يكاد النبـــي يبخع نفسه أسفاً على المعرضين عن دعوته: انظر الآية ٣ سورة الشعراء.

مـــسنون أقدار الله الذي يصرّف أمر خلقه كيفما يشاء. وهي تذكرة بسنّة الوفاة التي يعقبها البعث متى جاء أجله المسمى عنده تعالى.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ (١٠ – ١١ – ١٢)

كانـــت تلك الآية التي قد تبدو للسامع بأمرها عجباً إذ أوى أولئك الفتية الذين أصـــبح نبأهم مشهوراً مروياً منسوباً إلى ذلك الكهف، خرجوا من سعة ديار قومهم لحـــرج الفتنة التي أصيبوا بها إلى ضيق الكهف الآمن من أن تبلغهم فيه المكائد، فنادوا ربهـــم يدعونه قولاً أن يؤتيهم من لدنه رحمة من مستبطن أقداره لاسيما أن الأسباب الظاهـــرة قد انسدت عليهم، بما يفتح عليهم خيراً وأن يُهيّئ لهم من أمرهم رشداً، بما يرتب لهم خلاصاً ومنجى من الفتنة والأذى وهدى من الضلال الذي اعتزلوه. فضرب الله بأقـــداره علـــيهم وعلى آذانهم خاصة حجاب نوم ثقيل في سكون الليل وخلوته، ومـــضوا كذلك حتى قضوا سنين عدداً متكاثرة. ثم بعثهم الله بأقدار تصريفه للحياة في صـــحوة من نومهم، ليعلم ﷻ بأقدار علم الواقع المشهود ما سبق به علمه للغيب في الأزل – أي الحـــزبين –هم والذين عثروا عليهم من بعد– أحصى لما لبثوا أمداً، وقد تساءل هم وأولئك عن قدر ذلك الزمان الذي غابوا فيه تتوفاهم غاشية وفاة من رقاد ســـكون في حاسة السمع واختلفوا جميعاً في ذلك الأمد، هم يظنونه نومة طارئة لأول الأمـــر ثم تـــبدو لهم مظاهر تدعو للريبة، وخلَفُهم استبان قِدم أمرهم من العُملة التي عرضوها ولكنهم نسوا ميقات مخرجهم ضبطاً.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (١٣)

بـــضمير المتكلم جماعة يخاطب الله النبـــي تذكيراً بأنه تعالى العليم وحده بكل شـــيء، يخاطبه أنه بأقداره المحيطة علماً وتدبيراً لما جرى يقص عليه نبأ أولئك الفتية بالحـــق إذ يـــتداول الناس قصتهم عجباً في نـــزاع واضطراب للروايات المنقولة بعد امتداد ذكرها عبر القرون المتطاولة والضلال عن ضبط حقائقها والخوض فيها خرصاً وتلفـــيقاً. ذلـــك أنهم فتية حداثةُ عمرِهم طهّرتهم من الارتهان لمعهود الديانة الضالة

فعـــرفوا الله رهبـــم وآمنوا به وزادهم الله بأقدار استجابته لهم إذ سلكوا وجهة الحق وزادهم هدى.

﴿وَرَبَطْـنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (١٤)

وبأقـــدار الـــسكينة التي يلقيها في نفوس المؤمنين شد الله على قلوبهم -أولئك الفتـــية- مـــا يقوّي الانفعال بالإيمان ودفعه إذ لم يركنوا إلى ثقيل التقليد الإشراكي الساكن، بل نهضوا وقاموا فقالوا شهادة الحق أن ربهم رب السموات الأرض المحيط بكـــل ذلك الكون الواسع، لن يدعو صلواتِ استعانة من دونه - إلهاً نكرة من بين الآلهـــة المعهـــودة، وإلا لكانت قولة دعائهم وصلاتهم إذاً شططاً مفرطاً في البعد عن الحق.

﴿هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (١٥)

وإذ امـــتازوا عن قومهم أشاروا إليهم: أن هؤلاء قومهم اتخذوا من دون الله آلهة يقدسونها يظنون أنها تباشرهم مشهودة يزدلفون بها إليه في الغيب شركاً، لولا - هلا- يأتـــون شهادة عليهم بسلطان بيّن من برهان الحق الواضح، فمن أظلم وأبعد من حدّ الحـــق ممـــن افتـــرى واقتطع بالظنون على الله كذباً ما هو الحق الصادق في وحدانيته المتعالية المنـــزّهة.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾ (١٦)

وإذ تجـــاوب الله مع سعي الهدى فيهم فربط على قلوبهم ليثبّت إيمانها متطهرة من شـــرك قومهم أوحى إليهم يخاطبهم بهداية فاصلة عن قومهم أنهم إذ اعتزلوهم مفارقة تائـــبة هاجرة موطنهم وما يعبدون فيه، إلا لله الذي سبحوه هم وأخلصوا له الدعاء، فليلتمسوا الاعتزال والمهاجرة للشرك وداره، فليأووا إلى الكهف راجعين عاكفين على الخلـــوة فـــيه ينشر لهم ربهم من أوسع مغفرته كما سألوه ومن ثم يُهيئ لهم من أمرهم مرفقاً مُرتّباً لهم ما يُعينهم منه منسكاً ومنفعاً.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧)

ويرى المخاطب لو رأى كهفهم الشمس تزاور مائلة أشعتها عن كهفهم ذات اليمين لا تنفذ إلى جوفه، وإذا غربت مائلة للغروب تقرضهم، تتجاوزهم عادلة عنهم ذات الشمال، وهم في فجوة من الكهف متسعاً وسطه. والكهف وهو في موقع في الشام يتجه مفتتحه شمالاً لا يبلغ ضوء الشمس جوفه فهم في دهمة لا ينكشف مشهدهم للواقف على الكهف ولا يبلغهم الحر بل يواجهون الريح الباردة من الشمال وهم في غار في أعالي الجبل، فالمناخ حولهم بارد جداً يحفظ أجسادهم. ذلك من ظروف الكهف وساحة جوفه الخفي البارد من آيات الله العظيم وأقداره التي قيّضها لهم معتزلاً ومأوى اهتدوا إليه. من يهد الله في مساقات الحياة فهو المهتدي، ومن يتوجه قويم مقاصدها المذهبية ومسالكها الخلقية يبسط له الله الصراط المستقيم هداية وبلوغاً نحو ما اجتهد باحثاً وساعياً في سبيله. ومن يُضلل الله – إذ مضى هو غافلاً مكبّاً على وجهه لا يهمّه إلا المتاع القريب فلم يتهيّأ لهداية الله المتجاوبة فلن يجد المرء المتدبر ولياً له مرشداً يلي أمره ويرشده إلى الطريق الحق السالك إلى خير المآل.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (١٨)

والخطاب كذلك لكل متدبر قصة أهل الكهف لو وقف عليهم فيه ورآهم يحسبهم أيقاظاً وهم رقود على الأرض لا يرتمون فيها جامدين على جَنب، بل يقلّبهم الله بأقداره ذات اليمين وذات الشمال تصريفاً لأجسادهم ألا تتأثر طبيعتها من طول مماسة تراب الأرض ماكثة عهداً طويلاً على جنب واحد. وكلبهم يُرى باسطاً مادّاً ذراعيه بالوصيد عند سُدة الغار. لو اطّلع المرء المخاطب عليهم لولّى منهم وأدبر فراراً ولمُلئ قلبه منهم رعباً وفزعاً. وكل تلك أيضاً آيات وقاية لهم من أن يكتشفهم أحد إذ لو فعل لولّى عنهم. ذلك ليبقوا ساكنين في خفائهم حتى يبلغ الأجل المسمى لانبعاثهم.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (١٩)

وكذلك- بمثل تلك الأقدار المصرّفة لهداهم وحفظهم في الكهف، بعثهم الله أحياء واعين ناشطين ليتساءلوا بينهم كم لبثوا في سبات نوم متبصرين أمرهم وهيئتهم. وابتدر السؤال عن ذلك أحدهم فردوا عليه قائلين لأول وهلة وعلى ما هو معهود من سنّة النوم إنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم، لعلها نومة متطاولة من عناء طريق الهجرة. ثم قالوا بعد تأمل في حالهم وتذكّر لربهم إنه تعالى أعلم بما لبثوا من مدة منام. وانصرفوا عن ذلك إلى استشعار الحاجة إلى طعام وتآمروا توقيّاً من قومهم ليبعثوا أحدهم بورقهم التي بين أيديهم وهي ورقة فضة كانت تتخذ من قومهم عملة تداول في التجارة، ليذهب إلى المدينة فلينظر في أسواقها أيها أزكى وأطيب طعاماً فليأتهم برزق منه وليتلطّف مستتراً مترفقاً في أمره ولا يشعرنّ بهم أحداً مبدياً أدنى ما يُعلم بأمرهم وخلوتهم.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (٢٠)

ومضى أهل الكهف يخاطب بعضهم بعضاً يذكُرون أن أهل المدينة إن يطّلعوا ويظهروا على أمرهم يرجموهم بمقذوفات الأذى أو يعيدوهم حتى يردوهم إلى ملتهم المعهودة، وإن أطاعوهم عندئذ فلن يفلحوا مصيراً إلى خير في دنياهم وآخرتهم أبداً.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (٢١)

كذلك- بسيرة أحوال أهل الكهف تلك، هدى دون الناس واعتزالاً واعتكافاً وحفظاً ثم بعثاً بعد تطاول العهد- كذلك أعثر الله بأقدار تصريفه للأمور وأطْلع عليهم الذين خلفوا من بعدهم ونسوا شأنهم حتى ظهر أحدهم وتبينوا أمرهم من تقادم الورق الذي عرضه ليشتري طعاماً وانقلب إلى إخوته فدلّهم عليهم ثم ألفَوهم موتى، ليتذكر

الخلَــف بعدئذ ما جرى من آيات الله وليعلموا أن وعد الله حق، أن قد بعث الله فيهم من طال عهد موته سنين عدداً فإذا هو حي يسعى، فوعده أن يبعث عباده بعد الموت المــسنون حــق لأن الله على كل شيء قدير، وأن ساعة القيامة لأجلٍ مّا آتية لا ريب فــيها مهما يتطاول عهد الموتى السالفين. ذلك إذ كان أولئك القوم الخلف يتنازعون بيــنهم أمـــر أهل الكهف: أبعثهم ظاهرةٌ شاذة كما رُتب على ذلك القول بأن يبنوا علــيهم بنياناً يدفنهم ويطوي ذكرهم فالله أعلم بأمرهم، أم هي تذكرة بأن سابقتهم القديمـــة في الإيمـــان واعتزال الضلال محفوظة من الله قد ينبعث أمرها ويتجدد مهما يــتطاول العهد على نسيانها، فقال الذين غلبوا على أمر جمهور المدينة بما كان لهم من قدر أعز في الرأي والأمر العام: ليتّخذُن عليهم مسجداً يُبتنى ليقوم ويبقى تذكيراً ماضياً بعبادة الله وحده المتجددة عبر العهود.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُــونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٢٢)

ســيقول الذين خاضوا في نبأ أهل الكهف، من أهل الكتاب الذين ينسبون إليهم أهـــل الكهـــف طائفةً كانت تستقيم بالحق وتعتزل الضلال الغائب أو من العرب أمة الخطـــاب الأولى الذين كانوا يتلقون ذلك الخبر من أهل الكتاب ويسألون عنه الرسول امــتحاناً لــصدقه، سيقولون أقوالاً شتى في عدّ أهل الكهف. فمن ذلك قولهم: ثلاثة رابعهـــم كلـــبهم، وآخر إنهم خمسة سادسهم كلبهم. وذلك إنما يصدر رجماً بالغيب وحدســـاً بالظنون وارتباكاً بالروايات المنقولة فيما تغيب عنهم علم حقيقته من طول العهـــد. ومن ذلك قول إنهم سبعة وثامنهم كلبهم. والآية تذكُر هذا القول مجرداً من التعقـــيب عليه بينما يلي سائر الأقوال أنه رجم بالغيب وتورد جملة عدهم ثم تضيف حـــالاً أن ثامنهم كلبهم كأنها تفصّل ذلك العد وتؤكده. والخطاب للرسول ﷺ مهما تـــضطرب أقـــوال الرواة في ذلك الأمر أن يذكُر أن ربه أعلم بعدّهم من الخلق الذين غـــاب عـــنهم الحق الذي تقادم عهده، ما يعلم عدّ أهل الكهف إلا قليل ممن شهدوه عـــندما عثـــروا عليهم، وأولئك مضوا إلا أن يبلّغ الله العليم الخلَف من بعدهم بحقائق

ذلك الأمر ذي العبرة الباقية في حفظ الدين الحق وانبعاثه ولو اندفن عهداً. فينبغي كما يُخاطب الرسول ألا يماري في الأمر بتقاليب الظنون الغيبية أو الروايات المضطربة. بل يقصر على المراء بالحق الظاهر على التخرصات والمصادر من مادّة علم الله المحيط الذي أُوحـــي إلـــيه في الآيـــة، وعليه ألا يستفتي أحداً في أمر أهل الكهف من أمة الخطاب كتابـــيين أو جاهليين راجعاً إليهم فيه أو في سائر أنباء الأولين بل يستغنى بخبر القرآن متلواً مُعتبراً بحقه.

﴿وَلاَ تَقُـــولَنَّ لـــشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (٢٣ – ٢٤)

واقعات الغيب كلها تصرّفها مشيئة الله ويحيط بها علمه وكما ينطوي الماضي عن ذكـــرى الخالفين ويغيب ولا يدرك منه الناس شيئاً بعد الذين شهدوه إلا الذين يتبينونه عـــن رواية المسموعات أو رؤية المشاهد الصادقة، كما هو الأمر في حقائق شأن أهل الكهـــف الماضـــية، كذلك المستقبل غيب يصرّفه ويعلمه الله أزلاً لكنه منحجب عن الحاضـــرين لا يملكـــون القطع بإيقاعه وعلمه مهما يخطون له من عزم فعل أو تقدير حـــدث. فالآية توصي النبـــي ﷺ إسوة بسائر المؤمنين ألا يقول لشيء حقير أو خطير مهمـــا يتصوّب إليه عزمه عليه ويرجو إمضاءه لأجل يقدّره، ألا يقول لشيء إني فاعل ذلك غداً ويجزم به إلا أن يشاء الله، فذلك مستقبل ظروف وقوعه يصرفها الله وإحقاقه فعـــلاً آتـــياً رهنٌ لمشيئة الله وتجلٍّ لعلم الله سلفاً. وقد يتعسّر ويتعوّق فلا يقع أو يجوز فـــيحدث حسبما يشاء الله. وقد روي أن تلك الهداية في الآية تنـــزلت بمناسبة سؤال أُلقـــي للرســـول عن أمر أهل الكهف وتأخر الوحي المبين للجواب عن الموعد الذي ضربه ترجياً. وإنما هو أسلوب هدى القرآن العام: ما يرد مفصّل في سياق قصة يوردها القرآن إلا نبطت تذكرة بعبرة هادية. والهدى هنا أن يستصحب المؤمن كلما ذكر أمراً هـــو قـــادم عازم على فعله أن يعلّقه بشرط من توفيق الله المصرّف بحوله وقوته وعلمه المحـــيط وإرادتـــه المطلقة فذلك من أمره تعالى يصدقه الواقع المنتظر بأحق من تصديق تـــوجه الهـــم والعزم من البشر. ويُذكّر النبـــي أن يذكر مشيئة ربه إذا نسي ذكره في انعقـــاد عزيمة على فعل مستقبل أو مقالة تعبّر عنها، ومتى استدرك بذكر ربه مصرّفِ

الغيوب المستقبلة وعلاّمها ليقلْ أن عسى ربه أن يهديه لأقرب من هذا النسيان رشداً، لأرشـــد مـــن الغفلة العارضة عن وصل كل خاطرة أو مقولة لأمر غيب قادم بشرط مـــشيئة الله الموفقة لإيقاعه أو المستثنية له من الوقوع، وإذا تذكّر المؤمن ربه متعظاً بعد فـــوات موعد العزم وتعوُّق الموعود فلتنعقد في نفسه ولتخرج في قوله كلمة حق: أن عسى أن يهديه ربه لأرشد مما فاته وتعسّر عليه.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٢٥ – ٢٦)

فـــضلاً عن عدة أهل الكهف تتم العبرة في أمرهم بإحصاء مدة لبثهم. ولبثوا في كهفهـــم ثلاثمائـــة سنين- لعلّها شمسية إذ ذكرت الشمس دوّارة عليهم تزاور عنهم وتقرضهم كل يوم، وازدادوا تسعاً لعلها بسني القمر التي تعهدها أمة الخطاب العرب، فالـــسنة الأولى تزيد نحو أحد عشر يوماً عن الثانية بل ينضاف يوم ثاني عشر كل أربع سنوات منها. ذلك نبأ مدة لبثهم جاء من الله بالحق، والوصية للرسول المبلغ أن يقول: الله أعلـــم بمـــا لبثوا من خرص البشر بالظن في ذلك فإنه أمر من غيب الماضي المغمور عـــنهم ولـــه سبحانه وتعالى غـــيب السماوات والأرض يعلم حقائق الواقعات في الدنيا وأوقاتها وظـــروفها في قـــديم الزمان وقادمه، ولا أحد أبصر منه تعالى أو أسمع إدراكاً وإحاطة بالوجـــود، مـــا لعباده الذين يسائلون عن أنباء الغيب مثل قصة أهل الكهف والذين يُخاطـــبون برسالة الغيب منه تعالى علماً وهدى - مالهم من دونه من ولي يلي أمرهم تعلـــيماً لهم أمور الغيب وهداية بالحق المعتبر والمترتب على علم الغيب، وهو الغني لا يـــشرك في حكمه أحداً، لا يتّخذ أحداً من ولد أو ملك أو من غيره يُشركه في فصل الحق في بيان علم الأمور مشهودها وغيبها وإيقاع ما هو أقوم وأهدى من الحكم الحق.

عموم المعاني (الآيات ١ – ٢٦):

مـــثل كثير من سور القرآن التي يتصدرها ذكر القرآن والكتاب المنـــزل من رب العـــالمين بـــياناً من عليم وهدى من حكيم، هذه السورة يتصدرها أن الحمد لله الذي

أنـــزل الكتاب، وقبلها سورة الإسراء مبتدأها كلمة تسبيح لله الذي أسرى بعبده ليُريه من آياته في آثار رسالات الغيب الماضية عند المسجدين العتيقين، ويتلو ذلك فيها ذكره تعـــالى إذ آتى موسى الكتاب هادياً ونذيراً تأويله وتصديقه عواقب واقعات على من أساءوا سنةً من الله، ثم ذكر القرآن هدى وبشارة للمؤمنين المصلحين ونذارة للذين لا يؤمـــنون بالآخرة. ففي هذه السورة ما تقدّم بعد حمد الله ذكر الكتاب الذي أنـــزله تعالت أقداره بغير عوج هدى قيماً إلى سواء السبيل يبشر المؤمنين الذين يصلح عملهم أن يحـــسُن أجرهم في الآخرة حيث يمكثون فيه أبداً وينذر أمة الخطاب العربية المشركة من حيث مقولتها الجاهلية أن الله اتخذ ولداً من الملائكة بنات له من نسب الجن. وكان ذلـــك منهم رجماً بالظن في أمر غيب ما جاءهم به وحي، بل هي كلمة كبرت تخرج مـــن أفواههم كذباً. وإنما كلمة الحق هي الشهادة بوحدانية الله التي تتجلى أيضاً في أن لـــه الحمد وحده منـــزل كتاب العلم والهدى في العالم المشهود نذيراً بالمصائر المترتبة علـــى الجهـــل والـــضلال. وقد لازم ذكرَ التنـــزيل هنا- وكثيراً في القرآن- التذكير للرسول الذي يبلّغه لأمة الخطاب أنه يجهد جهداً بالغاً وراء هدايتهم يكاد يبخع نفسه أســـفاً على مآلهم إن لم يؤمنوا. ثم أعقب ذلك البيان الحق بأصل عموم الابتلاء لهم في الدنـــيا: أن الله جعـــل ما على الأرض زينة لها ليبتلي عباده المستخلفين فيها في حياهم الدنـــيا ويذرهم على مشيئتهم ليبين أيُّهم تجاوز فتنة شهواها المباشرة والضلال بتعلقاها المـــشهودة وكان من الذين صبروا فاهتدوا فأحسنوا في الحياة عملاً، وإنه لآتيهم بوعد الله الصادق يومٌ تتبدل فيه الأرض ويجعل الله معهود زينتها صعيداً جرزاً ويفني متاعها مـــن وقع أقدار ذلك اليوم الذي يُقبلون فيه على دار الحساب فالجزاء. وكذلك رسالة القـــرآن في كل حين بعد عهد الرسول ﷺ هي الحق الذي يزهق باقي العقائد في أمور الغـــيب الذي تقصر عنه ظنون البشر المفتونة بظاهر العالم المشهود وعاجله الجانحة إلى الإشـــراك بـــالله ﷻ. وعلى الدعاة الذين يتولون بلاغ حق القرآن ألا يأخذهم عاجل الأســـف علـــى إعراض المخاطبين الذي كانوا أسرى لمزاين الدنيا من قبل حتى يأتيهم كـــتاب الهدى ويسلكه في قلوبهم وقعُ الدعوة الصابرة المثابرة فيجاهدون فتن الأرض المحيطة وتقاليد المجتمع المعهود الراهنة فيحسنون عملاً.

والــدعاة لأول عهــدهم وغربة كلمتهم وشدة وقع الحملة عليهم من المخاطبين الذين يرونهم خطراً يتهدد ما يهوون من معهود أوضاعهم العرفية التي يتمتعون بها ترفاً واســتكباراً، أولــئك ينبغي أن يتذكروا مثل الذين من قبلهم كيف تدركهم رحمة الله ويُوافــيهم أيــده وأن يطمئنوا لبشرى المصير الصابر، وينبغي ألا يعجبوا من قصة أهل الكهــف إنكاراً لغريب آية الله في شأنهم. فهو تعالى والى عباده المخلصين وعلى كل شيء قدير يُسعفهم فيما يلمّ بهم، وسنته تعالى ماضية مهما تُحط بهم الفتنة أن تغشاهم الــرحمة ومهمــا تُغمر رسالة الحق التي يحملون أن يحفظها الله ويظهر وقعها في العاقبة ويجددها عبر القرون. وفي سورة الكهف النبأ الحق لما كانت تُروى أخباره من أمر فتية آمنوا بربهم خروجاً على ما عهد أهلهم المشركون بالله من معبودات دونه فزادهم الله هــدى وشــدّ على قلوبهم ليثبّت إيمانهم ويجادلوا الشرك الباطل بسلطان بيّن من الحق وليعتــزلوا مفتريات المشركين بعزيمة التوحيد والإخلاص لله وليجاهدوا غلبة المشركين عليهم ويصابروا فتنتهم فلا يتطهرون من مذهبهم هداية إلى الحق وحسب بل يهجرون الحــياة في ديار قومهم إلى مأوى آمن في الأرض متوكلين على بشرى من الله أن ينشر لهــم رحمــته بعد الضيق ويهيئ لهم من أمرهم مرفقاً بعد الضيق ويهيئ لهم من أمرهم مــرفقاً بعــد الحرج. وإذ آووا إلى الكهف توفاهم الله في فجوة منه ووقاهم من وهج الشمس المباشر إذ تزاور عنهم لمطلعها وتقرضهم لمغربها لئلا تقع على جلودهم فتنشف مــن رطــيب حياتها أو تحمى عليهم بيئة البرد الحافظ. ووقاهم الله من أن يقتحم غار الكهف عليهم أحد إذ كان مشهدهم يفزع عنهم من يراهم فيولي فراراً، فكانوا يبدون أيقاظــاً وهم رقود ويتقلبون ذات اليمين والشمال بما يصون أجسادهم ويبدي عليهم حــراك حــياة ويحرسهم كلبهم باسطاً ذراعيه بالوصيد. ثم بعثوا من نومهم لا لدورة حياة ممتدة أخرى فذلك حال مرجو بعد المبعث للحياة الأخرى، بل ليظهر من عارضة انــبعاثهم تجــدُّد ذكراهم فيمن خلفهم ممن شاهدوا رسولهم إلى السوق يبتغي الطعام وينفضح أمره بالورق القديم الذي عرضه للشراء، فتذكّروا لهم أمراً ماضياً اغتربوا عنده بالــدين الحق عن معهود قومهم. ولما انقلب رسولهم ذاك إلى إخوته واتبعه أهل المدينة ألْفوهم موتى، فرأى البعض أن يُدفنوا ويطوى أمرهم لكن الذين غلبوا على أمر المدينة

رأوا أن يكرّموا ويتخذ عليهم مسجد إحياء لعبادة الله مثلهم وإبقاء لذكراها في أثرهم. وما عدّهم ثلاثةً أو خمسةً أو سبعةً بأمر يُتمارى فيه إلا بما يظهر فيه سلطان الحق بحجة من علم الله الموحى، فما يعلم ذلك حقاً إلا قليل ممن يتراوون قصتهم، ولا جدوى في اســتفتاء أهل الكتاب الذين يتناقلون فيهم الكلم المتبدل الواهم. وإنما الحساب الواعظ في أمــد مكــثهم في الكهف ثلاثمائة سنين وتسعاً، فهو عهد متطاول لم ينضبط علم حــسابه إلا بوحــي من الله العليم يُبينه ليدرك المؤمن المتدبر أن الدين الحق وإن انغمر حيــناً من غلبة المعرضين يحيا ويتجدد ولو بعد مئات السنين. كذلك كانت قصة أهل الكهف أن من يهتدي وإن تعسّر عليه المسير من تثاقل البلايا يزيده الله هدى ويهيئ له من أمره رشداً ومرفقاً، والله يحفظ ذكرى الحق فيه، ويبعثه وإن تطاول انكباته والغفلة عــنه زماناً. وإحياء الدين بعد موت ظواهره كإخراج الحي من الميت في النبات ظاهرة باديــة في الطبيعة المسنونة. وكل ذلك تذكرة بالبعث يوم القيامة وإن تعاقبت القرون علــى الموتــى الأولين. والعبرة كذلك أن الغيب يحيط بظرف الزمان. فوراء الحاضر المعلوم المشهود ماضٍ مجهول، وإن تُذُكّرت ورويت بعض مشاهده ينبغي ألا يقال فيه رجماً بالظن بل يُتحرى عنه ومن رواياته وآياته الباقية أو يُتلقى علمه الآجل بوحي من الله عــلاّم الغيوب. وبين يدي الحاضر كذلك مستقبل غيب، مهما يعُدّ له المرء ويخط مــوعداً ويعــزم على إيفاء مقتضى وعده ينبغي أن يعلّق ذلك الوعد بمشيئة الله الذي تصرّف أقداره الأحوال الآجلة، فإن نفذ وعده وحق وقع عزيمته إنما جرى ذلك بتوفيق الذي يصدق وعده وقدره، وإن عاقت الظروف الطارئة دون ذلك الموعود فذلك لغلبة مــشيئة الله الذي يقلّب مآل المنظورات ويقضي بإيقاعها أو صرفها. والمتذكر لله يكل وعــده وأمره المرجو لمشيئة الله أن ينفذ أو يتعوّق، ويرجو إن كان قد نسي ذكر ذلك الإيكال في التعبير عن عزيمته ورجيّته أن يهديه ربّه لأقرب من هذا رشداً، للإدراك أن مــد الحياة في مستقبل الدهر المحيط به الغيب كما غمر الماضي المجهول رهنٌ بمشيئة الله وقــدره ولا يحيط به إلا علم الله، وللتعبير الملازم أو المستدرك عن ذلك الإيمان بإيكال علــم الغــيب الماضــي وتعليق العزم المستقبل لله. فالله هو العليم له غيب السماوات والأرض لا يكافئه أحد في مناط إدراك العلم فهو الأبلغ سمعاً لمقولات عباده تعبيراً عن

عـــزائمهم فـــيما يستقبلون وبصراً بكل واقعات الكون وحادثاته الماضية، يوفّق عزائم عـــباده ويعلّمهم سوابق الوجود، مثلما أرى عبده رؤيا من آياته بين الحرمين العتيقين. وهـــو الولي تعالى ما لعباده من ولي من دونه يتولى أمور حياهم إلا هو الذي يصرف أمـــور الوجود ويعلم غيوبه، وهو الغني لا يتخذ الله من دونه شريكاً يحكم قاضياً ببيان حقائق الأمور الواقعة ماضياً وبإيقاع المرجوة مستقبلاً.

ترتيل المعاني (الآيات ٢٧ – ٥٩):

﴿وَاتْـــلُ مَـــا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧)

يخاطـــب الرسول ﷺ الذي أوصي أن يكل إلى الله أبلغ العلم والإحاطة بالغيوب الدابـــر منها والآجل قائلاً إنه الأعلم بغيب أنباء أهل الكهف ومعلقاً عزائمه على كل فعـــل قادم بمشيئته الفاصلة في إيقاع الأمور، يُخاطب من ثمّ أن يلازم تلاوة ما أوحي إلـــيه مـــن كـــتاب هدى ربه ليبلّغ ما فيه من العلم الأحق والهدى الأرشد، لا مبدّل لكلمـــات ربّـــه ولـــن يجد من دون عليائه ملتحداً ومنحازاً يعدل إليه التماساً للعلم والاهتداء أو الولاية والاحتماء. وليكن بذلك قدوة في أمة خطابه يتلون كتاب الله ولا يعرضـــون عـــنه يلتمـــسون تبديله بما يوافق أهواءهم ولا يتخذون من دون الله مولى ومعدلاً.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْـــنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨)

قـــد يحرص الرسول ﷺ على هداية كبار أمة خطابه حتى يكاد يبخع نفسه أسفاً علـــى تولـــيهم عن رسالته ومحاولة صدّهم عنها سواداً ممن يستخفّوهم ويستحقروهم وينفـــرون كمـــا يـــزعمون من صحبتهم في مجالس دعوته يتأذون من أرواح جبابهم الصوفية بينما يراودونه أن ربما يُقبلون عليه إن اعتزل أمثال أولئك ويأخذون منه بعض قـــوله ويجد فيهم نصراً له لاسيما إن بدّل كلمات قرآنه التي يشق عليهم وقعها الحق

الذي وأتاهم بما يرضيهم. فالآية توصي الرسول الذي يكل العلم والهدى والملتحد كله لله أن يتم ذلك بأن يصبر متثبتاً على تلاوة القرآن ولو احتبس نفسه في صحبة المؤمنين الـــذين يدعون ربهم مداومين ذكره والصلاة له بالغداة والعشي لا تصرفهم نــزعات الحاجـــة لمبتغـــيات الدنيا ولو مستهم البأساء يريدون وجهه تعالى ويستقبلونه معبوداً قاصــــدين رحمته ورضوانه. والصبر ألا تعدو عيناه عنهم مُعرضاً يريد زينة الحياة الدنيا مقبلاً على أهلها الذين فتنوا بها واستكبروا فما أحسنوا عملاً. وكما قصد أهل الكهف إلى العكـــوف علـــى عبادة الله وحده وهجروا مزاين الحياة الدنيا وأهلها من قومهم واستقلوا عنهم بعد أن كانوا فيهم مستضعفين فحفظهم الله في مرفق مأمون يهابه من يطّلـــع عليه ثم بعثهم قبل مبعث الآخرة ليغلب في رأي الخلَف الذين عثروا عليهم أن يوقّـــروهم عُباداً ويتخذوا عليهم مسجداً - كذلك المستجيبون لدعوة الدين الحق بعد بلاء الاستضعاف لأول أمرهم يرعاهم الله برحمة حافظة من البلاء وبعث مجدد لدينهم. ولـــذا أوصــــي الرســـول بأن يلازم معيّة الذين استجابوا له وهادوا إلى تلاوة القرآن والاطمئـــنان لهداه وبشراه خروجاً على الملأ المستكبر من قومهم، وألا يطيع من أغفل الله قلـــبه عن ذكره إذ فتنتهم شهوات زينة الدنيا فمدت لهم أقدار الله في تخيير الإنسان وتسيير مذهبه مداً في ضلالهم المعهود وانطبعت قلوبهم عليه فصدّوا أنفسهم عن الإيمان بـــالله وكـــتاب رسالة الدين في الحياة واتبعوا أهواءهم، وكان أمرهم فُرُطاً إذ فرّطوا وأسرفوا نأياً عن الحق وتفلتاً في مسيرهم إلى مبالغ السوء[1].

﴿وَقُـــلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَـــارًا أَحَـــاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩)

وإذ كانت صحبة رسول الله وملازمة دعوته مائزة بين الصادقين استجابة لله ولو كانـــوا معسرين في حظوظ الدنيا والمعرضين الموسرين، ليقل لهم جميعاً المقولة البيّنة إن الحـــق مـــن ربهم لا من أهوائهم المعهودة، فهو العليم بحق الغيوب يُنبئ عن مثال أهل

(١) في صبر النبـــي الداعية مع المستجيبين المخلصين لله ولو من المساكين دون المستضعفين بأهواء زينة الدنيا: راجع الآيتين ٥٢و٥٣ سورة الأنعام، الآيات ١-١١ سورة عبس.

الكهـــف المؤمنين، وهو الهادي للحق فيما يأمر بتوحيده معبوداً وتلاوة كتابه والدعوة إليه والصبر مع صحبة المؤمنين مهما يكونوا في قلة وذلة ويُعرض المستكبرون المفتونون، ولا تـــبلغ الحقَّ أقاويل الراجمين بالظن في أنباء الغيب ولا تصيب الحق مذاهب المدبرين عـــن تـــلاوة القرآن وهداه. ليذر الرسول مَن يخاطب بدعوته في خيار بعد بلاغ الحق المنـــــزل مـــن ربهم، فمن شاء منهم فليؤمن به ومن شاء فليكفر مهما يكن أغناهم كـــسباً في الدنـــيا مؤمناً بنعمة الله وشاكراً أو أبعدهم في الظلم المفرط غير مصدق ما أنـــــزل الله في خـــبر الغيب ولا متّق حدوده فيما شرع بين الناس. فمشيئة الإنسان القاصـــدة إلى الإيمان بالحق الموحى من الغيب أو إلى الكفر به هوىً قاصراً على الدنيا وزينـــتها هي خيار الإنسان وينبني عليها مذهب مسلكه في الحياة، وتحقّ عليه المحاسبة بكـــسبه من ذلك والمجازاة وفاقاً. فالله لا يصرّف بقدر جبروته وجهة مشيئة الإنسان وإنمـــا خلق له فيها مجالاً حراً، وذلك قدر مشيئته العليا في شأن الإنسان- أن يدبّر له مـــشيئة تتـــصرف في خيار. وصيغة الأمر في تعبير الآية تعليق للإيمان والكفر بالمشيئة، ومهمـــا تؤثـــر علـــيها ظروف الحياة التي يُبتلى بها المرء فإنها لا تطمس مشيئة خياره، ومهمـــا يُكـــره علـــى ظاهر تعبير تبقى المشيئة حرة، ويجعل الله لكل ذلك تقديراً في حساب كسبه. والله بأقدار الحساب والجزاء اعتد أزلاً عاقبة لذلك الكسب بعد البلاء، اعـــتد للظالمين الذين عَدوا بمشيئتهم على حدود الحق البيّنة كفراً في مذهبهم وضلالاً بمقتـــضاه في واقـــع حياتهم، هيّأ لهم في الآخرة ناراً أحاط بهم سرادقها سوراً وحظاراً يحبـــسهم من المفر، وإن يستغيثوا من حر النار فهم - إذ تبدلت بأقدار الله يوم القيامة طـــبائع الأشياء- يُغاثوا بماء كالمهل السائل الثقيل من مذاب المعدن أو من ركد الزيت يشوي الوجوه إذا قاربها ابتغاء الابتراد أو الشراب، بئس الشراب فإنه ليس بماء صاف طاهر سائغ بل أسود منتن غليظ حار. وساءت النار مرتفقاً يلتمسون فيه أيما انتفاع.

﴿إِنَّ الَّـــذِينَ آمَـــنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَـــسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣٠ - ٣١)

ما سبق ذكره مصير الظالمين يقابله مصير ذوي المشيئة المؤمنة التي تذهب في الدنيا ابتغاء الآخرة. إن الذين آمنوا بالحق الصادر من الله وحياً منــــزلاً وصدّقوا ذلك بطاعة أمـــره تعـــالى عمـــلاً للصالحات في الحياة حقّ لهم ذلك الجزاء الأوفق. إن الله بأقداره المتـــسقة آمرة عند الابتلاء بالقسط وجازية على الكسب، إنه لا يضيع أجر من أحسن عمـــلاً، فقـــد حق الأجر وفاقاً للذين ابتُلوا بزينة الأرض والحياة الدنيا فجازوا البلاء إحـــساناً. أولـــئك – عالو الرتبة– لهم جنات عدن، حدائق نعيم ظلاً وغذاءً ومشهداً طيـــباً إقامـــة فـــيها دائمـــة، تجري من تحتهم الأنهار بماءٍ راوٍ يمد الجنان سقاية وحياة موصولة، يُحلّون حلية فيها من زينة الآخرة إذ لم تفتنهم وتحرم منها زينة الدنيا الفاتنة الفانـــية، مـــن أساور من ذهب – كما تعهد أيدي المتزينين في الدنيا بشتى أعرافهم، ويلبـــسون ثياباً خضراً– متسقاً لونها مع بيئة الجنة، من سندس واستبرق– ديباج ناعم رقـــيق أو غليظ، متكئين – راحة – على الأرائك أسرّة وفرشاً. نعم الثواب في الجنات والجزاء العائد على مستحقّيه، وحسنت مرتفقاً– مرتجى انتفاع[1].

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا﴾ (٣٢ – ٣٣)

الرسول ﷺ داعٍ إلى الحق والغيب، وكما يذكّر مبشراً ومنذراً بالبعث في الآخرة الـــذي تنكـــره أمة خطابه العربية المباشرة يذكّرهم بمثال بعث أهل الكهف بعد همدة مئات السنين– هو مذكر بالتقوى عند الابتلاء بعاجلات أوضاع الدنيا وحاضر مزاينها ومـــتاع الأمـــوال والأولاد فيها ألا يفتنوا باليسر فيها أو يصدوا عن الحق غيرةً على معهـــود كسبهم فيها وإعراضاً عن دعوة العدل والمساواة فيها بين كل العباد وغروراً

(١) تتوافق آيات ألا إكراه في الدين فللمرء بعد التذكرة أن يتذكّر ويستقيم متخذاً سبيله إلى الله: راجـــع الآيـــة ٢٥٥ سورة البقرة، وانظر الآية ٥٧ سورة الفرقان، والآية ١٩ سورة المزمل، والآيـــتين ٣٧و٥٥ ســـورة المدثر، والآيتين ٢٩و٣٠ سورة الإنسان، والآية ٣٩ سورة النبأ، والآيـــتين ٢٨-٢٩ ســـورة التكويـــر. وتتواتر في القرآن آيات أن لو شاء الله لهدى ولجمع الـــناس أمـــة واحدة لكن يذرهم مختلفين يهدي من يشاء ويضل من يشاء بوقع قدره الذي خيّرهم.

بمرجيّ المصائر تمنياً وظناً أن الله خصهم ببسط فضولٍ من الغنى في الدنيا فهو حافظ لها أبـــداً ولـــو بعثهم يوم القيامة ما هو إلا باسط لهم ذات الفضول المائزة لهم على سائر البائسين من الناس. والرسول داعٍ كذلك للمعسرين الذين تصيبهم البأساء ولا يجدون مـــن الله نعمة الغنى العاجلة أن يصبروا ويزدهدوها في سبيل ما يجدون من الهدى ومن البشرى بآجلته. ولذلك يوصى الرسول في دعوته أن يضرب للناس مثلاً رجلين يقول الله إنـــه بأقدار تصريف نعمائه وبلائه جعل لأحدهما جنتين تحدق بهما الأشجار، من أعـــناب مختلفة الأنواع، وحففهما من حولهما بنخل، وجعل بينهما زرعاً يصح نبته إذ ينفـــتح مكانـــه المتوسط للشمس دون الظلال. كلتا الجنتين كانت مثمرة منتجة آتت أكلها المرجو حصاداً فاكهة مع محصولات الزرع حبوباً وبقلاً، ولم تظلم من ذلك شيئاً بـــنقص أو عيب لعلة في النبت أو جائحة من الريح. وفجّر الله بأقداره في موارد المياه بينهما نهراً يسقيهما بشعابه الممتدة ويحفظ فيها الحياة للنبت والمخرج للثمر من طراوة الأرض والمناخ الموصولة دوماً لا وقفاً على غيث المواسم والمقادر.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤)

وكان لمالك الجنتين من ثم ثَمَر أو ثُمْر تتوافر بأنواعها فاكهة وحباً وبقلاً. فدعته تلك العمارة الزراعية المنبسطة الغنية أن يفاخر صاحبه الذي لم يملك مثله، قال له وهو يحـــاوره إنـــه أكثر منه مالاً من جنته وزرعه ومحصوله وأعز نفراً بخدمه الذين يأجرهم عـــوناً علـــى الزرع والأتباع المنعطفين إليه بداعي وفرة ماله جمعاً ينفرون إليه متى لزم الأمر وينصرونه. فهو بهم أعز من ذلك الصاحب والمحروم من مثل ماله وناصريه.

﴿وَدَخَـــلَ جَنَّـــتَهُ وَهُـــوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٥ – ٣٦)

ودخـــل ذلك المالك جنته الموصولة بشقيها وهو ظالم لنفسه يكتنفه الزهو والبطر بمـــشهودها جـــنة وثمراً مما يحمله على أن يرتد به ظلماً لنفسه فتنةً بالمتاع الطاغي على معالم استقامتها وتقواها، قال معبراً عن ذلك الظلم المفتون بالحاضر منها إنه ما يظن– حـــسبما يعـــتقد– أن تبـــيد وتهلـــك تلك الجنة التي تَعلّق بهواها أبداً وألهاه الأمل في عاجلات محصولها في الدنيا وصرفه عن العواقب المنظورة في صروف الدهر، وتمادى في

حـــب متاع الدنيا فيها فأضاف أنه ما يظن ساعة يوم القيامة التي يسمع بنذيرها قائمة في مـــنظوراته القابلة، وغمرته ظنون الرجاء الممتدة في جنته فارتاب في فناء متاع الدنيا المـــشهودة مطمئناً أن لو صدق ما يحذره به المنذرون بغيب الآخرة ورُدّ إلى ربه الذي أحـــسن إليه في الدنيا ليمدّن له الإحسان فيها وليجدنّ خيراً منقلباً مما قدمه له في الدنيا من جنة ولن ينفكّ عن قدر ربه محظوظاً في الدارين.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (٣٧)

قـــال للمالك صاحبُه الذي قام بجنبه محروماً عن مثل تلك النعمة الحاضرة سليماً مـــن تلك الفتنة مؤمناً بالغيب والرجاء الآجل – قال له: أكفر بالذي خلقه من تراب مـــيت أصلاً ثم من دفق نطفة مهين ثم سوّاه بأطوار المولد والمنشأ رجلاً تاماً، ألاّ يرجع إلـــيه ﷻ الحمد على كل كسبٍ أو خلق ويَحق له الشكر والعبادة وعليه تهون قدرة الـــبعث للناس يوم الساعة للحساب والجزاء؟ أم يحسب مبتغيات الدنيا غاية الحياة وأن الله يُحـــي الإنـــسان ثم يميـــته ويذره يمضي عبثاً لا يبتليه بالحياة الأولى حتى الموت ثم يستدرك مدّ حياته بالبعث يوم الدين يكافئ كسبه بالجزاء عدلاً ووفاقاً وميزاناً يسوّي كل مراحل وجود الإنسان.

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٣٨)

ذلك العكوف على الدنيا ومتاعها والقصور عن الغيب هو مذهب مالك الجنة، لكن الـــصاحب كما يقول متكلماً عن مذهبه مؤمناً بالذي خلقه وسوّاه: إنه هو الله هو بالله ذو الألوهية المطلقة عليه عبداً، ربه ذو الربوبية عليه ملكه ورزقه، وهو عبداً لا يشرك بربه ذاك أحداً بل يُسلم له كل الحياة شكراً وعبادة، إن أشرك هواه بالله ذلك الآخر المفتون بجنته.

﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّه إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَـــدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (٣٩ – ٤٠ – ٤١)

ومـــضى ذلـــك الصاحب لمالك الجنة يحاوره ويناصحه ترتيباً على سابق التذكير قائلاً له في الخطاب أن لولا، هلاّ حين دخل جنته قال: ما شاء الله، ناسباً ما يرى من

زينتها وما يتذكر من فضلها لمشيئة الله، مجتنباً دواعي الانفتان والغرور بها لذاتها، مؤمناً أنه لا قوة إلا بالله هو الذي أنشأها غنّاء مثمرة واستخلفه فيها كما له تعالى وحده أصل كل المال والرزق، وهو تعالى بقوته يتولى حفظها ونموها، فله الحمد والثناء والرجاء، والذي يُبتلى باستخلاف من الله له في ماله ينبغي أن يشكر الله ولا يكفر ويعبده تقياً ولا يبطر ملهياً.

ويمضي الصاحب يحاور ويناظر ذلك المالك الجنة، أنه إن يراه أقل منه مالاً وولداً مما يزين الدنيا، فعسى ربه المرجو أن يمده هو من خزائن رحمته ويؤتيه خيراً من جنة المخاطب فوزاً بالفضل بعد الفقر، ولعله ﷻ الذي يقلّب الخير والشر جزاء وابتلاء لعباده أن يرسل على جنته حسباناً، صابة تضربها من ظواهر السماء ماحقة سموماً أو مطراً أو حارقة من صاعقة أو ريح مدمر، فتصبح بعد مغناها صعيداً زلقاً، أرضاً مزلقة لا نبات عليها، أو يصبح ماؤها بعد أن كان نهراً يباشرها سقيا - غوراً ذاهباً في سافلة العيون لا يُدرك فلن يستطيع صاحب الجنة له طلباً - محاولة جلب وسَوق إلى زرعه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢)

ووقع على مالك الجنة ذلك القضاء من الله المحذور إذ أُحيط بثمره فاستؤصل كله بواقعة من أقدار الزرع الماحقة، فأصبح يقلّب كفيه - يضرب كفاً بأخرى - متحسراً على ما أنفق في جنته إعداداً وتنمية، وهي خاوية ساقطة أعنابها على عروشها التي كانت دعائم تنبسط عليها فروع الكرم، وهو يستشعر ما فات من افتتانه بها الذي ألهاه عن ربه، يتمنّى أن يا ليته لم يشرك بربه أحداً لو لم يكل قيام جنته وغناها إلى هوى الظاهر ووعد الغرور مما أعمى بصيرته عن غيب أقدار الله الذي إليه وحده ترجع الأمور.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ (٤٣)

ولم تكن لصاحب الجنة الحصيد فئة من النفر الذين استعزّ بهم ينصرونه على ما أصابه ويتولونه من دون الله، وما كان منتصراً بل تهدمت جنته وانهزم أمره.

﴿هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٤٤)

هـــنالك – في مثل هذا المثل وحين العسرة من وقع ابتلاءات الحياة الدنيا وعجز النصرة المنظورة في ظاهرها الفاتن يتجلّى صوب التوكل والرجاء الحق نحو الله وحده، فـــثمة الولاية والنصرة تبين لله الإله ذي الكمال والعظمة الولي الحق الواحد، ما لعباده ولي مـــن دونـــه، يدركهم بقدر الرحمة في مآلات الأمور، هو ﷻ لأوليائه خيرٌ ثواباً وجزاء على ما عملوا وخيرٌ عاقبة في أمرهم متوالية فيها فضائله عاجلة في الدنيا وآجلة يوم القيامة.

﴿وَاضْـــرِبْ لَهُـــمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ (٤٥)

وكمـــا كلّـــف الرسول ﷺ في سبيل دعوة الحق والتوحيد والرشد الذي يصل مـــشهود الدنيا بغيب الآخرة– أن يضرب لأمة خطابه المغترّة بزينة الدنيا المُعرضة عن الحياة الآجلة مثلاً هادياً من خصوص حالة في الدنيا لغني مفتون بجنته وصاحب له فقير محروم من داعي الفتنة مؤمن بربه، وكيف تقوم بينهما المقابلة فيدور الحوار بين الباطل والحق حتى تمس الغنيَّ الضرّاء وتذهب عنه سرّاؤه ولا ينتهي إلا إلى الندم على إشراكه بالله هوى المتاع والتمنّي لو أنه كان مخلصاً لربه. ذلك الرسول مكلف أيضاً أن يضرب لأُمة خطابه مثلاً لعموم أحوال حياتهم الدنيا التي تختلب عيونهم زينتُها وتستوي عليهم أهـــواء شهوتها ليتعبدوا لها من دون الله، والتي لا يرعوون إن فتنوا بها بمنظور ما يطرأ علـــى أحـــوالها من زوال وتقلّب فلا يتوجهون بسنن وقائعها الواعظة إلى قصد مآل الآخـــرة الباقـــي نعيمها. ومثال عموم الحياة الدنيا المضروب أنها كماء أنـــزله الله من الـــسماء في طبيعة الغيث وتنـــزّله بأقدار وأوقات مكتوبة، فترتب على الماء النازل أن اخـــتلط بنبات الأرض، وذلك بعد أن كانت ميتة أصولُ النبات في التراب فسرى الماء إلى بـــذوره فحيـــي وخرج ونما مخضرّاً وآتى ثماره ثم دارت عليه الدورة المسنونة طبعاً فأصـــبح هشيماً يابساً مكسراً تذروه إذ تثيره وتذهب به الرياح لتنتشر بذوره الميتة ثم لينـــبعث في دورة أخـــرى. ذلك مثل الحياة الدنيا وخضرها وثمرها الفانية إلا الكسب فـــيها المرصود ابتغاء الآخرة. فسنة الله في النبات الذي يموت ويحيا ثم يموت ليبعث من

جديـــد ســـاريةٌ على الإنسان الذي كان مواتاً في تراب فحيي في نطفة وخرج وعاش حتى مات ليبعث من جديد ويفنى ماله مع موته إلا كسبه المرصود للآخرة. وذلك المثل آية تذكير للمفتونين بالدنيا المنكرين للبعث، وكان الله على كل شيء مقتدراً أزلاً عبر زمـــان الدنـــيا حيث يحي الناس فالآخرة حيث يبعث بقدرته الأموات في دار الحساب والجزاء.

﴿الْمَـــالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (٤٦)

ومـــن خـــصوص مثال الجنة التي نشأت لمالكها فماتت وأصبحت صعيداً زلقاً وعمـــوم مـــثال الدنيا كلها كالنبات حياةً فذهاباً حطاماً فانبعاثاً، فإن الدنيا دار البلاء للـــناس ليعبروها زاهدين في مدّ زمانها إلا مجالاً للإعداد للآخرة غير مفتونين مفاخرين بـــزينتها مغـــرورين بظنون دوامها. وفي الدنيا المال والبنون هما أخطر مجالات الابتلاء وموارد الفتنة، فهنا زينة تلك الحياة إليها صوّبُ حب الشهوة وفي سبيلها جهد ونصب كـــثير لتنشأ وتعمر، لكنها تصير إلى العطب والهلاك أو الذهاب وقد تجلب شراً دون ذلـــك وتورد إلى الخيبة. والباقيات الصالحات- وهي الأعمال التي لا تبتغي متاع الدنيا غايـــة بـــل تقـــصد وجه الله وتبتغي الآخرة اتقاءً لمفاتن الدنيا ومفاسدها وعاجلات مـــتاعها- هـــي أذكاراً وأفعالاً خير عند ربّ النبـــي ﷺ المخاطب وربّ كل مخاطب عامـــل للـــصالحات مـــثله - الـــرب الذي يهدي لصالح الأعمال ويباركها في الدنيا ويُحصيها - هي خير من الثمرات العاجلة لسيئات المفتونين بمبتغيات الدنيا- خير ثواباً وجـــزاءً عاقباً وخير أملاً متحققاً متباركة مرجواته في أشواط سيرة الإنسان المؤمن عبر قابل الدنيا والآخرة[1].

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧)

ولو اعتبر المرء بتلك الأمثلة فجاهد ابتلاءات الدنيا بزينة عارضاتها ولم يسلك بها نحـــو عاقبة الخزي والندم عند فناء الدنيا بل ابتغى منال خير الثواب وتحقق خير الأمل، فـــإن ذلك الذكر والرجاء الآجل يهديه على صراط فلاح في الآخرة. والتذكير بتلك

---

(١) راجع الآيتين ٧و٨ من ذات السورة.

العبرة ينعطف عليه التذكير بمعالم قيام الساعة الآخرة، يوم تُسيّر الجبال على وجه الأرض وإن صلبت قوتها يبثها وقع أقدار التبدّل بأمر الله حتى يحسبها الرائي خيالاً، ويرى المرء الأرض يومئذٍ بارزة في الآفاق، وقد انكدرت النجوم وانكسفت الكواكب من حولها وسيّرت جبالها وسجرت بحارها. ذلك يوم الدين الذي تزول فيه المعالم المعهودة للكون المشهود بعظيم وقع لمثل الزلازل والعواصف والصواعق التي سبقت في الدنيا آيات تذكير بذلك اليوم العظيم. ويحكي الله، بصيغة الجمع المتكلم بعظيم أقداره تلك في شأن بني الإنسان كافة لاسيما المنكرين للبعث المخاطبين بدعوة النذير تلك وبصيغة الفعل الذي حقّ وقعه ماضياً: إنه حشرهم إخراجاً من الأرض وجمعاً في الموقف والعرض لحكم القضاء الذي تقوم وتثبت فيه البيّنات على أعمالهم وتنكشف المغيبات من نياتها وتوضع موازين الحساب ويرون ما حولهم من تزلزل في نظام الكون الذي كانوا يشهدون قبل ساكناً فيغشاهم الفزع والصعق، وجمعوا كافة يموج بعضهم في بعض، فلم يغادر الله – بأقدار حشره الجليلة المحيطة– منهم أحداً[1].

﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (٤٨)

ويحق ذلك اليوم الآتي في الأزل كأنه حق ماضياً في زمان الدنيا، فتروي الآيات صورته بصيغة الماضي ليرسخ حقه الموعود في وجدان المخاطبين: وعُرض الذين كانوا مخاطبين برسالة الدين وتكاليف الهدى في الدنيا دار ابتلائهم، عرضوا على رب الرسول ﷺ المخاطب بالقرآن وربهم أجمعين مخاطبين به، لا عرضاً على أوليائهم مما كانوا يشركون بالله في أمور الغيب. عُرضوا صفاً سواسية، وخاطبهم الله بأقدار بعثه وعرضه العظيمة أن لقد جاءوا كما خلقهم أول مرّة أحياء عراة مذعنين مالهم معه من ولد ولا متاع ولا وليّ كما كان يكتنفهم في الدنيا، بل هم في الدنيا قد زعموا

---

(١) أقدار الساعة تسير الجبال، وأهون عليها، تصرف مبعث البشر ومحشرهم وترتب معارض حسابهم ومآوي جزائهم: انظر الآيات ١٠٥-١٠٨ سورة طه، والآيتين ٨٧و٨٨ سورة النحل، والآيات ٩-١٣ سورة الطور، والآيات ٤-٧ سورة الواقعة، والآيات ١١-١٤ سورة المزمل، والآيات ١٠-١٣ سورة المرسلات، والآيات ٢٠-٢٢ سورة النبأ، والآيات ١-١٣ سورة التكوير، والآيتين ٤-٥ سورة القارعة.

جهـــلاً – كما يخاطبهم ذكر الآية – أن لن يجعل الله بأقداره العظيمة كلها لهم موعداً للبعث والحساب مكاناً وميقاتاً ومعرضاً وإنما يهلكهم الدهر.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩)

وتمـــام يـــوم التبدّل والحشر أن وُضع الكتاب الوافي فيه بيان كسب كل أحد في الدنـــيا مـــن الأعمال صالحها وفاسدها وخطيرها وحقيرها، فيرى الرسول ﷺ المتّعظ بـــرؤية مـــشاهد القيامة إسوة للذين تبلغهم منه الرسالة تعظهم وتزكيهم، ويرى كل امـــرئ مخاطـــب بالقرآن إذ يشهد عرض الحساب – يرى المجرمين منهم الذين جرموا علـــى الحق في الدنيا منذ أن جاءهم خطابه– يراهم جاثين مشفقين مما في الكتاب من حـــصر أعمـــالهم وفضح سيئها وهم في مقولة حال نكرة: أن يا ويلتهم، ينعون على أنفسهم فضيحة البيّنة وشر العرض إذ لا نديم ولا سلامة، ما لهذا الكتاب لا يغادر ولا يتـــرك صـــغيرة ولا كبيرة من فعالهم إلا وفّى بها إحصاءً، ووجدوا ما عملوا في الدنيا، وإن غـــاب وقعه الماضي، حاضراً مرسومة صفاته مهيأة بيناته. ويخاطب الرسول المبلّغ عن عدل ربه أنه يومئذ لا يظلم ربه أحداً من عباده بقضائه في المحاقّة بينهم في الحساب أو في إيقاعه الجزاء المترتب ثواباً لهم أو عقاباً عليهم[1].

﴿وَإِذْ قُلْـنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ (٥٠)

بعـــد سياق التذكير برسالة الكتاب والخيار في الدنيا والسؤال والجزاء في الآخرة وضـــرب الأمـــثال بفناء عاجل كسب الدنيا وبقاء الصالح منه كفاءً خيراً يوم المحشر والمحاســـبة وعذاب المجرمين، من بعدُ يرد التذكير بأصل داعي الوقوع في الإجرام الذي لازم الإنـــسان منذ خلقه الأول، لعله يجاهده عبر عهد البلاء في الدنيا ليُعد للنجاة من مـــصير العذاب في الآخرة. يذكر الله في ذلك أصل مسيرة الإنسان منذ قصة أبيه آدم الأولى بين الملائكة وإبليس. وإذ قال الله قولاً صادراً عن عظيم أقداره تعالى وحكيمها

(١) انظر الآيتين ٧و٨ سورة الزلزلة.

في خلــق الإنسان وتدبير أمره ونظم مسيره في الوجود – قال للملائكة: اسجدوا لآدم ليكونوا له خدماً وأيداً في سبيل الله لمستقبل حياته. فسجدوا إلا إبليس الذي يئس من رحمــة الله وشطن عن حدّ أمره شيطاناً في عالم الغيب المستجنّ. وكان مخلوقاً من النار لا كالملائكــة من نور. ففسق وخرج بتلك الفعلة عن أمر ربه الذي خلقه وربّاه وقدر لــه خــيار المسير. وفي الآية بعد التذكير يلتفت الخطاب لأبناء آدم منذ أمة الخطاب الأولى ذريــة متعاقــبة: أيتخذون إبليس ذاك وذريته الخالفين أولياء يستنصرون بهم في الحــياة ويستوحون منهم الأمر دون الله الولي الناصر ذي الفضل والنعمة والهداية لهم، وأولــئك الــشياطين لهم عدو منذ الأزل يتعهدون إضلالهم وسوقهم إلى سوء المصير؟ بئس للظالمين العادين على حدود الله وعلى حقوق المستضعفين منهم أن يستبدلوا ولاية الــشيطان العــادي عليهم استحقاراً وإغواء بولاء الله الرحيم بالإنسان هداية إلى نعيم المصير – بئس ذلك بدلاً.

﴿مَــا أَشْــهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (٥١)

يقول الله في الآية – بصيغة المتكلم بالحق– إنه تعالى ما أشرك بل ما أشهد إبليس وذريته خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم فكيف تحق لهم الولاية على الإنسان دون خالقه وخالق محيطه الكوني منفرداً لم يكن معه أحداً شريكاً ولا شاهداً، وكيف يتخذ الإنسان ولياً من دون الله أولئك الذين هم أنفسهم مخلوقون منه تعالى محجوبون عن غيب الخلق كله، لا يساوونه فيكافئونه أهلاً للولاية. وما كان ﷻ أزلاً أبداً متّخذ المضلين المتعهدين عداوة الإنسان وإضلاله عضداً وعوناً له في أمر سيرة الإنسان الذي قــدرها سبحانه أن تُطلق له المشيئة وتعرض عليه دعوة الهدى إلى السبيل القويم ويبتلى بخيار لتحق العاقبة مساءلة له فرداً ومجازاة كفاء كسبه.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ (٥٢)

وبعد التذكير بيوم الحشر والسؤال والحساب والعذاب لمن أجرموا بداعية موالاة الــشيطان، التذكير ينضاف بذلك اليوم ظرفاً للمساءلة الخاصة لمن أشركوا بولاية الله،

ويوم يقول لهم الله أن ينادوا استعانة واستغفاراً في حين أزمة حساب وجزاء شركاء الله كمـــا زعمـــوا ووالوهم دونه. ويترتب فيما هو آت حقاً كالماضي الواقع أن دعوهم تعـــويلاً على وهمهم في الدنيا أنهم أولياء ينفعونهم شفعاء لدى الله، فلم يستجيبوا لهم انـــشغالاً بحظهـــم هم من المساءلة والمحاسبة وبهمّهم أن الجزاء أصبح بيّناً من ملك الله وســـلطانه. وجعـــل الله بأقداره في نظام يوم الدين بين هؤلاء وأولئك موبقاً، مهلكة تفصل بينهم يتقاطعون بعد تواصلهم في الدنيا ويتناكرون ويتلاومون[(١)].

﴿وَرَأَى الْمُجْـــرِمُونَ الـــنَّارَ فَظَـــنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٥٣)

ويومئذٍ أولئك الراسخون في الإجرام رأوا النار فظنوا- تقديراً للواقع المرجوِّ حقاً في نفوســـهم - أنهـــم مواقعوها، ملازموها وقوعاً فيها، و لم يجدوا عنها مكاناً مصرفاً يعدلون إليه.

﴿وَلَقَـــدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآَنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (٥٤)

ولقـــد صرّف الله بأقدار علمه وهداه في هذا القرآن الجامع للهدايات الفارق بين الملتبسات- لقد طرق للناس المخاطبين عبر الدلالة بكل وجه بأن ضرب لهم كل مثلٍ، مـــثل ما تقدّم ذكره في السورة من الأمثال المضروبة والتصوير المبين والتذكير. وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً، لا يستقر على يقين ولا يُقلع عن المماراة بالباطل ولا يذعن لدلالات الحق الغيبـــي مهما يتوالى تصريف ضرب الأمثال شواهد عليه وتقريباً لبيان مواقعه بعروض أشباهه المشهودة والبيّنة[(٢)].

﴿وَمَـــا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ (٥٥)

---

(١) ينادي المشركون أولياءهم يوم القيامة فلا يستجيبون: انظر الآية ٦٤ سورة القصص، والآية ٥ سورة الأحقاف.

(٢) الله في كـــتابه يـــصرف الأمثال ويضربها للناس لعلهم يعلمون ويتفكرون ويتذكرون: راجع الآية ١٧ سورة الرعد، والآية ٢٥ سورة إبراهيم، والآية ٨٩ سورة الإسراء، وانظر الآية ٣٥ سورة النور، والآية ٤٣ سورة العنكبوت، والآية ٢١ سورة الحشر.

ومـــا منع الناس المخاطبين بالقرآن المجادلين بباطل ظنهم أن يؤمنوا بآيات الله إذ جـــاءهم بالهدى وبلّغتهم رسالة الكتاب المبين- وما منعهم أن يستغفروا ربهم ليتطهروا مـــتاباً مما عهدوا في جاهليتهم السابقة ويتزكوا في سبيل الاستقامة المؤمنة، ما حبسهم عـــن ذلك وذهبوا في مجالات الجدال إلا أن تأتيهم سنة الأولين، أن كانوا يصدّون عن حـــق الرســـالات مهمـــا تنـــزلت عليهم آيات الوحي ويقترحون على المرسلين أن تتنـــــزل عليهم آيات معجزة تشهد لحقّ الغيب بظواهر خارقة لسنن الطبيعة المشهودة وحـــين يستجاب لهم لا يبالون بل يسخرون بالآيات يتمادون في كفرهم ويصرفونها ســـحراً أو مكراً، فيحق عليهم العقاب ويقع عليهم الهلاك، سنة متوالية، أو لعلّهم ما منعهم أن يسارعوا فيؤمنوا ويتوبوا إذ جاءهم الهدى إلا أن يأتيهم العذاب المنذر به في الآجلة للمكذبين قبلاً فتحدث لهم مواجهةٌ لوقائعه حاضرة ومعاينة لنوازله مشهودة لا آجلة في الغيب موعودة يوم البعث والدين بل من فور نـــزول الهدى ونذره، ذلك إذ يعكفـــون علـــى حاضر الدنيا وعاجلها ولا يؤمنون بالوعد أو الوعيد الآجل الوقع في عواقب الدنيا أو مصائر الآخرة[1].

﴿وَمَـــا نُرْسِـــلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آَيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ (٥٦)

ويقـــول الله في شـــأن هؤلاء المجادلين بالباطل المتطلبين لواقعة الآيات المعجزة أو نازلـــة الـــنذر العاجلة شرطاً لتصديق رسالة الغيب، يقول ﷻ أنه ما يرسل المرسلين بأقـــدار اصطفائه ووحيه وبعثه لهم برسالة الهدى إلا حاملين النذارة بوعيد العقاب لمن أعرض والبشارة بوعد الثواب على الإيمان والعمل الصالح، وهم لا يملكون دون ذلك الـــوعد الآجل أخذ الناس بالهدى كرهاً. ويجادل الذين كفروا وغطوا فطرة الإيمان في أنفـــسهم بباطلهم المعهود- يمارون كل رسول ليدحضوا الحق مزيلين حجته ووقعه في النفوس والحياة، يتخذون تلك سنة متوالية وكانت سنتهم فيما سلف أن اتخذوا الآيات

---

(١) سنة الأولين أن تأتيهم الآيات المعجزة: لتعزيز صدق رسالة الحق وللنذير بالعقاب العاجل إن لم يؤمـــنوا فيُعرضون ظالمين حتى يحق عليهم ويقع الهلاك: انظر الآية ٥٩ من ذات السورة، وآيات كثيرة تقص قصص ذلك الهلاك المسنون. أما طلب العذاب فوراً قبلاً لا آجلاً في الغيب يوم البعث تحدياً لنذيره: فراجع الآية ٣٢ سورة الأنفال.

المتلوة عليهم التي نسبها الله إليه مصدراً نفياً لريب افترائها من دونه واتخذوا ما أنذروا بـــه في رسالتها من عقاب المكذبين بها – اتخذوا الآيات ونذيرها هزؤاً، يستخفون بحق الآيات ويكذبون نذيرها لا يبالون بها ولا يرتاعون من رهبة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَـــى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (٥٧)

كـــان أولئك أظلم الظالمين، ومن أظلم ممن ذُكّر بآيات ربه قرآناً، ممن خلقه الله الـــذي ربـــاه وأحسن إليه وأنـــزل إليه آيات الوحي ليهديه وليزكيه بها فأعرض عنها دون إقـــبال وانشراح صدر واستماع وإنصات ليقر في وجدانه الإيمان بها، ونسي ما قـــدمت يـــداه من عمل غافلاً دون وعي أن سيعقبه قضاء من الله بجزاء مكافئ يتم به عدلـــه ﷻ في الوجـــود. إن الله بأقـــدار طبعه لنفوس البشر جعل على قلوب أولئك الظـــالمين ومـــثلهم أكـــنةً، أغطية من كثيف جهلهم المعهود الذي عهدوه وارتهنوا له تحجـــبها مـــن أن يتلقـــى وقع آيات القرآن فيها وعي حي يبلغ بهم أن يفقهوا حقه ومقتضاه، وجعل الله بأقداره كذلك في آذانهم وقراً وثقلاً فهم أصمّ من أن تبلغ آيات القـــرآن مدارك وجدانهم. ويلتفت الخطاب إلى الرسول ﷺ تالي القرآن وحامل رسالته أن إن يدعُهم جهداً في إبلاغ البيان والتبشير والنذير إلى الهدى – أن يسلكوا في الحياة الصراط المستقيم وينصرفوا عن الضلال- فلن يهتدوا بعد انسداد القلب وصمم السمع أبداً.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ (٥٨)

ورب ذلك الرسول ﷺ -كما يخاطبه إذ هو حامل رسالة الهدى والنذير المكلف بإبلاغهـــا، مهما يكن إصرارهم في الضلال مقتضياً أخذهم- هو الرب الغفور واسع الحلم والعفوّ للعباد ذو الرحمة السابقة ولو حقّت موجبات غضبه يُملي لعباده في ابتلاء الدنـــيا، ولـــو يؤاخذهم – أولئك الظالمين – بما كسبوا من تكذيب وأذى لعجّل لهم العذاب، وما هو بفاعل ذلك بل وِفق قدره المسنون يجعل لهم موعداً موقوتاً مؤخَّراً بعد

المــدّ لهــم في البلاء والفسح في فرص المتاب، ولن يجدوا من دون العذاب إن تخيّروا المسلك المؤدي إليه موئلاً، منجىً وملجأً منه مستحقاً[1].

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (٥٩)

وتلك القرى من مواطن الأقوام السابقة التي ذكرها قصص القرآن مثل عاد وثمود وقوم لوط وشعيب أهلكها الله بأقدار عقابه لّما ظلموا، إذ تمادوا في عناد معرضين وما أغــنى فــيهم البلاغ والنذير، وجعل الله لهم بأقدار تصريفه وتوقيته للوقائع موعداً بعد انقضاء مدّ الرحمة والبلاء لا يخلفه ميقات وقع العقاب. تلك هي السّير والمهالك للقرى الخالية شهادة بينة للواقعات بعظيم طاقة قدر الله ولازم سنته، لو كان أولئك الظالمون المخاطبون بحاضر كلمات الهدى والنذير يتعظون[2].

عموم المعاني (الآيات ٢٧ – ٥٩):

إن رسالة الرسول الخاتم ﷺ وكل من قام على سنته مبلغاً رسالة الإسلام إنما عليه أن يــتلو كتاب الوحي لنفسه ولمن يخاطب ممن يليه من الناس يقرأه متدبراً معناه متبعاً هــداه، فهو بيانات للهدى شرعةً للحياة ومنهاجاً وروايات للغيب مما سبق من أخبار سيرة الذين خاطبتهم رسالات السماء كأهل الكهف وقومهم عبراً وعظات للخالفين، ومما يُستقبل من أنباء مصائر بني الإنسان وفق كسبهم في الدنيا وتلاوتهم لرسالة الغيب بــشارة لهم إن آمنوا وأصلحوا في حياتهم ونذارة لهم إن أعرضوا عن الرسالة وكفروا غمــراً لفطــرة الإيمان وأساءوا مسلكاً في الحياة. ولا ملتحد من دون الله المحيط علماً بالوجود مشهوده وغيبه ولا بديل لكتاب الوحي الهادي لأولى الحياة المشهودة صراطاً مستقيماً إلى آخرها في غيب الأزل. إن غالب المستجيبين الأوائل لرسالة الغيب هم ممن لم تحــط بهــم تعلقات متاع الحياة الدنيا وزينتها، فهم محرومون فيها معسرون لكنهم يتطهــرون مــن غاشيات حبها المفرط ويتقون فتنها الملحّة ويبتغون في مسالك الحياة

(١) لــو يؤاخذ الله لناس لعجّل لهم العذاب ولكن يمدّ لهم الأجل: راجع الآية ٦١ سورة النحل، وانظر الآية ٤٥ سورة فاطر.

(٢) في عظــة هــلاك القرى الظالمة قبلاً: راجع الآية ١٠٢ سورة هود، وانظر الآية ١١ سورة الأنبياء، والآيات ٤٥– ٤٨ سورة الحج.

ومقاصدها وجه الله ورضوانه ونعيمه ولو لم يسعدوا به إلا في الآخرة. لكن زينة الحياة الدنيا تفتن كثيراً من الناس فهم مفتونون بها غافلون عن ذكر هدى الله ونذر أقدار العواقب وبشراها الآجلة متبعون دواعي الهوى للمتاع الحاضر ولو ذهبت بأمرهم فرطاً. هؤلاء أفراداً وطبقات في المجتمعات ينكرون على أولئك مذهبهم ويتأذون منهم ويضاغطونهم ليصدوهم عن الاستجابة لدعوة التجرد من شهوات الدنيا المشهودة ابتغاء مقاصد الغيب. والداعون إلى سبيل الله في كل أمة مبتلون مندوبون إلى أن يصبروا أنفسهم في معية الذين يوالون ذكر ربهم طوال اليوم ويقبلون على وجهه بكل الحياة، وينبغي ألا تعدو أعينهم عنهم يريدون زينة الحياة وألا يجاذبهم مذهب المفتونين ولا ينجرّوا معهم مطاوعين مهما يكن وقع مثاقيل دفعهم في المجتمع، بل يقومون برسالة الحق من الله العليّ الهادي صادعين بدعوتهم قُدىً بسيرتهم لعباد الله كافة الذين بسط لهم ربهم عفو الخيار: من شاء فليؤمن فله ما يؤثر بعفو إرادته من وجهةٍ في الحياة ومَن شاء فليكفر فهو حر في مجال مذهبه عبر مدى حياته يمدّ له ربه في خيرته وسيرته. لكن الله بأقداره في الخلق والتخيير العفو والبلاء في العاجلة إنما يُعد لعباده الجزاء العدل في الآخرة، يهيئ فيها للظالمين العادلين عن قبلة الهدى ومعالم طريقه ناراً هي بشقاء حرّها كفاء يقابل ما اختاروا ورضوا من فتنة الدنيا واطمأنوا به من متاعها، يحيط بهم سرادقها كما أحاطت بهم في الدنيا الشهوات فأطلقوا لحبها الهوى ضلالاً وإذ عرضت عليهم الهداية لابتغاء الآخرة فقصرتهم حُجب عالم الشهادة فأعرضوا عن تقوى الدنيا وورطوا في الخطايا. وهم إن استغاثوا من حر النار بما يطفئها فإنما يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس ذلك مشرباً وساءت النار مرتفقاً. أما الذين تخيروا أن يرسخ فيهم الإيمان وسلكوا مذهب الحياة عمراناً بالصالحات فمهما يفوتهم في الدنيا أجر ذلك فإن الله لا يضيّعه وإنما يؤخر الجزاء ليُعدّ لهم جنات إقامة دائمة موارد مائها وحياتها جارية، وإذ ازدهدوا زينة الدنيا حلياً ولباساً وفراشاً فإن لهم ما هو كفاء بل خير من ذلك، أبهى حلياً وأزهى زياً وأروح متّكأً، ونعم تلك العاقبة وذلك المأوى مرتفقاً.

لئن جاء في كتاب الوحي نبأ العواقب العامة المتقابلة المتمايزة في أجل أخير من الغيب خالد في الأزل، وكان أمراً يتعسّر تبيّنه واطمئنان وقعه وأثره في نفوس المخاطبين

القاصـــرين رؤيةً على مشهود الوجود المفتونين تعلقاً بالدنيا، فليضرب لهم الدعاة إلى عموم ذلك البيان لعواقب الغيب المحيطة إنذاراً وتبشيراً- ليضربوا لهم مثالاً مشهوداً من عالم الدنيا قاصراً على خصوص تمايز الحال والكسب بين رجلين وحسب متقابلين في تباين حظوظ الدنيا وتطور أحوال أمرها في مدى قريب أجله من زمان الدنيا المحدود. جعـــل الله لأحـــد الرجلين جنتين، لكن الرجل لم يتذكر ذلك آية نعمة من ربه ﷻ. وكانـــت مـــن أعناب يحفها نخل وبينهما زرع ناضر لا تغشاه الظلال. وكلتا الجنتين كانـــت عماراً حيّاً تؤتي أكلها ولا تظلم منه شيئاً من موات، بل فجّر الله خلالهما نهراً يمدهما بالري الجاري، وكان له من ثم محصول ثمر وفير. فافتُتن الرجل لاسيما أنه قارن ميـــسور كسبه بحال جاره المتعسرة، فأخذ يحاوره مكاثراً أنه هو أكثر منه مالاً مفاخراً أنه أعز نفراً ممن أعجبهم زرعه العامر وجذبهم فضله المنبسط. ودخل جنته فأحاطت به الفتـــنة وأوغل في الضلال ظالماً نفسه بكثيف الرؤى المرهونة لمشاهد الجنة، قائلاً إنه لا يظـــن أن تبـــيد جنـــته أبداً إذ امتدت له مشاهدها من فرط حبها باقية أبداً ومن بالغ متاعها خالدةً متاعها، وأكبّ على حاضر الحال المحظوظ دون سائر التصاريف التي قد يـــتقلّب بها الوجود المنظور، قائلاً إنه لا يظن الساعة التي يذكّره بها دعاة رسالة الغيب نذارة بعقابها وبشارة بثوابها- ما يظنها قائمة حقاً لأجلها الموعود، ولئن انقضت الدنيا وقامت قيامة تلك الساعة فإن الله الذي مازه قدرُه بفضل في حاضرته ليمدنّ له البسط في آخـــرته وليجدن خيراً من حظه في الدنيا منقلباً. هكذا أغراه الشيطان ومنّاه الهوى، فانبرى له صاحبه ذو المعسرة بالتذكرة، كما ينبغي لمثله من دعاة الخير الآجل المبشَّرين بغنائم الجزاء الخالدة فوزاً في الغيب لمن سعى إليه صلاحاً في الدنيا وإن شكوا من بؤس الحاجـــة ودانوا في درج النعيم والمتاع في الدنيا، مَن لم يقوموا في غيرة حاسدين للطبقة الأغـــنى المترفة في الدنيا أو مغالين لهم بعزمات الصراع بين الطبقات. قال له: ماله ما شكر الله على ما بسط من رحمته بل كفر به رازقاً ونسي أنه تعالى قد أنعم عليه بأجلّ من الجنة إذ خلقه من تراب حقير ثم أتمه وسوّاه رجلاً، وأنه هو مهما ابتُلي صابر راج لـــرحمته تعالى مؤمن أنه ربه ولا يشرك به أحداً من هوى نفسه الذي يرهنه للشهوات ولا من كبير الأغنياء الذي يرجى عطاؤه. وساءله: لولا إذ دخل في تلك الجنة العامرة

الـــتي حازها متمتعاً بها فقال إنها كذلك ما شاء الله من فيض نعمائه ولا قوة عطاء إلا بـــالله، وإن يره هو المعسر أقلَّ منه مالاً وولداً فعسى ربه الذي يقلّب أقدار الحظوظ أن يؤتـــيه خيراً من جنته هو تلك وأن يرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً من الطـــين زلقاً لا متثبت عليه من أصول نبت أو ينفذ ماؤها المتفجّر نهراً فيصبح غوراً لا يـــبلغه طلـــباً. والذي جرى حقاً أن قد وقع القدر المحذور وأحيط بثمره بإعصار من الـــرياح الـــتي يرسلها الله عواصف لا مبشرات. فأصبح ذلك الغني المفتون بجنته أمس يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها إذ كلفته التكاليف ليعمرها ويستثمرها وهي اليوم منقلعة أشجارها على عروشها ويقول ياليته لم يشرك بربه أحداً ولم تكن له حين وقع المصيبة مـــن فـــئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً. فالله وحده مصرّف الأقدار يبسط الرزق ويقدره ولا يتوافر حظ من النعيم ولا يدوم بغير رضاه تعالى. هنالك تجلّت البيّنة أن الولاية لله الحق وعليه التوكّل، هو الذي يلي عباده يصرّف بينهم الحظوظ ويقضي العـــواقب، يـــذر لهم فعالهم عفواً بلا كره ثم يعقبهم جزاءه خيراً مما يُعهد من ثمرات الكسب وعاقبة الجهد.

وإذا قـــصّر ضرب المثال لتدقيق البيان في مقولة الدعوة الإسلامية لله على مقارنة حال رجلين وحسب ومحاورتهما وجنتين فقط لأحدهما ومدى محدود من توالي موسمي عمـــرانِ زرع وثمـــر فيهما ثم خسران تقلّعٍ محيط، فإن المثال الواسع الأعم بياناً هو في النظر إلى حال الحياة الدنيا كلها وأجلها مشبّهاً بحال ماء أنـــزلته أقدار الله من السماء فاخـــتلط بأصول النبات بذوراً وجذوراً فأخرجه مخضرّاً ثم حال الموسم التالي في سيرة الـــزرع المثمر أن يصفرّ ويصبح هشيماً تذروه الرياح. ذلك ليتأمل الناظر كيف تتجلّى في تلـــك الأطوار قدرة الله على تصريف كل شيء يحييه ثم يميته ثم قد يبعثه حيّاً دورةً أخرى. والحياة الدنيا تعمر بزينة متاع المال والبنين لكنها زينة يتعاقب بها الحال لا تبقى إذ قـــد تُفقد الأموال تداولاً أو خسراناً ويبلغ البنون أشدهم أو يموتون وقد يموت من هـــو ولـــيها ولا تنفعه تلك الأموال في الآخرة عدلاً أو فدىً ولا الأنساب شفاعةً أو نـــصراً. أما الأعمال الصالحة فهي أبقى بآثارها إذ لا يضيع حساب أجرها بل هي – كما يرى الناظر في المثال – خيرٌ ثواباً وخيرٌ أملاً في الحياة الأخرى الخالدة.

ذلـــك اليوم الخالد إذ تقوم الساعة تتبدّل طبيعة الأشياء وتتجلى عاقبة الإنسان. فالجبال على قوة صلابتها تسيّر مهيلاً وسراباً والسماء بنجومها تتشقّق وتتكور وتغدو دخاناً والأرض ترتجّ وتمتد بارزة في الآفاق تشرق بنور ربّها وتُخرج ناشئة كل البشر دابّـــة مائجة، تحشرهم أقدار الله ويُعرضون عليه صفاً للمحاسبة والمحاكمة وتوضع بيّنة كـــتب الأعمـــال، لكل امرئٍ رصيد كسبه في الدنيا. ولئن انسرّ ورضي الصالحون بما يقرأون من كتابهم يوم ذلك الفزَع فإن الظالمين المجرمين يُرون مشفقين من بيّنة كتابهم: مـــا له لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً من فعالهم إلا أحصاها وذكرها ثابتة بأثقالها حاضرة بعـــد أن مضت في الدنيا حيث كانوا يزعمون أن ليس لهم موعد حساب في الغيب. وما يظلم الله أحداً فعلى الداعي في سبيله أن يُذكّر المخاطبين أنه ﷻ يذرهم في الدنيا أحراراً وهو عليهم رقيب يعلم ما يُخفون وما يعلنون من أعمال ويرصد بيانها ويؤتيهم يـــوم القـــيامة كـــتابها ويقيم عليهم البيّنات والأشهاد. ذلك هو العدل الحق لأحكم الحـــاكمين، بيـــنما العدالـــة في الدنيا بين الناس قاصرة إذ تغمر أعمال المتهومين كل الصغائر وتخفي أسرارهم لا تقوم عليها كالظاهرات البيّنة. ويومئذ في الأزل تقوم على الإنـــسان الملائكة شهوداً لثبوت حيثيات حكم الله وجنوداً لإنفاذ قضائه، وقد كانوا قـــبلاً منذ أن أمروا فسجدوا لآدم لأوّل خلقه أيداً له ولبنيه من الإنسان وحياً وبشرى وتثبيـــتاً علـــى سبيل الصالحات، بينما كان إبليس من الجن ففسق عن أمر ربه بذلك الـــسجود ونـــصّب نفسه عدواً للإنسان يُغريه ويضلّه بدعوة الفسوق والعصيان لله. فكـــيف يتخذ الجاهليون المشركون منه ومن ذريته أولياء من دون الله كأنهم يظنونهم مـــدركين ومـــتولين تـــصاريف الحياة ويسمعون وساويسهم، وما أشركهم الله ولا أشـــهدهم خلق السماوات والأرض من كنف حياة الإنسان وما كان متّخذهم عضداً فهـــو ربّ العالمين الغني الولي لهم أجمعين. ويوم القيامة يقوم الله ملك يوم الدين يدعو أولـــئك المـــشركين أن ينادوا أولئك الأولياء الذين أشركوهم به لعلّهم يسعفونهم في معـــرض الحساب والعذاب، لكن الحق يمضي: أن دعوهم فلم يستجيبوا لهم وأقام الله بيـــنهم محبساً مهلكاً، وما رأى المجرمون النار إلا أدركوا أنهم مواقعوها لا مصرف لهم عنها بوليّ ممن كانوا يظنون شفيعاً.

إن الله لم يتـــرك الإنسان المحجوب عن علم الغيب جاهلاً غافلاً عن المذهب الحق إلـــيه مصيراً، بل أنـــزل عليه الهدى وحياً من الغيب، وكان آخر الوحي القرآن الذي علّم عباد الله المخاطبين به حقائق الغيب، وصرّف لهم فيه الأمثال من مشهوداتهم ليبيّن لهم تصاريف الغيب ولتتجلّى لهم الآيات على أقدار الله الذي يُعطي ويمنع ويحيي ويميت ويهـــدي ويـــضلّ من يشاء من عباده وعلى الحق أن له الهداية والولاية في الدنيا وإليه المـــرجع في العاقبة. وما منع بعض المخاطبين من الإيمان بذلك الحق الهادي الذي أتاهم ومـــن الـــتوبة عما سبق من جهالة بالغيب وضلالة في الحياة وغفلة عن خشية النذارة ورغـــبة البـــشارة في الآخرة- ما منعهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين من الظلم فالهلاك العاجـــل أو العـــذاب الحاضر في الدنيا قبل قضاء الغيب في الآخرة. وما على الرسل والـــدعاة إلا تبلـــيغ هدى الله والتذكير بالعواقب المنظورة جزاء في الآخرة مهما يظل الظالمون يجادلون بالباطل ويداحضون الحق ويتخذون آيات الهدى والنذير هزؤاً. ومن أظلـــم ممـــن يُعرض بعد كل ذلك التذكير ويغفل عن عاقبة صوب مذهب أعماله التي يقـــدمها في الحـــياة، وإنما مدّ الله له في ذلك لأن الابتلاء في الدنيا أن ييسر له مذهب خياره أنّى ولّى وجهه ليُكتب عليه كسبه بثبتٍ من حجة البيّنة يوم القيامة، إنه لمن المدّ في تلـــك الخيرة أنها تمضي حتى تتكثف غواشيً الضلال على القلوب وتتكلس أكنة لا يفقـــه بعـــدها الضالّ هدى الله وحتى تثقل الآذان من توالي الصدّ عن استماع الهدى فيترســـب علـــيها وقر من الصمم، ومهما يجتهد الدعاة إلى هدى الله في خطابهم يُدبر المعرضون المغشيون الصم عنه فلا يهتدون أبداً. كذلك كان قدر الله الغفور ذو الرحمة لعباده في الدنيا لا يعاجل عباده بالعذاب فور ما يَحقُّ منهم كسب المعاصي، بل يُملي لهم في الدنيا وتفسح الفرصة لعلهم يستغفرون ويهتدون، أما بعد فإن لهم موعداً آجلاً هـــو آت في الآخرة لن يجدوا من دونه موئلاً. وقد تحقّ عليهم سنة الأولين أهل القرى من وقائعٍ الهلاك الحاقة عليهم الذين ذُكّروا كثيراً وأنذروا فظلموا وأنكروا الغيب رأوه بعـــيداً فجعل الله لمهلكهم موعداً قريباً في الدنيا. وقد قصّ القرآن من مواعظ الأولين تلـــك قصـــصاً، ولو تحرّى الناس تاريخ أولئك وسائر الأقوام من بني آدم لوجدوا في ســـيرهم الـــشواهد البيّنة على مصائر الظالمين الذين أصروا عاكفين على الضلال أو

جـــنحوا إليه مرتدّين بعد الهدى ومضوا في ذلك تمادياً وإسرافاً على أنفسهم حتى حقّ عليهم العقاب: أن يهلكوا أو تنهار حضارتهم ويصبحوا أحاديث ثم هم ينتظرون أشدّ العذاب يوم القيامة.

ترتيل المعاني (الآيات ٦٠ – ٨٢):

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (٦٠)

رســـالة القـــرآن هـــدى يصل حاضر الحياة في زمان الدنيا بآجلها في أزل الآخرة، وبـــشارة ونذارة بمآلات أمور الإنسان ليتجلّى تمام الحق فيها. فما على الأرض حيث يحيا الإنسان زينة يتعلّقها ويُفتن بحاضرها إلا إذا تلقّى من الله علم الغيب وأدرك التي هي أهدى مـــن الحـــياة في سياق كل الوجود – حاضر زمان وقادم أجل– فأحسن عملاً في حياته. فأهـــل الكهف كانوا مثالاً معتبراً للمؤمنين إذ بدا ظاهر أمرهم وحاضره في عزلة وهجرة وغمـــرة، لكن بعد مئات السنين تجلّى الحقّ فيه وتجددت باقية الإيمان في خَلَفهم. وكذلك مـــثال الجنتين اللتين فتنتا مالكهما وألهتاه عن الغيب والآخرة و لم تُجدِ معه النصيحة المنذرة حـــتى طـــرأت عليهما وقائع الدهر وأحاطت بثمره فندم صاحبها أن ارتهن هواه للحاضر إشـــراكاً بـــالله إذ لم يـــوحده رباً في عاجل حياته الدنيا وفي آجلها حتى تقوم الساعة يوم القـــيامة. والدنيا كلها كمنبت في الأرض يحيا ويزين ثم يصبح بعدُ هشيماً تذروه الرياح، فالمـــال والبنون فيها زينة متاع عارضة فاتنة فائتة. بينما الأعمال الصالحة القاصدة لوجه الله هـــي الباقية خيراً يوم القيامة والحساب. والإنسان في الدنيا محاط بعدوه الشيطان يغرّه بزينة عاجلها ومتاعه ويصرفه عن انتظار يوم القيامة حين لا ينفع ذلك المتاع. وتلك الحياة ابتلاء فتـــنة للإنـــسان عَبر سيرة تاريخه إذ يأتيه الهدى والنذير من الغيب متوالياً بتعاقب المرسلين، فيُعرض المفتونون بالدنيا ويمد لهم الله ثم يأخذهم، كما أخذ القرى الماضية. وكذلك لّما بلغ موســـى بن عمران أشُدّه أراد الله أن يؤتيه علماً يمدّ نظره في الحياة من الظاهر العاجل إلى مـــدى الغيب الآجل، ذلك ليزكّيه فيرى أن الحكم الأوفق على مسالك سيرته في الحياة إنما هـــو تقـــويمها في سياقها الحق عبر الوجود تجاوزاً لما تنـــزع إليه النفس البشرية من رؤية قاصـــرة على ظاهر أمور الدنيا وحاضرها ومن إنكار لأحكام الحق فيها مما لم يُدرك بالعلم

الأبلــغ والحكمــة الأوسع حيثها الحق بوصل عاجل حينها بآجل تأويلها. ذلك حتى يتم تأهــيل موســى ليتلقى من الله كلم الشريعة الموحاة هدى للحياة على أصول من الإيمان بالغــيب والتوحــيد لأقدار الله المشهودة والموعودة، وحتى يتعلّم هدى الغيب والصبر عل بــلاءات الدنيا في سبيل قصد الآخرة فيحسن عمله ويطيب مآل حاله الأقرب في مستقبل الدنــيا ثم في عاقبة الآخرة ويكون بذلك الصبر والعلم والحكمة مثالاً وإماماً لقومه ولسائر المؤمــنين، وحــتى لا تأخــذ بني إسرائيل الفتنة بعاجل الدنيا غفلة عن الاستبصار الحق في أمــرهم ودينهم، ألا يفتنهم التمكن في الأرض بعداً فيجنحوا إلى الفساد والعلو فيها بالنظر القاصر على هوى عاجل الدنيا.

هكــذا تــنعطف تذكرة أم موسى إلى سابق التذكير في السورة ويتسق ويتوحّد هدى آيها. فليتذكرْ الرسول الخاتم ﷺ الذي يتلقى كتاب القرآن ما قصّ عليه من أنباء مــستقبل الغيب لأهل الكهف وما ضرب من الأمثال في مآلات الحياة الدنيا ومتاعها وزينــتها وما جاءه من خبر مصير القرى الظالمة إلى موعد هلاك- ليتذكّر هنا إذ جرى خطاب بين موسى وفتىً له في شأن رحلة على النيل. وذلك عهد في سيرة موسى قبل أن يخــرج من مصر ناجياً بنفسه شرقاً وعودته ليُؤتَى في الطريق النبوّة وقبل أن ينقلب من بعد في الهجرة مع بني إسرائيل حين أنــزلت عليه تكاليف الشريعة. فالرحلة على النــيل كانــت ليتلقــى فيها تهيئة للنبوة والرسالة بتجربة من استبصار مآلات الأمور وغيبها. وكان موسى في كنف فرعون يتخذ صبياً خادماً له قد يكون هو يوشع كما ورد في روايــات. قال له موسى إنه لا يبرح فلا ينفك سائراً حتى يبلغ مجمع البحرين. ولعــلّ مبــتدأ المسير كان على النيل صاعداً جنوباً نحو مجمع فرعي النيل في البلاد التي تحمل اليوم اسم السودان. ولعلّ موسى كانت له في تلك الجهة نسبة لأمه إذ كان أسمر اللــون فكــان من آياته بعداً أن خرجت يده أمام فرعون بيضاء بشرتها من غير سوء. وكان عزمه -فيما يقول- أن يسير إلى ذلك المنتهى أو يمضي حقباً وعهوداً من الزمان لأنه ما كان يعرف مدى ذلك المسير إلى أعالي النيل.

﴿فَلَمَّــا بَلَغَــا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى

الـــصَّخْرَة فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (٦١ – ٦٢ – ٦٣)

فلمـــا بلغا – موسى وفتاه – مجمع البحرين نسيا حوتهما الذي اصطاداه من النيل قـــبلاً وكان يحمله الفتى زاداً لقوت سفرهما المتطاول، عندئذ أفلت الحوت إلى الماء إذ نسيا حسن حفظه، ولعلّ موسى كان يتقدّم فتاه الذي نسي أن يبلّغه أن قد بلغ الحوت البحر فاتخذ سبيله فيه بشق الماء سرباً.

فلمـــا جـــاوزا ملتقى البحرين من النيل أدرك موسى أن قد مضيا وراء غايتهما المنـــشودة، وإذ مسهما العناء والجوع قال موسى لفتاه أن يؤتيهما غداءهما من الحوت وأن قد لقيا من سفرهما من طوله نصباً.

قال الفتى لموسى يصف له كيف انفلت منه الحوت: إنه لو رأى المكان حيث أويا عكـــوفاً للـــراحة إلى الصخرة عند الملتقى فإنه نسي عندئذ أن يذكر له ما جرى، وما أنساه ذلك إلا الشيطان، وإن الحوت إذ انساب اتخذ سبيله في البحر عجباً. ولعلّ ذلك العجب في مسراه بادياً في الماء هو الذي ألهاه عن تنبيه موسى.

﴿قَـــالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٤ – ٦٥)

قـــال موسى إن ذلك الذي جرى للحوت هو ما كانا يبغيان من آية لبلوغ غاية الـــسفر مـــوقعاً يتحرّاه ويلتمس فيه علماً. فارتدا على آثارهما منقلبين يقصان سَيرهما قصـــصاً راجعـــاً إلى ملتقى البحرين. فوجدا ثمة عبداً من عباد الله بني الإنسان الذين اتخـــذهم بأقداره موالي يعبدونه. والروايات متكاثرة أن اسم ذلك العبد هو الخضر بليا بـــن ملكان، والله أعلم إن كان ذلك حقاً أو رجماً بالخرص في غيب الماضي ونقلاً تالياً في روايات المسلمين المنسوبة وضعاً إلى أصلٍ قديم. وما ذكر القرآن من رواية تفاصيل الأمـــر إلا مـــا يُغني ويكفي وقع المعنى في تعليم موسى استبصار الغيب ليتأهل للنبوة. فذلك عبد ما لله، آتاه بأقدار عطائه وفضله رحمة من عنده في ظاهر حياته وخُلقه بركة خاصـــة من عند الله فضلاً عن معروف رحمته من مطبوعات حياة العباد، وعلّمه ﷻ علمـــاً مـــن لدنه، أخص من الله مصدراً لأنه علم غيبيات من خزائن العلم الباطن لا

يعلمها إلا هو تعالى أو من أطلعه عليه من عباده، لا العلم العادي المتلقّى بأسباب الخبرة والتدبّـــر والتداول بين عالم البشر، بل مما يُلقى في القلوب من رؤى وبصائر في حيث الأمـــور ومآلاتها التي لا يحيط بها مبلغ الأسباب الظاهرة، وعدة من إدراك للغيب تصل بـــه المشهود وتوحّد الوجود وتهدي الحياة على أصل من الحق المطلق، وعلم يفيض من صاحبه على من يتهيّأ لنبوة ورسالة جليلة.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٦)

قـــال موسى لذلك العبد الصالح مقولة متأدب ينشد لديه العلم ويطلب صحبته لـــذلك – قـــال له سائلاً: هل يقبل أن يتّبعه هو ويذهب تالياً له متلقياً منه مقتدياً به صحبة ملازمة، على أن يعلّمه ذلك الصالح ويُلقي عليه من بعض علم الغيب من تلقاء ربه رشداً يهديه في الحياة إلى ما هو أحق وأحكم.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧)

قال ذلك العبد العالم لموسى– منبهاً إلى محاذر تلقي ذلك العلم المخصوص، يخاطبه أنـــه لـــن يستطيع معه في صحبة التعلّم صبراً يقتضيه، فإن العلم لن يُلقى عليه أذكاراً يحفظهـــا بـــل واقعـــات لفعال الحياة قد تبدو مشاهدها – بعلم موسى القاصر على حاضرها– منكرةً يتعسّر عليه أن يحتملها ويجيزها مصابراً على وقعها دون إحاطة بتمام تأويلها حقاً يغيب عما يُدرك من علم ظاهرها.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨)

ويبيّن العبد الصالح عالمُ التأويل للواقعات لموسى عسر صبره على ما سيجري من الحـــوادث أسباب التعلّم، فما هو بصابر وكيف يصبر على أمور مما لم يُحط به خبراً يشمل علم موقعه الحاضر ونبأ متأوّله العاقب.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٦٩)

قـــال موســـى متجاوباً مع العبد العالم واعداً له أن سيجده إن شاء الله – عزيمة مهديـــة عَلّقهـــا رشداً بمشيئة الله وقدره في وقوع الوفاء الموعود في الغيب المستقبل، ســـيجده العبد العالم عندئذ صابراً مهما تتعسّر عليه المصابرة ولا يعصي له أمراً بل هو متلقٍ للعلم عنه طوعاً ورضىً بما يجري في سياق الصحبة.

﴿قَالَ فَإِن اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٧٠)

قال العبد العالم نصحاً مرتباً على وعد موسى بالصبر والطاعة في صحبته: إنه إذا اتّبعه فينبغي ألا يسأله عن شيء يبدو ظاهره منكراً إلا أن يبادره هو ببيان، وذلك صبراً حتى يُحدث له هو من ذلك الأمر ذكراً، يُلقي عليه قولاً يقع تالياً للأمر بياناً له ليطمئن على وجه الحق فيه.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧١)

فانطلقا بعد ذلك التعاهد سائرين حتى إذا ركبا سفينةً على ذلك البحر خرقها العبد العالم فعلاً بدا نذيرة عاقبة ذات خطر ووقع فجاءة بغير داعٍ من حق ظاهر. قال موسى لذلك العبد يسائله عن فعلته: أخرق السفينة عامداً ليغرق أهلها لإيقاع ما هو خطر ماثل، ولامه ذاكراً له أن لقد جاء شيئاً إمراً غير رشيد.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (٧٢ – ٧٣)

قال العبد العالم لموسى مذكراً له بما تصاحبا وتعاهدا عليه، يسأله: ألم يقل له قبلاً إنه لن يستطيع معه صبراً في صحبة تعلّمٍ وطاعة تُعرّض لابتلاء عسير. قال موسى متعذراً مترجّياً من العبد العالم ألا يؤاخذه ملاماً بما نسي من الوفاء بعهد الصبر في المصاحبة والتلقّي طاعة ورضى وألا يرهقه فوق طاقته من أمره ضيقاً بظاهر تلك الواقعة وتعبيراً عفواً عن نكارتها وألا يكلفه عسراً في الضبط والمحاسبة.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤)

فانطلقا بعد تلك المخالفة والمذاكرة بينهما حتى إذا لقيا في بعض دور الطريق غلاماً فقتله العبد العالم، فعلاً وقع منه عفواً يبدوا اعتباطاً وعَدواً على حرمة النفس، فقال موسى وقد عيل صبره من وقع ما رأى، يسائله: أقَتَل نفساً زاكية طاهرة ما بها بعدُ غاشية من كدر تبعات التكليف، بغير نفس مما قد يقتضي قصاصاً ولو عن غضب بل اعتباطاً بغير حق، وأبلغه حكماً عليه ثبتاً أن قد جاء شيئاً بالغ الوقع في نكارته.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٥ – ٧٦)

قال العبد العالم مذكراً موسى، ملقياً إليه مراجعة التذكير سائلاً له: ألم يقل له إنه لن يستطيع معه صبراً في صحبة ابتلاء بعلم عسير إدراكه. عندئذ قال موسى- مقرّاً بأنه لم يسعه الصبر وفاء بالعهد وأدب الصحبة- قال له مسلماً له الأمر: إن سأله هو موسى عن شيء مستنكراً حيثه بعد تلك المرة الثانية فله ألا يستمر يصاحبه، لقد بلغ حقاً من لدن ما بدا من الخلق في نفس موسى عذراً ألا يتقبّله طالبَ علم رفيقاً.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧)

فانطلقا – موسى ومن استصحبه لاستئناف المسير- حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها رجاء القوت لهما ابني سبيل، فأبوا أن يضيّفوهما إلا أن يبتاعا حاجتهما من رزق. فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ منهدماً، فأقامه العبد العالم الصالح وعمده ألا يسقط. فاستغرب موسى ذلك الفعل جهداً مبذولاً طوعاً لقومٍ لا يجودون عفواً حتى بحاجة قوت لضيف. قال موسى وقد غلبت لديه تلك الحرقة من فعلهم على تذكّرِ عبرة سابق فوت صبره اللازم لصحبة العبد العالم- قال يخاطبه كأنه ملوِّم: أن لو شاء لاتّخذ على ذلك العمل أجراً من أولئك البخلاء كفاءً عليهم إذ لا يعطون هم شيئاً عفواً.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٨)

قال العبد العالم لموسى وقد احتاز به من نهج التعليم بالتجريب لا بالنظر وبالتهيئة للنفاذ إلى غيب مآلات الأمور حيث يبين حقها المجهول ممن يقصُر على حاضرها الظاهر- قال له مخاطباً إن هذا المفصل فراق بينهما بعد مدى صحبتهما العلمية النافعة وإن بدت فيها مناكرة، وليُتم له ذلك النفع الذي كان منشود موسى لأول مرة سفراً في سبيل ابتغاء تلقّي العلم اللازم لاستواء تأهّله للنبوة- قال له العبد العالم إنه سينبئه بتأويل خبر ما لم يسطع عليه صبراً (نفياً وتصريفاً للطوع دون التاء تعبيراً عن بالغ قصور الاحتمال)، لعل ذلك يُتم له كفاية تأهيلٍ للنبوة ومرانةٍ لتلقي علم من الغيب

وإيمان بأنبائه التي يتجلى بها إدراك الحق في مآلات الأمور وصبرٍ على إنظارها حتى يأتي تأويلها ولو لم يبدُ لأول ظاهرها وحاضرها المشهود وجهُ الحق المطلق.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٩ – ٨٠ – ٨١ – ٨٢)

ثم أخذ العبد العالم يبسط ما غاب على موسى من مآلات الفعال التي لم يصبر عليها ظاهرِ تصرّفٍ كان يستنكره أو يؤثر ما يرى خيراً منه حتى يُذكّر بمقتضى عهد صحبة التعليم والمصابرة على ابتلاءاتها حيث لم يُحط بحيث الحق في مآل أمورها، ورتب العبد العالم وبسط وجوه العواقب لتلك الفعال التي غابت عن موسى حين وقوع الفعل. أما السفينة التي جرى خرقها من العبد العالم فأعقبته مقولة استنكار من موسى، فشرح له ذلك العبد العالم أنها كانت لمساكين حبسهم طلب كفاية المعاش ليعملوا في البحر ويكتسبوا كفاية حاجتهم من عائد أجرها، وقال له إنه أراد أن يعيبها بالخرق إذ كان وراء أولئك الملاّحين أهلها ملكٌ جائر يأخذ كل سفينة مستولياً عليها من أهلها غصباً وكرهاً، فإذا عابت السفينة مخروقة و لم يوافها الملك سالمة ازدهدها وتركها وكان خيراً لأصحابها ألا تُستلب منهم وإن لزمتهم صيانتها من الخرق العارض.

وأما الغلام الذي قتله العبد العالم نفساً زاكية بغير نفس، فكان أبواه مؤمنين فخشي العبد بما آتاه الله من فتوح علوم الغيب أن ينشأ غلاماً غير صالح يُرهق أبويه ويغشيهما عسراً وطغياناً عليهما وكفراً قد يدركهما من وطأة ما يحمل عليهما. فأراد العبد العالم- فيما يقول- أن يبدلهما ربهما ولداً خيراً منه حين يرشد زكاةً وفيض صلاح وأقرب رحماً، لطف برٍّ بهما.

وأما أمر الجدار – كما شرح العبد العالم لموسى- فكان لغلامين يتيمين في المدينة الحضر ذات البناء وكان تحته كنز مدّخر لهما وكان أبوهما الذي توفي عنهما ذا

صــلاح اكتسب مالاً حلالاً مباركاً واختزن منه تركة لكفاية ولديه، وخاطب العالِم صــاحبه موســى أن ربــه أراد أن يُكرم عبده أباهما الصالح ويستوفى له مآل خطته الراشدة، أن يستوي ولداه بعد اليتم ويبلغا أشدهما ويستخرجا كنــزهما ليقضيا حاجة معاشهما ويستثمرا وفره. والعبد العالم يرجع فعلته بالجدار إلى إحقاق إرادة الله الآجلة ونفاذ مقتضاها بأن قيّضه ﷻ ليقيم هو الجدار حتى لا ينقضّ فيندفن الكنــز بل يظل قائمــاً يُلتمس ويستخرج الكنــز عنده بعد حين. وكان ذلك فضلاً ورحمة من ربّ موسى – خطاباً له وتذكيراً بربه علاّم الغيوب. وما فعله هو – العالم كما يقول– عن أمر اجتهاد رأي من نفسه فعل خير محدود قصده دون ذلك المآل الذي وسعه علمُ الله وتصوّبت إليه إرادته العليا.

ذلــك – كما قال العبد العالم مخاطباً موسى– تأويل الفعلات الثلاث الممتدّ غيباً وراء ظاهرها، مما لم يُحط به موسى القاصر رؤيةً وما لم يسطع عليه صبراً بأدنى طوع من احتمال الصبر عليه (نفي الطوع وصرف فعله بحذف تاء المخاطب لتقوية النصّ).

عموم المعاني (الآيات ٦٠ – ٨٢):

إن حــق الوجود يتكامل مشهوداً وغيباً، والإحاطة به لا تتامّ للإنسان إلا بإدراك محــسوس عــالَم المشهود البيّن في الحياة الدنيا وسماع نبأ عالَم الغيب الصادق والحياة الأخــرى. ورســالات الله مــن الغيب للإنسان تُسمعه فتعلّمه حقائق الغيب التي لا يــدركها بحواســه من ماضي عالم الوجود المشهود وتُذكّره بما يغفل عنه وهو حاضر حــوله وبــين يديه وتهديه إلى منهاج الحياة المستقيم وتُبلّغه نذارات المواعيد والموائل بالأذى أو بالهلاك العاجل أو العذاب الآجل إن ضلّ مسيره في حياته وبشارات الوعود والآمــال بالخير أو بالفتح في الدنيا أو بالثواب في الآخرة إن استقام مسيره. وكل علم أو نــبأ أو هداية أو بلاغ من رسالة الله حق وصدق. قد يتعزز علم المرء به إن تحرّى فتبــيّن حقــه في مــدى ما يدرك بسعي البشر وقد يتصدق إيمانه إذ نجز وعده ووقع منظوره إن كان نذارة أو بشارة في عاجل الدنيا وقد يستقر به اليقين ولو تأخّر تأويله أمــراً مفعولاً حق يقينٍ في الآخرة. ولذلك ينبغي للإنسان إذ تخاطبه رسالة دين الغيب

أن يقـــوّم المـــشهودات والوقائع والعروض والفعال الحاضرة لديه بل كل ما ينطبع في إدراكـــه ووجدانـــه مـــن زينة الحياة الدنيا البادية، يقوّمها بجمعها إلى القادمات من تطورات مصيرها في الدنيا ثم آجلات عاقبتها في الآخرة كما يعلم حقاً من درس نظر أو يـــسمع مـــن بلاغ غيب صادق عن عالَم الزمان والوجود المشهود أو عالَم الأزل والغـــيب المحجوب. وإنما يحدّ علمَ الإنسان مداركُه القاصرة على المشهود من الحيثيات عنده، ولا يتم تقويمه وحكمه على الأمور إلا إذا أتم الله له من علم الغيوب ما يبلُغ به الإحاطـــة المـــتكاملة بالظواهر الواقعة البارزة التي هي أساس بوادي الرأي وبالغيوب المكتنفة لها من بواطن الحقائق وخفاياها وعواقبها دبراً. والتالي للقرآن – رسالة الله من الغـــيب والعلم المحيط بالوجود– يَلقي فيه تذكيراً أبلغ بالواقعات في طبيعة الكون آيات وهدايـــة إلى صالح العمل حياةً في سياقها وبلاغاً عن سوابق حيوات فيها عبرٌ وعظات وعن نذر وبشائر أزلية أُخروية تترتب عن كسبه في الدنيا في إطار ظروف بلائها.

وكمـــا ســـبق بيان من ذلك للذي يتلو آي السّورة المتقدمة تأتيه في هذا المفصل آيـــات تذكُر قصة موسى إذ كان يتهيّأ لعلم الغيب والوحي حتى يتلقى النبوّة ويحمل الرسالة من الله إلى سائر من يليه من الناس، وكان يكابد ساعياً ليتزكّى بالصبر على ما يحضره من العلم حتى يطّلع آجلاً على حقّ تمامه فقد يكره شيئاً لأول وهلة ويُلفى فيه خـــيراً كـــثيراً عند تجلّيه متكاملاً وقعه، إحاطةً أوسع بما يكتنفه من حيثيات وظروف وعـــواقب، فتوكلاً على الله علاّم الغيوب اتّقاءً لما ينهى عنه وطاعة لما يأمر به وصبراً حتى يتم بيان عواقب الخير في هدى الله بإتيان تأويله في الدنيا أو الآخرة.

هكـــذا ينبغـــي تعلّمُ العلم ليتسع أفق الإدراك ويتم مبلغه لمن يبتغي نوراً يهدي حـــياته، وذلـــك لأول مسعى المرء أن يضرب في الأرض حيثما يتحرّى موارد العلم والـــرزق ولو تباعدت الأشواط رحيلاً. فموسى هداه إلهام من الله أن ينشد العلم لدى عـــالِمٍ أعلـــم منه توخّى لقاءه عند مجمع الرافدين لبحر النيل الذي كان وطن موسى الأول، أو أن يمـــضي وراء ذلـــك أبداً حتى تعرض له آيه أنه وصل المبلغ. وكان ذلك كمـــا ســـبق القول مهادَ تعليمٍ وتزكية له ليستعد لوطأة الوحي نبوةً ورسالة ما كان يعلمها لكنها تستدعي انفتاحاً على مدى من علم الغيب وهداه ليتسع إدراكه البشري

المحـــدود ويتجاوز هوى التعلّق بمبتغيات الدنيا المشهودة وليبلُغ علمَ الحقائق المطلقة في غـــيب الوجـــود فـــيؤمن بها ويعرف الهدى والاستقامة في الحياة الدنيا سعياً في سبيل الحسنى من مقاصد الغيب فتصلح أولاه وآخرته في الوجود.

وقد اتخذ موسى فتاه رفيقاً في السفر، سنة حكيمة من اتخاذ صاحب في مثل تلك الغربة ووحشتها وخطرها. وجعل الله آية مبلغ المنتهى هي فيما جرى لحوت اصطاداه زاداً، إذ غفـــل عنه الفتى حتى انفلت وعاد إلى ماء البحر واتخذ سبيله فيه سرباً، ولعل العجـــب مـــن ذلك شغله عن تنبيه موسى حتى جاوزا غاية السير في مجمع البحرين إذ طلـــب مـــنه موسى الحوت غذاءً لهما بعد النصب فعاد الغلام يتعذّر من أن الشيطان أنـــساه تبليغ موسى عندما شقّ الحوت مسربه العجيب في الماء. فبانت الآية التي تحرّاها موســـى فارتـــدّا قصصاً على آثارهما فوجدا واحداً من عباد الله آتاه الله رحمة خاصة وعلمـــاً أخصّ من أبعاد الغيب. فاستأذنه موسى أن يصحبه حتى يُعلّمه مِن علمه ذاك رشداً – سنة من أدب المتعلّمين مع أئمتهم. فتحاورا على نهج صحبة العلم تلك: العالم يـــنذر موسى أنه لن يستطيع معه صبراً على أمور لما يحط بعلم ما غاب عنه من سياق ظـــرفها وأثـــرها، وموسى يعد الصبر إن شاء الله والطاعة التامّة مهما يكن الابتلاء، والعـــالم يـــستجيب شـــارطاً على موسى إن اتّبعه ألا يسأله عن شيء حتى يبادر هو فـــيُحدث لـــه منه ذكراً. هكذا يريد أن يهديه لأدب تلقي علم الغيب، ألا يعجّل فيه ابـــتلاءً حتى يُقضى إليه البلاغ، وأن يُصابر غيب الأمور، ما يخفى منها وما يُؤخر بيانه وإن همّته بوادرها. فموسى كان في خلُقه عجل حتى أنه حين لقي ربه بعداً ليكلمه أراد أن ينظـــر إلـــيه عـــياناً. والعبرة أن على طالب العلم كله لاسيما وحي الغيب واجب المـــصابرة علـــى تنجيم عطائه أشواطاً حتى أجل تمامه، ولو امتدّ أجله وراء الدنيا إلى الآخرة إذ يلزم الإيمان المتثبت مهما يؤخر الله التأويل والجلاء لعواقب الأمور مليّاً ويأتي قضاء الله أحكم الحاكمين. والفعل من الإنسان أو الحدث الواقع قدراً من الله قد يبدو منكـــراً لأول وهلة لدى المراقب من بني الإنسان القاصرة مداركه، ثم تتجلّى في أطوار زمـــان الدنيا مراميه وتتواتر مراحل آثاره وذيول مجراه حتى يتكامل وقعه وتبين حكمته بجملـــة مقتضاه في الوجود. وذلك ابتلاء لصبر المتعلّم وتدريب له أن ينظر ويتأمل كل

أبعاد الأمر المتوالية قادمته وآخرته وكل ظروفه المكتنفة قبيله ودبيره. وذلك بأن يلتمس نظـــراً من رؤية الغيب المستقبل من الدنيا تقديراً وظناً حكيماً، أو يستمع لحق الغيب الأزلي بوحي صادق لا يُفتري، فيمضي عَبر تطور ذلك الدفع صابراً. أما إذا قصَر نظراً علـــى الظاهر والمبتدأ غفلةً عن التدبير أو جهلاً بالغيب غير المشهود ولم يبلُغه علم من الغيب أو أدركه لكنه كفر به فإنه يحكم وفق ما يليه من إدراك قاصر وحسب ويذهب في ضلال.

هكـــذا حـــين انطلق موسى مصاحباً للعبد الذي أُوتي علم الغيب من الله كان يـــستغرب ولا يرضى فعاله إذ ما كان يدري وراء ظاهرها وقادمها ما يكتنفها من حـــيث خفي وما تؤدي إليه من عاقبة في ظروف الدنيا ولّما يرسخ فيه إيمان بعلم الله المحـــيطَ بكل الغيوب في الدنيا والأزل وحكمته في نظم الأقدار ونسج أسبابها مهما يـــبدو تـــوالي الأحداث مصادفة مبهمة أو تبدو الفعال منكرة أو طيبة لمحض تعازل الأمور وتفارز مشاهدها جهلاً بعلم الغيوب. ركب موسى وصاحب سفينة فخرقها صـــاحبه فظن موسى - لا نـــزقاً بل قصور علم عما لا يدرك- أنه أمر ملوم كأنه عامـــد لإغراق أهلها، وألقاها مقولة لصاحبه الذي ذكّره بوصية الصبر الأولى، فرجا مـــنه موسى أن يعذره ولا يؤاخذه لنسيان ذلك العهد وألا يرهقه عسراً في المؤاخذة. ثم قـــتل صاحب موسى غلاماً، فأنكر عليه موسى أن يفاجئه بقتل نفس زاكية بغير نفس، فكرّ عليه الصاحب تذكرةً بالصبر، فأسلم موسى العذر له أن يهاجره إن سأله عـــن شـــيء بعـــدها. وكان آخر أمرهما أن أتيا أهل قرية فأبوا أن يضيّفوهما لكن الـــصاحب العـــالم لمّـــا ألفيا فيها جداراً يكاد ينقضّ أقامه، فعقب على فعله موسى ناصـــحاً أن لو شاء أخذ على ذلك من قوم غير كرماء أجراً لهما فيه كفاية المطعم. فآذنـــه العالم أن هذا فراق ذات البين وذهب ينبهه بتأويل الأمور التي لم يصبر عليها ولـــو قلـــيلاً. ذلك أن خرق السفينة البادي عَدواً في مال الغير وضرّاً إنما هو إعابة عارضـــة للسفينة صارفة لملك كان وراءها يأخذ كل سفينة غصباً. وأما قتل الغلام الـــبادي انتهاكاً لحرمة نفس فقد كان بوحي آمر من الله خشية إذ خشي هو بمدود تمـــدّه من مبالغ علم الله المحيطة بالغيب أن يُرهق أبويه المؤمنَين طغياناً وكفراً في قابل

أمـــره إن فُـــسحت له الحياة، فلذلك أراد هو ومعه أقدار من إرادة الله المقضية أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاةً وأقرب رحماً. وأما الجدار فكان ليتيمين تحته كنـــز لهما ادخـــره لهما أب صالح حتى يبلغا أشدهما ويستخرجاه. كل ذلك الفعل- كما قال العـــبد الموهوب من لدن ربه رحمةً وعلماً -كان فيضاً من رحمة الله تلك، فعله العبد بإيحاء علم وأمر منه ﷻ لا من تلقاء حديث نفسه وأمرها.

ذلـــك ليدرك موسى - وكل تالٍ لذكره ذاك في القرآن - كيف يقصُر نظر الإنسان ويحصر فعله إن لم تكن نواياه وفعال حياته إلا عن أمره، وكيف يرشُد إن تلقـــى علم الغيب هدى ورحمة من الله، وليتبيّن أن الوحي بذلك العلم من الله هو الفـــرقان الحق حكماً في أمور الحياة. فقد تبدوا بوادر وقع الفعل المهدي بمقتضى حكـــم الدين عُرضة للإنكار إذ لا يتبيّن عدله وحكمته حتى يتجلّى الحق في الدنيا بعـــد تكامـــل علم حيثيات ظروفه وذيول آثاره التي كان مغيّباً علمها، أو يبين في الآخـــرة المجهـــولُ من حياة العباد وسيرهم وخفيّ حيثياتها وعاقب آثارها بشهادة بيـــنات صـــادقة وموازين حساب شاملة ويكافئ ذلك الكسب ثمة جزاء عادل- عوضـــاً حـــسناً وأجـــراً مضاعفاً عن إحسان بدا في الدنيا ضرّاً أو نقصاً لفاعله، وتـــسوية حقـــة للظلم بعقاب الظالم الذي بدا له فعله قبلاً كسباً استحله وفلاح المظلـــوم الـــذي بدا قبلاً ذاهباً بخسران، ودرجات تفاضل حق بمعايير أبلغ التقوى وأحـــسن المجاهـــدة التي لا يعلم أقدارها بين من كانوا يتفاضلون في الدنيا بدينهم الظاهر علانيةً لشعائر وأذكار وشهراً لصالحات أعمال ومقامات بينما لم يعلم إلا الله المستور من ذلك إخلاصاً لوجهه تعالى والمجهول في مزدحم مجتمع الناس وكثيف معارض حياتهم.

ومثال سيرة موسى يعظ كذلك بأن النبوة اصطفاء من الله وهبة من رحمته وعلمه الغيبـــي لمن استحقه وتأهل له باجتهاد وبلوغ درجة مناسبة من السعي المكابد وابتغاء العلم النافذ وراء المعهود المشهود ومن الصبر على الغيبيات التي لا تتجلى أبعادها لأول وهلـــة بـــل بعد مدٍّ من الابتلاء وأمد من الآجل قد يشق لطول حاضرها ومشهودها احتماله وانتظار منظورها ورجاء مستقبلها.

ترتيل المعاني (الآيات ٨٣ – ٩٨):

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٨٣)

كمـــا كان المرتابون بصدق بلاغ الرسول ﷺ قرآناً يُلقى إليه وحياً، هم وأحبار الكتابـــيين الأقدمين، يسائلونه عما سبق ذكره من قصة أهل الكهف وعدّهم وأمدِهم وخبر موسى وصاحبه العالم، كسائر ما يسألون عنه من تفصيل الأنباء التي يسمعون بها مـــن ذكر السالفين ذوي الرسالات أو السير الدينية التي طواها الغيب المتقادم يسعون لضبط حقائقها وبيان عِبَرها – كذلك كانوا يسألونه عن ذي القرنين، ويوصيه القرآن أن يقول لهم إنه تالٍ عليهم فيما يأتي ذكراً يقصّ عليهم خبراً منه.

وقـــد ذهب مفسرون للقرآن ومعلقون عليه شتى المذاهب في تعيين ذي القرنين، يتحرّونه بين أعلام السير المروية في شتى أنحاء الأرض حول موطن العرب أمة الخطاب القرآني الأولى. ويكاد ينحو كل واحد منهم نحو الجهات التي تليه والمشهور من أعلام تأريخهـــا، منهم من لا يراعي في مبحثه الهوادي الضابطة من مذكور سيرة ذي القرنين في نـــصّ القرآن. فهو لقب منسوب لدى البعض إلى الاسكندر الأكبر المقدوني الفاتح شرقاً دون الصين غير الصالح المؤمن بالله والغيب ولا المشهور ذكراً بين العرب ليسألوا عـــن بيان أمره. وهو في بحث شاذ منسوب إلى إخناتون فرعون مصر الذي خرج على تـــراث ديـــن سلفه موحداً عبادته للشمس وما فيها ولا يعرف له ترحال وإصلاح في الأرض. وهـــو في مبحث آخر أفريدون بن إثفيان بن جمشيد أحد ملوك الفرس الذين يتمايز مذهب صلاحهم لكن لا يعرف لعامتهم دين توحيد وتقوى لله وخدمة متعاونة في شـــأن أمـــن الرعية. وكذلك في الباحثين من يظنه أحد ملوك الصين– تسين شي هوانـــغ تي المنسوب إليه جهد تأسيس وبناء في حائط الصين المحيط، لكنه كان في بيئة دين كنفشيوس واعتراه هو فسوق في آخر عمره.

ولعـــلّ الأوفـــق أن ينسب ذو القرنين في إطار أراضي انبعاث الرسالات الغيبية ومـــواطن سير الصلاح التي يذكرها القرآن ولو أشار لامتدادها في الأرض أثراً. وذلك فيما يُروى أنه أحد سلاطين حمير باليمن، أقرب صلة بعرب مكة أن يسمعوا من ذكر خبره ما يثير السؤال عن مزيد بيان وبأهل الكتاب الذين يذكرون من أثره المنبسط أمر

ياجـــوج وماجـــوج كما يرد في صحفهم، وما موطن حمير بغريب عن البحر الهندي وطـــرق الترحال المعهودة فيه غرباً وشرقاً. وبعض الرواة يسمونه تُبّع أبو كرب. والله أعلم بعين الحق في هوية ذي القرنين، وإنما منهج قصص القرآن أنه قد لا تذكر الأسماء وتفاصـــيل كل البيّنات من سير السالفين بل يذكر منها ومن المعالم والوقائع والآثار ما تتجلى به العبر والعظات للخالفين من المؤمنين برسالة دين الغيب. فالأمر في ذكر ذي القرنين هو ما يعني ابتلاء التمكن للسلطان في الأرض والولاية على مختلف الرعايا، أن يرعى الوالي العدل بينهم وينشر الهداية لهم ويُتم الصناعة للبنى الأساسية خدمةً لأمنهم ومعاشـــهم وأن يكون طائعاً متقياً لله فيهم ومؤمناً بقضائه الأحكم بينهم في الأزل يوم الآخرة الموعود إذ يذهب سلطانه وتنقطع وقائع سياساته وآثار مصانعه في الأرض التي تتبدّل وتندك بناها ورواسيها.

وذو القـــرنين لقـــب عربـــي قد يعزز الظن بأصله من جنوب الجزيرة العربية، وهـــو قد يصف ما كان للمذكور من ذؤابتين في هيئة ضفائر شعره المتوالية قروناً أو قد يصف ما كان يتّخذ للباس رأسه من قرنين كالثور أو الكبش رمزاً للملك والقوة المجاهـــة ممـــا كان معهوداً في الخوذة الحربية أو التاج السلطاني – أو الطاقية الصوفية أحياناً بعدا– في تلك النواحي من الأرض شرقها وغربها. واتخاذ ذي القرنين أسباب الـــرحلة عـــبر الأرض كان وما ينفك من سنة الملاحة السارية في المحيط الهندي مداً للسلطان أو التجارة أو الدعوة. وذو القرنين بخُلقه ربما كان بقية تراث دين من الذين اتبعوا هوداً ونجو بعد هلاك سائر قومه من عاد إرم ذات العماد ومصانع البناء والذين اتـــبعوا جبابرة فيهم وكانوا باطشين في الأرض مفسدين، فلعله كان خلَفاً ثبت على هداية عدل بين الناس وتقوى وخدمة لأمن الرعايا في سلطانه، أو قد يكون ذا إمارة في قـــوم ممن بلغهم دين الشمال ملة إبراهيم أو سنة بني إسرائيل، وقد كان وما يزال جـــنوب الجزيـــرة العربية وما وراءه من مدى انتشار تلك الهداية. أو ربما كان ذو القرنين نبياً ذا رسالة كُلّف ببسطها في الأرض إلى مبلغ رحلات قومه البحرية. ولعلّ ذي القرنين قد مضت سيرته في عهود الزمان السابقة لميلاد عيسى بنحو عشرة قرون أو تزيد.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨٤)

يروي الله بصيغة المتكلّم جماعة إذ مكّن بأقداره العظيمة لتصريف الأمور وتسييره لفعـــال العـــباد – هيّأ لذي القرنين في الأرض عبر مسالكها الواسعة وممالكها المنتشرة بكل الوسائل مسيراً واصلاً وآتاه بذلك من كل شيء معهود من وسائل الترحال البرية ركوباً من الأنعام والبحرية فُلكاً – من كل ذلك سبباً يتخذه.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (٨٥ – ٨٦)

فاتبع سبباً سالكاً طريقاً في السفر لعله بالنقل البحري فالبري حتى إذا بلغ مغرب الشمس متجهاً غرباً إلى منتهى من بر الأرض ساحل تليه بحيرة ممتدة كانت حداً لمبلغ الـــسير لا يُرى شاطئها الأبعد فأفقاً منبسطاً يصيب فيه السائر مغرب الشمس. وكان ذلك المغرب بحيرة عيناً حمئة ماءً يحيط بها جرف طين أسود أو حامية من حرارة المناخ عـــندئذ. ولعلها كانت غرب اليمن وجهةً إما في القرن الإفريقي الذي فيه أصول النيل الأزرق لـــتكون العين بحيرة تانا –كما يسمونها اليوم– ذات الطمي الذي تحمله مياهها الـــصادرة، أو كانت وراء ساحل شرق إفريقيا الذي يبلغ السائر عبره بحيرات أصول النـــيل الأبـــيض على خط الاستواء للشمس في الكرة الأرضية. والجهتان تليان اليمن وجـــنوب الجزيـــرة العربية غرباً وقد دام اتصال أهله بها عبر التاريخ إلى العهد الحاضر ورســـخت في تلك الأقاليم آثار الثقافة الحميرية فالعربية. ووجد ذو القرنين عند تلك العين قوماً يقومون بأمرهم العام بمتاع واستقلال لكنهم معزولون في جوف إفريقيا عن طرق تسفار الناس وتجارتهم وحركتهم في تداول الثقافات الشمالية لمّا تبلغهم رسالات الغيب إلا قليلاً من آثارها وهم في بيئة غاباتهم لمّا يبلغوا كثيراً من الرقي والقوة تفاعلاً مـــع سائر أقوام الأرض. قال الله منادياً له بأقداره العظيمة المتنـــزلة عليه وحياً – إن كـــان نبياً – أو إلهاماً هادياً في سياق خيارات المواقف المبسوطة ابتلاء للإنسان – قال إن لـــه الخـــيار بقوته الأفعل وهديه الأعدل إما أن يعذبهم بحق أو بجبروت سلطانٍ غازٍ وإمـــا أن يـــتخذ فيهم حسناً من لطف دعوة الرعايا ومجادلتهم ومعاملتهم السمحة. ولعلـــهم في وجهـــة حياتهم وعلاقات ذات بينهم كانوا في ضلال وفتنة متاع وكانوا

بأقـــدار كسبهم طبقات في المال والقوة فيهم التظالم والتعاشر بالحسنى أحياناً ينقلبون حـــسب تـــصرف أهواءهم على سنن طبائع مجتمعات البشر المعهودة. وابتلى الله ذا القرنين بغير هداية له إلى عين الحكم الذي يُكلف بإيقاعه قضاء فيهم وبينهم، وبسط له قوة التمكن والخيار بين الحق والظلم حسبما يهتدي لنفسه.

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّه فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٨٧ – ٨٨)

قـــال ذو القـــرنين قراراً في حكمه بين القوم الذين ظهر عليهم متمكناً عند تلك العـــين الحمـــئة: إنه فيهم متخذ موقفاً يمايز بما يحقّ بينهم: أما مَن يجده قد ظلم بكفره مـــتجاوزاً لحـــدود هدى الإيمان بالله وتقواه عادياً على حقوق الآخرين فسوف يعذبه ويأخذه بجنده ليردّه عن طاغوته ويصدّه عن إيقاع الظلم بالآخرين، ثم يكل أمره لآجلة العقـــاب إذ يُرد إلى ربه يوم القيامة فيعذبه عذاباً نكراً هو الأشدّ الأوقع الأوجع، وأما مَـــن هدتـــه فطرته للإيمان بالله متذكراً مختاراً مقتضى ذلك من العمل الصالح في حياته لنفـــسه والعـــادل في علاقته بغيره، فأولئك لهم جزاءً على إيمانهم وصلاحهم وعدلهم الحـــسنى في نهـــج معاملته هو لهم في الدنيا وينتظرهم قضاء الله لهم جزاء بالحسنى في الآخـــرة، وفـــضلاً عـــن ذلك سيقول هو – وجنوده وعمال إمارته عليهم – في أمر الخطـــاب لهـــم وصايا بالمعرف ونواهي عن المنكر بدوافع ترغيب وضوابط ترهيب – سيقول لهم حسناً لا فظاظة عن غلظة قلب.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ (٨٩ – ٩٠ – ٩١)

ثم بعد أن فرغ ذو القرنين من خطة سفره غرباً متمكناً في الأرض باسطاً سلطانه وسياســـته المهدية، اتبع بجهد تالٍ بالغ كذلك سبباً وطريقاً منقلباً نحو الشرق حتى بلغ مطلع الشمس عند منتهى أرض في سبيله يجدها بعدُ بحر محيط لا يبدو له شاطئ شرقاً وعند ساحله تطلع الشمس على الأرض. ويغلب أن يكون ذلك طرف الهند الجنوبـــي أبـــرز مـــا يصادف المسافر بالبحر شرقاً براً يليه محيط. وظل ذلك طريق السفر والنقل البحري عبر المحيط الهندي بين أراضي المغرب والمشرق لتبادل التجارة والمعرفة لاسيما

أنــه معهــود عابــراً دار العرب مستمراً وراءها حتى أوربا. ووجد ذو القرنين هناك الشمس تطلع على قوم لهم حياة ساذجة بدائية في محلّهم لم يجعل الله لهم بأقدار تصريفه لحال عباده في منهج حياتهم مرتقى ابتلاء يقتضي مرشداً من التظالم أو كفاية لحاجة في أصــول أمــن الحياة، وإنما لم يجعل لهم بقدر ابتلائهم بساذج حياتهم من دون الشمس ستراً، ولعلّهم كانوا من السواد الأعظم في تلك الجزر الآسيوية الجنوبية في تلك العهود تطلــع الشمس على عوراتهم لا يعرفون ساتر الملبس ولا المسكن من الشمس بيوتاً أو أكــنان جــبال بــل كانوا عراةً يعيشون خلال أشجار الغابات ويرتحلون في ظلال أوســاطها وذلك مشهد للناس ومتقلّب استمرت حاله ظاهرة حتى عهود قريبة. لذلك كمــا جرى غرباً كان ابتلاء ذي القرنين وخياره فيما يفعل وتصرفه مهتدياً بأن يحسن إرشــاداً لهــم ويقول يسراً تذكيراً بهدى الله أن يتخذ ستراً وسكناً[1]. وقد أحاط الله بأقــدار رقابته لمسلك عباده المستخلفين في الأرض المتمكنين من ولاية أمور العباد – أحــاط بمــا لدى ذي القرنين من خبر في حقيقة شأن سياسته فيهم، لعلها إذ ستر الله بيانها وصية بالستر للعورات كانت ذات وقع محدود، ما غشيتهم منه في أخلاق حياتهم هدايــة مبسوطة وما أقام فيهم ليُشيع فيهم نظماً وأعرافاً تحيط رشداً بحياتهم وراء الزي والمــسكن فلم يكن له مسافراً في الأرض مجال لطويل المكث فيهم ليسوس أمرهم ذاك وليــتم صــلاحاً متبعاً فيه عبرة وتذكرة للخالفين، وتجاوزهم عَرَضاً لأن أمرهم عندئذٍ كان يقتضي طويل المكث فيهم.

﴿ثُــمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُــونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (٩٢ – ٩٣ – ٩٤)

ثم، اســتأنف ذو القرنين سيره في البحر، اتبع جاهداً سبباً، لعله على البحر المحيط الهندي شرقاً في آسيا الجنوبية، حتى إذا بلغ موقع ما بين السدّين القائمين وسط سلسلة الجــبال الممتدة شرقاً وغرباً الحاجبة بين أقوام الجنوب وأقوام الشمال المغول في جوف

---

(١) في ســنة الله المحمــودة أن جعل لعباده لباساً وبيوتاً: راجع الآية ٢٦ سورة الأعراف، وانظر الآيتين ٨٠ و٨١ سورة النحل.

القـــارة الآسيوية، بلغ تلك الفرجة ووجد عندها من دون السدّين – من حيث أتى في مـــسلكه من البحر جنوباً إلى تلك الأرض – قوماً لهم لغة رطانة غريبة عن لسانه فلا يفقهون له في التخاطب قولاً لاسيما أنهم في هم شاغل وأمر مختلف وحال مرتبك من شـــدة خوفهم من المخاطر المحدقة بهم من أقوام الشمال الذين اتخذوا تلك الفرجة ثغراً نافذاً للغارة عليهم مهما تحجبهم دونها الجبال الشاهقة أو السدود المبنية وقاية للجنوب. نـــــزل فـــيهم ذو القرنين ورأى القوم فيه قوته وخبرته وعمّاله فحكوا له متشككين مستـــشفعين بإشارات القول والترجمة عن يأجوج وماجوج، قالوا له إنهم مفسدون في الأرض. وأولئك قوم كانوا يسمون بذلك الاسم وصفاً لأرضهم وركوبهم خيلاً عادية، وذلـــك الاســـم نطقاً عربياً يقاربهم وصفاً بالرماة المتخبطين الحاملين على العدو بوقع شـــديد المرارة والالتهاب، ويسمون باللاتينية في الذكر الديني الكتابـــي قوق ماقوق. وكانوا قوما يتكاثرون ويتناسلون بغزارة في موطنهم في جوف آسيا الوسطى الشرقية، لكن دارهم بجفافها لا تسع الذرية فتدفع بهم سنّة هجرة نحو البحر جنوباً أو نحو الغرب ينشدون الأرض الأوسع والأخصب لابتغاء المعاش بغياً على الأقوام المستوطنين جوارهم قبلاً، وظلت تلك السنّة متصلة إلى العهد الحاضر، ومن أشهر الظواهر حركة ذات وقع وأثـــر ونذير نحو الجنوب والشرق في الكرة الأرضية. وقد وصف قوم الجنوب أولئك القوم العادين من تلقاء الشمال بكونهم مفسدين في الأرض وسألوا ذا القرنين – ترجّي إشـــارة: هـــل يجعلون له خرجاً– جعلاً يخرجونه من أموالهم – على أن يجعل بقدراته وخبراته العمرانية بينهم وبين أولئك سداً، إذ كانوا ينفذون إليهم من تلقاء تلك الفجوة في ســـدّ سلاســـل الجبال الواقعة بينهم أو بين السدود المبنية الأخرى التي كانت سنّة حـــصون يتخذها الناس في العالم كافة لحماية دارهم ووقاية مدنهم، وأقام ملوك الصين السالفون منها أمدية بمختلف المواقع لم تكن حاجباً موصولاً محيطاً[(١)].

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (٩٥)

قـــال ذو القرنين محاوباً حاجة أولئك القوم التي أذهلتهم همومها: إن ما مكّنه فيه ربّـــه مـــن نعمة العلم والخبرة والقدرة خصوصاً ومن عموم أمانة التمكن والولاية في

---

(١) في خطر انفتاح شعوب ياجوج وماجوج: انظر الآية ٢٦ سورة الأنبياء.

أرضـــهم ومن نهج الهدى والصلاح في خدمة الرعية رجاء الأجر منه تعالى – هو خير مـــن أجرهم الذي يعرضون له لينالوا ما يطلبون، فليعينوه هم بقوة منهم عمالاً ومواد بقدر ما يتيسر لهم، يجعل هو بخطته وخبرته بينهم وبين القوم المخوفين ردماً يسد الثغرة سداً مردوماً تضاعفاً ويدرأ محذورها الخطير بأبلغ مما طلبوا.

﴿آتُونـــي زُبَرَ الْحَدِيد حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (٩٦)

فأمـــرهم ذو القـــرنين في سياق ذلك المشروع أن يؤتوه زبر الحديد مما كان يتوافر عـــندهم مـــن استنباط ذلك المعدن وصناعة سبكه، يريد منه زبراً، تماسيح ألواحاً وقطعاً حـــسبما يقـــدّر فيه الكفاية لما يقتضي الأمر، وأخذ يرفع بعون أيديهم العاملة زبر الحديد ويرصّها متعالية حتى ساوى بين الصدفين، جانبـــي فرجة الجبال المتصادفين تقابلاً، عندئذ قـــال للعمال معه انفخوا في أكوار الحدادة فحماً حجرياً حتى حمي الحديد وتوهج ناراً قال لهـــم أن يؤتوه قطراً سائلاً من حديد متقد أو من معادن ترابية قلوية محمية أو من ماء بارد يفرغه على الزمر المحمية حتى تنصهر وتتماسك أوصالها بقطر الحديد أو تتقابض بقطر الماء وتلتحم. ولعلّه بنى على ذلك الحجارة وردم التراب ليتساند الصرح صموداً وصلابةً وتعالياً.

﴿فما اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧)

فتم بذلك الردم المتصلّب الذي يصل ما بين السدين ويسد ثغرة الخطر الداهم من أقـــوام الشمال الغزاة، فما اسطاعوا بوسع طاقتهم أن يظهروه ركوباً بخيولهم وعبوراً علـــى رأسه كما يتيسر لهم أحياناً تجاوز الجبال وذلك لعلوه صعداً دون منحنى ميسور الـــصعود، ومـــا استطاعوا له نقباً كما يتيسر لهم من حفر نفق يعبر جوف الجبال لأنه كـــان صـــلباً مسلحاً من الحديد داخل ردمه. وكان اختراقه أشد على وسع طاقتهم، فجـــاء التعبير متقابلاً بحذف التاء في تصريف فعل طوع الظهور الأيسر مقدوراً عليه، وإثباتها في تصريف فعل طوع النصَب الأعسر طواعية لمن ابتغاه.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨)

قال لهم ذو القرنين عند ختام الأمر قولة نصح ألا تفتنهم فرحة التحصّن أو تغرّهم صـــناعة أيديهم وذي القرنين العجيبة ظناً أنها أبلغ القوى في الوجود أو يسكنوا بعدها

مطمئنين بحياتهم الدنيا ومتاعها الذي غدا مأموناً ويحسبون ذلك غاية لهم أبداً – قال إن هـــذا السد الحصين هو رحمة من ربه ﷻ، أذ هو الذي علمه أسباب العمران الأحصن ووفقه وإياهم لتمام إقامته فهو عطاء ونعمة لهم أجمعين من الله ينبغي شكرها[1]. وذكر لهم أنه ترتيباً على قيام السد وتمام الرحمة إذا جاء وعد ربه فكانت ساعة اليوم الآخر إذ تزلزل الأرض وتبدّل وتنهدّ الجبال – جعله ربّه بحوله المطلق وقوته العظمى دكاً هدماً مـــستوياً سوياً بالأرض بعدما صلُب وثبت قوامه، فالله قهّار وهو على كل شيء قدير فكيف بالإنسان ومصيره تحت وطأة قدره تعالى يوم الآخرة الموعود، وإنما السدّ عاجل تذكرة لأجل موقوت لا مغفلة عن ذلك القدر المكتوب، وكان وعد ربه بقيام الساعة حقاً صادقاً لا إخلاف فيه.

عموم المعاني (الآيات ٨٣ – ٩٨):

في السورة ذكر متوال لأقدار ابتلاء الله للإنسان بما يبسط له في حاضر اليسر في الدنـــيا وأسبابها أو يقدر من العسر فيها وفتنتها وبما يجري من عاجل تقلباتها حتى تحوّل إلى الآخـــرة حـــيث تحق الولاية لله الحكم العدل القدير الجبار. يتقدم ذكر البلاء بزينة الدنيا الآيلة إلى صعيد جرز، يتلوه ذكر فتية فتنوا لأول عهدهم إيماناً بدين التوحيد حتى اعتـــزلوا قومهم آوين إلى كهف يُتوفون فيه نوماً متطاولاً ثم يبعثون لحين ليعثر عليهم القوم الخلَف ويتخذوا عليهم مسجداً إذ انبعث الدين الحق. ثم يأتي ذكر صحبة النبـــي الداعـــية للصابرين معه ابتغاء وجه الله وزهداً في زينة الحياة الدنيا خشية عذاب الآخرة ورجـــاء لنعيمها للمؤمنين الصالحين. ثم يرد مثال رجلين لأحدهما جنتان فتن بهما ظاناً بقاءهمـــا أبداً كافراً بالآخرة مهما جادله الآخر حتى يُصاب المفتون بغاشية تحيط بثمره ليـــندم ولا يلقـــى نصيراً فإنما خير العاقبة لله وحده. ويتلو ذلك مرة أخرى ذكر الحياة الدنيا ومثالها إذ يتطوّر نباتها حياً نامياً بالماء من السماء ثم منهشماً تذروه الرياح مواتاً،

(١) في اتخـــاذ الـــصنائع لا كسباً وحسب ففتنة بل رحمة من الله وعوناً مشكوراً: راجع الآيات ٣٧ – ٤١ سورة هود وانظر الآية ٨٠ سورة الأنبياء، والآيات ١٢٨-١٣١ سورة الشعراء، وانظر الآيات ١١-١٣ سورة سبأ.

والمال والبنون متاع زين عارض فيها لكنه أدنى من صالح الأعمال الباقية ثواباً مأمولاً. وعندئذ تذكر مشاهد الآخرة يوم الحشر والعرض والحساب والشهادة لتبين أعمال العباد ويقضى بينهم ليجزوا فرادى كما أتاهم نذير القرآن ونبأ سالف المرسلين المنذرين الذين خاطبوا أهل القرى ففتنت وظلمت فحقّ هلاكها. ثم ينضاف ذكر قصة موسى الذي ذهب ليتلقى من عالم بالغيب ما يعلّمه ألا يقصر علماً بالأفعال والحوادث في الدنيا على مقدم وجهها وظاهرها الذي قد يبدو له منكراً بل أن يعبُر ذلك إلى تمام حقائقها ومآل عواقبها في آماد الغيوب الحاضرة المجهولة أو الآجلة قدماً. ثم يأتي في آي السورة هنا ذكر الابتلاء بالتمكين وبسط الأسباب لولي الأمر والسلطان ومآل ذلك إلى إيثار المتقين أن يسعوا في الأرض عدلاً في الحكم بين الناس ظالمهم وصالحهم وخيراً في تصريف أحوالهم ورعاية لأمنهم من محاذر الفساد، وذلك لإيمانهم بالغيب واستعانتهم واهتدائهم بالله الذي يشرع القيام بالقسط في ميزان الحكم والرشد في تصريف أحوال الرعايا وأمنهم والذي يبسط لهم الأمن أو الفزع في مآلات الخلود يوم تنقطع كل أسباب السلطان وتنهار بناه ويحق له وحده الملك قاهراً وعادلاً يوم الدين.

كان المخاطبون برسالة الغيب والهدى التي جاء بها الرسول الخاتم ﷺ يسألونه عن نبأ ذي القرنين الذي سلف قريباً من ديارهم ولم يبلغهم منه إلاّ شذر خبر، وتنزلت آي السورة هذه تذكُر أمره تبياناً لوقائع من سيرته بما يهدي إلى الرشد ويُلقي عِبر هداية في بلاءات الولاية والسلطان. وقصص التاريخ قد لا يحيط السمع فيها بحفظ كل ما سلف وغاب عن إدراك الحاضرين، وقد تقصر الروايات على سرد الوقائع المشهودة التي تسري متوالية بأسباب لا يبدو إلا الظاهر منها أو متصادفة في ظروف لا يتبيّن وقعها المنظوم حقاً، فلا تدرك في حدوثها آياتٌ لأقدار الغيب ولا تُفقه عِبرٌ منها ولا عظات لهداية الخالفين. وإنما الأرشد في شأن السالف من تاريخ بني الإنسان أن يتساءل عنه المؤمنون وأن يتحروه سيراً في الأرض وبحثاً في الآثار وجمعاً للآثار حيثما تعلقه حب الاطّلاع وخطر عنه التساؤل، وأن يسعى الدعاة لدين الله خاصة لاستقراء وقائعه ونظم حقائقه وبيّن مذاهب إرادة الناس فيها وفعالهم وعلاقاتهم والنظر في كنف ظروفه وأسبابه الطبيعية، والتفقه لآيات أقدار الله وسنته فيه. واستيحاء لخصوص هذه الآيات

مـــن الـــسورة ينبغـــي النظر المقارن بين وقائع الضلال وآثار هداية الدين في سياسة الـــسلطان في ســـياق ابتلاءات الحكم المختلفة ثم استنباط حكم في الولاية السلطانية الرشيدة عموماً وبسط ذلك تلاوة على المخاطبين بدعوة الهدى.

وقـــد مكّن الله لذي القرنين الأسباب أن يمضي مسيره في الأرض إلى كل الأبعاد بكـــل شـــيء من الوسائل التي كانت معهودة في زمانه. وكان ذلك في ذكر القرآن بأقـــدار من علم الله وهدايته ليعلم كل تالٍ لذلك الذكر أو تال له أن أقدار الله المحيطة بالأرض هي التي تستخلف العباد فيها وتبسط لهم الولاية فيها بالقدر المكتوب. وليس ذلـــك كمـــا يتوهم الذين يعلو ويمتد سلطانهم في البلاد أنهم كذلك بفضل معلوماتهم وتجـــاربهم وبالغ حيلهم البشرية في مرافق الحياة وأسبابها دون قدر الله، ويغرهم ذلك الـــتعالي والاستكبار ليركبوا أهواء استعمار الأرض ظناً أنهم قادرون عليها وليسخروا طاقـــات رعايـــاهم مـــن سائر البشر يتولون أمرهم بقوتهم الغالبة ويستغلونهم لقضاء أغراضهم وشفاء حاجاتهم وكفاء قصورهم. ذلك مثل الحملة التي عبأها الأوربيون قبلاً ثم بعـــداً في القرون الماضية وقد تضاءل فيهم هدى الدين النصراني وتقوى الله في سائر عـــباده وحـــال بهم ذلك إلى السير في الأرض ضاربين فيها جنوباً وشرقاً وغرباً بدفع العـــصبية وشـــهية ابتغاء المتاع المادي المنشود منعة وعزة متضاعفة، إلا قليلاً ممن كان يدعـــوهم للتـــرحال في الأرض حب التطلّع لاكتشاف معالمها الغريبة العجيبة، ولكن هؤلاء كانوا غافلين عما فيها من آيات الله ونعمه المسخّرة لبني الإنسان. إن الله جعل لذي القرنين السائر في الأرض غرباً إلى أن وافاه مغرب الشمس عند عين حمئة – لعلها في شـــرق إفريقيا – ولقي عندها قوماً جعل الله له الخيار فيهم إما أن يُعذِّب من تولّى عليهم سلطاناً أو أن يتّخذ فيهم حسناً. فكانت خيرته وسيرته مهدية، كما ينبغي لكل مخاطب بذكر معتبر بأمره معتبر بإسوته، إذ كان يؤمن أن ولاية السلطان على مجتمعات عـــباد الله أمانة وابتلاء تحت رقابة منه تعالى كيف يتصرّف فيهم بالحق، قوة غالبة لا للـــبطش والاستضعاف والتسخير بل للعدل بينهم لا يؤذي إلا الظالمين الذين يصدّهم متذكـــراً أن الله أحوط بظلمهم علماً وأشد عذاباً وعقاباً عليهم في العاقبة، فالوالي في الدنـــيا يسعى لبسط الجزاء عدلاً وصرفاً للظلم ويدعو منذراً بعقاب الله الآجل الأشد،

أمـــا المؤمنون الصالحون من عباد الله الرعايا فينبغي ألا يُسخروا ليلتمس منهم الغنائم الـــوالي الجائر المتجبّر بل أن يُجازي ببسط الحسنى في المعاملات والسياسة واليسر في أقـــوالها وصـــايا رفق لا أوامر غلظة، إيماناً بأن مثل ذلك وخير منه موكول إلى الله في عاقبتهم. ولئن عثر ذو القرنين في رحلته إلى الشرق عند موقف له على أقصى بر تطلع الـــشمس مـــن أفق البحر الممتدة وراءه شرقاً – عثر على قوم سذج عراة بارزين بلا مكسى ولا ملبس فقد كان كما ينبغي لكل من استُخلف على قوم وربه يرقبه ويحيط بما لديه اختباراً وبلاء، يهدي ويدعو للحسنى من اتخاذ اللباس والبيوت ستراً ويذكر أن لباس التقوى ومأواها عند الله خير. ثم قد ذهب ذو القرنين حتى وجد قوماً بين سدّي جـــبال هم في هم شاغل لا يكادون يفقهون قولاً من فزعهم من حذر غزاة ينـــزلون عليهم من تلقاء الشمال، وكانوا يريدون منه إقامة سد يحصنهم منهم ولو بخرج منهم يؤدونه أجراً. ولكن سنّته الحسنة قدوة لكل ولاة السلطان على رعية تبتغي تأسيس بنية لـــوقاية أمـــنها ألا يدّعـــي الوالي أن الأمر منوط بقدرة سلطانه الأبلغ وبما يُسر له من أســـباب نفاذ المشروع، ألا يفاخرهم ولا يمن عليهم بذلك، بل يبذل ما لديه من جهد وصنع وعمالة صوناً لأمنهم لا يبتغي خراجاً منهم يفرض عليهم ضريبة تُوفى التكاليف إلا أن يدعـــوهم لعونه عملاً طوعاً في بناء الإعمار المنشود جمعاً للمواد واتخاذ هندسة لوضـــعها وتولـــيد طاقـــة بتـــسخير ما تلتحم به تراكيبها الحديدية. ثم حين تم البناء وأُحكمـــت حـــصانة أمـــن الرعية تذكّر ذو القرنين قدوة لولاة السلطان أن يتذكروا ويذكّـــروا الرعايا أن ما يبنون لها من مصانع إنما هو فعل عبادة متصوّب لوجه الله لا إعمـــاراً فقـــط لمتاع الدنيا بل تزوّداً لعمران الآخرة ابتغاء لنعيمها وخشية من محذور عـــذابها، والعمـــارة مهما تثبت وتدوم زماناً حفظاً لمقاصدها الدنيوية ستندك قوعدها كمـــا تندك رواسخ الأرض وتتبدل معالمها عند قيام الساعة مهاداً لعالم الآخرة الذي يـــصلح فيه عوج الدنيا وينعدل ميزان حياتها وتستقر الطمأنينة والأمان للمؤمنين خيراً أعمر ممّا يُعهد في الدنيا خلوداً أزلاً.

وقـــصة ســـيرة ذي القرنين ذكر يرد في ختام سياق الأمثلة والقصص في سورة الكهـــف، وهي مداد من عموم هديها في توحيد حق الوجود ظاهره وغيبه وحاضره

وآجله. فذلك الهدى وصل لحاضر الحياة بقادمها وبأخراها ولمشهودها بخفيّها وغيبها، والدنـــيا عرض وزينة قد تفتن الإنسان وتقصر تعلّقه بالوجود، ولكنها ابتلاء أن ينفذ فيها إلى أسباب النعمة من الله فيشكر ويتّخذها عدّة لما هو خير وأبقى في الآخرة عند الله. وذلك الهدى أيضاً وصل للعلم بحوادث الدنيا وفعالها البادية بإدراك لكنفها ومآلها في الغيب الذي يُجلّي الحقّ فيها. كذلك كان مثال سيرة ذي القرنين هدى للمسلمين ألا يفتنوا بحاضر ما كانوا يعهدون عند متنـــزّل السورة بمكة من حال استضعاف وفتن وذلة بين الموسرين المتعززين، بل أن يطمئنوا بالبشرى لما كانوا يستقبلون غيباً في المدينة مـــن بـــلاء قيام سلطان وتمكن في الأرض. وذلك المثال أيضاً تذكرة وعبرة لخلف من المـــسلمين انبسطت أسباب سلطانهم في الأرض شرقاً وغرباً وتولّوا أمر رعايا من بني الإنـــسان، لعلّهـــم يتأسون بمنهاج ذي القرنين المهدي عدالة بين الناس وترقية لحالهم ورعايـــة لأمنهم وتذكراً بأن الهداية الأرشد من الله وأن العدالة الأتم يوم حكمه الأحقّ الأفعـــل وأن لـــباس تقواه والحمد على رحمته عوناً على ما يكسب العباد هو خير لهم وأبقـــى في الآخرة. ثم إن هدى سيرة ذي القرنين عظة لمن بعدُ من خلف المسلمين أن عزة سلطانهم وعمارة حضارتهم السالفة ما كان لها أن تفتنهم بمشهدها المادي ليسكنوا مغرورين ويركنوا لما بنوا كسباً فإنها مثل سابق أمثلة القرى قد تنهار وتهلك إن ظلموا، وهـــي مـــندكّة قطعاً عند قيام الساعة لا يبقى منها إلا صالح الأعمال عمارة الآخرة والأزل.

ترتيل المعاني (الآيات ٩٩ – ١١٠):

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ (٩٩)

وتـــضيف الآية تمام الوقع الحق والنجز الماضي لوعد الله الناجز، إذ قامت الساعة وتجلّـــت أقدار الله أن أخرجت الأرض أثقالها أجساد البشر نشأة أخرى للموتى تنبعث فـــيها أرواحهم، وتبدّلت معالم الأرض إذ سُجّرت بحارها مملوءة تراباً وسوّيت جبالها وسدودها وبيوتها مثل السابق ذكرها في الآيات وانداحت الأرض منبسطة وانطلق فيها الـــناس يدبّون فيها، كما تركتهم الأقدار بلا حواجز منتشرين يموج بعضهم في بعض

اضطراباً. وإذ نُفخ في الصور وانطلق صوت بليغ أذاناً ونداء بقدر البعث كما يعهد في الدنــيا لحشر الناس بنفخة داوية في قرن، فقد ترتب على ذلك القدر الفعّال أن جُمع الناس جميعاً في ساحات المعرض والحساب والمساق إلى مأوى الجزاء.

﴿وَعَرَضْــنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠٠ - ١٠١)

ويومــئذٍ في ذلــك المشهد للبعث الماضي والحشر الواقع عرض الله بأقدار ترتيبه لمعــالم دار الجــزاء جهنم وأبرزها ظاهرة للكافرين الذين كانوا في الدنيا الغامرين في نفوسهم شواهد من آيات الله المميت المحيي ودواعي للإيمان به وبالحياة الدنيا دار بلاء تعقــبها دار الجــزاء، عــرض الله جهــنم عرضاً محيطاً لا يُتّقى مشهده ولا يُرى منه منصرف، بل تلازم الكافرين هكذا رهبة جهنم طوال حين الحساب حتى يُساقوا إليها كفــاء لكسبهم في الدنيا. فهم الذين - كما يصفهم الله في الآية - كانت أعينهم فيها في غطاء عن ذكره لا يرون في آياته البيّنة ما يذكّرهم بصفاته الحسنى ونعمه في الأرض حــولهم فــيدعوهم للإيمان به وشكره، أو في ظواهر الحياة والموت المتعاقبة في النبات حــولهم مــا يذكرهم بدورة الحياة فالموت فالبعث الموعود. بل كانوا قد انطبعوا على العمى لطول ما تمادوا غافلين وتبلّد وجداهم بما عهدوا من ضلال حتى صمّوا عن الحق فلا يستطيعون سمعاً لأنباء الغيب في آيات الله الموحاة المتلوّة عليهم.

﴿أَفَحَــسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ (١٠٢)

ويحق أن يُسأل عن أولئك استفهام استنكار هل رتبوا على فتنتهم بالمشهود عمى عــن الغيب أن حسبوا - وهم الذين كفروا وغمروا في فطرهم حق الغيب إيماناً بالله الــواحد - أن يتخذوا حلقة عباده من دونه في مقام الروبية الألوهية المباشرة الموالية له تعالى قرباً - يتخذوهم أولياء لهم ينصروهم لدى الله ويقربوهم إليه، أولياء من خلقه في الغيب ملائكة أو في عالم الشهادة بشراً مقدسين أو أصناماً ترمز لأروح مقدسة يَلقون مــنهم التــزلّف إلى الله الذي يتوهمونه متباعداً في الغيب. وخائب ما يحسبون فإن الله مــولى عباده المباشر الغني الذي لا ولي من دونه اعتدّ بعظيم أقداره المطلقة وهيّأ جهنم

للكافـــرين بوحدانيته وهديه نُزُلاً فهي إن عرضت عليهم مشهداً يوم الحشر والحساب فإنها تحصرهم مأوى عند إيقاع القضاء بالحساب والجزاء.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٣ – ١٠٤)

الخطاب للرسول ﷺ الداعي لرسالة حقائق الغيب والهدى والنذير بالمصائر – أن يخاطـــب أمة خطابه قائلاً لهم هل يستمعون له إذ ينبئهم بلاغاً عما يوحى إليه وتلاوة لآياته التي تبيّن لهم حق العواقب – إنباءً بالأخسرين أعمالاً الذين أدت بهم أعمالهم في الدنـــيا إلى أبلغ تلك العواقب خسراناً بغير فلاح؟ ذلك أنهم هم الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا إذ حاد عن الصراط الحق المستقيم بنيتهم القاصرة على ابتغاء المتاع العاجل وموالاة الشركاء الأدنين دون إخلاص التعبّد لله وبمسالكهم كما زيّنت لهم أهواءهم لا مـــا يهديهم إليه شرع الله المنـــزل. وهم على ضلالهم في حال من الوهم يحسبون أنهم يحـــسنون صنعاً، يفعلون فعالهم في غاية الإحكام ببالغ الدربة في توخي أحسن مقاصد الحـــياة الدنـــيا وبلـــوغها بأحسن الأسباب، ومن ورائهم الكتابيون الذين لا يؤمنون بالآخـــرة إلا مبعـــثاً روحياً بغير حساب وجزاء أو يغفلون عنها صوباً متجرداً لمقاصد الدنيا الحسنى.

﴿أُولَـــئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَات رَبِّهِمْ وَلِقَائه فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِـــيَامَةِ وَزْنًـــا * ذَلِـــكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (١٠٥ – ١٠٦)

أولـــئك الأخسرون أعمالاً الضالون مسعى في الدنيا هم الذين كفروا واستغشوا بالـــباطل ليغمر فيهم وقع آيات الله المشهودة وهدى آياته المتلوة وكفروا بلقائه إنكاراً للـــبعث أو غفلة عنه، فحبطت أعمالهم إذ خسرت عواقبها لأنها قامت على غير أساس مـــن الإيمان. ويقول الله عنهم متكلماً بجمع أقداره إنه في ميزان حسابه لكسب عباده يـــوم القيامة لا يُقيم لهم هم وزناً، فما لهم قدر اعتبار. ذلك الحبط لأعمالهم والطيش لقـــدْرهم جـــزاؤهم الحـــق، مصيرهم إلى جهنم جحيماً من العذاب عقاباً بما كفروا وغمروا كل الدلائل والآيات لله ظواهر خلق مشهودة وكلمات وحي وكلمات وحي

مـــتلوة فهم لا يؤمنون بالله معبوداً صمداً ولا بالغيب بعثاً وجزاءً، إذ اتخذوا كما يقول الله آياتـــه المنـــــزلة التي يتلقونها لتذكيرهم ورسله الذين يبلغونها تلاوة عليهم هزؤاً، استخفافاً أضافوه إلى كفرهم ذلك.

﴿إِنَّ الَّـــذِينَ آَمَـــنُوا وَعَمِلُـــوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ (١٠٧ – ١٠٨)

بعد بيان أمر الكافرين يأتي بيان مصير المؤمنين، وقد وقع الفرقان بينهم في الدنيا فحق التمايز في مآل الآخرة. ففي الآية يثبت ويتأكد: إن الذين آمنوا أمنت في قلوبهم شعابُ الذكر لله وآياته والغيب، واطمأنت – وعملوا الصالحات من الأعمال تصديقاً حـــسناً لإيمانهم في واقع الحياة، كانت حقاً لهم في الأزل جنّات تجنها الأشجار الكثيفة المخـــضرّة هي الخيار الأعلى من درجات الفردوس الأوسع المعرّش الأمتع، كانت تلك لهـــم نُـــزُلاً، ينـــزلون فيها مأوى ومسكناً مقيماً، خالدين فيها، إذ ما هي نـــزهة بل مـــستقر لازم أبداً، وهم لا يبغون أدنى إرادة عنها حولاً. إذ لا يسأمون من متاعها ولا تنقـــضي شـــهوة نعيمها ولا ينازعهم فيها طمع في غيرها متحولاً، فما هم كأصحاب النار الذين يريدون ويدْعون أن يُخرجوا عنها.

﴿قُـــلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٠٩)

الخطـــاب للرســـول ﷺ الـــذي يتلقى في مثل هذه السورة المكيّة بيان آيات الله وتتجلّـــى كلمـــات أقداره في تصريف الغائب والمشهود. ذلك في تصريف أمر أهل الكهـــف بين الفتنة في قومهم والحفظ لأمد في مأوى والبعث المذكّر بحق دينهم، وفي الصبر للرسول داعية مع الخالصين لوجه الله زهداً في زينة الدنيا الفاتنة للغافلين في أمر بلاغ الحق خيرة فرقان بين الحق والباطل والمصائر المتباينة في الآخرة، وفي متاع زروع الجنان الفاتنة في الدنيا الصارفة عن الآخرة ومآل ذلك في عاقب الزمان إلى خواء، وتميز المؤمـــنين بالله في النظر إليها لا يطمئنون لخلود حظ الدنيا، وفي تعليم موسى وتزكيته بالنظـــر في عـــارض حوداث الدنيا وعاجلها الذي قد يبدو منكراً والإيمان بما يكتنفها ويـــتم تبيّـــنه من رسالات الغيب فيحق الحق المرضي فيها، وفي تمكين ذي القرنين من

أســباب الــولاية والسلطان في الأرض وسياسة أمور الرعايا وحاجاقم استعانة بالله واهتداء بحكمه وتقوى لأمره وتذكراً لقضائه في المصائر. كانت تلك كلمات من علم الله وهــداه وقضائه تتنــزل على خلقه صادرة عن علم منه كامل ومشيئة منه مطلقة وأقــدار فعل محيطة لا تنحصر مدى ولا تتناهى عداً في هذا الكون المخلوق. وتصويراً لقدر تلك الكلمات الربّانية على الرسول التالي لقرآن ربه أن يقول بلاغاً لبيانها إنه لو كــان البحر بمائه المحيط العظيم مداداً كالدواة من الحبر لكتابة بيانها لنفد البحر وجفّ مــداداً محدوداً مثل قصور مخلوقات عالم الشهادة، ولو جاءت أقدار الله بمثله مداداً قبل أن تــنفد وتنقضي كلمات رب ذلك الرسول كما ينبغي أن يقول، لأنها لا تتناهى بل تــشمل كــل الوجود المشهود والغيب وتستغرق كل الزمان والأزل معلومات حاقّة وأقضية نافذة ومقدورات واقعة[1].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠)

ولــيقل الرســول ﷺ لأمة خطابه ختاماً لهذه السورة التي بسطت معاني الهدى لتوحيد الله وصوّرت مثلاً لذلك الإيمان وعبرته وبيّنت بعض كلم الله في تصريف العالم المشهود – ليقل: إنما هو بشر مثلهم مخاطبين، ليس فيه ملكية من عالم الأرواح المقدّس ولا ألوهية من وجود الأزل المتعالي، وليس له من علم مطلق ولا قضاء حاسم بكلمات مــشيئة قدر له عليا، بل يستوي معهم بشريةً لكن يوحى إليه من الله أن الذي لا يحق ســواه هو أن إلههم إله واحد لا ينقسم ولا يتعدّد فلا مثل له ولا وليّ دونه ولا ينازعه أو يــضارعه كفء، وله سبحانه حق الوجود في الغيب يحيط بالزمان والمكان وشامل العلــم ينــــزل عليهم وحياً ببيان حقائق الغيب ومراشد الهدى في الحياة الدنيا. فمن عرفه كذلك وصدّق مقتضى كلمه من خلق الإنسان وهداه ومآله في الغيب فهو يرجو لقاء ربه يوم القيامة حيث يحق له وحده سبحانه وتعالى الملك والقضاء والجزاء ومنه السعد المرجو

---

(١) كلمات الله أقداراً تصرف كينونة الوجود الغيبــي والمشهود: انظر الآية ٢٧ سورة لقمان، أمــا كلماته تعليمات وحي وتكاليف هدى للإنسان فلا مبدّل لها: انظر الآية ٢٧ من ذات السورة.

أو الشقاء المخوف للإنسان، ومَن كان يرجو ذلك فليعمل - في الدنيا- مصدقاً إيمانه مؤخــراً إلى الآخــرة أجره راجياً فيها لقاء ربه - عملاً صالحاً وفق معايير الصلاح في هــدى الــدين البـيّن برسالة الوحي، عملاً مؤصلاً على عبادة الله ورجائه لا معلّقاً بمــشهودات مبتغيات الدنيا وموقراتها، فليوحّد الله ربّه معبوداً إخلاصاً لا شركاً متزلفاً إلــيه بأحد من دونه ولداً أو ولياً من حي أو جماد ولا رياء مباعضاً بين ظاهر مراضاة الناس وخالص رجاء لقاء ربّه وأصل الفوز برضوانه.

عموم المعاني (الآيات ٩٩ - ١١٠):

في صــدر الــسورة يحــق الحمد لله لذي أنــزل على عبده كتاب الهدى قويماً، للترهيب من بأس الله والترغيب في الصلاح ابتغاء الأجر الأحسن الخالد أبداً، وللنذير لمــن افتروا على الله مدّعين أنه اتخذ ولداً من الملائكة أو البشر ولم يُجدِ فيهم حديث الصدق في الكتاب الذي يتلوه عليهم الرسول ﷺ حتى يكاد يبخع نفسه أسفاً عليهم. وفي ســياق الــسورة تتوالى أذكار وأمثلة لحقائق آيات الله التي هي تمام وقائع الدنيا المــشهودة وكمال الوجود، لئلا ينفتن عباد الله بزينة الدنيا وظاهرها وعاجلها غفلةً أو جهــلاً بأبعاد الغيب وآماده فيظلمون في حياتهم ويُكفرون، بل لينفذوا عبرها إلى الله والغــيب عــدلاً وإيماناً. وفي ختام السورة هذا يثبت أن وعد الله حق يصدق يوماً إذ يُــبعث فــيه بنو الإنسان الموتى ليخرجوا من الأرض دابّين فيها يضطربون في مزدحم الحشر مائجين. وتبسط لهم سوح الحساب والجزاء فتُعرض فيها جهنم للذين كانوا في دنــياهم عمي عن آيات الغيب المطبوعة المشهودة صماً عن آياته الموحاة المتلوّة المنذرة بجهــنم مصيراً، ذلك ليشهدها عيناً أولئك الذين كانوا يكفرون بالغيب فيتخذون من عباد الله المشهودين في الدنيا أولياء من دونه متعالياً في حجب الغيب. أولئك اعتدّ الله لهــم بأقدار حكمه جهنّم نُزلاً، والنبأ الحق أنهم الأخسرون أعمالاً في الدنيا لأنها ضلّ ســبيلها عن مقاصد الحق وإن ظنوا أنفسهم محسنين صنعاً، وذلك بأنهم كفروا بآيات الله ولقائه فحبطت تلك الأعمال ولا تقيم لهم أقدار الله وزناً، وثمة حقَّ جزاؤهم كفراً وهــزؤاً بالآيــات والرسل جهنمُ بعد العرض والحساب يدخلونها قضاءً وفصلاً، بينما

الـــذين آمـــنوا وعملوا الصالحات تصدق لهم البشرى بجنات الفردوس نـــزلاً ماضياً خالداً.

إن كلمـــات الله قدراً وقولاً هي أن يقع أيما كائن في الوجود، وهي وحياً وهدى حـــق في خيرة الإنسان المبتلى، وهي وعداً بعاجل المصائر وآجلها صادقّة ناجزة، وهي قـــضاءً وحكماً في كسب الإنسان نافذة عند فصل العواقب. إن رسالة دين الغيب أن تلـــك الكلمـــات الربّانية محيطة بالوجود المشهود والغيب لا تُحصَى متوالية في الزمان خالـــدة في الأزل لا تتناهى. ولئن كان بنو الإنسان محجوبين بعالم الشهادة الكثيف لا يدركـــون بعلمهم القاصر المحدود من وقع كلمات الله ومداها في الغيب شيئاً ولا في عـــالم الـــشهادة مـــنها إلا قليلاً، فينبغي أن يخاطبهم الدعاة حاملي رسالة الدين الحق ليؤمنوا بوجود الله المتعالي وعلمه المحيط وقدره المطلق وكماله السبّوح وكلماته المحيطة المتوالـــية. ومهما يكن بُلاّغ تلك الرسالة من بشر مثل المخاطبين قاصر محدود فإنما هي تـــذكير أصله من وحي الله، فمن آمن بالآخرة راجياً فيها لقاء ربه فليُقدّم في الدنيا دار البلاء ما هو إيمان وصلاح ليُلفى عند ذلك اللقاء ما هو خير في دار الجزاء. ليؤمن بربه معبوداً واحداً وليصدّق التعبير عن ذلك بالعمل الصالح كما تهديه رسالة الغيب وتحفزه بشائرها، وليتّق الشرك به أحداً ينصرف إلى وجهته فيضل ويحبط عمل دنياه في الآخرة وتحق عليه خيبة العاقبة.

تلك السورة سميت الكهف حيث أوى وتستّر فتية مؤمنون ولكنه تجلّى عنهم بعد أمـــد وحق دينهم في المآل. وكذلك الغيب مهما تنستر وتخفى أبعاده وآماده في رؤية الإنـــسان فهـــو حـــق ينبغي الإيمان به لأنه ظاهر قطعاً لأجله. واليوم في العالم غلبت المـــذاهب الماديـــة- حـــيث النظر القاصر إلى غايات الدنيا الحاضرة وموقرات الكون المشهودة والتعلّق المفتون بشهوات الهوى ومبتغياته، الناس يحبون عاجلة الزمان ويذرون آخـــرة الأزل، عمون عن آيات الكون المنظورة خلقاً من الله الواحد وأقداره الدوّارة بالحـــياة والمـــوت لآجال، صمٌ عن الآيات المتلوة وحياً منه تعالى علماً وهدى وبشارة ونذارة. فاليوم أَولى بأن يتوالى ويتضاعف في العالم خطاب التذكير بعظات المفتونين في الدنـــيا بزينة ظاهرها الجاهلين بكنفها المغيب الكافرين بما يؤدي إليه ذلك من العواقب

الواعظة، والتذكير بعبر المؤمنين بآيات الوحي المنــــزلة وبأبعاد الغيب المستورة والآجلة وبمـــشاهد وقائعه الحاقّة في الآخرة، ليرسخ الإنسان بذلك في وجدان الإنسان وليرجح وقعه في كسب صالح الأعمال زاداً للعاقبة فتستقيم الحياة الدنيا ويتسق منهاجها عبادة لله وتطهراً من فتن الشرك والضلال والظلم وسعياً في سبيل آخرة في أبد الوجود يسعد فيها الإنسان في النعيم وينجو من الشقاء والجحيم.

سورة مريم

خلاصة هدي السورة:

تـــرد ســـورة ’مـــريم‘ توقيفاً في ترتيب الكتاب تاسعة عشر، وهي مكية ترتّبت نـــزولاً بين السور رابعة وأربعين سابقة لسورة ’طه‘ ولذلك تقدمت عليها في ترتيب الكتاب وإن كانت أقصر منها. وهي نـــزولاً لمعاني الوحي أول سورة تسهب كلمات في ذكر الأنبياء الكتابيين بعد سورة ’الأعراف‘. وقد كانت نـــزولها تاريخاً لنحو خمس سنوات بعد بدء الوحي والبعثة، إذ كان ذلك قبل البعثة إلى الحبشة من بعض المؤمنين خـــشية الفتـــنة في مكة حيث قلّوا وذلوا لأول عهد الرسالة، وقد قرأوها كما ورد في الأخـــبار على النجاشي ملك الحبشة ليتألفوه نصرانياً فيعصمهم ذلك من أن يرُدوا عن حرمة إجارته ويسلموا إلى أهلهم استجابة لطلب لحق من قريش المشركة.

وقـــد اشـــتمل صـــدر السورة تذكيراً متوالياً بالذين أنعم الله عليهم من النبيين السالفين وبآيات رحمة الله التي وافتهم في سياق ابتلاءاتهم، وذكراً لإبراهيم الذي هاجر في ســـبيل الله معتـــزلاً المشركين الحاملين عليه ليفتنوه. ذلك لأن في ذلك الذكر عبرة لحـــال الرســـول ﷺ والمـــسلمين عهد متنـــزل السورة إذ اشتدت عليهم وطأة الفتنة واضطروا إلى الهجرة إلى دار نصارى. وقد اشتمل آخر السورة ذكراً موصولاً لمذهب أئمة الشرك المنكرين الغيب لاسيما البعث بعد الموت والمصير إلى النار التي ينذرون بها، والمفتونين بعلو مقامهم وحسن متاعهم وقوّة صفهم في حاضر الدنيا يحسبون في ذلك بيّنة فضلٍ مطلق على المؤمنين الضعفاء ويغفلون عن عظات سوء المصير العاجل لأقوام

ســـلفوا كانـــوا أحظى منهم في كسب الدنيا. وتذكُر السورة إصرارهم على شركهم حتى بلغوا به أن يتخذوا للرحمن ولداً من الملائكة – مقولةً باطلة يزهقها قدر الحق يوم الـــدين إذ ترجع كل مخلوقات السماوات والأرض إلى ربها سبحانه وتعالى، ويقومون بين يدي قضائه فرادى تنماز بينهم العواقب متقين ومجرمين وتحق البشارة والنذارة التي سبقت بها رسالة القرآن في الدنيا.

ومفتتح السورة حروف مقطّعة بلغت خمسة، وذلك أبلغ ما تجمع الكلمة العربية مـــن الحروف الجذور، وقد سبق في القرآن ذكر حروف ثلاثة وأربعة في مفتتح سور. وفي صدر هذه السورة ترد مهاداً لخطاب الرسول ﷺ الذي يوحى إليه الكتاب ليذكُر فيه بما يعهد من بُنى الكلام ما سلف من نعم الله على النبيين. وعند ختام السورة يذكّر الرسول أن القرآن إنما يُسّر له بأقدار وحي الله بلسانه العربـــي ليبلّغه تلاوة على الأمة الأولى التي باشرها بالخطاب بشارة ونذارة بعواقب الغيب.

أما في شأن سلف الأنبياء الكتابيين فيبدأ في السورة خطاب للنبـــي الخاتم بأن في حـــروف الكلم الموحى إليه ذكر لرحمة ربه عبده زكريا عليه السلام، إذ ناجى ربه أن يهبه ولياً ولداً يحفظ تواصل الدين وتراثه عبر آل يعقوب عليه السلام، وهو يستغيث عارفاً بلوغه مـــن العمر عتياً وعقر امرأته خاشياً أن يضيّع الموالي بعده الدين. ولئن استجيب له آية علـــى غير مسنون الولادة أن يرزق بيحيى فقد قُدّر له أن يُقتل ظلماً بعداً ثم يقتل ابنه ذاك البر التقي. لكن حُفظ هدى الدين فيما يلي بمريم ابنة عمران التي كان كفيلاً لها إذ فـــرغت لسدانة المسجد ونبتت نباتاً حسناً وولدت عيسى الذي كان يحيى مبشراً به. وهكذا يلي ذكرَ زكريا فيحيى في السورة الوصيةُ للنبـــي الخاتم المخاطب بالكتاب أن يذكـــر مريم إذ اختلت حيناً ما من مجتمع أهلها لقضاء حاجة ما فإذا بالمَلَك يتمثل لها بـــشراً ويُبشرها بهبة لها من الله غلاماً زكياً دون والد آيةً للناس ورحمة من الله خالصة مـــن معـــتاد الأسباب المسنونة. ووُلد عيسى عليه السلام مباركاً يتلقى هدى البرِّ والصلاة والزكاة وينطق في بني إسرائيل صبياً آية معجزة تبهرهم ليأمرهم برسالة الحق عبادة لله الرب الواحد واستقامة للحياة على صراط مستقيم. ذلك ثم ارتدّ أمرُ الدين من بعد إذ تفـــرّق صـــف المؤمنين أحزاباً مختلفة في حق أصول الدين وضلّوا في الحياة ظلماً مبيناً.

وإن ضيّعوا هكذا ميراث الحق فقد حقّ عليهم بما فعلوا جزاءُهم يوم الحسرة في الآخرة إذ يرث الله الأرض ومن عليها راجعين إليه.

وتوصي السورة إذ تخاطب النبــي الخاتم وحياً أن يرجع بالذكر إلى الأصل الذي جمع نسباً وملة مَن سلف ذكرُه من أعلام النبوة وسُنة الدين الحقّ – إلى إبراهيم الذي كــان من شيعة تراث الهدى الأول منذ نوح، حنيفاً عن شرك البيئة العرفية التي انتهى إلــيها مجتمعه المباشر. ولئن اعتصم بحق العلم الذي جاءه من الله واستقام على الصراط الــسويّ في الحياة فاضطر إلى أن يهجر أباه وأهله ويعتزل ضلالهم فقد جاءته من بعدُ بشرى حفظ هدى الدين المتجدد – أن يصير إماماً للمتقين من ذريته. وقد كان شيخاً وامــرأته عجوز، فكان عجيباً من وقع رحمة الله وبركته وآيته على غير أقداره المسنونة أن يوهب إسحق ابناً ومن ورائه يعقوب حفيداً – مداً للدين في ذرية مهما تهاجر به في الأرض غــرباً من عسر المعاش. لكن الدين في تلك السلالة بعد يوسف اعترته شوائب الشك والضلال، فتأتي في السورة الوصاة بذكر نبــي التجديد للحق موسى المخلص مــن كل شائبة النجيّ لله من جانب الطور المعون بأخيه هارون ليحمل هدى الشريعة لبني إسرائيل.

وإلى جانــب ذلــك الحظ في التراث تتلو الوصاة في السورة من الكتاب بذكر إسماعــيل النبــي الصادق المرضيّ الذي ورث رسالة الحق من ملة أبيه إبراهيم، شعبة هــدى أخرى ذهبت جنوباً في وسط الجزيرة العربية، ليحفظ سنة الصلاة والزكاة في أهله الذين خلفوا نسباً النبــي الخاتم ولكنهم سلفاً ضيّعوا الدين الحنيفي الحق وورطوا في جاهلــية إشراك بالله يخبطون في ظن الغيب خبط عشواء ولا يزكّون أنفسهم عبادةً وتقوى لله بل يُحيلون الصلاة طقوس مكاء وتصدية حول المسجد الحرام الذي لم تبق فيه إلا آثار معماره وبعض شعائر الحج إليه.

وفي ســياق دفــع تجدد الدين على خط تراث يعقوب وموسى، يُخاطب النبــي الخــاتم الــذي يحمل رسالة التجديد أن يذكر إدريس الذي كان صديقاً نبياً في غمرة الغفلــة التي شاعت بين بني إسرائيل عن هدى الشريعة بعد المنفى في بابل، ورفعه الله مكانــاً علــياً راعــياً لليهودية وأباً لبني إسرائيل يوحّد ملتهم رغم تفرقهم في الأرض

واختـــلافهم شيعاً. ثم تروي السورة كيف خلف كل أولئك النبيين المتعاقبين المهديين الخاشعين لآيات الله خلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ويمموا بحياتهم شطر الخيبة والخسران. ذلك إلا من يتوب إلى دين الله الحق وهدى الحياة الأقوم عملاً صالحاً وقبلةً نحو الجنة المصير الموعود حيث تعمر آخرتهم بطيّب الكلام بينهم سلاماً إلا لغواً ويحسُن الرزق لهم بالمتاع الموصول. وإنما تحيا روح الدين بعد الموات وتستقيم سنة الهدى بعد ضـــلال التقالـــيد ويـــصلح كيفُ الحياة بعد الفساد ويتجلى رجاء مصير الهداية بعد استقبال خيبة الغواية – برسالة وحي خاتمة تصدق الأصل وتجدد وقعه في الحياة.

وقـــد كانت أمة قريش من العرب ذرية إبراهيم وإسماعيل قد ضيعوا تراث الحق ولم يبق فيهم من العلم القديم إلا معرفة الله خالقاً يستبعدونه في تعاليه وبالملائكة بنات لـــه كمـــا يزعمون تصلهم به وتشفع لهم لديه. فلما قام فيهم النبـــي الخاتم وتنـــزل علـــيهم القـــرآن وحـــياً من ملأ الملكوت الأعلى وخطاباً لهم – وهم ما عهدوا كتاباً منـــزلاً من قبل أرادوا أن تتنـــزل الملائكة أو يروا رهم آية مشهودة ليُصدقوا الوحي من الغيب. فتنـــزّلت كلمة الحق شهادة من الملائكة أرواح الغيب أنفسهم وخطاباً لمن يُتلى عليه القرآن مكلفاً بتبليغه أنهم عباد الله لا يتنـــزّلون على الأرض إلا بأمر ربه ذي العلـــم والقدر المحيط بهم، لا يظهرون بطلب أمة الجاهليين المخاطبين بالرسالة. وهكذا تنـــــزّل جبريل على النبـــي رسولاً روحاً لا بشراً يوحى إليه الكتاب، والله ما كان ينـــسى عباده البشر من أن يُنـــزل عليهم روحاً من أمره هو الكتاب بياناً للغيب رباً أصلاً للوجود وقوى روحية من الجن ومصيراً في الأزل الموعود وعلماً وحكمة وهدى لتـــزكيتهم في الحـــياة المشهودة، والله رب السماوات والأرض وما بينهما، وما على الرســـول إلا أن يعـــبده حقاً ويصطبر على عبادته لن يجد له سمياً مسامياً مضاهياً من منكرات أباطيل التأليه والإشراك الجاهلي مما يجادله به العرب المخاطبون.

ومـــن ظواهـــر الجهالة بالغيب والفتنة بالدهر المتعاقب والدنيا المشهودة علةً بين ســـواد الـــناس في أمة الخطاب العربية الأولى التي تنـــزّل عليها وحي الكتاب والقرآن المـــبين – مـــن ذلك أن يقوم فيهم على مذهبهم المعهود الإنسان محدود الإدراك غير مـــصدّق بالوحـــي ولا بالبعث في غيب بعد الحياة والموت المشهود، ينكر أن إذا مات

يُخرج من بعدُ حياً، كأنه لا يذّكر أن الله بأقداره الفعّالة قد خلقه هو من قبل ليحيا في الدنـــيا و لم يكن شيئاً مذكوراً في سابق الوجود. فالحق أن المخاطبين كافة سيحشرون وسيحـــشر معهم أولياءهم من شياطين الجن الذين أضلّوهم عن الحق المشهود في آيات الطبـــيعة حـــياة في النـــبات بعد موته وصرفوهم عن الحق الموعود بكتاب الوحي في أنفسهم بعثاً في نشأة أخرى بعد النشأة الأولى بنيةً من ذات طبيعة مادة التراب وروحاً تُـــنفخ فـــيها هـــي ذات الـــروح الأولى التي توفاها الله بالموت بعد الحياة الدنيا. إنهم ليُحـــضرون حول جهنم التي أُنذروا بها في رسالة الكتاب قبلاً حتى لا تقوم لهم حجّة الجهـــل بالغـــيب دون علم منير والعذر من الحساب والعذاب دون سابق نذير، إنهم ليُحـــضرون جُثـــياً في ذلة لأقدار الله العزيز التي تنـــزع يومئذ من كل شيعة سادتهم وكـــبارهم العصاة المضلّين رُتباً متداركة أيهم أشدّ على الله عتياً وغروراً أن لن يُحاط بهـــم يوم القيامة بأقدار الله الأغلب. وكل عباد الله البشر واردون إلى النار أمراً مفعولاً وحـــتماً مقـــضياً، ثم يَميز الله العدل بحساب كتابه المحيط وقضاء موازين قسطه – يميز الـــذين اتقـــوا الله ليوقوا من النار التي وردوا إليها وليُزفوا إلى الجنة ليعرفوا من مقارنة النظر والعرض قدر نعمة الله عليهم في الجنة، ويودع الظالمون في جوف جهنم جثياً لا يستطيعون منها فراراً.

وأمـــة الخطاب العربية الأولى ألهاها التكاثر بحظوظ الدنيا العاجلة الحاضرة، فإذا تُليت علـــيهم آيـــات الله لتهديهم لموازين التفاضل الحق بين الناس في المصير الخالد تساءلوا أي الفـــريقين – هـــم أم أولئك الذين يُدّعى لهم الفضل الموعود – خير مقاماً وأحسن ندّياً في الواقـــع البـــيّن في الدنيا الشاهد على أن ذلك هو فضلهم هم على الآخرين قدراً أبداً، هم بـــذلك يلـــيهم مصير طيب المتاع على مدّ الزمان، ولا يعظهم أن يتذكروا كم أهلك الله قـــبلهم مـــن قرن مثلهم كفراً بالغيب الموعود وإن كانوا أحسن منهم أثاثاً ورئياً في عاجل المـــشهود. ذلك أن من سُنن الله أن يقيم الحياة الدنيا على سُنة الابتلاءِ ويُملي لكل إنسان فيها مهما يختار من مذهب ومسلك وكيفما كان منتهاه المستحق في الآخرة. فالله يمدّ لمن كـــان في الـــضلالة ولو مضى بعيداً حتى يجيئه أجل العقاب إما عذاباً عاجلاً في الدنيا بعد حـــين أو موتاً فبعثاً ساعة القيامة التي سيعلم عندها قطعاً من هو شرٌ مكاناً وأضعف جنداً.

والله يمـــدّ لمن في الهدى يبارك له ويزيده مما كسب على طريق ذلك الهدى من الصالحات التي قد لا تعقب مكاسب ناتجة في عاجلة الدنيا لكنها تبقى محفوظاً مثقالها حتى لقاء الله إذ هي خيرٌ عنده ثواباً وخير مردّاً. ذلك أمر حق لا بدّ أن يوقن به كلّ داعٍ إلى مسالك الدنيا القويمة الخالصة لوجه الله القاصدة صوب الآخرة.

وقـــد يـــرى الدّاعي للإيمان والغيب، في أمة الخطاب المفتونة بمدّ الدهر المستمر الذين يقـــرأون مصائرهم مُضياً إلى الخلود على ما يعهدون في الدنيا – يرى من بين الذين كفروا بآيـــات الله التي تنبئهم بالغيب والأزل وتهديهم إلى خير عواقبه مَن يقول مطمئناً أن ليؤتينّ في الآخـــرة – لو صدق وعد الدعوة المبشّرة المنذرة بها – مالاً وولداً، حظاً مثل ما أُوتي في الدنـــيا. وعجـــب دعواه تلك، كأنه اطّلع الغيب، بينما هو قاصر العلم على المشهود – أم تُـــراه اتّخـــذ عند الرحمن عهداً خاصاً أن يورثه ضلالهُ نفعاً ممتداً عبّر دار البلاء الدنيا ودار الجزاء الآخرة. بل سيكتب الله له مقولاته التي تعبّر عن ظنونه الباطلة في العاجلة ويمدّ له في الآجلـــة العـــذاب مدّاً وفاق ما مدّ له في فتنة نعيم الحياة الدنيا، إذ يرثه سبحانه وتعالى ما يقول حافظاً كتابه وإذ يأتي ربه فرداً بلا ولد ولا مال يفديه ولا شفيع يُنجيه.

والمخاطبون العرب كانوا يتخذون الملائكة من دون الله آلهة ليكونوا لهم في المقام لـــدى الله عـــزاً أجـــراً على عبادتهم لهم. وإنما الحقّ أن سيكفر الملائكة بعبادتهم لهم ويكونـــون لهـــم ضداً شهوداً على أعمالهم وجنوداً لله غلاظاً شداداً عليهم يذيقونهم عذابـــه. والداعـــي للحق الذي قد يُحزنه ما يقول أمثالُ هؤلاء الكافرين برسالة الحق ينبغـــي أن يرى سُنة الله تتجلّى فيهم إذ أرسل عليهم الشياطين تؤزّهم أزّاً على سبيل الغـــواية، لأنهم زاغوا عن اتخاذ الملائكة مثالاً لعُبّادٍ لله مسخرين وأيداً للمؤمنين من بني آدم على طريق الخير العظيم، وعن مقاومة الشيطان الذي تعهّد بملازمة الإنسان إغواء منذ أول الخلق. على الداعي ألا يتعجّل عليهم مترجّياً من الله أن ينـــزّل عليهم في عالم الشهادة ما يحقّ عليهم، إنما يمدّ الله لهم ويُعدّ لهم عذاباً كفاء سيئات أعمالهم المتضاعفة في ســـاعات أعمارهم الممتدة حتى تأتيهم ساعة الحساب التي لا يدري الداعي أقريب هي أم بعيد – يوم يحشر الله المتقين ويسوقهم إليه بأقدار حسابه وفاقاً وجزائه وفداً إلى مأوى رحمته ومرضاته، ويسوق المجرمين إلى جهنم ورداً لا يملكون دون دخولها سبيلاً

للشفاعة ممن يزعمون من الملائكة التي يرجون أن تقرّبهم إلى مرضاته زلفى، وإنما يملك الشفاعة من اتّخذ عند الرحمن عهداً وصله هو ووفّاه إذ يشفع له – من بعد ما حقّ له بصالح كسبه – من يأذن له الله نبياً أو ملَكاً أو محسناً يستغفر له ويسترحم الله.

أولئك العرب في جاهليتهم التي ضيّعت تراث أبيهم إبراهيم وضلّت عن حنيفيته توحيداً لله رباً وتصويباً للحياة عبادةً له نحو لقائه في الآخرة – أولئك قالوا في مذهبهم التقليدي الماضي فيهم أن قد اتّخذ الرحمن ولداً من الملائكة، مثل ما ادّعى اليهود عزيراً والنصارى المسيح ابناً لله. ولقد جاءوا بتلك المقولة داهيةً تكاد السماوات من وقعها تنفطر وتنشق الأرض وتخرّ الجبال. وما ينبغي للرحمن أن يتّخذ ولداً إذ هو في وجوده أحد صمد غني عن والد أو ولد كاف قيّوم بأمر خلقه.

والحق أن كل مَن في السماوات والأرض مِن مخلوق عاقل ما هو إلا آتي الرحمن يوم القيامة عبداً لا ولداً ولا شريكاً، لقد أحصاهم تبيّناً وعدّهم عدّاً وكلّهم آتوه فرادى دون أولياء لهم ممن اتخذوهم أولياء شركاء لله، وكلهم مُبتلون بالخيار في مذهب حياتهم الدنيا ومسئولون ليحق مصيرهم وفاق ذلك المسير. الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الدنيا سيجعل لهم الرحمن وداً – تتلقاهم الملائكة بتحايا السلام ويقوم في صحبتهم سائر المؤمنين إخواناً ويحق لهم من الله الرضوان الأكبر. من أجل ذلك النبي الخاتم جاءته رسالة القرآن بلسان خطاب ميسور ليبشر به أهل التقوى والعبادة عاقبة حسنى وينذر به قوم الكفر واللدادة عاقبة سوءى. ومن دواعي ذلك النذير للذين لا يؤمنون بالغيب ويقصرون بنظرهم على مآلات الواقع المشهودة في الدنيا أن ينظر مَن يدعوهم لرسالة الله نذيراً وواعظاً كم أهلك الله قبلهم من قرن ويتساءل هو هل يرى منهم من أحد حي وارث أم فنوا جميعاً أو يسمع لهم ركزاً من صوت أم زال وقعهم في الوجود؟.

وختام سورة مريم بيان لتيسير الكتاب للنبي الذي يتلوه ويبلغه بحروف من لسانه العربي كالتي افتتحت بها السورة آيات كتاب ذكر لكلمات الله التي تتنزل بما يستوعب المخاطبون من كلم ينطقون ومفهوم يتذكرون. وذلك الختام أيضاً ذكر لختام الحياة الدنيا – ذكر بشارة ونذارة بمصيرها الآجل مداً وفاقاً في حياة أخرى حاقة

في غيب الأزل مهما ينكرها المفتونون بالمادة المشهودة المحسوسة الواقعة في حاضر ظروف الدهر وعاجلها. وفي صدر السورة تذكير ببعض عباد الله الأنبياء الموصولين بالغيب - دعاء منهم واستجابة من الله أو رسالة وحي من الله واستجابة منهم، وتذكير بالدين الحق الموصول عَبر الأسلاف والأخلاف توارثاً أو تجديداً برسالات الله المتعاقبة المتصادقة. وفي ختام السورة تذكير بختام المصائر الأعجل لبعض الأقوام الذين هلكوا في الدنيا لأنهم قطعوا ما أمر الله به أن يوصل وأغراهم المدّ في دار البلاء لمشيئة ضلالهم وكفروا بالوعيد الذي يؤخر لهم آجله في دار الجزاء.

ترتيل المعاني (الآيات ١ - ١٥):

﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (١ - ٢)

حروف عربية متقطعة تمس خمساً من مخارج منطوقات الفم، من آخر الحلق إلى طرف اللسان والشفة، مثالاً لسائر منطق حروف اللسان العربي الذي يُقرأ به القرآن، ولسائر الحروف المقطعة التي تجئ في مفتتح بعض سوره. فهي حروف قد ترد في بُنى كلمٍ في السورة وصفاً لأقدار الله وأفعاله أوتسميةً أو وصفاً للأنبياء أو تعبيراً عن شعائر الذكر وأعمال العبادة وعن سائر معاني هدي السورة. وهذه المنظومة من الحروف المقطعة - مثل ما يصدر سوراً غيرها - هي موصولة تلوها بما يُبنى منها من ذكر وحي الله الله المكتوب المقروء[1]. فهذا الكتاب الذي يُقرأ بالحروف فالكلمات العربية البيّنة المعنى هو الوحي الذي يخاطب رسولاً عربي اللسان يتلو آياته رسالة على أمة خطاب عربية. وذلك في مفتتح هذه السورة وصية له أن يذكر بياناً وقصصاً لخبر من ربه عن رحمته لعبده زكريا، الذي لم يتخذ من دون ربه الأعلى ولياً بل كان يوحده ﷻ ويتعبده بكل حياته. وكان زكريا عليه السلام أحد أنبياء بني إسرائيل قبيل مولد عيسى عليه السلام وكان من قتلاهم ظلماً كابنه يحي المعمدان المبشّر بعيسى، التالي ذكره بعد آيات[2].

---

(١) انظر الآيتين ١و٢ سورة الشورى، افتتاحاً بخمسة حروف.

(٢) حول دعاء زكريا الخاشع والاستجابة له بيحيى ابناً ووليا: راجع الآيات ٣٨ - ٤١ سورة آل عمران، وانظر الآيتين ٨٩ و٩٠ سورة الأنبياء.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا﴾ (٣)

وافت رحمة الله تلك المذكورة والموصوفة في تالي كلم القرآن بحروفه ظرفاً ترجّاها فـــيه زكريا، إذ نادى ربه نداءً خفياً، مناجاة في خالص شأنه الذي يعنيه، يسأل ربّه في خصوص خلوة عبادته لا دعاءً يجهر به تضرعاً على الملأ من الناس.

﴿قَـــالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (٤)

قال زكريا يدعو الله يناديه ربّه (بحذف ياء النسبة إليه تعبيراً عن غاية التقرّب) إذ يملكه بقدر خلقه ورعايته وتصريف أمره، يذكر أنه هو وهن العظم منه – ضعف جداً كـــل عظمـــه العماد لقوام بدنه والأقوى من بناء هيكله، واشتعل الرأس منه شيباً، إذ انتـــشر في شعره الشيب فابيضّ سواد الشباب والكهولة. و لم يكن – طوال مدّ عمره ذاك – بـــدعاء ربه الذي يخاطبه عن قرب – شقياً، ما كان يعهد من مسنون دعائه له تعالى بمرجوّات الخير أن تعقبه الخيبة فالشقاء، بل كان يعتاد الاستجابة من الله ويتلقّى فضائله سعداً.

﴿وَإِنِّـــي خِفْـــتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ (٥)

وزكـــريا – كمـــا يقـــول في خطابـــه ربه – خاف حقاً الموالي – ذوي القربى والعـــصبة – مـــن ورائـــه بعد موته أو غيبته أن يضيعوا تراث الدين والملك ويسيئوا الخلافـــة، وذلـــك إذ بلغ هو من الكبر عتياً، كبراً تتعسّر بعده طاقة النكاح، وكانت امـــرأته – اليصابات خالة مريم – عاقراً، عقماً تعزّز ببلوغ العمر الذي لا تخصب فلا تلد بعده حتى الولود من النساء. ولأن مسنون تلك الأقدار المضطرد لا يبشّره بولد يليه ويحفـــظ مـــنه تـــراث الدين، سأل ربه أن يهب له من ذريته ولياً، يواليه لا عن قربى وحسب بل عن موالاة في الله.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (٦)

يـــرجو زكريا عليه السلام أن يحقّ رجاؤه في ذلك الولد الزكي، أن يرثه ويرث من آل يعقـــوب الأعلى أصلاً، أن يكون ولياً يصبح أهلاً لأن يخلُفه لا في أموال بل تركة في

سُــنن الــدين ومحفوظات تراثه - علماً وحكمة منه ومن آبائه وسلفه آل يعقوب بن إســحق بــن إبراهيم عبر الأسباط الطيّبين، عليهم جميعاً السلام. ويدعو زكريا مواليًا الــنداء لربه عن قرب أن يجعل وليّه ووارثه ذلك رضياً، مرضياً في كسبه خلقاً وصدقاً من ربه وأبيه. وكانت دعوة زكريا كلها من وقع الغبطة إذ كان يرى مريم ابنة عمران الــتي يكفلــها نبتةً طيبة فأراد أن يهبه ربه مثلها ولداً ذرية طيبة ورحمةً وحفظاً للدين الموروث.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٧)

يأتي زكريا النداءُ من ربه باسمه والخطاب المستجيب لدعائه: أن الله بعظيم أقداره خالقــاً ومــصرفاً لآجال الإنسان - يُبشره - تذكيراً بالخير القادم - بغلام اسمه الذي يميزه سمة دالة عليه: يحي، ولم يكن من قبل سميّ إذ كان برحمة الله وراء مسنون الولادة يفيض في الناس حياة تنبعث بركة، وكان بعدُ هو المعمدان يعمدهم فيحيي طهارهم إذ يغسلهم من النجس والخطايا.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (٨)

عــند تلك البشرى قال زكريا عليه السلام مناديا ربه متعجباً: من أي وجه وكيف تقع الاســتجابة لدعائــه ويكــون له غلام وحاله الواقعة أن كانت امرأته عاقراً لا تعهد خــصوبة ولادة وقد بلغ هو من العمر عتياً، هرماً اشتدّ فيه يبس الأعضاء واستعصت الطاقة على مجامعة زوجه.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (٩)

قــال رب زكــريا عليه السلام مخاطباً له - قال إذ نفذت استجابته سبحانه وتعالى له: أن كذلك بلغه منه ما قضى له به، وقال أن ذلك الأمر هو عليه تعالى هيّن يسير سهل، وذكّره - خطاباً مستمراً له - أن قد خلقه هو من قبل بشراً ماثلاً ولم يك (نفياً بالغاً إذ انحذفت فيه النون) شيئاً في الوجود يُعتد به بل خُلق بعد العدم المحض.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (١٠)

قال زكريا عليه السلام محاوباً مقارباً مخاطباً ربه الذي ملّكه وربّاه، طالباً إيّاه أن يجعل له آيــة، أمــراً يطمئن به قلبه على البشرى بغير المسنون، علامة يبين بها حق الاستجابة

وصـــدق وقـــوع الموعود فضلاً من الله مصرّف الأقدار، لأن الحمل خفيّ لأول عهده وغير مرجو إذ ينقطع عهده لكبر الأم. ردّ ربه مخاطباً إياه أن آيته المطلوبة تتجلّى في أنه لا يكلّـــم الـــناس ثلاث ليالٍ متواليات بانحباس لسانه طوالها يعتريه صمت مكتوب في مخاطـــبة الناس، بينما هو سوي سليم لا تصيب علة الخرس المطبق بعداً، وكأنه يغشاه عقاب صوم اللسان كفّارة لمقالته متطلباً آية تشهد له على صدق كلمة الوعد من الله.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١١)

تـــرتيباً علـــى ما كُتب عليه من آية الصمت، خرج زكريا عليه السلام على قومه من المحراب، المصلّى عند مرتفع صدر الهيكل - غرفة محجوبة ذات سور حيث كان يناجي ربـــه دعاء فاستجابة، ظهر عليهم عاجزاً عن الكلام إليهم معتَقلاً لسانه، فأوحى إليهم من ثم بالإشارة المعبّرة رمزاً أن يسبحوا، يذكروا الله بما يقدّسه ويُعلي شأنه على سائر متعلقات العالم المشهود الموقرة، أن يوالوا ذلك بكرة وعشياً، غدوة ومساء كل يوم * .

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (١٢)

وطوى القرآن ذكر ما هو معهود من سُنن جريان الأمور ومُضي نفاذها بعد ذكر خصوص دعاء زكريا عليه السلام فاستجابة الله سبحانه وتعالى وبُدوّ آية صدق بشراه - من أقدار حمل امـــرأة زكـــريا ووضعها يحيى ونموه حتى بلوغ باكورة من الرشد. فورد ذكر الخطاب ليحيى عليه السلام منه سبحانه وتعالى أن يأخذ الكتاب بقوة، أن يتولى بجد وعزيمة وعمل كتاب التوراة المـــوروث المرويّ نقلاً منذ موسى عليه السلام. وآتاه الله العظيم بأقدار اصطفائه وهدايته - الحكـــم، تنـــزيل الكتاب بحكمة على واقع بلاءات الحياة، أوتي ذلك وهو صبـــي لمّا يبلغ كمال الرشد كمسنون النضج[1].

﴿وَحَـــنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (١٣ - ١٤)

وآتـــاه الله كـــذلك - بعظيم رحمته ومن لدنه بلا واسطة تجربة وتعليم - حناناً، خُلُق رأفة وعطف وشفقة بالناس، إذ أصبح يحيى عليه السلام معمداناً يعمد الناس ويطهرهم

(١) في ذكـــر زكـــريا ويحيى بين يدي ذكر عيسى وإلياس عليهم السلام: راجع الآية ٨٥ سورة الأنعام.

بمـــدد من بركة الله. آتاه الله أيضاً زكاة إذ كان يتزكى بفضائل الخُلق طهارة في نياته وخلوصـــاً في تعبيراته. وكان تقياً مضى في طبعه متخشياً لربه راعياً لحدوده لا يتعدّاها مجتنـــباً للمعاصي والخطايا. وكان براً بوالديه إحساناً في المعاملة، ولم يكن على والديه ولا علـــى سائر الناس في جبلّته الماضية جباراً، متكبراً غليظاً، عصياً مشتداً متصلباً، بل هو مطواع لربه ولوالديه رؤوف بالناس[1].

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥)

وســـلامٌ علـــيه - يحيى عليه السلام تحية من الله وبشرى أمان، يوم وُلد - مهما يغشاه الضعف والعرضة للمحذور لا يغشاه سوء من مخاطر الطفولة، وسلام عليه يوم يموت، إذ روت الأخبار الإسرائيلية أن قد قتله الرومان لمذهبه في سبيل الله فتوى بحرمة زواج هيرود حاكم فلسطين من بنت أخيه هيروديا فأغرت بنتها بالرقص أمام هيرود ورجاء مكافأتها بـــرأس يحيى. وسلامٌ عليه يوم يبعث حياً في الآخرة راضياً إذ تحييه الملائكة ويتلقاه ربه بتحية السلام والرضوان في دار السلام، لا كربة له من علة ولا حسرة على ما فات من الموت.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦)

تمـــضي الآيات بعد ذكر زكريا كافل مريم وذكر ابنه يحيى الذي كان مولده آية معجـــزة وكان النبـــي الداعي بالبشارة لعيسى ابن مريم - تمضي توصي النبـــي الخاتم المخاطـــب بكتاب الرسالة وبعِبر سيَر الأنبياء مثالاً ومهاداً له أن يذكر في آيات ذلك الكـــتاب الـــتي يقرؤها لنفسه هدىً واعتباراً بقصصها ويتلوها على أمة خطابه بلاغاً ووعظاً - أن يذكر مريم - لا في قصة مولدها ومنبتها عابدة بتولاً كما ورد قبلاً * بل إذ تنحت عن أهلها مكاناً شرقياً - لعلها ذهبت لقضاء حاجتها أو الاغتسال والتطهّر. وكـــان ذلك المذهب منحى تلقاء مشرق الشمس مهاداً لمطلع بشارات فيها تجُلّي آية ميلاد عيسى التي هي أبلغ من آية ميلاد يحيى السابقة الذكر.

---

(١) من خُلق الأنبياء أن يكونوا قدوة للمتقين وأبراراً رفقاء إحساناً بمن حولهم لا جبّارين، بالنسبة لعيسى: انظر الآية ٣٢ من ذات السورة. ومن الوصايا للعباد كافّة الإحسان بالوالدين والرفق بهما: راجع الآية ٢٤ سورة الإسراء.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (١٧)

وبتلك الخلوة في مكان المنتبذ ذاك اتخذت مريم، تكلّفت أن تجعل من دون أهلها حجاباً ساتراً من نظرهم. ثم تهيّأ من ذلك الخلاء أن أرسل الله بعظيم أقداره الأزلية المتنزّلة على دنيا عباده – أرسل إلى مريم الروح الملكية المنتسبة إلى أقداره الغيبية الجليلة، فتشكّل لها الملك شبحاً بشرياً مستوِي الهيئة كسائر ما عهدت من البشر لا يروعها مثاله.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ (١٨)

قالت مريم – رجعة قول لفجاءة حضور أحد في موقع الخلاء متنزلاً وحال الخلوة المستسرة – قالت تباشره الخطاب إنها تستجير بالله الرحمن – بالغ الرحمة المرجوّة بكل فيوضها في تلك الحال، تستعيذ به ﷻ من أيما نذير عدوان عليها منه إن كان تقياً يرعى حرمات الله في عرضها خشية من غضبه.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ (١٩)

قال المَلَك لمريم أنه ما هو إلا رسول ربها – الله الذي خلقها ويرعاها، ما هو ببشر عاد يُستعاذ بالله منه، بل رسول من ربها ليهب لها عطاء عفواً غلاماً – ولداً ذكراً – ظاهراً نامياً على الخير(١).

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (٢٠)

قالت مريم وقد عجبت من قول ذلك الروح ووعده: من أيّما وجه يكون لها غلام، كيف تلد وهي عذراء و لم يمسسها بشر ذكراً عهدته غشيها جماعاً مشروعاً أو عدواناً حراماً، و لم تكُ (نفياً جازماً بحذف النون) بغيّاً أن تتطلب نكرات الرجال وتزانيهم ليقع فيها الحمل ورجاء غلام.

﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (٢١)

---

(١) حول مريم ابنة عمران وولادة ابنها عيسى آيةً: راجع الآيات ٤٥ – ٤٧ سورة آل عمران، والآية ١٧١ سورة النساء، وانظر الآية ٥٠ سورة المؤمنون، والآية ١٢ سورة التحريم. ويتواتر كثيراً في القرآن ذكر عيسى منسوباً بنوةً لأمه مريم.

قـــال الروح لمريم يخاطبها لتطمئن على صدق الوعد طهراً: كذلك قال ربها كما بلغـــتها رسالة أمره أن توهب الغلام الموعود، وكما يخاطبها ربها إن ذلك أمر بإيقاع الولادة هو عليه ﷻ هيّن مستيسر أن يقضيه قدرُه وإن شذّ عن أقداره المسنونة للولادة بـــسبب المماســـة بـــين الأنثـــى والذكر. وروى لها الروح من قول ربها إنه كذلك وليجعله – بأقداره العظيمة النافذة – آية للناس، علامة وتذكيراً بقدره المتجلّي المتعالي فـــيه مخلوقاً بغير معهود الأسباب، وليجعله أيضاً رحمة من أقدار رحمته العظيمة ليحمل هو رسالة هدى لعباده غيبيّة ليصدقوها في حياة عالم الشهادة المطبوع بالسنن المعروفة المكتـــنف بالبلاءات الفاتنة. وكان ذلك أمراً مقضياً، كلمة من حكم الله ماضية لتنفذ واقعاً في الحياة.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٢)

فحملـــت مـــريم ذلك الجنين بعد أن تطورت آثار ما قذفه الروح في فرجها بأمر ربّـــه، فانتبذت به معتزلة أهلها – مكاناً قصياً، آثرت بُعده لتستر أعراض ثقل الحمل ومخرجه مولوداً.

﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ (٢٣)

فألجـــأ المخاض مريم وأتت بها آلام وجع الطلق وحركة الجنين الخارج من الرحم إلى جـــذع الـــنخلة تلتمس لدى ساقها ظلاً ومتعلّقاً ومعتمداً للمصابرة على المخاض وحـــراك عسر الولادة. قالت – أمنيةً إذ غالبها اتقاء شدة وقع آلام المخاض وخوف عاقـــبة الارتـــياب من أهلها بأمر ذلك الوليد: أن يا ليتها ماتت قبل حين ذلك الولاد وكانت نسياً، شيئاً متروكاً منسياً مطرحاً لا يخطر على بال متذكّر.

﴿فَـــنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ الـــنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ (٢٤ – ٢٥ – ٢٦)

فـــنادى مريم من تحتها – ذلك الجنين الموضوع إذ ألقته وليداً، ناداها يخاطبها ألا تحـــزن قـــد جعل ربها من تحتها سرياً جدولاً من الماء الساري لحاجة الشراب وغسل

الجـــنين، وأن تهز مجاذبةً أصل النخلة مهما يثقل ذلك على طاقتها في معتاد السنن فإنه عـــندئذ يساقط ثمرها عليها رطباً طرياً جنياً طيباً للاجتناء تناولاً، ليتهيّأ لها من ذلك أن تأكـــلَ من رطب النخلة وتشرب من ماءِ السّري، وتقرّ عيناً - تسكن عينها باردة عن سعد وطمأنينة. وذهب الوليد يوصيها من بعدُ أنه ما ترى من البشر بني الإنسان أحداً إلا تقـــول لنفـــسها عن عزم إنها نذرت والتزمت للرحمن صوماً، وإمساكاً وصمتاً من الكلام فلن تكلم اليوم إنسياً أحداً من الإنس.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (٢٧ - ٢٨)

فأتـــت مريم بوليدها قومها تحمله غير مبالية بوقع مشهده. قالوا لها إذ رأوا ذلك منها: يا مريم - ينادونها تنبيهاً باسمها معهودة فيهم - أن لقد جاءت بفعلتها تلك شيئاً فـــرياً، حـــدثاً عجيباً منكراً أشذته عما هو المشروع المعروف. وذلك أن خطرت لهم الـــريب مـــن صلتها بيوسف النجّار خادم البيت المقدّس معها، أن ربما عاشرها خفية لتفجأهم بذلك المولود. خاطبوها بعد: يا أخت هارون - يذكرونها منسوبة إلى أخيها سمـــيِّ النبـــي هارون مظنة لشرف مرجو لها: أن ما كان أبوها امرأ سوء يمارس الزنا حتى يَسُنّ لبنته مثل ما يرون منها ويظنون من سيئة ولادة بغير زواج مشروع، وأن ما كانـــت أمها بغيّاً تبتغي الشهوة لدى منكر الرجال قدوةَ سوءٍ لبنتها، حتى يحدث مثل ذلك.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢٩)

فأشـــارت مريم إلى وليدها تُحيل إليه الرد على قومها إذ التزمت هي الصوم عن الكـــلام كمـــا أوصاها هو إذ سمعته طفلاً يتكلّم تحتها. قالوا لها يخاطبونها تعقيباً على إشـــارتها إلـــيه: كيف يكلمون من كان في المهد صبياً في المحتضن صغيراً لم يبلغ سن النطق الراشد كلاماً يجيب الآخرين؟

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٠)

قـــال الـــصبـــي عيسى بن مريم دافعاً عن أمه المساءلة والمؤاخذة والارتياب، محاوباً للقوم بما يصرفهم عن الهمّ بأسباب ميلاده المنكر إلى ما هو الحق المتجلّي من الله في ظاهرة

أمـــره – قال إني عبد الله، يذكرهم بعبوديته لله في سياق آية الغيب حول وجوده وميلاده بقـــدر ربه الخالق المصرّف الأسباب، وذكر لهم – بصيغة الفعل الماضي – قدر الله الماضي وكلمته الجارية عليه هو في سيرة حياته، ما تهيّأ له بعد الصبا وحمل تكاليفها من ربه الأعلى تلقياً للوحي وللبركة وللوصاة بالعبادة وحسن الخلق والسلام. ذلك لئلا يذهب هو مفتوناً بمـــتعلقات الهـــوى وإغواء الشيطان دون الإله العظيم والرب الكامل الذي خلقه ويزكيه ويهذبـــه ولئلا يذهبوا هم به لمعجزة ميلاده ونطقه صبياً إلى التعالي به عن بشريته وعبوديته لله إلى مقامـــات غـــيب ربوبـــية فيه وتأليهاً، وليعرفوا نعمة الله عليه في الصفات الحسنى. قـــال – من ذلك – إن الله آتاه الكتاب فهو لا يحيط بالعلم والحكمة من تلقاء نفسه وإنما تلقى الهدى وحياً من الله. وقال إن الله جعله هو نبياً ليصله بعلم الغيب المنـــزل عليه وحياً منه تعالى ومدداً من روحه سبحانه، لا قوة من تلقاء نفسه هو تنفذ من وراء عالم الشهادة.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١)

واستمر الصبـــي عيسى يروي لقومه من فضل الله عليه أن جعله مباركاً، متزايداً فائـــضاً علمـــه وصلاحه وهديه بين الناس، وأن الله ﷻ أوصاه بالصلاة ليحفظ الصلة بـــربه الوهّاب الرحمة المستجيب لمن يواصله بالخشوع ولدعاء والتعبير عن إيمانه بإقامة شعيرة الصلاة الدائمة، وأوصاه بالزكاة ليزكّي إيمانه صابراً على كل ابتلاء شاكراً على كل نعماء مبتغياً وجه الله وليزكي كسبه في الحياة بالإنفاق المتوالي في سبيل الله. ذلك كلـــه مـــادام حـــياً، لا ينقطع بعارض فتنة عن الصلة بالله ذكراً وخضوعاً وخشوعاً وركوعاً ولا عن الزكاة ترقياً بدرج إيمانه وعطاء كسبه.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (٣٢)

وذكر عيسى لقومه أنه ﷻ جعله براً بوالدته واسع الخير في معاملتها مخلصاً محسناً يـــصلها طاعـــةً وصـــدقاً بلا عقوق لأنها كانت وحدها سبب ميلاده ورجاء تربيته وتـــزكيته. وذكـــر أن الله لم يجعلـــه جباراً مستكبر القلب فظ اللسان غليظ اليد على الآخـــرين بـــل تقياً لله سمحاً رحيماً لطيفاً بالناس، وأن الله لم يجعله شقياً في حرج من مـــصابرة الحياة تشق عليه مسايرة ظروفها ومسالكة علاقاتها ومجاهدة بلاءاتها ولا بيّن المشاقاة في تعامله يبسط في تعامله العسر والخيبة لا السعادة له ولغيره.

﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٣٣)

وذكر عيسى أن السلام يُسبغه عليه ربه تحية وبشرى وأماناً يوم وُلد لا يلحقه شر ولا ضر من ضعفه صبياً وغرابة أسباب مولده، بل تلك آية تعزز اطمئنانه وتوكله على الله فيما يُقبل عليه من حياة. والسلام عليه يوم يموت راضياً أن تمضي عليه سنة البشر الـــذين ما جعل الله لهم الخلد في الدنيا، مطمئناً أنه يفارق الحياة الدنيا مضطردة سيرته حـــتى ختامها على صراط مستقيم مهدياً من ربه. والسلام عليه يوم يبعث حيّاً مرضياً مـــن الله الـــذي يـــرجع إليه فيدخله في دار السلام طوبى له وسعداً ويقيه من حسرة الحـــساب ورهـــبة سوء العاقبة. كل ذلك قدر مطّرد من السلام المعهود الذي يغشى عيـــسى علـــى غرار سلام ما (بغير أداة التعريف) مكتوب ليحي الذي تقدّمه ميلاداً وتبشيراً به رسولاً.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤)

ذلك التجلّي لآية الله البيّنة نفاذاً لأقدار الله تعالى وأطوارها من إنبات مريم القانتة لله إلى نـــشوء عيسى جنيناً ذا روح فيها وإخراجه على غير مسنون الزوجية والوالدية وإنطاقه بكلمات الحق منذ صباه عبداً لله مباركاً ذا صلاح وسلام – ذلك الطبع البديع والـــشأن العالي لقيام إنسان من بني آدم: هو عيسى بن مريم التي أدت وظيفة الأمومة بنفحة روح ملكية دون أن يمسها بشر ذكر – تلك الآية المتجلية تأتي بكلمة القدر من الله وقـــول الحـــق في عيـــسى الذي فيه يمتري خلفٌ من اليهود والنصارى، يشكون ويجادلـــون فيه أنه ابن للنجار لغير رشدة أو أنه ابن لله متحداً معه في الألوهية ومع أمه أو روح الملك الذي نفخه فيها.

﴿مَـــا كَـــانَ لِلَّـــهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (٣٥)

ذلـــك أن مـــا كـــان ولا جاز حقاً في ذات الله مطلق الوجود والكمال الواحد المتنـــزّه عن صفات البشرية المحدودة في الوجود والظرف المتزاوجة ذكورة وأنوثة – ما كان له تعالى أن يتخذ ولداً كأحد من عباده البشر يتّخذ ولداً نتاجاً للمناكحة الزوجية وفـــق سنن الطبع المعهود يقضي به حاجة الشهوة والمدّ نسباً ويبتغي العون من ولي إذ

هــو فــرد عاجــز. الله هو الغني الذي يملك ويصرّف كل خلقه القاصرين المحكومين بأقــداره الــربانية، إذا قــضى أمراً فأراد أن يوقعه حكماً لا تحدّه الأسباب بل بقوله تتــصوّب إرادته وقدرته لوجود الأمر، بقوله: أن يكون الأمر فيكون واقعاً في الوجود دون وقــف على أيما سبب سابق لنظم أقداره تعالى بل وفق الأسباب التي يصرّفها هو ويعهدها البشر طبعاً أو دونها كيفما يشاء.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (٣٦)

بعــد تلك الكلمات من التذكير بالحق حول عيسى بن مريم عليه السلام أنه لم يتخذه الله ولــداً، بــل وُلد دون أب بقدر الله وقضائه النافذ، تستأنف الآية مقولات عيسى الرشيدة السّابقة التي نطق بها منذ صباه إذ يضيف هو – مخاطباً قومه – أن الله ربّه هو وربّهم هم، هو الخالق المالك المدبّر أمورهم كافّة، فليعبدوه – كما شهد هو بالعبودية لــه – لأنه تفرّد بإسباغ نعمائه عليهم، ليهتدوا بهداه – كما بلغه هو من هدى النبوة ووصايا الصلاة والزكاة والبر والإحسان بمن يليه ومن الترغيب في ذلك برحمة السلام الموصولة أبداً. هذا صراط مستقيم في وجهة الحياة الدنيا نحو لقائه سبحانه وتعالى في الآخرة[1].

﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧)

وتــرتب على تلك الآيات من الله ودعوة الحق من نبيه عيسى أن اختلف الذين خوطــبوا بهــا وصــاروا هم الأحزاب – المذاهب المتباينة المتوالية فرقاً وشيعاً من بني إســرائيل الذين جاءهم ابن مريم رسولاً يُذكرهم بآيات التوحيد والعبادة لله ويدعوهم لهدايــته. فمنهم من تبيّن الحق وآمن به، ومنهم من ضلّ وكفر بآيات مولده ورمى أمه بالبهــتان، أو بدعــوته التوحــيدية لعبادة الله فألّهه ابناً له مقدساً سبحانه وتعالى. فويل الفجيعة والمهلكــة للذين كفروا من مشهد يوم عظيم، لئن كان غيباً فسيأتي محضوراً مشهوداً عظيم الوقائع والقوامع عليهم[2].

---

(١) في دعــوة عيــسى عليه السلام توحــيداً لله وعــبادة على صراط مستقيم: راجع الآية ٥١ سورة آل عمران، والآيات ٧٢ و١١٦ و١١٧ سورة المائدة، وانظر الآيتين ٦٣ و٦٤سورة الزخرف.

(٢) في اختلاف الخلْف أحزاباً بعد دعوة عيسى البيّنة: راجع الآيات ٥٢ – ٥٧ سورة آل عمران، والآية ٩٣ سورة يونس، وانظر الآيتين ١٣ و٢٤ سورة الشورى، والآية ٦٥ سورة الزخرف، والآية ٤ سورة البيّنة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٨)

إن كان أولئك الخلف المختلفون شيعاً في شعاب الكفر والضلال صماً عمياً عن الحق في الدنيا، لا يسمعون نبأ ذلك اليوم الآخر العظيم ولو جاءهم به الوحي سمع وجدان مستجيب خاشع، ولا يبصرون بصيرة اهتداء لأنه غيب - فما أسمعهم وأبصرهم، يا للعجب من شدة إدراكهم لحقائق ذلك المصير الموعود، يوم يأتون الله كما يخاطبهم مذكراً بأقداره العظمى يسمعون كلمات السؤال والاستشهاد والحساب ويبصرون أهوال الجزاء والعذاب. ذلك حق لكن أولئك الظالمين العادين على الحق هم اليوم في حاضر الدنيا دون ذلك اليوم الآخر في ضلال مبين لا يسمعون دعوة الهدى إلى صراط مستقيم بل يضربون في الحياة كيفما قلّبهم الهوى صماً عمياً.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٩)

والأمر للرسول ﷺ خاتم الرسالات من الغيب ومصدّق حقها ومجدّد ذكرها وباسط دعواها إلى بني إسرائيل والنصارى والناس كافة الذين هم في اختلاف وضلال - الأمر له أن ينذرهم يوماً تعظُم فيه المشاهد وتغشى الظالمين الندامة والحسرة، إذ قُضي الأمر بقيام الآخرة وهم سادرون في الدنيا وفتنة دهرها ومتاعها المشهود في غفلة عن الهدى والنذير وهم لا يؤمنون بآيات الله في طبيعة الأرض المشهودة بعث حياة بعد الموت للنبات دورة آجال مكتوبة ولا في رسالة الغيب بشارة ونذارة بالمرجع إلى الله بعثاً بعد الموت في الدنيا للإنسان.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٤٠)

عقب الاعتبار في الدنيا بتعاقب الأنبياء ومواليهم وولدهم وخلفهم وتوارث الدين المحفوظ وتضييعه، يقول الله أنه بأقداره العظيمة المحيطة بالخلق المدبرة لمصائرهم المدبرة لمسيرتهم في الدنيا وعاقبتهم في الآخرة يرث الأرض يبدّلها بقدره ويحوزها بملكه بعد صعق البشر كافة ولا يدعها لأحد يتوهم أنه يتولاها ويتمتع بها خالداً، ويرث من عليها لا يدعهم في الحياة مداً أبداً بل يفنيهم جميعاً ثم يتولاّهم بعد الموت، إذ إليه بأقداره الفاعلة يرجعون أحياء يوم الدين.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (٤١)

ولئن أوصي الرسول الخاتم ﷺ فيما سبق من الآيات أن يذكر توارث الدين الحق وآيـــات الله في زكـــرياء ويحيى ومريم ثم في ميلاد عيسى الذي قام بدعوته لتوحيد الله وللهـــدى والـــسلام إلى يوم البعث، وأن ينذر الأحزاب الخالفة من ذرية بني إسرائيل والنصارى ممن ارتابوا بحق بشرية عيسى وضلوا عن دعوته، فقد كان هو مبعوثاً رسولاً في العـــرب عقـــباً آخر من إبراهيم الذي ترك فيهم ملة التوحيد والغيب، لكنهم بعده ضـــلوا في جاهلية من الإشراك وما عهدوا كتاب هدى ولا رسالة نذير، وكان مبعوثاً أيـــضاً إلى سائر بني آدم ممن اضطربوا بجهل الرسالات أو اختلفوا وضلّوا عنها. ولذلك جـــاء ذكـــر إبراهيم عليه السلام أبـــي العرب في كتاب القرآن العربـــي، وأوصي الرسول الخـــاتم في هذه الآية أن يذكره إذ كان حقاً صدّيقاً رسخ في نفسه ماضياً حق التصديق بـــالله رباً واحداً وصدق التعبير عن ذلك منه هو مجاهداً في مذهب أقواله وأفعاله حنيفاً عـــن بيـــئة المـــشركين حوله وتأهّل فحقّ له أن يصطفيه الله ويجعله نبياً تنـــزل عليه بواسطة الملائكة أنباء الغيب ليفيض بها بلاغاً ودعوة بين الناس.

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ (٤٢)

ويُذكـــر إبراهيم عليه السلام إذ ابتغى بعد الإيمان أن يحسن لأبيه آذر ويحرص أن يصل سلفه بما جاء به هو من دين التوحيد ويطهرهم من الشرك كما يرجو أن يصل خالف ذريـــته بـــذلك. لم يكـــن مقلداً لآبائه وقومه المشركين – مثل حاضر خلفه العرب المخاطبين بالقرآن. يُذكر في الكتاب إذ قال لأبيه منادياً له عن ود بنسبته إليه سائلاً له سؤال إنكار في رفق: لِمَ، لأي داعٍ يعبد ما لا يسمع دعواته وأقواله ولا يبصر صلواته وأحـــواله من الأصنام المعهودة في تقاليد المجتمع يومئذ في العراق؟ لم يعبد ما لا يدرك تعـــبّده لـــه ولا يغني كافياً عنه شيئاً مهما يتوجه إليه بالرجاء كل حين في أيما أمر من حاجات الحياة[1]؟

(١) في جـــدال إبراهيم مع أبيه في حقّ التوحيد: راجع الآية ٧٤ سورة الأنعام، وانظر الآية ٥٢ سورة الأنبياء، والآيتين ٦٩ و٧٠ سورة الشعراء، والآيتين ٨٥ و٨٦ سورة الصافات، والآيتين ٢٦ و٢٧ سورة الزخرف. وفي استغفاره له: راجع الآية ٤١ وحاشيتها سورة إبراهيم.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (٤٣)

ووالى إبـــراهيم ﷺ بالـــنداء لآذر أباً له ينبئه أن قد جاءه وحياً بحقائق الغيب وهـــدى الحياة ما لم يأته هو المرهون لتقاليد العالم المشهود، ويرجوه من ثَمَّ أن يتّبعه، فمـــا الابن بأعرف بالحق من أبيه إلا بجديد علم موحى، فهو يهديه بذلك صراطاً في الحـــياة سوياً لا تتفرّق به التعلّقات ولا تتنازعه وجهات الشهوات والأهواء ولا ينقطع عند المدى المشهود المحدود من الدنيا بل يمضي قواماً في الدنيا وخيراً في الآخرة.

﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (٤٤)

ثم يعـــود إبـــراهيم ﷺ ينادي أباه ألا يعبد الشيطان، ألا يطوّع نفسه لنـــزع الشيطان ونـــزغه، لخفي من أرواح الجن، شاطنٌ عن الله مطبوع على البعد عنه تعالى يغـــوي الإنـــسان ويحرضه على اتباع الهوى وشهوات النفس الدنيوية. ذلك أن القوم كانـــوا يظنون أن الجن الغيبـــي تمثله الأصنام التي يعكفون عليها تعبّداً ودعاءً. وأكّد إبـــراهيم لأبـــيه أن الـــشيطان كان للرحمن - الرب الواحد بالغ الرحمة على عباده - عـــصياً، بالغ التمادي في عصيانه، وصوب ذلك المبلغ يجر من كان له مطواعاً من بني الإنسان.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (٤٥)

ويختم إبراهيم ﷺ الخطاب لآذر بنداء تال له أباً له: أنه هو يخاف شفقة وغيرة علـــيه أن يمسه ما يعلم من عاقبة الضلال في عاجلة دنياه أو آجلة أخراه - عذاب من الـــرحمن الذي يتولّى عباده بفائض رحمته لكنه هو استحق غضبه فحق عليه العذاب، فيكون ذلك الأب - كما يخاطبه إبراهيم - ولياً للشيطان الذي لا تنفع موالاته بل هو لمن تولاّه قرين في العذاب.

﴿قَـــالَ أَرَاغِـــبٌ أَنـــتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (٤٦)

قـــال لإبـــراهيم أبوه، مقاوماً حرص دعوته لعبادته الرحمن بإنكار وإصرار على الجهالـــة المعهودة، مسائلاً له يخاطبه مباشرة بضمير المخاطب: أتاركٌ هو الآلهة ينسبها الأب إلى نفـــسه أصـــالة وعزة لها وغيرة عليها وهي آلهة التقاليد؟ أراغب عنها ناشداً

غيرهـــا؟ يناديه عندئذ باسمه إبراهيم ويمضي حاملاً عليه أن لئن لم ينته منصرفاً عما هو علـــيه ليرجمنّه رمياً بمقولات الهجر أو بمقذوفات أدمى ضرباً، ويأمره لذلك أن يهجره ريغرب عنه ملياً – دهراً وزماناً طويلاً.

كان ذلك الذكر تسلية وعبرة للنبـــي الخاتم ﷺ لأنه مثل ما كان يلقى من الأذى والنذير بالإخراج من عمه وذوي قرباه وقومه في مكة.

﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٤٧)

قـــال إبـــراهيم عليه السلام وهـــو الحلـــيم الرزين يرد بسليم القول على مقالات أبيه ومهاجرته، يخاطبه تحية مفارق لا وداع تراجُم: أن سلام عليه. بل وعده أن يستغفر له ربّه يسأله أن يمحو له ذنب الإنكار والكفر وأن يهديه للإيمان والبر. ذلك قبل أن يتبين لـــه أنه عدو لله محتوم. وذكر له أن ربه وليه كانَ –قطعاً واقعاً– به هو حفياً بالغاً في إكرامه واللطف به مهما يؤذيه ويهاجره أو يخرجه قومه ذوو وطنه في الأرض.

﴿وَأَعْتَـــزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا﴾ (٤٨)

وأتمّ إبـــراهيم عليه السلام القـــول لأبـــيه وقومه يخاطبهم مضيفاً أنه سيعتزلهم مهاجراً بلادهـــم ومفارقاً عرفهم فيما يدّعون من دون الإله العظيم الواحد، وأنه سيظل يدعو ربـــه عسى – رجاء المطمئن – ألا يكون فيما يستقبل بدعاء ربه شقياً مستوحشاً في غربته لا يستجاب له بلطف عسرته، مثل شقائهم إذ يدعون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني في رجاء السّعد شيئاً.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (٤٩)

وحقّ رجاء إبراهيم عليه السلام عندما صدق عزمه، فلما اعتزلهم وما يعبدون من صنم يوحـــي بـــه الشيطان من دون الله الإله العظيم وحده، يقول الله سبحانه وتعالى أنه وهب له – بعظيم أقدار عطائه ورحمته، أُنساً لوحشته وعوضاً عمن هجر واعتزل وبعد أن بلغ من الكبر عتياً – إسحق من أمه التي كانت عقيماً تجاوزت سن اليأس، وأضاف له سبحانه وتعالى هبة الحفيد يعقوب من وراء إسحق. ذلك ليخلفاه في مقام عبادته ودعوته التوحيدية لله في

أرض مباركة. و لم يُذكر هنا إسماعيل إذ ورث الرسالة في مكان آخر وسيذكر لاحقاً. وكلاًّ من الولد والحفيد يروي الله أنه جعل بعظيم تصاريف أقداره نبياً يتلقى وحياً النبأ والهدى من الغيب والأزل.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (٥٠)

وهـــب الله لهـــم – أباً وذرية – بعظيم أقداره من رحمته التي تبسط هدى الحياة الدنيا وخيرها الجامع. وجعل لهم كذلك بعظيم أقداره في تصريف المصائر الخالفة لسان صـــدقٍ علـــياً، مقالةً تروي سمعة إيمانهم الذي يُصدقه العمل الصالح، وذكرَ ثناءٍ رفيع القدر عند الخالفين على تراث الإبراهيمية المهدية.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ (٥١)

الآي في الكتاب بعد ذكر عيسى عليه السلام الذي جاء برسالة عقيدة التوحيد له فارتدّ خلفه شركاً باتخاذه ولداً لله – الآي رجع إلى أصل الملة التوحيدية التي بسطها إبراهيم للدين الحق حانفاً من مذهب الإشراك وإماماً للهدى في ذريته. وهنا يرجع آي الكتاب إلى ذكـــر موسى عليه السلام الأصل الثاني بعد إبراهيم مجدداً لرسالة التوحيد وإماماً في خلفه من بني إسرائيل. والوصية للرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم تالي الكتاب أن يذكر فيه موسى إنه كان مخلـــصاً رســـخ في قلبه الإيمان المصفّى بالله وحده بلا شريك وعمرت حياته بإخلاص العـــبادة لله لا يرائي وكذلك أخلصه من شوائب الباطل الإشراكية التي غشيت قومه خلـــف إبراهيم المؤمن الموحّد لله والتي سادت في قوم فرعون الطاغي المدّعي الربوبية الأعلى. وكان موسى رسولاً إلى فرعون وملئه وإلى بني إسرائيل نبياً يُنبّأ وحياً بحق علم الهدى وحقائق الغيب ومصائره ليبلّغ في رسالته ذلك العلم والنبأ العظيم.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (٥٢)

ويقول الله أنه – بعظيم أقدار رسالته للبشر وبرحمة إيناس عبده المهاجر موسى في وحـــشة صـــحراء ســـيناء الجانبة – ناداه من جانب الطور – الجبل المعروف – الجنوبـــــي الأيمن، ناداه وحياً بأصول معرفة الله وتوحيده، وأنه سبحانه وتعالى كذلك بأقداره المـــتجاوبة قرّبه نجيّاً، داناه زلفى يخصه بالوحي يبلّغه كلمة الحق ورسالته إلى فرعون وبني إسرائيل.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (٥٣)

ويقــول الله كذلك أنه بأقدار مدده العظيم أيّد موسى الطَّيْلاً ووهب له – من رحمته الــواردة بعظــيم نعائم لطفه الفائضة – أخاه هارون نبياً يتلقّى أنباء الغيب يشدّ أزره ويشاركه في أمره لاسيما في فصيح التعبير عن رسالته وخلافة أمره في حال غيابه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ (٥٤)

وإذ كانــت الوصية بذكر إبراهيم الطَّيْلاً صالحِ السّلف وأصل ملة الهدى يتلوها ذكــرٌ لموســى وهارون أخوين من ذرية ابنه يعقوب الذي هاجر بأهله غرباً إلى مصر مأوىً آمناً ثم كانت العاقبة طغيان فرعون وتعذيبه لبني إسرائيل حتى جاء فيهم موسى وهــارون برسالة الهدى التي هاجر بها بنو إسرائيل أوباً إلى الأرض المباركة – إذ كان ذلك كذلك فالوصاة الآن للرسول الخاتم ﷺ المبعوث في العرب أن يذكر الابن الآخر لإبــراهيم: إسماعيل الذي هاجر به أبوه جنوباً إلى الحجاز وأسسا البيت الحرام وكان الأب للعرب المستعربة والمهاد لتجديد الرسالة التالي بعد بعث النبــي الخاتم المخاطب بالقــرآن ليــبلّغه العرب ثم الناس كافّة. إن إسماعيل كان في جبلّة طبعه وماضي سيرته صادق الوعد وفياً صبوراً على عهد الله لا يقطع موصول تراث الهدى لا ينساه خلف أبــيه. وكان رسولاً لقومه جُرهُم نبياً تبلغه رسالة الهداية لأهله الذين كانوا غرباء عن أرض عهد الدين شمالهم.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (٥٥)

وكان إسماعيل الطَّيْلاً – في رسالة الهداية لأهله في الحجاز الذين كانوا غرباء عن عهــد الدين الغيبــي – يأمرهم بالصلاة ملازمة لشعيرة تزكية النفس وطهارة الجسد ذكــراً وصور تعبّد لله وصلة خشوع له لاسيما في المسجد الحرام الذي رُفعت أركانه بيــتاً للمــصلين. وكان يأمرهم بالزكاة بركةً للنفس بتطهيرها من شحها وللكسب الفــائض عن الحاجة بإنفاقه في سبيل الله الرازق فيضاً على عباده الفقراء وصدقة عبادة لـــه وابتغاء أجر في الآخرة. وكان عند ربه الذي ربّاه ووصله وزكاه برحمته مرضياً إذ صـــدق الوفاء بعهد العبادة ووصل ربه بنفسه وماله غير مفتون بالتعلّق بالمشهود غفلةً عن الصلة بالغيب ولا بشهوة الملك للمال شحاً في النفس.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (٥٦ - ٥٧)

وليذكر الرسول الخاتم ﷺ المخاطب بالكتاب والقرآن المنزل إليه وحياً - إدريس، وهو في أقرب القول للصواب إزرا (أو استراس باللاتينية) الذي جاء بني إسرائيل بعد العود من النفي في بابل إذ ضعفت في مجتمع اليهود رعاية أحكام الشرع الموروث وتقوى الله في خلق الحياة، فكان داعية ليجمع الصف على هدى شرع التوراة وأحكامه ولتوحيد اليهود بعد أن غشيتهم عوامل التفرّق والشتات، فجدّد إمامة موسى وسمي راعياً وأباً لليهود وأوحي إليه كتاب من الله كما ورد في بعض الآثار، وهو مذكور في آية تالية في سياق ذرية إبراهيم، كان صدّيقاً بليغ الصدق في أذكاره وأفعاله عبادة لله نبياً موصولاً بنبأ الغيب من الله. ورفعه الله - بعظيم أقداره التي تصرّف مقامات العباد - مكاناً علياً، إذ يسّر له برفيع كسبه درجاً مقام الزلفى العليا في جنب الله تعالى.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ من ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (٥٨)

أولئك العالون درجة من حملة أمانة الدين ورسالته الذين خوطب النبي الخاتم ﷺ أن يذكرهم تالياً لهذا القرآن هم الذين أنعم الله عليهم برحمة الوحي آياتٍ تتنزل عليهم ليعلموا بها عن الغيب تنبئهم بحقائقه وليهتدوا إلى استقامة الحياة تمدّهم برشد وتوفيق وعون في بلاءاتها كما سبق بيانه في ذكرهم. فهم لذلك من النبيين من ذرية آدم أب البشر الذي كرّمه الله بالخلق وسجود الملائكة له وابتلاه بالتجربة الأولى في طاعة أمر الله والمعصية بإغواء الشيطان وتفضل عليه بالتوبة في الأزل، ثم قدر له الهبوط إلى عالم الشهادة في الأرض المحجوب عن الغيب يلازمه الهدى والوعد أن يتعهّد الله ذريته برسالات وحي متعاقبة. وهم ممن حمل الله بأقدار إغراقه للظالمين المعرضين وإنجائه للصالحين المستجيبين لدعوة الرسالة - حملهم مع نوح في سفينة ليستخلفهم في الأرض ويمدّهم بسلام وبركات ومتاع فيها وتخلفهم ذريّتهم أمماً. وهم من ذرية

إبـــراهيم الـــذي هـــو من شيعة سنة الهدى منذ نوح وأبو الأنبياء الخالفين وخليل الله المهاجـــر وطنه الأول أرض الإشراك والفتنة في العراق السائح بهدى الرسالة التوحيدية الحنيفية في أرض العالم الوسطى. ومن ذرية حفيده يعقوب إسرائيل ابن إسحاق، ذرية طيـــبة لإبـــراهيم عـــبر إسحق من الذين توارثوا النبوّة والرسالة حتى تمكّن الدين في السلطان واكتمل هدياً في الحياة كافة وحتى انتهت ذرية إبراهيم عبر إسماعيل إلى خاتم النبيين محمد ﷺ.

أولـــئك الذين أنعم الله عليهم، هم من هداهم الله بأقدار علمه ووحيه العظيمة، واجتـــباهم من بين الصالحين في عباده بأقدار اصطفائه الحكيمة حيث يجعل خير وقع اختـــياره. أولئك كانت قلوبهم المستجيبة لله الخاشعة – أن إذا تتلى عليهم من ملائكة الوحـــي آيات الرحمن – كلمات هادية إلى التي هي أقوم للحياة في عالم الشهادة والتي هـــي خير في الآخرة تتنـــزل عليها من فائض رحمة الله وبالغ نعمته – إذا تتلى عليهم خـــروا وهووا بوجوههم لله سجّداً وعبّروا عن خشية الله بكيّاً – شديدي البكاء من وقـــع خشيته تعالى. والسجود هو مبلغ الخضوع والطاعة سنةً يلتزمونها في سائر الحياة وشـــدة البكاء هو مبلغ الخشوع والإخلاص شاهداً على صدق مشاعر الإيمان والرهبة من جلال الله.

﴿فَخَلَـــفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (٥٩)

أولـــئك المهـــتدون المجتـــبون كانت تلك هي سُنتهم في الحياة يبتغون أن تُحفظ وراءهم في العاقبين. فخلف من بعدهم في أواخر العهود المزامنة لتنـــزيل القرآن خَلْفٌ لم يكونـــوا مقـــتدين بسنّة ذلك السلف الصالح بل أضاعوا الصلاة أم العبادات وعماد الدين في الحياة سجوداً خاشعاً لله متطهراً من الارتهان لتعلّقات الدنيا وشهواتها ولاتباع همـــومها العاجلـــة المبـــتلون بها في مسخرات متاعها وظروف علاقاتها، ومن ثمّ فوّتوا ســـياقات الطوع والتوجه إلى الله في سائر الحياة. ويترتب على ذلك أنهم سوف يلقون ويلابسون في طريق حياتهم غيّاً، ضلالاً وخيبة. وكان ذلك بادياً في خُلُق الحياة لذرية إبراهيم من إسرائيل الذين تعاقبت عليهم الرسل والكتب المذكّرة ولكنهم غووا وهووا

عـــن درج مـــسير الرشـــد المـــوروث، ومن إسماعيل أمة العرب المخاطبين الأوائل بالقرآن[(١)].

﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٦٠)

تلـــك العاقبة من الغيّ هي حظ ذلك الخلف إلا من وافته نعمة تذكير بوحي الله فاســـتجاب لها فتاب إلى الله متطهراً من الغفلة متذكراً بالصلاة منصرفاً عن الشهوات حانفـــاً إلى وجـــه الله، وآمـــن بآيات الله الطبيعية المشهودة والكتابية المروية بصحف الـــتذكير وكلماته المتعاقبة، وصدّق إيمانه فأضاف إليه تعبيراً صادقاً أن عمل صالحاً في مـــسلك حياته أقوالاً وأفعالاً. فأولئك – كالأولين المهتدين – يُدخلون الجنة – حديقة النعـــيم – في عاقـــبة مـــصيرهم ولا يظلمون شيئاً، إذ قدّموا التوبة فالإيمان وصدقوه بالـــصلاة والطاعـــة والتجرّد لوجه الله وصالح الأعمال رغبة في مرجو جزائه ﷻ فلا يظلمون شيئاً من كسبهم بل يوفون وعد الله بالجزاء عدلاً كفاءً.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ (٦١)

تلك الجنة التي يُدخلها كل أولئك هي لهم جنات عدن، إقامة مستقرّة، التي وعد الـــرحمن الـــشّامل الرحمة عباده بالغيب ما آمنوا وأصلحوا في ابتلاءات الدنيا المشهودة المحجـــوبة من الغيب بفتنة شهوات متاعها الحاضر رجاء تلك الجنة في الأزل. إنه ﷻ كان وعده مأتياً، يأتيه وينتهي إليه حقاً مَن تقصّده واستحقه وفاءً حقاً.

﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلاَمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (٦٢)

أولئك الداخلون الجنة هم في بيئة وصحبة طيبة الأقوال، لا يسمعون فيها لغواً من باطل أقوال التخاصم في النار الذي لا يغني شيئاً، إلا أن يسمعوا السلام من القول تحية طيـــبة مـــن الله يـــبلّغها الملائكة التي تسوقهم إلى الجنة وتتلقاهم عند أبوابها وتحايا من صحبة المؤمنين المتآخين فيها. ولهم كذلك رزقهم قوتاً كافياً بلا كلفة في الجنّات بكرة وعـــشياً متوالياً طوال اليوم كما عهدوا في الدنيا وموصولاً لا ينقطع حيناً كما عهدوا في ظروف الدنيا بل هم في نعمة الخلود.

---

(١) حـــول الخلـــف الغـــاوين بعد دعوة الأنبياء والصالحين: راجع الآيتين ١٦٩ و١٧٠ سورة الأعراف، وانظر الآيات ٥١ – ٦٣ سورة المؤمنون، والآيتين ١٣ و١٤ سورة الشورى.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ (٦٣)

تلــك هي الجنة التي يورث الله - بأقدار وعده الصادق وجزائه الأوفى وإعداده الأتم - يــورث عاقبة حياتهم الدنيا من بين عباده الذين ابتلاهم بعظيم أقداره فيها مَن كان تقياً، بالغاً في اتّقاء غضب الله حذراً في رعاية حدود هديه طامعاً في رحمته.

﴿وَمَــا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (٦٤)

في هذه الآية التفات من سياق البيان في سابق الآيات خطاباً من ملائكة الوحي. وإنمــا جاء مصوّباً مباشرةً للنبــي ﷺ في حالة أبطأ عليه الوحي فيها وغشيته الحاجة الملحــة لمد من القرآن موصول تثبيتاً وطمأنينة لقلبه. إذ كان هو في وحشة من سلوى عزيــز صحبة عشرات من المؤمنين هاجروا إلى الحبشة، لاسيما وقد ذكر الله في سابق آي السورة أمر الأنبياء السالفين الذين تنــزّلت عليهم الملائكة بآيات هداية أو وحي تــذكير رحمةً في أحوال عسر أو حاجة. وقد أحاطت بالرسول - عند ذلك العهد من بالــغ الفتــنة والاستضعاف وفقدان الصحابة المهاجرين - دعاوى المشركين المنكرين للغيب والبعث والنار المفتونين بحظوظهم الدنيوية الفاضلة الصادعين بمقولة اتخاذ الرحمن الملائكــةَ ولداً - شهادة شرك وأمراً إداً، فتنــزلت عليه ﷺ الملائكة تدرك حرج أمره تبشره بتوالي الوحي بالحق الذي يزهق أباطيل المشركين الدهريين - كما ستلي بذلك الآيــات. والملائكة تذكّر النبــي أن الله ما كان نسيّاً نسيه وما ودّعه قطيعة للوحي. وكانــت تلك التذكرة تأتي الرسول مخاطبة له متى أبطأ عليه الوحي حيناً فراودته ريبة الانقطــاع مــن الغيب، وترِد كلمات التذكير لفتة خطاب له مباشر حيثما تعجّل هو بالقــراءة تحريكاً للسانه في سياق تنــزل الآيات عليه رتلاً إذ يخشى نسيان تذكّر كل المدد الموصول.

ففي الآية يخاطب ملائكةُ الوحي - يمثلهم جبريل الروح الأمين - النبــي أنهم ما يتنــزّلون عليه إلا بأمر ربه الذي اتخذهم رسلاً من الغيب إلى الإنسان على سُنة أمرهم بالــسجود لــه لأول عهد خلق أبيه آدم، ما هم كما يتوهم أولئك العرب المخاطبون بالقــرآن في جاهليــتهم بــنات لله يصلون الإنس ويشفعون لهم بغير إذن من الله، بل

ينــــزلون بعلمـــه وبأمره وهو تعالى يعلم ما بين أيديهم مما مضى واقعاً يجهلونه، مثل مقتــضيات نــــزول هداية الوحي، وما خلفهم مما هو قابل وراء أفق إدراكهم، مثل ترتيب توالي التنــزيل وتعاقبه وتوقيته، وما بين ذلك من الحاضر مثل الوحي المتنــزل بواســطتهم مما لا يدركون من قضاء سياقه في واقع أسباب نــزوله وما هو آت من آثــاره إلا قليلاً مما يعلمهم الله. وهم يؤكدون للنبـــي أن ربه ما كان نسيّاً يغفلً عن إرســـال أرواح ملائكة الوحي إليه أو يهمله فقد سبقت كلمته لبني آدم أن يتعهدهم بالوحي الهادي في عالم الشهادة وبأن يتولاهم الملائكة يتنـــزلون عليهم أيضاً بالأيد إن كانـــوا مهتدين ويرقبون أعمالهم عموماً. وإنما ينسى الله مجاوباً معاقباً الذين ينسونه من العباد فيذرهم محرومين من مدّ تذكرته ورحمته دنيا وأخرى[1].

﴿رَبُّ الـــسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَـــا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِه هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (٦٥)

إن كـــان الله يُـــسخّر الملائكة رسلاً وجنوداً بأمره وإطار علمه المحيط فهو ربّ الـــسماوات والأرض مخلـــوقات بغير روح تسجد لله وربّ ما بينهما من شيء ونبت وحـــيوان وإنـــس وجن، فالإنسان الذي أحسن الله خَلْقه وأتمّ رزقه وبسط خياره في مـــذهب الحياة ينبغي أن يعبده ويتّبع هداه رشداً ورهبة منه ورغبة في أجره. فالخطاب لمحمـــد مُتلقّـــي القـــرآن المنـــزل أن يعبد ربه وربّ ما حوله ويصطبر لعبادته مجاهداً الـــبلاءات مهما يبتلى في بلاغ رسالته دعوة وإقامة مقتضاها في الحياة، ولو تأخّر عنه الوحـــي والتذكير حيناً أو تأخر وقع البشارات أو النذارات للهدى أو الضلال وأجلها الموعود.

والنبـــــي يُسأل خطاباً: لِمَ لا يوحّد الله عبادة ورجاء وتقوى، هل يعلم له سمياً يـــساميه أو يـــضاهيه ويماثله سِمةً فتسميةً؟ وهو 'الرحمن': إسم تفرّد به ﷻ في لسان العرب المخاطبين وتواتر ذكره في هذه السورة بأكثر مما في سائر السور في القرآن. وما

---

(١) في تنـــــزّل الملائكة بوحي القرآن وتنجيمه ترتيلاً موقوتاً بأمر الله: راجع الآيات ٩٧ – ٩٩ ســـورة البقرة، وانظر الآية ١١٤ سورة طه، والآيتين ٣٢ و٣٣ سورة الفرقان، والآيات ٤، ١٨ ســـورة النجم، والآيات ١٦ – ١٩ سورة القيامة، والآيات ١٩ – ٢٧ سورة التكوير، والآيتين ٦ و٧ سورة الأعلى، وسورة الضحى، وسورة القدر.

مـــن أحد يكافئ أسماءه الحسنى ولا يماثل صفاته العليا حقاً ولو سُمّي أو وُصف بها في لـــسان الناس فأنّى أن يشرك النبـــي بالله معبوداً مهما افتُتن في إخلاص العبادة له أو شق الاعتصام بالصبر لعِظم البلايا في حياته رسولاً.

عموم المعاني: الآيات ١ – ٦٥

الحروف العربية –كما يرمز لها بضع من الحروف المقطّعة مفتتحاً لسورة مريم – هي التي يتألّف منها قرآن وكتاب بيّن بلسان مَن أُنـــزل إليهم من أمة الخطاب الأولى العـــربية، رسالةُ أنباء الغيب وهوادي الحياة. ففي هذه السورة من حروفها ذكر لبعض رســـل الله الـــسالفين الذين في سيرهم ودعوهم عبرة للخالفين من قرّاء الكتاب. ومن الحـــروف العـــربية فيها تنشأ كلمات بيان لما يصل عالم الشهادة من الأرواح الملكية المتصوّبة نحو الإنسان تنـــزّلاً بالوحي أو فتنةً لمن يتعبّدهم أو أيداً وسلاماً للصالحين في الدنـــيا والآخرة، والشيطانية فتنة للناس أو قرناء للمفتونين في الدنيا والآخرة. أو تنبي مـــن الحـــروف العربية كلمات بيان في السورة للحق في مصائر العباد بشائر للمؤمنين الصالحين ونذراً للكافرين.

إن الله علّـــم الإنـــسان البـــيان باللسان، فظهور الحروف المقطّعة في مفتتح هذه الـــسورة وغيرهـــا تعبير عن تحرٍ لدقائق التبيّن لمعاني القرآن بدلائل الكلمات ولشعاب وقعهـــا علـــى مشاعر القارئ بأصوات الحروف وترتيل الجُمل، وأسلوبٍ من أحسن الحـــدي يطمئن السامع لمتنـــزّله من الوحي إذ يعجز البشر الناطق بالعربية عن مضاهاة بـــيانه ووقعه، وإشارةٌ لإدارة كل منطق كلمات اللغة المجوّد واتخاذ كل أساليبها البليغة فـــصاحةً ونـــسقاً ونغماً لنشر رسالة الإسلام ودعوته للناطقين بالعربية. ولئن كانت الحروف العربية وافية بكل دلالاتها السابقة الذكر فإنها أيضاً تذكير بالقياس على مثالها لبيان تلك الرسالة بكل حروف ألسنة بني الإنسان ولتوظيف كل أدوات التعبير وقواها فـــيها لذلك البلاغ – للنطق بأوسع مخارج حروف تلك الألسنة وأوقع أصواتها وأبلغ صـــيغ كلماتهـــا ولتأليف الجُمل وإنشاء المعاني لبيان دعوة الإسلام تخاطباً، أو لرسمها تكاتباً، للتحاور والتراسل.

ومن أبلغ أساليب نشر دعوة الحق المنـــزل وأوقعها على المخاطبين قص القصص وضـــرب الأمثلة من سيرة الصادقين السالفين، وما يشهد بذلك الصلاح من نبأ تاريخ الأنبـــياء المهـــديين بكـــتاب من الله منذ إبراهيم بصُحفه الأولى إلى حملة أمانة الكتب المتعاقبة المتصادقة من بعدُ من الأنبياء ذريةً لإبراهيم أو خلفاً لموسى حتى عيسى عليه السلام.

فـــأول ما عبّرت عنه كلمات سورة مريم المؤلّفة من الحروف العربية ذكر لزكريا الـــذي كـــان مثالاً لمن حمل رسالة الهدى الكتابـــي وحَفظها، لاسيما أنه تلقاها من سلف كآل يعقوب حفيد إبراهيم، إذ كان حريصاً على اتصال تراثها يشفق من الموالي خلفـــه أن يـــضيّعوها ويسأل الله ولداً ولياً وفيّ النسبة إلى سلفه وتراثه. وزكريا من ثمّ قدوة لكل من أخذ عهد أمانة الدين – أن يعلم أن ذلك الهدى تمضي أصوله صُعداً عبر سلف المهديين من صالح بني آدم إلى أُمّ كتاب الهدى في الأزل، وينبغي أن يبقى محفوظاً عـــبر مـــرور الزمان وتعاقب قرون المسلمين مستقبلاً حتى يوم المرجع إلى الله في آخرة الحـــياة في الأزل. فـــإذا نشر المؤمن دين الحقّ دعوةً بين الناس ينبغي ألا يقصره على الحاضـــرين لمدى عمره بل يسعى مدبّراً لمدّ الدين وراءه توصية وتزكية للولد والموالي وتـــركة للـــتابعين عمـــوماً. ذلك يحفظ الدين ويجعل له هو لسان صدق في الآخرين ويـــضاعف لـــه أجـــور بلاغ هدى الرسالة بقدر بسط وقع قدوته من حوله ووراءه. كـــذلك ناجى زكريا ربه ليهب له ولياً بعده، وكان إيمانه بربه القدير على كل شيء يخصب حتى ينبت بالغ الرجاء: أن يكتب له الله مبتغاه من الولد وراء أسباب الإنجاب الطبيعية، فرغم كبر سنه وعقم زوجه تنـــزلت عليه رحمة الله بشرى استجابة لدعائه. ولا بأس بالمؤمن أن يسأل الله ما يطمئن به قلبه إن دعا فرجاً غريباً من أقدار الله. ولئن كُـــتب علـــى زكريا الصمت من معتاد الكلام إلى الناس لأيام تعبيراً عن فرحته فقد أُوصـــي بالتجرّد للذكر الذي به تطمئن القلوب – أن يوالي تسبيح الله ثناءً وشكراً إذ اســـتجاب له ووافاه بتلك الرحمة ولو على غير مسنون الأسباب، وأن يبارك له الذكر والشكر موصياً بالتسبيح من حوله أيضاً.

وكما تلا يحيى زكريا بغير فاصل من أسباب الكبر والعقم المعهودة، فقد تواليا في مـــيراث حفظ الدين من أن يضيعه الموالي وراء زكريا، وكانت الوصية ليحيى من الله

الحفـــيظ الباقي أن يأخذ الكتاب بقوة. وتلك هي الوصية التي ينبغي أن يتذكرها كل من عقب ولياً صالحاً، أن يحفظ أمانة التراث القديم معتصماً بحبل الله وعهده الموصول. إن الله – عــبرةً بفــضله على يحيى – يُعِين وارث الدين بأن يؤتيه صبياً رُشد الحكمة وخُلق الحنان والتزكي، وإن صدق عزمه فراعى التقوى والبر بسلفه الذي أورثه الهدى فـــإن الله الـــذي أحاطـــه بسلام يوم مولده يُغشيه سلاماً إلى موته ويوم يبعث حيّاً في الآخرة.

ويُذكّر القرآنُ تاليَهُ من بعد بمريم. وكان المثال لتواصل طيب الذرية ولتوالي حفظ الـــدين فـــيها أن تـــنذرها أمها لسدانة المتعبّد والعكوف على الذكر فيه، وأن يكفلها النبـــي زكريا تربيةً وتزكية. ومريم في خلوة لقضاء حاجة تَمثّل لها الملك بشراً ففزعت واســـتعاذت بالله منه أن ينأى عنها إن كان تقياً، ولكنه بشّرها بغلام زكي يولد منها بقدر نفخة من الله دون المسنون من المناكحة وحمل الأنثى ولداً لأب ذكر. وصابرت علـــى ذلـــك وحان وضع الجنين فانتبذت من أهلها مكاناً قصياً وعانت آلام المخاض الموئـــسة من كل الحياة لغربة الأسباب، حتى أوت إلى نخلة فخرج الولد فخاطبها غير معهـــود في مـــثل سنه: ألا تحزن وأن تحتها سري ماء وفوقها رطب يتساقط عليها بهزّ جـــزع النخلة. فجاءت به قومها صامتة كما أوصاها هو، وأنّى لها أن تقارع مجادلتهم ومساءلتهم ورميها بالسوء والبغاء، ووكلت إليه الكلام لتبيّن لهم فيه أقدار الله الخارقة للمـــسنون مولداً ومنطقاً. وفي هذا المشهد من وقائع سورة مريم عبرة للمصابرة على البلاءات في الحياة تغلّباً لأقدار الله غير المنظورة أو المعهودة وعلى الفتنة من ملأ المجتمع وظنونه وأقاويله.

وانتصب ابن مريم ناطقاً في المهد آيةً من ربه، ولذلك كانت أُولى كلماته أنه عبد الله، آتـــاه الكتاب هُدىً منه ﷻ لا من تلقاء نفسه هو، وأسبغ عليه النبوة وحياً بأنباء الغـــيب وأقامـــه إســـوة صلاح بأن أوصاه أن يستقيم في نفسه بالصلاة والزكاة والبرّ بـــوالدته والـــرفق في مسلكه، وأنه كُتب عليه السلام يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حـــياً. وكانت الآية في ميلاد عيسى ومنطقه شهادة بيّنة بحقّ الربوبية لله وحده الذي يقـــضي في الخلق كما يشاء، وكانت كلمات عيسى الأولى شهادة بعبوديته لله الذي

يهديـــه ويـــسبغ عليه السلام. وما كانت دعوته للملأ من بني إسرائيل إلا أن الله ربّه وربهم فليعبدوه هذا صراط مستقيم. ولكن الأحزاب منهم في خَلَفه جعلوا من آية قدر الله في ميلاده دون أب دليلاً على بنوته لله واتخذوا من الله أباً له ومنه ومن عيسى وأمه أو الروح الملكي الأمين وجوهاً في عقيدتهم تثليثاً للّلاهوت.

إن مـــن الظواهر في سيرة تراث ديانات بني الإنسان في الأرض نـــزعٌ إلى التعلّق والتعـــبّد للمشهود الحاجب دون ما في الغيب وعكوفٌ على الأدنى المباشر ونسيان لله حتى لو عُرف أصلاً متعالياً في الأزل وغمرٌ لأصول حقائق الغيب في معتقداتهم بظنون مفتراة. كذلك ارتدّ النصارى وعكفوا على عيسى يكتفون ذكر قدسيته وألوهيته لأنه بـــدا شاخصاً مشهوداً واتخذوه ابناً صوبوا عليه إيمانهم دون الله الذي زعموه أباً له في الغـــيب، وعرضاً ما يذكرونه، وإن غاب عيسى عن الكون المشهود عارجاً إلى ربه في الـــسماء فإنـــه بما عقدوا عليه من الظنون عائد إلى ملكوت الأرض. هكذا حقّ على أولـــئك الـــذين كفروا بحق التوحيد لله ويل مشهد عظيم يوم القيامة إذ يبين لهم ذلك الحق مشهوداً وينطمس الضلال. وحقّ أن ينذرهم رسول الحق الخاتم من ذلك الحكم الـــذي ينتظرونه يوم الحسرة والفصل، إذ يكون الأمر قد قُضى مهما يكونون الآن في غفلة وهم لا يؤمنون بأن الله يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

ويذكّـــر القـــرآنُ تاليه النبـــي الخاتم تذكيراً يرتفع به إلى أصول الدين الحق، إلى إبـــراهيم، إنـــه كـــان صديقاً نبياً، بالغ الصدق إذ بارّ أباه، وإن اتّبع تلك السنة يحيى وعيـــسى فقـــد كانا من أب وأم على دين وصلاح موروث بينما جاهد إبراهيم أباه ليـــصلحه ويخرجه من ضلال. بشّره أن قد جاءه وحياً من العلم ما لما يأته، راجياً أن يتّـــبعه ليهديه صراطاً مستقيماً ليتحرر من الشيطان العصي لله ولئلا يحق عليه أن يمسه عذاب من الله ذي الرحمة الفائضة وأن يكون للشيطان قريناً. هكذا ابتُلي إبراهيم ببيئة الـــسلف الـــضالّ كمـــا كان يُبتلى عند متنـــزل هذه السورة من ذرية إبراهيم محمد النبـــــي الخاتم ﷺ وصحبه القليل لعله يتطهّر بتلك التذكرة إسوة بأبيه الأول لا ترهنه التقاليد الجاهلية العربية التي ارتدت عن الملة الحنيفية، ولعله يجاهد الآباء الأواخر وكل مجتمعهم الجاهلي في مكة في سبيل تعليمهم الكتاب الحق والحكمة التوحيدية وتحريرهم

مـــن موالاة الشيطان ووقايتهم من أن يحق عليهم عذاب الرحمن. ذلك كما قد يُبتلى المؤمن اليوم في إطار من بيئة ارتكست إلى تراث من الضلالة والجهالة لعله يرعى تلك الـــسُنّة التوحـــيدية القديمة مبارّا قومه حريصاً على هداهم ناصحاً في دعوتهم إلى الحق والخـــير وإنذارهم من سوء المصير. وكانت سنة إبراهيم أنه بعد أن صابر الفتنة من أبيه وقـــومه فارقهم سالماً واعداً أباه أن يستغفر له ربه ليهديه معتزلاً ما يعبدون داعياً ربه مطمئـــناً ألا يكون شقياً في هجرته لهم كما يتوهمون. فلما فاصل كذلك وهب الله له ولـــياً عِوضاً إسحق ثم يعقوب وكلاً جعل نبياً ورحمهم وجعل لهم لسان صدق عليّاً. وذلك تمام عبرة للرسول الخاتم ولمن يليه على سنته من الدعاة المصابرين في عهودٍ غربة الدعـــوة وأزمـــة الفتنة في قومهم – أن في الهجرة في سبيل الله لو اضطُروا إليها بشائر مرغم وسعة في الأرض.

ويوصى النبـــي الخاتم ﷺ – ومن اتبعه تالياً القرآن – أن يذكر فيه موسى عليه السلام إنـــه كان مخلصاً في دينه. وقد طال من بعده على قومه بني إسرائيل أمدُ نسيان أصول ديـــنهم فغـــشيتهم شوائب غفلة وقسوة قلوب. وكان هو فيهم رسولاً نبياً: يذكّرهم بأنـــباء الغيب مجاهداً لفرعون وطاغوته ولرواسب الميل في أنفسهم لعبادة المشهود دون الله وحـــب المـــتاع العاجـــل دون الآخرة، ويحمل الرسالة هدىً متجدداً لا في تذكير المؤمـــنين وتـــزكيتهم أفراداً وحسب بل في الرشد المتكامل لمجتمعهم في حياته العامة. وناداه الله في الطور وقرّبه نجياً بأقدار المخاطبة المباشرة من الغيب، يبلّغه كلمة التوحيد الخالـــصة ثم أمانـــة شريعة الحياة الراشدة، ووهب له أخاه هارون نبياً وعوناً على أداء الرســـالة. ويوصـــى النبـــــي الخاتم أيضاً أن يذكر إسماعيل أول سلالة إبراهيم ذات الجـــنوب، الأب المباشر لشجرة نسب محمد. إنه كان صادق الوعد لربه على سُنة أبيه الـــصدّيق وكان رسولاً نبياً يحفظ في ذريته وأهله الرسالة الحنيفية بأن يأمرهم بالصلاة والزكاة، وكان من ثمّ عند ربّه مرضياً. ثم أوصي النبـــي الخاتم قارئ القرآن أن يذكر فـــيه إدريس الذي حفظ شريعة التوراة لتجديد الإخلاص لعقيدة التوحيد والوفاء لعهد شـــريعة الـــتوراة، ورفعه الله مكاناً علياً إذ برز موحداً لليهود بعد الفتنة والشتات من المنفى في بابل.

أولـــئك المذكورون في السورة كانوا مثالاً لأعلامٍ من تراث دين الحق المتجدد في سابق الرسالات الكتابية، أولئك أنعم الله عليهم بأن خصّهم بالنبوة وكانوا ذريّة طيبة ترجع أصولها من آدم أبـــي البشر وحامل الهداية من غيب عالم الأزل إلى الأرض، إلى ســـلالته فـــيمن حُمل الله مع نوح في الفلك إماماً لبقية ذرية من المؤمنين الناجين من الطـــوفان المـــستخلفين بعـــداً في أرض الدين الوسطى برحمة من الله. وهم ذريّة بعد لإبـــراهيم الذي كان من شيعة نوح ملة دين، ثم لإسحق فيعقوب وإسماعيل – الذين كانـــوا ســـلفاً لموسى وهارون ثم إدريس وزكريا ويحي ومريم فعيسى، ثم محمّد خاتم النبيين. وكانوا سلالة من المهديين المجتبين المتّبعين، أئمة سنتهم أن يتلقوا رسالة الغيب بإيمـــان خـــالص، فإذا تتلى عليهم آيات الرحمن وحياً من رسل الله الملائكة يخرّون لها ســـجّداً وبكـــيا من بالغ الطوع والخشوع. وكان ذلك السّلف من المهتدين حريصين علـــى حفظ تراث الدين ساعين لمدّه وتجديده في وليهم وخلفهم. لكن كان من بلاء التاريخ أن خَلَف من بعدهم خَلْف انحطّ عن عالي قيم الدين وتعاليمه، فأضاعوا الصلاة شعيرة الذكر الواصلة بالله المتعالي وروح العبادة المتوالية التي تغشى كل الحياة فتطهرها وتـــزكيها واتبعوا الشهوات الهابطة إلى متاع الدنيا بهوى النفوس ووسواس الشيطان. أولـــئك الخَلْف حقّ عليهم ألا يلقوا إلا خيبة مصير للحياة. لكن ذلك لا يُكتب قدراً ماضياً حتماً على الخالفين كافة فالله يفتح بحُكمه العادل باحة ثنية للتوبة. فالذين تابوا إلى أصـــل هدى الدين الحق، أولئك يُدخلون الجنة عدلاً لكسبهم ولا يظلمون شيئاً، وهـــي لهـــم ما وعد الرحمن عباده بالغيب وعداً مأتياً لا يسمعون فيها إلا سلاماً ولا يؤتون إلا رزقاً دائماً – جنة يورثها الله من عباده من كان تقياً.

وســـابقة ذلك الخَلْف المضيّع لشعائر العبادة الخالصة الواصلة بالله والغيب والمتّبع للـــشهوات المفـــتون المرهون للدنيا، خلافةً لسلف مهدي خالص في الدين راشد في الحياة، هي مثال وعظة لسنن التاريخ في كلّ سيرة الدين. فقد تتداول عهود وعي إيمان وتذكّر هدى وتجدد حياة وإقدام ونهضة، وعهود موت وتبلّد وتقليد في الدين ووهدة في الحياة وتخلّف. ومن سمات الموات ضياع الصلاة عماد الدين إما تركاً أو تعطيلاً أو إجـــراء لها أقوالاً من أصوات راتبة وأفعالاً من صور مأثورة وأداء لمسنون عرفي مراءاة

للمجتمع، فلا تقام حقاً ولا تتنـــزل معانيها في القلوب ولا تغشى آثارها الزكية سائر الحـــياة الخاصـــة والعامة لتصلها بمراعاة هوادي الدين وحدوده طاعة وتقوى وتعمّرها بنيّات التعبّد لوجه الله، بل تفرغ النفوس من الدين فتفعم بنوازع الشهوات ويستبدّ بها شـــيطان المادّية القاصرة على حاضر الدنيا وعاجل الدهر - غفلة عن الغيب وآجاله. ذلـــك حـــتى يحيا الموات في عهد تال وتصحو الغفلة بعد حين ويقيّض الله جيلاً من التائـــبين الـــذين يذّكرون ويتفقّهون الدين فيبسطونه بكل دوافعه وضوابطه إصلاحاً للحـــياة الدنـــيا ودفعاً لها بمقاصدها زلفى إلى الله فرقيّاً بظواهرها المشهودة ورفعة إلى العاقبة الحسنى في الآخرة.

ومـــا كـــان الله أبـــداً - منذ مهبط آدم إلى عالم الشهادة - بنسيٍّ يترك عباده محجوبين عن رحمة علم الغيب وهديه. بل كانت ملائكة الرحمن تتنـــزل من الغيب في عهود الوحي والنبوات الخاصة قبل العامة الخاتمة، كما سبق ذكرها في الآيات السابقة مـــن الـــسورة. كانت تتنـــزل على من يترجّى آيات الله متجلّية في حوادث مشهودة خارقـــة لمطبوع الأسباب ومسنونها، بيّنة تصدّق قضاء الله القادر أو حق دعوة الدين رســـالة من الغيب. ذلك أن بعض الأنبياء كانوا يرجون أحياناً استجابة من غيب الله لدعائهم ولو خرقاً لظاهر أسباب الوجود، وبعض المخاطبين برسالة الغيب لا يصدّقونها إلا إذا تعـــززت بآيـــة مشهودة معجزة لسُنن الظاهر. وكانت الملائكة أيضاً تتنـــزل بآيـــات الوحـــي كلمات متلوّة طمأنينة وأمانة للأنبياء الذين عليهم بلاغها رسالة بيّنة لأمم الخطاب - علماً بالحق إذ كان مذهب الاعتقاد في جهالة ظنون مفتراة وهدى إلى صـــراط مستقيم إذ كانت الحياة في ضلال وفساد. وكان تنـــزّل الملائكة يتعاقب عبر القرون بآيات متوالية من الوقائع المعجزة لإقناع المكذّبين بصدق رسالة الغيب - يسبق وقـــع آية ثم يعقب مثلها على خالفين لم يشهدوا الأولى عياناً، يطلبون معجزة حاضرة تبهـــتهم لتـــصديق رسالة الغيب التالية التي تخاطبهم، وتتعاقب الملائكة أيضاً بالآيات صُحفاً متصادقة متوالية للذين ينسون الهدى خلفاً طال عليهم الأمد بعد السّلف المذّكّر.

أما في الرسالة الخاتمة فما كانت الملائكة بأقدار الله تتنـــزل بآيات من المعجزات غـــير المـــسنونة ولو طلبها المخاطبون. ذلك أنها رسالة خالدة تدحض الباطل أبداً بحق

كـــتاب محفوظ لا تصدّقه آيات معجزة تخصّ من شهدها ممن باشره الخطاب الأول بل تحمّـــل معانيه آياتٌ متلوّة تُعجز المضاهاة بمثلها بيّنةُ الهدى تعمّ المخاطبين الأُول وسائر القـــرون مـــن بعد. ذلك لأن بني الإنسان قد تهيأوا لرسالة عامة إذ تواصلت ثقافاتهم المـــنقولة عـــبر التاريخ بالرواية والقلم. وتقاربوا عَبر الأرض بعلاقات التعارف بميسور السّفر وقد كسبوا مهاداً لمستوى رسالة كاملة خاتمة رصيداً وافياً من التفاكر في آيات الطبـــيعة مشاهد ظاهرة ودلائل نافذة إلى الغيب ومن توارث المعارف المتضاعفة علماً وتجربة أتم ومن تذاكر الهدى المتواتر بالرسالات الكتابية المتعاقبة.

وما كان الله أثناء تنـــزّل الرسالة الخاتمة العامة هدىً وخلوداً بنسيّ ينقطع سياق وحـــيه بما تنبتّ به وحدة الرسالة. بل تعهّد ﷻ النبيّ بأرتال من آيات الوحي تتواتر حتى يتمّ الدين وتكمل نعمة الهدى. وقد يتسارع سرد القرآن موصولاً من ملائكة الوحي، وقد يُبطئ تواليه ويتراخى، لكنه يعاود التنـــزّل على النبـــي، لا بمبادرات الملائكة بل بأمر من الله المتعالي عليهم بعلمه وحكمته في ترتيب منازل القرآن حسبما توافى حدثان أسبابها من البلاءات التي يصرّف ﷻ ظروفها ويقلّب تطوراتها وحسبما يناسب مواقع الهـــدى علـــى النبـــي ألا يُرهق بأثقال الذكر جملة واحدة بل يتعلّم ويتزكّى به درجاً ويهتدي ويتثبّت بمقتضاه في سيرته عبر أحيان الأمور وأقدارها ونُوَب الدهر.

وكذلك الخلف من المؤمنين الممتد بعد النبـــي ﷺ إلى يوم القيامة الذين يحفظون عـــنه آيات القرآن المتلوّة خاشعين لها ويتّبعون سنته المروية مقتدين – قد تتكثّف فيهم غاشـــيات مـــن موات الدين لتطاول الغفلة عن أصول الإيمان ولتعطّل شعائر العبادة والتذكّـــر ولـــشدة طارئات فتن البلاءات الحادثة. لكن الله لا يترك عباده في غفلتهم وفتنـــتهم بل يقيّض فيهم أئمة تحيا قلوبهم إيماناً متباركاً بالغيب وتنشط ذاكرتهم وعياً حافظـــاً للقرآن ويعمّق فقههم للدين فهماً متجدداً في سياق وجوه البلاءات المتجددة وأحـــايين الدهـــر الحاضرة. هكذا يبقى القرآن وحي الملائكة روحاً من الله هو مرجع المؤمـــنين الخالد لهدايتهم واستقامة حياتهم وصلاحها، لا تتنـــزل عليهم الملائكة بعد خـــتام النبوّة بوحي متعاقب كل حين ولا بإيحاء آيات تتجلّى كما يزعم المتصولحون كـــرامات ومعجزات، بل يقوم الصالحون حقاً يتذكّرون أنباء الغيب في آيات القرآن

ويصدّقونها استشهاداً بآيات الله في مشاهد الطبيعة الدالة في نسقها المنظوم على جلال قدر الله ووحدانيته وفي دورتها وآجالها على أجل البعث والآخرة، ويفسّرون ويعززون معاني تشريعات القرآن وتعاليمه في هدى الحياة بتدبّر وقعها في إطار الابتلاءات والتحديات الحاضرة وبالنظر في سالف سيرة المؤمنين وبني الإنسان كافّة عظة وعبرة في ضوء القرآن. والملائكة عندئذ مع المؤمنين أيداً وموالاة في الدنيا والآخرة.

كانت الوصية لمحمد ﷺ هي لمن اتبعه على سُنة هذه الدعوة بالرسالة الخاتمة – أن يؤمن بالغيب، بالله ربّ السماوات والأرض حيث تبين آيات أقداره العظيمة المعجزة لمن دونه من معبودات المشركين، كالملائكة. ذلك ولو لم تقع لتعزيز الرسالة وتأكيد حقها وصدق كلماتها حادثات معجزة تخرق المسنون من طبع الواقعات والأسباب. فليعبد ربّه ويصطبر على عبادته مجاهداً إعراض المخاطبين وإشراكهم من دون الله أولياء ومهما يحملون عليه بالأذى أو يلحّون طلباً للآيات – معجزات مشهودة بيّنة على صدق ما يتلو عليهم من ذكر يوحى إليه من وراء عالم الشهادة. فما كان لربه سميّ يضاهيه سِمةً إذ هو الرحمن المتفرّد الفائض برحمته قرآناً يترتل منزلاً من غيبه حتى ينقضي وحيه وهدى يتتالى وميضّ نوره في كل طور جديد من الابتلاء، وله الأسماء الحسنى صفاتٍ تتعالى على كلّ صفات المتعلّقات المشهودة الأدنى التي قد تعرض للمؤمن فتنة تقديسها، أو صفات مخلوقات بعض الجن والإنس التي قد تخالجه خواطر عبادتها، يُبتلى بها كلّ حين: أيصطبر لعبادة الذي لا يساميه ولا يضاهيه أحد أم ينفتن؟

ترتيل المعاني (الآيات ٦٦ – ٩٨):

﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (٦٦ – ٦٧)

إن وعد النذير بالغيّ للمفتونين وبالجنة للصالحين وعد من الله بالمصائر مأتيّ حقاً، وإنما تتنزل الملائكة على عالم الشهادة بأمر الله وعلمه وحياً برسالة إيمان بالغيب وعبادة لله في الحياة الدنيا بحوافز من ذلك الموعود في الآخرة. وعجباً أن ينعطف على ذلك تساؤل منكر من الإنسان – أيما امرئ من المخاطبين برسالة الغيب ونبأ البعث والحساب،

وكـــان مـــثال ذلك من المخاطبين كثيراً سبباً لنـــزول هذه الآية مما عمم الظاهرة على الإنسان الذي يقول: أئذا ما مات في الدنيا وفني في التراب هل يستقبل مؤكداً أن يخرج منبعثاً حياً له حراك وكلام في الآخرة؟ وينعطف حق تساؤل استنكاري لنفي تذكّر ذات الإنـــسان وتفكّره أن الله بعظيم أقداره خَلَفه من قبل مجادلته في البعث، ولم يكُ (بحذف الـــنون تعـــبيراً عن بالغ النفي) شيئاً مذكوراً ولو منكراً، بل كان عدماً. فنشأة البعث في الأزل عود خلق بعد ماضي الحياة أهون من نشأة الخلق الأول من عدم[1].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ (٦٨)

ويترتب على ذلك أن يخاطب الله نبيَّه عن ذلك الإنسان الذي يُعرض عن دعوته المكـــذّب بـــوعد الآخرة فيها، يخاطب الله النبـــي قسماً بربه الذي يرعاه، مؤكداً له بـــصيغة المـــتكلم أنه ﷻ يحشرهم ويحشدهم جميعاً - ذلك الإنسان وأمثاله من سائر الناس - في ساحة المحشر بعد البعث ويحشر معهم الشياطين من الجن الذين شطنوا عن الله فأضـــلّوهم فأصـــبحوا - الشياطين والأناس الضالّين - بعضهم لبعض قريناً، قرناء متـــزاوجين. ثم بعـــد هول مشاهد الحشر ليحضرنّهم الله، هو آت قطعاً بكلّ أقداره الجليلة بكل تلك البشر المحشورة حول جهنم - النار الكالحة بعيدة العمق - التي عُذّبوا هـــم بـــنُذُرها في الدعوة وصدّق آخرون فاتقوها، وحالُهم أنهم جُثيّ على الرُّكب من شدة الذّل لقدر الله المستعر المحيط.

﴿ثُمَّ لَنَنـــزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ (٦٩)

ومـــن بعد ذلك يأخذ الله بأقداره العظيمة نـــزعاً حقاً من كل شيعة وفرقة ممن تـــزاوجوا متوالين في سبل الحياة، ومعيار النـــزع هو التحرّي والتبيّن بالحساب بينهم أيّهم أشدّ على الرحمن - الذي غمرهم في الدنيا برحمته الفائضة - عتيّاً تكبّراً بالغاً، مما يريهم كبرياء الله المنتقم الجبّار وليلقى حظَّه مِن بالغ صُليّ النار من هو الأبلغ عتياً.

---

(١) يـــرد كثيراً في القرآن ذكر إنكار الجاهليين المخاطبين لنذير الغيب إذ يبعث الله الإنسان بعد المـــوت حقـــاً أهون عليه من الخلق الأول: راجع الآيات ٤٩ - ٥١ سورة الإسراء، وانظر الآيات ٥ - ٧ سورة الحج، والآيات ١٧ - ٢٠ سورة العنكبوت، والآيتين ٧٨ و٧٩ سورة يس، والآيات ٤٧ - ٦٢ سورة الواقعة. ويتواتر كثيراً ذكر البعث والوعد الحق بعود الخروج من الأرض حياة ونشأة آخرة بعد الموت.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ (٧٠)

ثم مـــن بعـــد وقع ذلك الجبروت والعز من الله يتجلّى أنه – كما يرد الذكر منه ﷻ بـــصيغة المـــتكلّم جمعـــاً بأقدار عظمته – أعلمُ من كلّ صاحب للمرء أو قاضٍ لا يعلم إلا الظواهر – بالذين هم من أولئك المحشورين المحضرين أَولى بجهنّم صلياً وأحقّ بغشيان حرّها، لأن الله هو الأبلغ إحاطة بذنوب العباد واستحقاقهم أي مدى من دركات شدة العذاب.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧١)

ذلـــك البـــيان المؤكد للنذير بقضاء الله العزيز العليم ينضاف إليه –خطاباً لكل الـــناس– أنه ما منهم أحد إلا وارد إلى جهنم مروراً وعرضاً لمورد العذاب يطّلع عليه. وكـــان ذلك الورود حقاً حتماً على رب الرسول كما يخاطبه الذكر في الآية تذكيراً وتنبـــيهاً له أن الله عدل الأقدار تتوازى مشاهد نُذُره وبشائره، وعدل الصفات يتطوع بإيقاع أحكامه بيّنة الفرقان الحق بين العباد قطعاً مقضياً.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (٧٢)

ثم من بعد ذلك العرض والمرور بمورد النار لكلّ الناس ينجّي الله – تنجية تامّة بأقدار رحمـــته التي تسبق غضبه في حقّ المتّقين من الناس – المتّقين يُعدون من النار. فمشاعرهم عـــند شهود النار لدى ورودها تكون دواعي حاضرة ألحّ إلى الاطمئنان بروح السّلامة من حـــرّها وإدراك عظـــم سعد درجهم في الجنة بالمقارنة إلى ما شهدوا من شقاء درك النار. ويـــذر الله بأقـــدار الحـــشر النافذة وتصاريف قضائه العادلة، يترك الظالمين الذين وضعوا مذهبهم وسلوكهم في الحياة الدنيا غير مواضع الحق العدل والهدى المستقيم واستمروا على ذلـــك خُلقـــاً راسخاً – يتركهم في جهنم – في داخلها – جُثياً حكماً مقضياً كما كانوا جثياً حولها مع سائر الناس لأول مقدم الإحضار والمحاكمة[1].

---

(١) في ورود الـــناس النار يوم القيامة عرضاً يرونها كافة جاثين للحساب ثم يتمايز مأواهم متقين وظالمين: انظر الآيات ٩٧ – ١٠١ سورة الأنبياء، والآيتين ٢٧ و٢٨ سورة الجاثية، والآيات ٣٦ – ٤١ ســـورة النازعات. ويرد كذلك في القرآن ذكر الكافرين أو الظالمين أو الطاغين خاصـــة يعرضـــون علـــى النار يوم البعث إذ تقوم الساعة، تبرز لهم ويدخلونها صلياً: راجع الآية ١٠٠ سورة الكهف، وانظر الآية ٩١ سورة الشعراء، والآية ٤٦ سورة غافر، والآية ٤٥ سورة الشورى والآيتين ٢٠ و٣٤ سورة الأحقاف.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٣)

ذلـــك النذيـــر بشرّ المصير ينضاف إليه أنه إذا تُتلى اليوم في الدنيا على أولئك الظالمين الذين كفروا آياتُ الله بجليل أسمائه وعظيم أقداره وقد اتخذوا من دون هديها ملـــتحداً مـــن الإشراك – إذا تُتلى عليهم بيّنات بلسانهم لتخشع لها قلوبهم لو كانوا علـــى بـــصيرة قالوا للذين آمنوا بتلك الآيات وسبقوهم بتصديقها والاستجابة لها، ســـألوهم يفاخرون ويكاثرون ويساخرون – قالوا: أيّ الفريقين بينهم والذين آمنوا خـــير مقاماً – أطيب موقعاً في كسب الحياة وجاهها، وأحسن ندياً – مجمعاً أعزّ من صـــحبة للجمهور وعمران لمجالسه وندوة إلى مشاوراته؟ إلى زعم حظهم الأوفر من ذلك الفضل الدنيوي الظاهر انصرفوا وأعرضوا عن الإقبال تلقياً لآيات الهدى البيّنة أو المجادلـــة ترامياً بحجج النظر فيما هو الحقّ البيّن. فهم يعكفون على مقارنة ظاهر أحـــوال الدنيا ويحسبون حظهم راجح إيثارٍ لهم من الله ولا يدركون أنه فتنة امتحان وقـــدر ابتلاء من الله، يرهَنون لشهوات المقام والجاه في الدنيا فلا يؤمنون ببعثٍ في الآخـــرة بعد الموت والفناء ويظنون ظناً ألا حساب ولا قضاء بموازين الكسب إيماناً وصلاحاً أو كفراً وانفتاناً.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ (٧٤)

أولـــئك المفـــتونون بحاضرٍ دنياهم لا يذّكرون من عواقب الابتلاء بالنِّعم والمتاع ســـوابق الـــسّلب والهلاك العاجل دون غيب الآخرة التي لهم فيها ما هو أشدّ وأبقى. وكـــم أهلـــك الله – بعظيم أقدار ابتلاءه الدنيوي وقضائه العاجل لعباده – قبلهم من قـــرن، أممـــاً مـــتلازمة وأجيالاً متعاقبة، هم – أهل تلك القرون التي اختارت الكفر مـــثلهم – أحـــسنُ منهم أثاثاً وأمتعة من زين أثيث المتاع، وأحسنُ رئياً – منظراً من جميل الزي والهيئة ومُعجب المقام في بيئة الصحبة والمجتمع.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ (٧٥)

والأمر للرسول المخاطب ﷺ أن يقول لمثل هؤلاء – رداً على مفاخراتهم مقولات

وظـــنوناً – إن سُنةَ الله في الدنيا أنه من كان متورطاً في الضلالة من فتنة الدنيا وطيب ملاذّهـــا وظاهـــر حـــسن عيشها – السنةَ الملازمةَ والقدر والقضاء المأمور أن يدعه الرحمن – شامل الامتنان – ويمدّ له مداً في العاجلة، يبسط له تلك الظواهر الفاتنة سعة دار ومتاع ومظهر وصحبة. ويملي له لعله ينفتن ويمضي في ضلاله أو لعله يجد بوحاً من فرصـــة تذكّرٍ ليتّعظ ويتوب. وذلك لطف من بالغ الرحمة الذي لا يعاجل بالجزاء بل يملـــي لعلّ العبد يرجع إن لم يكثف على نفسه رَكْم الضلال. ذلك حتى إذا رأى أمثالُ ذلـــك المستدرَج ما يوعدون به إنذاراً يقع ناجزاً: إما العذاب العاجل في الدنيا بأذى مـــن مؤمـــنين أو ممن يسلطهم الله عليهم أو من أقدار الطبيعة المنـــزلة عليهم، وإما الساعة في الأزل التي يكذّبون بها حتى تقوم حاقة عليهم بأهوال مشاهدها. فسيعلمون عـــندئذ – عاجلاً أو آجلاً – مَن هو – منهم أم مِن المؤمنين – شرٌ مكاناً جزاء يقابل حـــسنٍ مقامـــه في حياة الابتلاء، وأضعف جنداً بعد نديّ الدنيا العامر صحباً مناصِراً وجنداً[1].

﴿وَيَـــزِيدُ اللَّـــهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ (٧٦)

ويـــزيد الله المتجلّية ألوهيته بعظيم صفات الحكم العادل – يزيد الذين اهتدوا عبر بلاءات الدنيا وفتنها – يزيدُهم هدى بأن يمدّ لهم رشد العلم والاستقامة، وإن لم يبسط لهـــم عاجـــل المتاع في الدنيا، وإن قلّت أموالهم في المعاش ولم تحسُن أوضاعهم مقاماً وصـــحبة في المجـــتمع. والباقيات النافذة بنيّات المقصد فيها إلى الآخرة لا قاصرة فانية عرضاً في قصد الدنيا، الصالحات من صادق الطاعات لله أذكاراً وأقوالاً طيبة وأعمالاً

---

(١) في غـــرور المحظوظين في الدنيا وظنهم تلك حظوة عند الله دائمة في الدنيا لا ابتلاء غفلة عن عظة القرون الخالية الهالكة بما اغترت بفضلها المكسوب وظلمت في العاجلة المشهودة: انظر الآيات ٥٧ – ٥٩ سورة القصص، والآية ١١ سورة الأحقاف. والله يذر الضالين في طغيانهم يعمهـــون لحـــين يملي عليهم استدراجاً ليزدادوا إثماً: راجع الآيات ١٥ – ١٧ سورة البقرة، والآيـــة ١٧٨ سورة آل عمران، والآية ١١٠ سورة الأنعام، والآيات ١٨٢ و١٨٣ و١٨٦ سورة الأعراف، والآية ٨٥ سورة التوبة، والآية ١١ سورة يونس، والآية ٣٢ سورة الرّعد، وانظر الآيتين ٤٤ و٤٨ سورة الحج، والآيتين ٤٤ و٤٥ سورة القلم.

ومعـــاملات حـــسنى - هـــي خير من عزة المقام والجند في الدنيا عند ربّ الرسول المهـــتدي، كما يخاطبه الله يُذكّره برجاء لقاء ربّه الذي يزيده في الدنيا هدىً متباركاً فيورثه في ثواب الآخرة وأجرها متاعاً متضاعفاً ومردّاً متفاضلاً في حسن رفقة المؤمنين ورضـــوان الله. خيراً خالداً مهما يكاثره مَن حوله من المخاطبين المعرضين عن دعوته بمتاعهم ونديّهم في عرض الدنيا الزائف لينتظروا مردّ الحسرة والعذاب وغضب الله يوم القيامة.

﴿أَفَـــرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا * أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٧٧ - ٧٨)

ويتـــرتب على ذلك التذكير تزكية اطمئنان للنبـــي ﷺ خطاباً له وسؤالاً أرأى الـــذي كفـــر بآيات الله - المتكلّم للنبـــي بصيغة الجمع بعظيم أقداره وعليّ صفاته خالقاً للإنسان وباعثاً له بعد الموت ومصرّفاً لمآلاته يوم يملك يوم الدين - الذي كفر بآيـــات الله المنذرة والمبشرة بالعاقبة في الآخرة لمن آثر عليها متعة الدنيا وعزها، بل قـــال - مـــؤكداً بـــلام القـــسم - إنه ليُؤتى يومئذٍ - لو صدق الوعد به في دعوة الرسالة - مالاً وولداً؟ وتُروى واقعة بعينها سبباً لنـــزول هذه الآية ممن يتبين معاني القـــرآن بخصوص سياق متنـــزّل كلِمه، وإنما الأمر في غالبه ظاهرة كانت تتواتر في موقف بعض المخاطبين المنكرين للبعث والقضاء الذين يردون على دعوة البعث هزؤاً وتحدّياً متعززاً بأنها لو صدقت هم بعدها سيمضون أَولى بالكسب الأوفى مثل فضلهم علـــى الآخرين في الدنيا. مَن يدّعي ذلك بغير علم له بالغيب ولا سلطان حجة يُردّ علـــيه بالسؤال له: أطّلع الغيب ليدرك مصيره مطمئناً، والغيب عالي المدرك لا يطّلع علـــيه إلا من شاء الله؟ أم اتّخذ بجهده الخاص عند الرحمن الذي يتولى عموم الرحمة والإنعـــام عهداً بأن يُعِدّ له ليؤتيه يوم القيامة ما ذكر مدّاً لما كسب في الدنيا ويفاخر به من مال وولد؟

﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ (٧٩)

كلاّ، جواب سؤال ذلك الكافر نفيٌ، فكلّ ما يقول باطل، لم يقع له هو كسبٌ من علم الغيب و لم يجد عند الرحمن عهداً بما ينتظر هواه، وإنما الوعد الحق أن سيكتب

الله بأقدار كلمه المحيط ورصد ملائكته الرقباء على كسب العباد - سيحفظ له كتاب أقـــواله ويمـــدّ له - بأقدار بلائه الدنيوي - إذ يزيده عذاباً، لأنه باستدراجه يتمادى فـــيعظُم عليه تعس عذاب الكدح ولدد الخصومة في مساعيه لإكثار نعم الدنيا ويُمدّ له استحقاق العذاب الآجل المتضاعف مدّاً[1].

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (٨٠)

ويـــرِثه الله بعظـــيم أقدار تصريفه للمصائر، إذ يحول قدر الموت بينه وبين كسبه الذي كان يفاخر به من مال وولد، يُسلبه كلّه، ويأتي هو راجعاً إلى الله - بعظيم أقدار الـــبعث - يـــوم القيامة، يحضر ساحة الحساب والعقاب فرداً مسكيناً معزولاً من عزّ النادي والجند وقوة المال والولد الوليّ النصير[2].

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١)

والـــذين كفـــروا أيضاً اتّخذوا من دون الله - وإن آمنوا بأنه خالق السماوات والأرض - آلهـــة مـــن الملائكـــة بنات لله تقرّبهم إليه زلفى تشفع لهم لديه، لكنهم لا يـــروهم فيمـــثلونهم أصناماً موقّرة معبودة. اتّخذوهم كذلك ليكونوا لهم عزّاً في عالم الغيب، يتطلّبون من الأصنام أعز المنافع ويستنجعون مما وراءها من الملائكة معروف عزّ القربى عند الله.

﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢)

كـــلا، تلـــك الدعوى من الكافرين منفيٌّ حقُّها، لن يكون الملائكة لهم عزاً في عـــالم الغـــيب، بل ثمة أرواح الملائكة سيكفرون بعبادتهم ويتبرأون منهم ويكونون علـــيهم ضداً، يشهدون عليهم برصد أعمالهم، يُكسبونهم أن يحقّ عليهم ذل العذاب ويُـــنفذونه علـــيهم غلاظـــاً شداداً. أما أكابرهم الذين أضلّوهم في مذهب الشرك

---

(١) مقابلـــة مدّ الله للضالّين في الضلالة بمدّه في الهدى للمهتدين: راجع الآية ٢٧ سورة إبراهيم، وانظر الآيات ١ - ٨ سورة محمد، والآيات ٤ - ١١ سورة الليل.

(٢) في الغـــرور بمـــتاع المال والولد والسلطان والظن أنه كسب مضمون كذلك قدراً من الله في الآخـــرة مع الكفر بآيات دين الله: راجع الآية ٩٤ سورة الأنعام، والآيات ٣٤ و٤٤ سورة الكهف، وانظر الآيتين ٥٠ و٥١ سورة فصّلت، والآيات ٢٥ - ٣٧ سورة الحاقة، والآيات ١١ - ١٨ سورة المعارج، والآيات ٣٣ - ٣٧ سورة عبس.

والشياطين الذين أغووهم وهم والُوهم وأطاعوهم وتعبّدوهم، فأولئك خصمٌ عليهم بينما يقارنوهم في النار[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (٨٣)

والخطـــاب للرسول ﷺ الذي يتلقّى الذكر تذكيراً بأمر الكافرين والمشركين من أمة الخطاب الجاهلية أن يتذكّر كيف تتبرّأ منهم الملائكة وتتسلّط عليهم الشياطين: ألم يـــر سنّة الله البيّنة في آياته أن الله - كما يقول متكلّماً بصيغة الجمع لأقداره العظيمة وتـــصاريفها - أرسل وخلّى الشياطين مسلّطة على الكافرين تؤزّهم، تحثّهم وتهيّجهم بالفتنة حتى يعتريهم الاضطراب بدواعيها كالماء يغلي في القدر؟

﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (٨٤)

ويتـــرتب على ذلك التذكير خطابٌ للرسول ﷺ عن أولئك الكافرين: ألاّ يعجل علـــيهم إن أُملـــي لهم في ضلالهم و لم يُعذّبوا من فورهم، إنما يعدّ الله - بصيغة المتكلّم جمعـــاً لأقداره الفاعلة - لهم عدّاً ويمهلهم لمدى من بسط المتاع الفاتن لأجل، فإذا جاء أجلهم لم يُعجزوه أن يأخذهم بإيقاع العذاب[2].

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥)

ويـــأتي ذكـــر مشاهد ذلك المصير المعدّ لأجل العباد بعد فتنة الدنيا الممتدة، يوم يحـــشر الله - كمـــا يذكر هو متكلماً بعظيم أقداره كافة - يجمع المتّقين الذين اتّقوا ســـخط الـــرحمن يـــزدلفون إليه حيث يأوون إلى دار رحمته الفائضة وجنّته ورضوانه لعباده، وفداً وزفّة قادمين يبتغون ضيافة وكرامة واسترفاداً.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (٨٦)

ويومئذ يسوق الله - كما يتكلّم جمعاً بعظيم أقدار ذاته - المجرمين الذين قطعوا عهـــد الله وعَـــدَوا علـــى حـــرمات هديه، يحثّهم ليسيروا إلى جهنّم وِرداً عطاشى

(١) في التعبّد الجاهلي للملائكة رجاء عزّة بهم في الآخرة: انظر الآيات ١٧ - ١٩ سورة الفرقان، والآيات ٤٠ - ٤٢ سورة سبأ.

(٢) في الوصية للرسول بالصبر على المعرضين حتى يوم الآخرة الموعود وألا يعجل راجياً أخذهم في الدنـــيا من قريب: انظر الآيات ١٠٩ - ١١١ سورة الأنبياء، والآية ٣٥ سورة الأحقاف، والآية ٢٥ سورة الجن، والآية ١٧ سورة الطارق.

كـــأهم واردون إلى مبتغى المشرب من الماء البارد ولا يجدون إذا دخلوها إلا حميماً وغسّاقا.

﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٨٧)

أولــئك المجــرمون من عباد الله لا يملكون الشفاعة التي يدّعون حوزها مشركين باتّخــاذ الملائكة وغيرهم أولياء من دون الله وشفعاء لهم عنده، لا يملكها إلا من اتّخذ عــند الرحمن عهداً، بيعة بالإيمان به وبالغيب وبقول الحق وعمل الصالحات في سبيله ولله مــبايعة ومعاهدة لهم بوعد القربى والجنّة، فإن للنبيين والملائكة والصالحين إذناً من الله أن يشفعوا ويستغفروا للمؤمنين دونهم[١].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨)

ذلــك كذلك، وبعده قال أولئك المشركون: اتّخذ الرحمن ولداً، قال المشركون مــن العــرب المخاطبون بالقرآن وبدعوة التوحيد إن الملائكة هم ولد الله بنات، مثل الــذين تلقوا هداية الكتاب وتراث الرسالة الحنيفية التوحيدية الإبراهيمية ثم قالوا اتّخذ الله ولداً نبياً لهم.

﴿لَقَــدْ جِئْــتُمْ شَــيْئًا إِدًّا * تَكَــادُ الــسَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِــرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٨٩ - ٩٠، ٩١ - ٩٢)

ويعقــب ذكر قولهم ذاك المفترى على الله شركاً الردُّ خطاباً لهم: أن لقد جاءوا شــيئاً إداً، حقــاً بلغوا بهذه المقولة عظيماً منكراً من الدواهي الشديدة الثّقال الوقع. تكــاد - من وقع تلك الكبائر من كلم الباطل في حقّ الله - السماوات على إحكام بنيــتها يتفطّــرن آخذات في الانصداع، وتنشق الأرض ينفلج قرار متنها، وتخرّ الجبال هاوية هدّا وانهداماً على صلابة ثباتها. ذلك من وقع أن دعوا للرحمن الذي لا سميّ ولا ســويّ لــه ولــداً من الملائكة أطوعِ خَلْقه وعُبّاده. وما ينبغي - ما يجب ولا يكون

(١) في اتخاذ الجاهليين الملائكة التي يشخصونها في الأصنام ولداً شريكاً لله يملكون الشفاعة لهم لديه تعالى دون إذنه: راجع الحاشية ١٣ على الآية ٤٠ سورة الإسراء. أما المؤمنون الموحدون لله فيتلقون بإذن الله دعاء الملائكة لهم: انظر الآيات ٧-٩ سورة غافر.

بالحق - للرحمن ﷻ أن يتّخذ ولداً، فهو القوي الغني الذي خلق العالمين وكفاهم فيض رحمــة، لا حاجــة لــه أن يتّخذ منهم ولداً مُعيناً، وهو الفرد لا يجانسه أحدٌ كالولد للوالد[1].

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣)

إن، ما كل من في السماوات والأرض من أحياء الملائكة والجن والإنس مخلوقاتِ الله الــواحد الــذي له المُلك وإليه ترجع الأمور إلا هو آتي الرحمن - فائض الرّحمة - عــبداً صاغراً مقهوراً خائفاً راجياً إزاء تصاريف الله لمواضع مخلوقاته ليوم الخلود، كلٌّ يأتوه داخرين لا كفء منهم له ولا شريك.

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (٩٤ - ٩٥)

لقد أحصى الله مخلوقاته تلك في الدنيا، حقاً هو يحيط بهم جملة يحفظ حصرهم لا يُفلــت منه أحد، وعدّهم عدّاً، يميز ويحسب أنفسهم عيناً حساباً ضابطاً. وكلهم آتــيه ﷻ يــوم القيامة فرداً. حتى البشر الذين قد تصلهم في الدنيا علائق وشيجة الأنــساب ومــوالاة التفاخــر ويدّعي بعضهم بعضاً والملائكةَ أولياء من دون الله يتمايــزون للسؤال والحساب. فالملائكة والرسل يُحشرون مسئولين عمن اتخذوهم شركاء لله ويُتّخذون شهداء عما بلّغوا من رسالة الحق وما علموا من كسب الإنسان الــذي بلّغوه. والجن والإنس كافّة ينادون أفراداً للحساب ينماز مسلمهم وقاسطهم ومؤمنهم وشيطانهم لا تصلهم التحايا والمؤاخاة ولا يلحق لهم ذوو قربى في الجنة ولا تجــري بينهم المقارنة والخصومة في النار إلا بعد أن يحقّ لكل كتابه بموازين القسط فرداً فيدخل بحكم القضاء مع من يليه من الزّمر والأفواج والأمم في الجنة أو النار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦)

---

(١) الخطــاب القــرآني المكــي ينفي شرك الجاهليين باتخاذ الله ولداً: راجع الآية ٦٨ سورة يــونس، والآيــتين ٤٠ و١١١ ســورة الإسراء، والآيتين ٣ و٤ سورة الكهف، وانظر الآية ٢٦ سورة الأنبياء، والآية ٢ سورة الفرقان، والآيتين ٣ و٤ سورة الزمر، والآية ١٠ سورة الزخرف والآية ٣ سورة الجن، والآية ٣ سورة الإخلاص، والخطاب القرآني المدني يــبطل الشرك المضاهي من الكتابيين: راجع الآية ١١٦ سورة البقرة، والآية ٣٠ سورة التوبة.

إن الذين آمنوا بأن شهدوا بكلمة الحق في حقائق الغيب وهدى الحياة، وصدّقوا قولهم بأن عملوا الصالحات كما يهديهم كتاب الوحي المبين للصلاح وترشدهم القلوب المتطهرة من نوازع الفساد المستجيبة لتقوى الله المنفعلة بحبّ الله - أولئك سيجعل لهم الرحمن ذو الرحمة الشاملة المجاوبة ودّاً وحباً ورضىً من لدنه تعالى.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ (٩٧)

وختام السّورة في سياق ذكر ختام أدنى الحياة بآخرها وفي وصلٍ مع أول السّورة التي تصدّرها ذكرُ القرآنَ وحروف لسانه. فإنما يسّر الله - كما يقول متكلماً بجمع أقدار علمه وهداه للإنسان - ذلك القرآنَ للنبي مخاطباً بأن ذلك الذكر يُسّر له بلسانه العربي المبين ليتبيّنه هو ويبلّغه إلى أمة خطابه ليبشّر به منهم المتّقين فيشرح صدور الذين ضبطوا حياهم وقاية من سخط الله ورعوا حدود الهدى المتنزّل وتذكروا التوبة النصوح الدوّامة، يبشّرهم بوعد يُطمئنهم أنهم بذلك الحقّ لهم رحمة الله في الدنيا والآخرة ولينذر به - كما يُخاطب - بذكر مصائر الكفر والإشراك المرتقبة وقعاً في عاجل الدنيا وقضاءً يوم المحشر عند الآخرة، يُنذر بذلك قوماً لداً، متمادين في التكبّر وعناد الخصومة ألا يسلموا لله بخالص التوحيد أبداً[١].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (٩٨)

ويضاف لسياق إنذار قومٍ لدّ ينتظرون الهلاك والعذاب بيانٌ لحقائق التاريخ من سابقات الأحداث الواعظة: كم، فهي مرات أهلك الله منفذاً تصاريف قدره وقضائه فيها قبل هؤلاء من قرن - طبقات أقوام قرنتهم عقود من السنين وانجال بعضهم بعد بعض جيلاً هالكاً؟ ويُذكّر الرّسول ﷺ تالي القرآن بفنائهم دون باقٍ منهم أو ذكر معتبر إلا الآثار الميتة، لذا يُسأل: هل يحس منهم من أحد باقياً جلياً وجوده أو يَسمع لهم ركزاً، وقعاً راكزاً ولو خفياً من أثر ثقافتهم؟ هكذا يُبشر الرسول أن الغلبة من الله مهما تكن لدادة المعرضين وأن العاقبة في الدنيا والباقية في الآخرة للمتقين[٢].

---

(١) راجع الآيات الأولى من ذات السورة.

(٢) ذكر الموعظة للخالفين عموماً وللنبي الداعي للحق بهلاك القرى والأقوام السالفة من الظالمين وفناء أعقابهم حتى من الحياة إلا آثارهم - ذكر يرد كثيراً في القرآن.

عموم المعاني (الآيات ٦٦ – ٩٨):

إن الـــوعد نذيـــراً بمــسير الخـــالفين بعد عهد السّلف المهدي المتخشّع الغافلين الشهوانيين إلى ما يلقون من الخيبة والخسر، وبشيراً بمصير التائبين من بعد الصالحين إلى مـــا يـــرجون مـــن الجنّة حيث المتاع والسلام – ذلك الوعد هو حق محتوم إنجازه في الآخرة. ولكن الإنسان الآنس المفتون بالمتاع المشهود في الدنيا يرتاب بالغيب كله بعثاً وحشراً فعاقبة مستحقّة ويجهل مشاهد القضاء يوم الدين ومسالك نفاذه على الإنسان إلى نـــار أو جـــنة. فالمعهـــود فيه إذا ذُكّر بعالم الغيب والبعث والأزل والعواقب أن يتساءل: أبعد موته إن حقّ عليه واقعاً مشهوداً يستقبل يقيناً بعثاً عاقباً يقوم به حياً كما كـــان قـــبلاً؟ والحق أن يُجادل مثل ذلك المرتاب بحقّ الوجود البيّن ويُستنكر عليه ألاّ يذكّـــر أن الله بأقدار حوله وقوته المطلقة وأمره المفعول قد خلقه هو من قبلُ ولم يكن شـــيئاً مذكوراً. ذلك ليدرك أنه أهون على الله القادر على كل شيء أن يبعثه ويعيده حياً كما بدأ أول خلقه من عدم. أما الحشر العاقب للبعث فذلك وعد اليقين، يخاطب بـــه الله عـــباده من الإنس في الرسالة الموحاة يؤكده قسماً بجلال ذاته وتذكيراً بأقداره العظيمة، ويثنيه بأنه حشر يشمل أيضاً الشياطين الذين كانوا يوحون إليهم قاصر النظر الفـــاتن الهوى بالعالم المشهود الصارف التذكّر بعبرة دورة الحياة والموت والإحياء التي تتجلّـــى ســـنّةً في طبيعة النبات وآية على قَدَر المرجع إلى الله بعد الموت. إن ذكرَ الله القـــرآنَ فيه – وحياً من الغيب – أنباء بوقائع يوم الدين – أن الله بمفعول قدره العظيم في تـــسيير خلقه – لَيُحضرنّ عباده حول جهنّم دار النار بعيدة الغور جُثياً على ركبهم لا مهـــرب لهـــم عـــن مشهدها الرهيب، ثم – بعلمه المحيط ببواطن عباده وظواهرهم وحُكمه الذي يقارن كسبهم ويمايز بينهم – لَيَنـــزعنّ من كل شيعةٍ منهم: أيّهم أشدّ على الرحمن عِتياً وأبلغ غامداً في دركات العصيان والاستكبار، وكذلك يتدارك العتاة وتتـــرتب خفة موازينهم في الحساب. ثم هكذا –بقضائه العدل – يعلم ﷻ الذين هم أَولى بجهنّم صليّاً وأحقّ بالتقدّم دخولاً فيها. وذلك الورود إلى جهنّم يعمّ الناس جميعاً فما من بني الإنسان المخاطبين برسالة النذير من الغيب في القرآن إلا هو واردها، ذلك حـــق مـــضى به قدر الوجود في الأزل حتماً مفعولاً وقضاءً واقعاً. ثم من بعد الورود

ينجّي الله منهم بأقدار رحمته الذين اتّقوا، ليدركوا قدر عظم الإنعام عليهم بالزفّ إلى الجـــنة من استشعار مقارنة خطر النار التي وردوها مشهودة وصُرفوا عنها ناجين بينما ترك الله الظالمين الذين أُحضروا معهم جثياً حولها يُدعون للمحاكمة ليُسحبوا ويُتركوا جثـــياً في جوفها بعد حسم القضاء ما هم منها بخارجين. إن قضاء الله أنجزُ وأفعل وقعاً مـــن القضاء بين الناس في الدنيا الذي إن أُحضر فيه المتخاصمون والمتهومون قد يُفلت مـــنه بعض المضارين أو الجناة الظالمين والذي يتجادل فيه المتقاضون بين يديه ويقيمون الـــشهادة ليتـــراجح قـــرار الحكم لهم أو عليهم ولكنهم لا يُعرضون معاً على مواضع العقاب – أما أقدار الله فهي قاهرة محيطة لإحضار كل العباد، وأوامره عادلة في عرض الجزاء المنظور حقاً بينهم وحظاً للظالم فيهم قبل الفصل في المحاكمة، وقضاؤه لا يقصر على العقاب للسوءى من الكسب، بل يوازي ذلك بمكافأة الحسنى بالبراءة والنجاة ثم بالأجر الكريم.

ذلك مذهب الكافرين بالغيب الظانين أن الموت عند تخوم الحياة الدنيا هو منتهى الوجـــود كله غفلةً عن عِبرة إحيائهم بعد العدم الأول وجهلاً بمصائرهم في الأزل التي تنذرهم وتبشرهم بها رسالة الوحي: بعثاً فحشراً لهم جميعاً فإحضاراً للحساب فوروداً إلى مـــشارف جهـــنّم ثم فرقاً بين التقاة الناجين والعتاة الجاثمين فيها. لكنهم مفتونون بحظـــوظ الدنـــيا يبـــنون كـــل منظورات وجودهم ومصائره على وقائع الحاضر التي يـــشهدون، إذا تُليت عليهم آيات الوحي البيّنات بلاغاً بنذر الغيب وبشائره المرجوّة كذبـــوا بتلك الوعود وعكفوا على حيثيات الواقع المشهود وجادلوا المؤمنين بعواقب الغـــيب ببيـــنات الأقدار المشهودة، اليوم يسائلونهم أي الفريقين خير مقاماً في أوضاع الحـــياة ومكاســـبها وأحسن ندياً في علاقات مجتمعها، يفاضلونهم بحظهم هم الأعلى ويردّونهم إلى أن مذهبهم هم كفراً بالغيب وانكباباً على الدنيا هو الأحق والأحظى في أقـــدار الكسب. يذهبون ذلك المذهب الدنيوي المادّي ويقولون تلك المقولة محاجّة لمن يذكّرهم بالغيب والأزل الحق، وعظة التاريخ ماثلة بين أيديهم: كم أهلكت أقدار الله قـــبلهم مـــن قـــرن هم أحسن منهم أثاثاً في متاع الدنيا ورئيا في مشاهد حظوظها. والداعية الحق ينبغي أن يقول لأمثال هؤلاء ممن يحكم بين الحق والباطل بظاهر كسب

الدنــيا ويفاضـــل بــين بني الإنسان بحظوظها أن قدر الله في الدنيا هو الابتلاء بمتاعها وبــسط الخــيار بــين اســتقامة الهدى وفتنة الهوى إلى أجل الموت فالمرجع إليه ﷻ والحساب والجزاء.

هكذا مَن تولّى عن رسالة الدين ومضى في طريق الضلالة يمدد له الله مدّاً برحمته الفائــضة وحلمــه المنبسط على عباده. فإن تمادي المرء في ضلاله بخياره فقد حقّ عليه جــزاءُ ما قدّمت يداه متضاعفاً، وإن تدبّر خياره فاتّعظ من ضلاله و لم يفتنه مدّ الرحمة والحلم ألفى فرصة للمتاب والنجاة من سوء المصير. تلك سنة الابتلاء والإمهال تمضي في الدنــيا حــتى يرى الضالّون المتمادون عين ما يوعدون نذيراً: إما عاجلهم في الدنيا العذاب سوءُ عاقبة استُحقت عليهم بضلالهم المتمادي، وإما مدّ في فسحة البلاء بفضل نعــم في الحياة حتى الممات فساعة البعث فالحساب، فسيعلمون ما هي معايير التفاضل الأحــق وموازين التفاضل الحاتم بين الحظوظ في الوجود، مَن هو شر مكاناً في الآخرة مــدى الخلود مهما يكن سبق خير مقامه في الدنيا العابرة ومن هو أضعف نصيراً بين يــدي الله وجــنده ملائكة العذاب في الأزل مهما يكن قد سبقت له غزارة في النديّ المناصــر في زمان الدنيا. أما الذين اختاروا الهدى في دنياهم فييسّر الله لهم مزيد الهدى الموصــول في حياتهم، وأما ما كسبوا من صالحات الأعمال المصوّبة بالنيّات لوجه الله فذلك هو الباقي إذا فني مع فناء الدنيا ثمر كسب الأعمال القاصرة مقصداً مع عاجلها وحاضرها. فالصالحات الباقيات للمهتدين خير عند لله ثوابَ أجرٍ ومردّ عاقبة خالدة. ذلــك حق ينبغي أن يتذكّره خاصة الداعية القليلُ كسبُه في الدنيا وصحبُه من الدعاة مثله المجاهدين للمفاخرين بعاجل كسب الدنيا المتوافر والنديّ المتكاثر المدّعين أن ذلك شهادة على حقّ خيارهم وفضل موقفهم القاصر على الدنيا الكافر بالآخرة.

وإن من الكافرين بآيات الله المنــزلة تبلّغهم تعاليم هداه وتنبئهم أقدارَ غيبه الممتد إلى آخــرة الأزل – مــنهم من يحسب قياساً على أقدار حظه في الدنيا رغم كفره أنه قطعــاً سيؤتى مالاً كثيراً وولداً عزيزاً لو قامت القيامة، مداً لما استحقه من قَدَم كسب وفــضلاً علــى المؤمنين كما شهدت له حظوظ الدنيا. وحق عليه أن يُجادل بالحجة ليهتدي: أن يُسأل هل اطّلع على الغيب الموعود في الآخرة ليرى هو عين مصائره مهما

تـــنذره الآيـــات الموحاة من الله بعاقبته الحق، أم تراه اتّخذ عند الله فائض الرحمة على البـــشر عهداً خاصاً أن يمدّ له إلى الآخرة ما لقي في الدنيا من حظ المتاع على ضلاله. كـــلا فَقَـــدرُ علـــم الله المحيط بعباده أن يُكتب ما يقول مثل هذا رصداً لذرات أقواله وأعماله المترتبة عليها في الدنيا، وقدر بلائه ﷻ أن يمدّ لهم في العذاب يوم القيامة وفاق ما في مهلة الابتلاء حُلماً رغم مضيّهم تمادياً في ضلالات كسبهم جزاءً كفاءً. الآخرة وعـــد حق يرث الله فيها بأقدار علمه وحسابه بعد الموت ما كان يقدّم المرء في حياته الدنيا ولو مزاعم تعبّر عن قصور نظره للوجود المشهود العابر، إذ يلقى الله بعد البعث في الآخرة ويأتيه فرداً لا يفديه سابق مال وفير ولا يُغني عنه ما كان له من نديّ نصير.

إن بعـــض المخاطبين بتوحيد الله إلهاً وبالغيب حقاً قد حسبوا الله متباعداً في علاه واتخـــذوا دونه آلهة مقدسة موقرة معبودة من الملائكة ومن سائر خلقه لعلّهم يقربوهم إلـــيه زلفى ويكونون لهم عزاً عنده. وذلك باطل فإهم إذا حشروا معهم مَلَكاً تنـــزلوا لـــديهم شاخـــصين مشهودين أو بشراً كانوا كبراءهم وأولياءهم دون الله - إهم يوم يتجلّـــى لله وحده الملك العظيم سيكفرون بعبادهم إذا سئلوا عن تلك العبادة الباطلة ويكونـــون لا شفعاء ولا أولياء بل عليهم ضداً يشهدون بما يحقّ عليهم من بينة ثبوت الضلال. والحق أن الله في دار البلاء يُيسر للإنسان مسلكه الذي يختاره بمشيئته ويسخّر القـــوى الروحية مدّاً له وأيداً في طريق اليسرى أو العسرى الذي سلكه. فالملائكة ما تتنـــــزل إلا بـــإذن الله رسلاً بوحي الحق الهادي وأيداً للذين آمنوا واهتدوا به. وإنما أُرسلت الشياطين على الكافرين تحضهم دفعاً إلى الضلال لأهم اختاروا طريقه. ولذلك ينبغـــي للداعية المؤمن الذي يأسى من مذهب خيار الكافرين وما يجرّ إليه من تماد ومد في الـــضلال - مستيقناً بما يؤدي إليه من عاقبة يوم السؤال ألا يعجل عليهم في الدنيا متمنـــياً طـــيّ أمـــد المد لهم الذي لا يزيدهم إلا فتنة، ضائقاً بصلاح أحوال ابتلائهم الحاضـــرة راجياً تجلّي العاقبة الحاقة عليهم فوراً. وإنما عليه أن يصابر مسيرة بلاء الدنيا فإنما يعدّ الله لهم بأقدار ابتلائه وعلمه عد مكتسبات ضلالاهم المتوالية المتضاعفة طوال عمرهم. ذلك حتى تنقضي حياهم ويُحشرون يوم الدين، يوم يُحشر بأقدار الله الجمع ويعرض الكتاب ويقضى الحساب، فالمتقون الذين تثقل موازينهم بمكتوب كسبهم من

الصالحات خشيةً منه تعالى يُزفّون بالملائكة إلى ربّهم فائض الرحمة وفداً ليتلقوا سلامه ونعيمه ورضوانه، بينما المجرمون الذين قطعوا ما أمر الله به أن يوصل من عهدٍ تسوقهم ملائكــة غــلاظ شــداد وِرداً إلى جهنم موئل المغضوب عليهم طعامهم من غسلين وشــراب حمــيم وغساق. ولا يملك هؤلاء أسباب الشفاعة من الملائكة والبشر الذين اتّخــذوهم أولــياء شــريكاً من دون الله وزعموهم شفعاء لهم عنده. وإنما قد يتلقّى الــشفاعة – أن تستغفر لهم الملائكة أو يترحم لهم الأنبياء أو الأقربون المحسنون – من اتّخــذوا عــند الرحمن عهداً، إذ وصلوا هم عهده وتكلّفوا به والتزموا مقتضاه بقدر فاســتحقوا أن يــأذن الله لمن يشفع لهم مستغفراً مسترحماً لعلّهم يُقوا عذاب الجحيم ويلحقوا بمن كان ذا قربى راقياً في درجات الإحسان فالرحمة.

والبشر يضلّون في ظنون الخيال إن جهلوا الغيب قاصرين على إدراك المشهود و لم يــأتهم من الله العلم أو لم يغفلوا من بعد عن ذلك من الله فضلاً وتذكرة. إن منهم من يــضلّ في آفاق السحر ومن يقصر في التأليه للأوثان أو البشر أو يحاول أن يتوسط نحو الله بتألــيه الملائكة وتمثيلها في أصنام. ومن أولئك العرب الذين خاطبهم القرآن برسالة من علم الغيب وهدى الحياة في ضوئه، إذ كانوا يظنون أن الرحمن اتّخذ ولداً ليقاربهم بــرحمته بواســطة بــناته اللائــي لا يرون من الملائكة. وكذلك من اتّخذ الرسول عيــسى عليه السلام الــذي كانــت ولادته بأسباب معجزة غير مسنونة وكان ينطق صبياً ويوحــى إليه من الله – اتّخذه بعض النصارى له من بني إسرائيل ولداً لله. ومثلهم من اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله إذ ادّعوا أنهم يحوزون علم الكتاب والغيب فأطاعهم الأتباع وكانوا رعاة مقدسين معصومين يشرّعون للرعية الشرائع.

والله سبحانه وتعالى يقــول كلمة الفصل في مذاهب أولئك العرب الإشراكية الجاهلية التي تــتخذ الملائكة الجن وصورها في الأصنام وسطاً بين الغيب والشهادة – باطل ضلال. وخاطبهم الله في القرآن أن قد جاءوا شيئاً من فظائع الدواهي تكاد السماوات ينفطرن مــنه وتنــشق الأرض وتخــرّ الجبال هدّاً من شدة وقع تلك المقولة الباطلة الفادحة في الوجود الحق: أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي ذلك للرحمن المتفرّد بالبسط المطلق من خــزائن رحمــته الشاملة على البشر، الغني عمّن سواه ورب العالمين من الخلق سواء.

وكذلك مقولات الباطل التي يتقوّلها النصارى دعاوى بألوهية عيسى ابن مريم وأمه أو الروح القدس، ومقولات اليهود وجهلة المسلمين أحياناً إذ يعتريهم الشرك بالله. وإن من تعالي الله السبّوح القدّوس ومن التجلّي لذلك الحق المطلق أنه ما من أحد من خلقه في السماوات والأرض إلا هو آتيه يوم القيامة عبداً، إذ أحاط بهم وعدّهم عداً وأحضرهم فرادى بلا ناصر ولا شفيع إلا بإذن الله. يومئذٍ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حياتهم الدنيا سيجعل لهم الرحمن وُداً إذ يعاملهم برضوانه. والله يخاطب الدعاة إليه نبياً خاتماً ومن على سنته – أن قد يسّر لهم القرآن – بلسانهم العربي ليبشروا بما فيه من ذلك الوعد للمتقين راضين في الآخرة مرضيين، وينذروا به قوماً ألداء شدّدوا الخصومة عوجاً عن حق الإيمان بالغيب تقابلهم يوم الجزاء أقدار المشاقّة والمشادّة. وكم أهلكت من قبلُ أقدار الله وعقابه من فنوا بواقعة في عالم الشهادة المحسوس يكاد الداعي المنذر بالآجلة لا يحس من هؤلاء من أحد باق أو يسمع لهم ركزاً – نذراً واعظة حتى من فور الحاضرة العاجلة دون غيب آجلة اليوم الموعود.

سورة طه

مقدمة السورة وخلاصة هديها:

تنـــــزّلت ســـورة 'طه' لنحو السنة الخامسة من العهد المكي للوحي، إذ بانت باكـــورة دعـــوة الإسلام فتوتّر ما بين أهل الهدى القلّة المستذلّين الذين كانوا يتخفّون بـــشعائر عبادتهم وأهل الباطل الكثر المترفين المستكبرين. وكان تنـــزّلها قبل الهجرة إلى الحبشة وقبل أن يعز الإسلام باهتداء عمر بن الخطاب ذي القوة والعزيمة وانضمامه إلى صـــف المسلمين. فيُذكر أنه سمع آيات من السورة يقرأها خبّاب بن الأرتّ في خلوة عند أخت عمر فاطمة وختنه زوجها سعد بن زيد. ذلك إذ دخل عليهم فأنكر ما سمع وحمـــل علـــيها فصدعته بكلمات صبر فاطّلع على آيٍ من السورة مخطوطة فأخشعته للحـــق فـــسار لفوره إلى النبـــي ﷺ وهو في مختفىً مع صحبه المؤمنين ليبلّغه اهتداءه مسلماً.

والـــسورة هـــي الخامسة والأربعون في ترتيب نـــزول القرآن، بعد سورة مريم، وهي العشرون في ترتيب كتاب الله الجامع. وهي -كما جاء في صدرها- سورة نظم مـــن آيـــات الذكر الموحى منه سبحانه وتعالى: الخالق للكون المستوي على ملكه المحيط بأبعاده المـــتطابقة مـــن السموات العلى إلى ما ظهر من الأرض وما خفي تحت ثراها، الرحمن مـــنعماً بأقداره الفيّاضة بالخلق والرزق والهدى للإنسان رسالة متنـــزلة من أزل الغيب المطلـــق لرشـــد حياته المحدودة في العالم المشهود، العليم بقول من بُعث نبياً بين عباده البـــشر يحمـــل رسالة ذلك الهدى في الحياة يتلو آياتها على أمة خطابه، إن جهر بذلك

القـــول لجلاء بيّنة الحقّ أو أسرّ به اتقاءً لأذى أهل الباطل الصادّين أو أخفى في نفسه ذكـــراً لربه المعبود الهادي. فالله مستأحد يتعالى في ألوهيته سبحانه بأسمائه الحسنى بالغاً غايـــة الكمال في كل صفة لا يساميه ما يتّخذ بعضُ البشر من أرباب وآلهة مما حولهم مـــن العالم الذي يباشرهم حساً ويفتنهم بتعلّقات وقدسيات مزعومة وصفات حسنة مظنونة.

والسورة ومفتتحها العربـــي الحروف قرآنٌ وخطاب بيّن لأمة عربية اللسان يبلّغه رســـول منهم يتلو عليهم آياته بلسانهم دعوةً ويمثله هو في حياته سنةً لهم وقدوة. وما أُنـــزل عليه ذلك القرآن بأقدار الله ليشقى هو ملاقياً بلاء المُعرضين عن دعوته الغريبة، وإنمـــا أُنـــزل تذكرة لمن يخشى الله من المخاطبين يتّقي عاجل أقدار غضبه إن أعرض وعـــصا متّـــبعاً الهوى وسوء المسير في الدنيا وآجلَ ما يُعد له بقضائه من الجزاء وسوء المـــصير في الآخرة. أُنـــزل فيه النبأ بحقائق عالم الغيب تذكيراً بما في فطرة الإنسان من معـــرفة الله وأسمائـــه الحسنى وبياناً لمخلوقاته الغيبية ولأقداره في حياته الدنيا دار البلاء ليـــستقيم مهدياً برسالة متنـــزلة من الله صائراً في حياته إلى دار الجزاء. وفيه قصص ما قـــد سبق من ذكر موسى عليه السلام يحمل للناس رسالة العلم والهدى وآيات الله الشاهدة علـــى حقهـــا ويلاقي في ذلك البلاء والنجاء للمؤمنين، وذكر أبـــي الإنسان وأصل تجـــربته في الابـــتلاء – آدم في الجنة يبلُغه الهدى ويُبسط له السّعد لكن يغرّه الشيطان ليخـــرجه إلى الحـــياة الدنـــيا في عالم الشهادة المحجوب عن الغيب إلا برسالات الله المتعاقـــبة. وصرّف قرآن هذه السورة من وعيد الآخرة اللاحقة لعّل المخاطبين يتّقون غضب الله وسوء المصير أو يُحدِث لهم القرآن ذكراً لله وإيماناً بالمرجع إليه فيسعون في حياتهم رجاءً واتقاءً للقائه الموعود، فتعالى الله الملك الحق القاضي يومئذ بالجزاء المفعول لعباده عذاباً لمن يحقّ عليهم العقاب مهما يغفلون ويستكبرون في الدنيا، وأجراً موفوراً للمؤمنين وإن استُضعفوا وشقَوا في الدنيا. وعلى الرسول أن يتلقّى وحي القرآن خاشعاً ليحمل رسالة كلمه تامّة غير منقوصة ولا يَعجل لفرط الحرص بترداد أطرافِ ما يتلقى مـــن قبل أن يُقضى إليه وحيه، ذلك ليجمع كل كلمات الوحي ومعانيه ويحفظها تامّة ليبلّغها حقاً، وليسأل ربه أن يزيده علماً ولا يقنع بطرف من الوحي والعلم والهدى بل

يرجو كمال مدّ نعمة الدين وجملة معاني الوحي الهادي وفيض العلم المتبارك. لكن أمة الخطــاب كانــت جاهلة بالغيب مفتونة بالعالم المحسوس لم يعهدوا الوحي والنبوة بل ذبلــت في نفوســهم بقــية تراث أبيهم إبراهيم فكالوا فارغ أوعية خيالهم ووجدانهم بالظنون والسحر وعمروا ضئيل ثقافتهم بافتراء الأقاويل، ولذلك قالوا للرسول أن لولا يُعزّز وحي القرآن بآية تأتيهم من ربّه فعلاً محسوساً يشذ عن مسنون الحوادث فيشهد علــى أســباب الغيب الموصولة ويصدّق ما لا يُفترى منه من دعوى الوحي وقصص الدين وسيرته الماضية وبشارة الوعد بأنباء الغيب الآجلة ونذارة الوعيد بها لمن سمع ذكر القــرآن فأعــرض عنه واتّبع هواه أنه سيحمل وزر المسئولية يوم القيامة ثقلاً يسوء له حمــلاً. والحق أن ذلك اليوم يدوي فيه وقع الأقدار نفخة صور حاشرة للناس منبعثين، والمجرمون الذين كانوا في دنياهم غافلين عن الساعة وآياتها والإعداد لها يصيبهم يومئذٍ الفزع يبدون منه زرق الوجوه، ويتبيّن لهم حقاً أن الدهر الذي قضوه في الدنيا يتمادى بهم فتنةً كأنه نعيم خالد حتى ماتوا – يتبيّن لهم أنه مضى ظرفاً عابراً، فيتخافتون بينهم فــزعين في ذكرى مداه، منهم من يحسبه عشرة أيام ومنهم الأمثل طريقةَ نظرٍ ينسب زمانــه إلى الأزل لا يــراه إلا يــوماً. ويعظم وقع ذلك اليوم، فالذين كانوا مرهونين لأسباب الدنيا ومشاهدها كانوا يرتابون بذلك الوقع الموعود ويسألون عن أقدار مصير الجــبال الراسية– أولئك ينبغي أن يُنبئهم الرسول المُنذر بذلك اليوم أن سيرونها يومئذٍ ينــسفها ربــه نسفاً قاعاً صفصفاً مستوياً، أما البشر الأضعف قوة فهم يومئذٍ يتبعونَ داعي الله الذي يسوقهم طوعاً تخشع أصواتهم له إلا همساً.

كــذلك يُصرّف الله ذكر الغيب من وعيد الآخرة في القرآن الذي يتنــزّل وحياً علــى الرســول مــن الله المتعالي الحق ليبلّغ رسالته صابراً في وجه الإعراض الطاغي. وكــذلك تقــصّ هذه السّورة المتنــزلة على الرسول الخاتم ما لم يأته من نبأ الغيب الماضــي بمفصّل حقائق حديث موسى عليه السلام الذي اشتُهر عموم خبر رسالته التي خلت وبقــي أثرها حول أمة الخطاب. ذلك وفي القصة ما يصدّقه القرآن من الأصول الغيبية للعلم والهدى الحقّ وما يَعتبر به الرسول الخاتم من سيرة نبــي سالف حمل رسالة ذلك الحق داعياً صابراً.

فقد كان موسى سائراً في الطريق عائداً من مهجره إلى موطنه الأول يلتمس قبساً مــن نــار ينفعه ويرجو الهدى من الضلال. فلمّا أتاها ناداه صوتٌ باسمه ليعلم أن قد تصوّب إليه خطاب من الغيب ممن يعرفه إذ كلّمه أنه ربه وأوصاه أن يتطهّر خالعاً نعليه في طُوى – ذلك الوادي المقدّس – ليتهيّأ توقيراً للقاء رب عظيم. وكانت تتجلّى حوله طاقةُ ربه ويبلُغه صوت كلمٍ منه يناجيه أن قد اختاره هو من سائر البشر السائرين على الأرض المشهودة، فليستمع إلى ما يوحيه إليه ربه: أنه هو تعالى في الغيب الله لا إله إلا هــو، فليعــبده بكــل حياته في العالم المشهود وليقُم الصلاة شعيرة خشوع له وذكر خالص. وأنبأه ذلك الخطاب الغيبــي أن وراء الحياة الدنيا المشهودة الحاضرة التي يُبتلى بالعيش فيها إلى أجل الموت المسنون ساعةٌ ينبعث فيها الناس كافة لحياة أخرى خالدة هي عهد جزاء عما قدّموا سعياً نحوها في الأولى، وتلك الساعة آتية لا محالة يكاد الله – كما يخاطبه – يُخفي مَقدمها المكتوب، فأوصاه ألا يصدنّه عن الإعداد لها بنصيب زادٍ من الدنيا مَن لا يؤمن بها إذ كفر بالغيب وفتنته الدنيا حوله فاتبع من ثم هواه فيها، ذلك لئلا يذهب في حياته الحاضرة بسوءى كسبٍ فيردى إلى سوء عاقبةٍ في الآخرة. وأراد الله أن يرســخ في قلــب موسى الإيمان بصلةِ الوجود المشهود بالغيب وتجلّيه الموعود، وذلــك بإيتائه آية بيّنة وقائعُها الظاهرة متجلّية دلالتها على حق الغيب، وبتكليفه أن يحمــل رسالة بتلك الآية إلى أمة خطاب مفتونة بتعلّقات العالم المشهود. فسأله ربّه ما بيده مشهوداً، فردّ إنها عصاه يحملها لوظائفها ومآربه فيها المعهودة، فأمره أن يُلقيها فإذا هي حيّة تسعى، فأوحى إليه أن يصرف الخوف الذي أصابه مطمئناً إيمانُه بآية قدر الله الغيبــي وأن يتناولها مرتدّة عصا معهودة ليتخذها آيةً شاهدة على الصدق الغيبــي لرســالته. ثم أمره أن يضم يده إلى جناحه فإذا هي تخرج بيضاء غير لون بشرته المعهود مــن غير سوء لكن ليطمئن بها كذلك آية أخرى من آيات كبرى قادمة ستتوالى عليه شــواهد على أقدار الغيب وراءه. وإذ زوّد الله هكذا رسالة موسى بحجة الغيب وآيته أمــره أن يذهب بها إلى فرعون الذي يعلم ربُّه طغيانه. فسأل موسى ربَّه مزيد اطمئنان وإعــداد لمجابهة فرعون ودعاه أن يشرح له صدره ويحل عقدة لسانه لينطق مبلغاً كلم دعوته، وأن يجعل له أخاه هارون وزيراً ليشدّ به أزره تعاوناً على بلاغ الرسالة لفصاحة

بـــيانه وليُشركه في أمره كي يسبّحا ربهما ويذكراه كثيراً نصيراً لهما في مصابرة البلاء. فبشّره ربه بالاستجابة وذكّره بالمنّ عليه فيما مضى منذ منشئه إذ كان قد أُوحى إلى أمه الخائفـــة عليه من سياسة فرعون القتّال لولد بني إسرائيل أن تقذفه محمولاً في تابوت في الـــيمّ ليُلقـــى بالساحل سالماً ولو أخذه من هو عدو له بالمآل ولله دائماً. وذكّره ربّه كـــذلك أنـــه تعـــالى قد ألقى عليه محبة منه ليصنعه في رعايته ورقابته بالغاً أشُدّه رابياً متزكّياً. فمن ذلك أن مشت أخته ترصد التابوت حتى أخذه آل فرعون إذ ظنّوه كسباً لهـــم وإذ تعسّر إرضاعه فسألتهم: هل تدلّهم على من يكفله؟ ذلك لتأتيهم بأمه ليرجع إليها وتقرّ عينها بعد حزن فراقه. ومن ذلك أيضاً أن قَتَل موسى وهو صبـــي نفساً في خصومة بين أحد أقرانه بني إسرائيل وآخر من أهل مصر فنجّاه الله من هَمّ الثأر وفتنه فتوناً بالخروج في هجرة وغربة شرقاً حتى لبث سنين مطمئناً في أهل مدين عند شيخها وتـــزوج لديـــه ثم عـــاد سائراً بأهله حتى جاء على قدر للقاء ربه وتلقّى كلام الهدى والرسالة، واصطنعه الله عبداً ورسولاً خالصاً له تعالى، ولذلك أمره الله أن يذهب بآياته ولا يني هو وأخوه في ذكره تعالى وتسبيحه توكلاً عليه ليبلّغا الرسالة إلى فرعون الطاغية ويخاطـــباه قولاً ليناً وإن قسا قلبه وغلظ قوله لعلّه يتذكّر عهد الإيمان بربّه في الفطرة أو يخـــشاه. قـــال موسى إنه وأخاه يخافا عند اقترابهم من فرعون أن يفرُط عليهما أو أن يطغـــى. فثبّتهما ربّهما ألا يخافا إنه تعالى يسمع ويرى ما يجري لهما، فليقولا لفرعون إنهما رسولا ربّه لعلّه يرسل معهما بني إسرائيل مهاجرين عن أرضه إلى موطنهم الأول شرقاً ويكفّ عن أخذهم بالعذاب، وليذكّراه أنهما جاءاه بآية من ربّه وأن السلام على مـــن اتّـــبع رسالة الهدى بينما العذاب في العاقبة على من كذّب وتولّى عنها. سألهما فرعون عن ربهما الذي يُعليان عليه فأجاباه أنه هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى مـــسيره إلى مـــصيره. فمضى فرعون يسألهما عن البيّنة عن آيات الله في سيرة القرون الأولى شـــهادة علـــى أقدار ربهما المصرّفة لمصيرها. فأحال موسى الإحاطة بخبر تلك القرون الماضية إلى كتاب علم ربه الذي لا يضلّ عن تصريف هديها وسيرتها ولا ينسى مـــا أوقـــع عليها من قدره فيما جرى من مصيرها، ونبه لآيه وأقداره البيّنة في نعمته المبـــسوطة لحاضر المخاطبين إذ ها هو قد جعل لهم الأرض مهاداً وسلك لهم فيها سبلاً

وأنـــــزل من السماء ماءً فأخرج بأقدار النبات فيها أزواجاً شتى يأكلون ويرعون فيها أنعـــامهم لتبين في ذلك آيات لله هادية لأولي النّهى، وإذ هو من تلك الأرض خلقهم وفـــيها يعـــيدهم بأقداره موتاً فتلاشياً للجسد ومنها كذلك يخرجهم بأقدار بعثه نشأة أخـــرى. كل تلك الآيات البيّنة ذُكّر بها فرعون فكذّب وأبى وساءل موسى: أجاءهم ليخرجهم من أرضهم التي تمكنوا فيها سلطاناً بسحره؟ وتحدّاه أن يضارعوه بسحر مثله في مـــوقت ومكـــان سوى لا خلف عن موعده. فرضي لهم موسى يوم الزينة المعهود لـــديهم موعداً إذ يُحشر فيه الناس ضحى. فتولى فرعون وقومه يجمعون كيدهم إعداداً لإتـــيان الموعد حيث أنذرهم موسى ألا يفتروا على الله كذباً فيسحتهم بعذاب خيبة، فتـــنازعوا أمرهم وتناجوا فأتمروا أن بين أيديهم ساحرين يريدان إخراجهم من الأرض لـــيخلفوهم فـــيها بطـــريقتهم التي يروها المثلى وأن عليهم هم أن يجمعوا أمرهم صفاً ليستعلوا عليهما فلاحاً. وخيّر السحرةُ موسى إما أن يبدأ هو المعرض أو يتركهم يُلقون أولاً مـــا عـــندهم، فدعاهم للمبادرة فإذا حبالهم وعصيّهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تـــسعى، وأصابت موسى غاشية خوف لكن ربه ثبّته ليطمئن أنه هو الأعلى الأغلب وليمضي مُلقياً عصاه لتنقلب حية تلقف ما صنعوا من فعل السحر الذي لا يفلح. فهُزم الـــسحرةُ وأُلقـــوا سُجّداً شاهدين بإيمانهم بربّ هارون وموسى. لكن فرعون استنكر إيمـــانهم دون إذنه وأضافهم إلى موسى تلقياً لعلم السحر وكيداً عليه، وأنذرهم مؤكداً وعـــيد العـــذاب والتقطيع والصلب في جذوع النخل عذاباً أشد وأبقى مما ينذرهم به موسى في آجل الغيب. لكنهم ردّوا ترهيبه أنهم لن يؤثروا باطل دعاويه ونذره على ما جاءهم في حق البيّنات والهدى ولا طاغوت ذاته على جلال الله الذي فطرهم فليقض هـــو قضاءه عليهم فما وقعه إلا في الدنيا دون دار الخلود التي يؤثرون رغبتها ورهبتها، وأعلـــنوا في وجهـــه أنهـــم آمنوا بربهم الحق ليغفر لهم خطاياهم في سابق ضلالهم وما أكرههم عليه هو من السحر مضارعةً للحق وأن الله خير ربّاً قاضياً وأبقى قدراً في جزاء العاقبة، وأن مَن يأته مجرماً فإن له جهنم لا يموت في الآخرة لينتهي ولا يحيا مطمئناً ومَن يأتـــه مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك يتزكون فلهم جزاء الدرجات العلى في جنات عدن تجري أبداً من تحتها الأنهار وهم فيها خالدون.

وأوحـــى الله إلى موسى أن يسري بعباده المؤمنين مهاجراً ليضرب لهم طريقاً في البحر لا يخاف دركاً من فرعون الذي أتبعهم بجنوده، فانجزر البحر لعبور موسى ومن معـــه وغشّى مد فيض البحر فرعون ولذلك ما هدى سيرة قومه بل قدّمهم إلى مهلك الـــضلال. فحـــقّ من بعد على بني إسرائيل الذين جاءوا ذرية خلفاً يشهدون خطاب القـــرآن الـــتذكير بنعماء ربهم في ذلك العهد السالف إذ أنجاهم من العدو وواعدهم جانـــب الطـــور الأيمـــن ونـــزّل عليهم طيب الرزق من المن والسلوى وألقى عليهم النـــصيحة أن يتّقوه ولا يطغوا بفتنة المتاع لئلا يحل هو عليهم غضبُه هاوين، وإنه تعالى لغفّار لمن تاب وعمل صالحاً ثم استقاموا مهتدين. وقد سارع عندئذ موسى فسبق قومه إلى لقـــاء ربه، فسأله الله ما أعجله قبلهم فاعتذر لربه أنهم على إثرهٍ وإنما عجل هو إليه ابتغاء رضوانه. لكنه أُنبئ عن افتتان قومه من بعده إذ أضلهم السّامري، فرجع موسى غـــضبان أســـفاً يؤاخذهم كيف ضلوا من بعد وعد ربهم الحسن، أطال عليهم عهد انـــتظاره أم أرادوا أن يحلّ عليهم غضب من ربهم فأخلفوا عهد موسى؟ فتعذّروا أن ما أخلفوا موعده بملكهم ولكن كانوا يحملون أقداراً من زينة قوم مصر فقذفوها تطهُّراً في الـــنار، فكذلك ألقى السّامري فأخرج لهم من صهارة الذهب عجلاً جسداً له خوار ونـــسي عهد الهدى والتوحيد لله، فقالوا – بما عهدوا في تقاليد مصر من التعبّد للعجل صـــنماً– إن هذا إلهكم وإله موسى. قال لهم هارون عندئذ إنها فتنة وإنما ربّهم الرحمن وحـــده فينبغـــي أن يتّبعوا هدايته لهم، لكن أصرّوا عاكفينٍ على ضلال صنمهم حتى يرجع إليهم موسى. ولمنقلبه أقبل موسى على هارون يؤاخذه: ما منعه إذ رآهم ضلّوا ألا يعـــصى عهـــد الاستخلاف وأن يستقيم بهم على الهداية؟ فرجاه هارون ألا يأخذ بلحيـــته ولا برأســـه لأنه بسط لهم خيار الضلال خشية ألا يَميزوا عنه فينتظر موسى بالتفـــرقة بـــين بني إسرائيل التي لم يوصه بها أبداً. ثم انقلب موسى على السّامري: ما خطبه؟ فادّعى أنه بصُر بما لم يبصروا به واستعفى أنه قبض قبضة هدى من أثر الرسول موسى فنبذها وكذلك سوّلت له نفسه. فزجره موسى أن يذهب معزولاً لا مساس له مـــع قومه في الحياة الدنيا ولينتظر موعد جزاء في الآخرة لدى لقاء ربه الحقّ الذي لن يُخلفـــه، ولينظر إلى إلهه الذي ظلّ عليه عاكفاً ليحرقنّه موسى ولينسفنّه في البحرِ نسفاً

هـــو وبنو إسرائيل ذ صدع شاهداً فيهم بدعوة الحق أن إلههم ليس إلا الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً من كسب عباده ضلالاً فتوبة.

كـــذلك قـــصّ الله في السورة على الرسول الخاتم ﷺ من أنباء ما قد سبق من أمر موسى ليأخذ العبرة في رشد سيرته توكلاً على الله ودعوته توحيداً له تعالى. وإن السابقة الواعظة له والأعم لبني الإنسان كافّة سيرة آدم، إذ عرف تلقاءً في الأزل ربَّه الذي بسط لـــه بخطاب مباشر لأول خلقه وزوجه أن يتمتع بالجنة كلها إلا شجرة نهاهما عنها ابتلاء لـــتقواه، وإذ بُـــسط له بشراً التخيير لكن حُذّر من وسواس إبليس الشيطان العاصي لله العـــدو لـــه هـــو إذ أبى أن يطيع أمره تعالى أن يسجد لآدم مثل سائر الجن من الملائكة الطائعين، وأُنذر أن اتباع وسواس عصيان الله من إبليس سيُخرجه وزوجه من نعيم الجنة حيث كُتب له فيها المتاع المطلق الموصول بلا شائبة بلاء طعاماً بلا جوع ولا ظمأ وستر بـــلا عـــري ولا ضحى. لكن الشيطان مضى موسوساً إليهما أن يأكلا الشجرة الحرام مغـــرياً أنهـــا ترياق الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما إذ تحركت في أعضاء الذكورة والأنوثة منهما مشاعر شهوة فأصابهما الحياء وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجـــنة ستراً. وكانت تلك أعراض عورة ظاهرة بأثر المعصية التي كشفت أيضاً في خُلقهمـــا عورة عصيان وغواية دعتها للحياء من الله وطفقا أيضاً يلتمسان الستر والمغفرة لـــتلك العـــورة، فتاب الله عليهما وهداهما لكن أُهبطا مع إبليس إلى الأرض متبدّلة فيها ظـــروف الطبـــيعة بعضهم لبعض عدو في حياة دنيا محجوبة من الغيب لازم فيها عهد العبادة والطاعة لله يكتنفها الابتلاء بشهوة المعاصي وشر وسوسة إبليس وخيار التوبة إلى الله إن وقعـــت خطيئة المعصية. وجاءهما تذكير من الغيب لها ولذريتها تباعاً أن سيُنـــزل عليهم هدى يعزز عهد الإيمان في فطرة الإنسان ويعلّمه أنباء الغيب ويشرع له الهداية في الحـــياة يُبشّره أن لن يضلّ بها ولا يشقى سالكاً الطريق القويم إلى الجنة في الآخرة وينذره مـــن عاقبة مثل الحرمان الأول من الجنة لمن طاوع الشيطان مُعرضاً عن ذكر الله وغامراً فطـــرة الإيمان وضارباً في غواية الضلال لتحقّ عليه معيشة ضنك في الدنيا وليُحشر يوم القـــيامة أعمـــى لا يهتدي إلى مواقع السعد عند الله بل يذهب منسياً كما نسي التذكير قبلاً وله عذاب أشد وأبقى من ضنك الدنيا إذ أسرف في كفره وضلاله.

ولـــئن كانـــت أمـــة خطاب النبـــي الخاتم ﷺ لأول عهدها قد غلب في سوادها الإعراض وعمى البصيرة عن نبأ الغيب وهديه و لم يتبيّن لهم في تاريخ العالم المشهود كم أعقـــب الهـــلاك والضنك في الحياة لقرون شتى سلفت كانت مثلهم معرضة ظالمة وهم يمـــشون في مواقعها التي تشهد بالعظة لأولي الألباب، ولئن سبقت كلمة القدر والقضاء من الله ألا يعاجل أولئك الخالفين بالهلاك حتى تتقدمه رسالة الدعوة والنذير ليأتي العذاب الحاقّ عليهم في آجلته الموعودة في الآخرة – لئن كان ذلك كذلك فإن على النبـــي أن يمضي داعياً مصابراً ويقوم قدوة للمخاطبين والخالفين، أن يصبر على ما يقول المعرضون مـــن إنكـــار الحق وإيذاء حملة الرسالة وأن يزكّي إيمانه كيلا يتزلزل مهما يَعرض له من أولـــئك بـــل ليرقى بموالاة ذكر ربه تسبيحاً له بحمده على رحمة الهدى ورسالته، ذلك طـــوال يومه عند قدوم مطلع الشمس ومنطلق الحياة بعد النوم وقبل غروبها عند الرجعة إلى مـــأوى السكون بعد منشط النهار وعندما يتيسر تدبّر التسبيح في أيّ من آناء الليل وســـاعاته أو التذكّر في أيّ من أطراف النهار ونواحي حركة السعي فيه والمعاش، لعلّه بـــذلك يظـــل أبداً راضياً لا يشقى لما يعتصم به من ذكر الله وما يلازم من الدعوة إليه. وعلـــيه ألا يـــريبه أن يمـــدّ عينيه إلى تفاضل حظوظ الدنيا العاجلة وإن كان المعرضون يتمتعون بزهرة الحياة الدنيا يُملي لهم الله لعلّهم يتوبون إليه فيحمدونه أو يؤخذون بحجة مـــا يحق عليهم لكسبهم بعد النذير، بل عليه أن يوالي كسب حظه من فضل الصلة بالله صلاةً صابراً عليها وألا يلهيه أو يشغله عنها السعي لإكثار الرزق وإسراف المتاع فالله لا يسأله رزقاً في الدنيا ليكافئ نعمته عليه رزقاً له في آجل الدنيا والآخرة، بل يوصيه ذكراً متوالـــياً إذ العاقبة ليست للمحظوظ بظاهر المتاع بل للتقوى التي تستعين بالذكر والصبر علـــى دواعي شهوة المتاع ومغريات النظر المفتونة بالدنيا. ومهما يكن كما سبق القول تطلّـــب المعرضين آيات من الغيب مشهودة معجزة لتصديق رسالة الغيب وغفلتهم عن آيـــات هـــدى الصحف الأولى وعن عظة هلاك الظالمين السالفين وإملاء الله لهم دون عقـــاب عاجل حتى يسبق إليهم بيان الهدى والنذير من قبل الخزي والذل في الآخرة – فليـــبلّغ الرســـول رسالته وليتربص بهم ما ينتظرهم مَن حاقّ العواقب ليعلموا عندئذٍ من المهتدي إلى صراط سوى في الوجود الحاضر والمنظور في الغيب.

ترتيل المعاني (الآيات ١ – ٨):

﴿طه﴾ (١)

هذا على نهج مفتتح القرآن لكثير من السّور تصدير لشيء من حروف لغة القرآن العربية حرفاً واحداً أو حروفاً مقطعة، أصولَ منطق تركيب الكلمات فالجُمل التي تخرج قراءتها وتشكل كتابتها. والحرف الأول هنا الطاء المنطوقة عند مقدم المخارج للحروف من الفم، الحروف النطعية التي تخرج من غار الفم الأعلى، وهي حرف مجهور لم يرد إلا في مفتتح سور ثلاث أخرى[1]. والحرف الثاني الهاء التي تخرج من أوسط الحروف الحلقية، وقد وردت في مفتتح سورة أخرى[2]. وأول الأصوات وآخرها مخرجَ نطق رمزٌ لأول كلام رسالة الله المنزلة على عباده وحياً بلسانهم أصلاً متوالياً هديُه إلى عاقبة في رسالة أخيرة. وتقديم حرفي الطاء والهاء استشهاد على تيسير رسالة القرآن بلسان عربي مبين ذكراً للرسول وللمخاطبين. وبعض المفسرين قديماً ظنوا الحرفين تسمية لسانية لله أو للرسول أو تصريفاً لأمر يخاطب الرسول. والحق أن كل الحروف المقطعة في مفتتح سور القرآن إنما هي شهادة على بيانه بلسان المنزل عليهم، والذي يتلو مباشرة أو بعد آية أو بضع آيات أو في سياق لاحق في السّورة هو ذكر الله الذي ينزل ذلك الكلام وحياً أو ذكر لقرآن ذلك الوحي أو كتابه أو ذكر للنبي الذي يوحى إليه أو المخاطبين بذلك الخطاب. ذلك هو منهج الأسلوب القرآني وهو ما يرد في صدر هذه السورة وفي سياق لاحق منها[3].

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢)

بدءاً بالتطهير من أدنى ريب في حق القرآن الذي أنزل الله بأقدار إخراجه من أم كتاب علمه – تعالى – وحكمته، من ذلك الملأ الأعلى إلى الدنيا على الرسول المخاطب الذي اصطفاه الله من عباده ليحمل إليهم رسالة القرآن – يخاطبه الله أنه ما أنزل عليه ليشقى، وإن كان أول محصول بلاغ القرآن منه لأمة خطابه هو إعراضهم

(١) أنظر مفتتح سور الشعراء والنمل والقصص.

(٢) راجع مفتتح سورة مريم.

(٣) انظر الآيات ٢-٤، ١١٣و١١٤، ١٣٣و١٣٤ ذات السورة.

الذي اشتدّ كلما اجتهد هو في الخطاب به، ما كان ذلك الإنـــزال لينقلب عليه فيعاني من وقعه، تشقى نفسه من إعراض مَن يحب من أهله وخيبة رجاء إنقاذهم من الضلال والـــنار ومن ضيقه من مكرهم وأذاهم له وهو يلطف ويحسن لهم في المقال. وإنما عليه الصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل[1].

﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (٣)

مـــا أُنـــزل القرآن على النبـــي الخاتم ﷺ ليشقى إذ يخشى أن يهلك قومه المعرضون أو يعـــاني مـــن إعراضهم وأذاهم، بل رحمة، ما أُنـــزل تذكرة بما قد يترتب من شقاء في الـــبلاغ بل تذكرة بما في الفطرة من معرفة الله وعهد الإيمان به رباً واحداً للمخلوقات وبما في رؤيـــة المـــشهود من دورة الحياة والموت في النبات ومسكن الليل والنوم ومنشط النهار والحـــركة من دلالة لمرجع الحياة الدنيا إلى الآخرة انبعاثاً في الغيب، تذكرة لمن يفي بذلك العهد المفطور ويخشى ذلك المصير إلى الآخرة فيهتدي ويستقيم تقوى لله في حياته.

﴿تنـــزيلا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلاَ﴾ (٤)

تواتر مجيء القرآن إلى الرسول ﷺ تنـــزيلاً هوادي تذكير وتكليف، لا إلقاءً من جـــنٍّ أو خواطـــر نفس بل إلقاء وحي ممن خلق الأرض المبسوطة والسماوات العُلى، خلقهـــا وجـــوداً فهداها مسيراً ومصيراً، وكذلك كل شيء، وكذلك خلق الإنسان وهداه بالوحي المتنـــزل تعاقباً وختامُه الأعلى هذا القرآن.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥)

ذلـــك المصدر للوحي وللخلق هو الرحمن، فائض الرحمة المتجلّية في خلقه لاسيما الإنـــسان الـــذي كرّمه وخيّره وهداه ومدّ له، الذي تمكن على العرش – مقام القدرة المـــتعاظمة القدر المتعالية على كل الموجود المخلوق، يدبر الأمر ويصرّف الشأن لكل المخلوقات في الكون ولشأن الإنسان خلقاً وابتلاءً في الجنة الأولى ثم في العالم المشهود

---

(١) الوصـــية للنبـــــي ﷺ ألا يشقى حزناً وفجعاً للنفس على المخاطبين: راجع الآية ٨٨ سورة الحجر، والآيات ١٢٥- ١٢٨ سورة النحل، والآية ٦ سورة الكهف، وانظر الآية ٣ سورة الشعراء، والآية ٨ سورة فاطر. وأن يمضي في دعوته ولا يكون في ضيق من إعراضهم وأذاهم: انظـــر الآية ٧٠ سورة النمل/ والآية ٤٨ سورة الأحزاب. وأن يعتبر بصبر الدعاة قبلاً: راجع الآية ٣٤ سورة الأنعام، والآية ١٢ سورة إبراهيم.

ورحمة وهداية متعاقبة عبر حياته الدنيا ثم بعثاً وقضاء وجزاء عليه في آجلة بعد عاجلة، إســـتوى ﷻ على مقام القدر والتصريف الأعظم معتدلاً بلا اضطراب ولا قصور ولا شريك في سلطانه المطلق.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦)

الـــرحمن الملـــك القادر له ما في السماوات والأرض من مخلوقات جامدة جارية وراسخة وحيّة أرواحاً مستجنة أو بشراً وحيواناً، وما بينها من مقدّرات طبيعية رياحاً وماءً ونباتاً وألواناً وأصواتاً ومنـــزلات روحية من رسائل وحي وأقدار وقائع وأحوال وظـــروف مـــتطورة ومرفوعات علم بكسب الإنسان المختلف، وما تحت الثرى من مخلـــوقات راكزة في الباطن وقد تفور وبذور قد تخرج لتنمو وتثمر - له كل ما فوق الإنسان وحوله وتحته من مخلوق.

﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧)

يستمر الخطاب للرسول ﷺ حامل تذكرة القرآن العربـــي أن الله الرحمن المحيط ملكـــاً للكـــون المخلوق حول الإنسان هو المحيط كذلك به علماً، وإن يجهر الرسول بالتعـــبير عـــن هدى القرآن وببلاغ رسالته بظاهر القول وجاهره ذاكراً داعياً صادعاً بدعوة القرآن متكلّفاً ما يلزم من ذلك ولو تعرض لفتنة وعانى شقاء فإن الله يعلم كل وقـــع قوله، إذ علمه تعالى محيط وراء ذلك بسرّه إذ يخفت بالذكر مناجاة لربه ليطمئن أو دعـــوة لبعض خاصة المخاطبين، بل محيط بما هو أخفى من نيات الضمير وحديث النفس وخاطر الفكر مقاصد وراء المقولات والمفعولات.

﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨)

ذلـــك هـــو الله باسمه الإله المعرّف ربّاً الأعظم مُلكاً المتفرّد أُلوهيةً فوق ما يتّخذ المفـــتونون تعلّقاً بالآلهة المشهودة، إذ لا إله حقاً إلا هو، له الأسماء الحسنى التي تصف كماله الأبلغ الذي لا يضاهيه موصوف غيره ولا يشوبه نقص، فهو الخالق لكل شيء الـــرحمن راحماً بما يبلغ عبادَه منه فيوضاً من الرحمة واسْماً لم يعهده العرب الذين عرفوا اســـم الله، المالـــك العليم إحاطة بالجلي والخفي من الموجود والمقول، الموصوف حقاً وحده بالصفات العليا التي افتراها العرب المخاطبون لآلهتهم الدنيا التي أشركوها به.

عموم المعاني (الآيات ١ – ٨):

القـــرآن لم يتنـــــزل وطاءً مبهماً من أثقال روح الغيب، ولا وقعاً من الصوت مجهـــولاً لا يتبيّن معناه، بل هو حديث بلسان عربـــي معهود للرسول ﷺ الذي تلقّاه ليتلوه على أمة الخطاب الأولى العربية. فهو في هذه السورة وفي كثير مثلها يبدي لأول المفتتح أصول بنية كلامه من أصول اللسان العربـــي، مثالها هنا الطاء من بين الحروف الأدنى مخـــرجاً عند النطق في نطع الفم والهاء من بين الأقصى مخرجاً في الحلق. فهو من ثم ميـــسور للرســـول أن يتلقاه ليحفظه ويتفقهه وليحمل رسالته إلى أمة الخطاب التي تتبين معانيه من حروفه وكلماته البيّنة. وكذلك ينبغي على مَن هو منها ومَن خلف من المـــستجيبين للقرآن أن ينقله إلى كل أمة بلسانها، مجتهداً يستقصي كل حروف منطقه ويتّخذ كل تشاكيل كلماته ويصوغ كل تعابيره وجمل كلامه التي تبلّغ رسالة القرآن.

ولم يُنـــــزل القـــرآن على نفس الرسول المخاطبة الأولى ولا على الذين يخلفونه فـــيحملون رسالة ذات الدعوة من بعده، بما يُشقي تلك النفوس بوقع التكليف التزاماً مـــنها هـــي بحق القرآن صدقاً وأسوة على نفوس المخاطبين الآخرين بمثال من مقتضى هديه في السلوك، ولا بما يشقيها تلاوة لآياته بلاغاً للآخرين فتعرضاً واحتمالاً للصدود الذي تُبديه أمة الخطاب لأول العهد لا جهلاً بقوله – فهو من كلمات فصيحة ومعاني بيّـــنة – بل إنكاراً لغريب هديه الذي يجافي معهود مذهبهم الجاهلي أو دينهم الموروث مـــن السلف ومعتاد متاع الهوى في الحياة الدنيا. لقد حقّ أنهم كانوا ينأون عن القرآن ويـــنهون ويحملـــون على الرسول إعراضاً وأذى كما يحمل من بعدُ مثلَهم كلٌّ مجتمع مفـــتون بماديـــة الحياة المحسوسة المشهودة أو لم يكن يعهد رسالات السماء وحياً من الغـــيب أو كان مرهوناً لعقيدة أو كتاب من وضع الأولين وتبديلهم لرسائل الوحي. لقـــد كانـــت واقعـــة لأول متنـــــزل القرآن – وهي سنة في قرون الدعوة القرآنية المتعاقـــبة – أن يحـــرص الداعي على استجابة قومه أو أهل خطابه للهدى ويرجو أن يطمـــئن على رشد مسيرهم ومصيرهم إلى فلاح. وأن يرميه بعضهم لفرط الإنكار أنه إنمـــا يصدر عن كلام ساحر ببلاغته أو قصد ماكر يُكايدُ مرضيَّ أوضاعهم ويضارُّهم في حاضر حظهم من المتاع الحاضر أو يبتغي كسباً فيما تهوى نفسه.

ما تنــزّل القرآن على حامل رسالته ليشقى كذلك بل تنــزّل تذكرةً من الغيب لأن يتعــرّف كل مخاطَب به ربه حقّ المعرفة فيخشى جلال هيبته وعاقبة لُقيته بعد طيّ الحــياة الدنــيا وتجلّي حقائق الغيب العاقبة في الآخرة. كان ذلك ال تنــزيل تذكيراً وتعزيزاً للمفطور في نفوس بني الإنسان من ميثاق الإيمان بالله ونــزعته وللمنظور من آيــات الله في مطــبوع الكــون المنظوم المشهود وفي المسنون من دورة الحياة والموت والــبعث مــرة أخرى واختلاف الليل والنهار والغيبة والطلوع للأفلاك- كان القرآن تــذكيراً بذلك وتفصيلاً لأبعاد الغيب المجهولة منه للإنسان. وما كان القرآن تنــزيلاً مــن قوى الغيب التي يتخيلها أو يصطنعها الناس ولا افتراء من نفس الرسول ﷺ بل ممــن خلــق الأرض التي يقوم عليها الإنسان وما حوله والسماوات العلى التي تتعالى طباقاً يرى الإنسان أدناها نظراً ويقدر فواقها من سائر السماوات المتساميات في أبعاد المكــان والزمان وراءها. وذلك الخالق هو أيضاً الرحمن لا رحيماً وحسب بل فائض الــرحمة علــى الإنــسان خلَقه ليُحييه ويبتليه حراً في متاع الدنيا مسخِّراً له ما حوله وموحــياً لــه العلم بحقائق الوجود الخالية والحاضرة والآجلة والهداية لقبلة الحياة الحق والصراط المستقيم إلى المصير المرغوب اتقاء للمرهوب. وهو الذي على مقام السلطان الأعظــم اســتوى متعالياً بكماله متمكناً بقدرته يدبر كل أمور مخلوقاته مستوياً بقوة تــصريفاً لكل شيء لا تضطرب ولا تقصر أبداً. فهو مبسوط الملك المطلق محيط العلم لــه علــيٌّ ما في السماوات من المخلوقات المادية والروحية وجليٌّ ما في الأرض من الجمــاد المتحوّل والحيوان والنبات المتوالد وقُوى ما بينها الماديّة من الطاقات المتفاعلة والــروحية المتــبادلة لاسيما بين الإنسان وربه من الرسائل والأقدار، وخفيٌّ ما تحت الثــرى مما يبلُغه الإنسان منقباً باحثاً وما يخرج متفجراً ونابتاً وما لا يبلغه أحد. وهو مــن ثم العليم بمجريات الأمور حول الإنسان في ذلك الإطار الكوني المخلوق لاسيما مــا يعنــيه عند متنــزل القرآن - ما يجري من الرسول والداعية من بعده، إن يجهر بالقول ليُعلي ذكر ربه الذي تعرّفه ويبلّغ كل مخاطَب كلمَ رسالته التي كُلّف بها وبيان مقتــضاها، بــل هــو أبلغ علماً إذ يحيط بسرّ القول وما هو أخفى من ذلك في باطن المقاصد والنيات في الضمير.

وذلــــك الخالق الرحمن القدير الملك العليم هو الله، الإله الفرد، لا إله حقاً إلا هو مهمــــا يتخذ عباده المفتونون بالمشهود القاصرون بالإدراك البشري بغير هدى من الله بمتعلقات ومشتهيات ومقدسات محسوسة. له الأسماء الحسنى مما سبق ذكره ومن سائر أوصاف الكمال العليا التي لا تَحقّ وصفاً لما يُشركه به بعض البشر من مؤلهات، فهي لا تخلــــق شيئاً ولا تملك الكون ولا تدبّر تصريفه ولا تحيط رحمةً وعلماً بالإنسان. وإن أول رســـالة الوحي الرباني من الغيب كما يحملها القرآن خطاباً مبيناً: هي معرفة الله حقـــاً علماً يبصّر الإنسان المخاطب ليُدرك قدر جلال الله وكمال صفاته العظمى، ثم هـــي الرسالة التي تهدي الإنسان ليخشى الله فيتّقيه من فتنة الابتلاء بالمشهود ويستقيم إلى وجهـــه تعـــالى في سيرة الحياة الدنيا التي قُدّرت له في العالم المشهود ليلقاه راضياً مرضياً في الأزل والآخرة.

ترتيل المعاني (الآيات ٩ – ٩٨):

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (٩)

ينـــضاف إلى ســـالف الذكر للقرآن رمزاً إليه بمثال من حروفه العربية والخطاب للرســـول الخاتم ﷺ مهما يشقى بحمله القرآن وبلاغه أن يذكر به ويتذكر أنه من الله وأن أول العلـــم بالله هو وحدانيته وأسمائه الحسنى وبيّنات ذلك مشهودة في الكون – ينـــضاف استفهام يخاطب الرسول هو تنبيه لما سيأتيه تالياً من خبر موسى فما رسالة النبـــــي الخاتم إلا تصديق لرسالة موسى عليه السلام التي كانت منتشرة آثارها في أرض أمة الخطاب العربـــي وحولها. والذي يبدأ به مهاد الحديث في السورة عن أمر موسى هو أول لقائـــه مـــع ربّه وأوّل تذكرة وتعليم له بمعرَفة الله ثم تكليفه له بحمل رسالته التي تفـــصّل السّورة خبرها دعوة وسيرة في سبيل تثبيت الإيمان بآيات توحيد الله وهدايته لعـــباده، وذلك أصلاً للرسالة الغيب مثل ما صدرت به السورة أصل للرسالة الخاتمة، وحديث موسى كله يأتي للرسول الخاتم مهاداً من العبر والمواعظ لهداية الرسالة من بعدُ محمولة من محمد أو خلَفه[1].

---

(١) في ذكر حديث موسى المتواتر في القرآن: راجع الحاشية ٢٣ على الآية ١٧٨ سورة الأعراف.

﴿إِذْ رَأَى نَــارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (١٠)

أول حـــين مـــا حدث لموسى إذ رأى ناراً في طريقه راجعاً من بلاء مهجره إلى مــــدين، فقال لأهله أن يمكثوا مكانهم ينتظرونه. ذلك أنه في وحشة خلاء الطريق آنس في رؤيـــة تلك النار – كما قال – ترجياً في نفسه، لعله يأتيهم منها بقبس – شعلة أو جمـــرة في رأس حطب يوقدون بها ما يستدفئون به ويصطلون أو يجد عليها هدى يدله على سائر مسالك الطريق.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١١ – ١٢)

فلمــــا أتى موسى النار نودي باسمه من صوت جَهل مصدره، إذ كان يخاطبه الله مباشرة بصفة المتكلم، أنه هو ربّه – إذ خلقه وربّاه وزكّاه محسناً عليه مهما خفي عنه غيـــباً، وأوصــــاه أن يخلع نعليه أدباً معروفاً وتطهراً ومباشرة بقدميه ترباً مباركاً، إنه بالوادي المقدس المطهر طوى.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (١٣)

وأنـــبأه الله خطابـــاً له أنه ﷻ اختاره للنبوة – بعد أن تأهل لها بإرشاد من عبد صــــالح أُوتي علماً وبصيرة بالغيب من لدن الله ألقاه إلى موسى بتجارب من السفر إلى مجمع البحرين، ومن شيخ صالح في مدين أصبح حماه وعاشره سنوات[1]. وأمره الله أن يـــستمع لما يوحى منه تعالى، أن يصغي حاضراً وعيه ليتلقّي خصوصاً من علم يأتيه من الغيب وحياً، كلاماً يُلقى خفيَّ أسباب الصدور.

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤)

كـــان ذلك الوحي المخاطب لموسى من مصدر غيب يكلمه: هو إنه هو الله – الإله الأعظم الأكبر ذي الصفات العليا والأسماء الحسنى المعرَّف وحده، لا إله إلا هو مهمـــا تعهَد تقاليد البشر من متعلقات مؤلّهة دونه. ومضى الأمر لموسى: فليعبد الله الـــذي خاطبه وليُقم الصلاة مُحقاً قوامها لا تأدية ألفاظ وحركات لغو وصورة بل

(١) راجع الآيات ٦٠- ٨٢ سورة الكهف، وانظر الآيات ٢٢- ٢٨ سور القصص.

صـــلة وثـــيقة عبادة تعبيراً لذكره سبحانه وتعالى والخشوع له بالجوارح وتوقيره في القلب.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ (١٥)

ومـــضى يأتي موسى الخطاب: أن يؤمن بمنظورٍ حق في الغيب، إن الساعة واقعة آتـــية هي حين تحول الحياة المشهودة الدنيا إلى أخرى، عندها قيامة تقترب كأنها قادمة هي عهد البعث والحساب والجزاء في الأزل. يكاد ربّه - كما يقول متكلماً - يخفيها لا يـــبدي مقدمها القريب ولا وقتها الحق بل يترك ذلك من وراء عالم الشهادة وأيام زمانـــه المتناهـــية غيباً لأمد انتظار وآجل قيام موعود مجهول للعباد والبشر لا يؤذنون بميقاته، فيكاد يخفى أصل حق ذلك القيام، وإنما يلزم ترقبها تأتي بغتة، حقاً ودار قضاء على كل نفس وعاقبة جزاء كفاء لسعيها في دار البلاء الحياة الدنيا.

﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ (١٦)

وتـــرتب علـــى إثبات ذلك الوعد الحق الوصاة للرسول موسى ألا يصدنّه، ألا يصرفه أبداً عن دوام ذكرى الساعة والإعداد لها مَن لا يؤمن بها وعداً غيباً إذ هو غافل أيـــضاً عن آياتها المشهودة دورة في سُنن الإحياء بعد الموت، وإذ مضى مفتوناً بعاجل الدنـــيا واتّـــبع بكل جهده في حياته هواه داعي الشهوات الدنيوية والتعلّقات الحاضرة كأنـــه غير مسئول في عاقبة. ذلك حتى لا يترتب على ذلك أن يردى مثل من يصدّه فيهوى هالكاً في المصير إلى الساعة.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (١٧)

ووالى موســـى الخطابُ من ربه طاوياً استجابته لذكر الحقائق الواردة عن الغيب مضيفاً إليه سؤالاً عما هي مشهودة يشار إليها إذ يحملها: ما تلك بيده اليمين؟ ونودي باسمه ليستمع السؤال فيجيب.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (١٨)

قـــال موسى: هي عصاه يتوكأ عليها متحاملاً عليها ومعتمداً في مشيه، ويهش بها على غـــنمه خابطـــاً ورق الشجر على رؤوسها لتأكل السّقط، وله فيها مآرب أخرى، حاجات يبتغي قضاءها بها دفعاً عن نفسه وزجراً أو إشارة بها أو نحو ذلك مما يعهد في سائر حياته.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ (١٩)

قـــال الله مخاطباً موسى في شأن عصاه أن يلقيها مرمية في الأرض، يريد به الله أن يتجاوز أغراضها في العالم المشهود لينفذ بها إلى عالم الغيب ويُقيمها آية بيّنة لحق رسالة غيب سيحملها إلى أُمّة خطابه.

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ (٢٠ – ٢١)

فألقـــى موســـى عصاه طاعة لأمر ربه فإذا هي حيّة تسعى، ثعباناً خفيف حركة الدبـــيب. قـــال لـــه ربه أن يأخذها متناولاً لها وألا يخاف طبعاً لمشهد تحولها الغريب الـــرهيب، وطمأنـــه الله أن ســـيعيدها بأقداره المحيطة سيرها وطريقتها الأولى عصاة وحـــسب جامـــدة، بعد أن بانت فيها آية قدر الله الغيبـــي النافذ تصريفاً لطبائع كل شيء مشهود.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (٢٢)

وانـــضاف لموسى خطاب أمرٍ آخر أن يضمم يده إلى جناحه، جيب جبٍ لبسه مدرعـــة، وأُنبئ أن ستخرج عندئذٍ إذا سحبها بيضاء اللون، غير سمرة بشرته المطبوعة، وذلك من غير سوء برص أو علة جلدٍ، بل آية أخرى من أقدار الله الغيبية.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢٣)

وأبان له ربّه مغزى تلك الوقائع، ذلك أنها تحدث له ليريه ربّه بأقداره الجليلة من آياته الكبرى التي ستتجلّى عليه في سياق مهام دعوته الرّسالية بيّنات ودلائل على حق الغيب الذي قد تُنكره أُمّة الخطاب المفتونة بالمحسوس المشهود القاصرة عما وراءه.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٢٤)

أوصـــاه ربـــه من ثَم أن يذهب رسولاً إلى فرعون ولي سلطان مصر، إنه طغى بقـــوته منكـــراً لقوة الله الغيب متجاوزاً عبوديته البشرية له تعالى مدعياً الربوبية العليا مـــستكبراً عما قد يحد سلطته التي يراها مشروعة على الرعية. وذلك الطغيان يستدعي الدعوة والتذكير بتقواه في ممارسة السلطان والعرض عليه آيات بيّنة شواهد على قدرة الله البالغة المعجزة لمثله رهبةً له وعظة لمن دونه من رعيته الأذلين.

﴿قَـــالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٢٥ – ٢٨)

قـــال موسى لربه مستجيباً للأمر بحمل الرسالة وآياتها إلى فرعون الطاغية مستعيناً بـــه ﷻ لـــبلاغها داعياً له ربّاً ربّاه ورعاه وصرّف أمره – قال له راجياً أن يشرح له صـــدره، يوسعه بطمأنينة الإيمان من ضيق الارتياب بحق الرسالة والخوف من فرعون، وأن ييـــسر لـــه أمره فيلقى سهولة فيما يبتلى به في سيرة الدعوة والحياة في بيئة عَهِد معاسرها قديماً، وأن يحلل عقدة من لسانه إذ لم يكن ينساب بالكلام بلا رتج ولا تتعتع بـــل فيه حبسة من علة أصابته أو من طبع حِدة. ذلك لعلّ المخاطبين برسالته يفقهون قوله ولعله يفصح البيان فيُنـــزل معانيه إلى أعماق إدراك وجدانهم.

﴿وَاجْعَـــلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (٢٩ – ٣٢)

وأضـــاف موسى داعياً ربّه أن يجعل له وزيراً ظهيراً يأزره في حمل الرسالة ويُعينه من أهله الذين يأنس بهم، وأن يكون هو عيناً هارون أخاه، وأن يشدّ به أزره، يعزز له قوته في احتمال بلايا الدعوة، وأن يشركه في أمره ليشاطره في تكاليف النبوة والبلاغ لاسيما أنه يتمتع بالفصاحة الأبلغ.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (٣٣ – ٣٥)

ومضى يخاطب ربه بما يرجو لو استجيب له: كي يسبّحاه كثيراً بعليا قدره مهما يعظـــم علـــيهما استكبار فرعون ويذكراه كثيراً بخواطر حاضرة في وعيهما موصولة وإشـــارات خشوع مسنونة وأقوال تجري في اللسان متوالية، إنه ﷻ –كما يخاطبانه– كان بهم بصيراً، عالماً بخفيّات أمرهما في سيرة الحياة والدعوة.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ (٣٦)

قال ربّ موسى مخاطباً له أن قد أوتي سؤله وطلبه مما رغب فيه من شرح الصدر وتيسير الأمر(١) وإطلاق اللسان والإعانة بالأخ، وناداه بعداً باسمه قُربى مُجيبٍ.

---

(١) الـــشرح والتيـــسير للنبـــــي الخاتمﷺ: انظر الآية ٨ سورة الأعلى، والآيات ١– ٦ سورة الشرح.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٣٧ – ٤١)

وخاطب ربّ موسى عبده أن قد منّ عليه بأقدار إنعامه العظيمة مرة أخرى سابقة، إذ أوحى إلى أمه ما يوحى ملقياً في خاطرها ما حقّ من إلهام، وهي تخشى من سنة فرعون قتل أولاد بني إسرائيل، أن تقذفه فتطرحه في التابوت، الصندوق الوعاء لعزيز الأشياء، ثم في اليمّ، البحر أو النهر ذي الماء الفائض، وأوجب على اليمّ بقدره سبحانه أن يُلقيه في الساحل عند الشاطئ ليوافي بأقدار الله أن يأخذه عدو له تعالى وله ولداً لبني إسرائيل، وذلك هو فرعون. وذكّره أنه من بعد أَلقى عليه محبةً مخصوصة منه تعالى، وليُصنع على عينه نشأةً وتربية وتزكية برعاية ورقابة تحفظه. ذلك إذ تمشي أخته تتعرف سيرة التابوت في البحر فتقول مخاطبة للذين التقطوه: هل تدلّهم على مَن يكفله فيقوم بأمره رضاعة وحضانة؟ فهداهم الله هكذا إلى ما يكرهون ويناهض سنة تدابيرهم في بني إسرائيل، إلى محضنه الأحق إذ انتهى به الأمر أن رجعته أقدار الله المنظومة – كما يخاطبه – إلى أمه التي دفعته بعيداً عنها خوفاً عليه كي تقر عينها فتسكن وتبرد من أساها على فقده ولا تجزع على مصيره.

وكانت صنيعة الله وفضيلته عليه الأخرى – كما خاطبه – أن قد قَتل – بعد أن بلغ أشده واستوى – نفساً من القبط رعية فرعون فنجّاه الله بأقداره العظيمة من الغم خوفاً وهمّاً جاثماً على قلبه أن يدركه القوم الذين تآمروا عليه حبساً فقتلاً قصاصاً. وفتنه الله بأقدار البلاء فتوناً متوالية هجرةً بعيدة واختبارات في كنف أهل مدين سنين عشراً من العمل والابتلاء بالإلفة والسكينة والزكاة للنفس والزواج. ثم أن قد جاء على قدرٍ من واقع ميقات إلى حيث يكلّمه الله – كما سبق الذكر – بخياره للنبوّة

لتلقّـــي وحي الحق في أمر لله والغيب والساعة وفي تكاليف العبادة والصلاة والرسالة، وأن قد اصطفاه ربّه يصطنعه لنفسه تعالى – كما يمضي الخطاب له – بأن يعلّمه ويؤتيه حكمـــاً وعلمـــاً ويزكيه ليكون خالصاً لوجه الله وحده ويصبح أهلاً لاحتمال رسالة التوحيد والهدى وبلاغها إلى أمة الخطاب من عباد الله.

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٤٢ – ٤٤)

بعـــدما ذُكر موسى بمنّ ربّه عليه جاءه الآن خطاب أن يذهب هو وأخوه بآياته تعـــالى، كلمات رسالة بيّنة تصدقها فعال معجزات، وألا ينيا – فتوراً أو ضعفاً – في ذكره المتوالي الحثيث حمداً وتسبيحاً وصلاةً وعرضاً للآيات المعجزة وتبليغاً للرسالة، أن يذهبا إلى فرعون إنه طغى – كما سبق التذكير، ولكن رتبت الوصاة أن يقولا له قولاً ليـــناً، لا عنيفاً يماثل طغيانه بل رفيقاً وحسناً لعلّه يتذكّر أو يخشى[1]، لطفاً فيه الترجّي أن يتذكّـــر داعية الإيمان في فطرته لا يُستنفر وأن يخشى رهبة الله الأعظم لا يستكبر. لـــيمض موســـى وأخوه في دعوتهما راجيين لا يكفان عنها يأساً من استجابة فرعون وقنوطاً.

﴿قَـــالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٥ – ٤٦)

قـــال موســـى وأخوه هارون لله الذي خاطباه رباً لهما، ولياً لهما مدبّراً لأمرهما: أنهما يخافا أن يفرط عليهما فرعون ببوادر غضبه المشتطّة أو يطغى تجبراً عليهما تجاوزاً لحـــقّ الرسالة من الله الأعظم وإنكاراً وعدواناً على الدعاة إليها. قال ربهما مجيباً لهما: ألا يخافـــا ولا يحذرا إنه ﷻ معهما يتولاهما وينصرهما ولا يغيب عنهما بل هو حاضر أبداً يسمع ما يجري من المجادلة بينهما داعيين وبين فرعون الطاغية، يسمع ما يجتهدون فيه من دعواه ويرى ما قد يهمّ به أو يقع من فرعون.

---

(١) انظر الآيات ١٧– ١٩ سورة النازعات. الوصية للرسول الخاتم ﷺ أن يلتزم الدعوة بالحسنى: راجع الآية ١٢٥ سورة النحل، وانظر الآية ٩٦ سورة المؤمنون، والآية ٤٦ سورة العنكبوت، والآيات ٣٣– ٣٥ سورة فصلت.

﴿فَأْتِـيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٤٧ – ٤٨)

وبعد الطمأنة من الخوف ترتب الخطاب لموسى وهارون من ربهما أن يأتيا فرعون فيقولا له إنهما رسولا ربّه، الذي خلقه وربّاه بشراً وسلطاناً، فعليه أن يرسل معهما بني إسرائيل فيخلّي عنهم مستضعفين ليهاجروا هم بهم ولا يحبسهم ولا يعذبهم بالسخرة في العمل مع الأذى وقتل الأولاد واستحياء النساء، أن ها قد جاءاه بآية، علامة حجة تصدّق الرسالة بمعجزة قدرية هي من ربّه الأعلى الذي أحسن إليه وقام عليه قهّاراً. وجاءاه يبشّرانه: السلام على من اتّبع بغاية جهده الهدى المتنزّل منه تعالى. والسلام لم ينسباه لهما بشرين قاصرين فهو من الله وصرفاه عنه تأدباً بذكر من هو به حقيق وحسب. وعادلاً ذكر السلام بذكر العذاب، إنهما قد أوحي إليهما أن العذاب من الله كله – مهلكاً في الدنيا ومهيناً في الآخرة – على من كذّب آيات الله التي يأتي بها المرسلون، وتولّى مُوقعاً فعلاً معبراً عن التكذيب معرضاً عما يدعو إليه المرسلون.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٤٩ – ٥٠)

وإذ أكثر موسى وهارون على فرعون ذكر ربهما وربه أصل الإيمان بالغيب والهدى، ردّ عليهما منكراً اتخاذ ربٍ غيره هو يدّعيان أنه ربهما وربه مبادراً بالمناظرة مرتّباً سؤالهما: من ربّهما؟ مصوباً على موسى الخطاب. قال موسى مجيباً إن ربهما هو الأعلى الذي أعطى كل شيء خلقه، إذ أنشأه موجوداً وقوّمه صورةً، ثم هداه إلى مسالك وجوده، مصرفاً سيرة الأشياء المطبوعة مكلّفاً حياة الإنسان المشروعة بالحق[1].

﴿قَـالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى﴾ (٥١ – ٥٢)

قـال فرعون مرتباً على كلمات موسى أن الله يصرّف كل شيء في أمر الغيب، سائلاً عن غيب ماضي عالم الشهادة: ما بال القرون الأولى؟ كيف صرّف ربُّ موسى

(١) انظر الآيات ١– ٣ سورة الأعلى.

مسيرها وشأن حالها، وماذا كان مصيرها بيّنة على حكم الله المفعول؟ ذلك لينكر إتيان موسى بدين جديد في أمر المسائر والمصائر لم يعهده السّابقون فيما بلغ فرعون من نبأ الغابـــرين. قال موسى مجاوباً لفرعون: علم تلك القرون الذي يغيب عن خلَفها إنما هو عـــند ربـــه، البصير العليم، في كتاب من علمه المحيط، لا يضلَ ربه بل له كتابة السنن حـــيث لا تتبدّل حياة تلك القرون المقدّرة، ولا ينسى ما ترتب بعد وجودها وحقّ له مَـــن هداها ودفعها إلى مصيرها في الدنيا والأبد. ولذلك يأتي نبأها للخلَف بوحي من علم الله المحيط.

﴿الَّـــذي جعَـــلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْـــرَجْنَا بِه أَزْوَاجًا مِنْ نَبَات شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلكَ لآيَات لأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (٥٣ – ٥٥)

في ســـياق ذكـــر الله الخالق الهادي لكل شيء العليم بالغيب الماضي ربِّ موسى الذي ذكره في جوابه، تمضي هذه الآية وما يتلوها فتبيّن سنن قدرة الله وقضائه الظاهرة شـــهادةً أنه ما كان ليترك القرون الأولى سدىً بلا قدر وصرفاً لذكر آياته في القرون الأولى الـــتي قـــد يجهلها البشر وينسونها إلا ما يُروى لهم من كتاب علمه – صرفاً إلى آيـــات الله المشهودة للبشر أبداً دلائل على أقداره النافذة إنعاماً على عباده أو عوداً بهم إلى عـــالم الأزل. وذلك خطاباً لقوم فرعون والتفاتاً بذات عبرة الخطاب لأمة الخطاب الخالفـــة التي تنـــزلت عليها هذه الآيات من قصة موسى وكلماته. فذلك الربّ الذي سبق ذكره هو – بياناً للمخاطَبين – الذي جعل لهم الأرض مهاداً يفترشونها ويقومون علـــيها قراراً، وسلك لهم فيها سبلاً تهدي لهم فيها مساراً مسهّلاً، وأنـــزل من السماء مـــاءً مرسلاً فأخرج به بأقدار منه عظيمة في انـــزراع البذر حباً وإنباته خضراً ضروباً وأصنافاً تتلاقح أو تتشاكل أزواجاً من نبات شتّى مختلف الألوان والثمار والطعوم. ثم يمـــضي الآي يتيح لهم أن يتمتعوا بنعم الله المسخّرة يأكلوا منها ما يرضونه ذوقاً ونفعاً ويرعوا أنعامهم وليتذكروا دون لَهْو المتاع الحقَّ، إن في ذلك من عظم الظواهر لآيات دلائل بيّنة لقدر الله الخالق الهادي شاهدةً لاعتبار أولي النُّهى–منتهى الرأي من العقول الناهـــية عن غفلة الجهل وغيّ المتاع. من تلك الأرض والماء خلقهم الله بأقدار جليلة

بإيجـــادهم مادة جنين فولد حي فشخص بالغ أشُدّه بالغذاء، وفيها يُعيدهم عند الموت مقـــبورين أو ضالّين في مادّهَا، ومنها يخرجهم تارّة أخرى بعثاً ونشأة مثل الأولى من الأرض. وكـــان المخاطَبون الأوائل بالقرآن يعرفون الله خالقاً للأرض منـــزلاً للغيث ولكـــن ســـنن النبات الحي ثم الاصفرار والموت ثم الانبعاث الأخضر من جديد كان يُلهـــيهم ظاهـــرُها عن أقدار الغيب وأسبابه، ولذلك البعث للإنسان بعد الموت كانوا يُنكـــرونه غيباً منظوراً، ولذلك خاطبهم الله متكلماً بنون الجماعة إشارة لمنظوم أقداره وآياته البينة العظيمة بينما بدأ الخطاب بصيغة المتكلم الفرد فيما يعرفون من الله الخالق المغيث.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ (٥٦ - ٥٩)

إنضاف إلى جواب تساؤلات فرعون بالحق والتذكير بآيات الله الطبيعية الشاهدة علـــى الغيب، أن أراه الله بما سخّر من أقداره العظيمة وأنفذ بيد موسى آيات تصريفه وفعله المادية المعجزة شهادة على حق رسالة موسى وهارون: عصا موسى التي تنقلب حية ويده التي تخرج من جيبه بيضاء. ولكنه كما يخطر على مثاله من مفتون السلطان تـــوهّم أن تلـــك المشاهد كيد سلطاني عليه وعلى قومه، فكذّب بها آيات بيّنة تُصدّق رسالة أمر الغيب وأبى أن يؤمن بحقّها توحيداً وطاعة لله وإرسالاً لبني إسرائيل أحراراً، قـــال صائحاً يا موسى يسأله: أجاءهم ليخرجهم من أرضهم التي يتمكنون فيها عزةً وســـلطاناً- أيخـــرجهم بسحره؟ إذ ما رأوا في عرض آياته المعجزة إلا سحراً يجذب له أنـــصاراً وحـــيلة يغلب بها على قوم فرعون زعيماً لبني إسرائيل. ولذلك - كما قالوا لـــه - لَـــيأتونه بسحر مثل سحره يدحضه، فلْيجعل بينهم وبينه موعداً موقوتاً ومكاناً للقـــاء لا يخلفونه هم ولا هو - كما يخاطبونه، وليجر اللقاء مكاناً سُوىً، سوياً ظاهراً عـــدلاً بيـــنهم جمـــيعاً ليعاين الناس عرض الآيات والسحر كله. قال لهم موسى إن مـــوعدهم يوم الزينة- العيد الذي من سنة الجمهور أن تعرض فيه الزينة من كل أحد، وأن يحشر الناس ضحى عرضاً بيّناً بضوء الشمس عند ساعة المنشط والخروج للعامة.

﴿فَتَوَلَّـى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ (٦٠ – ٦١)

فتولى فرعون منصرفاً عن موسى يُدبر الأمر مع آله، فجمع تدابير كيده من حشد السّحرة المكرة واستحثهم جميعاً وحفّزهم ثم أتى لدى الميعاد والمكان. فبادر موسى بكلمة العظة للسحرة والملأ نَهجَ داعيةٍ للحق وأنذرهم أن ويلهم هلاكاً لهم هو منظور إن حقّ عليهم، فليتقوه لا يفترون على الله كذباً، لا يتصدّون لآيات الله بالباطل ليدحضوا صدقها وحقها إذ يختلقون كذباً مضادّة لله فيكونوا أهلاً لأن يُسحتهم آخذاً لهم بعذاب يستأصلهم وقد حقّ عليهم العقاب، وذكّرهم موسى أنه قد خاب وخسر من افترى وتعمّد مختلقا زوراً في وجه الحق.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ (٦٢ – ٦٤)

ترتب على نصح موسى ونذيره أن اضطرب السحرة والملأ يتجادلون ويتجاذبون تشاوراً بينهم في نجوى يُسرونها عن موسى وأخيه وقومه. قالوا لملئهم يخاطبونهم بما يؤكد فيهم اطمئناناً: أن هذين– موسى وأخاه – لساحران يريدان أن يخرجاهم – أهل مصر من الأقباط – من أرضهم ليتمكن فيها خلَفاً بنو إسرائيل، وأن يذهبا بطريقتهم المثلى، المنهج العرفي الذي هو الأوفق الذي به قوام العيش والحياة. لذلك طلبوا من صف فرعون أن يجمعوا كيدهم ليُحكموا عزماً تدبيرهم دون اختلاف أو تقصير، ثم لِيأتوا صفاً واحداً يرمون بأمرهم جملة، ليفعلوا ذلك وقد أفلح اليوم – يوم الزينة والعرض والمباراة – من استعلى وكان له علو الغلب.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (٦٥ – ٦٩)

قال السحرة عندئذ لموسى مطمئنين ينادونه تحدياً له – قالوا: إما أن تُلقي عصاك وإمـــا أن نكون أول منً ألقى العصيّ. قل موسى مجيباً لهم غير مبال بكيدهم راجياً أن يُعقـــبهم الرمي فائزاً – قال لهم أن يُلقوا، فإذا حبالهم وعصيّهم يُخيّل إليه من سحرهم لعينـــيه وعيون الملأ الذين استرهبهم السحر أنها تسعى كالأفاعي تدبّ حية: فأوجس موســـى وأحس في نفسه خيفة أن يغلبوه فعلاً، فتنـــزّلت عليه أقدار الوحي والتثبيت لقلبه من الله ألا يخاف إنه هو الأعلى الأغلب قائماً بالحق، وأن يمضي ليُلقي ما في يمينه من عصا تلقّف وتبتلع مسارعة ما صنعوا من مخيل حيّات عن حذق وممارسة. كذلك أوحـــى إليه أنما صنعوا كيد ساحر، حيل تصوير من الأوهام للناس، لا من الحقائق، لا يُفلـــح الـــسّحر حيث أتى بحيله وطرقه وجوه الفعل التي يأتي بها الناس يخادعهم، وإنما يُفلح المستيقن بقدر الله الحق القاهر مشهوداً وغيباً.

﴿فَأُلْقِـــيَ الـــسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُـــمْ إِنَّـــهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٧٠ – ٧٣)

ووقع الحق بما بشّر به اللهُ موسى، فأُلقي السحرةُ سجّداً لله إذ رأوا آياته تعلو على ظواهر السحر وغشيهم التوقير والتكبير لله مهما يطغى فرعون وأيقنوا أن كلِم موسى مـــن الله تعلـــوا صادقة على ما افتروا عليه كذباً وخرّوا خاشعين وقالوا إنهم آمنوا – مصدّقين مطمئنين – بربّ موسى وهارون. فثار فرعون المغلوب كيده أمام الملأ الأعلى وقـــد كانت دعواه أنه الرب الأعلى، وقال لهم مسائلاً، آمنوا لموسى قبل أن يأذن لهم هـــو الـــذي في زعمه لا يُري الناسَ إلا ما يرى وما يهديهم إلا سبيل الرشاد. ادّعى علـــيهم وعلى موسى أنه كبيرهم الذي علّمهم السحر لأن فعال الخيال والغيب كلها في ثقافـــة فرعون المادية سحر مهما يتفاضل ويتغالب وقعه المشهود، هكذا حكم على كـــل عـــرض والمباراة أنه سحر وأن موسى هو المعلّم الأكبر ما دام الأغلب سحراً. وآذنهـــم خطابـــاً بالعقاب المؤكد المترتب على السبق إلى الإيمان، أن ليقطّعنّ أيديهم

وأرجلهم من خلاف وليصلّبنهم في جذوع النخل المتعالية سوقه في البيئة ليُشهد الناس وقــع التشهير بهم لعلّ الناس يرتدعون عن الميل مثلهم إلى نهج تصديق رسالة موسى، وأنذرهم أن ليعلمنّ أيّهم - هو أم ربّ موسى - أشدّ عذاباً لمن عصاه وأبقى خلوداً إذ يمــتدّ وقع عذابه عليهم حتى أن يفنوا موتاً. قالوا وقد رسخ الإيمان في نفوسهم إنهم لا يخــشون إلا الله وعلــيه يــتوكلون، إنهــم لن يؤثروه اتباعاً لأمره مهما يقُم عليهم بالتــرهيب - لــن يؤثروه على ما جاءهم من البيّنات التي يعاينونها صادقة من أمر الله الحــق راسخة في رسالة موسى، وإنهم لا يؤثرونه تعبّداً مهما يطغى سلطانه على الذي فطــرهم وهــو الله الأَولى أن يُعبد إذ خلقهم لأول نشأتهم وهو من ثم الأكبر عندهم الأعظم حمداً ومجداً ومُلكاً قاضياً على عباده. ومضوا يصدعون في وجه فرعون أجرياء: أن يقــضي مــا هو قاضٍ مهما يكن وقعه، إنما يقضي ويمضي حكمه نافذاً هذه الحياة الدنــيا القاصرة المدى، لا فيها وفي الآخرة الخالدة كما يخشون قضاء الله. وأعلنوا له أنهم آمنوا بربهم الحق ليغفر لهم ويغمر برحمته خطاياهم فيما سلف وفيما أكرههم عليه بأمره من السحر مصادّة لحق آيات الله. والله خيرٌ أجراً على طاعته مما وعدهم فرعون به، مغفرةً ورضواناً، وأبقى للعباد وقع ثواب عاجلاً وآخرة.

﴿إِنَّــهُ مَــنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِــنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلاَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٧٤ - ٧٦)

مــضى الآي في ذلــك السياق يبسط كلمات الإيمان الصابر واليقين الثابت من الــسحرة، كلمات الحق التي تعلّموها من دعوة موسى في حقائق الغيب وأنبائه نذارة وبــشارة: إنــه من يأت ربه يوم القيامة مجرماً قاطعاً ما أمر الله به أن يوصل من عهد الإيمان وحبل الطاعة لله فإن له جهنّم نار الحر المهين لا يموت فيها فينقطع عنه العذاب بــل هــو خالــد ولا يحيا حياة في راحة وسعادة وهناءة راتبة كالدنيا، ومن يأته يوم المــرجع إليه سبحانه مؤمناً مات على الصراط المستقيم إذ قد عمل الصالحات إحساناً وصــبراً فأولئك لهم الدرجات العُلى الأرفع نعيماً ورضواناً في الحياة الخالدة في جنات أعــدت للإقامــة محفــوفة بالأشجار مروية أبداً إذ تجري من تحتها الأنهار، وأصحابها

يـــبقون فيها خالدين. وذلك جزاء من تزكّى ورقت حياته كيفاً تطهراً فتباركاً بالإيمان والصلاح.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَ تَخَـــافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ (٧٧ – ٧٩)

ســـبق ذكر تباين المذهبين بين قوم اتّبعوا فرعون الجبّار ومؤمنين انحازوا إلى دعوة موسى معتصمين بالحق وانطوى ذكر ما أعقب ذلك من تدابير فرعون الإعداد لعقاب الـــذين رآهم خارجين عليه، وانضاف في قصّ سير الأمور أن قد أوصى الله حقاً إلى موســـى أن يتم التمايز والتعازل البيّن والتحرير الذي رجاه لقومه من قبل، بأن يسري لـــيلاً بعباد الله الذين آمنوا وصدقوا موالاة في الله وتقبّلهم الله عباداً له خالصين، وأن يـــستمر بهم بعد السرى في الطريق ذاك الذي سلكوه شرقاً بأن يضرب بعصاه البحر العارض لهم الذي يعبرونه بإذن الله ميسوراً إذ ينجزر ماؤه لهم يبساً ليمضي بهم موسى في اطمئـــنان لا يخاف دركاً ولحاقاً من فرعون وجنوده أن يبلغهم حتى إذا قاربهم ولا يخـــشى أن يطغـــى عليهم هم مدّ البحر ليهلكوا غرقاً أو يدركهم طلب فرعون. فلما دخـــل موســـى ليتجاوز عرض البحر المنفلق اتبعهم فرعون وجنوده فغشيهم من المدّ والفـــيض مـــا غشيهم محيطاً بهم مدّه، وكذلك انتهى بهم المسير إلى خسران، إذ اتخذ فرعون في سبيل الحياة مسلكاً أضلّ قومه.

﴿يَـــا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَـــزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَـــيْكُمْ غَـــضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٨٠ – ٨٢)

بعـــد العبور وبروز بني إسرائيل أمة قائمة بالحق وراء مدى سلطان الباطل الذي كانـــت يـــده منبسطة عليهم، أقبل الله عليهم بأن جاءهم منه كلمات المنّ تُذكّرهم بـــرحمته أن قـــد أنجاهم بأقداره الباهرة النافذة من عدوهم فرعون الذي كان يتبعهم يطلـــبهم وأن وعـــدهم بأقدار لقاء رباني عظيمة جانبَ الطور الأيمن، لقاءً روحياً بالله

تلقاء يمينهم إذ جاءوا متوجهين شرقاً، ليُنـزل عليهم الهدى والشرع لما يستقبلون من حياة، وأنـزل عليهم بأقداره في طبيعة الكون ماء السماء ومنبت الأرض رغم مواتها من المنّ، الثمرة التي تُمني سائلاً حلواً والسلوى السمانى من الطير الطيب لحمه. ونصحهم مخاطبة بأن يأكلوا متمتعين بطيبات ما رزقهم بأقداره العجيبة في تلك الأرض الصحراء الميتة، وأن يكونوا شاكرين تقاة لا بطرين تأخذهم شهوة الطعام، ألا يطغوا بطلاقة حريتهم الجديدة عادين على عهد الله المحمود وحدود شرعه بفتنة ذلك المتاع وسعته، إذ لو فعلوا يحل عليهم نازلاً غضب الله بعذاب. وذكّرهم الله أن من يحلل عليه غضبه فقد هوى في درك الهلاك، سنة ماضية في أقدار الله وقضائه. ثم أدركتهم التذكرة من الله إنه لغفّار ستّار كثير إسباغ العفو المتوالي لمن تاب آيباً إلى الله مهما تنـزع به فتنة الطغيان وآمن به صادقاً إذ عبّر عن ذلك بالعمل الصالح ثم اهتدى ثابتاً على الصراط المستقيم لا يرتد إلى سابقة طغيانه حتى الممات.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٣ – ٨٥)

انطوى ذكر سيرة بني إسرائيل في ضوء ذلك التذكير والنصح حتى أتى ذكر ميقات نجز الوعد بلقاء الله لأخذ شريعة التوراة، الذي بادر موسى مسارعاً ليوافيه سابقاً وفد البقية من قومه تاركهم وراءه في رعاية أخيه هارون. عاجل موسى قبل أن تحل ساعة المناجاة الموعودة ثلاثين يوماً فأتمّ الله له بعشر ليال تستدرك استعجاله، لكن الآية تشير إلى ذلك إذ تضيف خطاب موسى من ربّه سؤالاً له: ما الأمر الذي أعجله عن قومه؟ يُنادى باسمه تنبيهاً كأنه يُحاسب عن مبادرته سبقاً لقومه. قال موسى مجاوباً عن أمر قومه مخاطباً ربه: إنهم أولاء قريبين يتبعونه على إثر خطاه وينتظرون عودته وأبان عذرَه أنه إليه تعالى من فرط الحرص مسابق أن يراه راجياً أن يرضى عنه. قال له الله ينبئه بما خلْفه فيما ترك: إنه تعالى بأقدار ابتلائه قد فتن قومه، وخالطهم ميل من بعده إلى ضلال إذ تطاولت غيبة موسى أياماً عشراً، وأضلّهم خاصة السامريّ – ذو الأصل البعيد شرقاً: سامراء – الموصول من ثمّ بديانات شرقية وثقافة معبودات من البقر.

﴿فَــرَجَعَ مُوسَــى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَــسَنًا أَفَطَــالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ (٨٦)

فــإذ بلــغ موسى نبأُ الفتنة التي أصابت قومه وراءه، رجع إليهم غضبان على ما فعلوا بأنفسهم ووقع منهم في مدى وجيز من غيبته، أسفاً على ما فرّط بتلك الغيبة التي اغتنمها السامريّ ليُضلّهم. قال – فور ما باشرهم راجعاً – منادياً لهم: قومه، بنسبتهم إلــيه تعبيراً عن حرصه عليهم إذ هو منهم – قال مسائلاً عما فعلوا ضلالاً: ألم يعدهم ربهــم وعــداً حسناً أن يبلغهم الهدى وشرع الحياة؟ أفطال عليهم الأمد الذي قضاه غائباً عنهم إذ بادر سابقاً لهم فتطاولت غيبته وغلبت عليهم الغفلة عما فارقهم عليه من عهــد الله؟ أم أرادوا – كمــا مضى يسائلهم مخاطباً – أن يعمدوا الفسوق من ميثاق توحــيد الله ليحلّ عليهم غضب من ربّهم كما سبق النذير[1] فأخلفوا الموعد والعهد المــضروب معه أن يستقيموا على دين الحق حتى يرجع إليهم ويقودهم إلى ملتقى الله الموعود؟.

﴿قَالُــوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (٨٧ – ٨٨)

قال قوم موسى له رداً على مساءلته وملاومته: إنهم ما أخلفوا موعده بما يملكون مــن أمــرهم ولكــنهم كانوا قد حُمّلوا أوزاراً من مثاقيل زينة القوم قبط مصر رعية فرعون، كانت ودائع عندهم في معاملات الأمانة لحفظ الحلي الذهبية ومثلها، وهم قد أخــذوها خشية أن يردّوها فتنكشف خطة مهربهم، وقذفوها طرحاً في حفرة من النار كأنهم لأول أمرهم أرادوا التطهّر من إثم أخذها خيانة لأمانة الاستيداع. فكذلك فعل السامريّ وألقى ما كان معه من ذهب، لكن الذهب انسكب في النار وانصهر فأخذه وصاغه فأخرج عجلاً جسداً مجوفاً له خوار إذ تجري الريح عبر جوف صورته ودُبره، فذكّــرهم ذلــك بما عهدوا من عبادة العجول في بيئة قوم فرعون الوثنية، فقالوا هذا

---

(١) راجع الآية ٨١ ذات السورة.

إلهكـــم وإلـــه موسى، فنسي السامريّ الذي أوقعهم في الفتنة ضلالاً عن دعوة موسى التوحـــيدية وعدلاً عنها إلى عبادة الصنم المصوّر تمثال عجل. ذلك أن بني إسرائيل ما انفكوا مفتونين بالمادّة المشهودة دون الغيب وقد جنحوا إلى عبادة الآلهة أصنامًا ظاهرة على سنة تقاليد مصر التي توطّنوا فيها وألفوا عرفها.

﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا﴾ (٨٩)

كـــيف ينـــسى السامريّ ذكر الله الواحد وكيف يُبتلى بنو إسرائيل فيبدلوا عهد توحـــيد الله ويقولوا إن العجل إلههم وإله موسى. أفلا يرون وهم يشهدون العجل من بـــين أيديهم أنه لا يرجع إليهم قولاً إذا دعوه وخاطبوه بصلاة أو دعاء ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً إذا خلّوه أو عكفوا عليه؟.

﴿وَلَقَـــدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (٩٠ – ٩١)

ولقـــد قال لهم هارون الذي استخلفه موسى وأوصاه بحفظ عهده واتقاء الضلال – قـــال لهم من قبل رجوع موسى: إنهم إنما ابتلوا في توحيد الإيمان غيباً بالله ووقعوا في فتنة وإن ربهم المعبود الحق هو الرحمن الذي فاض عليهم برحمته قبل وجود العجل المعبود ويُعدّ لهـــم فيضاً إن تابوا بعد الفتنة وأوصاهم أن يتبعوه تائبين ويطيعوا أمره عزوفاً عن مطاوعة الـــسامريّ وكفّاً عن عبادة العجل، إخلاصاً لله. قالوا له متولين عن تذكيره ونصحه: إنهم لن يبرحوا على العجل عاكفين يحتبسون ويقيمون حوله يلازمونه بالعبادة حتى يرجع إليهم موسى إمام دينهم ووالي أمرهم العام وهم يظنون أنه موافقهم على ما هم فيه.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْـــنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٢ – ٩٤)

عـــند مرجعه اتجه موسى إلى أخيه يسأله عن حفظ عهد خلافته في قومه، وناداه باسمه سائلاً: ما منعه إذ رآهم ضلّوا عن سنة التديّن الخالص المعهود توحيداً وعبادة لله أن يتـــبع أمـــره فيهديهم حافظاً عهد الوصية بالإصلاح والصلابة ثباتاً واجتناباً لسبيل المفسدين، أفعصى أمره وخالف العهد؟ قال هارون لموسى يستعطفه منادياً له بأنه ابن

أُمـــه يسترحم منه ألا يخشن في المحاسبة عليه أخذاً بشعر لحيته ورأسه يشدّه كأنه فُتن ووالى المعـــصية، بل إنه خشي إذ رآهم استضعفوه وأنكروا نصحه وأوغلوا في الضلال عـــن الـــدين الخالص المعهود أن يشتد عليهم ويتنطع في حملة النصح بما يمايز المؤمنين ويأخـــذ المفسدين بالمجاهدة فتبين بينهم المفاصلة، خشي أن يرجع موسى ليقول له إنه فرّق بين بني إسرائيل و لم يرقبهم حافظاً قوله أن يحفظهم أمة واحدة.

﴿قَـــالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُـــولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٩٥ – ٩٧)

أقـــبل موسى من بعد إلى إمام الفتنة السامريّ فسأله: ما خطبه وشأنه؟ منبهاً له باسمـــه كي يجيب السؤال. قال السّامري إنه بصر لنفاذ بصيرته بما لم يبصر به الآخرون فقـــبض قبضة من أثر الرسول موسى، دعوة التوحيد مما نشر موسى الذي غاب وترك وراءه أثراً وعهداً، أخذ وأمسك من دعوته شيئاً هو رؤية الإيمان بالله واحداً في الغيب، فنبذ تلك الشريحة من تلك الدعوة الحق بأن ألقاها وطرحها من وراء ظهره وقصر عن الغـــيب والتوحيد وخاض في ضلال الشرك بالمشهود، وإنه كذلك سوّلت وزيّنت له نفسه ودعاه هواه. قال له موسى قاضياً عليه بالنفي عزلاً عن بني إسرائيل هو الأمرّ له إذ يـــذهب فإن له في حياته من بعد أن يقول للناس لا مساس بينه وبينهم لا يدعوهم ولا يجـــد منهم من يتّبعه بوصاله وموالاته على مثل ضلاله بل ينفر منه الناس فيعتزلهم، وأبلغـــه كـــذلك أن له موعداً في الآخرة لمواقع العقاب على فعله لن يخلفه بل يبعث محـــشوراً إليه بلا فوات. وأشهده أن ينظر إلى إلهه العجل الذي صنعه من الذهب ودام علـــيه قائمـــاً عاكفـــاً حيناً أثناء غياب موسى يصلّي ويدعو، إنه وسائر القوم التّائبين المهتدين ليحرقنّه ثم لينسفنّه ويذروه في اليمّ وموجه الغامر، نسفاً منبثاً لا قوام له بعده.

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٩٨)

وأقبل موسى على بني إسرائيل وقد أراهم عياناً مشاهد إبطال باطل توقير العجل الذي اتخذوه وأقاموه مثالاً معبوداً قبل رجوعهم، ودعاهم أن يقصروا عبادهم على الله

مخلــصين موحّدين. قال لهم إنما إلههم الله الواحد المعروف الجامع لكل كمال الأُلهانية، الذي لا إله إلا هو في كائنات أزل الغيب ولا مشهود المتعلّقات في الأرض، وسع كل شيء علماً يسمع أقوال الدعاة ويعلم حاجاتهم ويستجيب إذ يعلم أسباب النفع والضر فيصرّفها كما يشاء استجابة لرجائهم خيراً في الحياة ونفعاً من أقدار رحمته دون الضرّ الذي يستعيذون به منه.

عموم المعاني: (الآيات ٩ – ٩٨):

في طــريق المــرجع من مدين ذهب موسى يتحرّى قبساً أو هدى يجده على نار آنسها قريبة، لكنه تلقّى نداءً من الغيب من تلقاء ربّه يتعرّف إليه بأمره أولاً أن يتطهّر بين يديه إذ اختاره رسولاً إلى سائر العباد يُوحي إليه، وأن يوحّده جاعلاً الحياة مؤصلة على عبادته يقيم فيها الصلاة ليُعلي ذكره تعالى مهما يُلهيه العالم المشهود. ثم يُنبئه بقيام الــسّاعة آتية بلا ريب مَوقعاً لانبعاث حياة أخرى عاقبة للحياة الدنيا، يكاد ربه يخفيها لا تتجلــى طلائعها حتى تأتي بغتةً لعلّ الإنسان يظل يترقبها مقتربة منه كل حين عبر حياته، وهي حق موعود لتمام زمان الدنيا أزلاً ومعادلة لمسعى الإنسان فيها جزاءً لكل نفس بما يحقّ لها يومئذ بما قدمت كسباً. ويُوصَى موسى ألا يصدنّه عن ذكرها الذين لا يؤمــنون بهـــا اتباعاً لهوى الدنيا وفتنتها المشهودة الحاضرة لئلا يتردى مثلهم في سوء الجــزاء عند تلك العاقبة، ثم يُرى موسى آيات كبرى تعضيداً للرسالة التي كلّف بها – أن تقــوم الحياة على أصول من المراشد: تعرف الله فتوحيده والإيمان بالغيب والآخرة ومــوالاة الصلاة ذكراً لله وتلقّي آيات الله ورسالته – تلك هي أولى تعاليم الوحي إلى موســى. وهكــذا كان صدر هذه السّورة كلمات تذكير وتكليف لخاتم الأنبياء ﷺ لــيحمل أصــول رسالة الإيمان بالغيب، بالله يوحده خالقاً رحماناً قيوماً ويعرفه بأسمائه الحسنى ويعبده مستضيئاً بوحيه المنــزل تذكّراً لهديه وخشية منه تعالى، فهو عليم بصير بمــا يــبدي من مقولات أو يُخفي من مفعولات ونيات في سبيل أداء تلك الرسالة. ويتواتــر في آيــات القرآن ذكراً لكلا الأنبياء عليهم السلام أنهم كانوا لمبتدأ الرسالة يــصدعون بحق العبادة لله وحده ثم يذهبون يفصّلون من ذلك الأصل تعاليم الهداية إلى

الحـــياة الراشـــدة حسب ابتلاءات الأمة المخاطبة. وكذلك كل خلَف من الدعاة إلى الـــدين الـــيوم وغداً ينبغي أن يكون مبدأ دعوتهم الإيمان بالغيب، بالله والواحد المعبود وإقامة الصلاة وموالاة ذكره وإرساخ خشية الآخرة ورجائها إحقاقاً لانتظار المسئولية والجـــزاء، ثم ليمض الدعاة بعد إقرار ذلك يفصّلون لأمة خطابهم مهادي الحياة المندوبة ومضالّها المحذورة ويجادلونهم ويصابرونهم عبر مسالك الحياة.

الآيـــات الـــتي أُوتيها موسى تعزيزاً لصدق رسالة الغيب وموافاة لحاجة الدعوة لوصـــل المشهود من الوجود بالغيب وموافقة لعين حال المخاطبين وثقافتهم – كانت مـــن الفعـــال المعجزة للبشر الخارقة لسنن الأسباب المطبوعة المخالفة للأشياء المعهودة عندهم. فإذا لم يؤمن المخاطبون بالله الأكبر الأعظم في الوجود وساد في سياسة أمرهم العـــام طغـــيان فـــرعون المستكبر، وإذ لم يكن في ثقافتهم من المنسوب إلى الغيب إلا الـــسحر وأفاعيله – كان أوفق الخطاب وأبلغه أن تبيّن لهم قدرة الله المطلقة في الغيب أقـــدار فعل مشهودة تعلو على قوة الطغيان السائد واسترهاب السحر المعهود للعيون. فأُشـــهد موســـى على آية عصاه يُلقيها فإذا هي حية تسعى ويده يخرجها من جناحه فتـــتحول بيضاء. وكانت تلك الآيات من النمط الذي تطلّبه بعض المخاطبين الأوائل من العرب لتصديق رسالة الرسول الخاتم ﷺ من الغيب. ولكن عقل بني الإنسان عامة كـــان قد أخذ يضعف فيه وقع السحر وحيله المصطنعة ويتهيّأ لما هو أحق وأحكم من حجـــج منـــــزل الدعوات المشروعة، ومن بيّن ما في آيات الله المطبوعة في الكون. وخطـــاب الرســـول الخاتم لم يكن محصوراً في حاضر قومه الشاهدين بل كان للناس كافـــة الحاضر والغائب، خالداً للخالفين الذين تنتشر فيهم معرفة الحق وعلمه بالحس والإدراك الموثوق لا بالسحر، وحجته ووقع الإيمان به بالتفكر لا بأمر الجبروت. ولذا جاء القرآن آية لمن يستمعون إليه تُغني في إعجازهم تحدياً بأن يأتوا بمثله من بلاغة تعبير وحكمـــة معـــنى وتذكير. وكان ذلك هو الأوفق لعهد الخطاب ومداه مهما تواتر في كـــتابه ذكر إلحاح بعض المخاطبين المباشرين للنبـــي أن يأتيهم بآية فعل خارق لمعهود أسباب الطبيعة، لم يُستجب لإلحاحهم لكن ذُكّروا كثيراً أن الله قادر على الإتيان بآية كـــذلك إن شاء، وإن مثلها قد قضاه لبعض المرسلين الخالين، وأن الناس لهم الخيار في

الإيمـــان وأكثرهم يُعرضون ولو جاءهم تلك الآيات الخوارق المشهودة لأنهم مرهونون لمعهـــود مذهـــبهم الموروث وأهواءهم الفاتنة في الدنيا. ولما ضعف في خلَف المسلمين أنفـــسهم اتخـــاذ العقل أداة لتقدير آيات الله اختياراً لتأسيس مذهبهم في الحياة أخذوا يـــصطنعون روايات موضوعة لمعجزات وخوارق تُصدّق نبيّهم الخاتم، بل أخذ بعض المتـــصولحين فـــيهم يدّعون أو تُدّعى لهم تلك المعجزات حجة تعزيز شاهدة لكونهم موصولين بالغيب مزدلفين إلى الله القادر على كل شيء.

وكـــان أول رجاء موسى بعد أن وقع عليه تكليف الرسالة أن يشرح الله صدره ويُيـــسّر أمره ويقيّض له أخاه يعينه، فاستجاب له الله. وكذلك أنعم الله على الرسول الخـــاتم كما جاء في سورة الانشراح. وإن ذُكّر موسى في هذه السورة بما منّ الله عليه مـــن الـــنّعم التي قدّرها له سابقاً تهيئة لاحتمال الرسالة – من سلامته من فتون ضعف الطفـــولة مقذوفاً في البحر خوفاً من كيد فرعون ثم عودته إلى محضن أمه، ونجاته فراراً بعـــد قـــتله نفساً قبطية ظُلماً، وكفالته مصاهرة ومعاشرة في بيت صالح في مدين، لئن كـــان ذلـــك كذلك فقد منّ الله أيضاً على النبـــي الخاتم ﷺ كيف آواه يتيماً وأغناه عـــائلاً قبل أن يهديه ضالاً وذلك ذكر في سورة الضحى. وكذلك ليتذكر كل داعية للـــدين نعم الله عليه التي أعدته لأداء أمانة التكليف بالدعوة وليحمد الله وليتوكل عليه فيما هو عليه مقبل كما جاء في ختام السورتين الانشراح والضحى.

وعندما أُوكلت الرسالة إلى موسى ليبلّغها، كانت أُولى الوصايا من الله له ولأخيه هـــارون ألا ينيا في ذكر الله ولا يخافا أن يفرط عليهما فرعون الطاغية المخاطب الذي يريد احتكار ولاء الرعية ويُغار من التذكير بربّ أعلى من سلطانه قوته أرفع والخشية مـــنه أوقـــع والولاء له ينبغي أن يكون الأخلص واتباع هداه هو الأقوم. ولكن مهما يغلظ عليهما قول الطاغية الوصية لهما أيضاً أن يقولا له قولاً ليّناً لعلّه مهما يُعهد قلبه غليظاً قاسياً يتذكر أو يخشى الله. كذلك الرسول الخاتم كان يوحى إليه القرآن تذكرة لمن يخشى، ليُخاطب ويجادل بالتي هي أحسن يدفع بها حتى سيئة القول. وتلك رسالة للدعاة إلى الدين الحق في كل حين، أن يتّخذوا القول الحسن وسيلة لأن يبلغوا به حتى القلـــوب القاسية وألا يكفّهم اليأس منهم لشدة كفرهم، وألا يخافوا الفرط عليهم من

أولـــياء الطغـــيان الذين سنتهم أن يبادروا للتصدّي لدعوات التذكير بالدين وتجديده، لعلّهـــم يتذكرون ما نسوا ويخشون الله الأكبر قوة والأنفذ قدراً. ومهما تكن مواقفهم فـــإن الله يسمع ويرى سير الدعوة وحال الدعاة عسى أن يعصمهم مما يتهددهم دعايةً وكيداً من الطغيان البادي غالباً، ذلك كما ذُكّر به موسى في هذه السورة.

وأول مقاصـــد رســـالة موســـى في إصـــلاح المجتمع وعدله كان تحرير المعذبين والمظلومين من بني إسرائيل. وكانت السنة من مجتمعات الأنبياء أن يسبق استجابةً لهم واتّـــباعاً المستضعفون المستذلون من الناس فأن يَستفزّ ذلك الطغاةَ المستكبرين حذراً أن يُفلـــت من سطوتهم الضعفاء الذين يؤثرون التعبّد لله. وعلى ذلك ينبغي أن تمضي سنة الدعاة بَعداً، لإقامة الدين وتجديده، أن يدعوا ويعملوا لرفع المظالم في الأرض بإنـــزال عدل الكتاب وإقامة ميزان القسط من الله ورفع همّ المظلومين وتحريرهم لأول مشروع الإصلاح في الأرض.

إن دعوة موسى إلى الدين القائم على الإيمان بالغيب وبالله العدل بأحكامه المنعم بأقـــداره البيّـــنة – اعترضها استنكار فرعون لرب منه أعلى وتساؤله عن تعريف ذاته وإثـــبات بيّنات قدره النازل من الغيب المعهود للقرون الأولى. وكان الجواب التذكير بسنن الله في الخلق والتسيير الهادية لكل شيء، أما سننه في شأن البشر السابقين فهي في علمـــه ســـبحانه الذي لا يضلّ عن كتابة أقداره نازلة على سيرهم ولا ينسى خبرهم ليُنـــــزل بـــه كتاب ذكرهم عظة للخالفين، وإنما الشهادة لآيات الله أقدارُه المكتوبة للحاضـــرين نعماً في الطبيعة سماء مغيثة ونباتاً يطعمهم وأنعامهم، إحياءً متجدداً تذكرةً بالـــبعث بعد الممات. كذلك تنـــزّل القرآن على النبـــي الخاتم ﷺ ليتعرّف المخاطبون ربّهـــم ويروا آياته في العالم المشهود وليعلموا أنباء القرى والأقوام السالفة شواهد على سننه التاريخية في تصريف أحوال الظالمين والمستقيمين في الحياة، وليتفكروا في آياته ﷻ في الأرض والطبيعة المبسوطة لعباده لعلهم يتذكرون الشواهد على أقداره خالقاً مدبّراً أمـــرهم محيـــياً ومميتاً وباعثاً حولهم ولعلّهم يشكرونه منعماً رازقاً ويعبدونه، منه هداية حـــياتهم وإليه المرجع. وكذلك ينبغي لكل خلَف الدعاة تعريف المخاطَبين بعلم الغيب بـــالله وأسمائـــه الحسنى وكتاب أقداره وأحكامه النافذة الناظمة لوقائع سير تاريخ بني

الإنــسان ومصيرهم الآجل وفق اهتدائهم أو ضلالهم في ضوء كتابه ال منــزل عليهم وحــياً فــيه التعالــيم والتكاليف، وتذكيرهم بآيات الله في كتاب مخلوقاته المطبوعة المــشهودة. وعليهم الاجتهاد لمزيد بيان متجدد في علوم آيات الله الشرعية والطبيعية ليــزداد المخاطبون إيماناً في وجه كل ابتلاء جديد بالشريعة، لا يجمد علمُهم فيتضاءل فقههــم بكــتاب هداية الله في ضوء الأيام المتجددة أو متقدم علمهم بالطبيعة فتتعاظم فتنتهم المادية بما فيها احتجاباً عن ذكر الله وضلالاً عن هديه ومسيراً إلى سوء عاقبة.

كانــت المناظــرة في معرفة الله وآياته أُولى جولات المجادلة بين فرعون وموسى الداعــي إلى دين الغيب والتوحيد والعدل، ثم تلتها جولة المباراة بين عرض آيات الله المعجــزة في عــصا موسى ويده ومدافعة فرعون الذي ظن ذلك سحراً بإعداد حشدِ ســحرٍ مــضارع. وكــان موسى يقبل المعادلة في المباراة: أن تكون في مكان سوى مــشهود. وكــان مهاد فاتحة أداء المباراة أن وعظ موسى السحرة ألا يفتروا على الله كــذباً فيخيبون ويأخذهم العذاب، وهي عبرة أن يُبادر الداعية بموعظة المُعرضين قبل محادّتهم لعلّهم يكفون عن التمادي في صدودهم وصراعهم مع الحق. وكان النهج الذي تخيّــره موســى أن يترك لهم هم المبادرة في عرض سحرهم، وتلك أيضاً عبرة في كل جولة مجادلة بين حق الدين وباطل المُعرضين، إذ سبق التذكير والوعظ للمناظر المنافس أن تُبسط له أيضاً السماحة في أداء المباراة ولو ترك له العرض الأول أو المرافعة الفاتحة، وأن يُقبل من بعد محامي الحق متثبتاً لا تزلزله مبادرات الآخرين ولو كان لها وقع عليه، كما غشيت موسى غاشية خوف من رؤية عصيّ السحرة كأنها حيّات لكن ذكّره الله فمضى مطمئناً حتى زهق ذلك الباطل الموهوم بآية الحق في عصاه.

كانــت أُولى ثمرات رسالة موسى وطلائع وقعها الأبلغ تبشيراً أن قد غُلب أئمة السحر والمنافسة لآيات الغيب فآمنوا. وغضب عليهم فرعون لأنه ما كان يقبل لرعيته حرية الدين المبسوطة ويحظر الموالاة لغيره إلا برخصة منه مأذونة. وهكذا كان للرسول الخاتم ﷺ بشارات أُولى أن آمن بعض أئمة الحمية الجاهلية أُولي العزم، وأن قاموا بعداً ثابتين صابرين في سبيل الحق، بينما كانت تشتد فتنة الجاهليين على المؤمنين كلما انحاز إلــيهم ذو قــدر أو تكاثــر عددهم وتعاظم أمرهم، إذ تلوح لأولئك المُعرضين المصائر

المخـــوفة المنظورة. وكانت ظاهرة ذلك الكيد البادية نُذُرُه المتنامية على المؤمنين داعياً للمؤمـــنين أن يُعـــدّوا للهجـــرة. وكانت عبرة سيرة المؤمنين لموسى عندما أزمت بهم الأحوال مِثل ذلك لشدة وطأة نذير رهبة فرعون وأمر الله لهم بالهجرة، كانت ذكرى موسى وصحبه عظةً للمسلمين وزاداً لدفع توجه الأوائل منهم في مكة نحو الهجرة منها جـــنوباً فشمالاً. وذلك مثال سنة هادية لدعوة تجديد الدين عموماً، فقد تلقف دعوة الحق الجديد باطل دعاوى القديم فيستجيب لها المستضعفون ممن كان يغشاهم الضلال بل بعض أئمة العهد القديم، فيستقيمون على ما سبقوا عليه من خالص الدين ويقومون يؤثرون بيّنات الهدى على تقاليد الضلال المعهود ويصوّبون نحو وجه الله يرجون قضاءه الآجل مهما يقضي فيهم جبروت الظالمين المتمكنين في الواقع، ويستغفرون عما كانوا علـــيه اتقاءً لآخرة المصير. ولكن صبر الطغاة عندئذ قد ينفد وغيظهم قد يستعر ويرون أن يـــسبقوا مـــنظور فيض الحق المتعاظم بما هو أفعل حسماً له من إحماء الفتنة وبسط القوة للقضاء على أصول منابته وناشئته الناهضة لقطع دابرته جملة واحدة. وكان ذلك الكـــيد الخطير البادية طلائعه على موسى وصحبه سبباً لما أدركه من رحمة الله، وحياً إلـــيه أن يسري بمن معه خفية من عين السلطان العادي وأن يتجاوز العارض من البحر مـــتوكلاً على الله، وإن كان فرعون قد حشد لحقاً ليدرك مهربهم. ذلك أن فرعون ما قاربهم حتى اجتاحه وقومه مدُّ البحر المنجزر ليغرقوا على سبيل ضلال لا يهتدون حتى إلى مبتغاهم في الحياة. كذلك تنـــزلت تذكرة هذه الواقعات الواعظة على المسلمين أن يتهـــيأوا للهجرة إذ هم في عهد فتنة قد تتفاقم إذا بان حقُّهم ظاهراً على باطل قريش فأصـــبحت هي تحدّث نفسَها باتخاذ القوة لاستئصال الدين الجديد الذي يتهدد كيان ســـلطانها ومتاعها الباغي. وقد جرى ذلك بعد حين من نـــزول السورة – هجرةً إلى الجـــنوب والشمال ولحقاً خائباً من قريش التي ارتدت بعدهم على أدبارها في متاهات الـــضلال. وكذلك خلَف المسلمين حيثما قلّوا وذلّوا غربةً في سواد غالب من قوم لهم ضـــالّين وخافـــوا أن يسحقهم الطغاة منهم إذ تجددت نهضة الدين غريبة على تمكن هـــواهم فلا يرضونها، أو خافوا أن يتخطفهم جبابرة يسيطرون على جمهور أمة تنتمي للإســـلام لكن تسودها جهالة يستغلها ولاة السلطان المحاذرون من إصلاح التجديد –

خَلَــفٌ ذلك أمره ينبغي إن اضطروا كذلك ان يتهيأوا للهجرة في أرض الله الواسعة – هجرةً لا يتوانى عنها إلا العاجزون المعذورون أو المرهونون فتنة لولاء الوطن ووشائج المجــتمع المعهود، ففي ساحات أرض الله مجال لانداياح الدين الحق وإقامة دولة الدين الحــق حــراً عزيــزاً. إن تعسّرت الهجرة خروجاً من الديار فلتكن مهاجرة ومفاصلة لمنظومات المجتمع التي أفسدها سلطانه الباغي لإقامة جماعة مؤمنة متوالية تجاهد وتصابر في إطــار من نظام السلطان الظالم، عسى أن يغالبوه سلماً أو يدافعوه قوة إن انتظموا وقامــوا بقوة. ذلك كما تيسرت لبني إسرائيل جماعة معتزلة مستقلة في سيناء قبل أن يتمكــنوا مــن ولايــة السلطان في الأرض المباركة. وكما ذكّر الله بني إسرائيل بعد الخــروج بنعمة الله تنجيةً من عدوهم ثم تلقياً للوحي منه بتمام الشريعة لقوام حياتهم وبسطاً لهم الرزق ولو في صحراء، ينبغي أن يتذكروا مهاجرين بدينهم حمد الله حيثما بلغــت بهــم الــنجاة ويدركوا أن عليهم بعد عهد التطهّر والمجاهدة للطاغوت الذي أخــرجهم من ديارهم أن يتهيأوا لنعم الله المتوالية بَعداً ويُقبلوا على شكره على طيباته ورحماته ويسألوه أن يبارك حياتهم ولا تفتنهم طلاقة التحرر والمتاع فيطغوا على حدود المتاع فيطغوا على حدود الهدى والتقوى. ألا تغشاهم فتنة فيحل عليهم غضبُ الله بعد رحمــته والهويُّ بعد تباشير رقي الحياة. ومهما يصيبهم من غاشيات فتنة الهوى فليوالوا الــتوبة إلى أمــر الله، فإنه ﷻ غفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً واستقام على طريق الهدى كلما نازعته ضلّة.

وقــد عاجل موسى بعد المهجر لموعد لقاء ربه يسابق صحبه من قومه فغاب عنهم أياماً تطاولت عليهم. وذلك خُلق ينــزع إليه الأنبياء، يسعى كلٌ سبّاقاً إلى ما هو أوصل وأرضى لله حتى يبلّغه لأمة خطابه وراءه. وكذلك كان محمد ﷺ يطلب ملحاً توالي تلقي الوحي لئلا ينقطع عنه طويلاً ويعاجل أحياناً في تلاوته من قبل أن يُقضى إليه وحيه إلقاءً، ولكن أقدار الأجل المكتوبة في تصريف توقيت الهدى وتنجيم تنــزيل الوحي أمر موكول لحكمــة الله. وقد وقعت فتنة لطول غياب موسى وقصور عزم الخلافة أن يُحفظ العهد بعــده. وتلك عظة أنه بعد غياب أئمة دعوة الدين الحق أو اعتكافهم أو وفاة زمرة منهم وقــصور الــذين يخلفونهم تابعين في حفظ العهد قد تنفتح ثغور الغفلة لدواعي الشيطان

ولظهـــور أمثال السامريّ ممن ينبذون الحق المعهود وتسوّل لهم أنفسهم أن يُغووا الناس ويحـــضّوهم، يدفعـــونهم إلى مذهب الضلال. وقد حمل بني إسرائيل أوزاراً من زينة قوم فـــرعون من الذهب وقذفوها في النار تطهّراً لكنهم حملوا معها أيضاً نـــزعاً من أعراف عبادة الأصنام الأوثان الفرعونية. فالسّامري جعل لهم من صهارة الذهب الذي خانوا به الودائع عجلاً تجسّد لهم كالإله المشهود كالذي عهدوه في مصر، وكان مجوفاً تخرج منه أصوات داوية من الريح يجدون فيها له وقاراً ورهبة. لكن ذلك العجل مهما تزهو صورته مـــا كـــان يرجع لهم قولاً وخطاباً يهدي ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، كما يحق في شأن الإلـــه الحق ذي القول الموحى هدىً والقدر المفعول قضاءً. الدعاة غير أولي العزم قد لا يملكـــون ضبط الفتنة التي تغشى الناس جانحة من الإيمان بالغيب والاعتصام بأصل الحق نازعـــة إلى التعلّق بالمشهود والمطاوعة للباطل المنتشر، لاسيما إذا كان هدى الدين ليس موصولاً بالله الحق الدائم بل معلّقاً بشخص نبـــي إمام راعٍ مثل موسى في قومه أو محمد في بعـــض الخلف من جهلة المسلمين، أو كان منسوباً إلى الدعاة أو الطائفة من المتفقهين الناهـــضين بالدين الذين أوقعوا تجديداً أو أسسوا مذهباً ذا أثر في سيرة التديّن التقليدية – فعـــرض على هؤلاء القادة قدر الغياب أو سنة الموت و لم يواف ذلك حَلَفاً من الربّانيين الصادقين الذين يصلون حق الدين كيفما تجلّى بالله الحي القيّوم الذي لا يموت ولا يغيب ويعتـــصمون في مـــذاهب التديّن بما حقت صدوراً عن أصول الدين الباقية وإن تغيّرت منـــسوباتها الظرفية وغبرت مصادرها البشرية. وما وقع بين موسى وهارون من مساءلة ومحاسبة عبرة أن التعاقب في القيادة والإمامة قد تعتريه علّة في حزم الأمور وضبط المسير علـــى أصـــول الدين الحق، فهارون كان في نفسه يراعي الحق لكنه يرى صيانة وحدة الطائفة المنسوبة إلى الدين أَولى من حفظ أصل المبادئ ومن حق الفرقان بين أهل الفرقان والإشـــراك إذ التفرق عنده أدعى للفساد من غاشية ضلال عارضة. أما موسى فقد آخذ قـــومه على غفلتهم عن الحق وإدبارهم عن بشارة وعد الله واتقاء نذارة غضبه، وعاتب هـــارون على وهن عزمه في حفظ عهد الخلافة وأفرط في أخذه بالأذى وكان مذهبه هو الصدع بالحق ما دام في أصول الدين والشدّة في الاعتصام به. ولئن تعذّر له السامريّ أنه تقـــدّم بنفاذ بصره على سائر القوم ولذلك قبض قبضة من أثر الرسول موسى رسولاً لله

ودعـــوته في الإيمان به تعالى غيباً، فقد سوّلت له نفسه بَعداً عند غياب موسى الردّة إلى صـــنميته الإشراكية الأولى. والعظة في ذلك أنه حتى من حملة تراث أصول الحق مَن قد تحدثـــه أهواء النفس بنبذ تلك الأصول ليقوموا أئمة للباطل يقدُمون سواد خلَف الجهال الغـــافلين الأشد عرضة للضلال دون جماعة المؤمنين. وقد كان عقاب موسى للسامريّ النفـــي - أن يذهب خارجاً فليس له في الحياة إلاّ أن يقول للناس ألا مساس معزولاً لا كمـــا عَهِد تروج أقاويل دعوته في أوساطهم أن يتداعوا إلى مغازي الباطل. ذلك المثال يقتضي أن يُنفى ويُعزل الذين يؤمّون مذهب الكفر المرتد قدوة للناس وألا يُستبقوا بعاطفة العـــرقية والطائفـــية والعصبية في صف الجماعة المؤمنة مهما يتعذّرون، وإنما الوصية أن يُعـــرض الـــناس عن موادّهم وموالاهم، لا يعاقبهم وليّ أمر المؤمنين بحد جزاء عادل بل يذرهم ليلقوا عقابهم عند الله الذي لا يُخلف الميعاد. وليصبر المؤمنون أنه لا يُعاجل أحد بـــيد السلطان إن ضلّ مذهباً ودعا إلى ضِلّته بل يُعتزل طريقه منفياً في المجتمع ويترك حراً في مقولاته وفعاله الخاصة كما ترك الله لعباده في الدنيا مشيئة الخيار إيماناً أو كفراً وتوبةً أو إصـــراراً. أما آثار الإفساد في أصول الدين فعلاً وفتنة في المجتمع ينكرها بإجماعه مثل عجل السامريّ فيؤخذ بيد السلطة وحرقاً ونسفاً إن كان صنماً وهدماً إن كان مسجداً للمـــنافقين ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله: ذلك ألا يقـــوم في المشهود الظاهر ما يشاقق إجماع المجتمع المؤمن لأنه لا يحق في معهود وجدانه مهمـــا يمضي المبطلون يرتابون ويجادلون في كلمة الحق، وإنما حق الألوهية أنه لا إله إلا الله، منه أصل خلق الإنسان وهديه في العالم المشهود وإليه مرجعه في عالم الأزل، هو ﷻ وســـع كل شيء علماً، يفيض علماً وحكمة بقويم الهداية مدداً لرشد عباده ويحيط كتابه بأقدار رحمته لهم عبر ابتلاءات الحياة.

ترتيل المعاني: (الآيات ٩٩ - ١٣٥):

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آَتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (٩٩)

كـــذلك - كمـــا تـــروي الآيات السابقة من السورة - يقص الله على النبـــي الخـــاتم ﷺ مخاطـــباً بمدود من خزائن علمه المحيط من أخبار ذات شأن لما قد سبق من

سـيرة موسى عليه السلام، أذكاراً فيها تصديق للحق الذي يأتي النبي المخاطب وحياً وتسلية عما يلقاه وتثبيت مما يعتريه من شقاء في حمل الأمانة وتبليغها. وإنه سبحانه وتعالى بأقداره العظيمة قد اصطفاه نبياً أيضاً وأنزل عليه رسالة الغيب فأتاه فيها من لدن علمه ورحمته وأمره الأعلى ذكراً من القرآن فيه تذكرة لأصول الإيمان في الفطرة التي يُفلح من زكّاها، ولوقائع العبر الماضية في سيرة الإنسان التي ينساها ويجهلها الغافلون، ولهوادي الحق الفاصل فيما يختلف عليه الناس في سبيل الحياة الحسنى الموصولة دنياها بأخراها عاقبة خالدة.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ (١٠٠ – ١٠١)

من أعرض من المخاطَبين عن ذلك الذكرَ- القرآن الذي فيه علم الهدى والحكمة ونذارة سوء العاقبة وبشارة الخير والسعد في الدنيا والآخرة – فإنه يحمل يوم القيامة- إذ تقوم موازين الحساب وتحق على كل نفس مثاقيل المسئولية والقضاء عليها – تحمل وزراً من ذنوب كسب الإعراض عن الإيمان والهدى والكفر والضلال ومن وقع العذاب المستحق. أولئك يُلقى عليهم ذلك الحمل الغليظ خالدين فيه وساء لهم يومئذ حملاً يرونه بئس المحمول مناظراً لما يكسبه من عظيم الأجر والفضل الآخرون المستجيبون للذكر المقبلون على هداه في الحياة علماً منيراً ونهجاً قويماً.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ (١٠٢ – ١٠٤)

تلك العاقبة، إذ توضع موازين الحساب وأقدار الجزاء، إنما يحقّ حينُها يوم ينفخ في الصور، بعد موت الحي من البشر كافة، نفخة في قرن هي من دفع الإيذان بوقع قيام الساعة وقضاء قدر البعث لكل موتى البشر الأولين والآخرين. ويحشر الله بأقداره الفاعلة تلك المجرمين الذين كانوا يقطعون جرماً ما أمر الله به أن يوصل من نقض عهد الإيمان بالله ومن إنكار البعث الواصل للدنيا المشهودة بأزل الآخرة في الغيب. يُحشرون زرقاً من فرط الهلع والفزع من مشاهد العرض والجزاء، تبدو

وجـــوههم كـــذلك لما يغشى عروقها من فيض الدم الذي تدفعه القلوب الواجفة. يتخافـــتون بينهم همساً من جرّاء الرعب عما جرى من مد في الحياة الدنيا فأخذهم المـــوت وإذا هم مبعوثون أحياء من جديد، يرون دنياهم ظرفاً مضى عرضاً إذ يقول بعضهم لبعض إنهم إن لبثوا مكوثاً فيها إلا عشراً، عقداً واحداً، تعبيراً عن أيام قليلة وحـــياة قصيرة بحساب ما كانوا يعهدون فيها من أيام تتطاول تعاقباً في زمنها، لكنه ظـــرف عابر تبدّل في عهد أزل، وإنما الله بأبعاد علمه هو المحيط بأقدار سيرة واقعة الـــزمان وآتية الأزل. يقول ﷻ إنه بجملة علمه أعلم بما يقولون في ذلك التقدير: إذ يتساءلون هم بينهم في قول مرتبك مختلف، يقول أمثلهم، خيرهم منهجاً في التقدير، إن لبثـــتم وبقيـــتم في الدنـــيا إلا يوماً- يومَ أمدٍ وعهدٍ عابر قبل يوم القيامة الأبد الخالد[1].

﴿وَيَـــسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا﴾ (١٠٥ – ١٠٧)

والمخاطَـــبون الجاهلـــون بالغيب من نبأ الساعة ومشاهد وقع أقدار البعث فيها يـــسألون النبـــــي المخاطب ﷺ عن الجبال، الكائنات الجامدة الصلبة التي يرونها في الطبـــيعة تستعـــصي علـــى أن تُبس كالكثيب المهيل وتُسيّر كما يُقال لهم عن موت الإنـــسان وصيرورة جسده رفاتاً وضلالاً في الأرض ثم بعثه في نشأة أخرى بوقع نفخة في الـــصور من أقدار الله، ويهدي الله رسوله المخاطب أن يقول لهم مجاوباً عن مصير الجـــبال إنـــه ينسفها ربه نسفاً كما يصرّف بقدره سائر مخلوقاته كما يشاء. فيجعلها يومـــئذٍ قاعـــاً سهلة لا حزونة فيها صفصفاً مستوية ملساء لا يرى فيها المرء – كما يخاطـــبه ذكـــر القرآن – عوجاً من سلاسل القمم وتلوّي الوديان والمعالم ولا أمتاً من الوهاد والنشوز.

---

(١) في قـــصور تقدير أمد الدنيا عند الآخرة كأنه ساعة من نهار: راجع الآية ٤٥ سورة يونس، وانظر الآية ٥٥ سورة الروم، والآية ٣٥ سورة الأحقاف. ومثل ذلك عند الإنامة أو الإماتة بآيـــة مـــن الله ثم البعث في الدنيا: راجع الآية ٢٥٩ سورة البقرة (تقدير نحو يوم لمائة عام)، والآية ١٩ سورة الكهف (تقدير نحو يوم لثلاثمائة سنين وتسعاً).

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ (١٠٨)

يومـــئذٍ – إذ تقـــع تلك الأقدار المقضية – كل بني الإنسان من أهل المحشر ومن الـــذين خاطَـــبهم اليوم في الدنيا نذيرُ القرآن بنبأ الواقعة – يتبعون الداعي بنداء ذلك القـــدر مـــن الملائكـــة جنود الله الحاشرين للبشر السائقين شتى أفواجهم وزمرهم إلى مآويها المستحقة لا عوج لاتّباع الداعي ولا ميل عن الوجهة التي يدعو إليها كلَّ نفس محـــشورة بقضاء الله وحكمه القسط. ذلك وإن خالف أولئك دعاةَ الحق وعاجوا عن الـــصراط المـــستقيم إلى طرق الضلال. ويومئذٍ يحقّ وقع الاستسلام لأمر الله الماضي، خـــشعت له الأصوات وسكتت صموتاً لرهبة أهلها – مثل التخافت والتساؤل لأول وقـــع الحدث– من الرحمن الملك العظيم ذي الرحمة المرجوّ فيضها في تلك الساعة من العـــسر الـــبالغ، فلا يسمع المرء لهم إلا همساً خفيّاً ينكرون سالف شركهم وظلمهم ويـــتعذرون عنه أو يسألون فرصة المرجع إلى الدنيا لتقويمه أو المخرج من النار أو نحو ذلك من مقولاتهم التي يذكرها القرآن.

﴿يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (١٠٩ – ١١٠)

يومـــئذٍ – كـــل النفوس تحق عليها المسئولية تأخذ كلاً مؤاخذة بما كسبت هي. والمخاطَـــبونَ مـــن المشركين في الجاهلية الذين كانوا يظنون الله بعيداً في علو الغيب ويتخذون الملائكة شركاء له يحسبونها بناته ويجسّدون مثالها من الأصنام أولياء من دونه شـــفعاء لهم لديه، يتوسطون بينهم وبينه يشفع كل ملك فرداً منهم يتطلّب المزاوجة له والتوسط لدى الله أبـــي الملائكة ليرفع عنه أثقال المسئولية. لكن يوم القيامة لا يشفع أحـــد لأحد لينفعه ويسعفه من وقع السؤال والحساب من الله، إلا من أذن له الرحمن واتخـــذه أهلاً للشفاعة عنده ورضي له قولاً يحق دعاءً مقبولاً لصالح المشفوع له، سواء كان ذلك الشفيع من الملائكة كما كان يفتري العرب أو من النبيين أو الصالحين كما يظـــن غيرهـــم، الله يأذن لمن يرضى كذلك شفيعاً إذ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم مستشفعين وشافعين، ما رأوا من وجودهم وحياتهم أو لم يروا من سابقهم وما يغيب

عنهم من مصائرهم الحاقّة في خالف أمرهم. فالبشر عبادٌ له خاشعون يخافون الحساب ويطلبون الشفعاء وكذلك الملائكة لا يحيطون كذلك من الحق السابق الماثل في الوجود والقـــادم من المصائر علماً مثل مدى علم الله الذي يُقدّر ويقضي من يأذن له بالشفاعة لمن لم يحق عليه الوعيد المحسوم من عين العقاب أو خلوده، فحتى الملائكة أرواح الغيب لا يسبقون الله العليم بالقول النافع لأحد شفاعةً إلا بعد إذنه، فإن أذن ورضي لهم قولاً في شأن مستشفع فهم يستغفرون له، كما هو الأمر في شأن سائر الشافعين المستغفرين لغيرهم من البشر[1].

﴿وَعَــنَتِ الْوُجُــوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلاَ هَضْمًا﴾ (١١١ – ١١٢)

ويومـــئذ عنت الوجوه، وهي معالم الكرامة في البشر ذلت من شدة وقع الجلال مستـــسلمة للحيّ الذي لا يموت السميع البصير الخبير بكل واقعة من كسب صاحبها القـــيوم الـــذي لا تأخـــذه سنة غفلة ولا نوم من القيام الشامل بتصريف أمر الإنسان والوجـــود المخلـــوق. وقـــد خاب وخسر رجاء مَن حمل في الدنيا ظلماً، من الشرك والكفر والذنب عدلاً عن توحيد الله والإيمان به واتقاء حدوده، ومات على الظلم غير تائب، وحمل ثقلاً عليه من أوزار الحساب والجزاء، ومَن يعمل من الصالحات في الدنيا تصديقاً وتعبيراً عن نية خالصة لله والآخرة، إذ عملها وهو مؤمن، فهو لا يخاف ظلماً بأن يضيع أجر حسناته ولا هضماً بأن ينقص قدر كسبه منها.

﴿وَكَــذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (١١٣)

– وكـــذلك – من الذكر السابق لمشاهد الساعة والحشر والقضاء وتقرير المصير في الآخـــرة – كـــذلك أنـــــزل الله الذكر بأقدار علمه وقدره وأسبابه ووحيه قرآناً عـــربياً – حديـــثاً صوتاً متلواً بلسان أُمة الخطاب التي كان سوادها الأعظم لا يؤمن بالـــبعث ولا يعـــرف مـــصائر المسئولية والحساب والجزاء، وصرّف الله بتلك الأقدار

(١) راجـــع الآيـــة ٢٥٥ ســـورة البقرة، والآية ٣ سورة يونس، والآية ٨٧ سورة مريم، وانظر الآية ٢٨ سورة الأنبياء، والآية ٢٣ سورة سبأ، والآية ٢٦ سورة النجم.

العظـــيمة في ذلك الذكر من الوعيد ترهيباً بعاقبة السوء مفصِّلاً نذيره حسبما يوافي ما يحق من أساليب العرض والحساب للظالمين من السواد الأغلب لأمّة الخطاب تلك عند متنـــزّل الذكر، لعلّهم يتّقون، حالة لا تقرب أبداً حدود الحق إخلاصاً لله لا يتعبّدون دونـــه شريكاً وطاعة لأمره لا يتجاوزونه بمعصية خشية المحذور من سوء المصير الذي بيّـــنه ذلك النذير. أو علّ القرآن يُحدث لهم ذكراً، موقعاً في وجدانهم تذكّراً فإيماناً بما كفروا به وغمروه من آيات البعث وميزان الحق في طبيعة خلق الله المشهود دليلاً على أقـــدار غيبـــية، أو بما جهلوا من ذلك الحق ونسوه من نُذُر الله التي تنـــزلت في كتب وحيٍ من الله سابقة.

﴿فَتَعَالَـــى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١١٤)

فـــتعالى الله الملـــك الحق، سما الله بذاته الكاملة وقدراته المطلقة إذ هو الملك ذو الـــسلطان والحكم القاضي على الناس ثواباً أو عقاباً في اليوم الموعود في الأزل، وهو الحـــق العدل الذي لا يُجازى إلاّ بعد النذارة والبشارة في رسالة الكتاب وإلاّ بالقسط بـــين الظالمين والمؤمنين من العباد. ويستمر الخطاب للرسول المخاطَب منذ الآية (٩٩) أن قـــصّ الله علـــيه في الوحي من أنباء ما قد سبق وآتاه من لدنه ذكراً فيه الوعيد لمن أعرض عنه يوم القيامة الذي توالى ذكرُ مشاهده وحتى الآية الماضية في إنـــزال القرآن وتـــصريف الوعيد فيه لعلّ المخاطبين يتّقون أو يتذكرون. فيوصَى الرسول ألا يعجل بالقرآن تلاوةً وترداداً لما يسمع من وحيه من قبل أن يُقضى ذلك الوحي مرتلاً مفصلاً مـــصرّفة فيه جملة من تعاليم الذكر والهدى ونُذُر الحساب. ذلك مهما يعاجل حرصاً علـــى مساوقة الوحي فوراً بالتلاوة لتلقي هدى الله المتلاحق لاسيما ما يتوارد فيه ذكر التـــرهيب بيوم الفزع فيحرص على ترداده بلسانه مباشرة لحفظ تذكّره من ثقل وقعه عليه مسئولاً يوم القيامة عن تمام الاستجابة له وأداء أمانة بلاغه. فالأحق أن يصبر حتى يـــتكامل وحي الهدى المتنـــزل عليه ويدعو ربه حرصاً على تمام البلاغ أن يزيده علماً بوحي متواتر ويثبته بتلقٍ متواصل(١).

(١) راجع الآية ١٠٦ سورة الإسراء، وانظر الآيات ١٧- ١٩ سورة القيامة.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (١١٥)

وتنـــضاف بيّـــنةٌ وعبرة من مثال أصل سيرة الإنسان وسنة عهده مع الله الذي يحمله فطرة ويتلقاه تذكيراً، ولكنه مبتلى فيه بمتاع المشهود وزينته والنـــزع في النفس لنسيان العهود والانـــزلاق في حبائل الشيطان وارتخاء العزم من ثمّ على حفظ العهد. ينـــضاف ذلـــك إلى سياق ذكر الله كما سبق بيانه قرآناً متلواً ونذيراً يدعو للتقوى والـــتذكير بالحق وكما تقدّم بيانه من قبل يَقصّ أنباء موسى وعهده مع ربه ودعوته وابـــتلائه وفتـــنة قومه. فالعبرة الأصل في أمر الإنسان من عهده مع الله وابتلائه إنما تتجلّى في قصة آدم[1]، إذ عهد إليه بجملة من أقدار الله في خلقه وطبع فطرته ومشيئته خـــياراً أن يحفـــظ عهداً مع الله فيصله لا ينقضه وإن ذُكّر به ألا ينسى، وتُرك آدم ليمضي مبتلىً في تجربته الأُولى من ابتلاءات عهده في الأزل، فكان الذي ترتب على شـــوط ســـيرته في الحياة هناك أن نسي، وربّه بأقداره الجليلة من التكليف والتذكير والنذير والوعد لم يجد له حين حُمّ وقع البلاء عزماً، تصميماً صلباً أن يصابر ويجاهد الفتنة ويربط على قلبه إرادة نافذة لحفظ الوفاء بعقد التذكّر والطاعة لله أبداً عبر كل بلاء.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (١١٦)

وقـــد كان مما انضاف ووافى أخذ العهد من آدم أن قال الله بجملة أقداره العظيمة في خلـــق الإنـــسان وتقدير مسيره ومصيره – قال للملائكة الذين أعدّهم ﷻ خلقاً مطبوعاً على عزيمة تسبيح له وطاعة ورسلاً إلى من يشاء من عباده – قال لهم آمراً أن يـــسجدوا لآدم، ذلـــك الخلق الأول من البشر حياً من الطين الأسود، ليكونوا أبداً في خدمـــته بإذن الله وأمره. فسجدوا طاعة إلا إبليس كان من الجن، الخلق الخفي في عالم الأزل والغـــيب قبل الإنسان، فأبلس عن طاعة الله آيساً من رحمته إذ أبى أن يطيع أمر الله غيرةً من المخلوق البشري الجديد.

---

(١) في قـــصة آدم وعـــبرتها راجـــع الآيات ٣٠- ٣٩ سورة البقرة، والآيات ١١- ٢٧ سورة الأعراف، والآيات ٦١- ٦٣ سورة الإسراء، والآية ٥٠ سورة الكهف، وانظر الآيات ٧١- ٨٥ سورة ص.

﴿فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾ (١١٧ – ١١٩)

فمن تلك الواقعة بيّنة على مذهب إبليس مع آدم، قال الله بأقدار علمه وإرادته في تزكية الإنسان وإعداده للبلاء – قال لآدم مخاطباً – إن هذا الشيطان المبلس عدوٌ له ولزوجه التي خُلقت معه من نفس واحدة لذات المسيرة من الابتلاء الإنساني وعفو الخيار لعلهما يجاهدان في الحياة يعبدان الله ويطيعانه فيتلقيا منه الجزاء في العاقبة. وأُقيما مأوى في جنة ذات نعيم يورثهما سعداً، فأُنذرا ألا يحملهما إبليس الذي غار منهما وأبى أن يسجد لآدم لأول الأمر ساخراً من عنصر خلقهما فاتناً لهما ليعصيا الله بأسباب الإغراء التي يبسطها من حولهما فيودي بهما إلى سوء العاقبة إذ يخرجهما من الجنة فيُحرمان من نعيمها فيشقى آدم المخاطب: إنه لو استقام على طاعة الله حامداً شاكراً نعمته متقياً ما رسم له من الحد الذي يمرق وراءه من بوح الحل ومداه إلى الحرام – إن له عندئذ – كما يُخاطب – ألا يخرجا من الجنة فيصيبهما البلاء بالشقاء في دار أخرى، ألا يجوع محروماً من تمام مدّ الطعام ولا يعرى مفتقداً نعمة الستر الكاسية من التجرّد فيها، وأنه لا يظمأ من مياه الجنة الجارية الراوية ولا يضحى من ظلال الأشجار الغاشية الساترة من ضحى الشمس وشدة حرها عند الخروج من الجنة والصيرورة إلى متبوّأ آخر غير الجنة.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى * فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٢٠ – ١٢١)

فوسوس إليه الشيطان الذي أُوتي بقدر الله أسباب الحديث إلى الإنسان إلقاءً في الوجدان لرسالة إغرائه دون جد الخطاب المسموع بالأذن، قال له كذلك منادياً له باسمه تنبيهاً وتقريباً يسأله كأنه يبسط له خير الهداية: هل يدلّه على شجرة الخلد لا يموت بعد أكلها، وهي تلك الشجرة التي نُهي عنها دون سائر الشجر المباح، وأغراه أيضاً أنه إن أكل منها يُفتح له سبب غيبي نحو ملكٍ حاقٍ وقعُه سلطاناً مبسوطاً على كل الجنة ومتعتها بلا استثناء ولو لشجرة واحدة لا يبلى بل يدوم متاعه في الجنة لا

يقـــوم ولا يــنقطع لنـــزعه هو عن الجنة أو فنائها. فغشي آدم وحواء ذلك الوسواس وأخذهما إغراؤه ووعده فأكلا من الشجرة المحرّمة بأمر الله المرجو أكلها سبباً لسلطان مـــتاع منبسط دائم لوسواس إبليس. ولكن ترتب أن بدت لهما سوءاتهما، إذ تحركت في أعضائهما نتوءات الذكورة والأنوثة وشهوات المتاع أن يتماسا ويتناكحا، وأصبح يحـــدث لهـــا من مشاهدها العضوية البادية من جديد حياء أن ينظر أحدهما إلى الآخر نحـــوها، وطفقـــا شرَعا فوراً يخصفان عليهما من ورق شجر الجنة ما يسترها. وبذلك حـــق علـــى آدم أن عصى ربه مخالفاً أمره المبين فغوى - فعلة غي واحدة ضلالاً عن هداية الله.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (١٢٢)

ثم اجتـــباه ربه بأن اصطفاه من سائر الخلق - الملائكة الذين لا يعصون وإبليس وذريـــته الذين يعصون أبداً ولا يتوبون، إنه بشر يؤمر ويبتلى ويُخيّر وقد يطيع سالكاً حيث يرضى ربه أو يعصى لكنه لا ينكتب عليه أن ينسد باب الرجوع إلى الله. فتاب الله علـــى آدم لـــذلك الاجتباء بأن آب الله راضياً كما آب هو راجعاً بعد العصيان، وهـــداه ربـــه برشد تلك التجربة أن يتبيّن مواقع وسواس إبليس النشطة عند مقارب الحـــرام، ونـــوازع نفـــسه أن قد تكون فريسة لإغراء إبليس ووعوده الغارّة الكاذبة، وأبواب التوبة المفتوحة له مهما يعصي أن يرجع إلى ربه يبتغي مرضاته فيرجع إلى نعمة جنة طعام وزي طيب وافر جميل ساتر وشرب مسكوب وظل ممدود.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٣ - ١٢٤)

قال الله لآدم إذ تمت له التجربة وموعظة سالفة المتاع والتكليف والبلاء والذنب والـــتوبة وتم له قبل الاستخلاف في الأرض وعالم الشهادة انحجاباً من الغيب أن يختزن زاداً في وجدانـــه مـــن رؤية الله وسماع كلامه وشهود مخلوقاته الرّوحية العليا الطائعة ملائكة والعاصية شياطين - قال له أن يهبط وزوجه من الجنة جميعاً زوجين ويتبعهما خلَـــف بعد نشوء ظاهر العورة والشهوة للجماع بالولادة ذريّة مثلهما تحيا من جديد،

ومعهما إبليس وذريّته عل سنة تتعاقب في نسله مواكبة لخلوف البشر، بعضهم لبعض عدو، إبليس وذريّته العاصية عدو يجرّ أولياءه المغرورين بوسواسه، فريقاً منه على عِدوة عـــداء لفـــريق من آدم وحواء وذريتهما من الطائعين أبداً والتائبين إن غشيهما الغرور ووقعاً في حدود الحرام وكسباً ذنباً عصيان الله. والله آذنهما أنه لن يتركهما وذرّيتهما محجـــوبين عـــن الغيب في جهالة غماء، بل سيرسل الملائكة الطائعة لله الساجدة لآدم لمبـــتدأ وجوده لتُوحى من الله في الغيب إلى الإنسان في العالم المشهود رسالة هدى ألاّ يـــضلّ في ذلك العالم الأدنى الفاتن تعلقاً بمشهوداته وشهوة لحاضراته، فمن اتّبع هدى الله ذاك فـــلا يـــضل في مسيرة دنياه مهما تحيط به البلايا أو تعتوره الخطايا أحياناً بل يهـــتدي مستقيماً أو تائباً إلى سواء الصراط، ولا يشقى في دنياه ولو ابتلي بحرمان أو نقـــص بمتاعه فيها بل يصابر ويحمد الله غنياً بل راضياً ويرجع إلى آخرته ليدخل جنة النعـــيم مثل العهد الأول في الأزل ويلقى من ربه والملائكة وسائر زمرته من المهتدين التحـــية والرضوان. ومن أعرض عن ذكر الله المتواتر الموحى من الغيب مفتوناً بالدنيا ناسياً نـــزع الفطرة في نفسه المؤمنة المعاهدة لربه أو مدبراً عن تذكرة الهدى المتنـــزّل إلـــيه قبلاً، فإن له في الدنيا معيشةً ضنكاً وضيقةً إذ إنه مهما يتوافر له المتاع يظل تحرقه عاطفـــة طلب المزيد وخوف الفقد، ويحشره الله كما يقول جمعاً لكل أقداره في البعث والجمـــع لموتـــى البـــشر قياماً يوم القيامة – يحشره أعمى لا يهتدي إلى مبتغى النعيم والمـــأوى المطمئن في الجنة بل يقع في مسلك الشقاء وفاق شقائه في الدنيا وينتهي إلى مأوى العذاب المهين.

﴿قَـــالَ رَبِّ لِـــمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (١٢٥ – ١٢٦)

يحـــقّ ذلـــك المآل من العمى والضلال، ويقع ما يُنتظر منه بما يحقّ وصفه بصيغة الفعـــل الماضي: قال الذي حُشر أعمى منادياً مسترحماً ربّه: لم حشره هكذا أعمى لا يرى لخطاه سبيلاً في مزدحم حشر ومتشعّب طرق تسوق إلى الجنة أو تودي إلى النار الـــتي يـــستعيذ منها ويلتمس النجاة، لم وقد كان في معاش الدنيا بصيراً بمسالك العالم المـــشهود؟ قـــال ربه مخاطباً له أن كذلك قد سبقت منه ميول حياته أن أتته آيات الله

تَعــرض لــه وتَدله بجميع أقداره الطبيعية المشهودة وتذكّره بكل كلمات الحق الموحاة المــتلوّة تذكــرة وهداية إلى الخير، وتُرك له خيار المشيئة فاختار الغفلة عنها والنسيان، كمــا نــسي أبوه آدم من قبل وهو أقرب إلى الله، والآيات فيها تذكرة بتلك السابقة عظة للعاقبين، وآدم رجع فتاب عليه ربّه وإن أهبطه حجاباً من الغيب إلى دار الابتلاء فقــد تعهّــد له بتوالي الآيات المتنــزلة، لكن ابن آدم المُعرض عن الهدى الماضي على مسالك النسيان حتى الممات هو اليوم – بعد البعث والحشر – يُنسى من هداية الله التي توجهه إلى طريق الجنة ومأوى السعد الخالد من نعيم الله ورضوانه فيها.

﴿وَكَــذَلِكَ نَجْــزِي مَــنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (١٢٧)

وكــذلك – مثل ما سبق مما قصّه الله مصيراً للسامريّ وأمثاله من المعرضين عن ذكــر الله من حمل الأوزار يوم القيامة وما وصفه من الفزع والخشوع والضعف ذلك الــيوم وما ذكره من النذير منذ آدم لمصير من أعرض عن ذكر الله – كذلك – وفاق ســابق الكــسب رغم التذكير والتدبّر واستحقاق العذاب – يجزي الله – كما يقول متكلماً بجملة أقدار ملكه وقضائه وحكمه يوم الدين من أسرف مفرطاً في الإدبار المبين والانهمــاك في تعلّقات الدنيا وشهواتها الحاضرة المشهودة ولم يؤمن بآيات ربه المرئية طبــيعة ولا المــتلوّة شريعة. ويتوكّد الحق أن عذاب الآخرة أشد ألماً من عذاب الدنيا المعهود الذي قد يُعاجل به الله المُعرض شقاءً وضنكاً، وهو كذلك أبقى إذ يخلُد دواماً بينما تفنى الدنيا وأعراضها.

﴿أَفَلَــمْ يَهْــدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى * وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ (١٢٨ – ١٢٩)

أفلم يهد لهم ويتبيّن لأولئك المخاطبين بالقرآن المُعرضين عنه، ألم يترتب عن كل مــا بلغهــم من أنباء السابقين كم أهلك الله خراباً بأقداره العظيمة الفاعلة من قبلهم عــدداً مــن القــرون والأقوام المتعاقبة المتقارنة عقوداً من الزمان، هم الآن يمشون في مــساكنهم مارين عليها عابرين على طريق رحلات التجارة التي يسلكون؟ ألم تقرّ في

نفوسـهم بذلك عظة تذكرهم بالعذاب العاجل نذيراً الآجل وقعه الأشد والأبقى؟ إن في ذلك لأولي النّهى- العقول الناهية عن الجهالة الكافية في مبلغ منتهى العلم- لآيات تتجلّى فيها دلائل عواقب الهدى والضلال. ويُخاطب الرسول ﷺ تالي القرآن البشير النذير أنه لولا كلمة سبقت من قضاء ربّه في قدر الإنسان والمخاطبين خاصة بختام الرسالات ألا يُقضي عليهم قدراً عاجلاً لمدى الحياة لعلّهم يتوبون، حتى يُخيّروا في مسير حياقم ولا يُعاقبوا في عاجل الدنيا كالقرى السابقة التي هلكت فور عاقبة النذير، لولا تلك الكلمة: أن يمدّ الله لمن شاء التوبة بَعداً أو آثر التمادي ويؤخره لأجل مسمّى إذ يُقدّر الله حين قيام السّاعة ويوم الدين والجزاء - لولاها لكان العذاب العاجل لزاماً يقع فور مقتضاه من النذير فالمعصية الواقعة من هؤلاء المخاطبين وأمثالهم.

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى * وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (١٣٠ - ١٣٢)

مهما يكن أمر المدّ لهؤلاء فالخطاب للرسول ﷺ الداعي للحق التالي للذكر ألا يُرتب على إعراضهم جزعاً فدعاءً بعاجلة العقاب، بل أن يصبر على ما يقولون من إنكار الغيب والبعث وتكذيب آيات هدى الله وأنباء الآجل الذي ينتظرهم غيباً بعد الممات، وليسبح بحمد ربّه، كما كان يسبّح موسى وأخوه هارون تثبيتاً لإيمانهم عبر بلاء الدعوة وتنـزيهاً لله المتعالي عن قول الباطل الذي يزعم الظالمون شركاً وطاغوتاً وعن عجزه عن عذاب المكذبين فوراً إن شاء، ليقرن ذلك التسبيح لله بحمده وثنائه: إنه يوالي عباده بعد الخلق رسالات الحق علماً وهدى وأنه يملي لهم الخيرة والبوحة رحمةً بهم حليماً وإن عصوه حيناً أو تمادوا كفراً بنعمائه وتكذيباً لآياته وجدالاً فيها وأذى للرسول الذي يبلّغها ويتخلّق بها، ليوالي الرسول ذلك التسبيح والحمد مستيقناً حاملاً للدعوة مستعيناً بذلك الذكر للصبر على بلائها. وذلك قبل طلوع الشمس بكرة أول الانطلاق والمنشط في الحياة وقبل غروبها أصيلاً عند المرجع من السعي إلى السكون، وشيئاً من آناء الليل وساعاته ينبغي أن تعمر بما تيسّر له من ذلك الذكر

وأحـــياناً من أطراف النهار ذكراً لأسماء الله الحسنى عبر تقلّبات كل نواحي المعاش في اليوم، لعلّه يرضى إذ يستيقن معاني الذكر لله السبّوح المحمود ولا يشقى مطمئناً لما يُعدّه له ﷻ من أفضال وأجور ثواب عاقب.

وعلـــيه أن يـــوالي – تزهّداً لتعلّقات الدنيا الظاهرة وتجرّداً لوجه ربّه في مسعى الحـــياة – ألا يمـــدّ عينـــيه مفتوناً مبتغياً منجذباً نحو ما متع الله بأقدار نعمائه وابتلاءه أزواجاً من أولئك المُعرضين عن الذكر، طبقات متشاكلة، إذ بسط لهم بأقدار الابتلاء لعباده زهرة الحياة الدنيا زينةً ومتاعاً وعجباً لتفتنهم رؤيتها. ورزق ربه له هو، وإن قلّ حظه من ذلك منظوراً إلى كسبهم مالاً ومتاعاً، وإن أنفق جلّ وقته في الذكر والدعوة وفـــضل عليه في أقدار الرزق المفتونون به، إنه على سبيل الهدى خير من كسبهم هم وأتقـــى لأنـــه وإن قل مكسوباً يثمر عاقبة مؤخرة في الآخرة تمتد بخير منه وأبقى، لأنه كسب ابتغي في سبيل الله ورجاء الخلود نعيماً آجلاً أبداً. وليأمر أهله بالصلاة في بيته إن أعرض سائر عامة الملأ من قومه، وليصطبر هو عليها مؤدياً فروضها الموقوتة ومواليا نفلـــها الطوعي ذكراً وخشوعاً وقربى لربّه وقدوة لأهله وإماماً للمتقين. لا يسأله الله رزقاً، لا يكلّفه أن يفرغ لكسب الرزق لينفقه لوجه الله على الفقراء والمحتاجين، بل هو كما يقول الله بأقدار رحمته وبلائه رزق له كفاف طيب معاشاً في الدنيا، كما يكتب الله لهـــم رزقاً أوسع فاضلاً، والعاقبة في الآخرة للتقوى، لأكرم الناس أتقاهم وأرعاهم لحـــدود الله في الهـــدى والكسب والمعاملة لا أوفرهم في حظوظ الرزق مداً في الدنيا وابتلاء ما داموا يكسبونه بالباطل ولا يذكرون الله فيه ولا يشكرونه عليه ولا ينفقونه في سبيله تعالى[1].

﴿وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآَيَة مِنْ رَبِّه أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَاب مِنْ قَبْلِه لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (١٣٣ – ١٣٤)

---

(١) حظـــوظ الدنـــيا الفاضلة لا تمتد إلى الآخرة كما يتوهّم المفتونون: راجع الآيات ٣٥- ٤٢ ســـورة الكهف، وانظر الآيات ٣٤- ٣٩ سورة سبأ، والآيتين ٤٩- ٥٠ سورة فصلت. ولا يمدّن النبـــي ﷺ عينيه إليهم: راجع الآية ٨٨ سورة الحجر، والآية ٢٨ سورة الكهف. والله لا يسأل رزقاً بل يُعبد وهو الرازق: انظر الآيات ٥٦- ٥٨ سورة الزاريات.

وقالــوا - أولــئك المشركون الذين لا يؤمنون بالغيب ويُلحّون طلباً أن تتجلّى آيــات الغــيب محسوسة مشهودة ليصدّقوها - قالوا عن الرسول ﷺ ذي دعوة الحق ورســالة الغيب التي يكذبونها ونذرها وحياً من الغيب تنــزيلاً من الله الهادي إلى كل الحــق في الوجود القادر على كل شيء في تصريفه - قالوا عنه ترجياً وتحدياً: أن لولا يأتــيهم مــن ربه بفعل يجري على يديه يشذ عن مسنون طبائع الأسباب والأحداث المعهــودة للبــشر الواقعة منهم أحياناً، حتى يُصدّقوا ما يدعى وحياً ينــزل عليه من الغيب لا يفتريه من تلقاء نفسه. ذلك منهم منكر القول غير معذور، أو لم تأتهم بيّنة ما في الــصحف الأولى؟ الكتب التي تنــزلت وحياً لأقوام سالفة من رسل خالية فيها ما يــصدّق ما يحمله إليهم الرسول الخاتم من الحق، تعاليمَ في هدى الحياة وبشائر بعواقب الغــيب ونــذراً عن الآخرة، وذكراً واعظاً لأولئك الأقوام الذين طلبوا الآيات المادية المعجزة شهادة تصدّق آيات الوحي فأُوتوها فلم يؤمنوا بها فعاجلهم الهلاك عقاباً. ولو أن الله بجمــيع أقداره المفعولة أهلك حاضر المخاطَبين بعذاب من قبل نــزول القرآن بهديه ونذيره عقاباً على كفرهم وضلالهم غفلة عامدة عما جاء في تلك الكتب الأولى من هدى ونذير لقالوا منادين ربهم عند بعثهم وحسابهم يوم القيامة: لولا، هلا أرسل إلــيهم رسولاً - عربياً خالصاً - يهديهم وينذرهم فيتبعون آياته رباً مخاطباً من قبل أن يذلوا هكذا ويخزوا في عذاب الآخرة[1].

﴿قُــلْ كُــلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (١٣٥)

الوصية الخاتمة لهذه السورة تخاطب الرسول ﷺ الذي أنــزلت عليه مثاني القرآن تذكرة لمن يخشى العاقبة عند الله، الوصية أن يقول إنه كلٌّ متربص، معهم ومعه، ينتظر أمــر العاقبة التي جاء بها نذير وعيد الله في ذلك الوحي: هل يصدقها الواقع أم تذهب باطلاً. وقد يعجّلها الله في الدنيا أو يؤخرها ليوم القيامة. فليخاطبهم الرسول لذلك أن يتربــصوا ولو كانوا ينتظرون مرتابين إحقاق الحق الموعود - فهو منتظر مستيقن حق وعــد الله، فإن الدين لواقع، فسيعلمون من الواقع البيّن مَن - بينه وبينهم - أصحاب

---

(١) راجع الآيات ١٥٥- ١٥٧ سورة الأنعام.

الــصراط السوى العدل التي استقام حتى بلوغ المنتهى، ومَن اهتدى بعد ضلال مسير الطــريق في الحياة موقناً مائزة حاله عمَّن ارتاب فأصر على الإعراض عن ذلك الهدى الصائر بمن يسلكه إلى خير الدنيا والآخرة.

قـــد كان أول السورة أنه ما أنـــزل الله القرآن ليشقى الرسول مهما تكن بادرة أُمـــة خطابـــه إعراضـــاً وكفراً، وإنما أنـــزله تذكرة لمن يخشى ويتقي نفاذ قضاء الله فيـــستجيب. وهـــنا الوصـــية له أن يصبر متربصاً فسوف يعطيه ربه فيرضى وسيعلم المعرضـــون المتربـــصون به عاقبة سوء المصائر ما يدركون به مَن التزم الصراط السوي الذي بيّنه القرآن فاستجاب لدعوته مستيقناً واهتدى بعد ضلال مستقيماً، ومن ثَم مَن السعداء الراضون في الدنيا الراجون مطمئنين سعد الآخرة وعداً صادقاً[1].

عموم المعاني (الآيات ٩٩ – ١٣٥):

إن في القرآن قصص من أنباء ما قد سبق من بني الإنسان مثل موسى عليه السلام الذي مـــنّ الله عليه حتى تربّى وتزكىّ ليُصطفى نبياً يحمل رسالة الغيب إلى قومه، كما زكّى الله واصـــطفى خـــاتم المرسلين ﷺ وآتاه القرآن رسالة لقومه فالعالمين. وكان في تلك الرســـالة المتعاقـــبة مـــن الغيب معرفة الله رباً واحداً متعالياً على ما يتخذ بعض البشر سلطاناً يتعبدونه رعايا سُبّوحاً عن الأصنام الجوامد التي تتجسد فيها مقدسات روحية معـــبودة. وفـــيها آيات لأقدار الله التي تتجلّى بيّنة في مشهود عالم الإنسان المخاطب بالرســـالة تصله بعالم الغيب، آيات فيما سبق من وقائع غير مسنونة الأسباب شاهدة علـــى صـــدق ذكـــر الرسالة الغيبـــي، وآيات من وحي تُتلى تعاليمَ متصادقة لهداية الإنـــسان في الحـــياة إلى خيار حسن عبادة خالصة لله في الدنيا مصوبة إلى خير مصائر الغيب في الآخرة. وفيها تذكير بآيات مشهودة لله الخالقِ لكل شيء في الكون الهادي لـــسنن ذلـــك الوجود المطبوع الباسطِ من ذلك نعماً تحيط بالإنسان. وفيها إيذان بما يتعـــرض لـــه الرسول من شقاء في بلاغه إعراضاً عن دعوته وإنكاراً للغيب في رسالته

(١) في تحـــدّي المتربّصين: راجع الآيات ٥٠- ٥٢ سورة التوبة، وانظر الآيتين ٣٠- ٣١ سورة الطور، والآية ١٤ سورة الحديد.

ومجادلـــة لآياتها ومضارعة لوقعها ومداخلة لحقها بالباطل. وفيها ما يلزم من ثم على الرسول من الصلاة والذكر لله والصبر على البلاء والتوكل والغناء برجاء ما هو موعود في الآخـــرة. وفيها ما قد يعتري المؤمنين المتطهرين من الباطل الذين يهجرونه من فتنة، لاسيما إن غاب عنهم التذكير المتوالي وانقطع غذاء الإيمان المتواصل، قد تأخذهم نوبة ردّة ينتـــشر فـــيها باطل الشرك والضلال، لكن قد توافيهم تذكرة أوبة متاب إلى حق التوحيد والهدى المتجدد.

أمـــا مـــن أعرض عن ذكر الله وحق رسالة الغيب فإنه يُمضي حياته سائراً على جهالة وضلال متمتعاً من فرط الهوى بأنه طلق من أحمال تكاليف تلك الرسالة. لكنه إنمـــا يحيا لأجل محدود ويأتي يوم القيامة الموعود يحمل وزراً يؤوده خالداً ويسوءه من أثقـــال المـــسئولية عما كسبه. ذلك اليوم ينفذ فيه قدر الله المفعول بنفخة واحدة أذاناً بوقعه فإذا المجرمون القاطعون في حياتهم ما ينبغي أن يوصل من مشهود الوجود بالغيب المبعوثون بعد الموت محشورون تغشى وجوههم زُرقة الفزع والخيبة وقد كانت مبيضّة بآمـــال الدنيا وبشائرها. ويرتبك يومئذ لديهم الوعي بأمديّة آجال الوجود إذ ينحسر ظرف الزمان ورجاء سرابه الممتد ويحولُ أزلاً للوجود خالداً تتضاءل فيه تقادير ذكرى الـــزمن النـــسبية المحسوبة. يتذكرون دنياهم الخالية ويجتاحهم الهلع البالغ من مشاهد الحشر فلا يتداولون خطاباً جهيراً بل يتخافتون ولا يستقيم لهم ضبط حساب في تقدير مدى الدنيا، يتساءلون عنها فيرونها - وإن كانت تمتد لهم فيها الآمال كأنها دار خلود ويتمادون في ضلال المتاع مطمئنين لدوامه حتى عبروها بالممات - يرونها عرضاً مضى خاطفـــاً مـــا لبثوا فيها إلا عشر ليال، أو على قول أمثلهم يوماً واحداً. والله بأقداره الجلـــيلة الشهيدُ المحيطُ بما كسبوا في الدنيا من فعالهم ما ظهر منها وما خفي هو الأعلمُ بما يدور بينهم من مقولات يومئذٍ مهما يكن خفوت صوتها من الرّهب.

والكافـــرون بالغيب والآخرة في دنياهم تبدو لهم فيها ثوابت خالدة لا وجه لأن تتبدّل بنفخة من قدر السّاعة الموعودة، وكذلك قد تبدو طبيعة الكون الجامدة متعسّراً حؤولها إلى غيرها للذين ينحصر وعيهم في أفق المادّة المحسوسة وظروف الدهر الراتب. فالجـــبال كانـــت للمخاطبين بالآخرة في رسالة القرآن هي مثال قوة الرسوخ وخلود

الثــبات فارتابــوا مسائلين عن كيف مصيرها يوم القيامة مندكّة منبسّة. ولكن الحق الــيقين الذي تقرره وتقوله تلك الرسالة أن الله ذا القدر القهّار الغلاّب ينسف يومئذ الجــبال نسفاً فيذرها قاعاً ملساء صفصفاً لا فيها عوج ولا أمت كأن لم تنتصب منً قبل عوالي صخر في الآفاق. وإن كان ذلك مصير الثوابت الرّاسخة فإنه يهون على الله أيــضاً أن تنكدر الشمس والنّجوم وتنسجر البحار وتنفطر السماوات وتتبدّل الأرض، وأهون عليه أن يبعث موتى البشر في نشأة أخرى أجساداً تحمل أرواحهم الأولى حياة في دار جــزاء وقــضاء بعد دار البلاء لأبد في الخلود بعد مدى العمر المحدود. فيومئذ تــبطل ظــنون أهل القوة المتمكنة أنهم غالبون كأنهم قوة لا تثنيها أقدار الله، يقومونً محــشورة أفواجهم متواكبة إلى معارض الحساب ومآوي الجزاء والعذاب لا يعوجون عنها إلى منصرف، خاشعة أصواقم إلا همساً، توقيراً للرحمن الذي عمتهم رحمته حلماً في الدنــيا ومدّاً لهم فيها وهم اليوم أشدّ إدراكاً لصفته تلك العليا إذ هم أحوج لغاشية فائــضة مــن تلك الرحمة فرقاً وخشية من مشاهد المصير التي يُعرضون عليها. ويومئذ المُلــك للرحمن وإن سبق في الدنيا أن اتخذ البشر بعض المخلوقات شركاء لله أولياء منً دونه وعوّلوا عليها شفعاء عند الله في الدنيا أو يوم القيامة. ومن أولئك الأولياء الأصنام الــتي اتخــذها العرب لأنها تمثل الملائكة بنات الله فيما يظنون، وكذلك بعض الأنبياء يتخذهم أتباعهم لأنهم مصطفون من الله والصالحين الذين هم أهل الله الخاصة لاسيما عــند عوام المسلمين. هؤلاء يظن المشركون وبعض سائر المستشفعين بهم زلفى إلى الله أنهــم وسطاء في تصريفه تعالى لأقدار الدنيا وإبرامه لأحكام الآخرة. والحق أنه لا تنفع الــشفاعة يــوم القيامة ولا تحق إلا لمن يأذن له الله شافعاً أو مستشفعاً ويرضى قوله. فهــو ﷻ يعلم ما بين أيدي عباده من كسوب الدنيا وما خلفهم من موازين الآخرة، بينما لا يحيط أولئك بعلمه فلا حيلة لهم ولا أهلية للشفاعة إلا بإذنه ومرضاته.

إن الكفر بالبعث والآخرة انفلات مطلق عن استشعار المسئولية في الغيب، وهي الأشمــل محاسبة لكل صغير وكبير من عباد الله، الأدق إحاطة بكسب الإنسان، الأوثق حضوراً دائماً حوله في خلوته أو جلوته، الأوسع إلماماً بظاهر فعاله وباطن نيّاته، الأشق عاقــبة عــذاب، الأوفر مضاعفة للأجور، والأخلد وقعاً أبدياً. أما في الدنيا فالمسئولية

قاصـــرة، ما يباشر منها المجتمع أو يتولى السلطان، فهي محدودة وقعاً على المخاطبين إذ قـــد يتحصّن منها الأكابر والأقوياء، وقاصرة في إثبات بيّنات الأفعال الخاطئة إذ يقلّ الـــشهود علـــى ظاهرها ويتعسّر الوقوف على نياهّا، وقليلاً ما يثيب المجتمع الصالحين فِعـــالاً بحسن ذكرهم، ولا يتيسّر للبشر من وجوه المعاقبة للمفسدين إلا عزم أو أذى محـــدود أو قتل بالحق موقوت. والتعويل على الشفاعة كذلك حجاب في الدنيا دون احتمال المسئولية للمشركين أو إضعاف لوقعها لدى المؤمنين. والحق أن كل وازر هو وازر لـــوزره يـــوم القـــيامة لا تغنيه خلة ولا يقيه منها بيع ولا فدى ولا شفاعة. إلا الـــشفاعة الـــتي يملكها الله ويصرّفها بإذنه ويرضاها بعلمه. وإنما تنفع في إحسان درج الجزاء المستحق إذ الملائكة يستغفرون للذين آمنوا ومن هو أصلح وأعلى مقاماً في الجنّة قـــد يُلحـــق به بشفاعته المأذونة صالح الآباء والأزواج والذرية. لكن الشفاعة لا تدرأ جزاء كبائر الإثم والفواحش ولا تستدرك دركات عقابها ولا تحوّل المأوى الفارق بين الكفر المطلق والإيمان بغواشيه إخراجاً من النار ودخولاً في الجنة وإنما ذلك خلود وقف على مشيئة الله. يوم القيامة تستوي تحت عرش الله المحيط مقامات البشر والجن ويتكافأ في جـــزائهم ميـــزان العـــدل والحساب، وإن كانوا يحسبوهَا مقامات متفاضلة دون الحساب فيها مَن هم مقدسون أرفع زلفى إلى الله.

يومـــئذٍ تقنت كل الوجوه لله الحيِّ – صفة لازمت الوجود قبل أن يحيا الإنسان وأثـــناء موته وعند بعثه وبعدُ أبداً، القيومِ أبداً كذلك بقوله يكون كل الكون وبأمره يتـــبدّل حـــالاً ومآلاً في زمان الدنيا وأزل الآخرة وبعدله يقوم القسط بين البشر يوم الدين يخيب من حمل من دنياه ظلماً إذ ما أخذ نصيبه منها زاداً يُعدّه للقاء ربّه ويطمئن مَـــن آمـــن وصلحت دنياه من الخوف والهضم في أخراه. ومنذ أن هبط الإنسان ذرية لأبـــيه آدم إلى الأرض خلَفه في زمانها محجوباً عن الغيب أصبح عرضة لفتنة مشهوداته قد تغويه وتردّه إلى ربّه في الأزل خائباً – منذئذ تعهّد ربه برسائل الغيب علماً وهدى ليؤمن ويصلح في دنياه. وكذلك بتلك الأقدار الراحمة أنـــزل الله قرآناً عربياً على أمة جاهلـــة يثقلها عهد الظلم، وصرّف في كتابه الوعيد في الآخرة للظالمين لعلّهم يقدّمون في دنـــياهم تقوى الله أو يُحدث لهم الوحي ذكراً من الهدى والنذير. فهكذا يتعالى الله

الإلــه الفــرد الملك الذي يتجلّى سلطانه المطلق يوم القيامة قيمومة على خلقه وعدلاً يعلوهم حقه ظاهراً إن لم يتبيّن من قبل في وسط فتن العالم المشهود. وإنما يتنــزّل من الغيب كل ذلك العلم والحكم في ذلك القرآن العربــي، فعلى الرسول أن يتلقّاه صابراً متثبتاً ولا يعجل بتلاوة وحيه حتى يُقضى ويتنــزّل تمامه، ألاّ يأخذ من أطرافه فحسب حرصــاً على حفظه من النسيان فالله يتولاه، وإنما عليه أن يطلب مزيداً من ذلك العلم متوالياً متباركاً. وعلى كل قارئ بعده ألا يعجل آخذاً بعض كَلِمِ القرآن أو آيِهِ قاصراً عليها تفهماً مقطّعاً لمعاني القرآن وهديه الواحد غير المختلف، بل عليه أن يتأنى ويترسّل ليتــبع قــراءة كل حروفه وكلماته المنسوقة ويصل كل آي السور المتساوقة وكل آي القــرآن وســوره المتناظمة ليبلغ أحق التلاوة والتفقه بتوحيد مثاني الكتاب المتكاملة ومعانيه المتصادقة وأذكاره المتراتلة.

ولــئن لقي ذكرُ القرآن رسالةُ الغيب الخاتمة إعراضاً مهما يقص الله فيه من عبرة الــسابقين ويوالي فيه الذكر للعلم والهدى ويصرّف فيه الوعيد للظالمين الوعد للمؤمنين الصالحين – لئن كان ذلك أول ما لقي القرآن فإن في فطرة الإنسان أصلُ الخيار الذي زرع الله فيها ميثاق عهد الله وفي نفسه نــزغُ الفتنة والنسيان بين يدي البلاء، والقرآن وحي تذكير لعلّ المخاطب يزكّي فطرته ويُحي عهد الإيمان فيها فيتقي الله فيفلح أو – إن شاء – يُعرض فيدسّ ذلك الميثاق الفطري ويخيب بأثر الهوى والفتنة الغاشية. فأول البشر آدم مثال تعرّض لأولى تجارب الإنسان عبرةً للخلف من ذريته. فقد عهد الله إليه لأول خلقــه عهد طاعته تعالى فلم يجد له عزماً لا تزلزله فتنة الهوى. إذ أُقيم في الجنة مــأوى في جنب الله وملئه الأعلى وأُمر الملائكة أن يسجدوا له ففعلوا إلاّ إبليس كان من الأرواح المستجنة لكنه أبى أن يواتي الإنسان في خيار الاعتصام بالطاعة حسداً منه مخلــوقاً موعــوداً بالخلافة في الأرض وعصبيّة منه إذ يُفاضله بعنصر الخلق. فالملائكة المسبّحون الطوّع لله مضوا بسجودهم يلازمون الإنسان خدمةً له في سبيل الله، وأُنذر آدم أن الشيطان عدو له ولزوجه وحُذّر ألا يغريهما بمعصية الله لئلا يخرجهما من الجنة داراً لا جوع لهم فيها ولا عري ولا ظمأ ولا ضحى. لكن أغراه الشيطان ليُشقيه بعد ذلك السعد بأن يتقصّد الشجرة الواحدة التي حرّمها عليه نهي ربّه، ومنّاه الشيطان أن

في مأكلــها التماس لخلد وملك لا يبلى. فأكلا منها افتتاناً بذلك المرغوب فبدت لهما ســوءاتهما الجسدية عورة تمثلت فيها صورة عورة خلقية، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجــنة ويــستغفرا ربهما ستراً لعورة الغواية، فتاب عليهما الله وهدى وجعل ما جــرى لهمــا ومنهما سنة واعظة لابن آدم من بعد: أنه بطبعه وهواه نهمٌ بالمتاع الذي يبتلــى به لاسيما إن طمع في آثار له باقية باغية، وأنه لو أُوتي ما في الأرض جميعاً إلا محــرمة محــدودة لنــزع به الهوى إلى أن يستبيح كل المتاع ويحرص خاصة أن يحتاز ويأخــذ ذلك المحرم الذي شذّ عن مدى الحلال المبسوط، فالشيطان يتعهّده ليُعزز فيه هوى الغواية ليطغى وإن أغنته كفاية. وتلك الوقائع المتداعية في سيرة آدم عظة بتلازم عــورة الجسد وعورة الخلق، فالمؤمن المتذكّر ربَّه ما يستشعر حركة في عورته العضوية إلا تطهّر بالماء ليتهيّأ للقدوم لمكان مقدّس صلاةً له تعالى. وفي تلك السيرة أيضاً هداية أن باب التوبة منفتح لمن لم يأسره الهوى ويرهنه الشيطان وتحيط به السيئة، بل يستفزّه الذنب أن يندم ويتذّكر آيباً إلى رحمة ربه مستقيماً فيما يُقبل عليه فيجاوبه ربه الغفور التوّاب ويهديه بعد الضلالة. ومهما يكن فإن هبوط الإنسان بما كسبت يداه من مقام رؤيــة الله وقــرباه في الأزل إلى دار عالم الشهادة والبلاء قد يجعله عرضة للتعلّق فتنة بــشهوات الدنــيا ومبتغياتها إنقطاعاً عن حمد الله مهما توافرت له النعماء، ويدفعه في مجــالات التــنافس مع الآخرين على النعم مهما تكاثرت طمعاً في احتياز كل متاعها لنفسه وحسداً لمن سواه وعدواناً عليه، فهو في محنة هل يتمتع حامداً ويتعامل مع غيره متّقــياً ربّه أم يُغويه الهوى، وهل إن وقع في الحرام يتمادى يستهويه الشيطان أم يتذكّر فيــتوب ليلقى من ربه رحمة المتاب. والله وفاءً بعهده الأول لآدم يوالي تنــزيل الوحي لعــباده مــن الغــيب يذكّرهم بميثاق الفطرة ويهديهم إلى الصراط المستقيم ويُنذرهم ويبــشرهم بالعاقــبة. فمــن اتبع ذلك التنــزيل فلا يضل في سيرته بل يستقيم على الــصواب عطّافاً إلى المتاب ولا يشقى في صيرورته الموعودة، ومن أعرض عن ذكر الله فــإن له معيشة ضنكاً في العاجلة ويحشر يوم القيامة أعمى لا يهتدي إلى مأوى النعيم والرضــوان بل ينساق إلى مهاوي الغضب والعذاب. وهو سائل ربه جزعاً: لِمَ حشره أعمــى وقــد كان بصيراً يتحرّى بغياته وشهواته؟ والجواب من ربه مُفحمه أن ذلك

المـــصير وفـــاق وجزاء كفاء للمسير في الدنيا وأنه كذلك آتته آيات الله بجليل أقدار الرحمة والهداية فنسيها كذلك اليوم يُنسى من أن تنبسط عليه الرحمة والهداية إلى النعيم، وأنـــه أسرف مُنكراً آيات ربّه وتذكير الغيب فيها ولَعذاب الآخرة أشد وأبقى مما عهد في مشهود الدنيا.

ولـــئن ســـبق ذكر عظة آدم الذي ساقه العصيان في عهد الإنسان الأول من دار النعـــيم والـــسعد إلى دار البلاء والشقاء، فقد تواترت في الأرض الوقائع الواعظة فيما كـــان يلي المخاطبين الأُوَل بالقرآن من ديار، وإذ تواترت فيه أنباء القرون التي ظلمت فـــأودى بهـــا ذلك إلى الهلاك، وأولئك المخاطبون كانوا يمرون بمساكن تلك القرون ويـــرون آثارهـــا وتلـــوح لهم فيها آيات واعظة يدركها أولو النهى. ويمضي أولئك المخاطـــبون ينسون آيات الله الموحاة إليهم تذكيراً بالغيب ويغفلون عن عظات تجربة الأولـــين مما يجعل هلاكهم العاجل حاقّاً عليهم ولازماً، لكن سبقت كلمة الله قدراً أن يُملي لبني آدم في أمد الابتلاء وإن أعرضوا وأسرفوا وغفلوا عن الآيات الموحاة والواقعة وأن يؤخـــر الجزاء للآخرة. ولذلك أُوصى النبـــي – ويوصى الدعاة المقتدون به من بعـــده – الصبرَ على ما يقول المخاطبون المعرضون والمضي في اطمئنان والتوكّل وذكر تـــسبيح الله المتعالي بأقدار عزته العليا التي يقوم بها على أمر الكون والإنسان وحكمته الـــبالغة التي صرّف بها عاجل بلاء الإنسان في الدنيا عجّل وحْي هدايته وأجّل جزاءه، والحمـــد لله على جليل نعمائه على ذلك الإنسان خَلقاً فتقويماً حسناً وحياةً مسخّراً ما حولها ورسالة علم من الغيب وهدى ورحمة به ولو أساء عملاً وقبولاً لصلاحه وإعداد جـــزاءٍ له عدل للسيئة مثلها وللحسنة أضعافها. هكذا ينبغي أن يوالي الداعية الذكر لله طـــوالً أيامه منذ الفجر قبل طلوع الشمس وفي أطراف من النهار وعند الأصيل قبل الغـــروب وفي آناء من الليل. وليبسطْ ذلك الداعية الذكر حوله مثل ما أُوحى للنبـــي إمـــام الدعاة وليستجب لداعي الصلاة ويحفظ قيامها وسنتها صابراً عبر ابتلاء المشاغل الـــصارفة من معاش الدنيا وهمومها. فالله يوصي الداعية أن يُزكّي نفسه ويملأ جوانحه بالإيمـــان ويفيض من حوله مبلّغاً دعوة الدين وناشراً شعائره وناصباً القدوة في ذلك. والله لا يسأل الداعية الذي يحمل رسالته رزقاً – أن يصبّ كل جهده ويفرغ منصرفاً

عــن الذكر والدعوة ضارباً للكسب من فضل الله ليفيض به متصدقاً في سبيله تعالى، فالله رازق له بما يكفيه، ومهما يفضُل عليه رزقاً المفتونون بكسبه المنصرفون عن الغيب وذكــر الله فإن العاقبة الحسنى للتقوى، الآخرة لمن ابتغاها بتقوى الله لا بفضل كسبه ووسعه رزقاً، والتمايز بين المؤمنين الدعاة والكافرين المعرضين من ثَمّ في الدنيا هو أنهم بين عامرٍ لحياته بذكر الله وإن سعى للمعاش يبتغي كفافاً من فضل الله ومفتونٍ بالدنيا يحــصر سعيه في متاعها الفاضل منصرفاً عن ذكر الله، والعاقبة للمتقين الذاكرين مهما يكن الكاسبون فضل المال يحسبون ذلك ضماناً لهم أن لو قامت القيامة سيمدّ لهم الله بــذات قــدَر الحظ أنهم صائرون الأفضل كسباً والأكثر مالاً وولداً. ولذلك إذا تليت عليهم آيات الله الموحى فيها علم الغيب وهداه يؤثرون أن تأتيهم آيات من عالم المادة لتشهد على صدق دعوى الغيب بواقعة تشذ عن المسنون من طبائع الأشياء والأسباب تُعجز قدرة الإنسان المعهودة دليلاً على أن مَن يسند بها دعوتَه الغيبية صادقٌ. إن آيات القرآن الموحاة كان يكفي أنها تصادق آيات الكتب الأُولى بيّنة على تواتر حق رسائل الله مــن الغــيب. ومــن ورائها تشهد عواقب المعرضين عنها الهالكين عظة للخلَف الحاضر. ولكن الخالفين لا يقرأون تعاليم الصحف الأُولى شهادةً للإسلام المتجدد ولا يجدون في تاريخ أُمم خطاها عظة باقية. وإن كانوا كذلك غافلين عما غاب من ماضي الدنيا القريب فكيف بهم ريبة بذكر غائب غير مشهود في أزل الوجود وأجله الموعود. ولــو أن ســنّة الله كانت أن يؤاخذ الناس قبل أن يأتيهم رسول بآيات الوحي الهادية المــنذرة المبشرة فأخذ أمة خطاب الرسالة الخاتمة بهلاك قبلها لمذهبهم الجاهلي الضارب في الظلم والظلمات - لو وقع ذلك لقال هؤلاء متشكين لله: لولا أنــزل إليهم رسولاً مــن أنفــسهم يذكّرهم بحق تلك الرسالات وسوابق تلك العظات ويهديهم للتقوى بــتلاوة آيات الله عليهم، فيتبعوا تلك الآيات من قبل أن يخسروا ويذلوا بعاقبة عذاب. وإنمــا علــى الــدعاة وقد أمّهم الرسول الخاتم ﷺ ليخلفه سائرهم ممن يحملون دعوة الرســالة أن يصابروا المعرضين منتظرين بهم وعيد المصائر الحق وهم متربصون غروراً بأن السعد لهم ممدود أبداً، فسيعلم أولئك قريباً مَن أصحاب الصراط السوي في خيار طــريق حــياته ومَن اهتدى بالغاً إلى خير المنتهى. وما على دعاة الحق إل أن يُذكّروا

بالآخرة وبمشاهد الحساب ويعظوا بسير الأولين منذ آدم وليستشهدوا بالصحف الأُولى مـــن الوحي ثم يُصابروا المفتونين بمتاع الدنيا المغرورين بظنون الآمال، موقنين أنهم هم المستقيمون المهتدون إلى مآلات السعد في الخلود.

سورة الأنبياء

السورة وخلاصة هديها:

ســـورة 'الأنبـــياء' هي الثالثة والسبعون في ترتيب نـــزول القرآن، بعد سورتي 'نـــوح' و'إبراهيم'، وهي الحادية والعشرون ترتيباً في الكتاب. وكان تنـــزيلها مقارباً أواخر العهد المكي.

يرد فيها ذكر آيات الله المنـــزلة من قبل في زُبر الأولين. كما يرد فيها ذكر آيات الله المطـــبوعة في الكـــون المتجلية في أصول مشاهده كلها هداية إلى عظيم أقدار الله ودعاية إلى جزيل شكره. ففيها ذكر الحق الأصل والأعلى في الإيمان بالغيب، بالله ﷻ واحـــداً لا شريك له يكافئه أو يقوم دونه في الأرض ولا في السماء. وصلاح الكون وأمره المنظوم الذي يدبره الله شهادة تنفي أن يقوم عليه معه شركاء أكفاء متشاكسون تعالـــياً. ولا بـــرهان من عقل الإنسان إلا أن غاية كمال الربوبية وتمام الملك وبلوغ الأسماء والصفات الحسنى هي لله الواحد ﷻ. وما ورد في علم أو كتاب من الغيب ما يدعـــو للشرك والريب في مطلق الألوهية وفي حق التوحيد لله، فكل الذكر الموحى إنما تواتـــر فيه التوحيد مثل الذكر الخاتم. فالأصنام المعبودة مادة ميتة لا ترعى عبّادها من دون الله، والملائكـــة المنـــسوبة إليه شركاً من ولد إنما تسبحه وتعبده أبداً خاشعة له مـــسئولة لديـــه غير مستكبرة ولا سابقة لأمره في عباده. ويرد في السورة كذلك ذكر الإيمـــان غيباً بيوم الحساب الموعود القادم لأجله بغتة مهما يرتاب فيه المفتونون بحاضر الوجـــود وعاجل مشهودة. فإنما الدنيا دار بلاء بالشر والخير، وكل نفس ذائقة الموت

بعد تلك الحياة ثم يحق المرجع إلى لله في الآخرة يوم الحساب، إذ توضع الموازين العدل التي لا تغادر حبة من كسب الإنسان في الدنيا إلا كانت محسوبة ليترتب عليها القضاء والجزاء. إن مجيء ذلك اليوم مرجعاً إلى الله وحسابه هو قادم قد اقترب كلما مرّ على بـــني الإنسان حينٌ من أمَد حياتهم في دهر الدنيا الذي يمضي بهم مهما يغفلون عن طي الـــزمان نحو منتهاه. إنه يوم تُطوى فيه السماء وتُبدّل الأرض وتُمحى معالمها الطبيعية وينـــبعث الناس ويُحشرون عرضاً لمحكمة الجزاء. أما الذين كانوا بذلك اليوم كافرين لغـــيب أجله فإن قيامه إذا وافتهم ساعته لن يستطيعوا له ردّاً ولن تجديهم الولولة، بل يحـــق عليهم مأواهم بعدل لقضاء ناراً لا يستطيعون كفها بل أبصارهم عندها خاشعة وآلهـــتهم الحجرية التي عهدوها في الدنيا إشراكاً بالله هي معهم حصبٌ لها. وما على الرســـول إلا بلاغ النذير بالآخرة وإن كان هو لا يعلم غيب وعدها ولا يدري أقريب أم بعيد أجلها وإلى أي حين تمتد فتنة الدنيا ومتاعها. ذلك أنه مهما يكن المعرضون لا يـــسمعون نذيـــره فإنما دعواه أن يحكم الله بينهم وبين المؤمنين بالحق، ﷻ هو الرحمن المستعان على ما يصف أولئك المشركون من آلهة باطلة.

إن القـــرآن ذكر بحقائق الغيب يتوالى متنـــزّلاً منجّماً على الأحداث مهما يمضي المخاطـــبون الأوائل معرضين عن الاستجابة يستمعون إليه وهم لاهون لا يلتمسون فيه إلا وجـــوهاً من الطعن في صدق الرسول الذي يحمله ليبلّغه. وهو كتاب مثل ما كان لأهل الذكر الأولين، ذلك لو كان أولئك يعقلون كلمات الحق فيه، ولقد أوتي موسى فرقاناً وضياءً وذكراً للمتقين، ويتلوه هذا الذكر القرآني وهم له منكرون. وسنة الله أن يكـــتب في الـــزبور الـــذي يجمع آيات الوحي من بعد العلم بالغيب الوعد بأن يرث الأرض عباد الله الصالحون وفي هذا بلاغ لقوم عابدين.

إن ذكـــر الوحي المنـــزل يحمل رسالته التوحيد الحق لكل المرسلين حتى الرسول الخـــاتم: أنـــه لا إله إلا الله، والوصاة بأن تُسلَم له وحدة الحياة عبادة له تعالى. إن من حقائق الغيب التي يعلّمها ذلك الذكر أيضاً الملائكة – قوى مجندة لأمر الله قد يتّخذها بعـــض الـــناس آلهة ولداً لله، كالعرب الذين بقي في تراثهم ذكر لها من صحف أبيهم إبراهيم لكنهم ضيّعوا الحق في أمرها. وإنما الملائكة عباد لله مكرمون لا يستكبرون عن

عــبادته ولا يستحسرون يسبحون له دوماً لا يفترون، يطيعونه لا يسبقونه بالقول بل يقولون بعد إذنه ويفعلون وفق أمره، ولا يشفعون عنده لعبادة البشر إلا كما يرتضي، وهــو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم من مآل، ويُشفقون من مساءلتهم يوم الحساب عــن عبادة بعض البشر لهم وموالاتهم شركاء لله، إذ من يقُل منهم إنه إله فهو عُرضة لجــزاء جهــنم مثل الظالمين من البشر. وقد يتخذ الناس من مشهود الأرض من حجر ميت أصناماً آلهة يجعلون لها قوة حياة، والحق أن تكافؤ أيما شركاء في الألوهية لا يعني إلا الاضــطراب في نظام السماوات والأرض، وأن الله الفرد يتعالى سبّوحاً عما يصف المشركون آلهتهم وأنه سبحانه مُطلق الإرادة لا يُسأل عما يفعل بينما سائر الخلق لديه مسئولون. وهو الملك لما في السماوات والأرض المحيط بما حول مخلوقاته فيها، العليم بما يجهر من أصوات ذلك وما يكتم، وهو الحفيظ بعباده بالليل والنهار، ولا تكلؤهم من قدره النافذ ولا تمنعهم منه الأصنام العاجزة التي لا تنصر نفسها والتي لا يصحبها جند ناصر إن قيّض الله عليها جنده بقدرِه. والعجب أن المشركين بعدئذٍ يُعرضون عن ذكر الله، وهو المحيط بهم إدراكاً وحفظاً طوال وجودهم في الحياة.

وتمــام حقائــق الغيب أن حياة البشر المشهودة موصولةٌ أولاها زماناً بأخراها في الأزل، مــا تمضي لحظة زمان في الدنيا إلا تكون ساعة قيام الآخرة قد اقتربت وصَدق وعــد الله بها. يومئذٍ تُطوى السماء طي الكتاب وتُبدّل الأرض، تستوي فيها الفواصل بــين الــناس إذ تُسيّر فيها الجبال وتنفتح السدود مثل ردم يأجوج ومأجوج، وتُسجر البحار متفجّرة يذهب ماؤها، ويُحشر البشر كما خُلقوا أول مرّة من كل حدب سواءً ينــسلون نحــو المحشر ومعرض الجزاء. إن الإنسان المفتون بعاجل الدنيا في عجل، قد يــستعجل أجــل الآخــرة ويتــساءل متى وعدها إن صدق. وإنما تأتي ساعتها بغتة، والرســول مــن الله ما هو إلا منذر بها لا يعلم الغيب فلا يدري أقريب أجلها أم بعيد وهــو لا يعدّ أمد حياة المُنذرين، لعله فتنة لهم ومتاع إلى حين، فالدنيا دار بلاء عابرة والله محــيط بكسب الإنسان فيها، والقيامة مآل إلى دار جزاء على ذلك خالدة توضع فيها الموازين القسط فلا تُظلم نفسٌ شيئاً ولو مثقال حبة من كسبها بل تؤتى بذلك في رصــيد أكفأ الحساب. إن مصير الذين أنكروا الآخرة وما استعدّوا لأجلها أن تأتيهم

ســـاعتها بغـــتة لا تُـــردّ ولا تُنظر بل يدخلون النار لا تعصمهم منها آلهتهم الصنمية الموهومة، بل هم وتلك الآلهة لها واردون وفيها خالدون، لا يكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم منها يُنصرون، لا يُسمع لهم دونها تعذّر بل ما يمسّهم نفحها إلا كانـــوا في زفـــير وولولة لا يسمعون خيراً بل هم في فزع أكبر. أما المتّقون الذين كانـــوا مؤمـــنين بالآخرة مشفقين منها فيما سبق من دنياهم فقد سبقت لهم من الله الحُـــسنى وهم عن تلك النار مُبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالـــدون، تتلقاهم الملائكة بالبشرى بأن هذا يومهم الذي كانوا يوعدون. ذلك كله وفـــاق الكـــسب في الدنـــيا، إن المتقين كانوا قد آمنوا وعملوا الصالحات فلا كفران لـــسعيهم بل هو مرصود في كتاب أعمالهم بعلم الله الرقيب، أما أهل النار فقد كانوا كلما جاءهم نذير الآخرة يُعرضون في لعب ولهوٍ منكرين، يريدون أحياناً تعزيز صدق النذير بها وحياً غيبياً بآية مادّية مُعجزة، وما كانت تعظهم أنباء القرى التي جاءتها تلك الآيـــات المعجـــزة من قبل فأهلكهم الله لّما أصرّوا وكفروا بها، وما أكثر تلك القرى حولهم التي قصمها الله وأنشأ خلفاً آخر من الخلق، وما سلمت تلك الأقوام عند مقدم الهـــلاك بالفـــرار بـــل أُرجعوا بالمخاف المحيط إلى ما أترفوا فيه ليُسألوا عنه بين يدي العقاب، وما واتاهم جواب إلا الاعتراف أنهم كانوا ظالمين، ومضوا في صيحات الويل حتى أصبحوا حصيداً خامدين. وحرام عليهم أن يكون ذلك منتهاهم فهم راجعون في الآخـــرة إلى عاقبة عذاب أشد وأبقى. ولئن سلّم الله المعرضين عن خطاب القرآن من العقـــاب والهلاك العاجل، وصرف عنهم الآيات المعجزة إذ ما كانوا ليؤمنوا بها وكان ســـيحق عليهم بها ذلك العقاب - لئن كان ذلك كذلك فقد كان الأَولى بهم أن يروا الأرض حـــولهم كـــيف نقصت أطرافها بهلاك أقوامها السالفين عظة لهم، وألا يحسبوا أنهم هم النّاجون الغالبون في عاقبة الدنيا والآخرة.

إن الآيـــات المنـــزلة ذكراً موصولاً من الله شهادةً على وحدانيته تعالى وحسنى أسمائـــه تتعـــزّز وتذكّر المخاطبين بما يرون حولهم مشهودة من آيات الله المطبوعة في الكـــون. إن أصـــول ذلـــك الكون الظاهر أن السماوات والأرض كانتا رتقاً واحداً ففـــتقهما الله بأقداره الفعّالة ونظمها كائنات سابحة في الأفلاك. وإن الله قد جعل في

الأرض المـــاء، وخلق منها كل شيء حي، ذلك لو يؤمن المتدبرون في الكون والخلق والحياة. وإنه تعالى بأقدار تسويته للأرض جعل فيها رواسي أوتاداً حتى تستقر متوازنة لا تمـــيد ببني الإنسان مهاداً ولا تزلزل بما في جوفها من السجر المتفجّر. وإنه بعد أمان المهـــاد يـــسّر للبشر في الأرض حول الجبال المتعالية فجاجاً منها منبسطة سبلاً للعبور لعلّهـــم يشكرون ربهم على ذلك. وإنه بأقداره العظيمة جعل السماء فوق البشر سقفاً محفـــوظاً لا تفلت الأبراج من قوى التماسك المتوازن فيه فتتهاوى على الأرض، ولكن بعـــضهم معرضـــون عـــن تلك النعمة فوقهم. وهو تعالى بأقداره المنظومة جعل الليل والـــنهار خِلفـــة ليسكن البشر مناماً ويتحركوا يبتغون فضله معاشاً، وجعل الشمسَ للضوء في أفق السماء ولمدّ الحياة في الأرض والقمرَ نوراً بالليل وشهراً ومنازل لحساب الـــزمان، وكل من أبراج السماء والأرض والشمس والقمر في فلك يسبحون ليحفظ البـــشر الجهات والمواقيت. أما دورة حياة البشر فهي أيضاً مثل دورة حركة الأفلاك مكـــتوبة بآجالها، ما جعل الله لبشر قبل الرسول الخاتم الخلد وإن تمنّى الكافرون عاجل موته لينصرف عنهم بدعوته، وما هم أنفسهم خالدون بل آيلون مثله إلى ذات المصير، المـــوت خـــتام عهـــد الابتلاء في الدنيا بالشر والخير ثم إلى الله في أزل الآخرة المرجع للحساب والجزاء على الكسب في ذلك البلاء.

وإذ كان الجاهليون المفتونون بالعالم المشهود المعرضون عن غيب الوجود ينكرون صـــدور القرآن بأسباب الوحي غيباً عن الله، فإنما كانوا ينسبونه إلى شخص الرسول الماثـــل أمـــامهم حضوراً، فهم لا يعبأون بنذيره لهم قرب يوم الحساب غيباً منظوراً، وكانـــوا يرمونه بوجوه من المطاعن: يُسرّون النجوى أنه بشر مثلهم فلا وجه لموحى يـــصله من الغيب إلاّ أن يتنـــزل بالوحي مَلَك روحاني يتشخّص لهم، أما هو فساحر بشر يُبصرونه. وأحياناً يقولون أن متلوّاته ليست إلا تعبيراً عن أضغاث أحلامه، أو إلا افتراءات منه، وأحياناً يروها بنغمها ومثانيها منظومات شعر. هم لا يقبلون منه إلا أن يأتـــيهم بآيـــة من فعل معجز غير مسنون يشهد على صلته بقوة الغيب. وإذ يضيقون بموالاته تلاوةً لآيات رسالته يتمنون موته، وما خلد قبله بشر فهو صائر إلى موت وهم أيـــضاً، لأن كل نفس بشرية ستمضي راجعة إلى ربها بأقدار بعثه وجزائه في الآخرة.

وهـــم يـــتّخذونه هزؤاً إذ يذكر آلهتهم الجامدة العاجزة بما هو حقٌ لا يرضونه، فهم يُنكـــرون أقواله في آلهتهم بينما يُنكرون ذكر الرحمن، الله الحي الذي لا يموت الفائض الـــرحمة على عباده. فإنما يُرسل الله الرسول رحمةً للعالمين وما عليه إلا البلاغ مصابراً علـــى الإعراض عن آيات الله المتلوّة والارتياب بصدق موعد البعث والحساب الذي يُـــنذر به، ما عليه إلا أن يؤذنهم بذلك الأجل ليحق عليهم الحساب والجزاء على سواء وعدل. ولئن كانوا يسألونه متى ذلك الوعد، فإنما علمه عند الله يقلّبهم في ابتلاء الدنيا ويُملي لهم فيها فتنةً ومتاعاً مُحيطاً بمقولاتهم ومذهبهم في الحياة. أما الرسول فإنما يصبر ويـــردّ الحكم إلى الله ويسأله أن يفصل حكماً بالحق بين المؤمنين والكافرين، ويستعين بالرحمن على ما يصفون من أقوال الباطل ودعاوى الشرك.

هـــذه الـــسورة التي سميت بالأنبياء فيها بيان أن للرسول الخاتم ﷺ عبرة في سيرة الأنبياء المرسلين قبلاً الذين جاءوا مثله بالذكر ولقوا الأذى وابتلاءات الحياة. ولو سأل المنكـــرون أصحاب الذكر السابق لتبين لهم ما لا يعلمون، فقد كان أولئك المرسلون رجـــالاً مـــثله يُوحى إليهم، وما كانوا جسداً جامداً كالأصنام أو غنياً عن الطعام بل كانوا أحياء يأكلون، وما كانوا خالدين بل عُرضة للموت جرى عليهم كسائر البشر. أمـــا في سير دعوتهم ومصير أمرهم فقد كانوا عرضة لسخرية المخاطبين لكن صدقهم الله الـــوعد الـــذي كان يأتيهم بشارة لهم ونذارة للمعرضين، فنجّاهم الله لاحقاً من الأذى ونـــصرهم، أمـــا الـــذين سخروا من نذيرهم كما سخر بعض الذين خاطبهم الرسول الخاتم من نذيره فقد حاق بهم الهلاك الموعود.

هكـــذا اتّخذ الله بأقدار اصطفائه ووحيه موسى وهارون رسولين وآتاهما الكتاب فـــرقاناً وضياءً وذكراً للمتقين الذين يخشون الله غيباً ويُشفقون من ساعة لقائه وجزائه، وكـــان لـــتلك الرســـالة الأثر الأعظم في ثقافة الناس عند نـــزول القرآن، والسورة لا تُـــسهب في ذكر موسى وهارون فقد سبقتهما سور تفصّل ذلك الذكر وهي القصص وطـــه والأعـــراف. ومـــن قبل أوتي كذلك إبراهيم أبو العرب المخاطبين بالقرآن وبني إسرائيل أهل الكتاب السابق – أوتي من الله الرشد والعلم في مجادلاته ومجاهداته قومه، إذ استنكر عليهم تماثيلهم التي كانوا يعكفون عليها، وإن أجابوه أن ذلك تقليد عبادة آبائهم

فقـــد صـــارحهم أنها ضلالة مبينة مستمرة، وظنوه لاعباً لا يأتي بالحق فقام فيهم شاهراً بالحـــق أن ربهـــم الحـــق رب السماوات والأرض الذي فطرهن، وأنذرهم أنه سيكيد بأصـــنامهم بعـــد أن يصرفهم عنها مُدْبرين، ليريهم عجزها. فجعل تلك الأصنام المؤلهة جـــذاذاً إلا الأكبر منها لعلّهم يرجعون إليه في تبيّن ما جرى من الأمر إن كان إلهاً عليماً بمـــا حـــوله. فتـــساءلوا بعداً مَن فعل بها ذلك الظلم وتذكّروا إبراهيم الفتى الذي كان يذكـــرها بـــسوء فأتوا به على أعين الناس ليُقيموا عليه البيّنة المشهودة، وسألوه إن فعل ذلـــك، فنسب الفعل إلى الصنم الأكبر لعله الأقدر على الكيد بصحبه! وطلب منهم أن يسألوهم إن كانوا ينطقون ضحايا لكيده، فرجعوا إلى أنفسهم برهةً وأدركوا أنهم كانوا هـــم ظـــالمين، ثم نُكـــسوا وارتدوا عليه قائلين إنه على علم أن هؤلاء ما هم بناطقين. فذكّـــرهم الحق، أفلا يعقلون، إنهم يعبدون من دون الله ما تبيّن عجزه وصمته لا ينفعهم شـــيئاً ولا يـــضرّهم. فما كان لهم وسع في مجادلته بحجة إلا أن يتواصوا أن يحرّقوه هو وينصروا آلهتهم التي لا تنصر نفسها. ولكن أقدار الله قضت ألا يكون نذير النار عليه إلا بـــرداً وسلاماً، وإن أرادوا به كيداً فقد كانوا هم الأخسرين في تلك الجولة من المجاهدة. نجّـــاه الله وابن أخيه لوطاً إلى الأرض تلقاء الشرق التي بارك فيها ﷻ وفتحها لكل من حقّـــت لـــه من العالمين تعاقباً، ووهبه ذرية صالحة مهديّة إسحق ولداً ثم يعقوب حفيداً. وجعل الله كلاً صالحين أئمة هدى بأمره وأوصى إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الـــزكاة، وكانوا يوالون العبادة طوال حياتهم. أما لوط الذي صاحبه في الهجرة فقد آتاه الله حكمـــاً وعلمـــاً فخـــرج برسالته لقوم كانوا أهل سوء فاسقين، ولكن نجّاه الله من قـــريتهم الـــتي كانت تعمل الخبائث وأدخله آمناً في رحمته ومضى ذاكراً من الصالحين. وكـــل ذلـــك التراث كان يرجع سلفاً بأصله إلى عهد نوح. وقد سبقت هذه السورة ســـورة نوح تروي دعوته في قومه إذ قام رسولاً في قومه فما لقي منهم إلا كرباً عظيماً فـــنادى ربّـــه فأنجاه الله بعد صبره المتطاول ونصره بخير مآل ومن معه على قومه الذين كذبوا بآيات الله وانطووا على سوء فجاءتهم آية الهلاك مشهودة فيضاناً أغرقهم أجمعين.

وذلـــك التـــراث الموصول من هدى رسالات الحق مضى خلفاً وذرّية إلى داود وســـليمان اللذين قاما رسولين لهما المُلك في دولة بني إسرائيل. وكانا يأخذان شريعة

موســـى بقوة ويحكمان بين الرعية بهديها في كل أمر عن فقه واجتهاد خالص. ومثال ذلـــك أن كانـــا في قـــضية يحكمان في أمر حرث نفشت فيه غنم قوم فتحرّيا الوقائع ليجـــتهدا في إيقـــاع الحكم الأحقّ. فقضى داود أن تذهب الغنم إلى صاحب الحرث عوضـــاً عما أكلت، ورأى سليمان أن تؤول إلى حوزته ينتفع بها إلى أن ينصلح حرثه فيردّهـــا، ورجـــع أبوه إلى ما قضى به. كان الله شاهداً حكمهما بما قضى اجتهادهما، لكن فهّم سليمان الحكم الأرشد الأعدل وكلاً آتى حكماً وعلماً مهما كانا درجات في بلـــوغ أبلغ الحكمة وأوفق الحكم. وهيّأ الله لداود إلى جانب النصر الأول ثم الحكم والقضاء في مُلكه إحسان الشعيرة في إحسان أناشيد تسبيحه المدوّية، تسبّح معه الجبال والطـــير بفعل أسباب قدر الله في ترجيع الصدى وتجاوب الحيوان، وعلّمه الله صناعة لـــبوس تقي من البأس دروعاً لعلّ الذين قلّدوها صنعةً من بعده يشكرون الله على أن يـــسّر لهم تلك السنّة من الصنع المتقن. وسليمان آتاه الله مواتاة الريح العاصفة رائحة غاديـــة تجري السفن بأمره بدفعها إلى الأرض التي بارك الله فيها، وكان الله عالماً بكل شـــيء من تصاريف خلقه، يفيض علمه ذاك لمن يشاء. وسخّر له الشياطين من الجنّ يغوصـــون لـــه في البحر ليستخرجوا له زينة ويعملون بأيديهم لصنع المعامر والأواني، وحفظهـــم الله لـــه مهمـــا ينـــزع طبعهم للمزاوغة فهم في حوز سليمان مسخّرون لخدمته.

وأنبـــياء ورســـلاً آخرين من بني إسرائيل أصابهم الضرّ في أنفسهم لا في سياق المجادلات والمجاهدات مع القوم المخاطبين ولا أذى من القوم بل ابتلاء من قدر الله لعلّ المُبتلى يصبر ويرجع إلى رحمة الله إزاء كل امتحان له في الحياة ويُدرك أن المرجع الآجل بعـــد أســـباب الحياة كلها إلى مشيئة الله وقضائه. هكذا انضاف إلى موكب المرسلين المُبـــتلين أيوب إذ نادى ربّه أنه مسّه الضرّ ودعاه أنه هو أرحم الراحمين. فاستجاب له الله فكـــشف مـــا به من ضرّ وآتاه أهله وزاده مثلهم ذريّة رحمة وبركة له من عند الله وذكـــرى لكـــل عابـــد مُبتلى يُصابر ذاكراً راجياً رحمة الله. وإسماعيل في ضرّ الغربة والوحشة وفي عهد الصبا قبل الرشد بواد غير ذي زرع، ذلك كما روته سورة إبراهيم الـــسابقة لهـــذه السورة أسرة ذريةً لأبيه في وادٍ غير ذي زرع يُرجَى أن يكون مركزاً

للـــدين الحق. وإدريس في ضرٍّ أصابه ومسّ كل بني إسرائيل معه في بابل حيث ضيّعوا كـــتابهم وعزّهم وأرضهم المباركة وأُذيقوا الذلّ من طغاة العراق. وذو الكفل حزقيال الذي جرّب ذات الضرّ في الحملة البابلية. كل أولئك كانوا في غربة الدّار وضرّة الحال مـــن الصابرين وأنجاهم الله من طوق البلاء والضرّاء وأدخلهم في رحمته إنهم كانوا من الـــصالحين. وذو النون رسول ضاق بإعراض قومه المتطاول عن الاستجابة لدعوة الحق فقـــنط فهجر تكاليف بلاغ الرسالة وركب البحر فهوى فيه فالتقمه حوت فنادى في ظلمـــات جوف الحوت والبحر ربّه ألاّ إله إلاّ هو سبحانه إليه الملجأ مستغيثاً والمآب مـــستغفراً إنه هو كان من الظالمين فيما ترك من وظيفته وأمانته الرسالية. فاستجاب له الله ونجّـــاه من الغمّ، وكذلك يُنجي المؤمنين التائبين إليه المصابين ببلاء محيط. وزكرياء إذ نـــادى ربّه وقد شهد ما مَنّ الله به على مريم الفتاة العابدة في المحراب وخشي الموالي مـــن ورائـــه فـــسأله ربه أن يرزقه مثلها ولداً ولا يذره فرداً وهو ﷻ خير الوارثين. فاستجاب له الله ووهب له يحي وأصلح له زوجه العقيم بعد الشيخوخة وكانوا أسرة صـــالحة يُسارعون في الخيرات ويدعون الله رغباً في كل مرجوّ ورهباً من كل مخوف وكانـــوا لـــه خاشـــعين. وكذلك مريم التي أحصنت فرجها من كل مرغوب النكاح وتجـــرّدت لما نذرتها له أمها من اعتكاف المسجد، تولاها الله برحمته أن ينفخ فيها من روح المَلَك هبة ولد من قدر الله لا من أب ويجعلها وابنها آية من بعدُ باقية للعالمين.

كـــل هـــؤلاء الأنبياء الصالحين ساروا على هدى من الله صابرين في سبيله مهما يـــشقّ عليهم البلاء، وكانوا أمة واحدة خالصة التوجه إلى حق الدين تتعاقب تجلّياتها ولكـــنها تستقيم متواترة لا يضطرب مثالها ولا يضلّ مذهب مسيرها. والله واحد دائم الوجود موصول الرحمة والهداية لعباده، فليعبدوه مخلصين له كل الحياة موحّدة لوجهه. لكـــن الخلف، ما حفظوا سنة التراث الحنيفية الراشدة تلك بل تقطعوا أمرهم وضيّعوا أصـــول الهـــدى الواحد، وتفرّقت بهم الطوائف كلٌّ يخرج متعصباً بما لديه مُنكراً على الآخـــرين. لكنهم كافة إلى الله الواحد راجعون يوم البعث الذي يوحّد الوجود ويصل زمان الحياة الأولى بأزل الآخرة ويعدل كسب الدنيا بما يُعاوضه ويكافئه عبر الحساب والقـــضاء والجـــزاء. وثمّة يتحوّل العالم الحاضر المشهود إلى عالم الغيب وخيار العباد

المضطرب بين الحق والباطل إلى قرار حكم الله المباشر بالحق الثابت نعيماً وقربى من الله أو شــقاءً وبُعداً من رحمته. ولقد كالمعاني: ي وحيه المتلو قرآناً المزمور كتاباً من بعد الــتذكير بعلم الله وهداه- أن الأرض يرثها عباده الصالحون لهم حسن العاقبة في الدنيا يُــستخلفون في الأرض المعهودة ويُمكّن لهم دينهم ولهم الفلاح في الآخرة يتبوأون من الأرض الممتدة حيثما يشاءون نعيماً من الله ورضواناً.

ترتيل المعاني: الآيات(١ – ١٨):

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (١)

تــصدّر السورة في هذه الآية نبأٌ عظيم: أن اقترب للناس حسابهم – أولئك الذين هم أمّة خطاب القرآن الأولى من أناس – وهم في غفلة جاهلية معرضون، يرون الدّهر ظرفاً ممتداً بهم أجله إلى منتهى الأعمار المتطاول مداه في أوسط ما يعهدون المتباعد فيما يتمــنون. ولكن الموت سنّة، إن لم تقرّبهم منه بما يستشعرون علةٌ تغشاهم متفاقمة، قد يجــيء أجلــه بغتة حدثاً غير منظور. ومهما يكُن حين الموت فإنهم ما كانوا يؤمنون بالــبعث لحــياة أخــرى للبشر، ثم هم يعمهون عن ذلك لأنهم يرون قرون أسلافهم تــتعاقب وراءهــم ويــتطاول عدّها وعهدها دون وقوع بعث مشهود يقوم فيه يوم حــساب. لا يعظهم انحسار مدى الدهر الدنيوي المتناقص حتى تحين ساعة ينجلي فيها غيب من الأزل. ولكن تلك الساعة آتية، قد توافيهم قبل موتهم المسنون تقدير أجله أو تخلفهــم قريباً. ذلك أنها حقٌ دورةً في الوجود تشهد بها آيات الله في طبيعة الكون في ســير مشهود الكواكب الدوّارة غروباً فشروقاً، وظاهرة الحياة في النبات مواتاً للحي الخــضر فانــبعاثاً بإنبات جديد، ونوبة حركة البشر في اليوم يُتوفون بالليل سكوناً ثم ينبعــثون أيقاظــاً بالنهار. وحقّ الساعة يعززه وعدٌ تُنذرُ به آياتٌ من الله موحاةٌ من الغــيب تنــزيلاً على بني الإنسان: أن وقت الحساب قادم قد اقترب كلما مضى حين من زمان الدنيا حتى يأتي بغتةً حين الموت أو حين قيام الساعة[1]. لكن المفتونين بالحياة الدنيا الحاضرة المشهودة المتمادين في متاعها مع تقلّب سنيّ العمر وأحيان الدهر هم في

(١) أنظر الآية ٩٧ ذات السورة، وراجع الآية ١٨٥ سورة الأعراف، وانظر الآية ١ سورة القمر.

غفلـــة عن الغيب معرضون عن آي يوم الحساب في الكون والخلق والحياة وعن قدومه الذي يوشك مسارعاً كلما مرّ سير الزمان الجاري نحو مجيئه.

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢)

إنهـــم – أولئك الناس المتمادون في الغفلة عن آيات السّاعة طبعاً المعرضون عن نذرها وحياً من الله – ما يأتيهم من ذكر من ربّهم مُحدَث – آية تترتّب وتتجّدد بعد أُخرى وفـــق أسباب نـــزولها ومناسبة بلاءاتهم ونسق هديهم – ما يأتيهم ذلك إلا استمعوه يطـــرق آذانهم عرضاً لا يغور في أعماق وجدانهم به إيمان، إذ هم في حال استماعهم يلعبون، يتّخذونه هزؤاً ويلهون في حياتهم لا يُقبلون مُنصتين في جدٍّ لتلقّي التذكرة.

﴿لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (٣)

يـــتوالى نـــزول آيات التذكير بالآخرة الموحاة كذلك من ربّ الناس المخاطبين بالقـــرآن وهـــم في حالهم تلك لاهية قلوبهم ساهية تشغلها فتصرفها فتنُ حاضر العالم المشهود، ما استجابوا ليشهدوا بذلك الحقّ، أولئك الذين ظلموا وعدلوا عن اتباع الحق المـــستقيم بل أسرّوا النجوى بينهم في نواديهم ولقاءاتهم الخاصة يخوضون في أمر ذلك الذكر المتلوّ عليهم. ويجري بينهم التناجي يتساءلون: هل هذا الذي يدّعي رسالة يبلّغها عن الغيب إلا بشر مثلهم؟ كأنه ينبغي فيما يظنون ألا يصلهم بالغيب إلا مَلَكٌ من عالم الأرواح يتشخص لهم لا بشر من عالم الأجساد المعتاد. ولذلك يُخاطب بعضهم بعضاً: هـــل يأتـــون الـــسحر وهم يُبصرون؟ كيف يُقبلون على مثل هذا المعهود من ممارسة السحر، يُعاينون ما يجري من مقولات بشر مثلهم يسترهب الناس بمخيلات دعاية عن الغيبيات المستجنّة؟.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٤)

وعـــندئذ قال الرسول ﷺ الذي يغتابه كذلك أولئك الظالمون، أو أُوصي من ربّه أن يقـــول (في قـــراءة): إن ربّه يعلمُ نجواهم إذ هو تعالى يعلمُ المقولات الصادرة من مخلـــوقاته في الـــسماء والأرض، ملائكةً وجناً وبشراً، سراً وعلانية. وهو السّميعُ بالغُ الإحاطةِ سمعاً، العليمُ واسع الإدراك لما يُسر عباده أو يُعلنون.

﴿بَـــلْ قَالُـــوا أَضْـــغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ (٥)

وهـــم – أولـــئك المُعرضون – يذهبون شتى المذاهب في رمي الرسول خابطين بالظـــنون الباطلة موالين شتّى المزاعم كيداً ومكابرة أو وهماً كما يُعهد فيمن يرون غُـــربةً فـــيما يتلو عليهم ومن يجادلهم به فلا يجدون سبيلاً لدحض حججه وبيانه، تـــضطرب أقـــوالهم إذ أحياناً قالوا – فضلاً عما سبق – أن متلوّات ذكره ومعانيها أضغاث أحلام وأخاليط أحوال نفسية في رؤى المنام، وأحياناً قالوا إنما الذي يزعمه وحـــياً قول افتراه هو من تلقاء نفسه اقتطعه كذباً منسوباً إلى الله، وأحياناً قالوا هو شاعر– إذ يتحرّى كالشعراء إيقاع النظم والنغم ذي الأثر في مقولاته ويهيم في كل وادٍ مـــن المزاعم ومسارح المخال ومجالات المقال[١]. ومن ثمّ هم أنكروا حقّ آيات الذكر التي يتلوها وحاولوا صدّها بكل وجوه القول، وإذ اختشعوا لبليغ وقع معانيها وأعاجـــيب نظمهـــا، أنكـــروا فطلـــبوا منه أن يأتيهم تعزيزاً وتصديقاً لها بآية من المحـــسوسات معجـــزة للبشر خارقة لمسنون الفعال إن ادّعى مدداً من أقدار الغيب الإلهية، ذلك كما جاء الأولون من الرّسل – فيما بلغهم من أنباء السّالفين – بالآيات المُعجزة حجة قاهرة لقومهم[٢].

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)

إن قايسوا مذهبهم وقولهم تلقاء رسالة الغيب إلى الذين من قبلهم وطلبوا مثل ما وافى بعـــضهم من آيات معجزة، فليتّعظوا بمصائرهم وليؤثروا الإيمان، إذ لو تحرّوا سير الأولـــين لتبـــيّن لهم صدق ما يحدّثهم به الذكر المُنـــزل: أنه ما آمنت من قبلهم قرية

---

(١) يَتواتـــر كثير آيات في القرآن تذكر أقاويل المخاطبين المعرضين يعجبون ببشريّة الرّسل وهم يـــبلّغون رسالة من الغيب ويرجون رسولاً ملكاً، ويرمون الرسل بالسحر أو الجن، ويظنون الرسول شاعراً لما يتلو من قول منظوم أو مفترياً على الله كذباً لا وحياً.

(٢) تتواتر الآيات أيضاً تذكر الكافرين بصدق الرسول الذي يبلّغهم رسالة موحاة متلوّة ويلحّون علـــى تنـــــزيل آيـــة محسوسة معجزة من الغيب تصدّقه، وهم لا يؤمنون ولو جاءهم آية كـــتلك، وما على الرسول إلا بلاغ رسالته فلا يحرص على الاستجابة لإلحاحهم بآية معجزة ينـــزلها الله.

كُتبت عليها سنة الهلاك بل إنما مضى ذلك المصير على تلك القرى إذ كان غالب مذهب أهلها الظلم والكفر بالآيات المنزلة والمعجزة، والهلاك قد تكاثر فيها سوابقَ واعظة. أتُرى هؤلاء المخاطبون الحاضرون من ثَم يعتبرون حقاً فيؤمنون لينجوا من الهلاك وليلتحقوا بسنة بعض القرى التي آمنت خير مسير فحُسن مصير؟ إن الله شاء في هذه الرسالة الخاتمة الخالدة أن يؤخر العذاب بعد النذير وألا يخصّ الخطاب لقوم يحضرون التنزيل بل يعمّ للشاهد والغائب والخالف من العالمين، فلم يستصحب ﷻ المعجزات المطلوبة المشهودة مع الذكر الحق المتنزّل وحياً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٧)

ويُخاطب النبي الخاتم ﷺ إذ نظر قومُه إلى أمر المرسلين قبلاً وقايسوه إلى أمره - يُخاطب تذكرةً أنه ما أُرسل الله بأقدار اصطفائه وتزكيته قبلاً مّمن يحمل أمانة الرسالة من قبل هذه الخاتمة إلا رجالاً مثله بشراً من قومهم، ذكوراً لا إناثاً كما يظن الجاهليون بالملائكة التي يريدون أن يتشخص منها إليهم حامل رسالة الله من الغيب. إنما هم رجال يُوحى إليهم غيباً من الله بواسطة ملائكة الوحي. وإن ارتابوا فليسألوا أهل الذكر الموحى في الكتب الأُولى فهي مرجع للعرب في الجاهلية علماً بالغيب والرّسالات التي حملها رتل من المرسلين. ذلك إن كان الجاهليون الأميون المخاطبون لا يعلمون هم شيئاً عن رسالة الله من الغيب إذ ضيّعوا ذكراها منذ أن تركهم أبوهم إبراهيم ثم إسماعيل ونسوا هم تراث رسالته وملته الحنيفية.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٨)

وما جعل الله بأقدار خلقه لمن اصطفى من أولئك المرسلين أن يكونوا جسداً متشخصاً من روح مستجنّة في الغيب كالملائكة بل جسداً بشراً كالمعهود المشهود، وما جعلهم ﷻ جسداً غريباً لا يأكلون الطعام بل هم مثل غيرهم من بني الإنسان غذاؤهم لحياتهم أكل الطعام، وما كانوا خالدين، بل مثل غيرهم تغشاهم سُنة الموت بمختلف آجاله المعروفة.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ (٩)

ولـــتمام تذكرة عبرة أولئك المرسلين الذين كانوا رجالاً بشراً من جسد طاعمين يحـــيون ليموتون مثل غيرهم ممّن يُخاطبون من أقوامهم - ليتذكر المخاطبونَ بالرسالة الخاتمة أنّ الله من بعد وعده لأولئك المرسلين صدق لهم الوعدَ بأقدار تصريفه لمسير بني الإنـــسان فأنجاهم بأقدار التمييز لمصير المؤمنين من عباده نجاة لهم من الهلاك الذي حقّ على سواد أممهم المكذّبة ولمن معهم ممّن يشاء بتلك الأقدار من المؤمنين، وأهلك بعظيم أقداره تلك المسرفين كفراً وظلماً المتمادين وإن أُملي لهم مدّ الاختيار.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (١٠)

يُخاطـــب الله أمة الخطاب العربية الأُولى أنَ قد أنـــزل حقاً بأقدار هديه ووحيه واختـــياره حيث يجعل رسالته - أنـــزل إليهم كتاباً، وما عهدوا قبله من كتاب فهم أمـــيّون. في ذلـــك الكـــتاب ذكـــرُهم، ذكر الغيب والهدى والعلم الذي يُعينهم هم ويخـــرجهم مـــن ظلمـــاتهم وغفلتهم إلى نور الحق في سياق ابتلاءاتهم خاصة[1]، وهم مـــسئولون عـــن تقبّله إيماناً وحياةً به وتبليغه تلاوةً وقولاً. ويُخاطبهم الله سائلاً: أفلا يعقلـــون في وجـــدانهم؟ يكفّـــون دوافع الضلالة ودواعي الجهالة وظنون الغيب التي يعهدون ليقوموا بتدبّر ورشد خلق مستجيبين لذلك الكتاب والذكر.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَـــنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُـــمْ تُـــسْأَلُونَ * قَالُـــوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ (١١- ١٥)

مـــضى ذكـــر وعـــد الله الصادق للمرسلين السابقين بالنجاة من الهلاك والذكر الهـــادي الواعد لأمّة الخطاب العربية الأُولى، وينضاف إلى ذلك السياق ذكر عظة عدٍّ كثيرٍ من قرىً قصمها الله فانكسر بأسها وهلكت بأقدار عقابه العاجل، أهلكها الله إذا كانـــت ظالمة عدلت عن قويم الهدى بذكر الله وأنشأ مُقيماً بأقدار استخلافه لعباده في الأرض قـــوماً آخـــرين. فلمّا أحس أولئك الظالمون أهل تلك القرى بمقدم قدر الهلاك القاصـــم إذا هم يركضون ضرباً بأرجلهم جرياً مُسارعاً يحاولون الفرار. لكن قدر الله

---

(١) أنظر الآية ٤٤ سورة الزخرف.

خاطبهم ألا يركضوا لانسداد مجال المفرّ بوقع القدر والقضاء الحاسم القاصم، وليرجعوا إلى أصل أوضاعهم وحيث أسباب الهلاك الذي أدركهم رغم محاولات الفرار، ليرجعوا إلى مـــا أترفوا فيه من سرف متاع وطغيان تنعُّم وإلى مساكنهم مأوى غرور مطمئن، لعلّهـــم يوم البعث والمحشر يُسألون عمّا قدّموا ثمّة من كسب ظالم. فلا مجال تفلّت من أصـــول إطـــار المسئولية عن بلاء الحياة في الدنيا ولا من عاجل جزائها وآجلها فهو مـــدركهم محـــيط بهم حيثما قضاه الله. فأولئك الظالمون قالوا في ورطة الضبط وتحت وطـــأة السؤال هلعاً ممّا وقع بهم واعترافاً بما حقَّ عليهم – قالوا إنه يا ويلهم إنهم كانوا ظـــالمين. فمـــا زالت تلك دعواهم صيحة الثبور والإقرار بذنب الظلم دعوى لازمتهم حـــتى حـــسمهم وقـــع الجزاء وجعلهم الله بوقائع ذلك القضاء الفعّال حصيداً هلكى كالصّريم خامدين ساكنين لا تسمع لهم حسّاً.

﴿وَمَـــا خَلَقْـــنَا الـــسَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٦– ١٧)

وتلـــك أقدار الله في أمر الإنسان في الكون. وإنما هي سياق منظوم حكيم إقامة لمخلـــوق في إطار ابتلاء حياته الدنيا آيات لله وشهوات من متاع في كنف المخلوقات المـــشهودة، وأنـــزل الله الذكر للإنسان وحياً من الغيب وهداية علم وتكليف بالحق وإحالةً له إلى عاقبة قد تصيبه في عاجل دنياه وإرجاع له لأجل مُسمّى إلى مقام السؤال في الآخـــرة والحساب ومأوى الجزاء بالميزان العدل وفق ما قدّم في دنياه. وما خلق الله في ســـياق تلـــك الأقـــدار الشاملة السماء والأرض وما بينهما من كنف لمسير حياة الإنـــسان وبلائـــه ومـــصيره – ما فعل ذلك عابثاً لاعباً بكل تلك الأقدار المشهودة والغيب، سبحانه وتعالى عن ذلك، لو أراد الله بجليل قدرته وعزته أن يتخذ لهواً صارفاً عـــن سُـــننه المقدّرة ومغازي حكمته الجامعة في الخلق المشهود لاتّخذه بأقدار أزل من لدنه في الملأ الأعلى وراء منظوم الخلق والتدبير المشهود ودون التصريف والهداية لمسير الإنسان والإعداد لمصيره، ذلك لو كان الله بحكيم صفاته الجليلة وعظيم أقداره المحيطة فاعلاً ذلك(١).

(١) أنظر الآية ٢٧ سورة ص، والآيتين ٣٨ و٣٩ سورة الدخان.

﴿بَــلْ نَقْــذِفُ بِالْحَــقِّ عَلَــى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (١٨)

كَــلاّ، ما يحق ذلك الظن الباطل في مغزى الوجود المخلوق، وما يذره الله ظاهراً بــين عباده بل يقذف بالحق على الباطل، يُلقى من الغيب بأقدار الوعد الصادق والعلم الحــقّ هدى حول أقداره في خلق الإنسان وابتلائه وتعاليم إنبائه بأبعاد الغيب وتبصيره بطــريق الحياة المستقيم إلى خير المصير. يُلقي الله بيّنة الحقّ على ريب الباطل الذي قد يُحــدّث الإنسان به نفسه لقصور إدراكه وظنونه بالغيب ودواعي فتنته بعالم الشهادة، ألاّ يُقــدّر الله حــقّ قدره وأن يحسب أنه هو خلق في الكون سُدىً بلا قصد متروكاً لطلــق الظنون التي يفتريها والجهالة بالغيب والحياة المستباح متاعها بهوى مفتون بزينة الدنــيا المــشهودة وشهوة مبسوطاتها الحاضرة. ذلك كله باطل جهالة وضلالة يدمغه ويدحضه رُشد الحقّ الذي يتعهّد الله به الإنسان عبر رسالة من الغيب، فإذا بلغ ذكرُها الحــقّ عبادَه فأخذوه بقوة دفعوا الباطل الذي تراودهم ظنونه فهو زاهق منمحق. أما المعرضــون عــن الحق انغماساً في الباطل فهم - كما يُخاطبون - لهم الويل والثبور والعــذاب جزاء من حيث ما يصفون به الله الذي تحدّثهم فطرتهم بوجوده خالقاً قائماً فــوق مخلــوقاته مصرّفاً لمسير حياتهم بحكمة بالغة، لكنهم يجهلون ذلك ويكفرون إن ذُكّروا بأنه بلاء لبني الإنسان بالمشهود في دنياهم وهداية لهم من الغيب ليبين في آخرته أيهم كان أحسن عملاً.

عموم المعاني: الآيات (١ - ١٨):

في ســيرة تــاريخ العــالم المشهود تدوّم الأيام وتتوالى القرون ويبدو عهد الدنيا مــتمدّداً أبداً. لكن حياة الناس في هذه الدنيا لا تدوم بل تتعاقب بأعمارهم خَلفاً بعد ســلف، ومنتهى سيرة الحياة لكل امرئ يكون قد اقترب كلما مضت ساعة من عمره الذي يظل ينطوي حتى يجيئه الموت كما يعتاده الناس لمتوسط أمد مسنون وقد يعاجله لأجــل مفاجئ. والدنيا كلها التي تنبسط عيشة الناس وحياتهم فيها خلائف يمرّ الدهر فــيها دوّارة ظروفه متناقصاً مداه كلّما مضت منه ساعة زمان تكون قد اقتربت ساعة

يــــنطوي فـــيها كل زمان الوجود المشهود وتعقبه متكوّرة عليه جولةٌ حياة أخرى في الأزل. وإن كـــان الإنسان يعدّ سَير الزمان في الدنيا لأنه منظوم بحسبان فإنه لا يدري متى تأتيه ساعة منتهاه نفاذاً إلى أزل الغيب، فإن تلك ساعة تأتي لأجل مُسمّى عند الله لا يعلمهـــا ولا يُجلّيها إلا هو ﷻ. وقد تقع على الإنسان بغتةً بصعقة فيها قيامة العالم الغيبــــي المتبدّل والآخرة التي ليست زماناً مراحله محسوبة وآماده موقوتة بل هي أزل وأبـــد أبيد خالد. والإنسان في جهالة بآباد الوجود وغيبه، وقد يرتاب في أجل الغيب الموعـــود مفـــتوناً متمادياً في مدّ حياته المتطاول في العالم المشهود. فالناس في غفلة قد يُعرضـــون عـــن التفكّر الهادي إلى أجل الغيب المنظور، وما يأتيهم ذكر رسالة العلم والهدى التي ينـــزلها عليهم الله وحياً من الغيب تُخاطبهم وتذكّرهم وتنبئهم بصيرورة الحياة الدنيا إلى آخرة إلا استمعوا وهم يلعبون لاهين عن تلك التذكرة مشغولين بمتاع الدنـــيا وتعلّقات الهوى بحاضرها ومشهودها، إن عرفوا الموت عارضاً معهوداً في الدنيا وقادمـــاً حسبوه غاية الوجود وكفروا بالبعث لجولة حياة أخرى، فهم لأول وهلة لا يؤمنون بكلم رسالة الغيب الذي تتلوه عليهم الرّسل في حق الآخرة. تلك هي السُّنة في خُلُـــق أكثر المخاطبين برسالة الغيب المذكّرين بأن الدنيا حياة ابتلاء لهم لأجل المنذرين بحسابهم على ما كسبوا فيها عند دار جزاء وخلود.

ومـــثال تلك السُّنة أن الذين خاطبتهم بتلك التذكرة الرسالةُ الخاتمة كلّما جاءهم بها ذكر مُحدث لم يصدّقوا وعد الغيب وأخذوا يصدّون ذلك الحق بباطل الأقاويل والظنون. وستمضي السُنّة كذلك في العهد الحاضر الذي غشيت فيه بني آدم النـــزعة المادية الملحّة، مـــنهم المفـــتونون بها جملة فالمرء منهم يكفر بأصل البُعد الغيبـــي الآجل في الوجود بعد عاجلـــه المـــشهود، ومنهم الذين آمنوا ثم غلبت عليهم الفتنة يقولون إن سئلوا عن الآخرة أســـلمنا بها لكن هم في واقع حياتهم في غفلة، وجدانهم لا يعمره إيمانٌ راسخ بالآخرة ولا تذكّـــرٌ موصول بحسابها، بل المرء منهم حتى المسلم قولاً ضاربٌ في الأرض كما يهوى لا يـــأتي بصالحات عمل لا عاجل ثمرٍ لها في الدنيا إذ لا يرجو أجراً مضاعفاً عليها في حساب مـــرجوّ يوم الحساب في الآخرة، ولا يجتنب سيئات الأعمال إذ لا يخشى من عاجل عقاب عليها ولا يتّقي كتابها المرصود لأجل والقضاء عليه بسوء جزاء مثلها في الآخرة.

الكافــرون الراســخ فــيهم الكفر بالآخرة الصادّون عن رسالة الغيب والدين وتذكرته بالنذير يُنكرون بأن يكون بشرٌ مثلهم حامل رسالة كتلك من الغيب، فما هو بَمَلَــك كائنــاً روحياً يُمثّل عالم الغيب الذي يُبلّغ عنه علماً لا تدركه الأبصار الحسيّة ويقوم بذاته شاخصاً شاهداً على الغيب قائماً ماثلاً في عالمهم المشهود المحسوس ليروي لهــم حقائق الغيب الموجودة والمنظورة. ولمّا كان الناس – لاسيما قديماً– يعهدون في ممارســة روحيات الغيب كثيراً من السّحرة يدّعون أقاويله ويسترهبون الناس بأفاعيله، فــإن الــذي جاءهم رسولاً خاتماً يبلّغهم رسالة الغيب ووعده، وكذلك من بعده ممن دعــوقم أساسها بعد الإيمان بالله تعزيز وقع تكليف الهدى بالتذكير بالآخرة الموعودة حــيث الــبعث والكتاب والحساب والسؤال والجزاء عن الكسب في الدنيا ولو كان حــسنات ضاع أجرها العاجل أو سيئات أفلت فاعلها من أن يُدركه العقاب لفوره – ذلــك حسبه ويحسبه المخاطبون ساحراً. والناس غالبهم اليوم يُعمِلون بصيرهم العلمية لتكذيب دعاوى السحر وفضح زيف فعاله، فلذلك لا يأخذون على دعوى الغيب إلا بحجــة بيّنات علوم الإدراك والتجريب التي يعوّلون عليها في حق طبيعة العالم المشهود. ولــذلك هم مثل المخاطبين الأوائل قد يُنكرون دعوة الغيب لكن بحسباها خارجة من أفــق العلم الطبيعي ودون حجة صحته المعروفة أو أها كتخاريف السحر القديم. وهم لا يؤمنون بآيات الله السميع العليم يعلم أقوالهم ولو استسروا ها نجوى طعناً في أصول الــدين وحــياءً من المجاهرة. ذلك لاسيما أهم كذلك قد يرمون كلمات رسالة الحق الغيبــــي بشتى وجوه الارتياب وشبهات الباطل، إذ يصرفوها إلى الأحلام أو الظنون ويظــنوها أضغاثاً مما يعرض على الدّاعي إليها– نبياً عند المخاطبين الأولين أو خلَفاً له على سنة دعوته – بأثر ما تحدّثه به نفسه مما يرى في الحلم أو يخال إليه ثم يُزين روايته بنــسبته إلى الغــيب وحياً من مَلَك وتلاوة بلسان الدّاعي. وقد يحسبون ما يصدُر من أقــوال غريبة للداعية مُدّعاة في أمور غيبية إنما هو افتراء مصطنع من تلقائه مهما يُدّعى لــه الــصدق عن مصدر غيب. بل ربما يعدّون ذلك الداعية شاعراً دافقة منه مشاعر العاطفة الهائمة، لاسيما إذا كان الذكر الذي يتلوه قولاً فصيح البيان بكلمات منسوقة ثنوية المعاني منظومة الجُمل بفاصلات منغومة. فالشعراء يتحرّون إحسان النظم والنغم

ويضربون في بحر المعاني هائمين في أهواء الخيال ونازعات العاطفة يُلقون على السامعين مـــا يدّعـــون حقـــاً ليُحدثِوا عليهم وقعاً بليغاً. وكما كان يُقال للنبـــي الخاتم ﷺ في دعوته، قد يُقال لكل داعٍ صادقٍ من بعده في شأن حقائق الغيب المنظور كقيام الساعة ومشاهد وقائعها: أن يأتي بآية مثل الرسل الأولين الذين كانوا يأتون أقوامهم بمعجزات فعال تخرق مسنون الطبيعة شهادة بأنهم يصدرون في آيات رسالتهم المسموعة حقاً عن الله مُـــصرّف الأقدار في الوجود كما يشاء في المطبوع المسنون أو ما يشذ عنه بقدرته المطلقـــة على كينونة الواقع من خلقه وصنعه. والحق أن تلك الأمم الأُولى التي حُظيت في خطـــاب رســـالاتها بتلك الآيات المعجزة وإن كانوا هم قد طلبوها بيّنة على حق الرســـالة وصـــدق المرسلين بها ما آمنت بعد مجيء تلك الآيات بل أصرّ غالب القوم ومـــضوا في كفرهم ليحقّ عليهم الهلاك الواقع، أترى الذين يُلحون بعداً في طلب مثل تلـــك الآيات لو جاءتهم يؤمنون أم هو محض التماس لما قد يعجز عنه دعاة الحق، وهم في تمـــادٍ مـــستمر حرصـــاً على ما تُزيّنه لهم أهواء الدنيا وعلى ما يعصم أعرافهم التي توارثـــوها تقاليدَ ضالة وما يحفظ أحوالهم التي عهدوها استكباراً أو إسرافاً وفساداً مما تنهى عنه تعاليم الهدى وشرائع الرشد والعدل التي تجئ بها رسالة الحق من الغيب؟

ينبغـــي أن يطمـــئن الرســـول الخاتم أن سالف الذين حملوا رسالات دين الحق المتواتـــرة مـــا كانوا إلا رجالاً من الأنبياء يوحى إليهم علم الله وهداه ليبلّغوه، وذلك لـــيعلم الجاهل بتاريخ سالف الديانات إن كان جاهلاً بأصولها أن الله قد أرسل رجالاً حـــتى لا يُـــبالغ المخاطبون طعناً في الرسالة بسبب أنوثة حامليها إذ كانوا يستحقرون النـــساء. ومـــا كـــان الذين اتبعوهم بإحسان دعوة وقدوة في سبيل بلاغ الرسالة إلا رجالاً ونساء من البشر، ما كانوا كما توهّم الذين يوالونهم بغير هدى متمتعين بقوى روحـــية وراء طبـــيعة البشر. وما جعل الله الأنبياء جسداً بشرياً غنياً أن يأكل الطعام مـــدداً للغـــذاء والطاقـــة البشرية إذ ما كانت تمدّهم طاقة روحية مطلقة. وما كانوا خالـــدين بـــل كانت تعتريهم العلل ويموتون كسائر البشر. وكذلك أولياء الله أتباع الرســـل ما لهم مائز من سائر البشر فهم يطعمون ويموتون كما هو مسنون للبشر وإن توهّهم فيهم بعض الجهلة تزهّداً يغنيهم عن كفية العيش وروحاً وحضوراً بعد الممات

في صـــحبة الحيران. إن بشريّة الأنبياء بالطبيعة المسنونة يجعلهم قدوة ميسوراً أن يقلّدها أتـــباعهم من البشر، ولو كانوا ملائكة غرباء الطبيعة ما كانوا أئمة هدى إسوة وقدوة لـــسائر البـــشر. ولئن ماز الأنبياء أنهم يتلقون وحياً من الغيب من الله فإنما يميز الأتباع الـــصالحون والـــدعاة علـــى سنتهم أنهم يتلون رواية ما نـــزل عليهم ويتبعون سنتهم ويحملـــون دعوتهم، لا فضل لهم على غيرهم من البشر إلا ذلك. وليطمئن النبـــي أو الداعـــي علـــى سنته فالله بعد إيتاء فضله لمن يشاء علماً وهدى يُعمل كل أقداره في تـــصريف أحـــوال ســـير البشر ليصدُق رسله وعباده الدعاة الوعدُ بالنصر والصلاح وينجـــيهم ومَـــن معهـــم ممن يشاء من المؤمنين، ويُهلك الذين بلغوا مدى الإسراف والإعـــراض والـــتمادي المفـــرط في سابق ضلالهم صدوداً عن دعوة الحق. إن الله قد أنـــــزل على أمة العرب عهدَ الرسول الخاتم كتاباً فيه الذكر الذي يخاطبهم فيذكّرهم بمـــا في الفطرة من حقائق الغيب ويعلمهم أنباء الوجود الغيب وهدى الحياة ويزكّيها بحكمـــته لحسن المسير والمصير إلى الأزل. ذلك وكان من حولهم عظات القرى الظالم أهلـــها التي قصمها الله بأقدار عقابه وكسر قوتها وأنشأ من بعدها قوماً آخرين خالفين في الأرض. ومـــن أهـــل تلـــك القرى مَن قد أحسوا مقدم الهلاك فحاولوا الهروب مـــسارعين مـــن وقعه لكن اضطربوا فزعاً من مورد الهلاك فارتدوا إلى مواطن الظلم ومـــساكن التـــرف الذي عهدوا حتى يُسألوا عما هو مشهود لهم بيّن، وما أجداهم اعتـــرافٌ أنهم كانوا ظالمين ولا نـــزعةُ متاب عند حضور الهلاك ولا صرخاتُ ويل، بل حقّت ووقعت الواقعة عليهم حتى أصبحوا خامدين.

ولقـــد كانت سيرة تلك القرى الظالمة ممّا يتّعظ به كل خلَف بعد أولئك العرب، فقـــد مضت سُنة الله التي لا تتبدّل على حضارات سواد عظيم من أقوام أخرى ظالمة بأهـــوائها مـــستقوية بطغوائها متجبّرة على الآخرين. وإن كان في تاريخ الإنسان عِبرٌ ومواعظ تهدي إلى دين الغيب الذي جاء به المرسلون حتى الرسول الخاتم متصادقين في بلاغ الذكر الحق والهدى العدل من الله وتعرضوا لحملات متماثلة طعناً فيهم وإعراضاً عـــن ذلـــك الحق والعدل حتى بان أمر المصائر لأولئك الظالمين إلى هلاك متواتر – إن كـــان في ذلـــك المرويّ من تاريخ الإنسان آيات وعظات فإن في المشهود من طبيعة

الكون آيات وشواهد على حق أصول الدين الغيبية. والناظر المتدبّر في خلق السماوات والأرض وكــونها الــدوّار المنظوم ينبغي من دلالة تلك الظواهر والآيات الشاهدة أن يُدرك أن ذلك لم يكُن لعباً قدرياً دون مغزى بالغ، وأن لو أراد الله في عليائه لهواً لاتخذ في عــالم الغيب المطلق ما يُغنيه عن تلك الأقدار البيّنة في مخلوقاته المشهودة التي تتجلّى فيها آيات القضاء والتوحيد المعلوم والجدّ والمغزى المنظوم مسيراً إلى مصير يتمّ به عدل الظلم وإقامة العوج في حياة البشر ومكافأة كل كسب لهم فيها بوفاقه حسناً أو سوءاً. وتلك آيات للحقّ تدفع باطل ما يتوهّمه بعض عباد الله البشر في أمر الخلق ويصفون به الألوهية الإشراكية في الوجود.

ترتيل المعاني (الآيات ١٩ – ٤٧):

﴿وَلَــهُ مَــنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩)

ولله حقاً في الوجود مَن في السماوات والأرض يُحيط بهم علماً ومُلكاً ويصرّف مــسيرهم ومصيرهم هدىً وقدراً، ومَن عنده في الملأ الأعلى من أرواح الغيب الملائكة الــتي كان العرب المخاطبون بالقرآن يعرفونها بأثر من تراث علم أبيهم إبراهيم وبقية مــسموع ومــرويّ مــن صحفهم الأُولى. لكنهم جهلوا حقها لضياع ذلك التراث المتطاولة نُقوله وضلال الظنون الغاشية فراغ الجاهلية، فحسبوا الملائكة بنات لله مخلوقة جــناً تراهم من حيث لا يرونها لكن تأتيهم في الأرض فهي تباشرهم من قريب وهم يــصوّبون إلــيها ويَقصرون عليها التقديس والتوقير القاصد نحو الغيب. وإنما الحق أن الملائكــة الــذين هم عند الله في غيبه وملئه الأعلى لا يستكبرون تعظيماً يُعليهم عن عــبادته، لا يــستنكفون عنها ولا يستحسرون قصراً لمدى إسلامهم لله ولا كللاً من عبادته الموصولة بل يبلُغون وسعهم موالين طاعة الله عبادةً وشكراً.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠)

الملائكــة عــبّاد لله ذاكــرون يسبحونه ويُعلون قدره مطلقاً فوق كل المقادير وصفاته الحسنى منــزهة عن صفات ما دونه، ويداومون ذكره ﷻ الليل والنهار لا

يفترون كما يفتر الإنسان أو يسكن ليلاً راحةً بعد أن يُعييه النشاط لو والى ذكر ربه نهاراً[1].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ (٢١)

الله هـــو الخالـــق ابتداءً للإنسان الناشر له ساعياً في الأرض. وقد عرف العرب المخاطـــبون بالقرآن الله خالقاً فهل سلكوا في جاهليتهم مسلك الملائكة الموحّدين لله الذاكرين العارفين للحقّ منه خالقاً للإنسان خليفةً في الأرض إحياء له من عدم ونشراً له في الأرض؟ أم هم كمثلهم من سائر عباد الله المفتونين بالعالم المشهود اتخذوا آلهة، لا بنبأ من الغيب من تلقاء السماء، بل من الأرض ومادتها المشهودة أصناماً وأوثاناً تُجسّد صوراً للملائكة، إن كانت جامدة فهم يجعلون لها حياة وينشرونها في الوجود ظناً.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٢)

لـــو كـــان في الأرض كالأصـــنام أو السماء كالملائكة أو فيها كالجنّ أو ذوات أخـــرى من الأرواح – لو كانت تلك آلهة أخرى لها صفة الألوهية المطلقة مع الله، إذاً لتنافـــرت الإرادات الفاعلـــة ولتـــصادمت الأقدار الصادرة في الوجود بينها وبين الله ولفـــسدت الـــسماوات والأرض واضطربت وتساقط منظوم خلقها المستقر وتناسخ منسوق حركتها وعلاقاتها المسنونة[2]. فسبحان الله وتعالى هو فوق كل شئ سواه إذ هو الله الإله الفرد العظيم ربّ العرش المستوي على كلّ مُلك الكون الموجود المتمكّن القـــيّوم علـــى محـــور القدرة والسلطان والتصريف لكل المخلوقات. تعالى ذلك الإله الواحد الأعظم والربّ الأعلى والمَلك الأكبر عما يصف المشركون من حول وقوة لديه وشـــفاعة عنده للملائكة والأرواح الجنيّة والأصنام المشهودة التي يتخذونها شركاء له وأولياء يتولّون رعاية حياتهم في عرضها الماثل ودهرها الحاضر ويقرّبونهم زلفى إلى الله الذي يرونه متباعداً عنهم في علياء الغيب.

---

(١) راجـــع الآيـــة ١٧٢ سورة النساء، والآية ٢٠٦ سورة الأعراف، والآية ١٣ سورة الرّعد، والآيـــة ٤٩ ســـورة النّحل، وانظر الآيتين ١٦٥ و١٦٦ سورة الصافّات، والآية ٧٥ سورة الزّمر، والآية ٧ سورة غافر، والآية ٣٨ سورة فصّلت، والآية ٥ سورة الشّورى.

(٢) انظر الآية ٩١ سورة المؤمنون.

﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٢٣)

إن الله محـيط العلـم مطلـق الإرادة كامل القدرة هو الذي خلق الإنسان يبتليه ويكلّفه بالعبادة له ثم يسأله يوم الدين، سبحانه وتعالى أحداً ليس فوقه إله أعلى ليسأله عمّـا يفعل محاسبة في ضوء حق أعلى أو محاكمة بميزان حق سويّ بينه وبين شريك. وهـم- العباد البشر والأرواح كالملائكة والأشياء كالأصنام - المتّخذون بالباطل آلهة وشركاء وأولياء وشفاعة أو زلفى إلى الله إنما هم من دونه خلَقَهم هو في إطار مشيئته وقدره ومُلكه وحكمه يسألهم هو عما يفعلون، الملائكة يُسألون كيف اتُّخذوا آلهة من الـذين كانوا يتولوهم عبادة وهم أنفسهم خاشعون ساجدون لله، والبشر يُسألون لم تجاوزوا وظلموا خارجين وسع ما شاء الله لهم من خيار ومشيئة عما بلغهم منه من أمر ذكر وطاعة وعبادة وما شرع بينهم من أحكام عدالة بميزان القسط الذي يُحاسبون به ليُجزوا عن كسبهم كما يضع ويقضي ﷻ يوم القيامة.

﴿أَم اتَّخَـذُوا مـنْ دُونه آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٤)

أم تـراهم - أولئك المخاطبون العرب في جاهليتهم الذين عرفوا الله خالقاً رباً أعلـى - اتخـذوا مـن دونه شركاء له وأولياء لهم آلهةً أصناماً تقرّبهم إليه زلفى أو ملائكة شافعين؟ فليخاطبهم الرسول برسالة التوحيد أو يأتوا ببرهانهم وحياً أو كتاباً من الله أن جعل لهم من دونه شريكاً يليهم[1]، وإنما هذا القرآن هو الذكر بالتوحيد وحـياً من الله وكتابه رسالة يحمله الرسول - كما يقول مخاطباً لهم مشيراً إلى الحق فـيه، وهذا ذكر مَن قبلَه من المرسلين - كما يقول أيضاً- مصدّقاً لما تلاه من ذكر القـرآن الخـاتم الذي لا يغشاه ريب مصدر ولا يَردُ مزعمُ باطلٍ شركٍ فيه مثل ما يقولـون هم. بل أكثرهم لا يعلمون ذلك الحق في أميتهم وجاهليتهم وما عهدوه في مظـنون ثقافاتهم، فهم مُعرِضون عنه إذ يأتيهم اليوم وحياً بيّناً ويؤثرون الاستمساك بقديم ظنونهم ومذهبهم الجاهلي.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥)

---

(١) راجع الآية ١٤٨ سورة الأنعام، وانظر الآية ١١٧ سورة المؤمنون، والآية ٦٤ سورة النمل.

كما سبق ذكر المرسلين السّابقين، مثالاً للرسول الخاتم بذات الصفات البشرية الـــتي أنكـــرها فيه قومه المخاطبون العرب، رجالاً بجسد طاعم ليس بخالد، متلقّين وعداً من الله صدّقته نجاتهم - يلي ذلك منضافاً إليه أنه ما يُوحَى إلى رسول منهم من الله بجليل أقدار الاصطفاء والتكليف بحمل الرسالة إلا ذكرُ توحيد الألوهية لله ونفي الشريك مثل الآلهة التي يدّعيها العرب وفرض العبادة له خطابَ أمرٍ مترتب علـــى ربوبيـــته العليا وعبادةً خالصة تُسلم كل سياقات الحياة موحّدة صوب الله الواحد.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٢٦)

وقالـــوا- بعـــض أولـــئك العرب الجاهليين المتّخذين من دون الله كما سبق ذكرهم شركاء له أولياء لهم - قالوا اتخذ الرحمن - الذي ما عهدوا له ذلك الاسم الأحـــسن الذي يصف فيض رحمته البالغ - قالوا اتّخذ الله ولداً. سبحانه منـــزهاً متعالياً أن يكون له ولد وهو الغني ولا يلد كعباده البشر، بل الذين يشيرون إليهم مـــن الملائكة ما هنّ بنات الله بل عباد من أرواح يُسلمون له تعالى أنفسهم طوعاً، مُكرَمون بأن يكونوا مقرّبين من الله في ملئه الأعلى ورسلاً له وحياً إلى عباده البشر الأنبـــياء وأيداً للصالحين من العباد وأولياء لهم في الدنيا والآخرة وجنداً على العباد الظالمين.

﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٧- ٢٨)

أولـــئك الملائكة العبّاد لله أخلصُ له من العباد البشر انضباطاً وطاعة، لا يسبقونه بالقـــول بل بعد إذنه وبأمره، وهم بأمره يعملون لا يعصون أمره خياراً لذكره وطاعة موصولة. هو ﷻ يحيط بعلم ما بين أيديهم من واقعات الحاضر وما يعملون، ويعلم ما خلفهـــم مـــن المصائر التي تغيب عنهم إلا ما يُظهرهم عليه بمشيئته. ولا يشفعون تثنيةً لأحـــد مـــن عباده البشر ليتّقي سوءاً ويلقى حسناً، إلا لمن ارتضى له الله وتقبّله أهلاً لـــتلك الشفاعة، لا كما يتخذهم العرب الجاهليون المخاطبون بالقرآن بنات لله تشفع لهم لديه بإرادة منها ذاتية بالوجه والقول الذي يتخيّرن رحمةً منهن للبشر ولو لمن عصا

الله وأغــضبه. إنما يشفع الملائكة إن جرى ذلك بإذن الله لَمن وبما ارتضى[1]. وهم من خــشيته ﷻ مــشفقون لأنهم مقربون إليه يعلمون جلال رهبته ويخافون عظيم غضبته وبليغ وقع جزائه، ولذلك هم طوع له ذاكرون مسبحون أبداً.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩)

إن الله لا يغفــر أن يُشرك به وإن أخّر الجزاء إلى يوم الدين، وإن اللّه لا يتجاوز ذلــك الحكم حتى للملائكة الذين اتخذهم العرب الجاهليون بنات لله وشركاء وأولياء لهــم دونــه شــفعاء لديه بما يحق لهم تلقاءً. لكن سبق بيان عبوديتهم ومسئوليتهم لله وخضوعهم لأمر الله وإذنه في القول والعمل وحتى في الشفاعة بعلم الله والإشفاق من خشيته[2]. وتنضاف من ذكر تقواهم تلك كلمةُ الحق من الله إنه مَن يقُل منهم إنه إله من دونه تعالى فذلك يَجزيه بأقدار خالص وحدانيته ونذير غضبته ووقع جزائه جهنمَ، وكــذلك يجزي بكل تلك الأقدار الظالمين من عباده البشر المتعدّين لحدّ توحيد الله من مثل العرب المخاطبين المشركين بالله الملائكةَ.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠)

كــيف يذهب المخاطبون إلى الإشراك بالله مَن في الأرض أو السماء. أو لم يروا- أولئك الكافرون بوحدانيته سبحانه الغامرون للحق البادي في آيات تعاليه فيما حولهم من مخلوقاته المشهودة، التي لم يشاركه في خلقها ونظمها أحد: أن السماوات والأرض كانــتا رتقــاً ســديماً ملتحماً لا صدع فيه من مادة واحدة ففتقهما الله بأقدار تطوير مخلــوقاته وتدبير أسباب تفجّراتها وتحولاتها وتنائيها وتجلّيها، وأنه بتلك الأقدار الجليلة جعل من الماء - المادة السائلة التي اختصّ بها الأرض - كل شيء حيّ يدبّ في الأرض ويتوالد حيواناً أو نباتاً[3]- أفلا يؤمن أولئك الكافرون بعد والرؤية التذكّر والتفكّر في

---

(١) راجــع الآيــة ٢٥٥ ســورة البقرة، والآية ٣ سورة يونس، والآية ١٠٩ سورة طه، وانظر الآية ٢٣ سورة سبأ، والآية ٢٨ سورة النجم.

(٢) راجــع الآيــة ٢٣ ذات السورة، وانظر الآيتين ١٧ و١٨ سورة الفرقان، والآية ٢٣ سورة سبأ.

(٣) راجع الآية ٧ سورة هود، وانظر الآية ٤٥ سورة النور.

صـــناعة الله المتقـــنة في كـــل تلك الآيات التي هي كنفهم المحيط بل أصل وجودهم وحياهم؟

﴿وَجَعَلْــنَا فِــي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٣١)

ومـــن آيات الله المبسوطة أيضاً للرائي من العباد البشر المخاطبين لعلّه يؤمن: أن جعل حـــولهم وتحـــتهم في الأرض بتلك الأقدار العظيمة له تعالى خالقاً ناظماً مدبّراً: رواسيَ أن تميد بهم تلك الأرض، جوامدَ صخرٍ ثابتة فوق الحمم المتغالي في جوف الأرض تحفظها ألا يتزلـــزل فراشها المستقرة قشرته تحت أقدام أولئك البشر فتمتدّ وتميل مضطربة بهم، وجعل في الأرض أيـــضاً بتلك الأقدار بين الجبال فجاجاً منفرجة تباعدت بها المتعاليات وتسهّلت ســـبلاً لسير سكان الأرض أولئك لعلّهم يسلكونها ويهتدون إذ تتبيّن لهم من معالم الجبال ووجهة مسالك فجاجها ووديانها الطرقُ إلى المقاصد والمحالّ التي يؤمّونها[١].

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٣٢)

ومـــن آياته أيضاً ﷻ أن جعل بعليّ أقداره السّماء فوقهم سقفاً محفوظاً، منسوقة نظمته وحركته لا تتهاوى معالمه وبروجه في علوّ فلَكها واقعة ولا تضطّرب أو تصطدم متفجـــرة متساقطة في تراتب حركتها ولا تنفذ من أقطارها قوى إلا بسنن الله وإذنه[٢] زجـــراً للـــشياطين التي تتسمّع للملأ الأعلى وإنـــزالاً لأرواح الملائكة وخفضاً ورفعاً لأرواح البـــشر. وهـــم – أولـــئك المخاطبون المذكّرون بآيات الله المرئية في السماء كواكب نظماً وحفظاً ودلالاتها البيّنة على حول الله وقوته وحكمته – معرِضون عنها غافلون.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٣)

ومـــن آيات أقدار الله في نظم الكون المرئي ممّا يلي مباشرةً حياة عباده المخاطبين برســـالة الغيب أنه بتلك الأقدار المنظومة خلق الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ليسعَوا

---

(١) تتواتـــر عدة آيات في القرآن تذكر الجبال رواسي للأرض وأوتاداً والفجاج بينها سبلاً – من آيات الله ونعمه المشهودة.

(٢) في حفظ السماء ومسكها: انظر الآية ٧٥ سورة الحج، والآية ٤١ سورة فاطر.

في الأرض يبـــتغون مـــن فضله، ومن وراء تلك الظواهر في دورة زمان حياهم خلق الـــشمس الـــتي تـــدور الأرض حولها ليتكوّر ويتداول غياب الشمس ليلاً لانحجاب ســـراجها عند الظلام وظهورها نهاراً للضوء المنبعث منها، وخلق القمر كذلك الدائر حول الأرض يُنير لهم اللّيل ويتحرّك دائراً ليغيب حيناً وليبدو هلالاً أو قمراً حتى محاقه. وأقداره منظومة أيضاً أن يسبَح كلٌ في فلك، مداراً من الفضاء - الأرض الدوّارة حول الـــشمس والقمـــر الكوّار حول الأرض والشمس السّابحة بمنظومتها في أبعاد الفضاء الكوني، يسبَحون في توازن وتناظم مقدّر محسوب، ولذلك تُذكر وهي مخلوقات مادّية جوامد بضمير العُقلاء.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤)

يـــضيق المخاطبون بالرسول الذي يوالي عليهم تلاوة آي القرآن تجيئهم كل حين بالمعـــاني الـــتي يُنكـــرون والتذكيرات التي تقرعهم، فيتمنّون موته ويتربصون به ريب المـــنون(١). ولذلك جاءت هذه الآية: أن الله بأقداره الجليلة التي تُصرّف الوجود والتي كتَـــبت دورة الـــشّروق والغروب للمشهودات في الأفلاك ويسّرت بدورها حساب الزمان - كتب على الإنسان أيضاً دورة الحياة والموت فمدى العمر المقدّر لأجله الذي يـــسمّيه الله. ويُخاطب الرسولَ ربّه أنه بأقداره تلك ما جعل لبشر من قبله الخلد دواماً في الحـــياة، فهو آيل - كالأنبياء قبله من البشر - إلى الموت الذي يتمنونه له عاجلاً، لكن يُخاطبه كذلك أفإن مات هو فهم الخالدون؟ استفهام استنكار فهم مثله ماضون إلى الموت بعده لا يخلدون.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥)

لا يتـــربّص أجل الموت أحد من البشر دون غيره، كل نفس بشريّة ذائقة الموت حتماً مقضيّاً وسنّة مكتوبة، والله بأقدار مسير حياة الإنسان ومصيرها إنما يبتليه امتحاناً لـــه، الشر ضرّاً والخير نفعاً من أقدار البلاء في عارضات الأحداث والظروف في دنياه، فتـــنةً لـــه واختـــباراً ماذا يكسب، ثم إلى الله بأقدار البعث - كما يقول الله متكلماً يُخاطب بني الإنسان كافة - يرجعون يوم الدين والحساب والجزاء.

(١) انظر الآيتين ٣٠ و٣١ سورة الطور.

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٦)

الخطــاب للرســول ﷺ إنه – إضافة إلى تربّص الكافرين به الموت المسنون حقاً للناس كافة وإسرارهم النجوى طعناً في حقّ رسوليته بشتّى الوجوه واتخاذه هزؤاً[١] إذ يَذكر آلهتهم بما لا يرضون – إذ رأوه حيثما قابلوه أو مرّ بهم بذكر الرّحمن هم أنفسهم كافرون، يقولون ما هو؟ يُنكرون معرفته بهذا الاسم إن عرفوه الله خالقاً.

﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٣٧)

خُلــق الإنسان من عجل، يغشاه النــزع إلى ذلك الخُلُق إذ يؤثر قرب حدوث كل موعود مرجوّ وفور حضور كل قادم يأخذه الطيش والارتياب عند بلاء الانتظار. يُخاطب الله بني الإنسان الذين تُتلى عليهم آيات الوحي المنذرة بما يستقبلون من عاقبة ويــتحدّون الرسول أن يُعجّل لهم العذاب في الدنيا إن صدق – يُخاطبهم أن سيُريهم آياته الموعودة إيقاعاً لذلك الذي أُنذروا به، تبشيراً للرسول مهما يكُن عسُر حاضره إذ يــستعجلونه ويستبطئونه إن أُملي لهم في مدّ الابتلاء وأُخّر أجل العاقبة الحاقّة عليهم، فهي آتية لا محالة[٢].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨)

ومهمــا يــصدُق لهم حقاً الوعيد بالنذير يقولون متى هذا الوعد بإتيان الساعة، يخاطــبون المؤمــنين بــه أن يُعيّنوا لهم ذلك الأجل إن كانوا صادقين، إذ يستبعدونه فــيُكذّبون صدْق أيلولته حقاً، ويظنون التأخير لما يستعجلون بيّنةً أنه بدا محالاً لا قدراً مفعولاً لأجل مُسمّى.

﴿لَــوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٣٩)

---

(١) في ســنة الكافرين هزؤاً بآيات الله وبالرسول الخاتم وبالدين وشعائره ونُذُره وبسائر المرسلين قبلاً: انظر الآية ٤١ ذات السّورة، وكثيراً من الآيات في سائر القرآن.

(٢) في خلق الإنسان من عجل لاسيما إذا ذكّر بنذير آجل: راجع الآيتين ١١ و٥٠ سورة يونس، والآيتين ١١ و١٨ سورة الإسراء.

مـــا يكون لأولئك أن يكفروا بذلك الوعد الصادق في آجلة الغيب ويسألوا عن ساعته سؤال المستبعد المكذّب لو يعلمون وقعها عليهم المنظور عندئذ، حين لا يكفّون عن وجوههم - شارة الكرامة والشّرف - النار ولا من ورائهم يصدّونها عن ظهورهم ولا يُنصرون، لو يدركون أنه عند ذلك الأجل تحقّ عليهم النّار فلا حاجب لها عن كيّ الوجوه منهم والظهور ولا يقيهم منها ناصر بل سينفذ عليهم قضاء الله.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٤٠)

إنهـــم لا يعلمـــون عين ميقات الوعيد ليّقدروا انتظار وقعه بل تأتيهم ساعة تلك الواقعة بغتة، فُجاءة لا تسبقها علامات قدوم[1]، فإذا أتت كذلك تبهتهم وتحيّرهم فلا يستطيعون ردّها ليصرفوا وقعها عليهم نجاةً منها ولا هُم يُنظرون، لا تؤجّل لهم بعدئذٍ ولو قليلاً ليتداركوا إعداد ما يقيهم من نازلة العقاب.

﴿وَلَقَــدِ اسْــتُهْزِئَ بِرُسُــلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١)

وإن كانـــوا يـــتّخذون الرســـول الخاتم المبعوث فيهم إن رأوه هزؤاً، فتلك سُنة المعرضـــين الأُوَل وابـــتلاء الرّسل السّابقين أسوة له، ولقد استُهزئ بهم من قبل كما يُخاطـــبه الله تعزيةً وتصبيراً، فحاق مُحيطاً بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون من وعيد سوء العقبة.

﴿قُــلْ مَــنْ يَكْلَــؤُكُمْ بِاللَّــيْلِ وَالــنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٢)

ويوصَى الرسول ﷺ - تذكيراً لأولئك الذين يُنكرون حكم الغيب الحاقّ عليهم مـــن الله ساخرين - أن يقول لهم: مَن يكلؤهم، يحفظهم بالليل والنهار في حياتهم من بأس الله؟ إنما هو قدر الرحمن الفائض رحمةً على عباده الباسط لهم حياة آمنة من سطوة جبروته مهما يكفرون به. بل هم قاصرٌ وعيهم على الواقع المشهود عن ذكر الله المنشئ

---

(١) تـــأتي السّاعة بغتة: راجع الآية ٣١ سورة الأنعام، والآية ١٨٧ سورة الأعراف، والآية ١٠٧ ســـورة يوسف. وانظر الآية ٥٥ سورة الحج، والآية ٦٦ سورة الزخرف، والآية ١٨ سورة محمد. ووردت آيات في القرآن أن العذاب العاجل قد يغشى المنذرين بغتة.

الراعـــي لهم وقدره في تصريف الأسباب وحفظ حياة عبده الإنسان، مُعرضون غفلةً عن الغيب كله وكفراً بحقّه، فلا يشكرون رحمته ﷻ ورعايته ولا يخشون سطوته.

﴿أَمْ لَهُـــمْ آَلِهَـــةٌ تَمْـــنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ (٤٣)

وتستمر الوصاة للرسول ﷺ بان يُخاطبهم مذكراً إن سُئلوا: ألهم مَن يكلؤهم آلهة يتّخذونها بالباطل مجسّدة في الأصنام والأوثان تمنعهم وتحميهم من دون الله وأقداره في نُـــوَب الدهــــر وبلايـــا مكارهه - كما يذكر الله بصيغة المتكلم قيوماً عليهم؟ آلهةً لا يـــستطيعون نصر أنفسهم، فهي أصنام لا تملك حولاً ولا قوة ولا دفعاً عن نفسها هي ولا عنهم هم من عظيم أقدار الله التي تُصرّف كل الوجود[1]، لا يُصحبون بجند ناصر أو مُصاحب مجير لهم فضلاً عن أن ينصروا الذين يتعبّدون لهم، أو يدفعون عنهم قضاء الله الواقع.

﴿بَـــلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاَءِ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤)

مـــا سلامة أولئك المشركين بالله وطيب متاعهم بمدٍّ من تلك الآلهة المزعومة، بل مـــن الله بأقداره المُحيطة بهم - كما يَقولُ هو متكلماً، متّع هؤلاء المعرضين عن الغيب وعـــن ذكر الله - متّعهم وآباءهم بحياة مباركة حتى طال عليهم العمر بلاءً يُملى لهم أمَدُه رحمةً ويمهلهم حتى يحقّ عليهم أن يؤخذوا بعاقبة جزاء، وما هم بخالدين في العمر والمـــتاع الدنـــيوي. أفلا يرون أن الله - كما يقول - يأخذهم بأقداره المفعولة، يأتي الأرض الـــتي يقـــيم عليها ويَستخلف الأقوام بلاء، ينقصها من أطرافها بالهلاك لأهلها الظـــالمين، تضيق بهم بينما تتسع داراً للمؤمنين خلَفاً يقبضون على الباطل ويتمكّن بهم الـــدين الحقّ؟ أفهم الغالبون - هؤلاء الظالمون المخاطبون؟ أم تشهد أنباءُ القرى الظالمة الهالكـــة وتطـــوّرات الواقـــع الماضي حولهم وعظاته أنهم هم صائرون إلى غَلَب وأن سيورث الله الحياة والمتاع والأرض عبادَه المؤمنين[2]؟

(١) راجع الآيات ١٩١ و١٩٢ و١٩٧ سورة الأعراف، وانظر الآيتين ٩٢ و٩٣ سورة الشعراء.
(٢) راجع الآيات ٤٠ - ٤٢ سورة الرّعد.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ (٤٥)

إن غفلوا عن عظات ظواهر آيات الله وأقداره - يمتّع عباده أو يقدر عليهم ويطيل عمرهم أو ينقصه ويبسط لهم بلاء التّمكين في الأرض أو يحصره - فعلى الرسول ﷺ التذكير. الوصية له أن يقول لهم إنه بما يُنذرهم ببلاغ القرآن من الوحي الذي يتلقّاه عن الوعيد، وهم لا يسمعون وعياً بما يطرق آذانهم، وكذلك لا يسمع الصمّ المنسدّ فيهم إدراك السّمع المنختمُ - لا يسمعون الدعاء من الذي يدعوهم مخاطباً إذا ما يُنذرون منه بوعيد الحساب والجزاء الذي ينتظرهم حاقّاً عليهم بما يكسبون وتُقدّم أنفسهم.

﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٤٦)

ويستمر الخطاب للرّسول ﷺ، أن لئن مسّتهم - أولئك المخاطبين - فأصابتهم نفحة غاشية من عذاب ربّه حين يحقّ وقعه ليقولُنّ - مهما يكون ذلك عَرَضاً أولاً هكذا: يا ويلهم ويالمهلكهم، معترفين أنهم كانوا ظالمين، عريقين في الظلم يستحقّون الهلاك.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧)

ثمّ يبيّن الله تدابير الحساب والقضاء يوم الدين، إذ يضع الموازين القسط مُقيماً بها معايير القضاء العدل اللهُ بكلّ أقداره العظيمة يوم القيامة. فلا تُظلم نفسٌ شيئاً نقصاً لما يحقُّ لها أو إثقالاً على ما يحقّ عليها فتعدّياً لحدّ العدل المُنضبط، وإن كان للمرء في كسبه مثقال حبّة من خردل - مقداراً لزنة صغير من كسبه كحبة خردل - أتى الله بها بأقدار علمه وعدله رصداً ووفاءً لحقّه أجراً أو عقاباً. وكفى بالله وحسبه بكل تلك الأقدار والموازين أنه أتمّ الحاسبين والمُحصين لفعال عباده وأعدل الضّابطين لتقديرها وتقويم ما يترتب عليها من جزاءٍ وفاقٍ، لا يضلّ ﷻ عن شئ منها ولا يغفل ولا ينسى.

عموم المعاني (الآيات ١٩ - ٤٧):

يبين للإنسان مشاهد ملكوت الله مُحيطاً بما في السماوات والأرض، إما ليؤمن بربّه ويعبده أو ليُشرك به ما دونه ومَن عنده في الغيب من عباده المستجنّين ملائكة هم

أبــصر بعظمــوت ربوبيته ﷻ ولا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. إن بعض العــباد البشر العَمين عن آيات الملكوت البيّنة يتخذون من تلقاء الأرض برؤيتهم آلهة يُــشركونها بـــالله أوثاناً وأصناماً يتوهّمون أنه تتجسّد وتتجلّى لهم فيها أرواح غيبية منتــشرة، ويجعلــون لها أقداراً تُصرّف حياة عُبّادها. ولو كان مع الله في الوجود آلهة مــثله – صوراً كهذه في الأرض أو ملائكة في السماء أو شياطين، عند جاهلية العرب أو ذواتــاً روحيّة عُليا عند أمم أخرى – إذاً لتصادمت الإرادات والأقدار وفسد نظام السماوات والأرض واضطربت قوى القدر القويم وعلاقات النّهج السّليم التي يقوم بها الكــون ويــتوازن. فــسبحان الله ربّ العرش قيمومةً وسلطاناً واستواءً وتمكّناً على ملكــوت الخلــق، وتعالى عما يصف له المشركون من أكفاء من دونه. إنّ الله إرادته مطلقة لا يُسأل عمّا يفعل من تصريف أقدار الكون المخلوق وتسيير أمور الإنسان من تلقاء أي ضابط أعلى فهو لم يولد وتتعالى نــزاهيته وتتجلّى سبحاته. بينما الخلق دونه يُسألون ويُحاسبون لاسيّما إن توالوا بينهُم إشركاً بالله. أم يتّخذ بعض عباد الله البشر أآلهة تكافئه أو شركاء في الألوهية من دونه ولداً أو وكلاء في بعض قوّته وقدر ربوبيته وقدســية ألوهيــته؟ فأنّى البرهان على ذلك؟ هل جاء في كتب الله المنــزلة ذكراً من الغــيب ما ينبئهم عن ذلك؟ أم أدركوا علماً لديهم له حجة الحق؟ الحقّ إنه لم يبلغهم وحي ولا علم كذلك بل يظنّون ويفترون قصوراً عن الرقيّ إلى علياء الحقّ، ويُعرضون عــن الكــتب المنــزلة وحياً على الرسل المتعاقبين المتصادقة تذكّرهم بعهد الألوهية المفطــور في نفوسهم: أنه لا إله إلا الله إليه ينبغي أن تُصوّب كلّ حياة الإنسان عبادة. وقــد قــال بعض العرب كخزاعة في جاهليتهم العمياء عن علم الغيب قبل متنــزّل القرآن أن الله اتّخذ ولداً من الملائكة. وكذلك بعد تلقّي حق التوحيد في الكتاب اتّخذ النــصارى عيسى ابناً لله. لكن الله هو الرحمن الذي تفي رحمته وحده فيضاً على كل أمــور عباده غنياً عن ولد يُعينه في ذلك، وسبحانه عن مثال البشر الذين يمسّهم قصور ذواتهم وصفاتهم وقدراتهم حاجةً للابن والمعين. أما عيسى فهو مسئول يوم القيامة عن الــشرك بعــده ومُتــبرّئ منه. وأما الملائكة – الذين كان يذكرهم العرب من تراث صــحف أبيهم إبراهيم لكن نسوا في أمرهم الحقّ فهم عباد لله مكرمون بالقربى منه في

مــلأ الغــيب الأعلــى لا يُـــتلون بحجاب العالم المشهود كالعباد البشر، فلذلك لا يسبقونه ﷻ بالقول بل يستأذنونه أو يقفون قولهم على ما علّمهم ولا يعصون أمره بل يعملون طاعةً له، هو بهم محيط يعلم ما بين أيديهم من حاضر الوجود وما خلفهم من تحولاته ومصائره. ولذلك لا يشفعون لأفراد البشر تصريفاً لحياقم ومصائرهم إلا أيداً في الدنـــيا أو استغفاراً ودعاء أو إلقاء للتحية لهم في الآخرة لمن ارتضى الله من أولئك البـــشر وحـــسب. وهـــم في العبودية مثل البشر لكنهم فيها لوجه الله خالصون ومن خشيته مشفقون ولجلاله الأعلى قانتون، إذ لو ادّعى أحدهم ألوهية من دون الله للقي جزاء جهنّم. وكذلك لا يغفر الله لمن يُشرك به ويجزي الظالمين من عباده البشر لاسيما من ادّعى الربوبية العُليا تسلّطاً وسلطاناً وملكاً على الناس أو الألوهية ولو أدنى من الله قوّة روحيّة تصرّف أمر بني الإنسان شراكةً مع الله أو تقريباً لهم إليه زُلفى، يَلقى جهنّم جزاءً.

إن في الـــسماوات والأرض لآيات لله الواحد الخالق الناظم لكل شيء مشهود. والـــذين كفروا لم يتدبروا ولا تفكّروا في نهج خلق السماوات الأرض، لو تحرّوا فيها وبحـــثوا لأدركوا أنها كانت رتقاً إذ هي كلها من طبع واحد وفتقها الله نجوماً وشمساً وبروجاً وأرضاً وقمراً مما يشهدون. إن الحياة كذلك في الكون المخلوق من طبع واحد أصلُها الماء. ذلك حق جليّةٌ بيّناته لا يؤمن بها كثير من المخاطبين بكتب الرسالات التي تذكّـــرهم بالحـــق فيما يريهم الله من تلك الآيات. وكذا يرى نظر الإنسان لو مسح طبـــيعة الأرض وتدبّرها – يرى الجبال راسيةً فيها لئلاّ يميد فراش الأرض ببني الإنسان القـــائمين عليه قراراً مَهْما يموج باطنها سائلاً ملتهباً، ويرى بين الجبال الوديان واهدة فجاجـــاً سبلاً يسلكها بنو الإنسان السّاعون فوق الأرض المُتّخذون مسالكها تلك بين معـــالم عواليها علامات لهدايتهم وجهةً حيثما تولّوا. ومن تلك الآيات المرئية أن آفاق الـــسّماء تقوم فوق بني الإنسان محفوظة لا تتهاوى عليهم ولا تضطرب فوقهم النجوم والأبـــراج. ولكن هذا السكون المستقرّ المنتظم لا يدعو بعض المخاطبين بآيات الله إلى الإيمان المطمئن بوحدانيته وإحاطته بخلقه المنظوم بل يدعوهم للعجب القاصر غفلةً عن حكمة السّنن فوقهم وإعراضاً عن مغزى نظامها آيةً لله. والله خلق الليل ظلاماً ساكناً

يـــسكن فـــيه وينوم ليرتاح الإنسان، والنهار ضوءاً لينطلق بهدايته ويضرب في الأرض ليعـــيش، وهـــو ﷻ خلق الشمس يراها الإنسان تشرق له فتضيئ ظلمات ليله بنهاره خلفـــةً كلّ يوم، والقمر يطلع غالب لياليه بنور مثل النجوم وأظهر، وكلاهما وما يبين باللـــيل من نجوم وراء القمر في فلك ومدار يليه في آفاق الفضاء، يَسبَحون فيه بتوازن قُوى الجاذبية لا بعَمَد أو سند مادي محسوس بل بسنن معقولة.

وفـــضلاً عـــن آيات الله في سنن تاريخ الرّسالات الدينية المشروعة من الله وما جرى للمرسلين بها وللأقوام المخاطبين بيّنات متواترة للحقّ الأكمل في شأن الله، وعن آياته سنناً مطبوعة في الكون المشهود، آيات متوافقة متصادقة على وحدانية الله ونظام خلقـــه وبـــسط نعمائـــه لعباده البشر - فضلاً عن ذلك لله آيات في تصريف وجود الإنـــسان عـــبر الدهر سنناً منظومة يراها المتبصرون، منها دورة خلق الإنسان كدورة الفلـــك غـــروباً فشروقاً ودورة النبات موتاً فنباتاً، كذلك الإنسان من عدم إلى حياة ختامها المشهود وهو الموت صيرورة لازمة. وما جعل الله لبشر من قبل الرسول الخاتم الخلـــد تبدّلاً لتلك السُنّة، فهو صائر في حياته إلى خاتمة موت، وقد يتربّصه الكافرون برســـالته تمنّياً لموته لينتهي أمرها الذي يُنكرون، وكيف يصوّبون نحوه ذلك التمنّي، إن مات هو هل هم الخالدون ليسعدوا براحة خالفة صارفة لهم موهم هم أبداً؟ كلاّ، هم إلى صـــيرورة بعد الحياة سواء مثله، الحياة كلها بلاء تتقلّب فيها الواقعات والظروف العارضـــة على الإنسان امتحاناً له ليقدّم كسبه، ثم إلى الله المرجع لتنختم دورة الحياة الدنـــيا بالآخرة مأوى الجزاء وحيث تستقر دورات زمان الوجود إلى قرار وخلود في أزل. إن الـــدعاة لـــدين الله الحق يتعرّضون من المُعرضين عنهم لسوء التمنّي لهلاكهم قـــضاء علـــى منبعث التجديد الحقّ، ولاتخاذهم هزؤاً حيثما رأوهم قائمين في مجتمع الحـــياة إذ يطالعونهم رموزاً لتلك الدعوة، ذلك مثل ما جرى للرسول الخاتم. لا يرى المُعرضـــون في الـــدعاة للحق إلا أن تحقّ الإشارة إليهم عيناً والتساؤل عنهم: أهؤلاء الـــذين يذكـــرون المقدّسات العرفية من آلهة غيب أو هوى بغير التّسليم لها التقليدي المعهـــود؟ يـــستهزئون بذلك بينما هم كافرون بذكر الله الأحد الصّمد ومعرفة اسمه الـــرحمن المـــتعالي بفيوض رحمته الباسط كل نعمائه للعالمين. ودعوة آجل الغيب التي

تحملـــها رسالة الدين تهيّج فيهم أيضاً خُلق العجلة المفطور في الإنسان، حيث يبلُغهم وعـــد الله أن ســـيُريهم آيات بعثه لهم بعد الموت بين يدي يوم الحساب المقترب إليهم كـــل يـــوم في حياتهم يقتضيهم ألا يستعجلوه بل يجتهدوا ويعدّوا له زاد الإيمان المزداد والعمـــل الـــصالح. لكنهم في ريب وتساؤل: أن متى هذا اليوم الموعود إن كان الدعاة المـــنذرون بـــه صادقون؟ يا حسرة عليهم، لو يعلمون أنه حين يأتي ذلك اليوم ويحقّ عليهم فيه السؤال فالجزاء والعذاب الذي يأخذهم مُحيطاً دائماً، حينئذٍ لا يكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا يجدون نصيراً يقيهم وقع العذاب. إن ساعة ذلك الـــيوم - مهما يستبعدها المفتونون في الدنيا بمرور الزمان بهم ممتداً آمنين - حين يحين أجلـــها المـــسمّى عند الله وحده تأتيهم بغتةً فتبهتهم فلا يستطيعون ردّها ليستمروا في متاع دنياهم الممدود ولا هم يُنظرون أن يطلبوا تأخيرها ولو لأمد قريب مهلةً ليتهيأوا فيها بما يقيهم سوء الحاقّة التي رأوها عين اليقين بعد أن كذّبوا وعيدها. إن من عظات ســـيَر الأولـــين أن قد استُهزئ برسل ودعاة إلى الحقّ قبل الرسول الخاتم لاسيما حين أنـــذروا قـــومهم بيوم هلاك عاجل موعود لكنهم تمادوا معرضين، وأن قد حاق فعلاً بأولـــئك الذين سخروا ما كانوا به يستهزئون، فوعد الله صادق لا يتخلّف عاجلاً في الدنيا ولا آجلاً في الآخرة.

وإذ يغفـــل الدّنـــيويون الكافرون بالغيب والأزل عن رعاية ربهم الرحمن بهم في حاضـــر حياتهم، فلولا سُئلوا: من يكلأهم بالليل والنّهار إن سبق غضب الرحمن رحمته وحـــقّ علـــيهم عذاب واقع؟ لكنهم يمضون غافلين عن كل أقدار الغيب مُعرضين عن ذكـــر ربّهـــم العزيز الرّحيم. أم تُرى لهم آلهة من الأرض تمتعهم بالصلاح وتمنعهم من الضرّ دون أقدار الله إن حقّ تنـــزُّلها لهم أو عليهم بقضاء. وإنما آلهتهم المنصوبة أصناماً مقدســـة جامدة عاجزة خلقُ لله لا يستطيعون نصر أنفسهم من أذى حقّ به قضاء الله ولا هـــم يُـــصحبون بجنود روحيّة فاعلة تدرأ من قدر الله. وإنما يمدّ الرحمن لعباده سير وجهة حياتهم الذي يتخيّرون ميسّراً لهم ولو كفروا وطغوا في ضلال مذاهبهم وغرور معتقداتهم وإيثار العُسرى في وجه الحياة. فقد متّع الله قبلاً الآباء الذين مضوا على ذلك حتى طال بهم العمر فأغراهم ذلك المدّ بالغفلة عن أقدار الغيب الموعود والعاقبة المنظورة

وتمـــادوا في ســـبيل المـــتاع المنسلك. ولو كانوا يتدبّرون عظات التاريخ لرأوا منظور عواقب تصاريف الابتلاءات ولتذكّروا أقواماً كانت تنقص الأرض عليهم من أطرافها ويُغلـــبون بحصرهم. وقد يأتي عليهم وقع قدر المهالك الغالب أو مدّ دين الحق الظاهر. أينـــسى ذلك الخَلَف ويظنون أنهم هم الغالبون في الأرض أبداً المنتصرون على كل قدر إلا مـــا يُرضي متاعهم وعلى كل دين ألاّ يظهر على باطلهم أبداً. الدعوة الحقّ لأمثال هـــؤلاء هي مثل ما أوصى به النبـــي الخاتم أن يؤذِن قومه بأنه نذير لهم بوعيد جاء به الوحـــي مـــن عالم الغيب يصدّقه أمر الله المفعول. ذلك هو الخطاب الحقّ صُمّاً يكن الغافلـــون مما لا يسمعون الدعاء والنذير. إنهم حين يحقّ عليهم الوعيد إن مسّتهم نفحة من عذابه الموعود ليدركُنّ يومئذٍ علم اليقين ويرون عينه وليعلمنّ صدق دعوة المنذرين ولـــيقولنّ يا ويلهم هم إنهم كانوا ظالمين إذ تمت كلمة الفصل عليهم معذبين، ولات ســـاعة مندم. ويوم القيامة يضع الله بأقدار عدالته العليا الموازين القسط للحساب فلا تُظلـــم نفـــسٌ شيئاً إذ هو حفيظ عدل لا يُضيع حسنة ولا يغفل عن سيئة من كبائر الكسب من مجاهدات أو فواحش أو صغائر، طيبات أو لمماً، وإن كان مثقال حبة من خـــردل يومئذٍ يكون أن أتى الله بها، يشهد المرسلون بسابق التبشير والنّذير الذي بلّغوا وترصد الكتبُ والملائكة وقائع الأقوال والأفعال وتتواتر شهادة الإنسان بكل جوارحه علـــى نفـــسه ويـــرى الله باطن نيّاته بصيراً بها خبيراً، وكفى ذلك من أمر الله حاسباً لكسب الإنسان حصراً وعدلاً. وكل ذلك حق آت، ولولاه لمضت الحياة الدنيا تجري فـــيها المظـــالم عفواً وتسقط صالحات الأعمال سُدىً دون حياة أخرى تكافئها قسطاً وتـــوافقها عـــدلاً فتتم استقامة الوجود. ولولا إيمان بني الإنسان بذلك الغيب لما اتّقوا عوج سلوكهم وقوّموه فوراً ولما دفعوا الصلاح في حياتهم إلا خوفاً من عواقب الآخرة التي آمنوا بها ورجاءً للنجاة والسعد الخالد فيها.

ترتيل المعاني (الآيات ٤٨ – ٩٥):

﴿وَلَقَـــدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (٤٨ – ٤٩)

ذكــر الله في القــرآن الهادي إلى توحيد الله المُنذر من عاقبة الظلم والإشراك والذي تنــزّل وحياً على الرسول الخاتم المبعوث لأول الخطاب إلى العرب على سنّة رسلٍ من قبله يُصدّق الذّكر القديم ويستمدّ من هديه علماً لقومه ويتعرّض لمثل السخرية والتكذيب الذي تعــرّض لــه سلفه – ذلك الذكر إنما تلا الرسالة إلى بني إسرائيل التي كان أثرها شائعاً في الــثقافة حــول العــرب، إذ آتى الله بأقدار اصطفائه للرسل ووحيه – آتى موسى وأخاه هــارون الــذي يــأزره ويعاضده عليهما السلام – آتاهما التوراة، الفرقان المائز بين الحق والباطل، وضياءً يُخرج المخاطبين المستبصرين به من ظلمات إلى نور وذكراً للمتقين الذين يــرعون حــدود الله إذ يخــشون ربّهم بالغيب الرقيب عليهم الذي يؤاخذهم إن تجاوزوا هدايــته فيعاقبهم[1]، وهم من ثَم من الساعة مشفقون إذ تقوم القيامة فيبعثون وتقام عليهم مــوازين الحــساب بالقسط، خوفاً أن يُقضى عليهم بالجزاء إذ تخف موازينهم فيُزفّون إلى الــنار مأوى الظالمين وحذراً حتى يرعوا تقوى الله ويلتزموا دقائق الطاعة لأمره ونهيه لتحقّ لهم الجنّة مأوى، فهم في همٍّ وحذر موصول من نذير السّاعة وأهوالها.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ (٥٠)

ســبق ذكر الصّحف الأولى لموسى وهارون، وهذا القرآن التالي تصديقاً وتجديداً ذكر مبارك كثير الخير تتوافر به الرحمة والهداية، أنــزله الله بأقدار علمه وهداه مدّاً من أمّ الكــتاب الــذي توالت منه كتب مُنــزلة إلى قرون من عباده حملها أمانةً رتلٌ من رسله. وهو يُخاطب الأمة الحاضرة العربية لأول وقعه، والسؤال لهم – إنكاراً لمذهبهم في الاســتجابة لخطابه: أفهم له منكرون؟ ويشهد عليهم فضلاً عن صدق آياته وبالغ حكمــته أنه يأتي على سنة تنــزيل الذّكر من الوحي قبلاً فيما يسمع العرب، فكيف يُنكرونه معرضين لاسيّما أن اليهود والنصارى حولهم يدّعون التمسّك بالكتاب الذي أُنــزل إليهم وتوارثوه هم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١)

وينضاف ذكر الأصل الجامع نسباً لمرسلين وملّةً لرسالة الصحف الموحاة أن لقد آتى الله حقاً بأقدار اصطفائه ورحمته وهداه – آتى إبراهيم عليه السلام رشده من قبل موسى

(١) في ذكر موسى ورسالته وسيرة قومه: راجع الحاشية ٢٣ للآية ١٧١ سورة الأعراف.

وهارون والرسول الخاتم، إبراهيم[1] الذي كان ضالاً في بيئة أمته المشركة لكنه اجتهد باحثاً عن الهدى والطمأنينة عبر المشهودات الأفقية المعبودات عرفاً حتى بلغ الهدى الأتمّ ونفـــذ إلى معـــرفة ربّه الواحد وآتاه الله رشده وهداه إلى عين الحقّ بسعيه هو المبارك. وكان الله بأقداره الجليلة رعاية لعباده ورقابة وإحاطة – كان عالماً به وبسعيه داعياً نحو الهدى تحرراً من الضلال، ومجاهدة لتقاليد الإشراك بهدى الملة الحنيفيّة.

﴿إِذْ قَـــالَ لأَبِـــيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (٥٢ – ٥٣)

تلك المجاهدة هي إذ قال إبراهيم لأبيه خاصة ولقومه عامة متطهراً من جاهليتهم الـــضالّة – قـــال لهـــم: مـــا هذه التماثيل المنصوبة أصناماً في معابدهم تصوّر أرواحاً مقدّســـة – التي هم لها عاكفون يطوفون عليها مواظبين ويقعدون عندها مصوّبين كل أذكـــارهم وعبادتهم نحوها؟ قالوا له مجاوبين عن طمأنينة سؤاله المستنكر – قالوا إنهم وجدوا آباءهم لتلك التماثيل عابدين، فهم يمارسون ما تأسس على عرف موروث من سلفهم خاصة يتّبعونهم بمحض التقليد.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ (٥٤ – ٥٥)

قـــال موسى لقومه يردّ حجتهم العرفية التراثية، يخاطبهم أن لقد كانوا في ذلك الماضـــي الموصول بحاضرهم هم وآباؤهم – كانوا جميعاً في ضلال مبين، ضياع للهدى وتـــيهان عـــن طريقه وفراق واضح. قالوا له يجادلونه: أجاءهم بالحقّ جَدّاً أم هو من اللاعبين؟ لعلّه يداعبهم بكلمات عذل عفوية تمسّ أعرافهم الموقّرة وآلهتهم المقدسة.

---

(١) في ذكـــر إبراهيم مفصلاً في قومه الضالّين حتى نجاته وذكر ملته وسنته وذريته: راجع الآيات ١٢٤ – ١٤١، ٢٥٨ و٢٦٠ ســـورة البقـــرة، والآيـــات ٦٥ – ٦٨، ٩٥ – ٩٧ سورة آل عمـــران، والآيات ٧٤ – ٩٠ سورة الأنعام، والآية ١١٤ سورة التوبة، والآيات ٦٩ – ٧٦ ســـورة هـــود، والآيات ٣٥ – ٤١ سورة إبراهيم، والآيات ٥١ – ٦٠ سورة الحجر، والآيـــات ١٢٠ – ١٢٣ سورة النحل، وانظر الآيات ٦٩ – ٩١ سورة الشعراء، والآيات ٨٣ – ١١٣ ســـورة الصافّات، والآيات ٢٦ – ٢٨ سورة الزخرف، والآيات ٢٤ – ٣٠ سورة الذاريات، والآيتين ٤ و٥ سورة الممتحنة.

﴿قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ الَّذي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلكُمْ منَ الشَّاهدينَ * وَتَاللَّه لأَكيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْه يَرْجِعُونَ﴾ (٥٦-٥٨)

قال موسى لقومه إنما يقولُ الحقّ الجدّ، ما هو بلاعب مازح ولا هم على الهدى، بل ربّهم ربّ السماوات والأرض الذي فطرهنّ، ربهم الحقّ هو الذي فطرهم ورعاهم وهو الذي خلق الكون من حولهم وهدَى سننه المطبوعة، إذ أخرج أصل السماوات والأرض وأبدعهنّ من العدم، وأكّد موسى لهم مذهبه أنه من الشاهدين الذين على بيّنة من ذلك الحقّ في توحيد الربوبية ونفيها عمّا عهدت تقاليدهم الضالّة، وليبلّغهم شدّة جَدّه وعهده لله وحده ويُحقّ متثبتاً رفضه لآلهتهم التي يعكفون عليها موقّرين عابدين، أقسم لهم بربّه أن تالله ليكيدنّ أصنامهم، ليدبّرنّ أمراً لها أذىً وضرّاً بالغاً بعد أن يولّوا هم مدبرين عنها بقولٍ منه يُفزعهم، ليروا واقعاً هل تدفع عن نفسها إن فروا هم وتركوها لابتغاء سلامة لهم كانوا يظنونها من تلك الآلهة ذات القدرات والقوى الغيبية المُعزّة لها النافعة لهم. فجعل تماثيلهم جُذاذاً مكسّرة فتاتاً إلا كبيراً بينها فيما كان يرى أولئك الضالّون، لعلّهم إليه قائماً يرجعون يكلون إليه ما جرى أو يستشهدونه على الفاعل.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمنَ الظَّالمينَ * قَالُوا سَمعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِه عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (٥٩-٦١)

تداولت بينهم الأقوال بداعية مما أصاب معبوداتهم. قالوا متسائلين عن الفاعل بها ذلك التخريب: من فعل هذا بآلهتنا؟ وحكموا عليه: إنه لمن الظالمين فيما جنى راسخاً في الظلم. وتذكّر بعضهم مقولات إبراهيم المتقدّمة في آلهتهم ونذيره بالكيد لها ما تولّوا غائبين، قالوا سمعنا فتىً شاباً يذكر تلك الآلهة بسوء يقال له اسماً إبراهيم، وأجمعوا عندئذ على أخذه بذلك الاتهام. قالوا فأتوا به على أعين الناس في بيت الأصنام لعلّهم يشهدونَ ملأً مساءلته ومحاسبته.

﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ﴾ (٦٢-٦٥)

قـــال قوم إبراهيم يسألونه متهوماً يخاطبونه ليُحاكم: أهو دون غيره فعل هذا بآلهـــتهم، يدعونه باسمه ليُجيب سؤال التحقيق. قال إبراهيم يصرفهم عما تقتضي عقـــيدهم الضالة لعلّهم يجدونه باطلاً فيهتدون - قال - كأنه لم يفعل ما يشتكون من ضرٍّ بآلهتهم: بل فعله كبيرهم هذا! إذ كان عند القوم الأشد تعظيماً وقد بقي ســـالماً منتصباً، فليسألوهم - غير ما بقي منهم من جذاذ - إن كانوا ينطقون ببيّنة الحقـــيقة. فرجعوا إلى أنفسهم وبدا لهم سخف مذهبهم إيماناً بآلهة جامدة لا تضرّ نفـــسها، وكـــبيرها بعـــد خرابها لا ينطق، وراودهم لمحة هداية نحو ما ساقهم إليه إبراهيم في قلب رواية فعله وصرف طلب الجواب على التهمة ورجاء الاعتراف نحو كبير آلهتهم.

فقالـــوا لأنفـــسهم إنهـــم هم الظالمون الذين يعدلون عن مستقيم مذهب الحق ويـــتجاوزون العدل في التبرّؤ من عبادة الأصنام ومن الظنّ أنها ذات حول وقوة قدسية وتوحـــي بالحقّ إليهم. ثم نُكسوا على رؤوسهم - بعد عارضة هداية وتوبة - انقلبوا مرتدّين - ليركبوا رؤوسهم لا ليسيروا قواماً، وقالوا له إنه لقد علم عن بيّنة ماضية أن ما هؤلاء - صحيحهم وكسيرهم الذين عدّوهم هم عقلاء بصيغة الإشارة إليهم - ما كانـــوا ينطقون خطاباً للعُبّاد بين أيديهم. وهكذا قلبوا الحجة حرساً غيورين لآلهتهم على أنفسهم عُبّاداً لها لقوتها الغيبية العليا.

﴿قَـــالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (٦٦ - ٦٧)

قـــال إبراهيم مجاوباً لكلامهم الذي لا يعبّر إلا عن ضلالة وسفه - قال يخاطبهم: أفيعبدون من دون الله مثل هذه الآلهة الصمّاء العاجزة، ما لا ينفعهم شيئاً ولا يضرّهم. يذكّـــرهم أن العابد لله القادر المتعالي حقاً يرجو من ربّه النفع ويسأله أن يقيه الضرّ من دونـــه ويـــستعيذ بـــه من الغضب والضرّ من ذاته ﷻ وهم يصوّبون العبادة والرجاء والخـــشية إلى منكرٍ حقَّ أن يُسألوا عنه لاسيما بعدما شهدوا من انحطام الآلهة العاجزة وانـــبكام كـــبيرها عن بيان الحق. ومضى إبراهيم يُعبّر عن ضجره منهم وإنكاره لهم واحـــتقاره لما يعبدون، يُخاطبهم: أن أُفٍ لهم ولما يعبدون من دون الله الأكبر العليّ،

أفــلا يعقلون ضبطاً لهيمنة التقاليد الجاهلية عليهم حتى ينطلق وعيهم وفكرهم السديد فيعقلون في وجدانهم الحقَّ خالصاً وهم راشدون.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨)

قال قوم إبرهيم متواصين أن يحرّقوا إبراهيم ناراً وينصروا آلهتهم – التي لا تنتصر لنفــسها، وأكّدوا لزوم نفاذ ذلك التواصي أن يمضوا فيه إن كانوا صدقاً فاعلين، لئلا يُتّخذ محض ملام بوعيد التهديد لا يُنجز.

﴿قُلْــنَا يَــا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ (٦٩–٧٠)

هــنالك أدركــت إبــراهيم عليه السلام رحمة ربه، إذ يقول الله إنه قال للنار يناديها ويأمــرها بأقــدار قضائه وإرادته أن تكون برداً لا حرقاً وسلاماً لا هلاكاً لإبراهيم. كــذلك انــصرفت النار عن ابراهيم إذ وقاه قدر الله أن لم يدخله قومه فيها فعلاً وإن أعــدّوها قــصداً عمــداً. هكذا انضاف إلى واقع حياة إبراهيم أن أراد به قومه كيداً حسبما جاء به الوعيد الذي همّوا بإنجازه ضرّاً مدبّراً فرتّب الله على ذلك بأقداره الأنفذ الأفعل أن جعلهم هم الأخسرين الأبلغ خيبة إذ لم يُفلح كيدهم.

﴿وَنَجَّيْــنَاهُ وَلُــوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُــوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (٧١–٧٣)

وتــوالت رحمة الله على إبراهيم عليه السلام ومن يليه. نجّاه الله بأقداره الجليلة التي غشيت رحمــةُ النجاة بها أيضاً وليَّه في الدين وابن أخيه لوطاً، أنجاهما الله من العراق أرض الضلال إلى الأرض الــتي بــارك فيها بأقداره التي أفاضت عليها الخضر المتوافر والعمار. وكذلك وهــب الله بأقــداره في مدِّ الذريّة الطيبة خلافة عقب لعباده الصالحين – وهب لإبراهيم إســحق ابــناً وتــلاه ابنه يعقوب حفيداً لإبراهيم، كل ذلك كان نافلة بركة زائدة ملحة لإبراهيم وقد تقدّم عمره وزوجه عجوز عقيم وولدا إسحق ومن ورائه يعقوب.

وكــلاً مــن ابراهيم ولوطاً ومن بعدهما إسحق ويعقوب جعل الله بأقدار هدايته وتوفــيقه عِباداً صالحين يصدُق إيمانهم بعمل الصالحات في أعمال حياتهم. بل جعل الله

أيضاً بأقدار إيراث الصلاح في العقب - جعلهم أئمةً يؤمّون من وراءهم قيادةً مقاصدَ دعـوة وأعلام أسوة، يهدون بأمر الله، يسوقون الخَلف من الضلال إلى الهُدى في ضوء أمر اللهً المتنـزّل وهدايته ووصاياه الموحاة التي يكلّفهم بها ويأمرهم ببلاغها رسالةً لمن يليهم. وأوحى الله إليهم بأقدار إبلاغهم وإلهامهم الهُدى فعلَ الخيرات من فضائل الحياة وإقـام الـصلاة يؤدونها بوجه قويم موالاة في أوقاتها وإخلاصاً في أذكارها وصدقاً في أفعالهـا صـلة وثيقة بالله تصرف عن أولئك العباد غواشي الغفلة وفتن الدنيا التي قد تقطعهـم عن تذكّر الله. وأوحى الله إليهم إيتاء الزكاة بسطاً لعفو الرزق إلى المحتاجين إن كان خصماً على كسب المعطي فهو فضل ومورد أجر يُزكّي نفسه ويزيد كسبه في جملته وآخـرته. وكانـوا بذلك الصلاح والخير وتلك الطاعات بذلاً لأوقاتهم في سبيل ذكر الله صلاةً، ولكسبهم في سبيل الله زكاةً - كانوا لله بأسمائه الحُسنى وبرحمته وبركته عليهم حـياةً ورزقاً، وهدايته ونعمته نجاةً لهم من قوم إبراهيم الأولين وفتحاً لهم إلى الأرض المـباركة، وتمكيناً في تعاقبهم وفيمن يؤمّون لتراث الهدى - كانوا لله عابدين موقّرين رباً، وشاكرين حامدين مُنعماً، وخاشعين حافظين نحو شعائر الذكر والتعبّد والطاعة.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (٧٤)

وفضلاً عمّن آتاهم الإمامة الهادية العابدة آتى الله بأقدار اصطفائه وتزكيته لعباده لـوطاً - آتـاه حكماً من الرّشد الذي يتنـزّل على البلاءات فيضبطها هدىً وتقوى وحكمـة، وعلمـاً من أنباء الغيب ومسالك بيّن الحياة القويم. ونجّاه الله بأقدار ابتلائه ورحمـته مـن القرية التي كانت تعمل الخبائث، سدوم التي فشت فيها فاحشة إتيان الذكـور بين قومٍ حقّ عليهم أن تأتفك مواطنهم هالكة من إصرارهم على تلك السّيّئة إذ كانوا قوم سوءٍ خُلُقٍ في فعالهم فاسقين يتقنون الخروج على هدى الله فطرةً وشريعةً في تزاوج شهوة البشر ويُحكمون صناعة العصيان.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥)

وعـلاوة علـى نعمـة الحكمـة والعلـم أدخـل الله بأقداره رحماناً لوطاً في رحمـة الاسـتقامة الزكيّة مهما يفسق قومه وبلاغ رسالة الهدى إليهم مهما يُصرّون

والنجاة مهما يحقّ عليهم ويقع الهلاك. إنه حقاً من الصالحين مثل إسحق ويعقوب.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧٦-٧٧)

وينضاف إلى المرحومين صلاحاً نوحٌ، إذ نادى أن تُدركه رحمة ربّه في عهده السابق إذ أحاط به قوم آخرون ما أغنت رسالته فيهم هدى فحقّ عليهم هلاك طوفان. دعا نوحٌ ربّه عليهم كافّة ألا يذر على الأرض منهم ديّاراً، فاستجاب له الله بأقدار قضائه بعد النذير فأخذهم الطوفان. وإذ دعا ربّه أيضاً فتحاً بينه وبينهم ومغفرة ورحمة له ولذريته وللمؤمنين خاصّة، نجّاه الله بأقدار تصريفه للأسباب، تنجية استدعت تدبيراً لا نجاة سلامة وحسب دون الهالكين، ونجا الله معه - كما دعا - أهله من الكرب العظيم، بلاء الطوفان والمصاب العظيم الوقع على من حوله. وهكذا نصره الله بتلك الأقدار التي نجّته من القوم الظالمين الذين جادلوه وتحدّوه أن يأتي بوعيد النّذير إن صدق، فكان المنتصر الغالب في تلك المباراة بينه وبين القوم الذين كذبوا بآيات الله البيّنات الهادية التي ينسبها ﷻ إلى جليل ذاته وأسمائه وعظيم علمه وهديه. ويقضي الله عليهم أنهم قطعاً كانوا قومَ سوء مُعرضين بخلقهم عن حياة الصلاح والحسن، فحقّ عليهم بعد بيان آيات الهُدى والنّذير أن يعاجلهم العقاب فأغرقهم الله بأسباب تصريفه لمياه الأرض لا فيضاً نافعاً لعباده بل فيضاناً يأخذهم عقاباً، فغرقوا أجمعين لم يسلم حتى ذي القربى لنوح الذي ساء عمله فأعقبه هلاكاً في الغرقى[1].

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٨ - ٧٩)

---

(١) في ذكر نوح وقومه مفصّلاً: راجع الآيات ٥٩ - ٦٤ سورة الأعراف، والآيات ٧١ - ٧٣ سورة يونس، والآيات ٢٥ - ٤٩ سورة هود، وانظر الآيات ٢٣ - ٣٠ سورة المؤمنون، والآية ٣٧ سورة الفرقان، والآيات ١٠٥ - ١٢٢ سورة الشعراء، والآيتين ١٤ و١٥ سورة العنكبوت، والآيات ٧٥ - ٨٢ سورة الصافّات، والآية ٤٦ سورة الذاريات، والآية ٥٢ سورة النجم، والآيات ٩ - ١٦ سورة القمر، وسورة نوح.

وكذلك أسبغ الله رحمته على من تلا من ذريّة نوح وإبراهيم: داود وسليمان عند تمكّن دولة بني إسرائيل انتصاراً فإعماراً. بانت رحمة الله العليم الحكيم فيها إذ يحكمان قضاءً في الحرث والخصومة حول زرع الحرث إذ نفشت وانتشرت فيه بغير راعٍ ضابطٍ غــنم القوم فأكلته ووقع الخصام في ردّ الضرّ المظلمة مفاصلة بين خُسران ذلك الزرع ضــراً والغــنم التي تغذّت منه كاسبة لأهلها. ويقول الله سبحانه بأقداره الجليلة ابتلاءً لعــباده ورقابة على أعمالهم: إنه كان شاهداً لحكمهم هما والمتحاكمين في الأمر كلٌ حكَــم بوجه من الفصل بين الخصمين. ففهّمها الله سليمان وألهمهُ التي هي أحقّ من المحكمة بين الخصمين بيّنة للضر والمكسب بينهما وقضاء بالحق الأعدل. إذ كان داود قــد قــضى يــنهما أن تؤول الأغنام إلى صاحب الزرع عوضاً وجبراً للضر، وراجعه سُــليمان أن يحــوز صاحب الزرع الغنم عاماً يأخذ كلّ كسبٍ منها ويُصلح صاحب الغنم الحرث الذي أخرته غنمه ويُردُّ كلٌ إلى صاحبه بعدئذ. وكلاً من داؤود وسليمان آتاه الله بوسع مختلف كمّاً وعلماً مدّاً متفاضلاً من كتاب حكمة الله وعلمه كما يُؤتِي عــباده ويُفاضل بينهم ابتلاء في العلم والحكم والرزق واليسر وغير ذلك من نعم الحياة وقــدرات الإنــسان، فلكلٍ كسبه من الاجتهاد في تقويم الوقائع والحكم بالفصل بحقّ كمــا لكل عبدٍ لله كسبه في حظه من البلاء. والنبيّان تحرّيا الحقّ في الحكومة مجتهدين مخلــصين في القــيام بالقــسط لكــن الله بأقدار عطائه فهّم سليمان مغازي الوقائع ومقتضيات العدل بهدى الحق وأوفق حكمٍ يتنــزّل عدلاً في عين الأمر المُتخاصَم عليه بما هو الأوفق بالمختصمين.

وتجلّت رحمة الله أيضاً على داود إذ تباركت له أقدار الله عوناً على بلاغ رسالته وإحقــاق حقها في سيرته، سخّر الجبال إذا انطلق لسانه يجهر بتلاوة آيات الله المنظومة وبتــسابيحه وأذكــاره لله المنغومة – سخّر الجبال تتداعى معه ترداداً لأصداء ما يقول بوقــع جليل مدّه مُحيط بمن حوله من السّامعين المخاطبين، وكذلك الطير سكنت من عظيم صدى التلاوة والذكر، الجبال يُسبّحن مع داود إذ تستجيب لأقدار الله مطبوعة على الخشوع لأحكامه العُليا، وكذلك الطير بما طبعه الله عليه، كلها تتجاوب طبعاً مع داود الــذي يــتلو ذكر الله ويسبّح بحمده طوعاً. وكان الله بقدره الماضي في تصريف

واقعات مخلوقاته - كان فاعلاً بفعل تلك الأقدار والسنن المنسوقة بمشيئته تعالى شرعاً وطوعاً وطبعاً كرهاً نافذة في الكون - في داود وحوله.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٠)

وفضلاً عما سبق ذكره رحمةَ حكمٍ وعلم وهداية للناس وتوافق مع البيئة الطبيعية، علّم الله بأقدار تصريفه لموادّ الوجود وأسبابه وأم كتابه للعلم المُطلق - علّم داودعليه السلام صنعة لبوس من دروع الحديد، كيف يُليّن الحديد ويسبك صفائح الدروع ويقدّر سرد تراكيبه وحلقه وفصائله[1]، ومضت سنة تلك الصناعة متوارثة، فالله ينسب تعليم داود لذاته سبحانه عليماً مقدراً، ويُخاطب أمة الخطاب بالقرآن أن اللبوس الواقي في القتال من الضرب بالسلاح المعهود قد بلغهم مثله، فهو لبوس لهم جعل الله فيه صناعة مسنونة لتُحصنهم من بأسهم في القتال، ويسأله سبحانه وتعالى من ثَمّ: هل هم شاكرون لله في تبصير سلفهم بتلك التدابير النافعة لهم خلَفاً؟

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (٨١)

وتجلّت رحمةً لسليمان عليه السلام أيضاً آتاه الله بمدد نعمائه الريح عاصفة شديدة الهبوب تجري غادية رائحة بالسفن التي يتخذها بأمره حاملة للتجارة إلى الأرض من مملكة بني إسرائيل التي بارك الله فيها زرعاً وعماراً ونتاجاً وغنى، تجري تبادلات السلع وتنقلاتها منها وإليها. ويذكر الله أنه كان - حقاً ماضياً في الوجود - بكل شيء من نعم النتاجة والتجارة وما يعينها عالماً هو بأقدار إحاطته بأمور الكون وأبعاده الواسعة.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (٨٢)

وانضاف لرحمة الله أن سخّر لسليمان عليه السلام طائفة من الشياطين- جناً هم أفعل من عمّال البشر، بعُدوا عن طاعة الله فحملهم بأقداره أن يُجنّدوا لخدمة سليمان. جعل الله منهم من يغوصون له في أعماق البحر يستخرجون اللؤلؤ والمرجان ونحوها،

---

(١) انظر الآيتين ١٠ و١١ سورة سبأ.

ويعملون عملاً دون ذلك إذ هو أيسر، من البناء والصناعة[1]. وكان الله – قدراً ماضياً بقـــواه المحيطة – لأولئك الشياطين المسخّرين لسليمان حافظاً بأقداره الواسعة الضابطة لمخلـــوقاته مُقـــرّنين لا يفلتون شاطنين من أمر سليمان وتكاليف خدمته المُرهقة وإن فسقوا من طاعة الله التي كانت قد فُرضت طوعاً لا كرهاً كطاعتهم لسليمان.

﴿وَأَيُّــوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (٨٣ – ٨٤)

وأدخـــل الله في إطـــار رحمته من بعدُ طائفةً من خَلَف الأنبياء، لا داعين لقومهم تذكيراً للمخاطبين كموسى وهارون أو مجادلة أيضاً بالحق ومكايدة لباطلهم ومصابرة كإبراهيم ولوط ولا إمارة أيضاً وحكومة وصناعة وتجارة كداود وسليمان، بل صابرين بعـــد الدعـــوة علـــى مـــا يُصيبهم هم في أنفسهم من بلاء. وأول مذكور من هؤلاء المـــرحومين: أيوب (جوب) وهو الخامس ذرية لإبراهيم وفي أمره سفر في العهد القديم مـــن الكتاب المقدّس. ذلك إذ نادى ربّه أنه مسّه الضرّ وغشيته العلّة وخاطبه أنه تعالى أرحـــم الـــراحمين إليه خير ملجأ وأرجى استعانة في سبيل العافية. فذكر الله أنه بأقدار رحمته المسعفة كل مضرور أتْبع ذلك الدعاء بالاستجابة له، فكشف ما بأيّوب من ضرّ إذ رفـــع وقعه وأنـــزل محلّه العافية. وبارك الله بأقداره الفيّاضة خيراً لعباده: أن أضافَ إيـــتاء أيـــوب أهلَه حافظاً لهم لا يفقدهم لعدوى مرضه تصيبهم أو لهجرتهم نفوراً مما أصابه أو مما قد يؤذيهم، ومثلهم معهم إذ تضاعف عدّ أسرته. كان ذلك رحمة من الله وخـــصوص عنايته المتصوّبة على أيوب، وكان أيضاً ذكرى للعابدين، سابقة يذّكرها العابـــدون لله تُذكّـــرهم عبرتها أسوةً للخلَف بأن الله لمن رسخ في حال عبادته قريب برحمته مستجيب لكشف بلاءات الضرّ التي تغشاه في الحياة[2].

﴿وَإِسْــمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٥–٨٦)

---

(١) انظر الآيات ١٢ – ١٤ سورة سبأ.

(٢) في ذكر أيّوب مفصّلاً: انظر الآيات ٤١ – ٤٤ سورة ص.

ومن زمرة الأنبياء المبتلين في أنفسهم الصابرين المستغيثين برحمة ربهم: إسماعيل بن إبــراهيم علـــيهما السلام، مهاجراً به أبوه إلى مكة غريباً مع أُمه في وادٍ غير ذي زرع وكـــاد يذبحـــه أبـــوه عند رؤيا منام. ومنهم إدريس في طائفة المبتلين من بني إسرائيل بالحملة البابلية، وذو الكفل – حزقيال – هكذا سمّي عربياً لأنه كان يلبس رداء كفلاً أو لأنـــه انتسب إلى احتمال البلاء وتكفّل الصبر وقد أصابه الأسر والصمم والضرّ في بابل في زمرة أسرى بني إسرائيل المنفيين فيها من بختنصّر، وسفره في التوراة فيه عظات التوبة ورجاء العودة إلى إسرائيل، ومدفنه في (كفيل) بالعراق.

كـــل أولئك الأنبياء ابتلوا لكنهم كانوا من الصابرين الثابتين على خالص دينهم المـــوحّدين لله مرجعاً عند الحاجة. وأدخلهم الله بأقدار عطائه العظيمة الفعّالة في رحمته بأبعاد صفات الله الرحيم. وتلك أوبة من الله إليهم أوّابين إليه إذ كانوا من الصالحين لم ينفتنوا لضغوط البلاء فتفسد سيرتهم بل استقامت ورسخت صلاحاً.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ أَنْـــتَ سُـــبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧ – ٨٨)

وفي سياق الزمرة الصابرة الصالحة من الأنبياء المُصابين في أنفسهم الذين أدركتهم رحمة الله، ذكر الله ذا النون، يونس بن متّى من قرية نينوى بالموصل، إذ ذهب مناصباً قـــومه المعرضين عن دعوته أراد أن يهجرهم غاضباً عليهم ويترك الدعوة قانطاً منهم، فظـــنَ أن ســـيترتّب على إدباره ذاك من ضيق علاقته بالمعرضين وأذاهم أن الله بأقدار رحمـــته لـــن يقدر عليه ضيقاً فيما يستقبل بل سيفتح له فرجاً منهم في أرضه الواسعة. ولكـــنه إذ همّ بركوب السفينة مسافراً أُدحض فسقط في البحر فالتقمه حوت، نون، كـــان هـــو في بطنه لا في فرج واسع كان يرجوه قبلاً، بل في ظلمات البطن والجسد للحـــوت والبحر المدلهمّ. فنادى ربّه في تلك الظلمات إذ تذكّره آيباً إليه، وخاطبه ألا إلـــه إلا هـــو سبحانه، لا معبود ولا متعلّق إلا هو لاسيما في ساعة الحرج تلك إذ لا ملتجأ إلا إليه ولا منجى إلا برحمته وقدرته سبحانه متعالياً على كل قدرة لمخلوق من عـــباده. وشهد يونس منادياً ربّه أنه كان – هو الذي ينبغي أن يستقيم عبداً لله – من

الظالمين، إذ عدا عن طريق الدعوة وأمانة الرسالة التي كُلّف بها وجنح إلى ما دعاه إليه ضيقه ببلاءاتها وغضبه من قومه المُعرضين عنها.

فاســـتجاب له الله بأقدار رحمته العظيمة المُدركة وجاوب نداءه بأن أتْبعه بالتنجية له بقوى قضائه الجليلة من الغمّ الذي كان فيه من ضيق الظلمات المتراكبة عليه وحذر الأذى المـــتفاعل في جسده من أسباب بطن الحوت الهاضم لما يحتويه، نجّاه الله من ذلك بأن قذفه الحوت معلول الجسد لكن سليماً. وكذلك - ذكرى وعبرة للعابدين - يُنجي الله بأقداره المتضاعفة رحمةً المتسارعة إدراكاً لمن دعته الحاجة خوفاً واستغاثة وحقت له الإعانة صلاحاً وســـلامة، يُنجي المؤمنين بالله الواحد عند اليُسر والعسر المسبّحين العابدين التائبين إليه بعد غاشيات الظلم منهم وبلاء الظلام حولهم في الحياة[1].

﴿وَزَكَـــرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْـــنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٨٩-٩٠)

وممـــن ابـــتلُوا في أنفسهم من الأنبياء الأئمة زكرياعليه السلام، إذ بلغ من العمر عتياً وخـــشي الموالي بعده أن يُضيّعوا تراثه، ونادى الله ناسباً له إليه ربّاً من قريب ألا يذره فـــرداً وهـــو تعالى خير الوارثين المتولّين عاقبة عباده باقياً أبداً وراءهم. فذكر الله أنه- استجابة قدرية ترتبت عن ذلك الدعاء - وهب له بأقدار رحمته واستخلافه عباده يحي عليه السلام: الذي كان هو النبـــي الحكيم المعمدان المبشّر بعيسى عليه السلام. وأصلح الله لزكـــريا في ســـبيل ذلك زوجه التي بلغت من العمر أيضاً عتياً وانقطعت عن خصوبة الـــولادة. ويذكـــر الله عن أعضاء تلك الأسرة المباركة أنهم كانوا حقاً يسارعون في الخيرات سنّتهُم المسابقة في الطاعات الصالحات قربى إلى الله، ويدعونه سبحانه وتعالى بشتّى أسمائه الحُسنى رغباً فيما يرجون من خطابه ورهباً مما يتقونه من عواقب سطوة غضبه، وكانوا لله وحده خاشعين لا يوقّرون إلا إيّاه[2].

(١) في ذكـــر ذي الـــنون مفصّلاً: راجع الآية ٩٨ سورة يونس، والآيات ١٣٩ - ١٤٨ سورة الصافّات، والآيات ٤٨ - ٥٠ سورة القلم.

(٢) في ذكر زكريا وعقبه مفصّلاً: راجع الآيات ٣٧ - ٤١ سورة آل عمران، والآيات ٢ - ١٥ سورة مريم.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩١)

ومـــن زمـــرة الأنبـــياء الذين لم يُبتلوا في مجاهداتهم مع أمة الخطاب بل في حال أنفسهم فغشيتهم رحمة الله استجابة لصبرهم ورجائهم وخشوعهم له تعالى: مريم، التي أحصنت فرجها وتجرّدت قانتةً لله عاكفة في محراب العبادة حيث نذرتها أمها، وصبرت فأحـــصنت فـــرجها عفّة عن الشهوة مع ذكر، وإذ اصطفاها الله وطهّرها جعلها أُماً لنبـــي بغير أب، فنفخ فيها بأقداره في الخلق النافذة ولو على غير مسنون الأسباب – نفخ فيها من روحه دفعاً في الوجود من قواه الغيبية التي تقوم مداً لحياة الإنسان، وهي الطاقـــة غـــير المحسوسة والخالدة التي تفاعل في الغيب مع الزمان والأزل مهما يعتريها الموت بعد زمانها حياةً في الوجود الأدنى المشهود، ينقلها بأمر الله إلى البشر روحٌ أمين مـــن الملائكـــة الـــذين ينقلون كذلك روح الوحي رحمةً وهدىً يتلقّاه المؤمن البشر الرســـول. وبذلك جعل الله مريم وابنها المولود لغير أب بأقداره وقواه تلك آية تتجلّى فـــيها قدرة الله العليا تُخاطب من يرى آثارها في الوجود المشهود دلالة على أسماء الله الحُسنى وصفاته العليا قادراً على الخلق والإحياء والإماتة والبعث – آيةً لكل مخلوق لله من عالم الملائكة والجن والبشر، كل تلك العوالم التي لا يبلغها من إدراك الغيب إلا ما يُظهر عليه اللهُ مَن يشاء منهم بوحيه وآياته مدّاً من علمه المحيط[1].

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢)

سيرة أولئك النبيين المتعاقبين الذين تجلّت فيها آيات الله لأنفسهم وبان هدى الله فـــيما جاهدوا به أقوامهم أو أنفسهم فيما كان يصيبهم من بلاء – تلك السيرة الماضية بـــيان مـــؤكد للأُول الذين يخاطبهم الله في رسالته الخاتمة بالحقّ الموصول والملّة الماضية ولحَمَلـــة ذلك الدين والمخاطبين به المتوالين عبر التاريخ. إن هذه هي أمتهم جميعاً أمة واحـــدة مـــتوجهة إلى الله إيماناً به وتوكلاً عليه وصبراً في سبيله ورجاءً لرحمته القريبة

---

(١) في ذكـــر مـــريم المحـــصنة وابـــنها عيسى آية: راجع الآيات ٤٥ – ٥١ سورة آل عمران، والآيـــة ١٧١ ســـورة النساء، والآيات ١٦ – ٣٤ سورة مريم، والآية ٥٠ سورة المؤمنون، والآية ١٢ سورة التحريم. ويُذكر عيسى مسمى ابن مريم في غالب ذكره في القرآن.

منهم صالحين. هي ملّة تؤم نحو الله لم تتقلّب بها الوجهات وإن تعاقبت وتقلّبت عهود البلاء. ويمضي خطاب الله لآخر تلك الأمة أن هو ربهم فليعبدوه موحّدين كما تواكب عُبّاده متوالين إخلاصاً منذ سلف تلك الأمة الواحدة، لا مشركين به مما عهدوه من أمة آباء لهم ضالّين.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ (٩٣)

مضت تلك السنّة وتعاقب فيها السلف والخَلَف أمة واحدة، ولكن من بعد الخَلَف تقطعوا أمرهم بينهم[١]، بدّلوا ذلك الحق المتوارث وانقطع الحبل الموصول الذي نظمهم منذ إبراهيم الذي كان شيعة لمن قبله نوح وإماماً لذريته هو وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط. ذلك أن خلف خَلَفٌ تفرقوا وأصبحوا طوائف وشيعاً بدّلوا دينهم شتيتاً و لم يأتموا قبلة واحدة بذات الوجهة التوحيدية الحنيفية الخالصة لله. وكلٌ – مهما يكُن ذلك التقطّع والاختلاف ضلالاً عن وحدة الهُدى وأصله الواحد – كلٌ هم إلى الله – كما يقول – بأقداره في الابتلاء والحياة والموت والبعث – راجعون، لن يضلّوا في الأرض كما تندثر أجسادهم موتى وتتبدّد مادها، ولن ينقطعوا عن قدر البعث والجمع حشراً بين يدي الله ملك يوم الدين وحده حيث يجري حساب كسبهم ويقع قضاء جزائهم ويتمّ إنفاذ الحكم فيهم بما يحقّ لكلٍّ من مصير.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ (٩٤ – ٩٥)

يترتب عند المرجع إلى الله الجامع للذين تفرقوا واختلفوا أن مَن يعمل في دنياه وُسْعه من صالح الأعمال وهو مؤمن يصوّب ظاهر صلاحه بنيّة رسخ فيها القصد القويم إلى الله تقوى للنُّذرى ورجاء أن تحقّ له البُشرى، فعندئذ – والله شكور– لا كفران يغمر مسعى عبده ذاك في الدنيا، بل يبين صلاح كسبه ويصدق مقصده، وإن الله بشهادة ملائكته وأقدار رصدهم لفعل العبد وقوله كاتب له حافظ غير مضيّع ما قد قدّم من سعي ليتلقّى جزاءه الأوفى بالحسنى. ذلك للصالحين المؤمنين. وحرام ممتنع على قرية كان أهلها مفسدين وعاجلتهم أقدار الله بالهلاك عقابا في الدنيا أو بالموت

(١) سنة الأنبياء المتعاقبة أمة واحدة والخَلَف تقطّع أحزاباً: انظر الآيات ٥١ – ٥٣ سورة المؤمنون.

والهـــلاك المسنون - حرام عليها حِظاراً أن ينجوا أهلها لا يرجعون إلى الله في الآخرة، بل إليه المرجع المكتوب ليلقوا آجلة الحساب والعذاب الذي سبق إليهم به النذير.

والوصـــل الجامع بين هاتين الآيتين هو ذكر المرجع إلى الله حكماً وفصلاً بين من تمايز دينهم وتقطّع أمرهم كما جاء في الآية الأسبق. المقارنة بين آية فيها بشارة للذي يُعـــرّف بكلمـــة شرطية هي 'مَنْ' التي تميز الفرد الصالح المؤمن أو الجماعة الصالحين المؤمـــنين، والبشارة لهم عند المرجع والمنتهى الآجل لدى الله أن مقتضى الجزاء المكافئ لسعيهم محفوظ وحرام أن يُكفر ويُغمر ضائعاً. وآية تالية فيها ذكر للقرى التي أهلكتها أقـــدار الله عاجلاً نذارة أن يحقّ عليها عقاب آجل وحرام ألا يرجع أقوامها إلى ذلك المنتهى. وإنما ذُكر الرّاجعون إلى الجزاء الوفاق إمازة بين صالح مؤمن وقرية هالكة لأن ظاهـــرة الصلاح والإيمان في مكة بلد المخاطبين بهذا القرآن وعهد تنـــزّل هذه الآيات والـــسورة - كانـــت في قلـــيل ممن بقوا على قديم هدى من قبل أو سبقوا إلى الهدى المتجدد يومئذ، بينما كان الهلاك ظاهرة مشهورة حول أولئك المخاطبين الأُول في قرى كـــان يغلبُ فيها الظلم فهلكت بأسرها إذ كان أهلها يعلو عليهم ضالّون مستكبرون وســـوادهم مـــستخَفّون تابعـــون فحـــقّ عليها الهلاك المحيط إلا قليلاً آمنوا وصلحوا وهجـــروها فنجوا برحمة الله. ولذلك الذكر للكسب المقارن والحقّ الفاصل جاء مبنياً على المرجع إلى الله والحكم بين مسعىً صالح بإيمان فمكتوب ماله ومسعىً ظالم هالك حـــرامٌ أن تُتّقى عاقبته. وتنساق الآيات التالية تذكر معالم تلك المصائر ويوم الرّجعى الموعود.

عموم المعاني (الآيات ٤٨ - ٩٥):

إن الرســـالة الـــتي كانت سابقة للخاتمة ماهدة لها منبسطة بأصول الدين في كل الحـــياة وفي سعة من الأرضَ هي ما آتاها الله بأقداره حيث يجعل رسالاته فاصطفى لها في وســـط الأرض موسى وهارون فرقاناً يميز لعباده الحقّ من الباطل ويُخرج الناس من ظلمات طاغوت فرعون إلى نور حقائق المجاهدة والمصابرة في سبيل توحيد الله معبوداً، وضياءً نحو الهدى في الأرض التي بارك الله فيها ومكّن الدين بَعداً، وبياناً لشريعة الحياة

والمجتمع بين المؤمنين، وذكراً يهيّئ للقاء الله المتقين الفسوقَ من هداه واستحقاق غضبه الطائعين الرّاجين رحمته لأنهم يخشون ربّهم بالغيب وهم من الساعة التي يرجعون فيها إليه مُشفقون. وقد تنــزّل بأقدار الكتابُ الخاتم لكتب الرسالات المتعاقبة ذكراً مباركاً تمّ فــيه هــداها بكل وجوه الفرقان والضياء والرهبة من الآخرة. ولكن المخاطبين به الأُول أنكره سوادُهم الأعظم لأول الأمر وإن شهد له الكتابُ السابق فهُم كانوا أميين في جهالــة وضــلال مــن الإشراك بالله أصناماً مما نسوا به تراث أبيهم إبراهيم مثالاً للخلَــف الذي يُضيع موروث الهدى. وكان إبراهيم مجتهداً وفّقه الله وآتاه رشده ليبلُغ الحــق الأبلغ عهداً قبل موسى وهارون، وأسبغ عليه الرعاية إذ جادل وقاوم تقاليد أبيه وقــومه الإشــراكية إماماً لمن يقتدي به من دعاة الحقّ بعده، إذ قام في قومه مستنكراً التماثــيل التي يعكفون عليها ظانّين أن تراث الآباء هو العرف الحق، وإذ صدع فيهم بالحق اليقين: أن ذلك مهما يُتوارث كله ضلال مبين، وعجبوا أيجيء بالحق من جديد أم يلعــب في مجادلاته فعل الحدث من الفتيان، فذكّرهم بأن ربهم الحق هو ربّ سائر الكون حولهم سماوات وأرض فطرها، وأنه هو على ذلك من الشاهدين، وأنه لا يلعب بــل يجدّ، وسيكيد بها بعد أن يُدبروا عنه غياباً ويذروها معه وحده ليروا إن عزّت آلهةً وانتــصرت مــنه لنفسها. وقام إبراهيم يصلح مغيّراً بيده ما حاول أن يُصلح بلسانه، فجعل الأصنام جذاذاً إلا كبيرها إن نفع مرجعاً لهم في بيّنة ما وقع. فتساءلوا عمّن أضرّ بهــا وتذكّــروه وأتوا به على الملأ يسألونه فردّهم إلى الكبير، فلاح لهم غباءُ ظلمهم الإشراكي إيماناً بصنم أبكم بين أخرى عاجزة منكسرة، ثم نُكسوا منكرين أن يستشهد إبــراهيم بما لا ينطق، وكانت له سانحة ليذكّرهم من جديد كيف يعبدون مالا ينفعهم شــيئاً ولا يضرّهم، وأفّف بهم مستنكراً أنهم لا يعقلون، وإذ خسروا معه المجادلة أقبلوا علــيه بنذير الفعل المعاقب حرقاً له انتصاراً لآلهتهم. ولكن الله صرف كيدهم فجعلهم الأخــسرين في كل مداولات الخلاف. ونجّاه الله ولوطاً ابنُ أخيه إلى الأرض التي بارك فيها غرباً. ووهب له في وحشة غربته إسحق وأنفله من ورائه يعقوب عبدَين صالحين، فكانوا جميعاً أئمة هُدى بأمر الله أوحى إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإخــلاص العــبادة مثالاً لسنة الدين الحق. ولئن كان لوط على ما آتاه الله من علم

وحكم قد ورط في قرية كانت تعمل الخبائث فاسقة من تقوى الأخلاق الروحية وإن كانــوا قد هلكوا بذلك، فقد نجّاه لله أيضاً وأدخله في رحمته أيضاً إذ كان من أولئك الــصالحين. وكل تلك السُنّة الإبراهيمية الصالحة كانت في أصولها ترجع إلى ملّة نوح من قبل الذي هو أيضاً حُفظ من كرب عظيم من تلقاء قومه الضالّين.

وقدر الله يُحيي نهضة الملل الدينية بعد وهدة موتها، فقد خرج قوم موسى وهارون متحــررين مــن طاغوت فرعون ثم تاهوا أربعين سنة نفياً في الصحراء يرهبون اقتحام الأرض المــباركة ليمكّــنوا فيها سلطان شريعة الله التي أُنــزلت عليهم. لكن تجددت فــيهم نهضة روحٍ وجهاد كان فيها داود الذي آتاه الله من بعدُ الملك والحكمة ووهب له خليفة ابنه سليمان وأقاما دولة إسرائيل. وكما ذكرت السورة كانا ينفذان شرع الله في الخــصومات فحكمــا قضاء في قضية حرث نفشت فيه غنم فاجتهدا وبلغا بالرأي حُكمــين مخــتلفين في تعويض الضرر. وفهّم الله سُليمان الحكم الأوفق. ويسّر لداود ولايــة الأمر يزكّيها بموالاة شعائر الذكر إنشاءً إنشاداً بمزاميره التي تجاوب مع أصوات تــسبيحها صــدى مــن الجبال وخشوع من الطير طوعاً لأقدار الله مسنوناً في طبائع الأشــياء. كــان يجتهد داود أيضاً في إدارة الحكم الفاعلة إذ علّمه الله بأقدار تصريف المــواد المعدنية صناعة الدروع الواقية من البأس، ومضت ممارسة تلك الصناعة سُنّة من بعده للشاكرين لله. وورث الحكم سليمان فهيّأ الله له الريح العاصفة تجري في الأرض المــباركة لتسوق سفن تجارته المسارعة غادية رائحة في بحارها، وسخّر له شياطين من الجــن محفــوظين لخدمــته غوصاً في البحر لإخراج الزينة وإتقاناً لصناعة المعمورات والأوعية. وهذه سوابق هادية لكل داعية للدين أن يقيم دينه بعد الدعوة إدارة وسياسة وقضاء يجتهد فيها لإيقاع تعاليم الشريعة في معاملات المجتمع مهما تختلف رؤى الحكم الأعــدل في الأقــضية، وممارسة الشعائر ذكر الله في الحياة الخاصة وفي سوح الطبيعة العامّة، ويُنشئ تدابير صناعة حربية لإقامة الدولة بأسلحة الدفاع في سبيل الله، ويعمل لاستعمار الحياة وتنمية المعاش كأن يتّخذ من قوى الطبيعة كالرياح وغيرها عوناً لدفع ســير نــاقلات الــتجارة في البحار والبرّ، ويُجنّد قوى العمل كالعمالة لغوص البحر واســتخراج الثــروات من قاعه ولأداء الأعمال اليدوية المتقنة. ذلك لئلا يظن بعض

المتدينين أن غاية العبادة هي حصرها في شعائر الذكر والدعوة بالألسن والأيدي عاطلة في خلـــوة ذكـــرٍ وتزهّد رهباني لا تبتغي الضرب في الأرض وابتغاء فضل الله وإعمار أســـباب الحياة وآلاتها وإكثار دواعي شكر الله على ما سخّر للإنسان. وكذلك ظنّ الجاهلـــيون بالرســـول الخاتم أنه ليس إلا متكلماً بغريب أقوال ظنوها كلمات سحر بلاغـــي أو تخاليط افتراء أو تعابير أضغاث أحلام أو تناظيم أنغام شعر. وكذلك يقصر الدهـــريون الدين على الشعائر المرسومة والأذكار ولا يرون له شأناً أو أثراً في الحكم والسياسة والصناعة والفن والإنتاج والتجارة.

إن في قـــصص المرســـلين لعـــبرةً أيضاً للرسول الخاتم وللدعاة من بعده فيما قد يـــصيبهم في أنفـــسهم من بلاء ضرّ، فما هم بمعصومين أن تُؤذى عافيتهم بل عُرضة لعللـــها المسنونة ابتلاء لعلّهم يثبتون رغم المصائب على نهج العبادة المتوالية ويزدادون بالمـــرجع إلى الله ذكراً ودعاءً ويقوموا مثالاً للصبر سواء أصيبوا بأذى من أمة الخطاب المُعرضة أو من أقدار الله الطبيعية. ومن أولئك المرسلين أيوب إذ اشتكى إلى ربه أرحم الـــراحمين ضرّ علة في الجسد وفي الولد فاستجاب له ربّه كشفاً للضرّ ومضاعفة للولد، ليعتبر به العابدون ويتذكروا رحمة الله المدركة. وإسماعيل أصابه العسرُ غريباً وصبياً في وادٍ غـــير ذي زرعٍ بمكـــة، ولكـــنه كان وفياً لعهد ربّه ناصحاً في أهله بالصالحات. وإدريـــس أصـــابته بأســـاء النفي في بابل تحت وطأة حملة سلطانها على بني إسرائيل، وكـــذلك ذو الكفل، ولكنهم كانوا إسوة وعظة لمن كان معهم في المنفى. كلّ أولئك كانوا من الصابرين الصالحين أدركتهم رحمة الله. وذو النون ضاق بإعراض أمة خطابه في قـــومه الذين خاطبهم وبأذاهم فذهب مغاضباً لهم متخلياً عن رسالته فأُدحض من السفينة التي ركبها في البحر مهاجراً فالتقمه الحوت، وقبل أن يهلك في بطنه نادى ربّه ألاّ إلـــه إلا هو سبحانه إنه عبده كان من الظالمين، فاستجاب الله له ونجّاه وشفاه وردّه إلى رســـالته في أمـــته. وزكريا إذ بلغ من العمر عتياً وخاف الموالي من بعده دون ولد صـــالح يخلفـــه ويحفظ تراثه الحق، فاستجاب الله له ووهب له يحي من زوجة عجوز عقمـــت، ومـــضوا شاكرين يسارعون في الخيرات والدعوات رغباً ورهباً في خشوع ومهـــاداً لرسالة عيسى عليه السلام حتى أصابتهما الشهادة في سبيل الله. ومريم ابنة عمران

التي حفظت حصانتها وفرغت للذكر والعبادة كما نذرتها أمها معتكفة في المحراب قانتة لربها فوهبها الله عيسى لغير أب آيةً للعالمين.

تلك السُنّة لأولئك الأنبياء المُتعاقبين من نوح حتّى إبراهيم وأبنائه إسماعيل وإسحق فيعقوب وابن أخيه لوط حتى داود وسليمان إلى الأنبياء وأولياء الله خلَفاً في بني إسرائيل حتى بنت عمران التي ولدت عيسى - كلّ أولئك المباركين برحمة الله وسلامه الدّاعين إلى الهدى المتجدّد رغم عارضات البلاء في سبيل الدعوة وفي الأنفس - كانوا يؤمّون وجه الله وحده أمة واحدة ربّهم ربٌّ واحد يحملون ابتغاء وجهه تكاليف العبادة الخالصة والرسالة التامّة. لكن خلفهم تقطّع أمرهم بينهم لا يذّكرون أن فرقهم التي ضلّت عن الطريق شتيتاً كلها راجعة إلى لله الواحد مجموعة في ساحة الحساب ودار الجزاء وأن جزاءهم محفوظ لكلٍ ما يليه: من يعمل صالحاً مؤمناً فلا كفران لسعيه لأنه مشهودٌ عليه مكتوب، والقُرى التي ظلمت بسواد أهلها وعاجَلهم عقاب الهلاك العام حرامٌ عليها ألاّ ترجع إلى ربّها لأجل محسوب عنده عدل جزائهم وتمام عقابهم الحاقّ على من كسب ظلماً بقدر نصيبه - مبادراً آمراً مستكبراً أو دون ذلك مستخفاً موالياً في فتنة الظلم.

ترتيل المعاني (الآيات ٩٦ - ١١٢):

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٦ - ٩٧)

إن كسب الإنسان في الدنيا مكتوب والمرجع به إلى الله مُقدّر لأجله ويومه الموعود، كما جاء في الآيات السابقات. ولكن الله يُملي لعباده في أيّام الدنيا، قد لا يُعاجل قوماً ظالمين بهلاك فوري عام، ولا أفراداً ظالمين بقيام ساعة الموت المتسارعة. ذلك حتى تأتي الساعة للبعث والحساب العام بغتة. ومهما يتمادى الظالمون ويتطاول بهم متاع الحياة والعمر وهم كافرون بالآخرة، يفاجئهم وقع الواقعة إذ تتبدّل الأرض وتُنسف الجبال وتندكّ السدود التي كانت حواجز بين الناس، وينفتح سدّ يأجوج

ومأجـــوج مـــثالاً لانفراج سائر الحوابس والحدود المرعيّة بين الأقوام والأوطان وتئجّ الـــبحار منسجرة ومستوية تراباً وتضطرب كل تفاريق الحياة الساكنة في الأرض بين الـــناس وينطلقون ألفافاً منبعثين متدافعين أفواجاً مائجاً بعضهم في بعض وهم من كل حـــدب ينسلون، من كلّ مرتفع مشرف ينـــزلون كالسيول[1]. عندئذٍ اقترب الوعد الحـــق ونجز ماثلاً وقامت القيامة وبدت أهوال مشاهدها، فإذا هي شاخصة جاحظة لا تطرف أبصارُ الذين كفروا أمس بالغيب والبعث إذ دهمت أعينهم شدةُ ما رأوا واقعاً، وخـــرجت مـــن أفـــواههم كلمة الحقّ الرهيب: أن يا ويلهم قد عظُم الوقع عليهم، وخـــشعوا معترفين قولاً: أن قد كانوا في غفلة من هذا البعث والمشهد لا يحتسبونه إذ صرفتهم عن الإيمان بوعده فتنةُ مشهودات عالم الدنيا وحاضراتها، بل مضوا يُقرّون أنهم كانوا ظالمين إذ أعرضوا وعدلوا عن آيات الحقّ الموعود وأنكروا نذير رسالة الدين به.

﴿إِنَّكُـــمْ وَمَـــا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَـــؤُلاَءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴾ (٩٨-١٠٠)

صـــيحات الولولة والتندّم جاوبها خطاب من الله لأولئك الذين كانوا كافرين بالوعد الحـــق ظالمين حيداً عن توحيد العبادة لله إلى الإشراك به- خطابٌ لهم أنهم وما يعبدون من دون الله مـــن الأوثان والأصنام التي جسّدوا بها أرواحاً يتعبّدونها هم جميعاً حصب جهنّم يُـــرمون فيها كالحصباء وقوداً، وأنهم هم عيناً للنار واردون دخولاً لا يجدون عنه منصرفاً. وتـــأتي بـــذلك تذكـــرة لمـــا ضيّعوا أن لو كان هؤلاء من الأصنام التي وقّروها وتعبّدوها وزعمـــوها ذوات عاقلة قادرة – لو كانوا كذلك أهلاً حقاً للتأليه والعبادة ما وردوا جهنّم مـــع عُـــبّادهم ليكونوا مادّة تتّقد وقودَ استعار عليهم هم، وكلٌّ فيها خالدون لا تفنى مادة الحجـــارة ولا أجساد المشركين طاقة ذاهبة، بل يبقون في حال التهاب وعذاب أبداً. ولهم في الـــنار زفير من أصوات نفس وأنين يخرج من صدورهم ممتداً مشتداً من حميّ وقع النار وهم فيها لا يسمعون أقوالاً تسرّهم عزاءً عن العذاب أو وعداً بالنجاة.

(١) في ذكـــر ســـدّ يأجوج ومأجوج رحمة من الله يجعله دكّاً لمجيئ وعد الآخرة والحشر: راجع الآيتين ٩٨ و٩٩ سورة الكهف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٠١–١٠٣)

هنالك يتمايز المشركون الظالمون والمؤمنون المحسنون ويبين فرقان المصير ويحقّ الحقّ المؤكد: إن الذين سبقت لهم من الله أقدار قضائه العدل بالحسنى صوراً من الجزاء وفاقاً لما قدّموا من الكسب الحسن – إنهم تقدّمت إليهم يومئذٍ المكافأة بالحسنى فما جزاء الإحسان إلا الإحسان إن وقع على الآخرين الغضبُ وحقّت السوءى. أولئك المتعالون رتبةً عن حضيض النار التي ذُكرت مورداً للظالمين مُبعدون عنها بعد أن يروها ليدركوا فضل مأوى رحمة الله عليهم بموقع عاقبة غضبه. وهم لا يسمعون حسيس تلك النار التي أُبعدوا عنها فلا يبلغهم منها أصوات لهيبها وزفير الواقعين فيها. وهم فيما اشتهت أنفسهم مما عهدوا من لذّة متاع الدنيا وحب زينتها خالدون نعيماً خيراً من ذلك الذي سبق في الدنيا وأبقى. لا يحزنهم ذلك الفزع الأكبر الذي يلقاه أهل النار من مأواهم المستحق، وتتلقاهم الملائكة أحسن استقبال لهم بعد معرض الحشر عند أبواب الجنة وتبشّرهم أن هذا يومهم الذي كانوا يوعدون في الدنيا، إذ آمنوا بصدق ذلك الوعد تلقاء الغيب فأنجزه الله واقعاً في حاضر أخراهم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ * وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٤ – ١٠٥)

تلك العاقبة السوءى أو الحسنى وذلك الفزع الأكبر أو التلقّي من الملائكة أذاناً بالبشرى إنما يقع ظرفه يوم يطوي الله بأقداره معالم الكون المشهود في الدنيا في عالم الغيب وأزله، يطوي السماء كطي السجلّ القائم على تحرير الأوراق وتوثيق الكتاب وجملة صفحاته، تنفطر بأمر الله السماء وتشقّق غماماً وتتكوّر الشمس وتنكدر النجوم فيها منضمّة وتنكشط هي مائرة. وكما بدأ الله قديماً بأقداره المحيطة بمخلوقاته أولَ خلقٍ لها يعيده ﷻ يومئذٍ. السماء كانت دخاناً فسوّاها أبراجاً واليوم تعود كما بدأها

الله. والإنـــسان كان خلقاً من ماء وتراب ثم قوّمه الله وسوّاه ثم مات وضلّ في الأرض جـــسده واليومَ ينبعث بأمر الله في نشأة أخرى تعود إليها الروح من أزل البرزخ. كان ذلـــك وعـــداً علـــى الله كما يقول بأقداره وكلمات نذيره وبشيره لعباده في الدنيا، وهـــو ﷻ كذلك بأقدار تبديله كما يشاء لخلقه كان فاعلاً في الآخرة ما سبق به قوله واعداً في الأُولى.

ولقد كتب الله بأقدار علمه وأمره العظيمة في الكتاب الزبور الذي يوحى فيه ما يحتوي من رسالة تبلُغ الأنبياء المتعاقبين يقرأونها ويُوصَون أن يسجّلوها في أوراق ذلك الكتاب المحفوظ الذي قد يتواتر زُبُراً للأولين والآخِرين تصدر من أم الكتاب تتصادق كـــتاباً وزبوراً واحداً – كتب الله في ذلك الزبور بعد الذكر العام بحقائق الغيب علماً وبتعالـــيم الحياة هدى وحكمة لتذكّر المخاطب بالإيمان أصل الدين الحق ويتلقّى البيان لتفاصـــيل شـــرعه – كتب الله وعداً وبياناً لسُنّته: أن الأرضَ يرثها عباده الصالحون، يُستخلفون فيها في الدنيا تمكناً وابتلاء لأجل بعد ولاية الكافرين فيها، ويورثونها عاقبة خالـــصة لهم في الآخرة يتبوأون منها ممتدّة عريضة حيث يشاءون جنّة جزاء خالدة أبد الآجال[1].

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (١٠٦-١٠٨)

في ختام السورة التي بدأت بذكر القرآن خطاباً للناس الذين اقترب حسابهم وهم في غفلة ما يأتيهم منه ذكرٌ إلا استمعوه لاعبين يظنّونه سحراً بل أضغاث أحلام بل مما يفتـــريه شاعر يدّعي النبوة عن الغيب – في ختام السورة يرد ذكر يوم الحساب حين مندم أولئك الظالمين وميراث الأرض جنة للصالحين. وتأتي هنا الآية: إن في هذا الذكر والنذيـــر والتبشير في هذا الكتاب الزبور كسابق الزُبُر عند الأوّلين لبلاغاً لقومٍ عابدين لله يتذكـــرون الحقّ غير غافلين فيعرفون ربهم ويعبدونه غير مشركين به شيئاً ويخشون عقابه ويرجون أجره في العاقبة الموعودة.

---

(١) تتواتر عدة آيات في القرآن في ذكر قضاء الله أن الأرض له يورثها عباده المؤمنون الصالحون المتقون في الدنيا وفي الآخرة.

والحقّ المحض يتقرر أيضاً من الله للرسول الخاتم ﷺ: أنْ ما أرسله ﷻ بأقدار علمه واصطفائه له نبياً ووحيه إليه الرسالة من الغيب ليبلّغها - ما أرسله كذلك إلا رحمة للعالمين، رحمة تذكير بما في الفطرة من أصول الإيمان وتعليم لما في الغيب غير مشهود للإنسان نوراً بعد ظلام جهله وهداية له في ابتلاءات الدنيا ورعاية من الضلال بفتن مشهوداتها ومتعلّقاتها المشتهاة بالهوى وفتنة الشيطان العدو الغَرور، وإرشاداً لسعد الدنيا ونجاةً من الشقاء وفوزاً بالنعيم في الآخرة. وتلك رحمة لكل عوالم البشر حاضرين ولاحقين حين تنزيلها لقوم بلسان عربي يفهمون به الرسالة مباشرة أو آخرين تبلغهم بألسنتهم ترجماناً، ولعوالم الجن يستمعون إلى رسالتها ولو من حيث لا يراهم الذين يتلون كتابها من عالم البشر. أُرسل الرسول الخاتم رحمة للعالمين كافة لا لعشيرته ولقومه خاصة. ينبغي أن يقول الرسول الخاتم لأمة خطابه بلاغاً لأصل الحق في رسالته أنه يُوحى إليه - حقاً حصراً لا سواه - إنما إلههم الحق إله واحد هو وحده أهل صفات الألوهية العليا والصمد الذي ينبغي أن تتصوّب إليه عبادة البشر، وأن يسألهم - قبل أن يأتي يوم الحساب في الآخرة - هل هم بناءً على حق تلك الرسالة التي بلّغهم إيّاها عن الله - هل هم مسلمون له تعالى كل حياتهم إخلاصاً في القصد والطاعة أم هم لا يُسلمون أنفسهم كلها لله بل يقتسمونها إشراكاً به آخرين متخذين بعض الأرواح أو الأشياء أو الأهواء آلهة.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١٠٩-١١٢)

ويخاطب ﷻ رسوله ويوصيه إن ترتب على دعوته أن تولّى المخاطبون عن الاستجابة إيماناً بالغيب وإسلاماً لحياتهم كلها لله - فلْيقل لهم إنه قد آذنهم على سواء، أبلغهم بياناً سوياً على انتصاف وعدل لا خفاء فيه ولا تبديل لما جاءه من علم ورسالة موحاة بما هو حق وذكر بيّن هدىً في الدنيا ونذارة وبشارة بالآخرة، وهم مسئولون وكلٌ صائر إلى ما يحقّ له أو عليه. ولْيبلّغهم أنه ما يعلم الغيب في الآجال فلا يدري

أقـــريب أم بعيد ما يوعدون حقاً من يوم الحُسنى لهم إن أسلموا لله والفزع الأكبر إن تمادوا في ظلمهم[1]. ولْيبيّن لهم أنه ﷻ يعلم الجهر من القول إنكاراً لحقّ الرسالة ويعلم ما يكتمون في نجواهم طعناً في رسولها، وهو السميع العليم. وإذ لا يعلم هو الغيب ما يـــدري لعلّ الله يمدّ لهم لا يؤاخذهم عاجلاً بما يقولون كفراً، فتنةً وامتحاناً لهم يُملى زمانـــاً كمـــا يـــشاء لعلّهم يتوبون قبل الممات أو يُعزّزون على أنفسهم بيّنة التمادي والإصـــرار. ولعلّـــه – مـــا يبسط لهم من نعيم الدنيا – متاع إلى حين، يتذكّرون الله فيشكرونه ويحمدونه أو يمضون مفتونين كافرين بأنعم الله حتى ينقطع المتاع بفناء الدنيا وانـــتهاء حياتهم فيها ويأتي اليوم الموعود حين يتورّط مَن فتنتهم الدنيا في الحرمان من النعيم ويحقّ المتاع الخير والأبقى للمسلمين.

ولـــيقُل الرسول ﷺ الذي ما عليه إلا البلاغ ولا يعلم آجال الغيب – منادياً ربّه من قريب (أو هو قال، في قراءة أُخرى): أن يحكم ربّه بالحقّ فصلاً عدلاً بين المسلمين معـــه لله والمعرضـــين قـــضاءً في مصائر الدنيا والآخرة هلاكاً للظالمين فحساباً وعذاباً وميراثـــاً للأرض للصالحين تمكّناً واستخلافاً في الدنيا أو تبوّأً فيها دار نعيم في الآخرة. وليشهد مؤمناً مطمئناً أن ربّهم – هو والمسلمين – الرّحمن الذي لا يعرف إلا هم اسمه ذلـــك الأعلى فائضاً بالرحمة للعالمين برسالة كتاب علم وهداية، والمُستعان وحده على مـــا يـــصِف المُعرضون – كما يُخاطبون، دحضاً لما يصفون من شركاء لله تفريطاً في الإيمان بنـــزاهته وعليائه عن ذلك وغُلباً على ما يصفون به رسالته ورسوله من أقوال.

عموم المعاني (الآيات ٩٦ – ١١٢):

إن أصـــل المـــرجع إلى الله منظور ليوم موعود في رسالة الغيب الموحاة خطاباً للـــناس. إذ تُخرج الأرض يومئذٍ أثقالها من البشر مبعوثين دابّة محشورين إلى ساحة

---

(١) في ذكـــر الرسول لا يعلم في الغيب آجل الساعة: راجع الآية ١٨٧ سورة الأعراف، وانظر الآيات ٤٢ – ٤٦ سورة النازعات. وأنه لا يدري أقريب ذلك الوعد أم بعيد: انظر الآية ٢٥ سورة الجن. وأنه لا يدري لعلّه قريب: راجع الآية ٥١ سورة لإسراء، وانظر الآية ٦٣ سورة الأحزاب، والآية ١٧ سورة الشورى. ومهما يراه الكافرون بعيداً يراه الله قريباً: انظر الآيتين ٦ و٧ سورة المعارج، والآية ٤٠ سورة النبأ.

معرض في الأرض صفصفاً لا تفصل بينهم الجبال ولا السدود إذ تُسيّر الجبال وتندكّ السدود فتحاً وتنبسط فروج الأرض حتى في مثل سد يأجوج ومأجوج إذ جاء وعد الله فجعله دكاً، فالبشر ينسلون إلى المحشر من كل حدب، واقترب الوعد بالحساب وعُرضت ساحات العذاب وعندها غشي الفزع الأكبر الذين كانوا كافرين بذلك الوعد غافلين مُعرضين عن نذيره فإذا أبصارهم خاشعة يولولون معترفين بسابق ظلمهم. ووقع القول أنهم وما كانوا يعبدون من دون الله من أصنام حجارة حصب جهنم هم لها واردون بعدما حقّ القضاء عليهم بميزان الحساب، ويتبيّن الحق اليقين الذي بُلّغوا به في الدنيا مآلاً، وكلٌّ في النار خالدون أصواتهم فيها زفير لا يسمعون أصواتاً طيبة تحيةً وسلاماً بل هم في عوّة وضوضاء وخصام. ذلك كذلك، لكن يمتاز الصالحون الذين جنّبهم الله غضبه وسبقت لهم منه الحسنى فهم مبعدون من النار لا يسمعون أصوات حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم من نِعم خالدون لا يحزنهم مثل ذلك الفزع الأكبر بل تتلقاهم الملائكة بتحايا البشرى أن هذا يومهم الذي كانوا يوعدون. إنه يوم تتبدّل فيه السُّنن للمخلوقات المشهودة في الدنيا، السماء التي كانت ممتدة متعالية تنطوي كطي الكتاب، وكما بدأ الله الخلق للبشر يُعيده في نشأة أخرى للأجساد تُردُّ إليها الأرواح. أما الأرض فقد كتب الله في الزبور كتاب الوحي المتصادق مُنزلاً من أم الكتاب على الرسل المتعاقبين من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباده الصالحون يتبوأون فيها جنة حيث يشاءون، نِعم أجر العاملين. إن في هذا الحديث الموحى المبشّر لبلاغاً لقوم عابدين في دنياهم. وما أرسل الله الرسول الخاتم برسالة الهدى والوعد الآجل إلا رحمةً للعالمين نذيراً يقي من النار وبشيراً يهدي إلى الجنة، فلْيقم مبلّغاً ويتّبعه الدعاة خلفه مذكّرين بالرسالة الموحاة إنما إله المخاطبين إله واحد وإنما يلتمس المرسلون معهم الإسلام له تعالى، فإن تولّوا معرضين فليؤذنوهم على سواء إن الله يعلم الجهر من مقولات عباده ويعلم ما يكتمون من مذاهبهم ومواقفهم في الحياة مؤمنين أو مُعرضين طاعنين في صدق الرسول وحقّ الرسالة، وليصابرهم المرسلون وخلَفهم من الدعاة أنهم لا يدرون لعلّ مدة الدهر في الحياة لهم فتنة ومتاع إلى حين، وليقولوا بين يدي أقوام خطابهم كلمة الفصل: دعوة لله أن

يحكـــم بيـــنهم بالحـــق ولْيثبتوا على الحقّ أن ربّهم الرحمن المستعان على ما يصف المُعرضون تفريطاً في وحدانيته ورحمانيته وعليائه سبوحاً عن شريك وطعناً في رسالته وأمانة الرسول الذي حملها وبلّغها.

سورة الحج

السورة وخلاصة هديها:

تنـــزّلت السورة في المدينة، وكانت في ترتيب توالي سور القرآن الثالثة بعد المائة، بعـــد ســـورة 'الـــنّور' وقـــبل سورة 'المنافقون'. أما في الكتاب فيجيء ترتيبها ثانية وعشرين، وخاتمتها موصولة بفاتحة سورة المؤمنين التالية في ذكر وسيلة فلاح المؤمنين.

في الـــسورة تذكرة للمؤمنين المخاطبين بالمدينة عمّن صدّوهم من أهل مكة عن المـــسجد الحرام ودعوة للاستجابة لأذان الحج إليه تطهّراً فيه من تقاليد الأوثان وأقوال الـــزور، وتوحيداً وحمداً وتقوى لله في شعائره. وفيها الإذن للمؤمنين بمدافعة أهل مكة الظـــالمين عدواناً عليهم وإخراجاً من الديار، وذلك قبل صلح الحديبية الذي تنـــزّلت فـــيه سورة الفتح بعداً. وفي السورة تبشير لأولئك المؤمنين المهاجرين إلى المدينة بحسن المـــآب ومرضـــيَّة في الآخرة وبالنّصر في الدنيا، وتعزيز لتلك البشرى بذكر الله الذي يُـــصرّف العـــواقب بصفاته المحيطة علوّاً وعلماً ورحمة، والذي يُقلّب بأقداره أحوال الكون المشهودة.

وفي الـــسورة عـــرض لتباين مذاهب التديّن المنتشرة في المدينة وحولها في الجزيرة العـــربية، ذكـــراً لـــباطل الكفـــر بالغيب إشراكاً بالله وإنكاراً للبعث وقيامِ السّاعة، وللـــتذبذب في عبادة الله على حرف ممن إذا أصابه خير اطمأن لذكر الله وإن أصابته فتنة انقلب داعياً ما دونه. وفيها ذكر الله فاصلاً يوم القيامة بين ذوي الملل المختلفة من أهل الكتاب ومن دونهم، وبين المختصمين أهل الإيمان الحق والكافرين.

وفي السورة ذكر لاصطفاء الله للمرسلين بوحيه وإحكامه آياتِ الرسالات المتلوّة ألاّ يُلقَى فيها من الشيطان اضطراب. وفيها الوصاة للمؤمنين أن يُطيعوا ربهم ويعبدوه ويفعلــوا الخير لعَلّهم يُفلحون، ويجاهدوا في سبيله لأنه اجتباهم بدين ميسور موصول على ملّة إبراهيم وسمّاهم مسلمين ليشهد عليهم رسولهم ويشهدوا على الناس، فليُقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويوالوا الله نعم المولى لهم والنصير.

أول هـــدى الـــدين للـــناس الإيمان بالغيب، بالله وصفاته العُليا وآياته المطبوعة المشهودة والموحاة المتلوّة، وباليوم الآخر ونُذُر مشاهده وبشائرها مرجعاً إلى الله وجزاء مـــنه لعباده. فأوّل خطابه في حياتهم الدنيا في هذا العالم المشهود: أن يتقوا الله لئلا يحقّ علـــيهم عذاب يوم السّاعة ذاك، وألاّ يرتابوا بنبأ بعثهم يومئذٍ، فالله هو الخالق لهم أول مرّة ناشئة فيهم الحياة أطواراً نطفة من مادة التراب فعلقة فمضغة تخرج طفلاً ينمو حتى يُتوفّـــى، كالنبات ناشئاً بالماء من الأرض المتينة ثم يحيا ويُزهر ليموت. فهو تعالى الحق يحيـــي الموتى وعلى كل شيء قدير. وما هو بظلاّم للعبيد إذ لا يؤاخذهم يوم الرُّجعى إلـــيه إلا بما قدّموا في حياتهم الدنيا التي جعلها الله لهم دار ابتلاءات يُصرّف عليهم فيها أحـــوال الضرّ والنفع، ودار تكاليف يأتيهم بيانها في آيات مُنـــزلة من الهدى والنذير بتقوى الله. فهو يُدخل الذين آمنوا بتلك الرسالة جنّات في الآخرة إذ يهدي إليها بآياته الموحاة مَن يريد، يُيسّر لليسرى مَن يسعى للصلاح في الدنيا فإلى خير الجزاء في العاقبة. وهـــو يومئذٍ يفصل بين الناس في مختلف مذاهبهم وكسوبهم إذ هو على كل شيء من واقعات حياتهم شهيد. والله قد جعل لهم في الأرض مناسك، فجعل للمؤمنين المسلمين مـــسجداً هو قبلة صلاتهم في كل الحياة ومقصد الحج إليه كل عام سنةَ عبادةٍ وتوحيد مـــنذ ملّة إبراهيم. ذلك لئلا يُشركوا بالله وليذكروه في أيّام معلومات هناك ويعظّموا شـــعائره ويجتنبوا الرّجس من الأوثان وقول الزور، وليقوموا حنفاء لله واحداً مشكوراً مُكبَّراً. والله هو الذي يدفع عن الذين آمنوا بالمدينة إذ ظلمهم قومُهم وأخرجوهم من ديـــارهم في مكـــة وصـــدّوهم عن المسجد الحرام، إنه تعالى لا يحب كل خوّان لعهد المواطـــنة وأمانة الحرمات كفورٍ لنعمة الله في مكّة رزقاً وسلاماً، وهو القديرُ على نصر مـــن ينـــصره القـــويُ العزيز، له تيسير المصائر وتصريف عواقب الأمور. وقد كذّب

بالرســـالات المُنـــزلة قبلاً كثير من أقوام الأنبياء فأخذهم الله بنكير واعظ، وإن مدّ لهم حيـــناً في الدنيا فهو لا يُخلف وعده في الأزل إذ يتجلّى له يومئذٍ الملك يُؤتِي مَن يشاء جـــنّات النعـــيم أو يوقع عليه العذاب المهين. وهو خير الرازقين يومئذ لمن هجر دياره مؤمـــناً فابتُلي في الغربة بالبأساء ويُدخلهم دار السلام مُدخلاً يرضونه إن أُخرجوا في الدنيا كرهاً من ديارهم. إنه ﷻ بعملهم عليم وفي حسابهم حليم. وإن عاقبوا بالهجران الذين ظلموهم بالفتنة ثم بَغى عليهم أولئك الظالمون لَينصرنّهم الله وهو عفو غفور لمن قصّر منهم في المصابرة والمهاجرة. يُقلّب الله أحوال عباده في الآخرة هكذا، وهو الذي يُقلّـــب أحـــوال مخلـــوقاته في الليل والنهار آيةً في الطبيعة مشهودة. وهو سميع بصير بكـــسوب عباده عبر حياتهم يُصرّف لهم سيَرها بأقداره، إذ هو الحقّ العلي الكبير وما يُدعـــى من دونه الباطل. وهو يحوّل طبيعة الأرض مواتاً فاخضراراً بالماء التي يُنـــزلها، وكـــذلك هـــو اللطـــيف الخبير بحياة عباه يُسراً بعد عسر. وهو المالك المصرّف لما في الـــسماوات والأرض، غنياً عن كل ذي شأن موقّر، حميداً فوق كل ذي حمد مقدّر في العالم المشهود. وهو الذي يُسيّر بأمره لنفع عباده البشر الفلكَ تجري في البحر، ويحفظ الـــسّماء وما فيها مرفوعاً لا يقع كسفاً عليهم في الأرض إلا بإذنه، إذ هو بهم رؤوفٌ رحـــيم. وهـــو الذي يُدير أقداره على وجودهم، أحياهم من عدم ثم يميتهم ثم يحييهم بعثاً، إن الإنسان لكفور بنعمة كرّة الحياة بعد الموت.

ولـــئن اختلفت مناسك الناس وتنازعوا فيها فالله أعلم بما يعلمون، كتابُ علمِه مُحيط بما في السماوات والأرض، وحُكمه فاصل بين الناس يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، لكن المشركين يعبدون من دونه ما لم يُنـــزل به سلطاناً وليس لهم به علم وما هـــو لهـــم بنصير. وما الآلهة التي يتّخذها المشركون دون الله الخالق المدبّر للأمور إلا كيانات ميتة عاجزة، هم قوى مؤلّهة بالظنون لن يخلقوا ذباباً هو من أضعف مخلوقات الله ولـــو اجـــتمعوا له متكتّلة قواهم المزعومة، وإن يسلبهم شيئاً عزيزاً من قرابين بين أيـــديهم لن يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب. وما الشرك بتقدير حق لقدر الله إذ هو حقاً قويّ عزيز. وهو يتولّى عباده ويتعهّدهم برسالات علم وهدى من الغيب، إنـــه سميع بصير ببلاغ تلك الرسالات يعلم ما بين أيدي المرسلين بها من البلاءات وما

خلفهــم من أثر وخلف وإليه تعالى تُرجع الأمور. فعلى الذين آمنوا به ﷻ أن يعبدوه طاعــة ويُجاهــدوا في سبيله حقاً، فهو الذي اجتباهم ليتلقوا أول خطاب الرسالة في مكــة، وجعل لهم الدين ميسّراً بلا حرج إحياءً لملة أبيهم إبراهيم وتسميةً لهم من قبل ومن بعد مسلمين، ليحمل الرسول الخاتم أمانة الرسالة، فإن بلّغوها دعوةً وقاموا قدوة بالصلاة والزكاة والاعتصام بالله فإنه هو مولاهم نعم المولى ونعم النصير.

إن ســاعة القيامة وعد وأجل حق ووقعها شيء عظيم، إذ تتزلزل بها مشهودات الكــون فتُصيب البشر منها فزعةٌ حتى تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت، وهدرة حتى تــضع كــل ذات حمــل حملها، وغمرة حتى تراهم سُكارى وما هم بسكارى ولكن تــصدمهم مــشاهد العذاب الشديد. وإن كان الناس في ريب أن ينبعث الإنسان بعد الموت كأنما الموت وقع مطبوع وقدر منحسر لا رجعى بعده للحياة، فإن آيات أمر الله المفعول وسنّته الماضية بيّنة في أقدار خلقه الإنسان نفسه من تراب ميت ثم من نطفة ثم في تــرقّيه طوراً بعد طور حتى يبلغ أشُدّه ثم ردّه نحو العجز والوفاة، وتلك الآيات بيّنة أيــضاً في الأرض ميــتة هامدة يُنــزل الله عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت أزواجاً حية بهيجة – إنها شواهد على الحق: أن الله يُحي الموتى وأن الساعة لا ريب فيها آتية يبعث الله عــندها مــن في القبور. إن المُلك يوم تقوم القيامة لله، هو يحكُم بين الناس حُكماً أعلــى، وإن مــشاهد المــصائر الحاقّة يومئذ بقضاء الله أن يذهب الذين كفروا أمس بالغيب إلى بئس الملبس تُقطّع لهم ثياب من نارٍ، وبئس المذاق والمغمس يُصبُّ من فوق رؤوســهم الحميم يُصهر به ما في بطونهم والجلود، وبئس المحبس لهم مقامع من حديد، كلمــا أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها وأوتوا عذاب الحريق المهين. أما الذين آمنوا فــنعم التطهّر يومئذ بمغفرة الله ونعم المدخل إلى مأوى مرضيّ جنّات تجري من تحتها الأنهــار فــيها رزقٌ كريم، ونعم التحلّي والتزيّن بأساور من ذهب ولؤلؤ ولباس من حرير، إنهم قد هُدوا إلى الطيب من القول الحق الداعي إلى أعمال الحياة الدنيا الصالحة وهدوا إلى صراط الحميد الذي يبلّغهم في الآخرة إلى منتهىً فيه نعيمه ورضوانه ﷻ.

إن الله يوحــي إلى عــباده في عالم الدنيا المحجوب علماً بحقائق الغيب ومشاهده وهــدى إلــيه مــستقيماً. وإنما ذلك بأن تتنــزّل رسل الله ملائكةً مصطفَين من الملأ

الأعلـــى برسالات إلى عالم عباده البشر الأدنى الذين يصطفي الله ﷻ منهم من يتلقّى تلك الرسالة الموحاة ليقوموا في الناس مبلّغين الرسالة تالين آيات ذكرها الموحى ليصلوا لهـــم حـــياتهم في العالم المشهود بعالم الغيب والآخرة بكلمات من بيان الهدى والعلم والنذيـــر: أن يتّقوا الله وغضبه حتى لا ينتهوا في الآخرة إلى بئس العاقبة في ذلك الغيب والأزل. إن الله في رســالته الخاتمة أنـــزل آياته بيّنات حقاً يهدي بها من يُريد – وهم الـــذين صـــدّقوا بها – إلى صراط مستقيم، بينما يُضلّ الذين امتروا بالآيات وكفروا، وذلك حتى قيام الساعة. فمن الناس مَن يؤمن بالحق من هدى الرسالة ونذرها ويُصدّق إيمانه بالعمل الصالح والإحسان والتقوى فيحقّ له نعم المصير. لكن من الناس مَن يمضي مجـــادلاً في الله بغير علم ولا هُدى ولا كتاب منير، ويتّبع كل شيطان مريد، ثانيَ عطفه ليضلّ عن سبيل الله. ومنهم مَن يسعى في آيات الله الموحاة معجّزاً نذيرها إذ لو صدق لـــتحققّ وعـــيده لفور بلاغه واقعاً ظاهراً مفعولاً، يستعجلون الرسول أن يُنجز وعيده نذيـــراً بالعذاب، والحق أن الله لن يُخلف وعده بالأزل مهما يمدّ ويُملي لمن ينتظرون ويـــرون وقـــوعه بعيداً في عدّ أيام الدنيا المتطاولة عليهم، فإن يوماً عند الله في إحاطته بـــالأزل كألـــف سنة مما يعدّون في حساب الدهر المشهود – إذ يُسمع بلاغ الرسول قرآناً موحى. ومنهم مَن – إذا سمِع بلاغ الرّسول قرآناً موحىً – يُلقي بوحي الشيطان في أمنيّة الرسول إذ يتلو عليهم منطوق الآيات، ليُدرج فيه دخيل من قول زور منحولاً كأنـــه قرآن. لكن الله ينسخ ذلك الباطل ويُحكم آياته إذ يُعقب قولة الشيطان بوحيٍ يحمـــل نصّها الصحيح ليُجلّي أصل حقّها، إنه هو عليمٌ حكيم. وإنما يذر الله الشيطان يُلقي كلمات باطل في الآيات الحق فتنةً للذين في قلوبهم مرض ارتياب والقاسية قلوبهم أن تخشع للحق المجرّد والذين يمضون في دروب الضلال في شقاق بعيد. وإنما يُحكم الله آياتـــه ليعلم الذين أوتوا العلم تلقياً لهدى القرآن من قبل فرسخ في قلوبهم أنما ما يُتلى علـــيهم مـــن بعـــد محكمةً آياته هو الحق من الله فيؤمنوا به فتُخبت له قلوبهم مطمئنة ويهتدون ثابتين على هديه قبلةً إلى صراط مستقيم. ويُرى المشركون الذين يعبدون من دون الله مـــا لم يُنـــــزل به سُلطاناً وما ليس لهم به علم إذ تُليت عليهم آيات الوحي الداعـــية إلى التجرّد من الشرك لعبادة الله الواحد – يُرون يبدو في وجوههم غيظ بيّن

يكـــادون يـــسطون بالذين يتلون عليهم الآيات ولا يتذكّرون نبأ ما هو شر من ذلك التهداد: النار وعيد الله لهم وبئس المصير.

إن المـــصائر في الآخـــرة حاقّة محتومة وفاقاً لكسب في مسالك الناس في الدنيا بـــإرادهم الحرة المختارة. فمنهم الذين آمنوا برسالة الوحي المتجددة بالقرآن المصدّقة ما سبق من الصحف والكتب الأولى وحفظوا هداية الإسلام وملة التوحيد لله. ومن بين الذين سلفت لهم رسالات من الوحي المكتوب مَن انقطع عن أصل هدايته وقصر الوحـــي علـــى محرّفات من كتابه وحصر الرسالة لذريته الخاصة، وهم اليهود. ومَن صنع الصحف وارتفع عن رهن المادّيات وصبأ عن الديانة الجاهلية العرفية بغير كتاب مـــنير وأخذ يتطلّع إلى عالم الغيب والروح يتلمّس فلا يتّخذ إلا هداية مبهمة، وهم الصابئة. ومنهم مَن ضيّع الكتاب وتعلّق بعيسى الذي كان ميلاده آية لله فاتخذوه ابناً مـــنه أباً ومعه أمه والروح القدس الذي كان يصله بالله فآمنوا بتثليث الإله وأحالوا الهداية لهوى الرجال المتقدّسين في كنيسة تعبد الله، وهم النصارى. ومنهم المنقطعون عـــن الغـــيب كله الذين اتخذوا زوجية الخير والشر مثنويةً موهومة هي أصل مفترى لـــدين في عالم الدنيا المشهود، وهم المجوس. ومنهم مَن لم يبق فيهم من أصل فطرة الإيمان بالله إلا هو خالقاً ولم يؤمنوا برسالته المنـــزلة ولا بالبعث الموعود بعد الموت واتخذوا من دون الله أرباباً من الأوثان أولياء أو من ملائكة هي بنات لله يتشفعّون بها إلى الله ويُجـــسّدونها في أصنام مسماة إناثاً، ومضوا في الحياة الدنيا بأهوائهم بلا علم أو هداية بيّنة بكتاب رشيد. إن الله يفصل بين عباده أولئك في الآخرة مهما يذرهم يخـــتلفون ويتخاصمون في الدنيا، فهو على كل شيء شهيد يميّز فيهم الذين عبدوه خالصين ساجدين له في سياق الطاعة والسجود المطبوع على سائر الأشياء المخلوقة المشهودة في السماء والأرض، الجامد منها والحيوان. أولئك حق لهم وفاق ما قدّموا أن يتوافوا مع الأشياء في الآخرة في وئام وسلام وإكرام من الله. أما الذين شذوا عن ســـائر طاعة المخلوق عربدةً بحرية الخيار التي وهبها لهم الله فقد حقّ عليهم العذاب ومـــا لهم دون الله من مُكرم. إن الله يفعل ما يُريد بعباده البشر الذين يختصمون في الدنـــيا – الذين اتقوا ربهم وآثروا الوفاق مع سائر الكون الساجد طاعةً لله، والذين

اختاروا الشقاق فالمعصية لله، ليكون مصيرهم متمايزاً كذلك يوم القيامة سعداً وسلاماً أو شقاءً وهواناً.

إن في التاريخ الدهري لسيرة دنيا الإنسان شواهد على قضاء الله في الواقع الحاضر فصلاً بين أهل الإيمان وأهل الكفر – حُكماً لم يؤخره الله مدّاً إلى يوم الساعة والحساب والجزاء، بل عجّله في الدنيا عقاباً للمكذبين برسالات الحقّ الموحاة وعظة للخالفين. فإن كذّبت أمة الخطاب الأولى النبي الخاتم الداعية الأول للإسلام، فقد كذّبت قبلاً قوم نوح رسولهم، وعادٌ رسولهَم هود، وثمودُ رسولهم صالح، وكذلك كذّب رسلهم قوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين كذّبوا شُعيباً، وكذّب قومُ فرعون موسى. وقد أملى الله لأولئك الكافرين حيناً لعلّهم يتذكرون فيتوبون ويتقون الله ونذيره، ولكنهم تمادوا في ضلالهم فأخذهم أخذاً شديداً تجلّياً لإنكاره عليهم وفاق إنكارهم للحق. فكم من قريةٍ هكذا مضت ظالمة فأهلكها الله وبقيت آثارها مشهورة حيطاناً للبيوت خاوية على عروشها وكم من بئرٍ فيها معطّلة وقصر مشيد خال. ذلك تذكير لأولئك الخلف لو ساروا في الأرض فلم يغفلوا عن عظة تلك الآيات بل انفعلت قلوبهم بإدراك وقعها فعقلوا في أنفسهم جَنحة الضلال المفتون بالدنيا، لو سمعوا أنباء القرى فتجاوز وقعُها طبلات آذانهم إلى وجدانٍ واعٍ متأمّل معتبر فإنه لا تعمى الأبصار الحسّية ولكن تعمى القلوب التي في الصدور بعميانٍ ما يُجيشها من الأذهان المدركة والبصائر الحيّة. ومهما يكُن التاريخ واعظاً فإن رسالة الكتاب الموحاة قد يكون فيها تذكير بأمثلة لا من ذلك العقاب والمصير العاجل، بل فيها نذير بوعيد من الله آجل، فكم من قريةٍ كانت ظالمة لكن الله أملى لها وما أهلكها عاجلاً في الدنيا وما أخذ أهلها إلاّ بأقدارٍ الوفاة المسنونة التي أدركتهم حتى يوافيهم البعث فالمصير الحاقّ عليهم عند المرجع إلى الله.

إن الذين آمنوا برسالة الإسلام هجراً للباطل الذي كان يرهن قومهم الكافرين المشركين الضالين عن الحق التوحيدي المتجدّد، إذا هاجروا من ثمّ ديارهم التي كانت لهم مرضيّة لكن اشتدت عليهم فيها الفتنة وتهددتهم هلكات الأذى وضاغطتهم دفوع الإخراج من الوطن – إذا هاجروا هكذا في سبيل الله فأصابتهم في الغربة بأساء المعاش ثم توفّاهم الله

بالقـــتل مـــن لحق العدوان الباغي أو الموت من سنّة انقضاء العمر، فإن الله إذا رجعوا إليه للأجـــل الموعـــود يـــرزقهم في الجنة رزقاً حسناً وهو حقاً خير الرازقين، وليدخلنّهم بعد خـــروجهم من أوطانهم مُدخلاً يرضونه خيراً في الجنّة، إنه عليم بكسوب مجاهداتهم حليم مهمـــا يغشاهم فيها من عسر المصابرة والمفارقة. وقد يتعرّض المؤمنون بعد هجرتهم لحرج في العـــود إلى موطنهم لا لمساكن أو تجارة عهدوها أو ذات قربى اشتاقوا إليها فيها، بل إلى متعبّد جعله الله متابة للعالمين مثل المسجد الحرام في مكة الذي صدّ المشركون عنه المؤمنين الـــذين هاجـــروا إلى المدينة وأرادوا أن يسودوا هم فيه بإلحاد بظلم. عندئذ كان ينبغي أن يسعى المؤمنون ولو مصالحة لمن يغلب في مكة تلبية لنداء الحج كلما حلّ ميقاته إحياء لسنة إبـــراهيم الذي قيّض الله له ذلك البيت ليقيمه متعبّداً لمن يوحّد الله لا للمشركين، وليطهّره للطائفين والقائمين والركّع السجود في الصلاة مؤذناً بالحج كل عام للناس كافة ليستجيبوا لـــنداء التوحـــيد عـــبادةً لله والتوحّد صفاً في أدائها آتين من كل فجٍّ عميق مشاةً أو على ضامرات المراكب. هناك في الحج يشهدون منافع لهم ويذكرون اسم الله في أيام معلومات حمـــداً على ما يرون من أنعام مسوّمة معروضة عليهم في سوق الحج رزقهم الله بها ليأكلوا مـــنها ويطعموا البائس الفقير. وهناك يقضون تفثهم مُحرمين ويوفون نذرهم بأعمال البر ويطوفـــون بالبيت العتيق. وحرمات الله وشعائره ينبغي أن تعظّم، ونعمة الأنعام يُذكر فيها الله محمـــوداً إذ يحـــل أكلها وإهداؤها ولا يحرُم منها إلا ما يُتلى في القرآن لاسيما أن المقام لـــيس بمجال قرابين للأوثان ولا لرعاية محرمات عُرفية في المأكولات افتراء على الله. وليقُم الحجـــاج حنفاء لله لا إشراكاً به ولا هويّاً من علياء الصوب إليه كأنما خرّ المرء من السماء فـــتخطفه الطـــير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، فإنما ذلك مثال لشتّى نوازع الهوى ومـــساقط الـــسفول في مدارك الحياة. والموحّدون المسلمون لله هم مَن كانوا له ثمّة مخبتين وجلـــين إذا ذُكر اسمه صابرين على ما أصابهم ويقيمون شعيرة الصلاة ويُنفقون مما رزقهم الله ويذكرون نعمة الله البيّنة في الأنعام المسخّرة لهم يأكلون منها ويهدونها لا عطاء لله فهو غني عن لحومها ودمائها، ولكن تقوى من شهوة الاستئثار بالطعام ومن غضب الله وتكبيراً لـــه هاديـــاً وإحـــساناً في سبيله تدفعهم بشارةُ وعده يوم القيامة ونذارة الحشر فيه الذي تذكّرهم به قومة الحجاج ومحشرهم.

إن الــذين أُخــرجوا مــن ديارهم بغير حق عقاباً لصدعهم بكلمة الإيمان برهم وحوصروا عن مواقع تعبّد الله وشعائره المسنونة حقاً المباحة في مكة عقاباً لتطهرهم من شــعائر الجاهلية فيها، إن بغى عليهم بعداً أولئك الظالمون سينصرهم الله ويدفع عنهم العــدوان. إن الله لا يحب كل خوّان لميثاق الفطرة وأمانة رعاية المسجد الحرام كفور بــنعمة الله في حرمة الأمانة وفي رزق الأنعام. إنه ﷻ أذن لهم أن يُقاتلوا، ولولا تلك المدافعة بين الناس في سبيل الحق لهُدّمت المعابد التي تُتّخذ لذكر الله في كل الملل. وإنما ينصر الله ويُمكّن في الأرض مَن يُقيمون فيها الدين أحرارا مثالاً لحياة المؤمنين المتكاملة إذ يُداومــون شعيرة الصلاة في صف مرصوص ويتكافلون بإيتاء الزكاة. ويتناصحون مجتمعاً مؤتمراً بالمعروف ومتناهياً عن المنكر. ولله حقاً عاقبة الأمور، يُصرّف تعاقب سِير الدنيا ثم مصير الآخرة فرقاناً بين المؤمنين والمكذبين بالحق.

ترتيل المعاني: الآيات (١ – ٢٤):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١)

مفتتح الذكر في السورة نداء لأمة الخطاب من الناس كافة ودعوة أُولى في جزيرة العــرب، فصدر ذلك الذكر تنبيه يتوجّه إليهم ومثناه الأمر لهم أن يتّقوا ربهم الواحد الحق مخافة أن يحق عليهم غضبه فجزاءه إن نــزعت بهم فتن الدنيا فذهبوا طليقين دون اتــباع لتكالــيف عبادته الواجبة ومراعاة لأحكام شريعته القطعية متعدّين على حدود مــدى المباح الضابطة للسلوك الأعدل في الحياة. وإنما التقوى التزامٌ بإنفاذ تلك الأوامر قدر الوسع لا تركها وانضباطٌ عند حدود النواهي العامّة والدقيقة دون جناية، ومجاهدةٌ للــشهوات الجانحــة وراء ذلك النازعة بالنفوس نحو المعاصي التي تدفع إليها لذّة المتاع والطعام والنكاح أو حميّة التعزّز والعصبية في وجه الآخرين أو سائر دواعي التفلّت إلى الــشر مما يُبتلى به الإنسان في الدنيا ويتعرّض له إن لم يُوافه النذير بالحساب والعذاب العاجــل أو الآجــل. فالتقوى ترهّب أو احتراس من أن يحقّ غضب الله وجزاؤه على الفــسوق مــن مفروضات شريعته وحدودها. وإنما أساس ذلك الإيمانُ بالغيب وعياً حاضــراً أبداً بالله وهدايته ورقابته وتذكّراً لوعد لقائه اليوم الآخر ولنذير حسابه الناس

جمـــيعاً وفـــاق كسبهم في الحياة الدنيا. وإنما يتصدّر دعوة رسالة الدين ذلك التذكير بالتقوى لأن الدنيا تحيط الناس بفتنة الشهوات الجوامح ولزامٌ فيها خطابهم أولاً بالتطهّر والتجرّد منها خوفاً من وعد يوم الدين ووقعه الرّهيب. إن زلزلة الساعة هي اضطراب قرار الكون المشهود المنظوم وارتجاجه وزوال أحواله المسنونة. ويوم تحين الساعة تقوم قيامة البعث الموعود للبشر في الحياة الآخرة بعد فناء الدنيا لمن ماتوا قبلاً وللباقين عندئذٍ أحـــياء على الأرض. وتلك الزلزلة شيء عظيم، إذ هي تحولات حادثة بالغة العظم في أبعاد وقائعها لا تُحتمل كسائر الأحداث الفظيعة المسنونة في معهود الطبيعة(1).

﴿يَـــوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (٢)

الناس الذين سبق أمرهم بالتقوى وتذكيرهم بنذر رعب الساعة مخاطبون أنهم يوم يـــروها ويـــشهدون وقعهـــا يضطرب مجتمعهم كله فزعاً، تذهل مندهشة لهول ذلك الخطـــب كل مرضعة غافلة عما أرضعت مهما تشدّها رحمة الأمومة لرضيعها الحبيب، وتضع كل ذات حملٍ تحتوي بطنها على جنين عزيز كانت حريصة على حفظه راجية لـــولادته، تُسقطه إجهاضاً من وقع الفزع من صدمة الساعة. ويرى كل مخاطَب سائر الناس يموجون حوله يحسبهم قد ذهب عقلهم واغتالهم سكر، وما هم بسكارى خمر أو مـــادة خدر، ولكن عذاب الله الذي يرون مشاهده معروضة عليهم يشتدّ عليهم هوله فيذهب بالحلم والرّشد في رؤوسهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ (٣)

ذلك هو الحق، ولكن في هذه الدنيا ومن الناس المخاطبين برسالة الغيب وحقائقه المـــوحاة مَـــن يُجـــادل في الله، يغالط مُخاصماً منكراً دعوة التذكير بالله خالقاً هادياً صادق النذير ناجز الوعد مفعول الأمر مقضيّ القدر ببعث بني الإنسان للمحاسبة على كسبهم في الدنيا عند ساعة قيام الحياة الآخرة. فهو يُجادل عن جهالة بالغيب إذ انحرم

(١) حـــول واقعة الزلزلة ساعة القيامة: أنظر الآيات ٤ – ٦ سورة الواقعة، والآيات ١٣ – ١٦ سورة الحاقّة، والآية ١ سورة الزلزلة، وفي شدّة وقعها على الناس فزعاً: انظر الآية ٨٧ سورة النمل، وصعقاً: انظر الآية ٦٨ سورة الزمر، والآية ٤٥ سورة الطور.

من الوحي بعلم من الله و لم يكتسب بمشهوده واجتهاده تفكّراً في الآيات الظاهرة علماً فـــيه حجـــة بيّنة بل ذهب بما يدّعي متّبعاً الظنون والوساوس من شيطان مريد متجرّد للفساد والإضلال هو قرينه في هذا العالم المشهود المحجوب عن الغيب المُزيّن بما يُغري مـــن الشهوات في شتّى سياقات الحياة، ويتّخذ من مختلف الشياطين مَن يغويه بأسباب مخـــتلفة كما فعل إبليس الشيطان الأول بآدم أبـــي الناس الذين ظلوا على سنة ابتلاء بنازع الهوى من النفس والضلال من الشيطان منذ عهد الخلق الأول.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٤)

كُـــتب طبعاً بسنن الله وأحكامه القدرية على ذلك الشيطان المريد أنه مَن تولاّه ملازماً له متّبعاً غوايته فأنه يُضلّه عن الصراط الذي ينبغي أن يستقيم على هدى الله في الحـــياة الدنيا حتى لقائه عند المنتهى في الآخرة، وأنه يهديه سوقاً إلى السُّبل المتفرّقة عن وجهة الحق وسنّته السالكة مؤدياً به ذلك إلى عذاب السعير عند المنتهى جزاءً وفاقاً.

﴿يَـــا أَيُّهَـــا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَـــشَاءُ إِلَـــى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِـــنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٥)

الخطـــاب يعـــود إلى الناس كافة أنهم إن كانوا في ريب من البعث لا يطمئن لهم إيمـــان بأقدار الله المُحيي المميت تصريفاً لدورة مسير الإنسان في الحياة الدنيا ومصيره بعد الموت فيها إلى حياة أخرى، إن كانوا في شك من صدق ذلك الوعد والنذير وبما يلـــيه مـــن عواقب الحساب والجزاء كما تنـــزّل بذلك الوحي من الغيب – إن كانوا كذلك فليتذكروا أن الله – كما يُخاطبهم – هو بتلك الأقدار النافذة في واقع الوجود قـــد خلقهم بشراً أطواراً، أصلهم من مادة في تراب الأرض التي تحملها مكونات نتاج الـــشهوة الـــزوجية والنـــزوة التناكحية سوائل مني من مثانة الذكر وقذى من مبيض الأنثى، ثم من نطفة قطرة من ذلك، ثم من علقة كتلة عضوية صغيرة تتعلّق بحائط رحم الأم، ثم من مضغة كأنها قطعة مخلّطة مثل ما يتهيأ مما يمضغ الإنسان وتتشكّل مخلّقة من

هـــيكل عظـــام رقيقة تكتسي لحماً فتتصوّر هيئة جنين أو تمضي غير مخلّقة لّما تكتمل أطرافها إذ يجمد تطوّرها المتشكّل وتفسد بِداراً لتخرج سقطاً. وذلك الوصف للأطوار ليُبـــيّن الله للمخاطبين سُنن تجلّي قدرته المتباركة في بدء خلقهم، كيف يُنشئ الإنسان ويـــصرّف أطـــوار تكوينه مخلوقاً حياً، فهو قادر على ما يُعيد من إقامة نشأة للإنسان أخرى بعد الموت وتحلُّل الجسد ونخرة العظام في التراب أو غيره. وبتلك الأقدار الدقيقة المـــتطورة يقيم ويعمر الله ما يشاء من الأجنّة في أرحام النساء باقيات إلى أجل مسمّى هو مدىً من تتامّ الإنشاء والتنامي المسنون للحمل حتى يوضع، ثم يُخرجهم الله بقدره طفـــلاً حـــياً تام الخلقة لكن صغيراً رخص البنية ناعم الجسد. ثم تنمو المواليد بالغذاء الموصول ليبلغوا أشدّهم من قوة الجوارح واستواء الوعي والرشد. ومنهم من يُتوفّى في صباه أو كهولته، ومنهم من يتطاول عمره بعد الشيخوخة حتى يبلغ منها عتياً ويُردُّ إلى أرذل العمـــر هـــرماً يرجع كالطفل لا يطيق المشي إذ لا تقوى عليه جوارحه أو خرفاً يضطرب رشده وينطمس كثير من علمه الذي كان يعقله.

ويـــرى المخاطـــبُ كذلك إذ يمدّ النظر ماسحاً في طبيعة الكون متدبراً أقدار الله العظـــيمة في إحـــياء المخلوقات بعد الموت – يرى الأرض بالية هامدة ساكنة السطح دون حـــركة النبات الحيّ، فإذا أنـــزل الله –كما يقول– المادة بأقدار موزونة اهتزت الأرض بحـــركة نجوم النبات من باطنها وانتعاش خصوبة غذائه، وربت قشرة الأرض منـــتفخة تحمـــل بوادي الحياة المندفعة نحو الخارج، وأنبتت من كل زوج وصنف من الخضر والشجر بهيج مؤتلف الألوان جميل الأزهار حسن الثمار.

﴿ذَلِـــكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٦ – ٧)

ذلـــك المذكـــور من الآيات الشاهدة على أقدار الله في إنشاء الإنسان والنبات أطواراً وإحيائه واستوائه حتى تدور عليه سنّة أطوار الارتداد إلى الموت – ذلك بيّنة بأن الله هـــو الحـــقّ الموجود المطلق القادر المصرّف لأطوار الخلق، بينما يتعبّد الإنسان في الأرض كمـــا عهـــدت أمة الخطاب الأولى لآلهة مخلوقة عاجزة ميتة أو آيلة إلى فناء. وذلـــك بيّنة أيضاً أنه ﷻ له الحول والقوة والقدرة أن يُحيي الموتى بشراً أو نباتاً وأنه

علــى كل شيء قدير مهما تدقّ مفعولات تصريفه وتطويره لإنشاء خلقه الحيّ فضلاً عن فتق مختلف كائنات خلقه الجامدة المشهودة. وذلك من بعد بيّنة أن الساعة لا ريب في أجلها الموعود إذ تقوم القيامة وأن الله يبعث من في القبور وأمثالهم من سائر الموتى فهــم أحياء عندئذ يتكلمّون تحولاً من حياتهم الأولى في زمان الدنيا إلى مدّها في أزل الأخــرى الآبد ليُحاسبوا على ما قدّموا من كسب ويجزوا وفاق ما يحقّ لهم أو عليهم، ويتم وينعدل ويستقيم توازن الوجود[1].

﴿وَمِــنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِــهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٨ – ٩ – ١٠)

ومــن الناس الذين يخاطبهم تنــزيل الله يُعلّمهم حقائق الغيب ويذكّرهم بالهدى والإيمــان بالله والآخرة – منهم من يغلب عليه طبعه مفتوناً بالهوى ومغروراً بالشيطان في العــالم المــشهود، من يجادل في الله بغاية جهد المحاجّة كلاماً في شأن الله بغير علم موثــوق صــحيح المصدر والمنهج، ولا هدىً بوحي من ربٍّ محيط بالحق الرشيد، ولا كــتاب منير علماً من الغيب منقولاً عن سلف بيّن الحجة في نصوصه[2]. ويقوم ذلك المُجادل معرضاً بجانبه ثانياً عطفه لاوياً عنقه ليضلّ ماضياً مستكبراً في ضلاله لنفسه عن سبيل الحق أو ليُضل (في قراءة) داعياً إلى باطل الجهالة. ذلك المرء له في الدنيا – مؤدىً عاقــباً لذلك الضلال – خزي وذلة وهوان مهما يُملي له حيناً ويُستدرج بخير، ويُذيقه الله بأقدار بعثه وأحكام قضائه يوم القيامة عذاب الحريق ناراً تحرق جسده متوالية عليه كلمــا تبدّل، ويُخاطب إذا حُقّ وسلّط عليه ذلك العذاب أن ذلك بما قدمت يداه في

---

(١) في ذكــر أطوار خلق الإنسان آية على البعث: انظر الآيات ١٢ – ١٤ سورة المؤمنون، والآيات ١٩ و٢٠ و٥٤ و٥٥ ســورة الروم، والآيات ٧٧ – ٧٩ سورة يس، والآيات ٣٦ – ٤٠ ســورة القيامة، وفي إحياء النبات بعد موات آية كذلك: انظر الآيتين ٧ و٨ سورة الشعراء، والآية ٩ سورة فاطر، والآية ٩ سورة فصّلت، والآيات ٧ – ١١ سورة ق، والذكر متواتر في القرآن لآيات الله في الإحياء والممات في الحيوان والنبات من الأرض.

(٢) في المجادلــة في الله بغير علم اتباعاً للهوى والشيطان: راجع الآية ٣ من ذات السورة، وانظر الآيتين ٢٠ و٢١ سورة لقمان، والآية ٥٦ سورة غافر.

الحـــياة من كسب جدال بالباطل وضلال وإضلال. وذلك كذلك أن الله ليس بظلاّم للعبيد – أنه لا يكثّف عليهم الظلم وإن كانوا عباده، ومهما تعظّم عليهم العذاب فإنما حقّ عليهم ذلك بما كسبوا وهو ﷻ بهم عدل فيما يلقون من جزاء وفاق.

﴿وَمِـــنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْف فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ به وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١١)

وكـــذلك من الناس من هو مفتون بعاجل العواقب المشهود يقيس بها حق تديّنه وإيمانـــه بالله، فهو يُنافق إذ يبلغ مدى ما من الإسلام لله عبادةً، ولكنه يمضي فيه على حـــرف، شفير من شرط العبادة المؤدية إلى نفع عاجل. فإن أصابه خير غُنماً أو رفاهاً عقب العبادة لفورها العاجل اطمأنّ بسببه ثابتاً مُقيماً على ما هو عليه. وإن أصابته فتنة مـــصيبة أذى أو غـــرم أو حرمان مما يبتلي به اللهُ صدقه وثباته لم يجتز ذلك الامتحان بفـــلاح بل انقلب على وجهه سقطةً في هاوية الكفر والعصيان، فما هو براسخ الإيمان يـــشكر في الـــسرّاء ويصبر في الضراء ويستقيم عبر كل البلاءات[1]. بذلك يكون قد خـــسر الدنـــيا – إذا أصابته فتنة – والآخرة بفوات أجر الصابر والوقوع في ردّة إلى الباطل. ذلك المصير هو – لا غيره – الخسران المبين خيبةً واضحة عاجلة. وتلك الحالة مـــثال لظاهرة عامة إذ كان الإسلام عند تنـــزّل هذه الآيات ينتشر جديداً وكان كثير مـــن الـــناس في حال انتقال وظرف اضطراب بين الثبات لو كسبوا خيراً بعد دخولهم الإسلام والذبذبة في الردّة إن خسروا.

﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ * يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ (١٢ – ١٣)

المرء – من أولئك المتذبذبين عند أحوال الانقلاب هوياً عن درج الإيمان إخلاصاً وثباتاً توجهاً إلى الله وعلى حرف الإيمان حيناً بالغيب الحق والردّة إلى المذاهب الجاهلية المعهـــودة – يدعـــو حين ينقلب من دون الله الحق المتعالي المطلق – صنماً يتعلّق به أو

---

(١) في الـــصلة بالله على تقلّب: أنظر الآيات ٢ و٣ و١٠ و١١ سورة العنكبوت، وفي الردّة بعد إيمـــان: راجع الآية ١٠٦ سورة النحل، وفي التردد بين إيمان وكفر: راجع الآية ١٣٧ سورة النساء، وفي التردد لفتنة القتال: راجع الآيات ١٤١ – ١٤٣ و٧٢ و٧٣ سورة النساء.

هـــدف رجاء ينفتن به عن هوى. لكن ذلك المعبود هو حقاً لا يضرّه لو تطهّر وتحرّر من الاستعانة به والتصويب إليه وتوكل على الله ولا ينفعه لأنه لا حول له ولا قوّة ولا بـــيده أو عـــنده الأقدار ليفعل به شيئاً في إقرار الأحوال وتصريف المآلات الحسنى في الدنـــيا ولا في الآخرة. وذلك هو الضلال البعيد المدى الذي لا يُرجى منه الرجوع إلى هدى قريب. بل ذلك المرء يدعو حقاً مَن ضرّه أقرب من نفعه إذ يؤدي به إلى الضلال عن الله أو التعويل على باطل في الدنيا خاسراً رجاؤه آيلاً إلى الشقاء والعذاب من الله عاجلاً أو آجلاً، ومهما يمدّ له الله في ذلك رحمةَ حلم وفرصة متاب منه فإن عاقبة ضر مـــن ذلك المعبود عن ضلال أقربُ من أي نفع مرجو وهماً، إنه لبئس المولى غير ناصر مهمـــا يوالـــيه ذلك الجاهل توكلاً عليه، وبئس العشير غير صالح للعشرة مهما يلازم صحبته ذلك المفتون.

﴿إِنَّ اللَّـــهَ يُـــدْخِلُ الَّـــذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤)

إن الله – حقـــاً في آجـــل المصائر – يُدخل الذين آمنوا به وبالغيب مستقرّاً ذلك الذكـــر في وجـــدانهم، وعملوا الصالحات تصديقاً لذلك الإيمان تعبيراً عنه قولاً وفعلاً اهتداءً بالدين لما هو صالح – يدخلهم ﷻ جنات تجري من تحتهم الأنهار فيتوالى ريُّها أبـــداً. إن الله يفعل ما يُريد، ينفع من يحق له النفع إذ تستقيم سيرة حياته على الهدى ويُمـــسك الـــنفع عمن لا يحقّ له، مثل المجادلين فيه تعالى غير المؤمنين به كما حقّت أسمـــاؤه الحسنى وتعالت صفاته أو الذين يعبدونه على حرف تردُّهم الفتنة عن طمأنينة الإيمان وتصرفهم إلى عبادة ما دونه مما هو بئس المولى وبئس العشير لا ينفع ولا يضرّ، بل يضرّ بأن يودي بعابده إلى الخسران الأقرب من الرجاء الذي وَهَم إليه.

﴿مَـــنْ كَـــانَ يَظُـــنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (١٥)

إن الـــناس – كمـــا سبق الذكر – في الدنيا مبتلون وكسبهم فيها مختلف. منهم المـــؤمن الصادق العامل الصالحات سيرةً مستقيمة في الدنيا منتهاها في الآخرة إلى خير عاقبة. ومنهم الذي يعبد الله على حرف، يطمئن إن أصابه خير لكن ما تعرض له فتنة

ضر إلا انقلب مشركاً داعياً ما دون الله أن يدركه بنفع، وبئس رجاؤه، هكذا يظن أن الله لن ينصره في الدنيا والآخرة إذ لا يمدّ له الخير متوالياً، وإذا غشيته فتنة أعوزه الصبر ومضى قانطاً أن تدركه رحمة الله بخير عاقب عاجل قريب في الدنيا حوَلاً عن حاضر ما يصيبه، يائساً أن يُعدّ له ما هو خير وأبقى في الآخرة عوضاً عن ذلك البلاء. إنه لا يعرف الله مصرّفاً أحوال الحياة وصروفها يقلّب الخير والشر ابتلاء لعباده، وما هو بعبد مؤمن صابر مطمئن مهما يتقلّب عليه البلاء، متوكل على الله ناصراً له تغشاه رحمته عفواً أو تسعفه بعد ضرّ، عاجلة في الدنيا وتحقّ له آجلة في الآخرة.

من كان كذلك فليجرّب فعلةً واعظة له مثالاً لتقلّبه بين الصلة بالله والقطيعة وتذبذبه في عبادته على حرف. فليمدد بسبب إلى السماء، معلاقاً إلى المقاصد التي تعلو عليه، فإن التمس به حيناً شيئاً يبتغيه فلم يجده واعترته فتنة غيظ عارض من خيبة الرجاء وقنوط من جدوى ذلك السبب الممدود فليقطعه قاصراً دونه إلى الحيل والتدابير الدنيا في الأرض ناظراً إن كان ذلك الكيد يذهب بغيظه فيرضيه بعد أن لم يُبلّغه السببُ ما علق به وهمّه، أم سيودي به القطع إلى يأس وضلال. ذلك الفعل مثال لخُلق مَن لا يطمئن عابداً ربّه إلا حين يغشاه خير، مَن لا يوالي العبادة ثابتاً عليها عبر كل تصاريف البلاء، بل يشرط فيها أن يصيبه بها خير ويقصرها على أحايينه، مَن قد يرتدّ في تدابيره المتقلّبة يلتمس دون الله معبوداً أو أصلاً مرجّواً ليقضي غرضه الملحّ ويشفي غيظه من فوات الخير وفتنة الشرّ. إنه بذلك لن يأمن من البلاء، بل يضرّ نفسه في الدنيا إذ يبتّ أسباب توالي رحمة الله عليه في الدنيا نصراً بعد كل ضير ويسراً مع كل عسر، وينقطع عن الصراط المستقيم الذي يُدخله الرحمة الناصرة الخالدة في الآخرة. وإنما الحق أن يكون المرء مؤمناً صبوراً لا جزوعاً معتصماً بحبل الله الموصول غير المنجزع واكلاً انتصاره في كل ابتلاءات الحياة إلى قدر الله ورحمته العاجلة والآجلة.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (١٦)

وكذلك - إضافة إلى عظة التجربة السابق ذكرُها وتعزيزاً لهديها - أنزل الله بأقدار علمه ورحمته وهدايته وبرسالة وحيه إلى عباده الذين حجبهم عن حقائق الغيب العالم المشهود الذي يُضلّهم بتعلقاته عن استقامة حياتهم إلى آجال الأزل - كذلك

أنـــــزل آيات، كلمات وحي دلائل تُعلّم الإنسان وتزكّيه، بيّنات واضحة الخطاب لا تنبهم معانيها ولا تشتبه، تُخرج من يتلقاها من الظلمات إلى النور. وكذلك الناس في خـــيرة من مذهبهم في الحياة استجابة لتلك الآيات أو إعراضاً وانفتاناً بالدنيا، وأن الله ييـــسر لكل وجهة خياره، يهدي من يُريد هدايته لأنه بمشيئته وكسبه استمع آيات الله وآمـــن بها وعمل بهداها طاعة لله ورجاء أن يوافي من مشيئته وإرادته العليا توفيقاً إلى سواء السبيل.

﴿إِنَّ الَّــذِينَ آمَــنُوا وَالَّــذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٧)

لكـــل مـــن الناس وجهة هو موليها هدىً أو ضلالاً، والآيات من الله فرقان في هدايـــة الحـــياة بالحـــق والله يتولّى فرقان المصائر. إن الذين اختاروا أن يؤمنوا وقرّ في نفوسهم التصديق برسالة الغيب من الله، وكذلك الذين هادوا إلى الله يهوداً تائبين من سابق الضلال بعد إمامة موسى ﷺ ورسالته والتوراة، والصابئين الذين حفظوا بقية من تراث إبراهيم وصبأوا خارجين من دين الملل المغشي بالجاهليات الماديّة العرفية وإن كانـــوا متطهـــرين مـــن الشهوات الطبيعية منتسبين إلى عالم الغيب فهم يتطلعون إلى الأرواح صوب السماء غيباً أو متجليات في النجوم في هيئة الفلك إذ لم يحفظوا ما في صـــحف إبـــراهيم فـــلا يهـــتدون بكتاب من الغيب منير، والنصارى الذين تعلقوا بعيـــسى ﷺ وقدّسوه وناصروه لتنفتح هداية الدين خالصة في المقاصد الباطنة وراء ظاهر الأحكام المرعية ولتتجدد رسالة الدين المتصادقة من التوراة إلى الإنجيل، والمجوس الثـــنوية الذين ردوا الوجود إلى أصلين هما النور فالخير والظلمة فالشر وكانوا يُقدّسون الـــنار وقـــد تـــشعبوا فرقاً في عقائدهم، والذين أشركوا الذين نـــزلوا من عالم غيب الروحانيات إلى تجسيدها في الأصنام – إن أولئك جميعاً كانوا أمم الخطاب في الأرض الوسطى موطن تنـــزّل القرآن وحوله: اليهود كانوا مقيمين في المدينة واليمن ومقطّعين في سائر تلك الأرض أشتاتاً، والنصارى كانوا في أرض اليمن وأرض النيل والشام وما وراءهـــا شمالاً وغرباً من أرض الرومان، والصابئون كانوا في العراق وفي سائر الأرض الوسطى زُمراً، والمجوس كانوا في الخليج والعراق وشرقاً من أرض الفرس، والمشركون

كانوا قبائل متوسطة في الجزيرة العربية، والذين آمنوا المسلمون كانوا عندئذ في المدينة وقلــيلاً في مكـــة وفي سائر قبائل العرب وفذوذاً من غيرهم. ساحة الأرض الوسطى انتثرت فيها تلك الملل المختلفة، وكانت منـــزلاً للكتب السماوية الأولى وتفرّق أهلها شـــيعاً ومجـــالاً لديانات ضل الخلق فيها بعد الهدى أو ساد فيها الضلال دون كتاب مـــنير – أولئك وإن كانوا يتخاصمون ويتجادلون يومئذ أيهم أهدى إلى الحق فإن الله هو الحكَم المطلق يفصل بينهم يوم القيامة. إن الله على كلّ شيء مما يذهبون إليه تناظراً ويعملون تنافساً شهيدٌ رقيب[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٨)

ألم يـــر – أيما مخاطب بهدى القرآن – أن الله هو الحق هداه هو الهدى وله يسلم الوجـــود المشهود إلا من اختار الكفر بذلك الحق في الدنيا وحقّت عليه بذلك عاقبة سوء في الآخرة. إن الله يسجد له – خاضعاً لإرادته متطامناً لأمره – مَن في السماوات ومـــن في الأرض مِـــن كـــل مخلوق حيّ غير مشهود من الملائكة والجن أو مشهود: الـــشمس والقمر والنجوم في السماء، والشجر والدواب من الحيوان، وكثير من الناس في الأرض شـــاءوا طـــوعاً لا طبعاً كسائر الأشياء أن يخرّوا لطاعته ويتواضعوا لعبادته خاضـــعة منحنـــية رؤوســـهم لتحيته، وكثير آخرون حقّ عليهم العذاب إذ تخيّروا أن يستكبروا عن طاعة الله وألاّ يسجدوا له فتُركوا فيما ابتُلوا به من فتنة الدنيا وأُملي لهم من مدّها لتحقّ عليهم عاقبةُ العذاب عاجلة أو آجلة كما يشاء الله لهم وكما ماز عنهم الطائعين الحسنى. ومن يُهن لله لأنه تعزّز عن عبادة الله و لم يُكبّره ساجداً له – ذلك ما له من مُكرم يُعدّ له السلام والإكرام جزاء مهما يوقّر معبوداً دون الله أو مقصوداً يذل لـــه بهـــواه ويتطامن له ساجداً ويتوهّم من تلقائه النفع والضرّ والتكريم عاقبة في الدنيا

(١) إن الله يـــسوي حكمه عموماً بين المؤمنين والكافرين بفصل بين أهل الملل الكتابية يوم القيامة: راجـــع الآية ٦٢ سورة البقرة، والآية ٦٩ سورة المائدة، وبين المتفرّقين من أهل ذات الملة راجع الآية ١١٣ سورة البقرة، والآية ١٢٤ سورة النحل، وانظر الآيات ٢٣ – ٢٥ سورة السجدة.

والآخـــرة. إن الله يفعل ما يشاء، إرادته ماضية وقدره نافذ وأمره مفعول في تصريف مصائر خلقه.

﴿هَـــذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِـــنْ حَدِيـــدٍ * كُلَّمَـــا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٩-٢٢)

هـــذا جمعان خصمان اختصموا تناكفاً وجدلاً في شأن ربّهم والإسلام له: طائفة آمنت بالله وسجدت له كالطبيعة في سياق سجود الأشياء وصلحت عملاً، وطائفة من الـــذين كفـــروا وجحدوا الحق شعاباً منهم مَن يُجادل في الله بالباطل ويعبدونه على حـــرف متقلّـــبين ويُشركون به متعبّدين سُجّداً للمقدسات من دونه ومنهم مَن ورثوا رســـالة كـــتب الوحـــي الأولى فضلّوا عنها شيعاً. فالذين كفروا حقّت عليهم عاقبة العذاب، قُطّعت لهم وقدّرت لتُحيط بهم ثياب من نار يُصبُّ من فوق رؤوسهم الحميم مـــاءً حاراً مغليّاً بنار جهنّم، يُصهر به ذوباناً ما في بطونهم والجلود حرقاً ثم تبديلاً في عذاب موصول، ولهم مقامع، مضارب روادع من حديد، كلما أرادوا أن يخرجوا من النار وغمِّ عذاباتها أُعيدوا فيها وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

﴿إِنَّ اللَّـــهَ يُـــدْخِلُ الَّـــذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٢٣)

إن الله – جزاءً منه في الآخرة وفاقاً لكسب الحياة الدنيا – يُدخل الذين آمنوا – وأقـــروا إيمـــانهم في الوجدان ماضياً – وعملوا الصالحات – تصديقاً لمقتضى دواعيه وضـــوابطه – يُدخلـــهم ﷻ جنات محفوفات بشجرها تجري من تحتها الأنهار ترويها دومـــاً، يُحلّون فيها زينةً في أيديهم أساور من ذهب وعليهم لؤلؤاً درّاً، ولباسهم من كاسيات ثيابهم في الجنات حرير. ذلك كله كما يرون نعيمٌ يَعظُم مقارناً بلباس من نار وظـــل مـــن حميم منصبّ وغاشيات حرق وقمع، وذلك تمايز بعيد في المصير الآجل يوازي التخاصم أثناء مسير الدنيا العاجل.

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ (٢٤)

وهكذا – لتمام الطيبة والعاقبة الوفاق، الذين آمنوا فصلح عملهم هُدوا في الدنيا برســالة الوحــي المنــزلة بإرشاد من الله وبشارة فيها إلى الطيب من القول والكلم الطيب الذي أمدّهم به الله لتتوفاهم الملائكة طيبين يهدونهم إلى الجنة حيث يدور بينهم هم طيب الخطاب إخواناً ويتلقون من الله ومن الملائكة طيب التحايا ومقولات السلام والرضوان. وهدوا كذلك في طيب مسلك حياقم الدنيا إلى صراط الله القويم إلى لقائه في الآخرة، صراط الله الحميد مستحقٍّ بالغ الحمد على إسباغ رحمة الهداية في الدنيا إلى طريق رحمة النعيم والرضوان لديه ﷻ في العاقبة.

عموم المعاني (الآيات ١ – ٢٤):

أول خطــاب رســالة الوحــي للناس كما يرد في صدر هذه السورة وفي سائر خطــاب القرآن بل وسائر خطاب رسالات الأنبياء من قبل – هو أن يؤمنوا بالغيب وأصــل الوجود ليعرفوا ربهم الواحد الجامع لهم كافة وأن يؤمنوا به تعالى هادياً عدلاً لحــياقم الدنــيا الحاضــرة بمدّها فتمام قوامها في الأزل والحياة الأخرى، فيتقوا ربّهم ويرهبوا غضبه عليهم عند لقائه يوم الدين وحسابهم وجزائهم عقاباً على ما كسبوا في الدنــيا، فيتوبوا إلى ضوابط هديه من فتن بلاءات الحياة الدنيا حيث هم رهن في إطار العــالم المــشهود المكتوب عليهم فيه الابتلاء بشهواته الصارفة لهم عن عواقب الغيب المــنظورة والجانحــة بهم إلى تعلّقات الهوى فرطاً وسرفاً وعلواً تعدياً على مدى المباح العــدل المأذون في الدنيا وعلى حدود تكاليف أوامر الله ونواهيه القطعية. وذلك أول الخطاب الديني لأن الناس قبل تعليم الوحي وهدايته لا يتذكّرون الله كثيراً ولا يعلمون أقــداره الغيبــية مهما تكن في أنفسهم فطرةُ إيمان به وعهد لعبادته وفي آيات الطبيعة المــشهودة مــا يبصّرهم بما وراءها، إلا إذا جاءهم التذكير بآيات الوحي المتلوّة تُحيي فــيهم فطــرة الإيمان وتزكّيها بعد أن دسّوها بفتنة الشهوات وتنبههم إلى التفكّر في الآيات المشهودة بعد أن عموا عن دلالتها بفتنة عرضها البادي، تذكّرهم تلك الآيات وتعلّمهم بحقّ الغيب وقديهم في الحياة رحمة من الله وتنذرهم بعواقب أخراها إن مضوا في ضــلال وحقّ عليهم غضب الله. ذلك الخطاب الأول المذكّر يحقّ توجيهه للإنسان

المبتلَـــى في دنياه لاسيما في حاضر العالم المعاصر اليوم. فذلك حاضر تكثّف فيه وتوافر المتاعُ المزروع والمصنوع والمبتدع فعظُمت فتنته للناس ولم تتعزّز به عندهم كما ينبغي معـــرفة نعمـــة الله المتـــباركة بل غلبت عليهم النـــزعة المادّية تصوّباً إلى الدنيا وإيثاراً لمـــتاعها العاجـــل الحاضر قضاء للشهوات. وطال عهد نـــزلة أصول الدين ونهضتها الأولى فاغـــتمّت ذكراه وغفلت عنه العقول وقست القلوب. وإن اندفع العلم بالطبيعة وبلـــغ الـــيوم مقامات من دقائقها فقد غلب بين بني الإنسان القصور فيه عن إدراك جلائـــل آيات الله الطبيعية والاقتصار على العُجب والافتتان بظاهرها المتضاعفة شعابه ولم يـــسعفهم فقه له لينفذوا عبره إلى تذكّر الله وإكثار حمده على نعمائه وليبصروا في مـــشهود حـــركة الوجود الموزونة وآجالها المحسوبة آية لأجل الأزل والنشأة والحياة الأخرى فيرهبوا غضب الله ويرجوا رحمته يوم الدين.

إن تلقّـــي علم الغيب من الوحي وإيمان الوجدان بالحياة الأخرى وانتظار ساعة قيامها بغتة أيما حين عبر مسير الحياة الأولى – إن ذلك هو عماد قوام تلك الحياة الدنيا علـــى الشعور الراسخ في قلب الإنسان بالمسئولية عن مسلكه فيها وخوفه من العاقبة المـــنظورة، ومـــن ثم تقـــوى لحساب الله بما يضبط النفس من عربدة الهوى والافتتان بالشهوات ويكفّها عن الجنوح إلى المظالم والمحارم والمعاصي لله. إن ضوابط السلوك في حـــياة الإنسان وعلاقاته في مجتمع مع الآخرين منها ما يصدر عن ضغوط المجتمع عليه حمـــلاً على المعروف من الخُلق ونهياً عن المنكر بأحكام ناشئة عن تداولات الرأي العام في المجـــتمع وتقالـــيده واقعة بأسباب رقابته ووطأة مجازاته لأفراده بما يُكافئ بالحُسنى ويُعاقب بالسوءى. ومنها ما يقع على الإنسان الفرد بقوة السلطان المنظوم الذي يمارس الصدّ بالقانون والنظام المكتوب عمّا يحرُم والمراقبة بأدوات السلطة والمعاقبة على إتيانه. وذلـــك كلـــه قاصر على معالجة ضبط ظاهر السلوك وأحياناً ما يثبُت ببيّنة مؤكدة، والـــسلطان خاصـــة لا يُعنى إلا بعموم الأمور فيما يُوجب أو يحرّم على رعاياه. لكن ضابط تقوى الله ورقابته والمسئولية الدينية لديه في عاجل الدنيا وبين يديه يوم الدين – هو ضابط يُحيط بحيثيات السلوك كله من عبد الله الإنسان في باطن نيّاته فيه وفي ظاهر إيقاعـــه منه، وبفرعيات وقائعه المتشعبة في الحياة كلها بدرجات الحسن والسوء فيها

ومـــن ثمّ درجات التكاليف الدينية حولها فرضاً وندباً وتحريماً وكراهة. وذلك لإحاطة علـــم الله بوسع الإنسان وظرفه ونيته وفعله ولدقّة محاسبته لعباده وبمجازاتهم عن كل ذرّة خير أو شر من كسبهم بقدرها. ويُعزّز تقوى معاقبة الله عن السيّئات رجاءُ أجره مكافــأة علـــى اجتناب السيّئات مقاومة لنوازع الهوى والشهوة ولإغراءات الشيطان وثـــوابه علـــى متابة الفراغ والتخلّي من السيّئات والنّصَب بعد توافر الطاقة الفائضة لإعمار خالي الحياة بالحسنات. إن رسوخ الإيمان بقيام الساعة فعِظم الشعور بالمسئولية الغيبية يومئذٍ عن الدنيا إحساسٌ يتمكّن في النفوس من تلاوة آية هذه السورة التي تذكرُ نــبأ الساعةً وأعراض وقعها الشديد مقيساً إلى وقع معاقبات الدنيا على سوء السلوك. فيوم يراها المخاطبون إذا وافوا أجلها تذهل كل نفس حتى المرضعة عن طفلها الحبيب الرضيع، ويخلّي كل حامل حمله الشاغل حتى المرأة الحامل تجهض جنينها العزيز، ويرى المـــرء الـــناس حوله سكارى لاضطراب رشد صحوهم وسكون حلمهم المعهود، وما ذلـــك لغَـــول عارض من مشروب خمر، بل هو الفزع من مشاهد المساءلة والمحاسبة ومصائر المعاقبة بالعذاب في جهنّم.

ومـــن الناس في الدنيا من إذا جاءه نبأ الساعة وذُكّر بوقعها ليتم علمه وراء ظاهر الدنيا بوقائع الغيب والأزل ويعرف ربه ويتّقيه في حياته الدنيا لأنه مسئول مُجازى يوم لقائه – منهم رغم أذان الدعوة والنذير – من يمضي في ضلال جهله القاصر عن الغيب يُجـــادل في الله وحـــقّ هديه ووعيد نذيره، هو بغير علم الغيب الحق يسرح في ظنون الخـــيال وخـــرافاته المفتـــراة ويستغل جهله الشيطان فيطمس نـــزعته الفطرية للإيمان ورؤيـــته لآيـــات الـــبعث في الطبـــيعة موتاً ثم حياة في خلق الإنسان والنبات ودورة للكائنات غروباً ثم شروقاً لأجل محسوب، يتّبع ذلك الغافل إيحاءات الشيطان فيُضلّه في سيرة دنياه لا يعرف فلا يعبد ربّه ولا يستشعر مسئولية فيُعربد على هواه حتى يُودَى به في غـــيب الأزل الآجـــل عـــند قيام الساعة إلى الفزع ثم إلى عذاب السعير. والناس مخاطـــبون بآي التذكير في القرآن إن كانوا في ريب من البعث نشأة لهم في حياة أزلية أخـــرى فيها مساءلة عما مضى فمجازاة – يُخاطبون أن يتاملّوا في سُنن الله المشهودة التي تباشرهم في خلقهم أطواراً، كيف كانوا مادّة ميتة من تراب ثم تهيّأت منها بنشاط

زوجـــية مـــن الآباء نطفةُ مني تمنّى في الأرحام ثم تولّد من تفاعلها هناك علقة نمت ثمّ تكـــثّفت فأصبحت مُضغة تتشكّل بعد أجل مخلّقة كهيئة الإنسان أو تمضي دون ذلك الـــتمام ليُبيـــيّن الله لهم تباشير الحمل للجنين الموعود المستقرّ في الرّحم مستودعاً لأجل مـــسمّى، ثم يُخرجهم طفلاً ليبلغوا أشدّهم فتوةً ثم يكبروا حتى يدركوا أجل الوفاة من الله أو قدره أن يُردّوا هرماً إلى أرذل العمر لكي يصيب المرء الخرف ولا يعلم من بعد علمٍ شيئاً. وكذلك ليتأمّل المرتابون بالبعث بعد الموت ظواهر تعاقب الموت والحياة في النـــبات. فالمـــرء يـــرى الأرض هامدة فإذا تنـــزلت عليها بأقدار الله الماء فاختلطت بخـــصوبة تـــربتها الـــبذور فـــيها اهتزت تلك الأرض وأبرزت شطوء نابتاها وربت واستغلظت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج.

ذلك كله من نشأة الإنسان والنبات حياً بعد موات وتطوره دورة نهضة ثم وهدة آيةً بيّنة بأن الله هو الحقّ قدرُه في الغيب مفعول في الوجود المشهود تَبين آياتُه لمن يتفقّه مغـــازي ظواهر الحياة بدقائق شعاها وأطوارها التي تتجلّى فيها مجريات سننه الشاهدة على أنه ﷻ يُحي الموتى بعد عدم تراب وهمود وأنه على كل شيءٍ قدير. ومَن يتحرّى الآجال والأطوار والأدوار في حركة الأحياء والأموات يطمئن مؤمناً أن الساعة آتية لا ريب فيها بعد منتهى الدنيا إلى أجل مكتوب إذ يبعث الله مَن قبرهم الأرض أو فنوا في مادها ويُنشئهم لتُنفخ فيهم أرواحهم من جديد، وأن ذلك أهون عند الله من النشأة الأولى. لكن من الناس مَن يظلّون قاصرين عن الغيب غافلين عن آياته يُجادلون في حق الأصـــل مـــن شأن الله الحق القادر المصرّف سُنن الكون والخلائق كيفما ومتى شاء – يُجـــادل بغير علم موثوق المصدر والمنهج محجوباً من نور علم الله الذي تبين فيه بعد ظلام الجهالة حيثيات الحق المبين، وبغير هُدى إلى سبيل يستقيم إلى ربّ واحد عبر كل وجـــوده سعياً في حياة أولى إلى لقائه في أخرى، لأنه يضرب في ضلال عبر ابتلاءات الدنـــيا وتعلّقاها، قد يلمح بروقاً من الرؤى ولكنه بلا نور يهدي بصيرته وبغير كتاب مـــسطورة فيه بيّنات الحقائق الغيبية وتعاليم شرعة الحياة ومنهاجها لأنه آثر أن يحجب نفـــسه مـــن رحمة الله علماً وهدى وكتاباً إذ أعرض عن آيات الوحي المتنـــزلة. فهو يمـــضي ثـــانيَ عطفه مستكبراً بهواه ليضلّ عن سبيل الله فلا يجد في سير دنياه إلا خزياً

ويحــقّ عليه غضب الله ليذيقه بأقدار العقاب في الآخرة عذاب الحريق، وإذ أعرض عن خطاب الهدى في الدنيا يُخاطب يوم القيامة أن مصيره ذاك هو بما قدّمت يداه، ليبين له الحــق أن الله ليس بظلاّم للعبيد إذ سبق إليهم إنــزال رسالة من علمه وهداه وكتابه النذير بأن الساعة آتية والسوءى فيها حاقّة عاقبةً لمن اتّبع الهوى والضلال. ومن الناس كذلك مَن يتذبذب في مذهب حياته، يؤمن حيناً ثم يضطرب عند البلاء، مَن يعبد الله علــى حرف فهو عرضة لأن يهوى على شفا ذلك المنسك، إن أصابه خير اطمأن به وقامــت وقائع المادة والظروف المشهودة العابرة شهادة عنده على الحق، وإن أصابته فتــنة ما بأن عرض له شرٌ انقلب على وجهه مرتدّاً عن تذكرته الأولى الغيبية فما صبر مــتوكلاً علــى ربّــه بل انصرف متولياً. لكنه كذلك يكون حقاً قد خسر خسراناً موصولاً في دنياه وآخرته فما صبر على الفتنة العارضة ليكل إلى الله العوض في الآخرة ولا حفــظ رجــاء الآخرة ليصدُق له الوعد ولو بعد مرور ذلك البلاء، بل هو مرتدٌ قاصراً على الأسباب المشهودة رجاءً ومنقلبٌ مصوّباً الدعاء والطلب إلى وليٍّ في الدنيا دون الله، يُــشرك بــالله ما لا يضرّه وما لا ينفعه، وذلك هو الضلال البعيد عن حق الإيمان بالله مصرّف كل الأسباب من حيث يحتسب المؤمن أو لا يحتسب، ومقدّر كل الابتلاءات ما يعدّه العبد المؤمن ضراً أو نفعاً والله يجعله كله فتنة لو صبر فيها المؤمن أو شــكر كان له فيها خير كثير. لكن المتذبذب المشرك إنما يدعو من دون الله مَن ضرّه أقــرب من نفعه، لأنه يبعد أن يُصادفه نفع مرجو منه وقد يُخزيه في الدنيا لا يصرّف مقاديرها وهو مرتَد به إلى خزي وضرّ أقرب انتظاراً في الآخرة، إنه في العاجلة والآجلة لبئس المولى وبئس العشير.

إن مَــثل المفــتونين بالعالم المشهود عمين عن آيات الغيب وإن جاءهم التذكير الموحــى يجادلون فيه ومثل المتذبذبين العابدين الله على حرف يطمئنون إن ابتلُوا بخير وينقلــبون إن أصــابهم شر مرتدّين إلى أولياء وشركاء من دون الله أصناماً ومعبودات ضلال - كلا المثلين ظهرا لأول الدعوة للإسلام والخطاب بالقرآن ممن كانوا أصلاً في جاهلية إشراك بالله الذي يرونه بعيداً وهوى متاع في الدنيا وكفر بالبعث، سواء منهم مَن جادل مُصرّاً على جاهليته الإشراكية المادّية ومن آمن لكنه لّما يرسخ فيه الإيمان فهو

في حـــال انـــتقال مضطرب يتقلّب مع بلاءات الدنيا يثبت إن لقي خيراً ويرتكس إن غشيه شر. وكذلك الناس في عالم اليوم منهم مَن يركن إلى المادية ويلتحد من دون الله إلى أهـــواء الدنيا ومتعلقاها، ومنهم من خَلَف سلفاً مؤمناً ولكن ضعف إيمانه وأصبح عرضـــة للـــتقلب مع الابتلاء. ولأول عهد الإسلام في أمة الخطاب الأُولى واليومَ في الخالفينَ مَن آمنوا واطمأن إيماهم بحق الغيب والدين وصدقوا تعبيراً عن ذلك بأن عملوا الـــصالحات واتقوا رهم عبر كل ابتلاءات الحياة الدنيا. أولئك يحقّ لهم أن يدخلهم الله وعـــداً مفعـــولاً في آجلة الحياة العليا جنّات مروية بالأهار الجارية، إن الله نافذ قضاؤه صادق وعده يفعل ما يُريد من مصائر المؤمنين مثلما يفعل في أطوار خلقهم الأول بشراً في الحـــياة رقياً إلى ما هو أحسن تقويماً. أما مَن آمن ولكن عرض عليه بلاء لازمه حتى نفـــد صبره فظن أن لن ينصره الله مولى له في الدنيا يكشف عنه الضرّ ويدفع العدوان عمّـــا قريب وفي الآخرة يجزيه الله بالقسط وجميل العوض عن حال بلائه، مَن كان له بـــوح الخيار في رُتب ثبات دينه لكنه ما صبر وصابر ورابط بل قنط من رحمة الله أن تدركه بنصر قريب، فليجرّب – مَثلاً وعظة من القطيعة عن رجاء ربه الموصول – أن يمـــدد بـــسبب إلى السماء معلاقاً إلى غرض يعلو عليه فإن التمس ما يبتغيه لكن خاب تطلعـــه حيناً فأصابته فتنة أنه غير موصول إلى مبتغاه فليقطع الحبل مرّة واحدة ولينظر: هل يذهبنّ كيده ما يغيظ؟ بل الحق أن يظلّ المؤمن صبوراً لا جزوعاً معتصماً بحبل الله المتين غير المنجزع. واكلاً إلى الله ولايته ونصره في كل ابتلاءات الحياة عاجلاً في الدنيا أو آجلاً في الآخرة أن توافيه الرحمة. وكذلك مثل الآيات التي طبعها مشهودة في الخلق والحـــياة أنـــزل الله بأقدار وحيه آيات بيّنات من كتابه المنير ليؤمن به المستجيبون – حـــبلاً لله ليعتصموا به أبداً ونوراً ليهتدوا به. وكذلك يذر الله عباده في خيار، يهدي من يريد مباركةً وتوفيقاً وتيسيراً لمن بادر وجاهد في سبيل الهداية باستماع لآيات الله وتـــصديق وسعي للاستنارة ها والاستعانة بالله والمصابرة مهما يُبتلى دونه، يُضلّ من ســـعى هـــو لـــضلال سيرته مجادلاً للحق ويُخلّي من اضطرب متذبذباً في حيرته، الله كـــذلك يُيـــسر كلاً لوجهة كسبه وبقدر سعيه في سبيل الهداية أو الضلال إلى أكيس الفضائل أو أخس الرذائل.

إن الـــناس هـــم بمشيئة الله في خيار من دينهم، فهم قد يميلون مذاهب شتى بين العقائد الغيبية والمادية والإشراكية، وحتى لو آمنوا بآيات الله المنـــزلة قد يختلفون مللاً شـــتّى بـــين أهـــل الكتاب والرسالات المتعاقبة: منهم مَن يؤمن بها متواترة متصادقة مـــتجددة من أم كتاب واحد هو هدى الإسلام لله، ومنهم مَن يجمد مع طائفته على خصوص ما ورثوا من سلفهم عصبية لملّتهم يُدعَون بما يتسمون به نسبةً لها، ومنهم مَن يطول عهده فتموت أصول تراثه وتتغيّر أركان عقيدته أو شعائرها مع تقلّب الابتلاءات والظـــروف المتوالـــية تـــبدلاً. والفصل فيما يتمايزون به اختلافاً حُكماً وقضاءً بينهم بالحق – ذلك لله في عاقبة المصير، فهو الشهيد على مذاهب خيارهم ومسالك حياتهم. فمن الناس مَن آمنوا بالله الواحد وانمحت جاهليتهم الإشراكية وبالغيب والبعث ويوم الدين فحنفوا إلى ملّة الإسلام المتمددة نحو العالم منذ إبراهيم عليه السلام وخَلَفه حملة الكتب المتـــصادقة. ومـــنهم مَن هادوا إلى الله قبلاً بهدى من رسالة موسى عليه السلام لكن تحوّوا بملّتهم في ذريّة إسرائيل يعقوب بن إسحق بن إبراهيم وتفرّقوا في الأرض أشتاتاً. ومنهم الـــصابئون في مواقع شرق آسيا الذين صبأوا من دين التعلّق بالأشياء الطبيعية المشهودة ونـــزعت بهم فطرة الإيمان بالغيب إلى عالم الأرواح فذهبت بهم ظنونهم اللاهوتية إلى نحـــو السماء والنجوم. ومنهم النصارى الذين انطلقوا من قرية الناصرة آيلين إلى دعوة عيـــسى عليه السلام في اختـــيار رسالة التديّن الصادق باطناً وظاهراً تجديداً للتوراة وخطابها بالإنجيل العام لبني الإنسان كافة، لكن فتنوا في دينهم فعكفوا على توقير عيسى، وحين ظهـــروا وانتشروا في الأرض اتّخذوه إلهاً وابناً لله ومعه في ثالوث مقدّس الروح حامل الوحي. ومنهم المجوس الذين اتخذوا في شرق آسيا النار شعيرة تعبّد لمثنوية الوجود نوراً وخيراً وظلاماً وشراً وما عرفوا الابتلاء في الدنيا هدىً وعملاً صالحاً وضلالاً طالحاً ولا عـــرفوا حكمـــاً بين المثنوية بميزان علم الغيب. ومنهم الذين أشركوا من العرب بعد ســـالف الهـــدى التوحـــيدي في ملّة أبيهم إبراهيم، ضيّعوها وضلّوا في جاهلية متعبّدة للأصنام دون الله مفتونة بمتاع الدنيا العاجل دون انتظار البعث ورجاء الآخرة. أولئك جميعاً يذرهم الله أحراراً لهم الخيار فيما يعتقدون ظانّين أنه حق ويحيون بنهجه مدّعين أنه خير. لكن الله يفصل بينهم يوم القيامة والدين فرقاناً بين الحق والباطل ويكتب لهم

ما يحقّ بينهم من الجزاء ثواباً وعقاباً. إن الله على كل شيء شهيد يعلم ما قدّموا خياراً في المــذاهب ومنــسكاً في ســيَر الحياة، ولو كان يذرهم يختلفون في الدنيا ويتفرّقون طوائف يتناظرون، ومهما يصرّ بعضهم على المعهود من تقاليدهم إدباراً عن التوبة إلى الحــق وإعراضــاً عن هدى القرآنِ الخاتم للرسالات الفرقانِ بين الضلال في حياة دنيا تــيهاء والهــدى إلى الصراط المستقيم في مذهب يصوّب الحياة الدنيا إلى الآخرة، إنه شهيد على كل شيء يراقبهم ويعلم ما يعملون.

إن الكــون المخلــوق كله يسجد لله، طوعاً وخياراً من بعض الإنس والجن وكرهاً وطبعاً من سائر الأشياء. فلله يسجد مَن في السماوات غيباً من الملائكة الطُوّع ومن مؤمنة الجــن ومَن في الأرض مشهوداً من الأشياء ومن مؤمنة الإنس. فالكائنات المخلوقة البادية في السماء ساجدة طبعاً لله خاشعة لأقدار سُننه الواقعة: الشمس والقمر والنجوم، والأشياء المــشهودة في الأرض كذلك: الجبال والشجر، وحيوان لأرض المتحرّك من الدوابّ. أما بين بني الإنسان، فكثير من الناس يسجد لله طوعاً ويحقّ له بذلك من الله المكافأة بالثواب، وكــثير منهم حقّ عليه العذاب إذا اختار أن يأبى السجود لله ويعصي أمر الطاعة لشرعه، ومــن يُهن الله فما له من مكرم، فبيده ﷻ تصريف المصائر، إن الله يفعل ما يشاء، فالناس في اخــتلاف واختصام في أمر ربهم في الدنيا وهم كذلك في مصير الآخرة. فالذين كفروا بــالله وفسقوا عن نية طاعته وخلعوا لباس تقواه ومضوا في الدنيا كذلك شذوذاً عن الكون الــساجد لله حــولهم حــقَّ في الآخرة أن تُلقى عليهم ثياب من نار جهنّم ويُصبُّ فوق رؤوسهم حميماً ويُصهر بحريقها ما في بطونهم والجلود، ولا مفرّ لهم منها، فلهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ومثل وعيد النذير بها من رسل الله في الدنيا يخاطــبهم جــندُ الله حــولهم في الآخرة أن يذوقوا عذاب الحريق في هوان. والذين آمنوا ســاجدين مع أشياء طبيعة الكون عبادةً وعملاً صالحاً لوجه الله واءمتهم تلك الأشياء في الآخــرة ســواقاً طيباً، يُدخلون جنة تجري من تحتها الأنهار، ومثل لباس التقوى في الدنيا يُحلّــون في الجــنة أســاور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير، وكما اهتدوا في الدنيا بكلمات الإيمان والإسلام والذكر الطيبة هُدوا في الجنة إلى الطيب من القول تحية من سلام وإلى صراط ربهم الحميد رضواناً منه أكبر في عالم البقاء والخلود.

ترتيل المعاني (الآيات ٢٥ – ٣٧):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٥)

ما بين الذين افترقوا واختصموا مؤمناً صالحاً وكافراً جاحداً الحق – قام فريق الكافرين المشركين متمكنين في مكة وأصبحوا وقد قام الفريق المؤمن قليل منهم في مكة والسواد الأعظم في المدينة يبتغي العود لزيارة المسجد الحرام هناك – أصبحوا يصدونهم عن السير في سبيل طاعة الله فتنة لمن كان منهم مؤمناً في مكة ومنعاً لمن جاء إليها من المدينة يقصد المسجد الحرام، ذلك المسجد الذي جعله الله بأقدار تيسيره لعباده شعائر التذكير العاكف فيه مقيماً عنده ملازماً والبادي الذي يسافر إليه ليزوره حاجاً ومعتمراً طائفاً ذاكراً لله. إن أولئك الكافرين عزّزوا كفرهم بالصدّ للمؤمنين أن يوحدوا نحو الله وجهة الحياة وسبلها، وأن يُخلصوا الذكر له في المسجد الحرام الذي اتخذه أولئك الكافرون معرضاً لشركهم، وجعلوا الحج موسماً لمتاع تجارتهم وادعوا أنهم حماته، وأنهم كذلك أحق بأن ينالوا مثل مصير الذين كفروا عموماً، وأُذيقوا عذاب الحريق كما ورد في الآية الأسبق، ومن يرد في المسجد الحرام أن يأتي بإلحاد جائر عما هو المسنون المعروف من العدل المتسامح الآمن لكل زائر عابد من الناس – من يجور هكذا بغير حق بل بظلم لأن الذين آمنوا كانوا يبتغون الزيارة خالصين عبادة لله في ذلك المنسك العظيم والحرم القديم ديناً قيماً ملة إبراهيم وهم في ملة الشرك العظيم. من يفعل ذلك – مثل مشركي مكة – يذيقه الله بأقدار عقابه لمن كفر كما سبق ذكره– نصيبه الحاق عليه من عذاب أليم.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٢٦)

تذكّر الآية كل مخاطب تال للقرآن مؤمناً عابداً حاجاً يذكُر الله وحده ويتقي الشرك به، إضافة إلى ما سبق بيانه من تمايز مسالك الناس مختصمين إلى مختلف المصائر وجنوح من كفر منهم أن يصدّ مَن آمن عن مناسك العبادة في الحرم – تُذكّره حين بوّأ الله إبرهيم عليه السلام إمام الملّة القيّمة – اتخذ له منزلاً ومقاماً ومرجعاً ويسّر له

متعـــبّداً – مكان ذلك البيت الذي أصبح حرم عبادة يتردد إليه الزوار خَلَفاً – وذلك تهيـــئة له وتكليفاً وخطاباً نهي: ألا يشرك بربه الذي أقامه وأنعم عليه كذلك شيئاً من المعبودات التي كانت شائعة بين الأقوام حول ذلك المقام، وأمر: أن يُطهّر البيت الحرام الذي نسبه الله إليه وحده منسكاً ومحوراً لعبادته، أن يُطهّره من الأوثان شعائر الجاهلية الإشـــراكية للطـــائفين بـــه رمزاً ومحور توحيد له ﷻ معبوداً وللقائمين فيه تعظيماً له وذكـــراً، والـــركّع السجود المنحنين بقاماتهم الواقعين بوجوههم إلى الأرض خضوعاً بكرامتهم، له ﷻ الأعز الأكبر مقيمين ابتغاء وجهه صلاةً تستقبل ذلك البيت.

﴿وَأَذِّنْ فِـــي الـــنَّاسِ بِـــالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٢٧)

ومـــضى خطـــاب التكلـــيف لإبراهيم عليه السلام أن يؤذّن نداءً وإعلاماً للناس كافّة بـــالحج، القصد المتوالي إلى ذلك الحرم[1]. وجاءه خبر البشارة باستجابة الناس يأتونه ملـــبّين دعـــوته إلى الله رجالاً ساعين إلى المسجد بأرجلهم وعلى كل ضامر من الإبل هـــضيمة البطان من تطاول السفر البعيد، تأتي تلك الدواب من كل فج وطريق واسع عميق بعيد المدى يستدعي المراكب.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِـــيمَةِ الأَنْعَـــامِ فَكُلُـــوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (٢٨ – ٢٩)

يأتي أولئك الحجاج ليشهدوا ويحضروا منافع لهم في حاجات دينهم ودنياهم تعمر في حرم وتتوافر في مزدحم، وليذكروا اسم الله في أيام قليلة معلومات حسب السنن في الشهر الحرام، فما تلك المناسك بأسواق تجارة ومنابر خطاب وشعر وحسب، بل هي لذكـــر الله حمـــداً على ما رزقهم من بهيمة الحيوان المتكاثر جلبُها لإلحاح حاجة طعام الناس موسم الحج دون سائر أرزاق الله في مجالات سوق أخرى. فليأكل منها الحجاج إذا ذبحـــوها ولـــيُطعموا مـــنها البائس الفقير الذي اشتدت عليه حاجة الطعام مفقوراً

(١) في ذكـــر ملّـــة إبراهيم وسنّته في الحج إلى البيت المطهّر: راجع الآيات ١٢٤ – ١٣١ سورة البقرة، والآيات ٩٥ – ٩٧ سورة آل عمران، والآيات ٣٥ – ٤١ سورة إبراهيم.

محـــروماً مـــن الغنى الكافي لقوامه، وتلك تذكرة لحمد الله على نعمائه المتوافرة ثمة وفي ســـائر مواقـــع الحياة وللتكافل والإنفاق والتساوي بين الناس. ثم ليقضوا تفثهم إزالة لأوســـاخ الجـــسم وزوائـــده قصاً للأظفار وحلقاً للأشعار وغُسلاً بالماء إحراماً رمزاً للتحرر من شوائب عروض الدنيا وغواشي فتنها وإخلاص الإيمان توحيداً لله، وليُوفوا نـــذورهم قضاءً لما التزموا به من أعمال البر عند ذلك المقام الذي يمثل لهم أدنى القرب من الله وأبرك مواطن الوفاء بعهد الله. وليطّوفوا بالبيت العتيق طواف قدومٍ إليه سنة أو إفاضـــة عنده فرضاً بعد عرفة أو وداع حوله سنة قبل المرجع إلى الأهل والوطن، فهو بـــيت لله عتيق تتقادم معه الذكرى لسوابق الذكر والعبادة عنده منذ إبراهيم وإسماعيل والخَلَف حتى النبـــي الخاتم، وتتعزّز بذلك التزكية لنفوس القوم الطوّف المصلين عنده، زاداً متباركاً وغذاء لإيمان الراجعين إلى ديارهم.

﴿ذَلكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَات اللَّه فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عنْدَ رَبِّه وَأُحلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إلاَّ مَا يُتْلَـــى عَلَـــيْكُمْ فَاجْتَنبُوا الرِّجْسَ منَ الأَوْثَان وَاجْتَنبُوا قَوْلَ الزُّور * حُنَفَاءَ للَّه غَيْرَ مُـــشْركينَ بـــه وَمَنْ يُشْرِكْ باللَّه فَكَأَنَّمَا خَرَّ منَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي به الرِّيحُ في مَكَانٍ سَحيقٍ﴾ (٣٠ – ٣١)

ذلـــك هدًى اللهِ في الحج، ومَن يعظم حُرمات الله – مَن يحترم حدود تعاليم الله تكاليف في الحج فرائض يحرم القصور عنها معصية وينبغي الالتزام بها مرعيّة ما وسعت طاقـــة الإنسان، ونواهي يحرم العدوان عليها وانتهاكها، ومَن اتقى غضب الله ورهبه رقيـــباً لحرمة تلك الفرائض والحدود – من وقّر هدايات الله تلك فهو خير له عند ربّه مـــثوبة واتقاء للعقوبة. ويُخاطب المؤمنون وقد عهدوا حرمات عرفيةٍ في أكل الأنعام فرضتها عقائد الإشراك الجاهلية وتقاليدها، ليعلموا أنه ما تلك بحرمات لله كتبها عليهم بوحـــيه، بـــل هو افتراء من دونه، إذ أُحلّت لهم الأنعام إلا ما يُتلى عليهم في الكتاب تحـــريمه مـــن الميتة والدم ولحم الخنـــزير وما أُهل لغير الله به. فليطعموا مما هو حلال يتوافـــر في موسم الحج من الأنعام حيث يتغازر الطاعمون منها والحالبون لها. وليلتزم المؤمـــنون توحـــيد الله هادياً، وليجتنبوا الرجس القذر من الأوثان المعظمة معتقداً عند المـــشركين الـــذين قـــسموا ووسموا لها نصيباً من الأنعام موهوبة لها آلهة شركاء لله،

وحـــرّموا وأحلّـــوا بوحـــي مفترىً وجوهاً من الاستطعام منها وركوباً، وتعبّدوا لها بمخـــتلف الأدعية والشعائر. وليجتنب الذين آمنوا قول الزور من الباطل الذي يدّعيه المـــشركون لـــتوقير تلـــك الأوثان المنصوبة حتى في البيت الحرام وللاهتداء بمفتريات منـــسوبة إليها في الحياة، وليستقيموا حنفاء لله لاوين عن تقاليد الجاهلية غير مشركين بالله عاطفين نحوه مستقيمين. ومن يُشرك بالله فكأنما بتّ حبله من السماء وقطعه خارّاً إلى هـــوُى الأرض فـــتخطفه الطير تلوّح به وتتجاذبه بمخالبها وتمزّقه أشلاء بمناقيرها ومناسرها أو تهوي وتعصف به الريح في مكان سحيق بالغ السفول.

﴿ذَلِـــكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّه فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (٣٢ – ٣٣)

ذلك هو الفرقان الحق بين تعظيمِ حرمات الله وحده والزورِ من الحرمات المفتراة شـــركاً بالله. ومَن يُعظّم شعائر الله في الحج من الأنعام التي تُوسم بقلائد أو بإعلام من إدمـــاء الـــسنام وتُساق هدايا للحرم في سبيل الله – مَن يعظّمه فلا يستبيحها لغير ما وُسمـــت وقـــدمت له بل يذرها لتبلغ مقصدها – مَن راعى ذلك فإنها فعلة من تقوى القلـــوب لله لا تُشعِر ببهيمة من الأنعام إلاّ في سبيل الله ولا تُحلّها صرفاً لنيّة إشعارها واســـتباحة لها بغير ذلك. للحجاج ومن معهم من المؤمنين في تلك الشعائر من الأنعام مـــنافع من الظهر ركوباً والمدر شراباً وأيما نسل يخرج منها أو صوف. وذلك إلى أجل مُسمّى تبقى فيه تلك الأنعام محصّنة من الذبح حتى تبلغ محلّها المقصود حيث يحل نحرها في ســـبيل الله، حـــتى تصل إلى البيت العتيق عند الكعبة القديمة العهد قبلةَ عبادةٍ ورمز إســـلام لكـــل الأمور والهدايا لله وحَمده على النعماء التي هي منه وإليه يصعد الشكر عليها.

﴿وَلِكُـــلِّ أُمَّة جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّه عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣٤ – ٣٥)

ولكـــل أمة اجتمعت على نظم ونهج واحد وخاطبها الله برسالة الهدى – لكلٍ جعل الله بأقدار هدايته وتزكيته مَنسكاً – موضعاً يعتادونه متعبّداً لله ومذبحاً لقرباهم

لله مـــن الأنعام في سبيله، يُريهم إياها عيناً دون غيرها لتجري فيها عبادهم منسوكة خالـــصة لـــه تعالى صافية من كل غاشية شرك أخرى. والمناسك المقصودة هنا هي المذابح للقرابين من الأنعام إهداء لها في سبيل الله وحمداً له تعالى المنعم الذي سخّرها لعباده، فالمناسك إنما سُنّت لكل أمة عابدة ليذكروا اسم الله منعماً محموداً فيه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام. ويترتب على معنى تلك الحكمة ومقتضاها – كما يُخاطب اله المسلمين في المدينة الذين يقصدون الحج – أن إلههم إله واحد لا معبود ولا شارع ولا مـــنعم ســـواه، فالأمر لهم أن يُسلموا له وحده الذكر والعبادة والحمد والشعائر والمناســـك، والوصـــية لرســـولهم الداعية فيهم والمثال لهدى رسالة الدين الحنيفي التوحـــيدي أن يُبشّر المخبتين، يذكُر لهم حسن العاقبة الموعودة على ما أخلصوا من العـــبادة المتواضـــعة المطمئنة المتخشّعة وأولئك هم الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وتذكّـــروا الخـــوف الـــبالغ من علياء رهبته شارعاً جازياً. وأولئك المبشَّرون هم الـــصابرون علـــى مـــا أصابهم خُلُقاً يدوم عادة مهما تتوالى عليهم بلاءات مشقّات العـــبادة وتكاليف أفعال الفرقة الكافرة التي تخاصمهم وتصدّهم عن سبيل الله وعن المـــسجد الحـــرام، وهم المقيمون الصلاة لا كصلاة الآخرين المتحوّزين على المسجد الحـــرام مكاءً وتصدية بالعرف المسنون لا بنيّة العبادة بل صلاة تُقام موصولة أوقاتها مـــسنونة هيئاتها كلها شعيرة حيّة من ذكرٍ وتوجّه إلى الله وحده وخشوع له يتجلّى تعـــبيره في الأقـــوال والحركات. وأولئك مما رزقهم الله بأقدار فضله الفائضة عليهم يُنفقون، مجددين أبداً العطاء منه إهداء من الأنعام التي رُزقوها لله فللمساكين في الحج حـــولهم وبذلاً من سائر مالهم للحجاج. وحيث ما كانوا بعد الحج في سائر حياتهم هـــم مخبتون لله وجلون منه موالون ذكره مقيمون الصلاة محافظون عليها منفقون مما بسط لهم الله من رزق موصول.

﴿وَالْـــبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّه لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّه عَلَيْهَا صَـــوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُـــمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦ – ٣٧)

وينـــضاف لسياق ذكر الأنعام في الحج ذكرٌ عام عن البدْن السمان عظام الجسم لاسيما من الأبل التي جعلها الله مألوفة لأمة الخطاب العربية الأُولى – جعلها لهم بأقدار بـــسط نعمائه وتسخيرها واختيار صفة المناسك والمراكب والمآكل المناسبة لكل أمة، جعلـــها – خطاباً مباشراً للمسلمين المخاطبين – لهم فيها خير: منافع في راتب حياتهم مـــن أكل وركوب وحمل ووبر ومآرب مأجورة عند الله من هدايا مشعورة ومنحورة قـــرباناً في الحـــج أو عيد الضحية أو صدقات عامّة. فليذكروا اسم الله عليها صوافّ، لـــتخلُص النـــية أنها من الله وإليه تهُدى، وليتطهر المخاطبون من شوائب نيات الشرك المعهودة في بيئة الحج والإهداء والذبح المعروفة قبلاً عن العرب الجاهليين – ينبغي ذكر اسم الله الأعظم وصفته العليا بكل الوجوه حمداً له وتكبيراً، يُذكر عليها وهي صوافّ قائمـــة تـــصفّ أرجلها مستوية لأنها معقولة ومهيأة للنحر هديه في الحج أو ضحية في أيامه أو صدقة أو طعاماً لأنفسهم، فإذا وجبت جنوبها ساقطة بعد القيام عليها بسبب الإدماء من النحر أو الذبح وإنـــزاف قوتها فليأكلوا منها – بعد تهيئتها سلخاً وتعضية وطـــبخاً، ولـــيطعموا القانع لا بائساً فقيراً في مزدحم الحج وحسب، بل محتاجاً يكفّه الحـــياء وتعفّـــه القناعة، والمعترّ الذي يعتري ويتعرّض لمن نحروا أو ذبحوا بُدنهم يطلب الطعام. وكذلك سخّر الله بأقدار بسطه لنعمائه البُدن ونحرها أو ذبحها هدية أو ضحية أو صدقة لعلّ المؤمنين يشكرون الله كما يُخاطبهم. ولن ينال الله لحومها المتوافرة بُدناً ولا دماؤها السائلة وطعاماً لُملاّكها وللمحتاج قانعاً أو طالباً – ولا يريد هو ﷻ رزقاً لأنـــه يُطعِم ولا يُطعَم رازقاً من عباده، ولكن ينال الله وتبلغه التقوى، حيث يُلتزم حدّ هدايته والتصويب بالنوايا إليه وحده رهبة وخشية من غضبه أن يُشرك به خالقاً منعماً محموداً. كذلك – كما يُخاطب اللهُ عباده – سخّر لم البُدن ليُكبّروا الله ويُعظّموه على مـــا هـــداهم إلى هداية الإسلام العامّة عهوداً منذ أبيهم إبراهيم وإلى مفصّل السُّنن في الحـــج وفي أيامه وشعائر العبادة الخالصة له وحده، ويوصى الرسول الداعية القدوة في المـــسلمين أن يُبشّر المحسنين منهم البالغين درجاً في توحيد العبادة والتكبير والحمد لله وتكثيف ذلك في شعائر الحج وموسمه والمتزكّين بذلك لترقية أعمالهم عباداً لله في سائر حياتهم – الواصلي أحسن مراتب الإيمان والصدق والصلاح قربى إلى الله.

عموم المعاني: الآيات (٢٥ – ٣٧):

الـــذين كفروا فدسّوا فطرة الإيمان بالله وحده وغمروا فيها بالغفلة ميثاق الوفاء بعهده وفجروا بهوى النفوس ووحي الشيطان وأدبروا عن دعوة رسالة الهدى والبشارة والـــنذارة والـــتقوى – أولئك لم يقنعوا أحراراً بما هم فيه مقصداً ومسلكاً بل اختاروا مذهـــباً ظالماً جائراً على حرية الذين اختاروا مذهب الإيمان وأخذوا يصدّونهم فتنة عن سبيل الله في الحياة ويحجرونهم عن السير العفو لبلوغ مواقع متعبّداتهم في الأرض. وإنما شـــرع الله تلـــك المتعبّدات مواضع ينبغي أن تُرعى حُرماتها ومقاصد عفو لكل عابد. فالمـــسجد الحـــرام في مكة جعله الله مبتغىً للعابدين السّاعين إليه سواء المقيم العاكف عـــنده والـــبادي الـــراحل إليه، ليحجّوا أو يعتمروا شعيرة عبادة راتبة فرضاً أو طوعاً ليـــزكّوا فيه مشاعر الإيمان وليتزوّدوا بخلق السعي في سبيل الله حيثما كانت الغايات المبتغاة. ومن عدا ظلماً وصدّ المسلك في سبيل الله والمجاز إلى المسجد الحرام فقد كتب الله علـــيه في عاقـــبة الجـــزاء أن يُذاق العذاب الأليم. وذلك ما جرى من أهل مكة المشركين على المؤمنين إذ هاجروهم وأخرجوهم من ديارهم قبلاً ثم صدّوهم عن العود الحـــر المـــسنون لزيارة المسجد الحرام. وتلك سياسة ظلم قد تتعرض لها أيما طائفة من مؤمنين كانوا قلة مستضعفة في أرض الكفرة العداة الطغاة لا يُخلّون بينهم وبين السعي الحـــر إلى حرماتهم المقدسة ومواطن تعبّدهم التي ينبغي أن تحفظ ساحتها مباحة لأهلها وحماها آمنة بغير إحصار، وقد يتعرّض لها المؤمنون المستوطنون في سائر أرجاء الأرض إذ يـــريدون القدوم إلى أراضي المتعبّدات المحترمة مساجد للإسلام المتجدد في مكة أو المدينة أو القدس أو إلى سائر المحال التي يقصدونها سياحة للنظر في مواقع سيرة الإسلام فـــيها معتـــبرين أو متعظين بما يسمعون من أنبائها السالفة بالذكرى التي يعمرها النظر المـــتأمل في آثارهـــا. وقـــد يقع ذلك الحظر الظالم للدخول إلى تلك المحارم والمذاكر إحصاراً للقادمين العابدين المخلصين من قوى متمكنة في أرضها سلطاناً مسلمةَ الملة أو كافرةً لا ترضى بلوغها الحر منهم حميةَ غيرة وطنية على حوزها دون أولئك القاصدين أو نـــــزعةَ غيظٍ منهم أو زعم حذر من خطر منسوب إليهم. والحقّ الألزم ألا يُحصر مـــسلم دون مقصد حرم من قوة مؤمنة أو كافرة بالإسلام، وألا يُعاق زائر أياً كانت

ملته عن زيارة حرم من متعبداته فلا إكراه ولا حصار في العبادة والدين، والبرّ الأحسن أن تــباح مساعي السياحة في الأرض نظراً في آثارها التاريخية أو في معالمها الطبيعية أو الحضرية تعرّفاً لأهلها وثقافتهم أو لتبادل المنافع معهم مادام ذلك بالمشروع والمعروف.

والمسجد الحرام المعمور متعبّداً المأمون مزاراً للمؤمنين زيارته سُنّة من أصل وعهد قديم في ملّة الإسلام، إذ بوّأ الله بأقدار هديه وسُننه لمعابد الدين الحق – بوّأ لإبراهيم – الأب السالف لأمة خطاب القرآن والإسلام الأُولى من العرب والإمام القدوة لكلّ من يتّــبع الملّــة الحنيفــية العابدة لله وحده – بوّأ مكان البيت الحرام هداية له في سياحته مهاجــراً مــن وطنه الأول في العراق ووضعاً لأول بيت عبادة للناس في مكان وسط الكرة الأرضية المعمورة هو من ثم الأنسب لاتخاذه قبلةً للصلاة من كل جهات الأرض ومــزاراً يتيسر القصد إليه من كل أرجائها. وما كان ذلك منذ أول عهده ساحة زرع أغــزر مــشهور أو سوق تجارة معروف أو مسرح لهو مألوف أو معرض آلهة مصوّرة مأثــور، بــل كان يُقدر هدفاً يتجرّد المقصد إليه في سبيل عبادة الله، لئلا تكون هموم متاع الدنيا هي الأولى عند المجاورين العاكفين عنده أو الأبعدين الساعين إليه، إذ ما هو إلا بيت خالص لعبادة الله الواحد بغير إشراك. وقد أسسه إبراهيم وابنه إسماعيل – بعد أن اجــتهد وجاهد وهاجر مخلصاً في ملته التوحيدية من شرك التعبّد لمخلوقات الطبيعة الفلكــية ومصورات الأصنام المصنوعة لتمثيلها في بيئة أهله الأُولى. فأُوحي إليه من الله أن يُقــيم هــناك في الحجاز مسجداً لعبادة الله وأن يطهره تطهيراً من شوائب الضلال الإشراكي المنتشر. ولقد غشيته من بعد – غازيات واردة إليه من أقوام أو ناشئة حوله في خَلَــف إبــراهيم – مظاهرُ إشراك وضلال كانت من دواعي الفتنة بالعالم المشهود تعبّداً لآلهة صنمية أو وثنية أو متّخَذة من تخرّصات الخيال ومرويات المفتريات العرفية، أو كانــت أعراضــاً للــتعلّق دون الله بمقاصد متاع الدنيا إذ كثرت الملاهي وعمرت التجارة حول البيت الحرام لكثافة المجتمع الذي كان يتعهّده بلداً أو مزاراً ويُقيم حوله أســواقاً ونــوادي، أو كانت معارض تعبير عن أهواء الجاه والفخر والشرف وحبّ الــشهرة لعمّار المسجد المتولّين رعايته وسقاية حجاجه لعظيم مكانته في قلوب الناس. وكان المسجد لذلك هدفاً للعدوان الظالم من أمة تتطلّع إلى التمكّن منه مثل أصحاب

الفـــيل. وقد كانت سُنة إبراهيم بهداية الله أن يُقام البيت مأوى آمناً طاهراً للقاصدين إليه حرماً يتجلّى فيه التوحيد للتمحور حوله طوافاً وللتولّي شطره صلاة قيام وركوع وســـجود تعـــبيراً عن تمركز التوجّه إلى الله والخضوع والخشوع والذلّة لوجهه الكريم والتحـــرر من نوازع التعلّق بالمشهود شِركاً وبالأهواء والشهوات ضلالاً. ولئن بقيت تلـــك الـــسُنّة حيناً بعد إبراهيم شعيرة لملة الدين الحنيفي الحق ثم ضُيّعت بعد وكادت تتلاشى شعائرها الحق وتتضاءل روح التديّن الحق فيها، فمن بعد تجدد الخطابُ القرآني للرسول الخاتم حتى يقومّها ويجددها، ليقوم البيت الحرام مبنىً ثابتاً يعمره زوّاره مركزاً ويهـــدف إلـــيه المصلّون قبلة للتذكير بوحدانية الله ولتصويب التوجه إليه والسعي في ســـبيله في كل الحياة ولتوحيد تراث الدين الإسلامي وحلَقه الموصولة منذ إبراهيم إمام الحنيفـــية إلى الرســـول الخاتم في ذرّيته وإلى الخلف بعداً الذين يلقون في المسجد الحرام مقصداً وقبلة تغذية لروح الإيمان بالله وتوحيده ويعهدون فيه مغزى للحفاظ على تلك الملـــة والسُنة والدعوة التوحيدية. فالعهد منذ إبراهيم أن تُحفظ ذكرى الملة متمثلة في هذا المتعبّد الحرام مستقبلاً بالصلاة ومقصداً للزيارة، تتأكد بذلك مشاعر الانتماء لهوية ذلك الدين الحق عبر تراثه العتيق.

وقـــد أُوصى إبراهيم لأول عهد تأسيس المسجد الحرام أن يؤذّن في الناس بالحج دعوة متوالية كل عام إلى السعي إليه مستجيبين ترداداً، وبشّره الله أن سيأتوه رحلة إليه راجلين وراكبين كل ضامر من الأنعام قدوماً من كل فجٍّ في الأرض منسلك في حبالها عميق بعيد المدى. وقد ظلّ ميقات الحج إليه موعداً يتداعى إليه العبّاد لله. وإن غشيت شـــعائر الحـــج ومعانيه غاشيات شرك لتكثّف الجاهلية وتغيّرات الضلال لتقادم العهد بأصـــول السن القديمة، فقد تعمّر المسجدُ وتطهّر بعد ظهور الإسلام واستقامت سُنن الحـــج بهدى القرآن. ثم ظلت العهود تتوالى في اتساع المسجد وإتقان عمارته وتيسير الحج ورعاية أمور الحجّاج. وتستمر مشاهد السعي إليه وفيه بين الشعائر من الراجلين، ولكـــن الـــضامر المـــركوب لم يعُـــد من الأنعام بل مما فتح الله به تسخيراً لضامرات المـــركوبات نقلاً للأفواج في البر والبحر والجو بوسائل متيسرة متسارعة. والرحلة نحو المـــسجد الحرام اغتراب لحين من الوطن يُلقي في نفوس المؤمنين استعداداً عاماً للهجرة

في سـبيل الله تركاً لأهل الوطن ومعهود المتاع متى لزمت الهجرة نجاة من فتة في الدنيا أو سـعياً في الأرض موالاة وإسعافاً للمؤمنين الذين يستنصرون من بعيد أو جهاداً في سبيل الله ملاحقة للكافرين العداة والبغاة حيثما كانوا. ذلك فضلاً عما يورثه الحج من الإقبال على ما يرمز لإجماع الأمة ويمثل كل شعوبها إذ يُعبئ في الحجّاج معاني التآخي في الله بـين المؤمنين كافة إذ هو اجتماع أحشد ما يكون حول الشعائر طوافاً وسعياً وصـلاةً في كـتل وصـفوف مرصوصة، وأوثق ما يكون لأمة منظومة نساءً ورجالاً وألـواناً وألسنة وشعوباً شتى يعتدلون بزي واحد في موقع واحد يتعارفون ويشتركون في طعـام مـبذول وتـلاقٍ يستشعرون فيه المساواة، وأجمع ما يكون تقارباً للتداول والتخابـر عن مختلف أنبائهم والتحاور والائتمار بالشورى في شتى أمورهم وهمومهم. وبـذلك تتزكّـى فيهم روح الجماعة ويتطهرون من حميّة الفردانية ونـزعة الاعتزال وتـنظمهم مشاعر الأمة ويتحررون من العصبية للثقافات والقبائل والشعوب المتعددة وتتـسع في ولائهـم الآفاق العالمية ويخرجون من الانحصار في ديار الوطن أو الجوار المعهـود. والحج في أي من مواسم الحر والشتاء استجابة لأذانه الراتب ميقاته كل عام بـتقويم قمـري يتحوّل نسيئة عبر مرّ التقويم الشمسي باختلاف مواسمه – هو شعيرة تُهيـئ المؤمن لموالاة عبادة الله ذكراً أو صلاة أو صوماً أو جهاداً في سبيله أو ضرباً في الأرض لابتغاء رزقه وموارد فضله في كل مواسم السنة وأحوال المناخ يسراً وشكراً أو عسراً وصبراً. وهو استجابة لأذان الحج ودعوة العمرة تعوّد المسلمين للاستجابة لدعوة الحق متى دوى صوتها لأيّما حاجة تقتضي التداعي والتجمّع وتُطمئن الدعاة وتبشرهم برجاء استجابة المؤمنين إذا دُعوا في كل حين وظرف لأيّما مقصود مشروع يسعون إليه بأيّما وسيلة.

يجتمع الحجاج ليشهدوا منافع لهم خيرات معروضة متبادلة. يرون الأنعام مسوقة مـزفوفة للعطـاء للطعام فدىً وصدقة، ويرون معارض السلع المختلفة يأخذونها تهادياً وتعاوضـاً لحاجتهم في الحج أو زاداً يجلبونه عائدين إلى أوطانهم، ذلك غير منفعة زاد الـتقوى المـشهود في أداء الـشعائر. ثم يُقبل الحجاج على إجراءات العبادة في الحج ليقـضوا تفثهم محرمين غاسلين أوساخ الجسم مزيلين زوائده نازعين معهود زيّهم إلاّ

الإحــــرام النظيف الواحد الصورة. وذلك تطهّرٌ في الباطن من أوساخه يوازي الظاهر وتوحّدٌ ما بين ما يُلابس القلوب مثل الإحرام كساء المشهود وتذكّر للقدوم نحو عالم الغــــيب مثل تهيئة جثمان المفارق للحياة الدنيا. ثم ينبسط المجال ليوفي المؤمنون الحجّاج نــــذورهم من أعمال البر التي التزموا أداءها عند الحرم المبارك رمزاً لمقام القربى المقدّسة مــــن الله. ويتهيّأ للمؤمنين الحجّاج أن يطّوفوا بالبيت طواف قدوم وإفاضة من عرفات ونفل ووداع، يعبّرون بذلك عن مثال البيعة والعهد المتمركز حول الله، لوجهه تتوجه العــــبادة والمقاصــــد الدنــــيا في الحياة وإليه المرجع بعدها وكل الوجود محور أقداره. ويذكــــرون عبر التاريخ سُنة إبراهيم وملّته إذ كان مؤسس ذلك البيت العتيق وبادئ العمــــل بسنّة الطواف، وتتوالى ذكرى سوابق أعمال المؤمنين السالفين ذكراً وتطوافاً وتمــــتدّ الرؤى نحو شعائر عبادة الخالفين الموصولة في آفاق المستقبل. ذلك هدى الله في ســــنن الحج، ومن يعظم حرمات الله فيحترم حدود صور الشعائر ويتقي نواهي التغير فيها ويمكّن بتوقيرها أثارَها الراسخة الباقية في وجدانه، فهو خير له ابتغاء مثوبة واتقاء عقــــوبة عند ربّه. وفي ذلك تزكية لعموم خُلُق التزام حدود هدى الله والاهتمام بتقواه في الحــــياة كلــــها وراء شعيرة زورة البيت وقضاء الحجة أو العمرة. وليتق الناس هناك حــــرمات كانت تُرعى ما هي مشروعة لهدى الله ومسنونة لتقواه بل هي من عرفيات شرك تفرض تحريمات في أكل الأنعام، فقد أُحلّت للمؤمنين الأنعام إنتفاعاً وأكلاً إلا ما يُتلــــى عليهم من أكل الميتة والدم ولحم الخنــــزير وما أهل لغير لله به مذبوحاً قرباناً. فليجتــــنب المؤمنون عند الحرم الرجس من الأوثان التي جمعتها ووقرتها في ساحة الحرم أعــــراف جاهلية، وليُراعوا في تلك الساحة التنــــزّه عن كل دواعي روح الشرك من قول الزور في أذكار وأدعية كان يتعهّدها الناس بأعرافهم الجاهلية الضالّة عن التوحيد وفي صلوات مكاء وتصدية وصيحات ومقولات من كلم الباطل. ولئن دارت الشعائر حــــول أحجار ترمى بالجمرات أو حجراً أسود يُقبّل فإنما تلك رموز تعبير عن التوحيد لله تطهّراً ونبذاً للشيطان العدو المرجوم وحباً لأركان بنية متعبّده الشريف الموقّر. وليقُم الحجــــاج مــــؤدين شعائر الحج حنفاء لله منصرفين عن معهود التقاليد الإشراكية بفتنة العــــالم المشهود، ليتعلّموا من القدوم الاستجابة لنداء الله كله والتلبية له أبداً فلديه تحقّ

كـــل المحامـــد ومـــنه تَردّ كل النّعم في الحياة والسعي إليه مرغوب رغم وعثاء السفر وتكالـــيفه ووحـــشة الغـــربة والتوكّل عليه خالص مهما تعرِض في سبيله الحاصرات والفـــتن، وشـــعائر عبادته تؤدى خالصة لوجهه: الأقوال فيها لا تخاطب في الدنيا بل تتوجه إليه في الغيب تخرج بمنطوق اللسان تعبيراً عن ذكر وعي حاضر، والأفعال فيها مـــشروعة مجـــرّدة القـــصد إلى العبادة مباشرة لا تُصوّب إلى عرض عاجل في الدنيا ومـــسنونة الهيئة لا تتخذ كيفاً عفواً كأسباب الدنيا. ومن يُشرك بالله في الحياة فكأنما خـــرّ من السماء إلى الأرض مثالاً للسقوط من علياء الغيب إلى هوى المشهود فتخطفه الطـــير مثالاً للأهواء والشهوات الدنيوية تتجاذبه أو تعصف به الريح في مكان سحيق مثالاً للسفول بالهوى في رذائل درك الحياة دون فضائل الدرج الصاعد نحو مقامات الله الذي يرفع الصالحين زلفى إلى عليائه.

ذلـــك ومَـــن يعظّم شعائر الله من الأنعام التي وَسم هدايا فلا يستبيحها لغير ما وسمـــت له بل يذرها سائمة سالمة حتى تبلغ مقصدها، فإنها من تقوى القلوب مقاومةً لخواطـــر الشهوة الجامحة نحو لحمها طعمةَ مأكلٍ عاجل خوفاً من غضب الله وعواقب قـــدره العاجـــل وقـــضائه الآجل بذنب العدوان على حدود حرماته. وتتزكّى بذلك القلـــوب الخاشـــعة لله في سائر مساقات الحياة الخاشعة من الله الضابطة لنوازع الهوى الواقـــية للجـــوارح من اتّباع الشهوات العادية. فللأنعام تلك في ساحات الحج منافع مـــركب ودر شـــراب ووبر وصوف ونسل كلها حلال إلى أجل مسمّى لكن تُرعى حـــصانتها حـــتى تبلغ محلّها إلى البيت العتيق حيث يحلّ نحرها ويُذكر اسم الله محموداً علـــيها ويأكلها هداتها ويبسطونها طعاماً وصدقة لسائر الحجّاج والعباد. ولكلّ أمة في الأرض ممـــن ســـلفوا حيثما تداعوا بهدي ملتهم إلى العبادة جعل الله منسكاً، موضعاً للقـــربان بـــذبح الأنعـــام سُنةً تعبّد لله الواحد، وذلك ليذكروا اسم الله عنده على ما رزقهـــم مـــن بهـــيمة الأنعام. وكل المؤمنين الخالفين مخاطبون أن يصوّبوا الذكر عند مناسكهم إلى الله إلهاً واحداً مهما اختلفت مناسكهم وعبادتهم عمّا سلف محالاً وسنناً، ويُـــسلمون لـــه حياتهم كلها عبادة مستقيمة إليه مهما تنفتح لهم باحة المشيئة في خيار وجهـــة المذهب وبذل الحياة. الله له الحمد والملك وهو الرازق لعباده بما استخلفهم فيه

وإليه المرجع إذ يُسألون عما تصرّفوا فيه. والبشرى في تلك العاقبة للمخبتين المتخشّعين تواضعاً لله في كل حياتهم، الذين إذا ذُكر الله وجِلت قلوبهم تقوى من غضبه والذين إذا ابتلوا بتكاليف المناسك أو سائر بلاءات مشقّات الحياة هم صابرون على ما أصابهم، والذين يظلّون طوال حياتهم يُقيمون الصلاة متوالية في أوقاتها المسنونة عند البيت الحرام واستقبالاً إليه من حيثما كانوا، ومما رزقهم الله بأقدار خلقه ونعمائه سُنّتهم أن ينفقوا في سبيله. إن الله هو المالك الباسط من نعمائه لأُمة الخطاب الأولى البُدن من الأنعام أبلاً تُتخذ كسائر الأنعام مهداة في الحج شعائر عبادة لله، فالخطاب إليهم أن لهم فيها خيراً من المنافع مشعورة فمنحورة قرباناً لله في الحج أو ضحية أو صدقة أو رَكوباً أو لبوناً أو موبرة أو نتوجاً. فليذكروا اسم الله تكبيراً عليها صوافّ قائمة مُعقلة الأيدي اليسرى تذكرة بيّنة لنعمة الله المسخّرة لعباده، فإذا نُحرت ثم وجبت جنوبها فأعدّ لحمها سلخاً فليأكوا منها وليطعموا القانع المحتاج الذي تعفّه القناعة والمعترّ الذي يعرو من نحروها طالبا طعاماً. كذلك سخّرها لهم الله بأقدار رحمته لعلّهم يشكرونه على نعمائه. لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها مهداة نسيكة أو معطاة في سبيله لكن تبلغه تقواه حيث لا يُشرك به منعماً محموداً خشية غضبه. وكذلك سخّرها الله لهم ليُكبّروه على عظيم ما هداهم إليه من إخلاصِ الشعائر والمناسك وتقدير نعمته فحمده تكبيراً على ما دونه من شرك آلهة أو هوى متاع، ومن اتّباعِ تعاليم الوحي لإحسان عبادته وإسلام كل الحياة الدنيا على صراط مستقيم إلى الحسنى في غيب الآخرة تكبيراً على أهواء الضالّين وتخرّصات المجادلين بظنونهم دون الحق علماً وهدى وكتاباً منيراً. والوصية للرسول الخاتم - ولمن خلفه من أتباع سنة إبراهيم حنفاء وحملة رسالة هداية القرآن - أن يُبشر المحسنين البالغين في شعائر الحج وسائر سنن العبادة ما هو أتمّ من توحيد الله وتكبيره وحمده وتقواه وأصدق العبادة وأخلص وأعلى الدرج تزلّفاً إليه سبحانه وتعالى.

إن الأنعام شعائر في الحج تُهدى لله لا ينال الله الرزق من دمائها ولحومها فالله غنيٌّ استخلف عباده عليها نعمةً، ولا تجدي في جنبه مشاهدها صوافّ ومنحورة واجبة الجنوب وإنما تصعد إليه التقوى ألا يُستأثر بها شيء بل تُبسط عطاءً لكل فقير

مـــن ســـواد الحجّاج. واليوم قد لا تبين مشاهدها صوافّ ومنحورة للحجّاج الذين يهدونها فدىً وصدقة، فقد تغيب المشاهد إلا قليلاً وتبلغهم منها بعض اللحوم ولكن قـــد يكـــل عنهم مَن يباشرون نحرها وتهيئتها ويتولّون إيصالها إلى فقراء في بعيد دار الإســـلام. لكـــن الحجّـــاج يعلمون تلك التدابير ويطمئنون أن تقوى غضب الله في نفوســـهم ألا يـــصدّها الشحّ قد وقع التعبير الصادق عنها. إن الحجّاج اليوم يرون مـــشاهد خـــير في مراكب آلية مسخّرة لهم ضوامر تحملهم أفواجاً ويُباشرون منافع ميسّرة لهم غير الأنعام والبدن. وهم قياساً على سلفهم ينبغي أن يذكروا الله محموداً علـــى هذه النعماء المتكاثرة المتوافرة، ويُكبّروه على ما قد يوحي الشيطان من كبير القدرات الصناعية التي هيّأت لهم ظاهر تلك الوسائل والمنافع، ويتّقوه من الغرور بما قد تهوى الأنفس من مباهاة إخوانهم في الحجّ بما استمازوا به عليهم من ميسّرات هي أروح للـــنفوس وأصلح للتمتّع. وإنما الحجّ مجال للتداعي والتوازي والتماثل والتوحّد بـــين المؤمـــنين، وإن كـــان من شعائره قديماً وما يزال إهداء لحوم الأنعام ليستوي الحجـــاج المؤمـــنين جميعاً في الطعام أغنياء وفقراء كما استووا في هيئة الإحرام وفي أذكـــار الحج ومناسكه - إن كان ذلك كذلك فإن من مناسكه أن يستوي أولئك المخبـــتون سواء لربّهم الأعلى الواحد ويُنفق ذوو الوسع منهم مما رزقهم الله ليوفوا نذر البرّ منهم ويحتملوا بالوقف والصدقة تكاليف إخوانهم المُعسرين ترحيلاً بالمراكب الآلية وحاجات للراحة والطعام والشراب - منفقين مما عندهم عفو مال أو باسطين به مدّاً من الخيم والمراكب الآلية وإمدادات المعاش وخدمات العافية لكل محتاج. ولن ينال الله ظاهر تلك العطاءات والخدمات وإنما يناله التقوى - أن لم يكفّهم عن عون إخـــوانهم ومـــساواتهم الاستئثار بالمال الفائض شح نفس ولا التعالي والتعزّز بظاهر الحـــال ولا الفسق بالرفث والجدال مع الآخرين. ولعلّ المؤمنين الذين يشكرون الله علـــى ما سخّر لهم من الأنعام والآلات والأمتعة مما يذكّرهم ويزكيهم به في الحج، يبلغون وفاءً بذلك الجميل بعد صلاح العمل والتقوى والإحسان أن يكونوا أهلاً لأن يبـــشّروا بحسن العاقبة في الدنيا صفاً متعاوناً متناصراً بتوفيق الله وفضله وفي الآخرة برحمته ورضوانه إخواناً في النعيم.

ترتيل المعاني (**الآيات ٣٨ – ٥١**):

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨)

سبق ذكر الذين آمنوا وصلحوا، وسجدوا طاعة لله واتّقوه في اختصام مع الذين كفروا يجادلون في الله بغير علم ولا يعبدونه إلا على حرف إذ يشركون به ويدعون ما دونه. والأولون الذين آمنوا كانوا في المدينة والآخرون الذين كفروا كان سوادهم في مكـــة أخرجوا الأولين من ديارهم وصدّوهم عن المسجد الحرام واحتازوه ظلماً. وقـــد سبق الذكر أن الله يفصل قضاء بين ملة الإيمان والحق وملة الباطل يوم القيامة، وأنـــه يبشرهم – الذين آمنوا – بالنصر والحسنى في الآخرة فوزاً على الكافرين. وفي هـــذه الآيـــة تثّبتهم أن الله يدفع أو يُدافع عنهم في الدنيا في وجه كل ظلم من الذين كفـــروا وخاصموهم. ذلك تبشير بالحكم حقاً بين مَن في المدينة ومَن في مكة، وهو أمـــر بـــين المؤمنين والكافرين يحقّ أبداً: أن الله مع الذين آمنوا وإن الله لا يحبُّ كلّ خـــوّان يقطع حبل الله في ملة إبراهيم ويخون ميراث الحنيفية إن فُتن بشرك الأصنام، ويخون عهد الأمانة في رعاية حرمة البيت الذي جعله الله أماناً للقاصدين وللناس أمناً ومتعـــبّداً أبداً. ذلك لاسيّما إن كان الخوّان كفوراً واسع الكفر بحقائق الغيب كلها، بـــالله خالقاً هادياً ناصراً وحده لا شريك له، وبالبعث وعداً ظاهرةً آياته لاريب فيه وبهدى الله آيات بيّنات وبنعمته في البيت الحرام الذي جعله مركزاً لمنافع الذين حوله وفي الأنعـــام المـــسخّرة الداعية لتكبيره مشكوراً وإحسان عبادته. الله لا يُحبّ مثل هؤلاء فلا يمدّهم بدفع رحمته الراعية وإنما يُحب الذين آمنوا ويدفع عنهم برحمته من غوائل هؤلاء.

﴿أُذِنَ لِلَّـــذِينَ يُقَاتَلُـــونَ بِـــأَنَّهُمْ ظُلِمُـــوا وَإِنَّ اللَّـــهَ عَلَـــى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩)

ولتلقّي مدّ الدفع من الله رحمةً لهم ينبغي أن يدفع الذين آمنوا عن أنفسهم بوسع قـــوتهم مدافعـــة مـــضادّة لظلم الذين كفروا. ومن ثمّ: أُذن للذين يُقاتلون أو يُقاتَلون المدافعةُ عن أنفسهم كذلك بأنهم ظُلموا من الذين كفروا، جاءتهم الرخصة من الله أن يجاهـــدوهم قـــتالاً، وإن الله على نصرهم لقدير، ماداموا يؤمنون بنصر الله لمن آمن في

الدنـــيا والآخرة فليتوكلوا عليه جهاداً إنه لقدير على دفع الذين صدّوهم عن سبيل الله والمسجد الحرام ونصرهم عليهم[1].

﴿الَّـــذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠)

وحـــقّ الإذن للذين آمنوا أن يُقاتلوا ملتمسين دفع الله وراجين نصره، هم الذين أُخـــرجوا مـــن ديارهم في مكة بغير حق بل اضطروا للهجرة منها إلى المدينة نجاةً من الفتـــنة الـــتي بسطها عليهم القرشيّون الذين كفروا بحق الرسالة و لم يُصابروها جدالاً حسناً، بل حملوا على المؤمنين بها بنذير الإخراج والقتل: فهم لم يُخرجوا إلاّ ظلماً، إلاّ أن يقولوا ربُّنا الله، والذين كفروا لا يؤمنون بتوحيد الله مشركين ولا يسمحون لأحد أن يـــؤمن بغير إذنهم، يتأبّون عليه ويُنكرون حرية الإيمان والتوحيد لله، ولولا دفع الله الـــناس بعـــضهم بـــبعض، إباحـــةً وتحريضاً للذين آمنوا منهم بأن يقوموا بعد حال الاستـــضعاف والانكفـــاف مجاهدين مقاومين للذين كفروا وظلموهم فتنة وإخراجاً وصدّوهم بَعداً عن البيت الحرام المثابة للناس المأمونة والمحجّة للعابدين، لولا هذه السُنّة في شـــرائع الله ألا يركن الذين آمنوا للاستضعاف والفتنة المتوالية مهما يوصون بكفّ أيديهم لحينٍ ماداموا قلة ضعفاء عاجزين، وأن يقوموا لله مدافعين متى انتظموا ونهضوا بقوّة وحقّ لهم القتال لرد العدوان والظلم – لولا هذه السنّة المشروعة لتوازن القوة بين الحق والباطل وتعادل حرية العبادة والسلطة الجانحة للبغي – لولاها لهُدّمت صوامع – أديـــرة المتحـــنّفين ورهبان النصارى المصومعة بنيتها محددة مرفوعة ذروتها، وبيَعٌ من الكنائس العامة للنصارى، وصلوات من كِناس ومعابد لليهود، ومساجد هي مصلّيات المـــسلمين – لهُدّمت معابد كتلك يُذكر فيها اسم الله كثيراً في الدعاء والصلاة المتوالية في جماعـــة. ولينـــصرنّ الله من يَنصره دفاعاً بقدره الغلاّب عمّن يُدافع عن متعبّده ألا

---

(١) في الإذن للمؤمـــنين المظلومين بالمقاتلة والمدافعة عن الحرمات: راجع الآيات ١٩٠ – ١٩٤ ســـورة البقرة، والآيات ٨٨ – ٩١ سورة النساء، والآيات ٣٩ و٥٦ – ٦١ سورة الأنفال، والآيات ١٣ و١٤ و٣٦ سورة التوبة.

يحجــر فــيُهمل أو يُعــدى عليه فيُهدم من قوم يبغون على حرية العابدين وينتهكون خــصوص متعبّداهم بقوة سلطان تطغى حتى تهدف لهدمها. الله يجاوب مسعى عبّاده وفاقاً، قوتهم المجاهدة يمدّها بقدره الغالب نصراً على قوة عادية ظالمة. إن الله قوي عزيز لا تُكافــأ فــلا تُغالــب دفوع قوته وعزّته العُليا دوافع من بشر ظالم مهما يستقوى ويتعزّز، من كان الله مولاه فهو المنصور ومن عاداه فهو المقهور.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (٤١)

تــصف الآية أولئك الذين آمنوا أنهم لا يدافعون ويستنصرون بالله لينفتنوا بَعداً بهوى السلطان المتمكّن، بل هم الذين إن مكّنهم الله بأقدار نصره في الأرض بعد أن أُخرجوا من ديــارهم فــيها – أقامــوا الصلاة سنة مشهورة بأذانها ومسجدها القائم وصفّها المنظوم المرصوص وحيّة تتوجه قبلتها نحو الله بالخشوع فيها بذكر الله الواعي وبصور حركة التعبير عــنه الــصادقة. وآتــوا الزكاة إذ عرفوا مكسوب رزقهم ومالهم نعمةً من الله فحمدوه وجاوبوا فضله بإيتاء الصدقة تطهّراً وتزكية لتلك المعاني الإيمانية التي قد ينقصها في النفوس حب المكاسب ويفتنها البخل. وأَمروا في حياتهم العامة بالمعروف المقبول في المجتمع المؤمن بمقتــضى هدى الشرع الحق المنتشر فيه علمه المتجلّي في عادات سلوكه الراتبة، ونَهوا عن المنكر بين المؤمنين الذي تأباه دوافع الدين المشروع فيهم وضوابطه. ولله عاقبة الأمور يدفع عــن المؤمــنين المتخلّقين بذلك وينصرهم في آجلة الدنيا مهما يقوى في البادئة أهلُ الكفر المعهــود ويعــزّ سلطانهم، وله تعالى عاقبة الأمور في الآخرة تتنــزل رحمة نصره فيها لمن جاهــد في سبيله وتأخّر نصره في الدنيا أو قاتل وقُتل في معترك الجهاد وجاوز دنياه صابراً في سبيل الله الذي له الملك والأمر كله في تلك العاقبة يوم المرجع إليه.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُــوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٢-٤٤)

لله عاقبة الأمور ينصر الذين يُقاتلون في سبيله إن ظلموا نفياً وفتنةً وعدواناً، وهو الذي يُصرّف تلك العاقبة أيضاً بقدر منه مباشر يتنــزّل بعاجل سيئة على الظالمين دون

وسـيلة قـتالهم المـشهودة، وتنجية للمؤمنين المستضعفين الذين لمّا يحقّ عليهم الجهاد والدفاع والقتال، والخطاب يلتفت إلى الرسول ﷺ حامل رسالة الحق ليتذكّر - فضلاً عن الإذن بالقتال وليُنجز الله وعده بالنصر - أن أُمة خطابه التي ما تنفك في مكة وما حـولها مخاصمة له ظالمة إن يُكذّبوه فقد كذّبت من قبلهم أقوام أعقب تكذيبهم أخذٌ مـن الله بقـدر هلاك مباشر ونجاة للمؤمنين، سُنّةً تشهد بها الذكرى لما جرى حول مـوطن أمة الخطاب المكذِّبة، وفيها العظة لها والتسلية طمأنينة للرسول الذي قد يحزنه الـتمادي في تكذيبهم لعلّه يصبر ويتوكل على الله الذي يُصرّف المصائر، يُخاطَب أنهم إن يُكذّبوه فقد كذّبت قبلهم أقوام أشدّ منهم قوّة وأكثر أموالاً وأولاداً وأفجر خلقاً. كذّبت قديماً قوم نوح رسولَهم ورأوه في ضلال بينما صابرهم وطال عهد دعوته بالحق فـيهم وكانـوا هم أظلم وأطغى وأكثف شركاً صنمياً، ثم عادٌ قوم هود الذين عصوا رسـولهم ورأوه في سفاهة واستكبروا عليه واتبعوا أمر كل جبّار عنيد إذ كانوا ذوي بـسطة في الخلق بُناة عماد وعمران عبثاً وباطشين بمن حولهم، ثم ثمود قوم صالح الذين كفـروا بنعماء الله عليهم تسخيراً لأرضهم زرعاً وقصوراً في سهولها وبيوتاً منحوتة في جـبالها وكذّبوا حتى بالآية المعجزة وتحدّوا نذيره مستكبرين، وقوم إبراهيم المتجبّرين الـذين ذّبـوه عاكفين على أصنامهم والذين كادوا يحرقونه ونفوه، وقوم لوط الذين كذّبـوه وهمّوا بإخراجه وشدّوا عليه قوة وإصراراً على فاحشتهم الخُلُقية، وأصحاب مـدين أربـاب الأمـوال المتظالمين في معاملاتها الذين كذّبوا شُعيباً في دعوة التوحيد والصلاح والعدل وضايقوه وفتن المستكبرون منهم أتباعه، وكُذّب موسى لا من قومه بـني إسـرائيل بل من القبط قوم فرعون ذوي الجند والأوتاد وعرّضوا قومه للتعذيب ولاحقوهم ليأتوا عليهم جميعاً.

فأملى الله - كما يقول - ومدّ مهلةً للكافرين من كل تلك الأقوام ثم أخذهم - بعد تطاول في الإملاء وتراخٍ في الأجل - طوفاناً أغرق قوم نوح، وريحاً صرصراً عاتية قارعـة لعاد، ورجفة طاغية مهلكة لثمود، ومحواً أذهب أثر قوم إبراهيم بعد هجرته، وزلزالاً أمطر هلاكاً على قريات قوم لوط المؤتفكة، وصيحة رجفة أرضية تركت قوم شـعيب في ديارهم جاثمين، ومدّاً من البحر أغرق فرعون وجنده بعد رجز من السنين

والمــصائب المتوالية على قومهم أسعفهم موسى من وقعها بدعائه. فكيف كان نكير الله؟ بالأهوال هلاكهم بأقدار الله التي تعبّر عن إنكاره لباطل الظلم بقولة حق داحضة بل بفعلة قدر مهلكة للظالمين بعد النذير والإملاء.

﴿فَكَــأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ (٤٥)

وتــرتيباً علــى ســابق ذكر أمثلة الأقوام المكذبة الواعظة، فكأيّن، كم من قرية أهلكها الله – كما يقول – بأقدار عقابه العاجل وهي ظالمة – في حال سيرة ظلم حقّ بــه علــيها الهــلاك، فهي – من ثمّ – خاوية على عروشها، ساقطة جُدُر بيوتها على الأســقف، خالــية من أهلها، ففيها كم من بئر معطلة لا يزدحم عليها وُرّاد مرتوون وقــصر مــشيد وقــد أقفر من الملأ لا يبدو فيه إلا تحصيصه المتقن وبناؤه العالي أثراً شاخصاً. تُرى تلك القرى وآثارها حول الأرض المتنَّزل للرسالة القرآنية وحول الأوائل قومها الذين خُوطبوا وكذّب بعضهم بتلك الرسالة[1].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٤٦)

ويتــرتب سؤال استنكار لأولئك القوم عمّا ذهبوا إليه من تكذيب للرسالة دون اتعــاظ بما يرون حولهم: أفلم يسيروا في الأرض؟ وهم قومٌ رحّالة في التجارة والرعي، فتكون لهم قلوب يعقلون بها، تنبض انفعالاً يعبّر عن استمساكها بما تتلقّى أذهانهم عبر مــا ترسل أعينهم من رؤى تلك الآثار الواعظة وبما نشأ عنها من تفكّر في سِيَر تلك الأقــوام التي انتهت إلى تلك العواقب المشهودة، أو تكون لهم آذان يسمعون بها أنباء تلــك السير التي تنقلها الروايات المأثورة وتبلّغ حقائقها قصصاً وعبراً آياتُ الله الموحاة ويــنفذ السمع من وراء صفحات الآذان إلى مواقع الوعي الراسخ في الأذهان. فإنها لا تعمــى فيه الأبصار – العيون – ترى المشاهد صوراً يُعزّزها ويُفصّل أسبابها الروايات والقــصص، ولكــن تعمى القلوب التي في الصدور حين لا تنفذ إليها آثار البصيرة في الأذهــان الــتي تنشأ من الوعي بالمشاهد والقصص إدراكاً فتفكّراً وتذكّراً فانفعالاً بها

(١) تتواتر في القرآن الآيات تذكر أقدار الله هلاكاً للقرى الظالمة قبلاً.

قلوباً تمدّ كل الحواس والجوارح بالحياة المعبّرة عن العلم فالاتعاظ فالعمل، القلوب التي يُشعر نبضها المحسوس بحياة تنتعش في شعاب الوجدان حيث تقع الرؤى المبصرة وتعقل وتضبط فيها معاني التذكّر لا العماية ومشاعر الإيمان لا التكذيب، ومن الحس بجمود حركة القلوب يبدو الموت والعمى إن غشي باطن الإدراك.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧)

وينضاف إلى تكذيب بعض أمة الخطاب للرسول ﷺ عن غفلة ضمائر وعمى قلوب ميتة لا ينعشها التذكير والدعوة – ينضاف أنهم – كما يُخاطب الرسول – يستعجلونه بالعذاب الذي يُنذرهم ويتوعدهم به ويُذكّرهم بمُثله في القرى السابقة الظالمة. ولن يُخلف الله وعده بُشرى للرسول بنصر آت أو نُذرى للمكذّبين بعقاب عاجل أو آجل، وعدُ الله ناجز وإن تأخّر أجله بحساب المنتظرين والمستعجلين من عباده البشر. وإن يوماً واحداً عند ربّ الرسول – كما يُخاطب – كألف سنة، كعدّ يمتد سنين متطاولاً إلى مدى بالغ يُعبّر عنه اللسان العربي 'بالألف' رقماً في مرّ السنين التي تُطوى مئات الأيام مما يعدّ المخاطبون في حساب الزمان الذي يعهدون في الدنيا.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (٤٨)

وينضاف شهادة لذلك التقدير في مدى الأجل أن كم من قرية من قرى كثيرة أُخرى أملى الله لها – كما يقول – وهي ظالمة، أمهلها دون وقع العقاب فوراً في عاجل الدنيا ليبسط لها فرصة لعلها تستدرك التذكّر والمتاب إلى حدّ الحق وميزان العدل في تصديق حقائق رسالة الغيب وتلقّي معالم هداها ومواعظ نُذّرها الآجلة، لكنها اعتراها التمادي في التكذيب والظلم ولم تأبه للنذير بل كانت تستعجله غافلة عن رحمة الإمهال، ثم – كما يقول الله – أخذها الله بأقدار الوفاة المسنونة، وإليه من بعد البعث المصيرُ حقاً ولو في أجل غيب موعود في الآخرة، ذلك الذي ينبغي أن يرهبه الذين قصروا همّهم على خوف العاجل لا يبالون بالنذير الآجل ليخلص لهم رجاء بشرى الموعود إن استجابوا لدواعي الرسالة(١).

(١) يتواتر في القرآن ذكر الظالمين المخاطبين يستعجلون تحدّياً العذاب قبل يوم الحساب الآجل.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٤٩)

لــيمض الرســول ﷺ في دعوته وإن كذّبه قومه في مكة وغيرها وتمادوا لم ينفعهم تذكيره المتوالي. لِيقلْ – كما يخاطبه الله وصاةً –: يا أيها الناس – منادياً منبهاً لهم كافة إذ يستميلهم خطاب رسالته الخاتمة بعد الرسالات التي كانت خطاباً مخصوصاً لأقوام – ليقل لهــم: إنما هو لهم نذير، تكليفه قاصر على بلاغ الدعوة وأولُ خطابه أنه نذير ليُخرج الناس من حاضر ظلماتهم إلى النور ويقيهم من سوء العاقبة المترتبة على الظلم ويهديهم إلى ما هو خــير، ونذيره في دعوته مُبين لكل مقتضى الهداية إلى حدود الله الحق فاتقاء سوء العواقب التي تحق على الظالمين العادين المعرضين عن جديد الدعوة الحق استمساكاً بالقديم المعهود.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٥٠ – ٥١)

وتتــرتب عواقب الدعوة هداية ونذارة فبشارة للمستجيبين. فالذين آمنوا مُقرّين في وجــداهم بالحــق الذي جاءهم في رسالة الغيب، وعملوا الصالحات تصديقاً في مسالك ظاهــر الحــياة لــباطن الإيمان وعملاً بما هو صالح حسبما بيّنت لهم رسالة العلم والهدى والتزكية التي تنــزّلت عليهم وحياً، هم لهم مغفرة لما فرط منهم سابقاً من فواحش كانت الفطــرة كافية نهيا عنها ومن ذنوب بعد أن بلغهم بيان الرسالة عن المناهي والنذير بالجزاء فالوصــاة مــن ثم بتقوى الله، ولهم رزق قد يعاجلهم الله به جزاء مقدّماً لصالح أعمالهم أو يؤخره جزاءً كريماً بالغ الإكرام لمن حق له إذ هو خير وأبقى في الآخرة.

والــذين جــاءهم آيــات الله تتجلّى فيها أقدار علمه وتتنــزل عليهم بأقدار وحيه ورحمته رسالة تُتلى عليهم بهواديها ومناهيها وتنبئهم بنذارتها لمن كذّب وظلم وبشارتها لمن آمن وصلح جزاءً وفاقاً في الآخرة، لكنهم سعوا فيها معاجزين ناشطين في مساعي تكذيبها ومغالبــتها معجّــزين الله يحــسبون أنهم يسبقون نذيره الموعود بفعالهم الحاضرة في الدنيا، ويــستعجلونه وعيده غير مصدقين به ظناً واهماً أن الله ما هو بقوي على عقابهم عاجلاً أو بعــثهم وحــسابهم وجــزائهم آجلاً، والحق أن الله لا يُعجزه شيء في تصريف بلاءات التكلــيف والإمهــال وفي الأخــذ بالجزاء في الدنيا أو في حياة أخرى. أولئك البُعداء هم أصحاب الجحيم مأوىً لهم مستَحقّاً تتوقد حريقاً في يوم موعود وآتٍ ناجزاً لا ريب فيه.

عموم المعاني: الآيات (٣٨ - ٥١):

إن المؤمنين - كما مضى ذكرهم في السورة - يتداعون إلى الحج رحيلاً فيه مرانة على الهجرة استجابة لدعوة الله والخروج جهاداً في سبيله، يأتون ليؤدوا شعائرهم أُمة متّحدين طوافاً وسعياً ورمياً للجمرات على محاور ومشاهد ومناسك واحدة، لابسين إحراماً على مثال واحد، آكلين من طعام يتعاطونه مشتركاً، يتخاطبون تداولاً حسناً، مصلّين صفاً ذاكرين شاكرين مكبرين الله على هدايتهم وعلى النعماء حولهم، متّقين باسطي الإحسان فيما بينهم. إنهم -كما مضى ذكرهم في السورة الأسبق-الذين ينفعهم الله ويكشف ضرّهم وينصرهم على خصومهم الذين كفروا بالدين الحق ويصدّونهم عن المسجد الحرام بعد أذاهم وإخراجهم من ديارهم في مكة. أولئك ومثالهم المستجيبون لدعوة الله حيثما نادهم المتحدون مخلصين في سبيل الله المُبتلون بالصدّ عن متعبّداتهم والنفي عن ديارهم، يُبشّرهم الله بكلمة قدره المسنونة: إنه يُدافع (ويدفع) عن الذين آمنوا، ذلك أن الله فصلاً بين عباده مختصمين لا يُحب فلا يوالي كلّ خوّانٍ لعهد فطرة الإيمان وملة إبراهيم وسنة الحرية والسلام المكتوبة المبسوطة بين البشر، وكفورٍ بهداية الدين الحق، مثل مشركة مكة. إن حكم الله في شأن أولئك المختصمين المتجادلين المتعادين مواقف في رسالة الدين الحق أن قد أُذن للذين يُقاتِلون من المؤمنين بأنهم ظلموا ويُقاتَلون من خصومهم الذين كفروا، وإن الله على نصرهم وردّ الحقوق التي سُلبت أو حُرموا منها وإقامة العدل لهم لقدير مهما يُبدون هم لأول العهد الاختصام والاقتتال في قلّة وذلة ويبدو خصومهم في كثرة وقوة وعزّة. وأولئك المؤمنون الذين يتلقّون من ربّهم رخصة القتال خروجاً على سنة السلام بين عباد الله إنما هم الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً بغير حق إلا أن يقولوا كلمة الشهادة بالحق أن ربهم الله توحيداً له تطهّراً عما يُشرك به الظالمون في جاهليتهم، وإنما قدّر الله لعباده أن يشاءوا عفواً ويشهدوا بخيارهم من الدين أحراراً، وما يكون لأحد منهم أن يُكرِه الآخرين في مذهبهم بصدّهم قهراً عن شعائر عبادتهم أو يعاقبهم نفياً من ديارهم لأنهم يقولون ما لا يرضى. ولولا قدر الله المسنون دفعاً للناس بعضهم ببعض إذناً بالقتال وإعمالاً للقوّة من بعضهم مؤمنين مجاهدة لرفع الإكراه والصدّ والعقاب الذي وقع

علـــيهم – ظلماً من بعض كافرين عادين، ثم نصراً للمؤمنين بمدد من لله القدير ليثبّتوا إيمانهم ويرعوا شعائر عبادتهم لله ويحفظوا ظواهر ممارستها في مشاعر متعبّداتهم – لولا تلـــك المدافعـــة فالنصرة لهُدّمت – فيما سبق ما يأتي من عهود – صوامع للمتعبّدين المتـــرهبنين المتزهّدين عموماً وبِيع للنصارى المستضعفين أول عهدهم وصلوات لليهود المبـــتلين بذلة ومسكنة من ذوي بأس غالب ومساجد للمسلمين الذين تنتشر دعوتهم بادئـــة في قلّة وذلّة منهم عرضة للبلاء قبل أن يكثروا ويعزّوا ويأمنوا ظاهرين – تلك معابـــد تُـــرفع ويُذكر فيها اسم الله كثيراً تثبيتاً وتزكية لأهل الدين لو هُدّمت لتلاشى ذلك الحيث من مراكز التداعي والتذاكر والتجمع بين المؤمنين ولتضاؤل الدين كله إلى مـــوات لذهاب ما يتغذّى فيه ويحيا. ولينصرنّ الله من ينصره، ليدفعنّ الضرّ عمّن يقوم مـــدافعاً مجاهـــداً في سبيله، إن الله مولى الذين يتوالون حزباً له ليستخلفنّهم في الأرض وليمكـــننّ لهم إقامة دينهم وليحفظنّ حرمات متعبّداتهم، إن الله لقوي لا غالب إلا هو عزيـــز متعال على المستكبرين. وإنما تحقّ تلك النصرة والولاية من الله لأولئك المؤمنين الصادقين سيرةً مستقيمة من الصدع مجادلة للباطل – بشهادة الإيمان وكلمة إلى النصر مدافعـــة للقوى الظالمة ومجاهدة في سبيل الحق وحتّى النصر والتمكّن في الأرض فإقامة الدين في واقع خصوص الحياة وعمومها. الذين إن مكّنتهم مُدود أقدار الله في الأرض أقامـــوا الصلاة توالياً لأوقاتها المحفوظة وتعابير عن معاني خشوعها المرعية وصفوفاً في مـــساجدها المرفوعة، وآتوا الزكاة تكافلاً وتمتيناً لصفّ المعاش وبركة الرزق، وأَمروا بالمعروف وتعارفوا على ما هو خير فتواصوا به وعلى ما هو منكر فتناهوا عنه، مجتمعاً متناهـــضاً إلى الخير متضابطاً عن الشر. ولله عاقبة الأمور في الدنيا يهيئ للصابرين بعد عهد البلاء والقتال النصر والتمكين والتوفيق في هداية الحياة، وفي الآخرة الفوز والنعيم للموفين بعهد الله الصادقين عبر تقلّبات أحوال الحياة الدنيا.

إن الله كتب المشيئةَ العفو لعباده فيما يتخيّرون من مذاهب الحياة والسلامَ بينهم فيما يختلفون فيه ويتجادلون. والحق أن يُراعوا ذلك، ألاّ إكراه في الدين ولا عدوان إلا صـــدّاً لظالمين عادين. فخيار الدين الحق عن مشيئة ورضىً يشهد به المرء ويدعو إليه بالحـــسنى مُسالماً. فإذا فُتن في خياره وصُدّ عن عبادته وأوذي في أمنه وحُرمته قد يكتم

إيمانـــه وينشد السلامة بكلمة تُرضي مَن أكرهه وقد يصبر على الأذى ويُصابر ويرابط مهمـــا تتطاول مقاومة البلاء. لكن إنما يكفّ المؤمنين أيديَهم يُخفون إيمانهم ويسرّون عـــبادة في خاصـــة حياتهم لأنهم في ضعف لا يقوون أفذاذاً ولا ينتظمون صفاً فاعلاً متـــزوداً بمـــا يقتضيه طريق القتال وهدم الباطل ثم بناء قوام الحق في الحياة. فإن قوي وانـــتظم صـــف المؤمنين وامتازوا عن أهل الباطل وتبيّنوا فرقان نظام الحق المنشود في الحياة عن نظام الباطل القائم ولازمهم من الذين كفروا الظلم والعدوان، فإن الله يأذن لهـــم بأن يعُدّوا ويقوموا للقتال مدافعة، والله يبشّرهم بأن يدفع عنهم ويمدّهم بأسباب نـــصره في العاقـــبة. ولولا مجاوبة قوى الكفر الظالمة بقوى الإيمان العادلة لما تهيّأ للذين اخـــتاروا دين الحق أن يثبتوا على إيمانهم ويجدوا حمىً في الأرض آمناً يتمكنون فيه من إقامـــة شـــعائر عبادتهم لله ويرفعون مراكز صلاتهم ومن التعاون والتكافل في معاشهم ومن رعاية حياة مجتمعهم الطاهر العامل الناشط المؤتمر بالمعروف والقويم المنضبط المتّقي لله المتناهـــي عن المنكر ولما وفوا بعهد الله عبر كل أطوار نهضة حياتهم ليفي لهم الله في الآخرة بخير الموعود.

إن الوصاة والخطاب الحق للنبـــي ﷺ وللدعاة خَلَفاً له وأتباعاً لسُنّته أن يتوكّلوا علـــى الله ويمضوا في مراحل سيرة قَومة الدين ونهضته المتوالية عبر الابتلاءات المتقلّبة. لأول عهـــد الدعـــوة يقع التكذيب من سواد غالب لا يؤمن بالغيب ويكذّب رسالة هدايـــة للناس ونذارة لمن يدبرون عنها وبشارة لمن يستجيبون مؤمنين. ويتلو ذلك بلاء لمـــن آمـــنوا فتنةً أو إخراجاً من الوطن أو عدواناً متلاحقاً، ويحق للمؤمنين بعد القتال وفاقـــاً ليكتب لهم النصر والتمكين. ولكن من وراء ذلك في دار خلُصت للإسلام تمتد في الأرض ظاهرة بدء الدعوة واستجابة قلّة وكُفر كثرة، وتتوالى مراحل الفتنة والصبر فالإخـــراج أو العدوان فالمدافعة فالنصر وقد تدور في أرض المسلمين دورة من غاشية كفرٍ غالب فتذكرةٍ من قلّة تُستضعف وتفتن حتى تتمايز ويتم لها إعداد منهج للمدافعة والتوبة إلى إقامة الدين رحمة من الله وليٍّ العواقب بقدره الغلاّب. إن يُكذّب السواد من المجـــتمع الكافر لأول وهلة الدعوة وإن كانوا قوماً وأهلاً لحمَلتها فقد كذّبت رسلَها أقـــوامٌ من قبلهم، مثل قوم نوح وعاد التي كذّبت أخاها هوداً، وثمود قوم صالح، ومن

قبلهم في سيرة الملّة التوحيدية كذّبت قوم إبراهيم ابنهم وقوم لوط صاحبهم. وكذلك كذّب موسى قومُ فرعون الذين نشأ فيهم. أملى الله لأولئك المكذّبين والكافرين حيناً لعلّهـــم يتذكـــرون فيه ويستغفرون تائبين ولتحقّ عليهم بعد النذير والمهلة الحاقّةُ إذا أخـــذهم الله بنكير العقاب. وكان ينبغي أن ينظر الذين كذّبوا محمداًﷺ كم من قرى كـــثيرة أهلكها الله بأقدار عقابه العاجل وهي متمادية في ظلمها، فهي بعد الهلاك هار عمرانها بيوتها خاوية على عروشها ومعالم بناها العامة خالية فكم من بئر معطّلة وقصر مشيد. أفلم ير الذي ينظر في غفلة أولئك العرب المخاطبين الأُول برسالة الإسلام عما حـــولهم من القرى الواعظ مصيرها فيعتبر بغفلة الخَلَف من بني الإنسان كثيراً عن تأمل حال سلفهم؟ أفلم يسر العرب في الأرض حولهم وينظروا معتبرين في آثار الأقوام فيها فـــتكون لهـــم قلوب ناشط نبضها انفعالاً برسائل تدبّر الأذهان لمشاهد الأعين وعقلاً لنـــزعات الانفتان بظاهر مشهود الدنيا دون اتعاظٍ بسنن الله في التاريخ يضبطُ عربدة الهوى الطالق، أو تكون لهم آذان يسمعون بها الأنباءَ المروية في حكايات الآباء المتناقلة وفي آيـــات القـــرآن التي تقصّ عنها القصص فيتأملون بإعمال أذهانهم تفكراً واعتباراً ويـــنفعلون بنـــبض قلوبهم دفعاً للعمل المعتبر؟ إنها لا تعمى الأبصار إذ يقع عليها طبعاً مـــشهود آثار القرى ولكن لا ينفذ ذلك في الوعي فيقع في الوجدان وقع اتعاظ، وإنما تعمـــى القلوب إذ لا يبلُغها وقع تلك المشاهد عِبَراً تلوح في الأذهان فتحرّك القلوب لتُحيي حركة الإنسان وتمدّها للاتعاظ فالإيمان فالعمل المعتبر. والمخاطبون ما كان يُغني فيهم التذكير لتحيا قلوبهم وتُحرّك فيهم شعائر الاعتبار والاتعاظ التي دعي بها وجدانهم مـــنفعلة بـــنذر العذاب التي كذّبها الأولون فحقّ عليهم نفاذ الوعيد، بل كانوا حيثما بلغهـــم الوعيد المُنذر بعاقبة العذاب يكذّبونه ويتحدّون رسول البلاغ بأن يُوقع ذلك العـــذاب علـــيهم فـــوراً، يستعجلون نفاذ الوعيد الذي يُملي فيه الله لهم لحينٍ لعلّهم يذّكرون ويتوبون أو يحقّ عليهم الفعل إن تمادوا ضالين. وإن كان عباد الله البشرُ الذين لا يؤمنون بالغيب يَعدّون أيام الدهر كما يعهدون حسابها ويرون آفاق الزمان يمتدّ بهم مداها لآجال منسوبة محسوبة، فإن الله يُحيط في الوجود بالأزل الذي ينمحي فيه تعداد الـــزمان وحسابه، والله لا يخلف بل ينجز وعده ولكن يُسمّي أجله ليوقعه عنده، وإن

يــوماً عــند ربّ المنذرين بعواقب الجزاء كألف سنة مما يعدّ المنحصرون في حساب الدهــر، والمؤمــنون بالغيب يكلون إلى الله الآجال وحساب عاجلها أو آجلها كما يقــدّرها الله بحسابه الأزلي. وهكذا كم من قرية أَملى الله لها وهي ظالمة تتمادى وترى نذر العقاب يتباعد وقعها فلا يأبهون لها ثم باغتها القدر فأخذها الهلاك، وإلى ذات الله تــرجع أقدار المصائر الحاقّة لأجلها المكتوب عنده. فليقم الرسول أو الداعية بعده على سُــنّته صابراً متوكلاً على الله ماضياً في بلاغ رسالته منادياً في الناس كافة: إنما هو لهم نذير مُبين لا يُبهم له وعد وقوع المصائر إن حقّ عليهم العقاب. والناس في مشيئة خيار لأي وجهــة يولّــونها في مذهب الحياة بعد سماع هدى الرسالة ونذيرها. فالذين آمنوا بالغيب الموجود وحقائقه الموعودة وعملوا الصالحات استجابة لدعوة الرسالة وانتظاراً لبشرى العاقبة لهم مغفرة لما سبق قبل الهدى من ضلال ولما يعتريهم بعد من فتنة الحياة وارتــياب الذنــوب واللّمــم لأنهم نفوس توّابة إلى مقتضى الصلاح إن كانت أمّارة بالــسوء، ولهــم رزق كــريم خير من رزق الدنيا الذي تناولوه شاكرين غير مفتونين بعاجلــه. والذين سعوا في آيات الرسالة ونذيرها معاجزين يظنون قدر الله عاجزاً أن يُوقــع بهم الوعيد فيكذّبونه ويتحدّونه يستعجلون وقعه لإبداء صدقه- أولئك هم في المصير الحق الآجل أصحاب الجحيم يلازمونها حميماً صحبة خالدة.

ترتيل المعاني: الآيات (٥٢ – ٧٢):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آَيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٢)

فــضلاً عن تكذيب الكفّار النبــي ﷺ فيما يبلّغهم من رسالة القرآن مخاطباً لهم، كما كذّب الذين من قبلهم الأنبياء، ومجادلتهم في أمر الله إشراكاً فيما يظنون بغير علم بالغــيب الحق، واستعجالهم بوقوع ما يُصدّق نذيره، وسعيهم معاجزة لآيات الله التي يتلوها عليهم الوارد فها عذاب الجحيم، وصدّهم المؤمنين عن سبيل الله وشعائر العبادة الــتي تعبّر عن توحيده وتوقيره، وإخراجهم المسلمين من ديارهم ومقاتلتهم عدواناً – فــضلاً عــن ذلــك فإنهم يحاولون النّيل من النصّ الحق لآيات الله الموحاة كما فعل

الأولــون. ذلــك إذ تُـضيف الآية إلى سابقها الخطاب للنبـي تسليةً له وتعزية بعبر الماضي: أنه ما أرسل الله بأقدار علمه ورحمته واصطفائه ووحيه من مبلّغٍ لرسالاته – ما أرســل من رسول يحمل إلى أمة خطابه رسالة شرع جديد مصدّقة لأصول حق الدين في رســالات الغــيب المتوالية وهادية في وجه الابتلاءات الحادثة، أو نبيٍّ يصلهم بنبأ الغيب مذكّراً بحق الشريعة التي كُتبت قبلاً في رسالة لئلا يُضيّعوا أمانتها – ما قرأ ذلك المكلّــفُ بالبلاغ آيات الله الموحاة إليه وتمنّى بلسانه منطوقها المتساوق ولفظها المنتصّ راجياً تذكّر معانيها المتواترة للمخاطبين إلا ألقى الشيطانُ – شيطان إنس مُخاطب أو شــيطان جــنّ تصدر عنه غاشيات إيحاء، درج في أمنيته ومتلوّه ذاك كلمات مضافة محــشورة أو أحدث فيها حذفاً وانبتاراً بما يبدّل في النصّ الحق، ويتلقّاه أولياء الشيطان ليجــري علــى لــسانهم في تلاوة الآيات وليشيعوه زوراً مرويّاً. أو ألقى الشيطان ما يصرف الرسول أو النبيّ عن ضبط تلاوته للآي بإيقاعه في خطأ أو سهو أو بإغرائه أن يتزيّد فيها ركوناً إلى ما يستميل المخاطبين. أو ألقى رؤى تأويلات للمُشتبه من الآيات المــتلوّة تــصرِف عمّا هو الحق من هداها. ومن إلقاء الشيطان ما شاع – إن صحّت رواية الخبر – من إضافة ذكر الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهنّ لترضى، عبارتان منحولتان علــى وزن الآي في سياق مضت نصوصه ذكراً مجرداً من تلك الكلمات الدخيلة مُثبِتاً بطــلان الشرك الذي جاءت به. وسنة الوحي الصادق من الله أن يترتب على إلقاءات الــشيطان وإيحاءاتــه ما ينفي الباطل الذي يغشى الآيات وما يعلو عليه، إذ ينسخ الله بوحــيٍ تال لما جرى من إلقاء الشيطان ما يُبطله ماضياً يُحقّ النصّ الصواب المتنــزّل ويُحكِــم الله بذلك تلك الآيات، والرسول أو النبــي لا يُجيز في تمنّيها وتبليغها تلك الأقاويــل الــزائفة بــل يتلو الحقّ من نصوصها ولا التأويلات الباطلة بل يبيّن المعنى الصحيح للمشتبه منها(١).

(١) في ذكر آي الله المحكمات تُردّ إليها المشتبهات: راجع الآية ٧ سورة آل عمران، وفي ذكر إيحاءات زخــرف القول بين شياطين الجن والإنس: راجع الآيات ١١٢ – ١١٥ سورة الأنعام. وفي ذكر آي القــرآن حقاً موحى لا يبدّله الرسول ولا يتقوّل فيه الأقاويل: راجع الآيات ١٥ – ١٧ سورة يــونس، والآيتين ٣ و٤ سورة النجم، والآيات ٤٠ – ٤٦ سورة الحاقة، وفي نصّ الآيات المحكم نفياً للظن الباطل وذكر اللات والعزى ومناة: انظر الآيات ١٩ – ٢٨ سورة النجم.

والله علـــيم بالحـــق الذي تتنـــزّل وتنطق به آياته وبما يعتريها في بلاءات مجرى الـــبلاغ، حكـــيم يُنـــزل الحق في سياق تلك البلاءات ليصحح متلوّ الحروف ويحقق مواضع الكلم في جملة نص الوحي الُمنـــزل ويثبّت المعاني الخالصة بالآيات الُمحكمة أمِ الكتاب، فيُزهق الباطل ويُحقّ محض الحقّ في صحيح قراءة القرآن وصواب وقعه.

﴿لِـــيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٣)

إنمـــا يذر الله بوح الخيار لعباده البشر فيما يفعلون من تلقّي آياته الموحاة وقراءتها وروايـــتها ابتلاءً لهم ليجعل ما يُلقى في نصّها بأهوائه الشيطان منهم أو ما يوحي فيهم شـــيطان الجنّ، فيشيع – ليجعل لذلك فتنة للذين في قلوبهم مرض انخذالاً عن الثبات على الحق وميلاً إلى الباطل في وجه البلاء، من قلوب معلولة بانفعالات الكفر بالغيب وبالحـــق، هـــوىً تسوقه شهوات العالم المشهود أو غواية تسوق إليها وسوسة شيطان الجـــن. وفتـــنة أيضاً لذوي القلوب القاسية التي لا تخشع استماعاً لكلم الآيات وتلقياً لذكـــرها الحق ضبطاً، بل تصلُب بكثيف الباطل المتراكم في وجدانها وتستوحش من وقع أصوات الآيات ولا تأنس لحقّها الذي يقرع آذانها دون أن تسري في شعابها معاني هـــديها مهمـــا يتلوها مُحكمةً رسول أو نبـــي مبلّغ. إن الظالمين الذين يعدون على حـــدود الحـــق ويخبطون في ضلالاتهم بغير نور الهدى – إنهم سنةً ماضية مؤكدة لفي شـــقاق بعـــيد، جانحين إلى مدى بالغ من المحاجّة والملاحّة والمخاصمة للنيل من الحق العدل بأن يلقوا فيه شقاً من الباطل.

﴿وَلِـــيَعْلَمَ الَّـــذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٤)

وإنمـــا يُحكم الله آياته بعد أن يذر الظالمين يُلقون فيها دخيل كلام باطل ليبسط بقـــدره مجرى الابتلاء، إملاءً لفتنة الضلال قبل الهداية للحق في متلوّ الآيات التي يتلوها رسله وأنبياؤه. وإنما يأتي ذلك الإحكام بعد فتنة الشيطان ليعلم الذين أوتوا العلم البيّن مـــن ســـابق ما بلغهم من هدى الوحي المتنـــزّل عليهم من الغيب – ليعلموا أن هذا الكـــتاب المنـــزل هو الحق الثابت المتصادقة آياته المتوالي وحيها من ربّ النبيّ الخاتم –

كمـــا يخاطبه الله، ربّه الذي يخصّه بذلك علماً موحىً ويكلّفه ببلاغه والذي يرعاه إذ يتعـــرّض في تمنّي آياته وفي سائر دعوة الدين لبلاء في المخاطبين بين استجابة وإعراض، وبـــين فتنة إلقاء الشيطان في تلاوة بعض ذكر الوحي ودركٍ من الوحي العاقب الذي ينـــسخ ذلـــك الباطل ويُحكم حق الآيات ليتبيّن ويستقر علم الغيب الحق لدى الذين أُوتوه فيؤمنوا به ويثبتوا على نصّه المتلوّ صدقاً فتُخبت له في تلاين وخشوع واطمئنان قلوبهم نابضة منفعلة لرسوخ معانيه في الوجدان[1].

إن الله بألوهيـــته العُظمى وسُنته المؤكدة لهادي الذين آمنوا راشداً لهم إلى صراط مـــستقيم يعـــتدل طـــوال سيرهم ولا يعوج مذهبهم ظلماً ولو اعترضتهم فتنة إلقاء الشيطان وتداخل الباطل والحق في كَلِم الرسالة أو ابتلاء سائر وجوه مصادّة الكافرين للمؤمنين عن هدى الله الحق.

﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (٥٥)

بعـــد كل ما سبق ذكره في إحكام آي الله لا يزال الذين كفروا بالكتاب وآياته يجادلون ويسعون فيها معاجزين يطلبون تعزيزها بآيات لا متلوّة بل محسوسة ويرتابون في وقـــوع نذيرها الموعود ويحاولون إلباسها بدخيل الكَلِم ومنتحل الباطل - لا يزالون في مرية من كتاب آي الله وشك في حفظها علماً من الغيب وصدق نذيرها بالعواقب المـــنظورة. تلك السّنة السيّئة للذين كفروا فليذرهم الرسول ولا يكوننّ منهم ولْيثبت علـــى الحـــقّ المحكم[2]. وذلك حتى يدركهم العلم اليقين إذ تأتيهم الساعة التي يبلغون فـــيها أجل الواقعة المزلزلة وحلول يوم الوعد النجيز، لكنهم حتى تأتيهم تلك الساعة بغتة هم سادرون في كفرهم لا يخشون نذيرها ولا يبالون بالتذكير الذي يتوالى عليهم بآيات الله المتلوّة، وقد تفاجئهم نفخة الممات التي تُطبِق على البشر كافة أو دون ذلك

(١) في الذين أوتوا العلم الحق يؤمنون بالكتاب حقاً متوالياً تنـــزّله: راجع الآيات ١٠٧ - ١٠٩ سورة الإسراء، وانظر الآية ٦ سورة سبأ.

(٢) في شـــأن الذين كفروا في مرية من القرآن وهو الحق لا يُمترى به: راجع الآية ١٤٧ سورة البقـــرة، والآية ١١٤ سورة الأنعام، والآية ٩٤ سورة يونس، والآية ١٧ سورة هود، وانظر الآيات ١- ١٨ سورة النجم.

موتاً حتف أنوفهم أو بحدث أو يُمدّ العمر حتى يتوفاهم الموت المسنون بعد الكبر. ولا مجال لتوبة عند حضور الموت بل تفنى أجسادهم وتقبض أرواحهم لترفع في برزخ إلى يـــوم يُبعثون ويأتيهم مشهوداً ذلك اليوم الآخر في الأزل عقيماً لا يعقبه يومٌ يُرجى فيه خـــير أو إنظار بل يقع عليهم حاسماً لا يلقون وراءه خالفة نعيم أو متاع طيب في تلك الحياة الأخرى.

﴿الْمُلْـــكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٥٦)

الملك يومئذ لله، في ذلك اليوم الذي تحين فيه الساعة الموعودة وبعد نفخة البعث يخـــرج الـــناس دابّـــة يتكلمون لكن يغشاهم من مشاهد الحساب والعذاب الفزع بما يستـــشعرون القـــصور والعجز، الملك والتمكن من قدرة التصرّف الأوسع وسلطان الـــتدبير الأعلى في تلك العاقبة لله: الإله الأوحد الصمد المعروف المقصود، يَحكم بين عباده لمختلف كسبهم ويفصل فرقاناً واقعاً بين مختلف مصائرهم(١)، فالذكر المتقدم هو عـــن مصير الذين آمنوا منهم وصدّقوا بأن عملوا الصالحات تعبيراً عن إيمانهم ذاك بالله وبحقائق الوجود الغيب والشهود وبعديل الهدى المنـــزل عليهم منه تعالى فصدّقوا ذلك فعلاً إذ تبيّنوا موازين الهدى ومسالك الصلاح وساروا على ذلك النهج. هم يومئذٍ في جـــنّات يعمرها نبات حيّ مروي ويحيط بها الشجر فيها النعيم الذي يطيب فيه المعاش وتنشرح الصدور برضوان الله فتسعد حياة أولئك المؤمنين أبداً.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٥٧)

والذين كفروا فانغمرت في وجدانهم حقائق الغيب وكذّبوا بآيات علم الله وهديه المرسلين إليهم ليتلقّوا بلاغها بالتصديق - فأولئك الأبعدون هم يومئذٍ في سطوة ملك الله الفاعل وحكم قضائه العادل، لهم عذاب من حرق نار أليم وطعامٍ من ضريع وزقّوم وشـــراب مـــن غسّاق وحميم وصُحبة تنابذ خصيم، وهو عذاب أليم يُخزيهم ويذل كرامتهم التي تعززوا بها في الدنيا عن التواضع لطاعة الله والخشوع لذكره.

---

(١) لله الملك يوم القيامة: راجع الآيات ٧٣ سورة الأنعام، وانظر الآيتين ٢٥ و٢٦ سورة الفرقان، والآية ١٦ سورة غافر، والآية ٤ سورة الفاتحة.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٥٨)

إضافة إلى ذكر هداية مسير الذين آمنوا على صراط مستقيم، في آية سابقة قريبة، يأتي ذكر المصير في الآخرة للذين هاجروا منهم في سبيل الله ممن أوَوا إلى المدينة وغادروا مكة ليفارقوا بيئتهم المعهودة ومواطن أهلهم المألوفة ومواقع منافعهم المعتادة – فارقوها لا يسْعَون إلى سوانح فرص تجارة ولا متعة يبغونها ولا تستهيمهم شهوات مناكحة يرجونها ولا موادة قرب ينشدونها، و لم ينفّرهم محض غضبة نكر ولا حمية جفاء لقومهم، بل هاجروا في سبيل الله بإرادة التطهر والتحرر من شرك الجاهلية والإخلاص للإسلام لله الحنيف فأخرجهم أهلهم وبعزيمة التمكين للدين وإقامة نظمه التأسيسية في مجتمع غير مفتون إستجابة لمدعاة الأنصار الآمنة بالمدينة، ثم قتلوا من بعد بجناية عدوان في معارك دفاع وجهاد إذ لاحقهم وقاتلهم المشركون الكافرون، أو ماتوا مرابطين في المهجر والموطن الجديد إذ توفاهم الله بنهاية العمر بعد الكبر أو دون متوسط الآجال المعهودة لعللٍ أصابتهم في مناخ لم يطب لهم. أولئك لن يفنوا بمماتهم ليُحرموا أبداً من رزق الدنيا، بل لَيبعثنّهم الله ليرزقهم في جنات النعيم الموعود في الغيب جزاءً لإيمانهم وعملهم الصالح، رزقاً حسناً إن أفقرهم في الدنيا بعد المهجر تقطّع أسباب المعاش وعنت الغربة. إن الله كامل الألوهية لهو حقاً مؤكداً خير الرازقين إذ هو مالك أسباب الرزق يسخّرها ويصرّفها للمؤمنين الصالحين في الآخرة أجراً مباركاً مضاعفاً بسطاً عفواً لا يُكافئه سالف كسبهم وفضلاً وافراً مكفولاً، فقد تعالى الله عن أيّما ندّ شرك فهو يُعطي الرزق في الدنيا للناس بقدر ويملك أقدار رزق موصول خير وأبقى يوم الدين، وسبحانه رازقاً عما يدعو من دونه استرزاقاً المشركون الذين خلّفهم المسلمون في مكة وحولها.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (٥٩)

أولئك المهاجرون الذين أُخرجوا من معهود وطنهم ودخلوا مهجراً وكثيرٌ منهم فقُروا فيه واعتلّوا صحةً من غربة مناخه وبعضهم توفوا فيه – ليدخلنهم الله – قطعاً مؤكداً – مُدخلاً يرضونه، مكان دخول في عاقبة الآخرة إلى دار النعيم والرزق الحسن

مـــأوىً لا يرضـــون به بدلاً، يستطيبونه ما تذكّروا مضطر دخولهم إلى دار المهجر في الدنـــيا. إن الله لعلـــيم حقـــاً بمقاصد أولئك المهاجرين - هجرةً في سبيل الله وبصالح أعمـــالهم صـــبراً واغتراباً، وحليم بتجاوز أيّما قصور منهم عن تمام طاعته ﷻ وعين مقتـــضى الإحسان البالغ في عبادته، يحفظ لهم أجر ما كسبوا من خير واستقاموا حتى أتاهم أجل الوفاة.

﴿ذَلِــكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (٦٠)

ذلـــك هـــو ذكر العاقبة المرضيّة يوم الدين للمهاجرين في سبيل الله من المؤمنين وذكـــر الله خـــير الـــرازقين لهم يومئذ العليم الحليم بهم، وينضاف إليه في أمر أولئك المهاجرين في الدنيا أن مَن عاقب معادياً الكافرين بمهاجرتهم مثل ما نالوا منه من هجر وأذى في مكـــة عقب ما كرهوا من إيثاره الإيمان بالله والغيب والخروج من جاهليتهم والإقـــبال على الإسلام، ثم بُغي عليه بعداً بملاحقتهم له في مهجره في المدينة لقتاله - ذلك بين سائر المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله استنصاراً به لينصرنّه الله الإله الأعظم الأكبر، ليُمكننّ له حقاً تغلّباً على الكافرين[1]. إن الله عن عباده أولئك لعفو إذ قاموا يُقاتلون الآخرين معاقبين مَن ظَلَمهم بمثل ما فعلوا بهم، هجراً بهجر ودفاعاً لقتال. وهـــو ﷻ غفـــور واسع الصفح والعفو حتى لمن عاد معاقباً بالجهاد من عاد عليه بعد الإخراج من دياره بالبغي عليه في مهجره. والمؤمنون لهم أن يُعاقبوا سيئة بسيئة ولهم أن يعفـــوا ويغفروا بعد الغضب فذلك خيرٌ لهم تخلّقاً بخلق الله العفو الغفور لهم وإن آثروا عدل المعاقبة على سماحة العفو.

﴿ذَلِــكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٦١)

ذلك هو أمر الله وكلمته أن يمضي عفوّاً غفوراً للمؤمنين الذين يُعاقبون الكافرين العادين الباغين معادلة بالحق. والبيّنة على ذلك أنه ﷻ في كل أقداره يعاقب تصريف

---

(١) في نـــصر الله من ينصره، دفاعاً عن الدين: راجع الآيات ١٥ و٣٨ و٤٠ من ذات السورة. والآيات تتواتر في القرآن أن الله ينصر عباده الصابرين والمجاهدين في سبيله.

الأمور بميزان عدل، إذ يولج لعباده الليل في النهار يُدخله عليه بظلام يغشى الضوء تباعاً عبر توالي مراحل الأرض وأوقات الزمان، كما شقّ عليهم جهد العمل بالنهار يُعقبهم الله سكناً وأمناً، وهو يولج لهم النهار في الليل كلما كفاهم النوم راحةً فتهيأوا طاقة للانطلاق النشط ينبعثون عند انفجار الصبح والنهار سعياً في سبل المعاش. وذلك التعاقب في أقدار الله المحيطة بظروف حياة عباده كل يوم بيّنة أنه حقاً بكماله المطلق يحيط بحياتهم، سميع بمقولاتهم وبصير بفعالهم غنياً عن هدء الليل وضوء النهار عليماً بهم عبر مدافعات علاقاتهم وتطورات حياتهم في سياق الزمان، ذلك ليسوّي بهم الخلقة المتوالية في ساعات يومهم إذ السكون والنوم يخلفه النشاط والجهد والطمأنينة، والمعاقبة العدل في أحوال علاقاتهم إذ التأذّي والمهاجرة والمجاهدة يعقبها النصر وانشراح الصدور.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٦٢)

ذلك التعاقب في تصريف أقدار الله لأحوال علاقات الناس وأطوار حياتهم اليومية – ذلك بيّنة أن الله هو الحق العدل يصرّف أمر الوجود كله بميزان، عليم يسمع ويبصر مقولات بني الإنسان وفعالهم ويجزيهم في العاقبة وفاقاً، وحليم يرحمهم بتكوير الليل والنهار، وعفوّ يوليهم مؤمنين النصر بعد البلاء. وذلك بيّنة أيضاً أن ما يدعو من دونه أولئك المشركون المتعلّقون بأصنامهم المستفتحون بها على المؤمنين إنما هو الباطل لا يصرّف الوجود ولا يُدبّر أحوال حياة الإنسان ولا يطوّر مصائره، أصنام لا تنصر نفسها ولا تنصر عُبّادها العاكفين حولها داعين راجين. وهو بيّنة كذلك أن الله هو وحده العليّ سبحانه فوق خلقه وكلٌ أسفل من عزته العليا لا ندّ له يكافئه مهما يتعبّد لآلهتهم بالباطل المشركون. وهو الكبير له الكبرياء في السماوات والأرض يكبُر قدره فوق كل المستكبرين من بني الإنسان وفعالهم وقدرته فوق كل عظيم من تصاريف الوقائع في الكون، كل ذلك أصغر من جلاله ﷻ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٦٣)

المُخاطـــب بذلك الحق البيّن في القرآن إنْ كَفر بأقدار نعمة الله العظيمة حوله في الكـــون أو غفل عنها أو أنكر الغيب و لم يؤمن بعد الحياة الدنيا بالبعث في أزل الآخرة أو يتذكّـــره من عبرة تعاقب الإنامة بالليل والإيقاظ بالنهار – ذلك المُخاطَب حقّ عليه أن يُسأل – ألم ير في مشهودات الوجود حوله – استفهام استنكار لنفي رؤيته، بل هو يـــرى كيف يصرّف الله أحوال خلقه تعاقباً، أن الله أنـــزل – بقدره الماضي تجليه سنةً ماضـــية حقاً – أنـــزل من السماء ماءً يخرج من الأرض بخاراً ثم يتكثّف سحاباً تُزجيه الـــرياح ثم يتنـــزّل غيثاً فتُصبح به الأرض التي كانت بترابها الكثيف الجامد ميتة يابسة بعـــد إروائها بالسائل الرقيق مخضرّة حياً يانعاً نباتها. ذلك الظاهر المسنون من أقدار الله في الحـــياة والنـــبات والخـــضرة بعد الذبول والحوّة والموت آية أن الله – الإله الأعلى الأكـــبر – لطيف دقيقة أقداره في تصريف طبيعة الأشياء مهما يرق تركيب الماء وبِنِعَم عـــضوية النبات خبير بتصاريف آياته المرئية وبأحوال عباده وحاجياتهم ليوافيهم بتلك الـــنعم المـــسخّرة المشهودة في الدنيا وليهديهم إلى مصائر حياتهم بعد الموت، ولعلّهم يتذكرون لطف الله ورحمته عليهم وهم مُبتلون وإحاطته بخبر كسبهم زاداً للآخرة التي يُبعثون فيها يوم الحساب والجزاء.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٦٤)

لـــه، ما في السماوات والأرض، قراراً مقدّماً فيه الضمير ليتأكّد ذكر نسبه كل ذلك إليه ﷻ خلقاً وملكاً، فله ملكوت الملك الأعلى والعالم المستجنّ غيباً والبروج الفلكـــية والماء المتنـــزّل والإنس والجن والمخلوقات الحية والجامدة في الأرض، وله أقـــدار ما بين السماوات والأرض من الطبع المتفاعل طاقةً وضوءاً وماء، ومن الهدى المتنـــــزّل وحياً إلى الإنسان والعلم الصاعد إحاطةً مدركة أمر كسبه في الدنيا ثم له الـــسماوات المنفطـــرة والأرض المتبدّلة في الآخرة وأقدار يوم الدين وقواه وواقعاته الخالدة.

وبعدُ إن الله لهو حقاً الغني عن كل خلقه وملكوته لا تأخذه حاجة إلى شيء دونه شـــريكاً، الحمـــيد المستوجب بالغ الحمد والثناء بصفاته محامده العُليا وجزيل الشكر لتفاريع آيات جلاله في الوجود ونعمه التي لا تُحصى في حياة الإنسان.

﴿أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٥)

ألم يـر المـرء من أولئك المخاطَبين بالقرآن – استفهاماً منكراً عما هو بيّن حقاً مـشهوداً ماضياً – إنّ الله سخّر لهم ميسِّراً لتصرّفهم وانتفاعهم ما في الأرض من نِعم الحـياة – مهاد عيش ومسالك مسعى ومتبوّأ عافية وألوان حيوان وزرع طعاماً وزينة، وسخّر لهم الفلك تجري في البحر المتلاطم بأمواجه المضطرب بالرياح لتحمل ما عليها طافـية فوق الماء لا تغرق سائرة لا تسكن ليتيسّر انتقال بني الإنسان وأثقالهم وتبادل المنافع بينهم – ذلك كله بأمر الله وسنّته الموزونة في تصريف طبائع الأشياء وتسخيرها. وهـو أيضاً يُمسك كل السابحات في السماء بغير عمد مرئية أن تقع على الأرض لئلا يـضطرب قـيامها المنظوم تجاذباً وتعادلاً لرزق الإنسان غيثاً ولهدايته ضوءاً وجهة، لا تطبق قواها على الإنسان فتهلكه ولا يُرسل منها شواظ وصعق من نار إلاّ بأمره تعالى ليحفظ الوحي المتنـزّل من الشيطان أو لإيقاع العذاب العاجل على من حقّ عليه ولا ينـزل منها غيث إلا بقدر أو حين تُطوى السماوات بقدر واقعة القيامة.

إن الله بالـناس في الأرض وهـم عباده لحقّاً رؤوف لطيف الرعاية والعطف بما يـسعهم كافة، رحيم تبلغ رحمته كلاً منهم في أدقّ أحواله يبسط لهم الأرض والبحر ويُجـري لهم الفلك ويُنـزل عليهم من السماء الرزق والوحي رأفة ورحمة ويحفظهم من وقع ما حولهم من بلايا أقدار الطبيعة.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ (٦٦)

وهـو خالقـاً رحماناً – الذي فطر فأحيا أولئك المخاطبين بهديه بعد أن كانوا عـدماً ثم في جامد مادة الأرض ونطفة أمشاج بين الأبوين الزوجين وما كانوا شيئاً مذكـوراً، أحياهم ثم من بعد مدٍّ من العمر المكتوب يُميتهم لانتهاء أجلهم في الدنيا بأسـباب الموت التي يقدّرها ﷻ تقديراً، ثم بعد مكث أرواحهم في برزخٍ من الأزل يُحييهم بعثاً في الآخرة، فإن فارقت أرواحهم الأجساد الأولى التي فنت يُنشئهم ﷻ نشأة أخرى وتُنفخ فيهم راجعة أرواحهم ليقوموا أهلاً لتلقى أقدار العرض والحساب والقضاء والجزاء.

إن الإنـــسان مهمـــا يرى من آيات ذلك البعث مثالاً في النبات تحيا به الأرض خـــضراً نامياً مثمراً بعد موتها مغبرّة هامدة جدباء -إنه لكفور، عريضٌ مذهبه كفراً إذ يُفتن بعالم الشهادة وعاجل متاع الدنيا، لا يؤمن بنعم الله المسخّرة المتوافرة شاكراً ولا بالـــبعث بعـــد الموت يتزوّد له بمقدّم الأعمال الصالحة بل يغفل عن البعث أو يستبعده قاصـــراً نظـــره على ظاهر فناء الجسد بعد الموت عظاماً ورفاتاً أو رماداً أو مادة ضالة بوجه آخر في الوجود المشهود.

﴿لِكُـــلِّ أُمَّة جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (٦٧)

لكـــل الناس ترك الله خيار المشيئة والمذهب في الحياة، تنـــزّلت مُحكمة آيات وحيه وتجلّت مشهودة آيات قدره شهادةً على وحدانيته وصفاته العليا ونعمائه على الـــناس وحق لقائه الموعود، ولذا جاء الذكر في الآية أن لكل أمة منهم عباده جعل منـــسكاً، شرعةً معروفة ومنهاجاً عليه السير المعتاد سنة حياة أو شعائر تعبّد. ذلك مـــشهود في التعاليم والسنن لأهل الكتاب السابق أو المشركين بجاهليتهم الأمية، هم ناســـكوه مـــوالين الـــسلوك على سبيله مخلصين له وجهة مذهب على سنّة تعبّد. والخطاب للنبـــي ﷺ الذي يؤم الناس جميعاً بهدى رسالة القرآن ألاّ ينازعوه -أولئك الكافـــرون بهـــا - مشادّين له في أمره بما يلقي إليهم الشيطان مما يبتغون من تخليط وحي القرآن أو مجادلة حجة هداه - الدين الحنيفي المتجدّد - وبما يغويهم من محاولة استخفاف النبـــي ليوافق أهواءهم وأعراف سننهم الدينية، وهم أحرار في منسكهم ونـــزعهم، وإنما الوصية للنبيّ ألاّ يصرفوه عن أمر الحق الذي هو عليه وشعائر العبادة التوحـــيدية وأن يمـــضي داعـــياً إلى ربه الذي ربّاه وهداه سواء استجابوا وتابوا أو نـــــزعوا هم إلى ضلالهم وكفرهم أو شركهم ونازعوه هو إليه، فليطمئن ثابتاً على أمـــره ودعوته، هو - حقاً مؤكداً - على هدى من الله مستقيم يُصلح الحياة الدنيا ســـوقاً إلى خـــير المآل، فليمض هو ناهجاً على هدى ربّه ناسكاً مخلصاً على شريعة أمـــره، مـــتوكلاً عليه، إماماً وقدوة داعياً إليه مهما يُعرض عنه الكافرون ويجادلونه وينازعونه ليفتنوه.

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦٨)

إن نازع بعض المخاطبين الكافرين بالرسالة من المشركين وأهل الكتاب – نازعوا النبي ﷺ ليمنعوه ويصدّوه عن طريق هداه فاعتصم هو بربه واستقام ولم يستخفّوه بل دعا إلى الحق لكن أخذوا هم يجادلونه ملاحّة وعتواً – إن كان ذلك يستمر الخطاب له مهما يضادّونه ويجادلونه ليرتاب في دعوته ومذهبه، فليقل لهم مجادلاً إن الله أعلم بما يعملون، هو أنذرهم أحراراً يعملون على مكانتهم مذهباً في الحياة، لا تذهب نفسه حسراً من كثرة مجادلتهم فقدر الله أن يكون لهم خيار المشيئة والعمل، أما هو فلا يبالي بدعاياتهم وإن كانت الأشهر والأظهر لحين ويكل أمرهم إلى الله الذي يعلم مذهبهم وكسبهم ليحاسبهم عليه في الآخرة[1].

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٦٩)

ويأتيه تذكير للمصابرة على الخصام حتى يقضي الله: اللهُ يَحكم يوم القيامة والتغابن بينه وبينهم فيما كانوا فيه يختلفون، مهما يكن حظهم في مغالبات المنازعة والجدال في الدنيا، فذلك يوم الفصل بين الحق والباطل ومتقلّب السوء للظالمين المستكبرين.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧٠)

ويُذَكّر النبي ﷺ أيضاً خطاباً له بما ينبغي مهما تتكثف في ذات البين مداولات الخصام وبما يُعزّز صبره، ويُسأل استفهام استنكار ألاّ ينسى أن الله بذلك محيط: ألم يعلم أن الله يعلم ما في السماوات والأرض من خلافات الخلائق وأقوالهم وأعمالهم المترتبة، إن ذلك في كتاب علم لله وُضع فيه سجل ذلك جميعاً، إن ذلك مهما يعظُم على الله ذي العلم المطلق هيّن يسير، كلٌ من عباده يُؤتى يوم الحساب كتابه الذي يحفظ ذرّات كسبه في الدنيا خيراً أو شراً.

---

(١) كل مؤمن أو كافر يعمل على مكانته وشاكلته والله يعلم عملهم ويحكم بينهم: راجع الآية ١٣٥ سورة الأنعام، والآيات ٩٣ و١٢١ و١٢٣ سورة هود، والآية ٨٤ سورة الإسراء، وانظر الآيتين ٣٩ و٤٠ سورة الزمر، والآية ١٦ سورة الشورى.

﴿وَيَعْــبُدُونَ مِــنْ دُونِ اللَّــهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٧١)

المــشركون ينازعون رسولهم في الحق والتوحيد، ويجادلونه في الغيب، لا يؤمنون بــرقابة الله علــيهم وحكمه بين عباده المختلفين في الآخرة، ويمضون مصرّين مذهباً متوالــياً يعبدون شركاً من دون الله الذي سبق ذكر وحدانيته وإقرار أسمائه الحسنى – يعبدون ما لم يُنــزل به الله سلطاناً من حجة فطرة أو تفكّر عقل أو آية وحي حاضر أو قــديم مــنقول وما ليس له به من علم آية وحي مشهودة يزعمون أنها تُثبت باطل جهالــتهم وشــركهم. وما للظالمين الذين جاروا في تعبّدهم على عدل التوحيد الحق لــسلطان الفطرة والعقل وعلم الكتاب المُنــزل من الغيب – ما لهم من نصير يؤيدهم في مغالبة دعوة الحق في الدنيا أو عند محاسبة الله لهم لتمنعهم من وقع عذابه.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَــسْطُونَ بِالَّــذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٧٢)

وهم – فوق ذلك – إذا تُتلى عليهم – تلاوة متوالية لاستمرار البلاغ – الآيات الــتي ينسبها الله إلى ذاته وأقدار علمه ووحيه لأنها دلالة بيّنة إلى أنه هو الحق لا خفاء فــيها لمــن كانــت له بصيرة وتذكرة لمن لم يكن أصم جاهلاً – هم عندئذٍ إذ يراهم الرســول المخاطــب يصدّون معرضين منكرين بغيظ ظاهر يُعرف المنكر من الملامح الــبارزة بنظــر فراســة في وجوه أولئك الذين كفروا وغمروا فطرة الإيمان وتذكرة الرسالة، يكادون – هماً بالإقدام على الشر ويُقاربون السطو بطشاً بالذين يتلون عليهم تلك الآيات المنسوبة إلى ذات الله وأقداره مرة أخرى لتأكيد وقع الحقّ الداحض المُغيظ للكافــرين. ولْينذرهم الرسول سائلاً لهم: هل يُرتّب لهم على موقفهم ذاك أذاناً بما هو شــر من ذلك الخطر الذي يُخوّفون به المؤمنين الدعاة التالين عليهم الآيات، أفيخبرهم خبراً مهولاً فيما يعدهم به الله بما يستقبلون من آخرتهم: النارُ وعدَها حقاً ماضياً– الله العظــيم أقــدار العذاب، تحقّ على الذين كفروا. وبئس المصير لهم في تلك الآجلة من الخلود البئيس.

عموم المعاني (الآيات ٥٢ – ٧٢):

ما أرسل الله بأقدار وحيه المسنونة من رسولٍ يحمل رسالةً من الغيب بشريعة من الأمر مجددة لمنسي سابق رسالات الغيب أو لأُمة لم تعهد خطاب رسالةً من السماء – رسالةً مصدّقة أصول ما سبق من رسالات مهيمنة على أحكام هديها الماضية، أو نبيٍ يحمل أنباء الغيب أيضاً رسالةَ تكليف مقتصدة على تصديق سابقة وتذكير بها أو تأويل هديها بدعوة النبي الجديد أو بقدوته أو تعزيز تطبيق أحكامها في واقعٍ حاضر جديد – ما أوحي إلى رسول أو نبي كذلك إلاّ إذا تمنّى آيات رسالته مرتلاً سياق نصوصها في سبيل تبليغه إلاّ ألقى الشيطان في أمنيته – شيطاناً من الجن يوحي إلى من يواليه شيطاناً من الإنس – ألقى في نصوص آيات الوحي دخيل كلمات يندرج تلاوة في سياق نصّها الملفوظ لإضافة أي باطل مفترىً، أو ألقى الشيطان في رواية كلم الآيات طياً أو نسياناً أو تبدّلاً في بعضها بما يخترم المعاني الحقّة لتلك الآيات أو يوحي تأويلات باطلة لاسيما في متشابه الآيات أو يأتي بمدلولات للمعاني تقود إلى فعال ضالّة عن مقتضى الهدى لأصل نصوص الوحي المتلوّة. فيعقب – قدراً من الله – أن تردِ بالوحي مقولةٌ تنسخ ما يُلقي الشيطان فيُحكم الله آياته إذ تتطهّر وتصحّ نصاً ومعنىً. والله بالغ العلم بما يتنزّل من وحيه لتُتلى آياته بلاغاً من الصادقين وبالغ الحكمة يهدي ما يجري من تلاوتها ومن فهمها وتطبيقها في الحياة من المؤمنين. وفي سياق أقدار الله المكتوبة أن تكون الدنيا مجال ابتلاء للإنسان وانطلاقة للشيطان، يذر الله الشيطان يُلقي بإطلاقه في متلو كلِم آيات الوحي عند المتلقّين – فتنةً فيهم للذين في قلوبهم مرض أو القاسية قلوبهم، إذ لا يتلقّى وعيُهم الآياتِ المسموعة حقاً ويحفظها ويتلوها ضبطاً ويُدرك جوهر معانيها، فالقلوب من ثم تعتلّ فلا تنفعل بعافية وتصلُب فتغلظ لا تلين صاغية مطمئنة للحق ليتجلّى في أحاسيسهم خشوعاً لله وفي فعالهم طاعة له وتقوى. وإن الظالمين الذين يجورون هكذا على حدود الحق ويَعدون ضلالاً على صحيح مدلول آياته وحق مقتضى هديها بالقسط والميزان – إنهم لفي شقاق بعيد إذ تعتريهم أهواء الشيطان المضطربة المختلفة فتأخذهم كل مأخذ متشاقّين في ضروب الباطل مختلفين بظنونهم تخرّصاً وزعماً ويذهبون ضلالاً شتاتاً بعيد المدى عن وفاق

إجمـــاع المؤمنين على عين الحق ومتن آيات الله القويم. ولكن أقدار الله الفاصلة بالحق تُـــبطل ما يُلقي الشيطان ويُبتلى به عباده ﷻ تنسخه إحكاماً للنصّ المنـــزل من آياته ولوقـــع معانيها، ليعلم الذين أوتوا العلم من الغيب تراثاً في أصول الرسالات الماضية أو قـــبلاً في تلقّي أصول الرسالة الخاتمة، علماً بآي هنّ المحكمات أم الكتاب وبإتقان تفقه معانـــيه وإن ابتُلوا فيه بنـــزغ الشيطان الذي يُلقي في متلوّ الآيات بأباطيل من أقاويله وأفاعـــيله – ليعلموا أن القرآن هو الحق يوحي آياته ربّ الرسول وينسخ ما يُلقي فيها الـــشيطان ويُحكمهـــا، فيؤمنوا به – مستعيذين مستعينين بالله – فتُخبت له قلوبهم لا تغـــشاها في تلقّـــيه علةٌ ولا قسوةٌ. وإن الله لهادي الذين آمنوا بتعاليم الدين الحق كما تلقّـــوها إلى صـــراط مـــستقيم بما يؤتيهم من قرآنه الذي تتوالى آياته حكيماً غير ذي عـــوج – يـــتلقّونه ويتداولون نصّ آيه رواية صادقة ويتفقّهون معانيها بقلوب سليمة خاشـــعة ويـــستجيبون لهديه في الحياة فيحيون بمقتضاه حياة قويمة معصومة من ضلال الـــشيطان وشـــقاقه. ومهما يكن القرآن في خالف تاريخه قد ثبت نصّه المحكم بتواتر قـــراءاته وضبط خطّ كتابه بضوابط متعزّزة وتجلّى بيانه بتفاسير كثيفة متوالية، ما يزال الـــشيطان يُلقي من مسلمين ضلّوا أو كتابيين لووا مباحث دراساتهم – يُلقي باطلات تـــبديل أو تأويـــل. ذلك مهما يهيئ الله مسلمين صادقين دارسين ليحفظوا نصوص القـــرآن المُحكمة وليصْرفوا التأويلات الجانحة عن الحق. لكن ما يزال السواد الأعظم الخالـــف مـــن المسلمين يضل واقعهم عن مثال الهداية المستقيمة باتخاذ كتابهم المقدّس مـــرجعاً لهـــدى حياتهم إلا أن توافيهم أحياناً توبة، وما يزال الذين كفروا به – مثل ســـلفهم لأول خطابه – في مريةٍ منه نصاً صحيحاً ومعنىً محكماً. تلك ظاهرة وحالة ماضية حتى تأتي هؤلاء السّاعة بغتة حيث تقوم القيامة وينماز الحق والباطل، أو يموتوا فيُبعـــثوا وليُحاسبوا فيأتيهم عذاب يوم عقيم جزاءً على ضلالهم وكفرهم. ولله وحده يومـــئذٍ الملك وتولّي الأمور والفصل بالحق. يحكم بين أولئك وبين المؤمنين فيما كانوا يختصمون حوله في حقّ القرآن طعناً في نصّه أو ضلالاً عن هداه من الكافرين والضالّين وتـــصديقاً وحفظاً ويقيناً ورعوى وتقوى لحدود مقتضاه من العلماء المؤمنين. فالذين آمـــنوا بالقرآن وهديه وبشارته وعملوا الصالحات تعبيراً عن ذلك الإيمان في واقع سيرة

حياتهم – هم يوم يحقّ الدين لربّ العالمين في جنّات محفيّات بأفنان شجرها دانية عليهم ظلالها ولهم نعيم من متاع كريم الطعام وطيب الزواج وحسن الكلام. والذين كفروا وكذّبوا بآيات الله ونُذُرها فامتروا فيها وألقوا باطل الأقوال في كلماتها المتلوّة ومعانيها البيّنة ليفسدوا مقتضى وقعها فأولئك لهم جزاء ما قدّموا من ضلال وإضلال عذاب مهين من عيش لا بارد ولا كريم وذل ونُزل من حميم.

ترتيل المعاني: الآيات (٧٣ – ٧٨):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٣)

بعد إحقاق حق توحيد الله وتعظيمه وإبطال باطل الشرك وإقرار صدق النذير للكافرين يعم الخطاب للناس كافة هداية من فتنة العالم المشهود الداعية إلى الغفلة دون الغيب والشرك تعبّداً لما دون الله – يُخاطبون أن ضُرب مثلٌ – تصريف فعل مبني للمجهول تصويباً على المثل المضروب، فليستمعوا منصتين له: إن الذين يدعون من دون الله آلهة شركاء له إذ تجنح بالمشركين المشهوداتُ العارضة دون الغيب المحجوب والظنونُ دون علمه أن ينفتنوا بهم أرباباً متفرقين معبودين – أن أولئك مهما يترجون منهم قضاء حاجات الدنيا لعاجلة في اغترار بهم هم في عجز بالغ لن يخلقوا ذباباً مهما يصغر في عالم الحشرات، ولو اجتمعوا له حاشدين قواهم جميعاً. وإن يسلبهم الذباب الضئيل شيئاً إذ يغشى معروضات تلك القرابين ويستغذي منها لا يستنقذوه ليُخلّصوا لأنفسهم ذلك المستلَب، فهم لا يملكون الخلق ولا الانتصار لأنفسهم، ضعف الطالب منهم أصناماً ومعبودات عاجزة لا حول لها ولا قوة وضعف المطلوب الذي استحال خَلقه ذباباً منها مجتمعة وردّه وإن كان نذراً مما يتلمّس ويأخذ من قربانها الذّباب بقرونه. إن في ذلك المثال لتذكرة بالغة: كيف يتعبّد المشركون آلهتهم ويرجون منها العطاء وينسون الله الذي خلق كل الكون الخفي والمشهود بجلائل أبعاده وعظائم أركانه ودقائق عناصره وهو على كل شيء قدير، والذي يُرجى منه حقاً مهما يكبُر أو

يـــصغُر العطاء تعظم رحمته فيكشف أيما ضرّ مهما يشتدّ ولا رادّ لفضله إن أراد خيراً ولو من حيث لا يُحتسب.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٧٤)

أولــئك المشركون الذين فتنهم المشهود فتعبّدوا الآلهة العاجزة الذليلة دون الله ما قــدّروا الله المتعالي المتعاظم على مخلوقاته دونه – ما قدّروه حق قدره مدى مطلقاً من الكمـــال وتعالِي الصفات خالقاً مصرّفاً هادياً معبوداً. إن الله حقاً لقوي قادر على كل شيء تضعف وتحقر لديه كل التدابير، عزيز متعال على كل الخلائق غالب على أمره.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥)

الله – الإلـــه الأعلى المحيط بالوجود المخلوق يصطفي اختياراً من الملائكة رسلاً جنود غيب يبلّغون رسالات وحيه – مهما يُنكر بعض الكتابيين على جبريل أن يُرسل لـــيخص محمداً العربـــي بالرسالة الخاتمة، وييسطون أيداً من رحمة الله لمن حقّت له من عـــباده البشر ويوقعون هلاكاً أو عذاباً بدفع غضبه، ويصطفي كذلك من الناس رسلاً يـــبلّغون آيات رسالته دعوة وهداية ويمثّلون وقع تعاليمها حكمة وقدوة – ذلك مهما أنكـــر بعض المخاطَبين النبيَّ المصطفى وأرادوه رجلاً عظيماً آخر أو ملكاً غير بشر. إن الله ذا القـــدر العظـــيم والعلـــم المطلـــق سميع بصير بالغ الإدراك والإحاطة بأصوات الموجـــودات وحركتها، فهو يعلم ما يحتاج إليه عباده في قوام حياتهم الدنيا وهدايتها صـــوب حُسن الآخرة بما يكسبون في ابتلائهم عبّاداً لله أو عصاة، وهو أعلم بأهليتهم ليصطفي حيث يضع رسالاته وليختار من وقعها وهديها ما يناسب بيئة الخطاب، وهو مُحـــيط بكسب الرّسل أن قد أبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة صدقاً قولاً وسنّة، والحفيظ على حق الرسالة ألا يعتريها لبس من تخاليط الشيطان والهوى أو غفلة لتبدّل البلاءات الخالفة بعد تنـــزلها الأول.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٧٦)

إنه – سبحانه وتعالى الذي يصطفي الرسل – يعلم ما بين أيديهم من ظرف خطاب الرسالة وبلاءاتـــه ومُتلقّاه والدعاة المستجيبون له والمعرضون وما خلفهم مما يعرض على سيرة دعوة الرسالة بعد البلاغ الأول في الخلف والظرف العاقب، ليتصوّب خطاب الرسالة

ويُناسب بيئة وقعه ويُبيّن صدق بلاغ الرسالة قولاً وفعلاً وتُحفظ أصول حقها مما يعتريها من محاولات تلبيس الشيطان والهوى وما يطرأ على صور تعبيرها في العهد الأول من البلاءات المتطورة الخالفة. وإلى الله ترجع الأمور - أمور الحياة الدنيا ابتلاءً وكسباً، في يوم يتجلّى فيه كتاب علمه تعالى ويقع حكم قضائه وجزائه على أمانة بلاغ الرسالة والكسب في التجاوب معها في سياق بلاءات الدنيا ووسع العباد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٧٧ - ٧٨)

بعد ذكر الرسالة يُخاطب الله منادياً منبهاً المستجيبين لتذكرة رسالته وهديها: يا أيها الذين آمنوا بتلك الرسالة ورَسخ الإقرار في وجدانهم بحق ذكر الغيب وهدى صلاح الحياة، نتاج إيمانهم الوصاة لهم أن يركعوا ويسجدوا - خضوعاً بمقام أشخاصهم لله الأجلّ الأعظم وخرّاً برؤوسهم نحو الرغام إعلاء لوجه الله الأعلى الأكرم في سياق هيئة الصلاة المسنونة، وأن يعبدوا بسائر معاني التذكّر وتعابير الأقوال ووجوه الأفعال ربّهم المحسن لهم بكل نِعم الحياة وهديها، وأن يفعلوا الخير كل الفعل الأصلح فيما يأتون أو يذرون في شعاب علاقات حياتهم الخاصة والعامّة، لعلّهم بذلك الكسب الذي يُقدّمون يفلحون ظفراً بمرغوب السعد في الدنيا وفوزاً بمرجوّ النعيم في الآخرة.

وتمضي الوصاة لهم أن يجاهدوا، إفراغَ جهدٍ وطاقة في مقاومة كل ابتلاءات الحياة من أهواء أنفسهم وفتن علاقات المجتمع حولهم وقوى الباطل التي تغالب حقّهم جدالاً أو قتالاً، وذلك جهاداً في الله لا في سبيل مغانم الهوى والدنيا، بل إخلاصاً وإرضاء لله ورجاءِ لنعيمه يوم لقائه، وحق جهاد في سبيل لله أخلصه وأبلغه ما وسعوا. هو - سبحانه وتعالى - اجتباهم خياراً ليخاطبهم برسالته الخاتمة الجامعة وكتابه المصدّق المهيمن على سابق كتبه، وما جعل عليهم في الدين مهما تغزر تكاليف رشده من جرح - ضيق يحملهم على التواني عن حق المجاهدة إقامة للدين بتمام تكاليفه ما استطاعوا، بل يسط لهم

الـــرخص حين الضرورات. تلك ملّةٌ وسنّةُ دين باقية مسلوكة أصلها لإبراهيم أبـــي أولـــئك المخاطـــبين الأوائل من قريش العرب، هم تلقوا رسالة التذكير والتجديد لها ليقيموا سننها ويحملوا همّ بلاغها للذين لم يلحقوا بهم من خلفهم روايةً صحيحة لآيها ومـــثالاً صـــادقاً ذا عبرة لواقعها. هو ﷻ سمّاهم المسلمين من قبل وصفاً منذ سلفهم الـــصالح الذين سنّوا احتذاء حذو ملة إبراهيم منهاج إسلام الأنفس عبر كل سياقات الحـــياة لله عبادةً وإقبالاً، وسمّاهم الله كذلك في هذا الكتاب الخاتم للرسالات ليمضي المخاطـــبون بـــه خَلَفاً حُنفاء على مثال ملة إبراهيم في إسلام النفوس والحياة عبادة لله الـــواحد. ذلـــك لـــيكون الرسول الذي اصطفاه الله أمين بلاغ لهذا الكتاب ورسالة الإســـلام فـــيه شهيداً على أمة خطابه المباشر أن قد بلّغ الرسالة هادياً ومبشراً ونذيراً لتحقّ عليهم المسئولية عن مدى الاستجابة لها، ويكونوا هم الذين اجتباهم الله شهداء علـــى سائر الناس، لا القاصرين على ذرية إبراهيم بل الذين جمعتهم ذرية آدم، يبلّغونها لهم ذكراً ويمثلون مقتضاها بياناً وينقلون فيها الهدى والبشارة والنذارة ليحقّ على الناس كافـــة يـــوم الدين الحساب والجزاء على ما فعلوا بميزان هدى الإسلام. وليقوم أوائل المسلمين رسلاً وقُدى وشهداء في الناس فلْيقيموا الصلاة إتماماً لإقامتها بمشاعر الخشوع وأذكـــار الأقوال وتعابير الأفعال بالجوارح وحفظاً لأوقاتها صلة بالله متخشّعة متوالية، ولـــيؤتوا الـــزكاة حـــيث لا ينقص مالهم من إنفاقها بل يتصدّقون في سبيل الله الذي يحمـــدون علـــى نعمـــة المال الفائض والاستخلاف فيه ابتلاء فيتزكّى إيمانهم ويتبارك كـــسبهم رجـــاء الأجـــر المُضاعف، وليعتصموا بالله تقرّباً إليه بالإمساك بحبل عهده والاســـتعانة به والتوكّل عليه والتقوى لغضبه وعذابه والرجاء لرحمته وثوابه. هو ﷻ مـــولاهم - كمـــا يُخاطبون، يتولّى جميع أمورهم يُعينهم على حسن ذكره وعبادته ويوفّقهم إلى أبلغ طاعته وأوفى قضاء الخير لهم في الحياة ويعيذهم من الشيطان والضلال وينـــصرهم على الذين يعتدون عليهم ليصدّوهم عن إسلامهم لله. فنعم المولى هو لهم، وبئس الأولياء من دونه الذين يُتخذون شركاء يستفتح بهم عبّادهم ولا يجدون فيهم إلا العجـــز ومـــنهم إلا الخذلان. ونعم النصير هو ﷻ لهم، هو الوافي بقضاء هموم عباده أولئك الفقراء إليه والكافي في وجه الخصوم العادين على أولئك المؤمنين.

وهـــذه التذكرة للمؤمنين في آخر سورة الحج هي بيان لوجوه من تقوى الله التي أوصـــى بهـــا الـــناس كافّة في أول آي السورة، ما آمنوا بالله ورسله وتذكروا زلزال الـــساعة، ومـــا خافوه واتّقوه من ثمّ فتابوا إليه استمازة عن أهل الكفر والمجادلة في الله بغير علم واتباع الشيطان مولى لهم والارتياب بالبعث والغفلة عن آياته المشهودة وسائر ما توالى ذكره في صدر السورة.

عموم المعاني (الآيات ٧٣ – ٧٨):

لكـــل أُمة من الناس جعل الله بأقداره الخيرة من أمر دينهم كما يشاءون، شريعةً ومـــنهاجاً في مذهب الحياة هم يتّبعونه ومنسكاً في شعائر العبادة هم ناسكوه. فليمض الذين كفروا برسالة الإسلام على مكانتهم وليعملوا على شاكلتهم. وما يكون لهم أن يـــنازعوا رسول الإسلام ولا أمة دعوته في اختيار أمر الإسلام ونسك نسكه بل ينبغي أن يـــذروهم ليختاروا قبلة حياتهم أحراراً في سبيل الله ويؤدوا شعائر عبادتهم المسنونة. ذلـــك بيـــنما يدعـــوهم الرسول والدعاة بعده إلى ابتغاء وجه الله في الحياة، فإنهم هم مـــسلمون له تعالى على صراط مستقيم. والذين كفروا يتّخذون دينهم بغير علم ولا هـــدى ولا كـــتاب مـــنير فإن جادلوا الذين آمنوا فلْيذرهم هؤلاء أحراراً أيضاً على مذهبهم ومنسكهم، ولْينذروهم أن الله أعلم بما يعملون، وإن كان لا يؤاخذ الناس بما عملـــوا في الحـــياة الدنيا كيفما اختلفوا فإنه هو الفصيل بالحق يوم القيامة يحكم بينهم فـــيما هـــم فيه يختلفون. وكيف لا يُصابر المؤمنون الدعاة ضَلالَ الكافرين حتى عاقبة الفـــصل والجزاء، ألم يعلموا من حيث عرفوا صفات ربّهم العليا أنه يعلم ما في السماء والأرض – كـــل الكائنات المستجنّة والمشهودة حول الإنسان، والحادثات والظروف الـــتي يبتلـــى بها في الحياة الدنيا، ورسالات الغيب علماً وهدى له وأمانة تكليف عليه عـــبادة لله ونذارة له وبشارة بالعواقب الآخرة، وكسوب بني الإنسان عاملين مختلفين فـــيها يُعدّونها ليوم حساب آجل. إن ذلك في كتاب حفيظ مجلّد لكلّ تلك الكسوب، إن ذلـــك على الله يسير فهو واسع العلم هيّن عليه أن يُحيط بكسب عباده – ظاهره فعـــالاً لا يعـــزب عنه تعالى مثقال ذرة منها وباطنه ونياتِ رجاء وتقوى لله أو قضاء

شهوة متاع بشتّى درجات خلوص صوبها وتذبذبها بين بين، ويعلم قدر تلك الكسوب في نسب ميزان العدل حسب وُسع العبد ووقع البلاء عليه. وذلك حتى يُجمع كل رصدها في كتاب يؤتاه كل عبد بيّنةً على ما يليه مما قدّم هو في الدنيا ويُحاسب عليه يوم البعث والحشر والقضاء والجزاء في الأزل.

أولئك الذين كفروا يُنازعون ويُجادلون حملة رسالة الغيب الداعية لتوحيد الحياة عبادةً لله، ويمترون في حقّ كتابها المُنزل وصدق نُذُره، فهم يعبدون من دون الله ما لم يُنزل به سُلطاناً من وحي الغيب كتاباً أوتوه أو ورثوه فيه شهادة عن حقائق الوجود أن له كفأً يشاركه أو شفيع يقرّب العباد إليه زلفى، وما ليس لهم به علم إذ لم يتحرّوا آيات مشهودة في الكون يتفكّرون فيها فتهديهم وتدلّهم على مَن يعبدون ربّاً وإلهاً. والحق أن آيات الوحي المتلوّة والكون المشهودة حجةٌ بالغة وبيّنة بوحدانية الله، ومهما يتّخذ الظالمون الذين أدبروا أمس عن أول خطاب رسالة التوحيد والجائرون مثلهم اليوم عن المعدلة والاستقامة في صوب التأليه والعبادة الحقّة لله، ما لهم من نصير دون الله يدفع عنهم قدَرَه الغلاّب في بلاءات الدنيا والآخرة. إن الذين أشركوا بالله ظلماً في وجه الخطاب الأول للقرآن كانوا يعبدون أصناماً جسّدوا فيها مزاعم ظنونهم في تأليه الملائكة وتعلّقوا بها اتّباعاً لتقاليد آبائهم ووقّروها بظنون الترجّي منها مدود عطاء نفعاً في الدنيا أو تشفّعاً إلى الله الرب الخالق المتباعد فيما يزعمون. وإلى جانب ذلك بدت وتبدو في العالم ظواهر شتّى لذلك المثال تعبّداً لتماثيل ذوات مؤلهة أو لمعالم أو أحياء في مخلوقات الطبيعة المشهودة تُحاط بأوهام توقير وتقديس وترجٍ من مساسها ودعائها أن تتبارك حياتهم. وكذلك تقوم فتنٌ تغشى المسلمين تورثهم تعلّقاً بأهواء متاع الدنيا الحاضر المشهود، تزيّن لهم حبّ شهوات الغنى والحكم والزينة، يتّخذون المال والسلطان والجمال غايات مطلقة تُبتغى أبداً لا يُبلغ لها منتهىً في الحياة، يتعبّدون لها يصوّبون إليها مشاعر تأليه خالصة دون الله، إذ تنصرف إليها كل أسباب السعي وتطلعات المقاصد، وفي سبيلها تمضي حتى تفنى الحياة الدنيا، فتغشاهم غفلةٌ عن الإسلام لله منعماً ومبتلياً عباده، وإنما هو سُبحانه وتعالى الذي يستخلفهم في المال والسلطان ويبسط لهم زينة الجمال، وإن عرفوا نزعاً مِن حبّه خالقاً محموداً معبوداً في فطرتهم

فـــإنهم يُـــشركون به مقسطين بقسمة عبادةٍ ضيزى إذ لا يذكرونه إلا عرضاً ويغلب علـــيهم أن يمـــضوا محجـــوبين عن آياته المشهودة تفكراً ومعرضين عن آياته المنـــزلة تذكّـــراً. وعـــالم الناس في هذا العصر كافة يكاد يغلب عليهم ذلك الشرك في غالب حياتهم التي قصرتها الشهوات المادية والعاجلات الزمانية دون الغيب والأزل. والظالمون الجائرون عن سواء الصوب إلى الله ما لهم من نصير في الدنيا ولا في الآخرة مما يتوهمون من آلهة في ماثلات صنمية أو طبيعية موقرة أو يُفتنون به من آلهة أهواء في أعراض متاع مشتهاة.

والمـــشركون العابدون الله باطلاً دنيوياً لا تقوم له حجة قد يكفرون بالغيب كله وينكرون رسالة الله التي تعهّد بها عباده متنـــزّلة عليهم متواترة منذ هبوط آدم إلى حال الحياة الدنيا في العالم المشهود محجوباً عن غيب الجنة الأَوّل. وإذا تُتلى عليهم آيات الله المتنـــــزّلة بأقـــدار علمه وهديه ووحيه يُنكرونها ويعرف الذي يتلوها عليهم ناظراً في وجوههم المنكرَ من الكراهة وفرط الغضب يكادون يهمّون بالسطو على الذين يتلون علـــيهم آيـــات الله وتجلّـــيات علمه وهديه. ولْيصبر عليهم ذلك التالي الآيات الذي يدعـــوهم إلى حقهـــا المتين ولْيسألهم - إن كانوا ينتظرون فيها أنباء الغيب - أفينبئهم مـــنذراً بشرٍ من تلقيهم ذلك الخطاب الذي يغيظهم: النار الموعودة للذين كفروا جزاءُ سيئةِ كفرهم المَغيظ بما يسوءهم بأبلغ منها وبئس المصير.

إن الدعـــوة لتوحـــيد لله ربّاً معبوداً بإخلاص خطابٌ للناس كافةّ- وهم في فتنة إشراك دون الله ما ركنوا لمعهود بلاء الدنيا: أنه ضُرب لهم مثلٌ فليستمعوا له: إن الذين يدعـــون مـــن دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، وأن قد ضعُف الطالب وهم الآلهة المتعبَّدون المترجّون عطاءً ونصراً دون الله، وضـــعف المطلوب وهو الذباب من أدنى الكائنات الحسية يُرجى خلقه منها وهو أيضاً شيء قليل يسلبه الذباب من قرابين الآلهة يُرجى استنقاذه لنفسها. أنّى لتلك الآلهة أن تقـــدر فتخلق أو تدرك فتسمع وتستجيب لعُبّادها، تُنشئ لهم ما يريدون ولو حقيراً أو تردّ إليهم ما يلاحقون ولو أحقر. وذلك مثال بالغ العظة للمشركين إذ يتطلّبون من آلهـــتهم العاجـــزة أن يوجدوا مطلوباً أو يستردوا مفقوداً بقوة روحية مفتراة يزعمونها

فـــيهم. ما قدّر أولئك المشركون الله – حقّ قدره إذ يوازنونه بما دونه من أصنام مؤلهة وما مثلها من أعلام مقدّسة أو غايات أهواء يُستفرغ في سبيلها جهد الحياة، ما عظّموا الله حقّ عِظَمه فهو الإله المعهود عُلوّه وكماله المطلق قويٌّ بالغ القدرة لا يُعجزه شيء بـــل تحقر لديه كل المخلوقات بيده صغيرها وكبيرها وتهون له كل التدابير لأمر عباده يؤتـــيهم ويدفـــع عنهم كل شيء، عزيزٌ لا يكافئه فلا يغالبه أحد فهو متعال أشدّ قوة وأبلغ قدرة وأرفع ملكاً على كل موجود سواه.

إن الله لا يعتـــزل عباده البشر معتكفاً في ملأ الغيب الأعلى بل هو بأقداره حاضر في كـــل الوجود، ولو لم يصل عباده برحمة الوحي لأخذوا عندئذ يخترصون مظنونات باطلـــة في شأن حقائق الوجود في الغيب، ولما اهتدوا إلى سواء السبيل في الدنيا ليبلغوا بـــه عـــند لقـــاء الله في الآخرة الفلاح فوزاً بالنعيم والرضوان من الله ونجاة من غضبه وعذابه، ولصوبوا هم إلى عالم الغيب والأرواح صوباً بغير علم بل بنـــزعِ مشعوراتهم الفطـــرية بالـــتديّن والإيمان وعبّروا عن تلك النـــزعة الساذجة بالعكوف على العالم المـــشهود إشراكاً بالله وعبادة للأصنام والأشياء المقدّسة نَذراً للحياة في سبيل غايات الـــشهوة ومقاصد الهوى الدنيوية. لكن الله تعهّد عباده خلائف في الأرض برسالات مـــوحاة متواترة علماً حقاً وهداية قويمة في الدنيا ونذارة وبشارة بعواقب الآخرة. فالله كذلك يصطفي من الملائكة – مخلوقاته المستجنّة الطائعة – رُسلاً يُنـــزلون رسالته إلى عـــباده تعلّمهـــم حقائق عالم الغيب وهداية الحياة، ومن الناس – مخلوقاته البشرية – يصطفي أمناء يتلقّون رسالة الوحي ويتلون آياتها لأمة الخطاب بلاغاً ودعوة ويتخلّقون بتعالـــيمها صدقاً وقدوة. ما يقوم أولئك الرسل واسطة بين الغيب والشهادة إلا بقدر اصطفاء الله لهم، ليس لهم من قوة روحية ذاتية يفيضون بها على سائر البشر حتى يتوهّم ذلـــك بعضهم فيعبدونهم دون الله الذي خلقهم واصطفاهم وكلّفهم بالرسالة. إنه ﷻ سمـــيع بصير بالغ الإحاطة – سمعاً ورؤية – بما يؤدون من أمانة التلاوة والبلاغ لآيات الرسالة صادقين وسُنة العمل بها مخلصين وبما يلقون من استجابة المتذكرين أو بما يُبتلون بـــه من إعراض المخاطبين وموالاتهم شيطان الباطل وما يُوحِي إليهم من زخرف القول وما يُزيّن لهم من الأذى للدعاة إلى الحق، وهو من ثمّ يعلم ما بين أيديهم من أحوال أمة

الخطاب لتتنـــزّل عليها الرسالة مناسبةً لحاجة تعليمها وتطهيرها من جاهليتها وظلمها وضلال حياتها وفسادها الموروث، ويعلم ما خلفهم مما يُنتظر مما يعقب نـــزول الرسالة مما يلزم أن يُعدّه المؤمنون لكل الابتلاءات ويتصدّوا به لكل التحديات التي ستطرأ على سيرة حياتهم مهتدين بالرسالة لتستقيم في حاضرها وفيما هو قادم على هدى موصول. وإلى الله تُـــرجع الأمـــور إذ يبعث عباده بعد الممات ليتبيّن بكتاب الحساب مَن آمن بالرســـالة وصلح عمله تحفزه بشرى ذلك المرجع ومَن أعرض وأبى خيار الإيمان واتقاء وعيد النذير فحقّ عليه العقاب إذ عمد إلى الكفر والعصيان بعد أن سبق إليه البلاغ من رسول ومضى مكذباً أو متغافلاً عن وعد المرجع إلى الله.

والخطـــاب والنذارة والوصاة للذين آمنوا برسالة الحق أن يركعوا ويسجدوا، أن يـــنحني المـــؤمن بقامته منكباً نحو الأرض خاشعاً لله العظيم متحنفاً عن عبادة الأصنام والأهـــواء الدنـــيوية – كما كان يسمّيه العرب، راكعاً لله خارّاً برأسه متطامناً واضعاً وجهـــه وأنفه رمز الجاه والشرف والأنفة على الرغام ذلاً لا للمستكبرين بل لله العلي مـــثلما تـــسجد كل المخلوقات مطبوعة على طاعة الله. وكذلك فلْيعبدوا ربّهم بكل مشاعر وجدانهم وكل مقولاتهم ومفعولاتهم في سيرة الحياة، ولْيفعلوا الخير في علاقاتهم مجـــتمعاً للناس متّقين الشرّ في ذات بينهم ليتزودوا بكسب في الدنيا تحقّ لهم عنه آخرةٌ خـــير وأبقى وينجو من سوء العاقبة عند المرجع إلى الله. ذلك لعلّهم يُفلحون سعداً في حياتهم الدنيا الخاصة والعامة ثم في الآخرة. ولْيجاهدوا في الله حقّ جهاده باذلين أحسن مـــا يتيـــسّر لهم من مدافعة بلاءات الفتن التي تحيط بهم ليبلغوا أعلى درجات نعيم الله ورضـــوانه. الله هو الحقيق بالحمد والشكر إذ اجتباهم فأنـــزل عليهم رسالته وآتاهم فضل أول خطابها سبقاً على سائر الأمم كما اصطفى الرسل الذين حملوها على سائر عباده. والله هو الرحيم بهم ما جعل عليهم في تكاليف الدين من حرج يتعسر به الوفاء بأمانـــة الأداء. وهداهم إلى سنة في الحياة على ملة إبراهيم أبيهم أولَ مخاطبين برسالة القـــرآن ليـــبُلّغوها للناس كافّة. وهو – سبحانه وتعالى– سمّاهم المسلمين إذ أسلموا كل حياتهم لعـــبادته من قبلُ في سالف السنّة الحنيفية منذ إبراهيم بل قبله، وفي هذا الهدى المنـــزل رسالة لدين الإسلام، ليكون الرسول الخاتم الذي حمّل أمانة بلاغه شهيداً عليهم أن قد

بلّغهم تالياً عليهم آيات الله وما فيها من العلم والهدى لاستقامة حياتهم الدنيا والبشارة والـــنذارة ليحقّ عليهم الحساب والجزاء وفاقاً عند المرجع إلى الله، وليكونوا من بعده علـــى سُنّته شهداء على الناس كافّة من كل بني آدم في الأرض يُبلّغونهم هدى الرسالة ويُـــرونهم مـــثالَه قدوة. فلْيُقيموا الصلاة لا ينقطعون عن الله والغيب بل يؤدون تلك الـــشعيرة المـــسنونة التي توثّق صلتهم بالله حضوراً لذكراه في الوعي وتلاوة من آيات القـــرآن الـــذي أوحاه وتعبيراً بكل الجوارح عن الخشوع والقنوت له، تتواتر صلتهم الفعالة بالله المعبود صلاةً عبر كل أوقات اليوم تُقام في المساجد وحيثما تيسّر أداؤها في الأرض لتغـــشى آثارُها كل شعاب سيرة الحياة تزكيةً لروح العبادة الموصولة. ولْيؤتوا الـــزكاة لأنفـــسهم بإنفاق المال لا يفتنهم نقصه بل يزيدهم ذكراً وحمداً أنه لله الذي اســـتخلفهم فـــيه ويـــردّونه إلى الفقـــراء لتزداد روح الأخوة المتكافلة بين المؤمنين. ولْيعتـــصموا بالله توكلاً عليه واستمساكاً بحبله المتين لا يتفرّقون تعلّقاً بأرباب الشرك المفتَـــرى ولا ينقطعون عن الله فهو لهم نعم المولى كلما تباركت فيهم التذكرة الدائمة بحـــضوره وانبساط نعمته ورقابته وازدياد حبهم له تعالى ورجاءهم وتقواهم له، وهو نعـــم النصير لهم كادحين راغبين في فضله عبر بلاءات الحياة مجاهدين في سبيله يغالبون الـــباطل العـــادي بالحق الظاهر طامعين في رحمته عند المرجع إليه يوم ينحسر ولا يُغني شيئاً أيما ولي أو نصير اتّخذه المشركون بمزاعمهم في سالف الدنيا.

سورة المؤمنون

السورة وخلاصة هديها:

'المؤمـــنون' ســـورة يأتي ترتيبها في الكتاب ثالثةً وعشرين، أما في نـــزولها فقد كانـــت الرابعة والسبعين في السور المكية. وقد تلت في النـــزول سوراً ورد فيها ذكر المرسلين الخالين، وهي سور 'نوح' و'إبراهيم' و'الأنبياء'، فجاء فيها ذكر عام للرسل المذكـــورين تواتراً في سور القرآن، ما سمّي منهم هنا إلا أبوهم نوح عليه السلام والأخيرين اللـــذين بقيت آثار رسالتهما الكتابية: موسى وعيسى عليهما السلام، وذُكر فيها أن أمّتهم واحدة بهدى رسالاتهم، وأن قد تفرّق خلَفُهم وتنازعت به الأهواء أحزاباً. وقد تبعتها نـــزولاً سورٌ فيها مثلها ذكر الآيات الطبيعية المشهودة الهادية للإيمان بالغيب – بـــالله والحياة الأخرى، وذكر مشاهد الغيب يوم القيامة ومصائر الناس فيه. وفي ذلك الـــسياق مـــن الرّسالة والتذكير وردت أيضاً في ختام السّورة الوصايا اللازمة للرّسول الخاتم ﷺ في بلاغ دعوته مذكّراً بآيات الله المشهودة ومبشراً ونذيراً بالغيب والآخرة: أن يكون صابراً على أمّة خطابه المُعرضة عن رسالته المكذّبة بتعاليمها السّاحرة بمن آمن بها، قدوةً بين المؤمنين المستغفرين المسترحمين الله.

وقـــد تنـــــزّلت السّورة في أواخر عهد الوحي في مكّة، إذ كان يوطّد الأساس الإيمـــاني لـــشريعة الإســـلام ويُرسم عموم هواديها في واقع الحياة، وحيث تنامت فئة المؤمنين وبرزوا، فجاء وصف سيرتهم فمصيرهم في مفتتح السورة. فأوّل البيان الحقّ في الـــسورة أن قد أفلح المؤمنون الذين تستمر حياتهم كلها صالحات أعمال: صلاةً فيها

إخـــلاص التطهّر والانصراف إلى الله وتلاوة آيات ذكره وحركات التعبير عن الإقبال علـــيه والخشوع له، وإعراضاً مِن ثمّ عن اللغو في مسالك الحياة لفظاً باطلاً في المقال لا يـــصاحبه إلا ســـقط الفعال، وفعلاً للزكاة عطاء فيه التطهّر من فتنة شهوة حوز المال واستـــشعاراً لأداء أمانة الاستخلاف فيه وتقوى من شح النفس وحبّ الترف وعوناً للـــصابرين علـــى بلاء الفقر، وحفظاً لعقود التزاوج ضبطاً لما يثور من شهوة النكاح ويهـــيج مـــن فروجها العضوية حتى لا يدفع للعدوان على حدود ما أحلّ الله زواجاً وملـــك يمـــين، ورعايةً للأمانات والودائع وللعهود والمواثيق في حبال علاقات المجتمع وتعاملاتـــه الرّضويّة، ومداومةً للصلوات بما يحفظ تواليها في كل حال طوال اليوم عبر مواقيـــتها لتُحدث آثاراً موصولة في تزكية نفوس توّابة إلى دواعي الإيمان إذ تُوالي إقامة الـــصلاة فـــتمدّها مدّاً متواصلاً بتذكّر الله وتوحيد التوجّه إليه والخشوع له فلا يطول منها ركون لغواشي الفتن الغاشية مرّ الحياة، بل تُلازم عبر تقلّبات البلاء فيها طاعة الله وتقـــواه لأنها تـــداوم الصلاة التي تغذوها غذاءً مُستمرّاً من معاني الخشوع ومغازي الرّكوع والسجود لله. ذلك هو صالح عمل المؤمنين ومستقيم مسيرهم في الحياة الدنيا، ومن ثمّ فإن مصيرهم في الآخرة أنهم هم الوارثون فردوس الجنان خير النعيم الخالد.

وإن اهتدى المؤمنون في مسلك الحياة بآيات الله التي تنـــزلت رحمةً موحاة علماً ونـــوراً، فـــإن معها لله آيات مشهودة مطبوعة في الكون ينبغي أن يتذكّرها الإنسان، أدناهـــا مـــنه ما يليه هو من أقدار الله ﷻ ونعمه المتجليّة في خلق نفسه. فقد خلقت الأقدارُ الربّانية الإنسان من سلالةٍ أصلُ النفوس فيها من طين، فينبغي ألا يغفل انشغالاً بـــذات زمانه الحاضر عن تناسلٍ أصله عبر الأزمان الخالية، ولا عزاً بكرامته بشراً على ســـائر الأشياء عن صدور أصله من مادة الطين. ولو تأمّل سُنّة تطور خَلقه لرأى تجلّي أمـــر الله المفعول - كيف جعله من مادة من صلب ذَكَرٍ تُمنَى نطفةً تزاوجها بيضةً في دفـــقٍ مـــن أنثى وتستقر في قرار مكين من رحمها ثم تلتزق عَلَقَةً في ذلك المستودع ثم تنكـــثف مُضغة ثم تخلق أقدار الله منها عظاماً هيكلاً لهيئة جسد ويكسوها لحم ثم يتم النّماء فينشأ الإنسان خلقاً آخر آية تتبارك بيّنة بها أقدار الله أحسن الخالقين. والإنسان يحـــيا كذلك حياة دنيا تنتهي إلى موت مشاهد محتوم. ولْيعلمْ أنه في مستقبل غيب يوم

القيامة يبعث بنشأة أخرى، ليتكامل وجوده الموزون بين دار البلاء الأولى ودار الجزاء الأخرى.

ثم يـــرى بـــنو الإنـــسان الذين يخاطبهم الله بآيات وحيه المنـــزلة من الغيب العليّ تذكـــرهم بما حولهم - يرون آياته بيّنة فوقهم سبع طرائق من السماوات لا تباشرهم منها إلا أدناهـــا بما فيها من الكواكب والنجوم وما في جوّها الأسفل من الهواء والرياح، ويرون في ذلـــك الخلق العالي قدراً منسوقاً يُثبت أنّ الله لا يغفل لحظةً عن إتقان صنع خلقه ونظمه وتـــصريفه. وهـــم يـــرون الوصل المشهود بينهم وبين السماء ماءً تنـــزله أقدار الله بميزان فتـــسكنه في الأرض أنهاراً جارية على سطحها ومداً مخزوناً في جوفِها يُبلغ بآبار محفورة أو ينابيع تفور من تلقائها - آيةً بينة أن الله وهو القادر على ذهاب بالماء هو الرازق لعباده فلا يُمسك عنهم ما يلزمهم من نعمة للحياة، وتشهد أنه اللطيف بهم ينـــزل عليهم الماء بقدرٍ مـــوزون ويحفظهـــا بأسباب ميسورة. وتنشئ أقدار الله من تلك الماء جنات فيها ما كانَ يعهـــد المخاطبون الأُول بالقرآن المتنـــزل من نخيل وأعناب وما لهم فيها من فواكه كثيرة ومـــن غذاء طيب مما يأكلون. ومما يعهد سائر المخاطبين الذين توالت عليهم رسالات الله الكتابية التي بقيت آثارها شجرةُ الزيتون التي تخرج بأقدار الله في تصريف البيئة الطبيعية من طـــور ســـيناء تنبت بالدهن زيتاً وصبغ إدام للآكلين. ثم حول كل ذلك الماء والخضر في الأرض للمخاطـــبين مـــن بني الإنسان في الأنعام عبرةٌ إذ تسقيهم أقدار الله ممّا يخرج من بطـــونها لبـــناً مُخرجاً ما بين فرثٍ ودم، ولهم فيها منافع كثيرة أخرى ومنها يأكلون لحماً لقـــوتهم، وكذلك هي لهم مراكبُ يُحملون عليها سائرة على الأرض، وكذلك يسّر قدر الله لهـــم الفلك في البحار تحملهم سابحة على البحر. ووراء عبرة الحمد لله في تلك المشاهد والمنافع والنعم المذكورة آيات في دورةِ الغروب بعد طلوع كل نجم والجفافِ بعد كل بلل مـــاء والفناء مواتاً أو استهلاكاً بعد البسط لكل الجنان وفواكهها وثمراتها واللحم في الأنعام واحـــتمالِ الغرق بعد الطفو لكل فلك - كلها آيات أقدار تحويل وتصريف تشهد على أن مـــدّ الحـــياة الدنيا كلّها والمخلوقات الحيّة والسيّارة فيها إلى أجل فناء وجمود ثم إلى دورة نـــشأة أخرى في الحياة وانبعاثة في الحركة في أزل حياة أخرى - دورة منظومة محتومة في الوجودِ بقدرٍ أمر من الله مرسومٍ وأمر مفعول وفعل ميسور.

لقــد تــوالت سُنّة دورات أقدار الله في الوجود بيّنة أيضاً في دهور الدنيا الماضية – تــوالت في آيات الله الموحاة تتنــزل على أنبياء متعاقبين يحملون رسالات يُصدق خالفُها ســالفها ويحيــيها متجددة كلما تلاشت بالغفلة والنسيان دعوة للإيمان بالغيب بالله خالقاً وهاديــاً وبالدار الآخرة جزاء بعد بلاء الدّار الأولى الحاضرة، وتذكرة بآيات الله المطبوعة المــشهودة تحيي فطرة الإيمان في نفوسهم وتعزّز دعوة الرّسالة الموحاة. وكان أوّل رسول ســالف جديــر بالذكر مَن كان أقرب نسب عرق وجيرة أرض إلى مَن خاطبتهم رسالة محمــد ﷺ خــاتم الرسالات وهم العرب أول المخاطبين، وقد فترت عندهم ذكرى ذلك الرّسول الأوّل لكن لم تنقطع حولهم سلسلة الهداية المتّصلة الآثار عند الكتابيين. كان ذلك هــو الرّســول نــوح عليه السلام الذي أُرسل داعياً لعبادة الله حقاً في الغيب وللتقوى من فتنة الــتعلّقات المحيطة ببني الإنسان في الدنيا وما توهّم به من آلهة أخرى مشهودة أو مظنونة. وكــان جــواب قــومه بزعامة الملأ منهم أن كفروا وأنكروا قيام بشر منهم كأنه يتفضّل علــيهم بدعــوى تَلقّــي رسالة من الغيب ولو شاء الله أن يراسلهم لأنــزل من الغيب ملائكة، وقالوا إن دعوته تلك ابتداع ما سمعوا به في آبائهم الأوّلين، وحسبوا لادّعائه صلة بالغــيب أن به جِنّة وتواصوا بالصبر عليه حتى حين لعلّه يتبيّن أمره وينفضح. فرجع نوح مستيئــساً مــنهم إلى ربــه يــسأله النصر عليهم بما كذّبوه. فأوحى الله إليه أن يتوسّل لاســتجابته سبحانه وتعالى باتخــاذه هو الأسباب، أن يصنع الفُلك كما يرعاه الله ويهديه ليتهيّأ حتى يجيــئ أمر الله الموعود ويفور التنّور بالمياه التي تتفجّر فائضة على الناس، فليسلك عندئذٍ في الفلــك زوجــين مــن كل ما يعهد من حيوان وأهلَه إلا من سبق عليه القول منهم ولا يُخاطب ربّه في هؤلاء فإنهم مغرقون، فإذا استوى وأهله في مرسى للفلك مأمون فليصدع بحمــد الله الــذي نجّاه من الظالمين، وليسأله منــزلاً مباركاً فهو سبحانه وتعالى خير المنــزلين. كان حقــاً في رسالة نوح تلك ومقتضى هديها وفي إعراض أمّة خطابها ودعاويهم على الرّسول وفي ســيرته والباقي من تدبيرِ ذلك المَنجى للمؤمنين معه وسلامة وقعه المحمود – كان في ذلــك آيات للخالفين المبتلين بمثل ذلك في مجرى سير دعوة الدين الحق وتصاريف الحياة، فكمــا يُحمل عباد الله على الفلك تنجيهم من الغرق كانت الفلك منجاة لنوح من الهلاك والغرق ولرسالته من أن تندفن في فيض الباطل وغمر التاريخ.

وخلف نوحاً وقومه قرن آخرون أُرسل إليهم بأقدار الله رسول بذات الدعوة هو هــود، وجاوبه الذين كفروا بالغيب ورضوا بالدنيا وفُتنوا بترفها وتصدّوا للحق بذات الإعــراض والــدعاوى مثل سلفهم استنكار لبشرية الرسول البيّنة في مأكله ومشربه الــشاهدة على خسران من أطاعه، وما تقبّلوا وعد الغيب بالبعث في حياة أخرى بعد المــوت والفناء وعدّوا نذير ذلك من رسولهم فرية فما هم بها بمؤمنين. وعلى سُنّة نوح رجــع ذلــك الخالف إلى ربّه مستنصراً فأوصاه الله بالصبر قليلاً حتى وقع على قومه المــصاب إذ أخــذتهم الصيحة فجعلتهم أقدار الله غثاءً منبوذاً. ثم أعقب ذلك في مرّ الدهــور ممــا يــشاء الله قرون أخرى من الأقوام لآجالهم الموقوتة، وتواترت رسلهم وتــوالت فــيهم سُنّة الكفر والهلاك العاقب حتى أصبحوا بعداً أحاديث وقصصاً. ثم أعقــب ذلك بعد زمان رسالة موسى وأخيه هارون، وقد استمرّ خبر رسالتهم مروياً عــند نــــزول القــرآن بآياتهــا وسلطانها المبين خطاباً لفرعون وملئه المتعالين الذين استكبروا أن يؤمنوا لبشرين قومُهما لهم عابدون، فكان مآلهم بعد التكذيب إلى هلاك، ولكــن آتــى الله موسى بآيات وحيه وأقدار اصطفائه الكتاب المحفوظ أثره لعلّ بني إسرائيل الناجين معه به يهتدون. ثم جعل الله في ذرية أولئك التي ضلّت ابن مريم عيسى رســولاً، وكانت في ولادته من أمه دون أب ومأواهما أثناء ذلك إلى قرار ومعين آيةً وبُــشرى بمــيلاد دعوة الحقّ المتجدّد التي يؤول مصيرها إلى قرار مذكور مدّاً وظهوراً لأتباعها.

كانــت وصية الله المتوالية للرّسل المتعاقبين واحدة متصادقة: أن يقوموا هم مثالاً للمخاطــبين، يأكلــون مــن الطيبات التي أحاط الله بها عباده من بني الإنسان آيات مبسوطة ونعماً محمودة يتعبّدونه بذلك ويتّقونه ولا يعصونه بأكل الخبائث المحرّمة وأن يعملــوا في سائر حياتهم الصالحات لا يُفتنون بهوى الدنيا وشهواتها وقوعاً في سيّئات الفعال ليصدُقوا بذلك ويقيموا سُنّة في إنفاذ هدى رسالات الله المُوحاة وتمثيلها في واقع حــياتهم قــدوةً لمن يليهم من المخاطبين وللخلَف. إن الله بما يعملون من ذلك بلاغاً للرسالة وإنفاذاً منهاجاً في الحياة عليم يُحاسب ويجزي خيراً. إن هذه أمتهم أمةً واحدة وجهــة حياة لا منصرف عنها، ليؤمنوا بالله رباً لهم واحداً فليتّقوه مخلصين إليه التوجّه

مُخبتين لا منصرف إلى ما سواه فتنةً وإشراكاً، ليورث الرسل الهداية الرشيدة ويرسموا السنة المستقيمة ويُيَمّموا الأمّة الواحدة. ولئن تعاقب أولئك الرّسل يجدّدون أصول ذات الهدايـــة ويقــيمون سُنّتها الموصولة أمة واحدة في الحياة، فقد خلَف من بعدهم خَلْف قطّعـــوا أمـــرهم وتفـــرّقوا زُبراً لا يعصمهم حَبل الهداية جميعاً بل يتحزّبون عصبية في مذاهب شتّى كل حزبٍ بما لديهم فرحون.

وإنمـــا جـــاء محمد ﷺ الرسول الخاتم يخاطب أولئك والناس كافة، يدعوهم إلى التذكّـــر والتوبة وإلى أمة الإسلام المتصادقة المتجددة الواحدة. ولكن لم يلق إلا إعراضاً عن هدى رسالته من أولئك الذين ورثوا ملة نوح وإبراهيم وموسى من الأميين العرب وأهـــل الكـــتاب. وكانوا في غفلة عن تلك الملة المهدية وفي غمرة بأهواء المتاع الذي غـــشي حياتهم. والوصية للرسول أن يذرهم كذلك حتى حين ويصبر عليهم: أيفتنون بالمتاع أم يتذكرون الله المنعم فيتوبون إليه ويحمدونه ويتّبعون هداه؟ وذلك حتّى تأتيهم إن تمـــادوا مُعرضين آجالُ الموت أو عاجلات العذاب في دنياهم غضباً من الله. أيظنون أن مـــا يمـــدّهم به الله بأقدار نعمائه من مال وبنين إنما يسارع به لهم في الخيرات ولا يـــشعرون أنه ابتلاء؟. بينما الذين هم بآيات ربّهم التي تتنـــزّل عليهم متوالية يؤمنون ولا يكفرون بالجديد منها المصدِّق لما بين يديه عصبية انتساب للقديم، والذين هم بربهم لا يـــشركون مفتـــرين آلهةً من الأصنام أو من المخلوقات الروحية وإنما يحفظون ملة التوحـــيد التي جاءت منذ حنيفية إبراهيم، لا تفتنهم المشهودات شهوةً ورغبةً فيها أو رهبةً منها ولا ولاء تعبّد لها إشراكاً وظناً في الغيب، بل تدفعهم وتضبطهم دواعي ذكر العاقـــبة في الآخـــرة إذ قلوبهم وَجِلة أنهم إلى ربهم راجعون يبتغون ثمةً مرضاته ونعيمه ويـــتّقون غضبه وعقابه الذي لا يُغني عنه فضل المال الدنيوي الهالك، فهم الذين يؤتون مـــا آتـــوا من عفو أموالهم لغيرهم لا هوى من تكاثر أو منّ أو استصحاباً لإيذاء مَن يُعطَـــون مـــن الفقراء بأهواء الدنيا بل رجاءً للآخرة - أولئك يُسارعون في الخيرات يطلـــبون أجر الله وهم لها سابقون لا يرهنهم حبّ الدنيا دونها فلا يكسلون عنها ولا يتأخـــرون. والله لا يكلّف نفساً إلا وسعها، فإذا تسابق عباده إلى الخيرات حفظ لهم فِعـــالهم حـــسب وسعهم في الكسب الميسور من عطاء الخير وصدق النيات، إن لديه

بأقدار علمه المحيط وعدله بموازين القسطاس المستقيم كتاباً يرصد ذرّات أعمالهم خيرها وشرّها، وهم لا يُظلمون.

ذلك هو مثال الهدى وحقّ الجزاء، لكن الخَلف الذين ضلّوا بعد الرسالات الماضية وجــاءت تخاطــبهم رســالة القرآن قلوبهم في غمرة غفلة من كل تلك الفضائل ولهم أعمــال يوالــونها مــن دون ذلــك المستوى العالي خُلقاً من التقوى والإخبات لله والإخــلاص مــن الإشراك والسّبق إلى الطاعات والخيرات وابتغاء الآخرة. هم ظلوا ماضــين في غمرتهم تلك كما توالى في القرآن ذكرهم أقواماً وقروناً، حتى إذا أخذ الله بأقــدار عقابه وعذابه العاجل مترفيهم الذين كانوا أكابرهم وقُدى السوء فيهم إذا هم يجأرون، حين لا يُغني الجأر ولا هم يُنصرون من وقائع العذاب، بل حق عليهم من الله الملام والعقاب أن قد كانت آياته الهادية المنذرة تُتلى عليهم بلاغاً من الرسل المتعاقبين فكانــوا ينكصون مدبرين عن الاستجابة مستكبرين يستخفّون بدعوات التوبة والهداية والــتقوى في تلك الآيات، ومثلهم كانت أمة الخطاب الجاهلية تتخذ مقولات القرآن مــادة سمر حيث يهجرون طعناً فيه. أتراهم لم يدّبروا القول الحق الوارد في الوحي أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين فاستغربوه فعمُوا عنه وأنكروه؟ أم لم يعرفوا رسولهم الــذي هو منهم عهدوا فيه الصدق والأمانة قبلاً فما هو بغريب نكِرة لا يُصدّق ولا يــؤتمن قــوله؟ أم يقولون به جِنّة وما عهدوها فيه ولا شهدوها عن بيّنة علةً في خلقه ورشــده؟ وإنما هو صادقٌ جاءهم بالحق في دعوة الإيمان الخالص والهدى المستقيم في ســبيله وأكثــرهم للحق كارهون. ولو اتّبع الحق أهواءهم كما يزعمون إشراكاً بالله لفــسدت السماوات والأرض وما فيهن، لاضطربت سُنن المخلوقات المنظومة واختلّ نظــم هيئة الإنسان المخلوق في أحسن تقويم وتزلزلت الأسباب المنسوقة من حوله فلا يسعد بالنعم المبسوطة والأشياء المسخّرة من رب واحد بل لا نحرم من نفعها وتناقضت وعاثت به تصاريف أقدار آلهة شتّى، ولساء خلقه وفسدت حياته كلها فلا يستقيم له مسلك ولا يتعايش مع غيره في سلام، وهو في كل حين بكل وجه فيما حوله مرهون لآلهــة متشاكسة وشركة مرتبكة. وإنما أتى الله بعظيم أقدار رحمته لأولئك المخاطبين بذكــرهم، الرشد والهدى الذي فيه إن اتبعوه ما يبلغون به عزةً وشرفاً في الدنيا وسبقاً

وتكريماً في الآخرة، فهم عن ذكرهم معرضون يضيّعون أسباب هداهم وشرفهم وسطاً بين الناس مذكوراً في الدنيا والآخرة. أم تراهم يصدّون عن الرسول لأنه يسألهم خرجاً مــن مــال يصدر منهم جزاء إبلاغهم رسالة الهدى؟ ما هو كذلك فهو ينتظر خراجاً خــيراً جــزاء مــن ربه وهو خير الرازقين لمن رجاه واستحقّ رزقاً كريماً لصدق أدائه للرســالة وصالح عمله بياناً لها. بل يثبّت الله رسوله الزاهد عما في أيدي المخاطبين أنه إنمــا يدعوهم ليسعوا بعد العوج في حياتهم إلى صراط مستقيم. ولكن الذين لا يؤمنون بالآخــرة عن ذلك الصراط الحق الهادي إليها لناكبون مهما تتقلّب عليهم بلاءات الله. فلــو لطــف ﷻ علــيهم بأقدار رحمته العظيمة وكشف ضرّهم لمضوا هم لاجّين في طغــيانهم يعمهون. وقد مضت السوابق في سُنن المعرضين عن رشد الرسالات أن قد أخــذهم الله بالعــذاب العاجل فما استكانوا لربهم ولا كانوا يتضرّعون حتى إذا فتح بأقدار غضبه عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون يائسون.

وخطــاب الــتذكير للمعرضين الذين يكفرون حتى بآيات الله المشهودة حولهم البيّــنات الأدنى إلــيهم: أنه هو الذي أنشأ لهم السمع والبصر حواس الإدراك والفؤاد مــوقعه الحــي، ولكنهم قليلاً ما يحمدون الله شاكرين. وهو الذي في ظواهر الوجود يُحيــي ويُمــيت الحيوان والنبات تعاقباً بين الحركة الحية والجمود، وله اختلاف الليل والــنهار تقلباً للأيام عبر مرور الدهر، فكيف لا يعقل الأحياء البشر من عباد الله دلالة تلــك الآيــات علــى وعد البعث بعد الموت والأجل الموعود. بل هم أنكروا ذلك استــشهاداً بمآل آبائهم الأولين بعد موتهم وصيرورتهم تراباً في الأرض وعظاماً واتّبعوا مقولــتهم إنكــاراً أن يبعثوا بعد ذلك المصير، يحسبون أن وعد البعث ما هو إلا من الأساطير القديمة. وخطاب التذكير أيضاً أنهم يقرّون بأمور بيّنة ولكنهم لا يرتّبون على ذلك ما ينبغي. فلْيُسألوا: لمن الأرض ومن فيها إن كانوا يعلمون؟ سيقولون: لله، ولكن كــيف لا يتذكــرون فيوقــرون الله ربّ الأرض وحده فيوحّدونه معبوداً لا يصرّف الوجــود حولهم أحد سواه؟ ولْيُسألوا: مَن ربّ السموات السّبع وربّ العرش العظيم محــيطاً بهم متعالياً عليهم؟ سيقولون: الله، فهلاّ يتّقون غضبه ويلتزمون حدود تكاليف هديــه وهو المتعالي القاهر الملك عليهم حسيباً المهيمن؟ ولْيسألوا مَن بيده ملكوت كلّ

شـــيء وهـــو ذو الـــسلطان الذي يُجير ولا يُجار عليه إن كانوا يعلمون ذلك حقاً؟ ســـيقولون: الله. فمِـــن أي وجه إذاً يُسحرون؟ أمِن سحر في رسالة الحق أم من سحر الشيطان وغروره إذ يخدعهم بالمشهودات المشهورات فيشركون بالله مخلوقات لا تملك قدرة ولا نصرة لهم ولا لنفسها؟ وإنهم لكاذبون أن يفتروا عليه ذلك وهماً ويشركوا به شـــيئاً. الحقّ أنه ما اتّخذ الله ما زعموا من ولد، بنات من الملائكة، ومما كانوا يؤلهون من أصنامهم. إذ لو صدق ذلك لتعددت الآلهة ولذهب كل إله بما خلق وإذاً لاضطرب نظـــام الكون الذي يرونه منسوقاً ولعلا بعض الآلهة على بعض فترتبك سُنن الوجود المـــشهود ومـــا وراءه من الغيب. سبحان الله عما يصفون ويفترون فهو عالم الغيب والشهادة وتعالى عما يُشركون به من آلهة.

إن علـــى الـــنبيّ الداعية – أن وعظته مصائر المترفين من قبل وأن قد عمّت المهالك أقـــواماً ظالمين – أن يدعو ربّه القادر على إنفاذ وعيده إن أراه ما يوعدون من عاقبة هلاك وهـــو حيّ فيهم ألا يجعله منهم هالكين. ويوصيه الله أن يدفع سيئ مقولاتهم في إنكارهم رســـالته وأخـــذهم عليه بالتي هي أحسن من الخطاب، فالله أعلم بما يصفون الله ورسالته ورسوله. وليستجر بالله إن نـــز ع الشيطان بينه وبينهم عند الغضب عليهم وليدع ربّه: أنه يعوذ به من همزات الشياطين، ومن حضورهم قرباً منه لئلا يوحوا إليه اتخاذ الخطاب السيئ رداً علـــى المعرضين عن رسالته الطاعنين في آياتها وفيه. ولئلا يهجر الدعوة استيئاساً منهم لـــيذر الرّســـول المعرضين من أمة خطابه يتمادون، حتى إذا حضر أحدهم الموت وأزف فـــوات الدنيا سارع يدعو ربّه أن يُرجعه ليستدرك ما فوّت هو في حياته من إضاعة العمل الـــصالح. وإنما هي كلمة يطلقها، لأنه هو بقدر الله وراءه برزخ إلى البعث، لا مرجع له إذ حـــقّ أجل موته المُنحسِم. ويومئذٍ تُقام موازين الله بالقسط حساباً على ما يُقدّم عباده من كـــسب في الدنيا، إذ مَن تغلب موازينه حظاً له من الصالحات فأولئك هم المفلحون، ومن خفّـــت موازيـــنه إذ رجحـــت عليه أثقال سيئاته فهم خاسرون وفي جهنّم خالدون تلفح وجـــوههم الـــنار كـــالحين. ويُحاطون يومئذ بالمساءلة من الله: ألم تكن آياته تتلى عليهم وكانـــوا بهـــا يكذّبون؟ فما يمضي منهم إلا الاعتراف أن قد حقّ صدق تلك الآيات اليوم وغلـــبت علـــيهم شِقوتهم لضلالتهم، وإلقاء السؤال إلى الله أن يخرجهم منها ليصلحوا ولا

يعــودوا ظــالمين. لكـــن عندئذ الحقّ أن وقع عليهم خطاب القول الفصل أن يخسأوا ولا يكلّموا الله ترجّياً فقد كان في الدنيا فريق من عباده يشهدون بالإيمان بالله ويسألونه المغفرة والـــرحمة ويعـــرفونه خير الراحمين، فما اقتدى بهم ولا اهتدى هؤلاء الظلمة، بل – كما يُخاطــبون – اتخـــذوهم سخرياً وأضحوكة حتى نسوا بذلك الاستخفاف ذكر الله. أما أولـــئك المؤمـــنون فقد جزاهم الله يومئذ صبرهم ومازهم فائزين بالنعيم مفلحين. ويومئذٍ يـــسأل الله أولـــئك الذين مدّ لهم في الدنيا فألهاهم أمل المتاع طوال الحياة: أن كم لبثوا في الأرض عدد سنين؟ فقالوا: يوماً أو بعض يوم فليسأل الله العادّين، إذ ما كانوا يحسبون مرّ الأيـــام والأعمار مجال الابتلاء في دنياهم لكنهم فزعوا في الآخرة فبدت لهم الدنيا عارض مجـــال لامـــح يتمـــنون الرجوع إلى الحياة ليمتد، واضطرب في وجدانهم حساب الزمان والأزل. وحـــقّ عليهم خطاب السؤال: أفحسبوا أنما خلقهم الله بأقداره العظيمة في الدنيا عبثاً وأنهم إليه لا يرجعون؟ فتعالى الله الملك الحق عمّا يشركون به وهو ربّ العرش الكريم حـــيث حقّ له الاستواء عليه والتصرّف ليدبّر حياة الإنسان وإطار ابتلائه وإنـــزال الهدى إلـــيه ثمّ الحاكمـــيّة ملكاً ليوم الدين. ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه حـــاقٌّ عليه ذلك اليوم، إنه لا يُفلح الكافرون. وليمضِ النبيّ الداعية إلى ذلك الحقّ صابراً علـــى الكافرين هادياً وقدوة للمؤمنين داعياً ربّه الذي يؤمن به أن يغفر له ويرحمه في الدنيا والآخرة وليعرفه فيخاطبه أنه هو سبحانه وتعالى خير الراحمين.

ترتيل المعاني (الآيات ١ – ٢٢):

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١)

مضى حاقاً مآل الفلاح حتماً وفوزاً للذين لم يؤمنوا بالله والغيب إسكانَ علمٍ في وجـــدانهم وحسب، بل رسخ الإيمان صفة اعتقادٍ مطمئن تلازمهم مؤمنين وتتجلّى في سيرة حياتهم الظاهرة.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (٢)

أولئك المؤمنون – غير من كانوا في جاهلية صلاتُهم الدينية تشوبها شعائر إشراك تؤدَّى صور فعال ونطق أقوال عرفية ظاهرية تصدر عن سهو لا ذكر حاضر للغيب –

هـــم مؤمنون بالغيب يقيمون صلاتهم شعيرةَ ظاهرٍ يعبّر عن باطن تعبّد خالص لله، هم فيها خاشعون إذ هي تُعرب عن الخضوع الصادق لله، خوفاً منه ﷻ متجلّياً في حركة شخوص وجوارح مستكينة قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً وفي كلمات ألسنة ذاكرة لله تالية لآياته الموحاة، وفي توجّه إليه تعالى متجرد عن خواطر التعلّق بمشهودات الحياة منـــصرف عن الالتفات إلى حوادثها والهمّ بمشاغل مجتمع الناس ومعاملاته من حولهم، هم مؤمنون مصلّون لله خاشعون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (٣)

أولـــئك المؤمـــنون المصلّون الخاشعون هم الذين تعمر صلاتهم نفوسهم بذكر الله في ســياقات الحـــياة كافّة. فهم لا كغيرهم من الغافلين عن الله والغيب الذاهبين توهاً في لهو الحياة، بل هم عن اللغو فيها – بسقط الكلام الباطل الفارغ من جدّ المعاني وحقّ وقعها – معرضون، لا تجتاحهم إلى ذلك فتن العلاقات الراتبة مع مجتمع الناس الغافل المشغول باللعب واللغـــو لا ينسابون في تلك السياقات لاغين وإذا مرّوا باللغو أعرضوا عنه ومرّوا كراماً، لا يصرفهم ذلك ولو توّة عن ذكر الله حضوراً في الوجدان وقصداً وجداً في طيّب لكلام.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (٤)

أولـــئك المؤمـــنون المصلّون الخاشعون في ذكرها وحركتها المعرضون عن اللغو الجادّون في أقوالهم حقاً – هم غير من تفتنهم كسوب المتاع فتملؤهم شحاً في النفوس انفتاناً بالحبّ للمال والحرص على حفظه والكفّ عن إنفاقه إلا في التماس أسباب مزيد من كسبه العاجل وابتغاء محصوله في المتاع. هم للزكاة فاعلون، لزكاة أنفسهم تطهراً وصفاء من نوازع شهوة المال وفتنة المتاع الحاضر، وفضلاً عن ذلك، كلما أعطوا من عفـــو أمـــوالهم في سبيل الله هم فاعلون لذلك ببسط أيدي العطاء تصدقاً وتزكّياً لا باستصحاب المَنّ والأذى على من يؤتونه نفقة.

﴿وَالَّـــذِينَ هُـــمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (٥ – ٦ – ٧)

وأولـــئك أيضاً – وغيرهم قد تأخذهم شهوة التناكح وجوحتها الطاغية العادية على حدود المزاوجة الحلال – هم لعروضهم من ظاهر أعضاء التعبير عن تلك الشهوة

وعـــورهما المستورة ضابطون في حدود ما هو مشروع لهم ومعقود ومستور من علاقة الـــزوجية، لا يكـــشفون عورات عرضهم ولا يمارسون فعل أعضاء الذكورة والأنوثة وصلاً بينهم إلا على أزواجهم الذين جرى معهم التعاقد المبيح للتناكح الحاصر لكشف عروضـــهم ولفعلها في حدود مجال العقد الذي أتموه تراضياً بينهم والتزاماً بما شرع الله وتقـــوى. زوجات المؤمنين الذكور هنّ حرائر الناس اللاتي لم يُحرّمن لدنوّ القربى التي تقتضي موادّة دون المناكحة، وهنّ ما ملكت أيمانهم ممن انتقص أهليتهن للتعاقد الأسر رقّـــاً ولكن يباح إزائهن التناكح المرضيّ. فهم في ذلك غير ملومين كما يُلام ويؤاخذ الـــذين يتناكحون بنـــزوة فحولة وأنوثة دون العقد المرضيّ المشهود أو بنـــزعة وراء حـــده المشروع. فمن ابتغى ذلك طالباً ما وراء حدود الشرع المكتوب والعقد المرضيّ فأولـــئك هـــم العادون على تلك الحدود في الأعراض والأنساب والحرمات الظالمون لأنفسهم إذ حملوها على الخروج عن منهاج التقوى والضلال عن سبيل الفلاح.(١)

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٨)

وأولئك – سوى غيرهم ممن قد تعتري علاقاتهم القطيعة والخيانة – هم من تصل بيـــنهم الأمانات ودائع عهود في معاملات الحياة ليُرعى أداؤها بتمامها لأجلها رداً إلى أهلها أو إسلاماً إلى من هي إليه حاقّة هادفة، ويصل بينهم العهد من العقود والاتفاقات الناشـــئة عـــن تخاطب تداول وتساوم وعزائم وعدٍ بين الأطراف المتعاقدة. لا يخونون الأمانـــة ولا يُخلفون الوعد ولا يغدرون بسلام الوِفاق، هم لها حافظون تأصيلاً على أمانـــة الـــربوبية لله وعقد الإيمان به في الفطرة والشرعة الموحاة: أنه خلقهم ورزقهم ليمـــضوا في الحـــياة وصـــلاً لعهده ومبايعة له إذ وهبوا في سبيل عبادته حياتهم أموالاً وأنفـــساً في الدنيا ليعطيهم وفاق ذلك معاوضة وجزاء منه في نعيم الآخرة رزقاً حسناً ورضواناً.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩)

وأولئك – ليسوا ممّن انقطعوا عنَ الصلة بالله إذ فتنهم العالم المشهود فلم يذكروه قـــيوماً علـــيهم في الغيب خاشعين له ولم يتقوا فتنةَ المال فشحّوا به وقبضوه بخلاً ولا

(١) في تفصيل بيان العدوان ودواعيه وعواقبه، انظر الآيات الأولى من سورة النور.

شــــهوةَ المــــناكحة الجانحة فعدَوا على حدّ الحلال المشروع ولا طمعَ الكسب المطلق فخانــــوا مقتــضى العهـــود والأمانات – هم على صلواتهم الخاشعة لله التي تزكّيهم يحافظـــون لتمضي متوالية مرعية لأوقاتها ومفروضاتها ومسنوناتها لتسري آثارها ويمتد وقعهـــا الطـــيب المنبـــسط عبر الحياة مصابرة ومقاومة للفتن حيثما لاحت في سياق الابتلاءات والظروف واتقاء لغضب الله المترتب في الآخرة على كسب الغافلين البخلاء الزناة الخونة.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٠ – ١١)

أولئك – إشارة للمؤمنين ذوي تلك الصفات الزكيّة لبعد علوهم مقاماً في مصير الفلاح في الآخرة – هم – غير الذين يحق عليهم ما دون ذلك – الوارثون بعد ميراث الأرض تمكــناً وعزّةً وسعداً أن تكون لهم العاقبة الحسنى في الآخرة حيث ينتهون إلى الفـــردوس، الجنّة العليا المعروشة المبسوطة بمحاسن النبات والفاكهة. هم – إمازةً لهم عن غيرهم – في تلك الفردوس خالدون، حياةَ خير متأبد في الأزل.(١)

﴿وَلَقَـــدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُـــمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٢ – ١٤)

إن كـــان ذلك هو قدر الوراثة والمصير بعد البعث الموعود فإنما هو مترتب على قـــدر المسير والحياة للإنسان منذ بدء خلقه المشهود حتى يبلغ تمامه. وتلك الأطوار من آيـــات لله شواهد على قدرته المتواتر تجلّيها عبر وجود الإنسان في الزّمان ثم في الأزل. فبعد الصفات السبع الماضي ذكرها في أصول العبادة المشروعة للمؤمنين تذكر الآيات التالـــية الأطوار السبعة في أصول نشأة الإنسان المطبوعة. وإن كان المُخاطبون الأوائل بهـــدى الـــدين وعلـــم الغيب في ريب من البعث وقدرة الله عليه فلتكن التذكرة لهم آيته ﷻ أن قد خلقهم من تراب في مادة الأرض. ولقد خلق بأقدار الله النافذة الإنسان مـــن ســـلالة تنـــسُل لطيفة مُمتدّة ولداً عن والد، أصل مادتها الأولى من طين، ثم عبر

(١) في صفات المؤمنين الزكيّة بدءاً وختماً بذكر الصلاة وفي مآلهم الأعلى في الجنة – انظر أيضاً: الآيات ٢٢-٢٥ سورة المعراج.

الـــتعاقب تطوراً مترقياً جعله الله بأقداره ينبت من نطفة سائل مبيضّ دافق ينقذف من عضو الذكر ويُلقى بالمناكحة مع الأنثى في قرار من رحم مكين، خير مكان ومستودع وفـــيق، وبعـــد تراخٍ من التطور خلق الله بأقداره من النطفة علقة محمرّة غليظة عالقة بحـــائط الـــرحم، وتواصل تراتب الأطوار فخلق الله بأقداره الدقيقة العظيمة من العلقة مضغة، ثم تشكّلت من المضغة عظام هي أصول هيكل الجنين، فكسى الله بأقداره تلك العظـــام لحمـــاً يلـــتف بها لبّاً ويشدّه عصب ويغمره شحم. ثم بعد كل ذلك التطور المتـــصاعد أنـــشأ الله بأقداره الحكيمة خلقاً آخر يتميز جسماً كاملاً شاخصاً فرداً من البشر الإنسان.

فتـــبارك - متـــرتباً على ذلك كله - تعاقُب آيات الله الكامل الألوهية المعروف الوحدانـــية أحسن الخالقين الذي يقدر أن يكون ما يشاء إبداعاً حكيماً لا محاكاة لمثال سابق، ويُحدث الإنسانَ من عدم إلى وجود يُنشئه من موت إلى حياة لا جماد ويطوره من نطفة إلى جسد يتنامى إلى أحسن تقديم سامٍ فوق النبات والحيوان. ولا يكافئه ﷻ مخلوقُه البشر الذي لا يخلق إلا أن يأتفك إفكاً مختلقاً ليُطلق بالكلام باطلاً لا حقاً، ولا يـــركّب شيئاً إلا من مخلوقات الله كأن يصنع آلة أو مركباً كهيئة الحيوان من الطين أو الحجر أو سائر مواد الأرض الميتة المخلوقة، وقد يصنع الإنسان هيئة ميتة لكن ينفخ الله فيها لتحيا بإذنه معجزة لنبيٍّ. وقد ينصب الإنسان تمثالاً جامداً يؤلهه ويتوهّم له مزاعم الإدراك والقـــدرة ولكـــنه حقاً ميّت وعاجز، وقد يزعم متعولم أو مستكبر أنه يحيي ويمـــيت وإنما يتّخذ أسباب الله التناسلية أو الإحيائية التي تخلق بشراً أو أسباب الهلاك المسنونة الحاتمة التي تميته.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (١٥ - ١٦)

ثم - بعـــد كلّ أقدار الخلق المتطوّر تلك انبعاثاً للحي البشر الذي نشأ من أصله الأول في الطـــين وتجلّـــت فيه آيات الله التي رقَت به إلى أحسن تقويم لإنسان كريم - يـــتأكّد ويتوجه الخطاب لبني الإنسان كافة، لاسيما الذين تلقوا أول الخطاب القرآني ينكـــرون الـــبعث وراء الحياة الدنيا: إنهم حقاً لميتون، واقع عليهم يوماً مّا قدرُ الموت القادم المعهود ثابتاً لازماً يستقبلونه حالةً تغشاهم بعد حاضر حالتهم أحياء.

ثم – أولـــئك المخاطبون – هم قدراً مؤكداً – يوم القيامة حين يقوم موتى البشر لـــربهم أجمعين يُبعثون نشاةً أخرى إذ تُقام لهم هيئة شاخصة كالأولى تنشط فيها الحياة وتُردّ إليها ذات الروح بقدر الله الحاقّ، يدبّون في الأرض مُخرَجين من مادتها مثل التي قبرتهم أو ضلّت فيها أجسادهم الأولى ويتكلمّون لينطقوا عجباً لمشاهد القيامة أو جواباً لمساءلات الحساب إلاّ أن يُصمّهم الإقرار إذ تبهتهم البيّنات.(١)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧)

لقـــد حـــقّ الواقـــع الأكيد أن قد خلق الله بقواه اللطيفة العظيمة في التقدير الحكيم والإيقـــاع النافذ ما هو أكبر من خلق الإنسان نشأة أولى ثم أخرى أهون يوم القيامة، وما هـــو من النعم المحيطة بذلك الإنسان ليشكر ربّه ويعبده غيباً في الدنيا ويستعدّ للقائه البيّن في الآخـــرة جازياً شكوراً. ذلك أن قد خلق الله بكبير أقداره وجليلها فوق خلق الإنسان ســـبعاً من السماوات، 'سبعاً' رقماً من الأساس العشري للحساب لا ينقسم ولا يتضاعف في ذلـــك المدى من العدّ، سماوات متطابقات لا تتهاوى بل تتعالى سمواً بعضها فوق بعض تحـــيط بـــأرض بني الإنسان وعاءً متراكباً، طرائق يرى منها الإنسان مخلوقات النجوم في السماء الأولى ولكن تسبح فيها وبينها كلها مخلوقات لله حيّة روحية وتسري أقداره مادية جـــوامد وطاقات وأسباباً، ويتنـــزّل من ذلك على الأرض وعالم الزمان والمكان ما يشاء الله مـــن مَلـــك أو حيّ أو ماء أو حجر أو طاقة ويصعد إليها حتى إلى عالم الأزل ما يرفعُ اللهُ. ومـــا كـــان الله – حقـــاً ماضياً – عن ذلك الخلق الذي قدّر صنعه وأحدثه بأقداره المـــسنونة المنظومة – ما كان غافلاً لاهياً عن أبعاده ودقائق حركته، بل هو محيط به يعلمه علمـــاً حاضراً أبداً في الزمان والغيب ويدبّره تدبيراً محكماً يحفظه ويرتّب مسالكه المتضاعفة المتراكبة، وكذلك يعي الله ويصرّف بمشيئته أمر الإنسان الأهون قدراً الحي في ذلك الإطار المحيط السماوي من عالم الكون الشامل.

﴿وَأَنْـــزَلْنَا مِـــنَ الـــسَّمَاءِ مَـــاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (١٨)

---

(١) في ذكر خلق الإنسان وأطوار نشأته في الحياة إلى الموت فالبعث نشأة أخرى – راجع الآيات ٥-٧ سورة الحج.

ومـــن الـــسماء الأُولى المباشرة للأرض مضى الحق أن أنـــزل الله من تلك الجهة العالـــية بمنظوم أقداره العظيمة وكما يشهد الإنسان ماء راجعة إلى الأرض تأتيها بقدر مـــنظوم السنن موزون الوقع، لا يزيد الماء النازل فيضاناً فيغرق البشر تحته ولا يقصُر فيـــبغون في الأرض تنافـــساً مهلكاً ولا ينكفّ فيموتون عطشاً وجوعاً لافتقاد غذاء النـــبات والأنعام من فرط الجفاف. وترتّب بأقدار الله أن أسكن الماء في الأرض غائصاً في جـــوفها أو جارياً في سطحها أنهاراً وبحاراً. إنه ﷻ على ذهاب بذلك الماء انحساراً وتبخراً فور نـــزوله لقادرٌ بجملة أقداره النافذة إن شاء ألاّ يبسطه ويحفظه نعمة لعباده بني الإنسان يبتليهم به ليشكروه أو شاء أن يرفع عنهم الماء تماماً بخاراً ذاهباً في السماء أو مهما يفيض عليهم غيثاً يغوّره في الأرض وراء مبلغهم.

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ (١٩ – ٢٠)

بسط الله نعمة الماء بقدر موزون، وفضلاً عن خلقه عباده بني الإنسان من الأرض وتـــزاوجهم وتوالدهم مختلفةً ألوانهم، يخاطبهم أن قد أنشأ لهم كذلك من تزاوج ذلك الماء ومادة الأرض بمنظومة من جملة أقداره في طبع الأشياء والإحياء وفي الزرع منها – أنـــشأ لهـــم سُنّة واقعة ماضية لأولئك المخاطبين الذين يتنـــزّل عليهم ذكرُ الله ليُحيي موات قلوبهم الغافلة والذين تُذكّرهم بوقعه ذاك سُنن الله المشهودة ودلائلها البيّنة إحياء للنبات حولهم – أنشأ جنّات تحفّ بما تحتها وبينها من نخيل شجر للتمر المتشابه اللون وأعـــناب – أشـــجار تثمر فاكهة مختلفة ألوانها. ذلك لأولئك المخاطبين الأُول الذين خـــصّ الله بيئة بلادهم بتلك الأشجار في جنّاتهم التي أنعم الله بها عليهم فواكه كثيرة الأشكال والطعوم، يتمتعون بمشاهد الشجر فيها وخضرته ودهمته وينعَ ثمره ويستظلّون ويتفكّهون منها تمراً وعنباً، ومن تلك الجنّات أيضاً يأكلون من ثمار شجرها.

وذكـــر الجنان وثمرها تذكرة مناسبة لتقديم ذكر شجرة أخرى بعينها أنشأها الله بأقـــدار الطبـــيعة أيضاً: زيتونة تخرج من بيئة أرض طور سيناء، ذلك الجبل العالي بيئةً تُـــوائم تلك الشجرة، يعهد نمطها أولئك المخاطبون الأوائل في طريق تجارتهم الشمالي وتستدعي لهم ذكر موسى ورسالته الماضية لو كانوا يتذكّرون. تلك الشجرة هي أيضاً

نعمــة تُنــبت بالدهن إذ تَنبت فيها حبوب الزيتون بدهنٍ في مادهّا إذا عُصرت زيتُها يــتخذه الناس طلاءً ومسحاً للشعر والجسد وتُنبت بصبغٍ للآكلين إذا اتخذوها وزيتها إداماً وغمساً لخبزهم آكلين.

﴿وَإِنَّ لَكُــمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢١)

وفــضلاً عن خلق الإنسان من الأرض والنبات من ماء السماء وتراب الأرض، للمخاطبين من بني الإنسان حقاً في الأنعام الماشية الأليفة حولهم – إبلاً وبقراً وغنماً – عــبرةُ رؤية يعبُرون بمشهدها آيات الله المتجليّة، إذ يسقيهم بأقدار خلقه ونعمائه مما في بطــونها من الألبان التي تخرج ما بين فرثها ودمها، ولهم فيها منافع كثيرة ركوباً وحملاً ومن جلودها وأوبارها وأشعارها زياً وفرشاً وزينة ومنها يأكلون اللحوم الحلال الطيبة إذا ذبحوها أو نحروها كما هو مسنون.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٢٢)

وعلى تلك الأنعام ساعية براً على الأرض، وعلى الفلك ساعية فوق مياه الأرض، يُحمــل المخاطــبون بمتاعهم لينتقلوا حيثما شاءوا، تُذلّ وتُسخّر لهم تلك الأنعام أليفة والفلــك آمنة، نعمةَ مركبٍ وحوامل عبر المناقل مبسوطة من الله للإنسان ليضرب في الأرض في سبيل مباغي الحياة.[١]

عموم المعاني (الآيات ١ – ٢٢):

كما يجتهد الفلاحون يشقّون الأرض ويحرثونها في سبيل محصول الزرع في عاجلة الدنــيا، يجــتهد المؤمــنون في سبيل حصاد الفوز الآجل والخير الباقي في الآخرة فهم المفلحون، حقاً لهم ماضياً، إذ ما هم الذين آمنوا فعل خاطرة لإسكان الحق في نفوسهم وكلمــة لإعــلان الشهادة به بل المؤمنون الذين مضوا بعد فعل الإيمان في أول طريق الهــدى ليرسخ فيهم ذلك الإيمان صفة لازمة يتجلّى التعبير عنها طوال مسيرة حياهم.

---

(١) في ذكــر خلق الله نعماً حول الإنسان سماوات وأرضاً وماء وجنّات وأنعاماً وفُلكاً جارية – راجع الآيات ٣-١٨ سورة النحل.

فهم من ذلك إذا صلّوا شعيرة عبادة لله في صلاقم خاشعون، صلاقم تلك يغشاها كل الخــشوع: قلــوبهم تلين ذكراً مطمئناً لله وجوارحهم تخضع هيئاها طاعة لله وتواضعاً وألسنتهم ترِق ذكراً وخبتاً لله، وما كانت صلاقم سهواً ولا مكاء ولا تصدية مثل من ضــلوا عــن الخشوع. وهم كذلك عن اللغو معرضون، لا يتجاوبون مع لهو الكلام وهــزله وباطلــه وما يجرّ إليه ذلك المقال من فِعال بل يصدر منهم جدُّه وطيبه وحقه مبــتدأه تذكــر نعمة الله الذي علمهم البيان. وهم الذين للزكاة فاعلون، يعطون عفو كــسبهم مــن العلم بذلاً والمال صدقة والطاقة مداً – طهارة من شح النفوس وحب الاحتكار لها ووفاء بأمانة ما استخلفهم الله فيه من كسب ورجاء لأن يتضاعف عائدُه الآجــل عــند الله أجــراً ورزقاً وسعداً، يؤدون الزكاة فعلاً يحقّق مغازيها لمن أعطوه ويتجــرّد مــن أن يصحبها منٌّ عليه ولا أذى. وهم الذين لفروجهم حافظون إلا على أزواجهــم أو مــا ملكت أيمانهم في عهد الرق الذي لطّف الله وقعه ثم نسخه بتعاليم كــتابه، ومــا هــم الــذين يبتغون وراء ذلك تجاوزاً للهدى المشروع بدفع النــزوة التناكحــية، فما هم العادون على حدود حرمة الزوجية وحصانة العزوبة. وهم الذين مهما يبتلوا بفتن علاقات الحياة ودائع وأمانات أموال أو حقوق وحبال عهود ووعود يــرعوها لا تضطرب عقود صِلاقم الاجتماعية نكثاً بالخيانة والخلف لمقتضى الوفاء. وهم الذين على صلواقم يحافظون يوالوها موالاة دائمة ليتخلّل كل الحياة يزكّون منها أوقاها لوجه الله، لا ينسون الله ولا عهد العبادة له إلا أحياناً إذ تأتيهم الصلاة متواترة فــلا تغشاهم غفلة منبسطة ولا ترهنهم كثيراً صوارف شاغلة ولا تحبسهم حجاباً عن ذكــر الله ظروف معسرة فهم مستعينين بالصلاة العوادة توّابون إليه أوّابون إلى عبادته عبر حياقم كلها يجاهدون ويصابرون ابتلاءات الإيمان بالغيب ويوالون الذكر والدعاء ويــبارَك إيمــاهم ويــتغذّى بالخــشوع في الصلاة ويتقون الحرمات ويرعون العهود والأمانــات كمــا يستجيبون لأذان الصلاة سعياً وينضبطون أداءً لدقائق سننها وكما يــتعلّمون مــن هــدى ما يتلون فيها من آي القرآن. وإنما الفوز والفلاح لهم وراثة الفــردوس في دار الجــزاء التي تخلُف الدنيا دار البلاء حيث أمضوها مؤمنين تلازمهم صــفات الإيمان ودوافعه وضوابطه المتكاملة ممتازين سامين سابقين إلى الخيرات ثابتين

عليها، فالفردوس أعلى الجنات المكتنــزة بالطيبات، وهم فيها خالدون ليسوا في حالة يسر عارضة كما تصادفهم في ظروف الدنيا بل في حياة سعد وخير آبد في الأزل.

إيمــان الإنــسان بالله هو أساس الصلاة عبادةً له ﷻ، وإن تلك الصلاة هي أم الشعائر وعماد الدين للإنسان في دنياه منذ أن يبلغ أشُدّه حتى يأتيه اليقين، وهي عبادة حمــد ومعرفة جميل وردّة لله الذي يُصلّي هو على الإنسان برحمة متواصلة كل أطوار حــياته منذ نشأته الأولى في أوّل زمان وجوده خلقاً في الدنيا وحتى حياته الثانية في مدّ وجوده بعد الموت أزلاً في الآخرة.

فالله بأقداره العظيمة المتباركة إبداعاً وإنشاء - خلق الإنسان من سلالة من طين، ســلالة خلفــة وتعاقب والديّةً لا تنبتر وولديةً تمتد ذريّة، خلق له الأرض بيئةً مناسبة وقــدّر فيها وبارًك مدداً لمعاشه وخلقه من أصول مادتها طيناً من مائها وترابها، وطوّر نــشأته الحــيّة من نطفة مويهةٍ زوجية تتزاوج وتودَع في قرار مكين من رحم الأنثى، فعلقــة تلــصق بالرحم تتكثّفً مضغة ثم تتشكّل عظاماً هيكلاً لجنين يُكسى لحماً بلبّه وعــضله وعصبه وشحمه ثم يتتامّ خلقاً آخر وينماز جنيناً إنسانياً حياً تنفخ فيه الروح يتغذّى من الأم وينبض قلبه وتسري فيه حركة الحياة المتنامية. تلك سنن لتجلّي أقدار الله المــنظومة المــتكاملة هــي بيّنة لكلّ متأمّل من بني الإنسان أن تبارك اللهُ أحسن الخالقين، وما يتسع عند الإنسان علم الأجنة ويستبين دقائق الأحوال والأطوار والسُّنن لنــشأة الإنــسان ويفقه فيها تجلّي قدرة الله وحكمته إلا رسخ في وجدانه واطمأن في عقله المتفكّر وقلبه المنفعل الإيمان بالله العلي القدير. ثم إن الإنسان بعد مدٍ من العمر في حياة دنيا يبتلي فيها لميتٌ أجلاً مكتوباً لكل نفس ومسنوناً، تُتوفّى منه الرًوح وتسكن الحــياة ويأخــذ الجسد يضلّ في مواد الطبيعة وطاقاتها في الأرض حوله. ثم إن بني آدم البشر بعد ذلك الموت يُبعثون، أرواحهم تمضي في منقلة وبرزخ من الغياب حتى يقضي الله أجــلاً مــسمّى عنده لا يعلمه أحد يقوم فيه الناس نشأةً كالأولى تُردّ إليها الروح ليحشر البشر ويُعرضوا للحساب والقضاء والأخذ إلى خير المصير أو سيّئه. فمنذ خلقه الأول الإنسان في أطوار مسيرة هادفة إلى منتهاها في الآخرة، والنشأة الأولى المشهودة آيــةٌ تدلّ على الأخرى الأهون على الله. وقدرُ الإنسان الأول أن جعل الله له إطاراً في

عهـــد الدنيا مكاناً وزماناً ومدّاً له في الحياة ومهاداً من طبيعةِ الأرض حوله وصُحبة له من مجتمعِ بني خلقه ثم هدى بالوحي إليه من الغيب علماً بحقائق ما يغيب عنه حاضراً ومآلاً وفرقاناً له فيما تختلف فيه رؤاه الموضعيّة من خير المسير في بلاءات دنياه. وذلك القـــدر مـــساق إلى قدر مآل الإنسان بعد البعث وقيام القيامة في عالم تتبدّل فيه أطره وظـــروفه ونهـــج حياته فيه ومجتمعه وصلته بعالم الروح وبربه حسب القضاء عليه بعد الـــبعث والحساب وفاقاً لكسبه في ماضي حياته الدنيا هدىً أو ضلالاً. وفي ذلك اليوم يـــستبين الفـــصل الأزلي بين المؤمنين حقاً الوارثين الفردوس والكافرين المنتهين إلى جهنم.

وإن في بيـــئة الإنسان حوله في عالمه المشهود نعمٌ هي آيات تُذكّره أن يعرف ربه في الغـــيب ليؤمن به ويحمده ويعبده عبر كل حركة حياته الدنيا حتى يلقاه في الآخرة ملكاً ليوم الدين. ففضلاً عن نعمة الله في نشأته خلق الله بأقداره فوق بني الإنسان سبع طـــرائق مـــن السماوات لا يشهدون إلا أدناها حيث يغشاهم في جوها الأدنى متنفّس وريـــاح ويتنـــزّل من السحاب فيها ماء راوٍ وتبدو فيها شمس وقمر وكواكب ونجوم هاديـــة، وتتعالى غيباً عن الإنسان ست سماوات أخرى تعمرها طاقات وقوى روحية. وما كان الله غافلاً عن عالمه المخلوق المتطابق تعالياً ذلك ألا يتساقط بعضه على بعض أو يُطـــبق على الأرض ومن فيها من الإنسان، فإنما نصب فوقه آيات مشهودة تمتد إلى غـــيب لعلّه يلقى في النظر إلى الكون عِبرة يبلغ بها معرفة حقّ وجود ربّه وقوته المتعالية ونعمائه المبسوطة.

ووصلُ الإنسان بالأرض وصلاً مطبوعاً يُذكّره أن يتفكّر في السماء إذ أنـــزل الله منها الماء بقدر موزون لا يفيض فيُغمر الإنسان ولا ينـــزر فيهلك، لأن الإنسان غالبُ جـــسمه لطـــيف من ماء فهو لا يستغني عن مدده إن كانت تتناقص منه الرطوبة كل حـــين بولاً وعرقاً وطاقة. فأنـــزل الله الماء وأسكنه في الأرض ليتناوله الإنسان مباشرة أو مـــن بحـــر أو يـــبلغه من بئر. وهو ﷻ قادر على أن يذهب به غائراً في الأرض أو متبخّـــراً كلـــه، لكنه يرحم عباده ويلطف بهم لحاجتهم لمدّ ماء موصول أبداً، لاسيما أنه ﷻ من بعد شرب الإنسان وغسله من الماء أنشأ له بأقداره من ريّ الماء جنّات من

نخيل وأعناب شتّى وللناس فيها فواكه كثيرة ومنها يأكلون. وفضلاً عن الخضر والثمر في الــشجر من مأكولات الإنسان وظلّ الشجرة الذي يؤويه وعوده الذي يمدّه وقوداً للــنار أو أداة لمــآرب أخرى، فإن من ذلك الشجر شجرةً تخرج من طور سيناء غنية بالــدهن والــصبغ للآكلين. وقد كانت هي النعمة النباتية المشهورة لكثير ممّن كانت تتنـــزّل عليهم رسالات الله وآياته الموحاة رحمةً تهديهم في نهج حياتهم وقصدها من بعد رحمة المعاش من طبيعة مادة تلك الشجرة.

وفضلاً عن نعمة النبات الهادية لذكر الله فإن في الأنعام عبرة للإنسان تصله إلى تذكّر ربه خالقاً منعماً مشكوراً معبوداً. فهو ﷻ يسقي بني الإنسان ممّا في بطونها لبناً ولهــم فيها منافع كثيرة إذ يتّخذون جلودها لباساً وفرشاً وبيتاً وزينة ومنها يأكلون لحمــاً. وهم عليها وعلى الفلك يُحملون مركباً. وذكرُ الفلك الحاملة الناقلة – مثل ذكــر شــجرة الزيتون – تذكرةٌ بآية نعمة فيها أنــزلها الله على رسوله نوح عليه السلام ليــصنع فلكاً تنجيه من قومه الكافرين وتنقله إلى منــزل آمن مبارك ليمضي وأهله المؤمــنين شاكرين عابدين. وفي ذلك عبرة لسائر سوابق نعمة الله في نجاة المؤمنين به تعالى.

وتلــك الــنعم المذكــورة لله على الإنسان بعد خلقه السماء ضوءاً وهواء وماء والأرض فراشــاً ومنبــتاً للخــضر والشجر والأنعام فوقها دابّة والفلك على مجاريها جاريــة – كلــها آيات يُبتلى بها الإنسان لعلّه يعرف ربه فيحمده ويعبده ولا ينفتن بالمــشهد والمــتاع، ولعلّــه يرى دورة الأفلاك في السماء والليل والنهار على الأرض والحــياة والموت في النبات والأنعام فيذكر دورة الوجود في نفسه أيضاً حياةً وموتاً في ظواهــر الدنيا ليصدّق بما هو موعود بعثاً في عاقبة أخرى وفي أزل بعد الدهر الماضي، وكمــا يرى النِّعم في دورة ترد عليه وتذهب حطاماً وجفافاً والنجوم في السماء تطلع وتغــيب والشمس والأيام حولها يمر وقتها خلفةً في الزمان إلى منتهى والفلك تجري في البحار إلى مرسى – كل ذلك عبرة للإنسان في سيرة الوجود والحياة المشهودة المتقلّبة وأمــل أن يمضي في حياته فمماته مؤمناً حتى يكون الوارث في دورة الوجود لدار نعيم خيرٍ وأخلد لا يتقلّب بها قدر الدورة التي تحدّ أجلها.

ترتيل المعاني (الآيات ٢٣ – ٥٣):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ (٢٣)

وكــذلك لقد أرسل الله نوحاً عليه السلام الذي قد اصطفاه بأقدار علمه ووحيه ليبعثه رسولاً،[١] حمله على فلك آية إنجاء له وللمؤمنين معه وانتقال بهم ييسّر عاجل فلاح في الدنيا – كما بشّرت المؤمنين بالمفلحة آيةٌ مفتتح السورة. وكان ذلك مخرجاً حسناً مثل انـسلال الإنسان ونباته من أصولٍ دنيا إلى قامةٍ عليا وشاخصة حسنى في الحياة ومثل خـروجه مـن الموت والضلال جسداً في الأرضِ والذهاب روحاً في غيب الأزل إلى نشأته منبعثاً في الآخرة، ومثل انتشار الماء فيضاً ورزقاً متنـزلاً من فضاء السماء ومثل النـبات رزقاً من الأرض الجامدة والفلك مراكب سيّارة على بحارها الساكنة. كذلك أرسـل الله بأقدار رحمته وتكاليف أمره نوحاً يحمل رسالة من الغيب ليُخرج قومه من الظلمات إلى النور. فقال لهم كلمة الحق الأصل لهداية الإنسان في الأرض داعياً لهم أن يعـبدوا الله ما لهم من إله غيره – مما قد يعهدون فتنة بالمشهودات، هو خلقهم وبسط حـولهم نِعَمه وحقّ أن يعبدوه في دنيا بلاء رجاء لقائه في آخرة جزاء عما يعرض لهم مـن فتنة العالم المشهود فيحوزونه بحياة صالحة. ووردت ذكرى رسالة نوح التوحيدية لله معـبوداً لأنهـا بقـيت أصلاً سالفاً لرسالات التوحيد التالية المتعاقبة موصولة حتى الرسالة القرآنية الخاتمة. وخاطب نوح قومه يسائلهم: أفلا يتّقون الله؟ إن عرفوه واحداً وذُكـروا بفرض عبادته وأُنذروا بجزائه، ليرعوا حدود هديه وتضبطهم خشيته أن يحقّ عليهم بعد الموت المكتوب ووعيد الحساب غضب الله وعقابه.

﴿فَقَـالَ الْمَـلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ (٢٤)

كـذلك بلّغ نوح عليه السلام رسالة التوحيد والعبادة لله، وكانت الاستجابة إعراضاً، عبرةً للرسالة الخاتمة وإعراض المخاطبين الأوائل عنها. فقال الملأ الأشراف الملأى جاهاً

(١) في ذكر رسالة نوح عليه السلام وسيرته – انظر الحاشية ١٠ للآية ٢٥ سورة هود.

وقدراً في مجتمع الذين كفروا من قوم نوح خطاباً لعامتهم أن ما هذا الذي يدعوهم إلى رسالة يدّعيها من الغيب إلا بشر مثلهم لا يملك طاقة غيبية يبلغ بها مصدر مثلها، وإنما يــريد أن يتفضّل عليهم متكلّفاً دعوى تُميزه عنهم بأنه موصول بعالم الغيب الذي لا يظهــرون هم عليه بشراً. ومضوا يعززون مقولتهم: أن لو شاء الله لأنــزل من الغيب بدلاً منه ملائكة من عالم الروح العلوي يؤدون بلاغ تلك الرسالة. والحق أن الملائكة مـــن القوى الروحية المستجنة لا البشرية التي تباشر المخاطبين كفاحاً، وإنما يبعث الله وراء رسل الوحي الغيبية رسولاً بشراً إلى الناس ليكون داعيةً يُبلّغ ويتلو ما أوحي إليه ليـــسمع المخاطبون ويستجيبوا له ثم قدوةً يُمثّل ذلك الهدى إذ يتجلّى واقعاً ومثالاً في خُلُقـــه ومـــسلكه ليقلّدوه. وكذلك يعقبه بشر لا ملائكة خلفاً يتعاقبون دعاةً وقُدىً للـــتذكير بالرّســـالة وتجديد وقعها. ولو شاء الله لأنـــزل ملائكةً لا يماثلهم ولا يستنّ بـــسنتهم البشر لأنهم كائنات بطاقات روحية وهم جنود طوّع لله خَلقاً يحملون رسالة الوحي إلى عباد الله الأحرار البشر ويؤيدونهم إن والوا ربّهم ويُنفذون أقدار غضب الله عليهم وإنـــزال عذابه في الدنيا أو الآخرة إن أعرضوا وعصوا. قال الملأ من قوم نوح إنهـــم مـــا سمعـــوا بهذا الذي جاءهم به رسولاً بشراً يدعوا إلى عبادة الله وحده دون معبوداتهم العرفية، ما سمعوا بهذا في آبائهم الأولين الذين مضت سيرتهم شهادةً كما – يزعمون – على الحق المعهود عبر التاريخ.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ (٢٥)

مضى الملأ من قوم نوح عليه السلام في حملتهم على رسالته، قالوا – وقد حكموا في أمره بما سبق ذكره من نفي الحق عنه إلا مُتفضلاً عليهم وعن قوله إلا بدعاً منكراً – قالوا لقومه إنـــه مـــا هو إلا رجل بشر مثلهم لا يفضل عليهم حقاً بأبعاد روحية لكن به علة جنون تغـــشاه إذ يدّعي صلة بالغيب المجهول فيروي عنه افتراءً وتفضلاً على الناس المحصورين في عـــالم دنياهم المحسوسة المحجوبة عن الغيب. ويتواصى قوم نوح، يأمرهم الملأ أن يتربصوا بـــنوح محتملين أمره إلى حين، ينتظرون لعلّه يفيق من جنونه فيرشد أو يتبيّن من عاقبة أمره عجـــزه أن يكون رسولاً من الغيب أو تشتد عليه بأساء بلاءات الإعراض فيضطرب بغير مصابرة وتنفضح شواهد اختلال عقله وبطلان رسالته المفتراة وحياً من الغيب.

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون﴾ (٢٦)

نــوح عليه السلام الــصادق رسولاً من ربّه الصابر على إعراض قومه وتربصهم به، متصدياً للتحدي الذي ابتُلي به منهم تهمة عجز بشري وتفضّلٍ مغرور وجنون عارض ومستيئــساً من إعراضهم - سأل ربّه أن ينصره عليهم لتظهر كلمة دعوته الحق الغالبة ويزهق باطل ذلك الملأ بما كذّبوه وآذوه.

﴿فَأَوْحَيْـنَا إِلَـيْهِ أَن اصْـنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْـلُكْ فِـيهَا مِـنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (٢٧)

فاستجاب الله دعاء نوح عليه السلام إذ رتّب له بالوصية تدبيراً ينبغي أن يُعدّ لنصر موعود علــى قــومه، أَوحى إليه بعظيم أبعاد علمه وحكمته وإحاطته بحاضر الأمور وقادمها أن يــصنع بــناء الفلك بعين الله وأقدار رعايته الحافظة ورحمته المحيطة بما تؤدي يداه هو عبداً منــصوراً وبوحــيه سبحانه وتعالى وهدايته له إلى الخير المنظور الموصول، فإذا جاء أمر الله بكلمات قضائه النافذ في تصريف أمور الكون وتفجّر الماء، وفار من ثمّ التنّور لا ناراً في حفرة مطبخ الخبــز بــل مــاءً مندفعاً منها فائضاً منبسطاً في الأرض رافعاً الفلك ليطفح فوق أمواجه فليــسلك نوح في تلك الفلك - إدخالاً متتالياً - من كل زوجين اثنين، من نبات النخل والأنعــام ممــا كان يعهد في بيئة الحياة بذلك الوطن عوناً للمعاش وإعداداً لزرعٍ وتنشئة حيوان حيثما قرّت السفينة في الأرض، وأن يُدخل موكباً من أهله أزواجاً وذرّية من ذوي قرباه الذين آمنوا، إلاّ من كان من أهله تناسباً بالدم وما هو حقاً بأهله تناسباً بأخوة الدين الحق إذ سبق عليه القول أن يمضي قدره مُعرضاً عن دعوة الإيمان وخائناً لعهدها حاقّاً عليه هلاكــه في العاجلــة انتظاراً لويل الآخرة. وذكّره الله ألاّ يخاطبه مسترحماً في شأن الذين ظلمــوا مــن أهلــه يسأل لهم رحمة الرفق بهم بالنجاة على الفلك، إنهم كما أكّد له ربّه قادمــون إلى الهــلاك غــرقاً مع سائر الظالمين المتجاوزين عدل الحق المُبين فلا أنساب في مــوازين قــضاء رحمة الله وإنما يحقّ رجحانها حسب كسوب العباد إيماناً وعملاً صالحاً. والحــق أن يقوم المؤمن في الحياة بالقسط ولو على ذوي القربى، وألاّ شفاعة في وقع العدالة وإنما يَسلم بعد البلاء ويُفلح في العاقبة مَن حقّ له ذلك بالإيمان والصلاح.

﴿فَـإِذَا اسْـتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٨)

ومـضت الوصـية الموحاة إلى نوح الطِّيلا من ربّه فيما يترتّب على صنع الفلك فدخـولها طافـية بعد فوران الماء الفائض - خوطب نوح أن إذا استوى متمكناً على الفلـك بعد دخولها هو ومَن معه فليتذكّر نعمة الله وليشكرها علانية في رفقة الناجين تذكـرةً لهم: أن الحمد لله ثناء له الإله الأعظم المعهود وحده الذي نجّاهم مَيزاً وسلامة من القوم الظالمين الذين عدَوا على ميزان الحق العدل فأدركهم غرق الطوفان.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٢٩)

ولـيقل نـوح الطِّيلا - تماماً للحمد لله على إيحائه تدبير النجاء ودعاء لما هو عاقـب، وإنما أوصي بذلك إيحاء له ببشرى الاستجابة - ليقل داعياً علناً أن يُنـزله الله على البرّ حيثما ترسو به الفلك منـزلاً مباركاً متزايدة طيباته وليعرف رحمة ربّه مـستكملاً خطابه ذاكراً أنه تَتَخَالُا هو خير المنـزلين، هو أحمد مَن يُنـزِل في مأوى كريم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ (٣٠)

ينختم ذكر قصة نوح الطِّيلا داعياً إلى رسالة ربّه مأذيّاً في قومه فناجياً إلى خَيرِ مُنـزل بما يؤكّد العبرة الحق في تلك القصّة: إن في ذلك - في ذكرها لآيات تجلّيات الله إرسـالاً للهدايـة الربّانية المنـزلة من الغيب ولابتلاء حاملها بالإعراض وسوء المحاوبـة لخطابه الرسالي - حقاً في ذلك آيات، وما كان الله بأقداره إلا مبتلياً لرسله ليتبـيّن مـنهم الثبات والصبر والرجاء والعزم. وهذا تذكير يعني خاتم المرسلين بهذا القرآن.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (٣١)

ثم مـن بعـد ذلك الحين المتطاول لعهد نوح وسيرته تلك التي تتجلّى في إنبائها آيات رسالة الله وأقدار ابتلائه وتبيّن العظة من مصير الظالمين - أنشأ الله بأقدار دورات اسـتخلافه لعـباده وإقامته لهم في الأرض - أنشأ قرناً آخرين مداً في تصريف تعاقب البـشر بعد عهد قوم نوح وإبهاماً لذكرهم، ولعلّهم قوم هود كما تتوالى آيات القرآن

ذكــراً لهــم بعد قوم نوح،[1] ولكن إنما العظة في عموم الواقعات السابقة على البشر المتعاقــبين الممــتدين كالقــرون خلافة في الأرض وسيرة في الهدى أو الضلال وعاقبة المصير.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ (٣٢)

ما نشأ ذلك الخَلَف إلا رتَّب الله فيهم رسولاً منهم يَحمل أمانة من الغيب يُبلّغها إلــيهم توصــيهم أن يعــبدوا الله مسلمين لوجهه حياهم حمداً لنعم الحياة التي يهبها واســتجابة للهداية التي يوحيها، وأن ما لهم من إله غيره مما افتتنوا به في العالم المشهود وتعلّقوا به عرفاً من معبودات مؤلّهة دون الله في الغيب، لكن ما أحيتهم ولا هدهم هي مــثل الله. والخطــاب لهــم بعــد وصية الانصراف عن معبوداهم التقليدية المشهودة وتــوجههم عبادةً إلى الله وحده – الخطاب تساؤل استنكار لما كانوا فيه: أفلا يتّقون ذلك الضلال ويجتبون أن يحقّ عليهم السّخط والعذاب الموعود من الله – الإله الأعظم المعروف – لإعراضهم عنه وإصرارهم على الكفر بنعمته وهداه.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْــيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (٣٣ – ٣٤)

أولــئك القوم بلغتهم كذلك رسالة التوحيد والإيمان بالغيب فقدّمهم إنكاراً لها المــلأ الأشــراف الذين ملأوا مشاهد المجتمع، إذ استغنوا وانفتنوا بما لديهم من متاع حاضر وكفروا برسالة الغيب غامرين في نفوسهم فطرة الإيمان بالله وكذّبوا بنذير لقائه في الآخــرة إذ يــرجع إليه للحساب بعد الحياة الدنيا التي غرّهم فيها الشرف المشهود وحاضــر الامــتلاء بمتاعها الحاضر ابتلاءً لهم بأقدار الله. أولئك من قوم الرسول قالوا مخاطــبين العامّة: أن ما هذا الدّاعي إلى الغيب – مشيرين إليه صوباً – إلا بشر مثلكم، يخاطبهم وهو مثلهم خَلق يُباشرهم بصفته القاصرة على الوجود المشهود دون الغيب، يأكــل ممــا يأكل منه المخاطبون ولا يحيا بمدّ غيبــي آخر للغذاء والبقاء ويشرب مما

(١) في ذكر عاد قرناً خلفاء من بعد قوم نوح – راجع الآية ٦٩ سورة الأعراف. وفي ذكر هود ورسالته ودعوته – راجع الحاشية ١١ للآية ٥٠ سورة هود.

يـــشربون يقوم جسده الحيّ بالمشروب المعهود لسائر الأحياء منهم. وأضافوا من ثمّ – مخاطبين قومهم: أن لو أطاعوا بشراً مثلهم قاصر الوجود والإدراك – لو أطاعوه إلى ما يدعـــوهم إلـــيه مـــن تصديقِ رسالته الغيبية وإسلامٍ لما يبلّغهم من وصية اتّباع أمرها ونهـــيها – قالـــوا يُخاطـــبون قومهم: إنهم حقاً إذاً لخاسرون في نهج دنياهم ومسيرها وكسبها ومصيرها خسراناً مؤكداً وقوعه عليهم.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٣٥–٣٧)

مـــضى المـــلأ الكافر بالغيب وبالمرجع الموعود إلى الله يسائل قومه عن دعوة رسولهم مخاطـــبين لهم مستنكرين: أيعدهم رسولهم فيما يستقبلون أنهم إذا ماتوا وذهبت عنهم الحياة وزال البقاء في الدنيا ومضوا بأجسادهم ضلالاً في الأرض التي يدفنون فيها تراباً ينحلّ فيها لحمهـــم أو عظاماً نخرة لا يطول بقاء إلا لصورتها – أيعدهم أنهم وراء ذلك كله مخرجون مـــن الأرض يُبعثون أحياء لدار أخرى فيها جزاء كسبهم بعد ابتلاء في حياتهم الدنيا هذه؟ اســـتبعدوا لهم أن يصدُق ذلك الوعد وصاحوا فيهم: أن هيهات هيهات، بُعداً مُضاعفاً، لما يوعدون، وأكدوا لهم أن الأحقّ ما هو إلا مُدة الوجود المشهود في حياتهم الدنيا هذه، هم وإيـــاهم، يموتون وتحيا منهم ذرّية عاقبة دوراتٍ متوالية وما هم بمبعوثين بعد الموت في عالم آخر، وإنما تخلفهم الذرّية في الدنيا الحاضرة سُنّةً مشهودة بيّنة.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٨)

وأعلـــن الملأ لمختتم محاجّتهم لدعوى رسولهم: أن ما هو إلا رجل بشر، لا مَلَكٌ أهلٌ لأن يـــأتي بأنباء الغيب وإنما افترى مختلقاً على الله – الإله المعروف البعيد الوجود في الغيب كمـــا يظـــنّون – افتـــرى كذباً هو ما يقوله من رسالة يدّعي أنه يتلقّاها ويبلّغها عن الله. وأعلـــنوا لهـــم كذلك: أن ما هم – الملأ المتكلمون ومن معهم من القوم: بمؤمنين، فكما ينبغي، لا تقر دعوى الرسول يقيناً في وجدانهم سالمة من نـــزع عقائدهم المألوفة.

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ (٣٩)

قـــال رســـول أولئك القوم وملئهم المترفين الذين كذّبوا برسالة الهدى وكفروا بالغيب وأنذروا قومهم الخسران إن أطاعوا بشراً مثلهم رموه بأنه افترى على الله وعد

الآخرة بعثاً بعد الموت سنّةَ القدر المشهودة والبلى في الأرض والذين تمادوا إعراضاً عن الإيمـــان – قـــال رسولهم منادياً الله ربّه – إذ أحياه وهداه وزكّاه – راجياً: أن ينصره علـــيهم إذ دعاهم إلى عبادة الله فجادلوا في حق دعوته بدعايتهم الكافرة بالغيب، أن يُوقع له النصر بقدر غالب عليهم بما كذّبوه من رسالة الحقّ ووعد الصدق بالآخرة.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ (٤٠)

فجاوبه ربّه وصيةً بالصّبر، قال له: إنه عمّا قليل، بُعيدَ مدٍّ غير طويل من الإملاء لهم، ليـــصبحنّ نادمين، سوف تباغتهم واقعة مؤكّدة ذات صباح بعد سكنة الليل يغشاهم منها الندم على إعراضهم، حيث يتجلّى لهم صدق النذير السابق ويأتيهم الجزاء الموعود فيَلقون الحسرة على ما فوّتوا في ماضي ابتلائهم، أن لم يتّقوا عاقبة حاقّة لا رادّ لها.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤١)

وصـــدق الوعـــيد الحقّ عمّا قريب فترتّب أن أخذهم مجتاحة لهم الصيحةُ، واقعة المناحة والمهلكة، إذ حقّ عليهم عدلاً وقع العذاب وفاقاً لتكذيب كلمة الدعوة والنذير، وترتّب عليهم أن جعلهم الله – بأقدار جزائه العظيمة وقضائه العاجل – غثاءً، سقطت أجسادهم صرعى فرُفاتاً دفين التراب مطروحين كما يُطرح هشيم النبات البالي يغمره الـــزبد. أصابهم هم ذلك دون الرسول والناجين معه المؤمنين، وترتب أن مازهم وقعُ الحقّ عليهم إذ أعقبهم بُعداً وطرداً من نعمة الحياة والترف. فهم – أولئك القوم الذين قاموا معاً يتبع الملأ منهم سائرُ جمهورهم – هم الظالمون إذ عدلوا مذهباً عن قويم ميزان الهـــدى وموقفاً عن تصديق بلاغ الرسول معجّزين لآيات الرسالة مغالبين لحقّها. وقد تواتـــر في القـــرآن ذكر أولئك القوم وذكر أسمهم: عاد قوم هود الذين كذّبوا بالهدى الحـــقّ البيّن ونذير الآخرة القارعة فهلكوا بصيحة الريح العاتية التي أحالتهم كأعجاز النخل الهاوية.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (٤٢ – ٤٣)

ثم يذكـــر الله أن ثُـــمّ – بعد مضي أمد طويل – أنشأ عقب قرن القوم السابق ذكـــرهم قروناً آخرين يتعاقبون متقارناً سير حياة كلٍ منهم عهوداً يداولها الله بقدره

وقــضائه المحــتوم، كلّ أمة منهم تؤم مذهب سيرتها جمعاً ما تسبق أجلها المكتوب لها بأقــدار الله العظــيمة في الخلق وتصريف سيرة الحياة، مداً لابتلائهم وإملاء لأمد بعد النذير، ولا يستأخرون أجلهم، حين يجيء ميقات فنائهم هالكين ماضين.

﴿ثُــمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٤)

ثم – وفــق تلك الخلائف المقدّرة من القرون والأمم – أرسل الله بأقدره العظيمة لهدايــة عباده في العالم المشهود رسلَه يحملون الرحمة والهداية والروح الموحاة من أمره، رســلاً تترى يتعاقبون تعاقب أممهم المخاطبة واحداً تلو الآخر، كلما جاء أمة رسولها المــصطفى فــيها ليُــبلّغها رسالة العلم والحكمة والهداية والنذارة والبشارة في الغيب كذّبــوه. وتوالت من ثمّ أن أتْبع الله بأقدار الهلاك بعضهم بعضاً، أذ جاءتهم رسالات متــصادقة توافي استخلافهم المتوالي في الأرض ومضت منهم سيرة مسنونة في تكذيب الرســالة وحقهــا الهادي ووعدها بعواقب الغيب فتواترت عليهم عاجلات وقائع من الجــزاء والهــلاك المستحقّ، وجعلهم الله بأقداره العظيمة في تصريف الدهور المنقول تاريخهــا بعــد فنائهم المتتابع – جعلهم أحاديث وقصصاً مرويّة أنباءً وحكايات عجباً عــند الخلَف العاقبين. وترتب على سيئ سننهم أن ثبت قول الحقّ في ذكر أمرهم: أن بُعــداً لقوم لا يؤمنون بالحق هدىً في الدنيا ووعداً في آجل الغيب. ومن تلك الأقوام التي حقّ هلاكها ففنت إلا مروي أُحدوثاتها وأنبائها الواعظة للخالفين: ثمود قوم صالح ومن بعدهم قوم شُعيب في مدين، وهم خلفوا في العهود أقوام نوح وهود واستُخلفوا في نواحــي الأرض بــين جهــات أولئك الذين سلفوا في العراق والأحقاف جنوباً، وكذلك قوم إبراهيم الذي كان من شيعة تراث نوح وابن أخيه لوط وقومه في الأرض المباركة ذات الغرب، وقوم الأبناء والأسباط لإبراهيم.(١)

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٤٥)

---

(١) في تعاقــب المرسلين والقرون بعد نوح وقومه وهود وعاد وقبل موسى سُمي منهم: صالح في ثمود وإبراهيم في قومه ولوط في قومه وشُعيب في مدين – راجع سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء.

ثم – بعد فترة طويلة إذ بقي بنو إسرائيل على ملّة آبائهم وبعد هجرهم إلى مصر قـــام فيهم مذكراً يوسف ﷺ – أرسل الله العظيم الأقدار في مشيئة حيث الرسالات وحيــــنها واصطفاء أمم الخطاب والمرسلين – أرسل موسى ﷺ وأخاه هارون وزيراً لـــه. يعاضده في الرسالة كما دعا ربّه، أرسله بآياته المتجلّية في أعراضها الحادثة أفعالاً لموســـى خارقـــة لمعهودات السنن في حركة عصاه ولون يده وفي عواقب إعراض أمة خطابـــه، وبـــسلطان مـــبين فيها يقع عليهم حجة قاهرة بيّنة الدلالة على حقّ رسالة موسى.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ (٤٦)

وتـــصوّبت الرسالة أولاً إلى فرعون طاغية مصر وملأه الذين كانوا يملأون صور المجتمع وساحته منتشرين حول فرعون. تلقّوا الرسالة فاستكبروا عالين طُغياناً متعاظمين علـــى الخـــضوع لسلطانها والخشوع لتعاليمها وتكاليفها، وكانوا قوماً يقومون عادين على جماهيرهم وعلى بني إسرائيل خاصة في رتب السلطان والجاه.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (٤٧)

وترتب على استكبار أولئك وتعاليهم عن رسالة موسى ﷺ أن قالوا متسائلين مـــستنكرين: أيؤمـــنون هُم لبشرَين مثلهم في الحياة والمأكل والمشرب يدّعيان الصلة بالغـــيب وبـــالأزل الأعلى؟ بينما سائر البشر قاصرون إدراكاً إلا للمشهود الواقع في الأرض حـــولهم، كـــيف تُسلم أنفسهم لهما وقومهما الذين يلونهما وهم بنو إسرائيل لهـــم – آل فرعون – عابدين، يتّخذونه ربّاً أعلى بدعاويه وأصنامه ويُسخّرون طوعاً لأمـــره ويذلّـــون إســـلاماً لسلطانه ولو قتّل أبناءهم واستحيا نساءهم وعذّبهم عذاباً عظيماً؟.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ (٤٨)

فكـــذّب أولـــئك المستكبرون من فرعون وملئه دعوة موسى وأخيه وما صدّقوا شـــهادة آياتها، فحقّ عليهم بعد سبق النذير العقابُ فكانوا – حقاً ماضياً فيهم – من المهلكـــين غرقاً وهم يطلبون اللحاق بموسى والمؤمنين من قومه المخرجين من ديارهم المهاجرين شرقاً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٤٩)

وإذ تحـــرّر موسى من العبودية لفرعون في مرحلة حياة وابتلاء تحت جبروته آتاه الله الجلـــيل بأقـــدار الوحي لعباده واصطفاء المرسلين به - آتاه الكتاب من ألواح فيها شرع الهداية في الحياة لعلّ بنو إسرائيل لا يضيعون في متاهات الحياة الحرّة وأهوائها بل يهتدون في مذهب سيرتهم الجديدة.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (٥٠)

وتـــوالت رســـالات الله، إذ جعـــل بأقداره العظيمة التي يصرّف بها واقع تلك الرســـالات - جعل ابن مريم عيسى وأُمه آيةً فيها الشهادة على تلك الأقدار الغيبية - ولداً بشراً من امرأة عاكفة مبسوط لها الرزق من الله لم يمسسها بشر زوجاً لتعقب منه هـــو الذرّيـــة كما هو مسنون. وآواهما الله الجليل بأقدار تصريفه لوقائع ذلك الميلاد المعجز إلى ربوة عالية من الأرض ذات قرار فيها منبسط ومعين سرى ماء ظاهر.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١)

تنـــزلت كلمة نداء الرسل وتنبيههم، كلمة توالي خطابها إلى كل الرسل السابق ذكرهم المتعاقبين وتنسلك إلى النبيّ الخاتم الذي يخاطبه هذا القرآن، وكلهم على منهاج واحـــد مـــتوافق يحملون رسالة حق متصادقة يسيّرون بها حياتهم سنّةً واحدة موصولة قـــدوة لأُمـــم خطابهم بعد إبلاغها كلمات متلوّة وعرض آياتها البيّنة. وكانت كلمة الوصـــية الماضـــية إليهم جميعاً: أن يأكلوا من الطيّبات حلاً وشهيّة وغذواً كما يأكل عموم البشر لا من الخبائث المحرمات، وأن يعملوا الصالحات من الفعال لا السيّئات - كـــلّ ذلك أسوة في العيش والمسلك القويم لمن يتّبعهم من البشر مثلهم في سبيل عبادة الله. وأكّـــد الله مخاطباً لهم: إنه بما يعملون من المآكل الطيبة والأعمال الصالحة أو من دون ذلـــك علـــيم بالغ العلم دقيقه يحيط بها ليحاسب ويجزي عليها وفاقاً بالحسنى إن أحسنوا يسري في الدنيا وبشرى تلقاء الآخرة.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٢)

وينـــضاف الخطاب المذكّر للمرسلين: إن هذه سنة الحياة المندوبة لكم، أمتكم، وجهـــتكم التي تأتمونها، أمّة واحدة، وجهة واحدة شرعةً ومنهاجاً وملّة تتوالى عبركم،

تتـــصادق واحـــدة لا يتبدّل أصلُ دينها وصوبُ عبادتها المتوارث. وينضاف في أصل الوجـــود والهدايـــة خطاب الله للمرسلين: إنه ﷻ ربهم الفرد الصمد الأول الباقي في الغـــيب منه الخلق والرزق والهدى في الحياة الدنيا وإليه المرجع في الآخرة، لا يَتّخذون من دونه أرباباً متفرقين فتنة بتأليه المشهودات مهما تضطرب بهم وتتقلّب الابتلاءات، فليـــتّقوه وحده، ألاّ يحقّ عليهم غضبه نـــزعاً إلى إشراك في عقيدة التوحيد ولا تبديلاً لكلـــم رسالته الموحاة ونسياناً أو جنوحاً للظلم في مسلك الحياة ضلالاً عن هديها بعد طـــول الأمـــد. تلـــك الوصية الأساس لثبات حق الدين وخلوده عبر دعوات الأنبياء وسِـــيرهم ومذهب الأمم التي تتعاقب اهتداءً بهم أمة واحدة لا تَغيُّرَ في سننها ولا شتاتاً مهديةً متوحدة تقية مرضيّة.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٣)

وقـــد وفّـــى الأنبـــياء المـــتوالون المصطفون الأخيار بوصية الحقّ ولكن أتباعهم الأخـــلاف المتعاقـــبون ترتّب على ابتلائهم بطول الآماد بعد عهد الأصل والقدوة أن ضـــيّعوا وحدة الأمة وتقطّعوا بينهم وفرّقوا أمرهم بعد الدين الموحّد والمسلك المستقيم في الإيمـــان والحـــياة وصاروا هم زُبراً، قطعاً وكُتلاً مغلّظة وعصبيّات أقوام وطوائف: عـــرباً جاهليين مشركين نسوا ملة أبيهم إبراهيم وأشركوا وكفروا بالبعث وانغلقوا في جاهلـــية عروبة وحياة متاع وهوى، وكتابيين تفرّقوا يهوداً ونصارى دون ملّة أبيهم إبـــراهيم وساء في حياتهم بعداً الانفتان بعرض الدنيا العرفي العرقي المتشعّب والاعتقاد الطائفـــي المتشيّع المتعصّب. أصبحت تلك الفرق الملّية من الخَلَف كلُّ حزب يتمسّك بخيار ضلاله عن الأمة الواحدة الأحقّ وعرف فتنته فرحاً بسكرة تلك الفتنة.[١]

عموم المعاني (الآيات ٢٣ – ٥٣):

تتقدّم آيات من القرآن موحاة من الله برسالة بشرى للإنسان أنه قد حقّ الفلاح فوراثة النعيم الخالد للمؤمنين العاملين بمقتضى هدي تلك الرسالة، وتنضاف إليها آيات

---

(١) في ذكر رسالة الأنبياء أمّة واحدة عبادة لله وخلفهم الذين تقطّعوا أمرهم بينهم – راجع الآيتين ٩٢ و٩٣ سورة الأنبياء.

تذكير بأقدار الله التي طبعت نشأة الإنسان نفسه بشراً تتطوّر به الحياة من أول خلقه في الدنـــيا إلى قضاء موته فمنتهاه إلى البعث في الآخرة، ثم تأتي آيات نظر واعتبار وشكر تذكّـــر الإنـــسان بالنعم المبسوطة حوله من الله: السماء الدنيا والطرائق السماوية التي تعلـــوها، والمـــاء المتنـــــزل منها إلى الأرض بقدر محفوظ، والنبات من ثمة فيها قوتاً والأنعـــام مطعمـــاً ونفعاً، ثم ترد آية تصل ذكر النعم الربّانية، إذ يُحمل الإنسان على الأنعـــام الدابّة في الأرض بها ويُحمل على الفلك الجارية في البحر كذلك، وكأن تلك الآية تلماح لعين حادثة شهدت نعمة الله في الفلك مَحملاً ومنجى لرسول سالف وآية من الله لحفظ رسالته وسننه، إذ تتلو مباشرة آية تذكار بذلك الرسول نوح عليه السلام.

وقـــد كـــان نوح أباً لغالب سلالات البشر في أرض الرّسالات الكتابية المتواترة بعده، ومنهم القوم الين خاطبتهم لبادرة دعوتها رسالة القرآن الخاتمة والتي عمّت الناس كافـــة، وكانـــت هداية رسالته أصلاً لدعوات كل تلك الرسالات: ألا وهي التزكّي الخـــالص لعبادة الله والتطهّر من الإشراك به فتنةً بما دونه من موقّرات العالم المشهود. وما كانت استجابة قومه إلا إنكار دعوى رسالة وحي من الغيب لا يأتي بها مَلَك كما ينبغـــي بـــل يحملها بشر مثلهم يحسبونه إنما يتفضّل بذلك عليهم. وإذ يأتيهم الرسول بجديـــد لم يعهـــده مـــن الآباء يظنون ذلك صادراً من خواطر جنة من الخيال لا من واردات وحـــي حـــقّ ورشد غيبـــي حكيم، فهم يضيقون صبراً عليه متربصين به إلى حين. وما كان له هو من سبيل إلا المرجع إلى ربّه يدعوه النصر عليهم بما كذّبوه. ولم تتنـــزّل نازلة الغضب والنصر من الله على قومه قدراً مباغتاً، وإنما كُلّف هو أن يُعدّ ما يلـــيه من الأسباب لنازلة القدر العاقب: أن يصنع فلكاً مستعيناً بالله وأن يتهيّأ إذا جاء أمـــر الله بفيضان ماء فائر ليسلك في الفلك ما كان معهوداً في بيئته المعاشية من لوازم أزواج مـــن الحـــيوان والنبات ويصحب من الأهل من تحقّ له النجاة معه لا الغرق مع الظالمين. وأُوصيَ إذا تمّ ذلك واستوى على الفلك أن يتذكّر رحمة النجاة التي مازه بها الله عـــن الظالمين، فيحمده ويسأله منـــزلاً مباركاً موقناً أنه تعالى خير المنـــزلين لعباده استخلافاً في الأرض. قد حق تمام تلك الوقائع وفاق دعوات نوح لنفسه وعلى قومه، وكانـــت فيها آيات عبرة للذين تجري عليهم أطوار البلاءات من عباد الله الدّاعين إلى

هـــدى رسالته الصابرين والراجين رحمته وعظة للمعرضين عن دعوة الله أكابر من الملأ في ظـــنون اســـتنكار وفي غرور وتبعاً من عوام أمّة الخطاب ومثالاً من سيرة المجاهدة الصابرة والتدبير المتوكّل على لله وعاقبة نجاة وفتح للمؤمنين.

فبعد تلك الآيات المتجلّية واقعاً في شمال أرض الرسالات الشرقي نشأ في جنوبها بأقدار الله أيضاً قرن من الأقوام آخرون. وهم عاد ذوو العمار والجبروت الذين جاءهم رسول منهم مثل نوح هو هود ، صادعاً بذات الدعوة الآمرة بالعبادة لله توحيداً الناهـــية عن فتن الشرك المعهودة. وبدت فيهم أُمةَ خطاب سنةُ الكفر على ذات المثال الخالي يُكذّبون بوعد الآخرة المنظورة غيباً ويفتنهم عنها حاضر الترف الذي حظوا به في بلاء الحياة الدنيا. وعززوا بيّنات كفرهم احتجاجاً ببشرية الرسول الذي لا تُحيلهم طاعـــته إلا خـــساراً ونفياً لأيّما نذير بالبعث في حياة أخرى إذ يرون ذلك أمراً بعيداً ووعـــيدها فرية كاذبة لا يحق بها إيمان. وعلى سنة نوح يسأل الرسول النصرَ من ربّه الـــذي يوصـــيه بالصبر قليلاً لتحلّ بقومه عاقبة مندم. وحقاً أخذهم الصيحة لتجعلهم غثاءً منبوذاً. ثم توالت قرون أخرى وفق تعاقب آجالهم المقدّرة من الله وتواترت إليهم دعـــوات الرسل ومنهم كرات التكذيب وعليهم مرّات من أقدار العقاب أتْبعت بعض تلـــك الأمـــم بعـــضاً كافرين مهلكين لا يبقى وراءهم أثر إلا أحاديث، لو اتّعظ بها الخالفـــون! ثم في أواخـــر رتل المرسلين جاء موسى وهارون بآيات الله وسلطانه المبين رسالةً إلى فرعون وقومه، فكذّبوه وكانوا يتعالون على الاستجابة لبشرين مثلهما يروهَا ذلّـــةً مـــادام قومهما لهم عابدين خشوعاً لأوامر فرعون وجبروته ورهبوته. فهلك آل فرعون غارقين في بحر وبقي تراث موسى وكتاب الهداية الذي أوتيه من بعد. ثم خلفه شـــأن مريم وابنها عيسى آيةً في خلق البشر تجلّت من أول حيث الولادة من غير أب وفي ربوة وقرار معين من الأرض، مما يبشّر برسالته الظاهر نورها من الظلمات وذات المدّ المنبسط في الخلف بعد حين.

إن قـــصة واقـــع الرسالات تنـــزلاً وتعرّضاً لحملات الإعراض وبقاء ظاهراً بعد هـــلاك المكـــذّبين، هي سنة في دعوة الله واحدة وظاهرة في سيرها متوالية: أن يتواتر هـــدى الوحي نحو رسالة خالدة من الله للعباد، وأن تتعرّض لابتلاء ممّن يصدّون عنها

مـــن أمـــة خطابها مفتونين بالعالم المشهود مكذّبين بما يصل ذلك من المشهود في حياة البـــشر بالغـــيب وحياً من الله وهدىً في أمر العبادة له تعالى تطهّراً من الإشراك به ما دونه وبشارة ونذارة بالآخرة. وأنباء تلك الرسالات عبرة في فريضة دعوة البلاغ لذلك الحق الواحد من عبادة الله الخالصة والوصية للدعاة تأسياً بالرسل أن يقيموا في حياتهم تحـــت رقابـــة الله العليم مثالاً واحداً يُعبّر عن ذلك الحقّ: أكلاً منهم هم للطيبات لا للخبائث من المطعومات وعملاً للصالحات لا السيّئات، إعماراً لتلك الحياة بتقوى الله الرقيب وانسلاكاً وجهةً وسنةً في ملّة الرّسالات الحقّ وأمتها أمة واحدة.

لكـــن الخلَف بعد الرسل فيهم مَن لم يحفظ أمانة الهداية الكتابية وضيّعوا أصولها الـــتي تـــوحّد الحياة ملّة وسنّة مهديّة تقيّة لوجه الربّ الواحد، قطّعوا أمر تراثهم ذاك المنسوق الموصول وتمايزوا كتلاً وتحازبوا شيعاً كلٌ بما لديهم فرحون. وفيهم ورثة سنة إبـــراهيم وإسماعيل ممن ضلّوا ضلالاً بعيداً عن أصول الملّة الحنيفية وأصبحوا في جاهلية كافرين بالمصير بعد الموت إلى انبعاث حياة أخرى، وأولئك من غلب حضورهم حول أول مُتنـــــزّل القـــرآن في مكـــة وشـــهروا إنكارهم لهديه الغيبـــي. وكان الرسول محمد ﷺ هو الجامع لهدى كل الرسالات في كل الحياة والمقيم لحقّها سنّةً تامّة والباسط دعـــوتها للناس كافة، وهو خاتم موكب المرسلين عبر التاريخ. وكان القرآن هو آخر الكـــتب الموحاة المصدّق لما بين يديه من الكتب والمصحح لتحريفها والمهيمن عليها، وجاء هديه ليقوّم ما تبدّل مما كانت تمثله الرسالات السابقة من الدعوة والسنّة والأمة الـــواحدة، ويهدي ما سرى من ضلال وتفرّق في خَلَف بني الإنسان كافّة بعد السّلف المهتدي. كانت رسالة الإسلام إصلاحاً للخالف من الملل وتجديداً لما هو الحق في تراث دعـــوة التوحيد. وقد استجاب بعض أهل تلك الملل ودخلوا في أمة الإسلام بينما أدبر وأعـــرض بعـــضهم وظلّـــوا يحـــرّفون أصول تراثهم ويفرّقون جماعتهم الباقية شيعاً. واستجاب لدعوة الإسلام كذلك ولحقوا بأمته بعض من لم يعهدوا رسالة كتابية، عرباً وفرســـاً وغيرهم. أما واقع أهل الديانات اليوم - كتابية أو منبتّة عن الأصل الكتابـــي فأهوائية وضعية - فإنه واقع ما يزال يعاني من ظاهرة تفرّق حتى بين ذوي الملة الواحدة أحـــزاباً مختـــصمة كـــلٌ في عصبية وغمرة فرح بما يليه. وكذلك من ينتمون إلى ملة

الإســلام وأمــته مــا هــم اليوم على وجهة واحدة في كل دين الحياة وصف واحد مرصــوص، بــل هم طوائف متشاكسة سوادهم الأعظم في غمرة، مما يقتضي السعي لــتذكيرهم بالحــق الأصل لإصلاح أمرهم وتوحيد صفّهم وتحريرهم مما يرهنهم من التقالــيد المتــنازعة وتطهيرهم من فتنة أهواء المصالح المتباينة والمتصارعة والدفع عنهم غاشــيات الغزو من الثقافات الغربية التي تنــزع بهم ضلالاً عن أصول دينهم الحقّة. والقــرآن في قصــصه عــبرة في السنن التاريخية لدعوات الرسالات الماضية ولمواقف المعرضــين عــنها ودعــاوى طعنهم في حقّها، وفي لزوم قيام الدعاة الخالفين مقتدين بالمرســلين صــادعين بالحق الواحد منفذين للسنة المهدية هادفين إلى متانة صف الأمّة الــواحدة، وفي سبيل التقوى مما سبق من التفرّق والتشيّع والعصبية. ذلك هدى ينبغي أن يــتجدد خطابه ويُحدث وقعه ليعمر ويزهر نباته وتخرج ثمراته من جديد متجلّية في نهــضة أمّة الإسلام الوسطى المثلى وانتشار مذهبها الملحم المحكم وقيام واقعها المنظوم المنسوق وقومة أتباعها جماعة مؤتلفة متّحدة.

ترتيل المعاني (الآيات ٥٤ – ٧٧):

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (٥٤)

والخطــاب يــتلو ما سبق، وصية لخاتم الرسل ﷺ، أن يذر ما يشهد في الجزيرة العــربية حوله من تفرّق حملة تراث الرسالات عرباً من ذريّة إسماعيل ويهوداً ونصارى شيعاً وأحزاباً وطوائف – أن يذرهم في غمرتهم وظلام سيرتهم يخبطون إلى حين وأجل موعود يحق فيه الحساب والقضاء عليهم العاجل أو الآجل.

﴿أَيَحْــسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (٥٥ – ٥٦)

هــم في غفلــة عــن لزوم التوبة إلى أصل الحق الجامع لأنهم فتنوا ببسط الدنيا، فالرومان النصارى كانوا شمالاً في مدٍّ من الثروة والكثرة والعزّة والانتشار، واليهود بنو إســرائيل كانوا في المدينة في كثافة وثروة، والعرب كانوا في فتنة تجارة نشطة وكانوا مفتونين بالنسب والذرّية – كلهم يحسبون أن ما يمدّهم به الله بأقدار بلائه العظيم من

مال ميسّر وبنين كثر هو أنه ﷻ بأقدار تصريفه وقضائه يُسارع لهم في الخيرات بادرة وعاقبة متاعاً حاضراً لفورهم باقياً. بل لا يشعرون أدنى إحساس بوقع علم بأن الله إنما يبتلــيهم ويستدرجهم به. أيُلهيهم المتاع المتسارع المتكاثر أم يحثّ فيهم دواعي التذكّر لله المنعم الحميد والعبادة الحاقة له تعالى والتقوى ألا يضيع منهم مرجو حُسن جزائه.

﴿إِنَّ الَّــذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّــذِينَ هُــمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٥٧-٦١)

الحــقّ المــؤكّد كــون الذين هم من خشية ربهم الذي خلقهم وربّاهم في الحياة إحــساناً بالنعم مشفقون فلذلك يتّقون عاقبة غضبه منفعلين بمشاعر الحذر منه، والذين هــم بآيــات ربهم الشرعية المتلوّة في كلم الوحي التي تبلغهم ويسمعونها والطبيعة في مشاهد الكون التي تنبسط حولهم ويشهدونها - هم مؤمنون راسخ في وجدانهم مطمئن مــا تــدلّ عليه وتهدي إليه تلك الآيات من إخلاص العبادة والرجاء والتقوى لله ربهم الأكبر، والذين هم بربّهم الواحد الذي لا يحقّ لهم عبادة غيره - لا يشركون شيئاً من مُوقّــر مشهودات الحياة أو محبوب شهواتها أو مؤلّه أصنامها ممّا تُجلّه بظنون الهوى أو لمــوروث حوله التقاليد، والذين يُؤتون ما آتوا من بذل أعمال البرّ وأعطوا إنفاقاً من عفــو الرزق وفضله عندهم - لا رياءً وفخراً لدى من يشهدهم ولا مناً ولا أذىً على من يتلقّى منهم، قلوبهم وجلة - شديدة الخوف - أنهم إلى ربهم الخالق الرازق راجعون لــيجازيهم أن قد بخلوا بما استخلفهم فيه إلا قليلاً أو قد أعطوه بشائبةٍ من نيات إرواء لــشهوة التفضّل على الناس أو كسب للفخر أو الشكر العاجل ليس إلاً، فهم وجلون ممــا يحقّ عليهم عند المرجع إلى الله ألاّ يُتقبّل منهم عمل فيه شائبة كفر لجميل نعمة الله دون الــوفاء بحمــده رازقاً وشكره عليها أو هو تمتّع بها في العاجلة دون ذكر الرجاء لآجلــة مصير يحقّ فيه الملك والقضاء لله مُخلف الأجر عن كل إنفاق في سبيله أولئك الــذين يــتقون الله مشفقين ويؤمنون بآياته دون شرك ويُنفقون ما يُنعم به عليهم الله وجــلاً من حسابه يوم المرجع إليه - أولئك يُسارعون في الخيرات من صالح الأعمال والــصدقات معاجلين بدفع من ذلك الزاد الوجداني الفائض في نفوسهم، وهم لها فعلاً

سابقون يفوقون سائر فاعلي الخير ويتحرّون الفوز بما تثمر خيراً فاضلاً في العاقبة بينما يتراخى عنها ويخيب الذين يلابسهم الظلم والشرك والغفلة عن وقع المرجع إلى الله.

﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (٦٢)

تلك سيرة الخاشعين المؤمنين المسارعين إلى الخيرات أداء لتكاليف العمل الصالح، والله بأقدار ابتلائه الجليلة بين يدي عاقب جزائه وقضائه بالقسط بين عباده المتنافسين سباقاً إلى الخير لا يُكلّف – كما يقول – نفساً إلا وسعَها من ذلك التكليف لا يُحمّلها إصراً من ثقال الطاعات لا تطيقه ولا قدراً من إحسانها لا تسعه مبلغاً، ولديه ﷻ بعظيم أقدار علمه المحيطة بوقائع الحياة وكسوب العباد – كتاب، صحائف مسجّلة فيها أعمالهم في سياق ابتلائهم ونسبة وسعهم، ينطق بالحق شهادةً لهم تتوارد فيه بيّنات للقضاء في الأعمال لا تنقص ذرّة من حساب مقاديرها ولا درجة من تقويم أوزانها. وهم – أولئك المؤمنون الخيّرون التُّقاة الموحّدون لله بقدر ما ابتُلوا فكسبوا واستطاعوا فوسعوا بقلوب وجلة من الحساب عند المرجع إلى الله هم لا يُظلمون قضاءً دون عدل التكليف المقدر لهم حسب وسعهم بل يُعدل لهم قسطاً.[1]

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ (٦٣)

ذلك هو الحقّ لكن من أمة المخاطبين الكفرة لا يتقون الله فيخشونه ولا يتصدّقون ممّا رزقهم ولا يبلغون وسعهم من الصلاح والخير، بل قلوبهم في غمرة يُغرقها حبّ متاع الدنيا وإيثار حاضرها دون مشاعر إيمان بالله خالص مصوّبة نحو الآخرة أو مجاهدات لبلاءات المتاع، ولهم أعمال من دون ذلك التجلّي والمجاهدة السّابقة إلى الخيرات، معاصي أدنى مستوى خلق من الطاعات المكتوبة عليهم أو أحط من درجات الصلاح الميسورة لهم، هم في فعالهم لها عاملون عمداً لا يكفّون عنها كسباً بغير حمد لله واقتحاماً في مبتغيات الحياة، وهم في وجدانهم بغير تقوى مشركين بغير إخلاص إيمان غافلين عن الآخرة لا يصيبهم وجل من لقاء ربّهم فيها ووقع حسابه وجزائه.

---

(١) في ذكر كتاب أعمال العباد بحق وعدل – راجع الآية ٤٩ سورة الكهف، وانظر الآية ٢٩ سورة الجاثية.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لاَ تُنْصَرُونَ﴾ (٦٤ – ٦٥)

يمـدّ الله للناس في الدنيا المتاع فتنة كفر أو إيمان وظلم أو تقوى وغفلة أو تذكّر، ويـذرهم يعملـون حسبما يقع من كسبهم. حتى إذا أخذ – بأقدار حساب وعقاب حاقّة عاجل في الدنيا أو آجل في الآخرة – مترفيهم الذين يَعلون بينهم مبالغة في التمتّع سـرفاً وتـرفاً، إذا هـم عندئذ – وقد أعرضوا عن التذكّر والخشية من الله في سابق كسبهم من الأعمال – يجأرون صرخة ذلّة وشكوى من وقع الوعيد بعد نذيره وغلظ العقـاب الـذي حـقّ عليهم جزاء وفاقاً مبلغ ترفهم – عندئذ تتنـزّل عليهم كلمة الخطـاب الحقّ العدل: ألاّ يجأروا حيث لا يجدي الجأر اليوم ويتعزّز عليهم لزوم وقع الخطاب بأنهم من الله – بأقدار سلطانه العزيز جازياً قاضياً وجنود عذابه النافذ طوعهم لأمـره – لا يُنصرون من وليّ مما كانوا يفترون من أولياء شرك بالله، بل هم خاسرون مهـزومون بحـق عدالة الله الحاسمة وبوقع عزّته الغلاّبة في تصريف أقدار الدنيا ومُلكه الجبّار يوم الدين.

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ (٦٦)

عـندئذ – يوم يحق ويقع العقاب والعذاب – مضي على أولئك المترفين خطابُ المـلام من الله: أن قد كانت – في سابق الأمور – آيات الله الموحاة تُتلى عليهم ببلاغ المرسلين وأنهم كانوا عنها معرضين على أعقابهم ينكصون عن الهدى مرتدّين القهقري متمادين في الضلال لا يُبالون بالنذير لا يُقبلون مستجيبين لداعي خطاب الرسالة الحق بكلمات الإيمان بالغيب ووصايا أعمال الصلاح.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ (٦٧)

كانـوا كـذلك يـتلقّون ذكر آيات الله مستكبرين عن الخشوع له، به سامراً يهجرون، في مسامراتهم ومجالس حديثهم ساعات سُمرة الليل بين بياض القمر وسواد الظلام يخوضون بشأن ذلك الذكر قائلين لغو القول وفحشه بزعمه سحراً أو شعراً أو أقاويل أوّلين أو افتراء.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ (٦٨)

ما بالهم كذلك لا يُقبلون على ذلك الذكر ليتلقّوه مسموعاً بليغاً حكيماً وينظرون عواقب خطابه، أفلم يدّبروا ذلك القول المتلو عليهم وحياً ليتبصّروا معانيه وترسخ في وجدانهم هواديه لحياتهم؟ أم جاءهم من وصايا تعاليم الرسالة وأوامرها ونواهيها الموحاة حقاً من الغيب رسالة يبلّغهم إياها بشر - ما لم يأتِ آباءهم الأولين؟ إذ انقطع عنهم الهدى المتنزّل فما عرفوا منذ أبيهم إسماعيل فإبراهيم هداية بل تفرّقوا عن تراثه في جاهلية منحجبة عن رسالة الغيب بفتن الدنيا الشاغلة وظنون الهوى الباطلة وارتهنوا لما أورثهم آباؤهم الأولون الأدنون من تقاليد أعمت بصيرتهم وأصمّت آذانهم عما جاء متجدداً من وحي القرآن المنزل يُحيي ملّة إبراهيم ويجددها ويذكّر بالهدى التوحيدي دون إشراك والغيب بعثاً بعد الموت، لا ما عهدوا في جاهليتهم الضالّة الموروثة.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ (٦٩)

لَم أدبر المخاطبون عن القرآن واستكبروا سامرين بقول الهجر عنه؟ ألقصورهم عن تدبّر مقولات القرآن المتلوّة عليهم التي تدعو لتفهّمها وتبصّر عواقبها أم لغربة رسالة وحي مما لم يعهد سلفهم، أم لم يعرفوا رسولهم الذي اصطفاه الله منهم حتى أنكروا القول الذي يبلّغه، ألغربته هو أم لسان رسالته أم الريب في صدقه وأمانته في الرواية؟ وهم حقاً عرفوه نسباً ونشأةً فيهم وعهدوه أميناً في خلقه وكلمه وعرفوا رشده وزهده، وإذا سئلوا عنه من سائر العرب أو من النجاشي أو هرقل مدحوا فيه ما عهدوا قبل الرسالة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٧٠)

أدعاهم ما سبق ذِكرُه للإعراض عن دعوة الرسول وللطعن في استقامة تلاوته لرسالة القرآن، أم يقولون به جنّة؟ إذ يحسبون دعوى الصلة بالغيب والإتيان بما هو عليهم حديث غريب إنما هي من نزع الجنون[1] فيرمونه بأن به تلك الخاطرة لا يروي خبراً من الغيب

(١) في زعم المخاطبين الأُول بأن الرسولﷺ به جنّة لترويج ارتيابهم بحقّ رسالته - راجع مقارناً ما رُمي به نوح: الآية ٢٥ من ذات السّورة، وفي سنّة ذلك الزعم في مُخاطبة المرسلين: انظر الآية ٥٢ سورة الذاريات، ويتوارد ذلك القول بالمجنون في شأن الرسول الخاتم في آيات كثيرة، ويرد في شأن نوح وموسى في آيات.

يوثق به. بل ما أصابوا في شيء بذلك الحكم على رسولهم، وإنما قد جاءهم بالحق الصائب والبيّـــنة الثابتة الواردة فيه إبطالاً لظنوهم وتقاليدهم فتجاوزاً لعبادة معهود أصنامهم صوباً إلى الله ودعـــوة للإيقـــان بتصديق الموعد للقائه بالبعث بعد الموت الذي يُنكرون وتقويماً لـــشرعتهم ومنهاجهم وخُلقهم في الحياة الدنيا. وأكثرهم لذلك الحقّ كارهون إيثاراً لحبّ حاضر الدنيا فاتّباعاً لأهوائهم والتهاءً بشهواهم وارهاناً لمعهوداهم فخوفاً من أن يُنكر منهم الصبوء إلى صحيح جديد من الدين غير مألوف لسلفهم.

﴿وَلَـــوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧١)

ولـــو صُـــرف مورد الحق عن علم الله وحكمته البالغة واتّبع الحقُّ في تعاليم الوجود وهـــوادي الحياة أهواءَ أولئك المخاطبين المعرضين المحصورة في العالم المشهود غفلةً وجهالةً المفـــتونة بـــشهواته تعلّقاً وفجوراً المقصورة عن ميزان العدل ظلماً وفسقاً ومضى الأمر في غـــياهب الباطل والضلال، إذاً لفسدت السماوات المحكم بناؤها الموزونة كائناها الطبيعية والمـــنظومة فيها حركة المخلوقات الجنيّة والمَلَكيّة المطوّعة، ولفسدت أيضاً الأرض المسخّرة بـــسنن منسوقة وأفسدها مَن فيها من البشر ينطلقون بخيار عربيد ضرباً في الضلال وإحالة لـــنظام مهـــاد حياهم ورزقهم وبيئتهم إلى خراب واضطراباً في العلاقات بينهم لاختلاف الأهـــواء وارتـــباك التنازعات، ذلك إن لم يضبطهم إطار من مشيئة الله الواحد ومقاديره المـــسنونة و لم يعـــرف المؤمـــنون منهم هدىً من الله إلى الحق. بل أتاهم الله بأقدار رحمته العظـــيمة بذكـــرهم، بما يحيي الحق الذي دسّوه في فطرهم فنسوا آيات الإيمان في الكون حولهم وغفلوا عنها بأهوائهم وأعرضوا عن آيات الله المنـــزلة المرسلة ومن ثم عمّا يحق لهم لـــو اهـــتدت وتزكت حياهم في ضوئها أن ينالوا ذكراً أعلى وشرفاً وسمعة ويبلغوا مثالاً مذكوراً في الإيمان والعبادة لله وأخلاق العدل والصلاح ومستوى العز والترقّي الرّفيع. فهم بداعـــي تلـــك الأهواء معرضون عن الحق المنـــزل المرسل إليهم فعن ذكرهم، إذ الحق هو الذي يذكرهم ويعلّمهم ويهديهم فيرفع شأهم بين العالمين.[١]

---

(١) في أمـــر القرآن ذكراً ورفعة شأن الرسولﷺ أو له ولقومه – راجع الآية ١٠ سورة الأنبياء، وانظر الآية ٤٤ سورة الزخرف، والآية ٤ سورة الشرح.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٧٢)

أتـــراهم – كما يُخاطب الرسول ﷺ – أعرضوا هوىً واعتسافاً عن ذكرهم، عـــن المـــتلو عليهم علماً وهداية الذي يُعلي ذكرهم ويُحسن صيتهم مثالاً حسناً في الحـــياة، أم لأن رسولهم تسألهم خَرْجاً، يكرهون أن يتبرعوا بأجر يَسأله عوضاً عما يبلّغهم من رسالة الهدى؟ والرسول غنيّ عن أيما جُعل أو أجر منهم فإنما يكل أمره إلى الله الـــذي يُذكّـــره في ذلك أن خراج ربّه له جزاءً موعوداً مكتوباً راتباً وفاق أداء الرســـالة وبلاغ الأمانة – ذلك العائد من ربّه الذي رعاه أبداً – خيرٌ مما عندهم من خـــرج قد يُرجى لكنه محدود مقطوع. وهو ﷻ خير الرازقين مداً لعباده المرزوقين حياةً ومتاعاً فضلاً ونعمة منه تعالى أو أجراً على أداء التكاليف المفروضة منه أو رزقاً كـــريماً خـــيراً وأبقـــى يـــوم القيامة جزاءً لما قدّموا في الدنيا من بلاغ رسالة الحق وعـــبادة الله بهديها وزهد في أيّما عوض في عاجل الدنيا وتوكلاً على ذلك الرجاء الآجل.(١)

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٣)

ويـــؤكّد الخطاب للرّسول ﷺ بأمر مؤكد أنه لا يخاطبهم – أولئك المعرضين – خطابـــاً ينفـــي تلك المطاعن السابق ذكرها فيما يبلّغهم، فحسب، وإنما يدعوهم إلى صـــراط مستقيم وطريق حياة مستقيم إن سلكوه يوصلهم إلى خير عواقب الحياة الدنيا ثم ينتهي بهم مستقيماً إلى الحسنى مصيراً في الآخرة.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ (٧٤)

والحـــق الأكـــيد كون الذين لا يؤمنون بالآخرة وما يحقّ فيها من جزاء العقاب والشقاء المرهوب والأجر والنعيم المرغوب – هم لا همّهم استقامة الصراط إلى حسنى ذلـــك النعـــيم، هـــم عن ذلك ناكبون، يُعرضون عن مقدمة ذلك الطريق في الدنيا ويعدلـــون عـــنه اعتزالاً واجتناباً عامداً. وأولئك هم أمة الخطاب الجاهلية الأولى من

(١) تتكـــرر الآيات أن الرسول ﷺ لا يسأل أجراً عن بلاغ رسالته – انظر الآية ٤٧ سورة سبأ، والآية ٨٦ سورة ص، والآية ٢٣ سورة الشورى. وتتواتر الآيات تنفي عن الأنبياء سؤال أجر على رسالتهم.

العـــرب الـــذين نـــسوا من قبل أصول دعوة أبيهم إبراهيم وأنكروا البعث بعد الموت وكفروا بالرسالة لعهد تنـــزّلها الأول في مكة.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥)

هـــم يتمادون في ذلك الكفر بالغيب والآخرة وفي الضلال عن الصراط المستقيم إليها، ولو رحمهم الله بأقدار لطفه الواسعة وكشف ما بهم من ابتلاءات ضرّ تعرض لهم في الدنـــيا لا يستجيبون لعطاء الرحمة بالإنابة إلى الله ولا يحمدونه ﷻ فيعبدونه شكراً، بل يتأكّد عندئذٍ أن يُروا لجّوا تمادياً عظيماً في طغيانهم وإفراطهم في منابذة الحق وتجاوز الاستقامة في طريق الحياة يعمهون عن عمى متحيّرين بلا بصيرة.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (٧٦ – ٧٧)

ولقـــد ابتلـــى الله بالموعظة في الدنيا أولئك الطاعنين العمهين فما تذكّروا – لقد أخـــذهم بأقداره العظيمة في تصريف البلاء للإنسان وتقليبه بعد رحمة أو كشف ضرّ غـــضباً فعـــذاباً – أخذهم أولئك المخاطبين الأُول من العرب بالعذاب من وقع البلاء المـــصيب وبأساء الصحراء والجفاف وحذر الغزو من الجيرة الطاغية فما تذكروا وما اســـتكانوا لربّهم الذي يرعاهم تائبين خضوعاً، وما يُروا متضرعين إليه ﷻ بالشكوى والدعاء، لا تنفتح قلوبهم غُلفاً ولا تلين قاسيةً بل يتمادون غافلين في ضلالهم. حتى إذا حقّت ساعة العقاب والحكم الحاسم فتح الله العظيم بجليل أقداره ووقائع قضائه باباً من صروف العواقب جرّ عليهم عذاباً شديد الوقع لا ضرّاء عارضة في الدنيا بل بغتة هلاك أو صـــيرورة إلى الآخـــرة فالنار، إذا هُم – كما تُرى حالهم – في ذلك المآل مبلسون آيسون من الرّحمة إذ يكون قد قُطع دابرهم وقُضي أمرهم حُكماً فصلاً.[١]

عموم المعاني (للآيات ٥٤ – ٧٧):

إن الوصـــية للرّســـول داعيةً مجدداً لرسالة الإسلام المتوالية ولسننه الماضية وأمته

---

(١) في قسوة قلوب المُعرضين يأخذهم العذاب فلا يتضرّعون حتى يؤخذوا بالعذاب الشديد الأكبر فإذا هم فيه مبلسون – راجع الآيات ٤٢-٤٥ سورة الأنعام.

الـــواحدة - وكـــذلك لكـــل داعية من خلفه يتّبعه ويقتدي به - إن رأي أتباع ملل المرســـلين السابقين أو رسالة الإسلام فرقاً كل حزب بما لديهم فرحون يصدّهم هوى العصبية عن الإجماع استجابة لدعوته - الوصية له أن يذرهم في غمرتهم أحراراً مصابراً هـــو حتى حين. فقدّر الله في شأن الإنسان أن يذره طوال حياته سادراً في فتنته ما شاء حـــتى يأتيه أجل الموت ويتهيّأ لبعث في حياة أخرى أولُ عهدها السؤال عن كسبه في ســـابق البلاء ومدى عهدها بعد فصل القضاء الخلودُ. وقد تتواصل الفتنة السادرة أو الضِلّة والشتات المتشعّب في خلَف الأنبياء السالفين بما يدعو المؤمن الذي يلحظ ذلك للتـــساؤل - كما يعلمه القرآن: أيحسبون بأوهام أهوائهم الدنيوية القاصرة أن حظّهم مـــن البلاء مما تمدّهم به أقدار الله من مال وبنين هو مسارعة تفضيل ربّاني قدري لهم علـــى الآخـــرين، تُبـــسط الخيرات ليتمتعوا بها امتيازاً؟ بل لا يشعرون أنه ﷻ يُيسر للعـــسرى مـــن اختار الكفر بنعمته ويمدّ له إملاءً وابتلاءً حتى يحين ويحقّ عليهم جميعاً أجل الحساب على السيّئات المتضاعفة المتكاثفة. والحق أن الذين هُمّهم الأشغل لهم في دنـــياهم هـــو خـــشية ربهم إذ هُم مشفقون من أن يغفلوا عنه فتفتنهم شهوات الدنيا فتورطهم في السيئات فيحق عليهم غضبه وعقابه العاجل أو الآجل، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون يرونها في نعمه المبسوطة المشهودة يُبتلون بها فيؤمنون به محموداً ويرونها في دورة الحياة والموت الطبيعية فيتقون المرجع إليه حسيباً على ما كسبوا فيما قُدّم لهم في الدنيا، والذين بربهم لا يُشركون متعلّقات الدنيا فما يعرض لهم من نعم أو متاع حاضر يهـــيج أهـــواءهم فيُعميهم شهوة أو أسباب كسب عاجل مبتغاة فاتنة أو موهومات مظنونة أو أشياء مشهودة موقرة مؤلهة، والذين يؤتون ما آتوا من كسوبهم ويُنفقون ما أمدّهم به الله من أموال وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربّهم راجعون مسئولون عمّا استخلفهم فـــيه: هل آتوه حقاً عطاء بلا تكاثر وتفاخر على الآخرين المتلقّين ولا أذىً ولا تفضّل علـــى المحتاجين أو آتوه تعاوضاً عدلاً لا غشاً بالباطل بين المتعاملين؟ أولئك مَن جمعوا كـــل تلـــك الصفات يسارعون في خيرات البرّ والصلاح كما سارع الله لهم في جميل عطائه رحمة وهدى، وهم لها سابقون ينافسون في درجات ابتغاء الأجر من الله والنعيم الخـــير الأبقـــى عنده لا في سبيل الغلب بمعايير الشر والكسب الباطل والفضل بموازين

الشرف في الدنيا. والله حسب عظيم أقدار عطائه وبلائه لعباده وحكيم عدله بينهم لا يكلّــف نفساً إلا وسعها مما آتاها ولديه في موازين القسط في حساب الآخرة كتاب يــنطق بالحق من مرصود أعمال العباد في الدنيا وهم لا يظلمون ذرّة من كسبهم، ولو ضاق وسعهم فما آتوا إلا قليلاً.

إن المخاطبين برسالة الإسلام المتجدد عند تنــزّل القرآن ومن بعد كلّما تجددت بهـــا دورة تذكير ونهضة يُلفى فيه المدبرون عن الثبات على سنة الإيمان بالغيب والهدى أمّـــة واحـــدة تقية والذين أصبحوا خَلَفاً أشتاتاً مفتونين بالدنيا ومنافساتها بعد نسيان الدعـــوات الخالية الهادية الجامعة والذين يُبتلون بمدّ من الله أموالاً وبنين فإذا قلوبهم في غمـــرة عـــن التطهّر من فتن الدنيا وعن تذكّر الحمد لله وتوحيده وتقواه ورهبته فعن المسابقة في البرّ بما وسعهم من رزقه رجاء فضله يوم المرجع إليه، ولهم في حياتهم الدنيا أعمال من دون ذلك هم لها عاملون وفيها متمادون. كذلك تمضي سنة الارتداد خلف عهود تجديد الرّسالة الحق ضلالاً عن الهدى وانصرافاً وشتاتاً عن أمة الدين الحق وقبلة الإسلام الواحدة في الحياة وانفتاناً ببلاءات النعمة الممدودة من الله فغفلة عن تقوى الله ورجائـــه. والوصـــية للدعاة اقتداءً برسول الإسلام ﷺ أن يُراعوا وصية الله: يذرون أولئك معربدين في غمرتهم حتى حين تأتيهم بقضاء الله الذي يسمي الآجال ويُصرّف وقائع الأقدار طارئةُ عقاب تأخذ مترفيهم بالعذاب، فتراهم من وقعه يجأرون بعد فرح المتاع، ولا يجديهم الجأر فإنهم عندئذ مصابون بقضاء الله الواقع لا ناصر لهم، وقد حقّ عليهم الجزاء إذ سبق النذير. وحقّ أن يُخاطبوا لوماً عند الحساب والعقاب أنهم كانوا عـــن آيات الله الواحد التي تُتلى عليهم ويُبيّن هديُها من الدّاعية على أعقابهم ينكصون مـــستكبرين ولا يتذكّـــرون أقوال الدعوة التالية لآيات الله إلا تسامراً بها في مجالسهم ونواديهم طعناً فيها. أفلم يدّبروا مقولات الله في تلك الآيات أم استنكروها إذ جاءهم فيها – عهد الرسول الخاتم أو عهد التجديد من خَلَفه من الدعاة – ما لم يأت آباءهم الأولين الذين وجدوهم على أمة من الجهل والنسيان للحق والتفرّق بالعصبية فانحصروا فـــيها مقـــتدين يعرضـــون عن التذكير المتجدّد؟ أو لم يعرف العرب الأولون رسولهم محمـــداً ﷺ صـــادقاً أميناً قبل أن تأتيه الرسالة، أولا تعرف مجتمعات المسلمين الضالة

دعاهَــا صادقين أمناء قبل أن ينشطوا فيها بدعوة التجديد، فما بال المخاطبين برسالة الــتذكير قديماً ومن بعد يرتابون بمن يَحمل الدعوة الجديدة الغريبة أو يُنكرون كأنهم مجهولون. أم يقولون أن بالدعاة جنّة كما قيل بالرسول الخاتم من قبل، كأنهم لا يأتون إلا بتخاليط لعفو خيال معلول؟

بل جاءهم مَن بدأ دعوة الرسالة ومَن جدّدها بالحق والرشاد، وأكثرهم كارهون للحق لأنهم يأبون الإخلاص لله معبوداً وحده والاستقامة على هديه الموحى. ولو اتّبع الحقّ – حقائق وجود وهوادي حياة – أهواءهم لفسد نظام السماوات والأرض ومَن فــيهنّ من المخلوقات، لارتباك أقدار الآلهة والمعبودات المتعددة وتناقص فعالها النافذة وتخاصــمها وتغالــبها صــراعاً نحو الألوهية الأعلى المطلقة، والإفساد في الأرض بعد صــلاحها من الإنسان إذ تتنازعه التعلّقات بالمعبودات أرباباً متفرّقة ودواعيها المختلفة اخــتلاف ظنون الإنسان وأهوائه مما يفتري وحياً من أوليائه وآلهته مشركاً. بل الحق الذي تنــزّل بأقدار وحي علم الله الواحد الصمد وعلمه وهديه يخصّهم بأول الخطاب إنمــا آتــاهم بذكرهم ورفع شأنهم ليكونوا أمةً وسطاً مهتدية قدوة للعالمين أعزة وقد كانــوا أذلــةً مُنكرين بين الأمم. ذلك شأن العرب الأُوَل لصدر سيرة الإسلام وفاتحة وقعــه وهو كذلك شأن كل مجتمع آخر ولو كان ينتمي إلى ملة الإسلام لكنه لم يعُد مذكــوراً مــشهوراً لأنه ضيّع أمانة دينه، فالدعوة الجديدة التي تذكره وتنهض به نحو أعــالي قــيم الدين المثلى ونظمه الوسطى تجعل له ذكراً وصيتاً وتبسط له قدراً وسمعةً حــسنى في العــالم. ومــن صــدّ من أولئك أو هؤلاء فهم عن ذكرهم ورفعة شأنهم معرضون. أم ظنّ المخاطبون الأُوَل أن الرسول الخاتم ﷺ كان يسألهم خرجاً، وما كان بسائلٍ أجراً على دعوته فخراج ربّه خير إذ هو ﷻ خير الرازقين. وكذلك الدعاة على ســنته لتجديد الإسلام ونهضة أهله والداخلين فيه لا يبتغون عائد نفع لهم خاصة وإنما العاقــبة لهــم الخيرة عند الله العاجلة والآجلة والاسم الحسن في الدنيا لمن يُخاطبون، ولكــنهم معرّضون لما تعرّض له إمامهم النبيّ ﷺ ويمضون مثله دعاةً وقُدىً لمن يحمل الدعــوةً بعدهم. وكان عموم مقصد الرسول هِداية أمّة الخِطاب إلى صراط مستقيم في الحياة – لكن المخاطبين أكثرهم لا يؤمن بالغيب، لا يُدركون لازمة وصل مسيرتهم في

الدنـــيا بعاقبـــتها في الآخرة الحاقّة يوماً موعوداً، فإنهم عن ذلك الصراط لناكبون. ولا تعظهـــم تصاريف البلاء، فلو رحمهم الله بأقدار لطفه بعباده فكشف ما بهم من ضرّ ما شـــكروه وما تابوا إليه بل لجّوا في طغيانهم يعمهون. ولقد مضت سوابق أن أخذ الله أمـــثال هؤلاء الناكبين عن الصراط المستقيم بالعذاب، فما اتعظوا وما استكانوا عندئذٍ لربهم وما كانوا تراهم يتضرّعون إليه شاكرين داعين، بل تمادوا حتى إذا فتح الله بأقدار غضبه وقضائه عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون يأساً من تدارك رحمة الله ومـــتابه. وتلك موعظة لكل عهد خالف تجددت فيه دعوة الإسلام ولجّ المخاطبون بها في غمـــرة طغـــيان، إذ لا تغني فيهم عارضات رحمة الله أن يتذكروا ولا غاشيات ضرّ عذابه أن يتّعظوا حتى يأتيهم عذاب هالك.

هكـــذا ســـنة المعرضـــين عن دعوة الدين الحق المتجددة في خالف العهود. قد يهجرون في ذكرها مسامرة ولا يتدبّرونها مداولة ويستنكرون فيها الجديد الغريب إذ لم يعهدوه قبلاً فيحملون على الدعاة بما لم يعهدوا فيهم حقاً من خلق أمانة ورشد. وهم قـــد يصدون عن الحقّ إشراكاً ومذهباً في الاعتقاد يفسدَ به نظام الكون والوجود كله لو حقّ مقتضاه. ويرتابون بمقاصد الدّعاة وإنّما يدعونهم في سبيل الله ولا ينظرون منهم أجـــراً إلا الذكـــر في الحياة لهم هم المخاطبين ويدلّونهم إلى الاستقامة نحو خير الدنيا فالآخرة. لكنهم قد ينكصون عن ذلك كله لكفرهم بالغيب، ومهما يتقلّب بهم البلاء هـــم يكفـــرون، تغشاهم من الله الرحمة وكشف الضرّ فلا يتذكرون الله ولا يحمدونه ليعبدوه حقاً بل يعمهون في ضلالهم، ويغشاهم قدر عذاب فلا تراهم تائبين متضرعين إلى الله داعـــين السلامة، حتى تفتح عليهم أقدار الله أبواب عذاب أشدّ وعندئذٍ هم في إبلاس وإياس من رحمة الله غفوراً تواباً إذا لم يتوبوا من قريب وإنما عندما حضرهم الهلاك.

ترتيل المعاني (الآيات ٧٨ – ٩٢):

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨)

يتـــصوّب الخطاب بذكر الله إلى الذين نـــزلَ عليهم الحقّ بآياته المتلوّة فكرهوه وأنكـــروه وتقلّـــبت عليهم ابتلاءات الرحمة والعذاب فما تذكّروا إلا أن يُبسلوا تحت

وطـــأة العذاب الشديد، فانضاف إلى ذلك التذكيرُ الذي يتلقّونه في غفلتهم عن آيات الله المشهودة في الطبيعة دلائل على ربوبية الله وتصاريف قدره المحيط بالإنسان: أنه ﷻ هـــو الذي أنشأ لهم بشراً وظائف حسّهم وإدراكهم، السمع أول الإدراك وهو المتلقّي لوقـــع الأصـــوات والأبـــصار المتسعة بالضوء لإدراك شتّى الصور فالرؤى للمشاهد والأفئدة وهي القلوب مراكز الشعور والانفعال والتوقّد المحسوس مما يدركه الوجدان. ولكـــن مهما يحقّ الحمد على كل ذلك يمضي الخطاب يذكّرهم بمذهبهم بعد إنعام الله بـــذلك كلـــه من وظائف الحياة: أن قليلاً ما يشكرونه ﷻ على أن بسط لهم أسباب الإدراك الحسّي وتلقّي وقعها علماً وشعوراً فانفعالاً حياً في القلوب.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٩)

وفـــضلاً عن ذلك الذّكر لنعم الله في البناء البشري للإنسان يُخاطب أولئك أنه هـــو ﷻ الـــذي بسطهم عبر الوجود وذرّهم خلقاً وبثاً منتشرين متعاقبين في الأرض، وإلـــيه يُحـــشرون يـــوم القيامة بعثاً بعد ختام الحياة الدنيا وضلال أجسادهم في مادّة الأرض موتى نشأةً أخرى لهم بعد الأولى هي أهون على الله ولا يولدون ذراري منبثة بل يُحشرون يومئذ جمعاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (٨٠)

وهـــو ﷻ أيضاً، كما تبدو آياته في تكوّر أطوار الكون المخلوق – الذي يحيي ويمـــيت، يُديـــر على أولئك المخاطبين وسائر الأحياء من دواب الأرض ونباتها الحياةَ والحـــركة والـــنماء ثم الموت والفناء لمواد الخلق وتُتوفّى الأرواح للإنسان وتُحفظ في بـــرزخ حتى عود البعث. وله ﷻ أيضاً آيات في أقدار تصريف الظروف والأوقات في ذلـــك الكون، له اختلاف الليل والنهار ظرفان يتخالفان ظلام فسكون فضوء نشاط ويتعاقبان بياناً لحساب مرّ الحياة في الزمان وعهود السابقين ولتقدير انتظار قادم الأيام الخالفـــة للقرون المستقبلة. وتلك آيات، ففي الإحياء بعد العدم فالموت من بعدُ دلالة علـــى دورة الوجود المخلوق وقدرة الله على البعث للإنسان في نشأة حياة آخرة، وفي تجلّـــي النهار بعد غشيان الليل دلالة على خروج الحياة مشهودة عند قيام الآخرة بعد غـــيوبها مغمورة عند الممات ومرّ ظرف عابراً الدنيا إلى أزل الآخرة العاقب. أفلا يعقل

أولئك المخاطبون – كما يُخاطبون، أفلا يرسّخون معتقلين في وجدانهم الدواعي لحمد الله القـــادر والعـــبر لقضائه الدوّار في تصريف مثاني الوجود ودورة الكون، ويكفّون الالـــتهاء بمـــتاع الدنيا الصارف عن التفكّر في أطوار مرّ الدهر أوقاتاً متعاقبة ودورات الحـــياة والموت أحوالاً متوالية والنفاذ برؤية للوجود المنظور حياة بعد الموت الدنيوي العابر وأزلاً بعد الزمان الدهري الماضي.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (**٨١–٨٣**)

لم يتبـــصّر أولئك المُخاطَبون آيات الله القدير على بعث آخر في أزل خالد إذ هو الـــذي أنشأ فيهم قوى إدراك وذرأهم في الأرض ذراري يحييهم ويميتهم عبر ما يُكوّر مـــن الليل والنهار فيُمرّ من أيام الدهر. بل قالوا مثل ما قال الأولون وتناقلوا موروث المقـــولات ارتهانـــاً لها مكرورة سيّارة منذ سلفهم الذين نسوا نذير الرسالات الأولى بالآخـــرة وغفلـــوا عـــن تبصّر آيات دورة الحياة والظروف المشهودة وتدبّر مغزاها، فجمدوا بوجدانهم وأنكروا التذكير المتجدد ولو كان نذيراً حقاً بالآخرة. قالوا– ترداداً للصدى المتقادم لمقولات آبائهم متسائلين استنكاراً: أئذا ماتوا وكانوا تراباً وعظاماً – ســـنة مشهودة، بَليت أجسادهم وضلّت مدفونة في التراب ونخرت هياكلهم العظمية قدماً – أهم بعدئذ حقاً مبعوثون في نشأة تامة وحياة وحركة ونطق من جديد؟ وقالوا إنهـــم قـــد وُعـــدوا هم وآباؤهم هذا الوعد الغيبـــي بعثاً وحياة أخرى، من قبلُ في مأثـــورات باقيات لدى المتحنّفين فيهم منذ ملة إبراهيم والصابئين وما حولهم من أثر ذكر المرسلين ولدى الكتابيين، يُقال لهم ذلك ويُرون هم أن ما هو إلا أساطير الأولين، أقاطيع حديث مفترى عن الغيب مروي سائر منذ السلف الأول.[1]

﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (**٨٤ – ٨٥**)

---

(١) في ذكـــر المخاطـــبين المنكرين في القرآن وعد البعث لهم ولآبائهم فلا يرونه كما يقولون إلا أســـاطير الأوّلين – أنظر الآية ٦٨ سورة النمل. وتتواتر آيات كثيرة في ذكر الإنكار للقرآن وآياته بتلك المقولة.

أُوصـــي الرّســـول ﷺ أن يُذكّـــرهم - بعد إنبائهم بآيات البعث ونفيهم المحتّم لتـــصديقها - ســـائلاً عمّا يُقرّون به من حقائق معروفة مشهودة تقتضي الإيمان بحقّ البعث: أن لمن الأرض ومَن فيها ربّاً خالقاً وملِكاً مصرّفاً؟ إن كانوا يعلمون ما حولهم مـــن العـــالم المباشـــر قدْر الأرض ومدى ما فيها من جماد وأصل ذلك كله في دهور الوجـــود ومَن فيها. من مخلوقات غير جامدة كأنها عاقلة لأنها حيّة نابتة أو دابّة كثيرة مختلفة. سيقولون تبيُّناً مما يرون فيها من الطبيعة وتصاريف الحياة: هي لله. ليقل لهم إذاً الرســـول: أفلا يتذكرون ما هو مركوز في فطرة أنفسهم أن الله ذو قدرة مطلقة، وهو أهـــون علـــيه أن يعـــيد تبديل الأرض وخلق الإنسان البشر بعد الموت بعثاً فيُصوّبون تعـــبّدهم كله مرفوعاً إلى الله القدير العليم المتعالي ويطوون حجاب غفلتهم عن الغيب ويصرفون غاشية تعبّدهم المنحصر صوب ما يشركون بالله من دونه؟

﴿قُـــلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ (٨٦ - ٨٧)

لـــيقل لهـــم الرسول ﷺ المذكّر المبلّغ لهداية الله سائلاً لهم عن العالم المشهود المتعالي فوقهم: مَن ربّ السماوات السبع؟ ما تلك بربوبية تحقّ للأرباب المتفرّقين الذين تنسب لهم أوهـــام عـــبّادهم المـــشركين تصريفاً لأمور أو ظروف محدودة في أقدار حياتهم أو الكون حـــولهم، بل هي لله الربّ الأكبر المتعالي الذي بيده السماء الدنيا المباشرة للبشر وما وراءها مـــن الـــسماوات المـــتطابقة التي يمتدّ وجودها في الكون غير المشهود، فالشمس والقمر والـــنجوم المتـــرامية في الآفاق والغيث المتنـــزّل والرياح المتدافعة - كلها في السماء الدنيا فكـــيف بمـــدى سائر السماوات الذي لا يحيط به إدراك الإنسان، ومَن الربّ الذي خلق فملـــك وصـــرّف وعلـــم كـــلّ شيء في ذلك المدّ من الوجود وما فيه من المخلوقات والمحـــدثات؟ ومَن هو ربّ العرش العظيم المحيط بإطار الوجود المشهود والغيب وراء المكان والـــزمان، مركـــز المُلك والقيّومية والتمكّن الأعلى والسلطان المطلق ومحور الاستواء على أقدار الوجود المخلوق كله واقعاً وحياةً وحدثاً وظرفاً وعلاقات وأمراً وتدبيراً وتصريفاً؟

ســـيقولون إن ذلك المدى الأوسع من قدر الخلق والملك المحيط والسلطان الأعظم مـــن قوة التدبير المطلق: لله. ليقل لهم عندئذٍ الرسول: أفلا يتّقون؟ أفلا يرتبون على ما

أقـــروا الدينونة لله الواسع العظيم المتعالي على السماوات المحيط بالكون المستوي قيّوماً علـــيه واتقاء غضبه أن يقولوا في شأنه قولة إشراك لمن دونه درجاً بالغاً أو يفعلوا فعلة تعـــصي حدود أمره وتكليفه وهداه الموحى المتنـــزّل على من تحت كرسيه من عباده البـــشر المخلوقين في ذلك الإطار؟ أفلا يخشون أن يتجلّى غضبه في إيقاع الحادثات بما يُنـــزل على العصاة مصاباً وعذاباً مقضياً عاجلاً في سياق الدهر الحاضر والحياة الدنيا المشهود أو آجلاً في دورة الحياة الأخرى في الغيب والأزل الخالد؟

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (٨٨ – ٨٩)

لـــيمضِ الرّسول ﷺ يجادلهم مذكراً بالحقّ المبين ومسائلاً لهم، ليقل لهم: مَن بيده ملكوت كل شيء، لمن الملك المحيط الشامل لكل شيء في الوجود المخلوق؟ وهو يُجير بـــأن يـــؤمّن حرمة ما في حرزه من بسط ملكه ويمنع مَن في حماه من الخلق أن يُعتدى عليه، ولا يُجار عليه إذ لا يُضارع بأن يقوم ذو قوّة مستقلّة سواه حامياً أحداً من وقع قـــدره الـــنافذ وأمره المفعول. ذلك إن كانوا يعلمون بسطةَ ملك الله وقوته الناصرة الغلاّبة التي لا يكافئها أحد في الوجود.

ســـيقولون: لله، لـــه الملكوت المطلق المحيط بكل شيء وله الإجارة لعباده إذ هو الأمنع ذِماراً لكلّ مُستجير الأعز الأقهر من كلّ مُجير. أما وقد اعترفوا بتلك الصفات الحـــسنى لله وأقرّوا حقّها فليؤمنوا بما دعاهم إليه رسوله – توحيداً له ربّاً أكبر للعالمين وإلهـــاً صمداً فإخلاصاً له تضرعاً عبادةً وتلقياً منه وحده للهداية في مسير حياتهم الدنيا ولـــنذارة والبـــشارة في مـــصيرها الآجل واحداً أعلى في العلم والملك والحفظ المحيط بالمـــشهود والغـــيب والحكم الأرشد لعباده في عاجل حياتهم والجزاء المقضيّ الأنجز في أخراها.

ومـــن ثمّ فأنَّـــى – كمـــا يُخاطبون – ومن أي وجه وكيف يُسحرون، كيف يُصرَفون بوجوه من الظنون المخيّلة ويؤفكون وهم يُدعون لأن يستقيموا على مقتضى الحق الذي يُقرّون أصوله؟ وعجب أن يسحرهم الشيطان ويُغريهم بالأباطيل ويصدّهم عن الحقائق في الغيب فيزعموا أن الذي بلّغهم تلك الرسالة الربّانية من العلم والحكمة

هو الساحر الذي يصرفهم عن الحق ويخلّط عليهم المقال، وإنما يتلو عليهم آيات موحاة بيّنة للحق المحض القويم.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠)

بـــل أتـــاهم الله بأقـــداره الجليلة وحياً وهداية – أتاهم في رسالته الموحاة بالحق البحت في كلّ ذلك – توحيداً لله بغير شريك وقدرة له على الخلق والبعث بلا قصور. وإنهـــم لكاذبون فيما يقولون غافلين عن الآيات مسحورين من أباطيل وحي الشيطان تـــبديلاً لحقائق الواقع والوجود وإنكاراً لوحدانية الله وأقدار بعثه وجزائه للإنسان بعد موته في الدنيا.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٩١)

الحق اللازم في شأن الله ألاّ يكذّبوا عليه في وحدانيته متفرّداً غنيّاً، ما اتخذ من ولد كمـــا ينـــسبون له من الملائكة بنات، وما كان معه من إله مما يعبدون دونه من آلهة يحسبون أنها تكافئه أو أولياء يزعمون أنهم وسطاء إليه. إذ لو تعددت الآلهة وأمثالها – كـــيانات مطلقة الملك والسلطان في الوجود – إذاً لذهب كل إله منهم بما خلق وانماز نصيب كلٍ منهم فاضطربت بين مخلوقاتهم وحدة سنن الوجود ونظامها المشهود الذي يـــسير بمقـــوم ميزان وأقدار حساب وتنسقه سُنن متوافقة تشأ أصلاً من وحدة الخالق وتـــدلّ علـــيها. ولو تعددت الآلهة إذاً لعلا بعضهم على بعض، لأن الألوهية هي ذاتية مطلقة سامية متعالية ولو تجلّت صفةً في أكثر من واحد إذاً لمضى كلٌ ليبسط قوته إلى مطلـــق المدى الأعلى وغاية أفق الوجود ولتجلّت صفاته البالغة وأوامره الأنفذ ليسود ســـلطانه سؤدداً يهيمن على الآلهة الأخرى ويستغني عنها فتتخالف إراداتهم المنبسطة وتتخاصـــم أوامـــرهم وتدابيرهم النافذة وتتغالب قواهم في سبيل حيازة كل الملكوت وحمايـــة كل المخلوقات. فدعوى الشركة المتنافسة المتخاصمة المتعالية بعضاً على بعض تُورد التناقص والتساقط المعاجز للألوهية في الوجود.[1]

---

(١) لو تعدّدت الآلهة لفسد نظام السماوات والأرض – راجع الآية ٧١ من ذات السّورة، وراجع الآيات ١٩ – ٢٣ سورة الأنبياء.

سـبحان الله وحـده سُبّوحاً متعالياً وتنـزه عما يصف له المشركون من قصور يُتمّه شركاء له يُكافئونه مثلاً أو من دونه أو ولد يزره ويكمل مَدّه في الوجود.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٩٢)

هـو - تعـالى - عالم الغيب والشهادة مُحيطاً بكلّ أبعاد المخلوقات في الوجود يقـصُر علمُ من سواه دون ذلك لأنه مهما يتسع لا يُحيط بعالم الشهادة كله ولا يبلغ عـالم الغـيب إلا بظـنون مفتقرة إلى بيان بالحقّ من الله. فالموجودات دون الله كلها كيانات قاصرة العلم والمقدرة، فتعالى الله وسما عما يُشرك به المخاطبون الأُوَل بالقرآن من آلهة مفتراة لا تبغ رتبة الألوهية العليا المطلقة بصفاتها الحسنى وذاتيتها الأكمل.

عموم المعاني (للآيات ٧٨ - ٩٢):

يتواتـر خطابـاً لأمـة خطاب القرآن الأُولى لبني الإنسان كافّة ذكر آيات الله مطبوعة مشهودة إيجاداً أو تصريفاً للأشياء وموحاة متلوّة هدىً لهم في الحياة. فالله هو الذي أنشأ منهم إنساناً مخاطباً بحواس إدراكه سمعاً وبصراً وبحاسة وقع مدركاته فؤاداً. وبذلك تتهيّأ لهم الإحاطة بوقائع الحياة وتتيسر وظائفها، لكن قليلاً ما يشكرون نعمة الله تلك الكثيف نفعها في الحياة. ومن حول بني الإنسان يرون أنّ الله هو الذي ذرأهم في الأرض إنـباتاً منها ونشراً فيها أحياءً في الدنيا، وأهون عليه لو تذكّروا أنه يبعثهم أجلاً بعد الموت ويحشرهم جميعاً في الأرض المتبدّلة. وهو الذي يصرّف ويقلّب أصول الحـياة حولهم يُحيي ويُميت الإنسان والحيوان والنبات ويكوّر الليل والنهار والضوء والظلام خلفة. أفلا يعقلون ما يلهيهم من مشاغل الحياة ألاّ تصرِف وعيهم عن التأمّل والتدبّر في آيات الله. إن أمّة خطاب القرآن الأُولى وأمثالهم ما أحاط وعيهم بكل تلك الآيـات فتجلّـى أثره في مشاعر وجدانهم ووقع فعلهم بل ظلّوا مرهونين في رؤيتهم للحـياة بما ذهبت إليه التقاليد، يقولون مثل ما قال سلفهم الأولون تساؤلاً كيف إذا ماتوا وكانوا تراباً أو عظاماً رميماً نخرة، حالوا مادّة تضلّ في قبورها أو تفني في الثرى أو الهـواء أو صاروا بقايا هياكل عظمية بالية - كيف هم مبعوثون من جديد في أزل آخـر بعد زوال الدهر؟ ويصدعون بالدعوى أن قد توالى مثل ذلك الوعد بنذير الدين

الغيبـــــي يُلقى عليهم وعلى آبائهم من قبل والزعم أن ما هذا إلا أباطيل من أساطير الأولين ترويها الدعوات الدينية.

وتـــتوالى الوصـــايا للرســـول ﷺ في خطاب أمته - فللدعاة الخالفين قروناً بعده يخاطـــبون على سنته أمماً قد تزداد حظاً في علوم الكون المطبوع - أن يدعوهم إلى تحرّي آيات الله المشهودة البيّنة في طبائع الأشياء، ليصوّبوا تبصراً النظر في شأن الأرض: لمن هي ومَـــن فـــيها مِن مخلوقات كأنها كلها عاقلة تنطق بشهادتها ودلالاتها على الذي له الخلق والحـــيازة والتصرّف في كونها وحالها؟ سيقولون مستجيبين لإيحاء الفطرة الخاطر وبداهة العقل المبتصر: إن ذلك كلّه لله. أفلا يذكّرون إذاً أنه ﷻ أهل للعبادة والتقوى. والوصية كـــذلك أن يُدعى المخاطبون لمدّ النظر سؤالاً: مَن ربّ السموات السبع؟ السماء الأدنى المـــرئية بـــسحبها وكواكـــبها ونجومها وست عُليا طباق تغيب عنهم ويأتيهم نبأها من رســـالات الغيب ليصدقوه قياساً على الأدنى؟ وأن يسموا منهم النظر تعالياً إلى البحث والتـــساؤل عـــن ربّ العرش العظيم؟ لمن السؤدد فوق الخلق محوراً للاّهوت الأعلى في مـــدى الغيب المطلق ومركزاً لربوبية التمكّن والتصريف والتدبير على كل الخلق الموجود وذاتـــاً تجمـــع الصفات الحسنى من غاية كمال الوجود. وهم صدوراً عن الفطرة أيضاً وإطلاقاً لمدى التفكّر الأبلغ سيقولون: الله. والجواب الأوفق أن يُسألوا من ثمّ: أفلا يتّقونه ربّـــاً تُحيط بهم رقابته بآفاق تتعالى فوقهم ويتطابق عليهم رهبوت سلطانه متضاعفاً إلهاً يـــرهبه فيتقـــيه خلقـــه الأدنى بحـــسه مبلغاً من ذلك المدى، الإنسانُ في الأرض والعالم المشهود. وليسأل الداعية - الرسولُ أو مَن خلفه - مَن بيده ملكوت كلّ شيء؟ ربوبية تملّـــك وتصرّف وهيمنة محيطة، ومن له القوة المنبسطة القاهرة يُجيرُ من يشاء من خلقه ويحفظـــه في أمن مطلق وحمى لا ينال منه مَن سواه بأدنى مساس إلا بإذنه ولا يُجار عليه فهـــو باســـط يـــده القاهرة البالغة يأخذ مَن يشاء بما يشاء لا يحميه منه مُجير آخر في الوجـــود؟ ذلـــك إن كانـــوا يعلمون مدى ملك الله حرماً ومتانة قوته حصانةً أو مداً. سيقولون: الله، مهما تخالجهم خواطر تقدير سيادة السلاطين والكبراء القاصر مداها دون المُلك والسؤدد المطلق وتراودهم الحاجة المستمرة لمن يُؤمَن جوارُه السليم والخوف ممن لا يُكفّ وقعُ قدره المحذور ولا يُردّ أمره المفعول في الدنيا وقضاؤه الحاسم يوم الدين.

إن أقروا ذلك كله فأنّى لهم يُسحرون إن جاءهم كلمات الحق الموحاة في القرآن تـــذكيراً بالله؟ من أي وجه يحسبون تلك الكلمات إنما تحملهم دواعيها على الإخبات والخشوع لله سحراً ومخادعة لا ذكراً وصدقاً. والحق أن الوحي المنـــزل ما هو بسحر مخـــيّلات أو استرهاب بظنون غيبيّة، بل أتتهم آيات الله بالحق الصحيح الصريح وإنهم لكاذبـــون إن حسبوها أقاويل سحر ومفتريات أساطير. ما اتخذ الله حقاً من ولد، كما يـــزعمون هـــم الجاهلـــيون العرب باطلاً أن الملائكة بنات له من الجن، وكما يزعم النصارى عيسى ابناً له من مريم، وما معه من إله كما يتصوّر الدنيويون عبّاد الأصنام. فهـــو ﷻ فرد لا يَصدُر وجوده مولوداً أو جزءاً عن إله أو أصل أعلى ولا ينشأ منه إلهٌ هو منه ولد أو فرع أدنى ولا يكافئه مثلاً موجود آخر. لو حقّت تلك التصورات التي تفتـــريها ظـــنون المشركين إذاً لذهب كل إله بما خلق فمضى كلٌ منحصراً في مدى ملكـــوته وخلائقه الخاصة ولعلا بعضهم على بعض تنافساً في درج الكمال اللاهوتي فمـــضى البعض أدنى من العظموت المطلق، وإذاً لتنازعت الآلهة استقلالاً لبعضهم عن بعـــض واحـــتكاراً لعالمـــه وتعالياً بشأنه وجرى بينهم التضادّ فالتغالب على السلطان المطلـــق، وإذاً لفسد نظام الكون الموزون المتّسق الموحّد. والحقّ أن سبحان الله وتعالى عمـــا يصف المشركون، لا حدّ لقدره وفعله ولا مضارع لجلاله مما يدّعون من آلهة لا تخلـــق شـــيئاً وتعجز حتى عن نصر نفسها فضلاً أن تبلُغ أهلية للربوبية المحيطة أو قدرة على إجارة عبادها أو نصرهم فيحقّ لها التأليه. وهو عالم الغيب والشهادة عليماً يُحيط بكـــلّ الوجود وسيره سميعاً بصيراً خبيراً فوق كل ذي علم دونه بظاهر من الأشياء أو حاضر من الزمان، فتعالى عما يُشركون به من آلهة قاصرة الإدراك.

ترتيل المعاني (للآيات ٩٣ – ١١٨):

﴿قُـــلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ (٩٣–٩٥)

لِيُـــصابر الرّسول ﷺ المخاطبين بتلك الدعوة التوحيدية الجهلةَ المشركين، يوصيه الله أن يدعـــو منادياً مخاطباً ربّه قائلاً له: إمّا يُريه في مشهود تصريفه لسير الوجود ما

يـــوعدون نذيراً من عقاب فعذاب، إن قضى عليهم قدراً وأخذاً بالوعيد وحقّ أن يُريه هو ذلك حياً شاهداً فهو يدعوه بربوبيته له ألا يجعله هو في أولئك الظالمين الذين ضربوا في الظلام عدلاً عن الحق المضيء فألاّ ينظمه فيهم فيشمله العذاب المستحقّ المقضيّ به.

ويُجـــاوب الله كلمات رسوله تلك مخاطباً له: إنه - بجليل قضائه وأمره المفعول علـــى أن يُريه هو قبل موته ما يعدهم نذارة وما يُنجز عليهم من وقع الوعيد الحاقّ - القـــادر بقواه العظيمة في تصريف الأمور إنفاذاً لقضائه الموعود وإشهاداً عليه لمن يشاء مثل الرّسول النذير المنتظر لذلك المحذور.(١)

﴿ادْفَـــعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٩٦-٩٨)

يوصـــي الرّســـولَ ﷺ ربّه - بعد طمأنته بالجواب السابق - أن يدفع بالتي هي أحسن إعراضـــاً جمـــيلاً عـــن أولـــئك المُعرضين إن خاضوا في آيات الله هجراً وهزءاً، مجادلةً لهم بالمعروف وردّاً سمحاً بالحقّ على مقولاتهم الباطلة إنكاراً لوحدانية الله أو أذىً له ورمياً بسيئ القـــول. ولْـــيعلم كما يذكّره ربه أنه بأقدار علمه الواسعة المدى أعلم فأبلغ إدراكاً محيطاً بما يصفون في حقّ الله خالقاً لكلّ شيء محيياً مميتاً غالباً ثم أهلاً - كما يزعمون - لأن يشرك بـــه ويدّعـــي له الولد. وهو حقاً عن علم بشركهم يُملي لهم في الابتلاء ثم يُعذّبهم عاجلاً ليُرى رسوله ما يحقّ عليهم من عقاب أو يتوفّاه ويُمدّ لهم حتّى عاقبة العذاب الآجل.

ولـــيقل الرّسول داعياً ربّه إنه - مستعيناً لائذاً به لاجئاً إليه - يعوذ به ليُجيره - مـــن همـــزات الشياطين، ليدفع عنه وساوسهم الخنّاسة ودفعاتهم وضبطاتهم المضلّة، إذ يوحـــون إلـــيه دفـــع السيّئة المستفزّة بمثلها أو أبلغ منها حماقة، لا بالتي هي أحسن. ولْيستعذ به ﷻ أمناً أن يحضره أولئك الشياطين من خلفه أو من بين يديه أو عن يمينه أو شماله حضرةً فقُربةً تُعرّضه لما هو محذور.(٢)

---

(١) إنمـــا على الرسول ﷺ أن يبلّغ الدعوة والنذير وإما أن يتوفّاه الله قبل أن يحقّ على المخاطبين وقـــوع الوعيد أو يريه الله القدير ذلك قبل وفاته: راجع الآية ٤٦ سورة يونس، والآية ٤٠ سورة الرّعد، والآية ٧٧ سورة غافر، والآيتين ٤١، ٤٢ سورة الزخرف.

(٢) في ذات الوصيّة للرسول ﷺ - انظر الآيات ٣٤ - ٣٦ سورة فصلت.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُون * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٩٩-١٠٠)

إن أولئك المشركين يتمادون في ذلك الضلال المبين مُعْرضين عن دعوة الحق ورسالة التوحيد ويُمدّ لهم الله الحياة يستدرجهم حتى إذا حضر أحدهم الموت وجاءت ساعة أجله توفيت روحه محفوظة في برزخ حائل دون الرّجعة حتى يوم البعث ليُحشر لمقام السؤال والحساب وتنكشف له غيوب الوعيد وتلوح نذر العذاب بين يديه ويحقّ عليه المصير محتوماً كأنه الواقع الماضي الذي جرى أمره، وكما يعلم الله وقائع الغيب الآجل ويرويها واقعة ماثلة، هكذا قال أحدهم منادياً الله عندئذ بالربوبية عليه: أن يُرجعه بأقداره العظيمة في تصريف أطوار مسيرة الإنسان وتحويلها عبر الزمان والأزل - أن يرجعه إلى الحياة الدنيا دار البلاء والعمل قبل الحساب الذي رآه الآن عين اليقين لعلّه يتعظ فيعمل صالحاً فيما ترك الآن من حياته الدنيا التي ضيّعها دون عمرانها بالصلاح وحمله منها إلى آخرته زاداً يؤدي به إلى الفلاح ويُنجيه من الخسران كما يراه.

وتعقب قول ذلك النادم على الشرك والضلال في الدنيا والآمل في رجعة إليها ورجاء توبة إلى الإيمان والعمل الصالح - تعقبه كلمةُ الحق الفاصل من حكم الله وقضائه المحتوم: كلاّ، لا مجال لذلك الترجّي، إن مقولته تلك كلمة هو قائلها تحسّراً لا صدقاً ولا يتبدّل بها مجرى القضاء المنحسم أن تنتهي للبشر سيرة حياتهم الدنيا بالموت ومن ورائهم برزخ حاجز لا تبقى بعده الحياة الدنيا ولا ترتدّ إلى زمانها الخالي بل بعده يبعثون ليسيروا دفعاً نحو معرض الحساب والقضاء ودار الجزاء قُدماً إلى خلود.[1]

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١)

فإذا نُفخ في الصور نفخة مدوّية في القرن أذاناً بكلمة القدر للبعث والنشور يقوم الموتى كلٌ في نشأة أخرى ويُجمعون أفواجاً، فيومئذٍ لا أنساب بينهم مُغنية كما

---

(١) رجاء الإرجاع إلى الحياة عند الموت أو الخروج من النار إبداء لإرادة المتاب لا يُغني - راجع الآية ١٦٧ سورة البقرة والآية ٣٧ سورة الأنعام، والآيتين ٢٧ و٢٨ سورة المائدة، والآية ٥٣ سورة الأعراف، والآية ٤٤ سورة إبراهيم، والآية ٢٢ سورة الحج، والآية ١٢ سورة السجدة، والآية ٤٤ سورة الشورى، والآية ٣٧ سورة فاطر، والآية ١١ سورة غافر.

يتواصل بها الناس ويتعاضدون في علاقات الدنيا ومقاصدها ويُعنون بها لاسيما العرب المخاطبون الأوّلون برسالة القرآن الذين كانوا يظنون النسب وصل شرف مكتوب ونفع مرجوّ بين ذوي القربى، لكن تنقطع الأنساب يوم القيامة ولا تُغني القرابة بل يقوم كلّ عبدٍ لله فرداً يواجه عاقبة مسئوليته وحصيلة كسبه الماضي وحظه في الجزاء الحاضر. والناس مجموعون محشورون كذلك، لا يتساءلون ليترجّى بعضهم من بعض شفاعة أو مفاداة أو تناصراً.[1]

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢)

وإنما تقوم يومئذ كل نفس فرداً يؤتى كتابه حيث رصدت سيئاته وحسناته وتُقام عليه البيّنة والشهادةً وتوضع الموازين حسبما يثبت عنها عيناً. ويترتّب عدلاً أن مَن ثقلت موازينه، المثاقيل التي يرضاها هو من الأعمال الصالحة المقبولة المعتمدة حسنات، فأولئك خاصة هم المفلحون الذين اندرجوا لحياتهم الدنيا في المؤمنين الذين صلحت أعمالهم وسلكوا طريقهم المستقيم إلى مبتغى الفوز فرجحت يومئذٍ وثقلت مقادير كسبهم ذلك فهم الوارثون الفلاح.[2]

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٠٣ – ١٠٤)

ومَن خفّت موازينه، بأن رجحت كسبَهم – الذي يستحسنون – مثاقيلُ سيئاتهم المكتسبة المتضاعفة المكتوبة عليه رصيداً التي تُقيمها عليه البيّنات فيحقّ بها القضاء – فأولئك هم الذين خسروا أنفسهم وأهلكوها مصيراً لظلمهم إياها باتّباعهم أهواءها وشهواتها بلا تزكية لفطرتها ولا حث لاستجابتها لتذكرة الوحي المرسلة بالحق هدىً وبشارة ونذارة. هم لذلك في جهنّم خالدون لا ينقطع عنهم سعيرها الحارق، تلفح وجوههم النار غاشية فتشويها فهم فيها كالحون متقلصة شفاههم عابسين.

---

(١) لا أنساب ولا والدية ولا زوجية في الدنيا تُغني في حساب الآخرة – انظر الآية ٣٣ سورة لقمان، والآيتين ١٠ و١١ سورة التحريم، والآيات ١٠ – ١٤ سورة المعارج، والآيات ٣٤ – ٣٧ سورة عبس.

(٢) راجع الآيات ١ – ١١ من ذات السورة (في كسب المؤمنين الفلاح بصالحات أعمالهم الراجح مثقالها).

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٥)

تلـــك روايـــة المـــشاهد للمساءلة والملامة الموعودة حقاً ماضياً، يتعرّض أولئك الأخـــسرون للسؤال والملام خطاباً من الله الحسيب: ألم تكن آياته المذكّرة بوحدانيته وملكه المطلق الهادية في الدنيا إلى الشِّرعة الحقّة والمنهاج الصالح المنذرة بمصائر المسئولية لمـــن أعرض وجاء بالسيّئات، ألم تكن تُتلى عليهم بلاغاً من المرسلين؟ ويمضي خطاب محاسبتهم: أن قد سبق إبلاغهم تلك الآيات فكانوا بها يُكذّبون لا يصدّقون نذارتها ولا بـــشارتها ليـــتوبوا مؤمـــنين بيوم الدّين الموعود الذي نجز اليوم أجله وحقّ فيه السؤال والحساب والجزاء والخلود.[1]

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١٠٦ – ١٠٧)

قال أولئك المسئولون عندئذ – متعذّرين متحسّرين على حظّهم من كسب الدنيا ومـــا حقّ من جزائه – قالوا مخاطِبين ربّهم إذ عرفوه ذلك اليوم رباً كان منعماً عليهم في الدنـــيا: أن قـــد غلـــبت عليهم شِقوتهم وعسرتهم الشديدة عليهم الحاقّة في قضاء مـــصيرهم لـــرجحان سيّئ كسبهم وكانوا قوماً ضالّين عن الهدى – مسيرة دار البلاء الماضـــية. ومضوا ينادون ربهم الذي تبيّن اليوم سابق إحسانه: أن يمنّ عليهم في حاضر حـــالهم ويتفضّل بأن يخرجهم من النار خلاصاً من الشقاء، ويقولون نذراً على أنفسهم أنهـــم إن أُخرجوا منها لكن حقّت عليهم مرّة ثانية عائدين مرتدّين إليها بسوء أعمالهم فإنهم ظالمون، إقراراً أن قد حقّ دخولها للعدول ردّةً مُصرّة عن طريق الصلاح والنجاة من النار ونيل الفلاح.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ (١٠٨)

قـــال لأولئك ربهم قاضياً بما حقّ عليهم من رجز: أن اخسئوا وانـــزجروا بعيداً مُلقَـــون في الـــنار تشقيكم وفاق سيئ مشاقّتكم لله ورسوله وعصيان هديه في الدنيا،

(١) الـــتذكير يوم القيامة بسابق الرسالة والنذير فالإقرار بحقّ العقاب – راجع الآية ١٦٥ سورة النساء، والآية ١٥ سورة الإسراء، والآيتين ٢٠٨ – ٢٠٩ سورة الشعراء، والآية ٧١ سورة الزّمر، والآيتين ٨ و٩ سورة المُلك.

وقطع الله عنهم رحمة رضاه وودّه إذ ما استحقّوها فأضاف لأمر خسوئهم كلمة قطيعة تصدّهم عن الزلفى إلى الله صدّاً: ألاّ يكلّموه من بعد لا تعذّراً عن ندامة ولا وعداً بالمتاب لو ردّوا إلى منقلب ابتلاء، فهو لا يكلّمهم تحيةً ولا سلاماً كما يتلقّى المؤمنون في جناب الله.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (١٠٩-١١١)

ويذكّر الله أولئك الخاسئين بما حقّ عليهم من ذلك العذاب وانقطاع تكليم الله لاسيما أنهم مقارنةً إلى مصير المفلحين - قال لهم أن قد جرّهم إلى ذلك ما كسبوا سابقاً في الدنيا: إنه كان فريقٌ من عباده قد تبيّن لهم الفرقان بين الحق والباطل ووقع الفراق بينهم وبين أولئك المخاطَبين بعد أن تلقّوا آيات الرسالة الهادية فاستجابوا، وكانوا يقولون منادين ربّهم قربى إليه: إنهم آمنوا، ويدعونه أن يغفر لهم من ثَمّ ساتراً ذنوبهم التي كانوا عليها قبل الاهتداء وأن يرحمهم فيُنزل عليهم لطفاً مباركاً بأقدار رأفته وعطائه وخيره، ويطمئنون رجاءً إذ يتمّون لربهم ذلك الخطاب والدعاء بأنه خير الراحمين، لا يكافئ سعة لطفه وفضله ما قد يُؤتى المرء من سائر الراحمين.

ويمضي الخطاب لأولئك الخاسئين تذكيراً لهم بما فعلوا بأولئك المؤمنين المسترحمين ربّهم: أن قد تصدّوا لإيمانهم واستغفارهم ربهم فاتخذوهم سخرياً هدفاً للهزء إذ لم يعجبهم صلاحهم ليحترموهم ويقتدوا بهم بل سخِروا بهم وكانوا منهم يضحكون، حتى أنسوهم ذكر الله من فرط ما استحقروا أمرهم ومذهبهم في أمر الله وآثروا الغفلة عن ذكر الله انفتاناً بالحملة على المتذكّرين.

أما أولئك المؤمنون فقد أكد الله وعده المكتوب المقضيّ اليوم أن يقع نجازه: أن جزاهم بما صبروا على تكاليف العبادة له ﷻ واحتمال الأذى في سبيلها من الساّخرين، إنهم هم الفائزون الظافرون بالنجاة من النار وبالفلاح. وكأنما تُشير تلك الكلمات الفاصلة من الله لتنبيه المكذّبين بآيات الله الساخرين من المؤمنين بها حتى

يُقارنوا مواقفهم في الدنيا المذكورة بين صابر وساخر ومقاماتهم المتناظرة في الآخرة بين فوز بالفلاح مشهود وخلود في خسران جهنّم.[1]

﴿قَـــالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١٢-١١٤)

مـــضت هكـــذا مرويّة مقولات الحساب ومقارنات الجزاء في الآخرة خطاباً للذين ابتلاهم الله بسعد في الدنيا وترفاً وعزّة فتنتهم وتمادوا وظنّوا أنفسهم في ذلك المتاع خالدون وجاءهم نذير الآخرة فرأوه أجلاً بعيداً وغيباً في الخيال وتحذيراً بوعيد غير صادق.

والـــيوم وقد نجز الوعيد وبدا لهم مَعرضُ الحساب ومصير الذين كانوا ظالمين مترفين مكـــذّبين بالآخرة، قال لهم ربّهم: كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ وقد كانوا يستعجلون وعيد الآخرة ويلحّون السؤال أن متى هو؟ كأنهم يستبطئونه فيصرفونه منظوراً، قالوا: لبثنا يـــوماً أو بعـــض يـــوم مكـــثاً في الأرض، إذ لمحوا مدّ عمرهم في الدنيا الذي مدّه لهم الله ليتذكـــروا ويتوبوا ويصلحوا – لمحوه فترة متقاصرة وفرصة سنحت حيناً لكنها فاتت وجاء حـــساب كسبها فبدت بالنظر الراجع النادم عليها مارّة خطفاً، فأضافوا رجاءً إلى الله: أن يـــسأل العـــادّين، لأنهم هم كانوا في اضطراب أن يُقدّروا حقاً حساب زمان تلك المرحلة التي عبرت مسارعة ليروا كم كان مدّ دنياهم الخاليّة دار بلاء في الآخرة دار الجزاء.

قـــال لهـــم الله الحقُّ في حساب الوجود الأزلي عنده إذ الدنيا مهما تتطاول فيها الأعمـــار سرعان ما تمضي ظرفاً في مدى ذلك الوجود – قال لهم: إن لبثوا في الأرض مكـــثاً مـــن العمر في الحياة الدنيا إلا قليلاً من الزمان، لو كانوا يعلمون أقدار الله في آجال الوجود وكم مجالهم في فرصة البلاء في الأرض والحياة الدنيا الغاشية ومتى يعجل عليهم مجيء أجل الموت المكتوب ليغيبوا أرواحاً في برزخ إلى أن يبعثوا كأنهم انسلكوا لفورهم في أزل الغيب حيث دار الجزاء والدوام إما شقاءً وإما سعداً خالداً.[2]

---

(١) الـــتذكير للكافرين في مشاهد العقاب يوم القيامة بما فعلوا بالمؤمنين الذين كانوا مثالاً للحقّ فسخروا بهم – انظر الآيات ٢٩ – ٣٦ سورة المطفّفين.

(٢) يتذكّر المحاسبون يوم القيامة الحياة الدنيا كأنها حين عارض – راجع الآية ٤٥ سورة يونس، والآيـــة ٥٢ ســـورة الإســـراء، والآيتين ١٠٣ و١٠٤ سورة طه، والآية ٥٥ سورة الرّوم، والآية ٤٦ سورة النازعات.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥)

تــرتب على بيان حقائق الوجود زماناً وأزلاً وحياةً دنيا فأُخرى الخطابُ من الله لعــباده لاسيما للكافرين بالغيب، سؤالاً: أفحسبوا أنما خلقهم الله بأقدار أمره العظيمة عبثاً ولعباً دون حكمة مقصد، سُبحانه خلق الوجود وحرّكه بمغازي وأسباب منسوقة مــستحكمة نحو غاية واحدة إليها المنتهى، أظنوا أنهم إليه بعد عالم الشهادة الحاضر لا يــرجعون جهــلاً بحقائــق الكون وغفلة عن آياته المشهودة، أخلقهم الله بكل أقداره العظيمة لا ليعبدوه بل ليذرهم ينشغلون بالدنيا فرحاً وبطراً وفتنة بشهواتها؟ بينما سنن الوجــود البيّنة وأقدار الله الموزونة تقتضي في حياة الإنسان الدنيا التي تمضي بلاءً حراً يــتدافع فيها عنده الإيمان والكفر والحق والباطل والعدل والظلم أن تقوّم بأخرى يقع فيها الجزاء ووضع الموازين للكفاء. أحسبوا أنهم لا يُرجعون إلى ربهم في تلك الآخرة؟ وإنمــا خلقــوا ليحيوا مدّة عمر محسوب في الدنيا فيموتوا، فهلاّ يتيسّر على الله إعادة نــشأتهم بعــثاً في حياة أخرى لتمام وجودهم واستقامة عدل مراحله بأن يتوافق حقاً كــسب دنياهم بحظٍّ الجزاء في آخرتهم حتى تقوم الحكمة البالغة والعدالة المطلقة في أمر الله وقدره وقضائه في شأن وجود الإنسان.[1]

﴿فَتَعَالَــى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٦-١١٧)

فتعالى الله عن ذلك التقدير الذي لا يليق به أنه خلق الناس عبثاً، فهو الملك الحق العدل الحكيم، وسبحانه عمّا يُشركون به من تعلّقات في الدنيا مظنونة أو مشهودة، لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم وله الاستواء الرفيع المحيط بأقدار الكون الموزونة وبتدابير أمــر الإنــسان وحياته وابتلائه والقضاء فيه بالقسط. ومن يدعُ مع الله - الإله الفرد العظيم الأحد - إلهاً آخر- من مظنونات التوقير الموهومة المعبودة والمشهودات المقدّسة المــؤلّهة - لا برهان له به من علم الغيب أو بيّنات عالم الشهادة، إذ سلطان البراهين ودلالة الآيات كلها في المفطور المطبوع أو المتجلّي المشهود أو البيّن من حجاج الرأي

(١) مــا خلــق الله الكــون والإنسان عبثاً بل لابتلائه في الدنيا عابداً أم غافلاً فمرجعه إلى الله فحسابه - راجع الآيتين ١٦ و١٧ سورة الأنبياء، وانظر الآيات ٣٨ - ٤٠ سورة الدّخان.

أو المنـــزل حقاً وحياً أنه واحد لاكفء له ولا أصل ولا فرع لذاته الإلهية – من كان دينه ذلك الشرك الباطل المترتب على دعواته الجانحة فإنما حسابه عند ربه الحق الذي له الملك يوم الدين، والحق أنه لا يُفلح يومئذٍ الكافرون بآخرة الحساب التي ينتظرون وإنما يُفلح المؤمنون.

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١١٨)

أمـــا الرســـول ﷺ الذي يُجاهد ذلك الشرك والكفر بالغيب ببلاغ رسالة العلم والهـــدى الحـــق فليـــصبر ويتوكّل على ربّه ويسأله قائلاً له تعالى: أن يغفر له ويستر الذنـــوب، فالإنسان خطّاء والله توّاب، وأن يرحمه بأن يُعيذه من الشيطان ويثبّته على الحقّ ويوفقه للعمل الصالح، وليشهد لربه مخاطباً له فضلاً عن سؤاله: أنه خير الراحمين، منسلكاً بذلك الدعاء والذكر الله في صفّ العباد المؤمنين الذين يسخر منهم الكافرون بالغـــيب، وقدوةً لهم أنهم الدعاة فالسعاة إلى المغفرة الرحمة من الله فالفلاح في الآخرة. كذلك آخر السورة تذكرة بمفتتحها أن قد أفلح المؤمنون.[1]

عموم المعاني (الآيات ٩٣ – ١١٨):

في سياق المجادلة المتطاولة بين الرسول ﷺ ومَن يدعو من أمة خطابه، أو بين من يـــتلوه من الدعاة وأمم خطابهم، وفي أحيان تنظّرِ تصريف أقدار البلاء من الله رحمة أو عـــذاباً للمعرضين لعلّهم يستجيبون حمداً وعبرة ومآباً أو يستكينون لربهم اتعاظاً ومتاباً تـــضرّعاً قـــبل أن يحـــقّ عليهم شديد العذاب فيغشاهم الإبلاس – الوصية للداعي أن يُناجـــي ربّه ويدعوه إن قضى أن يُريه وقوع نفاذ الوعيد بالعذاب على المعرضين ولا يؤخـــره لآجلـــة بعد وفاته ألاّ يجعله هو في أولئك القوم الظالمين هالكاً بل يُنجيه كما كانـــت ســـنته ﷻ إنجاءً للمرسلين والمؤمنين السالفين من وقع مهالك الغضب على أقـــوامهم الظالمين. ويثبت الله تلك السنة ليطمئن الداعية أنها منظورة، فإن الله على أن يُـــريه بعظـــيم أقداره تصريفاً لحدثان البلاء لقادر أن يُنجز وعيده مهما تستبعد إيقاعه وتُكذّب النذير به ظنون المعرضين. وإنما الوصية للداعي المنتظر عاقبة المعرضين أن يلتزم

(١) راجع الآية ١٠٩ من ذات السورة.

هـــو الـــصبر الجميل واللطف في خطاب الدعوة فيهم ويدفع بالتي هي أحسن السيئة مـــسامحاً مقولات الإدبار والإنكار والطعن منهم. فإن الله بمحيط أقدار علمه أعلم منه بمـــا يـــصنعون مـــن باطل الدعاوى التي يُجادلون بها لينالوا من عظموت الله السُبُّوح القـــدُّوس. ولْيستعن الداعية مستعيذاً بربه من همزات الشياطين ونـــزغاتهم بل من أيما حـــضور لهـــم قـــريباً منه فإنهم يُحرّضون في قلبه حمية الغضب حماقةً وانفعالاً بثأرات الجـــدال، ولْـــيذرهم أحراراً يعمهون في طغيانهم كما بسط الله الخيرة لمشيئة الإنسان ولْيُـــصابر ولا يستعجل عليهم العقاب فإنهم مرجأون ولو تمادوا حتى إذا جاء أحدهم المـــوت وتوفّيت روحه ولاحت لها رؤيا معرض الحساب القادم في أزل الآخرة يمضي مـــستغيثاً بـــربه داعياً أن يرجعه بأقداره إلى الدنيا ويلقى الوعد متعللاً أن لعلّه يعمل صـــالحاً فيما ترك وضيّع من عمر حياته الدنيا في سيئ العمل. كلاّ لن تتبدّل أقدار الله المـــسنونة اســـتجابة لدعوته فإنما هي كلمة هو قائلها لتمضي لغواً عفواً ومن ورائه في سياق الذاهبين موتى برزخ يحجبه عن ماضي حياة الخيار والبلاء إلى يوم يبعثون في دار الجـــزاء. فإذا نُفخ في الصور بعد فناء البشرية نفخة البعث المُدوّية الثانية فمن فاته حظ واف مـــن رصـــيد صالح الأعمال لا يُجديه في قضاء الله بالقسط النَّسب إلى صالحين ذوي قـــربى بـــل يفرّ كلٌ ممن يليه نسباً إذ يمضي الحساب على كل نفس عيناً لا تزر وازرة وزر أخـــرى فلا أنساب بين المحاسبين المحاكمين يومئذٍ ولا يتساءلون بين يدي الحـــساب يتطالـــبون العون والمحاماة بل السؤال والحساب مصوّب على كلّ نفس بما كسبت، إلا أن يتساءلوا من بعد موادّة في الجنّة أو اختصاماً في النار مأوى الجزاء الذي حقّ لهم أو عليهم وفاق أعمالهم.

فمـــن ثقُلـــت موازينه في كتاب أعماله فكان له قدر كاسب ورجحت حسناته وفـــضائله فأولئك هم المفلحون فوزاً بالنجاة من دركات النار وبالنعيم والرضوان في درجـــات الجـــنّة. ومن خفّت موازينه وكسوبه مما كان يُرجى من صالحات وفضائل منسوبة إليه وثقُلت عدلاً عليها أثقال سيّئاته فهو من أولئك الذين خسروا أنفسهم إذ ظلمـــوها وأدوا بها أن تُلقى في جهنّم وهم فيها خالدون تلفح وجوههم النار كالحة لا مـــشهد فـــيها للعافية والبِشر والانبساط، ولا يغشاهم من الله الرضوان ولا يلقون منه

كلمـــات التحيّة والسلام بل مساءلات الملام: ألم تكن آياته تُتلى عليهم من قبل هدايةً ونذيـــراً بالبعث ووعيد العقاب فكانوا يكذّبون حقّ هديها وصدق نذيرها فلا يملكون الـــيوم إلا الاستـــسلام إقراراً لربهم أن قد غلبت عليهم شِقوتهم وحقّت عليهم وكانوا قوماً ضالّين عن طريق الفلاح. وقد يعودون لمثل الكلمة التي يقولونها عند الموت فزعاً مـــن رؤيا مشاهد الحساب فيقولونها اصطراخاً تحت وطأة وقع العذاب عليهم، دعوةً لربّهم أن يُخرجهم من جهنّم متعلّلين بتقية مرجوّة من النار مُقرّين بقسط عاقبتهم فيها المقـــضيّة فإن عادوا فإنهم عندئذ ظالمون يحقّ عليهم ما يلقونه فيها. ويجاوبهم الله تقريعاً لهـــم أن يخسأوا في جهنّم ولا يكلّموه تعذراً أو التماساً أن يُعادوا إلى الدنيا ترجياً لتوبة مـــنهم وصـــلاح لو ابتُلوا مرّة ثانية، وما هم بصادقين. ويُضاعف الله لهم الملام مقارناً أمرهم أمس واليوم بأمر المؤمنين التائبين المسترحمين الذين كانوا فريقاً من عباده منمازاً عـــنهم يوالـــون ذكـــره والتـــضرّع إليه رباً لهم يدعونه أن يغفر لهم ذنوبهم ويرحمهم ويُخاطـــبونه – بأبلغ الأمل– أنه هو خير الراحمين. ويُخاطب الله أولئك الظالمين الذين مـــا تابوا من ضلالهم استجابة لآيات الله التي كانت تتلى عليهم ولا نشدوا الرحمة من الله مـــثل المؤمنين، بل استخفوهم فاتخذوهم سخرياً حتى أنسوهم ذكر الله، مزلقاً من فرط الهزء بهم، وكانوا منهم يضحكون. ويشهد الله بكلمة قضائه العدل أنه قد جزى هـــؤلاء المؤمـــنين على ما قدّموا لأنفسهم من صلاح في أقدار بلائه واستحقوا من الله قبوله ورضوانه، قد جزاهم بالقسط بما صبروا على ذلك الأذى من الظالمين ثابتين على نهج الصلاح المستقيم، إنهم اليوم هم الفائزون الظافرون بمبتغاهم من حسن المصير.

والقـــدر ماضٍ واقعاً أن يجري كلّ ما تقدّم ذكره من مأوى العباد في متبوّأ الجزاء القـــسطِ. ثم يسأل الله الظالمين: كم لبثوا في الأرض عدد سنين متمتعين طوالها بالحياة الدنـــيا؟ ويقع منهم أن قالوا – وقد كانوا يتمادون في هوى المتاع غافلين عن مرّ أيّام الدنـــيا الـــتي تفوت وهم لاهون أملاً كأنهم خالدون فيها – قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يـــوم، إذ بدت لهم اليوم قصيرة بالنظر الراجع بعد أن فزعهم بغتة قيام القيامة لأجلها الموعـــود الـــذي رأوه أمـــس بعيداً. قالوا لله أن يسأل عن عدّ مدة المكث في الأرض العـــادّين فإن وقع الأجل فجاءة أربكهم في تقدير حساب الزمن إلى الأزل. ويُجاوبهم

الله بكلمة الفصل الحقّ قائلاً: إنهم ما لبثوا إلا قليلاً لو أنهم كانوا يعلمون حساب قدر الآجـــال في مدّ الوجود وما ألهاهم سراب الدنيا التي أملى الله لهم في متاعها المتطاول. أفحسبوا وهم في عمى عن آيات الله في الطبيعة المشاهدة وغفلة عن سنة دورة الوجود البيّنة فيها بين مبتدأ ومنتهى بآجال محسوبة ليلاً ونهاراً وحياةً وموتاً وعن ظواهر اعتدال المخلـــوقات كل شيء يجري لمستقر ويسير بميزان وحسبان – أفحسبوا أن الله ربّهم ما خلقهم بتلك الأقدار المنظومة إلا عبثاً وأنهم إليه لا يرجعون؟ كلا فإن إليه المرجع حقاً ليضع الموازين بالقسط ليُتمّ الحسنى وليعدل الظلم والسوءى ويعوّض سعي عباده كافة جـــزاء كفاءً بالأجر أو العقاب. فتعالى الله الإله العظيم العزيز الحكيم الذي لا يصرّف شأن عباده المشهود لعباً، فهو الملك الحق الذي يدبّر أمر مخلوقاته بالحكمة وبالقسط، لا إلـــه إلا هـــو ربّ العرش العظيم يستوي عليه غالباً أمر الوجود لا يشاركه خالق ولا يُضارعه رب ولا يكافئه إله معبود. ومن يدعُ مع الله إلاهاً آخر لا برهان له به – كما تنفي الشرك قطعاً دلائل الأشياء المشهودة ودلائل السنن الظاهرة في طبيعة الكون نظاماً يهـــدي لوحدانية الله وللإيمان بعبادته المفروضة على الإنسان حمداً وشكراً لجليل نعمه عليه خلقاً وحياةً وتسخيراً لما حوله وهدىً مرسلاً من الغيب – من يدعُ إلهاً آخر فإنما حـــسابه عند ربّه على ضلاله بلا علم من بيّنات المشهود ولا هُدىً من الفطرة الزكيّة ولا كـــتاب مـــنير رسالةً من الغيب، إنه لا يُفلح في الأزل عند الله الكافرون بالغيب. كـــذلك عظة تلك المشاهد المنظورة في الآخرة السابق ذكرها إنما تدعو المؤمن الدّاعي لتوحـــيد الله واتـــباع هداه أن يعتصم هو بذلك المذهب الحق ويُلازم ذكر ربه ويوالي دعـــاءه أبـــداً: أن يغفر له سوءات الضلال الغاشية والخطايا العارضة ويرحمه في الدنيا رزقـــاً وهـــدى وفي الآخرة نعيماً خيراً وأبقى ورضواناً أكبر منه تعالت صفاته أرحم الراحمين كما يشهد له عبده المؤمن به المعتصم.

سورة النّور

السورة وخلاصة هديها:

سورة 'النور' تنزّلت وحياً في المدينة ثانية بعد المائة في تعاقب السُّور، تالية سورة 'الحشر' وسابقة سورة 'الحج' - سورتين تذكران بآيات الله المطبوعة والمتلوّة وترويان مشاقّة أهل الكتاب والمنافقين ومجاهداتهما، وتوردان صفات الله الحسنى والصفات المزكّية للمؤمنين به وبالغيب، وسورة 'الحج' تهيّئ لما كان قادماً من صلح الحديبية وما عقبه من عمرة فحج. وسورة 'النور' هي الرابعة والعشرون ترتيباً في الكتاب بين سورتي 'المؤمنون' و'الفرقان' اللتين تميزان صفات المؤمنين عن الكافرين بالغيب المشركين، وتذكران آيات الله المطبوعة في الكون المشهود وآياته في الفرقان المتلوّة التي يحمل رسالتها الحق النبيُ ﷺ.

وقد جاء هدي هذه السورة يفصّل أحكام الزنى وعقوبته ورمي المحصنات وشائعات الإفك حوله، جاء ذلك في صدر السورة لأن حدثاً في الواقع كان أظهر مناسبةً تدعو المخاطبين للتنبّه فالاستجابة لهدى السورة. كان ذلك بعد غزوة الرسول ﷺ بني المصطلق في مائهم المريسيع نحو السنة الخامسة الهجرية. وقد صحبته في الخروج زوجته عائشة، لكنه تزوّج جويرية بنت الحارث سيّد القوم الذين انهزموا فأُسروا سبياً ثم أفرج عنهم بداعي تلك المناسبة لهم. وعندما قفل المسلمون بعد النصر إلى المدينة تأخرت عنهم عائشة إذ ذهبت تلتمس عقداً من خرز ضيّعته حين بعُدت تقضي حاجتها، لكن عند الرحيل حُمل هودجها على بعيرها ظناً أنها فيه لخفّة وزنها،

ولما عادت إلى منزلهم وجدت الرّكب قد غادروا فقعدت تنتظر مَن يستدركها بل مضت في سكينة نوم، وحقاً أدركها صفوان بن المعطّل الذي كان على ساقة الجيش في مؤخره فحملها على جمله في حياء حتى اللحاق بالنبيّ وصحبه. لكن ارتاب عندئذ بعض مَن رأوا شبهةً في أمرها وأخذوا يشيعون إفكاً لاسيما بعد دخول المدينة حتى بلغ ذلك النبيّ وأهل عائشة وبلغها، فغدت قاعدة معتزلة باكية صابرة حتى تنزّلت آيات براءتها في السورة بعد نحو شهر.

حملت السورة اسماً وجاءت بياناً بأن الله هو منبعث نور السماوات والأرض فمن ثَم مصدر الهداية البيّنة في ظلمات فتن الحياة الدنيا للإنسان. فالله يضع للناس مراسم الأحكام المثلى في رعاية حياتهم الخاصة: حفظ حُرمة البيوت من عموم أبوابها الخارجية إلى خصوص حُجرها الداخلية، وصون الأعراض والعورات الزوجية إلاّ بالمناكحة المشروعة والتزام آداب اللباس الساتر والكفّ عن مفتون النظر المحدق والعِرض المتبرّج لزينة النساء. وكذلك الأحكام الناهية ألاّ يبلُغ سوء العلاقات بين الذكور والإناث الزنى وإلاّ فتحقّ العقوبة بالأذى، وألاّ تُرمى المحصنات بالشبهات في ذلك أو يشيع خبر تلك الفواحش في المجتمع.

وكان متنزّل السورة في العهد قبل صلح الحديبية مع مشركي قريش حين ساد السلام تلقاءهم ففرغ النبيّ ﷺ أن تتوجه دعوته للجهاد وتتوالى غزواته صداً لثائرات شتى قبائل العرب الأُخرى وعادياتها ولناشطات خيانة اليهود. وظهرت في ذلك العهد أيضاً مناشط للمنافقين في المدينة تخلّفاً عن داعية الجهاد وزيغاً عن الخروج في حملاته وعن الانتظام في صف المسلمين وطاعة الرّسول المتولّي للأمر العام في المدينة. ولذلك جاءت آيات في السورة تذكر منافقة الذين يشهدون قَسماً أن يخرجوا مع الرسول للجهاد لكنهم لا يصدُقون حيث ينبغي النفير ولا يحقّ التخلّف إلا بارتفاع الحرج لعلّة معجزة، وهم يتولّون حتى عن طاعة أمر الرسول تحاكماً إليه بل يتسللون عن حضور مجتمعه لأمر عام ذاهبين عن صحبته دون إذن. وهدي السورة يقتضي الطاعة لأمر الرسول وحكمه لا التقلّب بين القبول والإعراض حسبما يحق الحكم للمرء أو عليه، فالإيمان الصادق بالله إنما يعني تقواه وطاعته والالتزام بما يأمر به أو يقضي رسوله.

وإنمـــا أصل الهداية كلها - في الشأن الخاص أو الأمر العام للحياة - هو الإيمان بالله منبعـــثاً لـــنور السماوات والأرض مسبحاً له ما فيها مهتدياً بنوره مَن يشاء ﷻ أن يشرح صـــدره مؤمـــناً والكافرون في ظلام راكِم وعملهم سراب خائب عند مصير اللقاء بالله. وآيـــاتُ الله الدالّـــة علـــى تسبيحه وانبساط قدرته هي مشهودة في طبيعة الكون وآياتُه المتنـــزّلة من الغيب وحياً يتوالى ذكرها في هذه السورة حيث تفرض فيها أحكام التكاليف بيّـــنة على العباد، ولذلك يتكاثر في هذه السورة ذكر نور الله ويتغازر ورود صفاته عليماً حكيماً، فهو أعلم بالوجود وبلاءات العباد في الحياة وأحكم في بيان الهداية لهم ليتذكروا، وهـــو العليم السميع البصير الخبير بما يعلمون ويصنعون وبما يبدون من ذلك أو يكتمون، وإلـــيه في الآخـــرة المـــرجع والمصير للعباد ليجزي المؤمنين الطائعين بفضله ورأفه ورحمته وغفرانه فيكتب لهم الفلاح وليعذّب العُصاة عذاباً عظيماً.

ترتيل المعاني (الآيات ١ - ٢٦):

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَات بَيِّنَات لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١)

كلمـــة الابـــتداء نكرة منوّنة إبرازاً لسَورة هذه المنظومة العظيمة من آي القرآن، سُـــورةٌ يقـــولُ الله إنه أنـــزلها بجليل أقدار وحيه وكلماته المرسلة وطأةً ثقيلة على مَن يتلقّاها - النبيّ ﷺ وسائر الذين آمنوا المخاطبين بالقرآن. وفرّضها الله كذلك متنـــزّلة مفصّلة البيان لأحكام مكتوبة لزاماً على المخاطبين، وأنـــزل فيها كذلك بتلك الأقدار العظـــيمة آيـــات هي دلائل تتجلّى شواهد على مشيئة الله وعلمه وهواديَ من حكيم خطابـــه المصوّب إلى عباده، وهي آيات بيّنات واضحة المعاني مُحكمة لا تُشكِل ولا يشتبه عليهم مدلولها، لعلّهم - مخاطبين بها - يتذكّرون هدايةً في مختلف سياقات الحياة حيث عالم الشهادة الذي يحجبهم عن الغيب وقد تشغلهم صوارفه غفلة عن بيّن الحقّ أو تفتنهم ابتلاءاته إعراضاً عن عدل الأحكام بدواعي الهوى.

﴿الـــزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِد مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَة وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِـــي دِيـــنِ اللَّـــهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

الــزنى هــو الــتوالج التناكحي بين الفروج تفاعلاً منكراً عادِيًاً على حدود نهج التــناكح الزوجي عن تعاقد مرضيّ كما أحلّه شرع الله، باغياً وراءه عن فتنة جوحة الــشهوة الجنــسية البشرية بين الذكورة والأنوثة، مزاناة فاحشة تجري سواءً بين مَن أتــياها، لــيس منها مدافعة الاغتصاب دحماً يجري كرهاً على الأنثى ويحقّ زنىً على الذكر. والآية تقدّم ذكر الزانية على الزاني لأن آثار تلك الفاحشة قد تبدو أظهر عليها بــزوال بكارة أو بقية دفاق منيّ أو حمل أو أذى وهي أفضح للعرض من تلقاءها منها لدى الذكر. والأمر المترتب خطاباً من الله لمجتمع المؤمنين بسلطانهم عقوبةً للذين يأتيان الزنى المُثبت عن بيّنة هو أن يُجلد كل واحد منهما مائة جلدة أذىً بالمعروف ضرباً غير جــارح على جلد الظهر. وتنضاف في الذِّكر إلى فريضة إنفاذ ذلك النصيحةُ ألا تأخذ القــائمين بــذلك الأذى أو الشاهدين رأفةٌ بالذين يزرون وقعه تُشعرهم بحرج في دين الله، عاطفــةُ إشــفاق بالغ قد تدعو لاتقاء إمضاء حكم شرع الله اللّزام على المؤمنين. كــذلك، حــضاً علــى إقامة الحدّ بعزيمة صادقة، إن كانوا- حقاً ماضياً - يؤمنون، مطمئــنين بحكمة الحق العدل الذي يكتبه على عباده أهدى الشارعين وأرحم الراحمين وبــرجاء اليوم الآخر الذي إليه منتهى الوجود بعد الموت وفيه يُنتظر كفاء الحياة الدنيا إذ يحــقّ الأجر على طاعة أمر الله والعقاب على معصيته. وتتعزّز إقامةُ حدّ الزنى صدقاً ورهــبةُ وقعهــا وعظاً عاماً بأمر في الآية مؤكد: أن يشهد عذاب المتزانيين طائفةٌ من المؤمــنين، جماعة منهم تقوم شاهدة أن العقاب قد وقع أمراً مفعولاً مشهوداً لا معطّلاً خفــية، وهــي قد تسترحم على الجناة دعوة لهداية ومتاب لكنها تُغلّظ عليهم الزجر بحــضورها ثم تذهب لتنشر عظة الواقعة تذكرةً بهدى الله في حرمة الأعراض واحتساباً لما يجرّ إليه العدول عنها من عاجل عذاب وآجل حساب عند الله.

ونــصّ الآية بيّن في عقوبة الزنى حداً من الأذى قاصراً على الجلد. وذلك تؤكده نصوص قرآنية أخرى فيها الحبس للنساء لأجل. وقد رُويت أحاديث صحاح عن قول الــنبيّ ﷺ وفعلــه برجم الزاني الثيّب، وخلفت أقوال فقهية فيها ذلك وفيها التغريب، وهي لا تتّسق مع ذلك الحكم القرآني البيّن وإنما هي من أصل عمل سابق للرسول اتبع هو فيها أثر التوراة تصديقاً لما بين يديه من كتاب وحيٍ قبل أن يتنــزّل عليه الأمر في

كــتاب القــرآن المهيمن بآيات تلا حينُ وحيها عليه تلك الوقائع المرويّة. وإن كثرت رواية تلك الأحاديث فإنها في شأن ذي خطر في المجتمع يشيع ذكره ويكثر خبره ولذا يبقــى أثره في رواية سيرة الرّسولٍ لاسيما أن النصوص القرآنية لم تترتب بعدها وقائع ليــنفذ فعل بها لاحقاً شهادةً تنفي استمرار الفعل بحكم التوراة وتصدّق في الواقع الحقَّ الفصل أن حكم الله في القرآن لا ينسخه حديث للنبــي الرسول بإذن الله، لاسيما إنه لو صحّت روايته لم يتبيّن ضبطاً تاريخ حدوثه مقارناً بأجل تنــزّل الآيات البيّنات.[1]

﴿الزَّانِــي لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣)

الابــتداء هنا بذكر الذكر الزاني لا الأنثى الزانية كما سبق، لأن الرجولة أقرب وأغلــب للمبادرة في سبيل المباضعة خطبةً لزواج مشروع أو رصداً وإغراء نحو نكاح زنى حرام. و'الزاني' هنا لا تعني قصراً فاعلُ فَعلة واحدة قد يتعرّض للعقاب الحدّ لكنه قــد يــتوب ويتطهّــر أو يكف عن مثلها، بل مَن لازمه الوصفُ بما اعتاد من فعال الفاحــشة والمزاناة. ذلك الزاني طبعه ألاّ ينكح مزاوجةً إلاّ زانية – ولو كانت مسلمةً مثله – بغيّةً قد تكون مجاهرة شاهرة لأمرها لأنهما يلتقيان على شاكلة وأسوة متوائمة لا يعــرفان العفّــة والغــيرة من خصوص حصانة الزوجية معروفاً ولا يذكران الحرمة والتقوى فرضاً مشروعاً، أو مشركةً تتخذ إلهها هواها حيثما دفعتها الشهوة الفاتنة نحو ذكرٍ ولا تؤمن بشرع الله وهدى حدوده وتقواه والخوف من معصيته. والزانية كذلك لا تبتغي نكاحاً إلا لزانٍ مثلها خُلقاً خبيثاً أو لمشرك مذهبه يُناسبها هوىً وانفتاناً. ذلك النكاح يُفسد شرعيةَ أساسه أنه تآلفٌ بالفاحشة خلقاً أو بالإشراك مذهباً لأطرافه. وما هو إلا افتعال مزاوجة مرسومة لكنها تماثل المزاناة الراتبة عن خصوص بالحرام تسافحاً إقامــةً على فجور أو مخادنة مخالّة مفتونة، أو هو اصطناع ستارٍ شفٍّ من شرعية زواج يفــتح وراءه بــاب المفاحشات الطلق بغير تحصين ولا متاب. وذلك كله غير الزواج المــشروع بعهد وحصانة محفوظة وحرمة وتقوى مرعيّة. والحقّ أنه قد حُرّم ذلك على المؤمــنين، والأَولى لهم أن يتّقوا تلك الصحبة التي لا يتداعى فيها إلاّ الخبث والشرك،

(١) راجع في الأمر بالأذى هدياً سابقاً: الآية ١٦ سورة النساء.

وأن يتطهّــر المــرء منهم مؤمناً من خلق الزنى مزكّياً سيرته بالتوبة الصادقة من قريب فــسُنّة التقوى المحفوظة دوام الحياة ليتحرّى في قرين المناكحة الذي يزاوجه أن يكون توّاباً تقيّاً كما تقتضي صحبة الإيمان الزوجية وفاءً لحرمة عهدها واتقاءً لابتغاء العدوان وراءهــا وتــزكية وضماناً للتوافق عن طيبة والتعامل والتعاقد بالحسنى في كل شعاب الحياة بين سائر المؤمنين.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤)

إضافة لما سبق ذكره من ابتغاء الحلال الطيّب ومراعاة التقوى في المناكحة ينبغي أن يتطهّــر مجتمع المؤمنين مما تُلقي الظنون ويوعز الشيطان من الترامي بالزنى نــزعةً تُحــبّب انــبعاث الشائعات المثيرة للتلقّي ولو عن ريبة لم تؤسس على بيّنة بل شبهة. وذلــك مــن الفتنة التي يثيرها هوج الشهوة في شأن علاقة الذكورة والأنوثة الجنسية. ولذلك جاءت الآية هذه – التالية لما سبق ذكره من حكم الزنى – في أمر الذين يرمون المُحــصنات قــذفاً بدعوى الزنى على من احتصن دونه بدواعي الإيمان عفّةً وطهارةً وتقوى. والحكم يعمّ فيضمّ الرجال المحصنين إن كانوا هم رَميّة القذف ولكن ذكرت المحــصنات لأن الظن بالنساء أدعى لمقولات الرمي بالزنى وهنّ أبلغ حسيساً بالطعن في عرضــهنّ لأن وقع دعوى كتلك عليهنّ مؤدٍّ إلى ما هو أبشع عيباً وأشهر فضيحةً منه على الرجال الذين لا ينشط عنهم ذلك المقال ولا يؤذيهم كذلك. إن القذف بالباطل كلــه ضرر حرام يستتبع التعزير والتعويض، لكن الذين يرمون المحصنات بالزنى ثم بعد كــلّ ذلك الادّعاء ذي الخطر لا يأتون إلى وليّ القضاء بأربعة شهداء ممن شهدوا عياناً الفعلــة بيــنهنّ وبين ذكور لأنها وقعت جهاراً أو مشهوداً على مرأى منهم – أولئك ينبغــي لمجــتمع المؤمنين بسلطانه – ما طالب بكفاء حقّهنّ مَن رُمين واشتكين – أن يجلــدهم ثمانين جلدة عقوبة على البهتان أو التعريض لمعرّة، وذلك حدّ ليس أدنى إلا قلــيلاً عــن حــدّ عقوبة الزاني ذاته. وتثقُل عليهم المؤاخذة فتتزلزل الثقة بهم فتسقط عدالــتهم ولا تُقبل لهم شهادة أبداً ويُصبحون هم خاصّةً الفاسقين الأبعدين عن أمانة الذمّــة وجدّ الشهادة وخلق المتّقين، ولا يُتّقى الطعن في حرمة العرض عندهم بناءً على

بهـــتان أو هـــوناً بغير حذر على شبهة عارضة ولا يُرعى وقار العرض وحفظه، والمرء مـــنهم قد استفزّته واقعة مستورة لم تُشهر حتى يشهدها أربعة، وحتّى لو حقّت كان الأولى به أن يَطوي ذكرها ولا يُستخفّ فيُطلق شائعاها ويُغري بفتنة ممتدّة الأثر.(١)

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥)

تـــوبة العـــباد الخاطئين مقبولة، فهذا الحكم في إسقاط أهلية الشهادة على الذين يرمون المحصنات بلا أيد من الشهداء كافٍ يمضي أبداً إلاّ على الذين تابوا منهم مقرّين الذنب مسترحمين الله أنّ يتقبّل توبتهم إليه من بعد البُهتان أو الرمي بغير بيّنة والتعرّض للعقـــاب، وأصلحوا تصديقاً للتوبة بانتهاج سنة استقامة تبدّل سابق سيئتهم. فإن الله غفـــور رحـــيم واسع الصفح بليغ الرحمة. وحقّ لهم بعداً أن تتجدّد الثقة فيهم وتُقبل شهادهم في أيّما اتّهام أو اختصام بين الناس.

﴿وَالَّـــذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَـــعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦ – ٧)

والـــذين يرمون أزواجهم هم بالزنى، لم يتقدّموا لإدلاء الادّعاء أو الشهادة على أجنبية لزم أن يُصاحبهم فيها من يتمّ الشهداء أربعة، بل زعموا أهم شهدوا واقعة الزنى مـــن أزواجهـــم مع أجانب، وذلك قد يقع في سترة بيوهم هم أو تخفّياً عنهم خاصة ويتعـــسّر عليهم إن رأوه أن يدْعوا غيرهم ليروا ويصحبوهم أربعةً للشهادة، فالأمر فيه حـــرمة خـــصوص وغاشية خجل وحمية مباغتة. فإن لم يكن لهم شهداء إلاّ أنفسهم فشهادةُ أحدهم الوافية بيّنةً لإثبات ما رمى به زوجه أربعُ شهادات منه دعاوى يؤدّيها مقـــرونة بذكـــر الله الرقيب على الحقيقة وعلى أمانته هو وصدقه عبداً مسلماً نفسه لـــه سبحانه وتعالى الـــشهيد: إنه لمن الصادقين حقاً فيما يقول ويروي. ويعزّز ذلك بأن يأتي هو أيـــضاً بالـــشهادة الخامسة ملاعنةً منه إزاء الزوجة أن لعنة الله التي تنفيه من رحمته هي حاقّة عليه هو إن كان من الكاذبين فيما يدّعي.

---

(١) الـــشهادة في ســـائر التوثـــيقات والخـــصومات شاهدان: راجع الآية ٢٨٢ سورة البقرة، والآية ١٠٦ سورة المائدة، والآية ٢ سورة الطلاق.

﴿وَيَــدْرَأُ عَــنْهَا الْعَــذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَات باللَّه إِنَّهُ لَمنَ الْكَاذبِينَ * وَالْخَامسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّه عَلَيْهَا إِنْ كَانَ منَ الصَّادقينَ﴾ (٨ – ٩)

ويــدرأ عنها – هي الزوجة – العذابَ المحذور، دفعاً لعاقبة ما رُميت به إن ثبت، وردّاً لما جرى من الشهادة عليها التي لو مضت لحقّت عليها بيّنة القضاء ونفذ العقاب بالجلد المكتوب نصاً – أن تشهد محامية عن براءها بأربع شهادات منها مستشهدة على صــدقها بذكــر الله البصير في الغيب، أيماناً متناصرة أنه – زوجَها في شهادته – لمن الكــاذبين حقــاً. والخامسة شهادة منها لاحتمال بيّنة الحق أن غضب الله تتقبّله حاقّاً عليها إن كان هو – وقد ادّعى عليها تلك الخطيئة وعزّز شهادته عليها بالملاعنة – من الصادقين فعلاً فكانت هي كاذبة في نكران التهمة.

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠)

تلــك الــشهادة في ســبيل بيّنة ثبوت الحقيقة تجري متداولة متناقضة بمقولات مكــرورة معزّزة بدعوة لعنة أو غضب ربّاني من كليهما، كلٌّ على نفسه لو صدرت مــنه شهادة زور. والواقع الحق يعلمه الله بين مقتضى الشهادتين، ولكنه ﷻ يذر عبداً له وأَمَة يُمضيا شهادتيهما هكذا بين صادقة وكاذبة ويهدي ولاة قضاء سلطان مجتمع المؤمــنين إلى قبول ذلك الاختلاف المسموع ظاهراً ويُجيزه عدالاً مهما لا يطّلع أحد علــى عــين الحق في أمره إلا الله علاّم الغيوب. ذلك ما لم تستسلم الزوجة لشهادة زوجهــا حقــاً بل أنكرها مستنصرة بذكر الله مُخاطرة ببغضه إن كذبت أو لم يكفّ الــزوج عن الطغيان في دعواه على زوجته من رواية لمنكر خلوة مشهود منها إلى تهمة كــبيرة من الزنى وفي إصراره تعزيز دعواه باستدعاء لعنة الله على نفسه، أو لم يُعرِض عــن كــشف واقعة سيئة حقّت لكنه لم يقدّر أن الأجمل والأحفظ للزوجية أن يستر الأمــر ويــستتيب زوجته مناجاة أو يسرّحها بإحسان دون كلمة تُشيع ضرّاً بغير بيّنة وافية بينما تنقض هي ثبوتها وإيقاع عقوبتها المقتضاة.

ولولا فضل الله على المؤمنين فيضاً من الهداية التي تستر العروض من الترامي العفو بالزنى وتكفّ العذاب ولو حقّ الأمر فعلاً، ولولا رحمته ﷻ رأفة بأولئك العباد، ولولا أن الله تــوّاب علــيهم ولو كانوا خطّائين أحياناً فعلاً حراماً وقولاً كذباً من الكبائر،

وحكيم يُنـــزل حقّ هدايته وأحكام شريعته وفاقاً حسناً لصلاح أمور عباده ويعلّمهم كـــيف يتحرّون الحقّ ويرعون الحلم في كلّ واقعة وظرف من حياتهم لاسيما ما يجري في هذا الشأن بين الذكور والإناث... الآية تطوي الجواب على 'لولا' الشرطيّة إشارة للمخاطـــبين أنـــه لولا الفضل والرحمة من التوّاب الحكيم لجرى لهم حاقّاً عليهم ما لا يرضـــونه مـــنه تعالى: لربما قدّر مثلاً أن يقضي في بيّنة سوءاتهم تلك ببيان شهيد من الوحي يفضح الجناة حقاً وذلك عند تنـــزّل القرآن قبل انقضاء وحيه، أو لأغناهم فيها بشاهد أو شاهدين في حكومة قضاء في أمر يترتب على ثبوته مَساءٌ عظيم يقتضي بيّنة أبلـــغ، أو لأنـــزل عليهم حكماً يُفسد المساواة بين شهادة الذكر والأنثى الزوجين في شأنهما مما تضطرب به عدالة سائر شهادات البيّنة لهما، أو لرتّب على تناقض الزوجين عـــند الترامـــي بالفاحـــشة حكماً يبتّ علاقة الزوجية بينهما أو يوهن عدالة شهادة الـــزوجين المتلاعنين فيقضي بتساقطها كسائر الشهادات التي لا تتكامل في هذا الأمر وتُـــصيب أهلية أصحابها أبداً حتى المتاب، أو لأوقع بالزوجين الشاهدين بأيمان مغلّظة مـــتكاذبة عقوبة على المبادر بالادعاء دون أن يُعزّز شهادته بعدٍّ من الشهود أربعة، أو لجعـــل كل الشهادات في أيما قضية ادّعاء أو خصومة بين المؤمنين تقتضي تعزيزاً بأيمان تذكُـــر الله وتـــستدعي لعنـــته أو غضبه على الكاذبين. والله أعلم بتصاريف حكمته ومقاديـــر رحمته في هدايته للمؤمنين، ولكن يلزمهم الصدق في عاجل القول المسموع بيـــنهم شـــهادة، والعـــزيمة في الترهيب من الزنى شهادة لا تكتم والترغيب في ستر الأعـــراض الزوجانية عدلاً بما يُريب من الفتن وما يحفظ من الطمأنينة، وعليهم التقوى من رقابة الله وآجلة عاقبة الكذب غيباً عند الله ﷻ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١)

هـــذه الآية وما يتلوها من خمس عشرة لم تكن قرآناً يقصُر هديه على الفصل في خـــصوص الـــواقعة سبب النـــزول المباشر، بل هو هدى عظيم وقعه على كل مجتمع الخطاب لكبير شأن مَن عناهم الأمر- إفكٌ أسير وقعه عيناً هي إمامة وقدوة موقرة عند ذلـــك المجـــتمع: عائشة بنت أبـــي بكر وزوجُ النبيّ الأشهرُ، والأسير الآخر صحابيّ

مجاهـــد أمـــين وَصَـــلته الحادثة بالأمر. وقد عَنى الأمر من قريب طبعاً النبـــي الإمام الأكـــبر ﷺ وأبـــا بكر الصدّيق له‌رضي الله عنه وذوي القربى، ثم عنى عموماً سائر المجتمع المؤمن الذي هداه وزكّاه التلقّي المباشر للقرآن وصُحبة النبـــي الحاضرة ليكون مثالاً وتكون ســـنّته عبرةً لخالف مجتمعات المؤمنين. ثم إن الآيات ليست إحقاقاً وحسب للحقيقة في أمرِ تناولهِ لذلك البهتان العظيم الذي طعن في زكاة خُلق مؤمنين مكرّمين واختلق من الـــوهم والريبة واقعة مفتراة، بل هي آيُ هدايات حول خُلُق إطلاق مثل تلك المقولة عـــن فاحشة وأخذها لتداولها عفواً بإفاضة واستهانة شائعةً دون تثبّت تتوارد به بيّنة، اتـــباعاً لوســـاويس الشيطان، وحول تزكية خلق المجتمع المؤمن إنْ تلقّى تلك البليّة أن يترشّد تبيّناً للحق وينْزجر عن ترويج الشبهات حتى تأتي البيّنة وألا يغضب فيفرُط على مَـــن يُشيع إفك الفاحشة دون صفح وألا يحجب عنه العطاء تكرّماً لاسيما من يحقّ له ذلـــك بالقربى والحاجة، وحول عاقبة لعنة من الله وعذاب عظيم يكتبها على من تولّى كِـــبر مـــثل ذلك البهتان الشائع لاسيّما في الآخرة حيث الإقرار بما فعلوا والإسلام لله الحق المبين يوم الدين، وحول الحملة على المجتمع الذي ينشرح لتداول تلك الأفائك في وســـطه، وحول ظاهرة تزاوج الخبيثات والخبيثين والطيبات والطيبين تآلفاً في منسك الحياة وحظ ذوي الطيبة البُرءاء من الأظانين أن تحقّ لهم عند الله مغفرة ورزق كريم.

والآيـــة هذه تقضي بما هو حق في أصل مناسبةِ تنـــزّلها والآيات العشر التالية، فصلاً حاسماً في الشأن المترتب. "إن الذين جاءوا بالإفك عُصبةٌ منكم.." أوّل الحقّ أن مقال من ذُكروا كان إفكاً، اختلاقاً بأبلغ الكذب، جاءَ به مَن افتراه من ظنون الرّيب واقعـــةً وحملـــوا روايته خبراً موهوماً عمّن كانت متهومة – عائشة زوجة النبـــي ﷺ الأقـــرب إلـــيه وإلى أبيها صدّيقه. ذلك أنها – عند المرجع من غزوة بني المصطلق – تأخـــرت عندما ارتحل الركب واحتمل رهطٌ هودجها الفارغ و لم يُبالوا بخفيّةٍ يحسبونها فـــيه لأنها لا تثقل وزناً. وإنما كانت قد خرجت تبتغي البحث عن عقد من جزعٍ لها انقطـــع فـــضيّعته حيث ذهبت تقضي شأنها. وعادت إلى حيث منـــزلها الذي غادرته وســـكنت مـــستنيمة مطمئـــنة أن يُرجع إليها. فعثر عليها صفوان بن المعطّل السلمي المراجع وراء الجيش فعرفها وحملها على راحلته ليلحق بمنـــزل الجيش التالي مراعياً أبلغ

الأدب والتقوى. لكن ما تسامع البعض عند مقدمها بالأمر إلا ظنوا الأظانين وأشاعوا إفكـــاً، وتداعـــوا وتواشوا وتآمروا عصبة - بضعاً أو أكثر - ممن اتبعوا وهْم ظنوهم فأطلقوا ألسنتهم بأقاويل الإفك. وكانوا عدّة من الذين آمنوا ظاهراً مجاهدين مصاحبين النبـــي لكن ما بالوا أن يوضِعوا خلال الجماعة بتلك الأفيكة حتى بلغ النبأ النبـــي ثم عائـــشة نفسها، فهمّها ذلك وأحزنها وذهبت إلى أبيها، وهمّ ذلك النبيّ أيضاً وأبدى غمّه، وأثار فتنة في مجتمع المدينة وطوائفه، حتى تنـــزّلت آية البراءة هذه.

والله يعلّـــم المؤمـــنين فيها ألا يحسبوا ناشئة الإفك وظاهرته تلك شراً لهم تُؤذي نبيّهم إمامهم وزوجه وأبيها ومن يليها وتثير اضطراباً في صفّ المؤمنين وتضرّ بسمعتهم قـــدوة للناس كافّة. بل هي أمر خير لهم فيما أُتيح به من مناسبة شهادةٍ من الله ببراءة وتـــزكية وطهارة لأم المؤمنين بينهم، وتسليةٍ وطمأنة لكلّ المتأذّين الصابرين معها بعدٍ حـــسّ الفزع وذوق المرارة من سماع الأفّاكين ومجادلتهم، وهداية تطهرٍ ورشد واعتبار في مثل تلك الواقعات والبلاءات التي لا يسلم منها مجتمع فيما بين أيديهم وما خلفهم مهما يكُن مؤمناً صالحاً.

ويقضي الله على عصبة الإفك أن لكلّ امرئ منهم ما اكتسب من الإثم واصطنع مـــن الخطيئة يحقّ عليه وزر مسئوليةٍ وجزاء بقدرها وفاقاً، الأعظم منهم إثماً هو الذي اســـتهوته الظنون والفتن، والأدنى وزراً مَن كان أُذُناً يصدّق الآفكين بيُسّر ويُستخفّ فيذهب مجاهراً ينشر ما يروون. والحقّ أن الذي تولّى كِبر الأمر ومعظم دفعه كان ألحّ العـــصابة في إنشاء الأفيكة وأنشطهم في إمرارها وإشاعتها، وهو - كما يُروى - عبد الله بن أُبـــي، وهو من ثمّ له عند الله عذاب عظيم يعقب له في الدنيا وفي الآخرة يأتيه وفق كيده وكسبه أضعافاً. ولكلٍّ من العصبة حظ ودرك من العقاب وفاق نصيبه من الخوض في الأمر الأثيم.

﴿لَـــوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (١٢)

لـــولا - كلمة ترجٍّ في سياق عتبٍ يُخاطب ذكرُ الله به المؤمنين آخذاً عليهم انفتاهم فرطاً لغاشية الإفك إذ تكثّفت في أوساطهم الريب وفشت أقاويل الظن ووشايات الباطل،

وكـــان ينبغـــي أن يُدركهم جد صدق أوفق: لولا - فور ما سمعوا حديث الإفك - ظن المؤمـــنون والمؤمنات اللائي خصّهنّ الله بذكر جليّ لأن الوعظ كان يعني أمراً صاب مؤمنة كريمة منهنّ - لولا ظنّوا بأنفسهم خيراً، وبعض الظنّ إثم، واستصحبوا من ثَم في تقديرهم أنهم عموماً وإخوانهم أفضل خُلُقاً مما رمت به العصبة واحداً من أوسطهم، بل وواحدة هي مـــن أَولاهـــم رتـــبةً بأحسن الخُلق طُهراً من فتن الشهوة الجنسية وتزكّت تقوى بصحبة النبـــي ﷺ نفسه زوجةً - لولا قالوا - إضافةَ تأكيد لحسن الظن بأنفسهم وبمن مسّه الظن المريب مباشرة: إنْ هذا إلا إفك مبين شاهدٌ على وضوح دركه من أبلغ الكذب والتأفيك الـــباطل، وذلـــك لاستصحابهم رجحان تعبير صفات المرء المؤمن طهارةً وعفّة وصلاحاً وصرفهم لأيّما خبر عمّا يُظنّ به بغير بيّنة ولو شاع.

﴿لَـــوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٣)

لولا - تطلّباً ينضاف لقول المؤمنين المخاطَبين المعلنين إن القائلة حول عائشة ومن معها كان إفكاً مبيناً من عُصبةٍ فيهم - هلاّ جاء أولئك الذين رموا كريمةً فُضلى فيهم بـــتهمة تـــبلغ الزنى بتصديق لدعواهم من أربعة شهداء كما تقتضي آيات صدر هذه السورة البيّنة، فإن لم يأتوا بالشهداء، بل مضوا يطلقون القول اعتسافاً ويشيعونه عفواً فأولـــئك - مهمـــا تكن سريرتهم في علم الله - هم الأبعد عنده والكاذبون في شرعه المـــبنيّ علـــى الظاهـــر المعـــروف، إذ - بين الناس - هم الذين آثروا على الاصطبار والانـــتظار لتمام الاستشهاد المشروع حتى ثبوت عين الحقيقة إلقاء كلمة فرية عبطاً في شأن فاحشة منسوبة دعوى لمؤمنة، وتلك تُعتبر كذبة سوأى قائلها عرضة للجلد حدّاً عقاباً ولسقوط أهليته للشهادة أبداً إلا إذا تاب وأصلح.

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّه عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ في الدُّنْيَا وَالآَخرَة لَمَسَّكُمْ في مَا أَفَضْتُمْ فيه عَـــذَابٌ عَظـــيمٌ * إِذْ تَلَقَّـــوْنَهُ بِأَلْسنَتكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِه عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عنْدَ اللَّه عَظيمٌ﴾ (١٤ - ١٥)

تعـــود الآيـــة الأولى وتضيف تذكرة بفضل الله ورحمته في تصريف الأقدار لطفاً بالمؤمـــنين فـــيما جـــرى بهم من ظاهرة إفكٍ تجلّت لهم خيراً لا شراً في مجمل وقائعها

وتأويلـــها والهـــدى الـــذي أعقبها. ولولا – إن لم تتنـــزّل إيجاباً على أولئك المؤمنين المخاطـــبين – أفـــضالُ رحمة من حلم الله الصبور مبسوطة لهم في الدنيا ومكفولة في الآخـــرة مهمـــا يكـــن قصورهم، لمسّهم فيما أفاضوا فيه تعاطياً وتداولاً كثيفاً لرواية حـــديث الإفك، وإكثاراً لتداول حواشي الرؤى تعليقاتٍ حول قصته – لمسّهم عاجلاً عـــذاب عظيم من الله. هم خاضوا كذلك في أمر الفرية بلا ظن خير بأنفسهم غالب ولا تثبّت في سبيل بيّنة فاصلة حاسمة، إذ كانوا يتلقّونه لا بآذانهم وحسب فإعراضاً عن حـــياء وتقـــوى، بل يتجاوبون روايةً له بألسنتهم تتلقّى ما يرد عليها من مسموعات الأقاويـــل حـــوله وتتناقلها بخفة دون صدّ أو كفّ. وحقّ عليهم عتاب بليغ لا إنفاذ عقـــاب بفضل الله ورحمته، إذ كانوا لا يُلقون كثير بال لما يفيضون فيه ولا يحسبون ما قد يلحق بهم من تبعة يستعظمونها، يقولون بأفواههم ما ليس لهم به علم حقاً ثابتاً عن بيّـــنة ويعدّونـــه مثلَ لغو الكلام الجاري تداوله لا وطأة فيه، وهو عند الله عظيم إثماً يـــستتبع وزراً ثقيلاً لأنه يتعلّق بخطيئة كبيرة، ويمس أسيرة ظنٍ واهم هي جليلة القدر والمقـــام والنسب، ويثير قصةً يحبّ تلقّيها السمّاعون وترويجَها نقلةُ القيل والقال عفواً بغير تقية، والشأن تحيط به منظومة أحكام من كتاب الله زاجرة للمستهين بتمام وقع مقتـــضاها هاديـــة إلى الظـــن الحـــسن والتروّي المتحفّظ والتثبّت المغلّظ في التقدير والبيّنة.[1]

﴿وَلَـــوْلاَ إِذْ سَـــمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (١٦)

ولـــولا – كلمـــة ترجٍّ في سياق خطاب تذكير واعظ للمؤمنين بما كان الأولى بهم – هلاّ إذ سمعوه – ذلك الإفك وارداً في منقولات الكلام السائر بينهم – قالوا إنه مـــا يكـــون لهم استصغاراً لكبيرة أن يتكلموا بهذا الباطل، إنه ينبغي لهم أن يكفّوا عن إمـــرار روايته وأن يكون تجاوبهم بالحق لسماعه: أن سبحان الله المتعالي الذي تقتضي عـــبادته والزلفـــى إلـــيه أن يرتفعوا بالسائر من كلامهم عن سافل الترويج لمثل ذلك

(١) راجـــع وانظر في ذات السورة طيّ ذكر عاقبة الإثم أو إيراده، لولا فضل الله ورحمته: الآيات ١٠، و٢٠، و٢١.

الإفـــك، يُـــشهدون الله بكلمة حاسمة: هذا بهتان عظيم، كذبٌ مباغت بليغ البطلان شديد الوقع شهير في حدثان سيرة مجتمع المؤمنين.

﴿يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧)

يُخاطـــب الله أولـــئك المؤمنين عَبر هذه الآية بأن يعظهم -وينهاهم منذراً- أن يعودوا لمثل هذا المسلك في الانبساط الهيّن لرواج مثل تلك الأفيكة أبداً ما داموا أحياء مبـــتلين، وأن يعتـــبروها تجـــربة ناهية إن كانوا حقاً مؤمنين تذكرهم بلوى في الحياة بمقتضى صدق الإيمان وتعزز فيهم التقوى بما يُحصّنهم من فتن الارتداد إلى مثل ما ساء منهم.

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٨)

وتجـــيء هـــذه الآيـــة تذكيراً عاماً منضافاً إلى الهدى السابق ذكره: أن الله يبيّن للمؤمنين مخاطبين الآيات المتوالية في كتابه ترشدهم هواديَ إلى الصدق والتقوى وقول الـــتي هي أحسن، وتزجرهم مواعظَ في سبيل التوبة والاستقامة، وتبشّرهم بفضل الله ورحمته المتواصلة حتى للمؤمنين إن أذنبوا، وتنذرهم من عظم الكبائر عند الله ومنظور العـــذاب العظـــيم، وتهديهم إلى محاسبة النفس والمجاهدة في الحياة، وتذكر حساب الله وجـــزائه وفاق ما قدّموا - ذلك لاسيما في سياق الشأن الذي تواترت به هذه الآيات عـــن أقاويل الإفك في الأعراض. والله عليم بالغ العلم بما يُصلح أمرهم من رشد وما يُحـــيط بهم من ابتلاءات، حكيم دقيق الحكمة فيما يدبّر لهم هداية خير في كل شعاب حياتهم ويؤمّن لهم عاقبة موافية.

﴿إِنَّ الَّـــذِينَ يُحِـــبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (١٩)

إن الـــذين - هـــم أُذُن شر وقالةُ إفك لذا - يُحبّون أن تشيع الفاحشة، الفعال البالغة القبح عبر الوشايات الكثيفة التي تروّج أنباءها الشنيعة وظنون التأفيك بها المنكرة فتُسلك ممارستها كأنها مقبول سارٍ ودأب معروف ينتشر عمومه بسعيهم، طائفةً شاذّة تبـــثّه في مجتمع الذين آمنوا وحملوا عهد توخّي الحُسنى والفُضلى في الأعمال والأقوال ولزموا التقوى لاسيما في مراعاة حدود العلاقات الزوجانية وحقوق العروض كريمة لا

تتـــناولها الأفائـــك وأقاويل الباطل دون إثبات ولا تفضح مستورها الشائعات – إن أولـــئك الـــشُذّاذ في مجتمع الإيمان لهم عذاب في الدنيا – عاقبة حدّ قذف أو تعزير وملام من المجتمع، ولهم عذاب من أقدار جزاء الله العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة حـــيث الحساب والقضاء الفصل والعذاب الآلم الأبقى. والله يعلم كل شيء، والذين آمـــنوا المخاطَبون لا يعلمون تمام الحق في حيثيات السوء في وقائع الحياة إن لم تقُم لها بيّـــنة، ولا عين الصدق في شهادةٍ ما تواترت بما يبلغ علماً كافياً أو قُبلت إذ تمّت غير قاصرة، ولا ما لا يبلغه علم الظاهر من عواقب الجزاء الغيبـــي أمراً مفعولاً بينما يحيط علـــم الله بالوقائع والنيّات يحيط بحدوثها ويزن مثاقيلها كسباً ويصرّف جزاءها وفاقاً. ولكـــن الله يُلقي على عباده الذين آمنوا النذير العام في شأن شائعات الفاحشة وتدابير عقباها.

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّه عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠)

وتعود هذه الآية تُضيف تذكيراً بالله الهادي المزكّي لعباده التوّاب عليهم وبشارةً بفـــضله علـــى الذين آمنوا ورحمته – أن لولا ذلك وأنه ﷻ رؤوفٌ يُحيط بألطاف عنايـــته الـــرّقيقة عباده المبتلين في عالم الشهادة المحجوب عن غيبه، رحيمٌ بالغ العطف علـــيهم يدركهم بمدّ رحمته في شعاب بلاءات الحياة، للاحقت الذين آمنوا عاقبةٌ غير مرضيّة. وفي الآية نمط تعبير قرآني معهود سبق مثله في آيات قريبة أن أقدار الله المسنونة تتجلـــى لمـــن يتدبـــر المعاني ولو طوت كلمات الآي بيانها. ففي الآية إشارة إلى نذير ارتكـــاس ومؤاخذة ومعاقبة عاجلة مستحقّة لحبّ شيوع الفاحشة فيهم لولا أدركت الذين آمنوا أفضال الله وفيض صفاته الحسنى، فذكرُ ذلك الدرك طوى الحاجة لذكر ما كانـــوا عرضـــةً له: أن تغلب شائعات الفاحشة في مجتمعهم على مجرى القول الحسن المنضبط صدقاً وتقوى وتحقّ عليهم سوأى شاملة لا تصيب الذين ظلموا وأشاعوا الفتنة خاصة، ولكن الله تفضّل عليهم رافةً ورحمة بالغة.

﴿يَـــا أَيُّهَا الَّذينَ آَمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَات الشَّيْطَان وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَات الشَّيْطَان فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّه عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا منْكُمْ منْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١)

النداء والتنبيه والخطاب هنا للذين آمنوا ألاّ يتبعوا خطوات الشيطان الذي يفسد علـــيهم ســـير الحياة ويُضلّ وجهتها المستقيمة لوجه الله عبر إغوائهم في كل تقلّبات الابـــتلاء العارضة، حيث يفتنهم هواهم فيراودهم الشيطان ليغرهم ويصدّهم عن ذكر الله كما عهد على نفسه منذ نشأة الإنسان الأول. لكن الله عهد على نفسه حين هبط الإنسان إلى عالم الشهادة المحجوب عن الغيب أن يواليه وحياً بالهدى والتذكّير، تاركاً لـــه الخـــيرة في مـــذهب المسير في الدنيا فاستحقاق المصير وفاقاً في الآخرة، إما اتخاذ الشيطان قريناً فيهما أو اجتنابه استقامة على طريق إلى الله. والسياق هنا هو اتقاء الذي آمـــنوا نـــــزغ الشيطان خاصة في العلاقات والفتن الزوجانية بين الذكور والإناث، فـــذلك مجـــال تغشاه الشهوات ويهيج نـــزعها البليغ ليستغلها ذلك الشيطان ويشفي كيده عدوّاً للإنسان. وقد سبقت آياتٍ هدى في حال الفتنة عدواناً وراء حلال النكاح المـــشروع فـــيه كـــتاب عقاب وبيانٌ إجراءات إثبات بيّنة وقوع الفواحش مضاعفةً للـــشهداء لا اتباعاً لداعي الظنون والرّيب الشيطانية وزجراً للقصور دون ذلك بعقاب وجـــرح لذمّة الشاهد أبداً إلا بعد المتاب والصلاح. وفي تلك الآيات شرط مضاعفة للدعاوى الشاهدة بين الزوجين في أمر الزنى يعزّزها ذكر الله ويصاحبها استدعاء لعنته أو غـــضبه علـــى الكاذب فيها، فإما جازت شهادة دعوى فنفذت العقوبة أو رُدّت بـــشهادة المتهوم قضاءً ولو صدقت في الغيب. وقد وردت في سابق تلك الآيات أيضاً هـــدايات حول أمر الإفك الذي صاب في واقعة الحادث فُضلى من المؤمنات فجاءت تـــبرئةٌ لهـــا وعزاء للمؤمنين بما جاء في الأمر من خير ونذير للآفكين بالعذاب، وتحذير واعظ للمؤمنين أنهم لم يُحسنوا الظن بأنفسهم ولم يفصلوا في الحكم على الأمر بُهتاناً عظيماً، وتذكير لهم بسوء إفاضتهم في تداول الإفك وحسبانه أمراً هيناً يُتداول التطرّق له، ونذير للذين يُحبون أن تشيع الفاحشة، وذكرٌ لفضل الله ورحمته مرّات – أنه يعفو ويتوب رأفة بالمؤمنين مهما يجري بينهم من قصور.

والنهـــي هـــنا عن اتباع الشيطان في خطواته عاصياً لله وإيحاءاته لعدوّه الإنسان ليـــضلّ في كـــل مسلك في سير الحياة، ويُعضّد ذلك النهي النذير أن من يفعل ذلك انـــسلاكاً مـــع الشيطان بجهالة في القصد أو غفلة ينبغي أن يُدرك أن الشيطان يأمر في

وساوسه بالفحشاء الموغلة في السوء والمنكر من الأفاعيل والأقاويل ويوحي بإشاعتها لتسري هيّنة معهودة مُعدية وتنبسط سنّة سيئة. ذلك ولولا فضل الله على المخاطبين كفاء تكريم مضاعف لسعيهم مؤمنين ولولا رحمته بهدايتهم في الكتاب إلى الرشد والصلاح في الأعمال وأيْده لهم إجابة لدعائهم وتيسيرهم لحسنى المتاب – لولا ذلك الفيض من الفضل والرحمة ما زكا منهم أحد أبداً ليتطهّر من دنس الهوى ورجس الشيطان وليرقى إلى درج الزكاة والإحسان. ولكن الله – إن اتّبع الذين آمنوا هدى آياته مخلصين صارفين حضور الشيطان في خطوات مساعيهم حياة في سبيل الله – يستجيب لهم ويزكّي مَن يشاء. والله سميع محيط الإدراك لدعوات عباده واستعاذتهم من الشيطان وترجّياتهم رحمة الحفظ والتوفيق منه تعالى، عليم بالغ العلم بشتّى شعاب البلاءات العارضة لعباده المخاطبين وكسوبهم في مجاهداتهم وعزائمهم التي ترفعهم في مقامات الزكاة.

﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢)

بعد هداية الله لعباده الذين آمنوا تحلّياً بحسن الظن بأنفسهم وصدّاً لشرّ المُرجفين في المجتمع بحديث الإفك ومثله وتزّكيهم بالتقوى والقول الحسن في وجه الأفائك الشائعة، تمتد هداية الظن والقول إلى هدايةُ الفعل بشأن الآفكين أنفسهم: ألاّ يأتل من الذين آمنوا المخاطبين أولو الفضل والسعة – فيضاً في المال وقدرة لجود العطاء بلا ضيق، قسماً منهم ألاّ يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين وطنهم وأهليهم إلى المدينة في سبيل الله، غيظاً عليهم أن ورطوا في التواطؤ لإطلاق حديث الإفك وترويجه، لاسيما إن كان عطاء الله إليهم موصولاً قبلاً بحقّ القربى وداعي حاجة المسكنة وأزمتهم مغتربين عن مواردهم في الوطن. ومن الواقعات الخاصة التي استدعت سبباً نزول الهدى في الآية ليبقى هدياً عاماً أن أبا بكر الصدّيق الذي غلبت عليه الغيرة والغضبة من الإفك الذي مسّ بنته وزوج النبي ﷺ خليله أقسم ألا ينفق على مسطح بن أثاثة الأفّاك ولو كان ابن خالته ومسكيناً مهاجراً. فالوصية لمن خاطبتهم

الآية النهي عن قطع العطاء ولو ممن يستفزّه آفكٌ كان أهلاً للصدقة - الوصيةُ أن يعفوا عـــن تلك الزلّة وأن يصفحوا إعراضاً عنها لا بصفحة قطيعة وكفّ بل بمقابلة سيئتهم بحسنة من البرّ الواصل. وترهيباً في الآية يُساءلون ويُترجّون: ألا يُحبّون جميعاً أن يغفر الله لهم السيّئات يمحوها ويبدّلها حسنة ويُكافئ ذنبها بلاحقِ رحمة؟ والله غفور رحيم، واســـع المغفـــرة تغـــشى كل سوالف الذنوب بليغ الرحمة يُعطي نعمه موصولة حليماً وهّابـــاً. وتلك كانت بُشرى لمسطح - إذ أقيم عليه حد عقاب القذف ولعلّه تاب إلى الله واتّخـــذ ذلك كفّـــارة له، وبُشرى لعباد الله الذين آمنوا عامّة أن الله الحكيم يتوب عليهم ما سعوا هم بالمتاب.

﴿إِنَّ الَّـــذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣)

تُلقي هذه الآية الكلمة الفاصلة في كبيرة مستفظعة - مهما يكُن حلم الله ودعوته للعفـــو عن جُناهَا، هي رمي المؤمنات بالفاحشة. إن الذين يقذفون خيرات النساء - ومـــثلهن من خير الرجال - بأفائك الفعال الفاحشة، وهنّ المحصنات المتّقيات دواعي الفتنة الجنسية الحافظات أعراضهنّ بحصانة الزواج أو العفة أصلاً، الغافلات القلوب عن دواعي الشهوة قاصرات الطرف واللسان والجوارح كفاً عن السوء، المؤمنات مُرسيات أصـــول الإيمان وشعابه في وجدانهنّ - أولئك الآفكون لُعنوا طرداً من مدى رحمة الله الواســـعة في سعد الحياة الدنيا ونعيم يوم الآخرة المبسوط، ولهم عذاب عظيم من الله عاقبة سوء في تلك الآجلة. والآية تنـــزّلت حول حادث الإفك لكن هديها يعمّ.

﴿يَـــوْمَ تَـــشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٢٤ - ٢٥)

وذلـــك الوعـــيد يوم تقوم البيّنات المتواترة الفاصلة والموازين القسط على أولئك الآفكين بالفواحش قذفاً على المتقيات الحافظات المؤمنات، تشهد عليهم ألسنتهم - إن اســـتنطقوها ليُنكروا تَنبَكِمُ عليهم ثم تنطلق متكلمة مسخّرة بقول يأتي اعترافاً صادقاً، وتـــشهد علـــيهم أيديهم - إيماءات التعبير عن الإفك تنقلب عليهم شهادة ناطقة بما اجترحت، وأرجلهم إن زعموا النأي عن مساعي إشاعة الإفك تُخرج اعترافاً بمساعي

السوء. هكذا تتواتر عليهم وتتناصر شهادة جوارحهم هم ذلك اليوم بما كانوا يعلمون في الدنـــيا، يومئذ – يوم الدين – يوفّيهم الله دينهم، جزاءهم الذي حقّ عليهم حساباً كفـــاءً بالقسط بما كانوا يعملون غير منقوص ولا جائر. ويعلمون يومئذٍ أن الله يجلّي بموازين حسابه وقضائه ضبط عدله وبيان أجزائه كفاء ما قدّم العباد.

﴿الْخَبِيــثَاتُ لِلْخَبِيــثِينَ وَالْخَبِيــثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٦)

الخبيــثات من النساء – الفاعلات الخبائث المبديات سيئ القول والخطاب خُلقاً مــسنوناً – هنّ للخبيثين الذين هم على شاكلتهنّ خبثاً وفُحشاً في سيرة القول والفعل هنّ لهم أزواج موالاةً وصحبة وسوء مناكحة نكراً سفاحاً أو خلّة. والطيبات المُعربات قــولاً طيباً وفعلاً حسناً مطهراً من دنس الخبث من قبح الكلام وفُحش الشهوة، هُن للطيــبين مــنطقاً وسنة خُلق أزواج وأولياء في تآلف ومودّة ورحمة بزواج أو أخوّة. أولــئك – ذوو الطيبة المؤمنون – مبرأون تنـــزيهاً مما يقول فيهم الخبثان بإيحاء الخُبُث الــشياطين. وتلك إشارة إلى أمر عائشة البريئة من الإفك الصالحة العمل الطيبة الخُلق زوجــاً موائمة للنبـــي ﷺ الطيّب إمامةً وقدوة للطيبين المؤمنين. أولئك تحقّ لهم أيضاً مغفرة من الله تغمر الخطايا واللّمم إذ هم يتّقون كبائر الخبث والفاحشة والإثم، ورزق كريم طيبٌ وافراً وأبقى خلوداً من متاع الدنيا المحدود الموقوت.(١)

عموم المعاني (الآيات ١ – ٢٦):

ســـورة 'الــنور' لم تتنـــزّل في مكّة رَكزاً على معالمَ من أصول التوجيه القويم لترســـو في الـــوجدان شـــعابَ رشد إيماني باطن، ومبادئَ عامة لخُلق طائفة منعزلة لم تنبـــسط و لم تتمكّن مجتمعاً متكاملاً، وهوادي لمسالك أفرادها الخاصّة. بل نـــزلت في عهد المدينة حيث اتّسع المجتمع وانتظم قيامه وامتدت معاملاته في إطار سلطان ضابط، وناســـب عهدها أن يتجلّى هدى الله في آيات مفرّضة مفصّلة أحكامها متّضح بيانها لما هو أهدى مُذكّرةً بما هو أقوم لشعاب من حياة المؤمنين ما داموا منحجبين عن نور الله

(١) راجع الآية ٣ ذات السورة.

الغيبـــــي إلا بالوحي، ومحصوري الإدراك في العالم المشهود مفتونة فيه أهواءهم معلّقة بـــشهوات يـــزينها الشيطان عدوّ الإنسان الذي يراوده ويسعى لمقارنته حتى العُقبى في الـــنار إلاّ أن يتلقّى الإنسان رحمةً من وحي ربّه علماً عن الملأ الأعلى والأزل وهدىً يُجاهـــد بـــه عبر ابتلاءات الحياة بشتّى شعابها ليلقى ربّه العليم الحكيم الغفور الرحيم راضياً مرضياً.

في فطرة خلق الإنسان ينـــزرع نـــزع شهوة بين الذكر والأنثى تتجلّى إما إغواء أو مخالـــبة أو مراضـــاة ليتباشرا أو يتباضعا، أو مضاغطة أو مكارهة من الذكر ليمسّ الأنثـــى أو ليأتـــيها، وذلك لقضاء نـــزوة الشهوة أو لتطلّب أسباب الذريّة. فالمواطأة مورد للذة ومصدر في رحم الأنثى لمخلوق ينمو حتى يخرج وينسلك في سلالة التعاقب البـــشري المسنون. لكن لو خُلّيت الشهوة طالقة تُسلك الإنسان أنّى تصوّبت لعربدت بخـــياره خـــبط العشواء حتى تُحدث فوضى في علاقات الذكور والإناث دون انتظام منضبط بتزاوج عن تعاقد مرضي يُوفّى بعهده وتُرعى حرمة خصوصه. ولو اشتدّ دفع شـــهوات الذكـــور واتّبعوا هواها عفواً لربما حملتهم أن ينالوا المبتغى من الإناث ولو اســـتدعى الأمر بسط قوة لما هو غير متيسّر بالحسنى، أو أن يُشاحّ الواحد منهم غيره ويـــصارعه حُـــباً لاحتكار بُغيته وحرصاً ألا يُظلم فيُحرم من حظه ومقصوده في مجال الإنـــاث. وقد يتكثّف مكر الفساد في تطلّب الرّغائب وكيد الرجال فيما بينهم فيفسد ســـلام علاقات الحياة وصلاحها، إذ قد تجرّ المنافسات والمدافعات والمصارعات بحمّية تلك الشهوة إلى مثل ما يجري من بعض الحيوان تقاتلاً. ولعلّ بني الإنسان – بإلهام من فطـــرة الـــنفوس رشـــداً وتدبيراً للحياة في مجتمع ورحمة من الله هدىً وتذكيراً بما هو أقوم – قد عرفوا أن خير مسلك لقضاء الشهوات الجنسية دون فجور ونشدان رغائب الذريّـــة دون وحـــشية هو التراضي أساساً للمناكحة بين الذكور والإناث: أن يكفّ الرجل وهو الأقوى بأساً عن حمل النساء كرهاً لقضاء نـــزوته لزرع ذريته، وأن يسلم مـــن العدوان على حرمة بيته بغياً من آخرين، وألاّ يسعى بالترضّي حيلةً لكسب مَيلة عارضـــة لفَعلـــة من التناكح ومتعة لحين عابر، بل يعقد بجدّ الرضى ومدّه زواجاً تقرّ رابطـــته وتستمرّ مودّته وتطمئن ساكنته وتُحفظ أمانة خصوصه وحرمته، وأن يعتصم

بـــوفائه لا تهيج به الشهوة فيعدو بغياً وراء زواجه خيانة تتهدده أن ينهدم كيانه، ولا يُـــرخّص للآخرين اقتحام حرمته فيَهي حبل التوادّ والتراحم والتعاون المخلص في ذات بيـــته. وإن جرى ذلك فقد يضيع أو يتزلزل الإطار الجامع للآباء والأبناء حيث يتربّى الـــصبيّ ويتزكّى حتى يبلغ أشدّه ويخرج خلفاً لوالديه، باراً محسناً بهم بلا خوف عليهم إن تطـــاول العمر وورد العجز وطرأت الحوائج، أهلاً لمدّ النسل والذرّية حافظاً ومجدداً لأيمّـــا تـــراث صالح، وراشداً يحمل التكاليف ومسئولية القيام ببناء إطار زوجية جديد نافعاً لأهله مادّاً لخير المجتمع.

إن الحياة الدنيا كلها ابتلاء عرضة للمعاسر والفتن والأزمات، فالزواج عقدٌ قوامه مـــودّة وحـــب خالص وتكافل مجتهد موصول وفيه رجاء كبير لو استقام أن يتجاوز الـــبلاءات بخير، لكن الفتن له في مساره بالمرصاد، فالنظرة العارضة للزوج وراء ما يليه قد يبعث إعجاباً منه بالغير الغريب فصلة إن توالت قد توثّق نحوه الانجذاب وتمتد لتبلغ مـــيلاً يُورط في التماسّ والتواطؤ خيانة للزواج. إن المرء لو بلغه الحياء من عرف حرمة الـــزواج قد يُسرّ بأيما بغي وراءه، لكنه قد يجاهر إن ضؤل فيه وازع الوجدان التقيّ أو ضـــعف حوله ضابط العرف والسلطان. وذلك فضلاً عما تتعرّض له حياة الأسرة من عـــسر المعـــاش وفتـــنة تقاسم الأموال وتوتر الخلاف في تدبير سائر أوضاع الأسرة وعلاقـــات النـــسب والقربى والجيرة والمجتمع حولها وسياسة رعاية الأطفال فيها، وقد يذهب الأمر إلى نشوء أزمة في ذات البين وظهور كره وجنوح وإعراض، وقد لا توافي ذلك بالمعالجة الحسنى دواعي المصابرة بين الزوجين والمصالحة بواسطة القريب، وذلك يفتح باباً لاتساع ما يفرّق بين الزوجين وما قد يدعوهما للمهاجرة أو المطالقة حسبما يجـــري المعـــروف وحتى يقع الفصال الباتّ، وبالطبع قد يتفارق الزوجان أيضاً بوفاة أحـــدهما. وعـــندئذ تتراءى أمور الثيّب والأولاد والأقارب حظاً في التركة، وقد تُرتبه الوصايا قبل الممات أو تسوّيه الأعراف والأحكام، ولكن الأمر قد لا يسلم من التنازع والـــتظالم. وقد يقوم عقد الزواج الثنائي بأحكامه وأخلاقه حافظاً لعلاقة الزوجين في تراتيبها وحاصراً وقاصراً لها دون تراكب لصلات زوجية في تعدّد إلاّ بالمعروف. وقد يـــستغني البعض سفهاً عن الزواج حصانةً وقراراً ليتردّد في علاقات رخوة مسافحةً أو

مخادنة أو معاهرة لا لزام فيها بكثير، وقد يفرط البعض مترخّصاً في ابتغاء متاع الجنس دون معاودة راتبة يغشى العارضات فتنتهنّ نــزقاً وجهاراً لكلّ طالب مجهول.

ومـــن رحمـــة الله أن رحم بني آدم بما يهديهم في كلّ هذه البلاءات التي تغشى حـــياتهم الدنـــيا في علاقات التناكح التي قد يفتنون فيها بنـــزعات الهوى والشهوات ودواعـــي الشيطان. ولذلك في القرآن ذكر كثير لفضل الله في هدى النكاح، تذكيراً بـــنعمة الله في جعله لعباده أزواجاً من أنفسهم وشرعه الزواج سنة حياة فيها التعاقب عـــبر الخلـــف، وبـــياناً لأطراف الزوجية الحلال وتمام العقد لقيامها ووصفاً لأحكامٍ وشـــروط وحدود في علاقاتها وفي مآل عواقبها ومصائر النسل منها وخلافته تركتها، وإرشاداً لما ينبغي أن يكتنفها من إحسان وما يكيّفها من معروف واتعاظ برقابة الله.

وفي مفتتح هذه السورة برز في الذكر أمر الزنى وعقابه المفروض. وذلك صداً لدوافع الـــشهوة أن تفـــتن المـــؤمن العزب فيمارس المباضعة فاجراً عَجلاً غير مبالٍ بسنّة الزواج المكـــتوبة، وحـــصانةً من بعد ألا يبغي المتزوج وراء عهده فسوقاً. وفي ذلك تثبيت لمنشأة الأســـرة إطـــاراً ناظمـــاً وحاصراً في ذات بينِ الذكور والإناث، بما يوفّر حرمتها ويرعى رابطـــتها ويحفظهـــا لـــتُحقّق وقعها الأمثل في تزكّي الزوجين الوالدين في رعاية التعاهد والـــتكافل والعدالـــة والشورى والتقوى فيما يعني تعامل أطراف الأسرة فضلاً عن تربية الذرّيـــة الناشئة وتزكيتها بكلّ ما كسب الوالدان من علم وما التزما من خلق، ثم في بسط ذلـــك الخـــير كلـــه بأثرٍ فعّال خارج الأسرة في المجتمع حولها وسلامةِ بنيته وتقوية أصول وحدتـــه وتعزيـــز صلاحه. ولذلك حُرّم الزنى في ذكر الله المتواتر وصايا هدى لتلك الحياة الـــزوجية الأساســـية، وعـــوقب في هذه السورة ردعاً لجوح الشهوة وفتنتها دون نكاح مـــشروع بعقد مرضيّ أو ملك يمين (إذ بقي الرق مشروعاً لأجلٍ أوّل في تنـــزّل القرآن). وفي تحـــريم الـــزنى والترهيب منه بعقاب حظرٌ للعدوان على مشاعرِ حرمة العرض الجنسي واتقـــاء لمحـــاذر عواقبه إثارةً للغيرة المستفزّة من ولي أو زوج، ولحفظ روح المودّة والرحمة والـــسلام مطمئـــنة في حياة الزوجين وقد وُثّقت بعقد مشهود وعهد معاشرة بالمعروف، لـــيدوم محمـــيّاً مـــن زلازل الغضب واضطراب الارتياب في صدق الوفاء وأمن الحصانة، ولـــضبط جـــواذب الذكورة نحو الأنوثة ألاّ تعربد فتتشاكس فوضى وفساداً، ولسدّ ثغور

الجهالـــة والشك في مشروعية الولد وصلة النسب ألا ترتبك وتختلط فيهي همّ الرعاية لكلّ صغير أو كبير عاجز والمبارّة اللازمة بين كل والد وولد وتقطّع أسباب المودّة والتكافل بين ذوي القربى المعروفة الصلات. ثم إن الأُسر إذا أُضيرت بالزنى المنتشر وخبره الشائع وبفشوّ التـــناكح المستباح عفواً، وتضاءل منهاجُها مسئوليةً وفيّة تقيّة وعزيمة تثبيت متعادلة وعلاقة متيـــنة مستقرّة – ذلك الاعتلال – حتى إن لم يهوّر الأُسر تماماً – يُعلّ المجتمع كلّه الذي لا قـــوام لـــه مـــنظوماً صالحاً إلاّ تآلفاً بين أسر صالحة متراكبة من خلالها يستكمل رابطته العشائرية بعاطفة قربى الدم والتحابب والقومية بالمجاورة والموالاة في أرض وطن والثقافية بما يُزكّـــي بـــه كل الصغار من علم وأدب وما يتعارف عليه كل الكبار من عرف. إن الوقع الاجتماعـــي النافع للأسر هو بتأسيسها على الزواج المحصّن وتحريم الزنى لأنه العلّة المنذرة بهلاكهـــا، لاســـيما في المجتمعات الكثيفة ازدحاماً حضراً في السكن وانحشاداً للتعاون في العمـــل ومـــا يؤدي إليه ذلك من التعاشر والتعامل الوثيق والحاجات المشتبكة والأسباب المـــتواكلة في جمـــعٍ متعايش متناهض ووحدة متجلّية في صلات أفعل تآلفاً وتعاوناً وأبرك تـــشاركاً وتكافلاً وأبلغ محاذرة من المضارّة والتظالم وسلطاناً بنظام محيط. هذه المجتمعات يعتريها الفساد وتنشأ فيها محذورات وتتعطّل مطلوبات ذات خطر إن قلّت فيها وتضاءلت الأصـــول الأُســـرية التي تزكّي خصوصاً مباشراً أعضاء المجتمع وتبسط فيهم خلق التعاقد والمحـــبّة والتراضي والغيرة المتبادلة والتشاور والتعاون والائتلاف والمبارّة والإحسان ليحملوا إلى عمـــوم المجـــتمع مـــا يقوّمه نظاماً تنبسط فيه أخلاق مساواة ومحابّة ومعاملات تعادل وشـــورى ويتشابك بمعاقدات خدمة وتعاوض وفيّة تقيّة وتسوده روح مسالمة وتصالح عند التخاصـــم ووحدة في المشاعر والمعايش والمصالح وفي المدافعة والتحامي من العدوان الهاجم من الخارج.

والـــزنى ظاهـــرة لم تعهـــدها المجتمعات العرفية القديمة سُنةً مقبولة وقد اتخذت لوقـــوعها – حسب المحادّة والمشادّة في أخلاقها وأعرافها وأحكامها – معاقبات شتّى. ذلـــك حـــتى تطورت بلاءات المجتمع وذهبت الهُونة ببعض المجتمعات الحديثة مذهب اســـتباحة منـــشرحة لابتغاء متاع التناكح وقضاء شهوته مرخّصاً بواحاً، إذ انتشرت علائـــق المعاشرات الفاحشة العارضة وهانت خيانة عقد الزواج بل تناقص بناء الأُسر

بجـــد وتكاثر الطلاق تحرراً منها وتضاءل فيها فعلها التزكوي. بل ظهر أخيراً انفساح مـــشروع للظاهرة الشاذة سدوميّةً (ملاوطة) بين الذكور أو مساحقة بين النساء. لكن الله هدياً للإنسان، وتحصيناً للوشيج المشروع بين الذكور والإناث تناكحاً بعقد مرضيّ وزواج تقيّ، وصونًا للأسرة ووظيفتها في إصلاح مَن فيها فسائر المجتمع حولها، واتقاء لمحـــاذر الانـــــزلاق وراء الشهوة بغياً طالقاً – حرّم الزنى وفرض له عقوبة الجلد، و لم يحمـــل علـــى المؤمـــنين المسلمين إصراً في ذلك حمله على أهل كتاب قبلهم بل قصر العقاب على أذىً لا يساوي القتل قصاصاً عقاباً على من عدا على حرمة حياة النفس. وينـــضاف إلى عقـــاب الأنثى التي تأتي فاحشة حبسٌ موقوت حتى الوفاة أو التوبة أو انسلاك سبيل النكاح القويم، وذلك لأنها – لزاماً شرعياً عَيْل لا تعول. لكن الذكر لا يُعقّب بعد الجلد حبساً أو نفياً لأنه وفق الشرع مسئول عن كفالة من يليه، وما يكون أن تزر وازرة وزر أخرى، فتفقد الأسرة راعيها. والجلد لا يوقع على الجاني خفية لئلا يُهمـــل الأمـــر غفلة أو يتعطّل الحكم، ثم إن الذين يشهدونه طائفة ينبغي ألاّ يصرفهم عنهم هدىً حدّه الله فرطُ الرأفة على الجاني، بل يُعزّز حضورهم الزجر عليه وتزداد من روع المشهد التقوى والرهبة من الحرام فيهم ولدى مَن يروون له الخبر. ولا يحقّ إيقاع ذلـــك الأذى إلاّ حين ينحسم القضاء على الجاني حكومة عن بيّنة أربعة ممن شهدوا أو أَيمـــانٍ معززة بدعاء مرتد على المستحلَف حين تكون الدعوى بالفاحشة بين الزوجين. وأيّمـــاً شـــهادة قصرت عن تمامها حقّ على من أدّاها الجلد أيضاً، وهو دون عدّ جلدِ الـــزاني شـــيئاً مـــا، بل تسقط أهليته لأيّما شهادة تالية إلاّ أن يتوب ويصلح. وتغليظ الـــشهادة فـــضل من هدى الله ورحمة لتعظيم حرمة الزواج ألاّ يُطعن فيه بما يزلزله إلاّ ببيّنة مغلّظة، لاسيما أن قد يُستفزّ انتقاماً لتلك الجريمة مَن يَحمل على مَن خان حرمته أو مَن استُخفّ برميها بالفاحشة دون توافر الشهود. ولا تبلغ ذلك شهادةُ الثبوت في ســـائر البيّـــنات الكافية في الخصومات والادّعاءات، فتلك بيّنة عسيرة التمام صحيحة تكـــاد لا تحقّ إلاّ إذا كان الزنى قد وقع كأنه سافر على ملأ طغياناً على حرمة الفروج وسترِها الذي ثبتت رعايته منذ آدم وحواء الذين ما أحسّا بانتعاش لذّة في عورتيهما مما أكلا من الشجرة الحرام إلاّ ذهبا يخصفان عليهما من ورق الجنة سُترةً.

الظـــن شكٌّ فيما هو غائب أو قادم. والظن بالآخر شعور باطنُ يخالج المرء لشُبهة فـــيما يحسبه واقعاً به أو وَهمة يتّخذها الظانّ المريب ظنّةً وتهمة بأحد هو ظنين. والظن يـــتقلّب في تدبّره درجاً - ظناً بعيداً قد يصرفه المرء، أو احتمالاً عدالاً قد ينتظر المرء حـــتى يأتي تأويله، أو راجحاً غالباً قد يُبنى عليه يقين تدبّر لا عيان لا يتبيّن له إلاّ بَعداً. وبعـــض الظن بالمؤمن الأخ إثم. وقد يُفرط المرء في ترجيح ظنونه أو يبالغ في تقديرها مـــنظوراً فيحـــتاط من محذوره فزعاً أو يترجّى مرغوبه تمنّياً. وحمى عِرض النساء مجال شـــديد الحساسية المشاعر فيه حميّة، فالظنون حوله قد تتعاظم حتى تُحمل نحو اليقين، فالإفـــك تعـــبيراً عنها أقرب لأن يصطنعه من يهوى وقعه على أسيرة ظنٍ متهومة أو يـــصدّقه غـــيور علـــيها، فالمقولات الآفكة أيسر شيوعاً خلال الرأي العام للمجتمع تستـــشري ولـــو كانت الحقيقة لم تثبت قبل أن يروج المقال فيها. والشائعات وسيلة سالكة لإيقاع الطعن البالغ الذي يُحيط بمن يُراد به شرّ الافتراء عليه. ذلك لاسيما إن كـــان المتهوم بذلك الظن والإفك الأثيم له شهرة قدرٍ وجاه في المجتمع تُغري الحاسد بالنـــيل مـــن مقامه بالباطل وتزيّن له الشهرة أن ستروج مقولة التأفيك تلك. وحيث الإفك ورد ذكره في هذه السورة من القرآن والبيان المتنـــزّل في شأنه ليس قصراً على الـــدفاع عـــن كـــرامة المظلومة زوجة النبـــي ﷺ وبنت صدّيقه لأن النبيّ هو الحامل للرســـالة بكلمات دعوته ومثال سيرته بلاغاً لهدى الإسلام كله، بل شهادة بيّنة مازت كـــل بيت النبـــي بحقّ البراءة وفضل الطهارة والطيبة المتزاوجة فيه، إرساءً لذلك الحق في مركـــز الدعـــوة ومثال القدوة وبياناً خالداً خلود الرّسالة الخاتمة. بل في ذلك أيضاً عظـــة لخالف مجتمعات المؤمنين أن البيوت الأزكى فيهم ومراكز الهدى الفضلى عُرضة لأن يـــستهدفها الكائـــدون الكاذبون بدعاياتهم السالبة، وعليهم أن يضاعفوا الحيطة واتّقـــاء الـــشبهات ألاّ يتداعى عليها الآفكون بل على سواهم أن يقدّرها حقّ قدرها، يـــشملها حسن ظن المؤمنين بأنفسهم عامّة ويخصّوها بدفع الشبهات حماية لمثالها إسوة لهـــم جمـــيعاً. ثم علـــى مجتمع المؤمنين أن يستصحب الظنّ والحكم الحسن على خُلق جمهوره وأعلامه وفُضَلائه خاصة ألا تتناوشهم ألسنة الإفك وألا يُقال بهم من سوء إلا ما قامت عليه بيّنة تامّة.

إن الله يعظّــم شعيرة الزواج في حياة مجتمع المؤمنين العابدين، ولذلك يُثبّت فيهم التــرهيب مـــن التمادي في تداول الأقاويل الآفكة حصانةً مشدّدة للزوجية. يقرر الله هدايــتهم ألاّ يكونـــوا عرضة لسوءات الظواهر في منقولات القول - أباطيل النميمة والغيـــبة والإفك لاسيما حول الأعراض، ويؤكد ﷻ نهيهم من أن تتكاثر فيهم عُصب الـــسوء المُعـــصَوصِبة لافتراء الأفائك عن الفواحش وحب بثّها لتشيع في سواد المجتمع وخـــلال فـــضائله. أولـــئك لهم عاقبة سوء لأنهم ضُلاّل يهوون أيضاً إضلال مجتمع المؤمنين. ذلك أنه مهما تظهر أحياناً تلك الظواهر وتبدو بادرة شر منتشر فإنها تعقب خيراً: أن يُزهَق في المجتمع المهتدي باطلُها ويُبرّأ المظلومون فيها وتبرز طهارتهم، ويتعظ بَعداً المجتمع تحاضّاً على مكافحة ما يدعو لانبعاث تلك الظواهر، وتأميناً لعافيته ووقايته أن تـــصيبه راجعـــة الظـــنون وعدوى تداول القول الخبيث وأن يُدان فيه البُهتان أمراً مـــستكرهاً والفاحشة خُلقاً مستفظعاً. ذلك ليتّقي المجتمع ما هو أخطر من غضب الله الرءوف الرحيم عاقبةً لفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة. وإنما من دواعي تكاثر الزنى بـــسط إشاعات خبره حتى يألفه الناس كأنه ما شذّ فيهم حدوثه يتمادى فيه كثيرون أمراً هيناً مقبولاً يأتونه. وإنما أصل ذلك الشرّ كله وحيُ الشيطان، فنهجه المسنون هو الـــسعي ليُـــضلّ الذين آمنوا ويُغويهم ويُفسد ذات بينِهم، ليخونوا الله وما أمر به من رعايـــة أمانة عهد الزواج وما نهى عنه مما يَقطع موصوله ومن اتباع هوى المتاع الباغي دونـــه المـــستبيح لخيانته بالزنى. إن الشيطان يأمر بالفحشاء طلاقة للشهوة وبغياً على حـــرمة الأعـــراض في المجتمع وغفلة عن المسئولية عن ذلك بين يدي الله، وبالمنكر من إشـــاعة الأفائك حول الفواحش. وينبغي للمجتمع المؤمن المستعيذ بالله أن يتطهّر من خـــبث الـــشيطان وأن يصون حصانة الأعراض وكرامة سمعتها، لكن ينبغي ألا يُفرط أعـــلام المجـــتمع في حميّة الغيرة ويأخذهم ردّ الفعل الغاضب ولو استفزّهم الآفكون في أعراضهم وألاّ يتجاوزوا داعي الحلم - يأساً من جدوى النصح الواعظ لهم - فيُنكروا حتى بسط الخير بالمعروف عليهم برّاً لَمن له منهم حقّ القرابة أو العون لمقتضى مسكنته أو فقـــره لهجرته من وطنه الأول إلى مأوى المؤمنين الغريب عليه أن تتيسر فيه موارد العـــيش وأن يلتـــزم هو فيه خلقاً لم يعهده. والخير ينبغي أن يبقى موصولاً لا تقطعه

خطيئة المتلقِّي، لعلّه يحفظ صلةً فيها مدعاة للتوبة من الخاطئين ولتعزيز سُنة البر والخير ظاهرة غالبة على مقولات الشر ولو كانت إفكاً بالغ الظلم.

ينبغي عموماً للمؤمنين المتخلّقين بهدى الله أن يوقِّروا حُرمة عِرض المؤمنات فيهم ويرعوها مستورة محمية من ظنون الأفّاكين. ذلك بالتزام رعاية عفّة العروض وحصانة الزواج وحفظ أمانته والكفّ عن الخوض فيها بالظنون والأقاويل، والتقوى ألاّ تستخفّ الشهوة أحداً وراءه إلى البغي والخيانة وارتكاب الحرام. وتلك الضوابط تقوّيها رِعاية المعروف في المجتمع ويعزّزها الاعتصام، بالله وتذكّرُ رقابته ورهبة غضبه. ثم إن الذين يرمون المؤمنات بأفائك الفُحش والخبث إنما يأتون بسوأى تحقّ بها عليهم صائبة اللعنة وعاقبة العذاب العظيم من الله كفاءً لعظم الإفساد في الحياة الذي يجرّ إليه ما يفعلون. والشهادة عليهم تتواتر يوم القيامة ليزروا الوزر الحاقّ عليهم، إذ تنقلب عليهم جوارحهم ذاهَا التي أتموا بها سوآهم قولاً باللسان إفكاً وإشارة باليد أيْد تعبير عنه وسعياً بأرجلهم لتبلغ شائعته كل المجتمع - تنطلق تلك الجوارح بيّنةً بما كانوا يعملون. ويومئذٍ ينعدل ميزان الحياة بين الدنيا دار بلاء والأخرى دار جزاء إذ يوفّيهم الله نصيبهم بالقسط من الكسب الآثم، وليعلمون يومئذٍ أن الله هو الحقّ المبين يقيناً ما رسخ في قلوبهم في الدنيا إيماناً وعقدوه عقيدة بل فتنتهم الشهوة وأخذهم الغفلة.

وإنما تقوم خلايا المجتمع من منظومات الأُسر المتزاوجة التي تتضاعف وتتركب وتتلازب حتى يتم نظم مجتمعٍ شامل. ولذلك صفة خلق المجتمع عامة هي من صفات الأُسر الخاصة فهي وحداته الأساسية، ولا بدّ من تحرّي الطهارة والزكاة والصلاح فيها ليتطهّر ويزكو ويصلح كل المجتمع المتآلف منها. والأُسر الأصول للمجتمع هي ائتلاف وتزاوج وتكامل بين الذكور والإناث وقيام بتربية النشء وتزكيته. وقد يعتري أو يبلغ الأزواجَ والأصحاب بين الأفراد خبث متجاوب متقارب أو متزاوج بشتىّ الوجوه التي يتناصر بها الخبث. والطيبات والطيبون يأتلفون بطيبتهم زواجاً مشروعاً أو إخاءً أُسس على صلاح وتقوى واتصل حبلاً طيباً وتوالياً يبثّ الطيبات حوله مجتمعاً ووراءه خلفاً. وقد حرّم الله على المؤمنين الصالحين الطيّبين أن يصلهم داعي الشهوة حبلَ تزاوج أو يشدّهم الهوى تعاوناً مع طرف فاسد خبيث. ذلك ليحفظوا التمايز بين الخبث

والصلاح الطيّب وليحسُن من ثمّ المجتمع لا تسري فيه علل الخبث وشوائبه من أصوله الأُسرية، بل لإحصار الخبث ألاّ يمدّ عدواه بل يطيب حاملوه ويتعافوا بالتوبة والاهتداء والصلاح. إن الطّيبين والطيبات من الذين آمنوا – مهما يُقال فيم ولو إفكاً – لهم حقاً طهرُ براءة من تُهم الآفكين ما ظلوا يُراعون الطيبة واعتزال الخبيث، ذلك عاجلاً، ومن الله آجلاً في الآخرة تحقّ لهم مغفرةٌ تغسلهم من كل ذنب ولمم ورزقٌ كريم نعيماً طيباً يكافئ طيّب ما قدّموا، وهم يومئذٍ أزواج مطهّرون مكرّمون.

ترتيل المعاني (الآيات ٢٧ – ٣٤):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧)

سبق في صدر السورة آيات فيها هدى مفصّل للذين آمنوا أن يراعوا حرمة المزاوجة والمناكحة المشروعة بينهم ذكوراً وإناثا. وذلك بتحريم كبيرة الزنى بحكم يقضي عليها عقوبة زاجرة، لتوقع مشهودة ترهيباً، لكنها تستلزم بيّنة حاقّة بشهادة متضاعفة. وتنبغي وقاية ذات البين في النكاح المشروع من الترامي بتلك الفاحشة دون إقامة تلك الشهادة إيماناً، وتدعو تلك الهداية أيضاً لاتقاء تداول الأقاويل وإشاعة أيما أفيكة حول تلك الكبيرة، والتذكر بأن ذلك من فتن الشيطان والذين آمنوا أزكى من أن يتبعوه، لكن ينبغي ألا يغضبوا من أفيكة فيقطعوا مدّ الخير بينهم صدقة ولو للآفكين، وأن يعلموا نذير الغيب أن وراء أولئك عذاباً في الآخرة عظيماً. ثم في الآيات وصية ألا يصل الخبث بين الذكور والإناث تزاوجاً وتوالياً وإنما يتوالي ويتناكح الطيبات والطيبون رجاء الخير العواقب. وتأتي الآيات التالية يتتامّ بها هدى رعاية حرمة النّكاح المشروع بما حوله من حرمة المأوى حيث قد تسكن الأسر وتتحصّن فيه حياة خاصة ولو لسائر الساكنين، وبالتحفظ في مدّ الأبصار بين النساء والرجال وكف بعضها رعايةً للعِرض، وبستر النساء للزينة غير الظاهرة واتخاذهن الكساء الساتر، ثم بمدّ ظاهرة الزواج حصانة للأيامى الأحرار والأرقاء الذين يُرعى حقّهم في التحرر والطهارة المأمونة.

ففـــي هـــذه الآية تنبيه ونداء وخطاب للذين آمنوا، الذين دخلوا في ملة الإسلام شـــاهدين بالإيمـــان بالله والغيب وأسلموا حياتهم لهديه، يأمرهم ألا يدخلوا بيوتاً غير بـــيوتهم، بل يسكنها ويبيت فيها غرباء عنهم يتخذون لأنفسهم جداراً محيطة وحجباً ســـاترة لخـــصوص حـــياتهم وحصر خلوتهم مع الأهل والخواص منفردين عن الجيرة والغرباء عاكفين فيها على التباشر والتعاشر الحرّ المأمون. وتلك الأحواز المتمايزة بيوتاً حـــوش لمـــن بالداخل فهي حقاً منع للآخرين من التقدم إلى داخلها سدىً وهملاً أو اندفاعاً واقتحاماً عفواً. بل يتوقّف القادمون إلى دخول بيوت الآخرين حتى يستأنسوا استعلاماً لمن بالداخل بشتى وجوه القرع والنداء حتى يتعرف الساكنون القادم ويأذنوا لـــه بالدخـــول مطمئنين، وحتى يسلّموا على أهل البيت يلقون السلام تحية بالخطاب المعـــروف والدعاء بالأمان. ذلكم – الهدى العالي المخاطب للذين آمنوا– هو خير لهم لعلـــهم يذّكـــرون خيره على ما كان يجري قبل الإسلام من عرف التزاور مروراً عبر المداخل إلى البيوت بغتة دون مهاد استئذان، وكيف كان الدخول سبهللاً واقتحاماً قد يـــصادمه الصدّ تلقاءً غير كريم، أو يرى القادم ما يسوء من الوقوع على عورات أهل البـــيت أو الاطلاع على ما يستسرّون به، وذلك ما لا يرضاه المرء لنفسه في بيته ولا يرضـــاه الله من حسن تلاقي الذين آمنوا تراضياً وأُنساً وسلاماً بين الوجوه في البيوت. فلعلّ الذين آمنوا يهتدون ولا تأخذهم العادة والإلفة في سابق التزاور الراتب تهاوناً في حرمة البيوت.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨)

يخاطـــب الـــذين آمـــنوا أنهم: إن لم يجدوا وهم قادمون إلى تلك البيوت التي لا تخصّهم أحداً من أهلها، إن غاب المقيمون الساكنون فيها أو أربابها الذين هي لهم حوز مملوك، فالنصيحة ألاّ يدخلوها أبداً ولو رأوا كأنها خلو موحشة تتيح مدخلاً هيّناً، ألاّ يعقبوا أهلها الغائبين حتى يؤذن لهم بتصريح من ساكنها أو مالكها أن يدخلوها خلفه. وإن لم يـــستجب أحـــد لطرقات الاستئذان والسلام فالاستصحاب أن ليس فيها أحد حـــتى إذا ظـــن القـــادم أن فيها مَن يؤثر كفّ الاستجابة. بل تتعزّز تقوى الكف عن

العــدوان علـــى حـــرَم بيوت للآخرين بأن إذا صدر صوت ولو من مجهول قيل فيه للقـــادمين أن يرجعوا مدبرين عنها أو أن يتربصوا ماكثين حيناً حتى يتيّسر الدخول أو يـــرتدوا ليرجعـــوا لأجل ثان أو موعود - عندئذ لا يجوز الاستنكاف عن تقبل تلك المواجهة بالصدّ الصريح أو التبطئة أو التأجيل ولا أن تطلق كلمة رد غاضب أو عاتب، فالحـــقّ أن يـــتجاوب القادمـــون راجعين أو منتظرين عن طيب نفس، وربما بعد تحية وداع. ذلـــك هو أزكي لهم رقيّاً في درج أدب الخُلُق الحليم والاحترام للحرمات التي تعـــني الآخـــرين وحقهم في حوز بيوتهم وفتحه أو الصدّ عنه، وهو تواضع أطهر من نـــــزع الإصرار على التعدّي على الآخرين. والله بما يعمل القادمون عليم، بالغ العلم بمقـــدمهم مـــدخلاً بالمعروف أو زيارة طيبة أو مقرُبة للتجسُّس على بيوت الآخرين، وبتـــصرفهم إذا سمعـــوا رداً صارفا لهم: انصرافاً جميلاً أم تلبّثاً ملحّاً ليحمل أهل البيت علـــى الاســـتقبال ولـــو كارهين لمن يريد قضاء حاجته أولاً، أم توقفاً من بعد رصدا ليـــسترقوا النظر إلى البيت الذي صُدّوا عن دخوله، وعليهم وبخلقهم الرشيد ألا يجدوا غـــضاضة في احـــتجاب أهل البيت ولا وحراً في صدرهم، بل ينقلبوا صبراً حسناً أو رجاءً للعودة في وقت تكون أحوال أهل البيت فيه أنسب لأن يستقبلوا من يمادّهم في التزاور أُخوةً بين المؤمنين.

﴿لَـــيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٩)

لـــيس على المخاطبين الذين آمنوا ميلةُ أخذٍ عليهم أن يقوموا بدخول بيوت غير مـــسكونة لـــرب أو حائز يميز حماها عن الآخرين، فيها متاع لهم غرضاً نافعاً أو متعة تلـــيهم. وذلـــك كالبيوت المهجورة المتروكة لمن يأوي إليها من السابلين ليستظلّوا أو ليرتاحـــوا أو يقـــضوا الحاجة داخلين خارجين عفواً، أو الدور العامة لإمارة تستقبل الرعية كافة لأداء وظيفة أو معاملة، أو المساكن العامة فنادق ومنازل لأيّما قادم غريب مـــأواه فـــيها وراحـــته بأجر عائد لا مجاناً أو بيوت تجارة مفتّحة الأبواب استجلابا للمـــتعاملين أو المنازل الموقوفة لمن يأوي لحين لأنه ابن سبيل أو بلا دار أو البيوت التي تخـــزن الودائع ليدخلها أصحابها عفواً ثم تُوفّى لهم، أو نحو ذلك من البيوت. والله أعلم

مـــا يُـــبدي المخاطبون داخلين على تلك البيوت لمتاع ظاهر معروف وما يكتمون إن أبطنوا عند الدخول سيئ قصد للكيد شراً بأحد أو للتناجي.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠)

ومن بعد حصانة البيوت مأوى الزواج الحصان أو الأهل الساكنين فيه الآمنين يتّسع المـــدى للحـــصانة التي ينبغي أن تلازم علاقات الذكور والإناث. وذلك حرمة خصوص الأنثى في صورة جسدها التي قد يثير مرآها المنكشف بواحاً لأبعاد نظرٍ وسَورة شهوة تجرّ إلى فتنة حرام أبلغ. فالوصية للرسول ﷺ تالي القرآن وإمام مجتمع المؤمنين أن يقول للذكور مـــنهم الرجال الذين قاموا مؤمنين رَسَخ الإيمان في قلوبهم واستقر طبعةً وصفة مكتسبة لا الـــذين ما سبق منهم إلا أن آمنوا شهادة دخول إلى ملة الحق – أن يقول لهم مبلّغاً نصيحة مـــن الله منـــزلة في هذه الآية أن يغضوا من أبصارهم. قد تلحظ الأبصار مشهداً هو مثار لنـــــزع الشهوة فهم تعلقاً بالأنثى المرئية لحظة عابرة لا بد من أن يغضّوا من أبصارهم ولا تـــتمادى نظراً لا ينصرف، فالمرء إن شاهد عورة أو غشيته نـــزعة فتنة ولا تصده تذكرة تقـــوى قـــد يمضي يُمعن مركّزاً حتى يتلقّى رسالات شهوة متوالية كالسهام تذهب به إلى مهوى الحرام. إن الذّكر ناظراً لأوّل لحظة إلى مشاهدَ في أنثى جاذبة ربما تغشاه تلك الفتنة المتداعـــية لكن قد يسلم الملاقي للمرأة إذا كان همّه الغالب مقصد وعظٍ أو علم يتلقاه منها أو كـــان يخاطبها على مرأى وربما يلمسها في سبيل علاج مرض أو كان يشغله شأن يعنيه إذ يـــشاهدها عاملة في ديوان أو قاضية أو شاهدة في محكمة أو قابلها مخاطبةً أو مجادلة في أمـــر جـــد. نحو ذلك من توجه الأبصار لا يُغضّ، وإنما يُغض من الأبصار ما هو بيّن في سياق هدى الآية، ما يحفظها مما يجنح بها إلى الفتنة. فلذلك تلا أمر الغض من الأبصار ذكرٌ مـــا قـــد يتـــرتب علـــى بعضها الذي يلزم أن يُغض: الأمر الحاسم للمؤمنين أن يحفظوا فروجهم، تقوى ذات حدّ دون تقوى الأبصار لأن في النظر تقادير محاذرة نسبية، فمن أداء الأبـــصار ما هو واجب تبيّناً للحقّ وما هو مندوب كلمحة التحية، ومنها ما يُكره لأن فيه شـــبهة سوق إلى فتنة وما هو حرام إذ تسمّمه الشهوة وقد تودي إلى حرام مترتب كالبغي الحرام بين الفروج وراء الحلال المشروع من النكاح.

الالتـــزام بذلك الأمر العالي القدر هو أزكى للمؤمنين المخاطبين وأرقى بطهرهم وأبـــرك لتقواهم إذ هو سدّ لكل ثغور الفتنة الجنسية – إلقاءُ نظر باغ من الأبصار التي في الـــرؤوس قـــد يثير إهاجة ثغور الشهوة لتبتغي الفروج التي بين القوائم. والخطاب يمـــضي للمؤمـــنين: إن الله خبير– محيط بدقائق أخبار الوقائع وخفيّ النيّات منهم بما يـــصنعون مـــن ثـــنايا التدبير وخفايا التقدير سواء كان ترصّداً بالنظر الفاتن المختلس وتـــستراً بالزنى المستسرّ، يعلم الله ما يُصطنع أداءً لعمل فاسق على حدود المشروع أو كـــان غـــضاً مباشـــراً لما يحسّون محذورهُ من نظر الأبصار وحفظاً تقيّاً لحدود متاع الفروج.

﴿وَقُـــلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آَبَائِهِنَّ أَوْ آَبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِـــي أَخَـــوَاتِهِنَّ أَوْ نِـــسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١)

والوصـــية تـــتكامل هداية أمراً للنبيّ ﷺ أن يبلّغ المؤمنات الراسخات الإيمان أساساً أغلـــب من دواعي الفتنة الجنسية المطبوعة في البشر، أن يحفظن بأمر الله من أبصارهنّ ومن ثم يحفظـــن فروجهنّ، وذلك مثل ما سبق بيانه في شأن المؤمنين الذكور. وإنما يخص النساء النهي ألاّ يُبدين زينتهنّ. والتهيئة الخَلقية للنساء قد يظهر فيها جمال عضوي داع للإعجاب إن بدت فيه مزاين لا مشاين فضلاً عن تعرّفها أنثي. وذلك في قوام الجسد وقسماته ومعالم الـــوجه وتشكّل الرأس والشعر. وإنما الزينة المقصودة هنا هي مصنوعات التزيّن من الحُلي، علائـــق مـــدلاّة أو لَفائـــف حلقاً في النحور والأطراف وصباغات بشتى الألوان مطابع ومـــسائح على الجسد ممّا قد يُحسّن مرآه فيجذب النظرَ وقد يختلب الرّائي تعلّقاً بمن رأى، وذلـــك أن الرجال قد يلحظون النساء أو يترقّبوهنّ اختلاساً لنظرة فإذا رأوا منهن هزة من انكـــشاف عـــورة أو عرض زينة لهنّ فمنهم من يعاين مفتوناً لحين أو يتمادى تركيزاً حتى تهي مجاهدته لمنـــزلق المحاذر المحرمة الأبلغ. كل تلك الزينة الفاتنة ينبغي للمرأة ألاّ تُبديها إلاّ

مـــا ظَهَر منها بالمعروف بين الناس، لا الذي تسعى المرأة لإبدائه اجتذاباً عمداً للفتنة وهو عـــادةً مستورٌ بالثياب لا ما قد ينتهز ظهوره العارض عن غفلة مراقبٌ يلتمس رؤيته. وما ظهـــر مـــن زينة الخلقة في معروف الثياب لأهل الخطاب عند متنـــزّل القرآن لم يكن ما حـــول العـــورة مـــن الأفخاذ إلى منتهاها ولا الصدور، وإنما كانت تظهر زينة الحلية في الأطراف من الأرجل والأيادي وما على النحر، والله أمر بستر ما على النحر بالخمار ونهى الـــضرب على مخفي حليّ الأرجل. لكن المرأة كلها زينة فثوبها أو جلبابها مهما يكن جميلاً هو يصوّر القوام من الظاهر المعتاد المأذون إلاّ أن تتكلف المرأة تبختراً وتثنياً وترقّصاً وافتتاناً في الحركة تريد أن تثير الفتنة. والوجه كذلك هو ظاهر به يتعارف الناس ويتمايزون مهما يكـــن قبيحاً أو صبيحاً وإخفاؤه تنكرٌ أو غياب متكلّف لذات الشخص. وأطراف اليدين كفـــاً ومـــا يليها من الساعد ممّا هو ظاهر لتيسير فعل تلك الجارحة. والأقدام ظاهر وأدنى الـــساق ضرورة لحركة المشي. ومدى ما ظهر من الزينة حول الوجه وفي الأصابع وفوق الأكـــف الأقـــدام أمر ترسم العادة الجارية منه قدراً ظاهراً مألوفاً لا يثير فتنة إلا إذا تجاوز معهـــود المستور فأصبح لافتاً مثيراً. وجملة الأحاديث والسُّنن والآثار المروية في أَبعاد الستر وفي إبـــداء الزينة لا تبلغ فرض ستر شامل يغطي المرأة كتلة بشرية محجوبة متلففة مبهمة. وأزيـــاء كساء النساء – مثل الرجال – شأن تُشكّل رسمَه الأعرافُ وظروف المناخ والحياة للمؤمنين، وقد يتّسع أو يضيق ما يُظهر من زينة المرأة، فإذا أبدت المرأة طرفاً مما يزينها غير معهـــود قد تجذب رؤى تجرّ إلى فتنة، وإذا فجرت أعرافٌ فاستباحت فتنة النساء وعَرض أجسادهن وزينتهنّ على الملأ فإنها تكشف الستور وتفضح مشاهد عريتهنّ وتُبدي كل ما عليها من زينة.

وعلى النساء أن يضربن بخمرهنّ، هاويات بأطراف ما يُخمر به الرأس من مقانع على جيوبهن، فتوح الدروع والقمصان تلقاء النحر، لأن الأكسية التي كانت معهودة مـــا كانـــت ساترة كل ما في الصدر والعنق بل فيها جيب وفتح بين المنكبين والرأس حـــيث يتفاصـــل الخمار المتدلي من علٍ فهو ينبغي أن يُلوى به حول النحور لا يترك ســـادلاً وراء الكـــتف كمـــا كان معهوداً في الجاهلية، ولذا رُؤي أن المؤمنات أخذن يشققن من أنطقتهنّ أخمرة تطول لتُضرب ملتفةً حول العنق.

ثم على النساء ألاّ يبدين زينتهن التي يسترنها على عامّة الشاهدين إلا للخاصة ممن يليهنّ، ومن أولئك أولاً: البعل – تعبير عن الزوج بكلمة توعز بالاستقلال والعلو منه قائمـــاً على زوجته، فهو يباعلها ويباشرها متكشّفة عارية. ثم يدخل في مدى الخاصة الـــرجال المحارم الذين لا يغشى المرأة إزاءهم حياء تستّرٍ أو حرج في إبداء زينتها خشية الفتـــنة. وهـــم الآباء وآباء الأزواج وأبناؤهم، والإخوان وبنوهم وبنو الأخوات. ثم تـــندرج في مدى التبادي بالزينة العفو 'نساؤهن'، وهن النساء عموما نُسبن إلى النساء المـــبديات للزينة لأنهن من ذات الجنس أنوثة وأمناً أن تنشأ من رؤية الزينة فتنة متداعية نحـــو كبيرة. ثم تدخل في مدى سماح إبداء الزينة طائفة من الذكور ممن يزدهد التمتّع تشهياً بزينة المرأة المعنيّة، وذلك مَن ملكته يمينُها – فهم رقيق كما كان معمولاً به قبل تمـــام التطهّـــر من الرّق بهدي القرآن المتنـــزّل درجاً – والرّقيق في حال من النفس لا يقـــوم بهـــا الذكـــر منهم إلى التجرّؤ على مَولاته بالنظر المتشهّي طمعاً في التمتّع بها. وكذلك التابعون للمرأة خدماً لها أو موالين صحبة لها لترعاهم كالشيوخ ذوي القربى الـــذين تعولهم والمرضى الآسية هي لهم ومثلُهم من غير أولى الإربة من الرجال، مَن لا همـــة له ولا حاجة في شهوة نحوها بل يتبع المرأة من قريب لأنه دونها لا يبتغيها مهما يـــرى من زينتها. وكذلك الطفل من الذين لم يبلُغوا الرشد ليظهروا على عورة النساء عن شهوة بعد.

ثم توصـــى النـــساء ألا يضربن بأرجلهن عامدات لعباً ورقصاً ليُعلم ما يخفين من زينـــتهن حلـــياً أو خلاخـــل فيها فيحدث الصوت دعوة لجذب الرجال أن يخطر في نفوسهم ما وراء السوق المزينة فينْزوا فيها ما وراء ذلك بفتنة الشهوة.

وتختـــتم الوصايا في الآية وما قبلها بوصية عامّة مخاطبة للمؤمنين الذين تمكّن فيهم الإيمـــان الحادث بعد أن نشأوا في مجتمع جاهلي مستبيح لاتّباع دواعي الشهوة المتبادلة بـــين الذكـــور والإناث المتداعية إلى فعل الكبائر نـــزعةً مُزيناً حبُّها في الإنسان – أن يتوبوا ويتطهروا مما عهدوا قبلا لعلهم يفلحون في إنشاء مجتمع جديد يُصلحه الإيمان لا يـــرهق جهـــده في بسط ظاهرة الترائي المفتون بين الذكور والإناث دون تقوى تغضّ الأبـــصار وفي طلاقة التناكح الباغي بالفروج دون حصانة يُحفظ حدّها بالمعروف في

النساء يسرفن في التزين لعرض مشاهده للملأ لتستهلك الفتنة الرجال. والتوبة هي إلى الله لا إلى الــرهبانية المتزهّدة في النكاح المتأبّية بناء الأسر وإعمارها الصالح - بل إلى قــصد الــسبيل من التحابّ والنكاح المشروع إحصاناً بين الزوجين والتوقير لسُمعة المُحــصنين دون الظــنّ والإفك والتزاور مع رعاية حرمة البيوت والتعارف والتلاقي والترائــي العفــو بــين الرجال والنساء في تقوى تصرف صوب الأبصار عن الشهوة والتزين للنساء المقتصد دون اتخاذهن عروضاً بادية للزينة الفاتنة، ذلك هو سبيل الفلاح الموصول في الدنيا والآخرة للمؤمنين التائبين إلى الله.

﴿وَأَنْكِحُــوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢)

الوصــيةُ تمضي مخاطبة للمؤمنين تنضاف لتتم لهم هداية التقوى بما يحفظ من فتن الشهوة الزوجانية، الوصية أن ينكحوا الأيامى منهم بأن يزوّجوا الأعزبين بينهم أبكاراً وثيــبين النّاظرين بفطرهم سوانح فرص الزواج وهم في أرب المراهقة الألحّ للنكاح أو ذاقوا تجربته وفقدوه بفراق الزوج. ومهما يسعى هؤلاء وأولئك طلباً لمبتغاهم فإن على المؤمــنين أن يحــضّوهم ويــبذلوا مــا يُعينهم عليه خوف العنت من تطاول المصابرة والتعــرّض لفتــنة التبحبح في الحرام، ولذلك - كفايةً ورقابةً للأيامى كافة وصلاحاً لمجــتمع المؤمنين أن يتناسل ويتوارث ليعمر متزكّياً - ينبغي أن يُدفعوا للتزاوج - ولو كانــوا عبــيداً وإماءً ما كانوا صالحين. وإن يكن الأيامى السّاعون في سبيل التزاوج فقــراء يعجــزهم أداء المهر المفروض ولا يرجون وُسعاً للقيام بالنفقة المكتوبة مأوى للأســرة وحاجــات معــاش، فليتوكّلوا على الله، ألاّ يلبثوا في عزبهم متعذّرين، بل حــسبهم ﷻ عــسى أن يجعل لهم مخرجاً من حال العسر ويعينهم من فضله المبسوط وحــسبُهم المؤمــنون ييسّرون لهم الزواج تأميناً لحصانتهم وعفّتهم في مجاهدات فتن الحــرام وقبولاً لهم خُطابَ زواجٍ ولو كانوا فقراء وتمادّاً معهم لأسباب الرزق المتبارك، والله واسع الرحمة يحيط بكل عباده الصالحين توفيقاً في أسباب التزاوج الميمون والرزق الــوافي، علــيم بالغ العلم بمقتضيات حاجتهم وبوجوه صلاح المجتمع في مستقبل الخير من بركة الزواج المنتشر.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٣)

والنصيحة التالية في هذه الآية أمرٌ أن يستعفف الذين لا يجدون نكاحاً – لّما يطالوه وُسعاً أو لماّ يوافوا عين مَن يعاقدهم راضياً مرضياً ويزاوجهم مودةً ورحمة، ليعفّوا مجاهدين دواعي الشهوة التي قد توقع في المزاناة الطلق أو المسافحة أو المخادنة. ذلك صبراً حتى يغنيهم الله من فضله ييسر العسير ويُهدي رفيق الحياة الوفيق، فالله يصرّف أقدار رحمته رحائب سراء بعد ضوائق ضراء.

والذين يبتغون الكتاب من الرقيق الذين ملكتهم أيمان المؤمنين قد يسعون مراضاة ومعاقدة أن يُكاتبوا ويُعاهدوا مواليهم في سبيل تحرير أنفسهم عتاقةً من الرّق قد تتلوها مراضاةٌ حرة في عقد نكاحٍ سويٍّ كسائر العقود، وذلك بأن يلتزموا أداء عوضٍ للمُكاتب يوفّونه لهُ ولو مقسّطاً من حرّ كسبهم اللاحق بعد العتق. أولئك الذي تدفعهم فطرة الإنسان الناشدة لطلاقة الكسب وحرية الذات إن عزموا على المكاتبة فليكاتبهم أولياؤهم أمراً لازماً وما هو بطلب مندوب ألاّ يسدّوا في وجوههم أبواب السعي نحو أصل حريّة الخيار والمسار في الحياة الذي شاء الله أن يجعله أساس ابتلاء الإنسان في الدنيا ليحقّ جزاؤه في الآخرة، ذلك ما دام الموالي يقدمون للأولياء كتاب معاوضة إن رفعوا أيمانهم عنهم طُلقاً، فمكاتبتهم في هدى الآية تصبح لزاماً على الأولياء إن علموا فيمن ملكت أيمانهم خيراً، لا كسباً يُؤدَّى إليهم هم وحسب، بل كَسباً يُرجى للرّقيق أنفسهم تمتعاً بالحريّة والعزة وابتغاء لفضل الله مبروكاً وكسباً لصالح سائر مجتمع المؤمنين بَعداً، لا يعجزون عن الإتيان بأيّما خير لأنهم لّما يتزكّوا ويستقيموا لينسلكوا في قوام المجتمع بالوضع الجديد عليهم إن خرجوا من الولاية، ولن يُرسلوا بعد العتق في مجرى حياة المجتمع عالةً عليه أو فيهم ما ينذر بشرٍّ محذورٍ لحداثة عهدهم في تزكّي المؤمنين. بل الرجاء للخير تقدير يتحرّاه الذين آمنوا في مواليهم بصدق ويجتهدون لإتمام تزكيتهم ليتهيأوا لعاقبة المكاتبة، وما هو بحيطة يتذرع بها الذي يريد أن يديم تمتّعه من مكاتبة مولاه وتسخيره لخدمته وإشباع عزّته

هو، بل الآية تُوصي الذين آمنوا أن يُؤتوهم من مال الله الذي آتاهم هم، أن يعينوهم على الــوفاء بالعوض المكتوب، فالمال المتوافر عند الأولياء أنفسهم في المجتمع إنما هو مال سخّره الله هــم فــيه مُــستخلَفون ابتلاء لهم، فينبغي أن يُردّ إلى سائر عباده تعالى عدلاً في قضاء حاجاتهم إن كانوا بؤساء. والتحرير للرّقيق استكمالا لتطهّر الإنسان ألا يكون عبداً إلا لله مطلــوبٌ صــدقةً ومكــتوب كفارة لكثير من الخطايا، وأداء المستحق في المكاتبة لأجله مشروع مَصرفاً في الزكاة للرقاب.

وتمامــاً لحــسن معاملة الموالي - حتى يكتب الله لهم التحرير الأكمل في أواخر تنــزيل القرآن والذي هو أصل ما جعل الله للإنسان، تنتهي الآية مخاطبيها الذين امنوا وأنــــزلت علــيهم شرعاً - تنهاهم أن يُكرهوا فتياتهم - صبايا الرّق الإماء - على الــبغاء. وقــد كان ذلك المنكر عُرفاً يتخذه فسقة الجاهلية للمتاجرة بأعراض فتياتهم يعرضــوهن عاهرات لمن شاء على أن يعود إليهم هم كسبُ أجور المتاع. يُنهون عن فعــل ذلك بهنّ إن أردن تحصُّناً، وإنما ذلك تذكرة بما هو طبع ماض متحقّق في نفوس المُكرهات في مثل تلك الأحوال يُضاعف نُكر الأمر، ما هو بشرط يتحرّى عنه أولئك المتاجــرون بفروج الفتيات اللاتي يمارسن البغاء عن كرهٍ لا رضىً وبأجرٍ يستولون هم علــيه، فهنّ حقاً يؤثرن التحصّن من ذلك. والآية تبيّن تلك التذكرة بأن ذلك الإكراه مــنهم إنما يفعلونه ليبتغوا به لأنفسهم عَرض الحياة الدنيا كسباً عاجلاً من أجرهنّ أو ترجياً لمولودٍ منهنّ يُسترقّ، لا يقصدون به خيراً مثل إسداء الخير لهنّ في تزويجهن، لكن الله يفتح باب المتاب لمن درج على تلك العادة في جاهليته، فليتذكر ذلك من بعد ذلك الإكــراه البغــيض وليتُب فله مجال متابة متجاوبة من الله، إن الله غفور رحيم، واسع المغفــرة لمــسالك الخطايا المسنونة بالغ الرحمة على كل حال خطيئة، ومن بعد البغي المُستكرَه يُبَشّر الله الفتيات أيضاً بمغفرة ورحمة لهنّ أيضاً.

﴿وَلَقَــدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤)

ويعقب كل سابق الآيات من الهدى في الحياة الخاصّة - في الزنى المشهود وعقابه وفي شــائعات الخــبث وأفائكــه، وفي شئون البيوت التي تؤوي الذكور والإناث في

خصوص وحرمة، وفي التّقوى من تصريف الأبصار التي يترامون بها نظراً بينهم وفي الحذر من إبداء النساء زينتهنّ المستورة إلا ما ظهر منها، وفي تشجيع تزويج الأيامى أحراراً ورقيقاً وفي المكاتبة للمماليك وحفظ الفتيات منهنّ من تجارة الدعارة إكراهاً واستغلالاً لهم من الأولياء – يعقب تلك الآية مضافاً إليها تذكير في هذه الآيات بانّ الله حقاً قد أنزل بأقدار هديه ووحيه إلى الذين آمنوا المخاطبين آيات شواهد على هديه بيّنةً كلها مفصّلة لهم الحقّ فارقةً له عن الباطل في حياتهم الخاصة. أنزل عليهم تلك الآيات البيّنات وقد أنزلها الله ذاكراً بالإشارة مثلاً سابقاً واعظاً من فعالِ الذين خلوا من قبلهم في الجاهلية، إذ بدت إشارات إلى ممارسة الزنى منظوماً في المساحقة والمخادنة أو طلقاً والى سنّة بسط شائعات الفواحش يأتفكها السفهاء ويهواها المجتمع، وإلى استباحة حرمة البيوت اقتحاماً على الخصوص والعورات، والى إبداء النساء زينتهنّ إشباعاً لغرورهن بجمالهن وعرضاً لدواعي الفتنة والى إهمال الأيامى الراغبين في الزواج دُون يُسر أو وُسع، مما يزيد المُعرَّضين للفتنة والغفلة، وإلى التحفظ في مكاتبة الموالي الذين يُسخّرهم المَولى دُون تحريرهم مكاتبة، وإلى تسخير الفتيات إكراها على البغاء واستغلالاً عادة قد يتعسّر منها المتاب لله الغفور الرحيم. وجاء بيان الهدى انتقالاً من فعل الجاهلية إلى خلق الإيمان والإسلام، أُنزلت به الآيات تلك موعظة للمتقين من المؤمنين الذين يبتغون الله ويخشونه ألا تُتعدى حدوده وحرماته وألاّ يغلب هوى الشهوات الزوجانية على اتباع هديه وألا يُجار على الأيامى والرقيق إهمالاً وظلماً وانفتاناً بعرض الدنيا.

عموم المعاني (الآيات ٢٧ – ٣٤):

هذه الآيات تنزّلت مرتّلاً وقعها لينظُم هديُها شعاباً من الحياة الخاصّة لمجتمع المؤمنين المسلمين في طور عهده عند ذلك التنزيل. والآيات جاءت محكماً معناها مفصّلاً مقتضاها يسري بنصّه في عموم سائر الظروف والعهود لا بقياس عليه في أحوال خالفة لإيقاع علّة حكمته حكماً وفعلاً بوجه آخر من التعبير الصادق. فهي تكليف بيّن الحدود يمضي وقعه متجلّياً أبداً بذات الكيف في الحياة الخاصّة لكل مجتمع مؤمن.

ما كان المخاطبون بالقرآن كلهم أعراباً يسكنون عفواً في البادية وخيامها المنفتحة المتـــرامية، بل كل مجتمع الدنيا حضراً تتوازن بيئته - خصوصية تركيب من وحدات أُســـر تـــسكن في حـــوزات بيوت متمايزة متجاورة ذات أبواب، وعموم انشراح في علاقاتـــه الوثيقة تزاوراً في البيوت وتعاشراً مباشراً في الملأ. وقد تنـــزّل عليهم الهدى الحضري أن تُحترم حرمة البيوت وحصانة خصوص حياة ساكنيها، فلا يقتحم أبوابها زائـــر أو مستطلع غريب دون أن يستأذن من قبل مستأنساً تعارفاً لأهل البيت مسلّماً علـــيهم تحـــية. فإن أقبل امرؤ و لم يجد فيها أحداً أو بلغ أبوابها مستأذناً لكن صدّه عن الدّخـــول قـــولٌ من تلقائها أن يرجع لأيّما عذر مقول معلوم أو مسكوت عنه مجهول فليرجـــعْ غـــير متلبّث مصرّ ولا مقتحم عاد. ذلك إلا أن تكون البيوت ما هي بحمى مـــنماز للـــسكن المخـــصوص بل هي مأوًى مفتوح للقادمين عامّة أو مرحباً ومدعاةً للمقـــبلين وفيها للقادم متاع مشروع ليدخل مقبولاً. تلك هوادٍ من حسن أدب رعاية حـــرمة البـــيوت التزامها خيرٌ للمؤمنين تحفظ لبيوتهم كرامتها وتضبط مداخل الغريب إلـــيها، وهـــي أزكى لأخلاق مجتمعهم عموماً. والله عليم بما هو خير في سنن دخول البـــيوت بـــإذن أو الانقلاب رجوعاً عنها أو المنفتح المُباح لما وضعت له بيوت، وبما يُبدون في شأن القدوم على بيوت الآخرين استئذاناً فدخولاً أو إدباراً وما يكتمون من نـــيّات طيـــبة في ذلك كلّه. ذلك بينما السلطان لا يُحيط علماً بما تطوي الرّعيّة من النيّات فلا يبسط المراشد الدقيقة في آداب الحياة الخاصّة أو في أمر البيوت ولا ينفذ له إلا أمر أو نذير زجر لمن يعدوا على حِمى المساكن اقتحاماً عادياً.

مـــا كـــان للمؤمـــنين - الذين رسخ فيهم التصديق بهدى الإسلام - أن يمضوا نـــاهجين علـــى خلق الجاهليّة رهائن لفتنة الشهوة الطليقة في مجتمع الذكور والإناث. فكمـــا أصـــبحوا يرعون حرمة البيوت كفاً لنـــزعة الفتنة العادية على مأوى الزوجية والأسرة المخصوص، هم يرعون تقوى الله في أيّما ابتلاء يغشى ساحات الملأ من المجتمع في سياق مباشرات التعامل بين الذكور والإناث. وذلك أن يغضّ كلّ مؤمن ذكر من أبـــصاره مـــا امـــتدّ نحو الأنثى مفتوناً واقعاً على ما يثير فيه أحاسيس متعة الذكورة ودواعـــي الفحـــولة، مما قد يدعو إلى فِعال باغية على حرمة عِرضها. وعليه أن يحفظ

فــرجه عــن الحرام، فيتّقي أيما ملامسة أو قُربى قد تجرّه إلى إتيان أنثى طوعاً أو البغي عليها كرهاً مباضعة بين الفروج دون تعاقد تزاوج مرضي مشروع. إن ذلك الخُلق هو أزكــى للمؤمنين إذ يحفظ وقار أعراضهم وينهى عن انتهاك حرمتها وإيقاع الأذى في المجــتمع، ويعبّر عن اتّقاء غضب الله الخبير بخفايا تداعيات الشهوة ونياتها وثنايا الفعال ترصّــداً أو اختلاســاً بالنظــر المتمادي في مشهد فاتن للإناث أو مقاربة لأجسادهنّ فمباشــرة بين الفروج بغياً نُكراً سيئ العواقب. وكذلك المؤمنات يلتزمن ذلك الخلق غــضاً من الأبصار عن الذكور ما غشيتهنّ في مشهدهم شهوةً وحفظاً للفروج في حدّ الحــلال المــشروع وتقوى بذلك لله الخبير بما يصنع عباده. وفي سبيل انفساح المباداة العامــة الطيــبة الــنافعة ومجتمع الوجوه بين الناس ذكوراً وإناثاً لتسري بينهم عفواً مباشــرات التعارف والتحايا والتخاطب والتعامل اللازمة ويتكثّف الائتمار بالمعروف والتناهــي عــن المنكر دون أن يتعرّض الذكور أو الإناث للفتن التي تؤدي إلى مزالق الحرام – في سبيل ذلك فإن الهدي القرآني يطوي ذكر المعروف في هيئة مظاهر الرجال وثــيابهم الساترة لكن يذكر ما ينبغي أن ينكفّ به نــزع النساء لأن يعرضن أنفسهن علــى الرجال مُبديات حسنهن بالزينة الفاتنة. فعلى المؤمنات ألا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها بالمعروف من الوجه والأطراف، أما المشاهد التي ينبغي أن تستر فهي ما وراء جــيوب الثــياب وثغورها، ألاّ ينكشف الصدر والنحر ولا تبدو زينة الشعر ملوناً أو مــرجّلاً بين القطط والمتجعّد والمنبسط المسترسل، فعليهنّ أن يضعن خماراً على الرأس ويضربنه ملتوياً على جيب النحر، لا ينــزعنه ولا يتركنه سادلاً إلى الوراء والنحرُ بارز للشاهدين، مثل زيّ الجاهلية. وذلك التحفّظ والتستّر من إبداء الزينة في ملأ المجتمع ما هــو بحرج يلازم هيئة المرأة المؤمنة حتى في البيت وصحبته الخاصّة، فهو لا يلزم النساء في وجــه بعولــتهنّ ولا الذكــور ذوي القــربى من المحارم أو ذوي الزهد عن الإربة الذكــورية مــن الخدم والرّقيق الذي يليهنّ. وحيثما يلزم التستّر ألا تُبدي المرأة الزينة خــشية الفتنة يلزم أن يُكتم ما قد تُحدث الزينة من صوت يطرق مسامع الذكور فيثير حــس الفتنة تذكّراً لا مشهداً، فلا تمشي النساء ضاربات بأرجلهنّ المحجّلة بحليّ يدعو وقــع صــوتها لــذلك على عامّة الملأ من الذكور. إن على المؤمنين – مهما تغلب في

مجــتمعهم الأعراف التي يرثونها أو التي يجذبهم تقليدها أن تبدو زينة النساء سافرة وأن تنطلق حرية الترائي والتباشر بين النساء والرجال - أن يتوبوا إلى الله وإلى ما هو أهدى سُنّة وأطهر خُلقاً وأفلح حياة للمجتمع وأزكى تقوى لله.

إن مجــتمع المؤمــنين في علاقــات الذكورة والإناث ينبغي أن يتّقي فتنة ظاهرة العزوبة، فيبسط سنة التزاوج لإشباع الشهوات التي قد تدفع العزّاب بغياً على العروض مخالّة أو مخادنة أو فاحشة، وانتهاكاً لضوابط التقوى وتضييعاً لمرعيات المسئولية الناشئة عن عقود الزواج المتكافئة المرضيّة المشهرة ومقتضاها المستقرّ نظاماً لذات بين الذكور والإنــاث غــير المحارم. فعلى المؤمنين أن يزوّجوا الأعزبين بينهم الأحرار، وذلك بأن تــسود في المجــتمع تقالــيد تخفف تكاليف الزواج وتيسّر في سبيله أسباب التعارف والــتخاطب بــسطاً للخيار وتنشر خلق التعاون مدّاً للذين يتعسّر عليهم القيام على الأسرة ونفقاتها لاسيما عند المبتدأ لتأسيس الأسرة. وكذلك ليزوّج المؤمنون الصالحين من عبادهم وإمائهم. وإن يكُن الأعازب فقراء يوصيهم القرآن أن يُقدِموا على الزواج مــتوكلين على الله ومَن يَتّقه يُيسّر له كفاف الرزق من حيث لا يحتسب ويُغنه كفاية لبلاءات النفقة، فهو ﷻ واسع عليم. ولْيستعفف الذين لا يجدون خياراً وفاقاً للنكاح مصابرين مهما تتعسّر عليهم الأمور مجاهدين فتنة العزوبة.

وكذلك في علاقات الرقّ قديماً في حياة المجتمع المؤمن الأوّل كان ينبغي أن يسعى المؤمــنون نحــو بسط الحرية لعبادهم وإمائهم. فالأولياء الذين يبتغي مِن رقيقهم مَن يكاتــبهم في سبيل العتق - إن لم يُعتق صدقةً حسنة - عليهم إن علموا فيهم خيراً أن يعاقدوهم عتقاً لأجل مكتوب بأداء عوض معهود. بل ينبغي أن يُؤتَى الموالي المكاتبون عــوناً على ذلك من مال مجتمع المؤمنين الذي هو رزق الله مدّاً برحمته وابتلاء لمن فيه مــستخلفون أنّــى يــصرّفونه. وتحرير الرقاب كذلك له نصيب من مصارف الزكاة المفروضة. أما الإماء خاصة فينبغي ألاّ يُحبسن وفقاً للسنّة الجاهلية مُكرهات على البغاء عرضاً لكلّ طالب وعوداً بالأجر الذي يؤديه إلى الوالي، لاسيما إن كنّ يُرِدن التحصّن ولكن لا يملكن مسلك الخيار إذ يبتغي الأولياء في شأنهنّ عرض الدنيا. وإن كان يُفتن المؤمــنون هكذا بممارسة هذا الظلم وإشاعة البغاء المُربح فإن الله من بعدُ غفور رحيم

لمـــن يتوب فيؤثر في شأن الإماء العفّةَ والطهارة الحُسنى أو المناكحة المشروعة أو العتق المندوب. وفي عموم شأن الرقّ الكريه كان نهج الهدى القرآني مثله في سائر المكاره أن يرفع إصر التقاليد الجاهلية المعروفة درجاً حتى ترشد الحياة ويرقى تزكّي المجتمع نحو ما هـــو أحسن. ففضلاً عن عتق الرّقاب الذي تكاثر ذكره في القرآن كفّارة لمعاصي شتّى أو صدقة في سبيل الله تنـــزل في أواخر عهد التنـــزيل في سورة 'محمّد' ما قصر مصير الأسرى – وهم مورد الرقّ – على المنّ أو المُفاداة طلقاً كريماً.

إن مجـــتمعات الإنـــسان اليوم قد اهتدت في الحضر إلى حرمة البيوت مثل هدى الإسلام، لا تُدخل إلاّ بإذن، لكنهم لم يبلغوا جميعاً في حرمة خصوصية بني الإنسان أن تُحمـــى وســـائل الاتصال الخاصّة بينهم بالبريد أو الهاتف السلكي أو الإلكتروني من عاديات التجسّس عليها. وتلك في هدى الدين حرمة ينبغي أن تُحفظ حصاناً ولو مما قـــد يفعـــل السلطان إلا لضرورات مرعيّ حدّها مقضي في شأنها بقسط. لكن تلك المجـــتمعات في غالـــبها قد غمرت حياتها في الملأ العام فتنةُ الأنوثة فاستبيح الترائي بين الذكـــور والإناث بالأبصار المتمادية والتلامس المرضيّ جهاراً دون زوجيّة وإبداء زينة النـــساء عرضـــاً سافراً، بل شاع ما يؤدي إليه ذلك من ظواهر البغي والمجامعة الحرام، يكـــاد لا يـــستحي فاعلو ذلك من المجاهرة بشواهده. ومجتمعات المسلمين الخالفة قد تكون إلى اليوم جانحة ظلماً عاماً في شأن المرأة لكن بعضها لدرء مفاسد الشهوات قد بلغـــت في حجـــب المرأة عن الملأ مدى فيه مفسدة إذا عُطّل صالح حركتها في المجتمع فهي لا تخرج إلا قليلاً ملتفّة بكساء غُلُف شاملة. وقد فُتن خلف المسلمين بمتاع الرقّ تـــسخيراً للموالي خدمةً واستغلالاً، فمضوا عهوداً طويلة يبسطون المنسوخ من مدلول الأحكام القرآنية الأولى في ملك اليمين. وكان الأَولى بهم أن يسبقوا العالمين – إذ هم شـــهود علـــى الناس وقدوة لهدايتهم – في تمام تحرير الرقّ رقيّاً إلى مُثُل دينهم العليا. لكنهم في آخر الزمان نـــزلوا على مقتضى حرية الرقّ لا توبة إلى هدى الله الفاصل بل غفلة عما يسوق إليه درجه المتكامل من المثال واستسلاماً لاجتهادات بني الإنسان غير المـــسلمين وخضوعاً لسننهم المتطوّرة إذ كانوا متغلّبين عليهم متأمّرين. وذلك مثل ما غفـــل المسلمين عهوداً متطاولة عن الاستمساك ولو تعلّقاً منافقاً بمبادئ حريات الناس

العامة ومساواتهم ونظم حكمهم بالشورى بين الجماهير الناخبة لولاة الأمر العام الضابطة لولايتهم المصرّفة لسياسات السلطان وتشريعاته – كما اقتضى هدى كتابهم وكما قام مثال سلطانهم الأوّل وجرت سنّتهم الرّاشدة، فهم قد انسلكوا اليوم في اتباع شعار الديمقراطية وادّعاء السعي إليها نظاماً أمثل للسلطان يقتضيه مذهب الإنسان الدنيوي كأنه ما كان مكتوباً عليهم أو معهوداً في هدى الدين.

لقد أنزل الله على المؤمنين المخاطبين بهدى هذه السّورة آيات بيّنات المعنى بحرف نصّها لازمات المقتضى بحدّ وقعها، وضرب لهم مثلاً من سيّئ خلق المجتمع الجاهلي قبلهم حيث كانت تغلب دواعي الشهوانية بين الذكور والإناث ترائياً بلا انكفاف واستعراضاً لزينة النساء بلا ستر وبغياً فيهنّ بلا ضابط، وكانت العزوبة تنتشر فيه دون إحصان استباحة للتناكح بلا عقود، وكان تسخير الرقّ فيه واستغلال متاعه مأثوراً على إتمام كرامة الإنسان وحريته. وذلك التاريخ الجاهلي السالف كان عظة مثل عبرة سيرة المجتمعات الخالفة التي ضلّت بأهواء الشهوانية الجنسية، وذكر ذلك التنزيل تعزيز لزكاة خلق الحياة الخاصة لمجتمع المؤمنين المهتدين المتّقين الله الذين يخشون حسابه فيرعون حدود هديه بحذر ضابط من أقدار الغيب في عواقب الإنسان لا يُغالبه في أنفسهم حُبّ شهوات متاع الدنيا بل هم يجوزون بلاءاتها تلك بهدى مستقيم.

ترتيل المعاني (الآيات ٣٥ – ٤٦):

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣٥)

لقد توالى في سابق آي السورة ذكر الله يبيّن آياته هدايةً للمؤمنين أو ذكره ﷻ وقد أنزلها آيات مبيّنات تلقى ضوءاً في منهاج حياتهم ومقصدها لعلهم يذّكرون ويتوبون ويتعظون فيتقون الله ويفلحون في العاقبة. وتوالى أيضاً ذكره ﷻ بأسمائه

وصفاته الحسنى فائضاً بفضله ورحمته على عباده المؤمنين، فهو رؤوف غفور توّاب رحيم عليهم يتجاوز سيئات أعمالهم ويتقبل توباتهم، وهو واسع عليم حكيم في عطاء فضله عليهم في الحياة بياناً للحق، وهو سميع عليم خبير يحيط بما يعلمون ويصنعون فيها، وهو الحقّ المبين في توفيتهم جزاءهم الحقّ على ما كسبوا.

وفي هذه الآية يأتي ذكر الله نوراً للسماوات والأرض، أصلاً للأقدار الهادية للأشياء والمصرّفة لسيرها وللأحكام الهادية للإنسان وخيار هدايته في الوجود. فالإيمان بذلك أصل في اهتداء الإنسان، بنور الله يتبين شعاب الإيمان ومعالم التقوى وطريق الصلاح فالفلاح وهو في عالم الشهادة الذي تغشاه ظلمات الحجب عن الغيب والأزل. ومهما يتوالى ذكر نور الله في القرآن فانه في هذه السورة الأكثر. الله – الإله الأعظم الأكبر المعروف والحق الأحد المعبود – هو نور الكون المخلوق كله السماوات والأرض، يتجلّى نور أقداره بآيات بيّنة مطبوعة في ذلك الكون، وهو نور هداية يتنزل هداية للإنسان في الأرض، هو نور كل ذلك الوجود المخلق المسيّر منه تعالى وحده لا يضاهيه ضوء نور آخر ولا تضادّه انعكاساً أنوار أخرى تتجلى في طبع الأشياء أو تبيّن للإنسان مذهب الحياة الأحق.

ذلك النّور الربّاني يحيط بالوجود المشهود وبالغيب المطلق وبحاضر الزمان وبالأزل الذي لا منتهى له. لكن له مثال يضربه الله في الآية من محسوس محدود معهود للإنسان يمكن أن يُلقى في فهمه ونفسه دلالة صفات ممتدّة في الأبعاد المطلقة ليحمل الإنسان قبساً من معاني نور الله. فَمَثَلُ نور الله كمشكاة واحدة كوة لا فتحة نافذة كأنها الأصل الوحيد لآخر المشهود لا يرى المرء وراءها موجوداً بل يتصوّب بحوافّها كل النور منها إلى مَن تقابله ويراها لوجهه. والمشكاة فيها مصباح، سراج ثاقب تصدر منه طاقة النّور. والمصباح في زجاجة، قنديل تنعكس به كل أشعة النور منبسطة مدّاً واحداً لكل الطاقة المنيرة. المصباح كأنه كوكب دُرّي كاللؤلؤة البيضاء، دِرّيء (قراءة) كأنه من نجوم السماء ذات البريق المتلألئ لكنه قذّاف يدرأ مدود النور المتدافقة نحو الإنسان في الأرض. والمصباح تَوقّد (قراءة) اشتد اشتعال ذبالته وتوهّج وميضه من زيت شجرة طيبة المنبت بارزةٍ عارضة للشمس لحسن موقعها المتعالي لا ينحجب عنها شعاع

الـــشمس شرقاً ولا غرباً، زيتونة طيب نتاج زيتها يكاد من وقع صفائه ورقيه يضيء ولو لم تمسسه نار. ذلك المثال نور على نور، إشراق متضاعف تصوّبه المشكاة ويرسله المصباح وتعكسه الزجاجة ويمدّه بالطاقة الزيت الصافي. وهو نور ينبثق في ظلمة محيطه مـــن مـــصدر واحد بأشعة منعكسة متركّزة ومد متدافع موصول لا يتضاءل إشراقه بـــشائبة في انعكاسه ولا تخبو طاقة إنارته ولا يضطرب مدّه المكثّف. وذلك مثال لنور الله الـــذي لا يـــصدر مثله من منارٍ سواه ولا حدّ له، إشراقاً في كل ظلمات الكون يتـــصوّب مرســـلاً إلى أبصار العباد إلا من أعماه الضلال، ويتنـــزّل به الوحي ضياء صـــافياً كـــل دلالاته وهداياته متحدة متراكزة تتدافع خطاباً موجهاً للإنسان، لا تنفد كلماته ولا تنقطع رسالته الخالدة، ويتضاعف نوراً على نور واسع المدى مطلق المدّ لمن أراد أن يستضيء به.

يهدى الله لنوره مَن يشاء. وإنما قدَر مشيئته ﷻ في أمر مخلوقه الإنسان أن يذرَ له الخـــيرة في توجّه مسلكه وتصريف مسيره في الحياة، يبتليه ليذهب في المصير كما يشاء هـــو ويختار. فحياة الإنسان محاطة في كل منظوم وجودها وسيرها بمشيئة الله، مَن شاء مـــن عـــباده أن يؤمن بالحقّ الغَيب ويسعى صلاحاً منيراً بهدى الله يسّر الله لهم تلك الـــسيرة ووفّقهم على السبيل البيّن الجليّ بنور الله الهادي. ومَن شاء أن يسير في حياته عاصـــياً أو ضـــالاً يسّره الله لتلك العُسرى ضارباً في ظلمات الحياة لا يبصر بنور الله طريق الهدى في أولاه والفلاح في أخراه. فالله يهدى لنوره مَن يشاء وهو مَن يشاء هو أن ينظر ويلتمس الإيمان حتى يأتيه اليقين ومَن يجتهد ويتعلم سائلاً دعاة الهدى المنـــزل من الله حتى يستقيم على منهاج الفلاح.

ويـــضرب الله الأمثالَ للناس في كتاب وحي رسالته المُنـــزلة إليهم لأنهم محاطون بالعالم المحسوس وبظواهره ومشاهده، فالله يقرّب لهم المعاني بأن يمثّل لهم حقائق الغيب بمـــا يباشرهم ويعهدونه من أمور الدنيا مثالاً لذلك، لعلهم لا يؤسَرون لظاهرات الدنيا بل يتخذونها تذكرة آيات دلالة أو مُثلاً ينفذون بقياسها إلى سنن الله وأقداره في غيب الوجـــود. ذلـــك والناس يضربون الأمثال في عالمهم هذا ليقرّبوا الغريب المجهول إلى المعهود قياساً. والله بكل شئ عليم، واسع العلم بابتلاءات حياة الإنسان معاسر تصدّه

وشـــهوات تشدّه حصاراً في العالم المشهود وبكسبه مجاهدات قلب ونظر وسعي وبما ييسّر للمؤمن المَسير صبراً على هدى من الله وروح وأيدٍ من الملائكة، وللكافر ضلالة هـــوى وإغـــواء شيطان، وكذلك بكل ما في الغيب من سننه وأقداره التي لا يعلمها الإنسان إلا إذا أُنبئ عنها بما يدركه من بلاغ بيان أو مثال في كتاب رسالة الله.[1]

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآَصَالِ * رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَـــوْمًا تَـــتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٦ – ٣٧ – ٣٨)

يقـــوم المهتدون بإذن الله وبمدد من نوره عابدين له تعالى بالذكر والصلاة والتعلّم والتذكّـــر في بيوت يلتمسون فيها فيض نوره وضيائه. بيوت أَذن الله أن تُرفع مؤسسةً لعـــبادته عامرة بها وحمى يدفع عنها العباد ألاّ تُمنع ولا تهدم، وذلك لتقوم ويُذكر فيها اسمه الأعلى المتضاعفة معانيه وكلماته تعبيراً عن صفات الله الحسنى ومقتضيات عبادته بكل وجه من اسمه العظيم، لا يغفل عن ذلك العبّاد لاسيما أنهم ثمة في جماعة متذاكرة ولا يدخل عليهم ما يصرفهم عن ذكر الله من شاغل ومذكور آخر. يُسبَّح لله في تلك البيوت بخواطر قلوب تُعليه وتنـــزّهه فوق كل متعال أو مستكبر ووراء كل متعلق به غايـــة في الحـــياة وبكلمات تعبّر عن ذلك تجرى في اللسان، وذلك وقت الغداة حيث الانطـــلاق النـــشط لمساعي الحياة والمعاش التي قد تصرف عن ذكر الله، وفي الآصال عـــشايا الـــيوم وخواتيمه إلى الليل حيث يرجع الناس إلى السكون ولكن يذكر العباد الـــتوبة والمـــرجع إلى عاقبة المعاد ومنتهى الحياة، ويبرز بين المهتدين بنور الله الذاكرين المسبّحين له طوال اليوم رجال خرجوا من ديارهم ليضربوا في الأرض ويبتغوا من فضل الله قـــياماً علـــى النساء والأطفال فتعرض لهم في طرقهم بيوت التعبّد والمساجد حيث الذكـــر والصلاة، هم موالوها في الغدوات والآصال لا يهجروها فتنة بمواطن الكسب

(١) في ذكر الله نوراً للوجود تتواتر آيات تذكر كتب الله نوراً أو أن الهدى إخراج من الظلمات إلى الـــنور أو أن الأرض يوم القيامة تشرق بنور ربها والمؤمنون لهم فيها نور، وتصف بالمنير كتاباً لله أو رسولاً.

ومقاصده، فهم – إن فرغت النساء من الضرب في الأرض فنصبن في بيوتهنّ مصليات ذاكرات – لا تلهيهم تجارة تعرض لهم وتشغلهم بمعاملاتها ومقاولاتها ولا بيع تسنح لهم فـــيه فرص يحصرهم عندها ابتغاء الرّبح في الحاضر العاجل من الدنيا – لا يلهيهم ذلك عـــن ذكر الله وإقام الصلاة مرعيّة مواقيتها لا تفوّت وتامّة طهارتها لا تضيّع ومؤدّات أركانهـــا لا تُسقط وحركاتها كافّة تعبير عن خالص توحيد وخشوع لله المذكور، ولا عـــن إيـــتاء الزكاة مثل الصلاة التي زكّت أوقاتهم زكاة لمكاسبهم في المال غرماً يؤدّى للفقـــراء لـــيكون غنماً في ثواب الآخرة. ذلك كله لأن أولئك المهتدين الذاكرين لله المسبّحين المصلّين المُذكّرين يخافون يوم الآخرة الموعود إذ تتقلّب فيه القلوب والأبصار بـــين طمع النجاة وطمأنينة القبول ومشاهد الشقاء وجنات النعماء، يوم يحاسبهم الله عما قدموا في الحياة، أولئك المهتدون الذين يوالون العبادة ويعتريهم الخوف من الله قد حفـــزهم إلى ذلك أيضاً الرجاء ليجزيهم أحسن الجزاء على أحسن أعمالهم وفاقاً حياة صـــالحة عمـــر خلالها بالذكر والعبادة الخالصة، ويزيدهم من فضله فوق الكفاء والله يرزق من يشاء سعداً ونعمة توفية لإحسانهم بغير حساب لأن رحمته واسعة فائضة على موازين الأعمال بالقسط.

﴿وَالَّـــذِينَ كَفَـــرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّـــيٍّ يَغْـــشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٣٩ – ٤٠)

كـــان فيما سبق ذكر لمثال نور الله ثم وصف للذين هداهم الله عاكفين في بيوت العـــبادة ذاكـــرين لا يلهيهم كسب المعاش بل يوالون الصلاة والزكاة خشية من يوم الحـــساب ورهبة ورجاء في جزاء الله ورغبته. ويليهم ذكرُ الفريق الآخر الذين كفروا فغمـــروا ميـــثاق الإيمـــان في فطرهم وضاقت فما انشرحت صدورهم لتلقّي نور الله وهدايـــته فـــضلّت أعمـــالهم مفتونةً بعاجل الدنيا دون خشية من لقاء الله أو رجائه. أعمالهم غزرتها رغائب شهوة الدنيا وحفزتها طموحات المكاسب المشهودة فكان مثالها كسراب – ألاًّ سارياً ورقراقاً جارياً على الأرض حين يشتدّ حرّها، يُرى بقيعة – فلاة

ســـهلة مستوية يعلوها السراب فيملأ الأفق، يحسبه الظمآن شديد العطش أملاً يسعى إلـــيه كأنـــه ماء بحر طام، حتى إذا جاءه حيث رجاه لم يجده شيئاً بل خيبة تتعاقب في مـــتاهة من الآفاق. وذلك حال الذين كفروا، تزودوا في الدنيا بكسب وافر حتى إذا جـــاءت ساعة الحاجة لعاقبة فضله أيضاً يوم القيامة خاب رجاؤهم، ووجدوا الله عند ذلـــك المنتهى، والله الحسيب الذي عنده كتاب شاهد يُحصي أعمال عباده وله موازين العدل موضوعة فرقاناً بين من ثقلت فرجحت حسناته ومن خفت فطاحت به سيئاته، فـــوفّاه الله نـــصيبه الذي عليه. لم يغن عنهم زاد أعمالهم شيئاً إلا كما يغني السراب العطش السّاعي الرّاجي عنده ماء.

والذين كفروا المتوالية أعمالهم في سيرة ضلالهم المتكاثرة في ظلمات الهوى الخائبة عـــندما تـــبين العواقب، أعمالهم تلك كأنها ظلمات متراكبة في بحر لجّي عميقة أبعاد سواده يُطبق عليه الظلام كلما يغشاه موج غامر يتعالى عليه موج آخر وفوقه سحاب داجنة كِسفُه غيماً. فراكب البحرِ تحيط به ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده – القريبة منه – لم يكد يراها من تكاثف الظلام ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، فالكافر يسعى في ظلمات يضلّ عن وجهه مهديّة ويضرب في خطوات لا تستقيم لأنه لا يـــتوجه قاصداً وجه الله ساعياً إليه بخطى حياته، بل حياته غريقة في ظلمات تأطرها مـــتكاثفة من غواشي البلاءات لا يتبيّنها فهي تتراكم عليه مجهولة والأهواء والشهوات تدفعـــه إلى مسالك بلا تبصّر ولا استقامة بل في اضطراب ملتجّة وفوق ذلك عقائده الغيبـــيّة ظـــنوناً جاهلـــيّة مدلهمّـــة، إنه كَفر و لم يجتهد تائباً ملتمساً نور الله وهدايته ليستجيب له الله فما له من نور ولن يرى في عاقبة أمره من كسب يده إلا تباباً.

﴿أَلَـــمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١)

ألم تر؟ خطاب لأيّما تال للقرآن يُسأل أينفى رؤيته لما هو بيّن مشهود يُستنكر ألاّ يُـــرى، وهو من ثَم دعوة له أن يتجاوب فيصوّب بصيرته إلى آية لله في حقيقة واضحة مـــشهودة لكـــل متبصّر، لا لمن يرى ظواهر الأشياء لكنّه يعمى عن مغزى وجودها ومفهوم حالها مطبوعةً شاهدة أن الله نور السماوات والأرض أبداها في الوجود وهدى

مــسيرتها في البقاء المكتوب لها منه تعالى. ألم ير أن الله – الإله الأعلى عظمةً المعروف وحــده – يــسبّح لــه ما في السماوات والأرض ذكراً يُعليه على أيما مكافئ يدّعى وينــزهّه عن أيّما نقص من الكمال المطلق للألوهية الحق؟ لا مِثل ما يعظّم القاصرون المفتونون بظواهر الوجود أو بباطل الظنون يؤلّهون ما هو دونه شركاء له في الغيب أو المشهود مثل الملائكة أو الأصنام والأوثان والنجوم أو يخطر بظنونهم في تقدير ذات الله وصــفٌ بما هو دون الكمال الأعلى والقدرة المطلقة الحقّة في شأنه والصفات الحسنى التي تسمو عليّاً، بل قد يشركون به من البشر في الأرض مستكبرين مستعظمين يدّعون القداســة لــذواتهم أو روحانــيين بزعمهم يدعون قدرة ذاتية لفعل ما يشاءون مثل معجــزات الله التي تقع على غير مسنون طبيعية الأشياء والأسباب، أو يتعلقون بالحياة الدنيا يتّخذون بهواهم فيها مقصداً أعلى غير وجه الله الصمد مقصوداً الأحد معبوداً.

وقد يكون التسبيح معنى ذلك التقدير المطلق لله منويّاً بوجدان الإنسان ومنطوقا لفظاً بلــسانه. وقد يكون التعبير عنه بالحالة المشهودة في الأشياء المخلوقة حيّة عجماء أو جامدة صــمّاء – تــشهد في وجودها وسيرها طبيعةً بالطاعة لأقدار الله الصانعة والتعبّد لإرادته القاهــرة، وتعبّر كذلك عن معنى التسبيح إعلاءً لله على كل قوة أخرى يقوّمها الخرّاصون وتنــــزيهه عــن كل عجز أو نقص ممّا يعتري المؤلّهات المفتراة دون الله خالقها الكامل. وتــسبح لله وتقدســه الجــنّ والملائكة الواعية بما تفعل وتقول تعبيراً صادقاً يسمعه منها ويدركه الله الذي هي به في الغيب موصولة. فالمخلوقات الموجودة في السماوات والأرض كلــها تخشع لله طاعة لأمره ولسنته وتسبّحه إعلاءً وتعظيماً له على ما سواه وتنــزيهاً عن كلّ شائبة دون كماله الأسمى وقدره المطلق، تعبّر عن ذلك بلسان حالها وطبعها إن كانت عجماء أو صماء أو بوعيها ولسانها، يدرك الله مفهوم ذلك أو منطوقه. حتى الإنسان الذي شــاء الله أن تكون له الخيرة في أمره قد يكون منه من اختار ألاّ يؤمن بعبادة الله ولا إعلائه إلهاً حقاً فهو لا يسبّح بلسانه، لكن خِلقته المسنونة كلها طاعة لأقدار الله وحالها تسبّح الله وتُعلــي كمالــه وتنــــزّهه، وهو قد نسى خلقه! فما في السماوات والأرض كله يقوم بشهادة التسبيح لله، ولذلك أشارت إليهم الآية بالاسم المعرّف: 'مَن'، جمعاً للعاقل وغيره وتغليباً للانسان والجنّ العاقل المخاطب بكلم القرآن.

وذكرت الآية أيضاً من بين المسبّحين الطيرَ صافات لأنها أبرز المشهودات الطبيعية في السماء وأعجبها من سائر المخلوقات القريبة في السماء جسماً ذا وزن ثقله حسب المسنون يُسقطه على الأرض لكنه معلّق في الجوّ، ألم يره أحد؟ بل يرى المرءُ الطير صافات أجنحتها بسطاً أو قبضاً وفي ذلك تسبيح لله الذي خلقها ويسّر لها سيرها إعلاءً لسنته وقدره كيفما يشاء وتنزيهاً لذاته العليا أن يضارعه شيء أو أحد ليسقطها أو ليصنع ما يشابه قدر طيرانها إلا بذات سنن الله في الأقدار والأسباب علّةٌ تصيبها أو صيد لها من طائر مثلها أو صناعةً لأداة أو لجسمٍ طائر مثلها فعلاً أو صيداً من بني الإنسانِ المخاطب نفسه بمراقبة سنن الله وتعرّفها وإدراك معنى تسبيح الله فيها وحمده أن سخّرها له.

كلٌ من تلك المخلوقات في السماوات والأرض قد علم الله صلاتَه بالوجه الذي يعبّر به عن صلته بالله الوثيقة توحيداً وخشوعاً له تعالى، وتسبيحه تعبيراً يُعلي الله في مطلق الكمال لا تنقصه شائبة وفوق ما يعهد بعض البشر في مؤلهاتهم المفتراة. والإنسان يصلي لله أداء لشعيرة فيها ذكر وحركة وقول كلها شعور إخلاص خاشع لله وأداء لما يعبّر عنه، وقد يصلّي لغير الله إشراكاً في التأليه أو بمعنى آخر للصلاة. والملائكة تصلي لله تعبيراً عن التوحيد والطاعة الخالصة. والأشياء تصلّي لله لا تؤدي شعيرة ولكنها تشهد بحالها على التعبد لله وحده. والإنسان يسبّح لله شعوراً وقولاً، والملائكة أدوم تسبيحاً لله بتعبيرها الروحي، والأشياء تسبّح بلسان حالها الطبيعي، وكلٌ يحيط به علم الله، والله عليم بما يفعلون، بالغ العلم وثيق الإدراك بما تفعل مخلوقاته، سواء منهم مَن يبلغ بفعله عملاً يكتنفه التقدير في النيّة ووجه الأداء، ومَن يفعل محض قيام وجود أو أداء بسيط.[1]

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٤٢)

ولله وحده - إذ تقدّم ذكره في الآية لحصر نسبة ما يلي فيها له حصراً بيّناً - ملكُ السماوات والأرض. وهو المُوجد لها وما فيها جميعاً من عدم، وهو المصرّف المسخّر لسير وجودها كما يشاء، وهو المعبود المطاع الهادي، وهو المسبَّح له ﷻ. وقد

(١) راجع الآية ٧٩ سورة النحل، وانظر الآية ١٩ سورة الملك.

يذر الله لمخلوقاته ملكاً لأمور معدودة ولمدى تصرفات وأسباب محدودة ويبقى الله هو الملــك الــذي يكل لمن يشاء ما يشاء. والى الله - كذلك وحده - المصير بعد البقاء لأجــل مــسمى في الوجود المشهود لمخلوقاته، حياة في الدنيا للحيوان والنبات حتى المــوت، وللجن والملائكة حتى يوم البعث. ولدى ذلك المصير قد يُفني الله الأشياء أو يــبدّلها. أما الإنسان فهو مبعوث نشأة في حياة أخرى يوم القيامة، وعند ذلك المصير يلقــى ربّــه، والمُلــك يومئذ كله لله يراه عين اليقين حتى مَن ارتاب به كفراً بالغيب والــبعث والمصير إليه، لا ظهير ولا نصير سواه لأحد أبداً ولا شفيع عند الله في ذلك المصير إلا بإذنه ﷻ.

﴿أَلَــمْ تَــرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْــرُجُ مِــنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ (٤٣)

كذلك السؤال لتالي القرآن المَخاطب به استنكاراً لنفي ما هو بيّن آيةً شاهدة من آيــات الله في آفــاق السماء. الحق المشهود ممّا يرى هو أن الله يُزجي سحاباً - غيماً منجرّة يسوقها قدر الله رفقاً ويبسطها في السماء نشراً بالرياح أنّى شاء، ثم يؤلف بينه بعــد أن ينشأ غمامات منشتّة تتضامّ مدّاً عظيماً، ثم يجعله الله بسننه المشهودة رُكاماً إذ يتراكم ويتكاثف كِسفاً مسودّاً، ويرى المخاطب ناظرًا في صنع الله في السماء الوَدْق - قَطــراً مــن تلاقــح البخار الدافئ والعلوّ البارد وتحوّله سائلاً يخرج من خلال ذلك الــسحاب إذ يثقل فيسقط نحو الأرض ليقع أينما شاء الله. وأن الله ينــزل من السماء مــن جبال السحب المتراكمة الباردة من برَد أو جليد أحياناً - كتلاً منعقدة من الماء الــبارد الجامد، فيصيبُ به الله مَن يشاء من عباده في أرضهم ويصرفه عمّن يشاء. وإذ يــتكاثف الــسحاب ويتلاحم تتولّد بينه طاقة تلوح برقاً يكاد سناه الشعاع الساطع يذهب بالأبصار بهراً من شدّة ضوئه.(١)

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ (٤٤)

---

(١) تــرد آيات تذكر آية السحاب يزجيه الله ويصرفه بالرياح: راجع الآية ١٦٤ سورة البقرة، والآية ٥٧ سورة الأعراف، وانظر الآية ٤٨ سورة الروم، والآية ٩ سورة فاطر.

كـــذلك، يقلّب الله الليل والنهار، يسود الظلام ليلاً فتشقّه ضوءاً الشمس فجراً فـــنهاراً، يتقلّـــبان خلفةً سواء في المدى من الوقت أو تفاوتاً حسب مواقع الأرض من الـــشمس ودورة المواسم للمناخ، ويتعاقبان عدّاً محسوباً تسري به أيام التأريخ. إن في ذلـــك كلـــه من الماء والبرد النازل من سحب السماء والبرق الخاطف فيها والشمس الغائـــبة تـــشرق وتضيء كل يوم – إن فيه لآيات لأُولي الأبصار ذوي الرؤى النافذة وبـــصيرة الوجدان التي لا تقصر النظر على وقع مشاهدة الطبيعة بل تراها آيات تهدي بـــدلالاتها إلى معـــرفة قدر الله الذي ينشئ من خلقه ظواهر ويصرّف سُنناً معهودة أو منظومة ثم إلى الإيمان بها نعماً من الله مسخّرة لنفع الإنسان لعلّه يحمد ربّه ويشكر نعمه فيعبده حقّ عبادته.[1]

﴿وَاللَّـــهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّة منْ مَاء فَمنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلَى بَطْنه وَمنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٥)

وفي عـــالم الحيوان على الأرض – بعد ذكر آيات الله في السماء وفي الخافقين، الله – وحده أول الذكر – خلق كل دابّة حية سائرة في الأرض، خلق الأصل الأول لكـــل حـــي من ماء وخلق أصل كل دابّة من تلاقي ماء مبارك بين زوجين منها، ثم صـــوّرها بـــين مـــشهود وخفيّ وبرّي وبحري وهو شكّل أداة حركتها. فمن تلك الـــدوابّ – الـــتي ذكـــرتها الآية بضمير العاقل لأنها من مخلوقات الله الشاملة للبشر الطائعة لأقداره المسبحة بعليائه والمرسلة العبر لمن يتبصّرها – 'منهم مَن' يمشي على بطـــنه تتدافع عضلاته زحفاً في الأرض أو البحر كالحيّة والحوت، ومنهم مَن يَمشي علـــى رجلين ويرفع جناحين أو يدين كالطائر والإنسان، ومنهم مَن يمشي على أربع أرجل كالأنعام والوحوش. يخلق الله – الخالق الأعظم – ما يشاء، من أشكال خلقه الأحـــياء وتقديـــر حركتهم، يتكاملون ويتوافقون بها دوابّ في الأرض مع الإنسان الواعي المخاطب بآيات الله. إن الله على كل شي قدير، كيفما أراد أن يُخرج مخلوقاً مـــن أي أصـــل يقدّره ويصوّر شكله، فهو مطلق القدرة، فليعتبر ويؤمن به الإنسان

---

(١) تتواتر آيات تذكر آية اختلاف الليل والنهار وتوالجهما وتكوّرهما وفي نعمة ذلك.

ليخـــشع لـــه ويُسلم لأمره فيما خلّى له الله من طلق المسير في الحياة إلى المصير إليه تعالى.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آَيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦)

لقـــد أنـــــزل الله – العلي الكبير، بأقداره المطلقة المدى العظيمة الوقع – آيات تجلّـــت فـــيها كلمـــات قدرة مطبوعة في الوجود، مبيّنات شواهد على قدرته البالغة وربوبيـــته مالكاً مهيمناً على الوجود المخلوق وألوهيته المتعالية المعبودة، تهدي وجود المخلـــوقات المشهودة وتصرف قيامها وحياتها، وأنـــزل وحياً من كلم علمه وحكمته آيـــات مبيّنات دلائل رسالة تخاطب الإنسان بحقائق الغيب حتى يؤمن والمشهود حتى يتذكّـــر وبتعالـــيم شرعه حياته لتهتدي سيرته حتى يبلغ المنتهى إلى المصير. ويرى فيها أولو الأبصار– الرؤى الراشدة – عبرة تدعوهم إلى الإيمان بالله والطاعة لأمره وعبادته.

والله يهدى من يشاء من عباده البشر – بتلك الآيات الطبيعية المشهودة والموحاة المتلوّة المتصادقة كلها – إلى صراط مستقيم لا يعوج عن ابتغاء وجه الله قبلةً لحياته إلى ابتغاء المتاع العاجل شهوةً وهوى ولا ينقطع قاصراً على حاضر الدنيا دون تزوّد منها إلى الآخـــرة حيث عاقبة الجزاء الوفاق لكسب الإنسان في مرحلة حياته الدنيا. وكما يهدي الله مَن يشاء يذر مَن يشاء من عباده ضالاً قوام الطريق مفتوناً بالدّنيا منهاجاً لا يستقيم به إلى المنتهى فلا يهديه إلى خير المصير والنعيم الخالد.

عموم المعاني (الآيات ٣٥ – ٤٦):

تصدّرت الذكر في 'سورة النور' آيات أولى هي هُدى وتذكير في ابتلاءات الحياة الخاصة من العلاقات بين الذكور والإناث: الزنى بغياً فاحشاً مُعاقَباً عليه ببيّنة شهادة، والتّرامي بالفاحشة بأفيكة منكراً تحق عليه اللعنة والعذاب، والتزكّي عن ذلك والتزاوج بـــين الطيـــبين لا الـــتهاون أو تزاوج الخبثاء، ورعاية حرمة البيوت وحفظ الأبصار والفـــروج من الفتنة والبغي، والسّتر لزينة النساء إلا بالمعروف أو للمحارم، والتحصّن بإنكاح الأيامى والموالي والسماحة في مكاتبة هؤلاء لتحريرهم واتّقاء التكسّب إكراها للفتـــيات على البغاء. كانت تلك آيات هداية وتطهير مما سبق من منهج حياة معهود.

وتتلو الآن آيات تذكير في ابتلاء آخر هو الحجاب بين عالم الغيب وعالم عباد الله المشهود، فيه البيان لنور الله ملء السماوات والأرض وضرب مثاله مصباحاً وقّاداً، وذكر الرؤى النفّاذة ممّن يهتدي إليه فيؤمن مصدّقاً إيمانه بعبادة لله متوالية من الذكر غير المفتون والصلاة والزكاة خوفاً من الله ورجاء لجزائه وفضله رزقاً بغير حساب، والرُّؤى العمياء البصيرة الكافرة بالله والغيب تسعى في الحياة الدنيا لكن تعمل فيها كالأغشى يخدعه رجاء السراب بالنّهار أو الأعشى تحيط به ظلمات بحر لجّي في الحياة الدّنيا حتى يجد الله في الآخرة ويُوفّى هو حسابه خائباً رجاؤه ولا يرى نور ربه رضواناً في الجنة بل نار غضبه وعقابه في جنّهم.

والقرآن لا يُفاصل في رسالات العلم والحكمة الموحاة فيه من الله، بل يواصل بين هدايات الحياة الخاصة وهداية التبصّر في نور الله وتذكّره ﷻ في شعائر العبادة الخالصة. فكلمات القرآن وآياته يتوالى فيها ذكر جامع لكل ذلك الهدى. وفي السّورة الواحدة يتّصل ويجتمع ويتوحّد الهُدى في كل شعاب الحياة تصديقاً لمعاني الإيمان في نفس المؤمن الواحدة وجماعة المؤمنين المتوالية. ذلك أن الحق في نهج الحياة هو التوحيد. وذلك هو توحيد التوجّه بكل دواعي الشّعور في الوجدان إيماناً بالله وحده ومجاهدة للتعلّقات المحجوبة في العالم المشهود الفاتنة غفلةً عن الله أو إشراكاً له بمؤلّهات ومقدّسات ومعبودات دونه ناشئة عن ظنون اختراص وأهواء موالاة شتى. وهو توحيد الحياة إذ تؤصّل كلها على الإيمان بالغيب: بالله خالقاً للبشر أهبطهم ليحيوا في الأرض الحياة الدنيا، راحماً لهم برسالات ينزلها من الغيب، مخيّراً لهم أن يؤمنوا بحقائق الغيب والأزل أو ينقطعوا بالمشهود، يهدي لنوره مَن يشاء تيسيراً لإمضاء خياره وسعي بصيرته ويضلُّ مَن يشاء تيسيراً أيضاً لإمضاء خياره هو وعماه، ذلك حتى المرجع إليه ولقائه جهاراً يوم القيامة في الأزل وهو قائم فيهم بالمحاسبة قاضٍ فيهم بالجزاء الوفاق لما كسبوا في دنياهم، جنة ورضواناً أو ناراً وغضباً.

والقرآن كذلك يصل ذكر آيات الله البيّنات الموحاة ليتلوها الإنسان حقّ التلاوة قارئاً منطوقها متفقّهاً معناها فعاملاً متّبعاً هداها – ذِكرَ هذه موصولاً بذكر آيات الله المشهودة والغيبيّة في طبيعة موجودات الكون المخلوق. لينظر الإنسان – إن لم يَعْمَ أو

يُعــرض – فيرى الأشياء في السماوات والأرض تصلّي لله طوعاً وخشوعاً لسُنن خلقه وتقديـــره وتُسبّح له تُعلي أقداره التي هي منطبعة بها كما توجد وتجرى عليها الأحوال جامدةً أو تقع منها الحركة حيّة آية على قدرته وعلوه ﷻ. وليرى الإنسان كذلك إن شهد فتبصّر الآفاق الطير صافّات في السماء أجنحتها لسانُ حالها أنها في صلاة وتسبيح لله. ولـــيرى السحاب كيف يظهر غمامه ثم يتألّف ثم يتراكم فيتخلّله الودق المتسايل المتـــنازل مـــاءً غيثاً والبرد والجليد المتساقط، ويرى بين السحب البرق الساطع، ويرى تقلّب الليل والنهار خِلفةً بين الظلام وضياء الشمس، فتقرّ في نفسه العِبرة إدراكاً لقدرة الله وصـــنعته المتقنة وتعاليه البالغ. والإنسان يشهد في نفسه وحوله الدوابّ باختلاف هيـــئة مـــشيتها دبيـــباً شاهدة على قدرة الله المتجلّية في اختلاف أشكال المخلوقات وألوانها. وهو أيضاً قد يسمع من مأثورات الوحي خبر الجن مخلوقات واعية مثله لكنها خفـــيّة في الغيب فيعلم ويوقن أنها تصلّي لله توثيقاً لصلة الذكر والخشوع به وتسبّحه إعلاءً لذاته علماً وقُدرة وصفات حسنى وتنـــزيهاً له من كل معروف النقائص في كل المؤلّهات بالباطل، لاسيما الملائكة الأطوع لله والأدوم تسبيحاً له. ومن بني الإنسان – كما سبق القول – الأغشى والأعشى عمىً في تبصّر آيات طبيعة الكون حتى المشهودة فهـــو لا يرى وراء ظاهرها المنظوم ولا يهتدي فلا ينفذ عبره إلى ما يتجلّى من الغيب فـــلا تـــورِثه استيقاناً بحضور الله في الوجود خلاّقاً عليماً علياً قديراً على كل شئ ولا إعظاماً لمدى رحمته المبسوطة المسخّرة حولَه فخشوعاً لجلاله الأجلّ مصلياً وإعلاءً لذاته مـــسبّحاً. لكـــن مـــنهم من اهتدى لأنه نظر ثم مضى يتفكر ويتبصّر في تلك الآيات الطبيعـــيّة البيّنات دلائلها وتذكّره الآيات الموحاة هوادي، ذلك كله يسوقه إلى اليقين بعظمـــوت الله الخلاّق السبّوح القدّوس ويدعوه لابتغاء وجهه في مساعي الحياة لبالغ رغباه ورهباه.

إن آيـــات الله الأسبق في صدر 'سورة النور' كانت هوادي وتكاليف في الحياة الخاصة للانسان، كما ذكرنا سابقاً. ولكن كان يحفّها تذكير للمؤمنين أنها بيان من الله العلـــيم الحكـــيم يلـــزم أن يُحقّـــوه واقعاً فعلاً في حياتهم بتناصح وتضابط بالعقاب والـــسماحة. ثم كـــان المَـــثنى من الذكر الأحكم إحكاما للعمل بتلك الهوادي أن قد

صاحبتها مواعظ ذكر لرقابة الله الخبير بما يعمل عباده ويصنعون، السميع العليم بما يُبدون ويكتمون، وبالتقاة منهم والمتّبعين لخطوات الشيطان، وزواجر ذكر لجزاء الله للخاطئين إعراضاً عن الهدى وكذباً وخبثاً باللّعن والعذاب العظيم، وحوافز ذكر لفضله على المهتدين إن أذنبوا بواسع رحمته وغفرانه ورأفته وإن تابوا بتوبته وحكمته، وبشائرَ ذكرٍ لما ينتظر الطائعين الزاكين من فلاح ورزق عند الله كريم. كل ذلك تأسيس لهداية الحياة الدنيا على أصل الإيمان بالغيب عند الله الأوسع رقابة وإحاطة بما يكسب العباد ظاهراً وباطناً الأفعل ترغيباً وترهيباً لهم في اتباع الهدى لأن بشارة الله ونذارته هي الأصدق. ولذلك جاء تالي الآيات في السورة تذكرة بكل ذلك الغيب، بالله هادياً بنوره للإيمان والعبادة والطاعة معزّزاً ذلك الإيمان بشواهد مطبوعة في آيات الكون. وإنما الحياة الخاصة المثلى للانسان أن يمهّد في فطرته عهد ذلك الإيمان ويستيقنه بتلاوة الوحي الحقّ وأن يؤسّس عليه الطاعة لأحكام الهدى والتكليف الموحاة لتتمتّن الحياة مستقيمة وتتوحّد شعوراً راسخاً في الوجدان وفعلاً مهتدياً وسعياً في دنياه قاصداً منتهاها في أخراه.

وكذلك اتّصل واتّحد سياق معاني آيات السورة من أولها إلى هذا المَبلغ منها.

ترتيل المعاني (الآيات (٤٧ – ٥٧):

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧)

سورة 'النور' آيات مُفرّضات مفصّلات لكنها موحّدة، في وسطها ذكر نور الله الهادي للمُؤمنين إلى ما يصلحهم به في مختلف سياقات الحياة الدنيا وابتلاءاتها وما تنتهي به من خير لهم في الآخرة، ذلك ما داموا يوحدون الله ربّهم الأعلى ويوحدون الحياة كلها مهما تختلف شعابها عبادةً لله مهديّة بنور آياته المنزلة إلى ابتغاء وجهه، فهم يَصلون خاص حياتهم رجالاً ونساءً ومجتمعاً إلى عامّها المنظوم بسلطان، وتفكّرهم في طبيعة الكون وكليات رؤيتهم في الوجدان وعملهم النافذ بها في الواقع، وسعيهم في مقاصد الدنيا ومبتغاهم نعيم الله ورضوانه في الآخرة. كل تلك الشعاب متعامدةً

متكاملة متّحدة عبادةٌ لله الواحد. فما سبق في صدرِ السورة كان آيات هُدى للمؤمنين في حياقم الخاصّة وتوسّطت آيات نور الله والهداية إليه وتلتها آيات تذكير بالتفكّر في السماوات والأرض وطبيعة الوجود المشهود بينها، وبعد ذكر متواتر لآيات الله البيّنات المُنــــزلات وحــياً والمتلوّات قرآنا أو المشهودات في طبيعة الكون. كلّ تلك آيات متصادقة موصولة بميثاق الإيمان المفطور في نفس الإنسان تُحييه وتهديه. والآية السابقة تذكر أن الله يهدي مَن يشاء من عباده، وهي تطوى ذكر مَن يُضلّ لكنها تميّز مَن يُتمّ الله له خيار الاهتداء ومن يُيسّر له خيار الضلال ليحقّ عليهم في الآخرة الجزاء الوفاق. ويمهّــد سابق الذكر كلّه لما في الآية الحاضرة من إتمام الذكر الهادي لحياة الناس بوصل ما مضى ذكره من الضلال والهدى في حياتهم الخاصّة بما سيتلو ذكره في حياتهم العامّة المنظومة بسلطان.

ذلك أن عهد تنــزّل هذه السورة في المدينة شهد صدر أيام الفتح لدعوة الإسلام المنبسطة في الجّزيرَة العَرَبيّة وحديث سلطانه المتمكّن فيها وجديد تركُّب مجتمعه المؤمن بــسواده الفاعــل والمَشُوب بظاهرة نفاقٍ منتشرة بين مَن تبطّأ في التطهّر من ماضيهم القــريب ودخلــوا لحينهم في دين الإسلامً لله، فمَن تجلّى فيهم من ذلك التذبذب في الطاعــة لأمر الله ﷻ وسلطان الرسول ﷺ، لاسيما أن ذلك السلطان كانت تضارعه نوازعُ تحاكمٍ إلى غيره ومحاذر من الخروج معه بأمره في نفرات الجهاد، إذ قد بقيت في جــنب المــسلمين طوائف يهود ذات إدارة لأمرها العام وذات شريعة يُتحاكم إليها، وحــولهم مراكز للشرك القديم ورواسبه، ووراء ذلك إمارات سلطان عظيم متمكّن في الأرض في أمم ذات دين أو ملة غير الإسلام.

فــبعد ذلك الذكر من آيات الله وهديها وفي ذلك العهد المدنيّ جاءت هذه الآية وما يليها تذكُر مَن انطوى ذكرهم في الآية السابقة من الضالّين، عِدالاً لذكر المهتدين. وقــد كانوا بطانة تُحدث قلقاً في مجتمع المسلمين بيّنت أمرهم مقولاتهُم العلن المعهودة الــتي كانت تُنبئ عن نفاقهم وتذبذبهم في الولاء والطّاعة للرسول أمير سلطان الإسلام والقــبول لحكومات قضائه والاستجابة لاستنفاره للخروج في الجهاد. ولذلك قدّمت الآيــة في ذكرهم ما بدا منهم فأبرزهم وأشهد عليهم قولاً مسموعاً فموقفاً معروفاً في

الـــتحاكم إلى الرســـول ﷺ، وتلاها في الآي ما حقّ وصفاً لهم وما يقارنه مما امتاز به عنهم المؤمنون الطائعون إخلاصاً لأمر الله والرّسول.

ويقولـــون – هـــم – إنهـــم آمنوا بالله وبالرّسول وأطاعوا، يدّعون في حاضرهم بألـــسنتهم أنهـــم علـــى إيمان يرضى ماضياً مؤمناً بالله معبوداً عليّاً مُطاعاً أمره الحقّ، وكذلك بالرسول مبلّغاً صادقاً لرسالته هدى من الله وشرعاً فمطاعاً أمره وحكمه نفاذاً لـــذلك الـــشّرع. ثم يتولّى مُدبراً في موقفه فريق منهم – فئةً مفارقة – من بعد ذلك الإعلان ويبين أمرهم أن ما هم بمؤمنين يرسخ في قلوبهم اعتقاد خالص بحقّ ما يقولون بألسنتهم مما يجعلهم في عداد سائر المؤمنين.

﴿وَإِذَا دُعُـــوا إِلَـــى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ (٤٨ – ٤٩)

وإذا دُعـــوا – أولئك المدّعون قولاً الإيمانَ والطّوع المعهود بين المؤمنين لحكومة قـــضية اختصام احتكاماً إلى شرع الله ﷻ كما أوحاه فرقاناً بين الحقّ والباطل ولأمر الرّسول ﷺ قاضياً فيها بما أراهُ وهداه الله – إذا فريقٌ منهم – هو ذاك الفريق المُريب في دعوى إيمانه – مُعرِضون يُجانبون التزام مقتضى الحقّ عند التحاكم إلى الرسول، يأبونه لأنـــه لا يوافق هواهم ولا يُحصّل لهم مصلحةً ينشدونها في الإقبال الأوّل على إجراء التقاضي. وإنْ تُوافِهم الحكومة في الخصومة ويكُن حسب مقتضاها لهم هم الحقّ الذي ادّعوه فيها يُردّ إليهم أو يُحفظ في وجه الخصيم، عندئذ يأتوا إلى ذات الرسول مذعنين يُظهرون أن حكمه حقّ يستلزم الذلّ والانقياد له دون إعراض، وإنما ذلك لأنه صادفه ما يهوون من وقع أيلولة الحقّ المتخاصَم عليه.

﴿أَفِـــي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٥٠)

ذلـــك التباين بين القول ادعاءً للإيمان والصدق وبين القبول والإعراض في الحكم حسب تحوّر الحظّ ممّا يدعو للارتياب بهم والتساؤل: أتُرى في قلوبهم مرض؟ أصلُ علة مـــن نفـــاق في تديّنهم فاضطراب في دعوى الإيمان منهم عموماً يتجلّى في مواقفهم المـــتذبذبة بين حكومات قضاء الرسول ﷺ بالحقّ وفاقاً لشرع الله ﷻ يتلقّونها حسب

وقعها حظاً قُضي لهم فيها أم عليهم، لا كقبول المؤمنين الصادقين المتوالي استسلاماً لما يـــرونه حقاً فيها كيفما وقع صدفُ مقتضاها بين الخصوم. أم تُراهم ارتابوا في حق ما يحكم به الرسول إذ ابتُلوا في عين خصومة قضى هو فيها بالحكم ضدّ دعواهم ففتنتهم تلك الحكومة وزلزلت إيمانهم – في شأن صدق الرسول – الضعيف الذي لا يثبت في بلاء كره؟ أم تُراهم يخافون أن يحيف الله عليهم وهو ربّ العباد كافّة ما هو بظلاّم بل يفـــصل في ذات بيـــنهم بالحق السويّ المطلق، أم يحيف رسولُه الذي يحكم بما أراه الله صادقاً أميناً لا يميل انحيازاً أو جوراً نحو أحد دون الحق، ولا يحمله على ذلك أن يأخذ عليهم في أمر فيضطّغن عليهم ميلاً في الحكم؟ بل هو قوّام بالقسط شهيد لله بين الناس هم عنده سواء في العدل بميزان الحق. بل أولئك هم الظالمون، المتذبذبون بين الإعراض والإذعـــان حـــسب الخسارة والكسب في حكومة القضاء بالحق، العادلون عن أصول الـــدين الجانحون عن تمام الاستقامة صدقاً ظاهراً وباطناً وصبراً ثابتاً كيفما دار البلاء، العادون على حدّ العدل في مختلف أمور الحياة والحكم بالقسط السواء في قضايا تخاصم الناس.[1]

﴿إِنَّمَـــا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّه وَرَسُوله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَـــمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥١ – ٥٢)

إنمـــا كان قول 'المؤمنين' – حصراً وتقديماً لذكر المقولة التي تبدر منهم وتميّزهم مؤمنين كما مازت المنافقين مقولتهم المذكورة مقدّمة في الآية السابقة – إنما كان قولهم إذ رســـخ الإيمان في وجداهم وثبت لهم وصفاً لا مبتدأ فعل عند مدخلهم إلى الإيمان، كالـــذين آمـــنوا – كان قولهم إذا دعوا إلى شرع الله ﷻ الفاصل وحكم الرسول ﷺ القاضي في أيما محاكمة بينهم في الخصومات والحقوق المتنازع عليها كيفما وقع الحكم المستنبط من أحكام شرع الله الحق المقضيّ به من الرّسول الأمين – كان قولهم: أن قد سمعـــوا هـــم منطوق الحكم الذي أمر به قضاء الرسول المهتدى بما أنـــزل الله وأهم

(١) في الإعـــراض عن حكومة الرسول: راجع الآيتين ٦٠و ٦٤ سورة النساء، والآية ٤٥ سورة المائدة.

أطاعوا كيفما كان وقعه أثرةً لهم أو عليهم وقبلوه مبتَلين به وقعَ يسر أو عسر يُنفذونه في منـــشط أو مكـــره ولا ينازعون في أمره بعدُ أبداً. وعندئذ أولئك – الذين امتازوا بمقـــولة الحق سمعاً وطاعة شهادةً مخلصة – هم المفلحون الذين شقّوا طريقهم إلى إدراك مأمولهم في عاقبة الأُمور والظافرون بالحُسنى.

وتنـــضاف كلمـــة الحق في الآية: أن مَن يطع الله ورسوله كما يجرى أمرهم في الـــشّرع عموماً وكما يقتضي حكم القضاء من الرسول ﷺ، ومَن هو في ذلك يخشى الله ﷻ فلا يخالف له أمراً مهما تكلّفه الطّاعة أو يُبتلى فيها بتبعة يخشاها فالأَولى عنده أن يخشى غضب الله وعقابه على مَن يَتعدّى حدود شرعه وحكمه، وهو كذلك يتّقيه بأن يدقّ الحذر في عمله ألاّ يُقارب تلك الحدود لئلاّ ينـــزلق نحو الوقوع في المعصية لله الحرام ولا يدنو من غضب الله ويتداعى عليه سوء العواقب. فأولئك الذين مازهم هذه الـــصفات إيمانـــاً وتقـــوى وخشوعاً هم – دون غيرهم – الفائزون السابقون سائر المتنافسين في مقامات الفلاح الممتازون بأعلى درج النعيم والرضوان من الله.

﴿وَأَقْـــسَمُوا باللَّـــه جَهْـــدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لاَ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٣)

ســـبق القول أن المجتمع المسلم الجديد في المدينة كان مبتَلىً في استواء صدق إيمانه لتعرّضـــه في ســـياق طاعته لله ورسوله أميرِ سلطان المدينة في أحكام القضاء في ذات الـــبين، ابتلاءً يستدعى القبول والاستسلام حيثما بدا الحكم ولو مضى مُحقّاً لدعوى الخـــصيم، وفي أوامر الخروج دفاعاً عن طمأنينة الدار وسلامة النفوس وأمانة الأموال واســـتعزاز السلطان للمؤمنين وجهاداً في سبيل الله ومدّ دعوة الإسلام الحقّ في الأرض وابتغاء لبشائر وعد الله للمجاهدين. وفي هذه أيضاً يتمايز المؤمنون الصابرون المجاهدون عن المنافقين الذين كرهوا القتال وآثروا حب أمنهم هم المباشر العاجل على الاستجابة لنداء الجهاد في سبيل الله، رِيبة أو غفلة عن عاقبة الصالح العام للدار والمجتمع الذي هم فيه والخير في حياهم الدنيا كلها وآجلة حياهم الأخرى.

هـــم – مـــثل ذلك الفريق الذين أبرزهم ومازهم قولهم في طاعة الله والرسول لما كـــشف فعلـــهم بَعداً عن نفاقهم – مازهم أن أقسموا بالله جهد أَيمانهم، بأبلغ الحلف

مـــرائين لـــيعظّموا صدقهم المُدَّعى لأنهم يدركون ارتياب المؤمنين بهم، مؤكّدين: إنْ أمـــرهم الرســـول ﷺ – المخاطـــب بهذا البيان والأمير الذي يتولّى استنفار المؤمنين وتحريــضهم على الخروج للجهاد من ديار الوطن إلى مواقع القتال في سبيل الله – لئن أمـــرهم ليخـــرجنّ قطعـــاً. الوصية للرّسول في الآية أن يقول لهم في ذلك الشأن ألاّ يقسموا، فلا حاجة للقسم، فالطاعة الأتمّ لأمره لا تقصُر على التعهّد قولاً بالخروج بل الخـــروج فعلاً عند ساعة النفير لعين واقعة الجهاد. أن يصدع لهم بكلمة الحق النّاجز: طاعـــةٌ معروفةٌ، 'طاعة' كلمة مطلقة نكرة تعني فَعلةَ اتّباع للأمر بالخروج سُنّة معروفة قبولاً وتجاوباً لذلك الطلب كما اعتادها الناس لا قولةَ وعدٍ بالخروج قد يُخلف قائلها إنجـــازه فعـــلاً فتصبح قولةً منه منكرة لا يحقّ لها المعنى المعهود. ثم يذكّرهم الرسول بما يـــتلوه عليهم من ختام الآية: إن الله خبير بما يعملون، هو ﷻ ذو اطلاع وإحاطة بالغة وراء وعـــد خروجهم بخبر نياتهم المطويّة في نفوسهم صدقاً أم كذباً ثم فعلهم نَجزاً أم خُلفاً.[1]

﴿قُـــلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ (٥٤)

لـــيمض الرسول ﷺ مُذكّراً لرعيّته عامّة بالمعروف مخاطباً لهم آمراً أن يطيعوا الله والرســـول، صـــدقاً مفعولاً في أمر حكومة قضاء أو نفرة جهاد أو أمرٍ عام في سلك الحـــياة، مـــضيفاً لهـــم خطاباً من الله لهم إن رتّبوا على ذلك الأمر أن يتولّوا معرضين مـــتولّين عن التجاوب بالطاعة والاتباع بالفعل الناجز، فإنما عليه هو أنه رسول حُمّل مـــن التكليف ببلاغ الأمر قاضياً بحكومة أو مستنفراً لهم محرضاً على الجهاد داعياً إلى الخـــروج في ســـبيل الله وأميراً ينظم المقاتلين وفعلهم، وعليهم هم ما حُمّلوا من لزوم الطاعـــة والخـــروج إقبالاً على القتال وتذكّر المسئولية عن ذلك حساباً فأجراً من الله جـــزيلاً على المجاهدة أو وزرا ثقيلاً للتخلّف. وليضف لهم الرسول تالياً تمام الوحي في الآيـــة: إنهـــم إن يطيعوا الرسول مسارعين إلى الخروج قادمين إلى القتال صابرين على بأســـائه يهـــتدوا إلى ما هو حقاً خير لهم حياة في ديارهم آمنين وفي دنياهم بخير على

(١) في القسم وعداً بالخروج للجهاد نفاقاً: راجع الآية ٤٢ سورة التوبة.

هدى وبركات وفي دارهم الآخرة حياة خيراً وأبقى، وأنه ما على الرّسول في تكاليف رسـالة الدين الموحاة ممّا يُحقّ عليه مسئوليةً - بعد اتّباعها في نفسه - إلا البلاغ المُبين الذي يوضح لأمّة خطابه علم ما كتب الله عليهم وما يزكّيهم من طاعة أمره، يذكّرهم في آجلة الحساب والسؤال ببُشرى عاقبة الولاء والوفاء الصادق هدى إلى الخير العاجل والآجل وبنذير عاقبة التولّي عما يصدّق شهادة إيماهم بالله ورسالته من العمل الوفاق القويم، وتلك النذارة ومحذورها معنى مطويّ ذكره في الآية لكن توحي به البشارة للمؤمنين بأن الطاعة تُورثهم الهداية إلى الحق والخير.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا منْكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ في الأَرْض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ منْ قَبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ منْ بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَني لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأُولَئكَ هُمُ الْفَاسقُونَ﴾ (٥٥)

مهما تكن في مجتمع المسلمين بالمدينة بطانة نفاق وليجة في جماعة المؤمنين، تبدو عليهم شواهد من مزاعمهم قولاً بصدق إيماهم وطاعتهم لله والرّسول ومن مواقف لهم متذبذبة أن شقّ عليهم وقع الأمر في قبول حكومة لقضاء الرّسول أو طاعة لأمره بالخروج للجهاد بأن تفتنهم غاشية ارتياب وخون - مهما تكن تلك الظاهرة في طائفة فإن في الجماعة سواد من الذين آمنوا وصدّقوا إيماهم بعمل الصالحات وتقبّل التكاليف مهما يُبتَلون بغاشيات من كره في قضية احتكام لشرع الله وأمر رسوله أو في نفير خرجة للجهاد. إنهم يخرجوا للجهاد غير متّاقلين ولا زائغين من تكاليفه ولا مفتونين حرصاً على الحياة في الدنيا وحذراً من الموت. أولئك - من بين المخاطبين عامّة - جاءت هذه الآية تبشّرهم بوعد من الله هو النّاجز حقاً، وعداً حقّ لهم بكسبهم من الإيمان والصلاح سنةً من الله مشهوداً عليها في سابقات العبر.

فالوعد من الله أولاً: ليستخلفنّهم في الأرض، خلافةً لأقوام كانوا في ذلك الحاضر ولاةً غالبين في الأرض ممّا يلي دار المؤمنين، ويتّسع بهم مدى الاستخلاف كلّما تعزّز وتزكّى كسبهم في الدين. ذلك كما استُخلف الذين من قبلهم ممّن بلغهم نبأهم ويرون أثرهم من بني إسرائيل قديماً إذ وعدهم الله وكتب لهم الأرض المباركة شمالاً لأنهم

فُـضّلوا على العالمين ديناً، ومن يرونه بعدهم مستخلفاً في الأرض عزّاً شرقهم وغربهم بحكـم الله في تداول الأيّام بين الناس في خلافة الأرض، رُوماً فيهم بقية دين أو فُرساً كان فيهم خير لكنه مبتوت من الدّين الحق.

والوعد – ثانياً – يوالى لهم البشرى: أن لَيُمكننّ لهم الله دينهم الذي ارتضى لهم ليترسّـخ راسياً في نفوسهم متجلّياً متصدّقاً في واقع حياتهم محفوظاً في تراثهم، لا دين أمـة من آبائهم ابتدعت ديناً غير الذي يرضاه الله وصاروا به في جاهلية شركٍ وفُجُور وكفـر بالغيب الحق ضيّعوا بها ملة إبراهيم الحنيفيّة المرضيّة، ولا دين أمة أهلِ الكتاب الـذين ضـيّعوا أصوله الحقّة وبعّضوه ونسوا كثيراً من هواديه فغشيهم الكفر والظلم والفسوق وشاب اعتقادهم شرك فضلّوا عما يُرضي الله. أولئك كلهم أيامُ استخلافِهم في الأرض دائلة إذ لم يتمكّن فيهم دين الحق المرضيّ من الله.

وتـبارك مدى الخير الموعود من الله للمؤمنين الصالحين أن ليبدّلنهم حقّاً من بعد خـوفهم في المديـنة وحولها لأنهم في معزل بين أقوام حولهم ينكرون دينهم ويتداعون عليهم ليتخطّفوهم – يُبدّلهم أمناً إذ تمتدّ دارهم ويتسع مدى الموالاة لهم وتكفّ بعض الأقـوام أيـديَهم عـنهم ويغزون هم أقواماً يأخذونهم مثل بني المصطلق الذين وافت غزوتهم تنـزّل هذه السورة – هكذا يدفع الله عنهم ثائرات العدوان في الجزيرة العربية وينبـسط السلام في قابل مدود من أمّة الإسلام وارثة أمم الأباطرة والأكاسرة وخالفة أولئك السلاطين الطغاة الذين كانوا يُلقون الرّهب على ناشئة دار المسلمين الأُولى.

وإنمـا كان لزاماً أن تبقى صفات الإيمان والصلاح التي جعلت أمة الخطاب بهذه الآيـة أهلا لتلقّى هذا الوعد المتبارك مداه رفعاً لواقع حالهم، أن تبقى بل تتزكى تلك الأهلـية لـتوافي تبارك استنجازهم من الله ذلك الوعد المتمادية أبعاد وقعه المستقبلة. وذلـك، كمـا يخاطبهم الله – شرطاً في استمرار الأهلية وترقّيها تزكّياً – أن يعبدوه، يـوحّدون كـل تـوجّه حياتهم بشعابها كافة عبادة له حمداً وخشوعاً وطاعةً وتطهراً خالـصاً مـثالاً لملّة الحق الحنيفية وخلافاً للملل الأُخرى التي بدّلتها وجانبتها شططاً. ويـؤكد الله عليهم ذلك ألاّ يشركوا به شيئاً – روحاً مظنوناً أو ولداً مفترى أو صنماً مقدّسـاً تزلّفاً إلى الله أو مخلوقاً في ظواهر الكون موقّراً بأوهام أو بشراً يُتعبّد وليّاً من

دون الله، أو مقصداً متّخذاً غايةً عُليا لأهواء الحياة - ذلك كما كان شركاً معهوداً في معــتقدات آبائهم ولدى أُمم أخرى مختلفة حولهم. ومَن كفر - بعد ذلك الدين القيّم المحــقّ لأهلــه دفع مدّ الاستخلاف والتمكين والأمن، وذلك ردّةً إلى جاهلية الإشراك العــربية أو ضِــلّةً إلى مــذاهب الإشراك الأخرى لدى أكثر أهل الأرض - مَن كفر كــذلك أولــئك هم - الأبعدون عن الاستقامة - الفاسقون، المنسلخون من حدود الإسلام الحق فمن إطار الولاء في أرضه التي تمتّن وتمكّن فيها.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦)

وتُــضاف الوصايا في هذه الآية تُعزّز أمر أولئك الموعودين من الله بالخير المتسع الوجــوه، أن يستمرّوا في صلاح حياتهم العابدة لله مبشّرين. وذلك بأن يُقيموا الصلاة قــوام مــا بيــنهم وبين الله تعبيراً عن إيمان خالص وتوحيد خاشع وطاعة لله وتأسّياً بالرســول ﷺ، تقام لأوقاتها موصولة وتؤدى بأركانها متكاملة شعيرة أذكار وركوع وسجود وأوضاع متخشّعة وصفّها المرصوص وإمامتها مما يُعلّم نظام القتال. وأن يؤتوا الــزّكاة نظــام ما بينهم تكافلاً بين ذوي السعة والفقراء يطهّرهم من فتن المال والفقر ويوثّق بينهم حبل الإخاء ليبلغ المجتمع المدى المنشود في عدالته ووحدته وفي قوّته جهاداً بالمــال. وأن يطيعوا الرسول إمامهم الذي يُوحى إليه هدى الشّرع من الله وأميرهم في نظــام ســلطان الجماعــة وقضائه ودفاعه إزاء القوى والسلاطين الأُخر. ذلك لعلهم يُرحمون فيتلقّون من الله بعد هدايته - التي يرعونَها حقّ رعايتها فيستقيمون بها - فضله في بشائر رحمته المتّسع المتضاعف بفيضِ رحمته التي وسعت كل شي.

﴿لاَ تَحْــسَبَنَّ الَّــذِينَ كَفَــرُوا مُعْجِــزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٥٧)

وإن كــان القائمــون واقعاً حول المسلمين ودارهم لهم مدٌّ ثقافة كفر وسلطان طغــيان، وإن كان المسلمون المؤمنون حقاً - المخاطبون - ما يزال ينتابهم الخوف من أولــئك ويراودهم الظنّ بقوة لهم عليا على كل مناهض، فإن هذه الآية تأتيهم تذكيراً وإضافة لكلّ ما مضى من ذكر البشائر ونبأً له مستقرّ حق ونفاذ ميسور من الله القاهر الغلاّب: لا يحسبنّ المخاطَب بذكر الله، نهياً له مؤكّداً - لا يحسبنّ الذين كفروا، مهما

يكونـــوا الـــيوم ظاهرين في الأرض مُعجزين فيها، تَعجز كل قوة أن تحيط بهم أخذاً وإهلاكـــاً، فأقدار الله قاهرة على عباده ورحمته تمدّ المؤمنين منهم الصالحين، ولله عاقبة الأمور، وتلك بشارة للمؤمنين بنصر عاجل طُويَ ذكرهُ هنا فقد مَضى وروده في وعد الاســتخلاف، ولكن تمضى الآية فتضيف نذارةً بعاقبة آجلة للذين كفروا: مأواهم في الآخرة النار وبئس المصير ذلاً وشقاءً خالداً.(١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذنْكُمُ الَّذينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ منْكُمْ ثَلاَثَ مَرَّات منْ قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحينَ تَضَعُونَ ثيَابَكُمْ منَ الظَّهيرَة وَمنْ بَعْد صَـــلاَة الْعـــشَاء ثَلاَثُ عَوْرَات لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَـــيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْض كَذَلكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآَيَات وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ منْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذينَ منْ قَبْلهِمْ كَذَلكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاته وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ﴾ (٥٨ – ٥٩)

مضت أنفا آيات تذكير وإيحاء متواتر بطاعة الله ورسوله في سياقات الحياة العامة الـــتي يـــنظمها أمـــر السلطان، حيث تجرى مشهودةً إجراءات المداعاة والاحتكام في الخصومات بين الرعايا وتقع من ثَم الحكومات قَضاءً فيها، وحيث تحدث في العلاقات السلطانية مع قوى أخرى خارج دار الإسلام خياناتُ عهودِ مسالمةٍ أو حياد ومبادرات عدوان فيحقّ الدفاع وتصدر لأجله أوامر السلطان بالخروج والحشد إلى الجهاد. ومن قـــبل تلك الآيات سبقت أخرى تذكّر بآيات الله المشهودة في طبيعة الكون يبين فيها للمتبـــصّر مـــن بـــني الإنسان اعتبار بداعي الخشوع لقدر الله واستيقان عليائه صلاة وتـــسبيحاً لـــه خالقاً وناظماً وشكراً له منعماً. ومن وراء ذلك في ترتيب آي السورة ذُكر نور الله مركز ضياء واحد يدعو المهتدين إليه ليخلصوا له وحده بالذكر والعبادة. وأول آيـــات الـــسورة كانت هوادي في الحياة الخاصّة لعلاقات النكاح بين الذكور والإنـــاث ومجاهدة فتنة البغي فيها وكذب الشهادة والإفك في الكلام فيه. وكان ذلك المـــساق كلـــه في آي السّورة تذكيراً بتوحيد الله فاطراً ومصرّفا لكل الوجود المخلوق

(١) في الكافـــرين ذوي القوّة ما هم بمعجزين في الأرض لله ناصر المؤمنين: راجع الآية ٥٩ سورة الأنفال، والآيتين ٢ و٣ سورة التوبة.

وهادياً لحياة الإنسان. فذلك هدى متوال لتكون الحياة كلها متصوّبة خالصة عبادة لله وطاعة لما شرع وما بيّن رسوله، لا تفتنها شهوات الذكورة والأنوثة ولا ما تدعو إليه، ولا تغشاها غفلة عن استقبال وجهتها القويمة إلى الله، ولا يقصُر بها التعلّق بظاهرة العالم المشهود دون الغيب بل يرى الإنسان آيات الله ودورة مشاهدة الطبيعة آيات لدورة الحياة الدنيا إلى الأخرى، ولا تلهيها فتن المال والمتاع بل تزداد بالكسوب شكراً لله. ثم الحياة أيضاً دفعٌ متناصر لا يقتصر هداها على علاقات الحياة بل يتّصل في الحياة العامّة وينتظم طاعة لإمرة السلطان، بل يندفع سيرها مُجدمعاً، تجتمع مشاعر كل نفس واحدة وأقوالها وفعالها مهديّة لتوحيد الله وجهه واحدة في المسير وعبادة له، وتتوحّد كل مساعي المجتمع وأعرافه، مستقيمة القصد في عاجل الدنيا هادفة إلى آجلة المصير في الآخرة.

والآن يرجع تالي الآي من السّورة ليُتمّ مدى الهدى شاملاً جامعاً للحياة، بأن تبين معالمه حتى في حرمة الحجرات الخاصة في بيوت الأسر، وبما يعني الصغار حيث يتربون هناك سنين يتعلّمون الانضباط بدقائق الهدى والرّعاية لحرمة الأعراض الزوجية وخصوص مأوى الوالدين ويتزكون بآداب الاستئذان في الدخول عليهما في أوقات الحرج، وذلك ليتأهّلوا للحياة العامة بعداً انتهاجاً لسنة التّقوى حتى يبلغوا الرشد وتنضج فيهم دواعي المراعاة لحدود الهدى في الحياة حيثما خاضوا فيها. وكذلك يتربّى ويتزكّى الذين ملكتهم الأَيمان موالي في بيئة البيوت الخاصّة يتعلّمون رعاية حرمة الحياة الخاصة في مجتمع الإسلام الجديد عليهم حتى يُكاتبوا مواليهم بعداً ليبلغوا الحرية والمسئولية الراشدة في ذلك المجتمع، لا تُستغل من بينهم الفتيات للتكسب إكراها على البغاء. ويمضي الآن كذلك كل الآي ليتكامل بيان الهدى في ظروف أوضاع خاصّة وأحوال رخصة لبعض الناس يُرفع فيها عنهم الحرج ألاّ يتمّوا حدّ الالتزام بكل ما سبق ذكره من تكاليف في الحياة الخاصة، فالقواعد من النساء لا يفتنّ الأبصار لعمرهنّ وعجزهنّ فلا جُناح عليهنّ في مدى التستّر بالثياب السابغة مثل مَن دونِهنّ من النساء. وكذلك في تكاليف الحياة العامّة التي تنظُمها أوامر السلطان المطاعة، ففي بعض الأحوال تستدعي الطاعة تحمل مشقّةٍ وعُسرٍ ما هو في سعة كل الناس، مثل الخروج

جهــاداً بقوّة ونشاط مسارع استجابة لنداء النّفير والانتظام في مقاعد القتال وتدافعه، فليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج في التخلّف عن الخروج للجهاد. وكذلك يرتفع الحرج في تعاشر الناس ذوي القربة والصحبة تداعياً عفواً إلى معروض الطعام في بـــيوتهم وأكلاً جميعاً أو أشتاتاً على أن يرعوا في القدوم والدخول إليها أدب الاستئذان والتحيّة.

فمفتـــتح هذه الآية نداء وتنبيه خطاباً للذين أمنوا ونصيحة آمرة: ليستأذنْهم الذين ملكـــت أيمانهم موالي والذين لم يبلغوا الحلم فالرشد من صغارهم هم، ثلاث مرات في دخـــول مأوى المضاجع: من قبل صلاة الفجر فما يزول ذلك من مدّ الليل سكناً فيه صـــحبة النساء في ذلك المأوى وربما مباشرتهنّ فلا مجال لاقتحام المدخل هناك ولو من هـــؤلاء الأدنين لخصوصية الحرمة البالغة، وحين توضع الثياب خلعاً من الظهيرة قيلولةً فـــيها خـــصوص يبتغى كذلك دقيق رعاية وتقية، ومن بعد صلاة العشاء فعندئذ يخلو الأبوان في مأواهُما بثوبها الخاص ممّا يبتغى كذلك الحذر في الدخول عليهما. كل ذلك مـــن الأوقات يستلزم الاستئذان أولا ليتهيّأ مَن في الخلوة لاستقبال الأطفال أو الموالي مهمـــا تكـــن صحبتهم هي المعهودة المتوالية. وتلك ثلاث عورات قد تبدو عندئذ لمن يدخل فجاءة فيطلع على المعاري. ليس على الذين آمنوا الأزواج - الذين يخاطَبون - ولا علـــى أطفالهم ولا مواليهم حرج أو ميل إثم بعد تلك الأوقات حيث يجوز لهؤلاء الدخـــول العفـــو، فهـــم طوافون على الأزواج وكل حياة البيت صُحبة يطوف فيها بعـــضهم على بعض توالياً لتبادل الخدمات والمعاملات الأسرية لاسيما من أجل إكرام الكبار.

كذلك بتلك المعاني يبيّن الله للمخاطبين الآيات الدلائل من الله في أقوم الأحكام تهـــديهم إلى ارشد المسالك في الحياة، والله عليم حكيم، بالغ العلم واسع الحكمة حول مـــشاعر عِـــباده وظـــروف خصوص حياتهم وقريب صحبتهم في البيت وخير النظم لحركتهم وتزكّيهم في شتّى الأوقات.

ويستمر الخطاب أن إذا بلغ أولئك من أطفال الذين آمنوا الحلمَ والرّشد فلْيدخلوا في سياق تكليف سائر البالغين رعاية للحرمات فلْيستأذنوا في الدخول إلى البيوت فإلى

الحجـــر الخاصة كما استأذن الذين من قبلهم بلوغاً، سنّةً معروفة وعملاً بما سبق بيانه مـــن لزوم الاستئذان لمدخل البيوت للآخرين. كذلك - أيضاً موالاة في إبلاغ الهدى في أمور خصوص ما بين الزوجين وحرمته - يبيّن الله لهم آياته، خصّها هنا بالنسبة إليه بعـــد أن ســـبق في الآية السابقة وآيات أخرى ذكرها نكرة أو معرفة لكن غير مضافة إلـــيه ﷻ، وذلك تكليفاً للتعبير عن ذكر هديه ليقصه حسب عمومه أو تشعّب وقعه وفـــق دقـــيق علمـــه ﷻ وحكمته والله عليم حكيم، بليغ العلم والحكمة في تنـــزيل أحكامه حسب مختلف أحوال عباده.[1]

﴿وَالْقَـــوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦٠)

والقواعد من النَسَاء عَجزاً بعد طول العمر عن رعاية الولد الدّاعي لنشاط وعسراً للحـــركة المتوالية على الجسد، اللاتي لا يرجون نكاحاً حسب تضاؤل رغبة النساء مع الكِـــبر وتـــزهّد الرجال في الإقبال عليهن إذ تجاوزنَ أوسط العمر وذبل فيهن الجمال الجـــاذب، فهـــنّ لا يعرضـــن الرجال لكثير فتنة، فليس عليهنّ جناح - يُميل عليهنّ المؤاخذة - أن يضعنَ ثيابهنّ السابغات الساترات أطرافهنّ أو أعلاهنّ، شريطة أن يكنّ غـــير متـــبرّجات بزينة متعمّدات يظاهرن بها تزيناً لجذب شهوة الرجال وفتنهم رغم كبرهنّ. وأن يستعففن عن التكشّف والتبرّج الفاضح الهادف لدعوة الفتنة خيرٌ لهنّ في الـــسلوك مـــع الرجال. والله سميع عليم يحيط بكل ما يَصدر منهنّ ولو كلاماً للرّجال يخضعنَ فيه أو حركة مصطنعة للفتنة مما قد يحدث إثارة لافتتان الذكور. والقواعد لهنّ عـــبر العمـــر كـــثيرُ معلومٍ وناضجُ تجريب واعتبار فمن الخير لهنّ - بحكمة الله - أن يبسطن علاقتهنّ بالناس غير متحفّظات كثيراً في مظهرهنّ ولا منصرفات لابتغاء إفتان لـــيُؤتين مـــا عندهنّ من علمٍ وحكمةٍ ويَلقين ما يحقّ لهنّ بذلك أجراً عند الله وتقديراً واحتراماً عند الآخرين.

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَـــى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

---

(١) راجع في ذات السورة الآيات ١ و١٨ و٣٤ و٤٦ و٥٨.

إخْـــوَانكُمْ أَوْ بُـــيُوت أَخَـــوَاتكُمْ أَوْ بُيُوت أَعْمَامكُمْ أَوْ بُيُوت عَمَّاتكُمْ أَوْ بُيُوت أَخْوَالكُمْ أَوْ بُيُوت خَالاَتكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتَحَهُ أَوْ صَديقكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُـــوا جَميعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسكُمْ تَحيَّةً منْ عنْد اللَّه مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآَيَات لَعَلَّكُمْ تَعْقلُونَ﴾ (٦١)

هـــذه آية تُتمّ ذكرَ أحوال الرّخصة ورفع الحرج، فقد سبق ذكر أحوال الأطفال والموالى لأوقات في شأن حرمة أرباب البيت الكبار والقواعد من النساء في شأن الثوب الـــسابغ، وهـــذه في الحياة العامة وتكاليف الجهاد. ليس على الأعمى حرج – ضيق مـــؤاخذة أو تأثيم – ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج، في أمر الاستجابة الواجـــبة لأمر الخروج فالاحتشاد فالبروز إلى لقاء العدو في موقع القتال. هكذا فصّلت الآيـــة ذاكـــرةً رفع الحرج لكل منهم صراحة وذلك لاختلاف العلّة التي يحقّ بها لكلٍ الـــتخلّف! عمىً عن رؤية تمايز الصفوف وتبيّن الوجوه العادية وثغور مقاتلهم واتقاء وقـــع أسلحتهم، أو عرجاً يعوق حركة التحيّز والتحرّف وخفاف حركات المعاركة والمـــسارعة في إدراك العـــدوّ ومباغته ولحاقه إن ارتد فاراً، أو مرضاً يعجز عن القيام والمـــصابرة على بأساء الخروج نصباً وظمأ ومخمَصة وعلى مشادّة المقاتلة. وذلك يعني جواز التخلّف دون تحرّج من الملام قصوراً عن مساوقة دفع الجماعة نحو الجهاد أو من الرّمـــي بالتّثاقل والانخذال دون الجهاد في سبيل الله، ودون استئذانٍ كان معهوداً بين أصـــحاب الرســـول اعـــتذاراً إذا نادى هو للجهاد حيث يقتضي الأمر طاعة معروفة واستجابة مسارعة ولا مرجع بعدها بالتعذر.(١)

ذلـــك رفع الحرج في الخروج للقتال، لأمر جامع ذي خطير وقع في الحياة العامّة. ولكن يتّصل الذكر في هذه الآية أنه يرفع الحرج أيضاً في أمر يقتضي استئذاناً أو دعوة يـــستجاب لها وهو أكل طعام الآخرين من بيوقم إن كانوا هم أخصّ قربى للمرء. فلا حـــرج علـــى خصوص أنفس الذين آمنوا – مُخاطَبين – أن يأكلوا عفواً من بيوقم الخاصـــة حيث لا تمايز بين حظ الزوج أو الولد كلهم شركة وصحبة لأسرة في البيت فهـــم ســـواء لكلٍّ أن يتناول عفواً ما يصادفه من معروض الطعام لا يستطعم أحدهم

(١) راجع الآية ٩١ سورة التّوبة، وانظر الآيتين ١٦ و١٧ سورة الفتح.

الآخـــر. ولا حـــرج أن يأكلوا من بيوت آبائهم لأن الأبوة فيها خصوص علاقة مبرّة ووشـــيجة سماحـــة وإحسان بالغة. وكذلك في بيوت الأمّهات لأهنّ كالآباء وأخص وأرحـــم وأعطـــى عفـــواً للولد منذ الرضاعة. وكذلك لا حرج في الأكل من بيوت الإخـــوان والأخـــوات لأهم مع الآكل شركة دم ومعاش خاص. أو الأكل من بيوت الأعمـــام والعمّات والأخوال والخالات، فهؤلاء كذلك جنب الآباء والأمهات أقرباء خـــواص مباشرون. ولا حرج في الأكل من بيوتِ ملك المرءُ مفاتحها لأهٔا وكالة عن أصـــحابها أو ولاية لأهم مَوالٍ له ملّكوه مفاتحها وتَركوها له أمانة خاصة مباحة له أن يدخلـــها وبالتالي أن يأكل منْ أيّما طعام معروض فيها. ولا حرج كذلك على الآكل مـــن بـــيت صديق بليغ المودّة والخصوصية، بينه وبين المرء عهد موالاة وتعاط سمح في الطعام وربما إيثار. والسّعة في الأكل العفو من بيتِ الصّديق والبيت المملوك مفاتحه لا يمتد للأخذ إخراجاً من ذلك الحوز مأكولاً إلا بإذنَ طبعاً. وفي تلك البيوت ليس على الـــذين آمنوا – ما جاز لهم الأكل عفواً دون استطعام – أن يأكلوا مع أصحابها جميعا متحلّقين حول الطعام – وتلك سنّة مباركة كصلاة الجماعة الأفضل، أو يأكلوا أشتاتاً متفرّقين مقاعدَ أو أواني أو مبادرة من أحد دون الآخرين بالبيت.

فـــإذا دخلوا بيوتاً من تلك فليسلّموا على أنفسهم، إذ هم وأصحابها بعضهم من بعـــض بمنـــزلة النفس قربى، فليؤدوا السّلام تحية – دعاءَ دَفعٍ للحياة من عند الله تُلقى على الآخر مباركةً متكاثرٌ فيها رجاء الخيرِ طيّبةً يحسُن فيها القول ووقع التلقّي.

كـــذلك مـــن المعاني المنظومة السّابق ذكرها – يبين الله للذين آمنوا – مخاطَبين بالآيـــات دلالـــةَ علومٍ وحكمةٍ وهداية يمدّهم بها، لعلّهم – مخاطبين أيضاً – يعقلون، يـــزِنون دواعـــي القـــربى والحرج عند المعاملة في أكل الطّعام يضبطون الاجتناح فيها ويعدلون.

﴿إِنَّمَـــا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْـــتَأْذَنُوكَ لِـــبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٢)

إنمـــا المؤمنون – ينحصر ليحقّ الوصف لهم كذلك إذا كان الإيمان راسخاً عقيدة في قلـــوبهم آمـــناً – هم الذين آمنوا شهادةً بالله ورسوله ثم صدّقوا إيمانهم حقاً بالتزام طاعة الله ﷻ دون عصيان وإيثار اتّباع الرسول ﷺ وصحبته دون الخروج عليه، ثم إذا كانوا مع ذلك الرسول على أمر جامع – إثر أداء شعيرة صلاة الجماعة أو دُعوا لجمعٍ في جلسة شورى معه للقرار والعزيمة في أمر عام أو حضروا لقاء علم ودرس أو شهدوه لاســتماع خطــابٍ مـــنه أو بيان فيما يهمّ الجماعة أو انحشدوا في تعبئة للخروج إلى القـــتال – إذا كانـــوا في ذلك حاضرين إنما المؤمنون مَن لم يذهبوا منصرفين عن ذلك المجـــتمع أو المجلـــس أو اللّقاء أو الحشد حول الرّسول حتى يستأذنوه للخروج. أولئك المـــستأذنون يؤمـــنون حقاً بالله ويوقّرون رسوله إذ يحترمون ويحبّون حضرته وصحبته ويؤثرون ألا يفارقوها. ويُخاطب الرّسولُ أن إذا استأذنوه لبعض شأنهم – همّاً عارضاً يخصّهم يَودّون أن يذهبوا لتدبيره فوراً – فلْيأذن لَمن يشاء منهم ويستغفر لهم الله أن ربما يكـــون الذّهاب إلى شأنهم منصرفين عنه زلّة أن يقدّروا الأمر الجامع حقّ قدره، إن الله غفـــور رحيم، واسع المغفرة والرحمة لمن تتنازعهم بلاءات الهموم من الذين آمنوا ولو أخطأوا تقديراً لدواعي الأمر الجامع.(١)

﴿لاَ تَجْعَلُـــوا دُعَـــاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَـــسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣)

ثم الخطـــاب للذين آمنوا، نهياً ألا يجعلوا دعاء الرّسول ﷺ بينهم كدعاءِ بعضهم بعـــضاً: دعاؤه إلى جمع أو حشد لهم لا يحسبونه هوناً والانصراف عنه عفواً فيقدّرونه كمـــا يجعلون للتداعي بينهم لأمر، لا يجهرون فوق صوته داعياً يرافعونه بالقول كما يعهـــدون بينهم، ولا يدعونه مباشرين له باسمه كأنما يتنادون بينهم بالأسماء والألقاب. قـــد يعلم الله حقا الذين يتسلّلون منهم مارقين من الجمع والحشد الذي دعوا إليه عند

(١) في هـــدى الاجتماع للأمر العام مع الرّسول: انظر الآية ١١ سورة المجادلة. وفي هدى الاعتذار من الخـــروج للجهـــاد: راجـــع الآيات ٤٣ – ٤٥ سورة التوبة. وفي غضّ الأصوات عند المُجتمع بالرسول والصبر حتّى يخرُج لا يتأذّى مَن وراء الحجرات: انظر الآيات ٢ – ٥ سورة الحجرات.

الرسول فرادى لِواذاً يتخفّى ويتستّر المرء منهم لمخرجه لائذاً وراء غيره. فلْيحذر الذين يخالفــون عـــن أمر رسول الله هكذا شذوذاً عن حضور جمع أو احتشاد صف انعقد لدعـــوته لأمـــر جامع أو إعراضاً عما أمر به ليُطاع نافذاً أو خروجاً على سنة استنّها للـــناس – فلْـــيحذروا أن تقع عليهم عقب تلك المخالفة فتنة ضرٍّ لا تقصر خاصّة في مـــصيبتها على الذين ظلموا وعدلوا عن طاعة الرّسول المهتدى بأمر الله أو ينالهم عَيناً عذاب أليم في عاقبة الآخرة الآجلة.

﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٤)

هـــذه آية في ختام 'سورة النور' بعد بيان أحكام التكاليف التي كتبها الله هدىً للمخاطبين كافّة في آياته المتوالية وتذكيراً بالبشائر والنّذر التي تُصاحب التّكليف دوافعَ أو ضـــوابط لـــتقويم مسلكهم في الحياة عباداً لله آمنوا به وأطاعوا أمره فاستقاموا أو آخـــرين جنحوا إلى العصيان والفسوق، آية تعزّز معلم الحق في الوجود عن ربّ العباد الأعلى الذي يصرّف الأمرَ كله ويهديهم ويبتليهم – وعن ختام الحياة ويوم المصير لهم كافّـــة مخاطبين بالهدى: ألا إن لله ما في السماوات والأرض، فهو محيط بذلك ملكوتاً هـــاد لسيرته فآمر بقدره المطلق لا يخرج على قدره شيء، وهو الهادي للإنسان المسيّر لأقـــدار حـــياته وموته المخيّر له في مسلك حياته في إطار ابتلائه ضالاً أو مهتدياً، لا هادى له سوى الله. قد يعلم الله – مخاطبا عباده – ما هم عليه من حال بلاء ومن مذهب خيار سلكوه حياةً طائعة عابدة لله صابرة متوكلة في كل بلاء أو ضالّة كافرة أو منافقة تخالـــف وتَروغ عن أمر الله ورسوله الذي يبلّغ هديه. ولا ينضاف بيان لتفصيل الهداية مـــن الملكِ الحقِّ للوجود، فقد مضى في السّورة منه ما كتب الله، ولكن تقرّ لهم الآية صـــراحة الحـــقّ الموعود نذارة وبشارة لمنتهى الحياة الدنيا عند المصير في الآخرة: ويوم يُرجعون إليه جميعاً – يلقونه ﷻ فيُنبئهم بما عملوا إعلاماً بكسبهم في دنياهم لا يغفل عن ذرة شر أتَوه ولا يضيّع لهم ذرة خير قدّموه. الله بكل شيء عليم، بالغ العلم بكل شـــيء من كسوب عباده في الدنيا ممّا تدقّ به يومئذ شعابُ السؤال المُحيط وترجح به أو تخفّ موازين الحساب العدل وتحقّ به درجات الجزاء ودركاته الوفاق.

عموم المعاني (الآيات ٥٨ – ٦٤):

ســـورة الـــنور تُورد توالياً ذكر آيات الله العليم الحكيم بابتلاءات عباده وما هو أزكى لهم في الحياة. وفي خواتِمها تُتمّ هدى الإنسان تكتب له أحكاماً تقي مَن يقارب حـــدود التكالـــيف ألاّ يتداعى عنده التهاوُن عندها حتى ينـــزلق إلى التعدّي عليها أو ترفع الحرج حول تلك الحدود لتبسطَ مدىً من اليسر لمن يتعسّر عليه حسب وسعه أو يكـــون له داعٍ للترخّص ألاّ يجهد ليبلغ حد التكليف. فالصغير في الأسرة الذي لم يبلغ الحلم ليحتمل كل تكليف وليخشى عليه الافتتان، والمولى الذي ملكته اليمين فلا يُعدّ في البـــيت موالياً لصحبة مواليه وخدمتهم غريباً عرضة للافتتان إن بدت له زينة المرأة منهم – كلاهما طوّاف في البيت يعتاد لقاء البالغين لكن كتب عليهما وقايةً الاستئذان لـــئلا يـــدخل مأوى المَضَاجع حيثُ يُعهد التكشّف البالغ للثياب السابغة وربما تجرى مـــضاجعة، ذلك في أوقات المنام والرّقاد ليلا أو قيلولة، وذلك لئلاّ يتعرّض الصغير من صـــباه لتحسس الافتتان من مشاهد حسّاسة ولا المولى للغلوّ في حريته ليشهد أبلغ من معهوده في البيت. وكذلك القواعد من النساء تكليف اتخاذ الثوب وإسباغه كل حين يتعسّر عليهنّ ثم قد تضاءلت محاذر الفتنة في مشهدهنّ إذ تزهّدن وتزهّد الرجال إزاءهن في مشاعر الأنوثة والذكورة، فلا جناح عليهنّ أن يضعن سوابغ الثوب على ألا يُفرطن تبرّجاً بالزينة وأن يؤثرن الاستعفاف.

والأمـــر لا يقـــصُر على الحياة الخاصة في البيوت وحرماهّا، بل كذلك في الحياة العامّـــة وتكالـــيفها يعسر على الأعمى أو الأعرج أو المريض أن ينفر نشطاً مسارعاً اســـتجابةً لأمر الخروج من الرسول أو الأمير توجهاً إلي مواقع الجهاد. فالحَرج مرفوع عـــنهم لـــو صـــدر الأمر العام، دون استئذان. والأمر في الحياة الخاصة لا يقصُر على حُـــرُماتِ البـــيوت، بـــل طعامُ الآخرين له حُرمة لمن لم يُبح فيُتَح له ذلك بعد رجاء استـــضافة واستطعام أو تلقّى دعوةٍ فإذن له لمأكلة ضيف كريم، ولكن لا حرج دون ذلـــك في الأكل من البيوت لذوى القربى الدنيا والصداقة أو البيوت التي عليها ولاية حـــوز. وكـــذلك في الحياة العامّة متى يكن دعاء الرّسول أو ولى الأمر إلى مجتمع أو انحـــشاد على أمر جامع مما يستدعى الاستجابة وملازمة الحضور والصفّ المرصوص،

فأيّما مخالفة قد تعقبها فتنة تعمّ أو عذاب عين ولكن لا حرج في الاستئذان أو الانصراف لمن له شأن بعينه، وإنما الحرج في المخالفة والتسلل لواذاً للإدبار.

ومأوى المضاجع في البيوت مثل أبوابها والمآكل فيها كلها محارم لا تُدخل إلا باستئذان وتحيّة، والأُولى أخص، فدخولها أحدّ حذراً حتى للصغار والموالي الطوّافين داخل البيوت، وتلك حيطة ألاّ يتربّى الصغار ولا يجرؤ الموالي على دواعي الافتتان. وحرمة المآكل مثل المساكن الخاصة لا تُقتحم دون إذن إلا مَن استُثني ورُفع عَنه الحرج لقرابة أو صداقة. وتلك هي أيضاً تقيّة مما هو أخطر محذوراً ألا ينزلق الناس إن استباحوا المداخل والمآكل عفواً ليبلغوا انتهاك حرمة الأعراض والأموال هوناً. ولئن تيسر للكثير من الناس اليوم حماية البيوت وأبوابها بالحيطان والأغلقة الحاجبة وحصر الحجرات والغرف الأخصّ بما هو أحجب سدّاً فأصبح خصوص حياة الناس وأسرارها تحمى بسُتر فعّالة، فقد ضعف ما وراء ذلك من التقوى ألاّ تُرسل الأبصار تمتّعاً طلقاً بمشاهد الذكور والإناث خشية من الفتنة المتداعية. وقد صار ذلك اليوم إلى بلاء كثيف شائع، إذا ازدحم الناس في الحضر يتراءون كثيراً دون معرفة معهودة أو قربى تدعو إلى تواجه الناس بنظر عَفوٍ طاهرٍ أو تخاطُب يجري بينهم عفواً غير مفتون. ثم إن الزنى الذي تصدّر ذكره هذه الصورة وعُدّ كبيرة من الخطايا إذا أثبتتها بيّنة الشهادة المتضاعفة يُشدّد عليها العقاب قد أصبح اليوم ممارسة شائعة، إذ أصبحت الشهوات تطلق عفواً خيانةً على عقود الزواج أو مناكحة غير مشروعة حرة في عزوبة أو في سياق خِلّة أو مسافحة دون تعاقد مشروع يحفظه الوفاء. والدّيانات الكتابية كانت تؤصّل الحياة كلها على عقد الإيمان بالله وتبني عليه مواثيق سائر الحياة تجارةً أو تعاهداً أو مواعدة وأخطرها عقد الزواج الموصول وفاءه والذي هو قاعدة بناء الأسر خلايا المجتمع التأسيسية، وكذلك وقّرت الزواج أعراف بني الإنسان تقليداً مبسوطاً. لكن الديانات ضَؤل وقعها على مَن ينتمون إليها شِرعة مرعيّة وذلك غفلة عن هواديها في الكتب الموحاة وضوابطها ترهيباً وترغيباً في الغيب، وهانت رقابة المجتمعات بأخلاقها لحرمة الزواج. هكذا أصبح الزنى ظاهرة متكاثرة وكذلك مقدّماته من التناظر جهاراً مفتوناً والتخاطُب غزلاً واللقاء في خلوات والتكشّف في الثياب حتى قارب مبالغ العرية، غدا بعض ذلك اليوم ممارسة مستباحة في الملأ وظاهرة منتشرة.

ورفعُ الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض أصبح مقبولاً في أحكام السلطان إذ عمّـــت سياسة التجنيد جبراً عند تأزم محاذر الأمن ونُذُر الحرب بين السلاطين، وذلك للـــتدريب علـــى الخدمة العسكرية وعلى انتظام الانقياد لأوامر التحرك في قتال. وإنما كـــان الخروج إلى الجهاد مكتوباً في الدّين لا جبراً نافذاً بحكم القضاء أو أمر السلطان، بل دعوة ملحّة لتناصر المؤمنين صفوفاً دفاعاً عن دينهم ودارهم في وجه العدوان وسعياً بالأمـــوال والأنفس في سبيل ما أعدّ الله للمجاهدين والشهداء وخوفاً من غضب الله ومـــلام المجـــتمع على التخلف والفرار. والذي رفع الحرج عند ذوي العلّة كان درءاً للملام وعفواً من غضب الله.

وكـــذلك دعـــوة الرسول ﷺ - أو الأمير- لأمر جامع وهمّ حاشد لجمهور من الرّعية يستدعي الاستجابة واجتناب الانصراف بعد الحضور ولو تستراً ولِواذاً إلا بإذن، وذلـــك مـــن أدب المسلمين في المجالس والاجتماع العام وله أحكام أخرى في القرآن. والناس الآن عموماً من تكاثر الحضر وتكثّف الهُمُوم الجامعة للمجالس أصبحت تصدر فـــيهم أعـــراف نظام وأحياناً أحكام مرسومة حول كيف الدعوة والاستجابة ونظم انصراف الأفراد ونهج تداول الكلام. ولكن هدى الدين يؤكد التقوى في مراعاة ذلك ويعـــزز أيّمـــا لوائح مكتوبة أو أعراف معلومة. وفي أمر الاستئذان يُبسط للرّسول أو داعي الاجتماع أن يُؤتِي منه ما يشاء لكن قد يزوغ المرء مستأذناً من شهود أمر جامع لأمـــر يسير وسوء تقدير قدر الاجتماع لأمر عام ذي بال وذلك فعل يراقبه الله الغفور الرحيم. أمّا إذا كانت الدعوة لا لجمع بل للنفير إلى الجهاد فذلك أمر أخطر والحضور إليه شأنه أجلّ والاستئذان انصرافاً عنه قد يتقبّله الرّسول أو الأمير لكن التعذر عنه غير هيّن إلاّ أن يتقبّل الله توبة الخالفين عن الجهاد.

وفي خواتم السورة يتكرّر ذكر آيات الله المُنـــزلات عبر نظم السّورة، وذلك لأن هداياها تشمل الحياة كلها وتوحّدها مهديّة تقيّة على تذكّر الله وتبصّر نوره في الوجود المـــشهود الذي يراه المتبصّر كالصّباح المركّز الضّياء الوقّاد وتفقّه آيات دورة الوجود والمـــرجع إلى الله في ظواهر الطبيعة ورؤية أشيائها في صلاة خاشعة لأقدار الله الدّقيقة المـــوزونة التي خَلَقَ بها وصرّف كلّ شيء، وفي تسبيح لعليائه وسموّه على القدْر المحدود

لمؤلّهات الباطِل التي يتواضع عليها بعض البشر. وذلك النظر المتفكّر المتبصّر يوحي إلى الإنـــسان الـــسعي في حـــياته لإعمار علاقات الزوجيّة حمداً لفضل الله ورحمته عليه، ورعايـــة حـــصانتها والكفّ من الظنون والآفاك فيها تقوي الله، وكذلك الطاعة لله الهـــادي الـــشارع فللرسول أو الأمير الصادق التعبيرِ عن شرع الله في الحياة العامّة – حكـــومة قـــضاءٍ مرضيّة دون كرهٍ أو دعوةٍ للخروج للجهاد ملازمة للصبر والتوكّل والـــتقوى فيه أو لمجتمع لأمر عام حضوراً دون إعراض أو زوغ. فكل هوادي السورة تواترت تصل الحياة، لا تفاصل فيها بين الحياة الزوجية والبيتية الخاصة والحياة السياسية والقـــضائية والنظامـــية العامة ولا بين شهادة ظاهر الآيات المشهودة في طبيعة الكون والمعـــاني المدركة إحياء لفطره البصيرة والآيات المنـــزلة في الوحي، كله هدى من الله موصـــول متناصـــر إشـــهاداً وإلهاماً وتذكيراً للإنسان بالله الواحد. وإنما الإشراك هو الـــتعلّق – دونه ﷻ – بآلهة متفرّقة أرواحاً مقدّسه بالأوهام أو أشياء معبودة بالظنون، وهو لذلك تفريق بين دفوع الحياة، كل امرئ مشرك ينفتن بشعبة من أسبابها أو يتعبّد لغاية من همومها ممّا يقطعه عن التوجه إلى الله بالحياة كلها عبادة ابتغاء وجهه واستعانة به قديراً مدبّراً مصرّفاً لكل الأسباب.

وقـــد أصبح الشرك بالله أرباباً مقدسة أو مقاصد متفرقة في الحياة مصوّباً إليها – أصـــبح ذلك هو النّزع إلى تفاصل في وحدة الوجود وشعاب الحياة جنوحاً إلى الفصل والتفـــرقة بين عقائد الإيمان الوجدانية ومساعي العمل في واقع ظاهر الحياة، بين شعبة الإيمـــان بالله اعتقاداً موروثاً أو عن تصديق الوحي حقاً أو الإيمان بالله وشركاء دونه بمـــشاعر التأليه الوضعية وشعبة السّعي في الحياة المخطوط لأجل قريب لغرض موعود مقـــصود بأســـباب محسوسة في الأوضاع المشهودة. أو بين شعبة الحياة الخاصة شهوةً وحـــبّاً بـــين الذكورة والأنوثة أو حرصاً على خصوصية الحياة حصانة أسرة أو حرمة بـــيت أو ملك أو اتخاذ تلك المسالك بوحاً طلقاً بلا ضوابط تُتّقى وشعبة الحياة العامّة مخاصـــمات بين الناس ومحاكمات وتجمّعات بدواعي المشاغل العامّة وتصرّفات حول سياســـات للـــسلطان وأوامره. وبين فِرقة أهل الإيمان بالآخرة الذين يُفرطون رهبانية وخلـــوة وروحانـــية وزهداً في الدّنيا وفرقة إيثار حاضر الدنيا وعاجلها وآمالها اتباعاً

لرجائها كاتّباع السّراب وضرباً في مخاضات متاعها كالضرب الأعشى. وبين مذاهب التفكّـــر في دلائـــل ظواهر الوجود وفي أبعاد الرؤى النظرية ومذهب الانكباب على واقعـــيّة تحرٍ للغايات والأسباب الميسورة المشهودة والمجرّبة وتسخير قوى الطبيعة لجلب المنافع ودفع المضار دون نفاذ إلى مدى الغيب. ولكن دين الإسلام كما تهدي إليه هذه الـــسّورة هـــو توحيد الحياة القاصدة المتكاملة التي لا تجنح بالإنسان ليغلو مشركاً في الغيب مبغّضاً للحياة أو مشتتاً لمساعي المجتمع الإنساني.

والمـــذهب الماديّ الذي غلب اليوم في البشر ويغلب في التاريخ كلما نُسي الغيب وضَـــؤل التديّن إنما يقتصر على المشهود الحاضر والعاجل دون الغيب الموجود والآجل ويُخلّـــي لكـــل مـــن الناس همّه في الدنيا: شهوة زوجانية أو متاعاً وارتزاقاً أو سياسة وســـلطاناً وحـــرباً وسلماً أو هدى دينياً أو روحانية معتزلة أو ولعاً ولهواً بالرياضة أو الفـــنون أو نحو ذلك. ولعل غزارة البحوث والعلوم الطبيعية اليوم قد عزّزت الانكباب علـــى الدنيا عاجلها وظاهرها. ولكن النظر والعلم عن تبصّر وتفقّه في طبيعة المشهود يُجلّـــي فيها آيات من الغيب دلائل على الوحدة في أصل كلّ الوجود فيهدي إلى الله الخالـــق الناظم المصرّف الأعلى دلائل في تقلّب الموت والحياة وإخراج الميت من الحيّ والحـــيّ مـــن الميت شهادة بيّنة على دورة الوجود بعثاً للإنسان بعد حياته الدنيا هذه. فالإنـــسان مـــثنىً من الذكورة والأنوثة تتجاذب وتتزاوج وبأقدار الله يُنتج ولداً دماً مـــوحّداً وتتعاقب الدورة بسلالة الإنسان، أما في ذاته فهو من عدم إلى حياة إلى موت مسنون يسير نحو البعث لذات الإنسان في حياة أخرى. ويرى الإنسان الداوبّ تتزاوج وتتلاقح وتتعاقب في دورة الموت والبعث. ويرى الإنسان كذلك مادّة الماء وهي أساس الحـــياة، أحـــوالها تدلّ على خالقها وناظم أمرها في الغيب تجري في الأرض ثم تصعد سحاباً في السماء ثم تلاقح الرّياح غيومها ويُزاوجها برد الجوّ الأعلى فيخرج منها ودق ينـــزل ماءً ليعود صاعداً من بعد – دورة في الوجود بعد بعث الحياة اختلاطاً بالأرض الميِّـــتة ثم الجفاف والموت ثم بركة البعث العائد من جديد. ويرى الإنسان تقلّب الليل والنهار تُتوفّى بعضُ مداركه ليلاً ليسكن نوماً ثم ينبعث نشطاً ليضرب في الحياة نهاراً، وهكـــذا تتوازن الراحة والحركة، هكذا لينفذ من ذلك إلى آية وفاته الأبلغ موتاً وبعثه

مـــن بعد لتتوازن الحياة الدنيا والآخرة ظلماً واضطراباً لحين يعدله الجزاء المكافئ وفاقاً الخالد أزلاً. ولكن الإنسان في دنياه في خيار بين بين: إما تزكية الحقّ المفطور في نفسه تعزّزه آيات الله المطبوعة وتذكّره وتهديه آياته الموحاة فيحيا مؤمناً بالله والغيب والآخرة مخلــصاً موحّداً حياته وغايته أو يدسّ إلهام الفطرة ويعمى عن آيات الطبيعة المشهودة ويُعرض عن آيات الهدى الموحى فيضلّ ويكفر أو ينافق ويشرك بالله من دونه وينحصر في متاع دنياه.

هكذا تنختم 'سورة النور': إن لله ملك السماوات والأرض وهو يعلم سير الحياة الدنيا للإنسان في ابتلاءاته وكسوبه وإليه مرجع بني الإنسان كافّة فيُنبئهم بما كسبوا في دنياهم – ومن ثمّ يُعقب الجزاء والمصير في الحياة والدار الآخرة الخالدة.

سورة الفرقان

خلاصة هدي السورة:

تنـــــزّلت ســـورة 'الفرقان' قبيل وسط العهد المكّي للوحي، ثانيةً وأربعين في تـــرتيب الـــسور، وثالثة بعد سورة 'الأعراف'، حين أخذ مدى السور يتبارك توسطاً وطـــولاً بعـــد قصار السُّور الأولى. وهي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب كتاب القـــرآن كما استقرّ مصحفاً. واسمها 'الفرقان' لأنها تذكر الوحي فرقاناً منـــزلاً ولأن هـــديها جاء فرقاناً فاصلاً بين كلمة الحقّ في ذات الله الواحد الرحمن وفي علم الغيب وآجالـــه وفي أمـــر القرآن الموحى من الله لعباده مرتلةً آياته عبر بلاءات سيرة الدعوة رســـالة علم وهدى ونذارة وبشارة، وفي شأن عبد الله الذي اصطفاه ربّه ليقوم رسولاً علـــى منوال الرّسل السالفين حاملاً تلك الرسالة في أمانة ومجاهدة - فرقاناً بين ذلك والأقاويـــل الباطلة للمشركين المتّخذين دون الله معبودات مادية وروحية هي مخلوقات لـــه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عاجـــزة عن تصريف حالهم ومآلهم، والمرتابين بصدق الرسول يحسبونه يتلو علـــيهم الأساطير القديمة لا الآيات الموحاة من الله، والمستهزئين ببشريّته المطبوعة على معـــتاد المعاش المحجوبة عن الصلة بالغيب دون الملائكة وبزهادة ماله دون الكسب من مـــدد غيبيٍّ وافر، والمستنكرين ألاّ يُنـــزل عليهم القرآن جُملة واحدة من فيض الوحي ليفـــصلوا في أمره مرة واحدة. وفي السورة هدي فارق بين رؤية المتذكّرين النافذة إلى الحـــقّ المتجلّـــي في آيات الله المشهودة في ظواهر الطبيعة الكونية حول الإنسان - بين ذلـــك وغفلـــة ذوي النظـــر القاصر دون الدلالات الغيبية لتلك الظواهر ومنظوماتها

المتزاوجة والمغازي الأزلية لدوراتها المتعاقبة، فذوي العلم المحدود بوقعها المشهود وسُننها الـــراتبة، فأهل الهوى المفتون بمتاع الحياة الدنيا في إطارها الحاضر. وفي السورة فرقان واضـــح بين مذهب الذين كفروا من أمة الخطاب ومنهاج حياتهم كفراً بمآلات الغيب وســـاعة البعث والقيامة التي سيأتيهم يقينها وويل الحسرة والعذاب عندها - بين ذلك ومـــذهب عـــباد الـــرحمن المتّقين لله الواصلين حاضر حياتهم الدنيا بالأخرى الآجلة السالكين فيها نهجاً من الصبر على البلاء والذكر والصلاح قواماً في سبيل المآل الموعود في جنة الخلد حيث المستقر الحسن والمقام الرّفيع.

تـــبارك وتعالى الذي نـــزّل من لدنه وحياً إلى العالمين من عباده، رحمة وهدى في الحياة وفرقاناً بين الحقّ والباطل ورسالة يحملها رسول منهم يتلو عليهم الآيات ويكون لهـــم بها نذيراً من سوء المآل. سبحانه وتعالى الذي له ملك السماوات والأرض القيّوم وحـــده علـــى وجودها المصرّف لما فيها كما يشاء، وهو الغني بذاته القوي بقدرته لم يـــتّخذ ولداً، ليس بحاجة كعباده للولد ولا يحقّ في شأنه ما ينسب له ضلالاً عن العلم بالملأ الأعلى الذين جعلوا له من الكائنات الروحية بنات ولا ما يجعل له ولداً المفتونون بالمشهود لأنه يحمل رسالة من وحي غيبه. لا شريك لله يكافئه في الغيب مثلاً أو يعينه في تـــصريف الوجـــود المخلوق، ولا في الأرض آلهة كما يتوهّم المتعلّقون بما دونه من مخلوقاته يؤلّهونهم ويتّخذونهم أولياء لهم يقرّبونهم إليه وشفعاء إليه إلهاً أعلى. وقد خلق كلّ شيء فقدّره تقديراً محكماً تكوينه وتصويره ووقعه المنسوق في سائر الوجود. وهو الذي خلق الإنسان بحياة أحكم وإدراك أعقل وآتاه مشيئة مخيّرة في رؤاه وفعاله وابتلاه بفتون شتّى في حياته الدنيا بينما كلّفه بأحكام هادية يتلقّى علمها في رسالة موحاة من الغـــيب ليحيا مهتدياً أو ضالاً في دنياه لأجل ثم يموت ثم يبعث من بعد في حياة أُخرى يتلقّى فيها المحاسبة والمجازاة عمّا قدّم من كسبه في الأولى.

وحـــول بني الإنسان تتجلّى أقدار الله في الكون المطبوع المشهود، ويُخاطبهم الله أن يتذكّروا فيها آياته، فقد جعل لهم خيراً وذكراً ظلاً للأشياء القائمة يقع تحتها حاجباً مباشـــرة حـــرّ الشمس، ولا يسكن الظلّ مدىً ولا جهة بل يمتدّ طولاً ويتحوّل غرباً فـــشرقاً حـــسب مرّ الشمس المشهود الدوّار ويقبض قدر الله الظل يسراً مراحل مدّه

طوال الصباح حتى الزوال ثم العصر حتى المساء لحين يتلاشى بيان الظل والضوء درجاً إذ يغشاه الظلام بعد غروب الشمس. ومن ثم حمل الله لعباده الليل بظلمته لباساً ساتراً سكناً بعد الفتور من الحواس والحركة، والنهار جعله الله مجالاً للنشاط في الحياة وضُحىً للنشور والسعي في الأرض والمعاش وتلاقي سائر المجتمع. وهو الذي أرسل الرياح في آفاق السماء ناشرةً رحمة الله نَفَساً ورواحاً أو سائقة وقراً أصله من الماء الصاعد من الأرض إلى السماء إذا حمِيَ بخاراً وتكثّف كسفاً من السحاب المندلق بَرَداً وودقاً ساقطاً - السائل ماءً يتنزّل طهوراً من الدنس يغمر الأرض الميتة فيُحييها ويسقي الحيوان فيها وأنعاماً وأناسيّ كثيراً. هكذا يبسط الله وقائع طبيعة الكون محيطة بالإنسان متقلّبة بين الظل والحرور والسكون والحركة والحياة والموت كما يُنزل له رسالات الهدى من علياء الغيب يحملها ويبلّغها الرسل خطاباً لأمم من بني الإنسان، ليُحيي موات قلوب المفتونين منهم بالعالم المشهود وليهديهم بما يشرع لهم من الدين ليستقيم مسيرهم طوعاً في الحياة إلى الموت - كما يهدي الحيوان وسائر المخلوقات بأقداره التي تسيّر وجودها. وهو الذي مرج البحرين: هذا مدّ أمواج مختلطة لماء عذب فرات يجري في وديان الأرض صادراً من ينابيع مخزونها أو وارداً من غيث السماء المباشر المتبارك، وآخر ملح أجاج تمدّه نوازل الأمطار وروافد الأنهار وينابيع الأرض لكن يسكن ماؤه في منخفضه ويتعرّض مستصفاه للتبخّر فيبقى مالحاً غالبه. وجعل الله بين ذينك البحرين برزخاً وحجراً محجوراً من عوالي الأرض الفاصلة بين وديان البحار العِذاب الجارية ووهاد البحار الأُجاج المحيطة، ولبني الإنسان في كلّ نفع أخصّ، ويتمايزان إلا إذا تواردا عندَ مصبٍّ، وحتى عندئذ لا يعمّ تلقاء فور الاختلاط والاقتران الامتزاج الأتمّ بينهما، بل يتمايز ماؤهما دون تباغٍ لمدى حتى أسفل البحر المالح المورود دون أن تتأثّر عوالي العذب الرافد. وهو الذي جعل من الماء - المادة التي لا تنمو ولا تتكاثر إلا بإضافة مثلها ولا تتحرك إلا بجاذبية الأرض سيلاً نحو الأسفل - جعل منه بشراً حياً ينمو جسده بالغذاء وتتحرك جوارحه بإرادته، فجعل من البشر نسباً وصهراً توالداً بالتزاوج بين الذكور والإناث وتعاقباً عبر أقدار الحياة وسلالة الآباء. وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام من حقب الزمان إيجاداً لأصولها وتطويراً لها

وتـــصريفاً للعلاقـــات فيها، ثم استوى على عرش الربوبية لمخلوقاته تلك يدبّر أمورها ويـــصرّف في الأرض خاصة شأن الإنسان الذي جعل له حقبة يومٍ سابع يعيش حياةً دنيا بلاءً في ذلك الإطار من المخلوقات حتى الموت، وفي يوم القيامة الأزلي حياة أخرى هي عهد حساب على الأُولى فجزاء خالد.

ذلـــك هـــو الـــرحمن الذي تفيض رحمته نعمةً وفضلاً على الإنسان برحمة خلقه والتخـــيير لإرادتـــه وتيسير الحياة له بنعم مسخّرة له وهدايته بالوحي المُنـــزل وحلماً وصبراً في المدّ له في عهد البلاء حتّى للذين يضلّون عن الهدى ويعصون مقتضاه، ولطفاً ورأفـــةً في الجـــزاء يـــوم القيامة. وهو ﷻ الذي أبدى آياته مشهودة للإنسان في أفق الـــسماء بـــروجاً بـــارزة من النجوم وجعل في السماء ما هو أقرب وأوقع آية وأنفع للإنسان من الاهتداء بالنجوم في توجيه سَيره على الأرض وما هو أبرز حول الأرض: ســـراجاً هـــو الـــشمس مصدر الضوء للحياة والإبصار وقمراً فيه نور منعكس. وفي دورات تلـــك المـــشاهد ما يضبط تقدير حساب الزمان فاتخاذ الآجال المعهودة. وهو أيـــضاً الذي جعل بذلك للإنسان خِلفة الليل والنهار المتعاقبين، فتتقلّب الأرض حول الـــشمس ليبين ليل السكون ونهار النشور ويبين عدّ الأيّام، ويدور القمر حول الأرض ليبين عدّ الشهور. وتلك آيات كلها شواهد ودواع لمن أراد من بني الإنسان أن يذّكّر فـــيوض نعـــم الرحمن فيعرفه حقاً وأراد من ثمّ له شكوراً، وتذكّره آية الضوء والنور وتعاقـــب الـــزمان نعمة هدى الرحمن الذي يتنـــزّل عليه من أعالي الوجود يخرجه من الظلمات إلى النور ويبسط له الرحمة مهما يختلف في مسيره التقلّب خطّاءً توّاباً وحتّى تعقـــب الحـــياة الدنيا الوفاة الأبلغ من توفّي النوم ليلاً لأنها وفاة الموت ثم قومة البعث والحشر الأبلغ من نشور الصباح. ومن ثمّ يحمد المذكّرُ ربّه الرحمن رداً لجميل فضائله، حمـــداً بمـــشاعر في الـــوجدان ومعارض في فعال الطاعة وأقوال من التكبير والتسبيح والتحميد والشكر.

والله نـــــزّل الفـــرقان على عبده ﷺ هدىً بيّناً لعباده وصرّفه حكمة في سياق ابتلاءاتهم ليذّكّروا الحقّ فيؤمنوا به ويعبّروا عن مقتضى ذلك في حياتهم، لكن أبى كثير من المخاطبين إلا كفوراً. ولو شاء الله لبعث في كلّ أمةٍ نذيراً بما في الغيب مما يكفرون

به فما في المصير مما ينتظرهم، ولكنه بعث الرسول الخاتم نذيراً للناس كافّة لعلّهم يتّقون ما هم فيه من فتنة، وبشيراً لهم لعلّهم يندفعون رجاءً وتوكلاً، ومُبلّغاً ما يُتلى عليهم من الآيات لعلّهم يتّبعون حكم الحقّ والهدى فيها، يسمعون كلم دعوته ويتزكّون بقدوته. لكن الكافرين يتعسّر عليهم في جاهليتهم المفتونة بالمعبود المشهود الإيمانُ بالغيب فيطعنون في صدق الرسول فيما يزعم أنه يأتيه مباشرةً بوحي يتلوه عليهم منه في كلّ حين، يقولون: لولا أُنزل عليه القرآن جملة واحدة مثل نزلة المعجزات ووقعة الخوارق. لكنّ الله إنما يصرّف التنزيل في سياق تقلّب بلاءات الحياة وتواليها، ويرتّل القرآن ترتيلاً ليتجلّى هديه منجّماً حسب وقائع البلاء في الحياة ليوافيها الوحي المناسب ووفق تطوّر كمال نعمة الدين ليتيسّر على من يتلقّى القرآن الرّقي درجاً في أداء التكاليف نحو الأمثل وفي تثبّت الإيمان نحو الأيقن وفي العمل صلاحاً نحو الألزم والأحسن. والكافرون يدّعون ظلماً وزوراً أن ذلك القرآن ما هو إلاّ إفك افتراه راويه إذ كان فيه علم غريب عمّا يعهدون من تعاليم دينهم وتقاليده، ويدّعون أن قد أعانه على أمره ذاك قومٌ آخرون من أهل الديانات المكتوبة التي يُجانبونها. وأحياناً يقولون عمّا في ذلك الذكر المتلوّ من قصص وعِبر: إن هي إلاّ أساطير الأولين، يظنون النبيّ قد اكتتبها من حَمَلة آثار الديانات القديمة تُملى عليه منهم بكرة وأصيلاً ليتزوّد منها ويواليهم خطاباً موصولاً كل حين يثيرون فيه مساءلة أو مجادلة. والحق أنّ الذي آتى النبيّ ذلك الكتاب الموحى إنما هو الله الذي يعلم سر حقائق الغيب في الأزل وفي ماضي الأقوام من تلك الأمم السابقة، ما كُتبت عليهم من هدايات موحاة وما جرى منهم وما وقع عليهم من عواقب بوقع الأقدار في السماء والأرض. وإنما يُغار الكافرون المخاطبون على تقاليدهم بظنون الغيب والجاهلية وعلى ما يختلقون من جنٍّ معبود يمثّلونه في أصنامهم المشهودة، ويُنكرون أن يأتيهم علم الغيب الحقّ الذي يُبطل معهودهم ويبلّغهم إيّاه بَشَر مثلهم. فالرسالة من الله المتعالي في ملئه الأعلى ينبغي عندهم أن يأتي بها رسول غريب من ملأ الملائكة ذاك فيستغربون كيف يدّعي حملها رسولاً إليهم مَن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كسائر البشر القاصرين مثلهم عن الاتصال بالغيب. ويقولون أن لولا أُنزل إليه مَلَك من الجنّ المظنونة لديهم بنات لله

إفكاً ليكون معه نذيراً بيّناً مشهوداً. أو يقولون لولا وقع له كسب غريب وراء أسباب سعيه المعاشي وملكه المعهود عندهم، كأن يُلقى إليه من السماء كنزٌ من المال أو تكون له جنة يأكل منها حالاً غير فقره البادي وحُدوثاً لآية معجزة يجوز عندها أن يُلقى إليه أيضاً وحي من الغيب بقوى علوية روحية صادقة. وأخذ الكافرون يرمون الذين يتّبعون الرسول أنهم لا يوالون إلا رجلاً مسحوراً يُلهمه الأقوال جنٌّ سُفلي، بل يتّخذونه هزؤاً ويرون في دعواه أنه كاد يُضلّهم بها لولا صبروا على معهودهم. هكذا يضرب الكافرون للرسول الأمثال في الطعون ضلالاً عمّا هو شرط يتوخّاه الله فيمن يصطفي من رسول وعن العلم والهدى الحقّ الذي يأتي به الله في القرآن وعن الحكمة في نهج تنزيله.

إن عبد الله الذي أُنزل إليه الفرقان إنما هو بشر ورسول أمين يُوحى إليه، وحَصان من الإفك الذي ينسبه إليه الكافرون، وازدهد عن الانشغال بكسب متاع الدنيا. ولئن تحدّاه الكافرون إن يُلقى إليه كنز أو تكون له جَنّة آيةً مُعجزة ليُثبت صلته بمدّ الغيب وراء الأسباب المعتادة – لئن التمسوا منه ذلك فإن الله تبارك وتعالى على كلّ شيء قدير، إن شاء جعل له خيراً من ذلك جنّات وأنهاراً وقصوراً. ولكنه أغناه وحسب بعد أن كان عائلاً فآتاه كفاف العيش ألاّ ينفتن بأجر يبتغيه على دعوته وأن يكون غالب همّه السعي في سبيل بلاغها، وكما أرسل الله قبله من المرسلين بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق قُدّر له ذلك ليكون داعية وقدوة لسائر المُخاطَبين البشر. فليصبر هو كما صبر الأوّلون من الرّسل على فتنة من تحدّاهم أن يكونوا كائنات روحانية من الغيب لا يباشِرون طلب المعاش كأحياء البشر. ولئن كان مستيئساً من قومه الكافرين المكذّبين رسالته آيلاً إلى الشكوى منهم يوم القيامة أن قد اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً، فقد جعل الله لكلّ نبيٍّ حَمَل الرسالة قبلاً عدوّاً من المجرمين من أمّة خطابه، فلْيكِل الهداية لهم على ربّه والنصر له منه ﷻ، وما عليه هو إلا البلاغ والصبر. أيكون هو وكيلاً على من اتّخذ إلهه هواه وفتنته تعلّقات الدنيا وشهواتها؟ أم يحسب أنّ أكثرهم يسمعون تلاوته للقرآن تلقّياً حقاً خالصاً ويعقلون معانيه استجابة خاشعة تقيّة؟ الحقّ أن ما هم إلاّ كالأنعام لا يسمعون بيانه تفهّماً

وعقـــلاً، بـــل هم أضلّ سبيلاً إذ ضلّوا اختياراً بينما تهتدي الأنعام بأقدار الله المكتوبة علـــيها طـــبعا في الوجود، وليطمئن هو أنه على الحقّ بالنظر في آيات الله المطبوعة في الكـــون قـــدراً المشهودة بيّنةً. في الظلّ والشمس دليله تسوقه واختلاف الليل والنهار والـــريح المرسلة تحيي موات الأرض بالغيث. وإنما صرّف الله الريح والماء المنـــزل بين الناس ليذكّروا ويمضوا في حياتهم شاكرين ولكن أكثرهم أبوا إلاّ كُفُوراً. ولو شاء الله لـــبعث – مـــثل غـــيث السماء – في كلّ قرية نذيراً رحمة مبسوطة نشراً لإحياء كلّ القلـــوب الميتة، ولكنه أرسل الرسول الخاتم للناس كافّة، وإنما عليه البلاغ المنتشر وألاّ يطـــيع المشركين والكافرين فيما هم فيه من ضلال ولو تكاثروا عليه، وأن يُجاهدهم بالقـــرآن المنـــــزل هدىً ورحمة لهم جهاداً منه كبيراً، يُبلّغ رسالته ويكون لهم بشيراً ونذيـــراً بعواقب الهدى والضلال يوم القيامة. وإن ارتاب قومه بأنه يبتغي عائداً لنفسه دون ذلـــك فلـــيقل لهم إنه ما يسألهم على بلاغ رسالته من أجر منهم إلاّ مَن شاءَ أن يُرضـــيه فيهتدي إذ يُحبّ لهم السلامة والهدى لمودّة قربى بينه وبينهم. ثم عليه أن يتّخذ إلى ربّـــه سبيلاً ماضياً في دعوته صابراً حتّى يأتيه اليقين، وليتوكّل على الحيِّ الذي لا يموت الذي إليه المنتهى وعنده التلاقي بعد الموت والبعث، وليُسبّح بحمده أن مدّه بهديه واصـــطفاه رســـولاً، وإن آثر بعض المُخاطبين أن يكفروا برسالته وتحيط بهم الخطايا والذنـــوب لا أن يهـــتدوا ويصلحوا فكفى بربّه بذنوب عباده خبيراً يُحصيها ويجزيهم علـــيها. وليـــبلّغ مُخاطبـــيه أنّ الله ما يعبأ بهم لولا دعاؤهم المصوّب إليه منهم رجاءً وخوفاً، وإن قد كذّبوا فسيكون العذاب حاقّاً عليهم.

وإن للرسول الخاتم ﷺ في أمة خطابه عظة في سنن الأنبياء المرسلين إلى أقوام من قـــبله. فـــنوح قـــد سبق رسولاً إلى قومه لكنهم أعرضوا وتمادوا تكذيباً لعهد طويل فأغـــرقهم الله بأقداره آية في الدنيا لخَلَفهم من الناس وأعدّ لهم في الآخرة عذاباً أليماً. وكـــذلك كانـــت عاقبة عاد قوم هود وثمود قوم صالح وأصحاب الرسّ قوم شعيب وقرون من الأقوام بين ذلك كثيراً، كلاً ذكره الله وضرب له الأمثال من عِبر السابقين وكـــلاً إذ كذّبـــوا تبّرهم تتبيراً. وأدنى شواهد تلك العِبر للمخاطبين من قوم الرسول الخـــاتم أنهـــم في رحلاتهـــم التجارية شمالاً أتوا على سدوم إحدى قرى قوم لوط التي

أُمطـــرت مطر السّوء لسوء الفاحشة التي تخلّقوا بها، وهم يرون تلك الشواهد في الدنيا حقـــاً لكـــنهم لا يعـــدّونها إلا هلاكاً بوراً وسنّة فناء حاسم لأنهم لا يرجون من بعدُ لقومها ولا لأنفسهم هم بعد الموت بعثاً ونشوراً في الآخرة.

إن المشركين اتخذوا من دون الله الخلاّق لكلّ شيء آلهة لا يخلقون وهُم يُخلقون، يعبدونها دون الله المالك المدبّر المصرّف حياة البشر، وآلهتهم أولئك لا يملكون لأنفسهم ضـــراً ولا نفعاً ولا لعُبّادهم موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ولا ضرّاً ولا نفعاً. فالمشركون مثال للكافر الذي كان على الله ربِّه الحقّ ظهيراً يستقوى بآلهته المشهودة. وهم كفروا بالغـــيب وكذّبـــوا بالساعة التي أنذر بها الرسول الخاتم ﷺ أن تقوم فيها قيامة البعث فالمحاسبة فالمجازاة العاقبة، والحقّ أن الله أعدّ فيها للمكذبين بها عذاباً سعيراً، إذا تراءت لهـــم مـــن مكـــان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً وإذا جاءوها وأُلقوا فيها مكاناً ضيقاً مـــصفّدين دعوا هنالك ثبوراً، لا صرخة واحدة تنجي من الهلاك، ولا يُجديهم ذلك ولـــو كان ثُبوراً كثيراً. ذلك هو يوم الحشر والحساب الذي لا شفاعة فيه للمشركين ممـــن اتّخذوهم أولياء دون الله، بل يَحشر ويُحضِر الله معهم شركاؤهم الذين يدّعون لهـــم شركة في الألوهية مع الله من الملائكة الأرواح ليُسألوا بين يدي الله: أهُم أضلّوا عـــباده أم أولئك العباد من تلقاء أنفسهم ضلّوا السبيل؟ فيُجيب الملائكة الطوّع الخُشّع لله مستجيبين له: أنه ما ينبغي أن يتّخذوا أولياء من دونه يوصلون البشر بأيّما سلطان غيبـــــي مُدّعى، وإنما المشركون ضلّوا لشأنهم، ويُخاطب أولئك المسئولون ربّهم: أن لكـــنّه ﷻ مدّ هو لأولئك المشركين في ابتلائه ومتّعهم وآباءهم من قبل وهم على نهج الضلال وأن قد كانوا من قبل حقاً قوماً بوراً. وهكذا يروي الله نبأ العاقبة ماضياً ليعلم المـــشركون أن قـــد كـــذّبهم أولياؤهم فيما يزعمون شركاً وما هُم إلاّ عِباد لله مثلهم قصوراً في القدرة لا يستطيعون نصراً لهم ولا صرفاً للعذاب عنهم من دونه تعالى، فمن يظلم يحقّ عليه أن يُذيقه الله بأقداره عذاباً كبيراً.

إن المـــشركين يكفـــرون بالغيب ويُنكرون يوم القيامة، لا يرجون البعث بعد المـــوت ولا لقاء الله يومئذ لأنّ ذلك غيب لا يأتي عياناً إلا لأجَله، وحتّى ما يعرفون من الغيب الله خالقاً والملائكة فيما يعتبرون بنات الله – يقولون بناءً عليه كأنهم عتوا

استكباراً: لولا أُنــزل إليهم الملائكة أو يروا ربّهم، يريدون بدلاً من علم الوحي أن يتجلّى لهم الغيب مشهوداً. ويوم القيامة الموعود هو حقاً يوم تشقّق فيه السماء التي كانــت بطبعٍ في الدنيا منظومة وتُصبح يومئذ دُخاناً وغماماً. وتنــزّل منها الملائكة جــنوداً لله، ولا بُــشرى للكافرين في مرآهمٍ لتلك المشاهد من الملائكة يوم الواقعة الحاقّــة إذ يقــول عندئذٍ الكافرون الفزِعون: حِجراً محجوراً، لعلّهم يوقون ممّا يحقّ علــيهم من نذير العقاب على كسبهم السّابق في الدنيا الذي كان قد لهاهم تكاثراً ويغــدو يومئذ هباءً منثوراً بأقدار الله القاضي بالحقّ وميزان القسط يوم الدين إذ له الملك كلّه يومئذٍ سلطاناً وحَكَماً. ذلكم هو الرحمن الذي سبقت رحمته برسالة هداه في الدنــيا ونذارةٍ غضبه ووعيد ما يُعدّ للعصاة في دار البلاء الذي يُمدّ لهم فيها مدّاً بفــيض رحمته أيضاً لعلّهم يتوبون. وكان حقاً ماضياً يوماً على الكافرين عسيراً إذ يعــضّ الظــالم على يديه يقول ندماً على ماضٍ من كسبه لا مرجع لاستدراكه: أن يا ليته اتخذ مع الرسول النذير سبيلاً، وليته لم يتّخذ فُلاناً – من كان يليه غروراً من شــياطين الإنس والجنّ – وكيلاً يكل إليه تصريف مسيره ومصيره، وكان الشيطان يومــئذ خذولاً لمن توكّل عليه وعلّق على رجائه أمانيه بغير سلطان من الحقّ في دار الفتنة والحياة الدنيا. المشركون يومئذ يُحشرون مُكبّين على وجوههم إلى جهنّم فهم شــرٌ مكاناً وأضلّ سبيلاً. إن المشركين قد أقرّوا في الدنيا بالله خالقاً لكن ما عرفوا اسمه رحماناً بعباده، كانوا إذا ذُكّروا به يتساءلون: وما الرّحمن؟ استنكروه ﷻ كذلك وأن يــسجدوا له كما أمرهم الرسول وازدادوا نفوراً من اسمه الأعلى ذاك. وإنما هو حقــاً الرحمن الخالق الذي استوى على العرش مدبّراً أمر خلقه مصرّفاً شأن الإنسان يــرحمه في الدنيا رحمة إيجاد وإبقاء موقوت في الحياة الدنيا ويسخّر له فيها النعم في الــسّماء حــوله والأرض تحته، ثم يرحمه رحمة هداية تتنــزّل عليه من الغيب علماً وتكلــيفاً بالعبادة وبشارة ونذارة بعاقبة الأزل ورحمة لطف إذ يمدّ له في الابتلاء في الدنــيا ليزداد لآخرته خيراً أو ليتوب عن الضلال ويدرك الاهتداء والإعداد لها قبل الممات. ثم هو تعالى الرحمن يوم الدين، يرحم عباده المؤمنين ببسط الغفران للذنوب والتقبّل والرضوان للحسنات وفضل المضاعفة لوفاقها أجراً. ويرحم عباده إن تظالموا

في الدنــيا ومضوا فيها على عوج غير سوي ولا قويم، يكون قد أعدّ لهم في الآخرة قــسطاً بيــنهم، عوضاً للمظلوم وعقاباً للظالم منهم قواماً عدلاً بين كسبهم في عالم الدنيا ومصيرهم في عالم الأزل.

أمــا عاقــبة المؤمنين المتقين فقد وُعدوا الجنة وكانت لهم حقاً يوم القيامة جزاءً ومــصيراً خــيراً مستقراً وأحسن مقيلاً من مآل الكافرين العُصاة. حقّ لهم ذلك لأنهم اســتقاموا في الدنيا عباداً للرحمن. كانوا خُشعاً لله يتجلّى ذلك في سيرهم بين الناس، يمشون في الأرض هوناً لا خيلاء استكبار ولا فرح سفاهة، وإذا خاطبهم الجاهلون بما يُعهد عندهم من كلمات الحماقة والجهالة قالوا: سلاماً، ولم يُعاقبوهم سيّئة بسيّئة. أمّا تلقــاء ربّهم فهم له ذاكرون واصلون يبيتون سُجّداً وقياماً في صلاة لا نوماً ولا سمراً غافلاً عن الغيب. وهم من تقواهم لله وإيقانهم بلقائه في الغيب يخشون غضبه ويرهبون ســوأى المصير في الآخرة ويرجون السلامة والمفاز بالنعيم ويقولون مبتهلين لربّهم: أن يــصرف عنهم عذاب جهنّم إن عذابها كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومقاماً. وهم في تــصريف الرزق الذي يبتليهم الله به في الحياة مُستخلَفين فيه يتحرّون سُنّةً وسطى، إذا أنفقــوا لم يُسرفوا بسطاً فرطاً ولم يقتروا شحّاً قابضاً وكان أمرهم في ذلك قواماً. بل هــم يتطهّرون من أخطر أسباب انفتان الإنسان بتعلّقات شهوات الدنيا ومشهوداتها. فهــم أولاً لا يدعون مع الله إلهاً آخر كما يتورّط أكثر الناس في ذلك إشراكاً بالله ما دونــه مــن مقدّســات من أصنام أو قوى روحية مقدّسة أو أهواء مؤلّهة بالأظانين والتقالــيد. وهم لا يدفعهم هوى الظلم وحبّ العدوان ليُستخفّ عندهم بحرمة نفس الإنــسان المكرّمة فلا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ قصاصاً أو دفاعاً. وهم لا يــزنون مهما تفتنهم الشهوة الزوجانية بغياً وراء التزاوج المرضي المشروع فلا يتعدّون حــدود ذلك الإخلاص أو الحصانة. ومَن يفعل ذلك من ظلمٍ في حق توحيد الألوهية والعــبادة وحرمة النفس والعرض للإنسان يلقَ أثاماً، يُضاعف لهم العذاب يوم القيامة ويخلُــد فــيه مُهانــاً لأنّ خطيئته فاضت طاغوتاً. ذلك إلاّ مَن تاب إلى الله ووقر آمناً مطمئــناً في وجدانه الإخلاص لله وحده وصدّق إيمانه بأن عمل صالحاً وما عدا جانياً بكبائــر الظلــم والفــساد. فأولئك يبدّل الله سيئاتهم التي تابوا عنها لأنها صارت لهم

تجـــارب واعظة تعدلهم وتثبّتهم على النهج القويم إيماناً وصالح عمل. ومَن تاب فآمن خالصاً وعمل صالحاً فصدق فعلاً فإنه يتوب إلى الله متاباً بالغاً والله توّاب رحيم يتقبّل التائبين.

وعـــباد الـــرحمن هـــم كذلك المعتصمون بتقوى الله في صحبة الناس لا يُفتنون بدواعـــي الـــسوء فـــيها، فهم لا يشهدون الزور بل يُعرضون عنه ويُجانبونه متحرّين مـــواطن الـــصدق والحقّ، وإذا مرّوا باللغو مرّوا كِراماً يتحرّون طيّب العُشرة وحسن القول. وهم في مذاهب المجادلات والمخاطبات بين الناس إذا ذُكّروا بآيات ربّهم الهادية لمسلك حياتهم لم يخرّوا عليها صُمّاً وعُمياناً بل أنصَتوا للذكرى ليستجيبوا لداعي سبيل الهـــدى فيـــستقيموا على بصيرة. وهم الذين ينشدون ما هو خير لهم في الحياة والأهل معاشـــرة وسلفاً طيباً لخلَف طيّب. يسألون الله أن يجعل لهم من أزواجهم وذريتهم قرّة أعـــين مودّة ورحمة ومبارّة يسعدون بها لا يغشاهم فيها همّ ولا قلق. كما يسألون الله أن يجعلـــهم إمامـــاً للمتّقين ريادة وقدوة حسنة ومثالاً في سبيل تعاقب سيرة التقوى المتوالية. أولئك العباد للرحمن الصادقون الصالحون السالكون حياة حُسنى في سبيل الله يحـــقّ لهم وعده ﷻ، يُجزَون الغرفة العالية مأوى لهم خصوصاً عالياً في درج الجنان. وذلك وفاقاً لما صبروا على ابتلاءات الدنيا المُضلّة وفتنها المُفسدة لغيرهم فقد تجاوزوها مفلحـــين. ويَلقـــون عندئذٍ ما يحقّ لهم من الحُسنى المكافئة تحيةً وسلاماً إذ عبروا بلاء الدنـــيا لأجلـــها المعدود ليدخلوا ويبقوا خالدين في غرف النعيم التي حسُنت مُستقرّاً ومقاماً.

وختام السّورة أن يبلّغ الرسول كلماتٍ من النذارة للعالَمين جاء ذكرها في مطلع هدي السورة، أن يقول لأمة خطابه: أنه ما يعبأ الله بهم لولا دعاؤهم – صلاةً وذكراً لله وطلـــباً للنجاة من سوأى العذاب فوزاً بحُسنى النعيم، كما سبق ذكره في دعاء عباد الـــرحمن، وأن يقول للمعرضين: أن قد كذّبوا كما مضى ذكره – تكذيباً بعد البلاغ لكلمات فرقان الحق المنـــزل، فسوف يكون العذابُ الذي أنذر به بلاغ الوعيد الحقّ يـــوم القـــيامة والذي استعاذ بالله منه عباد الرحمن – سوف يكون لزاماً عليهم في يومٍ مشهود يؤخّره الله لأجل معدود.

ترتيل المعاني (الآيات ١ – ٤٧):

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١)

تبارك الله فتعاظم قدره وعلمه وحكمه الإله الفرد الصمد الذي نـــزّل من معاني الغـــيب إلى مهبط الحياة الدنيا لعوالم الجن والإنس في الأرض – نـــزّل ترتيلاً منجّماً حـــسب مناسبات الظروف في تلك الحياة – الفُرقان، ذكر الوحي المائز ببيان بالغ نهج الهدى عن نهج الضلال في مسيرها العاجل إلى مصيرها الآجل. نـــزّله على عبده الذي اصطفاه من سائر عباده البشر المخيَّرين ليقوم فيهم رسولاً يبلّغهم دعوته ويؤمّهم بسنة قدوته نهجاً في ذلك الهدى المنـــزل، وما هو من الملائكة الذين هم المطوّعون من عالم الأرواح العُلـــيا، بُعث ليكون نذيراً لأمة خطابه من تدهور أطوار وجودهم في مرحلة حياتهم الدنيا لو تُركوا سائرين بغير هُدى ومن سوء عواقبهم لو تمادوا في ضلال عبرها فانـــتهوا إلى حياتهم الأخرى بغير علم من أقدار الغيب الآجلة فبغير زادٍ يُعدّونه ابتغاء الحُسنى في دار الجزاء والخلود.[١]

﴿الَّـــذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (٢)

الله المـــتعالي المتبارك المُنـــزل الهدى لعباده هو الواحد الذي له ملك السماوات بطـــباقها الممتدّة والأرض الممهودة للبشر، يحوزها ويصرّفها كما يشاء. ولم يتّخذ ولداً كمـــا يفتري له المفتونون بالمشهود أن يكون له ولد فرع منه يؤلّهونه، فهو غني بحوله وقوته وله كلّ خلقه مسخّراً، ولم يكُن له شريكٌ في الملك كفؤاً في الوجود يضارعه في تـــصريفه المُطلق لأمر السماوات والأرض. وخلق كلّ شيء في عالم الغيب والشهادة، فهو الذي أبدَع وصَنَع كل موجود وسوّاه بقدره أراد قيامه فقدّره بما طبعه عليه وجعل له من وظائف الوجود تقديراً.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا﴾ (٣)

---

(١) كتاب الله المنـــزل فرقان لهدى عباده البشر، أُنـــزل إلى موسى ثم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام: راجع الآية ٥٣ سورة البقرة، والآية ٤٨ سورة الأنبياء، ثم راجع الآية ٤ سورة آل عمران.

ذلـــك كله شان مُطلق في شأن الله، لكن انضاف له أن قد اتخذ -المذكورون غياباً- المُخاطبون بالرسالة في جاهليتهم من دونه في العالم المخلوق المشهود آلهة من الأصنام الجوامد لا يخلقون شيئاً ليُكافئوا قيموميّة الله الخالق، وهم يُخلقون من عدم بقـــدره ﷻ وهم مصنوعون من أصل عاجز لا يملكون لأنفسهم في تصريف الأقدار ضرّاً يؤذيهم ولا نفعاً يُجديهم، فضلاً أن يملكوا لعُبّادهم ومُوقِّريهم الضالّين قدراً من الأســـباب يوقع بهم ضرّاً أو يجلب لهم نفعاً كما يخشون ويرجون، ولا يملكون للبشر أو ســـائر المشهودات من الحيوان والنبات موتاً مقدراً قبل إحيائه ولا حياة من بعد لمـــدى مقدّر ولا نشوراً وإحياءً للأرض نباتاً وحيواناً بعد الممات ولا للبشر بعثاً بعد الموت.

﴿وَقَـــالَ الَّـــذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٤)

وقال الذين كفروا بالرسالة إذ دسّوا وغمروا ما في فطرة نفوسهم من ميثاق إيمان بالغيب الحقّ بالله وبالهدى – قالوا عن هذا القرآن المنـــزل وحياً من الغيب رسالة من الله يـــرويها ويـــتلوا آياتها رجل منهم أمين – قالوا: إن هو إلاّ إفك افتراه واختلقه من نفـــسه ذلـــك الذي يدّعي حمل رسالته إليهم خطاباً. وادّعوا أن قد أعانه على إخراج ذلـــك الوحـــي وإملائـــه مكتوباً وتلاوته مقروءاً بأقوال مدّعاة في عِلم حقائق الغيب ومجهولات الواقع وهدى الحياة – أعانه قومٌ آخرون من غيرهم من أهل الكتب الأولى، وهم أنفسهم جاهلون أمّيون لا يخطّون كتاباً ولم يعهدوا هداية موحاة يتداولونها. وإنما يترتب على دعاواهم الباطلة – أولئك الذين كفروا – أن قد جاءوا ظلماً تجاوز العدل وزوراً زيّف الحقّ في شأن صدق الرّسول وحقّ الوحي.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (٥)

وقالـــوا – أولـــئك الـــذين كفروا – عن القرآن الفرقان: إنه أساطير الأولّين، مكـــتوبات مسطورة مرويّة من الأوّلين أهل الخرافات الدينية القديمة، اكتتبها هو منهم طالـــباً خطّهـــا في كتابٍ يرويه. ذلك أنهم عهدوا منقولات من ذوي الكتاب اليهود والنصارى وقوماً أبعدين منهم شرقاً. قالوا إنها من ثم تُملى وتُبسط تلاوتها عليه طوال

أيّامه بكرةً وأصيلاً، كلّ صباح ومساء، ليرويها كأنها وحي موصول بالغيب في السماء يتوالى عليه تنـــزيله من الله.[1]

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٦)

ليقل لهم الرسول ﷺ بأمر الله الهادي: أنه قد أنـــزل ذلك الفرقان اللهُ الذي يعلم الســرّ مـــن خفـــي الغيب غير المشهود والواقع غير المعلوم للمخاطبين في السماوات والأرض مثَل تنـــزّل الأقدار فيها وما بينها والوحي روحاً ورسالة علم وهُدى من الله لأهل الأرض، ومثلَ ما يفتري المكذّبون بالوحي ويتداولون سراً من أقاويل الباطل وما يبـــسط الأقدمون ويمضي أساطير مأثورة، ومثلَ ما يقع من استجابة أهل الأرض لذلك التنـــــزيل مـــن مـــشاعر إيمان بالحقّ قد تُخفي باطناً حذراً من سطوة الذين كفروا ودعاياتهم ومن أفاعيل أولئك الذين كفروا كيداً يمهّدون له بالأقاويل. إنه ﷻ ذو العلم المُحـــيط كـــان – حقاً ماضياً أبداً – غفوراً واسع المغفرة والعفو والصفح لعباده ولو ستروا إيمانهم أو جهروا بكفرهم إعراضاً عن الخطاب لأوّل عهده، رحيماً رقيق الرحمة رفيق التلطّف عليهم لا يُعاجل بعقاب بل يوالي وحي الهُدى ويمدّ لهم مجال البلاء لعلّهم يُدركون الحقّ فيتوبون وتُسعفهم رحمة الهدى الخيّر المتبارك في عاجل الحياة وقبل أجل الممات.

﴿وَقَالُـــوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَـــكٌ فَـــيَكُونَ مَعَـــهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا﴾ (٧ – ٨)

ذلـــك وصـــعد الـــذين كفروا في محاجّة الرسول بعد الطعن في ذمته كما سبق فاستنكروا طبعه البشري القاصر عن الاتصال بالغيب، إذ هو لا يسمو فوق البشر ذي الحاجـــة والحـــركة العاديّة في سبيل المعاش، ولا يُدرك ما يهيّئ له مدوداً من أسباب الغيب تكفي لإثبات امتيازه الخاص تُغنيه عن الغذاء والسعي والكسب وتكفيه عن أيّما

(١) سُنّة المكذّبين بالقرآن الرمي بأنه إفك من الرسول أو أسطورة قديمة أو رواية عن كتابيين أعاجم: راجـــع الآيـــتين ١٠٢، ١٠٣ ســـورة النحل، وانظر الآية ٤٧ سورة سبأ، والآية ١١ سورة الأحقاف. ونحو ذلك من تكذيب لما يبلّغ الرسل من وحي الله ذكره متواتر في آي القرآن.

عـــون روحاني وتعافيه عن أيّما علّة في رشده. قالوا ما لهذا الرسول بشراً منهم يأكل الطعـــام ليشبع مثلهم ويمشي في الأسواق سعياً معتاداً لجلب المكاسب، وتحدّوه أن لولا أُنــــزل إليه مَلَك من الغيب فيكون له شاهداً مرئياً نذيراً معه للمخاطبين بما ينتظرهم آجــلاً، أو يُلقى إليه بحظوظ الغيب وأسبابه الخارقة للطبع كنـــزٌ يُغنيه في المال ويرفع درج مقامـــه بين مَن يُخاطب، أو تكون له جنّة من الزرع والشجر الطيّب يأكل منها كـــيفما شـــاء. ومضى الكافرون فأضافوا من مقولات استنكارهم وطعنهم في شأن الرســـول مـــا يُـــريب به ويصرف الاستجابة لما يصدر عنه من خطاب، إذ قالوا لمن اســـتجاب وقليلٌ ما هم: إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً لا يصدر إلا عن مخيّلات وهميّة من وقع السّحر عليه كما يعهدون من غرائب فعال السّحرة واسترهاب العوام.(١)

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ (٩ – ١٠)

خاطـــب الوحـــي الرســـول ﷺ أن يتأمّل في محاجّة أولئك الطّاعنين فيه المتقلّبة المـــسالك بغير صوب الحق، أن ينظُر كيف ضربوا له الأمثال في مطلوباتهم لمن يدّعي رسالة من الغيب فضلّوا بذلك عن الاستماع إلى رسالته وتلقّيها في الوجدان، فهم من ثمّ ضـــلّوا عـــنها ضاربين في تيه غفلتهم المتحيّرة فلا يستطيعون سبيلاً إلى وجه الهدى ليستقيموا به في الحياة على وجهة الحق.

وتعزّز له خطاب الوحي يثبّته ويقوّي صبره على جُملة أقاويلهم – أولئك الذين كفـــروا: أن تبارك الله الذي إن شاء فضلاً عن تنـــزّل هُدى الفرقان عليه – جعل له خيراً ممّا يتطلّبون منه شرائط لاحتسابه رسولاً صادقاً من الغيب: جنّات ممتدة لا واحدة تجـــري من تحتها الأنهار ترويها عيناً في أصل موطنه قائماً بالدعوة في بيئة أهل الخطاب الـــصحراوية الجافّة، ويجعل له ما يتجلّى به أن حيث الذي يتنـــزّل عنده القرآن أرفع

(١) في تلـــك الصفات البشرية ماضية في سائر الرّسل: انظر الآية ٢٠ من ذات السورة. وفي طعن الرّسول الخاتم وسائر الرسل لبشريّته ومسكنته مما لا يُناسب الصلة المدّعاة بعالم الرّوح والغيب: راجع الآيات ٨، ٩، ٥٠ سورة الأنعام، والآيتين ١٢، ٣١ سورة هود، والآيات ٩١، ٩٣، ٩٤ ، ٩٥ سورة الإسراء، والآيتان ٣٣، ٣٤ سورة المؤمنون، انظر الآية ٣١ سورة الزخرف.

قدماً وتوقيراً وأوقع للطواعية بين المخاطبين وأرهب للنذارة فيهم - يجعل له قصوراً من معـــروف عظيم السكن والمقام للملوك والرؤساء لا من معهود البيوت والخيام التي ما هـــي مـــباني سكن مشيّدة مقصورة المداخل بل متاحة أن يوصل إلى حوزها ولو من العوام.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِـــيدٍ سَـــمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (١١ - ١٤)

ما الذي دعا أولئك الذين كفروا أن يبالغوا في تلك المحاجّات والتطلّبات المفرطة لبيّـــنات صدق الرسول المبلّغ الفرقان وأن يأبوا الاستجابة الخاشعة لوقع كلمات النذير بالعـــواقب. بـــل هو أنهم كذّبوا بالساعة بنبأ الأجل واليوم للواقعة الموعودة التي يُبعث فـــيها الـــناس بعـــد الموت وتقوم بهم عندئذ القيامة ويجيء المنتهى إلى دار الجزاء على كـــسبهم في حياتهم الدنيا دار البلاء. وليعلموا أنّ الله بعظيم أقداره اعتدّ وهيّأ بكلمته الـــسابقة حقـــاً ماضياً لمن كذّب بالساعة فما قوّم حياته الدنيا ولا أدرك المسئولية فما صـــوّبها ولا ضبطها رجاء وتقوى لما هو آت بل ضيّعها معربداً في الظلم والفساد متّبعاً لـــشهوات الهوى والمتاع العاجل لاسيما إن غفل فيها أو أفلت من عين سلطان قاهر ويـــده أو إطـــار مجتمع ورقابته لرهب عاجل العقاب - فمن لم ينـــزجر بالإيمان عن ســـيّء الأعمال أو يرغب في حاضر الأجر مندفعاً نحو حسنها - اعتدّ لمثل هذا سعيراً، نـــاراً يستعر حرّها ويتوقّد حرقها بقدر ظلم المرء وفساده. إذا رأتهم تلك النار المستعرة مـــن مكان بعيد حيث تُعرض بعد مبعثهم يوم القيامة ويُشاهدونها - عندئذٍ سمعوا لها تغـــيُّظاً من صوت غليان التلهّب وزفيراً مثل نفس التشهاق من ريح الحميم. وإذا حقّ علـــى الـــذين كفروا بعد السؤال والحساب والميزان والقضاء أن يدخلوا النار فدُعّوا إليها - إذا أُلقوا فيها مكاناً ضيّقاً مقرّنين، لا متّسع فسحة ولا منقلب رواح ولا فُرجة بيـــنهم بـــل هم أفواج محشورة متضاغطة في زحمة مدفوعين ذوي سلاسل وأغلال - عندئذ دعوا هم هنالك ثبوراً، متمنين هلاكاً أو فناءاً يُنجيهم من البقاء في ذلك الشقاء الحمـــيم ولا مستجاب لمستصرخهم البائس بل يُجاوبهم قدر الله: لا تدعوا اليوم ثبوراً

واحـــداً يكـــونُ باتّـــاً فيه ختام وجودهم، بل يتجدّد مكوثهم ووقود احتراقهم كلّما نضجت جلودهم بُدّلوا غيرها، وليدعوا ما شاءوا ثبوراً كثيراً، أن يتوارد عليهم الهلاك وتـــتعاقب تمنّـــياتهم متواتـــرة فهم في شقاء خالد تتوالى عليهم طبقات العذاب وتدوم أقداره.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً﴾ (١٥ – ١٦)

ليكن الرسول ﷺ النذير للعالمين بشيراً أيضاً، فبعد أن بُيّن لمخاطبيه نُذُر عاقبة ما هـــم عليه من تكذيب بالساعة وإعداد السّعير لهم، تخاطبه الآية أن يقول لهم عموماً: أذلك الذي سبق ذكره خير وأفضل مصيراً أم جنّة الخلد التي وُعد المتّقون منهم؟ أولئك الـــذين تابوا إلى الله إيماناً بالغيب بعد كفر جاهلية وأطاعوا هدى رسالته بأبلغ ما يتّقي غضبه وعذابه الآجل فرعوا حدود تكاليف شرعه لئلاّ يورّطهم تعدّيها بدوافع شهوات الهـــوى وحـــبّ الدنيا إلى مثل عاقبة المنذرين، فحقّ لهم أن يوعدوا بالجنّة التي كانت لهـــم – حقاً مقضياً – جزاء على صالح أعمالهم التي تجتنب الحرام ضبطاً ورجاء لأجر الله ومصيراً لحياتهم الدنيا المتّقية للضلال والشرك الجاهلي.

أولـــئك المـــتّقون لهم فيها – تلك الجنة – ما يشاءون مما تُحب وتشتهي إرادة النفوس، لكن ربّما قصرت بهم عنه في الدنيا أقدار البلاء بالبأساء أو انكفّوا عنه متّقين أن تنـــزع بهم أسبابه ومقاصده إلى المسلك والمبلغ الحرام. وذلك التمتّع بما يشاءون في الجـــنّة هو موصول لأولئك المتّقين لأنهم فيها خالدون. ذلك الوعد وراء حساب البقاء الموقـــوت في الدنيا كان – حقاً ماضياً – على الله الرب منسوباً إلى الرسول كما يُخاطب ليبلّغ عنه – كان التزاماً وعداً يقوم الله متولّياً نجازه لمن يحقّ لهم من عباده المتّقين.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُـــمْ ضَـــلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِـــيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَـــا تَقُولُـــونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلاَ نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (١٧ – ١٨ – ١٩)

ويومُ السّاعة السابق ذكرها هو يومَ يحشرهم الله ربّ العالمين ذو الوعد الصادق، أولئك المخاطبين بالقرآن المصرّين على إعراضهم عن الاستجابة للفرقان وعلى إشراكهم الجاهلي. ويحشر معهم ما يعبدون من دون الله، وهم الملائكة بنات الله كما يدّعون وكما يمثّلونها في الأصنام المسمّاة إناثاً. وعندئذ تترتب على الملائكة المساءلة لإقامة البيّنة على الحق، فيقول الله لهم مخاطبين: أهم أضلّوا عباده المشار إليهم 'هؤلاء' لأنهم يقفون بين يديه ﷻ في معرض الحساب؟ أم هم – أولئك العبّاد– لشأنهم ومن عند أنفسهم ضلّوا السبيل القويم المهتدي إلى الله وحقّ عليهم الجزاء كله غير مُضاف بعضه إلى مُضلّ لهم.

عندئذ تمضي المساءلة والمجاوبة – حقاً ماضياً – أن قالوا – أولئك الملائكة – مخاطِبين الله تعالىً عن ذلك الإشراك: إنه ما كان ينبغي لهم في عهد الحياة الدنيا دار البلاء وهم ملائكة طائعون خالصون لله – أن يتّخذوا أو يُتّخذوا – من أي وجه من دونه أولياء، أيما ولاية ربّانية، ولكن – كما يُخاطبون الله – هو ﷻ متّعهم – أولئك العباد الذين أشركوا – بقدره من مشيئة الخيار الطلق وابتلاء سعد الدنيا الفاتن وآباءَهم ليتركوا تقاليد شرك مفتونة موروثة ذات وقع على الخَلَف اتّباعاً لحُجة الوفاء للأصول، ذلك جرى بهم حتى نسوا الذكر الذي تنزّل عليهم منذ أبيهم إبراهيم فإسماعيل وكانوا قوماً بوراً لا يقومون إلا على شرك وضلال لا ينفعهم في الدنيا ولا يُهيّئ لهم محصولاً مرضيّاً في العاقبة بل ضنكاً وموات نفوس وكساد ثمار لحياتهم ومصيرهم.

ويُخاطب من ثم أولئك القوم الذين مضوا إلى معرض الحساب مشركين، مزيد توكيد لبوارهم: أن الملائكة بذلك القول المتبرئ عنهم قد كذّبوهم بما يقولون من دعاوى تزلّفهم إلى الله بإشراكهم تماثيل الملائكة معبودة، فما يستطيع 'بعدئذٍ' أولئك الملائكة أو المخاطبون (قراءة) صرفاً للعذاب المستحَقّ الواقع يُبعده عنهم ولا نصراً لهم من جند الله – بل هم – الآخذيهم بالعذاب. ومَن يظلم في دنياه – من أولئك القوم المخاطبين – إلحاداً عن عدل الحقّ في توحيد الموالاة والعبادة لله وتوحيد مسلك الحياة القويم – يُذقه الله عذاباً كثيراً – كما يقول هو بصيغة المتحدّث المباشر بجمع أقداره العظيمة في إيقاع الجزاء الحاقّ البالغ.(١)

(١) في مساءلة الملائكة يوم القيامة: انظر الآيات ٤٠، ٤٢ سورة سبأ.

﴿وَمَــا أَرْسَــلْنَا قَــبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (٢٠)

ويعود الخطاب للرسول ﷺ ليتمّ له رسالة النذير والبشير للمخاطبين، فيُضيف له مــا فــيه عبرة له وعظة للمخاطبين في سيرة مَن سلف من المرسلين مثله وبياناً للحقّ المــسنون: أن ما أرسل الله – متكلّماً بجميع أقداره في اصطفاء الرسل وإنــزال الوحي والهــدى ليــبلّغوه، قبل ذلك الرسول الخاتم مخاطباً – ما أرسل المرسلين إلى أقوامهم خاصــة إلا إنهــم كانوا منهم مثله بذات الطبع البشري المسنون: يأكلون الطعام حقّاً ويمشون في الأسواق، فلا حجّة فيما يعترض به المخاطبون الرسالة الخاتمة الحقّ طعناً في بشريّة الرسول. ويمضي الخطاب للرسول وللناس حوله – مخاطبين: أن جعل الله بأقدار خلــق الإنسان وانتشار نَسله ومشيئته في وجدانه الحرّة وبلائه بالعالم المشهود وتكليفه بمجاهدات ذلك والإيمان بالغيب والتذكّر بتلقّي الرسالات الموحاة – جعل الله بأقداره تلك الحكيمة بعضَ عباده البشر –المخاطبين– لبعضٍ فتنةً. يُمتحن منهم الرّسل المبلّغين المذكّــرين بالحــقّ المُنــزل ومَن يستجيب من مؤمنين قائمين بحسب القدوة والدعوة يُمتحنون بالمجاهدة لبلاغ الرسالة في وجه الإعراض دحضاً للمجادلات بالحجج المفتونة بعالم الشهادة المُنكِرة لرسالة الغيب التي يَحملها مَن هو كسائر البشر في معاشه ومشيه في ساحات الأسواق متعاملاً. والقصد هو الابتلاء بذلك لدعاة الرسالة، فالسؤال الذي يرد خطاباً لهم في سياق الحساب بعد ذلك لتقرير لعلاقات امتحانهم بمجاهدات الدعوة هــو: أيصبرون على الإعراض والمحاجّة وما قد يترتب عليهم من الأذى؟ ذلك ليُثبتوا وتتزكّــى فيهم الأهلية للمضيّ قُدماً في حقّ أمانة بلاغ الرّسالة وأدائها عبر كل ذلك الــبلاء. وكان الربُّ – كما يُنسب إلى ذلك الرسول الداعية الخاتم مخاطبةً له – بصيراً يــرى كل الواقعات والظروف لبلاءات تكاليف رسالة الحقّ ومسلك العباد فيها بين مــستجيب داعٍ صابر ومُعرض مُجادل، مهما تدقّ شعاب مجرى سيرة الدعوة والحياة الدنيا حفظاً لما يحقّ لهم أو عليهم في الآخرة وآجل لقاء الله في الغيب الموعود.

﴿وَقَــالَ الَّــذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (٢١)

سبق ذكر تبرّؤ الملائكة ممن اتّخذوهم أولياء إذ انفتنوا بما دون الله لّما رأوه نائياً في الغيب وتوهّموا الملائكة ولداً له يقرّبوهم إليه ومثّلوهم أحياناً أصناماً. ذلك وقال الذين قصرت رؤاهم وهمومهم على مشهود الدنيا وعاجل متاعها فهم لا يرجون لقاء الله بأقداره العظيمة كما يقول متكلّماً بجمع أقدار بعثه لبني الإنسان وحسابهم والقضاء فيما يحقّ من أوزان كسبهم في الدنيا وتسخيره يومئذ لجنوده الملائكة في إنفاذ حشره للعباد ثم سوقهم إلى المصائر الحاقّة لهم أو عليهم – قالَ أولئك الذين لا يرجون ذلك اللقاء في الغيب – ترجّياً يلحّون على بيّنة مشهودة لتصديق رسالة الغيب ووعده: لولا، هلاّ أُنزل عليهم الملائكة عياناً أو يرون ربّهم جهاراً تعزيزاً لشهادة الحق المذكور في ذكر الفرقان واليوم الموعود. بذلك لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيراً إذ اشتدّ ما قدّروا لأنفسهم أن يبلّغوا رؤية الغيب جهاراً متى التمسوها وألاّ يتواضعوا بشراً قاصرين بل يُنزل عليهم الملائكةُ واللهُ ربّهم ذاته لتلقّي رسالة الحقّ ونبأ الغيب.(١)

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٢٢)

يوم يرون الملائكة – أولئك الذينَ لا يؤمنون بغيب لقاء الله في الآخرة ويطلبون بيّنة مشهودة حاضرة رؤيةً للملائكة – يومئذ إذ يتجلّى مشهوداً كلّ الوجود الغيبيّ من عالم الروح ويقع حقاً ما كانوا يتطلّبونه تكونُ تلك الإراءة بيّنة تصدّياً لإنكارهم قبلاً، ولا تصحبها بشرى لأولئك المجرمين، ولا يُقبلون على ذلك مطمئنين بل هي بيّنة نذير يتجلّى، ويقولون حينئذ كلمةَ فزع: حجراً محجوراً، يطلبون وقاية مأمونة تصونهم وتمنع أن يُصيبهم النذير الخطير المشهود.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٢٣)

وقَدِمَ الله بأقدار علمه المحيط وحسابه وقضائه الحاسم قاصداً إلى جملة ما عَمِلوا في سابق الدنيا وكسبهم المرصود فيها برمّته فجعله الله بتلك الأقدار العظيمة القاضية هباءً

---

(١) في سنّة إصرار المُعرضين عن الرسالات ارتياباً بالغيب أن يروا الله أو الملائكة حتّى يؤمنوا بالرسالة: راجع الآيتين ٥٥، ٢١٠ سورة البقرة، والآيات ٨، ١١١، ١٥٨ سورة الأنعام، والآية ١٢ سورة هود، والآيات ٩١، ٩٥ سورة الإسراء. وفي طلب موسى عليه السلام من ربّه أن ينظر إليه ليطمئن: راجع الآية ١٤٣ سورة الأعراف. وتطلّب الآيات الغيبية والمعجزة المشهودة من الرّسل سنة ماضية من المخاطبين ذكرٌ متواتر في القرآن.

بدداً كالغبار منثوراً في الهواء هدراً خفّت موازينه إذ كانت النيّات غير مرضيّة، ليست خالصة لله تبتغي الآخرة، والمسالك في انفتان بالهوى وعصيان الله.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ (٢٤)

أصـــحاب الجنة يومئذ في حال بشرى خلاف أصحاب النار، إذ هم خير مستقرّاً لا يتزلزلون تقلّباً في سعير جهنّم وهم أحسن مقيلاً وظلاً وراحة بعد الدنيا كالمقيل بعد النصب في شمس النهار.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ (٢٥)

ذلك اليوم إذ تقع تلك الوقائع – وإضافة إلى ما سبق عنه من ذكره – يوم تشقّق السماء إذ تنفطر وتنتشر كواكبها ويهي نظامها المتماسك الذي كان مشهوداً جليّاً – تـــشقّق بالغمـــام يغـــشاها فـــإذا هي ظُلل ودخان. تلك آيات التبدّل الأفعل لثوابت موجـــودات الدنيا وسننها المطبوعة المشهودة التي كان البشر مؤطّرين في نظمها الجامد في الدنـــيا غـــافلاً أكثـــرهم عن أقدار الله الغلاّبة التي تزلزلها في الآخرة. ويومئذ نُزّل الملائكة على البشر المبعوث المحشور يروهم تنـــزيلاً بيّناً ذا وقع من وطأة الرهبة.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٢٦)

المُلـــك – سُلطان التمكّن والقضاء والتصريف لمصائر الرعيّة من العباد – يومئذ الحـــقُّ في ذلـــك اليوم – حقاً بيّناً خالصاً لا مجال لنكرانه كما فعل في الدنيا الكافرون والمـــشركون – هـــو للرحمن الذي تفيض رحمته على عباده المؤمنين الذين حقّت لهم، وكـــان يوماً عارضاً على عباده الذين انغمر الحقّ في قلوبهم كافرين – عسيراً – يشتدّ وقعه ويشقّ احتماله.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ (٢٧)

ذلك يوم يعضّ الظالمُ الذي عدا على ميزان الحقِّ وحدّه البيّن على يديه ندماً على مـــا قدّمت، وحسرةً من فزع يوم الحساب وهول المآب بما كسب في الدنيا، يقولُ إذ تبـــيّن له ما فرّط وتمنّياً لو أنه استدرك: يا ليته اتخذ مع الرسول الهادي في الدنيا سبيلاً مـــستقيماً إلى خير المآل، لو أنه لم يُعرض عنه طاعناً في حق مقولته وصدق نذارته وفي أمانته ورشده وصواب رسالته استقامةً وثباتاً.

﴿يَـا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ (٢٨ – ٢٩)

يمضي الظالم صارخاً من هلاكه: يا وليته، مستغيثاً تمنّياً يا ليته لم يتّخذ فُلاناً – أياً مـن بين الذين كانوا في الجماعة الذين خاطبهم الرسول وآثر هو الظالم صحبته خليلاً يوثـق ويُـصافي صداقته ويكل إليه النُصح المتّبع في خيار الفرقان بين الحقّ والباطل في الحـياة، ويعـرف الظالم تلك الخلّة ويتبيّن جدواها في العاقبة قائلاً: إنه لقد أضلّه حقاً وحـرفه عن ذكر الله الحقّ الذي جاءه منـزّلاً متلواً بيّناً لا ريب فيه رسالة هدى في الحـياة ونذيراً وبشيراً بما حقّ اليوم في الآخرة. وكان الشيطان من الإنس والجنّ مهما يصحب المرء من بني الإنسان وهو شاطّ بُعداً عن الحق يلوي بالمرء عنه ويُغريه بمواعدته الخلاّبـة الزائفة – كان خذولاً، مؤدياً بالمرء إلى بالغ الخيبة وشديد التخلّف عن صدق نجـاز موعوده لا يحقّ للإنسان فيه رجاء ولا يثبت منه نصر بل يتبرّأ هو من خلّة ذلك الإنسان غير شفيع له ولا مصرخ يوم الفزع الأكبر.[1]

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠)

يومـئذ يمضي قول الرسول ﷺ حامل أمانة ذكر الله الخاتم للمرسلين بها – منادياً بين يدي ربّه إذ يُخاطبه شاهداً على قومه الذين قاموا من حوله وخاطبهم بالرسالة: إنهم اتخذوا هـذا القرآن الذي نـزّل عليهم فرقاناً ونذيراً – اتّخذوه متروكاً مهجوراً لا يقبلون تلقّي هدايته ولا يستجيبون لدعوته ولا يسمعون لتلاوته غافلين عن العمل به صدقاً وفيّاً.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١)

وكذلك – لّما وقع لهذا الرسول النبيّ الخاتم ﷺ الذي يرويه الله حقاً ماضياً مروياً يـوم القـيامة مـن صدود قومه عن كتابه في الدنيا وشكاته من هجرهم ذاك لذلك للقرآن – كذلك جعل الله بأقدار بلائه لعباده وتخييرهم وإملائه للصادّين عن أمره سُنّةً أجـراها متواترة – جعل لكل نبيّ من قبل عدواً من المجرمين، خصماً عليه من الجانين على قوام الحقّ.

(١) لا جـدوى في خلّة ولا قدوة بين غير المتّقين يوم القيامة إلا ندماً وملاماً: راجع الآية ٢٥٤ سورة البقرة، وانظر الآيات ٦٦، ٦٨ سورة الزخرف، والآية ٦٧ سورة الزخرف.

وليـــصبر النبيّ الخاتم مخاطباً بهذه الوصيّة إن جرت عليه تلك السنّة إذ كفى بربه هاديـــاً له بالقرآن ليمضي مستقيماً به مهما يحمل عليه قومه الذين ضلّوا بتقاليدهم عن مـــسلك الهدى، وليكن في غناء عن مذهبهم الذي يصرّون عليه ويدعون إليه. وكفى به ﷻ نصيراً له يدفع عنه مهما يعدون عليه بقوّتهم الباغية أذى ومداحضة ويُصابر هو على مجاهدتهم.

﴿وَقَـــالَ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْه الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحدَةً كَذَلكَ لنُثَبِّتَ به فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتيلاً * وَلاَ يَأْتُونَكَ بمَثَلٍ إلاَّ جئْنَاكَ بالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسيرًا﴾ (٣٢ – ٣٣)

ينـــضاف إلى أقـــوال الذين كفروا طعناً في الرسول فيما يتلو عليهم من كلمات الوحي أن يأخذوا على نهج تنـــزيل القرآن عليه، إذ قالوا: لولا، هلاّ نُزّل عليه القرآن جملـــةً واحـــدة، فألا تتجدّد عليهم تنـــزيلاته بذكر كلّ حين وفي كلّ حدث تواليهم إزعاجاً معانيه وتُراجعهم قلقاً تتفرّق عليهم وتقتضيهم التعرّض لها طوال أيامهم، فلولا تنـــزّل كله مُجملاً ليحكموا فيه ويحملوا عليه حَمْلة واحدة تردّ كلّ مقتضاه وتنقضه دفعة واحدة. ويأتي في الآية أن القرآن ينـــزّله الله كذلك منجّماً على الوقائع مرتّلاً في نـــصوصه، ويُخاطب النبـــي أن ذلك كذلك ليثبّت به الله – بأقدار وحيه المتواتر عبر تـــوالي أسباب التنـــزيل – فؤاده ضبطاً وحفظاً عبر الأيام، وأنه ﷻ بتلك الأقدار رتّله ذكراً بعد ذكر متساوقاً ليتدافع وقع هديه تثبيتاً وتذكيراً في كلّ حادث ابتلاء مصابرة ومُجاهـــدة في وجـــه كلّ جديد بلا حرج في ثقل الواقع بل بدرجٍ في فرص التكاليف وبسط التعاليم. ويمضي الخطاب بياناً لنهج التنـــزيل ليضيف أنه لا يأتيه الذين كفروا بمثلٍ مـــن وجوه المطاعن وحجج الجدال وشُبه الإعراض إلا جاءه الله بأقدار وحيه المرتّبة بالحقّ في عـــين المـــسألة لبيان الحقّ ولدفع الباطل، وأحسن تفسيراً بياناً أوضح لمُقتضى الهُدى إذ يـــتوافى في شـــأن كلّ المسائل والهدى والحكمة في الواقع، خيراً من أن يتنـــزّل عموم الهدى بإبهام ليُفسّر من قرّائه بعداً قياساً واستنباطاً لمقتضاه مُفصّلاً عبر الوقائع المتعاقبة.

﴿الَّذينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوههِمْ إلَى جَهَنَّمَ أُولَئكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبيلاً﴾ (٣٤)

تـــأتي في الآيـــة الخاتمة في ذكر أولئك الذين كفروا – طعناً في الرسول وتكذيباً للـــساعة وإنكـــاراً لمنهج تنـــزّل القرآن – تأتي كلمة الفصل الحاسم في عاقبتهم مبتدأً

بذكر الواقعة عليهم يومئذ، إذ هُم الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنّم، يُساقون إليها مسحوبين على وجوههم ذلاً وجراً لهم بالأغلال. ويأتي ذكر وصف حالهم ومآلهم: أن أولئك شرٌ مكاناً، إذ لا يطيب مأواهم، وأضلّ سبيلاً، إذ لا يهتدي مسلكهم إلاّ إلى جهنّم. ذلك بينما سبق ذكر فضل المتّقين أصحاب الجنّة حيثُ يُزفّون إلى خير المستقرّ وأحسن الظلّ لأنهم كانوا في هُدى يستقيم بهم إلى خير الجزاء والمصير.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ (٣٥ – ٣٦)

ولما سبق القول أنّ لكلّ نبيّ عدواً من المجرمين، يقول الله بصيغ المتكلّم إذ يُخاطب عباده إنه آتى بكلّ أقداره في اصطفاء الأنبياء ووحيه للهدى – آتى موسى الكتاب، رسالة إلى اليهود في التوراة الباقية آثارها السائدة ثقافتها حول العرب أمّة خطاب القرآن الأولى. ويقول الله إنه جعل بتلك الأقدار الجليلة في تأييد رسله أخا موسى وزيراً، وهو هارون يؤازره بياناً وعوناً في حمل أوزار الرسالة. ويمضي المذكّر أن قد ترتّب خطاب من الله متصوّب إلى ذلك الرسول والوزير أن يذهبا – أمر تكليف وإرسال إلى القوم القائمين حولهما من فرعون وآله الذين كذّبوا آيات الله وتجلّيات أقداره في معجزات عرضها عليهم موسى وكفروا بوحدانيته ﷻ معبوداً بينما ادّعى فرعون فيهم الرّبوبية الأعلى واستخفّ قومه فأطاعوه وفاصلوا حقّ الرسالة. فدمّرهم الله بأقدار فعله النافذ تدميراً إذ هدّم قوّتهم المستكبرة هدماً استأصلهم غرقاً.[1]

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٧)

وينضاف إلى ذكر الذين كذّبوا برسالة موسى فدمّرهم الله بأقداره ذكرُ قوم نوح الذين قاموا قديماً شمال أمة الخطاب الأُولى، كذّبوا رسالة الرّسل المتنزّلة عليهم من الغيب – رُسلاً من الملائكة بالوحي ورُسلاً بشراً إلى العالم المشهود للبلاغ بلسان أمّة خطابهم. لمّا فعل أولئك ذلك أغرقهم الله بأقدار عقابه العاجل إذ غمرهم طوفان الماء

---

(١) في شتّى السياقات القرآنية التي رويت فيها سيرة موسى عليه السلام: راجع الحاشية ٢٣ للآية ١٧١ سورة الأعراف. وذكره متواتر في سائر القرآن.

حـــولهم بيـــنما اجتازه نوح ونجا ومن معه بسفينة هَداهُ الله إلى إعدادها قبلاً. وكذلك جعلـــهم الله بتلك الأقدار العظيمة المتضاعف وقعها – جعلهم للناس من خَلَفهم آية، شـــهادة بيّنة على قدرة الله وسنته في مصير المكذّبين عظة للذين تُروى عليهم قصّتها. واعـــتدّ الله لهـــم بأقداره الجليلة في بعث البشر في حياة أخرى وجزائهم على بلائهم وكـــسبهم في الأُولى – اعـــتدّ هنالك للظالمين العادلين عن قوام الهُدى وحدوده عذاباً أليماً ينتظرهم يومئذ، حرقاً مشتدّاً عليهم موصولاً أبداً في النار لا غرقاً مثل ما أصابهم في الدنيا حادثاً بشرقة ماء وموتة من فورها وراحة وفناء.[1]

﴿وَعَـــادًا وَثَمُـــودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْـــثَالَ وَكُلًّـــا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ (٣٨ – ٣٩ – ٤٠)

وعـــاداً – قوم هود– وثموداً قوم صالح وأصحاب الرسّ البئر غير المطوية في مدين مـــن قوم شُعيب – دمّرهم الله كذلك عقاباً لكفرهم، وقد خلفوا في مسالك التكذيب بالرســـالة فـــالهلاك. وقروناً – من الأقوام المتقارنين المتعاصرين فالمتعاقبين بين ذلك في العهود الخالفة وكان عدّهم كثيراً وقاموا في قرى شتّى. وكُلاً من تلك الأقوام المتوالية ضـــرب الله له بأقدار رسالته وآياته العظيمة الأمثال من عِظات مَن سلف قبلهم: قدوة الرسالات المتصادقة في سبيل هداية بعد الضلال ونذيراً من عواقب التكذيب وصورها، وكـــلاّ تبّر الله تتبيراً إذ حقّ عليهم الهلاك الأفعل لإعراضهم المستكبر رغم مُثل الهدى والنذير.

ولقـــد أتوا هم أمة الرسول الخاتم التي يُخاطبها هذا القرآن من قوم قريش – لقد أتوا مارّين في تجارتهم التي ألفوها نحو الشام على القرية التي أُمطرت مطر السوء، وهي ســـدوم عُظمى قرى قوم لوط الذين كانوا رغم الهُدى والنذير يُكذّبون رسالته ماضين في ممارســـة الفاحـــشة الـــسوأى، فعوقبت تلك القرية وإخوانها بمطر السّوء حجارة تساقطت عليهم من الزلزال. وحقّ أن يرد السؤال لأولئك الخلف الشهيد لتلك القرية

---

(١) في بيان قصّة نوح ومن يلي ذكره من الرّسل: راجع الحاشية ١٩ للآية ٩٩ سورة الأعراف. وذكرهم متواتر في سائر القرآن.

المخاطـــبين بالقـــرآن: أفلـــم يكونوا عند مرورهم بها في سياحتهم التجارية يشهدون فيعلمون كيف مصائر التكذيب للأنبياء؟ بل هم كانوا لا يرجون نشوراً بعد الموت فلم يـــروا فـــيها إلا مـــشهد آثار واقعة الهلاك العاجل في الدنيا، لكنهم لا يتّعظون بمصير المكـــذّبين، بل لا يخافون ما هو أشدّ وأبقى سوءاً عاقبة بعث ونشر وحشر بعد الموت فحـــساب وعقـــاب مترتب وماضٍ إلى الخلود. وهم يظنّون أن القرى الهالكة قد فني أهلها ومضت القرون و لم تبق منهم إلاّ الآثار، وأنهم كذلك يموتون ولا تبقى منهم إلا العظام التي لا يُبعث أصحابها نشأةً في حياة أخرى.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَـتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُـزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (**٤١ – ٤٢**)

هـــم غافلـــون عـــن عظات القرون الأولى حولهم التي يسمعون أخبارها ويرون آثارهـــا، والخطاب للرسول ﷺ أنهم فضلاً عن ذلك إذا رأوه هو قائماً بينهم مشهوداً يبلّغهم رسالة هُدى حيّة علاوة على عبرة ذكرى من الماضي – إن يتّخذونه إلا هزؤاً، قصروا أمرهم معه أن يجعلوه مستسخراً متسائلين: أهذا الذي بعث الله رسولاً؟ كأنهم يعجـــبون ممن يزدرونه بشراً ويظنون أنه يفتري على الغيب فعلى الله فيما يزعم وحياً، ولـــيس معه مَلَك يشفع له ويشهد على صدق قوله و لم تقع له آية مُعجزة تخرق سُنن المشهود وتدل على صلته بالغيب كأن يُحظى بكنـــز أو جنّة.

ويمضي قولهم في شأن ذلك الرّسول أنه كاد أن يُضلّهم، قارب أن يصرفهم عمّا يحسبونه وجهة الهدى الأحقّ في عبادة آلهتهم الصنمية، لولا أنهم صبروا عليها وقاوموا حملاته عليهم ومُحاولات إضلالهم البالغة الوقع. وسوف يعلمون في الآجلة ويُدركون حـــين يـــرون العذاب الذي كان يُنذرهم به الرّسول عياناً ويشهدون بياناً أحوال يوم القيامة – سوف يعلمون مَن أضلّ سبيلاً. سيتبيّن لهم أهم سلكوا مذهب هدى استبان حقّـــه أم كانـــوا هم الأضلّ وهو رسولاً أميناً ونذيراً الأهدى عبادة؟ إذ طالعتهم بيّنة هدايته ورسالته وتجلّت لهم حقاً عياناً وواقعاً بياناً.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ (**٤٣**)

والخطـــاب يتّجه إلى الرسول ﷺ تالي القرآن ومُبلّغ رسالة الهدى: أرأى مَن اتخذ إلهه هواه، من جعل إلهاً له معبوداً ما كانت تهوى إليه مساقط شهواته في الدنيا وميول ظنونه من متعلّقات مشهودة ومذاهب تقاليد مقصودة تُزيّن له مُثل الأصنام، دون تحرٍّ لآيـــات الله البيّـــنة ولا تُذكّر بآيات الله الموحاة ولا هُدى من ثمّ إلى حقّ الألوهية نحو وجهـــه ﷻ. الخطاب للرسول: أفهو يكون عليهم وكيلاً، يوكل إليه أمرهم ليُصرّف إرادتهم نحو الحقّ ويقطعهم عن الضلال في التعبّد للأهواء بل الله هو الوكيل على عباده تـــركهم لخيارهم الحرّ ومسئولياتهم الحاقّة - فآثر هؤلاء سبيل الضلالة الذي هوت إليه أنفسهم بغير حق.

﴿أَمْ تَحْـــسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (٤٤)

يستمرّ الخطاب للرسول ﷺ: أم يحسب هو أن أكثرهم - أولئك الذين كفروا إلا قليلاً منهم - يسمعون ما يُتلى عليهم من ذكر آيات الله البيّنة استماع تلقٍّ أو يعقلون ضابطين تفهّم معانيها وتفقّه مقتضاها متّقين مناهيها كافّين لأهواء الضلال دونها؟ الحقّ أنهـــم صمٌّ لا يسمعون كلمات الحقّ في وجدانهم وبين قلوبهم وهدى القرآن حجاب أهوائهم، إن هم - حقاً مؤكداً - إلاّ كالأنعام التي لا تتلقّى بيان كلمات القرآن المتلوّة ولا تعقلها تفهّماً ورشداً، بل هم أضلّ سبيلاً لأن الأنعام مطبوعة على طاعة أقدار الله وأحكامـــه في شأنها تهتدي تلقاءً إلى متاعها ومسلكها في الحياة ولسان حالها يسبّح لله تعـــالى، بيـــنما هم أعملوا مشيئة الخيار والفطرة البشرية العاقلة للإعراض عن الهدى مسلكاً والانتهاء إلى العاقبة الخائبة.(١)

عموم المعاني (الآيات ١ - ٤٤):

تتجلّـــى آيـــات الله المتبارك جلاله في سنن تعاظُم أقداره في طبع الكون وخلق الإنسان وتناظم سُنن ابتلائه لعباده بني الإنسان بفتن الحياة الدنيا، وتتجلّى آياته كذلك في كلم رسالاته الموحاة من الغيب تحمل رسالة رحمة لهم - قرآن علم وحكمة وكتاب

(١) الضالّون كالأنعام أو هم أضلّ سبيلاً: راجع الآية ١٧٩ سورة الأعراف.

فــرقان رشــيد يــزكّيهم تميّزاً بين مسالك الهدى ومزالق الضلال في حياتهم الحاضرة وفــرقان نذيــر وبشير بالمصائر التي تحقّ عليهم في أخراهم مُختلفةً وفاق ما قدموا في دنياهم. وأوّل البلاء لحملة تلك الرسالة خاصّة أن المخاطبين المفتونين بعارضات الدنيا وعاجلاتهــا يتعــسّر عليهم التذكّر بآيات الله ويضلّون عن الإيمان بالغيب الذي يصل حــياتهم الأُولى بحقائــق الأخرى، فهم ضالّون لا يبين لهم الاهتداء إلى مسلك الحياة المــستقيم وغافلون لا يستشعرون ضوابط الخوف ودوافع الرجاء تجاه عواقب الآخرة. إن أكثــر أولئك المفتونين بالدنيا عالقون بعالمها المشهود قاصرون عن الغيب والإدراك الحــق لــربوبية الله للعالمين وملوكيته لهم في عاجل الدهر الموقوت وآجل الأزل الخالد وألوهيــته المطلقة في الوجود، واحداً غنياً لا يتّخذ ولداً يُعينه أو يعقبه ولا شريكاً معه كفؤاً يوازيه ولا دونه يصله بالعباد البشر. وهو القدير لا يُعجز قُدرتَه أمرٌ فما من شيء ســواه إلا خلقــه هــو وقدّره تقديراً. ولكن في مادة الوجود المشهود حول البشر ما يفتــنهم ويــرهنهم، إذ مــا يــرون الله عياناً فيتّخذون من دونه ما يحسّونه فيوقّرونه بإدراكهم المباشر ويؤلّهونه ويتعبّدون له ولو كان أولئك المعبودون بغير حق لا يخلقون شــيئاً في الوجود ولا يملكون مُطلق أقدار تصريف أحوال عُبّادهم البشر فلا ينفعونهم ولا يــضرّونهم ولا يُميــتونهم عدماً أولاً فيُحيونهم في نشأة دُنيا ولا بعثاً ولا نشوراً في نشأة أخرى كما يُقدّر الله.

أولئك المفتونون بالمشهود المحسوس يطعنون في رسالة الوحي من الغيب للأنبياء، خــاتمهم مــثل سائرهم قبلاً. يحسبونها إفكاً مُفترى بعون من آخرين كانوا يتداولون مــسموعات وحــي مُدَّعىً. إنهم جاءوا بظلم يعدل عن الحقّ في شأن الله إزاء البشر، ينــسون أنــه تعهّدهم منذ مهبط أبيهم آدم دون الغيب وعْداً أن يُنــزل عليهم وحياً علمــاً وهداية ويُرسل إليهم مبعوثين من أنفسهم رسلاً يحملون تلك الرسالة شاهدين علــيهم مبشّرين منذرين. إنهم يظنون أقوال الرسالة أساطير من الأولين تُملى على من يــرويها بُكرةً وأصيلاً. لكن الرّسول يُجاوب ظنونهم وريبهم أن ما يبلّغ إنما هو الحقّ المتنــــزّل مــن الله وهو المُحيط بالوجود العليم بأسباب الوحي الغيبــي من الملائكة وســرّ النبوة المخصوص لتلقّي الوحي لأنه يعلم خفايا الحقائق في السماوات والأرض

وأيّمـــا إفـــك أو مأثور باطل يُنسب إليه زوراً أو أيّما حق ثابت. إن أولئك المكذّبين بالقـــرآن إنما يُنكرون أن يتلقّى بشر مثلهم محدود الإدراك وحياً من الغيب رسالةً من ذات الله إذ لم يمـــزه عـــنهم بأن له طبعاً روحانياً يتجرّد به عن ضعف البشر يحيا دون أكل الطعام وحاجته والمشي في أسواق المعاش والمعاملات مثلهم، ولم يشفعه مَلَك من عـــالم الأرواح شاخـــصاً شاهداً يعزّز دعواه، ولم يتجلّ في أحواله حياز جنة وأموال مُكتسبة تُلقى عليه عفواً دون سبب سعي معهود آيات إعجاز خارقات لما هو مطبوع من مسنونات الطبيعة المشهودة. أو يذهب أولئك الظالمون العادلون عن الحقّ فضلاً عن تلـــك المطلـــوبات مـــن شهادة غيبية السبب بيّنة الوقع من الله فيدّعون طعناً في أهلية الرسول البشر المدّعي تلقّي الوحي والأنباء من الغيب بلا وسائط روحانية مشهودة ولا أقـــدار مكسوبات عجيبة، ويرمون أقاويله عن الغيب ومن تابعه عليها بأنها ما هي إلا أعـــراض ســـحر أصابه فغشيه مخيّلات موهومة استرهبت الأتباع. إنهم يكذّبون حقّ رســـالة التذكير المنـــزلة ويضربون لحاملها أمثالاً من الظنون الضالّة عن سبل الهُدى في تحـــرّي بيّنات الحق. إن الله المتبارك حوله وقوّته إن شاء أن يبسط إشهاداً يعزّز صدق دعـــوى رســـوله قادرٌ حقاً على أحداث المُعجزات اختراقاً للمسنون المطبوع المعهود مُـــدوداً مـــن عـــالم الغيب والروح عجيبة عظيمة الوقع في العالم المشهود هي بُهُوت للمكذّبين برسالة الغيب إلى النبـــي صادعة لكفرهم ليؤمنوا بحقّها وصدقها، وخير ممّا يتطلّـــبون، كـــأن يجعـــل الله له جنات تجري من تحتها الأنهار واحة مرويّة في صحراء المخاطـــبين لا جـــنّة واحدة، أو يجعل له قصوراً محفوفة الحوز مصفوفة يقصر عن نيل مـــثلها أصحاب الخيام المتواضعة المنكشفة مثلهم. لكن الله أنـــزل إليهم رسالة الفرقان آيـــاتِ تبيان لما يميز مسالك الهدى في الحياة عن مناهي الضلال معزّزة بكلمات نذير صـــادق بعاقبة ما هم فيه من جاهلية إنكار للغيب مرهونة لحاضر الحياة الدنيا ومتاعها محـــصورةٍ غافلـــة عمّا وراء أقدار أوقاتها الدهرية وظروفها المُحيطة ونفوسهم راضيةٌ مطمئنة بمصير الفناء عند الموت كافرةٌ عميّة عن آيات إخراج الله الحي من الأرض الميتة وسنته الدوّارة في حركة الكائنات مكذّبةٌ ببعث الإنسان في نشأة وحياة أخرى إذ تقوم القيامة واقعة لأجلها بعلم الله وساعة حلولها الموقوتة بقدره ﷻ ونذير النبأ العظيم.

إن الـــذين كفروا بالغيب وآياته ولا يصدّقون نبأ ساعة البعث والقيامة بعد جمود ممات الإنسان المسنون وعرض كل العباد للمحاسبة بميزان محيط عما قدّموا في دُنياهم وللمجازاة بقضاء عدل من الله وفاق ما كسبوا. ذلك الكفر بدار الجزاء بعد دار البلاء يجعلـــهم لا يستشعرون المسئولية ولا نذر العقاب في العاقبة، فلا يخشون سعيراً أُعدّت لهـــم هناك بالغة الالتهاب وقعاً عليهم تحملهم على تمنّي الهلاك. إنهم لم يصدّقوا كلمة الـــنُذُر في الرســـالة الموحاة فلم يُبالوا بالإيعاد ولا الوعد فلم يستجيبوا لدعوة الرسالة فيرجـــوا مـــا أُعدّ من جنّة للمتّقين معاصي الله ومغاضبه وما حقّ لهم من ذلك وعداً مـــسئولاً عنه الله الصادق القادر على كلِّ شيء قيُّوم يوم القيامة مالك يوم الدين لكلِّ عـــباده، حيث يتمايز مصيرهم بعد المساءلة، حتّى الملائكة الذين يتّخذهم بعض البشر أرواحاً فروعاً من الذات الإلهية يُسألون ذلك اليوم يتبرّأون ممن تعبّد لهم واتخذهم أولياء مـــن دون الله الذي رأوه بعيداً في عليائه، وإن جعلهم بعضهم – كالعرب في الجاهلية الملائكـــة – بـــنات الله في زعمهم – ومثّلهم أصناماً تقرّبهم إلى الله زلفى، إنهم يُلقون الملام على أولئك المشركين الذين يحقّ لهم البوار إذ لم يدركوا أن الملائكة قاصرون عن أيما صرف عنهم للعذاب أو أيّ نصر لهم في وجه أمر الله الغالب الفعّال.

إنّ تكالـــيف الرســـالة مـــن الله مهما يثقُل أداؤها لم يكُن اصطفاء المرسلين بها منه ﷻ إلاّ من عباده الذين لا يتجاوزون الطبيعة البشرية العاديّة في المطعم والتعامل في أسواق المعاش، لأنهم مبعوثون لبلاغ الدعوة بين الناس مثلهم وليقوموا قدوة لسائرهم يحملـــون تلـــك الأمانة مثالاً ويتعرّضون للإعراض والأذى في سبيل الوفاء بها. وتلك ظاهرة في سيرة المرسلين وكلّ الدعاة الذين يلونهم متعاقبين بشراً مثلهم يتّبعون سنتهم بلاغـــاً ومـــثالاً وهداة وقُدى للخلَف ينقلون مقتضى الهدى عبر اجتهادات ونهضات متجددة متعاقبة بغير وحي جديد، وهي عُرضة لسُنن الابتلاء المعهودة مثل سلفهم من المرسلين إعراضاً من المخاطبين وأذىً ورمياً بالظنون وإلحاح تطلّب لتجلّي شأن الغيب مـــصدر الحـــق في دعوتهم عبر معجزات مادّية شاهدة على صلة صادقة بما وراء ظاهر الدنـــيا، لكـــنهم يصبرون ويمضون لا يصدّهم ما يلقون من ذلك متوكّلين على ربهم البصير بالأحوال الهادي لفرقان الحقّ في الحياة لعلّه يكتب لهم عاقبة الحسنى في العاجلة

والآجلة من أمرهم نصراً وفلاحاً. أما المفتونون من بني الإنسان بظواهر الحياة الدنيا في آفاق عالمهم المشهود وبدواعي الشهوات وعواجل حاجات الهوى فإنهم لا يؤمنون حقاً بالحياة الأخرى ولا بلقاء الله في غيبها وملئه الأعلى يومئذ. فإذا دعوا إلى الدين والإسلام لله واتباع هُداه الموحى شرعةً ومنهاجاً في الحياة الدّنيا، خشية نذيره من عاقب غضبة عذابه الواقع ورجاء بشيره رضواناً ونعيماً منه تعالى في الآخرة – عندئذ قد يلحّون – كما جرى من أمة الخطاب الأُولى المغشية بفتنة المادية – أن تقوم بين أيديهم من الغيب آية حاضرة مشهودة كأن تُنزّل عليهم الملائكة من عالم الرّوح الغيبيّ شاخصة أو يروا ذات ربّهم، وإلاّ فإنهم يأخذهم الاستكبار والعتوّ أن يؤمنوا بأمر الغيوب أو يسلموا خاشعين لربٍّ قيّوم بأقدار الغيب متّقين لعواقب أجل في أزل موعود. أولئك لّما يؤمنوا بالغيب لكنهم يوم يأتيهم الوعد الحقّ بواقعة القيامة ويرون الملائكة عياناً لا بُشرى لهم ولا طمأنينة بل همّهم يومئذ التماس النجاة والدّعاء المستغيث: حجراً محجوراً، حصاراً من مضائق المساءلة والمحاسبة والمجازاة بالعذاب المهين، أعمالهم التي قدّموها سيّئات اكتساب في دنياهم يُقدم عليها الله بأقدار علمه المُحيط وقضائه الفاصل فتخفّ هباءً منثوراً لا ترجح عليها أيّما مثاقيل كسبوها من صالحات أعمال، ومن ثمّ لا يستدركون ما حقّ عليهم في تلك الواقعة مهما يسألون الله المرجع إلى الدنيا ليعودوا صالحين، ولا يلحق بها أيّما حظ مقدّر من الطمأنينة والسّعد، فإنما ذلك السّعد لأصحاب الجنّة الذين حقّت لهم بزاد إيمانهم وبسابقات صالحاتهم وغدت لهم خيراً مستقراً وأحسن مقيلاً من مأوى الكافرين.

ذلك يومٌ تتبدّل فيه سُنن طبيعة الكون الثابتة المنظومة المعهودة في الدنيا، إذ تشّقّق السماء التي عرفها البشر قبلاً سقفاً محفوظاً لا تُسقط عليهم إلا الغيث المبارك. يومئذ تنزّل الملائكة حقاً من علياء الغيب جنوداً لله صافّين حوله يُحيطون بالبشر إذ يحشرونهم في معارض العذاب ويسوقونهم إلى المأوى الحاقّ عليهم جزاءً وفاقاً لما قدّموا وحيثما يقضي أمر الله العادل وحكمه الفاصل. والمُلكُ يومئذ إنما يحقُّ كلّه لله الرحمن، بالغ الرّحمة التي استهدى المؤمنين برسالتها وكانوا يستدعونها في دنياهم ويرجونها يوم لقائه ﷻ. وكان يوماً على الكافرين عسيراً لأنهم ما أعدّوا له زاد رجاء لرَوح من الله

ورحمة فحقّ عليهم أن يُطردوا منها وغدوا لا يغشاهم إلا الغضب والعذاب. يومئذ يعضّ الظالم من بني الإنسان الذي كان يطمئن عادياً في دنياه على هُدى ربه الحقّ العدل - يعضّ على يديه ندماً على ما فوّت وفرّط، ويقولُ يا ليتني هجرت مذهب الهوى وانصرفت عن فتنة شهواته واتّبعت الرسول الذي جاء برسالة موحاة من الله تهدي إلى الصراط المستقيم وتُنذر وتُبشّر بالعاقبة المكتوبة، ليتني استجبت لدعوته واتخذت معه سبيلاً إلى عاقبةٍ حسنى، ويستغيث صائحاً بمصيبته من الويل ويتذكّر عين مَن صرفه عن اتّباع الرسولَ الهادي واجتذب ولاءه في الدنيا - متمنّياً أن ليته لم يتّخذه خليلاً يوادّه ليحادّ الله ورسوله. وتبيّن له أن قد أضلّه عن ذكر الفرقان بعد إذ جاءه بلاغاً أميناً من الرّسول، وبدا له يوم القيامة أن الشيطان من الناس الذي يُقارن المرء ويُضلّه في الدّنيا ويواعده غروراً عن الآجلة قد كان - حقّاً ماضياً- خذولاً يخيب وعده الخلاّب ساعة الفصل والعقاب على الضلال فلا يورثه إلا الحسرة. ويكون يومئذ قد قام على أولئك الظالمين الرسولُ شاهداً إن هؤلاء من قوم خطابه اتّخذوا هذا القرآن الذي كان يحمله ويبلّغه ويتلو آياته رسالة هدى إلى قوام المسير دليلاً على حُسنى المسير هُدىً وسوأها ضلالاً، وأنه أدى الأمانة مُبلّغاً ذلك ولكنهم لم يُقبلوا عليه كالمؤمنين ليستمعوا للكلمات الموحاة سمعاً مُطمئناً في وجدانهم يتعلّمون فيها علم الغيب ويهتدون للحكمة والسنّة المقتضاة مسلكاً في الحياة رشيداً. وتلك كانت بلاءات المرسلين أن جعل الله لكلّ نبيء بكلمات الغيب فتنةً في دعوته عدواً من شياطين الإنس المجرمين يوحي بعضهم إلى بعض المُخاطبين زخرف القوم وغرور الضلال. ولْيطمئن النبي الخاتم وكلّ داعية خالف عل سنّته أن كفى بربّه هادياً مهما تنتشر حملات الإضلال ونصيراً له ومَن اتّبعه من المؤمنين الصالحين مهما يتكاثر المجرمون ويتناصرون عليه إعراضاً أو أذى.

وكما طعن المُخاطبون الأُول الذين كفروا بالقرآن في صدق بلاغ القرآن وحقّ مصدره، طعنوا في منهج تنزيله الذي والاهم سنين عدداً. وقالوا أن لولا أُنزل على من يتلوه عليهم جملةً واحدة. وما كانوا يُدركون حكمة تنزّل القرآن منجّماً حسب تطوّر أحداث بلاغ الرّسالة ومقتضيات ظروف الدعوة وابتلاءات وقعها على مَن بُعث

فـــيهم رسولاً. هكذا كان يتنـــزّل القرار عليه متدرجاً، ولا يأتيه المُخاطبون بحادث في جملـــة من التطلّبات والتحدّيات والتساؤلات المتوالية إلاّ وافاه من الله عين الحق الذي يـــردّ باطلـــهم والتفسير والبيان الأحسن الأنسب لمجاوبتهم. وتنـــزّل القرآن متدرّجاً كذلك حسب تطوّر وقع تكاليف الهدى لئلا تُوقِع في محنة من فور وقعها بكلّ أثقالها. هكـــذا تنـــــزّل الذكر أرتالاً ليثبّت فؤاد الرسول الداعية به عبر تقلّبات فتن الدّعوة، ولتـــتدافع أرتالـــه المتتابعة نـــزولاً لتتمّ نعمة الهداية ويتكامل نور الدين ويرتفع المثال الأبلـــغ للإســـلام لله. وهكذا تقتضي مراحل تجدّد بلاغ الدين من بعد كلّما أصابت أصـــحابه وهـــدة بالغة وكلّما تغيرت بلاءات الحياة واستدعت سنّة التجديد المتدرّج المتثـــبّت ولزمت النهضة درجاً نحو معالي المثال، كأن غشيت أصحاب الملّة الإسلامية أحـــوال غفلـــة وانتكاس شامل، أو قامت من حولهم أمم خطاب في مذاهب جاهلية وباطـــل يجانـــب حقّ دين الإسلام وتحدٍّ لأصول دعوته وتصدٍّ لصدقها مما يقتضي من الدعاة الاقتداء بسنّة الرسول الداعية الأوّل وإمامته المُثلى والمراعاة لترتّل درجات مثال الـــدين الأوّل اهتداء بالذكر المتنـــزّل أطواراً، حتّى تنشط وتتتامّ حملات رسالة البلاغ والتعليم والتذكير والتزكية المتجدّدة المتعالية صُعداً فيتسامى دين الإسلام حتى يقوم بما هو الأشهر والأمثل والأظهر على مذاهب الدين كلّها.

إن الـــذين كفـــروا بالقرآن فرقان الهداية ورسالة النذير، إذ فتنهم حاضر حياتهم الدنيا ومتاعها وتعزّروا بالآثام والغرور على التواضع والخشوع لوجه الله أولئك هم في آخـــر حـــياتهم أضـــلّ السبيل وشرّ المنتهى وفاق أوّلها. أولئك يُحشرون يوم السّاعة مُجانبين الصراط المستقيم إلى النعيم الكريم ناكسين رؤوسهم يُسحبون أذلّة إلى جهنّم ويؤولون بذلك إلى سوء المأوى.

ونـــصباً لمثال القرآن المتنـــزّل وقدوة الرسول الخاتم عِبرةً للنهضات وللدعاة إلى الإســـلام من بعد – أمانةً ومجاهدة في بلاغ الدّعوة المتجدّدة وتزكياً لهم وتسلّياً مهما يتعرّضـــون لابتلاءات الإعراض وتكلّفهم التكاليف المُصابرةَ والعُرضة للأذى والعُسر، وتذكـــرة واعظة لأمم الخطاب بمثال دعوة الدين الأُولى فتبصُّراً للمصائر مهما يستكبر الناس ويُصرّون على معهودٍ قديم من إسلام تقليدي مرتكس عن مثاله أو مذهب باطل

سوى ذلك، وهدايةً للرؤى المعتبرة بتاريخ التوطئة المتدرّجة لتطوّر رسالات الوحي نحو الكمـــال ومن سابق تصوّبها المنحصر في أقوام معيّنة في عهود وظروف خاصة بهدايات محـــدودة إلى لاحـــق إرسالها في الختام إلى الناس كافة والقرون والعهود المتعاقبة بهداية كاملـــة شاملة دعوة عامّة خالدة إلى يوم الدين – من أجل كلّ ذلك تتوارد في سورة 'الفـــرقان' قصص الأنبياء الذين خلوا دعاة للحق هادين منذرين وما كان من إعراض أقوام خطابهم وما جرى منهم من بلاء. وقد جاء القصص في هذه السّورة موجزاً بينما فُـــصّل روايـــةً في السّورة التالية وغيرها. وتلك القصص تُذكّر بأقدار الله في اصطفائه رســـلاً من البشر وإيحائه إليهم الذكرَ برسلٍ من الملائكة وتحميلهم آيات وصحفاً من الهُدى ليبلّغوا أمة خطابهم، وتردّي فعال سواد أقوامهم الأعظم الذي لا يستجيب ولا يـــردّ إلا تكذيـــباً وظُلماً ونذكُّر ما حقّ عليهم من مصائر هلاك آيات تاريخ واعظة لخلَفهـــم مـــن أمة خطاب الرسول الخاتم والقرآن الخالد مهما يمدّ الله لهم مُعرضين لا يُعجّـــل علـــيهم العقاب تأجيلاً إلى الآخرة. هكذا أُرسل موسى وأخوه هارون وزيراً تكلـــيفاً برسالة كان تراثها باقياً عند متنـــزّل القرآن، وقد خاطبت لأوّل عهدها قوم فرعون الذين كان التكذيب غالباً فيهم وانتهوا إلى التدمير الشامل. ومن قبلُ مضى قوم نـــوح ظالمين بعد دعوة الهدى المستقيم فذهبوا غرقاً. وخلَفهم قوم عاد الصادّون عن رســـالة أخيهم هود، وثمود قوم صالح وأصحاب الرسّ قوم شُعيب، وقرون بين ذلك تعاقـــبوا كـــثيراً مُثلاً لمصير الهلاك، ثم قوم لوط وكُبرى قُراهم التي أُمطرت مطراً من حجارة زلزال، وقد كان يمرُّ عليها الخَلَف من العرب المُخاطبين بالقرآن وكانت آثارها قائمـــة مشهودة لهم لكن رأوها فحسبوا أن المصير لبني الإنسان كلهم فناء مثل ذلك المشهد القديم وأنه لن يقع بعد الموت بعث ونُشور خالف. ومهما توالت تلك الأقوام الـــسالفة يـــسمع أولـــئك المُخاطبون الأُول من العرب أنباءها والروايات عنها مصابة بـــالهلاك بعد التكذيب بالرسالة والنذير أو تبدو آثار دمارهم يرونها في طريق التجارة، كانـــوا لا يعتبرون ويتّعظون بتلك المُثل فلا يخشون المصائر. بل إن الذين لحقوا بهم من بعـــد في سائر الأمم كانت تغلب فيهم الغفلة عن العظات في سيرة ضلالات الماضين، وكانوا ضالّين عن سنة القرآن في دعوته للسير في الأرض والبحث في آثار الذين خلوا

مــــن قبل والتحرّي عن أخبارهم والاتعاظ بها. ومثال ذلك اليوم شُعوب شرقية وغربية تعلـــم أن مجـــتمعاتها وسلطانها ودارها وحضارتها قامت عن تأسيس على أصول ديانة كتابية – نسبة إلى كتاب الوحي من الله، يهودية ونصرانية والأخير مسلمةً، لكن واقع أمـــرها وفعلـــها زلّ عن تلك الأصول وغفلت هي عن الدين كلّه إلا بقيّة من دعوى الانتماء للهوية باسم الدين الكتابـــي. وذلك أن قد غشت تلك الأمم فتنة متاع الدنيا أو بطش السلطان وما نهض فيها علم إلا بظاهر الدلالات والمعاني في طبيعة المشهودات والحـــياة الدنيا، غفلةً عن آيات الله في معالم الكون وسنن قدره وشرعه ﷻ في وقائع تـــاريخ الإنـــسان وتعاليم الدين، وتلاشت أو انفطرت هوادي الدين للحياة الدنيا ألاّ تـــنهض إلا متوكّلة على الله ولا تنتظم إلاّ منضبطة بتقواه رجاء للآخرة وخوفاً. وقد تدهـــورت في أحوال كثيرة حضارات شعوب وانطمست معالم مجدها وزينتها وهوت مصانع عمرانها، وداول الله فيها أيّام القيام والسّقوط بينما ينظر الخلَف فيما تركت لا يتبـــصّر في موعظة مثالها ولا يتذكّر دواعي التوبة إلى الدين كما تجدّد وتكامل وتمّ في هُـــدى الإسلام لعهد نهضته. وأولئك مثل الذين خاطبهم عيناً القرآن عند متنـــزّله في الغفلـــة عـــن عبرة الأقوام والقرى الهالكة من حولهم والإعراض عن داعية الاستماع لدعوة الهُدى والنذير الغيبـــي المتجددة في سبيل التوبة والاستقامة ونهضة حياة أخرى راشدة مهدية.

كـــان أولـــئك المُخاطبون الأوّلون بالقرآن إذا رأوا الرسول الخاتم قائماً بينهم في حاضـــرهم المـــشهود تفتنهم الأهواء والأعراف الحاضرة عن تذكّر ماضي الرسالات وتلهـــيهم التعلّقات بمادّة المشهود ومتاعه عن الإيمان بالغيب وتأخذهم الغفلة عن آيات الله في الـــتاريخ المذكـــور والطبيعة المشهودة ولذلك أنكروا أن يبعث الله برسالة من الغـــيب يحملُهـــا بشر مثلهم رسولاً؟ واتخذوه هزواً يقولون الأقاويل في صدق دعوته زاعمـــين أنـــه كـــاد بها أن يُضلّهم عن آلهتهم لولا أنهم صبروا عليها عناداً ومكابرة مستمسكين بالولاء لما عهدوا في موروثهم من آلهة. فلا سبيل لهم إلى الهداية حتّى يروا العـــذب الآجـــل الحـــاقّ عليهم يوم القيامة ليعلموا في حسرة مَن كان في الدنيا أضلّ ســـبيلاً. لقـــد اتّبعوا في الدنيا أهواءهم من الظنون والتخرّص بالغيب والتعلّق بالتقاليد

الـــصنمية الجاهلية والانفتان بعاجل متاع الدنيا وزينتها اتّخذوها آلهة غاية يتعبّدون لها وتُسخّر لها حياهم. ما يَكون للرسول أو الداعي على سنّته أن يُوكل إليه بلوغ اهتداء أولئك المُعرضين إلى حقّ الإيمان بالغيب والتعبّد الخالص لله الصمد، وإنما عليه أن يسعى لهدايتهم ويجتهد في بلاغهم. وما يكون لأكثر المُخاطبين بما يُلقى عليهم من تلاوة آيات الهدى أن يبلُغ بيانه باطن وجدانهم مهما تطرق ظاهر أسماعهم أصواته أو يتدبّروا معناه تجاوبـــاً مطمئناً في قلوبهم إذ توّهتهم الأهواء. وما هؤلاء إلا كالأنعام لا يتلقّون الوحي بـــياناً ولا يتدبّـــرونه معنىً، بل هُم أضلّ سبيلاً، فالأنعام مطبوعة على طاعة سنن الله مهديّـــة فيما كُتب عليها من مسالك الوجود بينما ذهبوا هم بطلاقة خيارهم طوشاً لا يـــستقيم فـــضربوا في أهواء الضلال وخبطوا كالعشواء في ظلمات المهالك لا يهتدون مسلكاً إلى قبلة مستقيمة في الحياة.

ترتيل المعاني (الآيات ٤٥ – ٦٢):

﴿أَلَـــمْ تَـــرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (٤٥ – ٤٦)

مهمـــا تأتي المخاطبين آيات القرآن المنـــزلة رسالة علم وهُدى من الغيب وكانوا يـــرتابون في صدق الرسول الذي يتلوها عليهم بلاغاً لأنه بشر لا مَشهد له من آيات مُعجزة مشهودة لكن أسبابها غيبية، ومهما تذكّر أولئك تلك الآيات الموحاة بآيات الله الواقعة قصصاً ومشاهد ومواعظ في سيرة سالف المكذّبين للرّسل ومصيرهم لكن يصمّ ويُعمـــي الهوى مُخاطبيه – فإن الرّسول حامل رسالة القرآن يتلو فيه آيات ذكر تعزيز دعـــوته تنبيهاً لآيات مشهودة في كون الطبيعة، إذ تُخاطبه هذه الآية – هو وأيّما تال بعده للقرآن من المُخاطبين به – وتسأله سؤال استنكار: أينفي رؤيته الماضية الرّاتبة تبيّناً لما هو مشهود؟ ألم يرَ – نظراً فتبصّراً علماً مُدركاً فقهها هادياً إلى الإيمان – أقدار ربّه كـــيف مـــدّ الظلّ، غاشى الظلمة من حُجب ضوء الشمس، الباقي في الصباح تلقاء الغـــرب إذ تطلـــع الشمس شرقاً، وينحسر مدّه عبر ضحى النهار وعلوّ الشمس حتى يـــنقلب في ظهر منتصفه مشرقاً قبل أن تغشى مساء ظلمة الليل المُحيطة بوجه الأرض

وأفقهـــا. ولـــو شاء الله لجعل الظلّ ساكناً، أن تنكفّ حركة دورة الضوء وتنحجب الـــشمس فـــيكون الظلّ ليلاً سرمداً أو تجمُد الشمس في أفق السماء فيكون مدّ الظلّ ومـــداه في النهار ثابتاً سرمداً. لكن الله طوّل مدّ الظلّ وقصّره غرباً فشرقاً ليترتّب عليه حـــساب ســـاعات اليوم للناس ويوافق مُختلف حاجاتهم من أطوار مدى الظلّ حجباً لـــشعاع الـــشمس المباشر وبسطاً لضوئها وحسب شرقاً وغرباً ثمّ جعل الله من الأفق العـــالي الشمس البيّنة دليلاً على معنى وجود الظلّ وتقدير حركة مداه إذ يدور ويمتدّ حـــيث يـــدور مشهدها، ولولا ضوءها لأطبق ظلام الليل وما تميّز الظلّ وعرف قدره ومدّه المتجدّد، وبدورة الأرض حول الشمس ووقوع الظلال يعرف الناس وجهة الظل ومـــدّه وآجاله ليعرفوا سَير الزمان وساعاته فالأيام وليتهيّأوا لابتغاء المنفعة المناسبة بين الظـــل وضوء الشمس المُباشر. والله بأقدار تصريفه لما سبق قبض الظلّ إليه قبضاً يسيراً إذ غـــشّاه نهـــار الـــشمس درجاً غداةً فظهراً فعصراً مُنقلباً لتُرتّب الراحات والمناشط وتُقضى الحاجات عند الناس، لا يجري ذلك انقلاباً فاجئاً بين الظلّ والضوء بل يتداور الأمر برفق ينفجر ضوء الشمس حتّى يتجلّى الصباح ولا يبقى من ظلمة الليل إلا الظلّ نحـــو المغرب للأشياء القائمة الحاجبة الشمس ثم يعود الظل ينحسر ويمتدّ نحو المشرق حتّـــى يـــزول بغاشية الليل المُظلم المطبق. كل ذلك تطوّر يسير تُعدّ به درجات مجرى الـــوقت وترتيب السنة اليومية في اليقظة فلاصطباح غداة والخرجة للمنشط والقيلولة والأمسيّة حتى العشيّة فالنوم.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (٤٧)

وهـــو ﷻ يجلّي حولكم آياته ونعمة لمن يتدبّرها فينفذ مشاهدَها بالغاً إلى معرفة ربّـــه فالإيمـــان به وشكره، وجعل – للبشر المُخاطبين بالتذكير – الليل لباساً إذ تمتدّ ظلمته حتّى تغشى وجه الأرض فيستر كلّ العورات وأحوال الحياة وحركاتها ممّا يحبّ الناس إخفاءها لحينها. وهو الذي جعل لهم النهار – إذ ينقبض ظلّ اللّيل الغاشي حتّى الـــصباح – إيقاظـــاً لهـــم بعد المنام ونشوراً وبسطاً لما أسكن وطوى ليلاً من نشاط الطاقات والأحاسيس التي تُتوفّى لمدى بالنوم، لتنتشر الحركة وتنشط المدارك والمساعي ضرباً في الأرض وتقلّباً في سُبل الحياة والمعاش وخلال الصُّحبة من سائر الناس. ودورة

التوفّـي والإطـلاق بالليل والنهار تشبه دورة الحياة شاهداً متواتراً على قدر الله الذي يُحيي الناس ويُميتهم في الدنيا ثم يُحييهم بعثاً في الآخرة.[1]

﴿وَهُوَ الَّذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَته وَأَنْزَلْنَا منَ السَّمَاء مَاءً طَهُورًا * لنُحْيِيَ به بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقيَهُ ممَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسيَّ كَثيرًا﴾ (٤٨ – ٤٩)

وهـو – ﷻ – الذي صرّف بأقداره آية مطبوعة مبسوطة في الكون مشهودة لعباده البشر مثل ما يُنـزل من آيات رسالة الغيب الموحاة نعمة ودعوة منشورة لهم كمـا نشرهم في الأرض – هو الذي أرسل الرّياح وصرّفها نشراً بمختلف الوجهات ودرجـات قوة الدّفع، بين يدي رحمته إذ هي مقدّمات بشرى لفضله الذي يصرّفه رواجـاً بين الناس وبسطاً أُعدّ لهم من فوقهم لرحمة الغيب التي أنـزلها الله بأقداره عليهم كما يذكّرهم بصيغة المتكلّم، فهو الذي يُقدّر تلك الرّحمة المباشرة حيث يرتفع بخار الماء ليبرد في السماء ويتكثّف سحاباً يخرج منه الودق المثّاقل المتساقط – أنـزل الله مـاءً طهـوراً بالـغ الخلو من غاشيات تخاليط الخبث والنجاسة في مياه الأرض وأنظـف مـن كلّ سائغ أو سائل مما يعهد الناس وأصفى من كلّ ما يغسلون به أو يرتوون.

وذلـك الإنـزال للماء من سُنن الطبيعة المقدّرة كان ليُحيي الله به – كما يُذكّر لعـباده بصيغة المتكلّم بأقداره المجتمعة – ليُحيي به بلدةً ميتاً، أيّما أرض جدب حولهم كـان نبتها قد غشيه الجفاف وفارقته مظاهر الحياة اخضراراً ونماءً وإثماراً، يسّاقط الماء بأقدار الله ليحيي مادّة تلك الأرض الميتة لا يزيدها مواتاً وليسقي به الله أيضاً مما خلق بـتلك الأقدار الجليلة من الرحمة أنعاماً – من نعمة البهائم إبلاً وبقراً وغنماً ونحوها – الـتي سخّرها هو لمنافع عباده ركوباً وطعاماً وكساء، وأناسيّ شتّى منهم، وذلك خلق كثير من مختلف الأنعام والبشر يتلقّى رحمة الله مدّاً متنـزّلاً لحياتهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ليَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إلاَّ كُفُورًا﴾ (٥٠)

---

(١) في الظلال آيات عبادة لله في كل الأشياء القائمة: راجع الآية ١٥ سورة الرّعد، والآيتين ٤٨، ٨١ سورة النحل. وفي الليل والنهار تعاقباً وتوالجاً آية لنعمة الله ولتعاقب الحياة فالوفاة فالبعث ذكر متواتر في آي القرآن.

وكمـــا يُنـــزل الله الماء من السماء آية لأقدار رحمته ومدّاً بالحياة لعباده وأرضهم وأنعـــامهم، تنضاف رحمة مدّ الهُدى المتنـــزّل من الله حياةً لهم بآيات كلمٍ موحاة في القرآن الذي سبق ذكره، ولقد صرّفه الله بأقدار وحيه خطاباً يتنـــزّل منجّماً بين عباده أولـــئك المُخاطـــبين بالدعـــوة المبـــسوطة، يُخاطب ويمدّ بالهدى شتّى شعاب حياتهم وعلاقـــاتهم، وذلك ليذّكروا الحقّ الذي قد تَغمر أصوله في فطرتهم فتنُ الدنيا وتُنسيهم آياته المشهودة في الطبيعة غواشي بلاءات الحياة الجارية الشاغلة. فيتوالى عليهم تنـــزّل القرآن مُفصّلة آياته منشورة تلاوته تذكيراً موصولاً. لكن ترتّب على ذلك أنه أبى أكثر الناس – في المخاطبين – إلا كُفوراً وغمراً بالغاً للذكر لا يستمعون إليه إلا بصمم عمد ولا يُدركـــون معانـــيه ولا يـــنفعلون لها بقلوبهم الميتة ويُعبرون عن ذلك بالإعراض والاســـتهزاء بآيـــات الهـــدى التي صرّفها الله لتتجلّى لهم كلماتها ويقع في وجدانهم إحساسها ويخرج في حركة أبدانهم قولاً وفعلاً.[1]

﴿وَلَـــوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (٥١ – ٥٢)

وعـــزاءً للرســـول ﷺ الـــذي كُلّف ببلاغ القرآن فأعرض عنه كثير من الناس وكفـــروا، وتثبيـــتاً له بما يُطمئنه أن ذلك قدر الله في تصريف الرسالات وتخيير العباد. فكمـــا يُنـــــزل الله الغيث نُشُراً يُصيب به من يشاء فرحاً بالحياة ويصرفه عمّن يشاء قـــنوطاً، تُضيف له هذه الآية ذكراً أن لو شاء بأقداره المُحيطة بالوجود لبعث في كلّ قـــرية في الأرض – وراء مكّـــة بلـــد التنـــزيل – نذيراً ليعمّ خطاب التذكير والهدى وينبسط البلاغ ويكثر المؤمنون.

فعلـــى الرّســـول أمراً من الله ومهما يكُن هو فرداً بين أمة الخطاب – ألا يُطيع الكافـــرين مهمـــا يكثـــرون صادّين عن القرآن نازعين إلى مذاهبهم الجاهلية، ومهما يطلـــبون منه الآي المُعجزة لتعزيز صدق دعواه – عليه أن يُجاهدهم بالقرآن ويُجادل

---

(١) في الرياح نعمة من الله لواقح سحاب وبُشريات غيث ماءٍ فأنهر وحياة وذاريات لآثار النبات وللثـــرى ودوافـــع للفلك، وفيها أحياناً قاصفات عذاب للكافرين عاجل – ذكرٌ متواتر في القرآن.

باطلــهم بكلمــات الحقّ الداحضة لمقولاتهم ويُدافع إعراضهم المتطاول المشتدّ بموالاة الدعــوة الــبالغة ويُــصابر مُآذاتهم ومُضاغطاتهم ومُحاصراتهم بالتوكّل على الله ورفع كــتابه، لا ينهــزم ولا يكفّ عنهم دعوته القرآنية مهما يُريدون به أن يُريبوه ويوهنوا إيمانــه وعــزمه ليُطيعهم. وليكُن جهاده مُطلقاً يتواصل كثيراً ليغلب باطلهم ويَفيض عليهم دعوة ومُجادلة بالحُسنى لعلّهم يستجيبون مهتدين دعاة يبلّغون العالمين.

﴿وَهُــوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٥٣)

ومــن آيــات الله المطبوعة في الكون المشهود أمثالاً تُعزّز آياته المنــزلة في كتابه الموحى أنه هو ﷻ وحده الذي - أيضاً - مرج البحرين فأرسلهما في توازن وتفاصل وقــد يتواصــلان في مدّ من المياه واسع المجرى، لكن تمايزاً: هذا عذب فرات شديد العذوبــة سائغ للشراب وهذا ملحٌ أُجاج شديد الملوحة، وقد جعل بينهما برزخاً وأمتاً مــن مرتفع الأرض حاجزاً وحجراً محجوراً منيعاً من الاختلاط بل يتمايزان لمدى من المجــرى حتّى حين يلتقيا في مقرنٍ ويتّحدا في دفع واحد. ذلك كما أرسل في الأرض خَلقــه مــن بني الإنسان كلهم بشر مُبتلى في الحياة الدنيا مخيّر في مسلكه الجاري نحو المصير، لكنهم يختلفون، بعضهم مؤمن طيّب وبعضهم كافر خبيث، وأرسل لهم كتاب الوحــي فرقاناً بين الطيّب والخبيث يميّزهما في مسار الحياة هُدى أو ضلالاً وفي المصير عــند عاقــبة الجــزاء. فإذا أمدّ سيرهم قد يقترن بعضهم ويجتمعون في مجرى الصراط المــستقيم صــفاً واحداً مهتدياً مؤمناً وإخوة في الدنيا ففي الآخرة لكلٍ كسبه وأجره الراجح على وزره، بينما يُدرك بعضهم الموت لأجله دون مسلك ذلك الهُدى الجامع. وتلــك ســنن الله في سيرة الأشياء الماديّة طبعاً وفي مسير الإنسان خياراً وشرعاً، سُنّةً واحدة في أصل أقدار المثال واختلاف في تصاريف السّير والخيار.(١)

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (٥٤)

هــو - ﷻ حسبما يتبيّن أيضاً من آية في طبيعة الكون المشهود، وحده أيضاً - الــذي خَلــق من الماء أصلَ كل الحيوان بشراً، فجعله بعد تطوير خلقه وتدوير أقدار

---

(١) في البرزخ الحاجز بين بحرين: انظر الآية ٦١ سورة النمل، والآيتين ١٩، ٢٠ سورة الرحمن.

تعاقـــبه يتقارب دماً ويتزاوج نسباً قربى ذكورية وصهراً قربى أنثوية. كان الله – الذي يقدّر تربية خلقه ربّاً منسوباً إلى مَن يُخاطب ممن يتلو القرآن، قديراً، أمره مفعول كما يـــشاء في دقيق تصريف خلقه، كما هو قدير أن يرسل من كتاب علمه المُحيط هُدىً يوحيه لرسوله ثم ينشره لعباده كما خلقهم ونشرهم تزاوجاً وتعاقباً وتوالياً بين مَن شاء مـــنهم أن يهتدي يصلهم الإيمان ويُيسّر الله لهم سلوك خيارهم في الحياة ليتقاربوا أمّة واحدة مسلمة لله يتوارثون في ذرّياتهم وخلفهم الإسلام.

﴿وَيَعْـــبُدُونَ مِـــنْ دُونِ اللَّـــهِ مَا لاَ يَنْفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (٥٥)

وأولـــئك الكافرون – بعد كلّ تلك الآيات المنـــزلة والمطبوعة – يعبدون – بصيغة الفعـــل المُضارع سيرة متعاقبة – من دون الله ما لا ينفعهم بأيّما نعمة مرجوّة أو مقدرة لم تُحتـــسب – ولا يضرّهم – بأيما مُصاب أو سلب، من الأصنام المؤلّهة وما هي بخالقة شيئاً بل هي عاجزة لا قادرة على تصريف الأشياء والأسباب ولا هداية الناس ولا توفيق مسلك خـــيارهم مذهـــباً في الحياة. وكان الكافر – أيّما واحد من بني الإنسان هو غامر لدواعي الإيمـــان بالغيب في فطرته ومُعرض عن آيات الله المنـــزلة المتلوّة وغافل عن آياته المطبوعة المـــشهودة – كان أمراً منه ماضياً – على ربّه ظهيراً. وهو يُناصر مؤلّهاته أصناماً وأهواء، صدّاً عن الله معبوداً واستكباراً ومُغالبة لأوليائه العابدين المؤمنين ومُظاهرة على دينهم الحقّ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥٦)

ويـــرجع الـــتذكير للرسول ﷺ تالي ذكر آيات الله الموحاة ومبلّغ هُداها للضالّين الكافـــرين: أنـــه – مهما يظاهرونه – ما أرسله الله الذي يخاطبه بصيغة المتكلّم بجمع أقداره الجليلة في اصطفائه مبعوثاً والوحي إليه وهدايته وتكليفه بالبلاغ – ما أرسله إلاّ مبشّراً مَن يؤمن ويصلح من أمّة خطابه بحسن المصير بين يدي الله، ونذيراً بسوء العاقبة لمن يظلم فينقطع عن رحمة الهدى وصف المؤمنين ومآلهم.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (٥٧)

ويؤمـــر الرسول ﷺ أن يقول لأمّة خطابه مَهما يُعرض فيهم مَن يرتاب في صدق رســـالته وخلوص مقاصده فيها: إنه ما يسألهم مكافأة على ذلك البلاغ لرسالة القرآن

شـــيئاً مـــن أجر يحصّله في عاجل الدنيا منهم مآلاً كِفاء جهده. ذلك إلاّ أن يرجوا – إشــفاقاً عليهم – هداية فيهم لمن شاء أن يستجيب لدعوته إذ يتّعظ بالنذير فيتّخذ إلى ربّه سبيلاً تقيّة من عذابه للمدبرين، أو أن يرجو أن يهديهم إلى سبيل الهدى لمودّة قرباه منهم وحبّه أن يؤجر نعيماً خالدًا عند الله في العاقبة، فإنما يحقّ له عندئذٍ الجزاء لاجتهاد في دعوقمم إلى تلك الهداية.[1]

﴿وَتَــوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (٥٨)

ويوصـــى الرســـول ﷺ في دعوته ومجاهدته للذين كفروا وصبره على إعراضهم وخشيته من غائلتهم – أن يتوكّل على الله مُسلماً له الأمر في فلاح دعوته وسلامته – الحـــيِّ الذي لا يموت فلا يخيب مَن توكّل عليه لأنه وكيل ضمين قيّوم بأمره المفعول أبـــداً، وأن يـــسبّح بحمـــده معظّماً قدره المتعالي المنـــزّه عما يُريب شاكراً بالغ فضله ورحمـــته مُثنـــياً علـــيه مُستعاناً على ما يمكُر الظالمون. ومهما يتورّط أكثر المخاطبين بالرســالة في الإعـــراض والعصيان فلْيكل أمرهم إليه ﷻ مستعيناً به يؤدي البلاغ ولا يعجّل هو عليهم بدعاء العقاب، كفى به ﷻ خاصة بذنوب عباده خبيراً يحيط بأفعالهم وإن دقّـــت وأقـــوالهم وإن أسرّوا بها، فيجزيهم عدال سوء كسبهم في عاجل الأمر أو آجله.

﴿الَّــذِي خَلَــقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (٥٩)

ذلك الحيّ الذي لا يموت الوكيل لعباده ما داموا صالحين هُداه، الخبير بذنوبهم إن مضوا في ضلالهم غافلين، هو ﷻ – أيضاً– الذي خلق السماوات والأرض حولهم وما بيـــنها من موجودات ومن صلات بين عالم الغيب وعالم البشر تسخيراً لعباده وابتلاء وآيـــات للمهـــتدين. كل ذلك الإطار للإنسان خلقه في ستة أيام – حقباً من عهود تطويـــر أصول الخلق وتجلّي تفاصيل التراكيب وأسباب العلاقات. ثم استعلاءً وسلطاناً

(١) كلمـــة كل المرسلين أنهم ما يسألون المخاطبين أجراً على بلاغ الرسالة وإنما يكلونه لله ذكرٌ متواتر في أكثر من عشرٍ من آي القرآن.

علـــى ذلك كله – استوى ﷻ متمكّناً على العرش مقام تدبّر أمر مخلوقاته وتصريف أحـــوالها وكتابة سيَرها وشرع هدايتها خياراً، لا يغفل عن شيء ولا يفوته أمر. ذلك أيضاً هو الرحمن فائض الرحمة التي وسعت كلّ شيء، أرحم الراحمين يبسط رحمته على كـــلّ عـــباده التائـــبين إليه ومتاعاً وتيسيراً للعُسرى مدّاً للضالّين العصاة وجزاءً وفاقاً لكـــسوبهم جمـــيعاً في الآخـــرة، وما كان الرحمن ليظلم أحداً. فيترتب بعد بيان هذه الحقائـــق عن شأن الله الخطابُ للنبيّ ﷺ: أن يسأل بالرحمن خبيراً، أن يسأل عن ذات الله العلـــيم بالحقّ في أمره، إن كان الجاهليون لم يبلغهم الوحي من الغيب فلا يعرفون الرحمن بل يقصر علمهم ولسانهم على اسم 'الله' الذي لا يرونه إلا أكبر الآلهة يتزلّفون إلـــيه في غيـــبه وعليائه بالأصنام يصوّبون إليها الرجاء والاسترحام. وما داموا كذلك فليـــسأل الرسول خبيراً هو الله ذاته الرّحمن علاّم الغيوب يوحي إلى عباده العلم والحقّ في صفاته الحُسنى والحكمة والفرقان في هُدى حياتهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ (٦٠)

والـــذين كفـــروا ولم يعهدوا إلا مباشرة الأصنام رموزاً لبنات مُفتريات لله هي الملائكة وتزلّفاً بها قُربى إليه في غيبه، إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن الذي ما له من كفء في مدى رحمته ولا سميّ بمثل اسمه الأعلى وصفته الحُسنى تلك، إذا دُعوا لأن يتعبّدوا له خاشعين شاكرين إخلاصاً من الشرك دونه، قالوا وما الرحمن؟ إذ لم يعهدوا إلهاً واحداً مـــسمّى كذلك، واستنكروا سائلين الرسول ﷺ: أيسجدون لما يأمرهم من إله أشاروا إلـــيه بـــأداة اســـتفهام تجاهل ونُكر، وقد رهنتهم تقاليد الآباء الراسخة على السجود لأصنامهم وآلهتهم المألوفة وحسب. وزادهم تذكير الرسول لهم بالرحمن – باسمه الفريد بلا نظير – زادهم نفوراً لا تلبية وتوبة إلى الله الحقّ باسمه الأعلى وصفته الحُسنى التي لا يبلُغها موصوف بالرحمة سواه.[١]

﴿تَـــبَارَكَ الَّذي جَعَلَ في السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فيهَا سرَاجًا وَقَمَرًا مُنيرًا * وَهُوَ الَّذي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (٦١ – ٦٢)

---

(١) في إنكار الذين كفروا باسم الرحمن: راجع الآية ٣٠ سورة الرّعد.

تبارك وتعاظم في رحمانيته ونعمائه على عباده الذي جعل في السماء بروجاً من الكواكب البارزة بين النجوم وجعل فيها ما هو أظهر وأشهر تلقاء الأرض: سراجاً منيراً هو الشمس التي تجري في مدارها وتدور حولها الأرض، وقمراً منيراً مُبيناً يجري في مدار حول الأرض، وهو سُبحانه الذي جعل ظرفاً لخلقه في الأرض الليلَ – ظلاماً لا تبدو فيه إلا النجوم والقمر أحياناً، والنهار – إذ تظهر فيه الشمس ينهر ضوءها الواسع الظلامَ ويشّقه فجراً وفجّاً – آيتان له جعلهما خلفةً يتباينان ويتعاقبان، لا يستمرّ أحدهما ظاهراً سرمداً بل يتخالف بهما ظرف الظلام والضوء والسكون والنشاط ويدور توالي السّاعات لتقدير الأوقات وحساب الزمن والتاريخ. ذلك لمن أراد من عباده ﷻ أن يذّكر قدرة الله في تصريف الأشياء وتقليب ظروف الزمان في الكون المشهود بحيث تتوالى فيها ذكرى مرّ الدهر أيّاماً، أو أراد شكوراً، شكراً بليغاً لنعمة التكامل والتراوح في أحوال الحياة بين السرّ والسكون والضوء والنشاط وترتيبها عبر مراحل مرّ الأوقات حسباناً، فيكون عبداً للرحمن ذاكراً لا يغفل عنه حامداً شاكراً لا يكفر به.[1]

عموم المعاني (الآيات ٤٥ – ٦٢):

إن الله في أسلوب كتابه العزيز يصل ذكر آيات الله الواعظة للمتدبّرين في قصص الأقوام والقرى الخالية ومصائرها – يصله بذكر آيات الله المُنزلة التي يبلّغها الرسول هداية للسامعين العاقلين ونذارة للضالّين المستهزئين بها، ثم يذكر الكتاب آيات كتاب طبيعة الكون الدالّة على الله خلاّقاً قديراً الشاهدة على أقداره ناظماً مدبّراً لظواهر الكون وسننه رحمة ونِعمة لعباده. ثُم يُراجع الكتاب تصريف آيات الوحي رسالة تذكرة وبشارة ونذارة للمخاطبين ورواية لترتب بعث المرسلين السالفين بمثلها تصادقاً موصولاً لحقّها واستقلالاً عن معهود المخاطبين القديم ومجاهدة لأعرافهم ثم ذكرهم مشركين بالله جاهلين برحمانيته مرتابين برسالته. هكذا تتواصل وتتجلّى وحدة الوجود

(١) في الشمس – نعمة ضوء وسراج وهّاج والقمر نوراً وفي تعاقبها ظهوراً ليلاً بعد نهار وأياماً ومجراها مواسم ومنازل وكلّ ذلك حساباً لعدّ السنين والزمان ذكرٌ متواتر في آي القرآن.

وسُــنن الله في نظـــم طبيعة الأشياء المشهودة في الكون وفي شريعته في هدى الإنسان المبتلــى بدنـــياه. لكن إدراك البشر قاصر على ظاهر الحياة قد يعلم الأشياء المطبوعة المـــشهودة ولكنه قد لا يتبصّرها آياتٍ لله، وإذا جاءه الوحي بآيات الهدى من الغيب فــصَل و لم يصل ما يحسبه مفترى من الغيب تنكره ظنونه الدينيات التقليدية وما ثبت عنده ويعتقده حقاً من علوم المشهودات والطبيعيات المحدودة والواهمة. أما المؤمن فهو يصل كتاب الله المشهود في أقدار الطبيعة وكتابه المتلوّ عليه آيات موحاة، ويوحّد العلم والحـــياة في عـــالم الـــشهادة بذلك في عالم الغيب وعاجل أجل الحياة في زمان الدنيا وآخـــرها في الأزل. وهكذا يتوارد كلم القرآن وآياته فرقاناً بين مَن يسمعها فيحسبها تفاريـــق تصف حيناً مشاهد الطبيعة الواقعة وتخلطها حيناً بدعاوى حقائق غيبية ظنية هـــي عـــنده مفتراة، ومن يسمعها فيتدبّرها ويوحّدها تلاوة لحرفها المكتوب ولفظها المـــسموع ثم لمعناها المفهوم علماً جامعاً وفرقاناً بين الهدى الكامل على سبيل البشائر والـــضلال القاصـــر غفلة عن النذر ثم لمقتضاها حياة توحيد في علوم العقل ومذاهب الوجدان وفي أقوال الحقّ وفعال الصالحات.

هكـــذا في سورة الفرقان هذه يتوالى التذكير بالمطبوعات المرئية في الكون حول الإنسان: ظلاً يمتدّ وينحسر ويتحوّل والشمس دليلاً عليه وليلاً هو ستر الظلام للإنسان وسكونه ونهاراً هو الضوء له ونشوره، ورياحاً هي بُشرى لرحمة الله النازلة ماءً طهوراً وحياة بعد موات الأرض وسُقيا للحيوان. وهكذا يُصرّف الله آيات ذكره الموحى ولو كفـــر أكثر الناس ويوصي حامل رسالتها أن يُجاهدهم بالذكر جهاداً كبيراً. ويمضي ذكـــر المطـــبوعات المشهودة آية لقدرة الله البالغة في توازي البحار قبل اقترانها العذب الفـــرات والملـــح الأجاج بينهما برزخٌ متعالٍ من الأرض ومواطنها يتمايز لمدى بعد الجريان في مقرهما. وذلك تذكير بالوحي المنـــزل طهوراً ومن مذاهب الناس المختلفة بعـــده كما بين الماء العذب والمالح يضطرب بهم مجرى الحياة فمنهم من يتّحد مجراه في الحياة مذهباً على الهدى المنـــزل ومنهم من يأتيه أجل الموت دون ذلك فيمضي خبيثاً غير طيّب منقطعاً عن سبيل ربّه منمازاً عن مسير المؤمنين إذ ظلّ مشركاً دون الله ما لا يـــنفع ولا يـــضرّ من مشهود معبود ظهيراً على ربّه الحقّ الموجود في الغيب. وقد ظلّ

الرّسول ﷺ ومثاله من بعده يُجاهد أولئك الضالّين المشركين مبشراً نذيراً ليبتغي أجراً المخاطبين على هداهم بل يكل أمرهم كله على الله ييسّر الهدى والضلال لمن حقّ عليه ذلــك ويجــزيه، وهـــو الله الحي الذي لا يموت يلقاه عباده يقيناً بعثاً بعد موتهم وفناء متعلّقات العبادة الضالة في دنياهم، ويوالون التسبيح بحمد الله واكلين له وحده أن يكفيهم همّ الإعراض عنه وكيد المُعرضين، فهو سبحانه وتعالى بذنوبهم خبير. وما عليهم إلا تلاوة آي الذكر المـــوحاة مـــن الله الخالق للسماوات والأرض وما بينهما من الطبيعة والإنسان ورسل عالم الـــروح، الذي خلق وهيّأ ذلك الإطار الوجودي للإنسان في حقب أيّام ستٍّ من الزمان سابعها أنه استوى على عرش تدبير أمر الوجود وهداية الإنسان ورقابته عبر ابتلائه في أولى سيرة حياته وجزائه في دار الآخرة والمصير. ذلكم هو الرحمن، باسمه الأعلى الذي ما عهدته أمّة الخطاب الجاهلية الأولى إذ أنكروا ذكره ونفروا من أمر السجود والتعبّد لـــه ومـــا عـــرفوا إلا آلهة تباشرهم مشهودة أصناماً مؤلهة يكلون لها تصريف حياتهم ويذكـــرون الإله الخالق الأب الأكبر في الغيب: 'الله' باسم تعريفه، وكلّ الآلهة دونه يـــتّخذونها شِركة تقرّبهم إليه زُلفى في عليائه، ولا يعرفون الله رحماناً، كلّ شأن حياتهم أولاهـــا العاجلة وأخراها الآجلة وقفٌ على رحمته، فهو الرّحمن لا يتلقّى معرفته البشر إلا منه خبيراً بذاته وبحقائق الغيب وبعبادة البشر عبر مدى وجودهم.

ترتيل المعاني (الآيات ٦٣ – ٧٧):

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ (٦٣)

وعـــباد الـــرحمن هـــم غير الكافرين به ممن سبق ذكرهم مستنكفين عن ذكره والـــسجود له، هم العابدون له باسم رحمانيته العُليا الذاكرون الشاكرون كما سبق في وصـــف إرادتهم الإيمانية بعد ذكر الرحمن. وهم – أيضاً – الذين يمشون على الأرض هوناً يطأون فيها ماشين رفقاً ووقاراً وتواضعاً لا مرحاً ولا فخراً ولا خيلاء ولا تبختر تكلّفٍ وتكبّر. وإذا خاطبهم الجاهلون لزهادة العلم والحكمة فيهم وسفاهة المقال منهم يُلقـــون إلـــيهم بما يعهدون في مبادلات المجتمع، ما ردّوا عليهم بمثل سيئ خطابهم بل

قالــوا: سلاماً: كلمة حلم وإعراض وأمان وتسلّم وإبداء لُخلق طيّب متواضع يُناسب المشية الهون، فأولئك هم الذين يسلكون بذلك مسلكاً طيباً في سياق آداب الملأ العام وما يتراءى به الناس ماشين في طرقهم العامة وما يتسامعونه مما قد يبلغ سيباً من سيّئ القول وحسنه ويجري عفواً في المداولات الرّاتبة.(١)

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (٦٤)

وهــم – أيضاً– الذين في خلوة بيوتهم يبيتون بالليل ذاكرين لربّهم سُجّداً وقياماً يعمــرون خلوة البيت ويطيّبون أنس أهلهم وسمرهم بصلاة وتهجّد ويحيون هدوء الليل بالخشوع والذكر لا يهجعون طواله نوماً.(٢)

﴿وَالَّــذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (٦٥ – ٦٦)

وهــم أيضاً الذين يذكرون تقوى الله وتغشاهم خشية غضبه والمحاذرة من عذابه في العاقــبة، يقولــون – دعاءً وابتهالاً إلى الله متواتراً في ذكرهم – منادين ربّهم: أن يــصرف عنهم عذاب جهنّم بان يُنجيهم بعفوه ويغمرهم بمغفرته ورحمته ورضوانه لا يــتجهّم علــيهم سعير جهنّم ولا يُلقون فيها، إن عذابها كان – حقاً ماضياً – غراماً وخُــسراناً لازماً مذلاً لمن حقّ عليهم. إنها – جهنّم – ساءت فبئست مستقرّاً ومأوى بعــد زلــزلة البعث في الآخرة وفزع الحساب وحسرة القضاء الحاسم بالعقاب، كما ساءت مقاماً ووطناً لحال عذاب مُقيم.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٦٧)

وكــذلك مــن صــفات عباد الرحمن في نهج المعاش أنهم الذين – إذا أنفقوا من كسبهم المالي للوفاء بتكاليف حاجات الحياة لهم ومَن يعولون لزاماً عليهم أو يُحسنون

---

(١) في أدب المــشي هوناً على الأرض: انظر الآيتين ١٨، ١٩ سورة لقمان. وفي الردّ على سيئ الخطــاب بحــسنه سلاماً: راجع الآية ٢٢ سورة الرّعد، والآية ٩٦ سورة المؤمنون، وانظر الآية ٥٤ سورة القصص، والآيتين ٣٤، ٣٥ سورة فُصّلت.

(٢) في ســنّة عبادة البيتان سُجّداً وقياماً: راجع الآية ٧٩ سورة الإسراء، وانظر الآية ١٦ سورة الــسجدة والآية ٩ سورة الزمر، والآية ٤٩ سورة الطور، والآية ٢ سورة المزّمل، والآية ٢٦ سورة الإنسان.

إليه صدقة، ابتغاء للمنافع والمتاع والخير واتقاء للمضارّ والخسران والبخل – لم يُسرفوا ترفا وتبذيراً لقضاء الشهوات ولرفاهيتهم في الملذات وبسطاً مفرطاً للعطاء مَنّا ورياء ولم يقتُروا تضييقاً على المعاش وبُخلاً وإمساكاً عن الوفاء بالحقوق وقبضاً لأيدي العدل والإحسان. وكان الإنفاق بين ذلك الإفراط والتفريط قواماً واقتصاداً وسطاً عدلاً بلا شطط.[1]

﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّه إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ (٦٨ – ٦٩)

وهم كذلك الذين يتّقون كبائر المناهي والفواحش العاديَة على حدود الحرمات، فهم يجتنبون دواعي الشرك حتى لا يتعلّقوا بالمؤلهات من الأشياء المشهودة والكائنات الروحية الموقّرة ويتخذوا منها إلهاً آخر يصرّف لهم الأقدار فيدعونه مع الله أو زُلفى إليه، بل هم يُخلصون التوجّه عبادة ودعاء لله وحده. وهم أيضاً يوقّرون حرمة النفس الإنسانية التي كرّمها الله وشرع أن تحيا وتُبتلى وتكسب بسعيها وخيارها عبادة لله أو عصياناً فيحقّ بعد موتها المسنون وبعثها سؤالها وجزاؤها، فهم لا يقتلونها عمداً إلاّ بالحقّ قصاصاً بقتيلٍ لها مثلها أو في سبيل دفعها مجاهدة لعدوانها. وهم ثالثاً لا يزنون خيانة لعهد الزواج والعِرض المحصون والمناكحة الحلال منبت حياة النفوس الوليدة المشروع.

ومَن يفعل ذلك عدواناً وبغياً في حقّ الله معبوداً بإخلاص وتوحيد أو حقّ حرمة حياة النفس البشريّة المرعيّة حفظاً إلاّ بالحقّ أو في حق حصانة الزوجية والعرض من الزنا الحرام – مَن يفعل ذلك يلقَ أثاماً جزاء إثمٍ وذنب عظيم فيُضاعف له العذاب يوم القيامة لأنه لا من صغائر الذنوب بل كبائر العدوان على أصول حرمات الله والإنسان، يجرّ إلى الشرك والضلال زلزلةً لوحدة الحياة الحقّ ومفارقة لسبيل الهدى باتباع الأوهام والأهواء المختلفة في الدنيا ومؤدّىً في الآخرة إلى العاقبة السوأى، أو يجرّ إلى القتل أو

(١) في أدب الاقتصاد في الإنفاق: الآيات ٢٦، ٣٠ سورة الإسراء، وفي القرآن جُملة آيات تنهى عن السّرف والبخل.

انــتهاك وحدة البشر وأُخوة الإنسان وفقد نفس واحتذاف عطائها في الحياة وإلى ثورة روح الانــتقام وتداعي سفك الدماء تكاثراً في الأنفس القتيلة، أو يجرّ إلى الزنا وضياع نسب الولد والتزام رعاية الطفولة وإيذاء الأعراض واضطراب طمأنينة الزوجية وسلام الأمــر وفشوّ الفتنة حب شهوة لا تُقضى بالتراضي المشروع بل بالاغتصاب أو سلام وســواء يــسوّى بالإهلاك للنفوس الباغية تُفترس بنــزعة وحشية جزاء وشفاء حمية غضب. ذلك كله سوء في العاجلة يُتمّه وفاقاً سوء العواقب في الآخرة.

﴿إِلاَّ مَــنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (٧٠ – ٧١)

ذلــك كذلك إلا من تاب بعد إتيان كبيرة مما تقدّم ذكره ندماً عليها وعزماً ألاّ يعــود لمثلها ولا يعتادها بل يؤوب إلى ذكر ربّه فهو قد آمن بالله شارع هوادي الحياة لعــباده وحــدود مسالكها لعباده يرعوها ولا يقرّبوها، وهوَ مِن ثَمّ عمل صالحاً عبداً للــرّحمن كسبُه من بعد يُكفّر ما سبق من سيئات الأعمال ويُثقل موازينه ألا تخف يوم القــيامة بسالف كسبه. فأولئك من ذلك المثال يبدّل الله سيئاهم حسنات إذ يُيسّر الله لمــن يتذكّــر الــذنب ويندم أن تغشاه بعده الموعظة فتكون السيّئات السالفة دواعي للإحــسان بعدها يحفظ المسيءُ ذكراها الواعظة فيُصبح أحصن تقوى ممّا كان قبلاً لا يقرب السيئات والذنوب. وكان الله – حقاً ماضياً– غفوراً رحيماً، واسع المغفرة لكلّ المؤمــنين ولو أساءوا، دقيق الرحمة عليهم بعد كلّ توبة فحسنة تدرأ السيّئة قبلها، وفي الآخــرة يبدل الله كفاء سيئاهم التي كانت أوزاراً بوفاء حسناهم التالية أجوراً حسنة حتى ترجح فتثقل موازين حساهم.

ومَــن تابَ إلى الله بعد أن شطن وفعل السيّئات فآمن به أشدّ طمأنينة فأتاه آيباً مُقبلاً وألحّ طواعية، فعمل صالحاً يراجح السيئ السالف فإنه يتوب إلى الله متاباً مُطلقاً أدنى قربى وأَولى أن يُحظى بأبلغ الرّحمة وأتمّ المغفرة.

﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧٢)

وعــباد الرّحمن هم كذلك الذين لا يشهدون الزّور، لا يحضرون مجالس حديث كلــه مــيل للباطل واللغو والكذب بل يُعرِضون عنها متحرّين مواطن الحقّ، ويؤدون

الشهادة لإثبات بيّنات الأمور لا كذباً في رواية الوقائع وإلقاء العلم ولا زوراً في الكلام وتحسينه زيفاً وزُخرفاً، لا يكتمون الحقّ بل يبتغون بيّنة صادقة القول. وإذا مرّوا باللغو من سقط الكلام لهواً أو بطلاناً وكذباً وأفائك ومآذي يُرمى بها في مخاطبات المُجتمع – إذا مــرّوا على ذلك مرّوا كراماً مُعرضين عنه أشرف وأكرم من أن يشهدوه، يؤثرون تحرّي مواطن الجدّ ذكراً ورواية للحق أو أمراً بالمعروف أو نهياً عن المنكر.[1]

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٧٣)

وهــم – كذلك – الذين إذا ذُكّروا بآيات ربّهم إذ لم يعهدوها من قبلُ ولم تُبلّغ إلــيهم بتلاوة ذكرها أو تُليت عليهم تذكيراً إذ نسوها وغفلوا عنها، لم يخرّوا واقعين علــيها استعلاءً وحملاً عليها يسُدُّون آذانهم صُمّاً لا يسمعون تلاوتها وبلاغها والتذكير بها وعُمياناً لا يرون نور هديها بل أكبّوا عليها مستمعين بأُذن صاغية وعقول متبصّرة واعية وقلوب خاشعة مُنيبة.

﴿وَالَّــذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (٧٤)

وهــم الــذين في خاتمة دعواتهم وعقبة سيرتهم يقولون – ذكوراً وإناثاً منادين ربّهم داعــين راجين أن يهيّئ لهم من أزواجهم وذرّياتهم فيما ينتظرون منها قرّة أعين، ما تبرد به الأعين طمأنينة لا يغشاها أثر الهموم وتسكن من ظاهرات أعراض الغضب والحزن، صُحبة زوجــية تنــشرح بهــا الصدور وتعمرها المودّة والرحمة وبراً وحُبّاً ورضى تلقاء الأولاد والأحفــاد، وأن يجعلهم هم للمتّقين إماماً، قُدىً لخلَفهم ومَقدماً لتُراث متداعٍ خبرةً وسُنةً موصولة من العلم والحكمة والخلق الطيّب والتقوى الخالصة والدين الحسن.[2]

﴿أُولَــئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (٧٥–٧٦)

---

(١) في اجتــناب شــهادة الزّور وكلمته وأدب الإعراض عن اللغو: راجع الآية ٨٠ سورة الحج، والآية ٣ سورة المؤمنون، وانظر الآية ٥٥ سورة القصص.

(٢) هنا في سنّة عباد الرّحمن مثال دعوة زكرياءعليه السلام ذريةً طيّبة: راجع الآية ٢٨ سورة آل عمران ومن قبله دعوة إبراهيمعليه السلام ذريةً مسلمة: راجع الآية ١٢٨ سورة البقرة.

أولـــئك العبّاد للرحمن بعد ما يُقدّمون في الدنيا من صالح الأعمال وتقوى سيّئها يستبـــشرون فيها داعين أن يقيهم الله نار جهنّم يُجزون يوم القيامة وفاق كسبهم في الدنيا الغرفة الدرجة الرفيعة من الجنان حقّت لهم بما صبروا في بلاءات الدنيا إذ جازوا الفتن مجاهدين بالغين بعد الصلاح درجة الإحسان، ويلقّون في تلك الغرفة عوضاً عمّا تعرّضـــوا له من أذىً الكفّار الفجّار في الدنيا تحيةً وسلاماً من جند الله الملائكة الذين يـــستقبلون الطيبين مدخلاً إلى الفردوس إخواناً خالدين فيها لا تغشاهم وتمضي عَرَضاً كـــنعم الدنيا وخلّة أهلها وتحيتهم، حسُنت لهم مستقراً ومأوى طيباً بعد خشية المصير غيـــباً قـــبلاً وبعد زلزلة الحشر وفزع الحساب واضطراب ترقّب حكم القضاء عليهم الحاسم، وحسُنت مقاماً، سعداً مُقيماً.

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (٧٧)

كما ذُكر الرسول ﷺ في السورة عبداً لله يحمل رسالة القرآن ونذيراً لأمّة خطابه التي بادرتـــه في الآيات التالية باتهامه مؤتفكاً يحمل رسالة أساطير لا تشهد له آية غيبية معجزة، كلمة الختام في السورة كلمة يُوصَى هو أن يقولها حول شان المصير الختام للدنيا في الآخرة، أن يُخاطب بها أولئك المنذرين: إنه ما يعبأ بهم ربّه الغني عنهم سواء آمنوا أو كفروا لولا أنه خلقهم ليعبدوه وابتلاهم في ذلك بفتن الدنيا وحاضرها المشهود ومتاعها العاجل، لا يعبأ بما يفعلـــون فيها إذ لا ينفعه أن يُصلحوا ولا يضرّه أن يسوءوا، ذلك لولا دعاؤهم له إن كان مـــنهم عباداً للرحمن يسألونه بعد الإيمان وقايتهم من جهنّم مصيراً لتحقّ لهم غُرف الجنان، وهو سبحانه وتعالى قد بايعهم أن يعبدوه فيوفي لهم عهد الجزاء وهو لا يُخلف الميعاد، لكن منهم مَن رتّـــبوا على عهد الله معهم برسالته وبشارته ونذارته أن كذّبوا بها، خوطبوا أن ينظروا في الـــتجارة مع الله التي لا تبور في العاقبة وفي رسالته وعداً ووعيداً في كتاب الفرقان وعظات الـــذين كفروا برسالته قبلاً، لكنهم كذّبوا نذير الساعة إذ تقوم القيامة، وهو سبحانه وتعالى قد أعدّ عـــندها لمـــن كذّب بها سعيراً وخيراً منها صرفاً للعذاب لعباده المصّدقين بالرسالة المؤمنين بالغيب، وقد حقّ أن يأتي الجزاء فسوف يكون ذلك العذاب لزاماً للمكذّبين الطاغين على حدّ حرمات العبادة لله – عذاباً مُضاعفاً كما سبق به النذير.[١]

(١) في غنى الله عن عباده إلا أن يوصيهم عبادته ليجزيهم نعيماً: انظر الآيات ٥٦، ٥٨ سورة الذاريات.

عموم المعاني (الآيات ٦٣ – ٧٧):

مــثالاً لسائر الأمم التي ورثت من قبل ديناً حقاً لكن خَلَفاً لسلفها المؤمن كانوا مــستحفظين أصول التراث الحقّ وأمانته ثم ضلّوا عنه مذهب رأي في الوجود ومسلك حــياة في الدنــيا، إن العرب الجاهليين وأمة الخطاب الأُولى لرسالة الإسلام كانوا قد انقطعوا عن تراث أبيهم إبراهيم الذي بادر هو باجتهاده نظراً في آفاق السماء فتجاوز تقالــيد أهلــه المتعلّقة ببروجها المفتونة بعبادتها ونفذ ببصيرته إلى ربِّ الوجود الخالق الناظم للكون المشهود وجاوبه ربه بكلمات وحي وصحف تَحفظها فيها رسالة هدى حــنَفَ بها مستقيماً عن إشراك أهله ثم هجرهم وسار في الأرض يريد أن ينشر ويزرع أصول دين الإسلام لله وحده ويورثها ذرّيّته ليتهيّأوا لتلقّي رسالات التذكير والتجديد مــن الوحــي بعــده. ولكن العرب مثل غيرهم ما حفظوا ذلك التراث من أمّة الدين الحنيفــيّ وســنّته المستقيمة بل رهنتهم تعلّقات بظواهر الطبيعة دون الغيب وغشيتهم ظــنون فيه بأهوائهم ورسخت فيهم أعراف من ذلك فما بقي فيهم إلاّ خاطر الإيمان بــالله الخالق للسماوات والأرض توحيه في نفوسهم فطرة الإنسان ويوقّرون تعاليه في الغــيب بقية تراث لكن ضيّعوا تراث العلم المكتوب فالاعتقاد بحقائق الغيب وهوادي الحكمة في الحياة. كانوا يظنون أن الله إذ لا يتجلّى لهم مشهوداً إنما يُنــزل عليهم بناته الملائكــة كائنات روحية لا تُرى أيضاً بل يمثّلونها في الأصنام الحجرية يعكفون عليها عبادة ويحسبون أنها تقرّبهم إلى الله زلفى، يصوّبون كلّ الصلاة والدّعاء لها ينسبون إليها كــلّ جلــب نفــع أو درء ضــرّ مما يبتغون في متاع الحياة المحبوب وشهواتها الفاتنة ويقــصرون رجــاءاتهم وعلاقــاتهم في تصريف المجتمع على الأهواء والأسباب المادية ويوقّرون مَن يُصرّفها من سادتهم وكبرائهم دون الله. هكذا في ماضيهم ذاك ما نسبوا لله ﷻ أصــل أسباب الرحمة كلّها ومصدر أقدار الحياة فما سمّوه رحماناً بل أنكروا له ذلك الاسم عندما سمعوه في الذكر الموحى على الرسول الخاتم.

لكن تلك الدعوة توالي التذكير والبيان فيها حتّى تلقّى وقع حقّها بعضهم فآمنوا بالله ورقوا إلى معرفة صفاته الحسنى واسمه الأعلى رحماناً ونفذوا وراء مشهودات الدنيا وتجــاوزوا تعلّقاتها إلى حقائق الوجود في الغيب والملأ الأعلى والنُذُر والبشائر التي ينبئ

بها القرآن، فرشدت حياتهم واستقامت على هدى هو الفرقان بين الحق المعلوم والباطل المظنون، ورسخ الإيمان في وجدانهم بصدق ضابط الوعد الحق والنذير بسوء عاقبة الذين يكفرون ويغمرون بعارضات العاجل المشهود حق الوجود الغيبي ودافع البُشريات بحسن العاقبة الموعود فاهتدوا إلى سبيل صالح الأعمال ثم أفلحوا في درج الإحسان واتّقوا السيّئات فالمهالك وطهّروا أنفسهم من عبادة الأصنام وخلّصوها من التعلّق بمقاصد الأهواء وعاجلات المتاع وتجرّدوا من إيحاءات الشيطان والخضوع لأوامر السادة والكبراء وأصبحوا عبّاداً للرحمن. زكّاهم ذلك وطهّرهم من خلق الجاهلية في كلّ وجه من وجوه الحياة، هكذا كانوا موفون بعهد العبودية الحقّ لله الرحمن. فعباد الرحمن لا يقومون صفوة من أخيار مجتمع تغلب فيه أخلاق تقليدية جاهلية منكرة بل هم يُصابرون ضغوط أعراف مجتمعهم ويتمايزون بمسالك فضلى في الحياة. منها أنهم لا يمشون كالجاهليين يعرضون الخيلاء في الملأ حولهم بل هم يمشون هوناً ورفقاً يعبّر عن روح الخشوع لله والتواضع لا التكبّر سواء بعباده الآخرين. وهم في التداول والخطاب مع الآخرين لا يزاودون الهجاء بالهجاء الأبلغ ولا يردّون الكلمة السيّئة بأشدّ منها سوءاً في منظومات الشّعر أو منسوقات النثر والتفصّح بين الناس. فمهما يكن عباد الرحمن قلّة في بيئة يسودها التقاول والتناطق تساخراً وتطاعناً في مداولات الناس كانوا إذا خاطبهم الجاهلون بمثل السيّئ المعهود تراهم حليمين قالوا لهم سلاماً يؤثرون الطيب من القول ولو ساءت قبله بادرات، ويحسنون في تحايا الناس ومخاطباتهم ردّاً. وهم في المجالس والنوادي لا يخوضون في الحديث ولو غلب فيه زور الكلام ترويجاً لزخرف القول الباطل وزيف الدعاوى والرّوايات، لا يشهدون ذلك مهما يغلب بل يُعرضون عنه لتتطهّر الصحبة وتعمر بالقول الفاضل الطيّب والحقّ الصائب. وإذا مرّوا باللغو واللهو الذي يفتن الناس أن يتداعوا إليه منفضّين عمّا سواه من مواطن الصدق والجدّ مرّوا عليهم كراماً متطهّرين لا يعكفون على ما هم فيه. إن عباد الرحمن لا ينقلبون بعد مناشط النهار وشواغله إلى الليل يسهرون فيه حول مجالس الخمر أو السّمر والطعن غيبة في الآخرين، ولا يخلدون إلى النوم المتطاول المتثاقل، بل ينصرفون في بعض الليل عن المضجع إلى قيام الليل تهجّداً لله سُجّداً وقياماً في الصلاة وتراودهم الخشية في

سكون الليل المذكّر بالغيب من سوء المصير الذي يرونه حقاً قادماً، تذكّرهم فيه الوفاة بالنوم ليلاً بوفاة الروح موتاً لأجل يباغتهم هم مسمّى عند الله إذ لا تحقّ بعده يقظة بعث إلا في الآخرة، فهم يدعون رهم أن يصرف عنهم عذاب جهنّم إن عذاها كان غراماً وخُسراناً في المأوى إنها سادت مستقراً ومقاماً.

وعباد الرحمن قد يقومون في مجتمع يضطرب فيه خلق تصريف المال بين سفه الإسراف والترف انفتاناً بشهوات الحياة الماديّة وانهماكاً في ملذّاها ومفاخرة بالوسع والعطاء الفيّاض، لكن يقومون بين ذلك وقبض اليد بالقتر والبخل حرصاً على صون الكسب واستئثاراً بما يحوز الملك، هم قوامٌ مُعتدلون فيما يُمسكون أو يبذلون يعلمون أنهم مستخلفون في المال مفتونون به ولا يُغنيهم أو يفديهم يوم القيامة إن ضيّعوه ترفاً أو أمسكوه حكراً أو بُخلاً عن سائر أولى الحاجات، فإنما هم مُبتلون به فيلويهم ظُلماً أو يُحمدون الله عنه يُصابرون فتنته فيستقيمون عدلاً.

وعباد الرحمن – ولو أحاط هم مُجتمع شرك بالله حيث الأصنام أو المخلوقات المشهودة أو الكائنات الروحية كما يقدّرها الخيال أو الأهواء أو أعراف الضلال معبودات أو مقدّرات وموقّرات من دون الله، أو مجتمع عدوان في قتل الأنفس غدراً وفجوراً على حرمتها لا يؤمن حسابه، أو ارتكاب للزنا بغياً – يعتصمون هم هدى التوحيد، حياتُهم كلّها عبادة لله خالصة لوجهه دون سواه، لا يدعون مع الله إلهاً آخر أبداً، وهم يرشدون في رعاية حرمة النفس لا يقتلونها إلا قصاصاً نفساً بنفس أو دفاعاً لعدوان منها على الأنفس أو ضرورة درء للفساد المنذر في الأرض سفكاً للدماء وانتهاكاً للحرمات بالقوة. وهم ولو كانوا في مجتمع بغي شهواني بين الذكور والإناث تفشو فيه خيانة الإحصان والعفّة وإتيان الفواحش تراضياً أو كرهاً، هم عندئذ يتحصّنون بالمعاقدات الزوجية المرضيّة المشروعة بين الذكور والإناث لا يتجاوزونها بغياً. ذلك الرّشد كله لأنهم يعلمون أن المتاب إلى الله فالمنقلب إلى الفلاح فتح ميسور حتّى بعد ارتكاب الكبائر، فمن تاب نادماً على سيئ سوابقه عازماً ألا يعود إليها وأن يسلك سبيل الهدى، وآمن موحّداً بعد أن كان مشركاً به ما دون غيبه من مشهودات يميل إليها هواه وظنّه وما دون وجهه من شهوات يبتغيها – آمن بالله وحده هو الذي

يـــشرع الأوامر والمناهي هداية لعباده وإليه المتاب من عباده العاصين وإليه المرجع يوم الحـــساب والجزاء، وعمل لذلك صالحاً يستدرك به كسوبه الخاسرة ليُثقل موازينه في الآخـــرة، فإنه يتوب إلى الله متاباً مقبولاً حقاً، لا قولاً فحسب بل عزماً وفعلاً ممّا يقبل الله التوّاب الرّحيم.

وعـــباد الرحمن هم أيضاً مهما يبتلون بفشوّ الزور وندارة قول الحق في مجتمع لهم لم يتطهّـــر بالتـــزام الحقّ أو فسد بعد صلاحه بالهدى – هم لا يشهدون الزّور عكوفاً علـــى سوح الباطل ومجالسه ولا تزويراً أو تغييراً لبيّنات الحقّ في أداء الشهادة بأقاويل مفتراة كاذبة، وإذا مرّوا باللغو منتدى أو خطاباً مرّوا كراماً يتّقونه مُعرضين يلتمسون صُـــحبة مَن هُم أكرم خلقاً وأحزم جداً. وهم الذين إذا ذُكّروا بآيات ربّهم لا يمضون في جهالة تغشاهم غفلة بل تراهم استجابوا وتذكّروا و لم يخرّوا على تلك الآيات صُمّاً وعُمـــياناً لا يـــسمعون داعيها ولا يرون صوب هديها. وهم الذين يرجون في أسرهم مـــزرعة خير وبرّ وسيرة هداية وصلاح ومثال تقوى متعاقبة متباركة، فلذا دعوهم لله موصولة أن يهب لهم من أزواجهم وذرياهم قرة أعين ويجعلهم هم للمتقين إماماً.

أولـــئك العباد للرحمن الخُلّص التوّابون الذين لا يظلمون ولا يبغون في معتقدهم وخلقهـــم في أنفـــسهم وفي معاملاهم وصحبتهم بين الناس وفي سنّ القدوة في سيرة أزواجهـــم وذرّيـــاهم – أولئك يُجزون الغرفة في أعلى درج الجنّة بما صبروا على فتنة مـــشهودات الكـــون دون الغيب وثبتوا رغم مزالق الظن والهوى في الحرام واجتازوا بـــلاءات علاقـــات المجتمع وكانوا صالحين توّابين. وهم مهما يكُن خطاب الضالّين المُحـــزن لهـــم وأذاهم لهم في الدنيا يلقون في الآخرة صُحبة الملائكة يُلقون عليهم تحيةً وســـلاماً، ويـــبقون هم خالدين في الجنة حسُنت لهم مستقرّاً ومقاماً. إن منهج أولئك الصالحين هو مثال التعبّد الحق للرحمن، وعلى الداعية لذلك إذ يذكّر مُخاطبيه بعهد الله وهديـــه أن يذكُر أن الله غني ما يعبأ بالناس عباداً له لولا أن منهم المهتدون إلى عبادته حـــقّ العبادة المتّقون غضبه وعذابه الصالحون التوّابون إليه بعد كلّ ضلّة وفتنة في الدنيا الدّاعـــون مـــنه الـــنجاة من النار والفوز بالجنّة مصيراً في الآخرة، وأَنّ منهم المكذبون برســـالة الهـــدى في الدنـــيا ووعيد الآخرة في الغيب الآجل فيحقّ عليهم الجزاء أمراً

مفعــولاً، وسوف يكون العذاب لهم لزاماً لأن الله لا يخلف العهد لعباده كيفما ساروا ومــدّ كــسبهم في الدنــيا فــسوف تأتيهم واقعة ليس لها كاذبة يوم الجزاء الموعود والمكذّبون بتلك الساعة سيرون الوعيد الناجز عين اليقين وعندئذٍ ينختم حساب بلاء الحياة الدنيا ويخلد الوجود سعداً أو شقاء.

وفي أواخر السورة يرد مثنىً من نهج المثاني فيها وفي سائر أسلوب كتاب الله، إذ يتواصـــل الذكر مقارنة بين حقّ الوجود في شأن الغيب والله واليوم الآخر وباطل فتنة الـــشيطان والهـــوى في الدنـــيا وعاجلها ومشهودها، وبين مذهب بني الإنسان إزاء رســالات الله تــصديقاً وإيماناً فصلاحاً وتكذيباً وكفراً ففساداً، وبين عاقبتهم الحُسنى والــسوءى. وخـــواتم الآيات تذكر عباد الله الذين عرفوا الله رحماناً سبّوحاً متعالياً في رحمته لعباده، فأخلصوا له الشكر والعبادة واستجابوا تذكّراً لآياته المنـــزلة رحمةً عليهم وهدى، وكانوا هم رُحماء في مُعاملات المجتمع تُقاة في رعاية حدود الله فلا يبغون على المحـــارم ولا يخوضون في أقوال الزور واللغو، وإذا فعلوا السيّئات تذكّروا فتابوا عزماً وفعلاً يرجون متاب الرحمن، ويمضون في كلّ حين من دنياهم يذكرون الآخرة يدعون ربّهم أن يصرف عنهم عذاب جهنّم ليفوزوا برحمته وجنّته خيرً مستقرّاً ومقاماً. وكما فــصّلت الآية قبلاً ذكر المخاطبين برسالة الحقّ الموحاة فما صدّقوها وما آمنوا بالغيب والآخـــرة والـــذين أنكـــروا صفة الله العُليا رحماناً وما صوّبوا إليه المتاب والدعاء فلم توافهم رحمة الله بل لعنته في العاقبة، ترد الآية الخاتمة أن سوف يأتيهم أجل السّاعة التي كذّبـــوا بها وينجز لزاماً عليهم وعيد عذاب جهّم يحقّ عليهم غراماً فيسوء مستقرّهم ومقامهم لآخر حياتهم في أزل الوجود.

سورة الشعراء

مقدمة في السورة وهديها:

سورة الشعراء تنــزّلت وحياً نحو وسط العهد المكّي، سابعة وأربعين في الترتيب، وتــتلوها ســورتا 'النّمل' و'القصص'. ثم ثبتت سادسة وعشرين في ترتيب الكتاب المنظوم، تتلوها ذات السّورتين. وتعبيرها الإنشائي مقارنة بالسور التي مثل طولها مدى متلوّاً أن آياتها كلها بناؤها فيه قِصر ويكاد يتوازن بعد جملة الكلمات. ولذّلك تتكاثر آياتها عدّاً منسوباً إلى عدّ آيات السّور التي مثلها طولاً متلوّاً. وغالب فواصل الآيات في السورة نونيّة الصّوت، وذلك نحو تسعة أعشار جملة الآيات، إلاّ بِضعاً وعشرين فاصلة ميمــيّة قريبة الصوت من النون وبضعاً من اللاّميات. وفي نظم السّورة ترجيع كلمات هــي ذات بنية آيتين: الثامنة والتاسعة، إذ أخذ الترجيع للآيتين يتردد سبع مرات، بعد كــل ختام لذكر سيرة أحد من المرسلين. وكذلك يتردّد ترجيع كلمات تواردت في فواتح دعوة الأنبياء المرسلين لأقوامهم: آلله لا يتّقون، إنه لهم رسول منه أمين، فليتقوا الله وليطــيعوه هــو، مــا يسألهم عليه من أجر إن أجره إلاّ على ربّ العالمين. فتلك الكلمات تتردّد في أول دعوة خمس من المرسلين، والوصيّة بالتقوى ترد أيضاً في سياق ذكــر سائرهم. وذلك التقارب في نظم آي السّورة والنغم الرّاتب في فواصلها والنسق في تــرجيعاتها – مــا يَجعل أسلوب القرآن في السّورة مقارباً للشعر في وزن قصائده ووحدة فواصل القافية في بيوته وفي ترجيعات في إنشائه أحياناً إذ يتخلّل القصيدة ترداد بيت أو شطر منها بعد كل أنظومة من البيوت الأخرى هو بينها ركائز تذكرة متوالية

عـــبر ســـوق معانيها أو فواصل حلية متواترة عبر أنساق نغمها. ولكن القرآن ما هو بشعر كما كان يقول فيه المتخرّصون، فالشّعر سوق كلام موزون التفاعيل منظوم في بحـــور من النغم، وقد يحسب المرء أن اسم السّورة كان إشارةً لما يميّزها من خصائص في أسلوب النّظم يشابه قول الشعراء. لكن سوراً أخرى في القرآن تمتاز بنحو ذلك من تـــوازن الآيات وتماثل الفصائل وكثرة التّرجيعات نظماً في أسلوب التعبير. ولئن اتُّخذ لهذه السورة اسم 'الشعراء' فإنما الإشارة فيه لذكر الشعراء في ختامها بين الظالم منهم الحامـــل علـــى القرآن بضروب من فنون مقولات الشعر الرائجة عند الغاوين والمؤمن منهم الصالح المنتصر للقرآن بالشعر الصّادق.

ومفتـــتح السورة - مثل سور أخرى - تتصدّره ثلاثة أحرف عربية مفردة دون التركيب في كلمات ومجردة من الإعراب لأسمائها. فهنا تذكر من أحرف الهجاء العربيُ الطـــاء' المجهورة صوتاً النطعية مخرجاً من نطع الفم الأعلى، ثم 'السين' المهموسة صوتاً الأســـلية مخرجاً عند مستدقّ طرف اللسان، ثم الميم' المجهورة صوتاً والشفوية مخرجاً - كلـــها أحـــرف يخرج نطقها من مقدم الفم. وهي إثبات في صدر نص قرآن السورة لجـــذور في منطوق اللغة العربية تتركّب فيها الكلمات فالجُمل فالآي فيتتامّ المتلوّ كلّه سوراً من وحي الله قرآناً منطوقاً وكتاباً مسطوراً بلسان عربـــي يخاطب لأوّل أمره أُمة العرب لأنه مُبين لهم يتفهّمونه بلغتهم ويُدركون ما فيه من مبلغ الفصاحة والحلاوة في التعـــبير وما يحتوي من العلم عن الغيب والحكمة في هدى الحياة وأنباء الغيب الماضي والمـــآل، ويعجـــز أيّما أحد منهم أن يأتي بمثله صوتاً منسوقاً وتعبيراً جزلاً ومضموناً جامعـــاً نافعاً من المعاني الجليلة، وكلّه منظوم لا يعتريه اختلاف ولا اضطراب. القرآن رســـالته خالدة لكلّ القرون وخطابه عام لكلّ الناس مهما يكن اختلاف البشر، فعلى أهـــل الخطـــاب الأوّل الذين شهدت لهم حروف في مفتتح بعض سوره على عروبته وإعجـــازه أن يـــتلوه ويحفظوا نصّه ويوالوا قراءته لتتواتر روايته، وعليهم أن يسطروه كتابةً ترعى هجاءه الأوّل حرصاً على أمانة النقل وإن جمّلوا خط نسخه، وأن يُعجموا حـــروفه ويشكّلوها لتُقرأ الكلمات صحيحة معربة مجوّدة النطق، ثم أن يرسموا المواقف والتحـــزيب. ثم علـــيهم أن يتدبّروا معانية لاسيما أنهم المسئولون الأُوَل عند الله فعند

الخلَف عن حفظ الأمانة، فقد تلقّوه طرّيا من الوحي وصاحبوا الرسول الذي تلاه عليهم محكماً وبيّن لهم معانيه حديثاً مرويّاً وفعلاً مسنوناً فحقّ عليهم هم أن يمثّلوا هديه بإمامة الرّسول في حياة متذكرة مهتدية. ثم عليهم من بعد أن يتلوه إلى الآخرين من الذين لم يشهدوا عهد تنزّله وبيان مقتضاه من الرّسول أو ذوي الألسن غير العربيّة ترجمةً وبياناً بأدقّ ما ينقل مقتضى المعاني المُحكم وخير ما يحفظ لكلماته وقعاً بيّناً ومَفعولاً حيّاً عندَ القارئ والسامع، فلا تشتبه معانيه ولا تختلط ولا تنبسط ولا تنحصر وراء أصل مدلولاتها الحقّ ولا يحرّف هديه لعهد التّنزيل حيث أُرسي الأساس الأصل لمثال الدين في أُمّة عربية اللسان اصطفاها الله للإمامة. لكن قد يكون لدى بعض الخلَف من القرّاء العَرَب للقرآن بل لدى المطّلعين عليه عبر التراجم ما عزّز فيهم نظرة التلقّي بزاد من تراث جهد قديم في فقه القرآن يتجدّد أو كسبٍ أثْرى من ذي قبل في العلوم والتجارب الحديثة فوُسع متبارك في إدراكهم وانفعالهم ففضلٍ من استطاعة التجلية لمدى أكثف من فقه القرآن والبلوغ لدرج أمثل في إيقاع حق هداه في الحياة. ذلك ما دامت تُحفظ أمانة بلاغ الوحي ومقتضيات معانيه كما كانت سارية في عهد البيئة العربيّة وحياة المؤمنين الأولى وتُصان كلمات القرآن مجردة لا تتبدّل بتحوّلات معان فيها وغاشيات ظلال حولها من طوارئ التغيّر اللغوي الذي يلاحظ حول تطور سائر اللغات. ذلك ليبقى القرآن خالداً لا يضيّع نصه ولا يحرّف كلمه ولا يتقادم مفهومه كالكتب الأولى التي كان يمدّها الله برسل لاحقين يُوحي إليهم ما يصدّق أُصولها ويضبط محفوظها ويبعث منسيّها ويجدّد وقعها في سياق خالف الظروف والبلاءات. فالقرآن لا يقتصر على خصوص قوم خطابه الأُوّل ولا على سياق الظروف التي استُصحبت عهد تنزيله بل جاء عامّاً برسالة موحاة خاتمة داعية للناس كافة كلماً خالداً قرآناً وكتاباً منذ انقطاع الوحي المتنزل على الإنسان إلى يوم الدين.

السّورة في أولها آيات معدودات فيها ذكر أوّل لآيات القرآن المتنزلة بحرفٍ عربيٍّ مُبين والتي باشرتها مجابهةُ إعراضٍ من أكثر المخاطبين العرب بما يكاد يجعل الذي جاء بها الرّسول يبخع نفسه. ثم يتلو ذكر لآية قدرية طبيعية يمكن أن تتنزل بمشيئة

الله مـــن الـــسماء خرقاً لمعهود السنين ووقعاً معجزاً قد يُكره الناس ليخضعوا لدُعاء القـــرآن كما جرى من آيات قاهرة لتعزيز دعوات بعض سلف المرسلين، لكن في هذه الرّســـالة الخاتمة ينكفّ ذلك القدر من الله ليقع القرآن على قلوب المخاطبين وهم في فطـــرقم الحرّة المتخيّرة لكيف الاستجابة له نظراً لا كرهاً أبداً من بعد فإن سَمعه بعداً مَـــن لم يشهد عهد متنـــزله لم تغب عنه مشاهد مُعجزة قاهرة بل بقي له بحجّته فقط نص القرآن ليُنصت ويتدبّر ويُؤمن إن شاء طوعاً. ثم يأتي ذكر كرّات الإعراض المتوالي الـــتي لازمـــت حدثان تنـــزلات القرآن المتواترة، لكن يصحب ذلك ذكر نذير بأن ســـتأتيهم أنباء واقعة الوعيد الصادق فيها وإن كانوا يكذبون ذلك وبه يستهزئون. ثم تخـــتم هـــذه الأنظـــومة من الآيات الأُولى في السورة بذكر الآيات المطبوعة في العالم المشهود التي تبسط للإنسان نعماً كريمة لعلّه في دنياه يعرف فيشكر ربّه، والتي تتجلّى فـــيها قدرته ﷻ في إحياء أزواج النبات لعلّ الإنسان أيضاً يؤمن ببعثه في عالم الغيب بعـــد الممـــات. وتُجمل آيات الأنظومة أخيراً بأن فيها حيثما تدبّرها الذي يتلُوها آية شـــاهدة بالحـــقّ فور بلاغه، فينبغي أن يتأكّد للدّاعي إلى ذلك الحقّ المُبين أنّ ربّه هو العزيز الرّحيم مَثنى صفة له ﷻ في تصريف أمر الدعاة والمخاطبين عزة عليهم أو رحمة لهم في أولاهم وأخراهم.

الـــسّورة من بعد في وسطها البسيط تُورد ذكر آيات متواترة في نهج سِيَر الأنبياء المَرســـلين ومـــا جرى من مجادلات ومجاهدات بينهم وبين أمم خطابهم وما وقع من مصائر نجاة وعقاب حقّت للمؤمنين وعلى الكافرين. فسُنّة الدّعوات المتوالية المُتصادقة كانـــت الـــتذكير بالله الواحد وبوحدة الوجود المخلوق له مشهوداً وغيباً هو مُصرّف أمْره وبالحياة الواحدة الموصولة للإنسان دنيا مجال بلاء وتكليف وأخرى مآل حساب وجزاء وفاق الكسب في الأولى. ثم يتوارد ذكر الوصية العامة: التقوى لله هادي مسير الإنـــسان ومـــصرّف مصيره والطاعة لرسله الذين تبدر منهم الدعوة لذلك والقدوة. وذلـــك لـــئلاّ يـــنفتن عـــباد الله في الدنيا فيتعدّون على حدود هدى الله لا يتقون ما يتعرّضـــون له من غضب وقدرة وقضاء عقاباً عاجلاً أو آجلاً. وكلّ رسول كان يعلن مـــا يطمـــئن به قومه لصدقه: إنه لهم رسول أمين من ربّ العالمين وإنه لا يبتغي منهم

عوضــاً عند أداء أمانته إليهم بل يكل أجره على الله. ومن وراء عموم نصيحة التقوى والطاعــة يخاطب كلّ رسول عين الابتلاء الذي يَغشى قومه ويفتنهم عن ذلك النصح فيذكــر لهم تفصيلاً وجوه ضلالِهم ناهياً عنها وداعياً للإصلاح. وسُنّة السّواد الأعظم في أمم الخطاب تلك أن يكذّبوا بلاغ الرّسول في أمر الغيب ويرموه هو بالظنون، وإذا أنــذرهم في ضــلالهم بوعيد عذاب أو هلاك حاق عليهم مهاداً عاجلاً بين يدي يوم الحــساب والجزاء الآجل كذّبوه وتطلّبوا منه آية معجزة مشهودة بيّنة تصدّق رسالته لاسيما فيما يُنذرهم به.

هكــذا كــان موســى رسولاً إلى فرعون وملئه داعياً لله ربّاً للعالمين معبوداً ولتقواه بإرســال بني إسرائيل المعذّبين معه. وإذ كان تراثه ملّة وشريعة هو الأبقى والأشهر حول أرض الرّســالة الخاتمــة فقــد جاء ذكره أولاً في السورة. وكذلك جاء ذكر إبراهيم إمام الأنبــياء الخــالفين وأب العرب الذين ارتدّوا عن ملته التوحيدية الحنيفيّة إلى عبادة الأصنام مــثل ديــن أهل إبراهيم الأوائل. وكان إبراهيم من شيعة دين الحقّ والمِلّة التي سنّها نوح الذي تلا ذكره داعياً لله مجتهداً في دعوته صابراً داعياً لنفسه وللمؤمنين القلة نجاة وفتحاً في الأرض، يسّره له الله ذات الشمال وجعل له سلالة ذرية وتراث بقيّة من هداية. فعقبه على ســنّة رسالة الحقّ جنوباً شرقياً في جزيرة العرب هود في عاد فصالح في ثمود شمالاً وتعاقب ذكــرهم في الــسورة. ثم جاء ذكر لوط رسولاً في سدوم وما حولها ثم شعيب جنوباً في مــدين وأيكــتها. وكانت دعوة هؤلاء واحدة في أصولها الإيمانية، وإن تعسّر على موسى تعــريف فرعون بحقّ خطابه عند الله وما أغنته الآيات التي غلبت سحر الثقافة السحرية في مصر الفِرعونية فإنه ظلّ يُجادل الطاغوت السلطاني وفتنته المادية دون الغيب. وكذلك قام إبــراهيم يجــادل قــومه ويجاهد تقاليدهم العاكفة على الأصنام الجامدة العاجزة يُذكّرهم باســتقامة عــبادته هو لله وحده والاستعانة به في كل شئون حياته وفي الهداية له في نفسه وفي ذرّيته والخير في عاقبته حتى الآخرة. ونوح من قبله في العراق كان كذلك يجادل قومه ليؤمــنوا بــالله ويتطهّــروا مــن تعلقاتهم الإلهية الطبيعية والصنميّة الموروثة وفتن حياتهم الاجتماعــية. وخلَفه ذريّةً لهُ هود في عاد المفتونين بمتاعهم في الأرزاق المبسوطة ومصانعهم الثابتة المنتشرة والباطِشين بقوّتهم على من حولهم. ثم صالح الذي دعا قومه للتطّهر من فتنة

مـــوارد الـــرزق الوافر ومن سرف الإعمار حتى في الكهوف سكناً. ثم لوط الداعي قومه لـــتقوى الله كفّـــاً عن الارتهان لخلقهم الشاذ في إتيان الذكور. وشُعيب الذي كانت ديار قومه محور تجارة نشطة وملتقى ثقافات ملّية ابتلوا فيها بالظُلم والتطفيف وصدّ مَن خالف عـــرف أوّليهم فدعاهم للوفاء بالقِسط في المِكيال والميزان وألاّ يعثوا في الأرض فساداً ولا يبـــسطوا تعالياً. وما من رسول من أولئك إلا أنذر قومه بالمصير المكتوب لهم ما تمادوا في ضلالهم. موسى كان يبشّر المؤمنين المستضعفين ويوصيهم بالصبر وينذر الآخرين بالهلاك. ونـــوح ما لقي وهو يُعد للمصير يوم النذير إلا سخرية من قومه. وإبراهيم يخلّى أباه وقومه في أرض الـــضلال والمهالك ويعتزلهم مهاجراً. وهود كان يُنذر قومَه عاداً بعذاب عظيم. وصـــالح آذن قومه بعقاب اقترب إذ قتلوا الناقة التي ظهرت فيهم تحوز يوماً لشربها آية وقد تطلّبوها. وكذلك لوط أنذر قومه بعاقبة سوء لعملهم الكريه. وكذلك شعيب كان ينصح ويـــنذر. وأقـــوام الخطاب كانوا يرمون رسلهم إما بالسحر، كموسى، أو الجنون وفرط المجادلـــة، كـــنوح وصـــالح وشعيب، أو ينذرونهم بالإخراج، كإبراهيم ولوط، أو كانوا يـــتهدّدونهم ويتحدّون نذيرهم. وكانت وقائع العواقب شهادة على ما حقّ من النذير على قوم موسى ونوح غرقاً، وقوم هود وصالح مهلك صيحة جائحة، وقوم لوط زلزالاً مدّمراً. والنجاة كانت دائماً للرّسل ومَن معهم من قليل المؤمنين، وبقيت آثار تراث موسى ونوح وإبراهيم، وآثار ديار خربة مهلك قوم هود وصالح ولوط.

وفي خـــتام كلّ نَظمة من الآيات في شأن سيرة رسول كان يتواتر الترجيع للآيتين في ذيـــل آيات صدر السورة: إن في ذلك لآية، إذ في كل سيرة شهادة اعتبار في ثبات أصول الـــدين والإيمـــان بالغيب وعبادة الله وتقواه واتّباع رسله مِلّة واحدة وسُنة في الدعوة خطا مسيرها وعواقبها متوافقة، دلالة اتّعاظ أنه ما أكثر المخاطبين بمؤمنين في مستهلّ أيّما دعوة للـــدين الحـــقّ ولو امتدّ سنوات وإذ تحقّ العواقب العاجلة في سيرة الدعوات. وهي أخيراً تذكرة في شأن الله يحقّ أن يتواتر ذكرها بأنه ﷻ عزيز رحيم يأخذ ويهلك بعزته مَن يشاء مـــن الكافرين ويمهلهم قليلاً كما يُنجي ويدرك برحمته مَن يشاء من المؤمنين. وفي ترجيع الآيـــتين بدلائلـــها الكثيرة المتجلية دائماً في قصص المرسلين السابقين ذكر تثبيت للرّسول الخـــاتم ثم لكـــلّ حامل لرسالته داعياً ومجاهداً وصابراً في سبيل ابتلاءات دعوتها في الأرض

وعــبر القرون: أن دعوة دين الحقّ واحدة ومجاهداتها متماثلة مهما تكن ضروب ابتلاءات الــضلال في وجهها، أصلها واحد هو الإيمان بالغيب فبالله الخالق ربّا المنعم محموداً وتقواه فهــو المبتلــي هاديــاً الجازي عدلاً فالنذارة والبشارة بعاقبة الجزاء، حقٌ واحد يميز مصير الــضالّين في حــياة مفتونة من المهتدين في حياة تقيّة، وقضاء واحد من الله العزيزِ عاجلاً هلاكــاً وانقطاع دابر أو جزاء فتنة تودي إلى تلاشٍ في الذكر الخالف، الرحيمِ نجاة وحياة طيبة زكية وسراء حضارة لها لسان ذكر وأثر خير خالف، أو آجلاً في الآخرة عذاباً أشقى وغضباً ربانياً أو نعيماً خيراً ورضواناً في خلود.

عند منظومة الآي لمختتم السّورة يرجع الذكر إلى شأن القرآن الذي تصدّر مبتدأ الــسورة: أنــه تنــــزيل من ربّ العالمين يُوحَى إلى الرّسول البشر من الروح الأمين الواســطة المكيــنة عــند الله في الغيب. حرفه وكلمه لسان عربــي لا أعجمي وإلاّ لاســتغربته فأنكــرته لذلك أمّة الخطاب الأُولى. والحقّ أن المعاني الأصول فيه يعلمها ويصدّقها العلماء غير العرب من بني إسرائيل وقد كانوا المراجع في شئون علم الوحي والغــيب عند العرب الأميين. والنّذير في القرآن صادق ولكن طبع المُجرمين ألاّ يؤمنوا به حتى مآله عاقبةً حاسمة تأتي بغتة دون إنظار، وإن كانوا يستعجلون إيقاع الوَعيد أو يغــرّهم الــتمادي في متاع يتطاول سنين فإن المنذور قادم لا يُغنيهم المتاع بل يمضي أمــرهم كــسُنّة القُرى السّالفة لا ظُلماً عليهم من الله بل عدلاً بعد إيذان. وما القرآن قــذف قــول من واسطة غيبية شيطانية كما يظنّ المخاطبون، وإنما توحي الشياطين زخــرف القول وباطلة على أوليائِهم من الكهّان الدجَالة. والقرآن حق خالد وظاهر علــى ديانات الضلال كلها. والشّعراء الهائمون في كل ضروب اللغو واللهو والباطل الكاذبون الطاغون لا يتّبعهم في حَملتهم على القرآن والدين الحق إلاّ الغاوون، وبئس منقلــبهم، فمــن الــشعراء مَن آمن وعمل صالحاً وهم الذاكرون الله الذين ينتصرون للقرآن والدين المظلوم. ويتوجّه هنا خطاب للرّسول المبلّغ للقرآن أن يقوم معتزلاً أهله المشركين موحّداً خالصاً لله معبوداً وأن ينشر الدعوة والنذير فيمن حوله بدءاً بعشيرته الأقــربين، وأن يخفض جناحه للمؤمنين التقاة لله الطوّع لسنّته ويعلن البراءة من عمل العُــصاة لله ورسوله. ثم عليه أن يتوكّل على الله ويتزكّى بشعائر عبادته الموصولة حتى

القـــيام باللـــيل في جماعة مع سائر الساجدين. فالله هو السميع العليم بكلّ الذاكرين العابدين إليه يوكِل تصريف أمرهم وقضاء عاقبتهم الحسنى.

ترتيل المعاني (للآيات ١ – ٩):

﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١ – ٢)

ثلاثـــة أحرف عربيّة تتوالَى مخارجها عند مقدم الفم، إشارة لمباني كلم القرآن وقسماً وشهادة أن كلماته كلها لسان عربـــي من مثل تلك الحروف التي وردت في منظوم اللّغة الـــسائدة المعهودة لأمّة اصطفاها الله وجعلها موضع الخطاب وموئل المثال الأُوّل للقرآن. فآيات ذلك المُشار إليها كأنها ذات شأن عالٍ إنما تتألف من تلك الكلمات العربية فتخرج بارزة يتجلّى معناها مُبيناً واضحاً لأمّة خطابه تلك لأن تعبيره معروف مألوف. فهو من ثَم كـــتاب مفروض عليهم وفرقان بينهم للحقّ وأسلوبه فيهم قرآن مجيد وهو وحي من الله إذ يعجـــزون وهـــم البشر الناطقون بذات لسانه أن يأتوا بمثله، ما هو لغته مُعجمة ولا دلالته مُـــبهمة فالمخاطـــبون الأُوَل يـــستمعون لكلِمه فيفهمونه ويتفقّهونه فيبلّغونه لغير الناطقين بالعربية ويستجيبون لدعوته ويؤمنون بهدايته ويحيونه قدوة وإمامة للعالمين.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣)

يُخاطـــب الـــنبيّ العربـــي الذي هو مَن يتلقّى وحياً لأوّل الأمر آيات الكتاب ليبلّغها رسالة لمن حوله في بيئته العربية والذي لا يتلقّى من أهلها لفور البلاغ استجابة مباشرة مرجوّة لمسموعات منطوقات بلسانهم بيّنة المعاني – يُخاطب أن لعلّه – ظنّاً به مـــنظوراً من وقع ذلك الإعراض الذي يخيّب أمله أن يكونوا وهم أولُ المُخاطبين أسبق المـــستجيبين وفاقـــاً يكونُ إيماناً راسخاً بتلك الرسالة – يُخاطب أن لعلّه باخعٌ نفسه، يكاد يُهلكها أسفاً وغمّاً ألا يكونوا إلا كذلك بعد أن بودروا بكلّ ذلك البيان.[1]

---

(١) في الوصـــية للرســـولﷺ أن لعلّـــه يـــبخع نفسه أو تذهب نفسه حسرات فلا يحزن لكفر المخاطـــبين: راجـــع أيضاً الآية ١٧٦ سورة آل عمران، والآية ٤١ سورة المائدة، والآية ٣٣ سورة الأنعام، والآية ٦٥ سورة يونس، والآية ٨٨ سورة الحجر، والآية ١٢٧ سورة النحل، والآيـــة ٦ سورة الكهف، وانظر الآية ٧٠ سورة النمل، والآية ٢٣ سورة لقمان، والآية ٧٦ سورة يس، والآية ٨ سورة يونس.

﴿إِنْ نَشَأْ نُنَــزِل عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آَيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (٤)

يسكّن الله قلب النبـــي بعد الخيبة من وقع دعوته، يخاطبه بأقداره في شأن أولئك المُعرِضـــين عـــنها: إن يـــشأ هو ﷻ – بكلّ خياراته وأقداره المطلقة وقواه الفاعلة – يُنـــــزل علـــيهم – تعبيراً بالفعل المضارع عن سُنَّة يمكن أن يقدّرها الله بمشيئة أقداره المجتمعة – يُوقع عليهم من السّماء المحيطة حولهم علواً هائلاً آيةً هي واقعة عليهم ظاهرة شـــاهدة علـــى أقـــدار الله ذات الطاقات الراجّة والأصوات الصاخّة تأخذهم بغير ما يعهـــدون من طبائع الكون المسنونة حولهم، ممّا يعظّم عليهم وقعها القاهر فيمضي – فعلاً وحادثاً ماضياً مترتباً عليها مباشرة – أن ظلت أعناقهم في انفعال بها يجعلهم جميعاً خاضـــعين، صار متين مقامهم الشّامخ عند الرّقاب ذالاً لذلك الوقع ومن ثمّ هم بكلّ قوة استكبارهم ظلوا خاشعين مقهورين كرهاً لمقتضى الآيات القرآنية التي عزّزت قدر حقّها شهادةُ تلك الآية الطبيعية بأنها صادرة من الله الجليل القدر فيما يُنـــزل شَرعاً أو طـــبعاً علـــى عالم مخلوقاته. لكن الله بمشيئته العُليا قدّر أن يخلق الإنسان حرّ الخيار لا يُكـــرهه أن يـــؤمن بالله فبحقائق الغيب فبرسالة الدين هدى في الحياة الدنيا في سبيل الآخرة.[1]

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (٥)

ذلـــك قدر الله – إن شاء أن يُكرِه المعرضين عن آيات وحيه فينـــزل عليهم آية قاهره في مطبوع حوادث الكون تحثّهم على الإيمان، لكنه شاء – سُنّة له قدرية جارية علـــى كـــل بني الإنسان – أن يخلّيهم أحراراً ليختاروا أمر مذهبهم وكسبهم في الحياة فيُحاسَـــبوا بَعداً عليه، ومن ثَم آيات الدين المشروع تنـــزل إليهم وحياً يُبلّغه النبـــي مخاطـــباً به لهم. وما يأتيهم من ذكر من تلك الآيات – بياناً للغيب أو أحكام تكاليف أو مـــواعظ عاقبة – موحىً من 'الرحمن' الذي أنكروه اسماً لله بينما تفيض منه رحمة الهدايـــة علـــى عباده المحجوبين عن عالم الغيب فعن العلم المحيط بحق الوجود ومغازيه ويغمـــرهم لطفه إذ يُملى لهم في مدّ الحياة الدنيا ابتلاء قبل أن يأخذهم بالحساب – ما

---

(١) في أنّ مـــشيئة الله وقدره في هديه للإنسان ألاّ إكراه في الدين: راجع أيضاً الآية ٢٥٦ سورة البقرة، والآية ٨٧ سورة الأعراف، والآية ٩٩ سورة يونس، والآية ٢٨ سورة هود.

تـــأتي رحمـــة من ذلك الذّكر محدَثاً – يتنـــزل متجدّداً في سياق حِدثان الحياة المتعاقبة أســـباباً لوقع تنـــزله – إلا كانوا هم عنه معرضين، ما يتواتر عليهم فيتعزر ليشدّ على أسماعهم ويليّن قُلُوبهم بوقعه المتضاعف إلا مضى فيهم أن ظلّوا هم معرضين دائماً.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦)

فقد كذّب أولئك المُعرضون، ترتّب أن مضى فعلاً تكذيبهم بالهُدى الحقّ والوعيد الـــصادق رسالة من الغيب، فحقّ عليهم أن سيأتيهم الأجل مستقبلاً يرونه بعيداً وهو قريب – سيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون، ستُقدِم عليهم في الدنيا حين يستخلف المؤمـــنون في الأرض تمكـــناً آجلاً أو في غيب الآخرة عند البعث بعد الموت ومعرض الحساب ثم الأخبارُ ذات الشأن البالغ عند واقع مشهود يُصدّق سابق الوعيد مما كانوا بـــه يـــنذرون نُذُراً متوالية يتواتر الذكر، لكنّهم يستهزئون تكذيباً للوعيد ويسخرون استخفافاً به.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (٧)

أو لم يـــروا إلى الأرض؟ استفهام استنكاري لما هم فيه من العمى: ألم تنضف إلى سمـــاع تلك الآيات المُوحاة ذكراً رؤية الآيات المطبوعة في الكون فتعزّزها، ألم يروها؟ والحقّ أنهم – نظراً بأبصارهم إلى واسع الأرض لا رؤية متبصّرة بوجدانهم لا يرون كم أنـــبت الله بجميع أقداره وعظيم سننه في الخلق والتقدير، ما أخرج نباتاً من كلّ زوج كـــريم وذلـــك الكثير من صنوف المخلوقات النابتة زرعاً من ألوان أنوارها واختلاف صـــورها وطيب ثمارها مآكل، وتلك شهادة بيّنة على عظيم أقدار الله وسعة تصريفها للوجود ومسيرته، إنه يبعث حياة بألوان شتى من موات في النبات فهيّن عليه أن يُخرج موتـــى البشر أحياء بعثاً في دورة ودار أخرى هي التي تُكامل الأولى عدلاً إذ هي دار الجزاء الخالدة بعد دار البلاء فالموت.

﴿إِنَّ فِـــي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٨ – ٩)

إن في ذلـــك الباهر من المشاهد والمتوافر من الأصناف والجمّ الحسن الكريم الذي في الطبـــيعة حـــولهم مما يراه المخاطبون آيات بينية تعزّز حقّ آيات الوحي المتنـــزل. لكنهم

يغفلـــون عن تلك البينة كأن لم يروها. وإن فيه لشهادة على عظيم قدرة الله وكريم نعمائه في الخلـــق وهدايـــته وتقديره لمخلوقاته الحية أطواراً وآجالاً، كالنبات كيف يخرج وينمو ويزهـــر ويثمر ويصير إلى ذبول فممات ثم كيف تنبعث البذرة منه كي تخرج حيّة مخضرّة مـــرة أخـــرى. إن في ذلك لآية، علامة وشهادة على أقدار هداية مسيرة الحيوان فالإنسان المطـــبوعة قـــدراً، لكـــن الإنسان مخلوق عاقل ينبغي أن يدرك السنّة المطبوعة لمسير حياته وتعاقـــبه في الدنـــيا وأن يـــؤمن بفطرته ثم بالآيات المسموعة الموحاة قدر بعثه في الآخرة ويهـــتدي بهـــا إلى ما يرشد مجال دنياه الذي يذره له الله ابتلاء عفواً وهدى حسب خياره للمـــضي إلى حـــسن مـــآل أخراه بعد البعث. وما كان أكثر المخاطبين – أمراً ماضياً في خـــيارهم – بمُـــدركين منتهى ذلك المسير لحياتهم الدنيا إلى حياة أخرى، ما قرّ ذلك إيماناً راســـخاً في قلوبهم مهما تتنـــزل عليهم آيات الوحي وإن ذكّرتهم محدثات ذكرها المتوالية بمـــا يعزّز حقها من آيات الطبيعة. ويخاطب الرّسول الذي يبلّغ تلك الآي ويجابه الإعراض المحـــزن: إن ربّه – حقاً مؤكداً هو وحده العزيز بقوة أقداره في كل تصريف لأمر مخلوقاته مـــن إحياء إلى هداية إلى إماتة فبعث لا تركها في عدم أو إيجادها في حياة سدى أو إفنائها أبـــداً، وبتعاليه على كل مخلوق يغشاه الغرور والاستكبار إن كتبت له الحياة الدنيا حرّة في خـــيارها، وهو الرحيم ذو الرحمة التي تصيب كل دقائق مخلوقاته وشعاب وجودها ومعالم مـــسيرها يلطـــف بعباده خالقاً لهم في أحسن تقويم ويرفق بمسيرهم معيناً هداهم في عبادته ويحلم على ضلالهم لا يعجّل عقابه بل يمدّ لهم لتتهيأ فرصة متاب، ويبارك في الجزاء بما هو خير وأبقى على من اهتدى واستقام.

وتقـــوم هاتـــان الآيتان ذكراً تتعزّز المعاني الواردة فيه أصولاً راكزةً لدعوة الدين وعبراً وعظات في مسيرها، فمن ثَم يتردّد ترجيع لها عقب كل أنظومة من آيات تروي سيرة رسول داع إلى الدّين الحق، كما سيأتي بيانه عبر آيات السورة.

عموم المعاني للآيات (١ – ٩):

اســـتفتاحاً واستشهاداً بثلاثة من حروف اللسان العربـــي تخرج عن مقدمة الفم يُـــشار إلى تركيب لغة تلك الآيات الموحاة من علٍ تنـــزيلاً على أمّة الخطاب الأُولى

يلحق بها الناس كافة، لتُتلى قرآناً فتسمع ذكراً لله ولتحفظ في الصحف كتاباً ولتُرعى نوراً لهداية الحياة. وذلك مثل كثير من السّور تصدّرها حرف أو أكثر من هجاء اللغة العربيّة لتُتلقى الآيات العربية عن العرب بيّنة لا تستعجم ولا تستبهم لكن تقليدها إتياناً بمثلها منهم أهلِ ذات اللغة معجزٌ لأنها صادرة من الله الذي ليس كمثله شيء يكافئه في أيّما صنعة أو يضارعه في أمر. فإذا تفقّه المخاطبون العرب وقع أصوات حروف الرسالة القرآنية ودلالات معانيها ورسخت في وجدانهم شعاب الإيمان بها وحياً حقاً ربّانياً وعبّروا عنها في كل وجوه حياتهم مهديّة، فاضت بها ألسنتهم وأقلامهم أذكاراً وسطوراً تبلُغ الآخرين وعرضت ظاهرة حياتهم بها نموذجاً متكاملاً ومثالاً وقدوة. ومهما تتناقلها القرون الخالفة حُفظت حقاً أصولها التي كانت سارية في فهم الأوائل متجلّية في حياتهم متجرّدة من غاشيات الضّلال حول المعاني وتطوّرات مدى الدلالات التي تطرأ على اللّغة العربيّة مثل سواها بينما تُتداول خلَفاً بعد سلف على ظروف في الوجود وابتلاءات في الحياة مختلفة. وقد يتبدّل عند السّامعين من ثم مفهوم الكلمات الأولى المحفوظة لفظاً فنجد الصوت المنطوق مقدّساً بينما ينتسخ المعنى الأصل. وكما يُشعِر أي من الحروف في صدر السّور مثالاً لبقيّتها في اللّسان العربي بوقع خاص من المعنى وتتركّب الكلمات من تلك المعاني الجذرية المؤتلفة ثم الجُمل بأنماط إنشائها المختلفة لاسيما في العربية الغنيّة أكثر من غيرها بتصريف الكلمات وترتيب كلم الجمل لإيقاع معان شتى - تجتمع من ذلك الآيات وينتظم الكتاب العظيم الذي يتمّ ويتّحد ذكراً. وإن تبدّلت الحروف المنطوقة والكلمات المعرَّفة فالجُمل المؤلّفة متى خاطب المسلمون العَرَب أقواماً أعاجم بألسنتهم في تراجم تنشر رسالة القرآن الموجهة لبني الإنسان كافة - متى لزم ذلك فإن التفهّم الوافي لجذور اللغات الأخرى ومفهوم كلماتها الساري في إنشاء كلام فيها يصبح لازماً حتى تنقل التراجم إليهم حقاً آيات القرآن وهداياته بيّنة بكل مدلولاتها ومحمولاتها وبعين مغازيها في عهد التنزيل محكمة لا مشتبهة وتروى رواية منضبطة صادقة لا تنبهم وتحرّف ولا تُغير. والبلاغ عبر القرون واللّغات عُرضة دائماً لابتلاءات تطوّرات الألسن العربي وغيره، والمعاني المثبّتة للغة في المعاجم أصولاً حقّة قد يعتريها تبدّل متوال في سياق الاستعمال الجاري

في حاضـــر كـــلام أهلـــها - الكلمات الأصل قد تتّسع عموماً أو تبسط دلالة وقد ينحـــصر أو يتعيّن مدلولها اصطلاحاً أو يصرف أو يهي أو يتعاظم وقعها. ولذلك في بلاغ الكتاب الذي أُنـــزل هدياً خالداً عاماً لبنى الإنسان ينبغي كل حين مراعاة الدقة في الـــبلاغ وتحريـــر الترجمان ومراجعة التفسيرات للقرآن لتوصل لكلّ قارئ في ضوء ثقافته وظروفه ويُحفظ أبداً الحق الصحيح للوحي كما كان بحروفه وإنشاء كَلِمه وآيه في لـــسانه وعهـــده العربـــي الأوّل مهما يتعاقب ويتغيّر خلال قرون ولغاتٍ أخرى خطابـــه خالـــداً في مغـــزى هداه متجدّداً في بعض الواقعات والصور والتجلّيات التي يقتضيها.

وإن كـــان القـــرآن بحرف لسانه بيّناً ولبيئة تنـــزله وأسبابها مناسباً لأمّة خطابه العـــربية فإنـــه لم يتلقّ من تلك الأمّة المعنيّة مباشرة الأُولى إلا إعراضاً غالباً، إن طرقت تلاوتُـــه علـــيهم آذانهم وقالوا سمعنا إنما تلقّوها كأنهم صمّ لا تبلغ وجدانهم تذكراً ولا ترســـخ فيها إيماناً. وكان النبيّ ﷺ يكاد يبخع نفسه حزناً على قصور بلاغه عن إدراك غايته وعلى حال الذين أدبروا عنه وهم عرب بذات اللّسان للكتابِ المبين وذوو قرباه يحبهم ويشفق على ما حقّ عليهم من مآل لإدبارهم عن طريق الهُدى إلى حسن المصير. وقـــد كـــان لله إن شـــاء أن يُنـــزل عليهم لا الآيات اللّسانية من الغيب وحسب بل يعـــزّزها بآية طبيعية واقعة من السماء خارقة للمسنون معجزة إلا لقدر غيبـــي فهي قارعـــة لهـــم تخـــضع لها أعناقهم كرهاً فيخشعون لما شهدت عليه، ولكن الله قصَر الإنـــــزال على آيات الكتاب المسموعة خطاباً لأُولى الألباب لعلّ مغازيها ترسخ في قلـــوبهم إيمانـــاً رضيّاً وتمضى هي خطاباً لا قاصراً لأمّة الرسول الأُولى بل للناس كافة الغائـــبين والخـــالفين. ومـــا كانت الرّسالات السالفة إلاّ من رسول إلى قومه خاصّة حاضرين. وكانت الثقافات ساذجة لا تنظر إلاّ لسنن الطبيعة الظاهرة وحادثات الواقع الحاضـــر، أما الغيب فلا يؤمنون به إلاّ أن يتجلّى في الظاهر ويحدث في العاجل أفاعيل ســـحر غريبة عن الأسباب المعهودة لكنها بادية أو معجزات قاهرة الوقع يُريهم إياها المرســـلون لتعزيز الوحي الغيبـــي وهم يستعجلونها شريطه تصديق لهم خضوعاً لقوتهم الموصولة بالغيب وراء ما يعتاد الناس وأحياناً يُصرّون على كفرهم.

لكن الرسالة الخاتمة كانت بلاغاً لمن سمع الرسول يتلو القرآن وشهد حاله وحضر سـنته ثم من بعد للناس كافة غُيّباً وخالفين، والذين صحبوه لم تقهرهم ليؤمنوا معجزةٌ مشهودة جرت على يده، وإن استعجلوا متطلّبين آية كذلك كان الرّسول يجاوبهم أنه لا يعلـم الغيب ولا يصرّفه وما تأتيه آية واقع غريب مثل ما يحرصون هم بل تتنـزل آيـات وحي من القرآن حجّتها في نصوصه خالدة، فمتى رُويت لغائبين أو خالفين لم يحـضروا تنـزلها ومـا شهدوا ولا سمعوا أن قد جرى من رسولها فعل معجز يعزّز صـدقها صدوراً من الغيب إنما يقرأونها هي ويسمعون أن الرسول ما كان إلاّ تالياً لها مـبلّغاً وحسب ما وقع منه فعل معجز غريب مستجيباً لطلب أو راغباً في قهر مشهود يحمـل علـى الإيمان. وفي العصور الخالفة قد يكذّب الناس الخوارق المرويّة للرسل أو غيرهـم إذ يـتقادم عهـدها ويهي سندها المتطاول بتعاقب الرواة. بل الثقافات اليوم أصـبحت غالـبها تتباعد عن الغيبيات المشهودة وتنصرف عن السحر غنىً عن ذلك بالعلـوم التجريبيّة وحصراً للإدراك في المادة الواقعة المشهودة، بل أصبحت تجتهد نظراً وتدبـراً في الأمـور وأقرب استجابة لأيّما دعوة فيها سلطان حجة ورجحان منطق بتقدير عقولهم ولو كانت تنبئ عن غيب لا يتيسّر بلوغه المباشر بالحواسّ المطبوعة سمعاً ونظراً ومسّاً ومهما يتعسّر عليهم الخروج على ما سلّم به الآباء فتوارثوه مذهباً رسّخته الأعـراف إذ كان مقبولاً وغدا تقليداً غالب الناس محمولون عليه. فالقرآن اليوم كلام يطّلع عليه غير المؤمن ويتدبّر وقد يرضى بمعناه وينفذ لديه قناعة في النظر وعقيدة آمن بهـا الوجدان إذ ينعقد استمساكه بها. فالعالمون اليوم يتلقّون القرآن ولم يسمعوا لوقعه الأَول أن قـد صاحبته معجزات قاهرة، لا يأبهون لقدمه لكنهم يتبصّرون العبر في مثال عهد تلقّيه السُنّي شهادة لصدقه.

لكـن كان المخاطبون المباشرون الأُوَل ما يأتيهم من ذكر من القرآن محدث عبر سريان أسباب تنـزله الحادثة وتجدّد هداه المتّاقل درجاً أكمل أو الميسِّر تخفيفاً حسب تطـور احتمال المخاطبين – ما تواتر ذكره حدوثاً إلا ظلوا عنه معرضين لم ينطبع في وجـدانهم قدر من الله يحملهم على الإيمان كرهاً، فأصل سنة أقدار الله في الإنسان أن يبقـى حرّاً يذهب حيث خياره ولو كان صدوداً عن الحقّ. ولم يتركّز عليهم نـزول

القرآن جملة ليلج بأثقاله قلوبهم ويقرّ في وجدانهم الإيمان به وإنما تنجّم نــزوله حسب تطــوّر الأسباب وتقلّب الابتلاء والظروف. فمن المخاطبين مَن كان لا يزداد إلا كفراً ويتضاعف تكذيبه متوالياً كلما تواتر التنــزيل. ومنهم الذين كانوا يجاوبون ويجاهدون الرســول ﷺ بنهج من الاستهزاء بما يبلّغ في متلوّاته القرآنية من نُذر سوء المآل لمن لم يهــتد خياره فيطاوع الهُدى ومن بشائر بحسن العاقبة إثر الطواعية المخلصة. والحق أن المــصير الموعود هو حاق وقوعه وسيأتي أمّةَ الخطاب المعرضة نبأُ تأويل النذير وينجز الوعــيد بينما يتبين صدق الوعد البشير أيضاً. وهذه الدوافع تحريضاً وحفزاً بالترهيب والتــرغيب ينبغي أن تصاحب الدعوة إلى الإيمان بالغيب وهدى القرآن أبداً بعد العهد الأول. والهداية الغيبية التي فيها نذارة وبشارة صادقة لا تخيب هي حق لأن فيها يتجلّى توازن أقدار الحياة بين الدنيا ابتلاء والآخرة جزاء لاحقاً عند الله يكافئ سابق الكسب والعاقــبة وفاقــاً. وكل خلق الله المشهود في الوجود إنما هو بميزان، فلن تذهب الدنيا بعوجها وظلمها وقصورها دون تقويم وعدل وتمام لاحق في الآخرة ليتجلّى القسط في الخلق وتصريف أمر الوجود من الله الواحد والذي تبين الوحدة في مثاني صفاته أقداراً وقضاء في أول الحياة وآخرها: رؤوفاً وجباراً وحكيماً وعزيزاً وراضياً وغاضباً وراحماً ومنتقماً وسائر صفاته الحسنى.

ويذكّر القرآن الأولين مثل ما يمضى تذكيره للآخرين لاسيما أنّ زادهم في علوم النــبات والأحياء جميعاً يتعاظم فيهم خلَفاً للسابقين وقد يُعينهم على تبيّن أقدار الله في الطبيعة كيف يخرج الحي من الميت ظاهرة مسنونة: أو لم يروا إلى الأرض كم أنبت فيها بأقداره المجتمعة المتكاملة من كل زوج كريم – آية في معالم ظواهرها وفى دقيق بواطنها أن الله الــواحد في غيب الوجود قد خلق المزواجة الكريمة في تكوين خلقه المشهود آية بيّــنة لــه في أمر النبات فالإنسان، ففي ذلك آية توحّد في وجدان المرء المخلوق عوالم الغــيب والشهادة والموت والحياة في النبات كما تتوحد له الدنيا بعد الموت والآخرة وذلــك يجمع شتى تجلّيات صفاته ﷻ في وحدانية ذاته. ولئن ما كان أكثر المخاطبين لأوّل عهــد خطــاب القرآن بمؤمنين بذلك المدى من الحقّ، فالله – ربّاً قريباً من كل عابــد متزلّف إليه داع لرسالة القرآن – خاطب الداعية الأوّل النبــي الخاتم وكذلك

يمضى الخطاب والتنبيه لكلّ الدعاة الخالفين على سنته: أنه ﷻ هو العزيز تعالياً بأقدار قـــوّته الجبّارة الفعّالة على كل مستقوٍ من خلقه تمضى عليهم سُنته نافذة، فالمستكبرون الـــذين لا يخـــشعون لهـــدى آيات القرآن يأخذهم إن شاء بعاقبة جائحة عاجلة قبل الآجلة. وهو الرّحيم دنوّاً دقيقاً برحمته إنـــزالاً لذلك الهدى على عباده وحلماً لإمهال المعرضـــين والإمـــلاء لهـــم في سياق بلاء دنياهم لعلهم يتوبون من قريب ومدّاً وودّاً للمؤمـــنين بـــه وبالغيب، مباركةً لاهتدائهم من الضلال ويسراً بعد كل بلاء في الدنيا وجزاء وفاقاً بل خيراً وأبقى في الآخرة.

ترتيل المعاني (للآيات ١٠ – ١٩):

﴿وَإِذْ نَـــادَى رَبُّـــكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ﴾ (١٠-١١)

وإذ نـــادى ربّـــك موســـى. ينضاف إلى ذكر المعاني السابقة في آيات الكتاب ومذهب عباده منها تذكيرٌ بحين ماض نادى فيه موسى ربُّه. وتُذكر ذاتُ الرّب منسوباً خطاباً إلى النبـــي الخاتم المتلقّي رسالة القرآن المهموم في وجه قومه الذين أعرضوا وهم يعلمـــون أمر بني إسرائيل حولهم وذكرى موسى الذي أعرض عن رسالته فرعون وآله قـــوم خطابـــه. لذلك انضاف إلى ذكر الرّسول ودعوته ذكر ذلك العهد الذي سبق واتّـــصلت أحـــيان الذّكـــرى إذ الخطاب للرّسولين السالف والخالف من ربّ واحد يـــناديهما برسالة واحدة المقتضى. لكن الخطاب المنادي لموسى هنا كان مباشراً بوقع صـــوت مـــسموع من وراء حجاب لم يتوسط بوحي من رسول ملكي يتمثل بشراً، تكلـــيفاً له بأن يأتي برسالة من الله القومَ الظالمين، قوم فرعون الذين عدلوا عن التعبّد لـــرب في الغـــيب افتتاناً بطاغوت فرعون المشهود وقاموا في الأرض جماعة ذات شأن قـــوى في مذهب حياة بأمر فرعون الظالم. وقد عرّفهم موسى قبلاً وعهِدهم يجنحون بـــنهج حياتهم – من فرط فتنة فرعون ورهبته – دون هُدى الإيمان بالغيب لا يعرفون الله الـــذي ناداه من الغيب فلا يرعون موازين العدل في الحياة ومراشد الاستقامة التي يـــشرعها ويرضاها ولا يقفون دون حرمات حدودها ليُتّقى عقبه. فالرّسالة التي حمّلها

موســـى إلـــيهم أن ساءلهم: ألا يتقون الله ويرهبونه؟ أيمضون في ظلمات دونه جهلاً بالغيب قاصرين رهبوتهم على فرعون وجنوده ولا يحذرون عاقبة في الأزل للضلال عن هدى الله العدل القويم؟.[1]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (١٢-١٤)

قال موسى محاوباً الله بنداءِ مخاطبٍ له رباً له إذ آمن به وعرفه قريباً فرحيماً رفيقاً بـــه: إنه - كما عهد في دين قومٍ فرعونَ - يخاف أن يكذّبوه إن بلّغهم رسالة من الله من الغيب تذكيراً بتقواه، لا يستجيبون مصدّقين رسالة فيها داعي التّقوى والعدول عن الظلم، بل يتجاوزون تكذيبه حملة عليه بما هو مخوف أسوأ. ويخشى أيضاً من تلقائه هو في تبليغ الدعوة ألا يفي بتمام واجبه، يضيق صدره بهموم دعوته ألاّ يُخرج التعبير عنها وافياً شافياً دون خشية ممّا يثير، مهما تكن عزيمته هو مؤمناً بها، ولا ينطلق لسانه عفواً فصيحاً بيّناً بالغ الوقع على نفوس مخاطبيه لعلهم يستجيبون، ففي لسانه حبسةٌ أصابته. ولـــذلك رتّب رجاء منه لربّه أن يُرسل إلى أخيه هارون ذات التكليف في أداء الرّسالة يعاضده ويعينه على طلاقة التعبير ولكي ينشرح منه الصّدر ويتكامل البلاغ. ثم أضاف موسى ذكر حذرٍ في نفسه من القُدوم إلى آل فرعون إذ لهم عليه أن قتل نفساً منهم مما دفعــه خوفاً للهجرة، فهو يخاف أن يأخذوا عليه تبعة ذنبه فيقتلوه ثأراً وقصاصاً، فما أحوجه لعون من الله يدفع عنه ذلك الخطر.

﴿قَـــالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٥-١٧)

قـــال لموسى ربُّه - ليصرف عنه غاشية الخوف يقيناً - كلاّ، إنه ﷻ عاصمه من أذاهـــم فليذهب هو وأخوه مؤيَّدين بآيات الله وجمع أقداره النافذة في تصريف الأمور بفعـــال منهما ووقائع معجزة تخرق مسنون طبائع الأسباب والأشياء والآثار فتحدث

---

(١) في دعوة موسى ومجاهدته فرعون والعاقبة: راجع أيضاً الآيات ١٠٣ - ١٣٧ سورة الأعراف، والآيـــات ٧٥ - ٩٣ سورة يونس، والآيات ٩ - ٨٠ سورة طه، والآيتين ٣٥ و٣٦ سورة الفرقان، وانظر الآيات ٧ - ١٤ سورة النمل، والآيات ٤ - ٦ و٣٠ - ٤٣ سورة القصص.

شهادةً وبيّنةَ تصديقٍ لدعوتهما بأنها صادرة من الغيب رسالةً تسندها قدرة بالغة لربّهما الــذي أرسلهما. وطمأنه ربّه أنه ﷻ بجميع أقداره العظيمة معهم - الرّسولين والقوم المخاطبين - مستمعاً يتلقّى بكل طاقات إدراكه الرّبّانية المُحيطة ما سيجرى من المجادلة بيــنهم لــيحفظ رسالتهما ولا يغيب هو عنها بل يرعى بلاغها الأوفق الآمن نحو أمّة خطابهمــا. ويرتّب ربهما على ذلك الأمر لهما من ثَم أن يأتيا فرعون، توكلاً عليه ﷻ وحضوره وعونه الحفيظ، وأن يقولا إذاً أنهما رسول إليه وبعثٌ موحّد للرّسالة من ربّ العــالمين الــذي خلقهم جميعاً وهدى سير حياتهم وصرف شأن وجودهم في نظم من عــوالم مخلوقات شتّى، ربوبيّة تعالت علوّاً كبيراً على ربوبية فرعون المدّعاة. وفي صدر تلــك الرّســالة أنهــا خطاب لفرعون وطلب منه أن يرسل معهما مخلّياً بني إسرائيل ليتحرّرواً من الاستضعاف والعذاب تحت وطأة سلطانه إلى مأوى نجاة وسلامة وسلام مرجوّة مذكورة في تراث آبائهم بوعود مباركة من الله.

﴿قَــالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٨-١٩)

قال فرعون لموسى مخاطباً مستنكراً أن يكون عَوده إليهم هكذا برسالة إرشاد: ألم يُــربّوه بعظمــة أمرهم المجتمع وينشئوه فيهم محفوظاً منذ الولادة حيّاً في بيت فرعون، وأمثاله من أولاد بني إسرائيل يُقتلون، ولبث فيهم مُمضياً من عمره سنين صبيّاً أحاطوه هــم بالرّعاية، فكيف يقوم فيهم اليوم مقام الكبير الهادي. ويمضى الخطاب إليه أن قد فعل في مجتمعهم فعلته الماضية التي ارتكب فيها قتلاً لواحد منهم قبطي في سياق اقتتال بيــنه وبــين منسوب إلى عرقه هو الإسرائيلي، فعلها وهو - كما يصفونه في الخطاب اللائــم له - من الكافرين بنعمة الجميل منهم له لا الشاكرين لما أدّوه من تربية ورعاية لــه إذ لم يوقّر حرمتهم من مثل ذلك العدوان، فما له الآن وهو الكافر بالنعمة بنسبهم هم إلى الكفر بنعمة رب له ولهم يدّعيه؟

﴿قَــالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًــا وَجَعَلَنِــي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢٠-٢٢)

قـــال موسى معترفاً بالذنب في حق ربّه أن قد فعلها تلك الفعلة وهو من الضالّين عن هدى الله رعاية لحرمة النفس إلا بالحقّ وفق الرّسالة التي يأتيهم بها اليوم، وأنّه كان قـــد رتّـــب على فعلته أن فرّ منهم شرقاً مغادراً دار سطوتهم حذراً من أن يأتمروا به ليقـــتلوه ثـــأراً، وأن قد وهب له ربّه - بعداً، عطاءً منه وفضلاً - حُكماً يتبيّن هو به فـــرقان الحـــقّ والـــباطل والرّشد والضلال في تقدير المسالك والوقائع في الحياة ابتغاءً حكـــيماً للذي هو أحقّ وخير فيها، وقد جعله الله - بقدر من الاصطفاء والاصطناع لأداء مهمـــة وتكلـــيف - جعلـــه من المرسلين الذين يحملون أمانة رسالة منه تعالى ويـــبلّغونها دعوة لأمّة بلاغهم صادقة في الإيمان بالله والأمر بتقواه ويقومون هم قدوة فـــيهم مثالاً لما يُوصُون به من فعل صالح الأعمال وابتغاء فضائل الحياة. ثم أتمّ خطابه لفـــرعون بالردّ عليه عجباً من ذكر تربيتهم له صبياً ورعايته زماناً فأضاف له: أن تلك نعمة يمنّها عليه تفضلاً أن عبّد بني إسرائيل واستذلهم وقتل أولادهم إلاّ من أفلت منهم من القتل إذ ربّاه تحت إشرافه المتفضّل!

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾ (٢٣-٢٥)

انقلـــب فرعون من سياق خطابه السابق لموسى مذكّراً له بسابق فعله وممتناً عليه بنعمة التربية وخطاب موسى له معتذراً عن فعلته هو وواعظاً في ذكرى معاملة فرعون لبني إسرائيل تعبيداً وقتلاً وامتناناً على من استثناه - انقلب فرعون مسائلاً موسى عن دعاويـــه التي يراها مريبة ومحاوراً له في صميم رسالته التي قد تجذب القوم السامعين - قـــال: ومـــا ربّ العـــالمين؟ ذاتاً بذلك الكيف الذي زعم موسى أنه رسوله. فأجاب موســـى - صـــارفاً لذكر الرّبّ من حيث ذاته الغيبية مشيراً لآياته الجليّة - قال: رب الـــسماوات المرئية في الآفاق علوّاً في الغيب وسقفاً ومصدراً للضوء نعمة على عباده، والأرضِ الممـــتدّة المبسوطة تحتهم مهاداً لتهيئة المعاش وسبل الحركة بل أصلاً لحياتهم - أبـــدعها ودبّرها الله، وهو ربّ ما بينهما من مشهود الماء والريح والحيوان منافع للناس ومـــن المنـــزلات عليهم من الغيب، ذلك - كما قال موسى مخاطباً فرعون وملأه: إن كانـــوا موقنين تطمئن قلوبهم بهذه البيّنات حولهم فيعرفون آيات الله ويثقون بذاته ربّاً

حقاً مُنعماً وملكاً للبشر في الكون كله، كأن موسى يقارن مثل فرعون جباراً وظالماً في مـــصر. قال فرعون لمن حوله من الملأ الحاشية وقد همّه مغزى ما يقول موسى – قال لهـــم: ألا يستمعون؟ يتلقّون قولاً يتعجّب هو من سفهه إذ ينصرف من بيان ذات الله إلى بيان أقداره المحيطة بهم، ممّا لم يُسمع مثله قبلاً في عالم فرعونُ هو ربّه المهيمن.

﴿قَـــالَ رَبُّكُـــمْ وَرَبُّ آبَـــائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٦ – ٢٧)

قـــال موسى مذكّراً أنه ما يَعني قصر ربوبية الله على أشياء الكون المطبوعة ولكن هو أيضاً – كما يخاطب فرعون وقومه: ربُّهم هم وربّ آبائهم الأولين – بشراً يخلقهم ويُنـــشئهم ويهدي حياتهم ويقدّرها تعاقباً، هم وسلفهم الذين يعرفون شأنهم وتراثهم. قـــال فـــرعون وقد بلغ به مبلغاً توالي ذكر الصفات التي ينسبُها موسى إلى ربِّه الذي أرســـله – قال مخاطباً قومه تهكماً وحكماً على موسى: إن رسولهم الذي أرسل إليهم فيما يزعم لمجنون، قد خفي عنه قطعاً في عقله الرّشدُ بما يُخرج من دعاوى طائشة عن رب في خياله غيبـــي غير بيّن مشهود.

﴿قَـــالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢٨ – ٢٩)

قـــال موســـى – يبـــسط لهم مدى ربوبية الله المحيطة: إنّه ربّ المشرِق والمغرب للشمس من جهات الأرض وآفاقها وأرجائها المترامية وشعوبها من البشر المنتشرين وما بيـــنهما وسطاً وشمالاً وجنوباً وحيثما يتكوّر بقدره ﷻ الليل والنهار ويتخالف الظلام والـــضوء. وذلـــك – كما يخاطب موسى مَن يجادل: إن كانوا يعقلون، عقلاً لخواطر الهـــوى المنفتن بالمشهود القاهر وضبطاً للضلال في ظنون الغيب وللوهم الذي يدعوهم لأن يـــرموا بالجـــنون مَن يهديهم إلى الله ويطلق عقولهم الغافلة عن صوت الحق. قال فـــرعون – وقد ازدهد أمر المساءلة والأجوبة التي يراها باهتة وترك المناظر التي تحاصره وتُوهن موقفه جدالاً وذهب إلى المغالبة فعلاً بسلطته والترهيب وعيداً بالعقاب الرادع لموسى – قال له مخاطباً: إنه لو اتخذ إلهاً – ربّاً محيطاً بكل شيء ومؤلهاً معبوداً – غيرَه، وهـــو الرّب الأعلى لقومه بما هو مقرر عنده – لو اعتزله هكذا ليجعلنّه من المسجونين

المحبوســـين كـــرها في مضابطه الجامعة، لئلاّ يخرُج من بعد داعياً للتحرّر من الاحتباس تحت وطأته وسلطانه ومن الخضوع له وحده ربّاً وإلهاً خالصاً.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٠ – ٣١)

قـــال موســـى – بعد المجادلة التي انتهت إلى نذير من الأذى، مدافعاً عن التذكير بالغـــيب الحـــقّ لا بالبيان المُبهت لفرعون وحسب بل لهزم طغيانه بآيات معجزة فعالاً مـــشهودة خارقة لمسنون الأسباب المطبوع بيّنةً أن قدرة الله الغيبية تؤيد رسالته – قال مخاطـــباً فرعون لعلّه ينصرف عن اللجوء به إلى السجن: أولو جاءه بشيء مبين بوقعه الجلـــي أن أمـــر الرّسالة حقّ؟ ردّ فرعون متحدياً لموسى: أن يرتب على دعواه الإتيان بذلك الشيء إن كان حقاً من الصادقين فيما وعد من بيّنة إذ لا تقية من السجن قولة كاذبة. كذلك بدا من فرعون الارتياب في صدق كلمة موسى.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (٣٢ – ٣٣)

فألقى موسى – معقباً على وعده الإتيان بآية وطلب فرعون الوفاء – ألقى عصاه الـــتي كان يحملها كالشأن المعتاد، فإذا هي على الأرض حية كبيرة مُبينة تظهر صفتها الثُعبانـــية من الصّورة والحركة لا أمراً مخيلاً بل مرئياً. وأضاف موسى – آية أخرى – أن نـــزع يده من جيبه – ثغر ثوبه، فإذا هي بيضاء فاتحة اللون للناظرين الذين عهدوا بشرته مشوبةً بالسُّمرة في لونها.

﴿قَـــالَ لِلْمَـــلإِ حَـــوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٤ – ٣٥)

قـــال فرعون الذي أفزعه النظر لآيات موسى لكن لازمه إنكاره لحقّ رسالته – قال مخاطباً ملأه من الشاهدين طبقة الكبار حول السلطان، قال لهم: إنّ هذا الذي بين أيـــديهم لـــساحر علـــيم، من سائر مَن يمارسون السحر المعهود في مجتمع مصر الذين يـــسترهبون الناس بالمرائي المخيّلة والحيل الشيطانية، وهو عليم لأنه فيما يبدو ممّن بلغ علماً دقيقاً فائقاً في فنون السحر. ومضى فرعون اجتذاباً لقومه خشية أن يفتنهم سحر موســـى محرّضاً عليه مدّعياً أنه بمكر بسحره وفتنته: يريد أن يخرجهم من أرضهم ليعبّئ علـــيهم ســـواداً من مجتمع الناس استرهاباً وسحراً ويحمل بهم عليهم ليخرجوهم من

الأرض المــباركة جــروفاً وضفافاً حول النيل التي ليس لهم من مستعمر ولا معاش في الأرض وراءهــا، مــستخلَفين هو واتباعه فيها. ثم سأل فرعون قومه من بعد: فماذا يأمــرون؟ ومــا كان بمن يستشير قومه سُنّة، بل هو الآمر المتجبِّر، لكن انهزمت روح جبروته إذ وهت كبرياء ربوبيته المدّعاة عليهم وانبهر من وقع آيات موسى واستأمرهم هم ماذا يفعلون.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ (٣٦ – ٣٧)

قالوا – قوم فرعون – مستجيبين لالتماسه أمرهم: أن يرجئه وأخاه، لا يأخذهما سجناً أو قتلاً بعد ما أحدثا من وقع مثير في نفوس الناس بل يهابهما ويؤخّر الفصل في أمــرهما، إذ أوصوه أن يبعث في المدائن حاشرين من جنود شرطته التعبئة العامّة لجمع الجّمهور إلى محشر عام متى دعاهم إليه فرعون، يبعثهم كذلك ليأتوا بكل سحّار عليم، بلــيغ الــسّحر دقيق العلم بفنونه ممن يمتهنونه أو يمارسونه بالكهانة لا بالدين الغيبــي ليــصارعوا فيدحــضوا سحر موسى الذي شُهد، بسحر أغلب نصراً لفرعون وتثبيتاً لتمكّنه وسلطانه في أرض مصر.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (٣٨ – ٤٠)

وترتيباً على ذلك الآمر بالحشر وبقوى التعبئة للجماهير التي يتّخذها فرعون جُمع الــسّحرةُ ليومٍ معلوم هو يوم زينةٍ وعرضٍ مُعتاد أن تتداعى فيه جماهير الرّعية ليشهدوا هــذه المرّة عرض المُغالبة إذ قيل للناس كافة من الدعاة المرسلين من السلطان: هل هم كلّهم مجتمعون فعلاً؟ تساؤلاً يشيع حضّاً على الانحشاد لمواجهة موسى ودفع ما يتهدّد الرّعية من فتنة بمعجزته السّحريّة حسبما يرى فرعون، لعلّهم – كما يخاطبونهم في حملة دعايــة فــرعون – يتّــبعون السّحرة إن كانوا هم الغالبين، وذلك ترج وتقدير بأن السّحَرة – بعد عرض المغالبة على سواء – سيكونون الغالبين فعلاً.

﴿فَلَمَّــا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤١ – ٤٢)

فمـــا جاء السّحرة استجابةً لأمرِ دعوتِهم إلى الحشر قالوا لفرعون رأساً سائلين: أئـــن لهـــم أجراً مؤكداً إن كانوا هم الغالبين؟ هكذا اشترطوا أجراً مضموناً وقفاً على تحقّق فوزهم فعلاً على موسى، وذلك لحضّ فرعون على أن يؤدى إليهم ما يرغبون فيه من كسب بعد المنافسة. قال فرعون مجيباً: نعم، لهم ذلك، وزادهم فضلاً وحافزاً أنهم إذاً بعد الغلب من المقرّبين ذوي الأثرة لديه قطعاً.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٣-٤٥)

فأقبل السّحرة بذلك الأمر والحافز على إجراء المغالبة، لاسيما أن موسى قال لهم: أن يلقـــوا هـــم أولاً ما يُلقون من عرضهم أيّما يكون. فألقوا كذلك حبالهم وعصيّهم التي أعدّوها لعرض سحرهم الذي يحسبونه غلاّباً، وقالوا مقسمين بعزّة فرعون وقدره العـــالي - كما كان يعهد عندئذ فيما هو أغلظ القسم والاستشهاد: إنّهم لهم خاصّة الغالـــبون. فعندئذ ألقى موسى عصاه التي عرضها من قبل آية لقدر الله المُعجز الشاهد لـــصدق رســـالته واليوم يريد أن يغلب بها الباطل حقاً، فإذا هي تلقفُ مبتلعة بسرعة حريصة ما كان يأفك السحرة صرفاً وتمويهاً صورياً لحقيقة أدواتهم الجامدة التي أرادوا أن يغرّوا الناس ويسترهبوهم بإراءتهم إياها مخيلةَ حيات تسعى.

﴿فَأُلْقِـــيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤٦-٤٨)

فأُلقـــي الـــسّحرةُ بأشخاصهم عقب ذلك الوقع عليهم، ساجدين خارّين هوياً بوجوههم إلى الأرض خشوعاً لّما تبيّن لهم أنّه الحق الأغلب. قالوا علناً: إنهم آمنوا برب العالمين، ذات الرّب الذي دعا إليه موسى وأخوه هارون، إذ هجروا غير مبالين ربوبية فرعون وعزته التي عهدوها قبلاً.

﴿قَـــالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٩)

قـــال فرعون الذي رأى ربوبيته تزيّف في صفّه باطلةً لدى سحرته الذين استنصر بهـــم، وأراد أن يصدّ مبادرتهم المنصرفة عنه - قال مخاطباً لهم: إنهم هكذا آمنوا لموسى

مصدّقين دعوته التي شذّت عن المعهود وسارعوا إلى ذلك قبل أن يأذن لهم، وهو المحيط سلطةً بالرّعيّة - ألاّ تخرج عن معهودها المرضي عنده هو إلا بسماح منه سابق. ومضى يطعن في دعوة موسى ومقاصدها: إنها مكر وخداع، قائلاً عنها مخاطباً لسحرته: إنه لكبيرهم الذي علّمهم السّحر، فإما تواطأوا معه على ما يؤكد زعمه الماكر أو هو حقاً الأبلغ منهم مستوى في فنون السحر فكانوا يعلمون هم نتيجة المباراة المنظورة. ومضى فرعون بعد دعاويه تلك التي ما ألقى بها إلا دفاعاً عن هيبته التي تداعت فضحاً لما خيّب تدبيره الذي كان يعّول عليه هو والسّحرة شهادة على عزته، واستشعر المخاطر على قدر سمعته بل على أركان سلطانه بما جرى من استسلام كبار سحرته وهزم عرض عزته ممّا قد يفتن ملأه ورعيته، فرتّب على فعلة السحرة أن هدّدهم بوبال عقابهم بما هو فاعل قطعاً بهم بعد حين، لعلّهم يرجعون إلى ما لا يخذله ويستدرك هو ما يريد: إنهم لسوف يعلمون ما سيوقع عليهم من عقاب مؤكد، وأبانه أن ليقطعنّ تقطيعاً حاسماً أيديهم وأرجلهم من خلاف ليبتر من كل جنب فيهم عضواً ولن يخليّهم كذلك بل أيضاً ليصلّبنهم بعدئذ أجمعين لا يستثني.

﴿قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٠ - ٥١)

قالوا، وقد تحرّروا من رهن العرف ورهبة فرعون واطمأن إسلامهم لدعوة الحق التي جاء بها موسى: أن لا ضير، لا يُبالون حرجاً أو جرحاً ممّا ينذرهم به لأنهم على عزيمة من الصّبر على حذر التهديد وحتى على وقع الوعيد ولا يرون في ذلك ما يزجرهم عمّا آمنوا به: إنهم إلى ربّهم الحقّ منقلبون في آخرة، حتى إن أنفذ فرعون الحكم عليهم وأدركهم الموت فوراً، فإن ذلك كما تبين لهم الآن حقاً هو نذارة موسى وبشارته بالمرجع إلى حساب الله بعد الوفاة، بل صرّحوا في طمأنينة: إنهم يطمعون أن يغفر لهم ربّهم الحقّ خطاياهم ويعفوا عما تواتر منهم خُلقاً ممّا مارسوا من سحر كاذب وكانوا في دينهم وأمر فرعون في ضلال لأنهم اليوم غدوا أوّل المسلمين لله توبة خالصة وإيماناً صادقاً بالحقّ قبل أن يتداعى نحوه سائر جمهور المشاهدين بعد عهد ضلالهم في دين فرعون والانفتان بعلوّه والاستبشار أن ستكون الغلبة للسحرة الغالبين انتصاراً لسلطان فرعون.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ (٥٢-٥٦)

وأوحى الله - كما يقول متحدثاً بجميع أقداره العظيمة التي تصرف مسائر هدى عباده إلى المصائر - إلى موسى عليه السلام أمراً له أن يسرى خارجاً ذاهباً بعباده بالليل إفلاتاً من تدابير كيد فرعون ووعيده، بالذين حنفوا عن جاهلية الطاغوت إلى عبادة الله فنسبهم الله إليه وحده عِباداً. إنهم كما أنذرهم الله بأولى ابتلاءات العبادة الخالصة له تعالى متّبعون بلحقٍ وراءهم من ذلك الطاغوت ليدركهم في طريق مهجرهم شرقاً عبر البحر الأحمر ويوقع عليهم عقاباً سبق به الوعيد. فأرسل فرعون ترتيباً على خروجهم مارقين أمراً صائحاً في المدن في أرضه من حاشرين، رُسُلاً من عمّال السلطة ليجمعوا ويُحضروا من الرّعايا ما يشكّل قوة لَحقٍ من الجنود كافية، قائلاً: إنّ هؤلاء - كما يشير مستحقراً للطائفة الخارجة مع موسى القريبة التي لا تَبعد عن قبضته - لشرذمة، ثلة قليلون عدداً، فئة يتبيّن قطعاً أنها محصورة القدر أوزاعاً ليس لعدّهم ما يحتسب له عند سلطانه أيما شأن أو خطر عظيم. لكن أضاف في أذانه للناس: إنهم - تلك الشرذمة لهم هم - أهل - السلطان قوم فرعون الكُثر - لغائظون، يوقعون بهم أبلغ الغيظ حميّة لخروجهم من عهد المواطنة والتزام الرّعية في دار فرعون وأخذهم بعض زينة كانت مودعة عندهم من قومه. وزاد: إنهم - وهم المتمكّنون في السلطان - لجميعٌ متّحدون حذرون، تحيط بهم قطعاً وهم متوالون جمعاً مشاعر الحذر يقظة وتهيؤاً ضد أولئك وتحوطاً ألاّ ينقلبوا متبرئين على أرض مصر بعدوان أو خلافة.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٧-٥٩)

هكذا خرجت قوة اللحاق، فقال الله في ثلاث آيات فيها اضطراد المساق بذكر المغزى الحقّ لخروج قوم فرعون وفرار قوم موسى عاقبةً كانت في الغيب لا تبين من حاضر الواقعات لكن ذكرها الله قضاء بقدره فعلاً ماضياً - قال: إنه بجميع أقداره وعظيمها في تصريف حركة العباد وقضاء أيلولة أمرهم: أخرجهم - قوم فرعون - من

جنات من البساتين والخضر والنبات وعيون من موارد المياه وقنواته على النيل في مصر وكنوز من خزائن الأموال المكتسبة من تلك الثروة الزراعية ومقام من المنازل سكناً في حضر كريم يُرضى من يراه مطابقةَ قدر، كذلك قدر الله قدراً ماضياً بمخرجهم نزع ذلك النعيم منهم ألاّ يعودوا إليه، فمسيرهم ومصيرهم إلى هلاك، وكذلك قدر الله قدراً ماضياً أن يورث بني إسرائيل بأقداره الجليلة في تداول الأيام بين الناس مثل تلك النّعمة بعد سنيّ مهجر سيناء في الأرض المباركة.

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦٠-٦٢)

فقوم فرعون من ثم أتبعوا بني إسرائيل والمؤمنين القلّة شرقاً لحاقاً قارب المهاجرين عند البحر الأحمر. فلمّا – ترتّباً على ذلك – تراءى الجمعان، الدّرك يرى المتقدّمين أمامهم هرباً وهؤلاء يروهم وراءهم قريباً ويتبيّن لهم الخطر من ذلك المُنحَشَد الغزير وهم قلة، قال أصحابُ موسى حذراً ممّا يوشك أن يقع بهم: إنهم لَمُدرَكون، بلا ريب وقد قاربهم اللّحق المسارع ليأخذهم، فالعدوّ وراءهم والبحر أمامهم. قال موسى الذي حفظ إيمانه توكّله على الله فعزمه وما فتنته أعراض القلّة والعزلة واليأس مهرباً من العدوّ المدارك – قال: كلاّ، ما هم بواقعين في قبضة الدرك، إن مَعَه – هو الذي لم يغمر الخوفُ البالغ في نفسه الإيمان والتوكّل – معه ربّه وليّه القريب الذي لا يبعُد ذاكراً من ذكره ومغيثاً من لجأ إليه عند الفزع، إنه لذلك سبحانه وتعالى سيهديه إلى أسباب النجاة التي لا يظهر لها وجه في مشهود الأعراض حوله.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ (٦٣-٦٦)

فأوحى الله هدىً تنزل بجمع من أقدار وحيه العظيمة وصلاً بين ذاته العليا في الغيب وعبده ذي العلم المحدود في العالم المشهود – أوحى إلى موسى أن يضرب بعصاه التي تجلّت فيها قبلاً آية معجزة بدّلت لونها المطبوع – أن يضرب بها بحر القلزم الذي يعترض المسير شرقاً، فانفلقَ جزراً وشقّاً قبض مياهه شمالاً وجنوباً فكان كل فرق من

جانبـــي المياه كالطود الجبل العظيم إشرافه قائماً شامخاً وعمقت الفجوة التي انبسطت إلى القـــاع وانكشفت أرضاً كالوادي السحيق. وبأقداره المتركبة المجتمعة أزلفَ الله – ثَم بين الفرقَين الآخرين، فرعون وجنوده، حشداً دانياً كلّه إلى قاع الطريق المنفرج بين الماء عبر قعر البحر، وأنجى بني إسرائيل الذين تقدّموا إذ بلغوا الضفَة الشرقية من البحر أجمعـــين، بيـــنما فاض وراءهم مدّ الماء المتعالي وأدرك الآخرين قبل أن يعبروا وأطبق عليهم في هوة ذلك الوادي العميق فأغرقهم بحكم قضائه ﷻ الذي فاصل بين الجمعين مائزاً مُنجياً المؤمنين المهاجرين.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٦٧ – ٦٨)

إن في ذلـــك من غريب الوقائع التي اكتنفتها عجائب تصريف الله خرقاً لمطبوع الأشـــياء وقضائه الذي تنـــزل بتلك الأقدار بين مصائر الجَمعين المتلاحقين عبر البحر إنجـــاءً وإهلاكـــاً – في ذلـــك قطعاً آية يتجلّى فيها فعلُ الله المصرّف لأغراض الحياة ومـــشهود تطوراها. وما كان أكثر الذين شاهدوا تلك الجاريات والمخاطَبين من بعد بذكـــر الله الموحَى الذي يقصّ تلك المعجزات الشاهدة علي الحقّ الغيبـــي – ما كان أكثـــرهم مؤمنين كما ينبغي بأن وراء ظاهرات الوجود أقدارُ الله الغالب المصرّف لكل شـــيء في المـــسير والمصير لبني الإنسان. والخطاب يمضي – متوجّهاً إلى الرّسول الذي يتلقّـــي في القران وقصصه ذات الخبر عن آي الله المعجزة والعبَر، مثبتاً له – إن ربّه لهو قطعـــاً: العزيزُ الغالب الحاكم المنتصر الجبّار القادر على غُلب كل طاغ متجبّر، الرّحيمُ بلـــيغ الـــرّحمة لعباده المؤمنين ينجيهم مهما يتعرضون للمخاطر من المستكبرين الذين يحيطون بهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩)

لئن سبق ذكر موسى وأصحابه تسلية وعبرة للرّسول المتلقّي لوحي القرآن وعظة وتذكـــرة لأمّة خطابه إذا كان خبره نبياً مع قلة من المؤمنين تحت وطأة فرعون القوي المـــستكبر عليهم في مصر والذي حاول جاهداً اللّحاق بهم بقوته حين هاجروا – كان خبراً مشهوراً في ثقافة بيئة الجزيرة العربية إذ بنو إسرائيل في وسطها – لئن سبق ذلك

مـــن ذكرٍ عبرةً وعظة لآي الله السالفة فإن العرب - أمّة الخطاب الأولي - أَولى بهم - أن يُذكروا أيضاً بما نسوه من خبر أبيهم إبراهيم (عليه السلام) وسيرته، لا مهاجراً من جبروت فرعون في مصر بل من طاغوت قومه الذين أرادوا به الكيد بسبب رسالته الحامل الحقّ مـــن الغـــيب خروجاً على معهوداتهم التقليدية ونجّاه الله وهاجر ليبسط تلك الدعوة المنحنفة عن شرك الأصنام والملوك والطغاة الذين يظنون أنهم هم الذين يحيون مذهبهم ويميـــتون الدعـــوة المستقيمة لتوحيد العبادة إخلاصاً لله. وفي هذه الآية يُوصي القرآن حامل رسالته النبـــي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) إضافة إلى دعوة التذكير بالتوحيد لأمة خطابه أن يتلو علـــيهم قراءة متتابعة الذكر في القران لكلّ شعاب نبأ إبراهيم، وهو خبر عظيم المعنى والتذكرة لمن سمعه فتدبره.[1]

﴿إِذْ قَـــالَ لأَبِـــيهِ وَقَـــوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ (٧٠ - ٧١)

وعـــين الحقّ في ذكر نبأ سيرة إبراهيم هو إذ قال مخاطباً سائلاً أباه الذي عُهد إليه أن يرشده وقومه الذين قام شأنهم مذهبَ دينٍ سائد في الحياة - قال لهم: ماذا تعبدون؟ ما هذه المعبودات المُنكرات القدر المجهولات الوقع على حياتهم. قالوا له: إنهم يعبدون أصناماً فيظلّون لها عابدين عكوفاً عليها دوماً، توقيراً لها وطوعاً لما تلهمهم به من رشد في سير حياتهم.

﴿قَـــالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٧٢-٧٤)

قـــال إبـــراهيم لقـــومه: هل يسمعونهم - أولئك المعبودون - إذ يدعونهم قضاء حاجـــاتهم مناجين بصلواتهم لهم؟ أيتلقّون منهم الخطاب كالعقلاء وما هم إلاّ حجارة صـــماء جامدة، أو تراهم ينفعونهم أو يضرون؟ مستجيبين فعلاً لأدعية طلب الخير أو

---

(١) في دعـــوة إبـــراهيم(عليه السلام) ومجاهداتـــه قـــومه والعاقبة: راجع أيضاً الآيات ١٢٤ - ١٣١ والآيـــة ٢٥٨ ســـورة البقرة، والآيات ٧٥ - ٨٧ سورة الأنعام، والآية ١١٤ سورة التوبة، والآيـــات ٤١ - ٥٠ سورة مريم، والآيات ٥١ - ٧٣ سورة الأنبياء، وانظر الآيات ٨٣ - ١١٣ سورة الصافات، والآيات ٤ -٦ سورة الممتحنة.

موقِعين عليهم أذى وشراً إذا انصرفوا هم عن توقيرهم ودعائهم. هل تلك حقاً آلهة من أرباب فيها سرّ غيبـــي من الحياة إذ يسمعون الداعي ومن القوّة ما يحقّ لها به أن تُعبد إذ تقـــدّر حظوظ الخير والشرّ إذا دُعيت رجاءً أو أستعيذ بها خوفاً. قالوا له ما ينبئ أن عـــبادتهم لهـــا ليـــست بتحرّيهم عن مدى تجاوبها وتبيّن قدراتها وكسبهم أن وجدوا توقيرهم لذلك حقاً، بل: إنما وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، من العكوف على عبادتها ملازمـــة وتزّلفاً ودعاءً لها لعطاء المنافع في الحياة ولاتقاء غضبها ألاّ توقع عليهم ضراً. وعـــرف أبائهم هو كما يظنّون الحقّ المشهود له بالتجربة الرّاسخة ولذلك هم ماضون علي ذلك التقليد الأصيل والسُنّة الموروثة.

﴿قَـــالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٥-٧٧)

فحمـــل إبراهيم على أبيه وقومه قائلاً: انظروا إلى عين ما يصوّب إليه هو القولَ الفصل، أفرأوا ما كانوا يعبدون عرفاً ماضياً هم وآباؤهم الأقدمون الذين سنوا التقاليد ميراثـــاً مـــرعيّاً وعهداً راسخاً؟ فإنهم - تلك الآلهة التي يوقرونها - عدو له يناصبه هو المجانـــبة، إلاّ ربّ العالمين الذي كانوا يعهدون الإيمان به موجوداً بالغيب ومن ثَم بعيداً يتـــركونه متزلّفين إليه بالآلهة المشهودة المحسوسة من الأصنام. وهو له هو الربّ والإله الأكبر المتعالي في غيبه بالصّفات الحُسنى على ما عهدوا ظنّاً في آلهتهم، الخالق والمنشئ للوجود المشهود ومسيّره ومدبّر الحياة ومالك للعالمين من عوالم الخلق قاطبة، الواحد لا مـــثل لـــه من الأرباب المتفرّقة التي يتخذها مختلف الأقوام بمُختلف ما يَتعارفون عليه ويتوارثونه ويعهّدونه بخصوص شعائر التأليه والتعبد التي تؤدَّى.

﴿الَّـــذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَـــشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٧٨-٨٢)

ذلـــك الرّب الواحد معبوداً حقاً هو - كما يقول إبراهيم - الذي خلقه هو تقديراً وإيجـــاداً وتصويراً في حياة بعد العدم، فهو من بعد يهديه في الحياة جسداً في المسار المطبوع وروحـــاً إلى التكليف المشروع، والذي مداً في حياته يطعمه تسخيراً لمادة النبات والحيوان

ليرتـــزق منها غذاء، ويسقيه من آفاق السماء وعيون الأرض ومجاريها ماءً ومن غير ذلك ســـائلاً يرويه، وهو تعالى الذي إذا مرض هو فعاني علّةً – نسبةً إلى كسبه تأدّباً مهما يكن قـــدره مـــن الله – فهو ﷻ يشفيه إذ يعالجه فيبرئه بأسباب التداوي المسخّر لصحة الجسم المـــتعافي. وهو ﷻ الذي يميته سُنّة لا دفع لقَدَرها إذا جاء الأجل لمدّ حياته وانقضى عمره في الدنـــيا، ثم يُحيـــيه كمـــا خلقه وأحياه أوّل مرّة ليُتم أُولى حياته بأخرى ويُعادل عفو التكلـــيف في الدار الأولى بالمساءلة والجزاء وفاق كسبه السابق في دار حياة خالدة وهو – إبراهيم – من ثمّ بعد قيامه مبعوثاً حيّاً عقب مماته يطمع راجياً وراء مبلغ كسبه أن يغفر له ربّـــه ويمسح خطيئته التي تبين في كتابه وحسابه يوم الدين والقضاء الحقّ فيما حقّ عليه من عاقبة كسبه في الدنيا إن أتى آخرته مقصّراً عن مقتضى العبادة لله بوسع الاستطاعة في دار الابتلاء وذلك يوم الدين والحساب لئلاّ يؤاخذه فتثقُل عليه أوزار الجزاء.

﴿رَبِّ هَـــبْ لـــي حُكْمًـــا وَأَلْحقْني بالصَّالحينَ * وَاجْعَلْ لي لسَانَ صدْق في الآَخـــرينَ * وَاجْعَلْني منْ وَرَثَة جَنَّة النَّعيم * وَاغْفرْ لأَبي إنَّهُ كَانَ منَ الضَّالِّينَ * وَلاَ تُخْزِنـــي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٣-٨٩)

ومـــضي إبـــراهيم بعد أن شهد بربوبية الله العليا والتي قصر دونها قومه وانفتنوا بـــربوبية افتـــروها للأصـــنام – مضى يرفع الدّعاء إليه تعالى رجاءً خالصاً أسوة لهم ليخلصوا دعاءهم إليه تعالى، مُخاطباً ربّه: أن يهب له حكماً ورشاداً مضبوطاً بالحقّ في مسلك حياته ومنهج خُلُقه وصدق عمله وأن يُلحقه خلفاً بالصالحين من السلف الذينّ ســـنوا الصلاح قدىً لعباد الرّحمن لا الآباء العُبّاد للأصنام. ورجا ربه أيضاً أن يجعل له لـــسان صـــدق في الآخرين ذكراً حسناً له مثالاً للصلاح وثناء وسمعة طيبة تجعله قدوة تُذكـــر ليُقـــتدى به إماماً فتحقّ له أجور تتوالى في عقبه الذين تبقى فيهم ذكرى سُننه متّبعةً بصدق. ومضي بعد ذكر ختام حياته الدنيا يذكر عاقبتها: أن يجعله الله من ورثة جنّة النّعيم، يكون المنتهى مثلهُم إليها وتكون دار النعيم المقيم.

ومـــن وراء نفـــسه رجـــا ربّه أيضاً أن يغفر لأبيه الذي اعتزله هو لأنه كان من الـــضالّين الذين نسوا الحقّ وأعرضوا عن التصوّب إلى الهداية من الله الواحد وعكفوا

علـــى أصنامهم مُروقاً من صراط الحياة المستقيم صلاحاً في سبيل الله. وإنما كان ذلك الدعاء منه ابناً لأبيه يبرّه قبل أن ينفضح له عداؤه المُصرّ لله فيتبرأ منه.

ثم أخيراً تذكّر إبراهيم ما قد تجرّ إليه ردة الانسلاك في ضلال أهله بفتنة ضغوطهم عليه فسأل الله ألا ينتهي أمره في الآخرة إلى فاضحة سوء وألاّ يُخزيه الله بعرضها على مـــشهد مـــن العالمين يوم يُبعثون جميعاً للحساب والقضاء والجزاء الحاقّ عليهم مهما يُنكـــرون سوابق السوء، يوم لا ينفع مال ولا بنون أحداً وإن فتنته في الدنيا كثرة ماله وولـــده إذ لا فدية يومئذ بملء الأرض ذهباً ولا عزة اعتضاد ولا افتداء بولد، لا يَسلم ولا يخلُـــص إلا من أتى هو الله بقلبٍ سليم، فمهما يقل متاعه وولده في الدنيا يكفيه ويُغنـــيه إخلاص إيمانه ومن ثمّ التعبير عن ذلك بطيب قوله وصالح عمله إذ ما كان قلبه مريضاً فيفسد فعله فلا يطيب ملتقاه لربّه.

﴿وَأُزْلِفَـــتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (٩٠-٩٥)

ويومـــئذ - وقد أتى العبادُ كافة محشورين للقاء ربّهم الذي توضع موازينه لحسابهم بالقـــسط فيقضي عليهم بالجزاء المستحق - تقع بأقدار الله الواقعة وتكون قد أُزلفت الجنة للمـــتّقين الـــذين يطمعون أن يدخلوها إذ سبق منهم التقرب إلى مرضاة ربّهم بالتقوى في الحياة صلاحاً مستقيماً يتّقي محارم الله ومغاضبه فأُدنيت إليه لأول مواقف الحساب مشاهد الجـــنة ونعـــيمها وصُرفت عنهم مباشرة النار لأنهم أعرضوا قبلاً عما يؤدي إليها. ويومئذ أيـــضاً بُرّزت الجحيم للغاوين إذ عُرضت عليهم مرائي أهوالها فزعاً حتى يحقّ قضاءً عليهم دخـــولها مـــأوى، جحيماً شديدة التأجّج ناراً، لأنهم غووا في دنياهم عن سبيل معرفة الله وطاعـــنه وعـــدوا على حدود الحق والموازين في هديه وحقّ عليهم كفاء ذلك المصير إلى الـــسوء. وقـــيل للغاوين - من لسان الحال حولهم ومن قول الملائكة المحاسبين والصُّحب الملاومـــين: أين ما كانوا يعبدون؟ كلاًّ من مقدّسة الأصنام وموقّرة سدنتها الكهنة ومحترمة الأولـــياء الكـــبار وقـــوى الطبيعة والرّوح التي كان يمثلون أصناماً وأهواءهم التي سخّروا النفوس لها؟ ما في ذلك بذي شأن ولياً ناصراً ولا شفيع منهم لدى الله ملك يوم الدين ولا

شـــريك لله في أقداره يجلب الخير ويدفع الشر كما اتخذهم هؤلاء المشركون أولياء وشفعاء وكـــبراء وقـــصروا علـــيهم التعبّد تزلّفاً دون الله في الدنيا، واليوم حقّ عليهم السؤال هل ينـــصرونهم كما كانوا يرجون منهم أو ينتصرون لأنفسهم كما كانوا يرهبون عزّتهم فهم حجـــارة تُلقـــى في النّار كما تلقى سائر رموز الإشراك كلها مع عُبّادها. وحقّ يومئذ أن كُبكـــبوا في جهـــنم ودُهوِروا هويّاً فيها جميعاً في صحبة الغاوين الذين عكفوا أمس على عبادتهم وتقديسهم غواية عن عبادة الله، ورُمي صرعى فيها معهم جنود إبليس أجمعين من شـــياطين الإنس والجن الذين شطنوا بُعداً عن الهداية وتوظفوا بإمامة إبليس لإمداد الغاوين دفعاً لهم في منازع الأهواء ومساقط الشهوات في دنيا الابتلاءات المتقلّبة المحيطة بالإنسان.

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّه إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٦-١٠٢)

المعـــرض يومـــئذ أن تـــراهم قالوا - أولئك الغاوون والذين تعبدّوا لهم والذين أضلّوهم إبليس وجنوده، الذين كُبكبوا في الجحيم أجمعين - قالوا قولاً وهم في الجحيم يختصمون. المستكبرون الطاغون في الدنيا لا ترحاب بينهم وبين المستضعفين فيها الذين طوّعـــوهم في غـــواية، كلّهم يتلاحقون في النار أفواجاً، والأخلاّء الذين تشاركوا أو تحاضّوا على الغواية أمس اليوم خصوم وإبليس وجنوده ومن غرّوه وأغووه إذ رافقهم في الدنيا يُلقون جمعاً في سوء رفقة. كلّهم يتجادلون ويتلاومون أيّهم قدّم لأخيه الغواية وأنهم كانوا في تباعة بعضهم لبعض ولا يُغني المتبوعُ اليوم تابعه شيئاً، ويتداعون بينهم أن يتـــضاعف العذاب للملوم دركات في النار شماتةً وثأراً، وإبليس نفسه يخاصمهم أن مـــا كـــان له على أحد من سلطان إلا كلمة غويّ واستجابة واهن، بل هم جميعاً في اختـــصام مع أنفسهم ندماً أن نـــزعت بهم أهواؤها وشهواتها إلى ورطة في هلاك. ها هم اليوم جميعاً لا في شقاء العذاب وحسب بل في تشاقٍّ وتشاكس بين النفوس.[1] وتراهم

---

(١) في اختصام أهل النار: انظر أيضاً الآيات ٥٩ - ٦٤ سورة ص، والآيتين ٢٧ و٢٨ سورة ق. وأنـــه لا خلّـــة يوم القيامة: راجع أيضاً الآية ٢٥٤ سورة البقرة، والآيتين ٢٨ و٢٩ سورة الفرقان. وفي خلّة المتّقين: انظر الآية ٦٧ سورة الزخرف، وفي أخوّتهم يوم القيامة: الآيات ٤٥ - ٤٨ سورة الحجر.

يعترفون بتحميل أصل المسئولية على أنفسهم، يُقسمون بالله كما ثبت من شهادتهم وشهادة من عبدوا باطلاً أنهم هم كانوا مؤكّداً في ضلال مبين ويخاطبون مَن يخاصمونهم اليوم أن ذلك كذلك إذ كانوا يسوّونهم بربّ العالمين، يتخذونهم أولياء دونه لأنهم قاموا متعالين عليهم افتراء بقدسيّة دينية وسادة وكبراء طاغين عليهم يستتبعونهم دون الطاعة للدين الحقّ وشياطين أغووهم ومنّوهم بالباطل تعهداً عمداً باحتمال وزرهم، وأنّى لهم أن يساووا الرّب الحقّ المتعالي بذاته المُهيمن تصريفاً لأمر عباده يبلوهم بالشر والخير فتنة والهادي بالحقّ لا يحقّ إلا منه التلقّي لأوامر الحياة ونواهيها ونذارة المصير وبشارته. ويعترفون أنه ما أضلهم إلا المجرمون الذين قطعوا عليهم أسباب الهداية وسبل الاستقامة وحرموا حرفاً للخير والصلاح، وأن قد ترتّب عليهم اليوم أن ما لهم من شافعين إذ خاب اتخاذهم لكثير من خصوم اليوم يمدونهم شفاعة وزلفى إلى الله وهم وإيّاهم يؤاخذون مباشرة ويعاقبون أفراداً، وما لهم من صديق واحد حميم يبلغ بالحمية في مودته عوناً في ساعة الحسرة إذ ما رعوا في المصادقة صحبة الإيمان والصلاح والتصويب رفقةً نحو حسن المصير في الآخرة بل كانوا في اقتران مع الشيطان المغرور أو في توالٍ على شرك وخلّة غواية بدواعي التوافق في هوى عارض أو التعاون على إثم أو التعاضد لمحض النّسب، ممّا تبيّن بطلانه اليوم إذ فاتت الدواعي مع فناء الدنيا وجرّ إلى تحامل متداع للأوزار، حيث ينبغي اعتزال كل مسئول غيرَه رهيناً هو بما كسب غنيً عن الأولياء وفراراً حتى من ذوي القربى وغناء بشأن قدره.[1] فكلّهم يتمنّون لو أن لهم كرّة ودورة من الحياة الدنيا راجعة ليتعظوا بما أوقعتهم فيه الغواية وولاية الأشرار وصحبتهم من مصير وليكونوا من المؤمنين في حسن العاقبة - أماني سدى وكلمة يرجون بها ترجّياً ما لها من مستجاب.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٣-١٠٤)

---

(١) في نفي الشفاعة من الأولياء شركاً وغيرهم ومن الملائكة إلا بإذن الله: الآيات متواترة. وفي قرن نفي الشفيع والصديق معاً: راجع الآية ٢٥٤ سورة البقرة.

إن في ذلك الذكر من مجاهدات إبراهيم لأبيه وقومه في بطلان متعبّداهم وما أدّت به إلــيه مـــن التوجّه الخالص إلى الغيب وإلى ربّه معبوداً إذ آمن بأنه هو الذي يُصرّف شئون وجــوده ومسير حياته، وإلى تصويب كل الدّعاء إليه تعالى لتصلُح حياته الدنيا ويسلَم من الخــزي يوم لقائه ويرث ثمّة النعيم. في ذلك الذِّكر آية شهادة حقّ على تجلّي الإيمان فيمن اهــتدى وسعى خيراً في الدنيا وآثر الآخرة. وإن في ذلك لآية اعتبار أنّه مهما تحسن تلك الدعــوة والقدوة ما كان أكثر الناس المخاطبين بها مؤمنين، لم يرسخ في قلوبهم يقين الخيار للحنيفيّة مذهب حياة، ولا الذين خلفوا من ذريتهم في أمّة خطاب القرآن ما كان أكثرهم مؤمنين لأوّل أمرهم بداعي الذكرى لعبرة أبيهم إبراهيم ولا بالتذكير في القرآن الذي يتلوه علــيهم الرسول الخاتم. وفي الذكر آية ألاّ يحسر الداعي في الأولين أو الآخرين لوقع مبتدر خطابــه لقومه وأن يثق بأن ربّه هو العزيز الرّحيم كما تجلّت صفاته متعالي العزة التي تأخذ الكافرين وبالغ الرّحمة التي تدرك المؤمنين، وكما يخاطبه هو بذلك الحق.

﴿كَــذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُــولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (١٠٥-١١٠)

كــذّبت قوم نوح المرسلين. كانوا من أمم العراق الأقدمين الذين قاموا جماعة لا يؤمـــنون بالغيب ديناً فلا يوقّرون الله وحده بل يتخذون من دونه وداً وسواعاً ويغوث ويعــوق ونسراً، يفتتنون بالمشهود منها أصناماً مقدّسة يقصِرون عليها التّوقير والعبادة والاســتعانة الرّوحية في الحياة، وكانوا مجتمعاً في غنى بالغيث المدرار والجنات والأنهار وفي تمايز للطبقات بينهم درجاً في الأموال والأحوال ودعوى القُربى من الآلهة العليا أو دركاً تحتهم. كذّبوا نوحاً في دعوته للإيمان بالغيب وبالله وآياته وحمده وعبادته ولقائه يــوم الــدين، وتلك دعوة واحدة للمرسلين أجمعين توحى إليهم من الغيب ويحملونها للعــالمين رسالة بالحق والهدى.[1] ذلك أن قال لهم أخوهم نوح وهو منهم غير مُنكَر:

---

(١) في دعــوة نــوح(عليه السلام) ومجاهداتــه مع قومه والعاقبة: راجع أيضاً الآيات ٥٩ - ٦٤ سورة الأعــراف، والآيــات ٧١ - ٧٣ سورة يونس، والآيات ٢٥ - ٤٨ سورة هود، والآيات ٢٣ - ٣٠ ســورة المؤمــنون، والآيــة ٣٧ سورة الفرقان، وانظر الآيتين ١٤ و١٥ سورة العنكبوت، والآيات ٧٥ - ٨٣ سورة الصافات، والآيات ٩ - ١٦ سورة ق، وسورة نوح.

ألا يؤمـــنون بالله الجليل قدراً الهادي عباده إلى سواء السبيل في دنياهم القاضي عليهم جـــزاء بما كسبوا فيها فهل لا يتقون غضبه إن أعرضوا عن هواديه أو عصوا تعاليمه. وشـــهد فيهم أنه هو منه رسول مكلّف بما حمل من أمانة، لا يفتري من تلقاء نفسه، أمـــين لا خـــوّان لتلك الأمانة ولا كفور بمقتضاها في مسلكه فليطمئنوا له وليصدّقوه وليتقوا من ثم الله ويطيعوه هو مبلغاً مبيناً ممثلاً في خلقه هدي الرسالة. وزادهم طمأنينة أنـــه مـــا يسألهم على ذلك أدنى أجر فينبغي ألاّ يظنّوا به ابتغاء كسب عاجل فيها، إن أجـــره إلا على ربّ العالمين الذي يرعي خلقه كافة ويكتب عليهم التكاليف ويجزيهم على أدائهم، فليتقوا متعزّزه تقواهم وليطيعوه هو يطمئنون حقاً لطاعته.

﴿قَالُـــوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١١١-١١٥)

قـــال قـــوم نوح لرسولهم: أيؤمنون لدعوته بإشهاده ذاك والحقّ أنه ما اتبعه إلاَ الأرذلون منهم، كذلك أصابهم كبر الغرور كأنّ الدعوة لا ترقى لخطابهم ولا تدعوهم لها حاجة فهم في غنى بنعيم الحياة يعتصمون بتقاليدهم الأصلية ويتعالون على مَن اتبعه ولا يـــريدون أن يكونوا معهم سواء لما عهدوا فيهم واحتقروهم أراذل لا وسطاء ولا أفاضل، سفلت أعمالهم بأقدارهم لا يسبِقون إلى خير. لكن نوحاً دافعاً عن نفسه الظن بأنـــه مـــا تحرّي في دعوته إلا الحاملين في نفوسهم شيئاً ضد الملأ المستكبر من القوم، الرّاغبين في الاستجابة لما يخالفهم، الطامعين في حال أحسن أن ساد أمر جديد – قال: ومـــا علمـــه بما كانوا يعملون عندما أقدموا على الاستجابة لدعوته؟ وما هو عليهم بوكـــيل بـــل يكـــل محاسبتهم على أعمالهم إلى الله الذي يعلم الأعمال يدرك باطن مقاصـــدها ويحـــصي ظاهرها سراً أو جهراً وأثرها عفواً أو خطراً، ذلك لو يشعر الملأ مخاطبين بمدى رقابة الله وإحاطته وميزان حسابه العدل لا بالأنساب وكسوب المال بل بفـــضيلة الإيمان وكرامة التقوى. ويضيف نوح قولاً لقومه: ما هو بطارد المؤمنين، فما هو بمُمايز بين الناس بتقديرات الرأي العام للملأ ولا براد للمؤمنين الذين رسخ الإيمان في نفوسهم واقبلوا لنصرة دعوة الحق وصفّه، وما هو على الناس بحفيظ إن هو إلا نذير

مبين نذيره واضح ألاّ يستمرّ الناس في ضلالهم القديم عوجاً عن هدي الإيمان والتقوى فيُرذلون في عاقبة سوء يوم الحساب في الآخرة متعزّزين كانوا أو متواضعين في الدنيا.

﴿قَالُــوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَه يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٦-١١٨)

قال قوم نوح لأخيهم عن حميّة استكبار وإصرار على ما يَعهدون من مذهب دينٍ لازمٍ في الحــياة واستيئاسٍ أن يكفّ نوح عن دعوته: لئن لم ينتهِ هو - نداء ومخاطبه له باسمـــه تنبــيهاً بمحذور - ليكونّن قطعاً من المرجومين، أن مضى يوالي الدّعوة ويُكثر جدالها وما له من آية تصدّقه خارقة لمسنون الطبيعة بقوى الغيب التي يدّعي الوصل بها لــيكوننّ من المقذوفين بالنفي أو بالشتائم أو المهلكات لنفسه. فناجى نوح ربّه شاكياً ذاكــراً: أنّ قــومه كذّبوه ما صدّقوا بلاغه الرسالة، وداعياً ربّه لذلك: أن يفتح بينهم وبيــنه فتحاً حُكماً له فيه فرج لهمّه خوفاً منهم وفاتحة فلاح له عاقب وبادرة مصاب عليهم غالب، وأن ينجّيه نجاة تُيسّر العسر له ومن معه من المؤمنين.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ (١١٩ - ١٢٠)

وتــرتّب حقــاً على ابتلاءات نوح ومجاهداته ودعواته أن أنجاه الله ومن معه من المؤمــنين، كما يقول الله بأقدار لطفه الفاعلة. وكانت نجاته في الفلك التي أوحى الله قــبلاً إلى نــوح أن يعدّها، وكان الفلك مشحوناً إذا ازدحم بمن ركبه من نوح وأهله وقلّة المؤمنين وبمتاعهم لاسيما من أزواج الحيوان. ثم - بعد أن سلكت الفلك تجري في الفيض نحو استواء في البرّ في سلام - أغرق الله - بأقداره العَظيمة في تصريف المصائر حين يحقّ الهلاك - الباقين من القوم وراء موسى المهاجر.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢١ - ١٢٢)

إنّ في ذلك الذّكر لآية تجلّت في سيرة نوح كسنّة سائر المُرسلين في دعوهم للحقّ وخُطا مجاهداهم في وجه الإعراض والعداء من المخاطبين بالرسالة، وفي ابتلاء الرّسول نُوح ومن معه من المؤمنين بالصبر حتى تنــزلت أقدار الله النافذة قضاءَ نجاة لهم وفلاح وفي الفــتح الذي مهّد الأساس لدين الحق تراثاً حتى عهد إبراهيم الذي جدّده وحفظه

والـــذي أقام أمّة عمرت حياها بعد النجاة وتعاقبت ذرّياها في كثير من البشر الخالف. وإن تلك لآية شاهدة على عاجلة العواقب في الدنيا إيذاناً بالمنتهى المنتظر وفاقاً في آجلة الآخـــرة. وما كان أكثر الناس المخاطبين من نوح بمؤمنين. وهي أيه لسنة تجري حتى على الخَلَف كأمّة خطاب القرآن الذي يروي لها العبر والعظات في حقّ رسالة المرسلين الواحدة ولا تجد أكثر المخاطبين مؤمنين لأوّل عهد الدعوة. وليتيقّن الرّسول الخاتم من ثَـــمّ أن ربّه – كما يخاطبه – هو العزيز عزة غالبة على كل الذين تأخذهم العزة بباطل ديـــنهم المـــوروث ويـــستكبرون عن التوبة إلى الدين الحق، الرّحيم رحمة دقيقة تدرك المؤمـــنين بأعـــيانهم دون الـــباقين وبالغة تنيلهم فتحاً مهما يتعثّر إيقاعه. ولتكن هذه الترجيعة لنصّ هاتين الآيتين تذكرة للرّسول الخاتم بما خلا من المُرسلين وما كانت عليه سُنّة ظاهرة الدّعوة لدين الحقّ وعاقبتها في العالمين.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِـــينٌ * فَاتَّقُـــوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٣-١٢٧)

تمضي قصص القرآن في أمر المرسلين وتتواتر عبرها للمرسل الخاتم ﷺ الذي كان يكذّبـــه أكثر قومه يحسبون في جاهليتهم أنهم على نهج معروف. كذّبت عاد المرسلين. وقد كانوا قوماً قاموا في الأحقاف الرّملية جنوب الساحل الشرقي للجزيرة العربية بين عمان وحضرموت. كذّبوا رسالة هود عليه السلام، وهو من الخلف الرّابع في ذرية نوح. بل كذّبـــوا بـــذلك ذات رسالة الوحي من الغيب التي تعاقب بها المرسلون علي أقوامهم المتوالـــية. فقـــد تنـــــزلت فعلاً رسالة أبيهم نوح إلى قومه تحمل ذات الهدى لو أنهم تذكـــروها واعتـــبروا بـــوقائعها الواعظة.[1] ذلك حين قال لهم هود، وهو منهم لا ينكـــرونه: ألا يستجيبون لداعي الهدى من الله ألاّ تحملهم فتن العالم المشهود وتعلّقاته ودفـــوع أهواء المتاع فيه وإيحاءات الشيطان أن يتعدوا حدود معالم الهدى الرّباني: ألا يـــتقون غضب الله؟ اجتناباً لما لا يرضاه وإن أحاطت بهم الابتلاءات وأضلتهم الأهواء

(١) في دعوة هود عليه السلام ومجاهداته عاداً والعاقبة: راجع أيضاً الآيات ٦٥ – ٧٢ سورة الأعراف، والآيات ٥٠ – ٥٨ سورة هود.

وأغواهم الشيطان لمعصيته ﷻ. وأكد لهم أنه رسول من الله لا يفتري مذهباً من تلقاء نفسه بل يؤدي ما كُلّف به من بلاغ، وأنه هو رسول أمين لا يكتُم ولا يحرّف الهُدى المكلّف بإبلاغه فهو شهيد عليهم إن لم يستجيبوا لأوامر الله الذي أرسله فيتقوا مغاضبه وإن لم يطيعوه من ثَم هو مبلغاً وداعياً بأقواله ومعبّراً بمثال أعماله عن مقتضى الرّسالة. ومضى يُخاطبهم أنه ما يسألهم أجراً عن بلاغ ذلك التكليف الذي حمله، ذلك لئلا يظنّوا أنه طامع فيهم مبتغياً كسباً ممّا في أيديهم كفاء دعوته، وما أجره إلا على ربّ العالمين هو يتولي جزاءه يوم الدين على أداء الأمانة وتبليغ الرسالة.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٢٨-١٣٥)

يوالي هود لقومه الخطاب استجواباً في سبيل التذكير، أيمضون في مطاوعة أهوائهم في حاضر المتاع ناسين تقوي الله يبتغون - لذلك- بكلِّ ريع، فج ظاهر من ساحات الأرض آية؟ بيّنةً على فتنتهم بمنشآت من محاريب العبادة وهياكل البُنى، ما أُعمرت وصُوّرت إلاّ إعلاماً أُفرط في تكثيرها لتشهد على مبلغ إبداعهم الباهر في التشييد، فهم لا يبتغون في تأسيسها عين مآوي أو محال لأداء أغراض في الحياة بل يعبثون لهواً ويعرِضون مشاهد لقدرات أيديهم المعمارية. أيتخذون أيضاً مصانع، قصوراً وحصوناً مرافق مُتقنة مَتينة البناء لعلّها لا يعتريها الخراب فيخلدون هم ذكراً عبر الدهر ومثالاً باقياً عبر الأعقاب؟ ويذكّرهم هود أن تُراهم إن بطشوا ببسطة خَلقهم وقوة بأسهم على الذين يلونهم من أقوام مستضعفين أخذوهم بطشاً عن يد وعنف جبارين لا يبالون بما يصيبهم ضراً ولا يحفظون لهم حرمة أمان للحياة ولا أثر حظ في المعاش في كيان مستقر. فمن ذكر ذلك العبث في الأبنية التي لا يشهد قيامها وتكاثرها إلا على التفاخر المعروض ومن تثبيت المعامر المصنوعة لتخلد مجداً عبر الزمن من البطش الغاشم المتجبّر الغاشي منهم كل حرمة أو حصانة لآخرين، يذكّر هود قومه بشتّى الوجوه أن يتقوا الله، إليه وحده القصد والحمد فيما يمكّنهم فيه من معمار

ولـــه التكبير إن وفقهم في المصنوعات الثابتة، وله الحول والقوة منه الخوف ألاّ يطلقوا قوتهم التي أمدّهم بها ظلماً وعتوّاً على سائر عباده، وأن يطيعوه هو آمراً وناهياً وقدوة فـــيجدّوا فـــيما يبنون لا يقيمونه عفواً ولا فخراً، وأن يتذكروا سنن الله الغلاّبة على خلود ما يصنعون ويكفّون عن بسط القوة على الآخرين جبروتاً وعدواً فلا يبسطونها إلا عدلاً ومدافعة بالحقّ والتقوى.

ثم يـــوالي هـــود تذكير قومة بتقوى الله الذي أمدّهم بما يعلمون، نعماء يشهدونها ممّا طبعه وسخّره لهم الله يبتليهم أيذكرونه ويشكرونه أم تفتنهم فلا يتّقونه غافلين مُسرِفين في التمـــتّع بهـــا؟ فالله – كما يخاطبهم هود – هو الذي أمدهم بأنعام وبنين عمرة في الحيوان وكثـــرة في الولدان حولهم، وجنّات منبسطة معطاءة بالغذاء والزينة وعيون متفجرة نضاخة بالمـــاء مـــصدر الحياة، إنه يخاف عليهم إن كفروا بنعم الله وفجَروا في اتخاذ قوّتهم في البناء عتيّاً وغروراً وفي الغلبة على الآخرين بطشاً وجبراً – يخاف عليهم عذاب يوم عظيم، عاقبة يوم بأس عاجل في دنياهم أو يوم القيامة الآجل حين العذاب الأشدّ الأبقى.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (١٣٦-١٣٨)

قالـــت عاد لهود غير مبالية بتذكيراته ومواعظه ومناذره: أن سواء عليهم وعظ أم لم يكـــن من الواعظين المتفرغين للوعظ. فما لوعظه وقع في نفوسهم لأنّهم يطمئنون بمـــتاعهم وعمران حياتهم وكسوبها لا يوافقون هديه ولا يصدّقون نذيره. وفاضوا في دواعي التمادي فيما هم فيه مذكّرين هوداً أن ما ذلك الذي يجري في سيرة فعالهم إلا خلق الأولين، الطبع المعروف والعادة المسلوكة لآبائهم، سبقوهم إلى ذلك نهجاً وسُنّة وما وقع عليهم بأس مخوف من وعيد واعظ مُنذر بل بقيت آثار بنائهم الطّلق وصنعهم التّلـــيد وعَبر ذكرُهم المجيد، فهم لا يوافقون هوداً فيما يوحي به من تقوى الله وطاعته هـــو تحفّظاً في شأن مقاصد تصريف المعمار واتخاذ قوة البطش العادي والتمتّع بالبغاء شهوةً وفرحاً وهم لا يصدّقون نذيره إن تمادوا في خلقهم الموروث أن يقع عليهم سوء فـــيما هو منظور. فكذّبوا كلّ رسالة الهدى في دعوته، فحقّ عليهم وأخذهم العذاب واقعاً ريحاً صرصراً عاتية اجتاحتهم فذهبت بهم ودمرت ديارهم تدميراً.

﴿فَكَذَّبُــوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٣٩ - ١٤٠)

أن في ذلك من ذكر القَصص في عاد ودعوة رسولهم إلى تقوى الله وطاعته هو فـــيما ابـــتُلوا به وفيما انتهوا إليه من إعراض عن الهدى وتكذيب لوعيد النذير وفي هلاكهم الواقع - في ذلك آية شهادة على سُنّة الله البادية في ابتلاء عباده عاداً بفتن الحـــياة ثم في دعـــوة الرّســـول هود فيهم هدى وموعظتهم نذيراً وفيما ترتب على إعــــراض أكثـــرهم وفي هلاك عاقب. السنة ماضية حتى في أمر الخالفين الذين يتلوا علـــيهم الرّسول الخاتم القرآن خطاباً فيه ذكر تلك القصة لعاد مثالاً وعبرة وموعظة، وما كان أكثر أمّة ذلك الخطاب لأوّل عهده مؤمنين. ولذلك يضيف الله خطاباً إلى رســـوله الـــذي أعـــرض الأكثرون عن رسالة هداه وعن تذكيره بقصص الأوّلين الـــواعظة - يُـــضيف تـــسلية وتثبيتاً أن ربّه هو العزيز المنتقم الجبار الذي يعزّ على العُصاة لهداية رسالته ويأخذهم بقوته المتعالية مهما يفتروا بقواهم صناعة وبطشاً في الأرض، وهـــو الـــرّحيم الذي يُنـــزل رحمته رسالة هداية وإملاء في الابتلاء تخاطب كـــل العباد ويصوب رحمته خاصة إلى المرسلين والمؤمنين أيداً لصبرهم ونجاة وفتحاً وفلاحاً.

﴿كَـــذَّبَتْ ثَمُـــودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُـــولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٠-١٤٥)

يـــتوالي ذكر رسالة المرسلين الخالين تسليةً وتثبيتاً للرّسول الخاتم ﷺ أن كاد أن يَعـــيل صبره ويخيّب رجاؤه في أمة خطابه التي غلب عليها الإعراض عن دعوة الهدى والـــتكذيب لكلمة النذير. يأتي هنا ذكر ثمود، عاد الثانية ذريةً من سام بن نوح كانت تقـــيم في أرض الحجـــر في ســـياح من الجزيرة العربية شمالاً شرقياً. ذلك أنها كذّبت صـــالحاً عليه السلام أخاهـــا من نفسها في رسالته، ذات رسالة المرسلين الذين تعاقبوا سلفاً وخلَفـــاً عليها متصادقة ممتدّة دعوة إلى الإيمان بالغيب والهدى والتقوى ونذارة وبشارة بعـــواقب الدنـــيا والآخـــرة تخاطب أقواماً متوالية لعلّهم يتذكّرون ويعتبرون فيهتدون

ويتّعظون فيتقون الله خلَفاً بعد سلف.[1] ذلك إذ قال لثمود أخوهم صالح: أيمضون في غفلــتهم وفتنـــتهم أم يتوبون إلى الله يعرِفونه واحداً فلا يتّخذون دونه معبوداً وهادياً، يوقّـــرونه تقوى ولا يخرجون على شرعة أوامره ونواهيه إلى ضلال وجازياً فيخشونه ويرعون رقابته لحياتهم الخاصة والعامّة فلا ينسونه فيوالون في الغيب الشيطان ليزيّن لهم الفـــواحش والكبائر ويُودى بهم إلى غضب الله والمهانة في الحياة ولا يعصونه طوعاً في الهوى فتحقّ عليهم عنده عاقبة الخسران. فليتّقوا الله ويطيعوه هوَ آمراً بالمعروف وناهياً عـــن المنكر، فما هو إلاّ رسول من الله مذكّرٌ أمين في بلاغه لا ينفتن خيانة ولا يكتم حقـــاً، ناصـــح لهم بر محاذر من سوء عاقبة تحقّ عليهم ولا يفتري ابتداعاً بل يبلّغهم رسالة الحق حريصاً على هداهم، ما يسألهم أجراً حاضراً على دعوته إن أجرُه إلاّ مآلاً على رب العالمين. فليتّقوا الله موالاة في مراعاة الحذر من عصيانه والخوف من سطوته الغالبة وليطيعوه هو مضياً في اتّباع تفاصيل أقواله وفعال سننه في مسالك رشد الحياة.

﴿أَتُتْـــرَكُونَ فـــي مَا هَاهُنَا آمنينَ * في جَنَّات وَعُيُون * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضيمٌ * وَتَنْحتُونَ منَ الْجبَال بُيُوتًا فَارهينَ * فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطيعُون * وَلاَ تُطيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفينَ * الَّذينَ يُفْسدُونَ في الأَرْضِ وَلاَ يُصْلحُونَ﴾ (١٤٦-١٥٢)

وساءل صالح قومه عن مغبّة تماديهم في الانفتان بالحياة غافلين عن الله: أيتركون فيما ها هنا من طيّب حياتهم آمنين؟ ناسين أقدار الله التي يجهلون أسبابها وآجالها إذ يمد الـــبلاء مـــداً فتسكن طمأنينتهم أن سيقرّ لهم الأمان ثم تأتى أبداً المصائب بغتة وضداً. أيمـــضون هكـــذا في غفلة من حبّ المتاع مستعمرين جنات من لفيف شجر الفواكه والمـــنابت والظلال وعيون من المياه راوية واحات في بيئة جفاف، وزروع من حقول الحـــبوب والخـــضر ونخل طلعها من رؤوس نَور التّمر البادي هضيم، ليّن نضيج طيّب المأكل؟ ويُملي لهم فضل في المساكن إذ ينحَتون بَرْياً للحجر من الجبال ليهيئوا بيوتاً من غـــرف لأنفـــسهم فارهين بطراً بسعة بدائل المساكن وتنعّماً بطيب المناخ في كهوف

(١) في دعوة صالح عليه السلام ومجاهدته ثمود والعاقبة راجع أيضاً الآيات ٧٣ - ٧٩ سورة الأعراف، والآيات ٦١ - ٦٨ سورة هود، والآيات ٨٠ - ٨٤ سورة الحجر، وانظر الآيات ٤٥ - ٥٣ سورة النمل.

الحجـــر - أيتركون هكذا أبداً؟ فليتقوا الله محموداً على تلك النعم لا يفتنهم مدّ المتاع كافرين متجاوزين حدود هدي الله منـــزلقين في المحارم غافلين عن العقاب، وليطيعوه هو مذكّراً ناصحاً منذراً ولا يُطيع أمر المُسرفين بغياً في اتباع الشهوات الذين يفسدون في الأرض ضـــرباً فـــيها بسيّئ الفعال وانتهاك الحرمات وإفشاء الشرور ولا يصلحون تزكية للأنفس فالأعمال فتقويماً للعوج في المجتمع ودفعاً فيه للخيرات.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٥٣-١٥٤)

أولـــئك القوم من ثمود ما وجدوا وجه صد ورد بالحق على نصائح صالح فعدلوا عـــن مجادلته فيها وحَملهم هوى الصدود على الطعن فيها بإلقاء الرّيب فيما يصدر من صـــالح، قالـــوا مخاطبين له: إنّما هو من المسحّرين، ما يصدر إلا عن سحر غلب عليه فتوهّم أنه يتلقى وحياً من الله في الغيب فيه هدى لهم وذكّروه - مخاطبين له - إن هو إلا بشر مثلهم، ما يملك صلات ومُدوداً غيبية مختلفاً عنهم. وأمروه إن ادّعى غير ذلك أن يأتي بآية من فعله هو فيها علامة أن له وصلاً خاصاً بقوى الغيب يخرق بها مطبوع الأسباب في الأشياء. ذلك إن كان من الصادقين الراسخين أمانة في الالتزام الحقّ فيما يقول بلاغاً عن وحي من الله ورواية عن الغيب.

﴿قَـــالَ هَـــذِهِ نَاقَـــةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ (١٥٥-١٥٧)

قـــال لهم صالح، وقد آتاه الله آية فيها له أيدٌ لصدقه موصولاً أميناً بالغيب - قال لهـــم مخاطباً: هذه ناقة، ظهرت لهم فجاءة من الغيب ما من مألوف النوق، لها شرب حـــظّ يوم كامل هو لها وحدها تستأثر بكل مورد الماء المتاح للسقي ولهم شرب يوم معلوم قسمة بينهم وبينها متمايزة لا شركة فيها. وحذّرهم أن لا يضيقوا بأمر الناقة آية تـــصدّقه وتُبطل حجّة صدودهم فأضاف إلى نبأ ظهورها ألاّ يمسّوها بسوء أيّاً مّا كان من الفعل بها بل يذروها ساعة فهم إن آذوها يترتب عليهم أن يأتيهم فيأخذهم عذاب قـــريب لـــيوم عظيم. لكنهم تمادوا في الإعراض عمّا يقول حتى عند مجيء الآية البيّنة المـــصدقة ورغـــم النذير منه ألاّ يمسوها بسوء اتقاء لسوء مترتب. فعقروها أذىً مسّها

بيـــنهم ليذبحوها مأكلة، فأصبحوا وقد حقّ ووقع عليهم الوعيد صيحةً أخذهم نادمين علي عصيانهم الفاجرِ لأمرِ الله ورسوله في ناقة هم بادروا بتطلّب مثلها آية شهادة على الغيب قبل ظهورها استجابة لهم وأهملوا النّذير ممّن عدّوه كذّاباً أشِراً لكن صدّقته الآية وما تأخّر وعيده، ولات ساعة مندم بل غدوا في ديارهم جاثمين.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٥٨-١٥٩)

وفي تـــلاوة ذلك الخبر بسيرة ثمود الآثمة التي انتهت إلى صيحة هاشمة، بعد ذكر سوابق الحدثان العاقبة للمكذّبين بدعوات الحقّ من المُرسلين الصادقين هدىً ونذيراً – إنّ في ذلك الأمر الواقع لآية تتجلّى فيها سُنة الله في تصادق الرّسالات حقاً منه وتماثل نهـــج المُعرضين عنها المكذبين وتواتر وقع المصائر الحاقّة عليهم. وما كان أكثر ثمود أمّة خطـــاب صـــالح بمؤمـــنين برسالته ورشدها ونذيرها الغريب. وكذلك أمم خطاب الرســالات الأخـــرى حتى أمّة خطاب القرآن الذي خَتم به تاليه الرسالات، ما كان أكثـــرهم بمذّكر متّعظ بما جرى من سُنن الله متدبرٍ آية الله فيها. ويُخاطب الله رسوله الخـــاتم تثبيـــتاً له عبرة بقص أنباء ما قد سبق: إن ربّه لهو العزيز الذي يعلو على كل مـــستكبر من العُصاة المُترفين يأخذهم بما شاء، الرّحيم الذي إعذاراً لا يهلك عباده إلاَ بعد النذر من عاقبة مسالك الفتن بالعذاب وحلماً ولطفاً يمدّ لهم أمد البلاء مجالاً لعلّهم يـــتوبون، والـــذي رأفة بالمؤمنين منهم يهديهم ليصلح بالهم ويثبّتهم وإن كانوا قليلا مغلوبين يُصابرون البأساء والأذى ليعدّ لهم حسن مآل برحمة صائبة فائضة.

﴿كَـــذَّبَتْ قَوْمُ لُوط الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُـــولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٠-١٦٤)

تـــصادقت الرّسالات في أصول دعوتها إلاَ تصويباً كلّ مرة على عين فتنة ابتلاء وتواتـــرت سيرة المرسلين سنّة واحدة، وتوافقت مواقف أُمم الخطاب وعواقب أمرها. كـــذلك لحـــق هـــنا بتلك القصص السابقة الذكر في وقع الرّسالات أن كذبت قوم لـــوط عليه السلام في سدوم والقرى حولها المرسلين، ودعوتهم واحدة الأصول في العبادة لله

الخالصة المستقيمة تقوى له وطاعة لرسله، إذ جاءهم مَثل من خطاها من أخيهم لوط، أخـــاً في المواطنة وقد هاجر إليهم من الشّرق،[1] إذ قال لهم: ألا يتقون الله؟ فيُطهّرهم ذكـــرُه إلهـــاً معـــبوداً هادياً ورهبته جازياً بأن يجتنبوا ما كرهه فيهم من خُلق وعرف جاهلي تغمره فتنة الشّهوة الذكورية، لئلاّ يحقّ عليهم من الإثم غضبه ﷻ ويقع عليهم مـــن ثَم عقابه. وأوصاهم أن يطيعوه هو إذ جاءهم بتلك الهداية لا مصطنعة من تلقاء نفـــسه بـــل رسالة من الله بلّغها أميناً لا يفتري دونها ولا يبدّلها خيانة بل يؤديها أمانة بـــلاغ للرسالة محكم. فأوّل الفرائض التي لا يفرّطون فيها أن يتقوا الله فيما ينهى عنه ومـــا يأمر به، ويتلوها أن يطيعوه هو فيما يبيّن لهم من مقتضيات ذلك الهُدى بأقوال دعوة أو أفعال إسوة منه. وطمأنهم أنه ما يسألهم على البلاغ والإمامة من أجرٍ مّا لئلا يـــرتابوا في تجرّده في سبيل الله، لا يُثقل عليهم بذلك بل أجره على ربّ العالَمين دون مكافأة له من أحد، فهو ﷻ الذي يتولّى أمر خلقه يربّيهم ويهديهم ويزكّيهم في الحياة ويكلّفهم فيجازيهم بعطاء من عنده وفاق كسبهم في أداء أمانة الابتلاء.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْـــتُمْ قَـــوْمٌ عَـــادُونَ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُـــوزًا فِـــي الْغَابِـــرِينَ * ثُـــمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (١٦٥– ١٧٣)

وســـأل لوط قومه مستنكراً: أيأتون الذكران من العالمين؟ عادة يقضون بها شهوة الالـــتذاذ بمـــناكحة أدبـــارهم، ويتركون – زهداً أواكتفاءً – ما خلق لهم ربّهم من أزواجهم؟ إناثاً نكاحهن مسنون طبعاً ومشروع لهم مباحاً حلالاً. بل هم – كما قال لهم – شاذّون خُلقاً إذ أصبحوا عادين بغياً وتجاوزاً لما حبّب الله من شهوة النساء بإتيان

---

(١) في دعـــوة لـــوط ومجاهداته قومه والعاقبة: راجع أيضاً الآيات ٨٠ – ٨٤ سورة الأعراف، والآيات ٧٧ – ٨٣ سورة هود، والآيات ٥٨ – ٧٧ سورة الحجر، وانظر الآيات ٥٤ – ٥٨ سورة النمل، والآيات ٢٨ – ٣٥ سورة العنكبوت، والآيات ١٣٣ – ١٣٨ سورة الصافّات، والآيات ٣٣ – ٣٩ سورة القمر.

الفاحشة مع الذكور في ولعٍ وإصرار. قالوا له معرضين عمّا يوصيهم به مصوّبين حملة علـــى مـــا يوالـــيهم به من تلك الدعوة التي يُنكروها - قالوا له: لئن لم ينته هو عن دعوته - وينادونه هنا باسمه صَوْباً للخطاب إليه وتحذيراً مؤكّداً - لئن لم يسكت عنها ليكوننّ قطعاً من المُخرَجين من ديارهم فهو أصلاً غريب يأتيهم بدعوة غريبة يتطهّر بها عليهم. فانبرى يرد عليهم قائلاً: إنه لعملهم من القالين، لا يسكت عمّا هو باطل فهو لـــه من الكارهين الأبلغ بغضاً. ورجع إلى الله فناداه ربًّا له داعياً: أن يُنجيه تماماً وأهله الأخـــصّ قُربى له براءة وسلامة من عاقبة ما يعملون. فاستجاب له ربّه فنجّاه - بنَظم أقـــداره الحكـــيم - كما يقول متحدثاً ﷻ- وأهله أجمعين إذ أوصاه الله بارحة الأمر المحـــذور بالخروج معهم من ديار قومه إذ كانوا لازموا معه تقوى الله ومسلك هديه. ذلـــك إلاّ عجـــوزاً هـــي امرأته انعطفت إلى سواد قومها الأعظم وأعانتهم في مساعٍ لُممارســـة فعالهم حول بيت لوط نفسه في ضيوفه الملائكة، فكانت من الغابرين الباقين مـــن أهلـــها لتغمُـــرَهم الـــواقعة العاقبة. ثم دمّر الله بأقداره جميعاً - كما يحكم كلِم القـــرآن - الآخرين من سائر قوم لوط وأمطرَ عليهم مطراً يسّاقط من حجارة زلزال منقلبة به قراهم إلى أثر مغمور، فساء مطر المنذرين إذ أصروا على معصية الله متمادين في سيّئ خُلق الفاحشة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٧٤ - ١٧٥)

يـــرد في خـــتام قصة لوط ما ورد في ختام قصص المرسلين السابق ذكرهم، وتلك تـــرجيعة لنصّ الآيتين في ذات المواضع من السورة، فيها كلمات عبرة لأولى الألباب. فإنّ في ذلـــك الأمـــر ممّا ذُكر من رسالة لوط ودعوته وسيرة قومه المعرضين عنها وفى العاقبة علـــيهم - إنّ فيه لآية شهادة مِن سُنن الواقع يتجلّى بها التذكير والاتعاظ للخالفين كافّة. ومـــا كـــان أكثرهم ممّن صاحبوا لوطاً من القوم بمؤمنين ولا ممّن خلَفوا من العرب الذين كانـــوا يـــشهدون آثار الواقعة الواعظة وجاءهم التذكير والنذير بها في القرآن - ما كان أكثرهم مؤمنين لعبرة ما يشهدون ولا بتذكرة ما يُتلى عليهم لأوّل عهد القرآن. وكان في ذلـــك الذكـــر تثبيت لُمصابرة الرّسول الخاتم ﷺ إذ يمضى داعياً برسالة الله في القرآن وفى

سـابق صحف المرسلين. وتخاطبه عيناً الآية أن ربّه الذي نسبه إليه الخطاب هو قطعاً وأبداً العزيـز القويّ الجبّار الفعّال بقدره وقضائه لإنفاذ حكمه على كثير من العُصاة لأمر هديه، الـرّحيم المؤيّد الناصر لعباده المؤمنين، صفتين حسنيين لأقدار ذاته عزةً ورحمة تتجلّيان في الدنيا والآخرة بوقع بالغ يتعالى على أثر صفات عباده البشر.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٧٦-١٨٠)

على ذات السُنّة التي انتهجها المرسلون وسارت عليها أقوامهم سار البدو والحضر من أصحاب الأيكة، الغيضة الغابة الكثيفة عند قرية مدين، كذّبوا ذات دعوة المرسلين المتواترة المتصادقة التي جدّدها فيهم شُعيب (عليه السلام)[1]، إذ قال لقومه: ألا يستقيمون؟ بعد ضـلالهم وفجورهم لاسيما لفتنة المعاملات التجارية النشطة واختلاط دعوات الدين حـولهم محوراً لطرق السيّارة فيتّقونه ألاّ يأخذهم بسطوة غضبه ووقع عقابه إن مضوا منكرين مُعرضين عن سواء السبيل في هُدى الحياة. ومضى يقول لهم، كَسَلفه الأنبياء، إنـه لهم رسول أمين يبلّغ من الله رسالة ويؤدي أمانة صادقاً فيما يقول ويفعل بمقتضى رسـالته، فليتّقوا الله خشية من رقابته وعاقبة جزائه وليُطيعوه هو استجابة لأمر دعوته وهـدى سُـننه. ويثبّتهم ليطمئنوا أنه ما يسألهم على ذلك أجراً كفاء جهده في بيان الرّسالة دعوةً وتمثيلها إمامة، بل يعفّ عن أموالهم، وإن هداهم كفاء ذلك فما أجره إلا علـى ربّ العـالمين الذي خلق عباده وربّاهم جميعاً وابتلاهم ليجازيهم بالقسط على طاعتهم وأداء أمانتهم، وهو مكلّف منه ومبتلى ومؤدٍّ أمانةً فرَاجٍ.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلاَ تَبْخَـسُوا الـنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ (١٨١-١٨٤)

---

(١) في دعـوة شُعيب ومجاهداته قومه والعاقبة: راجع أيضاً الآيات ٨٥ - ٩٣ سورة الأعراف، والآيات ٨٤ - ٩٥، سورة هود، والآيتين ٧٨ و٧٩ سورة الحجر، وانظر الآيتين ٣٦ و٣٧ سورة العنكبوت.

بـــيّن شُـــعيب لأصحاب الأيكة مقتضى تقوى الله وطاعة رسوله، وذلك ألاّ يفتـــنهم الهـــوى في معاملات حياتهم: أن يوفوا الكيل الذي يكيلون في معايير تجارة الـــتعاوض في شـــتّى السلع، ولا يكونوا من المخسرين الذين يطفّفون على الآخرين ويستوفون لأنفسهم ليجعلوا الآخرين هم الخاسرين غشّاً ي التعادل، والحقّ أنهم هم المخـــسرون لأنفـــسهم عند الله لتعمّد الظلم. وأوصاهم أن يزِنوا كذلك بالقسطاس المـــستقيم بضبط قوام الموازين في تجارة السلع الموزونة. وألا يبخسوا الناس أشياءهم زوراً وغـــشّاً في المعـــروض أو المقبوض أو نقصاً في المستحقّ، مبايعة أو رهناً. وألاّ يعثوا في الأرض عربدةً بالهوى مفسدين أبلغ الفساد ابتغاء للغُنم والكسب الحرام ولا حملـــةً علـــى دعـــوات الاستقامة والمعاملة السواء والهدى وصالح الأعمال عموماً. وليـــتّقوا الله الذي خلقهم فهو الذي يهدي حياتهم والجِبلّة الذين سلفوا جيلاً فأصلاً لهـــم، أولئك مجبولون من الله فموكولٌ إليهم هُداهم، والأَولى أن يتوارثوا منذ آبائهم تقالـــيد العـــدل والمعـــروف لا عادة الظلم والهضم والمنكر ليسري ذلك الخير فيمن يعقبهم كذلك.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْـــقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٨٥-١٨٩)

ما رضي أصحاب شُعيب وصاياه بتقوى الله وطاعته هو بغير ما عهدوا من تعامل ظلـــم واكتساب غنم بلا هداية، مهما يدّعي أن رسالته وحي من الغيب يُكتب عليهم فـــيه مـــن الله أن يتركوا معهودهم منذ الأولّين. فقالوا له: إنما هو من المسحّرين، لا تـــصدر دعوته إلا بوحي مما غلب عليه من السّحر يُلقي في وجدانه مُخيّلات في آفاق الغيب المجهول فيزعم أنه يصدر عن وحي حقّ من الله. وأكّدوا ذلك أن ما هو – كما يُخاطـــبونه – إلاّ بـــشر مـــثلهم مقصور في العالم المشهود لا صلة له بما وراءه، وإنهم ليظـــنّونه قطعاً من الكاذبين في ادّعاء الصدق والتجرّد في أداء أمانة رسالة من الغيب. وإلا فلـــيُحدث آيـــة مـــن تدبير مُعجز ما هو من معهود الأسباب ومطبوع الأشياء لـــيحملهم على تصديقه، وعيناً لحيثِ الآية: ليسقط عليهم كسفاً مركونة من السماء

مُظلمـــة فيها نوازل عذاب، إن كان من الصادقين. قال شُعيب ردّاً على تحدّيهم: إنّ ربّه أعلم منه بما يعملون، فهو الذي يحكم بما يحقّ عليهم لتكذيبه ويصرّف أمرهم جزاء إن شـــاء أن ينـــــزل علـــيهم واقعة من غضبه أو يُمسك عنهم إملاءً لأجل. فمضوا يكذّبونه لاسيما أنه لم يعاجل عليهم بآية كتلك تلجئهم للإسلام لدعواه. فأخذهم الله فعـــلاً إذ تـــرتّب من أقداره عذاب يوم الظُلّة التي تكثّفت فوقهم وخيّمت ثم تنـــزلت علـــيهم لتـــصيبهم صيحة جائحة. إنه كان عذاب يوم عظيم حقّ عليهم لأجله وقد تطلّبوه وهم لا يصدّقون النذير.

﴿إِنَّ فِـــي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٩٠ - ١٩١)

إنّ في ذلك - من مثل سابقات تنـــزل الرسالة من الله وترتّب عاقبة التكذيب في جاريـــات ســـيرة شُعيب وقومه - في ذلك لآية شاهدة على تجلّي سُنن الله الذي يُنـــــزل مشروع رسالة علم وهداية لبني آدم بعد هبوطه أرضاً منحجباً من الغيب وتـــصريف العقاب عليهم بعد نذير جزاءً حاقاً. وتلك آية شاهدة على نـــزع الناس مُخاطـــبين بالرســـالات أن يُكذّبوها انفتاناً بحاضر الدنيا وعاجلها. وما كان أكثر أصـــحاب الأيكة بمؤمنين بل كذّبوا فهلكوا إلا قليلاً من المؤمنين الناجين. وفي ذلك آية على ما يمدّ الله به رسله بعد تكليف الرّسالة من وسع الاجتهاد والصبر والثبات. وما كان أكثر الذين تسامعوا من العرب بأنباء الأيكة قديماً بمعتبرين متّعظين فما كان أكثـــرهم عندما تنـــزل عليهم القرآن هادياً مذكّراً بمؤمنين. ومن ثمّ يُخاطب القرآن الرّســـول الخاتم ﷺ الذي يتلوه تذكرة له في آية رسالته العاقبة للماضيات وفي مدى الاستجابة المحدودة التي لقيها من قومه لأوّل دعوته - يُخاطبه تثبيتاً لقلبه أنه ﷻ ربّه هـــو حقّاً بلا ريب العزيز حَولاً وقوّة فمنه الهدى المشروع لعباده ومنه الأمر المفعول لهم أو عليهم كيفما استجابوا لدعوته، الرّحيم بليغ الرّحمة لعباده كافّة رسالة هداية ونـــذارة وبـــشارة وللمؤمنين بها تيسيراً لهم لليُسرى في حياتهم مهتدين وأيداً وعوناً لـــصبرهم مهمـــا تبتليهم الظروف وعطاء لهم في الآخرة وفاق كسبهم ومعاوَضة لما شروا به أنفسهم عبادة له وعملاً صالحاً.

عموم المعاني (للآيات ١٠ – ١٩١):

في فاتحة السورة ذكّرت آيات الوحي المُنزلة بما كُتب على المخاطبين من بني الإنسان من هدى بلسان عربي مُبين، يكاد يبخع نفسه الرّسول – أو الداعية من بعده – الذي يتلوها عليهم ألاّ يؤمنوا بها. ومن بعد يأتي ذكر آية مّا في أشياء الطبيعة وحدثالها مقدور لله إن شاء أن ينزلها من السماء مُعجزة خارقة لمسنون الظواهر وقاهرة من ثَمّ للمُخاطبين ليؤمنوا معها بآياته الموحاة كرهاً. ثم ترد آية وعيد للمكذّبين برسالة من الله ونذيرها أن سيأتيهم نبأ تأويله لأجله صدقاً ناجزاً ومثنىً يزاوج في أقدار الله في الوجود إذ يُكافئ استهزاءهم بآيات وحيه. ثم يرد استشهاد بآية في الطبيعة مسنونة كأن لم يرها المُخاطبون ببصيرة تدبّر: كم أنبت الله في الأرض الميتة نابتاً مشهوداً حياً من كلّ زوج كريم، وتلك إشارة وقياس لما أنزل الله وحياً من أحسن الحدث كتاباً مثاني تحيا فتقشعرّ من وقعه جلود الذين يخشون ربّهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكره وهداه، ولّما قدّر الله ووعد من بعثٍ بعد الموت في حياة أخرى للإنسان مثنى لدنياه تُزاوج بلاءَها وكسبها بالحساب والجزاءِ الوفاق.

من بعد ذلك الذكر لآيات الله المختلفة وجوهاً المتصادقة مغزىً يتلو في السّورة ذكرٌ متواصل لآيات اعتبار في سِيَر المرسلين السالفين. فيها آيات تذكّر لمتواتر الدعوة لذات أصول الدين الحق في تلك الرسالات لإخراج أمم الخطاب من جهالة الإنسان وغفلته وضلاله في عالم الدنيا المشهود دون الغيب بالوصايا العامّة المتجدّدة بتقوى الله إيماناً به وبالغيب كلّه وبالحياة الآخرة وبالتصديق والطاعة لحملة رسالته في الهدى، فكلّهم رسل أمناء في بلاغه صادقون في الالتزام به لا يبتغون عن ذلك أجراً إلا عند الله. ثمّ تتفصّل الوصايا لتطهير المُخاطبين المختلفين كما كانوا فيه من فتن الدنيا ووافاهم من بلاءاتها: من أعراض قوّة سلطانية طاغية، أو تقاليد سلفيّة مُنكرة، أو انفتان بهوى الاستكبار والغرور، أو ارتهان لخصوص الشهوات التي يزيّنها حظُّهم من متاع في دنياهم. وفي السورة آية اتعاظ بأمر الأقوام الذين تعاقبوا مكذّبين للرسل المتوالين ومستهزئين بنذيرهم ولكنهم مضوا تأتيهم في سيرة حياتهم الغافلة المفتونة وقائع العذاب الموعود ناجزة ما هي إلا أخذٌ عاجل إيذاناً بما هو أشدّ وأبقى من أجل الآخرة.

وفـــيها آية استنان بخُلق المرسلين والمؤمنين المصابرين الراجين في سبيل الله فالناجين من سوء العاقبة العاجلة الطامعين فيما هو خير وأبقى في الآجلة.

وأوّل ذلـــك الذكر في السورة بعد صدرها كان في أمر موسى عليه السلام. وحقّ أن يتقدّم ذكره إذ كانت العبرة تتعاظم في دعوته وسيرته وكان أثر تراثه حاضراً حول أمّة الخطـــاب بالقرآن الأُولى، إذ كانت باقية ذكرى كتابه التوراة موروثاً محفوظاً منه كثيرٌ مستمـــسكةً به طائفة بني إسرائيل وهو أشهر كتاب وحي باق منذ عهد إبراهيم وقد مـــدّه تـــراث من رسل بني إسرائيل الخالفين. وما كانت النصرانية إلا مدداً على تلك السنّة جدّده رسول من بني إسرائيل هو عيسى عليه السلام الذي أُنـــزل عليه الكتاب الثاني الإنجـــيل. ذلك بينما انقطع العرب – أمّة خطاب القرآن عن تراث أبيهم إبراهيم وابنه إسماعـــيل ونسوا صحفه وما بقي فيهم من ملّته الحنيفية إلاّ شعار المسجد الحرام بمكّة وأشكال من شعائر الحج والعبادة فيه، إذ كفروا بتوحيد الإخلاص والعبادة لله والإيمان بالبعث المنظور في آجلة الغيب وانغمروا في جاهلية الإشراك بالله والتعبّد للأصنام زلفى لله في الغيب. وكان موسى قد بُعث رسولاً قي قوم كانوا تحت وطأة طاغوت فرعون مـــصر وجنوده. وخلَفه من بني إسرائيل كانوا ملوكاً لهم سلطان في الأرض الوسطى الـــتي بارك الله فيها ولكنهم تعرّضوا بعداً لطغاة من سوريا وأكاسرة من مجوس الفرس الغالـــبين ثم أباطرة الرّومان مما زلزل أصول تراثهم الكتابـــي وأعدّهم لتنـــزل القرآن لـــيجدّد فـــيهم ربّهم وفي العرب وللناس كافّة أصول الحق في رسالة المرسلين الواحدة الخالدة.

كانـــت رسالة موسى لأوّل عهدها خطاباً لفرعون وقومه أن يتّقوا الله وحده بينما كـــان يرهبهم فرعون زاعماً نفسه ربّهم الأعلى. فأخذ يُنكر على موسى دعوته وبادره مذكّـــراً له أن قد عقّهم وهاجرهم من قبل بعد أن ربّوه صغيراً وفرّ منهم بعد فعلة كافرة بنعمـــتهم عليه إذ قتل قبطياً منهم. وكان موسى يتهيّأ لذلك الردّ والصدود لأوّل تكليفه بالرســـالة فاستنصر ربّه أن ربما يكذّب ويعجز عن تمام الإفصاح بلاغاً عن رسالة الله إلا اســـتعانة بأخـــيه هـــارون، وذكر لربّه خوفه من أن يؤاخذه ثأراً بمن قتل قبلاً من قوم فـــرعون، فطمأنه ربّه سانداً له بهارون. وجاء موسى فرعون معرّفاً بنفسه رسولاً من الله

تائــباً عمّــا فعــل ضلالاً، أنّ الله قد آتاه في آخر العهد بمهجره علماً وحكمة وكلّفه بالرســالة، ومُــبدياً أنه غير راضٍ بامتنان فرعون عليه وقد تعبّد أهله. وغشيت فرعون الغيرة من ربٍّ سِواه فساءل موسى عن ربّ العالمين الذي يذكره، فبسط له موسى صفة ربوبية الله المطلقة. ولّما هدّده فرعون بالسجن خرج عليه موسى بآيات مُعجزة وهبها له الله في عــصاه ويده. فعدّ فرعون ذلك سحراً وحذّر قومه – تعبئةً وتحريضاً – من نوايا موســى أن يُخرجهم من أرضهم بوقع رهبته، فأشاروا إليه بجمع السّحرة من كلّ المدائن في مــصر لمــيقات ومُجتمع يُبارون فيه موسى سحراً. ورجا السّحرة منذ مقدمهم أن تكــون لهــم الغلبة وقدّموا طلباً للأجر مقبولاً. وبدأ العرض يجري فإذا عصا موسى – ثعــباناً – تلقف ما أفكوا استرهاباً لخيال الناس بعصيّهم ثعابين. وما زادهم نذير فرعون لهــم إذ أسلموا إلا استبشاراً بمغفرة من الله بعد إيمانهم. وما أصبح لفرعون إلاّ أن يحشد بقــوّاه الباطشة على موسى ومن معه ويخرج وراءهم وقد هاجروا شرقاً. والحقّ أنه قد خلّــى وراءه هو جنّاته ومناعمه ولن يعود إلى ذلك أبداً مهما يتوجّه بنو إسرائيل لمثلها مآلاً. وعند السحر والخوف من لَحَقِ فرعون الُمقارب ضَرَب موسى بإيحاء من ربّه البحر فانفلــقَ وانحــزر معــبراً له وصحبه بينما كان مدخلاً لفرعون إلى فُرجة البحر وراءهم ليجــتاحهم مــدّ مــن مياه البحر ويدركهم الغرق. وكانت القصّة مثالاً وعبرة للدعاة المتوكّلين على الله حُمّال رسالة الهدى الربّانية وإن كان أمرها يتعسّر عليهم إذ لدى أمّة خطــابهم ما يحملهم على الصدود وما يطغيهم عليهم من سلطان، عبرةً أنّ الله ينصرهم بمــدد مــنه يمحق كلّ قوّة باطل وإعراض لمن يتلقّى منهم الرّسالة ويفتح حتّى في صميم المعرضــين فتوحاً من استجابة بإيمان مطمئن ولو من قلّة، ثم تدركهم رحمته إن لاحقهم الاســتبداد ليقــضي عليهم وتصير مآلات الأمور إلى هلاك المستبدّين وخسرانهم ونجاة المؤمــنين وفوزهم بمآل فلاح. كانت في القصّة آيات اعتبار وتثبيت للرّسول الخاتم الذي تنــــزل عليه القرآن يقصّها وهي كذلك لمن يخلُفه مقتدياً بسُننه وسيرته مهتدياً بالقرآن الخالد مستعيناً بالله الُمتجلّية أبداً أقدار عزته على كلّ مستكبر ورحمته لكلّ مؤمن.

ثم تــلا مــن بعد الذكر في السّورة لمثال إبراهيم عليه السلام الأسبق عهداً من موسى والأقــرب إلى الرّسول الخاتم وأمة خطابه نسباً والحاضرِ في وسطهم بآثار حرم وشعائر

عـــبادة والأمثلِ عبرة في بيئة شرك صنمي هي مجال متنـــزل القرآن. فقد كانت دعوة الرّســـول الخـــاتم لـــزاماً لأمة خطابها إذ قام بها الرّسول حانفاً موحّداً لله معبوداً، ملّةَ إبـــراهيم متجدّدةً في ذرّيته وقد ارتدّوا عنها. فقد ماز إبراهيم عن أبيه وقومه تحرّره من الارتهان للعالم المشهود الفاتن بأصنام يعكفون عليها قصوراً عن الانطلاق بفطرة الإيمان بـــالله عُليّاً في الغيب، فرقا هو باجتهاد نظرِه باحثاً وراء ما تمثّل الأصنام من أفلاك عليّة في السماء حتّى بلغ معرفة وجود ربّه الأعلى فوجّه إليه وجهه وتطهّر من رهبة الأصنام حانفاً بمذهبه نحو الله معبوداً مخوفاً وحده بذاته العليا وقدره الأسمى. وأخذ يُجادل قومه في تماثيلهم الجامدة بغير حياة أو إدراك العاجزة أن تدبّر لهم أمراً أو نصراً وهم عبّادها. وأســـلم نفسه لله يكل إليه كلّ أمور حياته ويرد وجوده خلقاً فحياة وقوتاً وعافية ثم مـــوتاً فبعثاً، وإذ يرجع إليه بالرجاْء لأنّ الفضل كلّه منه يُصوّب إليه الدعاء طامعاً أن يغفـــر لـــه الخطيئة عند منتهاه يوم الدين، وفي سبيل حياته المستقيمة إلى ذلك اليوم أن يهب له حكماً ويلحقه بالصالحين ويحفظ له ذكراً جميلاً حتّى في الآخرين، ذلك حتّى يجعله يومئذٍ من ورثة جنّة النعيم. ورجا ربّه أيضاً أن يغفر لأبيه ضلاله، وذلك برّاً منه به ولئلا يُخزى من مصيره يوم البعث حيث لا ينفع مال ولا بنون فلا شفاعة منه لأبيه ولا يـــسلم إلاّ من أتى الله بقلب سليم. وفي سياق مثال إبراهيم وإيمانه الممتدّ آفاقاً إلى الغـــيب الحـــق ونحو أزل الآخرة، واستئنافاً لذكر ما ساقه إليه ذلك من الهمّ بالآخرة والـــدّعاء لحـــسن المأوى فيها - تَروى كلمات الله مشاهد الآخرة الماضية حقاً وقد أُزلفت الجنّة للمتّقين وبُرِّزت الجحيم للغاوين وجرت مساءلتهم عمّا كانوا يعبدون في الدنـــيا: هل فيهم من ناصر؟، بل كبكب في الجحيم هؤلاء والبغاة عُبّادهم وصوحبوا بجنود إبليس أجمعين ودار بينهم الاختصام، إذ تبيّن الغواة ضلالهم وعجبوا كيف سووا الأصـــنام بربّ العالمين، وردّوا ضلالهم إلى المجرمين من شياطين الإنس والجنّ، وحزنوا أن عُـــزلوا الـــيوم من أيّما شافعين أو صديق حميم، وتمنّوا لو أنّ لهم كرّة حياة أخرى لـــيأتوا مؤمـــنين. وهذا الذكر وقد جعل من سيرة إبراهيم مثالاً للرسول الخاتم ولكلّ الـــدعاة بعـــده الذين يواليهم ذكر القرآن الخالد - مثالاً في مُجاهدة الباطل الموروث الـــنازع للانفتان بالعالم المشهود والقصور دون الله في الغيب باتخاذ شركاء وشفعاء أو

معـــبودين مــــن مخلوقاته المشهودة ولو كانت أيّما أشياء لا غنى لها حقاً لكن يُرهَن لها غايــــة قـــريبة لمقاصد الحياة وحاجاتها وتُوقّر تعبّداً لها أو سعياً في سبيلها. وأقام الذكر مثالاً من إبراهيم الذي ينصب مستغرقاً نظره وتدبّره ليبحث عن الحقّ ويجده لاسيما في الوجود المطلق الذي لا يتبلّغ إليه فلا يبلغه القاصرون المقلّدون للموروث والمشهور عند ســـواد الناس وقياداتهم التقليدية. وفي إبراهيم مثال أيضاً للمجاهدة حتّى يُحيط المؤمن بـــسعيه ورجائه بمدّ الوجود الأكمل زماناً وأزلاً ويصل حياته الدنيا بالحياة الأخرى. وينختم الذكر بأن في ذلك لآية بيّنة للمذكّر المعتبر وإن كان أكثر المُخاطبين به ما هم بمؤمـــنين، وإن الرّســـول الخاتم – يُخاطبه القرآن الخالد بما يُخاطب به كلّ خلَفه من المؤمـــنين – أنّ ربــــه هو العزيز الرّحيم صفةً بالغةً عُليا تتجلّى حسبما يحقّ وقعها على عباده أو لهم لمختلف مذاهبهم وفي مختلف المواقع.

ثم يـــرجع الذكر في السّورة إلى سير المرسلين الأقدمين الذين قاموا معالم بارزة في تـــاريخ رسالة الدين الحقّ في الأرض الوسطى حول متنـــزل القرآن الرسالة الأخيرة، وهـــم نوح في قومه وهود في عاد وصالح في ثمود ولوط في قومه وشُعيب في أصحاب الأيكــــة عليهم سلام الله. والعبرة في سيرهم متوافقة لأن أصول رسالاتهم متصادقة وإن كانـــت الدعـــوات تخـــتلف خطاباً مفصّلاً لما تنفتن أمة كلّ رسول خاصة. ومواقف المخاطـــبين مـــتماثلة إعراضاً عن الرّسل ومؤاخذة لهم وتكذيباً لنذير الوعيد بل لآيات معجزة كانت مطلوبة منهم. وإن كانت الأيلولة الحقّ متكرّرة فيهم إلى مصائر هلاك. كـــلّ رسول كان يدعو قومه أن يتوبوا عن غفلتهم عن الله والغيب وعمّا هم فيه من غفلة وضلال ويوصيهم بتقوى الله والطاعة لكلماته هو النّاصحة. ثم ينفي شبهة الظن به أنه يبتغي أجراً على دعوته ويكل أجره على الله الذي أرسله. ويأتي تفصيل التذكير بـــضلالهم الخاص لكلّ قوم: عبادة الأصنام والتماثيل عكوفاً عليها في قوم نوح. وفتنة الغـــرور بصناعة الإعمار وإقامة الأبنية عبثاً أو ابتغاء لخلود الأثر والضرب بقوّة البطش غلـــبة على الآخرين وفرط شهوة التمتع بالأنعام والبنين والجنّات المرويّة مما ابتليت به عـــاد. والغفلة عن الغيب والآخرة دار الخلود طمأنينة لمساكن الدنيا لاسيما الكهوف المـــنحوتة في الحجر واستشعار الأمان من أيّما محذور في بيئة طيّبة من الجنان والزروع

والاقتداء في حياتهم والاتباع للمسرفين منهم في المتاع المفسدين في الأرض وتلك ثمود. وفساد خلق المجتمع اشتهاءً لإتيان الذكور زهداً في أزواجهم الإناث وهم قوم لوط. والغفلة عن ذكر الله وهداه والهمّ بتجارة تفسد معاملاتها إذ لا يوفون انضباطاً بالمكاييل والموازين القسط ولا يجتنبون بخس الناس أشياءهم في المعاملات ويسعون فساداً في الأرض وأولئك أصحاب الأيكة قوم شُعيب.

وكلّ أمة خطاب تصدّ عن دعوة رسولها بحملة عليه هو قائماً بها: قوم نوح يُنكرون عليه حظ دعوته من القبول إذ لا تجذب إلا الأرذلين منهم وأنه يفرط عليهم في كثرة الجدال فيتهدّدونه بالرجم. وعاد يُكذّبون هوداً ويعجبون من انصرافه عن حضارتهم المشهودة تعلّقاً بدعاوى غيبية وهو بشر قاصر دون ذلك مثلهم فيحسبونه مسحّراً. وثمود يُخيّبهم تبّدل صالح من معهود حياتهم والسعي في متاعها جنوحاً إلى الغيب فيطلبون منه آية فإذا جاءهم فجاءةً بناقة وأوصاهم بتركها سالمة لها شرب في يومها الخاص ليعلّمهم التقوى إزاء كلّ أمر من الغيب إذا هم بنهج تجاوزهم عدواناً رسالته الغيبية الأصل يعقرون الناقة. وقوم لوط يتمادون في شذوذهم حُبّاً للفاحشة مع الذكور ويُهدّدونه بالإخراج لتنطّعه عليهم تطهّراً. وقوم شُعيب يجتهدون لمحاصرة دعوته الضابطة لفجور تجارتهم ولمساعي فسادهم ويحسبونه مسحّراً ويطلبون منه آية لا يُبالون بوقعها أذى عليهم ما دامت تشهد على زعمه مدداً له من الغيب ولولا رهطه لرجموه.

وسنّة المرسلين متماثلة: موالاة الدعوة في وجه الإعراض والطعن فيهم وتحدّيهم بما يطلبون والمُصابرة المتوكّلة على الله والإنذار لأمّة الخطاب بسوء المصير إن تمادوا في ضلال المسير. والعاقبة الحاقّة الواقعة على تلك الأمم والقرى واحدة هلاكاً لهم لأنهم مضوا ظالمين. فقوم نوح سخروا ممّا يعدّ هو للعاقبة لكن تأتيهم طوفاناً يُغرقهم جميعاً وتفتح فتحاً لنجاة نوح ومن معه من المؤمنين. وتُحيط صيحة الهلاك بعاد الذين أغرتهم قوّتهم بأنهم غالبون خالدون أبداً. وثمود ما عقروا الناقة آية لتصديق حقّ الرسالة وأهملوا النذير فيها حتّى أخذتهم كارثة مدمدمة. وقوم لوط بعد حياتهم الموغلة في متعة الفاحشة بين الذكور دمرهم زلزال يُمطر عليهم الحجارة ويأفك قراهم مدفونة. وقوم

شُـــعيب أخذهم عذاب يوم الظلّة جائحة عظيمة. ومن كلّ واقعة عقاب أصابت من حقّ عليه نجا المُرسل برسالة الحقّ الثابت في طريق الإيمان والصلاح ومعه المؤمنون.

وتعـــود بعد كلّ ذكر لأولئك الرسل في السورة الترجيعة الواحدة نصاً في آيتين: إن في ذكـــر الرّسول وقومه لآية تتجلّى فيها العبر والمواعظ، وإن كان أكثر المخاطبين بدعوات الرّسل ما هم بمؤمنين فإن الرسول الخاتم مذكّر بأن ربّه يُخاطبه إنه هو العزيز عليهم الرحيم له ولمن معه. ومع القرآن الخالد يمضي الخطاب لكلّ حامل لرسالة الهدى فـــيه من بعد يزكّيه تذكّرُ الآيات المتعاقبة ويُصابر ظاهرةَ الإعراض الغالبة متوكّلاً على ربّه العزيز الرّحيم.

وهكـــذا سُنّة الدعاة المعتبرين بسيرة المرسلين المقتدين بنهجهم دعوةً إلى الطهارة مـــن فـــتن الحياة والخروج من ظلماتها للتوبة إلى الإيمان بالغيب وبالله وهديه وإصلاح الحـــياة، ومجاهـــدةً لأمـــة المخاطبين الوحلة في سابق ضلالها المتصدّية للرسالة تكذيباً لأصـــول حقّهـــا وطعناً في الداعين لها. وفي ذكر سيرة المرسلين آية: أن أصول الحقّ واحـــدة أبـــد الدهر قديمه وحاضِره الذي يعاصره الدعاة اليوم، وأن مواقف المخاطَبين يغلـــب فيها لأوّل العهد غلبة المُعرضين وقلّة المؤمنين. لكن رسالة الإسلام اليوم للناس كافّـــة هـــدياً خالداً لا لقوم خاصّة ولزمانها، والعالم اليوم أقوامه موصولة لا تنحصر وحـــياته مـــتكاملة لا تنعكف على همٍّ واحد وثقافته في سنن التاريخ ورؤى المستقبل واســـعة لا تقـــصر حدودها. ولذلك هداية القرآن هي لكلّ وجوه الحياة وحجّة حقه لأنها خطـــاب لعقـــل الإنسان من كلّ أبناء آدم ما دام المرء هو المتذكّر المتدبّر وقلبه المنفعل بفطرته المطبوعة. فرسالة القرآن التي يحملها دعاة الهدى للدين الحق اليوم تهدي الحـــياة حيـــثما ضلّ شِعب منها بينما رسالات الأنبياء قبلاً تتأسّس عموماً على أصل الإيمان الواحد بالله واليومِ الآخر لكن تتصوّب خصوصاً إلى شعبة في الحياة فيها ظاهرة الـــضلال والفتنة في قوم الرسول المعيّن ولعهد رسالته المحدود. وحجّة الحقّ كانت في آيـــات وحـــي مسموعة للمتذكّرين ولكن ثقافة بني الإنسان عندئذ ما كانت لتؤمن بالغـــيب إلاّ بآيـــة مشهودة مُعجزة خارقة للمطبوع تصدم المُشاهدَ ليخضع لها. وإنما خطـــاب كـــل رسول كان لقرنه الذي يُصاحبه ويشهد أفعاله بينما خطاب الرسول

الخـــاتم للناس كافّة بلا مُعجزات تُخاطب حتّى الخلَف الذين لا يشهدون أيّما مُعجزة تطلّبها مُخاطبوه الأول لأنها تُروى بعد ذلك لو وقعت رواية قد لا يصدّقها الخلَف ولا يخضعون لوقعها خبراً. ونذير الهلاك الذي كان وعيد المرسلين قديماً كان دافع ترهيب في عاجل العواقب يعزّز آجل الآخرة. لكن واقع الهلاك الذي جرى لأقوام المرسلين أمر وللداعـــية للإســـلام الخالـــد في عالم اليوم هدى آخر في تعزيز وقع دعوته في نفوس المُخاطبين. فالنذير الأنسب الذي يرد في القرآن هدياً للدعاة إليه أبداً هو وعيد للضالّين بـــتدهور في ســـيرة الحياة وكسوبها التي قد ينفتن بها أهلها، قد تتلاشى معالم الصلاح والخـــير والنماء فيها إذ تتواهى دوافعه غروراً بالغنى وتعطّلاً بملهيات التمتّع واستغراق الطاقـــة العاملة الكاسبة في قضاء شهوة وحسب، وينحرم الضالّون من دفوع رغائب الغيب وضوابط رهبته. ولأنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يُغيّروا ما بأنفسهم، المؤمنون به هـــم المـــتوكّلون السّاعون في سبيله وراء مقاصد الدنيا رجاء للفوز بأجوره المضاعفة المنضبطون بعد رقابة المجتمع وسلطانه بتقوى الله وخشية رقابته الأتمّ وإحاطته وجزاءاته الأعدل الأشدّ والأبقى. أما هلاك قرية أو غالب سواد قوم وقعاً خاصاً كما كان يجري في عهـــود الرسل الأوائل فذلك لأن مدى خطاب النذير ووقع العاقبة كان محصوراً. لكن العالم كله والحياة الدنيا طوال وجودها – ذلك اليوم هو المدى للهدى من القرآن العـــام والخالـــد فالنذير الشامل الأكبر وقعه هو الواقعة الطامّة لعالم الإنسان في دنياه والأدنى هـــو تدهور الأحوال وتغيّرها سوءاً وئيداً أو متسارعاً متداركاً عاقبة للضلال والفتن والتعزّز المتناهض المتبارك ثمرة للاهتداء والاستقامة تداولاً للأيام بين الحضارات لـــبني الإنـــسان أو بـــين حظوظ الأجيال والقرون المتعاقبة لذات القوم. لا مثل النذر الـــسابقة في الرســـائل الخاصّة لقوم وعهد التي إذا أعرض هلك جملة مخاطبيها إلاّ قلّة مؤمـــنة وورثهم آخرون وصدّقتها رسالات أخرى تعاقباً. فالإسلام الدين الحقّ الخالد فـــيه دواعي التقدم والصلاح المضطرد لأمم العالم من بني الإنسان كافّة، والبشرُ – إلا بـــسُنّة موت الأفراد وتعاقبهم – باقون معرضين في تدنٍّ ومهتدين في تعالٍ إملاءً للبلاء حـــتى قيام السّاعة حيث يُنفخ في الصور فيفنى كل الأحياء ثم يُنفخ للبعثً والحشر إذ حقّ فيأتي وقع كل النُّذر والبشائر ناجزاً وعدها يوم الخلود في الأزل. ذلكم هو هدى

القــرآن خلــوداً في دهور الدنيا وشمولاً في رشد كلّ الحياة وعموماً لكلّ بني الإنسان فــزاداً للدعاة اليوم وغداً ليُخاطبوا العالم الموصول كلّه لحياة جامعة تتبارك هداياتها ولا تتداعــى ضــلالاتها في سبيل المصائر حين تُحشر الإنسانية معاً ويُسأل كلّ أحد فرداً ليفصل ويقضى بالفلاح أو الخسران الخالد.

ترتيل المعاني (للآيات ١٩٢ – ٢٢٧):

﴿وَإِنَّــهُ لَتنــزِيل رَبِّ الْعَالَمِينَ * نــزل بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١٩٢–١٩٥)

والحقّ أيضاً كما تتجلّى آيات الله عبر منظومات الذكر السّابق التي تُروى تذكرةً دعــوة الرسالات السابقة وسيرة دعاتها المرسلين وعظةً مواقف المخاطبين بها وبنذرها وعواقــبهم مصيراً – الحقّ المنضاف أنه – هذا القرآن الذي جاء بهدى رسالته وبذكر كــلّ تلــك العبر والعظات في سابق الرسالات الهادية – إنه لتنــزيل من ربّ العالمين الخالق المربّي الهادي المصرّف لأمر كل عوالم الخلائق، وحياً حقاً متنــزلاً من الغيب، ما صدر في الأرض عن مفترٍ ولا مسحّر يخطر له من خواطر رؤاه وخيالاته ويتلوه هو مــن بعد زاعماً أنه من إيحاءات الغيب الربّاني. نــزل به من ذلك الغيب على الرّسول البشر في الأرض الروح الأمين جبريل من الملائكة الكائنات الروحية غير المشهودة ولا المحــصورة في المكــان والــزمان كالبشر وهو مكين عند الله فأمين في تلقّي الرّسالة وتنــــزيلها، إذ لم يــتخطّفها روح جنّي من الشياطين ليوحي بها إلى البشر زوراً. بل تنــــزل كذلك صدقاً على قلب الرّسول الخاتم ﷺ – كما تُخاطبه الآية – ليكون من المــنذرين الرّسل الآخرين يقتدي بهم بسنّتهم تبليغاً للهدى وإنباءً لأوّل خطاب البلاغ بــنذر العــواقب إن بقي المخاطبون في الظلمات السابقة تَلقى نور الرّسالة وتمادوا في ضلالهم المعهود وأعرضوا عن الهداية لا يتبيّنون معانيها ولا يؤمنون بشرائعها ولا يبالون بــنذرها. وتنــزل القرآن بلسان عربيٍّ مبين يتألّف من ذات الحروف العربيّة التي جاء ذكــر مــثالها بثلاثة في صدر السورة. وهو بذلك كتاب مُبين لكلم القرآن ولمعانيه لا يتعــسّر علــى أمة الخطاب المباشرة لتنــزيل فهمه وتفقّه مقتضياته في الحياة، فعروبة

لـــسانه وحروفه شهادة على بيانه لأنه مثل أصوات منطق أمّة الخطاب ولغة كلامهم وآيـــةٌ على أنه لا يصدر إلا عن الله في الغيب لأن المخاطبين العرب أنفسهم يعجزون عـــن الإتـــيان بمثله فيوقنون – إن عقلوا – أنه حقاً من الله الأبلغ قدرة ليخرج أحسن أسلوب في التعبير والأوسع علماً وحكمة ليُنبئ عن الغيب الماضي والآجل الذي يجهله الإنسان القاصر وليهدي إلى أرشد وجهة وأصلح حياة لمخلوقه ذاك الساعي ضلالاً في العالم المشهود الفاتن المحدود إلا أن يوليه ربّه رحمة الهداية.(١)

﴿وَإِنَّـــهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نـــزلنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩٦–١٩٩)

وإنـــه – القـــرآن بما فيه من ذكر لله وعلم لحقائق الغيب وقوى الأزل الروحي ومـــصائر الآخـــرة للإنسان، وهدى لاستقامة الحياة الدنيا دار الابتلاء لطبيعة ومجال التكالـــيف الشرعية، وأنباء عما يعتبر به ويتّعظ من سيرة الأولين الكثرة الضالّين والثلّة المهـــتدين – إنه بذلك الذكر لفي زُبر الأوّلين حقاً في ألفاف ورق الكتب التي أوحيت نصوصها قبلاً وخُطّت في صحف وقُرئت متلوّة من الأولّين السابقين مَن حملوا رسالتها من الأنبياء الصادقين المبلّغين ومَن خوطبوا بها محفوظها مأثورات من المؤمنين المسبّحين. وما القرآن الكريم إلا تصديق لهديها وتجديد لخطابها ومقتضاها، فالذين أورثوها هم بما حملوا منها شهداء على حقّ القرآن.(٢) فالسؤال لأمّة الخطاب الأُمية الأولى من العرب، الذين كان أهل الكتاب الأولى مرجعهم في الغيبيات، إن ارتابوا بحقّ القرآن – السؤال لهـــم في الآيـــة: أو لم يكن لهم آية، تقدّم ذكرها كثيراً تدلّ على صدقه إذ تبشّر بتجدّد رسالته عبر الأنبياء لتبقى حقاً متواتراً من الوحي في عالم الشهادة، أن يعلمه علماء بني إسرائيل؟ مثل عبد الله بن سلام وكعب بن مالك ومن خلفهم من أحبار اليهود الذين آمـــنوا به لسابق علمهم، يؤكدون أن معاني القرآن هدىً وأخباراً هي معلومة لديهم تـــتوافق وتتصادق مع ما عندهم من معانٍ حفظوا أصولها فهم لا يُنكرون القرآن ولا

(١) راجع الآيتين ١ و٢ ذات السّورة

(٢) هـــذه السّورة مكيّة والسور المدنية الاستشهاد فيها للقرآن بأهل الكتاب كثير. أما هنا فراجع أيضاً الآية ١٥٧ سورة الأعراف، والآيات ١٠٧ – ١٠٩ سورة الإسراء. والسورتان مكّيتان.

يهجـــرونه كمـــا فعلت قريش الأمية ولو نـــزل الله بأقدار جلال ذاته العظيمة وحياً واصطفاء للمخاطبين، لو نـــزله على بعض الأعجمين بلسانهم غير العربـــي المبهم عند العـــرب مـــثل أصـــوات العجماوات البهائم لا على رجل من أنفسهم بلسانهم ذي الأحـــرف المـــنطوقة لـــديهم المعهودة في مفهوم الكلمات التي جاءت في صدر هذه الـــصورة – لو نـــزله كذلك فقرأه ذلك الأعجمي بلسانه عليهم ما كانوا به مؤمنين، إذ هـــم عـــرب يعتبرونه غير ناطق كالحيوان فلأنكروا القرآن جهلاً وصدوداً أن لولا أُنـــزل ليُخاطبهم بلسان عربـــي مبين.[1]

﴿كَـــذَلكَ سَلَكْنَاهُ في قُلُوب الْمُجْرِمينَ * لاَ يُؤْمنُونَ به حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَليمَ * فَيَأْتيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ (٢٠٠-٢٠٣)

كذلك سلك الله بجمع من أقداره العظيمة في تدبير أمر الإنسان تخيّراً له فيما يرى وتيـــسيراً لخياره مذهباً في الحياة حُرّاً ولو ضلالاً – أدخل ومكّن في قلوب المجرمين من أمـــة خطـــاب القرآن الأُولى الذين رسخت في قلوبهم طبائع الإجرام قطعاً لما يصلهم بالغـــيب وبالله وجَرماً للتكاليف التي كتبها الله وحذفاً لتقواه، إنهم لا يؤمنون به التزاماً مطمئـــناً بهديـــه حتّى يروا عيناً وقوع ما أُنذروا به من عاقبة عندها يتنـــزل عليهم ما يُـــشقيهم من العذاب الأليم الشديد فيأتيهم بغتة لأجله وموقعه المكتوب عند الله وهم علـــى مـــا هم فيه من حال غفلة لا يشعرون بدنوّ أسبابه ولا يحسّون بمقدمه لأنهم لا يوقنون به منظوراً، فيقولون عند وقوعه تأسّفاً وندماً وترجّياً لاستدراك حضوره واقعاً: هل نحن منظرون؟ يريدون إرجاءً وإمهالاً يفسح لهم دون مباغتته ويؤخّره قليلاً لعلّهم يـــتّعظون فيستدركون ويتهيئون خوفاً منه قادماً ويسعون لتقويم حياتهم بالحق مصدّقين نذيـــر الغيب المستقبل فيتّقون العذاب بالمستجابة لدعوة الدين ليلقوا في أجلهم الموعود رَوحاً وفرجاً.

﴿أَفَبعَذَابـــنَا يَـــسْتَعْجلُونَ * أَفَـــرَأَيْتَ إنْ مَتَّعْنَاهُمْ سنينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا منْ قَرْيَةٍ إلاَّ لَهَا مُنْذرُونَ * ذكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالمينَ﴾ (٢٠٤-٢٠٩)

(١) انظر الآية ٤٤ سورة فُصّلت.

ويسأل الذكر في الآية عنهم استنكاراً لإعراضهم عن النذير الآجل ولاستخفافهم برسالة البلاغ عنه تحدّياً أن لو كانت صادقة فليأت قدر العذاب حاضراً: أفبعذاب الله - كما يقول متكلّماً بجميع أقداره في تصريف وقائع العذاب وصنوفه - أهم به يستعجلون؟ وذلك ترتيباً على رؤيتهم له مُستبعَداً مما يُريب في تصديق رسالة وعيده، وتحدّياً من ثَمّ للرسول الذي ينذرهم به تطلّباً أن يأتي وقع الوعيد عاجلاً دون انتظاره المتطاول عليهم غيباً موئساً من حدوث محذور آجل في الغيب. فالوعيد يستخفّون به لأنه لّما يقع رغم تماديهم في الكفر وتَبطّئهم دون التوبة التي يُدعون إليها. ويُخاطب الله النبي الذي قد يضيق ذرعاً بتحدّياتهم ارتياباً فاستعجالاً أن يحضر الوعيد المنظور فيستعجله هو أحياناً داعياً الله عليهم كما دعا أنبياء من قبلهم على قومهم. لكن يعزّيه الله ليطمئن مُصابراً فيخاطبه: أفرأى أمرهم؟ إن متّعهم الله بأقداره في بسط المتاع وتصريفه - بلاءً وإمهالاً لهم أولئك المخاطبين المُعرضين فمدّ لهم المتاع سنين ما يأتيهم أثناءها المحذور الذي يُنذرون به ثم من بعدِ اطمئنانهم في غفلة متمادية واغترار بمدى المتاع المتطاول جاءهم بغتة ما كانوا يوعدون من عاقبة العذاب الحاقّ على من شاء فآثر الضلال وتمادى فيه غير مبال بالنذير. عندئذ وقد حقّ القضاء عليهم نافذاً واقعه ما يكون أغنى عنهم ما كانوا يُمتعون، فما أجداهم شيئاً إذ انحسر وانتهى ابتلاؤهم بالنعيم وما فداهم ما كسبوا متاعاً فيما وقع بهم لاحقاً من عذاب لازم.

وتنضاف سُنة الله الشاهدة الواعظة من واقع الماضي تذكيراً لمثل أولئك الغافلين السادرين في المتاع المستخفين بالوعيد أجلاً في الغيب يستعجلونه حاضراً إن كان حقاً، إنه ﷻ كما يقول متكلّماً بجميع أقدار ذاته في تصريف سير الإنسان وأمره - ما أهلك قبلاً من قرية كانت عامرة بمتاعها حَضراً إلا لها منذرون من الرّسل الدعاة الذين سبقوا وقع أجل الهلاك بكلمات بلاغ تذكّر بالهدى وتنذر بأن الضلال سيودي بهم إلى عاقبة هلاك قريب لا إلى أمد موصول أبداً من السّعد في حياتهم المفتونة بالمتاع. وتلك ذكرى نذير سابق للسالفين عظة للخالفين الذين يسبق لهم مثله قبل أن يحقّ أجله ولو في الآخرة وما كان الله - كما يقول متكلّماً بجميع موازين قضائه العدل - ما كان بذلك الإهلاك من الظالمين الذين يعدلون عن ميزان العدل إذ يأخذون الناس بما فعلوا دون إنذار بعاجل هلاك فإعذار سابق وواقعة حاقّة.

﴿وَمَا تنــزلتْ بِه الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (٢١٠-٢١٢)

والقـــرآن هو كلم صدق وحق تعزّزه عِبر الماضي، فآياته هي حقاً وحي من الله محفوظة أوصال تنـــزلها منه تعالى عبر ملك روحي من الغيب هو رسول الوحي القوي الأمين جبريل، ثم هي متلوّة من رسول بشر أمين في بلاغه هو من أمة الخطاب يخاطبها برســـالة القرآن الصادقة من الله. ما تنـــزلت به الشياطين الغيبيّة باطلاً من عندها تُلقيه على بشر تغشاه هي بأوهامٍ سحراً أو أحلامٍ جنّاً أو بتناغيم شعر أو ترانيم كهانة ذات وقـــع يحـــسبها هو أنها من علياء الغيب ويدّعي أنه بها رسول. هكذا كان يظن بعض العرب المخاطبين بالرسول فبالقرآن، يحسبونه بوقعه العجيب وكلمه الضارب في خيال الغـــيب إنما هو - مهما يُلقّاه الرّسول فيزعم صدوره حقاً من الغيب - من مسّ الجن وغـــشيان الـــشيطان ممّا قد يبلغ به الجنون في إدراكه فمنطوقه. والحق أن الرسول ما يتلقّـــى بذلك إيحاءات من طيف شيطان بل من مَلَك وما للشياطين من الجن في أقدار الله المُحـــيطة بهم ما يستطيعون به تلقّي الوحي من علياء الله فما لهم من الطاقة فيهم مدّ إلا مـــا خلق الله لهم فآتاهم بقدر ابتلائهم، ما ينبغي لهم ولا يستطيعون السمع المباشر لكلام الله إلا مـــبادرات خطف غير موثوق، فهم معزولون مبعدون من رحمة الله بأقداره عاجزون عن القـــربى إليه وإن حاولوا أن يَبلُغوا مقاعد لذلك السمع ترميهم تلك الأقدار بقوىً راجمة لهم شهباً تدحرهم عن ذلك المدى. وإنما تعهّد الله أن يوالي عباده البشر منذ مهبط أبيهم آدم من الغـــيب إلى الأرض والعالم المشهود برسالات وحي من الهدى وسخّر لذلك الملائكة الذين ســـجدوا لآدم وطُوّعوا لخدمته وأبنائه أبداً بأمر الله وتُوصلُه بالوحي والتأييد بإذنه تعالى بينما تمرّد إبليس على أمر السجود وتعهّد ملعوناً مطروداً من الجنّة ألاّ يُولي آدم وبنيه - وقـــد أخرجوا معه إلى الأرض جميعاً بعضهم لبعض عدو- إلاّ وسوسة بالباطل الغرور المضلّ عن صراط الله المستقيم.[1]

(١) في دحر الشياطين عن الملأ الأعلى لحفظ سمع وحي القرآن ودرء ذلك الريب: انظر أيضاً الآيات ٨ - ١٠ سورة الصافّات، والآية ٥ سورة الملك، وفي حفظ تلقّي الأنبياء والرسل نسخاً لما يلقي وإحكاماً للآيات الموحاة: راجع الآيات ٥٢ - ٥٤ سورة الحج. ذلك بينما تتنـــزل الشياطين على كلّ أفّاك أثيم يلقي لهم السمع: انظر الآيات ٢٢١ - ٢٢٣ ذات السّورة.

﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّه إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ منَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢١٣-٢١٦)

بناءً على قدر الملائكة الطُوّع رسلَ وحي وعلى حقائق الغيب الثابتة مما يتأسّس به حق الهدى من الله، ينبغي على النبي الذي يدعو أمّة خطابه رسولاً بالقرآن لتوحيد التوجّه والتعبّد لله خروجاً من ظلمات جاهليّة الشركِ مذهبهم الباطل الذي كانت توحي به إليهم وساوس الشيطان - عليه - كما يُخاطبه هو ﷺ - ألا يدعو مع الله إلهاً آخر يحجبه عن إخلاص دعائه لله الذي يصرّف بأقداره الوقائع التي يترجّاها نفعاً أو يخشاها ضرّاً، ولا وليّاً يتوسّط دونه يحسبه الجاهلون شافعاً لهم يُباشرونه ليقرّبهم لدى الله الذي في الغيب فيُخاطبونه دونه دعاءً لقضاء حاجاتهم وصرف محاذرهم المنظورة. فإنه يترتّب على ذلك الإشراك أن يكون النبي من المعذّبين أيضاً لأن العذاب مكتوب على من ضلّ شركاً دون الرّحمن. وعليه - خطاباً له من ثَمّ - أن يُنذر عشيرته الأقربين لأنهم أهله أقرب المخاطبين حوله وأولاهم بالبرّ في دعوته والأخذ من سُنّته إن اعتصم هو بتوحيد الله، أن ينذرهم من المضي في معهود إشراك المجتمع العام الذي شملهم لئلا يمدّ عليهم في الآجلة العذاب، وذلك لأنه يُشفق عليهم مودة قربى. وإن تحرّر بعض عشيرته من الإشراك وتطهّروا من موالاة تقاليد مجتمعهم الجاهلي وإتيان شعائره كانوا مؤمنين خالصين مثالاً من الطهر وإخلاص التوحيد والتعبّد في سائر أمة الخطاب. لكن خطاب القرآن يمضي عموماً هدىً ونذيراً لأهل أم القرى وما حولها فللناس كافّة دعوة نحو التوبة إلى الدين الحقّ والنذير لمن يستجيب، ولذلك يوصَى النبي - خطاباً له رسولاً داعياً - بأن يخفض جناحه انعطافاً وبرّاً لا فقط لأهل القربى والعشيرة بل مدّاً بأخوة الإيمان لسائر من اتّبعه من المؤمنين الذين تمكّن ورسخ في وجدانهم الإيمان وإن تبطّأ بعضهم في تمام الخلوص من القديم وبلوغ مراقي الهدى في أوّل مرحلة انتقالهم نحو الحقّ.[1] ويستمرّ الخطاب له فيما يترتّب في سير

(١) في خطاب القرآن للناس كافّة: راجع الآية ١ سورة الفرقان، وانظر الآية ٧ سورة الشورى، والآية ٢٨ سورة سبأ.

دعوته: إن عصوه - مَن دعا لكن حقّ عليهم العذاب لأنهم أصرّوا إعراضاً عن دعوته المجـتهدة وتمادوا في الإشراك فلا يتّقون الله ولا يُطيعونه هو فيما يستنّ بمُقتضى التقوى الخالصة، فليقل لهم: إنه بريء مما يعملون ظلماً يعدل عن دعوة الحقّ ويُعبّر عن ضلال الإشـراك فالفساد في الحياة، ذلك مهما يكونوا من عشيرته أو قومه فما هو منهم إذاً ولا مُغنٍ عنهم في الحساب فالعقاب الحاقّ عليهم شفاعة من ذي قُربى أو موالاة.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢١٧-٢٢٠)

ومهما يُصابر الرّسولُ المعرضين عنه الذين يُكذّبون نذيره ويجتهد في الدعوة وينابذهم عُصاة يُجانبون هدى سُنّته بينما يُوادّ المؤمنين - مهما يكُن ذلك يُخاطَب وصيّة: أن يكل أمـره إلى الله مـستعيناً بـه، فهو العزيز القادر الغالب أمرُه فلا يخذله بل يدفع عنه الأذى ويعصمه من الناس الذين يُنكرون مسلك هداه ويعاجلونه نجاز وعيده، الرّحيم الرؤوف به بالـغ الرّحمة يقدّر التثبيت له والمؤمنين معه ويواليهم البُشرى بمدّ خير عاجل وآجل إذ هم المستضعفون الصابرون الراجون رحمته ونصره. ولْيطمئن مُخبتاً لله - كما يُذكّره الخطاب إلـيه مُضيفاً وصفاً لربّه يعينه في عبادته: إنه ﷻ يراه حين يقوم ليلاً من فراشه يهجر راحة النوم ليتزكّى بالذكر والصلاة لله في خلوة وخالص توجّه ومناجاة وتعبّد وخشوع، ويرى تقلّـبه في شـعائر الصلاة قائماً راكباً ساجداً تعبيراً بالجوارح عمّا في الوجدان من المثول والخـضوع بين يدي الله مع سائر المؤمنين السّاجدين بأبلغ الذلّ لله يُدنون وجوههم رمز كـرامتهم إلى الأرض تعـبيراً عن الخشوع لله والإسلام لتعاليه عليهم خالقاً مدبّراً لأمرهم والطاعـة لأمره هادياً وجازياً. إنه ﷻ هو السّميع لكلّ كلمات الدعوة ثم الذكر والدعاء أو الكفـر واللغو واللهو من مختلف عباده العليم بما يُظهرون من صور أعمالهم وما وراءها مما يُبطنون من مشاعر الإيمان والتعبّد أو الكفر والعصيان.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تنـزل الشَّيَاطِينُ * تنـزل عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (٢٢١-٢٢٣)

نحـو خـتام هـذه السّورة من القرآن يُخاطب الله رسوله المتلقّي لذلك الوحي المنـزل وأمة خطابه التي تسمع تلاوته ويشيع فيها لأوّل الأمر رميه بأنّ ذلك سَورة

تتجلّـى فيه كلّ مرّة من الكهانة التي يواليه متنـزلاً عليه بإيحاءاتها الشيطان رجماً من حديث الغيب – يسألهم ذلك الخطاب: هل هم في حاجة أن يُنبئهم الله مبلّغاً لهم خبراً من أمور الغيب التي لا يُحيطون بها إذ مداركهم قاصرة على العالم المشهود – هل يعلن لهـم: على مَن تنـزل توالياً وحقاً الشياطين التي ينسبون هم لها القرآن ظناً واهماً. إنما تتنـزل هي – جناً شاطنة بُعداً عن الله عاصية له – على كلّ أفّاك أثيم، كلّ كذوب مُـبالغ في كـثير ارتكاب الآثام والذنوب فجوراً ومعصية لله. فأولئك الأفّاكون قرناء للـشياطين العُصاة جمعهم بهم حبّ الأفائك والمعاصي فغدوا إخواناً لهم موالين يُلقون لهم السّمع لا يستعيذون بالله كالمؤمنين التقاة من تلقّي وساويسهم بل يتقبّلها وجدانهم المـريض مـسلماً لوقعها يأخذ بها. وأكثرهم من ثَمّ كاذبون يرمون القرآن بالأباطيل ويطعنون في الرّسول بالأفائك. لا يُلقون السّمع لتلاوة الرّسول للقرآن ليتحرّوا فيجدوا الحقّ كلّه فيه، ولا لأقوال الرّسول ليتبيّنوا صدقه وأمانته، بل ينأون عن ذلك ليُقبلوا في شـأن الغيب على إيحاءات أوليائهم الشياطين، ولا يقومون في الناس قالة صدق ودعاة حق بل يؤثر أكثرهم الكذب والباطل لاسيما في سياق الحَملة على القرآن والرّسول.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٤-٢٢٧)

وبـين الذين يتلقّون إيحاءات الشيطان باطلاً معزّزاً بنوازع الهوى في أنفسهم مَن كانوا في حَملتهم على القرآن لا يَقصرون على نسبته إلى الكهانة وإيحاء الشيطان لأنه مقـولات في الغـيب، بل كانوا حين يدركون وقعه البالغ على السامعين معنىً ونغماً يكاد لا يصدّ عنه اللغو أثناء تلاوته أو النهي عن سماعه يعدّونه كلمات ينظمها الرّسول ويزن تفاعيلها أحياناً أو يكاد من نمط الشعر يريد لها أن تروج في أسواق الشعر العامرة بالسّامعين، ويرتّلها سُوَراً مثل قصائد الشعر آياتها كبيوت القصيدة، وفواصلها تتماثل كثيراً صوتاً حرفياً كالقوافي، وفي بعضها تراجيع يتكرر إيرادها بعد كلّ آية أو منظومة آيات كأنها ركائز تحلية للنظم المنسوق عقداً مفصّلاً توالياً في إحياء أصول في الأنشودة يواصـل بعثها بمعاودة ذكرها ونغمها المسجوع. وذلك وصف لكثير من سور القرآن

وهذه السّورة اسمها 'الشعراء' فيها كثير من ذلك. ولا غرو أن يشتبه بعضُ المخاطبين العــرب بــأنّ القرآن شعر وأن يُهيّجهم عليه أنه مثل الشعر يجذب السّامعين ويُحفظ بيُــسر ويُــروى كثيراً في المجالس ويُتناقل على مدى الأيام وأن قد تحدث كتابته معلّقاً بالكعبة موقّراً لقدسيتها كالمعلّقات القلّة من قصائد لأكابر الشعراء.

و لم يكُــن مــن ثَمّ غريباً أن تنشط طائفة من شعراء الجاهليّة الذين لّما يؤمنوا بالقرآن يُغــارون منه كأنه يُضاهي شعرهم بأصواته المنغومة الموزونة، ولو كان هو في ذكره ينفي عن الرّسول صفة الشاعر وعنه صفة الشعر المعهود بموازينه المُحكمة وأقاويله المضطربة وإن لم يكُن كالنثر الدارج فجّاً غير بليغ، ولا هو مسجوع رتابة كنهج الخطابة، وكان أسلوبه وبيانه معجزاً أن يؤتى بمثله حتّى من العرب المُخاطبين. وكان الشعراء في ثقافة الجاهلية هم أصــوات الدعايــة العامّــة مدحاً أو هجاءً ورثاءً أو غزلاً وعرضاً أو مفاخرة من الشاعر بفضائله وكسوبه وميراثه وصدقاً أو كذباً. وللحَملة على القرآن جمهور وسواد عظيم كان يُــريد أن ينــشط فيها الشعراء بسهام ذات أثر على شهرة القرآن ووقعه ودعوة الرّسول ومداها دفاعاً عن باطل الجاهلية الذي يكاد يتزلزل من ذلك. ولكن كان بين الذين سبقوا إلى الإســلام بعــض شعراء زكّاهم الدين فانمازوا عن إخوانهم. فينضاف في خواتيم هذه السّورة وصف لعامّة الشعراء ظاهرة معهودة يغلب فيها الذين ماانفكّوا مُعرضين عن الدين الحقّ حاملين عليه ثم وصف للشعراء الذين تابوا إلى حقّ الإسلام. وهكذا يمضي الذكر:

والــشعراء يتّــبعهم الغاوون، المنفتنون بكلمهم الموزون إعجاباً المروّجون لباطل أقاويلــه لأنهم في غواية وعدل عن القرآن الحكيم الرّشيد وسُنن الصلاح بهداه. ويسأل الذكــرُ كلّ تالٍ له متدبّر في هواديه ناظر في أولئك الغاوين بالرؤى بميزانه: ألم يرَ أنهم سادرون غفلةً وضلالاً عن سبل الحقّ يضربون في الأرض لهواً أو في شعاب الكلام لغواً أو يذكــرون معهــود الأحــبّة رثاء أو غزلاً أو يطلبون الثناء من الناس تفاضلاً وربما يتكسّبون المكافآت بالمدح حيثما شاع شعرهم أو راج زيناً مرضياً وقعه، وأنهم يقولون فيه ما لا يفعلون رمياً ببديع بيان الشعر وبليغه وتصريف وإيقاعات تفعيلاته فبمقولات فــيه لا يراعون لها صدقاً بل يُلقونها زهواً وتفاخراً بمنجزات ودعاوى لا تصدق فيهم وإيذاناً بتباشير ومناذير لا تصدق منهم – ألم ير الناظر ذلك؟

ولكـــن الشعرَ ذوق بيان ونظم نغم إنما هو حظ يؤتاه المرء بكسبه ويرقّيه تجويداً وتـــزكية ابتلاء من الله، فمن الشعراء من جازوا الابتلاء بخير فاستثناهم الذكر في ختام هـــذه السّورة من الفئة السابق ذكرها. وهم الذين آمنوا وصدقوا إذ عملوا الصالحات ولم يكـــن الإســـلام لهم شعار هويّة وتمايز وتفاخر في دعاية الكلام بل مذهب إيمان وصـــدق في الحـــياة كلها ظاهراً وباطناً، فهم لذلك أيضاً الذين ذكروا الله كثيراً، ما كانـــت تغشاهم غفلة عن الله بنـــزع من هوى الشاعرية يُزيّنها لهم شيطانها وتفتنهم بجمـــيع أصـــواتها وأوزانهـــا وتزلقهم إلى شعاب الباطل والكذب في القول كما ينفتن الشعراء غير المؤمنين، بل يحفظهم ذِكر الله المتوالي ثباتاً في وجهة الحق لا يهيمون سُدىً في شـــعاب اللغو واللهو والكذب. وهم الذين انتصروا بعد ما ظلموا ما بادروا عدواناً بالهجـــاء والقذف والبهتان كما فُتن سائر شعراء الجاهلية لاسيما الحاملين على الدين الحـــق وأعـــلام دعوته لكن جاهدوهم بمثل نمط نظمهم العادي شعراً مزكىً بالذكر والـــتقوى حامداً لله مُثنياً على الرسول وصحبه محرّضاً على الجهاد والصبر، فانتصروا بعـــدما ظلمـــوا بحسنة تقيّة درءاً لسيّئة عادية. ويؤكد آخر خواتم السّورة ذات النظم والوزن والنغم والفواصل والترجيعات أن سيعلم الذين ظلموا من شعراء الجاهليّة ومَن حرّضـــهم ومَن تعبّأ بهم وروّح باطلهم حملاً على الدين الحق – سيعلمون أي منقلب ينقلبون، أي مصير يرجع عليهم يظهر فيه الحق على الدين كله بعد حملات حصر مَدّه المتّـــسع أو إطفاء نوره المنتشر وإخفات كلمه المسموع في القرآن المحفوظ، والله غالب على أمره والمؤمنون لهم الحُسنى وللظالمين عاقبة السوأى في الآخرة.

عموم المعاني (للآيات ١٩٢ – ٢٢٧):

تعـــود خواتـــيم سورة الشعراء – بعد ذكر الآيات التي تتوالى، آيةً ينـــزلها الله حـــديث وحـــي وهدى كتاباً مُبيناً، وآيةً يوقعها الله أو يكفّها حادثة خارقة لمسنون الأســـباب قارعة للمنكرين الآية الموحاة، وآيةً يعرضها الله في مشاهد الكون الطبيعية تذكـــرة للغـــافلين، وآيـــةً بعد آية يجعلها الله تتجلّى في دعوة سالف المرسلين وسنن مجاهـــداتهم ومـــصائر الفرقان بين الحقّ والباطل بوقع عواقب النجاة والهلاك – تعود

الخواتيم إلى الفواتح تؤكدها بذكر حقّ كتاب القرآن: أنه تنزيل من ربّ العالمين جاء رحمة وهدى وجاء خطاباً لرسوله البشر فبلاغاً لسائر عباده، أنزله من علياء الغيب الرّوح الأمين جبريل المكين عند الله بين الملائكة، وحياً نفذ روحاً نازلة على قلب الرسول الخاتم ليكون من مثال المرسلين الدعاة الهداة المنذرين للسالفين والخالفين من الأقوام برسالات أصولها متصادقة. وقد جاء بلسان عربي مبين رسالة لأوّل عهدها تُخاطب أمّة عربية اللغة تتبيّنها وتهتدي بها وتقوم بها تؤدي أمانة بلاغها دعوة باقية ولتمثّل هديها أسوة ماثلة للآخرين. وإنه بذات أصول معانيه لفي زُبُر الأوّلين من الكتب الموحاة، فيصدّقه منذ متنزله أن يعلمه حقاً بذات المعاني علماء بني إسرائيل – قوم موسى الرّسول الذي ذُكر في السّورة أوّلاً بين الرّسل والذي بقي تراثه مذكوراً في قومه الموجودين حول أمة العرب عهد تنزيل القرآن والمشهورين بعداً في كل العالم حيثما تجدي منهم تصديقات لحقّ القرآن المعروف في الأرض كافّة.

وما استجاب لبيان القرآن أهل اللسان العربي الأوّل وإن تبيّن لهم هديه بحروف كلامهم المعهودة. ولو نزل الله بأقدره في اصطفاء الرسل والألسنة وفي حيثيات وحيه ومتنزله – على بعض الأعجمين الذين كان العرب الأمّيون يتّخذونهم مراجع في شأن ديانات الغيب وأنبائه في رسالاته المحفوظة – لو تلقّاه فقرأه عليهم ذلك الأعجمي بلسانه ما كانوا به مؤمنين جهلاً لمعناه وإدباراً عن العجمة. لكنهم كذلك وإن خاطبهم القرآن أمّة يدركون من لفظه مقولاته وتتبيّن لهم آيات صدقه قد سلك الله في قلوبهم مذهب جاهليتهم المادّية مُجرمين قطعوا فيها ما أمر الله به أن يوصل من وحدة مدّ الوجود المشهود والغيبي فرسخ فيها ألاّ يؤمنوا بالقرآن رسالةَ غيب، حتّى يروا عند قيام الساعة مشاهد تحقّق نذرها من العذاب الأليم لمن أبى هداها، فيأتيهم بغتة العذاب وقد كانوا لا يشعرون بمقدمه فيتساءلون عندئذ: هل هم منظرون؟ أما يؤجّل لهم وقوع العذاب فسحة ليطول لهم مجال متاعهم أوٍ ليرجعوا على يقين بعد الرؤية لا يرتابون فيصلحوا ويتّقوا ذلك البؤس من المصير. أفبعذاب الله المكتوبة بأقدار الله آجاله وموازين قضائه صدقاً هم اليوم في الدنيا يستعجلون مستخفّين بصدق بلاغ نذيره ويتحدّونه إن كان قدراً حقاً فيتطلّبون أن لولا يأتيهم فوراً ينفي الريب عن مواعظ نذير دعوته. أيرى

المتدبّـــر شأنهم؟ أن لو أنهم بقدر الله ما عاجلهم ولكنهم أُنظِروا ومُدوا فسحة من الأجل ليتمـــتّعوا ســـنين ثم جـــاءهم مـــا كانوا يوعدون وفاةً أو صعقاً لكلّ الأحياء، فالبعث والحـــساب والجزاء، إنهم عندئذ يكون ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتّعون في الدنيا إذ فنيت لا تـــبدو ذكراها إلاّ يوماً أو أدنى من ذلك وليس لهم دونها من بقيّة متاع ولا فيما مضى مـــنه فـــدىً لما هو حاقّ عليهم. وما أهلك الله بأقدار نذره وقضائه في عاجل الدنيا من قـــرية مـــن حـــولهم – أمّة الخطاب العرب، مما ذكر من القرون الأُولى في آفاق الجزيرة العربية المُحيطة، إلاّ وقد أرسل لمجتمعاتها منذرين من الرّسل بذلك الوعيد القريب. وتلك ذكرى لهم بعد غفلة غشيتهم إذ غمرتهم فتنة التمادي في المتاع. وما كان الله بأقدار سنّته ووقائـــع قـــضائه تلك ظالماً إذ سبق عاجل الهلاك نذيره. وما يزال ذلك الخُلق في الكفر بالغـــيب ونذره حتى تأتي وقائعه الموعودة وعندئذ تدارك ترجّي الإنظار لفسحة أو لعودة مـــتّعظة، وكذلك في استعجال محذور العقاب علّى مكروه هدى الدين أن يأتي فوراً إن كـــان قدراً حاسماً وصدق البلاغ به نذراً رغم أنّ تطاول السلامة والمتاع لا يُجدي عند وقوع العقاب تصديقاً وتحقيقاً لوعيد الدين. والحقّ أن رسالة الدين الخاتمة الخالدة ما هي لقـــوم خاصـــة وعهدهم محدود كسابق الرسالات إذ كانت النذر وعيداً بعذاب قريب أحـــياناً أيامـــاً يأخذهم لأجلها الهلاك جميعاً إلا المؤمنين، وإنما الرّسالة العامة هدى للعالم ونذيـــر للعذاب الهالك يوم الدين إلاّ بشارة أو نذارة في تقلّب حظوظ الحياة دون الهلاك الـــشامل. وصحيح أنه يسود منذ الانفتان بالمشهود والحاضر في الناس اليوم يحبّون متاع الدنـــيا ويؤثـــرون عاجلها ولا يرهبون وعيد الغيب عاجلاً أو آجلاً لأنهم لا يؤمنون إلاّ بتـــرتّب الأســـباب وتعاقب الأحداث المسنون المقروءة حسب العلم والاعتبار الدهري. لكـــن إن رفـــع الله نذيـــر العقاب العاجل نذيراً لمجتمعات الفجور في دعوته الخاتمة فإن احـــتمالات تطـــوّر الأسباب والأحداث مبهمة غيباً فلا يستيقن أحد بمستقبله تقدّماً أو تدهـــوراً وقـــد يقدّر تقديراً. أما وعيد الغيب فهو حق بأنباء الدين وهو ناجز يوم الدين الذي لا يؤخّره عن الناس أجلاً مسمى عند الله إلا بوفاة وبرزخ إلى البعث الذي يطوي الدنـــيا – مهمـــا تطاول متاعها – ظرفاً أو أياماً عارضة وفناء إلا زاد الكسب في بلائها الذي يحقّ بوزنه السعد أو الشقاء الخالد.

كان كثير من أمة الخطاب الأُولى عند حادث عهدها بدعوة رسالة الإسلام، وما انفك بعضها لحين، لا يؤمنون بالغيب الحق ولا بالوحي الصادق منه فيحسبونه ظنوناً أو أوهامـــاً في المخيّلة أو مفتريات أو يقدّرون أنه إيحاءات من الشياطين على النفوس المريـــضة ممن أصابه مسّ أو جن مطبق. ومن يكفر اليوم بالغيب بشياطين قد يقدرون الوحي أعراضاً عن علّة نفسية يرمون بها مَن كانوا يدّعون النبوّة قبلاً ومَن يزعم اليوم وصـــلاً بالغـــيب وقـــد يجتهدون نظراً في تشخيص العلل وصنوفها في تعبير الأحلام والأحاديـــث المنتـــسبة غيباً. ولكن القرآن حقاً ما تنـــزلت به الشياطين على النبيّ بل تنـــــزل بـــه أعواماً الروحُ الأمين جبريل الملك. أما الشياطين من الجنّ – لا المؤمنون مـــنهم – كما يقرّ وجودهم ويصفهم الحقّ الديني في أمر الغيب فإنهم لا يبلغون علياء الله في وجـــوده المطلق ليسمعوا رسالة منه إلى البشر، فهم محجوبون عن القرب من الله منذ أوّل عهدهم في الجنّة تعالياً على الإنسان ولو خروجاً على أمر الله. والقرآن يؤوّل الشُّهب الثاقبة أنها تدحرهم عن مدى تلقّي الوحي من الله إلاّ خطفات يحاولونها أحياناً ليُلقوها إيحاءات إلى من يتقبّلها من البشر.

وتأســـياً بالنبـــي الخاتم حامل رسالة القرآن الحقّ واستناناً بدعوة الرّسل السالفين تـــأتي الوصيّة في القرآن لكلّ داعية يتلوه أن يبلّغ الرسالة ويحياها مثالاً ثابتاً على أصل الإيمـــان الحقّ لا يدعو مع الله إلهاً آخر من متعلّقات العالم المشهود ومؤلّهاته أصناماً من التماثـــيل الجامدة الموقّرة صوراً للمعبودات الغيبية أو أهواء من الحبّ المفتون والتسخر تعـــبداً لغايـــات المتاع الدنيوي. ذلك لئلا يكون من المعذّبين شقاء يوم القيامة بل من المفلحـــين السعداء. والداعية كذلك – مثل ما أُوصي به النبـــي الخاتم إمام الدعوة – علـــيه أن يُنذر ذوي قرباه أو من يليه من ثلّة منظومة في مجتمعه لتهتدي قدوة ولتقوم مبادرة في الدعاء إلى الإيمان بالغيب والخير وتنذر وتبشّر بالآخرة. وليخفض جناحه ليّناً سمحـــاً للجماعـــة الآيلة إلى الإسلام عموما ليؤالف بينهم نحو بؤرة الحقّ ومحور الإيمان حـــيث يتركّز الدين ويشيع في الآخرين ليكونوا شهداء على الناس كافّة. فإن خالف هـــداه وعـــصا إمامته الآخرون خروجاً على تعاليم الدين وهواديه فليقل لهم مُصابرة واعتـــزالاً: إنـــه بريء مما يعملون في ضلالهم، لينماز عن زمرتهم ومأواهم في العاقبة.

وليتوكّل على الله مهما يكثُر عدّ هؤلاء ويثقل وزنهم ويتكثّف عليه أذاهم، فهو ﷻ العزيز القوي المتعالي الفعّال الغالب بقدره وقضائه على أيّما عصابة من عباده تتعزّز وتستكبر على أمره. وهو الرّحيم بعباده المهتدين تيسيراً لتقواه في ابتلاءاتهم ومُضاعفة لعطائه جزاء على طاعتهم وصبرهم ومدّاً لهم في العاجلة بأيدٍ وفتوح. فهو ﷻ الذي ثبّت رسوله وهكذا كلّ عبدٍ له يتزكّى بالعبادة الخالصة حتّى فيّ خلوته، فهو يراه حين يقوم الليل ذاكراً مُصلّياً والناس نيام راقدون ويرى تقلّبه مع الساجدين والناس ساكنون للراحة أو قائمون يشرئبّون إلى كسوب الدنيا. إنه هو السّميع العليم بكلّ أذكاره وشعائر عبادته وصالح أعماله فضلاً وفصلاً عن أقوال اللغاة وفعائل العُصاة وسيّئاتهم.

وليبلّغ كلّ داعية علم الحق الهادي الذي يتلقّاه من خزائن علم الله المُحيط إذ جاء بها القرآن، وليسألهم هل يُنبئهم على مَن تنزل الشياطين بإيحاءات من خواطر سوء أو وساويس شر. إن الشياطين لا تنزل بالقرآن كما افترى ضالّون من أمة خطابه الأُولى بل تنزل على كلّ أفّاك أثيم تكثر منه أفائك القول وجرائم الفعل، لأنه يُصبح لها قريناً لا ينشرح صدره إلا بما يتلقّى منها، ولذلك يُلقِي لها السّمع في كلّ ما توحي من الباطل الغرور. فهم لذلك أكثرهم كاذبون في مقولاتهم التي يروها عن وحي أوليائهم الشياطين. ومثال ذلك شعراء الجاهلية الذين حملوا حَملة شعواء طعناً وهجاء وبهتاناً على الرّسول ورمياً للقرآن بأنه إفك مزين وشعر غير موزون. وقاموا ينشرون قصائدهم في أسواق الشعر ونواديه. وكذلك الشعر أداة من قوى الفنون والآداب قد يتّخذها أهلها في كلّ عهد تتجدّد دعوة الدين. وإنما هي هبة من ابتلاء الله لعباده ينزع الكثيرون بها كما ينزعون بكلّ ابتلاء بفضل علم أو رزق أو سلطان إلى الضلال عن الدين أو تشتدّ بهم الفتنة فيتّخذون الشعر في مضادّة الدين في مجال الدعاية التي تروّج الشعر ليُسرِ حفظه موزوناً مقفّىً منغومة تفاعيله يُتقبّل مسموعاً ويُروى ويُنقل منطوقاً أو مكتوباً في أوساط الناس ووسائل إعلامهم. ونهج الشعراء الذين يفتنهم بلاؤه أنهم دائماً في كلّ وادٍ من شعاب الهوى يهيمون يلهون ويكذبون كثيراً لا يثبتون في مواطن قول الحق أو الخير ولا في مجالس القول الطيّب بل هم طلقاء يتعبّدون لمبالغ جمال الشعر ووقعه غايةً لذاتها. ذلك النهج الذي ينفتن به غالب الشعراء إلاّ من

انمـــازوا عنهم شعراء من الذين آمنوا بالدين الحقّ وعملوا الصالحات صدقاً وذكروا الله كـــثيراً حتّـــى في منظوم القول وانتصروا بالقصائد والأناشيد سهاماً للحقّ بياناً وثناء لحاملـــيه ودافعات في سبيله صبراً وجهاداً بعدما ظُلموا لا عدواناً بغير حقّ. والحق – كمـــا يقـــول الله – أنـــه في حملات الشّعر في دعاية الإسلام وفي وجهه سيعلم الذين ظَلمـــوا – الذين رهنوا هواهم لقديمهم ضداً لظهور الدين الأوّل أو لكلّ ظاهرة تجديد لدعـــوته حتّـــى في هذا الزمان – سيعلمون أي مُنقلَب ينقلبون في مصائر حملة الشعر بالـــباطل ومجاهداته بالحقّ، ويندثر الباطل وينمحق بينما ينتشر الحقّ. وذلك في ميدان الشعر وفي كلّ مجالات الحياة هو الحكم الفصل بأيلولة فرقان الحقّ والباطل في الدنيا ثم التمايز والفوز أو الخسران بينهما في مُنقلَب الآخرة.

سُورة النمل

مقدمة في السورة وهديها:

الـــسورة تنـــزّلت وحياً في مكة سادسة وأربعين في السور، تتوسّط تنـــزيلاً بين سورة 'الشعراء' ألتي سبقتها وسورة 'القصص'، التي تلتها. وترتّبت في الكتابِ بينهما أيـــضاً سابعةً وعشرين بين جملة السور. واسمها 'النمل' إشارة لما ورد فيها من ذكر في ســـياق لـــصغيرة الحشرات تلك خفية المساكن والتي تظهر دابّة في الأرض سالكة في سبيل رحيلها ومعاشها. وفي الباطن للنمل أسباب اتصال كلام بينها تتداعى به في سنن التعاقب ونحو موائل الغذاء ومهام صناعة البيوت والتخزين للتموين أو تتناذر به خشية ضـــرٍّا أو هلاك قادم. والإنسان البشر بحدود إدراكه المطبوع لا يتلقّى تلك المراسلات بينها ولا يفهم منها إلا ما يشاهد من دبيب نشط تتتابع فيه النمال أو تنحشر بطيئاً أو حثيثاً سعياً إلى مقصود أو أوباً إلى البيوت. ولكن الله خالقها وخالق الإنسان قد يؤتيه وسعاً في فهم تخاطبها عن دقيق تعلّم وتجريب أو هبةً من الله عفواً، فيتبيّن ما جهل من عمـــوم معـــاني إشارات التّراسل بينها أو يدرك مدى أبلغ في مغازيها. ففي أمر النمل إشـــارة للخفـــيّ منه غيبِ الأشياء والأقدار الذي قد يخرج مشهوداً وللمجهول المبهم الـــذي يبدو تأويله، فالغيبُ عند المرأى والمسمع كأنّه عدم صامت قد يتجلّى مشهوداً وجـــوداً وهـــيأة ومسموعاً صوتاً مدركاً معناه. فالسورة أتّخذ اسمها من النمل لدلائل خصائصه تلك، حيث ذكر فيها النبـــي سليمان ؑ الذي بلغ بفضل من الله في علم الغيب إدراك كلام النمل ومغازيه.

والسّورة هي كذلك بكل هديها للحقّ وذكرها للحقائق وصلٌ لوحدة الوجود بين الغائب المجهول أو المغفول عنه والحاضر المشهود المفتون به، فلأول السورة ذُكر القرآن كتاباً منزلاً من علياء الغيب إلى رسول مصطفى من أُمّة باشرها الخطاب في الأرض مبيّناً لها بلسانها وحروف منطقها ما هو هدىً وبشرى لحياة الإنسان التي قد يحصرها هواه وإدراكه دون الغيب، تفتنه تعلّقاتها بالمَشهود مشتهى مقاصد أو مقدّر أسباب ولا تصله حدود علمه إلاّ بآفاق الحاضر دون العواقب الآجلة. لكنّ المؤمنون الذين هداهم القرآن لمسلك الحياة الحقّ الأصلح وبشّرهم ما هدفت حياتهم الأولى إلى مقاصد في الآخرة – هم وصلوا حاضر دنياهم بالغيب حتّى آجل آخرتهم. فهم يؤمنونَ بالله غيباً ويخلصون نحوه توجيه حياتهم لمشاعر من التعبّد المباشر، منها الصلاة التي تتصوّب صلةً بالغيب بهيئات صورتها وأصوات ذكرها وتستقبل الله وحده معبوداً في خشوع، ومنها الزكاة حيث يُؤخذ نصيب من فضل الأموال المكسوبة ويُؤدَّى إلى ذوي الحاجة فيُزكّيها لأنّه عطاء تذكّر لوجه الله رازقها في الغيب ورجاء لأجرها خيراً في الآخرة – بتلك الشعائر الخالصة وبالعبادة في سائر الحياة يقيناً بغيب الآخرة وبشراها الموعودة تسيّرها نحو الفلاح. لكن الذين يُعرضون عن هدي القرآن ولا يؤمنون بالآخرة إنّما يحيون حسبما يزيّن لهم مشهودها الحاضر فهم يضربون بأهوائهم في الحياة عامهين في فتنة وضلال حتى تحقّ عليهم السوأى الآجلة وهُم في الآخرة هم الأخسرون. والمؤمنون بهدي آيات القرآن يزدادون يقيناً بالغيب وشعوراً بحضور الله إذ يرون آياته تتجلّي أيضاً في ظواهر الكون في طبيعته المشهودة حولهم وآثارها في حياتهم إطاراً ومتنزّل حياة من السماء وقراراً وأنهارًا ونباتاً في الأرض، ويرون في ذلك أقدار الله تُصلح أمر حياتهم دون مضرة السوء استخلافاً في الوجود على الأرض وهداية لسير حركتهم فيها وتقليباً فيهم للحياة والموت وتصريفاً لهم مدّاً من الرزق– كل ذلك يذكّرهم بالله خالقاً راحماً محموداً. لكن الذين كفروا بالحقّ في الغيب لا يتعلّمونه من الوحي لإعراضهم ولا يذّكرونه من ظواهر الطبيعة حولهم، بل هم يعدلون بالله ﷻ في غيبه أكفاء وشركاء له وأولياء من دونه وأهواء وموقّرات معبودة بغير حقٍّ أو برهان. إنهم عمَوا عن رؤية آياتِ الله في الطبيعة ببصيرة كما أصمّوا عن مسموع آيات التذكير في القرآن، فهم لا يؤمنون بالآيات ولا يسلمون لهداها.

والسّورة التي تصدّرها ذكر القرآن رسالة من الغيب هداية وبشارة ونذارة للناس وخطاباً للرسول الخاتم الذي يتلقّاه لا ليبلّغه خاصة لذوي اللّسان العربيّ بل للأمّيّن كافّة الذين لم يبلغهم وحي من الغيب ولبني إسرائيل كِتاباً مصدّقاً لكتابهم الأوّل فاصلاً فيما اختلفوا هم فيه بعداً لأنه خاتم للرسالات. وما كان للرسول سوى آيات القرآن الموحاة المنزلة – فضلاً عن آيات الطبيعة المشهودة تذكرة معززة لا آيات واقعات معجزة. فما عليه إلا أن يتوكّل على الله أنه على الحقّ مهما تنزع العصبية العرفية بأمم الخطاب. إنما عليه البلاغ، وهو يعبد رب هذه البلدة الحرام التي يتنزّل فيها القرآن والتي هي ذكرى لإبراهيم عليه السلام رسول الله الذي وضع فيها أوّل بيت للعبادة وشرع حرمتها محجّاً للعباد العاكفين على مسجدها الآتين من كل فجّ عميق في الأرض أمّة واحدة مسلمة لملّة التوحيد الخالصة، ذريّة لإبراهيم وكافّة من خالف المستهدين المتذكّرين. لكن السّورة لا تذكر إلا طائفة من سالف المرسلين الذين تلقّوا رِسالات الغيب بآياتها الموحاة وما كان لزاماً لتعزيزها لعهودهم بين يدي أقوامهم بآيات من ظاهر الأشياء والحادثات والفعال الخارقة لمطبوع السنن بأن تتبدّل الصّور أو تتضاعف الوظائف المعروفة لمشهودات فتُحدث على المخاطبين بالرسالة وقعاً عجيباً بليغاً لعلهم يتذكّرون فيؤمنون بالله في الغيب بهدي آياته الموحاة المتلوّة بلاغاً والمشهودة في الواقع منخرقة بها الطبائع المسنونة إذ تتجلّى لهم وحدانية الله غيباً في الوجود وتبين لهم مشهودةً عزّته الغالبة وحكمته الفاعلة. لكن أقواماً من المخاطبين حصرهم دون الغيب وفتنهم المشهود، كانوا لا يؤمنون بالله ولا بنذيره الموعود في الآخرة الآجلة بل يستعجلونها واقعاً حاضراً بيّناً يصدّق الوعيد. كذلك حتى أنذرهم رسولهم بعذاب في الدنيا قريب أتاهم فلا مرجع لهم إلا أن يكونوا موعظة للخالفين. لكن الرسول الخاتم برسالة للعالمين آبدة إنما يخلّي– كما هي مشيئة الله – الخيرة لمخاطبيه بين الهدى والضلال دون آية معجزة إلا ذكراً لسالف موعظتها ونذراً بأن الله سيريهم آياته في عواقب الآخرة فيعرفونها كما وصفتها رسالته المبيّنة سابقاً، ذلك ممّا يمدّ لهم في حاضر الحياة الدنيا مداً.

وأول الرّسل المذكورين كذلك في السورة هو موسى عليه السلام الذي بقيت آثاره حيّةً في بني إسرائيل حول متنزّل القرآن والذي تلقّى كلام الله المباشر تكليماً، بينما

تلقّـــى الرسول الخاتم وحياً بواسطة روح ملك. وذلك إذ عرّف موسى ربُّه بذاته الله العزيـــز الحكيم وأراه آيات مشهودة قدّرها له في عصاه ويده ليحجّ بها أمّة خطابه بعد بلاغ الحق في رسالة الغيب. لكنهم ظنّوها غيبيات أوهام من السحر وجحدوا بها ظلماً وعلـــوّاً، فانتهـــى بهم فساد حياتهم الضالّة إلى عاقبة عاجلة واعظة. ثم أرسل الله داود وســـليمان علـــيهما الـــسلام برســـالات الغـــيب وأيّدها لهم بوسع فاضل من العلم بالمـــشهودات خـــارق لمعهود العلوم والطاقات آيات لتعزيز آيات الوحي والهدى. إن رسالتهما الغيبية كانت تعريفاً لكلّ من مَعهُما بالله الذي يحيط بالغيب والمشهود يخرج الخبء في السماوات والأرض وحياً أو رزقاً ويعلم ما أُخفي وما أُعلن عباده، وتذكيراً بألوهيـــته المنـــــزهة العلـــيا لا إلـــه إلا هو وبملكوته المطلق عرشاً أعظم هو التمكّن والتصرف في كل الوجود المخلوق. إن سليمان أُورث أيضاً مُلكاً في العالم المشهود من تلـــك الأرض المباركة بقوّة جند عظيمة من الإنس والجنّ والطير المسخّر، وأُوتي علماً بـــسماع النملة تتكلّم محاذرة من وطأة جيشه داعية سائر النمل معها إلى الدخول إلى البيوت. وأُوتي منطق الطير، إذ يوماً فقد حضور الهدهد في جيشه المنحشد فحاسبه ثم أرســـله لمـــن أنبأه بهم من مشركين عُبّادٍ للشمس عليهم ملكة عظيمه العرش، أرسله بكـــتابٍ لنـــشر دين الإسلام. ثم سَمِعَ البلاغ عندما عاد إليه الهدهد منهم بهديّة، لعلّ الملكة بعثت بها ترضية لسليمان ذي البأس وتهدئةً لنـــزوة قد تغشاه ليبسط ملكوته إن لم تـــستجب لدعوته، وخافت منه غزواً عادياً غالباً كسنّة الملوك الذين إذا دخلوا قرية أفـــسدوها وأذلـــوا أهلها. وإذ سخّر الله لسُليمان شياطين الجنّ عاملةً مجنّدة والملائكة كذلك، أتاه أحدهم كما طَلَب بعرش الملكة قبل أن يرتدّ إليه طرفه لأنها كانت تتعاظم بـــه ولعـــل وجوده عنده يوقع فيها هداية تبيّن لها آيتها. وقد جاءته زائرة فزعاً منه إذ رُدّت إلـــيها الهدية فآمنت لما رأت عرشها وعظيم سلطان سليمان وسمعت له – آمنت بالله رباً في الغيب هو ذو السلطان والقدر والعلم المتعالي على ما فتنها وأضلّها قبلاً من مشهود كالشمس بقدرها وكل أثرها، وثابت إلى دين الحق والهدى.

وبعـــث الله الرسول صالحاً عليه السلام ليجيء قومه بذات الرسالة الموحاة إيماناً بالله في الغيب وتوبةً إلى الهدى بعد الضّلال وتطهّراً من فتنة المتاع والسّكن ممّا ينبغي ألاّ يُحمد

علـــيه إلاّ الله الذي قدّره نعمة لهم فيسّره. ولكنّه طُولب بآية مشهودة تصدّق رسالته الغيبـــية، فأتاهم بآية تظهر فيها ناقة عجيبة. لكنهم فتنوا دون الغيب إلاّ بأوهام التطيّر بـــصالح ومن معه شؤماً إذ تفرّق صفّهم، وما بالوا ببأس من الله من الغيب أنذرهم به صــــالح ولا بحرمة الناقة وما صدّقوا وعيد رسولهم ونذيره بعاجل ذلك، بل تآمروا عليه بـــتدبير عـــصابة فيهم ماكرة ليقتلوه وأهله بمباغته يخفونها ليلاً متقاسمين زوراً أنهم لم يـــشهدوا من المهلك شيئاً. ولكنّ الله عالم الغيب والمشهود الخفيّ أو العلن كان أشدّ منهم مكراً فأهلكهم بريح صرصر عاتية لم تذر منهم إلا البيوت خاوية آية لمن يعلمون قدرة الله الغالبة وصدق وعيده. وكذلك لوطاً عليه السلام جاء قومه بهدى رسالة الوحي من الغـــيب تذكرة لهم خاصة ليتقوا الله ويجتنبوا فاحشة إتيان الذكور التي اعتادوها ممارسة ملحّـــة. ولكـــنهم أنـــذروا رسولهم بالإخراج، حتّى جاءته من الغيب الملائكة ضيفاً مـــشهودين لبلاغ قرب النذير ونصح لوط ليخرج. وما زاد ذلك قومه إلا إقبالاً على الـــضيف بعاجـــل شـــهواتهم فصبحّهم بكرة عذاب النذير زلزالاً أخذهم وامرأته، إذ غمرت قراهم وغيّبتها الحجارة بعد أن فتنهم ظاهر الهوى.

والـــذين كفروا بالرسالات لا يصلون مشهود الوجود بغيبه فلا يؤمنون بالبعث والحـــياة الآخرة غيباً آجلاً، وهم في غفلة عن آيات الله في الطبيعة المشهودة إذ يخرج الحـــيّ بعـــثاً من الميت، ويذكرون آباءهم لأنهم أندروا ولمّا يُبعثوا فيعدّون نذير البعث أسطورة قديمة ويتساءلون عن الوعيد متى يقع ناجزاً إن صدق ويستعجلونه. وربما دنا أجلهم ولكن الله ذو فضل يمدّ لهم مدّاً لو يشكرون وهو يعلم الغيب مما تكنّ صدورهم نـــوايا لأعمالهم، ويعلم كل غائبة في السموات والأرض فهو الذي يسمّي أجل السّاعة ويـــوم الوعيد. وإذ يَعهد المشركون بالله دون غيبه في العالم المشهود لا ينفعلون شعوراً إلا بـــوقائعه المـــرئيّة، تصف له السورة المشاهد حين يقع القول عليهم إذ يخرج الناس كافـــة دابّـــة فوق الأرض يتكلّمون في مرأى واقع ما كانوا به يوقنون، وتحشر الأمم وتوزع الأفواج فإذا جاء فوج المكذّبين بآيات الله وبالآخرة غيباً يَعمون عنها ويرتابون ولم يُحيطوا بها علماً يُدركهم يومئذ ذلك العلم واليقين. وإذا وقع عليهم القول حساباً حاسماً لا ينطقون إذ تنبتّ بواقعات الحق كل الأعذار وبالبيانات كل الإنكار لظلمهم

وتثـبّت غفلتهم إذ كانوا في ماضيهم حتّى عن دورة الليل والنهار سنة وآية تنبئ عن دورة المـوت والحياة قدراً. ويومئذ عمّ الفزع كل الخلق وأتوا ربهم داخرين، وتزلزلت كل الثوابت وتبدّل المطبوع المعهود حتى الجبال رُجّت وأُذيبت حتى مرت كالسّحاب واسـتوت الأرض معرضـاً لمشاهد الحساب ووُضعت الموازين لأعمال العباد وانحسم قـضاؤهم. مَـن جاء بالحسنة فله خيرٌ منها آمناً من أيما فزع، ومَن جاء بالسيئة كُبّت وجـوههم في النار أذلة وفاق كونهم ما استكبروا أمس وما سجدوا خاشعين عبّاداً لله في الدنيا الذاهبة.

والله أول الوجـود هـو الحي القيوم في الغيب ذكره موصول في السورة كلها. فهو العزيز الحكيم ذو العرش العليّ يصرّف كل الوجود المخلوق، رب الخلائق في عوالم الغيب والـشهادة، وهـو الـرّحمن الرّحيم لعباده هادياً برسالات وحيه من الغيب تأتي من لدنه حكـيماً عليماً ومبشراً ونذيراً لهم بمآلات الغيب وفاق كسبهم في حاضر دنياهم، ومذكّراً لهـم بآياتـه المنـزلة وحياً أو الواقعة المعجزة بيّنة على هداه عزيزاً حكيماً غفوراً رحيماً لعباده مهتدين أم ظالمين، ويتجلّى منه محموداً فضله ومُدود رحمته غنياً كريماً لمن شكر وهو الذي يدبّر أمر حياتهم لا يعدله ذو كرم إذ يحيطهم بالسماوات والأرض وما فيها من إطار وقـرار ومـن بينها من الرياح بشرى رحمة. ويصرّف شؤونهم في المعاش والحياة ويراقب كـسبهم فيها ويعلم حتى ما في صدورهم لأنه يخرج الغيب المستور ويعلم الخفيّ والظاهر في الـسماوات والأرض ثم هـو يقضي بين عباده كافة إذا وقع القول عليهم وأخرجهم لآجـل الغـيب الموعـود بنفخة البعث فالسؤال فالحساب والجزاء، إذ يُريهم أيلولة آيات نذيرهم وما هو بغافل عما ابتلاهم به وكانوا يعملون في الدنيا ماضياً.

ترتيل المعاني (الآيات ١ – ٦):

﴿طـس تلْـكَ آيَاتُ الْقُرْآَن وَكتَاب مُبين * هُدًى وَبُشْرَى للْمُؤْمنينَ * الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآَخرَة هُمْ يُوقنُونَ﴾ (١–٣)

ط س: حرفان من اللسان العَرَبيّ لأمة الخطاب الأُولى، الطاء صوت نطعي مجهور والـسين صوت أسلي مهموس هما مَخرجاً من مقدمة الفم ومنطقاً من سائر الحروف

العــربية، تلك الجذور التي تتركّب منها كلمات اللغة لتجتمع منها الجمل تعرب عن المعــاني. هكذا تتألف تلك الآيات، آيات القرآن الذي يقرأه تلاوةً لأصواته الناطقون بــذلك اللــسان، إشارات تعبير عن كلمات كتاب الله المحفوظ في غيب الأزل. وهي أيــضاً آيــات كتاب توضع معانيه وقعاً على المخاطبين ليُحقّوا حقّه ويُؤدّوا تكاليفه وتــسطر كلماتــه حفظاً في صحف، وهو مبين لما فيه من معان لأنه باللغة الواضحة المفهومة للمخاطبين ولأنه ليس فيه اختلاف مُربك ولما فيه من حجّة وسلطان أنه وحي متنــزّل من الله لأنّ أسلوبه أبلغ من تعبير البشر يعجز العرب أنفسهم أن يأتوا بمثله.

وقد خرجت كذلك تلك الآيات المقروءة والمكتوبة هدىً ذا شأن يدلّ على قويم وجهة الحياة وسيرها ويصرفها عن الضلال وبشرى أيضاً تنبئ بخير موعود مآلاً لطريق الحــياة المهــتدي المستقيم. وذلك للمؤمنين الراسخ في وجدانهم التصديق بالقران حقاً يوحى من الله فالمعرفة بالله ذات الإله الفرد الحقّ المتعالي في الغيب والاطمئنان عبادة له خالــصة. فهم في الأرض وعالم الشهادة عبّاد لله في الغيب يقيمون الصلاة أحسن أداء لهــا شــعيرة تعبّد يُعّد لها بمهاد من وضوء تطهّراً من فتن الحياة وتُقام مسنونة حركاتها بالجــوارح وقــوفاً وركوعاً وسجوداً وجلوساً وأصواتها ذكراً وقرآناً – كلها مصوّبة لوجه الله قبلة لا التفات عنها ويُحافظ عليها متوالية لمواقيتها عبر اليوم فالحياة تتخلّلها صلةٌ وثيقة للمصلي الظاهر في الأرض بالله في الغيب، وهم أيضاً يؤتون الزّكاة يأخذونَ من فضل كسبهم من المال نصيباً يزكّيه إذ ينفقونه لوجه الله حمداً له عليه رازقاً، يؤتونه لذوي الحاجة رجاءً لعاقبة بركة ولآجل أجر متضاعف، وهم كذلك بالآخرة – حياةً في دار جزاء تعقب وتكامل هذه الحياة الدنيا – هم يوقنون، حالاً متجدّدة من الإيمان بهــا المطمئنّ، فسائر حياتهم فضلاً عن الشعائر المسنونة التي تزكّيها هي تعابير تعبّد يتصوّب إلى الله تقوى ورهبة من غضبه وعقابه وطاعة ورغبة في رضاه فنيل أجره وفضله.

﴿إِنَّ الَّــذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ (٤ – ٥)

يتأكّد أمر مسلك الحياة الدنيا للذين لا يؤمنون بالآخرة الحياة الآجلة في الغيب إذ زيّــن لهم الله بجمع من أقداره في ابتلاء الإنسان في دنياه فحسّن لهم شهوات أعمالهم

وإن قبحت فهم يعمهون في حال خبط بالهوى ضلالاً بلا بَصيرة تقدير للطيب والخبيث. أولئك البُعداء هم الذين لهم خاصة سوء العذاب، بالغ الشقاء عاقبة في الدارين، وهم في الدار الآخرة هم أعينهم الأخسرون، الخاسرون الأشدّ.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٦)

ينضاف لسابق النذارة بعد البشارة خطاب مؤكد للرسول ﷺ أنه بذلك يُلقّى – يُجعل لاقياً ترتيلاً – القرآن من أقرب ما عند حكيمٍ، رب عظيم بالغ الحكمة في هداية عباده لخير العمل وحسن العاقبة، عليمٍ ببلاءات عباده وكسوبهم ومآلاتهم.

عموم المعاني (للآيات ١ – ٦):

تتصدّر السورة الحروفُ العربية استشهاداً على لسان القرآن العربي. إن التدبّر في الجذورِ الحروفِ أصواتها ودلالاتها ثم فيما يتألف منها من الكلمات فالجُمل فالآي يستلزم مراعاة وحدة النظر العميق الجامع في مفهومات الفروع والأصول الأولى حتى المجاميع والكليّات من المعاني، وفي سياق المقتضى العام إلى خصوص المعاني.

وهكذا ينبغي أن يبلّغ كلٌّ داعية القرآن لكلّ أُمّة هو منها بلسانها على سُنَة محمد ﷺ، وأن يجتهد في التّرجمة لنقل الكلمات العربية بأصولها إلى ما يقابل ذلك في كِلم اللغة الأخرى، ويرعي الوحدة في السياق العام لمتن القرآن ووقع خصوص التعابير.

والمسلمون تباعاً في سيرة تأريخهم حفظوا الحروف فنقطوا معجمها كما حفظوا الأصوات التي لا تعبّر عنها أشكال الحروف والمواقف التي تواصل السياق أو تفاصل الجمل فاتخذوا لذلك رموزاً مخطوطة. والقديم في كل الآثار من تجارب البشر يحفظ بصورته الأصلية دلالة على ما عهِد الأوّلون ودقّةً لحفظ المتوارث. وقد يتطوّر منطوق اللغة فتتغير بعض أصوات حروف اللين وبعض مخارج الحروف، لكن متى حُفظ القرآن صوتاً متلوّاً والكتاب خطّاً مرسوماً لتُروى موثقة صحّته في ضوء نحوِ العربية فهو الأصل. والحقّ أن قد كانت في قراءته فسحة كما تواترت بها القراءات والروايات وكما روى الرّسول مبلغه وتاليه أن فيه سبعة أحرف، لا يقصد عين العدّ رقماً

ولكـــن – كما هو المعنى مجازاً في كلمة سبع – يعني الإذن بالقراءة وإن اختلف النّطق بالحروف في بعض ألسنة العرب أو اختلف المخطوط أحرُفاً لأنّ الهجاء والخط لم يكُن رَسمــاً مُجمعاً عليه ولأنّ النحو والتصريف فيه سعة بين الناطقين بالعربية عند متنـــزّل القران. ذلك ما دام النقل متواتراً والرّسم متوافقاً عُموماً والنحو الذي يجمع عليه التعبير العربـــــي مرعياً والسياق المنسوق لمعاني القرآن مرعياً. والخَلَف قد يختلفون في تفسير القرآن ولكنه مبين ليس فيه اختلاف تناقض وآياته يفسّر بعضها بعضاً ومشتبهه يُردّ إلى محكمه. والقرآن هو هدى في الحياة الجارية وبشرى للحياة الآتية للمؤمنين. فهم من ثَم يـــصلون الحقّ غيبه ومشهوده منهاجاً في حياتهم لعبادة الله. ويتقدم في عبادات المؤمنين الشعائر، لأنها مسنونة الأفعال والأقوال والظروف خالصة مباشرة لابتغاء وجه الله. وأمّ الشعائر وأولاها عماداً للدين وأدومها هي الصلاة، إذا أُقيمت جرى فيها ذكر الله من وراء تعـــبير عـــنه ومعه بحركة الجوارح، وفيها شيء من الزكاة لأنها يُتفرّع دون أيّما فرصـــة لكسب العيش ولأنها تكافل مع الآخرين، وفيها معنى من الحجّ لأنها تذكرة بما تعنـــيه قبلة الكَعبة من حُرمة وتُراث لمشاعر الدّين منذ إبراهيم، وفيها صوم عن الطعام وقيد على جاريات اللّغو والتخاطب والكلام. والصلاة صلة بالله وثيقة بظاهر مشهود أفعال ومقول أذكار وبالباطن خشوعاً لله يعبّر عته الظاهر ولكنه يغشى الوجدان طوال الـــصلاة للخاشـــعين أتمّ الخشوع. وإنما يُعدّ لها قبلاً بالوضوء والطهارة تعلّماً للإعداد المتطهّـــر لكلّ لقاء لله في الحياة نجوى في الغيب في كلّ حالة سكون أو فعل للذاكرين. والـــصلاة اســـتقبال للكعبة لأنها فضلاً عما سبق ذكره تزكية لوحدة قبلة الحياة كلها لـــوجه الله والأمّة كلها متصوّبة نحو مركز واحد رمزاً لإخلاص التوجّه إجماعاً نحو الله وحده بلا تلفّت ولا تقلّب. وهي موصولة عبر المواقيت طوال اليوم وتعمر الحياة كلها ولـــو عسّرت بلاءات الظروف لبعض صور أدائها فذكرُ الله بها متوالٍ لا ينقطع. وهي شـــعيرة قد يخلوا بها الفرد فذّاً مُناجياً ربّه وقد تُصلّى في جماعة تزكيةً لمشاعر التّكليف والمسئوليّة لكلّ مؤمن ولسنّة التعاون جماعة للبرّ والتقوى منظومة بصفٍّ مستوٍ مستقيم بين المؤمنين دون تفاضل أو تباعد وإمامة مُختارة مهديّة متّبعة ومأموميّة تابعةٍ ناصحة، تـــزكية لنظام الجماعة في سائر شئون الحياة. والزّكاة شعيرة تؤدى مرّة في العام فرضاً

وقد تتوالى صدقةً مندوبة في كلِّ حينٍ وفيها أداء الحمد لله الذي يستخلف عباده على المال ورجاء أن يبارك ما بقي منه ويعوّض الذاهب منه صدقة وزكاة أجراً مضاعفاً. وفي الزكاة والصدقة تكافل للجماعة بين الغني والفقير ومقاومة لشهوة حوز المال المكسوب شحاً وكنزاً ولاتخاذه معياراً مادّياً لتمايز طبقات الناس، وفيها مُصابرة لفتنة الشّهوات في حبّ الذات وزينتها وسلام في علاقات الناس من أهواء الاستحقار والحسد فالصراع بين الطبقات المتعوصبة. وفي سائر الحياة سوى العبادات المسنونة عبادة لله عند الموقنين بلقائه في الآخرة رعاية لرقابته المحيطة وطاعة لأمره حيث ما كان ضماناً للصلاح في الدنيا واتقاءً لعقاب الله ورجاءً لثوابه.

لكن الذين كفروا بالغيب فبالآخرة إن عرفوا الله شيئاً مّا تغشاهم دونه الغفلة في بلاءات الحياة. وتزيّن لهم بأقدار الله في البلاء والخيار وبشهوات النفوس وإغراءات الشيطان أعمال قبيحة فاسدة بميزان الحق الجميل عند الله. هكذا يمضون في الحياة يعمهون بلا وجهة ولا بصيرة اهتداء وتقوى. وأولئك هم القاصرون تخطيطاً مستقيماً لمستقبل حياتهم الدنيا وهم الأشدّ خُسراناً فيما يقدّمون للآخرة حيث يلقون وفاق كسبهم في الدنيا وحظهم في تنافس بني الإنسان بين الفلاح والخسران. وهذا التمايز بين المؤمنين الرّاسخ إيمانهم والذين كفروا بالغيب هو ميزان بمثال الحقّ والنظر. ولكن ممّن ينتسب للمؤمنين الذين آمنوا مدخلاً إلى مبتدأ الخيار الحق وقد تكون فيهم بقيّة من قبل أو تغشاهم فتنة من بعد بما فيه قرب للكفر. فالكفر والإيمان أحوال كسوب في درج قد يرقي الإيمان أو يشتد الكفر وفي عرضة للدرك قد يرتدّ الإيمان ويضعف ناقصاً وقد يتطهر الكفر مُقارباً للإيمان. لكن المجتمعات تتسمى بما هو أغلب فيها، وكم ممّن ينتمون إلى ملّة الإسلام لكن الآخرة أصبحت عندهم نسياً والله يجرى ذكره عفواً أو لغواً إلا إن سئلوا تحقيقاً قالوا آمنا. ذلك قد يقع في أول عهد الإسلام ويكثر وقوعه فيمن يطول بهم الأمد ويغلب ما هو موروث على ما هو مختار بصدق. ولذلك الآخرة درجات ودركات ممّا يحقّ للناس بقضاء الله الأعلم بما يكنّون في صدورهم أو يعلنون وبوسعهم وابتلائهم. والقرآن يعبّر عما هو نسبي بالمقايسة بين الذين آمنوا والذين كفروا بأفعال وأحوال وعما هو بات بالتفاضل بين المؤمنين والكافرين مذهباً في الحياة لا يتجرّد وصفاً مطلقاً لهم لكن يحق غالباً.

وإن الرسـول - وكل آخذ للقرآن بعداً - لتُلقى له رحمة ترتيل حسب تنـزّله قـديماً وتذكّرهِ من بعد وفق مناسبات ابتلائه المذكّرة وتطوّر درجة أدائه للتكليف بين سـابق ومقتصد دون المرتدّ الظالم. وإنما يُتلقّى القرآن وحياً من رب حكيم عليم، بالغ الحكمـة فصلاً في إيقاع الحقّ عبر حوادث البلاء وظروفه في الحياة، لأنه ﷻ هو الذي فـصّل الحـقّ وصـرّف الواقعات والظروف، وهو عادل الحكم بين الناس شرعاً في تنازعات مذاهب الحياة الدنيا وعلاقاتها وقضاياها وقضاءً في الآخرة، فلديه يتّحد تقدير الوقائـع وتطبيق الحق حكمة. وهو محيط العلم بأدق حقّ الغائبات والمشهودات وسبل الهُدى والضلال ومصائر الأيلولة خبير بكسب العباد أعمالاً وبتقدير وسعهم في سياق بلائهم وبما يحقّ فيها من وقوع سابق وعد البشارة والنذارة في الآخرة.

ترتيل المعاني للآيات (٧ – ٥٨):

﴿إِذْ قَـالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٧)

لـذلك الهدى والبشارة والنذارة والحكمة والعلم في القرآن عبرة في قصة رسالة موسـى عليه السلام الـتي بدأت إذ قال موسي لأهله، حين ذكر لزوجه وما تمثّل من أسرة راجعـة من مدين إلى مصر- قال: إنه آنس - رؤية فيها عاطفة اطمئنان - ناراً في بيئة الـصحراء، ووَعـد راجياً أن يأتيهم منها بخبر مّا في هدايات الطريق وأمنه أو سيكون آتـيهم بـشهاب شعلة مأخوذة على عود من تلك النار لعل أهله - كما يخاطبهم - يصطلون، يستدفئون بها من برد ليل الصحراء.[1]

﴿فَلَمَّـا جَاءَهَـا نُـودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٨ – ٩)

---

(١) في سيرة موسى عليه السلام إذ لقيه ربّه وآتاه آيتين معجزتين تلقّاهما فرعون وقومه بظنون السحر ثم بالجحـود فعقـبت علـيهم العاقبة: راجع الآيات ١٠٣ - ١٣٧ سورة الأعراف، والآيات ٧٥ - ٩٣ سورة يونس، والآيات ١٠١-١٠٤ سورة الإسراء، والآيات ٩-٨٢ سورة طه، والآيات ١٠-٦٨ سورة الشعراء، وانظر الآيات ٢٩ - ٤٣ سورة القصص.

فلمـــا جاءهـــا بعد إقباله عليها ناراً، نودي عندها من صوت مُبهم المصدر: أن بُـــورك، تـــضاعف قدْراً وخيراً، مَن في النار بؤرةً مشعّة ومَن حولها في حمى الأرض المـــباركة. وانضاف إلى ذلك النداء أن: سبحان الله، يتنـــزّه أن يحتويه مكان كذلك فهـــو الإله المعرّف الفرد ذاتاً متعالية وقدسية وكمالاً، ربّ العالمين خلق وسوّى فملك أمر كل العوالم من مخلوقات الوجود الجامعة. ثم التفت إلى موسي نفسه خطاب النداء لـــه خاصـــة وهـــو قائم هناك: أن يا موسى إنه – الشأن المؤكد فيمن يخاطبه بصيغة المـــتكلم – هو الله العزيز الحكيم المتّصف بالعزّة تعالياً بقدرته على ما يريد من أمر بمن تحته من مخلوقاته وبالحكمة إذ ينفذ أمره الذي يقضي به بأهدى ما يقع.

﴿وَأَلْـــقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَـــفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠ – ١١)

إنضاف إلى ذلك أمرٌ مخاطب لموسى يعنيه: أن يُلقي عصاه. وهو يعلم طبعها ووظائفها لديه ولا يدري فيم أُمر بإلقائها، فلمّا ترتّب على فعله ما أُمر به أن رآها تهتزّ مضطربة على الأرض غـــير ساكنة بل كأنها جان، حيّة صغيرة خفيفة الحركة، ولّى مدبراً، ذهب مغادراً ولم ينقلب راجعاً إلى مناجاة ربه، حتى باشره نداء باسمه خطاباً آمراً ألاّ يخاف، ومقرّراً من مـــصدر الصوت – الله – إنه لا يخاف قربه المرسلون الذين يوحي إليهم برسالة إلى سائر عـــباده ليتلقّوا أمانتها مطمئنين، وإن ذلك الأمان لدى الله من المرسلين ماض إلاّ مَن ظلم منهم في استقامة حياته، ما عدلها قبلاً ثم بدّل حسناً، غيّر خُلقه إحساناً بعد سوء، فإنه ﷻ – كمـــا يقـــرّر الله متكلماً – غفور رحيم، واسع الصفح بالغ الرحمة ليطهّر التائب من سابقته ليكون آمناً لا يخاف غضبه تعالى وأهلاً لتحمّل رسالته. وكانت تلك إشارة لما يعلم الله من سابق وكز موسى القاتل للقبطيّ في مصر حين استغفر عنه فغفر له ربّه.

﴿وَأَدْخِـــلْ يَـــدَكَ فِـــي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢)

أُضـــيف إلى موسى الأمر من ربّه أن يدخل يده في جيبه، ثغر العنق من قميصه، لتختفـــي ثم تظهر وبشّره أن تخرج بيضاء البشرة، وموسى كان في لونه صفرة وسمرة،

ذلك من غير سوء عِلّة جلديّة. وكانت الآيتان – العصا واليد في تسع آيات أخرى – أحداثاً وأفعالاً تقع خَرقاً لطبائع الأشياء والأسباب المسنونة دلالة على أقدار الله المعجزة تصديقاً لرسالة موسى والمتنـــزّلة من الغيب لا الصادرة حقاً من تلقاء إرادة موسى أو مَـــن حوله ولا كما هو مسنون في العالم المشهود من الأقدار الراتبة التي عهدها الناس فأصـــبحوا يغفلون عن ردّها إلى قدر الله. وهي آيات موجّهه إلى فرعون وقومه لخطابه برســـالة هدى الحق الصادقة من الله في الغيب. إنهم – كما تصفهم كلمة هذه الآية: كانوا قبل الرسالة قوماً فاسقين، خارجين عن حدود الحقّ والعدل بكل فنون الطغيان على الرّعايا المستضعفة والشرك والظلم في نهج الحياة.

﴿فَلَمَّـــا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٣ – ١٤)

لمـــا ترتّب في أداء موسى لرسالته إلى فرعون وقومه أن جاءهم آيات أقدار الله تلك الواقعة فعلاً مشهوداً مبصرة منيرة هادية إلى دلالتها تصديقاً للرّسالة حقاً أنها من الله في الغـــيب، قالوا: هذا سحر مبين، رأوها سحراً موضحاً بمشهده، وهو كلّ ما عهدوا من الغيبيّات في ثقافة مصر حيث كانت تروج أفاعيل السحر استرهاباً للناس لـــيقع في خيالهم من المشهد أمر حادث ما هو حقيقة كذلك. أضاف فرعون وقومه لظـــنّهم بـــتلك الآيات سحراً أن جحدوا بها تكذيباً بلسانهم واستيقنتها أنفسهم في صـــميم ضـــمائرها حيث ثبت لهم ما التمسوا فيها من حق. وذلك الجحد المستكبر تظاهـــراً كـــان ظلماً وعلوّاً تجاوزاً لاستقامة الحقّ وعدله واستكباراً على الاستسلام لوقعه. فلينظر المتدبّر لما انتهى إليه أمره كما تخاطبه الآية: كيف كان عاقبة المفسدين، بـــأي حـــيث وقع منتهاهم ضاربين في الأرض عوجاً لا صلاحاً، وهو حيث الهلاك غـــرقاً – طوت ذكره الآية لأنه واقعة عاقبة واعظة – لمن تحرّى فاطّلع على خبرهم خلفاً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِـــبَادِهِ الْمُؤْمِـــنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٥ – ١٦)

تنضاف آية سيرة رساليّة سابقة أخرى ممّا يقصّه القرآن المتلقّى للرّسول الخاتم من حكيم عليم. وهي أن آتى الله – بأقدار اصطفائه وفضله وإرساله رسلاً وتهيئتهم مبعوثين إلى عباده – داود وسليمان (عليهما السلام) علماً، هو أصل الرسالة إيماناً بالغيب فبالله واليوم الآخر. وتلا ذكرُهما موسى لأنه بعد أن انتهى أمره مع فرعون وقومه بعاقبة منجية له هالكة لفرعون أراد هو أن يسلك لقومه بني إسرائيل المؤمنين طريقاً نحو الأرض التي بارك الله فيها لهم، لكنهم وَحِلوا في حياة صحراء سيناء يخشون الجبّارين في تلك الأرض ويتشكّون من حالهم حتى تابوا بعد سنين وسألوا نبيّاً لهم ملكاً يقاتلون به في سبيل الله فقاد لهم طالوت حملتهم على جالوت وجنوده، ومعه داود الذي قَتل جالوت وآتاه الله من بعد النبوة والمُلك والحِكمة وامتدّت فتوحاته حتّى أَورث ابنه سليمان الذي رقا حضارة بمملكة إسرائيل. والآية تذكر أن الله قد آتى بأقدار فضله العظيمة سليمان وداود علماً فاضلاً وقالا الحمد لله الذي فضّلهما على كثيرٍ من عباده المؤمنين[1]. وورث سليمان خلافة النبوة والمُلك وتباركت عليه أفضال الله. وقال يخاطب الملأ من الرّعيّة قائماً عليها بمدىً بالغ من أهلية الإمارة – قال لهم منبهاً أن قد عُلّموا منطق الطير وكل شيء ممّا يعظم شأنه من أفضال العلم والحكمة وأسباب السّلطان وسعاً مُعجزاً ما هو مسنون في علم البشر ولا في معهود مجتمع الرّعايا للسلاطين إذ جمع له في صفّ الرّعية والجند الجن والطير سماعاً طواعاً، وأن قد أُوتوا من كل شيء من أفضال العلم والحكمة. وبنو إسرائيل ما نسوا قدر نعمة كسب ذلك العلم والسلطان منسوباً إلى ماضيهم من حال الاستضعاف والذلّ تحت وطأة فرعون أو الانحصار في إعسار سيناء سنين. وإذ أرجع داود وسليمان الحمد لله في كلّ ما فضّلهم به بعد ذلك على الآخرين فضلاً عن الشّريعة أتمّ سُليمان القولَ في ملأ رعيته: إنّ هذا لهو الفضل المبين.

---

(١) في سيرة داود وسُليمان عليهما السلام وآياتهما جنوداً والجند والطير ومنطق النمل والمقدرة على جلب عرش بلقيس في طرفة عين ونحو ذلك: راجع الآيات ٧٩ – ٨٢ سورة الأنبياء، وانظر الآيات ١٠ – ١٤ سورة سبأ. وفي فتنة داود وسُليمان بالسلطان: انظر الآيات ١٧ – ٢٦ و٣٠ – ٤ سورة ص.

﴿وَحُـــشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَـــوْا عَلَـــى وَادِ الـــنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْـــكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٧-١٩)

وحُـــشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير - جمعاً حتماً بقهر السلطة - فهم يُوزعون لينضبطوا وينتظموا أوزاعاً لكلّ وازعة في القوّة تكاليف. حتّى إذا أتوا في مـــسيرة لجيشهم الجامع عالية على وادي النّمل قالتْ نملة لصحبها من هول ما أحست بـــه من وقع دفع القوى المتعاظم، قالت: يأيها، مخاطبة تنبّه النمل فتوصيهم أن يدخلوا مـــساكنهم، لجوءاً إلى حِماها الخفي في أحفار الأرض تؤكّد الحذر ألاّ يحطمهم هشماً بوطأة الأقدام الكثيفة المتدافعة حشراً وسيراً سليمان وجنوده، يفعلون بهم ذلك وهم لا يشعرون، وقد ذكرت ذلك الحكم عليه إما لنسبة الغفلة لهم دون إحساس برحمة على ما تحت أقدامهم من النمل الضعيف أو لوطأة منهم عامدة لا يبالون في نفوسهم بأذى مـــن يَدوسونه ضعيفاً على الأرض سعياً منظوماً بأوامر القيادة الدافعة العليا. فتبسّم سليمان ضـــاحكاً من قولها متذكراً إذ عُلِّم منطق الطير بما أولاه الله من علمٍ مُنادياً ربّه مُخاطباً له داعياً أن يزعه فتضبطه التقوى أن يشكر نعمته معرفة لجميلها لا يفتنه دونها متاعة سلطانه مهمـــا تعاظمـــت ولا يغفل عنها إذا تكاثرت لأنه تعالى هو الذي أنعم بها عليه وعلى والديه وهم الذين احتاجوا لها ولجوده عليهم بها، ورجاه التوفيق أن يعمل صالحاً يرضاه رضا الغنيّ عن فعل عباده إلاَ رضىً عنهم لرجائهم في طاعتهم وصلاحهم ما يعود خيراً علـــيهم مـــنه تعالى، ورجا أن يدخله ربه برحمته فوق استحقاقه بعمل صالح في عباده الصالحين الذين استقام نهجهم في الحياة كلها صالح نيات وأفعال فانطبعوا بالصلاح.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٢٠-٢١)

وتفقّـــد سُليمان عرض جنوده فقال: ماله لا يرى الهدهد، أَستره عنه ساتر وهو حاضر أم كان من الغائبين، وأعلن عزمه بنهج القائد الصارم في محاسبة جنوده لتأديبهم

عن أيّما فلتة من الحضور والانتظام، قائلاً: ليعذبنّه لغَيبته عذاباً شديداً واعظاً أو ليذبحنّه استغناءً عنه عاصياً زجراً لغيره، أو ليأتينّه، لَيَتقينّ الحساب، بسلطان مبين حجة اعتذار أو داعية واضحة بما يجعلها مقبولة.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢ – ٢٣)

فمكث الهدهد باقياً في غيبته غير بعيد من الزمان بعد الأمر الرّهيب من سليمان، فقال له عندما لقيه عائداً: إنه أحاط في سعيٍ له علماً بما لم يحط به سليمان مهما يكن علمه الواسع بغيبيّات وأن قد جاءه الآن من سبأ عاصمة مملكة في اليمن – مكان مأرب الحديثة – بنبأ يقين، خبر عظيم عالي الخطر محقق[1]. ذلك أنه وجد امرأة – اسمها المرويّ بلقيس بنت شراحيل – تملك الرعايا من الناس في سبأ وأُوتيت بأسباب شتّى من كل شيء يقوم به المُلك يومئذ هناك، ولها عرش عظيم، كرسي سلطان عظيم الهيكل والمادة مكلّل بما يزيّنه ويوقّره.

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٤-٢٦)

وجدها الهدهد وقومها كما رفع تقريره نبأه عنها – يسجدون ديناً للشمس إذ يعظّموها مخلوقاً بيّناً لهم يتزلّفون به إلى الله في الغيب خالقاً جليلاً متعالياً فوق الشمس لكنه لا يرى، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم إذ انفتنوا بالشمس وحسنت لهم بحب قضائها شهواهم ما يهوون كما أغراهم بها الشيطان فصدّهم عن السبيل الحق المستقيم في الحياة لا اتباعاً للشيطان بل بالتوجّه بالطاعة إلى الله، فهم لا يهتدون إلى ذلك الصراط المهتدي الهادف إلى الله بل هم في ضلال، ومضى يقول إن ذلك الصدود دعاهم ألاّ يسجدوا عبادة وخشوعاً لله في نهج حياتهم، الله الذي يتمكّن بعرشِ ملكوته

---

(١) في عواقب فتنة السلطان والثروة في بني إسرائيل وفي سبأ: راجع الآيات ٢– ٨ سورة الإسراء، وانظر الآيات ١٥ – ٢١ سورة سبأ.

العظيم من كلّ موجود مخلوق قيّوماً غيباً وشهادة، إذ يخرج الخبء المخفيّ الذي يطويه الغيب في السماوات والأرض يخرجه مشهوداً كالغيث والنبت مادة رازقة والوحي روحاً متنزّلة هادية، ويعلم ما يخفون - أولئك البشر العَبَدة للشمس الظاهرة المحجوبون بها عن التعبّد لله في الغيب المحيط بالغيب والمشهود وما يعلنون، أو (في قراءة) ما يعلنون هم مخاطبين من الهدهد بكلمة تذكير بالله عالم الغيب والشهادة لا في الأشياء وحسب بل في عبادة البشر، الله الإله الأعظم الذي لا يعرف ولا يوجد سواه لا إله إلا هو. ذلك الحقّ مهما يتّخذ المشركون آلهة دونه من مخلوقاته التي يوقّرون أو من ولده فيما يزعمون أو كفؤاً له مما يتوهّمون، هو ربّ العرشِ العظيم المُبدِع والمالك للخلق والمستوي على عرش عليهم عظيم، لا كعرش سبأ المحدود مهما تعظّم هيئته بل هو محور ربوبية وهيمنة وقيّوميّة عظيم المدى على كلّ الوجود المخلوق، يحوزه بلا شريك يدبّر أمرَه ويصرّف أحواله وحده لاسيما علوّاً على مَن يُدعى إلى الإيمان بذلك: الإنسان.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٧ – ٢٨)

قال سليمان للهدهد، وقد تجاوز في أمر ملامه أو عذره في غيابه إلى همٍّ بذلك النبأ وهو رسول داع للحق إلهاً واحداً معبوداً وقد بلغه ما في سبأ مذهب شرك قائم – قال له مخاطباً أن سيُنظره ويتحرّى ما قاله أصدق فيما روى أن كان من الكاذبين، إذ لا يجرؤ على التكذيب في ذلك الأمر العظيم إلا من هو ممّن هم ناهجون في قول الكذب. ومضى سليمان وقد حرّر كتاباً مرسلاً إلى ملكة سبأ، فقال للهدهد آمراً أن يذهب بكتابه هذا فليلقه من أُفق طيرانه إليهم ثم ليقم متنحّياً عنهم ولينظر ماذا يرجعون بعد تشاورهم من ردّ على الكتاب.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَن الرَّحِيم * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (٢٩–٣٢)

قالت الملكة وقد اطّلعت على الكتاب وجمعت ملأها للتداول في أمره: إنما أُلقيَ إليها هكذا من الهُدهُد رسولاً كتاب في صحيفة كريم، رسالة دعوة لا نذير غزوة. ومضت

تبـــيّن لهم ما في الكتاب فقالت: إنه من سليمان – بياناً منه في صدر الكتاب، وسليمان هو الـــذي كانـــوا يعرفونه ويتسامعون بخبره، وإنه في صميم محتواه: بسم الله الرحمن الرحيم، كلمة ابتداء مسنونة بذكر الله فائض الرّحمة العامّة ومُوليها خاصة وباسمه حُرّر الكتاب لأنه في سبيله، ذكراً يبدأ به كل مفعول مشروع لوجهه تعالى. وتلت ذلك الذكر كلمة وصية من سليمان كما قرأتها عليهم الملكة: ألاّ يعلوا عليه ويأتوه مسلمين، وذلك ألاّ يتعالوا على الدعـــوة لله بمذهب باطل يرونه هم الأحقّ، وأن يأتوه مسلمين، لما يدعو إليه. قالت هي – بعـــد أن قرأت الكتاب – منادية منبّهة للملأ أن يفتوها في أمرها بقول الرأي ذي الحجّة في أمـــرها رداً للخطاب في الكتاب، وقالت لهم: إنها ما كانت قاطعة أمراً فاصلة في شأن أو قضية عامّة ذات خطر حتى يشهدوا هُم مجلس التشاور ويخرجوا بالفتوى الفاصلة.

﴿قَالُـــوا نَحْنُ أُولُو قُوَّة وَأُولُو بَأْسٍ شَديد وَالأَمْرُ إِلَيْك فَانْظُري مَاذَا تَأْمُرينَ * قَالَـــتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعزَّةَ أَهْلهَا أَذلَّةً وَكَذَلكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّة فَنَاظرَةٌ بِمَ يَرْجعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٣-٣٥)

قـــال الملأ لملكتهم: إنهم أولو قوة وأولو بأس شديد، يذكّرونها بما يملكون من أدوات شدّة فعل جنداً وسلاحاً وسطوة ذات وقع عزماً وإيقاعاً فاعلاً. وأضافوا أن الأمر – أخذه وتدبّره وقرار الرأي فيه كيفما يكن الخيار– لها هي، فلتنظر ماذا تأمر، مصادَمةً هم أهل لها أم مـــسالمة جواباً للكتاب بالحسنى وهم سامعون طائعون. قالت لهم – رأي حكمٍ منها في أمر السلاطين عامّة – إن الملوك سياستهم إذا دخلوا قرية عادين غازين لا زائرين أفسدوها هـــباً وتخريباً بفعل سطوتهم لكلّ ما هو قائم صالح فيها وجعلوا أعزّة أهلها المتمكّنين فيها أذلّـــة بمعاملتهم عن يد ورهبة تحت وطأة الداخلين، وكذلك – كما قالت – يفعلون، سنة معهـــودة في أخـــلاق مُلكهم ومعاملات سلطانهم مع السلاطين الأُخر أو الأقوام في سائر القـــرى. وانـــتهت رأيـــاً في عزيمة فعل إلى أنها مرسلة بوفد رسالة إليهم – سليمان وملأ سلطانه – بهديّة هي عطيّة سمحة، فهي ناظرة بمَ وبأيّ شيء يرجع المرسلون.

﴿فَلَمَّـــا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمدُّونَن بمَال فَمَا آتَانيَ اللَّهُ خَيْرٌ ممَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بهَديَّـــتكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخرِجَنَّهُمْ منْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغرُونَ﴾ (٣٦ – ٣٧)

فلما جاء إلى سليمان الردّ، وهو كما رأت الملكة رسالة هدية - ما رضي وقال مصوّباً الخطاب إليهم وفداً: أيمدّونه بمال. ولعلّ الملكة بالغت في مقدار الهديّة وصنوفها مثل تهادي الملوك لتسري في سليمان خاصّة روح السلطنة على الآخرين فتكفّه عن نفسها. وتساءل سليمان كذلك - مستنكراً أن يُظن به ذلك وأن سيَهي عزمه بوقع الهديّة البالغة القيمة وذلك تحقيراً لهمّه داعية إلى الدين الحق وغناه متمتعاً من الله بفضل عظيم - فقال - معبّراً عن تزهّده في حاجة لمال بل هو ذو همّ يدعو إلى دين الإسلام لله مثل تلك الملكة وقومها هادياً لهم من شركهم بالله - قال لاستنكاره واستحقاره الهدية: إن ما آتاه الله من النبوّة والهدى والعلم والملك والجند والمتاع فضلٌ عظيم خير ممّا آتاهم هم من عرش ومملكة وبعض معاش. بل هم - كما قال مخاطباً لهم - بهديّتهم يفرحون، إن وجدوا مثلها أو ظنوا أنها ستكفّه عن دعوتهم أو الحملة عليهم تمتّعاً بها. ثم أمر كبيراً من وفد قومها رسولاً إليها منه سفيراً أن يرجع إليهم ويخاطبهم منذراً أن ليأتينّهم قَطعاً هو وجنوده بقوة لا قبل أو طاقة لهم بها مقاومة أو مصادمة وليُخرجنّهم من ديارهم أذلّة وهم صاغرون مهانون بلا كرامة ولا عزّة.

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٣٨-٤٠)

قال سليمان لملئه منادياً لهم منبهّاً متسائلاً: أيّهم يأتيه بعرشها قبل أن تأتيه هي وقومها مسلمين لسلطانه؟ كذلك أراد أن يستعمل قواه الغيبية الخارقة لمسنون أسباب النقل ليُحدث عليها أثراً بالغاً، لاسيّما الأمر يمسّ عرشها رمز عزّها ولتطمئن هي لقواه الروحية وراء العسكرية. قال عفريت، مارد قوي من الجن المسخرين أرواحاً من الجنّ لسليمان إنه سيأتيه بذلك العرش بسرعة خاطفة فائقة العَجَب قبل أن يقوم من مقامه ذاك مجلساً وإنه عليه لقويٌ يحتمل أثقاله أمين يوثق بحفظه، قال خارق للمسنون أبلغ

وهـــو الـــذي عنده علم من الكتاب ولعلّه من الملائكة التي أوتيت بمشيئة الله حظاً من كتاب قوّة الله المطلقة علماً لا يتيسّر إلا لأحد في عالم الروح يفتح له ﷻ مدّاً ويسخّره في أيـــد لسليمان - قال إنه آتيه بالعرش قبل أن يرتدّ إليه طرفه خطفاً فوراً في غمضة عـــين فلمّـــا رأى سليمان العرش إذ أنفذ الرّوح المكلّف المسخر له فعلته، رآه فور ما انفتحت عليه عينه مستقرّاً عنده ثابت أمامه بمادته ومثاله لا عارضة خيال، قال يُعاجل الاســـتجابة لِمثل ذلك المدّ بقوة غيبية فعلاً يستحيل في أسباب المشهود من سنن الفعل قـــال: هـــذا مـــن فضل ربّه الذي عرف أبعاداً منه قبلاً وقدّره، وقال - إذ أدرك أنه امـــتحان له يبلوه به الله أيشكر معترفاً بذلك المدى من الفضل أم يكفر لاهياً عن قدر الله أو ناســـياً ذلك القدر نفسه، مضيفاً أنه مَن شكر فإنما يشكر لنفسه لكسب راجعة الشكر إليه رحمة مزيدة من الله، ومَن كفر فإنّ ربّه الذي ربّاه وعلّمه وأراه فضائل شتى غنيٌ عن الشكر لا يضرّه الكفر كريمٌ يبسط نعمته المتباركة للشاكرين.

﴿قَـــالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدي أَمْ تَكُونُ منَ الَّذينَ لاَ يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَـــاءَتْ قيلَ أَهَكَذَا عَرْشُك قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتينَا الْعلْمَ منْ قَبْلهَا وَكُنَّا مُسْلمينَ﴾ (٤١ - ٤٢)

قـــال سُـــليمان لمـــن حوله من عاملين أن ينكّروا لها عرشها المجلوب من موطنه فيعرّضوه لبعض تغيير في منظره لينظروا هم بعُد أهتدي إليه تميّزه عرشها ذاته أم تكون مـــن الذين لا يهتدون؟ يصرفها عنه حتى إذا لاحظت اشتباهاً استبعاد جلبه هكذا من بعـــيد وقد تركته مكانه المأمون، كأنه يريد أن يبتلي فيها هل تؤمن بمدى قدر الله في الغيب هكذا الذي أمدّه بعلم منه بالغ، هل تؤمن بالحق قدراً غيبياً ولو اشتبهت عليها الأمـــور لأول وهلـــة؟ قيل لها من قِبل صحْب سليمان سؤالاً مشيراً إلى العرش الذي اعتـــراه بعض تنكير: أهكذا عرشها؟ قالت كأنه هو، المثال واحد لم تأخذها الدّهشة لتضلّ وتظن أنه خيال لا حقيقة أو يغلبها الكفر بالغيب فتستبعد الأمر أن يحصل واقع يخـــرق مـــسنون الأســـباب وتحسب أنه تمثيل لهيئة عرشها. وكأنّ سُليمان أُعجب بما أُوتيت هي من حسن نظر وتقدير لأسباب فيها غيب فأضاف حامداً ربّه عمّا آتاه هو مـــن فضل ورجع إلى نفسه بعد هذا الكسب العظيم فقال إنهم أُوتوا بقدر الله متصل

العلم بالغيب من قبل فعله هذه المرة من عرض لجلبه العرش هكذا وإنهم آل داود كانوا من قبل مسلمين مذعنين لأقدار الله الغيبيّة كيف ما وردت لاسيما مداً لهم.

﴿وَصَــدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٣ – ٤٤)

ومضى سليمان وقد هيّأ له نذير المراسلة الأسبق ثم زيارتها إليه وتبيّنها من مشهد عرشـــها أن له وراء السلطان بعداً في الهيبة والوسع الممتد في أسباب الغيب فعلاً – هيّأ له أن يخاطبها بأصول الحقّ في دعوته لتلين وينشرح صدرها. وتوفيقاً من الله بلغ بها ما يـــريد، فانضاف لما سبق من صلة بها أن صدّها ما كانت تعبد من دون الله – الشمس الـــتي كانت في قومها تسجد لها وتحيا بذلك كما يزيّن لها الشيطان. إنها كانت بسابق عهـــدها كـــذلك: من قوم كافرين غامرين لفطرة نـــزعة البلوغ إلى علياء الله الخالق مقصد تعبّد خالص.

قـــيل للملكة من صحْب سليمان في سياق إجراءات الضيافة: أن تدخل الصرح حـــيث يستقبلها سُليمان في مجلسه السلطاني، فلما رأته حسبته لجّة من الماء غمرة كما عهدت في ضِفاف البحر فعزمت على خوضه لتُقبل على سُليمان وكشفت عن ساقيها لـــئلا يبتلّ ثوبها الضافي، قال سليمان وهي بين يديه مقبلة: إنه صرح، قاعة في صحن ديـــوان القـــصر للاستقبال ممرّدٌ مسوّى من قوارير ألواح زجاج يشفّ عن الماء تحته. قالـــت، وقد تنامى في نفسها الإيمان بدعوة سليمان بتواتر وقع تطوّر الأمور معه حتى أتمّـــه مـــا رأت مـــن مشاهد العلم والوقار في قصره – قالت مباشرة بالغة الصلة بالله والندامة على سابق الإشراك في دينها فالإذعان للحق الأخلص الجديد عليها من الذي هـــداها – قالت بعد نداء لربّها أنها ظلمت نفسها قبلاً وأسلمت الآن مع سليمان لله ربّ العالمين.

﴿وَلَقَــدْ أَرْسَــلْنَا إِلَـــى ثَمُــودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَن اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَان يَخْتَــصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٥ – ٤٦)

رجـــع الذكر- بعد سيرة سليمان حيث ظهر الدين في الأرض وانتشر- إلى قصة ثمـــود عاداً بعد الأولى خلفاً من نسل نوح كانوا مقيمين في واحات الصحراء في شمال الجزيـــرة العربية الشرقي. وإنما تواصل الذكر لأن السورة لا تسرد من قصص الأنبياء المتعاقـــبين إلا مـــن حيث كانت الرّسالة بآيات الوحي معزّزة بآيات أقدار من الغيب معجـــزة تخـــرق المطبوع من السُّنن - رسالات موسى وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام.

فانـــضاف هنا ذكر ثمود قوم صالح عليه السلام الذي أرسله الله بأقدار اصطفائه ومدّه وأيّـــده للمرســـلين لـــيقوم فيهم وهو منهم أخوهم برسالة آمرة أن يعبدوا الله، عبادة خالصة لا ينازعهم فيها شِرك آلهة تتخذها أعرافهم أولياء يقرّبوهم إلى الله زلفى، وألاّ ينفتـــنوا عن تقوى الله بمتاع الجنات والعيون والبيوت كهوفاً في الجبال لروح المناخ - كمـــا صوّرت حياقم المفتونة سورة الشعراء السابقة كتاباً وتنـــزيلاً. فإذا القوم لوقع الدعـــوة لتوحيد الله ربّاً فريقان يختصمون، لم يُسلموا كما يسلم لسليمان قومه وجنده المعهـــود إسلامهم وكما أسلمت من بعد ملكة سبأ وقومها من بعيد(١). قال سُليمان مـــنادياً لهم قوماً له: لِمَ يستعجلون بالسيئة - مجيء عقوبة النذير الذي صحبته الدعوة إلى الهُدى - قبل الحسنة بشارة الخير الذي تعد به الرسالة عاقبة تحقّ للعابدين الخالصين لله. ومـــضى يترجّاهم: لولا يستغفرون الله من الكفر غير مؤمنين ومن الإنكار لنذيره الآجل مستعجلين وقعه حاضراً كفراً بالغيب البعيد الآجل. ومضى يمنّيهم إن استغفروا الله تائـــبين أن لعلّهـــم يُـــرحمون مـــنه تعالى خيراً ولا يؤخذون بأقدار بأسه عقاباً ممّا يستعجلون.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٧)

قالـــوا - ثمـــود يخاطبون صالحاً ردّاً وصدّاً لدعواته ورجاءاته - قالوا إنهم اطّيروا تـــشاؤماً به ومن معه إذ فرقوا أمرهم وخرجوا على معروف دينهم ومذهب حياتهم.

---

(١) في سيرة صالح عليه السلام والتطيّر به والمكر وإنكار آياته ونذره فالعاقبة: راجع الآيات ٧٣ - ٧٩ سورة الأعراف، والآيات ٦١ - ٦٨ سورة هود، والآيات ٨٠ - ٨٤ سورة الحجر، والآيات ١٤١ - ١٥٩ سورة الشعراء.

ذلـــك كمـــا تتشاءم العرب وهم منهم في تقاليدهم العُرفية بتنفير الطير إن استقل ماراً ذات اليـــسار فالمـــشأمة. قـــال لهم صالح مخاطباً لهم: إن طائرهم – وهو حظّهم في اصـــطلاح اللـــسان – عند الله وقدره في الغيب، لا ظاهرة فأل أو شؤم مشهودة، بل هم – كما يخاطبهم – قوم يُفتنون دون النفاذ من ظواهر الطبيعة الفاتنة حولهم إلى الله خالقها ومصرّفها.

﴿وَكَـــانَ فـــي الْمَدينَة تسْعَةُ رَهْط يُفْسدُونَ في الأَرْضِ وَلاَ يُصْلحُونَ * قَالُوا تَقَاسَـــمُوا باللَّه لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوَلِيِّه مَا شَهِدْنَا مَهْلكَ أَهْله وَإِنَّا لَصَادقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (٤٨–٥٠)

وكـــان في المديـــنة الحِجر من أكابر مجرمي قلبِ حَضَرِها تسعة رهط – تمام عدّ لمـــصطلح الكلمـــة – كانوا يفسدون في الأرض بكل وجوه التخريب والعدوان ولا يـــصلحون بـــشيء من التعاون في الجماعة لإعمار الخير. وقد أثار ثمودَ كلها فعل مَن تعاطـــي نُـــصح العـــدوان على الناقة التي طلبوها آية فظهرت تحتكر فيهم شرب يوم فأنكـــروها فقتلها صاحبهم، فأنذرهم صالح بعقاب من الله بعد ثلاثة أيام. قال الرّهط وهـــم قادة القوم لاسيما في شأن كل كيد عام – قالوا أن يتقاسموا مُحالفة على عهد بيـــنهم بالله – كلمة يتخذونها لغواً في مصطلح القسم عقداً لليمين، أن ليُبيّتُنّه وأهله – ليُغيرُنّ ليلاً عتوّاً ليباغتوه ويقتلوه وزوجه، ثم – من بعد إذا فشا خبر الأمر عند الصباح لـــيقولُنّ لـــولي أمره الذي يتّبع الثأر والقصاص لدمه إنهم ما شهدوا مهلك أهله القتلى حـــتى ليـــشهدوا علي من أتى بالفعل فضلاً عن أن يتبرّأوا منها، وإنهم ليؤكدُنّ عندها قولاً: إنهم لصادقون في الشهادة التي يؤدّونها بيّنة في الأمر. ومكروا مكراً بذلك التدبير كيداً بالغاً خفياً، وتلاه – كما يقول الله متكلّماً بجمع من أقدار علمه وفعله المُحيطة – أن مكر الله مكراً يوازيه بل يسوّيه جزاء من الغيب، وهم لا يشعرون بما يستقبلون من مستور عنهم في الغيب من عقاب لما فعلوا بالناقة وينوون فعله بصالح وأهله.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ مَكْرِهمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعينَ * فَتلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَـــةً بِمَـــا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥١–٥٣)

الوصـــيّة المتـــرتّبة على تلك الواقعة أن ينظر الناظر ليرى متدبّراً كيف كان عاقبة مكرهم أن الله بأقدار قضائه النافذ دمّرهم – كما يقول – الرّهط وقومهم أجمعين. لم تُـــصِب العُقـــوبة الـــذين أوقعـــوا الظلم خاصة تدبراً لمكر الفعل فضلاً عمّا سبق من التحـــريض مَن قتل الناقة، بل عمّت القوم لأنهم كانوا يتواصون أجمعين بالحملة الظالمة عَدلاً عن الإيمان ودعوة صالح الحق وبالفساد تعويقاً وخراباً للصلاح. فتلك بيوتهم في الطـــريق العـــام للناظر في آثارهم، تلك بيوتهم خاويةٌ بما ظلموا. إنّ في ذلك لآية بيّنة تشهد واقعاً على قدر الغيب النافذ قضاؤه وعلى عاقبة الظلم كفراً بالغيب كلّه وبنعمة الله المـــشهودة في الـــرزق فتنة بها ومكايدة لكلّ داعٍ للحق – آيةً لقوم يعلمون صدق الحـــقّ في الغيب أن الله إن كفر عبادٌ له به هادياً رحيماً فهو المنتقم الجبّار. وأنجى الله بأقـــدار قـــضائه العادل الذين آمنوا وكانوا يتّقون الكفر والظلم – صالحاً ومن معه – أنجاهم من المكر ومن وقع أقدار الدّمار الشامل.

﴿وَلُـــوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (٥٤ – ٥٥)

وتـــأتي تالية في قصص الرّسل الذين يدعون إلى الإيمان بالغيب بالله والحياة بهدى رســـالته ابتغاء الآخرة والذين يضطرون إلى تعزيز آيات الوحي الهادية بآيات قدر نافذ خـــارق لمـــا هو مطبوع معتاد شهادته، لعلّها تكون آية قارعة للذين يكفرون بالغيب والوحـــي ويفتـــنهم واقـــع الحياة ولا ينذرهم إلا مفعول العاقبة المشهود. تأتي قصة لـــوط عليه السلام رسولاً في قومه في قرية سدوم وجوارها شمال الجزيرة العربيّة. وكان لوط قد أخرجه الله من العراق ناجياً هو مع عمه إبراهيم عليه السلام ثم أرسله – بأقدر الاصطفاء للنـــبوّة والاختيار في حيث الخطاب – إلى قومه إذ قال لهم مخاطباً متسائلاً مستنكراً: أيأتون الفاحشة؟ مما كانوا يفعلون بالذكور سنّة بيّنة الممارسة إذ يفعلونها وهم يبصرون الأمـــر بياناً لا يكتمونه خَجَلاً أو خشية تعيّر بل يجاهرون به حتى في ناديهم. أيأتون – فعلاً – الرّجال عن شهوة أسوأ من شهوة البهائم – من دون النساء اللائي خلقهنّ الله لقـــضاء شـــهوة المناكحة المشروعة وجعل بينهنّ وبين أزواجهن الذّكور مودّة ورَحمة وخـــصّبهنّ بما يبشّر من حمل الولد؟ بل – كما حكم الله عليهم لخُلُقهم وخاطبهم به

لوط – هم قوم يجهلون، جهلاً بسنن الله وصالح بني الإنسان ممّا هو معلم فطرة وشرعاً وعقلاً.

﴿فَمَـــا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آَلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّـــرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٥٦–٥٨)

ما كان جوابهم – قوم لوط المترتّب على مساءلته لهم – إلاَ أن قالوا لأنفسهم أن يُخـــرجوا آل لوط من قريتهم ليعزلوهم عنها بما يتطهّرون به تنطعاً. فأنجى الله بأقدار قـــضائه وفعلـــه النافذ لوطاً وأهله إلاَ امرأته قدر الله أن تكون من الغابرين الباقين في القرية. وقد جاء النذير من الملائكة بارحة العقاب النازل فآثرت هي قومها التي كانت عـــوناً لهم فيما يفعلون فقضى الله عليها وقدَر أن تمضي معهم في بقيّة الغبار من مرور الرياح وأُوصي لوط ألاَ يلتفت إليها مغادراً القرية قرية العقاب. وقد انضاف إلى رحمة النجاة التي تقدَم ذكرها لأنها سبق البشير بها ليلاً من الملائكة ولأن ذلك الذكر بشارة للمؤمـــنين الصابرين أن يستبشروا بين يدي أيّما نذير بسوء قادم، انضاف أن أمطر الله بأقـــدار قـــضائه العادل وأمره المفعول على قرى لوط – لا لهم – مطراً من الحجارة المتزلـــزلة – فـــساء مطـــر المُنذرين، لم يتنـــزل عليهم من السماء ماء غيث طيب بل انقلـــبت عليهم الجبال فأُتفكت القرى مدفونة تحت مقذوفات الحجر، إذ أعرضوا عن الهدى المتنـــزّل ليهووا في هاوية الضلال.[١]

عموم المعاني (الآيات ٧ – ٥٨):

أول المذكورين من الرّسل السالفين في هذه السورة موسى عليه السلام الذي بقي تراث كـــتابه والـــثقافة الدينية لخلفه بني إسرائيل هو الحاضر من الدين الكتابـــي في الأرض

---

(١) في ســـيرة لوط ودعوته ضد الفاحشة وتحذيره بالإخراج وإهمال نذيره فالعاقبة: راجع الآيات ٨٠ – ٨٤ ســـورة الأعراف، والآيات ٧٧ – ٨٣ سورة هود، والآيات ٥٨ – ٧٧ سورة الحجر، والآيات ١٦٠ – ١٧٥ سورة الشعراء، وانظر الآيات ٢٨ – ٣٥ سورة العنكبوت، والآيات ١٣٣ – ١٣٨ سورة الصافات، والآيات ٣٣ – ٣٩ سورة القمر.

الوسطى من العالم في بيئة غافلة عن الغيب يسود فيها الإشراك ديناً متعلقاً بالمشهودات والانفـتان بحاضـر كـسب الدنيا متاعاً والهويّ في فساد من الحياة والانفعال بعاجل أسـبابها وعواقـبها المنظورة. ولئن تلقّى الرّسول الخاتم ﷺ القرآن كتاباً خاتماً لآيات الوحي وهدى لكل الناس والحياة وبشارة ونذارة بآجل العواقب في الآخرة، فإنما تلقّى موسى كلاماً، تكليماً مباشراً من الله – آية أوقع على النفس في بيئة الثقافة المادّيّة وإن سمـع الله لكنه لم يره لينظر إليه. ولأوَل الرّسالة من تعريفه بذات الله ومنهج العبادة له وحده أُوتي موسى آيتين لنفسه ولأُمّة خطابه قدَراً مشهوداً من عصاته منقلبة كأنها حيّة على الأرض ويده بادية من جيبه بيضاء من غير سوء. وكان الخطاب بتلك الآي لأمّة مـن فـرعون وقـومه تحتسب الغيبيّات كلها سحراً يوحى الظنون ويسترهب مرأى الناظـرين، فرموا آياته تلك بذلك وفتنهم ما عهدوا من حياة الفسق والفساد والظلم عـن الإسلام لله ولرسوله بل جحدوا الآيات تعمُّداً وإن سكن وقعها حقاً في أنفسهم وحملـوا على الرّسول لئلا تنتشر دعوته بل يُقضى عليه. والعاقبة الحاقّة عليهم لم تكن آجلـة تنتظر إلى يوم القيامة بل وقعت على الظالمين وأُنجى المؤمنون عظة وعبرة للتدبّر من بعد. ولكن الرّسول الخاتم إنما تلقّى الوحي ولم يتلقّ آية معجزة وإن طُولب بها وما لقـي المعرضون عنه وهم مستكبرون يحملون عليه عاقبة هلاك عاجلة وما عاجلهم هو بدعـوة عليهم كذلك فما استفزّه تحديهم له واستعجالهم غير مصدّقين. وإنما اقتصرت آيـات الله في الرّسـالة الخاتمة على كلمات وحى القرآن من الغيب والبشير والنذير بالآخرة. ذلك لأنها رسالة خالدة لا لمن حضر وشهد آيات فيها واقعات معجزات بل آيات الرّسالة ووعد العواقب فيها كلّه من الغيب وفيه موحى أو آجلاً.

وداود وسـليمان (عليهما السلام) تلقّيا علم النبوة ووحي الهداية والرّسالة في جماعة في أرض وسـلطان وحـياة مؤسسة عليها. لكنهما تلقّيا فضلاً عن ذلك من الله إذ علّما منطق الطير والنمل وتسخير الجن والرّياح وفعل المعجزات مثل التراسل بالطير ونقل شيء كعـرش بلقيس في طرفة عين. وذلك ما لم يؤتَ الرسول الخاتم ﷺ ولا أحد من العالمين. وقـد تولّى داود بعد قتله جالوت تمكناً في ملك الأرض المباركة وورثه ابنه سُليمان ليكون جيش السلطان في عهده حشداً من الإنس والجنّ والطير ولتمتد علاقات سلطانه برهبة إلى

الخارج ولتتطوّر حضارة الصناعة في معماره ومنتجاته. وكان آل داود يعمَلون شاكرين لله غـير مفـتونين. ذلك بينما لم يؤت النبـي الخاتم فضلاً عن الكسب الطبيعي الزّهيد من القـدرات وعـن رحمـة وحي الهداية من علم الغيب. لكنه كان في مكّة يهيّئه الله لتولّى الـسلطان ليـتمّ الدّين كلّه هدى دعوة وشرع سلطة مجاهداً فتن قومِه المذهبيّة والسلطانية وماهداً لرقى العلم والإعمار في الحياة بعده بلاء للمؤمنين الصادقين الصابرين. والدعوة في رسالات الأنبياء واحدة رسالة تطهير من الإشراك وإخلاص لتوحيد الله معبوداً. لكن عند سـليمان وسـائل السلطان في الدعوة لاسيما الخارجية لم تكن طوعية قاصرة على البلاغ وحـسب بـل أرسـل لملكة سبأ وقومها أن يأتوه مسلمين لا يعلون عليه بل أرهبهم أن سـيأتيهم بجنود لا قِبَل لهم بها ويُذلّهم صاغرين ليسلموا له ولو كرهاً. وتلك فتنة سلطان حوسـب عنها قبلاً الأب داود لّما جاءته الملائكة في محرابه كأنهما خصمين في قضيّة قسمة نعاج فقضى بينهما بالقسط واعظاً ثم أدرك أن الأمر يعنيه هو إذ فتن بحب احتكار السلطة في كـلّ الـبلاد فاستغفر ربّه وأناب إلى الله التوّاب. وكانت حرّية خيار التديّن عند دعوة سـائر الأنبـياء منذ نوح شرعاً متواتراً كما يروي القرآن، ولكن فتنة السلطة بدت في آل داود بل في معاملة سليمان مع الهدهد ينذره لغيبته بأن يأخذه بالعذاب أو الذبح إن لم يأتي بعـذر مبين. ذلك بينما أوصى النبـي الخاتم منذ عهده في مكة بأن يشاور ويرفق بالرّعيّة ولا يكـون فظّـاً غليظ القلب ولو على الجنود المقاتلين معه ولو تحسّروا على خسارة في الجهـاد. حتى ملكة سبأ كان لها حظ من الهداية أن تشرك ملأها وتدير الشورى معهم في أمـر السلطان وإن كان فيهم إيثار لعرض القوة والاستسلام لأمرها كيفما كان. وكانت تؤثـر الـسلام مع السلاطين الآخرين وتعرف خلقهم في النّزع لاقتحام البلاد وإفسادها وإذلال أهلها وتؤثر كرم التراسل بالحسنى وسط علاقات التهادي لا نذر الحرب. وكانت تلـك – من وراء باطل شركها – عبرة في مُمارسة السلطة بالحسنى على الرّعيّة والعالمين، تذكرة في قصتها وقصة سليمان تهيّئ الرسول أن يعمل بهدي متواتر في القرآن الذي يوحى إليه حين يُبتلى بالسلطة – تذكرة له ولسائر الخلف من المؤمنين القائمين أو القادمين ابتلاء بالسلطان. والعاقبة في قصّة سليمان وملكة سبأ أنها أسلمت وقومها لله طوعاً لا كرهاً وإن كانـت قد انفعلت هداية بالآيات المعجزة بعد رؤية عرشها منقولاً وبما رأت من فضل الله

علـــى ولاة الـــسلطة المؤمنين مثل صرح سليمان وقدراته، والحَسَم كان لصدّه لها بدعوة المجادلة بالحقّ لتهجر شركها وتُسلم لله ربِّ العالمين.

وفي هـــذه السورة انتهى عند سليمان نبأ سلطان بني إسرائيل. لكنه كما ذُكر في سور أُخرى تعرض لأن أخذته فتنة الفساد والتعالي في الأرض فجاءهم الغزو والخراب والإخــراج مــن الأرض مثل ما جرى لسبأ بعد الانفتان بالزّرع المرويّ كفراً لا حمداً لــنعمة الله، إذ جاءهـــا انهـــيار ســدّ مأرب وتفرّقت أيدي سبأ عظة في عقابيل فتنة السلطان، وأيّما ذكر لسليمان وبني إسرائيل وسبأ وسدّ مأرب عظة للخالفين من ورثة رسالة الهدى القرآنية.

أما صالح عليه السلام فقد جاء رسولاً لقومه ثمود الذين كانت بيئتهم عربية اللغة وديارهم آثارهـــا يراها العابرون على الطريق نحو الشمال الشرقي من الجزيرة العربية. وهو أيضاً دعا إلى عـــبادة الله لا مـــا كان يعبد آباؤهم وإلى حمده أن بسط لهم زرعاً وإعماراً وألاّ ينفتن بذلك الناس دون ذكر الله المنعم وتقواه في المتاع. لكن المجتمع كان واهي الوحدة فإذا هم فريقان يختصمون بين مؤمن وكافر تمثيلاً لطبقتين بين المستضعفين الذين آمنوا والمستكبرين المفـــتونين بالمتاع وما أغنتهم رسالة الهدى من الغيب بل كانوا يريدون آية مشهودة معجزة تـــصدقها، فجاءتهم ناقة لها حكر شِرب، وكانوا يستعجلون النذير فقتلوها لا يبالون بوعيد الأيـــام. وإذ كانوا يحملون على صالح إذ جاء برسالة من الغيب ودعوة لتبديل نهج حياتهم في ســبيل إصـــلاح تآمروا عليه ليلاً ليقتلوه وأهله. وكذلك كان قوم الرّسول الخاتم كان كبراؤهم مفتونين بأموال تجارتهم وجاه قريتهم وسلطانهم ومشركين مستمسكين بتقاليدهم الـــصنميّة وكـــان فيهم من يريد الكيد بالرسول ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه. العاقبة لقوم صـــالح أن أتـــاهم ما استعجلوه وحقّ عليهم عقاب ما فعلوا بالناقة وما أفلح مكرهم على صـــالح بل دمرتهم ريح صرصر. إن في ذلك موعظة لِمَن يستعجل دون نذير الغيب الآجل ولا يـــصدّق الانتظار للآخرة بل يكون نهجه ألاّ يتعظ إلاّ بعاجل عقاب في حاضر الحياة، ذلـــك إن لم يكن عليه قاضياً ولم يسر العظة إلاّ في الخلف. أما الرّسول الخاتم فما كان أن يـــأتي بآية معجزة مهما تطلّبها قومه ولا استعجل بدعاء الهلاك الحاضر عليهم مهما تحدّوه أن يقـــع، غير مبالين بنذير منه عاجل أو آجل. فالدعوة الخاتمة هي للناس كافة الحاضرين

والخَلَـــف والحياة بهديها وقدرها ابتلاء وإمهال وقد يعترى المُعْرضين عن الحق فيها عواقب بأســـاء مسنونة لمثل سيرهم أو يعتري ذلك المؤمنين ابتلاء لصبرهم ولكن العاقبة الحاسمة إنما تقع حاقّة يوم القيامة.

أمـــا أمر لوط عليه السلام في قومه فقد كان في قراهم الباقية آثارها على طريق رحلة الـــشّتاء والصيف شمال أمّة الخِطاب الأُولى للرسالة الخاتمة. ودعوة لوط لم تقتصر على أصــــل الإيمان بالله وتقواه بل تصوّب الهدى لتطهيرهم من كبيرة الفاحشة في خُلُقهم. وهـــم أصـــروا عليها عرفاً مجهوراً فعاله وحملوا على لوط لإخراجه من الأرض ما دام يتنطّع عليهم بنـــزع التطهّر المزعوم. وما همّهم نذيره ولا نذير الملائكة المشهودين بين يدي بطشة بهم قادمة بل تماروا بالنذر. وصحبتهم العاقبة خارجاً ناجياً منها لوط وأهله المؤمـــنون وغمرهم الزلزال المُمطر عليهم حجارة. وذلك فيه بشرى وعظة حتّى لمن لا ينتظـــر إلا عاجل العواقب دون الآخرة. والحقّ أن العاقبة الأحقّ الأعمّ هي عند الله في الآخـــرة مهما يمدّ للمُعرضين عن الحقّ المفسدين في الحياة الدنيا. وهكذا كانت دعوة النبـــي الخاتم، فما كانت عاقبة المعرضين عاجلة هلاك أو انهزام يكرههم على الدخول في إخـــاء المـــسلمين حتّى بعد ضربة من القرح أصابتهم عند محاولتهم في معركة بدر إسعار الحملة ضد الإسلام حرجاً. ولا كان القرح الذي أصاب المسلمين في جبل أحد كسراً لأمرهم بل تداولت أيام الابتلاء منذ مصابرة المؤمنين لأوّل الدعوة عهداً طويلاً، المؤمنون منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا والذين كفروا يتدهور أمرهم حـــتى عهـــد الفـــتح للإسلام في تلك الدّورة في سيرة الدهر، وقد تتعاقب دولة الحقّ والـــباطل حسب ضعف المؤمنين وقوّة بأس الكافرين وإنما الفرقان والفصل الآبد يوم القيامة يمايز المفلحين والخاسرين.

ترتيل المعاني (الآيات ٥٩ – ٩٣):

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩)

يـــأتي هـــدي الآيـــات التالية في السورة اتعاظاً بما سلف ذكره من مصائر أقوام المرسلين وقائع هلاك إلا من أنجاه الله منهم مؤمناً إذ كان مذهبهم إشراكاً بالله لأنه في

الغـــيب، وذلك كقوم فرعون وثمود وسدوم، أو من بقي منهم آمناً متمتّعاً لأجل لأنه ثـــبت علـــى الهـــدى ولّمـــا تأخذه الفتنة وعاقبها وأولئك بنوا إسرائيل في عهد داود وسليمان.

وتذكراً واتعاظاَ واعتباراً لذلك كله الوصية الأساس للرسول الخاتم ﷺ أن يعرِف ويقول شاهداً أن الحمد والشكر كله لله، ويرفع الفضل كافة له تعالى بما يستغرق الثناء لـــه وجـــوداً أبلغ للكمال ومصرفاً لأصول الأوضاع والأسباب حول الإنسان في بدء الخلـــق وإنـــــزال النعمة والعلم وفي إيتائه الهداية في كلّ حياته الدُّنيا القاصرة برحمة الوحي وتقديم البشارة له والنذارة فيما يستقبل من آخر الحياة في الأبد. ليقل الحمد لله ثم ليلقَها كلمة دعاء يحقَ ويُرجى منه أن سلامٌ على المرسلين – مثل السابق ذكرهم في السّورة – الذين اصطفاهم وفاءً لتعهّده إمداد بني أدم برسالات الهدى منذ انحجابه عن الغـــيب وخـــروجه من الجنة إلى الأرض الدنيا دار الابتلاء بالمشهود المشتهى والزين وأسباب الظاهر والحادث من موجودات مخلوقة دون الغيب وحقائقه وبالباطل الحاضر دون المآل الحقّ الموعود في الغيب الآجل. سلام عليهم تحيّة زكيّة من الذين يذكرونهم تقديراً لما أدّوا من أمانة بلاغ الرسالات وتحقيق تكاليفها وصبروا على البلاء وشكروا الله على المدّ والأيْد والفضل والعاقبة والعفو. وسلام عليهم من الله دعاء رحمة يطمئنون بها لا يراودهم ريب فيما هم فيه مهما يتعسّر عليهم أمرهم ولا فيما ينتظرون من مآل، لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون إذ كلّفهم الله فلا خُذلوا ولا خاب فيهم عهد فعند الله يـــوم القـــيامة هم المصطفون الأخيار الشهداء على الآخرين وهم في درج نعيم عال ورضوان من الله أكبر.

والـــسؤال الفاصل بين العباد المائز بينهم في خيار حياتهم هو: آلله خير ربّاً واحداً أم أربـــاب متفـــرقون كما يتّخذ مختلف عباده لا يضاهئونه ملكاً، أم ملوك لكل منهم شِرك من السلطان على أوليائه هم في ذلك متشاكسون؟ آلله إلهاً متعالياً أم آلهة يتعاظم بعـــضها على بعض لو قاموا لفسد نظام الخلق الموجود؟ وأمة الخطاب الأولى بالقرآن خاصـــة مـــا كانـــت قـــبلاً تتخذ إلا أرباباً شتى لكلّ رمز صنم أو وثن وشعائر تعبّد وعكوف متكافئين وأولياء على عبّادهم كل منهم يتولّى حظّاً من مقاصد حياة رعيته

تُرجّـــي منه منافع وتُتّقى به مضار خواص، وآلهة يزلّف بعضهم إلى بعض أو يعلوا عليه والداً أو يتخذ دون الله الرب الأعلى الأبعد في الغيوب شافعاً لديه أو وكيلاً. إذ كلهم وإن أشـــركوا عرفوا الله الخالق الطابع المالك للكون – بقيةً من أصل ملة أبيهم إبراهيم أو خاطـــراً مـــن فطرة الإنسان وعرفوه خاصة عند الملمات الملحّة من الحاجة ولكنهم خلطـــوا ذلك إذ أشركوا به ما دونه من مقدّسات أو غفلوا عن ذلك في الحياة واتخذوا آلهتهم أهواءهم.

﴿أَمَّـــنْ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ منَ السَّمَاء مَاءً فَأَنْبَتْنَا به حَدَائقَ ذَاتَ بَهْجَة مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئلَهٌ مَعَ اللَّه بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدلُونَ﴾ (٦٠)

أمـــا يـــشركون خـــير أم الله؟ هو مَن خلق السموات والأرض وأنـــزل لهم – مخاطـــبين – من السماء ماء فأنبت بها بأقدار سقي فإحياء فإخراج من الأرض حدائق مـــزروعة يحـــدق بهـــا محيط من الشجر ذات البهجة ومسرّة لألوانها وظلالها وثمارها المخـــتلفة، ما كان لهم دون أقدار الله التي طبعت سنن الإنبات أن يُنبتوا هم شجرها. أإلـــه مع الله في ذلك كله وبعد تأمّله؟ بل هم قوم يعدلون بالله مالا يكافئه وما ليس له بنصيب في الخلق للسماوات والأرض والماء والإنبات، فأنّى الاستواء والتعادل.

﴿أَمَّـــنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئلَهٌ مَعَ اللَّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٦١)

أإلـــه آخر خير أم الله؟ وهو مَن جعل الأرض قراراً للإنسان لا تضطرب به وهي تجـــري لـــدورتها في فلكها حول الشمس، وجعل خلالها أنهاراً من المياه للحياة والنقل وجعل لها رواسي لئلا يتزلزل فرشها بالإنسان سطحها كله الذي يحيط بباطنها المتلهّب المتفجّـــر المتفـــيّض. وجعل بين البحرين حاجزاً ليتهيأ وجه الأرض عوجاً وأمتاً ووداناً للأنهـــار وحواجز بينها لتنماز طبائع المياه الحلوة والمرة وحيوانات المياه. أإله مع الله في تقديـــر ذلـــك وتسويته؟ بل أكثرهم – أولئك المشركون– لا يعلمون عن سنن الله في الأرض نعماً عليهم ما يهديهم لتوحيده.

﴿أَمَّنْ يُجيبُ الْمُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَئلَهٌ مَعَ اللَّه قَليلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢)

أإلـــه أخـــر يُشرك به معبوداً من هؤلاء المشركين يصّرف شؤوهم وحاجاهم الملحّـــة؟ أم الله خير؟ هو ﷻ مَن يُجيب المضطر منها إذا ألحّت عليه حاجته اللازمة الـــضاغطة، وكلهم إذا أصاهم فزع لا يذكرون إلاّ الله ليجيب الاستغاثة. وهو مَن يكشف السوء فهم كذلك إذا ضاغطتهم مصيبة سوء لجأوا إلى الله وحده. وهو مَن يجعل أولئك - والخطاب لهم - خلفاء الأرض إذ يكلون له تعاقبهم ذرّية أو تمكناً في الأرض خلائف لاسيما أهم عرضة لحذر الإخراج. أهم كلهم يكلون ذلك إلى الله. أإلـــه آخـــر يتّخذونه لذلك مع الله؟ قليلاً ما يتذكّرون ذلك التفرّد كله لله في رعاية حاجـــاهم الـــبالغة الهمّ عليهم والأخطر شأناً، يتذكّرونه ساعات الحَرَج ثم كثيراً ما ينسونه ساعات الفرج بعد نجاة المضطر وانكشاف السوء واستتباب الأمن وانبساط الذريّة في الأرض.

﴿أَمَّـــنْ يَهْـــدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٣)

أإله آخر خير أم الله؟ مَن يهديهم - خطاباً لهم - في ظلمات البرّ والبحر بالسبل والمعـــالم في الأرض والأفق والنجوم، ومن يُرسل الرّياح تجري نشراً تصرّف السحاب وبشرى بين يدي رحمته إذ تسوق سحاباً ينـــزل عليهم حياة ماء وإنباتاً للأرض وريّاً لمـــسقاهم؟ أإله مع الله يُرجعون إليه ذلك من تصريف الطبيعة ورسمها في الكون حولهم تـــسخيراً لنفعهم؟ بل هم يعرفون ذلك لله فوق ما يرجون أن تفعل هم آلهتهم الضعيفة العاجـــزة. تعالى الله ببأس قوّته ومدّ نعمته عمّا يُشركون به من آلهة هم يعلمون أها لا تبلغ في ذلك كفاء له مستوى من القدر أو غنى عنه.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦٤)

أإله آخر حقيق أن يشرك مع الله؟ أم يتنـــزّه على الشريك اللهُ الذي يبدأ الخلق في عرق المخاطبين وفي نبات زرعهم بأن يحييه مولوداً ونابتاً جديداً ثم يعيده نواة وجفافاً. وهكـــذا يقلّبّ دورة الحياة من العدم والموت ثم بعث الحياة. ومَن يرزقهم - والخطاب لهـــم - مـــن السماء ماء وريحاً ومناخاً والأرض حيواناً وزرعاً فيه الطعام ومعدناً فيه

الخـــير، أإله مع الله ينسبون إليه ذلك؟ فليأتوا ببرهانهم حجّة إن كانوا صادقين في اتخاذ آلهة أخرى يشركونها بالله.

﴿قُــلْ لاَ يَعْلَــمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَــثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (٦٥ - ٦٦)

يُوصَـــى الرسول ﷺ الذي جاء برسالة موحاة من الغيب أن يدعو للإيمان بالغيب الحقّ كلّه – إيماناً بالله الواحد لا إله غيره كما سبق تجلّيه في سابق ذكر الآيات، وإيماناً بالحـــياة الأخـــرى وصلاً بكامل الأولى ابتلاء فجزاء وفاقاً. إن عمر الأفراد في حياتهم الدنـــيا هـــو لأجل محدود فيه غيب لكن بقاء بني الإنسان المتعاقبين في الدنيا مداه كله غـــيب لأجل مسمى عند الله – يوصَى الرسول أن يثبّت في وجدان المخاطبين الإيمان بالله المتعالي عليماً صفة حسنى وعليا لا يوازيها علم أحد سواه – أن يقول: إنه لا يعلم مَن في السماوات والأرض من الإنس والجنّ الغيبَ إلا الله أو من يُظهره الله منهم عليه بإذنه تعالى وبمداه. وإذ ما يشعر الناس بالغيب أدنى إحساس إلا بمدّ من الله ما يشعرون أيـــان يبعثون في غيب الآخرة. إن الذين لا يؤمنون بوحدانية جلال الله العليم بالغيب هم أنفسهم قاصرون في علم المشهود الذي يباشرهم لا يدركون إلا طرفاً. ففيه غيب عنهم من الماضي المنسيّ زمانه وأثره والحاضر الخفيّ المستور مداه وكيفه والمستقبل في الدنـــيا المجهـــول آجله ووقعه. وما يشعر أحد في السماوات والأرض متى ترسو الحياة الدنـــيا إلى ســـاعة تقوم فيها قيامة البعث في الآخرة، لأن ذلك أجل مسمى عند الله وحـــده. فالـــذين يكفـــرون بالغيب هم في اضطراب وبلبله في أمر الآخرة. بل أدرك علمهـــم في الآخـــرة ما استحكم وتلاحق تأويله إلاّ حين أدركم بيانُه عين اليقين عند واقعة الآخرة. بل هم في شكٍّ من تلك الآخرة أصلاً لا متى تقوم. بل هم منها عمون في غفلـــة مطـــبقة لا يبصرون آياتها الحاضرة المشهودة ففي ظاهرة بدء خلق الحياة من عـــدم حـــتى المـــوت ثم البعث في حياة أخرى سنّة دورة في أقدار تناسلهم تعاقباً وفي اخـــضرار الأرض وحياتها بعد موتها – فيها آية هم لا يبصرونها دلالة على حياة أخرى للإنسان بعثاً بعد الموت ينتظر أجله الغيبـــي حتّى تأتي ساعته بغتةً إذ يقضي الله أمرها.

﴿وَقَـــالَ الَّذينَ كَفَرُوا أَئذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعدْنَا هَذَا نَحْـــنُ وَآبَاؤُنَا منْ قَبْلُ إنْ هَذَا إلاَّ أَسَاطيرُ الأَوَّلينَ * قُلْ سيرُوا في الأَرْض فَانْظُرُوا كَـــيْفَ كَانَ عَاقبَةُ الْمُجْرِمينَ * وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ في ضَيْقٍ ممَّا يَمْكُرُونَ﴾ (٦٧-٧٠)

فـــضلاً عـــن اضطراب أمرهم وقولهم في الآخرة قال الذين كفروا بالبعث ارتياباً بالغـــيب: أئـــذا كانـــوا تراباً وآباؤهم بعد الموت وتمكّن فيهم بذلك الفناء أيحقّ أنهم مُخـــرجون من مادة الأرض الجامدة أحياءً يدبّون ويتكلمون؟ لقد وُعدوا هم - كما يقولـــون- وآبـــاؤهم من قبلُ ولما يقع الأمر. إن هذا - كما يرونه، ما هو مقالة إلاّ أســـاطير الأوّلـــين خُرافات رُويت وخُطّت في سطور فتوارثها الناس محفوظة أحاديث باطـــل مأثورة، لاحقاً باقياً لمثل أولئك المُنكرين وقع نذير الآخرة،[١] ليقُل لهم الرّسول مذكّـــراً بالنذير العاجل كيف وقع دون آجل الآخرة: أن يسيروا في الأرض ويتحرّوا آثـــار الأولين حولهم فلينظروا تدبّراً لدرسها الواعظ كيف كان عاقبة المجرمين - كيف لم يمض أولئك تمادياً في قطعهم ما أمر الله به أن يوصل وحذفهم تمام هديه حتى جاءهم الهلاك حقاً واقعاً عاجلاً منذراً به من رسلهم قبل أن يحين حينُ البعث ووقع الوعيد في الغيب الآجل الذي سبق به أيضاً النذير. فليستمر الرّسول في دعوة الهداية والنذارة فإن عمـــي منها أولئك وصموا عنها وتمادوا سائرين إلى سوء عاقبة قد يأتيهم بعضه عاجلاً أو يُنظـــرون بأشـــدّ منه إلى يوم القيامة، فذلك شأنهم هم، أما هو فيُخاطَب ألاّ يحزن علـــيهم قوماً ينساقون هكذا بمسيرهم إلى ذلك المصير، وألاّ يكون في ضيق ممّا يمكرون تآمـــراً علـــيه ليُنهوا أمره كما فعلت وهمّت أقوام قبلهم فالله عاصمه في دعوته من أن يأخذوا به وميسّر له بعد كل عسر ومعيق كل مكر به وراء ظهره.

﴿وَيَقُولُـــونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادقينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدفَ لَكُمْ بَعْـــضُ الَّـــذي تَـــسْتَعْجِلُونَ * وَإنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ

(١) تتواتر الآيات تذكر أقوال الذين كفروا عن الوعد منذ آبائهم بالبعث ورأيهم استحالة البعث بعد أن ماتوا هم وأصبحوا مثلهم موتى عظاماً، وكذلك ذكر أقوالهم في آيات القرآن والبعث أن ما هي إلا أساطير الأوّلين.

يَــشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّــكَ لَــيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٧١-٧٥)

أولــئك - فضلاً عن استنكارهم لحقّ الغيب ومكرهم - في اضطراب من القول في أمــر الــبعث، يضيفون القول خطاباً للذين ينذروهم به: متى هذا الوعد إن كان المُنذرون صادقين في بلاغ ذلك الوعيد؟ ليقل لهم الرسول ﷺ وهو لا يعلم غيب ذلك الأجــل إلا أن يوصي بأن يُعدّ المرء نفسه ليومه - ليقل خطاباً لهم: عسى أن يكون قد ردف لهــم ودَنــا أن يلحق بهم دركاً بعض الذي يستعجلونه عذاباً في الدنيا أو موتاً يــسوقهم إلى البعث أو إتيان الساعة بغتة، من قريب. ويُذكّر الرّسول أن يضيف لهم مــستدركاً نذيره باحتمال قرب الوعيد: إن ربّه لذو فضل على الناس يمدّ لهم في ابتلاء الحياة مدّاً وقد لا يعاجلهم بعذاب لاحق أو أن تبغتهم الساعة لفورهم، ولكن أكثرهم لا يشكرون الله أن أطال لهم العمر وأملى لهم لعلّهم يتوبون قبل أن يحضرهم الموت أو تبغتهم الساعة، بل ينسون ذلك ويتمادون في استباحة فسحة المتاع دون اغتنام فرصة المتاب. وليذكّر الرسول: إن ربّه لَيعلم بيّناً له ما تُكنّ صدورهم ساترة من كفر بالغيب ونــوايا مكر بالرّسول مستضعفاً في مكة وما يُعلنون من سخرية من أصول الغيب في الــدين الحــقّ، وما من غائبة في السماء والأرض ممّا في وجدانهم وسرّهم أو من أجل مــسمّى للموت أو البعث إلاّ في كتابٍ مُبين مِن علمِهِ المحيط بكسوب عباده وآجال أقداره.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦-٧٨)

إن هــذا القرآن - كما يُخاطب مَن يُتلى عليه من عباد الله، وأعظم سوادهم الأول مــن الأمّيّين العرب - يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي كانوا فيه يختلفون بعد أن أوتوا كــتاباً وحــي من قبله. فالقرآن وحي أيضاً من الله العليم الذي يفصل في كل مختلف فيه، كمــا ســبق الذكــر في بلبلة المُرتابين للبعث في الغيب بالحقِّ فيها وما يسمّيه الله غيباً من الــسّاعة وما يطوون في صدورهم سرّاً وعلم الله بذلك، ففيه أيضاً بيان أكثر ما اعترى بني إســرائيل مــن خلاف ليردّوهم إلى الحق لأن القرآن مصدّق لما سبق من أصول الحقّ في

كـــتاب ومهيمن عليه ناسخاً لأحكام ومستدرك ما ضيّعه منه أهله وفاصل فيما اشتبهوا أو اخـــتلفوا علـــيه فيه. ذلك لاسيما أن العرب أمّيين يتّخذون علماء بني إسرائيل مراجع في الغيبـــيّات الدينـــية الكتابية واختلاف الإسرائيليات المروية قد تورث اختلافاً في الأخذ من معـــاني القرآن. وإن القرآن – من ثم – هو حقّاً هدى ورحمة للمؤمنين من هؤلاء وأولئك يبـــيّن لهـــم الحقّ ويرفع الرّيب. ويُخاطَب الرسول ليعلّم ويبلّغ بني إسرائيل أن ربّه يقضي بيـــنهم بحكمه يوم القِيامة لفصلِ الحقِّ وجزاء الباطل في منازع الخلاف ودواعي التشبّع التي عهـــدوها فغـــدت سارية فيهم. وهو ﷻ العزيز الحاكم المُهيمن بتسوية كل مختلف العليم بكل غائبة من دواعي الاختلاف وكل حيث من وقائعه.[1]

﴿فَـــتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٧٩–٨١)

الوصية المترتّبة بعد الذكر السابق للقرآن بيان حق من عزيز عَليم يحتكم إليه سواء في كـــل مـــرتاب فيه أو مختلف بين شتّى المخاطبين به ويوكل بنبأه القضاء لله بين بني إســـرائيل يـــوم القيامة حكماً على ما جرى منه وجزاء – الوصية للرسول الخاتم تالي القران وحامل رسالته أن يتوكّل على الله الذي أوحاه مطمئناً إنه على الحقّ المبين. وإن ظل الارتياب والاضطراب متمادياً في الذين كفروا بالغيب أو الذين ارتبكوا في خلاف بعـــد أن جـــاءهم كتابهم من بني إسرائيل – إن ظل ذلك كذلك فليعلم الرسول المبلّغ القـــرآن، مخاطباً بذلك: إنه لا يُسمع الموتى الذين مات فيهم القلب المتجاوب المنشرح لتلقّـــي الحقّ ولا يسمع الصمّ الذين لا يبلغ ما يطرق آذانهم باطن وجدانهم الدعاء منه لـــذلك الحـــق، إذا ولّوا مُدبرين مُعرضين لا يَسمَعون حقاً نداء دعوته وبيان ما يُحيي مَوَات قلوبهم بروح الحقّ المتجدد، ويتأكد له التذكير والتسلية بأن العلة في أنفسهم هم فلـــيمضِ هـــو في بلاغ دعوته إلى الهدى وإن لم يكن هادياً للعُمي عن ضلالهم لأنهم

(١) في أمـــر الاختلاف بعد ما أوتي الناس وأهل الكتاب كتابهم والبيّنات راجع الآية ٢١٣ سورة البقرة والآيتين ١٩ و١٠٥ آل عمران. وقد تواترت الآيات أن الله يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه يوم القيامة ولولا كلمة سبقت لقضي بينهم.

عَميت بصيرهم عن رُؤية الحقِّ عند سمعهم آيات الله الموحاة المتلوّة أو نظرهم إلى آياته المطبوعة المشهودة، فإنّما عليه البلاغ والله يهدي من يشاء لأنه أعلم بمن بدر فيه اختيار الهداية فيسرّها له أو نزع إلى الضلالة فيسرّها له مكتوبة عليه، فما يُسمع الرّسول بنصائحه وهداياته إلاّ قلباً منشرحاً فيمن يؤمن بآيات الله في وحيه وأقداره فهم مسلمون إذاً لدعوة الهدى في كلم القرآن.[1]

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ (٨٢)

فضلاً عن ذكر التوكّل على الله اطمئناناً للحقّ والبلاغ لدعوته حيثما يقع خيار الاستجابة، ينضاف التذكير بالنبأ العظيم، يوم الدين الفاصل في الغيب الآجل: إذا وقع القول عليهم إذ نفذت كلمة قضاء الله وحقّ أمره المفعول واقعة عليهم بغتةً لأنهم كانوا عنها معرضين غافلين – إذا مضى ذلك واقعاً أخرج الله – كما يقول متكلماً بكل أقدار فعله بمسير وجود الإنسان وتأويل مصيره وتقليب نشأته وحياته وقيام القيامة أبداً بعد فناء الدنيا والزمن – أخرج لهم – أولئك الذين كانوا في ريب من ذلك – ليشاهدوا عياناً دابّة من الأرض – الناس كلهم حركة دابة فوق الأرض تُكلمهم، كلهم روح أنشئت خلقة أخرى، أرواح شاخصة حيّة دابّة ناطقة يراها المرتابون بالآخرة أمس ويسمعون كلامها إذ وقع عليها فجأة صدق القول وعداً حاقاً بالبعث نشأة أخرى. تلك الظاهرة الناطقة الدابّة تذكّر المرتابين أمس بالبعث أن الناس عامّة في عالم الدُّنيا والشهادة أمس كانوا بآيات الله التي تواترت ذكراً موحى تجلّت ظواهرها آيات دالة شاهدة في الطبيعة – كانوا لا يوقنون راسخ إيمان. تلك الكلمة الواقعة يومئذ هي حق انجلى وتبيّن بمشاهد عين وإن كان الناس بآيات الله الموحاة المسموعة وعداً بالآخرة والمرئية في الطبيعة دليلاً من انبعاث الحياة المسنون دليلاً على عاقبة البعث لا تعمق فيهم ثوابت إيمان بها فهم بين مؤمن لمّا يطمئن ومرتاب ومنكر، إلا من استيقن بصدق الآخرة مؤمناً وأسلم للقاء ربّه فيها وجهة حياته.

---

(١) تواتر ذكر عجز الرسول مبلّغاً في إسماع الوجدان لموتى القلوب وصمّ الآذان وهم يستمعون بآذانهم ويقولون سمعنا وعلى قلوبهم أكنّة وهي مطبوعة بالكفر.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٨٣-٨٥)

فضلاً عن ذلك - كما يتكلّم الله عن ذلك الظّرف الذي قدّره وأوقعه بأقداره - هو يوم النبأ العظيم إذ يصدق فيه وينجز وعد الله فيبعث بأقداره الجليلة ويحشر من كل أمّة خُوطبت برسالة الهدى والنذير فوجاً ممّن يكذّب بآياته - التي بأقداره العظيمة أنزلها تذكرة موحاة وطبعها دلالة مشهودة، فهم يُوزعون دفعاً لينتظموا في مواقع السؤال والحساب ومساقات القضاء إلى مأوى الجزاء - قُدّموا هكذا فوجاً بعد فوج تواليأً أولويّة حسب من هم أثقل أوزاراً وأعظم مسؤولية وأسبق إلى مأوى الجزاء وأبلغ دَرجاً أو دَركاً لأنهم كانوا أئمة سوء أو خير سابقين أو سائدين لما يليهم من فوج. حتى إذا جاءت تلك الأفواج موقع معرض الحساب وبين يدي ربّهم قال لهم يخاطبهم الله ملك يوم الدين: أكذّبوا بآياته وبكل وجوه متلوّات وحيها ومشاهد طبعها و لم يحيطوا بها علماً يتبيّن فقهاً كلّ تأويل تذكرتها المتلوّة ونظراً على دلالتها المشهودة، أم ماذا كانوا يعملون مقاصد وفعائل من الكفر الغافل عن سماع آيات الحقّ أو رؤيتها أو الإحاطة بمداها علماً أو اتخاذ الموقف الجاد إزاءها تصديقاً.

ووقع القول عليهم، بعد قول البعث وقول الحكم على المسئولين والمجزيّين بما ظلموا أعمالاً في الدنيا عدلت عن الحق. فهم لمّا تواترت عليهم البيّنات - يشهد الرّسل المبلّغون وتشهد كتب إحصاء أعمالهم وتشهد جوارحهم على فعالها - لما تكثف عليهم إثبات كسبهم في الدنيا لا ينطقون بعداً إذ أبطل ذلك إنكارهم وصرف أعذارهم ورد انحسام القضاء عليهم تمني المرجع منهم إلى المتاب في الدنيا فانكبتوا عن أيّما قول وأسلموا أمرهم صامتين مستسلمين لحكم القضاء ومجرى قدر نفاذه فيهم.[1]

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٦)

---

(١) في الذين يبهتهم السؤال يوم القيامة فهم لا ينطقون: انظر الآيتين ٣٥ و٣٦ سورة المرسلات.

ألم يروا – أولئك، أمس في الدنيا – أن الله كما يقول بصيغة المتكلّم جمعاً بأقدار طبعه للكون آيات مشهودة لتبيّن الحق – جعل الليل ليسكنوا فيه نوماً وروحاً في ظلامه والنهار مبصراً ليتراءوا وجوه تعامل مزدحمة ويروا أسباب معاش نشطة. إن في ذلك شواهد متوالية تذكّر بسنة تعاقب الموت الساكن في الوجود السالف والميلاد الحيّ الخالف فبقدرِ أيلولة الموت وفاة لذات النفس إلى بعثها نشأة حياة أُخرى فإسلام للحقّ الآجل. ذلك التبصُّر لتلك الآيات هو لقوم يؤمنون باليومِ الموعود الواقع لا يُعرضون عن ذكره غافلين حتّى يقع عليهم بلا مجال مُفزع ولا سانحة فرصة متاب.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٧ – ٨٨)

ينضاف لذكر ذلك اليوم للمحشر ذكر مقدمه ووقعه: يوم ينفخ بقدر من الله في الصور دويّ صرخة إيذان لوقع مهيب ففزع مَن في السماوات والأرض من خلق الله وأصابهم هلع الرّهبوت إلاّ مَن شاء الله أن يبقيه واعياً لإنفاذ مجاري ذلك الأمر. وكلٌّ من أُولئك الخلق أتوا ذلك الواقع داخرين أو هم آتوه حالاً كذلك. وتلك هي بعد النفخة الأولى صعقاً مميتاً النفخة الأخرى بعثاً قياماً ونظراً كلهم في ذل بعد أن كان منهم أمس المؤمنون الصابرون الخاشعون لله والكافرون الصادّون المستكبرون. ويرى الناظر كلّ مخلوق كان قوياً شامخاً قد وهن واستوى بوقع أقدار ذلك اليوم، فيرى الآتي ذلك اليوم الناظر في مشاهده – يرى مخاطباً بنبأ مذكّر – الجبالَ يحسبها جامدة كما عهد رؤيتها في الدنيا هي يومئذ واهية كالعهن مبسوسة غير ثابتة بل تمرّ مرّ السحاب لتتلاشى وتستوي الأرض مَعرض الحساب المكشوف صفصفاً لا يُرى فيها عوج ولا أمت في سطحها الممسوح ليقف عليها البشر بارزين بلا ساتر وتُعرض أعمالهم بيّنة لا تنكتم ولا تخفى. ذلك صنع الله بمخلوقاته التي طبعها قبلاً جامدة صمّاء ومن أحسن من الله صنعاً إذ يُتقن كل ما يَصنع تركيباً مَتيناً ويهون عليه أن يتقن صنعه من بعد منحلاً مسيّراً سراباً. أنه كذلك خبير بما يفعل المخاطبون بتذكرة يوم البعث والحساب، بالغ العلم والدراية بخبرها إذ خلاّها في خيار كما يشاءون ثم أحصّاها طوال حياتهم ثم

شهد عليها حسب وسعهم وابتلائهم ووزن مَثَاقيلَ الخيرِ والشرّ فيها فقضى فيها بفعل الجـــزاء بدَرَكاته وهو عزيز ودرجاته وهو رحيم أقداره متقنة في كل شيء من الوجود المخلوق.[1]

﴿مَـــنْ جَـــاءَ بِالْحَـــسَنَة فَلَهُ خَيْرٌ منْهَا وَهُمْ منْ فَزَعٍ يَوْمَئذ آَمنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَة فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨٩ – ٩٠)

مَـــن جاء يومئذ من دنياه بالحسنة – حقّت كذلك بالبيّنات وقُدّرت بالموازين – فله قضاء بجزاء خيرٌ منها إذ يضاعف الله أجر الحسنات بأعظم منها وأبقى فهي انتهت وجـــزاؤها مـــبارك خالـــد، وهم من فزع يومئذ الشامل آمنون فلا خوف عليهم ممّا ينتظـــرون ولا يحـــزنون ممّا كسبوا. ومَن جاء بالسيّئة وبانت وقُدرت فهو من العُصاة ســـرى علـــيهم مفعول القضاء الوِفاق لكسبهم في الدنيا أن كبّت وجوههم في النار ويـــؤاخذون فيأتيهم إن تشكّوا الخطاب سؤالاً لهم: هل يُجزون إلاّ ما كانوا يعملون اســـتكباراً أن يَـــسجدوا ويُسلموا لله في دارِ البلاءْ ويحمِلون أوزار ذلك بما هو عليهم حاقّ اليوم في دار الجزاء.

﴿إِنَّمَـــا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذه الْبَلْدَة الَّذي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُـــونَ منَ الْمُسْلمينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآَنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لنَفْسه وَمَنْ ضَلَّ فَقُـــلْ إِنَّمَـــا أَنَا منَ الْمُنْذرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّه سَيُرِيكُمْ آَيَاته فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩١–٩٣)

ذلك هو القولُ الحقّ في يوم الدين وما على الرّسول في الدنيا إلا أن يبلّغه للمخاطبين ويقـــوم في نفسه مسئولاً وقدوة هو بأداء ما يقتضيه مُخلصاً صادقاً وبالصّدع شاهداً بذلك قـــائلاً: إنما أُمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها، هو عبدٌ مأمورٌ لمن حرّمها حامداً له أن جعلها آمنة الأفئدة تهوي إليها تحمل تقديساً لها وتقصّد عبادة فيها لا بغياً وأن أمدّها بثمـــرات كـــل شيء يأتيها رزقاً من لدنه تعالى منذ دعوة إبراهيم له بذلك وإن حفظ لها ذلـــك حتّى عهد الرسالة، وهو – الذي أمره بالعبادة ﷺ – كل شيء من خلق في مكان

(١) يتواتر الذكر في صيرورة الجبال الراسية الثابتة الجادة الصمّاء بوقع يوم القيامة مهيلة كالتراب مسيّرة كالسحاب تدكّ وتنسف وتُبسُّ بسّاً وتصبح كالكثيب المهيل أو العهن المنفوش.

أو ظرف من الوجود فضلاً عما جعل وقدّر في هذه البلدة، فكلّ مخلوقات الوجود ساجدة لله وكــل مــشهوداته آية تدلّ على الإسلام لأقداره وأحكامه. وإنما حُرّمت البلدة وبُسط اليُسر حولها نعمة وتذكرة من ربِّ العالمين لأمّة الخطاب كافة الأُولى والخَلَف لأنها ذكرى متعــبّد وفــيها مــسجد شعائر توحيداً لله بملّة إبراهيم وسنته، فالعبادة لله هي انحناف عن ضــلال الإشراك والفتنة بالمشهود ممّا ارتدّت إليه بعض ذرية إبراهيم وهي إخلاص الإسلام لــوجهه تعــالى. ولذا أُمر الرسول أيضاً – كما يشهد – أن يكون من المسلمين مشاركاً وقــدوة بــوجدانه الواعــي ونفسه المطمئنة في جماعتهم المتعاونة على البرّ والتقوى وإقامة الإســلام لله.[1] وليتم الرسول شهادته يقول: إن عليه أن يتلوا القرآن تذكراً لنفسه وبلاغاً لرســالة الله المــوحاة رحمة للناس كافة ونذيراً. فمن اهتدى – ممّن يُخاطب بتلاوة القرآن فيــستجيب لدعوته – فإنما يهتدي لنفسه إذ يلقى جزاءه خيراً، ومَن ضلّ فقد حقّ جزاءه فلــيقل فيهم إنما هو من المنذِرين ما هو بوكيل لأحد ولا حفيظ عليه وليقل – وذلك تمام الحقّ ذكراً وختام بلاغ المنذر بخاتمة المصير. وقد وردت الوصيّة به في ختام السورة– ليقلْ: الحمــد لله هــو الخالق الهادي الرّاحم الجازي الصادق سيري عباده – مخاطبين، وسوادهم يكفــرون لأوّل عهد دعوتهم إلى الإيمان بالغيب وآجاله، سيريهم آياته تتجلّى واقعاً تأويلها فيعــرفونها ويدركهم العلم بها بيّنة كما سبق وصفها في النذير بها. وليكِل الرسول أمرهم بعد البلاغ لله وليطمئن أن ربّه الذي يخاطبه ما هو بغافل عما يعملون في دنياهم قبل تأويل آياتــه ووقعهــا الحــاقّ الذي كان هو به نذيراً فهو ﷻ الرّقيب العليم بكسبهم في الدنيا الحفيظ على ما يؤول إليه من جزاء حاقّ.

عموم المعاني (للآيات ٥٩ – ٩٣):

يــتلو هــدي الآيات السابق ذكرها الواعظة بمصائر أقوام للمرسلين كانت مهالك عاقبة لمن ذهبوا في الحياة إشراكاً بالله آلهة معبودة من دونه وإعراضاً عن تقواه وصدوداً عن

---

(١) في الــبلدة الحرام وذكر إبراهيم: راجع الآية ١٢٦ سورة البقرة، والآية ٣٧ سورة إبراهيم، وانظــر الآية ٥٧ سورة القصص، والآية ٦٧ سورة العنكبوت، والآيتين ١ و٢ سورة البلد، والآية ٣ سورة التين.

اتّباع هواه إلاّ من نجا من مهالكهم أو سلم منها من مؤمنين تقاة مهتدين - يتلو ذلك الهدى نذير عام للمخاطبين من بني آدم الذين انحجبت عنهم رؤية الله أبداً في الدنيا واستماع تكليمه إلاَ موسى منذ مهبط أبيهم من الجنة إلى الأرض، حيث ابتُلوا بفتن حياقم الدنيا المشهودة، فهم إما متّخذون إلههم هواهم لشهوة ما تسخّرهم لما هو حاضر من متاع الدنيا، أو متعلّقون ثناءً وإجلالاً بمن يرونه الأعلى احتراماً وأهليّة للمحامد والفضائل من كبارهم وسادقم، أو موقّرون دعاءً وتمجيداً لما يَرَونه يصرّف لهم أسباب النّفع والضرّ والكسب والخسران بوجوه غيبيّة، أو مقدّرون بخاطر فطرقم قيام ربٍّ أعلى في الوجود لكنه في الغيب يحسبونه بعيداً لا يباشرهم فيتخذون من دونه أولياء مشهودون يقرّبوهم إليهم زلفى، أو عارفون بعهد في فطرقم أو نظر التفكّر في عقولهم أن الألوهيّة الحقّ ما هي إلاّ لذلك الرّب الواحد يردّون إليه الكمال المُطلق والمحامد العُليا والأقدار الأفعال لتصريف الأسباب المشهودة فيصوّبون إليه كل عبادقم وأدعيتهم لأنه الأقرب إليهم، أو هم متلقّون رسالةً من الله في الغيب لرسل منهم مُتواترين- يعلّموهم بشأن الله بآيات وحي أنه هو الذي ينبغي وحده أن يُعرف ربّاً خالقاً للكون والإنسان وأن يمجّد ويطاع ملِكاً يصرّف فيهم كلّ أمورِ الحياة وأن يُعلى إلهاً تُخلص له العبادة وتُسلك الحياة كلها بهديه، ويذكّروهم بالتفكّر والتدبّر في آيات الله المطبوعة المشهودة التي تدلّ عليه خالقاً ناظِماً حَكيماً وتشير إلى حقائق في الغيب مثل الحياة بعد الموت في الأرض سنة لانتظار حياة أخرى بعد موت الإنسان، وينذروهم بالعقاب فيها لمن أعرض عن الصراط المستقيم إليها في الدنيا ويبشّروهم بفلاح المؤمن الصالح العمل.

فتذكراً لذلك كلّه واعتباراً بما سَبَق من سيرة المرسلين دعوة إلى الحقّ في توحيد الله معبوداً، الوصية الأساس في دعوة القرآن رسالة الرسول الخاتم هي أن يقول شهادة بالحقّ أن: الحمد كلّه مستغرقاً إنما هو لله خالقاً لكلّ شيء بما هو أحسن ومصرّفاً لأمر خلقه بما هو أنظم وهادياً لعباده بما هو أقوم ثم جازياً لهم بما هو أعدل، وأن سلام على المرسلين الذين اصطفاهم فأدّوا تكليف البلاغ لرسالته أمانة والتزموا هم الحياة صدقاً بمقتضاها أئمّة وصابروا جدل المخاطبين وأذى المعرضين مثالاً وتوكّلوا على الله مهما يلقون منهم ارتياباً بالحقّ وجاهدوا باطل الإشراك في مذاهبهم.

فالسؤال الأصل في دعوة المُرسلين لأمم خطابهم التي يغشاها بفتنة الدنيا الإشراك بالله – هو: آلله خير أمّا يشركون؟ لأنّ توحيده معبوداً وإعلاءه هادياً هو أصل رسالة الــدين الحــق في الحياة. والأمر إنما يبلغ الفصل في التحرّي أخذاً بشتّى وجوه السؤال وشــعابه وبمسالك الحجة البيّنة البالغة اطمئناناً بالجواب الحقّ. وأوّل النظر آالله خير أم آلهــة أخــرى تُشرَك به هو في مقايسة القدرة على الخلق والطبع للكون المشهود: أما يــشركون بــه خير أم الله الذي خلق السماوات العالية والأرض القاعدة ببني الإنسان والذي أنــزل لهم من الأعلى ماء فأنبت به من الأدنى حدائق زينة ما كان لهم دونه أن ينبــتوا شجرها. بل المشركون قوم يعدلون عن الحقّ في الألوهيّة الخالقة الطابعة العليا بــباطل شــركاء لا يساوونه. ومن بعد يرد السؤال عن الله مَن خلق تحت المخاطبين الأرض قــراراً وجعل خلالها أنهاراً وثبّتها ومايز بحارها برواسي وحواجز، هل ثمّة إله يوازيه مبلغاً في ذلك؟ بل أكثر المشركين لا يعلمون كل خصائص أقدار الله في الأرض وما حولهم منها ليتبيّنوا تعالِي قدرة الله ونعمائه لهم. وفي الأمور والحاجات الملحّة التي تــستدعي اســتغاثة وتــوكّلاً، ألا يكلون أمرهم إلى الله وحده يذكرونه إذا غشيتهم الــضرورات ويستعينون به، وإذا مسّهم سوء يلجأون إليه دعاء وإذا انبسطت الأرض وأرادوا التمكّن فيها يسألونه الذريّة الخالفة والقوة لهم مستخلفين فيها، لكن ينسونه إذا زالــت الضرورات وانكشف السّوء وساد الأمان لهم في الأرض ويتخذون آلهة أخرى مــع الله لا يــنفعونهم في تلك الحاجات، آلله إلهاً معبوداً خير أم تلك الآلهة؟ ثم يمضي الــسؤال: آلله خير وهو من يهديهم في ظلمات البرّ والبحر بشتّى ما يخلق من علامات في الآفــاق، وهو يُرسل الرّياح ناشرةً للسحاب مبشّرة برحمة الحياة والنبات، أإله آخر يــشاركه في هدايتهم ورحمتهم تلك؟ تعالى الله عما يشركون. أين برهانهم مشركين بآلهــة أخرى يتّخذونها، أهي تضارع الله في سننه بدءاً للخلق حياة في الأرض الميتة أو اخــضراراً ثم إعــادة للحياة والخضرة فيها دورة أخرى، وهو من يرزقهم من السماء والأرض، أين خير آلهتهم في ذلك إن كانوا صادقين؟

والــتذكير الذي يقوله الرّسول ومن وليه وخلفه من الدّعاة مما وينبغي أن يطرح دائماً في وجه الضلالة في أمور الغيب لتوحيد الله ما من إله حقيق بأن يعلو عليه هو أنه

لا يعلـــم مَـــن في السموات والأرض الغيب إلا الله فلا يدري الإنسان مصائبه الغائبة مـــستقبلاً مـــن آلهـــة أخرى بل من الله بعلمه المحيط عبر الدهر ماضيه ومآله والأبد بالموجـــودات والحادثات الخفية أو المشهودة. فالذين يكفرون بالغيب إن عبدوا ألهتم المـــشهودة لا يوحدون الله لأنهم في الغيب وإن أدركوا حاضر حياتهم لا يعلمون بل لا يـــشعرون مـــآلهم بعد الموت وأيّان يبعثون كما تحيا الأرض بعد موتها، لا هم يحيطون بـــذلك علمـــاً ولا شركاؤهم ولا أولياؤهم يمدّونهم بعلم. والارتياب بالغيب حقائقه وآجالـــه جهلاً وقصوراً للإدراك هو غاشية لكلّ الذين مضوا يكفرون برسالات الحقّ المـــوحاة مـــن الله في الغيب، الذين ذهبت بهم دواعي الشرك الذي فشا قديماً بالآلهة المشهودة وللذين يذهب بهم من أهل هذا الزمان إلى الشرك تعلقاً بهوى الانفتان بالدنيا ومـــتاعها فهم ماديّون يقتصرون على علم المطبوع الحادث المشهود ودهريون يحسبون ماضي الزّمان وحاضره يمتدّ في المستقبل أبداً. وأولئك إذا بلغوا بحقّ البعث وقيام الحياة الأخـــرى ليـــنذروا بهـــا مكاملـــةً للدنيا حتى لا تذهب عائجةً ظالمة والحقوق ضائعة والأســـرار مكـــبوتة والغـــيب مجهولاً أو مغفولاً عنه أبداً، بل يستقيم ميزان الحياة في الوجود فتعتدل وتستدرك حقوقها وتسوى جناياتها وتبين وقائعها وتتجلّى أبعاد الغيب وراءهـــا في الوجـــود. أولـــئك إذا بلغتهم أنباء من رسالات الوحي ونذر وبشائر إما أعرضوا عن خطاب تلك الرّسالات وبقوا في جهالتهم حتى يدركهم العلم الكامل في الآخـــرة أو هـــم في شك من أصل صدق الوعد في الرّسالات بها أو غفلوا عنها غير مبالين. وتفوتهم آياتها المشهودة دورة حياة أو موت في النبات وتفتنهم صيرورة حياتهم إلى مـــوت ففـــناء في التـــراب كما عهد في سلفهم الإنساني القديم ويعجبون كيف يخـــرجون أحياء ولّما يحدث ذلك لمن مات قديماً ويعدّون وعود الرسالات بذلك البعث مـــن أساطير الأوّلين. لكنهم لو ساروا في الأرض لينظروا كيف عجّل الله عاقبة هلاك وخـــراب للمجرمين لرأوا شاهداً على آجلة العواقب ولو أخرت إلى حياة أخرى. وأن أصـــرّ المخاطـــبون ذاهـــبين إلى مآل بأس أو استكبروا ليضيّقوا ويمكروا بمن ينذرونهم بالآخـــرة فينبغـــي ألاّ يذهب الداعية المنذر نفسه حزناً عليهم أو يضيق هو بل يصابر تـــدابير مكرهم. وإن ألحّ سؤالهم أيّان البعث أجلاً موقوتاً فليذكروا أنه غيب لا يُدرى

ميقات وقوعه بل قد يكون قد اقترب ممّن يستعجلونه منهم، وإن امتدّ انتظارهم فذلك فضل من الله في ابتلاء الإنسان في حياته الدنيا يمدّ له فيها مدي البلاء لعله يتّعظ ويعتبر فيتوب قبل مماته أو يُملى له حلماً حتى يستدرك في فرصة للتذكّر قبل وقوع غضب الله. لكن أكثر الكاذبين بالغيب وبالبلاء في الدنيا وبالبعث لا يشكرون الله على النذير أو مدّ البلاء أو تقدير آخرة تتمّ لهم علاج دنياهم المعلولة. والله محيط العلم يعلمُ ما يسرون وما يُعلنون في أعمالهم ومكرهم وما من غائبة من ذلك أو من أجل يأتيهم فيه الحساب إلاّ في كتاب علمه. إن عاجل الحساب والعذاب هلاكاً قاضياً فوراً للمجرمين كان سنة في قدر الله في كثير من الأقوام التي سبقت إليها رسالة نذارة ولكنّ الله بعد الرسالة الخاتمة لا لقوم بل للناس كافة لا يُعاجل بالهلاك وإنما بشواهد في الدنيا من أخذ الله بابتلاءات الحياة وتقلّباتها الممتدّة الوقع حتى يأتي يوم جزائه الآجل الحاسم الآبد.

إن هذا القرآن لا يهدي الأمّيين من العرب أمّة خطابه الأولى ثم الذين لحقوا بهم من عباده الذين لم يتلقّوا كتاباً موحى بل هو أيضاً خطاب لبني إسرائيل فإنهم ولو تلقّوا كتاباً قد اختلفوا فيه شيعاً فهذا القرآن أتاهم تالياً ليقصّ عليهم أكثر ما أصابهم من خلاف فيردّهم إلى الحقّ الجامع، وإن القرآن لهدى ورحمة للمؤمنين به يستدركون به ضلالهم السّابق جاهليةً بغير كتاب أو يفصّلون به اختلافاتهم بعد ما أوتوا كتاباً. إن الكتابيين الذين مضوا بخلافاتهم ضلالاً قبل نزول القران الهادي الفاصل أو استمسكوا عصبيّة دون القرآن بماضي تراثهم وخلافهم فإنّ الرسول أو الداعي لهم إلى الحقّ الفاصل يذرهم عفواً في خيارهم وإنّما عليه البلاغ لا يقضي بينهم بحكمه فصلاً حدّاً بل يكل ذلك إلى الله يوم القيامة. وتلك عظة لأهل القرآن أن قد يعتريهم بعد كتاب الحقّ الاختلاف والتشيّع فيما بينهم إن طال عليهم الأمد فقست القلوب وتبدّلت الابتلاءات وغشيتهم الفتن قد يتفرّقون لا أمّة واحدة بل شيعاً كل بما لديهم فرحون ورؤى كل يرى ما لديه حق والآخر في ضلال. وقد أصاب ذلك بني إسرائيل إذ اختلفوا ومثله أصاب العرب ذرّيّة إبراهيم فذهبوا ضلالاً واختلافاً بعيداً. وليكن القرآن المحفوظ هو الأمان لوحدة المسلمين إليه المرجع لا من دونه من أئمة المذاهب والطوائف وهو الفاصل إن رُجع إليه ذكراً مباشراً و لم يحمل موقّراً كالحمار يحمل أسفاراً أو يرتل صوتاً لا يُتدبّر.

إن الدّاعية مهما يجتهد في مجادلة الذين يكفرون بالغيب ويستمسكون دونه بالمحسوس المشهود لا يُسمع من جمد فمات فيهم الوجدان الحيّ الذي يتلقّى روح الوحي هدى فيستجيب، ولا يُسمع الصمّ الذين جعلوا في آذانهم وقراً من معهودهم التقليدي إذا دُعوا للحقّ من جديد تولّوا مُدبرين لأنه لا يبلغ أصول إدراكهم. وما الدّاعي بهاد العمى عن ضلالتهم فهو لا يسيطر على ما يجدون باطناً وما هو ينبغي أن يكون جبّاراً عليهم ظاهراً وإنما الله الذي إن شاء أكره مَن في الأرض جميعاً وطبعهم على الهدى إنما شاء أن يذرهم على شاكلة خيارهم ليؤاخذوا به مسئولين وإنما يهدي الله من بدرت فيه مشيئة الهدى فيسّره لليُسرى ويزيده هدى. ولذلك لا يسمع للدّاعي ولا يبصر هداية تتبارك إلا مَن يؤمن بآيات الله هو ابتداءً فهم مسلمون بها يتلقّون فضل هدى كلّما تواتر مدٌّ إليهم مترتّلاً متجدداً. وكذلك في مدى آخر، تلك تذكرة خاطبت الرّسول لمبتدأ دعوته لكنها عبرة للدّعاة السّاعين لتجديد الدّين قد يصدّهم أهل تراثه القديم إذ تصلّبت به قلوبهم وانحصر وعيهم عن كل جديد يرونه بدع ضلال وقد يتصدّى له مَن يُعرض متعمّداً ليغمض عينه ويسد أذنه أن يري ويسمع ممن يحتسبون في القديم من الدين تأميناً وإضفاء بركة وقار لما فيه مصالحهم بأهوائهم. فليمضِ متوكلاً على الله داعية التجديد بالحقّ البيّن أصوله المتجلّي بصوره وتعابيره المتطورة مع تقلب الابتلاءات كما توكّل الرسول الداعية الأوّل بوصاة ربّه.

إن الذين كفروا بالغيب وبالآخرة وراء الدنيا مدبرين عن نذير قيام الساعة غير المسمّاة أجلاً عندهم قد لا يُغني ولكن يجدي فيهم بيان مشاهدها واقعاً كالذي يشهدون اليوم يصدّقون حقيقته. والحقّ في وصفها هكذا كما أنبأ الله عباده به في رسالة وحيه القرآن وهو تذكرة ذات وقع. أنه فضلاً عن الوعد والنذير السّابق إذا وقع القول على الذين كفروا بالآخرة وقضى أن يأتيهم نجاز الوعد واقعاً مفعولاً وقد استعجلوه وارتابوا بصدقه، عندئذ بأقداره في انبعاث الإنسان من جديد نشأة في حياة أخرى يُخرج الله للناظرين إلى مشاهدها من البشر الذين ذهبوا قديماً موتى والذين ذهب آخرهم موتاً بنفخة صاعقة بقدر مُطبق على البشريّة حتّى الذين كانوا منهم قد ماتوا غير مؤمنين بالآخرة – يُخرج إليهم كلَّ أرواحهم مشخّصة الصور بنشأتها

الجديــدة دابّــة حيّة تكلّمهم ناطقة. يتساءل الذين كانوا يَكفرون بذلك ما هذا؟ من بعــثهم مــن مرقد الموت؟ ويتذكرّون وعدَ الله وصدق الرّسل الذين بُلّغوه ليؤمنوا أن الواقــع هــو عين ذلك الحقّ وأن الناس كانوا بآيات الله المنذرة الواعدة به لا يوقنون. ذلــك يوم تسري فيه أقدار الله حشراً للناس يوزعون أفواجاً ويتوالون سَوقاً إلى مواقع الحــساب ومساقات الجزاء الوفاق لجزائهم، فالفوج الذين كانوا في الدنيا الأسبق ممّن يكذّب بآيات الله يُسارَع بهم لأنهم الأَولى بأن يتقدّموا غيرهم للحساب يحملون أثقال أوزاراً مــع أوزارهم إذ كانوا أئمة الدعوة إلى منتهى من النار. حتّى إذا جاءوا قال لهم الله متــسائلاً: أكذّبــوا بآيته التي نُزّلت عليهم تنبئهم بذلك اليوم و لم يُحيطوا به علماً حتى أدركم اليوم بوقوعه أم ماذا كانوا يعملون من إعراض وارتياب وحملة ومكر على المُنذرين وما مضي من التعبير عن التكذيب. ووقع القول الحاكم عليهم قضاء عن بيّنة بمــا ظلموا إذ تواترت بذلك كُتُب أحصت أعمالهم وشهادات من جوارحهم العاملة بعد شهادة النّذير من الرّسول أو الذي يليهم خطاباً فبُهتوا، وهم لا ينطقون بعدها فلا مجال للإنكار أو مهرب بالأعذار أو لولاية أو شفاعة من أنصار أو التمنّي بمرجع الحياة إلى سابق الدّار ليأتوا عائدين متزودين بكسوب اليقين. وأنّى يحقّ لهم مرجع إلى الدنيا وقــد رأوا فــضلاً عــن نذير الوحي السابق آيات الله إذ جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والــنهار مبــصراً وكان في ذلك بوقع بصيرة اعتبار لدى القوم المؤمنين أنّ الله يقلّب كــذلك وجــود الإنسان عبر حياته ليسكن في ظلام الدنيا دون البعث إلا إذا اهتدى بضياء الوحي وليتجلّى له الغيب في الآخرة كالنهار مبصراً.

وذلــك هــو يوم ينفخ في الصور كلمة داوية بالبعث فالفزع من مشاهد القيام والحــشر والوزع لمعارِض الحِساب ثم الجزاء وأُزلفت الجنّة وأبرزت النّار. فزع مَن في الــسماوات والأرض إلاّ مَن شاء الله ممّن يسخّرهم لإجراءات تلك الأقدار. وكلٌّ أتوه ذلــك اليوم داخرين سواء منهم الذين كانوا خشّعا سجداً لله في دنياهم والذين كانوا مستكبرين، إذ أدركوا جميعاً علم الواقع فأصابهم الفزع والدّخور. وكيف لا تعمّ تلك الزلزلة فحتى الثوابت الصوامد من الجبال التي عهدها الناس حاسبين أنها ستبقى كذلك مهما تكن الواقعة إذا هي تُبسّ بسّاً وتسيّر فهي تمر كالسحاب، ليدركوا أن أقدار الله

فاعلــة بهــم مــا يقضيه الله وأن الله يتقن كل شيء صنعاً فالجِّبال في الدُّنيا برسوخِها وصميمها وألوانها مصنوعة إحكاماً لتؤدي وظائفها في الأرض والأرض اليوم صفصف ما فيها عوج ولا أمت صنع بها بإتقان ما يجعلها مهاداً لمعرض الحساب المُبين بلا كهف فيها ولا مهبط ولا مُختفَى. أن الله بذلك الإتقان في كل أقداره وقواه دقيق العلم بخبر مــا يفعل عباده المحاسبون يومئذ. فذلك يوم كشف حسابهم وميزان أعمالهم وتسوية جزائهم أماناً وإكراماً أو خوفاً وخزياً. مَن جاء بالحسنة فله خير منها وفاقاً بل مباركاً أجــرها مضاعفاً وباقياً خالداً خيراً من حسن الدنيا المشوب كله الموقوت. ومن جاء بالــسيّئة إذا هــم قد كُبّت وجوههم في النار لأنّهم ما كانوا يسجدون لله مع سائر المخلوقات المشهودة ساجدة له تعالى فما يُجزون إلا وفاق ما كانوا يعملون.

إن كلمة المَبدأ في الحياة الأحقّ الصادر عن إيمان بالغيب ويقين بالله وبالآخرة أن يشهد الرّسول والداعية بعده للآخرين أنّه هو مسئولاً بنفسه ومثالاً مأمور أن يعبد رب ذلك البلد الحرام الذي سبق إليه إبراهيم فإسماعيل ليبقى مسجداً وحرماً وتذكرة بالملّة الحنيفيّة والإسلام التي هو مأمور أن يتّبعها، وإنه لله كل شيء في الأرض أو السماوات يسجد لله عابداً لأوامر قدره أو تكاليفه، وأنّه أُمر أن يكون هو من المسلمين في جماعة واحــدة متعاونة على إقامة الدين عبادة لله، وأنه تال للقرآن مبلّغاً له كتاب رحمة فيه الهدى والبشارة والنذارة، فمن اهتدى ممّن يُخاطب به فإنما يهتدي لنفسه استقامة لمسير حــياته هادية إلى خير مصير، ومَن ضلّ فالداعية منه بريء إذ أنذره ويقوم شاهداً عليه بذلك. وليقل ذلك الرّسول، وكل داعية يخلفه على ذات المقولات والمسالك في مسير الحياة، وكما جاء الذّكر عند ختام قَصص المرسلين: أن الحمد لله أوّل الدنيا وآخرها، وليــنذر الذين يرون وعيد الآخرة مريباً أن سيريهم ﷻ تأويل آياته التي سبقت إليهم نــذرها فيعرفونها كما وصفت وأنه ما هو بغافل أبداً عما يَعملون منذ أن مدّ لهم فيها اليسر ابتلاء في الدنيا حتّى تأتيهم ساعة الجزاء تلك.

سُورة القصَص

مُقدّمة السورة وهديها:

ســـورة ‘القصص‘ تنـــزَلت حول منتصف العهد المكي للتنـــزيل تاسعةً وأربعين في ترتيب القرآن سوراً تقدُمُها النمل، فالشعراء، وتتلوها هي كذلك في ترتيب الكتاب ثامـــنةً وعشرين، وتتصدرُها كإخواتها الحروف العربيّة مشتركةً كلها في الطاء والسين تـــتلوها الإشارة لما يُبتنى من الحروف والكلمات من آيات الكتاب عربيّ اللسان. لكن هـــذه الـــسورة تمـــضي مباشرة لذكر نبأ مُوسى وفرعون، القصص الذي سُمّيت به. ويقتـــصر كل نبأ مُوسى في السورة على مراحل ابتلائه بفرعون عند الرضاعة فالنشأة فعـــرض آيات الرسالة ثم ينحسر الذكر موجزاً للمصائر ولا ترد إلاّ إشارة لما تلا من إيـــتاء موســـى الكتاب. ومقدّمة القصّة موجز لها في أربع آيات يُفصَّل بعداً، على نهج القـــرآن في القصص الطويل. والذّكر المفصّل لموسى وفرعون قصصاً يستغرق نحواً من نصف آي السّورة.

وذلك أن أُلهمت أمّ موسى وحياً يحفظ طُمأنينتها عليه – إذ أرضعته لكن خافت أن يُقتل وفق سياسة فرعون في قتل أولاد بني إسرائيل – أن تضعه في تابوت وتُلقيه في البحـــر وبُشّرت بسلامته وردّه إليها بل ببلوغه مآلاً تلقّي الرّسالة من الله. فالتقطه آل فـــرعون، مـــا دروا أن سيكون لهم عدوّاً وحزناً فأخطأوا إذ رأته امرأة فرعون طفلاً فـــرجت فيه خيراً. لكن أصبح فؤاد أمّه فارغاً كادت تُبدي بأمرها لولا ربط الله على قلـــبِها ثـــبات إيمـــان. وكانت قد بعثت أخته لتقصّي أمره في رقابة حذِرة، و لم يتقبّل

موسى المراضع فدخلت عليهم أخته لتزكّي له أهل بيت يكفلونه. هكذا أُرجع إلى أمّه كي تطمئن وتعلم وعد الله حقّاً. ولما بلغ أشدّه أُوتي حُكماً وعلماً وكان أهلاً لذلك. لكن توتّر علاقة بني إسرائيل مع سواد أهل البلد ورّطه مساء يوم في إعانة مستغيث به من شيعته كان يقاتل قبطياً، فحمل عليه فقتله لكنه استدرك خطأه واستتاب ربّه وعزم ألا يكون ظهيراً للمجرمين. فإذا ابن شيعته يستصرخه صباحاً في مقاتلة أخرى فاحتسبه موسى غوياً لكن أراد أن يبطش بالقبطي أيضاً فارتعب الذي استصرخه وظنه يتقصّده هو فصاح فيه: إن يريد إلا أن يكون جبّاراً لا مُصلحاً. وجاءه رجل ناصح ينذره بالائتمار عليه من الملأ فليخرج من المدينة. فخرج تلقاء مدين يرجو ربّه الهداية إلى سواء السبيل. وصادف زحمة من الرّعاة على ماء مَدين ورأى من دونهم امرأتين تذودان غنمهما لا تجرؤان على الاقتحام كما حدثتاه لأن أبوهما شيخ كبير يتخلّف عن الرّعي. فسقى لهما ثم استظلّ ودعا ربّه خيراً هو إليه فقير. فرجعت إليه إحداهما وبلّغته استدعاء أبيها له ليأجره فيما فعل، فلمّا جاءه وقصّ عليه قصَصَه أمّنه الشّيخ لكن بادرت إحداهما تقترح على أبيها أن يستأجره وهو قوي أمين. فأدرك الشيخ ما في الأمر وعرف الحاجة فعرض عليه النكاح من بنته على أن يخدم أجيراً عندهم ثماني حجج أو عشراً إن رضي. فوافق موسى.

ولما قضى موسى أجله سَلَك طريق العودة إلى مصر، فرأى ناراً فذهب يتحرّى فيها خبراً أو جذوة للاستدفاء ولكنه عندها نُوديَ من الغيب أن الذي يكلّمه هو الله ربّ العالمين، ثم أُمر أن يُلقي عصاه أرضاً فإذا هي حيّة، وأن يسلُك يَدَه في جيبه فخرجت بيضاء البشرة، فأُوصي أن يذهبْ بتلكما الآيتين إلى فرعون وملئه في رسالة هدى لهم وهم فاسقون. فتذكّر فعله بالقبطي فأبدى لربّه تخوّفه منهم ورجاهُ الاستعانة بأخيه هارون الأفصح بياناً في الرسالة. فاستجاب له ربّه وأوصاه أن يمضي متوكّلاً ليكون من الغالبين. ولكن فرعون ومن معه احتسبوا الآيتين سحراً وأنكراهما، فما بقي لموسى إلا أن يكل الأمر لربّه الأعلم بمن هو المهتدي والقدير لمن تكون العاقبة. وهاج فرعون فأمر بإنشاء صرح ليطّلع على إله موسى في السّماء، ويظنّه كاذباً، واستكبر هو وجنوده في الأرض.

وقد انطوى في السّورة رواية مشهد السّحرة مُغالبة لموسى مُنهزمة مما تاب بهم إلى الهدايـــة، وكـــذلك تهيّؤ موسى ومن معه للهجرة وتعبئة فرعون لحشوده عليهم لَحقاً. وإنمـــا ذُكر فيها مَهلِك فرِعَون وجُنده في البحر وما بقي منهم إلاّ ذكرهم أئمة للدعوة المـــؤدّية إلى الـــنار وإتْباعهم لعنة في الدنيا وزجّاً في النار مقبوحين يوم القيامة. وذُكر عَرَضاً إيتاء موسى الكتاب بعداً.

وتمـــضي السّورة لتذكر رسالة الله لرسله المتعاقبين. فقد جاء كتاب موسى عليه السلام بعد أن هلكـــت القرون الأولى لتكون بصائر للناس وهدى ورحمة وتذكرة. وما حضر الرسول الخـــاتم ﷺ موســـى ليشهد إيكال الله إليه الرّسالة وإنّما وُكلت خلافته لقرون أُخرى طال علـــيهم المـــدى فضيّعوا أصول الرسالة. وأيضاً ما حضر الرسول الخاتم مَن كانوا في آخر القـــرون الـــتي تنـــزّلت عليها الرسالات قبل موسى في مدين. فلذلك لزمت رسالته ﷺ لوصـــل التذكير بأصول الحقّ المنـــزلة من الغيب. وما كان ذلك الرّسول منادى في الطور تكلـــيماً مـــن الله مباشراً مثل موسى، وإنّما تنـــزّل عليه القرآن وحياً ورحمةَ هُدى ونذيرٍ لأمّـــة خطاب – هم العرب – ما جاءهم من قبله من نذير لعلّهم يتذكرون. ذلك لولا أن تُـــصيبهم مصيبة مثل القرون الأولى فيقولوا: لولا أنـــزل الله عليهم رسولاً نذيراً قبل إيقاع قـــدره عليهم وليتّبعوا آياته مؤمنين. ولما جاءهم ذلك الرّسول يحمل حقاً قالوا: لولا أُوتي آيـــات معجـــزة مشهودة مثل موسى، تذكّروه محاجّة وهم قد كفروا قبلاً برسالة موسى فذكـــروه الآن ومَـــن جـــاءهم هم من رسول وقالوا ساحران تظاهرا هم بهما كافرون. وتحـــدّاهم الرسول لأن يأتوا بكتاب أهدى من التوراة والقرآن ليتّبعه معهم، ولكنهم مضوا غير مستجيبين متّبعين أهواءهم ظالمين بغير هدى من الله. وقد وصل الله بالقرآن لهم هكذا قـــول رســـالات الغيب والهدى المتوالية لعلهم يتذكرون. وإنما سبقهم أهل الكتاب الأول الذين ما سمعوا القرآن إلا آمنوا به حقاً متصادقاً مع سالفه إذ كانوا هم أيضاً قبله مسلمين. وأولـــئك كـــتب الله لهم الأجر مرّتين فيما مضى وما تلا وإذ صدقوا متخلّقين بالحُسنى في المعاملة وينفقون في الرزق ويُعرضون عن لغو المشركين.

ويذكّـــر الله رسوله – في السورة – أنه مهما يرغب لا يهدي من يحبّ من أُولي قرباه العرب، وإنما يتمّ الله الهداية لمن يعلم أنه اختار التوجّه إليها. بل قال له قومه: إنهم

إن اتــبعوا هداه يُشفقون على حرمهم ورزقهم الوارد إن يُتخطّفوا من أرضهم، ونسوا أن الله هــو الــذي جعــل الحرم آمنا وثمرات الرزق واردة إليه استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم ورعاية لتراث ملّته التوحيدية وشعائرها، وما اتّعظوا كم من قريةٍ حولهم كانت قد بطرت معيشتها فهلكت وخربت لا لاتّباعهم الهُدى بل لإعراضهم عنه ظالمين. ولا يُهلــك الله قــوماً حتّى يبعث فيهم أولاً رسول الهُدى والنذير. والحقّ أن متاع الحياة الدنيا ينبغي ألاّ يكون مفتنة عن الهُدى لأنه زينة عارضة، وما عند الله في الآجلة آخرةُ طــريق الهُــدى إلى ما هو خير وأبقى لو كان الناس يعقلون. فوعد الآخرة حسناً هو صــادق لا مِــثل مــتاع الدّنيا الذي يُحشر مَن قد يتمتعون به محضرين للمُساءلة يوم القيامة.

وتبــيّن السورة بعداً مشاهد تلك المساءلة إذ لا يُجدي المشركين المخاطبين بنذير القــرآن شركُهم بالله وضلالهم به عن الهدى. ويُسألون أين شركاؤهم، فأوّل مَن حقّ عليهم السؤال هم الذين اتّخذوهم كباراً يسيّروهُم إذا يتّبعوهُم في كلّ أمر الحياة أئمة ضــلال أو أولياء يقرّبوهُم إلى الله زُلفى، فيعترف هؤلاء بالغواية فيهم عاديَة منهم على الأتــباع لكنهم يتبرأون من تعبّد هؤلاء لهم. ثم يُقال للمشركين سائرهم أن يدعوا مَن عــبدوهم رأساً آلهة دنيا شركاء لله، الأصنام، ولكنها لا تستجيب، ورأى المشركون الــنار مأخوذون إليها هم وأصنامهم الحجارة، وتمنّوا الآن لو كانوا يهتدون في الدنيا. ويُــسألون ماذا أجابوا المرسلين فتعمى عيهم الأنباء عن دعوة المرسلين ويرتبكون من جهلــهم بمقتضى الاستجابة لها وقطعهم لما أُمروا أن يصِلوه بها من الاستجابة، إلا مَن تــاب مــنهم وعمل صالحاً فهو من المفلحين. والله هو الذي يخلق ما يشاء ويختار من الأقــدار، ومــا كانت الخيرة لأولئك المشركين فأنّى لهم أن يلحّوا على إيقاع آيات مُعجــزة لتــصديق بــلاغ المرسلين أو يتساءلوا: لولا أُرسل إليهم لأجل خير لهم، أو يُعرِضوا عن الهداية مشفقين على حرمهم ومتاعهم أو يتّخذوا من دون الله ما خلق هو مــن أولــياء وشــركاء لتصريف أمرهم في الحياة. سُبحان الله وتعالى عمّا يُشركون. والله – لا شركاؤهم – يعلم سرّهم وعلنهم ليحاسبهم علي أعمالهم يوم القيامة. وهو الله الإلــه المعبود الذي لا إله إلا هو له الحمد كلّه في الدنيا والآخرة وله وحده الحُكم

ليقضي ويأمر وإليه هو يُرجعون. ولولا تبصُّر أولئك، وراء تعلّقاهم في الدنيا لما دون الله، في طبيعة عالم دنياهم الحاضر المشهود إذا سُئلوا: أما رأوا دورة الليل والنهار المكتوبة، إن جعل الله الليل عليهم الليل سرمداً أبداً أنّى إله غيره يأتيهم بضياء، أو جعل لهم النهار كذلك أيأتيهم إله غيره بليلٍ يسكنون فيه – لولا يسمعون التذكرة ويُبصرون أنّما تلك رحمة من الله وحده للشّاكرين وآية تذكير بقدر الله في دورة بعث للحياة بعد ظلام الموت قدراً حاقاً يوم القيامة لا يردّه إله غيره. ويوم القيامة يُسأل المشركون أنّى شركاؤهم؟ ويُنزع من كلّ أمة فيهم شهيداً هداهم لتوحيد الله ولتوحيد الحياة الدنيا إلى الآخرة ويطالبون ببرهان يجعل ما هم فيه حقاً، ويتبيّن لهم أن الحقّ لله وأنّ ما كانوا يفترون يضلّ عنهم اليوم.

وتمام ذكر السورة، بياناً لفتن الدنيا التي تتداعي فيها غفلة عن الغيب إشراكاً بالله في الغيب مَن يُتزلَّف به إليه من المشهود وهوىً بمتاع الدنيا ولوغاً في شهواته دون خير الآخرة. وانفتاناً بالسلطان وطاغوته دون تقوى لله المتعالي كمثال فرعون – تمامها أن تمضي فتذكر قارون مثالاً لبيان الفتنة بكنز المال وعرضه. إن قارون كان من قوم موسى لكنه بغي عليهم إذ تعالى بماله المتكاثرة أثقال مفاتح خزائنه وتحالف مع الطاغية فرعون تودداً. وقد نصحه من قومه المتذكّرون الله والغيب ألاّ يفرح بما عنده بطراً بغضب رازقه الله، وأن يبتغي فيما آتاه الله مستخلفاً ومبتلياً له فيه الدار الآخرة يوم يلقى الله، وأن يحسن تصرّفاً في تلك النعمة كما أحسنَ الله عليه فيها ولا يبغ بها الفساد في الأرض فيتباعد عن حب الله. لكنه مفتوناً بكسبه عن تذكّر الغيب في حياته قال: إنما أوتي ذلك المال عن علمٍ عنده، ونسي أن الله قد أهلك من قبل قروناً هم أشدّ منه قوةً وأكثر جمعاً لأنهم أجرموا تصرّفاً فيه مثله وجرائمهم مَرصودة عند الله يوم القيامة لا يُسألون هم عنها. فخرج قارون مغترّاً بزينته عرضاً يغوي الشاهدين، فقال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليتَ لهم مثل ما أوتي قارون ذو الحظِّ العظيم. ذلك بينما قال الذين أُوتوا علم الغيب والإيمان به يخاطبونهم: أن الويل لهم فإن ما عند الله خَيرا لمن آمن وعمل صالحاً، كلمة لا يلقّاها إلاّ الصابرون. فانخسفت به وبداره الأرض فما كان له من ناصر، وأصبح الّذين تمنّوا مكانه يتبيّنون أن الله يبسط الرّزقَ لمن يشاء

ويقــدر، وحمدوا الله على سلامتهم هم من مآله لولا أن منّ الله عليهم غير مستجيب لتمنّيهم لخَسف بهم أيضاً، إنه لا يفلح الكافرون.

والحــق أن تلــك الدار الآخرة يجعلها الله بأقداره العظيمة خيراً للذين لا يريدون علــوّاً في الأرض ولا فــساداً بما آتاهم الله، فإن العاقبة للمتّقين، وإنّه مَن جاء يومئذ بالحــسنة فلهُ خير منها ومَن جاء بالسيّئة فلا يُجزى إلاّ بمثل ما كان يعمل. والتّذكرة تــتأكّد في خــتام الــسّورة للرّســول أن يُبلّغ الرّسالة إيماناً بالهُدى وأن يُجاهد مثالاً لمقتــضاها. إنّ الذي فَرَضَ عليه القرآنَ أمانة لتبليغ ذلك لرادّه إلى معاد في الآخرة دار الجــزاء، فلــيذَر الناسَ في خيارهم قائلاً: إن ربّه أعلم بالمُهتدي والضالّ. وقد أنعم الله علــيه بعد ما كان في ضلال وما كان يرجو أن يُلقى إليه إلا رحمة تلّقّاها من ربِّه تعالى فــلا يكــونَنّ ظَهيراً للضالّين المُجرمين ولا يصدُّنّه عن آيات الله الموحاة إليه وليعتزل مذهبهم في الحياة وليدع إلى ربّه وحده ولا يكوننّ من المشركين، ولا يدعو مع الله إلهاً آخر كما يشيع في تقاليد البيئة الإشراكيّة، فالله لا اله إلا هو الحيّ الذي لا يموت، كل شيء هالك فانٍ لمنتهى الدنيا إلا وجهه الذي يتجلّى ليقوم ربّاً للعالمين ملكاً ليوم الدّين له الحكم في قضاء مصير عباده وإليه يومئذ يرجع المخاطبون برسالته جميعاً، ما لهُم من دونه من ولي ولا نصير.

ترتيل المعاني (الآيات من ١ – ٤٣):

﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١ – ٢)

بعــد ذكــر البسملة المَسنون تتصدّر السّورة ثلاثة أحرف من المنطوق الأبجدي العربــــي نــوالي ذكرها في السّور التي هذه ثالثتها في الكتاب: 'الشعراء' و'النمل' و'القــصص' هــذه، ولم ترد الميم مثبتةً في الوسطى، ولكن هنا تمّت المنظومة الثلاثية: الطــاء النطعــية المجهورة والسين الأسلية المهموسة والميم الشفوية المجهورة، وهي مثال لحــروف اللــسان العربــي الذي جاء به القرآن، وتتقدّم قسماً واستشهاداً بأن تلك آيات الكتاب من مثل تلك الحروف التي تتركّب بها الكلمات فتؤلّف الجمل فنصوص الآيــات المــنظومة المجموعة في سور الكتاب. تلك إذاً آيات الكتاب فيها فواصل من

حـــروف متناسقة، يتجلّى فيها دفعٌ من ذكر الله وبجملتها يتمّ الكتاب الموضوع رسالة مكـــتوبة علـــى مَن بلغه مخطوطها سطوراً مسجّلة في صحف مزبورة متلوّة قرآناً لمن نطقها باللّسان إذا أخذ بها أذكاراً يعيها فيُسلم لها. والكتاب كيفما تُليَ هو المُبين تتابَع ألفاظـــه منطوقة بالصوت ومعانيه بالتدبّر ومقتضاه بالعمل. وهو موضح لأنه باللسان العربـــــي المـــنطوق واللغـــة المفهومة لأمّة الخطاب الأولى ولأن منظومة آياته تتوافق معانـــيها وتتكامل بياناً ولا تختلف تناقضاً، ومنسوقة تعابيره في وقعها سلاسة يتّحد بها المفهـــوم نظراً في الوعي والمشعور عاطفة في القلب والمقتضى فعلاً في الحياة، ولأنه ابلغ الحـــديث وأبدعه وأحسنه يعجز بأن يأتي بمثله البشر ولو من الناطقين بالعربية فشهادته بـــذلك بيّـــنة أنـــه لا يصدر إلاّ وحياً من حكيم عليم، الله الذي يتعالي فرداً في غيب الوجود ينـــزّل وحيه فرقاناً مرتلاً ويحفظ أحكام آياته وأمن بلوغه لعباده المخاطبين.

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَـــلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٣-٦)

هـــذه أنظـــومة آيـــات مقدّمة توجز إجمالاً ما يُفصّل لاحقاً من قصص مثل نهج القرآن في أوّل سورة يوسف وباقيها. يُخاطب الله رسوله المكلّف ببلاغ القرآن أنه ﷻ – بجملـــة أقداره في اصطفاء الرسل المتعاقبين ثم في التذكير المتوالي لخَلَفهم بعبرة سيرة السلف – يتلو عليه بآيات من الكتاب المبين من نبأ موسى وفرعون بالحقّ،[1] طَرفاً من وقائع ذلك الخبر ذي الشأن في ذكر موسى عليه السلام – الرّسول السابق مبلّغ التوراة الحيّ ذكـــرها والحاضر أثر وقعها في أمّة حول متنـــزّل القرآن، وفرعون المثال الأبلغ للطغاة الضالّين الظالمين الحاملين حتّى على الدعاة إلى رسالات الهُدى الموحاة من الله، يتلو من

(١) في ســـيرة موســـى لمثل المدى المذكور في هذه السورة: راجع الآيات ١٠٣ – ١٣٧ سورة الأعراف، والآيات ٧٥ – ٨٢ سورة يونس، والآيات ١٠١ – ١٠٤ سورة الإسراء، والآيات ١٠ – ٦٨ سورة الشعراء، والآيات ٧ – ١٤ سورة النمل، وانظر الآيات ٢٣ – ٤٦ سورة غافر، والآيات ١٥ – ٢٦ سورة النازعات.

النــبأ بالحقّ رواية ثابتة العبرة فيها صادقة. وذلك مخاطبةً وهدىً لقومٍ من أمّة خطاب الرّسول الخاتم ﷺ يكون نهجهم في الحياة أن يستجيبوا لما يتلقّون من رسالة الله ترسخ في قلوبهم معانيها ويصدق في حياتهم مقتضاها فهم بها يؤمنون.

ذلــك الحــقّ المؤكّد هو نبأ فرعون الذي سيرته الماضية أن علا في الأرض طاغياً علـــي مصر وجعل أهلها شيعاً مايز بينهم طبقات يستضعِف طائفةً منهم يستغل هوانها ألاّ تضبط من طاغوته يذبّح أبناءهم سياسة موصولة من قتل المواليد من عِرقهم يخشى انبساطهم تمكناً في أرضه ويستحيي نسائهم مستبدّاً يظنّ أنّه المتصرّف في وجود بعض رعيــته يحــيى ويُميت فلا يذر أحياء إلاّ من لا خطر له ولا حذر منه، الإناث يومئذ مستــضعفات في الحــياة إلا أن يُسخّرن كرهاً. إنه كان من المفسدين يبسطون الضرّ والشرّ ويعطّلون أسباب الصّلاح في الحياة.

ويريد الله – بأقدار قضائه المصرّفة لحظوظ خلقه – يريد أن يمنّ – بفعل تراتيب قــدره القوي وقضائه العدل – أن يتفضّل على الذين استضعفوا في الأرض، طائفة بني إسرائيل الذين استقوى وتعزز عليهم فرعون في مصر، ويجعلهم أئمة، لا يكفيهم عدلاً التساوي مع الناس جميعاً بعد ما أصابهم من الاستذلال نسبةً إلى الآخرين، بل يزيدهم فيأجرهم عوضاً لصبرهم وأذاهم المتطاول أن يرفعهم بتلك الأقدار لفضله وإحسانه – قــادةً أمــام الناس قدوة في المجاهدة والمصابرة فالاستقامة على الحق والهدى ويجعلهم كــذلك – بقــواه وأحكامه النافذة – الوارثين، لهم عاقبة التمكّن والتمتّع بالأرض في هــذه المنطقة الوسطى المباركة التي كانت مصر والشام محور القوّة والنفوذ فيها يتلونَ ســلف الفراعنة والجبابرة الذينَ بسطوا يدهم فيها قبل أن تنقلب عليهم العواقب. يريد الله بــذلك المــيراث أن يمكّــن لأولئك المستضعفين في الأرض ويُري فرعون ووزيره الأقــرب وجنودهما – العسكر المسخّرين في أرض الذلّ وقهر الطغيان المتعالي – يريهم مــن أُولئك المستضعفين ما كانوا يحذرون منهم غيرة تخوّف غريب وتحفّظ حريص من أيّما كيد أو مكرٍ يصدر منهم نيلاً من قوتهم هم المُطلقة وسلطانهم الطاغي.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧)

يضيفُ الله – تفصيلاً لما جَمَع من ذكر مجرى إرادته وأقداره الناظمة لأمر موسى المـــنظور – أنه أوحى بأقدار من مدّ الإلهام الذي يُتلقّى حقاً دون وحي تلاوةٍ ذكرٍ بيّن مسموع – أوحى إلى أمّ موسى أن تمضي في إرضاعه وليداً عملاً بمفطور الأمومة، فإذا خافت – كذلك – أن يتسامع به الملأ ويُلاحق لتنفذ فيه سياسة فرعون تقتيلاً للذكور من مواليد بني إسرائيل فلتُلقه في اليمّ محفوظاً في تابوت مُحكم من خشب العود يجري مـــع التـــيّار حتّى يركن إلي الساحل، وألاّ تخاف عليه أن يغرق أو يُعايَن ويتبين أمره فيفعل به أمر فرعون المخوف، ولا تحزن من مفارقته كمعهود الأمّ المُرضعة، إذ أكّد لها إلهـــامُ ربّهـــا أنه – بأقدار تصريفه وتأويله للحادثات – رادّه إليها تسترجعه بوجه مّا وجاعلـــه – بأقدار إعداده واصطفائه للنبوّة وتلقّي الرّسالة لتبلُغ العباد – من المرسلين. وتلـــك بشرى يطمئنّ بها شيء كان عاماً في نفوس بني إسرائيل يترقبون في منظوراتهم الدينية الغيبية أن يتوالى فيهم مَن يُصطفون بالنبوّة والرسالة.

﴿فَالْـتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (٨ – ٩)

فالتقطه آل فرعون، إذ كان أهله وجنوده وعاملوه يرتادون النّيل ورقباء عليه لأنّه مـــن أسباب التسلّط وأدوات البغي على الرعيّة، وجدوه عفواً فأخذوه ليكون لهم – عاقبة من قدر الله المكتوب غيباً منظوراً ما أحاط به إدراكهم تقديراً ولا تنبؤاً – عدوّاً يجاهـــدهم وحـــزناً بمـــا يـــصيبهم مـــنه من أذي أو أخذ محزن. إن فرعون وهامان وجـــنودهما – كمـــا يقـــضي حكم الله ويبلغ علمه آجلة الأمور مهما يكن مكرهم وحـــسابهم في مستقبل نظرهم وخطيئتهم تجاه بني إسرائيل – كانوا خاطئين في التقاط وليد منهم وتركه عفواً من أمر التقتيل رجاءً فيه.

وقالت امرأة فرعون – مقدّرة مآل الرضيع لنفسها ومخاطبة زوجها: هو قرّة عين لهـــا وله، لا يُقتل، عسى أن ينفعهم هم أهل البيت أو يتخذوه ولداً. ولعلّها غاشية من رحمـــة أُنثى على لقيط رضيع أن يُعفى ورجاء نفع منه وحب لاتخاذ ولد. وهم – كما يعلم الله ويذكر – لا يشعرون أدنى إحساس بما سيحقّ واقعاً من تلقائه في المآل.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠)

وأصبح فؤاد أمّ موسى – بعد إلقاء رضيعها في تابوت على البحر خُفية بليل – فارغاً إلا من الهمّ والحَيرة من الجهالة بمآل ابنها المنظور، حتّى كادَت أن تُبدي به، أوشك الهمُّ أن يدفعها لإعلان أمرها ودواعيه، لولا ربطَ اللهُ على قلبها – كما يقولُ ﷻ متكلّماً بكلِّ أسبابِ إيحائه إلقاءً لخواطرِ الطمأنينة التي تثبّت القلوب.

﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (١١ – ١٢)

وقالتْ أمّ موسى – ليطمئن في قلبها الفارغ إلاّ من الهمّ بابنها ثابتُ التوكّل والرجاء – قالت لأخته أن تقصّه، تتابع لحاقاً مَجري تابوته في البحر، فبصُرت به أخته عن جُنُب، إذ كانت تتّقي الرّقابة المُباشرة له ألاّ ينكشف أمرها، ومضت بحذر تلحظه حتّى بعد التقاطه وذوو الشأن من قوم فرعون وجنوده لا يشعرون بها.

وبأقدار الله في نظم الأسباب ليمضي قضاؤه في تدبير الأمور – حرّم على الوليد اللّقيط المراضِع ممّن عُرض عليهنّ لإرضاعه في سياق الرّعاية التي تولّتها امرأة فرعون في شأنه. وإذ بلغ أخته ما يجري من ذلك دخلت على البيت ذريعة لاستدراك أمره قالت – كأنها سمعت في أمر استرضاعه المتعسّر أن يكون له مرضعة معطية يتقبلها – قالت لهم متسائلة: هل تدلّهم على أهلِ بيتٍ يكفلونه لهم مأوىً فيه مرضعة كما يتحرّون، وهم له ناصحُون صادقون في رعايته. قالت كأنها كلمةً عفو تريد أن تثبّت قلوبهم ليأمنوها في اختيار مرضعة.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

هكذا ترتّب – كما يقول الله، متكلّماً بكلّ أقداره في تسيير الأمور لتؤول إلى ما أراد هو ﷻ – أن ردّ موسى إلى أمّه، إذ اتخذوها مرضعة وانعطف هو لتقبّلها بعهدِ ريحِها ولبنِها وبطبع البنوّة المفطور. وذلك الردّ إنّما به جرى قضاء الله نافذاً

لتقـــرّ عيـــنها هـــيَ ولا تحـــزن، تسكُن عينها من دواعي خوف الفقد وحرّ الحزن والمحـــاذرة. ولْتعلم أنّ وعدَ الله – السابق – حق. وهكذا سنة الله في وعده حتّى في مـــآل الحياة الدّنيا إلى آخرة وعداً بالخير لمن يؤمن بها ويُعدّ لها زاداُ من صالح العمل. ولكن أكثر مَن تُخاطب دعوات رسالة الله للأيمان والعمل لتلقّي الوعد الحسن بشرى بالعاقـــبة والوعيد نذارةً للكفر وعمل السّوء بالعذاب العاقب – أكثرهم لا يعلمون ذلك حقاً لأنهم لا يبلغون آجل الأمور وغيبها بقاصر نظرهم ومنحصر همّهم المفتون بحاضر الدنيا ومشاغل عاجلها، لا يبلغون ذلك حتّى يُدركهم علمه في الآخرة بعد ما تقـــع قائمـــة. وهذه كلمات حقّ تتخلّل سرد القصص في منهج القرآن حيثما دعا سياق التذكر والاعتبار.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤)

ومـــن بعد الرضاعة فالفطام فالتنشئة – لّما بلغ موسى أشُدّه نُضجاً ورُشداً وعلماً واستوى كهولةً وحُلماً آتاه الله – بأقداره التي تغشى الشباب دَرَجاً عبر مرحلة البلوغ والاســـتواء باســـتقامة نـــوازع الصَبوة المُراهقة – آتاه حكماً – درجات متباركة من الحكمة والرّشاد في إيقاع الأمور حقّ مواقعها وحسن الرّؤيا في مساعي الحياة وإدراك العلاقـــات طيّبةً مع سائرِ النّاس، وعلماً مُنبعثاً من تجلّي إيحاءات الفطرة ونشاط العَقل وبـــركة التّجـــريب والتزكية من أمٍّ مُحسنة وتلقّي الإلهام والتّعليم عَبرَ مُجتمع الحياة. كـــذلك – كما يقول الله في بيان سنته – يجزي بتلك الأقدار المُحسنين الذين لا تهوي بهـــم نوازع الشهوة والسّفاهة ولا يدفعُهُم البَغي والظلم في سياق من تربية الوالدين أو النـــشأة نحو التدنّي عن مبالغ الصلاح فضلاً عن الترقّي إلى الإحسان حيث يحقّ فضل حكمٍ وعلم ببركة الله جزاءً حسناً.

﴿وَدَخَـــلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْـــسِي فَاغْفِـــرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (١٥ – ١٧)

ودخـــل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها، عشيةً ما كانت ساعة تراءٍ أو ازدحـــام من الملأ، لعلّ كَونه ربيباً لبيت فِرعون ومن عِرق بني إسرائيل يجعله يتحرّى سكون المدينة إذا دعته حاجاته للسعي في نواحيها. فوجدَ فيها رجُلين يقتتلان هذا من شـــيعتِهِ إسـرائيلي وهذا من عدوّه قبطي تميّزهُما عِرقاً معالم الوجه. ذلك إذ سادت سياســـة فـــرعون في الفِتنة بين الرّعايا واستضعافِ بني إسرائيل إذ انــزرعت العداوة وحمـــيَ التوتّـــر بينهم وبين سائر أهل مصر. فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عـــدوّه، يستميله انحيازاً إليه بعصبيةِ القُربى ولعلّه عرف فيه شدّة العزيمة والبأس. فوكز موسى القبطي لكزةً واحدة بجمع يَدٍ تدفعُها مشاعر التظلّم وظنّ العدوان فقضى عليه، لم يَعمـــد القـــتل مـــرة واحدة بل ابتغى المدافعة فتجاوزها مفرطاً غضباً، فقال تذكّراً مـــسارعاً: هذا من عمل الشيطان إغواءً ونـــزغاً بين الشّيع إنه عدوٌ بطبعه مضلٌّ مبينٌ لـــبني آدم، وأخذه النّدم على ما بلغت فعلته، قال مستغيثاً ربّه مُنادياً: إنه ظلم نفسه إذ حملـــها بجـــانح غيظه على ارتكاب جريمة كبيرة على حُرمة نفسه بغير حقٍّ وسأل ربّه المغفـــرة لـــه صفحاً. فغفر الله له مخطئاً غير عامد ونادماً تائباً إلى ربّه يبتغي العفو. إن ربّـــه – كما يذكّر بذاته مولىً لعباده – هو الغفورُ الرّحيم، واسع الغفران بالغ الرحمة. قال موسى مُنادياً ربّه خطاباً شاكراً نجيّاً: إنه بما أنعم عليه هو ﷻ إذ قدّر له أن يمضي ســـالماً و لم يعقـــب فعلته عقابها آية استجابة لاستغفاره وبما أنعم عليه من هداية تزكية وإلهـــام توبة وأوبة فور الخطيئة – إنه بما رتّب عهداً على نفسه لن يكون بعدها ظهيراً للمجرمين، معيناً للنّازعينَ إلى الإجرام ميلاً إليهم عن عصبيّة طائفة.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَـــهُ مُوسَـــى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَـــى أَتُـــرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٨ – ١٩)

فأصـــبح بعد تلك البليّة خائفاً يترقّب أن يكون الخبر قد انتشر فبلغ قوم فرعون الـــذين يخشى منهم عندئذ ملاحقته قصاصاً وثأراً. فغدا يترقّب متحرّياً أيّما طلب أو قـــصد إليه. فإذا الذي استنصره بالأمس واستعان به ناصراً فغالباً لأنه من قومِهِ يصادفه

فجـــاءَه يستـــصرخه مُستغيثاً طالباً النصرَ في مقاتلة مرة ثانية كالأمس. قال له موسى التّائب إلى تقوى الله والمتذكّر بعهدِه ألاّ يُظاهر أيّما مُجرِم – قال له: إنه لغوي يهوي به إلى ضلالِ الخَطايا مُبين إذ يشهد عليه أنه باشر التحريض دفعاً إلي ذلك أمس وعاد بفعله اليوم صفة تلازمه بنيتها تتواتر.

فلمـــا إن أراد موسى أن يبطش بالذي هو عدو لهما، إذ أخذه الميل مناصرة لابن شيعتِه وجاوز به الكَلمةَ الزّاجِرة التي سبقت مُناصحة ضدّه، لما أقبلَ موسى على ذلك قـــالَ له ذلك الإسرائيلي مُرتعباً ممّا قد يهمّ به بعد تلك الكلمة – قال منادياً له باسمه: أيريد أن يقتله كما قتلَ نفساً أمس – كأنّه نكص عن الاستنصار به فزعاً منه مدّعياً أنه يـــريده أن يأتي مُصالحاً إذ قال خطاباً له نكراً: إن يريد إلا أن يكون جباراً في الأرض يطأ بالقوّة الباطِشة والجبر على ذات بين الناس وما يُريد أن يكون من المُصلحين يسوّي بيـــنهم منازعاتهم في أمن وتراض. وانطوى في الآية ذكر ما جرى عاقباً ولكن موسى تلقـــاءً تـــركهما لينطلق القبطي سالماً يُشيع قولة الإسرائيلي شهادة على موسى قاتلاً للقبطيّ الذي هلك البارحة في غفلة من أهل المدينة.

﴿وَجَـــاءَ رَجُـــلٌ منْ أَقْصَى الْمَدينَة يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إنَّ الْمَلأَ يَأْتَمرُونَ بكَ لِيَقْـــتُلُوكَ فَاخْرُجْ إنِّي لَكَ منَ النَّاصحينَ * فَخَرَجَ منْهَا خَائفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّني مِـــنَ الْقَوْمِ الظَّالِمينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٢٠-٢٢)

وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى، ولعلّه من عامّة أهلِ المدينة سارع إلى موسى عفواً مُجتهداً في شأنه إذ بلغه خبرُ الحديث وصداه، قال مخاطباً منبّها له: إن الملأ ذوي الـــشأن من قوم فِرعونَ يأتمرونَ به تداولاً حول فعلته وتناصحاً آمراً بما ينبغي معاقبةً له ليقـــتلوه، ثأراً لصاحبهم القبطيّ القتيل. وأتمّ ذلك الرّجل القول لموسى: إنه ينبغي أن يخرج من المدينة، مؤكداً له أنه له من الناصحين الذين يوصلون طوعاً الصدق الراشد. فخـــرجَ موسى من المدينةِ خائفاً يترقّب أيّما درك. قالَ وقد دعاه الحال مستغيثاً منادياً ربّه: أن يُنجيه من القومِ الظالمين، الذين إن أدركوه هم قاتِلوه قياماً عليه مُتمّين ما كان حاقّاً عليهِ من جِناية قتلٍ لنفسٍ منهم.

ولما توجّه تلقاء مدينَ، فارّاً شَرْقاً وكانَ ذلك طريق المهجر والمخرج إلى مصر ومنها. لّما توجّه ثمّة وما كان يدري ما يلقى قال منادياً ربّه مُهاجراً في سبيله: أن يهديه سواء السبيل، نجاة وعاقبة سلام.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٣-٢٤)

فمن بعدُ، لّما ورد البئر مورد ماء مدين حيث يلتقي الرعاة والمستقون وجد عليها أمّة مجتمعة قاصدة لها من الناس يسقون بهائمهم، ووجد من دونهم، بمعزل أقرب إلى مَقدمه، امرأتين تذودان عنهما، ألاّ تقتحم المزدحم المتنافس، قال لهما: ما خطبهما؟، شأنهما الدّاعي إلى صرف غنمهما. قالتا إنهما لا تسقيان حتى يصدر الرّعاء، يفرغوا من السّقي وينصرفوا مولّين، فيخلوا لهما - أنثيين - المجال بيسر، وذكرا أن أباهما شيخ كبير العمر لا يقوى على رعي الغنم والدخول بها في مزدحم الماء، فسقى لهما مقتحماً متولّياً أمر الدّلو والحوض، ثم تولّى أوباً إلى ظلّ شجرة فقال - وقد أحاطت به أحوال الغربة ومشاعر البأساء منادياً ربه متشكّياً إليه: إنه لما أُنزل عليه - عندئذ - من خيرٍ مّا فضلاً منه فقير، إذ أرهقه احتمال السّفر والحاجة الملحة.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (٢٥ - ٢٦)

ما لبث موسى كثيراً كذلك حتّى جاءته إحدى المرأتين الفتاتين تمشي على استحياء يعلوها تستر وتحرّج، قالت له تخاطبه: إن أباها يدعوه ليجزيه أجر ما سقى لهما. ولعلّهما كانتا قد روتا للأب مروءة هذا الغريب وأدبه في تولّي السقي بعزم وانصرافه إلى ظل. فاستجاب موسى وجاء إلى الشيخ معها ولقيَه، ولعلّه توسّم فيه الحكمة والنصح أن روى سيرته في بيئة الطغيان والاستضعاف. فلمّا قصّ عليه القصص وبيّن ما أدى به إلى الهجرة والقدوم إليهم لاجئاً خشية اللّحق من قوم فرعون، قال له الشيخ يطمئنه: ألاّ يخاف قد نجا من القوم الظالمين، فهو ثمّة بمنأى في الأرض من حوزة

ولايتهم السلطانية، وهم معروفون بأنهم قوم فرعون ذوو قوة وبأس يوصفون بأنهم بُغاة غارقون في الظلم في سياسة الأمر العام.

اغتـــنمت إحـــدى الفتاتين ذلك الروح من الاطمئنان في أمر ذلك الغريب فيهم عندئذ الذي ما عهدته إلاّ قليلاً. قالت متصدّيةً مخاطبةً منادية أباها أن يستأجره، ليداوم متوالياً مثلَ ما أدّاه ذلك اليوم في خدمة الرعي والسقي معهما، وأكّدت لأبيها أن خير مـــن استأجر لذلك – هو مثله – القوي طاقةً وعزماً في تكاليف الرّعاية الأمين أدباً في صحبة الأسرة، كما تفرّست فيه بتجربته معه عند الماء.

﴿قَـــالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَـــإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٢٧–٢٨)

ولعـــلّ الأب رضي بذلك الطلب من ابنته لا استيفاءً وحسب لحاجة الأسرة في الرّعاية بفعل وأمانة ولكن إدراكاً منه أيضاً لمغزى في مبادرة البنت توصية باستيعابه أجـــيراً لدى الأب في رعاية الغنم وصحبة الأسرة في ذلك ووصفها له قوياً في قضاء تكالـــيفه أميناً في الصحبة. قال الشيخ الأب له مخاطباً: إنه يريد كأنها بادرة منه هو أبـــاً – أن يـــنكحه مزوّجاً له إحدى ابنتيه الحاضرتين بين يديه، ولعلّ عين المقصود تـــزويجه لهـــا قد تبيّنت من تزكيتها هي له ووصاتها به. أضاف الأب شرطاً لمشروع العقـــد معه أن يأجره ثمانية حجج فإن أتمّها عشراً فطوعاً منه وتفضُّلاً من عنده، وما يـــريد هـــو الأب – كمـــا يقول – أن يشقّ عليه بإطالة مدى الإيجار أو القسوة في التكاليف بأي وجه وسيجده موسى أنشاء الله من الصّالحين مؤجّراً له وحافظاً شأنه ختناً مرعياً في مأوى الأهل. قال موسى – مستجيباً راضياً مطمئناً على تدبير لأمره يُغنيه ويؤهّله مرعيّاً، وعازماً الوفاء بالعقد مبيناً أن الأمر خيار بينه وبين الشيخ الذي يُخاطـــبه: أيّمـــا الأجلين مدىً قضى هو مناصفة سويّة بينهما ولو بلغ هو مِن عنده العشر من الحجج وهو التزام يرضاه مرضيٌ بالتّمام والقسط وألاّ عدوانَ عليه فيه من الذي يعاقده مستأجِراً مُنكحاً ويُرجى أن يرعاه نسباً ومشيخة، وأشهد الله على ذلك

التعاقد بينهما هو ﷻ على ما يقول وكيل راعياً برحمته وتوفيقه ومحاسباً على الوفاء والأمانة.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٢٩)

فلما قضى موسى الأجل، ولعلّه كان الأوفى والأتمّ فيما يبدو من رعاية الأب لأول اختيار مدّة طوعاً ربّما رجاءً منه في ذرية أكثر يراها هو عقب النكاح، لما قضى سار بأهله هو وصاحبته ولعلّ معهُما ذريةً من صغار قاصداً المرجِع إلى ما عهد من أهل وموطن في مصر، على ذلك الطريق آنس من جانب الطور - رؤية تُلقّي في نفسه مشاعرَ انشراح صدر وطمأنينة - ناراً. عندئذ قال لأهله: أن يسكنوا ماكثين في انتظار عودته من الذهاب قُربى من النار التي آنسها مترجّياً لعلّه يأتيهم منها بخبر - عن هداية السبيل وأنباء أمنه - أو جذوة فيها شهاب قبس من النّار لعلّهم يصطلون بها استدفاء من برد ليل صحراء سيناء.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ (٣٠ - ٣١)

فلما أتى النار نودي بصوت مصدره مجهول في الغيب يأتي من شاطئ الوادي الأيمن وجهة من الطور في البقعة المباركة من الشجرة موقعاً يتجلّى جلالاً فائضاً وقدسية، ويخاطبه الصوت منادياً له باسمه: أن يا موسى إنه هو المتكلّم - الله ربّ العالمين الإله الأعلى المستجمع لصفات الألوهيّة الأولى تعرفاً الأحقّ ربّاً لعوالم الخلق كافّة. ويأمره الصوت الغيبي المتعالي ربّاً أن يُلقي هو عصاه التي كان يحملُها أرضاً. فلما رآها موسى لا تسكُن سقطاً بل تهتزّ في حركة كأنها جان - حية نشطة - ولّى مُقبلاً لظهره مدبراً عنها و لم يعقب مُلتفتاً راجعاً ليواجه الخطاب الجليل الصادر إليه غيباً من الله. لكن عاوده منه ﷻ التكليم نداءً له باسمه أن يلتفت مُقبلاً آيباً وألاّ يخاف إنه من الآمنين المحفوظين في حصن سلام ربّاني جليل.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٣٢)

استأنف الأمر لموسى من ذلك الكلام الربّاني الذي وحياً يتلقّاه مسموعاً لأن وجه الله مـــن وراء حجاب الغيب – الأمر له أن يسلك – مُدخلاً – يده في جيبه، الثغر في فتحة ثوبه للرأس أو الكمّ، تخرج اليد منه بيضاء، غير سُمرة بشرتها المعهودة طبعا، من غير سوء، لا علّة حرق أو برص أو نحوه، وأن يضمّ إليه جناحه – اليد التي أزاحها من جانبه لينظر إلى لونها الغريب بارزةً – من غاشية الرّهب فزعاً منها، وليطمئن ذُكّر أن ذينك برهانان وآيتا حجة صدق، صدوراً بإعجاز قدر ربّه لا من تلقاء فعله هو، تعزيزاً لرســالته من الله إلى فرعون وملئه ذوي الشأن. إنهم – كما يصفهم الله حقاً – كانوا قوماً فاسقين، دينهم مارق من معرفة الله وخلقهم مُتفلّت من تقواه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾ (٣٣-٣٤)

قـــال موســـى – إذ تذكّر مباشرةً فعلته التي دعته للفرار من مصر المكلّف الآن برسالة من الله إلى سلطانها الطاغي – قال منادياً ربّه: إنه قتل منهم نفساً فيخافُ بادياً في سياســتهم أن يقتلوه ثأراً. وأضاف أمراً آخر أن قد يعتريه القصور في أداء الرسالة بياناً في الخطاب، أخوه هارون – كما قال – هو أفصح منه لساناً لحاجة البلاغ المبين، فـــرجا ربّـــه أن يرسله معه رِدءاً سنداً يصدّقه مثنّياً، إنه يخاف أن يكذّبوه صوتاً واحداً قاصراً.

﴿قَـــالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (٣٥)

قال لموسى ربُّه مخاطباً له: سيشدّ عضده – بأقدار مدّه وأيده لجهده، يسند أداءه، بأخـــيه ويجعـــل لهما كذلك – سلطاناً من رعاية غيبيّة فلا يصلونَ إليهما أذىً وغُلباً أولـــئك الطغـــاة المخاطبون، إذ – بآيات الله المعجزة القاهرة عصاً ويداً فضلاً عن آي الهُـــدى في الرســـالة– همـــا ومَن اتّبعها هم المحصونون الغالبون على كلّ حملة تتسلّط عليهما من سلطان فرعون وقومه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٦-٣٧)

فلما جاءهم - قومَ فرعون - موسى بالآيات التي آتاه أيّاها ربّه مُعجزات مُصدّقات لدعوته بيّنات وقعاً، قالوا: ما هذا إلا سحرٌ مفترى. نسبوا الآيات لأفاعيل السّحر والتخييل المعهودة في ثقافتهم وظنوا الدّعوة برسالة من الله قولاً ملفقاً محمولاً برهبة ذلك السحر. ونفوا أنّهم سمعوا مثل ذلك - ممّا تدعو إليه تلك الرسالة - في آبائهم الأوّلين، فما ذلك إذاً عندهم إلا إفك سحر مبتدع. وقال موسى إذ كُذّب: إن ربّه أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، لا يفتري دعوى الرّسالة من تلقاء نفسه، ومن تكون له في مآلات الأمور وعاقبتها ظفراً وفتحاً في الدار الحاضرة أو فوزاً حاسماً بالدار الآخرة، لا بالظن والغلب العارض المسترهب في عاجلة دار البلاء. وقال - يثبت الواقع الحقّ في المصائر: إنه لا يفلح الظالمون، في سيرة العلاقات المتنافسة بل العادلون بالحقّ هم الأولى بالفلاح في العاقبة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٨-٣٩)

وأهاج عرض الآيات من موسى الغالبة بقدر غيبي - أهاج غيرة فرعون على دعوى تعاليه في الألوهيّة على رعيته، وقال - منبّهاً منادياً الملأ، أشراف الرعيّة: إنه ما علم لهم من إله غيره حقيق بالعبادة، وأنقلب على هامان آمراً له أن يوقد له على الطين ما يطبخ لَبنه فيصنع بالوقود آجُراً يَبتني به - لا أهراماً لدفنه - بل صرحاً صاعداً إلى السماء علوّاً لعلّه راقياً فيه يطّلع إلى إله موسى الذي زعمه ربّاً في السماوات والأرض وما هو على الأرض بمشهود، وإنه ليظنّه من الكاذبين، أن يقوم كذلك في الكون إله يتعالى عليه إلاّ رمياً بالكذب دأباً في دعاوى موسى عن الغيب. واستكبر وتعاظم لذلك هو وجنوده في أرض مصر بغير الحق وظنّوا أنهم لا يرجعون مسئولين بين يدي الله وأقداره في الغيب في آجلة أخرى غير الدنيا، كما يرد في مقولات موسى. بل هم

السلطان شهادة وغيباً يرجع إليهم الناس مسئولين في العواقب لا يُسألون هم عند أحد هنا أو في آخرة عما يفعلون.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠)

وجمع الله ذكر العواقب الحاقّة على فرعون. إذ أخذه ﷻ بأقداره النافذة الغالبة – وجنوده فنبذهم بتلك الأقدار في اليمّ من البحر الأحمر غرقاً حين دخلوا في فرق جَزْره لحاقــاً وراء موسى وقومه العابرين المهاجرين شرقاً. فلينظُر المتعرّف المتدبّر قصة موسى وفرعون كيف كان عاقبة أمر الظالمين في الدنيا، ذهبوا وإن غرّهم الاستكبار الطامع في العلو على الآخرين أبداً.

﴿وَجَعَلْــنَاهُمْ أَئِمَّــةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٤١–٤٢)

وجعل الله فرعون وآله – بأقدار إملائه يسراً على الضالّين وقضائه عليهم آجلاً – جعلهم أئمة يدعون إلى ما يؤدي إلى النار مثلاً للطغاة المؤلّهين أنفسهم المستكبرين على الــرّعايا الظالمين لأيّما داعية بالحق العادل ولمآل مسيرهم، قُدىً يدعون الناس إلى النّار تــبعاً لهـــم لا إلى الهدى فالفلاح. ويوم القيامة وهو يوم التغابن والتحاكم لا يُنصرون بأيّمـــا جـــند مسخّرة لهم بل تأخذهم الملائكة عند الله أخذ عزيز مقتدر. وأتبعهم الله بـــتلك الأقدار المعاقبة في الدنيا لعنة من الله وفي ذكر الخالفين من العالمين الذين سمعوا نـــبأهم في علـــوّ الاستكبار فاتّبعوهم دعوة الطّرد من ذكر الخير كما لازمهم من الله الإبعـــاد مـــن رحمته، ويوم القيامة من المقبُوحين خزياً في معرض الحساب البيّن ووقع القضاء من ذوي القباحة لا ذوي السماحة المشهودة في ذلك المقام تمايزاً بين العباد.

﴿وَلَقَــدْ آتَيْــنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٣)

ولقد آتى اللهُ بأقدار وحيه ورحمته موسى الكتاب – التوراة – هُدىً لبني إسرائيل بعـــد نجـــاتهم لتستـــضيء سيَر حياتها العاقبة بنور فرقان من الهُدى والشّرع المكتوب علـــيهم. كانت تلك دولة هداية في سيَر الأمم وتاريخها من بعد ما أهلك الله القرون الأولى بأقـــدار ابتلائه أن بعث فيهم المُرسلين بهدىً ونذير فلمّا أعرضوا حق مآلهم إلى

الهلاك العاجل، سُنةً لله في تداول الابتلاء مضت قبل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم قوم لوط وشعيب[1] حتّى تجدّدت سُنّة رَحمة الهُدى وأُوتيَ موسى الكتاب رسالة بلّغها واستحفظ عليها الأئمة من خلفه جاءت بصائر للناس وهدىً ورحمة من بركة الله في توفيق صلاح مسيرهم لعلهم يتذكرون تلك النعمة من الله فيلتزمون مقتضاها في مجرى حياتهم ويحدّثون بها ولا ينسونَها فيضيّعون هُداها وبركتها مهما يُملي الله لهم في الدنيا دون عاجل عقاب مهلك.

عموم المعاني (الآيات: ١ – ٤٣)

من جذور بنائها بالحروف فالكلمات العربيّة تبدو آيات الوحي من الله تعبر بذلك اللّسان عن العلم والهدى الذي ينزله الله رحمة بعباده ويتوالي حتى يتألّف منه الكتاب المُبين لمعانيه لأمّة الخطاب الناطقة بذلك اللسان المتعالي أسلوبه بلاغة أن يكون مفترى من دون الله إذ لا يأتي بمثله بشر. ورسالة العلم فيه بأنباء ما قد سبق فيها لمن لم تبلغهم عبر وعظات يرسخ بها وقع الهُدى حقاً صادراً من الله العليّ الجليل. والتوافق بين تلك الأنباء وما بقي محفوظاً من قصص المرسلين السابقين في الكتب الأولي شهادة أنها خبر صادق وأن الإحاطة علماً بسيرِ الأقدمين هكذا لا يتيسّر إلا لله الذي أوحي هذا الكتاب الأخير. ثم إن الآيات حين تفصّل القَصَص لا تحكي كلّ شعاب وقائعها المتوالية تسليةً وتلهيةً للخَلَف بل تُبرز منها المعاني ذات المغزى وتُتابعها بأذكار تتخلّل نظمها لتورد أعيان العِبر فيها أو لتتّخذ من خصوص أيّما واقعة فيها مناسبة للتذكرة بتجلٍ لأقدار الله وسننه وهداياته العامّة للمخاطبين.

وآيات القرآن هنا تتلو على مَن خاطبت رسول بلاغ، فعلى كل من يليه من قومٍ مؤمنين فيهم سامع لتلاوتها في القرآن وقارئ لخطّها في الكتاب المبين – تتلو عليهم من

(١) في تعاقب القرون الأولى المُهلَكة منذ قوم نوح إلى قوم شُعيب في مدين قبل موسى: راجع الآيات ٥٩ – ١٠٢ سورة الأعراف، يليها ذكر موسى، والآيات ٧١ – ٧٤ سورة يونس، يليها ذكر موسى، والآيات ٢٥ – ٩٥ سورة هود يليها ذكر موسى، والآية ١٧ سورة الإسراء سبقها ذكر موسى، والآيات ١٠٦ – ١٦١ سورة الشعراء سبقها ذكر موسى، والآيات ١٤ – ٣٨ سورة العنكبوت يليها ذكر موسى.

أنباء موسى وفرعون بالحقّ. لقد تواترت قصة موسى لكن ذكرها يختلف فيه التصويب على مختلف مراحل سيرته ﷺ التي تتّسع لمجالات العبرة والتذكرة. وهي تعني رسولاً كتابه وتراثه هو المشهور باقياً ذكراً وأثراً، لاسيّما في بني إسرائيل المنتشرين في الأرض أُممــاً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك. والمرويّ هنا إنما هو من نبأ موسى وفرعون، مقتــصراً دون أمر موسى الممتدّ بعد الكتاب الذي أُوتي ألواحَه بعد النجاة من فرعون وقــومهم الذين تركهم غرقى هالكين. فذُكر ذلك الكتاب في آية واحدة وصلاً لرحمة الهُدى الحقّ الذي أُوحي رسالات للقرون الأولى الهالكة قبلاً، ومهاداً لذات الحقّ الذي يــأتي لاحقــاً رسالة للنبــي الخاتم. وجاء في صدر نبأ موسى وفرعون ذكرٌ موجز في ثــلاث آيــات لجملة الابتلاء بفرعون في الأرض وعموم القدرِ من الله في وجه ذلك الابتلاء مَنّاً على الذين استضعفوا منه وتمكيناً لهم في الأرض وإشهاداً لفرعون وجنوده ما كانوا منهم يحذرون. وذلك عموم اعتبار لتعاقب أقدار الله الفاعلة واقعات بلاءِ بين الناس في الأرض وأقداره القاضية حكومات قلب بين أوضاع الأسفلين والأعلين منهم في الآجلــة – سنة متوالية المثال في سيرة بني آدم. وذلك التقديم المجمل للنبأ يرد أحياناً في القَــصص الطِــوال الذكــر في القرآن، كما جاء في أربع آيات عند مقدّمة سورة 'يوســف' في ذكرى رؤياه وتعبيرها من أبيه قبل تفسير قصّته، أو من سُورة 'الكهف' في ثــلاث آيات كذلك تصدّرت قصّتهم تحمل عبرة واقعاها وعاقبتها، سنّةً لله كذلك في ابــتلاء الدّعاة وصبرهم لأوّل مر دعوتهم ثمّ اختفاء هديها وأثرهم وانبعاث ذلك في خَلَف بعد حين آجل.

وأوّل ذكــر لوجــود موسى في أرض مصر لم يكن لميلاده بل لأمّه وهو رضيع لــديها تخاف عليه ما كان يجري من تقتيل أولاد بني إسرائيل. وتوالت نعم الله التي مَنّ بهــا حول موسى. أولاً أنه ﷻ أوحى إلى أمّه تدبير النجاة له قذفاً في تابوت وأوحى إلــيها طمأنينة بما هو مرجوّها سلامة له ورده إليها وبشرى لما هو أرقى من عملها أنه جاعله من المرسلين. وتلا ذلك ذكر القدر العجيب بأن يكون التقاطه ومأواه في بيت فرعون حيث تحقق إرجاعه لأمّه وصُرفت عنه دونها المرضعات، وفي ذلك آية وتذكرة أن وعــد الله حــقٌّ ناجز ومنصرفة دونه كل المحتملات الأخرى المنظورة. وفي منشأ

موســـى في رعاية ذلك البيت عبرة لسنن الله أحياناً في إثبات الطيّب في أرض الخبيث. ذلك لاسيما أنّ الله آتى موسى لّما بلغ واستوى حكمة وعلماً. ويتلو ذلك ذكر وقوع موسى في عين حادثة ابتلاء تمثل عموم فتنة بني إسرائيل الذي كان موسى محرّرهم من طاغــوت فرعون وحامل رسالة من دين الله الحقّ فيه أن هُدى الله يسوّي بني أدم ولا يجعــل نفــساً أكرم من نفس إلاّ بالتقوى وأقداره تسوّي في أعماق البحر غرقاً قُوى الــسلطان المتعالية التي مايزت فظلمت بينَ الرعيّة بسياسة طاغ أخذته العصبية العرقية استحقاراً لبني إسرائيل وحذراً من دعوة دين عادلة تنشأ في الرّعيّة. واندفاع موسى في حادثـــة التقاتل بين قبطي وإسرائيلي ليُقتل فيها القبطي هو شهادة على ما سبق ذكره من حال التوتّر العام بمشاعر العصبية وتظالم المفاضلة بين الناس. ولكن العظة فيها أيضاً أن النفوس كلها عرضة لفتن الهوى وإغراء الشيطان، وأن كبيرة كقتل النفس ولو شبه عَمْد قد تقع من ذوي حكمة وعلم يتهيّأون للنبوّة، والعِبرة أن يكونوا توّابين قدوةً لمن خَلَــف. فقد اعترف موسى أن ذلك من عمل الشيطان واستغفر ربّه وعَزَم ألاّ يكون بعدها ظهيراً للمُجرمين الباطشين في الأرض لا مصلحين كما نصحه الإسرائيلي الذي اســتغاث به في قتل القبطي وظن أن يُظاهره في مرّة تالية. وقدر من الله أن يأتي النصح من حيث لا يحتسب. والله يعصِم مَن يُعرفون أنهم أصبحوا رُسُلاً من بعد مثالا للدّعاة للحــق والرّشـــد قد يراودهم الشيطان لكنهم يرجعون إلى الهُدى وقد يعقب عليهم الــشيطان ولكنهم يُحظونَ بما يردّهم عنه ولو بنصحٍ يردّ من أصحاب بيئة يغلب فيها الــشرّ والكـــيد كالرجل الذي جاء ساعيا إلى موسى إذ كان هو في خوف ترقباً من شـــيوع خـــبر فعلته. فالمجتمعات الناس فيها ليسوا سواء، في بعضهم سوء وخير حينا وحيناً ولو غلب خلق في سواد المجتمع.

وهـــدى الله موســـى إلى مدين وإن كان طريقا مسلوكاً عُرفاً ولكنه سلكه كما ينبغي لكلّ ضارب في الأرض بلا عين مقصد أن يسأل الله الهداية إلى سواء السبيل وقد تواتـــيه استجابة من الله الرحيم. وتحقّق ذلكً في شأن موسى إذ صادفته عند ماء مدين زحمـــة مـــن الرعاة ولقي من دونهم راعيتين تذودان غنمهما حتى يصدر الرعاء فسقى لهمـــا، هِمَةَ مَن يُعدّ لشأن أكبر هو حمل الرسالة والدعوة للهدى التي تدرك كل ضالَ.

وآوى موسى إلى ظلّ شجرة وليس له إلا كلمة التوكّل على الله ورجاء الخير منه وهو فقـــير، ومــا كان من خُلقه إلاّ أن يُعين الضّعيف المستعين به وألاّ يمتنّ أو يؤذى عقب العون، وما خابت عاقبة الخلق الحسن بل عاجله قدر الله بالخير المنشود، فجاءته إحدى الـــراعيتين تمـــشى بحياء لتسوقه إلى أبيها الشيخ الكبير حيث قصَ قصته فأمَنه الشيخ. وبـــادرت إحداهما ناصحة لأبيها أن يستأجره راعياً تُزكّيه قوياً أميناً كما عهدت فيه. فوافق الأب و لم يشرط أجراً بل عرض تزويجه إحدى ابنتيه وما طلب لها مهراً بل بدَله بخدمـــته للأسرة راعياً ثمانية أعوام أو عشراً من عنده وبكل سَماحة في أمرِ المُهُور، وفى القصة سوى ذلك دلالة على جواز مبادرة النساء في استدعاء الرجال إلى بيوت أهلهنّ نـــيّة خطـــبة زواج، وتزكية مَن تدّعى له قوة للمشاركة في معيشة الأسرة وأمانة في صـــحبتها. والأب كـــان شيخاً راشداً إذ قَبِل تلك الإشارة وليًّ أمرٍ مُناصح وجعلها عرض زواج صريح. والمهر حق للعروس ولكن عمل العريس أجيراً للأب الكبير الذي انـــتقلت لضعفه تبعة العمل والإنفاق على الأسرة إليها هي وأختها، فالأجر لا يُؤدّى لأبـــيها نقـــداً بـــل هو عائد إليها تمام واجبها لرعاية أبيها الشيخ وكفايته عن الرّعي والـــسقي المتعـــسر علـــيه. وهذا شرع راشد حكيم. إذ الزواج معاقدة بين طرفين لا يفاصـــلان ذوى ولايـــة القربى بل يصلانها ويحضّرانهما الإجراءات للعقد ذي الحقوق والواجبات المتكافئة ومنها المهر، ولكن أمر الزواج والأسرة موصول بذوي القربى دون إكـــراه وفى تضامن في الصُّحبة والمعاش. وقد بلغ ذلك في هُدى القرآن أن يُؤتي فضل من موروث تركات الأُسرة لذوي القُربى أن حضروا القسمة ولو لم يكونوا ممّن فُرض لهـــم شـــيء. وذلك كله هُدى ألاَ تنعزل الأسرة خليّةَ خصوصٍ بين ذكر وأُنثى ولا تـــندرج كُـــرْها في نـــساج المجتمع بل هي وحدة ذات إرادة ومسئولية مستقلّة لكنها منـــسوقة في بيئة المجتمع من خلال تدابير القربى والمصاهرة الموصولة ومضبوطة بالتقوى فـــيها وحـــولها درءاً للهوى والشيطان الذي قد يفرّق بين المرء وزوجه وبين الأسرة والمجـــتمع، ففي القران تتأكّد التّوصية اعتصاما بحبل الله الجامع وراء الأسرة لكل مجتمع المؤمـــنين أخـــوّة وبتقوى الله ورقابته ألاَ ينـــزع في تلك الصلات الشيطان مكارهة ومساخرة وعدواناً وتفريقاً.

ولا نـــدرى إن أتمّ موسى عشر حجج ولكنه قضى ما عليه، ولا ندرى إن كَتَب الله له ذريّة ولكنه كان متأهلاً في حين سار بأهله عائداً إلى مصر. وكان قد تهيّأ لما هو أبلغ وأخطر من ابتلاءات حياته وبُشريات الخيرِ للعالمين. ذلك أنه مع التأهيل قد تزكّى بـــصحبة شيخ كريم سنين، وكان قد تعرّض قبلاً لمُدودٍ من التّزكية والتّهيئة للنبوّة منها بعـــد النشأة صحبة في رحلة على النيل مع عبد لله سيق إليه، وجده قد آتاه الله رحمةً وعلماً صابرَ معه تجارب في التبصّر في الغيب لم تكن يسيرة ولكنها أمدته إيماناً وعلماً. ففـــي طُوى على الطريق رأى ناراً قصدها للاستخبار أو للاستدفاء فناداه فيها صوت غيبـــــي مـــن الله ربّ العـــالمين. وبقي الحجاب بينه وبين رؤية ربّه، فالله ما هو من الذوات المادية ليحتويه مكان أو تتجلى شاكلته لانعكاس ضوء من تلقائه مثل الأشياء في عـــالم الشهادة، وذلك حتى تتبدّل في الآخرة أقدار الوجود وسنن الترائي وطاقات الإدراك تنفـــتح للعباد الصالحين ليروا ربّهم. ولَما عرّف الله عبده موسى بذاته ﷻ آتاه في ذلـــك اللقاء آيتين مَشهودتين لكن تتجلّى فيهما أقدار غيبيّة من الله تخرق مسنون الأقدار في طبع الأشياء والأسباب، فإذا عصاه يُلقيها فتسعى كأنها حيَة ويده يخفيها في جيبه وتظهر بيضاء البشرة على غير المعهود. وكانت بادرة العود إلى مصر قد باركها الله إذ كانـــت فعلـــة بعـــد خروجه إلى مَدَين مهاجراً خائفاً، وفيها عبرة للمهاجرين المستأمنين مخرجا قد يهيّئ الله لهم أمناً وعلماً ويُبارك لهم إن آثروا من بعد العود للوطن لـــو رأوا فيه حاجة لاستدراك أحوال أهله. وموسى كان هو قد أعدّه الله لرسالة ثقيلة الهـــمّ شـــاقَة التكاليف بأكثر من سائر المُعَدّين للرسالة. بل لأوّل الأمر كلّمه تكليماً مباشـــراً وســـائر الرّســـل إنما يوحى إليهم عبر روح من الملائكة، وآتاه لمقدَم خطابه بالرســـالة آيـــتين معجزتين، وقد جَرَى ذلك لكثير من المرسلين لكن يغلب أن تلحق تعزيزاً لصدق الدعوةِ بعد طول تكذيب وإعراض وبعد تحدٍّ للمرسلين أن يُثبتوا صدقهم صلةً بالغيب بآية تحدث وتشاهد خارقة للسنن المعهودة في طبع الواقعات والمشهُودات دلـــيلاً على مدد غيبـــي. وكان وقع الآيات المعجزات على أُمم الخطاب وإن تطلّبتها واســـتعْجَلَتها – كـــان ذا أثر محدود في حاضره. فمن المخاطبين بعضٌ يخضع للآيات فـــيؤمن بدعـــوة الرّسول، ولكن يكثر مَن يجعلها سحراً مخيلاً أو يكذبونه أو يهملونها

عمـــى وصمماً وعصبيةً مصّرة على مذهبهم الموروث ضلالاً قبلاً أو استكباراً بأهواء متاعهم وكسبهم المعهود وخوفه عليه.

أما عند التابعين خلَفاً للمؤمنين الأُوَل فقد كانت الآيات ذكرى تحملهم على رفع مرسليهم مكاناً علياً، والسُنّة قد مضت يذهب بها غالبهم على إيثارهم خاصته تفضيلاً عامّـــاً علـــى سائر المرسلين. فالخَلَف من بعد موسى جعلوا أنبياءهم هم الخاتمين للنبوّة وجعلـــوا أنفـــسهم ذريةً ليعقوب أبناء الله خاصته وخير العالمين والهُدى كله عندهم. وأتـــباع عيسى من بعد اتخذوا من الآية المعجزة التي جرت لأمّه ميلاداً له متكلّماً منذ المهـــد داعياً لتأليهه أبناً لله وتغليب ذكره على أبيه. وهكذا سار بعض المسلمين بعدهم على مثل ذلك في تفضيل نبيّهم عموماً على المرسلين واضطروا لأن يختلقوا له آية خيراً من تكليم موسي رؤية لله ومجادلة لا في الأرض بل في عرشه في السّماء معراجاً، ورووا له معجزات كثيراً قبل نبوّته وبعدها. والحقّ أن القرآن يذكر تفضيل الله النبيّين بعضهم علي بعض ولكن ذلك – وهو عند الله وحده – لا يعني درجاً عاماً من العلوّ قربى إلى الله وجعلـــه أكرم المرسلين، بل هو تعبير عن فضل وزيادة خاصة لنبيٍّ دونَ غيره بما هو ألـــزم للدّعوة لأنه أنسب لخطاب مَن أُرسل إليهم وعهدهم خاصة. فالقرآن يذكر لقاء الله لموســـى وتكليمه وآياته التسع ولا يذكر للرسول الخاتم رؤية، وإن حقت له رؤيا الإســـراء إلى المسجد الأقصى، ولا يذكر له بل يوئسه من أيّما آية مُعجزة وإن تسامَعَ مُخاطِبوه بما خلا من قصص المرسلين وفُتنوا بالمشهود دون الغيب وألحّوا عليه كثيراً أن يأتيهم بآية. ذلك أنّ الرّسول الخاتم ما له في رسالته من الغيب إلاّ آيات القرآن المُوحاة حجّة حقٍّ بيّنة لمن يتذكّر عقلُه، وما عليه هو إلا البلاغ إذ لو يشاء الله لأنـــزل آية هم لهـــا خاضـــعون ولكن كفّ الله عنها إذ كذّب بها الأوّلون ولأنّ الحاضرين ما هم بها بمؤمنين بل لأن الرّسالة الخاتمة ليست قاصرة خطاباً للشّاهدين من قومِ الرّسول بل هي لهُم وللناس كافة حاضرين وخلَفاً حتّى يوم الدين.

وقـــد خـــصّ الله رسالة موسى بما مضي ذكره إذ اقتضاه عسر متنـــزّلها في أمّة خطاب فيها فرعون مدّعياً ربوبية أكبر وممارساً سلطاناً مطلقاً من الجبروت يأمر وينهى يُحيـــي ويُميت فيما يحسب استضعافاً وقتلاً وتعذيباً لبني إسرائيل، وفيها من بعدُ أهلُه

بـــنو إسرائيل الذين آمنوا معه وفيهم بقيّة فتنة بعبادة العِجل ودعوة لرؤية الله جهارًا. ذلـــك أن الغيب في ثقافة البيئة الفِرعونية كان لا يُعهد فيه الوحي والمرسلون إلاّ عند الإســـرائيليين خاصّـــة وإنما كان يغمره خيال السحر وأفاعيل السّحرة التي تسترهِب الـــناس. وموســـى كان غريب العرق عن الغالب عند فرعون وفي مصر بل كان ممّن يُـــستحقرون ويُضطهدون. فلذا كان لزاماً لكلّ ذلك أن يُؤتى معه آيات بالغة الوقع، يقدّمها هو بيّنةً على أقدار الله في الغيب التي يُمكن أن تبدّل أقداره المشهودة المسنونة، وغالـــبة لفعال السّحرة الذين نافسوه بها وحُشد لهم الناس لكن غُلبوا وانقلبوا مُؤمنين. ولم تفـــصّل في الـــسّورة مشاهد المجادلة والعرض للآيات بين يدي فرعون ولا المغالبة والهزم للسحرة، وإنما ذُكر موسى بعد إنكار فرعون وآله لآيه متوكّلاً على الله الأعلم بمـــن جـــاء بالهُدى من عنده وبمن تكون له عاقبة الدار. وقد رجا موسى ربه أن يُعينه بأخـــيه هارون لفصاحته في البيان بالرسالة فاستجاب له، وكانت تلك عبرة في الدّعوة الدّينية ألاّ يستأثر بها أحد ولو كان نبياً فإما أخوه أو صحبه الأُوَل هم مَن يشدّ عضده ويعينه.

وفي خواتـــيم نبأ موسى وفرعون ذكر استكبار فرعون عليهما وعتوّه طامعاَ أن يطّلع إلى موسى في السّماء إن كان صادقاً ليعلو هو عليه. لكن أُخذ المستكبرون هو وجنوده وذُكر إجمالاً منبذهم في اليمّ عظةً لعاقبة الظالمين. ولئن كان منتهى أمرهم أن يكونـــوا مـــن الأسفلين غرقاً فقد جعل الله ذكراهم دعوة إلى النار مخزية يوم القيامة واتـــبعهم لعـــنة في الدنيا ويوم القيامة من المقبوحين. ثم جاء في ختام النبأ ذكر إيتاء موســـى الكتاب بصائر وهدى ورحمة للناس. ولم تُذكر سيرهم من بعد التحرير – تلقّـــي شريعة وابتلاء في سيناء فاستخلاف في الأرض وأيام داولها الله لهم وعليهم، وإنما ذُكر هديُ الكتاب لأنه كان تحديداً للقرون الأولى التي مضت ظالمة هالكة منذ نـــوح إلى شـــعيب آخر المرسلين قبل موسى، وكان مهاداً للهداية التّالية كتاباً مع النبـــــي الخاتم. فقصّة موسى في عهد فِرعون كانت دورة في رسالة الغيب المتوالية والهِداية الحقّ الدوّارة لتمضي بعداً متجددة بهدي ذات الكتاب وسنة الرسول الخاتم إلى منتهى الدنيا.

ترتيل المعاني (للآيات ٤٤ – ٧٥):

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤–٤٧)

ينضاف إلى ذكرِ موسى وإيتائه الكتاب تذكيراً للناس التفاتُ خطاب إلى الرسول الخاتم الذي تُلي عليه ما سبق ذكره من أنباء موسى وفرعون، أنه ما كان هو بجانب الوادي الغربي من الطور حاضراً إذ قضى الله – بأقدار اصطفائه وإعداده ولقائه وكلامه المباشر ومدّه – أمر النبوة والرسالة – ما كان هناك من الشاهدين ليتلقى النبأ والهُدى ويحمل من رسالته للخالفين. ولكن الله – بأقدار التعاقب وسنن التقادم في عباده البشر وإرادته أن تحفظ رسالة الحق وتذكرة الرّحمة والهدى منه – أنشأ قروناً منهم أنبياء الختم مثالهم وقروناً مِن خلَف المؤمنين تطاول عليهم العُمر والمدى تناقلاً لتراث الرسالة حتى نسوا واختلفوا وضيّعوا كثيراً من أصول الحقّ فيها. ويمضي الخطاب للرّسول الخاتم وهو يتلقّى القرآن أنه ما كان ثاوياً مُقيماً في أهل مدين إذ كان فيهم شعيب خاتم المرسلين للقرون الأولى قبل موسى، ما كان فيهم ليأخذ الأصول المتواترة في رسالة المرسلين ويحفظها عبر موسى وخلَفه ويصلها بالحاضر حقاً ماضياً أبداً. ولكن الله كان – بأقدار وصله لتذكرة تلك الرّسالة الحق – مُرسلاً رسولاً في مكّة اليوم حاضراً متلقّياً لها بالقرآن خاتم عهد الرسالات الموحاة. ويخاطب الرّسولُ أيضاً أنه ما كان بجانب الغربي إذ نادى الله بأقدار تكليمه المباشر لمرسله موسى وإيتائه آيات معجزة ليعزز صدق رسالته من الغيب، بل تلقّى اليوم رحمة من ربّه – لا مناداة وكلاماً وأمراً لآيات معجزة بل وحياً بواسطة من روح ملك وآيات قرآن لتُتلى مسموعة وتكتب مخطوطة لا تصحبها فعال منه معجزة، ذلك لينذر قوماً لهم قوام قوة لكنهم أُمّيون في ضلال جاهلية كان حقاً أن يُنذروا بعاقبتها صرفاً عنها إلى الهدى

والبـــشارة وما آتاهم من نذير مرسل إليهم من قبله لعلهم يتذكّرون ما أراد الله يوصل بـــأن تحيا فيهم فطرة الإيمان بالله، وإن لم يتذكروا من القرون الأولى ومن عهد موسى وخلَفه بقيّة من الحقّ في أنفسهم فإنّهم لم يتذكّروا ملّة أبيهم إبراهيم وصحفه ورسالته توحـــيداً لله وســـننه إسلاماً إذ أشركوا من بعد وأصبحوا عبّاداً للأصنام وأحاطت بهم جاهلية الشرك، فهاهو يأتيهم ليجدّد ذكر الحق والهُدى رسولٌ منهم نذير.

وقـــضى الله أن تأتـــيهم هذه الرسالة المتجدّدة تذكيراً بالحقّ ونذيراً لأمّة خطابها الأُولى فالعـــالمين، لولا أن تُصيب تلك الأمّة مُصيبة بما قدّمت أيديهم كسباً مُباشراً من ضـــلال الشّرك والكفر والمعاصي فيقولوا بعد ذكريات القرون الهالكة متعذّرين لله بما حـــقّ لأولئك من معصية المرسلين: أن لولا أُرسل إليهم رسولاً فيتّبعوا آياته المُوحاة لا يعـــصونه مثلهم ويحقّ عليهم العقاب بل ليكونوا من المؤمنين الذين رسخ فيهم تصديق الرّسالة من الغيب هدايةً ونذارة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَـــا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٨-٥١)

فلمـــا جاءهم - أمّةَ الخطاب الأولى، لسدّ ذريعتهم لولا يأتيهم - الحقّ هُدىً ونذيراً يحمله رسول منهم برسالات القرآن من الغيب، لا بأثارةٍ مرويّة من قديم ولا قول مفترى، بل من عند الله - كما يقول الله متكلّماً بكلِّ أقدارِ وحيه - لّما جاءهم الرّســـولُ يحملُ القرآنَ قالوا لولا أوتي مثلما أوتي موسى من آيات مشهودة معجزة خارقة لما هو مسنون شهادة لتصديق صلته بالغيب. وكانت أمّة الخطاب تلك وهي مفـــتونة بالعالم المشهود حتّى اتخذوا أصناماً يرونها آلهة دون الله - كانوا يلحّون في طلب مثل تلك الآيات القاهرة لتصحب وتصدّق آيات الوحي المتلوّة. والحقّ يجيب احـــتجاجهم: أو لم يكفروا هم بما أُوتى موسى من قبل، سمعوا بآياته المعجزة ولكنهم بقـــوا أُمّـــيين لا يؤمنون بكتابه. قالوا عن توافق موسى والرّسول الخاتم متلقّين من

الغـــيب وحياً أنهما ساحران تظاهرا معاً – دعوى- صلة بالغيب تسامعوا بأن موسى رُمـــى فـــيها بالسّحر مثلما عهدوا هم في رمي رسولهم بالسحر. والمفتونون بالعالم المشهود ومادته لا يعلمون من الغيبيات دعاوى أو فعالاً خارقة للمحسوس المشهود إلا مخـــيلات ســـحرٍ ممّـــا يعهـــدون. هكذا قاسوا محمداً إلى موسى وقالوا إنا بكلٍ كافرون.[1]

فـــإن كفروا بما أتى به المُرسلون تباعاً من كتاب، فليقل لهُم الرسول مجادلاً: أن يأتـــوا هم بكتابٍ من عند الله هو أهدى منهما، وما هو بسحر، ولو جاءوا به لاتّبعه معهـــم، ذلك إن كانوا صادقين فيما حكموا به على ما حمل المُرسلون من كتاب. فإن لم يـــستجيبوا له بعد المحاجّة بالحقّ فليعلم – كما يخاطبه الله – أن ما يتّبعون أهواءهم فتَنـــتْهم لا يتجاوزون داعيها، ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هُدى من الله إذ يضل بها وبدواعي شهواتها وإغراءات الشيطان بها لا يتحرّى الحقّ الهادي من الله. والحقّ أن الله لا يهدي القوم الظالمين الذين يسوقهم الهوى ليعدلوا عن ميزان الحق ويغووا عن الهداية العادلة بالقسط.

ويـنـــضاف لذكـــر ما يقول الله – بأقدار وحيه قولاً للحقّ المتواتر المتصادق كتباً متعاقـــبة عبر القرون إلى الحاضر والمرتّل المنجّم في القرآن الكتاب الخاتم المتنـــزّل آيات متوالية وفق تطوّر مناسبة مُقتضى الهدى عبر مراحل البلاء وظروفه – أن لقد وصل لهم ذلـــك القول للحقّ ليبلغهم متصادقاً مرتّلاً لعلّهم – هم أخرى أمم الخطاب بالوحي – يتذكرون، كما سبق من ذكر وصل المنذرين بالنذير الخاتم.

﴿الَّـــذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكتَابَ منْ قَبْله هُمْ به يُؤْمنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهمْ قَالُوا آمَنَّا بـــه إنَّـــهُ الْحَقُّ منْ رَبِّنَا إنَّا كُنَّا منْ قَبْله مُسْلمينَ * أُولَئكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْن بمَا صَـــبَرُوا وَيَـــدْرَءُونَ بالْحَـــسَنَة السَّيِّئَةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفقُونَ * وَإِذَا سَمعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُـــوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغي الْجَاهلينَ﴾ (٥٢-٥٥)

---

(١) يتواترٍ في القرآن الرمي بالسحر لموسى وللنبـــي الخاتم ولسائر المرسلين ظناً في الغيب، وانظر عموماً الآية ٥٢ سورة الذاريات.

مهما يكن مذهب الأميين من أمّة الخطاب القرآني الأُولى متّبعين لأهوائهم وقليلاً منهم مَن يتذكّرون رغم توالي الرّسالات والآيات – مهما يكن أولئك، الذين آتيناهم الكتاب من قبل القرآن – التوراة والإنجيل – كانوا هم الأسبقين مسارعةً إلى الاستجابة المتباركة. هم بالقرآن يؤمنون، مطمئنة به قلوبهم، يتيسّر تلقّي الذِّكر المتجدّد المصدّق لما بين يديه عندهم. وإذا يُتلي عليهم ليسمعوا ذكره يُروا مباشرة قالوا: إنّهم آمنوا به أنه الحقُّ من ربّهم، إنهم كانوا قبله مستجيبين مؤمنين بما عهدوا قبلاً لا يدعوهم ما كان لديهم إلى الصدود استمساكاً عن عصبية الموروث بل يشهد ذلك فيهم له فتنشرح صدورهم للذكر الحق والإسلام المتجدد. أولئك يُؤتَون عند الله أجرهم مرّتين بما صبروا على القديم عهوداً متوالية لم ينسهم حقّه تطاول الأمد والابتلاءات المتوالية و لم يفتنهم عهدُه عن تقبّل الجديد إذ لا يغشاهم الحسد والتعصُّب. ويدرأون بالحسنة من القول السيئة من مقولة المُعرضين الأمّيين عليهم أنهم جمدوا على قديم لهم أبلاه الزمان أو جرّهم إلى جديدٍ كانوا في غنىً عنه أو أن قديمهم وجديدهم ما هو إلا من ساحرين تظاهرا، فلا يجيبون لردّ ذلك الباطل الآخذ عليهم إلاّ بالقولِ الحسن، وكذلك مقولة طائفتهم الكتابيّة عليهم أنّهم بدّلوا الحقّ وهانوا لتلقّي كتاب بعده مدّعى أو مُفترى، يردّون على أولئك بأنهم كانوا ثابتين على الحقِّ المتنزّل من الله لا يبدّلونه ولا يضيّعونه لكنهم لا يحملونه تراثاً موروثاً وحسب بل يتحرّون التنزّل المتجدّد من الله على ذات أصول الحقّ خطاباً لابتلاءات متجدّدة واستدراكاً لما طرأ عليهم بمرِّ الزّمان مِن تحريفٍ أو نِسيانٍ لبعض الهدي أو لما أصابهم من حفظه أذكاراً بظاهر أقوالهم وضعف صدقٍ في إيمانهم بها، أو من القصور عن تزكّيهم بتوالي تدّبره، ولتثبت معانيه حيّةً في قلوبهم ويتجلّي في أعمالهم مقتضاها المتطوّر. فإن كانوا ابتلاءً من الله أكثر من الأميين مالاً لم يفتنهم ذلك ليُصبحوا أبلغ منهم شحّاً ونسياناً أن المال ابتلاءً من الله هم فيه مستخلفون، لذلك يُنفقون ممّا يرزقهم الله بأقدار نعمائه وبلائه ابتغاء مرضاته ليباركه لهم ويتلقوا منه آجل الرّبح المتضاعف لما ينفقون. وإذا سمعوا اللغوَ لاسيما من الأمّيين – حملة عليهم رمياً بالسحر لقديمهم وجديدهم أو طعناً لتبدّل دينهم – أعرضوا عنه وقالوا لهم – يخاطبونهم – إن لهم هم أعمالهم وللذين

يسمعونهم اللغوَ أعمالهم سلام عليهم ببسط الكلمة الحسنى لهم وتركهم على مكانتهم لا يبـــتغون الجـــاهلين هدفاً لمكايدتهم بالإسلام لرسول عربـــي منهم أو حبّاً للمصادّة والمُماراة مُسايرة لمجادلة باطلهم.(١)

﴿إِنَّــكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦)

يـــأتي التّذكير بالحقّ للرسول ﷺ وهو رسولٌ للناس كافة لكنه – لاسيما إن رأى مـــسارعة لبعض أهل الكتاب لتصديقه والاستجابة لدعوة الإسلام – يحرص على أن يـــؤمّن أهلـــه العَرَب خاصة ويهتدوا للإسلام لا يسألهم أجراً على اهتدائهم إلا إرضاء المـــودة في القربى ودافع البرّ للأهل والإشفاق عليهم من مآل الإصرار على الكفر بعد سمـــاع كلمة الدعوة للإيمان. الحقّ يأتيه هو من الله يخاطبه في هذه الآية: إنه لا يهدي مـــن أحبّ من الناس مثل أعمامه كما ذكرت آثار لمثال الذين راودهم كثيراً من أهله. ذلـــك أنه لا يملك هو ولاية على قلوبهم ليمدّ حبّه إليهم هدى. ولكن الله يهدي من يـــشاء، وإنما يهدي من بادر هو بخياره الذي شاء الله أن يتركه له عفواً، مَن أخذ يميل للاســـتجابة يُيسّر الله له ويزيده هُدىً ويوفّقه، ومَن كتب له قدر الله أن يوافيه الهدى وتـــبْلغه الرّسالة واختار هو عندئذ أن يتحرّى الحقّ فوجده. وهو تعالى أعلم بالمهتدين الذين يحقّ لهم أن يزيدهم هدىً ويؤتيهم تقواهم حيثما كانوا وأنّى وأيّاً ما كانوا.(٢)

﴿وَقَالُــوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٧–٥٩)

---

(١) في موقـــف أهـــل الكـــتاب الـــذين يؤمنون بالقرآن: راجع الآية ١٩٩ سورة آل عمران، والآيـــة ١١٤ سورة الأنعام، والآيات ١٠٧ – ١٠٩ سورة الإسراء، وانظر الآية ٤٧ سورة العنكبوت.

(٢) راجع الآية ٣٧ سورة النحل.

أضـــاف المعرضون عن رسالة الإسلام إلى وجوه إعراضهم دواعي الخوف على أمـــن أرضهم الحرم ومعاشهم، قالوا يخاطبون الرّسول ﷺ: إن يتبعوا الهدى الذي جاء بـــه معه يُتخطّفون من أرضهم يُنـــزعون منها إخراجاً ونفياً أو أخذاً ولهم فيها متاع وارد مأمـــون وهي مركز طريق تجارة الشمال والجنوب. وحقّ أن يذكّروا، كما يقول الله: أو لم يمكّـــن لهم هو بسط الأمن لهم حرماً ووطناً لسكناهم ورزقاً وارداً من ثمرات كل شيء، وذلك من لدنه إذ استجاب لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام الذي أسّس في هذا الـــبلد أول مسجد لعبادة الله وسأل ربّه أن يحفظ أمانه لتهوي إليه قلوب الناس زوّاراً وعُماراً للمسجد وأن يرزق ذريته فيه وسائر العابدين من الثمرات لتُحفظ ملّة التوحيد والإسلام، ولكن أكثر المُعرضين عن الإسلام المتجدّد الذي يُحيي ذات الملة لا يَعلمون رعايـــة الله لأرضهم أمناً من الخوف وطعاماً من الجوع، لا يتذكّرون نعمةَ الله حامدين بـــل يكفرون ويتخذون دافع النعمة تعلّة للصد عن رسالة الحق في أرض هي رمز له في العالمين.

تنـــضاف كلمـــة خطاب لهم واعظة: أو لم يتذكروا كم أهلك الله بأقدار عقابه العاجـــل من قرية بطرت معيشتها عيشاً آمناً رخيّاً وسَرفاً لأهلها ففتنهم المرح والأشر عـــن تذكّـــر نعمة الله وحمده فعبادته وتقواه واقتصاد المعاش بل أدّى بهم هوى رُفاهية المَـــتاع إلى الفُـــسوق والبغيَ والكُفر فأهلكهم الله فتلك مساكنهم - يراها المخاطبون حـــولهم بيّنة آثارها لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً، وكان الله بأقداره في استخلاف مَن يـــشاء مـــن عباده وإذهاب سلفهم من المستكبرين والطغاة وترك القرى خراباً موعظة للخالفين - كان هو بأقداره الوارثين.(١)

ويمـــضي الخطـــاب للرّسول ﷺ أيضاً أن ربّه ما كان بتلك الأقدار والسنن من الـــتعاقب والإهـــلاك والاستخلاف - مُهلك القرى في الأرض وإن كان أهلها ظالمين كافـــرين بنعمه متجاوزين حد الهدى العدل من الله وضابط تقواه حتّى يبعث الآن في أمهـــا مكـــة رسولاً يَتلو عليهم آيات هدايته ونذره وما كان مُهلكهم إلاّ وهم بعدئذ ظالمون. كانت تلك سُنّة الله العادلة في سالف القرى وهي ماضية في القرى الهلاك فيها

(١) راجع الآية ١١٢ سورة النحل.

مــــرهون بـــالظلم بعـــد رسول الهدى والنذير - سُنّة واعظة للذين تلقّوا من الله تلك الرسالة.[1]

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٦٠-٦١)

تنضاف في هذا السياق تذكرة لمن تمتع بالأمن والمتاع في الحياة الدنيا مُخاطباً في ذلك أهل خطاب الرّسالة في مكة الذين تخوّفوا على كسوبهم تلك من اتّباع الهُدى: أن ما أوتوا من شيء من ذلك فمتاع الحياة الدنيا وزينتها الفاتنة مما هو نافد بمنتهي الدنيا الفانـــية ومحدود المدى بسُنن بسط النعماء بين كل العباد بميزان، وما عند الله في غيب آخرته الأبدي هو بميزان القسط خيرٌ كيفاً وأبقى مدى ممّا ذاقوا في الدنيا، أفلا يعقلون فتـــنة الهـــوى؟ فينفتح وجدانهم وتنشرح صدورهم للحمد في المتاع والإيمان بالآخرة وإيثار مآل الحياة فيها. أفمَن وعده الله - بأقدار تصريفه لعاجل الوجود وتبشير عباده بآجلته - وعداً حسناً ثواباً أبرك وأبقى في العاقبة الآجلة في الغيب فهو لاق نجز الوعد الصّادق والأمر المفعول، كَمَن متّعه الله - كما يقول بصيغة المتكلّم جمعاً بأقدار وعده وإمتاعه وابتلائه لعباده - متاع الحياة الدنيا فسعد به سعداً محدوداً موقوتاً غير شاكر لله ولا متـــزوّد للآخـــرة ثم هو يوم القيامة من المُحضَرين الفزعين المحشورين قدراً لمعرض الحـــساب والعِقـــاب عمّا انفتنوا بذلك المتاع وجيء بهم ليجزوا حرماناً من نعمة الله ورحمته المباركة الخالدة في مأوى الخسران والشقاء - أذلك كهذا؟.

﴿وَيَـــوْمَ يُـــنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (٦٢-٦٤)

---

(١) الحـــقّ أن الله لا يأخذ قوماً بالهلاك حتى يبعث إليهم رسولاً مُنذراً: راجع الآية ١٦٥ سورة النساء، والآيتين ١٤ و١٥ سورة الإسراء، والآية ١٣٤ سورة طه، وانظر الآية ٥٩ من ذات هذه السّورة.

وفتـــنة المـــتاع في الحياة الدنيا صرفت أمّة الخطاب الأولى قبل أن يأتيهم الهُدى والنذيـــر بالوحي المتنـــزّل الذي يصل الدنيا الحاضرة المشهودة العاجلة بغيب الآخرة الآجـــل. وإن فطرة الإنسان وآفاق إدراك عقله فيها أصل لمعرفة ربٍ أعلى وصلة به، لكـــن شهوة المتاع الحاضر قد تغمُر إرجاع النّعمة في الحياة لقدر الله فَحمده وتقواه في التمـــتّع بها. وما انفك في الإنسان أصل المعرفة لذلك الربّ الأعلى لكن لأنه تصورٌ في الغـــيب قد يتعلق دونه بوسائط محسوسة مشهودة هي تقرّبه إليه زلفى إلى الغيب وقد تستغرق وعيه فينحصر فيها. وأمة الخطاب الأولى تلك هكذا كان دينها: التعلق بأوثان ترمز بروح من الغيب، شيطاناً مثلاً أو لمخلوقات مشهودة ذات شأن عال، كالشِّعرى والشمس مثلاً. وكل تلك المتعلّقات شركاء لله في قوى الغيب أو شفعاء لديه أو أولياء وكـــلاء مـــن دونه. فالذين هم سدنة الأصنام والأوثان يؤمّون عامة عبّادها في شعائر العكـــوف علـــيها وطقوس التعبّد لها، والشيطان يوحي إلى كل المشركين بقدسية لها وحظ من الربوبية على الناس والألوهية في غيب شئونهم كتأمين استخلافهم وسلطانهم في الأرض وتيـــسير معاشهم وهداية مسالك حياتهم وخياراتها ودرء الشرّ وجلب الخير بأسباب غيب وراء المسنونة المعتادة.

ولـــذلك يوم القيامة ما هو وحسب محاسبة للمحضَرين عن فتن متاع دنياهم التي صـــرفتهم لـــيغفلوا عن حمد الله وتقواه وليؤثروا عاجل الدنيا وحاضرها علي موعود الآخرة ولو بشّروا أنه خير وأبقى. هو كذلك، ولكن هو يوم حساب وعقاب لأصول ضلالهم في الحياة عن المزعومين في مذهب عقائدهم شركاء لله، والشِركة مذاهب شتّى ولكـــنه كيفما كان منطلق فساد الحياة كلها فالحق أنه يوم يناديهم الله ملك يوم الدين محاســـباً للمشركين: أين شركاءه الذين كانوا يزعمون، ما حظّهم اليوم في درج المقام تعالـــياً وسلطاناً أو في تصريف مصائر عبّادهم، والمسئولون يرون قيّومية الله المطلقة في ســـير واقعـــات ذلك اليوم ومعارض الحساب والقضاء ومعالم مآوي الجزاء ومشاهد مـــساق الناس إلى نار أو جنة. عند ذلك السؤال قال الذين حقّ عليهم القول حساباً وكـــان القـــول جواباً منهم لزاماً عليهم أول الأمر، فهم فوج متقدم على سائر أفواج المـــشركين المحشورين عرضاً في الحساب فمدخلاً إلى النار لأنهم كانوا من أئمة الكفر

والـــشرك بـــين العـــباد المستكبرين على سوادهم المستضعف ليتّبعهم، ومن الشياطين المـــتعهّدين بإغـــواء بني آدم أبداً بالشّرك بالله وعصاية أمره. قال أولئك مُجيبين ربّهم يـــنادونه إذ عـــرفوه يومـــئذ في الحقيقة ربّاً لهم: إن هؤلاء الذين أغووهم من أتباعهم أغـــووهم كما غووا هم أولاً، وقالوا لربهم إنهم تبرّأوا من تبعة كل أوزارهم إذ ما كان لهـــم علـــيهم من سلطان ليحملوهم كرهاً على الشرك بل هم اتبعوهم خياراً وطوعاً، وإنهم ما كانوا إياهم يعبدون وإنما كانوا مسخّرين لتباعتهم وحسب، بل كانوا يعبدون الأصـــنام ويتعبّدون لأهوائهم دون الله آلهة صوبوا نحوها حياتهم وجهة ومسلكاً. وقيل من صوت حساب توجّه بعداً – للمُشركين أفواج الحساب النار اللاحقة بالسّابقين – قيل لهم أن يدعوا شركاءهم الأصنام إذ تبرأ منهم أئمة الإغواء سادة وكباراً ومقدّسين روحـــيين وشياطين وأخذت الملاومات والملاعنات تجري بينهم، فدعوا أصنامهم فلم تـــستجب لهـــم حجارة صمّاء كما كانت في الدنيا لا تسمع ولا تستجيب لدعواتهم وصـــلواتهم، ورأوا العذاب قادماً حاقاً عليه ما دونه من وليّ ناصر من شركائهم ومن الذين اتّبعوهم. وذلك حين الحسرة على حالهم الذي فات والتمنّي الذي لا يُغني أن لو كانوا يهتدون، ليتهم لم يكلوا أمرهم إلى أولياء ضالّين يغوونهم ولا شركاء حجارة لا حـــياة فيها بل كانوا يتّحرّون طريق الهداية الحقّ فيسلكونها إخلاصاً لعبادة الله وإتباع هداه.[1]

---

(١) السؤال الفصل يوم القيامة للمشركين: أين شركاؤهم؟ والأمر أن يُنادوهم أو يأتوا بهم: راجع الآيـــة ٩٤ ســـورة الأنعام، والآية ٢٧ سورة النحل، وانظر الآيات ٣٩ – ٤١ سورة القلم، والآية ٧٤ من ذات هذه السّورة. والشركاء إذا دُعوا لا يُجدون المشركين، أصناماً لم يسمعوا ولم يستجيبوا: راجع الآية ٥٢ سورة الكهف، وانظر الآية ١٤ سورة فاطر، أو أنكروا عبادة المشركين لهم إذ كانوا أرواحاً ملائكة: راجع الآيتين ٢٨ و٢٩ سورة يون، والآية ٨٦ سورة الـــنحل، والآيات ١٧ – ١٩ سورة الفرقان، والآيتين ٤٠ و٤١ سورة فاطر. أو حقّ عليهم القول من الغاوين بشراً كباراً أو مقدّسين ديناً يتلاعنون هم والمشركون: راجع الآيات ١٦٥ – ١٧٦ ســـورة البقـــرة، والآيـــتين ٣٨ و٣٩ سورة الأعراف، والآية ٣١ سورة التوبة، والآيـــة ٢١ ســـورة إبراهيم، وانظر الآية ٢٥ سورة العنكبوت، والآيات ٦٦ – ٦٨ سورة الأحـــزاب، والآيـــات ٥٥ – ٦١ سورة ص، أو قرناء من الشيطان: راجع الآية ٢٢ سورة إبـــراهيم، وانظر الآيات ٢٢ – ٣٣ سورة الصافّات، والآيات ٣٦ – ٣٩ سورة الزخرف، والآيتين ٢٧ و٢٨ سورة ق. ويتواتر في القرآن الحقّ أن الله هو الولي الحقّ وحده ما من دونه ولي ولا شفيع إلا بإذنه. أما موالاة الشيطان والضالّين هي باطل.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٦٥-٦٦)

ينضافُ لوقائع يومِ الحسابِ ذلك أنه يوم يناديهم الله منادى المحاسبة في شأن مَن أرسله إليهم من الهداة المنذرين، فيقول لهم: ماذا أجابوا المرسلين؟ والرسالة بالنذير منهم هي شرط إحقاق العذاب على العباد ولو حقّ ظلمهم حساباً إذ ما كان الله معذّباً حتّى يبعث رَسولاً ثم يتمادَى رغمًا عن نذيره الظالمون. فعميت عليهم – أولئك الضالّون – الأنباءُ يومئذ، ضاعت عليهم تحت وطأة المحاسبة وتبيّنت غوايتهم إذ وكلوا أمرهم إلى أوليائهم الذين أغووهم في علم أنباء رسالة الحقّ والنذير فجهلوا هم هداية دعوة المرسلين ليقيسوا رصائد كسوبهم في الحياة إلى هديها ويقيموا المذاهب التي كانت حجّة لكفرهم وشركهم وضل عنهم الحقّ أن يقولوا ماذا حقاً أجابوا المرسلين، وكُبتوا وسكتوا عن جواب السؤال من الله مما أوفى أن يحق عليهم العذاب. فهم لا يتساءلون لأن المرء منهم في الجهالة المطبقة عليهم أجمعين لا يجديه التماس الجّواب عند الآخر ماذا أجابوا المرسلين ولات حين مناص ولا وال يُجيزهم بعد انبهاتهم بالمساءلة الحق.[1]

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (٦٧)

فأما مَن تاب من شركه وظلمه قبل أن يحضره الموت فآمن بالرسالة الموحاة هدىً ونذارة وبشارة وعمل صالحاً تصديقاً لإيمانه، فعسى – والرّجاء عند الله بالحقّ لا يخيب – أن يكون حقاً يلقاه يوم القيامة ذاك من المفلحين أمناً من الفزع وجوازاً لوقع الحساب بنجاة من النار وفوز بالنّعيم عند الله والرّضوان ونعم يومئذ رفقة المفلحين.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٦٨-٧٠)

---

(١) لا يتساءل المشركون ولو بينهم أنساب ليُجيبوا المساءلة يوم الحساب: راجع الآية ١٠١ سورة المؤمنون. والظالمون وأولياؤهم يتساءلون في الجحيم تلاوماً: انظر الآيات ٢٢ – ٣٥ سورة الصافّات. والمؤمنون يتساءلون في الجنّة تنعّماً: انظر الآيات ٢٥ – ٢٨ سورة الطّور، ويتساءلون عن المجرمين: انظر الآيات ٥٠ – ٦٠ سورة الصافّات، والآيات ٤٠ – ٤٧ سورة المدّثر.

والخطاب في الآية يلتفت إلى الرّسول ﷺ الهادي النذير مثبتاً أصول الحقّ في رسالته في وجه مجادلات المُعرضين ومذهبهم مشركين بالله ما دونه: أنّ ربّه يخلق ما يشاء مطلق الإرادة نافذ قدرة الخلق، واختار كذلك ما يشاء في تصريف الأقدار وتدبير أمر العباد، ما كان لأولئك الخيَرة حقاً أرباباً وآلهة شتّى يتّخذون إلهاً أو آخر من دون الله ولا في اختيار سير الحياة كما يريدون. أإله غير الله يعرفونه ليُشركوه به خالقاً للسماوات والأرض إطار وجود مخلوقاته أو مدبراً لأمور الإنسان وللأشياء والأسباب المحيطة به، فيتّخذونه إلها؟ وهو تعالى مَن يختار للإنسان حياةً دنياها مرحلة بلاء مشهودة ذاهبة موصولة بأخراها في الغيب مرحلة جزاء آبدة ويجعل له خيار المسلك إمّا كافراً بالغيب مُنحجباً متعلّقاً وعابداً لمشهودات حاضرة وغايات عاجلة أو مؤمناً بالغيب بالله غير مُشرك به وبالآخرة لا يفتنه متاع الدنيا دونها. وما كان للمشركين الخيَرة في تصريف الحياة غير ذلك. وهو مَن يختار رُسُلاً يحملون هُدىً من الغيب حيثما ومتى ما كانوا ويؤتيهم آيات موحاة ليبلّغوها أو يعزز رسالتهم بآيات معجزة قاهرة للمخاطبين، ويختار أن يُعاجل المكذّبين برسالة الهُدى والظالمين بعقاب ضرّاء أو هلاك عاجل أو يُملي لهم ليتمادوا أو يتوبوا ويؤخّر عاقبة الآجل للمؤمنين ليصبروا أو يبادرهم بيسر وفتح قريب. وما للمُشركين خيَرة في معنى ذلك القدر سوى ما شاء الله وما كان للمُشركين الخيَرة أن يتمتّعوا اتّباعاً لأهوائهم بغير حساب أو جزاء عاقب في آخرة أو يشركوا بالله ولياً أو إلهاً يصرّف مسيرة حياتهم ومصيرَها دون الله. سبحان الله وتعالى متنزّهاً عمّا يُشركون.

والخطاب يذكّر الرّسول ﷺ أيضاً أن ربّه يعلم ما تكنّ صُدُورهم وما يُعلنون من نيّات وفعال يرصده كلّه في كتابهم ويسألهم في الحساب ويقيم عليهم الأشهاد يوم القيامة ليزِنْ أعمالهم ويفصل بقضائه في الجزاء الوفاق لكسبهم في الدنيا. وإنما على الرسول البلاغ وإيكال أمرهم لله. وهو الله – الفرد الصمد المعروف لكلّ بني الإنسان لأن معرفته وميثاق الصِّلة به ربّاً مفطور فيهم، لا إله إلا هو فهو المتجرّد من أيّما منسوب إليه ولادةً، المتعالي فوق كل مكافئ له، الأقرب لعباده من كل معين لهم تزلفاً إليه في الغيب مهما يفتري المشركون من أرباب متفرّقة وآلهة يعبدونها وأولياء

يـــتخذوهم لديـــه شـــفعاء بذاهم. له ﷻ الحمد يستغرقه كله - ثناءً وشكراً لوجود مخلـــوقاته وخلقه الإنسان ومدّه بالنّعماء المسخّرة حوله وبرحمة الهداية رسالة عن علم حقائـــق الغـــيب وحـــقِّ الهُدى ليبتليه في الأولى، ولقيمومته ملكاً مطلقا ومحاسباً بالغاً وجازيـــاً عـــادلاً وفاعلاً - في الآخرة وله الحكم يفصل بشرعه ما بين الناس فيما هم يخـــتلفون هُـــدىً في مـــسالك الدنيا ويقضى بينهم في تقدير درجهم ودركهم كسبا ومثاقـــيله جزاءً حاقاً في الآخرة ويخاطب عباده: وإليه يُرجعون تماماً لوجودهم في إطار أزلـــه زمـــناً فأبداً ووصلاً لحياهم في إطار مشيئته خياراً وبلاءً فحساباً وجزاءً ويمضي مسير الإنسان حياة بعد العدم فبعثاً بعد الموت مثل كل خلقه بميزان.

﴿قُـــلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللَّه يَأْتيكُمْ بضيَاء أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقيَامَة مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللَّه يَأْتيكُمْ بلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فيه أَفَلاَ تُبْصرُونَ * وَمنْ رَحْمَته جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لتَسْكُنُوا فيه وَلتَبْتَغُوا منْ فَضْله وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧١-٧٣)

تـــذكيراً بـــأن الله وحـــده ما له من شريك يخلق ما يشاء ويصرّفه كما يختار في الإنسان والمخلوقات المحيطة به الثابتة والسيّارة والأقدار وابتلائها الدوّار، طبائع وسنناً في الوجود، وبما سبق ذكره من حياة دنيا مشهودة محجوبة عن الغيب عارضة هي دار بـــلاء وأخرى تعقبها دار حقٍّ وجزاء عدل خالدة، ليقل الرسول لأمّة خطابه: أرأوا إن بـــدّل الله سُنن خلقه حولهم الليل والنهار والشمس والقمر وجعل حرجاً عليهم الليل ســـرمداً إلى يوم القيامة لا تطلع عليه الشمس يغشاهم ظلامه أبداً، من إله غير الله ممّن يُـــشرك عباده به من دونه يأتيهم بضياءٍ نعمة لهم فيها حياة للإنسان والحيوان والنبات وبيان لرؤيته؟ أفلا يسمع عباده مخاطبين وهم يتيسّر لهم في هدوء الليل الاستماع فهلاّ يـــستمعون كلمـــات التّذكـــرة فيُدركون في وجداهم مغازيها - وحدانية الله مصرّفاً لظروف الزّمان منعماً على الإنسان بتعاقبها الموزون الدوام لا يُعرف خالق ولا مصرّف ولا منعم سواه. وليقل لهم الرّسول تماماً وتقليباً لوجوه التّذكير بالخلق المتكامل والإنعام المـــتعاقب يـــسراً لا عسراً لحياهم: أرأوا إن جعل الله النهار سرمداً مضيئاً أبداً إلى يوم القـــيامة مَن إله ممّا يشركون به الله يبدل خلقه وقدر تصريفه يأتيهم بليل يسكنون فيه

بالراحة والنّوم بعد لهب النهار لئلاّ تنفذ فيهم طاقة الحياة الممتدّة عمراً؟ أفلا يبصرون؟ لا رؤيــة بــصر عارضة لظواهر السُّنن الطبيعية المتعاقبة لنظم حياهم وتوازها بل أيضاً ببصيرة تذكرهم سنة الله وابتلاءاته الدوّارة، وتفتح في أفق إدراكهم من آية الله تلك أن الله لأجَلٍ يسمّيه معاقب لهم الدنيا المحجوبة من الغيب المنتهية إلى الموت بآخرة يبين لهم فــيها كل غيب الوجود ويجزون فيها على الأولى بالقسط، سوى أن الدنيا لا يحيا فيها الـــناس إلا عمراً معدود الأيّام والآخرة أبدٌ في مداها يحيا فيها الإنسان لا يرى شمساً إذ تنكــسف ولا لــيلاً إذ يبين نور أو نار كيفما يختلف الحظّ في السعد والشقاء وفاق كــسب الدنــيا بين من في الإشراك والعصيان لله ومن في الإخلاص إيماناً بالله وعملاً صالحاً.

ومن رحمة الله الموزونة أن جعل لهم قدراً لا يبدّله غيره الليلَ والنهار خلفة برودة وهــدوء وظــلام وسخونة وانتشار وضياء ليسكنوا حيناً وليبتغوا من فضل الله معاشاً حيــناً. ولعلّهم يشكرون الله على نعمة هذا النّظم الذي لا تستقيم وتتكامل الحياة إلا بــه، فيتذكــرون الــنظم العاقب بين الدنيا الزائلة والآخرة الباقية في الغيب الخالد لا يسمعون إلا حقاً حسناً ولا يبصرون إلا حقاً وخيراً.(١)

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّة شَــهِيدًا فَقُلْــنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٤-٧٥)

ويرجِع الذكر بعد سابق نبأ الآخرة وقيام الله بالخلقِ والخيار وعلمه بالسر والعلن ووحدانيــته والمرجِع إليه وآيات رحمته المتكاملة في دورةِ الليل والنهار مثل دورة الدنيا إلى الآخرة - يرجع الذكر إلى يوم القيامة والحساب والفصل، يوم يناديهم، الله يُسائل عــباده الــذين أشركوا به مادونه، فيقول لهم: أين شركاؤه الذين كانوا يزعمون بغير

---

(١) يتواتــر في القرآن ذكر الليل والنهار آية دالّة على وحدانية الله خالقها وعبرة وتذكرة برحمته تعــالى للشاكرين، ويأتي ذكر ذلك التعاقب إشارة لتعاقب الحياة الأولى والأخرى بعد الموت بعــثاً بعد الموت والجمود إذ يرد في سياق ذكر القيامة: راجع الآيات ١٩٠ - ١٩٤ سورة آل عمران، والآيات ٩ - ١٤ سورة الإسراء، والآيات ٧٩ - ٨٢ سورة المؤمنون، والآيات ٨٣ - ٨٧ سورة النمل.

تحقّــق؟ أين هم في هذا اليوم ذي الفزع والوقع العظيم. والسؤال – بعد البدء بمن حقّ عليهم القول من أوليائهم فاعترفوا ثم لهم عن شركائهم ليدعوهم فلم يستجيبوا لهم ثم كــيف أجابــوا المرسلين فكبتوا هم – هو معزّز بنــزع شهيد من كل أمّة وهو مَن وَلاهــم من رسول نذير يُسأل فيقوم شهيداً أن قد بلّغهم الهُدى والنذير.[1] فقال الله للمشركين – بأقدار عهده لهم ألاّ يعذبهم حتّى يبعث فيهم نذيراً من قبل وقضائه على كل شِرك وظلم بَعداً. قال لهم: هاتوا برهانكم أنْ ما جاءكم من نذير. فعلموا أن الحق لله من قبل ومن بعد أُلوهية وقيومية هادياً لما هي أقوم ونذيراً بما هو أصدق وجازياً بما هو أحقّ، وضل عنهم ما كانوا يفترون من شركاء هم لهم نصير وأولياء هم لهم شفيع ومــن زعمهم أن سعدهم في الدنيا مهما يفتنهم ما هو بابتلاء بل دليل على أن الله إن كانت الساعة قائمة سيمدّه لهم دون غيرهم فهو قدر مكتوب حظاً لهم في الوجود.

عموم المعاني (الآيات ٤٤ – ٧٥):

إن عهد الله أن يصل عباده في عالم الشهادة من الغيب أبد الدهر ويواليهم برسالة فــيها علــم حقائق الغيب التي يجهلون وحكمة الهُدى في الحياة لئلاّ يضلّوا والبشارة والــنذارة بالحــقّ في مآل الحياة مرجعاً إليه. ولئن توالت الرّسالات بذلك لأقوام من القرون الأولى فإنهم قد أعرضوا تباعاً عن الهدى وكذّبوا أو ما بالوا بالنذير فحّق عليهم ووقــع عقــاب الهلاك ومضى فيهم سنّةً – كما يروى نبأهم القرآن– حتّى آخرهم شعيب في مدين. وبعث الله من بعد موسى ليبقى حقّ الرّسالة في الناس موصولاً لعلهم يتذكــرون. ولقد أنشا الله من بعد مُوسى خَلَفاً له من القرون ليحفظوا أمانة الرِّسالة لكن طال عليهم العهد وانختم فيهم الأنبياء المتعاقبين من بني إسرائيل فضيّعوا كثيراً من أصول الحقّ في الرسالة. والرّسول العربــي الذي جاء في الأميّين بعداً ما كان هو حياً حاضــراً لقاء موسى لربّه إذ قضى إليه أمر الرسالة، وما كان من قبله في مدين ليكون

(١) الرّســل مبلّغوا الرسالات هُدى للناس مبشّرين مُنذرين هم عليهم شهداء بذلك يوم القيامة: راجع الآيتين ٤١ و١٥٩ سورة النساء، والآية ١٠٩ سورة المائدة، والآيتين ٨٤ و٨٩ سورة النحل، وانظر الآية ٤٥ سورة الأحزاب، والآية ٦٩ سورة الزمر، والآية ٨ سورة الفتح.

موصولاً برسالة الدين الحقّ من الله، وإذ كان الله بعهده مع عباده مرسلاً أبداً في الناس رســـولاً لعلّهم يتذكرون فقد أنـــزل عليه رحمة الرّسالة في القرآن وحياً، وما كان هو مـــثل موسى يُناديه الله ويكلّمه تكليماً ويؤتيه الآيات المشهودة بل جاءه الذكر من الله وحـــياً، آيات متلوّة ليس فيها تعزيز بآية مشهودة. جاء في قوم ما أتاهم من نذير من قـــبله لعلهم يتذكّرون وتمضي بهم رسالة تعهّد الله أن يحفظ كتابها ولذا كان الرسول الـــذي بلّغها خاتماً للمرسلين خطاباً للناس كافة لا لِمن تنـــزّلت فيهم من قوم وخالدة علمـــاً وهدى في الحياة وبشرى ونذارة بالغيب إلى يوم القيامة. وذلك الرسول المُنذر لأمّـــة الخطاب الأُولى لئلاّ تُصيبهم عاقبة كما تسامعوا بهلاك القُرى فيقولوا لولا أرسل الله إليـــنا رســـولاً لنتـــبع آياتـــه ونتّقي الهلاك. ولكن جرى فيهم ما جرى في سلف المخاطبين بالرّسالات. قالوا لولا أُوتي بآية مشهودة مثل موسى وهم قد كفروا بموسى وظلّـــوا أميّين لا يؤمنون وما لهم من كتاب رسالة، ورموا رسولهم مثلما سمعوا بما قيل في موسى من قومه أن الرسولين المتعاقبين ساحران تظاهرا على ذات الرسالة، وهم ما لهـــم من بديل هدى من الله وإنما يؤثرون اتّباع أهوائهم ليضلّوا ظالمين لا يهديهم الله. وقول رسالة الحقّ من الله الموصول عبر المرسلين المتنـــزّل عليهم – لا جملة ألواح مثل الـــتوراة – بل مرتّلاً لعلهم وقد تواتر الذكر إليهم سنين يتذكرون. ذلك إلا طائفة من الـــذين أُوتوا كتاب موسى قبلاً آمنوا بالقرآن إذ وجدوه حقّاً مصدّقاً لما معهم وقالوا إنهم كانوا به من قبله مسلمين. ولذلك التذكّر المتواصل الصابر مع الرسالة المتوالية حقّ لهـــم أجر الله المتضاعف وتباركت خُلُقهم تزكية بعد تزكية يدرأون بالحسنة السيّئة في المعـــاملات والمقـــولات ويـــنفقون مما رزقهم الله حمداً وابتغاء وجهه، وإذا سمعوا لغو المجـــادلات قالوا إن كلاً يَعمل على شاكلته حُرّاً وإن بينهم وبين الآخرين السلام ولا يبتغون الجاهلية هدفاً للنيل منهم.

وفي ذلـــك عـــبر أن الرّسالة من الله اختمت وثبتَتَ مَحفوظة فقد كانت تتوالى مُتـــصادقة أصولَ الحقِّ فيها تنـــزّلها في واقع كلِّ قومٍ أو عهد بما تقتضيه عَبر مُختلف الخِطـــاب وصـــوَر التعبير عن الحقِّ المُناسب لخصوص إطار الابتلاء. وذلك يهدي أمة الإسلام أن تجدِّد دينها الخالد عبر تقلب الظروف والأزمنة وبما يناسب ثقافات الأقوام

المتلقّـية للحقِّ تطهّراً من عللها السّابقة وجهداً بوسعها ومواجهة لابتلاءاتها. وسيكون من أهل التراث القديم مَن يتذكّرونَ الأصول ولا يُعرضون عن الجديد لغربته خوفاً من بـدع الـباطل الفاشية، بل يحمدون الإبداع والاجتهاد الذي يبارك سيرة الدين عبر الـتاريخ ويبنون على أصول إيمانهم وهديهم فضلاً ممّا هو جديد ودرجات من الأجر، وإن لقـوا إعراضـاً ومجانبة أو لقوا من المرهونين لعصبيّة القديم وصوره فإنهم يدرأون سيئ ذلك بالحسنة ويدعون الآخرين لحرية الاختلاف والسّلام واجتناب الخوض فيما يستفزّ من الجهالة.

وكـان الرسولُ حريصاً على مَن يليه ممّن يخاطِب يحبُّ أن يهتدوا، ولكن الهُدى مـن الله يـباركه بمـا هو أعلم به من انشراح الصدور لتلقّي الهداية ولخير الاستجابة لداعـيها فقد يهتدي الذي هو أبعد ويضل الذي هو أرجى حسب علم الداعية البشر. وقـوم الرّسـول نسوا نعمة الله في حرمة أرضهم وورود رزقهم وأنها استجابة لدعوة أبـيهم إبراهيم وتهيئة لمركز آمن مبسوط متاعه ليتداعى إليه الناس أوّل متعبّد مسجداً للعـاكفين الذاكرين الله والحاجّين عاماً بعد عام لحفظِ ملّة الإسلامِ الحنيفيّة، ولكن مَن حولها من ذريته التي شهدت تنـزّل القرآن تحاذرت من اتّباع هداه خشيةً على أرضِها ورزقِهـا واحتـياطاً ألاّ تُـتخطّف منها. وتلك علة تُصيب الناس فكثيرون من ورثة الإسـلامِ ضيّعوه ونسوا أن هدايته هي التي فتحت لهم العزّ والسّعة ولئن ضيّعوه فذلّوا وضاقت بهم الحظوظ مقارنة بالآخرين فإنهم في وجه دعوة لتجديد الدّين الحق في سبيل نهـضة بعـد وهدة وفي سبيل الله والآخرة يتخوفون أن يجانبوا قوى ضلال ذات بأس تـتخطّفهم أو تـسلُب أمنهم ومتاعهم أو تحرمهم ممّا رهنتهم له الأهواء من السلامة والـرُّوح. وذكر القرآن هدي ووعظ موصول، فما هلكت القرى في القرون القديمة للرِّسالات إلاّ بعد أن جاءهم حامل رسالة الهُدى والنذير إذا أعرضوا وتمادوا في نهجهم الظـالم وأبـوا الهدى بدوافعه للسعيِّ والصلاح والنور وضوابطه للبغي والهوى في فتن المـتاع، فحقّ عليهم عاجل العقاب فأهلكم الله. ومتاع الدنيا وزينتها ابتلاء لو تذكّر الـذين حُظـوا به وافراً أنّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، قد يتعرّضون بتلك الهداية لابتلاء بأساء من حمْلةٍ عليهم لعلهم يُصابرون عليها متوكّلين على وعدِ الله الحسنِ في الآخرة،

لعلّهم يُجزون بما صبروا في عاجل حياتهم فتحاً من الله وهو مهما يكن يعدّ لهم خيراً وفاءً لوعده. أما الذين تفتنهم الدنيا ومتاعها وزينتها فلربما يجرهم ذلك إلى ضرّاء أو هلاك إذ يُمحق فيهم الجدّ سعياً في ترقية الحياة ويغضب عليهم ربّهم فيُنزلُ عليهم أسباباً وأبواباً من المصائب، ذلك فضلاً عن أنهم مُحضرون حشراً يوم القيامة للحساب وإن حق عليهم فالعذاب المهين.

إن المساءلة يوم الحساب عند الله يلقاها عباده كلهم جميعاً لكن كلٌّ عن نفسه لا تزر وزر نفس أخرى. وذلك يجعل المؤمنين الخالصين عبادة لوجه الله ورجاءً وخوفاً ممّا لديه يوم الدين ينبغي عليهم أن يكونوا في أمر حياتهم ديناً أن يكونوا موصولين بالله وبهدي كتابه وسنّة رسوله لا يتّخذون شريكاً ولا يبتغون هُدىً إلاّ عند الله ولا يقيمون على أنفسهم حجاباً عنه وعن هداه بأولياء هم وحدهم الذين يقرّبونهم إليه زُلفى وهم الوسائط اللازمة حصراً للفتوى بعلمه وفي سبيله. وقد يستعين المؤمن بأخيه الذي هو أعلم منه وأحكم ولكن ينبغي أن لا يكِل أمره إلى أحد بينه وبين الله وهديه. والمشركون في عهد تنزّل القرآن كانوا إن آمنوا بالله يرونَه بعيداً في الغيب ويعبدون من دونه محسوسات ومشهودات من الأصنام والأوثان ويتخذون لأنفسهم من سدنة هذه الآلهة أولياء يُغوونهم ويسلمون هم لهم إتّباعاً أعمى. ويوم القيامة ينبئهم الله بأن أولى الناس بالحساب وأولهم عرضاً عليه هم السادة والكبار والأولياء والشيطان لأنهم غووا وأغووا آخرين وحملوا بعد أوزارهم هم أثقالاً مثل ما على هؤلاء لم يرفعوها عنهم. وقد اعترفوا بذلك يوم السؤال. وأحيل المشركين إلى آلهتهم ليدعوهم نصراً ولكنها صماء جامدة حجار تُلقي معهم بعد في النار وقوداً. وسُئلوا ماذا أجابوا المرسلين فعميت عليهم أنباء هدي الرّسالة ليقدّروا هل استجابوا لهديها ولكنّهم لأنهم كانوا بمنأى من معرفتها ووكلوها لآخرين لم يلقوا اليوم جواباً للسؤال إلاّ الحَيرةَ فلا يتساءلون للجهالة التي أطبقت عليهم قبلاً. ذلك يوم القيامة يوم عاقبة الخسران إلاّ لِمن تابَ ممّا عهِد قبل أن تبلُغه الرّسالة وآمن وعمل صالحاً صادقاً في استجابته لداعيتها فأولئك هم المفلحون.

والله هو الحقّ لو يهتدي مَن فتنته مادّة الدنيا فتعلّق بموقّراتها وشهواتها، فهو يخلق ما يشاء من الموجودات ويختار ما يشاء من الأقدار، ما كان الخَيَرة حقاً لمن يذّكر أن

يُشرك به شيئاً، ﷻ عمّا يشركون. والله يحيطُ بهم يعلمُ ما تُكنُّ صدورُهم وما يُعلنون فهم مسئولون لديه. وهو الله الإله الحقّ الفرد المتعالي على ما يتّخذه الناس من الأرباب والآلهـــة إذ لا إله حقاً إلا هو له الحمدُ في الأولى والآخرة لا يُكافئه في الدنيا مجيد فيما خلـــق ولا منعم فيما بسط لبني الإنسان ولا يضاهيه متعالياً يوم القيامة أحد وله الحكمُ هـــو المَرجع حقاً فيما يختلف فيه الناس في الدنيا بهداه وهو الذي يقضي ويحكم لهم أو علـــيهم يوم القيامة إذ هو ملك يوم الدين بيده الحساب والجزاء والقضاء وإليه يرجع البشر لا يلقون أربابهم وآلهتهم ومتعلّقات أهوائهم في الدنيا هناك. وإن كان بين الناس مَـــن لا يتبـــيّن وحدانية الله وحاكمية قدره والمرجع إليه فليتأمل آية الليل والنهار، لو جعل الله الليل سرمداً إلي يوم القيامة بين الناس مَن إله غير الله يأتيهم بنهار فيه ضياء، ولو جعل النهار سرمداً من يأتيهم بليل يسكنون فيه؟ إذ لولا خشية العقاب في الآخرة لغـــدا الظُّلـــم عفواً ما عزّزته قوة بغير رهبة جزاء غالب والإحسان مزدهداً إذ يعسُر تكلـــيفاً لا مطمع في أجر يعقبه ويذهب التظالُم بين الناس بلا تسوية إن ماتوا، فالله لا يخلّي الدنيا بغير آخرة توازنها ولا يقيمُ الآخرة بغير حقٍّ كسب للنعيم فيها ولا للشقاء فـــيها بغير اكتساب ما يحقّه. والله خلق في الأرض من كلِّ شيءٍ موزون، ففي الوجود كـــذلك كل أقداره بميزان. فالحساب يوم القيامة حقّ ليكون المآل فيه وفاقاً لما حقّ في الدنيا قبله. ولئن نودي المشركون وسئلوا عن شركائهم واستشهد عليهم الرّسل الذين بلّغـــوهم حقّ الغيب وميزان عدله وأنذروهم ممّا هم فيه تسقط لهم كل حجة جواب بالحقِّ بل يُتبيّن لهم أن الحقّ لله ويضل عنهم ما كانوا يفترون من شركاء يُدركونهم أو أولياء يشفعون لهم بل يضعُ الله الموازينَ ويحق فيمضي قضاؤه.

ترتيل المعاني (الآيات ٧٦ – ٨٨):

﴿إِنَّ قَـــارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِـــيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٦-٧٧)

سبق ذكر فرعون مثالاً واعظاً في فتنة السلطان في الدنيا والكفر بالغيب وبالآخرة وآياتُهـــا ورسالة الهُدى فالعاقبة الحاقة المغرقة وذكر مثال ومثال كذلك في أمة الخطاب الأُولى المـــشركة بالله والمفتونة إشفاقاً على أمن أرضهم ومتاع رزقهم فخوفاً من اتّباع الرِّســـالة، وذلك غفلةً عن الغيب، عن الله المحمود على نعمائهم والآخرة التي فيها خير منها وتكذيباً بالنذير. والآن يأتي ذكر قارون، واسمه في التوارة قورح، فنته المال كسباً ذاتياً ومتاعه سرفاً واستعراضاً لا حُطاماً فانياً في الدُّنيا، وما رهب آجلة المصائر فعاجلته العاقـــبة الخاسفة.[1] إن قارون كان من قومِ موسى – من ذرية يعقوب – وهم كانوا في استـــضعاف ومن تلقائِهم جاء هدي رسالات التّذكرة بالهُدى والحقّ، ولكنه بغى علـــيهم مـــا كفّته عنهم المَودّة في القُربـــي ولا تقوى الله بل استقوى واستعلى عليهم بحظـــوته، إذ آتاه الله بأقدار قسمته الغيبية الرّزق ابتلاءً للعباد من الكنوز الحافظة للمال المدخـــر ما إن مفاتحه من كثرتها لتنوء بالعصبة أولي القوّة، تثقل على جماعة ذات بأس أن تحملـــها وأمانتها. وكان من ابتلائه أن قال له قومه ناصحين مودةً وعلماً، إذ يرون فـــيه انفـــتاناً واســـتكباراً وظلماً حتّى عليهم قومه – قالوا له لا تفرح – مفرطاً بطراً وغـــروراً – إن الله لا يحـــب الفرحين الطائشين بترحهم عن تذكّر الله المحمود منعماً والآخـــرة دار الأجر والعقاب، وإذا غضب عليهم الله فقد يأخذهم بعاقبة سوء عاجلة أو آجلـــة. وأخلـــصوا النّصيحة معرفة لله رازقاً استخلفه في المال لحمده ولتقواه عند التـــصرّف فـــيه: أن يبتغي فيه الدار الآخرة زُهداً في الانبساط به في الدنيا ففي وجوه إنفاقه بالحسنى دون شح أو أثرة زاد للآخرة يتبارك عائده، والآخرة هيَ العاقبة الآبدة بعـــد الدنـــيا الزائلة، وفصّلوا له قول النصح ألاّ ينسى نصيبه من الدنيا فهو مفارقها إذ يمـــوت أو تفنى لأجل قريب ليحيا مبعوثاً يوماً يفتقد فيه حظّ كسبِهِ منها ولا يفديه إلا مـــا أنفقه فاستثمره لا للربح والمتاع العاجل في الدنيا الذاهبة بمتاعها وأطماعها ولكن بالفـــوز بأجره الذي هو خير وأبقى في دار النعيم الآبد. وأوصوه بأن يرقى في كسبه

(١) قـــارون يُذكـــر مع فرعون وهامان استكباراً وتكذيباً بآيات موسى: انظر الآية ٣٩ سورة العنكـــبوت، والآيـــة ٢٤ سورة غافر. والمفتونون بالنعمة عامّة يقول أوتيتها على علم: انظر الآيتين ٤٩ و٥٠ سورة الزمر.

لماله صلاحاً بأن يحسن كما أحسن الله إليه بالغاً دَرَجاً من الإنفاق في سبيل الله بما يعلو على الإصلاح لأن الله بلغ له برزقه درجاً عالياً فوق الكفاية الصالحة، وألاّ يبغي الفساد في الأرض مستعملاً مآله بذراً دناية عن الاقتصاد الصالح أو متّخذاً له سبباً لإعاقة وتخريب لما هو صالح في الأرض لسائر الناس، وأُلقيت عليه كلمة الحق بالغة التذكير: إن الله لا يحب المفسدين ومَن لا يحبّه الله لفعله فقد جلب على نفسه الحرمان من الخير والصلاح وعرّضها للخسران.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٧٨-٧٩)

قال قارون، رادّاً لنصائح قومه صادّاً عن الحق فيها: إنما أُوتي المال على علم عنده، خبرة في كسب المال وتوفيره واختزانه لا فضلاً من أحد ولا إنعاماً ولا إحساناً من الله. فهو يحقّ له مالكاً لا مستخلفاً ممن قدّره له ووكّله عليه شارطاً عليه كيف يتمتّع به أو ينفقه، أو لم يعلم - كما تأتي التذكرة بالحقّ في الآية: أن الله - بجلال قوته وقدر ابتلائه وهو لا يحبّ خونة إحسانه غير شاكرين وإخلافهم أمانته مفسدين بها في الأرض - أن الله قد أهلك - عقاباً وعظة لكلِّ خَلَف - من القرون الأقوام المتقارنة تعاقُباً مَن هو أشدّ منه قوة، فقارون يستنصر بفرعون وجنوده على مَن معه من أهله المستضعفين مَن هو أكثر جمعا؟ وإن ثقلت مفاتح خزائنه المتكاثرة أو لم يأته اليقين في علم الحقِّ عن المُحاسبة الآجلة يوم القيامة أنه لا يسأل عن ذنوبهم المجرِمون بل الله خبيرٌ بما كانوا يعمَلون ويؤتونَ كتاباً فيه رصد كسبهم وتتواتَر من أنفسهم وسائر البيّنات الشاهدة على ما هو عليهم حاقّ ذنوب مُجرمين قطعوا ما أمر الله به أن يوصل من حمده منعماً من حمده ومن إنفاق فضل أمانته على فقراء عباده وعدواً على حدود تقوى الله بدفع فتنة القوّة الأشدّ والمال الأكثر.[١]

(١) لا يُسأل المجرمون عن ذنوبهم: انظر الآية ٣٩ سورة الرحمن.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ (٧٩–٨٠)

فخرج قارون – غير مبالٍ بالنّصائح مفتوناً بالسّرف – على قومه متعالياً في زينته التامّة يعرضها عليهم مفاخرة وابتغاء مديح وفوز في المظاهرة المتنافسة بالكُسُوب الماليّة. قال الذين يريدون الحياة الدنيا القاصرون على عاجلها انفتاناً الغافلون عن الآخرة، منذ أن رأوا أثرَ متاع الدنيا الطيب على قريبهم قارون ظاهراً – قالوا في غبطة مفتونة: يا ليت لهم مثل ما أوتي قارون من وفرة مال فمتاع مفرح، إنه لذو حظٍّ عظيمٍ يدعو للفخر بأقداره، ولكن قال الذين أوتوا العلم بأن المال أو الفقر ابتلاء في الدنيا بأحوال وبأن الفلاح في جواز ذلك البلاء هو بابتغاء الآخرة للفوز بميزان حسابها – قالوا – يخاطبون أولئك – أن ويلهم، ثواب الله في الآخرة خير نعيماً وبقاء من حطام الدنيا الفاني المحدود، لمن آمن بالله والآخرة وعمل صالحاً يبتغي ثواب الله فيه. وهنا تُثبت الآية كلمة الحق الفاصلة، مضافةً زجراً لمن يقول الباطل وأيداً لمن يقولها: لا يُلقّاها هذه الكلمات من النصيحة قابلاً لها إلاّ الصّابرون على الضرّاء والسرّاء الثابتون على الحقّ ولو غالبنهم فتنة التقدير عليهم والفقر في الدنيا أو الإيساع والغنى فيها.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨١–٨٢)

فخسف الله بجليل أقداره المكتوبة وقضائه الحاقّ وأمره العاجل المفعول – خسف بقارون وبداره الأرض إذ تزلزلت وانصدعت تحته فغار فيها وانهارت كل داره. فما ترتّب على ذلك – رغم غزارة أنصاره وأتباعه بما عنده – أن كانت له فئة عون أو خدم ينصرونَه من الله وقدرته النافذة الغالبة، وما كان من المنتصرين على واقعة الخسوف مهما تكن قوته وثروته التي بغى بها. وأصبح الذين تمنّوا مكانه منزلة وسيرة بالأمس غبطة، كما ذكروا أمرهم، ويكأنّ الله يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويقدر،

عجباً أنه ﷻ هو الذي يوسع لمن يشاء منهم ويضيق ابتلاء تحقّ بعده منه عليهم عواقب، ويحمدون الله أن لولا مَنّ عليهم هم فلم يؤهم ما تمنّوه أمس لانفتنوا به وحق عليهم ما جرى لقارون، لخسف بهم، ويكأنّه – استدراكا لما لم يكونوا يقدّرون ويعلمون من أقدار الله – لا يفلح الكافرون، لا يظفرون مهما تتيح لهم أسباب البلاء بالفلاح ما داموا كافرين راسخاً فيهم الكفر بنعمة الله وبالعاقبة الآجلة، إنما الفلاح – كما قال العلماء – للذين آمنوا بالغيب فبالله قيّوماً بجلاله وبالآخرة حياة آجلة وعملوا في سبيل ذلك صالحا.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَات إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٣–٨٤)

تلك الدار الآخرة، ذات الشأن العالي الخطر كما سبق بها في الآيات الذكر، هي حقّ في الغيب واقع لأجله، وهي – كما يقول عنها الله بجلال أقداره وتصاريف قضائه، وكما يرد الآن ذكرها في ختام الموعظة بأمر فرعون وقارون والمفتونين بالمتاع – يجعلها هو كسباً للذين لا يريدون علواً في الأرض، استقواءً فيها وطغياناً، وفساداً استغلالاً لما عندهم فيها لبسط الفساد والتبار، والعاقبة للمتقين، هي جزاؤهم لأنهم رجوها فتواضعوا انكفافاً دون منكر الاستكبار في الدنيا والتعزّز والتّعالى ورهبوها زهداً دون الانفتان بمتاع الدنيا وحذراً من تجاوز حدود الهُدى الضابطة للهوى واجتناباً لما يجلب ذلك من غضب الله ومآل السوء الذي يقضى به في العاقبة.

مَن جاء – عند مبعثه راجعا إلى الله يوم القيامة – بالحسنة: صلاحاً وتقوى عن إيمان حصيلة نصيبه من الدّنيا – وإن قلّ مثله – فلهُ خيرٌ منها كمّاً وكيفاً ودواماً، فلا يُجزى الذين خالفوا عن طريق الاهتداء القويم في الدنيا الذين عملوا السيئات – وإن كثروا – إلاّ ما كانوا يعملون، وفاقاً عدلاً ما الله فيه بظالم.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (٨٥)

يـــأتي الذكـــر في هذه الآي الخواتم للسّورة مفتتحاً بخطاب للرّسول ﷺ مثل ما خُـــوطب لأوّل السورة إشارةً لآيات الكتاب الذي أُنـــزل عليه بلسانه ليبلّغ رسالتَه ثم تـــلاوةً لنبأ موسى وفرعون عليه – يُخاطب الرّسول كذلك وصلا بذكر الآخرة الذي سبق في الآيات الماضية مباشرة قبل قصة هارون وبعدها، يُخاطب بكلمة حقّ مؤكد: إن الـــذي فـــرض عليه القران أمانة رسالة لبلاغها ورحمة هداية للعمل بها قدوة لكل مخاطب مثله معه أو بعده، إنه تعالى لرادّه إلى معاد، يرجعه إلى الله بعد الموت بعثا عوداً مسنوناً للبشر إليه ﷻ[1] وعرضاً للحساب فالجزاء بين يديه كما سبق بيانه، وما عليه إلاّ أداء الـــبلاغ ليسأل عن أمانته كيف أدّاها دعوة ورعاها في نفسه قدوة. الوصاة له أن يقـــول لأمة الخطاب: إن ربّه الذي يُخلص له هو ويذكره هنا منسوباً إليه، أعلمُ – إن جادلوه هم مَن هو على الخيار الأحقّ – ربّه أعلم منه ومنهم مَن جاء حيث رُدّ إلى المعاد بينهم بالهدى ومَن هو في ضلال مبين، مَن تزوّد في الدّنيا نصيباً لمعاده إلى الله في الآخرة بالتزام الصراط المستقيم الهادي إلى عاقبة الخير، ومَن جاء في ضلال مبين مات علـــيه ومـــا تاب قبل مماته إلى دعوة الهدى بل ضرب في الأرض ضلالاً مبيناً، والجزاء موكول إلى ربّ العباد الأعلم بكسوهم الأعدل في القضاء حُكماً بينهم يومئذ.

﴿وَلاَ يَـــصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٦–٨٨)

ويخاطب الله ذلك الرسول ﷺ مضيفاً إلى ما سبق تذكيره أنّ الحقّ كان من الله لا مـــن تلقاء نفسه إذ ما كان يرجو في سالفِ سيرةِ حياته أن يُلقى إليه الكتاب وحياً بل كـــان في جهالة بتمامِ حقّ الغيب وضلال بما هو أقوم في الحياة، أنما أُلقى إليه الكتاب رحمـــةً مـــن ربّـــه له وللعالمين لم يكن تنـــزّلها عليه منظوراً.[2] فالوصيةُ حمداً لله على

(١) الـــردّ إلى معاد هو الإرجاع إلى الله بعد البعث، ويتواتر في القرآن ذكر الردّ والمرجع إلى الله يومئذ وذكر الله كما بدأ الخلق يُعيده.

(٢) الأنبياء كانوا قبل النبوّة في ضلال وما رجوا هدىً ولا كتاباً حتّى أتاهم من الله: راجع الآيات في ذكر موسى ١٩– ٢١ سورة الشّعراء، وفي النبيّ الخاتم: انظر الآية ٤٨ سورة العنكبوت، والآية ٥٢ سورة الشورى، والآية ٧ سورة الضُّحى.

رحمته واهتداء بالكتاب ألاّ يكون ظهيراً للكافرين وإن كان غالب قومه وأكثر مخاطبيه كـــذلك، لـــيمضِ هـــوَ لشأنه حتى يأتيه الردّ إلى المعاد في الآخرة فالحساب والجزاء. والوصيّة كذلك ألا يصدّه أبداً أولئكَ - مَهما يتوالى إعراضهم وتكذيبهم - عن آيات الله بعـــد أن أُنـــزلت إليه رحمةً ليتلقّاها مُقبلاً مستجيباً لهداها ويبسطها دعوةً للنّاس، وليدعُ إلى ربّه معبوداً وحده ولا يكوننّ أبداً من المشركين مهما يكن الشرك غالبا في ديـــن أمّة الخِطاب، فالمسئول هو أن يدعوهم للتطهّر منه والتوبة الخالصة إلى الله، وألاّ يدعـــو مـــعَ الله أحداً من آلهة لأُمّة الخطاب فيما عهدت مهما يجري العرف الجاهلي الإشـــراكي، بـــل ليخلص الدّعاء إلى الله لا يشركه إلهاً آخر، فإنه لا إله إلاّ هو الحي القيوم الذي لا يموت، كل شيء في الدّنيا المشهودة والوجود المخلوق هالك إلاّ وجهه، كلٌّ فانٍ وهو الباقي يوم منتهى الدنيا بين يدي يوم المرجع إليه بعثاً إذ يتجرّد له وحده حـــقّ الحكـــم فهـــو الملك ليوم الدين، وإليه ذلك اليوم يرجع الخلق المخاطبين كافة يُحـــشرون جميعاً عُرضة لأمره حسيباً وقاضياً فجازياً فمنعمًا أبداً وراضيًا للمؤمنين غير المغضوب عليهم ولا الضالين.[1]

عموم المعاني (للآيات ٧٦ - ٨٨):

يضرب الله في القرآن الأمثال في قصص واقعة لعلها تكون عِبَراً وعظات وتذكرة للمتفكّـــرين مـــن بعـــد. وما كانَ ذكر فرعون في صدر السورة إلا مثالاً في الأرض الوســـطي متنـــــزّل رســـالات الهُدى بآيات الله من الغيب، من الطغاة الذين فَتَنهم ســـلطانهم المشهود كافرين بالغيب فتنة شاملة مطبقه. إذ كان يسيطر جنوده على كل أحـــد من الرّعية يستضعف مَن يشاء منهم مقتّلاً مُعذّباً وما يُريهم إلاّ ما يَرَى في الأمرِ العام وما يترُكُهم يَفعلون شيئاً إلا بإذنه ويبسط يده لتُحيط بكل متاع إذ له ملك مصر والأنهـــار تجـــري مـــن تحته والأغنياء يبغون على أهلهم ليُسلموا له. ومن وراء العالم

(١) لمنتهى الدنيا في الصّور نفخة صعق وفناء وهلاك إلاّ وجه الله ومن شاء، ونفخة أخرى واحدة هـــي للقـــيام والحشر والفزع والعرض والحساب فالجزاء: راجع الآيات ١٨ - ١١٤ سورة المؤمـــنون، والآية ٨٧ سورة النمل، وانظر الآية ٦٨ سورة الزّمر، والآيتين ٢٦ و٢٧ سورة الرحمن، والآيات ١٣ - ١٧ سورة الحاقّة.

المـــشهود يريد أن يكون هو ذو الشأن في عالم الغيب فهو في دينه الربّ الأعلى للناس يريد أن يطّلع على الله إله موسى ويظنّه كاذباً.

ولكـــن ذكـــر الله في أواخـــر السورة أيضاً قارون، مثالاً ممّن تُنبتهم مثلَ البيئة الفـــرعونيّة الفاتنة تحت هَيمنة صاحبها المحيط بأمرها، إذ كان مفتوناً بالمال هوىً يُنسيه العاطفة الفطريّة مثل أُولي القُربى يبغي عليهم تعالياً بماله وموالياً لطاغية السّلطان يشايُعه أنّـــى يؤثـــر أو يُستحقر من الناس يخشى منهم أن يُغار على ذي مال يراوده الغني أن يعتـــزل أو يستغل عن نفوذه، وكان بفتنته لا يكسب قدر ما يكفي حاجته أو ما يسع الإنفاق فضلاً على آخرين بل إلهه هو المال يتعبّده غاية مطلقة في سبيله يسعى بإخلاص إلى مـــبالغ لا تتناهى ويعكف على ماله المكنوز بكلّ أثقاله فرِحاً بها أبلغ الفرَح ذلك. والمجتمعات المفتونة بكسبِ المتاع تضلّ عن هُدى الدّينِ الحقّ الذي يساوي بين الناس إلاّ تنافساً على تقوى الله ويُكافِل بينهما تآخياً لا يفضّل ولا يميز ظلماً الغني عن الفقير ولا يقطع ما أمر الله به أن يوصَل بينهما فيضاً عفواً لمال الله من المستخلفين فيها وُسعاً إلى المبتلـــى المقدّر عليه بالفقر. تلك المجتمعات تنشأ فيها حميّة مشاعر التظالم والتفاضل والتحاسُـــد الطبقي لا أخوّة سويّة بين بني الإنسان بل نَزَغ من الشيطان مهيّج لصراع الطّبقات. وقد يكون فيها من يُصابر بأساء الفقر أو لا ينفتن لعداوة مَن هو أغنى وقطع ذات البين تلقاءه، ومَن يُصابر الوُسع فلا يُقاطع مَن هو أفقر منه لبؤسه أو لعلّة مسلك منه مستصحباً عليه غَضَباً يدعوه بالإمساك عنه نفقةً ولا يمتنّ أو يؤذي من يُعطي شيئاً ولا يـــأبى مـــستنكفاً عن أيّما نصيحة تأتيه ممّن هو أدنى منه كسباً. وقد كان في قوم قـــارون مـــن ناصحوه بموعظة من هدى الإيمان بالغيب: ألاّ يُبالغ في الفرح بماله، وأن يتذكّر أن المال لله آتاه له استخلافاً وابتلاءً وأحسن له فيه وأن يبتغي الدّار الآخرة مهما تغريه أسباب الكسب الحرام أو وجوه التمتّع بكسبه في الدنيا أو يمسكه الشُّح، فإنّ له نـــصيباً مـــن دنياه هو زاده الأهم لآخرته. وذلك ألاّ يتخذ ماله ليُفسد به في الأرض إغـــضاباً لله مؤتـــيه وتعرّضاً لوقع من عقابه. لكن قارون كان غافلاً ألهاه هوى نفسه وماله عن ذكر الله وأقداره، لا يحسب مآله إلا من كسبه هو بعلمه وتجربته الناجعة في إنـــتاجه وتـــدبيره لا بتوفـــيق مـــن الله. يظـــنُّ أنه بقوّة المال المتكاثر ومَن يسخّرهم

ويـــستخدمهم ويسترضي بأسهم عداً في حصانة من أيّما قدر غالب. كأنّه لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون أقواماً متعاقبة لا من الأشخاص الأفراد وحسب، مَن هم أشدّ منهم قوّة وأكثر جمعاً.

هكـــذا انفـــتن قارون وما استمع لنصيحة ولو من قريب ما دامت تَزين له الدنيا بهواه المال. فرؤي خارجاً على قومه في زينته عرضاً باهياً وتفاخراً بنفسه واستمالة لكلّ مفتون. وفي قومه تمايزت رؤية الشّاهدين لمعرضِه. قال الذين يريدون الحياة الدنيا مثله غـــبطة: يـــا ليت لهم مثلما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم. ولكن الذين أوتوا العلم بالغــيب وبابـــتلاء المال متاعاً حاضراً ومآل صاحبه وفق وجوه كسبه والتصرّف فيه والمـــشاعر المطـــويّة في شأنه، قالوا لهم: أن ويلهم، ثواب الله في الآخرة خير لمن أمن وعمـــل صالحاً من متاع الدنيا، وإن طاب واتسع وثبت لأن ما في الآخرة أفضل كمّاً وكـــيفاً وأدوم بقـــاءً. وتلك كانت كلمة حقّ ونصيحة لا يلقّاها متقبلاً إلاّ الصّابرون على فتنة بلا المال وحاضر الدنيا الذي يتّخذونه في سبيل متاع الآخرة وأجله الأبدي. وحـــقّ الحـــقّ. وقد قضى قدر الله أن يخسف بأقدار قوّة أمرِه المفعول قارون بعظمته وبداره، فما كان له في وجه ذلك القدر من فئة تنصره وتصدّ ما قضى به الله وما كان منتـــصراً. وأقدار الله تقعُ واقعتها نافذة، لا يُغني حينها استقواء أو تحصّن منها بحظوظ المـــوالاة في الدنيا وإذا وقعت لا يجب من حقّت عليه ناصراً ممّن كانوا يوالونه فتنة بما عنده، وخير منهم من وَالوه قبلاً نصيحةً له أن يقوم بحظّه مثالاً للخير وتعاوناً على أيّ مـــسعَى في ســـبيل الله، أمّا أولئك فينصرفون متبيناً لهم أن قدر الله ماض وعائدين هُم مـــتعظين. وإذا كانت نكبة قارون بالزلزال بالغة فقد هَدَت حتّى الضالّين المفتونين به أمـــس والمتمنّين مكانه ووعظتهم في تقويم الأمر كلّه قائلين: إن الله يبسط الرّزق لِمن يشاء ويقدر وأن لولا منّ الله عليهم لاستجاب لدعوتهم الضالة المفتونة وللحقوا هم بها وضـــربهم الزلـــزال والخسف، وأدركوا حقّ الإيمان بالغيب وبمآل العاقبة: أنه لا يفلح الظالمون مآلهم أن يُعاجلهم الخُسران العاقب أو يؤخّره الله يأتيهم أجلاً أشقّ وأدوم.

وذلـــك المثال يضربه الله من الواقع ليُبصّر المعتبرين المتّعظين في مختلف فتن الحياة. ففتـــنة المال أصابت قارون وأعدَت فئة من قومه وإن صابرها وجاهدها لديه آخرون

وأحـــقّ الحـــقّ أنه لا يُفلح الكافرون. وتلتها في الصورة التّذكرة من الله أن تلك الدّار الآخرة يجعلها الله بأقدار ابتلائه وجزائه للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً لا ينفتنون مثل السُّلطان والمال كفرعون وقارون، وأن العاقبة للمتّقين لا يخونون ربّهم في أمانة ما استخلفهم فيه كالسّلطان والمال ويُخبتون لهداه في السّعي والتصرّف المشروع ولا يفسقون خروجاً عن حدوده. وإنما الآخرة دار جزاء بالقسط، مَن جاءها بالحسنة توخّى الهدي القويم وابتغى الجزاء فيه متزوّداً بنصيبه من الدنيا من حسن جواز بلائه في ســبيل ذلــك لا بمــا تركه مكنوزا فيها بل بما ادّخره لأجل الآخرة، فلهُ فيها خير ممّا كسب في الدنيا أجراً مُضاعفاً على ما أحسن تقوى وعطاءً. ومَن جاء الآخرة بالسيّئة من الكسب فالجزاء يسوءهم وفاق ما قدّموا من السيئات فيما كانوا يعملون.

أن الله فرضَ على الرّسول الخاتم ﷺ القرآن نــزّله عليه بكل آياته مثلما في هذه الــسّورة ذات العــبر والمواعظ وحمّله تكليفاً أمانة التبليغ للناس لاسيما في هدي هذه الــسورة خطابــاً للمفتونين بحظوظ الحياة الدنيا في أمّة خطابه الجاهلية أو في خلفها وللنّاصحين الذين يريدون في الدنيا القاصد ابتغاء للآخرة. إن الله مبتليه بما كتب عليه داعــياً صــابراً، ليــنذر المخاطبين أحراراً ما لهم الخيرة إن نشدوا الحقّ في سير الحياة وصيرورتها ولكن بمشيئة الله ترك لهم بقدر ابتلائه الخيار حسبما يشاءون في مذاهبهم، وليذكّــرهم بــأن الله هو أعلم مَن جاء حين رُد عائداً للقاء ربّه بالهدى ومَن ضرب مسالكه حتى الآخرة في ضلال مُبين. وما كان ذلك النبيّ نفسه إلا مثالاً بشراً في عالم الدنيا المشهود المحجوب عن الغيب جاهلاً ضالاً قبل أن يأتيه الهُدى، ما كان يرجو أن يُلقى إليه الكتاب إلا رحمة قدّرت من ربّه تأتيه بهدي الوحي فالأمر إليه ألاّ يكون أبداً مـــن بعـــد ظهيراً للكافرين بالغيب في جاهليتهم. وأن يصابرهم ويجوّز ضغوطهم في مجـــادلاتهم وعلاقات الحياة معهم لا يصدّونه أبداً عن آيات الله التي رُحم بها. وليدعُ بيـــنهم إلى ربّه وحده معبوداً بإخلاص ولا يكونن أبداً من المشركين وإن كثر صفّهم حـــوله. ولا يدعـــوا مع الله إلهاً آخر في الوجود. وتلك التّذكرة تَعني كلّ مَن خَلَف الرّسول داعياً بدعوته مجاهداً وفق سيرته، إن تذكرة هذه الآيات كأنها تخاطبه عيناً: أنّه بقـــدر مـــن سنة الله تردّه إلى معاد للقائه حيث السؤال والحساب والجزاء، فليدعُ مَن

يُخاطب حُرّاً كما شاء له الله ويقول له إن الأمر موكول لله هو أعلمَ من اهتدى ومَن هو على ضلال مبين، وأن يعرف جميل نعمة الله في هذا الكتاب الذي يصله بحق الغيب ومآلــه فلولاه لبقيَ جاهِلاً بميزان الوجود ولمضى في الدنيا جاهلاً بما وراءها في ضلال مـــن هُدى الوجهة والمذهب إليه، فليعتصم بالحقّ متوكّلاً على الله لا يُظاهر الكافرين ولا يُـــشايع المُشركين المتعلّقين بالمشهودات في الدّنيا الموقّرة والمعبودة دون الله في كل الوجـــودِ غيـــباً، بل يعتزلهم مذهباً يخلص لله لا يدعو إلهاً غيره. وتنختم السّورة بذكر خاتمـــة المـــشهود الفاتن لبعض عباد الله: كل شيء هالك فانياً مع فناء الدنيا إلاّ وجه الله سبحانه وتعالى حـــيّاً لا يمـــوت يلقـــى عـــباده بعد موتهم ومنتهى دنياهم لديه مبعوثين يوماً للحـــساب والـــدين هو فيه الملك القيّوم له الحكم تعالياً على الحاكمين في الدّنيا خَيراً وعـــدلاً يقضي بين الناس فيما اختلفوا فيه وتظالموا مهتدين وضالّين في الدّنيا، وإليه فيه يـــرجعون عباداً له أحياهم في الدنيا وابتلاهم بعد بسط رسالة العلم والهدى لهم حتّى المـــوت ثم أعـــاد خلقهُم وردّهم إليه في الآخرة ليلقوه ويواجهوا الحساب وينتهوا إلى المصير الحاقّ الأوقع والآبد.

سورة العنكبوت

مقدمة السورة وهديها:

تنـــــزّلت ســـورة العنكبوت لأواخر عهد التنـــزيل المكيّ، تسبقها سورة الرّوم التالـــية لهـــا في نظـــم الكتاب، وتتلوها أخيرة في مكّة سُورة المطفّفين، وهى خامسة وثمانـــون في ترتيب تنـــزيل سور الوحي، وتاسعة وعشرون في ترتيب نظم الكتاب، وعـــند أواخرها – في التحزيب للقرآن – مبتدأ الحزب الحادي والعشرين، وعدّ آياتها تـــسع وستون، واتُّخذ أسمها 'العنكبوت' من ذكرٍ فيها للمشركين الذين اتخذوا أولياء حفظة لهم من دون الله كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً هو أوهن البيوت. وفاتحتها ثلاثة أحـــرف، هي ألف ولام وميم، ذات المنظومة من الحروف التي تتصدّر السّور الثلاث التّالـــية لها، 'الرّوم ولقمان والسجدة'، وكأنها بذاتها مهاد لورودها في صدر الزّهراوين مـــن أوائـــل السّور التالية تنـــزيلاً في المدينة. وإنّما هي مثال لسائر الحروف المفردة والمتعدّدة التي هي مبتدأ سُور أُخرى من القرآن وتلك الحُرُوف المتمايزة في صدر السّور إنما هي رمز لجذور اللغة التي يتألّف منها كَلِم القرآن الذي يأتي بمنطوقها لساناً عربياً، ويُـــشار بها إليه كذلك قرآناً أو كتاباً أو إلى آياته مذكوراً أحياناً بعدها مباشرة، وقد تتلو تلاوة ذكر آخر في بعض السّور كما في هذه السورة ولكن يأتي ذكر القرآن بعداً.

وبادِرة الذّكر في هذه السّورة هو ما عنى الفتنة التي اشتدّ وقعها على المؤمنين في عهد تنـــــزيّل السّورة بعد نحو عشر سنوات من الحملة عليهم وهم في قلّة وذلة في مكّة. وقد أدّت بـــبعضِ الـــذين يُعلنون شهادة الإيمان بما جاء به الكتاب من الحقّ إلى المضي ثابتين

مجاهـــدين وقـــع الحملة عليهم متوكّلين على رجاء لقاء الله، وأدّت بآخرين إلى بدوٍّ بعض ظواهـــر الـــتذبذب فيهم بين الصّدق والكذب، فمن شدّة العذاب المُوقع عليهم في حاضر دنـــياهم يجعلونه قدراً كعذاب الله العظيم الذي يُنذرون به في الآجلة، وأن تقلّبت الأحوال وجـــاء نصر من الله للمؤمنين يقولون عندئذ إنهم كانوا بقلوبهم مع المؤمنين. فذلك الابتلاء بـــين المؤمـــنين أظهـــر مواقف إيمان صادقة ونفاق متلبّسة إنّما يعلم الله الحقّ المائز بينها. وكانـــت مجاهدات المؤمنين لدفع فتنة المُجتمع تحمِل بعضهم على مجاهدة الأبوين المرهونين لتقالـــيد الـــشرك، هما يجتهدان لحمل الولد عليها وهو يجاهد متذكّراً المرجع إلى الله حين تتميّـــز بهم العاقبة رغم القربى. المؤمنون كذلكَ عُرضة للمستكبرين يُضاغطونهم أن يتّبعوا ســـبيلهم يمنّونهم أنهم هم يحتملون عنهم خطاياهم كفالة إن صدق نذير السؤال والحساب في الآخـــرة، ولكـــن تلـــك مخادعة باطلة، لأنّ كل نفس إنما تحتمل عيناً يوم القيامة عاقبة وزرهـــا لا يُـــرفع عـــنها فدىً. ويقع العذاب ضِعفاً على الكبراء الغاوين الذين يحرّضون المستضعفين على الغواية ولو خادعوهم بأنهم يكفلونهم متكفّلين بحمل أوزار أثقالهم عنهم، بل يُسألون عن افترائهم في دعوى التكافل فيعذبون أضعافاً.

وفي خواتيم السورة تأتي بعد ذكر حسن الجزاء الآجل الموعود البُشرى للمؤمنين بـــأن أرض الله واســـعة فـــيها مراغم كثيرة وسعة للمؤمنين المُمتحنين بضغوط الفتنة فليُخلصوا العبادة لله مستقيمين عليها سواء تيسّرت لهم الهجرة أو تعسّرت وبلغهم قدر المـــوت قبلها، فإنما إلى الله المرجِع حيث يبوءون إلى الجنّة دار حياة في خلود بما صبروا وكانوا على ربّهم متوكّلين، ويكتُب لهم حظّهم من الرّزق حسبما بارك الله لهم ولو لم يحتـــسبوا أسبابه كما يكتب لكلّ دابّة تسعى في الأرض تلتمس الرّزق عفواً. فالله سميع عليم باستغاثة المؤمنين بعد أن ضُيّق عليهم المعاش وشقّت أحوالهم وأخذوا يشتكون إلى الله ويدعـــونه منها مخرجاً. وختام السّورة هو أنّ الذين جاهدوا في سبيل الله ليهدينّهم الله إلى تلّك السّبيل مَهْجراً في الأرض وقواماً في الحياة الدنيا ومآلاً خيراً في الآخرة وإنه لمع المُحسنين يُحسن إليهم أبداً رحمة ورضواناً بقرباه.

والمـــشرِكون الذين سادوا في مجتمع مكّة سواداً أعظم وفي مذهبه ديناً غالباً كانوا يأخـــذون على المؤمنين حملة تشتد وتستعر، وكلّما طال المدى تزايد البلاء وثبت صبرُ

المُــسلمين. وهـــم كذلك يحمِلون على رسالة القرآن يطعنون في صدقِ الرّسول الذي يبلّغه ويتطلّبون منه بعد سماع الآيات التي يتلوها من القرآن آيات مشهودة فعالاً خارقة لمطبوع الأشياء والأسباب تصدّق صِلته بقوى الغيب. وهم يجحدون بآيات القرآن التي يتنــــزّل فيها حق من الغيب بينما يَفترون على الله وحياً لهم فيما يعهدون لأنفسهم. وهـــم يكذّبون نذير القرآن المتلوّ عليهم ليصدّهم عن ضلالهم حذر المنظور في العاقبة الآجلـــة، ويستعجلون وقع الحساب والعقاب عليهم لفورهم، تحدّياً وتكذيباً للوعيد، ولا يدرون أن لإنفاذه أجل يُسميّه الله وأن سيأتيهم بغتةً بالموت أو بالساعة فالبعث إذ يُقــضى الوعــيد ويــتلقّون جزاء ما كانوا يعملون. ذلك أنهم كانوا يكفرون بالغيب وبالــبعث وبالآخرة، وإن آمنوا بالله خالقاً يَرونه ربّاً أعلى بعيداً في غيبِهِ يتّخذون من دونه أولياء شركاء يحسبون أنهم يصرّفون حياتهم. وهُم مفتونون بالمشهود الحاضر رؤية ومنعة بما يلقون منه وتعلقاً بما يوقّرون إذ اتخذوا من دون الله أصناماً ومقدّسين حولها، أولـــياء تحـــصّن ومُنتفع بأسباب غيبية واهمة ورجاءات واهية، مَثلهم كمَثل العنكبوت اتّخـــذت لذلك بيتاً مشهوداً لكنه أوهن البيوت، لو كانوا يعلمون حقائق الوجود كلّه في الغـــيب والمـــشهود. واللهُ يُحيُط عِلماً بما يعبُدُون ضلالاً ويخاطبهم برسالة الهُدى المُوحاة، يضرِب لهم فيها الأمثال لتقريب حقائق الغيب بصُور المشهود. ويقوم ﷻ في الوجـــود عزيزاً حكيماً، آيته العظمى المشهودة بيّنة للمستبصرين المؤمنين أنه هو الذي خلـــق الـــسماوات والأرض، ولئن سُئل أولئك المشركون المفتونون بالمادة مَن خلق الـــسماوات والأرض والـــشمس والقمـــر، وقـــدّرها إطاراً وقراراً وموارد حياة لهم واخـــتلاف ليل ونهار نعمة لهم سكناً ونوماً وضوءاً ومسعى ومعاش – لئن سئلوا عن ذلـــك لـــيقولنّ: الله، وهو الذي يقسّم الرّزق بينهم بسطاً وقدراً، فأنّى يؤفكون تعلقاً بأولياء عاجزين قاصرين دون الله؟ ولئن سُئلوا من نـــزّل من السماء ماءً فأحيا لهم به الأرض بعـــد مـــوتها يأكلـــون منها، ليقولنّ: الله، لكنهم لا يعقلون وراء تلك المعرفة ولايضبطون منازع أهوائهم وضلال مذاهبهم إشراكاً بالله. والحقّ أن الحياة الدنيا التي تغمـــرهم أنما هي لهْو عارض ولعب عابث وفتنة غفلة وفرحة، ولدار الآخرة هي تمام الحياة الحقّ وجدّ المتاع.

إن الـــسورة تـــروي – عبرةً للمؤمنين وعظة للكافرين – قصص الأقوام الأولّين الـــذين جاءهم الهُدى والنّذير فكذّبوا فحقّ عليهم هلاك عاجل. وتُوجز السّورة ذكر نـــوح عليه السلام وطول مصابرته لقومه داعياً وتماديهم ظالمين، حين أخذهم الطوفان وأنجاه الله ومَـــن معه من المؤمنين وترك الله سبحانه وتعالى آثار تلك السّيرة آية للعالمين. وتُبيّن شيئاً مّا ذكـــر إبراهيم عليه السلام أبـــي أمّة الخطاب القرآني والداعية للدّين الحق توحيداً لله معبوداً وتقوى له جازياً عند المرجِع إليه، في قوم كانوا مثل ذريته الخالفة يعبدون من دون الله أوثاناً ويخلقون إفكاً بينما أسباب الرزق حولهم بيّنه أنها من عند الله، فالشكر والعبادة لـــه فرض، والمرجع إليه وعد حق، وما اتّعظ القوم بل كذّبوا كما كذّب أمم قبلهم، ومـــا كـــان على الرّسول إلاّ البلاغ المُبين موصياً لهم أن يسمعون آيات الوحي المتلوة وأن يسيروا في الأرض فينظروا آياته تعالى المطبوعة في العالم المشهود، كيف بدأ الخلق ثم يعـــيده ثم هو الذي ينشئهم نشأةً أخرى وقد أنشأهم في الأرض حياةً وموتاً وبعثُهم في الآخـــرة هـــو أهون عليه من خلقهم وهو على كل شيء قدير، وهو عندئذ وفق كـــسبهم في بلاء الدنيا يجزيهم الجزاء الحقّ يعذّب من يشاء ويرحم من يشاء عدلاً يحقّ عـــند المنقلب إليه، وما هم بمعجزيه في الأرض ولا في السماء ومالهم من دونه ولي ولا نصير، فالذين كفروا بآيات الله في الدنيا ولقائه عند المرجع إنما هم يائسون مصيراً من رحمـــة الله ولهم عذاب أليم وما كان للذين كفروا برسالة إبراهيم أن يفعلوا به هو ما يـــشاءون، إذ أرادوا أن يحرّقوه فأنجاه الله. وما كان ختام تذكيره لهم إلاّ أن الاعتكاف على أوثانهم إن كان لهم داعياً للمودّة بينهم هم في الحياة الدنيا فإنهم يوم القيامة يأخذ بعـــضهم علـــى بعض تكذيباً وتلاعناً ومأواهم النار وما لهم من أوثانهم وأولياءهم من ناصر. ومهما يكن ما جرى لإبراهيم عليه السلام من عزله وإخراجه من دار وطنه فقد آمن لـــه لـــوط وهاجـــر معـــه غرباً ليبلغ رسالة هدىً، ووهب الله له هناك أيضاً إسحق ويعقـــوب، وأوتي أجره في الدنيا وكتب له أنه في الآخرة من الصالحين. أمّا لوط فقد قـــام داعياً لقومه في سدوم والقرى حولها ينهاهم عن الفاحشة وراء تقوى الله وحدود شـــرعه ومـــا فطر الناس عليه، إذ كانوا يأتون الرّجال مُناكحة يتخطّفونهم في السبيل العـــام ويمارســـون فعلـــتهم المنكرة في النادي، فأراد قومه إخراجه وتحدّوه أن يأتيهم

بالعـــذاب الـــذي أنـــذرهم به، فدعا الله عليهم، ولما جاءت الملائكة إبراهيم صفوفاً يبـــشّرونه بـــولد بلّغوه أن من رسالتهم مهلك تلك القرية الفاسدة، فجادلهم أن فيها لـــوطاً لكنهم أنبأوه أنهم منجوه ومَن معه إلاّ امرأته من الرّجز النازل على قومه وقريته التي تركها الله ﷻ بعد دمارها آيةً للخلق العاقل. وخلّفت بعد ذلك جنوباً رسالة إلى مـــدين مـــن شعيب ينصح قومه أن يعبدوا الله وحده ويؤمنوا بالغيب واليوم الآخر، ولكـــنهم مـــضوا يعيـــشون في الأرض مفسدين في التجارة، مثل أمّة الخطاب القرآني العـــربية، فأخذهم الرّجفة وصرعتهم أرضاً. وكذلك عاد وثمود الذين خلفوا نوحاً في غـــرب الجزيرة العربية وشمالها بحياة من النعيم والإعمار الرّاقي، لكن زيّن لهم شيطان المـــتاع أعمـــالهم وصـــدّهم عن الاستجابة لدعوة الهُدى من رسلهم تبصيراً وتذكّراً. وكـــذلك في مـــصر أتـــباع قـــارون المفتون بالمال، وقوم فرعون وهامان المستخفّون بالطغـــيان السلطاني جاءهم موسى بآياته بيّنات فاستكبروا، ولكن ما سبقوا بقوتهم أن يـــدركهم قدر الله الآخذ. فكُلاً ممّن ذُكر أُخذ بذنبه بالهلاك صيحةً أو خسفةُ أو غرقة لأنّهـــم كذّبـــوا رِسالة الحقّ ومضوا ضالين. وكانت تلك عظات للمُشركين الصادّين عـــن رسالة القرآن تذكرةً بسيرة أبيهم إبراهيم إذ نجا من عُبّاد الأوثان ولو دفعوه إلى الهجـــرة كمـــا دفع خَلَفُهم المخاطب بالقرآن أبناءهم المؤمنين إليها خوفاً من أخذهم بالفتـــنة، وبسيرة سالف الأقوام حولهم الذين كذّبوا رسلهم فلقوا عاجل العذاب الذي يستعجل مثله المشركون سوى أن الله يمدّ لهم دونه ويكتبه عليهم لآجل يسمّيه عاجلاً في الدنيا أو آجلاً في الآخرة.

وقد كانت رواية تلك القصص المذكّرة الواعظة للمؤمنين والمشركين موجزة، لأنها قد فُصّلت في سور سبقت هذه السّورة تنـــزيلاً وتواترت تباعاً بعد منتصف عهد التنـــزيل في مكة وعاد بعضها يتوالى في المدينة. وعند متنـــزّل السورة كان عهـــد الـــتكذيب الاشراكي الغالب والفتنة المشتدّة بين يدي بشريات عهد هجرة فاستخلاف وتمكين وعزّ غير بعيد. فالسِّير السالفة لرسالة الدين تبدأ كلها بمرحلة تكـــذيب وفتنة وتنتهي إلى منجى للمؤمنين ومهلك للذين كفروا، ولئن لم يكتب الله الهلاك تباراً على العرب الذين أشركوا فقد أُملي لهم حتى يذوقوا الهزم والهوان

ثم تـــسنح لهـــم فرصة المتاب والهداية. وسورة العنكبوت بدأت وكذلك اختتمت بذكـــر المؤمنين مبتلين مجاهدين والكاذبين في سوء حملة عليهم وغرور أن يسبقوا عـــدل الله، ثم بذكـــر النار مثوىً للكافرين وذكر المجاهدين مهديّين إلى معية الله وإحسانه.

والـــسورة كلها ذكرُ قرآن - لكن وردت فيها وصيةً للرّسول ومَن معه أن يُتلى القـــرآن سنة ذكر في الحياة وأن تقام الصلاة فيها قراءة لما تيسّر منه وفيها الخشوع لله وذكر رقابته، والصلاة من ثَم تتخلّل الحياة تذكرة موصولة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتُزكّي التقوى ذكراً لله أكبر من كل خاطر في الذكر عارض. والقرآن كتاب مصدّق لمـــا قبله، وقد يجادل المؤمنين في حقه أهلُ الكتاب الماضي، فليُجادَلوا بالتي هي أحسن وليَذّكروا بما يجمع بينهم وبين المؤمنين من أصول الدّين وحياً وإلهاً واحداً، وكذلك هم أقرب للإيمان بالقرآن من العرب الأمّيّين لأوّل عهد البلاغ، وقد يؤمن به بعض هؤلاء أمـــة الخطـــاب المباشر بينما يجحد به الكافرون، والرّسول الذي يبلغ القرآن متلوّاً إنما اصـــطفاه الله أُمـــيّاً لم يقرأ قبله كتاباً ولا خطّه، ذلك ليدار عنه ارتياب الذين يريدون إبطـــال رسالته الموحاة بأنه فيها ينقل من ذكرٍ لله قديم أو يفتري على الله. ويحفظ الله ذلـــك القـــرآن آيـــات بيّنات في صدور قرّائه المؤمنين الذين أوتوا العلم ذا الشأن فيه يحفظـــون نصّه ومغزاه وإن جحد المعرضون وأغنى الله رسولَه بآيات ذلك القرآن عن الآيات المعجزة التي كان يطلبها المشركون الذين حضروا تنـــزيله، فإنما هو ذكر خالد يهدى كل من يتدبّره، وما هو بآية فعل يسترهب من يشهده بخرقه للمطبوع، وإنما هو أحـــسن الحـــديث قرآناً يعجز عن تقليده ويخشع له مَن يسمعه، ويكفي ذلك الكتاب المـــتلوّ رحمـــةً وذكـــرى لقوم يؤمنون، ويكفي اللهُ شهيداً بأنّ حامله الرسول قد بلّغه صـــادقاً، وهـــو ﷻ العليمُ بكلّ شيء الذي يحكم بين مَن يخاطبهم بالقرآن ليتبيّن أن الكافرين به المؤمنين بالباطل هم في أيلولة المصائر الخاسرون. ففي صدر السّورة إشارة للقرآن إذ هو بحروف من اللسان العربـــي مُبين لأمّة خطابه الأولى. وفى آخر السورة ذكـــر ما يحقّ على مَن يكذّب بحقّه إذ جاءه وهو يفترى دون الله الكَذِب كما يُشرك به ﷻ الباطل.

ترتيل المعاني (للآيات ١ – ١٣):

﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (١–٣)

ا، ل، م: أحرف من أبجديات اللّسان العربيّ، لَم ترد لعينها بل مثالاً لسائر الحروف العربية التي تتركّب منها كلمات اللّغة وجُملها فتخرج منطوقة في ذلك النّظم كلاماً، ومثلها تتصدّر بعض السّور شهادة أن هذا القول يخرج قرآنا من مثل منطوق العرب بياناً إذ يتلقّون وقع أصواته المعهودة ويفهمون معانيه أمّةَ خطاب أُولى للقرآن، بيّنةً بلاغية بحسن نظم حروفه جزالةً وتبليغ معانيه فصاحةً وانتظام تعابيره بداعةً وجملة وقع مدولاتهِ نَظماً لا يعتريه اختلاف، وما هو إلاّ أحقّ الحَديثِ وأحسنه قدّره وجعله رسالةً مَن الغيب لعباده فأوحاه وأنزله ورتّله الله المتعالِي على الخلق بكل أقداره المُنزل قرآناً وكتاباً حقاً لا يصدر عن سحر أو افتراء دونه إذ يعجز عباده البشر أن يأتوا بمثله لغةً أو حقّاً ولو كانوا من الناطقين بالعربية.

وبعض الذين يركبّون كلمات من مثل تلك الحروف المقطّعة التي تتصدّر السّور قد يحقّ منهم أن يضربوا مثلاً لكونها الحروف جذوراً لتركيب كَلِم القرآن ويختاروا كلمات تتواتر فيه مبتدئة بأيّما حرف منها بعينه. ولكن إنّما تلك الحروف رموز لوظيفتها في اللغة تركيباً لكلمات القرآن ولكنها لا تتصوّب إلى عين كلمة أو أخرى. وبعض الذين يقولون بترك أمر تلك الحروف أمراً مبهماً في الغيب ينسون أن القرآن إنما جاء في كل ما فيه بياناً للمعاني التي يقتضيها كلام الله رسالة من الغيب لعالم عباده المشهود. وبعض القراء في عدّ الآي يفاصلون بين تلك الحروف وتالي الذكر في القرآن ويجعلونها آية مميّزة. ولهذا وجه بيّن لاسيما في مثل هذه السورة، وبعضهم يصلونها بما بعدها. ومذهب القراءة الواحد قد لا ينتظم عبر كلّ السّور في تفاصل الآي على نهج واحد في شأن حروف المفتتح.

وغالب سور القرآن ذات المبتدأ بالأحرف المقطّعة تصل السياق بذكر يشير إلى جملة القرآن أو الكتاب المبين الحكيم أو آياته، في كلمات تالية. ذلك سوى سور ثلاث لا تبدو فيها هذه الصّلة مباشرة، بينما تلك الأحرف هي قسم للشهادة بأن القرآن منطوق لسان

عربـــــي من مثلها. ولكن تالي القرآن المتدبّر لآياته المرتلة المنظومة في تلك السّور إنما يجد دائمـــاً مـــرجعاً لذكر القرآن تالياً في بقية السورة. ففي سورة مريم يتقدّم مباشرة بعد تلك الأحـــرف في أوّلها نبأ ذو شأن من آيات فعل الله في شأن زكريّا ومريم عليهما السلام على غـــير فعل أقداره المسنونة، آيةً مشهودة بينة على حق وقع الغيب، والكلمة التالية للأحرف كأنهـــا تـــشير إليها أنها بما يتألّف منها رحمةُ كلامِ الله الموحى مثل رحمة الله عبده زكرياء بكلمـــة وحـــي إليه نداء بُشرى من الله استجابة لدعائه، ويرد في السّورة الأمر بأن يُذكر شأن مريم فإبراهيم فإسماعيل فإدريس، ويرد تنـــزيل الملائكة بذلك الذّكر الموحى بأمر الله، وتـــرد تـــلاوة آياته، ثم يأتي عند مختتم السّورة ضمير يرجع إلى ذلك الكتاب إذ يسّره الله بلـــسان النبيّ المخاطب ليُبشر به وينذر القوم اللُّدّ المخاطبين. أما في سورة الرّوم التالية هذه السورة فقد تقدّم بعد ورود ذات الحروف في المفتتح نبأ الرّوم، وهو ذو شأن عند المؤمنين والمشركين، وعند المختتم الموصول بكلّ ما سبق في السّورة يرد ذكرُ القرآن إذ ضرب الله فـــيه كل مثل وذكرُ الغِنى بآياته المتلوّة عن أيّما آية مشهودة يطلبُها المشركونَ فعلاً خارقاً للمعهـــود المطـــبوع. أمّـــا في سورة العنكبوت هذه فيُذكر القرآن بعد نصفها إذ يرد أمر الرسول بتلاوة ما أُوحى إليه من الكتاب ثم المجادلة في حقه لأهل الكتاب السابق بالتي هي أحـــسن ثم البيّنة لصدوره حقاً من الله وحياً من الغيب إذ ما كان الرسول الذي يتلوه بتال قـــبله مـــن كتاب ولا خاطّ لمثله بيمينه، وأنه يُغني عمّا يُطلب من آية مشهودة فعلاً خارقاً للطبـــيعة، فهـــو رحمة وذكرى لقوم يؤمنون. وعند المختتم يُذكر ظلم من افترى على الله كـــذباً أنه أُوحي إليه أو كذّب بالوحي الحقّ لما جاءه في الكتاب المنـــزلّ. وإنّما تقدّم عند مفتـــتح الـــسّورة بالأحرف المقطّعة أمر الابتلاء الذي اشتدّ وقعه على المسلمين إذ بلغت الحملـــة علـــيهم حميـــتّها من الذين أشركوا لأكثر من عشرٍ من السنين معارضة للوحي المُنـــــزل قـــرآنا فجعلـــت المؤمنين في مِحْنة بعد شهادتهم بالإيمان، فهم بين مجاهد صابر ومنافق، والذين كفروا فوقهم بين معذّب ومخادع ليُتّبع.

وهكذا يبدر عند صدر السورة ذكرُ السؤال عن استنكار: هل حسب الناس ظناً أن يُتـــركوا أن يقولـــوا آمنّا ويُجازوا ماضين بكلمة الشهادة ظاهراً أنهم أقرّوا وثبّتوا الإيمـــان في نفوســـهم برسالة الدين الحقّ الموحاة؟ أحسبوا أن يتركوا كذلك وهم لا

يُفتنون امتحاناً لظاهر قولهم إن كان تعبيراً حقاً عمّا في باطن نفوسهم، ولا يُتلون بواقع حملـــة ضاغطة عليهم من المُعرضين عن دعوة الحقّ يصدّونهم عنها أو محنة تصيبهم في حـــياتهم السائرة في ضوء هداها ممّا يقدّره الله يقع بمختلف الأسباب الداعية للابتلاء في مشهود الحياة. ولقد فتن الله بأقداره في تصريف حياة الإنسان مُختبراً مُبتلياً مَن قبلهم، كمـــا يـــأتي في قـــصص السّير الخالية وعِبرها للخالفين من الابتلاءات في طريق حياة المؤمـــنين. وإنمـــا الحـــياة الدنيا كلّها محجوبة عن الغيب لا يصلها بعلمِه وحقائقه إلا رســالات الله الموحاة التي يُمتحن الناس أن يأخذوها مصدّقين ويعملوا بمقتضاها، وقد يـــنفتن الحيّ في دنياه مطمئناً بأن متاعه فيها مأمون موصول وينحصر بإدراكه القاصر عـــن أنها دار ابتلاء موصولة عبر بعث بعد الموت بحياة أُخرى حظّه فيها وفاقٌ لما تقدم في الأولى عـــدلاً بالحقّ لميزان وجود الحياة كلّها، والسلف من الذين قالوا آمنا بالغيب وبرسالة الهدى للحياة الدنيا انتظار وعد الآخرة الآجلة كذلك مضى عليهم قدر سنن الله في الابتلاء. بل كلّما رقى المؤمنون بكلمتهم الشّاهدة بالإيمان درجاً في التعبير عنها عملاً صالحاً ثم إحساناً تعرضّوا لفتن تشتد عليهم لعلّهم يحتملون المُصابرة والمجاهدة من أجـــل أن يحـــقّ لهـــم في دار الجزاء ما هو خير وأمثل. إذ يترتب على ذلك الامتحان المتـــراتب أن يعلـــم الله - لا بعلمه الذي يُحيط غيباً بما هو مَنظور، بل بعلم المفعول الواقـــع البيّن المؤكّد المشهود الذي يرصده مكتوباً، مما ينبغي أن يدركه أيضاً مَن يعينه لـــيقوم بيّـــنة حاقّة له يطمئن لها أو عليه يقرّها أو ينكرها واقعة سابقة منه فاعلاً، يوم توضع الموازين وتُفَصّل الأحكام قضاء بالقسط - يعلم الله الذين صّدقوا كلمة الشهادة إذا أدّوهـــا قـــولاً بالإيمان علماً قرّ في وجدانهم الباطن بقدر ما تعزّز صدقُهم بصبرهم المُتـــبارك في درج الابتلاء ورقيّهم في قدرة تجاوزه، ويعلم مائزاً عنهم ببيّنة مشهودة في الواقـــع أيضاً الكاذبين الذين ما مثلت كلمتهم الظاهرة حقاً مطوياً في باطن نفوسهم، بل كلمةَ زور وادّعاء ظاهر حسبما دعتهم الأغراض العارضة في سيرة حياتهم.[1]

(١) تتواتـــر الآيات أن الابتلاء والفتنة قدر الإنسان في الحياة الدنيا ثم يُبعث في الأخرى ليُجزى، وذلـــك قدر الذين آمنوا بالغيب لإسيما لأوّل عهدهم إذ هم قلّة يُضطهدون لتتبيّن مُصابرتهم ومُجاهدتهم أو انفتانهم، راجع مثلاً الآية ٧ سورة هود، والآية ١١٠ سورة النحل، والآية ٣٥ سورة الأنبياء، وانظر الآية ٣١ سورة محمد، والآية ٢ سورة الملك.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٤)

ذلك الذي سبق ذكره كذلك حقاً مهما يكن قاصراً حسبان الذين قالوا آمنا ألا يُمتحـــنوا. أم قصّر كذلك حسبان الذين يعملون السيئات، سؤالاً أشدّ استنكاراً: أن ظـــنوا – وَهْمـــاً ماضياً– وهم يوقِعون الذين خالفوهم في الدّين في فتنة استضعافاً لهم وغَـــيرة من الدّين الجديد الحادث على تقاليدهم المعهودة الأرشد منه فيما يرون وتعزّزاً ببأســـهم الأقـــوى – ظـــنّوا أنهم يسبقون الله بكلّ أقداره المفعولة وأوامره النافذة التي تذكرها تعاليم ذلك الدّين الغريب عليهم، أنهم يفوتون ذلك ويعلون عليه لا ينالهم قدر الله ولا يـــسارع إليهم فيُدركهم إلا بالموت وهو القدر المسنون الذي فيه الفناء البات للبـــشر كافة. ساء ما يحكمون، إذ يوقعون الحكم لأنفسهم بأهواء غرورهم وبقصور إدراكهم الغافل عن قدر الله الغالب الذي قد يعاجلهم فيأخذهم بما يشاء ويباغتهم قبل الموت وعن آجال الغيب الموعودة عند المرجع إليه يوم البعث والقيامة التي يجازى فيها الله عباده ليسوء عليهم أو يُحسن وقع الحكم وفق سابق أعمالهم والله أسرع الحاكمين وخيرهم عدلاً لا يُعجزه أحد ولا مُستنصر دونه ولا يظلم أحداً.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَـــا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥–٧)

مَن كان من عباد الله المؤمنين بالغيب يرجو لقاء الله – الإله الحق الأعظم الأحكم الأعدل – فمهما تطول عليه محنة بلائه لا تدعوه للاستيئاس لأنّه يطمئن برجاء الآخرة لا تفتـــنه الدنـــيا بمشهوداتها الحاضرة ولا تُغيّبه عن آفاق الوجود فتزلزل مدى رؤيته المبصرة بآجال أبعاده، ولا ترهنه الهموم العاجلة بل ينتظر أيلولة الحياة الدنيا إلى آخرة، ويُـــصابر ابتلاءاتها ليجوزها إلى معاد في أزل الغيب – مَن كان مطمئن الرّجاء كذلك فـــإن أجل لقاء الله لآت حقاً ووعده ناجز صدقاً للصابرين على حاضر أذى الحاملين علـــيهم لإيمـــانهم والمتوكلين عليه الطامعين في رحمته ومرضاته عند العاقبة. وهو ﷻ الـــسّميع بكلّ استعاذات عباده أولئك واستغاثاتهم وصلواتهم دعاء للفرج واليُسر بعد عُـــسر الفتنة والعافية بعد علّة البأساء والضرّاء، العليم بالظاهر والباطن من وسع مدى

صـــبرهم علـــى مـــا اشتد عليهم من بلاء، ذلك ليستجيب له ويُدركه برحمتِه أو يزِن بالجزاء مثاقيل ذلك الصبر وأقدار الأذى والبأساء.

ومن جاهد كذلك باذلاً طاقته مقاوماً لما يصدّه عن الهدى مُصابراً أيّما جهد من آخـــرين أو قـــدر مـــصاب يُبتلـــى به مُوقِعاً عليه وطأة تزلزل ثباته عائقاً مسيرته في ســـبيل الله، فهـــو بذلك إنّما يُجاهد لنفسه ليعود إليه محصولُ ذلك في العاقبة خيراً له ولـــيجِد عند الله جزاءً وفاقاً لقدر مجاهدته رجاءً للقائه المنتظر. إنّ الله لغنّي عن العالمين مـــا هو بحاجة ليفي له عباده بقضائها إذ لا تنفعه طاعتهم ولا تضرّه المعصية أو الكفر، بـــل يتعالى على أيّما مَدد من عوالم خلقه، فإنّما هو الذي يمدّهم من فضله بعد خلقهم بهداية ورحمة في الدنيا وجزائهم في الآخرة.

والذينَ آمنوا حقاً لا قولاً فصدّقوا شهادة إيمانهم بما يطمئن في نفوسهم وعبّروا عـــن مقتضى ذلك بأن عملوا الصالحات أداء لها في اليُسر والسرّاء وصبراً لا انفتاناً بالـــضّلال في العُسر والضرّاء، فوعدُ الله بأقدارِ رَحمته أن ليكفّرنّ– تأكيداً مضاعفاً للـــصّفح – عـــن ســـيئاتهم، فالإنـــسان خطّاء لكنّه توّاب ما أسعفته دوافع الإيمان وضوابطه الحيّة، فالله يغمر برحمته ورضوانه ما يقع من خطاياهم، وليجزينّ الله بتلك الأقـــدار أيـــضاً أحسن الذي كانوا يعملون منهجاً في حياتهم من فضائل الكسب، جـــزاءً وفاقاً لهم ثم فضلاً بكرم الله الذي يُبارك عاقبة الحسنات أضعاف ما حقّ من كسبها.

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَـــلاَ تُطِعْهُمَـــا إِلَـــيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (٨ – ٩)

وينضاف من فضل الله على عبده الإنسان هداية أن أوصاه لأقدار خلقه ومولده ونـــشأته مـــن والدين يرعيان بعد المولد تربية نضجه وتزكية خلقه – أوصاه لذلك بها إحـــساناً برّاً وانعطافاً فاضلاً في المعاملة، وصيّة قُرنت كثيراً في ذكر القرآن بالعبادة لله الخالصة. ولكن الإنسان عُرضة للابتلاء في حياته منذ النشأة في إطار الأُسرة وهو ينمو نحـــو الرّشـــد قبل أن يستوي فيستقل ويخرج إلى مجالات معاملة سائر الناس وخوض

معـــايش الحـــياة وابتلاءاتها، ويخاطبه الله – لعلّه يعتبر ويتزكّى بأوّل تجارب الابتلاء في الدنـــيا – أنـــه إن جاهد الأبوان في حالة ما مستفرغين جهدهما حُباً له وشفقة ورجاء لرشـــده الأمـــثل كما يريان ليشرك بالله ما ليس له به علم بل ضرباً في ظنون الغيب البعـــيدة عن جهالة بالحقّ من جرّاء التعلّق بموقّرات مشهودة تنتشر موروثاً وتثاقل عرقاً يـــتعاقب علـــيه الآباء ويلقّنونه تلقاءً لأبنائهم بلا تفكرّ ولا تذكّر ولا أخذ عن الوحي بالحـــقّ مـــن الغيب – إن جاهداه كذلك فينبغي ألاّ يطيعهما، وإن ظلّ يصاحبهما في الدّنيا معروفاً مبارّة بحقّ الأبوّة، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق لاسيما في الشّرك بـــه مهما يكن المخلوق من أعز الناس قربى. فالناس كافّة – كما يخاطبهم ربهم – إليه مـــرجعهم فيُنبهم بما كانوا يعملون، إنباء خبير محيط بكسبهم المرصود، يعقبه جزاء لا تُغنى فيه الأنساب ولو من والد لولده.[1]

وقـــد كان المؤمنون في مكّة وهم قلّة مفتونين من حَملة سواد جمهورها الأعظم عليهم، وبعضهم تليه مضاغطة أشدّ من أبائهم الذين ما انفكّوا في جهالتهم الإشراكية راســـخة فـــيهم عـــصبيّتها سنين عدداً بينما سلم من ذلك أبناؤهم وسبقوا إلى الحقّ المتجدد.

والذين آمنوا حقاً – لا قولاً وشهادة ظاهرة وحسب، وعملوا الصالحات تصديقاً بالفعـــل للإيمـــان الـــوجداني بالغيب بالله ولقائه في الآخرة إذ نـــزل في نفوسهم ما يجاهـــدون بـــه ابـــتلاءات الدنـــيا انضباطاً وتقوى دون السوء واندفاعاً وتوكّلاً نحو الصلاح – أولئك ليُدخلنّهم الله – وعداً مؤكّداً بأقدارِ قضائه وجزائه وميزه يوم القيامة بـــين زُمر الصالحين والفاسدين مهما تكن قد جمعتهم قرابة وصحبة في الحياة الدنيا –

---

(١) طاعـــة الـــوالدين وبرّهما فطرة للولد، والإحسان لهما وصيّة في القرآن متواترة، وقد يُجاهد الـــوالدان ولـــدهما على الشرك، وتلك ظاهرة لاسيما حديث عهد الإسلام، وعندئذ الوصية للولد المؤمن ألا يطيعهما وإن صاحبهما بالمعروف: انظر الآية ١٥ سورة لقمان. وقدً يُجادل الـــولد غـــير المؤمن والديه المؤمنين في أمر الغيب والبعث ويحب قولهما له بذلك من أساطير الأولـــين: انظر الآية ١٧ سورة الأحقاف. ويتواتر في القرآن ذكر مجادلة المرسلين ومجاهدتهم قـــومهم إذ يدعـــونهم لمسايرتهم على الإشراك ويعرضون عن دعوة الحقّ قائلين إنهم وجدوا آباءهم على أمّة الكفر وهم على آثارهم مُقتدون.

ليُدخلّـــنهم - إدراجـــاً حـــقّ لهم بكسبهم - في الصالحين الأعلى درجة في المقام يوم القـــيامة في خير رِفعة لهم حتّى لو فارقوا الدنيا قبل المَمَات ذوى قُربى ما صدّقوا مثلهم إيمانـــاً، فإنه منذ ساعة الحساب لا أنساب بين المحاسبين، كلٌ يُعرض له كسبه مسئولاً عـــنه تقوم به البيّنات عليه، بل يتعازل الناس يفرُّ المرء حتى من قريبه لئلاّ يحمل أوزاره، ويجوز بكتاب أعماله إن ثقلت في ميزانه حسناته على سيئاته ويُقضى له بالفوز العظيم أخاً للصالحين المقرّبين إلى الله.

﴿وَمِـــنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (١٠ – ١١)

ومـــن الناس في سياق امتحانهم المقدر من الله في الدنيا - سوى المؤمنين منهم المجاهدين الصادقين - مَن يقول آمنّا بالغيب والله واليوم الآخر - ظاهرَ شهادة، فإذا أُوذي من الذين كفروا بذلك الغيب وما عرفوا عبادة الله الخالصة وتقواه وما أحبّوا أحـــداً يخالف مذهب دينهم ولا يُرضى أهواءهم وقد يقوم خصماً عليهم في علاقات الدنـــيا ويُسهم بإيمانه وعمله الصالح في ضرّهم كما يرون - إذا أوذي ذلك الشاهد بالإيمـــان كـــذلك جعل فتنة أولئك الناس الذين كفروا كعذاب الله يوم يلقى عباده العُـــصاة كمـــا تنذر به رسالته الموحاة، ولكن عذاب الله ذلك أشدّ وقعاً وإحاطة لا مصرف عنه وأبقى خلوداً إلا ما شاء هو ﷻ، فكيف يُتقى العذاب الأهون العارض عـــدلاً بعـــذاب الله فينفتن الإنسان المبتلى في الدنيا. والأذى قد يكثر ويتوالى على المؤمـــنين إذ يأتون بجديد لاسيما لأوّل عهد إيمانهم وغربته في عهد يسود فيه الباطل القـــديم، وتلـــك سنة قد تحدث زلزلة وفتنة في بعض المؤمنين. وكان ذلك في عهد التنـــزيل المكّي لهذه السورة. ولكن النصر من الله للمؤمنين قد يُؤجّل لحين التّمكين لهـــم الخالـــف لتأهـــيلهم للاستخلاف والعزّة. وإن جاء نصر كذلك من رب النبيّ المخاطـــب ليُبـــشر بوعده الآجل حين يحقّ للمؤمنين عاقبة لصبرهم - إن جاء ذلك كـــذلك يطمـــئنّ المؤمنون الصادقون لكن أولئك الذين مالوا أمس فتنةً وخوفاً نحو الـــذين آذوهـــم لـــيقولُنّ - ظاهرة مؤكدة - للمؤمنين المنتصرين إنهم كانوا معهم

بقلوبهم وإن كانوا في صفّ الآخرين أو معهم بألسنتهم، لعلّ المؤمنين يحسنون بهم ظناً يحسبون أنهم كانوا يدرأون عنهم غائلة شدّة العدوان بتخذيل خفيّ من داخل صفّ الذين كفروا.[1]

أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين من مثل أولئك الذين تغلّبت عليهم وقائع البلاء فتقلّبوا بين ظاهر الولاء للذين كفروا ثم ادّعاء باطن الولاء للذين آمنوا، ما استقام قولهم وموقفهم بصدق وثبات بل أكنّوا في صدورهم ما يهوون لأنفسهم وتحرّوا بألسنتهم ما هو أنسب لتحوّل الظروف. والله أعلم من المؤمنين الذين لا يطّلعون على وجدان الآخرين وليعلَمنّ هو ﷻ حقّ علم واقع ما جرى من ذلك لدى بعض الناس، علماً مؤكداً يميز الذين آمنوا صدقاً وثبتوا في وجوه الفتنة المتوالية دون ذبذبة، لا يغشاهم تباين بين المخفيّ المطويّ والواقع الصادق إذ لا تصرّفهم الأهواء والظروف المتقلّبة. ليعلمنّ الله كذلك مائزاً المنافقين الذين زلزلتهم الفتنة فأصبحوا في نفاق يميلون به في المَلأ كيفما اقتضى الأمر- ينافقون المؤمنين قولاً حين غرّهم الذين كفروا ولاءً حين كانوا هم الظاهرين، كأنّهم يخادعون الله الأعلم بهم الذي يُملى لهم يخلّيهم في بلاء الفتن المتقلّب بهم ليلقوا حظّهم من الكسب ثم من الجزاء الوفاق يوم لقائه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٢ – ١٣)

وقال الذين كفروا بحقّ دين الإسلام لله والإيمان بالغيب – قالوا فضلاً عن حَملتهم على الذين آمنوا فتنةً لهم لإكراههم ردّةً إلى الكُفر – قالوا للذين آمنوا أن يتّبعوا سبيلهم في الدين عقائد في أمر الغيب والدنيا باطلة وخيارات في مسالك الحياة الدنيا ضالّة، ولْيحملوا هم خطاياهم، هكذا زعموا عهد ابتغاء التزام جازم – طمأنةً

(١) تتواتر الآيات في ذكر عذاب الله في الآخرة أنه هو الأليم المقيم المُبين المُهين النكر الشديد الأشقّ الأكبر وهو الأبقى الخالد. فما فتنة الناس في الدنيا كعذاب الله ذاك، كما يجعلها المنافقون. وفي تذبذب المنافقين إذا ابتلوا بنصر وفتح جاء المؤمنين: راجع الآيات ١٤١ – ١٤٣ سورة النساء.

مفتـــراة يـــريدون أن تمضي على المؤمنين إن صدق ما يقولون من معاد إلى دار جزاء يؤمـــنون بها، وما هم – أولئك الذين كفروا – مؤمنين بعاقبة في الآخرة فيها احتمال أوزار الخطايا ولكن يُخادعون المؤمنين أن لو صدق ما آمنوا به سيرفعون هم عنهم تبعة عقوبة أيّما خطايا كفالة وحملاً لها دونهم لأنهم سادة قادة للمستضعفين، فلْيتبعوهم غير محـــاذرين مـــن أيّما جزاء عاقب في الغيبة طائعين لأمر سائد من كبرائهم. وما هم – حقّاً – بحاملين من خطايا المؤمنين إن اتّبعوا ضلالهم من شيء، فالمسئولية عند الله حاقّة علـــى كل أحد لا يحملها ليدفعها عنه آخر والأوزار لذلك تحقّ وتقع ولا يُوقع عقابها على غير الذي اكتسبها، إلا أن يُوقَع على ذلك الآخر مثلُ عقابها لأنه هو الذي حرّض عليها وأغرى بها، دون أن ينقص ذلك من ثقل وزرها على الذي أتاها. إنهم – أولئك الذين كفروا وأطلقوا الدّعاوى المُستكبرة المصادرة لمسئولية المستضعفين – لكاذبون، لا يؤمـــنون أصـــلاً بحساب الآخرة وقد حقّ وما هم بعالمين شيئاً عن أحكامه وموازينه، ولكـــنهم يخادعون في سبل أهوائهم صرفاً للمؤمنين عمّا هو حقّ. لكن ذلك الحقّ لا يُرضـــي أهـــواءهم وقـــد يضرّ بكسوبهم الظالمة لغيرهم في الحياة الدنيا، إذ الحقّ أنهم لـــيحملنّ هم أثقالهم التي كسبوها لأنفسهم من الكفر بالغيب وبالله واليوم الآخر وما ترتّب على ذلك من سيئات العَمَل إذ لم يدفعهم نحو الصالحات رجاء للقاء الله في حياة أخرى يجزون فيها كفاء ما يحسنون من أجر و لم تضبطهم تقوى خوفاً من الله إذ عدوا علـــى حدود هديه الحقّ وعدله بالقسط بين الناس، وليحملُنّ أثقالاً مُضافة إلى أثقالهم لأنهم كانوا بحملة الفتنة المكرهة والإغراء الكاذب يجرّون بعض المؤمنين المستضعفين إلى ترك الإيمان والعمل الصالح أو إلى الذبذبة بين الإيمان والردّة والنِّفاق من ظاهر الشهادة في القـــول وبـــاطن النـــيّات في العمل، فيحملون مثل أثقالهم لأنهم كانوا سبباً وعوناً لوقـــوعها، وذلـــك لا يـــبرّئ الخاطـــئين أنفسهم عنها وإنّما يضاعف الأوزار على المـــستكبرين الحاملين غيرهم على استحقاق الأوزار. وليسألنّ الله بجنوده في الحساب والمـــسألة يوم القيامة أولئك المستكبرين العُداة عمّا كانوا يفترون من تعمّد الكذب في المقـــولة المُفتـــراة خلاف الموازين الحاقّة في السؤال والحكم واحتمال الأوزار بالقضاء بالقـــسط ممّـــا يخاطب به الله الناس بآيات بيّنات في رسالة هداه ونذيرها، ودون ذلك

الوحي لا يعلم أحد في العالم المشهود حقائق يوم الدّين وموازينه إلاّ أن يفترى دعوى وفق أهوائه[1].

عموم المعاني (للآيات ١ – ١٣):

إن المــــرء الراشـــد من أمّة الخطاب القُرآني الأولى العربيّة اللّسان أصلاً إنّما يُعبّر بتلك اللّغة عن المعاني التي يُريد إخراجها قولاً ويتراسل به مع أمته تخاطباً، وكذلك مَن اندرج فيها ممن تعلم لغتها فضلاً عن لسان آخر نشأ عليه. كلٌ إذا سمع القرآن أو تلاه ينبغــي أن يأخـــذ من أصول بناء تعابير تلك اللغة وجذورها الحرفية، كالألف واللام والمـــيم، ليعمّق ويتّسع فهمه لما يتركّب من دلالاتها ويُصرّف من كلمات ثمّ ما يتألّف من جُمَل في آيات القرآن التي هي معالم متفاصلة يتجلّى فيها كلام الله الموحى بسياقه المتواصـــل المنظوم سُوراً والمجموع منها خط كتاب ومنطوق قرآن يعجز أن يأتي بمثله بـــشر ولو كان من الناطقين بالعربيّة أصلاً، إذ يُرى فصح تعبيره البديع وانسلاك محكم نظمـــه البلـــيغ ووقع أصواته الحسنى ومعانيه العليا على الوجدان. ومن ثم يبدو القرآن أيضاً أنه مُبين لمن يفهم العربية لاسيما مَن ينعقد في نفسه الإيمان بحقّه موحى من الله إذ يتلقّـــى معاني كلمه ويخشع لتلاوة ذكره فيستجيب للهُدى فيه مصدقاً الأنباء فيه عن الغـــيب مسلماً لعموم التعاليم وتفصيل المراشد في هديه ويتكامل رسوخ الفهم ووقع الخـــشوع لجذور كلماته ومتونها وأصول هواديه وفروعها. فإن خاطبت الأمّةُ العربية حاملـــة رســـالة القرآن أمماً غيرها ينبغي أن يدلوا البلاغ إليهم بكلام تتكامل حروف نطقـــه وكلمات مفهومه وأصوات وقعه مجتهدين في تخيرّ التراجم الأبدع والأبلغ التي تُحـــيى مشاعر التلقّي بما يقارب أصل القرآن بنصه العربيّ سعياً نحو مثال ما بلغ ذلك الأصل إعلاماً للإدراك وإفهاماً للأذهان وتثبيتاً للإيمان وترسيخاً للخشوع في الأمة التي خاطبها لأوّل عهد تنـــزّله.

---

(١) تتواتـــر الآيـــات أن كل نفس تحمل وزرها عند حساب الله وألا تزر وازرة وزر أخرى. أما الـــذين يُضلّون غيرهم فلا يرفعون عنهم أوزارهم بل يحملون مثلها فضلاً عن أوزارهم هم: راجع الآية ٢٥ سورة النحل.

إن القـــرآن هـــو خـــاتم رسالات الله من الغيب بلغة خاتم النبيين خطاباً إلى بني الإنسان كافّة في الأرض، فقد قُدرّ لهم الهبوط إليها والوجود فيها أحياءً تعاقباً بعد عهد موقـــوت من التجربة لأبيهم آدم في حياة عليا عند الله في الغيب تأهيلاً لفطرته لما كان آجـــلاً من نـــزولهم محجوبين عن الغيب وعن رؤية الله ومباشرة خطابه إلى حياة دنيا تحيط بهم فيها تعلّقات مشهودة وتغشاهم أهواء وشهوات في النفس ويفتنهم كلّ ذلك ميلاً للارتهان لمشهوده وحاضره وعاجله دون الاستجابة لما فُطر في وجدانهم من بذرة الإيمـــان بالله في الغيب والتصوّب نحو المرجِع إليه خشية غضبه ورجاء رضوانه تجاوزاً لابتلاءات الدنيا والعالم المشهود، لكن يقارن الإنسانَ في الدُّنيا الشيطانُ يغويه دون الله والغيب لأنه هو شطن منذ وجود الإنسان في الأزل عن طاعة الأمر الرّباني فالسجود له بل فاخره بأصل خلقه من نار لا من طين وسأل فنال ملازمته أبداً ليحطّه دون القربى مـــن ربّه. لكنّ الله تعهد عبده الإنسان بعد الهبوط إلى الأرض والاحتجاب عن الغيب برســـالات تُنبـــئه بحقائـــق الغيب وتهديه إلى خير المسالك في مسير دنياه وتُخيرّه فإن اســـتجاب للهُدى والته الملائكة تعادل حملة الشيطان عليه وأُعد له حسن المصير سعداً في حـــياة أخرى بعد موتته المسنونة. ذلك إذا أقبل و لم يدبر عن رسالة الهدى جاهلاً غافلاً متورطاً في فتن الدنيا وأحابيل الشيطان، بل استقام هدى واتقى المنتهى إلى شقاء في الآخرة ليفوز بالسعد.

والإنـــسان إذا تلقّى الرّسالة من الله فصدّق نبأها وآمن بهداها بل عبّر عن ذلك بكلمـــة شهادة أنه آمن قد يحسب عندئذ أنه قد استوفى العلم والهدى سيراً لحياته على صراط مستقيم إلى آجلته. ولكن الابتلاء بالدنيا قدر للإنسان موصول، كلما بلغ درجاً في اجتـــياز طـــور من الابتلاء رقى إلى درج ابلغ بلاءً عليه. فالذي بلغ النبوّة موصولاً بالغـــيب يلقـــى الابتلاء الأشدّ إذ تُحيط به فتن أبلغ في الدنيا وأعسر ضغوطاً ليجتاز الدَّرج الأعلى المكتوب عليه من الابتلاء قدراً وواقعاً إذ هو الأمثل يليه الأمثل بين سائر مَـــن يؤمنون برسالته. لكن الذين صدّقوا كلمة الرسالة لأوّل عهدها في مكّة وأعلنوا شهادة إيمانهم ما كانوا قد بلغوا ذلك إلا بجهد بليغ إذ جاءتهم الرّسالة غريبة المصدر في ثقافتهم وحياً جديدة المعاني ما عهدوها قبل كتاباً ولا هدىً للحياة ترهيباً وترغيباً من

رسول نذير وبشير، بل كانت تسود فيهم معتقدات في الغَيب جاهلية ورثوها من الآباء ومناهج في السلوك تعارف عليها مجتمعهم. فالملأ من ذلك المجتمع أخذ يحمل عليهم ليصدّهم عن ذلك الخيار المُنكر فيه وليردوهم إلى التقاليد المعهودة في جاهليته غيرة عليها وخشية ممّا قد يصيبهم إن اتّبعوا تلك الرّسالة: أن تتبدّل بهم الظروف وتضطرب الوقائع بما يتهدّد متاعهم الذي اعتادوا كسبه ويثير عليهم قوى أخرى حولهم ممّا ينذرهم بخطر عدوانٍ غازٍ منها. وقد حسب الذين قالوا آمنا لأوّل الأمر أنهم لا يفتنون وأن ستغنيهم تلك الشهادة ليطمئنوا ولكنّهم أُخذوا بما قد يريبهم لما تطوّر عليهم البلاء تطوراً، إذ كُتب عليهم بعد القول بالإيمان بالغيب وبالله والآخر أن يتعرّضوا لامتحان أن تصدق تلك الشهادة ويثبتوا عليها صبراً على فتنة أحاطت بهم كانت ظاهرة لأوّل عهد الدين الجديد وأخذت تنتشر فترتّب عنها امتحان مشتدّ. وتلك سنة في سالف تاريخ الرّسالات هي مثل أحداث تلك الواقعة لأوّل عهد رسالة الإسلام عِظةً لكلّ الخلف من المؤمنين. وذلك أن المؤمن لا يُغنيه القول بإيمانه شهادةً بل يقتضيه الأمر الفعل المصّدق لقوله إذ يأتي بجديد لا يرضاه منه أهل القديم ولا يخلّونه حُـرّاً مثله كالنّبت الناشئ تحاصرُ بذرتَه التُّربةُ السّاكنة حتى ينفذ منها ويتعرّض لمخاطر في حال ضعفه نابتاً حتى يغلظ ساقه ويستوي ويقوى. ذلك هو قدر يواجه كلّ مُنبَعَث للدّين الحقّ لأوّل أمره في مجتمع غير مسلم، إذ يكون المؤمنون في قلة وذلّة والسّواد الأعظم فيه لهم مذاهب اعتقاد مضادّة ومناشط حياة مناوئة لحركة التطهير والتغيير الإسلامي. وكذلك حركة الإسلام المتجدّدة في مُجتمع ملّة الإسلام قد يُقاومها تُراث الثقافة الدينية القديمة، ومهما تكن الظروف والابتلاءات والموروثات المَعهودات للمجتمع قد تقوم فيه ضواغط من قوى مُعرِضة عن دعوة الدين الجديدة ترتاب من خطرها على حصانة أمنها وسلامة أوضاعها وتنشط ردودُ فعل من الاستمساك الأشدّ بالمعهود والحملة العادية على الجديد. هكذا يقع قدر الابتلاءِ من الله فتنة لأيّما بادرة قول بكلمة الإيمان ليعلم ﷻ أتثبت أم تتزلزل لا بعلمه المُحيط بالغيب المنظور من استجابة الشاهدين بالإيمان إن فتنوا بل بعلم البيّن الواقع المَشهود من عاقبة الفتنة التي هي بيّنة معلومة للمفتونين أنفسهم عند حسابهم يوم القيامة.

وهــذا الابــتلاء الــذي شهده المسلمون لأوّل عهدهم في مكّة هو اليوم ظاهرة مــشهودة للأقليات المُسلمة في المجتمعات الكتابيّة ذات العصبية في وجه الإسلام خَشية يُسرِ انتشاره فيهم لو فُسحت له الحرّيّة وتغييره لمعهوداتهم مذاهب وأعرافاً. وهو أيضاً ظاهــرة في مضادّة حركات التجديد الإسلامي في كلّ مجتمعات المِلّة المُسلمة التي طال عهدُها بالدين وقست قلوب أهلها غفلةً وانفتاناً بالدُّنيا وبِتُراث مَوروث علمه بالدين فــيه قصور عن تنــزّل قيم الحقّ وتعاليمه على جديد الوقائع والظروف. ذلك لاسيما حــيثُ يقدمُ على المجتمع طغاة ما هم بتقاة لله يرعون ضوابط الشّرع في سلطانهم بل يجنحون إلى الجبروت المطلق، ولا يعرفون حقّ الرّعية في حرية الرأي النّاصح والاجتهاد وعقــد الإجماع الأغلب حجّة على ذوى السلطة، بل يخشون تداعى الرّعية وانحشادها معارضــة لهــم بعد الطاعة المستسلمة لأولي الأمر وسريان الكلمة المعهودة أن الطّاعة فرض خشية الفتنة. فهم يحملون على حركة تجديد الدين وبسط العدل في الحياةِ العامّة ومراعاة الميزان بالقسط بين نظام السلطان وطلاقة الحرّيّة للرّعيّة لإحياء ميت شعارات الدين والتوبة بكلّ الحياة العامّة حُكماً وخلقاً إلى هدى العبادة الحقّ لله وحده. وذلك شأن الذين يعملون السيئات في مثلِ تلكَ المُجتمعات الجاهلية أو الكافرة أو المسلمة ملّةً الغافلة ثقافة لاسيما المستكبرون فيها الذين يقومون أئمةً للنهج السيّئ وحماة للمبتغيات الظالمــة الــتي يدّعــون أنها مصالح عامة، فهم يحملون على ناشئة الدّين الحقّ ليردّوها ويصدّوها أن تبلغ الغلبة، وهم يحسبون أنّهم يسبقون حكم الله إذ يرون قوة بأسهم أو ســلطانهم الظالم غالباً وماضياً لا تحيط بهم من الله رقابة ولا يلحقهم درك عقاب حين يُملِــى لهــم قدر الله إذ تنبسط أيديهم ليثبّت الله المُمتحنين المُبتلين بوقع حملتهم عليهم ويتبــيّن صِــدْقهم وصبرهم وليمد للمستكبرين العمر والمجال لعلهم يذكّرون فيتوبون. ولكــن كثيراً مّا يتمادى هؤلاء يظنّون أن قد تجاوزوا قدر غضب الله وعقابه، ساء ما يحكُمُون إذ يغرهم مدّ الابتلاء ويزيدهم جموداً بالدعوة الحسنى للمتاب من قريب. أمّا مَــن كــان يــرجو لقاء الله في الآخرة فهم الذين يصبرون على فتن الدُّنيا ويجاهدونَ ضُــغُوطَها ثابتين على صراط مستقيم نحو حسن العاقبة يوم القيامة راجين ذلك منتظَراً لا يعدلــون عــنه مسيراً لعلهم ينتهون إلى مصيرهم فيه رضوان من الله. والحق أنه لا

يخـــيب ذلك الرّجاء مهما يتطاول بهم الانتظار ما صبروا وقاوموا، وقد تصيبهم غاشية اســـتيئاس عارضـــة، لكـــن ذلـــك لا يغمر إيمانهم أنّ أجل وعد الله آتٍ قطعاً. وهو السميع ﷻ بكل استغاثاتهم ودعواتهم الخاشعة وهو العليم بما يقع عليهم من ابتلاء وما يعتري صفّهم من تزلزل في الذين لم تصدُق كلمات الشهادة فيهم فعلاً بعد القول. إنّ رجاء لقاء الله هو شُعبة إيمان بالغيب فيها التصديق بالبشارة والنذارة بالمصائر المنظورة عند ذلك اللقاء. الوعد المبشّر بما سيعود على الصالحين عندئذ هو الذي ينهض بالذين آمـــنوا ويدفعهم ليعملوا بالغ جهدهم من الصالحات حتى إن لم تثمر لهم خيراً عاجلاً عاقـــباً في الدنـــيا. والوعيد المنذر إن راودتهم شهوات المفاسد هو الذي يضبط حياتهم بأبلـــغ من رقابة المجتمع وقوى السلطان والخوف ممّا يوقعه ذلك على الجاني من الملام والعقـــاب. إن النهضة المُتسارعة المتباركة في سيرة بني الإنسان هي عندما يطمئن فيهم الإيمـــان بالغيب ورجاء لقاء الله إذ يدفع ذلك للاجتهاد على صالح الأعمال وأحسنها في الحياة زاداً قبل ذلك اللقاء وتقوى من المحذور من عاقبة السيئات وذلك يُقوّم الحياة ويضبط علاقاتها ألا ترتبك ظلماً واختصاماً يُضارّ به الناس في العاجلة وينقّص كسبهم في الدنيا والآخرة.

وإن مَن آمن فجاهد ما يعرض له من الابتلاء المكتوب ووفّى بما يقتضيه الإيمان في وجه ذلك إنما يقابل كل جهد من فتنته يجهد منه حتى يحوزه ثابتاً مستقيماً- مَن جاهد كـــذلك إنّمـــا يجاهـــد لنفسه ليؤمّن مآلها عند الله أجراً وفلاحاً كِفاءً لما كلّفه الصبر خسارة في متاع دنياه. إنّ الله غنيّ عن العالمين لا يعود عليه فضل بعباداتهم ومجاهداتهم في ســـبيله بل هو ذو الفضل العظيم يبسط لهم نعمة الخلق ويسخّر أسباب المعاش عفواً ثم يرســـل إلـــيهم رسالة هُدى ويبايع الذين آمنوا أن يشترى منهم طاعة وعبادة تعود إلـــيهم هـــم بمحصول أجر فضلاً منه وربحاً يوم لقائه وجزاء كفاء لحمدهم وشكرهم وعـــبادتهم رجـــاء للقائه وفيضاً من رحمته الواسعة نعيماً ورضواناً. والذين آمنوا ولم يَقـــصروا إيمانهم على كلمة شهادة بل صدّقوها وعملوا الصالحات، أولئك ليكفرنّ الله عنهم سيئاتهم، فإن الإنسان المُبتلى خطّاء لن يبلغ المثال في الإحسان بل هو عُرضة لأن يقع منه اللّمم والذنوب، وخير الخطّائين التوابون الذين يتّعظون بسيئاتهم ندماً ويعزمون

على اتقائها بعداً ويزدادون بذلك الاتعاظ والندم والمتاب إقبالاً على عمل الصالحات. والله تــوّاب يــستجيب للمَتاب ويكفّر السيّئات بأن يمحوها ويضع عمّن أتاها وتاب عــنها تبعة عقوبتها، ويجزي الذين آمنوا أحسن الذي كانوا يعملون ممّا اتّقوا فيه سيّئ المــسالك وتحــرّوا صالحها بنياتهم ووقْع فِعالهم في الحياة. وذلك هو المعيار الحقّ لخير الحــياة، ليست هي أن يُرضي المرء المستكبرين في مجتمعه يفتنونه مُستضعَفاً دون حقّ الكلِــم وصــالح الفعال، ولا أن يتمادى في السيّئات وإن مدّ الله له في سِيرتِها حلماً وابتلاء لعله يتوب، ولا أن يلتمس العفوَ عن السيئات أو احتمال الوِزر عنها من نفس أخرى في الأرض حتى ممّن يُظن أنه الأقرب إلى الله يدّعى ابتداعاً وتكلفاً أنه هو رجل ديــن متقدسّ متطهرّ يقبل من المخطئين الاعترافات بالسيئات ويرفع وزرها أو يحتمله هــو عنهم، لأنه حقاً لا يملك ذلك، ولا يحسن من المرء أن يبتغى من إتيان الصالحات المفاخــرة والمراءاة والمراضاة لسائر الناس بل يبتغى وجه الله لأنه هو الذي يجزي عنها الجــزاء الأوفى بمــا هــو خير وأبقى من أيّما كلمة شكر أو عطاء رد جميل من بشر ومكافاة لمن يباشره بإحسان في الدنيا، فالغافر الجازي الأبلغ هو الله وحده.

والابتلاء قدر يحيط بحياة الإنسان يتخلل كل شعابها ويعبر طوالها، فسنوات النشأة حــيث تظــلّ علاقات الأبوّة والبنوّة حيّة عامرة قبل موت الآباء هي سنوات التربية للطفل نحو الصبا فالفتاء والتزكية لتامين هدايته ورشده وإحسان أدبه وخلقه للخروج إلى المجــتمع، وهــى عهد للإحسان إلى الوالدين سماحةً وبراً وطاعةً حتى لو قسا وقع الــتأديب ومضيّاً في المرفق والرّأفة والحلم بهما. كلّما ضعُفا وازدادت حاجتهما لعون الــولد. لكــن الهداية المجتهدة لعقائد الدّين الأحق ومقتضياته الأمثل أقرب أن يتقبّلها الــذي بلغ رشده جديداً وقد تخالف المعهود الراسخ في مذهب الوالدين إن نشأ وطال عمــرهما في إطــار القديم الذي ضلّ عن الحق بتراكم غواشي الغفلة أو نوازع الأهواء وتعاقب الفتن أو التخلّف عن تطوّر مقتضيات الحقّ المتجدّد والمتنــزّل خلاف صورها في الظروف والابتلاءات السالفة. والتي هي أقوم إن جاهد المؤمنَ الأصغر أبواه على أن ينصرف عن دينه الحقّ وتعبيره عنه بالوجوه المتجددة التي ينكرون لارتهانهما بمعهودهما الــذي يريانه هو الأحقّ المَوروث المجرّب - التي هي أقوَم خطة في الحياة ألا يطيعهما

فيما يذهبان إليه لاسيما أن كانت دعوة للبقاء على قديم الإشراك بالله مهما يكن ذلك تراثاً راسخاً ممّا لم يكن عن علم بل جهالة بالدين الحق. فالإخلاص لله وحده معبوداً هو أصل هداية الحق في الحياة كلّها. ومهما يمضى الولد المؤمن يصاحب أبويه بالمعروف ينبغي أن يستقيم هو على الحقّ، فإلى الله مرجع الجميع كما يخاطبهم بشارة ونذارة بالمآل لديه في الآخرة. ويومئذ المرء ينبئه ربّه كما كان يعمل في دنياه وما حقّ له أو عليه ويلقى جزاءه وفاق كسبه هو لا تنفعه ولا تضره الكسوب حوله بالنسب ولو كان هو ذات بين التعاقب ولادة. والذين آمنوا وصدّقوا فعملوا الصالحات تعبيراً عن ذلك الإيمان مهما ابتلوا وجاهدوا في ذلك فليُدخلنّهم الله يومئذ في الصالحين. فمهما تكن النفس في الدنيا مندرجة في نسبة التوالد وذات البين أو قربى الجوار أو المواطنة والتوالي أو سائر العلاقات لوفاق مصالح أو صحبة هموم، فإنما ذلك إطار أوساط وصلات في الدنيا، أمّا في الآخرة فيُخلُف الله النفوس الصالحة متبوّءاً بحفظ لها صالح النعيم وخيره ويصلها بخير رفقة وأخوة وأبقى في وسط الصالحين بميزان الكفاء والعدل.

ومن الناس من إذا أصابه البلاء في قوام دينه لا يقوى إيمانه على مجاهدة الفتن لأنها اشتدّت عليه وقعاً وغلبته نوازع الهون والهوى وإيحاءات الشيطان، فإن أُوذي مثل أولئك في استقامة هديهم وصلاحهم ومسّهم ضرٌ فاتن، إذ قالوا آمنا بدعوة الدّين الحقّ فارتدّ عليهم الذين كفروا وألحقوا بهم أذىً من ضغوط عقاب صداً لهم عن الحقّ نحو المعهود والمقبول في المجتمع الذي يسيّره كبراء الملأ من الناس – من الناس مَن إن أُصيبوا كذلك جعلوا ذلك الأذى والعذاب القائم في حاضرهم كعذاب الله الذي هو آجل لكنه هو حقاً أبلغ إحاطة لا يفلت منه أحد وأشدّ وقعاً وألماً في دركات النار وأبقى يخلد مكتوباً أبداً إلاّ ما شاء الله، ومن الناس مَن ينسون ذلك ويعرجون انعطافاً لوجهة الذين كفروا ليكفّوا عن أنفسهم أذاهم الحاضر الذي يُتقى عندهم كأنه يماثل عذاب الله الأليم المقيم. ولئن جاء نصر من الله ربّ الثابتين على الإيمان الذين يُخاطبهم الله بوعده فنالوه نصراً فعزّاً بعد حال الاستضعاف، ليقولنّ مثل أولئك الذين وهنوا متّقين عذاب الدنيا إذ أصابهم منه خوف الضرّ فصرفهم عن إخلاص التقوى لله ورهبة غضبه

وعذابه، ليقولُنّ للتائبين الذين أدركهم النصر الموعود وظهر أمرهم وعلا بأسهم: إنهم كانوا معهم بقلوبهم، ولربّما يختلفون تعذّراً عن ظاهر موقعهم مع الذين كفروا ترضيةً واتقاء. ألاّ يدرك أولئك والمؤمنون الذين يسمعون مقولاتهم أن الله أعلم بما في صدور العالمين، هل هو حقّ ما بدا من الذين انخذلوا عن ولاء صفّ المؤمنين عند الفتنة بعد مجيء النصر ثم ادّعوا أنهم كانوا يوالونهم باطناً؟ أم قد حق انصراف وجدانهم ولاءً نحو الذين كفروا لأنّهم كانوا هم الأغلب؟ وليعلَمنّ الله المؤمنين من تقلّب البلاء عليهم استضعافاً وعذاباً وذُلاً ثم رَوحاً وعزّاً ليبيّن واقعاً امتيازهم صدقاً وصبراً سواء فى حال العسر والضراء أو اليسر والنعماء، والمنافقين الذين يديرون وجههم وأقوالهم كيفما اقتضت الأهواء لمصالح الدنيا العارضة بين دعوى إيمانهم شهادة وظاهر ارتدادهم خوفاً من الذين كفروا وبين ظاهر الولاء للكافرين خروجاً على صفّ المُسلمين والزّعم اللاّحق أنهم كانوا معهم باطناً.

وهذا الابتلاء والتقلّب في تصاريف الحياة والاستجابة لها هو سنّة تظهر حيثما تنشأ دعوة الدّين الحديثة إذ ينتشر القول بشهادة الإيمان ويتّسع الدخول في صفّ تلك النّهضة صدقاً ومسايرة لتيّارها، فإن أخذ ينهض في وجهها أهلُ القديم لا بالمجادلة وحسب إذ لا تقوم لهم حجة في حقّ مذهبهم البالي، بل بإيقاع فتنة الأذى على الزمرة الناهضة المتجددة، فمن هؤلاء مَن يثبت مؤمناً ومنهم مَن يتزلزل وينافق يميل للذين أعرضوا وكفروا إذ اشتدّت عليهم تدابير أذاهم واستضعافهم، ثم إن دال الأمر للمؤمنين ظاهراً ينقلب هؤلاء قائلين للمؤمنين إنهم كانوا معهم بقلوبهم وإن اضطرتهم المخاطر لإبداء مشايعة الكافرين. وكذلك أهل الكفر أو القديم لأول عهد انتشار رسالة الإسلام الجديدة أو المتجددة قد يكفّون عن إيقاع الأذى على الناهضين بالدين المجّدد بل يقومون بدعوة مضادة تخاطب الذين ظهر جديدهم أن يعودوا إلى السبيل المعهود لا الغريب، ويجادلونهم أن لو كان ذلك فيما يحسبون ضلالاً وردّة يُعرّض مَن يسلك سبيله لاحتمال أثقال الأوزار فأضعاف العذاب يوم القيامة – يجادلونهم أنه حتّى لو صدق ذلك فلْيطمئنوا أن مَن يدعوهم إلى العودة إلى القديم يتعهّدون أن يحملوا الخطايا ويقومون مسئولين عما يفعل المستجيبون لدعوتهم

يقدُمـــوهم في تـــبعة فعلهم إذ تولّوا توجيههم في الدنيا - ذلك إن حق صدق وعيد الحـــساب والعقاب الآجل. والحقّ أنهم لكاذبون لا يؤمنون بأصل السؤال والحساب والجـــزاء عند الله فلا يعلمون موازينه، وإنما يفترون ما يغرّ ضعاف النفوس المؤمنين. فالـــذين كفروا واستكبروا على مستضعفين مؤمنين يحملون فضلاً عن أوزارهم هم أنفسهم بضلالهم وسوء كسبهم أثقالاً من الجزاء بالعقاب بقدر ما حرّضوا غيرهم إلى الكفر وأفاضوا عليه إضلالاً. لكن ذلك لا يرفع المسئولية والجزاء عن الذين استُخِفّوا فاتبعوهم فلا ينقص من الأوزار الواقعة عليهم بكسبهم إذ ما للمستكبرين على قلوبهم مـــن ســـلطان جبر وإنما هي غرّة نصيحة مدّعاة وعهد كاذب بتكفّل ذنوبهم، فيوم الموازين القسط على هؤلاء المستكبرين وزر يتضاعف من ضلالهم هم ومن إضلالهم للمستضعفين، وليُسألنّ يوم القيامة عما كانوا يفترون من تزوير معايير المسئولية كذباً علـــى مـــن يُستـــضعفون. والأوزار والعقوبات حاقّة يوم القيامة على كل نفس بما كـــسبت لاتزر وزر أخرى إلاّ أن تكون جرّتها إليه بدعوى الضمان والتحمل عنها فهي لا تدفعه عنها وإنما توقع على ذاتها مثل ما دعت غيرها إليه. وهذه في الدنيا سُنّة المجتمعات التي تغشاها دعوات الدين المتجددة بالحق، أن الكبار الذين ينكرون الجديد ويحـــسبون أن ينال من مقامهم المعهود ومتاعهم قد يبلغون بعد الإعراض عن تلك الدعـــوات أن يـــؤذوا حَمَلتها فإن لم يُغنِ ذلك الترهيب شيئاً في صدّ الصابرين قد يلجأون إلى الافتراء على العامّة واستغفالهم يوصونهم في حملة الدعاية التي تصدّهم عن الاســـتجابة للحقّ المتجدّد ومقتضاه أن يتّبعوا سبيلهم هم ولو بدأ ذلك ضلالاً يراود مـــن يتّبعه الخوف من العقاب، إذ يغرّوهم أنهم يتولّون التكفّل عنهم لتلقى المساءلة واحـــتمال أثقال الأوزار والعقاب ليوهموا المستضعفين العوام أنهم في حصانة من أيّما عـــذاب يـــنالهم مـــادام المستكبرون يسترونَهم ضماناً وغطاء وكفالة دون التعرّض للعاقـــبة، والحق أنهم يفترون، كل نفس بما كسبت رهينة عليها ما يليها من وزر إلاّ أن تحقّ عليها أثقال من أوزار مَن حرّضت على الضلالة بقُدوة أو غرّت بكلمة كفالة مُـــضلّة أنها هي القيّمة باحتمال الأوزار عن الأخرى، فتلك نفس أحق بأن يضاعف عليها العقاب.

ترتيل المعاني (للآيات ١٤ - ٤٠):

﴿وَلَقَــدْ أَرْسَــلْنَا نُــوحًا إِلَى قَوْمِه فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَة إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَة وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٤-١٥)

ينــضاف إلى ما سبق بيانه من فتنة الذين آمنوا لأول عهدهم ابتلاءً من الله وحملة علــيهم من المستكبرين أصحاب بيئة الدّين التقليدي الجاهلي الذين كانوا أمّة خطاب دعوة الإسلام لله - ينضاف تثبيتٌ وبشرى للمؤمنين الصابرين الثابتين وتذكرة ونُذْرة للمعرضــين عــن دعوتهم الشاذين عليهم، ذلك بذكر نبأ ما سلف من سيرة المُرسلين مثالاً فيه تسلية وعبرة وبشارة وتحذير وعظة ونذارة للخلف.

لقــد أرسل الله بأقدار اصطفائه ووحيه وإرساله وأيْده للمرسلين نوحاً عليه السلام إلى قــومه، مــا جــاءهم من الله والغيب إلاّ برسالة كسائر المرسلين هدى لحياتهم الضالّة وبــشارة ونذارة بعواقب الغيب لما يعملون - فلبث فيهم مقيماً داعياً إلى اتّباع رسالته مبتلــىً في ذلك ألف سنة - أبلغ عدّ السنين في الحساب العربــي - إلا خمسين عاماً، أعفــاه الله مــن البلاء بعدها ومده أعواماً آلت إليه بخير، وأخذ الله قومه إذ اجتاحهم الطــوفان كلهم وهم ظالمون إذ سبق إليهم الهدى والنذير ولكنهم تمادوا مسلكاً عادلاً عن الطريق القويم في الحياة عادياً على حدود الهدى جانحاً على الذين آمنوا، وما بالوا بالنذيــر فحــقّ عليهم عاجل العذاب طوفاناً من أنهارهم التي كانت تجرى من تحتهم تروي لهم الجنان والزّروع لكنهم غرقوا في أسفلها ومَنّ الله على نوح بأقدار التنجية إذ أوحــى إلــيه إعداد فلك ركّبها في الفيضان واستوى عليها سالماً حتى رست في أرض آمنة ومعه أصحابه وجعل الله واقعة الهلاك والنجاة وبقية آثار السفينة لحين آيةً للعالمين شــاهدة للــناس كافة خلفاً على سنة الله في العواقب مهما يطل انتظارها من المؤمنين الصابرين ويملي الله للظالمين حتى يعاجلهم بوقع النذير.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِه اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَــا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ (١٦-١٨)

وهـــدى الله إبراهيم ﷺ فمضى كدأب نوح وعلى سنّته وشيعته وفى أرضه إذ أرســـل إلى قـــومه فأوصـــاهم أن يعـــبدوا الله وحده دون تعلّقاتهم بمشهود أصنامهم وصـــلواتهم لهـــا سدىً وأن يتّقوا الله فإن لهم نذر معاد إليه فينبغي أن يجتبوا ما يغضبه إشراكاً وعصياناً فيحقّ به عليهم من عقابه وبشّرهم أن ذلك خير وأحسن وأصلح لهم كافـــة حاضرَ مجال وعاقب مآل إن كان يعلمون سنن الله في الابتلاء والجزاء وحقائق غيبه، مذكراً لهم أنهم إنما كانوا يعبدون من دون الله أوثاناً من مجسّدات مشهودة ترمز لموهـــومٍ غيباً من شتى الآلهة والأرباب المتفرقة ويخلقون إفكاً يصطنعونه زوراً مصروفاً عـــن الحقائق، وإن الذين يعبدون آلهة دون الله الربّ الواحد الكامل العظيم القادر، لا تملـــك لهـــم رزقاً مبسوطاً حولهم نعمة من الله فليبتغوا عند الله الرزق سعياً في سبيله وتـــوكّلاً عليه يسألونه بركة في أسابه غيثاً وأنهاراً وإنباتاً وإثماراً ومداً في محصول ذلك إثمـــاراً طيباً وأنعاماً من الحيوان متكاثرة، فليصوبوا إليه ﷻ شعائر التعبد بل كل الحياة ومقاصـــدها وما يعطون فيها ويعملون ولْيشكروا له لتكون العبادة رداً لجميل النعمة وتعبيراً عن الحمد لله ورجاء استجابته وهو الشكور بفيوض من فضله، وليذكروا أنهم إلـــيه راجعون بعد الحياة الدنيا. فزادهُم لذلك اللقاء والشكر له في عمل صالح وتقواه من كل عمل سيّئ، حيث يلقونه ليجزيهم عدلاً وفاقاً. وناصح إبراهيم قومه واعظاً لهم أنهم إن يكذّبوا رسالة الحقّ التي جاءهم بها ولا يصدقوها عبّاداً لله شاكرين فقد كذّب أمـــم مـــثلهم – كقـــوم نوح ومَن عقبهم – فلينظروا كيف كانت العواقب العاجلة الـــواعظة قـــبل المـــرجع إليه حيث العقاب الآجل. وناصحهم عذراً لذاته أنه ما على الرســـول إلا البلاغ المبين لرسالته ونذره لا يهدى من يشاء من قومه وإنما يُبيّن لهم ما يهديهم وينذرهم ما ينتظرهم وقد أعذر من أنذر.

﴿أَوَلَـــمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِـــي الأَرْضِ فَانْظُـــرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـــيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِـــي الـــسَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٩–٢٣)

في ذكـــر إبراهيم ﷺ موعظة لذريته أمّة خطاب الرّسول الخاتم منهم، إذ كان يذكّـــر قومه بتوحيد الحياة عبادة لله دون الأصنام وتصويبها كلها إسلاماً لله وإعداداً للمرجع إليه واتقاء لعاجل عقابه في الدنيا وآجله في الآخرة. وكان الخَلَف أمّة ضيّعت تــراث أبـــيهم إبراهيم إذ تركوا عبادة الله غيباً وعكفوا على الأصنام المشهودة ونسوا المرجع إلى الله إذ أنكروا البعث بعد الموت وما يعقبه ورضوا بمتاع الحياة الدنيا الحاضر الممتد إلى منتهاه الحاسم بالموت. وكلمة التذكرة لهم هي السؤال استنكاراً لغفلتهم عن آيـــات البعث الظاهرة: أتراهم هؤلاء وأولئك الأقدمين من آبائهم لم يروا كيف يُبدئ الله الخلـــق في النبات والحيوان من عدم حتى يتم تقويمه ويؤدى وظائف حياته السائرة عمـــراً إلى المـــوت ثم يعيده الله من البذرة في النبات والذرية في الحيوان تعاقباً مسنوناً مشهوداً، دليلاً بالاعتبار أن لله كما أنشا الإنسان فحيى ومات في دنياه يُعيده في نشأة أخـــرى عند المرجع إليه في الحياة الآخرة. إن ذلك على الله يسير لأنه أهون عليه من البدء تقديراً وخلقاً من عدم فهو عود من بعد تلك التجربة.

ولذلك الوصاة للرسول الخاتم ﷺ في دعوة أمة خطابه الخالفة بعد سالف المرسلين أن يـــسيروا في الأرض فلْينظروا في آيات الحياة كيف بدأ الله الخلق في النبات والحيوان إحـــياء لـــلأرض الميتة الخالية من النبات واستخلافاً فيها خالية من قبل من الحيوان إذ تـــدول الأيام فتموت الأرض جفافاً وجدباً وبوراً من النبات الحي وهلاكاً للحيوان أو تـــتحول أغفـــالاً ثم الله ينشئ الحياة اخضراراً للنبت ودبيباً للحياة سنّة تعاقب ماضية مـــشهودة بيّنة على أن الله على كل شيء قدير، أن يبعث الناس في نشأة أخرى تكون وصـــلاً لهذه الحياة وتماماً لها إذ تعادلها دار سؤال وجزاء بعد دار تكليف وبلاء. يعذّب الله بقدرته ويرحم من يشاء تفاوتاً ووفاقاً بين مختلف الفعل الغابر وما حقّ به من عاقبة جـــزاء كفاء، ذلك ميزان قد يبدو في عاجل أقدار الله في الدنيا، لكن فضلاً عن ذلك وتمامـــاً بالقسط في الآخرة يعاقب الفعل السيئ والحسن والجزاء عذاباً ورحمة، وإلى الله المـــنقلب ليضع قسطاس الموازين، وما خلق الله المخاطبين برسالة تلك البشارة والنذارة بمعجـــزين لأقـــدار الله تلـــك سواء كانوا في الأرض بشراً أو في السّماء لو رقوا إليها ليـــنفذوا من أقدار الأرض خلقاً روحياً، وما لهم من دون الله ووقْع عذابه من ولى ولا

نصير، وان كانوا يتخذون في جاهلية غافلة عن الغيب ذوي النسب والولاء مناصرة أو يوقّرون المعبودات المشهودة أصناماً أو أوثاناً وأنفساً روحية مقدّسة قد تقرّبهم كما يتوهمون إلى الله زلفى وقد تنصر الذي يأسره قدر الله لتدفع عنه ذلك الحساب والعقاب.

وتأتي كلمة الفصل في شان الذين يُذّكرون بآيات الله في حياة النشأة الأولى بيّنة على الأخرى إذ المرجع إلى الله الذي يقضى بينهم يومئذ بأعمالهم في الدنيا يعذّب مَن يشاء ويرحم مَن يشاء عدلاً بعد سبق الهدى والنذير، فما هو من الظالمين، وبآيات قدرة الله المتجلّية في مشهود الخلق لا يُعجزها شيء فهي الغالبة عندما يُؤخذون للجزاء عذاباً أو تُلقى عليهم الرّحمة وماهم من دونه تعالى من ولى ولا نصير - تنضاف إلى ما سبق ذكره تلك الكلمة في شأن الذين كفروا بآيات الله المشهودة والمسموعة وغمروا دلالتها وكذّبوا دعوتها ومن ثم كفروا بلقائه لأنه غيب انطمست عيونهم وتصامّت آذانهم عن آياته. أولئك - كما ذكر عنهم الله - يئسوا من رحمته، المنسوبة إليه وهو الرحمن الرحيم بمشيئته، إذ حق عليهم بكسبهم أن قنطوا منها وأولئك لهم عذاب بالغ الألم يوم المرجع إليه ذاك.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * فَآَمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٤-٢٧)

يعود الذكر إلى دعوة إبراهيم (عليه السلام)، وقد ذكر الله طرفاً من كلمه الناصح الواعظ لقومه وناسب سياق ذلك أن تُذكر- كما ذكّر إبراهيم قومه بأُمم من قبله - أمةٌ من ذريّته العربية ووصاة لرسولها الخاتم أن يبلّغهم من كلمات التذكير بآيات الله المشهودة والعظة بجزائه كيفما يحقّ ووقعه النافذ المفعول - يعود الذكر إلى جواب قوم إبراهيم الفاصل لدعوة رسولهم: أن ما كان إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه إذ آتاه الله الحجة

عليهم فانقلبوا للقضاء عليه، أرادوا وأعدّوا أن يحرّقوه، فأنجاه الله من النار. إن في ذلك النجاء لآيات لقوم يؤمنون حيثما كانوا مستضعفين مُعرّضين لحملة قضاء عليهم لخطر دعوتهم وقوة سلطانها جدلاً. ذلك لاسيما في مكّة إذ كان المؤمنون في قلّة وذلّة عُرضة للعـــذاب والهلاك لصدّ دعوتهم الممتدّة. وكلّ ذلك في إطار مجتمع هو من ذريّة إبراهيم كان ينبغي للمؤمنين فيه أن يتذكّروا كيف أبطل الله كيد قوم أبيهم إبراهيم فأنجاه من حرق هو بطبع الأسباب المسنون مُهلك، فلا ييأسوا من رحمة الله نجاةً وبسطاً في الحياة بعدها، لا مثل قوم يئسوا من تلك الرحمة إذ حقّ عليهم من الله العذاب.

وقـــال إبـــراهيم عليه السلام لقـــومه - كلمـــة مُنذر مودّع يُخاطبهم - إنهم إنما اتخذوا واصـــطنعوا من دون الله أوثاناً شتّى مودةً بينهم في الحياة الدنيا إذ يأتلفون عليها عُرفاً وديناً مـــتحالفين عـــاكفين علـــيها محاور عبادة جامعة ويتضامنون بالتعويل عليها جميعاً، ثم يوم القـــيامة يكفر بعضهم ببعض فالأصنام تنطق أنهم لا يعبدونها لأنها جامدة صماء في الدنيا لا تستـــشعر عـــبادتهم، وسدنة شعائرها وكبار المجتمع حولها الغيورون على تقاليده يكفرون بأتـــباعهم ويتبرّأون من تَبِعَة ضلالهم بخيارهم ولو اتّبعوهم، والأتباع يُدركون خذلانهم لهم ويلاومـــونهم ويكفرون باتّباعهم لو أعيدوا للدنيا بعدها، ويلعن بعضهم بعضاً يسأل الله أن يطـــرده من رحمته بما فعل به، الذين استضعفوا أتباعاً يحاجّون ويدعون عليهم بضعف من النار، والذي استكبروا يقذفونهم بكلمة مُجانبة أنهم جميعاً في النار حُكماً بينهم حاقّاً عليهم من الله. ومأواهم جميعاً النار وما لهم من ناصرين من معبوداتهم الحجارة وقود النار.

لم يتبلّد إبراهيم عليه السلام في وطنه معزولاً بعد النجاة من محاولة حرقه، فآمن له لوط ابن أخيه وإن انفضّ عنه الآخرون من قومه كافرين بدعوته. وقال - معتزلاً أباه وقومه ومـــا هم فيه من ضلال وشرك باطل متّقياً ما حاولوا أن يأخذوه هم به - إنه مُهاجر إلى ربّه تاركهم ليتوجّه إلى ما هو أحقّ وأعزّ وأهدى، سالكاً سبيل ربّه يبتغي وجهه لا يقـــصد بلداً فيها أنيس أو عشير، فربّه هو الذي يهديه سواء السبيل إلى حيث يتعبّده آمـــناً خالصاً، إنه هو العزيز الغالب على كلّ متعزّز مستكبّر، يُعزّ مَن يُذَلّ فمن يبتغي عبادته يهديه إلى ما هو أرشد نهجاً وما هو خير وطناً، وهو الحكيم يُوقع أقداره بما هو الأحقّ على مُختلف عباده مَن استكبر على دعوته ومَن استجاب لها.

ووهـــب الله لإبراهيم (عليه السلام)- من بعد ولده إسماعيل- إسحق هبة بأقدار منه (سبحانه وتعالى) علـــى غير المَسْنون ولداً لأمٍّ عجوز عقيم، ويعقوبَ حفيداً وراء إسحق، وجعل الله - بأقدار التعاقب البشري واصطفاء رسله حيث يشاء - في ذرّيته مَن أولاه النبوّة وتلقّى الكـــتاب الموحى الأجمع بعد صحفه هو، وذلك هو التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، كلّهـــا كـــتب متصادقة نـــزلت رسالة على مَن خلَف من ذرّيته. وآتاه الله - بأقدار تقويمه وتصريفه لسيرته - أجره في الدنيا على ما قدّم من السعي تفكّراً حتى بلغ الهدى والإيمـــان والمجاهدة لقومه ليُخلصوا العبادة لله بعد شركهم ومن الهجرة عنهم والتقلّب في أرجاء الأرض الوسطى لينشر دعوة الدين ويُرسي محاور ومراكز للعبادة لله، وإنه في الآخـــرة لفي مقام الأقربين إلى الله: الصالحين، وذلك مقام يذكره الله كثيراً في القرآن مآلاً للأنبياء ودعوة منهم هم ليُنيلهم إيّاه.

﴿وَلُـــوطًا إِذْ قَـــالَ لِقَـــوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَـــالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَـــانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢٨-٣٠)

وكـــذلك بأقـــدار اصطفائه وإرساله أرسل الله لوطاً (عليه السلام)، إذ هاجر مع إبراهيم حـــتى بلغ قرية سدوم وجوارها واتّخذها موطناً وصاهر أهلها فغدوا قوماً له، فأُرسل إليهم برسالة أصولها في إطار هداية إبراهيم ولكنها - تنـــزيلاً على واقعهم - تصوّبت علـــى إصـــلاح خُلُق فيهم أفرطوا فيه فجوراً عن تقوى الله، إذ قال لهم يُخاطب عَيْن فجـــورهم: إنهم ليأتون الفاحشة - بالغة القبح من الفعال - ما سبقهم بها من أحد من العـــالمين، فمـــا كـــان معهـــوداً في خُلُق الأقوام من بني الإنسان حولهم ممارسة تلك الفاحـــشة، وتساءل كيف يأتون الرجال شهوة من دون النساء المخلوقات لهم أزواجاً وكيف يقطعون السبيل يتصيّدون فرائس لفعلتهم من المارّة ويأتون في ناديهم - المجلس الـــذي يُتنادى ويُجتمع فيه - ذلك الكريه المنكر من الفعال مجاهرة ومُظاهرة دون سترٍ أو خجـــل حـــياء. فمـــا كان جواب قومه إلا أن قالوا له أن يأتيهم بعذاب الله الذي يُنذرهم به إن كان من الصادقين، فهم لا يؤمنون أنه موصول بغيب الله وقدره وقضائه

فلا يُبالون بنذيره بل يتّحدّونه ويستعجلون وعيده إن صَدَق. فيئس هو من هدايتهم إذ أصرّوا على خُلُقهم وشدّوا عليه هو ليحموها من وقع دعوته، ولذا قال – مستغيثاً ربّه منادياً – أن ينصره على القوم المفسدين وما هو عليهم قوةً بكفاء وما له منهم من ظهير عليهم، فيسأل الله العون في أمره ليُنجيه وليطهّر الأرض من فسادهم ذاك.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٣١ – ٣٢)

أعقب الله ذلك الدعاء من لوط عليه السلام على قومه أن جاءت رسل الله – خَلقاً من الأرواح ملائكة متجسّدين في أشخاص – ضيفاً على إبراهيم عليه السلام يحملون إليه بُشرى بولده إسحق هبةً من الله تلده زوجه العجوز ومن ورائه الحفيد يعقوب، وقالوا له يُنبئونه: إنهم مُهلكوا أهل قرية لوط سدوم وما حولها بأمر الله وقدره وقضائه إذ كان أهلها ظالمين حقّ عليهم الهلاك بعد بلاغ الهدى والنذير والجنوح منهم الفاحش والضلال عن عدل الحقّ وحدّ التقوى. قال إبراهيم: إن فيها لوطاً – ابن أخيه وحامل رسالة الهدى – خشيةً عليه أن تشمله واقعة الهلاك. قالت له الملائكة: إنهم هم أعلم بمن في تلك القرى يميزون بين الصالح ليُنجوه والفاسق ليهلك من أهله إلاّ امرأته كانت من المغمورين بالفسق فبالهلاك أيضاً، إنهم هم مُنزلون قدراً نافذاً على أهل تلك القرى رجز عَذابٍ زلزلةً تتقلّب بها عليهم حجارتها فوقهم من السماء جزاءً بما كانوا يفسقون مروقاً على مدى الرّشد بإتيان الفاحشة عادةً جهاراً.

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣٣ – ٣٤)

ولّما بلغت الملائكة لوطاً فجاءته أصابه عندئذ همّ من حُسن وجوه ضيفه وهو يعلم كيف لمرآهم تجنح شهوة قومه شذوذاً باغياً نحو الذكور. وذلك سِيء بهم إذ أوقعوه في سيّئ الحرج وضاق بهم ذرعاً إذ لا تسعه رعايتهم ضيفاً وما له من طاقة ليحميهم ألا يقتحم قومه لينالوا منهم ما يبتغون. ولكن الملائكة أدركوا قلقه فقالوا له

ليطمأن ألا يخاف حذراً ألاّ يتهيّأ لهم لديه حرم آمن ولا يحزن ممّا بلغ أمر قومه ونُذُر ما قــد يُــصيبهم حاقّاً عليهم وقد أُنــزلت عليهم الملائكة بقدر عاقب. وبادروه لأوّل القــول بشارة أنّهم منجّوه في رفقة أهله الطاهرين إلاّ امرأته حقّ عليها أن تكون من الماضين في غبرة من قدر الله الآخذ، وأنبأوه أنهم بأمر من الله فعّال مُنــزلون على أهل القــرية الــتي هو فيها رجزاً من عذاب ماطر عليهم وقعه من فوقهم. ذلك بما كانوا يفــسقون بغــياً منكراً على ضوابط المعروف من خلق التناكح الفطرية ومروقاً على حدود شرع الله وتقواه.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣٥)

ولقــد ترك الله - كما يقول متكلّماً بوقع أقداره التي زلزلت بها المؤتفكات من تلــك القــرى إذ غمرتها الحجارة المتساقطة عليها من انفجار الزلزال - ترك منها أثراً وحسب يُرى آيةً بيّنة وعلامة لعاقبة غضب الله وقدره يشهدها مَن يمرّ عليها في سبيلٍ مُقــيم للــتجارة، عظةً لقومٍ لا يلهون عنها غير عاقلين فضابطين دوافع الهوى بالتبصّر والاتّعــاظ بل يعدون على حدود التقوى لله الذي نَظَم مجال الشهوة المشروع للتناكح والتناســل المسنون المصون من الفسق الطائش والحافظ من العاقبة الحاقّة على الفحشاء والمنكر.

﴿وَإِلَــى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٣٦ - ٣٧)

وأرســل الله بأقــدار تصريفه للرسالات إلى مدين - جنوباً من سدوم الهالكة - أخــاهم شُــعيباً عليه السلام رسولاً، فقال منادياً فيهم قوماً له داعياً: أن يعبدوا الله ويرجوا اليوم الآخر وألاّ يعثوا ضرباً بالغاً في الأرض مفسدين يدفعهم الهوى فسقاً في معاملات الــتجارة وحجــراً لحرّية الإصلاح فيها يعوجون بها إلى التظالم جَوراً دون تقوى الله وخــشية عقــاب اليوم الآخر. فكذّبوه إلاّ ضابط من هدى الله لعربدتهم في المعاملات وتــصرفات المــال المعهــودة فيهم، فأخذتهم اجتياحاً لهم رجفة في الأرض زلزلتهم وطرحتهم جثثاً فأصبحوا في ديارهم جاثمين منقلبة أجسادهم على الصدور.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٨-٤٠)

وعاداً كذلك في جنوبي الجزيرة العربية وثمود في شماليها الشرقي كليهما من خَلّف نوح أخذهما مثل تلك التهلكة السابق ذكرها لذات الدواعي، وقد تبيّن للمخاطبين بالقرآن المارّين في رحلات التجارة على مساكنهم كيف كانوا أشدّ منهم قوّة وأُخذوا. وقد جرى منهم أن زيّن الشيطان- الجنّ الشاطن بُعداً عن رحمة الله لغوايته - أعمالهم في ابتغاء الثمار من الزرع والجنان وفي الإعمار للمساكن في الجبال وفي السّوح فصدّهم صرفاً عن السبيل القويم الذي يبلّغ الفلاح كما دعتهم إليه الهداية من المرسلين، وكانوا مستبصرين قياساً على مَن حولهم وهو دونهم يتحرّون مدى الرؤية الأبلغ في خطة الحياة العامرة وفي عيشة الحضر ولكنهم قصّروا عن تبيّن سبيل الهدى بالبصيرة النافذة إلى الغيب. وكذلك قارون من قوم موسى وفرعون الطاغية على قوم مصر وبني إسرائيل وهامان وزيره، وقد جاءهم موسى عليه السلام بالآيات البيّنات لهدى للناس ولتقوى الله وبوقائع من معجزات خارقة لمسنون الطبائع شاهدة على أقدار الغيب التي تؤيّده وتعزّز صدق رسالته، فاستكبروا في الأرض هذا بماله وذلك بسلطانه وجُنده طغياناً وبغياً على الناس، وما كانوا سابقين ببأسهم فالتين من أقدار الله المحيطة التي أدركتهم لتأخذهم وتجتاح طغيانهم، فكُلاًّ ممن ذُكر أخذهم الله هالكين - كما يقول الله بأقدار حكمه العادل وفعله النافذ - وذلك بذنوبهم التي أحقّت عليهم الأخذ، منهم مَن أرسل الله - كما يقول بعظيم أقداره - عليه حاصباً من النواسف الحاصبة بالحصى والحجارة المُهلكة، ومنهم مَن أخذته الصيحة إذ بغتتهم كوارث المناخ المدمّرة، ومنهم مَن خسف الله به الأرض بأقدار زلزلتها بعد أن كانت قراراً، ومنهم مَن أغرق الله بأقدار مدّ البحر وطوفان مياهه المُغرِقة. وهم - حظوظاً في تلك المهالك المذكورة تواليًاً عقاباً - عاد وقوم لوط، وثمود ومدين، وقارون، وفرعون وهامان وجنودهما،

ومـــا كـــان الله ليظلمهم بتلك الوقائع المُهلكة، ولكن – بعد بلاغ الهدى ونذير عاقبة الـــضلال – كانوا أنفسهم يظلمون إذ جرّوا عليها المهالك بما عمدوا إليه عدواناً على حرمات آخرين وبغياً على حدود العدل في ضوابط الحياة وصلاحها[١].

عموم المعاني (للآيات ١٤ – ٤٠):

إن المؤمـــنين في أحوالٍ عبر تطوّر سيرة رسالة الدين الناهض المتجدد، فهم لأوّل العهـــد عُرضة لفتنة من ضغوط قوى الكفر القديم الغالبة، وحالهم وقف على ضروب الفتـــنة الـــنازلة عليهم واشتدادها وتطاول مداها دون تبدّل الأطوار وتجلّي العواقب، ووقـــف كـــذلك علـــى وسعهم ثباتاً على إيمانهم وصبراً على ما يُصيبهم أو ضعفاً في نفوســـهم لا تقوى على المصابرة والمجاهدة فتنفتن وترتدّ فيُنافقون. وكذلك كان الأمر في مكّة لأوّل عهد الرسالة المتنـــزّلة يقوم بها الرّسول الخاتم ﷺ داعياً لعبادة الله وحده وتقـــواه مـــسلكاً في الحياة، ويستجيب لدعوته قلة من المؤمنين بها لكنهم يُستضعفون ويُـــستذلّون مـــن الـــذين أشركوا وسادوا في المجتمع مستمسكين بمعهودهم الجاهليّ، ويُـــضاغطون المؤمنين جدالاً وأذى. وتختلف مواقف المؤمنين في الفتنة صبراً وانفتاناً أو لجـــوءاً إلى الهجرة، وتلك الأحوال هي ظاهرة في المجتمعات الخالفة حيثما نهض الدين الحـــقّ، سواء كان المجتمع كافراً بالغيب وظهرت فيه دعوة جديدة للإيمان والإسلام لله أو كـــان منـــسوباً لملّة الإسلام لكن غلب عليه تراث متقادم جامد تجاوزته تطوّرات الابتلاء فقامت فيه حركة تجديد وتذكير بما هو أحقّ وأمثل من صور التعبير عن الدين الحـــقّ في عاجل الدنيا توجّهاً إلى حسن مآل العاقبة في الآخرة. وقد جاء هدى القرآن تـــذكيراً بالعـــبر الخالدة في قصص المرسلين السالفين لاسيما في القرى حول أرض أمّة الخطـــاب الأَوّل. يذكّر القرآن بأصول الدعوة للدين الحقّ وبمواقف الإعراض والظلم

---

(١) تفـــصيل ذكـــر دعوة المرسلين منذ نوح إلى موسى عليهم السلام لتوحيد الله معبوداً والإيمان بالغـــيب كلّه والبعث وتكذيب أمم خطابهم الأغلب ومصائر هلاكهم تواتر في سور سبقت العنكبوت تنـــزيلاً في العهد المكي منها ما ذكرت المرسلين وأقوامهم عرَضاً ومنها ما خصّت بالذكـــر المفصّل رسولاً وقومه، ومنها ما فصّلت وجمعت تعاقباً ذكر أولئك مثل سور هود والشعراء والأعراف الأسبق.

وأحوال إيقاع الفتنة على الرسول الداعية وعلى كثير ممن آمنوا برسالته فتعرّضوا لكيد المُعرضين المستكبرين، ويذكّر أحياناً بتطاول مدى ذلك البلاء للمؤمنين، ويفصّل أحياناً المجـــادلات والمجاهدات، ثم يذكر في كل حال عاقبة السلامة والخير للمؤمنين ونوازل أسباب الهلاك للكافرين. وإذ نـــزّلت هذه السّورة هُدى من ذلك النذير بعد عدّة من ســـور ســـبقتها نـــــزولاً وفصّلت قصص المرسلين الخالين، فإنها تُحمّلها تذكيراً بهم وبأقوامهم وبموعظة العواقب.

وأقـــدم المرســـلين ذكراً، وهو مَن حُفظت ذكراه في آثار سيرته وتراث دعوته وبقـــيت خلائـــف من ذرّيته في الأرض الوسطى، نوحٌ ﷺ. وقد أُرسل إلى قومه في العراق وطال عهد سيرته ودعوته لرسالة الحقّ فيهم بما لم يبلغ رسول بعده. وقد طغى الطـــوفان على الطغاة الظالمين منهم وكتبت النجاة له ولأصحاب سفينة إنقاذهم التي أعـــدّها بهدايـــة موحاة وبق أثرها بعد بلوغهم برّ السلامة آية للعالمين خَلَفاً. وفي قصّة نـــوح عظـــة للأمم والمجتمعات الكافرة بالغيب والدين الحقّ: أنها لا تستقبل إلا سوء المـــآل، وعبرة للمؤمنين المستضعفين لو صبروا وإن طال عليهم البلاء: أنهم يستقبلون إنقاذاً لهم مهما تضيق أسبابه ونجاةً لهم مهما يحيط الهلاك بالكافرين.

أما الرسول التالي عهداً فقد ذُكر في السورة بعداً، وهو الأقرب نسباً وموطناً إلى أمّـــة الخطـــاب الخـــاتم لرسالة الدين، وقد كان من شيعة نوح تجديداً لذكراه. وهو إبـــراهيم ﷺ الـــذي طاف بدعوته في الأرض مهاجراً من قومه في العراق، وأرسى أصـــول ملّـــته مع ابنه إسماعيل في الحجاز. وقد قام في قوم – مثل الخالفين العرب من ذرّيـــته – يعـــبدون الأصنام، فدعا فيهم للإيمان بالغيب بالله واليوم الآخر وبتقوى الله تجرّداً من التعلّق بالمعبودات المشهودة. وكانت تلك هي الملّة الحانفة عن الباطل الخالفة حقاً وتراثاً في توحيد الله والحياة الدنيا والآخرة، وقد بقيت آثارها حتّى عندما نسيت ذرّيـــته العربية أصولها وآثارها إلاّ في المسجد الحرام وشعيرة الحج إليه عكوفاً على ذكر الله وعبادته. وكان إبراهيم مذكّراً بنعمة الله في الرزق التي تعود إلى أقدار أسبابه لا إلى الأصـــنام، فبعـــبادة الله وشكره إذ الرزق سبب الحياة منه ثم إليه المرجع بعد الموت. وكانـــت تلـــك التذكرة بعبادة الله وشكره على الرزق رسالة – بعد قومه في العراق

وزروعهـــا المـــرويّة من أقدار الله – ماضية إلى ذرّيته العربية التي كان أمرها في الرزق مـــتأزمّاً في أرض غير ذات زرع لكن توافر لها الرزق مجلوباً من أبعاد الأرض الأخرى فضلاً من الله يقتضي شكراً وعبادة له وحده. وإبراهيم كذلك ذكّر قومه الأوّلين بأمم مِـــن قبلهم كذّبوا رسالة الدين الحقّ، وجاء ذكر ذلك تذكرة أيضاً لذرّيته أمة الخطاب القـــرآني الأولى الذين أحاطت بهم عظة القرى الظالمة المكذّبة بالرسالات حولهم. وإذ كانـــت تلـــك الأمّـــة الخالفة كافرة بالبعث ولا تصدّق أنباء المصير بعد الموت وعداً ووعـــيداً، فقد كان إبراهيم أيضاً يذكّر قومه بظاهرة مبسوطة في طبيعة الأرض حولهم فـــيها بدء خلق الله لناشئة من النبات والحيوان، وإذا أدركها الموت المسنون تعود نشأةٌ حياة أخرى تولد بقدر الله، ذلك ليتأمّلوا تلك الظاهرة ويتبيّنوا كيف بدأ الله الخلق بعد المـــوت فيدركوا قدَر النشأة الآخرة للإنسان بعثاً بعد الموت، ويتجلّى لهم أن الله على كلّ شيءِ قدير. وكذلك إن تأمّل الناظرون في أحوال البشر وسيرهم رأوا كيف عذّب الله ويرحم مَن يشاء بأقدار ابتلائه الغلاّبة، وذلك القدر المسنون المتقلّب آية أن عند الله في الغيب الآجل يحقّ العذاب أو الرحمة واقعة بقدر الله وقضائه وفق كسب عباده، وما للمنكرين البعث والحساب من مفر ولا نصير من العذاب الحاقّ عليهم. فأولئك الذين كفـــروا بآيـــات الغيب المشهودة فبالبعث إنما يلقاهم الله عند المرجع إليه بعد البعث يائسين هم من رحمته سائرين بأنفسهم إلى مآل العذاب.

ومـــا اســـتجاب قـــوم إبراهيم لدعوته إلاّ بالحملة عليه أن يُحرق ليموت وتوأد دعـــوته، وكانـــت الآيـــة للمؤمنين الخالفين أنه لم يهلك وإن تنادوا عليه جميعاً، وقد أنذرهم أنهم يوم القيام لا يتوالون ويتناصرون هكذا كما يفعلون عبادةً للأصنام وكيداً لرسالة الحقّ بل هم يتلاعنون تلاوماً في النار التي تحقّ عليهم. أعرض قوم إبراهيم لكن آمن له لوط ومضى معه مهاجراً غرباً ليقوم مثله رسولاً في قوم آخرين، فما قضوا على رسالته كما همّوا أن يحرقوه فما أفلحوا، ففي هجرته حفظ الله لإبراهيم رسالته ووهب لـــه في عزلته إسحق ويعقوب. بل جعل في ذرّيته الخالفة النبوّة ووحي كتاب الرّسالة، فهـــو مأجـــور على ما قدّم وما خلف في الدنيا وهو في الآخرة كذلك من الصالحين. وتلـــك عبرة بالغة للمؤمنين أن لهم حجة على قومهم الذين يُجادلونهم إنكاراً للغيب،

وهي أن يذكّروهم بآيات البعث البادية في طبيعة النبات والحيوان التي يراها الناس، بل يـــتطوّر اليوم ويرقى علمهم بسنن الحياة والموت ودورة تلك الظاهرة الطبيعية آية على قـــدرة الله أن يـــبعث البشر بعد الموت عند المرجع إليه في الحياة الآخرة. وإن في سيرة إبـــراهيم كذلك لعبرة للمؤمنين أن لهم منجاة من كلّ تدابير قومهم الكافرين بهم وإن بـــدت ذات شـــأن وخطر، وأن قد يكون لهم مأوى بمهجر من إطار الفتنة المحيط بهم وطـــناً وأن لأمرهم مَهْما يُدبّر القضاء عليه مدّا في مرّ السنين الخالفة إذ تُحفظ دعوتهم في الذريـــة والأرض ذكرى باقية وممتدّة، وأنه لهم يحقّ الأجر عند الله خير جزاء ورفقة بين الصالحين.

أمّـــا لوط عليه السلام فرع تلك الشجرة الطيبة من دعوة إبراهيم الحقّ فقد ابتُلى بعد هجـــرته بقوم ورطوا في باطل آخر في الحياة أدّى إليه ما عهدوا من باطل أصل دينهم، إذ همّـــته ظاهرة خُلقيّة فيهم ما سبقهم بها من أحد من العالمين. ذلك أنهم كانوا يأتون الفاحشة مع الذكران يصطادونهم في عرض السبيل ويطأونهم جهاراً في ناديهم. فقومه ما اطمأنّ في نفوسهم اليقين بالغيب وما أجدت فيه الهداية لرسالة الله الحقّ ولا صدّقوا نذيـــر المآل عقاباً على منكراتهم، بل استدعوا ذلك العذاب ارتياباً بصدق وعيده. فما كـــان لـــه في شأنهم إلاّ الاستغاثة بالله نصراً عليهم وفسادهم. وتنـــزّل ملائكةٌ لبلاغ النذير للوط، لكنهم مرّوا أولاً بإبراهيم الذي أبدى لهم إشفاقاً على لوط ولكنهم أنباؤه أنهم يعلمون أمره ويحملون بشرى نجاة له وأهله إلاّ امرأته التي شذّت مع قومها لتذهب معهـــم إلى ذات المصير هلاكاً. ثم جاءوا لوطاً لذلك البلاغ فبادر إلى النجاة من رجز متنـــــزّل علـــى الآخـــرين زلزالاً دمّر وغمر قراهم تذكرة وعظة للخالفين. وظاهرة الشذوذ في المناكحة تلك ظلّت تبدو حتّى اليوم بين بعض المجتمعات الغافلة عن اليقين الضالة عن هداية الدين الموحاة، إذ انتشر فيها الكفر بالغيب واجتاحها الشيطان يدفع بالـــشهوات الزوجانيّة إلى تلك الممارسة لا تؤتَى خِفية وحسب بل جهاراً حتّى تبلغ أحـــياناً أوســـاط العـــبادة والقداسة المزعومة. وإن كان الله يمدّ للعُصاة من أولئك في مـــسالكهم ولو لم يتّعظوا بمصير قوم لوط العاجل، فإن النّذير الآجل الحقّ إنما هو حاقٌّ عليهم في يوم آتٍ بعد البعث والحساب والقضاء في الآخرة.

وقــد أرسل الله إلى مدين أخاهم شُعيباً عليه السلام يدعوهم لذات أصول رسالة الحقّ الواحدة، أن يعبدوا الله ويرجوا اليوم الآخر، وأن يلتزموا مقتضى ذلك الإيمان بالغيب لا تفتــنهم شــهوة المــتاع ولا يعثون في الأرض مفسدين كما كانت ممارساتهم في معــاملات التجارة وكبت حرّيات التديّن بالحقّ. فكذّبوا تلك الرسالة فأخذتهم رجفة الأرض لــتهلكهم. وتلــك علّــة في فتنة الماديّة الحاضرة اليوم في شأن المال والتجارة والمــتاع. وكذلك عاد وثمود تلقّوا الرسالة لكن آثروا اتّباع الهوى والشيطان إذ فتنهم الإعمــار المجيد والثراء في المتاع الدنيوي وسخّروا بصيرتهم لتدبير إطابة المتاع العاجل. وكــذلك في مــصر قارون كان قدوة للمفتونين بالمال بغياً بأهله بني إسرائيل وموالاة لفرعون الطاغية الذي استخفّ رعيته وأتباعه وعلى رأسهم هامان فأطاعوه واستكبروا معه على رسالة موسى، ولكنهم ما تجاوزوا دركاً من عقاب الله. وقد اختلفت أسباب الهلاك على الظالمين ريحاً أو زلزالاً حاصباً على قوم صالح ولوط وكارثة طبيعية صيحة علــى ثمــود ومدين وخسفاً بالأرض على قارون وغرقاً لقوم نوح وفرعون – هلكوا جمــيعاً ومــن معهم. وهكذا عواقب الظلم بأقدار الله العادلة التي تحقّ واقعاتها فما الله بظلّام للعبيد. وإن كان الله بعد تلك الأقوام الهالكة بعاجلة يُملي بحكمه في البلاء ويمدّ مجــال الدعوة والمتاب وانتشار الهدى ولا يعاجل بكارثة تُحيط بالمعرضين كافة، فإنّما ذلك لأن رسالة الدين الخاتمة جاءت شاملة في الأرض وللناس كافّة لا لقومٍ مخصوصين مهما تكن الاستجابة من بعض دون بعض، لكن سُنن الله ماضية، فكم من مدّ عمارة وحــضارة وازدهــار واســتكبار لُمجتمع يقوم كافراً بالله والغيب، فلا يهلك بواقعة مُحيطة، بل يهوي مضطرداً ويتعسّر مسير حياتهم ويتدنّى نحو ما هو سوء وبأساء بعد أن غــرّهم تمــادي المتاع وظنوا خلود نعيمهم ورقيهم أبداً متعالين على سائر العالمين، لكــن الله يداول الأيام بين الحضارات والمجتمعات وتنفتن المستكبرة الظالمة الغافلة عن الدين الفاسقة عن هديه ثم ينقلب بها الحال وينحطّ المآل ويرث المجد آخرون، وهؤلاء يبتلــيهم الله ويــرفعهم ما ظلّت تتجدّد فيهم الهداية والرّاشدة إلا أن يغشاهم الفساد والتعّلــي المغرور فيُصيبهم الاعتلال والضُعف من عندهم وترجح عليهم قوىً أخرى يستخلفها الله ويُورثها الأرض ويحفظهم طالما حفظوا هدى رسالته للإنسان. تلك سنّة

عـــواقب الدنيا قد تتجلّى اتّئاداً عبر التاريخ في الدنيا، والعواقب في الآخرة وعد حاقّ لبني الإنسان لا يؤخّر نفاذه إلا أجل الموت فالساعة.

ترتيل المعاني (للآيات ٤١ - ٦٩):

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُـــيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ * خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤١-٤٤)

ســـبق ذكر أقوام بسط الله لهم نعماً وإعماراً في الحياة فما حمدوا الله ولا عبدوه ولكنهم بظنوهم الواهية في الغيب اتّخذوا أولياء موقّرين مقدّسين شتّى تنـــزل بهم من دونـــه تعالى دركات من التعلّقات: إمّا أصناماً مجسّدة أو أوثاناً قائمة تمثّل الملائكة أو الجنّ، أو مخلوقات باهرة تُرى في أفلاك السماء تقرّبهم بزعمهم زلفى إلى الله المتباعد في الغـــيب، أو ســـدنةً لمعبوداتهم يؤمّون طقوس شعائرهم عكوفاً عليها وعلماً بأسرارها ووسائط بين الآلهة المقدّسة وعبّادها، وكباراً وسادة ومستكبرين من الملأ غيورين على الأعـــراف والتقاليد أئمةً في بسط تقاليدهم الدينية يُتَّبعون رعاةً للرعيّة المستضعفة من الأتـــباع. أولئك هم أولياؤهم متداركة يحسبونها درجاً إلى الله الإله الأعظم البعيد في الغـــيب. ويَـــضرب الله لهـــم مثلاً إذ يلتمسون بتلك الحبائل من الأولياء من دون الله حـــصانة لهم أمناً من الشرّ وحفظاً لشئون حياتهم ابتغاء المنافع والخيرات فها وتصريفاً لمنظورات الشرِّ والضرّ، مَثَلُهم في ذلك كمثل العنكبوت إذ اتّخذت واصطنعت بنسيج مـــشتبك بيـــتاً تـــتوهّمه حصانة لأمنها وحفظاً لأمرها وحبائل اصطياد للفرائس من الحشرات التي تقرب من حِماها لكنها هي أوهن من بيوت الإنسان والحيوان المحفوظ حماهـــا المحروســـة حدودها بتدابير فاعلة، فهم من ثمّ عُرضة لأن تُهتك بنيةُ حصانتهم المزعومة وأن يبلغهم الأذى من أيّما صائد أو عاد ويأخذهم أيّما شرّ ويفوقم كلّ خير يبـــتغونه كسباً. ذلك لو كان أولئك المشركون يعلمون أنهم في حرمات أصنامه عُرضة لمـــا يـــتخطّفهم ويـــتهدّدهم بهلاك غازياً عادياً بوطأة من القوّة بالأسباب المادّية، لا

تُجـــديهم أصنامهم ولا ينفعهم أولياؤهم، وإنما أمنهم ومتاعهم في الحياة الدنيا أنّ لهم إطـــاراً كالبـــيت المُحـــيط من خلق الله قرار أرضٍ وحفظ سماء يمدّهم بأسباب الرّزق المـــسخّر لهم ولزرعهم وحيوانهم، وأنّ حرمة وطنهم بلداً وإعاذتهم من شرور التخطّف حـــولهم وحظوظ موارد الخير إليهم إنما هي من إطار رحمة الله: مخلوقات محفوظة لهم وأقداراً تستجيب لدعاهم درءاً للضرّ وجلباً للخير.

إن الله يعلـــم مـــا يدعون من دونه من شيء – آلهة وأولياء ومقدّسات يلتمسون عـــندها أسباب الغيب لتحفظ حياتهم وتُغني شأنهم. وهو ﷻ العزيز غلاّب بأقداسه في الدنـــيا والآخرة على كلّ ما يُشرك ويُحرز به دونه حصناً من آلهة أو مبتغىً لنصرةٍ من ولي، وهـــو الحكيم مُصرّف أمور الناس ليوقع عليهم عطاء نعمة حيث ثغور حاجاتهم ورحمـــة هداه في كلّ شعاب استقامتهم من الضلال، وليحكم بينهم في تسوية تظالمهم في الدنـــيا بأحكـــام شرعه وفي الآخرة بفصل قضائه. وتلك الأمثال يضربها الله للناس بأقـــدار علمـــه المُحيط بظاهر الوجود وغيبه وبوحيه الهادي لهم في عالم الشهادة إلى حقائـــق الغـــيب الـــتي يصوّرها لهم بمثالٍ مما يرون من وقائع الحياة وأشيائها وأسبابها المـــشهودة حتّـــى يقرّب لهم تبيّنَ ما لا يحيط إدراكهم بوقعه ونظمه ومداه من أقدار ومخلـــوقات في الغـــيب. ومـــا يعقل تلك الأمثال مُمسكاً بعِبرها عن تفهّمٍ لمغزاها إلاّ العالمون لا بالظاهر المضروب به المثل وحسب، بل بشيء من علم الغيب مما يصوّر المثل المشهود.

خلـــق الله السماوات والأرض بالحقّ إطاراً كالبيت للإنسان فيه ما لا يُحصى من نعـــم ومقادير وظروف ولا يُضاهيه ﷻ في شيء ما يتّخذ المشركون من إطار غيبـــي مـــن الأولياء كمثل بيت العنكبوت. إن في ذلك الإطار العظيم المخلوق حول الإنسان من السماوات والأرض لآية لعظيم قدر الله وإحاطته بالإنسان ممّا يتجلّى للمؤمنين من حقائـــق الغيب التي لا ينصرفون عنها تعلّقاً بالمشهودات وظنون الخرص في الغيب بغير علم بحقّه ولا رشد عقل ولا تلقٍّ لعلم الله المنـــزل وحياً في رسالاته.

﴿اتْـــلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥)

الوصـــاة للنبـــي ﷺ - مُخاطَباً في سبيل بلاغ الناس ما أُوتي من علم يُنبئهم عن الغـــيب ويقـــرّب لهم ذلك بما يعقلون من الأمثال المحسوسة التي يضربها لله في كتاب الوحي ليقرّب لهم تصوّراً فهم حقائق الغيب منسوبة إلى أوهام المفتونين بعالم الشهادة المحـــصور إدراكهـــم فيه، وليهدي في ضوء ذلك عباده إلى قويم منهج الحياة وصوب سيرها نحو آجلة الغيب مبشّراً ومنذراً بما ينتظرهم عد المرجع إليه ﷻ - الوصاة له أن يـــتلو موالياً ذكر ما أوحي إليه من الكتاب، فيه علم وهدى ورحمة بالمؤمنين به. وعليه أن يُقـــيم الـــصلاة الموقوتة أداءً موصولاً عبر سير حياته شعيرة يقرأ فيهما ما تيسّر من الكتاب ويذكر فيها الله ويُعبّر عن مُختلف وجوه التوحيد والخشوع لله بكلّ حركات جـــوارحه، ويوالي الصلاة ليحفظ - أبداً وثيق الصلة بالله ولا ينقطع في عالم الشهادة ولا يرهن لفتنة دون الله وعالم الغيب. ولذكرُ الله أكبر - فضلاً مؤكّداً - من كلّ فعل صـــالح، لأنـــه - إن لازمـــه الإنسان عبر الصلاة المتوالية حاضراً في وعيه دون لهو أو غفلة - ينهاه عن الفحشاء والمنكر تقوى لغضب الله. والله يعلم ما يصنع العباد بدقائق أعمالهم فإن ذكروه أبداً اتّقوه في كلّ شعاب حياتهم، وتذكّروا دائماً رقابته التي تتزكّى في وجدانهم بالتوجّه إليه ومناجاته والخشوع له بحركات فعالهم الشعائرية، وكفّوا عن المروق عن حدود هدى الله إلى ارتكاب المعاصي الفاحشة، بل حتّى المنكرة الأقل منها ســـوءاً. وتلـــك دقّة وعي برقابة الله وتقواه يزكّيها ضبط أداء شعائر الحياة المسنونة، والذاكـــر المصلّي مثال للتزكّي وقدوة للخُلق الأمثل الأبلغ أثراً على الُمخاطبين بدعوته من مقولات البلاغ.[1]

﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَـــنَّا بِالَّـــذِي أُنْـــزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَـــذَلِكَ أَنْـــزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ﴾ (٤٦ - ٤٧)

---

(١) في ذكر إقامة الصلاة موصولة بوجوه من فعل المعروف والانتهاء عن المنكر: راجع الآيات ١ - سورة المؤمنون، والآية ١٧ سورة لقمان، والآيات ٣٢ - ٣٤ سورة المعارج. وفي إضاعة الصلاة مدعاة لاتباع الشهوات: راجع الآية ٥٩ سورة مريم.

وإذ ما أُنـــزل من قبل على أمّة الخطاب العربية قومِ الرسّول ﷺ كتابُ وحي و لم يبق فيهم من ذكرى لصحف أبيهم إبراهيم وهديها من شيء ولا من شعائر صلاته في المسجد الحرام إلا صوراً وأصواتاً من المُكاء والتصدية لهواً غافلاً عن ذكر الله، فإن أهل الكـــتاب الـــسابق يهوداً ونصارى أقرب إلى أن يُعنوا بالقرآن بجدّ ويستمعوا له وحياً جديـــداً قد عهدوا منه القديم. قد يحمي الشيطان فيهم روح الغيرة على ما عندهم من تراث سلف مقدّسين فيُعرضون عن الكتاب القرآني الخاتم المُنـــزل على مَن ادّعى نبوّة ووحـــياً مـــن غيرهم، وقد تنشرح صدورهم له كتاباً يأتي تصديقاً للأصول في كتابهم وتجديـــداً لكـــثير من أحكام الهداية فيه، ولكنهم يُجادلون بهمّة في بعض آيه التي تُقوّم ضـــلالاتهم المبـــتدعة بغير أصل في كتابهم وتبديلات لبعض حروفه بمقولات موضوعة تنسخ أصل مُحكم نصوصه. ولذلك في تلاوة القرآن على الناس يُوصى المؤمنون به ألاّ يُجادلـــوا أهـــل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن لأنهم مهما يُخالفون هم الأدنى احتمال انجذاب وتوبة للحقّ في ذكر القرآن. ذلك إلاّ الذين ظلموا منهم وجنحوا وراء الجدال إلى القتال حسداً وصدّاً للمؤمنين وغيرة فارطة على قديم معهودهم أو حرصاً بالغاً على كـــسوبهم في الحـــياة ممـــا يتخوّفون أن ينال منها المؤمنون بالهدى الجديد. فأولئك - ظـــالمين - يُعاقـــبون بمثل ما أعقب ذكر القرآن من ردّهم سيّئة بسيّئة، لكن أن يُصبر عليهم خير ما دام الأمر لا يبلغ بأساً يستأصل دعوة القرآن. وليقم الرّسول مع المؤمنين صفّ أخوّة وجماعة لكن لا يتحزّبون بعصبية طائفية مُجانبة تستفزّ أهل الكتاب[1]، بل ليقولوا دائماً مقولات الحقّ الذي يُؤمَن به جمعاً بينهم وبين أهل الكتاب: ليشهدوا لهم أنهـــم آمنوا بالذي أُنـــزل إليهم هم والذي أُنـــزل إلى أهل الكتاب وحياً من الله وأنّ إلههـــم وإله المخاطبين من أهل الكتاب واحد لا تتفرّق بهم الآلهة كالمشركين، وأنهم له مسلمون معهم جمعاً إن شاء الله.

وكذلك - بهذا التوافق والتصادق - يُخاطب الله الرسول ﷺ مذكّراً له أنه سبحانه وتعالى بأقدار اصطفائه رسلاً وإيحائه كتباً أنـــزل إليه الكتاب، فالذين آتاهم بتلك الأقدار قبلاً الكـــتاب السابق فيهم مَن يؤمن بالقرآن إسلاماً له كتاباً مُتجدّداً يجدون فيه من الحقّ

(١) في مُجادلة ورثة الكتب الأولى بالتي هي أحسن: راجع الآيات ١٢٣ - ١٢٥ سورة النحل.

الذي عهدوا قبلاً في كتابهم، وكذلك من العرب الأقرب إلى الرّسول لساناً ونسباً مَن يـــؤمن بالكتاب المتنـــزّل خطاباً لهم بدواعي الفطرة التي تتلمّس الحقّ فيه وإن أتوا إلى الإيمـــان من بعيد لغربته عمّا عهدوا في الجاهليّة من شرك ودهرية ودنيوية. وما يجحد إنكاراً عمداً بآيات الله المتنـــزّلة في كتبه الموحاة المتعاقبة بتواليها وتصادقها ترتيلاً بعد مـــا ثبتت بيّنتها وعُرف حقّها من الآيات المشهودة إلاّ الكافرون، لا الذين لم يكفروا قـــبلاً ليستدركوا مذهبهم توبة إلى الحقّ، بل الذين استغرق فيم ولازمهم الكفر مذهباً ثابـــتاً راسخاً في وجدانهم، صمماً من الآيات المسموعة من وحي الله المُنـــزل وعمىً عن الآيات المشهودة من طبع الله في الكون.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَـــلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٨ - ٤٩)

ولـــيُطمأن الرّسول ﷺ في سياق خطاب أمّته بالقرآن يخاطبه الله أيضاً أنه هو ما كـــان يتلو من قبل ذلك القرآن من كتاب ولا يخطّه بيمينه، إذا كان أُميّاً لا يقرأ ولا يكـــتب نقلاً من الكتب الأولى ولا يستقرئ هدياً منها، ولو كان كذلك إذاً لارتاب المُبطلون لرسالته وراودهم الظنّ أنه يتعلّم ذلك خفية رواية أو قراءة من كتاب سابق أو لحـــسبوا أنه يفتريه تلفيقاً من مذكورات في كتب أو صحف أخرى. وذلك كلّه قول باطـــل يـــرد منهم لغوَ مُجادلة ومُغالطة لا يؤسّس على ريب ولا تُثيره شُبه من بيّنات مأثـــورة، بل هي أقاويل جحودٍ[1]. وإنما القرآن آيات وأحاديث مرتّلة ومتنـــزّلة من الوحي تتجلّى فيها مدلولات من علم الله ومشيئة أقداره رسالة هداية لعباده بيّنات بلغة عـــربية مفهـــومة المعاني للمخاطبين وتعابير بالغة الفصح حكيمة الدلالة حسنة النسق معجـــزة لأيمّا بشر منهم أن يأتي بمثلها نظماً ومعنى. وهو ذكر محفوظ في صدور الذين أوتـــوا العلم الوارد وحياً من كنوز علم الله المحيط فاستقرّ في وعيهم منفعلة به قلوبهم

---

(١) تتواتـــر الآيـــات أن الكتاب إنما أُنـــزل على محمّد ﷺ من الله ﷻ، وأنه نبيٌّ أميٌّ بغير سابق كـــتاب أو هـــدى: راجع الآية ٥ سورة الفرقان، وانظر الآية ٥٢ سورة الشورى، والآية ٧ سورة الضحى.

يقيناً لا يحفظون أصواته وحسب بل تطهّر صدورهم به من الجهالات والظنون والرّيب التي كانت في تمذهب التأويلات الجاهليّة يغيب فيها علم الحقّ ومن مختلف الضلالات التي غشيت أهل الكتاب قبلاً، أحدثوها أو غشيتهم من اضطراب رواية الكتاب الأوّل الحقّ نصّاً أو من إيحاءات أهواء تشيّع وعصبية بينهم. وما يجحد بحقّ القرآن بعد معرفته إلاّ الظالمون الباغون بضلالهم وجهلهم وأهوائهم على مدى أنوار الحقّ المتجلّية فيه.

﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٥٠-٥٢)

الكافرون الجاحدون عمداً بحقّ الكتاب المنزل قالوا أيضاً، بميلهم فتنةً بالعالم المشهود ووقائعه وظروفه دون الصلة بالغيب - قالوا: لولا عُزّزت دعوى صدق ذلك الذي يبلّغهم رسالةَ وحي من الله إليهم آيةٌ واقعةٌ بقدر ربّاني تخرق طبائع الأشياء والأسباب المسنونة دلالة على أنّ مدداً من قوى الغيب والصلة بالله القادر تسري إلى الرّسول المبلّغ، شهادة على صدقه. وليقل لهم الرّسول: إنما الآيات تلك عند الله يُبديها بمشيئته آتاها من قبل الرِّسل فما أغنت كثيراً لتؤمن أقوامهم، وهو سبحانه وتعالى الذي يختار أن يكفّها اليوم ويقصر آياته على الهدى الموحى المسموع في القرآن لا تُصاحب آيه وقائعُ مشهودة تُحدث رهبة وتحمل على الإيمان لأنها من خوارق الطبيعة. وليقل الرّسول - عمّا عليه هو - أنه لا يملك أن يأتي بتلك الأفاعيل المعجزة بمدد من الله، وإنما هو نذير مُبين يأتيهم في ذكر القرآن ليكون الوقع عليهم - وعلى الذين يبلّغهم بعدهم في العالمين كافة - الترهيب والترغيب بما هو آجل منظور عاقب في آخرتهم جزاء لا ما هو عاجل حاضر يشهدونه.(١)

---

(١) يتواتر ذكر إعراض الذين كفروا عن آيات الله المتلوّة في القرآن وإلحاحهم طلباً من الرّسول أن يأتيهم بآية فعل مشهودة خارقة للمطبوع شاهدة أن له صلة بقوى الغيب، وفي ردّهم إلى الآيات المتلوّة عليهم وما على الرّسول إلا بلاغها.

ويُمـــد ذكـــرُ الله الرّسول خطاباً له وتسلية في مُجادلة أولئك الكافرين، وذلك بالسؤال الذي يقوم في وجههم: أو لم يكفهم أن الله - كما يقولُ هو متكلّماً بجمع من أقـــدار وحيه - أنـــزل عليه الكتاب يُتلى عليهم منه متوالياً ذكره، مسموعاً مقروءُه، مـــرعيّاً مقتضاه كما يرونه؟ أما أغناهم ذلك وما فيه من بيّنة وسلطان وحُجّة؟ إن في ذلـــك لـــرحمة وذكرى لقوم يؤمنون به فيُدركون كفاية رحمة العلم والهدى فيه وغناء ذكـــر الله وحقائـــق الغيب وآجاله فيه[1]، ليقل لهم - إن لم يكتفوا هم بتلاوة القرآن علـــيهم - أن كَفى بالله بينه وبينهم شهيداً بما هو حق، هو ﷻ يعلم ما في السماوات والأرض كلّـــه، فـــالأولى أن يعلم ما في ذلك من مذاهب المبلّغين للقرآن وأعمالهم إذ يُحـــيط بـــسيرة الحـــياة منهم جميعاً، وقد أدّى هو رسولاً أمانة البلاغ التي كُلّف بها، والـــذين آمنوا بالباطل سكناً في نفوسهم وجحدوا حقّ الرسالة أولئك هم الخاسرون فـــيما بينهم وبين المؤمنين من مباراة على السّبق والفوز، حقّاً سيريهم الله تأويل ذلك ليتجلّى واقعاً يوم القيامة.

﴿وَيَـــسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُـــمْ لاَ يَـــشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْـــشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٣-٥٥)

كـــذلك من نـــزعهم في الفتنة بالعاجل من الدنيا يذهبون في حملتهم ضداً وصدّاً لدعـــوة الرسالة من الغيب بحقّ الوجود الموصول فيه عاجلُ الزمان والحياة الدنيا بآجل الأبد في الآخرة والنذير لمن يمضي كافراً بالغيب غير مبالٍ بتدبير رسالة الهدى غير تائب إلـــيها لتخرجه من الظلمات إلى النور ولتهديه إلى الصراط المستقيم المبشّر بآخرِ مبلغه فلاحـــاً. هم يستعجلون الرسول - كما يُخاطبه الله - بالعذاب الذي يوالي هو عليهم به النذير إن ضلّوا ومضوا ظالمين. ولولا أجل مسمّى عند الله لجاءهم العذاب كما أتى أقـــواماً قبلهم استعجلوه تحدّياً ليبدوا كذب وعيده فعاجلهم به الله. ولكن الله له أجل

(١) تتواتـــر الآيات تذكر الذين كفروا يستعجلون العذاب ويتحدّون النذير به أن يأتيهم لفورهم الحاضر إذ يكفرون بالغيب ولا يصدّقون الوعيد الآجل.

يُسمّيه لعواقب سير الحياة، ولولا أنه يكفّ عن أخذ المُخاطبين برسالة القرآن بمثل ذلك العذاب العاجل الذي سبقت أنباؤه حولهم لجاءهم لفورهم. ولكن العذاب العاقب وعيد حاقّ جزاءً ناجزاً ولَيأتينّهم بغتة بعد موتة مسنونة ينبعثون وراءها بين يدي الحساب والجزاء الآجل أو إيقاعاً للأجل الذي سمّاه الله دون ذلك صيحة وموتة شاملة لبني الإنسان لنفخة في الصور بين يدي نفخة تالية يقومون فيها مبعوثين أحياءً دابّة في الأرض. وهم قد يستشعرون حيناً شيئاً من وقع الوفاة موتاً يدنو إليهم مرضَى وقد يأتيهم فجاءة. أمّا الساعة نفخة الموت الشامل والقيامة، فهم لا يستشعرونها – هم ولا غيرهم، ولا يعلم أجلها إلا الله في الغيب. هكذا كان يستعجل الرّسولَ قومُ خطابه كأنهم حريصون على استقبال مقاربة العذاب، ولكنهم يوم القيامة يرونه حقاً معروضاً فواقعاً بهم، وإن جهنّم لُمحيطة بالكافرين أمثالهم لا مُتأخّر عنها ولا مفرّ منها. ذلك يوم يغشاهم العذاب الذي يستعجلونه تحدّياً في حاضرهم يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم وفي الدنيا عهدوا النار من تحتهم لا تحرق إلا صعداً ولا تُحيط بهم كذلك. ويقول لهم الله ملك يوم الدين كلمة تُعزّز وقع العذاب: أن يتذوّقوا ما كانوا يعملون، ليتلقّوا بحاستهم عاقبة أعمالهم وما كانوا يحسّون فيها في الدنيا إلا لذّة الشهوة والمتاع التي فتنتهم.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّة غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٥٦-٦٠)

وليتعادل ذكر وعد الله وفق كسب خلقه البشر وما يحقّ من وقع الوعيد للذين آمنوا بالباطل وكفروا بالحق كما سبق ذكرهم، يأتي في هذه الآية نداء منه تعالى لعباده الذين بلغوا حقّ عبوديتهم له بخيارهم لا بجبر قدره مالكاً لكلّ من خلق قيّوماً بهم بل بكسبهم هم طوعاً إذ وقر في نفوسهم بعد السمع والنظر والتدبّر الإيمانُ به وبحقّ رسالته وصدّقه كسباً في حياتهم الالتزامُ بهداها ودفعهم وضبطهم الانفعال ببشائرها

ونـــذرها – النداء لهم تذكير من الله مُخاطباً مُناجياً لهم ببشارة حق عاجل: أن أرضه واسعة إن ضاق بهم وطنهم في مّكة ونحوها لعسر الاستضعاف وضيق الفتنة من الذين كفروا واستكبروا عليهم، فإياه ﷻ ليمضوا عابدين مصممين على الإخلاص فيما هم فيه اعتزالاً لأولئك وصبراً ولو اشتدّ استفزازهم، ليعبدوه صابرين حتّى يقدّر لهم مخرجاً ومهجـــراً من الفتنة، وحيثما ساقتهم الهجرة في أرض الله الرّحبة الواسعة ليتمكّنوا فيها ويُستخلفوا مُطمئنين لا يتزعزع فيهم دين العبادة الخالصة لله.(١)

كـــلّ نفسٍ ذائقة الموت، قد يعاجلهم أجل الموت قبل الهجرة، ولو هاجروا، فإنه مكـــتوب لا يدرون بأي أرض يموتون. وأينما وافاهم الموت المسنون لكلّ نفس فمن بعده المرجع إلى الله وأقدار غيب الحياة الآخرة لأجل يسمّيه ولا يعلمه إلا الله. وعندئذٍ يحـــقّ تأويـــل وعده الآجل وتنجز بُشراه واقعاً، وهم مُخاطبون بحق ذلك المرجع إنْ أحالـــوا إليه كلّ رجاء الروح والنعيم والطمأنينة بعد الفتنة التي هم فيها. والذين آمنوا إقراراً في وجدانهم لتصديقهم بحقائق الغيب التي جاءتهم بعلمها الرسالة فعبّروا عن ذلك بـــأن عملـــوا الصالحات سيرةً في الحياة لَيبوئنّهم الله بأقداره يوم القيامة غُرفاً من الجنة المحفوفة بالشجر الظليل العامرة بالثمار المرويّة بالأنهار الجارية، وذلك نعيم لم يعهد مثله ولا دون مثاله أبناءُ أمة الخطاب الأولى في بيئتهم الطبيعية. والمؤمنون الصالحون يبوءون في تلـــك الـــدار الطيـــبة موطناً خالدين فيها لا تعتريها دورات الجفاف والبؤس ولا تغشاهم هم سنة الموت الدوّارة في الحياة الدنيا. نِعم أجر العاملين ذاك، ما أطيبه وفاقاً لمـــا قدّمـــوا عملاً صالحاً، إذ هم الذين صبروا على الفتنة لا ارتّدوا ولا نافقوا مثل من ذُكر لأوّل السّورة، وعلى ربّهم وحده – مقدّماً ذكره والإيمان به ربّاً – يتوكّلون، لا يعوّلون على سواه لميسرة بعد معسرة الفتنة في مكّة ولا خرجة من حصارها ولا مأوى طيّـــباً ولا معاشاً خيراً وأبقى. ويذكرهم الله – ما توكّلوا عليه بعاجلة خيرٍ موعود في سعة الحياة الدنيا، ويضرب لهم مثلاً أن ينظروا: كأيّن – مثل كم من دابّة في الأرض لا تحمل رزقها بل تدبّ ساعية في سبيل الله يرزقها موافياً برزقها في مختلف المواقع المحريّة

(١) راجع الآيات ٩٧ – ١٠٠ سورة النساء، والآيتين ٤١ و١١٠ سورة النّحل، وانظر الآية ١٠ سورة الزمر.

والمجهـــولة، وإيّـــاهم كذلك يرزق هو كاتباً لهم معاشهم ما صبروا وساروا في الأرض ودبّوا هجرة ليهديهم الله إلى سواء السبيل يقدّر لهم طمأنينة ويُسرى. وهو ﷻ السميع البالغ دقيق الإدراك سمعاً لدعاءات الصابرين وشكاويهم من الأذى ورجاءاتهم السلامة والمعاقبة للكافرين، العليم المُحيط بعلم أحوالهم وما ينتظرهم في الدنيا والآخرة والآجال الأوفق أيلولة إلى السعة والنعيم الخالد.

﴿وَلَـــئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّــهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦١-٦٢)

ويـــستأنف الذكرُ بيانَ غريبِ المنكر في مذاهب الذين كفروا وأقوالهم: أنه لو ســـألهم الدّاعـــي لـــدين الحقّ المخاطب ليبلّغ دعوته ويُجادلهم ليهديهم: مَن خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر، مشهودات هي أكبر ما حولهم من ظاهر الوجـــود ومـــنها لهم أسباب الرزق وتتجلّى ظروف الحياة من مختلف رؤى الشمس والقمـــر خِلفة نهار وليل فانتشار ومعاش ثم سكن وراحة - لئن سألهم ذلك، ليقولُنّ بـــيقين إنهم غير مرتابين أن الله هو الخالقُ لذلك المقدرُ فيه كل مختلف وجوه رحمته. فأنّى يؤفك هؤلاء ويقلّب عليهم عقلهم مذهبهم في الدين ألاّ تكون حياتهم حمداً لله وعبادة مترتبة بل إشراكاً به تعالى آلهة وأولياء من دونه لا تخلق شيئاً حولهم، بل هي مـــثلهم مخلـــوقة مـــن الله ولا تمدّهم بشيء في حياتهم سوى أنهم يتوهّمون قداستها ويجـــتهدون عـــاكفين عليها داعين منها درء الشر وجلب الخير والتوفيق إلى أحسن المنظور.

الله الفرد المعرّف بعليائه وقدرته المطلقة، هو لذي يبسط الرزق وسعاً لمن يشاء أو يقـــدّر له ضيقاً، فكيف يلتمسون دونه الحفظ من الشرور وجلب الرزق وفرج المعاش مـــن المعـــسور. إن الله وحده بكل شيء عليم يحيط بحاجات عباده البشر وباختلاف فـــرص كـــسبهم وتفـــاوت مداه بينهم وبظروفهم وبأحكم وجوه ابتلائهم الممتدّ أو المـــتقلّب ســـعةً أو ضـــيقاً وبـــدعائهم شاكرين أو صابرين، وأنّى من ذلك كلّه آلهة المشركين وأولياؤهم؟

﴿وَلَـئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّـهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٣-٦٤)

ولئن أدير وجه السؤال على أولئك الذين كفروا بالغيب وأشركوا بالله معبودات لهم مـشهودة - لئن سألهم السائل كما يُخاطبه الله المذكّر بأمرهم: مَن نـزّل من السماء ماء تنـزيلاً متوالياً فأحيا به الأرض بعد موتها كلّ دورة المواسم حيثما قدّر أن ينـزل ذلك المـاء؟ ليقولَنّ الذين كفروا بالغيب غير مُرتابين بحقّ الجواب: اللهُ. فليقل لهم السائل: الحمد لله إذاً لا يجـدّد الحـياة ومواردها سُنّة طبيعية إلا الله، فهو المحمود وحده، بل أكثرهم - أولـئك الذين كفروا - لا يعقلون دواعي الغفلة عن آيات الحياة الراجعة أسبابها لقدر الله وحـده ونوازعِ الالتهاء بشهوات المتاع وبالحياة وحسب، لا يكفّون الهوى الذي يحملهم إلى ذلك لتنشرح صدورهم للاهتداء إلى الله محموداً معبوداً وحده في الحياة أبداً.[1]

ومـا هذه الحياة الدنيا إلا مجال ابتلاء بالمشهود فيها حصراً والمشتهى ابتغاءً فهي تُلهـي بذلك وتكفّ المساعي في الحياة عمّا وراءها من آفاق الغيب مهما تظهر آياته فـيها متجلّـية للبشر، وهي لعب لردّ ابتلاءات العلاقات بين الناس فيها إلى التنافس والمعـرض لبعض الفعال والكسوب في سبيل الفوز بالفرح والمرح والفخر والتطاول. هكـذا تغرُّ الدنيا من انفتن بها داراً دون وصلها بالغيب وبدار الحياة الأخرى التي هي حقـاً الحـيوان، أبلغ وقع الحياة شرحاً للصدور وروحاً وسعداً بالعلاقات بين الأحياء وسلماً وتمتّعاً بالنعيم الطيب المقيم أبداً وطمعاً في رضوان الله الأكبر، وتلك مبالغ الحياة المُثلـى لو كان الذين كفروا بالدار الآخرة يعلمون من غيبها شيئاً بتلقّي العلم بحقائق الوجود في الأزل وينفعلون بالنذارة والبشارة بوجوه الحياة الآخرة.[2]

---

(١) تتواتـر الآيات أن أمة الخطاب الجاهلية كانوا قوماً يكفرون بالغيب بعثاً بعد الموت ولكنهم يعرفون الله خالقاً للسماوات والأرض ورازقاً لهم فيها، فإن سئلوا عن الخالق الرازق ليقولنّ الله ولكنهم يعبدون الأوثان والأصنام دونه زلفى إليه إذ يرونه بعيداً في الغيب: انظر مثلاً الآية ٢٥ سورة لقمان، والآية ٣٨ سورة الزّمر، والآية ٩ سورة الزخرف.

(٢) الحـياة الدنيا ابتلاء للإنسان قد يتّخذها لهواً ولعباً ويغترّ بها غفلة عن الآخرة: راجع الآيتين ٣٢ و٧٠ سورة الأنعام والآية ٥١ سورة الأعراف، وانظر الآية ٣٦ سورة محمد، والآية ٢٠ سورة الحديد.

﴿فَـإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٥-٦٦)

الحياة الدنيا مجال لوجود الإنسان عارض عابر إذا انفتن بها كما جرى للذين كفروا تقلّبَ في حُظواتها وخاضراتها في بلاءاتها وظروفها المتغيّرة عبوراً من حال إلى حال دون وصل مدّ الحياة في الوجود كلّها حتّى آخرتها في الغيب لتستقيم رؤاه ويصبح سير مذهبه في كلّ ابتلاء بعسر أو يسر أن يزيده دفعة إيمان وتزكيه لا تلهيه ساعة لهو ولا ترهقنه سانحة شهوة بل تتبارك كلّ ساعات حياته وتتدافع نحو مبالغ عُليا في درجات الإيمان. ولكن الذين كفروا بالغيب هم المفتونون بالعارضات والخاطرات المتقلّبون حالاً معها، فإذا ركبوا في الفلك واضطرب أمرهم بالريح والموج من حيث لم يحتسبوا وظنوا أنهم أُحيط بهم بأقدار الخطر ودنا إليهم من الغيب الموت كأنه برهبته ماثل بعد أن كانوا عنه غافلين، عندئذٍ ردّتهم الضرورة الملحّة إلى ذكر الله لِيُسعفهم بالنجاة بأسباب لا يُدركون مأتاها من الغيب المنشود، دعَوه مُخلصين له الدين في تلك السّاعة إذ لا منجاة دونه وقد انصرف عن وعيهم التعلّق بأولياء شركهم المعهود. فلمّا نجّاهم الله إلى البرّ وعاودتهم الطمأنينة وزالت عنهم ملحّات الضرورة نسوا الله وتراهم إذا هم يرتدّون مُشركين يعودون إلى إيكال حياتهم نظراً في حاضر شئونها ومستقبلها لآلهتهم الموهوم تصريفها شهادةً وغيباً للأسباب التي تمضي بها الحياة مسنونة مُعتادة.[1] هكذا مذهب الذين كفروا ليكفروا بما آتاهم الله من نِعمٍ بأقدار تصريفه لسير حياتهم ومتاعها، لا يتذكّرونه فيحمدونه على ذلك بل يذهبون كافرين بأنّ نعم حياتهم من عند الله، وليتمتّعوا ما انبسطت لهم نعم الضرورات الملحّة أحوال اليسر والتذوّق المطمئنّ لنيل مبتغيات الحياة وقضاء شهواتها والتمتّع بها والتمرّغ في لهوها ولعبها فسوف يعلمون، لا ساعة انتكاس الحال في ظروف الدنيا إلى ضرورة مُلجئة إلى المتاب، بل حين يجيء أجل ساعة القيامة وأزمة الفرقان بين شقاء الخلود في النار وسعد النجاة منها والتمتّع بنعيم الجنّة الباقي.

---

(١) راجع الآيتين ٦٣، ٦٤ سورة الأنعام، والآيتين ٢٢، ٢٣ سورة يونس، والآيات ٦٦ - ٦٩ سورة الإسراء، وانظر الآيتين ٣١، ٣٢ سورة لقمان.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آَمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٦٧)

أَو لم يروا – أما رأى أولئك الكفرة بنعم الله ومحامده في أسباب قدره المكتوبة لهم في الغيب أن قد تجلّت آياتها عبر مرّ الزمان منذ عهد أبيهم إبراهيم وهم مُخاطبون عرباً مــن ذرّيــته في بيئة انمازت فيها تلك النعم بارزة عمّا يُحيط بها، أن قد جعل الله لهم بجليل تلك الأقدار حرماً آمنا حول مكّة لأشهر من كلّ عام يرعاه النّاس الذين يسعون إلــيهم لأداء شــعائر تــراث الــدّين في المسجد الحرام ولمنافع الأسواق حوله. ذلك ويُــتخطّف الــناس من حولهم في الجزيرة العربية التي ينتشر فيها أهلها طلقاً من كلّ ضــابط وانتهاكاً لكلّ حرمة وخُصوصية واصطراعاً على الماء والأرض ثائرين إهاجة بــدعاة شــعر الــشجاعة والاقتحام والثأر والمدح والفخر بالأنساب والفِعال والحب والغــزَل وتدافع شهوات الذكورة نحو الإناث. أفبهذا الباطل يؤمنون عاداتٍ عهدوها وقر في نفوسهم وقعها وينسون ما انماز عنها من رؤية نعمة لله بها يكفرون غمراً لتلك الرّحمة في مشاعرهم وغفلة عن حمد الله.[١]

﴿وَمَــنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ (٦٨)

ومَن أظلَم وأَبلغ عدواناً على قيم الحقّ وإنكاراً لعدل الحقيقة ممن افترى على الله كذباً، وهم في تحريم بعض مطعوماتهم ينسبون إلى الله ما لم يشرع، بل يختلقون الموحى إلــيهم منه تعالى؟ أَو مَن كذّب بالحقّ لمّا جاءهم بما شرع الله وحياً حقاً منه ﷻ وهو القــرآن الكــريم وما فيه من استقامة الهدى وصدق النذير لهم؟ أيسري ظلمهم ذلك ويــضيع الحــق العدل في الحياة لتمضي عفواً وعبثاً بغير وجهة وتقويم وميزان؟ أليس الحــياة الدنــيا موصولة وجوداً بحياة أخرى فيها الجزاء للظالمين في الدنيا عدلاً بينهما؟ أليس في جهنّم مثوى للكافرين بعد أن تُركوا ثاوين في الدّنيا بظلمهم مدىً حسبوا ألاّ مُنتهــى له إلا الموت لكفرهم بالغيب والبعث من وراء ذلك؟ والحقّ أنّ أجلاً مسمّى يجيئ لجزائهم مدىً مُقيماً في جهنّم.

---

(١) راجع الحاشية ١١ على الآية ٩١ سورة النمل.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩)

وإذا ميّز الله بين الذين آمنوا والذين كفروا لمبتدأ هذه السورة، تنختم هنا بإثبات الحقّ في ختام أمر المجاهدين الذين جاهدوا ابتغاء وجه الله وجاهدوا الذين كفروا وأشركوا حتى لو كانوا آباءهم. أولئك لأنهم بذلوا وسعهم من جهد الحياة مُصابرة في سبيل الله - أولئك ليهدينّهم الله بهديه الذي يؤمنون به وقدره الذي حقّ لهم أن يوافيهم به ليسلكوا سبل الحياة التي شرعها بهداه وأضاءها بنوره وأقامها للبلوغ عبر ابتلاءاتها إلى قرباه يوم لقائه. وإن الله لَمَعَ المحسنين، هو حقاً مع أولئك الذين رقوا بالصلاح إلى درج الإحسان من صدق الجهاد ومداه وكانوا أهلاً أن يلازمهم الله بالإحسان إليهم عاقبة حُسنى عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة.

عموم المعاني (للآيات ٤١ - ٦٩):

يضرب الله في ذكر وحيه المُنزل الأمثال ممّا يُباشر عباده المُخاطبين، خلقاً محصور الإدراك في العالم المشهود من أشياء الطبيعة وأسباب علاقاتها وتفاعلاتها، وذلك ليقرّب لهم تصوّر حقائق الغيب فترسخ في وجدانهم معرفتها فالإيمان بأنها حقّ. وهكذا بعد أن قصّ مثلاً من قصص الأقوام التي غاب ماضيها وكان قد ازدهر متاعها وشُيّد إعمارها فانفتنوا بذلك واستكبروا وكذّبوا برسالات الغيب وأقدار الله وفعال قضائه وآجاله الموعودة - بعد ذلك ضرب مثلاً لسائر الذين اتّخذوا من دون الله أولياء غيب بظنونهم مثل أمة الخطاب الأولى العربية. وفي الإنسان فِطرة تنزع إلى الغيب، ولكن قد تصرفه بلاءات الدنيا ومشهوداتها عن الحقّ في غائب الوجود، فتبيّنه له رسالات الغيب المنزلة من الله وحياً على الرّسل دعوة للناس أن يخلصوا التوجّه إلى الله ربّاً للعالمين وحده، لكنهم قد يتّخذون من دون ذلك الغيب المطلق أولياء من الموقّرات تأخذهم في أمرها مخيّلات ظنون وتعلّقات أوهام يردّون إليها شأن قوّة الغيب كلّه وسلطان قدر حياتهم أو يشركونها بالله الأعلى. ويضرب الله لأولئك مثلَهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً من خيوط دقيقة تحيط بحماها، الأقدار والأسباب الغيبية التي يرتهن لها أولئك ويحمون بها حياتهم إنما هي مخلوقات مشهودة عاجزة أو مخيّلات وهميّة

دنـــيا كبـــيت العنكـــبوت وَهَـــناً، وهم ينصرفون دون النفاذ إلى معرفة الله وموالاته والتحـــصّن لحفظ أنفسهم بقوّة أقداره الغيبية ووقع قضائه الغلاّب. والله عزيز إن شاء حملـــهم جميعاً بقدَره على إخلاص الإيمان به لكنه يبتليهم في الدنيا ويخلّي لهم الخيار، ويعلـــم مـــا يـــتّخذون مـــن دونه يحسبون أنهم يصونون نفعهم ويدرأون الشرّ عنهم فيعـــبدونهم قاصرين عن بلوغ التوجّه إلى الله عبر آياته المشهودة في آفاق الوجود كله. وهو يكفيهم بما يشهدون أن يتأمّلوه ليدلّهم كيف خلق الله السماوات والأرض إطاراً لحياتهم حفظاً ومعاشاً لهم لا يُقارَن بما يتّخذون من دونه كإطار العنكبوت الواهن.

إن مَـــن يتلقّـــى فيحمل رسالة الغيب الحقّ وحياً من الله ليبلّغها للبشر – أو مَن خَلَفَـــه فـــيهم لأداء ذات الأمانـــة – إنما عليه تذكير المفتونين بالعالم المشهود القاصر إدراكهـــم علـــيه الذين يسعون لحفظ حياتهم شهادةً وغيباً بأسباب واهنة ينسبونها إلى موقّراتهم المؤلّهة العاجزة، وذلك بأن يتلو عليهم ما يوحَى إليه من الغيب من كتاب الله الـــذي يبيّن حقائق الغيب ويجلّي وصل المشهود والغيب أحداثاً وأقداراً وزماناً وآجالاً في سير الوجود. وعليه أن يُقيم الصلاة شعيرة العبادة المسنونة الخالصة توجّهاً وخشوعاً لله، فـــإن الحـــياة فتن صارفة عن تذّكّر الغيب والله فلا بدّ للدّاعي أن يوطّد صلته بالله مهمـــا تكلّفه عارضات الفتن وذلك يقوّي عزيمة صبره على إعراض مَن يُخاطب وأذاه ويـــستعين بالصبر والصلاة لأنّ قربه من الله يُحقّ له أن يجاوبه الله بمدد وبركة لإرادته الـــصابرة. وموالاة إقامة الصلاة تقوّم مسلكه في الحياة أفعالاً قدوة لمن يُخاطِب بدعوته أقـــوالاً إذ يكـــون ومَن معه من المؤمنين المصلّين خير قدوة فيهم بالعمل كما يفيضون خطابـــاً بتلاوة ذكر الوحي تذكيراً إذ يلتزمون في الحياة التقوى والتوجّه إلى الله وحده تـــوكّلاً. والصلاة صلة وثيقة بالله موصولة أوقاتها متكاملاً نيةً وذكراً وفعلاً ترسّخ في الـــوجدان الـــتقوى وتنهى عمّا تجرّ إليه شهوات الهوى من الفحشاء والمنكر فلا يخرج المـــصلّي عن حدود هداية الله في حسن علاقاته بالحياة وبالآخرين ولا توقعه في معاص تعرّضه لغضب الله وحرمانه من الأيد والبركة وتنفّر مَن يدعو إلى الهدى إذ يقول له ما لا يفعـــل. وذكـــر الله في الصلاة أكبر وقعاً في النفوس من ذكر شهوات الحياة الدنيا ابـــتغاء عاجلاتها الفاتنة ويقين بأن الله يحيط علماً لا بعموم عمل عباده بل بتفاصيل ما

يـــصنعونَ ممـــا تدقّ شعابه نيةً وذكراً وحركة وتخفي نيّاته إخلاصاً وطاعةً وخشوعاً وتتـــسع آثاره بأكثر مما يراه المرء لظاهر أمره، مثل الصلاة المسنونة وما يُحيط بها من الاستعداد بالوضوء، وتحرّي الوقت والقبلة، وضبط الذكر والحركة كوقوف أو جلوس أو ركوع أو سجود من المبتدأ إلى المنختم باطناً وظاهراً ونظام الجماعة.

والمخاطَـــبون بالرسالة الخاتمة فيهم مَن وَرث من قبل القرآن أثراً من رسالات الله وكتـــبه السابقة فهو على بقيّة من إيمان بالغيب الحقّ، لكن لتطاول العهد لربّما يكون الورثة للرسالات الأولى قد ضلّوا عن بيّن حدود الهدى إذ نسوا كتابهم أو بدّلوا حروفه وأوّلـــوا معانيه غفلة عن مقتضاها الحقّ وغمر وجدانَهم محضُ شعور الانتماء إلى عهد الملّـــة المـــوروثة وأقفل وعيهم شعور العصبية والاستمساك بالتقليد القديم مجانبة حتّى للقـــريب والمـــتجدّد لذات الأصول. فينبغي أن يُتلى على هؤلاء القرآن ويُجادلوا بحقّه الحـــي المتجدّد، لكن بالحسنى لئلاّ تُثار فيهم غيرة العصبية لطائفتهم المعهودة وهويتهم الموروثة. ذلك إلا مَن ظلموا منهم وتعدّوا مدى المُجادلة في السلام إلى العدوان الظالم والمقاتلـــة فـــذلك قـــد يضطرّ المؤمنين بالحقّ إلى مجاهدتهم بما يدفع وقع ظلمهم فتنةً للمؤمـــنين ولأنفسهم. ولكن ينبغي تذكير أهل الكتاب القديم بأنه ختام الرسالات في الكتاب الحقّ ما هو إلا تصديق وتجديد لما يليهم من ذكر الله ومن أصول الإيمان بحقائق الغـــيب، فالوحي قبلاً وبعداً رحمة من الله متجدّدة توثيقاً للوصل بعلم الغيب المحجوب وإيقاعـــاً لذلك الهدى على ابتلاءات الدنيا وظروفها المتجدّدة. فكتاب الوحي القديم والجديـــد دعـــوة إلى الله إلهاً واحداً مهما يضلّ المفتونون دونه بتعلّقات بآلهة الشرك المخـــتلفة المـــشهودة، وإنما الدين المتجدّد أهله كلّهم مسلمون لذات الله الحقّ خشوع عـــبادة وطاعـــة لهـــداه المنـــزل. وكما أوحى الله إلى الأنبياء من قبل كتباً لأقوامهم وعهـــودهم وبقي مَن يؤمن بذلك التراث الأوّل أوحى وأنـــزل الكتاب الخاتم رسالة خالدة هداية شاملة لكلّ الحياة والعالمين على محمّد خاتم النبيّين، فالذين كان لهم عهد سابق بكتاب موحى أقرب أن يؤمنوا بالكتاب المصدّق لما عندهم المجدّد لتراث الوحي المُنـــــزل لأنهـــم لا يستغربونه ولا يستنكرونه وحياً عاقباً جامعاً. وقد يؤمن به أيضاً بعـــض الذين لم يعهدوا قبله من كتاب إذ يسمعون آياته البيّنة المُعجزة أن يأتوا بمثلها،

البالغة الحجّة في هديها الحكيم، المذكّرة المستشهدة بآيات الكون المشهودة حولهم. ولا يجحـــد بتلك الآيات الموحاة إلاّ الذين رسخ الكفر بالغيب في نفوسهم إذ غلب عليهم الهـــوى بمـــتاع الدنيا والانفتان بمشهوداتها ورهنهم التراث الجامد نظراً وهوىً دنيوياً فعمـــوا عن الحجّة البيّنة في حقّ الكتاب، لاسيما أن الذي كان يتلوه عليهم ما تلا قبله فيهم من كتاب حتّى يحسبوا أنه يختلق مثله أو يروي عنه زوراً، ولا خطّه بيمينه حتّى يُرمـــى بأنه يفتري ما يرسم في أوراقه. بل القرآن آيات من الذكر الموحى المتلو يحفظه في صـــدورهم الذين أوتوا علمه بحقائق الغيب وتعاليم الهداية الأقوم فتلقّوه واستجابوا لدعـــوته وآمنوا به وحفظوه، وما يجحده إلا الظالمون الذين عدلوا عن بيانه. ولأنّ أمّة الخطـــاب كانت مفتونة بمادة الكون المشهودة دون الغيب قالوا للرّسول: لولا أنـــزل علـــيهم آيـــة حادثة خارقة لمطبوع الأشياء والأسباب معجزة للبشر شهادةً على صلته بالغـــيب. وما هو برسول إلى قوم خاصّة حضروا رسالته، ولا لعهد كان العلم والتدبّر فيه ضئيلاً ولا يأخذ الناس فيه إلا الأفعال الخوارق للطبيعة بيّنة علىٍ مدٍّ من الغيب، بل كـــان رسولاً إلى العالمين حضوراً ثم لحاقاً وخَلَفاً ممن لم يشهدوا فعله لينفعلوا به مُعجزاً بل تلقّوا عنه نقلاً لخبر سنّته المرويّة وذكر كتابه، وكان رسولاً خاتماً يبلّغ حتّى ما يليه مـــن عهـــود أخـــذ يغلب عليها العلم بسنن الله البيّنة وبحجج القول للمتدبّرين لا ما يسترهب من السّحر والخوارق. وإنما آيات الله المتجلّية على عباده البشر منه تعالى قد ينـــــزّلها أذكـــار وحي فيها علم وهداية وحكمة أو أفعالاً مسنونة في الطبيعة الكونية فـــيها دلالة على خالقها وناظمها أو خوارق لسنّة الطبيعة تأييداً لصدق الرّسول فيما يـــبلّغ من آيات الوحي من الغيب. وإنما على الرسول البلاغ المبين، فالله هو الأعلم بما يُناسب أمّة البلاغ من تأييد لآيات الوحي المسموعة تذكيراً وحسب بالآيات الطبيعية المـــسنونة وشهادة دلالتها أو استرهاباً لهم بآيات فعليّة خارقة. فليقم الرّسول – ومن يخلفه – برسالته خطاباً خالداً للمتدبرين أن آيته هي القرآن. وكفى بالله الذي يدعوهم بذلك الذكر إلى عبادته وهو الرّقيب الجازي أن يكون شهيداً بينه وبينهم أنه إنما يؤدي بلاغ الوحي منه ﷻ بصدق وأمانة لأنه يعلم ما يفعل عبده الذي يقوم رسولاً عنه أو داعـــية إليه، إذ تُحيط علماً بما في السماوات والأرض فيرقب أيّما افتراء عليه وكذب

قـــول مـــن مـــروي أو مخطوط. والذين رغم تلك الحجة والاستشهاد يصرّون على الاستمساك بالباطل الشركيّ الموروث ويكفرون بالله معبوداً خالصاً وبكتابه هدىً حقاً هم الخاسرون حالاً ومآلاً.

إن الـــذين يكفـــرون برســـالة الهدى من الغيب ولا يرهبون نذير عاقبة ضلالهم جحـــوداً غير مصدّق لحق الهدى ولما ينتظرهم من عقاب فيما هو آت من آجال إذ لا يؤمنون بالغيب ولا يستقيم سير حياهم نحو بعث آجل في حياة أخرى ومصير يبشّر به ســـبيلُ الهـــدى وينذر سبيلُ الضلال - إنهم لا يصدّقون النذير الغيبـــي الآجل لأنهم مفـــتونون بالعاجـــل عالقون بالعالم المشهود الحاضر إذ يرونه واقعاً، وهم من ثمّ تحدّياً للنذيـــر بالوعيد يستعجلون عذابه أن يقع عليهم لفور حاضرهم لأنهم مرتابون بصدقه. لـــولا أنّ الله قدّر أجلاً مسمّى لسير الحياة الدنيا وإعمار البشر فيها لحين تلك المصائر الغيبـــية الآجلـــة، إذ جعل الحياة الدنيا مجال ابتلاء قد يمدّه الله حتّى للضالّين المعرضين لعلّهـــم يتذكّرون ويتوبون إلى الحق، ولولا ذلك القدر في دنيا الابتلاء لجاءهم العذاب فوراً، لكن ذلك الأجل للجزاء قد يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون بمقدمه إذ يسبقه إليهم المـــوت المـــسنون ليعقبه بعث مباشر لحياة أخرى هي عهد الحساب والجزاء، فمهما يـــستعجلون الـــيوم العـــذاب تتجلّى لهم يومئذ حاقّة عليهم جهنّم مُحيطة بهم وسائر الكافـــرين تغـــشاهم من فوقهم وتحت أرجلهم لا ناراً كطبع الدنيا حرّها وحرقها من تحـــتهم، ولا يسمعون إغاثة نجاة منها بل كلمة الجزاء الحاقّ عليهم أن يذوقوا العذاب وفاق ما كانوا يعملون المعاصي.

تلـــك التذكرة المتكثّفة الوقع هي حظّ الذين كفروا بكلمة الوعيد الحقّ في أزل الغيب، ولكن البشارة المتضاعفة هي خطاب يحقّ للمؤمنين. فالله قريب منهم يدعوهم عـــباده لأنهـــم اختاروا التزلّف إليه كذلك فاستجاب لهم بالقبول. وإن كان الابتلاء الواقع عليهم لأوّل عهد الدعوة هو الضيق الذي يصيبهم بكيد الذين كفروا الغالبين في المجتمع الحاملين عليهم فتنة مُحيطة فإن الله يذكّرهم بكلمة البُشرى ليطمئنوا أن أرضه واســـعة فليمضوا في عبادته حيثما تتيسّر لهم في أمكنتها لا تغلب عليهم الفتنة فتردّهم إلى الكفـــر ولا إلى الـــنفاق. ذلك في عاجل الدنيا، لكن كلّ نفس منهم ومن الذين

كفــروا ذائقة الموت، ويوم البعث الذي كانوا يرجونه ويُجاهدون في سبيله آت، وإن ســبق النذيــر بذكر مصير الذين كفروا عذاباً مُحيطاً يومئذ فيما يذوقون ويسمعون، فإنهم هم ما آمنوا حقّاً وصدقاً فعملوا الصالحات يحقّ له نجازٍ بشرى الله أن ليبوئنّهم من الجــنّة غُــرفاً عالــية ترفع مقامهم بعد أن أدناهم في الحياة الدنيا الذين وطأوهم فتنة، وتجري من تحتها الأنهار فهي مرويّة خالدة لا تفنى كما تفنى جنّات الدنيا التي قد يتمتّع بهــا الذين كفروا. ونعم أجر العاملين الذين صبروا على ضغوط الفتنة المتطاولة وعلى ربّهــم يتوكّلون حتّى إذا انسدّت لهم فرص الحرّية في واقعهم ومحتملاتها فيما ينظرون مــن مــستقبل الدنيا فهم يكلون إلى الله من بعدُ عاجلاً أو آجلا أن يسعفهم بالفتح والفــوز، ومهمــا يَخشون إن هاجروا في الأرض الواسعة أن يخسروا تجارةً ووطناً مما كانوا يعهدون ولا يطمئنون إن اغتربوا عن ديارهم إلى أسباب بيّنة تضمن لهم استمرار حُــسن المعــاش إذ قــد يُصبحون لاجئين غرباء مُنكَرين محصورين في أرض أخرى، فلينظــروا ويتدبّــروا كم تُخرج الأرض من دابّة لا تحمل رزقها مدّاً لحاجتها وقد لا تقــصد معهوداً لها مأموناً مورد الرزق فيه، لكن الله يرزقها حيّة، وكذلك هم رزقهم عند الله مكتوب وهو السّميع لدعائهم مستغيثين إن تعسّرت عليهم الأحوال وأخذتهم الحاجة، العليم بابتلائهم إن صبروا عليه وما ركنوا للذين ظلموا خشية من عاقبة الهجر مجهولة المصير، بل خرجوا متوكّلين على الله فيما يغيب عنهم ممّا يستقبلون ويجهلون.

إن الــذين كفروا بالكتاب عهد تنــزيله وبَعداً إذ جحدوا بآياته التي تأتيهم بحقّ علــم الغــيب وحكمــة الهدى في الحياة وبكلمة النذارة والبشارة في العاقبة العاجلة والآجلــة، هــم كــذلك يُعرِضون عن آيات الله حولهم في الكون المشهود دلالة بيّنة للأقدمين تهديهم لو تدبّروها وهي أبين للحاضرين الأوسع علماً بسنن الأشياء وطبائع أمــرها، لكنهم لو تدبّروها لرأوها موصولة بحقائق الغيب شهادة لها ومؤكّدة لحقّ كلم القــرآن وآياتــه الموحاة. لئن سُئلوا مَن هو الخالق للسماوات والأرض فوقهم وتحتهم والقمر المشهور والشمس البيّنة كل يوم؟ ليقولنّ: الله، فأنّى يؤفكون عن ذلك؟ يلوون نظــرهم ورؤوســهم إلى أصنامهم التي يتعلّقونها وهي المخلوقة من الله أو نحو مذهب أهــوائهم الــتي يــتّخذونها غاية في حياتهم يتعبّدونها، وكلّ ذلك لا يحيط بوجودهم

كمخلوقات الله في الآفاق التي تمدّهم بخير في معاشهم مناخاً وماء ومورد رزق وهُدى في الأرض. ألا يــرون أن الله هو الذي بسط الرزق لمن يشاء ويقدّر؟ يقسمه كذلك بأقــداره مهمــا تكــن مساعيهم ولا يُجديهم في ذلك دعاؤهم لأوليائهم إن كانوا مُــشركين ولا صــراعات أهوائهم. فإن سُئلوا: مَن نــزّل من السماء الماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ولا تُغنيهم مساعيهم دعاء لأوليائهم لجلب الماء أو دفعها، عرفوا أنها ســنن الله. فبينما يتذكّر المؤمن فيحمد الله ويصوّب إليه وحده الدعاء فإن المخاطبين المــشركين المفــتونين بظواهر مواد الكون لا يعقلون شهواتهم ليحمدوا الله على تلك السنن بل يعكفون على الظاهر منهومين بالمتاع غافلين عن كلّ تلك النعمة المُحيطة من أقــدار الله. وما هذه الحياة الدنيا أصلاً إلا ابتلاء فيه ما قد يفتن ويُلهي عمّا هو آجل ويصرف الإنسان إلى اللعب واللهو بحركة الحياة دون معالم هدايتها. وإن الدار الآخرة لهــي الحيوان – الحياة الأتمّ طيبة فائضة وعهداً خالداً لو كان المفتونون يعلمون بحقائق غيــبها، وهم وإن فتنهم ركوب الدنيا كذلك فغفلوا عن الآخرة مَثلُهم إذا ركبوا فلكاً وأحاط بهم خطر العواصف وحذر الهلاك تذكّروا الله ودعوه مخلصين له الدين توجّهاً إلــيه طالــبين الــنجاة متعهّدين له بالحمد إن سلموا بعداً، فلمّا نجّاهم إلى البرّ إذا هُم يُــشركون يُدبــرون عن تذكّره عاكفين على آلهتهم المشهودة العاجزة التي غرّهم بها الــشيطان وصرفهم إليها قصور الإدراك والهوى المتقلّب المنحصر عكوفاً على العاجلة الحاضــرة وإعراضــاً عن آفاق الوجود الآجلة في كلّ شيء إلا إذا انقلبت بهم دوافع الضرورة ومفازع الموت من كارثة أو مهلكة. ففي الدنيا يكفرون بنعمة الله التي آتاهم عفــواً من مسخّرات الأرض ومُخرجاتها لهم ومن مبتغيات الشهوة المُتاحة لهم غارقين في التمــتّع بها، فسوف يعلمون ما وراء ذلك من العاقبة الحاقّة عليهم. هم يحيون ولا يــرون آيــات الله: أن جعل لهم في بلدهم مكّة حرماً آمناً لكلّ العالمين بينما يُتخطّف الــناس مــن حولهم في أراضي العرب الجاهليين، لكنهم لا يذكرون أصول تلك البلد المحــرّمة مركــزاً لمثواهم ذرّية لأبيهم إبراهيم ومركز ملّته، ولا مغزى شعيرة الحج إلى مُتعــبّد واحد لله الربّ الواحد من حيثما جاءوا. فبنعمة الله تلك تذكرة لهم مشهودة يتمــتّعون بهــا لكــنهم يكفرون ولا يحمدونه لأنهم عموا عن الغيب عبر آياته تلك

المـــشهودة وصمّوا آذانهم عن التذكير بآيات الله الموحاة. ومَن أظلم بعد كلّ ذلك ممن افتـــرى علـــى الله كذباً؟ كما يزعمون أحياناً من وحي لهم وإلهام من الله بباطلهم أو ورثـــوا آثاره عبادة للمشهودات دون الله، ومَن كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم ليخرجهم من ظلمات الجهل والافتراء ورهن الشرك الموروث. أليس في جهنّم مثوىً الكافرون أولى به، ما فيه حرمة أمن ولا نعمة متاع بل عذاب مُحيط. والذين جاهدوا في سبيل الله – إذ قاومـــوا تقالـــيد قومهم ومعهودات جهلهم وفاتنات شركهم الصنمي ومنازعات الشهوات والأهواء وصابروا ضغوط الذين كفروا الذين يُريدون أن يفتنوهم عن الحق ويـــصرفوهم عـــن ابـــتغاء لقاء الله في الآخرة – أولئك الله معهم يهديهم إلى صراط مـــستقيم في سبل الحياة القاصدة إليه تعالى، وإنه أبداً مع المُحسنين تطهّراً مما كانوا فيه ورقـــيّاً وتزكّياً نحو أبلغ دواعي الإيمان ونهضة في درج الصلاح نحو ما هو أقرب منها زلفى إلى الله، وهو ﷻ معهم مهما يُحيط بهم الكافرون ليفتنوهم أو يطول عليهم أمد الابتلاء أو تضيق بهم أرض موطنهم الأوّل وما علموا مخارج الهجرة ومآويها ولا أمنوا ميسور المعاش بعدَها، فالله يعصمهم ويدركهم برحمته ويرزقهم ويهديهم سواء السبيل وهـــو معهم يوم القيامة يمدّهم بنعيمه الأطيب الأبقى ويغشاهم برضوانه الأكبر سعداً يذوقونه بينما يرون الكافرين يذوقون أشدّ العذاب تحت أرجلهم في النار محرومين من النعيم ملعونين من القربى إليه رؤيةً ورضواناً.